تفسير القرآن العظيم

للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل
ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي
٧٠١-٧٧٤هـ

تحقيق
أبي عمرو ناصر بن أحمد بن النجار الدمياطي

هذه الطبعة مقابلة على النسخة الأزهرية

الجزء الثاني

دار العقيدة

أسود



دار العقيدة
طبع * نشر * توزيع

دار العقيدة
الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح باكوس ت: ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف: ٠٠٢٠٣/٥٧٦٥٦٢١
القاهرة: ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٠٠٢٠٢/٢٥١٤٣١٧٤
E-mail: dar_alakida@yahoo.com

تفسير سُورَةُ المَائِدَة وهي مدنية

ترتيبها ٥ وآياتها ١٢٠

قَال الإِمَام أَحْمَدُ: حَدَّثنَا أَبُو النَّضْر، حَدَّثنَا أَبُو مُعَاوِيَة شَيْبَان، عَنْ لَيْث، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أَسْمَاء بِنْت يَزِيد، قَالَتْ: إِنِّي لآخِذَة بِزِمَامِ العَضْبَاء نَاقَة رَسُول الله ﷺ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ المَائِدَة كُلّهَا وَكَادَتْ مِنْ ثِقَلهَا تَدُقُّ عَضُدَ النَّاقَةِ[1]. وَرَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيث صَالح بْن سُهَيل عَنْ عَاصِم الأَحْوَل، قَال: حَدَّثَتْنِي أُمّ عَمْرو عَنْ عَمّهَا أَنَّهُ كَانَ فِي مَسِير مَعَ رَسُول الله ﷺ فَنَزَلتْ عَليْهِ سُورَة المَائِدَة فاندقَّ عُنُق الرَّاحِلة مِنْ ثِقَلهَا. وَقَال أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثنَا حَسَن حَدَّثنَا ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنِي حُيَيّ بْن عَبْد الله عن أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: أُنْزِلتْ عَلى رَسُول الله ﷺ سُورَة المَائِدَة وَهُوَ رَاكِب عَلى رَاحِلته، فَلمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْمِلهُ فَنزَل عنها تفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد.

وَقَدْ رَوَى الترمذي عن قُتَيْبَة، عَنْ عَبْد الله بْن وَهْب، عَنْ حُيَيّ، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: آخِر سُورَة أُنْزِلتْ سُورَة المَائِدَة وَالفَتْح، ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث غَرِيب حَسَن، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: آخِر سُورَة أُنْزِلتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾. وَقَدْ رَوَى الحَاكِم فِي «مُسْتَدْرَكه» مِنْ طَرِيق عَبْد الله بْن وَهْب بِإِسْنَادِهِ نَحْو رِوَايَة التِّرْمِذِيّ، ثُمَّ قَال: صَحِيح عَلى شَرْط الشَّيْخَيْنِ، وَلمْ يُخَرِّجَاهُ. وَقَال الحَاكِم أَيْضًا: حَدَّثنَا أَبُو العَبَّاس مُحَمَّد بْن يَعْقُوب، حَدَّثنَا بحر بْن نَصْر، قَال: قُرِئَ عَلى عَبْد الله بْن وَهْب، أَخْبَرَنِي مُعَاوِيَة بْن صَالح، عَنْ أَبِي الزَّاهِرِيَّة، عَنْ جُبَيْر بْن نُفَيْر، قَال: حَجَجْت فَدَخَلت عَلى عَائِشَة، فَقَالتْ لِي: يَا جُبَيْر، تَقْرَأ المَائِدَة؟ فَقُلت: نَعَمْ. فَقَالتْ: أَمَا إِنَّهَا آخِر سُورَة نَزَلتْ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلال فَاسْتَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فيها مِنْ حَرَام فَحَرِّمُوهُ. ثُمَّ قَال: صَحِيح عَلى شَرْط الشَّيْخَيْنِ، وَلمْ يُخَرِّجَاهُ. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، عَنْ مُعَاوِيَة بْن صَالح وَزَادَ: وَسَأَلتهَا عَنْ خُلُق رَسُول الله ﷺ فَقَالتْ: القُرْآن[2]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث ابْن مَهْدِيّ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا نُعَيْم بْن حَمَّاد، حَدَّثنَا عَبْد الله بْن المُبَارَك، حَدَّثنَا مِسْعَر، حَدَّثَنِي مَعْن وَعَوْف أَوْ أَحَدهمَا، أَنَّ رَجُلًا أَتَى عَبْد الله بْن مَسْعُود، فَقَال: اعْهَدْ إِلَيَّ؛ فَقَال: إِذَا سَمِعْت الله يَقُول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعك، فَإِنَّهُ خَيْر يَأْمُر بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ. وَقَال: حَدَّثنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن إِبْرَاهِيم -دُحَيْم-، حَدَّثنَا الوَليد، حَدَّثنَا الأَوْزَاعِيّ، عَنْ الزُّهْرِيّ، قَال: إِذَا قَال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ افْعَلُوا، فَالنَّبِيّ ﷺ مِنْهُمْ. وَحَدَّثنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن عُبَيْد، حَدَّثنَا الأَعْمَش، عَنْ خَيْثَمَةَ قَال: كُلّ شَيْء فِي القُرْآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فَهُوَ فِي التَّوْرَاة: يَا أَيّهَا المَسَاكِين. فَأَمَّا مَا رَوَاهُ عَنْ

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ١٧٨) بسند ضعيف فيه شهر بن حوشب، وقال الحافظ: كثير الإرسال والأوهام، وليث بن أبي سليم قال الحافظ: صدوق اختلط جدًا فترك.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ١٨٨)، والحاكم (٢/ ٣٤٠) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ١٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٣٣)، وقال الألباني: صحيح الإسناد. انظر «الإرواء» (١/ ١٣٩).

زَيْد بن إِسْمَاعِيل الصَّائِغ البَغْدَادِيّ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة -يَعْنِي ابْن هِشَام- عَنْ عِيسَى بْن رَاشِد، عَنْ عَلِيّ بْن بَذِيمَة، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: مَا فِي القُرْآن آيَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إِلَّا أَنَّ عَلِيًّا سَيِّدهَا وَشَرِيفهَا وَأَمِيرهَا، وَمَا مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ أَحَد إِلَّا قَدْ عُوتِبَ فِي القُرْآن، إِلَّا عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُعَاتَب فِي شَيْء مِنْهُ. فَهُوَ أَثَر غَرِيب، وَلَفْظه فِيهِ نَكَارَة، وَفِي إِسْنَاده نَظَر.

قَالَ البُخَارِيّ: عِيسَى بْن رَاشِد هَذَا مَجْهُول، وَخَبَره مُنْكَر. قُلت: وَعَلِيّ بْن بَذِيمَة، وَإِنْ كَانَ ثِقَة إِلَّا أَنَّهُ شِيعِيّ غَالٍ، وَخَبَره فِي مِثْل هَذَا فِيهِ تُهْمَة، فَلا يُقْبَل. وقَوْله: ولَمْ يَبْقَ أَحَد مِنْ الصَّحَابَة إِلَّا عُوتِبَ فِي القُرْآن إِلَّا عَلِيًّا. إِنَّمَا يُشِير بِهِ إِلَى الآيَة الآمِرَة بِالصَّدَقَة بَيْن يَدَيْ النَّجْوَى، فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ غَيْر وَاحِد أَنَّهُ لَمْ يَعْمَل بِهَا أَحَدٌ إِلَّا عَلِيٌّ، وَنَزَل قَوْله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآيَة، وَفِي كَوْن هَذَا عِتَابًا نَظَر؛ فَإِنَّهُ قَدْ قِيل: إِنَّ الأَمْر كَانَ نَدْبًا لا إِيجَابًا ثُمَّ قَدْ نُسِخَ ذَلِكَ عَنْهُمْ قَبْل الفِعْل؛ فَلَمْ يُرَ مِنْ أَحَد مِنْهُمْ خِلافُه. وَقَوْله عَنْ عَلِيّ: أَنَّهُ لَمْ يُعَاتَب فِي شَيْء مِنْ القُرْآن، فِيهِ نَظَر أَيْضًا؛ فَإِنَّ الآيَة الَّتِي فِي الأَنْفَال الَّتِي فِيهَا المُعَاتَبَة عَلَى أَخْذ الفِدَاء عَمَّتْ جَمِيع مَنْ أَشَارَ بِأَخْذِهِ، وَلَمْ يَسْلم مِنْهَا إِلَّا عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه، فَعُلِمَ بِهَذَا وَبِمَا تَقَدَّمَ ضَعْف هَذَا الأَثَر، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن صَالِح، حَدَّثَنَا اللَّيْث، حَدَّثَنِي يُونُس قَالَ: قَالَ مُحَمَّد بْن مُسْلِم: قَرَأْت كِتَاب رَسُول الله ﷺ الَّذِي كَتَبَ لِعَمْرو بْن حَزْم، حِين بَعَثَهُ إِلَى نَجْرَان، وَكَانَ الكِتَاب عِنْد أَبِي بَكْر ابْن حَزْم فِيهِ: «هَذَا بَيَان مِنْ الله وَرَسُوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾» فَكَتَبَ الآيَات مِنْهَا، حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد، حَدَّثَنَا يُونُس بْن بُكَيْر، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي عَبْد الله ابْن أَبِي بَكْر ابْن مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن حَزْم، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: هَذَا كِتَاب رَسُول الله ﷺ عِنْدنَا، الَّذِي كَتَبَهُ لِعَمْرو بْن حَزْم، حِين بَعَثَهُ إِلَى اليَمَن يُفَقِّه أَهْلهَا وَيُعَلِّمهُمْ السُّنَّة، وَيَأْخُذ صَدَقَاتهمْ، فَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا وَعَهْدًا، وَأَمَرَهُ فَكَتَبَ: «بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، هَذَا كِتَاب مِنْ الله وَرَسُوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ عَهْد مِنْ مُحَمَّد رَسُول الله ﷺ لِعَمْرو بْن حَزْم حِين بَعَثَهُ إِلَى اليَمَن، أَمَرَهُ بِتَقْوَى الله فِي أَمْره كُلّه، فَإِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ».

قَوْله تَعَالَى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد: يَعْنِي بِالعُقُود: العُهُود. وَحَكَى ابْن جَرِير الإِجْمَاع عَلَى ذَلِكَ. قَالَ: وَالعُهُود مَا كَانُوا يَتَعَاهَدُونَ عَلَيْهِ مِنْ الحَلِف وَغَيْره. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ يَعْنِي بِالعُهُود، يَعْنِي مَا أَحَلَّ الله وَمَا حَرَّمَ، وَمَا فَرَضَ، وَمَا حَدَّ فِي القُرْآن كُلّه، وَلا تَغْدِرُوا وَلا تَنْكُثُوا. ثُمَّ شَدَّدَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وَقَالَ الضَّحَّاك: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ قَالَ: مَا أَحَلَّ الله وَحَرَّمَ، وَمَا أَخَذَ الله مِنْ المِيثَاق عَلَى مَنْ أَقَرَّ بِالإِيمَانِ بِالنَّبِيّ ﷺ وَالكِتَاب، أَنْ يُوفُوا بِمَا أَخَذَ الله عَلَيْهِمْ مِنْ الفَرَائِض مِنْ الحَلال وَالحَرَام. وَقَالَ زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾، قَالَ: هِيَ سِتَّة: عَهْد الله، وَعَقْد الحَلِف، وَعَقْد الشَّرِكَة، وَعَقْد البَيْع، وَعَقْد النِّكَاح، وَعَقْد اليَمِين. وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب: هِيَ خَمْسَة؛ مِنْهَا: حَلِف الجَاهِلِيَّة، وَشَرِكَة المُفَاوَضَة. وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْض مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ لا خِيَار فِي مَجْلِس البَيْع بِهَذِهِ الآيَة ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾، قَالَ: فَهَذا يَدُلّ عَلَى لُزُوم العَقْد وَثُبُوتِهِ، فَيَقْتَضِي نَفْي خِيَار المَجْلِس، وَهَذَا مَذْهَب أَبِي حَنِيفَة وَمَالِك، وَخَالَفَهُمَا فِي ذَلِكَ الشَّافِعِيّ وَأَحْمَد بْن حنبل وَالجُمْهُور. وَالحُجَّة فِي ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْن» عَنْ ابْن عُمَر قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا». وَفِي لَفْظ آخَر لِلْبُخَارِيّ: «إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلانِ فَكُلّ

وَاحِد مِنْهُمَا بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا»[1]. وَهَذَا صَرِيح فِي إِثْبَات خِيَار المَجْلس المُتَعَقِّب لعَقْدِ البَيْع، وَلَيْسَ هَذَا مُنَافِيًا للُزُوم العَقْد، بَل هُوَ مِنْ مُقْتَضَيَاته شَرْعًا، فَالتِزَامه مِنْ تَمَام الوَفَاء بِالعُقُودِ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ هِيَ: الإِبِل وَالبَقَر وَالغَنَم. قَالَهُ الحَسَن وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد. قَال ابْن جَرِير: وَكَذَلِكَ هُوَ عِنْد العَرَب. وَقَدْ اسْتَدَلَّ ابْن عُمَر وَابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد بِهَذِهِ الآيَة؛ عَلى إِبَاحَة الجَنِين إِذَا وُجِدَ مَيِّتًا فِي بَطْن أُمّه إِذَا ذُبِحَتْ، وقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيث فِي السُّنَن، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ، مِنْ طَرِيق مُجَالِد عَنْ أَبِي الوَدَّاك جَبْر بْن نَوْف، عَنْ أَبِي سَعِيد، قَال: قُلنَا: يَا رَسُول الله، نَنْحَر النَّاقَة وَنَذْبَح البَقَرَة أَوْ الشَّاة فِي بَطْنهَا الجَنِينُ؛ أَنُلقِيهِ أَمْ نَأْكُلهُ؟ فَقَال: «كُلُوهُ إِنْ شِئْتُمْ؛ فَإِنَّ ذَكَاته ذَكَاة أُمِّهِ»[2]. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَدِيث حَسَن. قَال أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن فَارِس، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا عَتَّاب بْن بَشِير، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن أَبِي زِيَاد القَدَّاح المَكِّيّ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «ذَكَاة الجَنِين ذَكَاة أُمِّهِ» تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ.

وَقَوْله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي بِذَلِكَ المَيْتَة وَالدَّم وَلَحْم الخِنْزِير، وَقَال قَتَادَة: يَعْنِي بِذَلِكَ المَيْتَة، وَمَا لَمْ يُذْكَر اسْم الله عَلَيْهِ. وَالظَّاهِر وَالله أَعْلَمُ، أَنَّ المُرَاد بِذَلِكَ قَوْله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾، فَإِنَّ هَذِهِ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ الأَنْعَام، إِلَّا أَنَّهَا تَحْرُم بِهَذِهِ العَوَارِض، وَلِهَذَا قَال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، يَعْنِي مِنْهَا، فَإِنَّهُ حَرَام لا يُمْكِن اسْتِدْرَاكه وَتَلاحُقه، وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: إِلَّا مَا سَيُتْلَى عَلَيْكُمْ مِنْ تَحْرِيم بَعْضهَا فِي بَعْض الأَحْوَال.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ قَال بَعْضهمْ: هَذَا مَنْصُوب عَلى الحَال، وَالمُرَاد بِالأَنْعَام مَا يَعُمّ الإِنْسِيّ مِنْ الإِبِل وَالبَقَر وَالغَنَم، وَمَا يَعُمّ الوَحْشِي كَالظِّبَاءِ وَالبَقَر وَالحُمُر، فَاسْتَثْنَى مِنْ الإِنْسِيّ مَا تَقَدَّمَ، وَاسْتَثْنَى مِنْ الوَحْشِيّ الصَّيْد فِي حَال الإِحْرَام. وَقِيل: المُرَاد أَحْللنَا لكُمْ الأَنْعَام فِي جَمِيع الأَحْوَال، فَحَرِّمُوا الصَّيْد فِي حَال الإِحْرَام، فَإِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بِهَذَا، وَهُوَ الحَكِيم فِي جَمِيع مَا يَأْمُر بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: يَعْنِي بِذَلِكَ: مَنَاسِك الحَجّ، وَقَال مُجَاهِد: الصَّفَا وَالمَرْوَة، وَالهَدْي وَالبُدْن مِنْ شَعَائِر الله. وَقِيل: شَعَائِر الله مَحَارِمه، أَيْ: لا تُحِلُّوا مَحَارِمَ الله الَّتِي حَرَّمَهَا تَعَالى، وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، يَعْنِي بِذَلِكَ تَحْرِيمه، وَالاعْتِرَاف بِتَعْظِيمِهِ، وَتَرْك مَا نَهَى الله عَنْ تَعَاطِيه فِيهِ مِنْ الابْتِدَاء بِالقِتَال، وَتَأْكِيد اجْتِنَاب المَحَارِم، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الآيَة. وَفِي «صَحِيح البُخَارِيّ»، عَنْ أَبَى بَكْرَة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال فِي حَجَّة الوَدَاع: «إِنَّ الزَّمَان قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلقَ الله السَّمَوَات وَالأَرْض السَّنَة اثْنَا عَشَر شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَة حُرُم: ثَلاث مُتَوَالِيَات ذُو القَعْدَة وَذُو الحِجَّة وَالمُحَرَّم، وَرَجَب مُضَر الَّذِي بَيْن جُمَادَى وَشَعْبَان»[3]. وَهَذَا يَدُلّ عَلى اسْتِمْرَار تَحْرِيمهَا إِلى آخِر وَقْت، كَمَا هُوَ مَذْهَب طَائِفَة مِنْ السَّلف.

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٨٢٧)، وابن ماجه (٣١٩٩)، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٦١٥)، والدارقطني في «سننه» (٤/ ٢٧٤) من حديث أبي سعيد، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٥١)، وابن ماجه (٢٥٩٠).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٩٧)، ومسلم (١٦٧٩).

وقال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس ﷺ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ يَعْنِي: لا تَسْتَحِلُّوا قِتَالًا فِيهِ، وَكَذَا قَال مُقَاتِل بْن حَيَّان وَعَبْد الكَرِيم بْن مَالك الجَزَرِيّ، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير أَيْضًا. وَذَهَبَ الجُمْهُور إِلى أَنَّ ذَلِكَ مَنْسُوخ، وَأَنَّهُ يَجُوز ابْتِدَاء القِتَال فِي الأَشْهُر الحُرُم. وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ قالوا: وَالمُرَاد أَشْهُر التَّسْيِير الأَرْبَعَة، ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ قَالُوا: فَلَمْ يَسْتَثْنِ شَهْرًا حَرَامًا مِنْ غَيْره. وَقَدْ حَكَى الإِمَام أَبُو جَعْفَر الإِجْمَاع عَلَى أَنَّ الله قَدْ أَحَلَّ قِتَال أَهْل الشِّرْك فِي الأَشْهُر الحُرُم وَغَيْرهَا مِنْ شُهُور السَّنَة، قَال: وَكَذَلِكَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ المُشْرِك لَوْ قَلَّدَ عُنُقه أَوْ ذِرَاعَيْهِ بِلِحَاءِ جَمِيع أَشْجَار الحَرَم؛ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَهُ أَمَانًا مِنْ القَتْل، إِذَا لَمْ يَكُنْ تَقَدَّمَ لَهُ عَقْد ذِمَّة مِنْ المُسْلِمِينَ، أَوْ أَمَان. وَلِهَذِهِ المَسْأَلَة بَحْث آخَر لَهُ مَوْضِع أَبْسَط مِنْ هَذَا.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَـٰٓئِدَ﴾ يَعْنِي: لا تَتْرُكُوا الإِهْدَاء إِلى البَيْت الحَرَام، فَإِنَّ فِيهِ تَعْظِيم شَعَائِر الله، وَلا تَتْرُكُوا تَقْلِيدهَا فِي أَعْنَاقهَا لِتَتَمَيَّز بِهِ عَمَّا عَدَاهَا مِنْ الأَنْعَام، وَلِيُعْلَم أَنَّهَا هَدْي إِلى الكَعْبَة فَيَجْتَنِبهَا مَنْ يُرِيدهَا بِسُوءٍ، وَتَبْعَث مَنْ يَرَاهَا عَلَى الإِتْيَان بِمِثْلِهَا؛ فَإِنَّ مَنْ دَعَا إِلى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الأَجْر مِثْل أُجُور مَنْ اتَّبَعَهُ، مِنْ غَيْر أَنْ يَنْقُص مِنْ أُجُورهمْ شَيْءٌ، وَلِهَذَا لَمَّا حَجَّ رَسُول الله ﷺ، بَاتَ بِذِي الحُلَيْفَة، وَهُوَ وَادِي العَقِيق، فَلَمَّا أَصْبَحَ طَافَ عَلَى نِسَائِهِ، وَكُنَّ تِسْعًا، ثُمَّ اغْتَسَل وَتَطَيَّبَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَشْعَرَ هَدْيه وَقَلَّدَهُ، وَأَهَلَّ بِالحَجّ وَالعُمْرَة، وَكَانَ هَدْيه إِبِلًا كَثِيرَة، تُنِيف عَلَى السِّتِّينَ، مِنْ أَحْسَن الأَشْكَال وَالأَلْوَان، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾. وَقَال بَعْض السَّلَف: إِعْظَامهَا: اسْتِحْسَانهَا وَاسْتِسْمَانهَا. وقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَالب: أَمَرَنَا رَسُول الله ﷺ أَنْ نَسْتَشْرِف العَيْن وَالأُذُن[1]. رَوَاهُ أَهْل السُّنَن.

وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: قَوْله: ﴿وَلَا ٱلۡقَلَـٰٓئِدَ﴾ فَلا تَسْتَحِلُّوهُ. وَكَانَ أَهْل الجَاهِلِيَّة إِذَا خَرَجُوا مِنْ أَوْطَانهمْ فِي غَيْر الأَشْهُر الحُرُم؛ قَلَّدُوا أَنْفُسهمْ بِالشَّعْرِ وَالوَبَر، وَتَقَلَّدَ مُشْرِكُو الحَرَم مِنْ لِحَاء شَجَر الحَرَم فَيَأْمَنُونَ بِهِ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سُلَيْمَان: حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن العَوَّام، عَنْ سُفْيَان بْن حُسَيْن، عَنْ الحَكَم، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس ﷺ، قَال: نُسِخَ مِنْ هَذِهِ السُّورَة آيَتَانِ: آيَة القَلائِد، وَقَوْله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾[2]. وَحَدَّثَنَا المُنْذِر بْن شَاذَان، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْن عَدِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ ابْن عَوْن، قَال: قُلْت لِلحَسَن: نُسِخَ مِنْ المَائِدَة شَيْءٌ ؟ قَال: لا. وَقَال عَطَاء: كَانُوا يَتَقَلَّدُونَ مِنْ شَجَر الحَرَم فَيَأْمَنُونَ، فَنَهَى الله عَنْ قَطْع شَجَره. وَكَذَا قَال مُطَرِّف بْن عَبْد الله.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنًاۚ﴾ أَيْ: وَلا تَسْتَحِلُّوا قِتَال القَاصِدِينَ إِلى بَيْت الله الحَرَام، الَّذِي مَنْ دَخَلهُ كَانَ آمِنًا، وَكَذَا مَنْ قَصَدَهُ طَالِبًا فَضْل الله، وَرَاغِبًا فِي رِضوانه، فَلا تَصُدُّوهُ وَلا تَمْنَعُوهُ وَلا تُهَيِّجُوهُ. قَال مُجَاهِد وَعَطَاء وَأَبُو العَالِيَة وَمُطَرِّف بْن عَبْد الله وَعَبْد الله بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر وَالرَّبِيع بْن أَنَس وَمُقَاتِل بْن حَيَّان وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد فِي قَوْله: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ التِّجَارَة. وَهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْله: ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَرِضۡوَٰنًاۚ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: يَتَرَضَّوْنَ الله بِحَجِّهِم. وقد ذَكَرَ عِكْرِمَة وَالسُّدِّيّ وَابْن جَرِيج أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ فِي الحَطَم بْن هِنْد البَكْرِيّ، كَانَ قَدْ أَغَارَ عَلَى سَرْح المَدِينَة، فَلَمَّا كَانَ مِنْ العَام المُقْبِل، اعْتَمَرَ إِلى البَيْت، فَأَرَادَ بَعْض الصَّحَابَة أَنْ يَعْتَرِضُوا فِي طَرِيقه إِلى البَيْت، فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنًاۚ﴾.

---

(١) حسن صحيح: أخرجه النسائي (٤٣٧٦)، وابن ماجه (٣١٤٣)، وأحمد (١/ ٩٥)، والدارمي (٢/ ١٠٥)، وابن حبان (١٣/ ٢٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٥٤٤).

(٢) حسن: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٣٥/ ٦٣٨٨)، والحاكم (٢/ ٣١٢).

وَقَدْ حَكَى ابْن جَرِير الإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِك يَجُوز قَتْلُهُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَمَان، وَإِنْ أَمَّ الْبَيْت الْحَرَام أَوْ بَيْت الْمَقْدِس، فإِنَّ هَذَا الحُكْم مَنْسُوخٌ فِي حَقِّهِمْ، وَالله أَعْلَمُ. فَأَمَّا مَنْ قَصَدَهُ بِالإِلْحَادِ فِيهِ وَالشِّرْك عِنْده وَالكُفْر بِهِ، فَهَذَا يُمْنَع. كما قَال تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾. وَلِهَذَا بَعَثَ رَسُول الله ﷺ عَام تِسْع -لَمَّا أَمَّرَ الصِّدِّيق عَلَى الحَجِيج- عَلِيًّا وَأَمَرَهُ أَنْ يُنَادِي عَلَى سَبِيل النِّيَابَة عَنْ رَسُول الله ﷺ بِبَرَاءَة، وَأَنْ لا يَحُجّ بَعْد العَام مُشْرِكٌ، وَلا يَطُوفَنَّ بِالبَيْتِ عُرْيَان[1]. وَقَال عَلِيُّ ابْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ يَعْنِي مَنْ تَوَجَّهَ قِبَل البَيْت الحَرَام، فَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُشْرِكُونَ يَحُجُّونَ البيت الحرام، فَنَهَى الله الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَمْنَعُوا أَحَدًا يحج البيتَ أو يَعْرِضوا له مِنْ مُؤْمِن أَوْ كَافِر، ثُمَّ أَنْزَل الله بَعْدهَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ الآيَة. وَقَال تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾. وَقَال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾. فَنَفَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْمَسْجِد الحَرَام.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة، فِي قَوْله: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، قَال: مَنْسُوخ؛ كَانَ الرَّجُل فِي الجَاهِلِيَّة إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْته يُرِيد الحَجّ تَقَلَّدَ مِنْ الشَّجَر، فَلَمْ يَعْرِض لهُ أَحَد، فَإِذَا رَجَعَ تَقَلَّدَ قِلادَة مِنْ شَعْر، فَلَمْ يَعْرِض لهُ أَحَد، وَكَانَ الْمُشْرِك يَوْمئِذٍ لا يُصَدُّ عَنْ البَيْت، فَأُمِرُوا أَنْ لا يُقَاتِلُوا فِي الشَّهْر الحَرَام، وَلا عِنْد البَيْت، فَنَسَخَهَا قَوْله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾. وَقَدْ اخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ الْمُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، يَعْنِي: إِنْ تَقَلَّدُوا قِلادَة مِنْ الحَرَم فَأَمِّنُوهُمْ. قَال: وَلَمْ تَزَل العَرَبُ تُعَيِّر مَنْ أَخْفَرَ ذَلِكَ. قَال الشَّاعِر:

أَلَمْ تَقْتُلا الحِرْجَيْنِ إِذْ أَعْوَرَا لَكُمْ ❁ يُمِرَّانِ بِالأَيْدِي اللِّحَاءَ الْمُضَفَّرَا

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ أَيْ: إِذَا فَرَغْتُمْ مِنْ إِحْرَامكُمْ وَأَحْلَلتُمْ مِنْهُ، فَقَدْ أَبَحْنَا لكُمْ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ فِي حَال الإِحْرَام مِنْ الصَّيْد، وَهَذَا أَمْر بَعْد الحَظْر، وَالصَّحِيح الَّذِي يَثْبُت عَلَى السَّبْر، أَنَّهُ يَرُدُّ الحُكْمَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْل النَّهْي، فَإِنْ كَانَ وَاجِبًا رَدَّهُ وَاجِبًا، وَإِنْ كَانَ مُسْتَحَبًّا فَمُسْتَحَب، أَوْ مُبَاحًا فَمُبَاح، وَمَنْ قَال: إِنَّهُ عَلَى الوُجُوب يُنْتَقَض عَلَيْهِ بِآيَاتٍ كَثِيرَة، وَمَنْ قَال: إِنَّهُ لِلإِبَاحَةِ يُرَدُّ عَلَيْهِ آيَات أُخْرَى، وَالَّذِي يَنْتَظِمُ الأَدِلَّةَ كُلَّهَا هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاه، كَمَا اخْتَارَهُ بَعْضُ عُلَمَاء الأُصُول، وَالله أَعْلَمُ.

وَقَوْله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ إِن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾. وَمِنْ القُرَّاء مَنْ قَرَأَ: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ بِفَتْحِ الأَلف، مِنْ «أَنْ»، وَمَعْنَاهَا ظَاهِر، أَيْ: لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْض قوم قد كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنْ الوُصُول إِلَى الْمَسْجِد الحَرَام، وَذَلِكَ عَام الحُدَيْبِيَة، عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ الله فِيكِمْ، فَتَقْتَصُّوا مِنْهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، بَل احْكُمُوا بِمَا أَمَرَكُمْ الله بِهِ مِنْ العَدْل، فِي حَقّ كُلِّ أَحَد، وَهَذِهِ الآيَة كَمَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أَيْ: لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ أَقْوام عَلَى تَرْك العَدْل؛ فَإِنَّ العَدْل وَاجِب عَلَى كُلّ أَحَد فِي كُلّ حَال، وَقَال بَعْض السَّلف: مَا عَامَلت مَنْ عَصَى الله فِيك بِمِثْل أَنْ تُطِيع الله فِيهِ. وَالعَدْل بِهِ قَامَتْ السَّمَوَات وَالأَرْض. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سَهْل بْن عَفَّان، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن جَعْفَر، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ، قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ بِالحُدَيْبِيَة وَأَصْحَابه، حِين صَدَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ عَنْ البَيْت، وَقَدْ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَمَرَّ بِهِمْ أناس مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْل الْمَشْرِق يُرِيدُونَ العُمْرَة، فَقَال أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ: نَصُدّ هَؤُلاءِ كَمَا صَدَّنَا أَصْحَابهمْ. فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة[2]. وَالشَّنَآن، هُوَ: البُغْض. قَالهُ ابْن عَبَّاس وَغَيْره. وَهُوَ مَصْدَر مِنْ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٠٩١) (٣٠٩٢).
(٢) ضعيف: عزاه المصنف لابن أبي حاتم بإسناد مرسل، وفيه عبد الله بن جعفر المديني: ضعيف.

شَنَأْته أَشْنَؤُهُ شَنَآنًا بِالتَّحْرِيكِ، مِثْل قَوْلهمْ: جَمَزَان وَدَرَجَان وَرَفَلان مِنْ جَمَزَ وَدَرَجَ وَرَفَل. قَالَ ابْن جَرِير: مِنْ الْعَرَب مَنْ يُسْقِط التَّحْرِيكَ فِي شَنَآن فَيَقُول: شَنَان، وَلَمْ أَعْلَمْ أَحَدًا قَرَأَ بِهَا. وَمِنْهُ قَوْل الشَّاعِر:

وَمَا الْعَيْشُ إِلا مَا تُحِبُّ وَتَشْتَهِي ✽ وَإِنْ لامَ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَفَنَّدَا

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ يَأْمُر تَعَالَى عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُعَاوَنَةِ عَلَى فِعْل الْخَيْرَات وَهُوَ الْبِرّ، وَتَرْك الْمُنْكَرَات وَهُوَ التَّقْوَى، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ التَّنَاصُر عَلَى الْبَاطِل، وَالتَّعَاوُن عَلَى الْمَآثِم وَالْمَحَارِم. قَال ابْن جَرِير: الإِثْم تَرْك مَا أَمَرَ الله بِفِعْلِهِ، وَالعُدْوَان مُجاوزةُ ما حَدَّ الله في دينكم، ومُجَاوَزَة مَا فَرَضَ الله عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسكُمْ وَفِي غَيْركُمْ. وَقَدْ قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هُشَيْم، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن أَبِي بَكْر ابْن أَنَس، عَنْ جَدِّهِ أَنَس بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قِيلَ: يَا رَسُول الله؛ هَذَا نَصَرْته مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ ظَالِمًا ؟ قَالَ: «تَحْجِزهُ وَتَمْنَعهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ». انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيّ مِنْ حَدِيث هُشَيْم بِهِ نَحْوه، وَأَخْرَجَاهُ مِنْ طَرِيق ثَابِت عَنْ أَنَس قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قِيلَ: يَا رَسُول الله، هَذَا نَصَرْته مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصُرهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: «تَمْنَعهُ مِنْ الظُّلْم فَذَاكَ نَصْرُك إِيَّاهُ»[1].

وَقَال الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن سَعِيد، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ يَحْيَى بْن وَثَّاب، عَنْ رَجُل مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِن الَّذِي يُخَالِط النَّاس، وَيَصْبِر عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[2]. وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ أَيْضًا فِي مُسْنَد عَبْد الله بْن عُمَر، حَدَّثَنَا حَجَّاج، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ يَحْيَى بْن وَثَّاب، عَنْ شَيْخ مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ – أي النَّبيّ ﷺ – قَالَ: «الْمُؤْمِن الَّذِي يُخَالِط النَّاس، وَيَصْبِر عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْر مِنْ الَّذِي لا يُخَالِطهُمْ، وَلا يَصْبِر عَلَى أَذَاهُمْ»[3].

وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث شُعْبَة، وَابْن مَاجَهْ مِنْ طَرِيق إِسْحَاق بْن يُوسُف، كِلاهُمَا عَنْ الأَعْمَش بِهِ.

وَقَال الْحَافِظ أَبُو بَكْر الْبَزَّار: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن عَبْد الله بْن مُحَمَّد أَبُو شَيْبَة الْكُوفِيّ، حَدَّثَنَا بَكْر بْن عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا عِيسَى بْن الْمُخْتَار، عَنْ ابْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ فُضَيْل بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ عَبْد الله قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «الدَّالّ عَلَى الْخَيْر كَفَاعِلِهِ»[4]، ثُمَّ قَالَ: لا نَعْلمهُ يُرْوَى إِلَّا بِهَذَا الإِسْنَاد.

قُلْت: وَلَهُ شَاهِد فِي الصَّحِيح: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنْ الأَجْر مِثْل أُجُور مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْم الْقِيَامَة، لا يَنْقُص ذَلِكَ مِنْ أُجُورهمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَة، كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الإِثْم مِثْل آثَام مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْم الْقِيَامَة، لا يَنْقُص ذَلِكَ مِنْ آثَامهمْ شَيْئًا».

وَقَال أَبُو الْقَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم بن العلاء بْن زُبْرِيق الْحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن الْحَارِث، عَنْ عَبْد الله بْن سَالِم، عَنْ الزُّبَيْدِيّ: قَال عَبَّاس بْن يُونُس: إِنَّ أَبَا الْحَسَن نَمْرَان بْن مِخْمَر حَدَّثَهُ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «مَنْ مَشَى مَعَ ظَالِم لِيُعِينَهُ، وَهُوَ يَعْلَم أَنَّهُ ظَالِم؛ فَقَدْ خَرَجَ مِنْ الإِسْلام»[5].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤)، والترمذي (٢٢٥٥).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٩٩).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٤٣)، والطيالسي (١/ ٢٥٦)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ١١٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٥١).

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٧٠)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢٢٧)، والأوسط (٣/ ٣٤)، وأبو يعلى (٧/ ٢٧٥)، والبزار (٥/ ١٥٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٩٩).

(٥) ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ٢٢٧)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ١٢٢)، وقال الألباني: ضعيف جدًا. انظر «الضعيفة» (٧٥٨).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يُخبر تَعَالى عِبَاده خَبَرًا مُتَضَمِّنًا النَّهْيَ عَنْ تَعَاطِي هَذِهِ المُحَرَّمَات مِنْ المَيْتَة، وَهِيَ مَا مَاتَ مِنَ الحَيَوَان حَتْف أَنْفه مِنْ غَيْر ذَكَاة وَلا اصْطِيَاد، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِيهَا مِنَ المَضَرَّة، لِمَا فِيهَا مِنْ الدَّم المُحْتَقِن، فَهِيَ ضَارَّة للدِّين وَللبَدَن، فَلهَذَا حَرَّمَهَا الله ﷻ وَيُسْتَثْنَى مِنَ المَيْتَة السَّمَك، فَإِنَّهُ حَلال، سَوَاء مَاتَ بِتَذْكِيَةٍ أَوْ غَيْرهَا، لِمَا رَوَاهُ مَالك فِي «مُوَطَّئِهِ»، وَالشَّافِعِيّ وَأَحْمَدُ فِي «مُسْنَدَيْهِمَا»، وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ فِي «سُنَنهمْ»، وَابْن خُزَيْمَةَ وَابْن حِبَّانَ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ سُئِلَ عَنْ مَاء البَحْر، فَقَال: «**هُوَ الطَّهُور مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ**»[1]، وَهَكَذَا الجَرَاد لِمَا سَيَأْتِي مِنَ الحَدِيث. وَقَوْله ﴿وَٱلدَّمُ﴾ يَعْنِي بِهِ المَسْفُوح، لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ قَالهُ ابْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن جُبَيْر.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا كَثِير بْن شِهَاب المَذْحِجِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سَعِيد بْن سَابِق، حَدَّثَنَا عَمْرو -يَعْنِي ابْن قَيْس- عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الطِّحَال، فَقَال: كُلُوهُ. فَقَالُوا: إِنَّهُ دَم. فَقَال: إِنَّمَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ الدَّمُ المَسْفُوحُ. وَكَذَا رَوَاهُ حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ القَاسِم، عَنْ عَائِشَة قَالتْ: إِنَّمَا نُهِيَ عَنْ الدَّم السَّافِح. وَقَدْ قَال أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد بْن إِدْرِيس الشَّافِعِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عُمَر مَرْفُوعًا قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**أُحِلَّ لنَا مَيْتَتَان وَدَمَان، فَأَمَّا المَيْتَتَان فالحوت وَالجَرَاد، وَأَمَّا الدَّمَان فَالكَبِد وَالطِّحَال**»[2]. وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَد بْن حَنْبَل وَابْن مَاجَهْ وَالدَّارَقُطْنِيّ وَالبَيْهَقِيّ مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن ابْن زَيْد بْن أَسْلمَ، وَهُوَ ضَعِيف. قَال الحَافِظ البَيْهَقِيّ: وَرَوَاهُ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي إِدْرِيس، عَنْ أُسَامَة وَعَبْد الله وَعَبْد الرَّحْمَن ابْن زَيْد بْن أَسْلمَ، عَنْ ابْن عُمَر مَرْفُوعًا. قُلت: وَثَلاثَتهم كُلّهمْ ضُعَفَاء وَلكِنَّ بَعْضهمْ أَصْلحُ مِنْ بَعْض، وَقَدْ رَوَاهُ سُليْمَان بْن بِلال أَحَد الأَثْبَاتِ، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ، عَنْ ابْن عُمَر فَوَقَفَهُ بَعْضهمْ عَليْهِ، قَال الحَافِظ أَبُو زُرْعَة الرَّازِيّ: وَهُوَ أَصَحُّ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَين، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد المَلك بْن أَبِي الشَّوَارِب، حَدَّثَنَا بَشِير بْن سُرَيْج، عَنْ أَبِي غَالب، عَنْ أَبِي أُمَامَة وَهُوَ صُدَيّ بْن عَجْلان، قَال: بَعَثَنِي رَسُول الله ﷺ إِلى قَوْمِي، أَدْعُوهُمْ إِلى الله وَرَسُوله، وَأَعْرِض عَليْهِمْ شَرَائِعَ الإِسْلام، فَأَتَيْتهمْ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلكَ، إِذْ جَاءُوا بِقَصْعَةٍ مِنْ دَم، فَاجْتَمَعُوا عَليْهَا يَأْكُلُونَهَا، فَقَالُوا: هَلُمَّ يَا صُدَيّ فَكُل. قَال: قُلت: وَيْحَكُمْ، إِنَّمَا أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ مَنْ يُحَرِّم هَذَا عَليْكُمْ وَأَنزل الله عليه. فَأَقْبَلُوا عَليْهِ، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَال: فَتَلوْتُ عَليْهِمْ هَذِهِ الآيَة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾[3] الآيَة.

وَرَوَاهُ الحَافِظ أَبو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيث ابْن أَبِي الشَّوَارِب بِإِسْنَادِهِ مِثْله، وَزَادَ بَعْده هَذَا السِّيَاق: قَال: فَجَعَلت أَدْعُوهُمْ إِلى الإِسْلامِ وَيَأْبَوْنَ عَليَّ، فَقُلت لهم: وَيْحَكُمْ، اسْقُونِي شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنِّي شَدِيد العَطَش، قَال:

---

(١) **صحيح**: تقدم.

(٢) **صحيح**: تقدم.

(٣) **ضعيف**: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٣) إلى ابن أبي حاتم، والطبراني (٨/ ٣٣٥)، والحاكم (٣/ ٦٤١)، وابن مردويه، وفيه أبو غالب: صدوق يخطئ.

وَعَلَيَّ عَبَاءَتِي، فَقَالُوا: لا، وَلكِنْ نَدَعُك حَتَّى تَمُوتَ عَطَشًا. قَالَ: فَاغْتَمَمْتُ، وَضَرَبْتُ بِرَأْسِي فِي العَبَاءِ، وَنِمْتُ عَلَى الرَّمْضَاءِ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، قَالَ: فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي بِقَدَحٍ مِنْ زُجَاجٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَفِيهِ شَرَابٌ لَمْ يَرَ النَّاسُ أَلَذَّ مِنْهُ، فَأَمْكَنَنِي مِنْهَا فَشَرِبْتُهَا، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ شَرَابِي اسْتَيْقَظْتُ، فَلا وَاللهِ مَا عَطِشْتُ وَلا عَرِيتُ بَعْدَ تِيكَ الشَّرْبَةِ. وَرَوَاهُ الحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِه» عَنْ عَلِيِّ بْنِ حَمْشَاذ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ ابْنُ سَلَمَةَ بْنِ عَيَّاشٍ العَامِرِيُّ، حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ هُرْمُزٍ، عَنْ أَبِي غَالِبٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ فَذَكَرَ نَحْوَهُ، وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِه: بَعْدَ تِيكَ الشَّرْبَةِ. فَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: أَتَاكُمْ رَجُلٌ مِنْ سَرَاةِ قَوْمِكُمْ، فَلَمْ تُمَجِّعُوهُ بِمَذْقَةٍ، فَأَتَونِي بِمَذْقَةٍ، فَقُلْتُ: لا حَاجَةَ لِي فِيهَا؛ إِنَّ اللهَ أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي، وَأَرَيْتُهُمْ بَطْنِي، فَأَسْلَمُوا عَنْ آخِرِهِمْ. وَمَا أَحْسَنَ مَا أَنْشَدَ الأَعْشَى فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ إِسْحَاق:

وَإِيَّاكَ وَالمَيْتَاتِ لا تَقْرَبَنَّهَا ❁ وَلا تَأْخُذَنْ عَظْمًا حَدِيدًا فَتَفْصِدَا

أَيْ: لا تَفْعَل فِعْلَ الجَاهِلِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ إِذَا جَاعَ أَخَذَ شَيْئًا مُحَدَّدًا مِنْ عَظْمٍ وَنَحْوِهِ، فَيَفْصِدُ بِهِ بَعِيرَه، أَوْ حَيَوَانًا مِنْ أَيِّ صِنْفٍ كَانَ، فَيَجْمَعُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنَ الدَّمِ فَيَشْرَبُهُ، وَلِهَذَا حَرَّمَ اللهُ الدَّمَ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ، ثُمَّ قَالَ الأَعْشَى:

وَذَا النُّصُبَ المَنْصُوبَ لا تَأْتِيَنَّهُ ❁ وَلا تَعْبُدِ الأَوْثَانَ وَاللهَ فَاعْبُدَا

قَوْله: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ يَعْنِي: إِنْسِيَّه وَوَحْشِيَّه، وَاللَّحْمُ يَعُمُّ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ، حَتَّى الشَّحْمَ، وَلا يُحْتَاجُ إِلَى تَحَذْلُقِ الظَّاهِرِيَّةِ فِي جُمُودِهِمْ هَاهُنَا، وَتَعَسُّفِهِمْ فِي الاحْتِجَاجِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ يَعْنُونَ قَوْلَه تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ أَعَادُوا الضَّمِيرَ فِيمَا فَهِمُوهُ عَلَى الخِنْزِيرِ حَتَّى يَعُمَّ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ، وَهَذَا بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ اللُّغَة، فَإِنَّهُ لا يَعُودُ الضَّمِيرُ إِلَّا إِلَى المُضَافِ دُونَ المُضَافِ إِلَيْهِ، وَالأَظْهَرُ أَنَّ اللَّحْمَ يَعُمُّ جَمِيعَ الأَجْزَاءِ، كَمَا هُوَ المَفْهُومُ مِنْ لُغَةِ العَرَبِ، وَمِنَ العُرْفِ المُطَّرِدِ. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ بُرَيْدَةَ ابْنِ الحُصَيْبِ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ لعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ؛ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَه فِي لَحْمِ الخِنْزِيرِ وَدَمِه**»[1]، فَإِذَا كَانَ هَذَا التَّنْفِيرُ لِمُجَرَّدِ اللَّمْسِ، فَكَيْفَ يَكُونُ التَّهْدِيدُ وَالوَعِيدُ الأَكِيدُ عَلَى أَكْلِه وَالتَّغَذِّي بِهِ. وَفِيهِ دَلالَةٌ عَلَى شُمُولِ اللَّحْمِ لِجَمِيعِ الأَجْزَاءِ مِنَ الشَّحْمِ وَغَيْرِه. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ وَالمَيْتَةِ وَالخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ**». فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ المَيْتَةِ، فَإِنَّهَا تُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَتُدْهَنُ بِهَا الجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ، فَقَالَ: «**لا، هُوَ حَرَامٌ**»[2]. وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي سُفْيَانَ، أَنَّهُ قَالَ لِهِرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ: نَهَانَا عَنِ المَيْتَةِ وَالدَّمِ.

وَقَوْلُه: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أَيْ: مَا ذُبِحَ فَذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُ غَيْرِ اللهِ، فَهُوَ حَرَامٌ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْجَبَ أَنْ تُذْبَحَ مَخْلُوقَاتُه عَلَى اسْمِه العَظِيمِ، فَمَتَى عُدِلَ بِهَا عَنْ ذَلِكَ، وَذُكِرَ عَلَيْهَا اسْمُ غَيْرِه، مِنْ صَنَمٍ أَوْ طَاغُوتٍ أَوْ وَثَنٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ المَخْلُوقَاتِ؛ فَإِنَّهَا حَرَامٌ بِالإِجْمَاعِ. وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي المَتْرُوكِ التَّسْمِيَةُ عَلَيْهِ إِمَّا عَمْدًا، أَوْ نِسْيَانًا، كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُه فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ. وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الحَسَنِ الهِسِنْجَانِيُّ، حَدَّثَنَا نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ، عَنِ الوَلِيدِ بْنِ جُمَيْعٍ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: «نَزَلَ آدَمُ بِتَحْرِيمِ أَرْبَعٍ: المَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ، وَإِنَّ هَذِهِ الأَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ لَمْ تَحِلَّ قَطُّ، وَلَمْ تَزَلْ حَرَامًا مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٢٦٠)، وأبو داود (٤٩٣٩).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١).

وَالأَرْض، فَلَمَّا كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيل حَرَّمَ الله عَلَيْهِمْ طَيِّبَات أُحِلَّتْ لَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، فَلَمَّا بَعَثَ الله عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَامُ، نَزَل بِالأَمْرِ الأَوَّل الَّذِي جَاءَ بِهِ آدَم، وَأَحَلَّ لَهُمْ مَا سِوَى ذَلِكَ، فَكَذَّبُوهُ وَعَصَوْهُ». وَهَذَا أَثَر غَرِيب. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن يُونُس، حَدَّثَنَا رِبْعِيّ بنْ عَبْد الله، قَال: سَمِعْت الجَارُود بْن أَبِي سَبْرَة، قَال: هُوَ جَدِّي، قَال: كَانَ رَجُل مِنْ بَنِي رَيَاح يُقَال لهُ: ابْن وَثِيل، وَكَانَ شَاعِرًا نَافَرَ غَالبًا أَبَا الفَرَزْدَق بِمَاءٍ بِظَهْرِ الكُوفَة، عَلى أَنْ يَعْقِر هَذَا مِائَةً مِنْ إِبِله، وَهَذَا مِائَةً مِنْ إِبِلهِ، إِذَا وَرَدَتْ المَاءَ، فَلَمَّا وَرَدَتْ المَاء، قَامَا إِلَيْهَا بِالسُّيُوفِ فَجَعَلا يَكْسِفَانِ عَرَاقِيبَهَا، قَال: فَخَرَجَ النَّاس عَلى الحُمُرَات وَالبِغَال يُرِيدُونَ اللَّحْم، قَال: وَعَلِيّ بِالكُوفَةِ، قَال: فَخَرَجَ عَلِيّ عَلى بَغْلَةِ رَسُول الله ﷺ البَيْضَاءِ، وَهُوَ يُنَادِي: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لا تَأْكُلُوا مِنْ لُحُومِهَا؛ فَإِنَّهَا أُهِلَّ بِهَا لِغَيْرِ الله. هَذَا أَثَر غَرِيب. وَيَشْهَد لهُ بِالصِّحَّةِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا هَارُون بْن عَبْد الله، ثَنَا حَمَّاد بْن مَسْعَدَةَ، عَنْ عَوْف، عَنْ أَبِي رَيْحَانَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: «نَهَى رَسُول الله ﷺ عَنْ مُعَاقَرَة الأَعْرَاب»[1]. ثُمَّ قَال أَبُو دَاوُدَ: مُحَمَّد بْن جَعْفَر -هُوَ غُنْدَر- أَوْقَفَهُ عَلى ابْن عَبَّاس. تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ. وَقَال أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا هَارُون بْن زَيْد بْن أَبِي الزَّرْقَاء، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا جَرِير بْن حَازِم، عَنْ الزُّبَيْر بْن خِرِّيت، قَال: سَمِعْت عِكْرِمَة يَقُول: «إِنَّ رَسُول الله ﷺ نَهَى عَنْ طَعَام المُتَبَارِيَيْنِ أَنْ يُؤْكَل»[2]. ثُمَّ قَال أَبُو دَاوُدَ: أَكْثَرُ مَنْ رَوَاهُ عن جَرِير، لا يَذْكُر فِيهِ ابْنَ عَبَّاس. تَفَرَّدَ بِهِ أَيْضًا.

وَقَوْله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ وَهِيَ الَّتِي تَمُوت بِالخَنْق، إِمَّا قَصْدًا، وَإِمَّا اتِّفَاقًا، بِأَنْ تَتَخَبَّل فِي وِثَاقِهَا فَتَمُوت بِه، فَهِيَ حَرَام. وَأَمَّا ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾، فَهِيَ الَّتِي تُضْرَب بِشَيْءٍ ثَقِيلٍ غَيْر مُحَدَّد، حَتَّى تَمُوت، كَمَا قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد: هِيَ الَّتِي تُضْرَب بِالخَشَبَةِ حَتَّى تُوقَذَ بِهَا فَتَمُوت. وَقَال قَتَادَة: كَانَ أَهْل الجَاهِلِيَّة يَضْرِبُونَهَا بِالعَصَى، حَتَّى إِذَا مَاتَتْ أَكَلُوهَا. وَفِي الصَّحِيح: أَنَّ عَدِيّ بْن حَاتِم قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، إِنِّي أَرْمِي بِالمِعْرَاضِ الصَّيْد فَأُصِيب، قَال: «**إِذَا رَمَيْت بِالمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكُلهُ، وَإِنْ أَصَابَه بِعَرْضِهِ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيذ فَلا تَأْكُلهُ**»[3]. فَفَرَّقَ بَيْن مَا أَصَابَهُ بِالسَّهْمِ أَوْ بِالمِزْراق وَنَحْوه بِحَدِّهِ فَأَحَلَّهُ، وَمَا أَصَابَه بِعَرْضِهِ فَجَعَلهُ وَقِيذًا فلمْ يُحِلَّهُ، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم هاهنا، وَاخْتَلفُوا فِيمَا إِذَا صَدَمَ الجَارِحَةُ الصَّيْدَ فَقَتَلهُ بِثِقَلهِ، وَلمْ يَجْرَحهُ، عَلى قَوْليْنِ هُمَا قَوْلانِ للشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ:

أَحَدهمَا: لا يَحِلّ كَمَا فِي السَّهْم، وَالجَامِع أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مَيِّت بِغَيْرِ جَرْح، فَهُوَ وَقِيذ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَحِلّ لأَنَّهُ حَكَمَ بِإِبَاحَةِ مَا صَادَهُ الكَلب، وَلمْ يَسْتَفْصِل، فَدَلَّ عَلى إِبَاحَة مَا ذَكَرْنَاهُ؛ لأَنَّهُ قَدْ دَخَل فِي العُمُوم، وَقَدْ قَرَّرْت هَذِهِ المَسْأَلة فَصْلًا، فَليُكْتَبْ هَاهُنَا.

فَصْل

اخْتَلفَ العُلمَاء -رَحِمَهُمْ الله تَعَالى- فِيمَا إِذَا أَرْسَل كَلبًا عَلى صَيْد فَقَتَلهُ بِثِقَلهِ وَلمْ يَجْرَحهُ، أَوْ صَدَمَهُ، هَل يَحِلّ أَمْ لا؟ عَلى قَوْليْنِ:

أَحَدهمَا: أَنَّ ذَلكَ حَلال لعُمُوم قَوْله تَعَالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، وَكَذَا عُمُومَات حَدِيث عَدِيّ بْن حَاتِم، وَهَذَا قَوْل حَكَاهُ الأَصْحَاب عَنْ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ وَصَحَّحَهُ بَعْض المُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ: كَالنَّوَوِيِّ وَالرَّافِعِيّ.

قُلت: وَليْسَ ذَلكَ بِظَاهِرٍ مِنْ كَلام الشَّافِعِيّ فِي الأُمّ وَالمُخْتَصَر، فَإِنَّهُ قَال فِي كِلا المَوْضِعَيْنِ: يَحْتَمِل مَعْنَيَيْنِ، ثُمَّ وَجَّهَ كُلًّا مِنْهُمَا، فَحَمَل ذَلكَ الأَصْحَاب مِنْهُ، فَأَطْلقُوا فِي المَسْأَلة قَوْليْنِ عَنْهُ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنَّهُ فِي بَحْثه حكايته للقَوْل بِالحِلِّ رَشَّحَهُ قَليلًا، وَلمْ يُصَرِّح بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا وَلا جَزَمَ به، وَالقَوْل بِذَلكَ -أَعْنِي الحِلّ- نَقَلهُ ابْن الصَّبَّاغ

---

(١) **حسن صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٨٢٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٣١٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٤٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٧٥٤) بسند مرسل، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ١٢٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٢٦).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٧٥، ٢٠٥٤)، ومسلم (١٩٢٩).

عَنْ أَبِي حَنِيفَة مِنْ رِوَايَة الحَسَن بن زِيَاد عَنْهُ، وَلَمْ يَذْكُر غَيْرَ ذَلِكَ. وَأَمَّا أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير فَحَكَاهُ فِي تَفْسِيره، عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيّ وَأَبِي هُرَيْرَة وَسَعْد بن أَبِي وَقَّاص وَابن عُمَر، وَهَذَا غَرِيب جِدًّا، وَلَيْسَ يُوجَد ذَلِكَ مُصَرَّحًا بِهِ عَنْهُمْ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ تَصَرُّفه، رَحِمَهُ الله وَرَضِيَ عَنْهُ.

وَالقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ ذَلِكَ لا يَحِلّ، وَهُوَ أَحَد القَوْلَيْنِ عَنْ الشَّافِعِيّ رحمه الله، وَاخْتَارَهُ المُزَنِيّ، وَيَظْهَر مِنْ كَلام ابْن الصَّبَّاغ تَرْجِيحه أَيْضًا، وَالله أَعْلَمُ. وَرَوَاهُ أَبُو يُوسُف وَمُحَمَّد عَنْ أَبِي حَنِيفَة، وَهُوَ المَشْهُور عَنْ الإِمَام أَحْمَد بن حَنْبَل رضي الله عنه، وَهَذَا القَوْل أَشْبَهُ بِالصَّوَابِ، وَالله أَعْلَمُ؛ لأَنَّهُ أَجْرَى عَلَى القَوَاعِد الأُصُولِيَّة، وَأَمَسّ بالأُصُول الشَّرْعِيَّة، وَاحْتَجَّ ابْن الصَّبَّاغ لَهُ بِحَدِيثِ رَافِع بْن خَدِيج، قُلت: يَا رَسُول الله، إِنَّا لاقُو العَدُوِّ غَدًا، وَلَيْسَ مَعَنَا مُدًى، أَفَنَذْبَح بِالقَصَبِ، قَالَ: **«مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ، فَكُلُوهُ»**[1]. الحَدِيث بِتَمَامِهِ وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَهَذَا وَإِنْ كَانَ وَارِدًا عَلَى سَبَب خَاصّ، فَالعِبْرَة بِعُمُوم اللَّفْظ عِنْد جُمْهُور مِنَ العُلَمَاءِ فِي الأُصُول وَالفُرُوع، كَمَا سُئِلَ عليه السلام عَنِ البِتْع، وَهُوَ نَبِيذ العَسَل، فَقَال: **«كُلّ شَرَاب أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَام»**[2]. أَفَيَقُول فَقِيه: إِنَّ هَذَا اللَّفْظ مَخْصُوص بِشَرَابِ العَسَل؟ وَهَكَذَا هَذَا سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الذَّكَاة، فَقَال لَهُمْ كَلامًا عَامًّا يَشْمَل ذَاكَ المَسْئُول عَنْهُ وَغَيْره؛ لأَنَّهُ عليه السلام كَانَ قَدْ أُوتِيَ جَوَامِع الكَلِم. إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَمَا صَدَمَهُ الكَلب، أَوْ غَمَّهُ بِثِقَلِهِ؛ لَيْسَ مِمَّا أَنْهَرَ دَمَهُ فَلا يَحِلُّ لِمَفْهُوم هَذَا الحَدِيثِ، فَإِنْ قِيل: هَذَا الحَدِيث لَيْسَ مِنْ هَذَا القَبِيل بِشَيْءٍ، لأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوهُ عَنْ الآلَةِ الَّتِي يُذَكَّى بِهَا، وَلَمْ يَسْأَلُوهُ عَنْ الشَّيْء الَّذِي يُذَكَّى، وَلِهَذَا اسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ السِّنّ وَالظُّفُر، حَيْثُ قَالَ: **«لَيْسَ السِّنّ وَالظُّفُر، وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، أَمَّا السِّنّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفُر فَمُدَى الحَبَشَةِ»**[3]، وَالمُسْتَثْنَى يَدُلّ عَلَى جِنْس المُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ مُتَّصِلًا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ المَسْئُول عَنْهُ هُوَ الآلَةُ، فَلا يَبْقَى فِيهِ دَلالة لِمَا ذَكَرْتُمْ. فَالجَوَاب عَنْ هَذَا بِأَنَّ فِي الكَلام مَا يُشْكِل عَلَيْكُمْ أَيْضًا، حَيْثُ يَقُول: **«مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ، فَكُلُوهُ»**. وَلَمْ يَقُل فَاذْبَحُوا بِهِ، فَهَذَا يُؤْخَذُ مِنْهُ الحُكْمَانِ مَعًا، يُؤْخَذ حُكْم الآلَةِ الَّتِي يُذَكَّى بِهَا، وَحُكْم المُذَكَّى، وَأَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ إِنْهَارِ دَمِهِ بِآلَةٍ لَيْسَتْ سِنًّا وَلا ظُفُرًا، هَذَا مَسْلَك.

وَالمَسْلَك الثَّانِي: طَرِيقَة المُزَنِيّ، وَهِيَ أَنَّ السَّهْم جَاءَ التَّصْرِيح فِيهِ بِأَنَّهُ إِنْ قَتَل بِعَرْضِهِ فَلا تَأْكُل، وَإِنْ خَزَقَ فَكُل، وَالكَلب جَاءَ مُطْلَقًا فَيُحْمَل عَلَى مَا قُيِّدَ هُنَاكَ مِنْ الخَزْق، لأَنَّهُمَا اشْتَرَكَا فِي المُوجَب، وَهُوَ الصَّيْد، فَيَجِبُ الحَمْلُ هُنَا، وَإِنِ اخْتَلَفَ السَّبَب، كَمَا وَجَبَ حَمْلُ مُطْلَقِ الإِعْتَاقِ فِي الظِّهَارِ عَلَى تَقْيِيدِهِ بِالإِيمَانِ فِي القَتْل، بَل هَذَا أَوْلى، وَهَذَا يَتَوَجَّه لَهُ عَلَى مَنْ يُسَلِّم لَهُ أَصْلَ هَذِهِ القَاعِدَةِ، مِنْ حَيْثُ هِيَ، وَلَيْسَ فِيهَا خِلاف بَيْنَ الأَصْحَاب قَاطِبَة فَلابُدَّ لَهُمْ مِنْ جَوَاب عَنْ هَذَا. وَلَهُ أَنْ يَقُولَ: هَذَا قَتَلَهُ الكَلب بِثِقَلِه، فَلَمْ يَحِلّ؛ قِيَاسًا عَلَى مَا قَتَلَهُ السَّهْم بِعَرْضِهِ، وَالجَامِع أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا آلة للصَّيْدِ، وَقَدْ مَاتَ بِثِقَلِهِ فِيهِمَا، وَلا يُعَارِض ذَلِكَ بِعُمُومِ الآيَة؛ لأَنَّ القِيَاس مُقَدَّم عَلَى العُمُوم، كَمَا هُوَ مَذْهَب الأَئِمَّة الأَرْبَعَة وَالجُمْهُور، وَهَذَا مَسْلك حَسَن أَيْضًا.

مَسْلَك آخَر: وَهُوَ: أَنَّ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ عَامّ فِيمَا قَتَلْنَ بِجَرْحٍ أَوْ غَيْره، لكِنَّ هَذَا المَقْتُول عَلَى هَذِهِ الصُّورَة المُتَنَازَع فِيهِ لا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُون نَطِيحًا أَوْ فِي حُكْمه، أَوْ مُنْخَنِقًا أَوْ فِي حُكْمه، وَأَيًّا مَا كَانَ؛ فَيَجِب تَقْدِيم هَذِهِ الآيَة عَلَى تِلْكَ؛ لِوُجُوه:

أَحَدهَا: أَنَّ الشَّارِع قَدْ اعْتَبَرَ حُكْم هَذِهِ الآيَة حَالَة الصَّيْد، حَيْثُ يَقُول لِعَدِيّ بن حَاتِم: **«وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرْضِهِ؛ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيذ فَلا تَأْكُلهُ»**. وَلَمْ نَعْلَم أَحَدًا مِنَ العُلَمَاءِ فَصَل بَيْنَ حُكْمٍ وَحُكْمٍ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ، فَقَال: إِنَّ الوَقِيذ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٨٨، ٥٤٩٨)، ومسلم (١٩٦٨).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٢، ٥٥٨٥)، ومسلم (٢٠٠١).

(٣) صحيح: تقدم.

مُعْتَبَرٌ حَالَةَ الصَّيْدِ، وَالنَّطِيح لَيْسَ مُعْتَبَرًا، فَيَكُون القَوْلُ بِحِلِّ المُتَنَازَع فِيهِ خَرْقًا للإِجْمَاعِ، لا قَائِل بِهِ، وَهُوَ مَحْظُورٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ.

الثَّانِي: أَنَّ تِلْكَ الآيَةَ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ لَيْسَتْ عَلَى عُمُومِهَا بِالإِجْمَاعِ، بَل مَخْصُوصَة بِمَا صِدْنَ مِنَ الحَيَوَانِ المَأْكُولِ، وَخَرَجَ مِنْ عُمُومِ لفظِهَا الحَيَوَانُ غَيْرُ المَأْكُولِ بِالاتِّفَاقِ وَالعُمُومِ المَحْفُوظ مُقَدَّم عَلَى غَيْرِ المَحْفُوظ.

المَسْلَكُ الآخَرُ: أَنَّ هَذَا الصَّيْدَ، وَالحَالةُ هَذِهِ، فِي حُكْمِ المَيْتَةِ سَوَاءٌ؛ لأَنَّهُ قَدْ احْتَقَنَ فِيهِ الدِّمَاءُ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ الرُّطُوبَاتِ فَلا تَحِلُّ قِيَاسًا عَلَى المَيْتَةِ.

المَسْلَكُ الآخَرُ: أَنَّ آيَةَ التَّحْرِيمِ -أَعْنِي قَوْلَهُ ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ إِلَى آخِرِهَا- مُحْكَمَةٌ لَمْ يَدْخُلهَا نَسْخٌ وَلا تَخْصِيصٌ، وَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ آيَةُ التَّحْلِيلِ مُحْكَمَة، أَعْنِي قَوْله تَعَالَى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآيَة. فَيَنْبَغِي أَنْ لا يَكُونَ بينهما تَعَارُض أَصْلًا، وَتَكُون السُّنَّةُ جَاءَتْ لِبَيَانِ ذَلِكَ، وَشَاهِدُ ذَلِكَ قِصَّةُ السَّهْمِ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ حُكْمَ مَا دَخَلَ فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَهُوَ مَا إِذَا خَزَقَهُ المِعْرَاض فَيَكُون حلالًا، لأَنَّهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَمَا دَخَلَ فِي حُكْمِ تِلْكَ الآيَةِ؛ آيَة التَّحْرِيمِ، وَهُوَ مَا إِذَا أَصَابَهُ بعرض فَلا يُؤْكَلُ، لأَنَّهُ وَقِيذٌ، فَيَكُونُ أَحَدَ أَفْرَادِ آيَةِ التَّحْرِيمِ، وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حُكْمُ هَذَا، سَوَاءٌ إِنْ كَانَ قَدْ جَرَحَهُ الكَلْب، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ آيَةِ التَّحْلِيلِ، وَإِنْ لَمْ يَجْرَحهُ بَل صَدَمَهُ أَوْ قَتَلَهُ بِثِقَلِهِ؛ فَهُوَ نَطِيح أَوْ فِي حُكْمه؛ فَلا يَكُون حَلالًا.

فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَ لا فَصَّلَ فِي حُكْمِ الكَلْبِ، فَقَالَ مَا ذَكَرْتُمْ؛ إِنْ جَرَحَهُ فَهُوَ حَلال، وَإِنْ لَمْ يَجْرَحْهُ فَهُوَ حَرَامٌ؟.

فَالجَوَابُ: أَنَّ ذَلِكَ نَادِرٌ؛ لأَنَّ مِنْ شَأْنِ الكَلْبِ أَنْ يَقْتُلَ بِظُفُرِهِ أَوْ نَابِهِ أَوْ بِهِمَا مَعًا، وَأَمَّا اصْطِدَامُهُ هُوَ وَالصَّيْد فَنَادِرٌ، وَكَذَا قَتْله إِيَّاهُ بِثِقَلِهِ، فَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى الاحْتِرَازِ مِنْ ذَلِكَ لِنُدُورِهِ، أَوْ لِظُهُورِ حُكْمه عِنْد مَنْ عَلِمَ تَحْرِيمَ المَيْتَةِ وَالمُنْخَنِقَة وَالمَوْقُوذَة وَالمُتَرَدِّيَة وَالنَّطِيحَة، وَأَمَّا السَّهْمِ وَالمِعْرَاض فَتَارَةً يُخْطِئ لِسُوءِ رَمْيِ رَامِيهِ، أَوْ للهَوَاء، أَوْ نَحْو ذَلِكَ، بَل خَطَؤُهُ أَكْثَرُ مِنْ إِصَابَتِه، فَلهَذَا ذَكَرَ كُلًّا مِنْ حُكْمَيْهِ مُفَصَّلًا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الكَلْب مِنْ شَأْنه أَنَّهُ قد يَأْكُل مِنَ الصَّيْدِ، ذَكَرَ حُكْم مَا إِذَا أَكَلَ مِنَ الصَّيْدِ، فَقَالَ: «**إِنْ أَكَلَ فَلا تَأْكُل، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِه**»[1]. وَهَذَا صَحِيح ثَابِت فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَهُوَ أَيْضًا مَخْصُوص مِنْ عُمُومِ آيَةِ التَّحْلِيلِ عِنْد كَثِيرِينَ، فَقَالُوا: لا يَحِلّ مَا أَكَلَ مِنْهُ الكَلْبُ، حُكِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة وَابْنِ عَبَّاس، وَبِهِ قَالَ الحَسَن وَالشَّعْبِيّ وَالنَّخَعِيّ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَة وَصَاحِبَاهُ، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل وَالشَّافِعِيّ فِي المَشْهُور عَنْهُ. وَرَوَى ابْن جَرِير فِي تَفْسِيره، عَنْ عَلِيّ وَسَعْد وَسَلمَان وَأَبِي هُرَيْرَة وَابْن عُمَر وَابْن عَبَّاس: أَنَّ الصَّيْد يُؤْكَل، وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ الكَلْب، حَتَّى قَالَ سعد وَسَلمَان وَأَبُو هُرَيْرَة وَابْن عُمَر وَغَيْرهم: يُؤْكَل وَلَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا بَضْعَةٌ. وَإِلَى ذَلِكَ ذَهَبَ مَالِك وَالشَّافِعِيّ فِي قَوْله القَدِيمِ، وَأَومأ فِي الجَدِيد إِلَى قَوْلَيْنِ، قَالَ ذَلِكَ: الإِمَامُ أَبُو نَصر ابْن الصَّبَّاغ وَغَيْره مِنَ الأَصْحَاب عَنْهُ. وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ قَوِيٍّ عَنْ أَبِي ثَعْلبَة الخُشَنِيّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَال فِي صَيْدِ الكَلْبِ: «**إِذَا أَرْسَلت كَلْبَك، وَذَكَرْت اسْمَ الله فَكُل وَإِنْ أَكَل مِنْهُ، وَكُل مَا رَدَّتْ عَلَيْك يَدُك**»[2].

وَرَوَاهُ أَيْضًا النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه أَنَّ أَعْرَابِيًّا يُقَال لهُ: أَبُو ثَعْلبَة، قَال: يَا رَسُول الله... فَذَكَرَ نَحْوه. وَقَال مُحَمَّد بْن جَرِير فِي تَفْسِيره: حَدَّثَنَا عِمْرَان بْن بَكَّار الكُلاعِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز ابْن مُوسَى -هُوَ اللَّاحُونِيّ-، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن دِينَار -هُوَ الطَّاحِيّ- عَنْ أَبِي إِيَاس وَهُوَ مُعَاوِيَة بْن قُرَّة عَنْ سَعِيد ابْن المُسَيَّب، عَنْ سَلمَان الفَارِسِيّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «إِذَا أَرْسَل الرَّجُل كَلبه عَلَى الصَّيْد، فَأَدْرَكَهُ وَقَدْ أَكَلَ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٦٧)، ومسلم (١٩٢٩).
(٢) منكر: أخرجه أبو داود (٢٨٥٢) من حديث أبي ثعلبة الخشني، وقال الألباني: منكر. انظر «ضعيف سنن أبي داود» (٦٠٩).

مِنْهُ، فَلْيَأْكُل مَا بَقِيَ»[1]، ثُمَّ إِنَّ ابْن جَرِير عَلَّلَهُ بِأَنَّهُ قَدْ رَوَاهُ قَتَادَة وَغَيْره عَنْ سَعِيد بْن الْمُسَيِّب عَنْ سَلْمَان مَوْقُوفًا. وَأَمَّا الْجُمْهُور فَقَدَّمُوا حَدِيث عَدِيّ عَلَى ذَلِكَ، وَرَامُوا تَضْعِيف حَدِيث أَبِي ثَعْلَبَة وَغَيْره، وَقَدْ حَمَلَهُ بَعْض الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّهُ إِنْ أَكَل بَعْد مَا انْتَظَرَ صَاحِبه، فَطَال عَلَيْهِ الْفَصْل، وَلَمْ يَجِئْ فَأَكَل مِنْهُ لِجُوعِهِ وَنَحْوه، فَإِنَّهُ لا بَأْس بِذَلِكَ، لأنه وَالْحَالَة هَذِهِ؛ لا يُخْشَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسه، بِخِلافِ مَا إِذَا أَكَل مِنْهُ أَوَّل وَهْلة، فَإِنَّهُ يَظْهَر مِنْهُ أَنَّهُ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسه، وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَأَمَّا الْجَوَارِح مِنْ الصيد، فَنَصَّ الشَّافِعِيّ عَلَى أَنَّهَا كَالْكَلبِ، فَيَحْرُم مَا أَكَلتْ مِنْهُ عِنْد الْجُمْهُور، وَلا يَحْرُم عِنْد الآخَرِينَ، وَاخْتَارَ الْمُزَنِيّ مِنْ أَصْحَابنَا أَنَّهُ لا يَحْرُم أَكْلُ مَا أَكَلتْ مِنْهُ الطُّيُور وَالْجَوَارِح، وَهُوَ مَذْهَب أَبِي حَنِيفَة وَأَحْمَد، قَالُوا: لأَنَّهُ لا يُمْكِن تَعْلِيمهَا كَمَا يُعَلَّم الكَلب بِالضَّرْبِ وَنَحْوه. وَأَيْضًا فَإِنَّهَا لا تُعَلَّم إِلَّا بِأَكْلِهَا مِنْ الصَّيْد، فَيُعْفَى عَنْ ذَلكَ، وَأَيْضًا فَالنَّصّ إِنَّمَا وَرَدَ فِي الكَلب لا فِي الطَّيْر، وَقَال الشَّيْخ أَبُو عَلِيّ فِي الإِفْصَاح: إِذَا قُلنَا يَحْرُم مَا أَكَل مِنْهُ الكَلب، فَفِي تَحْرِيم مَا أَكَل مِنْهُ الطَّيْر وَجْهَانِ. وَأَنْكَرَ القَاضِي أَبُو الطَّيِّب هَذَا التَّفْرِيع وَالتَّرْتِيب؛ لِنَصِّ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى التَّسْوِيَة بَيْنهمَا، وَاللهُ سُبْحَانه وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَأَمَّا **الْمُتَرَدِّيَة**: فَهِيَ الَّتِي تَقَع مِنْ شَاهِق، أَوْ مَوْضِع عَالٍ، فَتَمُوت بِذَلِكَ، فَلا تَحِلّ. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: الْمُتَرَدِّيَة الَّتِي تَسْقُط مِنْ جَبَل. وَقَال قَتَادَة: هِيَ الَّتِي تَتَرَدَّى فِي بِئْر. وَقَال السُّدِّيّ: هِيَ الَّتِي تَقَع مِنْ جَبَل، أَوْ تَتَرَدَّى فِي بِئْر. وَأَمَّا النَّطِيحَة: فَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ بِسَبَبِ نَطح غَيْرهَا لَهَا، فَهِيَ حَرَام، وَإِنْ جَرَحَهَا القَرْن، وَخَرَجَ مِنْهَا الدَّم، وَلَوْ مِنْ مَذْبَحهَا. وَالنَّطِيحَة فَعِيلَة بِمَعْنَى مَفْعُولَة، أَيْ: مَنْطُوحَة، وَأَكْثَر مَا تَرِد هَذِهِ الْبِنْيَة فِي كَلام الْعَرَب بِدُونِ تَاء التَّأْنِيث، فَيَقُولُونَ: عَيْن كَحِيل، وَكَفّ خَضِيب، وَلا يَقُولُونَ: كَفّ خَضِيبَة، وَلا عَيْن كَحِيلة، وَأَمَّا هَذِهِ فَقَال بَعْض النُّحَاة: إِنَّمَا اسْتُعْمِل فِيهَا تَاء التَّأْنِيث لأَنَّهَا أُجْرِيَتْ مَجْرَى الأَسْمَاء، كَمَا فِي قَوْلهمْ: طَرِيقَة طَوِيلة، وَقَال بَعْضهمْ: إِنَّمَا أُتِيَ بِتَاءِ التَّأْنِيث فِيهَا؛ لِتَدُلّ عَلَى التَّأْنِيث مِنْ أَوَّل وَهْلة، بِخِلافِ: عَيْن كَحِيل، وَكَفّ خَضِيب؛ لأَنَّ التَّأْنِيث مُسْتَفَاد مِنْ أَوَّل الكَلام.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أَيْ: مَا عَدَا عَلَيْهَا أَسَد أَوْ فَهْد أَوْ نَمِر أَوْ ذِئْب أَوْ كَلب؛ فَأَكَل بَعْضهَا فَمَاتَتْ بِذَلِكَ، فَهِيَ حَرَام؛ وَإِنْ كَانَ قَدْ سَال مِنْهَا الدَّم، وَلَوْ مِنْ مَذْبَحهَا، فَلا تَحِلّ بِالإِجْمَاع، وَقَدْ كَانَ أَهْل الْجَاهِلِيَّة يَأْكُلُونَ مَا أَفْضَل السَّبُع مِنْ الشَّاة، أَوْ الْبَعِير أَوْ الْبَقَرَة أَوْ نَحْو ذَلِكَ، فَحَرَّمَ اللهُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَوْله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عَائِد عَلَى مَا يُمْكِن عَوْده عَلَيْهِ مِمَّا انْعَقَدَ سَبَب مَوْته، فَأَمْكَنَ تَدَارُكُهُ بِذَكَاةٍ وَفِيهِ حَيَاة مُسْتَقِرَّة، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَعُود عَلَى قَوْله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يَقُول: إِلَّا مَا ذَبَحْتُمْ مِنْ هَؤُلاءِ، وَفِيهِ رُوح، فَكُلُوهُ فَهُوَ ذَكِيّ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر وَالْحَسَن الْبَصْرِيّ وَالسُّدِّيّ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا حَفْص بْن غِيَاث، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن مُحَمَّد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيّ فِي الآيَة، قَال: إِنْ مَصَعَتْ بِذَنَبِهَا، أَوْ رَكَضَتْ بِرِجْلِهَا، أَوْ طَرَفَتْ بِعَيْنِهَا؛ فَكُل. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الْحُسَيْن، حَدَّثَنَا هُشَيْم وَعَبَّاد، قَالا: حَدَّثَنَا حَجَّاج، عَنْ حُصَيْن، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ الْحَارِث، عَنْ عَلِيّ قَال: إِذَا أَدْرَكْت ذَكَاة الْمَوْقُوذَة وَالْمُتَرَدِّيَة وَالنَّطِيحَة وَهِيَ تُحَرِّك يَدًا أَوْ رِجْلًا؛ فَكُلهَا. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ طَاوُس وَالْحَسَن وَقَتَادَة وَعُبَيْد بْن عُمَيْر وَالضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد: أَنَّ الْمُذَكَّاة مَتَى تَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ تَدُلّ عَلَى بَقَاء الْحَيَاة فِيهَا بَعْد الذَّبْح؛ فَهِيَ حَلال؛ وَهَذَا مَذْهَب جُمْهُور الْفُقَهَاء. وَبِهِ قَال أَبُو حَنِيفَة وَالشَّافِعِيّ وَأَحْمَد بْن حَنْبَل.

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٤/ ٤٣٤).

قَال ابْن وَهْب: سُئِل مَالك عَنْ الشَّاة الَّتِي يَخْرق جَوْفَهَا السَّبُعُ، حَتَّى تَخْرُج أَمْعَاؤُهَا، فَقَال مَالك: لا أَرَى أَنْ تُذَكَّى، أَيُّ شَيْءٍ يُذَكَّى مِنْهَا؟. وَقَال أَشْهَب: سُئِل مَالك عَنْ الضَّبُع يَعْدُو عَلى الكَبْش فَيَدُقّ ظَهْره، أَتَرَى أَنْ يُذَكَّى قَبْل أَنْ يَمُوت فَيُؤْكَل؟ فَقَال: إِنْ كَانَ قَدْ بَلغَ السُّحْرَةَ فَلا أَرَى أَنْ يُؤْكَل، وَإِنْ كَانَ أَصَابَ أَطْرَافه فَلا أَرَى بِذَلِكَ بَأْسًا. قِيل لَهُ: وَثَبَ عَلَيْهِ فَدَقَّ ظَهْره؟ فَقَال: لا يُعْجِبنِي، هَذَا لا يَعِيش مِنْهُ. قِيل لَهُ: فَالذِّئْب يَعْدُو عَلى الشَّاة فَيَشق بَطْنهَا وَلا يَشق الأَمْعَاء؟ فَقَال: إِذَا شَقَّ بَطْنهَا فَلا أَرىٰ أَنْ تُؤْكَل. هَذَا مَذْهَب مَالك رَحِمَهُ اللهُ، وَظَاهِر الآيَة عَامّ فِيَما اسْتَثْنَاهُ مَالك رَحِمَهُ اللهُ؛ مِنْ الصُّوَر الَّتِي بَلغَ الحَيَوَان فِيهَا إِلى حَالة لا يَعِيش بَعْدهَا، فَيَحْتَاج إِلى دَليل مُخَصِّص للآيَة، وَاللهُ أَعْلمُ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَافِع بْن خَدِيج أَنَّهُ قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، إِنَّا لاقُو العَدُوّ غَدًا، وَليْسَ مَعَنَا مُدًى، أَفَنَذْبَح بِالقَصَبِ؟ فَقَال: «**مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْم الله عَلَيْهِ، فَكُلُوهُ، ليْسَ السِّنّ وَالظُفُر، وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنْ ذَلكَ: أَمَّا السِّنّ فَعَظم، وَأَمَّا الظُفُر فَمُدَى الحَبَشَة**». وَفِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ مَرْفُوعًا وَفِيهِ نَظَر، وَرُوِيَ عَنْ عُمَر مَوْقُوفًا، وَهُوَ أَصَحّ: «**أَلا إِنَّ الذَّكَاة فِي الحَلق وَاللبَّة، وَلا تَعْجَلُوا الأَنْفُس أَنْ تَزْهَق**»[1]. وَفِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن مِنْ رِوَايَة حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ أَبِي العُشَرَاء الدَّارِمِيّ، عَنْ أَبِيهِ قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، أَمَا تَكُون الذَّكَاة إِلَّا مِنْ اللبَّة وَالحَلق؟ فَقَال: «**لوْ طَعَنْت فِي فَخِذهَا لأَجْزَأَ عَنْك**»[2]. وَهُوَ حَدِيث صَحِيح وَلكِنَّهُ مَحْمُول عَلى مَا لا يُقْدَر عَلى ذَبْحه فِي الحَلق وَاللبَّة.

وَقَوْله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾. قَال مُجَاهِد وَابْن جُرَيْج: كَانَتْ النُّصُب حِجَارَة حَوْل الكَعْبَة، قَال ابْن جُرَيْج: وَهِيَ ثَلثمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا، كَانَتْ العَرَب فِي جَاهِليَّتهَا يَذْبَحُونَ عِنْدهَا، وَيَنْضَحُونَ مَا أَقْبَل مِنْهَا إِلى البَيْت بِدِمَاءِ تِلكَ الذَّبَائِح، وَيُشَرِّحُونَ اللَّحْم، وَيَضَعُونَهُ عَلى النُّصُب. وَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْر وَاحِد، فَنَهَى الله المُؤْمِنِينَ عَنْ هَذَا الصَّنِيع، وَحَرَّمَ عَليْهِمْ أَكْل هَذِهِ الذَّبَائِح الَّتِي فُعِلتْ عِنْد النُّصُب، حَتَّى وَلوْ كَانَ يُذْكَر عَليْهَا اسْم الله؛ لِمَا فِي الذَّبْح عِنْد النُّصُب مِنْ الشِّرْك الَّذِي حَرَّمَهُ الله وَرَسُوله، وَيَنْبَغِي أَنْ يُحْمَل هَذَا عَلى هَذَا؛ لأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ تَحْرِيم مَا أُهِلَّ بِهِ لغَيْر الله.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ أَيْ: حَرَّمَ عَليْكُمْ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ الاسْتِقْسَام بِالأَزْلام، وَاحِدهَا: زُلَم، وَقَدْ تُفْتَح الزَّاي فَيُقَال: زَلَم، وَقَدْ كَانَتْ العَرَب فِي جَاهِليَّتهَا يَتَعَاطَوْنَ ذَلكَ، وَهِيَ عِبَارَة عَنْ قِدَاح ثَلاثَة، عَلى أَحَدهَا مَكْتُوب: «**افْعَل**»، وَعَلى الآخَر: «**لا تَفْعَل**»، وَالثَّالث: غُفْلٌ ليْسَ عَليْهِ شَيْء. وَمِنْ النَّاس مَنْ قَال: مَكْتُوب عَلى الوَاحِد: «**أَمَرَنِي رَبِّي**»، وَعَلى الآخَر: «**نَهَانِي رَبِّي**»، وَالثَّالث: غُفْل ليْسَ عَليْهِ شَيْء، فَإِذَا أَجَالهَا فَطَلعَ سَهْم الأَمْر فَعَلهُ، أَوْ النَّاهِي تَرَكَهُ، وَإِنْ طَلعَ الفَارِغ أَعَادَ. وَالاسْتِقْسَام مَأْخُوذ مِنْ طَلب القَسْم مِنْ هَذِهِ الأَزْلام، هَكَذَا قَرَّرَ ذَلكَ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن مُحَمَّد بْن الصَّبَّاح، حَدَّثَنَا الحَجَّاج بْن مُحَمَّد، أَخْبَرَنَا ابْن جُرَيْج وَعُثْمَان بْن عَطَاء، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ قَال: وَالأَزْلام: قِدَاح كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا فِي الأُمُور. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَالحَسَن البَصْرِيّ وَمُقَاتِل بْن حَيَّان. وَقَال ابْن عَبَّاس: هِيَ قِدَاح كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا فِي الأُمُور، وَذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَغَيْره: أَنَّ أَعْظَمَ أَصْنَام قُرَيْش صَنَم كَانَ يُقَال لهُ: هُبَل، مَنْصُوب عَلى بِئْر دَاخِل الكَعْبَة، توضَع الهَدَايَا وَأَمْوَال الكَعْبَة فِيهِ، وكَانَ عِنْده سَبْعَة أَزْلام مَكْتُوب فِيهَا مَا يَتَحَاكَمُونَ فِيهِ مِمَّا أَشْكَل عَليْهِمْ، فَمَا خَرَجَ لهُمْ مِنْهَا رَجَعُوا إِليْهِ وَلمْ

---

(١) صحيح: موقوف على عمر، أخرجه عبد الرزاق في «مسنده» (٨٦١٤).

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢٨٢٥)، والترمذي (١٤٨١)، والنسائي (٤٤٠٨)، وابن ماجه (٣١٨٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٨٢٧).

يَعْدِلُوا عَنْهُ. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا دَخَلَ الكَعْبَةَ، وَجَدَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ مُصَوَّرَيْنِ فِيهَا، وَفِي أَيْدِيهِمَا الأَزْلَامُ، فَقَالَ: «قَاتَلَهُمُ اللهُ، لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا أَبَدًا»[١].

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ سُرَاقَةَ بْنَ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، لَمَّا خَرَجَ فِي طَلَبِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ، وَهُمَا ذَاهِبَانِ إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِرَيْنِ، قَالَ: فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلَامِ، هَلْ أَضُرُّهُمْ أَمْ لَا؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ: لَا تَضُرُّهُمْ، قَالَ: فَعَصَيْتُ الأَزْلَامَ وَاتَّبَعْتُهُمْ، ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَقْسَمَ بِهَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، كُلُّ ذَلِكَ يَخْرُجُ الَّذِي يَكْرَهُ: لَا تَضُرُّهُمْ، وكان كَذَلِكَ، وَكَانَ سُرَاقَةُ لَمْ يُسْلِمْ إِذْ ذَاكَ، ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ رَقَبَةَ، عَنْ عَبْدِ المَلِكِ ابْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَنْ يَلِجَ الدَّرَجَاتِ مَنْ تَكَهَّنَ أَوْ اسْتَقْسَمَ أَوْ رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ طَائِرًا»[٢]. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ قَالَ: هِيَ سِهَامُ العَرَبِ، وَكِعَابُ فَارِسَ وَالرُّومِ، كَانُوا يَتَقَامَرُونَ بها. وَهَذَا الَّذِي ذُكِرَ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي الأَزْلَامِ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ لِلْقِمَارِ -فِيهِ نَظَرٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الاسْتِخَارَةِ تَارَةً، وَفِي القِمَارِ أُخْرَى، وَاللهُ أَعْلَمُ. فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ فرق بين هذه وَبَيْنَ القِمَارِ، وَهُوَ المَيْسِرُ فَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أَيْ: تَعَاطِيهِ فِسْقٌ وَغَيٌّ وَضَلَالٌ وَجَهَالَةٌ وَشِرْكٌ. وَقَدْ أَمَرَ اللهُ المُؤْمِنِينَ إِذَا تَرَدَّدُوا فِي أُمُورِهِمْ أَنْ يَسْتَخِيرُوهُ، بِأَنْ يَعْبُدُوهُ، ثُمَّ يَسْأَلُوهُ الخِيَرَةَ فِي الأَمْرِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ، كَمَا رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَالبُخَارِيُّ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ طُرُقٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي المَوَالِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ المُنْكَدِرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ وَيَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ -وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ- خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ، وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي؛ فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»[٣]. لَفْظُ أَحْمَدَ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ أَبِي المَوَالِي. وَقَوْلُهُ ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: يَئِسُوا أَنْ يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَالسُّدِّيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ. وَعَلَى هَذَا المَعْنَى يَرِدُ الحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[٤].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ أَنَّهُمْ يَئِسُوا مِنْ مُشَابَهَةِ المُسْلِمِينَ، لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ المُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ المُخَالِفَةِ لِلشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، لِهَذَا قَالَ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَثْبُتُوا فِي مُخَالَفَةِ الكُفَّارِ، وَلَا يَخَافُوا أَحَدًا إِلَّا اللهَ فَقَالَ:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٦٠١، ٣٣٥٢)، وأبو داود (٣٠٢٧).

(٢) حسن: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٦) إلى الطبراني وابن مردويه، وأخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٢١٠)، والدارقطني في «العلل» (٦/ ٢١٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٢٦).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١١٦٢، ٦٣٨٣)، وأبو داود (١٥٣٨).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨١٢)، والترمذي (١٩٣٧).

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ أَيْ: لا تَخَافُوهُمْ فِي مُخَالَفَتِكُمْ إِيَّاهُمْ، وَاخْشَوْنِي، أَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ، وَأُبِدْهُمْ، وَأُظْفِرْكُمْ بِهِمْ، وَأَشْفِ صُدُورَكُمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلكُمْ فَوْقَهمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

وَقَوْله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَم الله تَعَالى عَلَى هَذِهِ الأُمَّة، حَيْثُ أَكْمَل تَعَالى لَهُمْ دِينهمْ، فَلا يَحْتَاجُونَ إلى دِين غَيْره، ولا إلى نَبِيٍّ غَيْر نَبِيِّهِمْ، صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ، وَلِهَذَا جَعَلَهُ الله تَعَالى خَاتِم الأَنْبِيَاء، وَبَعَثَهُ إلى الإِنْس وَالجِنّ، فَلا حَلال إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلا حَرَام إِلَّا مَا حَرَّمَهُ، وَلا دِين إِلَّا مَا شَرَّعَهُ، وَكُلّ شَيْء أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ حَقّ وَصِدْق لا كَذِب فِيهِ وَلا خُلف، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أَيْ: صِدْقًا فِي الإِخْبَار، وَعَدْلًا فِي الأَوَامِر وَالنَّوَاهِي، فَلَمَّا أَكْمَل لَهُمْ الدِّين تَمَّتْ عَلَيْهِمْ النِّعْمَة. وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... دِينًا﴾ أَيْ: فَارْضَوْهُ أَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّهُ الدِّين الَّذِي أَحَبَّهُ الله وَرَضِيَهُ، وَبَعَثَ بِهِ أَفْضَل الرُّسُل الكِرَام، وَأَنْزَل بِهِ أَشْرَف كُتُبه.

وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحة، عَنْ ابْن عَبَّاس: قَوْله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وَهُوَ الإِسْلام أَخْبَرَ الله نَبِيّه ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ قد أَكْمَل لَهُمْ الإِيمَان، فَلا يَحْتَاجُونَ إلى زِيَادَة أَبَدًا، وَقَدْ أَتَمَّهُ الله فَلا يَنْقُصهُ أَبَدًا، وَقَدْ رَضِيَهُ الله فَلا يَسْخَطهُ أَبَدًا. وَقَال أَسْبَاط عَنْ السُّدِّيّ: نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة يَوْم عَرَفَة، فَلمْ يَنْزِل بَعْدهَا حَلال وَلا حَرَام، وَرَجَعَ رَسُول الله ﷺ فَمَاتَ. قَالتْ أَسْمَاء بِنْت عُمَيْس: حَجَجْت مَعَ رَسُول الله ﷺ تِلكَ الحَجَّة، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِير إِذْ تَجَلَّى لهُ جِبْرِيل، فَمَال رَسُول الله ﷺ عَلى الرَّاحِلة؛ فَلمْ تُطِقْ الرَّاحِلةُ مِنْ ثِقَل مَا عَلَيْهَا مِنْ القُرْآن، فَبَرَكَتْ، فَأَتَيْته فَسَجَّيْت عَلَيْهِ بُرْدًا كَانَ عَلَيَّ. وَقَال ابْن جَرِيج وَغَيْر وَاحِد: مَاتَ رَسُول الله ﷺ بَعْد يَوْم عَرَفَة بِأَحَدٍ وَثَمَانِينَ يَوْمًا، رَوَاهُمَا ابْن جَرِير. ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن وَكِيع، حَدَّثَنَا ابْن فُضَيْل، عَنْ هَارُون بْن عَنْتَرَة، عَنْ أَبِيهِ قَال: لَمَّا نَزَلتْ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وَذَلِكَ يَوْم الحَجّ الأَكْبَر، بَكَى عُمَر، فَقَال لهُ النَّبِيّ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ»؟ قَال: أَبْكَانِي أَنَّا كُنَّا فِي زِيَادَة مِنْ دِيننَا، فَأَمَّا إِذَا كَمُلَ؛ فَإِنَّهُ لمْ يَكْمُل شَيْء إِلَّا نَقَصَ. فَقَال ﷺ: «صَدَقْتَ»[1]. وَيَشْهَد لِهَذَا المَعْنَى الحَدِيث الثَّابِت: «إِنَّ الإِسْلام بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلغُرَبَاء»[2].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن عَوْن، حَدَّثَنَا أَبُو العُمَيْس، عَنْ قَيْس بْن مُسْلم، عَنْ طَارِق بْن شِهَاب، قَال: جَاءَ رَجُل مِنْ اليَهُود إلى عُمَر بْن الخَطَّاب، فَقَال: يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَة فِي كِتَابِكُمْ لوْ عَليْنَا مَعْشَر اليَهُود نَزَلتْ؛ لاتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْم عِيدًا. قَال: وَأَيّ آيَة؟ قَال: قَوْله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فَقَال عُمَر: وَالله إِنِّي لأَعْلم اليَوْم الَّذِي نَزَلتْ عَلى رَسُول الله ﷺ، وَالسَّاعَة الَّتِي نَزَلتْ فِيهَا عَلى رَسُول الله ﷺ، نزلت عَشِيَّة عَرَفَة فِي يَوْم جُمُعَة[3]. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ عَنْ الحَسَن بْن الصَّبَّاح، عَنْ جَعْفَر بْن عَوْن بِهِ. وَرَوَاهُ أَيْضًا مُسْلم وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ طُرُق عَنْ قَيْس بْن مُسْلم به. وَلفْظ البُخَارِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة، مِنْ طَرِيق سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ قَيْس، عَنْ طَارِق قَال: قَالتْ اليَهُود لِعُمَرَ: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَة، لوْ نَزَلتْ فِينَا لاتَّخَذْنَاهَا عِيدًا. فَقَال عُمَر: إِنِّي لأَعْلم حِين أُنْزِلتْ، وَأَيْنَ أُنْزِلتْ، وَأَيْنَ رَسُول الله ﷺ حَيْثُ أُنْزِلتْ يَوْم عَرَفَة، وَإِنَّا وَالله بِعَرَفَة. قَال سُفْيَان: وَأَشُكّ -كَانَ يَوْم الجُمُعَة أَمْ لا. ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآيَة.

وَشَكّ سُفْيَانَ رَحِمَهُ اللهُ، إِنْ كَانَ فِي الرِّوَايَة فَهُوَ تَوَرُّعٌ، حَيْثُ شَكَّ هَل أَخْبَرَهُ شَيْخُهُ بِذَلِكَ أَمْ لا؟ وَإِنْ كَانَ شَكًّا فِي كَوْن الوُقُوف فِي حَجَّة الوَدَاع كَانَ يَوْم جُمُعَة؛ فَهَذَا مَا إِخَالهُ يَصْدُر عَنْ الثَّوْرِيّ رَحِمَهُ اللهُ، فَإِنَّ هَذَا أَمْر مَعْلُوم

(١) مرسل: أخرجه ابن جرير (٦/ ٨٠) بسند مرسل.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٨٦).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٠٧، ٤٦٠٦)، ومسلم (٣٠١٧).

مَقْطُوع بِهِ، لمْ يَخْتَلف فِيهِ أَحَد مِنْ أَصْحَاب المَغَازِي وَالسِّيَر، وَلا مِنْ الفُقَهَاء، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي ذَلِكَ أَحَادِيث مُتَوَاتِرَة، لا يُشَكّ فِي صِحَّتهَا، وَاللهِ أَعْلمُ. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيث مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ عُمَر.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة، أَخْبَرَنَا رَجَاء بْن أَبِي سَلمَة، أَخْبَرَنَا عُبَادَةُ بْن نُسَيّ، أَخْبَرَنَا أَمِيرنَا إِسْحَاق -قَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: هُوَ إِسْحَاق بْن خَرَشَة-، عَنْ قَبِيصَة -يَعْنِي: ابْن ذؤَيْب- قَال: قَال كَعْب: لوْ أَنَّ غَيْر هَذِهِ الأُمَّة نَزَلتْ عَليْهِمْ هَذِهِ الآيَة، لنَظَرُوا اليَوْم الَّذِي أُنْزِلتْ فِيهِ عَليْهِمْ، فَاتَّخَذُوهُ عِيدًا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ. فَقَال عُمَر: أَيّ آيَة يَا كَعْبُ؟ فَقَال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فَقَال عُمَر: قَدْ عَلمْت اليَوْم الَّذِي أُنْزِلتْ، وَالمَكَان الَّذِي أُنْزِلتْ فِيهِ، نَزَلتْ فِي يَوْم الجُمُعَةِ، وَيَوْم عَرَفَة، وَكِلاهُمَا بِحَمْدِ اللهِ لنَا عِيدٌ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كريب، حَدَّثَنَا قَبِيصَة، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ عَمَّار -هُوَ مَوْلى بَنِي هَاشِم- أَنَّ ابْن عَبَّاس قَرَأَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ فَقَال يَهُودِيّ: لوْ نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة عَليْنَا لاتَّخَذْنَا يَوْمهَا عِيدًا. فَقَال ابْن عَبَّاس: فَإِنَّهَا نَزَلتْ فِي يَوْم عِيدَيْنِ اثْنَيْنِ: يَوْم عِيد وَيَوْم جُمُعَة. وَقَال ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن كَامِل، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن هَارُون، حَدَّثَنَا يَحْيَى بن الحِمَّانِيّ، حَدَّثَنَا قَيْس بْن الرَّبِيع، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن سَلْمَان، عَنْ أَبِي عُمَر البَزَّار، عَنْ ابن الحَنَفِيّة، عَنْ عَليّ قَال: نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة عَلى رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِم عَشِيَّة عَرَفَة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر إِسْمَاعِيل بْن عَمْرو السَّكُونِيّ، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا ابْن عَيَّاش، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن قَيْس السَّكُونِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان عَلى المِنْبَر يَنْتَزِع بِهَذِهِ الآيَة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، فَقَال: نَزَلتْ فِي يَوْم عَرَفَة، فِي يَوْم جُمُعَة. وَرَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ، مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ عُمَر بْن مُوسَى ابْن وجيه، عَنْ قَتَادَة، عَنْ الحَسَن، عَنْ سَمُرَة قَال: نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ يَوْم عَرَفَة وَرَسُول اللهِ ﷺ وَاقِف عَلى المَوْقِف. فَأَمَّا مَا رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن مَرْدُوَيْهِ وَالطَّبَرَانِيّ مِنْ طَرِيق ابْن لهِيعَة، عَنْ خَالد بْن أَبِي عِمْرَان، عَنْ حَنَش بْن عَبْد اللهِ الصَّنْعَانِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: وُلدَ نَبِيكُمْ ﷺ يَوْم الاثْنَيْنِ، وَخَرَجَ مِنْ مَكَّة يَوْم الاثْنَيْنِ، وَدَخَل المَدِينَة يَوْم الاثْنَيْنِ، وَفَتَحَ بَدْرًا يَوْم الاثْنَيْنِ، وَأُنْزِلتْ سُورَة المَائِدَة يَوْم الاثْنَيْنِ، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وَرُفِعَ الذِّكْر يَوْم الاثْنَيْنِ[1]. فَإِنَّهُ أَثَر غَرِيب، وَإِسْنَاده ضَعِيف. وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد حَدَّثَنَا مُوسَى بْن دَاوُدَ، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، عَنْ خَالد بْن أَبِي عِمْرَان، عَنْ حَنَش الصَّنْعَانِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: وُلدَ النَّبِيّ ﷺ يَوْم الاثْنَيْنِ، وَاسْتُنْبِئَ يَوْم الاثْنَيْنِ، وَخَرَجَ مُهَاجِرًا مِنْ مَكَّة إِلى المَدِينَة يَوْم الاثْنَيْنِ، وَقَدِمَ المَدِينَة يَوْم الاثْنَيْنِ، وَتُوُفِّيَ يَوْم الاثْنَيْنِ، وَوَضَعَ الحَجَر الأَسْوَد يَوْم الاثْنَيْنِ. هَذَا لفْظ أَحْمَدَ، وَلمْ يَذْكُر نُزُول المَائِدَة يَوْم الاثْنَيْنِ، فَاللهُ أَعْلمُ. وَلعَلَّ ابْن عَبَّاس أَرَادَ أَنَّهَا نَزَلتْ يَوْم عِيدَيْنِ اثْنَيْنِ، كَمَا تَقَدَّمَ فَاشْتَبَهَ عَلى الرَّاوِي، وَاللهُ أَعْلمُ. وَقَال ابْن جَرِير: وَقَدْ قِيل ليْسَ ذَلكَ بِيَوْمٍ مَعْلُوم عِنْد النَّاس، ثُمَّ رَوَى مِنْ طَرِيق العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يَقُول: ليْسَ بذلك بِيَوْمٍ مَعْلُوم عِنْد النَّاس، قَال: وَقَدْ قِيل: إِنَّهَا نَزَلتْ عَلى رَسُول اللهِ ﷺ فِي مَسِيره إِلى حَجَّة الوَدَاع. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ طَرِيق أَبِي جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس.

قُلت: وَقَدْ رَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ، مِنْ طَرِيق أَبِي هَارُون العَبْدِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، أَنَّهَا نَزَلتْ عَلى رَسُول اللهِ ﷺ يَوْم غَدِير خُمّ حِينَ قَال لعَليّ: **«مَنْ كُنْت مَوْلاهُ، فَعَليٌّ مَوْلاهُ»**[2]. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَفِيهِ: أَنَّهُ اليَوْم الثَّامِن عَشَرَ مِنْ ذِي الحِجَّة، يَعْنِي: مَرْجِعه عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْ حَجَّة الوَدَاع. وَلا يَصِحّ هَذَا وَلا هَذَا، بَل الصَّوَاب الَّذِي لا شَكَّ فِيهِ وَلا مِرْيَة،

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٨٤)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢٣٧) بسند ضعيف، فيه ابن لهيعة: ضعيف.
(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٨٤، ١١٨)، والحاكم (٣/ ١٢٦)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ١٦)، و«الصغير» (١/ ١١٩)، وأبو يعلى (١/ ٤٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٢٣).

أَنَّهَا أُنْزِلتْ يَوْم عَرَفَة، وَكَانَ يَوْم جُمُعَة، كَمَا رَوَى ذَلِكَ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الخَطَّاب وَعَلِيّ بن أَبِي طَالب، وَأَوَّل مُلُوك الإسْلام مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان، وَتُرْجُمَانُ القُرْآن عَبْد الله بْن عَبَّاس، وَسَمُرَة بْن جُنْدَب ﷺ، وَأَرْسَلهُ الشَّعْبِيّ وَقَتَادَة ابْن دِعَامَة وَشَهْر بْن حَوْشَب وَغَيْر وَاحِد مِنْ الأَئِمَّة وَالعُلَمَاء. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير الطَّبَرِيّ رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَوْله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيْ: فَمَنْ احْتَاجَ إِلَى تَنَاوُل شَيْء مِنْ هَذِهِ المُحَرَّمَات الَّتِي ذَكَرَهَا الله تَعَالَى لِضَرُورَةٍ أَلْجَأَتْهُ إِلَى ذَلِكَ؛ فَلهُ تَنَاوُل ذلك، وَالله غَفُور رَحِيم لهُ، لأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلم حَاجَة عَبْده المُضْطَرّ، وَافْتِقَاره إِلَى ذَلِكَ، فَيَتَجَاوَز عَنْهُ وَيَغْفِر لهُ، وَفِي المُسْنَد وَصَحِيح ابْن حِبَّان عَنْ ابْن عُمَر مَرْفُوعًا قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الله يُحِبّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَته، كَمَا يَكْرَه أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَته**»[1]، لَفْظ ابْن حِبَّان. وَفِي لَفْظ لأَحْمَد: «**مَنْ لَمْ يَقْبَل رُخْصَة الله كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الإِثْم مِثْل جِبَال عَرَفَة**»[2]. وَلِهَذَا قَالَ الفُقَهَاء: قَدْ يَكُون تَنَاوُل المَيْتَة وَاجِبًا فِي بَعْض الأَحْيَان، وَهُوَ مَا إِذَا خَافَ عَلَى مُهْجَته التلف، وَلَمْ يَجِد غَيْرهَا، وَقَدْ يَكُون مَنْدُوبًا، وَقَدْ يَكُون مُبَاحًا، بِحَسَبِ الأَحْوَال، وَاخْتَلَفُوا هَل يَتَنَاوَل مِنْهَا قَدْر مَا يَسُدّ بِهِ الرَّمَق؛ أَوْ لهُ أَنْ يَشْبَع، أَوْ يَشْبَع وَيَتَزَوَّد؟ عَلَى أَقْوَال كَمَا هُوَ مُقَرَّر فِي كِتَاب الأَحْكَام، وَفِيمَا إِذَا وَجَدَ مَيْتَة وَطَعَامَ الغَيْر أَوْ صَيْدًا وَهُوَ مُحْرِمٌ، هَل يَتَنَاوَل المَيْتَة، أَوْ ذَلِكَ الصَّيْد، وَيَلْزَمهُ الجَزَاء، أَوْ ذَلِكَ الطَّعَام، وَيَضْمَن بَدَلهُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: هُمَا قَوْلانِ لِلشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْط جَوَاز تَنَاوُل المَيْتَة أَنْ يَمْضِي عَلَيْهِ ثَلاثَةُ أَيَّام لا يَجِد طَعَامًا، كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمهُ كَثِير مِنْ العَوَامّ وَغَيْرهِمْ، بَل مَتَى اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ جَازَ لهُ.

وَقَدْ قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلِم، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيّ، حَدَّثَنَا حَسَّان بْن عَطِيَّة، عَنْ أَبِي وَاقِد اللَّيْثِيّ، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ إِنَّا بِأَرْضٍ تُصِيبنَا بِهَا المَخْمَصَة، فَمَتَى تَحِلّ لَنَا بِهَا المَيْتَة؟ فَقَالَ: «**إِذَا لَمْ تَصْطَبِحُوا، وَلَمْ تَغْتَبِقُوا، وَلَمْ تَحْتَفِئُوا بِهَا بَقْلا، فَشَأْنكُمْ بِهَا**»[3]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد مِنْ هَذَا الوَجْه، وَهُوَ إِسْنَاد صَحِيح عَلَى شَرْط الصَّحِيحَيْنِ، وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ عَبْد الأَعْلَى بْن وَاصِل، عَنْ مُحَمَّد بْن القَاسِم الأَسَدِيّ، عَنْ الأَوْزَاعِيّ بِهِ. لكِنْ رَوَاهُ بَعْضهمْ عَنْ الأَوْزَاعِيّ، عَنْ حَسَّان بْن عَطِيَّة، عَنْ مُسْلم بْن يَزِيد، عَنْ أَبِي وَاقِد بِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ رَوَاهُ عَنْ الأَوْزَاعِيّ، عَنْ حَسَّان، عَنْ مَرْثَد أَوْ أَبِي مَرْثَد، عَنْ أَبِي وَاقِد بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ هَنَّاد بْن السَّرِيّ، عَنْ عِيسَى بْن يُونُس، عَنْ حَسَّان، عَنْ رَجُل قَدْ سُمِّيَ لهُ فَذَكَرَهُ، وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ هَنَّاد، عَنْ ابْن المُبَارَك، عن الأوزاعي، عَنْ حَسَّان مُرْسَلًا. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة، عَنْ ابْن عَوْن قَال: وَجَدْت عِنْد الحَسَن كِتَاب سَمُرَة، فَقَرَأْته عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيهِ: وَيُجْزِئ مِنْ الاضْطِرَار غَبُوقٌ أَوْ صَبُوحٌ.

حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا هُشَيْم، عَنْ الخُصَيْب بْن زَيْد التَّمِيمِيّ، حَدَّثَنَا الحَسَن أَنَّ رَجُلًا سَأَل النَّبِيّ ﷺ فَقَال: مَتَى يَحِلّ الحَرَام؟ قَال: فَقَال: «**إِلَى مَتَى يَرْوَى أَهْلك مِنْ اللَّبَن أَوْ تَجِيء مِيرَتهمْ**»[4].

حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا سَلمَة، عَنْ ابْن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي عُمَر بْن عَبْد الله بْن عُرْوَة، عَنْ جَدّه عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، عَنْ جَدَّته أَنَّ رَجُلًا مِنْ الأَعْرَاب أَتَى النَّبِيّ ﷺ يَسْتَفْتِيه فِي الَّذِي حَرَّمَ الله عَلَيْهِ، وَالَّذِي أَحَلَّ لهُ، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «**يَحِلّ لك الطَّيِّبَات، وَيَحْرُم عَلَيْك الخَبَائِث، إلا أَنْ تَفْتَقِر إِلَى طَعَام لا يحل لك، فَتَأْكُل مِنْهُ حَتَّى تَسْتَغْنِي**

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ١٠٨)، وابن حبان (٦/ ٤٥١) من حديث ابن عمر، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٨٥).

(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٢/ ٧١)، والطبراني في «الأوسط» (٥/ ١٢)، وابن الجعد (١/ ٢٦٥) من حديث ابن عمر، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣٨١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨٤٤).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨) بسند منقطع، فحسان بن عطية لم يسمع من أبي واقد.

(٤) **مرسل**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٨٧) بسند مرسل. وهو من مراسيل الحسن البصري.

عَنْهُ». فَقَال الرَّجُل: وَمَا فَقْرِي الَّذِي يُحِلّ لِي، وَمَا غِنَاي الَّذِي يُغْنِينِي عَنْ ذَلكَ؟ فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «إِذَا كُنْت ترجو نتاجاً، فتبلَّغ بلحُومِ ماشيتِك إلى نتاجِك، أو كنت تَرْجُو غنى تَطْلُبهُ فتَبَلَّغ مِنْ ذَلكَ شَيْئًا؛ فَأَطْعِمْ أَهْلَك مَا بَدَا لَك حَتَّى تَسْتَغْنِي عَنْهُ». فَقَال الأَعْرَابِيّ: مَا غِنَاي الَّذِي أَدَعُهُ إِذَا وَجَدْته؟ فَقَال ﷺ: «إِذَا أَرْوَيت أَهْلَك غَبُوقًا مِنْ اللَّيْل، فَاجْتَنِبْ مَا حَرَّمَ الله عَلَيْك مِنْ طَعَام، وأما مَالك؛ فَإِنَّهُ مَيْسُور كُلّه، لَيْسَ فِيهِ حَرَام»[1]. وَمَعْنَى قَوْله: «مَا لَمْ تَصْطَبِحُوا» يَعْنِي بِهِ الغَدَاء، «وَمَا لَمْ تَغْتَبِقُوا» يَعْنِي: بِهِ العَشَاء، «أَوْ تَحْتَفِئُوا بَقْلا فَشَأْنَكُمْ بِهَا» فَكُلُوا مِنْهَا. وَقَال ابْن جَرِير: يُرْوَى هَذَا الحَرْف -يَعْنِي قَوْله: «أَوْ تَحْتَفِئُوا»- عَلَى أَرْبَعَة أَوْجُه: «تَحْتَفِئُوا» بِالهَمْزَةِ، وَ«تَحْتَفِيُوا» بِتَخْفِيفِ اليَاء وَالحَاء، وَ«تَحْتَفُّوا» بِتَشْدِيدِ الفَاء، وَ«تَحْتَفُوا» بِالحَاءِ، وَبِالتَّخْفِيفِ، وَيَحْتَمِل الهَمْز، كَذَا ذكره فِي التَّفْسِير.

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا هَارُون بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا الفَضْل بْن دُكَيْن، حَدَّثَنَا عُقْبَة بْن وَهْب بْن عُقْبَة العَامِرِيّ، سَمِعْت أَبِي يُحَدِّث عَنْ الفُجَيْع العَامِرِيّ، أَنَّهُ أَتَى رَسُول الله ﷺ فَقَال: مَا يَحِلّ لنَا مِنْ المَيْتَة؟ قَال: «مَا طَعَامكُمْ؟» قُلنَا: نَصْطَبِح وَنَغْتَبِق. قَال أَبُو نُعَيْم: فَسَّرَهُ لِي عُقْبَة: قَدَح غُدْوَة، وَقَدَح عَشِيَّة، قَال: ذَاكَ وَأَبِي الجُوعُ، وَأَحَلَّ لهُمْ المَيْتَة عَلى هَذِهِ الحَال[2]. تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ، وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا يَصْطَبِحُونَ وَيَغْتَبِقُونَ شَيْئًا لا يَكْفِيهِمْ، فَأَحَلَّ لهُمْ المَيْتَة لتَمَامِ كِفَايَتِهِمْ، وَقَدْ يَحْتَجّ بِهِ مَنْ يَرَى جَوَاز الأَكْل مِنْهَا؛ حَتَّى يَبْلُغ حَدّ الشِّبَع، وَلا يَتَقَيَّد ذَلكَ بِسَدِّ الرَّمَق، وَالله أَعْلَمُ.

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا حَمَّاد، حَدَّثَنَا سِمَاك، عَنْ جَابِر بن سَمُرَة: أَنَّ رَجُلًا نَزَل الحَرَّة وَمَعَهُ أَهْلُهُ وَوَلدُهُ، فَقَال لهُ رَجُل: إِنَّ نَاقَةً لِي ضَلَّتْ؛ فَإِنْ وَجَدْتهَا فَأَمْسِكْهَا، فَوَجَدَهَا، وَلمْ يَجِد صَاحِبهَا، فَمَرِضَتْ، فَقَالتْ لهُ امْرَأَته: انْحَرْهَا، فَأَبَى، فَنَفَقَتْ، فَقَالتْ لهُ امْرَأَته: اسْلُخْهَا حَتَّى نُقَدِّد شَحْمهَا وَلحْمهَا فَنَأْكُلهُ، فقَال: حَتَّى أَسْأَل رَسُول الله ﷺ فَأَتَاهُ فَسَأَلهُ، فَقَال: «هَل عِنْدك غِنًى يُغْنِيك؟» قَال: لا، قَال: «فَكُلُوهَا» قَال: فَجَاءَ صَاحِبهَا فَأَخْبَرَهُ الخَبَر، فَقَال: هَلَّا كُنْت نَحَرْتهَا؟ قَال: اسْتَحْيَيْت مِنْك[3]. تَفَرَّدَ بِهِ، وَقَدْ يَحْتَجّ بِهِ مَنْ يُجَوِّز الأَكْل وَالشِّبَع وَالتَّزَوُّد مِنْهَا مُدَّة يَغْلب عَلى ظَنِّهِ الاحْتِيَاجُ إِليْهَا، وَالله أَعْلَمُ.

وَقَوْله: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ أَيْ: غير مُتَعَاطٍ لمَعْصِيَةِ الله، فَإِنَّ الله قَدْ أَبَاحَ ذَلكَ لهُ، وَسَكَتَ عَنْ الآخَر، كَمَا قَال فِي سُورَة البَقَرَة: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾. وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَة مَنْ يَقُول بِأَنَّ العَاصِي بِسَفَرِهِ لا يَتَرَخَّص بِشَيْءٍ مِنْ رُخَصِ السَّفَر؛ لأَنَّ الرُّخَص لا تُنَال بِالمَعَاصِي، وَالله أَعْلَمُ.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالى مَا حَرَّمَهُ فِي الآيَة المُتَقَدِّمَة مِنْ الخَبَائِث الضَّارَّة لمُتَنَاوِلهَا، إِمَّا فِي بَدَنه أَوْ فِي دِينه أَوْ فِيهِمَا، واستثنى ما اسْتَثْنَاهُ فِي حَال الضَّرُورَة، كَمَا قَال: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ قَال بَعْدهَا: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾. كَمَا فِي سُورَة الأَعْرَاف فِي صِفَة مُحَمَّد ﷺ: أَنَّهُ يُحِلُّ لهُمْ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَليْهِمْ الخَبَائِث. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حدثنا أبو زرعة، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عَبْد الله بْن بُكَيْر، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن لهِيعَة، حَدَّثَنِي عَطَاء بْن دِينَار، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ عَدِيّ بْن حَاتِم وَزَيْد بْن مُهَلهَل الطَّائِيَّيْنِ، سَأَلا رَسُول الله ﷺ

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٦/ ٨٧) بسند ضعيف فيه عمر بن عبد الله بن عروة، قال الحافظ: مقبول.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٨١٧)، وابن أبي شيبة (٩٠٦) بسند ضعيف، فيه وهب بن عقبة، قال الحافظ: مستور.

(٣) حسن: أخرجه أبو داود (٣٨١٦)، وأحمد (٥/ ١٠٤)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فَقَالا: يَا رَسُول الله، قَدْ حَرَّمَ الله المَيْتَة، فَمَاذَا يَحِلّ لَنَا مِنْهَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾[1]، قَال سَعِيد: يَعْنِي الذَّبَائِح الحَلال الطَّيِّبَة لَهُمْ. وَقَال مُقَاتِل: الطَّيِّبَات مَا أُحِلَّ لَهُمْ مِنْ كُلّ شَيْء أَنْ يُصِيبُوهُ، وَهُوَ الحَلال مِنَ الرِّزْق. وَقَدْ سُئِلَ الزُّهْرِيّ عَنْ شُرْب البَوْل لِلتَّدَاوِي، فَقَال: لَيْسَ هُوَ مِنَ الطَّيِّبَات. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال ابْن وَهْب: سُئِلَ مَالِك عَنْ بَيْع الطِّين الَّذِي يَأْكُلهُ النَّاس؛ فَقَال: لَيْسَ هُوَ مِنَ الطَّيِّبَات.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أَيْ: أُحِلَّ لَكُمْ الذَّبَائِح الَّتِي ذُكِرَ اسْم الله عَلَيْهَا، وَالطَّيِّبَات مِنْ الرِّزْق، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا صِدْتُمُوهُ بِالجَوَارِحِ، وَهِيَ مِنَ الكِلاب وَالفُهُود وَالصُّقُور وَأَشْبَاهها، كَمَا هُوَ مَذْهَب الجُمْهُور مِنَ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وَالأَئِمَّة، وَمِمَّنْ قَال ذَلِكَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾: وَهُنَّ الكِلاب المُعَلَّمَة، وَالبَازِي، وَكُلّ طَيْر يُعَلَّم لِلصَّيْدِ، وَالجَوَارِح يَعْنِي: الكِلاب الضَّوَارِي، وَالفُهُود وَالصُّقُور وَأَشْبَاهها. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، ثُمَّ قَال: وَرُوِيَ عَنْ خَيْثَمَة وَطَاوُس وَمُجَاهِد وَمَكْحُول وَيَحْيَى بْن أَبِي كَثِير نَحْو ذَلِكَ، وَرُوِيَ عَنْ الحَسَن أَنَّهُ قَال: البَاز وَالصَّقْر مِنْ الجَوَارِح. وَرُوِيَ عَنْ عَلِيّ ابْن الحُسَيْن مِثْله. ثُمَّ رَوَى عَنْ مُجَاهِد أَنَّهُ كَرِهَ صَيْد الطَّيْر كُلّه، وَقَرَأَ قَوْله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾. قَال: وَرُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر نَحْو ذَلِكَ، وَنَقَلَهُ ابْن جَرِير عَنْ الضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ، ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا هَنَّاد، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي زَائِدَة، أَخْبَرَنَا ابْن جُرَيْج، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر قَال: أَمَّا مَا صَادَ مِنْ الطَّيْر البَزَاة وَغَيْرهَا مِنْ الطَّيْر، فَمَا أَدْرَكْت فَهُوَ لَك، وَإِلَّا فَلا تُطْعِمهُ.

قلت: وَالمَحْكِيّ عَنْ الجُمْهُور؛ أَنَّ الصَّيْد بِالطُّيُور كَالصَّيْدِ بِالكِلابِ؛ لأَنَّهَا تُكَلِّب الصَّيْد بِمَخَالِبِهَا، كَمَا تُكَلِّبهُ الكِلاب فَلا فَرْق، وَهُوَ مَذْهَب الأَئِمَّة الأَرْبَعَة وَغَيْرهمْ، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَاحْتَجَّ فِي ذَلِكَ بِمَا رَوَاهُ عَنْ هَنَّاد، حَدَّثَنَا عِيسَى بْن يُونُس، عَنْ مُجَالِد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ عَدِيّ بْن حَاتِم قَال: سَأَلت رَسُول الله ﷺ عَنْ صَيْد البَازِي فَقَال: «**مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَكُل**»[2]. وَاسْتَثْنَى الإِمَام أَحْمَد صَيْد الكَلْب الأَسْوَد؛ لأَنَّهُ عِنْده مِمَّا يَجِب قَتْلُهُ، وَلا يَحِلّ اقْتِنَاؤُهُ، لِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ أَبِي ذَرّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**يَقْطَعُ الصَّلاةَ الحِمَارُ وَالمَرْأَة وَالكَلب الأَسْوَد**». فَقُلْت: مَا بَال الكَلْب الأَسْوَد مِنْ الأَحْمَر؟ فَقَال: «**الكَلب الأَسْوَد شَيْطَان**»[3].

وَفِي الحَدِيث الآخَر أَنَّ رَسُول الله ﷺ أَمَرَ بِقَتْل الكِلاب، ثُمَّ قَال: «**مَا بَالهمْ وَبَال الكِلاب، اقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيم**»[4]. وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الحَيَوَانَات الَّتِي يُصْطَاد بِهِنَّ جَوَارِح مِنْ الجَرْح، وَهُوَ الكَسْب، كَمَا تَقُول العَرَب: فُلان جَرَحَ أَهْله خَيْرًا، أَيْ: كَسَبَهُمْ خَيْرًا، وَيَقُولُونَ: فُلان لا جَارِح لَهُ، أَيْ: لا كَاسِب لَهُ، وَقَال الله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أَيْ: مَا كَسَبْتُمْ مِنْ خَيْر وَشَرّ.

وَقَدْ ذُكِرَ فِي سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة الشَّرِيفَة الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن حَمْزَة، حَدَّثَنَا زَيْد بْن الحُبَاب، حَدَّثَنِي موسى بْن عُبَيْدَة، حَدَّثَنِي أَبَان بْن صَالِح، عَنْ القَعْقَاع بْن حَكِيم، عَنْ سَلمَى أُمّ رَافِع، عَنْ أَبِي رَافِع مَوْلَى رَسُول الله ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ أَمَرَ بِقَتْل الكِلاب، فَقُتِلت، فَجَاءَ النَّاس، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، مَا يَحِلّ لَنَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّة الَّتِي أُمِرت بِقَتْلِهَا؟ فَسَكَتَ، فَأَنْزَل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ

---

(١) **ضعيف الإسناد**: فيه ابن لهيعة: ضعيف.

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٤/ ٤٢٧)، والترمذي (١٤٦٧)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٧٧)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٢٤٨).

(٣) **صحيح**: تقدم.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٠، ١٥٧٠)، وأبو داود (٧٤).

﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآيَة. فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «**إذَا أرْسَل الرَّجُل كَلبه وَسَمَّى فَأمْسَك عَليه فيأكُل مَا لمْ يأكُل**»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ زَيْد بْن الحُبَاب بِإسْنَادِهِ، عَنْ أَبى رَافِع قَال: جَاءَ جِبْرِيل إِلى النَّبِيّ ﷺ لِيَسْتَأْذِن عَليْهِ، فَأَذِنَ لهُ، فَقَال: «**قَدْ أذِنَ لك يَا رَسُول الله، قَال: أجَل، ولكِنَّا لا نَدْخُل بَيْتًا فِيهِ كَلب**». قَال أَبُو رَافِع: فَأَمَرَنِي أَنْ أَقْتُل كُلّ كَلب بِالمَدِينَةِ فقتلت، حَتَّى انْتَهَيْت إِلى امْرَأَة عِنْدهَا كَلب يَنْبَح عَليْهَا، فَتَرَكْته رَحْمَة لهَا ثُمَّ جِئْت إِلى رَسُول الله ﷺ فَأَخْبَرْته، فَأَمَرَنِي فَرَجَعْت إِلى الكَلب فَقَتَلته، فَجَاءُوا فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، مَا يَحِلّ لنَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّة الَّتِي أُمِرْت بِقَتْلهَا؟ قَال: فَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ، قَال: فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾[2]. وَرَوَاهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ أَبَان بْن صَالح بِهِ. وَقَال: صَحِيح وَلمْ يُخَرِّجَاهُ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنَا حَجَّاج، عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ عِكْرِمَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ بَعَثَ أَبَا رَافِع فِي قَتْل الكِلاب، حَتَّى بَلغَ العَوَالِي، فَجَاءَ عَاصِم بْن عَدِيّ وَسَعْد بْن خَيْثَمَةَ وَعُوَيْم بْن سَاعِدَة، فَقَالُوا: مَاذَا أُحِلَّ لنَا يَا رَسُول الله؟ فَنَزَلتْ الآيَة. وَرَوَاهُ الحَاكِم مِنْ طَرِيق سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، وَكَذَا قَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ فِي سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة، أَنَّهُ فِي قَتْل الكِلاب.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون حَالًا مِنْ الضَّمِير فِي ﴿عَلَّمۡتُم﴾، فَيَكُون حَالًا مِنْ الفَاعِل، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون حَالًا مِنْ المَفْعُول، وَهُوَ الجَوَارِح، أَيْ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الجَوَارِح فِي حَال كَوْنِهِنَّ مُكَلِّبَات للصَّيْدِ، وَذَلِكَ أَنْ تَقْتَنِصهُ بِمَخَالِبهَا أَوْ أَظْفَارهَا، فَيُسْتَدَلّ بِذَلِكَ -وَالحَالة هَذِهِ- على أَنَّ الجَارِحة إِذَا قَتَل الصَّيْد بِصَدْمَتِهِ أو بِمِخْلابِهِ وَظُفُره -أَنَّهُ لا يَحِلّ كَمَا هُوَ أَحَد قَوْليْ الشَّافِعِيّ، وَطَائِفَة مِنْ العُلمَاء؛ وَلهَذَا قَال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَرْسَلهُ اسْتَرْسَل، وَإِذَا أَشْلاهُ اسْتَشْلى، وَإِذَا أَخَذَ الصَّيْد أَمْسَكَهُ عَلى صَاحِبه، حَتَّى يَجِيء إِليْهِ، وَلا يُمْسِكهُ لنَفْسِهِ؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾. فَمَتَى كَانَ الجَارِح مُعَلَّمًا، وَأَمْسَكَ عَلى صَاحِبه، وَكَانَ قَدْ ذَكَرَ اسْم الله عَليْهِ وَقْت إِرْسَاله -حَلَّ الصَّيْد، وَإِنْ قَتَلهُ بِالإِجْمَاع.

وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّة بِمِثْل مَا دَلَّتْ عَليْهِ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَدِيّ بْن حَاتِم، قَال: قُلت: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي أُرْسِلُ الكِلاب المُعَلَّمَة، وَأَذْكُر اسْم الله. فَقَال: «**إذَا أرْسَلت كَلبك المُعَلَّم، وذَكَرْت اسْم الله، فَكُل مَا أمْسَك عَليْك**». قُلت: وَإِنْ قَتَلنَ؟ قَال: «**وَإِنْ قَتَلنَ، مَا لمْ يَشْرَكهَا كَلب ليْسَ مِنْهَا؛ فَإِنَّك إنَّمَا سَمَّيْت عَلى كَلبك، وَلمْ تُسَمِّ عَلى غَيْره**». قُلت لهُ: فَإِنِّي أَرْمِي بِالمِعْرَاضِ الصَّيْد فَأُصِيب؟ فَقَال: «**إذَا رَمَيْت بِالمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكُله، وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرْضٍ فَإِنَّهُ وَقِيذ؛ فَلا تَأْكُلهُ**»[3]. وَفِي لفْظ لهُمَا: «**إذَا أرْسَلت كَلبك: فَاذْكُرْ اسْم الله؛ فَإِنْ أَمْسَكَ عَليْك فَأَدْرَكْته حَيًّا فَاذْبَحْهُ، وَإِنْ أدْرَكْته قد قَتَل وَلمْ يَأْكُل مِنْهُ فَكُلهُ، فَإِنَّ أَخْذَ الكَلبِ ذَكَاتُهُ**». وَفِي رِوَايَة لهُمَا: «**فَإِنْ أَكَل فَلا تَأْكُل، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُون أَمْسَكَ عَلى نَفْسه**». فَهَذَا دَليل للجُمْهُورِ، وَهُوَ الصَّحِيح مِنْ مَذْهَب الشَّافِعِيّ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَكَل الكَلب مِنْ الصَّيْد يَحْرُمُ مُطْلقًا، وَلمْ يَسْتَفْصِلُوا كَمَا وَرَدَ بِذَلكَ الحَدِيث، وَحُكِيَ عَنْ طَائِفَة مِنْ السَّلف أَنَّهُمْ قَالُوا: لا يَحْرُم مُطْلقًا.

ذِكْرُ الآثَار بِذَلك: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا هَنَّاد، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ شُعْبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب،

---

(١) **حسن لغيره**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٨٨) فيه موسى بن عبيدة. قال الحافظ: مقبول. وتابعه الحاكم (٢/ ٣١١) من طريق ابن إسحاق وهو مدلس وقد عنعن.

(٢) **حسن لغيره**: أخرجه ابن جرير (٤/ ٤٢٧) بسند جيد.

(٣) **حسن**: تقدم.

قَال: قَال سَلمَان الفَارِسِيّ: كُل، وَإِنْ أَكَل ثُلُثَيْهِ، يَعْنِي الصَّيْد إِذَا أَكَل مِنْهُ الكَلب. وَكَذَا رَوَاهُ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة وَعُمَر بْن عَامِر، عَنْ قَتَادَة. وَكَذَا رَوَاهُ مُحَمَّد بْن زَيْد، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، عَنْ سَلمَان. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير أَيْضًا عَنْ مُجَاهِد بْن مُوسَى، عَنْ يَزِيد، عَنْ حُمَيْد، عَنْ بَكْر بْن عَبْد الله المُزَنِيّ، وَالقَاسِم: أن سَلمَان قَال: إِذَا أَكَل الكَلب فَكُل، وَإِنْ أَكَل ثُلُثَيْهِ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي مَخْرَمَة بْن بُكَيْر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ حُمَيْد بن مَالِك بْن خُثَيم الدُّؤَلِيّ، أَنَّهُ سَأَل سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص عَنْ الصَّيْد يَأْكُل مِنْهُ الكَلب، فَقَال: كُل، وَإِنْ لمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا حِذْيَةٌ، يَعْنِي بَضْعَة. وَرَوَاهُ شُعْبَة، عَنْ عَبْد رَبّه بْن سَعِيد، عَنْ بُكَيْر بْن الأَشَجّ، عَنْ سَعِيد ابْن المُسَيَّب، عَنْ سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص قَال: كُل، وَإِنْ أَكَل ثُلُثَيْهِ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْد الأَعْلى، حَدَّثَنَا دَاوُد، عَنْ عَامِر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: إِذَا أَرْسَلت كَلبك فَأَكَل مِنْهُ، فَإِنْ أَكَل ثُلُثَيْهِ وَبَقِيَ ثُلُثه؛ فَكُلهُ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الأَعْلى، حَدَّثَنَا المُعْتَمِر، قَال: سَمِعْت عَبَيد الله. وَحَدَّثَنَا هَنَّاد، حَدَّثَنَا عَبْدَة، عَنْ عُبَيْد الله بْن عُمَر، عَنْ نَافِع، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر، قَال: إِذَا أَرْسَلت كَلبك المُعَلَّم، وَذَكَرْت اسْم الله، فَكُل مَا أَمْسَكَ عَليْك، أَكَل أَوْ لمْ يَأْكُل. وَكَذَا رَوَاهُ عُبَيْد الله بْن عُمَر وَابْن أَبِي ذِئْب، وَغَيْر وَاحِد عَنْ نَافِع.

فَهَذِهِ الآثَار ثَابِتَة عَنْ سَلمَان وَسَعْد بْن أَبِي وَقَّاص وَأَبِي هُرَيْرَة وَابْن عُمَر، وَهُوَ مَحْكِيّ عَنْ عَلِيّ وَابْن عَبَّاس. وَاخْتُلفَ فِيهِ عَنْ عَطَاء وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَهُوَ قَوْل الزُّهْرِيّ وَرَبِيعَة وَمَالك، وَإِليْهِ ذَهَبَ الشَّافِعِيّ فِي القَدِيم، وَأَوْمَأَ إِليْهِ فِي الجَدِيد. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيق سَلمَان الفَارِسِيّ مَرْفُوعًا، فَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عِمْرَان بْن بَكَّار الكُلاعِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن مُوسَى اللَّاحُونِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن دِينَار -وَهُوَ الطَّاحِيّ- عَنْ أَبِي إِيَاس مُعَاوِيَة ابْن قُرَّة، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، عَنْ سَلمَان الفَارِسِيّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: **«إِذَا أَرْسَل الرَّجُل كَلبه عَلى الصَّيْد، فَأَدْرَكَهُ وَقَدْ أَكَل مِنْهُ؛ فَليَأْكُلْ مَا بَقِيَ»**[1].

ثُمَّ قَال ابْن جَرِير: وَفِي إِسْنَاد هَذَا الحَدِيث نَظَر، وَسَعِيد غَيْر مَعْلُوم لهُ سَمَاع مِنْ سَلمَان، وَالثِّقَات يَرْوُونَهُ مِنْ كَلام سَلمَان غَيْر مَرْفُوع. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ ابْن جَرِير صَحِيح، لكِنْ قَدْ رُوِيَ هَذَا المَعْنَى مَرْفُوعًا مِنْ وُجُوه أُخَر.

فَقَال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مِنْهَال الضَّرِير، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن زُرَيْع، حَدَّثَنَا حَبِيب المُعَلِّم، عَنْ عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، أَنَّ أَعْرَابِيًّا يُقَال لهُ: أَبُو ثَعْلبَة قَال: يَا رَسُول الله، إِنَّ لِي كِلابًا مُكَلَّبَة، فَأَفْتِنِي فِي صَيْدِهَا، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: **«إِنْ كَانَ لكَ كِلابٌ مُكَلَّبَةٌ؛ فَكُل مِمَّا أَمْسَكْنَ عَليْكَ»**. فَقَال: ذَكِيًّا وَغَيْرَ ذَكِيٍّ؟ قَال: **«نعم»**. قَال: وَإِنْ أَكَل مِنْهُ؟ قَال: **«نَعَمْ وَإِنْ أَكَل مِنْهُ»**. فَقَال: يَا رَسُول الله، أَفْتِنِي فِي قَوْسِي. قَال: **«كُل مَا رَدَّتْ عَليْكَ قَوْسُكَ»**. قَال: ذَكِيًّا وَغَيْر ذَكِيّ؟ قَال: وإن تغيب عني؟ قَال: **«وَإِنْ تَغَيَّبَ عَنْكَ مَا لمْ يَضِل، أَوْ تَجِد فِيهِ أَثَرًا غَيْر سَهْمِكَ»**. قَال: أَفْتِنِي فِي آنِيَة المَجُوس إِذَا اضْطُرِرْنَا إِليْهَا، قَال: **«اغْسِلهَا وَكُل فِيهَا»**[2]. هَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد. وَقَدْ أَخْرَجَهُ النَّسَائِيّ. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيق بُسْر بن عبيد الله، عَنْ أَبِي إِدْرِيس الخَوْلانِيّ، عَنْ أَبِي ثَعْلبَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِذَا أَرْسَلت كَلبكَ، وَذَكَرْت اسْم الله، فَكُل وَإِنْ أَكَل مِنْهُ، وَكُل مَا رَدَّتْ عَليْكَ يَدك»**[3]. وَهَذَانِ إِسْنَادَانِ جَيِّدَانِ، وَقَدْ رَوَى الثَّوْرِيّ، عَنْ سِمَاك بْن حَرْب، عَنْ عَدِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَا كَانَ مِنْ كَلب ضَارٍ أَمْسَكَ عَليْكَ فَكُل»** قُلت: وَإِنْ أَكَل؟ قَال: **«نَعَمْ»**. وَرَوَى عَبْد المَلك ابْن حَبِيب، حَدَّثَنَا أَسَد بْن مُوسَى، عَنْ ابْن أَبِي زَائِدَة، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ عَدِيّ بِمِثْلهِ.

---

(١) **ضعيف**: تقدم.

(٢) **حسن**: تقدم.

(٣) **منكر**: أخرجه أبو داود (٢٨٥٢) من حديث أبي ثعلبة الخشني، وقال الألباني: منكر. انظر «ضعيف سنن أبي داود» (٦٠٩).

فَهَذِهِ آثار دَالَّة عَلى أَنَّهُ يُغْتَفَر وَإِنْ أَكَل مِنْهُ الكَلب، وَقَدْ احْتَجَّ بِهَا مَنْ لمْ يُحَرِّم الصَّيْد بِأَكْل الكَلب وَمَا أَشْبَهَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ عَمَّنْ حَكَيْنَاهُ عَنْهُمْ. وَقَدْ تَوَسَّطَ آخَرُونَ فَقَالُوا: إِنْ أَكَل عَقِب مَا أَمْسَكَهُ؛ فَإِنَّهُ يَحْرُم لِحَدِيثِ عَدِيّ بْن حَاتِم، وَلِلعِلَّةِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا النَّبِيّ ﷺ: «فَإِنْ أَكَل فَلا تَأْكُل؛ فَإِنِّي أَخَاف أَنْ يَكُون أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِه». وَأَمَّا إِنْ أَمْسَكَهُ، ثُمَّ انْتَظَرَ صَاحِبه، فَطَال عَلَيْهِ وَجَاعَ، فَأَكَل مِنْهُ لِجُوعِهِ، فَإِنَّهُ لا يُؤَثِّر فِي التَّحْرِيم، وَحَمَلُوا عَلى ذَلِكَ حَدِيث أَبِي ثَعْلَبَة الخُشَنِيّ. وَهَذَا تَفْرِيق حَسَن، وَجَمْع بَيْن الحَدِيثَيْنِ صَحِيح. وَقَدْ تَمَنَّى الأُسْتَاذ أَبُو المَعَالِي الجُوَيْنِيّ فِي كِتَابه النِّهَايَة، أَنْ لوْ فَصَّل مُفَصِّل هَذَا التَّفْصِيل، وَقَدْ حَقَّقَ الله أُمْنِيَّته، وَقَال بِهَذَا القَوْل وَالتَّفْرِيق طَائِفَة مِنْ الأَصْحَاب مِنْهُمْ، وَقَال آخَرُونَ قَوْلًا رَابِعًا فِي المَسْأَلَة، وَهُوَ التَّفْرِقَة بَيْن أَكْل الكَلب، فَيَحْرُم لِحَدِيثِ عَدِيّ، وَبَيْن أَكْل الصُّقُور وَنَحْوهَا فَلا يُحَرِّم، لأَنَّهُ لا يَقْبَل التَّعْلِيم إِلَّا بِالأَكْل.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا أَسْبَاط بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاق الشَّيْبَانِيّ، عَنْ حَمَّاد، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال فِي الطَّيْر: إِذَا أَرْسَلته فَقَتَل فَكُل؛ فَإِنَّ الكَلب إِذَا ضَرَبْته لمْ يَعُدْ، وَإِنَّ تعليم الطَّيْر أَنْ يَرْجِع إِلى صَاحِبه وَلَيْسَ يُضْرَب، فَإِذَا أَكَل مِنْ الصَّيْد وَنَتَفَ الرِّيش فَكُل. وَكَذَا قَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَالشَّعْبِيّ وَحَمَّاد بْن أَبِي سُلَيْمَان. وَقَدْ يُحْتَجّ لِهَؤُلاءِ بِمَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد، حَدَّثَنَا المُحَارِبِيّ، حَدَّثَنَا مُجَالد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ عَدِيّ بْن حَاتِم قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، إِنَّا قَوْم نَصِيد بِالكِلاب وَالبُزَاة، فَمَا يَحِلّ لنَا مِنْهَا؟ قَال: «يَحِلّ لكُمْ مَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الجَوَارِح مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمْ الله، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْم الله عَلَيْهِ». ثُمَّ قَال: «مَا أَرْسَلت مِنْ كَلب وَذَكَرْت اسْم الله عَلَيْهِ؛ فَكُل مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْك». قُلت: وَإِنْ قَتَل؟ قَال: «وَإِنْ قَتَل مَا لمْ يَأْكُل». قُلت: يَا رَسُول الله، وَإِنْ خَالطَتْ كِلابُنَا كِلابًا غَيْرهَا؟ قَال: «فَلا تَأْكُل حَتَّى تَعْلم أَنَّ كَلبك هُوَ الَّذِي أَمْسَكَ». قَال: قُلت: إِنَّا قَوْم نَرْمِي فَمَا يَحِلّ لنَا؟ قَال: «مَا ذَكَرْت اسْم الله عَلَيْهِ وَخَزَقْت؛ فَكُل». فَوَجْه الدَّلالة لهُمْ أَنَّهُ اشْتَرَطَ فِي الكَلب أَنْ لا يَأْكُل، وَلمْ يَشْتَرِط ذَلِكَ فِي البُزَاة، فَدَلَّ عَلى التَّفْرِقَة بَيْنهمَا فِي الحُكْم، وَالله أَعْلمُ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، أَيْ: عِنْد إِرْسَاله، كَمَا قَال النَّبِيّ ﷺ لعَدِيّ بْن حَاتِم: «إِذَا أَرْسَلت كَلبك المُعَلَّم، وَذَكَرْت اسْم الله، فَكُل مَا أَمْسَكَ عَلَيْك». وَفِي حَدِيث أَبِي ثَعْلَبَة المُخَرَّج فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا: «إِذَا أَرْسَلت كَلبك فَاذْكُرْ اسْم الله، وَإِذَا رَمَيْت بِسَهْمِك فَاذْكُرْ اسْم الله»[(1)]. وَلِهَذَا اشْتَرَطَ مَنْ اشْتَرَطَ مِنْ الأَئِمَّة كَالإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ فِي المَشْهُور عَنْهُ: التَّسْمِيَة عِنْد إِرْسَال الكَلب، وَالرَّمْي بِالسَّهْم، لِهَذِهِ الآيَة، وَهَذَا الحَدِيث، وَهَذَا القَوْل هُوَ المَشْهُور عِنْد الجُمْهُور، أَنَّ المُرَاد بِهَذِهِ الآيَة الأَمْر بِالتَّسْمِيَة عِنْد الإِرْسَال، كَمَا قَاله السُّدِّيّ وَغَيْر وَاحد. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يَقُول: إِذَا أَرْسَلت جَارِحك، فَقُل: بِسْم الله، وَإِنْ نَسِيت فَلا حَرَج. وَقَال بَعْض النَّاس: المُرَاد بِهَذِهِ الآيَة الأَمْر بِالتَّسْمِيَة عِنْد الأَكْل، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ عَلَّمَ رَبِيبه عُمَر بْن أَبِي سَلمَة فَقَال: «سَمِّ الله وَكُل بِيَمِينِك، وَكُل مِمَّا يَلِيك»[(2)]. وَفِي صَحِيح البُخَارِيّ عَنْ عَائِشَة أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَنَا حَدِيث عَهْدهمْ بِكُفْر بِلُحْمَان، لا نَدْرِي أَذُكِرَ اسْم الله عَلَيْهَا أَمْ لا؟ فَقَال: «سَمُّوا اللهَ أَنْتُمْ وَكُلُوا»[(3)].

حَدِيث آخَر: وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا هِشَام، عَنْ بُدَيْل، عَنْ عَبْد الله بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر، عَنْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤٧٨)، ومسلم (٩٣٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٦١، ٥٠٦٢، ٥٠٦٣)، ومسلم (٢٠٢٢).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٥٠٧، ٧٣٩٨)، وابن ماجه (٣١٧٤).

عَائِشَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يَأْكُل طَعَامًا فِي سِتَّة نَفَر مِنْ أَصْحَابه، فَجَاءَ أَعْرَابِيّ فَأَكَلَهُ بِلُقْمَتَيْنِ، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَكَرَ اسْمَ الله لَكَفَاكُمْ، فَإِذَا أَكَل أَحَدكُمْ طَعَامًا فَلْيَذْكُرْ اسْم الله، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُر اسْم الله فِي أَوَّله، فَلْيَقُل بِاسْمِ الله أَوَّله وَآخِره»(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ يَزِيد ابْن هَارُون بِهِ. وَهَذَا مُنْقَطِع بَيْن عَبْد الله بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر وَعَائِشَة؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَسْمَع مِنْهَا هَذَا الْحَدِيث، بِدَلِيل مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الوَهَّاب، أَخْبَرَنَا هِشَام يَعْنِي ابْن أَبِي عَبْد الله الدَّسْتُوَائِيّ، عَنْ بُدَيْل، عَنْ عَبْد الله ابْن عُبَيْد بْن عُمَيْر، أَنَّ امْرَأَة مِنْهُمْ يُقَال لَهَا أُمّ كُلْثُوم حَدَّثَتْهُ عَنْ عَائِشَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يَأْكُل طَعَامًا فِي سِتَّة نَفَر مِنْ أَصْحَابه، فَجَاءَ أَعْرَابِيّ جَائِع فَأَكَلَهُ بِلُقْمَتَيْنِ فَقَال: «أَمَا إِنَّهُ لَوْ ذَكَرَ اسْمَ الله لَكَفَاكُمْ، فَإِذَا أَكَل أَحَدكُمْ فَلْيَذْكُرْ اسْم الله، فَإِنْ نَسِيَ اسْم الله فِي أَوَّله فَلْيَقُل: بِاسْمِ الله أَوَّله وَآخِره»(٢). وَرَوَاهُ أَحْمَد أَيْضًا، وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيّ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ هِشَام الدَّسْتُوَائِيّ بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

حَدِيث آخَر: قَال أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا جَابِر بْن صُبْح، حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى ابْن عَبْد الرَّحْمَن الْخُزَاعِيّ، وَصَحِبْته إِلَى وَاسِط فَكَانَ يُسَمِّي فِي أَوَّل طَعَامه، وَفِي آخِر لُقْمَة يَقُول: بِسْم الله أَوَّله وَآخِره، فَقُلْت لَهُ: إِنَّك تُسَمِّي فِي أَوَّل مَا تَأْكُل، أَرَأَيْت قَوْلك فِي آخِر مَا تَأْكُل: بِسْم الله أَوَّله وَآخِره؟ فَقَال: أُخْبِرك عن ذلك إِنَّ جَدِّي أُمَيَّة بْن مَخْشِيّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ سَمِعْته يَقُول: إِنَّ رَجُلًا كَانَ يَأْكُل، وَالنَّبِيّ يَنْظُر، فَلَمْ يُسَمِّ، حَتَّى كَانَ فِي آخِر طَعَامه، قَال: بِسْم الله أَوَّله وَآخِره، فَقَال: النَّبِيّ ﷺ: «وَالله مَا زَال الشَّيْطَان يَأْكُل مَعَهُ حَتَّى سَمَّى، فَلَمْ يَبْقَ شَيْء فِي بَطْنه حَتَّى قَاءَهُ»(٣). وَهكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث جَابِر بْن صُبْح الرَّاسِبِيّ أَبِي بِشْر الْبَصْرِيّ، وَثَّقَهُ ابْن مَعِين وَالنَّسَائِيّ، وَقَال أَبُو الْفَتْح الأَزْدِيّ: لا تَقُوم بِهِ حُجَّة.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حدثنا أبو معاوية، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ خَيْثَمَة، عَنْ أَبِي حُذَيْفَة -قَال أَبُو عَبْد الرَّحْمَن عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد: وَاسْمه سَلَمَة بْن الْهَيْثَم بْن صُهَيْب مِنْ أَصْحَاب ابْن مَسْعُود- عَنْ حُذَيْفَة قَال: كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيّ عَلَى طَعَام لَمْ نَضَع أَيْدِينَا، حَتَّى يَبْدَأ رَسُول الله فَيَضَع يَده، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ طَعَامًا مَا، فَجَاءَتْ جَارِيَة كَأَنَّمَا تُدْفَع، فَذَهَبَتْ تَضَع يَدهَا فِي الطَّعَام، فَأَخَذَ رَسُول الله ﷺ بِيَدِهَا، وَجَاءَ أَعْرَابِيّ كَأَنَّمَا يُدْفَع، فَذَهَبَ يَضَع يَده فِي الطَّعَام، فَأَخَذَ رَسُول الله ﷺ بِيَدِهِ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَان يَسْتَحِلّ الطَّعَام إِذَا لَمْ يُذْكَر اسْم الله عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَة لِيَسْتَحِلّ بِهَا، فَأَخَذْت بِيَدِهَا، وَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيّ لِيَسْتَحِلّ بِهِ، فَأَخَذْت بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ يَده فِي يَدِي مَعَ يَدَيْهِمَا»(٤)، يَعْنِي: الشَّيْطَان. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِم وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيّ من حَدِيث الأَعْمَش بِهِ.

حَدِيث آخَر: رَوَى مُسْلِم وَأَهْل السُّنَن إِلَّا التِّرْمِذِيّ، مِنْ طَرِيق ابْن جُرَيْج، عَنْ أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «إِذَا دَخَل الرَّجُل بَيْته، فَذَكَرَ الله عِنْد دُخُوله، وَعِنْد طَعَامه، قَال الشَّيْطَان: لَا مَبِيت لَكُمْ وَلَا عَشَاء، وَإِذَا دَخَل فَلَمْ يَذْكُر اسْم الله عِنْد دُخُوله، قَال الشَّيْطَان: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيت، فَإِذَا لَمْ يَذْكُر اسْم الله عِنْد طَعَامه، قَال: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيت وَالْعَشَاء»(٥). لَفْظ أَبِي دَاوُدَ.

---

(١) حسن بشواهده: أخرجه أحمد (٦/ ١٤٣)، وابن ماجه (٣٢٦٤)، وأبو داود (٣٧٦٧)، والترمذي (١٨٥٨)، وأبو يعلى (٧١٥٣) من حديث عائشة.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٢٦٤) من حديث عائشة، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٧٦٨)، وأحمد (٤/ ٣٣٦) من حديث أمية بن مخشي، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦١١٣).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠١٧)، وأبو داود (٣٧٦٩).

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠١٨)، وأبو داود (٣٧٦٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن وحشي بن حرب بن وحشي ابن حرب عن أبيه، عن جده أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إنا نأكل وما نشبع. قال: «**فلعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله؛ يبارك لكم فيه**»[1]. ورواه أبو داود وابن ماجه من طريق الوليد بن مسلم.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما أحله لهم من الطيبات، قال بعده: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين، من اليهود والنصارى، فقال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وإبراهيم النخعي والسدي ومقاتل بن حيان: يعني: ذبائحهم. وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلال للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه تعالى وتقدس. وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مغفل قال: دُلِّي بجراب من شحم يوم خيبر، فاحتضنته وقلت: لا أعطي اليوم من هذا أحدًا، والتفت فإذا النبي ﷺ يتبسم[2]. فاستدل به الفقهاء؛ على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة، وهذا ظاهر، واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة؛ على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم؛ كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم، فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ قالوا: وهذا ليس من طعامهم، واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، وفي ذلك نظر؛ لأنه قضية عين، ويحتمل أن يكون شحمًا يعتقدون حله، كشحم الظهر والحوايا ونحوهما، والله أعلم. وأجود منه في الدلالة ما ثبت في الصحيح؛ أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاة مصلية، وقد سموا ذراعها، وكان يعجبه الذراع، فتناوله، فنهش منه نهشة، فأخبره الذراع أنه مسموم، فلفظه، وأثر ذلك السم في ثنايا رسول الله ﷺ، وفي أبهره، وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور، فمات، فقتل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زينب، فقتلت ببشر بن البراء[3]. ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه، ولم يسألهم، هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا؟

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ أضافه يهودي على خبز شعير، وإهالة سنخة. يعني: ودكًا زنخًا[4].

وقال ابن أبي حاتم: قرئ على العباس بن الوليد بن مزيد، أخبرنا محمد بن شعيب، أخبرني النعمان بن المنذر، عن مكحول قال: أنزل الله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ ثم نسخه الرب ﷻ، ورحم المسلمين فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ فنسخها بذلك، وأحل طعام أهل الكتاب. وفي هذا الذي قاله مكحول رحمه الله نظر؛ فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب إباحة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه؛ لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم، وهم متعبدون بذلك، ولهذا لم يبح ذبائح من عداهم من أهل الشرك، ومن شابههم لأنهم لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٣٢٨٦) من حديث وحشي، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٥٧).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٥٣، ٤٢١٤، ٥٥٠٨)، ومسلم (١٧٧٢).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣١١٩، ٤٢٤٩، ٥٧٧٧)، وأبو داود (٤٥٠٩).
(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٢١٠).

يَأْكُلُونَ المَيْتَة بِخِلافِ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، وَمَنْ شَاكَلَهُمْ مِنَ السَّامِرَةِ وَالصَّابِئَة، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِدِينِ إِبْرَاهِيم وَشِيث وَغَيْرِهمَا مِنَ الأَنْبِيَاء عَلَى أَحَد قَوْلَيْ العُلَمَاء، وَنَصَارَى العَرَب، كَبَنِي تَغْلب وَتَنُوخ وَبَهْرَاء وَجُذَام وَلَخْم وَعَامِلة، وَمَنْ أَشْبَهَهُمْ، لا تُؤْكَل ذَبَائِحهمْ عِنْد الجُمْهُور.

وَقَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا ابْن عُليَّة، عَنْ أَيُّوب، عَنْ مُحَمَّد بْن عُبَيْدَة قَال: قَال عَلِيّ: لا تَأْكُلُوا ذَبَائِح بَنَى تَغْلب؛ لأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَمَسَّكُونَ مِنَ النَّصْرَانِيَّة بِشُرْبِ الخَمْر. وَكَذَا قَال غَيْر وَاحِد مِنْ الخَلف وَالسَّلف. وَقَال سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة: عَنْ قَتَادَة، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب وَالحَسَن: أَنَّهُمَا كَانَا لا يَرَيَانِ بَأْسًا بِذَبِيحَةِ نَصَارَى بَنِي تَغْلب. وَأَمَّا المَجُوس؛ فَإِنَّهُمْ؛ وَإِنْ أُخِذَتْ مِنْهُمْ الجِزْيَة تَبَعًا وَإِلحَاقًا لأَهْل الكِتَاب؛ فَإِنَّهُمْ لا تُؤْكَل ذَبَائِحهمْ، وَلا تُنْكَح نِسَاؤُهُمْ، خِلافًا لأَبِي ثَوْر إِبْرَاهِيم بْن خَالد الكَلبِيّ، أَحَد الفُقَهَاء، مِنْ أَصْحَاب الشَّافِعِيّ وَأَحْمَد بْن حَنْبَل. وَلَمَّا قَال ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ عَنْهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِ الفُقَهَاء ذَلِكَ، حَتَّى قَال عَنْهُ الإِمَام أَحْمَد: أَبُو ثَوْر كَاسْمِهِ، يَعْنِي فِي هَذِهِ المَسْأَلة، وَكَأَنَّهُ تَمَسَّكَ بِعُمُوم حَدِيث رُوِيَ مُرْسَلا عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «**سُنُّوا بِهِمْ سُنَّة أَهْل الكِتَاب**»[1]. وَلَكِنْ لَمْ يَثْبُت بِهَذَا اللَّفْظ، وَإِنَّمَا الَّذِي فِي صَحِيح البُخَارِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف أَنَّ رَسُول الله ﷺ أَخَذَ الجِزْيَة مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ[2]. وَلَوْ سُلِّمَ صِحَّةُ هَذَا الحَدِيث، فَعُمُومه مَخْصُوص بِمَفْهُوم هَذِهِ الآيَة: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾. فَدَلَّ بِمَفْهُومِهِ -مَفْهُوم المُخَالفَةِ- عَلَى أَنَّ طَعَامَ مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ أَهْل الأَدْيَانِ لا يَحِلُّ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أَيْ: وَيَحِلّ لكُمْ أَنْ تُطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحكُمْ، وَليْسَ هَذَا إِخْبَارًا عَنْ الحُكْم عِنْدهمْ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُون خَبَرًا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الأَكْل مِنْ كُلّ طَعَام ذُكِرَ اسْم الله عَلَيْهِ، سَوَاء كَانَ مِنْ أَهْل مِلَّتهمْ، أَوْ غَيْرهَا. وَالأَوَّل أَظْهَرُ فِي المَعْنَى، أَيْ: وَلكُمْ أَنْ تُطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحكُمْ، كَمَا أَكَلتُمْ مِنْ ذَبَائِحهمْ، وَهَذَا مِنْ بَاب المُكَافَأَة وَالمُقَابَلة وَالمُجَازَاة، كَمَا أَلبَسَ النَّبِيّ ﷺ ثَوْبه لعَبْدِ الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول حِين مَاتَ، وَدَفَنَهُ فِيهِ. قَالُوا: لأَنَّهُ كَانَ قَدْ كَسَا العَبَّاس حِين قَدِمَ المَدِينَة ثَوْبه، فَجَازَاهُ النَّبِيّ ﷺ ذَلكَ بذلك[3]، فَأَمَّا الحَدِيث الَّذِي فِيهِ: «**لا تَصْحَبْ إِلا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُل طَعَامَكَ إِلا تَقِيّ**»[4]. فَمَحْمُول عَلَى النَّدْب وَالاسْتِحْبَاب، وَالله أَعْلمُ.

وَقَوْله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ أَيْ: وَأُحِلَّ لكُمْ نِكَاح الحَرَائِر العَفَائِف مِنْ النِّسَاء المُؤْمِنَات، وَذَكَرَ هَذَا تَوْطِئَة لمَا بَعْده، وَهُوَ قَوْله تَعَالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فَقِيل: أَرَادَ بِالمُحْصَنَاتِ: الحَرَائِر دُون الإِمَاء. حَكَاهُ ابْن جَرِير عَنْ مُجَاهِد، وَإِنَّمَا قَال مُجَاهِد: المُحْصَنَات: الحَرَائِر، فَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون أَرَادَ مَا حَكَاهُ عَنْهُ، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون أَرَادَ بِالحُرَّةِ: العَفِيفَة، كَمَا قَاله مجاهد فِي الرِّوَايَة الأُخْرَى عَنْهُ، وَهُوَ قَوْل الجُمْهُور هَهُنَا وَهُوَ الأَشْبَه؛ لئَلَّا يَجْتَمِع فِيهَا أَنْ تَكُون ذِمِّيَّة، وَهِيَ مَعَ ذَلكَ غَيْر عَفِيفَة، فَيَفْسُد حَالهَا بِالكُلِّيَّةِ، وَيَتَحَصَّلُ زَوْجهَا عَلَى مَا قِيل فِي المَثَل: «**حَشَفًا وَسُوء كِيلَة**». وَالظَّاهِر مِنْ الآيَة؛ أَنَّ المُرَاد بِالمُحْصَنَاتِ: العَفِيفَات عَنْ الزِّنَا، كَمَا قَال تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾. ثُمَّ اخْتَلفَ المُفَسِّرُونَ وَالعُلَمَاء فِي قَوْله تَعَالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هَل يَعُمّ كُلّ كِتَابِيَّة عَفِيفَة، سَوَاء كَانَتْ حُرَّة أَوْ أَمَة؟ حَكَاهُ ابْن جَرِير عَنْ طَائِفَة مِنْ السَّلف مِمَّنْ فَسَّرَ المُحْصَنَة بِالعَفِيفَةِ، وَقِيل: المُرَاد بِأَهْل الكِتَاب هَهُنَا:

(١) **ضعيف**: أخرجه البزار (٣/ ٢٦٤)، وعبد الرزاق (٦/ ٦٨)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٥) بسند منقطع لأن محمد بن علي لم يلق عمر ولا عبد الرحمن، وضعفه الألباني في «غاية المرام» (٤٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢١٥٧)، وأبو داود (٣٠٤٣).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٢٦٩)، ومسلم (٢٧٧٤).

(٤) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

الإِسْرَائِيلِيَّات، وَهُوَ مَذْهَب الشَّافِعِيّ، وَقِيل: الْمُرَاد بِذَلِكَ: الذِّمِّيَّات دُون الحَرْبِيَّات، لِقَوْلِهِ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾. وَقَدْ كَانَ عَبْد الله بْن عُمَر لا يَرَى التَّزْوِيج بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وَيَقُول: لا أَعْلَمُ شِرْكًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُول: إِنَّ رَبَّهَا عِيسَى، وَقَدْ قَال الله تَعَالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ الآيَة. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حَاتِم بْن سُلَيْمَان الْمُؤَدِّب، حَدَّثَنَا القَاسِم بْن مَالِك -يَعْنِي الْمُزَنِيّ- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن سُمَيْع، عَنْ أَبِي مَالِك الغِفَارِيّ، عن ابن عباس قَال: لما نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ قَال: فَحُجِزَ النَّاس عَنْهُنَّ حَتَّى نَزَلتْ الآيَة الَّتِي بَعْدهَا: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فَنَكَحَ النَّاس نِسَاء أَهْل الكِتَاب. وَقَدْ تَزَوَّجَ جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة مِنْ نِسَاء النَّصَارَى، وَلمْ يَرَوْا بِذَلكَ بَأْسًا، أَخْذًا بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فَجَعَلُوا هَذِهِ مُخَصِّصَة للآيَة الَّتِي فِي سُورَة البَقَرَة: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ إِنْ قِيل بِدُخُول الكِتَابِيَّات فِي عُمُومهَا، وَإِلَّا فَلا مُعَارَضَة بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا؛ لأَنَّ أَهْل الكِتَاب قَدْ انْفَصَلُوا فِي ذِكْرهِمْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ فِي غَيْر مَوْضِع، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ الآيَة.

وَقَوْله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: مُهُورهنَّ، أَيْ: كَمَا هُنَّ مُحْصَنَات عَفَائِف، فَابْذُلُوا لهُنَّ الْمُهُور عَنْ طِيب نَفْس، وَقَدْ أَفْتَى جَابِر بْن عَبْد الله وَعَامِر الشَّعْبِيّ وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَالحَسَن البَصْرِيّ -بِأَنَّ الرَّجُل إِذَا نَكَحَ امْرَأَة، فَزَنَتْ قَبْل دُخُوله بِهَا أَنَّهُ يُفَرَّق بَيْنه وبينهَا، وَتَرُدُّ عَليْهِ مَا بَذَل لهَا مِنْ الْمَهْر، رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْهُمْ.

وَقَوْله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ فَكَمَا شَرَطَ الإِحْصَان فِي النِّسَاء -وَهِيَ العِفَّة عَنْ الزِّنَا- كَذَلكَ شَرَطَهَا فِي الرِّجَال، وَهُوَ أَنْ يَكُون الرَّجُل مُحْصَنًا عَفِيفًا، وَلهَذَا قَال: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ وَهُمْ: الزُّنَاة الَّذِينَ لا يَرْتَدِعُونَ عَنْ مَعْصِيَة، وَلا يَرُدُّونَ أَنْفُسهمْ عَمَّنْ جَاءَهُمْ، ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ أَيْ: ذَوِي العَشِيقَات، اللَّاتِي لا يَفْعَلُونَ إِلَّا مَعَهُنَّ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَة النِّسَاء سَوَاء، وَلهَذَا ذَهَبَ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللَّهُ إِلى أَنَّهُ لا يَصِحّ نِكَاح الْمَرْأَة البَغِيّ حَتَّى تَتُوب، وَمَا دَامَتْ كَذَلكَ لا يَصِحّ تَزْوِيجهَا مِنْ رَجُل عَفِيف، وَكَذَلكَ لا يَصِحّ عِنْده عَقْد الرَّجُل الفَاجِر عَلى عَفِيفَة حَتَّى يَتُوب، وَيُقْلع عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ الزِّنَا، لهَذِهِ الآيَة، وَللحَدِيث الآخر: «**لا يَنْكِح الزَّانِي الْمَجْلُود إِلا مِثْله**»[1]. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا سُليْمَان بْن حَرْب، حَدَّثَنَا أَبُو هِلال، عَنْ قَتَادَة، عَنْ الحَسَن قَال: قَال عُمَر بْن الخَطَّاب: لقَدْ هَمَمْت أَنْ لا أَدَع أَحَدًا أَصَاب فَاحِشَة فِي الإِسْلام أَنْ يَتَزَوَّج مُحْصَنَة، فَقَال لهُ أُبَيّ بْن كَعْب: يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ الشِّرْك أَعْظَمُ مِنْ ذَلكَ، وَقَدْ يُقْبَل مِنْهُ إِذَا تَاب. وَسَيَأْتِي الكَلام عَلى هَذِهِ الْمَسْأَلة مُسْتَقْصًى عِنْد قَوْله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَلهَذَا قَال تَعَالى هَهُنَا: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه أبوداود (٢٠٥٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٤٤٤).

قَال كَثِيرُونَ مِنَ السَّلف فِي قَوْله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معناه: وَأَنْتُمْ مُحْدِثُونَ. وَقَال آخَرُونَ: إِذَا قُمْتُمْ مِنَ النَّوْمِ إِلَى الصَّلاة، وَكِلاهُمَا قَرِيب. وَقَال آخَرُونَ: بَل المَعْنَى أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ، فَالآيَة آمِرَة بِالوُضُوءِ عِنْد القِيَام إِلَى الصَّلاة، وَلكِنْ فِي حَقّ المُحْدِث على سبيل الإيجاب، وَفِي حَقّ المُتطَهِّر على سبيل النَّدْب والاستحباب، وَقَدْ قِيل: إِنَّ الأَمْر بِالوُضُوءِ لِكُلِّ صَلاة كَانَ وَاجِبًا فِي ابْتِدَاء الإِسْلام ثُمَّ نُسِخَ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَلقَمَة بن مَرْثَد عَنْ سُلَيمان بْن بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَال: كَانَ النَّبِيّ ﷺ يَتَوَضَّأ عِنْد كُلّ صَلاة، فَلَمَّا كَانَ يَوْم الفَتْح تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ، وَصَلَّى الصَّلوَات بِوُضُوءٍ وَاحِد، فَقَال لهُ عُمَر: يَا رَسُول الله، إِنَّك فَعَلت شَيْئًا لمْ تَكُنْ تَفْعَلهُ! قَال: «إِنِّي عَمْدًا فَعَلته يَا عُمَر»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلم وَأَهْل السُّنَن مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَلقَمَة بْن مَرْثَد، وَوَقَعَ فِي سُنَن ابْن مَاجَه، عَنْ سُفْيَان، عَنْ مُحَارِب بْن دِثَار -بَدَل عَلقَمَة بْن مَرْثَد- كِلاهُمَا عَنْ سُليمان بْن بُرَيْدَةَ بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبَّاد بْن مُوسَى، أَخْبَرَنَا زِيَاد بن عَبْد الله بْن الطُّفَيْل البَكَّائِيّ، حَدَّثَنَا الفَضْل ابْن المُبَشِّر، قَال: رَأَيْت جَابِر بْن عَبْد الله يُصَلِّي الصَّلوَات بِوُضُوءٍ وَاحِد، فَإِذَا بَال أَوْ أَحْدَثَ تَوَضَّأَ، وَمَسَحَ بِفَضْل طَهُوره الخُفَّيْنِ، فَقُلت: أَبَا عَبْد الله، شَيْء تَصْنَعهُ بِرَأْيِك؟ قَال: بَل رَأَيْت النَّبِيّ ﷺ يَصْنَعهُ، فَأَنَا أَصْنَعهُ؛ كَمَا رَأَيْت رَسُول الله يَصْنَعهُ[2]. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ عَنْ إِسْمَاعِيل بْن تَوْبَة، عَنْ زِيَاد البَكَّائِيّ به.

وَقَال أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ ابْن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن حَبَّانَ الأَنْصَارِيّ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله بْن عُمَر، قَال: قلت له: أَرَأَيْت وُضُوء عَبْد الله بْن عُمَر لِكُلِّ صَلاة، طَاهِرًا كَانَ أَوْ غَيْر طَاهِر؛ عَمَّنْ هُوَ؟ قَال: حَدَّثَتْهُ أَسْمَاء بِنْت زَيْد بْن الخَطَّاب، أَنَّ عَبْد الله بْن حَنْظَلَة بن أبي عامر ابْن الغَسِيل، حَدَّثَهَا أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ أَمَرَ بِالوُضُوءِ لِكُلِّ صَلاة، طَاهِرًا كَانَ أَوْ غَيْر طَاهِر، فَلَمَّا شَقَّ ذَلِكَ عَلى رسول الله ﷺ أُمِرَ بِالسِّوَاكِ عِنْد كُلّ صَلاة، وَوُضِعَ عَنْهُ الوُضُوء إِلَّا مِنْ حَدَث، فَكَانَ عَبْد الله يَرَى أَنَّ بِهِ قُوَّة عَلى ذَلِكَ، كَانَ يَفْعَلهُ حَتَّى مَاتَ[3]. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ مُحَمَّد بْن عَوْف الحِمْصِيّ، عَنْ أَحْمَد بْن خَالد الذَّهْبِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن حَبَّانَ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله بْن عُمَر، ثُمَّ قَال أَبُو دَاوُدَ: وَرَوَاهُ إِبْرَاهِيم بْن سَعْد، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، فَقَال: عُبَيْد الله بْن عُمَر. يَعْنِي: كَمَا تَقَدَّمَ فِي رِوَايَة الإِمَام أَحْمَد. وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ إِسْنَاد صَحِيح، وَقَدْ صَرَّحَ ابْن إِسْحَاق فِيهِ بِالتَّحْدِيثِ وَالسَّمَاع مِنْ مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن حَبَّانَ، فَزَال مَحْذُور التَّدْلِيس، لكِنْ قَال الحَافِظ ابْن عَسَاكِر: رَوَاهُ سَلَمَة بْن الفَضْل، وَعَلِيّ بْن مُجَاهِد، عَنْ ابْن إِسْحَاق، عَنْ مُحَمَّد بْن طَلحَة بْن يَزِيد بْن رُكَانَةَ، عَنْ مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن حَبَّانَ بِهِ، وَالله أَعْلمُ. وَفِي فِعْل ابْن عُمَر هَذَا، وَمُدَاوَمَته عَلى إِسْبَاغ الوُضُوء لِكُلِّ صَلاة، دَلالة عَلى اسْتِحْبَاب ذَلِكَ، كَمَا هُوَ مَذْهَب الجُمْهُور.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْن يَحْيَى بْن أَبِي زَائِدَة، حَدَّثَنَا أَزْهَر، عَنْ ابْن عَوْن، عَنْ ابْن سِيرِينَ، أَنَّ الخُلفَاء كَانُوا يَتَوَضَّئُونَ لِكُلِّ صَلاة. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، سَمِعْت مَسْعُود بْن عَلِيّ الشَّيْبَانِيّ، سَمِعْت عِكْرِمَة يَقُول: كَانَ عَلِيّ رضي الله عنه يَتَوَضَّأ عِنْد كُلّ صَلاة، وَيَقْرَأ هَذِهِ الآيَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآيَة. وَحَدَّثَنَا ابْن المُثَنَّى، حَدَّثَنِي وَهْب بْن جَرِير، أَخْبَرَنَا شُعْبَة، عَنْ عَبْد المَلك بْن مَيْسَرَة، عَنْ النَّزَّال بْن سَبْرَة قَال: رَأَيْت عَلِيًّا صَلَّى الظُّهْر، ثُمَّ قَعَدَ للنَّاسِ فِي الرَّحْبَة، ثُمَّ أُتِيَ بِمَاء

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٧)، وأبو داود (١٧٢)، والترمذي (٦١).
(٢) **صحيح لغيره**: أخرجه ابن ماجه (٥١١).
(٣) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٧، ٤٨)، وأحمد (٥/ ٢٢٥)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨).

فَغَسَل وَجْهه وَيَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ وَرِجْلَيْهِ، وَقَال: هَذَا وُضُوء مَنْ لَمْ يُحْدِث. وَحَدَّثَنِي يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا هُشَيْم، عنْ مُغِيرَة، عَنْ إِبْرَاهِيم؛ أَنَّ عَلِيًّا اكْتَال مِنْ حَبّ، فَتَوَضَّأَ وُضُوءًا فِيهِ تَجَوُّزٌ، فَقَال: هَذَا وُضُوء مَنْ لَمْ يُحْدِث. وَهَذِهِ طُرُق جَيِّدَة عَنْ عَلِيّ، يُقَوِّي بَعْضهَا بَعْضًا.

وَقَال ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنَا ابْن بَشار، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس قَال: تَوَضَّأَ عُمَر بْن الخَطَّاب وُضُوءًا فِيهِ تَجَوُّز خَفِيفًا، فَقَال: هَذَا وُضُوء مَنْ لَمْ يُحْدِث، وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح. وَقَال مُحَمَّد بْن سِيرِينَ: كَانَ الخُلَفَاء يَتَوَضَّئُونَ لكُلِّ صَلاة. وَأَمَّا مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ، عَنْ أَبِي هِلال، عَنْ قَتَادَة، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، أَنَّهُ قَال: الوُضُوء مِنْ غَيْر حَدَث اعْتِدَاء، فَهُوَ غَرِيب عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، ثُمَّ هُوَ مَحْمُول عَلَى أَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ وُجُوبه فَهُوَ مُعْتَدٍ، وَأَمَّا مَشْرُوعِيَّته اسْتِحْبَابًا، فَقَدْ دَلَّتْ السُّنَّة عَلَى ذَلِكَ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن ابْن مَهْدِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو بْن عَامِر الأَنْصَارِيّ، سَمِعْت أَنَس بْن مَالك يَقُول: كَانَ النَّبِيّ ﷺ يَتَوَضَّأ عِنْد كُلّ صَلاة، قَال: قُلت: فَأَنْتُمْ كَيْف كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَال: كُنَّا نُصَلِّي الصَّلَوَات كُلّهَا بِوُضُوءٍ وَاحِد، مَا لَمْ نُحْدِث[1]. وَقَدْ رَوَاهُ البُخَارِيّ وَأَهْل السُّنَن مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ عَمْرو بْن عَامِر به.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد البَغْدَادِيّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن مَنْصُور، عَنْ هُرَيْم، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن زِيَاد، -هُوَ الأَفْرِيقِيّ- عَنْ أَبِي غُطَيْف، عَنْ ابْن عُمَر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ تَوَضَّأَ عَلى طُهْرٍ كَتَبَ لهُ عَشر حَسَنَات»**[2]. وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيث عِيسَى بْن يُونُس، عَنْ الأَفْرِيقِيّ، عَنْ أَبِي غُطَيْف، عَنْ ابْن عُمَر فَذَكَرَهُ، وَفِيهِ قِصَّة. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث الأَفْرِيقِيّ بِهِ نَحْوه. وَقَال التِّرْمِذِيّ: وَهُوَ إِسْنَاد ضَعِيف.

وَقَال ابْن جَرِير: وَقَدْ قَال قَوْم: إِنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ إِعْلامًا مِنْ الله، أَنَّ الوُضُوء لا يَجِب إِلَّا عِنْد القِيَام إِلى الصَّلاة، دُون غَيْرهَا مِنْ الأَعْمَال، وَذَلِكَ لأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا أَحْدَثَ، امْتَنَعَ مِنْ الأَعْمَال كُلّهَا حَتَّى يَتَوَضَّأ. حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن هِشَام، عَنْ سُفْيَان، عَنْ جَابِر، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي بَكْر ابْن عَمْرو بْن حَزْم، عَنْ عَبْد الله بْن عَلقَمَة بْن الفغواء، عَنْ أَبِيهِ قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا أَرَاد البَوْل؛ نُكَلِّمهُ وَلا يُكَلِّمنَا، وَنُسَلِّم عَلَيْهِ فَلا يَرُدّ عَلَيْنَا، حَتَّى نَزَلتْ آيَة الرُّخْصَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾[3] الآيَة. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ مُحَمَّد بْن مُسْلم، عَنْ أَبِي كُرَيْب بِهِ نَحْوه. وَهُوَ حَدِيث غَرِيب جِدًّا، وَجَابِر هَذَا هُوَ ابْن يَزِيد الجُعْفِيّ ضَعَّفُوهُ. وَقَال أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا مُسَدَّد، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا أَيُّوب، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي مُلَيْكَة، عَنْ عَبْد الله بْن عَبَّاس أَنَّ رَسُول الله ﷺ خَرَجَ مِنْ الخَلاء، فَقُدِّمَ إِلَيْهِ طَعَام، فَقَالُوا: أَلا نَأْتِيك بِوَضُوءٍ؟ فَقَال: **«إِنَّمَا أُمِرْت بِالوُضُوءِ إِذَا قُمْت إِلى الصَّلاة»**[4]. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ أَحْمَد بْن مَنِيع، وَالنَّسَائِيُّ، عَنْ زِيَاد بْن أَيُّوب، عَنْ إِسْمَاعِيل وَهُوَ ابْن عُلَيَّة به. وَقَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن. وَرَوَى مُسْلم، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ سَعِيد بْن الحُوَيْرِث، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كُنَّا عِنْد النَّبِيّ ﷺ فَأَتَى الخَلاء، ثُمَّ إِنَّهُ رَجَعَ، فَأُتِيَ بِطَعَامٍ، فَقِيل: يَا رَسُول الله؛ أَلا تَتَوَضَّأ؟ فَقَال، **«لِمَ أَأُصَلِّي فَأَتَوَضَّأَ؟!»**[5].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢١٤)، وأبو داود (١٧١)، والترمذي (٦٠).

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٤/ ٤٥٠)، وأبو داود (٦٢)، والترمذي (٥٩، ٦١)، وابن ماجه (٥١٢). وقال الترمذي عقب ذكره للحديث: وهذا إسناد ضعيف. وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٣٩).

(٣) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٦/ ١١٥) بسند ضعيف، فيه جابر الجعفي: وهو ضعيف.

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٧٦٠)، والترمذي (١٨٤٧)، والنسائي (١٣٢) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٣٧).

(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم (٣٧٤).

وَقَوْله: ﴿فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾، قَدْ اسْتَدَلَّ طَائِفَة مِنْ الْعُلَمَاء بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ عَلَى وُجُوب النِّيَّة فِي الْوُضُوء؛ لأَنَّ تَقْدِير الْكَلَام: إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاة فَاغْسِلُوا وُجُوهكُمْ لهَا، كَمَا تَقُول الْعَرَب: إِذَا رَأَيْت الأَمِير فَقُمْ؛ أَيْ لَهُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيث: «**الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[1]. وَيُسْتَحَبّ قَبْل غَسْل الْوَجْه، أَنْ يَذْكُر اسْم الله تَعَالَى عَلَى وُضُوئِهِ، لِمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيث مِنْ طُرُق جَيِّدَة عَنْ جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لا وُضُوء لِمَنْ لَمْ يَذْكُر اسْم الله عَلَيْهِ**»[2]. وَيُسْتَحَبّ أَنْ يَغْسِل كَفَّيْهِ قَبْل إِدْخَالهمَا فِي الإِنَاء، وَيَتَأَكَّد ذَلِكَ عِنْد الْقِيَام مِنْ النَّوْم؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدكُمْ مِنْ نَوْمه؛ فَلا يُدْخِل يَده فِي الإِنَاء، قَبْل أَنْ يَغْسِلهَا ثَلاثًا؛ فَإِنَّ أَحَدكُمْ لا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَده**»[3]. وَحَدُّ الْوَجْهِ عِنْد الْفُقَهَاء مَا بَيْنَ مَنَابِت شَعْر الرَّأْس، وَلا اعْتِبَار بِالصَّلَع وَلا بِالْغَمَمِ إِلَى مُنْتَهَى اللَّحْيَيْنِ وَالذَّقَن طُولًا، وَمِنْ الأُذُن إِلَى الأُذُن عَرْضًا، وَفِي النَّزَعَتَيْنِ وَالتَّحْذِيف خِلاف، هَلْ هُمَا مِنْ الرَّأْس أَوْ الْوَجْه؟ وَفِي الْمُسْتَرْسِل مِنْ اللِّحْيَة عَنْ مَحَلّ الْفَرْض قَوْلانِ:

أَحَدهمَا: أَنَّهُ يَجِب إِفَاضَة الْمَاء عَلَيْهِ لأَنَّهُ تَقَع بِهِ الْمُوَاجَهَة. وَرُوِيَ فِي حَدِيث أَنَّ النَّبِيّ ﷺ رَأَى رَجُلًا مُغَطِّيًا لِحْيَته فَقَالَ: «**اكْشِفْهَا فَإِنَّ اللِّحْيَة مِنْ الْوَجْه**»[4]. وَقَالَ مُجَاهِد: هِيَ مِنْ الْوَجْه أَلا تَسْمَع إِلَى قَوْل الْعَرَب فِي الْغُلام إِذَا نَبَتَتْ لِحْيَته: طَلَعَ وَجْهُهُ. وَيُسْتَحَبّ لِلْمُتَوَضِّئِ أَنْ يُخَلِّل لِحْيَته إِذَا كَانَتْ كَثَّة. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ عَامِر بْن شَقِيق بن جمرة، عن أبي وائل قَالَ: رَأَيْت عُثْمَان تَوَضَّأ... فَذَكَرَ الْحَدِيث، قَالَ: وَخَلَّلَ اللِّحْيَة ثَلاثًا حِين غَسَلَ وَجْهه، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْت رَسُول الله ﷺ فَعَلَ الَّذِي رَأَيْتُمُونِي فَعَلت[5]. وروَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق، وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. وَحَسَّنَهُ الْبُخَارِيّ. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا أَبُو تَوْبَة الرَّبِيع بْن نَافِع، حَدَّثَنَا أَبُو الْمَلِيح، حَدَّثَنَا الْوَلِيد بْن زَوْرَان، عَنْ أَنَس بْن مَالِك أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ إِذَا تَوَضَّأَ أَخَذَ كَفًّا مِنْ مَاء فَأَدْخَلهُ تَحْت حَنَكه يُخَلِّل بِهِ لِحْيَته، وَقَالَ: «**هَكَذَا أَمَرَنِي بِهِ رَبِّي** ﷻ»[6]. تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مِنْ غَيْر وَجْه، عَنْ أَنَس. قَالَ الْبَيْهَقِيّ: وَرُوِّينَا فِي تَخْلِيل اللِّحْيَة عَنْ عَمَّار وَعَائِشَة وَأُمّ سَلَمَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ عَنْ عَلِيّ وَغَيْره. وَرَوَيْنَا فِي الرُّخْصَة فِي تَرْكه عَنْ ابْن عُمَر وَالْحَسَن بْن عَلِيّ، ثُمَّ عَنْ النَّخَعِيّ وَجَمَاعَة مِنْ التَّابِعِينَ. وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيّ مِنْ غَيْر وَجْه، فِي الصِّحَاح وَغَيْرهَا، أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَوَضَّأَ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، فَاخْتَلَفَ الأَئِمَّة فِي ذَلِكَ: هَلْ هُمَا وَاجِبَانِ فِي الْوُضُوء وَالْغُسْل، كَمَا هُوَ مَذْهَب أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللهُ؟ أَوْ مُسْتَحَبَّانِ فِيهِمَا، كَمَا هُوَ مَذْهَب الشَّافِعِيّ وَمَالِك. لِمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ أَهْل السُّنَن، وَصَحَّحَهُ ابْن خُزَيْمَة، عَنْ رِفَاعَة بْن رَافِع الزُّرَقِيّ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ لِلمسيء صَلاته: «**تَوَضَّأْ كَمَا أَمَرَكَ اللهُ**»[7]، أَوْ يَجِبَانِ فِي الْغُسْل دُون الْوُضُوء؟ كَمَا هُوَ مَذْهَب أَبِي حَنِيفَة، أَوْ يَجِب الاسْتِنْشَاق دُون الْمَضْمَضَة؟

---

(١) **صحيح**: تقدم.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٠١)، والترمذي (٢٥)، وابن ماجه (٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥١٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨).

(٤) **ضعيف**: قال الحافظ في «التلخيص» (١/ ٥٦/ ٥٤): قال الحازمي في «تخريج أحاديث المهذب»: هذا الحديث ضعيف وله إسناد مظلم لا يثبت عن النبي ﷺ، وقال الحافظ في عقب كلام الحازمي: وإسناده مظلم كما قال الحازمي.

(٥) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣١)، وابن ماجه (٤٣٠)، والدارمي (٧٠٤- ٧٠٨).

(٦) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٥)، والبيهقي في «الكبرى» (١/ ٥٤) من حديث أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦٩٦).

(٧) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٨٦١)، والترمذي (٣٠٢)، وابن خزيمة (١/ ٢٧٤) من حديث رفاعة بن رافع البدري، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٠).

كَمَا هُوَ رِوَايَة عَنْ الإِمَام أَحْمَد؛ لَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «مَنْ تَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثر». وَفِي رِوَايَة: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدكُمْ فَلْيَجْعَل فِي مَنْخِرَيْهِ مِنَ الْمَاء ثُمَّ لِيَنْتَثِرْ»(١). وَالانْتِثَارُ: هُوَ الْمُبَالَغَة فِي الاسْتِنْشَاق.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَة الخُزَاعِيّ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن بِلال، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَم، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ ابْن عَبَّاس، أَنَّهُ تَوَضَّأَ فَغَسَل وَجْهه، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَة مِنْ مَاء فَتَمَضْمَضَ بِهَا وَاسْتَنْثَرَ، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَة فَجَعَل بِهَا هَكَذَا، يَعْنِي أَضَافَهَا إِلَى يَده الأُخْرَى فَغَسَل بِهَا وَجْهه، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَة مِنْ مَاء فَغَسَل بِهَا يَده اليُمْنَى، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَة مِنْ مَاء فَغَسَل بِهَا يَده اليُسْرَى، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسه، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَة مِنْ مَاء ثُمَّ رَشَّ عَلَى رِجْله اليُمْنَى حَتَّى غَسَلهَا، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَة مِنْ مَاء فَغَسَل بِهَا رِجْله اليُسْرَى، ثُمَّ قَال: هَكَذَا رَأَيْت رَسُول الله ﷺ. يَعْنِي يَتَوَضَّأ(٢).

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحِيم، عَنْ أَبِي سَلَمَة مَنْصُور بْن سَلَمَة الخُزَاعِيّ بِهِ. وَقَوْله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أَيْ: مَعَ الْمَرَافِق. كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾. وَقَدْ رَوَى الحَافِظ الدَّارَقُطْنِيّ وَأَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ مِنْ طَرِيق القَاسِم بْن مُحَمَّد، عن عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن عَقِيل، عَنْ جَدّه عَنْ جَابِر ابْن عَبْد الله قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا تَوَضَّأَ أَدَارَ الْمَاء عَلَى مَرْفِقَيْهِ(٣). وَلَكِنَّ القَاسِم هَذَا مَتْرُوك الحَدِيث. وَجَدُّهُ ضَعِيفٌ، وَالله أَعْلَمُ. وَيُسْتَحَبّ لِلْمُتَوَضِّئ أَنْ يَشْرَع فِي العَضُد، فَيَغْسِلهُ مَعَ ذِرَاعَيْهِ، لِمَا رَوَى البُخَارِيّ وَمُسْلِم مِنْ حَدِيث نُعَيْم الْمُجْمِر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْم القِيَامَة غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَار الوُضُوء، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيل غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَل»(٤). وَفِي صَحِيح مُسْلِم، عَنْ قُتَيبَة، عَنْ خَلَف بْن خَلِيفَة، عَنْ أَبِي مَالِك الأَشْجَعِيّ، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: سَمِعْت خَلِيلِي ﷺ يَقُول: «تَبْلُغ الحِلْيَة مِنَ الْمُؤْمِن حَيْثُ يَبْلُغ الوُضُوء»(٥).

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَامْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ اخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ البَاء: هَل هِيَ لِلإِلْصَاق؟ وَهُوَ الأَظْهَر، أَوْ لِلتَّبْعِيض؟ وَفِيهِ نَظَر، عَلَى قَوْلَيْنِ، وَمِنْ الأُصُولِيِّينَ مَنْ قَال: هَذَا مُجْمَل، فَلْيُرْجَعْ فِي بَيَانه إِلَى السُّنَّة. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مَنْ طَرِيق مَالِك، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه: أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم -وهو جد عمرو بن يحيى، وَكَانَ مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ- هَل تَسْتَطِيع أَنْ تُرِيَنِي كَيْف كَانَ رَسُول الله ﷺ يَتَوَضَّأ؟ فَقَال عَبْد الله بْن زَيْد: نَعَمْ، فَدَعَا بِوَضُوء، فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ، فَغَسَل يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ ثَلاثًا، وَغَسَل وَجْهه ثَلاثًا، ثُمَّ غَسَل يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسه بِيَدَيْهِ فَأَقْبَل بِهِمَا وَأَدْبَرَ، بَدَأَ بِمُقَدَّم رَأْسه، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ رَدَّهُمَا حَتَّى رَجَعَ إِلَى الْمَكَان الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ، ثُمَّ غَسَل رِجْلَيْهِ(٦). وَفِي حَدِيث عَبْد خَيْر، عَنْ عَلِيّ فِي صِفَة وُضُوء رَسُول الله ﷺ نَحْو هَذَا. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ مُعَاوِيَة وَالْمِقْدَام بْن مَعْد يَكْرِب فِي صِفَة وُضُوء رَسُول الله ﷺ مِثْله.

فَفِي هَذِهِ الأَحَادِيث دَلالَة لِمَنْ ذَهَبَ إِلَى وُجُوب تَكْمِيل مَسْح جَمِيع الرَّأْس، كَمَا هُوَ مَذْهَب الإِمَام مَالِك وَأَحْمَد بْن حَنْبَل، لا سِيَّمَا عَلَى قَوْل مَنْ زَعَمَ أَنَّهَا خَرَجَتْ مَخْرَج البَيَان لِمَا أُجْمِل فِي القُرْآن. وَقَدْ ذَهَبَ الحَنَفِيَّة إِلَى وُجُوب مَسْح رُبع الرَّأْس وَهُوَ مِقْدَار النَّاصِيَة. وَذَهَبَ أَصْحَابنَا إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا يَجِب مَا يُطْلَق عَلَيْهِ اسْم مَسْح، ولا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٣٧)، وأبو داود (١٤٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٠)، وأحمد (١/ ٢٦٨).
(٣) صحيح: أخرجه الدارقطني (١/ ٨٣)، والبيهقي (١/ ٥٦) وفيه القاسم بن محمد: ضعيف، ولكن للحديث شواهد ذكرها الألباني في «الصحيحة» (٢٠٦٧).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٠)، والنسائي (١/ ٢٣).
(٦) صحيح: أخرجه البخاري (١٨٥)، ومسلم (٢٣٥).

يَتَقَدَّر ذَلكَ بِحَدٍّ، بل لوْ مَسَحَ بَعْضَ شَعْرَة مِنْ رَأْسه أَجْزَأَهُ. وَاحْتَجَّ الفَرِيقَانِ بِحَدِيثِ المُغِيرَة بْن شُعْبَة قَال: تَخَلَّفَ النَّبِيّ ﷺ فَتَخَلَّفْت مَعَهُ، فَلَمَّا قَضَى حَاجَته قَال: «هَل مَعَكَ مَاء؟» فَأَتَيْته بِمِطْهَرَة؛ فَغَسَل كَفَّيْهِ وَوَجْهه، ثُمَّ ذَهَبَ يَحْسِر عَنْ ذِرَاعَيْهِ، فَضَاقَ كُمُّ الجُبَّةِ، فَأَخْرَجَ يَده مِنْ تَحْت الجُبَّة، وَأَلْقَى الجُبَّةَ عَلى مَنْكِبَيْهِ، فَغَسَل ذِرَاعَيْهِ، وَمَسَحَ بِنَاصِيَتِهِ، وَعَلى العِمَامَة، وَعَلى خُفَّيْهِ[1]. وَذَكَرَ بَاقِي الحَدِيث وَهُوَ فِي صَحِيح مُسْلم وَغَيْره. فَقَال لهُمْ أَصْحَاب الإِمَام أَحْمَد: إِنَّمَا اقْتَصَرَ عَلى مَسْح النَّاصِيَة؛ لأَنَّهُ كَمَّل مَسْح بَقِيَّةَ الرَّأْس عَلى العِمَامَة، وَنَحْنُ نَقُول بِذَلكَ، أَنَّهُ يَقَع عَنْ المَوْقِع، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلكَ أَحَادِيث كَثِيرَة، وَأَنَّهُ كَانَ يَمْسَح عَلى العِمَامَة وَعَلى الخُفَّيْنِ، فَهَذَا أَوْلى، وَليْسَ لكُمْ فِيهِ دَلالة عَلى جَوَاز الاقْتِصَار عَلى مَسْح النَّاصِيَة، أَوْ بَعْض الرَّأْس مِنْ غَيْر تَكْمِيل عَلى العِمَامَة، وَالله أَعْلمُ. ثُمَّ اخْتَلفُوا فِي أَنَّهُ هَل يُسْتَحَبّ تَكْرَار مَسْح الرَّأْس ثَلاثًا، كَمَا هُوَ المشهور من مذهب الشافعي، أو إنما يستحب مسحة واحدة كما هو مَذْهَب أَحْمَد بْن حَنْبَل وَمَنْ تَابَعَهُ عَلى قَوْليْنِ؛ فَقَال عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عَطَاء بْن يَزِيد اللَّيْثِيّ، عَنْ حُمْرَان بْن أَبَان، قَال: رَأَيْت عُثْمَان بْن عَفَّان تَوَضَّأَ فَأَفْرَغَ عَلى يَدَيْهِ ثَلاثًا فَغَسَلهُمَا، ثُمَّ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَل وَجْهه ثَلاثًا، ثُمَّ غَسَل يَده اليُمْنَى إِلى المِرْفَق ثَلاثًا، ثُمَّ غَسَل اليُسْرَى مِثْل ذَلكَ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَل قَدَمه اليُمْنَى ثَلاثًا، ثُمَّ اليُسْرَى ثَلاثًا مِثْل ذَلكَ، ثُمَّ قَال: رَأَيْت رَسُول الله ﷺ تَوَضَّأَ نَحو وُضُوئِي هَذَا. ثُمَّ قَال: «**مَنْ تَوَضَّأَ نَحوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ؛ غُفِرَ لهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه**»[2]. أَخْرَجَهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ طَرِيق الزُّهْرِيّ به نَحْو هَذَا. وَفِي سُنَن أَبِي دَاوُدَ مِنْ رِوَايَة عَبْد الله بْن عُبَيْد الله بْن أَبِي مُليْكَة، عَنْ عُثْمَان فِي صِفَة الوُضُوء: «**وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ مَرَّة وَاحِدَة**»[3]، وَكَذَا مِنْ رِوَايَة عَبْد خَيْر عَنْ عَليّ مِثْله. وَاحْتَجَّ مَنْ اسْتَحَبَّ تَكْرَار مَسْح الرَّأْس بِعُمُوم الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ مُسْلم فِي صَحِيحه عَنْ عُثْمَان ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ تَوَضَّأَ ثَلاثًا ثَلاثًا[4]. وَقَال أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد ابْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا الضَّحَّاك بْن مَخْلد، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن وَرْدَان، حَدَّثَنِي أَبُو سَلمَة بْن عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنِي حُمْرَان قَال: رَأَيْت عُثْمَان بْن عَفَّان تَوَضَّأَ فَذَكَرَ نَحْوه، وَلمْ يَذْكُر المَضْمَضَة وَالاسْتِنْشَاق، قَال فِيهِ: ثُمَّ مَسَحَ رَأْسه ثَلاثًا، ثُمَّ غَسَل رِجْليْهِ ثَلاثًا، ثُمَّ قَال: رَأَيْت رَسُول الله ﷺ تَوَضَّأَ هَكَذَا، وَقَال: «**مَنْ تَوَضَّأَ دُونَ هَذَا كَفَاهُ**»[5]. تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ، ثُمَّ قَال: وَأَحَادِيث عُثْمَان فِي الصِّحَاح تَدُلّ عَلى أَنَّهُ مَسَحَ الرَّأْس مَرَّة وَاحِدَة.

قَوْله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ قُرِئَ ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلى ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا أَبُو سَلمَة، حَدَّثَنَا وُهَيب، عَنْ خَالد، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهُ قَرَأَهَا ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ يَقُول: رَجَعَتْ إِلى الغَسْل. وَرُوِيَ عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود وَعُرْوَة وَعَطَاء وَعِكْرِمَة وَالحَسَن وَمُجَاهِد؛ وَإِبْرَاهِيم وَالضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ وَمُقَاتِل بْن حَيَّان وَالزُّهْرِيّ وَإِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ نَحْو ذَلكَ. وَهَذِهِ قِرَاءَة ظَاهِرَة فِي وُجُوب الغَسْل كَمَا قَالهُ السَّلف. وَمِنْ هَهُنَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ إِلى وُجُوب التَّرْتِيب فِي الوُضُوء، كَمَا هُوَ مَذْهَب الجُمْهُور، خِلافًا لأَبِي حَنِيفَة، حَيْثُ لمْ يَشْتَرِط التَّرْتِيب؛ بَل لوْ غَسَل قَدَمَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسه، وَغَسَل يَدَيْهِ، ثُمَّ وَجْهه أَجْزَأَهُ ذَلك؛ لأَنَّ الآيَة أَمَرَتْ بِغَسْل هَذِهِ الأَعْضَاء، وَالوَاو لا تَدُلّ عَلى التَّرْتِيب.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٤)، والترمذي (١٠٠).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (١٠٨).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦).
(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (١٠٧) من حديث عثمان، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وَقَدْ سَلكَ الجُمْهُور فِي الجَوَاب عَنْ هَذَا البَحْث طُرُقًا. فَمِنْهُمْ مَنْ قَال: الآيَة دَلَّتْ عَلى وُجُوب غَسْل الوَجْه ابْتِدَاء عِنْد القِيَام إِلى الصَّلاة؛ لأَنَّهُ مَأْمُور بِهِ بِفَاءِ التَّعْقِيب، وَهِيَ مُقْتَضِيَة للتَّرْتِيبِ، وَلَمْ يَقُل أَحَد مِنْ النَّاس بِوُجُوبِ غَسْل الوَجْه أَوَّلًا، ثُمَّ لا يَجِب التَّرْتِيب بَعْده، بَل القَائِل اثْنَانِ: أَحَدهمَا يُوجِب التَّرْتِيب، كَمَا هُوَ وَاقِع فِي الآيَة، وَالآخر يَقُول: لا يَجِب التَّرْتِيب مُطْلَقًا، وَالآيَة دَلَّتْ عَلى وُجُوب غَسْل الوَجْه ابْتِدَاء، فَوَجَبَ التَّرْتِيب فِيمَا بَعْده بالإِجْمَاع، حيث لا فَارِق.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: لا نُسَلِّم أَنَّ الوَاو لا تَدُلّ عَلى التَّرْتِيب: بَل هِيَ دَالَّة كَمَا هُوَ مَذْهَب طَائِفَة مِنْ النُّحَاة، وَأَهْل اللُّغَة، وَبَعْض الفُقَهَاء، ثُمَّ نَقُول بِتَقْدِيرِ تَسْلِيم كَوْنهَا لا تَدُلّ عَلى التَّرْتِيب اللُّغَوِيّ؛ هِيَ دَالَّة عَلى التَّرْتِيب شَرْعًا، فِيمَا مِنْ شَأْنه أَنْ يُرَتَّب، وَالدَّلِيل عَلى ذَلكَ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا طَافَ بِالبَيْتِ؛ خَرَجَ مِنْ بَاب الصَّفَا، وَهُوَ يَتْلُو قَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ ثُمَّ قَال : «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ الله بِهِ»[1]. لَفْظ مُسْلم، وَلَفْظ النَّسَائِيّ: «ابْدَءُوا بِمَا بَدَأَ الله به». وَهَذَا لَفْظ أَمْر، وَإِسْنَاده صَحِيح، فَدَلَّ عَلى وُجُوب البَدَاءَة بِمَا بَدَأَ الله بِهِ، وَهُوَ مَعْنَى كَوْنهَا تَدُلّ عَلى التَّرْتِيب شَرْعًا، وَالله أَعْلمُ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: لَمَّا ذَكَرَ الله تَعَالى هَذِهِ الصِّفَة فِي هَذِهِ الآيَة عَلى هَذَا التَّرْتِيب، فَقَطَعَ النَّظِيرَ عَنْ النَّظِير، وَأَدْخَل المَمْسُوح بَيْن المَغْسُولَيْنِ، دَلَّ ذَلكَ عَلى إِرَادَة التَّرْتِيب. وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: لا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَغَيْره مِنْ طَرِيق عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُول الله ﷺ تَوَضَّأَ مَرَّة مَرَّة، ثُمَّ قَال: «هَذَا وُضُوء لا يَقْبَل الله الصَّلاة إِلا بِهِ»[2]. قَالُوا: فَلا يَخْلُو؛ إِمَّا أَنْ يَكُون تَوَضَّأَ؛ مُرَتَّبًا فَيَجِب التَّرْتِيب، أَوْ يَكُون تَوَضَّأَ غَيْر مُرَتَّب، فَيَجِب عَدَم التَّرْتِيب، وَلا قَائِل بِهِ، فَوَجَبَ مَا ذَكَرْنَاهُ.

وَأَمَّا القِرَاءَة الأُخْرَى، وَهِيَ قِرَاءَة مَنْ قَرَأَ ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بِالخَفْضِ. فَقَدْ احْتَجَّ بِهَا الشِّيعَة فِي قَوْلهمْ بِوُجُوبِ مَسْح الرِّجْلَيْنِ؛ لأَنَّهَا عِنْدهمْ مَعْطُوفَة عَلى مَسْح الرَّأْس. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ طَائِفَة مِنْ السَّلف مَا يُوهِم القَوْل بِالمَسْحِ، فَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا ابْن عُليَّة، حَدَّثَنَا حُمَيْد قَال: قَال مُوسَى بْن أَنَس لأَنَسٍ، وَنَحْنُ عِنْده: يَا أَبَا حَمْزَة، إِنَّ الحَجَّاج خطَبَنَا بِالأَهْوَازِ، وَنَحْنُ مَعَهُ، فَذَكَرَ الطَّهُور، فَقَال: اغْسِلُوا وُجُوهكُمْ وَأَيْدِيكُمْ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلكُمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ابْن آدَمَ أَقْرَبَ مِنْ خُبْثه مِنْ قَدَمَيْهِ، فَاغْسِلُوا بُطُونَهَا وَظُهُورهمَا وَعَرَاقِيبهمَا. فَقَال أَنَس: صدق الله وَكَذَبَ الحَجَّاج. قَال الله تَعَالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ قَال: وَكَانَ أَنَس إِذَا مَسَحَ قَدَمَيْهِ بَلَّهُمَا. إِسْنَاد صَحِيح إِلَيْهِ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عَلِيّ ابْن سَهْل، حَدَّثَنَا مُؤَمَّل، حَدَّثَنَا حَمَّاد، حَدَّثَنَا عَاصِم الأَحْوَل، عَنْ أَنَس قَال: نَزَل القُرْآن بِالمَسْحِ، وَالسُّنَّة بِالغَسْل. وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَاد صَحِيح. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن قَيْس الخُرَاسَانِيّ، عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: الوُضُوء غَسْلتَانِ وَمَسْحَتَانِ. وَكَذَا رَوَى سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَة. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَر المِنْقَرِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الوَهَّاب، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ قَال: هُوَ المَسْح. ثُمَّ قَال: وَرُوِيَ عَنْ ابْن عُمَر وَعَلقَمَة وَأَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بْن عَلِيّ وَالحَسَن فِي إِحْدَى الرِّوَايَات وَجَابِر بْن زَيْد وَمُجَاهِد فِي إِحْدَى الرِّوَايَات -نَحْوه. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا ابْن عُليَّة، حَدَّثَنَا أَيُّوب، قَال: رَأَيْت عِكْرِمَة يَمْسَح عَلى رِجْليْهِ قَال: وَكَانَ يَقُولهُ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَبُو السَّائِب، حَدَّثَنَا ابْن إِدْرِيس، عَنْ دَاوُدَ بْن أَبِي هِنْد،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٢) صحيح: لم أقف على حديث عمرو بن شعيب عن جده (لم أقف على لفظه) لكن الحديث له أصل في البخاري (١٥٧)، وأبو داود (١٣٨)، والترمذي (٤٢) ولكن من حديث ابن عباس.

عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ: نَزَلَ جِبْرِيل بِالمَسْحِ، ثُمَّ قَالَ الشَّعْبِيّ: أَلا تَرَى أَنَّ التَّيَمُّم أَنْ يَمْسَح مَا كَانَ غَسْلًا، وَيُلْغِي مَا كَانَ مَسْحًا. وَحَدَّثَنَا ابْن أَبِي زِيَاد، حَدَّثَنَا يَزِيد، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيل، قُلت لعَامِر: إِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ: إِنَّ جِبْرِيل نَزَلَ بِغَسْل الرِّجْلَيْنِ، فَقَالَ: نَزَلَ جِبْرِيل بِالمَسْحِ.

فَهَذِهِ آثَار غَرِيبَة جِدًّا، وَهِيَ مَحْمُولَة عَلَى أَنَّ المُرَاد بِالمَسْحِ: هُوَ الغَسْل الخَفِيف، لِمَا سَنَذْكُرُهُ مِنْ السُّنَّة الثَّابِتَة فِي وُجُوب غَسْل الرِّجْلَيْنِ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ هَذِهِ القِرَاءَة بِالخَفْضِ، إِمَّا عَلَى المُجَاوَرَة، وَتَنَاسُب الكَلَام، كَمَا فِي قَوْل: العَرَب: جُحْر ضَبٍّ خَرِبٍ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾، وَهَذَا ذَائِع شَائِع فِي لُغَة العَرَب، سَائِغ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هِيَ مَحْمُولَة عَلَى مَسْح القَدَمَيْنِ، إِذَا كَانَ عَلَيْهِمَا الخُفَّانِ، قَالَهُ أَبُو عَبْد الله الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هِيَ دَالَّة عَلَى مَسْح الرِّجْلَيْنِ، وَلَكِنَّ المُرَاد بِذَلِكَ الغَسْل الخَفِيف، كَمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّة، وَعَلَى كُلّ تَقْدِير، فَالوَاجِب غَسْل الرِّجْلَيْنِ، فَرْضًا لابُدَّ مِنْهُ، للآيَةِ وَالأَحَادِيث الَّتِي سَنُورِدُهَا، وَمِنْ أَحْسَنِ مَا يُسْتَدَلّ بِهِ عَلَى أَنَّ المَسْح يُطْلَق عَلَى الغَسْل الخَفِيف، مَا رَوَاهُ الحَافِظ البَيْهَقِيّ حَيْثُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيّ الرُّوذَبَارِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن مَحْمُويَّة العَسْكَرِيّ، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن مُحَمَّد القَلانِسِيّ، حَدَّثَنَا آدَم، حَدَّثَنَا شُعْبَة، حَدَّثَنَا عَبْد المَلِك بْن مَيْسَرَة، سَمِعْت النَّزَّال بْن سَبْرَة يُحَدِّث عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب؛ أَنَّهُ صَلَّى الظُّهْر، ثُمَّ قَعَدَ فِي حَوَائِج النَّاس فِي رَحْبَة الكُوفَة، حَتَّى حَضَرَتْ صَلَاة العَصْر، ثُمَّ أُتِيَ بِكُوزٍ مِنْ مَاء، فَأَخَذَ مِنْهُ حَفْنَة وَاحِدَة، فَمَسَحَ بِهَا وَجْهه وَيَدَيْهِ وَرَأْسه وَرِجْلَيْهِ، ثُمَّ قَامَ فَشَرِبَ فَضْله، وَهُوَ قَائِم، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ نَاسًا يَكْرَهُونَ الشُّرْب قَائِمًا، وإن رَسُول الله ﷺ صَنَعَ كَمَا صَنَعْت. وَقَالَ: «**هَذَا وُضُوء مَنْ لَمْ يُحْدِث**»[1]. رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الصَّحِيح عَنْ آدَم بِبَعْضِ مَعْنَاهُ. وَمَنْ أَوْجَبَ مِنْ الشِّيعَة مَسْحهمَا، كَمَا يُمْسَح الخُفّ -فَقَدْ ضَلَّ وَأَضَلَّ، وَكَذَا مَنْ جَوَّزَ مَسْحهمَا، وَجَوَّزَ غَسْلهمَا فَقَدْ أَخْطَأَ أَيْضًا، وَمَنْ نَقَل عَنْ أَبِي جَعْفَر ابْن جَرِير، أَنَّهُ أَوْجَبَ غَسْلهما للأَحَادِيثِ، وَأَوْجَبَ مَسْحهمَا للآيَةِ، فَلَمْ يُحَقِّق مَذْهَبه فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ كَلامه فِي تَفْسِيره؛ إِنَّمَا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّهُ يَجِب دَلْك الرِّجْلَيْنِ مِنْ دُون سَائِر أَعْضَاء الوُضُوء، لأَنَّهُمَا يَلِيَانِ الأَرْض وَالطِّينَ، وَغَيْر ذَلِكَ؛ فَأَوْجَبَ دَلكهمَا لِيَذْهَب مَا عَلَيْهِمَا، وَلَكِنَّهُ عَبَّرَ عَنْ الدَّلك بِالمَسْحِ، فَاعْتَقَدَ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّل كَلامه، أَنَّهُ أَرَادَ وُجُوب الجَمْع بَيْن غَسْل الرِّجْلَيْنِ وَمَسْحهمَا، فَحَكَاهُ مَنْ حَكَاهُ كَذَلِكَ، وَلِهَذَا يَسْتَشْكِلهُ كَثِير مِنْ الفُقَهَاء، وَهُوَ مَعْذُور؛ فَإِنَّهُ لا مَعْنَى للجَمْع بَيْن المَسْح وَالغَسْل، سَوَاء تَقَدَّمَهُ أَوْ تَأَخَّرَ عَلَيْهِ لاندِرَاجِهِ فِيهِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الرَّجُل مَا ذَكَرْته، وَالله أَعْلَمُ. ثُمَّ تَأَمَّلت كَلامه أَيْضًا، فَإِذَا هُوَ يُحَاوِل الجَمْع بَيْن القِرَاءَتَيْنِ فِي قَوْله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ خَفْضًا عَلَى المَسْح، وَهُوَ الدَّلك، وَنَصْبًا عَلَى الغَسْل، فَأَوْجَبَهُمَا أَخْذًا بِالجَمْعِ بَيْن هَذِهِ وَهَذِهِ.

ذِكْر الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي غَسْل الرِّجْلَيْنِ وَأَنَّهُ لابُدَّ مِنْهُ: قَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيث أَمِيرِي المُؤْمِنِينَ: عُثْمَان وَعَلِيّ، وَابْن عَبَّاس وَمُعَاوِيَة وَعَبْد الله بْن زَيْد بْن عَاصِم وَالمِقْدَاد بْن مَعْد يكَرِب، أَنَّ رَسُول الله ﷺ غَسَلَ الرِّجْلَيْنِ فِي وُضُوئِهِ، إِمَّا مَرَّة وَإِمَّا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، عَلَى اخْتِلاف رِوَايَاتهمْ. وَفِي حَدِيث عَمْرو بْن شُعَيْب عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ تَوَضَّأَ، فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا وُضُوء لا يَقْبَل الله الصَّلاة إِلا بِهِ**».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَة أَبِي عَوَانَة، عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ يُوسُف بْن مَاهَك، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَالَ: تَخَلَّفَ عَنَّا رَسُول الله ﷺ فِي سَفْرَة سَافَرْنَاهَا، فَأَدْرَكَنَا وَقَدْ أَرْهَقَتْنَا الصَّلاة -صَلَاة العَصْر- وَنَحْنُ نَتَوَضَّأ، فَجَعَلْنَا نَمْسَح عَلَى أَرْجُلنَا، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْته: «**أَسْبِغُوا الوُضُوء، وَيْل للأَعْقَاب مِنْ النَّار**»[2]. وَكَذَلِكَ هُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة. وَفِي صَحِيح مُسْلِم، عَنْ عَائِشَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَسْبِغُوا الوُضُوء، وَيْل**

(١) **صحيح**: تقدم.
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١) من حديث عبد الله بن عمرو.

للأَعْقَابِ مِنَ النَّار»[1]. وَرَوَى اللَّيْث بْن سَعْد، عَنْ حَيْوَةَ بْن شُرَيْح، عَنْ عُقْبَة بْن مُسْلم، عَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث ابْن جَزْء أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«وَيْل للأَعْقَابِ وَبُطُون الأَقْدَام مِنَ النَّار»**[2]، رَوَاهُ البَيْهَقِيّ وَالحَاكِم، وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيد ابْن أَبِي كَرْب أَوْ شُعَيْب بْن أَبِي كَرْب قَال: سَمِعْت جَابِر بْن عَبْد الله، وَهُوَ عَلى جَمل، يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«وَيْل للعَرَاقِيبِ مِنْ النَّار»**[3]. وَحدَّثَنَا أَسْوَد بْن عَامِر، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي كَرْب، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَال: رَأَى النَّبِيّ ﷺ فِي رِجْل رَجُلٍ مِثْل الدِّرْهَم لمْ يَغْسِلهُ، فَقَال: **«وَيْل للأَعْقَاب مِنَ النَّار»**. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ عَنْ أَبِي بَكْر ابْن شَيْبَة، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ سَعِيد بِهِ نَحْوه. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ، وَشُعْبَة بْن الحَجَّاج، وَغَيْر وَاحِد، عَنْ أَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي كَرِبَ، عَنْ جَابِر، عَنْ النَّبِيّ ﷺ مِثْله، ثُمَّ قَال: حَدَّثنَا عَلِيّ بْن مُسْلم، حَدَّثنَا عَبْد الصَّمَد بْن عَبْد الوَارِث، حَدَّثَنَا حَفْص، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ جَابِر أَنَّ رَسُول الله ﷺ رَأَى قَوْمًا يَتَوَضَّئُونَ لمْ يُصِبْ أَعْقَابَهُمْ المَاءُ، فَقَال: **«وَيْل للعَرَاقِيبِ مِنْ النَّار!»**. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا خلف بْن الوَلِيد، حَدَّثنَا أَيُّوب بْن عُتبَة، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ مُعَيْقِيب قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«وَيْل للأَعْقَابِ مِنْ النَّار!»** تَفرَّدَ بِهِ أَحْمَد. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي عَلِيّ بْن عَبْد الأَعْلى، حَدَّثنَا المُحَارِبِيّ، عَنْ مُطَّرِح بْن يَزِيد، عَنْ عُبَيْد الله بْن زَحْر، عَنْ عَلِيّ بْن يَزِيد، عَنْ القَاسِم، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«وَيْل للأَعْقَابِ مِنْ النَّار»**. قَال: فَمَا بَقِيَ فِي المَسْجِد شَرِيف وَلا وَضِيع إِلَّا نَظَرْت إِليْهِ، يُقَلِّب عُرْقُوبَيْهِ يَنْظُر إِليْهِمَا. وَحَدَّثنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثنَا حُسَيْن، عَنْ زَائِدَةَ، عَنْ لَيْث، حَدَّثَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن سَابِط، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ -أَوْ عَنْ أَخِي أَبِي أُمَامَةَ- أَنَّ رَسُول الله ﷺ أَبْصَرَ قَوْمًا يُصَلُّونَ، وَفِي عَقِب أَحَدهِمْ، أَوْ كَعْب أَحَدهِمْ مِثْل مَوْضِع الدِّرْهَم، أَوْ مَوْضِع الظُّفُر لمْ يَمَسَّهُ المَاء؛ فَقَال: **«وَيْل للأَعْقَابِ مِنْ النَّار!»**. قَال: فَجَعَل الرَّجُل إِذَا رَأَى فِي عَقِبه شَيْئًا لمْ يُصِبْهُ المَاء؛ أَعَادَ وُضُوءَهُ.

وَوَجْه الدَّلالة مِنْ هَذِهِ الأَحَادِيث ظَاهِرَة، وَذَلكَ أَنَّهُ لوْ كَانَ فَرْض الرِّجْليْنِ مَسْحهمَا، أَوْ أَنَّهُ يَجُوز ذَلكَ فِيهِمَا؛ لمَا تَوَعَّدَ عَلى تَرْكه؛ لأَنَّ المَسْح لا يَسْتَوْعِب جَمِيع الرِّجْل، بَل يَجْرِي فِيهِ مَا يَجْرِي فِي مَسْح الخُفّ، وَهَكَذَا وَجَّهَ هَذِهِ الدَّلالةَ عَلى الشِّيعَة الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير رحمه الله تَعَالى. وَقَدْ رَوَى مُسْلم فِي صَحِيحه مِنْ طَرِيق أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر، عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب -أَنَّ رَجُلًا تَوَضَّأَ، فَتَرَكَ مَوْضِع ظُفُر عَلى قَدَمه، فَأَبْصَرَهُ النَّبِيّ ﷺ فَقَال: **«ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وُضُوءَك»**[4]. وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْد الله الحَافِظ، أخبرنا أَبُو العَبَّاس مُحَمَّد بْن يَعْقُوب، حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق الصَّاغَانِيّ، حَدَّثنَا هَارُون بْن مَعْرُوف، حَدَّثنَا ابْن وَهْب، حَدَّثنَا جَرِير بْن حَازِم، أَنَّهُ سَمِعَ قَتَادَة ابْن دِعَامَة قَال: حَدَّثنَا أَنَس بْن مَالك، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلى النَّبِيّ ﷺ قَدْ تَوَضَّأَ، وَتَرَكَ عَلى قَدَمِهِ مِثْل مَوْضِع الظُّفُر، فَقَال لهُ رَسُول الله ﷺ: **«ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وُضُوءَك»**. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ هَارُون بْن مَعْرُوف، وَابْن مَاجَهْ عَنْ حَرْمَلة وَيَحْيَى كِلاهُمَا عَنْ ابْن وَهْب بِهِ. وَهَذَا إِسْنَاد جَيِّد، رِجَاله كُلّهمْ ثِقَات، لكِنْ قَال أَبُو دَاوُدَ: ليْسَ هَذَا الحَدِيث بِمَعْرُوفٍ، لمْ يَرْوِهِ إِلَّا ابْن وَهْب. وَحَدَّثنَا مُوسَى بن إِسماعيل، حَدَّثنَا حَمَّاد، أَخْبَرَنَا يُونُس وَحُمَيْد، عَنْ الحَسَن: أَنَّ رَسُول الله ﷺ... بِمَعْنَى حَدِيث قَتَادَة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٠) من حديث عائشة.
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٤١)، وأحمد (٤/ ١٩١)، وابن خزيمة (١/ ٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢٠).
(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٥٤)، وأحمد (٣/ ٢٦٩)، والطيالسي (١/ ٢٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٣٤).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٣)، وابن ماجه (٦٦٦).

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن أَبِي العَبَّاس، حَدَّثَنَا بَقِيَّة، حَدَّثَنِي بُحَيْر بْن سَعْد، عَنْ خَالد بْن مَعْدَان، عَنْ بَعْض أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ، أن رسول الله ﷺ رَأَى رَجُلًا يُصَلِّي، وَفِي ظَهْر قَدَمِهِ لُمْعَة قَدْر الدِّرْهَم، لمْ يُصِبْهَا المَاءُ، فَأَمَرَهُ رَسُول الله ﷺ أَنْ يُعِيد الوُضُوء[1]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيث بَقِيَّة، وَزَادَ: وَالصَّلاة، وَهَذَا إِسْنَاد جَيِّد قَوِيّ صَحِيح، وَالله أَعْلَمُ. وَفِي حَدِيث حُمْرَان، عَنْ عُثْمَان فِي صِفَة وُضُوء النَّبِيّ ﷺ، أَنَّهُ خَلَّل بَيْن أَصَابِعه. وَرَوَى أَهْل السُّنَن مِنْ حَدِيث إِسْمَاعِيل بْن كَثِير، عَنْ عَاصِم بْن لَقِيط بْن صَبْرَة، عَنْ أَبِيهِ، قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، أَخْبِرْنِي عَنْ الوُضُوء فَقَال: «**أَسْبِغْ الوُضُوء، وَخَلِّل بَيْن الأَصَابِع، وَبَالِغْ فِي الاسْتِنْشَاق، إلا أَنْ تَكُون صَائِمًا**»[2].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن يَزِيد أَبُو عَبْد الرَّحْمَن المُقْرِي، حَدَّثَنَا عِكْرِمَة بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا شَدَّاد ابْن عَبْد الله الدِّمَشْقِيّ، قَال: قَال أَبُو أُمَامَةَ: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَبَسَة، قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، أَخْبِرْنِي عَنْ الوُضُوء؟ قَال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد يَقْرَب وَضُوءَهُ، ثُمَّ يَتَمضمضُ، ويَسْتَنشقُ، ويَسْتنثرُ، إلا خرَّت خَطَاياه من فمه وخَيَاشيمِهِ مَعَ الماء حين يَسْتَنثرُ، ثُم يَغْسَل وَجْهَه كَمَا أَمَرَهُ الله، إلا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهه مِنْ أَطْرَاف لحْيَته مَعَ المَاء، ثُمَّ يَغْسِل يَدَيْهِ إلى المَرْفِقَيْنِ، إلا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَطْرَاف أَنَامِله، ثُمَّ يَمْسَح رَأْسه، إلا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسه مِنْ أَطْرَاف شَعْره مَعَ المَاء، ثُمَّ يَغْسِل قَدَمَيْهِ إلى الكَعْبَيْنِ كَمَا أَمَرَهُ الله، إلا خَرَّتْ خَطَايَا قَدَمَيْهِ مِنْ أَطْرَاف أَصَابِعه مَعَ المَاء، ثُمَّ يَقُوم فَيَحْمَد الله، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْل، ثُمَّ يَرْكَع رَكْعَتَيْنِ إلا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبه كَيَوْمِ وَلدَتْهُ أُمّه**». قَال أَبُو أُمَامَةَ: يَا عَمْرو، انْظُرْ مَا تَقُول، سَمِعْت هَذَا مِنْ رَسُول الله ﷺ؟ أَيُعْطَى هَذَا الرَّجُل كُلّه فِي مَقَامِهِ ؟ فَقَال عَمْرو بْن عَبَسَة: يَا أَبَا أُمَامَةَ لَقَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَاقْتَرَبَ أَجَلِي، وَمَا بِي حَاجَةٌ أَنْ أَكْذِبَ عَلَى الله وَعَلى رَسُول الله ﷺ، لوْ لمْ أَسْمَعْهُ مِنْ رَسُول الله ﷺ إِلَّا مَرَّة أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا! لَقَدْ سَمِعْته سَبْع مَرَّات أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ[3]. وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح، وَهُوَ فِي صَحِيح مُسْلم مِنْ وَجْه آخَر، وَفِيهِ: «**ثُمَّ يَغْسِل قَدَمَيْهِ كَمَا أَمَرَهُ الله**». فَدَلَّ عَلَى أَنَّ القُرْآن يَأْمُر بِالغَسْل. وَهَكَذَا رَوَى أَبُو إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، عَنْ الحَارِث، عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب رضي الله عنه أَنَّهُ قَال: «**اغْسِلُوا القَدَمَيْنِ إِلى الكَعْبَيْنِ كَمَا أُمِرْتُمْ**».

وَمِنْ هَاهُنَا يَتَّضِح لك المُرَاد مِنْ حَدِيث عَبْد خَيْر، عَنْ عَلِيّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ رَشَّ عَلى قَدَمَيْهِ المَاء، وَهُمَا فِي النَّعْلَيْنِ فَدَلكَهُمَا، إِنَّمَا أَرَادَ غَسْلًا خَفِيفًا وَهُمَا فِي النَّعْلَيْنِ، وَلا مَانِع مِنْ إِيجَاد الغَسْل وَالرِّجْل فِي نَعْلهَا، وَلكِنْ فِي هَذَا رَدٌّ عَلى المُتَعَمِّقِينَ وَالمُتَنَطِّعِينَ مِنْ المُوَسْوِسِينَ. وَهَكَذَا الحَدِيث الَّذِي أَوْرَدَهُ ابْن جَرِير عَلى نَفْسه، وَهُوَ مِنْ رِوَايَته، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ حُذَيْفَة قَال: أَتَى رَسُول الله ﷺ سُبَاطَة قَوْم، فَبَال عَلَيها قَائِمًا، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ، فَتَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلى نَعْليْهِ[4]. وَهُوَ حَدِيث صَحِيح. وَقَدْ أَجَابَ ابْن جَرِير عَنْهُ بِأَنَّ الثِّقَات الحُفَّاظ رَوَوْهُ عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ حُذَيْفَة قَال: فَبَال قَائِمًا ثُمَّ تَوَضَّأَ، وَمَسَحَ عَلى خُفَّيْهِ. قُلت: وَيَحْتَمِل الجَمْع بَيْنهمَا، بِأَنْ يَكُون فِي رِجْليْهِ خُفَّانِ، وَعَلَيْهِمَا نَعْلانِ. وَهَكَذَا الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَة، حَدَّثَنِي يَعْلى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَوْس بْن أَبِي أَوْس، قَال: رَأَيْت رَسُول الله ﷺ تَوَضَّأَ، وَمَسَحَ عَلى نَعْلَيْهِ، ثُمَّ قَامَ إِلى الصَّلاة. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنْ مُسَدَّد وَعَبَّاد بْن مُوسَى كِلاهُمَا عَنْ هُشَيْم؛ عَنْ يَعْلى بْن عَطَاء، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَوْس بْن أَبِي أَوْس قَال: رَأَيْت رَسُول الله ﷺ أَتَى سُبَاطَة قَوْم فَبَال، وَتَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلى نَعْلَيْهِ وَقَدَمَيْهِ[5].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٧٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٦١).
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٢، ٢٣٦٦)، والترمذي (٧٨٨)، والنسائي (١/ ٦٦)، وابن ماجه (٤٠٧).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٨٣٢)، وأحمد (٤/ ١١٢).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٤)، ومسلم (٢٧٣).
(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (١٦٠)، وابن جرير (٦/ ١٣٤).

وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ طَرِيق شُعْبَة وَمِنْ طَرِيق هُشَيْم، ثُمَّ قَال: وَهَذَا مَحْمُول عَلى أَنَّهُ تَوَضَّأَ كَذَلك، وَهُوَ غَيْر مُحْدِث؛ إذ كَانَ غَيْر جَائِز أَنْ تَكُون فَرَائِض الله وَسُنَن رَسُوله مُتَنَافِيَة مُتَعَارِضَة، وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ ﷺ الأَمْر بِعُمُوم غَسْل القَدَمَيْنِ فِي الوُضُوء بِالمَاءِ، بِالنَّقْل المُسْتَفِيض، القَاطِع عُذْرَ مَنْ انْتَهَى إِلَيْهِ وَبَلَغَهُ. وَلَمَّا كَانَ القُرْآن آمِرًا بِغَسْل الرِّجْلَيْنِ، كَمَا فِي قِرَاءَة النَّصْب، وَكَمَا هُوَ الوَاجِب فِي حَمْل قِرَاءَة الخَفْض عَلَيْهَا -تَوَهَّمَ بَعْض السَّلَف أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَاسِخَة لِرُخْصَةِ المَسْح عَلى الخُفَّيْنِ، وَقَدْ رُوِيَ ذَلكَ عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب، وَلكِنْ لَمْ يَصِحّ إِسْنَاده، ثُمَّ الثَّابِت عَنْهُ خِلافه، وَلَيْسَ كَمَا زَعَمُوهُ، فإنه قَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ مَسَحَ عَلى الخُفَّيْنِ بَعْد نُزُول هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هَاشِم بْن القَاسِم، حَدَّثَنَا زِيَاد بْن عَبْد الله بْن عَلاثَة، عَنْ عَبْد الكَرِيم بْن مَالك الجَزَرِيّ، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ جَرِير بْن عَبْد الله البَجَلِيّ، قَال: أَنَا أَسْلَمْت بَعْد نُزُول المَائِدَة، وَأَنَا رَأَيْت رَسُول الله ﷺ يَمْسَح بَعْدَمَا أَسْلَمْت. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ هَمَّام قَال: بَال جَرِير، ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلى خُفَّيْهِ، فَقِيل: تَفْعَل هَذَا؟ فَقَال: نَعَمْ، رَأَيْت رَسُول الله ﷺ بَال ثُمَّ تَوَضَّأَ، وَمَسَحَ عَلى خُفَّيْهِ[1]. قَال الأَعْمَش: قَال إِبْرَاهِيم: فَكَانَ يُعْجِبهُمْ هَذَا الحَدِيث، لأَنَّ إِسْلام جَرِير كَانَ بَعْد نُزُول المَائِدَة. لفْظ مُسْلم. وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُر عَنْ رَسُول الله ﷺ مَشْرُوعِيَّة المَسْح عَلى الخُفَّيْنِ، قَوْلًا مِنْهُ وَفِعْلًا، كَمَا هُوَ مُقَرَّر فِي كِتَاب الأَحْكَام الكَبِير، مَعَ مَا يَحْتَاج إِلى ذِكْره هُنَاكَ مِنْ تَأْقِيت المَسْح، أَوْ عَدَمه، أَوْ التَّفْصِيل فِيهِ، كَمَا هُوَ مَبْسُوط فِي مَوْضِعه، وَقَدْ خَالفَتْ الرَّوَافِض ذَلكَ كله بِلا مُسْتَنَد، بَل بِجَهْلٍ وَضَلال. مَعَ أَنَّهُ ثَابِت فِي صَحِيح مُسْلم مِنْ رِوَايَة أَمِير المُؤْمِنِينَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب ﷺ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ عَنْ النَّبِيّ ﷺ النَّهْي عَنْ نِكَاح المُتْعَة، وَهُمْ يَسْتَبِيحُونَهَا، وَكَذَلكَ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة دَالَّة عَلى وُجُوب غَسْل الرِّجْلَيْنِ، مَعَ مَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُر مِنْ فِعْل رَسُول الله ﷺ عَلى وَفْق مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَة الكَرِيمَة، وَهُمْ مُخَالِفُونَ لذَلكَ كُلّه، وَلَيْسَ لَهُمْ دَلِيل صَحِيح فِي نَفْس الأَمْر، وَلله الحَمْد.

وَهَكَذَا خَالفُوا الأَئِمَّة وَالسَّلف فِي الكَعْبَيْنِ اللَّذَيْنِ فِي القَدَمَيْنِ، فَعِنْدهمْ أَنَّهُمَا فِي ظَهْر القَدَم، فَعِنْدهمْ فِي كُلّ رَجُل كَعْب، وَعِنْد الجُمْهُور أَنَّ الكَعْبَيْنِ هُمَا العَظْمَانِ النَّاتِئَانِ عِنْد مَفْصِل السَّاق وَالقَدَم. قَال الرَّبِيع: قَال الشَّافِعِيّ: لَمْ أَعْلم مُخَالفًا فِي أَنَّ الكَعْبَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا الله فِي كِتَابه فِي الوُضُوء هُمَا النَّاتِئَانِ، وَهُمَا مَجْمَع مَفْصِل السَّاق وَالقَدَم، هَذَا لفْظه، فَعِنْد الأَئِمَّة -رَحِمَهُمْ الله- فِي كُلّ قَدَم كَعْبَانِ، كَمَا هُوَ المَعْرُوف عِنْد النَّاس، وَكَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّة، فَفِي الصَّحِيحين مِنْ طَرِيق حُمْرَان، عَنْ عُثْمَان أَنَّهُ تَوَضَّأَ؛ فَغَسَل رِجْله اليُمْنَى إِلى الكَعْبَيْنِ، وَاليُسْرَى مِثْل ذَلكَ. وَرَوَى البُخَارِيّ تَعْليقًا مَجْزُومًا بِهِ، وَأَبُو دَاوُد وَابْن خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحه مِنْ رِوَايَة أَبِي القَاسِم الحُسَين ابْن الحَارِث الجُدَلِيّ، عَنْ النُّعْمَان بْن بَشِير، قَال: أَقْبَل عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ بِوَجْهِهِ، قَال: «**أَقِيمُوا صُفُوفكُمْ -ثَلاثًا- وَالله لتُقِيمُنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ ليُخَالفَنَّ الله بَيْن قُلُوبكُمْ**». قَال: فَرَأَيْت الرَّجُل يَلزَق كَعْبه بِكَعْب صَاحِبه، وَرُكْبَته بِرُكْبَةِ صَاحِبه، وَمَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِهِ[2]. لفْظ ابْن خُزَيْمَةَ. فَليْسَ يُمْكِن أَنْ يَلزَق كَعْبه بِكَعْب صَاحِبه، إِلَّا وَالمُرَاد بِهِ العَظْم النَّاتِئ فِي السَّاق، حَتَّى يُحَاذِي كَعْب الآخَر، فَدَلَّ ذَلكَ عَلى مَا ذَكَرْنَاهُ؛ مِنْ أَنَّهُمَا العَظْمَانِ النَّاتِئَانِ عِنْد مَفْصِل السَّاق وَالقَدَم، كَمَا هُوَ مَذْهَب أَهْل السُّنَّة. وَقَدْ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن مُوسَى، أَخْبَرَنَا شُرَيْك، عَنْ يَحْيَى بْن الحَارِث بن عبد الله التَّيْمِيّ -يَعْنِي: الجَابِر- قَال: نَظَرْت فِي قَتْلى أَصْحَاب زَيْد، فَوَجَدْت الكَعْب فَوْق ظَهْر القَدَم، وَهَذِهِ عُقُوبَة عُوقِبَ بِهَا الشِّيعَة بَعْد قَتْلهمْ، تَنْكِيلًا بِهِمْ فِي مُخَالفَتهمْ الحَقّ، وَإِصْرَارهمْ عَلَيْهِ.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٧)، ومسلم (٢٧٣).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري معلقًا (٢/ ٢١١)، وأبو داود (٦٦٢)، وابن خزيمة (١٦٠) موصولًا.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾، كُلّ ذَلكَ قَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلَيْهِ فِي تَفْسِير آيَة النِّسَاء، فَلا حَاجَة بِنَا إِلَى إِعَادَته؛ لِئَلَّا يَطُول الكَلام. وَقَدْ ذَكَرْنَا سَبَب نُزُول آيَة التَّيَمُّم هُنَاكَ. لَكِنَّ البُخَارِيّ رَوَى هَاهُنَا حَدِيثًا خَاصًّا بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، فَقَال: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، أَنَّ عَبْد الرَّحْمَن بْن القَاسِم، حَدَّثَهُ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة قَالَتْ: سَقَطَتْ قِلادَة لِي بِالبَيْدَاءِ، وَنَحْنُ دَاخِلُونَ المَدِينَة فَأَنَاخَ رَسُول الله ﷺ وَنَزَل فَثَنَى رَأْسه فِي حِجْرِي رَاقِدًا، فَأَقْبَل أَبُو بَكْر فَلَكَزَنِي لَكْزَة شَدِيدَة، وَقَال: حَبَسْتِ النَّاسَ فِي قِلادَة؟ فَبِيَ المَوْت لِمَكَانِ رَسُول الله ﷺ مِنِّي، وَقَدْ أَوْجَعَنِي، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيّ ﷺ اسْتَيْقَظ، وَحَضَرَتْ الصُّبْح، فَالتُمِسَ المَاءُ فَلَمْ يُوجَدْ، فَنَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾، إِلَى آخِر الآيَة، فَقَال أُسَيْد بْن الحُضَيْر: لَقَدْ بَارَكَ الله لِلنَّاسِ فِيكُمْ يَا آل أَبِي بَكْر، مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَرَكَةٌ لَهُمْ[1].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أَيْ: فَلِهَذَا سَهَّل عَلَيْكُمْ وَيَسَّرَ وَلَمْ يُعَسِّر، بَل أَبَاحَ التَّيَمُّم عِنْد المَرَض، وَعِنْد فَقْد المَاء، تَوْسِعَة عَلَيْكُمْ وَرَحْمَة بِكُمْ، وَجَعَلَهُ فِي حَقّ مَنْ شُرِعَ لَهُ يَقُوم مَقَام المَاء، إِلَّا مِنْ بَعْض الوُجُوه كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانه، وَكَمَا هُوَ مُقَرَّر فِي كِتَاب الأَحْكَام الكَبِير.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيْ: لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نِعَمه عَلَيْكُمْ، فِيمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ التَّوْسِعَة وَالرَّأْفَة؛ وَالرَّحْمَة وَالتَّسْهِيل وَالسَّمَاحَة، وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّة بِالحَثِّ عَلَى الدُّعَاء عَقِب الوُضُوء؛ بِأَنْ يُجْعَل فَاعِلُهُ مِنَ المُتَطَهِّرِينَ الدَّاخِلِينَ فِي امْتِثَال هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، كَمَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَمُسْلِم، وَأَهْل السُّنَن عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر، قَال: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَة الإِبِل، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي، فَرَوَّحْتهَا بِعَشِيٍّ، فَأَدْرَكْت رَسُول الله ﷺ قَائِمًا يُحَدِّث النَّاس، فَأَدْرَكْت مِنْ قَوْله: «**مَا مِنْ مُسْلِم يَتَوَضَّأ، فَيُحْسِن وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُوم فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهه -إِلا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّة**». قَال: قُلْت: مَا أَجْوَدَ هَذِهِ! فَإِذَا قَائِلٌ بَيْن يَدَيَّ يَقُول: الَّتِي قَبْلَهَا أَجْوَدُ مِنْهَا، فَنَظَرْت فَإِذَا عُمَر ﷺ، فَقَال: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُك جِئْت آنِفًا، قَال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد يَتَوَضَّأ، فَيُبْلِغ -أَوْ فَيُسْبِغ- الوُضُوء يَقُول: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَه إِلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْده وَرَسُوله؛ إِلا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَاب الجَنَّة الثَّمَانِيَة، يَدْخُل مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**»[2]. لَفْظ مُسْلِم.

وَقَال مَالِك: عَنْ سُهَيْل بْن أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة -أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِذَا تَوَضَّأَ العَبْد المُسْلِم أَوْ المُؤْمِن؛ فَغَسَل وَجْهه، خَرَجَ مِنْ وَجْهه كُلّ خَطِيئَة نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ المَاء، أَوْ مَعَ آخِر قَطْر المَاء، فَإِذَا غَسَل يَدَيْهِ؛ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلّ خَطِيئَة بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ المَاء، أَوْ مَعَ آخِر قَطْر المَاء، فَإِذَا غَسَل رِجْلَيْهِ؛ خَرَجَتْ كُلّ خَطِيئَة مَشَتْهَا رِجْلاهُ مَعَ المَاء، أَوْ مَعَ آخِر قَطْر المَاء، حَتَّى يَخْرُج نَقِيًّا مِنْ الذُّنُوب**»[3]. رَوَاهُ مُسْلِم، عَنْ أَبِي الطَّاهِر، عَنْ ابْن وَهْب، عَنْ مَالِك بِهِ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن هِشَام، عَنْ سُفْيَان عَنْ مَنْصُور، عَنْ سَالِم بْن أَبِي الجَعْد، عَنْ كَعْب بْن مُرَّة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَا مِنْ رَجُل يَتَوَضَّأ، فَيَغْسِل يَدَيْهِ أَوْ ذِرَاعَيْهِ؛ إِلا خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْهُمَا، فَإِذَا غَسَل وَجْهه، خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ وَجْهه، فَإِذَا مَسَحَ رَأْسه؛ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رَأْسه، فَإِذَا غَسَل رِجْلَيْهِ؛ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رِجْلَيْهِ**». هَذَا لَفْظه، وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، عَنْ مُحَمَّد بْن جَعْفَر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٦٠٨).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٤)، وأبو داود (١٦٩).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٤)، والترمذي (٣).

مَنْصُور، عَنْ سَالِم، عَنْ مُرَّة بْن كَعْب، أَوْ كَعْب بْن مُرَّة السُّلمِيّ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «وَإِذَا تَوَضَّأَ العَبْد فَغَسَل يَدَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ بَيْن يَدَيْهِ، وَإِذَا غَسَل وَجْهه، خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ وَجْهه، وَإِذَا غَسَل ذِرَاعَيْهِ، خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ ذِرَاعَيْهِ، وَإِذَا غَسَل رِجْلَيْهِ، خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ رِجْلَيْهِ»(١). قَال شُعْبَة: وَلَمْ يَذْكُر مَسْح الرَّأْس. وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح. وَرَوَى ابْن جَرِير مِنْ طَرِيق شِمْر بْن عَطِيَّة، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوء، ثُمَّ قَامَ إِلى الصَّلاة؛ خَرَجَتْ ذُنُوبه مِنْ سَمْعه وَبَصَره وَيَدَيه وَرِجْلَيْهِ»(٢).

وَرَوَى مُسْلم فِي صَحِيحه مِنْ حَدِيث يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ زَيْد بْن سَلَّام، عَنْ جَدّه مَمْطُور، عَنْ أَبِي مَالك الأَشْعَرِيّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «الطُّهُور شَطْر الإِيمَان، وَالحَمْد للهِ تَمْلأ المِيزَان، وَسُبْحَان الله، وَالحَمْدُ لله تَمْلآن مَا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّبْر ضِيَاء، وَالصَّدَقَة بُرْهَان، وَالقُرْآن حُجَّة لَك أَوْ عَلَيْك، كُلّ النَّاس يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ؛ فَمُعْتِقهَا أَوْ مُوبِقهَا»(٣). وَفِي صَحِيح مُسْلم مِنْ رِوَايَة سِمَاك بْن حَرْب، عَنْ مُصْعَب بْن سَعْد، عَنْ ابْن عُمَر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «لا يَقْبَل الله صَدَقَة مِنْ غُلُول، وَلا صَلاة بِغَيْر طُهُور»(٤). وَقَال أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ قَتَادَة، سَمِعْت أَبِي المَلِيح الهُذَلِيّ يُحَدِّث عَنْ أَبِيهِ، قَال: كُنْت مَعَ رَسُول الله ﷺ فِي بَيْت، فَسَمِعْته يَقُول: «إِنَّ الله لا يَقْبَل صَلاة مِنْ غَيْر طُهُور، وَلا صَدَقَة مِنْ غُلُول»(٥). وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَد وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث شُعْبَة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُذَكِّرًا عِبَاده المُؤْمِنِينَ نِعْمَته عَلَيْهِمْ فِي شَرْعه لَهُمْ هَذَا الدِّين العَظِيم، وَإِرْسَاله إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُول الكَرِيم، وَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنْ العَهْد وَالمِيثَاق فِي مُبَايَعَته عَلَى مُتَابَعَته وَمُنَاصَرَته وَمُؤَازَرَته، وَالقِيَام بِدِينِهِ، وَإِبْلاغِهِ عَنْهُ، وَقَبُوله مِنْهُ، فَقَال تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. وَهَذِهِ هِيَ البَيْعَة الَّتِي كَانُوا يُبَايِعُونَ رَسُول الله ﷺ عَلَيْهَا عِنْد إِسْلامهمْ، كَمَا قَالُوا: بَايَعْنَا رَسُول الله ﷺ عَلَى السَّمْع وَالطَّاعَة فِي مَنْشَطنَا وَمَكْرَهنَا، وَأَثَرَة عَلَيْنَا، وَأَنْ لا نُنَازِع الأَمْر أَهْله(٦). وَقَال الله تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وَقِيل: هَذَا تَذْكَار لليَهُود بِمَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ مِنْ المَوَاثِيق وَالعُهُود فِي مُتَابَعَة مُحَمَّد ﷺ، وَالانْقِيَاد لشَرْعِهِ.

رَوَاهُ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس. وَقِيل: هُوَ تَذْكَار بِمَا أَخَذَ تَعَالَى مِنْ العَهْد عَلَى ذُرِّيَّة آدَم، حِين

---

(١) صحيح الإسناد: أخرجه ابن جرير (٦/ ١٣٨)، وأحمد (٤/ ٢٣٥).
(٢) ضعيف الإسناد: أخرجه ابن جرير (٤/ ٤٧١) بسند ضعيف فيه شهر بن حوشب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٤)، والدارمي (٢/ ١٦٧).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٤)، والترمذي (١).
(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٩)، والنسائي (٥/ ٥٦).
(٦) صحيح: تقدم.

اسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلبه، وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسهمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ قَالهُ مُجَاهِد وَمُقَاتِل بْن حَيَّان. وَالقَوْل الأَوَّل أَظْهَرُ، وَهُوَ المَحْكِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس وَالسُّدِّيّ، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. ثُمَّ قَالَ تَعَالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تَأْكِيد وَتَحْرِيض عَلى مُوَاظَبَة التَّقْوَى فِي كُلّ حَال. ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَعْلم مَا يَتَخَالج فِي الضَّمَائِر والسرائر مِنْ الأَسْرَار وَالخَوَاطِر، فَقَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ أَيْ: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالحَقّ لله ﷻ لا لأَجْل النَّاس وَالسُّمْعَة، وَكُونُوا ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أَيْ: بِالعَدْل لا بِالجَوْر. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النُّعْمَان بْن بَشِير أَنَّهُ قَال: نَحَلنِي أَبِي نُحْلًا، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَة بِنْتُ رَوَاحَةَ: لا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِد عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ، فَجَاءَهُ لِيُشْهِدهُ عَلى صَدَقَتِي، فَقَال: «**أَكُلَّ وَلدِك نَحلت مِثْلهُ ؟**»، قَال: لا. قَال: «**اتَّقُوا الله، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلادكُمْ**» وَقَال: «**إِنِّي لا أَشْهَد عَلى جَوْر**». قَال: فَرَجَعَ أَبِي فَرَدَّ تِلكَ الصَّدَقَة[1].

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ أَيْ: لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْض قَوْم عَلى تَرْك العَدْل فِيهِمْ؛ بَل اسْتَعْمِلُوا العَدْل فِي كُلّ أَحَد، صَدِيقًا كَانَ أَوْ عَدُوًّا، وَلِهَذَا قَال: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أَيْ: عَدْلكم أَقْرَبُ إِلى التَّقْوَى مِنْ تَرْكه، وَدَلَّ الفِعْل عَلى المَصْدَر الَّذِي عَادَ الضَّمِير عَلَيْهِ، كَمَا فِي نَظَائِره مِنْ القُرْآن وَغَيْره، كَمَا فِي قَوْله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

وَقَوْله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ مِنْ بَاب اسْتِعْمَال أَفْعَل التَّفْضِيل فِي المَحَلّ الَّذِي لَيْسَ فِي الجَانِب الآخَر مِنْهُ شَيْء، كَمَا فِي قَوْله تَعَالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وَكَقَوْل بَعْض الصَّحَابِيَّاتِ لِعُمَرَ: أَنْتَ أَفَظُّ وَأَغْلظُ مِنْ رَسُول الله ﷺ. ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: وَسَيَجْزِيكُمْ عَلى مَا عَلمَ مِنْ أَفْعَالكُمْ الَّتِي عَمِلتُمُوهَا؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ، وَلِهَذَا قَال بَعْده: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أَيْ: لِذُنُوبِهِمْ، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وَهُوَ الجَنَّة، الَّتِي هِيَ مِنْ رَحْمَته عَلى عِبَاده؛ لا يَنَالُوهَا بِأَعْمَالِهِمْ، بَل بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْل، وَإِنْ كَانَ سَبَب وُصُول الرَّحْمَة إِلَيْهِمْ أَعْمَالهمْ، وَهُوَ تَعَالى الَّذِي جَعَلهَا أَسْبَابًا إِلى نَيْل رَحْمَته وَفَضْله وَعَفْوه وَرِضْوَانه، فَالكُلّ مِنْهُ وَلهُ، فَلهُ الحَمْد وَالمِنَّة.

ثُمَّ قَال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وَهَذَا مِنْ عَدْله تَعَالى وَحِكْمَته وَحُكْمه الَّذِي لا يَجُور فِيهِ، بَل هُوَ الحَكَم العَدْل الحَكِيم القَدِير.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ﴾. قَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، ذَكَرَهُ عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ جَابِر أَنَّ النَّبِيّ ﷺ نَزَل مَنْزِلًا، وَتَفَرَّقَ النَّاس فِي العِضَاة يَسْتَظِلُّونَ تَحْتهَا، وَعَلَّقَ النَّبِيّ ﷺ، سِلاحه بِشَجَرَة، فَجَاءَ أَعْرَابِيّ إِلى سَيْف رَسُول الله ﷺ فَأَخَذَهُ فَسَلَّهُ، ثُمَّ أَقْبَل عَلى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: مَنْ يَمْنَعك مِنِّي؟ قَال: «**الله ﷻ**». قَال الأَعْرَابِيّ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا: مَنْ يَمْنَعك مِنِّي؟ وَالنَّبِيّ ﷺ يَقُول: «**الله**». قَال: فَشَامَ الأَعْرَابِيّ السَّيْف، فَدَعَا النَّبِيّ ﷺ أَصْحَابه فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ الأَعْرَابِيّ، وَهُوَ جَالس إِلى جَنْبه وَلمْ يُعَاقِبهُ[2].

وَقَال مَعْمَر: كَانَ قَتَادَة يَذْكُر نَحْو هَذَا، وَيَذْكُر أَنَّ قَوْمًا مِنْ العَرَب أَرَادُوا أَنْ يَفْتِكُوا بِرَسُول الله ﷺ، فَأَرْسَلُوا هَذَا الأَعْرَابِيّ، وَتَأَوَّل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآيَة. وَقِصَّة هَذَا الأَعْرَابِيّ -وَهُوَ غَوْرَث بْن الحَارِث- ثَابِتَة فِي الصَّحِيح. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤١٣٩).

ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ وَذَلكَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ اليَهُود صَنَعُوا لرَسُول الله ﷺ وَلأَصْحَابِهِ طَعَامًا لِيَقْتُلُوهُمْ، فَأَوْحَى الله تعالى إِلَيْهِ بِشَأْنِهِمْ، فَلَمْ يَأْتِ الطَّعَام، وَأَمَرَ أَصْحَابه فلم يَأْتَوْهُ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.
وَقَال أَبُو مَالك: نَزَلَتْ فِي كَعْب بْن الأَشْرَف وَأَصْحَابه، حِين أَرَادُوا أَنْ يَغْدِرُوا بِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابه فِي دَار كَعْب بْن الأَشْرَف. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار، وَمُجَاهِد وَعِكْرِمَة، وَغَيْر وَاحِد: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْن بَنِي النَّضِير؛ حِين أَرَادُوا أَنْ يُلقُوا عَلى رَأْس رَسُول الله ﷺ الرَّحَى، لَمَّا جَاءَهُمْ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَة العَامِرِيَّيْنِ، وَوَكَّلُوا عَمْرو بْن جَحَاش بْن كَعْب بِذَلكَ، وَأَمَرُوهُ إِنْ جَلسَ النَّبِيّ ﷺ تَحْت الجِدَار، وَاجْتَمَعُوا عِنْده أَنْ يُلقِي تِلكَ الرَّحَى مِنْ فَوْقه، فَأَطْلعَ الله النَّبِيَّ ﷺ عَلى مَا تَمَالَئُوا عَلَيْهِ، فَرَجَعَ إِلى المَدِينَة، وَتَبِعَهُ أَصْحَابه، فَأَنْزَل الله فِي ذَلكَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾. ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم فحاصرهم، حتى أنزلهم فأجلاهم.

وقَوْله تَعَالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، يَعْنِي مَنْ تَوَكَّل عَلى الله كَفَاهُ الله مَا أَهَمَّهُ، وَحَفِظَهُ مِنْ شَرِّ النَّاس، وَعَصَمَهُ.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾

لَمَّا أَمَرَ تَعَالى عِبَاده المُؤْمِنِينَ بِالوَفَاءِ بِعَهْدِهِ، وَمِيثَاقه الَّذِي أَخَذَهُ عَليْهِمْ، عَلى لِسَان عَبْده وَرَسُوله مُحَمَّد ﷺ، وَأَمَرَهُمْ بِالقِيَام بِالحَقِّ وَالشَّهَادَة بِالعَدْل، وَذَكَّرَهُمْ نِعَمه عَلَيْهِمْ الظَّاهِرَة وَالبَاطِنَة؛ فِيمَا هَدَاهُمْ لهُ مِنْ الحَقّ وَالهُدَى، شَرَعَ يُبَيِّن لَهُمْ كَيْف أَخَذَ العُهُود وَالمَوَاثِيق عَلى مَنْ كَانَ قَبْلهمْ؛ مِنْ أَهْل الكِتَابَيْنِ اليَهُود وَالنَّصَارَى، فَلَمَّا نَقَضُوا عُهُوده وَمَوَاثِيقه، أَعْقَبَهُمْ ذَلكَ لعْنًا مِنْهُ لَهُمْ، وَطَرْدًا عَنْ بَابه وَجَنَابه، وَحِجَابًا لقُلُوبِهِمْ عَنْ الوُصُول إِلى الهُدَى وَدِين الحَقّ؛ وَهُوَ العِلم النَّافِع وَالعَمَل الصَّالح، فَقَال تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ يَعْنِي: عُرَفَاء عَلى قَبَائِلهمْ، بِالمُبَايَعَةِ وَالسَّمْع وَالطَّاعَة لله وَلرَسُوله وَلكِتَابِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْن عَبَّاس، ومحمد بن إِسْحَاق وَغَيْر وَاحِد -أَنَّ هَذَا كَانَ لَمَّا تَوَجَّهَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام لِقِتَال الجَبَابِرَة؛ فَأُمِرَ بِأَنْ يُقِيم نُقَبَاء. مِنْ كُلّ سِبْط نَقِيب. قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: فَكَانَ مِنْ سِبْط روبيل «**شامون بْن زكُّور**»، وَمِنْ سِبْط شَمْعُون «**شافاط بْن حري**»، وَمِنْ سِبْط يهوذا «**كالب بْن يوفنا**»، وَمِنْ سِبْط أبين «**ميخائيل بْن يُوسُف**»، وَمِنْ سِبْط يُوسُف -وَهُوَ سِبْط إفرايم- «**يوشع بْن نُون**»، وَمِنْ سِبْط بِنْيَامِين «**فلطمي بْن رفون**»، وَمِنْ سِبْط زبلون «**جدي بْن سودى**»، وَمِنْ سِبْط يوسف وهو منشا بْن يُوسُف «**جدي بْن سُوسَى**»، وَمِنْ سِبْط دان «**حملائيل بْن جمل**»، وَمِنْ سِبْط أسير «**ساطور بْن ملكيل**»، وَمِنْ سِبْط نفثالي «**نحي بْن وفسي**»، وَمِنْ سِبْط جاد «**جولايل بْن ميكي**».

وَقَدْ رَأَيت فِي السِّفْر الرَّابع مِنَ التَّوْرَاة تَعْدَاد النُّقَبَاء عَلَى أَسْبَاط بَنِي إِسْرَائِيل، وَأَسْمَاء مُخَالِفَة لِمَا ذَكَرَهُ ابْن إِسْحَاق، وَالله أَعْلَمُ. قَال فِيهَا: فَعَلى بَنِي روبيل الصوني بْن سادون، وَعَلى بَنِي شَمْعُون شموال بْن صورشكي، وَعَلى بَنِي يهوذا يحشون بْن عمياذاب، وَعَلى بَنِي يساخر شال بْن صاعون، وَعَلى بَنِي زبلون إلياب بْن حالوب، وَعَلى بَنِي يوسف أفرايم ومنشا بْن عمنهود، وَعَلى بَنِي منشا حمليائيل بْن يرصون، وَعَلى بَنِي بِنْيَامِين أبيدن بْن جدعون، وَعَلى بَنِي دان جعيذر بْن عميشذي، وَعَلى بَنِي أسير نحايل بْن عجران، وَعَلى بَنِي حاز السيف بْن دعواييل، وَعَلى بَنِي نفتالي أجزع بْن عمينان. وَهَكَذَا لَمَّا بَايَعَ رَسُول الله ﷺ الأَنْصَار لَيْلَة العَقَبَة؛ كَانَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ نَقِيبًا؛ ثَلاثَة مِنْ الأَوْس وَهُمْ: أُسَيْد بْن الحُضَيْر، وَسَعْد بْن خَيْثَمَةَ، وَرِفَاعَة بْن عَبْد المُنْذِر. وَيُقَال بَدَله أَبُو الهَيْثَم ابْن التَّيِّهَان رضي الله عنه، وَتِسْعَة مِنْ الخَزْرَج وَهُمْ: أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَد بْن زُرَارَة، وَسَعْد بْن الرَّبِيع، وَعَبْد الله بْن رَوَاحَة، وَرَافِع بْن مَالك بْن العَجْلان، وَالبَرَاء بْن مَعْرُور، وَعُبَادَة بْن الصَّامِت، وَسَعْد بْن عُبَادَةَ، وَعَبْد الله بْن عَمْرو بْن حَرَام، وَالمُنْذِر بْن عَمْرو بْن خُنيس رضي الله عنهم، وَقَدْ ذَكَرَهُمْ كَعْب بْن مَالك فِي شِعْر لهُ، كَمَا أَوْرَدَهُ ابْن إِسْحَاق رحمه الله. وَالمَقْصُود أَنَّ هَؤُلاءِ كَانُوا عُرَفَاء عَلى قَوْمهمْ لَيْلَتَئِذٍ، عَنْ أَمْر النَّبِيّ ﷺ لهُمْ بِذَلكَ، وَهُمْ الَّذِينَ وُلُّوا المُعَاقَدَة وَالمُبَايَعَة عَنْ قَوْمهمْ للنَّبِيّ ﷺ عَلى السَّمْع وَالطَّاعَة.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ مُجَالد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ مَسْرُوق قَال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْد عَبْد الله بْن مَسْعُود، وَهُوَ يُقْرِئنَا القُرْآن، فَقَال لهُ رَجُل: يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَن، هَل سَأَلتُمْ رَسُول الله ﷺ كَمْ يَمْلك هَذِهِ الأُمَّةَ مِنْ خَليفَةٍ؟ فَقَال عَبْد الله: مَا سَأَلنِي عَنْهَا أَحَد مُنْذُ قَدِمْت العِرَاق قَبْلك، ثُمَّ قَال: نَعَمْ. وَلقَدْ سَأَلنَا رَسُول الله ﷺ فَقَال: «**اثْنَا عَشَرَ كَعِدَّةِ نُقَبَاء بَنِي إِسْرَائِيل**»[١]. هَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، وَأَصْل هَذَا الحَدِيث ثَابِت فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث جَابِر بْن سَمُرَة، قَال: سَمِعْت النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «**لا يَزَال أَمْر النَّاس مَاضِيًا مَا وَليَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلا**». ثُمَّ تَكَلَّمَ النَّبِيّ ﷺ بِكَلمَةٍ خَفِيَتْ عَليَّ، فَسَأَلت أَبِيْ: مَاذَا قَال النَّبِيّ ﷺ؟ قَال: «**كُلّهمْ مِنْ قُرَيْش**»[٢]. وَهَذَا لفْظ مُسْلم.

وَمَعْنَى هَذَا الحَدِيث البِشَارَة بِوُجُودِ اثْنَيْ عَشَرَ خَليفَة صَالحًا، يُقِيم الحَقّ وَيَعْدِل فِيهِمْ، وَلا يَلزَم مِنْ هَذَا تَوَاليهمْ وَتَتَابُع أَيَّامهمْ، بَل قَدْ وُجِدَ مِنْهُمْ أَرْبَعَة عَلى نَسَق، وَهُمْ الخُلفَاء الأَرْبَعَة: أَبُو بَكْر، وَعُمَر، وَعُثْمَان، وَعَليّ، رضي الله عنهم، وَمِنْهُمْ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز بِلا شَكٍّ عِنْد الأَئِمَّة، وَبَعْض بَنِي العَبَّاس، وَلا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى تَكُون وِلايَتهمْ لا مَحَالة، وَالظَّاهِر أَنَّ مِنْهُمْ المَهْدِيّ المُبَشَّر بِهِ فِي الأَحَادِيث الوَارِدَة بِذِكْرِهِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ يُوَاطِئ اسْمه اسْم النَّبِيّ ﷺ وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِيهِ، فَيَمْلأ الأَرْض عَدْلًا وَقِسْطًا، كَمَا مُلئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، وَليْسَ هَذَا بِالمُنْتَظَر الَّذِي تَتَوَهَّم الرَّافِضَةُ وُجُودَهُ، ثُمَّ ظُهُورَهُ مِنْ سِرْدَاب سَامِرَّا؛ فَإِنَّ ذَلكَ ليْسَ لهُ حَقِيقَة وَلا وُجُود بِالكُلِّيَّةِ، بَل هُوَ مِنْ هَوَس العُقُول السَّخِيفَة، وَتَوَهُّم الخَيَالات الضَّعِيفَة، وَليْسَ المُرَاد بِهَؤُلاءِ الخُلفَاء الاثنى عَشَر؛ الأَئِمَّة الذين يعتقد فيهم الاثْنَا عَشَرِيَة مِنَ الرَّوَافِضِ لجَهْلهِمْ وَقِلَّةِ عَقْلهمْ، وَفِي التَّوْرَاة البِشَارَة بِإِسْمَاعِيل عليه السلام وَأَنَّ الله يُقِيم مِنْ صُلبه اثْنَي عَشَرَ عَظِيمًا، وَهُمْ هَؤُلاءِ الخُلفَاء الاثْنَا عَشَر، المَذْكُورُونَ فِي حَدِيث ابْن مَسْعُود وَجَابِر بْن سَمُرَة. وَبَعْض الجَهَلة مِمَّنْ أَسْلمَ مِنْ اليَهُود، إِذَا اقْتَرَنَ بِهِمْ بَعْض الشِّيعَة يُوهِمُونَهُمْ أَنَّهُمْ الأَئِمَّة الاثْنَا عَشَرَ؛ فَيَتَشَيَّع كَثِيرٌ مِنْهُمْ جَهْلًا وَسَفَهًا، لقِلَّةِ عِلمِهِمْ وَعِلمِ مَنْ لقَّنَهُمْ ذَلكَ بِالسُّنَنِ الثَّابِتَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ.

---

(١) **ضعيف الإسناد**: أخرجه أحمد (١/ ٣٩٨) بسند ضعيف فيه مجالد بن سعيد. قال الدارقطني: ليس بالقوي، وأصل الحديث في الصحيحين من حديث جابر أخرجه البخاري (٧٢٢٢)، ومسلم (١٨٢١).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨٢١).

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾، أَيْ: بِحِفْظِي وَكِلاءَتِي وَنَصْرِي، ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ أَيْ: صَدَّقْتُمُوهُمْ فِيمَا يَجِيئُونَكُمْ بِهِ مِنَ الوَحْيِ، ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أَيْ: نَصَرْتُمُوهُمْ وَوَازَرْتُمُوهُمْ عَلى الحَقِّ، ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وَهُوَ الإِنْفَاق فِي سَبِيله، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أَيْ: ذُنُوبكُمْ، أَمْحُوهَا وَأَسْتُرُهَا وَلا أُوَاخِذكُمْ بِهَا، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أَيْ: أَدْفَع عَنْكُمْ المَحْذُور، وَأُحَصِّل لكُمْ المَقْصُودَ.

وَقَوْله: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ: فَمَنْ خَالفَ هَذَا المِيثَاق بَعْد عَقْدِهِ وَتَوْكِيدِهِ، وَشَدِّهِ، وَجَحَدَهُ وَعَامَلهُ مُعَامَلةَ مَنْ لا يَعْرِفُهُ، فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيق الوَاضِح، وَعَدَل عَنْ الهُدَى إِلى الضَّلال. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى عَمَّا حَلَّ بِهِمْ مِنْ العُقُوبَة عِنْد مُخَالفَتهِمْ مِيثَاقه، وَنَقْضهِمْ عَهْده فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ أَيْ: فَبِسَبَبِ نَقْضِهِمْ المِيثَاقَ الَّذِي أُخِذَ عَليْهِمْ؛ لعَنَّاهُمْ أَيْ: أَبْعَدْنَاهُمْ عَنْ الحَقّ، وَطَرَدْنَاهُمْ عَنْ الهُدَى، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ أَيْ: فَلا يَتَّعِظُونَ بِمَوْعِظَةٍ لِغِلظِهَا وَقَسَاوَتِهَا. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أَيْ: فَسَدَتْ فُهُومُهُمْ، وَسَاءَ تَصَرُّفُهُمْ فِي آيَاتِ الله، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَهُ عَلى غَيْرِ مَا أَنْزَلهُ، وَحَمَلُوهُ عَلى غَيْر مُرَاده، وَقَالُوا عَليْهِ مَا لمْ يَقُل، عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلكَ. ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أَيْ: وَتَرَكُوا العَمَل بِهِ رَغْبَة عَنْهُ. وَقَال الحَسَن: تَرَكُوا عُرَى دِينهمْ وَوَظَائِف الله تَعَالى الَّتِي لا يَقْبَل العَمَل إِلَّا بِهَا. وَقَال غَيْره: تَرَكُوا العَمَل فَصَارُوا إِلى حَالة رَدِيئَة، فَلا قُلُوب سَليمَة، وَلا فِطَر مُسْتَقِيمَة، وَلا أَعْمَال قَوِيمَة. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يَعْنِي: مَكْرهمْ، وَغَدْرهمْ، لك وَلأَصْحَابك. وَقَال مُجَاهِد وَغَيْره: يَعْنِي بِذَلكَ: تَمَالُؤَهُمْ عَلى الفَتْكِ بِرَسُول الله ﷺ. ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ وَهَذَا هُوَ عَيْن النَّصْر وَالظَّفَر، كَمَا قَال بَعْض السَّلف: مَا عَامَلت مَنْ عَصَى الله فِيك، بِمِثْل أَنْ تُطِيع الله فِيهِ. وَبِهَذَا يَحْصُلُ لهُمْ تَأْليفٌ وَجَمْعٌ عَلى الحَقِّ، وَلعَلَّ الله يَهْدِيهِمْ، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يَعْنِي بِهِ: الصَّفْح عَمَّنْ أَسَاءَ إِليْك. وَقَال قَتَادَة: هَذِهِ الآيَة ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ مَنْسُوخَة بِقَوْلِهِ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ أَيْ: وَمِنْ الَّذِينَ ادَّعَوْا لأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ نَصَارَى، يُتَابِعُونَ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَليْسُوا كَذَلكَ، أَخَذْنَا عَليْهِمْ العُهُود وَالمَوَاثِيق عَلى مُتَابَعَة الرَّسُول ﷺ وَمُنَاصَرَته، وَمُؤَازَرَته، وَاقْتِفَاء آثَاره، وَعَلى الإِيمَان بِكُلِّ نَبِيّ يُرْسِلهُ الله إِلى أَهْل الأَرْض، فَفَعَلُوا كَمَا فَعَل اليَهُود؛ خَالفُوا المَوَاثِيق، وَنَقَضُوا العُهُود؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَيْ: فَأَلْقَيْنَا بَيْنهمْ العَدَاوَة وَالبَغْضَاء لبَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَلا يَزَالُونَ كَذَلكَ إِلى قِيَام السَّاعَة، وَكَذَلكَ طَوَائِف النَّصَارَى عَلى اخْتِلاف أَجْنَاسهِمْ؛ لا يَزَالُونَ مُتَبَاغِضِينَ مُتَعَادِينَ، يُكَفِّر بَعْضهمْ بَعْضًا، وَيَلعَن بَعْضهمْ بَعْضًا، فَكُلّ فِرْقَة تُحَرِّم الأُخْرَى، وَلا تَدَعُهَا تَلجُ مَعْبَدَهَا؛ فَالمَلكِيَّةُ تُكَفِّرُ اليَعْقُوبِيَّةَ، وَكَذَلكَ الآخَرُونَ، وَكَذَلكَ النَّسْطُورِيَّةُ وَالآرِيُوسِية، كُلّ طَائِفَة تُكَفِّر الأُخْرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَوْم يَقُوم الأَشْهَاد. ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾. وَهَذَا تَهْدِيد وَوَعِيد أَكِيد للنَّصَارَى، عَلى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ الكَذِب عَلى الله وَرَسُوله، وَمَا نَسَبُوهُ إِلى الرَّبّ ﷻ وَتَعَالى، وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلهمْ عُلُوًّا كَبِيرًا، مِنْ جَعْلهِمْ لهُ صَاحِبَةً وَوَلدًا، تَعَالى الوَاحِدُ الأَحَدُ الفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لمْ يَلدْ وَلمْ يُولدْ، وَلمْ يَكُنْ لهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ أَنَّهُ قَدْ أَرْسَل رَسُوله مُحَمَّدًا ﷺ بِالهُدَى وَدِين الحَقّ إِلى جَمِيع أَهْل الأَرْض؛ عَرَبهمْ وَعَجَمهمْ، أُمِّيِّهِمْ وَكِتَابِيِّهِمْ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ بِالبَيِّنَاتِ، وَالفَرْقِ بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل، فَقَال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ﴾ أَيْ: يُبَيِّن مَا بَدَّلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَأَوَّلُوهُ، وَافْتَرَوْا عَلَى الله فِيهِ، وَيَسْكُت عَنْ كَثِير مِمَّا غَيَّرُوهُ، وَلا فَائِدَة فِي بَيَانه. وَقَدْ رَوَى الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ حَدِيث الحُسَيْن بْن وَاقِد، عَنْ يَزِيد النَّحْوِيّ، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس ﷺ قَال: مَنْ كَفَرَ بِالرَّجْمِ فَقَدْ كَفَرَ بِالقُرْآنِ، مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب، قَوْله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ فَكَانَ الرَّجْم مِمَّا أَخْفَوْهُ. ثُمَّ قَال: صَحِيح الإِسْنَاد وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى عَنْ القُرْآن العَظِيم، الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلى نَبِيّه الكَرِيم فَقَال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ أَيْ: طُرُق النَّجَاة وَالسَّلامَة، وَمَنَاهِج الاسْتِقَامَة، ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أَيْ: يُنَجِّيهِمْ مِنْ المَهَالك، وَيُوَضِّح لهُمْ أَبْيَنَ المَسَالك، فَيَصْرِف عَنْهُمْ المَحْذُور، وَيُحَصِّل لهُمْ أَحَبَّ الأُمُور، وَيَنْفِي عَنْهُمْ الضَّلالة، وَيُرْشِدهُمْ إِلى أَقْوَم حَالةٍ.

﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا وَحَاكِمًا بِكُفْرِ النَّصَارَى فِي ادِّعَائِهِمْ فِي المَسِيح ابْنِ مَرْيَمَ، وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ الله، وَخَلقٌ مِنْ خَلقِهِ، أَنَّهُ هُوَ الله -تَعَالى الله عَنْ قَوْلهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا-. ثُمَّ قَال مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلى الأَشْيَاءِ، وَكَوْنهَا تَحْت قَهْره وَسُلطَانه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ ﴾ أَيْ: لوْ أَرَادَ ذَلكَ فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْهُ؟ أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِر عَلى صَرْفه عَنْ ذَلكَ؟ ثُمَّ قَال: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ أَيْ: جَمِيع المَوْجُودَات مُلكه وَخَلقه، وَهُوَ القَادِر عَلى مَا يَشَاء، لا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل؛ لِقُدْرَتِهِ وَسُلطَانه وَعَدْله وَعَظَمَته، وَهَذَا رَدٌّ عَلى النَّصَارَى عَليْهِمْ لعَائِنُ الله المُتَتَابِعَة إِلى يَوْم القِيَامَة. ثم قَال تَعَالى رَدًّا عَلى اليَهُود وَالنَّصَارَى فِي كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ﴾ أَيْ: نَحْنُ مُنْتَسِبُونَ إِلى أَنْبِيَائِهِ، وَهُمْ بَنُوهُ، وَلهُ بِهِمْ عِنَايَة، وَهُوَ يُحِبّنَا، وَنَقَلُوا عَنْ كِتَابِهِمْ أَنَّ الله تَعَالى قَال لعَبْدِهِ إِسْرَائِيل: أَنْتَ ابْنِي بِكْرِي، فَحَمَلُوا هَذَا عَلى غَيْر تَأْوِيله وَحَرَّفُوهُ. وَقَدْ رَدَّ عَليْهِمْ غَيْرُ وَاحِدٍ مِمَّنْ أَسْلمَ مِنْ عُقَلائِهِمْ، وَقَالُوا: هَذَا يُطْلقُ عِنْدَهُمْ عَلى التَّشْرِيفِ وَالإِكْرَام، كَمَا نَقَل النَّصَارَى مِنْ كِتَابِهِمْ؛ أَنَّ عِيسَى قَال لهُمْ: إِنِّي ذَاهِب إِلى أَبِي وَأَبِيكُمْ، يَعْنِي رَبِّي وَرَبّكُمْ، وَمَعْلُوم أَنَّهُمْ لمْ يَدَّعُوا لأَنْفُسِهِمْ مِنْ البُنُوَّةِ مَا ادَّعَوْهَا فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام وَإِنَّمَا أَرَادُوا مِنْ ذَلكَ مَعَزَّتَهُمْ لديه، وَحُظْوَتَهُمْ عِنْدَهُ، وَلهَذَا قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ.

قَال الله تَعَالى رَادًّا عَليْهِمْ: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ ﴾ أَيْ: لوْ كُنْتُمْ كَمَا تَدَّعُونَ أَبْنَاؤُهُ وَأَحِبَّاؤُهُ، فَلمَ أَعَدَّ لكُمْ

نَار جَهَنَّم عَلَى كُفرِكُمْ وَكَذِبكُمْ وَافتِرَائِكُمْ؟ وَقَدْ قَال بَعْض شُيُوخ الصُّوفِيَّة لبَعْضِ الفُقَهَاء: أَيْنَ تَجِد فِي القُرْآن أَنَّ الحَبِيب لا يُعَذِّب حَبِيبه؟ فَلَمْ يَرُدّ عَلَيْهِ فَتَلا عَلَيْهِ الصُّوفِيّ هَذِهِ الآيَة ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَن، وَلَهُ شَاهِد فِي المُسْنَد للإِمَام أَحْمَد حَيْثُ قَال: حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس قَال: مَرَّ النَّبِيّ ﷺ فِي نَفَر مِنْ أَصْحَابه، وَصَبِيّ فِي الطَّرِيق، فَلَمَّا رَأَتْ أُمُّهُ القَوْمَ خَشِيَتْ عَلَى وَلَدِهَا أَنْ يُوطَأَ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَتَقُول: ابْنِي ابْنِي، وَسَعَتْ فَأَخَذَتْهُ. فَقَال القَوْم: يَا رَسُول الله، مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُلقِيَ وَلدهَا فِي النَّار. قَال: فَخَفَّضَهُمْ النَّبِيّ ﷺ فقال: «**ولا، واللهُ ﷻ ما يُلقي حبيبه في النَّار**»[1]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد. ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أَيْ: لَكُمْ أُسْوَة أَمْثَالكُمْ مِنْ بَنِي آدَم، وَهُوَ سُبْحَانه الحَاكِم فِي جَمِيع عِبَاده، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أَيْ: هُوَ فَعَّال لِمَا يُرِيد، لا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيع الحِسَاب ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيْ: الجَمِيع مُلكه وَتَحْت قَهْره وَسُلطَانه ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أَيْ: المَرْجِعُ وَالمَآب إِلَيْهِ؛ فَيَحْكُم فِي عِبَادِهِ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ العَادِلُ الَّذِي لا يَجُورُ.

وَرَوَى مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ مُحَمَّد بْن أَبِي مُحَمَّد، عَنْ عِكْرِمَة أَوْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: وَأَتَى رَسُول الله ﷺ نُعْمَان بْن آصا وبحري بْن عَمْرو وَشَاس بْن عَدِيّ، فَكَلَّمُوهُ، وَكَلَّمَهُمْ رَسُول الله ﷺ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الله، وَحَذَّرَهُمْ نِقْمَته، فَقَالُوا: مَا تُخَوِّفنَا يَا مُحَمَّد؛ نَحْنُ -والله- أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ، كَقَوْل النَّصَارَى، فَأَنْزَل الله فِيهِمْ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[2] إِلَى آخِر الآيَة. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير.

وَرَوَيَا أَيْضًا مِنْ طَرِيق أَسْبَاط، عَنْ السُّدِّيّ فِي قَوْل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.
أَمَّا قَوْلهمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾؛ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ الله أَوْحَى إِلَى إِسْرَائِيل: ولداً من ولدك، أدخلهم النار فَيَكُونُونَ فِيهَا أَرْبَعِينَ لَيْلَة، حَتَّى تُطَهِّرَهُمْ، وَتَأْكُل خَطَايَاهُمْ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: أَنْ أَخْرِجُوا كُلَّ مَخْتُونٍ مِنْ وَلَدِ إِسْرَائِيل، فَأَخْرِجُوهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخَاطِبًا أَهْل الكِتَاب مِنَ اليَهُود وَالنَّصَارَى، بِأَنَّهُ قَدْ أَرْسَل إِلَيْهِمْ رَسُوله مُحَمَّدًا ﷺ، خَاتَم النَّبِيِّينَ الَّذِي لا نَبِيّ بَعْده وَلا رَسُول، بَل هُوَ المُعَقِّب لِجَمِيعِهِمْ، وَلِهَذَا قَال: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أَيْ: بَعْد مُدَّة مُتَطَاوِلة، مَا بَيْن إِرْسَاله، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ. وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَار هَذِهِ الفَتْرَة: كَمْ هِيَ؟ فَقَال أَبُو عُثْمَان النَّهْدِيّ وَقَتَادَة فِي رِوَايَة عَنْهُ: كَانَتْ سِتَّمِائَة سَنَة. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ عَنْ سَلْمَان الفَارِسِيّ. وَعَنْ قَتَادَة: خَمْسُمِائَة وَسِتُّونَ سَنَة.

وَقَال مَعْمَرٌ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ: خَمْسُمِائَة وَأَرْبَعُونَ سَنَة. وَقَال الضَّحَّاك: أَرْبَعُمِائَة وَبِضْعٌ وَثَلاثُونَ سَنَة. وَذَكَرَ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة عِيسَى ﷺ عَنْ الشَّعْبِيّ أَنَّهُ قَال: وَمِنْ رَفْع المَسِيح إِلَى هِجْرَة النَّبِيّ ﷺ تِسْعُمِائَة وَثَلاث وَثَلاثُونَ سَنَة. وَالمَشْهُور هُوَ القَوْل الأَوَّل، وَهُوَ أَنَّهَا سِتُّمِائَة سَنَة، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول: سِتُّمِائَة وَعِشْرُونَ سَنَة، وَلا مُنَافَاة بَيْنهمَا؛ فَإِنَّ القَائِل الأَوَّل أَرَادَ سِتَّمِائَة سَنَة شَمْسِيَّة، وَالآخَر أَرَادَ قَمَرِيَّة، وَبَيْن كُلِّ مِائَة سَنَة شَمْسِيَّة وَبَيْنَ القَمَرِيَّة نَحْوٌ مِنْ ثَلاثِ سِنِينَ، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى فِي قِصَّة أَهْل الكَهْف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أَيْ: قَمَرِيَّة لتكميل ثَلاثِمِائَة الشَّمْسِيَّة الَّتِي كَانَتْ مَعْلُومَة لأَهْل الكِتَاب، وَكَانَتْ الفَتْرَةُ بَيْن عِيسَى ابْن مَرْيَم آخِرِ أَنْبِيَاء بَنِي إِسْرَائِيل، وَبَيْن مُحَمَّد خَاتِمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَنِي آدَم عَلَى الإِطْلَاق، كَمَا ثَبَتَ فِي

(١) **ضعيف الإسناد**: أخرجه أحمد (٣/ ١٠٤)، وأبو يعلى (٣٧٤٧)، ورجاله ثقات إلا أن حميدًا مدلس فالإسناد ضعيف، وإن كان المعنى صحيحًا لظاهر الآية.
(٢) **ضعيف الإسناد**: فيه محمد بن أبي محمد: مجهول.

صَحِيح البُخَارِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِنَّ أَوْلى النَّاس بِابْنِ مَرْيَم لأَنَا؛ لأنه لا نبي بَيْنِي وَبَيْنَهُ**»[1]، وَهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ بُعِثَ بَعْد عِيسَى نَبِيٌّ يُقَال لهُ خَالد بْن سِنَان، كَمَا حَكَاهُ القُضَاعِيّ وَغَيْره.

وَالمَقْصُود أَنَّ الله بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلى فَتْرَة مِنْ الرُّسُل، وَطُمُوس مِنْ السُّبُل، وَتَغَيُّر الأَدْيَان، وَكَثْرَة عِبَادَة الأَوْثَان وَالنِّيرَان وَالصُّلبَان. فَكَانَتْ النِّعْمَة بِهِ أَتَمَّ النِّعَم، وَالحَاجَةُ إِليْهِ أَمْرٌ عَمَمٌ، فَإِنَّ الفَسَاد كَانَ قَدْ عَمَّ جَمِيع البِلاد، وَالطُّغْيَان وَالجَهْل قَدْ ظَهَرَ فِي سَائِر العِبَاد، إِلَّا قَليلًا مِنْ المُتَمَسِّكِينَ بِبَقَايَا مِنْ دِين الأَنْبِيَاء الأَقْدَمِينَ، مِنْ بَعْض أَحْبَار اليَهُود وَعُبَّاد النَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ، كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا هِشَام، حَدَّثَنَا قَتَادَة، عَنْ مُطَرِّف، عَنْ عِيَاض بْن حِمَار المُجَاشِعِيّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيّ ﷺ خَطَبَ ذَات يَوْم فَقَال فِي خُطْبَته: «**وَإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمكُمْ مِمَّا جَهِلتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا، كُلّ مَال نَحَلته عِبَادِي حَلال، وإني خَلقْت عِبَادِي حُنَفَاء كُلّهمْ، وَإِنَّ الشَّيَاطِين أَتَتْهُمْ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينهمْ، وَحَرَّمَتْ عَليهِمْ مَا أَحْللت لهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لمْ أُنَزِّل بِهِ سُلطَانًا، ثُمَّ إِنَّ الله ﷻ نَظَرَ إِلى أَهْل الأَرْض فَمَقَتَهُمْ، عَرَبهمْ وَعَجَمهمْ، إلا بَقَايَا مِنْ أهل الكتاب، وَقَال: إِنَّمَا بَعَثْتُك لأَبْتَليَك وَأَبْتَليَ بِك، وَأَنْزَلت عَليْك كِتَابًا لا يَغْسِلهُ المَاء، تَقْرَأهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا، ثُمَّ إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلت: يَا رَبّ إِذَنْ يَثْلغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، فَقَال: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوك، وَاغْزُهُمْ نُغْزِك، وَأَنْفِقْ عَليْهِمْ فَسَنُنْفِقُ عَليْك، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَث خَمْسَة أَمْثَاله، وَقَاتِل بِمَنْ أَطَاعَك مَنْ عَصَاك، وَأَهْل الجَنَّة ثَلاثَة: ذُو سُلطَان مُقْسِط مُوَفَّق مُتَّصِدق، وَرَجُل رَحِيم رَقِيق القَلب، بِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلم، وَرَجُل عَفِيف فَقِير ذُو عِيَال مُتَصَدِّق، وَأَهْل النَّار خَمْسَة: الضَّعِيفُ الَّذِي لا زِبر لهُ، وَالَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا أَوْ تَبَعاء -شَكَّ يَحْيَى- لا يَبْتَغُونَ أَهْلا وَلا مَالا، وَالخَائِن الَّذِي لا يَخْفَى لهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلا خَانَهُ، وَرَجُل لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسِي إِلا وَهُوَ يُخَادِعُك عَنْ أَهْلك وَمَالك**». وَذَكَرَ البُخْل أَوْ الكَذِب، وَالشِّنْظِيرَ الفَاحِش[2].

ثُمَّ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَمُسْلم وَالنَّسَائِيّ مِنْ غَيْر وَجْه، عَنْ قَتَادَة، عَنْ مُطَرِّف بْن عَبْد الله بْن الشِّخِّير. وَفِي رِوَايَة سعيد عَنْ قَتَادَة التَّصْرِيح بِسَمَاع قَتَادَة هَذَا الحَدِيث مِنْ مُطَرِّف. وَقَدْ ذَكَرَ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده أَنَّ قَتَادَة لمْ يَسْمَعهُ مِنْ مُطَرِّف، وَإِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ أَرْبَعَة عَنْهُ. ثُمَّ رَوَاهُ هُوَ عَنْ رَوْح عَنْ عَوْف عَنْ حَكِيم الأَثْرَم عَنْ الحَسَن، قَال: حَدَّثَنِي مُطَرِّف، عَنْ عِيَاض بْن حَمَّار فَذَكَرَهُ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث غُنْدَر، عَنْ عَوْف الأَعْرَابِيّ بِهِ.

وَالمَقْصُود مِنْ إِيرَاد هَذَا الحَدِيث قَوْله: «**وَإِنَّ الله نَظَرَ إِلى أَهْل الأَرْض فَمَقَتَهُمْ، عَجَمهمْ وَعَرَبهمْ، إلا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل**»، وَفِي لفْظ مُسْلم: «**مِنْ أَهْل الكِتَاب**»، فَكَانَ الدِّين قَدْ التَبَسَ عَلى أَهْل الأَرْض كُلّهمْ، حَتَّى بَعَثَ الله مُحَمَّدًا ﷺ، فَهَدَى الخَلائِق، وَأَخْرَجَهُمْ الله بِهِ مِنْ الظُّلُمَات إِلى النُّور، وَتَرَكَهُمْ عَلى المَحَجَّة البَيْضَاء وَالشَّرِيعَة الغَرَّاء، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أَيْ: لئَلَّا تَحْتَجُّوا وَتَقُولُوا يَا أَيُّهَا الَّذِين بَدَّلُوا دِينهمْ وَغَيَّرُوهُ مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُول يُبَشِّر بِالخَيْر، وَيُنْذِر مِنْ الشَّرّ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِير وَنَذِير، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. قَال ابْن جَرِير: مَعْنَاهُ إِنِّي قَادِر عَلى عِقَاب مَنْ عَصَانِي وَثَوَاب مَنْ أَطَاعَنِي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ٢٦٦).

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وكليمه مُوسَى بْن عِمْرَان عليه السلام فِيمَا ذَكَّرَ بِهِ قَوْمَهُ من نِعَمِ الله عَلَيْهِمْ وَآلائِهِ لدَيْهِمْ، فِي جَمْعِهِ لهُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، لوْ اسْتَقَامُوا عَلى طَرِيقَتهِمْ المُسْتَقِيمَة. فَقَال تَعَالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ أَيْ: كُلَّمَا هَلكَ نَبِيّ قَامَ فِيكُمْ نَبِيّ مِنْ لدُنْ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيم إِلى مَنْ بَعْده، وَكَذَلكَ كَانُوا لا يَزَال فِيهِمْ الأَنْبِيَاء يَدْعُونَ إِلى الله، وَيُحَذِّرُونَ نِقْمَته، حَتَّى خُتِمُوا بِعِيسَى ابْن مَرْيَم عليه السلام، ثُمَّ أَوْحَى الله إِلى خَاتِم الأَنْبِيَاء وَالرُّسُل عَلى الإِطْلاق مُحَمَّد بْن عَبْد الله، المَنْسُوب إِلى إِسْمَاعِيل ابْن إِبْرَاهِيم عليه السلام، وَهُوَ أَشْرَفُ مِنْ كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْهُمْ ﷺ وقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾. قَال عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ الثَّوْرِيّ، عَنْ مَنْصُور، عَنْ الحَكَم أَوْ غَيْره، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ قَال: الخَادِم وَالمَرْأَة وَالبَيْت. وَرَوَى الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ أَيْضًا، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: المَرْأَة وَالخَادِم، ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَال: الَّذِينَ هُمْ بَيْن ظَهْرَانِيهِمْ يَوْمئِذٍ. ثُمَّ قَال الحَاكَم: صَحِيح عَلى شَرْط الشَّيْخَيْنِ وَلمْ يُخَرِّجَاهُ. وَرَوَى مَيْمُون بْن مِهْرَان، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ الرَّجُل مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل؛ إِذَا كَانَ لهُ الزَّوْجَة وَالخَادِم وَالدَّار؛ سُمِّيَ مَلكًا.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، أَنْبَأَنَا ابْن وَهْب، أَنْبَأَنَا أَبُو هَانِئ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، يَقُول: سَمِعْت عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاصِ، وَسَأَلهُ رَجُل فَقَال: أَلسْنَا مِنْ فُقَرَاء المُهَاجِرِينَ؟ فَقَال عَبْد الله: أَلك امْرَأَة تَأْوِي إِليْهَا؟ قَال: نَعَمْ. قَال: أَلك مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟ قَال: نَعَمْ. قَال: فَأَنْتَ مِنْ الأَغْنِيَاءِ. فَقَال: إِنَّ لِي خَادِمًا. فَقَال: فَأَنْتَ مِنْ المُلُوكِ. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: هَل المُلْكُ إِلَّا مَرْكَبٌ وَخَادِم وَدَار. رَوَاهُ ابْن جَرِير، ثُمَّ رَوَى عَنْ الحَكَم وَمُجَاهِد وَمَنْصُور وَسُفْيَان الثَّوْرِيّ نَحْوًا مِنْ هَذَا. وَحَكَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِم، عَنْ مَيْمُون بْن مِهْرَان. وَقَال ابْن شَوْذَب: كَانَ الرَّجُل مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل إِذَا كَانَ لهُ مَنْزِل وَخَادِم؛ وَاسْتُؤْذِنَ عَليْهِ فَهُوَ مَلك. وَقَال قَتَادَة: كَانُوا أَوَّل مَنْ ملك الخَدَم. وَقَال السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ قَال: يَمْلك الرَّجُل مِنْكُمْ نَفْسه وَمَاله وَأَهْله. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ ابْن لهِيعَة، عَنْ دَرَّاج، عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «كَانَ بَنُو إِسْرَائِيل إِذَا كَانَ لأَحَدِهِمْ خَادِم وَدَابَّة وَامْرَأَة؛ كُتِبَ مَلكًا»[١]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا الزُّبَيْر بْن بَكَّار، حَدَّثَنَا أَبُو ضَمْرَة أَنَس بْن عِيَاض، سَمِعْت زَيْد بْن أَسْلَمَ، يَقُول: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ فَلا أَعْلمُ إِلَّا أَنَّهُ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ لهُ بَيْت وَخَادِم فَهُوَ مَلك»[٢]. وَهَذَا مُرْسَل غَرِيب. وَقَال مَالك: بَيْت وَخَادِم وَزَوْجَة. وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»[٣].

وَقَوْله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَعْنِي عَالمِي زَمَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْرَفَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ، مِنْ

---

(١) ضعيف: فيه ابن لهيعة: ضعيف، ودراج عن أبي الهيثم قال الحافظ: ضعيف.
(٢) مرسل: أخرجه ابن جرير (٦/ ١٦٩) بسند مرسل.
(٣) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد الله بن محصن، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٤٠).

اليُونَانِ، وَالقِبْطِ، وَسَائِرِ أَصْنَافِ بَنِي آدَمَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَقَال تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى لَمَّا قَالُوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وَالمَقْصُود أَنَّهُمْ كَانُوا أَفْضَل أهل زَمَانِهِمْ، وَإِلَّا فَهَذِهِ الأُمَّة أَشْرَفُ مِنْهُمْ وَأَفْضَلُ عِنْد الله، وَأَكْمَلُ شَرِيعَةً، وَأَقْوَمُ مِنْهَاجًا، وَأَكْرَمُ نَبِيًّا، وَأَعْظَمُ مُلْكًا، وَأَغْزَرُ أَرْزَاقًا، وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلادًا، وَأَوْسَعُ مَمْلَكَةً، وَأَدْوَمُ عِزًّا، قَال الله تَعَالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وَقَدْ ذَكَرْنَا الأَحَادِيثَ المُتَوَاتِرَة فِي فَضْل هَذِهِ الأُمَّة، وَشَرَفهَا وَكَرَمهَا عِنْد الله ﷻ عِنْد قَوْله تَعَالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ مِنْ سُورَة آل عِمْرَان.

وَرَوَى ابْن جَرِير عَنْ ابْن عَبَّاس، وَأَبِي مَالك، وَسَعِيد بْن جُبَيْر أَنَّهُمْ قَالُوا فِي قَوْله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَعْنِي أُمَّة مُحَمَّد ﷺ وَكَأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّ هَذَا الخِطَاب فِي قَوْله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا﴾ مَعَ هَذِهِ الأُمَّة. وَالجُمْهُور عَلى أَنَّهُ خِطَاب مِنْ مُوسَى لِقَوْمِهِ، وَهُوَ مَحْمُول عَلى عَالمِي زَمَانِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا.

وَقِيل: المُرَاد ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مَا كَانَ تَعَالى نَزَّلَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ المَنّ وَالسَّلْوَى، وَيُظَلِّلُهُمْ بِهِ مِنْ الغَمَام وَغَيْر ذَلِكَ، مِمَّا كَانَ تَعَالى يَخُصُّهُمْ بِهِ مِنْ خَوَارِق العَادَات، فَالله أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ تَحْرِيض مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِي إِسْرَائِيل عَلى الجِهَاد، وَالدُّخُول إِلى بَيْت المَقْدِس، الَّذِي كَانَ بِأَيْدِيهِمْ فِي زَمَان أَبِيهِمْ يَعْقُوب؛ لَمَّا ارْتَحَل هُوَ وَبَنُوهُ وَأَهْله إِلى بِلاد مِصْر، أَيَّام يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مع مُوسَى، فَوَجَدُوا فِيهَا قَوْمًا مِنْ العَمَالقَة الجَبَّارِينَ، قَدْ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا وَتَمَلَّكُوهَا، فَأَمَرَهُمْ رَسُول الله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالدُّخُول إِلَيْهَا، وَبِقِتَال أَعْدَائِهِمْ، وَبَشَّرَهُمْ بِالنُّصْرَة وَالظَّفَر عَلَيْهِمْ، فَنَكَلُوا وَعَصَوْا وَخَالفُوا أَمْرَهُ؛ فَعُوقِبُوا بِالذَّهَابِ فِي التِّيه، وَالتَّمَادِي فِي سَيْرِهِمْ حَائِرِينَ، لا يَدْرُونَ كَيْف يَتَوَجَّهُونَ إِلى مَقْصِدٍ مُدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، عُقُوبَة لهُمْ عَلى تَفْرِيطِهِمْ فِي أَمْر الله تَعَالى. فَقَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ أَيْ: المُطَهَّرَة. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ الأَعْمَش، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ قَال: هِيَ الطُّور وَمَا حَوْله. وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد. وَرَوَى سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد البَقَّال، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: هِيَ أَرِيحَاء. وَكَذَا ذُكِرَ عَنْ غَيْر وَاحِد مِنْ المُفَسِّرِينَ.

وَفِي هَذَا نَظَر؛ لأَنَّ أَرِيحَاء لَيْسَتْ هِيَ المَقْصُودَة بِالفَتْح، وَلا كَانَتْ فِي طَرِيقهِمْ إِلى بَيْت المَقْدِس، وَقَدْ قَدِمُوا مِنْ بِلادِ مِصْر حِين أَهْلَكَ الله عَدُوَّهُمْ فِرْعَوْن، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُون المُرَاد بِأَرِيحَاء أَرْض بَيْت المَقْدِس، كَمَا قَالهُ السُّدِّيّ فِيمَا رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْهُ لا أَنَّ المُرَاد بِهَا هَذِهِ البَلْدَة المَعْرُوفَة فِي طَرَف الغَوْر، شَرْقِيّ بَيْت المَقْدِس.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أَيْ: الَّتِي وَعَدَكُمُوهَا الله عَلى لِسَان أَبِيكُمْ إِسْرَائِيل، أَنَّهُ وِرَاثَة مَنْ آمَنَ مِنْكُمْ، ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ أَيْ: وَلا تَنْكُلُوا عَنْ الجِهَاد، ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ أي: اعْتَذَرُوا بِأَنَّ فِي هَذِهِ البَلْدَة الَّتِي أَمَرْتَنَا بِدُخُولهَا وَقِتَال أَهْلهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، أَيْ: ذَوِي خَلْق هَائِلة، وَقُوًى شَدِيدَة، وَإِنَّنَا لا نَقْدِر عَلى مُقَاوَمَتهمْ، وَلا مُصَاوَلتهمْ، وَلا يُمْكِننَا الدُّخُول إِليْهَا مَا دَامُوا فِيهَا؛ فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا دَخَلنَاهَا، وَإِلَّا فَلا طَاقَة لنَا بِهِمْ.

وَقَدْ قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي عَبْد الكَرِيم بْن الهَيْثَم، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا سُفْيَان، قَال: قَال أَبُو سَعِيد: قَال عِكْرِمَة: عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: أُمِرَ مُوسَى أَنْ يَدْخُل مَدِينَة الجَبَّارِينَ، قَال: فَسَارَ مُوسَى بِمَنْ مَعَهُ، حَتَّى نَزَل قَرِيبًا مِنْ المَدِينَة، وَهِيَ أَرِيحَاء، فَبَعَثَ إِليْهِمْ اثْنَي عَشَرَ عَيْنًا، مِنْ كُلّ سِبط مِنْهُمْ عَيْن ليَأْتُوهُ بِخَبَرِ القَوْم، قَال:

فَدَخَلُوا المَدِينَةَ، فَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا مِنْ هَيْئَتِهِمْ، وَجِسْمِهِمْ، وَعِظَمِهِمْ، فَدَخَلُوا حَائِطًا لِبَعْضِهِمْ، فَجَاءَ صَاحِبُ الحَائِطِ لِيَجْتَنِيَ الثِّمَارَ مِنْ حَائِطِهِ، فَجَعَلَ يَجْتَنِي الثِّمَارَ، وَيَنْظُرُ إِلَى آثَارِهِمْ، فَتَبِعَهُمْ، فَكُلَّمَا أَصَابَ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَخَذَهُ فَجَعَلَهُ فِي كُمِّهِ مَعَ الفَاكِهَةِ، حَتَّى التَقَطَ الاثْنَا عَشَرَ كُلَّهُمْ، فَجَعَلَهُمْ فِي كُمِّهِ مَعَ الفَاكِهَةِ، وَذَهَبَ بِهِمْ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ المَلِكُ: قَدْ رَأَيْتُمْ شَأْنَنَا وَأَمْرَنَا، فَاذْهَبُوا فَأَخْبِرُوا صَاحِبَكُمْ، قَالَ: فَرَجَعُوا إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرُوهُ بِمَا عَايَنُوا مِنْ أَمْرِهِمْ. وَفِي هَذَا الإِسْنَادِ نَظَرٌ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَ مُوسَى وَقَوْمُهُ، بَعَثَ مِنْهُمْ اثْنَي عَشَرَ رَجُلًا، وَهُمْ النُّقَبَاءُ، الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ اللهُ، فَبَعَثَهُمْ لِيَأْتُوهُ بِخَبَرِهِمْ، فَسَارُوا فَلَقِيَهُمْ رَجُلٌ مِنْ الجَبَّارِينَ، فَجَعَلَهُمْ فِي كِسَائِهِ، فَحَمَلَهُمْ حَتَّى أَتَى بِهِمْ المَدِينَةَ، وَنَادَى فِي قَوْمِهِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ قَوْمُ مُوسَى، بَعَثَنَا نَأْتِيهِ بِخَبَرِكُمْ، فَأَعْطَوْهُمْ حَبَّةً مِنْ عِنَبٍ، تَكْفِي الرَّجُلَ، فَقَالُوا لَهُمْ: اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى وَقَوْمِهِ، فَقُولُوا لَهُمْ هَذَا قَدْرُ فَاكِهَتِهِمْ، فَرَجَعُوا إِلَى مُوسَى، فَأَخْبَرُوهُ بِمَا رَأَوْا، فَلَمَّا أَمَرَهُمْ مُوسَى عليه السلام بِالدُّخُولِ عَلَيْهِمْ وَقِتَالِهِمْ، قَالُوا: يَا مُوسَى، اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ الهَادِ، حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: رَأَيْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ أَخَذَ عَصًا، فَذَرَعَ فِيهَا بِشَيْءٍ لا أَدْرِي كَمْ ذَرَعَ، ثُمَّ قَاسَ بِهَا فِي الأَرْضِ خَمْسِينَ أَوْ خَمْسًا وَخَمْسِينَ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا طُولُ العَمَالِيقِ.

وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنْ المُفَسِّرِينَ هَهُنَا أَخْبَارًا مِنْ وَضْعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فِي عَظَمَةِ خَلْقِ هَؤُلَاءِ الجَبَّارِينَ، وَأَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ عُوجُ بْنُ عُنُقَ بِنْتِ آدَمَ عليه السلام، وَأَنَّهُ كَانَ طُولُهُ ثَلَاثَةَ آلَافِ ذِرَاعٍ وَثَلَاثَمِائَةٍ وَثَلَاثَةً وَثَلَاثُونَ ذِرَاعًا وَثُلُثُ ذِرَاعٍ، تَحْرِيرُ الحِسَابِ، وَهَذَا شَيْءٌ يُسْتَحَيَا مِنْ ذِكْرِهِ، ثُمَّ هُوَ مُخَالِفٌ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ**»[1]. ثُمَّ ذَكَرُوا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ كَافِرًا، وَأَنَّهُ كَانَ وَلَدَ زَنْيَةٍ، وَأَنَّهُ امْتَنَعَ مِنْ رُكُوبِ سَفِينَةِ نُوحٍ، وَأَنَّ الطُّوفَانَ لَمْ يَصِلْ إِلَى رُكْبَتِهِ. وَهَذَا كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ أَنَّ نُوحًا دَعَا عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ مِنْ الكَافِرِينَ، فَقَالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ وَإِذَا كَانَ ابْنُ نُوحٍ الكَافِرُ غَرِقَ، فَكَيْفَ يُبْقَى عُوجُ بْنُ عُنُقَ وَهُوَ كَافِرٌ، وَوَلَدُ زَنْيَةٍ؟ هَذَا لا يَسُوغُ فِي عَقْلٍ وَلَا شَرْعٍ، ثُمَّ فِي وُجُودِ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: عُوجُ بْنُ عُنُقَ نَظَرٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أَيْ: فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، وَمُتَابَعَةِ رَسُولِ اللهِ مُوسَى عليه السلام، حَرَّضَهُمْ رَجُلَانِ، للهِ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ أَمْرَ اللهِ، وَيَخْشَى عِقَابَهُ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يُخَافُونَ﴾ أَيْ: مِمَّنْ لَهُمَا مَهَابَةٌ وَمَوْضِعٌ مِنْ النَّاسِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُمَا يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وكالب بْنُ يوفنا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعَطِيَّةُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ وَالخَلَفِ، رَحِمَهُمْ اللهُ. فَقَالَا: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: متى تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ، وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرَهُ، وَوَافَقْتُمْ رَسُولَهُ، نَصَرَكُمْ اللهُ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَأَيَّدَكُمْ وَظَفَّرَكُمْ بِهِمْ، وَدَخَلْتُمْ البَلَدَ الَّتِي كَتَبَهَا اللهُ لَكُمْ، فَلَمْ يَنْفَعْ ذَلِكَ فِيهِمْ شَيْئًا. ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ وَهَذَا نُكُولٌ مِنْهُمْ عَنْ الجِهَادِ، وَمُخَالَفَةٌ لِرَسُولِهِمْ، وَتَخَلُّفٌ عَنْ مُقَاتَلَةِ الأَعْدَاءِ. وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمَّا نَكَلُوا عَنْ الجِهَادِ، وَعَزَمُوا عَلَى الانْصِرَافِ وَالرُّجُوعِ إِلَى مِصْرَ، سَجَدَ مُوسَى وَهَارُونُ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- قُدَّامَ مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ إِعْظَامًا لِمَا هَمُّوا بِهِ، وَشَقَّ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ وكالب بْنُ يوفنا ثِيَابَهُمَا، وَلَامَا قَوْمَهُمَا عَلَى ذَلِكَ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ رَجَمُوهُمَا، وَجَرَى أَمْرٌ عَظِيمٌ وَخَطْبٌ جَلِيلٌ.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).

وَمَا أَحْسَنَ مَا أَجَابَ بِهِ الصَّحَابَة ﷺ يَوْم بَدْر رَسُول الله ﷺ، حِين اسْتَشَارَهُمْ فِي قِتَال النَّفِير، الَّذِينَ جَاءُوا لِمَنْع العِير الَّذِي كَانَ مَعَ أَبِي سُفْيَان، فَلَمَّا فَاتَ اقْتِنَاص العِير وَاقْتَرَبَ مِنْهُمْ النَّفِير، وَهُمْ فِي جَمْع مَا بَيْن التِّسْعِمِائَةِ إِلى الأَلْف فِي العُدَّة وَالبِيض وَاليَلَب، فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْر ﷺ فَأَحْسَنَ، ثُمَّ تَكَلَّمَ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ الصَّحَابَة مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَرَسُول الله ﷺ يَقُول: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ». وَمَا يَقُول ذَلِكَ إِلَّا لِيَسْتَعْلِم مَا عِنْد الأَنْصَار، لأَنَّهُمْ كَانُوا جُمْهُور النَّاس يَوْمئِذٍ، فَقَال سَعْد بْن مُعَاذ: كَأَنَّكَ تُعَرِّض بِنَا يَا رَسُول الله، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْت بِنَا هَذَا البَحْر فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الحَرْب، صُدُق فِي اللِّقَاء، لَعَلَّ الله أَنْ يُرِيَكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَة الله. فَسُرَّ رَسُولُ الله ﷺ لِقَوْل سَعْد، وَنَشطه ذَلِكَ[1].

وَقَال أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا أَبُو حَاتِم الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله الأَنْصَارِيّ، حَدَّثَنَا حُمَيْد، عَنْ أَنَس: أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَمَّا سَارَ إِلى بَدْر اسْتَشَارَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَر، ثُمَّ اسْتَشَارَهُم، فَقَالَتْ الأَنْصَار: يَا مَعْشَر الأَنْصَار، إِيَّاكُمْ يُرِيد رَسُول الله ﷺ. قَالُوا: إِذًا، لا نَقُول لَهُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيل لِمُوسَى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَهَا إِلى بَرْك الغِمَاد لاتَّبَعْنَاك. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: عَنْ عُبَيْدَة بْن حُمَيْد، عن حميد الطَّوِيل، عَنْ أَنَس بِهِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ: عَنْ مُحَمَّد بْن الْمُثَنَّى، عَنْ خَالد بْن الحَارِث، عَنْ حُمَيْد، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن حِبَّان: عَنْ أَبِي يَعْلى، عَنْ عَبْد الأَعْلى ابْن حَمَّاد، عَنْ مَعْمَر بْن سُلَيْمَان، عَنْ حُمَيْد بِهِ.

وَقَال ابْن مَرْدُوَيْهِ: أَنَا عَبْد الله بْن جَعْفَر، أَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن شُعَيْب، عَنْ الحَسَن بْن أَيُّوب، عَنْ عَبْد الله بْن نَاسِح، عَنْ عُتْبَة بْن عَبْد السُّلَمِيّ، قَال: قَال النَّبِيّ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «أَلا تُقَاتِلُونَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، وَلا نَقُول كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيل لِمُوسَى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، وَلكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلا، إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ. وَكَانَ مِمَّنْ أَجَابَ يَوْمئِذٍ المِقْدَاد بْن عَمْرو الكِنْدِيّ ﷺ[2]، كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنِي سُفْيَان، عَنْ مُخَارِق بْن عَبْد الله الأَحْمَسِيّ، عَنْ طَارِق -هُوَ ابْن شِهَاب- أَنَّ المِقْدَاد قَال لِرَسُول الله ﷺ يَوْم بَدْر: يَا رَسُول الله، إِنَّا لا نَقُول لك كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيل لِمُوسَى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، وَلكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلا، إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ. هَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَد مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَقَدْ رَوَاهُ مِنْ طَرِيق أُخْرَى، فَقَال: حَدَّثَنَا أَسْوَد بْن عَامِر، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ مُخَارِق، عَنْ طَارِق بْن شِهَاب، قَال: قَال عَبْد الله -هو ابْن مَسْعُود- ﷺ: لَقَدْ شَهِدْت مِنْ المِقْدَاد مَشْهَدًا، لأَنْ أَكُون أَنَا صَاحِبه، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِل بِهِ، أَتَى رَسُول الله ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلى الْمُشْرِكِينَ، فَقَال: وَالله يَا رَسُول الله لا نَقُول كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيل لِمُوسَى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، وَلَكِنَّا نُقَاتِل عَنْ يَمِينك، وَعَنْ يَسَارك، وَمِنْ بَيْن يَدَيْك، وَمِنْ خَلفك. فَرَأَيْت وَجْه رَسُول الله ﷺ يُشْرِقُ لِذَلكَ وَسُرَّ بِذَلكَ. وَهَكَذَا رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي المَغَازِي، وَفِي التَّفْسِير مِنْ طُرُق عَنْ مُخَارِق بِهِ، وَلفظه فِي كِتَاب التَّفْسِير: عَنْ عَبْد الله قَال: قَال المِقْدَاد يَوْم بَدْر: يَا رَسُول الله، لا نَقُول لك كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيل لِمُوسَى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، وَلكِنْ امْضِ

---

(١) صحيح: أخرجه ابن جرير (٦/ ١٨٣)، وأحمد (٣/ ١٠٥)، وابن حبان (٤٧٢١)، وصححه الألباني في «صحيح فقه السيرة» (١/ ٢٢٣).

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ١٨٤) من حديث عتبة بن عبد السلمي، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٩٦) وقال: رواه أحمد، ورجاله ثقات.

وَنَحْنُ مَعَك. فَكَأَنَّهُ سُرِّيَ عَنْ رَسُول الله ﷺ[١]. ثُمَّ قَال البُخَارِيّ: رَوَاهُ وَكِيع، عَنْ سُفْيَان، عَنْ مُخَارِق، عَنْ طَارِق، أَنَّ المِقْدَاد قَال للنَّبِيِّ ﷺ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا بِشْر، حدثنا يزيد، حَدَّثَنَا سَعِيد، حدثنا قَتَادَة، قَال: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال لأَصْحَابِهِ يَوْم الحُدَيْبِيَة، حِين صَدَّ المُشْرِكُونَ الهَدْيَ، وَحِيل بَيْنهمْ وَبَيْن مَنَاسِكهمْ: «**إِنِّي ذَاهِبٌ بِالهَدْيِ فَنَاحِرُهُ عِنْد البَيْت**». فَقَال لَهُ المِقْدَاد بْن الأَسْوَد: أَمَا وَالله لا نَكُون كَالمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل إِذَا قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، وَلكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلا، إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فَلَمَّا سَمِعَهَا أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ تَتَابَعُوا عَلَى ذَلكَ[٢]. وَهَذَا إِنْ كَانَ مَحْفُوظًا يَوْم الحُدَيْبِيَة، فَيَحْتَمِل أَنَّهُ كَرَّرَ هَذِهِ المَقَالة يَوْمئِذٍ، كَمَا قَالهُ يَوْم بَدْر.

وقَوْله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ يَعْنِي: لَمَّا نَكَل بَنُو إِسْرَائِيل عَنْ القِتَال، غَضِبَ عَلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَال دَاعِيًا عَلَيْهِمْ: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ أَيْ: لَيْسَ أَحَدٌ يُطِيعنِي مِنْهُمْ فَيَمْتَثِلُ أَمْرَ الله، وَيُجِيب إِلى مَا دَعَوْتُ إِلَيْهِ، إِلَّا أَنَا وَأَخِي هَارُون ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾. قَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي: اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنهمْ. وَكَذَا قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس. وَكَذَا قَال الضَّحَّاك: اقْضِ بَيْننَا وَبَيْنهمْ، وَافْتَحْ بَيْننَا وَبَيْنهمْ. وَقَال غَيْره: افْرُقْ: افْصِل بَيْننَا وَبَيْنهمْ، كَمَا قَال الشَّاعِر:

يَا رَبِّ فَافْرُقْ بَيْنَهُ وَبَيْنِي ❁ أَشَدَّ مَا فَرَّقْت بَيْنَ اثْنَيْنِ

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، لَمَّا دَعَا عَلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِين نَكَلُوا عَنْ الجِهَاد، حَكَمَ الله عَلَيْهِمْ بِتَحْرِيم دُخُولهَا قَدْر مُدَّة أَرْبَعِينَ سَنَة، فَوَقَعُوا فِي التِّيه، يَسِيرُونَ دَائِمًا لا يَهْتَدُونَ للخُرُوج مِنْهُ، وَفِيهِ كَانَتْ أُمُور عَجِيبَة وَخَوَارِق كَثِيرَة؛ مِنْ تَظْلِيلهمْ بِالغَمَام وَإِنْزَال المَنّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ، وَمِنْ إِخْرَاج المَاء الجَارِي مِنْ صَخْرَة صَمَّاء، تُحْمَل مَعَهُمْ عَلى دَابَّة، فَإِذَا ضَرَبَهَا مُوسَى بِعَصَاهُ؛ انْفَجَرَتْ مِنْ ذَلكَ الحَجَر اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا تَجْرِي لكُلِّ شِعْب عَيْن، وَغَيْر ذَلكَ مِنْ المُعْجِزَات الَّتِي أَيَّدَ الله بِهَا مُوسَى بْن عِمْرَان، وَهُنَاكَ أُنْزِلتْ التَّوْرَاة، وَشُرِعَتْ لَهُمْ الأَحْكَام، وَعُمِلتْ قُبَّة العَهْد، وَيُقَال لهَا: قُبَّة الزَّمَان.

قَال يَزِيد بْن هَارُون: عَنْ أَصْبَغَ بْن زَيْد، عَنْ القَاسِم بْن أَبِي أَيُّوب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر: سَأَلت ابْن عَبَّاس عَنْ قَوْله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيَة، قَال: فَتَاهُوا فِي الأَرْض أَرْبَعِينَ سَنَة، يُصْبِحُونَ كُلّ يَوْم يَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَار، ثُمَّ ظَلَّل عَلَيْهِمْ الغَمَام فِي التِّيه، وَأَنْزَل عَلَيْهِمْ المَنّ وَالسَّلْوَى. وَهَذَا قِطْعَة مِنْ حَدِيث الفُتُون[٣]. ثُمَّ كَانَتْ وَفَاة هَارُون عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ بَعْده بِمُدَّةِ ثَلاث سِنِينَ وَفَاة مُوسَى الكَلِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَقَامَ الله فِيهِمْ يُوشَع ابْن نُون عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا خَلِيفَة عَنْ مُوسَى بْن عِمْرَان، وَمَاتَ أَكْثَرُ بَنِي إِسْرَائِيل هُنَاكَ فِي تِلكَ المُدَّة، وَيُقَال: إِنَّهُ لمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَد سِوَى يُوشَع وكالب، وَمِنْ هَهُنَا قَال بَعْض المُفَسِّرِينَ فِي قَوْله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾: هَذَا وَقْف تَامّ، وَقَوْله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ مَنْصُوب بِقَوْلِهِ: ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. فَلَمَّا انْقَضَتْ المُدَّة خَرَجَ بِهِمْ يُوشَع بْن نُون عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ بِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وَبِسَائِرِ بَنِي إِسْرَائِيل مِنْ الجِيل الثَّانِي، فَقَصَدَ بِهِمْ بَيْت المَقْدِس، فَحَاصَرَهَا، فَكَانَ فَتْحهَا يَوْم الجُمُعَة بَعْد العَصْر، فَلَمَّا تَضَيَّفَتْ الشَّمْس للغُرُوب، وَخَشِيَ دُخُول السَّبْتِ عَلَيْهِمْ، قَال: إِنَّك مَأْمُورَةٌ، وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ. فَحَبَسَهَا الله تَعَالى حَتَّى فَتَحَهَا، وَأَمَرَ الله يُوشَع بْن نُون أَنْ يَأْمُر بَنِي إِسْرَائِيل حِين يَدْخُلُونَ بَيْت المَقْدِس؛ أَنْ يَدْخُلُوا بَابهَا سُجَّدًا، وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ. أَيْ: حُطَّ عَنَّا ذُنُوبنَا، فَبَدَّلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاههمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ: حَبَّة فِي شَعْرَة، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا كُلّه فِي سُورَة البَقَرَة.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٠٩)، وأحمد (٤/ ٣١٤).
(٢) مرسل: أخرجه ابن جرير (٦/ ١٨٠).
(٣) موقوف: تقدم.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي عُمَر العَدَنِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنه قَوْله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قَال: فَتَاهُوا أَرْبَعِينَ سَنَة. قَال: فَهلكَ مُوسَى وَهَارُون فِي التِّيه، وَكُلّ مَنْ جَاوَزَ الأَرْبَعِينَ سَنَة، فَلَمَّا مَضَتْ الأَرْبَعُونَ سَنَة، نَاهَضَهُمْ يُوشَع ابْن نُون وَهُوَ الَّذِي قَامَ بِالأَمْرِ بَعْد مُوسَى، وَهُوَ الَّذِي افْتَتَحَهَا، وَهُوَ الَّذِي قِيل لَهُ: اليَوْم يَوْم الجُمُعَة، فَهَمُّوا بِافْتِتَاحِهَا، وَدَنَتْ الشَّمْس للغُرُوبِ، فَخَشِيَ إِنْ دَخَلتْ لَيْلة السَّبْت أَنْ يُسْبِتُوا، فَنَادَى الشَّمْس: إِنِّي مَأْمُور، وَإِنَّك مَأْمُورَة، فَوَقَفَتْ حَتَّى افْتَتَحَهَا، فَوَجَدَ فِيهَا مِنْ الأَمْوَال مَا لمْ يُرَ مِثْله قَطُّ، فَقَرَّبُوهُ إِلى النَّار فَلَمْ تَأْتِهِ، فَقَال: فِيكُمْ الغُلُول، فَدَعَا رُءُوس الأَسْبَاط وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا فَبَايَعَهُمْ، وَالتَصَقَتْ يَد رَجُل مِنْهُمْ بِيَدِهِ، فَقَال: الغُلُول عِنْدك فَأَخْرِجْهُ، فَأَخْرَجَ رَأْس بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، لهَا عَيْنَانِ مِنْ يَاقُوت، وَأَسْنَان مِنْ لُؤْلُؤ، فَوَضَعَهُ مَعَ القُرْبَانِ، فَأَتَتْ النَّارُ فَأَكَلتْهَا. وَهَذَا السِّيَاق لهُ شَاهِد فِي الصَّحِيح.

وَقَدْ اخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ قَوْله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ هُوَ العَامِل فِي أَرْبَعِينَ سَنَة، وَأَنَّهُمْ مَكَثُوا لا يَدْخُلُونَهَا أَرْبَعِينَ سَنَة، وَهُمْ تَائِهُونَ فِي البَرِّيَّة لا يَهْتَدُونَ لمَقْصِدٍ، قَال: ثُمَّ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عليه السلام فَفَتَحَ بِهِمْ بَيْت المَقْدِس. ثُمَّ احْتَجَّ عَلى ذَلكَ مَنْ قَال بِإِجْمَاع عُلمَاء أَخْبَار الأَوَّلِينَ أَنَّ عُوج بْن عُنق قَتَلهُ مُوسَى عليه السلام قَال: فَلوْ كَانَ قَتْلُهُ إِيَّاهُ قَبْل التِّيه، لمَا رَهِبَتْ بَنُو إِسْرَائِيل مِنْ العَمَالِيق، فَدَلَّ عَلى أَنَّهُ كَانَ بَعْد التِّيه. قَال: وَأَجْمَعُوا عَلى أَنَّ بَلعَام بْن بَاعُورَا أَعَانَ الجَبَّارِينَ بِالدُّعَاءِ عَلى مُوسَى. قَال: وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَعْد التِّيه؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْل التِّيه لا يَخَافُونَ مِنْ مُوسَى وَقَوْمه. هَذَا اسْتِدْلاله، ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا ابْن عَطِيَّة، حَدَّثَنَا قَيْس، عن أَبِي إِسْحَاق، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: كَانَتْ عَصَا مُوسَى عَشَرَة أَذْرُع، وَوَثْبَتُهُ عَشَرَةَ أَذْرُعٍ، وَطُوله عَشَرَةَ أَذْرُع، فَوَثَبَ، فَأَصَابَ كَعْب عُوج فَقَتَلهُ، فَكَانَ جِسْرًا لأَهْل النِّيل سَنَةً.

وَرُوِيَ أَيْضًا: عَنْ مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا مُؤَمَّلٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ نَوْف -هُوَ البِكَالِيّ- قَال: كَانَ سَرِير عُوج ثَمَانِمِائَةِ ذِرَاع، وَكَانَ طُول مُوسَى عَشَرَة أَذْرُع، وَعَصَاهُ عَشَرَة أَذْرُع، وَوَثَبَ فِي السَّمَاء عَشَرَة أَذْرُع، فَضَرَبَ عُوجًا، فَأَصَابَ كَعْبَهُ فَسَقَطَ مَيِّتًا، وَكَانَ جِسْرًا للنَّاسِ يَمُرُّونَ عَليْهِ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تَسْليَة لمُوسَى عليه السلام عَنْهُمْ، أَيْ: لا تَتَأَسَّف وَلا تَحْزَن عَليْهِمْ، فمهما حَكَمْت عَليْهِمْ بِهِ؛ فَإِنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلكَ؟ وَهَذِهِ القِصَّة تَضَمَّنَتْ تَقْرِيع اليَهُود وَبَيَان فَضَائِحهمْ، وَمُخَالفَتهمْ لله وَلرَسُولهِ، وَنُكُولهمْ عَنْ طَاعَتهمَا فِيمَا أَمَرَاهُمْ بِهِ مِنْ الجِهَاد، فَضَعُفَتْ أَنْفُسهمْ عَنْ مُصَابَرَة الأَعْدَاء وَمُجَالدَتهمْ وَمُقَاتَلتهمْ، مَعَ أَنَّ بَيْن أَظْهُرهمْ رَسُول الله عليه السلام وَكَليمه، وَصَفِيّه مَنْ خَلقه فِي ذَلكَ الزَّمَان، وَهُوَ يَعِدهُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَر بِأَعْدَائِهِمْ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوا مَا أَحل الله بِعَدُوِّهِمْ فِرْعَوْن مِنَ العَذَاب وَالنَّكَال، وَالغَرَق لهُ وَلجُنُودِهِ فِي اليَمّ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ لتَقَرّ بِهِ أَعْيُنهمْ، وَمَا بِالعَهْدِ مِنْ قِدَمٍ، ثُمَّ يَنْكُلُونَ عَنْ مُقَاتَلة أَهْل بَلد؛ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلى دِيَار مِصْر لا تُوَازِي عُشْر المِعْشَار فِي عُدَّة أَهْلهَا وَعَدَدهمْ، فَظَهَرَتْ قَبَائِح صَنِيعهمْ للخَاصِّ وَالعَامّ، وَافْتَضَحُوا فَضِيحَة لا يُغَطِّيهَا اللَّيْل، وَلا يَسْتُرُهَا الذَّيْل، هَذَا، وَهُمْ فِي جَهْلهمْ يَعْمَهُونَ وَفِي غَيِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَهُمْ البُغَضَاء إِلى الله، وَأَعْدَاؤُهُ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلكَ: نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ، فَقَبَّحَ الله وُجُوههمْ، الَّتِي مُسِخَ مِنْهَا الخَنَازِير وَالقُرُود، وَأَلزَمَهُمْ لعْنَة تَصْحَبهُمْ إِلى النار ذَات الوَقُود، وَيَقْضِي لهُمْ فِيهَا بِتَأْبِيدِ الخُلُود، وَقَدْ فَعَل وَلهُ الحَمْد فِي جَمِيع الوُجُود.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾

يَقُول تَعَالى مُبَيِّنًا وَخِيم عَاقِبَة البَغْي وَالحَسَد وَالظُّلم؛ فِي خَبَر ابْنَيْ آدَم لصُلبِهِ -فِي قَوْل الجُمْهُور- وَهُمَا قَابِيل وَهَابِيل، كَيْف عَدَا أَحَدهمَا عَلى الآخَر فَقَتَلهُ بَغْيًا عَليْهِ، وَحَسَدًا لهُ فِيمَا وَهَبَهُ الله مِنْ النِّعْمَة، وَتَقَبُّل القُرْبَان الَّذِي أَخْلَصَ فِيهِ لله عَجَّلَ، فَفَازَ المَقْتُول بِوَضْع الآثَام وَالدُّخُول إِلى الجَنَّة، وَخَابَ القَاتِل، وَرَجَعَ بِالصَّفْقَةِ الخَاسِرَة فِي الدَّارَيْنِ، فَقَال تَعَالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: وَاقْصُصْ عَلى هَؤُلاءِ البُغَاة الحَسَدَة، إِخْوَان الخَنَازِير وَالقِرَدَة، مِنْ اليَهُود وَأَمْثَالهمْ وَأَشْبَاههمْ، خَبَرَ ابْنَيْ آدَم، وَهُمَا هَابِيل وَقَابِيل فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف وَالخَلَف.

وَقَوْله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: عَلى الجَلِيَّة، وَالأَمْر الَّذِي لا لبْس فِيهِ، وَلا كَذِب، وَلا وَهْم، وَلا تَبْدِيل، وَلا زِيَادَة وَلا نُقْصَان، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾، وَقَوْله تَعَالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، وَقَال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾. وَكَانَ مِنْ خَبَرهمَا فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف وَالخَلَف: أَنَّ الله تَعَالى شَرَعَ لآدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُزَوِّج بَنَاته مِنْ بَنِيهِ لضَرُورَةِ الحَال، وَلكِنْ قَالُوا: كَانَ يُولد لهُ فِي كُلّ بَطْن ذَكَر وَأُنْثَى، فَكَانَ يُزَوِّج أُنْثَى هَذَا البَطْن لذَكَرِ البَطْن الآخَر، وَكَانَتْ أُخْت هَابِيل دَمِيمَة، وَأُخْت قَابِيل وَضِيئَة، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْثِر بِهَا عَلى أَخِيهِ، فَأَبَى آدَم ذَلكَ إِلَّا أَنْ يُقَرِّبَا قُرْبَانًا، فَمَنْ تُقُبِّل مِنْهُ فَهِيَ لهُ، فقرَّبا، فَتُقُبِّل مِنْ هَابِيل وَلمْ يُتَقبَّل مِنْ قَابِيل فَكَانَ مِنْ أَمْرهمَا مَا قَصَّهُ الله فِي كِتَابه.

ذِكْر أَقْوَال المُفَسِّرِينَ هَهُنَا: قَال السُّدِّيّ: فِيمَا ذُكِرَ عَنْ أَبِي مَالك وَعَنْ أَبِي صَالح، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَعَنْ مُرَّة عَنْ ابْن مَسْعُود، وَعَنْ نَاس مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ لا يُولد لآدَم مَوْلُود إِلَّا ولد وَمَعَهُ جَارِيَة، فَكَانَ يُزَوِّج غُلام هَذَا البَطْن جَارِيَة هَذَا البَطْن الآخَر، وَيُزَوِّج جَارِيَة هَذَا البَطْن غُلام هَذَا البَطْن الآخَر، حَتَّى وُلدَ لهُ ابْنَانِ يُقَال لهُمَا: هَابِيل وَقَابِيل، وَكَانَ قَابِيل صَاحِب زَرْع، وَكَانَ هَابِيل صَاحِب ضَرْع، وَكَانَ قَابِيل أَكْبَرَهُمَا، وَكَانَ لهُ أُخْت أَحْسَنُ مِنْ أُخْت هَابِيل، وَإِنَّ هَابِيل طَلَبَ أَنْ يَنْكِح أُخْت قَابِيل فَأَبَى عَليْهِ، وقَال: هِيَ أُخْتِي وُلدَتْ مَعِي، وَهِيَ أَحْسَنُ مِنْ أُخْتك، وَأَنَا أَحَقّ أَنْ أَتَزَوَّج بِهَا. فَأَمَرَهُ أَبُوهُ أَنْ يُزَوِّجهَا هَابِيل فَأَبَى، وَأَنَّهُمَا قَرَّبَا قُرْبَانًا إِلى الله عَجَّلَ أَيّهمَا أَحَقّ بِالجَارِيَةِ، وَكَانَ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ غَابَ عَنْهُمَا أَتَى مَكَّة يَنْظُر إِليْهَا، قَال الله عَجَّلَ: هَل تَعْلم أَنَّ لِي بَيْتًا فِي الأَرْض؟ قَال: اللَّهُمَّ لا. قَال: إِنَّ لِي بَيْتًا فِي مَكَّة فَأْتِهِ. فَقَال آدَمُ للسَّمَاءِ: احْفَظِي وَلدِي بِالأَمَانَةِ. فَأَبَتْ، وَقَال للأَرْضِ فَأَبَتْ، وَقَال للجِبَال فَأَبَتْ، فَقَال لقَابِيل، فَقَال: نَعَمْ، تَذْهَب وَتَرْجِع، وَتَجِد أَهْلك كَمَا يَسُرّك. فَلَمَّا انْطَلقَ آدَم قَرَّبَا قُرْبَانًا، وَكَانَ قَابِيل يَفْخَر عَليْهِ، فَقَال: أَنَا أَحَقُّ بِهَا مِنْك، هِيَ أُخْتِي وَأَنَا أَكْبَرُ مِنْك، وَأَنَا وَصِيّ وَالدِي. فَلَمَّا قَرَّبَا قَرَّبَ هَابِيلُ جَذَعَةً سَمِينَةً، وَقَرَّبَ قَابِيلُ حُزْمَةَ سُنْبُل، فَوَجَدَ فِيهَا سُنْبُلة عَظِيمَة، فَفَرَكَهَا وَأَكَلهَا، فَنَزَلتْ النَّار فَأَكَلتْ قُرْبَان هَابِيل وَتَرَكَتْ قُرْبَان قَابِيل، فَغَضِبَ، وَقَال: لأَقْتُلنَّكَ حَتَّى لا تَنْكِح أُخْتِي. فَقَال هَابِيل: إِنَّمَا يَتَقبَّل الله مِنْ المُتَّقِينَ. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن مُحَمَّد بْن الصَّبَّاح، حَدَّثَنَا حَجَّاج، عَنْ ابْن جُرَيْج، أَخْبَرَنِي ابْن خُثَيم، قَال: أَقْبَلت مَعَ سعيْد بْن جُبَيْر، فَحَدَّثنِي عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: نُهِيَ أَنْ تَنْكِح المَرْأَة أَخَاهَا تَوْأَمهَا، وَأُمِرَ أَنْ يَنْكِحهَا غَيْرُهُ مِنْ إِخْوَتهَا، وَكَانَ يُولد لهُ فِي كُلّ بَطْن رَجُل وَامْرَأَة فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلكَ، وُلدَ لهُ امْرَأَة وَضِيئَة، وَوُلدَ لهُ أُخرى قَبِيحَة دَمِيمَة، فَقَال أَخُو الدَّمِيمَة: أَنْكِحْنِي أُخْتَك، وَأُنْكِحُك أُخْتِي. فَقَال: لا، أَنَا أَحَقُّ بِأُخْتِي. فَقَرَّبَا قُرْبَانًا، فَتُقُبِّل مِنْ صَاحِب الكَبْش، وَلمْ يُتَقَبَّل مِنْ صَاحِب الزَّرْع؛ فَقَتَلهُ. إِسْنَاد جَيِّد. وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو سَلمَة، حَدَّثَنَا حَمَّاد ابْن سَلمَة، عَنْ عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خُثَيْم، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَقَوْله: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ فَقَرَّبَا

قُرْبَانهمَا فَجَاءَ صَاحِب الغَنَم بِكَبْشٍ أَعْيَنَ أَقْرَنَ أَبْيَض، وَصَاحِب الحَرْث بِصُبْرَةٍ مِنْ طَعَامه، فَقَبِلَ الله الكَبْش فَخَزَنَهُ فِي الجَنَّة أَرْبَعِينَ خَرِيفًا، وَهُوَ الكَبْش الَّذِي ذَبَحَهُ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. إِسْنَاد جَيِّد.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا عَوْف، عَنْ أَبِي المُغِيرَة، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: إِنَّ ابْنَيْ آدَم اللَّذَيْنِ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّل مِنْ أَحَدهمَا، وَلَمْ يُتَقَبَّل مِنْ الآخَر؛ كَانَ أَحَدهمَا صَاحِب حَرْث، وَالآخَر صَاحِب غَنَم وَإِنَّهُمَا أُمِرَا أَنْ يُقَرِّبَا قُرْبَانًا وَإِنَّ صَاحِب الغَنَم قَرَّبَ أَكْرَمَ غَنَمِهِ وَأَسْمَنَهَا وَأَحْسَنَهَا، طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، وَإِنَّ صَاحِب الحَرْث قَرَّبَ أَشَرَّ حَرْثِهِ الكَرْدَن وَالزُّوَان، غَيْرَ طَيِّبَةٍ بِهَا نَفْسُهُ، وَأَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ تَقَبَّل قُرْبَان صَاحِب الغَنَم، وَلَمْ يَتَقَبَّل قُرْبَان صَاحِب الحَرْث، وَكَانَ مِنْ قِصَّتهمَا مَا قَصَّ الله فِي كِتَابه، قَال: وَايْم الله، إِنْ كَانَ المَقْتُول لأَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ، وَلكِنْ مَنَعَهُ التَّحَرُّج أَنْ يَبْسُط يَده إِلى أَخِيهِ. وَقَال إِسْمَاعِيل بْن رَافِع المَدَنِيّ القَاصّ: بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَيْ آدَم لَمَّا أُمِرَا بِالقُرْبَانِ كَانَ أَحَدهمَا صَاحِب غَنَم، وَكَانَ أُنْتِجَ لهُ حَمَلٌ فِي غَنَمه، فَأَحَبَّهُ حَتَّى كان يُؤْثِرهُ بِاللَّيْل، وَكَانَ يَحْمِلهُ عَلى ظَهْره مِنْ حُبّه، حَتَّى لمْ يَكُنْ لهُ مَال أَحَبُّ إِليْهِ مِنْهُ، فَلَمَّا أُمِرَ بِالقُرْبَانِ قَرَّبَهُ لله عَزَّ وَجَلَّ فَقَبِلَهُ الله مِنْهُ، فَمَا زَال يَرْتَع فِي الجَنَّة، حَتَّى فُدِيَ بِهِ ابْن إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حدثنا أبي، حَدَّثَنَا الأَنْصَارِيّ، حَدَّثَنَا القَاسِم بْن عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن الحُسَيْن، قَال: قَال آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ لهَابِيل وَقَابِيل: إِنَّ رَبِّي عَهِدَ إِليَّ أَنَّهُ كَائِن مِنْ ذُرِّيَّتِي مَنْ يُقَرِّب القُرْبَان، فَقَرِّبَا قُرْبَانًا، حَتَّى تَقَرّ عَيْنِي إِذَا تُقُبِّل قُرْبَانكُمَا. فَقَرِّبَا، وَكَانَ هَابِيل صَاحِب غَنَم، فَقَرَّبَ أُكُولة غَنَمه خَيْر مَاله، وَكَانَ قَابِيل صَاحِب زَرْع فَقَرَّبَ مُشَاقَة مِنْ زَرْعه، فَانْطَلَقَ آدَم مَعَهُمَا، وَمَعَهُمَا قُرْبَانهمَا، فَصَعِدَا الجَبَل، فَوَضَعَا قُرْبَانهمَا، ثُمَّ جَلسُوا ثَلاثَتهمْ: آدَمُ وَهُمَا، يَنْظُرَانِ إِلى القُرْبَان، فَبَعَثَ الله نَارًا حَتَّى إِذَا كَانَتْ فَوْقهمَا؛ دَنَا مِنْهَا عُنُقٌ فَاحْتَمَل قُرْبَان هَابِيل، وَتَرَكَ قُرْبَان قَابِيل، فَانْصَرَفُوا وَعَلمَ آدَم أَنَّ قَابِيل مَسْخُوط عَليْهِ، فَقَال: وَيْلك يَا قَابِيل، رُدَّ عَليْك قُرْبَانُك!! فَقَال قَابِيل: أَحْبَبْته، فَصَلَّيْت عَلى قُرْبَانه، وَدَعَوْت لهُ، فَتُقُبِّل قُرْبَانه، وَرُدَّ عَليَّ قُرْبَانِي. فَقَال قَابِيل لهَابِيل: لأَقْتُلَنَّكَ وَأَسْتَرِيح مِنْك، دَعَا لك أَبُوك، فَصَلَّى عَلى قُرْبَانك، فَتُقُبِّل مِنْك. وَكَانَ يَتَوَاعَدُهُ بِالقَتْل، إِلى أَنْ احْتَبَسَ هَابِيل ذَات عَشِيَّةٍ فِي غَنَمه، فَقَال آدَم: يَا قَابِيل أَيْنَ أَخُوك؟ قَال: وَبَعَثْتنِي لهُ رَاعِيًا لا أَدْرِي. فَقَال آدَم: وَيْلك يَا قَابِيل، انْطَلِقْ فَاطْلُبْ أَخَاك. فَقَال قَابِيل فِي نَفْسه: اللَّيْلة أَقْتُلهُ. وَأَخَذَ مَعَهُ حَدِيدَة، فَاسْتَقْبَلهُ وَهُوَ مُنْقَلب، فَقَال: يَا هَابِيل تُقُبِّل قُرْبَانك وَرُدَّ عَليَّ قُرْبَانِي لأَقْتُلَنَّكَ. فَقَال هَابِيل: قَرَّبْت أَطْيَبَ مَالِي، وَقَرَّبْت أَنْتَ أَخْبَثَ مَالك، وَإِنَّ الله لا يَقْبَل إِلَّا الطَّيِّب، إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنْ المُتَّقِينَ. فَلَمَّا قَالهَا غَضِبَ قَابِيل فَرَفَعَ الحَدِيدَة وَضَرَبَهُ بِهَا، فَقَال: وَيْلك يَا قَابِيل، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ الله كَيْف يَجْزِيك بِعَمَلك؟ فَقَتَلهُ فَطَرَحَهُ فِي جَوْبَة مِنْ الأَرْض، وَحَثَى عَليْهِ شَيْئًا مِنْ التُّرَاب.

وَرَوَى مُحَمَّد بْن إِسْحَاق عَنْ بَعْض أَهْل العِلمِ بِالكِتَابِ الأَوَّل: أَنَّ آدَم أَمَرَ ابْنه قَينًا أَنْ يَنْكِح أُخْتَه تَوْأَمَةَ هَابِيل، وَأَمَرَ هَابِيل أَنْ يَنْكِح أُخْتَه تَوْأَمَةَ قَين، فَسَلَّمَ لذَلكَ هَابِيل وَرَضِيَ، وَأَبَى ذَلكَ قَين، وَكَرِهَ تَكَرُّمًا عَنْ أُخْت هَابِيل، وَرَغِبَ بِأُخْتِهِ عَنْ هَابِيل، وَقَال: نَحْنُ مِنْ وِلادَة الجَنَّة، وَهُمَا مِنْ وِلادَة الأَرْض، وَأَنَا أَحَقُّ بِأُخْتِي. وَيَقُول بَعْض أَهْل العِلم بِالكِتَابِ الأَوَّل: كَانَتْ أُخْت قَين مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَضَنَّ بِهَا عَلى أَخِيهِ، وَأَرَادَهَا لنَفْسِهِ، وَالله أَعْلمُ أَيّ ذَلكَ كَانَ، فَقَال لهُ أَبُوهُ: يَا بُنَيَّ، إِنَّهَا لا تَحِلّ لك. فَأَبَى قَابِيل أَنْ يَقْبَل ذَلكَ مِنْ قَوْل أَبِيهِ، قَال لهُ أَبُوهُ: يَا بُنَيَّ، قَرِّبْ قُرْبَانًا وَيُقَرِّب أَخُوك هَابِيل قُرْبَانًا فَأَيّكُمَا تُقُبِّل قُرْبَانه، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا. وَكَانَ قَين عَلى بَذْر الأَرْض، وَكَانَ هَابِيل عَلى رِعَايَة المَاشِيَة، فَقَرَّبَ قَين قَمْحًا، وَقَرَّبَ هَابِيل أَبْكَارًا مِنْ أَبْكَار غَنَمه، وَبَعْضهمْ يَقُول: قَرَّبَ بَقَرَة، فَأَرْسَل الله نَارًا بَيْضَاء، فَأَكَلتْ قُرْبَان هَابِيل، وَتَرَكَتْ قُرْبَان قَين، وَبِذَلكَ كَانَ يُقْبَل القُرْبَان إِذَا قَبِلهُ. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَرَوَى العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كان مِنْ شَأْنهمَا أَنَّهُ لمْ يَكُنْ مِسْكِين يُتَصَدَّق عَليْهِ، وَإِنَّمَا

كَانَ القُرْبَان يُقَرِّبهُ الرَّجُل، فَبَيْنَا ابْنَا آدم قَاعِدَانِ، إِذْ قَالا: لوْ قَرَّبْنَا قُرْبَانًا. وَكَانَ الرَّجُل إِذَا قَرَّبَ قُرْبَانًا، فَرَضِيَهُ الله أَرْسَل إِلَيْهِ نَارًا فتَأْكُلهُ، وَإِنْ لمْ يَكُنْ رَضِيَهُ الله خَبَتْ النَّار، فَقَرَّبَا قُرْبَانًا وَكَانَ أَحدهمَا رَاعِيًا وَكَانَ الآخر حَرَّاثًا، وَإِنَّ صَاحِب الغَنَم قَرَّبَ خَيْر غَنَمه وَأَسْمَنَهَا، وَقَرَّبَ الآخر بَعْض زَرْعه، فَجَاءَتْ النَّار فَنَزَلتْ بَيْنهمَا فَأَكَلتْ الشَّاة وَتَرَكَتْ الزَّرْع، وإِنَّ ابْن آدَم قَال لأخيه: أَتَمْشِي فِي النَّاس وَقَدْ علمُوا أَنَّك قَرَّبْت قُرْبَانًا فَتُقُبِّل مِنْك وَرُدَّ عَلَيَّ، فَلا وَالله لا يَنْظُر النَّاس إليك وَإِلَيَّ وَأَنْتَ خَيْر مِنِّي. فَقَال: لأَقْتُلنَّكَ. فَقَال لهُ أَخُوهُ: مَا ذَنْبِي؟ إِنَّمَا يَتَقَبَّل الله مِنْ المُتَّقِينَ. رَوَاهُ ابْن جَرِير. فَهَذَا الأَثَر يَقْتَضِي أَنَّ تَقْرِيب القُرْبَان كَانَ لا عَنْ سَبَب، وَلا عَنْ تَدَارُؤ فِي امْرَأَة، كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ جَمَاعَة مِمَّنْ تَقَدَّمَ ذِكْرهمْ، وَهُوَ ظَاهِر القُرْآن ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فَالسِّيَاق يَقْتَضِي إِنَّهُ إِنَّمَا غَضِبَ عَلَيْهِ وَحَسَدَهُ بِقَبُول قُرْبَانه دُونه.

ثُمَّ المَشْهُور عِنْد الجُمْهُور أَنَّ الَّذِي قَرَّبَ الشَّاة هُوَ هَابِيل، وَأَنَّ الَّذِي قَرَّبَ الطَّعَام هُوَ قَابِيل، وَأَنَّهُ تُقُبِّل مِنْ هَابِيل شَاته -حَتَّى قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْره: إِنَّهَا الكَبْش الَّذِي فُدِيَ بِهِ الذَّبِيح، وَهُوَ مُنَاسِب، وَالله أَعْلم- وَلمْ يُتَقَبَّل مِنْ قَابِيل. كَذَلِكَ نَصَّ عَلَيْهِ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف وَالخَلف، وَهُوَ المَشْهُور عَنْ مُجَاهِد أَيْضًا، وَلكِنْ رَوَى ابْن جَرِير عَنْهُ أَنَّهُ قَال: الَّذِي قَرَّبَ الزَّرْع قَابِيل، وَهُوَ المُتَقَبَّل مِنْهُ، وَهَذَا خِلاف المَشْهُور، وَلعَلَّهُ لمْ يَحْفَظ عَنْهُ جَيِّدًا، وَالله أَعْلم. وَمَعْنَى قَوْله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: مِمَّنْ اتَّقَى الله فِي فِعْله ذلك.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن العَلاء بْن زبريق، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، حَدَّثَنِي صَفْوَان بْن عَمْرو، عَنْ تَمِيم -يَعْنِي ابْن مَالك المُقْرِي- قَال: سَمِعْت أَبَا الدَّرْدَاء يَقُول: لأَنْ أَسْتَيْقِنَ أَنَّ الله قَدْ تَقَبَّل لِي صَلاة وَاحِدَة أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِنَّ الله يَقُول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. وَحَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا عبد الله بن عِمْرَان، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن سُليْمَان -يَعْنِي الرَّازِيّ- عَنْ المُغِيرَة بْن مُسْلم، عَنْ مَيْمُون بْن أَبِي حَمْزَة، قَال: كُنْت جَالسًا عِنْد أَبِي وَائِل فَدَخَل عَليْنَا رَجُل، يُقَال لهُ: أَبُو عَفِيف مِنْ أَصْحَاب معاذ، فَقَال لهُ شَقِيق بْن سَلمَة: يَا أَبَا عَفِيف، أَلا تُحَدِّثنَا عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل. قَال: بَلى سَمِعْته يَقُول: يُحْبَس النَّاس فِي بَقِيع وَاحِد، فَيُنَادِي مُنَادٍ: أَيْنَ المُتَّقُونَ؟ فَيَقُومُونَ فِي كَنَف مِنْ الرَّحْمَن، لا يَحْتَجِب الله مِنْهُمْ، وَلا يَسْتَتِر. قُلت: مَنْ المُتَّقُونَ؟ قَال: قَوْم اتَّقَوْا الشِّرْك، وَعِبَادَة الأَوْثَان وَأَخْلصُوا العِبَادَة فَيَمُرُّونَ إِلى الجَنَّة.

وَقَوْله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَقُول لهُ أَخُوهُ الرَّجُل الصَّالح الَّذِي تَقَبَّل الله قُرْبَانه لتَقْوَاهُ، حِين تَوَاعَدَهُ أَخُوهُ بِالقَتْل عَلى غَيْر مَا ذَنْب مِنْهُ إِلَيْهِ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أَيْ: لا أُقَابِلك عَلى صَنِيعك الفَاسِد بِمِثْلِهِ، فَأَكُون أَنَا وَأَنْتَ سَوَاء فِي الخَطِيئَة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: مِنْ أَنْ أَصْنَع كَمَا تُرِيد أَنْ تَصْنَع، بَل أَصْبِر وَأَحْتَسِب. قَال عَبْد الله بْن عَمْرو: وَايْم الله، إِنْ كَانَ لأَشَدَّ الرَّجُليْنِ، وَلكِنْ مَنَعَهُ التَّحَرُّج. يَعْنِي: الوَرَع. وَلهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «**إِذَا تَوَاجَهَ المُسْلمَانِ بِسَيْفيهِمَا، فَالقَاتِل وَالمَقْتُول فِي النَّار**». قَالُوا: يَا رَسُول الله، هَذَا القَاتِل فَمَا بَال المَقْتُول؟ قَال: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلى قَتْل صَاحِبه**».

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا ليْث بْن سَعْد، عَنْ عَيَّاش بْن عَبَّاس، عَنْ بُكَيْر بْن عَبْد الله، عَنْ بُسْر بْن سَعِيد، أَنَّ سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص قَال عِنْد فِتْنَة عُثْمَان: أَشْهَد أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ القَائِمِ، وَالقَائِمُ خَيْرٌ مِنْ المَاشِي، وَالمَاشِي خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي**». قَال: أَفَرَأَيْت إِنْ دَخَل عَليَّ بَيْتِي فَبَسَطَ يده إِليَّ ليَقْتُلنِي؟ فَقَال: «**كُنْ كَابْنِ آدم**»[1]. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ قُتَيْبَة بْن سَعِيد، وَقَال: هَذَا

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢١٩٤)، وأبو داود (٤٢٥٧)، وأحمد (١/ ١٨٥)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٢٩٤)، وأبو يعلى (٢/ ٩٥) من حديث سعد بن أبي وقاص، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٣١).

حَدِيث حَسَن، وَفِي البَاب عَنْ أَبِي هُرَيْرَة وَخَبَّاب بْن الأَرَتّ وَأَبِي بَكْر وَابْن مَسْعُود وَأَبِي وَاقِد وَأَبِي مُوسَى وَخَرَشَة. وَرَوَاهُ بَعْضهمْ عَنْ اللَّيْث بْن سَعْد، وَزَادَ فِي الإِسْنَاد رَجُلًا. قَالَ الحَافِظ ابْن عَسَاكِر: الرَّجُل هُوَ حُسَيْن الأَشْجَعِيّ.

قلت: وَقَد رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيقه فَقَال: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن خَالد الرَّمْلِيّ، حَدَّثَنَا المُفَضل، عَنْ عَيَّاش بْن عَبَّاس، عَنْ بُكَيْر، عَنْ بُسْر بْن سَعِيد، عَنْ حُسَيْن بْن عَبْد الرَّحْمَن الأَشْجَعِيّ: أَنَّهُ سَمِعَ سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي هَذَا الحَدِيث، قَال: فَقُلت: يَا رَسُول الله، أَرَأَيت إِنْ دَخَل بَيْتِي، وَبَسَطَ يَده لِيَقْتُلنِي؟ قَال: فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**كُنْ كَابْنِ آدَم**» وَتَلا يزيد: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قَال أَيُّوب السَّخْتِيَانِيّ: إِنَّ أَوَّل مَنْ أَخَذَ بِهَذِهِ الآيَة مِنْ هَذِهِ الأُمَّة ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لَعُثْمَان بْن عَفَّان ﷺ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مَرْحوم، حَدَّثَنِي أَبُو عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن الصَّامِت، عَنْ أَبِي ذَرّ، قَال: رَكِبَ النَّبِيّ ﷺ حِمَارًا وَأَرْدَفَنِي خَلفه وَقَال: «**يَا أَبَا ذَرّ، أَرَأَيْت إِنْ أَصَابَ النَّاس جُوع شَدِيد، لا تَسْتَطِيع أَنْ تَقُوم مِنْ فِرَاشك إِلى مَسْجِدك كَيْف تَصْنَع؟**» قَال: الله وَرَسُوله أَعْلَمُ. قَال: «**تَعَفَّفْ**». قَال: «**يَا أَبَا ذَرّ، أَرَأَيْت إِنْ أَصَابَ النَّاس مَوْت شَدِيد، يَكُون البَيْت فِيهِ بِالعَبْدِ -يَعْنِي القَبْر- كَيْف تَصْنَع؟**» قُلت: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: «**اصْبِرْ**». قَال: «**يَا أَبَا ذَرّ، أَرَأَيْت إِنْ قَتَل النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا -يَعْنِي حَتَّى تَغْرَق حِجَارَةُ الزَّيْت، مِنْ الدِّمَاء- كَيْف تَصْنَع؟**». قَال: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: «**اقْعُدْ فِي بَيْتك وَأَغْلِقْ عَلَيْك بَابك**». قَال: فَإِنْ لَمْ أُتْرَكْ؟ قَال: «**فَأْتِ مَنْ أَنْتَ مِنْهُمْ فَكُنْ مِنْهُمْ**». قَال: فَآخُذ سِلاحِي؟ قَال: «**فَإِذًا تُشَارِكُهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، وَلَكِنْ إِذَا خَشِيت أَنْ يَرُوعك شُعَاع السَّيْف، فَأَلْقِ طَرَف رِدَائِك عَلى وَجْهك كَيْ يَبُوء بِإِثْمِهِ وَإِثْمك**»[1].

وَرَوَاهُ مُسْلم وَأَهْل السُّنَن سِوَى النَّسَائِيّ مِنْ طُرُق، عَنْ أَبِي عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن الصَّامِت بِهِ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْن مَاجَهْ مِنْ طَرِيق حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ أَبِي عِمْرَان، عَنْ المُشَعَّث بْن طَرِيف، عَنْ عَبْد الله بْن الصَّامِت، عَنْ أَبِي ذَرّ بِنَحْوِهِ. قَال أَبُو دَاوُدَ: وَلَمْ يَذْكُر المُشَعَّث فِي هَذَا الحَدِيث غَيْر حَمَّاد بْن زَيْد. وَقَال ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن دُحَيْم، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن حَازِم، حَدَّثَنَا قَبِيصَة بْن عُقْبَة، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ مَنْصُور، عَنْ رِبْعِيّ، قَال: كُنَّا فِي جِنَازَة حُذَيْفَة، فَسَمِعْت رَجُلًا يَقُول: سَمِعْت هَذَا يَقُول فِي نَاس مِمَّا سَمِعْت مِنْ رَسُول الله ﷺ: «**لئِنْ اقْتَتَلتُمْ لأَنْظُرَنَّ إِلى أَقْصَى بَيْت فِي دَارِي فَلأَلجنَّهُ، فَلئِنْ دَخَل عَلَيَّ فُلان لأَقُولن: هَا بُؤْ بِإِثْمِي وَإِثْمك، فَأَكُون كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَم**»[2].

وَقَوْله: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. قَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ أَيْ: بِإِثْم قَتْلِي، وَإِثْمك الَّذِي عَلَيْك قَبْل ذَلكَ. قَالهُ ابْن جَرِير. وَقَال آخَرُونَ: يَعْنِي بِذَلكَ إِنِّي أُرِيد أَنْ تَبُوء بِخَطِيئَتِي فَتَتَحَمَّل وِزْرهَا، وَإِثْمك فِي قَتْلك إِيَّايَ. وَهَذَا قَوْل وَجَدْته عَنْ مُجَاهِد وَأَخْشَى أَنْ يَكُون غَلطًا؛ لأَنَّ الصَّحِيح مِنْ الرِّوَايَة عَنْهُ خِلافه. يَعْنِي مَا رَوَاهُ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ مَنْصُور، عَنْ مُجَاهِد ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى﴾ قَال: بِقَتْلك إِيَّايَ، ﴿وَإِثْمِكَ﴾ قَال: بِمَا كَانَ مِنْك قَبْل ذَلكَ. وَكَذَا رَوَى عِيسَى بْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد مِثْلهِ. وَرَوَى شِبْل، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ يَقُول: إِنِّي أُرِيد أَنْ يَكُون عَلَيْك خَطِيئَتِي وَدَمِي. فَتَبُوء بِهِمَا جَمِيعًا.

---

(١) **صحيح الإسناد:** أخرجه أحمد (٥/ ١٤٩)، وأبو داود (٤٢٦١)، وابن ماجه (٣٩٥٨)، وابن حبان (٦٦٨٥)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) **ضعيف:** عزاه المصنف لابن مردويه ورجاله ثقات، وأخرجه أحمد (٥/ ٣٩٣) بسند ضعيف، والطيالسي (١/ ٥٦) من حديث ربعي ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥٨٩)، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير الرجل المبهم.

قُلتُ: وَقَدْ يَتَوَهَّم كَثِير مِنَ النَّاس هَذَا القَوْل، وَيَذْكُرُونَ فِي ذَلِكَ حَدِيثًا لا أَصْل لهُ: «مَا تَرَكَ القَاتِل عَلى المَقْتُول مِنْ ذَنْب». وَقَدْ رَوَى الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار حَدِيثًا يُشْبِه هَذَا، وَلكِنْ لَيْسَ بِهِ، فَقَال: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا عَامِر بْن إِبْرَاهِيم الأَصْبَهَانِيّ، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا عُتْبَة بْن سَعِيد، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة، قَالَتْ: قَال رَسُول الله ﷺ: «قَتْل الصَّبْر لا يَمُرّ بِذَنْب إِلا مَحَاهُ»[١]. وَهَذَا بِهَذَا لا يَصِحّ، وَلَوْ صَحَّ فَمَعْنَاهُ: أَنَّ الله يُكَفِّر عَنِ المَقْتُول بِأَلَم القَتْل ذُنُوبَهُ، فَأَمَّا أَنْ [تُحْمَل][٢] عَلى القَاتِل فَلا، وَلكِنْ قَدْ يَتَّفِق هَذَا فِي بَعْض الأَشْخَاص، وَهُوَ الغَالِب، فَإِنَّ المَقْتُول يُطَالِب القَاتِل فِي العَرَصَات، فَيُؤْخَذ لهُ مِنْ حَسَنَاته بِقَدْرِ مَظْلَمَته، فَإِنْ نَفِدَتْ وَلَمْ يَسْتَوْفِ حَقَّهُ، أَخَذَ مِنْ سَيِّئَات المَقْتُول فَطُرِحَتْ عَلى القَاتِل، فَرُبَّمَا لا يَبْقَى عَلى المَقْتُول خَطِيئَة إِلَّا وُضِعَتْ عَلى القَاتِل، وَقَدْ صَحَّ الحَدِيث بِذَلِكَ عَنْ رَسُول الله ﷺ فِي المَظَالِم كُلِّهَا، وَالقَتْل مِنْ أَعْظَمِهَا وَأَشَدِّهَا، وَالله أَعْلَمُ.

وَأَمَّا ابْن جَرِير فَقَال: وَالصَّوَاب مِنَ القَوْل فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَال: إِنَّ تَأْوِيله: إِنِّي أُرِيد أَنْ تَنْصَرِف بِخَطِيئَتِكَ فِي قَتْلك إِيَّايَ، وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى قَوْله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾، وَأَمَّا مَعْنَى ﴿وَإِثۡمِكَ﴾: فَهُوَ إِثْمه بِغَيْر قَتْله، وَذَلِكَ مَعْصِيَة الله ﷻ فِي أَعْمَال سِوَاهُ. وَإِنَّمَا قُلنَا ذَلِكَ هُوَ الصَّوَاب؛ لإِجْمَاع أَهْل التَّأْوِيل عَلَيْهِ، وَأَنَّ الله ﷻ أَخْبَرَنَا أَنَّ كُلّ عَامِل فَجَزَاء عَمَله لهُ أَوْ عَلَيْهِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا حُكْمه فِي خَلقه، فَغَيْر جَائِز أَنْ تَكُون آثَام المَقْتُول مَأْخُوذًا بِهَا القَاتِلُ، وَإِنَّمَا يُؤْخَذ القَاتِل بِإِثْمِهِ بِالقَتْل المُحَرَّم، وَسَائِر آثَام مَعَاصِيه الَّتِي ارْتَكَبَهَا بِنَفْسِهِ، دُون مَا [ارْتَكَبَهُ][٣] قَتِيلُهُ. هَذَا لَفْظه، ثُمَّ أَوْرَدَ عَلى هَذَا سُؤَالًا حَاصِله: كَيْف أَرَادَ هَابِيل أَنْ يَكُون عَلى أَخِيهِ قَابِيل إِثْم قَتْله وَإِثْم نَفْسه، مَعَ أَنَّ قَتْله لهُ مُحَرَّم؟ وَأَجَابَ بِمَا حَاصِله: أَنَّ هَابِيل أَخْبَرَ عَنْ نَفْسه بِأَنَّهُ لا يُقَاتِل أَخَاهُ إِنْ قَاتَلَهُ، بَل يَكُفّ عَنْهُ يَده، طَالِبًا إِنْ وَقَعَ قَتْل أَنْ يَكُون مِنْ أَخِيهِ، لا مِنْهُ.

قُلتُ: وَهَذَا الكَلام مُتَضَمِّنٌ مَوْعِظَةً لهُ لَوْ اتَّعَظَ، وَزَجْرٌ لهُ لَوْ انْزَجَرَ، وَلِهَذَا قَال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أَيْ: تَتَحَمَّل إِثْمِي وَإِثْمك ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وَقَال ابْن عَبَّاس: خَوَّفَهُ بِالنَّارِ فَلَمْ يَنْتَهِ وَلَمْ يَنْزَجِر.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أَيْ: فَحَسَّنَتْ وَسَوَّلَتْ لهُ نَفْسُهُ، وَشَجَّعَتْهُ عَلى قَتْل أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، أَيْ: بَعْد هَذِهِ المَوْعِظَة وَهَذَا الزَّجْر. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الرِّوَايَة عَنْ أَبِي جَعْفَر البَاقِر -وَهُوَ مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن الحُسَيْن- أَنَّهُ قَتَلَهُ بِحَدِيدَةٍ فِي يَده. وَقَال السُّدِّيّ: عَنْ أَبِي مَالِك، وَعَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَعَنْ مُرَّة بْن عَبْد الله، وَعَنْ نَاس مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ فَطَلَبَهُ لِقَتْله فَرَاغَ الغُلام مِنْهُ فِي رُءُوس الجِبَال، فَأَتَاهُ يَوْمًا مِنَ الأَيَّام وَهُوَ يَرْعَى غَنَمًا لهُ وَهُوَ نَائِم، فَرَفَعَ صَخْرَة، فَشَدَخَ بِهَا رَأْسه، فَمَاتَ، فَتَرَكَهُ بِالعَرَاءِ. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَعَنْ بَعْض أَهْل الكِتَاب: أَنَّهُ قَتَلَهُ خَنْقًا وَعَضًّا كَمَا تُقْتَل السِّبَاع. وَقَال ابْن جَرِير: لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ جَعَل يَلوِي عُنُقه، فَأَخَذَ إِبْلِيس دَابَّة، فَوَضَعَ رَأْسهَا عَلى حَجَر، ثُمَّ أَخَذَ حَجَرًا آخَر فَضَرَبَ بِهِ رَأْسهَا حَتَّى قَتَلهَا وَابْن آدَم يَنْظُر، فَفَعَل بِأَخِيهِ مِثْل ذَلِكَ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَال عَبْد الله بْن وَهْب: عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، قَال: أَخَذَ بِرَأْسِهِ لِيَقْتُلَهُ، فَاضْطَجَعَ لهُ، وَجَعَل يَغْمِز رَأْسه وَعِظَامه، وَلا يَدْرِي كَيْف يَقْتُلهُ، فَجَاءَهُ إِبْلِيس فَقَال: أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَهُ؟ قَال: نَعَمْ. قَال: فَخُذْ هَذِهِ الصَّخْرَة فَاطْرَحْهَا عَلى رَأْسه. قَال: فَأَخَذَهَا فَأَلقَاهَا عَلَيْهِ فَشَدَخَ رَأْسه، ثُمَّ جَاءَ إِبْلِيس إِلى حَوَّاء مُسْرِعًا،

---

(١) حسن: أورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٤٠٨) وقال: رواه البزار، وقال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، ورجاله ثقات، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٦٠).

(٢) في سنخة: [يتحمل]. (٣) في نسخة: [ركبه].

فَقَال: يَا حَوَّاء، إِنَّ قَابِيل قَتَل هَابِيل. فَقَالَتْ لهُ: وَيْحك، وَأَيّ شَيْء يَكُون القَتْل؟ قَال: لا يَأْكُل وَلا يَشْرَب وَلا يَتَحَرَّك. قَالَتْ: ذَلكَ المَوْت. قَال: فَهُوَ المَوْت. فَجَعَلَتْ تَصِيح، حَتَّى دَخَل عَلَيْهَا آدَم وَهِيَ تَصِيح، فَقَال: مَا لك؟ فَلَمْ تُكَلِّمهُ، فَرَجَعَ إِلَيْهَا مَرَّتَيْنِ فَلَمْ تُكَلِّمهُ، فَقَال: عَلَيْك الصَّيْحَة، وَعَلى بَنَاتك، وَأَنَا [وَبَنِيَّ][1] مِنْهَا بُرَآء. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَوْله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَأَيّ خَسَارَة أَعْظَم مِنْ هَذِهِ، وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة وَوَكِيع، قَالا: حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ عَبْد الله بْن مُرَّة، عَنْ مَسْرُوق، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«لا تُقْتَل نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلا كَانَ عَلى ابْن آدَم الأَوَّل كِفْل مِنْ دَمهَا؛ لأَنَّهُ كَانَ أَوَّل مَنْ سَنَّ القَتْل»**[2]. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الجَمَاعَة سِوَى أَبِي دَاوُدَ مِنْ طُرُق عَنْ الأَعْمَش بِهِ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنِي حَجَّاج، قَال: قَال ابْن جُرَيْج، قَال مُجَاهِد: عَلقَتْ إِحْدَى رِجْلَيْ القَاتِل بِسَاقِهَا إِلى فَخِذهَا مِنْ يَوْمئِذٍ، إِلى يوم القيامة وَوَجْهه فِي الشَّمْس حَيْثُمَا دَارَتْ دَار عَلَيْهِ فِي الصَّيْف حَظِيرَة مِنْ نَار، وَعَلَيْهِ فِي الشِّتَاء حَظِيرَة مِنْ ثَلج. قَال: وَقَال عَبْد الله بْن عَمْرو: وَإِنَّا لَنَجِد ابْن آدَم القَاتِل يُقَاسِمُ أَهْل النَّارِ قِسْمَةً صَحِيحَةَ العَذَابِ عَلَيْهِ شَطْرُ عَذَابِهِمْ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا سَلمَة، عَنْ ابْن إِسْحَاق، عَنْ حَكِيم بْن حَكِيم، أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، أَنَّهُ كَانَ يَقُول: إِنَّ أَشْقَى أهل النار رَجُلًا، ابْنُ آدَم الَّذِي قَتَل أَخَاهُ، مَا سُفِكَ دَمٌ فِي الأَرْض مُنْذُ قَتَل أَخَاهُ إِلى يَوْم القِيَامَة؛ إِلَّا لحِقَ بِهِ مِنْهُ شَرٌّ؛ وَذَلكَ أَنَّهُ أَوَّل مَنْ سَنَّ القَتْل. وَقَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ: مَا مِنْ مَقْتُول يُقْتَل ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلى ابْن آدَم الأَوَّل وَالشَّيْطَان كِفْل مِنْهُ. رَوَاهُ ابْن جَرِير أَيْضًا.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾. قَال السُّدِّيّ بِإِسْنَادِهِ المُتَقَدِّم إِلى الصَّحَابَة ﷺ: لَمَّا مَاتَ الغُلام، تَرَكَهُ بِالعَرَاءِ وَلا يَعْلم كَيْف يُدْفَن، فَبَعَثَ الله غُرَابَيْنِ أَخَوَيْنِ فَاقْتَتَلا، فَقَتَل أَحَدهمَا صَاحِبه، فَحَفَرَ لهُ، ثُمَّ حَثَى عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَآهُ قَال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾.

وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: جَاءَ غُرَاب إِلى غُرَاب مَيِّت، فَبحث عَلَيْهِ مِنْ التُّرَاب حَتَّى وَارَاهُ، فَقَال الَّذِي قَتَل أَخَاهُ: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾. وَقَال الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس: مَكَثَ يَحْمِل أَخَاهُ فِي جِرَاب عَلى عَاتِقه سَنَة، حَتَّى بَعَثَ الله الغُرَابَيْنِ، فَرَآهُمَا يَبْحَثَانِ، فَقَال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ فَدَفَنَ أَخَاهُ. وَقَال لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ مُجَاهِد: كَانَ يَحْمِلهُ عَلى عَاتِقه مِائَة سَنَة مَيِّتًا، لا يَدْرِي مَا يَصْنَع بِهِ، وَيَحْمِلهُ وَيَضَعهُ إِلى الأَرْض، حَتَّى رَأَى الغُرَاب يَدْفِن الغُرَاب، فَقَال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾. رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال عَطِيَّة العَوْفِيّ: لَمَّا قَتَلهُ ندم، فَضَمَّهُ إِليْهِ حَتَّى أَرْوَح، وَعَكَفَتْ عَلَيْهِ الطُّيُور وَالسِّبَاع، تَنْتَظِر مَتَى يَرْمِي بِهِ فَتَأْكُلهُ. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَرَوَى مُحَمَّد بْن إِسْحَاق عَنْ بَعْض أَهْل العِلم بِالكِتَابِ الأَوَّل: لَمَّا قَتَلهُ سُقِطَ فِي يَده، أَيْ: وَلمْ يَدْرِ كَيْف يُوَارِيه، وَذَلكَ أَنَّهُ كَانَ -فِيمَا يَزْعُمُونَ- أَوَّل قَتِيل فِي بَنِي آدَم، وَأَوَّل مَيِّت. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ قَال: وَزَعَمَ أَهْل التَّوْرَاة: أَنَّ قينًا لَمَّا قَتَل أَخَاهُ هَابِيل، قَال لهُ الله ﷻ: يَا قَين، أَيْنَ أَخُوك هَابِيل؟ قَال: مَا أَدْرِي، مَا كُنْت عَلَيْهِ رَقِيبًا. فَقَال الله: إِنَّ صَوْت دَم أَخِيك لِيُنَادِينِي مِنْ الأَرْض والآن أَنْتَ مَلعُون من الأَرْض الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا، فَتَلَقَّتْ دَم أَخِيك مِنْ يَدك، فَإِنْ أَنْتَ عَمِلت فِي الأَرْض، فَإِنَّهَا لا تَعُود

---

(١) في نسخة: [وابني].

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٨٦٧)، ومسلم (١٦٧٧).

تُعطِيك حَزنَهَا، حتَّى تكون فزعًا تائهًا في الأرض. وقوله: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ قال الحسن البَصْرِيّ: علاهُ الله بِندَامَةٍ بعْد خُسْرَان. فهَذِهِ أقوال المُفسِّرينَ في هَذِهِ القِصَّة، وكُلّهم مُتَّفِقُونَ على أنَّ هَذَيْنِ ابْنَا آدم لصُلبِه، كَمَا هُوَ ظَاهِر القُرْآن، وكَمَا نَطَقَ بِهِ الحَدِيث في قَوْله: «**إلا كانَ عَلى ابْن آدم الأوَّل كِفْلٌ مِن دَمِهَا؛ لأنَّهُ أوَّل مَنْ سَنَّ القَتْل**». وهَذَا ظَاهِر جَلِيّ، ولكِنْ قَالَ ابْن جَرير: حَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا سَهْل بْن يُوسُف، عَنْ عَمْرو، عَنْ الحَسَن -هُوَ البَصْرِيّ- قَالَ: كَانَ الرَّجُلانِ اللَّذَانِ في القُرْآن، اللَّذَانِ قَال الله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، ولَمْ يَكُونَا ابْنَيْ آدم لصُلبِه، وإنَّمَا كَانَ القُرْبَانُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، وكَانَ آدم أوَّل مَنْ مَات. وهَذَا غَرِيب جِدًّا، وفي إسْنَاده نَظَر.

وقَدْ قَالَ عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ مَعْمَر، عَنْ الحَسَن، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إنَّ ابْنَيْ آدم عَلَيْهِ السَّلام ضَرَبَا لِهَذِهِ الأُمَّة مَثَلًا، فَخُذُوا بِالخَيْرِ مِنْهُمَا**»[1]. ورَوَاهُ ابن المُبَارَك: عَنْ عَاصِم الأحْوَل، عَنْ الحَسَن، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إنَّ الله ضَرَبَ لَكُمْ ابْنَيْ آدم مَثَلًا، وخُذُوا مِنْ خَيْرهِمْ ودَعُوا شَرّهمْ**». وكَذَا أرْسَل هَذَا الحَدِيثَ بَكْر بْن عَبْد الله المُزَنِيّ. رَوَى ذَلِكَ كُلّه ابْن جَرير. وقَال سَالِم بْن أبي الجَعْد: لمَّا قَتَل ابْن آدم أخَاهُ، مَكَثَ آدم مِائَة سَنَة حَزِينًا لا يَضْحَك، ثُمَّ أُتِيَ فَقِيل لهُ: حَيَّاك الله وبَيَّاك. أيْ: أضْحَكَك. رَوَاهُ ابْن جَرير، ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا سَلَمَة، عَنْ غِيَاث بْن إبْرَاهِيم، عَنْ أبي إسْحَاق الهَمْدَانِيّ، قَال: قَال عَلِيّ بْن أبي طَالب، لمَّا قَتَل ابْن آدم أخَاهُ بَكَاهُ آدم فَقَال:

تَغَيَّرَتْ البِلاد ومَنْ عَلَيْهَا	**فَلَوْنُ الأرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ**
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وطَعْمٍ	**وقَلَّ بَشَاشَةَ الوَجْهِ المَلِيحِ**

فَأُجِيبَ آدمُ عَلَيْهِ السَّلام:

أبَا هَابِيل قَدْ قُتِلا جَمِيعًا	**وصَارَ الحَيُّ كالمَيْتِ الذَّبِيحِ**
وجَاءَ بِشَرَّةٍ قَدْ كَانَ مِنْهَا	**عَلَى خَوْفٍ فجَاءَ بهَا يَصِيحُ**

والظَّاهِر أنَّ قَابِيل عُوجِل بالعُقُوبَة، كَمَا ذَكَره مُجاهِد وابْن جَبْر: أنَّهُ عَلِقَتْ سَاقه بِفَخِذِهِ إلى يَوْم القِيَامَة، وجَعَل الله وَجْهه إلى الشَّمْس حَيْثُ دَارَتْ، عُقُوبَة لهُ وتَنْكِيلًا بِهِ، وقَدْ وَرَدَ في الحَدِيث أنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**مَا مِنْ ذَنْب أجْدَرَ أنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدَّخَر لِصَاحِبِهِ فِي الآخِرَة: مِنَ البَغْيِ وقَطِيعَةِ الرَّحِم**»[2]. وقَدْ اجْتَمَعَ في فِعْل قَابِيل هَذَا وهَذَا، فإنَّا لله وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

يَقُول تَعَالى: مِنْ أجْل قَتْل ابْن آدم أخَاهُ ظُلْمًا وعُدْوَانًا ﴿كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أيْ: شَرَعْنَا لهُمْ وأعْلَمْنَاهُمْ ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ أيْ: مَنْ قَتَل نَفْسًا بِغَيْرِ سَبَب مِنْ قِصَاص أوْ فَسَاد في الأرْض، واسْتَحَلَّ قَتْلهَا بِلا سَبَب، ولا جِنَايَة -فَكَأنَّمَا قَتَل النَّاس

---

(١) مرسل: من مراسيل الحسن البصري فلم يسنده إلى صحابي.
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١).

جَمِيعًا؛ لأَنَّهُ لا فَرْق عِنْده بَيْن نَفْس وَنَفْس، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أَيْ: حَرَّمَ قَتْلهَا وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ، فَقَدْ سَلِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْهُ بِهَذَا الاعْتِبَار، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. وَقَال الأَعْمَش وَغَيْره، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: دَخَلت عَلَى عُثْمَان يَوْمَ الدَّارِ، فَقُلت: جِئْت لأَنْصُرك، وَقَدْ طَابَ الضَّرْب يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ. فَقَال: يَا أَبَا هُرَيْرَة: أَيَسُرُّك أَنْ تَقْتُل النَّاس جَمِيعًا وَإِيَّايَ مَعَهُمْ؟ قُلت: لا. قَال: فَإِنَّك إِنْ قَتَلت رَجُلًا وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا قَتَلت النَّاس جَمِيعًا، فَانْصَرِفْ مَأْذُونًا لك، مَأْجُورًا غَيْرَ مَأْزُورٍ. قَال: فَانْصَرَفْت وَلَمْ أُقَاتِل.

وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: هُوَ كَمَا قَال الله تَعَالَى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وَإِحْيَاؤُهَا أَلَّا يَقْتُل نَفْسًا حَرَّمَهَا الله، فَذَلِكَ الَّذِي أَحْيَا النَّاس جَمِيعًا. يَعْنِي: أَنَّهُ مَنْ حَرَّمَ قَتْلهَا إِلَّا بِحَقٍّ حَيِيَ النَّاس مِنْهُ. وَهَكَذَا قَال مُجَاهِد: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أَيْ: كَفَّ عَنْ قَتْلهَا. وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ يَقُول: مَنْ قَتَل نَفْسًا وَاحِدَة حَرَّمَهَا الله، فهو مِثْل مَنْ قَتَل النَّاس جَمِيعًا. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: مَنْ اسْتَحَلَّ دَم مُسْلِم؛ فَكَأَنَّمَا اسْتَحَلَّ دِمَاء النَّاس جَمِيعًا، وَمَنْ حَرَّمَ دَم مُسْلِم؛ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ دِمَاء النَّاس جَمِيعًا. هذا قول وهو الأظهر، وقال عكرمة والعوفي عن ابن عباس: من قتل نبياً أو إمامَ عَدْلٍ، فكأنما قتل الناس جميعاً، وَمَنْ شَدَّ عَلى عَضُد نَبِيّ أَوْ إِمَام عَادِلٍ، فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاس جَمِيعًا. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَال مُجَاهِد فِي رِوَايَة أُخْرَى عَنْهُ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ ... فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ وَذَلِكَ لأَنَّ مَنْ قَتَل النَّفْس فَلَهُ النَّار، فَهُوَ كَمَا لوْ قَتَل النَّاس جميعاً. قَال ابْن جُرَيْج، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ مَنْ قَتَل النَّفْس الْمُؤْمِنَة مُتَعَمِّدًا؛ جَعَل الله جَزَاءَهُ جَهَنَّم، وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَلعَنَهُ، وَأَعَدَّ لهُ عَذَابًا عَظِيمًا، يَقُول: لوْ قَتَل النَّاس جَمِيعًا، لمْ يَزِدْ عَلى مِثْل ذَلكَ العَذَاب. قَال ابْن جُرَيْج: قَال مُجَاهِد: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ قَال: مَنْ لمْ يَقْتُل أَحَدًا فَقَدْ حَيِيَ النَّاس مِنْهُ.

وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ: مَنْ قَتَل نَفْسًا، فَكَأَنَّمَا قَتَل النَّاس، يَعْنِي: فقد وَجَبَ عَليْهِ القِصَاص، فَلا فَرْق بَيْن الوَاحِد وَالجَمَاعَة، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أَيْ: عَفَا عَنْ قَاتِل وَليّه؛ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاس جَمِيعًا. وَحُكِيَ ذَلكَ عَنْ أَبِيهِ. رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَقَال مُجَاهِد فِي رِوَايَة: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أَيْ: أَنْجَاهَا مِنْ غَرَق أَوْ حَرْق أَوْ هَلكَة. وَقَال الحَسَن وَقَتَادَة: فِي قَوْله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ هَذَا تَعْظِيم لتَعَاطِي القَتْل، قَال قَتَادَة: عَظُم وَالله وِزْرُهَا، وَعَظُمَ وَالله أَجْرُهَا. وَقَال ابْن الْمُبَارَك، عَنْ سَلام بْن مِسْكِين، عَنْ سُليْمَان بْن عَليّ الرِّبْعِيّ، قَال: قُلت للحَسَنِ: هَذِهِ الآيَة لنَا يَا أَبَا سَعِيد كَمَا كَانَتْ لبَنِي إِسْرَائِيل؟ فَقَال: إِي وَالَّذِي لا إِله غَيْره، كَمَا كَانَتْ لبَنِي إِسْرَائِيل، وَمَا جُعِل دِمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيل أَكْرَمَ عَلى الله مِنْ دِمَائِنَا. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ قَال: وِزْرًا، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ قَال: أَجْرًا. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا حيي بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: جَاءَ حَمْزَة بْن عَبْد الْمُطَّلب إِلى رَسُول الله ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله، اجْعَلنِي عَلى شَيْء أَعِيش بِهِ. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «يَا حَمْزَة، نَفْس تُحْيِيهَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ نَفْسٌ تُمِيتهَا؟» قَال: بَل نَفْس أُحْيِيهَا. قَال: «عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ»[1].

قَوْله تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أَيْ: بِالحُجَج وَالبَرَاهِين، وَالدَّلائِل الوَاضِحَة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ١٧٥) بسند ضعيف فيه ابن لهيعة: ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٣١٣).

﴿مِنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ وَهَذَا تَقْرِيع لَهُمْ وَتَوْبِيخ عَلَى ارْتِكَابِهِمْ المَحَارِم بَعْد عِلمهمْ بِهَا، كَمَا كَانَتْ بَنُو قُرَيْظَة وَالنَّضِير، وَغَيْرهمْ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاع، مِمَّنْ حَوْل المَدِينَة مِنْ اليَهُود، الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ مَعَ الأَوْس وَالخَزْرَج، إِذَا وَقَعَتْ بَيْنهمْ الحُرُوب فِي الجَاهِلِيَّة، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتْ الحُرُوب أَوْزَارهَا، فَدَوْا مَنْ أَسَرُوهُ، وَوَدَوْا مَنْ قَتَلُوهُ، وَقَدْ أَنْكَرَ الله عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي سُورَة البَقَرَة حَيْثُ يَقُول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قَوْله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ الآيَة. المُحَارَبَةُ: هِيَ المُضَادَّة وَالمُخَالَفَة، وَهِيَ صَادِقَة عَلَى الكُفْر، وَعَلَى قَطْع الطَّرِيق، وَإِخَافَة السَّبِيل، وَكَذَا الإِفْسَاد فِي الأَرْض يُطْلَق عَلَى أَنْوَاع مِنْ الشَّرّ، حَتَّى قَال كَثِير مِنْ السَّلَف، مِنْهُمْ سَعِيد بْن المُسَيَّب: إِنَّ قَرْض الدَّرَاهِم وَالدَّنَانِير مِنْ الإِفْسَاد فِي الأَرْض، وَقَدْ قَال الله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾. ثُمَّ قَال بَعْضهمْ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي المُشْرِكِينَ، كَمَا قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن وَاضِح، حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن وَاقِد، عَنْ يَزِيد، عَنْ عِكْرِمَة، وَالحَسَن البَصْرِيّ قَالا: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إِلَى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي المُشْرِكِينَ، فَمَنْ تَابَ مِنْهُمْ مِنْ قَبْل أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِ؛ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ سَبِيل، وَلَيْسَتْ تُحْرِز هَذِهِ الآيَة الرَّجُل المُسْلِم مِنْ الحَدّ، إِنْ قَتَلَ أَوْ أَفْسَدَ فِي الأَرْض، أَوْ حَارَبَ الله وَرَسُوله، ثُمَّ لَحِقَ بِالكُفَّارِ قَبْل أَنْ يُقْدَر عَلَيْهِ، لَمْ يَمْنَعهُ ذَلِكَ أَنْ يُقَام عَلَيْهِ الحَدّ الَّذِي أَصَاب. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيّ مِنْ طَرِيق عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ نَزَلَت فِي المُشْرِكِينَ فَمَنْ تَابَ مِنْهُمْ قَبْل أَنْ يُقْدَر عَلَيْهِ، لَمْ يَمْنَعهُ ذَلِكَ أَنْ يُقَام عَلَيْهِ الحَدّ الَّذِي أَصَابَهُ.

وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآيَة. قَال: كَانَ قَوْم مِنْ أَهْل الكِتَاب بَيْنهمْ وَبَيْنَ النَّبِيّ ﷺ عَهْد وَمِيثَاق، فَنَقَضُوا العَهْد، وَأَفْسَدُوا فِي الأَرْض، فَخَيَّرَ الله رَسُوله: إِنْ شَاءَ أَنْ يَقْتُل، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يَقْطَع أَيْدِيهمْ وَأَرْجُلهمْ مِنْ خِلاف. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَرَوَى شُعْبَة، عَنْ مَنْصُور، عَنْ هِلال بْن يساف، عَنْ مُصْعَب بْن سَعْد، عَنْ أَبِيهِ قَال: نَزَلَتْ فِي الحَرُورِيَّة ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ.

وَالصَّحِيح أَنَّ هَذِهِ الآيَة عَامَّة فِي المُشْرِكِينَ وَغَيْرهمْ، مِمَّنْ ارْتَكَبَ هَذِهِ الصِّفَات، كَمَا رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم مِنْ حَدِيث أَبِي قِلابَة -وَاسْمه: عَبْد الله بْن زَيْد الجَرْمِيّ البَصْرِيّ- عَنْ أَنَس بْن مَالِك: أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْل ثَمَانِيَة، قَدِمُوا عَلَى رَسُول الله ﷺ، فَبَايَعُوهُ عَلَى الإِسْلام، فَاسْتَوْخَمُوا المَدِينَة، وَسَقِمَتْ أَجْسَامهمْ، فَشَكَوْا إِلَى رَسُول الله ﷺ ذَلكَ فَقَال: «**أَلا تَخْرُجُوا مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِله، فَتُصِيبُوا مِنْ أَبْوَالهَا وَأَلبَانهَا**». فَقَالُوا: بَلَى. فَخَرَجُوا، فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالهَا، وَأَلبَانهَا، فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا الرَّاعِي، وَطَرَدُوا الإِبِل، فَبَلَغَ ذَلكَ رَسُول الله ﷺ، فَبَعَثَ فِي آثَارهمْ؛ فَأُدْرِكُوا فَجِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهمْ وَأَرْجُلهمْ وَسُمِرَتْ أَعْيُنهمْ، ثُمَّ نُبِذُوا فِي الشَّمْس حَتَّى مَاتُوا[1]. لفْظ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٣٣)، ومسلم (١٦٧١).

مُسْلم، وَفِي لفظ لهُمَا: مِنْ عُكْل أَوْ عُرَيْنَة. وَفِي لفظ: وَأُلقُوا فِي الحَرَّة، فَجعَلُوا يَسْتَسْقُونَ، فَلا يُسْقَوْنَ. وَفِي لفظ لمُسْلِم: وَلمْ يَحْسِمهُمْ. وَعِنْد البُخَارِيّ: قَال أَبُو قِلابَة: فَهَؤُلاءِ سَرَقُوا، وَقتلُوا، وَكَفرُوا بَعْد إِيمَانهمْ، وَحَاربُوا الله وَرَسُوله. وَرَوَاهُ مُسْلم مِنْ طَرِيق هُشَيْم، عَنْ عَبْد العَزِيز بْن صُهَيْب وَحُمَيْد، عَنْ أَنس، فَذَكره نَحْوه، وَعِنْده: فَارْتَدُّوا. وَقَدْ أَخْرَجَاهُ مِنْ رِوَايَة قتَادَة، عَنْ أَنس بِنَحْوِهِ. وَقَال سَعِيد، عَنْ قتَادَة: مِنْ عُكْل وَعُرَيْنَة. وَرَوَاهُ مُسْلم مِنْ طَرِيق سُليْمَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَنس، قَال: إِنَّمَا سَمَل النَّبِيّ ﷺ أَعْيُن أُولئِكَ؛ لأَنَّهُمْ سَملُوا أَعْيُن الرِّعَاء. وَرَوَاهُ مُسْلم مِنْ حَدِيث مُعَاوِيَة بْن قُرَّة، عَنْ أَنس، قَال: أَتَى رَسُول الله ﷺ نَفرٌ مِنْ عُرَيْنَة؛ فَأَسْلمُوا وَبَايَعُوهُ، وَقَدْ وَقع بِالمَدِينَةِ المومُ. وَهُوَ البِرْسَام ثُمَّ ذَكَرَ نَحو حَدِيثهمْ وَزَادَ: عِنْده شَبَاب مِنْ الأَنْصَار، قَرِيب مِنْ عِشْرِينَ فَارِسًا، فَأَرْسَلهُمْ وَبعَث مَعهُمْ قَائِفًا يَقْفُو أَثرهمْ. وَهَذِهِ كُلّهَا أَلفَاظ مُسْلم، رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَال حَمَّاد بْن سَلمَة: حَدَّثنَا قتَادَة، وَثَابِت البُنَانِيّ، وَحُمَيْد الطَّوِيل، عَنْ أَنَس بْن مَالك: أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَة قَدِمُوا المَدِينَة فَاجْتَوَوْهَا، فَبعَثهُمْ رَسُول الله ﷺ فِي إِبِل الصَّدَقة، وَأَمَرهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالهَا وَأَلبَانهَا، فَفعَلُوا فَصَحُّوا، فَارْتَدُّوا عَنْ الإِسْلام، وَقتلُوا الرَّاعِي، وَسَاقُوا الإِبِل، فَأَرْسَل رَسُول الله ﷺ فِي آثَارهمْ فَجِيءَ بِهِمْ، فَقطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلهُمْ مِنْ خِلافٍ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، وَأَلقَاهُمْ فِي الحَرَّةِ. قَال أَنسٌ: فَلقَدْ رَأَيْت أَحَدهمْ يَكْدُم الأَرْض بِفِيهِ عَطَشًا حَتَّى مَاتُوا، وَنَزَلتْ ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيَة. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن مَرْدُوَيْهِ وَهَذَا لفْظه. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

وَقَدْ رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ طُرُق كَثِيرَة، عَنْ أَنَس بْن مَالك مِنْهَا: مَا رَوَاهُ مِنْ طَرِيقَيْنِ، عَنْ سَلام بْن أَبِى الصَّهْبَاء، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس بْن مَالك قَال: مَا نَدِمْت عَلى حَدِيث؛ مَا نَدِمْت عَلى حَدِيث سَأَلنِي عَنْهُ الحَجَّاج؛ قَال: أَخْبِرْنِي عَنْ أَشَدّ عُقُوبَة عَاقَبَ بِهَا رَسُول الله ﷺ قَال: قُلت: قَدِمَ عَلى رَسُول الله ﷺ قَوْم مِنْ عُرَيْنَة مِنْ البَحْرَيْنِ، فَشَكَوْا إِلى رَسُول الله ﷺ مَا لقُوا مِنْ بُطُونهمْ، وَقَدْ اصْفَرَّتْ أَلوَانهمْ، وَضَمُرَتْ بُطُونهمْ، فَأَمَرهُمْ رَسُول الله ﷺ أَنْ يَأْتُوا إِبِل الصَّدَقَة؛ فَيشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالهَا وَأَلبَانهَا، حَتَّى إِذَا رَجَعَتْ إِليْهِمْ أَلوَانهمْ، وَانْخَمَصَتْ بُطُونهمْ، عَمَدُوا إِلى الرَّاعِي فَقتَلُوهُ، وَاسْتَاقُوا الإِبِل، فَأَرْسَل رَسُول الله ﷺ فِي آثَارهمْ فَقطَعَ أَيْدِيهمْ، وَأَرْجُلهمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنهمْ، ثُمَّ أَلقَاهُمْ فِي الرَّمْضَاء حَتَّى مَاتُوا، فَكَانَ الحَجَّاج إِذَا صَعِدَ المِنْبَر يَقُول: إِنَّ رَسُول الله ﷺ قَدْ قَطَعَ أَيْدِي قَوْم وَأَرْجُلهمْ، ثُمَّ أَلقَاهُمْ فِي الرَّمْضَاء، حَتَّى مَاتُوا لحَال ذَوْد مِنْ الإِبِل، فَكَانَ الحَجَّاج يَحْتَجّ بِهَذَا الحَدِيث عَلى النَّاس.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثنَا عَليّ بْن سَهْل، حَدَّثنَا الوَليد -يَعْنِي ابْن مُسْلم- حَدَّثنِي سَعِيد، عَنْ قتَادَة، عَنْ أَنَس، قَال: كَانُوا أَرْبَعَة نَفَر مِنْ عُرَيْنَة، وَثَلاثَة نَفَر مِنْ عُكْل، فَلمَّا أَتَى بِهِمْ قَطَعَ أَيْدِيهمْ وَأَرْجُلهمْ، وَسَمَل أَعْيُنهمْ، وَلمْ يَحْسِمهُمْ وَتَرَكَهُمْ يَتَلقَّفُون الحِجَارَة بِالحَرَّةِ، فَأَنْزَل الله فِي ذَلكَ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيَة.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا عَليّ بْن حَرْب المَوْصِليّ، حَدَّثنَا أَبُو مَسْعُود -يَعْنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن الحَسَن الزَّجَّاج- حَدَّثنَا أَبُو سَعِد -يَعْنِي البَقَّال- عَنْ أَنَس بْن مَالك، قَال: كَانَ رَهْط مِنْ عُرَيْنَة أَتَوْا رَسُول الله ﷺ، وَبِهِمْ جَهْد، مُصْفَرَّة أَلوَانهمْ، عَظِيمَة بُطُونهمْ، فَأَمَرهُمْ أَنْ يَلحَقُوا بِالإِبِل، فَيشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالهَا وَأَلبَانهَا، فَفعَلُوا فَصَفَتْ أَلوَانهمْ، وَخَمَصت بُطُونُهُمْ، وَسَمِنُوا، فَقتَلُوا الرَّاعِي، وَاسْتَاقُوا الإِبِل، فَبعَثَ النَّبِيّ ﷺ فِي طَلبهمْ، فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقتَل بَعْضهمْ، وَسَمَرَ أَعْيُن بَعْضهمْ، وَقَطَعَ أَيْدِي بَعْضهمْ وَأَرْجُلهمْ، وَنَزَلتْ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إِلى آخِر الآيَة.

وَقَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثنَا أَبُو عَليّ ابْن سَهْل، حَدَّثنَا الوَليد بْن مُسْلم، حَدَّثنَا ابْن لهِيعَة، عَنْ يزيد بْن أَبِي حَبِيب أَنَّ عَبْد المَلك بْن مَرْوَان كَتَبَ إِلى أَنَس يَسْأَلهُ عَنْ هَذِهِ الآيَة، فَكَتَبَ إِليْهِ أَنَس يُخْبِرهُ أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلتْ فِي أُولئِك النَّفَر العُرَنِيِّينَ، وَهُمْ مِنْ بَجِيلة. قَال أَنَس: فَارْتَدُّوا عَنْ الإِسْلام، وَقَتلُوا الرَّاعِي، وَاسْتَاقُوا الإِبِل،

وَأَخَافُوا السَّبِيل، وَأَصَابُوا الفَرْج الحَرَام. وَقَال: حَدَّثَنِي يُونُس، أَخْبَرَنَا ابن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي هِلال، عَنْ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ عَبْد الله بْن عُبَيْد الله، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر -أَوْ عَمْرو شَكَّ يُونُس- عَنْ رَسُول الله ﷺ بِذَلِكَ -يَعْنِي: بِقِصَّةِ العُرَنِيِّينَ- وَنَزَلَتْ فِيهِمْ آيَة المُحَارَبَة، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ مِنْ طَرِيق أَبِي الزِّنَاد، وَفِيهِ: عَنْ ابْن عُمَر مِنْ غَيْر شَكّ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن خَلَف، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن حَمَّاد، عَنْ عَمْرو بْن هَاشِم، عَنْ مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ جَرِير قَال: قَدِمَ عَلَى رَسُول الله ﷺ قَوْم مِنْ عُرَيْنَة، حُفَاة مَضْرُورِينَ، فَأَمَرَ بِهِمْ رَسُول الله ﷺ فَلَمَّا صَحُّوا وَاشْتَدُّوا، قَتَلُوا رِعَاء اللِّقَاح ثم خرجوا باللقاح عَامِدِينَ بِهَا إِلَى أرض قَوْمهمْ. قَال جَرِير: فَبَعَثَنِي رَسُول الله ﷺ فِي نَفَر مِنَ المُسْلِمِينَ، حَتَّى أَدْرَكْنَاهُمْ بَعْدَ مَا أَشْرَفُوا عَلَى بِلاد قَوْمهمْ، فَقَدِمْنَا بِهِمْ عَلَى رَسُول الله ﷺ، فَقَطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلهمْ مِنْ خِلاف، وَسَمَل أَعْيُنهمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: المَاء، وَرَسُول الله ﷺ يَقُول: «النَّار»! حَتَّى هَلَكُوا. قَال: وَكَرِهَ الله ﷻ سَمْل الأَعْيُن[1]، فَأَنْزَل هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إِلَى آخِر الآيَة. هَذَا حَدِيث غَرِيب، وَفِي إِسْنَاده الرَّبَذِيّ؛ وَهُوَ ضَعِيف، وَفِي إِسْنَاده فَائِدَة: وَهُوَ ذِكْر أَمِير هَذِهِ السَّرِيَّة، وَهُوَ جَرِير بْن عَبْد الله البَجَلِيّ، وَتَقَدَّمَ فِي صَحِيح مُسْلم: أَنَّ هَذِهِ السَّرِيَّة كَانُوا عِشْرِينَ فَارِسًا مِنْ الأَنْصَار. وَأَمَّا قَوْله: «فَكَرِهَ الله سَمْل الأَعْيُن؛ فَأَنْزَل هَذِهِ الآيَة». فَإِنَّهُ مُنْكَر. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيح مُسْلم: أَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُن الرِّعَاء، فَكَانَ مَا فُعِل بِهِمْ قِصَاصًا، وَالله أَعْلَم.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد الأَسْلَمِيّ، عَنْ صَالِح مَوْلَى التَّوْأَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: قَدِمَ عَلَى رَسُول الله ﷺ رِجَال مِنْ بَنِي فَزَارَة، قَدْ مَاتُوا هَزْلًا، فَأَمَرَهُمْ النَّبِيّ ﷺ إِلَى لِقَاحه، فَشَرِبُوا مِنْهَا حَتَّى صَحُّوا، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى لِقَاحه فَسَرَقُوهَا، فَطُلِبُوا، فَأُتِيَ بِهِمْ النَّبِيّ ﷺ، فَقَطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلهمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنهمْ. قَال أَبُو هُرَيْرَة: فَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فَتَرَكَ النَّبِيّ ﷺ سَمْر الأَعْيُن بَعْد[2]. وَرُوِيَ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ أَبِي هُرَيْرَة. وَقَال أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْه: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا الحُسَين بْن إِسْحَاق التَّسْتُرِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو القَاسِم مُحَمَّد بْن الوَلِيد، عن عَمْرو بْن مُحَمَّد المَدِينِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن طَلْحَة، عَنْ مُوسَى بْن مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَلَمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ سَلَمَة بْن الأَكْوَع قَال: كَانَ لِلنَّبِيّ ﷺ غُلام يُقَال لَهُ: يَسَار، فَنَظَرَ إِلَيْهِ يُحْسِن الصَّلاة فَأَعْتَقَهُ، وَبَعَثَهُ فِي لِقَاح لَهُ بِالحَرَّة، فَكَانَ بِهَا. قَال: فَأَظْهَرَ قَوْم الإِسْلام مِنْ عُرَيْنَة، وَجَاءُوا وَهُمْ مَرْضَى مَوْعُوكُونَ، قد عظمت بطونهم، قال: فبعث بهم النبي ﷺ إلى يسار، فَكَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَان الإِبِل؛ حَتَّى انْطَوَتْ بُطُونهم، ثُمَّ عَدَوْا عَلَى يَسَار فَذَبَحُوهُ، وَجَعَلُوا الشَّوْك فِي عَيْنَيْهِ، ثُمَّ أَطْرَدُوا الإِبِل، فَبَعَثَ النَّبِيّ ﷺ فِي آثَارهمْ خَيْلًا مِنْ المُسْلِمِينَ أميرهمْ كُرْز بْن جَابِر الفِهْرِيّ، فَلَحِقَهُمْ فَجَاءَ بِهِمْ إِلَيْهِ، فَقَطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلهمْ وَسَمَل أَعْيُنهمْ[3]. غَرِيب جِدًّا. وَقَدْ رَوَى قِصَّة العُرَنِيِّينَ مِنْ حَدِيث جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة، مِنْهُمْ: جَابِر، وَعَائِشَة، وَغَيْر وَاحِد، وَقَدْ اعْتَنَى الحَافِظ الجَلِيل أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْه بِطُرُق هَذَا الحَدِيث مِنْ وُجُوه كَثِيرَة جِدًّا، فَرَحِمَهُ الله وَأَثَابَهُ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن الحَسَن بْن شَقِيق، سَمِعْت أَبِي يَقُول: سَمِعْت أَبَا حَمْزَة، عَنْ عَبْد الكَرِيم، وَسُئِل عَنْ أَبْوَال الإِبِل، فَقَال: حَدَّثَنِي سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ المُحَارِبِينَ، فَقَال: كَانَ أُنَاس أَتَوْا رَسُول الله ﷺ،

---

(١) ضعيف الإسناد: فيه الربذي: ضعيف.

(٢) ضعيف الإسناد.

(٣) ضعيف الإسناد: فيه موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، قال الحافظ: منكر الحديث.

فَقَالُوا: نُبَايِعك عَلَى الإِسْلام. فَبَايَعُوهُ وَهُمْ كَذَبَة وَلَيْسَ الإِسْلام يُرِيدُونَ. ثُمَّ قَالُوا: إِنَّا نَجْتَوِي الْمَدِينَة، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «هَذِهِ اللِّقَاح تَغْدُو عَلَيْكُمْ وَتَرُوح فَاشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا». قَال: فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُمْ الصَّرِيخ، فَصَرَخَ إِلَى رَسُول الله ﷺ، فَقَال: قَتَلُوا الرَّاعِي، وَاسْتَاقُوا النَّعَم. فَأَمَرَ النَّبِيّ ﷺ فَنُودِيَ فِي النَّاس: «أَنْ يَا خَيْلَ الله ارْكَبِي». قَال: فَرَكِبُوا، لا يَنْتَظِرُ فَارِسٌ فَارِسًا. قَال: وَرَكِبَ رَسُول الله ﷺ عَلَى أَثَرهِمْ، فَلَمْ يَزَالُوا يَطْلُبُونَهُمْ حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ مَأْمَنهمْ، فَرَجَعَ صَحَابَة رَسُول الله ﷺ وَقَدْ أَسَرُوا مِنْهُمْ، فَأَتَوْا بِهِمْ النَّبِيّ ﷺ فَأَنْزَل الله ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيَة. قَال: فَكَانَ نَفْيهمْ أَنْ نَفَوْهُمْ حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ مَأْمَنهمْ وَأَرْضهمْ، وَنَفَوْهُمْ مِنْ أَرْض الْمُسْلِمِينَ، وَقَتَل نَبِيّ الله ﷺ مِنْهُمْ، وَصَلب وَقَطَّعَ، وَسَمَرَ الأَعْيُن. قَال: فَمَا مَثَّل رَسُول الله ﷺ قَبْل وَلا بَعْد. قَال: وَنَهَى عَنْ الْمُثْلة، وَقَال: «وَلا تُمَثِّلُوا بِشَيْء». قَال: وَكَانَ أَنَس يَقُول ذَلِكَ غَيْر أَنَّهُ قَال: أَحْرَقَهُمْ بِالنَّارِ بَعْد مَا قَتَلَهُمْ. قَال: وَبَعْضهمْ يَقُول: هُمْ نَاس مِنْ بَنِي سُلَيْم، وَمِنْهُمْ من عُرَيْنَة نَاس مِنْ بَجِيلة[1].

وَقَدْ اخْتَلَفَ الأَئِمَّة فِي حُكْم هَؤُلاءِ الْعُرَنِيِّينَ، هَل هُوَ مَنْسُوخ أَوْ مُحْكَم؟ فَقَال بَعْضهمْ: هُوَ مَنْسُوخ بِهَذِهِ الآيَة، وَزَعَمُوا أَنَّ فِيهَا عِتَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ كَمَا فِي قَوْله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾. وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: هُوَ مَنْسُوخ بِنَهْيِ النَّبِيّ ﷺ عَنْ الْمُثْلة. وَهَذَا الْقَوْل فِيهِ نَظَر، ثُمَّ قَائِله، مُطَالب بِبَيَانِ تَأَخُّر النَّاسِخ الَّذِي ادَّعَاهُ عَنْ الْمَنْسُوخ، وَقَال بَعْضهمْ: كَانَ هَذَا قَبْل أَنْ تُنَزَّل الْحُدُود، قَالهُ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، وَفِي هذا نَظَر؛ فَإِنَّ قِصَّته مُتَأَخِّرَة. وَفِي رِوَايَة جَرِير بْن عَبْد الله لِقِصَّتِهِمْ مَا يَدُلّ عَلَى تَأَخُّرِهَا، فإنه أَسْلمُ بَعْد نُزُول الْمَائِدَة، وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: لَمْ يَسْمُل النَّبِيّ ﷺ أَعْيُنهمْ، وَإِنَّمَا عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى نَزَل الْقُرْآن فَبَيَّنَ حُكْم الْمُحَارِبِينَ، وَهَذَا الْقَوْل أَيْضًا فِيهِ نَظَر؛ فَإِنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيث الْمُتَّفَق عَلَيْهِ أَنَّهُ سَمَل، وَفِي رِوَايَة: سَمَرَ أَعْيُنهمْ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن سَهْل، حَدَّثَنَا الْوَلِيد بْن مُسْلم قَال: ذَاكَرْت اللَّيْث بْن سَعْد مَا كَانَ مِنْ سَمْل النَّبِيّ ﷺ أَعْيُنهمْ، وَتَرْكه حَسْمهمْ حَتَّى مَاتُوا، فَقَال: سَمِعْت مُحَمَّد بْن عَجْلان يَقُول: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَة عَلَى رَسُول الله ﷺ مُعَاتَبَة فِي ذَلِكَ، وَعَلَّمَهُ عُقُوبَة مِثْلهمْ مِنْ الْقَتْل وَالْقَطْع وَالنَّفْي، وَلَمْ يَسْمُل بَعْدهمْ غَيْرَهُمْ. قَال: وَكَانَ هَذَا الْقَوْل ذُكِرَ لأَبِي عَمْرو -يَعْنِي الأَوْزَاعِيّ- فَأَنْكَرَ أَنْ يَكُون نَزَلَتْ مُعَاتَبَة، وَقَال: بَل كَانَتْ عُقُوبَة أُولَئِكَ النَّفَر بِأَعْيَانِهِمْ، ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي عُقُوبَة غَيْرهمْ ممن حَارَبَ بَعْدهمْ. وَرُفِعَ عَنْهُمْ السَّمْل. ثُمَّ قَدْ احْتَجَّ بِعُمُوم هَذِهِ الآيَة جُمْهُور الْعُلَمَاء، فِي ذَهَابهمْ إِلَى أَنَّ الْمُحَارَبَة فِي الأَمْصَار وَفِي السبلان عَلَى السَّوَاء؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ وَهَذَا مَذْهَب مَالك، وَالأَوْزَاعِيّ، وَاللَّيْث بْن سَعْد، وَالشَّافِعِيّ، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل، حَتَّى قَال مَالك فِي الَّذِي يَغْتَال الرَّجُل، فَيَخْدَعهُ حَتَّى يُدْخِلهُ بَيْتًا، فَيَقْتُلهُ وَيَأْخُذ مَا مَعَهُ: إِنَّ هَذِهِ مُحَارَبَة، وَدَمه إِلَى السُّلْطَان، لا إِلَى وَلِيّ الْمَقْتُول، وَلا اعْتِبَار بِعَفْوِهِ عَنْهُ فِي إِنفاذ الْقَتْل. وَقَال أَبُو حَنِيفَة وَأَصْحَابه: لا تَكُون الْمُحَارَبَة إِلَّا فِي الطُّرُقَات، فَأَمَّا فِي الأَمْصَار فَلا؛ لأَنَّهُ يَلْحَقهُ الْغَوْث إِذَا اسْتَغَاثَ، بِخِلافِ الطَّرِيق؛ لِبُعْدِهِ مِمَّنْ يُغِيثهُ وَيُعِينهُ. وَأما قَوْله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآيَة، قَال ابْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي الآيَة: مَنْ شَهَرَ السِّلاح فِي قبة الإِسْلام، وَأَخَاف السَّبِيل، ثُمَّ ظُفِرَ بِهِ وَقُدِرَ عَلَيْهِ، فَإِمَام الْمُسْلِمِينَ فِيهِ بِالْخِيَارِ؛ إِنْ شَاءَ قَتَلهُ، وَإِنْ شَاءَ صَلَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ قَطَعَ يَده وَرِجْله.

وَكَذَا قَال سَعِيد بْن الْمُسَيَّب، وَمُجَاهِد، وَعَطَاء، وَالْحَسَن الْبَصْرِيّ، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَالضَّحَّاك، وَرَوَى ذَلِكَ كُلّه أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير، وَحُكِيَ مِثْله عَنْ مَالك بْن أَنَس رَحِمَهُ اللهُ، وَمُسْتَنَد هَذَا الْقَوْل: أَنَّ ظَاهِر «أَوْ»

(١) مرسل: أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٠٧) بسند مرسل.

للتخيير، كما في نظائر ذلك من القرآن؛ كقوله في جزاء الصيد: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، وكقوله في كفارة الترفه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، وكقوله في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ هذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية. وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال، كما قال أبو عبد الله الشافعي: أنبأنا إبراهيم هو ابن أبي يحيى، عن صالح مولى التوأمة، عن ابن عباس في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال: قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال: قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا: قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال: نفوا من الأرض. وقد رواه ابن أبي شيبة: عن عبد الرحيم بن سليمان، عن حجاج، عن عطية، عن ابن عباس بنحوه. وعن أبي مجلز، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقتادة، والسدي، وعطاء الخراساني: نحو ذلك. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة. واختلفوا: هل يصلب حيًا، ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب؟ أو بقتله برمح أو نحوه، أو يقتل أولًا ثم يصلب، تنكيلًا وتشديدًا لغيره من المفسدين؟ وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل، أو يترك حتى يسيل صديده؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه، وبالله الثقة، وعليه التكلان. ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره إن صح سنده، فقال: حدثنا علي ابن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب: أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس ابن مالك يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره: أنها نزلت في أولئك النفر العرنيين، وهم من بجيلة. قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام، قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب، فقال: من سرق وأخاف السبيل: فاقطع يده بسرقته، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقتله، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه[1].

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه، فيقام عليه الحد، أو يهرب من دار الإسلام. رواه ابن جرير: عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد بن جبير، والضحاك، والربيع بن أنس، والزهري، والليث بن سعد، ومالك بن أنس. وقال آخرون: هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر، أو يخرجه السلطان، أو نائبه من معاملته بالكلية. وقال الشعبي: ينفيه -كما قال ابن هبيرة- من عمله كله. وقال عطاء الخراساني: ينفى من جند إلى جند سنين، ولا يخرج من أرض الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهري، والضحاك، ومقاتل بن حبان: إنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام. وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه. واختار ابن جرير: أن المراد بالنفي ههنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هذا الذي ذكرته من قتلهم، ومن صلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفيهم، خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا قد يتأيد به من ذهب إلى أن هذه الآية نزلت في المشركين، فأما أهل الإسلام: فقد ثبت في صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا يعضه بعضنا بعضًا،

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٠٨) بسند ضعيف فيه ابن لهيعة: ضعيف، وفيه الوليد بن مسلم يدلس تدليس تسوية.

«فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْره عَلَى الله تَعَالَى، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَة لَهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ الله فَأَمْره إِلَى الله؛ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ؛ وَإِنْ شَاءَ غفر له»[1]. وَعَنْ عَلِيّ قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبَ بِهِ، فَالله أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّي عُقُوبَته عَلَى عَبْده، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا، فَسَتَرَهُ الله عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ، فَالله أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُود عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ»[2]. رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، وَالتِّرْمِذِيّ، وَابْن مَاجَه، وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب. وَقَدْ سُئِلَ الحَافِظ الدَّارَقُطْنِيّ عَنْ هَذَا الحَدِيث، فَقَالَ: رُوِيَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا، قَالَ: وَرَفْعُهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ ابْن جَرِير فِي قَوْله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يَعْنِي: شَرّ وَعَار، وَنَكَال، وَذِلَّة، وَعُقُوبَة فِي عَاجِل الدُّنْيَا قَبْل الآخِرَة. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: إِذَا لَمْ يَتُوبُوا مِنْ فِعْلهمْ ذَلِكَ حَتَّى هَلَكُوا ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ مَعَ الجَزَاء الَّذِي جَازَيْتهمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَالعُقُوبَة الَّتِي عَاقَبْتهمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فيها ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يَعْنِي: عَذَاب جَهَنَّم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَمَّا عَلَى قَوْل مَنْ قَالَ: إِنَّهَا فِي أَهْل الشِّرْك فَظَاهِر، وَأَمَّا المُحَارِبُونَ المُسْلِمُونَ فَإِذَا تَابُوا قَبْل القُدْرَة عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ يَسْقُط عَنْهُمْ انْحِتَام القَتْل وَالصَّلْب وَقَطْع الرِّجْل. وَهَل يَسْقُط قَطْع اليَد أَمْ لَا؟ فِيهِ قَوْلَانِ لِلعُلَمَاءِ، وَظَاهِر الآيَة يَقْتَضِي سُقُوط الجَمِيع، وَعَلَيْهِ عَمَل الصَّحَابَة، كَمَا قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ مُجَالد، عَنْ الشَّعْبِيّ، قَالَ: كَانَ حَارِثَة بْن بَدْر التَّمِيمِيّ مِنْ أَهْل البَصْرَة، وَكَانَ قَدْ أَفْسَدَ فِي الأَرْض وَحَارَبَ، فَكَلَّمَ رِجَالًا مِنْ قُرَيْش، مِنْهُمْ: الحَسَن بْن عَلِيّ، وَابْن عَبَّاس، وَعَبْد الله بْن جَعْفَر، فَكَلَّمُوا عَلِيًّا فِيهِ فَلَمْ يُؤَمِّنْهُ، فَأَتَى سَعِيد بْن قَيْس الهَمْدَانِيّ، فَخَلَفَهُ فِي دَاره، ثُمَّ أَتَى عَلِيًّا، فَقَالَ: يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْت مَنْ حَارَبَ الله وَرَسُوله، وَسَعَى فِي الأَرْض فَسَادًا، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ قَالَ: فَكَتَبَ لَهُ أَمَانًا. قَالَ سَعِيد بْن قَيْس: فَإِنَّهُ حارِثة بْن بَدْر. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ غَيْر وَجه عَنْ مُجَالد، عَنْ الشَّعْبِيّ بِهِ، وَزَادَ: فَقَالَ حارِثة بْن بَدْر:

أَلا أَبْلِغَــنْ هَمْـدَان إِمَّـا لَقِيتَهَـا	عَلَـى النَّـأْيِ لا يَسْلَم عَـدُوٌّ يَعِيبهَـا
لَعَمْـر أَبِيهَـا إِنَّ هَمْـدَان تَتَّقِـي الـ	إِلـهَ وَيَقْـضِي بِالكِتَـابِ خَطِيبهَـا

وَرَوَى ابْن جَرِير: مِنْ طَرِيق سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ السُّدِّيّ. وَمِنْ طَرِيق أَشْعَث، كِلَاهُمَا عَنْ عَامِر الشَّعْبِيّ، قَالَ: جَاءَ رَجُل مِنْ مُرَادٍ إِلَى أَبِي مُوسَى وَهُوَ عَلَى الكُوفَة فِي إِمَارَة عُثْمَان ﷺ بَعْدَمَا صَلَّى المَكْتُوبَة، فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى، هَذَا مَقَام العَائِذ بِك، أَنَا فُلَان ابْن فُلَان المُرَادِيّ، وَإِنِّي كُنْت حَارَبْت الله وَرَسُوله، وَسَعَيْت فِي الأَرْض فَسَادًا، وَإِنِّي تُبْت مِنْ قَبْل أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيَّ. فَقَامَ أَبُو مُوسَى، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا فُلَان ابْن فُلَان، وَإِنَّهُ كَانَ حَارَبَ الله وَرَسُوله، وَسَعَى فِي الأَرْض فَسَادًا، وَإِنَّهُ تَابَ مِنْ قَبْل أَنْ نَقْدِر عَلَيْهِ، فَمَنْ لَقِيَهُ فَلَا يَعْرِض لَهُ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنْ يَكُ صَادِقًا فَسَبِيل مَنْ صَدَقَ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا تُدْرِكهُ ذُنُوبه. فَأَقَامَ الرَّجُل مَا شَاءَ الله، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ فَأَدْرَكَهُ الله تَعَالَى بِذُنُوبِهِ فَقَتَلَهُ.

ثُمَّ قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي عَلِيّ، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلِم، قَالَ: قَالَ اللَّيْث: وَكَذَلِكَ حَدَّثَنِي مُوسَى بْن إِسْحَاق المَدَنِيّ، وَهُوَ الأَمِير عِنْدنَا: أَنَّ عَلِيًّا الأَسَدِيّ حَارَبَ، وَأَخَافَ السَّبِيل، وَأَصَابَ الدَّم وَالمَال، فَطَلَبَهُ الأَئِمَّة وَالعَامَّة فَامْتَنَعَ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ حَتَّى جَاءَ تَائِبًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأ هَذِهِ الآيَة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فَوَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا عَبْد الله، أَعِدْ قِرَاءَتهَا. فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ، فَغَمَدَ سَيْفه، ثُمَّ جَاءَ تَائِبًا حَتَّى قَدِمَ المَدِينَة مِنْ السَّحَر، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِد

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٠٩)، وابن ماجه (٢٦٠٣).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٢٦٠٤)، وأحمد (١/ ٩٩، ١٥٩)، والحاكم (٤/ ٤٢٨)، والبزار (٢/ ١٢٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ٣٢٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٥٧٦).

رَسُول الله ﷺ، فَصَلَّى الصُّبْح، ثُمَّ قَعَدَ إِلَى أَبِي هُرَيْرَة فِي أَغْمَار أَصْحَابه، فَلَمَّا أَسْفَرُوا عَرَفَهُ النَّاس، فَقَامُوا إِلَيْهِ، فَقَال: لا سَبِيل لَكُمْ عَلَيَّ، جِئْت تَائِبًا مِنْ قَبْل أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيَّ. فَقَال أَبُو هُرَيْرَة: صَدَقَ. وَأَخَذَ بِيَدِهِ حَتَّى أَتَى مَرْوَان بْن الحَكَم، وَهُوَ أَمِير عَلَى المَدِينَة فِي زَمَن مُعَاوِيَة، فَقَال: هَذَا عَلِيّ جَاءَ تَائِبًا وَلا سَبِيل لَكُمْ عَلَيْهِ وَلا قَتْل. قَال: فَتُرِكَ مِنْ ذَلِكَ كُلّه. قَال: وَخَرَجَ عَلِيّ تَائِبًا مُجَاهِدًا فِي سَبِيل الله فِي البَحْر فَلَقُوا الرُّومَ، فَقَرَّبُوا سَفِينَته إِلَى سَفِينَةٍ مِنْ سُفُنِهِمْ فَاقْتَحَمَ عَلَى الرُّوم فِي سَفِينَتهمْ، فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَى شِقّهَا الآخَر، فَمَالَتْ بِهِ وَبِهِمْ فَغَرِقُوا جَمِيعًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا عِبَاده المُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ إِذَا قُرِنَتْ بِطَاعَتِهِ كَانَ المُرَاد بِهَا الانْكِفَاف عَنْ المَحَارِم، وَتَرْك المَنْهِيَّات، وَقَدْ قَال بَعْدهَا: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ طَلْحَة، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَيْ القُرْبَة. وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وعطاء، وَأَبُو وَائِل، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَعَبْد الله بْن كَثِير، وَالسُّدِّيّ، وَابْن زَيْد، وَغَيْر وَاحِد. وَقَال قَتَادَة: أَيْ تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ، وَالعَمَل بِمَا يُرْضِيه، وَقَرَأَ ابْن زَيْد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هَؤُلاءِ الأَئِمَّة لا خِلاف بَيْن المُفَسِّرِينَ فِيهِ. وَأَنْشَدَ عَلَيْهِ ابْن جَرِير قَوْل الشَّاعِر:

إِذَا غَفَلَ الوَاشُونَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا ❁ وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالوَسَائِل

وَالوَسِيلَة: هِيَ الَّتِي يُتَوَصَّل بِهَا إِلَى تَحْصِيل المَقْصُود، وَالوَسِيلَة أَيْضًا: عَلَمٌ عَلَى أَعْلَى مَنْزِلَة فِي الجَنَّة، وَهِيَ مَنْزِلَة رَسُول الله ﷺ وَدَاره فِي الجَنَّة، وَهِيَ أَقْرَبُ أَمْكِنَة الجَنَّة إِلَى العَرْش، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيح البُخَارِيّ: مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ قَال حِين يَسْمَع النِّدَاء: اللَّهُمَّ رَبّ هَذِهِ الدَّعْوَة التَّامَّة، وَالصَّلاة القَائِمَة، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَة وَالفَضِيلَة، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَه، إِلا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَة يَوْم القِيَامَة»**[1].

حَدِيث آخَر: فِي صَحِيح مُسْلِم: مِنْ حَدِيث كَعْب بن عَلْقَمَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر، عَنْ عَبْد الله بن عمرو بن العاص: أنه سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ يَقُول: **«إِذَا سَمِعْتُمْ المُؤَذِّن، فَقُولُوا مِثْل مَا يَقُول، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاة صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا الله لِي الوَسِيلَة، فَإِنَّهَا مَنْزِلَة فِي الجَنَّة لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَل لِيَ الوَسِيلَة، حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَة»**[2].

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا سُفْيَان، عَنْ لَيْث، عَنْ كَعْب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ فَسَلُوا لِيَ الوَسِيلَة»**. قِيل: يَا رَسُول الله، وَمَا الوَسِيلَة؟ قَال: **«أَعْلَى دَرَجَة فِي الجَنَّة، لا يَنَالهَا إِلا رَجُل وَاحِد، وَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَنَا هُوَ»**[3].

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ: عَنْ بُنْدَار، عَنْ أَبِي عَاصِم، عَنْ سُفْيَان هو الثَّوْرِيّ، عَنْ لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ كَعْب، قَال: حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَة بِهِ، ثُمَّ قَال: غَرِيب، وَكَعْب لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ، لا نَعْرِف أَحَدًا رَوَى عَنْهُ غَيْر لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم.

طَرِيق أُخْرَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه: قَال أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْه: حَدَّثَنَا عَبْد البَاقِي بْن قَانِع، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن نَصْر التِّرْمِذِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد بْن صَالِح، حَدَّثَنَا أَبُو شِهَاب، عَنْ لَيْث، عَنْ المُعَلَّى، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦١٤)، ومسلم (٥٢٩).
(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٣٨٤)، وأبوداود (٥٢٣).
(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٥)، والترمذي (٣٦١٢)، وأبو يعلى (١١/ ٢٩٨)، وعبد الرزاق (٢/ ٢١٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٥) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٣٦).

رَفَعَهُ، قَالَ: «صَلُّوا عَلَيَّ صَلاتَكُمْ، وَسَلُوا الله لِيَ الوَسِيلة -فَسَأَلُوهُ أَوْ أَخْبَرَهُمْ- أَنَّ الوَسِيلة دَرَجَة فِي الجَنَّة لَيْسَ يَنَالهَا إلا رَجُل وَاحِد وَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَنَا».

حَدِيث آخَر: قَالَ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: أنا أَحْمَد بْن عَلِيّ الأَبَّار، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن عَبْد المَلِك الحَرَّانِيّ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن أَعْيَنَ، عَنْ ابن أَبِي ذِئْب، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «سَلُوا الله لِيَ الوَسِيلة، فإنَّهُ لمْ يَسْأَلهَا لِي عَبْد فِي الدُّنْيَا، إلا كُنْت لهُ شَهِيدًا أَوْ شَفِيعًا يَوْم القِيَامَة». ثُمَّ قَالَ الطَّبَرَانِيّ: لَمْ يَرْوِهِ عَنْ ابْن أَبِي ذِئْب إِلَّا مُوسَى بْن أَعْيَنَ، كَذَا قَالَ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن دُحَيْم، حَدَّثَنَا أَحْمَد ابْن حَازِم، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بن مُوسَى، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَطَاء، فَذَكَرَ بِإِسْنَادِهِ نَحْوه.

حَدِيث آخَر: رَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ بِإِسْنَادِهِ، عَنْ عُمَارَة بْن غَزِيَّة، عَنْ مُوسَى بْن وَرْدَان، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيد الخُدْرِيّ يَقُول: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الوَسِيلة دَرَجَة عِنْد الله لَيْسَ فَوْقهَا دَرَجَة، فَسَلُوا الله أَنْ يُؤْتِيَنِي الوَسِيلة عَلَى خَلْقه».

حَدِيث آخَر: رَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ أَيْضًا مِنْ طَرِيقَيْنِ، عَنْ عَبْد الحَمِيد بْن بَحْر، حَدَّثَنَا شَرِيك، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ الحَارِث، عَنْ عَلِيّ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «فِي الجَنَّة دَرَجَة تُدْعَى الوَسِيلة، فَإِذَا سَأَلْتُمْ الله فَسَلُوا لِيَ الوَسِيلة». قَالُوا: يَا رَسُول الله، مَنْ يَسْكُن مَعَك؟ قَالَ: «عَلِيّ وَفَاطِمَة وَالحَسَن وَالحُسَيْن»[1]. هَذَا حَدِيث غَرِيب مُنْكَر مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا الحَسَن الدَّشْتَكِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو زُهَيْر، حَدَّثَنَا سَعْد بْن طَرِيف، عَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن الأَزْدِيّ مَوْلَى سَالِم بْن ثَوْبَان، قَال: سَمِعْت عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب يُنَادِي عَلَى مِنْبَر الكُوفَة: يَا أَيّهَا النَّاس إِنَّ فِي الجَنَّة لُؤْلُؤَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا بَيْضَاء، وَالأُخْرَى صَفْرَاء أَمَّا الصَّفْرَاء فَإِنَّهَا إِلَى بُطْنَانِ العَرْش، وَالمَقَام المَحْمُود مِنْ اللُّؤْلُؤَة البَيْضَاء سَبْعُونَ أَلْف غُرْفَة، كُلّ بَيْت مِنْهَا ثَلَاثَة أَمْيَال، وَغُرَفهَا، وَأَبْوَابهَا، وَأَسِرَّتهَا، وَكَأَنَّهَا مِنْ عِرْق وَاحِد، وَاسْمهَا الوَسِيلة هِيَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَهْل بَيْته، وَالصَّفْرَاء فِيهَا مِثْل ذَلِكَ هِيَ لِإِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام وَأَهْل بَيْته. وَهَذَا أَثَر غَرِيب أَيْضًا.

وَقَوْله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لَمَّا أَمَرَهُمْ بِتَرْكِ المَحَارِم، وَفِعْل الطَّاعَات، أَمَرَهُمْ بِقِتَال الأَعْدَاء مِنْ الكُفَّار وَالمُشْرِكِينَ، الخَارِجِينَ عَنْ الطَّرِيق المُسْتَقِيم، وَالتَّارِكِينَ لِلدِّينِ القَوِيم، وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ بِالَّذِي أَعَدَّهُ لِلمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيله يَوْم القِيَامَة، مِنْ الفَلاح وَالسَّعَادَة العَظِيمَة الخَالِدَة المُسْتَمِرَّة، الَّتِي لا تَبِيد وَلا تَحَوَّل وَلا تَزُول، فِي الغُرَف العَالِيَة الرَّفِيعَة الآمِنَة، الحَسَنَة مَنَاظِرُهَا، الطَّيِّبَة مَسَاكِنهَا، الَّتِي مَنْ سَكَنَهَا يُنَعَّم لا يَبْأَس، وَيَحْيَا لا يَمُوت، لا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلا يَفْنَى شَبَابُهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّه لِأَعْدَائِهِ الكُفَّار مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال يَوْم القِيَامَة فَقَال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أَيْ: لَوْ أَنَّ أَحَدهمْ جَاءَ يَوْم القِيَامَة بِمِلْءِ الأَرْض ذَهَبًا وَبِمِثْلِهِ؛ لِيَفْتَدِيَ بِذَلِكَ مِنْ عَذَاب الله الَّذِي قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَتَيَقَّنَ وُصُوله إِلَيْهِ مَا تُقُبِّل ذَلِكَ مِنْهُ بَل لا مَنْدُوحَة عَنْهُ، وَلا مَحِيص لَهُ، وَلا مَنَاص؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أَيْ: مُوجِع ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ الآيَة، فَلا يَزَالُونَ يُرِيدُونَ الخُرُوج مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّته، وَأَلِيم مَسِّهِ، وَلا سَبِيل لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَكُلَّمَا رَفَعَهُمْ اللَّهَب، فَصَارُوا فِي أَعْلَى جَهَنَّم، ضَرَبَتْهُمْ الزَّبَانِيَة بِالمَقَامِع الحَدِيد، فَيَرُدُّوهُمْ إِلَى أَسْفَلهَا ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ أَيْ: دَائِم مُسْتَمِرّ لا

(١) منكر: وعلة الضعف فيه الحارث الأعور: متهم بالكذب، وأبو إسحاق: مدلس وقد عنعن، وعبد الحميد بن بحر: ضعيف جدًا.

خُرُوج لهُمْ مِنْهَا، وَلا مَحِيد لهُمْ عَنْهَا. وَقَدْ قَال حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس بْن مَالك قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُل مِنْ أَهْل النَّار، فَيُقَال لهُ: يَا بْن آدَم؛ كَيْف وَجَدْت مَضْجَعك؟ فَيَقُول: شَرّ مَضْجَع. فَيُقَال: هَل تَفْتَدِي بِقُرَابِ الأَرْض ذَهَبًا؟ قَال، فَيَقُول: نَعَمْ، يَا رَبّ. فَيَقُول الله تَعَالى: كَذَبْت؛ قَدْ سَأَلتُك أَقَلّ مِنْ ذَلك فَلمْ تَفْعَل. فَيُؤْمَر بِهِ إِلى النَّار**»[1]. رَوَاهُ مُسْلم وَالنَّسَائِيّ مِنْ طَرِيق حَمَّاد بْن سَلمَة بِنَحْوِهِ، وَكَذَا رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم أخرجاه مِنْ طَرِيق مُعَاذ بْن هِشَام الدَّسْتُوَائِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس بِهِ. وَكَذَا أَخْرَجَاهُ مِنْ طَرِيق أَبِي عِمْرَان الجَوْنِيّ وَاسْمه: عَبْد المَلك بْن حَبِيب، عَنْ أَنَس بْن مَالك بِهِ. وَرَوَاهُ مَطَر الوَرَّاق، عَنْ أَنَس بْن مَالك، وَرَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيقه عَنْهُ. ثُمَّ رَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيق المَسْعُودِيّ: عَنْ يَزِيد بْن صُهَيْب الفَقِير، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**يَخْرُج مِنْ النَّار قَوْم فَيَدْخُلونَ الجَنَّة**»[2]. قَال: فَقُلت لجَابِر بْن عَبْد الله: يَقُول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ قَال: اتْلُ أَوَّل الآيَة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ الآيَة، أَلا إِنَّهُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد وَمُسْلم هَذَا الحَدِيث مِنْ وَجْه آخر، عَنْ يَزِيد الفَقِير، عَنْ جَابِر، وَهَذَا أَبْسَطُ سِيَاقًا.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الحسين بْن مُحَمَّد بْن شَنْبَة الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَخْبَرَنَا مُبَارَك بْن فَضَالة، حَدَّثَنِي يَزِيد الفَقِير، قَال: جَلسْت إِلى جَابِر بْن عَبْد الله، وَهُوَ يُحَدِّث فَحَدَّث، أَنَّ نَاسًا يَخْرُجُونَ مِنْ النَّار، قَال: وَأَنَا يَوْمئِذٍ أُنْكِرُ ذَلكَ فَغَضِبْت، وَقُلت: مَا أَعْجَبُ مِنْ النَّاسِ، وَلكِنْ أَعْجَبُ مِنْكُمْ يَا أَصْحَاب مُحَمَّد، تَزْعُمُونَ أَنَّ الله يُخْرِج نَاسًا مِنْ النَّار، وَالله يَقُولُ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ الآيَة. فَانْتَهَرَنِي أَصْحَابه، وَكَانَ أَحْلمَهُمْ فَقَال: دَعُوا الرَّجُل، إِنَّمَا ذَلكَ للكُفَّارِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حَتَّى بَلغَ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أَمَا تَقْرَأ القُرْآن؟ قُلت: بَلى، قَدْ جَمَعْته. قَال: أَليْسَ الله يَقُول: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ فَهُوَ ذَلكَ المَقَام، فَإِنَّ الله تَعَالى يَحْتَبِس أَقْوَامًا بِخَطَايَاهُمْ فِي النَّار مَا شَاءَ لا يُكَلِّمهُمْ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُخْرِجهُمْ أَخرَجَهُمْ. قَال: فَلمْ أَعُدْ بَعْد ذَلكَ إِلى أَنْ أُكَذِّب بِهِ.

ثُمَّ قَال ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا دعلج بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن حَفْص السَّدُوسِيّ، حَدَّثَنَا عَاصِم بْن عَليّ، أَخْبَرَنَا العَبَّاس بْن الفَضْل، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن المُهَلَّب، حَدَّثَنِي طَلق بْن حَبِيب، قَال: كُنْت مِنْ أَشَدِّ النَّاس تَكْذِيبًا بِالشَّفَاعَةِ، حَتَّى لقِيت جَابِر بْن عَبْد الله، فَقَرَأْت عَليْهِ كُلّ آيَة أَقْدِرُ عَليْهَا يَذْكُر الله فِيهَا خُلُود أَهْل النَّار. فَقَال: يَا طَلق، أَتَرَاك أَقْرَأ لكِتَابِ الله وَأَعْلمَ بِسُنَّةِ رَسُول الله مِنِّي؟ إِنَّ الَّذِينَ قَرَأْت هُمْ أَهْلهَا هُمْ المُشْرِكُونَ، وَلكِنَّ هَؤُلاءِ قَوْم أَصَابُوا ذُنُوبًا فَعُذِّبُوا، ثُمَّ أُخرِجُوا مِنْهَا، ثُمَّ أَهْوَى بِيَدَيْهِ إِلى أُذُنَيْهِ، فَقَال: صُمَّتَا إِنْ لمْ أَكُنْ سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**يَخرُجُونَ مِنْ النَّار بَعْد مَا دَخَلُوا**»[3]. وَنَحْنُ نَقرَأ كَمَا قَرَأْت.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩١)، وأحمد (٣/ ٣٥٥).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨١٨).

يَقُول تَعَالى حَاكِمًا وَآمِرًا بِقَطْعِ يَد السَّارِق وَالسَّارِقَة. وَرَوَى الثَّوْرِيّ، عَنْ جَابِر بْن يَزِيد الجُعْفِيّ، عَنْ عَامِر ابْن شَرَاحِيل الشَّعْبِيّ: أَنَّ ابْن مَسْعُود كَانَ يَقْرَؤُهَا: ﴿**وَالسَّارِق وَالسَّارِقَة فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمَا**﴾ وَهَذِهِ قِرَاءَة شَاذَّة، وَإِنْ كَانَ الحُكْم عِنْد جَمِيع العُلَمَاء مُوَافِقًا لهَا، لا بِهَا، بَل هُوَ مُسْتَفَاد مِنْ دَلِيل آخَر. وَقَدْ كَانَ القَطْع مَعْمُولًا بِهِ فِي الجَاهِلِيَّة، فَقُرِّرَ فِي الإِسْلام وَزِيدَتْ شُرُوط أُخَر، كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ الله تَعَالى، كَمَا كَانَتْ القَسَامَة، وَالدِّيَة، وَالقِرَاض، وَغَيْر ذَلكَ مِنْ الأَشْيَاء الَّتِي وَرَدَ الشَّرْع بِتَقْرِيرِهَا عَلى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَزِيَادَات هِيَ مِنْ تَمَام المَصَالح. وَيُقَال: إِنَّ أَوَّل مَنْ قَطَعَ الأَيْدِي فِي الجَاهِلِيَّة قُرَيْش، قَطَعُوا رَجُلًا يُقَال لهُ: دُوَيْك، مَوْلَى لبَنِي مَليح بْن عَمْرو مِنْ خُزَاعَة، كَانَ قَدْ سَرَقَ كَنْز الكَعْبَة، وَيُقَال: سَرَقَهُ قَوْم فَوَضَعُوهُ عِنْده. وَقَدْ ذَهَبَ بَعْض الفُقَهَاء مِنْ أَهْل الظَّاهِر إِلى أَنَّهُ مَتَى سَرَقَ السَّارِق شَيْئًا؛ قُطِعَتْ يَده بِهِ سَوَاء كَانَ قَليلًا أَوْ كَثِيرًا؛ لعُمُوم هَذِهِ الآيَة: ﴿**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا**﴾ فَلَمْ يَعْتَبِرُوا نِصَابًا وَلا حِرْزًا بَل أَخَذُوا بِمُجَرَّدِ السَّرِقَة. وَقَدْ رَوَى ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم: مِنْ طَرِيق عَبْد المُؤْمِن، عَنْ نَجْدَة الحَنَفِيّ قَال: سَأَلت ابْن عَبَّاس عَنْ قَوْله: ﴿**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا**﴾ أَخَاصّ أَمْ عَامّ؟ فَقَال: بَل عَامّ. وَهَذَا يَحْتَمِل أَنْ يَكُون مُوَافَقَة مِنْ ابْن عَبَّاس لمَا ذَهَبَ إِليْهِ هَؤُلاءِ،وَيَحْتَمِل غَيْر ذَلكَ.فَالله أَعْلمُ. وتَمَسَّكُوا بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ،عَنْ أَبِي هُرَيْرَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**لعَنَ الله السَّارِق يَسْرِق البَيْضَة فَتُقْطَع يَده، وَيَسْرِق الحَبْل فَتُقْطَع يَده**»[1].

وَأَمَّا الجُمْهُور فَاعْتَبَرُوا النِّصَاب فِي السَّرِقَة وَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ بَيْنهمْ الخِلاف فِي قَدْره، فَذَهَبَ كُلّ مِنْ الأَئِمَّة الأَرْبَعَة إِلى قَوْل عَلى حِدَة؛ فَعِنْد الإِمَام مَالك بْن أَنَس رَحِمَهُ اللهُ: النِّصَاب ثَلاثَة دَرَاهِم مَضْرُوبَة خَالصَة، فَمَتَى سَرَقَهَا أَوْ مَا يَبْلُغ ثَمَنهَا فَمَا فَوْقه وَجَبَ القَطْع، وَاحْتَجَّ فِي ذَلكَ بِمَا رَوَاهُ عَنْ نَافِع عَنْ ابْن عُمَر: أَنَّ رَسُول الله ﷺ «**قَطَعَ فِي مِجَن ثَمَنه ثَلاثَة دَرَاهِم**»[2]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

قَال مَالك رَحِمَهُ اللهُ: وَقَطَعَ عُثْمَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي أُتْرُجَّة قُوِّمَتْ بِثَلاثَةِ دَرَاهِم، وَهُوَ أَحَبُّ مَا سَمِعْت فِي ذَلكَ. وَهَذَا الأَثَر عَنْ عُثْمَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ رَوَاهُ مَالك، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي بَكْر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَمْرَة بِنْت عَبْد الرَّحْمَن: أَنَّ سَارِقًا سَرَقَ فِي زَمَن عُثْمَان أُتْرُجَّة، فَأَمَرَ بِهَا عُثْمَان أَنْ تُقَوَّم، فَقُوِّمَتْ بِثَلاثَةِ دَرَاهِم مِنْ صَرْفِ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا بدينار، فَقَطَعَ عُثْمَان يَده. قَال أَصْحَاب مَالك: وَمِثْل هَذَا الصَّنِيع يَشْتَهِر، وَلمْ يُنْكَر، فَمِنْ مِثْله يُحْكَى الإِجْمَاع السُّكُوتِيّ، وَفِيهِ دَلالة عَلى القَطْع فِي الثِّمَار خِلافًا للحَنَفِيَّة، وَعَلى اعْتِبَار ثَلاثَة دَرَاهِم خِلافًا لهُمْ فِي أَنَّهُ لابُدّ مِنْ عَشَرَة دَرَاهِم، وَللشَّافِعِيَّة فِي اعْتِبَار رُبُع دِينَار، وَالله أَعْلمُ. وَذَهَبَ الشَّافِعِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلى: أَنَّ الاعْتِبَار فِي قَطْع يَد السَّارِق بِرُبُع دِينَار، أَوْ مَا يُسَاوِيه مِنْ الأَثْمَان أَوْ العُرُوض فَصَاعِدًا، وَالحُجَّة فِي ذَلكَ مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ: البُخَارِيّ وَمُسْلم مِنْ طَرِيق الزُّهْرِيّ، عَنْ عَمْرَة عَنْ عَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**تُقْطَع يَد السَّارِق فِي رُبُع دِينَار فَصَاعِدًا**»[3]. وَلمُسْلم مِنْ طَرِيق أَبِي بَكْر ابْن مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن حَزْم، عَنْ عَمْرَة، عَنْ عَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**لا تُقْطَع يَد السَّارِق إِلا فِي رُبُع دِينَار فَصَاعِدًا**».

قَال أَصْحَابنَا: فَهَذَا الحَدِيث فَاصِل فِي المَسْأَلة، وَنَصٌّ فِي اعْتِبَار رُبُع الدِّينَار لا مَا سَاوَاهُ. قَالُوا: وَحَدِيث ثَمَن المِجَن، وَأَنَّهُ كَانَ ثَلاثَة دَرَاهِم لا يُنَافِي هَذَا؛ لأَنَّهُ إِذْ ذَاكَ كان الدِّينَار بِاثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا، فَهِيَ ثَمَن رُبُع دِينَار، فَأَمْكَنَ الجَمْع بِهَذَا الطَّرِيق. وَيُرْوَى هَذَا المَذْهَب عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب، وَعُثْمَان بْن عَفَّان، وَعَليّ بْن أَبِي طَالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٥٩)، ومسلم (١٦٨٦).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٩٠)، ومسلم (١٦٨٤).

وَبِهِ يَقُول عُمَر بْن عَبْد العَزِيز، وَاللَّيْث بْن سَعْد، وَالأَوْزَاعِيّ، وَالشَّافِعِيّ، وَأَصْحَابه، وَإِسْحَاق بْن رَاهْوَيْهِ فِي رِوَايَة عَنْهُ، وَأَبُو ثَوْر، وَدَاوُدُ بْن عَلِيّ الظَّاهِرِيّ. رحمهم الله.

وَذَهَبَ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل وَإِسْحَاق بْن رَاهْوَيْهِ فِي رِوَايَة عَنْهُ: إِلَى أَنَّ كُلّ وَاحِد مِنْ رُبُع الدِّينَار وَالثَّلَاثَة دَرَاهِم مَرَدّ شَرْعِيّ، فَمَنْ سَرَقَ وَاحِدًا مِنْهُمَا، أَوْ مَا يُسَاوِيه قُطِعَ عَمَلًا بِحَدِيثِ ابْن عُمَر، وَبِحَدِيثِ عَائِشَة ﵂، وَوَقَعَ فِي لَفْظ عِنْد الإِمَام أَحْمَد، عَنْ عَائِشَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**اقْطَعُوا فِي رُبُع دِينَار وَلَا تَقْطَعُوا فِيمَا هُوَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ**»[1]. وَكَانَ رُبُع الدِّينَار يَوْمَئِذٍ ثَلَاثَة دَرَاهِم وَالدِّينَار اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا. وَفِي لَفْظ لِلنَّسَائِيّ: «**لَا تُقْطَع يَد السَّارِق فِيمَا دُون ثَمَن المِجَنّ**» قِيلَ لِعَائِشَة: مَا ثَمَن المِجَنّ؟ قَالَتْ: رُبُع دِينَار[2]. فَهَذِهِ كُلّهَا نُصُوص دَالَّة عَلَى عَدَم اشْتِرَاط عَشَرَة دَرَاهِم، وَالله أَعْلَمُ. وَأَمَّا الإِمَام أَبُو حَنِيفَة وَأَصْحَابه: أَبُو يُوسُف وَمُحَمَّد وَزُفَر، وَكَذَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ -رَحِمَهُمْ الله- فَإِنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ النِّصَاب: عَشَرَة دَرَاهِم مَضْرُوبَة غَيْر مَغْشُوشَة، وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ ثَمَن المِجَنّ الَّذِي قُطِعَ فِيهِ السَّارِق عَلَى عَهْد رَسُول الله ﷺ كَانَ ثَمَنه عَشَرَة دَرَاهِم، وَقَد رَوَى أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة: حَدَّثَنَا ابْن نُمَيْر وَعَبْد الأَعْلَى، عن مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ أَيُّوب بْن مُوسَى، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: كَانَ ثَمَن المِجَنّ عَلَى عَهْد النَّبِيّ ﷺ عَشَرَة دَرَاهِم.

ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْد الأَعْلَى، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لَا تُقْطَع يَد السَّارِق فِي دُون ثَمَن المِجَنّ**»[3]. وَكَانَ ثَمَن المِجَنّ عَشَرَة دَرَاهِم. قَالُوا: فَهَذَا ابْن عَبَّاس وَعَبْد الله بْن عَمْرو قَدْ خَالَفَا ابْن عُمَر فِي ثَمَن المِجَنّ؛ فَالاحْتِيَاط: الأَخْذ بِالأَكْثَر؛ لِأَنَّ الحُدُود تُدْرَأ بِالشُّبُهَات. وَذَهَبَ بَعْض السَّلَف إِلَى أَنَّهُ تُقْطَع يَد السَّارِق فِي عَشَرَة دَرَاهِم أَوْ دِينَار، أَوْ مَا يَبْلُغ قِيمَته وَاحِدًا مِنْهُمَا. يُحْكَى هَذَا عَنْ عَلِيّ، وَابْن مَسْعُود، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَأَبِي جَعْفَر البَاقِر، رَحِمَهُمْ الله تَعَالَى. وَقَالَ بَعْض السَّلَف: لَا تُقْطَع الخَمْس إِلَّا فِي خَمْس. أَيْ: فِي خَمْسَة دَنَانِير أَوْ خَمْسِينَ دِرْهَمًا، وَيُنْقَل هَذَا عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر ﵀. وَقَدْ أَجَابَ الجُمْهُور عَمَّا تَمَسَّكَ بِهِ الظَّاهِرِيَّة مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة: «**يَسْرِق البَيْضَة فَتُقْطَع يَده، وَيَسْرِق الحَبْل فَتُقْطَع يَده**» بِأَجْوِبَة:

أَحَدهَا: أَنَّهُ مَنْسُوخ بِحَدِيثِ عَائِشَة، وَفِي هَذَا نَظَر؛ لِأَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ بَيَان التَّارِيخ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ مُؤَوَّل بِبَيْضَةِ الحَدِيد، وَحَبْل السُّفُن. قَالَهُ الأَعْمَش فِيمَا حَكَاهُ البُخَارِيّ وَغَيْره عَنْهُ.

وَالثَّالِث: أَنَّ هَذِهِ وَسِيلَة إِلَى التَّدَرُّج فِي السَّرِقَة مِنْ القَلِيل إِلَى الكَثِير الَّذِي تُقْطَع فِيهِ يَده، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون هَذَا خَرَجَ مَخْرَج الإِخْبَار عَمَّا كَانَ الأَمْر عَلَيْهِ فِي الجَاهِلِيَّة حَيْثُ كَانُوا يَقْطَعُونَ فِي القَلِيل وَالكَثِير، فَلَعَنَ السَّارِق الَّذِي يَبْذُل يَده الثَّمِينَة فِي الأَشْيَاء المَهِينَة. وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ أَبَا العَلَاء المَعَرِّيّ لَمَّا قَدِمَ بَغْدَاد اشْتَهَرَ عَنْهُ أَنَّهُ أَوْرَدَ إِشْكَالًا عَلَى الفُقَهَاء، فِي جَعْلهمْ نِصَاب السَّرِقَة رُبُع دِينَار، وَنَظَمَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا دَلَّ عَلَى جَهْله وَقِلَّة عَقْله، فَقَالَ:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ	مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ
تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ	وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

وَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ عَنْهُ تَطَلَّبَهُ الفُقَهَاء، فَهَرَبَ مِنْهُمْ، وَقَدْ أَجَابَهُ النَّاس فِي ذَلِكَ، فَكَانَ جَوَاب القَاضِي عَبْد الوَهَّاب المَالِكِيّ ﵀ أنه قَالَ: لَمَّا كَانَتْ أَمِينَة، كَانَتْ ثَمِينَة، وَلَمَّا خَانَتْ هَانَتْ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هَذَا مِنْ تَمَام

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٦/ ٨٠، ٨١)، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ٢٥٥)، وضعفه الألباني في «الإرواء» (١/ ٤٧٩).
(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٦٥).
(٣) **حسن لغيره**: أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٢٦٥) وفيه محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، وللحديث شواهد وطرق ذكرها الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٤١٣).

الحِكْمَة وَالمَصْلحَة وَأَسْرَار الشَّريعَة العَظِيمَة، فإنه فِي بَاب الجنَايَات نَاسَبَ أَنْ تُعَظَّم قِيمَة اليَد بِخَمْسِمِائَةِ دِينَار؛ لِئَلَّا يُجْنَى عَلَيْهَا، وَفِي بَاب السَّرِقَة نَاسَبَ أَنْ يَكُون القَدْر الَّذِي تُقْطَع فِيهِ رُبُع دِينَار؛ لِئَلَّا يتسارع النَّاس فِي سَرِقَة الأَمْوَال، فَهَذَا هُوَ عَيْن الحِكْمَة عِنْد ذَوِي الأَلْبَاب. وَلِهَذَا قَال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: مُجَازَاة عَلى صَنِيعهمَا السَّيِّئ فِي أَخْذهمَا أَمْوَال النَّاس بِأَيْدِيهِمْ، فَنَاسَبَ أَنْ يُقْطَع مَا اسْتَعَانَا بِهِ فِي ذَلِكَ. ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: تَنْكِيلًا مِنَ الله بِهِمَا عَلى ارْتِكَاب ذَلِكَ. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيْ: فِي انْتِقَامه. ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيْ: فِي أَمْره وَنَهْيه، وَشَرْعه وَقَدَره. ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيْ: مَنْ تَابَ بَعْد سَرِقَته وَأَنَابَ إِلى الله؛ فَإِنَّ الله يَتُوب عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنه وَبَيْنه، فَأَمَّا أَمْوَال النَّاس فَلا بُدّ مِنْ رَدِّهَا إِلَيْهِمْ أَوْ بَدَلهَا عِنْد الجُمْهُور. وَقَال أَبُو حَنِيفَة: مَتَى قُطِعَ وَقَدْ تَلفَتْ فِي يَده فَإِنَّهُ لا يَرُدّ بَدَلهَا، وَقَدْ رَوَى الحَافِظ أَبُو الحَسَن الدَّارَقُطْنِيّ مِنْ حَدِيث محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ أُتِيَ بِسَارِقٍ قَدْ سَرَقَ شَمْلة، فَقَال: «مَا إِخَالهُ سَرَقَ؟» فَقَال: السَّارِق: بَلى يَا رَسُول الله. قَال: «اذْهَبُوا بِهِ فَاقْطَعُوهُ ثُمَّ احْسِمُوهُ ثُمَّ ائْتُونِي بِهِ». فَقُطِعَ فَأُتِيَ بِهِ فَقَال: «تُبْ إِلى الله». فَقَال: تُبْت إِلى الله. فَقَال: «تَابَ الله عَلَيْكَ»[1].

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وَجْه آخَر مُرْسَلًا، وَرَجَّحَ إِرْسَاله عَلِيّ ابْن المَدِينِيّ وَابْن خُزَيْمَةَ رَحِمَهُمَا الله. وَرَوَى ابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث ابْن لهِيعَة، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن ثَعْلبَة الأَنْصَارِيّ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ عمرو بْن سَمُرَة بْن حَبِيب بْن عَبْد شَمْس جَاءَ إِلى النبي ﷺ، فَقَال: يَا رَسُول الله إِنِّي سَرَقْت جَمَلًا لِبَنِي فُلان، فَطَهِّرْنِي. فَأَرْسَل إِلَيْهِمْ النَّبِيّ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّا افْتَقَدْنَا جَمَلًا لنَا فَأَمَرَ به فَقُطِعَتْ يَده، قال ثعلبة: أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يَقُول: الحَمْد لله الَّذِي طَهَّرَنِي مِنْكِ أَرَدْت أَنْ تُدْخِلي جَسَدِي النَّار[2].

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن دَاوُدَ، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، عَنْ حيي بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: سَرَقَتْ امْرَأَة حُليًّا، فَجَاءَ الَّذِينَ سَرَقَتْهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، سَرَقَتْنَا هَذِهِ المَرْأَة. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «اقْطَعُوا يَدهَا اليُمْنَى». فَقَالتْ المَرْأَة: هَل مِنْ تَوْبَة؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «أَنْتِ اليَوْم مِنْ خَطِيئَتك كَيَوْم وَلدَتْك أُمّك». قَال: فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد بِأَبْسَطَ مِنْ هَذَا، فَقَال: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنِي حيى بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَرو: أَنَّ امْرَأَة سَرَقَتْ عَلى عَهْد رَسُول الله ﷺ فَجَاءَ بِهَا الَّذِينَ سَرَقَتْهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، إِنَّ هَذِهِ المَرْأَة سَرَقَتْنَا. قَال قَوْمهَا: فَنَحْنُ نَفْدِيهَا. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «اقْطَعُوا يَدهَا». فَقَالُوا: نَحْنُ نَفْدِيهَا بِخَمْسِمِائَةِ دِينَار فَقَال: «اقْطَعُوا يَدهَا». قَال: فَقُطِعَتْ يَدهَا اليُمْنَى، فَقَالتْ المَرْأَة: هَل لِي مِنْ تَوْبَة يَا رَسُول الله؟ قَال: «نَعَمْ، أَنْتِ اليَوْم مِنْ خَطِيئَتك كَيَوْم وَلدَتْك أُمّك». فَأَنْزَل الله فِي سُورَة المَائِدَة ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]. وَهَذِهِ المَرْأَة هِيَ المَخْزُومِيَّة الَّتِي سَرَقَتْ، وَحَدِيثهَا ثَابِت فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَة الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَة الَّتِي سَرَقَتْ فِي عَهْد النَّبِيّ ﷺ فِي غَزْوَة الفَتْح، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّم فِيهَا رَسُول الله ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئ عَلَيْهِ

---

(١) ضعيف: أخرجه الدارقطني (٣/ ١٠٢) من حديث أبي هريرة، وضعفه الألباني في «الإرواء» (٢٤٣١).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٢٥٨٨)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٨٦) من حديث عمرو بن سمرة، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٥٦٢).

(٣) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٤/ ٥٧٠)، وأحمد (٢/ ١٧٧) وعلته ابن لهيعة: ضعيف.

إِلَّا أُسَامَة بْن زَيْد حِبّ رَسُول الله ﷺ. فَأُتِيَ بِهَا رَسُول الله ﷺ فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَة بْن زَيْد، فَتَلَوَّنَ وَجْه رَسُول الله ﷺ فَقَال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدّ مِنْ حُدُود الله ﷻ!». فَقَال لَهُ أُسَامَة: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُول الله. فَلَمَّا كَانَ العَشِيّ قَامَ رَسُول الله ﷺ فَاخْتَطَبَ، فَأَثْنَى عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْله، ثُمَّ قَال: «أَمَّا بَعْد، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيف تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيف أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَة بِنْت مُحَمَّد سَرَقَتْ لَقَطَعْت يَدهَا». ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ المَرْأَة الَّتِي سَرَقَتْ فَقُطِعَتْ يَدهَا. قَالَتْ عَائِشَة: فَحَسُنَتْ تَوْبَتهَا بَعْد وَتَزَوَّجَتْ، وَكَانَتْ تَأْتِي بَعْد ذَلِكَ، فَأَرْفَعُ حَاجَتهَا إِلَى رَسُول الله ﷺ. وَهَذَا لَفْظ مُسْلِم، وَفِي لَفْظ لَهُ عَنْ عَائِشَة قَالَتْ: كَانَتْ امْرَأَة مَخْزُومِيَّة تَسْتَعِير المَتَاع وَتَجْحَدهُ، فَأَمَرَ النَّبِيّ ﷺ بِقَطْعِ يَدهَا[1].

وَعَنْ ابْن عُمَر قَال: كَانَتْ امْرَأَة مَخْزُومِيَّة تَسْتَعِير مَتَاعًا عَلَى أَلْسِنَة جَارَاتهَا وَتَجْحَدهُ، فَأَمَرَ رَسُول الله ﷺ بِقَطْعِ يَدهَا. رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ وَهَذَا لَفْظه، وَفِي لَفْظ لَهُ: أَنَّ امْرَأَة كَانَتْ تَسْتَعِير الحُلِيّ لِلنَّاسِ، ثُمَّ تُمْسِكهُ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «لِتَتُبْ هَذِهِ المَرْأَةُ إِلَى الله وَإِلَى رَسُوله وَتَرُدّ مَا تَأْخُذ عَلَى القَوْم». ثُمَّ قَال رَسُول الله ﷺ: «قُمْ يَا بِلَال فَخُذْ بِيَدِهَا فَاقْطَعْهَا». وَقَدْ وَرَدَ فِي أَحْكَام السَّرِقَة أَحَادِيث كَثِيرَة مَذْكُورَة فِي كِتَاب الأَحْكَام، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة. ثُمَّ قَال تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: هُوَ المَالِك لِجَمِيعِ ذَلِكَ، الحَاكِم فِيهِ الَّذِي لَا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ، وَهُوَ الفَعَّال لِمَا يُرِيد ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَات الكَرِيمَات فِي المُسَارِعِينَ فِي الكُفْر، الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَة الله وَرَسُوله، المُقَدِّمِينَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ عَلَى شَرَائِع الله ﷻ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ﴾ أَيْ: أَظْهَرُوا الإِيمَان بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَقُلُوبُهُمْ خَرَاب خَاوِيَة مِنْهُ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ المُنَافِقُونَ، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أَعْدَاء الإِسْلَام وَأَهْله، وَهَؤُلَاءِ كُلّهمْ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أَيْ: مُسْتَجِيبُونَ لَهُ مُنْفَعِلُونَ عَنْهُ، ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ﴾ أَيْ: يَسْتَجِيبُونَ لِأَقْوَام آخَرِينَ لَا يَأْتُونَ مَجْلِسك يَا مُحَمَّد، وَقِيلَ: المُرَاد أَنَّهُمْ يَتَسَمَّعُونَ الكَلَام وَيَنْهُونَهُ إِلَى قَوْم آخَرِينَ مِمَّنْ لَا يَحْضُر عِنْدك مِنْ أَعْدَائِك، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾ أَيْ: يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْر تَأْوِيله وَيُبَدِّلُونَهُ مِنْ بَعْد مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ﴾.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٨).

قِيل: نَزَلتْ فِي أَقْوَام مِنْ اليَهُود قَتَلُوا قَتِيلًا، وَقَالُوا: تَعَالَوْا حَتَّى نَتحَاكَم إِلى مُحَمَّد، فَإِنْ أفتانا بِالدِّيَةِ فَخذوا ما قال، وَإِنْ حَكَمَ بِالقِصَاصِ فَلا تَسْمَعُوا مِنْهُ. وَالصَّحِيح: أَنَّهَا نَزَلتْ فِي اليَهُودِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ زَنَيَا، وَكَانُوا قَدْ بَدَّلُوا كِتَاب الله الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الأَمْر بِرَجْمِ مَنْ أُحْصِنَ مِنْهُمْ فَحَرَّفُوهُ، وَاصْطَلحُوا فِيمَا بَيْنهمْ عَلى الجَلد مِائَة جَلدَة، وَالتَّحْمِيم وَالإِرْكَاب عَلى حِمَارٍ مَقْلُوبَيْنِ، فَلَمَّا وَقَعَتْ تِلكَ الكَائِنَة بَعْد هِجْرَة النبي ﷺ قَالُوا فِيمَا بَيْنهم: تَعَالَوْا حَتَّى نَتحَاكَم إِليْهِ، فَإِنْ حَكَمَ بِالجَلدِ وَالتَّحْمِيم فَخُذُوا عَنْهُ، وَاجْعَلُوهُ حُجَّة بَيْنكُمْ وَبَيْن الله، وَيَكُون نَبِيّ مِنْ أَنْبِيَاء الله قَدْ حَكَمَ بَيْنكُمْ بِذَلكَ، وَإِنْ حَكَمَ بِالرَّجْم فَلا تَتَّبِعُوهُ فِي ذَلكَ. وَقَدْ وَرَدَتْ الأَحَادِيث بِذَلكَ فَقَال مَالك، عَنْ نَافِع، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر رضي الله عنهما أَنَّه قَال: إن اليَهُود جَاءُوا إِلى رَسُول الله ﷺ فَذَكَرُوا لهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَة زَنَيَا، فَقَال لهُمْ رَسُول الله ﷺ: **«مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاة فِي شَأْن الرَّجْم؟»** فَقَالُوا: نَفْضَحهُمْ وَيُجْلدُونَ. قَال عَبْد الله بْن سَلام: كَذَبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا الرَّجْم. فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدهمْ يَده عَلى آيَة الرَّجْم، فَقَرَأَ مَا قَبْلهَا وَمَا بَعْدهَا، فَقَال لهُ عَبْد الله بْن سَلام: ارْفَعْ يَدك. فَرَفَعَ يَده فَإِذَا فيها آيَة الرَّجْم، فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّد فِيهَا آيَة الرَّجْم. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُول الله ﷺ فَرُجِمَا، فَرَأَيْت الرَّجُل يَحْنِي عَلى المَرْأَة يَقِيهَا الحِجَارَة.

أَخْرَجَاهُ وَهَذَا لفْظ البُخَارِيّ، وَفِي لفْظ لهُ قَال لليَهُودِ: **«مَا تَصْنَعُونَ بِهِمَا؟»**. قَالُوا: نُسَخِّمُ وُجُوههمَا وَنُخْزِيهِمَا. قَال: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فَجَاءُوا فَقَالُوا لرَجُلٍ مِنْهُمْ مِمَّنْ يَرْضَوْنَ أَعْوَرَ: اقْرَأْ، فَقَرَأَ حَتَّى انْتَهَى إِلى مَوْضِع مِنْهَا فَوَضَعَ يَده عَليْهِ، فَقَال: ارْفَعْ يَدك، فَرَفَعَ فَإِذَا آيَةُ الرَّجْم تَلُوح، قَال: يَا مُحَمَّد إِنَّ فِيهَا آيَة الرَّجْم وَلكِنَّا نَتكَاتَمهُ بَيْننَا، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا[1]. وَعِنْد مُسْلم: أَنَّ رَسُول الله ﷺ أُتِيَ بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّة قَدْ زَنَيَا، فَانْطَلقَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى جَاءَ يَهُودَ فَقَال: **«مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاة عَلى مَنْ زَنَى؟»** قَالُوا: نُسَوِّد وُجُوههمَا وَنَحْمِلهُمَا وَنُخَالف بَيْن وُجُوههمَا وَيُطَاف بِهِمَا.

قَال: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ قَال: فَجَاءُوا بِهَا فَقَرَءُوهَا، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِآيَةِ الرَّجْم وَضَعَ الفَتَى الَّذِي يَقْرَأ يَده عَلى آيَة الرَّجْم، وَقَرَأَ مَا بَيْن يَدَيْهَا وَمَا وَرَاءَهَا، فَقَال لهُ عَبْد الله بْن سَلام وَهُوَ مَعَ رَسُول الله ﷺ: مُرْهُ فَليَرْفَعْ يَده. فَرَفَعَ يَده فَإِذَا تَحْتهَا آيَة الرَّجْم، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُول الله ﷺ فَرُجِمَا. قَال عَبْد الله بْن عُمَر: كُنْت فِيمَنْ رَجَمَهُمَا، فَلقَدْ رَأَيْته يَقِيهَا مِنْ الحِجَارَة بِنَفْسِهِ. وَقَال أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سَعِيد الهَمْدَانِيّ، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، حَدَّثَنَا هِشَام ابْن سَعْد: أَنَّ زَيْد بْن أَسْلمَ حَدَّثَهُ عَنْ ابْن عُمَر قَال: أَتَى نَفَر مِنْ اليَهُود فَدَعَوْا رَسُول الله ﷺ إِلى القُفّ فَأَتَاهُمْ فِي بَيْت المُدَراس، فَقَالُوا: يَا أَبَا القَاسِم إِنَّ رَجُلًا مِنَّا زَنَى بِامْرَأَةٍ فَاحْكُمْ. قَال: وَوَضَعُوا لرَسُول الله ﷺ وِسَادَة، فَجَلسَ عَليْهَا، ثُمَّ قَال: **«ائْتُونِي بالتَّوْرَاةِ»**. فَأُتِيَ بِهَا فَنَزَعَ الوِسَادَة مِنْ تَحْته، وَوَضَعَ التَّوْرَاة عَليْهَا، وَقَال: **«آمَنْت بِك وَبِمَنْ أَنْزَلك»**. ثُمَّ قَال: ﷺ: **«ائْتُونِي بأَعْلمِكُمْ»**. فَأُتِيَ بِفَتًى شَابّ، ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّة الرَّجْم نَحْو حَدِيث مَالك، عَنْ نَافِع.

وَقَال الزُّهْرِيّ: سَمِعْت رَجُلًا مِنْ مُزَيْنَة مِمَّنْ يَتَّبِع العِلم وَيَعِيه، وَنَحْنُ عِنْد ابْن المُسَيَّب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: زَنَى رَجُل مِنْ اليَهُود بِامْرَأَةٍ، فَقَال بَعْضهمْ لبَعْضٍ: اذْهَبُوا إِلى هَذَا النَّبِيّ فَإِنَّهُ بُعِثَ بِالتَّخْفِيف، فَإِنْ أَفْتَانَا بِفُتْيَا دُون الرَّجْم قَبِلنَا وَاحْتَجَجْنَا بِهَا عِنْد الله، قُلنَا: فُتْيَا نَبِيّ مِنْ أَنْبِيَائِك. قَال: فَأَتَوْا النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ جَالس فِي المَسْجِد فِي أَصْحَابه، فَقَالُوا: يَا أَبَا القَاسِم، مَا تَقُول فِي رَجُل وَامْرَأَة مِنْهُمْ زَنَيَا؟ فَلمْ يُكَلِّمهُمْ كَلمَة حَتَّى أَتَى بَيْت مُدَراسهمْ؛ فَقَامَ عَلى البَاب فَقَال: **«أَنْشُدكُمْ بِالله الَّذِي أَنْزَل التَّوْرَاة عَلى مُوسَى، مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاة عَلى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ؟»**. قَالُوا: يُحَمَّم وَيُجَبَّه وَيُجْلد. وَالتَّجْبِيَة: أَنْ يُحْمَل الزَّانِيَانِ عَلى حِمَار، وَتُقَابَل أَقْفِيَتهمَا، وَيُطَاف

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٦٣٥، ٦٨٤١)، ومسلم (١٦٩٩)، وأبو داود (٤٤٤٦)، والترمذي (١٤٣٦).

بِهِمَا. قَال: وَسَكَتَ شَابٌ مِنْهُمْ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُول الله ﷺ سَكَتَ أَلَظَّ بِهِ رَسُول الله ﷺ النِّشْدَة، فَقَال: اللَّهُمَّ إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّا نَجِد فِي التَّوْرَاة الرَّجْم. فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «فَمَا أَوَّل مَا ارْتَخَصْتُمْ أَمْرَ الله؟» فَقَال: زَنَى ذُو قَرَابَة مِنْ مَلِك مِنْ مُلُوكِنَا، فَأَخَّرَ عَنْهُ الرَّجْم، ثُمَّ زَنَى رَجُل فِي إِثْرِه مِنْ النَّاس، فَأَرَادَ رَجْمه فَحَال قَوْمه دُونه، وَقَالُوا: لا يَرْجُم صَاحِبنَا حَتَّى تَجِيء بِصَاحِبِك فَتَرْجُمهُ، فَاصْطَلَحُوا هَذِهِ العُقُوبَة بَيْنهمْ، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «فَإِنِّي أَحْكُم بِمَا فِي التَّوْرَاة». فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا. قَال الزُّهْرِيّ: فَبَلَغَنَا أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ فَكَانَ النَّبِيّ ﷺ مِنْهُمْ[1]. رَوَاهُ أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُد وَهَذَا لَفْظه، وَابْن جَرِير.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ عَبْد الله بْن مُرَّة، عَنْ البَرَاء بْن عَازِب قَال: مَرَّ عَلَى رَسُول الله ﷺ يَهُودِيّ مُحَمَّم مَجْلُود فَدَعَاهُمْ فَقَال: «أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدّ الزَّانِي فِي كِتَابكُمْ؟» فَقَالُوا: نَعَمْ. فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَال: «أَنْشُدك بِالَّذِي أَنْزَل التَّوْرَاة عَلَى مُوسَى أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدّ الزَّانِي فِي كِتَابكُمْ؟» فَقَال: لا وَالله وَلولا أَنَّكَ نَشَدْتنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرك، نَجِد حَدّ الزَّانِي فِي كِتَابنَا الرَّجْم، وَلكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيف تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيف أَقَمْنَا عَلَيْهِ الحَدّ، فَقُلْنَا: تَعَالَوْا حَتَّى نَجْعَل شَيْئًا نُقِيمهُ عَلَى الشَّرِيف وَالوَضِيع، فَاجْتَمَعْنَا عَلَى التَّحْمِيم وَالجَلد. فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّل مَنْ أَحْيَا أَمْرك إِذْ أَمَاتُوهُ». قَال: فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ. قَال: فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إِلى قَوْله: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ أَيْ: يَقُولُونَ ائْتُوا مُحَمَّدًا فَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالتَّحْمِيم وَالجَلد فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْم فَاحْذَرُوا. إِلى قَوْله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾. قَال: فِي اليَهُود إِلى قَوْله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قَال: فِي اليَهُود. ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ قَال: فِي الكُفَّار كلهم[2]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِم دُون البُخَارِيّ، وَأَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ وَابْن ماجه مِنْ غَيْر وَجْه، عَنْ الأَعْمَش بِهِ.

وَقَال الإِمَام أَبُو بَكْر عَبْد الله بْن الزُّبَيْر الحُمَيْدِيّ فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عن مُجَالد بْن سَعِيد الهَمْدَانِيّ، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَال: زَنَى رَجُل مِنْ أَهْل فَدَك، فَكَتَبَ أَهْل فَدَك إِلى نَاس مِنْ اليَهُود بِالمَدِينَة: أَنْ سَلُوا مُحَمَّدًا عَنْ ذَلِكَ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالجَلد فَخُذُوهُ عَنْهُ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالرَّجْم فَلا تَأْخُذُوهُ عَنْهُ، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَال: «أَرْسِلُوا إِلَيَّ أَعْلَمَ رَجُلَيْن فِيكُمْ». فَجَاءُوا بِرَجُل أَعْوَر يُقَال لَهُ: ابْن صُورِيَّا وَآخَر، فَقَال لَهُمَا النَّبِيّ ﷺ: «أَنْتُمَا أَعْلَمُ مَنْ قِبَلَكُمَا». فَقَالا: قَدْ دَعَانَا قَوْمنَا لِذَلِكَ. فَقَال النَّبِيّ ﷺ لَهُمَا: «أَلَيْسَ عِنْدكُمَا التَّوْرَاة فِيهَا حُكْم الله». قَالا: بَلَى. فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «فَأَنْشُدكُمْ بِالَّذِي فَلَقَ البَحْر لِبَنِي إِسْرَائِيل، وَظَلَّل عَلَيْكُمْ الغَمَام، وَأَنْجَاكُمْ مِنْ آل فِرْعَوْن، وَأَنْزَل المَنّ وَالسَّلْوَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل، مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاة فِي شَأْن الرَّجْم؟». فَقَال أَحَدهمَا لِلآخَر: مَا نُشِدْت بِمِثْلِهِ قَطُّ. قَالا: نَجِد تَرْدَاد النَّظَر زِنْيَة، وَالاعْتِنَاق زِنْيَة، وَالتَّقْبِيل زِنْيَة، فَإِذَا شَهِدَ أَرْبَعَة أَنَّهُمْ رَأَوْهُ يُبْدِئ وَيُعِيد كَمَا يَدْخُل المِيل فِي المُكْحُلة، فَقَدْ وَجَبَ الرَّجْم. فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «هُوَ ذَاكَ». فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[3].

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٤/ ٥٨٨)، وأبو داود (٣٦٢٤، ٤٤٥٠) من حديث أبي هريرة، وعلة الضعف الرجل الذي لم يسم، وضعفه الألباني في «الإرواء» (٨/ ٩٥)، و«ضعيف سنن أبي داود» (٧٨٠).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧٠٠)، وأبو داود (٤٤٤٧)، وابن ماجه (٢٣٢٧).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٤٤٥٢)، وابن ماجه (٢٣٢٨)، والدارقطني (٤/ ١٦٩)، والحميدي (٢/ ٥٤١)، وعلة الضعف: مجالد بن سعيد عن الشعبي وليس بالقوي كما قال الدارقطني.

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْن ماجهْ: مِنْ حَدِيث مُجَالد بِهِ نَحْوه، وَلَفظ أَبِي دَاوُدَ: عَنْ جَابِر، قَال: جَاءَتْ اليَهُود بِرَجُلٍ وَامْرَأَة مِنْهُمْ زَنَيَا، فَقَال ﷺ : «ائتُوني بِأَعْلَم رَجُلَيْنِ مِنْكُمْ» فَأَتَوْه بِابْنَيْ صُورِيَا فَنَشَدَهُمَا: «كَيفَ تَجِدَانِ أَمْرَ هَذَيْنِ فِي التَّوْرَاةِ؟» قَالا: نَجِدُ في التوراة إِذَا شَهِدَ أَرْبَعَةٌ أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ فِي فَرْجِهَا مِثْل المِيل فِي المُكْحُلة رُجِمَا. قَال: «فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَرْجُمُوهُمَا؟». قَالا: ذَهَبَ سُلطَانُنَا، فَكَرِهْنَا القَتْل. فَدَعَا رَسُول الله ﷺ بِالشُّهُودِ، فَجَاءَ أَرْبَعَةٌ فَشَهِدُوا: أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ في فرجها مِثْل المِيل فِي المُكْحُلةِ، فَأَمَرَ رَسُول الله ﷺ بِرَجْمِهَا. ثُمَّ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: عَنْ الشَّعْبِيِّ وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيِّ مُرْسَلًا، وَلَمْ يَذْكُر فِيهِ: فَدَعَا بِالشُّهُودِ فَشَهِدُوا.

فَهَذِهِ الأَحَادِيث دَالَّة عَلَى أَنَّ رَسُول الله ﷺ حَكَمَ بِمُوَافَقَةِ حُكْم التَّوْرَاة، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَاب الإِلْزَام لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّته؛ لأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاع الشَّرْع المُحَمَّدِيّ لا مَحَالة، وَلَكِنَّ هَذَا بِوَحْيٍ خَاص مِنْ الله ﷻ إِلَيْهِ بِذَلِكَ وَسُؤَاله إِيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، لِيُقَرِّرَهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ مِمَّا تراضوا عَلَى كِتْمَانه وَجَحْده، وَعَدَم العَمَل بِهِ تِلْكَ الدُّهُور الطَّوِيلة، فَلَمَّا اعْتَرَفُوا بِهِ مَعَ عِلمهمْ عَلَى خِلافه، بَانَ زَيْغهمْ وَعِنَادهمْ وَتَكْذِيبهمْ لِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّته مِنْ الكِتَاب الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ، وَعُدُولهمْ إِلَى تَحْكِيم الرَّسُول ﷺ إِنَّمَا كَانَ عَنْ هَوَى مِنْهُمْ وَشَهْوَة، لِمُوَافَقَةِ آرَائِهِمْ لا لاعْتِقَادِهِمْ صِحَّة مَا يَحْكُم بِهِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ أَيْ: الجلد وَالتَّحْمِيم ﴿فَخُذُوهُ﴾ أَيْ: اقْبَلُوهُ، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أَيْ: مِنْ قَبُوله وَاتِّبَاعه.

قَال الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أَيْ: البَاطِل ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أَيْ: الحَرَام وَهُوَ الرِّشْوَة، كَمَا قَالهُ ابْن مَسْعُود وَغَيْر وَاحِد، أَيْ: وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ كَيْف يُطَهِّر الله قَلبه، وَأَنَّى يَسْتَجِيب لهُ. ثُمَّ قَال لِنَبِيِّهِ: ﴿فَإِن جَاءُوكَ﴾ أَيْ: يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْك ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ أَيْ: فَلا عَلَيْك أَنْ لا تَحْكُم بَيْنهمْ؛ لأَنَّهُمْ لا يَقْصِدُونَ بِتَحَاكُمِهِمْ إِلَيْك اتِّبَاع الحَقّ بَل مَا يُوَافِق أَهْوَاءَهُمْ. قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَزَيْد بْن أَسْلمَ، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ: هِيَ مَنْسُوخَة بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾. ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أَيْ: بِالحَقّ وَالعَدْل، وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَة خَارِجِينَ عَنْ طَرِيق العَدْل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. ثُمَّ قَال تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِي آرَائِهِمْ الفَاسِدَة، وَمَقَاصِدهمْ الزَّائِغَة، فِي تَرْكهمْ مَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّته مِنْ الكِتَاب الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِالتَّمَسُّكِ بِهِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجُوا عَنْ حُكْمه، وَعَدَلُوا إِلَى غَيْره مِمَّا يَعْتَقِدُونَ فِي نَفْس الأَمْر بُطْلانه، وَعَدَم لُزُومه لهُمْ فَقَال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. ثُمَّ مَدَحَ التَّوْرَاة الَّتِي أَنْزَلهَا عَلَى عَبْده وَرَسُوله مُوسَى ابْن عِمْرَان فَقَال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أَيْ: لا يَخْرُجُونَ عَنْ حُكْمهَا، وَلا يُبَدِّلُونَهَا، وَلا يُحَرِّفُونَهَا، ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أَيْ: وَكَذَلكَ الرَّبَّانِيُّونَ وَهُمْ العُلَمَاء العُبَّاد، وَالأَحْبَار هُمْ العُلَمَاء ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ أَيْ: بِمَا اسْتُودِعُوا مِنْ كِتَاب الله الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يُظْهِرُوهُ وَيَعْمَلُوا بِهِ ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ أَيْ: لا تَخَافُوا مِنْهُمْ وَخَافُونِي، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فِيهِ قَوْلانِ سَيَأْتِي بَيَانهمَا.

سَبَب آخر فِي نُزُول هذه الآيَات الكريمات

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن العَبَّاس، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: إِنَّ الله أَنْزَل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ

ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قَال: قَال ابْن عَبَّاس: أَنْزَلهَا الله فِي الطَّائِفَتَيْنِ مِنْ اليَهُود، وَكَانَتْ إِحْدَاهُمَا قَدْ قَهَرَتْ الأُخْرَى فِي الجَاهِلِيَّة حَتَّى ارْتَضَوْا، وَاصْطَلَحُوا عَلى أَنَّ كُلّ قَتِيل قَتَلَتْهُ العَزِيزَةُ مِنْ الذَّلِيلةِ فَدِيَتُهُ خَمْسُونَ وَسْقًا، وَكُلَّ قَتِيل قَتَلتْهُ الذَّلِيلة مِنْ العَزِيزَة فَدِيَته مِائَة وَسْق، فَكَانُوا عَلى ذَلكَ حَتَّى قَدِمَ النَّبِيّ ﷺ فذلت الطائفتان كلتاهما؛ لمقدم رسول الله ﷺ ويومئذ لم يظهر، ولم يوطئها عليه، وهو في الصلح، فَقَتَلتْ الذَّلِيلةُ مِنْ العَزِيزَة قَتِيلًا، فَأَرْسَلتْ العَزِيزَة إِلى الذَّلِيلة: أَنْ ابْعَثُوا لنَا بِمِائَةِ وَسْق، فَقَالتْ الذَّلِيلة: وَهَل كَانَ هذا فِي حَيَّيْنِ قَطْ دِينُهُمَا وَاحِدٌ، وَنَسَبُهُمَا وَاحِدٌ، وَبَلدُهُمَا وَاحِدٌ، دِيَةُ بَعْضِهِمْ نِصْفُ دِيَة بَعْض إِنَّمَا أَعْطَيْنَاكُمْ هَذَا ضَيْمًا مِنْكُمْ لنَا وَفَرَقًا مِنْكُمْ، فَأَمَّا إِذْ قَدِمَ مُحَمَّد فَلا نُعْطِيكُمْ. فَكَادَتْ الحَرْب تَهِيج بَيْنَهمَا، ثُمَّ ارْتَضَوْا عَلى أَنْ يَجْعَلُوا رَسُول الله ﷺ بَيْنهمْ، ثُمَّ ذَكَرَتْ العَزِيزَةُ فَقَالتْ: وَالله مَا مُحَمَّدٌ بِمُعْطِيكُمْ مِنْهُمْ ضِعْف مَا يُعْطِيهِمْ مِنْكُمْ، وَلقَدْ صَدَقُوا مَا أَعْطَوْنَا هَذَا إِلَّا ضَيْمًا مِنَّا وَقَهْرًا لهُمْ، فَدُسُّوا إِلى مُحَمَّد مَنْ يُخْبِر لكُمْ رَأْيه إِنْ أَعْطَاكُمْ مَا تُرِيدُونَ حَكَّمْتُمُوهُ، وَإِنْ لمْ يُعْطِكُمْ حَذِرْتُمْ فَلمْ تُحَكِّمُوهُ، فَدَسُّوا إِلى رَسُول الله ﷺ نَاسًا مِنْ المُنَافِقِينَ ليُخْبِرُوا لهُم رَأْي رَسُول الله ﷺ فَلمَّا جَاءُوا رَسُول الله ﷺ أَخْبَرَ الله رَسُوله ﷺ بِأَمْرِهِمْ كُلّه وَمَا أَرَادُوا، فَأَنْزَل الله تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ إِلى قَوْله: ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فَفِيهِمْ وَالله أَنْزَل، وَإِيَّاهُمْ عَنَى الله ﷻ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيث ابْن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ أَبِيهِ بِنَحْوِهِ. وَقَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا هَنَّاد بْن السَّرِيّ وَأَبُو كُرَيْب، قَالا: حَدَّثَنَا يُونُس بْن بُكَيْر، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي دَاوُد بْن الحُصَيْن، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ الآيَات الَّتِي فِي المَائِدَة قَوْله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إِلى: ﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ إِنَّمَا أُنْزِلتْ فِي الدِّيَة فِي بَنِي النَّضِير وَبَنِي قُرَيْظَة؛ وَذَلكَ أَنَّ قَتْلى بَنِي النَّضِير كَانَ لهُمْ شَرَف تُودَى الدِّيَة كَامِلة، وَأَنَّ قُرَيْظَة كَانَ يُودَوْن لهُمْ نِصْف الدِّيَة، فَتَحَاكَمُوا فِي ذَلكَ إِلى رَسُول الله ﷺ فَأَنْزَل الله ذَلكَ فِيهِمْ، فَحَمَلهُمْ رَسُول الله ﷺ عَلى الحَقّ فِي ذَلكَ، فَجَعَل الدِّيَة فِي ذَلكَ سَوَاء. وَالله أَعْلم أَيّ ذَلكَ كَانَ. وَرَوَاهُ أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث ابْن إِسْحَاق بِنَحْوِهِ. ثُمَّ قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن مُوسَى، عَنْ عَلِيّ بْن صَالح، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: كَانَتْ قُرَيْظَة وَالنَّضِير، وَكَانَتْ النَّضِير أَشْرَفَ مِنْ قُرَيْظَة، فَكَانَ إِذَا قَتَل رجل من قريظة رَجُلًا مِنْ النَّضِير قُتِل بِهِ، وَإِنْ قَتَل رجل من النَّضِيرِ رَجُلًا مِنْ قُرَيْظَة وُدِيَ بِمِائَةِ وَسْق مِنْ تَمْر، فَلمَّا بُعِثَ رَسُول الله ﷺ قَتَل رَجُل مِنْ النَّضِير رَجُلًا مِنْ قُرَيْظَة، فَقَالُوا: ادْفَعُوهُ إِليْنا. فَقَالُوا: بَيْننَا وَبَيْنكُمْ رَسُول الله ﷺ. فَنَزَلتْ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن حِبَّان، وَالحَاكِم فِي «المُسْتَدْرَك»: مِنْ حَدِيث عُبيد الله بْن مُوسَى بِنَحْوِهِ. وَهَكَذَا قَال قَتَادَة، وَمُقَاتِل بْن حيان، وَابْن زَيْد، وَغَيْرُ وَاحِد.

وَقد رَوَى العَوْفِيّ، وَعَليّ بْن أَبِي طَلحَة الوَالبِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ هَذِهِ الآيَات نَزَلتْ فِي اليَهُودِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ زَنَيَا. كَمَا تَقَدَّمَتْ الأَحَادِيث بِذَلكَ، وَقَدْ يَكُون اجْتَمَعَ هَذَانِ السَّبَبَانِ فِي وَقْت وَاحِد، فَنَزَلتْ هَذِهِ الآيَات فِي ذَلكَ كُلّه وَالله أَعْلمُ. وَلهَذَا قَال بَعْد ذَلكَ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ إِلى آخِرهَا، وَهَذَا يَقُوي أَنَّ سَبَب النُّزُول قَضِيَّة القِصَاص، وَالله -سُبْحَانه وَتَعَالى- أَعْلم. وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قَال البَرَاء بْن عَازِب، وَحُذَيْفَة بْن اليَمَان، وَابْن عَبَّاس، وَأَبُو مِجْلز، وَأَبُو رَجَاء العُطَارِدِيّ، وَعِكْرِمَة، وَعُبَيْد الله بْن عَبْد الله، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَغَيْرهمْ: نَزَلتْ فِي أَهْل الكِتَاب. زَادَ الحَسَن البَصْرِيّ: وَهِيَ عَليْنَا وَاجِبَة. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ مَنْصُور، عَنْ إِبْرَاهِيم، قَال: نَزَلتْ هَذِهِ الآيَات فِي بَنِي إِسْرَائِيل، وَرَضِيَ الله لهَذِهِ الأُمَّة بِهَا، رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَال ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا هُشَيْم، أَخْبَرَنَا عَبْد المَلك بْن أَبِي سُليْمَان، عَنْ سَلمَة بْن كُهَيْل، عَنْ

عَلقَمَة وَمَسْرُوق: أَنَّهُمَا سَأَلا ابْن مَسْعُود عَنِ الرِّشْوَة؟ فَقَال: مِنَ السُّحْت. قَال: فَقَالا: وَفِي الحُكْم؟ قَال: ذَاكَ الكُفْر. ثُمَّ تَلا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. وَقَال السُّدِّيّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يَقُول: وَمَنْ لم يَحْكُم بِمَا أَنْزَلْتُ فَتَرَكَهُ عَمْدًا، أَوْ جَار وَهُوَ يَعْلم فَهُوَ مِنَ الكَافِرِينَ. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قَال: مَنْ جَحَدَ مَا أَنْزَل الله فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَقَرَّ بِهِ ولم يحكم فَهُوَ ظَالم فَاسِق. رَوَاهُ ابْن جَرِير. ثُمَّ اخْتَارَ أَنَّ الآيَة المُرَاد بِهَا أَهْل الكِتَاب، أَوْ مَنْ جَحَدَ حُكْم الله المُنَزَّل فِي الكِتَاب. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: عَنِ الثَّوْرِيّ، عَنْ زَكَرِيَّا، عَنْ الشَّعْبِيّ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قَال: للمُسْلِمِينَ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عن ابْن أَبِي السَّفَر، عَنْ الشَّعْبِيّ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قَال: هَذَا فِي المُسْلِمِينَ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قَال: هَذَا فِي اليَهُود، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قَال: هَذَا فِي النَّصَارَى. وَكَذَا رَوَاهُ هُشَيْم، وَالثَّوْرِيّ، عَنْ زَكَرِيَّا بْن أَبِي زَائِدَة، عَنْ الشَّعْبِيّ. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق أَيْضًا: أَخبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ ابْن طَاوُس، عَنْ أَبِيهِ، قَال: سُئِل ابْن عَبَّاس عَنْ قَوْله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قَال: هِيَ بِهِ كُفْر. قَال ابْن طَاوُس: وَلَيْس كَمَنْ كَفَر بالله وَمَلائِكَته وَكُتُبه وَرُسُله. وَقَال الثَّوْرِيّ: عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء، أَنَّهُ قَال: كُفْر دُون كُفْر، وَظُلم دُون ظُلم، وَفِسْق دُون فِسْق. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَال وَكِيع: عَنْ سُفْيَانَ عَنْ سَعِيد المَكِّيّ، عَنْ طَاوُس: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قَال: لَيْس بِكُفْرٍ يَنْقُل عَنِ المِلَّة. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن يَزِيد المُقْرِي، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ هِشَام بْن حُجَيْر، عَنْ طَاوُس، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قَال: لَيْسَ بِالكُفْرِ الَّذِي تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ. وَرَوَاهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ حَدِيث سُفْيَان بْن عُيَيْنَةَ، وَقَال: صَحِيح عَلى شَرْط الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا وُبِّخَتْ بِهِ اليَهُود وَقُرِّعُوا عَلَيْه، فَإِنَّ عِنْدهمْ فِي نَصّ التَّوْرَاة أَنَّ النَّفْس بِالنَّفْس، وَهُمْ يُخَالِفُونَ حكم ذَلِكَ عَمْدًا وَعِنَادًا، وَيُقِيدُونَ النَّضَرِيّ مِنَ القُرَظِيّ، وَلا يُقِيدُونَ القُرَظِيّ مِنَ النَّضَرِيّ بَل يَعْدِلُونَ إِلى الدِّيَة، كَمَا خَالفُوا حُكْم التَّوْرَاة المَنْصُوص عِنْدهمْ فِي رَجْم الزَّانِي المُحْصَن، وَعَدَلُوا إِلى مَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الجَلد وَالتَّحْمِيم وَالإِشْهَار، وَلِهَذَا قَال هُنَاكَ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لأَنَّهُمْ جَحَدُوا حُكْم الله قَصْدًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا وَعَمْدًا، وَقَال هَهُنَا: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأَنَّهُمْ لم يُنْصِفُوا المَظْلُوم مِنَ الظَّالم فِي الأَمْر الَّذِي أَمَرَ الله بِالعَدْل وَالتَّسْوِيَة بَيْن الجَمِيع فِيهِ، فَخَالفُوا وَظَلَمُوا وَتَعَدَّى بَعْضهمْ عَلى بَعْض.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن آدَم، حَدَّثَنَا ابْن المُبَارَك، عَنْ يُونُس بْن يَزِيد، عَنْ أَبِي عَلِيّ ابْن يَزِيد -أخي يونس بن يزيد-، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالك: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَرَأَهَا: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنُ بِالعَيْنِ﴾ نَصَبَ النَّفْس وَرَفَعَ العَيْن[1]. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ، وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه: مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن المُبَارَك، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب. وَقَال البُخَارِيّ: تَفَرَّدَ ابْن المُبَارَك بِهَذَا الحَدِيث.

وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِير مِمَّنْ ذَهَبَ مِنَ الأُصُولِيِّينَ وَالفُقَهَاء إِلى أَنَّ: شَرْع مَنْ قَبْلنَا شَرْع لَنَا إِذَا حُكِيَ مُقَرَّرًا وَلَمْ يُنْسَخ، كَمَا هُوَ المَشْهُور عَنْ الجُمْهُور، وَكَمَا حَكَاهُ الشَّيْخ أَبُو إِسْحَاق الإِسْفَرَايِينِيّ عَنْ نَصّ الشَّافِعِيّ وَأَكْثَر

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٩٧٦)، والترمذي (٢٩٢٩) وفيه أبو علي ابن زيد: مجهول.

الأَصْحَاب -بِهَذِهِ الآيَة حَيْثُ كَانَ الحُكْم عِنْدنَا عَلَى وَفْقهَا فِي الجِنَايَات عِنْد جَمِيع الأَئِمَّة. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: هِيَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى النَّاس عَامَّة. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَدْ حَكَى الشَّيْخ أَبُو زَكَرِيَّا النَّوَوِيّ فِي هَذِهِ المَسْأَلة ثَلاثَة أَوْجُه، ثَالثهَا: أَنَّ شَرْع إِبْرَاهِيم حُجَّة دُون غَيْره، وَصَحَّحَ مِنْهَا عَدَم الحُجِّيَّة، وَنَقَلَهَا الشَّيْخ أَبُو إِسْحَاق الإِسْفَرَايِينِيّ أَقْوَالًا عَنْ الشَّافِعِيّ، وَرَجَّحَ أَنَّهُ حُجَّة عِنْد الجُمْهُور مِنْ أَصْحَابنَا، فَالله أَعْلَم.

وَقَدْ حَكَى الإِمَام أَبُو نَصْر بْن الصَّبَّاغ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابه «الشَّامِل» إِجْمَاع العُلَمَاء عَلَى الاحْتِجَاج بِهَذِهِ الآيَة عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَقَدْ احْتَجَّ الأَئِمَّة كُلّهمْ عَلَى أَنَّ الرَّجُل يُقْتَل بِالمَرْأَةِ بِعُمُومِ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، وَكَذَا وَرَدَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيّ وَغَيْره: أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَتَبَ فِي كِتَاب عَمْرو بْن حَزْم: «**أَنَّ الرَّجُل يُقْتَل بِالمَرْأَة**». وَفِي الحَدِيث الآخَر: «**المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأ دِمَاؤُهُمْ**»[1]. وَهَذَا قَوْل جُمْهُور العُلَمَاء.

وَعَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب: أَنَّ الرَّجُل إِذَا قَتَلَ المَرْأَة لا يُقْتَل بِهَا، إِلَّا أَنْ يَدْفَع وَلِيّهَا إِلَى أَوْلِيَائِهِ نِصْف الدِّيَة؛ لأَنَّ دِيَتهَا عَلَى النِّصْف مِنْ دِيَة الرَّجُل، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَحْمَد فِي رِوَايَة، وَحُكِيَ عَنْ الحَسَن وَعَطَاء وَعُثْمَان البَتِّيّ، وَرِوَايَة عَنْ أَحْمَد: أَنَّ الرَّجُل إِذَا قَتَلَ المَرْأَة لا يُقْتَل بِهَا بَلْ تَجِب دِيَتهَا. وَكَذَا احْتَجَّ أَبُو حَنِيفَة رحمه الله تعالى بِعُمُومِ هَذِهِ الآيَة عَلَى أَنَّهُ يُقْتَل المُسْلم بِالكَافِرِ الذمي، وَعَلَى قَتْل الحُرّ بِالعَبْدِ، وَقَدْ خَالَفَهُ الجُمْهُور فِيهِمَا. فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عَلِيّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لا يُقْتَل مُسْلم بِكَافِر**»[2]. وَأَمَّا العَبْد فَفِيهِ عَنْ السَّلَف آثَار مُتَعَدِّدَة: أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُقِيدُونَ العَبْد مِنْ الحُرّ وَلا يَقْتُلُونَ حُرًّا بِعَبْدٍ، وَجَاءَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيث لا تَصِحّ، وَحَكَى الشَّافِعِيّ الإِجْمَاع عَلَى خِلاف قَوْل الحَنَفِيَّة فِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ لا يَلْزَم مِنْ ذَلِكَ بُطْلان قَوْلهمْ إِلَّا بِدَلِيلٍ مُخَصِّص للآيَة الكَرِيمَة.

وَيُؤَيِّد مَا قَالَهُ ابْن الصَّبَّاغ مِنْ الاحْتِجَاج بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: الحَدِيث الثَّابِت فِي ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي عَدِيّ، حَدَّثَنَا حُمَيْد، عَنْ أَنَس بْن مَالِك: أَنَّ الرُّبَيِّع عَمَّة أَنَس كَسَرَتْ ثَنِيَّة جَارِيَة، فَطَلَبُوا إِلَى القَوْم العَفْو فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: «**القِصَاص**». فَقَالَ أَخُوهَا أَنَس بْن النَّضْر: يَا رَسُول الله، تُكْسَر ثَنِيَّة فُلانَة. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**يَا أَنَس، كِتَابُ الله القِصَاصُ**». قَالَ: فَقَالَ: لا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لا تُكْسَر ثَنِيَّة فُلانَة. قَالَ: فَرَضِيَ القَوْم فَعَفَوْا وَتَرَكُوا القِصَاص، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَاد الله مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ**»[3]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَقَدْ رَوَاهُ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن المُثَنَّى الأَنْصَارِيّ فِي الجُزْء المَشْهُور مِنْ حَدِيثه، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس ابْن مَالِك: أَنَّ الرُّبَيِّع بِنْت النَّضْر عَمَّته لطَمَتْ جَارِيَة فَكَسَرَتْ ثَنِيَّتهَا، فَعَرَضُوا عَلَيْهِمْ الأَرْش فَأَبَوْا، فَطَلَبُوا الأَرْش وَالعَفْو فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُول الله ﷺ فَأَمَرَهُمْ بِالقِصَاص، فَجَاءَ أَخُوهَا أَنَس بْن النَّضْر، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، أَتُكْسَرُ ثَنِيَّة الرُّبَيِّع، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لا تُكْسَر ثَنِيَّتهَا. فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**يَا أَنَس، كِتَابُ الله القِصَاصُ**». فَعَفَا القَوْم، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَاد الله مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ**». رَوَاهُ البُخَارِيّ عَنْ الأَنْصَارِيّ. فأما الحديث الذي رواه أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن حَنْبَل، حَدَّثَنَا مُعَاذ بْن هِشَام، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ عِمْرَان بْن حُصَيْن: أَنَّ غُلامًا لأُنَاسٍ فُقَرَاء قَطَعَ أُذُن غُلام لأُنَاس أَغْنِيَاء، فَأَتَى أَهْلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُول الله إِنَّا أُنَاس فُقَرَاء. فَلَمْ يَجْعَل عَلَيْهِ شَيْئًا[4]. وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ، عَنْ إِسْحَاق بْن رَاهَوَيْهِ، عَنْ مُعَاذ

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٠٩)، ومسلم (١٦٧٥).
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٥٩٠)، والنسائي (٤٧٥١)، وأحمد (٤/ ٤٣٨)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ١٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

ابْن هِشَام الدَّسْتُوَائِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ قَتَادَة بِهِ. وَهَذَا إِسْنَاد قَوِيّ رِجَاله كُلّهمْ ثِقَات، وَهُوَ حَدِيث مُشْكِل، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَال إِنَّ الجَانِي كَانَ قَبْل البُلُوغ فَلا قِصَاص عَلَيْهِ، وَلعَلَّهُ تَحَمَّل أَرْش مَا نَقَص مِنْ غُلام الأَغْنِيَاء عَنْ الفُقَرَاء أَوْ اسْتَعْفَاهُمْ عَنْهُ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: تُقْتَل النَّفْس بِالنَّفْسِ، وَتُفْقَأ العَيْن بِالعَيْنِ، وَتُقْطَع الأَنْف بِالأَنْفِ، وَتُنْزَع السِّنّ بِالسِّنِّ، وَتُقْتَصّ الجِرَاح بِالجِرَاحِ. فَهَذَا يَسْتَوِي فِيهِ أَحْرَار المُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنهمْ؛ رِجَالهمْ وَنِسَاؤُهُمْ إِذَا كَانَ عَمْدًا، فِي النَّفْس وَمَا دُون النَّفْس، وَيَسْتَوِي فِيهِ العَبِيد؛ رِجَالهمْ وَنِسَاؤُهُمْ فِيمَا بَيْنهمْ إِذَا كَانَ عَمْدًا، فِي النَّفْس وَمَا دُون النَّفْس. رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم.

قَاعِدَة مُهِمَّة: الجِرَاح تَارَة تَكُون فِي مَفْصِل فَيَجِب فِيهِ القِصَاص بِالإِجْمَاع؛ كَقَطْعِ اليَد وَالرِّجْل وَالكَفّ وَالقَدَم وَنَحْو ذَلِكَ، وَأَمَّا إِذَا لمْ تَكُنْ الجِرَاح فِي مَفْصِل بَل فِي عَظْم؛ فَقَال مَالك رَحِمَهُ اللهُ: فِيهِ القِصَاص إِلَّا فِي الفَخِذ وَشِبْههَا؛ لأَنَّهُ مَخُوف خَطِر. وَقَال أَبُو حَنِيفَة وَصَاحِبَاهُ: لا يَجِب القِصَاص فِي شَيْء مِنْ العِظَام إِلَّا فِي السِّنّ. وَقَال الشَّافِعِيّ: لا يَجِب القِصَاص فِي شَيْء مِنْ العِظَام مُطْلَقًا، وَهُوَ مَرْوِيّ عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب، وَابْن عَبَّاس، وَبِهِ يَقُول عَطَاء، وَالشَّعْبِيّ، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَالزُّهْرِيّ، وإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَعُمَر بْن عَبْد العَزِيز، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، وَاللَّيْث بْن سَعْد، وَهُوَ المَشْهُور مِنْ مَذْهَب الإِمَام أَحْمَد. وَقَدْ احْتَجَّ أَبُو حَنِيفَة رَحِمَهُ اللهُ بِحَدِيثِ الرُّبَيِّع بِنْت النَّضْر عَلى مَذْهَبه: أَنَّهُ لا قِصَاص فِي عَظْم إِلَّا فِي السِّنّ، وَحَدِيث الرُّبَيِّع لا حُجَّة فِيهِ؛ لأَنَّهُ وَرَدَ بِلفْظِ: كَسَرَتْ ثَنِيَّة جَارِيَة، وَجَائِز أَنْ تَكُون سَقَطَتْ مِنْ غَيْر كَسْر، فَيَجِب القِصَاص وَالحَالة هَذِهِ بِالإِجْمَاع، وَتَمَّمُوا الدَّلالة بِمَا رَوَاهُ ابْن مَاجه: مِنْ طَرِيق أَبِي بَكْر ابْن عَيَّاش، عَنْ دَهْثَم بْن قُرَّان، عَنْ نِمْرَان بْن جَارِيَة، عَنْ أَبِيهِ جَارِيَة بْن ظَفَر الحَنَفِيّ: أَنَّ رَجُلًا ضَرَبَ رَجُلًا عَلى سَاعِده بِالسَّيْفِ مِنْ غَيْر المَفْصِل فَقَطَعَهَا، فَاسْتَعْدَى النَّبِيّ ﷺ، فَأَمَرَ لهُ بِالدِّيَةِ فَقَال: يَا رَسُول الله، أُرِيد القِصَاص، فَقَال: «**خُذْ الدِّيَة، بَارَكَ الله لك فِيهَا**» وَلمْ يَقْضِ لهُ بِالقِصَاصِ[1]. قَال الشَّيْخ أَبُو عُمَر ابْن عَبْد البَرّ: لَيْسَ لِهَذَا الحَدِيث غَيْر هَذَا الإِسْنَاد، وَدَهْثَم بْن قُرَّان العُكْلِيّ ضَعِيف أَعْرَابِيّ لَيْسَ حَدِيثه مِمَّا يُحْتَجّ بِهِ، وَنِمْرَان بْن جَارِيَة ضَعِيف أَعْرَابِيّ أَيْضًا، وَأَبُوهُ جَارِيَة بْن ظَفَر مَذْكُور فِي الصَّحَابَة. ثُمَّ قَالُوا: لا يَجُوز أَنْ يُقْتَصّ مِنْ الجِرَاحَة حَتَّى تَنْدَمِل جِرَاحَة المَجْنِيّ عَلَيْهِ، فَإِنْ اقْتُصَّ مِنْهُ قَبْل الانْدِمَال، ثُمَّ زَادَ جُرْحه؛ فَلا شَيْء لهُ، وَالدَّلِيل عَلى ذَلكَ مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حدثنا يعقوب، حدثني أبي، عن محمد بن إسحاق، فذكر حديثاً. قال ابن إسحاق: وذكر عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه: أَنَّ رَجُلًا طَعَنَ رَجُلًا بِقَرْنٍ فِي رُكْبَته، فَجَاءَ إِلى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: أَقِدْنِي. فَقَال رسول الله ﷺ: «**لا تعجل حَتَّى يَبْرَأ جرحك**». قال: فأبى الرجل إلا أن يستقيد فَأَقَادَهُ رسول الله ﷺ، فَعَرِجَ المُسْتَقِيدُ وَبَرأَ المُسْتَقَادُ مِنْه، فَأَتَى المُسْتَقِيدُ إِلى رَسُولِ الله ﷺ فَقَال له: يَا رَسُول الله عَرِجْت وَبَرأ صَاحِبِي. فَقَال: «**قَدْ نَهَيْتُك فَعَصَيْتَنِي فَأَبْعَدَك الله وَبَطَل عَرَجُك**». ثُمَّ نَهَى رَسُول الله ﷺ أَنْ يُقْتَصّ مِنْ جُرْح حَتَّى يَبْرَأ صَاحِبه[2]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد.

مَسْأَلة: فَلوْ اقْتَصَّ المَجْنِيّ عَلَيْهِ مِنْ الجَانِي، فَمَاتَ مِنْ القِصَاص؛ فَلا شَيْء عَلَيْهِ عِنْد مَالك، وَالشَّافِعِيّ، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل، وَهُوَ قَوْل الجُمْهُور مِنْ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ، وَغَيْرهمْ. وَقَال أَبُو حَنِيفَة: تَجِب الدِّيَة فِي مَال المُقْتَصّ. وَقَال عَامِر الشَّعْبِيّ، وَعَطَاء، وَطَاوُس، وَعَمْرو بْن دِينَار، وَالحَارِث العُكْلِيّ، وَابْن أَبِي لَيْلى، وَحَمَّاد بْن أَبِي سُليْمَان، وَالزُّهْرِيّ، وَالثَّوْرِيّ: تَجِب الدِّيَة عَلى عَاقِلة المُقْتَصّ لهُ. وقَال ابْن مَسْعُود، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَالحَكَم بْن عُتَيْبَة، وَعُثْمَان البُتِّيّ: يَسْقُط عَنْ المُقْتَصّ لهُ قَدْر تِلكَ الجِرَاحَة، وَيَجِب البَاقِي فِي مَاله.

---

(١) **ضعيف جدًا:** أخرجه ابن ماجه (٢٦٣٦) وفيه دهثم بن قران، قال الحافظ: متروك الحديث. ونمران بن جارية: ضعيف.
(٢) **صحيح بشواهده:** وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٢٣٧).

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ يَقُول: فَمَنْ عَفَا عَنْهُ، وَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ كَفَّارَة للمَطْلُوبِ، وَأَجْر للطَّالِب.

وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قال: كفارة للجَارِح، وَأَجْر المَجْرُوح عَلى الله ﷻ. ورَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، ثُمَّ قَال: وَرُوِيَ عَنْ خَيْثَمَةَ بْن عَبْد الرَّحْمَن، وَمُجَاهِد، وَإِبْرَاهِيم فِي أَحَد قَوْلَيْهِ، وَعَامِر الشَّعْبِيّ، وَجَابِر بْن زَيْد، نَحْو ذَلكَ الوَجْه الثَّانِي، ثُمَّ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَاذَان، حَدَّثَنَا حَرَمِيّ -يَعْنِي: ابْن عُمَارَة- حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ عمارة -يَعْنِي: ابْن أَبِي حَفْصَة-، عَنْ رَجُل، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله فِي قَوْل الله ﷻ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قَال: المَجْرُوح. وَرَوَى عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ فِي أَحَد قَوْلَيْهِ، وَأَبِي إِسْحَاق الهَمْدَانِيّ: نَحْو ذَلِكَ. وَرَوَى ابْن جَرِير؛ عَنْ عَامِر الشَّعْبِيّ وَقَتَادَة: مِثْله. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يُونُس بْن حَبِيب، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ قَيْس -يَعْنِي: ابْن مُسْلم-، قَال: سَمِعْت طَارِق بْن شِهَاب، يُحَدِّث عَنْ الهَيْثَم أَبِي العُرْيَان النَّخَعِيّ، قَال: رَأَيْت عَبْد الله بْن عَمْرو عِنْد مُعَاوِيَة، أَحْمَر شَبِيهًا بِالمَوَالِي، فَسَأَلته عَنْ قَوْل الله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قَال: يُهْدَم عَنْهُ مِنْ ذُنُوبه بِقَدْرِ مَا تَصَدَّقَ بِهِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ قَيْس بْن مُسْلم، وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير: مِنْ طَرِيق سُفْيَان، وَشُعْبَة.

وَقَال ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحِيم بْن مُحَمَّد المُجَاشِعِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَحْمَد ابْن الحَجَّاج المَهْرِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سُلَيْمَان الجُعْفِيّ، حَدَّثَنَا مُعَلَّى -يَعْنِي: ابْن هِلال- أَنَّهُ سَمِعَ أَبَان بْن تغلب، عَنْ أَبِي العُرْيَان الهَيْثَم بْن الأَسْوَد، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، عَنْ أَبَان بْن تغلب، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ رَجُل مِنْ الأَنْصَار، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قَال: «**هُوَ الَّذِي تُكْسَر سِنّه، أَوْ تُقْطَع يَده، أَوْ يُقْطَع الشَّيْء مِنْهُ، أَوْ يُجْرَح فِي بَدَنه فَيَعْفُو عَنْ ذَلِكَ**»[1]. قَال: «**فَيُحَطُّ عَنْهُ قَدْرُ خَطَايَاهُ، فَإِنْ كَانَ رُبُع الدِّيَة؛ فَرُبُع خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَ الثُّلُث؛ فَثُلُث خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ الدِّيَة؛ حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَذَلِكَ**».

ثُمَّ قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْن يَحْيَى بْن أَبِي زَائِدَة، حَدَّثَنَا ابْن فُضَيْل، عَنْ يُونُس بْن أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي السَّفَر، قَال: دَفَعَ رَجُل مِنْ قُرَيْش رَجُلًا مِنْ الأَنْصَار فَانْدَقَّتْ ثَنِيَّته، فَرَفَعَهُ الأَنْصَارِيّ إِلَى مُعَاوِيَة، فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ الرَّجُل قَال: شَأْنك وَصَاحِبك. قَال: وَأَبُو الدَّرْدَاء عِنْد مُعَاوِيَة، فَقَال أَبُو الدَّرْدَاء: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**مَا مِنْ مُسْلم يُصَاب بِشَيْءٍ فِي جَسَده فَيَهَبَهُ، إِلا رَفَعَهُ الله بِهِ دَرَجَة، وَحَطَّ عَنْهُ بِهِ خَطِيئَة**». فَقَال الأَنْصَارِيّ: أَنْتَ سَمِعْته مِنْ رَسُول الله ﷺ؟ فَقَال: سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ، وَوَعَاهُ قَلْبِي. فَخَلَّى سَبِيل القُرَشِيّ، فَقَال مُعَاوِيَة: مُرُوا لَهُ بِمَالٍ[2]. هَكَذَا رَوَاهُ ابْن جُرَيْر، وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فَقَال: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا يُونُس بْن أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي السَّفَر، قَال: كَسَرَ رَجُل مِنْ قُرَيْش سِنّ رَجُل مِنْ الأَنْصَار فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ مُعَاوِيَة، فَقَال القرشي: إِنَّ هذا دقَّ سِنِّي[3]. قال مُعَاوِيَة: إِنَّا سَنُرْضِيهِ، فَأَلَحَّ الأَنْصَارِيّ، فَقَال مُعَاوِيَة: شَأْنك بِصَاحِبك. وَأَبُو الدَّرْدَاء جَالس، فَقَال أَبُو الدَّرْدَاء: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**مَا مِنْ مُسْلم يُصَاب بِشَيْءٍ فِي جَسَده فَيَتَصَدَّق بِهِ، إِلا رَفَعَهُ الله بِهِ دَرَجَة وَحَطَّ بِهِ عَنْهُ خَطِيئَة**» فَقَال الأَنْصَارِيّ: فَإِنِّي قَدْ عَفَوْت. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث ابْن المُبَارَك، وَابْن ماجه مِنْ

(١) ضعيف جدًا: عزاه لابن مردويه، وفيه معلى بن هلال قال الحافظ: اتفق النقاد على تكذيبه.

(٢) ضعيف الإسناد: أخرجه ابن جرير (٤/ ٥٩٨)، وأحمد (٩/ ٤٤٨)، وفيه أبو السفر يرسل عن أبي الدرداء، قال الحافظ: صدوق يهم. وقال النسائي: ليس بالقوي.

(٣) قوله: «إن هذا دق سني»: أي استحق ذلك قصاصًا.

حَدِيث وَكِيع، كِلاهُمَا عَنْ يُونُس بْن أَبِي إِسْحَاق بِهِ، ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: غَرِيب لا نعرفه إلا مِنْ هَذَا الوَجْه، وَلا أَعْرِف لأَبِي السَّفَر سَمَاعاً مِنْ أَبِي الدَّرْدَاء. وَقَال ابْن مَرْدُوَيْه: حَدَّثَنَا دَعْلج بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن زَيْد، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن مَنْصُور، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عِمْرَان بْن ظَبْيَان، عَنْ عَدِيّ بْن ثَابِت: أَنَّ رَجُلًا هَتَمَ فَمَه رَجُلٌ عَلَى عَهْد مُعَاوِيَة ﷺ، فَأُعْطِيَ دِيَة، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَقْتَصّ، فَأُعْطِيَ دِيَتَيْنِ فَأَبَى، فَأُعْطِيَ ثَلاثًا فَأَبَى، فَحَدَّثَ رَجُل مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «مَنْ تَصَدَّقَ بِدَمٍ فَمَا دُونَهُ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوت»[(١)].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُرَيج بْن النُّعْمَان، حَدَّثَنَا هُشَيْم، عَنْ المُغِيرَة، عَنْ الشَّعْبِيّ: أَنَّ عُبَادَة بْن الصَّامِت قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «مَا مِنْ رَجُل يُجْرَح مِنْ جَسَده جِرَاحَة، فَيَتَصَدَّقُ بِهَا، إِلا كَفَّرَ الله عَنْهُ مِثْل مَا تَصَدَّقَ بِهِ»[(٢)]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ: عَنْ عَلِيّ بْن حُجْر، عَنْ جَرِير بْن عَبْد الحَمِيد. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير: عَنْ مَحْمُود بْن خِدَاش، عَنْ هُشَيْم، كِلاهُمَا عَنْ مُغِيرَة بِهِ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد القَطَّان، عَنْ مُجَالد، عَنْ عَامِر، عَنْ المُحَرَّر بْن أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رَجُل مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ قَال: «مَنْ أُصِيبَ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَده فَتَرَكَهُ لله كَانَ كَفَّارَة لَهُ»[(٣)]. وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ عَنْ طَاوُس وَعَطَاء أَنَّهُمَا قَالا: كُفْر دُون كُفْر، وَظُلْم دُون ظُلْم، وَفِسْق دُون فِسْق.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أَيْ: أَتْبَعْنَا عَلَى آثَارهِمْ، يَعْنِي: أَنْبِيَاء بَنِي إِسْرَائِيل ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أَيْ: مُؤْمِنًا بِهَا حَاكِمًا بِمَا فِيهَا، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أَيْ: هُدًى إِلَى الحَقّ، وَنُور يُسْتَضَاء بِهِ فِي إِزَالَة الشُّبُهَات وَحَلّ المُشْكِلات: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أَيْ: مُتَّبِعًا لَهَا غَيْر مُخَالِف لِمَا فِيهَا، إِلَّا فِي القَلِيل مِمَّا بَيَّنَ لِبَنِي إِسْرَائِيل بَعْض مَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ كَمَا قَال تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ المَسِيح أَنَّهُ قَال لِبَنِي إِسْرَائِيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وَلِهَذَا كَانَ المَشْهُور مِنْ قَوْلَي العُلَمَاء: أَنَّ الإِنْجِيل نَسَخَ بَعْض أَحْكَام التَّوْرَاة. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: وَجَعَلْنَا الإِنْجِيل هُدًى يُهْتَدَى بِهِ، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أَيْ: وَزَاجِرًا عَنْ ارْتِكَاب المَحَارِم وَالمَآثِم. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: لِمَنْ اتَّقَى الله، وَخَافَ وَعِيده وَعِقَابه.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ قُرِئَ: ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بِالنَّصْب، عَلَى أَنَّ اللَّام لام كَيْ، أَيْ: وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيل لِيَحْكُمَ أَهْل مِلَّته بِهِ فِي زَمَانهِمْ، وَقُرِئَ: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ بِالجَزْم، عَلَى أَنَّ اللَّام لام الأَمْر، أَيْ: لِيُؤْمِنُوا بِجَمِيع مَا فِيهِ، وَلْيُقِيمُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فِيهِ، وَمِمَّا فِيهِ البِشَارَة بِبَعْثَةِ مُحَمَّد وَالأَمْر بِاتِّبَاعِهِ وَتَصْدِيقه إِذَا وُجِدَ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾... الآيَة، وَقَال تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وَلِهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أَيْ: الخَارِجُونَ عَنْ طَاعَة رَبِّهِمْ، المَائِلُونَ إِلَى البَاطِل، التَّارِكُونَ لِلحَقّ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ فِي النَّصَارَى، وَهُوَ ظَاهِر السِّيَاق.

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٦٠) وفي إسناده عمران بن ظبيان قال ابن حجر: ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٤٥٩).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٧٣).

(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٤١٢) وفي إسناده مجالد بن سعيد: ليس بالقوي.

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالى التَّوْرَاة الَّتِي أَنْزَلهَا عَلى مُوسَى كَلِيمه، وَمَدَحهَا وَأَثْنَى عَلَيْهَا، وَأَمَرَ بِاتِّبَاعِهَا حَيْثُ كَانَتْ سَائِغَة الاتِّبَاع، وَذَكَرَ الإِنْجِيل وَمَدَحه، وَأَمَرَ أَهْله بِإِقَامَتِهِ، وَاتِّبَاع مَا فِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانه -شَرَعَ تعالى فِي ذِكْر القُرْآن العَظِيم الَّذِي أَنْزَلهُ عَلى عَبْده وَرَسُوله الكَرِيم، فَقَال تَعَالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أَيْ: بِالصِّدْقِ الَّذِي لا رَيْب فِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْد الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أَيْ: مِنْ الكُتُب المُتَقَدِّمَة المُتَضَمِّنَة ذِكْرَهُ وَمَدْحَهُ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ مِنْ عِنْد الله عَلى عَبْده وَرَسُوله مُحَمَّد ﷺ، فَكَانَ نُزُوله كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ، مِمَّا زَادَهَا صِدْقًا عِنْد حَامِلِيهَا مِنْ ذَوِي البَصَائِر الَّذِينَ انْقَادُوا لأَمْر الله، وَاتَّبَعُوا شَرَائِع الله، وَصَدَّقُوا رُسُل الله؛ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ أَيْ: إِنْ كَانَ مَا وَعَدَنَا الله عَلى أَلسِنَة رُسُله المُتَقَدِّمِينَ مِنْ مَجِيء مُحَمَّد عَلَيْهِ السَّلَام ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أَيْ: لَكَائِنًا لا مَحَالة ولابد.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَغَيْره، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ التَّمِيمِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، أَيْ: مُؤْتَمَنًا عَلَيْهِ. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: المُهَيْمِن الأَمِين. قَال: القُرْآن أَمِين عَلى كُلّ كِتَاب قَبْله. وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُجَاهِد، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَعَطِيَّة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَابْن زَيْد نَحْو ذَلكَ. وَقَال ابْن جَرِيج: القُرْآن أَمِين عَلى الكُتُب المُتَقَدِّمَة، فَمَا وَافَقَهُ مِنْهَا فَهُوَ حَقّ، وَمَا خَالفَهُ مِنْهَا فَهُوَ بَاطِل. وَعَنْ الوَالبِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أَيْ: شَهِيدًا. وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ. وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أَيْ: حَاكِمًا عَلى مَا قَبْله مِنْ الكُتُب.

وَهَذِهِ الأَقْوَال كُلّهَا مُتَقَارِبَة المَعْنَى، فَإِنَّ اسْم المُهَيْمِن يَتَضَمَّن هَذَا كُلّه فَهُوَ أَمِين، وَشَاهِد، وَحَاكِم عَلى كُلّ كِتَاب قَبْله، جَعَل الله هَذَا الكِتَاب العَظِيم الَّذِي أَنْزَلهُ آخِر الكُتُب، وَخَاتَمهَا، وَأَشْمَلهَا، وَأَعْظَمهَا، وَأَكْمَلهَا، حَيْثُ جَمَعَ فِيهِ مَحَاسِن مَا قَبْله، وَزَادَهُ مِنْ الكَمَالات مَا لَيْسَ فِي غَيْره؛ فَلهَذَا جَعَلهُ شَاهِدًا، وَأَمِينًا، وَحَاكِمًا عَلَيْهَا كُلّهَا، وَتَكَفَّل تَعَالى بِحِفْظِه بِنَفْسِهِ الكَرِيمَة، فَقَال تَعَالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾. فَأَمَّا مَا حَكَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ عِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد: أَنَّهُمْ قَالُوا فِي قَوْله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ أَمِين عَلى القُرْآن. فَإِنَّهُ صَحِيح فِي المَعْنَى. وَلكِنْ فِي تَفْسِير هَذَا بِهَذَا نَظَرٌ، وَفِي تَنْزِيله عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ العَرَبِيَّة أَيْضًا نَظَر، وَبِالجُمْلَةِ: فَالصَّحِيح الأَوَّل. قَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير بَعْد حِكَايَته لهُ عَنْ مُجَاهِد: وَهَذَا التَّأْوِيل بَعِيد مِنْ المَفْهُوم فِي كَلام العَرَب بَل هُوَ خَطَأ، وَذَلكَ أَنَّ المُهَيْمِن عَطْف عَلى المُصَدِّق، فَلا يَكُون إِلَّا من صِفَة ما كَانَ المُصَدِّق صِفَةً لهُ، وَلوْ كَانَ الأَمْر كَمَا قَال مُجَاهِد، لقَال: (وَأَنْزَلنَا إِلَيْك الكِتَاب بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لمَا بَيْن يَدَيْهِ مِنْ الكِتَاب مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) يَعْنِي: مِنْ غَيْر عَطْف.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أَيْ: فَاحْكُمْ يَا مُحَمَّد بَيْن النَّاس: عَرَبهمْ وَعَجَمهمْ، أُمِّيّهمْ وَكِتَابِيّهمْ، ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إِلَيْك مِنْ هَذَا الكِتَاب العَظِيم، وَبِمَا قرره لك مِنْ حُكْم مَنْ كَانَ قَبْلك مِنْ الأَنْبِيَاء،

وَلَمْ يَنْسَخْهُ فِي شَرْعِك. هَكَذَا وَجَّهَهُ ابْن جَرِير بِمَعْنَاهُ. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن العَوَّام، عَنْ سُفْيَان بْن حُسَيْن، عَنْ الحَكَم، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ النَّبِيّ ﷺ مُخَيَّرًا إِنْ شَاءَ حَكَمَ بَيْنهمْ، وَإِنْ شَاءَ أَعْرَضَ عَنْهُمْ فَرَدَّهُمْ إِلى أَحْكَامهمْ، فَنَزَلتْ: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ فَأَمَرَ رَسُول الله ﷺ أَنْ يَحْكُم بَيْنهمْ بِمَا فِي كِتَابنَا. وَقَوْله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ أَيْ: آرَاءَهُمْ الَّتِي اصْطَلَحُوا عَليْهَا، وَتَرَكُوا بِسَبَبِهَا مَا أَنْزَل الله عَلى رُسُله؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أَيْ: لا تَنْصَرِف عَنْ الحَقّ الَّذِي أَمَرَك الله بِهِ إِلى أَهْوَاء هَؤُلاءِ مِنْ الجَهَلة الأَشْقِيَاء.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالد الأَحْمَر، عَنْ يُونُس بْن أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ التَّمِيمِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ﴾ قَال: سَبِيلًا. وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ سُفْيَان، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ التَّمِيمِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ قَال: وَسُنَّة. وَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ سَبِيلًا وَسُنَّة. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك، وَالسُّدِّيّ، وَأَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ: أَنَّهُمْ قَالُوا فِي قَوْله: ﴿شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ أَيْ: سَبِيلًا وَسُنَّة. وَعَنْ ابْن عَبَّاس ومجاهد أَيْضًا وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ عَكْسه ﴿شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ أَيْ: سُنَّة وَسَبِيلًا. وَالأَوَّل أَنْسَبُ؛ فَإِنَّ الشِّرْعَة وَهِيَ الشَّرِيعَة أَيْضًا؛ هِيَ مَا يُبْتَدَأ فِيهِ إِلى الشَّيْء وَمِنْهُ يُقَال: شَرَعَ فِي كَذَا أَيْ: ابْتَدَأَ فِيهِ، وَكَذَا الشَّرِيعَة، وَهِيَ مَا يُشْرَع مِنْهَا إِلى المَاء. أَمَّا المِنْهَاج؛ فَهُوَ الطَّرِيق الوَاضِح السَّهْل، وَالسُّنَن: الطَّرَائِق، فَتَفْسِير قَوْله: ﴿شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ بِالسَّبِيل وَالسُّنَّة أَظْهَرُ فِي المُنَاسَبَة مِنْ العَكْس، وَالله أَعْلَمُ.

ثُمَّ هذا إِخْبَار عَنْ الأُمَم المُخْتَلفَة الأَدْيَان، بِاعْتِبَارِ مَا بَعَثَ الله بِهِ رُسُله الكِرَام مِنْ الشَّرَائِع المُخْتَلفَة فِي الأَحْكَام المُتَّفِقَة فِي التَّوْحِيد؛ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيح البُخَارِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «نَحْنُ مَعَاشِر الأَنْبِيَاء إِخْوَة لعَلاتٍ، دِينُنَا وَاحِد»[١]. يَعْنِي بِذَلِكَ: التَّوْحِيد الَّذِي بَعَثَ الله بِهِ كُلّ رَسُول أَرْسَلهُ، وَضَمَّنَهُ كُلّ كِتَاب أَنْزَلهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ الآيَة. وَأَمَّا الشَّرَائِع فَمُخْتَلفَة فِي الأَوَامِر وَالنَّوَاهِي، فَقَدْ يَكُون الشَّيْء فِي هَذِهِ الشَّرِيعَة حَرَامًا، ثُمَّ يَحِلّ فِي الشَّرِيعَة الأُخْرَى، وَبِالعَكْس، وَخَفِيفًا فَيُزَاد فِي الشِّدَّة فِي هَذِهِ دُون هَذِهِ؛ وَذَلِكَ لمَا لهُ تَعَالى فِي ذَلِكَ مِنْ الحِكْمَة البَالغَة وَالحُجَّة الدَّامِغَة. قَال سَعِيد ابْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة، قَوْله: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ يَقُول: سَبِيلًا وَسُنَة، وَالسُّنَن مُخْتَلفَة، هِيَ فِي التَّوْرَاة شَرِيعَة، وَفِي الإِنْجِيل شَرِيعَة، وَفِي الفُرْقَان شَرِيعَة، يُحِلّ الله فِيهَا مَا يَشَاء، وَيُحَرِّم مَا يَشَاء؛ لِيَعْلم مَنْ يُطِيعهُ مِمَّنْ يَعْصِيه، وَالدِّين الَّذِي لا يَقْبَل الله غَيْرَهُ: التَّوْحِيدُ وَالإِخْلاصُ لله الَّذِي جَاءَتْ بِهِ جَمِيع الرُّسُل عَليْهِمْ الصَّلاة وَالسَّلام. وَقِيل: المُخَاطَب بِهَذِهِ الآيَة هَذِهِ الأُمَّة، وَمَعْنَاهُ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا﴾ القُرْآن ﴿مِنكُمۡ﴾ أَيَّتهَا الأُمَّة: ﴿شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ أَيْ: هُوَ لكُمْ كُلّكُمْ تَقْتَدُونَ بِهِ، وَحَذَفَ الضَّمِير المَنْصُوب فِي قَوْله: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ﴾ أَيْ: جَعَلنَاهُ يَعْنِي القُرْآن ﴿شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ أَيْ: سَبِيلًا إِلى المَقَاصِد الصَّحِيحَة، وَسُنَّة أَيْ: طَرِيقًا وَمَسْلكًا وَاضِحًا بَيِّنًا. هَذَا مَضْمُون مَا حَكَاهُ ابْن جَرِير عَنْ مُجَاهِد رَحِمَهُ اللهُ، وَالصَّحِيح: القَوْل الأَوَّل، وَيَدُلّ عَلى ذَلكَ قَوْله تَعَالى بَعْده: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ فَلوْ كَانَ هَذَا خِطَابًا لهَذِهِ الأُمَّة؛ لمَا صَحَّ أَنْ يَقُول: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ وَهُمْ أُمَّة وَاحِدَة، وَلكِنَّ هَذَا خِطَاب لجَمِيع الأُمَم، وَإِخْبَار عَنْ قُدْرَته تَعَالى العَظِيمَة، الَّتِي لوْ شَاءَ لجَمَعَ النَّاس كُلّهمْ عَلى دِين وَاحِد وَشَرِيعَة وَاحِدَة، لا يُنْسَخ شَيْء مِنْهَا، وَلكِنَّهُ تَعَالى شَرَعَ لكُلّ رَسُول شِرْعَة

---

(١) صحيح: تقدم.

عَلى حِدَة، ثُمَّ نَسَخَهَا أَوْ بَعْضَهَا بِرِسَالَةِ الآخَرِ الَّذِي بَعْدَه، حَتَّى نَسَخَ الجَمِيعِ بِمَا بَعَثَ بِهِ عَبْدَه وَرَسُوله مُحَمَّدًا ﷺ الَّذِي ابْتَعَثَهُ إِلى أَهْلِ الأَرْضِ قَاطِبَة، وَجَعَلَهُ خَاتِم الأَنْبِيَاء كُلّهِمْ؛ وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي: أَنَّهُ تَعَالى شَرَعَ الشَّرَائِع مُخْتَلِفَة؛ لِيَخْتَبِر عِبَادَه فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ، وَيُثِيبهُمْ أَوْ يُعَاقِبهُمْ عَلى طَاعَته وَمَعْصِيَته بِمَا فَعَلُوهُ أَوْ عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلّه. وَقَال عَبْد الله بْن كَثِير: ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ يَعْنِي: مِنْ الكِتَاب. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالى نَدَبَهُمْ إِلى المُسَارَعَة إِلى الخَيْرَات وَالمُبَادَرَة إِلَيْهَا، فَقَال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وَهِيَ: طَاعَة الله وَاتِّبَاع شَرْعه الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا لِمَا قَبْله، وَالتَّصْدِيق بِكِتَابه القُرْآن الَّذِي هُوَ آخِر كِتَاب أَنْزَلَهُ.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أَيْ: مَعَادكُمْ أَيّهَا النَّاس، وَمَصِيركُمْ إِلَيْهِ يَوْم القِيَامَة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أَيْ: فَيُخْبِركُمْ بِمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ الحَقّ، فَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّب الكَافِرِينَ الجَاحِدِينَ المُكَذِّبِينَ بِالحَقِّ العَادِلِينَ عَنْهُ إِلى غَيْره بِلا دَلِيل وَلا بُرْهَان، بَل هُمْ مُعَانِدُونَ لِلبَرَاهِين القَاطِعَة، وَالحُجَج البَالِغَة، وَالأَدِلَّة الدَّامِغَة. وَقَال الضَّحَّاك: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يَعْنِي: أُمَّة مُحَمَّد ﷺ وَالأَوَّل أَظْهَر.

وقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تَأْكِيد لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ الأَمْر بِذَلِكَ وَالنَّهْي عَنْ خِلافه. ثُمَّ قَال: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَيْ: وَاحْذَرْ أَعْدَاءَك اليَهُود أَنْ يُدَلِّسُوا عَلَيْك الحَقّ فِيمَا يُنْهُونَهُ إِلَيْك مِنْ الأُمُور، فَلا تَغْتَرّ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَذَبَة كَفَرَة خَوَنَة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أَيْ: عَمَّا تَحْكُم بِهِ بَيْنهمْ مِنْ الحَقّ وَخَالَفُوا شَرْع الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أَيْ: فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ كَائِن عَنْ قُدْرَة الله وَحِكْمَته فِيهِمْ، أَنْ يَصْرِفهُمْ عَنْ الهُدَى لِمَا عليهم مِنْ الذُّنُوب السَّالِفَة، الَّتِي اقْتَضَتْ إِضْلالهُمْ وَنَكَالهُمْ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أَيْ: إِنَّ أَكْثَر النَّاس خَارِجُونَ عَنْ طَاعَة رَبّهمْ مُخَالِفُونَ لِلحَقّ نَاءُونَ عَنْهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآيَة. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن أَبِي مُحَمَّد مَوْلى زَيْد بْن ثَابِت، حَدَّثَنِي سَعِيد بْن جُبَيْر أَوْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: قَال كَعْب بْن أَسَد، وَابْن صلوبا، وَعَبْد الله بْن صُورِيَّا، وَشَاس بْن قَيْس، بَعْضهمْ لِبَعْض: اذْهَبُوا بِنَا إِلى مُحَمَّد لَعَلَّنَا نَفْتِنهُ عَنْ دِينه فَأَتَوْهُ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد، إِنَّك قَدْ عَرَفْت أَنَّا أَحْبَارُ يَهُود وَأَشْرَافهمْ وَسَادَاتهمْ، وَإِنَّا إِنْ اتَّبَعْنَاك اتَّبَعَنَا يَهُودُ وَلَمْ يُخَالِفُونَا، وَإِنَّ بَيْننَا وَبَيْن قَوْمنَا خُصُومَة، فَنُحَاكِمهُمْ إِلَيْك، فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ وَنُؤْمِن وَنُصَدِّقك، فَأَبَى ذَلِكَ رَسُول الله ﷺ فَأَنْزَل الله ﷻ فِيهِمْ ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]. رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يُنْكِر تَعَالى عَلى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْم الله المُحْكَم المُشْتَمِل عَلى كُلّ خَيْر، النَّاهِي عَنْ كُلّ شَرّ، وَعَدَل إِلى مَا سِوَاهُ؛ مِنْ الآرَاء وَالأَهْوَاء وَالاصْطِلاحَات الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَال بِلا مُسْتَنَد مِنْ شَرِيعَة الله، كَمَا كَانَ أَهْل الجَاهِلِيَّة يَحْكُمُونَ بِهِ مِنْ الضَّلالات وَالجَهَالات، مِمَّا يَضَعُونَهَا بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَكَمَا يَحْكُم بِهِ التتار مِنْ السِّيَاسَات المَلَكِيَّة المَأْخُوذَة عَنْ مَلِكهمْ جنكيز خان الَّذِي وَضَعَ لَهُمْ اليساق، وَهُوَ عِبَارَة عَنْ كِتَاب مَجْمُوع مِنْ أَحْكَام قَدْ اقْتَبَسَهَا من شَرَائِع شَتَّى: مِنْ اليَهُودِيَّة وَالنَّصْرَانِيَّة وَالمِلَّة الإِسْلامِيَّة وَغَيْرهَا، وَفِيهَا كَثِير مِنْ الأَحْكَام أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّد نَظَره وَهَوَاهُ، فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا يُقَدِّمُونَهَا عَلى الحُكْم بِكِتَابِ الله وَسُنَّة رَسُول الله ﷺ، فَمَنْ فَعَل ذَلِكَ منهم فَهُوَ كَافِر، يَجِب قِتَاله حَتَّى يَرْجِع إِلى حُكْم الله وَرَسُوله، فَلا يُحَكِّم سِوَاهُ فِي قَلِيل وَلا كَثِير، قَال الله تَعَالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أَيْ: يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ، وَعَنْ حُكْم الله يَعْدِلُونَ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أَيْ: وَمَنْ أَعْدَلُ مِنْ الله فِي حُكْمه لِمَنْ عَقَل عَنْ الله شَرْعه، وَآمَنَ بِهِ

---

(١) ضعيف الإسناد: فيه محمد بن أبي محمد: مجهول.

وَأَيْقَنَ، وَعَلِمَ أَنَّ الله أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ العَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، القَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، العَادِلِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِلالُ بْنُ فَيَّاضٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ النَّاجِي، قَالَ: سَمِعْتُ الحسن يَقُولُ: مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ حُكْمِ الله فَحُكْمُ الجَاهِلِيَّةِ. وَأَخْبَرَنَا يُونُس بن عَبْد الأَعْلَى قِرَاءَة، حَدَّثَنَا سُفْيَان ابْن عُيَيْنَةَ، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، قَالَ: كَانَ طَاوُس إِذَا سَأَلَهُ رَجُلٌ: أُفَضِّلُ بَيْنَ وَلَدِي فِي النِّحَلِ؟ قَرَأَ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو القَاسِمِ الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الوَهَّاب بْن نَجْدَة الحَوْطِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان الحَكَم بْن نَافِع، أَنَا شُعَيْب بْن أَبِي حَمْزَة، عَنْ عَبْد الله بن عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي حُسَيْن، عَنْ نَافِع ابْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى الله ﷻ مُبْتَغٍ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَطَالِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُرِيقَ دَمَه**»[1]. وَرَوَى البُخَارِيّ عَنْ أَبِي اليَمَانِ بِإِسْنَادِهِ نَحْوَه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾

يَنْهَى -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عِبَاده المُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالاة اليَهُود وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاء الإِسْلام وَأَهْله قَاتَلَهُمْ الله، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ بَعْضهمْ أَوْلِيَاء بَعْض، ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾. قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا كَثِير بْن شِهَاب، حَدَّثَنَا مُحَمَّد -يَعْنِي: ابْن سَعِيد بْن سَابِق-، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن أَبِي قَيْس، عَنْ سِمَاك بْن حَرْب، عَنْ عِيَاض: أَنَّ عُمَر أَمَرَ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ أَنْ يَرْفَع إِلَيْهِ مَا أَخَذَ وَمَا أَعْطَى فِي أَدِيم وَاحِد، وَكَانَ لَهُ كَاتِب نَصْرَانِيّ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ ذَلِكَ، فَعَجِبَ عُمَر وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَحَفِيظ، هَل أَنْتَ قَارِئ لَنَا كِتَابًا فِي المَسْجِد جَاءَ مِنْ الشَّام. فَقَالَ: إِنَّهُ لا يَسْتَطِيع. فَقَال عُمَر: أَجُنُبٌ هُوَ؟ قَالَ: لا، بَل نَصْرَانِيّ، قَالَ: فَانْتَهَرَنِي وَضَرَبَ فَخِذِي، ثُمَّ قَالَ: أَخْرِجُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الآيَة. ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا الحَسَن بن مُحَمَّد بْن الصَّبَّاح، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن عُمَر، أَنْبَأَنَا ابْن عَوْن، عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، قَالَ: قَالَ عَبْد الله ابْن عُتْبَة: لِيَتَّقِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُون يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَهُوَ لا يَشْعُر. قَالَ: فَظَنَنَّاهُ يُرِيد هَذِهِ الآيَة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ الآيَة. وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا ابْن فُضَيْل، عَنْ عَاصِم، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهُ سُئِل عَنْ ذَبَائِح نَصَارَى العَرَب فَقَال: كُل. قَال الله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾. وَرُوِيَ عَنْ أَبِي الزِّنَاد نَحْو ذَلِكَ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أَيْ: شَكّ وَرَيْب وَنِفَاق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أَيْ: يُبَادِرُونَ إِلَى مُوَالاتهمْ وَمَوَدَّتهمْ فِي البَاطِن وَالظَّاهِر ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أَيْ: يَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتهمْ وَمُوَالاتهمْ: أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقَع أَمْر مِنْ ظَفَر الكَافِرِينَ بِالمُسْلِمِينَ، فَتَكُون لَهُمْ أَيَادٍ عِنْد اليَهُود وَالنَّصَارَى فَيَنْفَعهُمْ ذَلِكَ، عِنْد ذَلِكَ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قَالَ السُّدِّيّ: يَعْنِي: فَتْح مَكَّة، وَقَالَ غَيْره: يَعْنِي: القَضَاء وَالفَصْل، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قَالَ السُّدِّيّ: يَعْنِي: ضَرْب الجِزْيَة عَلَى اليَهُود وَالنَّصَارَى ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ وَالَوْا اليَهُود وَالنَّصَارَى مِنْ المُنَافِقِينَ ﴿عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنْ المُوَالاة ﴿نَادِمِينَ﴾ أَيْ: عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِمَّا لَمْ يُجْدِ عَنْهُمْ شَيْئًا وَلا دَفَعَ عَنْهُمْ مَحْذُورًا، بَل كَانَ عَيْن المَفْسَدَة فَإِنَّهُمْ فُضِحُوا، وَأَظْهَرَ الله أَمْرهمْ فِي الدُّنْيَا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٨٨٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٣٧٤).

لِعِبَادِ الله المُؤْمِنِينَ، بَعْد أَنْ كَانُوا مَسْتُورِينَ لا يُدْرَى كَيْف حَالهمْ، فَلَمَّا انعَقَدَتْ الأَسْبَاب الفَاضِحَة لَهُمْ تَبَيَّنَ أَمْرهمْ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُمْ كَيْف كَانُوا يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ مِنْ المُؤْمِنِينَ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُونَ، فَبَانَ كَذِبهمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾. وَقَدْ اخْتَلَفَ القُرَّاء فِي هَذَا الحَرْف؛ فَقَرَأَهُ الجُمْهُور بِإِثْبَاتِ الوَاو فِي قَوْله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ، ﴿وَيَقُولُ﴾ عَلَى الابْتِدَاء، وَمِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ عَطْفًا عَلَى قَوْله ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ تَقْدِيره: أَنْ يَأْتِي وَأَنْ يَقُول، وَقَرَأَ أَهْل المَدِينَة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِغَيْرِ وَاو، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي مَصَاحِفهمْ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْن جَرِير، قَال: ابْن جُرَيْج، عَنْ مُجَاهِد: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ حِينَئِذٍ ﴿يَقُول الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْد أَيْمَانهمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالهمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

وَاخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَات الكَرِيمَات؛ فَذَكَرَ السُّدِّيّ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ، قَال أَحَدهمَا: لِصَاحِبِهِ بَعْد وَقْعَة أُحُد: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي ذَاهِب إِلَى ذَلِكَ اليَهُودِيّ فَآوِي إِلَيْهِ وَأَتَهَوَّد مَعَهُ؛ لَعَلَّهُ يَنْفَعنِي إِذَا وَقَعَ أَمْر أَوْ حَدَثَ حَادِث. وَقَال الآخَر: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي ذَاهِب إِلَى فُلَان النَّصْرَانِيّ بِالشَّام فَآوِي إِلَيْهِ وَأَتَنَصَّر مَعَهُ فَأَنْزَل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ ....﴾ الآيَات.

وَقَال عِكْرِمَة: نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَة ابْن عَبْد المُنْذِر، حِين بَعَثَهُ رَسُول الله ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَة، فَسَأَلُوهُ مَاذَا هُوَ صَانِع بِنَا؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلقه، أَيْ: إِنَّهُ الذَّبْح. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقِيل: نَزَلَتْ فِي عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول، كَمَا قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا ابْن إِدْرِيس، قَال: سَمِعْت أَبِي، عَنْ عَطِيَّة بْن سَعْد، قَال: جَاءَ عُبَادَة بْن الصَّامِت [مِنْ بَنِي الحَارِث بْن الخَزْرَج][1] إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنَّ لِي مَوَالِي مِنْ يَهُود كَثِير عَدَدهمْ، وَإِنِّي أَبْرَأ إِلَى الله وَرَسُوله مِنْ وِلايَة يَهُود، وَأَتَوَلَّى الله وَرَسُوله. فَقَال عَبْد الله بْن أُبَيّ: إِنِّي رَجُل أَخَاف الدَّوَائِر لا أَبْرَأ مِنْ وِلايَة مَوَالِيّ. فَقَال رَسُول الله ﷺ لِعَبْدِ الله بْن أُبَيّ: «يَا أَبَا الحُبَاب، مَا بَخِلت بِهِ مِنْ وِلايَة يَهُود عَلَى عُبَادَة بْن الصَّامِت فَهُوَ لَك دُونه». قَال: قَدْ قَبِلت. فَأَنْزَل الله ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ إِلَى قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾[2].

ثُمَّ قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا هَنَّاد، حَدَّثَنَا يُونُس بْن بُكَيْر، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ الزُّهْرِيّ، قَال: لَمَّا انْهَزَمَ أَهْل بَدْر، قَال المُسْلِمُونَ لأَوْلِيَائِهِمْ مِنْ اليَهُود: آمنوا قَبْل أَنْ يُصِيبكُمْ الله بِيَوْمٍ مِثْل يَوْم بَدْر. فَقَال مَالِك بْن الصَّيْف: أَغَرَّكُمْ أَنْ أَصَبْتُمْ رَهْطًا مِنْ قُرَيْش لا عِلم لَهُمْ بِالقِتَال، أَمَا لَوْ أَمْرَرْنَا العَزِيمَة أَنْ نَسْتَجْمِع عَلَيْكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَد بقتالنا. فَقَال عُبَادَة بْن الصَّامِت: يَا رَسُول الله، إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْ اليَهُود كَانَتْ شَدِيدَة أَنْفُسهُمْ، كَثِيرًا سِلاحُهُمْ، شَدِيدَة شَوْكَتهمْ، وَإِنِّي أَبْرَأ إِلَى الله وَرَسُوله مِنْ وِلايَة يَهُود، وَلا مَوْلَى لِي إِلَّا الله وَرَسُوله، فَقَال عَبْد الله بْن أُبَيّ: لَكِنِّي لا أَبْرَأ مِنْ [وِلايَة][3] يَهُود إِنِّي رَجُل لابُدّ لِي مِنْهُمْ. فَقَال رَسُول الله ﷺ «يَا أَبَا الحُبَاب، أَرَأَيْت الَّذِي نَفِسْت بِهِ مِنْ وِلايَة يَهُود عَلَى عُبَادَة بْن الصَّامِت فَهُوَ لَك دُونه». فَقَال: إِذًا أَقْبَل. قَال: فَأَنْزَل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ إِلَى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: فَكَانَتْ أَوَّل قَبِيلة مِنْ اليَهُود نَقَضَتْ مَا بَيْنهَا وَبَيْن رَسُول الله ﷺ بَنُو قَيْنُقَاع،

---

(١) في نسخة: [من بني الخزرج].

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٧٥) بسند ضعيف مرسل، فيه عثمان بن عبد الرحمن بن عمرو، قال الحافظ: متروك، وكذبه ابن معين.

(٣) في نسخة: [ولاء].

فَحَدَّثَنِي عَاصِم بْن عُمَر بْن قَتَادَة قَالَ: فَحَاصَرَهُمْ رَسُول الله ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمه، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول حِين أَمْكَنَهُ الله مِنْهُمْ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيّ. وَكَانُوا حُلَفَاء الْخَزْرَج، قَالَ: فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد أَحْسِنْ فِي مَوَالِيّ. قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُ، قَالَ: فَأَدْخَل يَده فِي جَيْب دِرْع رَسُول الله ﷺ فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «أَرْسِلْنِي». وَغَضِبَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى رُئِي لِوَجْهِهِ ظُلَلًا، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحك؛ أَرْسِلْنِي». قَالَ: لا وَالله لا أُرْسِلك حَتَّى تُحْسِن فِي مَوَالِيّ، أَرْبَعمِائَةِ حَاسِر وَثَلاثمِائَةِ دَارِع، قَدْ مَنَعُونِي مِنْ الأَحْمَر وَالأَسْوَد تَحْصُدهم فِي غَدَاة وَاحِدَة، إِنِّي امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِر. قَالَ: فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «هُمْ لَك».

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: فَحَدَّثَنِي أَبِي إِسْحَاقُ بْن يَسَار، عَنْ عُبَادَة بْن الْوَلِيد بْن عُبَادَة بْن الصَّامِت، قَالَ: لَمَّا حَارَبَتْ بَنُو قَيْنُقَاع رَسُول الله ﷺ تَشَبَّثَ بِأَمْرِهِمْ عَبْد الله بْن أُبَيّ وَقَامَ دُونهمْ، وَمَشَى عُبَادَة بْن الصَّامِت إِلَى رَسُول الله ﷺ، وَكَانَ أَحَد بَنِي عَوْف بْن الْخَزْرَج لَهُ مِنْ حِلفهمْ مِثْل الَّذِي لِعَبْدِ الله بْن أُبَيّ، فَجَعَلَهُمْ إِلَى رَسُول الله ﷺ وَتَبَرَّأَ إِلَى الله وَرَسُوله ﷺ مِنْ حِلفهمْ، وَقَالَ: يَا رَسُول الله، أَتَبَرَّأُ إِلَى الله وَإِلَى رَسُوله مِنْ حِلفهمْ، وَأَتَوَلَّى الله وَرَسُولهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَبْرَأُ مِنْ حِلف الْكُفَّار وَوِلايَتهمْ. فَفِيهِ وَفِي عَبْد الله بْن أُبَيّ نَزَلَتْ الآيَات فِي الْمَائِدَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1]. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن زَكَرِيَّا بْن أَبِي زَائِدَة، عَنْ مُحَمَّد ابْن إِسْحَاق، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ أُسَامَة بْن زَيْد، قَالَ: دَخَلت مَعَ رَسُول الله ﷺ عَلَى عَبْد الله بْن أُبَيّ نَعُودهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ: «قَدْ كُنْت أَنْهَاك عَنْ حُبّ يَهُود». فَقَالَ عَبْد الله: فَقَدْ أَبْغَضَهُمْ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَة فَمَاتَ[2]. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن إِسْحَاق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَته الْعَظِيمَة: أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّى عَنْ نُصْرَة دِينه وَإِقَامَة شَرِيعَته، فَإِنَّ الله يَسْتَبْدِل بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرًا لَهَا مِنْهُ؛ وَأَشَدّ مَنَعَة، وَأَقْوَم سَبِيلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أَيْ: بِمُمْتَنِع وَلا صَعْب. وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ أَيْ: يَرْجِع عَنْ الْحَقّ إِلَى الْبَاطِل. قَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب: نَزَلَتْ فِي الْوُلاة مِنْ قُرَيْش. وَقَالَ الْحَسَن الْبَصْرِيّ: نَزَلَتْ فِي أَهْل الرِّدَّة أَيَّام أَبِي بَكْر. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قَالَ الْحَسَن: هُوَ وَالله أَبُو بَكْر وَأَصْحَابه. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَالَ أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة: سَمِعْت أَبَا بَكْر ابْن عَيَّاش يَقُول فِي قَوْله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾: هُمْ أَهْل الْقَادِسِيَّة. وَقَالَ لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ مُجَاهِد: هُمْ قَوْم مِنْ سَبَأ. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن الأَجْلح، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ سَالِم، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ

---

(١) مرسل: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٥٥/ ٦٥٠٦) بسند مرسل.

(٢) ضعيف الإسناد: أخرجه أبو داود (٣٠٩٤)، وأحمد (٥/ ٢٠١)، والحاكم (١/ ٤٩١) من حديث أسامة بن زيد، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٦٨١) وقال: ضعيف الإسناد.

ابْن عَبَّاس، قَوْله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قَال: نَاس مِنْ أَهْل اليَمَن، ثُمَّ مِنْ كِنْدَة مِنْ السَّكُون. وَحَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن المُصَفَّى، حَدَّثنَا مُعَاوِيَة -يَعْنِي: ابْن حَفْص-، عَنْ أَبِي زِيَاد الحَلفَانِيّ، عَنْ مُحَمَّد ابْن المُنْكَدِر، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَال: سُئِل رَسُول الله ﷺ عَنْ قَوْله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قَال: «**هَؤُلاءِ قَوْم مِنْ أَهْل اليَمَن، ثُمَّ مِنْ كِنْدَة، ثُمَّ مِنْ السَّكُون، ثُمَّ مِنْ تَجِيب**»[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا عُمَر بْن شَبَّة، حَدَّثنَا عَبْد الصَّمَد -يَعْنِي: ابْن عَبْد الوَارِث- حَدَّثنَا شُعْبَة، عَنْ سِمَاك: سَمِعْت عِيَاضًا يُحَدِّث عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ، قَال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قَال رَسُول الله ﷺ: «**هُمْ قَوْم هَذَا**»[2]. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير: مِنْ حَدِيث شُعْبَة بِنَحْوِهِ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هَذِهِ صِفَات المُؤْمِنِينَ الكُمَّل؛ أَنْ يَكُون أَحَدهمْ مُتَوَاضِعًا لأَخِيهِ وَوَلِيّه، مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمه وَعَدُوّه، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وَفِي صِفَة رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ الضَّحُوك القَتَّال، فَهُوَ ضَحُوك لأَوْلِيَائِهِ قَتَّال لأَعْدَائِهِ. وَقَوْله ﷻ: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أَيْ: لا يَرُدّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ طَاعَة الله، وَإِقَامَة الحُدُود، وَقِتَال أَعْدَائِهِ، وَالأَمْر بِالمَعْرُوف، وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَر، لا يَرُدّهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ، وَلا يَصُدّهُمْ عَنْهُ صَادّ، وَلا يَحِيك فِيهِمْ لَوْم لائِم، وَلا عَذْل عَاذِل. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا عَفَّان، حَدَّثنَا سَلام أَبُو المُنْذِر، عَنْ مُحَمَّد بْن وَاسِع، عَنْ عَبْد الله بْن الصَّامِت، عَنْ أَبِي ذَرّ قَال: أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْع: أَمَرَنِي بِحُبِّ المَسَاكِين وَالدُّنُوّ مِنْهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُر إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلا أَنْظُر إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِل الرَّحِم وَإِنْ أَدْبَرَتْ، وَأَمَرَنِي أَنْ لا أَسْأَل أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُول الحَقّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمَرَنِي أَنْ لا أَخَاف فِي الله لَوْمَة لائِم، وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِر مِنْ قَوْل لا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بِالله، فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْز تَحْت العَرْش[3].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثنَا أَبُو المُغِيرَة، حَدَّثنَا صَفْوَان، عَنْ أَبِي المُثَنَّى: أَنَّ أَبَا ذَرّ رضي الله عنه قَال: بَايَعَنِي رَسُول الله ﷺ خَمْسًا وَوَاثَقَنِي سَبْعًا، وَأَشْهَدَ الله عَلَيَّ تسعاً؛ أَنِّي لا أَخَاف فِي الله لَوْمَة لائِم. قَال أَبُو ذَرّ: فَدَعَانِي رَسُول الله ﷺ فَقَال: «**هَل لَك إِلَى بَيْعَة وَلَك الجَنَّة؟**». قُلت: نَعَمْ. قَال: وَبَسَطْت يَدِي، فَقَال النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ يَشْتَرِط عَلَيَّ: «**أَنْ لا تَسْأَل النَّاس شَيْئًا**». قُلت: نَعَمْ. قَال: «**وَلا سَوْطَك وَإِنْ سَقَطَ مِنْك**». يَعْنِي: تَنْزِل إِلَيْهِ فَتَأْخُذهُ[4]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن الحَسَن، حَدَّثنَا جَعْفَر، عَنْ المُعَلَّى القِرْدَوْسِيّ، عَنْ الحَسَن، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**أَلا لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُول بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ، فَإِنَّهُ لا يُقَرِّب مِنْ أَجَلٍ، وَلا يُبَاعِد مِنْ رِزْق: أَنْ يَقُول بِحَقٍّ، أَوْ أَنْ يُذَكِّر بِعَظِيم**»[5]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد. وَقَال أَحْمَد: حَدَّثنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخبرنَا سُفْيَان، عَنْ زُبَيْد، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي البَخْتَرِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسه، أَنْ يَرَى أَمْرًا لله فِيهِ مَقَال فَلا يَقُول فِيهِ، فَيُقَال لَهُ يَوْم القِيَامَة: مَا مَنَعَك أَنْ تَكُون قُلت فِيّ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُول: مَخَافَةُ النَّاسِ، فَيَقُول: إِيَّايَ أَحَقُّ أَنْ تَخَاف**»[6]. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ:

---

(١) حسن: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٦١/ ٦٥٤٠)، وحسنه الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٠٢، ١٠٣).

(٢) حسن: أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٨٤).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ١٥٩)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٢٤٠)، وفي «الكبرى» (١٠/ ٩١) من حديث أبي ذر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٦٦).

(٤) ضعيف الإسناد: أخرجه أحمد (٥/ ١٧٢) قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٥٠)، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ١٦٢)، وأبو يعلى (٢/ ٥٣٦).

(٦) ضعيف الإسناد: أخرجه أحمد (٣/ ٧٣)، وابن ماجه (٤٠٨)، لانقطاع الإسناد بين أبي البختري وأبي سعيد كما قال الدارقطني في «العلل» (١١/ ٣٥٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٣٢٢).

مِنْ حَدِيث الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة بِهِ. وَرَوَى أَحْمَد وَابْن ماجه: مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن أَبِي طُوَالة، عَنْ نَهَار بْن عَبْد الله العَبْدِيّ المَدَنِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الله لَيَسْأَلُ العَبْدَ يَوْم القِيَامَة، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْأَلُهُ يَقُول لَهُ: أَيْ عَبْدِي أَرَأَيْت مُنْكَرًا فَلَمْ تُنْكِرهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللهُ عَبْدًا حُجَّتَهُ، قَالَ: أَيْ رَبِّ وَثِقْت بِكَ وَخِفْت النَّاس**»[١]. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيح: «**مَا يَنْبَغِي لِلمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ**». قَالُوا: وَكَيْف يُذِلُّ نَفْسَهُ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**يَتَحَمَّل مِنَ البَلَاء مَا لَا يُطِيق**»[٢].

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أَيْ: مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَات فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ فَضْل الله عَلَيْهِ وَتَوْفِيقه لَهُ. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: وَاسِع الفَضْل، عَلِيم بِمَنْ يَسْتَحِقّ ذَلِكَ مِمَّنْ يَحْرِمُهُ إِيَّاهُ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أَيْ: لَيْسَ اليَهُود بِأَوْلِيَائِكُمْ، بَل وِلَايَتكُمْ رَاجِعَة إِلَى الله وَرَسُوله وَالمُؤْمِنِينَ.

وَقَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أَيْ: المُؤْمِنُونَ المُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَات، مِنْ إِقَام الصَّلَاة الَّتِي هِيَ أَكْبَر أَرْكَان الإِسْلَام، وَهِيَ لَهُ وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَإِيتَاء الزَّكَاة الَّتِي هِيَ حَقّ المَخْلُوقِينَ، وَمُسَاعَدَة لِلمُحْتَاجِينَ مِنْ الضُّعَفَاء وَالمَسَاكِين. وَأَمَّا قَوْله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ فَقَدْ تَوَهَّمَ بَعْضهم أَنَّ هَذِهِ الجُمْلَة فِي مَوْضِع الحَال مِنْ قَوْله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أَيْ: فِي حَال رُكُوعهمْ، وَلَوْ كَانَ هَذَا كَذَلِكَ؛ لَكَانَ دَفْع الزَّكَاة فِي حَال الرُّكُوع أَفْضَل مِنْ غَيْره؛ لِأَنَّهُ مَمْدُوح، وَلَيْسَ الأَمْر كَذَلِكَ عِنْد أَحَدٍ مِنَ العُلَمَاء مِمَّنْ نَعْلَمهُ مِنْ أَئِمَّة الفَتْوَى، وَحَتَّى إِنَّ بَعْضهمْ ذَكَرَ فِي هَذَا أَثَرًا عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب: أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ فِيهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَرَّ بِهِ سَائِل فِي حَال رُكُوعه، فَأَعْطَاهُ خَاتَمه. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الرَّبِيع بْن سُلَيْمَان المُرَادِيّ، حَدَّثَنَا أَيُّوب بْن سُوَيْد، عَنْ عُتْبَة بْن أَبِي حَكِيم فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قَالَ: هُمْ المُؤْمِنُونَ وَعَلِيّ بْن أَبِي طَالِب.

وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا الفَضْل بْن دُكَيْن أَبُو نُعَيْم الأَحْوَل، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن قَيْس الحَضْرَمِيّ، عَنْ سَلَمَة بْن كُهَيْل، قَالَ: تَصَدَّقَ عَلِيّ بِخَاتَمِهِ وَهُوَ رَاكِع، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[٣]. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا غَالِب بْن عُبَيْد الله، سَمِعْت مُجَاهِدًا يَقُول فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآيَة: نَزَلَتْ فِي عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب تَصَدَّقَ وَهُوَ رَاكِع[٤].

وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: حَدَّثَنَا عَبْد الوَهَّاب بْن مُجَاهِد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عَبَّاس، فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآيَة: نَزَلَتْ فِي عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب[٥]. عَبْدُ الوَهَّابِ بْنُ مُجَاهِدٍ لَا يُحْتَجّ بِهِ. وَرَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ: مِنْ طَرِيق سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي سِنَان، عَنْ الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: كَانَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب قَائِمًا يُصَلِّي، فَمَرَّ سَائِل وَهُوَ رَاكِع فَأَعْطَاهُ خَاتَمه، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآيَة. الضَّحَّاك لَمْ يَلْقَ ابْن عَبَّاس.

وَرَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ أَيْضًا: مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن السَّائِب الكَلْبِيّ وَهُوَ مَتْرُوك، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: خَرَجَ رَسُول الله ﷺ إِلَى المَسْجِد، وَالنَّاس يُصَلُّونَ بَيْن رَاكِع وَسَاجِد، وَقَائِم وَقَاعِد، وَإِذَا مِسْكِين يَسْأَل، فَدَخَل رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: «**أَعْطَاكَ أَحَد شَيْئًا؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**مَنْ؟**» قَالَ: ذَلِكَ الرَّجُل القَائِم. قَالَ: «**عَلَى**

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٢٧)، وابن ماجه (٤٠١٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٢٩).

(٢) **صحيح لغيره**: أخرجه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦)، وأبو يعلى (٢/ ٥٣٦) من حديث حذيفة بن اليمان، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٤٣).

(٣) **مرسل**: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٦٢) بسند مرسل.

(٤) **ضعيف**: إسناده مرسل، وفيه غالب بن عبيد: منكر الحديث.

(٥) **ضعيف الإسناد**: فيه مجالد وهو: ضعيف.

أيّ حال أعطاكه؟» قال: وهو راكع. قال: «وذلك عليّ بن أبي طالب». قال: فكبّر رسول الله عند ذلك وهو يقول: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[1]. وهذا إسناد لا يُفرح به.

ثُمّ رواه ابن مردويه: من حديث عليّ بن أبي طالب ﷺ نفسه، وعمّار بن ياسر، وأبي رافع، وليس يصحّ شيء منها بالكليّة؛ لضعف أسانيدها وجهالة رجالها، ثُمّ روى بإسناده عن ميمون بن مهران، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ نزلت في المؤمنين، وعليّ بن أبي طالب أوّلهم. وقال ابن جرير: حدّثنا هنّاد، حدّثنا عبدة، عن عبد الملك، عن أبي جعفر، قال: سألته عن هذه الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ قلنا: من الّذين آمنوا؟ قال: الّذين آمنوا. قلنا: بلغنا أنّها نزلت في عليّ بن أبي طالب. قال: عليّ من الّذين آمنوا. وقال أسباط، عن السُّدّيّ: نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكنّ عليّ بن أبي طالب مرّ به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه. وقال عليّ بن أبي طلحة الوالبيّ، عن ابن عبّاس: من أسلم فقد تولّى الله ورسوله والّذين آمنوا. رواه ابن جرير. وقد تقدّم في الأحاديث الّتي أوردناها أنّ هذه الآيات كلّها نزلت في عبادة بن الصّامت ﷺ حين تبرّأ من حلف اليهود ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كلّه: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. فكلّ من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين؛ فهو مفلح في الدّنيا والآخرة، ومنصور في الدّنيا والآخرة؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيّين والمشركين، والّذين يتّخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهّرة المحكمة، المشتملة على كلّ خير دنيويّ وأخرويّ، يتّخذونها هزوًا يستهزئون بها، ولعبًا يعتقدون أنّها نوع من اللّعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، كما قال القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحًا ❁ وآفته من الفهم السّقيم

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ «من» هاهنا لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿والكفّار﴾ بالخفض عطفًا، وقرأ آخرون: بالنّصب على أنّه معمول ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تقديره: ولا الكفّار أولياء أي: لا تتّخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء. والمراد بالكفّار هاهنا المشركون، وكذا وقع في قراءة ابن مسعود فيما رواه ابن جرير: ﴿لا تتّخذوا الّذين اتّخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الّذين أشركوا﴾.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: اتّقوا الله أن تتّخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء، إن كنتم مؤمنين بشرع الله الّذي اتّخذه هؤلاء هزوًا ولعبًا، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ

(١) ضعيف: قال الحافظ ابن كثير: فيه محمد بن السائب الكلبي: متروك الحديث، وقال عقب روايته للحديث: وهذا الإسناد لا يفرح به.

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾. وَقَوْلُه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أَيْ: وَكَذَلِكَ إِذَا أَذَّنْتُمْ دَاعِينَ إِلى الصَّلاة الَّتِي هِيَ أَفْضَل الأَعْمَال، لِمَنْ يَعْقِل وَيَعْلم مِنْ ذَوِي الأَلْبَاب ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾ أَيْضًا ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ مَعَانِي عِبَادَة الله وَشَرَائِعه، وَهَذِهِ صِفَات أَتْبَاع الشَّيْطَان «الَّذِي إِذَا سَمِعَ الأذان: أَدْبَرَ وَلَهُ حُصَاص، أَيْ: ضُرَاط حَتَّى لا يَسْمَع التَّأْذِين، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِين أَقْبَل، فَإِذَا ثُوِّبَ للصَّلاةِ أَدْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّثْوِيب أَقْبَل، حَتَّى يَخْطُر بَيْنَ المَرْء وَقَلْبه، فَيَقُول: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُر، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُل إِن يَدْرِي كَمْ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدكُمْ ذَلِكَ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْل السَّلام». مُتَّفَق عَلَيْهِ. وَقَالَ الزُّهْرِيّ: قَدْ ذَكَرَ الله التَّأْذِين فِي كِتَابه، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَال أَسْبَاط، عَنْ السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ قَال: كَانَ رَجُل مِنْ النَّصَارَى بِالمَدِينَةِ إِذَا سَمِعَ المُنَادِيَ يُنَادِي: أَشْهَد أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله، قَال: حُرِقَ الكَاذِب. فَدَخَلتْ خَادِمُه لَيْلة مِنْ اللَّيَالِي بِنَارٍ، وَهُوَ نَائِم وَأَهْله نِيَام، فَسَقَطَتْ شَرَارَةٌ فَأَحْرَقَتْ البَيْت فَاحْتَرَقَ هُوَ وَأَهْله. رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم.

وَذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار فِي السِّيرَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ دَخَل الكَعْبَة عَام الفَتْح وَمَعَهُ بِلال، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّن وَأَبُو سُفْيَان بْن حَرْب وَعَتَّاب بْن أَسِيد وَالحَارِث بْن هِشَام جُلُوس بِفِنَاءِ الكَعْبَة، فَقَال عَتَّاب بْن أَسِيد: لَقَدْ أَكْرَمَ الله أَسِيدًا أَنْ لا يَكُون سَمِعَ هَذَا فَيَسْمَع مِنْهُ مَا يَغِيظهُ. وَقَال الحَارِث بْن هِشَام: أَمَا وَالله لَوْ أَعْلم أَنَّهُ مُحِقّ لاتَّبَعْته. فَقَال أَبُو سُفْيَان: لا أَقُول شَيْئًا، لَوْ تَكَلَّمْت لأَخْبَرَتْ عَنِّي هَذِهِ الحَصَى. فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ النَّبِيّ ﷺ فَقَال: «قَدْ عَلِمْت الَّذِي قُلتُمْ»، ثُمَّ ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَقَال الحَارِث وَعَتَّاب: نَشْهَد أَنَّك رَسُول الله، مَا اطَّلَعَ عَلى هَذَا أَحَد كَانَ مَعَنَا؛ فَنَقُول أَخْبَرَك[1].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح بْن عُبَادَة، حَدَّثَنَا ابْن جُرَيْج، أَخْبَرَنَا عَبْد العَزِيز بْن عَبْد المَلك بْن أَبِي مَحْذُورَة: أَنَّ عَبْد الله بْن مُحَيْرِيز أَخْبَرَهُ، وَكَانَ يَتِيمًا فِي حِجْر أَبِي مَحْذُورَة، قَال: قُلت لأَبِي مَحْذُورَة: يَا عَمّ، إِنِّي خَارِج إِلى الشَّام، وَأَخْشَى أَنْ أُسْأَل عَنْ تَأْذِينك؟ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ أَبَا مَحْذُورَة قَال لهُ: نَعَمْ، خَرَجْت فِي نَفَر، وَكُنَّا بِبَعْض طَرِيق حُنَيْن، مَقْفَل رَسُول الله ﷺ مِنْ حُنَيْن، فَلقِينَا رَسُول الله ﷺ بِبَعْضِ الطَّرِيق، فَأَذَّنَ مُؤَذِّن رَسُول الله ﷺ بِالصَّلاةِ عِنْد رَسُول الله ﷺ فَسَمِعْنا صَوْت المُؤَذِّن وَنَحْنُ مُتَنَكِّبُونَ، فَصَرَخْنَا نَحْكِيه وَنَسْتَهْزِئ بِهِ، فَسَمِعَ رَسُول الله ﷺ الصوت، فَأَرْسَل إِليْنَا إِلى أَنْ وَقَفْنَا بَيْن يَدَيْهِ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ الَّذِي سَمِعْت صَوْته قَدْ ارْتَفَعَ؟». فَأَشَارَ القَوْمُ كُلُّهُمْ إِليَّ وَصَدَقُوا، فَأَرْسَل كُلّهمْ وَحَبَسَنِي، وَقَال: «قُمْ فَأَذِّنْ بِالصلاة». فَقُمْت وَلا شَيْء أَكْرَهُ إِليَّ مِنْ رَسُول الله ﷺ وَلا مِمَّا يَأْمُرنِي بِهِ، فَقُمْت بَيْن يَدَيْ رَسُول الله ﷺ، فَأَلْقَى عَليَّ رَسُول الله ﷺ التَّأْذِين هُوَ بِنَفْسِهِ، قَال: «قُل: الله أَكْبَر الله أَكْبَر، أَشْهَد أَنْ لا إِله إِلا الله، أَشْهَد أَنْ لا إِله إِلا الله، أَشْهَد أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله، أَشْهَد أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله»، ثم قَال لِي: «ارجع فامدد من صوتك». ثم قَال: «أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حَيَّ عَلى الصَّلاة، حَيَّ عَلى الصَّلاة، حَيَّ عَلى الفَلاح، حَيَّ عَلى الفَلاح، الله أَكْبَر الله أَكْبَر، لا إله إلا الله». ثُمَّ دَعَانِي حِين قَضَيْت التَّأْذِين، فَأَعْطَانِي صُرَّة فِيهَا شَيْء مِنْ فِضَّة، ثُمَّ وَضَعَ يَده عَلى نَاصِيَة أَبِي مَحْذُورَة ثُمَّ أَمَرَّهَا عَلى وَجْهه، ثُمَّ بَيْن ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ عَلى كَبِده حَتَّى بَلَغَتْ يَدُ رَسُول الله ﷺ سُرَّة أَبِي مَحْذُورَة، ثُمَّ قَال رَسُول الله ﷺ: «بَارَكَ الله فِيك وَبَارَكَ عَلَيْك».

---

(١) مرسل: رواه ابن هشام في «السيرة» (٤/ ٨٧١).

فَقُلت: يَا رَسُول الله، مُرْنِي بِالتَّأذِينِ بِمَكَّة. فَقَال: «قَدْ أَمَرْتُك بِهِ». وَذَهَبَ كُلّ شَيْء كَانَ لرَسُول اللهﷺ مِنْ كَرَاهَة، وَعَادَ ذَلكَ كُلّه محبَّة لرَسُول اللهﷺ، فَقَدِمتُ عَلى عَتَّاب بْن أَسِيد عَامِل رَسُول اللهﷺ بمكة فَأَذَّنْت مَعَهُ بِالصَّلاةِ عَنْ أَمْر رَسُول اللهﷺ، وَأَخبَرَنِي ذَلكَ مَنْ أَدرَكْت مِنْ أَهْلِي مِمَّنْ أَدرَكَ أَبَا مَحْذُورَة، عَلى نَحو مَا أَخبَرَنِي عَبْد الله بْن محَيْرِيز[1].

هَكَذَا رَوَاهُ الإمَام أَحْمَد، وَقَدْ أَخرَجَهُ مُسْلم فِي صَحِيحه وَأَهْل السُّنَن الأَرْبَعَة: مِنْ طَرِيق عَنْ عَبْد الله بْن محَيْرِيز، عَنْ أَبِي محْذُورَة، وَاسْمه سَمُرَة بْن مِعْيَر بْن لُوذَان أَحَد مُؤَذِّنِي رَسُول اللهﷺ الأَرْبَعَة، وَهُوَ مُؤَذِّن أَهْل مَكَّة وَامْتَدَّتْ أَيَّامه رضي الله عنه وَأَرْضَاهُ.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد لهَؤُلاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينكُمْ هُزُوًا وَلعبًا مِنْ أَهْل الكِتَاب: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: هَل لكُمْ عَلَيْنَا مَطعَن أَوْ عَيْب إِلَّا هَذَا؟ وَهَذَا لَيْس بِعَيْبٍ وَلا مَذَمَّة؛ فَيَكُون الاسْتِثْنَاء مُنْقَطِعًا، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ﴾، وَفِي الحَدِيث المُتَّفَق عَلَيْهِ: «مَا يَنْقِم ابْن جَمِيل إِلا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ الله»[2].

وَقَوْله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ مَعْطُوف عَلى ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: وَآمَنَّا بِأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ، أَيْ: خَارِجُونَ عَنْ الطَّرِيق المُسْتَقِيم.

ثم قَال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أَيْ: هَل أُخبِرَكُمْ بِشَرّ جَزَاء عِنْد الله يَوْم القِيَامَة مِمَّا تَظُنُّونَهُ بِنَا؟ وَهُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ هُمْ مُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَات [المُفَسَّرَة][3] فَقَوْلُهُ: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: أَبعَدَهُ مِنْ رَحمَته. ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: غَضَبًا لا يَرْضَى بَعْده أَبَدًا. ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانه فِي سُورَة البَقَرَة، وَكَمَا سَيَأْتِي إِيضَاحه فِي سُورَة الأَعْرَاف. وَقَدْ قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ عَلقَمَة بْن مَرثد، عَنْ المُغِيرَة بْن عَبْد الله، عَنْ المَعْرُور بْن سُوَيْد، عَنْ ابن مَسْعُود قَال: سُئِل رَسُول اللهﷺ عَنْ القِرَدَة وَالخَنَازِير أَهِيَ مِمَّا مَسَخَ الله؟ فَقَال: «إِنَّ الله لمْ يُهلك قَوْمًا -أَوْ قَال: لمْ يَمْسَخ قَوْمًا- فَيَجْعَل لهُمْ نَسْلا وَلا عَقبًا، وَإِنَّ القِرَدَة وَالخَنَازِير كَانَتْ قَبْل ذَلكَ»[4]. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلم: مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَمِسْعَر كِلاهُمَا، عَنْ مُغِيرَة بْن عَبْد الله اليَشْكُرِيّ بِهِ.

وَقَال أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا دَاوُد بْن أَبِي الفُرَات، عَنْ مُحَمَّد بْن زَيْد، عَنْ أَبِي الأَعْيَن العَبْدِيّ، عَنْ أَبِي الأَحْوَص،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٣٩) مختصر، وأبو داود (٥٠٣)، والترمذي (١٩٢)، والنسائي (٢/ ٥)، وابن ماجه (٧٠٨)، وأحمد (٣/ ٤٠٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣).

(٣) في نسخة: [القصيرة].

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

عَنْ ابْنِ مَسْعُود قَال: سَأَلْنَا رَسُول الله ﷺ عَنْ القِرَدَة وَالخَنَازِير: أَهِيَ مِنْ نَسْل اليَهُود؟ فَقَال: «**لا، إنَّ الله لمْ يَلعَن قَوْمًا قطُّ فَمَسَخهُمْ فَكَانَ لهُمْ نَسْل، وَلكِنْ هَذَا خَلق كَانَ، فَلمَّا غَضِبَ الله عَلى اليَهُود؛ فَمَسَخهُمْ جَعَلهُمْ مِثْلهمْ**»(١). وَرَوَاهُ أَحْمَد مِنْ حَدِيث دَاوُدَ بْن أَبِي الفُرَات بِهِ. وَقَال ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا عَبْد البَاقِي، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن صَالِح، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن مَحْبُوب، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن المُخْتَار، عَنْ دَاوُدَ بْن أَبِي هِنْد، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**الحَيَّات مَسْخ الجِنّ، كَمَا مُسِخَتْ القِرَدَة وَالخَنَازِير**»(٢). هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وقُرِئَ ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ عَلى أَنَّهُ فِعْل مَاضٍ، وَالطَّاغُوت مَنْصُوب بِهِ، أَيْ: وَجَعَل مِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ الطَّاغُوت، وَقُرِئَ: ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ بِالإِضَافَة عَلى أَنَّ المَعْنَى وَجَعَل مِنْهُمْ خَدَم الطَّاغُوت، أَيْ: خُدَّامه وَعَبِيده، وَقُرِئَ: ﴿وَعُبُدَ الطَّاغُوتِ﴾ عَلى أَنَّهُ جَمْع الجَمْع عَبْد وَعَبِيد وَعَبَد، مِثْل ثِمَار وَثُمُر، حَكَاهَا ابْن جَرِير عَنْ الأَعْمَش، وَحُكِيَ عَنْ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيّ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا: ﴿وَعَابِد الطَّاغُوت﴾. وَعَنْ أُبَيّ وَابْن مَسْعُود: ﴿وَعَبَدُوا﴾. وَحَكَى ابْن جَرِير، عَنْ أَبِي جَعْفَر القَارِئ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا ﴿وَعُبِدَ الطَّاغُوتُ﴾ عَلى أَنَّهُ مَفْعُول مَا لمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، ثُمَّ اسْتَبْعَدَ مَعْنَاهَا، وَالظَّاهِر: أَنَّهُ لا بُعْد فِي ذَلِكَ؛ لأَنَّ هَذَا مِنْ بَاب التَّعْرِيض بِهِمْ؛ أَيْ: وَقَدْ عُبِدَتْ الطَّاغُوت فِيكُمْ، وَكُنْتُمْ أنتم الَّذِينَ تعاطوا ذلك، وَكُلّ هَذِهِ القِرَاءَات يَرْجِع مَعْنَاهَا إِلى أَنَّكُمْ يَا أَهْل الكِتَاب الطَّاعِنِينَ فِي دِينِنَا: الَّذِي هُوَ تَوْحِيد الله وَإِفْرَاده بِالعِبَادَاتِ دُون مَا سِوَاهُ، كَيْف يَصْدُر مِنْكُمْ هَذَا وَأَنْتُمْ قَدْ وُجِدَ مِنْكُمْ جَمِيع مَا ذُكِرَ؟! وَلِهَذَا قَال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾. وَهَذَا مِنْ بَاب اسْتِعْمَال أَفْعَل التَّفْضِيل فِيمَا لَيْسَ فِي الطَّرَفِ الآخَر مُشَارَكَةٌ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ وَهَذِهِ صِفَة المُنَافِقِينَ مِنْهُمْ: أَنَّهُمْ يُصَانِعُونَ المُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِر وَقُلُوبهمْ مُنْطَوِيَة عَلى الكُفْر؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟﴾ أَيْ: إلى عِنْدك يَا مُحَمَّد ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ أَيْ: مُسْتَصْحِبِينَ الكُفْر فِي قُلُوبهمْ، ثُمَّ خَرَجُوا وَهُوَ كَامِن فِيهَا لمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا قَدْ سَمِعُوا مِنْك مِنْ العِلم، وَلا نَجَعَتْ فِيهِمْ المَوَاعِظ وَلا الزَّوَاجِر، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ فَخَصَّهُمْ بِهِ دُون غَيْرهمْ. وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ أَيْ: وَالله عَالِم بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ ضَمَائِرهمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لِخَلقِهِ خِلاف ذَلِكَ وَتَزَيَّنُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، فَإِنَّ الله عَالِم الغَيْب وَالشَّهَادَة أَعْلمُ بِهِمْ مِنْهُمْ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلى ذَلِكَ أَتَمَّ الجَزَاء.

وَقَوْله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أَيْ: يُبَادِرُونَ إِلى ذَلكَ مِنْ تَعَاطِي المَآثِم وَالمَحَارِم، وَالاعْتِدَاء عَلى النَّاس، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالهمْ بِالبَاطِل، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: لَبِئْسَ العَمَل كَانَ عَمَلُهُمْ، وَبِئْسَ الاعْتِدَاء اعْتِدَاؤُهُمْ.

قَوْله تَعَالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ يَعْنِي: هَلَّا كَانَ يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَار عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ، وَالرَّبَّانِيُّونَ منهم، وهُمْ العُلَمَاء العُمَّال أَرْبَاب الوِلايَات عَلَيْهِمْ، وَالأَحْبَار هُمْ العُلَمَاء فَقَطْ. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: يعني الربانيين، أنهم بئس ما كانوا يصنعون، يعني: في تركهم ذلك. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: قَال هَؤُلاءِ حِين لمْ يَنْهَوْا وَهَؤُلاءِ حِين عَمِلوا. قَال: وَذَلِكَ الأَرْكَان. قَال: وَيَعملونَ وَيَصْنَعُونَ وَاحِد. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا ابْن عَطِيَّة، حَدَّثَنَا قَيْس، عَنْ العَلاء بْن المُسَيَّب، عَنْ خَالد بْن دِينَار،

---

(١) حسن لغيره: أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥، ٣٩٦)، والطيالسي (١/ ٣٩)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٠٦) من حديث ابن مسعود.
(٢) صحيح: أخرجه ابن حبان (٥٦٤٠) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٢٤).

عَنْ ابْنِ عَبَّاس، قَال: مَا فِي القُرْآن آيَة أَشَدُّ تَوْبِيخًا مِنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿**لَوْلا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَار عَنْ قَوْلهمْ الإِثْم وَأَكْلهمْ السُّحت لبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ قَال: كَذَا قَرَأَ. وَكَذَا قَال الضَّحَّاك: مَا فِي القُرْآن آيَة أَخْوَف عِنْدِي مِنْهَا أَنَّا لا نَنْهَى. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذَكَره يُونُس بْن حَبِيب، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُسْلم بْنْ أَبِي الوَضَّاح، حَدَّثنَا ثَابت أَبُو سَعِيد الهَمَدَانِيّ، قَال: رأيته بِالرَّيِّ، فَحَدَّثَ عَنْ يَحْيَى بْن يَعْمُر، قَال: خَطَبَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَال: أَيُّهَا النَّاس، إِنَّمَا هَلكَ مَنْ كَانَ قَبْلكُم بِرُكُوبِهِمْ المَعَاصِي وَلمْ يَنْهَهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَار، فَلَمَّا تَمَادَوْا فِي المَعَاصِي وَلمْ يَنْهَهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَار، أَخَذَتْهُمْ العُقُوبَات، فَمُرُوا بِالمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنْ المُنْكَر، قَبْل أَنْ يَنْزِل بِكُمْ مِثْل الَّذِي نَزَل بِهِمْ، وَاعْلمُوا أَنَّ الأَمْر بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَر لا يَقْطَع رِزْقًا وَلا يُقَرِّب أَجَلًا.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَنْبَأَنَا شَرِيك، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ المُنْذِر بْن جَرِير، عَنْ أَبِيهِ، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُون بَيْن أَظْهُرهِمْ مَنْ يَعْمَل بِالمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُ وَأَمْنَعُ، وَلمْ يُغَيِّرُوا إِلا أَصَابَهُمْ الله مِنْهُ بِعَذَابٍ**»[1]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد مِنْ هَذَا الوَجْه. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: عَنْ مُسَدَّد، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ المُنْذِر بْن جَرِير، عَنْ جَرِير، قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**مَا مِنْ رَجُل يَكُون فِي قَوْمٍ يَعْمَل فِيهِمْ بِالمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ فَلا يُغَيِّرُونَ، إِلا أَصَابَهُمْ الله بِعِقَابٍ قَبْل أَنْ يَمُوتُوا**»[2]. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن ماجه: عَنْ عَلى بْن مُحَمَّد، عَنْ وَكِيع، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عُبَيْد الله بْن جَرِير، عَنْ أَبِيهِ بِهِ. قَال الحَافِظ المِزِّيّ: وَهَكَذَا رَوَاهُ شُعْبَة، عَنْ إِسْحَاق بِهِ.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالى عَنْ اليَهُود عَلَيْهِمْ لعَائِن الله المُتَتَابِعَة إِلى يَوْم القِيَامَة: بِأَنَّهُمْ وَصَفُوهُ -تَعَالى عَنْ قَوْلهمْ عُلُوًّا كَبِيرًا- بِأَنَّهُ بَخِيل، كَمَا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ فَقِير وَهُمْ أَغْنِيَاء، وَعَبَّرُوا عَنْ البُخْل بِأَنْ قَالُوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبُو عَبْد الله الطِّهْرَانِيّ، حَدَّثنَا حَفْص بْن عُمَر العَدَنِيّ، حَدَّثَنَا الحَكَم بْن أَبَان، عَنْ عِكْرِمَة، قَال: قَال ابْن عَبَّاس: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ أَيْ: بَخِيلة. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قَال: لا يَعْنُونَ بِذَلكَ أَنَّ يَد الله مُوثَقَة، وَلكِنْ يَقُولُونَ: بَخِيل، أَمْسَكَ مَا عِنْده بُخْلًا. تَعَالى الله عما يقولون عُلُوًّا كَبِيرًا. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَالضَّحَّاك وَقَرَأَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ يَنْهَى عَنْ البُخْل، وَعَنْ التَّبْذِير: وَهُوَ زِيَادَة الإِنْفَاق فِي غَيْر مَحَلّه، وَعَبَّرَ عَنْ البُخْل بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ هَؤُلاءِ اليَهُود عَلَيْهِمْ لعَائِن الله، وَقَدْ قَال عِكْرِمَة: إِنَّهَا نَزَلتْ فِي فِنْحَاص اليَهُودِيّ عَلَيْهِ لعْنَة الله، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ الَّذِي قَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ فَضَرَبَهُ أَبُو بَكْر الصِّدِّيق ﷺ. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي مُحَمَّد، عَنْ سَعِيد أَوْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: قَال رَجُل مِنْ اليَهُود يُقَال لهُ شَاس بْن قَيْس: إِنَّ رَبَّك بَخِيل لا يُنْفِق. فَأَنْزَل الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٣)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٣١)، وعبد الرزاق (١١/ ٣٤٨).

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٣٨).

غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾. وَقَدْ رَدَّ الله ﷻ عَلَيْهِمْ مَا قَالُوهُ، وَقَابَلَهُمْ فِيمَا اخْتَلَقُوهُ وَافْتَرَوْهُ وَائْتَفَكُوهُ، فَقَالَ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ لَهُمْ فَإِنَّ عِنْدَهُمْ مِنَ البُخْلِ وَالحَسَدِ وَالجُبْنِ وَالذِّلَّة -أَمْر عَظِيم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أَيْ: بَل هُوَ الوَاهِب الفَضْل الجَزِيل العَطَاء، الَّذِي مَا مِنْ شَيْء إِلَّا عِنْده خَزَائِنه، وَهُوَ الَّذِي مَا بِخَلْقِهِ مِنْ نِعْمَة فَمِنْهُ وحده لا شَرِيك لهُ، الَّذِي خَلَقَ لنَا كُلّ شَيْء مِمَّا نَحْتَاج إِلَيْهِ، فِي لَيْلنَا وَنَهَارنَا، وَحَضَرِنَا وَسَفَرنَا، وَفِي جَمِيع أَحْوَالنَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة وَقَدْ قَالَ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمر، عَنْ هَمَّام بْن مُنَبِّه قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ يَمِين الله مَلأَى لا يَغِيضهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْل وَالنَّهَار أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْض، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينه -قَال- وَعَرْشه عَلَى المَاء، وَفِي يَده الأُخْرَى الفَيْض يَرْفَع وَيَخْفِض -قَال- وقَال الله تَعَالَى: أَنْفِقْ أُنْفِق عَلَيْك**»[1]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ: البُخَارِيّ فِي التَّوْحِيد عَنْ عَلِيّ ابْن المَدِينِيّ، وَمُسْلم فِيهِ عَنْ مُحَمَّد ابْن رَافِع، وكِلاهُمَا عَنْ عَبْد الرَّزَّاق بِهِ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أَيْ: يَكُون مَا أَتَاكَ الله يَا مُحَمَّد مِنَ النِّعْمَة نِقْمَةً فِي حَقّ أَعْدَائِك مِنَ اليَهُود وَأَشْبَاههم، فَكَمَا يَزْدَاد بِهِ المُؤْمِنُونَ تَصْدِيقًا وَعَمَلًا صَالِحًا وَعِلْمًا نَافِعًا، يَزْدَاد بِهِ الكَافِرُونَ الحَاسِدُونَ لك وَلأُمَّتِك ﴿طُغْيَانًا﴾ وَهُوَ المُبَالغَة وَالمُجَاوَزَة للحَدّ فِي الأَشْيَاء ﴿وَكُفْرًا﴾ أَيْ: تَكْذِيبًا، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ لا تَجْتَمِع قُلُوبهمْ، بَل العَدَاوَة وَاقِعَة بَيْن فِرَقهمْ بَعْضهمْ فِي بَعْض دَائِمًا؛ لأَنَّهُمْ لا يَجْتَمِعُونَ عَلى حَقّ وَقَدْ خَالفُوك وَكَذَّبُوك. وَقَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ قَال: الخُصُومَات وَالجِدَال فِي الدِّين. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَوْله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أَيْ: كُلَّمَا عَقَدُوا أَسْبَابًا يَكِيدُونَك بِهَا، وَكُلَّمَا أَبْرَمُوا أُمُورًا يُحَارِبُونَك بِهَا، أَبْطَلَهَا الله وَرَدَّ كَيْدهمْ عَلَيْهِمْ، وَحَاقَ مَكْرُهُمْ السَّيِّئ بِهِمْ. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ: مِنْ سَجِيَّتهمْ أَنَّهُمْ دَائِمًا يَسْعَوْنَ فِي الإِفْسَاد فِي الأَرْض، وَالله لا يُحِبّ مَنْ هَذِهِ صِفَته.

ثُمَّ قَال جَلَّ وَعَلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أَيْ: لوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِالله وَرَسُوله، وَاتَّقَوْا مَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنْ المَآثِم وَالمَحَارِم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أَيْ: لأَزَلنَا عَنْهُمْ المَحْذُور وَأَنَلنَاهُمْ المَقْصُود. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْره: هُوَ القُرْآن. ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أَيْ: لو أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي الكُتُب الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ عَنْ الأَنْبِيَاء، عَلى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْر تَحْرِيف وَلا تَبْدِيل وَلا تَغْيِير، لقَادَهُمْ ذَلكَ إِلى اتِّبَاع الحَقّ، وَالعِمل بِمُقْتَضَى مَا بَعَثَ الله بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ؛ فَإِنَّ كُتُبهمْ نَاطِقَة بِتَصْدِيقِهِ، وَالأَمْر بِاتِّبَاعِهِ حَتْمًا لا مَحَالة. وَقَوْله تَعَالى: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يَعْنِي بِذَلكَ: كَثْرَة الرِّزْق النَّازِل عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاء، والنابت لهم من الأَرْض.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣).

وَقَال عَلِيّ بن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابن عَبَّاس: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ﴾ يَعْنِي: لأَرْسَل السَّمَاء عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يَعْنِي: يَخْرُج مِنَ الأَرْض بَرَكَاتهَا. وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وَقَال بَعْضهمْ مَعْنَاهُ: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يَعْنِي: مِنْ غَيْر كَدّ، وَلا تَعَب، وَلا شَقَاء، وَلا عَنَاء. وَقَال ابْن جَرِير: قَال بَعْضهمْ: مَعْنَاهُ لكَانُوا فِي الخَيْر كَمَا يَقُول القَائِل: هُوَ فِي الخَيْر مِنْ قرنه إِلَى قَدَمه. ثُمَّ رُدَّ هَذَا القَوْل؛ لمُخَالَفته أَقْوَال السَّلَف.

وَقَدْ ذَكَرَ ابن أَبِي حَاتِم عِنْد قَوْله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ حَدَّثَنَا عَلقَمَة، عَنْ صَفْوَان بن عَمْرو، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر بْن نُفَيْر، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**يُوشِك أَنْ يُرْفَع العِلم**». فَقَال زِيَاد بْن لَبِيد: يَا رَسُول الله، وَكَيْف يُرْفَع العِلم وَقَدْ قَرَأْنَا القُرْآن وَعَلَّمْنَاهُ أَبْنَاءَنَا؟ فَقَال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا بن لبيد، إِنْ كُنْت لأَرَاك مِنْ أَفْقَهِ أَهْل المَدِينَة، أَوَلَيْسَتْ التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل بِأَيْدِي اليَهُود وَالنَّصَارَى، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ حِين تَرَكُوا أَمْر الله**». ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[1]. هَكَذَا رواه ابن أَبِي حَاتِم حديثًا مُعَلَّقًا مِنْ أَوَّل إِسْنَاده، مُرْسَلًا فِي آخِره، وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل مُتَّصِلًا مَوْصُولًا؛ فَقَال: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ سَالم بن أَبِي الجَعْد، عَنْ زِيَاد بْن لبِيد، أَنَّهُ قَال: ذَكَرَ النَّبِيّ ﷺ شَيْئًا فَقَال: «**وَذَاكَ عِنْد ذَهَاب العِلم**». قَال: قُلنَا: يَا رَسُول الله، وَكَيْف يَذْهَب العِلم وَنَحْنُ نَقْرَأ القُرْآن وَنُقْرِئهُ أَبْنَاءَنَا، وَأَبْنَاؤُنَا يُقْرِئُونَهُ أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْم القِيَامَة؟ فَقَال: «**ثَكِلَتْكَ أُمّكَ يَا بْن أُمّ لبيد، إِنْ كُنْت لأَرَاك مِنْ أَفْقَه رَجُل بِالمَدِينَة، أَوَ لَيْسَ هَذِهِ اليَهُود وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل وَلا يَنْتَفِعُونَ بِمَا فِيهِمَا بِشَيْءٍ**»[2]. وَكَذَا رَوَاهُ ابن ماجه عَنْ أَبِي بَكْر ابن أَبِي شَيْبَة، عَنْ وَكِيع بِإِسنَادِهِ نَحْوه. وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، وَكَقَوْلِهِ عَنْ أَتْبَاع عِيسَى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾. فَجَعَل أَعْلَى مَقَامَاتهمْ الاقْتِصَاد، وَهُوَ أَوْسَط مَقَامَات هَذِهِ الأُمَّة، وَفَوْق ذَلِكَ رُتْبَة السَّابِقِينَ، كَمَا فِي قَوْله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآيَة. وَالصَّحِيح أَنَّ الأَقْسَام الثَّلاثَة مِنْ هَذِهِ الأُمَّة كُلّهمْ يَدْخُلُونَ الجَنَّة. وَقَدْ قَال أَبُو بَكْر ابن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن يُونُس الضَّبِّيّ، حَدَّثَنَا عَاصِم بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْشَر، عَنْ يَعْقُوب بْن يَزِيد بْن طَلحَة، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، قَال: كُنَّا عِنْد رَسُول الله ﷺ فَقَال: «**تَفَرَّقَتْ أُمَّة مُوسَى عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ مِلَّة، سَبْعُونَ مِنهَا فِي النَّار وَوَاحِدَة فِي الجَنَّة، وَتَفَرَّقَتْ أُمَّة عِيسَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّة، وَاحِدَة مِنهَا فِي الجَنَّة وَإِحْدَى وَسَبْعُونَ مِنهَا فِي النَّار، وَتَعْلُو أُمَّتِي عَلَى الفِرِيقَيْنِ جَمِيعًا، وَاحِدَةٌ فِي الجَنَّة وَثِنْتَان وَسَبْعُونَ فِي النَّار**». قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُول الله؟ قَال: «**الجَمَاعَات الجَمَاعَات**»[3]. قَال يَعْقُوب بْن زَيْد: كَانَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الحَدِيث عَنْ رَسُول الله ﷺ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٢٦)، وابن حبان (٤٥٧٢، ٦٧٢٠)، والحاكم (١/ ١٧٨) من حديث عوف بن مالك، وصححه الألباني في «اقتضاء العلم العمل» (١/ ٥٨).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٦٠)، وابن ماجه (٥٢٩٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) حسن: أخرجه أبو يعلى (٦/ ٣٤٠) من حديث أنس، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥١٠) وقال: رواه أبو يعلى وفيه أبو معشر نجيح وفيه ضعف، وقد تقدمت لهذا الحديث طرق.

تلا فيه قرآنًا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، وتلا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعني: أُمَّة محمَّد ﷺ. وهذا حديث غريب جدًّا من هذا الوجه وبهذا السِّياق، وحديث افتراق الأُمَم إلى بِضعٍ وسبعين مرويّ من طُرُق عديدة، وقد ذكرناه في موضع آخر، ولله الحمد والمِنَّة.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمَّدًا ﷺ باسم الرِّسالة، وآمرًا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام ذلك، وقام به أتمّ القيام. قال البخاريّ عند تفسير هذه الآية: حدَّثنا محمَّد بن يوسف، حدَّثنا سُفيان، عن إسماعيل، عن الشَّعبيّ، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: من حدَّثك أنَّ محمَّدًا كتم شيئًا ممَّا أُنزل عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[1]. هكذا رواه هاهنا مختصرًا، وقد أخرجه في مواضع من صحيحه مطوَّلًا، وكذا رواه مُسلم في كتاب الإيمان، والتِّرمذيّ والنَّسائيّ في كتاب التَّفسير من سُننهما من طُرُق عديدة، عن عامر الشَّعبيّ، عن مسروق بن الأجدع عنها رضي الله عنها. وفي الصَّحيحين عنها أيضًا أنَّها قالت: لو كان محمَّد ﷺ كاتمًا شيئًا من القرآن لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أحمد بن منصور الرَّماديّ، حدَّثنا سعيد بن سُليمان، حدَّثنا عبَّاد، عن هارون بن عنترة، عن أبيه قال: كُنت عند ابن عبَّاس فجاء رجل، فقال له: إنَّ ناسًا يأتونا فيُخبرونا أنَّ عندكم شيئًا لم يُبده رسول الله ﷺ للنَّاس؛ فقال ابن عبَّاس: ألم تعلم أنَّ الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ والله ما ورَّثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء. وهذا إسناد جيِّد، وهكذا في صحيح البخاريّ من رواية أبي جُحيفة وهب بن عبد الله السّوائي قال: قُلت لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي ممَّا ليس في القرآن؟ فقال: لا، والَّذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسمة، إلَّا فهمًا يُعطيه الله رجلًا في القرآن وما في هذه الصَّحيفة. قُلت: وما في هذه الصَّحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يُقتل مُسلم بكافر[2]. وقال البخاريّ رحمه الله: قال الزُّهريّ، من الله الرِّسالة، وعلى الرَّسول البلاغ، وعلينا التَّسليم. وقد شهدت له أُمَّته بإبلاغ الرِّسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خُطبته يوم حجَّة الوداع، وقد كان هُناك من أصحابه نحوٌ من أربعين ألفًا، كما ثبت في صحيح مُسلم، عن جابر بن عبد الله: أنَّ رسول الله ﷺ قال في خُطبته يومئذ: **«أيها النَّاس، إنَّكم مسئولون عنِّي فما أنتم قائلون؟»** قالوا: نشهد أنَّك قد بلَّغت وأدَّيت ونصحت. فجعل يرفع أُصبعه إلى السَّماء ويقلبها إليهم ويقول: **«اللهُمَّ هل بلَّغت، اللهم بلَّغت»**[3].

قال الإمام أحمد: حدَّثنا ابن نُمير، حدَّثنا فُضيل -يعني ابن غزوان-، عن عِكرمة، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع: **«يا أيها النَّاس، أيّ يوم هذا؟»** قالوا: يوم حرام. قال: **«أيّ بلد هذا؟»** قالوا: بلد حرام. قال: **«فأيّ شهر هذا؟»** قالوا: شهر حرام. قال: **«فإنَّ أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام، كحُرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا»**. ثُمَّ أعادها مرارًا ثُمَّ رفع أُصبعه إلى السَّماء فقال:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٦١٢)، ومسلم (١٧٧).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١١١).
(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٢١٨).

«اللهُمَّ هل بلّغتُ». مِرَارًا قَالَ: يَقُول ابْن عَبَّاس: وَالله لَوَصِيَّةٌ إِلَى رَبِّه ﷻ. ثُمَّ قَالَ: «ألا فليُبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، لا ترجعوا بعدي كفّارًا يضرب بعضُكم رقابَ بعض»[1]. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيّ عَنْ عَلِيّ ابن المَدِينِيّ، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ فُضَيْل بْن غَزْوَان بِهِ نَحْوه.

وقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ يَعْنِي: وَإِنْ لم تُؤَدِّ إِلَى النَّاس مَا أَرْسَلتُك بِهِ ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أَيْ: وَقَدْ عَلِمَ مَا يَتَرَتَّب عَلَى ذَلِكَ لَوْ وَقَعَ. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ يَعْنِي: إِنْ كَتَمْت آيَة مِمَّا أُنْزِل إِلَيْك مِنْ رَبّك لَمْ تُبَلِّغ رِسَالَته. قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا قَبِيصَة بْن عُقْبَة، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ رَجُل، عَنْ مُجَاهِد قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قَالَ: «يا ربِّ كيف أصنعُ وأنا وحدي يجتمعون عليّ». فَنَزَلَتْ ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[2]. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ طَرِيق سُفْيَان -وَهُوَ الثَّوْرِيّ- بِهِ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: بَلِّغْ أَنْتَ رِسَالَتِي، وَأَنَا حَافِظك وَنَاصِرك، وَمُؤَيِّدك عَلَى أَعْدَائِك، وَمُظْفِرك بِهِمْ، فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَن، فَلَنْ يَصِل أَحَد مِنْهُمْ إِلَيْك بِسُوءٍ يُؤْذِيك. وَقَدْ كَانَ النَّبِيّ ﷺ قَبْل نُزُول هَذِهِ الآيَة يُحْرَس، كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا يَحْيَى، قَالَ: سَمِعْت عَبْد الله بْن عَامِر بْن رَبِيعَة يُحَدِّث: أَنَّ عَائِشَة ؓ كَانَتْ تُحَدِّث: أَنَّ رَسُول الله ﷺ سَهِرَ ذَات لَيْلَة وَهِيَ إِلَى جَنْبه، قَالَتْ: فَقُلْت: مَا شَأْنك يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «ليتَ رجلًا صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة». قَالَتْ: فَبَيْنَا أَنَا عَلَى ذَلِكَ إِذْ سَمِعْت صَوْت السِّلَاح، فَقَالَ: «مَنْ هذا؟» فَقَالَ: أَنَا سَعْد بْن مَالِك. فَقَالَ: «ما جاء بك؟» قَالَ: جِئْت لِأَحْرُسك يَا رَسُول الله. قَالَتْ: فَسَمِعْت غَطِيط رَسُول الله ﷺ فِي نَوْمه[3]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيق يَحْيَى بْن سَعِيد الأَنْصَارِيّ بِهِ. وَفِي لَفْظ: سَهِرَ رَسُول الله ﷺ ذَات لَيْلَة مَقْدَمه المَدِينَة، يَعْنِي: عَلَى أَثَر هِجْرَته بَعْد دُخُوله بِعَائِشَة ؓ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَة ثِنْتَيْنِ مِنْهَا.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مَرْزُوق البَصْرِيّ نَزِيل مِصْر، حَدَّثَنَا مُسْلِم بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا الحَارِث بْن عُبَيْد -يَعْنِي: أَبَا قُدَامَة- عَنْ الجُرَيْرِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن شَقِيق، عَنْ عَائِشَة قَالَتْ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ يُحْرَس حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قَالَتْ: فَأَخْرَجَ النَّبِيّ ﷺ رَأْسه مِنْ القُبَّة، وَقَالَ: «يا أيها الناس، انصرفوا، فقد عصمني الله ﷻ»[4]. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ عَبْد بْن حُمَيْد، وَعَنْ نَصْر بْن عَلِيّ الجَهْضَمِيّ؛ كِلَاهُمَا عَنْ مُسْلِم بْن إِبْرَاهِيم بِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا حَدِيث غَرِيب. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ طَرِيق مُسْلِم بْن إِبْرَاهِيم بِهِ، ثُمَّ قَالَ الحَاكِم: صَحِيح الإِسْنَاد، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَكَذَا رَوَاهُ سَعِيد بْن مَنْصُور، عَنْ الحَارِث بْن عُبَيْد أَبِي قُدَامَة، عَنْ الجُرَيْرِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن شَقِيق، عَنْ عَائِشَة بِهِ. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيّ: وَقَدْ رَوَى بَعْضهمْ هَذَا عَنْ الجُرَيْرِيّ، عَنْ ابْن شَقِيق قَالَ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ يُحْرَس... وَلَمْ يَذْكُر عَائِشَة.

قلت: هَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير: مِنْ طَرِيق إِسْمَاعِيل ابْن عُلَيَّة، وَابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيق وُهَيْب؛ كِلَاهُمَا عَنْ الجُرَيْرِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن شَقِيق مُرْسَلًا، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مُرْسَلًا، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، رَوَاهُمَا ابْن جَرِير، وَالرَّبِيع بْن أَنَس، رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن رِشْدِين

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٧٣٩)، وأحمد (١/ ٢٣٠).
(٢) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٧٣) بسند مرسل وفيه رجل لم يسمه سفيان.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠).
(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٠٤٦)، والحاكم (٢/ ٣٤٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٨٩).

المِصْرِيّ، حَدَّثَنَا خَالد بْن عَبْد السَّلام الصَّدَفِيّ، حَدَّثَنَا الفَضْل بْن الْمُخْتَار، عَنْ عَبْيد الله بْن مَوْهَب، عَنْ عِصْمَة ابْن مَالك الخَطْمِيّ، قَال: كُنَّا نَحْرُس رَسُول الله ﷺ بِاللَّيْل حَتَّى نَزَلتْ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فَتَرَكَ الحَرْس. حَدَّثَنَا سُليْمان بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا حَمْد بْن مُحَمَّد بْن حَمْد -أَبُو نَصْر الكَاتِب البَغْدَادِيّ-، حَدَّثَنَا كُرْدُوس بْن مُحَمَّد الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا يَعْلى بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ فُضَيْل بْن مَرْزُوق، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ قَال: كَانَ العَبَّاس عَمّ رَسُول الله ﷺ فِيمَنْ يَحْرُسهُ؛ فَلَمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ تَرَكَ رَسُول الله ﷺ الحَرْس. حَدَّثَنَا عَليّ بْن أَبِي حَامِد المَدِينِيّ، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُفَضَّل بْن إِبْرَاهِيم الأَشْعَرِيّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُعَاوِيَة بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا أَبِي، قَال: سَمِعْت أَبَا الزُّبَيْر المَكِّيّ يُحَدِّث عَنْ جَابِر ابْن عَبْد الله قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا خَرَجَ بَعَثَ مَعَهُ أَبُو طَالب مَنْ يَكْلؤُهُ، حَتَّى نَزَلتْ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فَذَهَبَ لِيَبْعَث مَعَهُ فَقَال: «**يَا عَمّ، إِنَّ الله قَدْ عَصَمَنِي، لا حَاجَة لي إِلى مَنْ تَبْعَث**»[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب وَفِيهِ نَكَارَة؛ فَإِنَّ هَذِهِ الآيَة مَدَنِيَّة، وَهَذَا الحَدِيث يَقْتَضِي أَنَّهَا مَكِّيَّة.

ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَحْيَى، حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد الحِمَّانِيّ، عَنْ النَّضْر، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ يُحْرَس، فَكَانَ أَبُو طَالب يُرْسِل إِليْهِ كُلّ يَوْم رِجَالًا مِنْ بَنِي هَاشِم يَحْرُسُونَهُ، حَتَّى نَزَلتْ عَليْهِ هَذِهِ الآيَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ قَال: فَأَرَادَ عَمّه أَنْ يُرْسِل مَعَهُ مَنْ يَحْرُسهُ فَقَال: «**إِنَّ الله قَدْ عَصَمَنِي مِنْ الجِنّ وَالإِنْس**»[2]. رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ عَنْ يَعْقُوب بْن غَيْلان العُمَانِيّ، عَنْ أَبِي كُرَيْب بِهِ. وَهَذَا أَيْضًا حَدِيث غَرِيب، وَالصَّحِيح: أَنَّ هَذِهِ الآيَة مدنِيَة بَل هِيَ مِنْ أَوَاخِر مَا نَزَل بِهَا، وَالله أَعْلم.

وَمِنْ عِصْمَة الله لرَسُولهِ حِفْظه لهُ مِنْ أَهْل مَكَّة وَصَنَادِيدهَا، وَحُسَّادهَا وَمُعَانِدِيهَا وَمُتْرَفِيهَا، مَعَ شِدَّة العَدَاوَة وَالبِغْضَة، وَنَصْب المُحَارَبَة لهُ ليْلًا وَنَهَارًا -بِمَا يَخْلُقهُ الله مِنْ الأَسْبَاب العَظِيمَة، بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَته العَظِيمَة، فَصَانَهُ فِي ابْتِدَاء الرِّسَالة بِعَمِّهِ أَبِي طَالب، إِذْ كَانَ رَئِيسًا مُطَاعًا كَبِيرًا فِي قُرَيْش، وَخَلقَ الله فِي قَلبه مَحَبَّة طَبِيعِيَّة لرَسُول الله ﷺ لا شَرْعِيَّة، وَلوْ كَانَ أَسْلمَ لاجْتَرَأَ عَليْهِ كُفَّارهَا وَكِبَارهَا، وَلكِنْ لَمَّا كَانَ بَيْنه وَبَيْنهمْ قَدْر مُشْتَرَك فِي الكُفْر هَابُوهُ وَاحْتَرَمُوهُ؛ فَلَمَّا مَاتَ عَمّه أَبُو طَالب نَال مِنْهُ المُشْرِكُون أَذَى يَسِيرًا، ثُمَّ قَيَّضَ الله لهُ الأَنْصَار، فَبَايَعُوهُ عَلى الإِسْلام، وَعَلى أَنْ يَتَحَوَّل إِلى دَارهمْ: وَهِيَ المَدِينَة، فَلَمَّا صَارَ إِليْهَا حَمَوه مِنْ الأَحْمَر وَالأَسْوَد، فَكُلَّمَا هَمَّ أَحَد مِنْ المُشْرِكِينَ وَأَهْل الكِتَاب بِسُوءٍ كَادَهُ الله وَرَدَّ كَيْده عَليْهِ، كَمَا كَادَهُ اليَهُود بِالسِّحْر فَحَمَاهُ الله مِنْهُمْ، وَأَنْزَل عَليْهِ سُورَتَيْ المُعَوِّذَتَيْنِ دَوَاء لذَلكَ الدَّاء، وَلَمَّا سَمَّهُ اليَهُود فِي ذِرَاع تِلكَ الشَّاة بِخَيْبَر أَعْلمَهُ الله بِهِ وَحَمَاهُ مِنْهُ، وَلهَذَا أَشْبَاه كَثِيرَة جِدًّا يَطُول ذِكْرهَا، فَمِنْ ذَلكَ مَا ذَكَرَهُ المُفَسِّرُونَ عِنْد هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة. قَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْشَر، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ وَغَيْره، قَالُوا: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا نَزَل مَنْزِلًا، اخْتَارَ لهُ أَصْحَابه شَجَرَة ظَليلة فَيَقِيل تَحْتهَا، فَأَتَاهُ أَعْرَابِيّ فَاخْتَرَطَ سَيْفه، ثُمَّ قَال: مَنْ يَمْنَعك مِنِّي؟ فَقَال: «**اللهُ ﷻ**». فَرُعِدَتْ يَدُ الأَعْرَابِيّ، وَسَقَطَ السَّيْف مِنْهُ. قَال: وَضَرَبَ بِرَأْسِهِ الشَّجَرَة حَتَّى انْتَثَرَ دِمَاغه، فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[3].

وَقَال ابْن أَبِى حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن سَعِيد القَطَّان، حَدَّثَنَا زَيْد بْن الحُبَاب،

---

(١) **منكر**: فيه أبو الزبير: مدلس. وقد قال ابن كثير عقب الحديث: وهذا الحديث غريب فيه نكارة فإن هذه الآية مدنية، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية.

(٢) **منكر**: فيه النضر بن عبد الرحمن: متروك الحديث، وانظر تعقيب ابن كثير على الحديث.

(٣) **ضعيف**: مرسل، وفي الإسناد أبو معشر: ضعيف.

حَدَّثَنَا مُوسَى بن عُبَيْدَة، حَدَّثَنِي زَيْد بن أَسْلَم، عَنْ جَابِر بن عَبْد الله الأَنْصَارِيّ، قَال: لَمَّا غَزَا رَسُول الله ﷺ بَنِي أَنْمَار نَزَل ذَات الرِّقَاع بِأَعْلَى نَخْل، فَبَيْنَا هُوَ جَالس عَلَى رَأْس بِئْر قَدْ دَلَّى رِجْلَيْهِ، فَقَال غورث بن الحَارِث مِنْ بَنِي النَّجَّار: لأَقْتُلن مُحَمَّدًا. فَقَال له أصحابه: كَيْف تَقْتُلهُ؟ قَال: أَقُول لهُ أَعْطِنِي سَيْفك، فَإِذَا أَعْطَانِيهِ قَتَلته بِهِ. قَال: فَأَتَاهُ فَقَال: يَا مُحَمَّد، أَعْطِنِي سَيْفك أَشِيمهُ. فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَرُعِدَتْ يَده حَتَّى سَقَطَ السَّيْف مِنْ يَده، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «حَال الله بَيْنك وَبَيْن مَا تُرِيد» فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، وَقِصَّة غَوْرَث بن الحَارِث مَشْهُورَة فِي الصَّحِيح. وَقَال أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرو أَحْمَد بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن عَبْد الوَهَّاب، حَدَّثَنَا آدَم، حَدَّثَنَا حَمَّاد بن سَلَمَة، عَنْ مُحَمَّد بن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: كُنَّا إِذَا صَحِبْنَا رَسُول الله ﷺ فِي سَفَر، تَرَكْنَا لهُ أَعْظَم شَجَرَة وَأَظَلَّهَا فَيَنْزِل تَحْتَهَا، فَنَزَل ذَات يَوْم تَحْت شَجَرَة وَعَلَّق سَيْفه فِيهَا، فَجَاءَ رَجُل فَأَخَذَهُ فَقَال: يَا مُحَمَّد، مَنْ يَمْنَعك مِنِّي؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «الله يَمْنَعنِي مِنك، ضَعْ السَّيْف». فَوَضَعَهُ، فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[2].

وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو حَاتِم ابْن حِبَّان فِي صَحِيحه عَنْ عَبْد الله بن مُحَمَّد، عَنْ إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم، عَنْ المُؤَمَّل ابْن إِسْمَاعِيل، عَنْ حَمَّاد بن سَلَمَة بِهِ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، سَمِعْت أَبَا إِسْرَائِيل -يَعْنِي الجُشَمِيّ- سَمِعْت جَعْدَة -هُوَ ابْن خَالد بن الصِّمَّة الجُشَمِيّ ﷺ- قَال: سَمِعْت النَّبِيّ ﷺ وَرَأَى رَجُلًا سَمِينًا، فَجَعَل النَّبِيّ ﷺ يُومِئ إِلَى بَطْنه بِيَدِهِ وَيَقُول: «لَوْ كَانَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا لَكَانَ خَيْرًا لَك». قَال: وَأُتِيَ النَّبِيّ ﷺ بِرَجُل، فَقِيل: هَذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلك. فَقَال له النَّبِيّ ﷺ: «لَمْ تُرَعْ، لَمْ ترع، وَلَوْ أَرَدْتَ ذَلِكَ لَمْ يُسَلِّطْكَ الله عَلَيَّ»[3]. وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَيْ: بَلِّغْ أَنْتَ، وَالله هُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاء وَيُضِلّ مَنْ يَشَاء، كما قَال تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وَقَال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أَيْ: مِنْ الدِّين ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أَيْ: حَتَّى تُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا بِأَيْدِيكُمْ مِنْ الكُتُب المُنَزَّلة مِنْ الله عَلَى الأَنْبِيَاء، وَتَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا، وَمِمَّا فِيهَا الأمر باتباع محمد ﷺ، وَالإِيمَان بِمَبْعَثِهِ، وَالاقْتِدَاء بِشَرِيعَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَال لَيْث بن أَبِي سُلَيْم، عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يَعْنِي: القُرْآن العَظِيم. وَقَوْله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيره، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَيْ: فَلَا تَحْزَن عَلَيْهِمْ [وَلا يَهِيبَنَّك][4] ذَلِكَ مِنْهُمْ.

ثم قَال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وَهُمْ المُسْلِمُونَ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ وَهُمْ حَمَلَة التَّوْرَاة، ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ لَمَّا طَال الفَصْل حَسُنَ العَطْف بِالرَّفْع، وَالصَّابِئُونَ: طَائِفَة بَيْنَ النَّصَارَى وَالمَجُوس لَيْسَ لَهُمْ دِين، قَالَهُ مُجَاهِد، وَعَنْهُ: مِنْ اليَهُود وَالمَجُوس. وَقَال سَعِيد بن جُبَيْر: بَيْنَ اليَهُود وَالنَّصَارَى، وَعَنْ الحَسَن: إِنَّهُمْ كَالمَجُوسِ. وَقَال قَتَادَة: هُمْ

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٧٣) وفي إسناده موسى بن عبيدة الربذي: ضعيف، وقال ابن كثير عقب الحديث: وهذا الحديث غريب من هذا الوجه.

(٢) حسن: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١١٩) إلى ابن حبان، وابن مردويه.

(٣) ضعيف: ضعفه العلامة الألباني في «الضعيفة» (١١٣١).

(٤) في نسخة: [ولا يهيدنك].

قَوْم يَعْبُدُونَ المَلائِكَة وَيُصَلُّونَ إِلى غَيْرِ القِبْلة وَيَقْرَءُونَ الزَّبُور. وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: هُمْ قَوْم يَعْرِفُونَ الله وَحْده، وَلَيْسَتْ لَهُمْ شَرِيعَة يَعْمَلُونَ بِهَا وَلَمْ يُحْدِثُوا كُفْرًا. وَقَال ابْن وَهْب: أَخْبَرَنِي ابْن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ أَبِيهِ قَال: الصابئون هُمْ قَوْم مِمَّا يَلِي العِرَاق وَهُمْ بِكُوثَى، وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالنَّبِيِّينَ كُلّهمْ، وَيَصُومُونَ كُلّ سَنَة ثَلاثِينَ يَوْمًا، وَيُصَلُّونَ إِلى اليمن كُلّ يَوْم خَمْس صَلَوَات. وَقِيل: غَيْر ذَلِكَ. وَأَمَّا النَّصَارَى فَمَعْرُوفُونَ، وَهُمْ حَمَلَة الإِنْجِيل.

وَالمَقْصُود: أَنَّ كُلّ فِرْقَة آمَنَتْ بِالله وَبِاليَوْمِ الآخِرِ -وَهُوَ المِيعَاد وَالجَزَاء يَوْم الدِّين- وَعَمِلَتْ عَمَلًا صَالِحًا، وَلا يَكُون ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُون مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ المُحَمَّدِيَّة، بَعْد إِرْسَال صَاحِبِهَا المَبْعُوث إِلى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، فَمَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، وَلا عَلى مَا تَرَكُوا وَرَاء ظُهُورهمْ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلى نَظِيرَتِهَا فِي سُورَة البَقَرَة بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته هَاهُنَا.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

يَذْكُر تَعَالى أَنَّهُ أَخَذَ العُهُود وَالمَوَاثِيق عَلى بَنِي إِسْرَائِيل عَلى السَّمْع وَالطَّاعَة لله وَلِرُسُلِهِ، فَنَقَضُوا تِلْكَ العُهُود وَالمَوَاثِيق، وَاتَّبَعُوا آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، وَقَدَّمُوهَا عَلى الشَّرَائِع، فَمَا وَافَقَهُمْ مِنْهَا قَبِلُوهُ وَمَا خَالَفَهُمْ رَدُّوهُ؛ وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أَيْ: وَحَسِبُوا أَنْ لا يَتَرَتَّب لَهُمْ شَرٌّ عَلى مَا صَنَعُوا فَتَرَتَّبَ، وَهُوَ: أَنَّهُمْ عَمُوا عَنْ الحَقّ وَصَمُّوا، فَلا يَسْمَعُونَ حَقًّا وَلا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: مِمَّا كَانُوا فِيهِ ﴿ثُمَّ عَمُوا﴾ أَيْ: بَعْد ذَلِكَ ﴿وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: مُطَّلِع عَلَيْهِمْ، وَعَلِيم بِمَنْ يَسْتَحِقّ الهِدَايَة مِمَّنْ يَسْتَحِقّ الغَوَايَة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

يَقُول تَعَالى حَاكِيًا بِتَكْفِيرِ فِرَق النَّصَارَى: مِنْ المَلكِيَّة، وَاليَعْقُوبِيَّة، وَالنَّسْطُورِيَّة، مِمَّنْ قَال مِنْهُمْ بِأَنَّ: المَسِيح هُوَ الله، تَعَالى الله عَنْ قَوْلهمْ وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عُلُوًّا كَبِيرًا. هَذَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيهِمْ المَسِيح بِأنه عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، وَكَانَ أَوَّل كَلِمَة نَطَقَ بِهَا وَهُوَ صَغِير فِي المَهْد أَنْ قَال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي أَنَا الله وَلا ابْن الله بَل قَال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إِلى أَنْ قَال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. وَكَذَلِكَ قَال لَهُمْ فِي حَال كُهُولته وَنُبُوَّته، آمِرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ الله رَبّه وَرَبّهمْ وَحْده لا شَرِيك لهُ؛ وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أَيْ: فَيَعْبُدْ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أَيْ: فَقَدْ أَوْجَبَ لهُ النَّار وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الجَنَّة، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وَفِي الصَّحِيح: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ بَعَثَ مُنَادِيًا يُنَادِي فِي النَّاس: «**إِنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلهَا إِلا نَفْس**

مُسلمَة -وَفِي لفظ: مُؤْمِنَة-»[1]. وَتَقَدَّمَ فِي أَوَّل سُورَة النِّسَاء عِنْد قَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ حَدِيث يَزِيد بْن بَابَنُوس عَنْ عَائِشَة: «الدَّوَاوِين ثَلَاثَة...»[2]، فَذَكَرَ مِنْهُمْ دِيوَانًا لا يَغْفِرهُ الله وَهُوَ الشِّرْك بِالله، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾. وَالحَدِيث فِي مُسْنَد أَحْمَد.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ المَسِيح أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أَيْ: وَمَا لَهُ عِنْد الله نَاصِر وَلا مُعِين وَلا مُنْقِذ مِمَّا هُوَ فِيهِ. وَقَوْله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحَسَن الهِسِنْجَانِيّ، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن الحَكَم ابْن أَبِي مَرْيَم، حَدَّثَنَا الفَضْل، حَدَّثَنِي أَبُو صَخْر فِي قَوْل الله تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ قَالَ: هُوَ قَوْل اليَهُود: عُزَيْر ابْن الله، وَقَوْل النَّصَارَى: المَسِيح ابْن الله، فَجَعَلُوا الله ثَالِث ثَلَاثَة. وَهَذَا قَوْل غَرِيب فِي تَفْسِير الآيَة أَنَّ المُرَاد بِذَلِكَ طَائِفَتَا اليَهُود وَالنَّصَارَى، وَالصَّحِيح أَنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي النَّصَارَى خَاصَّة. قَالَهُ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد. ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ؛ فَقِيلَ: المُرَاد بِذَلِكَ كفرهم فِي قَوْلهمْ بِالأَقَانِيم الثَّلَاثَة؛ وَهُوَ: أُقْنُومُ الأَب وَأُقْنُومُ الابْن وَأُقْنُومُ الكَلِمَة المُنْبَثِقَة مِنْ الأَبِ إِلَى الابْنِ، تَعَالَى الله عَنْ قَوْلهمْ عُلُوًّا كَبِيرًا. قَالَ ابْن جَرِير وَغَيْره: وَالطَّوَائِف الثَّلَاثَة مِنْ المَلَكِيَّة وَاليَعْقُوبِيَّة وَالنَّسْطُورِيَّة تَقُول بِهَذِهِ الأَقَانِيم، وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِيهَا اخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا لَيْسَ هَذَا مَوْضِع بَسْطه، وَكُلّ فِرْقَة مِنْهُمْ تُكَفِّر الأُخْرَى، وَالحَقّ أَنَّ الثَّلَاث كَافِرَة. وَقَالَ السُّدِّيّ وَغَيْره: نَزَلَتْ فِي جَعْلِهِمْ المَسِيح وَأُمّه إِلَهَيْنِ مَعَ الله، فَجَعَلُوا الله ثَالِث ثَلَاثَة بِهَذَا الاعْتِبَار، قَالَ السُّدِّيّ: وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِر السُّورَة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾ الآيَة. وَهَذَا القَوْل هُوَ الأَظْهَر، وَالله أَعْلَم. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أَيْ: لَيْسَ مُتَعَدِّدًا، بَل هُوَ وَحْده لا شَرِيك لَهُ، إِلَهُ جَمِيع الكَائِنَات وَسَائِر المَوْجُودَات. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيْ: مِنْ هَذَا الافْتِرَاء وَالكَذِب ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ: فِي الآخِرَة مِنْ الأَغْلَال وَالنَّكَال. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وَهَذَا مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى وَجُودِهِ وَلُطْفه، وَرَحْمَته بِخَلْقِهِ مَعَ هَذَا الذَّنْب العَظِيم، وَهَذَا الافْتِرَاء وَالكَذِب وَالإِفْك، يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَة وَالمَغْفِرَة، فَكُلّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ. ثم قال تَعَالَى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾ أَيْ: لَهُ سوية أَمْثَاله مِنْ سَائِر المُرْسَلِينَ المُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ عَبْد مِنْ عِبَاد الله، وَرَسُول مِنْ رُسُله الكِرَام، كَمَا قَالَ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾ أَيْ: مُؤْمِنَة بِهِ، مُصَدِّقَة لَهُ، وَهَذَا أَعْلَى مَقَامَاتهَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَبِيَّة، كَمَا زَعَمَهُ ابْن حَزْم وَغَيْره مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى نُبُوَّة سَارَّة أُمّ إِسْحَاق، وَنُبُوَّة أُمّ مُوسَى، وَنُبُوَّة أُمّ عِيسَى؛ اسْتِدْلَالًا مِنْهُمْ بِخِطَابِ المَلَائِكَة لِسَارَّة وَمَرْيَم، وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وَهَذَا مَعْنَى النُّبُوَّة، وَالَّذِي عَلَيْهِ الجُمْهُور أَنَّ الله لَمْ يَبْعَث نَبِيًّا إِلَّا مِنْ الرِّجَال، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾، وَقَدْ حَكَى الشَّيْخ أَبُو الحَسَن الأَشْعَرِيّ رَحِمَهُ اللهُ الإِجْمَاع عَلَى ذَلِكَ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ أَيْ: يَحْتَاجَانِ إِلَى التَّغْذِيَة بِهِ وَإِلَى خُرُوجه مِنْهُمَا، فَهُمَا عَبْدَانِ كَسَائِرِ النَّاس وَلَيْسَا بِإِلَهَيْنِ، كَمَا زَعَمَتْ فِرَق النَّصَارَى الجَهَلَة، عَلَيْهِمْ لَعَائِن الله المُتَتَابِعَة إِلَى يَوْم القِيَامَة. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أَيْ: نُوَضِّحهَا وَنُظْهِرهَا ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أَيْ: ثُمَّ انْظُرْ بَعْد هَذَا البَيَان وَالوُضُوح وَالجَلَاء أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ وَبِأَيِّ قَوْل يَتَمَسَّكُونَ؟ وَإِلَى أَيِّ مَذْهَب مِنَ الضَّلَال يَذْهَبُونَ؟

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).
(٢) ضعيف: تقدم.

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

يَقُول تَعَالى مُنْكِرًا على مَنْ عَبَدَ غَيْره مِنَ الأَصْنَام وَالأَنْداد وَالأَوْثَان، وَمُبَيِّنًا لهُ أَنَّها لا تَسْتَحِقّ شَيْئًا مِنَ الإِلهِيَّة: ﴿ قُلْ ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّد لهَؤُلاءِ العَابِدِينَ غَيْرَ الله مِنْ سَائِر فِرَق بَنِي آدَم، وَدَخَل فِي ذَلكَ النَّصَارَى وَغَيْرهمْ ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَيْ: لا يَقْدِر عَلى إيصال ضَرٍّ إليكُمْ، وَلا إيجاد نَفع ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أَيْ: فَلِمَ عدلتم عن إفراد السَّمِيع لأَقْوَال عِبَاده، العَليم بكُلِّ شَيْء، فَلِمَ عَدَلتُمْ عَنْهُ إِلى عِبَادَة جَماد لا يَسْمَع وَلا يُبْصِر وَلا يَعْلم شَيْئًا، وَلا يَمْلك ضَرًّا وَلا نَفْعًا لغَيْرِهِ وَلا لنَفْسِهِ. ثم قَال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: لا تُجَاوِزُوا الحَدّ فِي اتِّبَاع الحَقّ، وَلا تُطْرُوا مَنْ أُمِرْتُمْ بِتَعْظِيمِهِ، فَتُبَالغُوا فِيهِ حَتَّى تُخْرِجُوهُ عَنْ حَيِّز النُّبُوَّة إِلى مَقَام الإِلهِيَّة، كَمَا صَنَعْتُمْ فِي المَسِيح وَهُوَ نَبِيّ مِنْ الأَنْبِيَاء، فَجَعَلتُمُوهُ إِلهًا مِنْ دُون الله، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لاقْتِدَائِكُمْ بشُيُوخ الضَّلال الَّذِينَ هُمْ سَلفكُمْ مِمَّنْ ضَلَّ قَدِيمًا ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ: وَخَرَجُوا عَنْ طَرِيق الاسْتِقَامَة وَالاعْتِدَال إِلى طَرِيق الغَوَايَة وَالضَّلال.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثنا أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَبِي جَعْفَر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، قَال: وَقَدْ كَانَ قَائِم قَامَ عَليْهِمْ، فَأَخَذَ بِالكِتَاب وَالسُّنَّة زَمَانًا فَأَتَاهُ الشَّيْطَان، فَقَال: إِنَّمَا تَرْكَب أَثَرًا أَوْ أَمْرًا قَدْ عُمِل قَبْلك فَلا تُحْمَد عَليْهِ، وَلكِنْ ابْتَدِعْ أَمْرًا مِنْ قِبَل نَفْسك، وَادْعُ إِليْهِ وَأَجْبِرْ النَّاس عَليْهِ؛ فَفَعَل، ثُمَّ ادَّكَر بَعْد فِعْله زَمَانًا فَأَرَادَ أَنْ يَتُوب مِنْهُ، فَخَلعَ سُلطَانه وَمُلكه وَأَرَادَ أَنْ يَتَعَبَّد، فَلبِثَ فِي عِبَادَته أَيَّامًا، فَأُتِيَ فَقِيل لهُ: لوْ أَنَّك تُبْت مِنْ خَطِيئَة عَمِلتها فِيمَا بَيْنك وَبَيْن رَبّك، عَسَى أَنْ يُتَاب عَليْك، وَلكِنْ ضَلَّ فُلان وَفُلان فِي سَبِيلك، حَتَّى فَارَقُوا الدُّنْيَا وَهُمْ عَلى الضَّلالة، فَكَيْف لكَ بِهُدَاهُمْ فَلا تَوْبَة لك أَبَدًا. فَفِيهِ سَمِعْنَا وَفِي أَشْبَاهه هَذِهِ الآيَة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ لعَنَ الكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل مِنْ دَهْر طَوِيل، فِيمَا أَنْزَلهُ عَلى دَاوُدَ نَبِيّه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلى لسَان عِيسَى ابْن مَرْيَم؛ بِسَبَبِ عِصْيَانهمْ لله وَاعْتِدَائِهِمْ عَلى خَلقه. قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: لُعِنُوا فِي التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل وَفِي الزَّبُور وَفِي الفُرْقَان. ثُمَّ بَيَّنَ حَالهمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانهمْ، فقَال تَعَالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أَيْ: كَانَ لا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنْ ارْتِكَاب المَآثِم وَالمَحَارِم، ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلى ذَلكَ؛ ليُحْذَر أَنْ يُرْتَكَب مِثْل الَّذِي ارْتَكَبُوهُ فَقَال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾. وَقَال الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا شَرِيك بْن عَبْد الله، عَنْ عَليّ بْن بَذِيمَة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**لمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيل فِي المَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عُلمَاؤُهُمْ فَلمْ يَنْتَهُوا فَجَالسُوهُمْ فِي مَجَالسهمْ** -قَال يَزِيد: وَأَحْسَبُهُ قَال: **وَأَسْوَاقهمْ**- **وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ الله قُلُوب بَعْضهمْ بِبَعْضٍ، وَلعَنَهُمْ عَلى لسَان دَاوُدَ وَعِيسَى ابْن مَرْيَم** ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾». وَكَانَ

رَسُول الله ﷺ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا»[١]. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مُحَمَّد النُّفَيْلِيّ، حَدَّثَنَا يُونُس بْن رَاشِد، عَنْ عَلِيّ بْن بَذِيمَة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ : «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الغَدِ فَلا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَٰسِقُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: «كَلا وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا، أَوْ تَقْصُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ قَصْرًا»[٢].

وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن ماجه، مِنْ طَرِيق عَلِيّ بْن بَذِيمَة بِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب. ثُمَّ رَوَاهُ هُوَ وَابْن ماجه عَنْ بُنْدَار، عَنْ ابْن مَهْدِيّ، عَنْ سُفْيَان، عَنْ عَلِيّ بْن بَذِيمَة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة مُرْسَلًا. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ وَهَارُون بْن إِسْحَاق الهَمْدَانِيّ قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مُحَمَّد المُحَارِبِيّ، عَنْ العَلَاء ابْن المُسَيَّب، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ سَالِم الأَفْطَس، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ : «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا رَأَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْبِ نَهَاهُ عَنْهُ تَعْزِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَخَلِيطَهُ وَشَرِيكَهُ». وَفِي حَدِيث هَارُون: «وَشَرِيبَهُ». ثُمَّ اتَّفَقَا فِي المَتْن: «فَلَمَّا رَأَى اللهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾». ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ المُسِيءِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، أَوْ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»[٣]. وَالسِّيَاق لِأَبِي سَعِيد، كَذَا قَالَ فِي رِوَايَته هَذَا الحَدِيث. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ خَلَف بْن هِشَام، عَنْ أَبِي شِهَاب الخَيَّاط، عَنْ العَلَاء بْن المُسَيَّب، عَنْ عمرو بْن مُرَّة، عَنْ سَالِم -وَهُوَ ابْن عَجْلَان الأَفْطَس- عَنْ أَبِي عُبَيْدَة ابْن عَبْد الله بْن مَسْعُود، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِهِ. ثُمَّ قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَكَذَا رَوَاهُ خَالِد، عَنْ العَلَاء، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة بِهِ. وَرَوَاهُ المُحَارِبِيّ، عَنْ العَلَاء بْن المُسَيَّب، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو ابْن مُرَّة، عَنْ سَالِم الأَفْطَس، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله. قَالَ شَيْخنَا الحَافِظ أَبُو الحَجَّاج المِزِّيّ: وَقَدْ رَوَاهُ خَالِد ابْن عَبْد الله الوَاسِطِيّ، عَنْ العَلَاء بْن المُسَيَّب، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ أَبِي مُوسَى.

وَالأَحَادِيث فِي الأَمْر بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَر كَثِيرَة جِدًّا، وَلْنَذْكُرْ مِنْهَا مَا يُنَاسِب هَذَا المَقَام. قَدْ تَقَدَّمَ حَدِيث جرير عِنْد قَوْله: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ وَسَيَأْتِي عِنْد قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ حَدِيث أَبِي بَكْر الصِّدِّيق وَأَبِي ثَعْلَبَة الخُشَنِيّ، فَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان الهَاشِمِيّ، أَنْبَأَنَا إِسْمَاعِيل بْن جَعْفَر، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن أَبِي عَمْرو، عَنْ عَبْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن الأَشْهَلِيّ، عَنْ حُذَيْفَة بْن اليَمَان، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»[٤]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ عَلِيّ بْن حُجْر، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن جَعْفَر بِهِ. وَقَالَ: هَذَا حَدِيث حَسَن. وَقَالَ أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد بْن يَزِيد ابْن ماجه: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن هِشَام، عَنْ هِشَام بْن سَعْد، عَنْ عَمْرو بْن عُثْمَان، عَنْ عَاصِم بْن عُمَر بْن عُثْمَان،

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٠٤٧)، وأحمد (١/ ٣٩١) من حديث ابن مسعود، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٧٣).
(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٩٣) من حديث ابن مسعود، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٨٢٢).
(٣) ضعيف: فيه أبو عبيدة ولم يسمع من ابن مسعود فالإسناد منقطع.
(٤) حسن: تقدم.

عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة قَالَتْ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**مُرُوا بِالمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ المُنْكَر، قَبْل أَنْ تَدْعُوا فَلا يُسْتَجَاب لَكُمْ**»[1]. تَفَرَّدَ بِهِ، وَعَاصِم هَذَا مَجْهُول. وَفِي الصَّحِيح: مِنْ طَرِيق الأَعْمَش، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن رَجَاء، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيد، وَعَنْ قَيْس بْن مُسْلِم، عَنْ طَارِق بْن شِهَاب، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَف الإِيمَان**»[2]. رَوَاهُ مُسْلِم. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا ابْن نُمَيْر، حَدَّثَنَا سَيْف -هُوَ ابْن أَبِي سُلَيْمَان- سَمِعْت عَدِيّ ابْن عَدِيّ الكِنْدِيّ يُحَدِّث، عَنْ مُجَاهِد، قَالَ: حَدَّثَنِي مَوْلًى لَنَا، أَنَّهُ سَمِعَ جَدِّي -يَعْنِي عَدِيّ بْن عَمِيرَة ؓ- يَقُول: سَمِعْت النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «**إِنَّ الله لا يُعَذِّب العَامَّة بِعَمَل الخَاصَّة، حَتَّى يَرَوْا المُنْكَر بَيْن ظَهْرَانِيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلا يُنْكِرُونَهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ الله الخَاصَّة وَالعَامَّة**»[3].

ثُمَّ رَوَاهُ أَحْمَد: عَنْ أَحْمَد بْن الحَجَّاج، عَنْ عَبْد الله بْن المُبَارَك، عَنْ سَيْف بْن أَبِي سُلَيْمَان، عَنْ عِيسَى بْن عَدِيّ الكِنْدِيّ، حَدَّثَنِي مَوْلًى لَنَا، أَنَّهُ سَمِعَ جَدِّي يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول، فَذَكَره، هَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد مِنْ هَذَيْنِ الوَجْهَيْنِ. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا محمد بن العَلاء، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر، حَدَّثَنَا المُغِيرَة بْن زِيَاد المَوصِلِّي، عَنْ عَدِيّ بْن عَدِيّ، عَنْ العُرْس -يُعْنَى: ابْن عَمِيرَة- عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا عُمِلَتْ الخَطِيئَة فِي الأَرْض كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا** -وَقَالَ مَرَّة: **فَأَنْكَرَهَا- كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا**»[4]. تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ، ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ أَحْمَد بْن يُونُس، عَنْ أَبِي شِهَاب، عَنْ مُغِيرَة بْن زِيَاد، عَنْ عَدِيّ بْن عَدِيّ مُرْسَلًا. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن حَرْب وَحَفْص بْن عُمَر، قَالا: حَدَّثَنَا شُعْبَة -وَهَذَا لَفْظه- عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي البَخْتَرِيّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ - وَقَالَ سُلَيْمَان: حَدَّثَنِي رَجُل مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**لَنْ يَهْلِك النَّاس حَتَّى يَعْذِرُوا -أَوْ يُعْذِرُوا- مِنْ أَنْفُسهمْ**»[5]. وَقَالَ ابْن ماجه: حَدَّثَنَا عِمْرَان بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَامَ خَطِيبًا فَكَانَ فِيمَا قَالَ: «**أَلا لا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاس أَنْ يَقُول الحَقّ إِذَا عَلِمَهُ**»[6]. قَالَ: فَبَكَى أَبُو سَعِيد وَقَالَ: قَدْ وَالله رَأَيْنَا أَشْيَاء فَهِبْنَا. وَفِي حَدِيث إِسْرَائِيل، عن محمد بن جحادة، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَفْضَل الجِهَاد كَلِمَة حَقّ عِنْد سُلْطَان جَائِر**»[7]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن ماجه، وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَالَ ابْن ماجه: حَدَّثَنَا رَاشِد بْن سَعِيد الرَّمْلِيّ، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلِم، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ أَبِي غَالِب، عَنْ أَبِي أُمَامَة، قَالَ: عَرَضَ لِرَسُول الله ﷺ رَجُل عِنْد الجَمْرَة الأُولَى، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، أَيّ الجِهَاد أَفْضَلُ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ، فَلَمَّا رَمَى الجمرة الثَّانِيَة سَأَلَهُ فَسَكَتَ عَنْهُ، فَلَمَّا رَمَى جَمْرَة العَقَبَة وَوَضَعَ رِجْله فِي الغَرْز لِيَرْكَب قَالَ: «**أَيْنَ السَّائِل؟**» قَالَ: أَنَا يَا رَسُول الله. قَالَ: «**كَلِمَة حَقّ تُقَال عِنْد ذِي سُلْطَان جَائِر**». تَفَرَّدَ بِهِ.

وَقَالَ ابْن ماجه: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن نُمَيْر وَأَبُو مُعَاوِيَة، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة،

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٤)، وأحمد (٦/ ١٥٩) من حديث عائشة، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٣٥).
(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٤٩).
(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٤/ ١٩٢) وفيه رجل لم يسم في السند، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٦٧٥).
(٤) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤٣٤٥) من حديث العُرْس بن عميرة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٩).
(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٣٤٧)، وأحمد (٤/ ٢٦٠، ٥/ ٢٩٣)، وابن الجعد (١/ ٣٦) من حديث أبي البختري عن رجل، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٣١).
(٦) **صحيح**: تقدم.
(٧) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١) من حديث أبي سعيد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٠٠).

عَنْ أَبِي البَخْتَرِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «لا يَحْقِر أحدكُمْ نَفسه». قَالُوا: يَا رَسُول الله، كَيْفَ يَحْقِر أَحَدُنَا نَفْسَهُ؟ قَال: «يَرَى أَمرًا لله فِيهِ مَقَال، ثُمَّ لا يَقُول فِيهِ، فَيَقُول الله له يَوْم القِيَامَة: مَا مَنَعَك أَنْ تَقُول فِي كَذَا وَكَذَا. فَيَقُول: خَشْيَة النَّاس. فَيَقُول: فَإِيَّايَ كُنْت أَحَقّ أَنْ تَخْشَى»(١). تَفَرَّدَ بِهِ. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن فُضَيْل، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن أَبُو طُوَالَة، حَدَّثَنَا نَهَار العَبْدِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيد الخُدْرِيّ يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ الله لَيَسْأَل العَبْد يَوْم القِيَامَة حَتَّى يَقُول: مَا مَنَعَك إِذَا رَأَيْت المُنْكَر أَنْ تُنْكِرهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللَّهُ عَبْدًا حُجَّتَهُ قَال: يَا رَبِّ، رَجَوْتُك وَفَرِقْت مِن النَّاس»(٢). تَفَرَّدَ بِهِ أَيْضًا ابْن مَاجه، وَإِسْنَاده لا بَأْس بِهِ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَاصِم، عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ الحَسَن، عَنْ جُنْدَب، عَنْ حُذَيْفَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «لا يَنْبَغِي لِمُسْلِم أَنْ يُذِلّ نَفْسه». قِيل: وَكَيْف يُذِلّ نَفْسه؟ قَال: «يَتَعَرَّض مِنْ البَلاء مَا لا يُطِيق»(٣). وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجه جَمِيعًا عَنْ مُحَمَّد بْن بشار، عَنْ عَمْرو بْن عَاصِم بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن صحيح غَرِيب. وَقَال ابْن مَاجهْ: حَدَّثَنَا العَبَّاس بْن الوَلِيد الدِّمَشْقِيّ، حَدَّثَنَا زَيْد ابْن يَحْيَى بْن عُبَيْد الخُزَاعِيّ، حَدَّثَنَا الهَيْثَم بْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْبَد حَفْص بْن غَيْلان الرُّعَيْنِيّ، عَنْ مَكْحُول، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، قَال: قِيل: يَا رَسُول الله مَتَى يُتْرَك الأَمْر بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَر؟ قَال: «إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي الأُمَم قَبْلكُمْ». قُلْنَا: يَا رَسُول الله، وَمَا ظَهَرَ فِي الأُمَم قَبْلنَا؟ قَال: «المُلك فِي صِغَارِكُمْ، وَالفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ، وَالعِلمُ فِي رِذَالكُمْ»(٤). قَال زَيْد: تَفْسِير مَعْنَى قَوْل النَّبِيّ ﷺ: «وَالعِلم فِي رِذَالكُمْ»: إِذَا كَانَ العِلم فِي الفُسَّاق. تَفَرَّدَ بِهِ ابْن ماجه، وَسَيَأْتِي فِي حَدِيث أَبِي ثَعْلَبَة عِنْد قَوْله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾- شَاهِد لهَذَا إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى وَبِهِ الثِّقَة. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قَال مُجَاهِد: يَعْنِي بِذَلِكَ المُنَافِقِينَ. وَقَوْله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: مُوَالاتهمْ لِلكَافِرِينَ، وَتَرْكهمْ مُوَالاة المُؤْمِنِينَ، الَّتِي أَعْقَبَتْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبهمْ، وَأَسْخَطَتْ الله عَلَيْهِمْ سَخَطًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْم مَعَادهمْ، وَلِهَذَا قَال: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فَسَّرَ بِذَلِكَ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ يَعْنِي: يَوْم القِيَامَة. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا مسلمة بْن عَلِيّ، عَنْ الأَعْمَش بِإِسْنَادٍ ذَكَرَهُ قَال: «يَا مَعْشَر المُسْلِمِين، إِيَّاكُمْ وَالزِّنَا؛ فَإِنَّ فِيهِ سِتّ خِصَال: ثَلاثًا فِي الدُّنْيَا وَثَلاثًا فِي الآخِرَة؛ فَأَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا: فَإِنَّهُ يُذْهِب البَهَاء، وَيُورِث الفَقْر، وَيَنْقُص العُمْر، وَأَمَّا الَّتِي فِي الآخِرَة: فَإِنَّهُ يُوجِب سَخَط الرَّبّ، وَسُوء الحِسَاب، وَالخُلُود فِي النَّار». ثُمَّ تَلا رَسُول الله ﷺ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾(٥). هَكَذَا ذَكَرَهُ ابْن أَبِي حَاتِم، وَقَدْ رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ، من طَرِيق هِشَام بْن عَمَّار، عَنْ مسلمة، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ شَقِيق، عَنْ حُذَيْفَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فَذَكَرَهُ، وَسَاقَهُ أَيْضًا: مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن عُفَيْر، عَنْ مسلمة، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الكُوفِيّ، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ شَقِيق، عَنْ حُذَيْفَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فَذَكَرَ مِثْله. وَهَذَا حَدِيث ضَعِيف عَلَى كُلّ حَال، وَالله أَعْلَم. ثم قَال تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ

---

(١) ضعيف: تقدم.
(٢) ضعيف: تقدم.
(٣) حسن لغيره: تقدم.
(٤) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٤٠١٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» وقال: ضعيف الإسناد لعنعنة مكحول.
(٥) ضعيف جدًا: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٣/ ٦٦٦٨) وفيه سلمة الخشني؛ قال الحافظ: متروك.

إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ أَيْ: لَوْ آمَنُوا حَقّ الإِيمَان بِالله وَالرَّسُول وَالقُرْآن لَمَا ارْتَكَبُوا مَا ارْتَكَبُوهُ؛ مِنْ مُوَالاة الكَافِرِينَ فِي البَاطِنِ، وَمُعَادَاة المُؤْمِنِينَ بِالله وَالنَّبِيّ وَمَا أُنْزِل إليه؛ ما اتخذوهم أولياء، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ أَيْ: خَارِجُونَ عَنْ طَاعَة الله وَرَسُوله، مُخَالِفُونَ لآيَاتِ وَحْيه وَتَنْزِيله.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَات فِي النَّجَاشِيّ وَأَصْحَابه، الَّذِينَ حِين تَلا عَلَيْهِمْ جَعْفَر ابْن أَبِي طَالب بِالحَبَشَةِ القُرْآن بَكَوْا حَتَّى أَخْضَلُوا لحَاهُمْ. وَهَذَا القَوْل فِيهِ نَظَر؛ لأَنَّ هَذِهِ الآيَة مَدَنِيَّة وَقِصَّة جَعْفَر مَعَ النَّجَاشِيّ قَبْل الهِجْرَة. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر وَالسُّدِّيّ وَغَيْرهمَا: نَزَلَتْ فِي وَفْد بَعَثَهُمْ النَّجَاشِيّ إِلى النَّبِيّ ﷺ؛ لِيَسْمَعُوا كَلامه وَيَرَوْا صِفَاته، فَلَمَّا رَأَوْهُ وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ النبي ﷺ القُرْآن أَسْلَمُوا وَبَكَوْا وَخَشَعُوا، ثُمَّ رَجَعُوا إِلى النَّجَاشِيّ فَأَخْبَرُوهُ. قَال السُّدِّيّ: فَهَاجَرَ النَّجَاشِيّ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ. وَهَذَا مِنْ أَفْرَاد السُّدِّيّ، فَإِنَّ النَّجَاشِيّ مَاتَ وَهُوَ مَلك الحَبَشَة، وَصَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ يَوْم مَاتَ، وَأَخْبَرَ بِهِ أَصْحَابه، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَاتَ بِأَرْضِ الحَبَشَة. ثُمَّ اخْتُلفَ فِي عِدَّة هَذَا الوَفْد؛ فَقِيل: اثْنَا عَشَر؛ سَبْعَة قَسَاوِسَة، وَخَمْسَة رَهَابِين. وَقِيل: بِالعَكْسِ. وَقِيل: خَمْسُونَ. وَقِيل: بِضْع وَسِتُّونَ. وَقِيل: سَبْعُونَ رَجُلًا. فَالله أَعْلم. وَقَال عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح: هُمْ قَوْم مِنْ أَهْل الحَبَشَة أَسْلَمُوا حِين قَدِمَ عَلَيْهِمْ مُهَاجِرَة الحَبَشَة مِنْ المُسْلمِينَ. وَقَال قَتَادَة: هُمْ قَوْم كَانُوا عَلى دِين عِيسَى ابْن مَرْيَم، فَلَمَّا رَأَوْا المُسْلمِينَ وَسَمِعُوا القُرْآن أَسْلمُوا وَلمْ يَتَلعْثَمُوا. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ هَذِهِ الآيَات نَزَلتْ فِي صِفَة أَقْوَام بِهَذِهِ المَثَابَة سَوَاء كَانُوا مِنْ الحَبَشَة أَوْ غَيْرهَا. فَقَوْله تَعَالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لأَنَّ كُفْرَ اليَهُودِ كُفْرُ عِنَادٍ وَجُحُودٍ، وَمُبَاهَتَة للحَقِّ، وَغَمْط للنَّاسِ، وَتَنَقُّص بِحَمَلةِ العِلم؛ وَلهَذَا قَتَلُوا كَثِيرًا مِنْ الأَنْبِيَاء، حَتَّى هَمُّوا بِقَتْل رَسُول الله ﷺ غَيْر مَرَّة، وَسَمُّوهُ وَسَحَرُوهُ، وَأَلَّبُوا عَليْهِ أَشْبَاههمْ مِنْ المُشْرِكِينَ، عَليْهِمْ لعَائِن الله المُتَتَابِعَة إِلى يَوْم القِيَامَة. وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد ابْن السَّرِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَليّ بْن حَبِيب الرَّقِّيّ، حَدَّثَنَا عَليّ بْن سَعِيد العَلَّاف، حَدَّثَنَا أَبُو النَّضر، عَنْ الأَشْجَعِيّ، عَنْ سُفْيَان، عَنْ يَحْيَى بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَا خَلا يَهُودِيّ بِمُسْلمٍ قَطُّ إِلا هَمَّ بِقَتْلهِ**»[1]. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن إِسْحَاق اليَشْكُرِيّ، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سَهْل بْن أَيُّوب الأَهْوَازِيّ، حَدَّثَنَا فَرَج بْن عُبَيْد، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن العَوَّام، عَنْ يَحْيَى بْن عَبْيد الله، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَا خَلا يَهُودِيّ بِمُسْلمٍ إِلا حَدَّثَتْه نَفْسه بِقَتْلهِ**»[2]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ أَيْ: الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ نَصَارَى مِنْ أَتْبَاع المَسِيح وَعَلى مِنْهَاج إِنْجِيله -فِيهِمْ مَوَدَّة للإِسْلام وَأَهْله فِي الجُمْلة، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لمَا فِي قُلُوبهمْ إِذْ كَانُوا عَلى دِين المَسِيح مِنْ الرِّقَّة وَالرَّأْفَة، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ

---

(١) ضعيف: ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٤٣٩).
(٢) ضعيف: قال الحافظ ابن كثير بعد إيراد الحديث: وهذا الحديث غريب جدًا.

وَرَحْمَةً﴾، وَفِي كِتَابِهِمْ: مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَأَدِرْ لَهُ خَدَّكَ الأَيْسَرَ. وَلَيْسَ القِتَالُ مَشْرُوعًا فِي مِلَّتِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيْ: يُوجَدُ فِيهِمُ القِسِّيسُونَ وَهُمْ خُطَبَاؤُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ، وَاحِدُهُمْ قِسِّيس وَقَسّ أَيْضًا، وَقَدْ يُجْمَعُ عَلَى قُسُوس، وَالرُّهْبَانُ: جَمْعُ رَاهِب، وَهُوَ العَابِدُ مُشْتَقّ مِنَ الرَّهْبَةِ، وَهِيَ الخَوْفُ، كَرَاكِبٍ وَرُكْبَان وَفَارِس وَفُرْسَان. قَالَ ابْنُ جَرِير: وَقَدْ يَكُونُ الرُّهْبَانُ وَاحِدًا وَجَمْعُه رَهَابِين، مِثْل قُرْبَان وَقَرَابِين، وجُرْذَان وَجَرَاذِين، وَقَدْ يُجْمَعُ عَلَى رَهَابِنَة، وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ يَكُونُ عِنْدَ العَرَبِ وَاحِدًا قَوْلُ الشَّاعِر:

لَوْ عَايَنَتْ رُهْبَانَ دَيْرٍ فِي القُلَلْ ❁ لَانْحَدَرَ الرُّهْبَانُ يَمْشِي وَنَزَلْ

وَقَالَ الحَافِظُ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا بِشْر بْن آدَم، حَدَّثَنَا نُصَيْر بْن أَبِي الأَشْعَث، حَدَّثَنِي الصَّلْت الدَّهَّان، عَنْ حَامِيَة بْن رِئَاب، قَالَ: سَأَلْتُ سَلْمَانَ عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ فَقَالَ: دَعِ القِسِّيسِينَ فِي البِيَعِ وَالخَرِبِ، أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقِينَ وَرُهْبَانًا»(١). وَكَذَا رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ: مِنْ طَرِيق يَحْيَى بْن عَبْد الحَمِيد الحِمَّانِيّ، عَنْ نُصَيْر بْن زِيَاد الطَّائِيّ، عَنْ صَلْت الدَّهَّان، عَنْ حَامِيَة بْن رِئَاب، عَنْ سَلْمَانَ بِهِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِم: ذَكَرَهُ أَبِي، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عَبْد الحَمِيد الحِمَّانِيّ، حَدَّثَنَا نُصَيْر بْن زِيَاد الطَّائِيّ، حَدَّثَنَا صَلْت الدَّهَّان، عَنْ حَامِيَة بْن رِئَاب، قَالَ: سَمِعْتُ سَلْمَانَ وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ فَقَالَ: هُمُ الرُّهْبَانُ الَّذِينَ هُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالخَرِبِ فَدَعُوهُمْ فِيهَا. قَالَ سَلْمَانُ: وَقَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ فَأَقْرَأَنِي: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقِينَ وَرُهْبَانًا».

فَقَوْلُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تَضَمَّنَ وَصْفَهُمْ بِأَنَّ فِيهِمُ العِلْمَ وَالعِبَادَةَ وَالتَّوَاضُعَ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِالانْقِيَادِ لِلْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَالإِنْصَافِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أَيْ: مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ البِشَارَةِ بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَيْ: مَعَ مَنْ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ هَذَا وَيُؤْمِنُ بِهِ. وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيّ عَنْ عَمْرو بْن عَلِيّ الفَلَّاس، عَنْ عُمَر بْن عَلِيّ بْن مُقَدَّم، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد اللهِ بْن الزُّبَيْر، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي النَّجَاشِيّ وَفِي أَصْحَابِهِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾. وَقَالَ الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو شُبَيْل عُبَيْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن وَاقِد، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا العَبَّاس بْن الفَضْل، عَنْ عَبْد الجَبَّار بْن نَافِع الضَّبِّيّ، عَنْ قَتَادَة وَجَعْفَر بْن إِيَاس، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنِ ابْنِ عَبَّاس، فِي قَوْلِه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾. قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا نَوَّاتِين -يَعْنِي: مَلَّاحِينَ- قَدِمُوا مَعَ جَعْفَر بْن أَبِي طَالِب مِنَ الحَبَشَةِ، فَلَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ آمَنُوا، وَفَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَعَلَّكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَرْضِكُمُ انْتَقَلْتُمْ إِلَى دِينِكُمْ» فَقَالُوا: لَنْ نَنْتَقِلَ عَنْ دِينِنَا فَأَنْزَلَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ(٢). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِم وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ وَالحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِه: مِنْ طَرِيق سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنِ ابْنِ عَبَّاس فِي قَوْلِه: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَيْ: مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأُمَّتِه وَهُمُ الشَّاهِدُونَ: يَشْهَدُونَ لِنَبِيِّهِمْ ﷺ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَلِلرُّسُلِ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا. ثُمَّ قَالَ الحَاكِمُ: صَحِيحُ الإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٣) وفيه الصلت بن عمر الدهان وحامية بن حرب لم أقف لهما على جرح ولا تعديل.
(٢) ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٥٥) بسند ضعيف فيه العباس بن الفضل الأنصاري، قال الحافظ: متروك الحديث.

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وَهَذَا الصِّنف مِنَ النَّصَارَى هُمُ المَذْكُورُونَ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾. وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ الله فِيهِمْ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ إِلى قَوْله: ﴿ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، ولهذا قَالَ تَعَالى هَاهُنَا: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ﴾ أَيْ: فَجَازَاهُمْ عَلى إِيمَانهمْ وَتَصْدِيقهمْ وَاعْتِرَافهمْ بِالحَقِّ ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ﴾ أَيْ: ساكنين فِيهَا أَبَدًا لا يُحَوَّلُونَ وَلا يَزُولُونَ ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ: فِي اتِّبَاعهمْ الحَقّ وَانْقِيَادهمْ لهُ حَيْثُ كَانَ وَأَيْنَ كَانَ وَمَعَ مَنْ كَانَ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَال الأَشْقِيَاء فَقَال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أَيْ: جَحَدُوا بِهَا وَخَالَفُوهَا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ: هُمْ أَهْلهَا وَالدَّاخِلُونَ فِيهَا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة فِي رَهْط مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ، قَالُوا: نَقْطَع مَذَاكِيرنَا، وَنَتْرُك شَهَوَات الدُّنْيَا، وَنَسِيح فِي الأَرْض كَمَا يَفْعَل الرُّهْبَان. فَبَلغَ ذَلكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَرْسَل إِليْهِمْ، فَذَكَرَ لهُمْ ذَلكَ. فَقَالُوا: نَعَمْ. فَقَال النَّبِيّ ﷺ: **«لكِنِّي أَصُوم وَأُفْطِر، وَأُصَلِّي وَأَنَام، وَأَنْكِح النِّسَاء، فَمَنْ أَخَذَ بِسُنَّتِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ لمْ يَأْخُذ بِسُنَّتِي فَليْسَ مِنِّي»**[1]. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَرَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ: مِنْ طَرِيق العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس نَحْو ذَلكَ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ عَنْ عَمَله فِي السر، فَقَال بَعْضهمْ: لا آكُل اللَّحْم، وَقَال بَعْضهمْ: لا أَتَزَوَّج النِّسَاء، وَقَال بَعْضهمْ: لا أَنَام عَلى فِرَاش. فَبَلغَ ذَلكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَال: **«مَا بَال أَقْوَام يَقُول أَحَدهمْ كَذَا وَكَذَا، لكِنِّي أَصُوم وَأُفْطِر، وَأَنَام وَأَقُوم، وَآكُل اللَّحْم، وَأَتَزَوَّج النِّسَاء، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَليْسَ مِنِّي»**[2]. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عِصَام الأَنْصَارِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِم الضَّحَّاك بْن مَخْلد، عَنْ عُثْمَان -يَعْنِي: ابن سَعْد- أَخْبَرَنِي عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنِّي إِذَا أَكَلت اللَّحْم انْتَشَرْت للنِّسَاء، وَإِنِّي حَرَّمْت عَليَّ اللَّحْم. فَنَزَلتْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[3]. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن جَرِير جَمِيعًا: عَنْ عَمْرو بْن عَلِيّ الفَلَّاس، عَنْ أَبِي عَاصِم النَّبِيل بِهِ. وَقَال: حَسَن غَرِيب. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وَجْه آخَر مُرْسَلًا، وَرُوِيَ مَوْقُوفًا عَلى ابْن عَبَّاس، فَالله أَعْلم.

وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَوَكِيع: عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد، عَنْ قَيْس بْن أَبِي حَازِم، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَال: كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيّ ﷺ وَليْسَ مَعَنَا نِسَاء، فَقُلنَا: أَلَا نَسْتَخْصِي، فَنَهَانَا رَسُول الله ﷺ عَنْ ذَلكَ، وَرَخَّصَ لنَا أَنْ نَنْكِح المَرْأَة بِالثَّوْبِ إِلى أَجَل، ثُمَّ قَرَأَ عَبْد الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[4]. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث إِسْمَاعِيل، وَهَذَا كَانَ قَبْل تَحْرِيم نِكَاح المُتْعَة، وَالله أَعْلم. وَقَال

---

(١) ضعيف الإسناد: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٧/ ٦٦٨٩)، ورواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: منقطعة.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).
(٣) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٦)، والترمذي (٣٠٥٤) بسند ضعيف فيه عثمان بن سعد الكاتب، قال الحافظ: ضعيف.
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦١٥)، ومسلم (١٤٠٤).

الأعمش: عن إبراهيم، عن همام بن الحارث، عن عمرو بن شرحبيل، قال: جاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود، فقال: إني حرمت فراشي، فتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. وقال الثوري: عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فجيء بضرع فتنحى رجل، فقال له عبد الله: ادنُ. فقال: إني حرمت أن آكله. فقال عبد الله: ادنُ فاطعم وكفّر عن يمينك، وتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. رواهن ابن أبي حاتم، وروى الحاكم هذا الأثر الأخير في مستدركه: من طريق إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن منصور به، ثم قال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد، أن زيد بن أسلم حدثه: أن عبد الله بن رواحة أضافه ضيف من أهله وهو عند النبي ﷺ، ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارًا له، فقال لامرأته: حبست ضيفي من أجلي هو عليّ حرام. فقالت امرأته: هو عليّ حرام. وقال الضيف: هو عليّ حرام. فلما رأى ذلك وضع يده وقال: كلوا بسم الله. ثم ذهب إلى النبي ﷺ فذكر الذي كان منهم، ثم أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1]. وهذا أثر منقطع.

وفي صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه شبيه بهذا، وفيه وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره: إلى أن من حرم مأكلا أو ملبسا أو شيئا ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضا، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ ولأن الذي حرم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبي ﷺ بكفارة، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل: إلى أن من حرم مأكلا أو مشربا أو ملبسا أو شيئا من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين، فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاما له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية. وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد، قال: أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو، أن يتبتلوا، ويخصوا أنفسهم، ويلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. قال ابن جريج، عن عكرمة: أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبي حذيفة في أصحاب تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا طيبات الطعام واللباس، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالاختصاء، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الاختصاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ، فقال: «**إن لأنفسكم حقا، وإن لأعينكم حقا، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا**». فقالوا: اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت[2]. وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة، ولها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين، كما تقدم ذلك، ولله الحمد والمنة.

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٨٧) بسند ضعيف لانقطاعه بين زيد بن أسلم وعبد الله بن رواحة.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٥/ ٩) بسند مرسل.

وَقَال أَسْبَاط: عَنِ السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾: وَذَلِكَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ جلسَ يَوْمًا فَذَكَّرَ النَّاسَ، ثُمَّ قَامَ وَلَمْ يَزِدْهُمْ عَلى التَّخْوِيف، فَقَال نَاس مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ -كَانُوا عَشَرَة مِنْهُمْ: عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب، وَعُثْمَان بْن مَظْعُون-: مَا حَقّنَا إِنْ لَمْ نُحْدِث عَمَلًا، فَإِنَّ النَّصَارَى قَدْ حَرَّمُوا عَلى أَنْفُسهمْ فَنَحْنُ نُحَرِّم. فَحَرَّمَ بَعْضهمْ أَنْ يَأْكُل اللَّحْم وَالوَدَك وَأَنْ يَأْكُل بِالنَّهَارِ، وَحَرَّمَ بَعْضهمْ النَّوْم، وَحَرَّمَ بَعْضهمْ النِّسَاء، فَكَانَ عُثْمَان بْن مَظْعُون مِمَّنْ حَرَّمَ النِّسَاء؛ فَكَانَ لا يَدْنُو مِنْ أَهْله وَلا تَدْنُو مِنْهُ، فَأَتَتْ امْرَأَته عَائِشَة رضي الله عنها وَكَانَ يُقَال لَهَا: الحَوْلاء، فَقَالتْ لَهَا عَائِشَة وَمَنْ عِنْدهَا مِنْ أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ: مَا بَالك يَا حَوْلاء مُتَغَيِّرَة اللَّوْن، لا تَمْتَشِطِينَ وَلا تَتَطَيَّبِينَ؟ فَقَالتْ: وَكَيْف أَمْتَشِط وَأَتَطَيَّب وَمَا وَقَعَ عَلَيَّ زَوْجِي وَمَا رَفَعَ عَنِّي ثَوْبًا مُنْذُ كَذَا وَكَذَا! قَال: فَجَعَلنَ يَضْحَكْنَ مِنْ كَلامهَا، فَدَخَل رَسُول الله ﷺ وَهُنَّ يَضْحَكْنَ، فَقَال: «مَا يُضحِككُنَّ؟». قَالتْ: يَا رَسُول الله، إِنَّ الحَوْلاء سَأَلتهَا عَنْ أَمْرهَا، فَقَالتْ: مَا رَفَعَ عَنِّي زَوْجِي ثَوْبًا مُنْذُ كَذَا وَكَذَا. فَأَرْسَل إِلَيْهِ فَدَعَاهُ، فَقَال: «مَا لك يَا عُثْمَان؟» قَال: إِنِّي تَرَكْته لله، لكَيْ أَتَخَلَّى للعِبَادَة. وَقَصَّ عَلَيْهِ أَمْره، وَكَانَ عُثْمَان قَدْ أَرَادَ أَنْ يَجُبَّ نَفْسه، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «أَقسَمْت عَليْك إِلا رَجَعْت فَوَاقَعْت أَهْلك». فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنِّي صَائِم. فَقَال: «أَفطِر». فَأَفْطَرَ وَأَتَى أَهْله، فَرَجَعَتْ الحَوْلاء إِلى عَائِشَة وَقَدْ امْتَشَطَتْ وَاكتحلت وَتَطَيَّبَتْ، فَضَحِكَتْ عَائِشَة وَقَالتْ: مَا لك يَا حَوْلاء؟ فَقَالتْ: إِنَّهُ أَتَاهَا أَمْس[1]. وَقَال رَسُول الله ﷺ: «مَا بَال أَقْوَام حَرَّمُوا النِّسَاء وَالطَّعَام وَالنَّوْم، أَلا إِنِّي أَنَام وَأَقُوم، وَأُفْطِر وَأَصُوم، وَأَنْكِح النِّسَاء، فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي فَلَيْسَ مِنِّي». فَنَزَلتْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ يَقُول لعُثْمَان: لا تَجُبّ نَفْسك؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الاعْتِدَاء، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُكَفِّرُوا عَنْ أَيْمَانهمْ، فَقَال: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون المُرَاد مِنْهُ: وَلا تُبَالغُوا فِي التَّضْيِيق عَلى أَنْفُسكُمْ بِتَحْرِيم المُبَاحَات عَلَيْكُمْ، كَمَا قَالهُ مَنْ قَالهُ مِنَ السَّلف، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون المُرَاد: كَمَا لا تُحَرِّمُوا الحَلال فَلا تَعْتَدُوا فِي تَنَاوُل الحَلال، بَل خُذُوا مِنْهُ بِقَدْرِ كِفَايَتكُمْ وَحَاجَتكُمْ، وَلا تُجَاوِزُوا الحَدّ فِيهِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾. وَقَال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ فَشَرْعُ الله عَدْل بَيْن الغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ، لا إِفْرَاط وَلا تَفْرِيط؛ وَلهَذَا قَال: ﴿ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾. ثُمَّ قَال: ﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ أَيْ: فِي حَال كَوْنه حَلالًا طَيِّبًا ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ: فِي جَمِيع أُمُورِكُمْ، وَاتَّبِعُوا طَاعَته وَرِضْوَانه، وَاتْرُكُوا مُخَالفَته وَعِصْيَانه، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلى اللَّغْو فِي اليَمِين فِي سُورَة البَقَرَة بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته هَهُنَا وَلله الحَمْد وَالمِنَّة. وَإِنَّهُ قَوْل الرَّجُل فِي الكَلام مِنْ غَيْر قَصْد: لا وَالله، بَلى وَالله. وَهَذَا مَذْهَب الشَّافِعِيّ، وَقِيل: هُوَ فِي الهَزْل، وَقِيل: فِي المَعْصِيَة، وَقِيل: عَلى غَلَبَة الظَّنّ، وَهُوَ قَوْل أَبِي حَنِيفَة وَأَحْمَد. وَقِيل: اليَمِين فِي الغَضَب. وَقِيل: فِي النِّسْيَان. وَقِيل: هُوَ الحَلف عَلى تَرْك المَأْكَل وَالمَشْرَب وَالمَلبَس وَنَحو ذَلكَ، وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ: ﴿ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ

---

(١) ضعيف: رواه السدي أيضًا مرسلًا.

لَكُمْ ﴾. وَالصَّحِيح: أَنَّهُ اليَمِين مِنْ غَيْر قَصْد، بِدَلِيل قَوْله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أَيْ: بِمَا صَمَّمْتُمْ عَلَيْهِ من الأيمان وَقَصَدْتُمُوهَا، ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ يَعْنِي: مَحَاوِيج مِنَ الفُقَرَاء وَمَنْ لا يَجِد مَا يَكْفِيه. وَقَوْله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَعِكْرِمَة: أَيْ: مِنْ أَعْدَل مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ. وَقَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: مِنْ أَمْثَل مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ. قَال ابْن حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالد الأَحْمَر، عَنْ حَجَّاج، عَنْ أَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، عَنْ الحَارِث، عَنْ عَلِيّ، قَال: خُبْز وَلَبَن، وَخُبْز وَسَمْن. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: أَنْبَأَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلَى قِرَاءَة، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ سُلَيمان -يَعْنِي: ابْن أَبِي المُغِيرَة-، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: كَانَ الرَّجُل يَقُوت بَعْض أَهْله قُوت دُون، وَبَعْضهمْ قُوتًا فِيهِ سَعَة، فَقَال الله تَعَالَى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ الخُبْز وَالزَّيْت. وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ: عن وَكِيع، عن إِسْرَائِيل، عَنْ جَابِر، عَنْ عَامِر، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَال: مِنْ عُسْرهمْ وَيُسْرهمْ.

وَحَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن خَلَف الحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن شُعَيْب -يَعْنِي: ابْن شَابُور- حَدَّثَنَا شَيْبَان بْن عَبْد الرَّحْمَن التَّمِيمِيّ، عَنْ لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ عَاصِم الأَحْوَل، عَنْ رَجُل يُقَال لَهُ: عَبْد الرَّحْمَن التَّمِيمِيّ، عَنْ ابْن عُمَر رضي الله عنه أَنَّهُ قَال: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَال: الخُبْز وَاللَّحْم، وَالخُبْز وَالسَّمْن، وَالخُبْز وَاللَّبَن، وَالخُبْز وَالزَّيْت، وَالخُبْز وَالخَلّ. وَحَدَّثَنَا عَلِيّ بْن حَرْب المَوْصِلِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، عَنْ عَاصِم، عَنْ ابْن سِيرِينَ، عَنْ ابْن عُمَر، فِي قَوْله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَال: الخُبْز وَالسَّمْن، وَالخُبْز وَاللَّبَن، وَالخُبْز وَالزَّيْت، وَالخُبْز وَالتَّمْر، وَمِنْ أَفْضَل مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ الخُبْز وَاللَّحْم. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير: عَنْ هَنَّاد وَابْن وَكِيع؛ كِلاهُمَا عَنْ أَبِي مُعَاوِيَة. ثُمَّ رَوَى ابْن جَرِير: عَنْ عُبَيْدَة، وَالأَسْوَد، وَشُرَيْح القَاضِي، وَمُحَمَّد بْن سِيرِينَ، وَالحَسَن، وَالضَّحَّاك، وَأَبِي رَزِين، أَنَّهُمْ قَالُوا نَحْو ذَلِكَ، وَحَكَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ مَكْحُول أَيْضًا. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أَيْ: فِي القِلَّة وَالكَثْرَة. ثُمَّ اخْتَلَفَ العُلَمَاء فِي مِقْدَار مَا يُطْعِمهُمْ؛ فَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد، حَدَّثَنَا أَبُو خَالد الأَحْمَر، عَنْ حَجَّاج، عَنْ حُصَيْن الحَارِثِيّ، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ الحَارِث، عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه فِي قَوْله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَال: [يُغَدِّيهِمْ][1] وَيُعَشِّيهِمْ.

وَقَال الحَسَن وَمُحَمَّد بْن سِيرِينَ: يَكْفِيه أَنْ يُطْعِم عَشَرَة مَسَاكِين أَكْلَة وَاحِدَة: خُبْزًا وَلَحْمًا. زَادَ الحَسَنُ: فَإِنْ لَمْ يَجِد فَخُبْزًا وَسَمْنًا وَلَبَنًا، فَإِنْ لَمْ يَجِد فَخُبْزًا وَزَيْتًا وَخَلًّا حَتَّى يَشْبَعُوا. وَقَال آخَرُونَ: يُطْعِم كُلّ وَاحِد مِنْ العَشَرَة نِصْف صَاع مِنْ بُرّ أَوْ تَمْر وَنَحْوهمَا. وَهَذَا قَوْل عُمَر وَعَلِيّ وَعَائِشَة وَمُجَاهِد وَالشَّعْبِيّ وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَمَيْمُون بْن مِهْرَان وَأَبِي مَالك وَالضَّحَّاك وَالحَكَم وَمَكْحُول وَأَبِي قِلابَة وَمُقَاتِل بْن حَيَّان. وَقَال أَبُو حَنِيفَة: نِصْف صَاع بُرّ وَصَاع مِمَّا عَدَاهُ. وَقَدْ قَال أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْه: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن الحَسَن الثَّقَفِيّ، حَدَّثَنَا عُبَيْد بْن الحَسَن بْن يُوسُف، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا زِيَاد بْن عَبْد الله بْن الطُّفَيْل بْن سَخْبَرَة ابْن أَخِي عَائِشَة لأُمِّهِ، حَدَّثَنَا عُمَر بْن يَعْلَى، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: كَفَّرَ رَسُولُ الله ﷺ بِصَاع مِنْ تَمْر وَأَمَرَ النَّاس بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَجِد فَنِصْف صَاع مِنْ بُرّ[2].

وَرَوَاهُ ابْن ماجه: عَنْ العَبَّاس بْن يَزِيد، عَنْ زِيَاد بْن عَبْد الله البَكَّائِي، عَنْ عُمَر بْن عَبْد الله بْن يَعْلَى الثَّقَفِيّ، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو بِهِ. لا يَصِحّ هَذَا الحَدِيث؛ لِحَال عُمَر بْن عَبْد الله هَذَا فَإِنَّهُ مُجْمَع عَلَى ضَعْفه، وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ يَشْرَب الخَمْر، وَقَال الدَّارَقُطْنِيّ: مَتْرُوك. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا ابْن إِدْرِيس،

---

(١) في نسخة: [يغذيهم].

(٢) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٢١١٢)، والطبراني (١١/ ٤٤٧) وفيه عمر بن عبد الله بن يعلى: ضعيف، وقال الدارقطني: متروك، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٤٥٩).

عَنْ دَاوُدَ -يَعْنِي: ابْن أَبِي هِنْد- عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، أَنَّهُ قَال: مُدٌّ مِنْ بُرّ. يَعْنِي: لِكُلِّ مِسْكِين وَمَعَهُ إِدَامه. ثُمَّ قَال: وَرُوِيَ عَنْ ابْن عُمَر وَزَيْد بْن ثَابِت وَسَعِيد بْن الْمُسَيَّب وَمُجَاهِد وَعَطَاء وَعِكْرِمَة وَأَبِي الشَّعْثَاء وَالقَاسِم وَسَالِم وَأَبِي سَلمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن وَسُلَيْمَان بْن يَسَار وَالحَسَن وَمُحَمَّد بْن سِيرِينَ وَالزُّهْرِيّ نَحْو ذَلِكَ.

وَقَال الشَّافِعِيّ: الوَاجِب فِي كَفَّارَة اليَمِين مُدّ بِمُدِّ النَّبِيّ ﷺ لِكُلِّ مِسْكِين، وَلَمْ يَتَعَرَّض لِلأُدْم، وَاحْتَجَّ بِأَمْرِ النَّبِيّ ﷺ لِلَّذِي جَامَعَ فِي رَمَضَان: بِأَنْ يُطْعِم سِتِّينَ مِسْكِينًا مِنْ مِكْيَل يَسَع خَمْسَة عَشَر صَاعًا، لِكُلِّ وَاحِد مِنْهُمْ مُدّ. وَقَدْ وَرَدَ حَدِيث آخَر، صَرِيح فِي ذَلِكَ؛ فَقَال أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَلِيّ بْن الحَسَن الْمُقْرِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد ابْن إِسْحَاق السَّرَّاج، حَدَّثَنَا قُتَيْبَة بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا النَّضْر بْن زُرَارَة الكُوفِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر العُمَرِيّ، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر: أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يُقِيم كَفَّارَة اليَمِين مُدًّا مِنْ حِنْطَة بِالْمُدِّ الأَوَّل[1]. إِسْنَاده ضَعِيف؛ لِحَال النَّضْر بْن زُرَارَة بْن عَبْد الأَكْرَم الذُّهْلِيّ الكُوفِيّ نَزِيل بَلْخ، قَال فِيهِ أَبُو حَاتِم الرَّازِيّ: هُوَ مَجْهُول. مَعَ أَنَّهُ قَدْ رَوَى عَنْهُ غَيْر وَاحِد، وَذَكَرَهُ ابْن حِبَّان فِي الثِّقَات، وَقَال: رَوَى عَنْهُ قُتَيْبَة بْن سَعِيد أَشْيَاء مُسْتَقِيمَة. فَالله أَعْلَم، ثُمَّ إِنَّ شَيْخه العُمَرِيّ ضَعِيف أَيْضًا. وَقَال أَحْمَد بْن حَنْبَل: الوَاجِب مُدّ مِنْ بُرّ، أَوْ مُدَّانِ مِنْ غَيْره. وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قَال الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ دَفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِد مِنْ العَشَرَة مَا يَصْدُق عَلَيْهِ اسْم الكِسْوَة: مِنْ قَمِيص أَوْ سَرَاوِيل أَوْ إِزَار أَوْ عِمَامَة أَوْ مِقْنَعَة -أَجْزَأَهُ ذَلِكَ. وَاخْتَلَفَ أَصْحَابه فِي القَلَنْسُوَة هَل تُجْزِئ أَمْ لا؟ عَلَى وَجْهَيْنِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى الجَوَاز احْتِجَاجًا بِمَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، وعَمَّار بْن خَالد الوَاسِطِيّ قَالا: حَدَّثَنَا القَاسِم بْن مَالك، عَنْ مُحَمَّد بْن الزُّبَيْر، عَنْ أَبِيهِ، قَال: سَأَلت عِمْرَان بْن الحُصَيْن عَنْ قَوْله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قَال: لَوْ أَنَّ وَفْدًا قَدِمُوا عَلَى أَمِيركُمْ فَكَسَاهُمْ قَلَنْسُوَة قَلَنْسُوَة قُلتُمْ قَدْ كُسُوا. وَلَكِنَّ هَذَا إِسْنَاد ضَعِيف؛ لِحَال مُحَمَّد بْن الزُّبَيْر هَذَا، وَالله أَعْلَم، وَهَكَذَا حَكَى الشَّيْخ أَبُو حَامِد الإِسْفَرَايِينِيّ فِي الخُفّ وَجْهَيْنِ أَيْضًا، وَالصَّحِيح عَدَم الإِجْزَاء. وَقَال مَالك وَأَحْمَد بْن حَنْبَل: لا بُدّ أَنْ يَدْفَع إِلَى كُلِّ وَاحِد مِنْهُمْ مِنْ الكِسْوَة، مَا يَصِحّ أَنْ يُصَلِّي فِيهِ، إِنْ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَة كُلّ بِحَسَبِهِ، وَالله أَعْلَم. وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: عَبَاءَة لِكُلِّ مِسْكِين أَوْ شَمْلَة. وَقَال مُجَاهِد: أَدْنَاهُ ثَوْب، وَأَعْلاهُ مَا شِئْت. وَقَال لَيْث، عَنْ مُجَاهِد: يُجْزِئ فِي كَفَّارَة اليَمِين كُلّ شَيْء إِلَّا التُّبَّان. وَقَال الحَسَن وَأَبُو جَعْفَر البَاقِر وَعَطَاء وَطَاوُس وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَحَمَّاد بْن أَبِي سُلَيْمَان وَأَبُو مَالك: ثَوْب ثَوْب. وَعَنْ إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ أَيْضًا: ثَوْب جَامِع كَالمِلحَفَةِ وَالرِّدَاء، وَلا يُرَى الدِّرْع وَالقَمِيص وَالخِمَار وَنَحْوه جَامِعًا. وَقَال الأَنْصَارِيّ عَنْ الأَشْعَث، عَنْ ابْن سِيرِينَ وَالحَسَن: ثَوْبَانِ ثَوْبَانِ. وَقَال الثَّوْرِيّ: عَنْ دَاوُدَ بْن أَبِي هِنْد، عَنْ سَعِيد بْن الْمُسَيَّب: عِمَامَة يَلُفّ بِهَا رَأْسه، وَعَبَاءَة يَلتَحِف بِهَا. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا هَنَّاد، حَدَّثَنَا ابْن الْمُبَارَك، عَنْ عَاصِم الأَحْوَل، عَنْ ابْن سِيرِينَ، عَنْ أَبِي مُوسَى: أَنَّهُ حَلَفَ عَلَى يَمِين فَكَسَا ثَوْبَيْنِ مِنْ مُعَقَّدَة البَحْرَيْنِ. وَقَال ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن الْمُعَلَّى، حَدَّثَنَا هشام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، عَنْ مُقَاتِل بْن سُلَيْمَان، عَنْ أَبِي عُثْمَان، عَنْ أَبِي عِيَاض، عَنْ عَائِشَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ فِي قَوْله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قَال: «**عَبَاءَة لِكُلِّ مِسْكِين**»[2]. حَدِيث غَرِيب.

وَقَوْله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أَخَذَ أَبُو حَنِيفَة بِإِطْلاقِهَا، فَقَال: تُجْزِئ الكَافِرَة كَمَا تُجْزِئ الْمُؤْمِنَة. وَقَال الشَّافِعِيّ وَآخَرُونَ: لابُدّ أَنْ تَكُون مُؤْمِنَة، وَأَخَذَ تَقْيِيدهَا بِالإِيمَانِ مِنْ كَفَّارَة القَتْل؛ لاتِّحَادِ الْمُوجِب وَإِنْ اخْتَلَفَ السَّبَب،

---

(١) **ضعيف**: عزاه المصنف لابن مردويه بسند ضعيف فيه عبد الله بن عمر العمري قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٣٣٤): مجهول الحال، وفيه النضر بن زرارة بن عبد الأكرم، قال أبو حاتم: مجهول، وقال الحافظ: مستور.

(٢) **موضوع**: فيه مقاتل بن سليمان قال الحافظ: كذبوه، وهجروه ورمي بالتجسيم، وقال الذهبي: متروك.

وَالحَدِيث مُعَاوِيَة بن الحكَم السُّلمِيِّ الَّذِي هُوَ فِي مُوَطَّأ مَالك وَمُسْنَد الشَّافِعِيّ وَصَحِيح مُسْلم أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ عَلَيْهِ عِتْق رَقَبَة وَجَاءَ مَعَهُ بِجَارِيَةٍ سَوْدَاء، فَقَال لَهَا رَسُول الله ﷺ: «أَيْنَ اللهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاء. قَال: «مَنْ أَنَا؟». قَالتْ: أنت رَسُول الله. قَال: «أَعْتِقهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَة»[1]. الحَدِيث بِطُولِهِ. فَهَذِهِ خِصَال ثَلاث فِي كَفَّارَة اليَمِين، أَيّهَا فَعَل الحَانِثُ أَجْزَأَ عَنْهُ بِالإِجْمَاعِ، وَقَدْ بَدَأَ بِالأَسْهَل فَالأَسْهَل؛ فَالإِطْعَام أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ مِنَ الكِسْوَة، كَمَا أَنَّ الكِسْوَة أَيْسَرُ مِنَ العِتْق، فَتَرَقَّى فِيهَا مِنَ الأَدْنَى إِلى الأَعْلى، فَإِنْ لَمْ يَقْدِر المُكَلَّف عَلى وَاحِدَة مِنْ هَذِهِ الخِصَال الثَّلاث، كَفَّرَ بِصِيَام ثَلاثَة أَيَّام، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾. وَرَوَى ابْن جرير عن سعيد بن جبير والحسن البصري أنهما قالا: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام. وقال ابن جرير حَاكِيًا عَنْ بَعْض مُتَأَخِّرِي مُتَفَقِّهَة زَمَانه أَنَّهُ قال: جَائِز لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَضْل عَنْ رَأْس مَال يَتَصَرَّفُ فِيهِ لِمَعَاشِهِ ما يكفر به بالإطعام أن يصوم إلا أن يكون له كفاية ومن المال ما يتصرف به لمعاشه، وَمِنَ الفَضْل عَنْ ذَلِكَ مَا يُكَفِّر بِهِ عَنْ يَمِينِه.

ثُمَّ اخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّهُ الَّذِي لا يَفْضُل عَنْ قُوته وَقُوت عِيَاله فِي يَوْمه ذَلِكَ مَا يُخْرِج بِهِ كَفَّارَة اليَمِين، وَاخْتَلفَ العُلَمَاء هَل يَجِب فِيهَا التَّتَابُع أَوْ يُسْتَحَبّ، وَلا يَجِب وَيُجْزِئ التَّفْرِيق؟ على قَولين؛ أَحَدهمَا: أنه لا يَجِب، وَهَذَا مَنْصُوص الشَّافِعِيّ فِي كِتَاب الأَيْمَان، وَهُوَ قَوْل مَالك لإِطْلاقِ قَوْله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ وَهُوَ صَادِق عَلى المَجْمُوعَة وَالمُفَرَّقَة، كَمَا فِي قَضَاء رَمَضَان لِقَوْلِهِ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. وَنَصَّ الشَّافِعِيّ فِي مَوْضِع آخَر فِي «الأُمّ» عَلى وُجُوب التَّتَابُع، كَمَا هُوَ قَوْل الحَنَفِيَّة وَالحَنَابِلة؛ لأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْ أُبَيّ بن كَعْب وَغَيْره: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْرَءُونَهَا ﴿فَصِيَام ثَلاثَة أَيَّام مُتَتَابِعَات﴾. قَال أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ: عَنْ الرَّبِيع، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بن كَعْب: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا: ﴿فَصِيَام ثَلاثَة أَيَّام مُتَتَابِعَات﴾. وَحَكَاهَا مُجَاهِد وَالشَّعْبِيّ وَأَبُو إِسْحَاق عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود.

وَقَال إِبْرَاهِيم: فِي قِرَاءَة أَصْحَاب عَبْد الله بْن مَسْعُود: ﴿فَصِيَام ثَلاثَة أَيَّام مُتَتَابِعَات﴾. وَقَال الأَعْمَش: كَانَ أَصْحَاب ابْن مَسْعُود يَقْرَءُونَهَا كَذَلِكَ. وَهَذِهِ إِذَا لَمْ يَثْبُت كَوْنهَا قُرْآنًا مُتَوَاتِرًا فَلا أَقَلّ من أَنْ يَكُون خَبَرًا وَاحِدًا، أَوْ تَفْسِيرًا مِنْ الصَّحَابَة وَهُوَ فِي حُكْم المَرْفُوع. وَقَال أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن عَلِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن جَعْفَر الأَشْعَرِيّ، حَدَّثَنَا الهَيْثَم بْن خَالد القُرَشِيّ، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن قَيْس، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن يَحْيَى، عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: لَمَّا نَزَلتْ آيَة الكَفَّارَات، قَال حُذَيْفَة: يَا رَسُول الله، نَحْنُ بِالخِيَارِ؟ قَال: «أَنْتَ بِالخِيَارِ، إِنْ شِئْتَ أَعْتَقْتَ، إِنْ شِئْتَ كَسَوْتَ، وَإِنْ شِئْتَ أَطْعَمْتَ، فَمَنْ لَمْ يَجِد فَصِيَام ثَلاثَة أَيَّام مُتَتَابِعَات»[2]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا. وَقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أَيْ: هَذِهِ كَفَّارَة اليَمِين الشَّرْعِيَّة ﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ قَال ابْن جَرِير: مَعْنَاهُ لا تَتْرُكُوهَا بِغَيْر تَكْفِير. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أَيْ: يُوَضِّحهَا وَيُنَشِّرهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

يَقُول تَعَالى نَاهِيًا عِبَاده المُؤْمِنِينَ عَنْ تَعَاطِي الخَمْر وَالمَيْسِر؛ وَهُوَ القِمَار. وَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عَلِيّ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٧)، ومالك (٢/ ٥٩٥).
(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير عن ابن عباس بانقطاع، وقال الحافظ ابن كثير عقب ذكره للحديث: هذا حديث غريب جدًا.

ابْن أَبِي طَالب ﷺ أَنَّهُ قَال: الشِّطْرَنْج مِنْ المَيْسِر. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عبيس بْن مَرْحُوم، عَنْ حَاتِم، عَنْ جَعْفَر بْن مُحَمَّد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيّ بِهِ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل الأَحْمَسِيّ، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ سُفْيَان، عَنْ لَيْث، عَنْ عَطَاء وَمُجَاهِد وَطَاوُس -قَال سُفْيَان: أَوْ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ- قَالُوا: كُلّ شَيْء مِنْ القِمَار فَهُوَ مِنَ المَيْسِر، حَتَّى لعِبَ الصِّبْيَان بِالجَوْزِ. وَرُوِيَ عَنْ رَاشِد بْن سَعْد وضمرة بْن حَبِيب مِثْله، وَقَالا: حَتَّى الكِعَاب وَالجَوْز وَالبَيْض الَّتِي تَلعَب بِهَا الصِّبْيَان. وَقَال مُوسَى بْن عُقْبَة، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر، قَال: المَيْسِر هُوَ القِمَار.

وَقَال الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: المَيْسِر هُوَ القِمَار، كَانُوا يَتَقَامَرُونَ فِي الجَاهِلِيَّة إِلى مَجِيء الإِسْلام، فَنهَاهُمْ الله عَنْ هَذِهِ الأَخْلاق القَبِيحَة. وَقَال مَالك، عَنْ دَاوُدَ بْن الحُصَيْن: أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيد بْن المُسَيَّب يَقُول: كَانَ مَيْسِر أَهْل الجَاهِلِيَّة بِيع اللَّحْم بِالشَّاةِ وَالشَّاتَيْنِ. وَقَال الزُّهْرِيّ، عَنْ الأَعْرَج، قَال: المَيْسِر الضَّرْب بِالقِدَاح عَلى الأَمْوَال وَالثِّمَار. وَقَال القَاسِم بْن مُحَمَّد: كل مَا أَلهَى عَنْ ذِكْر الله وَعَنْ الصَّلاة فَهُوَ مِنْ المَيْسِر. رَوَاهُنَّ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مَنْصُور الرمادي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا صَدَقَة، حَدَّثنَا عُثْمَان بْن أَبِي العَاتِكَة، عَنْ عَلِيّ بْن يَزِيد، عَنْ القَاسِم، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«اجْتَنِبُوا هَذِهِ الكِعَاب المَوْسُومَة الَّتِي يُزْجَر بِهَا زَجْرًا؛ فَإِنَّهَا مِنْ المَيْسِر»**[1]. حَدِيث غَرِيب، وَكَأَنَّ المُرَاد بِهَذَا هُوَ النَّرْد الَّذِي وَرَدَ الحَدِيث بِهِ فِي صَحِيح مُسْلم، عَنْ بُرَيْدَةَ بْن الحُصَيْب الأَسْلمِيّ، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ لعِبَ بِالنَّرْدَشِير فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَده فِي لحْم خِنْزِير وَدَمه»**[2]. وَفِي مُوَطَّأ مَالك وَمُسْنَد أَحْمَد وَسُنَنَيْ أَبِي دَاوُدَ وَابْن مَاجَة: عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ لعِبَ بِالنَّرْدِ فَقَدْ عَصَى الله وَرَسُوله»**[3]. وَرُوِيَ مَوْقُوفًا عَلى أَبِي مُوسَى مِنْ قَوْله، فَالله أَعْلم.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مكي بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا الجعيد، عَنْ مُوسَى بْن عَبْد الرَّحْمَن الخَطْمِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ مُحَمَّد بْن كَعْب وَهُوَ يَسْأَل عَبْد الرَّحْمَن يَقُول: أَخْبِرْنِي مَا سَمِعْت أَبَاك يَقُول عَنْ رَسُول الله ﷺ؟ فَقَال عَبْد الرَّحْمَن: سَمِعْت أَبِي يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«مَثَل الَّذِي يَلعَب بِالنَّرْدِ ثُمَّ يَقُوم فَيُصَلِّي، مَثَل الَّذِي يَتَوَضَّأ بِالقَيْحِ وَدَم الخِنْزِير ثُمَّ يَقُوم فَيُصَلِّي»**[4]. وَأَمَّا الشِّطْرَنْج، فَقَدْ قَال عَبْد الله بْن عُمَر: إِنَّهُ شَرٌّ مِنْ النَّرْد. وَتَقَدَّمَ عَنْ عَلِيّ أَنَّهُ قَال: هُوَ مِنْ المَيْسِر. وَنَصَّ عَلى تَحْرِيمه مَالك وَأَبُو حَنِيفَة وَأَحْمَد. وَكَرِهَهُ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُمْ الله تَعَالى. وَأَمَّا الأَنْصَاب: فَقَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَعَطَاء وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالحَسَن وَغَيْر وَاحِد: هِيَ حِجَارَة كَانُوا يَذْبَحُونَ قَرَابِينهمْ عِنْدهَا. وَأَمَّا الأَزْلام، فَقَالُوا أَيْضًا: هِيَ قِدَاح كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، أَيْ: سَخَط مِنْ عَمَل الشَّيْطَان. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: إِثْم. وَقَال زَيْد بْن أَسْلمَ: أَيْ: شَرٌّ مِنْ عَمَل الشَّيْطَان. ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ الضَّمِير عَائِد عَلى الرِّجْس، أَيْ: اتْرُكُوهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَهَذَا تَرغِيب. ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيد وَتَرْهِيب.

ذِكْر الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي بَيَان تَحْرِيم الخَمْر

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سريج، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْشَر، عَنْ أَبِي وَهْب مَوْلى أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: حُرِّمَتْ

---

(١) **حسن لغيره**: أخرجه ابن أبي حاتم (١٤/ ١١٩٦).

(٢) **صحيح**: تقدم.

(٣) **حسن**: أخرجه أبي داود (٤٩٣٨)، وابن ماجه (٣٧٦٣)، وأحمد (٤/ ٣٩٤) من حديث أبي موسى الأشعري، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٣٠).

(٤) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٥/ ٣٧٠)، وأبو يعلى (٢/ ٣٥٥، ٣٨٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٢٣٧) بسند ضعيف.

الخمر ثلاث مرات؛ قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، إلى آخر الآية. فقال الناس ما حرِّما علينا إنما قال: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يومًا من الأيام، صلى رجل من المهاجرين أمّ أصحابه في المغرب فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق. ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قالوا: انتهينا ربنا! وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على سرفهم، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسًا من عمل الشيطان؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ إلى آخر الآية. وقال النبي ﷺ: «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم». انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عمر بن الخطاب، أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربنّ الصلاة سكران. فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا[1]. وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن إسرائيل، عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي، عن أبي ميسرة -واسمه عمرو بن شرحبيل الهمداني- عن عمر به. وليس له عنه سواه. قال أبو زرعة: ولم يسمع منه. وصحح هذا الحديث علي ابن المديني والترمذي.

وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل. وقال البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، حدثني نافع، عن ابن عمر، قال: نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة ما فيها شراب العنب.

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن أبي حميد، عن المصري -يعني أبا طعمة قارئ مصر- قال: سمعت ابن عمر يقول: نزلت في الخمر ثلاث آيات؛ فأول شيء نزل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآية، فقيل: حرمت الخمر، فقالوا يا رسول الله، دعنا ننتفع بها كما قال الله تعالى! قال: فسكت عنهم. ثم نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ فقيل: حرمت الخمر. فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نشربها قرب الصلاة. فسكت عنهم. ثم نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الآيتين. فقال رسول الله ﷺ: «حرمت الخمر»[2].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى، حدثنا محمد بن إسحاق، عن القعقاع بن حكيم، أن عبد الرحمن ابن وعلة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف أو من دوس،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والنسائي (٥٥٤٠)، وأحمد (١/ ٥٣) من حديث عمر بن الخطاب، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) ضعيف الإسناد: أخرجه الطيالسي (١/ ٢٦٤)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٤) بإسناد ضعيف فيه محمد بن أبي حميد؛ قال الإمام أحمد: أحاديثه مناكير، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال الحافظ: ضعيف.

فَلَقِيَهُ يَوْم الفَتْح بِرَاوِيَةِ خَمْر يُهْدِيهَا إِلَيْهِ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «يَا فُلان؛ أَمَا عَلمْتَ أَنَّ الله حَرَّمَهَا». فَأَقْبَل الرَّجُل عَلَى غُلامه فَقَال: اذْهَبْ فَبِعْهَا. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «يَا فُلان؛ بِمَاذَا أَمَرْتَه؟» فَقَال: أَمَرْته أَنْ يَبِيعهَا. قَال: «إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبهَا حَرَّمَ بَيْعهَا». فَأَمَرَ بِهَا فَأُفْرِغَتْ فِي البَطْحَاء[1]. رَوَاهُ مُسْلم مِنْ طَرِيق ابْن وَهْب، عَنْ مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ. وَمِنْ طَرِيق ابْن وَهْب أَيْضًا، عَنْ سُلَيْمَان بْن بلال، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد كِلاهُمَا عَنْ عَبْد الرَّحْمَن ابْن وَعْلة، عَنْ ابْن عَبَّاس بِهِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ: عَنْ قُتَيْبَة عَنْ مَالك بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى المَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر المُقَدَّمِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر الحَنَفِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد بْن جَعْفَر، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ تَمِيم الدَّارِيّ: أَنَّهُ كَانَ يُهْدِي لِرَسُول الله ﷺ كُلّ عَام رَاوِيَة مِنْ خَمْر، فَلَمَّا أَنْزَل الله تَحْرِيم الخَمْر جَاءَ بِهَا، فَلَمَّا رَآهَا رَسُول الله ﷺ ضَحِكَ، وَقَال: «إِنَّهَا قَدْ حُرِّمَتْ بَعْدك». قَال: يَا رَسُول الله؛ فَأَبِيعهَا وَأَنْتَفِع بِثَمَنِهَا؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «لعَنَ الله اليَهُود؛ حُرِّمَتْ عَليْهِمْ شُحُوم البَقَر وَالغَنَم فَأَذَابُوهُ وَبَاعُوهُ، وَالله حَرَّمَ الخَمْر وَثَمَنهَا»[2]. وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا الإِمَام أَحْمَد فَقَال: حَدَّثَنَا رَوْح، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد بْن بَهْرَام، قَال: سَمِعْت شَهْر بْن حَوْشَب، قَال: حَدَّثَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن غَنْم: أَنَّ الدَّارِيّ كَانَ يُهْدِي لِرَسُول الله ﷺ كُلّ عَام رَاوِيَة مِنْ خَمْر، فَلَمَّا كَانَ عَام حُرِّمَتْ جَاءَ بِرَاوِيَةٍ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ ضَحِكَ، فَقَال: «أَشَعَرْتَ أَنَّهَا قد حُرِّمَتْ بَعْدك». فَقَال: يَا رَسُول الله، أَلا أَبِيعهَا وَأَنْتَفِع بِثَمَنِهَا؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «لعَنَ الله اليَهُود؛ انْطَلَقُوا إِلى مَا حُرِّمَ عَليْهِمْ مِنْ شَحْم البَقَر وَالغَنَم فَأَذَابُوهُ فَبَاعُوا بِه مَا يَأْكُلُونَ، وَإِنَّ الخَمْر حَرَام وَثَمَنهَا حَرَام، وَإِنَّ الخَمْر حَرَام وَثَمَنهَا حَرَام، وَإِنَّ الخَمْر حَرَام وَثَمَنهَا حَرَام»[3].

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، عَنْ سُلَيْمَان بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ نَافِع ابْن كَيْسَان، أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَّجِر فِي الخَمْر فِي زَمَن رَسُول الله ﷺ، وَأَنَّهُ أَقْبَل مِنْ الشَّام وَمَعَهُ خَمْر فِي الزِّقَاق يُرِيد بِهَا التِّجَارَة، فَأَتَى بِهَا رَسُول الله ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنِّي جِئْتُك بِشَرَاب طَيِّب. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «يَا كَيْسَان، إِنَّهَا قَدْ حُرِّمَتْ بَعْدك». قَال: فَأَبِيعهَا يَا رَسُول الله؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّهَا قَدْ حُرِّمَتْ وَحُرِّمَ ثَمَنهَا». فَانْطَلَقَ كَيْسَان إِلى الزِّقَاق فَأَخَذَ بِأَرْجُلهَا ثُمَّ هَرَاقَهَا[4].

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يحيى بْن سَعِيد، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس، قَال: كُنْت أَسْقِي أَبَا عُبَيْدَة ابْن الجَرَّاح، وَأُبَيّ بْن كَعْب، وَسُهَيْل ابْن بَيْضَاء، وَنَفَرًا مِنْ أَصْحَابه عِنْد أَبِي طَلْحَة، وأنا أسقيهم حَتَّى كَادَ الشَّرَاب يَأْخُذ مِنْهُمْ، فَأَتَى آتٍ مِنْ المُسْلمِينَ، فَقَال: أَمَا شَعَرْتُمْ أَنَّ الخَمْر قَدْ حُرِّمَتْ؟ فَمَا قَالُوا: حَتَّى نَنْظُر وَنَسْأَل. فَقَالُوا: يَا أَنَس، اكفِ مَا بَقِيَ فِي إِنَائِك. فَوَالله مَا عَادُوا فِيهَا، وَمَا هِيَ إِلَّا التَّمْر وَالبُسْر. وَهِيَ خَمْرهمْ يَوْمئِذٍ[5]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْر وَجه عَنْ أَنَس، وَفِي رِوَايَة حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، قَال: كُنْت سَاقِي القَوْم يَوْم حُرِّمَتْ الخَمْر فِي بَيْت أَبِي طَلْحَة، وَمَا شَرَابهمْ إِلَّا الفَضِيخ: البُسْر وَالتَّمْر، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي، قَال: اخْرُجْ فَانْظُرْ. فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي: أَلا إِنَّ الخَمْر قَدْ حُرِّمَتْ. فَجَرَتْ فِي سِكَك المَدِينَة، قَال: فَقَال لِي أَبُو طَلْحَة: اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا. فَهَرَقْتهَا، فَقَالُوا -أَوْ قَال بَعْضهمْ-: قُتِل فُلان وَفُلان وَهِيَ فِي بُطُونهمْ؟. قَال: فَأَنْزَل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ الآيَة. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنِي عَبْد الكَبِير

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٧٩)، وأحمد (١/ ٢٣٠).
(٢) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧).
(٣) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧).
(٤) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٥)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف، ويشهد له ما تقدم.
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٦٤)، ومسلم (١٩٨٠).

ابن عَبْد المَجِيد، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن رَاشِد، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس بْن مَالك، قَال: بَيْنَا أَنَا أُدِير الكَأْس عَلى أَبِي طَلْحَة وَأَبِي عُبَيْدَة ابْن الجَرَّاح وَأَبِي دُجَانَة وَمُعَاذ بْن جَبَل وَسُهَيْل ابْن بَيْضَاء، حَتَّى مَالتْ رُءُوسهمْ مِنْ خَلِيط بُسْر وَتَمْر. فَسَمِعْت مُنَادِيًا يُنَادِي: أَلا إنَّ الخَمْر قَدْ حُرِّمَتْ. قَال: فَمَا دَخَل عَلَيْنَا دَاخِل وَلا خَرَجَ مِنَّا خَارِج حَتَّى أَهَرَقْنَا الشَّرَاب وَكَسَرْنَا القِلال، وَتَوَضَّأَ بَعْضنَا وَاغْتَسَل بَعْضنَا، وَأَصَبْنَا مِنْ طِيْب أُمّ سُلَيْم ثُمَّ خَرَجْنَا إِلى المَسْجِد، فَإِذَا رَسُول الله ﷺ يَقْرَأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فَقَال رَجُل: يَا رَسُول الله، فَمَا منزلة من مَاتَ وَهُوَ يَشْرَبهَا؟ فَأَنْزَل الله تَعَالى: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآيَة. فَقَال رَجُل لِقَتَادَة: أَنْتَ سَمِعْته مِنْ أَنَس بْن مَالك؟ قَال: نَعَمْ. وَقَال رَجُل لأَنَس بْن مَالك: أَنْتَ سَمِعْته مِنْ رَسُول الله ﷺ ؟ قَال: نَعَمْ، أَوْ: حَدَّثَنِي مَنْ لمْ يَكْذِب، مَا كُنَّا نَكْذِب وَلا نَدْرِي مَا الكَذِب[١].

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن إِسْحَاق، أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْن أَيُّوب، عَنْ عُبَيْد الله بْن زَحْر، عَنْ بَكْر بْن سَوَادَة، عَنْ قَيْس بْن سَعْد بْن عُبَادَة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«إِنَّ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالى حَرَّمَ عَليَّ الخَمْر وَالكُوبَة وَالقِنِّينَ، وَإِيَّاكُمْ وَالغُبَيْرَاء فَإِنَّهَا ثُلُث خَمْر العَالم»**[٢].

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا فَرَج بْن فَضَالة، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن رَافِع، عَنْ أَبِيه، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ الله حَرَّمَ عَلى أُمَّتِي الخَمْر وَالمَيْسِر وَالمِزْر وَالكُوبَة وَالقِنِّينَ، وَزَادَنِي صَلاة الوِتْر»**[٣]. قَال يَزِيد: القِنِّين: البَرَابِط. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد. وَقَال أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِم -وَهُوَ النَّبِيل-، أَخْبَرَنَا عَبْد الحَمِيد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ عَمْرو بْن الوَلِيد، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«مَنْ قَال عَليَّ مَا لمْ أَقُل فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَده مِنْ جَهَنَّم»**. قَال: وَسَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«إِنَّ الله حَرَّمَ الخَمْر وَالمَيْسِر وَالكُوبَة وَالغُبَيْرَاء، وَكُل مُسْكِر حَرَام»**[٤]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد أَيْضًا.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن عُمَر بْن عَبْد العَزِيز، عَنْ أَبِي طُعْمَة مَوْلاهُمْ، وَعَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله الغَافِقِيّ: أَنَّهُمَا سَمِعَا ابْن عُمَر يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ : **«لُعِنَتْ الخَمْر عَلى عَشَرَة وُجُوه: لُعِنَتْ الخَمْر بِعَيْنِهَا، وَشَارِبهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعهَا، وَمُبْتَاعهَا، وَعَاصِرهَا، وَمُعْتَصِرهَا، وَحَامِلهَا، وَالمَحْمُولة إِليْه، وَآكِل ثَمَنهَا»**[٥]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْن مَاجَة مِنْ حَدِيث وَكِيع بِهِ. وَقَال أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا أَبُو طُعْمَة، سَمِعْت ابْن عُمَر يَقُول: خَرَجَ رَسُول الله ﷺ إِلى المِرْبَد، فَخَرَجْت مَعَهُ فَكُنْت عَنْ يَمِينه، وَأَقْبَل أَبُو بَكْر، فَتَأَخَّرْت عَنْهُ فَكَانَ عَنْ يَمِينه وَكُنْت عَنْ يَسَاره، ثُمَّ أَقْبَل عُمَر فَتَنَحَّيْت لهُ فَكَانَ عَنْ يَسَاره، فَأَتَى رَسُول الله ﷺ المِرْبَد، فَإِذَا بِزِقَاق عَلى المِرْبَد فِيهَا خَمْر، قَال ابْن عُمَر: فَدَعَانِي رَسُول الله ﷺ بِالمُدْيَة، قَال ابْن عُمَر: وَمَا عَرَفْت المُدْيَة إِلَّا يَوْمئِذٍ. فَأَمَرَ بِالزِّقَاق فَشُقَّتْ، ثُمَّ قَال: **«لُعِنَتْ الخَمْر، وَشَارِبهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعهَا، وَمُبْتَاعهَا، وَحَامِلهَا، وَالمَحْمُولة إِليْه، وَعَاصِرهَا، وَمُعْتَصِرهَا، وَآكِل ثَمَنهَا»**. وَقَال أَحْمَد: حَدَّثَنَا الحَكَم

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن جرير (٥/ ٣٧) من حديث أنس، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٧٥) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.
(٢) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٢) فيه عبد الله بن زحر: ضعيف ولكن للحديث شواهد استوعبها الألباني في «الصحيحة» (١٧٠٨).
(٣) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٤٧).
(٤) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٢/ ١٧١).
(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠)، وأحمد (٢/ ٧١)، وابن أبي شيبة (٤/ ٤١٣) من حديث ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٧٢٥).

ابْن نَافِع، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي مَرْيَم، عَنْ ضَمْرَة بْن حَبِيب، قَال: قَال عَبْد الله بْن عُمَر: أَمَرَنِي رَسُول الله ﷺ أَنْ آتِيَهُ بِمُدْيَةٍ -وَهِيَ الشَّفْرَة- فَأَتَيْته بِهَا فَأَرْسَل بِهَا فَأُرْهِفَتْ، ثُمَّ أَعْطَانِيهَا وَقَال: «اغْدُ عَليَّ بِهَا». فَفَعَلت. فَخَرَجَ بِأَصْحَابِهِ إِلى أَسْوَاق المَدِينَة وَفِيهَا زِقَاق الخَمْر قَدْ جُلِبَتْ مِنْ الشَّام، فَأَخَذَ المُدْيَة مِنِّي فَشَقَّ مَا كَانَ مِنْ تِلكَ الزِّقَاق بِحَضْرَتِهِ، ثُمَّ أَعْطَانِيهَا وَأَمَرَ أَصْحَابه الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَنْ يَمْضُوا مَعِي وَأَنْ يُعَاوِنُونِي، وَأَمَرَنِي أَنْ آتِي الأَسْوَاق كُلّهَا فَلا أَجِد فِيهَا زِقَّ خَمْرٍ إِلَّا شَقَقْته، فَفَعَلت فَلَمْ أَتْرُك فِي أَسْوَاقهَا زِقًّا إِلَّا شَقَقْته[1].

حَدِيث آخَر: قَال عَبْد الله بْن وَهْب: أَخْبَرَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن شُرَيْح، وَابْن لَهِيعَة، وَاللَّيْث بْن سَعْد، عَنْ خَالد ابْن يَزِيد، عَنْ ثَابِت بن يَزِيد الخَوْلانِيّ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ كَانَ لهُ عَمّ يَبِيع الخَمْر وَكَانَ يَتَصَدَّق، فَنَهَيْته عَنْهَا فَلَمْ يَنْتَهِ، فَقَدِمْت المَدِينَة فَلقِيت ابْن عَبَّاس فَسَأَلته عَنْ الخَمْر وَثَمَنهَا، فَقَال: هِيَ حَرَام وَثَمَنهَا حَرَام. ثُمَّ قَال: يَا مَعْشَر أُمَّة مُحَمَّد إِنَّهُ لوْ كَانَ كِتَاب بَعْد كِتَابكُمْ وَنَبِيّ بَعْد نَبِيِّكُمْ، لأُنْزِل فِيكُمْ كَمَا أُنْزِل فِيمَنْ قَبْلكُمْ، وَلكِنْ أُخِّرَ ذَلكَ مِنْ أَمْرِكُمْ إِلى يَوْم القِيَامَة، وَلعَمْرِي لهُوَ أَشَدُّ عَليْكُمْ. قَال ثَابِت: فَلقِيت عَبْد الله بْن عُمَر فَسَأَلته عَنْ ثَمَن الخَمْر؟ فَقَال: سَأُخْبِرُك عَنْ الخَمْر؛ إِنِّي كُنْت عند رَسُول الله ﷺ فِي المَسْجِد، فبينا هُوَ مُحْتَبٍ حلَّ حُبْوَته ثُمَّ قَال: «مَنْ كَانَ عِنْده مِنْ هَذِهِ الخَمْر شيء فَليَأْتِنَا بِهَا». فَجَعَلُوا يَأْتُونَهُ فَيَقُول أَحَدهمْ: عِنْدِي رَاوِيَة، وَيَقُول الآخَر: عِنْدِي زِقّ. أَوْ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكُون عِنْده. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «اجْمَعُوهُ بِبَقِيعِ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ آذِنُونِي». فَفَعَلُوا ثُمَّ آذَنُوهُ فَقَامَ وَقُمْت مَعَهُ، فَمَشَيْت عَنْ يَمِينه وَهُوَ مُتَّكِئ عَليَّ، فَلحِقَنَا أَبُو بَكْر ﷺ فَأَخَّرَنِي رَسُول الله ﷺ فَجَعَلنِي عَنْ شِمَاله وَجَعَل أَبَا بَكْر مَكَانِي، ثُمَّ لحِقَنَا عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ فَأَخَّرَنِي وَجَعَلهُ عَنْ يَسَاره، فَمَشَى بَيْنهمَا حَتَّى إِذَا وَقَفَ عَلى الخَمْر قَال للنَّاس: «أَتَعْرِفُونَ هَذِهِ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُول الله، هَذِهِ الخَمْر. قَال: «صَدَقْتُمْ». قَال: «فَإِنَّ الله لعَنَ الخَمْر، وَعَاصِرهَا، وَمُعْتَصِرهَا، وَشَارِبهَا، وَسَاقِيهَا، وَحَامِلهَا، وَالمَحْمُولة إِليْهِ، وَبَائِعهَا، وَمُشْتَرِيهَا، وَآكِل ثَمَنهَا». ثُمَّ دَعَا بِسِكِّينٍ فَقَال: «اشْحَذُوهَا». فَفَعَلُوا ثُمَّ أَخَذَهَا رَسُول الله ﷺ يَخْرِق بِهَا الزِّقَاق، قَال: فَقَال النَّاس: فِي هَذِهِ الزِّقَاق مَنْفَعَة. فَقَال: «أَجَل، وَلكِنِّي إِنَّمَا أَفْعَل ذَلكَ غَضَبًا لله ﷻ لمَا فِيهَا مِنْ سَخَطه». فَقَال عُمَر: أَنَا أَكْفِيك يَا رَسُول الله. قَال: «لا». قَال ابْن وَهْب: وَبَعْضهمْ يَزِيد عَلى بَعْض فِي قِصَّة الحَدِيث. رَوَاهُ البَيْهَقِيّ[2].

حَدِيث آخَر: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ: أَنْبَأَنَا أَبُو الحسين ابْن بِشْران، أَنْبَأَنَا إِسْمَاعِيل بْن مُحَمَّد الصَّفَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُبَيْد الله المُنَادِي، حَدَّثَنَا وَهْب بْن جَرِير، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ سِمَاك، عَنْ مُصْعَب بْن سَعْد، عَنْ سَعْد، قَال: أُنْزِلتْ فِي الخَمْر أَرْبَع آيَات، فَذَكَرَ الحَدِيث، قَال: وَضَعَ رَجُل مِنْ الأَنْصَار طَعَامًا، فَدَعَانَا فَشَرِبْنَا الخَمْر قَبْل أَنْ تُحَرَّم حَتَّى انْتَشَيْنَا، فَتَفَاخَرْنَا؛ فَقَالتْ الأَنْصَار: نَحْنُ أَفْضَلُ، وَقَالتْ قُرَيْش: نَحْنُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ رَجُل مِنْ الأَنْصَار لحْي جَزُور فَضَرَبَ بِهِ أَنْف سَعْد فَفَزَرَهُ، وَكَانَتْ أَنْف سَعْد مَفْزُورًا، فَنَزَلتْ آيَة الخمر: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ إِلى قَوْله تَعَالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾. أَخْرَجَهُ مُسْلم مِنْ حَدِيث شُعْبَة.

حَدِيث آخَر: قَال البَيْهَقِيّ: وَأَخْبَرَنَا أَبُو نَصْر ابْن قَتَادَة، أَنْبَأَنَا أَبُو عَليّ الرفاء، حَدَّثَنَا عَليّ بْن عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مِنْهَال، حَدَّثَنَا رَبِيعَة بْن كُلثُوم، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: إِنَّمَا نَزَل تَحْرِيم الخَمْر فِي قَبِيلتَيْنِ مِنْ قَبَائِل الأَنْصَار شَرِبُوا، فَلمَّا أَنْ ثَمِل القوم عَبَثَ بَعْضهمْ بِبَعْضٍ، فَلمَّا أَنْ صَحُّوا جَعَل الرَّجُل يَرَى الأَثَر بِوَجْهِهِ وَرَأْسه وَلحْيَته فَيَقُول: صَنَعَ بِي هَذَا أَخِي فُلان، وَكَانُوا إِخْوَة ليْسَ فِي قُلُوبهمْ ضَغَائِنُ،

---

(١) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢) وفيه أبو بكر ابن أبي مريم: ضعيف، لكن يشهد له ما سبق.

(٢) ضعيف الإسناد: أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٨/ ٢٨٧) فيه خالد بن يزيد: مجهول، ولكن يشهد للحديث ما سبق.

فَيَقُول: وَالله لوْ كَانَ بِي رَءُوفًا رَحِيمًا مَا صَنَعَ بِي هَذَا، حَتَّى وَقَعَتْ الضَّغَائِن فِي قُلُوبهمْ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى هَذِهِ الآيَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فَقَالَ أُنَاس مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ: هِيَ رِجْس وَهِيَ فِي بَطْن فُلَان وَقَدْ قُتِلَ يَوْم أُحُد. فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحِيم صَاعِقَة، عَنْ حَجَّاج بْن مِنْهَال.

حَدِيث آخَر: قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن خَلَف، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن مُحَمَّد الْجَرْمِيّ، عَنْ أَبِي تُمَيْلَة، عَنْ سَلَّام مَوْلَى حَفْص أَبِي الْقَاسِم، عَنْ ابْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ قُعُود عَلَى شَرَاب لَنَا وَنَحْنُ عَلَى رَمْلَة، وَنَحْنُ ثَلَاثَة أَوْ أَرْبَعَة، وَعِنْدنَا بَاطِيَة لَنَا وَنَحْنُ نَشْرَب الْخَمْر حِلًّا، إِذْ قُمْت حَتَّى آتِي رَسُول الله ﷺ فَأُسَلِّم عَلَيْهِ، إِذْ نَزَلَ تَحْرِيم الْخَمْر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إِلَى آخِر الْآيَتَيْنِ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، فَجِئْت إِلَى أَصْحَابِي فَقَرَأْتهَا عَلَيْهِمْ إِلَى قَوْله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قَالَ: وَبَعْض الْقَوْم شَرْبَتُهُ فِي يَده قَدْ شَرِبَ بَعْضهَا، وَبَقِيَ بَعْض فِي الْإِنَاء، فَقَالَ بِالْإِنَاءِ تَحْت شَفَته الْعُلْيَا كَمَا يَفْعَل الْحَجَّام، ثُمَّ صَبُّوا مَا فِي بَاطِيَتهمْ، فَقَالُوا: انْتَهَيْنَا رَبّنَا!.

حَدِيث آخَر: قَالَ الْبُخَارِيّ: حَدَّثَنَا صَدَقَة بْن الْفَضْل، أَخْبَرَنَا ابْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو، عَنْ جَابِر، قَالَ: صَبَّحَ أُنَاس غَدَاة أُحُد الْخَمْر فَقُتِلُوا مِنْ يَوْمهمْ جَمِيعًا شُهَدَاء، وَذَلِكَ قَبْل تَحْرِيمهَا. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي تَفْسِيره مِنْ صَحِيحه، وَقَدْ رَوَاهُ الْحَافِظ أَبُو بَكْر الْبَزَّار فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْدَة، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، سَمِعَ جَابِر بْن عَبْد الله يَقُول: اصْطَبَحَ نَاس الْخَمْر مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ ثُمَّ قُتِلُوا شُهَدَاء يَوْم أُحُد، فَقَالَتْ الْيَهُود: فَقَدْ مَاتَ بَعْض الَّذِينَ قُتِلُوا وَهِيَ فِي بُطُونهمْ. فَأَنْزَلَ الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾. ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح. وَهُوَ كَمَا قَالَ، وَلَكِنَّ فِي سِيَاقه غَرَابَة.

حَدِيث آخَر: قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ الْبَرَاء بْن عَازِب، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيم الْخَمْر قَالُوا: كَيْف بِمَنْ كَانَ يَشْرَبهَا قَبْل أَنْ تُحَرَّم؟ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ الآيَة . وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ غُنْدَر، عَنْ شُعْبَة بِهِ نَحْوه، وَقَالَ: حَسَن صَحِيح.

حَدِيث آخَر: قَالَ الْحَافِظ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن حُمَيْد الْكُوفِيّ، حَدَّثَنَا يَعْقُوب الْقُمِّيّ، عَنْ عِيسَى ابْن جَارِيَة، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَالَ: كَانَ رَجُل يَحْمِل الْخَمْر مِنْ خَيْبَر إِلَى الْمَدِينَة فَيَبِيعهَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ، فَحَمَلَ مِنْهَا بِمَالٍ فَقَدِمَ بِهَا الْمَدِينَة فَلَقِيَهُ رَجُل مِنْ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: يَا فُلَان؛ إِنَّ الْخَمْر قَدْ حُرِّمَتْ. فَوَضَعَهَا حَيْثُ انْتَهَى عَلَى تَلّ وَسَجَّى عَلَيْهَا بِأَكْسِيَةٍ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُول الله، بَلَغَنِي أَنَّ الْخَمْر قَدْ حُرِّمَتْ. قَالَ: «أَجَل». قَالَ: أَلِي أَنْ أَرُدّهَا عَلَى مَنْ ابْتَعْتهَا مِنْهُ؟ قَالَ: «لا يَصلح رَدّهَا». قَالَ: أَلِي أَنْ أُهْدِيهَا إِلَى مَنْ يُكَافِئنِي مِنْهَا؟ قَالَ: «لا». قَالَ: فَإِنَّ فِيهَا مَالًا لِيَتَامَى فِي حِجْرِي. قَالَ: «إذا أتانا مَال البَحْرَيْنِ فَأتِنَا نُعَوِّض أيْتَامك مِنْ مَالهِم». ثُمَّ نَادَى بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ رَجُل: يَا رَسُول الله الْأَوْعِيَة نَنْتَفِع بِهَا؟ قَالَ: «فَحُلّوا أوْكِيَتهَا»، فَانْصَبَّتْ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي بَطْن الْوَادِي[1]. هَذَا حَدِيث غَرِيب.

حَدِيث آخَر: قَالَ الْإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ أَبِي هُبَيْرَة -وَهُوَ يَحْيَى بْن عَبَّاد الْأَنْصَارِيّ- عَنْ أَنَس بْن مَالِك: أَنَّ أَبَا طَلْحَة سَأَلَ رَسُول الله ﷺ عَنْ أَيْتَام فِي حِجْره وَرِثُوا خَمْرًا. فَقَالَ: «أَهْرِقْهَا». قَالَ: أَفَلَا نَجْعَلهَا خَلًّا؟ قَالَ: «لا»[2]. وَرَوَاهُ مُسْلِم وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ بِهِ نَحْوه.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو يعلى (١٨٨٤) وفيه عيسى بن جارية، وقال الحافظ: فيه لين.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٨٣)، وأبو داود (٣٦٧٥).

حَدِيث آخَر: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن رَجَاء، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن أَبِي سَلَمَة، حَدَّثَنَا هِلال بْن أَبِي هِلال، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: إِنَّ هَذِهِ الآيَة الَّتِي فِي القُرْآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ قَال: هِيَ فِي التَّوْرَاة: إِنَّ الله أَنْزَل الحَقّ لِيُذْهِب بِهِ البَاطِل، وَيُبْطِل بِهِ اللَّعِب وَالمَزَامِير وَالزَّفْن وَالكِنَارَات -يَعْنِي البَرَابِط- وَالزَّمَّارَات -يَعْنِي بِهَا الدُّفّ- وَالطَّنَابِير وَالشِّعْر، وَالخَمْر مَرَّة لِمَنْ طَعِمَهَا، أَقْسَمَ الله بِيَمِينِهِ وَعِزَّة حَيْله مَنْ شَرِبَهَا بَعْدَمَا حَرَّمْتهَا لأُعَطِّشَنهُ يَوْم القِيَامَة، وَمَنْ تَرَكَهَا بَعْد مَا حَرَّمْتهَا لأَسْقِيَنه إِيَّاهَا فِي حَظِيرَة القُدُس. وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح.

حَدِيث آخَر: قَال عَبْد الله بْن وَهْب: أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، أَنَّ عَمْرو بْن شُعَيْب حَدَّثَهُمْ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاصِ، عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: **«مَنْ تَرَكَ الصَّلاة سُكْرًا مَرَّة وَاحِدَة فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُلِبَهَا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلاة سُكْرًا أَرْبَع مَرَّات كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يَسْقِيه مِنْ طِينَة الخَبَال»**. قِيل: وَمَا طِينَة الخَبَال؟ قَال: **«عُصَارَة أَهل جَهَنَّم»**(١). وَرَوَاهُ أَحْمَد مِنْ طَرِيق عَمْرو بْن شُعَيْب.

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن رَافِع، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن عُمَر الصَّنْعَانِيّ، قَال: سَمِعْت النُّعْمَان -هُوَ ابْن أَبِي شَيْبَة الجَنَدِيّ- يَقُول: عَنْ طَاوُس، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«كُلّ مُخَمِّر خَمْر، وَكُلّ مُسْكِر حَرَام، وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا بُخِسَتْ صَلاته أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ الله عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَة كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يَسْقِيه مِنْ طِينَة الخَبَال»**. قِيل: وَمَا طِينَة الخَبَال يَا رَسُول الله؟ قَال: **«صَدِيد أَهْل النَّار، وَمَنْ سَقَاهُ صَغِيرًا لا يَعْرِف حَلاله مِنْ حَرَامه كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يَسْقِيه مِنْ طِينَة الخَبَال»**(٢). تَفَرَّدَ به أَبُو دَاوُد.

حَدِيث آخَر: قَال الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ: أَنْبَأَنَا مَالك، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«مَنْ شَرِبَ الخَمْر فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الآخِرَة»**(٣). أَخْرَجَهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم مِنْ حَدِيث مَالك بِهِ. وَرَوَى مُسْلم عَنْ أَبِي الرَّبِيع، عَنْ حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ أَيُّوب، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«كُلّ مُسْكِر خَمْر، وَكُلّ مُسْكِر حَرَام، وَمَنْ شَرِبَ الخَمْر فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا لَمْ يَشْرِبها فِي الآخِرَة»**(٤).

حَدِيث آخَر: قَال ابْن وَهْب: أَخْبَرَنِي عُمَر بْن مُحَمَّد، عَنْ عَبْد الله بْن يَسَار، أَنَّهُ سَمِعَ سَالِم بْن عَبْد الله يَقُول: قَال عَبْد الله بْن عُمَر: قَال رَسُول الله ﷺ: **«ثَلاثَة لا يَنْظُر الله إِلَيْهِمْ يَوْم القِيَامَة: العَاقّ لِوَالِدَيْهِ، وَالمُدْمِن الخَمْر، وَالمَنَّان بِمَا أَعْطَى»**(٥). وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ: عَنْ عمرو بْن عَلِيّ، عَنْ يَزِيد بْن زُرَيْع، عَنْ عُمَر بْن مُحَمَّد العُمَرِيّ بِهِ. وَرَوَى أَحْمَد: عَنْ غُنْدَر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«لا يَدْخُل الجَنَّة مَنَّان، وَلا عَاقّ، وَلا مُدْمِن خَمْر»**(٦). وَرَوَاهُ أَحْمَد أَيْضًا: عَنْ عَبْد الصَّمَد، عَنْ عَبْد العَزِيز بْن مُسْلِم، عَنْ يَزِيد ابْن أَبِي زِيَاد، عَنْ مُجَاهِد بِهِ. وَعَنْ مَرْوَان بْن شُجَاع، عَنْ خُصَيْف، عَنْ مُجَاهِد بِهِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْ القَاسِم بْن زَكَرِيَّا، عَنْ حُصَيْن الجُعْفِيّ، عَنْ زَائِدَة، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، عَنْ سَالِم بْن أَبِي الجَعْد وَمُجَاهِد؛ كِلاهُمَا عَنْ أَبِي سَعِيد بِهِ.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ١٧٨)، والحاكم (٤/ ١٦٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦/ ٢٦٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٤١٩).
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٨٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ٢٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥٤٨).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٣/ ١٥٨٧).
(٥) صحيح: تقدم.
(٦) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٣/ ٢٨)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ١٢) و«الكبرى» (٨/ ٢٨٨)، وفيه يزيد بن أبي يزيد: ضعيف ويشهد له ما سبق.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزَّاق، حدَّثنا سُفيان، عَنْ مَنْصُور، عَنْ سَالم بن أبي الجعْد، عَنْ جَابَان، عَنْ عَبْد الله بن عَمْرو، عَن النَّبيّ ﷺ قَال: «لا يَدْخُل الجنَّة عاقّ، ولا مُدْمِن خَمْر، ولا مَنَّان، ولا ولد زنْيَة»(١). وَكَذَا رَوَاهُ عَنْ يَزِيد، عَنْ هَمَّام، عَنْ مَنْصُور، عَنْ سَالم، عَنْ جَابَان، عَنْ عَبْد الله بن عَمْرو بِهِ. وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا عَنْ غُنْدَر وَغَيْره، عَنْ شُعْبَة، عَنْ مَنْصُور، عَنْ سَالم، عَنْ نُبَيْط بْن شَرِيط، عَنْ جَابَان، عَنْ عَبْد الله بن عَمْرو، عَن النَّبيّ ﷺ قَال: «لا يَدْخل الجنَّة مَنَّان، ولا عَاقّ وَالدَيْه، ولا مُدْمِن خَمْر»(٢). وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث شُعْبَة كَذَلِكَ، ثُمَّ قَال: وَلا نَعْلم أَحَدًا تَابَعَ شُعْبَة عَنْ نُبَيْط بْن شَرِيط. وَقَال البُخَارِيّ: لا يُعْرَف لجَابَان سَمَاع مِنْ عَبْد الله، وَلا لسَالم مِنْ جَابَان وَلا نُبَيْط. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيث مِنْ طَرِيق مُجَاهِد عَنْ ابْن عَبَّاس، وَمَنْ طَرِيقه أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، فَالله أَعْلم. وَقَال الزُّهْرِيّ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْر ابْن عَبْد الرَّحْمَن بن الحَارِث بْن هِشَام، أَنَّ أَبَاهُ قَال: سَمِعْت عُثْمَان بْن عَفَّان يَقُول: اجْتَنِبُوا الخَمْر فَإِنَّهَا أُمّ الخَبَائِث، إِنَّهُ كَانَ رَجُل فِيمَنْ خَلا قَبْلكُمْ يَتَعَبَّد وَيَعْتَزِل النَّاس، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَة غَوِيَّة، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتهَا، فقالت: إنا ندعوك لشَهَادَة، فَدَخل مَعَهَا فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخل بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونه، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَة وَضِيئَة عِنْدهَا غُلام وَبَاطِيَة خَمْر، فَقَالَتْ: إِنِّي وَالله مَا دَعَوْتُك لشَهَادَة، وَلَكِنِّي دَعَوْتُك لتَقَع عَلَيَّ، أَوْ تَقْتُل هَذَا الغُلام، أَوْ تَشْرَب هَذَا الخَمْر، فَسَقَتْهُ كَأْسًا، فَقَال: زِيدُونِي، فَلَمْ يَرِمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا وَقَتَل النَّفْس، فَاجْتَنِبُوا الخَمْر فَإِنَّهَا لا تَجْتَمِع هِيَ وَالإِيمَان أَبَدًا، إِلَّا أَوْشَكَ أَحَدهمَا أَنْ يُخْرِج صَاحِبه. وَرَوَاهُ البَيْهَقِيّ وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح، وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو بَكْر ابْن أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابه ذَمّ المُسْكِر عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن بَزِيع، عن الفُضَيْل بْن سُلَيْمَان النُّمَيْرِيّ، عَنْ عُمَر بْن سَعِيد، عَنْ الزُّهْرِيّ بِهِ مَرْفُوعًا، وَالمَوْقُوف أَصَحّ، وَالله أَعْلم. وَلَهُ شَاهِد فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِين يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِن، وَلا يَسْرِق سَرِقَة حِين يَسْرِقهَا وَهُوَ مُؤْمِن، وَلا يَشْرَب الخَمْر حِين يَشْرَبهَا وَهُوَ مُؤْمِن»(٣).

وَقَال أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا أَسْوَد بْن عَامِر، أخبرنا إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عباس، قَال: لَمَّا حُرِّمَتْ الخَمْر قَال أُنَاس: يَا رَسُول الله، أَصْحَابنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَشْرَبُونَهَا؟ فَأَنْزَل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ إِلَى آخِر الآيَة. قَال: وَلَمَّا حُوِّلَتْ القِبْلَة قَال أُنَاس: يَا رَسُول الله، أصحابنا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْت المَقْدِس؟ فَأَنْزَل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾(٤).

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا دَاوُد بْن مِهْرَان الدَّبَّاغ، حَدَّثَنَا دَاوُد -يَعْنِي: العَطَّار- عَنْ ابن خُثيم، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أَسْمَاء بِنْت يَزِيد، أَنَّهَا سَمِعَت النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «مَنْ شَرِبَ الخَمْر لَمْ يَرْضَ الله عَنْهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَة، إِنْ مَاتَ مَاتَ كَافِرًا، وَإِنْ تَابَ تَابَ الله عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يَسْقِيه مِنْ طِينَة الخَبَال». قَالَتْ: قُلْت: يَا رَسُول الله، وَمَا طِينَة الخَبَال؟ قَال: «صَدِيد أَهْل النَّار»(٥). وَقَال الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَلْقَمَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا﴾ فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «قِيل لِي: أَنْتَ مِنْهُمْ»(٦). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلم وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ طَرِيقه. وَقَال عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد: قَرَأْت عَلَى أَبِي، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَاصِم، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم الهَجَرِيّ، عَنْ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٣)، والنسائي في «الكبرى» (٣/ ١٧٥)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٦٧٣).

(٢) حسن لغيره: تقدم.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

(٤) حسن لغيره: أخرجه أحمد (١/ ٢٩٥)، والترمذي (٣٠٥٢).

(٥) ضعيف الإسناد: أخرجه أحمد (٦/ ٤٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ١٦٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (٢١٥٨).

(٦) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٥٩)، والترمذي (٣٠٥٣).

أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إيَّاكُمْ وَهَاتَانِ الكَعْبَتَانِ المَوْسُومَتَانِ اللَّتَانِ تُزْجَرَانِ زَجْرًا، فَإِنَّهُمَا مَيْسِر العَجَم»[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾

قَال الوَالِبِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قَال: هُوَ الضَّعِيف مِنْ الصَّيْد وَصَغِيره يَبْتَلِي الله بِهِ عِبَاده فِي إِحْرَامهمْ، حَتَّى لَوْ شَاءُوا يَتَنَاوَلُونهُ بِأَيْدِيهِمْ، فَنَهَاهُمْ الله أَنْ يَقْرَبُوهُ. وَقَال مُجَاهِد: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ يَعْنِي: صِغَار الصَّيْد وَفِرَاخه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يَعْنِي: كِبَاره. وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي عُمْرَة الحُدَيْبِيَة، فَكَانَتْ الوَحْش وَالطَّيْر وَالصَّيْد تَغْشَاهُمْ فِي رِحَالهمْ، لَمْ يَرَوْا مِثْله قَطُّ فِيمَا خَلا، فَنَهَاهُمْ الله عَنْ قَتْله وَهُمْ مُحْرِمُونَ. ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ تَعَالَى يَبْتَلِيهِمْ بِالصَّيْدِ يَغْشَاهُمْ فِي رِحَالهمْ، يَتَمَكَّنُونَ مِنْ أَخْذه بِالأَيْدِي وَالرِّمَاح، سِرًّا وَجَهْرًا، لِتَظْهَر طَاعَة مَنْ يُطِيع مِنْهُمْ فِي سِرّه أَوْ جَهْره، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. وَقَوْله هَاهُنَا: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ قَال السُّدِّيّ وَغَيْره: يَعْنِي بَعْد هَذَا الإِعْلام وَالإِنْذَار وَالتَّقَدُّم، ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ: لِمُخَالَفَتِهِ أَمْر الله وَشَرْعه.

ثم قَال تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ وَهَذَا تَحْرِيم مِنْهُ تَعَالَى لِقَتْل الصَّيْد فِي حَال الإِحْرَام وَنَهْي عَنْ تَعَاطِيه فِيهِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَتَنَاوَل مِنْ حَيْثُ المَعْنَى المَأْكُول وَمَا يَتَوَلَّد مِنْهُ وَمِنْ غَيْره، فَأَمَّا غَيْر المَأْكُول مِنْ حَيَوَانَات البَرّ، فَعِنْد الشَّافِعِيّ يَجُوز لِلمُحْرِمِ قَتْلهَا، وَالجُمْهُور عَلَى تَحْرِيم قَتْلهَا أَيْضًا، وَلا يُسْتَثْنَى مِنْ ذَلكَ إِلَّا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيق الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة عَنْ عَائِشَة أُمّ المُؤْمِنِينَ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «خَمْس فَوَاسِق يُقْتَلنَ فِي الحِلّ وَالحَرَم: الغُرَاب، وَالحِدَأَة، وَالعَقْرَب، وَالفَأْرَة، وَالكَلب العَقُور»[2]. وَقَال مَالِك، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «خَمْس مِنْ الدَّوَابّ لَيْسَ عَلَى المُحْرِم فِي قَتْلهنَّ جُنَاح: الغُرَاب، وَالحِدَأَة، وَالعَقْرَب، وَالفَأْرَة، وَالكَلب العَقُور»[3]. أَخرجاه وَرَوَاهُ أَيُّوب، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر مِثْله. قَال أَيُّوب: قُلت لِنَافِع: فَالحَيَّة؟ قَال: الحَيَّة لا شَكَّ فِيهَا، وَلا يُخْتَلف فِي قَتْلهَا.

وَمِنْ العُلَمَاء كَمَالِكٍ وَأَحْمَد مَنْ أَلْحَقَ بِالكَلب العَقُور الذِّئْب وَالسَّبُع وَالنَّمِر وَالفَهْد؛ لأَنَّهَا أَشَدُّ ضَرَرًا مِنْهُ، فَالله أَعْلَم. وَقَال زَيْد بْن أَسْلَمَ وَسُفْيَان بْن عُيَيْنَةَ: الكَلب العَقُور يَشْمَل هَذِهِ السِّبَاع العَادِيَة كُلّهَا. وَاسْتَأْنَسَ مَنْ قَال بِهَذَا بِمَا رُوِيَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَمَّا دَعَا عَلَى عُتْبَة بْن أَبِي لَهَب قَال: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلبكَ بِالشَّام». فَأَكَلهُ السَّبُع بِالزَّرْقَاءِ قَالُوا: فَإِنْ قَتَل مَا عَدَاهُنَّ فَدَاهَا كَالضَّبُع وَالثَّعْلب وَهر البَرّ وَنَحْو ذَلكَ.

قَال مَالِك: وَكَذَا يُسْتَثْنَى مِنْ ذَلكَ صِغَار هَذِهِ الخَمْس المَنْصُوص عَلَيْهَا، وَصِغَار المُلحَق بِهَا مِنْ السِّبَاع العَوَادِي، وَقَال الشَّافِعِيّ: يَجُوز لِلمُحْرِمِ قَتْل كل مَا لا يُؤْكَل لَحمه، وَلا فَرْق بَيْن صِغَاره وَكِبَاره، وَجَعَل العِلَّة الجَامِعَة كَوْنهَا لا تُؤْكَل. وَقَال أَبُو حَنِيفَة: يَقْتُل المُحْرِم الكَلب العَقُور، وَالذِّئْب؛ لأَنَّهُ كَلب بَرِّيّ، فَإِنْ قَتَل غَيْرهمَا فَدَاهُ، إِلَّا أَنْ يَصُول عَلَيْهِ سَبُع غَيْرهمَا فَيَقْتُلهُ فَلا فِدَاء عَلَيْهِ. وَهَذَا قَوْل الأَوْزَاعِيّ وَالحَسَن بْن صَالِح بْن حُيَيّ.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٦٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٤٣٤)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٢٣٨)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (١٢٧٠).

(٢) صحيح: تقدم.

(٣) صحيح: تقدم.

وَقَال زُفر بْن الهُذَيْل: يَفْدِي مَا سِوَى ذَلكَ وَإِنْ صَال عَلَيْهِ. وَقَال بَعْض النَّاس: المُرَاد بِالغُرَابِ هَهُنَا الأَبْقَع، وَهُوَ الَّذِي فِي بَطْنه وَظَهْره بَيَاض، دُون الأَدْرَع وَهُوَ الأَسْوَد، وَالأَعْصَم وَهُوَ الأَبْيَض، لِمَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْ عَمْرو بْن عَلِيّ الفَلَّاس، عَنْ يَحْيَى القَطَّان، عَنْ شُعْبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، عَنْ عَائِشَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**خَمْس يَقْتُلهنَّ المُحْرِم: الحَيَّة، وَالفَأْرَة، وَالحدَأَة، وَالغُرَاب الأَبْقَع، وَالكَلب العَقُور**»[1]. وَالجُمْهُور عَلَى أَنَّ المُرَاد بِهِ أَعَمُّ مِنْ ذَلكَ، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ إِطْلَاق لفْظه. وَقَال مَالك رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يَقْتُل المُحْرِم الغُرَاب إِلَّا إِذَا صَال عَلَيْهِ وَآذَاهُ. وَقَال مُجَاهِد بْن جبر وَطَائِفَة: لا يَقْتُلهُ بَل يَرْمِيه. وَيُرْوَى مِثْله عَنْ عَلِيّ. وَقَدْ رَوَى هُشَيْم: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي نُعْم، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ سُئِل عَمَّا يَقْتُل المُحْرِم فَقَال: «**الحَيَّة، وَالعَقْرَب، وَالفُوَيْسِقَة، وَيَرْمِي الغُرَاب وَلا يَقْتُلهُ، وَالكَلب العَقُور، وَالحدَأَة وَالسَّبُع العَادِي**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، عَنْ أَحْمَد بْن حَنْبَل، وَالتِّرْمِذِيّ عَنْ أَحْمَد بْن مَنِيع، كِلاهُمَا عَنْ هُشَيْم، وَابْن مَاجَهْ عَنْ أَبِي كُرَيْب، وَعَنْ مُحَمَّد بْن فُضَيْل، كِلاهُمَا عَنْ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، وَهُوَ ضَعِيف به، وَقَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة، عَنْ أَيُّوب، قَال: نُبِّئْت عَنْ طَاوُس، أَنَّهُ قَال: لا يُحْكَم عَلَى مَنْ أَصَاب صَيْدًا خَطَأً، إِنَّمَا يُحْكَم عَلَى مَنْ أَصَابَهُ مُتَعَمِّدًا. وَهَذَا مَذْهَب غَرِيب عَنْ طَاوُس وَهُوَ مُتَمَسِّك بِظَاهِرِ الآيَة. وَقَال مُجَاهِد بْن جَبْر: المُرَاد بِالمُتَعَمِّدِ هاهُنَا القَاصِد إِلَى قَتْل الصَّيْد النَّاسِي لِإِحْرَامِهِ، فَأَمَّا المُتَعَمِّد لِقَتْل الصَّيْد مَعَ ذِكْره لِإِحْرَامِهِ فَذَاكَ أَمْره أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُكَفِّر وَقَدْ بَطَل إِحْرَامه. رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْهُ مِنْ طَرِيق ابْن أَبِي نَجِيح وَلَيْث بْن أَبِي سُلَيْم وَغَيْرهمَا عَنْهُ، وَهُوَ قَوْل غَرِيب أَيْضًا، وَالَّذِي عَلَيْهِ الجُمْهُور: أَنَّ العَامِد وَالنَّاسِي سَوَاء فِي وُجُوب الجَزَاء عَلَيْهِ. وَقَال الزُّهْرِيّ: دَلَّ الكِتَاب عَلَى العَامِد وَجَرَتْ السُّنَّة عَلَى النَّاسِي. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ القُرْآن دَلَّ عَلَى وُجُوب الجَزَاء عَلَى المُتَعَمِّد وَعَلَى تَأْثِيمه بِقَوْلِهِ: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ وَجَاءَتْ السُّنَّة مِنْ أَحْكَام النَّبِيّ ﷺ وَأَحْكَام أَصْحَابه بِوُجُوبِ الجَزَاء فِي الخَطَأ كَمَا دَلَّ الكِتَاب عَلَيْهِ فِي العَمْد، وَأَيْضًا فَإِنَّ قَتْل الصَّيْد إِتْلاف، وَالإِتْلاف مَضْمُون فِي العَمْد وَفِي النِّسْيَان، لكِنَّ المُتَعَمِّد مَأْثُوم وَالمُخْطِئ غَيْر مَلُوم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَجَزَآءُ مِثْلِ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ قَرَأَ بَعْضهمْ بِالإِضَافَةِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِعَطْفِهَا: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، وَحَكَى ابْن جَرِير أَنَّ ابْن مَسْعُود قَرَأَهَا: ﴿**فَجَزَاؤُهُ مِثْل مَا قَتَل مِنْ النَّعَم**﴾. وَفِي قَوْله ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ عَلَى كُلّ مِنْ القِرَاءَتَيْنِ دَلِيل لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَالك وَالشَّافِعِيّ وَأَحْمَد وَالجُمْهُور -مِنْ وُجُوب الجَزَاء مِنْ مِثْل مَا قَتَلهُ المُحْرِم إِذَا كَانَ لهُ مِثْل مِنْ الحَيَوَان الإِنْسِيّ، خِلافًا لِأَبِي حَنِيفَة رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ أَوْجَبَ القِيمَة سَوَاء كَانَ الصَّيْد المَقْتُول مِثْلِيًّا أَوْ غَيْر مِثْلِيّ، قَال: وَهُوَ مُخَيَّر إِنْ شَاءَ تَصَدَّقَ بِثَمَنِهِ وَإِنْ شَاءَ اشْتَرَى بِهِ هَدْيًا. وَالَّذِي حَكَمَ بِهِ الصَّحَابَة فِي المِثْلِي أَوْلَى بِالاتِّبَاع، فَإِنَّهُمْ حَكَمُوا فِي النَّعَامَة بِبَدَنَةٍ، وَفِي بَقَرَة الوَحْش بِبَقَرَةٍ، وَفِي الغَزَال بِعَنْزٍ، وَذِكْرُ قَضَايَا الصَّحَابَة وَأَسَانِيدهَا مُقَرَّرٌ فِي كِتَاب الأَحْكَام، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ الصَّيْد مِثْلِيًّا؛ فَقَدْ حَكَمَ ابْن عَبَّاس فِيهِ بِثَمَنِهِ يُحْمَل إِلَى مَكَّة. رَوَاهُ البَيْهَقِيّ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ يَحْكُم بِالجَزَاءِ فِي المِثْلِي أَوْ بِالقِيمَةِ فِي غَيْر المِثْلِي عَدْلانِ مِنْ المُسْلمِينَ، وَاخْتَلفَ العُلَمَاء فِي القَاتِل هَل يَجُوز أَنْ يَكُون أَحَد الحَكَمَيْنِ عَلَى قَوْليْنِ:

أَحَدهمَا: لا؛ لأَنَّهُ قَدْ يُتَّهَم فِي حُكْمه عَلَى نَفْسه، وَهَذَا مَذْهَب مَالك.

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٢٨٢٩)، وأحمد (٦/ ٢٠٣) والنسائي في «الكبرى» (٢/ ٣٧٣) من حديث عائشة، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

وَالثَّانِي: نَعَمْ؛ لِعُمُومِ الآيَةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ.
وَاحْتَجَّ الأَوَّلُونَ: بِأَنَّ الحَاكِمَ لا يَكُونُ مَحْكُومًا عَلَيْهِ فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ الفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ -هُوَ ابْنُ بُرْقَانَ- عَنْ مَيْمُونِ ابْنِ مِهْرَانَ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ: قَتَلْتُ صَيْدًا وَأَنَا مُحْرِمٌ فَمَا تَرَى عَلَيَّ مِنَ الجَزَاءِ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ لِأُبَيِّ ابْنِ كَعْبٍ وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ: مَا تَرَى فِيهَا قَالَ؟ فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: أَتَيْتُكَ وَأَنْتَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَسْأَلُكَ فَإِذَا أَنْتَ تَسْأَلُ غَيْرَكَ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا تُنْكِرُ؟ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فَشَاوَرْتُ صَاحِبِي حَتَّى إِذَا اتَّفَقْنَا عَلَى أَمْرٍ أَمَرْنَاكَ بِهِ. وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ لَكِنَّهُ مُنْقَطِعٌ بَيْنَ مَيْمُونٍ وَبَيْنَ الصِّدِّيقِ وَمِثْلُهُ يُحْتَمَلُ هَاهُنَا، فَبَيَّنَ لَهُ الصِّدِّيقُ الحُكْمَ بِرِفْقٍ وَتُؤَدَةٍ لَمَّا رَآهُ أَعْرَابِيًّا جَاهِلًا، وَإِنَّمَا دَوَاءُ الجَهْلِ التَّعْلِيمُ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ المُعْتَرِضُ مَنْسُوبًا إِلَى العِلْمِ فَقَدْ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا هَنَّادٌ وَأَبُو هِشَامٍ الرِّفَاعِيُّ، قَالا: حَدَّثَنَا وَكِيعُ بْنُ الجَرَّاحِ، عَنِ المَسْعُودِيِّ، عَنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ جَابِرٍ، قَالَ: خَرَجْنَا حُجَّاجًا، فَكُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا الغَدَاةَ اقْتَدْنَا رَوَاحِلَنَا نَتَمَاشَى نَتَحَدَّثُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ ذَاتَ غَدَاةٍ إِذْ سَنَحَ لَنَا ظَبْيٌ أَوْ بَرِحَ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ كَانَ مَعَنَا بِحَجَرٍ فَمَا أَخْطَأَ حَشَاهُ، فَرَكِبَ وَوَدَعَهُ مَيِّتًا، قَالَ: فَعَظَّمْنَا عَلَيْهِ. فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ خَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى أَتَيْنَا عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ: فَقَصَّ عَلَيْهِ القِصَّةَ، قَالَ: وَإِذَا إِلَى جَنْبِهِ رَجُلٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ قَلْبُ فِضَّةٍ -يَعْنِي: عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ- فَالْتَفَتَ عُمَرُ إِلَى صَاحِبِهِ فَكَلَّمَهُ، قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ، فَقَالَ: أَعَمْدًا قَتَلْتَهُ أَمْ خَطَأً؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ تَعَمَّدْتُ رَمْيَهُ وَمَا أَرَدْتُ قَتْلَهُ. فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ أَشْرَكْتَ بَيْنَ العَمْدِ وَالخَطَأِ، اعْمِدْ إِلَى شَاةٍ فَاذْبَحْهَا وَتَصَدَّقْ بِلَحْمِهَا وَاسْتَبْقِ إِهَابَهَا، قَالَ: فَقُمْنَا مِنْ عِنْدِهِ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: أَيُّهَا الرَّجُلُ، عَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ، فَمَا دَرَى أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ مَا يُفْتِيكَ حَتَّى سَأَلَ صَاحِبَهُ، اعْمِدْ إِلَى نَاقَتِكَ فَانْحَرْهَا فَفَعَلَّ ذَاكَ. قَالَ قَبِيصَةُ: وَلا أَذْكُرُ الآيَةَ مِنْ سُورَةِ المَائِدَةِ ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قَالَ: فَبَلَغَ عُمَرَ مَقَالَتِي فَلَمْ يَفْجَأْنَا مِنْهُ إِلَّا وَمَعَهُ الدِّرَّةُ، قَالَ: فَعَلَا صَاحِبِي ضَرْبًا بِالدِّرَّةِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: أَقَتَلْتَ فِي الحَرَمِ، وَسَفَّهْتَ الحَكَمَ. قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، لا أُحِلُّ لَكَ اليَوْمَ شَيْئًا يَحْرُمُ عَلَيْكَ مِنِّي. فَقَالَ: يَا قَبِيصَةَ بْنَ جَابِرٍ، إِنِّي أَرَاكَ شَابَّ السِّنِّ، فَسِيحَ الصَّدْرِ، بَيِّنَ اللِّسَانِ، وَإِنَّ الشَّابَّ يَكُونُ فِيهِ تِسْعَةُ أَخْلَاقٍ حَسَنَةٍ وَخُلُقٌ سَيِّءٌ، فَيُفْسِدُ الخُلُقُ السَّيِّءُ الأَخْلَاقَ الحَسَنَةَ، فَإِيَّاكَ وَعَثَرَاتِ الشَّبَابِ.

وَقَدْ رَوَى هُشَيْمٌ هَذِهِ القِصَّةَ عَنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ قَبِيصَةَ بِنَحْوِهِ، وَرَوَاهَا أَيْضًا عَنْ حُصَيْنٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ قَبِيصَةَ بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهَا مُرْسَلَةً عَنْ عُمَرَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ المُزَنِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، أَخْبَرَنِي جَرِيرٌ البَجَلِيُّ، قَالَ: أَصَبْتُ ظَبْيًا وَأَنَا مُحْرِمٌ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، فَقَالَ: ائْتِ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِكَ فَلْيَحْكُمَا عَلَيْكَ. فَأَتَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَسَعْدًا فَحَكَمَا عَلَيَّ بِتَيْسٍ أَعْفَرَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ مُخَارِقٍ، عَنْ طَارِقٍ، قَالَ: أَوْطَأَ أَرْبَدُ ظَبْيًا فَقَتَلَهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ، فَأَتَى عُمَرَ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: احْكُمْ مَعِي. فَحَكَمَا فِيهِ جَدْيًا قَدْ جَمَعَ المَاءَ وَالشَّجَرَ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾. وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ كَوْنِ القَاتِلِ أَحَدَ الحَكَمَيْنِ كَمَا قَالَهُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ رَحِمَهُمَا اللهُ. وَاخْتَلَفُوا هَلْ تُسْتَأْنَفُ الحُكُومَةُ فِي كُلِّ مَا يُصِيبُهُ المُحْرِمُ، فَيَجِبُ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ ذَوَا عَدْلٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ حَكَمَ فِي مِثْلِهِ الصَّحَابَةُ، أَوْ يَكْتَفِي بِأَحْكَامِ الصَّحَابَةِ المُتَقَدِّمَةِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ؛ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ: يُتَّبَعُ فِي ذَلِكَ مَا حَكَمَتْ بِهِ الصَّحَابَةُ، وَجَعَلَاهُ شَرْعًا مُقَرَّرًا لا يُعْدَلُ عَنْهُ، وَمَا لَمْ يَحْكُمْ فِيهِ الصَّحَابَةُ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى عَدْلَيْنِ، وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ: بَلْ يَجِبُ الحُكْمُ فِي كُلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ، سَوَاءٌ وُجِدَ لِلصَّحَابَةِ فِي مِثْلِهِ حُكْمٌ أَمْ لا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿هَدْيَا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أَيْ: وَاصِلًا إلى الكَعْبَة، وَالمُرَاد: وُصُوله إلى الحَرَم بِأَنْ يُذْبَح هُنَاكَ، وَيُفَرَّق لَحْمه عَلى مَسَاكِين الحَرَم، وَهَذَا أَمْر مُتَّفَق عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الصُّورَة.

وَقَوْله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أَيْ: إِذَا لَمْ يَجِد المُحْرِم مِثْل مَا قَتَل مِنَ النَّعَم، أَوْ لَمْ يَكُنْ الصَّيْد المَقْتُول مِنْ ذَوَات الأَمْثَال، أَوْ قُلنَا بِالتَّخْيِيرِ فِي هَذَا المَقَام بَيْن الجَزَاء وَالإِطْعَام وَالصِّيَام، كَمَا هُوَ قَوْل مَالك وَأَبِي حَنِيفَة وَأَبِي يُوسُف وَمُحَمَّد بْن الحَسَن، وَأَحَد قَوْلَيْ الشَّافِعِيّ، وَالمَشْهُور عَنْ أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ؛ لِظَاهِرِ الآيَة ﴿أَوْ﴾ فَإِنَّهَا لِلتَّخْيِيرِ، وَالقَوْل الآخَر أَنَّهَا عَلى التَّرْتِيب. فَصُورَة ذَلِكَ أَنْ يُعْدَل إلى القِيمَة؛ فَيُقَوَّم الصَّيْد المَقْتُول عِنْد مَالك وَأَبِي حَنِيفَة وَأَصْحَابه وَحَمَّاد وَإِبْرَاهِيم، وَقَال الشَّافِعِيّ: يُقَوَّم مِثْله مِنَ النَّعَم لَوْ كَانَ مَوْجُودًا، ثُمَّ يَشْتَرِي بِهِ طَعَامًا فَيَتَصَدَّق بِهِ، فَيَصْرِف لِكُلِّ مِسْكِين مُدّ مِنْهُ عِنْد الشَّافِعِيّ وَمَالك وَفُقَهَاء الحِجَاز، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَال أَبُو حَنِيفَة وَأَصْحَابه: يُطْعِم كُلّ مِسْكِين مُدَّيْنِ. وَهُوَ قَوْل مُجَاهِد. وَقَال أَحْمَد: مُدّ مِنْ حِنْطَة أَوْ مُدَّانِ مِنْ غَيْره. فَإِنْ لَمْ يَجِد أَوْ قُلنَا بِالتَّخْيِيرِ صَامَ عَنْ إِطْعَام كُلّ مِسْكِين يَوْمًا. وَقَال ابْن جَرِير: وَقَال آخَرُونَ: يَصُوم مَكَان كُلّ صَاع يَوْمًا كَمَا فِي جَزَاء المُتَرَفِّه بِالحَلْق وَنَحْوه، فَإِنَّ الشَّارِع أَمَرَ كَعْب بْن عُجْرَة أَنْ [يَقْسِم][1] فَرَقًا بَيْن سِتَّة، أَوْ يَصُوم ثَلَاثَة أَيَّام، وَالفَرَق: ثَلَاثَة آصُع. وَاخْتَلَفُوا فِي مَكَان هَذَا الإِطْعَام؛ فَقَال الشَّافِعِيّ: مَحله الحَرَم وَهُوَ قَوْل عَطَاء، وَقَال مَالك: يُطْعِم فِي المَكَان الَّذِي أَصَابَ فِيهِ الصَّيْد أَوْ أَقْرَبَ الأَمَاكِن إِلَيْهِ، وَقَال أَبُو حَنِيفَة: إِنْ شَاءَ أَطْعَمَ فِي الحَرَم، وَإِنْ شَاءَ أَطْعَمَ فِي غَيْره.

ذِكْرُ أَقْوَال السَّلَف فِي هَذَا المَقَام: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن المُغِيرَة، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ مَنْصُور، عَنْ الحَكَم، عَنْ مِقْسَم، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْل الله تَعَالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيَا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ قَال: إِذَا أَصَابَ المُحْرِم الصَّيْد حُكِمَ عَلَيْهِ جَزَاؤُهُ مِنَ النَّعَم، فإن وجد جزاء ذبح، فتصدق به، وَإِنْ لَمْ يَجِد نُظِرَ كَمْ ثَمَنه، ثُمَّ قُوِّمَ ثَمَنُهُ طَعَامًا، فَصَامَ مَكَان كُلّ نِصْف صَاع يَوْمًا، قَال الله تَعَالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ قَال: إِنَّمَا أُرِيدَ بِالطَّعَامِ الصِّيَام، أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ الطَّعَام وُجِدَ جَزَاؤُهُ. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ طَرِيق جَرِير.

وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿هَدْيَا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ إِذَا قَتَل المُحْرِم شَيْئًا مِنَ الصَّيْد حُكِمَ عَلَيْهِ فِيهِ، فَإِنْ قَتَل ظَبْيًا أَوْ نَحْوه فَعَلَيْهِ شَاة تُذْبَح بِمَكَّة، فَإِنْ لَمْ يَجِد فَإِطْعَام سِتَّة مَسَاكِين، فَإِنْ لَمْ يَجِد فَصِيَام ثَلَاثَة أَيَّام، فَإِنْ قَتَل إِبِلًا أَوْ نَحْوه فَعَلَيْهِ بَقَرَة، فَإِنْ لَمْ يَجِدها أَطْعَمَ عِشْرِينَ مِسْكِينًا، فَإِنْ لَمْ يَجِد صَامَ عِشْرِينَ يَوْمًا، وَإِنْ قَتَل نَعَامَة أَوْ حِمَار وَحْش أَوْ نَحْوه فَعَلَيْهِ بَدَنَة مِنَ الإِبِل، فَإِنْ لَمْ يَجِد أَطْعَمَ ثَلَاثِينَ مِسْكِينًا، فَإِنْ لَمْ يَجِد صَامَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير وَزَادَ: الطَّعَام مُدّ مُدّ يُشْبِعهُمْ.

وَقَال جَابِر الجُعْفِيّ: عَنْ عَامِر الشَّعْبِيّ وَعَطَاء وَمُجَاهِد: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ قَالُوا: إِنَّمَا الطَّعَام لِمَنْ لا يَبْلُغ الهَدْيَ. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَكَذَا رَوَى ابْن جُرَيْج عَنْ مُجَاهِد، وَأَسْبَاط عَنْ السُّدِّيّ: أَنَّهَا عَلى التَّرْتِيب. وَقَال عَطَاء، وَعِكْرِمَة، وَمُجَاهِد فِي -رِوَايَة الضَّحَّاك- وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ: هِيَ عَلى الخِيَار، وَهِيَ رِوَايَة اللَّيْث، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَوْله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أَيْ: أَوْجَبْنَا عَلَيْهِ الكَفَّارَة لِيَذُوق عُقُوبَة فِعْله الَّذِي ارْتَكَبَ فِيهِ المُخَالَفَة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أَيْ: فِي زَمَان الجَاهِلِيَّة لِمَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلَام، وَاتَّبَعَ شَرْع الله وَلَمْ يَرْتَكِب المَعْصِيَة.

---

(١) في نسخة: [يطعم].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أَيْ: وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْد تَحْرِيمه فِي الإِسْلام وَبُلُوغ الحُكْم الشَّرْعِيّ إِلَيْهِ ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾. قَالَ ابْن جُرَيْج: قُلت لِعَطَاء: مَا ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾؟ قَالَ: عَمَّا كَانَ فِي الجَاهِلِيَّة. قَالَ: قُلت: وَمَا ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قَالَ: وَمَنْ عَادَ فِي الإِسْلام فَيَنْتَقِم الله مِنْهُ، وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ الكَفَّارَة. قَالَ: قُلت: فَهَل فِي العَوْد حَدّ تَعْلمهُ؟ قَالَ: لا. قَالَ: قُلت: فَتَرَى حَقًّا عَلَى الإِمَام أَنْ يُعَاقِبهُ؟ قَالَ: لا، هُوَ ذَنْب أَذْنَبَهُ فِيمَا بَيْنه وَبَيْن الله ﷻ وَلَكِنْ يَفْتَدِي. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَيَنْتَقِم الله مِنْهُ بِالكَفَّارَةِ، قَالَهُ سَعِيد بْن جُبَيْر وَعَطَاء. ثُمَّ الجُمْهُور مِنَ السَّلَف وَالخَلَف عَلَى أَنَّهُ مَتَى قَتَل المُحْرِم الصَّيْد وَجَبَ الجَزَاء، وَلا فَرْق بَيْن الأُولَى وَالثَّانِيَة، وَإِنْ تَكَرَّرَ مَا تَكَرَّرَ، سَوَاء الخَطَأ فِي ذَلِكَ وَالعَمْد.

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: مَنْ قَتَل شَيْئًا مِنَ الصَّيْد خَطَأً وَهُوَ مُحْرِم يُحْكَم عَلَيْهِ فِيهِ كُلَّمَا قَتَلَهُ، فَإِنْ قَتَلَهُ عَمْدًا يُحْكَم عَلَيْهِ فِيهِ مَرَّة وَاحِدَة، فَإِنْ عَادَ يُقَال لَهُ: يَنْتَقِم الله مِنْك كَمَا قَالَ الله ﷻ. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد وَابْن أَبِي عَدِيّ جَمِيعًا، عَنْ هِشَام -هُوَ ابْن حَسَّان- عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِيمَنْ أَصَابَ صَيْدًا فَحُكِمَ عَلَيْهِ ثُمَّ عَادَ قَالَ: لا يُحْكَم عَلَيْهِ، يَنْتَقِم الله مِنْهُ. وَهَكَذَا قَالَ شُرَيْح وَمُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالحَسَن البَصْرِيّ وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، رَوَاهُنَّ ابْن جَرِير ثُمَّ اخْتَارَ القَوْل الأَوَّل. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا العَبَّاس بْن يَزِيد العَبْدِيّ، حَدَّثَنَا المُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، عَنْ زَيْد أَبِي المُعَلَّى، عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ صَيْدًا فَتَجَوَّزَ عَنْهُ، ثُمَّ عَادَ فَأَصَابَ صَيْدًا آخَر، فَنَزَلَتْ نَار مِنَ السَّمَاء فَأَحْرَقَتْهُ، فَهُوَ قَوْله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾. وَقَالَ ابْن جَرِير فِي قَوْله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يَقُول عَزَّ ذِكْره: وَالله مَنِيع فِي سُلْطَانه لا يَقْهَرهُ قَاهِر، وَلا يَمْنَعهُ مِنَ الانْتِقَام مِمَّنْ انْتَقَمَ مِنْهُ، وَلا مِنْ عُقُوبَة مَنْ أَرَادَ عُقُوبَته مَانِع؛ لأَنَّ الخَلْق خَلْقه وَالأَمْر أَمْره، لَهُ العِزَّة وَالمَنَعَة. وأما قوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ ذُو مُعَاقَبَة لِمَنْ عَصَاهُ عَلَى مَعْصِيَته إِيَّاهُ.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

قَالَ ابْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس فِي رِوَايَة عَنْهُ، وَسَعِيد بْن المُسَيَّب، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَغَيْرهمْ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ يَعْنِي: مَا يُصْطَاد مِنْهُ طَرِيًّا ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ مَا يُتَزَوَّد مِنْهُ مَلِيحًا يَابِسًا. وَقَالَ ابْن عَبَّاس فِي الرِّوَايَة المَشْهُورَة عَنْهُ: صَيْده مَا أُخِذَ مِنْهُ حَيًّا ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ مَا لَفَظَهُ مَيِّتًا. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق وَزَيْد ابْن ثَابِت وَعَبْد الله بْن عَمْر وَأَبِي أَيُّوب الأَنْصَارِيّ ﷺ، وَعِكْرِمَة وَأَبِي سَلَمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَالحَسَن البَصْرِيّ. قَالَ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة: عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ كُلّ مَا فِيهِ. رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ مُغِيرَة، عَنْ سِمَاك، قَالَ: حُدِّثْت عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: خَطَبَ أَبُو بَكْر النَّاس فَقَالَ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ﴾ وَطَعَامه مَا قَذَفَ. قَالَ: وَحَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة، عَنْ سُلَيْمَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِي مِجْلَز، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ قَالَ: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ مَا قَذَفَ. وَقَالَ عِكْرِمَة: عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: طَعَامه مَا لَفَظَ مِنْ مَيْتَة. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير أَيْضًا. وَقَالَ سَعِيد بْن المُسَيَّب: طَعَامه مَا لَفَظَهُ حَيًّا أَوْ حُسِرَ عَنْهُ فَمَاتَ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا عَبْد الوَهَّاب، حَدَّثَنَا أَيُّوب، عَنْ نَافِع: أَنَّ عَبْد الرَّحْمَن ابْن أَبِي هُرَيْرَة سَأَلَ ابْن عُمَر فَقَالَ: إِنَّ البَحْر قَدْ قَذَفَ حِيتَانًا كَثِيرًا مَيْتًا أَفَنَأْكُلُهَا؟ فَقَالَ: لا تَأْكُلُوهَا. فَلَمَّا رَجَعَ عَبْد الله

إلى أَهله، أَخذَ المُصحف فقرأَ سُورَة المَائِدَة، فَأَتى هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾ فَقَال: اذْهَبْ فَقُل لَهُ: فَليَأْكُلهُ؛ فَإِنَّهُ طَعَامه. وَهَكَذَا اخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ المُرَاد بِطَعَامِهِ مَا مَاتَ فِيهِ. قَال: وَقَدْ رُوِيَ فِي ذَلكَ خَبَرٌ وَإِنَّ بَعْضهمْ يَرْوِيه مَوْقُوفًا. وحَدَّثنَا هَنَّاد بْن السَّرِيّ، قَال: حَدَّثنَا عَبْدَة بْن سُليْمان، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو، حَدَّثنَا أَبُو سَلمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ﴾ قَال: «**طعَامه مَا لفَظَهُ مَيِّتًا**»[1]. ثُمَّ قَال: وَقَدْ وَقَفَ بَعْضهمْ هَذَا الحَدِيث عَلى أَبِي هُرَيْرَة. حَدَّثنَا هَنَّاد، حَدَّثنَا ابْن أَبِي زَائِدَة، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فِي قَوْله: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ قَال: طَعَامه مَا لفَظَهُ مَيِّتًا.

وَقَوْله: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾ أَيْ: مَنفَعَة وَقُوتًا لكُمْ أَيهَا المُخَاطَبُونَ ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وَهُو جَمْع سَيَّار، قَال عِكْرِمَة: لمَنْ كَانَ بِحَضْرَةِ البَحْر ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ : وَللسفر. قَال غَيْره: الطَّرِيّ مِنْهُ لمَنْ يَصْطَادهُ مِنْ حَاضِرَة البَحْر، وَطَعَامه مَا مَاتَ فِيهِ أَوْ اصْطِيدَ مِنْهُ وَمُلِّحَ وَقُدِّدَ يَكُون زَادًا للمُسَافِرِينَ وَالنَّائِينَ عَنْ البَحْر. وَقَدْ رُوِيَ نَحْوه عَنْ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَالسُّدِّيّ وَغَيْرهمْ. وَقَدْ اسْتَدَلَّ جُمْهُور العلماء عَلى حِلِّ ميتة البحر بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، وَبِمَا رَوَاهُ الإِمَام مَالك بْن أَنَس، عَنْ ابْن وَهْب بْن كَيْسَان، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَال: بَعَثَ رَسُول الله ﷺ بَعْثًا قِبَل السَّاحِل، فَأَمَّرَ عَليْهِمْ أَبَا عُبَيْدَة ابْن الجَرَّاح وَهُمْ ثَلثُمِائَةٍ. قال: وَأَنَا فِيهِمْ، قَال: فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيق فَنِيَ الزَّادُ، فَأَمَرَ أَبو عُبَيْدَة بِأَزْوَادِ ذَلكَ الجَيْش فَجُمِعَ ذَلكَ كُلّه، فَكَانَ مِزْوَدَيْ تَمْر، قَال: فَكَانَ يَقُوتنَا كُل يَوْم قَليلًا قَليلًا حَتَّى فَنِيَ، فَلمْ يَكُنْ يُصِيبنَا إِلَّا تَمْرَة تَمْرَة، فَقلت: وما تغني تمرة؟ فقال: فَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِين فَنِيَتْ، قَال: ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلى البَحْر، فَإِذَا حُوتٌ مِثْل الظَّرِب، فَأَكَل مِنْهُ ذَلكَ الجَيْش ثَمَانِي عَشْرَة ليْلة، ثُمَّ أَمَرَ أَبو عُبَيْدَة بِضِلعَيْنِ مِنْ أَضْلاعه فَنُصِبَا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلةٍ فَرُحِلتْ، وَمَرَّتْ تَحْتهمَا فَلمْ تُصِبْهُمَا. وَهَذَا الحَدِيث مُخَرَّج فِي الصَّحِيحَيْنِ وَلهُ طُرُق عَنْ جَابِر. وَفِي صَحِيح مُسْلم مِنْ رِوَايَة أَبِي الزُّبَيْر عَنْ جَابِر: فَإِذَا عَلى سَاحِل البَحْر مِثْل الكَثِيب الضَّخْم، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا بِدَابَّةٍ يُقَال لهَا: العَنْبَر، قَال: قَال أَبو عُبَيْدَة: مَيْتَة. ثُمَّ قَال: لا، نَحْنُ رُسُلُ رَسُول الله ﷺ وفي سبيل الله، وَقَدْ اضْطُرِرْتُمْ فَكُلُوا. قَال: فَأَقَمْنَا عَليْهِ شَهْرًا وَنَحْنُ ثَلثُمِائَةٍ حَتَّى سَمِنَّا، وَلقَدْ رَأَيْتنَا نَغْتَرِف مِنْ وَقْب عينه بِالقِلال الدُّهْنَ وَنَقْتَطِع مِنْهُ الفِدَر كَالثَّوْرِ أو كقدر الثور. قَال: وَلقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبو عُبَيْدَة ثَلاثَة عَشَر رَجُلًا فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقْب عينه، وَأَخَذَ ضِلعًا مِنْ أَضْلاعه فَأَقَامَهَا، ثُمَّ رَحَّل أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْته، وَتَزَوَّدْنَا مِنْ لحْمه وَشَائِقَ، فَلمَّا قَدِمْنَا المَدِينَة، أَتَيْنَا رَسُول الله ﷺ. فَذَكَرْنَا ذَلكَ لهُ، فَقَال: «**هُوَ رِزْق أَخْرَجَهُ الله لكُمْ، هَل مَعَكُمْ مِنْ لحْمه شَيْء فَتُطْعِمُونَا؟**» قَال: فَأَرْسَلنَا إِلى رَسُول الله ﷺ مِنْهُ فَأَكَلهُ[2].

وَفِي بَعْض رِوَايَات مُسْلم: أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِيّ ﷺ حِين وَجَدُوا هَذِهِ السَّمَكَة، فَقَال بَعْضهمْ: هِيَ وَاقِعَة أُخْرَى، وَقَال بَعْضهمْ: بَل هِيَ قَضِيَّة وَاحِدَة، وَلكِنْ كَانُوا أَوَّلًا مَعَ النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ سَرِيَّة مَعَ أَبِي عُبَيْدَة، فَوَجَدُوا هَذِهِ فِي سَرِيَّتهمْ تِلكَ مَعَ أَبِي عُبَيْدَة، وَالله أَعْلم. وَقَال مَالك: عَنْ صَفْوَان بْن سُليْم، عَنْ سَعِيد بْن سَلمَة مِنْ آل ابْن الأَزْرَق: أَنَّ المُغِيرَة بْن أَبِي بُرْدَة وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْد الدَّار، أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: سَأَل رَجُلٌ رَسُول الله ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنَّا نَرْكَب البَحْر، وَنَحْمِل مَعَنَا القَليل مِنْ المَاء، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأ بِمَاءِ البَحْر؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**هُوَ الطَّهُور مَاؤُهُ، الحِلّ مَيْتَته**»[3]. وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيث الإِمَامَانِ الشَّافِعِيّ وَأَحْمَد بْن حَنْبَل وَأَهْل السُّنَن الأَرْبَع وَصَحَّحَهُ البُخَارِيّ وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن خُزَيْمَة وَابْن حِبَّان وَغَيْرهمْ،

---

(١) حسن: أخرجه ابن جرير، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، قال الحافظ: صدوق له أوهام.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٨٣)، ومسلم (١٩٣٥)، ومالك (٢/ ٧٠٩).
(٣) صحيح: تقدم.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ. وَقَدْ رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ طُرُقٍ: عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْمُهَزِّمِ -هُوَ يَزِيدُ بْنُ سُفْيَانَ- سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ، فَاسْتَقْبَلَنَا رِجْلُ جَرَادٍ، فَجَعَلْنَا نَضْرِبُهُنَّ بِعِصِيِّنَا وَسِيَاطِنَا فَنَقْتُلُهُنَّ، فَأُسْقِطَ فِي أَيْدِينَا، فَقُلْنَا: مَا نَصْنَعُ وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ، فَسَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **«لا بَأْسَ بِصَيْدِ الْبَحْرِ»**[1]. أَبُو الْمُهَزِّمِ ضَعِيفٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ مَاجَهْ: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْحَمَّالُ، حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُلَاثَةَ، عَنْ مُوسَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرٍ وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا دَعَا عَلَى الْجَرَادِ قَالَ: **«اللَّهُمَّ أَهْلِكْ كِبَارَهُ، وَاقْتُلْ صِغَارَهُ، وَأَفْسِدْ بَيْضَهُ، وَاقْطَعْ دَابِرَهُ، وَخُذْ بِأَفْوَاهِهِ عَنْ مَعَايِشِنَا وَأَرْزَاقِنَا، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ»**. فَقَالَ خَالِدٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَدْعُو عَلَى جُنْدٍ مِنْ أَجْنَادِ اللهِ بِقَطْعِ دَابِرِهِ؟ فَقَالَ: **«إِنَّ الْجَرَادَ نَثْرَةُ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ»**[2]. قَالَ هَاشِمٌ: قَالَ زِيَادٌ: فَحَدَّثَنِي مَنْ رَأَى الْحُوتَ يَنْثُرُهُ. تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ مَاجَهْ.

وَقَدْ رَوَى الشَّافِعِيُّ عَنْ سَعِيدٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ يَصِيدُ الْجَرَادَ فِي الْحَرَمِ. وَقَدِ احْتَجَّ بِهَذِهِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ تُؤْكَلُ دَوَابُّ الْبَحْرِ وَلَمْ يَسْتَثْنِ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنِ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ قَالَ: طَعَامُهُ كُلُّ مَا فِيهِ. وَقَدِ اسْتَثْنَى بَعْضُهُمُ الضَّفَادِعَ وَأَبَاحَ مَا سِوَاهَا؛ لِمَا رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ التَّيْمِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ **«نَهَى عَنْ قَتْلِ الضُّفْدَعِ»**[3]. وَلِلنَّسَائِيِّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ الضُّفْدَعِ وَقَالَ: **«نَقِيقُهَا تَسْبِيحٌ»**[4].

وَقَالَ آخَرُونَ: يُؤْكَلُ مِنْ صَيْدِ الْبَحْرِ السَّمَكُ، وَلا يُؤْكَلُ الضُّفْدَعُ، وَاخْتَلَفُوا فِيمَا سِوَاهُمَا؛ فَقِيلَ: يُؤْكَلُ سَائِرُ ذَلِكَ، وَقِيلَ: لا يُؤْكَلُ، وَقِيلَ: مَا أُكِلَ شِبْهُهُ مِنَ الْبَرِّ أُكِلَ مِثْلُهُ فِي الْبَحْرِ، وَمَا لا يُؤْكَلُ شِبْهُهُ لا يُؤْكَلُ، وَهَذِهِ كُلُّهَا وُجُوهٌ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رحمه الله تعالى: لا يُؤْكَلُ مَا مَاتَ فِي الْبَحْرِ كَمَا لا يُؤْكَلُ مَا مَاتَ فِي الْبَرِّ؛ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾. وَقَدْ وَرَدَ حَدِيثٌ بِنَحْوِ ذَلِكَ فَقَالَ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي -هُوَ ابْنُ قَانِعٍ-، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ التُّسْتَرِيُّ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ مُوسَى بْنِ أَبِي عُثْمَانَ، قَالا: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ يَزِيدَ الطَّحَّانُ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا صِدْتُمُوهُ وَهُوَ حَيٌّ فَمَاتَ فَكُلُوهُ، وَمَا أَلْقَى الْبَحْرُ مَيِّتًا طَافِيًا فَلا تَأْكُلُوهُ»**[5]. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ طَرِيقِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ وَيَحْيَى بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ بِهِ. وَهُوَ مُنْكَرٌ. وَقَدِ احْتَجَّ الْجُمْهُورُ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ بِحَدِيثِ الْعَنْبَرِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ، وَبِحَدِيثِ: **«هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»**. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَيْضًا.

وَرَوَى الإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الشَّافِعِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٦، ٣٦٥، ٤٠٧)، وأبو داود (١٨٥٤)، والترمذي (٨٥٠)، وابن ماجه (٣٢٢٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٢٩٥).

(٢) **موضوع**: أخرجه ابن ماجه (٣٢٢١) من حديث جابر وأنس، وقال الألباني: موضوع. انظر «ضعيف سنن ابن ماجه» (٦٩٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٨٧١)، والنسائي (٧/ ٢١٠)، وأحمد (٣/ ٤٥٣، ٤٩٩) وعبد بن حميد في مسنده (١/ ١٢٩) من حديث عبد الرحمن بن عثمان التيمي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٩٧١).

(٤) **ضعيف**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ١٠٤) و«الصغير» (١/ ٣١٥) من حديث عبد الله بن عمرو، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٦٠) وقال: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه المسيب بن واضح وفيه كلام وقد وُثِّق وبقية رجاله رجال الصحيح، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٧٨٨).

(٥) **ضعيف**: في إسناده الحسين بن يزيد الطحان قال الحافظ: لين الحديث، وأبو الزبير: مدلس.

رَسُول الله ﷺ: «أُحِلَّتْ لنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ؛ فَأمَّا المَيْتَتَانِ: فَالحُوتِ وَالجَرَاد، وَأمَّا الدَّمَانِ: فَالكَبِد وَالطُّحَال»[١].
وَرَوَاهُ أَحْمَد وَابْن مَاجَهْ وَالدَّارَقُطْنِيّ وَالبَيْهَقِيّ وَلَهُ شَوَاهِد، وَرُوِيَ مَوْقُوفًا، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أَيْ: فِي حَال إِحْرَامكُمْ يُحَرَّم عَلَيْكُمْ الاصْطِيَاد، فَفِيهِ دَلالة عَلَى تَحْرِيم ذَلِكَ، فَإِذَا اصْطَادَ المُحْرِم الصَّيْد مُتَعَمِّدًا أَثِمَ وَغَرِمَ، أَوْ مُخْطِئًا غَرِمَ وَحُرِّمَ عَلَيْهِ أَكْله؛ لأَنَّهُ فِي حَقّه كَالمَيْتَةِ، وَكَذَا فِي حَقّ غَيْره مِنْ المُحْرِمِينَ وَالمُحِلِّينَ عِنْد مَالك وَالشَّافِعِيّ فِي أَحَد قَوْلَيْهِ، وَبِهِ يَقُول عَطَاء وَالقَاسِم وَسَالم وَأَبُو يُوسُف وَمُحَمَّد بْن الحَسَن وَغَيْرهمْ، فَإِنْ أَكَلَهُ أَوْ شَيْئًا مِنْهُ فَهَل يَلزَمهُ جَزَاءٌ ثَانٍ؟ فِيهِ قَوْلانِ للعُلَمَاءِ:

أَحَدهمَا: نَعَمْ، قَال عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء قَال: إِنْ ذَبَحَهُ ثُمَّ أَكَلَهُ فَكَفَّارَتَانِ. وَإِلَيْهِ ذَهَبَ طَائِفَة.

وَالثَّانِي: لا جَزَاء عَلَيْهِ فِي أَكْله، نَصَّ عَلَيْهِ مَالك بْن أَنَس.

قَال أَبُو عُمَر ابْن عَبْد البَرّ: وَعَلَى هَذَا مَذَاهِب فُقَهَاء الأَمْصَار وَجُمْهُور العُلَمَاء. ثُمَّ وَجَّهَهُ أَبُو عُمَر بِمَا لَوْ وَطِئَ ثُمَّ وَطِئَ ثُمَّ وَطِئَ قَبْل أَنْ يُحِدّ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ حَدّ وَاحِد. وَقَال أَبُو حَنِيفَة: عَلَيْهِ قِيمَة مَا أَكَل. وَقَال أَبُو ثَوْر: إِذَا قَتَل المُحْرِم الصَّيْد فَعَلَيْهِ جَزَاؤُهُ، وَحَلال أَكْل ذَلِكَ الصَّيْد، إِلَّا أَنَّنِي أَكْرَهُهُ للَّذِي قَتَلهُ؛ للخَبَر عَنْ رَسُول الله ﷺ: «صَيْد البَرّ لكُمْ حَلال، مَا لمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لكُمْ»[٢]. وَهَذَا الحَدِيث سَيَأْتِي بَيَانه، وَقَوْله بِإِبَاحَتِهِ للقَاتِل غَرِيب، وَأَمَّا لغَيْرِهِ فَفِيهِ خِلاف قَدْ ذَكَرْنَا المَنْع عَمَّنْ تَقَدَّمَ. وَقَال آخَرُونَ بِإِبَاحَتِهِ لغَيْرِ القَاتِل سَوَاء المُحْرِمُونَ وَالمُحِلُّونَ؛ لهَذَا الحَدِيث، وَالله أَعْلَم. وَأَمَّا إِذَا صَادَ حَلالٌ صَيْدًا فَأَهْدَاهُ إِلَى مُحْرِم، فَقَدْ ذَهَبَ ذَاهِبُونَ إِلَى إِبَاحَته مُطْلَقًا، وَلَمْ يَسْتَفْصِلُوا بَيْن أَنْ يَكُون قَدْ صَادَهُ لأَجْله أَمْ لا، حَكَى هَذَا القَوْل أَبُو عُمَر ابْن عَبْد البَرّ: عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب وَأَبِي هُرَيْرَة وَالزُّبَيْر بْن العَوَّام وَكَعْب الأَحْبَار وَمُجَاهِد وَعَطَاء فِي رِوَايَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر. قَال: وَبِهِ قَال الكُوفِيُّونَ.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن بَزِيع، حَدَّثَنَا بِشْر بْن المَفَضل، حَدَّثَنَا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، أَنَّ سَعِيد ابْن المُسَيَّب حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة: أَنَّهُ سُئِل عَنْ لحْم صَيْد صَادَهُ حَلال: أَيَأْكُلُهُ المُحْرِم؟ قَال: فَأَفْتَاهُمْ بِأَكْلِهِ، ثُمَّ لقِيَ عُمَر بْن الخَطَّاب فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْره، فَقَال: لوْ أَفْتَيْتهمْ بِغَيْرِ هَذَا لأَوْجَعْت لك رَأْسك. وَقَال آخَرُونَ: لا يَجُوز أَكْل الصَّيْد للمُحْرِم بِالكُلِّيَّةِ وَمَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ مُطْلقًا، لعُمُوم هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ مَعْمَر، عَنْ ابْن طَاوُس، وَعَبْد الكَرِيم بن أبي أمية، عَنْ طَاوُس، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهُ كَرِهَ أَكْل الصَّيْد للمُحْرِم. وَقَال: هِيَ مُبْهَمَة. يَعْنِي قَوْله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾. قَال: وَأَخْبَرَنِي مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ ابْن عُمَر: أَنَّهُ كَانَ يَكْرَه للمُحْرِمِ أَنْ يَأْكُل مِنْ لحْم الصَّيْد عَلَى كُلّ حَال، قَال مَعْمَر: وَأَخْبَرَنِي أَيُّوب، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر مِثْله. قَال ابْن عَبْد البَرّ: وَبِهِ قَال طَاوُس وَجَابِر بْن زَيْد وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الثَّوْرِيّ وَإِسْحَاق بْن رَاهَوَيْه فِي رِوَايَة، وَقَدْ رُوِيَ نَحْوه عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب. رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب: أَنَّ عَلِيًّا كَرِهَ أَكْل لحْم الصَّيْد للمُحْرِمِ عَلَى كُلّ حَال.

وَقَال مَالك وَالشَّافِعِيّ وَأَحْمَد بْن حَنْبَل وَإِسْحَاق بْن رَاهَوَيْه -فِي رِوَايَة- وَالجُمْهُور: إِنْ كَانَ الحَلال قَدْ قَصَدَ المُحْرِم بِذَلِكَ الصَّيْد لمْ يَجُزْ للمُحْرِمِ أَكْله؛ لحَدِيثِ الصَّعْب بْن جَثَّامَة: أَنَّهُ أَهْدَى للنَّبِيِّ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّان فَرَدَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهه قَال: «إِنَّا لمْ نَرُدَّهُ عَلَيْك إِلا أَنَّا حُرُم»[٣].

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (١٨٥١)، والترمذي (٨٤٦)، والنسائي (٢٨٢٧) من حديث جابر، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٥٢٤).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٨٢٥)، ومسلم (١١٩٣).

وَهَذَا الحَدِيث مُخَرَّج فِي الصَّحِيحَيْنِ وَلهُ أَلفَاظ كَثِيرَة، قَالُوا: فَوَجهه أَنَّ النَّبِيّ ﷺ ظَنَّ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا صَادَهُ مِنْ أَجله فَرَدَّهُ لذَلكَ، فَأَمَّا إِذَا لمْ يَقْصِدهُ بِالاصْطِيَادِ فَإِنَّهُ يَجُوز لهُ الأكل مِنْهُ؛ لحَدِيثِ أَبِي قَتَادَة حِين صَادَ حِمَار وَحْش وَكَانَ حَلالًا لمْ يُحْرِم، وَكَانَ أَصْحَابه مُحْرِمِينَ فَتَوَقَّفُوا فِي أَكْله، ثُمَّ سَأَلُوا رَسُول الله ﷺ فَقَال: «**هَل كَانَ مِنكُمْ أَحَد أَشَارَ إِليْهَا أَوْ أَعَانَ فِي قَتْلهَا؟**» قَالُوا: لا. قَال: «**فَكُلُوا**». وَأَكَل مِنْهَا رَسُول الله ﷺ[1]. وَهَذِهِ القِصَّة ثَابِتَة أَيْضًا فِي الصَّحِيحَيْنِ بِأَلفَاظٍ كَثِيرَة.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سَعِيد بْن مَنْصُور وَقُتَيْبَة بْن سَعِيد، قَالا: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ عَمْرو ابْن أَبِي عَمْرو، عَنْ المُطَّلب بْن عَبْد الله بْن حَنْطَب، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ. وَقَال قُتَيْبَة فِي حَدِيثه سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**صَيْد البَرّ لكُمْ حَلال** -قَال سَعِيد: وَأَنْتُمْ حُرُم- **مَا لمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لكُمْ**». وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ جَمِيعًا عَنْ قُتَيْبَة، وَقَال التِّرْمِذِيّ: لا نَعْرِف للمُطَّلب سَمَاعًا مِنْ جَابِر، وَرَوَاهُ الإِمَام مُحَمَّد بْن إِدْرِيس الشَّافِعِيّ رضي الله عنه : مِنْ طَرِيق عَمْرو بْن أَبِي عَمْرو، عَنْ مَوْلاهُ المُطَّلب، عَنْ جَابِر، ثُمَّ قَال: وَهَذَا أَحْسَنُ حَدِيث رُوِيَ فِي هَذَا البَاب وَأَقْيَسُ. وَقَال مَالك رضي الله عنه : عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي بَكْر، عَنْ عَبْد الله ابْن عَامِر بْن رَبِيعَة، قَال: رَأَيْت عُثْمَان بْن عَفَّان بِالعَرْج، وَهُوَ مُحْرِم فِي يَوْم صَائِف، قَدْ غَطَّى وَجْهه بِقَطِيفَةِ أُرْجُوَانٍ، ثُمَّ أُتِيَ بِلحْم صَيْدٍ فَقَال لأَصْحَابِهِ: كُلُوا. فَقَالُوا: أَوَلا تَأْكُل أَنْتَ. فَقَال: إِنِّي لسْت كَهَيْئَتِكُمْ، إِنَّمَا صِيدَ مِنْ أَجْلِي. وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ خِلَافًا فِي صِفَةِ الصَّيْدِ الَّذِي حَرَّمَهُ الله تَعَالَى عَلَى المُحْرِمِ، فَقَالَ بَعْضُهُم: صَيْدُ البَرِّ: كُلُّ مَا كَانَ يَعِيشُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ، وإِنَّمَا صَيْدُ البَحْرِ مَا كَانَ يَعِيشُ فِي المَاءِ دُوْنَ البَرِّ وَيَأْوِي إِلَيْهِ. رَوَى عمران بن حدير، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾، قَالَ: مَا كَانَ يَعِيشُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ فَلَا تَصِدْهُ، وَمَا كَانَ حَيَاتُه فِي المَاءِ فَذَاكَ. وَعَنْ عَطَاءَ قَالَ: «مَا كَانَ يَعِيشُ فِي البَرِّ فَأَصَابَهُ المُحْرِمُ فَعَلَيْهِ جَزَاؤُهُ، نَحو السُّلَحفَاةِ؛ وَالسَّرطَانَ، وَالضَّفَادِعَ»، وَقَالَ بَعْضُهُم: صَيْدُ البَرِّ مَا كَانَ كَوْنُهُ فِي البَرِّ أَكْثَرُ مِنْ كَوْنِهِ فِي البَحْرِ». رُوِيَ عَنْ ابن جُرَيجٍ قَالَ: «سَأَلْتُ عَطَاءَ عَنْ ابْنِ المَاءِ، أَصَيْدُ بَرٍّ أَمْ بَحرٍ؟ وَعَنْ أَشْبَاهِهِ. فَقَالَ: حَيْثُ يَكُونُ أَكْثَر، فَهُوَ صَيْدُهُ». وَعَنْ عَطَاءِ بن أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: «أَكْثَرُ مَا يَكُونُ حَيْثُ يُفَرخ، فَهَوَ مِنْهُ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. قَالَ ابْن جَرِير: يَقُولُ تَعَالَى ذِكرهُ: وَاخشَوْا الله، أَيُّهَا النَّاس، وَاحْذَرُوهُ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُم بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ، وَفِيمَا نَهَاكُم عَنْهُ فِي هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى نَبِيِّكُم ﷺ ، مِنَ النَّهْيِ عَنَ الخَمْرِ وَالمَيْسِر وَالأَنْصَابِ وَالأَزْلَامِ وَعَنْ إِصَابَةِ صَيْدِ البَرِّ وَقَتْلِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِكُم وَفِي غَيْرِهَا، فَإِنَّ لله مَصِيرَكُم وَمَرْجِعَكُم، فَيُعَاقِبُكُم بِمَعْصِيَتِكُم إِيَّاهُ، وَيُجَازِيكُم فَيُثِيبكُم عَلَى طَاعَتِكُم لَهُ.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾. يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: صَيَّرَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِوَامًا لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَا قِوَامَ لَهُم، مِنْ رَئِيسٍ يَحْجِزُ قَوِيَّهُم عَنْ ضَعِيفِهِم، وَمُسِيئَهُم عَنْ مُحْسِنِهِم، وَظَالِمَهُم عَنْ مَظْلُومِهِم، ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ فَحَجَزَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُهُم عَنْ بَعْضٍ، إِذْ لَمْ يَكُن لَهُم قِيَامٌ غَيْرُهُ، وَجَعَلَهَا مَعَالِمَ لِدِينِهِم، وَمَصَالِحَ أُمُورِهِم. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَتْ الكَعْبَةَ لِأَنَّها مُرَبَّعَةٌ». وَرُوِيَ مِثْلُه عَنْ عِكْرِمَةَ. قَالَ ابنُ جَرِيرٍ: وَأَمَّا ﴿الْكَعْبَةَ﴾ فَالحَرَمُ كُلُّهُ. وَسَمَّاهَا اللهُ تَعَالَى «حَرَامًا»؛ لِتَحْرِيمِهِ إِيَّاهَا أَنْ يُصَادَ صَيْدُهَا أَوْ يُخْتَلَى خِلَاهَا، أَوْ يُعْضَدَ شَجَرَهَا. وَقَدْ فَسر ابنُ جَرِيرٍ ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ بِالقَوَامِ. وَرُوِيَ فِي ذَلِكَ آثَارًا مِنْهَا: حَدَّثَنَا هَنَادُ قَالَ: حَدَّثَنَا ابنُ أَبِي زَائِدَة قَالَ: أَخبَرَنَا مَنْ سَمِعَ خَصِيفًا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٨٢١)، ومسلم (١١٩٦).

يُحَدِّثُ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، قَالَ: قَوَامًا لِلنَّاسِ. وَقَالَ سَعِيدُ بنُ جُبَيْرٍ: ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، قَالَ: صَلَاحًا لِدِينِهِم. وَعَنْهُ أَيْضاً: «شِدَّةً لِدِينِهِم». وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قِيَامُهَا: أَنْ يَأْمَنَ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَيْهَا، وَعَنْهُ أَيْضًا: قِيَامًا لِدِينِهِم، وَمَعَالِمَ لِحَجِّهِم. وَقَالَ السُّدي: جَعَلَ اللهُ هَذِهِ الأَرْبَعة قِيَامًا لِلنَّاسِ، هُوَ قَوَامُ أَمْرِهِم. قَالَ ابنُ جَرِيرٍ: هَذِهِ الأَقْوَالُ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ مِنْ أَلفَاظِ قَائِلِيهَا أَلفَاظُهَا، فَإِنَّ مَعَانِيهَا آيِلَةٌ إِلَى مَا قُلْنَا مِنْ ذَلِكَ، مِنْ أَنَّ «القَوَامَ» لِلشَّيْءِ، هُوَ الذي بِهِ صَلَاحُهُ، كَمَا أَنَّ المَلِكَ الأَعْظَمَ، قِوامُ رَعِيَّتِه وَمَنْ فِي سُلْطَانِهِ؛ لِأَنَّه مُدَبِّرُ أَمْرِهِم، وَحَاجِزُ ظَالِمِهِم عَنْ مَظْلُومِهِم، وَالدَّافِعُ عَنْهُم مَكْرُوهَ مِنْ بَغَاهُم وَعَادَاهُم. وَكَذَلِكَ كَانَتِ الكَعْبَةُ وَالشَّهْرُ الحَرَامُ وَالهَدْيُ وَالقَلَائِدُ، قِوَامُ أَمرِ العَرَبِ الَّذِي كَانَ بِهِ صَلَاحُهُم فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَهِيَ فِي الإِسْلَامِ لِأَهْلِهِ مَعَالِمُ حَجِّهِم وَمَنَاسِكُهُم وَمُتَوَجَّهُهُم لِصَلَاتِهِم، وَقِبْلَتِهِم الَّتِي بَاسْتِقْبَالِهَا يَتِمُّ فَرْضُهُم. ثُمَّ قَالَ ابنُ جَرِيرٍ: وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَتْ جَمَاعَةُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ. حَدَّثَنَا بِشْرُ بنُ مُعَاذٍ قَالَ: حَدَّثَنَا جَامِعُ بنُ حَمَّادٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ ابنُ زُرَيْعٍ قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ، عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾، حَوَاجِزَ أَبْقَاهَا اللهُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَكَانَ الرَّجُلُ لَو جَرَّ كُلَّ جَرِيرَةٍ ثُمَّ لَجَأَ إِلَى الحَرَمِ لَمْ يُتَنَاوَلْ وَلَمْ يُقْرَبْ. وَكَانَ الرَّجُلُ لَو لَقِيَ قَاتِلَ أَبِيهِ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ وَلَمْ يَقْرَبْ. وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَرَادَ البَيْتَ تَقَلَّدَ قِلَادَةً مِنْ شَعْرٍ فَأَحْمَتْهُ وَمَنَعَتْهُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ أَهْلَهُ، حَوَاجِزَ أَبْقَاهَا اللهُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الجَاهِلِيَّةِ. وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنِ ابنِ زَيْدٍ، وَابنِ عَبَّاسٍ. وَقَدْ مَضَى فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ذِكْرُ ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾، ﴿وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾.

وَقَولُه تَعَالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قَالَ ابنُ جَرِيرٍ: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: اعْلَمُوا، أَيُّهَا النَّاسَ، أَنَّ رَبَّكُمُ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيهِ شَيءٌ مِنْ سَرَائِرِ أَعْمَالِكُم وَعَلَانِيَتِهَا، وَهُوَ يُحْصِيهَا عَلَيْكُم لِيُجَازِيَكُم بِهَا، شَدِيدٌ عِقَابُه مَنْ عَصَاهُ وَتَمَرَّدَ عَلَيهِ، عَلَى مَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ، وَهُوَ غَفُورٌ لِذُنُوبِ مَنْ أَطَاعَهُ وَأَنَابَ إِلَيهِ، فَسَاتِرٌ عَلَيهِ وَتَارِكٌ فَضِيحَتَهُ بِهَا رَحِيمٌ بِهِ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِه، بَعْدَ إِنَابَتِهِ وَتَوبَتِهِ مِنْهَا. وَقَوْلُه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. هَذَا مِنَ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُه، تَهْدِيدٌ لِعِبَادِهِ وَوَعِيدٌ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: لَيْسَ عَلَى رَسُولِنَا الذي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْكُم، أَيُّهَا النَّاسَ، بِإِنْذَارِكُم عِقَابَنَا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، وَإِعْذَارِنَا إِلَيْكُم بِمَا فِيهِ قَطْعُ حُجَجِكُم، إِلَّا أَنْ يُؤَدِّي إِلَيْكُم رِسَالَتَنَا، ثُمَّ إِلَيْنَا الثَّوَابُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَلَيْنَا العِقَابُ عَلَى المَعْصِيَةِ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ يَقُولُ: وَغَيرُ خَفِي عَلَيْنَا المُطِيعُ مِنْكُمُ، القَابِلُ رِسَالَتَنَا العَامِلُ بِمَا أَمَرْتَهُ بِالعَمَلِ بِهِ، مِنَ العَاصِي الآبِي رِسَالَتَنَا، التَارِكِ العَمَلَ بِمَا أَمَرْتَهُ بالعَمَلِ بِهِ؛ لأَنَّا نَعْلَمُ مَا عَمِلَهُ العَامِلُ مِنْكُم فَأَظْهَرَهُ بَجَوارِحِهِ وَنَطَقَ بِهِ لِسَانُه. ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، يَعْنِي: وَمَا تُخْفُونَ فِي أَنْفُسِكُم مِنْ إِيمَانٍ وَكُفْرٍ، أَوْ يَقِينٍ وَشَكٍ وَنِفَاقٍ. يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُه: فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، لَا يَخْفَىَ عَلَيهِ شَيءٌ مِنْ ضَمَائِرِ الصُّدورِ، وَظَوَاهِرِ أَعْمَالِ النُّفُوسِ، مِمَّا فِي السَّمَواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَبِيَدِهِ الثَّوَابُ وَالعِقَابُ، فَحَقِيقٌ أَنْ يُتَّقَى، وَأَنْ يُطَاعَ، فَلَا يُعْصَى.

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾

يَقُول تَعَالى لرَسُولِهِ ﷺ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أَيْ: يَا أَيُها الإِنْسَان ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ يَعْنِي: أَنَّ القَلِيل الحَلال النَّافِع خَيْر مِنَ الكَثِيرِ الحَرَام الضَّارّ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «مَا قَلَّ وَكَفَى

خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى». وَقَالَ أَبُو القَاسِمِ البَغَوِيّ فِي مُعْجَمِه: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن زُهَيْر، حَدَّثَنَا الحَوْطِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد ابْن شُعَيْب، حَدَّثَنَا مُعَان بْن رِفَاعَة، عَنْ أَبِي عَبْد المَلِك -عَلِيّ بْن يَزِيد-، عَنْ القَاسِم، عن أَبِي أُمَامَةَ: أَنَّه أخبره عن ثَعْلَبَة بْن حَاطِب الأَنْصَارِيّ أنه قَالَ: يَا رَسُول الله، ادْعُ الله أَنْ يَرْزُقنِي مَالًا. فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْره خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ»[1]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ: يَا ذَوِي العُقُول الصَّحِيحَة المُسْتَقِيمَة، وَتَجَنَّبُوا الحَرَام وَدَعُوهُ، وَاقْنَعُوا بِالحَلال وَاكْتَفُوا بِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

ثُمَّ قَال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ هَذَا تَأْدِيب مِنْ الله تَعَالَى لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وَنَهْي لَهُمْ عَنْ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاء مِمَّا لا فَائِدَة لَهُمْ فِي السُّؤَال وَالتَّنْقِيب عَنْهَا، لأَنَّهَا إِنْ أُظْهِرَتْ لَهُمْ تِلْكَ الأُمُور رُبَّمَا سَاءَتْهُمْ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ سَمَاعهَا، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «لا يُبَلِّغنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَد شَيْئًا، إِنِّي أُحِبّ أَنْ أَخْرُج إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيم الصَّدْر»[2]. وَقَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُنْذِر بْن الوَلِيد بْن عَبْد الرَّحْمَن الجَارُودِيّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ مُوسَى بْن أَنَس، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، قَال: خَطَبَ رَسُول الله ﷺ خُطْبَة مَا سَمِعْت مِثْلهَا قَطُّ، قَال فِيهَا: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قَال: فَغَطَّى أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ حَنِينٌ، فَقَال رَجُلٌ: مَنْ أَبِي؟ قَال: «فُلانٌ» فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾[3]. رَوَاهُ النَّضْر وَرَوْح بْن عُبَادَة عَنْ شُعْبَة، وَقَدْ رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي غَيْر هَذَا المَوْضِع وَمُسْلِم وَأَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ طُرُق عَنْ شُعْبَة بْن الحَجَّاج بِهِ.

وقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا بِشْر، حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآيَة، قَال: فَحَدَّثَنَا أَنَّ أَنَس بْن مَالِك حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ سَأَلُوهُ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالمَسْأَلَةِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ ذَات يَوْم فَصَعِدَ المِنْبَر فَقَال: «لا تَسْأَلُونِي اليَوْم عَنْ شَيْء إِلا بَيَّنْته لَكُمْ». فَأَشْفَقَ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ أَنْ يَكُون بَيْن يَدَيْ أَمْر قَدْ حَضَرَ، فَجَعَلت لا أَلْتَفِت يَمِينًا وَلا شِمَالًا إِلَّا وَجَدْت كُلًّا لافًّا رَأْسه فِي ثَوْبه يَبْكِي، فَأَنْشَأَ رَجُل كَانَ يُلاحِي فَيُدْعَى إِلَى غَيْر أَبِيهِ، فَقَال: يَا نَبِيّ الله، مَنْ أَبِي؟ قَال: «أَبُوك حُذَافَة». قَال: ثُمَّ قَامَ عُمَر -أَوْ قَال: فَأَنْشَأَ عُمَر- فَقَال: رَضِينَا بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلام دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، عَائِذًا بِالله -أَوْ قَال: أَعُوذ بِالله- مِنْ شَرّ الفِتَن. قَال: وَقَال رَسُول الله ﷺ: «لَمْ أَرَ فِي الخَيْر وَالشَّرّ كَاليَوْمِ قَطُّ، صُوِّرَتْ الجَنَّة وَالنَّار حَتَّى رَأَيْتهمَا دُون الحَائِط»[4]. أَخْرَجَاهُ مِنْ طَرِيق سَعِيد.

وَرَوَاهُ مَعْمَر عَنْ الزُّهْرِيّ عَنْ أَنَس بِنَحْوِ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ، قَال الزُّهْرِيّ: فَقَالَتْ أُمّ عَبْد الله بْن حُذَافَة: مَا رَأَيْت وَلَدًا أَعَقَّ مِنْك قَطُّ، أَكُنْت تَأْمَن أَنْ تَكُون أُمُّك قَدْ قَارَفَتْ مَا قَارَفَ أَهْل الجَاهِلِيَّة فَتَفْضَحهَا عَلَى رُءُوس النَّاس. فَقَال: وَالله لَوْ أَلْحَقَنِي بِعَبْدٍ أَسْوَدَ لَلحِقْته.

وَقَال ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنَا الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا قَيْس، عَنْ أَبِي حُصَيْن، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: خَرَجَ رَسُول الله ﷺ وَهُوَ غَضْبَان مُحْمَارّ وَجْهُهُ، حَتَّى جَلَسَ عَلَى المِنْبَر فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُل، فَقَال: أَيْنَ أَبِي؟ فقَال:

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢١٨)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٧٩) من حديث أبي أمامة عن ثعلبة، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٧) وقال: رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك، وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٧٧): وهذا إسناد ضعيف جدًا.

تنبيه: قصة ثعلبة بن حاطب لا تصح سندًا ولا متنًا، وانظر للأهمية «تحذير الداعية» ص: (٢٨٠-٢٨٩) ط. دار العقيدة.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وأحمد (١/ ٣٩٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» و«ضعيف سنن الترمذي».

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٩٣، ٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٨٩).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٧٠٩٠، ٧٢٤٩)، ومسلم (٢٣٥٩).

«فِي النَّارِ». فَقَامَ آخر فَقَالَ: مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: «أَبُوكَ حُذَافَةُ». فَقَامَ عُمَر بن الخطَّاب فَقَالَ: رَضِينَا بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلام دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا، وَبِالقُرْآنِ إِمَامًا، إِنَّا يَا رَسُول الله حَدِيثُو عَهْد بِجَاهِلِيَّةٍ وَشِرْك، وَالله أَعْلم مَنْ آبَاؤُنَا. قَالَ: فَسَكَنَ غَضَبه وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ الآيَة[1]. إِسْنَاده جَيِّد، وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ القِصَّة مُرْسَلة غَيْر وَاحِد مِنَ السَّلَف مِنْهُمْ: أَسْبَاط عَنْ السُّدِّيّ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ قَالَ: غَضِبَ رَسُول الله ﷺ يَوْمًا مِنَ الأَيَّام، فَقَامَ خَطِيبًا فَقَالَ: «سَلُونِي فَإِنَّكُمْ لا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلا أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ». فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُل مِنْ قُرَيْش مِنْ بَنِي سَهْم يُقَال لَهُ: عَبْد الله بْن حُذَافَة وَكَانَ يُطْعَنُ فِيهِ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: «أَبُوكَ فُلان». فَدَعَاهُ لأَبِيهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَر بْن الخطَّاب فَقَبَّل رِجْله، وَقَال: يَا رَسُول الله، رَضِينَا بِالله رَبًّا، وَبِكَ نَبِيًّا، وَبِالإِسْلام دِينًا، وَبِالقُرْآنِ إِمَامًا، فَاعْفُ عَنَّا عَفَا الله عَنْك. فَلَمْ يَزَل بِهِ حَتَّى رَضِيَ، فَيَوْمئِذٍ قَالَ: «الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»[2].

ثُمَّ قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا الفَضْل بْن سَهْل، حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْر، حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَة، حَدَّثَنَا أَبُو الجُوَيْرِيَة، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ قَوْم يَسْأَلُونَ رَسُول الله ﷺ اسْتِهْزَاءً، فَيَقُول الرَّجُل: مَنْ أَبِي؟ وَيَقُول الرَّجُل تَضِلّ نَاقَتُهُ: أَيْنَ نَاقَتِي؟ فَأَنْزَل الله فِيهِمْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَة كُلّهَا[3]. تَفَرَّدَ بِهِ البُخَارِيّ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مَنْصُور بْن وَرْدَان الأَسَدِيّ، حَدَّثَنَا عَلِيّ ابْن عَبْد الأَعْلى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي البَخْتَرِيّ -وَهُوَ سَعِيد بْن فَيْرُوز-، عَنْ عَلِيّ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾ قَالُوا: يَا رَسُول الله ﷺ فِي كُلّ عَام؟ فَسَكَتَ. فقالوا: أفي كل عام؟ فسكت. قَال: ثُمَّ قَالُوا: أَفِي كُلّ عَام؟ فَقَالَ: «لا، وَلَوْ قُلت: نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ». فَأَنْزَل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ الآيَة[4]. كَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ طَرِيق مَنْصُور بْن وَرْدَان بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، وَسَمِعْت البُخَارِيّ يَقُول: أَبُو البَخْتَرِيّ لَمْ يُدْرِك عَلِيًّا. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحِيم بْن سُلَيْمَان، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن مُسْلم الهَجَرِيّ، عَنْ أَبِي عِيَاض، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله كَتَبَ عَلَيْكُمْ الحَجّ». فَقَال رَجُل: أَفِي كُلّ عَام يَا رَسُول الله؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى عَادَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَقَالَ: «مَنْ السَّائِل؟» فَقَال: فُلان. فَقَال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قُلت: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ عَلَيْكُمْ مَا أَطَقْتُمُوهُ، وَلَوْ تَرَكْتُمُوهُ لَكَفَرْتُمْ». فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ حَتَّى خَتَمَ الآيَة[5]. ثُمَّ رَوَاهُ ابْن جَرِير: مِنْ طَرِيق الحُسَيْن بْن وَاقِد، عَنْ مُحَمَّد بْن زِيَاد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَقَال: فَقَامَ مُحْصِن الأَسَدِيّ، وَفِي رِوَايَة مِنْ هَذِهِ الطَّرِيق عُكَّاشَة بْن مُحْصِن وَهُوَ أَشْبَهُ. وَإِبْرَاهِيم بْن مُسْلم الهَجَرِيّ ضَعِيف.

وَقَال ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنِي زَكَرِيَّا بْن يَحْيَى بْن أَبَان المِصْرِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْد عَبْد الرحمن بن أَبِي الغِمْر، حَدَّثَنَا أبو مُطِيع مُعَاوِيَة بْن يَحْيَى، عَنْ صَفْوَان بْن عَمْرو، حَدَّثَنِي سُلَيْم بْن عَامِر، قَال: سَمِعْت أَبَا أُمَامَة البَاهِلِيّ يَقُول: قَامَ رَسُول الله ﷺ فِي النَّاس فَقَال: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ الحَجّ». فَقَامَ رَجُل مِنَ الأَعْرَاب، فَقَال: أَفِي كُلّ عَام؟ قَال: فَغلق كَلام رَسُول الله ﷺ وَأَسْكَتَ وَاسْتَغْضَبَ وَمَكَثَ طَوِيلًا، ثُمَّ تَكَلَّمَ فَقَال: «مَنْ السَّائِل؟» فَقَال

---

(١) ضعيف الإسناد: فيه عبد العزيز بن أبان، قال الحافظ: متروك.
(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٥/ ٨١) بسند مرسل.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢٢).
(٤) حسن لغيره: تقدم.
(٥) حسن لغيره: تقدم.

الأَعْرَابِيّ: أَنَا ذَا. فَقَالَ: «وَيْحك، مَاذَا يُؤَمِّنُكَ أَنْ أَقُول نَعَمْ، وَالله لَوْ قُلت نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَكَفَرْتُمْ، أَلا إِنَّهُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلكُمْ أَئِمَّةُ الحَرَجِ، وَالله لَوْ أَنِّي أَحللت لَكُمْ جَمِيع مَا فِي الأَرْض، وَحَرَّمْت عَلَيْكُمْ مِنْهَا مَوْضِع خُفّ لَوَقَعْتُمْ فِيهِ». قَال: فَأَنْزَل الله عِنْد ذَلِكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ إِلى آخِر الآيَة[1]. فِي إِسْنَاده ضَعْف، وَظَاهِر الآيَة: النَّهْي عَنْ السُّؤَال عَنْ الأَشْيَاء الَّتِي إِذَا أُعْلِم بِهَا الشَّخْص سَاءَتْهُ، فَالأَوْلى الإِعْرَاض عَنْهَا وَتَرْكهَا، وَمَا أَحْسَنَ الحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد حَيْثُ قَال: حَدَّثَنَا حَجَّاج، قَال: سَمِعْت إِسْرَائِيل بْن يُونُس، عَنْ الوَلِيد بْن أَبِي هَشِام مَوْلى الهَمْدَانِيّ، عَنْ زَيْد بْن زَائِد، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ لأَصْحَابِهِ: «لا يُبَلِّغنِي أَحَد عَنْ أَحَد شَيْئًا؛ فَإِنِّي أُحِبّ أَنْ أَخْرُج إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيم الصَّدْر». الحَدِيث. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث إِسْرَائِيل، قَال أَبُو دَاوُدَ: عَنْ الوَلِيد. وَقَال التِّرْمِذِيّ: عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ الوَلِيد بْن أَبِي هَشِام بِهِ. ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ أَيْ: وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ هَذِهِ الأَشْيَاء الَّتِي نُهِيتُمْ عَنْ السُّؤَال عَنْهَا، حِين يُنَزَّل الوَحْي عَلى رَسُول الله ﷺ تُبَيَّن لَكُمْ، وَذَلِكَ عَلى الله يَسِير. ثُمَّ قَال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ أَيْ: عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ قَبْل ذَلِكَ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾. وَقِيل: المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ أَيْ: لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاء تَسْتَأْنِفُونَ السُّؤَال عَنْهَا؛ فَلَعَلَّهُ قَدْ يُنَزَّل بِسَبَبِ سُؤَالكُمْ تَشْدِيد أَوْ تَضْيِيق، وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث: «أَعْظَم المُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَل عَنْ شَيْء لَمْ يُحَرَّم، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْل مَسْأَلته»[2]. وَلَكِنْ إِذَا نَزَل القُرْآن بِهَا مُجْمَلة فَسَأَلتُمْ عَنْ بَيَانهَا حِينَئِذٍ تَبَيَّنَتْ لَكُمْ؛ لاحْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهَا.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ أَيْ: مَا لَمْ يَذْكُرهُ فِي كِتَابه فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ، فَاسْكُتُوا أَنْتُمْ عَنْهَا كَمَا سَكَتَ عَنْهَا، وَفِي الصَّحِيح عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ: كَثْرَة سُؤَالهمْ وَاخْتِلافهمْ عَلى أَنْبِيَائِهِمْ». وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح أَيْضًا: «إِنَّ الله تَعَالى فَرَضَ فَرَائِض فَلا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاء فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاء رَحْمَة بِكُمْ غَيْر نِسْيَان فَلا تَسْأَلُوا عَنْهَا»[3].

ثم قال تعالى: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أَيْ: قَدْ سَأَل هَذِهِ المَسَائِل المَنْهِيّ عَنْهَا قَوْم مِنْ قَبْلكُمْ فَأُجِيبُوا عَنْهَا، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا فَأَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ، أَيْ: بِسَبَبِهَا أَنْ بُيِّنَتْ لَهُمْ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا عَلى وَجْه الاسْتِرْشَاد، وإنما سألوا على وجه التعنت وَالعِنَاد. وَقَال العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ وذلك أَنَّ رَسُول الله ﷺ أَذَّنَ فِي النَّاس فَقَال: «يَا قَوْم كُتِبَ عَلَيْكُمْ الحَجّ». فَقَامَ رَجُل مِنْ بَنِي أَسَد، فَقَال: يَا رَسُول الله، أَفِي كُلّ عَام؟ فَأَغْضَبَ رَسُول الله ﷺ غَضَبًا شَدِيدًا، فَقَال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قُلت نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذًا لَكَفَرْتُمْ، فَاتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْء فَافْعَلُوا، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْء فَانْتَهُوا عَنْهُ»[4]. فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة، نَهَاهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ مِثْل الَّذِي سَأَلَتْ النَّصَارَى مِنْ المَائِدَة فَأَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ، فَنَهَى الله عَنْ ذَلِكَ، وَقَال: لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاء إِنْ نَزَل القُرْآن فِيهَا بِتَغْلِيظ سَاءَكُمْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ انْتَظِرُوا، فَإِذَا نَزَل القُرْآن فَإِنَّكُمْ لا تَسْأَلُونَ عَنْ شَيْء إِلَّا وَجَدْتُمْ تِبْيَانه[5]. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

---

(١) **حسن**: أخرجه الطبراني (٨/ ١٥٩)، وفي «مسند الشاميين» (٢/ ٨١) من حديث أبي أمامة، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٤٧١) وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن جيد.

(٢) **صحيح**: تقدم.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٣٣٧)، والنسائي (٢٦١٩).

(٤) **حسن لغيره**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٢١) وفي «مسند الشاميين» (٤/ ٣٣٨) من حديث أبي ثعلبة الخشني، وقال الألباني: حسن لغيره. انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٣٣٨).

(٥) **حسن لغيره**: أخرجه ابن جرير (٥/ ٨١) بسند ضعيف فيه عطية العوفي: مدلس ولكن يشهد للحديث ما سبق من الأحاديث.

وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ قَال: لَمَّا نَزَلتْ آيَة الحَجّ نَادَى النَّبِيّ ﷺ فِي النَّاس، فَقَال: «يَا أَيهَا النَّاس إنَّ الله قَدْ كَتَبَ عَليكُمْ الحجّ فحُجُّوا». فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، أَعَامًا وَاحِدًا أَمْ كُلّ عَام؟ فَقَال: «لا، بَل عَامًا وَاحِدًا، وَلوْ قُلت كُلّ عَام لوَجَبَتْ، وَلوْ وَجَبَتْ لكفَرْتُمْ». ثُمَّ قَال الله تَعَالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ إِلى قَوْله: ﴿ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَال خُصَيْف: عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ ﴾ قَال: هِيَ البَحِيرَة وَالوَصِيلة وَالسَّائِبَة وَالحَام، أَلا تَرَى أَنَّهُ قَال بَعْدهَا: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ ﴾ وَلا كَذَا وَلا كَذَا. قَال: وَأَمَّا عِكْرِمَة فَقَال: إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ الآيَات فَنُهُوا عَنْ ذَلكَ، ثُمَّ قَال: ﴿ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

يَعْنِي عِكْرِمَة رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ المُرَاد بِهَذَا النَّهْي عَنْ سُؤَال وُقُوع الآيَات، كَمَا سَأَلتْ قُرَيْش أَنْ يُجْرِي لَهُمْ أَنْهَارًا، وَأَنْ يَجْعَل لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا وَغَيْر ذَلكَ، وَكَمَا سَأَلتْ اليَهُود أَنْ يُنَزِّل عَليْهِمْ كِتَابًا مِنْ السَّمَاء، وَقَدْ قَال الله تَعَالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠ ۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴾.

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾

قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعْد، عَنْ صَالح بْن كَيْسَان، عَنْ ابْن شِهَاب، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، قَال: **البَحِيرَة**: الَّتِي يُمْنَع دَرُّهَا للطَّوَاغِيتِ فَلا يَحْلُبهَا أَحَدٌ مِنْ النَّاس، **وَالسَّائِبَة**: كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لآلهَتِهِمْ لا يُحْمَل عَليْهَا شَيْء. قَال: وَقَال أَبُو هُرَيْرَة: قَال رَسُول الله ﷺ: «**رَأَيْت عَمْرو بْن عَامِر الخُزَاعِيّ يَجُرّ قُصْبَهُ فِي النَّار، كَانَ أَوَّل مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِب**». **وَالوَصِيلة**: النَّاقَة البِكْر تُبَكِّر فِي أَوَّل نِتَاج الإِبِل، ثُمَّ تُثَنِّي بَعْد بِأُنْثَى، وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لطَوَاغِيتِهِمْ إِنْ وُصِلتْ إِحْدَاهُمَا بِالأُخْرَى ليْسَ بَيْنهمَا ذَكَر، **وَالحَام**: فَحْل الإِبِل يَضْرِب الضِّرَاب المَعْدُود، فَإِذَا قَضَى ضِرَابه وَدَعُوهُ للطَّوَاغِيت وَأَعْفَوْهُ عَنْ الحَمْل، فَلمْ يُحْمَل عَليْهِ شَيْء وَسَمَّوْهُ الحَامِي[1]. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلم وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث إِبْرَاهِيم بْن سَعْد بِهِ. ثُمَّ قَال البُخَارِيّ: وَقَال لي أَبُو اليَمَان، أَخْبَرَنَا شُعَيْب، عَنْ الزُّهْرِيّ، قَال: سَمِعْت سَعِيدًا يُخْبِر بِهَذَا، وَقَال أَبُو هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ نَحْوه. وَرَوَاهُ ابْن الهَاد، عَنْ ابْن شِهَاب، عَنْ سَعِيد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيّ ﷺ.

قَال الحَاكِم: أَرَادَ البُخَارِيّ أَنْ يَزِيد بْن عَبْد الله بْن الهَاد رَوَاهُ عَنْ عَبْد الوَهَّاب بْن بُخْت عَنْ الزُّهْرِيّ. كَذَا حَكَاهُ شَيْخنَا أَبُو الحَجَّاج المِزِّيّ فِي الأَطْرَاف وَسَكَتَ وَلمْ يُنَبِّه عَليْهِ، وَفِيمَا قَالهُ الحَاكِم نَظَر؛ فَإِنَّ الإِمَام أَحْمَد وَأَبَا جَعْفَر ابْن جَرِير رَوَيَاهُ مِنْ حَدِيث اللَّيْث بْن سَعْد، عَنْ ابْن الهَاد، عَنْ الزُّهْرِيّ نَفْسه، وَالله أَعْلم. ثُمَّ قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي يَعْقُوب أَبُو عَبْد الله الكَرْمَانِيّ، حَدَّثَنَا حَسَّان بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، أَنَّ عَائِشَة رضي الله عنها قَالتْ: قَال رَسُول الله ﷺ: «**رَأَيْت جَهَنَّم يَحْطِم بَعْضُهَا بَعْضًا، وَرَأَيْت عَمْرًا يَجُرّ**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦).

قُصْبَهُ وَهُوَ أَوَّل مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِب»(١). تَفَرَّدَ بِهِ البُخَارِيّ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا هَنَّاد، حَدَّثَنَا يُونُس بْن بُكَيْر، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم بْن الحَارِث، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول لأَكْثَم بْن الجَوْن: «يَا أَكْثَم، رَأَيْت عَمْرو بْن لُحَيّ بْن قَمْعَة بْن خِنْدِف يَجُرّ قُصْبَهُ فِي النَّار، فَمَا رَأَيْت رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ بِهِ مِنْك وَلَا مِنْك بِهِ» فَقَال أَكْثَم: تَخْشَى أَنْ يَضُرَّنِي شَبَهه يَا رَسُول الله؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «لَا، إِنَّك مُؤْمِن وَهُوَ كَافِر، إِنَّهُ أَوَّل مَنْ غَيَّرَ دِين إِبْرَاهِيم، وَبَحَرَ البَحِيرَة، وَسَيَّبَ السَّائِبَة، وَحَمَى الحَامِي»(٢). ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ هَنَّاد، عَنْ عَبْدَة، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِهِ أَوْ مِثْله. لَيْسَ هَذَانِ الطَّرِيقَانِ فِي الكُتُب. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن مُجَمِّع، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم الهَجَرِيّ، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «إِنَّ أَوَّل مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِب وَعَبَدَ الأَصْنَام أَبُو خُزَاعَة عَمْرو بْن عَامِر، وَإِنِّي رَأَيْته يَجُرّ أَمْعَاءَهُ فِي النَّار»(٣). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد مِنْ هَذَا الوَجْه، وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا مَعْمَر، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْرِف أَوَّل مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِب، وَأَوَّل مَنْ غَيَّرَ دِين إِبْرَاهِيم ؈». قَالُوا: وَمَنْ هُوَ يَا رَسُول الله؟ قَال: «عَمْرو بْن لُحَيّ أَخُو بَنِي كَعْب، لَقَدْ رَأَيْته يَجُرّ قُصْبَهُ فِي النَّار يُؤْذِي رِيحه أَهْل النَّار، وَإِنِّي لأَعْرِف أَوَّل مَنْ بَحَرَ البَحَائِر». قَالُوا: وَمَنْ هُوَ يَا رَسُول الله؟ قَال: «رَجُل مِنْ بَنِي مُدْلِج كَانَتْ لَهُ نَاقَتَان، فَجَدَعَ آذَانهمَا، وَحَرَّمَ أَلْبَانهمَا، ثُمَّ شَرِبَ أَلْبَانهمَا بَعْد ذَلِكَ، فَلَقَدْ رَأَيْته فِي النَّار وَهُمَا يَعَضَّانِهِ بِأَفْوَاهِهِمَا وَيَخْبِطَانِهِ بِأَخْفَافِهِمَا»(٤). فَعَمْرو هَذَا هُوَ ابْن لُحَيّ بْن قَمْعَة، أَحَد رُؤَسَاء خُزَاعَة الَّذِينَ وُلُّوا البَيْت بَعْد جُرْهُم، وَكَانَ أَوَّل مَنْ غَيَّرَ دِين إِبْرَاهِيم الخَلِيل، فَأَدْخَلَ الأَصْنَام إِلَى الحِجَاز، وَدَعَا الرَّعَاع مِنْ النَّاس إِلَى عِبَادَتهَا وَالتَّقَرُّب بِهَا، وَشَرَعَ لَهُمْ هَذِهِ الشَّرَائِع الجَاهِلِيَّة فِي الأَنْعَام وَغَيْرهَا، كَمَا ذَكَرَهُ الله تَعَالَى فِي سُورَة الأَنْعَام عِنْد قَوْله تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ إِلَى آخِر الآيَات فِي ذَلِكَ.

فَأَمَّا البَحِيرَة: فَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس ﭫ: هِيَ النَّاقَة إِذَا نَتَجَتْ خَمْسَة أَبْطُن نَظَرُوا إِلَى الخَامِس، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ فَأَكَلَهُ الرِّجَال دُون النِّسَاء، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى جَدَعُوا آذَانهَا فَقَالُوا: هَذِهِ بَحِيرَة. وَذَكَرَ السُّدِّيّ وَغَيْره قَرِيبًا مِنْ هَذَا.

وَأَمَّا السَّائِبَة: فَقَال مُجَاهِد: هِيَ مِنْ الغَنَم نَحْو مَا فُسِّرَ مِنْ البَحِيرَة، إِلَّا أَنَّهَا مَا وَلَدَتْ مِنْ وَلَد بَيْنهَا وَبَيْنه سِتَّة أَوْلَاد كَانَتْ عَلَى هَيْئَتهَا، فَإِذَا وَلَدَتْ السَّابِع ذَكَرًا أَوْ ذَكَرَيْنِ ذَبَحُوهُ فَأَكَلَهُ رِجَالهمْ دُون نِسَائِهِمْ.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: السَّائِبَة: هِيَ النَّاقَة إِذَا وَلَدَتْ عَشْر إِنَاث مِنْ الوَلَد لَيْسَ بَيْنهنَّ ذَكَر، سُيِّبَتْ فَلَمْ تُرْكَب وَلَمْ يُجَزّ وَبَرهَا، وَلَمْ يُحْلَب لَبَنهَا إِلَّا الضَّيْف. وَقَال أَبُو رَوْق: السَّائِبَة: كَانَ الرَّجُل إِذَا خَرَجَ فَقُضِيَتْ حَاجَته سَيَّبَ مِنْ مَاله نَاقَة أَوْ غَيْرهَا فَجَعَلَهَا لِلطَّوَاغِيت، فَمَا وَلَدَتْ مِنْ شَيْء كَانَ لَهَا. وَقَال السُّدِّيّ: كَانَ الرَّجُل مِنْهُمْ إِذَا قُضِيَتْ حَاجَته، أَوْ عُوفِيَ مِنْ مَرَض، أَوْ كَثُرَ مَاله، سَيَّبَ شَيْئًا مِنْ مَاله لِلأَوْثَان، فَمَنْ عَرَضَ لَهُ مِنْ النَّاس عُوقِبَ بِعُقُوبَةٍ فِي الدُّنْيَا.

وَأَمَّا الوَصِيلَة: فَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: هِيَ الشَّاة إِذَا نَتَجَتْ سَبْعَة أَبْطُن نَظَرُوا إِلَى السَّابِع،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢٤).
(٢) حسن: أخرجه ابن جرير (٥/ ٨٧) من حديث أبي هريرة، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٦٧٧).
(٣) حسن لغيره: أخرجه أحمد (١/ ٤٤٦) وفيه إبراهيم الهجري وهو ضعيف ويشهد للحديث ما سبق.
(٤) مرسل: أخرجه عبد الرزاق (١/ ١٩٧)، وابن جرير (٧/ ٨٦، ٨٧) بسند مرسل.

فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا أو أنثى وَهُوَ مَيِّت اشْتَرَكَ فِيهِ الرِّجَال دُون النِّسَاء، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى اسْتَحْيَوْهَا، وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْن وَاحِد اسْتَحْيَوْهُمَا، وَقَالُوا: وَصَلتْهُ أُخته فَحرَّمَتْهُ علَيْنَا. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَنبَأَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ سَعِيد بْن الْمُسَيَّب ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ قَال: فَالوَصِيلة مِنْ الإِبِل، كَانَتْ النَّاقَة تَبْتَكِر بالأُنْثَى، ثُمَّ تثني بِأُنْثَى فَيسَمُّونهَا الوَصِيلة، وَيَقُولُونَ: وَصَلتْ أُنْثَيَيْنِ لَيْسَ بَيْنهمَا ذَكَر فَكَانُوا يَجْدَعُونهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ. وَكَذَا رواه عَنْ الإِمَام مَالك بْن أَنَس رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: الوَصِيلة مِنْ الغَنَم إِذَا وَلَدَتْ عَشْر إِنَاث فِي خَمْسَة أَبْطُن، تَوْأَمَيْنِ تَوْأَمَيْنِ فِي كُلّ بَطْن، سُمِّيَتْ الوَصِيلة وَتُرِكَتْ، فَمَا وَلَدَتْ بَعْد ذَلِكَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى جُعِلتْ للذُّكُورِ دُون الإِنَاث، وَإِنْ كَانَتْ مَيِّتَة اشْتَرَكُوا فِيهَا. وَأَمَّا الحَام: فَقَال العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: كَانَ الرَّجُل إِذَا لقِحَ فَحْله عَشْرًا، قِيل: حَام فَاتْرُكُوهُ. وَكَذَا قَال أَبُو رَوْق، وَقَتَادَة. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: وَأَمَّا الحَام فَالفَحْل مِنْ الإِبِل إِذَا وُلِدَ لوَلدِهِ، قَالُوا: حَمَى هَذَا ظَهْره، فَلا يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ شَيْئًا، وَلا يَجُزُّونَ لهُ وَبَرًا، وَلا يَمْنَعُونَهُ مِنْ حِمَى رَعْي، وَمِنْ حَوْض يَشْرَب مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الحَوْض لغَيْرِ صَاحِبه. وَقَال ابْن وَهْب: سَمِعْت مَالكًا يَقُول: أَمَّا الحَام فَمِنْ الإِبِل، كَانَ يَضْرِب فِي الإِبِل، فَإِذَا انْقَضَى ضِرَابُهُ جَعَلُوا عَلَيْهِ رِيش الطَّوَاوِيس وَسَيَّبُوهُ. وَقَدْ قِيل غَيْر ذَلِكَ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة. وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيث رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: مِنْ طَرِيق أَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، عَنْ أَبِي الأَحْوَص الجُشَمِيّ، عَنْ أَبِيهِ مَالك بْن نَضْلة، قَال: أَتَيْت النَّبِيّ ﷺ فِي خُلقَان مِنْ الثِّيَاب، فَقَال لِي: «**هَل لكَ مِنْ مَال؟**». فَقُلت: نَعَمْ. قَال: «**مِنْ أَيّ المَال؟**». قَال: فَقُلت مِنْ كُلّ المَال؛ مِنْ الإِبِل وَالغَنَم وَالخَيْل وَالرَّقِيق قَال: «**فَإِذَا آتَاكَ الله مَالا فَلْيُرَ عَليْك**». ثُمَّ قَال: «**تُنْتَج إِبِلك وَافِيَة آذَانهَا؟**» قَال: قُلت: نَعَمْ. قَال: «**وَهَل تُنْتَج الإِبِل إِلا كَذَلكَ؟**». قَال: «**فَلعَلَّك تَأْخُذ المُوسَى فَتَقْطَع آذَان طَائِفَة مِنْهَا، وَتَقُول: هَذِهِ بَحِير، وَتَشُقّ آذَان طَائِفَة مِنْهَا وَتَقُول: هَذِهِ حَرَم**». قُلت: نَعَمْ. قَال: «**فَلا تَفْعَل، إِنَّ كُلّ مَا آتَاك الله لك حِلّ**»[1]. ثُمَّ قَال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾. أَمَّا البَحِيرَة: فَهِيَ الَّتِي يَجْدَعُونَ آذَانهَا، فَلا تَنْتَفِع امْرَأَته وَلا بَنَاته وَلا أَحَد مِنْ أَهْل بَيْته بِصُوفِهَا، وَلا أَوْبَارهَا وَلا أَشْعَارهَا وَلا أَلبَانهَا، فَإِذَا مَاتَتْ اشْتَرَكُوا فِيهَا. وَأَمَّا السَّائِبَة: فَهِيَ الَّتِي يُسَيِّبُونَ لآلهَتِهِمْ وَيَذْهَبُونَ إِلى آلهَتهمْ فَيُسَيِّبُونهَا. وَأَمَّا الوَصِيلة: فَالشَّاة تَلد سِتَّة أَبْطُن فَإِذَا وَلدَتْ السَّابع جُدِعَتْ وَقُطِعَ قَرْنهَا، فَيَقُولُونَ: قَدْ وُصِلتْ فَلا يَذْبَحُونهَا وَلا تُضْرَب، وَلا تُمْنَع مَهْمَا وَرَدَتْ عَلى حَوْض، هَكَذَا يُذْكَر تَفْسِير ذَلكَ مُدْرَجًا فِي الحَدِيث. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وَجه آخر عَنْ أَبِي إِسْحَاق عَنْ أَبِي الأَحْوَص عَوْف بْن مَالك مِنْ قَوْله وَهُوَ أَشْبَهُ، وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيث الإِمَام أَحْمَد: عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ أَبِي الزَّعْرَاء عَمْرو بْن عَمْرو، عَنْ عَمّه أَبِي الأَحْوَص عَوْف بْن مَالك بْن نَضْلة، عَنْ أَبِيهِ بِهِ. وَليْسَ فِيهِ تَفْسِير هَذِهِ الآيَة، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: مَا شَرَعَ الله هَذِهِ الأَشْيَاء وَلا هِيَ عِنْده قُرْبَة، وَلكِنَّ الْمُشْرِكِينَ افْتَرَوْا ذَلكَ، وَجَعَلُوهُ شَرْعًا لهُمْ وَقُرْبَة يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِليْهِ، وَليْسَ ذَلكَ بِحَاصِلٍ لهُمْ بَل هُوَ وَبَال عَليْهِمْ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أَيْ: إِذَا دُعُوا إِلى دِين الله وَشَرْعه وَمَا أَوْجَبَهُ وَتَرْكِ مَا حَرَّمَهُ، قَالُوا: يَكْفِينَا مَا وَجَدْنَا عَليْهِ الآبَاء وَالأَجْدَاد مِنْ الطَّرَائِق وَالمَسَالك، قَال الله تَعَالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أَيْ: لا يَفْهَمُونَ حَقًّا وَلا يَعْرِفُونَهُ وَلا يَهْتَدُونَ إِليْهِ فَكَيْف يَتَّبِعُونهُمْ وَالحَالة هَذِهِ؟ لا يَتَّبِعهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ أَجْهَلُ مِنْهُمْ وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو حاتم (٤/ ١٢٢٠)، وابن جرير (٧/ ٨٨)، وأخرجه أبو داود مختصرًا (٤٠٦٣)، والنسائي (٨/ ١٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

يَقُول تَعَالى: آمِرًا عِبَاده المُؤمِنِينَ أَنْ يُصْلحوا أَنْفُسهم، وَيَفْعَلُوا الخَيْر بِجُهْدِهِمْ وَطَاقَتهمْ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ مَنْ أَصْلَحَ أَمْره لا يَضُرّهُ فَسَاد مَنْ فَسَدَ مِنَ النَّاس، سَوَاء كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَوْ بَعِيدًا. قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس عند تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: يَقُول تَعَالى: إِذَا مَا العَبْد أَطَاعَنِي فِيمَا أَمَرْته بِهِ مِنَ الحَلال وَنَهَيْته عَنْهُ مِنَ الحَرَام، فَلا يَضُرّهُ مَنْ ضَلَّ بَعْده إِذَا عَمِلَ بِمَا أَمَرْته بِهِ. وَكَذَا رَوَى الوالبي عَنْهُ، وَهَكَذَا قَال مُقَاتِل بْن حَيَّان، فَقَوْله تَعَالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ نُصِبَ عَلى الإِغْرَاء ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أَيْ: فَيُجَازِي كُلّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ. وَلَيْسَ فِي الآيَة مستدل عَلى تَرْك الأَمْر بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَر إِذَا كَانَ فِعْل ذَلِكَ مُمْكِنًا، وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا هَاشِم بْن القَاسِم، حَدَّثَنَا زُهَيْر -يَعْنِي: ابْن مُعَاوِيَة-، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد، حَدَّثَنَا قَيْس، قَال: قَامَ أَبُو بَكْر الصِّدِّيق رضي الله عنه فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَال: أَيّهَا النَّاس، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ إِلى آخر الآيَة. وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلى غَيْر مَوْضِعهَا، وَإِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**إِنَّ النَّاس إِذَا رَأَوْا المُنْكَر وَلا يُغَيِّرُونَهُ، أَوْشَكَ الله ﷻ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ**». قَال: وَسَمِعْت أَبَا بَكْر يَقُول: يَا أَيّهَا النَّاس، إِيَّاكُمْ وَالكَذِب؛ فَإِنَّ الكَذِب مُجَانِب للإِيمَانِ[1].

وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيث أَصْحَاب السُّنَن الأَرْبَعَة وَابْن حِبَّان فِي صَحِيحه وَغَيْرهمْ، مِنْ طُرُق كَثِيرَة، عَنْ جَمَاعَة كَثِيرَة، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد بِهِ مُتَّصِلًا مَرْفُوعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ رَوَاهُ عَنْهُ بِهِ مَوْقُوفًا عَلى الصِّدِّيق، وَقَدْ رَجَّحَ رَفْعه الدَّارَقُطْنِيّ وَغَيْره، وَذَكَرْنَا طُرُقه وَالكَلام عَلَيْهِ مُطَوَّلًا فِي مُسْنَد الصِّدِّيق رضي الله عنه. وَقَال أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا سَعِيد بْن يَعْقُوب الطَّالقَانِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن المُبَارَك، حَدَّثَنَا عُتْبَة بْن أَبِي حَكِيم، حَدَّثَنَا عَمْرو ابْن جَارِيَة اللَّخْمِيّ، عَنْ أَبِي أُمَيَّة الشَّعْبَانِيّ، قَال: أَتَيْت أَبَا ثَعْلَبَة الخُشَنِيّ، فَقُلت لهُ: كَيْف تَصْنَع فِي هَذِهِ الآيَة؟ فقَال: أَيَّة آيَة؟ قُلت: قَوْل الله تَعَالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ فقَال: أَمَا وَالله لقَدْ سَأَلت عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلت عَنْهَا رَسُول الله ﷺ فَقَال: «**بَل ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنْ المُنْكَر، حَتَّى إِذَا رَأَيْت شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَة، وَإِعْجَاب كُلّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْك بِخَاصَّةِ نَفْسك، وَدَعْ العَوَامّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبْر فِيهِنَّ مِثْل القَبْض عَلى الجَمْر، للعَامِل فِيهِنَّ مِثْل أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ كَعَمَلكُمْ**»[2]. قَال عَبْد الله بْن المُبَارَك: وَزَادَ غَيْر عُتْبَة: قِيل: يَا رَسُول الله، أَجْر خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟ قَال: «**بَل أَجْر خَمْسِينَ مِنْكُمْ**». ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب صَحِيح. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: مِنْ طَرِيق ابْن المُبَارَك، وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ وَابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم عَنْ عُتْبَة بْن أَبِي حَكِيم. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا مَعْمَر، عَنْ الحَسَن: أَنَّ ابْن مَسْعُود رضي الله عنه سَأَلهُ رَجُل عَنْ قَوْل الله: ﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ فَقَال: إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِزَمَانِهَا، إِنَّهَا اليَوْم مَقْبُولة، وَلكِنَّهُ قَدْ أَوْشَكَ أَنْ يَأْتِي زَمَانهَا، تَأْمُرُونَ فَيُصْنَع بِكُمْ كَذَا وَكَذَا -أَوْ قَال: فَلا يُقْبَل مِنْكُمْ- فَحِينَئِذٍ عَلَيْكُمْ أَنْفُسكُمْ لا يَضُرّكُمْ مَنْ ضَلَّ.

وَرَوَاهُ أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ عَنْ الرَّبِيع، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ ابْن مَسْعُود، فِي قَوْله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وأحمد (١/ ٢، ٥، ٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وفيه عمرو بن جارية اللخمي: قال الحافظ: مقبول، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٨٤٦).

أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ الآيَة. قَال: كَانُوا عِنْد عَبْد الله بْن مَسْعُود جُلُوسًا، فَكَانَ بَيْن رَجُلَيْنِ بَعْض مَا يَكُون بَيْن النَّاس، حَتَّى قَامَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبه، فَقَال رَجُل مِنْ جُلَسَاء عَبْد الله: أَلَا أَقُوم فَآمُرهُمَا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمَا عَنْ الْمُنْكَر. فَقَال آخَر إِلَى جَنْبه: عَلَيْك بِنَفْسِك، فَإِنَّ الله يَقُول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ الآيَة. قَال: فَسَمِعَهَا ابْن مَسْعُود فَقَال: مَهْ، لَمْ يَجِئْ تَأْوِيل هَذِهِ بَعْد، إِنَّ الْقُرْآن أُنْزِل حَيْثُ أُنْزِل وَمِنْهُ آيٌ قَدْ مَضَى تَأْوِيلُهُنَّ قَبْل أَنْ يُنَزَّلنَ، وَمِنْهُ آيٌ قَدْ وَقَعَ تَأْوِيلهنَّ عَلَى عَهْد رَسُول الله ﷺ وَمِنْهُ آيٌ قَدْ وَقَعَ تَأْوِيلهنَّ بَعْد النَّبِيّ ﷺ بِيَسِير، وَمِنْهُ آيٌ يَقَع تَأْوِيلهنَّ بَعْد الْيَوْم، وَمِنْهُ آيٌ تَأْوِيلهنَّ عِنْد السَّاعَة عَلَى مَا ذُكِرَ مِنْ السَّاعَة، وَمِنْهُ آي يَقَع تَأْوِيلهنَّ يَوْم الْحِسَاب عَلَى مَا ذَكَرَ مِنْ الْحِسَاب وَالْجَنَّة وَالنَّار، فَمَا دَامَتْ قُلُوبكُمْ وَاحِدَة وَأَهْوَاؤُكُمْ وَاحِدَة، وَلَمْ تُلْبَسُوا شِيَعًا، وَلَمْ يَذُقْ بَعْضكُمْ بَأْس بَعْض -فَأْمُرُوا وَانْهُوا، وَإِذَا اخْتَلَفَتْ الْقُلُوب وَالأَهْوَاء وَأُلْبِسْتُمْ شِيَعًا، وَذَاقَ بَعْضكُمْ بَأْس بَعْض، فَامْرُؤٌ وَنَفْسه، وَعِنْد ذَلِكَ جَاءَنَا تَأْوِيل هَذِهِ الآيَة. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا الْحَسَن بْن عَرَفَة، حَدَّثَنَا شَبَّابَة بْن سِوَار، حَدَّثَنَا الرَّبِيع بْن صَبِيح، عَنْ سُفْيَان بْن عِقَال، قَال: قِيلَ لِابْنِ عُمَر: لَوْ جَلَسْت فِي هَذِهِ الأَيَّام فَلَمْ تَأْمُر وَلَمْ تَنْهَ، فَإِنَّ الله قَال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾. فَقَال ابْن عُمَر: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي وَلَا لِأَصْحَابِي، لِأَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«أَلَا فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِد الْغَائِب»**، فَكُنَّا نَحْنُ الشُّهُود وَأَنْتُمْ الْغُيَّب، وَلَكِنَّ هَذِهِ الآيَة لِأَقْوَام يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدنَا، إِنْ قَالُوا لَمْ يُقْبَل مِنْهُمْ.

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر وَأَبُو عَاصِم، قَالَا: حَدَّثَنَا عَوْف، عَنْ سِوَار بْن شَبِيب، قَال: كُنْت عِنْد ابْن عُمَر إِذْ أَتَاهُ رَجُل جَلِيد فِي الْعَيْن شَدِيد اللِّسَان، فَقَال: يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَن، نَفَر سِتَّة كُلّهمْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآن فَأَسْرَعَ فِيهِ، وَكُلّهمْ مُجْتَهِد لَا يَأْلُو، وَكُلّهمْ بَغِيض إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِي دَنَاءَة، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَشْهَد بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض بِالشِّرْكِ. فَقَال رَجُل مِنْ الْقَوْم: وَأَيّ دَنَاءَة تُرِيد أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَشْهَد بَعْضهمْ عَلَى بَعْض بِالشِّرْكِ؟ فَقَال الرَّجُل: إِنِّي لَسْت إِيَّاكَ أَسْأَل، إِنَّمَا أَسْأَل الشَّيْخ. فَأَعَادَ عَلَى عَبْد الله الْحَدِيث، فَقَال عَبْد الله: لَعَلَّك تَرَى -لَا أَبَا لَك- أَنِّي سَآمُرُك أَنْ تَذْهَب فَتَقْتُلهُمْ، عِظْهُمْ وَانْهَهُمْ فَإِنْ عَصَوْك فَعَلَيْك بِنَفْسِك، فَإِنَّ الله ﷻ يَقُول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنِي أَحْمَد بْن الْمِقْدَام، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، سَمِعْت أَبِي، حَدَّثَنَا قَتَادَة، عَنْ أَبِي مَازِن، قَال: انْطَلَقْت عَلَى عَهْد عُثْمَان إِلَى الْمَدِينَة، فَإِذَا قَوْم مِنْ الْمُسْلِمِينَ جُلُوس، فَقَرَأَ أَحَدهمْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ ﴾ فَقَال أَكْبَرُهُمْ: لَمْ يَجِئْ تَأْوِيل هَذِهِ الآيَة الْيَوْم.

وَقَال: حَدَّثَنَا الْقَاسِم، حَدَّثَنَا الْحُسَيْن، حَدَّثَنَا ابْن فَضَالَة، عَنْ مُعَاوِيَة بْن صَالِح، عَنْ جُبَيْر بْن نُفَيْر، قَال: كُنْت فِي حَلْقَة فِيهَا أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ وَإِنِّي لَأَصْغَرُ الْقَوْم، فَتَذَاكَرُوا الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر، فَقُلْت أَنَا: أَلَيْسَ الله يَقُول فِي كِتَابه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾؟ فَأَقْبَلُوا عَلَيَّ بِلِسَانٍ وَاحِد، وَقَالُوا: تَنْزِع آيَة مِنْ الْقُرْآن لَا تَعْرِفهَا، وَلَا تَدْرِي مَا تَأْوِيلهَا. حَتَّى تَمَنَّيْت أَنِّي لَمْ أَكُنْ تَكَلَّمْت، وَأَقْبَلُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَلَمَّا حَضَرَ قِيَامهمْ قَالُوا: إِنَّك غُلَام حَدِيث السِّنّ، وَإِنَّك نَزَعْت بِآيَة وَلَا تَدْرِي مَا هِيَ، وَعَسَى أَنْ تُدْرِك ذَلِكَ الزَّمَان، إِذَا رَأَيْت شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَإِعْجَاب كُلّ ذِي رَأْي بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْك بِنَفْسِك لَا يَضُرّك مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْت. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن سَهْل، حَدَّثَنَا ضَمْرَة بْن رَبِيعَة قَال: تَلَا الْحَسَن هَذِهِ الآيَة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ فَقَال الْحَسَن: الْحَمْد لله بِهَا، وَالْحَمْد لله عَلَيْهَا، مَا كَانَ مُؤْمِنٌ فِيمَا مَضَى، وَلَا مُؤْمِنٌ فِيمَا بَقِيَ، إِلَّا وَإِلَى جَانِبه مُنَافِقٌ يَكْرَهُ عَمَلَهُ.

وَقَال سَعِيد بْن المُسَيَّب: إِذَا أَمَرْت بِالمَعْرُوفِ، وَنَهَيْت عَنْ المُنْكَر، فَلا يَضُرّك مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْت. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَكَذَا رُوِيَ مِنْ طَرِيق سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي العُمَيْس، عَنْ أَبِي البَخْتَرِيّ، عَنْ حُذَيْفَة مِثْله. وَكَذَا قَال غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن خَالد الدِّمَشْقِيّ، حَدَّثَنَا الوَلِيد، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ كَعْب فِي قَوْله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قَال: إِذَا هُدِمَتْ كَنِيسَة دِمَشْق فَجُعِلَتْ مَسْجِدًا، وَظَهَرَ لُبْس العَصْب، فَحِينَئِذٍ تَأْوِيل هَذِهِ الآيَة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة عَلَى حُكْم عَزِيز، قِيل: إِنَّهُ مَنْسُوخ، رَوَاهُ العَوْفِيّ عن ابْن عَبَّاس، وَقَالَهُ حَمَّاد بْن أَبِي سُلَيْمَان، عَنْ إِبْرَاهِيم: إِنَّهَا مَنْسُوخَة. وَقَال آخَرُونَ وَهُمْ الأَكْثَرُونَ فِيمَا قَالَهُ ابْن جَرِير: بَل هُوَ مُحْكَم، وَمَنْ ادَّعَى نَسْخه فَعَلَيْهِ البَيَان. فَقَوْله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ هَذَا هُوَ الخَبَر لِقَوْلِهِ: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ فَقِيل: تَقْدِيره شَهَادَة اثْنَيْنِ، حُذِفَ المُضَافُ وَأُقِيمَ المُضَاف إِلَيْهِ مَقَامه، وَقِيل: دَلَّ الكَلَام عَلَى تَقْدِير أَنْ يَشْهَد اثْنَانِ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ وَصَفَ الاثْنَيْنِ بِأَنْ يَكُونَا عَدْلَيْنِ. وَقَوْله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ المُسْلِمِينَ. قَالَهُ الجُمْهُور. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما فِي قَوْله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قَال: مِنْ المُسْلِمِينَ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، ثُمَّ قَال: وَرُوِيَ عَنْ عُبَيْدَة وَسَعِيد بْن المُسَيَّب، وَالحَسَن وَمُجَاهِد، وَيَحْيَى بْن يَعْمُر وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَة وَمُقَاتِل بْن حَيَّان، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ وَغَيْرهمْ نَحْو ذَلِكَ. قَال ابْن جَرِير: وَقَال آخَرُونَ عنى بذَلِكَ: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ حَيِّ المُوصِي، وَذَلِكَ قَوْل رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَة وَعُبَيْدَة وَعِدَّة غَيْرهمَا.

وَقَوْله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن عَوْن، حَدَّثَنَا عَبْد الوَاحِد بْن زِيَاد، حَدَّثَنَا حَبِيب بْن أَبِي عَمْرَة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، قَال: قَال ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قَال: مِنْ غَيْر المُسْلِمِينَ يَعْنِي: أَهْل الكِتَاب. ثُمَّ قَال: وَرُوِيَ عَنْ عُبَيْدَة، وَشُرَيْح، وَسَعِيد بْن المُسَيَّب، وَمُحَمَّد بْن سِيرِينَ، وَيَحْيَى بْن يَعْمُر، وَعِكْرِمَة، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالشَّعْبِيّ، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَقَتَادَة، وَأَبِي مِجْلَز، وَالسُّدِّيّ، وَمُقَاتِل بْن حَيَّان، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ وَغَيْرهمْ نَحْو ذَلِكَ. وَعَلَى مَا حَكَاهُ ابْن جَرِير عَنْ عِكْرِمَة وَعُبَيْدَة فِي قَوْله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أَنَّ المُرَاد مِنْ قَبِيلة المُوصِي، يَكُون المُرَاد هَاهُنَا ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ غَيْر قَبِيلة المُوصِي، وَقد رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم مِثْله عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ وَالزُّهْرِيّ رَحِمَهُمَا الله.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: سَافَرْتُمْ ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وَهَذَانِ شَرْطَانِ لِجَوَاز اسْتِشْهَاد الذِّمِّيِّينَ عِنْد فَقْد المُؤْمِنِينَ؛ أَنْ يَكُون ذَلكَ فِي سَفَر، وَأَنْ يَكُون فِي وَصِيَّة، كَمَا صَرَّحَ بِذَلكَ شُرَيْح القَاضِي. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة وَوَكِيع، قَالا: حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ شُرَيْح، قَال: لا تجوز شَهَادَة اليَهُودي وَالنَّصرانى إِلَّا فِي سَفَر، وَلا تَجُوز فِي سَفَر إِلَّا فِي الوَصِيَّة. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن عَيَّاش، عَنْ أَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، قَال: قَال شُرَيْح: فَذَكَرَ مِثْله. وَقد رُوِيَ مثله عَنْ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل رحمه الله، وَهَذِهِ المَسْأَلة مِنْ أفْرَاده، وَخَالفَهُ الثَّلاثَة فَقَالُوا: لا تَجُوز شَهَادَة أَهْل الذِّمَّة عَلى

المُسْلِمِينَ، وَأَجَازَهَا أَبُو حَنِيفَة فِيمَا بَيْن بَعْضهمْ بَعْضًا. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد، حَدَّثَنَا صَالح بْن أَبِي الأَخْضَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، قَال: مَضَتْ السُّنَّة أَنه لا تَجُوز شَهَادَة الكَافِرِ فِي حَضَرٍ وَلا سَفَرٍ، إِنَّمَا هِيَ فِي المُسْلِمِينَ. وَقَال ابْن زَيْد: نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة فِي رَجُل تُوُفِّيَ وَلَيْسَ عِنْده أَحَد مِنْ أَهْل الإِسْلام، وَذَلكَ فِي أَوَّل الإِسْلام، وَالأَرْض حَرْب وَالنَّاس كُفَّار، وَكَانَ النَّاس يَتَوَارَثُونَ بِالوَصِيَّةِ ثُمَّ نُسِخَتْ الوَصِيَّة، وَفُرِضَتْ الفَرَائِض وَعَمِل النَّاس بِهَا. رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَفِي هَذَا نَظَر وَالله أَعْلم.

وَقَال ابْن جَرِير: اخْتُلفَ فِي قَوْله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ هَل المُرَاد بِهِ أَنْ يُوصِي إِليْهِمَا أَوْ يُشْهِدهُمَا؟ عَلى قَوْليْنِ.

أَحَدهمَا: أَنْ يُوصِي إِليْهِمَا، كَمَا قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَزِيد بْن عَبْد الله بْن قُسَيْط، قَال: سُئِل ابْن مَسْعُود رضي الله عنه عَنْ هَذِهِ الآيَة، قَال: هَذَا رَجُل سَافَرَ وَمَعَهُ مَال فَأَدْرَكَهُ قَدَرُهُ، فَإِنْ وَجَدَ رَجُليْنِ مِنْ المُسْلِمِينَ دَفَعَ إِليْهِمَا تَرِكَتَهُ، وَأَشْهَدَ عَليْهِمَا عَدْليْنِ مِنْ المُسْلِمِينَ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَفِيهِ انْقِطَاع.

وَالقَوْل الثَّانِي: أَنَّهُمَا يَكُونَانِ شَاهِدَيْنِ، وَهُوَ ظَاهِر سِيَاق الآيَة الكَرِيمَة، فَإِنْ لمْ يَكُنْ وَصِيٌّ ثَالثٌ مَعَهُمَا اجْتَمَعَ فِيهِمَا الوَصْفَانِ: الوِصَايَة وَالشَّهَادَة، كَمَا فِي قِصَّة تَمِيم الدَّارِيّ وَعَدِيّ بْن بَدَّاء، كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرهمَا آنِفًا إِنْ شَاءَ الله، وَبِهِ التَّوْفِيق. وَقَدْ اسْتَشْكَل ابْن جَرِير كَوْنهمَا شَاهِدَيْنِ قَال: لأَنَّا لا نَعْلم حُكْمًا يَحْلف فِيهِ الشَّاهِد. وَهَذَا لا يَمْنَع الحُكْم الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، وَهُوَ حُكْم مُسْتَقِلّ بِنَفْسِهِ، لا يَلزَم أَنْ يَكُون جَارِيًا عَلى قِيَاس جَمِيع الأَحْكَام، عَلى أَنَّ هَذَا حُكْم خَاصّ بِشَهَادَةٍ خَاصَّة فِي مَحَلّ خَاصّ، وَقَدْ اغْتُفِرَ فِيهِ مِنْ الأُمُور مَا لمْ يُغْتَفَر فِي غَيْره، فَإِذَا قَامَتْ قرائن الرِّيبَة حَلفَ هَذَا الشَّاهِد بِمُقْتَضَى مَا دَلَّتْ عَليْهِ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي صَلاة العَصْر. وَكَذَا قَال سَعِيد بْن جُبَيْر وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَقَتَادَة وَعِكْرِمَة وَمُحَمَّد بْن سِيرِينَ. وَقَال الزُّهْرِيّ: يَعْنِي صَلاة المُسْلِمِينَ. وَقَال السُّدِّيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي صَلاة أَهْل دِينهمَا. وَرُوِيَ عَنْ عَبْد الرَّزَّاق عَنْ أَيُّوب، عَنْ ابْن سِيرِينَ، عَنْ عُبَيْدَة، وَكَذَا قَال إِبْرَاهِيم وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد. وَالمَقْصُود أَنْ يُقَام هَذَانِ الشَّاهِدَانِ بَعْد صَلاة اجْتَمَعَ النَّاس فِيهَا بِحَضْرَتِهِمْ ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أَيْ: فَيَحْلفَانِ بِالله ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أَيْ: إِنْ ظَهَرَتْ لكُمْ مِنْهُمَا رِيبَة أَنَّهُمَا قد خَانَا أَوْ غَلَّا فَيَحْلفَانِ حِينَئِذٍ بِالله ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ﴾ أَيْ: بِأَيْمَانِنَا، قَالهُ مُقَاتِل بْن حَيَّان ﴿ثَمَنٗا﴾ أَيْ: لا نَعْتَاض عَنْهُ بِعِوَضٍ قَليل مِنْ الدُّنْيَا الفَانِيَة الزَّائِلة ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ أَيْ: وَلوْ كَانَ المَشْهُود عَليْهِ قَرِيبًا إِلينا لا نُحَابِيه ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أَضَافَهَا إِلى الله تَشْرِيفًا لهَا وَتَعْظِيمًا لأَمْرِهَا. وَقَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَادَةَ ٱللَّهِ﴾ مَجْرُورًا عَلى القَسَم، رَوَاهَا ابْن جَرِير عَنْ عَامِر الشَّعْبِيّ، وَحُكِيَ عَنْ بَعْضهمْ أَنَّهُ قَرَأَهَا: ﴿وَلا نَكْتُم شَهَٰدَةَ اللهِ﴾، وَالقِرَاءَة الأُولى هِيَ المَشْهُورَة. ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ أَيْ: إِنْ فَعَلنَا شَيْئًا مِنْ ذَلكَ مِنْ تَحْرِيف الشَّهَادَة أَوْ تَبْدِيلهَا أَوْ تَغْيِيرهَا أَوْ كَتْمهَا بِالكُلِّيَّةِ.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أَيْ: فَإِنْ اشْتَهَرَ وَظَهَرَ وَتَحَقَّقَ مِنْ الشَّاهِدَيْنِ الوَصِيَّيْنِ أَنَّهُمَا خَانَا أَوْ غَلَّا شَيْئًا مِنْ المَال المُوصَى بِهِ إِليْهِمَا، وَظَهَرَ عَليْهِمَا بِذَلكَ ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ هَذِهِ قِرَاءَة الجُمْهُور ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْليَانِ﴾ وَرُوِيَ عَنْ عَليّ وَأُبِي وَالحَسَن البَصْرِيّ أَنَّهُمْ قَرَءُوهَا ﴿اسْتَحَقَّ عَليْهِمْ الأَوْليَانِ﴾. وَقد رَوَى الحَاكِم فِي المُسْتَدْرَك: مِنْ طَرِيق إِسْحَاق بْن مُحَمَّد الفَرْوِيّ، عَنْ سُليْمَان بْن بِلال، عَنْ جَعْفَر بْن مُحَمَّد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُبَيْد الله بْن أَبِي رَافِع، عَنْ عَليّ بْن أَبِي طَالب رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَرَأَ: ﴿مِنْ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَليْهِمْ الأَوْليَانِ﴾. ثُمَّ قَال: صَحِيح عَلى شَرْط مُسْلم وَلمْ يُخَرِّجَاهُ. وَقَرَأَ بَعْضهمْ وَمِنْهُمْ ابْن عَبَّاس: ﴿مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَليْهِمْ الأَوَّلِينَ﴾ وَقَرَأَ الحَسَن: ﴿مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَليْهِمْ الأَوَّلانِ﴾

حَكَاهُ ابْن جَرِير. فَعَلى قِرَاءَة الجُمْهُور يَكُون المَعْنَى بِذَلكَ: أَيْ مَتَى تَحَقَّقَ ذَلكَ بِالخَبَرِ الصَّحِيح عَلى خِيَانَتهِمَا فَلْيَقُمْ اثْنَانِ مِنْ الوَرَثَة المُسْتَحِقِّينَ للتَّرِكَةِ، وَلْيَكُونَا مِنْ أَوْلى مَنْ يَرِث ذَلكَ المَال ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أَيْ: لقَوْلنَا إِنَّهمَا خَانَا أَحَقُّ وَأَصَحُّ وَأَثْبَتُ مِنْ شَهَادَتهمَا المُتَقَدِّمَة ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ أَيْ: فِيمَا قُلنَا فِيهِمَا مِنْ الخِيَانَة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: إِنْ كُنَّا قَدْ كَذَبْنَا عَليْهِمَا. وَهَذَا التَّحْليف للوَرَثَةِ وَالرُّجُوع إِلى قَوْلهمَا وَالحَالة هَذِهِ، كَمَا يَحْلف أَوْليَاء المَقْتُول إِذَا ظَهَرَ لوْث فِي جَانِب القَاتِل، فَيُقْسِم المُسْتَحِقُّونَ عَلى القَاتِل فَيُدْفَع بِرُمَّتِهِ إِليهِمْ، كَمَا هُوَ مُقَرَّر فِي بَاب القَسَامَة مِنْ الأَحْكَام. وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّة بِمِثْل مَا دَلَّتْ عَليْهِ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة. فَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن زِيَاد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سَلمَة، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ أَبِي النَّضر، عَنْ بَاذَان -يَعْنِي: أَبَا صَالح مَوْلى أُمّ هَانِئ بِنْت أَبِي طَالب-، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ تَمِيم الدَّارِيّ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قَال: بَرِئَ النَّاس مِنْهَا غَيْرِي وَغَيْر عَدِيّ بْن بَدَّاء، وَكَانَا نَصْرَانِيَّيْنِ يَخْتَلفَانِ إِلى الشَّام قَبْل الإِسْلام، فَأَتَيَا الشَّام لتِجَارَتهِمَا وَقَدِمَ عَليْهِمَا مَوْلًى لبَنِي سَهْم، يُقَال لهُ: بُدَيْل بْن أَبِي مَرْيَم بِتِجَارَةٍ وَمَعَهُ جَام مِنْ فِضَّة يُرِيد بِهِ المَلك، وَهُوَ عُظْم تِجَارَته فَمَرِضَ فَأَوْصَى إِليْهِمَا، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يُبَلِّغَا مَا تَرَكَ أَهْلهُ، قَال تَمِيم: فَلمَّا مَاتَ أَخَذْنَا ذَلكَ الجَام فَبِعْنَاهُ بِأَلفِ دِرْهَم، ثُمَّ اقْتَسَمْنَاهُ أَنَا وَعَدِيّ، فَلمَّا قَدِمْنَا إِلى أَهْله دَفَعْنَا إِليْهِمْ مَا كَانَ مَعَنَا، وَفَقَدُوا الجَام فَسَأَلُونَا عَنْهُ، فَقُلنَا: مَا تَرَكَ غَيْر هَذَا وَمَا دَفَعَ إِليْنَا غَيْره. قَال تَمِيم: فَلمَّا أَسْلمْت بَعْد قُدُوم رَسُول الله ﷺ المَدِينَة تَأَثَّمْت مِنْ ذَلكَ، فَأَتَيْت أَهْله فَأَخْبَرْتهمْ الخَبَر وَدَفَعْت إِليْهِمْ خَمْسمِائَةِ دِرْهَم، وَأَخْبَرْتهمْ أَنَّ عِنْد صَاحِبِي مِثْلهَا فَوَثَبُوا إِليه، فَأَمَرَهُمْ النَّبِيّ أَنْ يَسْتَحْلفُوهُ بِمَا يُعَظَّم بِهِ عَلى أَهْل دِينه، فَحَلفَ فَأَنْزَل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إِلى قَوْله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ فَقَامَ عَمْرو بْن العَاصِ وَرَجُل آخر مِنْهُمْ، فَحَلفَا فَنُزِعَتْ الخَمْسمِائَةِ مِنْ عَدِيّ بْن بَدَّاء.

وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ وَابْن جَرِير كِلاهُمَا: عَنْ الحَسَن بْن أَحْمَد بْن أَبِي شُعَيْب الحَرَّانِيّ، عَنْ مُحَمَّد ابْن سَلمَة، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بِهِ. فَذَكَرَهُ وَعِنْده: فَأَتَوْا بِهِ رَسُول الله ﷺ فَسَأَلهُمْ البَيِّنَة، فَلمْ يَجِدُوا، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَحْلفُوهُ بِمَا يُعَظَّم بِهِ عَلى أَهْل دِينه، فَحَلفَ فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة إِلى قَوْله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ فَقَامَ عَمْرو بْن العَاصِ وَرَجُل آخر، فَحَلفَا فَنُزِعَتْ الخَمْسمِائَةِ مِنْ عَدِيّ بْن بَدَّاء[1]. ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث غَرِيب وَليْسَ إِسْنَاده بِصَحِيح، وَأَبُو النَّضر الَّذِي رَوَى عَنْهُ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق هَذَا الحَدِيث هُوَ عِنْدِي: مُحَمَّد بْن السَّائِب الكَلبِيّ، يُكْنَى أَبَا النَّضر، وَقَدْ تَرَكَهُ أَهْل العِلم بِالحَدِيثِ، وَهُوَ صَاحِب التَّفْسِير، سَمِعْت مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل يَقُول: مُحَمَّد بْن السَّائِب الكَلبِيّ يُكَنَّى أَبَا النَّضر، ثُمَّ قَال: وَلا نَعْرِف لسالم أبي النَّضْر رِوَايَة عَنْ أَبِي صَالح مَوْلى أُمّ هَانِئ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس شَيْء مِنْ هَذَا عَلى الاخْتِصَار مِنْ غَيْر هَذَا الوَجْه.

حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن وَكِيع، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن آدَم، عَنْ ابْن أَبِي زَائِدَة، عَنْ مُحَمَّد بْن أَبِي القَاسِم، عَنْ عَبْد المَلك بْن سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: خَرَجَ رَجُل مِنْ بَنِي سَهْم مَعَ تَمِيم الدَّارِيّ وَعَدِيّ بْن بَدَّاء فَمَاتَ السَّهْمِيّ بِأَرْضٍ ليْسَ بِهَا مُسْلم، فَلمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ، فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّة مُخَوَّصًا بِالذَّهَبِ، فَأَحْلفَهُمَا رَسُول الله ﷺ وَوَجَدُوا الجَام بِمَكَّة، فَقِيل: اشْتَرَيْنَاهُ مِنْ تَمِيم وَعَدِيّ، فَقَامَ رَجُلانِ مِنْ أَوْليَاء السَّهْمِيّ فَحَلفَا بِالله لشَهَادَتنَا أَحَقّ مِنْ شَهَادَتهمَا، وَأَنَّ الجَام لصَاحِبِهِمْ، وَفِيهِمْ نَزَلتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآيَة. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: عَنْ الحَسَن بْن عَليّ، عَنْ يَحْيَى بْن آدَم بِهِ. ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب. وَهُوَ حَدِيث ابْن أَبِي زَائِدَة.

---

(١) **ضعيف الإسناد:** أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٣٠)، والترمذي (٣٠٥٩) وفيه أبو النضر وهو محمد بن السائب الكلبي: متروك، وفيه أيضًا محمد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن.

وَمُحَمَّد بن أَبِي القَاسِم الكُوفِيّ قِيل: إِنَّهُ صَالِح الحَدِيث، وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ القِصَّةَ مُرْسَلَةً غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ التَّابِعِينَ مِنْهُمْ: عِكْرِمَة وَمُحَمَّد بن سِيرِينَ وَقَتَادَة، وَذَكَرُوا أَنَّ التَّحْلِيف كَانَ بَعْد صَلاة العَصْر. رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَكَذَا ذَكَرَهَا مُرْسَلة مُجَاهِد وَالحَسَن وَالضَّحَّاك، وَهَذَا يَدُلّ عَلى اشْتِهَارهَا فِي السَّلَف وَصِحَّتهَا. وَمِنْ الشَّوَاهِد لِصِحَّةِ هَذِهِ القِصَّة أَيْضًا: مَا رَوَاهُ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنَا هُشَيْم، قَال: أَخْبَرَنَا زَكَرِيَّا، عَنْ الشَّعْبِيّ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ المُسْلِمِينَ حَضَرَتْهُ الوَفَاة بِدَقُوقَا. قَال: فَحَضَرَتْهُ الوَفَاة وَلَمْ يَجِد أَحَدًا مِنْ المُسْلِمِينَ يُشْهِدهُ عَلى وَصِيَّته، فَأَشْهَدَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْل الكِتَاب، قَال: فَقَدِمَا الكُوفَة فَأَتَيَا الأَشْعَرِيّ -يَعْنِي: أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيّ ﷺ- فَأَخْبَرَاهُ، وَقَدِمَا بِتَرِكَتِهِ وَوَصِيَّته، فَقَال الأَشْعَرِيّ: هَذَا أَمْر لَمْ يَكُنْ بَعْد الَّذِي كَانَ فِي عَهْد رَسُول الله ﷺ ، قَال: فَأَحْلَفَهُمَا بَعْد العَصْر بِالله مَا خَانَا، وَلا كَذَبَا، وَلا بَدَّلا، وَلا كَتَمَا، وَلا غَيَّرَا، وَأَنَّهَا لَوَصِيَّة الرَّجُل وَتَرِكَته، قَال: فَأَمْضَى شَهَادَتهمَا. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ عَمْرو بن عَلِيّ الفَلَّاس، عَنْ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ، عَنْ شُعْبَة، عَنْ مُغِيرَة الأَزْرَق، عَنْ الشَّعْبِيّ: أَنَّ أَبَا مُوسَى قَضَى بِدقوقا. وَهَذَانِ إِسْنَادَانِ صَحِيحَانِ إِلى الشَّعْبِيّ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ.

فَقَوْله: هَذَا أَمْر لَمْ يَكُنْ بَعْد الَّذِي كَانَ عَلى عَهْد رَسُول الله ﷺ . الظَّاهِر وَالله أَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ قِصَّة تَمِيم وَعَدِيّ بْن بَدَّاء، قَدْ ذَكَرُوا أَنَّ إِسْلام تَمِيم بْن أَوْس الدَّارِيّ ﷺ كَانَ فِي سَنَة تِسْع مِنْ الهِجْرَة، فَعَلى هَذَا يَكُون هَذَا الحُكْم مُتَأَخِّرًا يَحْتَاج مُدَّعِي نَسْخه إِلى دَلِيل فَاصِل فِي هَذَا المَقَام وَالله أَعْلَم.

وَقَال أَسْبَاط، عَنْ السُّدِّيّ فِي الآيَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ قَال: هَذَا فِي الوَصِيَّة عِنْد المَوْت، يُوصِي وَيُشْهِد رَجُلَيْنِ مِنْ المُسْلِمِينَ عَلى مَا له وَمَا عَلَيْهِ. قَال: هَذَا فِي الحَضَر ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ فِي السفر ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ هَذَا الرَّجُل يُدْرِكهُ المَوْت فِي سَفَره، وَلَيْسَ بِحَضْرَتِهِ أَحَد مِنْ المُسْلِمِينَ، فَيَدْعُو رَجُلَيْنِ مِنْ اليَهُود وَالنَّصَارَى وَالمَجُوس فَيُوصِي إِلَيْهِمَا وَيَدْفَع إِلَيْهِمَا مِيرَاثه، فَيَقْبَلانِ بِهِ، فَإِنْ رَضِيَ أَهْل المَيِّت الوَصِيَّة وَعَرَفُوا تركوا الرجلين، وَإِنْ ارْتَابُوا رَفَعُوهُمَا إِلى السُّلْطَان، فَذَلِكَ قَوْله تَعَالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ قَال عَبْد الله بْن عَبَّاس ﷺ: كَأَنِّي أَنْظُر إِلى العِلْجَيْنِ حِين انْتَهَى بِهِمَا إِلى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ فِي دَاره، فَفَتَحَ الصَّحِيفَة فَأَنْكَرَ أَهْل المَيِّت وَخَوَّنُوهُمَا، فَأَرَادَ أَبُو مُوسَى أَنْ يَسْتَحْلِفهُمَا بَعْد العَصْر، فَقُلْت له: إِنَّهُمَا لا يُبَالِيَانِ صَلاة العَصْر، وَلكِنْ اسْتَحْلِفْهُمَا بَعْد صَلاتهمَا فِي دِينهمَا، فَيُوقَف الرَّجُلانِ بَعْد صَلاتهمَا فِي دِينهمَا، فَيَحْلِفَانِ بِالله لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى، وَلا نَكْتُم شَهَادَة الله إِنَّا إِذًا لَمِنْ الآثِمِينَ، أَنَّ صَاحِبهمْ لَبِهَذَا أَوْصَى، وَأَنَّ هَذِهِ لَتَرِكَته، فَيَقُول لَهُمَا الإِمَام قبل أَنْ يَحْلِفَا: إِنَّكُمَا إِنْ كنتما كَتَمْتُمَا أَوْ خُنْتُمَا فَضَحْتُكُمَا فِي قَوْمكُمَا، وَلَمْ تَجُزْ لَكُمَا شَهَادَة وَعَاقَبْتُكُمَا، فَإِذَا قَال لَهُمَا ذَلِكَ فَإِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلى وَجْههَا. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنَا هُشَيْم، أَخْبَرَنَا مُغِيرَة، عَنْ إِبْرَاهِيم وَسَعِيد بن جُبَيْر، أَنَّهُمَا قَالا فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ الآيَة، قَالا: إِذَا حَضَرَ الرَّجُلَ الوَفَاةُ فِي سَفَر فَلْيُشْهِدْ رَجُلَيْنِ مِنْ المُسْلِمِينَ، فَإِنْ لَمْ يَجِد رَجُلَيْنِ مِنْ المُسْلِمِينَ فَرَجُلَيْنِ مِنْ أَهْل الكِتَاب، فَإِذَا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ فَإِنْ صَدَّقَهُمَا الوَرَثَة قُبِل قَوْلهُمَا، وَإِنْ اتَّهَمُوهُمَا حَلَفَا بَعْد صَلاة العَصْر بِالله مَا كَتَمْنَا وَلا كَذَبْنَا، وَلا خُنَّا وَلا غَيَّرْنَا. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: فَإِنْ ارْتِيبَ فِي شَهَادَتهمَا اسْتُحْلِفَا بَعْد العَصْر: بِالله مَا اشْتَرَيْنَا بِشَهَادَتِنَا ثَمَنًا قَلِيلًا، فَإِنْ اطَّلَعَ الأَوْلِيَاءُ عَلى أَنَّ الكَافِرَيْنِ كَذَبَا فِي شَهَادَتهمَا، قَامَ رَجُلانِ مِنْ الأَوْلِيَاء فَحَلَفَا بِالله أَنَّ شَهَادَة الكَافِرَيْنِ بَاطِلَة وَإِنَّا لَمْ نَعْتَدِ. فَذَلِكَ قَوْله: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ يَقُول: إِنْ اطُّلِعَ عَلى أَنَّ الكَافِرَيْن كَذَبَا ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يَقُول: مِنْ الأَوْلِيَاء فَحَلَفَا بِالله أَنَّ شَهَادَة الكَافِرَيْنِ بَاطِلَة وَإِنَّا لَمْ نَعْتَدِ. فَتُرَدّ شَهَادَة الكَافِرَيْنِ وَتَجُوزُ

شَهَادَةُ الأَوْلِيَاء. وَهَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس. رَوَاهُمَا ابْن جَرِير. وَهَكَذَا قَرَّرَ هَذَا الحُكْمَ عَلى مُقْتَضَى هَذِهِ الآيَة غَيْر وَاحِد مِنْ أَئِمَّة التَّابِعِينَ وَالسَّلف ﷺ وَهُوَ مَذْهَب الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أَيْ: شَرْعِيَّة هَذَا الحُكْم عَلى هَذَا الوَجْه المَرْضِيّ مِنْ تَحْلِيف الشَّاهِدَيْنِ الذِّمِّيَّيْنِ وَقد اسْتُرِيب بِهِمَا -أَقْرَبُ إِلى إِقَامَتهمَا الشَّهَادَة عَلى الوَجْه المَرْضِيّ. وَقَوْله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أَيْ: أَن يَكُون الحَامِل لَهُمْ عَلى الإِتْيَان بالشهادة عَلى وَجْههَا هُوَ تَعْظِيم الحَلف بِالله وَمُرَاعَاة جَانِبه وَإِجْلاله، وَالخَوْف مِنْ الفَضِيحَة بَيْن النَّاس إِذا رُدَّتْ اليَمِين عَلى الوَرَثَة، فَيَحْلِفُونَ وَيَسْتَحِقُّونَ مَا يَدَّعُونَ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾. ثُمَّ قَال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: فِي جَمِيع أُمُوركُمْ ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أَيْ: وَأَطِيعُوا. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أَيْ: الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَته وَمُتَابَعَة شَرِيعَته.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾

هذا إخبار عَمَّا يُخَاطِب الله بِهِ المُرْسَلِينَ يَوْم القِيَامَة، عَمَّا أُجِيبُوا بِهِ مِنْ أُمَمهمْ الَّذِينَ أَرْسَلهُمْ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وَقَوْل الرُّسُل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ قَال مُجَاهِد وَالحَسَن البَصْرِيّ وَالسُّدِّيّ: إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ هَوْل ذَلِكَ اليَوْم. قَال عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ الثَّوْرِيّ، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ مُجَاهِد ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ فَيَفْزَعُونَ فَيَقُولُونَ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾. رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا حَكَّام، حَدَّثَنَا عَنْبَسَة، قَال: سَمِعْت شَيْخًا يَقُول: سَمِعْت الحَسَن يَقُول فِي قَوْله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ الآيَة، قَال: مِنْ هَوْل ذَلِكَ اليَوْم. وَقَال أَسْبَاط، عَنْ السُّدِّيّ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ ذَلِكَ أَنَّهُمْ نَزَلُوا مَنْزِلًا ذَهِلَتْ فِيهِ العُقُول، فَلَمَّا سُئِلُوا قَالُوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ ثُمَّ نَزَلُوا مَنْزِلًا آخَر فَشَهِدُوا عَلى قَوْمهمْ. رَوَاهُ ابْن جَرِير. ثُمَّ قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنَا الحَجَّاج، عَنْ ابْن جُرَيْج قَوْله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أَيْ: مَاذَا عَمِلُوا بَعْدكُمْ، وَمَاذَا أَحْدَثُوا بَعْدكُمْ؟ ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ يَقُولُونَ لِلرَّبّ ﷻ: لا عِلم لنَا إِلَّا عِلم أَنْتَ أَعْلم بِهِ مِنَّا.

رَوَاهُ ابْن جَرِير، ثُمَّ اخْتَارَهُ عَلى هَذِهِ الأَقْوَال الثَّلاثَة، وَلا شَكَّ أَنَّهُ قَوْل حَسَن، وَهُوَ مِنْ بَاب التَّأَدُّب مَعَ الرَّبّ جَلَّ جَلاله. أَيْ: لا عِلم لنَا بِالنِّسْبَةِ إِلى عِلمك المُحِيط بِكُلِّ شَيْء، فَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا قَدْ أُجِبْنَا وَعَرَفْنَا مَنْ أَجَابَنَا، وَلكِنْ مِنْهُمْ مَنْ كُنَّا إِنَّمَا نَطَّلع عَلى ظَاهِره لا عِلم لنَا بِبَاطِنِهِ، وَأَنْتَ العَلِيم بِكُلِّ شَيْء، المُطَّلع عَلى كُلّ شَيْء، فَعِلمُنَا بِالنِّسْبَةِ إِلى عِلمك كَلا عِلم، فـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾

يَذْكُر تَعَالى مَا امْتَنَّ بِهِ عَلى عَبْده وَرَسُوله عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا أَجْرَاهُ عَلى يَدَيْهِ مِنْ المُعْجِزَات البَاهِرَات وَخَوَارِق العَادَات فَقَال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ أَيْ: فِي خَلقِي إِيَّاكَ مِنْ أُمّ بِلا ذَكَر،

وَجَعْلِي إِيَّاكَ آيَة وَدَلالة قَاطِعَة عَلَى كَمَال قُدْرَتِي عَلَى الأَشْيَاء ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حَيْثُ جَعَلتُك لَهَا بُرْهَانًا عَلَى بَرَاءَتِهَا مِمَّا نَسَبَهُ الظَّالِمُونَ وَالجَاهِلُونَ إِلَيْهَا مِنْ الفَاحِشَة ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَعَلتُك نَبِيًّا دَاعِيًا إِلَى الله فِي صِغَرك وَكِبَرك، فَأَنْطَقْتُك فِي المَهْد صَغِيرًا فَشَهِدْت بِبَرَاءَةِ أُمّك مِنْ كُلّ عَيْب، وَاعْتَرَفْت لِي بِالعُبُودِيَّة، وَأَخْبَرْت عَنْ رِسَالَتِي إِيَّاكَ وَدَعَوْت إِلَى عِبَادَتِي؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أَيْ: تَدْعُو إِلَى الله النَّاس فِي صِغَرك وَكِبَرك، وَضَمَّنَ تُكَلِّم تَدْعُو؛ لأَنَّ كَلامَهُ النَّاسَ فِي كُهُولته لَيْسَ بِأَمْرٍ عَجِيب.

وَقَوْله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أَيْ: الخَطّ وَالفَهْم ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وَهِيَ المُنَزَّلة عَلَى مُوسَى بْن عِمْرَان الكَلِيم، وَقَدْ يَرِد لفظ التَّوْرَاة فِي الحَدِيث وَيُرَاد بِهِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ. وَقَوْله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أَيْ: تُصَوِّرهُ وَتُشَكِّلهُ عَلَى هَيْئَة الطَّائِر بِإِذْنِي لك فِي ذَلِكَ، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ أَيْ: فَتَنْفُخ فِي تِلكَ الصُّورَة الَّتِي شَكَّلتهَا بِإِذْنِي لك فِي ذَلِكَ، فَتَكُون طَيْرًا ذَا رُوح تَطِير بِإِذْنِ الله وَخَلقه. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلى ذلك فِي سُورَة آل عِمْرَان بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته. وَقَوْله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أَيْ: تَدْعُوهُمْ فَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورهمْ بِإِذْنِ الله وَقُدْرَته وَإِرَادَته وَمَشِيئَته. وَقَدْ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مَالك بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن طَلحَة -يَعْنِي: ابْن مُصَرِّف- عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ أَبِي الهُذَيْل، قَال: كَانَ عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحْيِي المَوْتَى صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، يَقْرَأ فِي الأُولى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وَفِي الثَّانِيَة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَة، فَإِذَا فَرَغَ مِنْهُمَا مَدَحَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ دَعَا بِسَبْعَةِ أَسْمَاء: يَا قَدِيم، يَا خَفِيّ، يَا دَائِم، يَا فَرْد، يَا وِتْر، يَا أَحَد، يَا صَمَد، وَكَانَ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّة دَعَا بِسَبْعَةٍ أُخَر: يَا حَيّ، يَا قَيُّوم، يَا الله، يَا رَحْمَن، يَا ذَا الجَلال وَالإِكْرَام، يَا نُور السَّمَوَات وَالأَرْض وَمَا بَيْنهمَا، وَرَبّ العَرْش العَظِيم، يَا رَبّ[1]. وَهَذَا أَثَر عجيبٌ جِدًّا.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ: وَاذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْك فِي كَفِّي إِيَّاهُمْ عَنْك، حِين جِئْتهمْ بِالبَرَاهِين وَالحُجَج القَاطِعَة عَلَى نُبُوَّتك وَرِسَالتك مِنْ الله إِليْهِمْ فَكَذَّبُوك، وَاتَّهَمُوك بِأَنَّك سَاحِر، وَسَعَوْا فِي قَتْلك وَصَلبك، فَنَجَّيْتُك مِنْهُمْ وَرَفَعْتُك إِلَيَّ، وَطَهَّرْتُك مِنْ دَنَسهمْ وَكَفَيْتُك شَرّهُمْ، وَهَذَا يَدُلّ عَلَى أَنَّ هَذَا الامْتِنَان كَانَ مِنْ الله إِلَيْهِ بَعْد رَفعه إِلى السَّمَاء الدُّنْيَا، أَوْ يَكُون هَذَا الامْتِنَان وَاقِعًا يَوْم القِيَامَة، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِصِيغَةِ المَاضِي دَلالة عَلَى وُقُوعه لا مَحَالة، وَهَذَا مِنْ أَسْرَار الغُيُوب الَّتِي أَطْلَعَ الله عَلَيْهَا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الامْتِنَان عَلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ جَعَل لهُ أَصْحَابًا وَأَنْصَارًا، ثُمَّ قِيل: المُرَاد بِهَذَا الوَحْي وَحْي إِلهَام، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذا وَحي إلهام بلا خِلاف، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ الآيَة، وَهَكَذَا قَال بَعْض السَّلَف فِي هَذِهِ الآيَة ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أَيْ: أُلْهِمُوا ذَلِكَ فَامْتَثَلُوا مَا أُلْهِمُوا. قَال الحَسَن البَصْرِيّ: أَلْهَمَهُمْ الله ﷻ ذَلِكَ. وَقَال السُّدِّيّ: قَذَفَ فِي قُلُوبهمْ ذَلِكَ. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون المُرَاد: وَإِذْ أَوْحَيْت إلى الحواريون بِوَاسِطَتك، فَدَعَوْتهمْ إِلَى الإِيمَان بِالله وَبِرَسُولِهِ، وَاسْتَجَابُوا لك وَانْقَادُوا وَتَابَعُوك، فَقَالُوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٤١/ ٧٠٠٣)، وإسناده مرسل.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

هَذِهِ قِصَّة المَائِدَة وَإِلَيْهَا تُنْسَب السُّورَة فَيُقَال: سُورَة المَائِدَة، وَهِيَ مِمَّا امْتَنَّ الله بِهِ عَلَى عَبْده وَرَسُوله عِيسَى عليه السلام لَمَّا أَجَابَ دُعَاءَهُ بِنُزُولهَا، فَأَنْزَلهَا الله آيَة ودلالة معجزة بَاهِرَة وَحُجَّة قَاطِعَة. وَقَدْ ذَكَرَ بَعْض الأَئِمَّة: أَنَّ قصة المائدة لَيْسَتْ مَذْكُورَة فِي الإِنْجِيل، وَلا يَعْرِفهَا النَّصَارَى إِلَّا مِنْ المُسْلِمِينَ، فَالله أَعْلَمُ. فَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وَهُمْ أَتْبَاع عِيسَى عليه السلام ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هَذِهِ قِرَاءَة كَثِيرِينَ وَقَرَأَ آخَرُونَ ﴿هَل تَسْتَطِيع رَبّك﴾ أَيْ: هَل تَسْتَطِيع أَنْ تَسْأَل رَبّك ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وَالمَائِدَة: هِيَ الخِوَان عَلَيْهِ الطَّعَام، وَذَكَرَ بَعْضهمْ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوا ذَلِكَ لِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُنَزِّل عَلَيْهِمْ مَائِدَة كُلّ يَوْم يَقْتَاتُونَ مِنْهَا، وَيَتَقَوَّوْنَ بِهَا عَلَى العِبَادَة.

﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: فَأَجَابَهُمْ المَسِيح عليه السلام قَائِلًا لَهُمْ: اتَّقُوا الله وَلا تَسْأَلُوا هَذَا؛ فَعَسَاهُ أَنْ يَكُون فِتْنَة لكُمْ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى الله فِي طَلَبِ الرِّزْقِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ أَيْ: نَحْنُ مُحْتَاجُونَ إِلى الأَكْل مِنْهَا. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ إِذَا شَاهَدْنَا نُزُولهَا رِزْقًا لنَا مِنْ السَّمَاء ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أَيْ: وَنَزْدَاد إِيمَانًا بك، وَعِلْمًا بِرِسَالَتِك ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أَيْ: وَنَشْهَد أَنَّهَا آيَة مِنْ عِنْد الله، وَدَلالَة وَحُجَّة عَلَى نُبُوَّتك، وَصِدْق مَا جِئْت بِهِ. ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ قَال السُّدِّيّ: أَيْ: نَتَّخِذ ذَلِكَ اليَوْم الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيدًا نُعَظِّمهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعْدنَا. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: يَعْنِي: يَوْمًا نُصَلِّي فِيهِ. وَقَال قَتَادَة: أَرَادُوا أَنْ تَكُون لعَقِبِهِمْ مِنْ بَعْدهمْ، وَعَنْ سَلْمَان الفَارِسِيّ: عِظَة لنَا وَلِمَنْ بَعْدنَا. وَقِيل: كَافِيَة لأَوَّلنَا وَآخِرنَا.

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أَيْ: دَلِيلًا تَنْصِبهُ عَلَى قُدْرَتك عَلَى الأَشْيَاء، وَعَلَى إِجَابَتك دَعْوَتِي، فَيُصَدِّقُونِي فِيمَا أُبَلِّغهُ عَنْك ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ أَيْ: مِنْ عِنْدك رِزْقًا هَنِيئًا بِلا كُلْفَة وَلا تَعَب ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾. ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أَيْ: فَمَنْ كَذَّبَ بِهَا مِنْ أُمَّتك يَا عِيسَى وَعَانَدَهَا ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: مِنْ عَالَمِي زَمَانكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. وَقَدْ رَوَى ابْن جَرِير: مِنْ طَرِيق عَوْف الأَعْرَابِيّ، عَنْ أَبِي المُغِيرَة القَوَّاس، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: إِنَّ أَشَدَّ النَّاس عَذَابًا يَوْم القِيَامَة ثَلاثَة: المُنَافِقُونَ، وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أَصْحَاب المَائِدَة، وَآل فِرْعَوْن.

ذِكر أخبار رُوِيَتْ عَنْ السَّلَف فِي نُزُول المَائِدَة عَلَى الحَوَارِيِّين: قَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنِي حَجَّاج، عَنْ لَيْث، عَنْ عُقَيْل، عَنْ ابْن عَبَّاس، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّث عَنْ عِيسَى ابن مريم أَنَّهُ قَال لبَنِي إِسْرَائِيل: هَل لكُمْ أَنْ تَصُومُوا لله ثَلاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ تَسْأَلُوهُ فَيُعْطِيكُمْ مَا سَأَلْتُمْ، فَإِنَّ أَجْر العَامِل عَلَى مَنْ عَمِل لهُ، فَفَعَلُوا ثُمَّ قَالُوا: يَا مُعَلِّم الخَيْر، قُلت لنَا: إِنَّ أَجْر العَامِل عَلَى مَنْ عَمِل لهُ، وَأَمَرْتنَا أَنْ نَصُوم ثَلاثِينَ يَوْمًا فَفَعَلنَا، وَلمْ نَكُنْ نَعْمَل لأَحَدٍ ثَلاثِينَ يَوْمًا إِلَّا أَطْعَمَنَا حِين نَفْرُغ طَعَامًا، فَهَل يَسْتَطِيع رَبُّك أَنْ يُنَزِّل عَلَيْنَا مَائِدَة مِنْ السَّمَاء؟ قَال عِيسَى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن

قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: فَأَقْبلتْ المَلائِكَة تَطِير بِمَائِدَةٍ مِنْ السَّمَاء، عَلَيْهَا سَبْعَة أَحْوَات وَسَبْعَة أَرْغِفَة، حَتَّى وَضَعَتْهَا بَيْن أَيْدِيهِمْ، فَأَكَل مِنْهَا آخِرُ النَّاسِ كَمَا أَكَل مِنْهَا أَوَّلهمْ. كَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: عَنْ يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، عَنْ ابن وَهْب، عَنْ اللَّيْث، عَنْ عُقَيْل، عَنْ ابْن شِهَاب، قَال: كَانَ ابْن عَبَّاس يُحَدِّث فَذَكَرَ نَحْوه. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم أيضًا: حَدَّثَنَا سَعِيد بْن عَبْد الله بْن عَبْد الحَكَم، حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة وَهب الله بْن رَاشِد، حَدَّثَنَا عُقَيْل بْن خَالد، أَنَّ ابْن شِهَاب أَخْبَرَهُ، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ عِيسَى ابْن مَرْيَم قَالُوا لَهُ: ادْعُ الله أَنْ يُنَزِّل عَلَيْنَا مَائِدَة مِنْ السَّمَاء. قَال: فَنَزَلتْ المَلائِكَة بِالمَائِدَةِ يَحْمِلُونَهَا، عَلَيْهَا سَبْعَة أَحْوَات، وَسَبْعَة أَرْغِفَة، حَتَّى وَضَعَتْهَا بَيْن أَيْدِيهِمْ، فَأَكَل مِنْهَا آخِر النَّاس كَمَا أَكَل مِنْهَا أَوَّلهمْ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن قَزَعَة البَاهِلِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن حَبِيب، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ خُلاس، عَنْ عَمَّار بْن يَاسِر، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«نَزَلتْ المَائِدَة مِنْ السَّمَاء عَلَيْهَا خُبْز وَلحْم، وَأُمِرُوا أَنْ لا يَخُونُوا وَلا يَرْفَعُوا لغَد، فَخَانُوا وَادَّخَرُوا وَرَفَعُوا، فَمُسِخُوا قِرَدَة وَخَنَازِير»**[1]. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير: عَنْ الحَسَن بْن قَزَعَة. ثُمَّ رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ ابْن بَشَّار، عَنْ ابْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، عَنْ خُلاس، عَنْ عَمَّار، قَال: نَزَلتْ المَائِدَة وَعَلَيْهَا ثَمَر مِنْ ثِمَار الجَنَّة، فَأُمِرُوا أَنْ لا يَخُونُوا وَلا يُخَبِّئُوا وَلا يَدَّخِرُوا، قَال: فَخَانَ القَوْم وَخَبَّئُوا وَادَّخَرُوا، فَمَسَخَهُمْ الله قِرَدَة وَخَنَازِير.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْد الأَعْلى، حَدَّثَنَا دَاوُد، عَنْ سِمَاك بْن حَرْب، عَنْ رَجُل مِنْ بَنِي عِجْل، قَال: صَلَّيْت إِلى جَانِب عَمَّار بْن يَاسِر، فَلمَّا فَرَغَ قَال: هَل تَدْرِي كَيْف كَانَ شَأْن مَائِدَة بَنِي إِسْرَائِيل؟ قَال: قُلت: لا، قَال: إِنَّهُمْ سَأَلُوا عِيسَى ابْن مَرْيَم مَائِدَة يَكُون عَلَيْهَا طَعَام يَأْكُلُونَ مِنْهُ لا يَنْفَد. قَال: فَقِيل لهُمْ: فَإِنَّهَا مُقِيمَة لكُمْ مَا لمْ تُخَبِّئُوا أَوْ تَخُونُوا أَوْ تَرْفَعُوا، فَإِنْ فَعَلتُمْ فَإِنِّي مُعَذِّبكُمْ عَذَابًا لا أُعَذِّبهُ أَحَدًا مِنْ العَالمِينَ. قَال: فَمَا مَضَى يَوْمهمْ حَتَّى خَبَّئُوا وَرَفَعُوا وَخَانُوا، فَعُذِّبُوا عَذَابًا لمْ يُعَذِّبهُ أَحَدًا مِنْ العَالمِينَ، وَإِنَّكُمْ يَا مَعْشَر العَرَب كُنْتُمْ تَتَّبِعُونَ أَذْنَاب الإِبِل وَالشَّاء، فَبَعَثَ الله فِيكُمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسكُمْ، تَعْرِفُونَ حَسَبه وَنَسَبه، وَأَخْبَرَكُمْ أَنَّكُمْ سَتَظْهَرُونَ عَلى العَجَم، وَنَهَاكُمْ أَنْ تَكْنِزُوا الذَّهَب وَالفِضَّة، وَايْم الله لا يَذْهَب اللَّيْل وَالنَّهَار حَتَّى تَكْنِزُوهُمَا، وَيُعَذِّبكُمْ الله عَذَابًا أَليمًا. وَقَال: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا حُسَيْن، حَدَّثَنِي حَجَّاج، عَنْ أَبِي مَعْشَر، عَنْ إِسْحَاق بْن عَبْد الله: أَنَّ المَائِدَة نَزَلتْ عَلى عِيسَى ابْن مَرْيَم، عَلَيْهَا سَبْعَة أَرْغِفَة وَسَبْعَة أَحْوَات، يَأْكُلُونَ مِنْهَا مَا شَاءُوا. قَال: فَسَرَق بَعْضهمْ مِنْهَا، وَقَال لعَلَّهَا لا تُنَزَّل غَدًا، فَرُفِعَتْ. وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: نَزَلت عَلى عِيسَى ابْن مَرْيَم وَالحَوَارِيِّينَ، خِوَان عَلَيْهِ خُبْز وَسَمَك يَأْكُلُونَ مِنْهُ أَيْنَمَا نَزَلُوا إِذَا شَاءُوا. وَقَال خُصَيْف عَنْ عِكْرِمَة، وَمِقْسَم عَنْ ابْن عَبَّاس: كَانَتْ المَائِدَة سَمَكَة وَأَرْغِفَة. وَقَال مُجَاهِد: هُوَ طَعَام كَانَ يُنَزَّل عَلَيْهِمْ حَيْثُ نَزَلُوا. وَقَال أَبُو عَبْد الرَّحْمَن السُّلمِيّ: نَزَلتْ المَائِدَة خُبْزًا وَسَمَكًا. قَال عَطِيَّة العَوْفِيّ: المَائِدَة سَمَك فِيهِ طَعْم كُلّ شَيْء. وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: أَنْزَلهَا الله مِنْ السَّمَاء عَلى بَنِي إِسْرَائِيل، فَكَانَ يُنَزَّل عَلَيْهِمْ فِي كُلّ يَوْم فِي تِلكَ المَائِدَة مِنْ ثِمَار الجَنَّة، فَأَكَلُوا مَا شَاءُوا مِنْ ضُرُوب شَتَّى، فَكَانَ يَقْعُد عَلَيْهَا أَرْبَعَة آلاف فَإِذَا أَكَلُوا أَبدل الله مَكَان ذَلكَ لِمِثْلهِمْ، فَلبِثُوا عَلى ذَلكَ مَا شَاءَ الله ﷻ. وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: نَزَل عَلَيْهِمْ قُرْصَة مِنْ شَعِير وَأَحْوَات، وَحَشَا الله بَيْن أَضْعَافهنَّ البَرَكَة، فَكَانَ قَوْم يَأْكُلُونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيء آخَرُونَ فَيَأْكُلُونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ، حَتَّى أَكَل جَمِيعهمْ وَأَفْضَلُوا.

---

(١) **إسناده صحيح:** أخرجه الترمذي (٣٠٦١)، وأبو يعلى (٣/ ٢١٢).

وَقَال الأَعْمَش، عَنْ مُسْلم، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر: أُنْزِل عَلَيْهَا كُلّ شَيْء إِلَّا اللَّحْم. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ زَاذَان وَمَيْسَرَة وَجَرِير، عَنْ عَطَاء، عَنْ مَيْسَرَة قَال: كَانَتْ المَائِدَة إِذَا وُضِعَتْ لِبَنِي إِسْرَائِيل اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمْ الأَيْدِي بِكُلِّ طَعَام إِلَّا اللَّحْم. وَعَنْ عِكْرِمَة: كَانَ خُبْز المَائِدَة مِنْ الأَرُزّ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: أخبرنا جَعْفَر بْن عَلِيّ فِيمَا كَتَبَ إِلَيَّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبِي أُوَيْس، حَدَّثَنِي أَبُو عَبْد الله عَبْد القُدُّوس ابْن إِبْرَاهِيم بْن أَبِي عُبَيْد الله بْن مِرْدَاس العَبْدَرِيّ مَوْلَى بَنِي عَبْد الدَّار، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن عُمَر، عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه، عَنْ أَبِي عُثْمَان النَّهْدِيّ، عَنْ سَلْمَان الخَيْر أَنَّهُ قَال: لَمَّا سَأَل الحَوَارِيُّونَ عِيسَى ابْن مَرْيَم المَائِدَة، كَرِهَ ذَلِكَ جِدًّا وقَال: اقْنَعُوا بِمَا رَزَقَكُمْ الله فِي الأَرْض، وَلا تَسْأَلُوا المَائِدَة مِنْ السَّمَاء، فَإِنَّهَا إِنْ نَزَلَتْ عَلَيْكُمْ كَانَتْ آيَة مِنْ رَبِّكُمْ، وَإِنَّمَا هَلَكَتْ ثَمُودُ حِين سَأَلُوا نَبِيَّهُمْ آيَةً، فَابْتُلُوا بِهَا حَتَّى كَانَ بَوَارُهُمْ فِيهَا. فَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِهَا، فَلِذَلِكَ: ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾.

فَلَمَّا رَأَى عِيسَى أَنْ قَدْ أَبَوْا إِلَّا أَنْ يَدْعُو لَهُمْ بها. قام فَأَلْقَى عَنْهُ الصُّوفَ وَلَبِسَ الشَّعْر الأَسْوَد، وَجُبَّة مِنْ شَعْر وَعَبَاءَة مِنْ شَعْر، ثُمَّ تَوَضَّأَ وَاغْتَسَل وَدَخَل مُصَلَّاهُ، فَصَلَّى مَا شَاءَ الله، فَلَمَّا قَضَى صَلاته قَامَ قَائِمًا مُسْتَقْبِل القِبْلَة، وَصَفَّ قَدَمَيْهِ حَتَّى اسْتَوَيَا، فَأَلْصَقَ الكَعْب بِالكَعْبِ، وَحَاذَى الأَصَابِع، وَوَضَعَ يَده اليُمْنَى عَلَى اليُسْرَى فَوْق صَدْره، وَغَضَّ بَصَرَهُ وَطَأْطَأَ رَأْسه خُشُوعًا، ثُمَّ أَرْسَل عَيْنَيْهِ بِالبُكَاءِ، فَمَا زَالَتْ دُمُوعه تَسِيل عَلَى خَدَّيْهِ، وَتَقْطُر مِنْ أَطْرَاف لِحْيَته، حَتَّى ابْتَلَتْ الأَرْض حِيَال وَجْهه مِنْ خُشُوعه، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ دَعَا الله فَقَال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فَأَنْزَل الله عَلَيْهِمْ سُفْرَة حَمْرَاء بَيْن غَمَامَتَيْنِ؛ غَمَامَة فَوْقهَا وَغَمَامَة تَحْتهَا، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا فِي الهَوَاء مُنْقَضَّة مِنْ فَلَك السَّمَاء تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَعِيسَى يَبْكِي خَوْفًا مِنْ أَجْل الشُّرُوط الَّتِي اتخذها الله عَلَيْهِمْ فِيهَا: أَنَّهُ يُعَذِّب مَنْ يَكْفُر بِهَا مِنْهُمْ بَعْد نُزُولهَا عَذَابًا لَمْ يُعَذِّبهُ أَحَدًا مِنْ العَالَمِينَ، وَهُوَ يَدْعُو الله فِي مَكَانه وَيَقُول: اللَّهُمَّ اجْعَلهَا رَحْمَة، إلهي لا تَجْعَلهَا عَذَابًا، إِلَهِي كَمْ مِنْ عَجِيبَة سَأَلْتُك فَأَعْطَيْتنِي، إِلَهِي اجْعَلنَا لك شكَّارين، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذ بِك أَنْ تَكُون أَنْزَلتهَا غَضَبًا وجزاءً، إِلَهِي اجْعَلهَا سَلامَة وَعَافِيَة، وَلا تَجْعَلهَا فِتْنَة وَمُثْلة.

فَمَا زَال يَدْعُو حَتَّى اسْتَقَرَّتْ السُّفْرَة بَيْن يَدَيْ عِيسَى وَالحَوَارِيِّينَ، وَأَصْحَابه حَوْله يَجِدُونَ رَائِحَة طَيِّبَة، لَمْ يَجِدُوا فِيمَا مَضَى رَائِحَة مِثْلهَا قَطُّ، وَخَرَّ عِيسَى وَالحَوَارِيُّونَ لله سُجَّدًا؛ شُكْرًا لَهُ لِمَا رَزَقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا، وَأَرَاهُمْ فِيهِ آيَة عَظِيمَة ذَات عَجَب وَعِبْرَة، وَأَقْبَلَتْ اليَهُود يَنْظُرُونَ فَرَأَوْا أَمْرًا عَجِيبًا أَوْرَثَهُمْ كَمَدًا وَغَمًّا، ثُمَّ انْصَرَفُوا بِغَيْظٍ شَدِيد، وَأَقْبَل عِيسَى وَالحَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابه حَتَّى جَلَسُوا حَوْل السُّفْرَة، فَإِذَا عَلَيْهَا مِنْدِيل مُغَطًّى، فَقَال عِيسَى: مَنْ أَجْرَؤُنَا عَلَى كَشْف المِنْدِيل عَنْ هَذِهِ السُّفْرَة، وَأَوْثَقُنَا بِنَفْسِهِ، وَأَحْسَنُنَا بَلاء عِنْد رَبّه فَلْيَكْشِفْ عَنْ هَذِهِ الآيَة، حَتَّى نَرَاهَا وَنَحْمَد رَبّنَا، وَنَذْكُر بِاسْمِهِ وَنَأْكُل مِنْ رِزْقه الَّذِي رَزَقَنَا. فَقَال الحَوَارِيُّونَ: يَا رُوح الله وَكَلِمَته أَنْتَ أَوْلانَا بِذَلِكَ وَأَحَقُّنَا بِالكَشْفِ عَنْهَا . فَقَامَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاسْتَأْنَفَ وُضُوءًا جَدِيدًا، ثُمَّ دَخَل مُصَلَّاهُ فَصَلَّى كَذَلِكَ رَكَعَات، ثُمَّ بَكَى بُكَاء طَوِيلًا، وَدَعَا الله أَنْ يَأْذَن لَهُ فِي الكَشْف عَنْهَا، وَيَجْعَل لَهُ وَلِقَوْمِهِ فِيهَا بَرَكَة وَرِزْقًا، ثُمَّ انْصَرَفَ وَجَلَسَ إِلَى السُّفْرَة، وَتَنَاوَل المِنْدِيل وَقَال: بِسْم الله خَيْر الرَّازِقِينَ، وَكَشَفَ عَنْ السُّفْرَة فَإِذَا هُوَ عَلَيْهَا بِسَمَكَةٍ ضَخْمَة مَشْوِيَّة لَيْسَ عَلَيْهَا بَوَاسِير، وَلَيْسَ فِي جَوْفهَا شَوْك، يَسِيل السَّمْن مِنْهَا سَيْلًا، قَدْ نَضَّد حولها بُقُولٌ مِنْ كُلّ صِنْف غَيْر الكُرَّاث، وَعِنْد رَأْسهَا خَلّ، وَعِنْد ذَنَبهَا مِلح، وَحَوْل البُقُول خَمْسَة أَرْغِفَة، عَلَى وَاحِد مِنْهَا زَيْتُون، وَعَلَى الآخَر تَمَرَات، وَعَلَى الآخَر خَمْس رُمَّانَات.

فَقَال شَمْعُون رَأْس الحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى: يَا رُوح الله وَكَلِمَته، أَمِنْ طَعَام الدُّنْيَا هَذَا أَمْ مِنْ طَعَام الجَنَّة؟ فَقَال عِيسَى: أَمَا آنَ لَكُمْ أَنْ تَعْتَبِرُوا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ الآيَات، وَتَنْتَهُوا عَنْ تَنْقِير المَسَائِل؟ مَا أَخْوَفَنِي عَلَيْكُمْ أَنْ تُعَاقَبُوا فِي

سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة. فَقَال لهُ شَمْعُون: وَإِله إِسْرَائِيل مَا أَرَدْت بِهَا سُؤَالًا يَا بْن الصِّدِّيقَة. فَقَال عِيسَى عليه السلام: لِيْسَ شَيْء مِمَّا تَرَوْنَ مِنْ طَعَام الدُّنْيَا، وَلا مِنْ طَعَام الجَنَّة، إِنَّمَا هُوَ شَيْء ابْتَدَعَهُ الله فِي الهَوَاء بِالقُدْرَةِ العالية القَاهِرَة، فَقَال لهُ: كُنْ؛ فَكَانَ أَسْرَعَ مِنْ طَرْفَة عَيْن، فَكُلُوا مِمَّا سَأَلتُمْ بِسْمِ الله، وَاحْمَدُوا عَليْهِ رَبّكُمْ يَمُدّكُمْ مِنْهُ وَيَزِدْكُمْ، فَإِنَّهُ بَدِيع قَادِر شَاكِر.

فَقَالُوا: يَا رُوح الله وَكَلِمَته، إِنَّا نُحِبّ أَنْ تُرِينَا آيَة فِي هَذِهِ الآيَة. فَقَال عِيسَى: سُبْحَان الله! أَمَا اكْتَفَيْتُمْ بِمَا رَأَيْتُمْ مِنْ هَذِهِ الآيَة حَتَّى تَسْأَلُوا فِيهَا آيَة أُخْرَى؟ ثُمَّ أَقْبَل عِيسَى عليه السلام عَلى السَّمَكَة، فَقَال: يَا سَمَكَة عُودِي بِإِذْنِ الله حَيَّة كَمَا كُنْت. فَأَحْيَاهَا الله بِقُدْرَتِهِ فَاضْطَرَبَتْ، وَعَادَتْ بِإِذْنِ الله حَيَّة طَرِيَّة تُلمِّظ كَمَا يَتَلمَّظ الأَسَدُ، تَدُور عَيْنَاهَا لهَا بَصِيص، وَعَادَتْ عَليْهَا بَوَاسِيرُهَا، فَفَزِعَ القَوْمُ مِنْهَا وَانْحَازُوا، فَلمَّا رَأَى عِيسَى مِنْهُمْ ذَلكَ قَال: مَا لكُمْ تَسْأَلُونَ الآيَة، فَإِذَا أَرَاكُمُوهَا رَبُّكُمْ كَرِهْتُمُوهَا؟ مَا أَخْوَفَنِي عَليْكُمْ أَنْ تُعَاقَبُوا بِمَا تَصْنَعُونَ، يَا سَمَكَة عُودِي بِإِذْنِ الله كَمَا كُنْت؛ فَعَادَتْ بِإِذْنِ الله مَشْوِيَّة كَمَا كَانَتْ فِي خَلقهَا الأَوَّل.

فَقَالُوا لعِيسَى: كُنْ أَنْتَ يَا رُوح الله الَّذِي تَبْدَأ بِالأَكْل مِنْهَا ثُمَّ نَحْنُ بَعْد. فَقَال عِيسَى: مَعَاذ الله مِنْ ذَلكَ، يَبْدَأ بِالأَكْل مَنْ طَلبَهَا. فَلمَّا رَأَى الحَوَارِيُّون وَأَصْحَابه امْتِنَاع عِيسَى مِنْهَا، خَافُوا أَنْ يَكُون نُزُولهَا سَخْطَة، وَفِي أَكْلهَا مِثْله فَتَحَامَوْهَا، فَلمَّا رَأَى ذَلكَ عِيسَى مِنْهُمْ دَعَا لهَا الفُقَرَاء وَالزَّمْنَى، وَقَال: كُلُوا مِنْ رِزْق رَبّكُمْ وَدَعْوَة نَبِيّكم، وَاحْمَدُوا الله الَّذِي أَنْزَلهَا لكُمْ، فَيَكُون مَهْنَؤُهَا لكُمْ، وَعُقُوبَتهَا عَلى غَيْركُمْ، وَافْتَتِحُوا أَكْلكُمْ بِاسْمِ الله، وَاخْتِمُوهُ بِحَمْدِ الله. فَفَعَلُوا، فَأَكَل مِنْهَا أَلف وَثَلثُمِائَةِ إِنْسَان بَيْن رَجُل وَامْرَأَة، يَصْدُرُونَ عَنْهَا كُلّ وَاحِد مِنْهُمْ شَبْعَان يَتَجَشَّأ، وَنَظرَ عِيسَى وَالحَوَارِيُّونَ فَإِذَا مَا عَليْهَا كَهَيْئَتِهِ إِذْ أُنْزِلت مِنْ السَّمَاء لمْ يَنْقُص مِنْهَا شَيْء، ثُمَّ إِنَّهَا رُفِعَتْ إِلى السَّمَاء وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَاسْتَغْنَى كُلّ فَقِير أَكَل مِنْهَا، وَبَرِئَ كُلّ زَمِنٍ أَكَل مِنْهَا، فَلمْ يَزَالُوا أَغْنِيَاء أَصِحَّاء حَتَّى خَرَجُوا مِنْ الدُّنْيَا. وَنَدِمَ الحَوَارِيُّون وَأَصْحَابهمْ الَّذِينَ أَبَوْا أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا نَدَامَة سَالتْ مِنْهَا أَشْفَارُهُمْ، وَبَقِيَتْ حَسْرَتُهَا فِي قُلُوبهمْ إِلى يَوْم المَمَات. قَال: وَكَانَتْ المَائِدَة إِذَا نَزَلتْ بَعْد ذَلكَ أَقْبَلت بَنُو إِسْرَائِيل إِليْهَا يَسْعَوْنَ مِنْ كُلّ مَكَان، يُزَاحِم بَعْضهمْ بَعْضًا: الأَغْنِيَاء وَالفُقَرَاء، وَالصِّغَار وَالكِبَار، وَالأَصِحَّاء وَالمَرْضَى، يَرْكَب بَعْضهم بَعْضًا، فَلمَّا رَأَى ذَلكَ جَعَلهَا نُوَائب، تُنَزَّل يَوْمًا وَلا تُنَزَّل يَوْمًا، فَلبِثُوا عَلى ذَلكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، تُنَزَّل عَليْهِمْ غِبًّا عِنْد ارْتِفَاع النَّهَار، فلا تَزَال مَوْضُوعَة يُؤْكَل مِنْهَا حَتَّى إِذَا قَالُوا ارْتَفَعَتْ عَنْهُمْ إِلى جَوّ السَّمَاء بِإِذْنِ الله، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلى ظِلّهَا فِي الأَرْض حَتَّى تَوَارَى عَنْهُمْ.

قَال: فَأَوْحَى الله إِلى نَبِيّه عِيسَى عليه السلام أَنْ اجْعَل رِزْقِي، المَائِدَة للفُقَرَاءِ وَاليَتَامَى وَالزَّمْنَى، دُون الأَغْنِيَاء مِنْ النَّاس، فَلمَّا فَعَل ذَلكَ ارْتَابَ بِهَا الأَغْنِيَاء مِنْ النَّاس، وَغَمَطُوا ذَلكَ حَتَّى شَكُّوا فِيهَا فِي أَنْفُسهمْ، وَشَكَّكُوا فِيهَا النَّاس، وَأَذَاعُوا فِي أَمْرهَا القَبِيح وَالمُنْكَر، وَأَدْرَكَ الشَّيْطَان مِنْهُمْ حَاجَته، وَقَذَفَ وَسْوَاسه فِي قُلُوب المرتابين، حَتَّى قَالُوا لعِيسَى: أَخْبِرْنَا عَنْ المَائِدَة وَنُزُولهَا مِنْ السَّمَاء أَحَقٌّ، فَإِنَّهُ قَدْ ارْتَابَ بِهَا مِنَّا بَشَرٌ كَثِير؟ فَقَال عِيسَى عليه السلام: هَلكْتُمْ وَإِله المَسِيح؛ طَلبْتُمْ المَائِدَة إِلى نَبِيّكُمْ أَنْ يَطْلُبهَا لكُمْ إِلى رَبّكُمْ؛ فَلمَّا أَنْ فَعَل وَأَنْزَلهَا عَليْكُمْ رَحْمَة وَرِزْقًا، وَأَرَاكُمْ فِيهَا الآيَات وَالعِبَر كَذَّبْتُمْ بِهَا وَشَكَكْتُمْ فِيهَا، فَأَبْشِرُوا بِالعَذَاب فَإِنَّهُ نَازِل بِكُمْ إِلَّا أَنْ يَرْحَمكُمْ الله. فَأَوْحَى الله إِلى عِيسَى: إِنِّي آخُذ المُكَذِّبِينَ بِشَرْطِي، فَإِنِّي مُعَذِّب مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِالمَائِدَةِ بَعْد نُزُولهَا عَذَابًا لا أُعَذِّبهُ أَحَدًا مِنْ العَالمِينَ. قَال: فَلمَّا أَمْسَى المُرْتَابُونَ بِهَا، وَأَخَذُوا مَضَاجِعهمْ فِي أَحْسَنِ صُورَة مَعَ نِسَائِهِمْ آمِنِينَ، فَلمَّا كَانَ فِي آخِر اللَّيْل مَسَخَهُمْ الله خَنَازِير، فَأَصْبَحُوا يَتَبَعُونَ الأَقْذَار فِي الكُنَاسَات. هَذَا أَثَر غَرِيب جِدًّا قَطَعَهُ ابْن أَبِي حَاتِم فِي مَوَاضِع مِنْ هَذِهِ القِصَّة، وَقَدْ جَمَعْته أَنَا ليَكُونَ سِيَاقه أَتَمَّ وَأَكْمَل، وَالله سُبْحَانه وَتَعَالى أَعْلم.

وَكُلّ هَذِهِ الآثَار دَالَّة عَلى أَنَّ المَائِدَة نَزَلَتْ عَلى بَنِي إِسْرَائِيل أَيَّام عِيسَى ابْن مَرْيَم، إِجَابَة مِنْ الله لِدَعْوَتِهِ، كَمَا دَلَّ عَلى ذَلِكَ ظَاهِر هَذَا السِّيَاق مِنْ القُرْآن العَظِيم ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَقَال قَائِلُونَ: إِنَّهَا لَمْ تُنَزَّل؛ فَرَوَى لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قَال: هُوَ مَثَلٌ ضُرِب وَلَمْ يُنَزَّل شَيْءٌ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير. ثُمَّ قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا الحَارِث، حَدَّثَنَا القَاسِم -هُوَ ابْن سَلَّام-، حَدَّثَنَا حَجَّاج، عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ مُجَاهِد، قَال: مَائِدَة عَلَيْهَا طَعَام أَبَوْهَا حِين عُرِضَ عَلَيْهِمْ العَذَاب إِنْ كَفَرُوا، فَأَبَوْا أَنْ تُنَزَّل عَلَيْهِمْ.

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا ابن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ مَنْصُور بْن زَاذَان، عَنْ الحَسَن، أَنَّهُ قَال فِي المَائِدَة: إِنَّهَا لَمْ تُنَزَّل. وَحَدَّثَنَا بِشْر، حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، قَال: كَانَ الحَسَن يَقُول: لَمَّا قِيل لَهُمْ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالُوا: لا حَاجَة لَنَا فِيهَا فَلَمْ تُنَزَّل. وَهَذِهِ أَسَانِيد صَحِيحَة إِلى مُجَاهِد وَالحَسَن، وَقَدْ يَتَقَوَّى ذَلِكَ بِأَنَّ خَبَر المَائِدَة لا تَعْرِفهُ النَّصَارَى، وَلَيْسَ هُوَ فِي كِتَابهمْ، وَلَوْ كَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ لَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَتَوَفَّر الدَّوَاعِي عَلى نَقْله، وَكَانَ يَكُون مَوْجُودًا فِي كِتَابهمْ مُتَوَاتِرًا، وَلا أَقَلّ مِنْ الآحَاد، وَالله أَعْلَم. وَلكِنَّ الَّذِي عَلَيْهِ الجُمْهُور: أَنَّهَا نَزَلَتْ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ ابْن جَرِير، قَال: لأَنَّ الله تَعَالى أَخْبَرَ بِنُزُولِهَا فِي قَوْله تَعَالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَال: وَوَعْدُ الله وَوَعِيده حَقٌّ وَصِدْق.

وَهَذَا القَوْل هُوَ -وَالله أَعْلَم- الصَّوَاب، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الأَخْبَار وَالآثَار عَنْ السَّلَف وَغَيْرهِمْ، وَقَدْ ذَكَرَ أَهْل التَّارِيخ: أَنَّ مُوسَى بْن نُصَيْر نَائِب بَنِي أُمَيَّة فِي فُتُوح بِلاد المَغْرِب، وَجَدَ المَائِدَة هُنَالِكَ مُرَصَّعَة بِاللَّآلِئِ وَأَنْوَاع الجَوَاهِر، فَبَعَثَ بِهَا إِلى أَمِير المُؤْمِنِينَ الوَلِيد بْن عَبْد المَلِك بَانِي جَامِع دِمَشْق، فَمَاتَ وَهِيَ فِي الطَّرِيق، فَحُمِلَتْ إِلى أَخِيهِ سُلَيْمَان بْن عَبْد المَلِك الخَلِيفَة بَعْده، فَرَآهَا النَّاس فَتَعَجَّبُوا مِنْهَا كَثِيرًا لِمَا فِيهَا مِنْ اليَوَاقِيت النَّفِيسَة وَالجَوَاهِر اليَتِيمَة. وَيُقَال: إِنَّ هَذِهِ المَائِدَة كَانَتْ لِسُلَيْمَان بْن دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَالله أَعْلَم.

وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ سَلَمَة بْن كُهَيْل، عَنْ عِمْرَان بْن الحَكَم، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: قَالَتْ قُرَيْش لِلنَّبِيِّ ﷺ: ادْعُ لَنَا رَبَّك أَنْ يَجْعَل لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا وَنُؤْمِن بِك. قَال: «وَتَفْعَلُونَ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَال: فَدَعَا فَأَتَاهُ جِبْرِيل، فَقَال: إِنَّ رَبَّك يَقْرَأ عَلَيْك السَّلامَ وَيَقُول لك: إِنْ شِئْت أَصْبَحَ لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْد ذَلِكَ عَذَّبْته عَذَابًا لا أُعَذِّبهُ أَحَدًا مِنْ العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْت فَتَحْتُ لَهُمْ بَاب التَّوْبَة وَالرَّحْمَة. قَال: «بَل بَاب التَّوْبَة وَالرَّحْمَة»[1]. ثُمَّ رَوَاهُ أَحْمَد وَابْن مَرْدُوَيْهِ وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ بِهِ.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

هَذَا أَيْضًا مِمَّا يُخَاطِب الله بِهِ عَبْده وَرَسُوله عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَام قَائِلًا لَهُ يَوْم القِيَامَة بِحَضْرَةِ مَنْ اتَّخَذَهُ وَأُمّه إِلَهَيْنِ مِنْ دُون الله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وَهَذَا تَهْدِيد

---

(١) صحيح: أخرجه ابن جرير (٢/ ٦٥)، وأحمد (١/ ٢٤٢)، والحاكم (١/ ١١٩، ٢/ ٣٤٤) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٤٢).

للنَّصَارَى وَتَوْبِيخ وَتَقْرِيع عَلَى رُءُوس الأَشْهَاد، هَكَذَا قَال قَتَادَة وَغَيْره، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾. وَقَال السُّدِّيّ: هَذَا الخِطَاب وَالجَوَاب فِي الدُّنْيَا. وَقَال ابْن جَرِير: هَذَا هُوَ الصَّوَاب، وَكَانَ ذَلِكَ حِين رَفَعَهُ إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا. وَاحْتَجَّ ابْن جَرِير عَلَى ذَلِكَ بِمَعْنَيَيْنِ:

أَحَدهمَا: أَنَّ الكَلَام بِلَفْظِ المُضِيّ.

وَالثَّانِي: قَوْله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ﴾، ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾.

وَهَذَانِ الدَّلِيلانِ فِيهِمَا نَظَرٌ؛ لأَنَّ كَثِيرًا مِنْ أُمُور يَوْم القِيَامَة ذُكِرَ بِلَفْظِ المُضِيّ؛ لِيَدُلّ عَلَى الوُقُوع وَالثُّبُوت. وَمَعْنَى قَوْله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: التَّبَرِّي مِنْهُمْ وَرَدّ المَشِيئَة فِيهِمْ إِلَى الله، وَتَعْلِيق ذَلِكَ عَلَى الشَّرْط لا يَقْتَضِي وُقُوعه، كَمَا فِي نَظَائِر ذَلِكَ مِنَ الآيَات. وَالَّذِي قَالَهُ قَتَادَة وَغَيْره هُوَ الأَظْهَر، وَالله أَعْلَم: أَنَّ ذَلِكَ كَائِن يَوْم القِيَامَة؛ لِيَدُلّ عَلَى تَهْدِيد النَّصَارَى وَتَقْرِيعهمْ وَتَوْبِيخهمْ عَلَى رُءُوس الأَشْهَاد يَوْم القِيَامَة، وَقَدْ رُوِيَ بِذَلِكَ حَدِيث مَرْفُوع، رَوَاهُ الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة أَبِي عَبْد الله مَوْلَى عُمَر بْن عَبْد العَزِيز وَكَانَ ثِقَة، قَال: سَمِعْت أَبَا بُرْدَة يُحَدِّث عُمَر بْن عَبْد العَزِيز، عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة دُعِيَ بِالأَنْبِيَاء وَأُمَمهمْ، ثُمَّ يُدْعَى بِعِيسَى فَيُذَكِّرُهُ اللهُ نِعْمَته عَلَيْهِ فَيُقِرّ بِهَا، فَيَقُول: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ الآيَة، ثُمَّ يَقُول: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ فَيُنْكِر أَنْ يَكُون قَال ذَلِكَ فَيُؤْتَى بِالنَّصَارَى فَيُسْأَلُونَ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هُوَ أَمَرَنَا بِذَلِكَ. قَال: فَيَطُول شَعْر عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام، فَيَأْخُذ كُلّ مَلَك مِنَ المَلائِكَة بِشَعْرَة مِنْ شَعْر رَأْسه وَجَسَده، فَيُجَاثِيهِمْ بَيْن يَدَيْ الله ﷻ مِقْدَار أَلْف عَام، حَتَّى تُرْفَع عَلَيْهِمْ الحُجَّة، وَيُرْفَع لَهُمْ الصَّلِيب، وَيُنْطَلَق بِهِمْ إِلَى النَّار»[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب عَزِيز.

وَقَوْله: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ هَذَا تَوْفِيق لِلتَّأَدُّب فِي الجَوَاب الكَامِل، كَمَا قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو، عَنْ طَاوُس، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: يُلَقَّى عِيسَى حُجَّته وَلَقَّاهُ الله تَعَالَى فِي قَوْله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ قَال أَبُو هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: «فَلَقَّاهُ الله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ إِلَى آخِر الآيَة». وَقَدْ رَوَاهُ الثَّوْرِيّ، عَنْ مَعْمَر عَنْ ابْن طَاوُس، عَنْ طَاوُس بِنَحْوِهِ. وَقَوْله: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ أَيْ: إِنْ كَانَ صَدَرَ مِنِّي هَذَا فَقَدْ عَلِمْته يَا رَبّ؛ فَإِنَّهُ لا يَخْفَى عَلَيْك شَيْء، مما قُلْته وَلا أَرَدْته فِي نَفْسِي وَلا أَضْمَرْته؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾. بِإِبْلاغِهِ ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ أَيْ: مَا دَعَوْتهم إِلَّا إِلَى الَّذِي أَرْسَلْتَنِي بِهِ وَأَمَرْتَنِي بِإِبْلاغِهِ ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ أَيْ: هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ لَهُم، ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ أَيْ: كُنْتُ أَشْهَدُ عَلَى أَعْمَالهم حِينَ كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

قَال أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا شُعْبَة، قَال: انْطَلَقْت أَنَا وَسُفْيَان الثَّوْرِيّ إِلَى المُغِيرَة بْن النُّعْمَان، فَأَمْلاه عَلَى سُفْيَان وَأَنَا مَعَهُ، فَلَمَّا قَامَ انْتَسَخْتُ مِنْ سُفْيَان فَحَدَّثَنَا، قَال: سَمِعْت سَعِيد بْن جُبَيْر يُحَدِّث، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: قَامَ فِينَا رَسُول الله ﷺ بِمَوْعِظَة فَقَال: «يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى الله ﷻ حُفَاة عُرَاة غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾، وَإِنَّ أَوَّل الخَلائِق يُكْسَى يَوْم القِيَامَة إِبْرَاهِيم، أَلا وَإِنَّهُ يُجَاء بِرِجَال مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذ بِهِمْ ذَات الشِّمَال فَأَقُول: أَصْحَابِي، فَيُقَال: إِنَّك لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدك، فَأَقُول كَمَا قَال العَبْد

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٣٦)، فيه مولى عمر بن عبد العزيز: مجهول.

الصَّالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيُقال: إنَّ هؤلاء لمْ يزالوا مُرْتَدِّين على أعْقابهمْ مُنذُ فارقتهمْ»[1]. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ عِنْد هَذِهِ الآيَة: عَنْ أَبِي الوَلِيد، عَنْ شُعْبَة -وَعَنْ مُحَمَّد بْن كَثِير، عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ كِلاهُمَا عَنْ المُغِيرَة بْن النُّعْمَان بِهِ.

وقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هَذَا الكَلام يَتَضَمَّن رَدَّ المَشِيئَةِ إِلى الله ﷻ، فَإِنَّهُ الفَعَّال لِمَا يَشَاء الَّذِي لا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَيتَضَمَّن التَّبَرِّي مِنْ النَّصَارَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى الله وَعَلى رَسُوله، وَجَعَلُوا لله نِدًّا وَصَاحِبَة وَوَلَدًا، تَعَالى الله عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَهَذِهِ الآيَة لهَا شَأْن عَظِيم، وَنَبَأ عَجِيب، وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَامَ بِهَا لَيْلَة حَتَّى الصَّبَاح يُرَدِّدهَا.

قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن فُضَيْل، حَدَّثَنِي فُلَيْت العَامِرِيّ، عَنْ جَسْرَة العَامِرِيَّة، عَنْ أَبِي ذَرّ ﷺ قَال: صَلَّى النَّبِيّ ﷺ ذَات لَيْلة، فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، يَرْكَع بِهَا وَيَسْجُد بِهَا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فَلَمَّا أَصْبَحَ قُلت: يَا رَسُول الله، مَا زِلت تَقْرَأ هَذِهِ الآيَة حَتَّى أَصْبَحْت تَرْكَع بِهَا وَتَسْجُد بِهَا؟ قَال: «إنِّي سَأَلت رَبِّي ﷻ الشَّفَاعَة لأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلة إنْ شَاءَ الله لمَنْ لا يُشْرِك بالله شَيْئًا»[2].

طَرِيق أُخْرَى وَسِيَاق آخر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا قُدَامَة بْن عَبْد الله، حَدَّثَتْنِي جَسْرَة بِنْت دَجَاجَة: أَنَّهَا انْطَلَقَتْ مُعْتَمِرَة، فَانْتَهَتْ إِلى الرَّبَذَة، فَسَمِعَتْ أَبَا ذَرّ يَقُول: قَامَ رَسُول الله ﷺ لَيْلة مِنْ اللَّيَالي فِي صَلاة العِشَاء فَصَلَّى بِالقَوْم ثُمَّ تَخَلَّفَ أَصْحَاب لهُ يُصَلُّونَ، فَلَمَّا رَأَى قِيَامهمْ وَتَخَلُّفَهُمْ انْصَرَفَ إِلى رَحْله، فَلَمَّا رَأَى القَوْم قَدْ أَخْلوْا المَكَان رَجَعَ إِلى مَكَانه فصَلَّى، فَجِئْت فَقُمْت خلفه، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِيَمِينِهِ فَقُمْت عَنْ يَمِينه، ثُمَّ جَاءَ ابْن مَسْعُود فَقَامَ خَلفِي وَخَلفه، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِشِمَالِهِ فَقَامَ عَنْ شِمَاله، فَقُمْنَا ثَلاثَتنَا يُصَلِّي كُلّ وَاحِد مِنَّا بِنَفْسِهِ، وَيَتْلُو مِنْ القُرْآن مَا شَاءَ الله أَنْ يَتْلُو، وَقَامَ بِآيَةٍ مِنْ القُرْآن يُرَدِّدُهَا حَتَّى صَلَّى الغَدَاة، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا أَوْمَأْت إِلى عَبْد الله ابْن مَسْعُود: أَنْ سَلهُ مَا أَرَادَ إِلى مَا صَنَعَ البَارِحَة، فَقَال ابْن مَسْعُود بِيَدِهِ: لا أَسْأَلُهُ عَنْ شَيْء حَتَّى يُحَدِّث إِلَيَّ. فَقُلت: بِأَبِي وَأُمِّي، قُمْت بِآيَةٍ مِنْ القُرْآن وَمَعَك القُرْآن، لوْ فَعَل هَذَا بَعْضُنَا لوَجَدْنَا عَليْهِ. قَال: «دَعَوْت لأُمَّتِي». قُلت: فَمَاذَا أُجِبْت أَوْ مَاذَا رُدَّ عَليْك؟ قَال: «أُجِيبْت بالَّذِي لوْ اطَّلَعَ عَليْهِ كَثِير مِنْهُمْ طلعَة تَرَكُوا الصَّلاة». قُلت: أَفَلا أُبَشِّر النَّاس؟ قَال: «بَلى». فَانطَلَقْت مُعْنِقًا قَرِيبًا مِنْ قَذْفَةٍ بِحَجَر، فَقَال عُمَر: يَا رَسُول الله، إِنَّك إِنْ تَبْعَث إِلى النَّاس بِهَذَا نَكَلُوا عَنْ العِبَادَة. فَنَادَاهُ أَنْ «ارْجِعْ». فَرَجَعَ[3]، وَتِلْكَ الآيَة: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، أَنَّ بَكْر بْن سَوَادَة حَدَّثَه، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاص، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ تَلا قَوْل عِيسَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَال: «اللهُمَّ أُمَّتِي. وَبَكَى، فَقَال الله: يَا جِبْرِيل، اذْهَبْ إِلى مُحَمَّد -وَرَبّك أَعْلم- فَاسْأَلهُ مَا يُبْكِيه؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيل فَسَأَلهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُول الله ﷺ بِمَا قَال وَهُوَ أَعْلم، فَقَال الله: يَا جِبْرِيل، اذْهَبْ إِلى مُحَمَّد فَقُل: إِنَّا سَنُرْضِيك فِي أُمَّتك وَلا نَسُوءك»[4].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢٥)، والطيالسي (٢٦٣٨).
(٢) حسن الإسناد: أخرجه أحمد (٥/ ١٤٩).
(٣) ضعيف: أخرجه النسائي (٢/ ١٧٧)، وابن ماجه (١٣٥٠).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٥٤).

وَقَال الإمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حُسَيْن، قَال: حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنَا ابْن هُبَيْرَة، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا تَمِيم الجَيْشَانِيّ يَقُول: حَدَّثَنِي سَعِيد بْن المُسَيَّب، سَمِعْت حُذَيْفَة بْن اليَمَان يَقُول: غَابَ عَنَّا رَسُول الله ﷺ يَوْمًا فَلَمْ يَخْرُج، حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ لنْ يَخْرُج، فَلَمَّا خَرَجَ سَجَدَ سَجْدَة ظَنَنَّا أَنَّ نَفْسه قَدْ قُبِضَتْ فِيهَا، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسه قَال: «**إِنَّ رَبِّي ﷻ اسْتَشَارَنِي فِي أُمَّتِي مَاذَا أَفْعَلُ بِهِمْ؟ فَقُلت: مَا شِئْت أَيْ رَبِّ هُمْ خَلقُك وَعِبَادُك، فَاسْتَشَارَنِي الثَّانِيَة. فَقُلت لهُ كَذَلِكَ. فَقَال: لا أُخْزِيك فِي أُمَّتِك يَا مُحَمَّد، وَبَشَّرَنِي أَنَّ أَوَّل مَنْ يَدْخُل الجَنَّة مِنْ أُمَّتِي مَعِي سَبْعُونَ أَلفًا، مَعَ كُلِّ أَلف سَبْعُونَ أَلفًا ليْسَ عَليْهِمْ حِسَاب، ثُمَّ أَرْسَل إِليَّ فَقَال: ادْعُ تُجَبْ وَسَل تُعْطَ، فَقُلت لرَسُوله: أَوَمُعْطِيَّ رَبِّي سُؤْلي؟ فَقَال: مَا أَرْسَلنِي إِليْك إِلا ليُعْطِيَك. وَلقَدْ أَعْطَانِي رَبِّي وَلا فَخْر، وَغَفَرَ لي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي وَمَا تَأَخَّرَ وَأَنَا أَمْشِي حَيًّا صَحِيحًا، وَأَعْطَانِي أَنْ لا تَجُوع أُمَّتِي وَلا تُغْلب، وَأَعْطَانِي الكَوْثَر وَهُوَ نَهَر فِي الجَنَّة يَسِيل فِي حَوْضِي، وَأَعْطَانِي العِزّ وَالنَّصْر وَالرُّعْب يَسْعَى بَيْن يَدَيْ أُمَّتِي شَهْرًا، وَأَعْطَانِي أَنِّي أَوَّل الأَنْبِيَاء يَدْخُل الجَنَّة، وَطَيَّبَ لي وَلأُمَّتِي الغَنِيمَة، وَأَحَلَّ لنَا كَثِيرًا مِمَّا شَدَّدَ عَلى مَنْ قَبْلنَا، وَلمْ يَجْعَل عَليْنَا فِي الدِّين مِنْ حَرَج**»(١).

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾

يَقُول تَعَالى مُجِيبًا لعَبْدِهِ وَرَسُوله عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَام فِيمَا أَنْهَاهُ إِليْهِ مِنْ التَّبَرِّي مِنْ النَّصَارَى المُلحِدِينَ، الكَاذِبِينَ عَلى الله وَعَلى رَسُوله، وَمِنْ رَدّ المَشِيئَة فِيهِمْ إِلى رَبّه ﷻ فَعِنْد ذَلِكَ يَقُول تَعَالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. قَال الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس يَقُول: يَوْم يَنْفَع المُوَحِّدِينَ تَوْحِيدُهُمْ.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا لا يَحُوَّلُونَ وَلا يَزُولُونَ، رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. وَسَيَأْتِي مَا يَتَعَلَّق بِتِلكَ الآيَة مِنْ الحَدِيث.

وَقد رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم هَاهُنَا حَدِيثًا عَنْ أَنَس فَقَال: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا المُحَارِبِيّ، عَنْ ليْث، عَنْ عُثْمَان -يَعْنِي ابْن عُمَيْر أَبا اليَقْظَان- عَنْ أَنَس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**ثُمَّ يَتَجَلَّى لهُمْ الرَّبّ -جَلَّ جَلاله- فَيَقُول: سَلُونِي سَلُونِي أُعْطِكُمْ، قَال: فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا، فَيَقُول: رِضَايَ أَحَلَّكُمْ دَارِي وَأَنَالكُمْ كَرَامَتِي. فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ. فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا، قَال: فَيُشْهِدهُمْ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ سُبْحَانه وَتَعَالى**»(٢).

وَقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أَيْ: هَذَا الفَوْز الكَبِير الَّذِي لا أَعْظَمَ مِنْهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾، وَكَمَا قَال: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

وقَوْله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ أَيْ: هُوَ الخَالق للأَشْيَاءِ المَالك لهَا، المُتَصَرِّف فِيهَا القَادِر عَليْهَا، فَالجَمِيع مِلكه وَتَحْت قَهْره وَقُدْرَته وَفِي مَشِيئَته، فَلا نَظِير لهُ وَلا وَزِير وَلا عَدِيل، وَلا وَالد وَلا وَلد وَلا صَاحِبَة، وَلا إِله غَيْره، وَلا رَبّ سِوَاهُ. قَال ابْن وَهْب: سَمِعْت حُيَيّ بْن عَبْد الله يُحَدِّث، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر قَال: آخِرُ سُورَةٍ أُنْزلت سُورَةُ المَائِدَةِ(٣).

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ المَائِدَةِ، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٣) وفي إسناده ابن لهيعة: ضعيف.
(٢) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٥٦) وفيه ليث بن أبي سليم: متروك، وأبو اليقظان: ضعيف.
(٣) ضعيف: تقدم.

قَالَ الْعَوْفِيّ، وَعِكْرِمَة، وَعَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس: أُنْزِلَتْ سُورَة الْأَنْعَام بِمَكَّة. وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَبْد الْعَزِيز، حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مِنْهَال، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: نَزَلَتْ سورة الأَنْعَام بِمَكَّة لَيْلًا جُمْلة، حَوْلَهَا سَبْعُونَ أَلف مَلك، يَجْأَرُونَ حَوْلَهَا بِالتَّسْبِيح.

وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ لَيْث، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أَسْمَاء بِنْت يَزِيد، قَالَتْ: نَزَلَتْ سُورَة الْأَنْعَام عَلَى النَّبِيّ ﷺ جُمْلة، وَأَنَا آخِذَة بِزِمَام نَاقَة النَّبِيّ ﷺ، إِنْ كَادَتْ مِنْ ثِقَلهَا لَتَكْسِر عِظَام النَّاقَة. وَقَال شَرِيك: عَنْ لَيْث، عَنْ شَهْر، عَنْ أَسْمَاء، قَالَتْ: نَزَلَتْ سُورَة الْأَنْعَام عَلَى رَسُول الله ﷺ وَهُوَ فِي مَسِير فِي زَجَل مِنْ الْمَلَائِكَة، وَقَدْ نظموا مَا بَيْن السَّمَاء وَالْأَرْض. وَقَال السُّدِّيّ عَنْ مُرَّة، عَنْ عَبْد الله، قَال: نَزَلَتْ سُورَة الْأَنْعَام يُشَيِّعهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ الْمَلَائِكَة. وَرُوِيَ نَحْوه مِنْ وَجه آخَر عَنْ ابْن مَسْعُود. وَقَال الْحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد بْن يَعْقُوب الْحَافِظ وَأَبُو الْفَضْل الْحَسَن بْن يَعْقُوب الْعَدْل قَالَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الْوَهَّاب الْعَبْدِيّ أَخْبَرَنَا جَعْفَر بْن عَوْن، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَبْد الرَّحْمَن السُّدِّيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الْمُنْكَدِر، عَنْ جَابِر قَال: لَمَّا نَزَلَتْ سُورَة الْأَنْعَام سَبَّحَ رَسُول الله ﷺ، ثُمَّ قَال: «**لَقَدْ شَيَّعَ هَذِهِ السُّورَة مِنْ الْمَلَائِكَة مَا سَدَّ الْأُفُق**»[1]. ثُمَّ قَال: صَحِيح عَلَى شَرْط مُسْلم.

وَقَال أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن معمر، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن دُرُسْتَوَيْهِ الْفَارِسِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر أَحْمَد ابْن مُحَمَّد بْن سَالِم، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي فُدَيْك، حَدَّثَنِي عُمَر بْن طَلْحَة الرَّقَاشِيّ عَنْ نَافِع بْن مَالك أَبِي سُهَيْل عَنْ أَنَس ابْن مَالك قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**نَزَلَتْ سُورَة الْأَنْعَام مَعَهَا مَوْكِب مِنْ الْمَلَائِكَة سَدَّ مَا بَيْن الْخَافِقَيْنِ لَهُمْ زَجَل بِالتَّسْبِيح، وَالْأَرْض بِهِمْ تَرْتَجّ**» وَرَسُول الله يَقُول: «**سُبْحَان الله الْعَظِيم، سُبْحَان الله الْعَظِيم**»[2].

ثُمَّ رَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ: عَنْ الطَّبَرَانِيّ ،عَنْ إِبْرَاهِيم بْن نَائِلة، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن عَمْرو، عَنْ يُوسُف بْن عَطِيَّة، عَنْ ابْن عَوْن، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**نَزَلَتْ عَلَيَّ سُورَة الْأَنْعَام جُمْلَة وَاحِدَة، وَشَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ الْمَلَائِكَة، لَهُمْ زَجَل بِالتَّسْبِيح وَالتَّحْمِيد**».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ۖ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

يَقُول الله تَعَالَى مَادِحًا نَفْسه الْكَرِيمَة، وَحَامِدًا لَهَا عَلَى خَلْقه السَّمَوَات وَالْأَرْض قَرَارًا لِعِبَادِهِ، وَجَعَل الظُّلُمَات وَالنُّور مَنْفَعَة لِعِبَادِهِ فِي لَيْلهمْ وَنَهَارهمْ، فَجَمَعَ لَفْظ الظُّلُمَات وَوَحَّدَ لَفْظ النُّور، لِكَوْنِهِ أَشْرَف، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾، وَكَمَا قَالَ فِي آخِر هَذِهِ السُّورَة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا

(١) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٤٤) إلى عبد بن حميد، وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٤)، وصححه وقال الذهبي: لا والله لم يدرك جعفرٌ السديَّ، وأظن هذا موضوعًا.

(٢) ضعيف: أخرجه الطبري في «الأوسط» (٦/ ٢٩٢)، وأبو نعيم في «الشعب» (٢/ ٤٧٠)، وفيه محمد بن عبد الله بن عرس: لم أقف له على ترجمة، هو ولا أبي بكر السلمي.

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أَيْ: وَمَعَ هَذَا كُلّه كَفَرَ بِهِ بَعْض عِبَاده، وَجَعَلُوا معه شَرِيكًا وَعَدْلًا، وَاتَّخَذُوا لهُ صَاحِبَة وَوَلَدًا، تَعَالَى الله ﷻ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يَعْنِي أَبَاهُمْ آدَم الَّذِي هُوَ أَصْلهمْ، وَمِنْهُ خَرَجُوا فَانْتَشَرُوا فِي الْمَشَارِق وَالْمَغَارِب، وَقَوْله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ يَعْنِي: الْمَوْت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يَعْنِي الآخِرَة، وهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالْحَسَن وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك وَزَيْد بْن أَسْلَمَ وَعَطِيَّة وَالسُّدِّيّ وَمُقَاتِل بْن حَيَّان وَغَيْرهمْ. وَقَوْل الْحَسَن فِي رِوَايَة عَنْهُ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ قال: مَا بَيْن أَنْ يُخْلَق إِلَى أَنْ يَمُوت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وَهُوَ مَا بَيْن أَنْ يَمُوت إِلَى أَنْ يُبْعَث. وَهُوَ يَرْجِع إِلَى مَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ تَقْدِير الأَجَل الْخَاصّ وَهُوَ عُمْر كُلّ إِنْسَان، وَتَقْدِير الأَجَل الْعَامّ وَهُوَ عُمْر الدُّنْيَا بِكَمَالِهَا ثُمَّ انْتِهَائِهَا وَانْقِضَائِهَا وَزَوَالهَا وَالْمَصِير إِلَى الدَّار الآخِرَة. وَعَنْ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ يَعْنِي: مُدَّة الدُّنْيَا ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يَعْنِي: عُمْر الإِنْسَان إِلَى حِين مَوْته، وَكَأَنَّهُ مَأْخُوذ مِنْ قَوْله تَعَالَى بَعْد هَذَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، وَقَالَ عَطِيَّة، عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ يَعْنِي: النَّوْم يَقْبِض فِيهِ الرُّوح، ثُمَّ يَرْجِع إِلَى صَاحِبه عِنْد الْيَقَظَة ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يَعْنِي: أَجَل مَوْت الإِنْسَان وَهَذَا قَوْل غَرِيب، وَمَعْنَى قَوْله: ﴿عِندَهُۥ﴾ أَيْ: لا يَعْلمهُ إِلَّا هُوَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، قَالَ السُّدِّيّ وَغَيْره: يَعْنِي تَشُكُّونَ فِي أَمْر السَّاعَة.

وقَوْله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ اخْتَلَفَ مُفَسِّرُو هَذِهِ الآيَة عَلَى أَقْوَال، بَعْد الاتفاق عَلى تخطئة قَوْل الْجَهْمِيَّة الأُوَل الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُ -تَعَالى عَنْ قَوْلهمْ عُلُوًّا كَبِيرًا- فِي كُلّ مَكَان، حَيْثُ حَمَلُوا الآيَة عَلى ذَلِك، فَالأَصَحّ مِنْ الأَقْوَال: أَنَّهُ الْمَدْعُوّ الله فِي السَّمَوَات وَفِي الأَرْض، أَيْ: يَعْبُدهُ وَيُوَحِّدهُ وَيُقِرّ لهُ بِالإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي السَّمَوَات وَمَنْ فِي الأَرْض، وَيُسَمُّونَهُ الله وَيَدْعُونَهُ رَغَبًا وَرَهَبًا، إِلَّا مَنْ كَفَرَ مِنْ الْجِنّ وَالإِنْس وَهَذِهِ الآيَة عَلى هَذَا الْقَوْل كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ﴾ أَيْ: هُوَ إِله مَنْ فِي السَّمَاء وَإِله مَنْ فِي الأَرْض، وَعَلى هَذَا فَيَكُون قَوْله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خَبَرًا أَوْ حَالًا. وَالْقَوْل الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَاد أن الله الَّذِي يَعْلم مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْض: مِنْ سِرّ وَجَهْر، فَيَكُون قَوْله ﴿يَعْلَمُ﴾ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ تَقْدِيره: وَهُوَ الله يَعْلم سِرّكُمْ وَجَهْركُمْ فِي السَّمَوَات وَفِي الأَرْض وَيَعْلم مَا تَكْسِبُونَ. وَالْقَوْل الثَّالِث: أَنَّ قَوْله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وَقْف تَامّ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْخَبَر فَقَال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وَهَذَا اخْتِيَار ابْن جَرِير، وَقَوْله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أَيْ: جَمِيع أَعْمَالكُمْ خَيْرهَا وَشَرّهَا.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ: أَنَّهُمْ مهما أَتَتْهُمْ ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أَيْ: دَلالة وَمُعْجِزَة، وَحُجَّة مِنْ الدَّلالات عَلى وَحْدَانِيَّة الله، وَصِدْق رُسُله الْكِرَام، فَإِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْهَا، فَلا يَنْظُرُونَ فيها وَلا يُبَالُونَ بِهَا. قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وَهَذَا تَهْدِيد لَهُمْ وَوَعِيد شَدِيد عَلى تَكْذِيبهمْ بِالْحَقّ بِأَنَّهُ لابُدّ أَنْ يَأْتِيهمْ خَبَر مَا هُمْ فِيهِ مِنْ التَّكْذِيب وَلَيَجِدُنَّ غِبّه وَلَيَذُوقُنَّ وَبَاله.

ثُمَّ قَال تَعَالى وَاعِظًا ومحذراً لهُمْ أَنْ يُصِيبهُمْ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال الدُّنْيَوِيّ مَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ مِنْ القُرُون السَّالفَة، الَّذِينَ كَانُوا أَشَدّ مِنْهُمْ قُوَّة وَأَكْثَر جَمْعًا، وَأَكْثَر أَمْوَالًا وَأَوْلادًا، وَاسْتِغْلالًا [فِي الأَرْض][1] وَعِمَارَة لهَا فَقَال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ الأَمْوَال وَالأَوْلاد وَالأَعْمَار وَالجَاه العَرِيض وَالسَّعَة وَالجُنُود ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أَيْ: شَيْئًا بَعْد شَيْء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أَيْ: أَكْثَرْنَا عَلَيْهِمْ أَمْطَار السَّمَاء وَيَنَابِيع الأَرْض، أَيْ: اسْتِدْرَاجًا وَإِمْلاء لهُمْ ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيْ: بِخَطَايَاهُمْ وَسَيِّئَاتهمْ الَّتِي اجْتَرَمُوهَا ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أَيْ: فَذَهَبَ الأَوَّلُونَ كَأَمْسِ الذَّاهِب وَجَعَلنَاهُمْ أَحَادِيث ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أَيْ: جِيلًا آخَر، لنَخْتَبِرهُمْ فَعَمِلُوا مِثْل أَعْمَالهِمْ، فَهَلكُوا كَهَلاكِهِمْ، فَاحْذَرُوا أَيُّهَا المُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبكُمْ مِثْل مَا أَصَابَهُمْ، فَمَا أَنْتُمْ بِأَعَزّ عَلى الله مِنْهُمْ، وَالرَّسُول الَّذِي كَذَّبْتُمُوهُ أَكْرَم عَلى الله مِنْ رَسُولهِمْ، فَأَنْتُمْ أَوْلى بِالعَذَابِ وَمُعَاجَلة العُقُوبَة مِنْهُمْ لوْلا لُطْفه وَإِحْسَانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⁽٧⁾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ⁽٨⁾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⁽٩⁾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⁽١٠⁾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

يَقُول الله تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ كُفْر المُشْرِكِينَ وَعِنَادهمْ، وَمُكَابَرَتهمْ للحَقّ وَمُبَاهَتَتهمْ وَمُنَازَعَتهمْ فِيهِ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: عَايَنُوهُ وَرَأَوْا نُزُوله وَبَاشَرُوا ذَلكَ ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وَهَذَا كَمَا قَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ مُكَابَرَتهمْ للمَحْسُوسَاتِ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ⁽١٤⁾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أَيْ: ليَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا قَال الله تَعَالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أَيْ: لوْ نُزِّلتْ المَلائِكَة عَلى مَا هُمْ عَليْهِ لجَاءَهُمْ مِنْ الله العَذَاب، كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، وَقَال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أَيْ: لوْ أَنْزَلنَا مَعَ الرَّسُول البَشَرِيّ مَلكًا، أَيْ: لوْ بَعَثْنَا إِلى البَشَر رَسُولًا مَلكِيًّا لكَانَ عَلى هَيْئَة الرَّجُل، لتفهم مُخَاطَبَته وَالانْتِفَاع بِالأَخْذِ عَنْهُ، وَلوْ كَانَ كَذَلكَ لالتَبَسَ عَليْهِمْ الأَمْر، كَمَا يُلبِّسُونَ عَلى أَنْفُسهمْ فِي قَبُول رِسَالة البَشَرِيّ، كَقَوْلهِ تَعَالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ فَمِنْ رَحْمَته تَعَالى بِخَلقِهِ: أَنَّهُ يُرْسِل إِلى كُلّ صِنْف مِنْ الخَلائِق رُسُلًا مِنْهُم، ليَدْعُوَ بَعْضهمْ بَعْضًا، وَليُمَكِّن بَعْضهمْ أَنْ يَنْتَفِع بِبَعْضٍ فِي المُخَاطَبَة وَالسُّؤَال، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآيَة. قَال الضَّحَّاك: عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، يَقُول: لوْ أَتَاهُمْ مَلك مَا أَتَاهُمْ إِلَّا فِي صُورَة رَجُل، لأَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ النَّظَر إِلى المَلائِكَة مِنْ النُّور ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أَيْ: وَلخَلطْنَا عَليْهِمْ مَا يَخْلطُونَ. وَقَال الوَالبِيّ عَنْهُ: وَلشَبَّهْنَا عَليْهِمْ. وقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هَذا تَسْليَة للنَّبِيِّ ﷺ فِي تَكْذِيب مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمه، وَوَعْد لهُ وَللمُؤْمِنِينَ بِهِ بِالنُّصْرَة، وَالعَاقِبَة الحَسَنَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيْ: فَكِّرُوا فِي

(١) في نسخة: [للأرض].

أَنْفُسِكُمْ، وَانْظُرُوا مَا أَحَلَّ الله بِالقُرُونِ المَاضِيَةِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُله وَعَانَدُوهُمْ: مِنَ العَذَاب وَالنَّكَال، وَالعُقُوبَة فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا ادَّخَرَ لَهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَلِيمِ فِي الآخِرَة، وَكَيْفَ نَجَّى رُسُله وَعِبَاده المُؤْمِنِينَ.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَات وَالأَرْض وَمَنْ فِيهِن، وَأَنَّهُ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسه المُقَدَّسَة الرَّحْمَة، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: مِنْ طَرِيق الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ «إِنَّ الله لَمَّا خَلَقَ الخَلْق كَتَبَ كِتَابًا عِنْده فَوْق العَرْش: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِب غَضَبِي»[1]. وَقَوْله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هَذِهِ اللَّام هِيَ المُوَطِّئَة لِلقَسَم، فَأَقْسَمَ بِنَفْسِهِ الكَرِيمَة لَيَجْمَعَنَّ عِبَاده ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وَهُوَ يَوْم القِيَامَة الذي: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيْ: لا شَكَّ فِيهِ عِنْد عِبَاده المُؤْمِنِينَ، فَأَمَّا الجَاحِدُونَ المُكَذِّبُونَ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَقَالَ ابْن مَرْدُوَيْهِ عَنْ تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن أَحْمَد بْن عُقْبَة، حَدَّثَنَا عَبَّاس بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا حُسَيْن بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا مُحْصَن بْن عُتْبَة اليَمَانِيّ، عَنْ الزُّبَيْر بْن شُبَيْب، عَنْ عُثْمَان ابْن حَاضِر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: سُئِلَ رَسُول الله ﷺ عَنْ الوُقُوف بَيْن يَدَيْ رَبّ العَالَمِينَ وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة هَل فِيهِ مَاء، قَال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ فِيهِ لَمَاء إِنَّ أَوْلِيَاء الله لَيَرِدُونَ حِيَاض الأَنْبِيَاء وَيَبْعَث الله تَعَالَى سَبْعِينَ أَلْف مَلَك فِي أَيْدِيهِمْ عِصِيّ مِنْ نَار يَذُودُونَ الكُفَّار عَنْ حِيَاض الأَنْبِيَاء»[2]. هَذَا حَدِيث غَرِيب. وَفِي التِّرْمِذِيّ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَكْثَرهمْ وَارِدًا»[3]. ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: لا يُصَدِّقُونَ بِالمَعَاد، وَلا يَخَافُونَ شَرّ ذَلِكَ اليَوْم ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، لا إله إلا هو.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أَيْ: السَّمِيع لأَقْوَال عِبَاده، العَلِيم بِحَرَكَاتِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُوله مُحَمَّد ﷺ، الَّذِي بَعَثَهُ بِالتَّوْحِيد العَظِيم وَبِالشَّرْع القَوِيم، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُو النَّاس إِلَى صِرَاط الله المُسْتَقِيم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ وَالمَعْنَى: لا أَتَّخِذ وَلِيًّا إِلَّا الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، فَإِنَّهُ فَاطِر السَّمَوَات وَالأَرْض، أَيْ: خَالِقهمَا وَمُبْدِعهمَا عَلَى غَيْر مِثَال سَبَقَ ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أَيْ: وَهُوَ الرَّزَّاق لِخَلْقِهِ مِنْ غَيْر احْتِيَاج إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآيَات. وَقَرَأَ بَعْضهمْ هَاهُنَا: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ أَيْ: لا يَأْكُل. وَفِي حَدِيث سُهَيْل بْن أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِيه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، قَالَ: دَعَا رَجُل مِنَ الأَنْصَار مِنْ أَهْل قُبَاء النَّبِيّ ﷺ عَلَى طَعَام، فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ النَّبِيّ ﷺ وَغَسَل يَدَيْهِ، قَالَ: «الحَمْد لله الَّذِي يُطْعِم وَلا يُطْعَم وَمَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلّ بَلاء حَسَن أَبْلانَا، الحَمْد لله غَيْر مُوَدَّع وَلا مُكَافأ وَلا مَكْفُور وَلا مُسْتَغْنَى عَنْهُ، الحَمْد لله الَّذِي

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٩٤، ٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).
(٢) ضعيف: قال الحافظ ابن كثير عقب الحديث: هذا حديث غريب.
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٢١٢) من حديث سمرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩١٩).

أَطْعَمَنَا مِنَ الطَّعَامِ وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ وَكَسَانَا مِنَ العُرْيِ وَهَدَانَا مِنَ الضَّلالِ وَبَصَّرَنَا مِنَ العَمَى وَفَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلا، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ»[1].

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أَيْ: مِنْ هَذِهِ الأُمَّة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ القِيَامَة ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أَيْ: العَذَابُ ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ يَعْنِي: فَقَدْ رَحِمَهُ الله ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ وَالفَوْز: هو حُصُول الرِّبْحِ وَنَفْيِ الخَسَارَة.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا: أَنَّهُ مَالِكُ الضُّرِّ وَالنَّفْع، وَأَنَّهُ المُتَصَرِّف فِي خَلْقِه بِمَا يَشَاء، لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلا رَادَّ لِقَضَائِهِ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ...﴾ الآية، وَفِي الصَّحِيح: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُول: «اللهم؛ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[2].

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَاب، وَذَلَّتْ لَهُ الجَبَابِرَة، وَعَنَتْ لَهُ الوُجُوه، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْء، وَدَانَتْ لَهُ الخَلائِق، وَتَوَاضَعَتْ لِعَظَمَةِ جَلالِه، وَكِبْرِيَائِهِ، وَعَظَمَته وَعُلُوِّهُ، وَقُدْرَته الأَشْيَاء، وَاسْتَكَانَتْ وَتَضَاءَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَحْتَ قَهْرِه وَحُكْمِه. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أَيْ: فِي جَمِيعِ ما يفعله، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: بِمَوَاضِعِ الأَشْيَاء وَمَحَالِّهَا، فَلا يُعْطِي إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقّ، وَلا يَمْنَع إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقّ. ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أَيْ: مَنْ أَعْظَمُ الأَشْيَاء شَهَادَة ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيْ: هُوَ العَالِمُ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ، وَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ لِي ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أَيْ: هُوَ نَذِيرٌ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ قَال ابْنُ أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا وَكِيع وَأَبُو أُسَامَة وَأَبُو خَالِد، عَنْ مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب، فِي قَوْلِه: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾: مَنْ بَلَغَهُ القُرْآن فَكَأَنَّمَا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ، زَادَ أَبُو خَالِد: وَكَلَّمَهُ.

وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ طَرِيق أَبِي مَعْشَر، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب، قَال: مَنْ بَلَغَهُ القُرْآن فَقَدْ أَبْلَغَهُ مُحَمَّد ﷺ. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَال: «بَلِّغُوا عَنِ الله، فَمَنْ بَلَغَتْهُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ الله فَقَدْ بَلَغَهُ أَمْرُ الله»[3]. وَقَال الرَّبِيع بْن أَنَس: حَقٌّ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ رَسُولَ الله ﷺ: أَنْ يَدْعُو كَالَّذِي دَعَا رَسُولُ الله ﷺ، وَأَنْ يُنْذِر كَالَّذِي أَنْذَرَ ﷺ. وَقَوْلُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أَيُّهَا المُشْرِكُونَ ﴿أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ كقوله: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ الكِتَاب: أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ هَذَا الَّذِي جِئْتُهُمْ بِهِ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الأَخْبَار وَالأَنْبَاء عَنِ المُرْسَلِينَ المُتَقَدِّمِينَ وَالأَنْبِيَاء، فَإِنَّ الرُّسُل كُلَّهُمْ بَشَّرُوا بِوُجُودِ مُحَمَّد ﷺ، وَبِبَعْثه وَصِفَته

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٦/ ٨٢)، وابن حبان (٥٢١٩)، والحاكم (١/ ٥٤٦)، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٨٠٨، ٥٩٧١، ٦١٠٨، ٦٢٤١، ٦٨٦٢)، ومسلم (٤٧٧، ٥٩٣).
(٣) مرسل: أخرجه ابن جرير (٧/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ٧١٦٦).

وَبلده وَمُهاجره وَصِفَة أُمَّته، وَلِهَذَا قَال بَعْده: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أَيْ: خَسِرُوا كُلّ الخَسَارَة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِهَذَا الأَمْر الجَلِيّ الظَّاهِر، الَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ الأَنْبِيَاء وَنَوَّهَتْ بِهِ فِي قَدِيم الزَّمَان وَحَدِيثه. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: لا أظلم ممن تقوَّل على الله: فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذَّب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ المُشْرِكِينَ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يَوْم القِيَامَة، فَيَسْأَلهُمْ عَنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا من دونه، قَائِلًا لَهُمْ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالى فِي سُورَة القَصَص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. وَقَوْله تَعَالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أَيْ: حُجَّتهمْ. وَقَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَيْ: مَعْذِرَتهمْ. وَكَذَا قَال قَتَادَة. وَقَال ابْن جُرَيْج عَنْ ابْن عَبَّاس: أَيْ: قِيلهمْ. وَكَذَا قَال الضَّحَّاك. وَقَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ بَلِيَّتهمْ حِين ابْتُلُوا ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وَقَال ابْن جَرِير: وَالصَّوَاب ثُمَّ لَمْ يَكُنْ قِيلهمْ عِنْد فِتْنَتنَا إِيَّاهُمْ، اعْتِذَارًا عَمَّا سَلَفَ مِنْهُمْ من الشِّرْك بِالله ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو يَحْيَى الرَّازِيّ، عَنْ عَمْرو بْن أَبِي قَيْس، عَنْ مُطَرِّف، عَنْ المِنْهَال، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: أَتَاهُ رَجُل، فَقَال: يَا بْن عَبَّاس سَمِعْت الله يَقُول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قَال: أَمَّا قَوْله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فَإِنَّهُمْ إذا رَأَوْا أَنَّهُ لا يَدْخُل الجَنَّة إِلَّا أَهْل الصَّلاة، قالُوا: تَعَالَوْا فَلْنَجْحَدْ، فَيَجْحَدُونَ، فَيَخْتِم الله عَلى أَفْوَاههمْ، وَتَشْهَد أَيْدِيهمْ وَأَرْجُلهمْ، وَلا يَكْتُمُونَ الله حَدِيثًا، فَهَل فِي قَلبك الآن شَيْء؟ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ القُرْآن شَيْء إِلَّا وقد أُنْزِل فِيهِ شَيْء، وَلكِنْ لا تَعْلمُونَ وَجْهه.

وَقَال الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس: هَذِهِ فِي المُنَافِقِينَ. وَفِي هذا نَظَر، فَإِنَّ هَذِهِ الآيَة مَكِّيَّة، وَالمُنَافِقُونَ إِنَّمَا كَانُوا بِالمَدِينَة، وَالَّتِي نَزَلتْ فِي المُنَافِقِينَ آيَة المُجَادَلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وَكَذَا قَال فِي حَقّ هَؤُلاءِ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ﴾ أَيْ: يَجِيئُوك لِيَسْمَعُوا قِرَاءَتك وَلا تُجْزِي عَنْهُمْ شَيْئًا؛ لأَنَّ الله جَعَل ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أَيْ: أَغْطِيَة؛ لِئَلَّا يفهموا القُرْآن ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ أَيْ: صَمَمًا عَنْ السَّمَاع النَّافِع، فهُمْ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ﴾ أَيْ: مَهْمَا رَأَوْا مِنْ الآيَات وَالدَّلالات وَالحُجَج البَيِّنَات وَالبَرَاهِين لا يُؤْمِنُوا بِهَا، فَلا فَهْمَ عِنْدهمْ وَلا إِنْصَاف، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، وَقَوْله تَعَالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أَيْ: يُحَاجُّونَك وَيُنَاظِرُونَك فِي الحَقّ بِالبَاطِل ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: مَا هَذَا الَّذِي جِئْت بِهِ إِلَّا مَأْخُوذ مِنْ كُتُب الأَوَائِل وَمَنْقُول عَنْهُمْ. وَقَوْله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ﴾ وفِي مَعْنَى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قَوْلانِ:

أَحَدهمَا: أَنَّ المُرَاد أَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ النَّاس عَنْ اتِّبَاع الحَقّ، وَتَصْدِيق الرَّسُول، وَالانْقِيَاد للقُرْآنِ، ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ﴾

أَيْ: وَيُبْعِدُونَهُمْ عَنْهُ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الفِعْلَيْنِ القَبِيحَيْنِ: لا يَنْتَفِعُونَ وَلا يَدَعُونَ أَحَدًا يَنْتَفِع. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: ينهون النَّاس عَنْ مُحَمَّد ﷺ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ. وَقَال مُحَمَّد ابْن الحَنَفِيَّة: كَانَ كُفَّار قُرَيْش لا يَأْتُونَ النَّبِيّ ﷺ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ. وَكَذَا قَال قَتَادَة وَمُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد، وَهَذَا القَوْل أَظْهَر وَالله أَعْلم، وَهُوَ اخْتِيَار ابْن جَرِير.

وَالقَوْل الثَّانِي: رَوَاهُ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، عَمَّنْ سَمِعَ ابْن عَبَّاس، يَقُول فِي قَوْله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قَال: نَزَلتْ فِي أَبِي طَالب كَانَ يَنْهَى النَّاس عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنْ يُؤْذَى. وَكَذَا قَال القَاسِم بْن مُخَيْمِرَة، وَحَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، وَعَطَاء بْن دِينَار وَغَيْره، أَنَّهَا نَزَلتْ فِي أَبِي طَالب. وَقَال سَعِيد بْن أَبِي هِلال: نَزَلتْ فِي عُمُومَة النَّبِيّ ﷺ وَكَانُوا عَشَرَة، فَكَانُوا أَشَدّ النَّاس مَعَهُ فِي العَلانِيَة، وَأَشَدّ النَّاس عَليْهِ فِي السِّرّ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أَيْ: يَنْهَوْنَ النَّاس عَنْ قَتْله. وَقَوْله: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أَيْ: يَتَبَاعَدُونَ مِنْهُ ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ: وَمَا يُهْلكُونَ بِهَذَا الصَّنِيع وَلا يَعُود وَبَاله إِلَّا عَليْهِمْ وَما يَشْعُرُون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

يَذْكُر تَعَالى حَال الكُفَّار إِذَا وُقِفُوا يَوْم القِيَامَة عَلى النَّار، وَشَاهَدُوا مَا فِيهَا مِنْ السَّلاسِل وَالأَغْلال، وَرَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ تِلكَ الأُمُور العِظَام وَالأَهْوَال، فَعِنْد ذَلكَ قَالُوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يُرَدُّوا إِلى الدَّار الدُّنْيَا؛ ليَعْمَلُوا عَمَلًا صَالحًا، وَلا يُكَذِّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَيَكُونُوا مِنْ المُؤْمِنِينَ. قَال الله تَعَالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: بَل ظَهَرَ لهُمْ حِينَئِذٍ مَا كَانُوا يُخْفُونَ فِي أَنْفُسهمْ مِنْ الكُفْر وَالتَّكْذِيب وَالمُعَانَدَة، وَإِنْ أَنْكَرُوهَا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الآخِرَة، كَمَا قَال قبل هذا بِيَسِير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾. وَيَحْتَمِل أَنَّهُمْ ظَهَرَ لهُمْ مَا كَانُوا يَعْلمُونَهُ مِنْ أَنْفُسهمْ، مِنْ صِدْق مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُل فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانُوا يُظْهِرُونَ لأَتْبَاعِهِمْ خِلافه، كما قال تعالى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَال لفِرْعَوْن: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ الآيَة. وَقَوْله تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْن وَقَوْمه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون المُرَاد بِهَؤُلاءِ: المُنَافِقِينَ، الَّذِينَ كَانُوا يُظْهِرُونَ للنَّاسِ الإِيمَان وَيُبْطِنُونَ الكُفْر، وَيَكُون هَذَا إِخْبَارًا عَمَّا يَكُون يَوْم القِيَامَة مِنْ كَلام طَائِفَة مِنْ الكُفَّار، وَلا يُنَافِي هَذَا كَوْن هَذِهِ السُّورَة مَكِّيَّة، وَالنِّفَاق إِنَّمَا كَانَ مِنْ بَعْض أَهْل المَدِينَة وَمَنْ حَوْلهَا مِنْ الأَعْرَاب، فَقَدْ ذَكَرَ الله وُقُوع النِّفَاق فِي سُورَة مَكِّيَّة، وَهِيَ العَنْكَبُوت، فَقَال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وَعَلى هَذَا: فَيَكُون هذا إِخْبَارًا عَنْ حال المُنَافِقِينَ فِي الدَّار الآخِرَة حِين يُعَايِنُونَ العَذَاب، يظهر لهُمْ حِينَئِذٍ غِبّ مَا كَانُوا يُبْطِنُونَ مِنْ الكُفْر وَالنِّفَاق وَالشِّقَاق، وَالله أَعْلم.

وَأَمَّا مَعْنَى الإِضْرَاب فِي قَوْله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فَإِنَّهُمْ مَا طَلبُوا العَوْد إِلى الدُّنْيَا رَغْبَة وَمَحَبَّة فِي الإِيمَان، بَل خَوْفًا مِنْ العَذَاب الَّذِي عَايَنُوهُ، جَزَاء على مَا كَانُوا عَليْهِ مِنْ الكُفْر، فَسَأَلُوا الرَّجْعَة إِلى الدُّنْيَا؛ ليَتَخَلَّصُوا مِمَّا شَاهَدُوا مِنْ النَّار، وَلهَذَا قَال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أَيْ: فِي تمنيهم الرَّجْعَة رَغْبَة وَمَحَبَّة فِي الإِيمَان. ثُمَّ قَال مُخْبِرًا عَنْهُمْ: أَنَّهُمْ لوْ رُدُّوا إِلى الدَّار الدُّنْيَا لعَادُوا لمَا نُهُوا عَنْهُ مِنْ الكُفْر وَالمُخَالفَة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فِي قَوْلهمْ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

أَيْ: لعَادُوا لَمَا نُهُوا عَنْهُ، وإنهم لكاذبون وَلقَالُوا: إنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتنا الدُّنْيا، أَيْ: مَا هِيَ إِلَّا هَذِهِ الحَياة الدُّنْيا ثُمَّ لا مَعَاد بَعْدهَا، وَلهَذَا قَال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ثُمَّ قَال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: أُوقِفُوا بَيْن يَدَيْهِ: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: أَليْس هَذَا المَعَاد بحقٍّ، وَليْس بِبَاطِلٍ كَمَا كُنْتُمْ تَظُنُّونَ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَيْ: بِمَا كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ، فَذُوقُوا اليَوْم مَسَّهُ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ خَسارَة مَنْ كَذَّبَ بِلقَاء الله، وَعَنْ خَيْبَته إِذَا جَاءَتْهُ السَّاعة بَغْتَة، وَعَنْ نَدَامَته عَلى مَا فَرَّطَ مِنْ العَمَل، وَمَا أَسْلفَ مِنْ قبيح الفعال، وَلهَذَا قَال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ وَهَذَا الضَّمِير: يَحْتَمِل عَوْده عَلى الحَيَاة، وَعَلى الأَعْمَال، وَعَلى الدَّار الآخِرَة، أَيْ: فِي أَمْرِهَا. وَقَوْله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أَيْ: يَحْمِلُونَ. وَقَال قَتَادَة: يَعْمَلُونَ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالد الأَحْمَر، عَنْ عَمْرو بْن قَيْس، عَنْ أَبِي مَرْزُوق، قَال: وَيَسْتَقْبِل الكَافِر أَوْ الفَاجِر عِنْد خُرُوجه مِنْ قَبْره كَأَقْبَح صُورَة رآها، وَأَنْتَن رِيحًا، فَيَقُول: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُول: أَوَمَا تَعْرِفنِي؟ فَيَقُول: لا وَالله، إِلَّا أَنَّ الله قَبَّحَ وَجْهك، وَأَنْتَنَ رِيحك. فَيَقُول: أَنَا عَمَلك الخَبِيث، هَكَذَا كُنْت فِي الدُّنْيَا خَبِيث العَمَل مُنْتِنه، فَطَالمَا رَكِبْتنِي فِي الدُّنْيَا، هَلُمَّ أَرْكَبك. فَهُوَ قَوْله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

وَقَال أَسْبَاط، عَنْ السُّدِّيّ أَنَّهُ قَال: لَيْسَ مِنْ رَجُل ظَالم يموت فَيَدْخُل قَبْره، إِلَّا جَاءَهُ رَجُل قَبِيح الوَجْه، أَسْوَد اللَّوْن، مُنْتِن الرائحة، وَعَلَيْهِ ثِيَاب دَنِسَة، حَتَّى يَدْخُل مَعَهُ قَبْره، فَإِذَا رَآهُ قَال: مَا أَقْبَح وَجْهك؟ قَال: كَذَلكَ كَانَ عَمَلك قَبِيحًا. قَال: مَا أَنْتَن رِيحك؟ قَال: كَذَلكَ كَانَ عَمَلك مُنْتِنًا. قَال: مَا أَدْنَس ثِيَابك؟ قَال: فَيَقُول: إِنَّ عَمَلك كَانَ دَنِسًا. قَال لهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: أنا عَمَلك. قَال: فَيَكُون مَعَهُ فِي قَبْره، فَإِذَا بُعِثَ يَوْم القِيَامَة قَال لهُ: إِنِّي كُنْت أَحْمِلك فِي الدُّنْيَا بِاللَّذَّاتِ وَالشَّهَوَات، وَأَنْتَ اليَوْم تَحْمِلنِي، قَال: فَيَرْكَب عَلى ظَهْره فَيَسُوقهُ حَتَّى يُدْخِلهُ النَّار، فَذَلكَ قَوْله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أَيْ: إِنَّمَا غَالبهَا كَذَلكَ ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

يَقُول تَعَالى مُسَلِّيًا لنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيب قَوْمه لهُ، وَمُخَالفَتهمْ إِيَّاهُ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ أَيْ: قَدْ أَحَطْنَا عِلْمًا بِتَكْذِيبِ قومك لك، وَحُزْنك وَتَأَسُّفك عَليْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، كَمَا قَال تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وَقَوْله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أَيْ: لا يَتَّهِمُونَك بِالكَذِبِ فِي نَفْس الأَمْر، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَيْ: وَلكِنَّهُمْ يُعَانِدُونَ الحَقّ وَيَدْفَعُونَهُ بِصُدُورِهِمْ، كَمَا قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ نَاجِيَة بْن كَعْب، عَنْ عَلِيّ، قَال: قَال أَبُو جَهْل للنَّبِيّ ﷺ إِنَّا لا نُكَذِّبك، وَلكِنْ نُكَذِّب بما جِئْت بِهِ، فَأَنْزَل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ رَوَاهُ الحَاكِم: مِنْ طَرِيق إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق. ثُمَّ قَال: صَحِيح عَلى شَرْط الشَّيْخَيْنِ وَلمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الوَزِير الوَاسِطِيّ بِمَكَّة، حَدَّثَنَا بِشْر بْن المُبَشِّر الوَاسِطِيّ، عَنْ سَلَّام بْن مِسْكِين، عَنْ أَبِي يَزِيد المَدَنِيّ: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ، لقِيَ أَبَا جَهْل فَصَافَحَهُ، فقَال لهُ رَجُل: أَلا أَرَاك تُصَافِح هَذَا الصَّابِئ؟ فَقَال: وَالله إِنِّي لأَعْلم إِنَّهُ لَنبِيّ، وَلكِنْ مَتَى كُنَّا لبَنِي عَبْد مَنَاف تَبَعًا؟ وَتَلا أَبُو يَزِيد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. وَقَال أَبُو صَالح وَقَتَادَة: يَعْلمُونَ أَنَّك رَسُول الله وَيَجْحَدُونَ.

وذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ الزُّهْرِيّ فِي قِصَّة أَبِي جَهْل حِين جَاءَ يَسْتَمِع قِرَاءَة النَّبِيّ ﷺ مِنْ اللَّيْل، هُوَ وَأَبُو سُفْيَان صَخْر بْن حَرْب وَالأَخْنَس بْن شَرِيق وَلا يَشْعُر أَحَد مِنْهُمْ بِالآخَرِ فَاسْتَمَعُوهَا إِلى الصَّبَاح، فَلَمَّا هَجَمَ الصُّبْح تَفَرَّقُوا فَجَمَعَتْهُمْ الطَّرِيق، فَقَال كُلّ مِنْهُمْ للآخَرِ: مَا جَاءَ بِك؟ فَذَكَرَ لهُ مَا جَاءَ له، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَنْ لا يَعُودُوا لِمَا يَخَافُونَ مِنْ عِلم شَبَاب قُرَيْش بِهِمْ، لئَلَّا يُفْتَتَنُوا بِمَجِيئِهِمْ. فَلمَّا كَانَتْ اللَّيْلة الثَّانِيَة جَاءَ كُلّ مِنْهُمْ ظَنًّا منه أَنَّ صَاحِبَيْهِ لا يَجِيئَانِ، لِمَا سَبَقَ مِنَ العُهُود، فَلَمَّا أَصْبَحُوا جَمَعَتْهُمْ الطَّرِيق فَتَلاوَمُوا، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَنْ لا يَعُودُوا. فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلة الثَّالثَة جَاءُوا أَيْضاً، فَلَمَّا أَصْبَحُوا تَعَاهَدُوا أَنْ لا يَعُودُوا لِمِثْلهَا. ثُمَّ تَفَرَّقُوا، فَلَمَّا أَصْبَحَ الأَخْنَس بْن شَرِيق أَخَذَ عَصَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَان ابْن حَرْب فِي بَيْته، فَقَال: أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلة عَنْ رَأْيك فِيمَا سَمِعْت مِنْ مُحَمَّد. قَال: يَا أَبَا ثَعْلبَة، وَالله لقَدْ سَمِعْت أَشْيَاء أَعْرِفهَا، وَأَعْرِف مَا يُرَاد بِهَا، وَسَمِعْت أَشْيَاء مَا عَرَفْت مَعْنَاهَا، وَلا مَا يُرَاد بِهَا. قَال الأَخْنَس: وَأَنَا وَالَّذِي حَلفْت بِهِ. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْده حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْل، فَدَخَل عَليْهِ فِي بَيْته، فَقَال: يَا أَبَا الحَكَم: مَا رَأْيك فِيمَا سَمِعْت مِنْ مُحَمَّد؟ قَال: مَاذَا سَمِعْت؟ قَال: تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْد مَنَاف الشَّرَف، أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَاثَيْنَا عَلى الرُّكَب، وَكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَان، قَالُوا: مِنَّا نَبِيّ يَأْتِيه الوَحْي مِنْ السَّمَاء، فَمَتَى نُدْرِك هَذِهِ؟ وَالله لا نُؤْمِن بِهِ أَبَدًا وَلا نُصَدِّقهُ. قَال: فَقَامَ عَنْهُ الأَخْنَس وَتَرَكَهُ. وَرَوَى ابْن جَرِير: مِنْ طَرِيق أَسْبَاط، عَنْ السُّدِّيّ، فِي قَوْله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ لَمَّا كَانَ يَوْم بَدْر قَال الأَخْنَس بْن شَرِيق لبَنِي زُهْرَة: يَا بَنِي زُهْرَة، إِنَّ مُحَمَّدًا ابْن أُخْتكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَق مَنْ كفَّ عَنْ ابْن أُخْته، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ نَبِيًّا لمْ تُقَاتِلُوهُ اليَوْم، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا كُنْتُمْ أَحَق مَنْ كَفَّ عَنْ ابْن أُخته، قِفُوا ههنا حَتَّى أَلقَى أَبَا الحَكَم، فَإِنْ غُلبَ مُحَمَّد رَجَعْتُمْ سَالِمِينَ، وَإِنْ غَلبَ مُحَمَّد فَإِنَّ قَوْمكُمْ لمْ يَصْنَعُوا بِكُمْ شَيْئًا -فَيَوْمئِذٍ سُمِّيَ الأَخْنَس وَكَانَ اسْمه أُبَيّ- فَالتَقَى الأَخْنَس وَأَبو جَهْل، فَخَلَا الأخنس بأبِي جهل فَقَال: يَا أَبَا الحَكَم، أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَّد أَصَادِق هُوَ أَمْ كَاذِب، فَإِنَّهُ ليْسَ هَاهُنَا مِنْ قُرَيْش غَيْرِي وَغَيْرك يسمع كَلامنَا! فَقَال أَبُو جَهْل: وَيْحك، وَالله إِنَّ مُحَمَّدًا لصَادِق، وَمَا كَذَبَ مُحَمَّد قَطُّ، وَلكِنْ إِذَا ذَهَبَتْ بَنُو قُصَيّ بِاللِّوَاءِ وَالسِّقَايَة وَالحِجَابَة وَالنُّبُوَّة، فَمَاذَا يَكُون لسَائِرِ قُرَيْش؟ فَذَلكَ قَوْله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فَآيَات الله مُحَمَّد ﷺ.

وَقَوْله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَة للنَّبِيِّ ﷺ، وَتَعْزِيَة لهُ فِيمَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمه، وَأَمْر لهُ بِالصَّبْرِ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْم مِنَ الرُّسُل، وَوَعْد لهُ بِالنَّصْرِ كَمَا نُصِرُوا، وَبِالظَّفَرِ حَتَّى كَانَتْ لهُمْ العَاقِبَة، بَعْدَمَا نَالهُمْ مِنَ التَّكْذِيب مِنْ قَوْمهمْ وَالأَذَى البَلِيغ، ثُمَّ جَاءَهُمْ النَّصْر فِي الدُّنْيَا كَمَا لهُمْ النَّصْر فِي الآخِرَة، وَلهَذَا قَال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أَيْ: الَّتِي كَتَبَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة لعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، كَمَا قَال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾. وَقَوْله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أَيْ: مِنْ خَبَرهِمْ كَيْفَ نُصِرُوا، وَأُيِّدُوا عَلى مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمهِمْ، فَلك فِيهِمْ أُسْوَة وَبِهِمْ قُدْوَة. ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾

أَيْ: إِنْ كَانَ شَقَّ عَلَيْك إِعْرَاضهمْ عَنْك ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: النَّفَق: السَّرَب، فَتَذْهَب فِيهِ فَتَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ، أَوْ تَجْعَل لك سُلَّمًا فِي السَّمَاء، فَتَصْعَد فِيهِ فَتَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ أَفْضَل مِمَّا أَتَيْتهمْ بِهِ فَافْعَل. وَكَذَا قَال قَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَغَيْرهمَا.

وَقَوْله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: فِي قَوْله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ قَال: إِنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يَحْرِص أَنْ يُؤْمِن جَمِيع النَّاس، وَيُتَابِعُوهُ عَلى الهُدَى، فَأَخْبَرَ الله أَنَّهُ لا يُؤْمِن إِلَّا مَنْ قَدْ سَبَقَ لهُ مِنْ الله السَّعَادَة فِي الذِّكْر الأَوَّل. وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَسْتَجِيب لدُعَائِك يَا مُحَمَّد مَنْ يَسْمَع الكَلام وَيَعِيه وَيَفْهَمهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وَقَوْله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يَعْنِي بِذَلكَ الكُفَّار؛ لأَنَّهُمْ مَوْتَى القُلُوب، فَشَبَّهَهُمْ الله بِأَمْوَاتِ الأَجْسَاد فَقَال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وَهَذَا مِنْ بَاب التَّهَكُّم بِهِمْ وَالازْدِرَاء عَلَيْهِمْ.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ المُشْرِكِينَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ أَيْ: خَارِق عَلى مُقْتَضَى مَا كَانُوا يُرِيدُونَ، وَمِمَّا يَتَعَنَّتُونَ كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الآيَات. ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: هُوَ تَعَالى قَادِر عَلى ذَلكَ وَلكِنَّ حِكْمَته تَعَالى تَقْتَضِي تَأْخِير ذَلكَ، لأَنَّهُ لوْ أَنْزَلها وَفْق مَا طَلَبُوا ثُمَّ لمْ يُؤْمِنُوا، لعَاجَلهُمْ بِالعُقُوبَةِ كَمَا فَعَل بِالأُمَم السَّالفَة، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾. وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ﴾. قَال مُجَاهِد: أَيْ: أَصْنَاف مُصَنَّفَة تُعْرَف بِأَسْمَائِهَا. وَقَال قَتَادَة: الطَّيْر أُمَّة، وَالإِنْس أُمَّة، وَالجِنّ أُمَّة. وَقَال السُّدِّيّ: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ﴾ أَيْ: خَلق أَمْثَالكُمْ. وَقَوْله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ أَيْ: الجَمِيع عِلمهمْ عِنْد الله، وَلا يَنْسَى وَاحِدًا مِنْ جَمِيعهَا: مِنْ رِزْقه وَتَدْبِيره، سَوَاء كَانَ بَرِّيًّا أَوْ بَحْرِيًّا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: مُفْصِح بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادهَا وَمَظَانّهَا، وَحَاصِر لحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا، وَقَال تَعَالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وَقَدْ قَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عُبَيْد بْن وَاقِد القَيْسِيّ أَبُو عَبَّاد، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عِيسَى ابْن كَيْسَان، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَال: قَلَّ الجَرَاد فِي سَنَة مِنْ سِنِي عُمَر رضي الله عنه الَّتِي وَلِيَ فِيهَا، فَسَأَل عَنْهُ، فَلمْ يُخْبَرَ بِشَيْءٍ، فَاغْتَمَّ لذَلكَ، فَأَرْسَل رَاكِبًا إِلى كَذَا، وَآخَر إِلى الشَّام، وَآخَر إِلى العِرَاق، يَسْأَل هَل رُئِيَ مِنْ الجَرَاد شَيْء أَمْ لا؟ فَأَتَاهُ الرَّاكِب الَّذِي مِنْ قِبَل اليَمَن بِقَبْضَةٍ مِنْ جَرَاد، فَأَلقَاهَا بَيْن يَدَيْهِ، فَلمَّا رَآهَا، كَبَّرَ ثَلاثًا، ثُمَّ قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**خَلقَ الله عز وجل أَلف أُمَّة؛ مِنْهَا سِتّمائَة فِي البَحْر وَأَرْبَعمائَة فِي البَرّ، وَأَوَّل شَيْء يَهْلك مِنْ هَذِهِ الأُمَم الجَرَاد، فَإِذَا هَلكَتْ تَتَابَعَتْ مِثْل النِّظَام إِذَا قُطِعَ سَلكُهُ**»[1].

---

(١) موضوع: تقدم.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قَال: حَشْرهَا المَوْت. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ طَرِيق إِسْرَائِيل، عَنْ سَعِيد بْن مَسْرُوق، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: مَوْت البَهَائِم حَشْرهَا. وَكَذَا رَوَاهُ العَوْفِيّ عَنْهُ. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَالضَّحَّاك مِثْله.

وَالقَوْل الثَّانِي: أَنَّ حَشْرهَا هو بَعْثهَا يَوْم القِيَامَة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ سُلَيْمَان، عَنْ مُنْذِر الثَّوْرِيّ، عَنْ أَشْيَاخ لَهُمْ، عَنْ أَبِي ذَرّ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ فَقَال: «**يَا أَبَا ذَرّ هَل تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَان؟**» قَال: لا، قَال: «**لكِنْ الله يَدْرِي؛ وَسَيَقْضِي بَيْنهمَا**»[1]. وَرَوَاهُ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الأَعْمَش، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ أَبِي ذَرّ، قَال: بَيْنَا نَحْنُ عِنْد رَسُول الله ﷺ، إِذْ انْتَطَحَتْ عَنْزَانِ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ فِيمَ انْتَطَحَتَا؟**» قَالُوا: لا نَدْرِي قَال: «**لكِنَّ الله يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنهمَا**». رَوَاهُ ابْن جَرِير. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ طَرِيق مُنْذِر الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي ذَرّ...فَذَكَرَهُ، وَزَادَ: قَال أَبُو ذَرّ: وَلَقَدْ تَرَكْنَا رَسُول الله ﷺ، وَمَا يُقَلِّب طَائِر جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاء، إِلَّا ذَكَر لَنَا مِنْهُ عِلْمًا. وَقَال عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَد أَبِيهِ: حَدَّثَنِي عَبَّاس بْن مُحَمَّد وَأَبُو يَحْيَى البَزَّار، قَالا: حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن نُصَيْر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ العَوَّام بْن مراجم مِنْ بَنِي قَيْس بْن ثَعْلَبَة، عَنْ أَبِي عُثْمَان النَّهْدِيّ، عَنْ عُثْمَان رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيّ ﷺ، قَال: «**إِنَّ الجَمَّاء لَتَقْتَصّ مِنْ القَرْنَاء يَوْم القِيَامَة**»[2]. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ جَعْفَر بْن بُرْقَان، عَنْ يَزِيد بْن الأَصَمّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فِي قَوْله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قَال: يُحْشَر الخَلق كُلّهمْ يَوْم القِيَامَة؛ البَهَائِم وَالدَّوَابّ وَالطَّيْر وَكُلّ شَيْء، فَيَبْلُغ مِنْ عَدْل الله يَوْمئِذٍ أَنْ يَأْخُذ للجَمَّاءِ مِنْ القَرْنَاء، قال: ثُمَّ يَقُول: كُونِي تُرَابًا فَلِذَلِكَ يَقُول الكَافِر: ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا فِي حَدِيث الصُّور[3].

وَقَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ﴾ أَيْ: مِثْلهمْ فِي جَهْلهمْ، وَقِلَّة عِلمهمْ، وَعَدَم فَهْمهمْ، كَمَثَل أَصَمّ: وَهُوَ الَّذِي لا يَسْمَع، أَبْكَم: وَهُوَ الَّذِي لا يَتَكَلَّم، وَهُوَ مَعَ هَذَا فِي ظُلُمَات لا يُبْصِر، فَكَيْفَ يَهْتَدِي مِثْل هَذَا إِلَى الطَّرِيق، أَوْ يَخْرُج مِمَّا هُوَ فِيهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، وَكَمَا قَال تَعَالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ: هُوَ المُتَصَرِّف فِي خَلقه بِمَا يَشَاء.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ الفَعَّال لِمَا يُرِيد، المُتَصَرِّف فِي خَلقه بِمَا يَشَاء، وَأَنَّهُ لا مُعَقِّب لحُكْمِهِ، وَلا يَقْدِر أَحَد عَلَى صَرْف حُكْمه عَنْ خَلقه، بَل هُوَ وَحْده لا شَرِيك لهُ، الَّذِي إِذَا سُئِل يُجِيب لِمَنْ يَشَاء، وَلِهَذَا قَال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٦١٢) من حديث أبي ذر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٨٨).
(٢) **صحيح**: أخرجه ابن جرير (١/ ٣٠٤) من حديث عثمان، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٩٧).
(٣) **ضعيف**: تقدم.

عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أَيْ: أَتَاكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ: لا تَدْعُونَ غَيْره؛ لِعِلمِكُمْ أَنَّهُ لا يَقْدِر أَحَد عَلى رَفْع ذَلِكَ سِوَاهُ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ: فِي اتِّخَاذكُمْ آلهَة مَعَهُ ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾ أَيْ: فِي وَقْت الضَّرُورَة لا تَدْعُونَ أَحَدًا سِوَاهُ، وَتَذْهَب عَنْكُمْ أَصْنَامكُمْ وَأَنْدَادكُمْ، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ ﴾ الآيَة.

وَقَوْله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ ﴾ يَعْنِي: الفَقْر وَالضِّيق فِي العَيْش ﴿وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ وَهِيَ الأَمْرَاض وَالأَسْقَام وَالآلام ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أَيْ: يَدْعُونَ الله وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ وَيَخْشَعُونَ، قَال الله تَعَالى: ﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ أَيْ: فَهَلَّا إِذا ابْتَلَيْنَاهُمْ بِذَلكَ تَضَرَّعُوا إِلَيْنَا وَتَمَسْكَنُوا لدَيْنَا ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أَيْ: مَا رَقَّتْ وَلا خَشَعَتْ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أَيْ: مِنْ الشِّرْك وَالمُعَانَدَة وَالمَعَاصِي. ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ أَيْ: أَعْرَضُوا عَنْهُ وَتَنَاسَوْهُ وَجَعَلُوهُ وَرَاء ظُهُورهمْ ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أَيْ: فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَاب الرِّزْق مِنْ كُلّ مَا يَخْتَارُونَ، وَهَذَا اسْتِدْرَاج مِنْهُ تَعَالى وَإِمْلاء لهُمْ، عِيَاذًا الله مِنْ مَكْرِه، وَلِهَذَا قَال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ أَي: مِنْ الأَمْوَال وَالأَوْلاد وَالأَرْزَاق ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً ﴾ أَيْ: عَلى غَفْلة ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ أَيْ: آيِسُونَ مِنْ كُلّ خَيْر. قَال الوَالِبِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: المُبْلس الآيِس. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: مَنْ وَسَّعَ الله عَليْهِ فَلمْ يَرَ أَنَّهُ يَمْكُر بِهِ فَلا رَأْي لهُ، وَمَنْ قَتَّرَ عَليْهِ فَلمْ يَرَ أَنَّهُ يَنْظُر لهُ فَلا رَأْي لهُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ قَال الحسن: مُكِرَ بِالقَوْم وَرَبّ الكَعْبَة، أُعْطُوا حَاجَتهمْ ثُمَّ أُخِذُوا، رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال قَتَادَة: بَغَتَ القَوْم أَمْر الله، وَمَا أَخَذَ الله قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْد سَكْرَتهمْ وَغِرَّتهمْ وَنعيمهم، فَلا تَغْتَرُّوا بالله، فَإِنَّهُ لا يَغْتَرّ بالله إِلَّا القَوْم الفَاسِقُونَ. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا. وَقَال مَالك عَنْ الزُّهْرِيّ ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ قَال: أرخاء الدُّنْيَا وَسِتْرهَا. وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن غَيْلان، حَدَّثَنَا رِشْدِين -يَعْنِي: ابْن سَعْد أَبَا الحَجَّاج المَهْرِيّ- عَنْ حَرْمَلة بْن عِمْرَان التَّجِيبِيّ، عَنْ عُقْبَة بْن مُسْلم، عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**إِذَا رَأَيْت الله يُعْطِي العَبْد مِنْ الدُّنْيَا على مَعَاصِيه مَا يُحِبّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاج**». ثُمَّ تَلا رَسُول الله ﷺ ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾[(١)]. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث حَرْمَلة وَابْن لهِيعَة، عَنْ عُقْبَة بْن مُسْلم، عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر، بِهِ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا عِرَاك بْن خَالد بْن يَزِيد، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن أَبِي عَبْلة، عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت، أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يَقُول: «**إن الله إذَا أَرادَ بِقَوْمٍ بَقاء أَوْ نَمَاء رَزَقَهُمْ القَصْد وَالعَفَاف وَإِذَا أَرَادَ الله بِقَوْمٍ اقْتِطَاعًا فَتَحَ لهُمْ أَوْ فَتَحَ عَليهِمْ بَاب خِيَانَة**»[(٢)]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾. كَمَا قَال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٩/ ١١٠) من حديث عقبة بن عامر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤١٣).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٢٨٣) من حديث عبادة بن الصامت، وفيه عراك بن خالد: لين الحديث، وأبوه ضعيف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٣٠٦).

يَقُول الله تَعالى لرَسولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ هَؤُلاءِ المُكَذِّبِينَ المُعَانِدِينَ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أَيْ: سَلبَكُمْ إِيَّاهما كَمَا أَعطَاكُمُوهَا، فإنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون هَذَا عِبارَة عَنْ مَنْع الانْتِفَاع بِهِمَا الانْتِفَاع الشَّرْعِيّ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ كَمَا قَالَ: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وَقَال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾، وَقَوْله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ﴾ أَيْ: هَل أَحَد غَيْر الله يَقْدِر عَلى رَدّ ذَلكَ إِليْكُمْ، إِذَا سَلبَهُ الله مِنْكُمْ؟ لا يَقْدِر عَلى ذَلكَ أَحَد سِوَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أَيْ: نُبَيِّنهَا وَنُوضِّحهَا وَنُفَسِّرهَا، دَالَّة عَلى أَنَّهُ لا إِله إِلَّا الله، وَأَنَّ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونه بَاطِل وَضَلال، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أَيْ: ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا البَيَان يَصْدِفُونَ، أَيْ: يُعْرِضُونَ عَنْ الحَقّ وَيَصُدُّونَ النَّاس عَنْ اتِّبَاعه. قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أَيْ: يَعْدِلُونَ. وَقَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: يُعْرِضُونَ. وَقَال السُّدِّيّ: يَصُدُّونَ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ أَيْ: وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ بِهِ حَتَّى بَغَتَكُمْ وَفَجَأَكُمْ ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أَيْ: ظَاهِرًا عِيَانًا، ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا كَانَ يُحِيط بِالظَّالِمِينَ أَنْفُسهمْ بِالشِّرْكِ بالله، وَيَنْجُو الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، فَلا خَوْف عَليْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ﴾ أَيْ: مُبَشِّرِينَ عِبَاد الله المُؤْمِنِينَ بِالخَيْرَاتِ، وَمُنْذِرِينَ مَنْ كَفَرَ بِاللهَّ النِّقْمَات وَالعُقُوبَات، وَلِهَذَا قَال: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أَيْ: فَمَنْ آمَنَ قَلبه بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَأَصْلح عَمَله بِاتِّبَاعِهِ إِيَّاهُمْ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: بِالنِّسْبَةِ لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَيْ: بِالنِّسْبَةِ إِلى مَا فَاتَهُمْ وَتَرَكُوهُ وَرَاء ظُهُورهمْ مِنْ أَمْر الدُّنْيَا وَصَنِيعهَا، الله وَليّهمْ فِيمَا خَلَّفُوهُ، وَحَافِظهمْ فِيمَا تَرَكُوهُ. ثُمَّ قَال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أَيْ: يَنَالهُمْ العَذَاب بِمَا كَفَرُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل، وَخَرَجُوا عَنْ أَوَامِر الله وَطَاعَته، وَارْتَكَبُوا مَنَاهِيه وَمَحَارِمه، وَانْتِهَاك حُرُمَاته.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يَقُول الله تَعَالى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: لسْت أَمْلكهَا وَلا أَتَصَرَّف فِيهَا ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أَيْ: وَلا أَقُول لكُمْ إِنِّي أَعْلم الغَيْب، إِنَّمَا ذَاكَ مِنْ عِلم الله ﷻ، لا أَطَّلع مِنْهُ إِلَّا عَلى مَا أَطْلعَنِي عَليْهِ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ﴾ أَيْ: وَلا أَدَّعِي أَنِّي مَلك، إِنَّمَا أَنَا بَشَر مِنْ البَشَر يُوحَى إِليَّ مِنْ الله ﷻ، شَرَّفَنِي بِذَلكَ وَأَنْعَمَ عَليَّ بِهِ، وَلِهَذَا قَال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ﴾ أَيْ: لسْت أَخْرُج عَنْهُ قَيْد شِبْر وَلا أَدْنَى مِنْهُ. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ﴾ أَيْ: هَل يَسْتَوِي مَنْ اتَّبَعَ الحَقّ وَهُدِيَ إِليْهِ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ وَلم يَنْقَدْ لهُ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيْ: وَأَنْذِرْ بِهَذَا القُرْآن يَا مُحَمَّد: ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، والَّذِينَ ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن

يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة ﴿لَيْسَ لَهُم﴾ أَيْ: يَوْمئِذٍ ﴿مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيْ: لا قَرِيب لهُمْ، وَلا شَفِيع فِيهِمْ مِنْ عَذَابه إِنْ أَرَادَهُ بِهِمْ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ: أَنْذِرْ هَذَا اليَوْم الَّذِي لا حَاكِم فِيهِ إِلَّا الله ﷻ: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فَيَعْمَلُونَ فِي هَذِهِ الدَّار عَمَلًا يُنْجِيهِمْ الله بِهِ يَوْم القِيَامَة مِنْ عَذَابه، وَيُضَاعِف لهُمْ بِهِ الجَزِيل مِنْ ثَوَابه.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أَيْ: لا تُبْعِد هَؤُلاءِ المُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَات عَنْك، بَلِ اجْعَلهُمْ جُلسَاءَك وَأَخِصَّاءَك، كَما قَالَ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾. وَقَوْله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أَيْ: يَعْبُدُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قَال سَعِيد بْن المُسَيَّب وَمُجَاهِد وَالحَسَن وَقَتَادَة: المُرَاد بذلك الصلوات المكتوبات. وَهَذَا كَقَوْله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أَيْ: أَتَقَبَّل مِنكُمْ. وَقَوْله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أَيْ: يُرِيدُونَ بِذَلكَ العَمَل وَجْه الله الكَرِيم، فَهُمْ مُخْلصُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ العِبَادَات وَالطَّاعَات.

وَقَوْله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ كَقَوْل نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَاب الَّذِينَ ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا حِسَابهمْ عَلى الله ﷻ، وَليْسَ عَليَّ مِنْ حِسَابهمْ مِنْ شَيْء، كَما أَنَّهُ ليْسَ عَليْهِمْ مِنْ حِسَابِي مِنْ شَيْء. وَقَوْله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: إِنْ فَعَلت هَذَا وَالحَالة هَذِه. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَسْبَاط -هُوَ ابْن مُحَمَّد- حَدَّثَنِي أَشْعَث، عَنْ كُرْدُوس، عَنْ ابْن مَسْعُود قَال: مَرَّ المَلأ مِنْ قُرَيْش عَلى رَسُول الله ﷺ، وَعِنْده خَبَّاب وَصُهَيْب وَبِلال وَعَمَّار، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد أَرَضِيت بِهَؤُلاءِ؟ فَنَزَل فِيهِمْ القُرْآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إِلى قَوْله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1]. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ طَرِيق أَشْعَث، عَنْ كُرْدُوس، عَنْ ابْن مَسْعُود قَال: مَرَّ المَلأ مِنْ قُرَيْش بِرَسُول الله ﷺ، وَعِنْده صُهَيْب وَبِلال وَعَمَّار وَخَبَّاب، وَغَيْرهِمْ مِنْ ضُعَفَاء المُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد أَرَضِيت بِهَؤُلاءِ مِنْ قَوْمك؟ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ مَنَّ الله عَليْهِمْ مِنْ بَيْننَا؟ أَنَحْنُ نكون تَبعًا لهَؤُلاءِ؟ اطْرُدْهُمْ عنك فَلعَلَّك إِنْ طَرَدْتهمْ أَنْ نَتَّبِعك. فَنَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إِلى آخِر الآيَة.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أبو سَعِيد ابْن يَحْيَى بْن سَعِيد القَطَّان، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن مُحَمَّد العَنْقَزِيّ، حَدَّثَنَا أَسْبَاط بْن نَصْر، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الأَزْدِيّ -وَكَانَ قَارِئ الأَزْد- عَنْ أَبِي الكَنُود، عَنْ خَبَّاب فِي قَوْل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قَال: جَاءَ الأَقْرَع بْن حَابِس التَّمِيمِيّ وَعُيَيْنَة بْن حِصْن الفَزَارِيّ، فَوَجَدُوا رَسُول الله ﷺ مَعَ صُهَيْب وَبِلال وَعَمَّار وَخَبَّاب، قَاعِدًا فِي نَاس مِنْ الضُّعَفَاء مِنْ المُؤْمِنِينَ، فَلمَّا رَأَوْهُمْ حَوْل النَّبِيّ ﷺ حَقَّرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ، فَقَالُوا: إِنَّا نُرِيد أَنْ تَجْعَل لنَا مِنْك مَجْلسًا تَعْرِف لنَا بِهِ العَرَب فَضْلنَا، فَإِنَّ وُفُود العَرَب تَأْتِيك فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا العَرَب مَعَ هَذِهِ الأَعْبُد، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاك فَأَقِمْهُمْ عَنَّا، فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْت، قَال: «نَعَمْ». قَالُوا: فَاكْتُبْ لنَا عَليْك كِتَابًا، قَال: فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، وَدَعَا عَليًّا ليَكْتُب، وَنَحْنُ قُعُود فِي نَاحِيَة، فَنَزَل جِبْرِيل فَقَال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فَرَمَى رَسُول الله ﷺ بِالصَّحِيفَةِ مِنْ يَده، ثُمَّ دَعَانَا، فَأَتَيْنَاهُ[2]. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث أَسْبَاط بِهِ. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب، فَإِنَّ هَذِهِ

---

(١) **حسن لغيره**: أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠) بإسناد فيه ضعف، ولكنه يقوى بما بعده من الأحاديث.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن جرير (٥/ ١٩٨)، وابن ماجه (٤١٢٧)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤١٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٣٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٢٨).

الآيَة مَكِّيَّة وَالأَقْرَع بْن حَابِس وَعُيَيْنَة إِنَّمَا أَسْلَمَا بَعْد الهِجْرَة بِدَهْرٍ. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ المِقْدَام بْن شُرَيْح عَنْ أَبِيهِ، قَال: قَال سَعْد: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي سِتَّة مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ مِنْهُمْ ابْن مَسْعُود، قَال: كُنَّا نَسْتَبِق إِلَى رَسُول الله ﷺ، وَنَدْنُو مِنْهُ، وَنَسْمَع مِنْهُ، فَقَالَتْ قُرَيْش: تُدْنِي هَؤُلاءِ دُونَنَا فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾[1]. رَوَاهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ طَرِيق سُفْيَان، وَقَال: عَلَى شَرْط الشَّيْخَيْنِ، وَأَخْرَجَهُ ابْن حِبَّان فِي صَحِيحه مِنْ طَرِيق المِقْدَام بْن شُرَيْح، بِهِ.

وَقَوْله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أَيْ: ابْتَلَيْنَا وَاخْتَبَرْنَا وَامْتَحَنَّا بَعْضهمْ بِبَعْضٍ ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، كَانَ غَالِب مَنْ اتَّبَعَهُ فِي أَوَّل بَعْثَته ضُعَفَاء النَّاس، مِنْ الرِّجَال وَالنِّسَاء وَالعَبِيد وَالإِمَاء، وَلَمْ يَتَّبِعهُ مِنْ الأَشْرَاف إِلَّا قَلِيل، كَمَا قَال قَوْم نُوح لِنُوحٍ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ الآيَة. وَكَمَا قَال هِرَقْل مَلِك الرُّوم لأَبِي سُفْيَان حِين سَأَلَهُ عَنْ تِلْكَ المَسَائِل، فَقَال لَهُ: فَأَشْرَاف النَّاس يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقَال: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَقَال: هُمْ أَتْبَاع الرُّسُل. وَالغَرَض أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْش كَانُوا يَسْخَرُونَ بِمَنْ آمَنَ مِنْ ضُعَفَائِهِمْ، وَيُعَذِّبُونَ مَنْ يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: أَهَؤُلاءِ مَنَّ الله عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ أَيْ: مَا كَانَ الله لِيَهْدِي هَؤُلاءِ إِلَى الخَيْر لَوْ كَانَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ خَيْرًا وَيَدَعنَا، كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. قَال الله تَعَالَى فِي جَوَاب ذَلِكَ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾، وَقَال فِي جَوَابِهِمْ حِين قَالُوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أَيْ: أَلَيْسَ هُوَ أَعْلَم بِالشَّاكِرِينَ لَهُ، بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ، فَيُوَفِّقهُمْ وَيَهْدِيهِمْ سُبُل السَّلام، وَيُخْرِجهُمْ مِنْ الظُّلُمَات إِلَى النُّور بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُر إِلَى صُوَرِكُمْ وَلا إِلَى أَلْوَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُر إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[2].

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن عَنْ حَجَّاج، عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الآيَة. قَال: جَاءَ عُتْبَة بْن رَبِيعَة، وَشَيْبَة بْن رَبِيعَة، وَمُطْعِم بْن عَدِيّ، وَالحَارِث ابْن نَوْفَل، وَقَرَظَة بْن عَبْد عَمْرو بْن نَوْفَل فِي أَشْرَاف مِنْ بَنِي عَبْد مَنَاف مِنْ أَهْل الكُفْر إِلَى أَبِي طَالِب، فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِب لَوْ أَنَّ ابْن أَخِيك مُحَمَّدًا يَطْرُد عَنْهُ مَوَالِينَا وَحُلَفَاءَنَا، فَإِنَّمَا هُمْ عَبِيدنَا وَعُسَفاؤنَا، كَانَ أَعْظَم فِي صُدُورنَا، وَأَطْوَع لَهُ عِنْدنَا، وَأَدْنَى لاتِّبَاعِنَا إِيَّاهُ، وَتَصْدِيقنَا لَهُ. قَال: فَأَتَى أَبُو طَالِب النَّبِيّ ﷺ، فَحَدَّثَهُ بِالذي كلموه، فَقَال عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ: لَوْ فَعَلت ذَلِكَ حَتَّى تَنْظُر مَا الَّذِي يُرِيدُونَ وَإِلَى مَا يَصِيرُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ، فَأَنْزَل الله ﷻ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾. قَال: وَكَانُوا بِلالًا، وَعَمَّار بْن يَاسِر، وَسَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَة، وَصُبَيْحًا مَوْلَى أَسِيد، وَمِنْ الحُلَفَاء: ابْن مَسْعُود، وَالمِقْدَاد بْن عَمْرو، وَمَسْعُود بْن القَارِي، وَوَاقِد بْن عَبْد الله الحَنْظَلِيّ، وَعَمْرو بْن عَبْد عَمْرو، وَذُو الشِّمَالَيْنِ، وَمَرْثَد ابْن أَبِي مَرْثَد، وَأَبُو مَرْثَد الغَنَوِيّ -حَلِيف حَمْزَة بْن عَبْد المُطَّلِب- وَأَشْبَاههمْ مِنْ الحُلَفَاء، وَنَزَلَتْ فِي أَئِمَّة الكُفْر مِنْ قُرَيْش وَالمَوَالِي وَالحُلَفَاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ الآيَة. فَلَمَّا نَزَلَتْ أَقْبَل عُمَر ﷺ، فَأَتَى النَّبِيّ ﷺ فَاعْتَذَرَ مِنْ مَقَالته، فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآيَة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٤١٣)، والحاكم (٣/ ٣١٩)، وابن حبان (٦٥٧٣).

(٢) **صحيح**: تقدم.

وَقَوْله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيْ: فَأَكْرِمْهُمْ بِرَدِّ السَّلام عَلَيْهِمْ، وَبَشِّرْهُمْ بِرَحْمَةِ الله الوَاسِعَة الشَّامِلة لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أَيْ: أَوْجَبَهَا عَلَى نَفْسه الكَرِيمَة، تَفَضُّلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا وَامْتِنَانًا. ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قَالَ بَعْض السَّلف: كُلّ مَنْ عَصَى الله فَهُوَ جَاهِل. وَقَال مُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، عَنْ الحَكَم بن أَبَان، عَنْ عِكْرِمَة، فِي قَوْله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قَال: الدُّنْيَا كُلّهَا جَهَالة، رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ أَيْ: رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ المَعَاصِي، وَأَقْلَعَ، وَعَزَمَ عَلى أَنْ لا يَعُود، وَأَصْلَحَ العَمَل فِي المُسْتَقْبَل ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ هَمَّام بْن مُنَبِّه قَال: هَذَا مَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«لَمَّا قَضَى الله الخَلق، كَتَبَ فِي كِتَاب، فَهُوَ عِنْده فَوْق العَرْش: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»**[1]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَرَوَاهُ مُوسَى بن عُقْبَة، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَكَذَا رَوَاهُ اللَّيْث وَغَيْره، عَنْ مُحَمَّد بْن عَجْلان، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِذَلك. وَقَدْ رَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيق الحَكَم بْن أَبَان، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِذَا فَرَغَ الله مِنْ القَضَاء بَيْن الخلق، أَخْرَجَ كِتَابًا مِنْ تَحْت العَرْش، إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، وَأَنَا أَرْحَم الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِض قَبْضَة أَوْ قَبْضَتَيْنِ، فَيُخْرِج مِنْ النَّار خَلقًا لمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا، مَكْتُوب بَيْن أَعْيُنِهِمْ عُتَقَاء الله»**[2].

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ عَاصِم بْن سُلَيْمَان، عَنْ أَبِي عُثْمَان النَّهْدِيّ، عَنْ سَلمان فِي قَوْله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ قَال: إِنَّا نَجِد فِي التَّوْرَاة عَطْفَتَيْنِ؛ إِنَّ الله خَلقَ السَّمَوَات وَالأَرْض، وَخَلقَ مِائَة رَحْمَة أَوْ جَعَل مِائَة رَحْمَة قَبْل أَنْ يَخْلُق الخَلق، ثُمَّ خَلقَ الخَلق فَوَضَعَ بَيْنهمْ رَحْمَة وَاحِدَة، وَأَمْسَكَ عِنْده تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَة، قَال: فِبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَبَاذَلُونَ، وَبِهَا يَتَزَاوَرُونَ، وَبِهَا تَحِنّ النَّاقَة، وَبِهَا تَثُجُّ البَقَرَة، وَبِهَا تَثْغُو الشَّاة، وَبِهَا تَتَتَابَع الطَّيْر، وَبِهَا تَتَتَابَع الحِيتَان فِي البَحْر، فَإِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة جَمَعَ الله تِلكَ الرَّحْمَة إِلى مَا عِنْده، وَرَحْمَته أَفْضَل وَأَوْسَع. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا مِنْ وَجْه آخر، وَسَيَأْتِي كَثِير مِنْ الأَحَادِيث المُوَافِقَة لِهَذِهِ عِنْد قَوْله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

وَمِمَّا يُنَاسِب هَذِهِ الآيَة مِنْ الأَحَادِيث أَيْضًا: قَوْله ﷺ لِمُعَاذِ بْن جَبَل: **«أَتَدْرِي مَا حَقّ الله عَلى العِبَاد؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»** ثُمَّ قَال: **«أَتَدْرِي مَا حَقّ العِبَاد عَلى الله إِذَا هُمْ فَعَلُوا ذَلكَ؟ أَنْ لا يُعَذِّبهُمْ»**[3]. وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: مِنْ طَرِيق كُمَيْل بْن زِيَاد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

يَقُول تَعَالى: وَكَمَا بَيَّنَّا مَا تَقَدَّمَ بَيَانه، مِنْ الحُجَج وَالدَّلائِل عَلى طَرِيق الهِدَايَة وَالرَّشَاد، وَذَمّ المُجَادَلة وَالعِنَاد ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أَيْ: الَّتِي يَحْتَاج المُخَاطَبُونَ إِلى بَيَانهَا ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أَيْ: وَلتَظْهَر طَرِيقُ المُجْرِمِينَ

---

(١) **صحيح:** تقدم.
(٢) **ضعيف الإسناد:** عزاه المصنف لابن مردويه، وفي إسناده الحكم بن أبان قال الحافظ: صدوق له أوهام.
(٣) **صحيح:** تقدم.

المُخَالِفِينَ للرُّسُل، وَقُرِئَ ﴿وَلْيَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيْ: وَلتَسْتَبِينَ يَا مُحَمَّد أَوْ يَا مُخَاطَب سَبِيلَ المُجْرِمِينَ. وَقَوْله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أَيْ: عَلَى بَصِيرَة مِنْ شَرِيعَة الله الَّتِي أَوْحَاهَا الله إِلَيَّ ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أَيْ: بِالحَقِّ الَّذِي جَاءَنِي مِنْ الله ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أَيْ: مِنْ العَذَاب ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَرْجع أَمْر ذَلكَ إِلَى الله، إِنْ شَاءَ عَجَّل لكُمْ مَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ ذَلكَ، وَإِنْ شَاءَ أَنْظَرَكُمْ وَأَجَّلكُمْ؛ لمَا لهُ فِي ذَلكَ مِنَ الحِكْمَة العَظِيمَة؛ وَلهَذَا قَال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أَيْ: وَهُوَ خَيْر مَنْ فَصَّل القَضَايَا، وَخَيْر الفَاتِحِينَ الحاكمين بَيْن عِبَاده.

وَقَوْله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيْ: لوْ كَانَ مَرْجع ما تستعجلونه به إِليَّ لأَوْقَعْت لكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ ذَلكَ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾. فَإِنْ قِيل: فَمَا الجَمْع بَيْن هَذِهِ الآيَة وَبَيْن مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيق ابْن وَهْب، عَنْ يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة، أَنَّهَا قَالتْ لرَسُول الله ﷺ: يَا رَسُول الله، هَل أَتَى عَليْك يَوْم كَانَ أَشَدّ مِنْ يَوْم أُحُد؟ فَقَال: «**لقَدْ لقِيت مِنْ قَوْمك، وَكَانَ أَشَدّ مَا لقِيت مِنْهُم يَوْم العَقَبَة، إِذْ عَرَضْت نَفْسِي عَلى ابْن عَبْد يَا ليْل ابْن عَبْد كَلال، فَلمْ يُجِبْنِي إِلى مَا أَرَدْت، فَانْطَلقْت وَأَنَا مَهْمُوم عَلى وَجْهِي، فَلمْ أَسْتَفِق إِلا بِقَرْنِ الثَّعَالب، فَرَفَعْت رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلتْنِي، فَنَظَرْت فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيل عَليْهِ السَّلام، فَنَادَانِي، فَقَال: إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْل قَوْمك لك، وَمَا رَدُّوا عَليْك، وَقَدْ بَعَثَ إِليْك مَلك الجِبَال لتَأْمُرهُ بِمَا شِئْت فِيهِمْ. قَال: فَنَادَانِي مَلك الجِبَال وَسَلَّمَ عَليَّ، ثُمَّ قَال: يَا مُحَمَّد، إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْل قَوْمك لك، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبّك إِليْك لتَأْمُرنِي بِأَمْرك، فما شِئْت، إِنْ شِئْت أَطْبَقْت عَليْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ**» فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**بَل أَرْجُو أَنْ يُخْرِج الله مِنْ أَصْلابهِمْ مَنْ يَعْبُد الله لا يُشْرِك بِهِ شَيْئًا**»[1]. وَهَذَا لفْظ مُسْلم. فَقَدْ عَرَضَ عَليْهِ عَذَابهمْ وَاسْتِئْصَالهمْ، فَاسْتَأْنَى بِهِمْ وَسَأَل لهُمْ التَّأْخِير؛ لعَلَّ الله أَنْ يُخْرِج مِنْ أَصْلابهِمْ مَنْ لا يُشْرِك بِهِ شَيْئًا، فَمَا الجَمْع بَيْن هَذَا وَبَيْن قَوْله تَعَالى فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

فَالجَوَاب وَالله أَعْلم: أَنَّ هَذِهِ الآيَة دَلَّتْ عَلى أَنَّهُ لوْ كَانَ إِليْهِ وُقُوع العَذَاب الَّذِي يَطْلُبُونَهُ حَال طَلبهمْ لهُ لأَوْقَعه بِهِمْ، وَأَمَّا الحَدِيث فَليْسَ فِيهِ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ وُقُوع العَذَاب بِهِمْ، بَل عَرَضَ عَليْهِ مَلك الجِبَال أَنَّهُ إِنْ شَاءَ أَطْبَقَ عَليْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ، وَهُمَا جَبَلا مَكَّة اللَّذَانِ يَكْتَنِفَانِهَا جَنُوبًا وَشِمَالًا، فَلهَذَا اسْتَأْنَى بِهِمْ وَسَأَل الرِّفْق لهُمْ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعْد، عَنْ ابْن شِهَاب، عَنْ سَالم بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**مَفَاتِح الغَيْب خَمْس لا يَعْلمها إِلا الله** ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»[2].

وَفِي حَدِيث عُمَر: أَنَّ جِبْرِيل حِين تَبَدَّى لهُ فِي صُورَة أَعْرَابِيّ، فَسَأَل عَنْ الإِسْلام وَالإِيمَان وَالإِحْسَان، فَقَال لهُ النَّبِيّ ﷺ فِيمَا قَال لهُ: «**خَمْس لا يَعْلمهُنَّ إِلا الله**». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ الآيَة. وَقَوْله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أَيْ: يُحِيط عِلمه الكَرِيم بِجَمِيعِ المَوْجُودَات، بَرِّيّهَا وَبَحْرِيّهَا، لا يَخْفَى عَليْهِ مِنْ ذَلكَ شَيْء، وَلا مِثْقَال ذَرَّة فِي الأَرْض وَلا فِي السَّمَاء، وَمَا أَحْسَن مَا قَال الصَّرْصَرِيّ:

فَلا يَخْفَى عَليْهِ الذَّرّ إِمَّا ❁ تَرَاءَى للنَّوَاظِرِ أَوْ تَوَارَى

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٠٣٩، ٤٦٩٧، ٧٣٦٩)، وأحمد (٢/ ٨٥).

وقوله: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ أَيْ: وَيَعْلم الحَرَكَات حَتَّى مِنَ الجَمادَات، فَمَا ظَنُّك بِالحَيَوَانَاتِ، وَلاسِيَّا المُكَلَّفُونَ مِنْهُمْ مِنْ جِنِّهِمْ وَإِنسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن الرَّبِيع، حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَص، عَنْ سَعِيد بْن مَسْرُوق، حَدَّثَنَا حَسَّان النَّمِرِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ قَالَ: مَا مِنْ شَجَرَة فِي بَرّ وَلا بَحْر، إِلَّا وَمَلك مُوَكَّل بِهَا يَكْتُب مَا يَسْقُط مِنْهَا. وَقَوْله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾. قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَحْيَى بْن النَّضْر، عَنْ أَبِيهِ، سَمِعْت عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاصِ يَقُول: إِنَّ تَحْت الأَرْض الثَّالِثَة وَفَوْق الرَّابِعَة مِنَ الجِنّ: مَا لَوْ أَنَّهُمْ ظَهَرُوا -يَعْنِي: لَكُمْ- لَمْ تَرَوْا مَعَهُمْ نُورًا، عَلَى كُلّ زَاوِيَة مِنْ زَوَايَا الأَرْض خَاتَم مِنْ خَوَاتِيم الله ﷻ، عَلَى كُلّ خَاتَم مَلك مِنَ المَلائِكَة، يَبْعَث الله ﷻ إِلَيْهِ فِي كُلّ يَوْم مَلَكًا مِنْ عِنْده أَنْ احْتَفِظْ بِمَا عِنْدك.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن المُسَوِّر الزُّهْرِيّ، حَدَّثَنَا مَالِك بْن سُعَيْر، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، عَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث، قَال: مَا فِي الأَرْض مِنْ شَجَرَة وَلا مَغْرَز إِبْرَة، إِلَّا وَعَلَيْهَا مَلك مُوَكَّل يَأْتِي الله بِعِلْمِهَا: رُطُوبَتهَا إِذَا رَطِبَتْ، وَيُبُوسَتهَا إِذَا يَبِسَتْ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير: عَنْ أَبِي الخَطَّاب زِيَاد ابْن عَبْد الله الحَسَّانِيّ، عَنْ مَالِك بْن سُعَيْر بِهِ. ثُمَّ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذَكَرَ عَنْ أَبِي حُذَيْفَة، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو ابْن قَيْس، عَنْ رَجُل، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: خَلَقَ الله النُّون -وَهِيَ الدَّوَاة- وَخَلَقَ الأَلْوَاح، فَكَتَبَ فِيهَا أَمْر الدُّنْيَا حَتَّى يَنْقَضِي مَا كَانَ مِنْ خَلق مَخْلُوق، أَوْ رِزْق حَلال أَوْ حَرَام، أَوْ عَمَل بِرّ أَوْ فُجُور، وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾

يخبر تَعَالَى: إِنَّهُ يَتَوَفَّى عِبَاده فِي مَنَامهمْ بِاللَّيْلِ، وَهَذَا هُوَ التَّوَفِّي الأَصْغَر، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ فَذَكَرَ فِي هَذِهِ الآيَة الوَفَاتَيْنِ: الكُبْرَى وَالصُّغْرَى، وَهَكَذَا ذَكَرَ فِي هَذَا المَقَام حُكْم الوَفَاتَيْنِ الصُّغْرَى ثُمَّ الكُبْرَى، فَقَال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أَيْ: وَيَعْلم مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الأَعْمَال بِالنَّهَار، وَهَذِهِ جُمْلَة مُعْتَرِضَة دَلَّتْ عَلَى إِحَاطَة عِلمه تَعَالَى بِخَلقِهِ، فِي لَيْلهمْ وَنَهَارهمْ، فِي حَال سُكُونهمْ وَحَال حَرَكَتهمْ، كَمَا قَال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، وَكَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أَيْ: فِي اللَّيْل ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أَيْ: فِي النَّهَار، كَمَا قَال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى هَاهُنَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أَيْ: مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الأَعْمَال فِيهِ: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ أَيْ: فِي النَّهَار. قَالَهُ مُجَاهِد وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ. وَقَال ابْن جُرَيْج عَنْ عَبْد الله بْن كَثِير: أَيْ: فِي المَنَام. وَالأَوَّل أَظْهَر، وَقَدْ رَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ بِسَنَدِهِ عَنْ الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكٌ إِذَا نَامَ أَخَذَ نَفْسه وَيَرُدّهُ إِلَيْهِ، فَإِنْ أَذِنَ الله فِي قَبْض رُوحه قَبَضَهُ، وَإِلا رَدَّ إِلَيْهِ**»[1]. فَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم

---

(١) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٠) إلى أبي الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس، وفيه الضحاك عن ابن عباس: منقطع.

بِالَّيْلِ ﴾، وَقَوْله: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يَعْنِي بِهِ: أَجَل كُلّ وَاحِد مِنْ النَّاس ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيْ: يَوْم الْقِيَامَة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ أَيْ: فَيُخْبِركُمْ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: وَيَجْزِيكُمْ عَلى ذَلكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَر.

وَقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أَيْ: وَهُوَ الَّذِي قَهَرَ كُلّ شَيْء، وَخَضَعَ لجلاله وَعَظَمته وَكِبْرِيَائِهِ كُلّ شَيْء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أَيْ: مِنْ الْمَلَائِكَة يَحْفَظُونَ بَدَن الْإِنْسَان، كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وَحَفَظَة يَحْفَظُونَ عَمَله وَيُحْصُونَهُ عليه، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. وَكَقَوْلِهِ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. وَقَوْله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الآيَة. وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أَيْ: احْتُضِرَ وَحَانَ أَجَله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أَيْ: مَلَائِكَة مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ.

قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد: لِمَلِكِ الْمَوْت أَعْوَان مِنْ الْمَلَائِكَة، يُخْرِجُونَ الرُّوح مِنْ الْجَسَد، فَيَقْبِضهَا مَلَك الْمَوْت إِذَا انْتَهَتْ إِلى الْحُلْقُوم، وَسَيَأْتِي عِنْد قَوْله تَعَالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الْأَحَادِيث الْمُتَعَلِّقَة بِذَلكَ، الشَّاهِدَة لِهَذَا الْمَرْوِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس وَغَيْره بِالصِّحَّة. وَقَوْله: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أَيْ: فِي حِفْظ رُوح الْمُتَوَفَّى، بَل يَحْفَظُونَهَا وَيُنْزِلُونَهَا حَيْثُ شَاءَ الله ﷻ إِنْ كَانَ مِنْ الْأَبْرَار فَفِي عِلِّيِّينَ، وَإِنْ كَانَ مِنْ الْفُجَّار فَفِي سِجِّين، عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلكَ.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ قَال ابْن جَرِير: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟﴾ يَعْنِي: الْمَلَائِكَة ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾. وَنَذْكُر هَاهُنَا الْحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَام أَحْمَد حَيْثُ قَال: حَدَّثَنَا حُسَيْن بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي ذِئْب، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَطَاء، عَنْ سَعِيد بْن يَسَار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «**إِنَّ الْمَيِّت تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَة، فَإِذَا كَانَ الرَّجُل الصَّالِح، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتهَا النَّفْس الطَّيِّبَة كَانَتْ فِي الْجَسَد الطَّيِّب، اخْرُجِي حَمِيدَة وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَان وَرَبّ غَيْر غَضْبَان، فَلَا تَزَال يُقَال لَهَا ذَلكَ حَتَّى تَخْرُج، ثُمَّ يُعْرَج بِهَا إِلى السَّمَاء فَيُسْتَفْتَح فيفتح لَهَا، فَيُقَال: مَنْ هَذَا، فَيُقَال: فُلَان، فَيُقَال: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَة، كَانَتْ فِي الْجَسَد الطَّيِّب، ادْخُلِي حَمِيدَة، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَان وَرَبّ غَيْر غَضْبَان، فَلَا تَزَال يُقَال لَهَا ذَلكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلى السَّمَاء الَّتِي فِيهَا الله ﷻ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُل السُّوء، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتهَا النَّفْس الْخَبِيثَة كَانَتْ فِي الْجَسَد الْخَبِيث، اخْرُجِي ذَمِيمَة، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاق وَآخَر مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاج، فَلَا تَزَال يُقَال لَهَا ذَلكَ حَتَّى تَخْرُج، ثُمَّ يُعْرَج بِهَا إِلى السَّمَاء، فَيُسْتَفْتَح لَهَا، فَيُقَال: مَنْ هَذَا، فَيُقَال: فُلَان، فَيُقَال: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَة كَانَتْ فِي الْجَسَد الْخَبِيث، ارْجِعِي ذَمِيمَة، فَإِنَّهُ لَا يُفْتَح لَك أَبْوَاب السَّمَاء، فَتُرْسَل مِنْ السَّمَاء، ثُمَّ تَصِير إِلى الْقَبْر، فَيَجْلِس الرَّجُل الصَّالِح، فَيُقَال لَهُ مِثْل مَا قِيل فِي الْحَدِيث الْأَوَّل، وَيَجْلِس الرَّجُل السُّوء، فَيُقَال لَهُ مِثْل مَا قِيل فِي الْحَدِيث الأول**»[(١)]. هَذَا حَدِيث غَرِيب.

وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْمُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟﴾ يَعْنِي: الْخَلَائِق كُلّهمْ إِلى الله يَوْم الْقِيَامَة، فَيَحْكُم فِيهِمْ بِعَدْلِهِ، كَمَا قَال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، وَقَال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إِلى قَوْله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وَلِهَذَا قَال: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٤، ٣٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٤٣)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، وابن حبان (٣٠١٣) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٦٨).

يَقُول تَعَالى مُمْتَنًّا عَلى عِبَاده فِي إِنْجَائِهِ الْمُضطَرِّينَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلُمات البَرّ وَالبَحْر، أَيْ: الحَائِرِينَ الوَاقِعِينَ فِي المَهَامَّة البَرِّيَّة، وَفِي اللُّجَج البَحْرِيَّة، إِذَا هَاجَتْ الرِّيَاح العَاصِفَة، فَحِينَئِذٍ يُفَرِّدُونَ الدُّعَاء لَهُ وَحْده لا شَرِيك لَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، وَقَالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾، وَقَوْله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَقَال فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أَيْ: جَهْرًا وَسِرًّا ﴿لَّئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أَيْ: مِنْ هَذِهِ الضَّائِقَة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أَيْ: بَعْدهَا. قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ﴾ أي: بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى.

وَقَوْله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لَمَّا قَال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ أَيْ: بَعْد إِنْجَائِهِ إِيَّاكُمْ، كَقَوْلِهِ فِي سُورَة سُبْحَان: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذَكَرَ عَنْ مُسْلم بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا هَارُون الأَعْوَر، عَنْ حفص بْن سُلَيْمَان، عَنْ الحَسَن فِي قَوْله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَال: هَذِهِ لِلمُشْرِكِينَ. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح: عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لأُمَّةِ مُحَمَّد ﷺ فَعَفَى عَنْهُمْ.

وَنَذْكُر هُنَا الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي ذَلِكَ وَالآثَار، وَبِاللهِ المُسْتَعَان، وَعَلَيْهِ التُّكْلان وَبِهِ الثِّقَة: قَال البُخَارِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يَلبِسكُمْ: يَخْلطكُمْ مِنْ الالتِبَاس، يَلبَسُوا: يُخْلطُوا شِيَعًا فِرَقًا. حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَان، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَال: لَمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قَال رَسُول الله ﷺ: **«أَعُوذ بِوَجْهِك»** ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَال: **«أَعُوذ بِوَجْهِك»** ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ﴾ قَال رَسُول الله ﷺ: **«هَذَا أَهْوَن -أو قال:- هذا أَيْسَر»**[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَيْضًا فِي كِتَاب التَّوْحِيد، عَنْ قُتَيْبَة، عَنْ حَمَّاد، بِهِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير: عَنْ قُتَيْبَة وَمُحَمَّد بْن النَّضْر بْن مُسَاوِر وَيَحْيَى بْن حَبِيب بْن عربي؛ أَرْبَعَتهمْ عَنْ حَمَّاد بْن زَيْد، بِهِ. وَقَدْ رَوَاهُ الحُمَيْدِيّ فِي مُسْنَده: عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار: سَمِعَ جَابِرًا عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن حِبَّان فِي صَحِيحه: عَنْ أَبِي يَعْلى المَوْصِلِيّ، عَنْ أَبِي خَيْثَمَة، عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير فِي تَفْسِيره: عَنْ أَحْمَد بْن الوَلِيد القُرَشِيّ وَسَعِيد بْن الرَّبِيع وَسُفْيَان بْن وَكِيع، كُلّهمْ عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، بِهِ. وَرَوَاهُ أَبُو بَكْر بْن مَرْدُوَيْهِ: مِنْ حَدِيث آدَم بْن أَبِي إِيَاس وَيَحْيَى بْن عَبْد الحَمِيد وَعَاصِم بْن عَلِيّ، عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، بِهِ. وَرَوَاهُ سَعِيد بْن مَنْصُور، عَنْ حَمَّاد بْن زَيْد وَسُفْيَان بْن عُيَيْنَة؛ كِلاهُمَا عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، بِهِ.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (٤٦٢٨، ٧٤٠٦)، وابن حبان (٧٢٢)، وأبو يعلى (١٩٦٧).

طَرِيق أخرى: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر بْن مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيره: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا مِقْدَام بْن دَاوُد، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن يُوسُف، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن لَهِيعَة، عَنْ خَالد بْن يَزِيد، عَنْ أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر، قَال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قَال رَسُول الله ﷺ: «أَعُوذ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ». ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَال رَسُول الله ﷺ: «أَعُوذ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ». ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قَال: «هَذَا أَيْسَر». وَإِنْ اسْتَعَاذَهُ لأَعَاذَهُ.

وَيَتَعَلَّق بِهَذِهِ الآيَة أَحَادِيث كَثِيرَة. أَحدهَا: قَال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر -يَعْنِي ابْن أَبِي مَرْيَم- عَنْ رَاشِد -هُوَ ابْن سَعْد المِقْرَائِي- عَنْ سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص، قَال: سُئِل رَسُول الله ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فَقَال: «أَمَا إِنَّهَا كَائِنَة وَلَمْ يَأْتِ تَأْوِيلهَا بَعْد»(١). وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ الحَسَن بْن عَرَفَة، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي مَرْيَم بِهِ. ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث غَرِيب.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَعْلَى -هُوَ ابْن عُبَيْد-، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن حَكِيم، عَنْ عَامِر بْن سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص، عَنْ أَبِيهِ، قَال: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى مَرَرْنَا عَلَى مَسْجِد بَنِي مُعَاوِيَة، فَدَخَل فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَصَلَّيْنَا مَعَهُ، فَنَاجَى رَبّه ﷻ طَوِيلًا، ثُمَّ قَال: «سَأَلْت رَبِّي ثَلاثًا، سَأَلته أَنْ لا يُهْلِك أُمَّتِي بِالغَرَق فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلته أَنْ لا يُهْلِك أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلته أَنْ لا يَجْعَل بَأْسهمْ بَيْنهمْ فَمَنَعَنِيهَا»(٢). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِم، فَرَوَاهُ فِي كِتَاب الفِتَن: عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة وَمُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن نُمَيْر؛ كِلاهُمَا عَنْ عَبْد الله ابْن نُمَيْر، وَعَنْ مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن أَبِي عُمَر، عَنْ مَرْوَان بْن مُعَاوِيَة كِلاهُمَا عَنْ عُثْمَان بْن حَكِيم، بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: قَرَأْت عَلَى عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، عَنْ مَالِك، عَنْ عَبْد الله بْن عَبْد الله بْن جَابِر ابْن عَتِيك، عَنْ جَابِر بْن عَتِيك، أَنَّهُ قَال: جَاءَنَا عَبْد الله بْن عُمَر فِي حَرَّة بَنِي مُعَاوِيَة -قَرْيَة مِنْ قُرَى الأَنْصَار- فَقَال لِي: هَل تَدْرِي أَيْنَ صَلَّى رَسُول الله ﷺ فِي مَسْجِدكُمْ هَذَا؟ فَقُلْت: نَعَمْ، فَأَشَرْت إِلَى نَاحِيَة مِنْهُ فَقَال: هَل تَدْرِي مَا الثَّلاث الَّتِي دَعَا بِهِنَّ فِيهِ؟ فَقُلْت: نَعَمْ. فَقَال: أَخْبِرْنِي بِهِنَّ، فَقُلْت: دَعَا أَنْ لا يُظْهِر عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرهِمْ، وَلا يُهْلِكهُمْ بِالسِّنِينَ، فَأُعْطِيهمَا، وَدَعَا بِأَنْ لا يَجْعَل بَأْسهمْ بَيْنهمْ فَمُنِعَهَا، قَال: صَدَقْت فَلا يَزَال الهَرْج إِلَى يَوْم القِيَامَة(٣). لَيْسَ هُوَ فِي شَيْء مِنْ الكُتُب السِّتَّة، وَإِسْنَاده جَيِّد قَوِيّ، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

حَدِيث آخَر: قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: عَنْ حَكِيم بْن حَكِيم بْن عَبَّاد بْن حُنَيْف، عَنْ عَلِيّ بْن عَبْد الرَّحْمَن، أَخْبَرَنِي حُذَيْفَة بْن اليَمَان، قَال: خَرَجْت مَعَ رَسُول الله ﷺ إِلَى حَرَّة بَنِي مُعَاوِيَة، قَال: فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَات فَأَطَال فِيهِنَّ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ فَقَال: «حَبَسْتُك يَا حُذَيْفَة» قُلْت: الله وَرَسُوله أَعْلَم قَال: «إِنِّي سَأَلْت الله ثَلاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَة؛ سَأَلته: أَنْ لا يُسَلِّط عَلَى أُمَّتِي عَدُوًّا مِنْ غَيْرهمْ فَأَعْطَانِي، وَسَأَلته أَنْ لا يُهْلِكهُمْ بِغَرَق فَأَعْطَانِي، وَسَأَلته أَنْ لا يَجْعَل بَأْسهمْ بَيْنهمْ فَمَنَعَنِي»(٤). رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ: مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن إِسْحَاق.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عُبَيْدَة بْن حُمَيْد، حَدَّثَنِي سُلَيْمَان بْن الأَعْمَش عَنْ رَجَاء الأَنْصَارِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن شَدَّاد، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل ﷺ قَال: أَتَيْت رَسُول الله ﷺ أَطلبه فَقِيل لِي: خَرَجَ قَبْل. قَال: فَجَعَلت لا

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٠٦٦)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ١٣٧)، وأبو يعلى (٢/ ٩٠) من حديث سعد بن أبي وقاص، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٩٠)، وأحمد (١/ ٢٧٥).

(٣) صحيح الإسناد: أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٥).

(٤) ضعيف الإسناد: فيه محمد بن إسحاق: مدلس، ويشهد للحديث ما قبله.

أَمْرٌ بِأَحَدٍ إِلَّا قَالَ: مَرَّ مِنْ قَبْل، حَتَّى مَرَرْت فَوَجَدْته قَائِمًا يُصَلِّي، قَال: فَجِئْت حَتَّى قُمْت خَلفه فَأَطَال الصَّلاة، فَلَمَّا قَضَى صَلاته قُلت: يَا رَسُول الله؛ قَدْ صَلَّيْت صَلاة طَوِيلة. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنِّي صَلَّيْت صَلاة رَغْبَة وَرَهْبَة، إِنِّي سَأَلت الله ﷻ ثَلاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَة سَأَلته أَنْ لا يُهْلِك أُمَّتِي غَرَقًا فَأَعْطَانِي، وَسَأَلته أَنْ لا يُظْهِر عَلَيْهِمْ عَدُوًّا لَيْسَ مِنْهُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلته أَنْ لا يَجْعَل بَأْسهمْ بَيْنهمْ فَرَدَّهَا عَلَيَّ**»[1]. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ فِي الفِتَن عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن نُمَيْر وَعَلِيّ بْن مُحَمَّد؛ كِلاهُمَا عَنْ أَبِي مُعَاوِيَة، عَنْ الأَعْمَش بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ: مِنْ حَدِيث أَبِي عَوَانَة، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَيْر، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلى، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِمِثْلِهِ، أَوْ نَحْوه.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هَارُون بْن مَعْرُوف، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، عَنْ بُكَيْر بْن الأَشَجّ، أَنَّ الضَّحَّاك بْن عَبْد الله القُرَشِيّ، حَدَّثَهُ عَنْ أَنَس بْن مَالِك، أَنَّهُ قَال: رَأَيْت رَسُول الله ﷺ فِي سَفَر صَلَّى سُبْحَة الضُّحَى ثَمَانِي رَكَعَات، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَال: «**إِنِّي صَلَّيْت صَلاة رَغْبَة وَرَهْبَة، وَسَأَلت رَبِّي ثَلاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَة، سَأَلته أَنْ لا يَبْتَلِي أُمَّتِي بِالسِّنِينَ فَفَعَل، وَسَأَلته أَنْ لا يُظْهِر عَلَيْهِمْ عَدُوّهُمْ فَفَعَل، وَسَأَلته أَنْ لا يَلْبِسهُمْ شِيَعًا فَأَبَى عَلَيَّ**»[2]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي الصَّلاة عَنْ مُحَمَّد بْن سَلَمَة، عَنْ ابْن وَهْب، بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان، أَخْبَرَنَا شُعَيْب بْن أَبِي حَمْزَة، قَال: قَال الزُّهْرِيّ: حَدَّثَنِي عَبْد الله ابْن عَبْد الله بْن الحَارِث بْن نَوْفَل، عَنْ عَبْد الله بْن خَبَّاب بن الأرت، عَنْ أَبِيهِ خَبَّاب بْن الأَرَتّ مَوْلَى بَنِي زُهْرَة، وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: راقبت رَسُول الله ﷺ فِي لَيْلَة صَلَّاهَا كُلّهَا، حَتَّى كَانَ مَعَ الفَجْر فَسَلَّمَ رَسُول الله ﷺ مِنْ صَلاته، فَقُلت: يَا رَسُول الله، لَقَدْ صَلَّيْت اللَّيْلَة صَلاة مَا رَأَيْتُك صَلَّيْت مِثْلهَا، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**أَجَل، إِنَّهَا صَلاة رَغَب وَرَهَب، سَأَلت رَبِّي ﷻ فِيهَا ثَلاث خِصَال فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَة، سَأَلت رَبِّي ﷻ أَنْ لا يُهْلِكنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الأُمَم قَبْلنَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلت رَبِّي ﷻ أَنْ لا يُظْهِر عَلَيْنَا عَدُوًّا مِنْ غَيْرنَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلت رَبِّي ﷻ أَنْ لا يَلْبِسنَا شِيَعًا فَمَنَعَنِيهَا**»[3]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ: مِنْ حَدِيث شُعَيْب بْن أَبِي حَمْزَة، بِهِ. وَمِنْ وَجْه آخَر وَابْن حِبَّان فِي صَحِيحه بِإِسْنَادَيْهِمَا: عَنْ صَالِح بْن كَيْسَان. وَالتِّرْمِذِيّ فِي الفِتَن: مِنْ حَدِيث النُّعْمَان بْن رَاشِد؛ كِلاهُمَا عَنْ الزُّهْرِيّ بِهِ، وَقَال: حَسَن صَحِيح.

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير فِي تَفْسِيره: حَدَّثَنِي زِيَاد بْن عبيد الله المُزَنِيّ، حَدَّثَنَا مَرْوَان بْن مُعَاوِيَة الفَزَارِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو مَالِك، حَدَّثَنِي نَافِع بْن خَالد الخُزَاعِيّ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ صَلَّى صَلاة خَفِيفَة تَامَّة الرُّكُوع وَالسُّجُود فَقَال: «**قَدْ كَانَتْ صَلاة رَغْبَة وَرَهْبَة، سَأَلت الله ﷻ فِيهَا ثَلاثًا أَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَة، سَأَلت الله أَنْ لا يُصِيبكُمْ بِعَذَابٍ أَصَابَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلت الله أَنْ لا يُسَلِّط عَلَيْكُمْ عَدُوًّا يَسْتَبِيح بَيْضَتكُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلت الله أَنْ لا يَلْبِسكُمْ شِيَعًا وَيُذِيق بَعْضكُمْ بَأْس بَعْض فَمَنَعَنِيهَا**»[4]. قَال أَبُو مَالِك: فَقُلت لَهُ: أَبُوك سَمِعَ هَذَا مِنْ فِيِّ رَسُول الله ﷺ؟ فَقَال: نَعَمْ سَمِعْته يُحَدِّث بِهَا القَوْم أَنَّهُ سَمِعَهَا مِنْ فِيِّ رَسُول الله ﷺ.

---

(١) **صحيح:** أخرجه ابن جرير (٥/ ٢١٧)، وابن ماجه (٣٩٥١)، وأحمد (٥/ ٢٤٠) من حديث معاذ بن جبل، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٤).

(٢) **صحيح لغيره:** أخرجه أحمد (٣/ ١٤٦)، وابن خزيمة (٣/ ٢٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٦) من حديث أنس، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٤٩٣) وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٣) **صحيح:** أخرجه ابن جرير (٥/ ٢١٧)، والنسائي (١٦٣٨)، وأحمد (٥/ ١٠٨)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

(٤) **حسن:** أخرجه ابن جرير (٥/ ٢١٧)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ١٩٢) من حديث نافع بن خالد الخزاعي، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٥٤) وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح غير نافع بن خالد، وقد ذكره ابن أبي حاتم، ولم يجرحه أحد، ورواه البزار.

حديث آخر: قَال الإمَام أحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق قَال: قَال مَعْمَر: أَخْبَرَنِي أَيُّوب، عَنْ أَبِي قِلابَة، عَنْ الأشْعَث الصَّنْعَانِيّ، عَنْ أَبِي أَسْمَاء الرَّحَبِيّ، عَنْ شَدَّاد بْن أَوْس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إنَّ الله زَوَى لي الأرْض حَتَّى رَأَيْت مَشَارِقهَا وَمَغَارِبهَا، وَأَنَّ مُلْك أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَإِنِّي أُعْطِيت الكَنْزَيْنِ الأَبْيَض وَالأحْمَر، وَإِنِّي سَأَلت رَبِّي** ﷻ **أَنْ لا يُهْلِك أُمَّتِي بِسَنَةٍ عَامَّة، وَأَنْ لا يُسَلِّط عَلَيْهِمْ عَدُوًّا فَيُهْلِكهُمْ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لا يَلْبِسهُمْ شِيَعًا، وَأَنْ لا يُذِيق بَعْضهمْ بَأْس بَعْض. فَقَال: يَا مُحَمَّد إِنِّي إِذَا قَضَيْت قَضَاء فَإِنَّهُ لا يُرَدّ وَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُك لأُمَّتِك أَنْ لا أُهْلِكهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّة، وَأَنْ لا أُسَلِّط عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِمَّنْ سِوَاهُمْ فَيُهْلِكهُمْ بِعَامَّةٍ حَتَّى يَكُون بَعْضهمْ يُهْلِك بَعْضًا، وَبَعْضهمْ يَقْتُل بَعْضًا، وَبَعْضهمْ يَسْبِي بَعْضًا**» قَال: وَقَال النَّبِيّ ﷺ: «**وَإِنِّي لا أَخَاف عَلَى أُمَّتِي إِلا الأَئِمَّة المُضِلِّينَ، فَإِذَا وُضِعَ السَّيْف فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَع عَنْهُمْ إِلَى يَوْم القِيَامَة**»[1]. لَيْسَ فِي شَيْء مِنْ الكُتُب السِّتَّة، وَإِسْنَاده جَيِّد قَوِيّ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ: مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن زَيْد وَعَبَّاد بْن مَنْصُور وَقَتَادَة، ثَلاثَتهمْ عَنْ أَيُّوب، عَنْ أَبِي قِلابَة، عَنْ أَبِي أَسْمَاء، عَنْ ثَوْبَان، عَنْ رَسُول الله ﷺ بِنَحْوِهِ، وَالله أَعْلَم.

حديث آخر: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم الهَاشِمِيّ وَمَيْمُون بْن إِسْحَاق ابْن الحَسَن الحَنَفِيّ قَالا: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الجَبَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن فُضَيْل عَنْ أَبِي مَالِك الأَشْجَعِيّ عَنْ نَافِع بْن خَالِد الخُزَاعِيّ، عَنْ أَبِيهِ، قَال -وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ وَكَانَ مِنْ أَصْحَاب الشَّجَرَة-: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا صَلَّى وَالنَّاس حَوْله صَلَّى صَلاة خَفِيفَة، تَامَّة الرُّكُوع وَالسُّجُود، قَال: فَجَلَسَ يَوْمًا فَأَطَال الجُلُوس، حَتَّى أَوْمَأَ بَعْضنَا إِلَى بَعْض أَنْ اسْكُتُوا إِنَّهُ يُنَزَّل عَلَيْهِ، فَلَمَّا فَرَغَ، قَال لَهُ بَعْض القَوْم: يَا رَسُول الله لَقَدْ أَطَلْت الجُلُوس حَتَّى أَوْمَأَ بَعْضنَا إِلَى بَعْض إِنَّهُ يُنَزَّل عَلَيْك، قَال: «**لا، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ صَلاة رَغْبَة وَرَهْبَة سَأَلت الله فِيهَا ثَلاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَة، سَأَلت الله أَنْ لا يُعَذِّبكُمْ بِعَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلت الله أَنْ لا يُسَلِّط عَلَى أُمَّتِي عَدُوًّا يَسْتَبِيحهَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلته أَنْ لا يَلْبِسكُمْ شِيَعًا، وَأَنْ لا يُذِيق بَعْضكُمْ بَأْس بَعْض فَمَنَعَنِيهَا**». قَال: قُلت لَهُ: أَبُوك سَمِعَهَا مِنْ رَسُول الله ﷺ؟ قَال: نَعَمْ سَمِعْته يَقُول: إِنَّهُ سَمِعَهَا مِنْ رَسُول الله ﷺ عَدَد أَصَابِعِي هَذِهِ: عَشْر أَصَابِع.

حديث آخر: قَال الإمَام أحْمَد: حَدَّثَنَا يُونُس -هُوَ ابْن مُحَمَّد المُؤَدِّب- حَدَّثَنَا لَيْث -هُوَ ابْن سَعْد- عَنْ أَبِي وَهْب الخَوْلانِيّ، عَنْ رَجُل قَدْ سَمَّاهُ، عَنْ أَبِي بَصْرَة الغِفَارِيّ صَاحِب رَسُول الله ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**سَأَلت رَبِّي** ﷻ **أَرْبَعًا فَأَعْطَانِي ثَلاثًا وَمَنَعَنِي وَاحِدَة، سَأَلت الله أَنْ لا يَجْمَع أُمَّتِي عَلَى ضَلالَة فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلت الله أَنْ لا يُظْهِر عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرهمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلت الله أَنْ لا يُهْلِكهُمْ بِالسِّنِينَ كَمَا أَهْلَك الأُمَم قَبْلهمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلت الله** ﷻ **أَنْ لا يَلْبِسهُمْ شِيَعًا وَأَنْ لا يُذِيق بَعْضهمْ بَأْس بَعْض فَمَنَعَنِيهَا**»[2]. لَمْ يُخَرِّجهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة.

حديث آخر: قَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا مِنْجَاب بْن الحَارِث، حَدَّثَنَا أَبُو حُذَيْفَة الثَّعْلَبِيّ، عَنْ زِيَاد بْن عَلاقَة، عَنْ جَابِر بْن سَمُرَة السُّوَائِيّ، عَنْ عَلِيّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَال: «**سَأَلت رَبِّي ثَلاث خِصَال فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَة، فَقُلت: يَا رَبّ لا تُهْلِك أُمَّتِي جُوعًا، فَقَال: هَذِهِ لَك، قُلت: يَا رَبّ لا تُسَلِّط عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرهمْ -يَعْنِي أَهْل الشِّرْك- فَيَجْتَاحهُمْ، قَال: ذَلِكَ لَك قُلت: يَا رَبّ لا تَجْعَل بَأْسهمْ بَيْنهمْ قَال: فَمَنَعَنِي هَذِهِ**»[3].

---

(١) صحيح: أخرجه ابن جرير (٥/ ٢١٧)، وأحمد (٤/ ١٢٣) من حديث شداد بن أوس، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٥١) وقال: رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٦) وفيه رجل مجهول فالإسناد ضعيف. (٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٧٩).

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر ابن مَرْدُوَيْه: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن عَاصِم، حَدَّثَنَا أَبُو الدَّرْدَاء المَرْوَزِيّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن عَبْد الله بْن كَيْسَان، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «دَعَوْت رَبِّي ﷻ أَنْ يَرْفَع عَنْ أُمَّتِي أَرْبَعًا فَرَفَعَ الله عَنْهُمْ اثْنَتَيْنِ وَأَبَى عَلَيَّ أَنْ يَرْفَع عَنْهُمُ اثْنَتَيْنِ، دَعَوْت رَبِّي أَنْ يَرْفَع الرَّجْم مِنْ السَّمَاء وَالغَرَق مِنْ الأَرْض، وَأَنْ لا يَلْبِسهُمْ شِيَعًا، وَأَنْ لا يُذِيق بَعْضهمْ بَأْس بَعْض، فَرَفَعَ الله عَنْهُمْ الرَّجْم مِنْ السَّمَاء وَالغَرَق مِنْ الأَرْض وَأَبَى الله أَنْ يَرْفَع اثْنَتَيْنِ القَتْل وَالهَرْج»[(١)].

طَرِيق أُخْرَى: عَنْ ابْن عَبَّاس أَيْضًا، قَال ابْن مَرْدُوَيْه: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن يَزِيد، حَدَّثَنِي الوَلِيد بْن أَبَان، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن نُمير، حَدَّثَنَا أَبُو بَدْر شُجَاع بْن الوَلِيد، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن قَيْس، عَنْ رَجُل، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَال: فَقَامَ النَّبِيّ ﷺ فَتَوَضَّأ، ثُمَّ قَال: «اللَّهُمَّ لا تُرْسِل عَلَى أُمَّتِي عَذَابًا مِنْ فَوْقهمْ، وَلا مِنْ تَحْت أَرْجُلهمْ، وَلا تَلْبِسهُمْ شِيَعًا، وَلا تُذِقْ بَعْضهمْ بَأْس بَعْض، قَال: فَأَتَاهُ جِبْرِيل، فَقَال: يَا مُحَمَّد، إِنَّ الله قَدْ أَجَار أُمَّتك أَنْ يُرْسِل عَلَيْهِمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقهمْ أَوْ مِنْ تَحْت أَرْجُلهمْ»[(٢)].

حديث آخر: قَال ابْن مَرْدُوَيْه: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن عَبْد الله البَزَّار، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَحْمَد بْن مُوسَى حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن مُحَمَّد العَنْقَزِيّ، حَدَّثَنَا أَسْبَاط عَنْ السُّدِّيّ عَنْ أَبِي المِنْهَال، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «سَأَلت رَبِّي لأُمَّتِي أَرْبَع خِصَال فَأَعْطَانِي ثَلاثًا وَمَنَعَنِي وَاحِدَة، سَأَلته أَنْ لا تَكْفُر أُمَّتِي صَفْقَة وَاحِدَة فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلته أَنْ لا يُعَذِّبهُمْ بِمَا عُذِّبَ بِهِ الأُمَم قَبْلهمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلته أَنْ لا يُظْهِر عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرهمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلته أَنْ لا يَجْعَل بَأْسهمْ بَيْنهمْ فَمَنَعَنِيهَا». وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ أَبِي سَعِيد بْن يَحْيَى بْن سَعِيد القَطَّان، عَنْ عَمْرو بْن مُحَمَّد العَنْقَزِيّ، بِهِ نَحْوه[(٣)].

طَرِيق أُخْرَى: وَقَال ابْن مَرْدُوَيْه: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَحْيَى، حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب حَدَّثَنَا زَيْد بْن الحُبَاب، حَدَّثَنَا كَثِير بْن زَيْد اللَّيْثِيّ المَدَنِيّ، حَدَّثَنِي الوَلِيد بْن رَبَاح مَوْلَى آل أَبِي ذباب سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: قَال النَّبِيّ ﷺ: «سَأَلت رَبِّي ثَلاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَة، سَأَلته أَنْ لا يُسَلِّط عَلَى أُمَّتِي عَدُوًّا مِنْ غَيْرهمْ فَأَعْطَانِي، وَسَأَلته أَنْ لا يُهْلِكهُمْ بِالسِّنِينَ فَأَعْطَانِي، وَسَأَلته أَنْ لا يَلْبِسهُمْ شِيَعًا وَأَنْ لا يُذِيق بَعْضهمْ بَأْس بَعْض فَمَنَعَنِي». ثُمَّ رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْه بِإِسْنَادِهِ عَنْ سَعْد بْن سَعِيد بْن أَبِي سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِهِ. وَرَوَاهُ البَزَّار مِنْ طَرِيق عَمْرو بْن أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، بِنَحْوِهِ.

أثر آخر: قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، قَال: أَرْبَعَة فِي هَذِهِ الأُمَّة، قَدْ مَضَتْ اثْنَتَان، وَبَقِيَتْ اثْنَتَان ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾. قَال: الرَّجْم ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَال: الخَسْف ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَال سُفْيَان: يَعْنِي: الرَّجْم وَالخَسْف. وَقَال أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَال: فَهِيَ أَرْبَع خِلال؛ مِنْهَا اثْنَتَان بَعْد وَفَاة رَسُول الله ﷺ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَة؛ أُلْبِسُوا شِيَعًا وَذَاقَ بَعْضهمْ بَأْس بَعْض، وَبَقِيَتْ اثْنَتَانِ لابُدّ مِنْهُمَا وَاقِعَتَانِ: الرَّجْم وَالخَسْف. وَرَوَاهُ أَحْمَد عَنْ وَكِيع، عَنْ أَبِي جَعْفَر. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

---

(١) ضعيف الإسناد: عزاه المصنف لابن مردويه.
(٢) ضعيف الإسناد: عزاه المصنف لابن مردويه بسند ضعيف فيه رجل مجهول، وهو الراوي عن ابن عباس.
(٣) إسناده حسن: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٤١٥).

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الْمُنْذِر بْن شَاذَان، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا أَبُو الأَشْهَب، عَنْ الحَسَن فِي قَوْله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾. قَال: حُبِسَتْ عُقُوبَتهَا حَتَّى عُمِل ذَنْبهَا، فَلَمَّا عُمِل ذَنْبهَا أُرْسِلتْ عُقُوبَتهَا. وَهَكَذَا قَال مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَأَبُو مَالك وَالسُّدِّيّ وَابْن زَيْد وَغَيْر وَاحِد فِي قَوْله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يَعْنِي: الرَّجْم ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يَعْنِي: الخَسْف، وَهَذَا هُوَ اخْتِيَار ابْن جَرِير. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير: عَنْ يُونُس، عَنْ ابْن وَهْب، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ فِي قَوْله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَال: كَانَ عَبْد الله بْن مَسْعُود يَصِيح وَهُوَ فِي المجلس أَوْ عَلى المِنْبَر يَقُول: أَلا أَيهَا النَّاس إِنَّهُ قَدْ نَزَل بِكُمْ إن الله يَقُول: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لوْ جَاءَكُم عَذَاب مِنْ السَّمَاء لمْ يُبْقِ مِنْكُمْ أَحَدًا ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لوْ خَسَفَ بِكُم الأَرْض أَهْلكَكُمْ وَلمْ يُبْقِ مِنْكُمْ أَحَدًا ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أَلا إِنَّهُ نَزَل بِكُمْ أَسْوَأ الثَّلاث.

قَوْل ثَانٍ: قَال ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، سَمِعْت خَلَّاد بْن سُليْمَان يَقُول: سَمِعْت عَامِر بْن عَبْد الرَّحْمَن يَقُول: إِنَّ ابْن عَبَّاس كَانَ يَقُول فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ فأما العذاب من فوقكم فَأَئِمَّة السُّوء ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فَخَدَم السُّوء. وَقَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يَعْنِي: أُمَرَاءَكُمْ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يَعْنِي: عَبِيدكُمْ وَسَفَلتكُمْ. وَحَكَى ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ أَبِي سِنَان وَعمير بْن هَانِئ نَحْو ذَلكَ. وقَال ابْن جَرِير: وَهَذَا القَوْل وَإِنْ كَانَ لهُ وَجْه صَحِيح لكِنَّ الأَوَّل أَظْهَر وَأَقْوَى. وَهُوَ كَمَا قَال ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ، وَيَشْهَد لهُ بِالصِّحَّةِ قَوْله تَعَالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾. وَفِي الحَدِيث: «**ليَكُونَنَّ فِي هَذِهِ الأُمَّة قَذْف وَخَسْف وَمَسْخ**»[1]. وَذَلكَ مَذْكُور مَعَ نَظَائِره فِي أَمَارَات السَّاعَة وَأَشْرَاطهَا، وَظُهُور الآيَات قَبْل يَوْم القِيَامَة، وَسَتَأْتِي فِي مَوْضِعهَا إِنْ شَاءَ الله تَعَالى.

وَقَوْله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يَعْنِي: يَجْعَلكُمْ مُلتَبِسِينَ شِيَعًا فِرَقًا مُتَخَالِفِينَ. قَال الوَالبِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي الأَهْوَاء. وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد. وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث المَرْوِيّ مِنْ طُرُق عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَال: «**وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّة عَلى ثَلاث وَسَبْعِينَ فِرْقَة، كُلهَا فِي النَّار إِلا وَاحِدَة**». وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد: يَعْنِي يُسَلِّط بَعْضكُمْ عَلى بَعْض بِالعَذَاب وَالقَتْل. وَقَوْله تَعَالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أَيْ: نُبَيِّنهَا وَنُوَضِّحهَا وَنُقَرِّرها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أَيْ: يَفْهَمُونَ وَيَتَدَبَّرُونَ عَنْ الله آيَاته وَحُجَجه وَبَرَاهِينه. قَال زَيْد ابْن أَسْلم: لمَّا نَزَلتْ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الآيَة. قَال رَسُول الله ﷺ: «**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِب بَعْضكُمْ رِقَاب بَعْض بِالسُّيُوفِ**» قَالُوا: وَنَحْنُ نَشْهَد أَنْ لا إِله إِلَّا الله وَأَنَّك رَسُول الله قَال: «**نَعَمْ**» فَقَال بَعْضهمْ: لا يَكُون هَذَا أَبَدًا أَنْ يَقْتُل بَعْضنَا بَعْضًا وَنَحْنُ مُسْلمُونَ. فَنَزَلتْ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[2]. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢١٥٢)، وابن ماجه (٤٠٦١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٨٧، ٢٢٠٣).

(٢) **مرسل**: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٤١٨) بسند مرسل.

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالقُرْآنِ الَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ وَالهُدَى وَالبَيَان ﴿قَوْمُكَ﴾ يَعْنِي: قُرَيْشًا ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أَيْ: الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَق ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أَيْ: لسْت عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ، وَلسْت بِمُوَكَّلٍ بِكُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أَيْ: إِنَّمَا عَلَيَّ البَلاغ، وَعَلَيْكُمْ السَّمْع وَالطَّاعَة، فَمَنْ اتَّبَعَنِي سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَمَنْ خَالَفَنِي فَقَدْ شَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة .وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد: أَيْ لِكُلِّ نَبَأ حَقِيقَة. أَيْ: لِكُلِّ خَبَر وُقُوع وَلوْ بَعْد حِين، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾، وَقَالَ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ وَهَذَا تَهْدِيد وَوَعِيد أَكِيد، وَلِهَذَا قَالَ بَعْده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أَيْ: بِالتَّكْذِيبِ وَالاسْتِهْزَاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أَيْ: حَتَّى يَأْخُذُوا فِي كَلام آخَر غَيْر مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ التَّكْذِيب ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وَالمُرَاد بِذَلِكَ كُلّ فَرْد مِنْ آحَاد الأُمَّة: أَنْ لا يَجْلِس مَعَ المُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ آيَات الله، وَيَضَعُونَهَا عَلى غَيْر مَوَاضِعهَا، فَإِنْ جَلَسَ أَحَد مَعَهُمْ نَاسِيًا﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ بَعْد التَّذَكُّر ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الحَدِيث: «**رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأ، وَالنِّسْيَان، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»[1]. وَقَالَ السُّدِّيّ: عَنْ أَبِي مَالِك وَسَعِيد بْن جُبَيْر فِي قَوْله: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قَالَ: إِنْ نَسِيت فَذَكَرْت فَلا تَجْلِس مَعَهُمْ. وَكَذَا قَالَ مُقَاتِل بْن حَيَّان. وَهَذِهِ الآيَة هِيَ المُشَار إِلَيْهَا فِي قَوْله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ الآيَة. أَيْ: إِنَّكُمْ إِذَا جَلَسْتُمْ مَعَهُمْ وَأَقْرَرْتُمُوهُمْ عَلى ذَلِكَ، فَقَدْ سَاوَيْتُمُوهُمْ فِي الذي هُمْ فِيهِ. وَقَوْله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أَيْ: إِذَا تَجَنَّبُوهُمْ فَلمْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ بَرِئُوا مِنْ عُهْدَتهمْ وَتَخَلَّصُوا مِنْ إِثْمهمْ. وقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا عُبيد الله بْن مُوسَى عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ أَبِي مَالِك، وَسَعِيد بْن جُبَيْر. قَوْله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ قَالَ: مَا عَلَيْك أَنْ يَخُوضُوا فِي آيَات الله إِذَا فَعَلت ذَلِكَ، أَيْ: إِذَا تَجَنَّبْتهمْ وَأَعْرَضْت عَنْهُمْ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَل مَعْنَاهُ وَإِنْ جَلسُوا مَعَهُمْ فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابهمْ مِنْ شَيْء، وَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا مَنْسُوخ بِآيَةِ النِّسَاء المَدَنِيَّة، وَهِيَ قَوْله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ قَالهُ مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ وَابْن جُرَيْج وَغَيْرهمْ. وَعَلى قَوْلهمْ يَكُون قَوْله: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ: وَلكِنْ أَمَرْنَاكُمْ بِالإِعْرَاضِ عَنْهُمْ حِينَئِذٍ تَذْكِيرًا لهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، لعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ذَلِكَ وَلا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: دَعْهُمْ وَأَعْرِض عَنْهُمْ وَأَمْهِلهُمْ قَلِيلًا، فَإِنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلى عَذَاب عَظِيم، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أَيْ: ذَكِّرْ النَّاس بِهَذَا القُرْآن: وَحَذِّرْهُمْ نِقْمَة الله، وَعَذَابه الأَلِيم يَوْم القِيَامَة. وَقَوْله تَعَالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أَيْ: لِئَلَّا تُبْسَل، قَال الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَالسُّدِّيّ: ﴿تُبْسَلَ﴾ تُسْلم. وَقَال الوَالِبِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس: تُفْضَح. وَقَال قَتَادَة: تُحْبَس. وَقَال مرَّة وَابْن زَيْد: تُؤَاخَذ. وَقَال الكَلْبِيّ: تُجَازَى. وَكُلّ هَذِهِ الأَقْوَال وَالعِبَارَات مُتَقَارِبَة فِي المَعْنَى، وَحَاصِلهَا: الإِسْلام للهَلَكَةِ، وَالحَبْس عَنْ الخَيْر، وَالارْتِهَان عَنْ دَرْك المَطْلُوب، كَقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾، وَقَوْله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيْ: لا قَرِيب وَلا أَحَد

---

(١) صحيح: صححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥١٥) من حديث ثوبان.

يُشَفَّع فِيهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وَقَوْله: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ أَيْ: وَلوْ بَذَلتْ كُلّ مَبْذُول مَا قُبِل مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، وَكَذَا قَال هَاهُنَا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

قَال السُّدِّيّ: قَال المُشْرِكُونَ للمُسْلِمِينَ: اتَّبِعُوا سَبِيلنَا وَاتْرُكُوا دِين مُحَمَّد، فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أَيْ: فِي الكُفْر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فَيَكُون مَثَلنَا مَثَل الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِين فِي الأَرْض، يَقُول: مَثَلكُمْ إِنْ كَفَرْتُمْ بَعْد إِيمَانكُمْ كَمَثَل رَجُل خَرَجَ مَعَ قَوْم عَلى الطَّرِيق فَضَلَّ الطَّرِيق فَحَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِين وَاسْتَهْوَتْهُ فِي الأَرْض وَأَصْحَابه عَلى الطَّرِيق فَجَعَلُوا يَدْعُونَهُ إِليْهِمْ، يَقُولُونَ: ائْتِنَا فَإِنَّا عَلى الطَّرِيق، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيهِمْ، فَذَلِكَ مَثَل مَنْ يَتَّبِعهُمْ بَعْد المَعْرِفَة بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمُحَمَّد هُوَ الَّذِي يَدْعُو إِلى الطَّرِيق، وَالطَّرِيق هُوَ الإِسْلام. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَال قَتَادَة: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَضَلَّتْهُ فِي الأَرْض. يَعْنِي اسْتَهْوَتْهُ سَيَّرَته، كَقَوْلِهِ: ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الآيَة: هَذَا مَثَل ضَرَبَهُ الله للآلِهَةِ وَمَنْ يَدْعُو إِليْهَا، وَللدُّعَاة الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلى هُدَى الله ﷻ، كَمَثَل رَجُل ضَلَّ عَنْ طَرِيق تَائِهًا ضالاً، إِذْ نَادَاهُ مُنَادٍ: يَا فُلان ابْن فُلان، هَلُمَّ إِلى الطَّرِيق، وَلهُ أَصْحَاب يَدْعُونَهُ: يَا فُلان هَلُمَّ إِلى الطَّرِيق، فَإِنْ اتَّبَعَ الدَّاعِي الأَوَّل انْطَلَقَ بِهِ حَتَّى يُلقِيه إِلى الهَلكَة، وَإِنْ أَجَابَ مَنْ يَدْعُوهُ إِلى الهُدَى اهْتَدَى إِلى الطَّرِيق، وَهَذِهِ الدَّاعِيَة الَّتِي تَدْعُو فِي البَرِّيَّة مِنْ الغِيلان، يَقُول: مَثَل مَنْ يَعْبُد هَذِهِ الآلِهَة مِنْ دُون الله، فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّهُ فِي شَيْء حَتَّى يَأْتِيه المَوْت، فَيَسْتَقْبِل النَّدَامَة وَالهَلكَة، وَقَوْله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ هُمْ الغِيلان ﴿يَدْعُونَهُ﴾ بِاسْمِهِ وَاسْم أَبِيهِ وَجَدّه، فَيَتَّبِعهَا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ فِي شَيْء فَيُصْبِح وَقَدْ أَلقته فِي هَلكَة، وَرُبَّمَا أَكَلتْهُ أَوْ تُلقِيه فِي مُضِلَّة مِنْ الأَرْض، يَهْلك فِيهَا عَطَشًا، فَهَذَا مَثَل مَنْ أَجَابَ الآلِهَة الَّتِي تُعْبَد مِنْ دُون الله ﷻ. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ قَال: رَجُل حَيْرَان يَدْعُوهُ أَصْحَابه إِلى الطَّرِيق، وَذَلِكَ مَثَل مَنْ يَضِلّ بَعْد أَنْ هُدِيَ. وَقَال العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ﴾ هُوَ الَّذِي لا يَسْتَجِيب لِهُدَى الله، وَهُوَ رَجُل أَطَاعَ الشَّيْطَان، وَعَمِل فِي الأَرْض بِالمَعْصِيَةِ، وَحَادَ عَنْ الحَقّ وَضَلَّ عَنْهُ، وَلهُ أَصْحَاب يَدْعُونَهُ إِلى الهُدَى، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الَّذِي يَأْمُرُونَهُ بِهِ هُدًى، يَقُول الله ذَلِكَ لأَوْليَائِهِمْ مِنْ الإِنْس: يقول الله: ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ وَالضَّلال مَا يَدْعُو إِليْهِ الجِنّ. رَوَاهُ ابْن جَرِير، ثُمَّ قَال: وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ أَصْحَابه يَدْعُونَهُ إِلى الضَّلال وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ هُدًى. قَال: وَهَذَا خِلاف ظَاهِر الآيَة، فَإِنَّ الله أَخْبَرَ أن أصحابه يَدْعُونَهُ إِلى الهُدَى، فَغَيْر جَائِز أَنْ يَكُون ضَلالًا وَقَدْ أَخْبَرَ الله أَنَّهُ هُدًى. وَهُوَ كَمَا قَال ابْن جَرِير؛ فَإِنَّ السِّيَاق يَقْتَضِي أَنَّ هَذَا الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِين فِي الأَرْض حَيْرَان، وَهُوَ مَنْصُوب عَلى الحَال، أَيْ: فِي حَال حِيرَته وَضَلاله وَجَهْله وَجْه المَحَجَّة، وَلهُ أَصْحَاب عَلى المَحَجَّة سَائِرُونَ فَجَعَلُوا يَدْعُونَهُ إِليْهِمْ وَإِلى الذَّهَاب

مَعَهُمْ عَلى الطَّرِيقَة المُثْلى، وَتَقْدِير الكَلام: فَيَأْبى عَلَيْهِمْ وَلا يَلتَفِت إِلَيْهِمْ، وَلَوْ شَاءَ الله لهَدَاهُ وَلَرَدَّ بِهِ إِلى الطَّرِيق، وَلهَذَا قَال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، كَمَا قَال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾، وَقَال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، وَقَوْله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: نُخْلص لهُ العِبَادَة وَحْده لا شَرِيك لهُ. ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أَيْ: وَأَمَرَنَا بِإِقَامَةِ الصَّلاة وَبِتَقْوَاهُ فِي جَمِيع الأَحْوَال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: بِالعَدْل، فَهُوَ خَالقهمَا وَمَالكهمَا وَالمُدَبِّر لهُمَا وَلمَنْ فِيهِمَا. وَقَوْله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ يَعْنِي: يَوْم القِيَامَة، الَّذِي يَقُول الله: كُنْ فَيكُون عَنْ أَمْره كَلمْح البَصَر أَوْ هُوَ أَقْرَب، وَيَوْم مَنْصُوب إِمَّا عَلى العَطْف عَلى قَوْله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ وَتَقْدِيره: وَاتَّقُوا يَوْم يَقُول: كُنْ فَيكُون، وَإِمَّا عَلى قَوْله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أَيْ: وَخَلقَ يَوْم يَقُول: كُنْ فَيكُون فَذكَرَ بَدْء الخَلق وَإِعَادَته وَهَذَا مُنَاسِب، إِمَّا عَلى إِضْمَار فِعْل تَقْدِيره: وَاذْكُرْ يَوْم يَقُول: كُنْ فَيكُون. وَقَوْله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ جُمْلتَانِ مَحَلّهمَا الجَرّ عَلى أَنَّهُمَا صِفتَانِ لرَبِّ العَالمِينَ. وَقَوْله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون بَدَلًا مِنْ قَوْله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون ظَرْفًا لقَوْلِه: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ كَقَوْلِه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، وَكَقَوْلِه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ وَمَا أَشْبَهَ ذَلكَ. وَاخْتَلفَ المُفَسِّرُونَ فِي قَوْله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ فَقَال بَعْضهمْ: المُرَاد بِالصُّورِ هُنَا جَمْع صُورَة، أَيْ: يَوْم يُنْفَخ فِيهَا فتَحْيَا. قَال ابْن جَرِير: كَمَا يُقَال: سُور لسُورِ البَلد، وَهُوَ جَمْع سُورَة، وَالصَّحِيح: أَنَّ المُرَاد بِالصُّورِ القَرْن الَّذِي يَنْفُخ فِيهِ إِسْرَافِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَال ابْن جَرِير: وَالصَّوَاب عِنْدَنَا مَا تَظَاهَرَتْ بِهِ الأَخْبَار عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**إِنَّ إِسْرَافِيل قَدْ التَقَمَ الصُّور، وَحَنَى جَبْهَته، يَنْتَظِر مَتَى يُؤْمَر فَيَنْفُخ**»[1]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا سُليْمَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَسْلم العِجْليّ، عَنْ بِشْر بْن شَغَاف، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: قَال أَعْرَابِيّ: يَا رَسُول الله، مَا الصُّور؟ قَال: «**قَرْن يُنْفَخ فِيهِ**»[2].

وَقَدْ رُوِّينَا حَدِيث الصُّور بِطُولِه مِنْ طَرِيق الحَافِظ أَبِي القَاسِم الطَّبَرَانِيّ فِي كِتَابه: «**الطّوَّالات**» قَال: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن الحَسَن المصري الأَيْليّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِم النَّبِيل، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن رَافِع، عَنْ مُحَمَّد بْن زِيَاد عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَال: حَدَّثَنَا رَسُول الله ﷺ وَهُوَ فِي طَائِفَة مِنْ أَصْحَابه فَقَال: «**إِنَّ الله لمَّا فَرَغ مِنْ خَلق السَّموَات وَالأَرْض خَلقَ الصُّور فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيل فَهُوَ وَاضِعه عَلى فِيهِ شَاخِصًا بَصَره إِلى العَرْش يَنْتَظِر مَتَى يُؤْمَر**» قُلت: يَا رَسُول الله ﷺ؛ وَمَا الصُّور؟ قَال: «**القَرْن**». قُلت: كَيْفَ هُوَ؟ قَال: «**عَظِيم وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ، إِنَّ عِظَم دَارَة فِيهِ كَعَرْضِ السَّموَات وَالأَرْض، يُنْفَخ فِيهِ ثَلاث نَفَخَات، النَّفْخَة الأُولى: نَفْخَة الفَزَع، وَالثَّانِيَة: نَفْخَة الصَّعْق، وَالثَّالثَة: نَفْخَة القِيَام لرَبِّ العَالمِينَ، يَأْمُر الله تَعَالى إِسْرَافِيل بِالنَّفْخَةِ الأُولى فَيَقُول: انْفُخْ فَيَنْفُخ نَفْخَة الفَزَع، فَيُفَزَّع أَهْل السَّموَات وَالأَرْض إِلا مَنْ شَاءَ الله، وَيَأْمُرهُ فَيُطِيلهَا وَيُدِيمهَا، وَلا يَفْتُر، وَهِيَ كَقَوْل الله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ فَيُسَيِّر الله الجِبَال فَتَمرّ مَرّ السَّحَاب فَتَكُون سَرَابًا، ثُمَّ تَرْتَجّ الأَرْض بِأَهْلهَا رَجًّا، فَتَكُون كَالسَّفِينَةِ المَرْمِيَّة فِي البَحْر، تَضْرِبهَا الأَمْوَاج، تَكْفَأ بِأَهْلهَا كَالقِنْدِيل المُعَلّق بِالعَرْش، تُرَجْرِجه الرِّيَاح، وَهُوَ الَّذِي يَقُول: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾**

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٣٠، ٣٢٤٤)، وأحمد (٦٥٠٧)، وابن حبان (٧٣١٢)، والحاكم (٢/ ٥٥٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٦٣).

فَيَميد النَّاس على ظَهْرهَا، وَتَذْهَل المَرَاضِع، وَتَضَع الحَوَامِل، وَتَشِيب الوِلدَان، وَتَطِير الشَّيَاطِين هَارِبَة مِنْ الفَزَع حَتَّى تَأْتِي الأَقْطَار، فَتَأْتِيهَا المَلائِكَة فَتَضْرِب وُجُوههَا فَتَرْجِع، وَيُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِينَ مَا لهُمْ مِنْ أَمْر الله مِنْ عَاصِم، يُنَادِي بَعْضهمْ بَعْضًا، وَهُوَ الَّذِي يَقُول الله تَعَالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾، فبينما هم على ذلك؛ إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، فرأوا أمرًا عظيمًا لم يروا مثله، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم، ثم ينظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم انشقت السماء فانتثرت نجومها، وانخسفت شمسها وقمرها».

قَال رَسُول الله ﷺ: «الأَمْوَات لا يَعْلَمُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلكَ». قَال أَبُو هُرَيْرَة: يَا رَسُول الله؛ مَنْ اسْتَثْنَى الله ﷻ حِين يَقُول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؟ قَال: «أُولئِكَ الشُّهَدَاء، وَإِنَّمَا يَصِل الفَزَع إِلى الأَحْيَاء وَهُمْ أَحْيَاء عِنْد رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَقَاهُمْ الله فَزَع ذَلكَ اليَوْم وَآمَنَهُمْ مِنْهُ، وَهُوَ عَذَاب الله يَبْعَثهُ عَلى شِرَار خلقه» قَال: «وَهُوَ الَّذِي يَقُول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ فَيَكُونُونَ فِي ذَلكَ البلاء مَا شَاءَ الله أَنْ يَطُول. ثُمَّ يَأْمُر الله إِسْرَافِيل بِنَفْخَةِ الصَّعْق، فَيَنْفُخ نَفْخَة الصَّعْق فَيَصْعَق أَهْل السَّمَوَات وَالأَرْض إِلا مَنْ شَاءَ الله، فَإِذَا هُمْ قَدْ خَمَدُوا، وَجَاءَ مَلَك المَوْت إِلى الجَبَّار ﷻ فَيَقُول: يَا رَبِّ قَدْ مَاتَ أَهْل السَّمَوَات وَالأَرْض إِلا مَنْ شِئْت. فَيَقُول الله وَهُوَ أَعْلم بِمَنْ بَقِيَ: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُول: يَا رَبِّ بَقِيت أَنْتَ الحَيّ الَّذِي لا يَمُوت، وَبَقِيَتْ حَمَلَة العَرْش، وَبَقِيَ جِبْرِيل وَمِيكَائِيل، وَبَقِيت أَنَا، فَيَقُول الله ﷻ: لِيَمُتْ جِبْرِيل وَمِيكَائِيل. فَيُنْطِق الله العَرْش فَيَقُول: يَا رَبِّ يَمُوت جِبْرِيل وَمِيكَائِيل؟ فَيَقُول: اسْكُتْ، فَإِنِّي كَتَبْت المَوْت عَلى كُلّ مَنْ كَانَ تَحْت عَرْشِي. فَيَمُوتَان، ثُمَّ يَأْتِي مَلَك المَوْت إِلى الجَبَّار فَيَقُول: يَا رَبِّ قَدْ مَاتَ جِبْرِيل وَمِيكَائِيل. فَيَقُول الله وَهُوَ أَعْلم بِمَنْ بَقِيَ: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُول: بَقِيت أَنْتَ الحَيّ الَّذِي لا يَمُوت، وَبَقِيَتْ حَمَلَة عَرْشك، وَبَقِيت أَنَا، فَيَقُول الله: لِيَمُتْ حَمَلَة العَرْش فَيَمُوتوا، وَيَأْمُر الله العَرْش فَيَقْبِض الصُّور مِنْ إِسْرَافِيل، ثُمَّ يَأْتِي مَلَك المَوْت فَيَقُول: يَا رَبِّ قَدْ مَاتَ حَمَلَة عَرْشك، فَيَقُول الله: وَهُوَ أَعْلم بِمَنْ بَقِيَ: فَمَنْ بَقِيَ؟ فَيَقُول: يَا رَبِّ بَقِيت أَنْتَ الحَيّ الَّذِي لا يَمُوت وَبَقِيت أَنَا، فَيَقُول الله: أَنْتَ خَلق مِنْ خَلقِي خَلَقْتُك لِمَا رَأَيْت فَمُتْ، فَيَمُوت. فَإِذَا لمْ يَبْقَ إِلا الله الوَاحِد القَهَّار الأَحَد الصَّمَد، الَّذِي لمْ يَلد وَلمْ يُولد، كَانَ آخِرًا كَمَا كَانَ أَوَّلا، طَوَى السَّمَوَات وَالأَرْض طَيّ السِّجِلّ للكُتُب، ثُمَّ دَحَاهُمَا، ثُمَّ تَلَقَّفهما ثَلاث مَرَّات، ثُمَّ يَقُول: أَنَا الجَبَّار، أَنَا الجَبَّار، أَنَا الجَبَّار ثَلاثًا، ثُمَّ هَتَفَ بِصَوْتِهِ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ ثَلاث مَرَّات، فَلا يُجِيبهُ أَحَد، ثُمَّ يَقُول لنَفْسِهِ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ يَقُول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ فَيَبْسُطهُمَا وَيَسْطَحهُمَا، ثُمَّ يَمُدّهُمَا مَدّ الأَدِيم العُكَاظِيّ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ ثُمَّ يَزْجُر الله الخَلق زَجْرَة وَاحِدَة، فَإِذَا هُمْ فِي هَذِهِ الأَرْض المُبَدَّلة مِثْل مَا كَانُوا فِيهَا مِنْ الأُولى، مَنْ كَانَ فِي بَطْنهَا كَانَ فِي بَطْنهَا، وَمَنْ كَانَ عَلى ظَهْرهَا كَانَ عَلى ظَهْرهَا، ثُمَّ يُنَزِّل الله عَليْهِمْ مَاء مِنْ تَحْت العَرْش، ثُمَّ يَأْمُر الله السَّمَاء أَنْ تُمْطِر، فَتُمْطِر أَرْبَعِينَ يَوْمًا حَتَّى يَكُون المَاء فَوْقهمْ اثْنَيْ عَشَر ذِرَاعًا، ثُمَّ يَأْمُر الله الأَجْسَاد أَنْ تَنْبُت فَتَنْبُت كَنَبَاتِ الطَّرَاثِيث –أَوْ: كَنَبَاتِ البَقْل– حَتَّى إِذَا تَكَامَلتْ أَجْسَادهمْ فَكَانَتْ كَمَا كَانَتْ، قَال الله ﷻ: لِيَحْيَ حَمَلَة عَرْشِي، فَيَحْيُونَ، وَيَأْمُر الله إِسْرَافِيل فَيَأْخُذ الصُّور فَيَضَعهُ عَلى فِيهِ، ثُمَّ يَقُول: لِيَحْيَ جِبْرِيل وَمِيكَائِيل، فَيَحْيَان، ثُمَّ يَدْعُو الله بِالأَرْوَاحِ فَيُؤْتَى بِهَا تَتَوَهَّج أَرْوَاح المُسْلمِينَ نُورًا، وَأَرْوَاح الكَافِرِينَ ظُلمَة، فَيَقْبِضهَا جَمِيعًا، ثُمَّ يُلقِيهَا فِي الصُّور، ثُمَّ يَأْمُر الله إِسْرَافِيل أَنْ يَنْفُخ نَفْخَة البَعْث، فَيَنْفُخ نَفْخَة البَعْث،

فَتَخرُج الأَرْوَاح كَأَنَّهَا النَّحْل قَدْ مَلأَتْ مَا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، فَيَقُول: وَعِزَّتِي وَجَلالي ليَرْجِعَنَّ كُلّ رُوح إلى جَسَده فتَدْخُل الأَرْوَاح فِي الأَرْض إلى الأَجْسَاد، فَتَدْخُل فِي الخَيَاشِيم، ثُمَّ تَمْشِي فِي الأَجْسَاد كَمَا يَمْشِي السُّمّ فِي اللَّدِيغ ثُمَّ تَنْشَقّ الأَرْض عَنْكُمْ، وَأَنَا أَوَّل مَنْ تَنْشَقّ الأَرْض عَنْهُ، فَتَخْرُجُونَ سِرَاعًا إلى رَبِّكُمْ تَنْسِلُونَ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ حُفَاة عُرَاة غُلفًا غُرْلا، فَتَقِفُونَ مَوْقِفًا وَاحِدًا مِقْدَاره سَبْعُونَ عَامًا لا يُنْظَر إِلَيْكُمْ، وَلا يُقْضَى بَيْنَكُمْ فَتَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِع الدُّمُوع، ثُمَّ تَدْمَعُونَ دَمًا وَتَعْرَقُونَ حَتَّى يُلجِّمَكُمْ العَرَق، أَوْ يَبْلُغ الأَذْقَان، وَتَقُولُونَ: مَنْ يَشْفَع لنَا إلى رَبِّنَا، فَيَقْضِي بَيْننَا، فَتَقُولُونَ: مَنْ أَحَقّ بِذَلك مِنْ أَبِيكُمْ آدَم، خَلَقَهُ الله بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحه، وَكَلَّمَهُ قُبُلا، فَتَأْتُونَ آدَم فَتَطْلُبُونَ ذَلكَ إِلَيْهِ، فَيَأْبَى وَيَقُول: مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلكَ فَيَسْتَقْرِءُونَ الأَنْبِيَاء نَبِيًّا نَبِيًّا كُلَّمَا جَاءُوا نَبِيًّا أَبَى عَلَيْهِمْ» قَال رَسُول الله ﷺ: «حَتَّى يَأْتُونِي فَأَنْطَلق إلى الفَحْص فَأَخِرّ سَاجِدًا» قَال أَبُو هُرَيْرَة: يَا رَسُول الله؛ وَمَا الفَحْص؟ قَال: «قُدَّام العَرْش حَتَّى يَبْعَث الله إليَّ مَلَكًا فَيَأْخُذ بِعَضُدِي وَيَرْفَعنِي، فَيَقُول لي: يَا مُحَمَّد، فَأَقُول: نَعَمْ يَا رَبّ، فَيَقُول الله ﷻ: مَا شَأْنك؟ -وَهُوَ أَعْلم- فَأَقُول: يَا رَبّ وَعَدتْنِي الشَّفَاعَة فَشَفِّعْنِي فِي خَلقك فَاقْضِ بَيْنهمْ، قَال الله: قَدْ شَفَّعْتُك، أَنَا آتِيكُمْ أَقْضِي بَيْنكُمْ» قَال رَسُول الله ﷺ: «فَأَرْجِع، فَأَقِف مَعَ النَّاس فَبَيْنَمَا نَحْنُ وُقُوف إِذْ سَمِعْنَا مِنْ السَّمَاء حِسًّا شَدِيدًا فَهَالنَا فنزل أَهْل السَّمَاء الدُّنْيَا بِمِثْليْ مَنْ فِي الأَرْض مِنْ الجِنّ وَالإِنْس حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْ الأَرْض أَشْرَقَتْ الأَرْض بِنُورِهِمْ وَأَخَذُوا مَصَافّهمْ، وَقُلنَا لهُمْ: أَفِيكُمْ رَبّنَا؟ قَالُوا: لا، وَهُوَ آتٍ، ثُمَّ يَنْزِل أَهْل السَّمَاء الثَّانِيَة بِمِثْليْ مَنْ نَزَل مِنْ المَلائِكَة وَبِمِثْليْ مَنْ فِيهَا مِنْ الجِنّ وَالإِنْس، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْ الأَرْض، أَشْرَقَتْ الأَرْض بِنُورِهِمْ، وَأَخَذُوا مَصَافّهمْ، وَقُلنَا لهُمْ: أَفِيكُمْ رَبّنَا ؟ فَيَقُولُونَ: لا وَهُوَ آتٍ. ثُمَّ يَنْزِلُونَ عَلى قَدْر ذَلكَ مِنْ التَّضْعِيف، حَتَّى يَنْزِل الجَبَّار ﷻ فِي ظُلل مِنْ الغَمَام وَالمَلائِكَة، وَيَحْمِل عَرْشه يَوْمئِذٍ ثَمَانِيَة -وَهُمْ اليَوْم أَرْبَعَة- أَقْدَامهمْ فِي تُخُوم الأَرْض السُّفْلى وَالأَرْض وَالسَّمَوَات إلى حُجْزَتهمْ، وَالعَرْش عَلى مَنَاكِبهمْ، لهُمْ زَجَل فِي تَسْبِيحهمْ يَقُولُونَ: سُبْحَان ذِي العَرْش وَالجَبَرُوت، سُبْحَان ذِي المُلك وَالمَلكُوت، سُبْحَان الحَيّ الَّذِي لا يَمُوت، سُبْحَان الَّذِي يُمِيت الخَلائِق وَلا يَمُوت، سَبُّوح قُدُّوس قُدُّوس قُدُّوس، سُبْحَان رَبّنَا الأَعْلى، رَبّ المَلائِكَة وَالرُّوح، سُبْحَان رَبّنَا الأَعْلى الَّذِي يُمِيت الخَلائِق وَلا يَمُوت، فَيَضَع الله كُرْسِيّه حَيْثُ يَشَاء مِنْ أَرْضه ثُمَّ يَهْتِف بِصَوْتِهِ: يَا مَعْشَر الجِنّ وَالإِنْس إِنِّي قَدْ أَنْصَتّ لكُمْ مُنْذُ خَلقْتُكُمْ إلى يَوْمكُمْ هَذَا، أَسْمَع قَوْلكُمْ وَأُبْصِر أَعْمَالكُمْ، فَأَنْصِتُوا إِليَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالكُمْ وَصُحُفكُمْ تُقْرَأ عَليْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَليَحْمَدْ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْر ذَلك فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسه، ثُمَّ يَأْمُر الله جَهَنَّم، فَيَخْرُج مِنْهَا عُنُق سَاطِع، ثُمَّ يَقُول: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ -أَوْ: بِهَا تُكَذِّبُونَ. شَكَّ أَبُو عَاصِم- ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فَيَمِيز الله النَّاس وَتَجْثُو الأُمَم. يَقُول الله تَعَالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَيَقْضِي الله ﷻ بَيْن خَلقه إلا الثَّقَليْن: الجِنّ وَالإِنْس، فَيَقْضِي بَيْن الوُحُوش وَالبَهَائِم، حَتَّى إِنَّهُ ليقتص للجَمَّاءِ مِنْ ذَات القَرْن، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ ذَلكَ، فَلمْ تَبْقَ تَبِعَة عِنْد وَاحِدَة للأُخْرَى، قَال الله لهَا: كُونِي تُرَابًا، فَعِنْد ذَلكَ يَقُول الكَافِر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ ثُمَّ يَقْضِي الله بَيْن العِبَاد، فَكَانَ أَوَّل مَا يَقْضِي فِيهِ الدِّمَاء، وَيَأْتِي كُلّ قَتِيل فِي سَبِيل الله، وَيَأْمُر الله ﷻ كُلّ قَتِيلٍ فَيَحْمِل رَأْسه تَشْخَب أَوْدَاجه، فَيَقُول: يَا رَبّ فِيمَ قَتَلنِي هَذَا؟ فَيَقُول -وَهُوَ أَعْلم-: فِيمَ قَتَلتهم؟ فَيَقُول: قَتَلتهمْ لتَكُونَ العِزَّة لك، فَيَقُول الله لهُ: صَدَقْت،

فَيَجْعَل الله وَجْهه مِثْل نُور الشَّمْس، ثُمَّ تَمُرّ بِهِ المَلائِكَة إلى الجنَّة، ثُمَّ يَأْتِي كُلّ مَنْ قُتِل على غَيْر ذَلكَ يَحْمِل رَأْسه وَتَشْخَب أَوْدَاجه، فَيَقُول: يَا رَبّ فِيمَ قَتَلنِي هَذَا؟ فَيَقُول -وَهُوَ أَعْلم-: لمَ قَتَلتهمْ؟ فَيَقُول: يَا رَبّ قَتَلتهمْ لتَكُونَ العِزَّة لك وَلي، فَيَقُول: تَعِسْت، ثُمَّ لا تَبْقَى نَفْس قَتَلهَا إلا قُتِل بهَا، وَلا مَظْلمَة ظَلمَهَا إلا أُخِذَ بهَا، وَكَانَ فِي مَشِيئَة الله إنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ رَحِمَهُ. ثُمَّ يَقْضِي الله تَعَالى بَيْن مَنْ بَقِيَ مِنْ خَلقه، حَتَّى لا تَبْقَى مَظْلمَة لأَحَدٍ عِنْد أَحَد إلا أَخَذَهَا الله للمَظْلُومِ مِنْ الظَّالم، حَتَّى إنَّهُ ليُكَلِّف شَائِب اللَّبَن بالمَاءِ ثُمَّ يَبِيعهُ أَنْ يُخَلِّص اللَّبَن مِنْ المَاء. فَإِذَا فَرَغَ الله مِنْ ذَلكَ نَادَى مُنَادٍ يُسْمِع الخَلائِق كُلّهمْ: أَلا ليَلحَق كُلّ قَوْم بآلهَتِهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله، فَلا يَبْقَى أَحَد عَبْد مِنْ دُون الله إلا مُثِّلَتْ لهُ آلهَته بَيْن يَدَيْهِ، وَيَجْعَل يَوْمئِذٍ مَلَك مِنْ المَلائِكَة على صُورَة عُزَيْر وَيَجْعَل مَلَك مِنْ المَلائِكَة على صُورَة عِيسَى ابْن مَرْيَم، ثُمَّ يَتْبَع هَذَا اليَهُود، وَهَذَا النَّصَارَى، ثُمَّ قَادَتْهُمْ آلهتهمْ إلى النَّار، وَهُوَ الَّذِي يَقُول: ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فَإِذَا لمْ يَبْقَ إلا المُؤْمِنُونَ فِيهِمْ المُنَافِقُونَ، جَاءَهُمْ الله فِيمَا شَاءَ مِنْ هَيْئَته، فَقَال: يَا أَيّهَا النَّاس ذَهَبَ النَّاس فَالحَقُوا بآلهَتِكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُون. فَيَقُولُونَ: وَالله؛ مَا لنَا إله إلا الله، وَمَا كُنَّا نَعْبُد غَيْره، فَيَنْصَرِف عَنْهُمْ، وَهُوَ الله الَّذِي يَأْتِيهِمْ، فَيَمْكُث مَا شَاءَ الله أَنْ يَمْكُث، ثُمَّ يَأْتِيهِمْ فَيَقُول: يَا أَيّهَا النَّاس ذَهَبَ النَّاس، فَالحَقُوا بآلهَتِكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. فَيَقُولُونَ: وَالله؛ مَا لنَا إله إلا الله وَمَا كُنَّا نَعْبُد غَيْره، فَيَكْشِف لهُمْ عَنْ سَاقه، وَيَتَجَلَّى لهُمْ مِنْ عَظَمَته، مَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ رَبّهمْ، فَيَخِرُّونَ للأَذْقَان سُجَّدًا على وُجُوههمْ، وَيَخِرّ كُلّ مُنَافِق على قَفَاهُ، وَيَجْعَل الله أَصْلابهمْ كَصَيَاصِي البَقَر ثُمَّ يَأْذَن الله لهُمْ فَيَرْفَعُونَ، وَيَضْرِب الله الصِّرَاط بَيْن ظَهْرَانَيْ جَهَنَّم كَحَدِّ الشَّفْرَة أَوْ كَحَدِّ السَّيْف، عليْهِ كَلاليب وَخَطَاطِيف، وَحَسَك كَحَسَكِ السَّعْدَان، دُونه جِسْر دَحْض مُزِلَّة، فَيَمُرُّونَ كَطَرَفِ العَيْن، أَوْ كَلمْحِ البَرْق، أَوْ كَمَرِّ الرِّيح، أَوْ كَجِيَادِ الخَيْل، أَوْ كَجِيَادِ الرِّكَاب، أَوْ كَجِيَادِ الرِّجَال، فَنَاجٍ سَالم، وَنَاجٍ مَخْدُوش وَمُكَرْدَس على وَجْهه فِي جَهَنَّم، فَإِذَا أَفْضَى أَهْل الجنَّة إلى الجنَّة، قَالُوا: مَنْ يَشْفَع لنَا إلى رَبّنَا فَنَدْخُل الجنَّة؟ فَيَقُولُونَ: مَنْ أَحَقّ بذَلكَ مِنْ أَبيكُمْ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَلقَهُ الله بيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحه، وَكَلَّمَهُ قُبُلا، فَيَأْتُونَ آدَم، فَيُطْلَب ذَلكَ إليْهِ، فَيَذْكُر ذَنْبًا، وَيَقُول: مَا أَنَا بصَاحِبِ ذَلكَ، وَلكِنْ عليْكُمْ بنُوحٍ، فَإِنَّهُ أَوَّل رُسُل الله، فَيُؤْتَى نُوح، فَيُطْلَب ذَلكَ إليْهِ، فَيَذْكُر ذَنْبًا، وَيَقُول: مَا أَنَا بصَاحِبِ ذَلكَ، وَيَقُول: عليْكُمْ بإبْرَاهِيم، فَإِنَّ الله اتَّخَذَهُ خَليلا، فَيُؤْتَى إبْرَاهِيم، فَيُطْلَب ذَلكَ إليْهِ، فَيَذْكُر ذَنْبًا، وَيَقُول: مَا أَنَا بصَاحِبِ ذَلكَ، وَيَقُول: عليْكُمْ بمُوسَى، فَإِنَّ الله قَرَّبَهُ نَجِيًا، وَكَلَّمَهُ، وَأَنْزَل عليْهِ التَّوْرَاة، فَيُؤْتَى مُوسَى، فَيُطْلَب ذَلكَ إليْهِ، فَيَذْكُر ذَنْبًا، وَيَقُول: لسْت بصَاحِبِ ذَلكَ وَلكِنْ عليْكُمْ برُوحِ الله وَكَلمَته عِيسَى ابْن مَرْيَم، فَيُؤْتَى عِيسَى ابْن مَرْيَم، فَيُطْلَب ذَلكَ إليْهِ، فَيَقُول: مَا أَنَا بصَاحِبكُمْ، وَلكِنْ عليْكُمْ بمُحَمَّدٍ، قَال رَسُول الله ﷺ: فَيَأْتُونِي وَلي عِنْد رَبِّي ثَلاث شَفَاعَات وَعَدَنِيهِنَّ، فَأَنْطَلق، فَآتِي الجنَّة، فَآخُذ بحَلقَةِ البَاب، فَأَسْتَفْتِح، فَيُفْتَح لي، فَأُحَيَّا وَيُرَحَّب بي، فَإِذَا دَخَلت الجنَّة فَنَظَرْت إلى رَبِّي خَرَرْت سَاجِدًا، فَيَأْذَن الله لي مِنْ تَحْمِيده وَتَمْجِيده بشَيْءٍ مَا أَذِنَ بِهِ لأَحَدٍ مِنْ خَلقه. ثُمَّ يَقُول: ارْفَعْ رَأْسَك يَا مُحَمَّد، وَاشْفَعْ تُشَفَّع، وَسَل تُعْطَهُ، فَإِذَا رَفَعْت رَأْسِي يَقُول الله -وَهُوَ أَعْلم-: مَا شَأْنك؟ فَأَقُول: يَا رَبّ وَعَدْتنِي الشَّفَاعَة فَشَفِّعْنِي فِي أَهْل الجنَّة، فَيَدْخُلُونَ الجنَّة، فَيَقُول الله: قَدْ شَفَّعْتُك، وَقَدْ أَذِنْت لهُمْ فِي دُخُول الجنَّة، وَكَانَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا بأَعْرَف بأَزْوَاجِكُمْ وَمَسَاكِنكُمْ مِنْ أَهْل الجنَّة بأَزْوَاجِهِمْ وَمَسَاكِنهمْ، فَيَدْخُل كُلّ رَجُل مِنْهُمْ على اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَة سَبْعِينَ مِمَّا يُنْشِئ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَاثْنَتَيْنِ

آدميَّتَيْنِ مِنْ وَلد آدم لهُمَا فَضْل عَلى مَنْ أنشأَ الله لعِبَادَتِهِمَا الله فِي الدُّنْيَا، فَيَدْخُل عَلى الأُولى فِي غُرْفَة مِنْ يَاقُوتَة عَلى سَرِير مِنْ ذَهَب مُكَلَّل باللُّؤْلُؤ، عَليْهَا سَبْعُونَ زَوْجًا مِنْ سُنْدُس وإِسْتَبْرَق، ثُمَّ إِنَّهُ يَضَع يَده بَيْن كَتِفَيْهَا، ثُمَّ يَنْظُر إِلى يَده مِنْ صَدْرهَا وَمِنْ وَرَاء ثِيَابهَا وَجِلدهَا وَلحْمهَا، وَإِنَّهُ ليَنْظُر إِلى مُخّ سَاقهَا كَمَا يَنْظُر أحَدكُمْ إِلى السِّلْك فِي قَصَبَة اليَاقُوت كَبِدهَا لهُ مِرْآة وَكَبِده لهَا مِرْآة، فَبَيْنَا هُوَ عِنْدهَا لا يَمَلّهَا وَلا تَمَلّهُ مَا يَأْتِيهَا مِنْ مَرَّة إِلا وَجَدَهَا عَذْرَاء، مَا يَفْتُر ذَكَرُهُ، وَمَا يَشْتَكِي قُبُلهَا، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلك إِذْ نُودِيَ: إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا أَنَّك لا تَمَلّ وَلا تُمَلّ إِلا أَنَّهُ لا مَنِيّ وَلا مَنِيَّة إِلا أَنَّ لك أَزْوَاجًا غَيْرهَا، فَيَخْرُج، فَيَأْتِيهِنَّ وَاحِدَة وَاحِدَة، كُلَّمَا أَتَى وَاحِدَة قَالتْ لهُ: وَالله مَا أَرَى فِي الجَنَّة شَيْئًا أَحْسَن مِنْك وَلا فِي الجَنَّة شَيْء أَحَبّ إِليَّ مِنْك. وَإِذَا وَقَعَ أَهْل النَّار فِي النَّار: وَقَعَ فِيهَا خَلق مِنْ خَلق رَبّك أَوْبَقَتْهُمْ أَعْمَالهمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذ النَّار قَدَمَيْهِ لا تُجَاوِز ذَلك، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذهُ إِلى أَنْصَاف سَاقَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذهُ إِلى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذهُ إِلى حِقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذ جَسَده كُلّه إِلا وَجْهه، حَرَّمَ الله صُورَته عَليْهَا، قَال رَسُول الله ﷺ: فَأَقُول يَا رَبّ شَفِّعْنِي فِيمَنْ وَقَعَ فِي النَّار مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُول: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَيَخْرُج أُولئِك حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَد ثُمَّ يَأْذَن الله فِي الشَّفَاعَة، فَلا يَبْقَى نَبِيّ وَلا شَهِيد إِلا شَفَّعَ، فَيَقُول الله: أَخْرِجُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلبه زِنَة دِينَار إِيمَانًا فَيَخْرُج أُولئِك حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَد، ثُمَّ يَشْفَع الله، فَيَقُول: أَخْرِجُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلبه إِيمَانًا ثُلُثَيْ دِينَار ثُمَّ يَقُول: ثُلُث دِينَار، ثُمَّ يَقُول: رُبُع دِينَار، ثُمَّ يَقُول: قِيرَاطًا، ثُمَّ يَقُول: حَبَّة مِنْ خَرْدَل، فَيَخْرُج أُولئِك حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَد، وَحَتَّى لا يَبْقَى فِي النَّار مَنْ عَمِل لله خَيْرًا قَطُّ، وَلا يَبْقَى أَحَد لهُ شَفَاعَة إِلا شُفِّعَ، حَتَّى إِنَّ إِبْليس يَتَطَاوَل مِمَّا يَرَى مِنْ رَحْمَة الله رَجَاء أَنْ يَشْفَع لهُ. ثُمَّ يَقُول: بَقِيت وَأَنَا أَرْحَم الرَّاحِمِينَ، فَيُدْخِل يَده فِي جَهَنَّم، فَيُخْرِج مِنْهَا مَا لا يُحْصِيه غَيْره كَأَنَّهُمْ حُمَم فَيُلقَوْنَ عَلى نَهَر يُقَال لهُ: نَهَر الحَيَوَان، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُت الحِبَّة فِي حَمِيل السَّيْل فَمَا يَلِي الشَّمْس مِنْهَا أُخَيْضِر، وَمَا يَلِي الظِّلّ مِنْهَا أُصَيْفِر، فَيَنْبُتُونَ كَنَبَاتِ الطَّرَاثِيث حَتَّى يَكُونُوا أَمْثَال الذَّرّ مَكْتُوب فِي رِقَابهمْ الجَهَنَّمِيُّونَ عُتَقَاء الرَّحْمَن يَعْرِفهُمْ أَهْل الجَنَّة بِذَلك الكِتَاب مَا عَمِلُوا خَيْرًا لله قَطُّ، فَيَمْكُثُونَ فِي الجَنَّة مَا شَاءَ الله وَذَلك الكِتَاب فِي رِقَابهمْ ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا امْحُ عَنَّا هَذَا الكِتَاب فَيَمْحُوهُ الله ﷻ عَنْهُمْ»[(١)].

هَذَا حَدِيث مَشْهُور وَهُوَ غَرِيب جِدًّا، وَلبَعْضِهِ شَوَاهِد فِي الأَحَادِيث المُتَفَرِّقَة، وَفِي بَعْض أَلفَاظه نَكَارَة، تَفَرَّدَ بِهِ إِسْمَاعِيل بْن رَافِع قَاص أَهْل المَدِينَة، وَقَدْ اخْتُلفَ فِيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ وَثَّقَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ ضَعَّفَهُ وَنَصَّ عَلى نَكَارَة حَدِيثه غَيْر وَاحِد مِنْ الأَئِمَّة كَأَحْمَد بْن حَنْبَل، وَأَبِي حَاتِم الرَّازِيّ، وَعَمْرو بْن عَليّ الفَلَّاس وَمِنْهُمْ مَنْ قَال فِيهِ: هُوَ مَتْرُوك، وَقَال ابْن عَدِيّ: أَحَادِيثه كُلّهَا فِيهَا نَظَر، إِلَّا أَنَّهُ يُكْتَب حَدِيثه فِي جُمْلة الضُّعَفَاء.

قُلت: وَقَدْ اخْتُلفَ عَليْهِ فِي إِسْنَاد هَذَا الحَدِيث عَلى وُجُوه كَثِيرَة، قَدْ أَفْرَدْتهَا فِي جُزْء عَلى حِدَة، وَأَمَّا سِيَاقه فَغَرِيب جِدًّا، وَيُقَال: إِنَّهُ جَمَعَهُ مِنْ أَحَادِيث كَثِيرَة وَجَعَلهُ سِيَاقًا وَاحِدًا، فَأُنْكِرَ عَليْهِ بِسَبَبِ ذَلكَ، وَسَمِعْت شَيْخنَا الحَافِظ أَبَا الحَجَّاج المِزِّيّ يَقُول: إِنَّهُ رَأَى للوَليد بْن مُسْلم مُصَنَّفًا قَدْ جمع فيه كل الشواهد لبَعْضِ مُفْرَدَات هَذَا الحَدِيث فَالله أَعْلم.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا

---

(١) ضعيف: تقدم.

رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قَال الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس: إِنَّ أَبَا إِبْرَاهِيم لَمْ يَكُنْ اسْمه آزَرَ، وَإِنَّمَا كَانَ اسْمه تَارِح. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَمْرو بْن أَبِي عَاصِم النَّبِيل، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِم، أنا شُبَيْب، حَدَّثَنَا عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ يَعْنِي: بِآزَر الصَّنَم، وَأَبُو إِبْرَاهِيم اسْمه تَارِح، وَأُمّه اسْمهَا مثاني، وَامْرَأَته اسْمهَا سَارَّة، وَأُمّ إِسْمَاعِيل اسْمهَا هَاجَرَ، وَهِيَ سُرِّيَّة إِبْرَاهِيم. وَهَكَذَا قَال غَيْر وَاحِد مِنْ عُلَمَاء النَّسَب إِنَّ اسْمه تَارِح، وَقَال مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ: آزَرَ اسْم صَنَم.

قُلت: كَأَنَّهُ غَلبَ عَلَيْهِ آزَرَ لِخِدْمَتِهِ ذَلِكَ الصَّنَم، فَالله أَعْلم.

وَقَال ابْن جَرِير وَقَال آخَرُونَ: هُوَ سَبّ وَعَيْب بِكَلامِهِمْ وَمَعْنَاهُ مُعْوَجّ، وَلَمْ يُسْنِدهُ وَلا حَكَاهُ عَنْ أَحَد. وَقَدْ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ مُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان: سَمِعْت أَبِي يَقْرَأ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ قَال: بَلَغَنِي أَنَّهَا أَعْوَج، وَأَنَّهَا أَشَدّ كَلِمَة قَالهَا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ قَال ابْن جَرِير: وَالصَّوَاب أَنَّ اسْم أَبِيهِ آزَرَ، ثُمَّ أَوْرَدَ عَلَى نَفْسه قَوْل النَّسَّابِينَ أَنْ اسْمه تَارِح، ثُمَّ أَجَابَ بِأَنَّهُ قَدْ يَكُون لَهُ اسْمَانِ كَمَا لِكَثِيرٍ مِنْ النَّاس، أَوْ يَكُون أَحَدهمَا لَقَبًا، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ جَيِّد قَوِيّ، وَالله أَعْلم.

وَاخْتَلَفَ الْقُرَّاء فِي أَدَاء قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ فَحَكَى ابْن جَرِير عَنْ الْحَسَن الْبَصْرِيّ وَأَبِي يَزِيد الْمَدَنِيّ: أَنَّهُمَا كَانَا يَقْرَآنِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرُ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ مَعْنَاهُ: يَا آزَرُ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَة. وَقَرَأَ الْجُمْهُور بِالْفَتْحِ، إِمَّا عَلَى أَنَّهُ عَلَم أَعْجَمِيّ لا يَنْصَرِف وَهُوَ بَدَل مِنْ قَوْله: ﴿لِأَبِيهِ﴾، أَوْ عَطْف بَيَان، وَهُوَ أَشْبَه. وَعَلَى قَوْل مَنْ جَعَلَهُ نَعْتًا لا يَنْصَرِف أَيْضًا كَأَحْمَر وَأَسْوَد، فَأَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مَنْصُوب لِكَوْنِهِ مَعْمُولًا لِقَوْلِهِ: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ تَقْدِيره: يَا أَبَت أَتَتَّخِذُ آزَرَ أَصْنَامًا آلِهَة، فَإِنَّهُ قَوْل بَعِيد فِي اللُّغَة؛ لأن مَا بَعْد حَرْف الاسْتِفْهَام لا يَعْمَل فِيمَا قَبْله، لأَنَّ لَهُ صَدْر الكَلام. كَذَا قَرَّرَهُ ابْن جَرِير وَغَيْره، وَهُوَ مَشْهُور فِي قَوَاعِد الْعَرَبِيَّة.

وَالمَقْصُود: أَنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَظَ أَبَاهُ فِي عِبَادَة الأَصْنَام، وَزَجَرَهُ عَنْهَا وَنَهَاهُ فَلَمْ يَنْتَهِ، كَمَا قَال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ أَيْ: أَتَتَأَلَّهُ لِصَنَم تَعْبُدهُ مِنْ دُون الله ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ أَيْ: السَّالِكِينَ مَسْلَكك ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: تَائِهِينَ لا يَهْتَدُونَ أَيْنَ يَسْلُكُونَ، بَل فِي حِيرَة وَجَهْل، وَأَمْرُكُمْ فِي الجَهَالَة وَالضَّلال بَيِّن وَاضِح لِكُلِّ ذِي عَقْل صَحِيح.

وَقَال تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ فَكَانَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْتَغْفِر لأَبِيهِ مُدَّة حَيَاته، فَلَمَّا مَاتَ عَلَى الشِّرْك، وَتَبَيَّنَ إِبْرَاهِيم ذَلِكَ رَجَعَ عَنْ الاسْتِغْفَار لَهُ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ، قَال تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيح: «**أَنَّ إِبْرَاهِيم يَلقَى أَبَاهُ آزَرَ يَوْم القِيَامَة، فَيَقُول لهُ آزَرَ: يَا بُنَيَّ اليَوْم لا أَعْصِيك، فَيَقُول إِبْرَاهِيم: أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَعِدنِي أَنَّك لا تُخْزِنِي يَوْم يُبْعَثُون، وَأَيّ خِزْي أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَد؟ فَيُقَال: يَا إِبْرَاهِيم انْظُرْ مَا وَرَاءَك، فَإِذَا هُوَ بِذِيخ مُتَلطِّخ فَيُؤْخَذ بِقَوَائِمِهِ فَيُلقَى فِي النَّار**»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٥٠).

وَقَوْله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ: نُبَيِّن لهُ وَجْه الدَّلالة فِي نَظَره إِلى خَلقهمَا، عَلى وَحْدَانِيَّة الله ﷻ فِي مُلكه وَخلقه، وَأَنَّهُ لا إِله غَيْره وَلا رَبّ سِوَاهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وَقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وَقال: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾. وَأَمَّا مَا حَكَاهُ ابْن جَرِير وَغَيْره: عَنْ مُجَاهِد وَعَطَاء وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالسُّدِّيّ وَغَيْرهمْ. قَالُوا -وَاللَّفْظ لُمجَاهِدٍ-: فُرِّجَتْ لهُ السَّمَوَات فَنَظَرَ إِلى مَا فِيهِنَّ، حَتَّى انْتَهَى بَصَره إِلى العَرْش، وَفُرِّجَتْ لهُ الأَرْضُونَ السَّبْع فَنَظَرَ إِلى مَا فِيهِنَّ. وَزَادَ غَيْره: فَجَعَل يَنْظُر إِلى العِبَاد عَلى المَعَاصِي وَيَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَقَال الله لهُ: إِنِّي أَرْحَم بِعِبَادِي مِنْك، لعَلَّهُمْ أَنْ يَتُوبُوا أَوْ يَرْجِعُوا. وَقد رَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ فِي ذَلكَ حَدِيثَيْنِ مَرْفُوعَيْنِ عَنْ مُعَاذ وَعَلِيّ، وَلكِنْ لا يَصِحّ إِسْنَادهمَا، وَالله أَعْلم.

وَرَوَى ابْن أَبِي حَاتِم: مِنْ طَرِيق العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ فَإِنَّهُ تَعَالى جَلَّى لهُ الأَمْر سِرّه وَعَلانِيَته، فَلمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْء مِنْ أَعْمَال الخَلائِق، فَلمَّا جَعَل يَلعَن أَصْحَاب الذُّنُوب، قَال الله: إِنَّك لا تَسْتَطِيع هَذَا. فَرَدَّهُ الله كَمَا كَانَ قَبْل ذَلكَ، فَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون هَذا كَشَفَ لهُ عَنْ بَصَره حَتَّى رَأَى ذَلكَ عِيَانًا، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون عَنْ بَصِيرَته حَتَّى شَاهَدَهُ بِفُؤَادِهِ وَتَحَقَّقَهُ وَعَرَفَهُ، وَعَلم مَا فِي ذَلكَ مِنْ الحِكَم البَاهِرَة وَالدَّلالات القَاطِعَة، كَمَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ: عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل فِي حَدِيث المَنَام: «**أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَن صُورَة، فَقَال: يَا مُحَمَّد، فِيمَ يَخْتَصِم المَلأ الأَعْلى؟ فَقُلت: لا أَدْرِي يَا رَبّ، فَوَضَعَ كَفَّه بَيْن كَتِفِي، حَتَّى وَجَدْت بَرْد أَنَامِله بَيْن ثَدْيَيَّ، فَتَجَلَّى لِي كُلّ شَيْء وَعَرَفْت**»[1]. وَذَكَرَ الحَدِيث.

وَقَوْله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ قِيل: الوَاو زَائِدَة، تَقْدِيره: وَكَذَلكَ نُرِي إِبْرَاهِيم مَلكُوت السَّمَوَات وَالأَرْض لِيَكُونَ مِنْ المُوقِنِينَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾، وَقِيل: بَل هِيَ عَلى بَابهَا، أَيْ: نُرِيه ذَلكَ لِيَكُونَ عَالمًا وَمُوقِنًا. وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ أَيْ: تَغَشَّاهُ وَسَتَرَهُ ﴿رَءَا كَوْكَبًا ﴾ أَيْ: نَجْمًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ أَيْ: غَابَ، قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار: الأُفُول: الذَّهَاب. وَقَال ابْن جَرِير: يُقَال: أَفَل النَّجْم يَأْفِل، وَيَأْفُل أُفُولًا وَأَفَلا، إِذَا غَاب، وَمِنْهُ قَوْل ذِي الرُّمَّة:

مَصَابِيح لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودهَا ❁ نُجُومٌ وَلا بِالآفِلاتِ الدَّوَالِكِ

وَيُقَال: أَيْنَ أَفَلتَ عَنَّا؟ بِمَعْنَى: أَيْنَ غِبْت عَنَّا. قَال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴾ قَال قَتَادَة: عَلمَ أَنَّ رَبّه دَائِم لا يَزُول ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أَيْ: طَالعًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ أَيْ: هَذَا المُنِير الطَّالع رَبِّي ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ أَيْ: جُرْمًا مِنْ النَّجْم وَمِنْ القَمَر وَأَكْثَر إِضَاءَة ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾ أَيْ: غَابَتْ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ أَيْ: أَخْلصْت دِينِي وَأَفْرَدْت عِبَادَتِي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ: خَلقَهُمَا وَابْتَدَعَهُمَا عَلى غَيْر مِثَال سَبَقَ ﴿حَنِيفًا ﴾ أَيْ: فِي حَال كَوْنِي حَنِيفًا، أَيْ: مَائِلا عَنْ الشِّرْك إِلى التَّوْحِيد، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وَقَدْ اخْتَلفَ المُفَسِّرُونَ فِي هَذَا المَقَام؛ هَل هُوَ مَقَام نَظَر أَوْ مُنَاظَرَة؟ فَرَوَى ابْن جَرِير: مِنْ طَرِيق عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس مَا يَقْتَضِي أَنَّهُ مَقَام نَظَر، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِهِ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٣٤) من حديث ابن عباس، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٩٠) من حديث أبي أمامة، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٨١).

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: قَال ذَلِكَ حِين خَرَجَ مِنْ السَّرَب الَّذِي وَلَدَتْهُ فِيهِ أُمه، حِين تَخَوَّفَتْ عَلَيْهِ مِنْ نَمْرُود ابْن كَنْعَان، لَمَّا كَانَ قَدْ أُخْبِرَ بِوُجُودِ مَوْلُود يَكُون ذَهَاب مُلكه عَلى يَدَيْهِ، فَأَمَرَ بِقَتْل الغِلمَان عَامَئِذٍ، فَلَمَّا حَمَلَتْ أُمّ إِبْرَاهِيم بِهِ وَحَانَ وَضْعهَا، ذَهَبَتْ بِهِ إِلى سَرَب ظَاهِر البَلَد، فَوَلَدَتْ فِيهِ إِبْرَاهِيم وَتَرَكَتْهُ هُنَاكَ، وَذَكَرَ أَشْيَاء مِنْ خَوَارِق العَادَات، كَمَا ذَكَرَهَا غَيْره مِنْ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ السَّلَف وَالخَلَف. وَالحَقّ أَنَّ إِبْرَاهِيم -عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام- كَانَ فِي هَذَا الْمَقَام مُنَاظِرًا لقَوْمِهِ، مُبَيِّنًا لَهُمْ بُطْلان مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَة الهَيَاكِل وَالأَصْنَام، فَبَيَّنَ فِي الْمَقَام الأَوَّل مَعَ أَبِيهِ خَطَأَهُمْ فِي عِبَادَة الأَصْنَام الأَرْضِيَّة، الَّتِي هِيَ عَلى صُوَر الْمَلائِكَة السَّمَاوِيَّة لِيَشْفَعُوا لَهُمْ إِلى الخَالق العَظِيم، الَّذِي هُمْ عِنْد أَنْفُسهمْ أَحْقَر مِنْ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَإِنَّمَا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ بِعِبَادَةِ مَلائِكته، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْده فِي الرِّزْق وَالنَّصْر، وَغَيْر ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. وَبَيَّنَ فِي هَذَا الْمَقَام خَطَأَهُمْ وَضَلالهمْ فِي عِبَادَة الهَيَاكِل: وَهِيَ الكَوَاكِب السَّيَّارَة السَّبْعَة الْمُتَحَيِّرَة، وَهِيَ: القَمَر، وَعُطَارِد، وَالزُّهَرَة، وَالشَّمْس، وَالمِرِّيخ، وَالْمُشْتَرَى، وَزُحَل، وَأَشَدّهنَّ إِضَاءَة وَأَشْرَفهنَّ عِنْدهمْ: الشَّمْس، ثُمَّ القَمَر، ثُمَّ الزُّهَرَة، فَبَيَّنَ أَوَّلًا صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ: أَنَّ هَذِهِ الزُّهَرَة لا تَصْلُح للإِلَهِيَّة، لأنها مُسَخَّرَة مُقَدَّرَة بِسَيْرٍ مُعَيَّن لا تَزِيغ عَنْهُ يَمِينًا وَلا شِمَالًا، وَلا تَمْلك لنَفْسِهَا تَصَرُّفًا، بَل هِيَ جُرْم مِنْ الأَجْرَام خَلقَهَا الله مُنِيرَة لِمَا لهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الحِكَم العَظِيمَة، وَهِيَ تَطْلُع مِنْ الْمَشْرِق، ثُمَّ تَسِير فِيمَا بَيْنه وَبَيْن الْمَغْرِب حَتَّى تَغِيب عَنْ الأَبْصَار فِيهِ، ثُمَّ تَبْدُو فِي اللَّيْلة القَابِلة عَلى هَذَا الْمِنْوَال وَمِثْل هَذِهِ لا تَصْلُح للإِلَهِيَّة، ثُمَّ انْتَقَل إِلى القَمَر، فَبَيَّنَ فِيهِ مِثْل مَا تقدم فِي النَّجْم، ثُمَّ انْتَقَل إِلى الشَّمْس كَذَلِكَ، فَلَمَّا انْتَفَتْ الإِلَهِيَّة عَنْ هَذِهِ الأَجْرَام الثَّلاثَة الَّتِي هِيَ أَنْوَر مَا تقع عَلَيْهِ الأَبْصَار، وَتَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالدَّلِيل القَاطِع؛ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أَيْ: أَنَا بَرِيء مِنْ عِبَادَتهنَّ وَمُوَالاتهنَّ، فَإِنْ كَانَتْ آلهَة فَكِيدُونِ بِهَا جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونَ ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَعْبُد خَالق هَذِهِ الأَشْيَاء وَمُخْتَرِعهَا وَمُسَخِّرهَا وَمُقَدِّرهَا وَمُدَبِّرهَا، الَّذِي بِيَدِهِ مَلكُوت كُلّ شَيْء وَخَالق كُلّ شَيْء وَرَبّه وَمَليكه وَإِلهه، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وَكَيْفَ يَجُوز أَنْ يَكُون إِبْرَاهِيم نَاظِرًا فِي هَذَا الْمَقَام، وَهُوَ الَّذِي قَال الله فِي حَقّه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ الآيَات، وَقَال تَعَالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْن: عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَال: «**كُلّ مَوْلُود يُولد عَلى الفِطْرَة**»[1]، وَفِي صَحِيح مُسْلم: عَنْ عِيَاض بْن حَمَّار: أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَال: «**قَال الله: إِنِّي خَلقْت عِبَادِي حُنَفَاء**»[2]، وَقَال الله فِي كِتَابه العَزِيز: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ وَمَعْنَاهُ عَلى أَحَد القَوْليْنِ كَقَوْلِهِ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه. فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقّ سَائِر الخَليقَة، فَكَيْفَ يَكُون إِبْرَاهِيم الخَليل -الَّذِي جَعَلهُ الله أُمَّة قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ- نَاظِرًا فِي هَذَا الْمَقَام، بَل هُوَ أَوْلى النَّاس بِالفِطْرَةِ السَّلِيمَة،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٩٣، ١٣١٩، ٤٤٩٧، ٦٢٢٦)، ومسلم (٢٦٥٨).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

وَالسَّجِيَّة الْمُسْتَقِيمَة بَعْد رَسُول الله ﷺ بِلا شَكّ وَلا رَيْب، وَمِمَّا يُؤَيِّد أَنَّهُ كَانَ فِي هَذَا المَقَام مُنَاظِرًا لقَوْمِهِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ مِنْ الشِّرْك لا نَاظِرًا. قَوْله تَعَالَى:

﴿ وَحَاجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيله إِبْرَاهِيم، حِين جَادَلَهُ قَوْمه فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ التَّوْحِيد، وَنَاظَرُوهُ بِشُبَهٍ مِنْ القَوْل، أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ أَيْ: تُجَادِلُونَنِي فِي أَمْر الله وَأَنَّهُ لا إِله إِلَّا هُوَ، وَقَدْ بَصَّرَنِي وَهَدَانِي إِلَى الحَقّ، وَأَنَا عَلَى بَيِّنَة مِنْهُ، فَكَيْفَ أَلْتَفِت إِلَى أَقْوَالكُمْ الفَاسِدَة وَشُبَهكُمْ البَاطِلَة. وَقَوْله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ أَيْ: وَمِنْ الدَّلِيل عَلَى بُطْلان قَوْلكُمْ فِيمَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ: أَنَّ هَذِهِ الآلِهَة الَّتِي تَعْبُدُونَهَا لا تُؤَثِّر شَيْئًا، وَأَنَا لا أَخَافهَا وَلا أُبَالِيهَا، فَإِنْ كَانَ لَهَا صُنْع فَكِيدُونِي بِهَا وَلا تُنْظِرُونِ، بَل عَاجِلُونِي بِذَلِكَ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ اسْتِثْنَاء مُنْقَطِع، أَيْ: لا يَضُرّ وَلا يَنْفَع إِلَّا الله ﷻ. ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾ أَيْ: أَحَاطَ عِلْمه بِجَمِيعِ الأَشْيَاء فَلا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ: فِيمَا بَيَّنْته لكُمْ، فتَعْتَبِرُونَ أَنَّ هَذِهِ الآلِهَة بَاطِلَة فَتَنْزَجِرُوا عَنْ عِبَادَتهَا، وَهَذِهِ الحُجَّة نَظِير مَا احْتَجَّ بِهَا نَبِيّ الله هُود عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمه عَاد، فِيمَا قَصَّ عَنْهُمْ فِي كِتَابه حَيْثُ يَقُول: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ أَيْ: كَيْفَ أَخَاف مِنْ هَذِهِ الأَصْنَام الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُون الله: ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف: أَيْ: حُجَّة وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾، وَقَوْله: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أَيْ: فَأَيّ الطَّائِفَتَيْنِ أَصْوَب: الَّذِي عَبَدَ مَنْ بِيَدِهِ الضُّرّ وَالنَّفْع، أَوْ الَّذِي عَبَدَ مَنْ لا يَضُرّ وَلا يَنْفَع بِلا دَلِيل، أَيّهمَا أَحَقّ بِالأَمْنِ مِنْ عَذَاب الله يَوْم القِيَامَة؟ قَال الله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أَيْ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا العِبَادَة لله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، هُمْ الآمِنُونَ يَوْم القِيَامَة، الْمُهْتَدُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ شُعْبَة، عَنْ سُلَيْمَان، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَلْقَمَة، عَنْ عَبْد الله، قَال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ قَال أَصْحَابه: وَأَيّنَا لَمْ يَظْلِم نَفْسه؟ فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَلْقَمَة، عَنْ عَبْد الله قَال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاس، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، أَيّنَا لَمْ يَظْلِم نَفْسه؟ قَال: «**إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَال العَبْد الصَّالِح:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ **إِنَّمَا هُوَ الشِّرْك**»[1].

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا وَكِيع وَابْن إِدْرِيس، عَنْ الأَعْمَش، عن إِبْرَاهِيم، عَنْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (١٢٤)، وأحمد (١/ ٣٧٨).

عَلقَمَة، عَنْ عَبْد الله قَال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلكَ عَلى أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ، قَالُوا: وَأَيّنَا لمْ يَظْلم نَفْسه؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «ليْسَ كمَا تَظنُّونَ، إِنَّمَا قَال لقمان لابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». وَحَدَّثَنَا عُمَر بْن شبة النُّمِيرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَلقَمَة، عَنْ عَبْد الله بن مسعود عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قَال: «بِشِرْكٍ».

قَال: وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق، وَعُمَر، وَأُبَيّ بْن كَعْب، وَسَلمَان، وَحُذَيْفَة، وَابْن عَبَّاس، وَابْن عُمَر، وَعَمْرو بْن شُرَحْبِيل، وَأَبِي عَبْد الرَّحْمَن السُّلمِيّ، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالنَّخَعِيّ، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد نَحْو ذَلكَ، وَقَال ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا الشَّافِعِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن شَدَّاد المَسْمِعِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِم حَدَّثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم عَنْ عَلقَمَة، عَنْ عَبْد الله قَال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قَال رَسُول الله ﷺ: «قِيل لي: أَنْتَ مِنْهُمْ»[1]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن يُوسُف، حَدَّثَنَا أَبُو جُنَاب، عَنْ زَاذَان، عَنْ جَرِير بْن عَبْد الله قَال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ، فَلَمَّا بَرَزْنَا مِنْ المَدِينَة إِذَا رَاكِب يُوضَع نَحْونَا، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «كَأَنَّ هَذَا الرَّاكِب إِيَّاكُمْ يُرِيد» فَانْتَهَى إِليْنَا الرَّجُل فَسَلَّمَ فَرَدَدْنَا عَليْهِ، فَقَال لهُ النَّبِيّ ﷺ: «مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْت؟» قَال: مِنْ أَهْلي وَوَلدِي وَعَشِيرَتِي قَال: «مَا تُرِيد؟» قَال: أُرِيد رَسُول الله ﷺ، قَال: «تعال فَقَدْ أَصَبْته»، قَال: يَا رَسُول الله عَلِّمْنِي مَا الإِيمَان، قَال: «أَنْ تَشْهَد أَنْ لا إِله إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله وَتُقِيم الصَّلاة وَتُؤْتِي الزَّكَاة وَتَصُوم رَمَضَان وَتَحُجّ البَيْت». قَال: قَدْ أَقْرَرْت. قَال: ثُمَّ إِنَّ بَعِيره دَخَلتْ يَده فِي شبكة جِرْذَان فَهَوَى بَعِيره، وَهَوَى الرَّجُل فَوَقَعَ عَلى هَامَته، فَمَاتَ، فَقَال: رَسُول الله ﷺ: «عَليَّ بِالرَّجُل» فَوَثَبَ إِليْهِ عَمَّار بْن يَاسِر وَحُذَيْفَة بْن اليَمَان فَأَقْعَدَاهُ، فَقَالا: يَا رَسُول الله؛ قُبِضَ الرَّجُل، قَال: فَأَعْرَضَ عَنْهُمَا رَسُول الله ﷺ، ثُمَّ قَال لهُمَا رَسُول الله ﷺ: «أَمَا رَأَيْتُمَا إِعْرَاضِي عَنْ الرَّجُل، فَإِنِّي رَأَيْت مَلكَيْنِ يَدُسَّانِ فِي فِيهِ مِنْ ثِمَار الجَنَّة، فَعَلمْت أَنَّهُ مَاتَ جَائِعًا»، ثُمَّ قَال رَسُول الله ﷺ: «هَذَا مِنْ الَّذِينَ قَال الله ﷻ فِيهِمْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ثُمَّ قَال: «دُونكُمْ أَخَاكُمْ» قال: فَاحْتَمَلنَاهُ إِلى المَاء، فَغَسَّلنَاهُ وَحَنَّطْنَاهُ وَكَفَّنَّاهُ، وَحَمَلنَاهُ إِلى القَبْر، فَجَاءَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى جَلسَ عَلى شَفِير القَبْر، فَقَال: «أَلحِدُوا وَلا تَشُقُّوا فَإِنَّ اللَّحْد لنَا وَالشَّقّ لغَيْرِنَا»[2]. ثُمَّ رَوَاهُ أَحْمَد عَنْ أَسْوَد بْن عَامِر، عَنْ عَبْد الحَمِيد بْن جَعْفَر الفَرَّاء، عَنْ ثَابِت، عَنْ زَاذَان، عَنْ جَرِير بْن عَبْد الله. فَذَكَرَ نَحْوه، وَقَال فِيهِ: «هَذَا مِمَّنْ عَمِل قَليلا وَأُجِرَ كَثِيرًا».

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يُوسُف بْن مُوسَى القَطَّان، حَدَّثَنَا مِهْرَان بْن أَبِي عُمَر، حَدَّثَنَا عَليّ بْن عَبْد الأعلى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كُنَّا مَعَ رَسُول الله ﷺ فِي مَسِير سَارَهُ، إِذْ عَرَضَ لهُ أَعْرَابِيّ، فَقَال: يَا رَسُول الله، وَالَّذِي بَعَثَك بِالحَقِّ لقَدْ خَرَجْت مِنْ بِلادِي وَتِلادِي وَمَالي لأَهْتَدِيَ بِهُدَاك، وَآخُذ مِنْ قَوْلك وَمَا بَلغْتُك حَتَّى مَا لي طَعَام إِلَّا مِنْ خَضِر الأَرْض، فَاعْرِضْ عَليَّ، فَعَرَضَ عَليْهِ رَسُول الله ﷺ فَقَبِل، فَازْدَحَمْنَا حَوْله، فَدَخَل خُفّ بَكْره فِي بَيْت جُرْذَان، فَتَرَدَّى الأَعْرَابِيّ فَانْكَسَرَتْ عُنُقه، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «صَدَقَ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ، لقَدْ خَرَجَ مِنْ بِلاده وَتِلاده وَمَاله ليَهْتَدِيَ بِهُدَايَ، وَيَأْخُذ مِنْ قَوْلي وَمَا بَلغنِي، حَتَّى مَا لهُ طَعَام إِلا مِنْ خَضِر الأَرْض، أَسَمِعْتُمْ بِالَّذِي عَمِل قَليلا وَأُجِرَ كَثِيرًا؟ هَذَا مِنْهُمْ، أَسَمِعْتُمْ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَلمْ يَلبِسُوا إِيمَانهمْ بِظُلمٍ أُولئِكَ لهُمْ الأَمْن وَهُمْ مُهْتَدُونَ؟ فَإِنَّ هَذَا مِنْهُمْ». وَفِي

---

(١) ضعيف: فيه محمد بن شداد المسمعي، قال الدارقطني: لا يكتب حديثه، وقال مرة: ضعيف، انظر «الميزان» (٥/ ١٩٩).

(٢) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٣١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠٣)، واللفظ لأحمد.

لفظ قال: «هَذَا عَمِل قَلِيلا وَأُجِرَ كَثِيرًا»[1]. وَرَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن المعلى الكُوفِيّ وَكَانَ نَزَل الرَّيّ، حَدَّثَنَا زِيَاد بْن خَيْثَمَة، عَنْ أَبِي دَاوُد، عَنْ عَبْد الله بْن سَخْبَرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ، وَمُنِعَ فَصَبَرَ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ» وَسَكَتَ، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله مَا لَهُ ؟ قَالَ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2]. وَقَوْله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أَيْ: وَجَّهْنَا حُجَّته على قومه، قَالَ مُجَاهِد وَغَيْره: يَعْنِي بِذَلِكَ قَوْله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَقَدْ صَدَّقَهُ الله وَحَكَمَ لَهُ بِالأَمْن وَالهِدَايَة فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ بَعْد ذَلِكَ كُلّه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾. قُرِئَ بِالإِضَافَةِ وَبِلا إِضَافَة كَمَا فِي سُورَة يُوسُف، وَكِلاهُمَا قَرِيب فِي المَعْنَى.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: حَكِيم فِي أَقْوَاله وَأَفْعَاله، عَلِيم؛ أَيْ: بِمَنْ يَهْدِيه وَمَنْ يُضِلّهُ، وَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الحُجَج وَالبَرَاهِين، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٧﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾

يُخبر تَعَالَى أَنَّهُ وَهَبَ لإِبْرَاهِيم إِسْحَاق بَعْد أَنْ طَعَنَ فِي السِّنّ، وَأَيِس هُوَ وَامْرَأَته سَارَة مِنَ الوَلَد، فَجَاءَتْهُ المَلائِكَة وَهُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى قَوْم لُوط فَبَشَّرُوهُمَا بِإِسْحَاق، فَتَعَجَّبَتْ المَرْأَة مِنْ ذَلِكَ، وَ ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ فَبَشَّرُوهُمَا مَعَ وُجُوده بِنُبُوَّتِهِ، وَبِأَنَّ لَهُ نَسْلًا وَعَقِبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَهَذَا أَكْمَل فِي البِشَارَة، وَأَعْظَم فِي النِّعْمَة. وَقَالَ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أَيْ: وَيُولد لِهَذَا المَوْلُود وَلد فِي حَيَاتِكُمَا، فَتَقَرّ أَعْيُنكُمَا بِهِ كَمَا قَرَّتْ بِوَالِدِهِ، فَإِنَّ الفَرَح بِوَلَدِ الوَلَد شَدِيد لِبَقَاءِ النَّسْل وَالعَقِب، وَلَمَّا كَانَ وَلَد الشَّيْخ وَالشَّيْخَة قَدْ يُتَوَهَّم أَنَّهُ لا يُعَقِّب لِضَعْفِهِ، وَقَعَتْ البِشَارَة بِهِ وَبِوَلَدِهِ بِاسْم يَعْقُوب، الَّذِي فِيهِ اشْتِقَاق العَقِب وَالذُّرِّيَّة، وَكَانَ هَذَا مُجَازَاة لإِبْرَاهِيم عليه السلام، حِين اعْتَزَل قَوْمه وَتَرَكَهُمْ وَنَزَحَ عَنْهُمْ، وَهَاجَرَ مِنْ بِلادهمْ ذَاهِبًا إِلَى عِبَادَة الله فِي الأَرْض، فَعَوَّضَهُ الله ﷻ عَنْ قَوْمه وَعَشِيرَته بِأَوْلادٍ صَالِحِينَ مِنْ صُلبه عَلَى دِينه، لِتَقَرّ بِهِمْ عَيْنه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْله هَدَيْنَاهُ، كَمَا هَدَيْنَاهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ ذُرِّيَّة صَالِحَة، وَكُلّ مِنْهُمَا لَهُ

---

(١) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٩) بسند ضعيف ولكن تشهد له الرواية السابقة.
(٢) ضعيف: فيه عبد الله بن سخبرة: مجهول.

خُصُوصِيَّة عَظِيمَة. أَمَّا نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَإِنَّ الله تَعَالَى لَمَّا أَغْرَقَ أَهْل الأَرْض إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوهُ فِي السَّفِينَة، جَعَلَ الله ذُرِّيَّته هُمْ البَاقِينَ، فَالنَّاس كُلّهمْ مِنْ ذرية نوح، وَأَمَّا الخَلِيل إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَلَمْ يَبْعَث الله ﷻ بَعْده نَبِيًّا إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّته، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أَيْ: وَهَدَيْنَا مِنْ ذُرِّيَّته ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ الآيَة. وَعَوْد الضَّمِير إِلَى نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأَنَّهُ أَقْرَب المَذْكُورِينَ ظَاهِر لا إِشْكَال فِيهِ وَهُوَ اخْتِيَار ابْن جَرِير. وَعَوْده إِلَى إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأَنَّهُ الَّذِي سِيقَ الكَلَام مِنْ أَجْله حَسَن، لكِنْ يُشْكِل على ذلك لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ ذُرِّيَّة إِبْرَاهِيم، بَل هُوَ ابْن أَخِيهِ [هَارَان][1] بْن آزَرَ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَال إِنَّهُ دَخَل فِي الذُّرِّيَّة تَغْلِيبًا، كَمَا فِي قَوْله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فَإِسْمَاعِيل عَمّه وَدَخَل فِي آبَائِهِ تَغْلِيبًا. وَكَمَا قَالَ فِي قَوْله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فَدَخَل إِبْلِيس فِي أَمْر المَلَائِكَة بِالسُّجُودِ وَذُمّ عَلى المُخَالَفَة؛ لأَنَّهُ كَانَ فِي تَشَبُّه بِهِمْ، فَعُومِل مُعَامَلتهمْ وَدَخَل مَعَهُمْ تَغْلِيبًا، وَإِلَّا فَهُوَ كَانَ مِنْ الجِنّ وَطَبِيعَته مِنْ النَّار، وَالمَلائِكَة مِنْ النُّور.

وَفِي ذِكْر عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذُرِّيَّة إِبْرَاهِيم أَوْ نُوح عَلَى القَوْل الآخَر: دَلالَة عَلى دُخُول وَلد البَنَات فِي ذُرِّيَّة الرَّجُل، لأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِنَّمَا يُنْسَب إِلَى إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأُمِّهِ مَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَإِنَّهُ لا أَب لَهُ. قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا سَهْل بْن بحر العَسْكَرِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن صَالِح، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَابِس، عَنْ عَبْد الله بْن عَطَاء المَكِّيّ، عَنْ أَبِي حَرْب ابْن أَبِي الأَسْوَد، قَال: أَرْسَل الحَجَّاج إِلَى يَحْيَى بْن يَعْمُر، فَقَال: بَلَغَنِي أَنَّك تَزْعُم أَنَّ الحَسَن وَالحُسَيْن مِنْ ذُرِّيَّة النَّبِيّ ﷺ، تَجِدهُ فِي كِتَاب الله، وَقَدْ قَرَأْته مِنْ أَوَّله إِلَى آخِره فَلَمْ أَجِدهُ؟ قَال: أَلَيْسَ تَقْرَأ سُورَة الأَنْعَام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ قَال: بَلَى. قَال: أَلَيْسَ عِيسَى مِنْ ذُرِّيَّة إِبْرَاهِيم وَلَيْسَ لَهُ أَب؟ قَال: صَدَقْت. فَلِهَذَا إِذَا أَوْصَى الرَّجُل لِذُرِّيَّتِهِ، أَوْ وَقَفَ عَلى ذُرِّيَّته، أَوْ وَهَبَهُمْ دَخَل أَوْلاد البَنَات فِيهِمْ، فَأَمَّا إِذَا أَعْطَى الرَّجُل بَنِيهِ، أَوْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ يَخْتَصّ بِذَلِكَ بَنُوهُ لِصُلبِهِ، وَبَنُو بَنِيهِ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْل الشَّاعِر العَرَبِيّ:

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتنَا ❁ بَنُوهُنَّ أَبْنَاء الرِّجَال الأَجَانِب

وَقَال آخَرُونَ: وَيَدْخُل بَنُو البَنَات فِيهِ أَيْضًا، لِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيح البُخَارِيّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال للحَسَن بْن عَلِيّ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّد، وَلَعَلَّ الله أَنْ يُصْلِح بِهِ بَيْن فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ المُسْلِمِينَ**»[2]. فَسَمَّاهُ ابْنًا فَدَلَّ عَلى دُخُوله فِي الأَبْنَاء. وَقَال آخَرُونَ: هَذَا تَجَوُّز.

وَقَوْله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ ذَكَرَ أُصُولهمْ وَفُرُوعهمْ، وَذَوِي طَبَقَتهمْ، وَأَنَّ الهِدَايَة وَالاجْتِبَاء شَمَلَهُمْ كُلّهمْ، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ثُمَّ قَال تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أَيْ: إِنَّمَا حَصَل لَهُمْ ذَلِكَ بِتَوْفِيق الله لهم وَهِدَايَته إِيَّاهُمْ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تَشْدِيد لأَمْر الشِّرْك، وَتَغْلِيظ لِشَأْنِهِ، وَتَعْظِيم لِمُلابَسَتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآيَة، وَهَذَا شَرْط وَالشَّرْط لا يَقْتَضِي جَوَاز الوُقُوع، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ

(١) في نسخة: [ماران].
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٠٤، ٣٦٢٩، ٧١٠٩)، وأبو داود (٤٦٦٢).

وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾.

وَقوْله تَعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أَيْ: أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِذَلكَ؛ رَحْمَة للعِبَادِ بِهِمْ، وَلُطْفًا منا بِالخَلِيقَةِ ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أَيْ: بِالنُّبُوَّةِ، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون الضَّمِير عَائِدًا عَلى هَذِهِ الأَشْيَاء الثَّلَاثَة: الكِتَاب، وَالحُكْم، وَالنُّبُوَّة. وَقوْله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي: أَهْل مَكَّة، قَالهُ ابْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن المُسَيِّب، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ، وَغيْر وَاحِد ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أَيْ: إِنْ يَكْفُر بِهَذِهِ النِّعَم مَنْ كَفَرَ بِهَا مِنْ قُرَيْش، وَغَيْرهِمْ مِنْ سَائِر أَهْل الأَرْض: مِنْ عَرَب وَعَجَم، وَمِلِّيِّينَ وَكِتَابِيِّينَ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ يعني: المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار وَأَتْبَاعهمْ إِلى يَوْم القِيَامَة ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أَيْ: لا يَجْحَدُونَ مِنْهَا شَيْئًا، وَلا يَرُدُّونَ مِنْهَا حَرْفًا وَاحِدًا بل يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِهَا: مُحْكَمهَا وَمُتَشَابِهِهَا، جَعَلنَا الله مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمه وَإِحْسَانه.

ثُمَّ قَال تَعالى مُخَاطِبًا عَبْده وَرَسُوله مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿أُولَئِكَ﴾ يَعْنِي: الأَنْبِيَاء المَذْكُورِينَ مَعَ مَنْ أُضِيفَ إِلَيْهِمْ مِنَ الآبَاء وَالذُّرِّيَّة وَالإِخْوَان، وَهُمْ الأَشْبَاه ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أَيْ: هُمْ أَهْل [الهُدَى][1] لا غَيْرهمْ ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ أَيْ: اقْتَدِ وَاتَّبع، وَإِذَا كَانَ هَذَا أَمْرًا للرَّسُول ﷺ فَأُمَّته تَبَع لهُ فِيمَا يُشَرِّعهُ وَيَأْمُرهُمْ بِهِ. قَال البُخَارِيّ عِنْد هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُوسَى، أَخْبَرَنَا هِشَام، أَنَّ ابْن جُرَيْج أَخْبَرَهُمْ، قَال: أَخْبَرَنِي سُلَيْمَان الأَحْوَل، أَنَّ مُجَاهِدًا أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ سَأَل ابْن عَبَّاس: أَفِي «ص» سَجْدَة؟ فَقَال: نَعَمْ. ثُمَّ تَلا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ ثُمَّ قَال: هُوَ مِنْهُمْ. زَادَ يَزِيد بْن هَارُون وَمُحَمَّد بْن عُبَيْد وَسَهْل بْن يُوسُف، عَنْ العَوَّام، عَنْ مُجَاهِد، قال: قُلت لابْنِ عَبَّاس، فَقَال: نَبِيّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِي بِهِمْ.

وَقوْله تَعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَيْ: لا أَطْلُب مِنْكُمْ عَلى إِبْلاغِي إِيَّاكُمْ هَذَا القُرْآن أَجْرًا، أَيْ: أُجْرَة وَلا أُرِيد مِنْكُمْ شَيْئًا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: يَتَذَكَّرُونَ بِهِ فَيَرْشُدُوا مِنَ العَمَى إِلى الهُدَى، وَمِنْ الغَيّ إِلى الرَّشَاد، وَمِنْ الكُفْر إِلى الإِيمَان.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

يَقُول تَعالى: وَمَا عَظَّمُوا الله حَقّ تَعْظِيمه إِذْ كَذَّبُوا رُسُله إِلَيْهِمْ. قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعَبْد الله بْن كَثِير: نَزَلتْ فِي قُرَيْش. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقِيل: نَزَلتْ فِي طَائِفَة مِنْ اليَهُود. وَقِيل: فِي فِنْحَاص رَجُل مِنْهُمْ. وَقِيل: فِي مَالك بْن الصَّيْف. ﴿قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ وَالأَوَّل هو الأظهر؛ لأَنَّ الآيَة مَكِّيَّة، وَاليَهُود لا يُنْكِرُونَ إِنْزَال الكُتُب مِنْ السَّمَاء، وَقُرَيْش وَالعَرَب قَاطِبَة كَانُوا يبعدون إِرْسَال رسول مِنْ البَشَر، كَمَا قَال: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾، وَكَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾، وَقَال هَاهُنَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾. قَال الله تَعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ أَيْ: قُل يَا مُحَمَّد هَؤُلاءِ المُنْكِرِينَ لإِنْزَال شَيْء مِنْ الكُتُب مِنْ عِنْد الله، فِي جَوَاب سَلبهمْ العَام بِإِثْبَاتِ قَضِيَّة جُزْئِيَّة مُوجِبَة: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ يعني: التَّوْرَاة، الَّتِي

---

(١) في نسخة: [الهداية].

قَدْ عَلِمْتُمْ وَكُلّ أَحَد أَنَّ الله قَدْ أَنْزَلَهَا عَلَى مُوسَى بْن عِمْرَان ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أَيْ: لِيُسْتَضَاءَ بِهَا فِي كَشْف الْمُشْكِلات، وَيُهْتَدَى بِهَا مِنْ ظُلَم الشُّبُهَات.

وَقَوْله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أَيْ: [تَجْعَلُونَ جُمْلَتهَا قَرَاطِيس][1]، أَيْ: قِطَعًا تَكْتُبُونَهَا مِنَ الكِتَاب الأَصْلِيّ الَّذِي بِأَيْدِيكُمْ، وَتُحَرِّفُونَ مِنْهَا مَا تُحَرِّفُونَ، وَتُبَدِّلُونَ وَتَتَأَوَّلُونَ وَتَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْد الله، أَيْ: فِي كِتَابه الْمُنَزَّل، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْد الله، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أَيْ: وَمَنْ أَنْزَل القُرْآن الَّذِي عَلَّمَكُمْ الله فِيهِ: مِنْ خَبَر مَا سَبَقَ، وَنَبَأ مَا يَأْتِي مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ لا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ. قَالَ قَتَادَة: هَؤُلاءِ مُشْرِكُو العَرَب. وَقَالَ مُجَاهِد: هَذِهِ لِلْمُسْلِمِينَ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَيْ: قُلِ الله أَنْزَلَهُ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْن عَبَّاس هُوَ الْمُتَعَيِّن فِي تَفْسِير هَذِهِ الكَلِمَة، لا مَا قَالَهُ بَعْض الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَنَّ مَعْنَى ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: لا يَكُون خِطَابك لَهُمْ إِلَّا هَذِهِ الكَلِمَة كَلِمَة ﴿ٱللَّهُ﴾. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هَذَا القَائِل يَكُون أَمْرًا بِكَلِمَةٍ مُفْرَدَة مِنْ غَيْر تَرْكِيب، وَالإِتْيَان بِكَلِمَةٍ مُفْرَدَة لا يُفِيد فِي لُغَة العَرَب فَائِدَة يَحْسُن السُّكُوت عَلَيْهَا.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أَيْ: ثُمَّ دَعْهُمْ فِي جَهْلهمْ وَضَلالهمْ يَلْعَبُونَ، حَتَّى يَأْتِيهِمْ مِنْ الله اليَقِين، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أَلَهُمْ العَاقِبَة أَمْ لِعِبَادِ الله الْمُتَّقِينَ؟ وَقَوْله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يَعْنِي: القُرْآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يَعْنِي: مَكَّة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِنْ أَحْيَاء العَرَب، وَمِنْ سَائِر طَوَائِف بَنِي آدَم: مِنْ عَرَب وَعَجَم، كَمَا قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وَقَالَ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾. وَقَالَ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، وَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وَقَالَ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**أُعْطِيت خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَد مِنَ الأَنْبِيَاء قَبْلِي**». وَذَكَرَ مِنْهُنَّ: «**وَكَانَ النَّبِيّ يُبْعَث إِلَى قَوْمه خَاصَّة وَبُعِثْت إِلَى النَّاس عَامَّة**»[2]. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أَيْ: كُلّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْم الآخِر يُؤْمِن بِهَذَا الكِتَاب الْمُبَارَك، الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْك يَا مُحَمَّد وَهُوَ القُرْآن، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أَيْ: يَقُومُونَ بِمَا فُرِضَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاء الصَّلَوَات فِي أَوْقَاتهَا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أَيْ: لا أَحَد أَظْلَم مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى الله فَجَعَل لَهُ شَرِيكًا أَوْ وَلَدًا، أَوْ ادَّعَى أَنَّ الله أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاس وَلَمْ يَكن أَرسله، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ قَال عِكْرِمَة وَقَتَادَة: نَزَلَتْ فِي مُسَيْلَمَة الكَذَّاب. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: وَمَنْ ادَّعَى أَنَّهُ يُعَارِض مَا جَاءَ مِنْ عِنْد الله مِنَ الوَحْي مِمَّا يَفْتَرِيه مِنْ القَوْل، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا

---

(١) في سنخة: [يجعلوها حملتها قراطيس].
(٢) صحيح: تقدم.

مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾. قال الله تَعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أَيْ: فِي سَكَرَاته وَغَمَرَاته وكُرُباته: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: بِالضَّرْبِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، وَقوْله: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ الآيَة.

وَقَال الضَّحَّاك وَأَبو صَالح: ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: بِالعَذَابِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾. وَلهَذَا قَال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: بِالضَّرْبِ لَهُمْ حَتَّى تَخْرُج أَنْفُسهمْ مِنْ أَجْسَادهمْ، وَلهَذَا يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ وَذلِكَ أَنَّ الكَافِرِ إِذَا احْتُضِرَ، بَشَّرَتْهُ المَلائِكَة بِالعَذَابِ وَالنَّكَال، وَالأَغْلال وَالسَّلاسِل، وَالجَحِيم وَالحَمِيم، وَغَضَب الرَّحْمَن الرَّحِيم، فَتَفرَّق رُوحه فِي جَسَده، وَتَعْصِي وَتَأْبى الخُرُوج، فَتَضْرِبهُمْ المَلائِكَة حَتَّى تَخْرُج أَرْوَاحهمْ مِنْ أَجْسَادهمْ، قَائِلِينَ لَهُمْ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيْ: اليَوْم تُهَانُونَ غَايَة الإِهَانَة، كَمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلى الله، وَتَسْتَكْبِرُونَ عَنْ اتِّبَاع آيَاته وَالانْقِيَاد لِرُسُلِهِ. وَقَدْ وَرَدَتْ الأَحَادِيث المُتَوَاتِرَة فِي كَيْفِيَّة احْتِضَار المُؤْمِن وَالكَافِر عِنْد المَوْت، وَهِيَ مُقَرَّرَة عِنْد قَوْله تَعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وَقَدْ ذَكَرَ ابْن مَرْدُوَيْهِ هَهُنَا حَدِيثًا مُطَوَّلًا جِدًّا مِنْ طَرِيق غَرِيبَة، عَنْ الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس مَرْفُوعًا، فَالله أَعْلَم.

وَقوْله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيْ: يُقَال لَهُمْ يَوْم مَعَادهمْ هَذَا، كَمَا قَال: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أَيْ: كَمَا بَدَأْنَاكُمْ أَعَدْنَاكُمْ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَتَسْتَبْعِدُونَهُ، فَهَذَا يَوْم البَعْث. وَقوْله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ النِّعَم وَالأَمْوَال الَّتِي اقْتَنَيْتُمُوهَا فِي الدَّار الدُّنْيَا وَرَاء ظُهُورِكُمْ، وَثبَتَ فِي الصَّحِيح: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**يَقُول ابْن آدَم: مَالي مَالي، وَهَل لك مِنْ مَالك إلا مَا أكلت فَأفْنَيْت، أوْ لبِسْت فَأبْليْت، أوْ تَصدَّقْت فَأمْضَيْت وَمَا سِوَى ذَلك فَذَاهِب وَتَارِكه للنَّاسِ**»[1].

وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: يُؤْتَى بِابْنِ آدَم يَوْم القِيَامَة كَأَنَّهُ بِذَج، فَيَقُول الله ﷻ له: أَيْنَ مَا جَمَعْت؟ فَيَقُول: يَا رَبّ جَمَعْته وَتَرَكْته أَوْفَر مَا كَانَ، فَيَقُول لهُ: يَا بْن آدَم أَيْنَ مَا قَدَّمْت لنَفْسِك ؟ فَلا يَرَاهُ قَدَّمَ شَيْئًا، وَتَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَوْله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ تَقْرِيع لهُمْ وَتَوْبِيخ عَلى مَا كَانُوا اتَّخَذُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ الأَنْدَاد وَالأَصْنَام وَالأَوْثَان، ظَانِّينَ أَنَّهَا تَنْفَعهُمْ فِي مَعَاشهمْ وَمَعَادهمْ إِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَاد، فَإِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة تَقَطَّعَتْ الأَسْبَاب، وَانْزَاحَ الضَّلال، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، وَيُنَادِيهِمْ الرَّبّ -جَلَّ جَلاله- عَلى رُءُوس الخَلائِق: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾، وَلهَذَا قَال هَاهُنَا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أَيْ: فِي العِبَادَة لهُمْ فِيكُمْ قِسْط فِي اسْتِحْقَاق العِبَادَة لهُمْ.

ثُمَّ قَال تَعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قُرِئَ بِالرَّفْع أَيْ: شَمْلكُمْ، وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ أَيْ: لَقَدْ انقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ مِنْ الأَسْبَاب وَالوَصْلات وَالوَسَائِل ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أَيْ: وَذَهَبَ عَنْكُمْ ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ مِنْ رَجَاء الأَصْنَام وَالأَنْدَاد، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وَقَال تَعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، وَقَال تَعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم

---

(١) صحيح: تقدم.

مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، وَقَال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ الآيَة. وَقَال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ إِلى قَوْله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة جِدًّا.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ فَالق الحَبّ وَالنَّوَى، أَيْ: يَشُقّهُ فِي الثَّرَى، فَتَنْبُت مِنْهُ الزُّرُوع عَلى اخْتِلاف أَصْنَافهَا: مِنْ الحُبُوب وَالثِّمَار عَلى اخْتِلاف أَلْوَانهَا وَأَشْكَالهَا وَطُعُومهَا مِنْ النَّوَى، وَلهَذَا فَسَّرَ قَوْله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أَيْ: يُخْرِج النَّبَات الحَيّ مِنْ الحَبّ وَالنَّوَى الَّذِي هُوَ كَالجَمَادِ المَيِّت، كَقَوْلِهِ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ مَعْطُوف عَلى ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾. وَقَدْ عَبَّرُوا عَنْ هَذَا بِعِبَارَاتٍ كُلّهَا مُتَقَارِبَة مُؤَدِّيَة للمَعْنَى، فَمِنْ قَائِل: يُخْرِج الدَّجَاجَة مِنْ البَيْضَة وَالبَيْضَة من الدَّجَاجَة، وَمِنْ قَائِل: يُخْرِج الوَلد الصَّالح مِنْ الفَاجِر وَالفَاجِرُ من الصَّالح، وَغَيْر ذَلكَ مِنْ العِبَارَات الَّتِي تَنْتَظِمهَا الآيَة وَتَشْملهَا.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: فَاعِل هذه الأشياء هُوَ الله وَحْده لا شَرِيك لهُ ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أَيْ: فكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ الحَقّ وَتَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلى البَاطِل فَتَعْبُدُونَ مع الله غَيْره. وَقَوْله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أَيْ: خَالق الضِّيَاء وَالظَّلام، كَمَا قَال فِي أَوَّل السُّورَة: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أَيْ: فَهُوَ سُبْحَانه يَفْلق ظَلام اللَّيْل عَنْ غُرَّة الصَّبَاح، فَيُضِيء الوُجُود وَيَسْتَنِير الأُفُق، وَيَضْمَحِلّ الظَّلام، وَيَذْهَب اللَّيْل بدآدائه[1] وَظَلام رِوَاقه، وَيجِيء النَّهَار بِضِيَائِهِ وَإِشْرَاقه، كَقَوْلِهِ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، فَبَيَّنَ تَعَالى قُدْرَته عَلى خَلق الأَشْيَاء المُتَضَادَّة المُخْتَلفَة، الدَّالَّة عَلى كَمَال عَظَمَته وَعَظِيم سُلطَانه، فَذَكَرَ أَنَّهُ فَالق الإِصْبَاح، وَقَابَل ذَلكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ أَيْ: سَاجِيًا مُظْلِمًا لتَسْكُن فِيهِ الأَشْيَاء، كَمَا قَال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، وَقَال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، وَقَال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾، وَقَال صُهَيْب الرُّومِيّ رضي الله عنه، لامْرَأَتِهِ وَقَدْ عَاتَبَتْهُ فِي كَثْرَة سَهَره: إِنَّ الله جَعَل اللَّيْل سَكَنًا إِلَّا لصُهَيْب، إِنَّ صُهَيْبًا إِذَا ذَكَرَ الجَنَّة طَال شَوْقُهُ، وَإِذَا ذَكَرَ النَّار طَارَ نَوْمُهُ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَوْله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أَيْ: يَجْرِيَانِ بِحِسَابٍ مُقَنَّن مُقَدَّر لا يَتَغَيَّر وَلا يَضْطَرِب، بَل لكُلٍّ مِنْهُمَا مَنَازِل يَسْلُكهَا فِي الصَّيْف وَالشِّتَاء، فَيَتَرَتَّب عَلى ذَلكَ اخْتِلاف اللَّيْل وَالنَّهَار طُولًا وَقِصَرًا، كَمَا قَال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ الآيَة، وَكَمَا قَال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وَقَال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾. وَقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أَيْ: الجَمِيع جَارٍ بِتَقْدِيرِ العَزِيز الَّذِي لا يُمَانَع وَلا يُخَالف، العَلِيم بِكُلِّ شَيْء، فَلا يَعْزُب عَنْ عِلمه مِثْقَال ذَرَّة فِي الأَرْض وَلا فِي السَّمَاء، وَكَثِيرًا مَا إِذَا ذَكَرَ الله تَعَالى خَلق اللَّيْل وَالنَّهَار وَالشَّمْس وَالقَمَر يَخْتِم الكَلام بِالعِزَّة وَالعِلم، كَمَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الآيَة، وَكَمَا فِي قَوْله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. وَلَمَّا ذَكَرَ خَلق السَّمَوَات وَالأَرْض وَمَا فِيهِنَّ فِي أَوَّل سُورَة حم السَّجْدَة قَال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ

---

(١) الدأدأة: شدة الظلمة، جمعها دآدئ.

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قَال بَعْض السَّلف: مَنْ اعْتَقَدَ فِي هَذِهِ النُّجُوم غَيْر ثَلاث فَقَدْ أَخطَأَ، وَكَذَبَ عَلَى الله سُبْحَانه: إِنَّ الله جَعَلَهَا زِينَة للسَّمَاء، وَرُجُومًا للشَّيَاطِين، وَيُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَات البَرّ وَالبَحْر. وَقَوْله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أَيْ: قَدْ بَيَّنَّاهَا وَوَضَّحْنَاهَا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: يَعْقِلُونَ وَيَعْرِفُونَ الحَقّ وَيجتنبون البَاطِل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يَعْنِي: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾، وَقَوْله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى ذَلِكَ، فَعَنْ ابْن مَسْعُود، وَابْن عَبَّاس، وَأَبِي عَبْد الرَّحْمَن السُّلَمِيّ، وَقَيْس بْن أَبِي حَازِم، وَمُجَاهِد، وَعَطَاء، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَغَيْرهم: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أَيْ: فِي الأَرْحَام. قَالُوا: أَوْ أَكْثَرهمْ ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أَيْ: فِي الأَصْلاب. وَعَنْ ابْن مَسْعُود وَطَائِفَة عكس ذلك. وَعَنْ ابْن مَسْعُود أَيْضًا، وَطَائِفَة ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: فِي الدُّنْيَا، ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: حَيْثُ يَمُوت، وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ فِي الأَرْحَام، وَعَلَى ظَهْر الأَرْض وَحَيْثُ يَمُوت، وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: المُسْتَقَرّ: الَّذِي قَدْ مَاتَ فَاسْتَقَرَّ بِهِ عَمَله، وَعَنْ ابْن مَسْعُود: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فِي الدَّار الآخِرَة. وَالقَوْل الأَوَّل هو الأَظْهَر، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أَيْ: يَفْهَمُونَ، وَيَعُونَ كَلام الله وَمَعْنَاهُ، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أَيْ: بِقَدَرٍ مُبَارَكًا، وَرِزْقًا للعِبَاد، وَإِحْيَاء، وَغِيَاثًا للخَلائِق، رَحْمَة مِنْ الله بِخَلْقِهِ، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أَيْ: زَرْعًا وَشَجَرًا أَخْضَر، ثُمَّ بَعْد ذَلِكَ يَخْلُق فِيهِ الحَبّ وَالثَّمَر، وَلهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أَيْ: يَرْكَب بَعْضه بَعْضًا كَالسَّنَابِل وَنَحْوهَا. ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أَيْ: جَمْع قِنْو، وَهِيَ عُذُوق الرُّطَب ﴿دَانِيَةٌ﴾ أَيْ: قَرِيبَة مِنْ المُتَنَاوِل، كَمَا قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة الوَالِبِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ يَعْنِي: بِالقِنْوَانِ الدَّانِيَة، قِصَار النَّخْل المتلاصقة عُذُوقهَا بِالأَرْضِ. رَوَاهُ ابْن جَرِير. قَال ابْن جَرِير: وَأَهْل الحِجَاز يَقُولُونَ: قِنْوَان، وَقَيْس يَقُول: قُنْوَان. وَقَال امْرُؤُ القَيْس:

فَأَثَّتْ أَعَالِيهِ وَآدَتْ أُصُولُه ❁ وَمَالَ بِقُنْوَانٍ مِنَ البُسْرِ أَحْمَرَا

قَال: وَتَمِيم يَقُولُونَ: قِنْيَان بِاليَاء. قَال: وَهِيَ جَمْع قِنْو، كَمَا أَنَّ صِنْوَان جَمْع صِنْو. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أَيْ: وَنُخْرِج مِنْهُ جَنَّات مِنْ أَعْنَاب، وَهَذَانِ النَّوْعَانِ هُمَا أَشْرَف الثِّمَار عِنْد أَهْل الحِجَاز، وَرُبَّمَا كَانَا خِيَار الثِّمَار فِي الدُّنْيَا كَمَا امْتَنَّ الله بِهِمَا عَلَى عِبَاده فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ وَكَانَ ذَلِكَ قَبْل تَحْرِيم الخَمْر، وَقَال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ قَال قَتَادَة: وَغَيْره مُتَشَابِه فِي الوَرَق، وَالشَّكْل قَرِيب بَعْضه مِنْ بَعْض، وَيتخالف فِي الثِّمَار شَكْلًا وَطَعْمًا وَطَبْعًا.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أَيْ: نُضْجه، قَالَهُ البَرَاء بْن عَازِب، وَابْن عَبَّاس، وَالضَّحَّاك، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة وَغَيْرهمْ أَيْ فَكِّرُوا فِي قُدْرَة خَالقه مِنْ العَدَم إِلَى الوُجُود بَعْد

أَنْ كَانَ حَطَبًا صَارَ عِنَبًا وَرُطَبًا وَغَيْر ذَلكَ مِمَّا خلقَ ﷻ مِنْ الأَلْوَان وَالأَشْكَال وَالطُّعُوم وَالرَّوَائِح، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وَلهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاس ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أَيْ: دَلالات عَلَى كَمَال قُدْرَة خَالق هَذِهِ الأَشْيَاء، وَحِكْمَته وَرَحْمَته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: يُصَدِّقُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَ رُسُله.

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

هَذَا رَدّ عَلى المُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ الله غَيْره، وَأَشْرَكُوا بِهِ فِي عِبَادَته، أَنْ عَبَدُوا الجِنّ فَجَعَلُوهُمْ شُرَكَاء الله فِي العِبَادَة، تَعَالَى الله عَنْ شِرْكهمْ وَكُفْرهمْ. فَإِنْ قِيل: فَكَيْفَ عُبِدَتْ الجِنّ وَإِنَّما كَانُوا يَعْبُدُونَ الأَصْنَام؟ فَالجَوَاب: أَنَّهُمْ مَا عَبَدُو الأصنام إِلَّا عَنْ طَاعَة الجِنّ، وَأَمْرهمْ إِيَّاهُمْ بِذَلك، كَقَوْلِهِ: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾. وَقَالَ إِبْرَاهِيم لأَبِيهِ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، وَتَقُول المَلائِكَة يَوْم القِيَامَة: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾، وَلهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ ﴾ أَيْ: وَقَدْ خَلقَهُمْ فَهُوَ الخَالق وَحْده لا شَرِيك لهُ فَكَيْفَ يُعْبد مَعَهُ غَيْره كَقَوْل إِبْرَاهِيم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وَمَعْنَى الآيَة: أَنَّهُ ﷻ هُوَ المُسْتَقِلّ بِالخَلقِ وَحْده، فَلهَذَا يَجِب أَنْ يُفْرَد بِالعِبَادَةِ وَحْده لا شَرِيك لهُ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ﴾ يُنَبّه بِهِ تَعَالى عَلى ضَلال مَنْ ضَلَّ فِي وَصْفه تَعَالى بِأَنَّ لهُ وَلدًا، كَما يزعمه مَنْ قَالهُ مِنْ اليَهُود: فِي عُزَيْر، وَمَنْ قَالَ مِنْ النَّصَارَى: فِي المسيح، وكما قَال المشركون مِنْ العَرَب: فِي المَلائِكَة أَنَّهَا بَنَات الله، تَعَالى الله عَمَّا يَقُول الظَّالمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَمَعْنَى قوله: ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ أَيْ: اخْتَلقُوا وَائْتَفَكُوا وَتَخَرَّصُوا وَكَذَبُوا، كَما قَالهُ عُلماء السَّلف. قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة، عن ابْن عَبَّاس: ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ يَعْنِي: أنهم تَخَرَّصُوا. وَقَال العَوْفِيّ عَنْهُ: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ﴾ قَال: جَعَلُوا لهُ بَنِينَ وَبَنَات. وَقَال مُجَاهِد: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ قَال: كَذَبُوا. وَكَذَا قَال الحَسَن، وَقَال الضَّحَّاك: وَضَعُوا. وَقَال السُّدِّيّ: قَطَعُوا.

قَال ابْن جَرِير: فتأويل الكلام إِذًا: وَجَعَلُوا لله الجِنّ شُرَكَاء فِي عِبَادَته إِيَّاهُمْ، وَهُوَ المُنْفَرد بِخَلقِهِمْ بِغَيْرِ شَرِيك وَلا مُعِين وَلا ظَهِير ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ يقول: وتخرصوا لله كذبًا، فافتعلوا له بنين وبنات ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ﴾ بِحَقِيقَةِ مَا يَقُولُونَ، وَلكِنْ جَهْلًا بالله وَبِعَظَمَتِهِ فَإِنَّهُ لا يَنْبَغِي لمَنْ كَانَ إِلهًا أَنْ يَكُون لهُ بَنُونَ وَبَنَات، وَلا صَاحِبَة، وَلا أَنْ يَشْركهُ فِي خَلقه شَرِيك، وَلهَذَا قَال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ: تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاظَمَ عَمَّا يَصِفهُ هَؤُلاءِ الجَهَلة الضَّالُّونَ مِنْ الأَوْلاد وَالأَنْدَاد وَالنُّظَرَاء وَالشُّرَكَاء.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ أَيْ: مُبْدِعهمَا وَخَالقهمَا وَمُنْشِئُهُمَا وَمُحْدِثهما عَلى غَيْر مِثَال سَبَقَ، كَما قَال مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ البِدْعَة بِدْعَة، لأَنَّهُ لا نَظِير لهَا فِيمَا سَلفَ. ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ۖ﴾ أَيْ: كَيْفَ يَكُون لهُ وَلد ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ﴾ أَيْ: وَالوَلد إِنَّمَا يَكُون مُتَوَلِّدًا بَيْن شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ، وَالله تَعَالى لا يُنَاسِبهُ وَلا يُشَابِههُ شَيْء مِنْ

خلقه، لأَنَّهُ خالق كُلِّ شَيْءٍ فَلا صَاحِبَة لهُ وَلا وَلد، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فَبَيَّنَ تَعَالى أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليم، فَكَيْفَ يَكُون لهُ صَاحِبَة مِنْ خَلقه تُنَاسِبهُ وَهُوَ الَّذِي لا نَظِير لهُ، فَأَنَّى يَكُون لهُ وَلد تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أَيْ: الَّذِي خَلقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلا وَلد لهُ وَلا صَاحِبَة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أَيْ: فَاعْبُدُوهُ وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَأَقِرُّوا لهُ بِالوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لا إله إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لا وَلد لهُ وَلا وَالد، وَلا صَاحِبَة لهُ وَلا نَظِير وَلا عَدِيل ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أَيْ: حَفِيظ وَرَقِيب يُدَبِّر كُلّ مَا سِوَاهُ وَيَرْزُقهُمْ وَيَكْلَاهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار. وَقَوْله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فِيهِ أَقْوَال للأَئِمَّةِ مِنْ السَّلف.

أَحَدهَا: لا تُدْرِكهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَتْ تَرَاهُ فِي الآخِرَة، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الأَخْبَار عَنْ رَسُول الله ﷺ، مِنْ غَيْر مَا طَرِيق ثَابِت فِي الصِّحَاح وَالمَسَانِيد وَالسُّنَن. كَمَا قَالَ مَسْرُوق عَنْ عَائِشَة أَنَّهَا قَالَتْ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَبْصَرَ رَبّه فَقَدْ كَذَبَ -وَفِي رِوَايَة: عَلَى الله- فَإِنَّ الله تَعَالَى قَالَ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾»[1]. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: مِنْ حَدِيث أَبِي بَكْر ابْن عَيَّاش عَنْ عَاصِم بْن أَبِي النَّجُود عَنْ أَبِي الضُّحَى عَنْ مَسْرُوق، وَرَوَاهُ غَيْر وَاحِد عَنْ مَسْرُوق وَثَبَتَ فِي الصَّحِيح وَغَيْره عَنْ عَائِشَة من غَيْر وَجْه. وَقد خَالَفَهَا ابْن عَبَّاس فَعَنْهُ إِطْلاق الرُّؤْيَة، وَعَنْهُ أَنَّهُ رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ، وَالمَسْأَلَة تُذْكَر فِي أَوَّل سُورَة النَّجْم إِنْ شَاءَ الله. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: ذَكَرَ مُحَمَّد بْن مُسْلِم، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم الدَّوْرَقِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن مَعِين، قَالَ: سَمِعْت إِسْمَاعِيل ابْن عُلَيَّة يَقُول فِي قَوْل الله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قَالَ: هَذَا فِي الدُّنْيَا. وَذَكَرَ أَبِي عَنْ هِشَام بْن عبيد الله أَنَّهُ قَالَ نَحْو ذَلِكَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أَيْ: جَمِيعهَا، وَهَذَا مُخَصَّص بِمَا ثَبَتَ مِنْ رُؤْيَة المُؤْمِنِينَ لهُ فِي الدَّار الآخِرَة. وَقَالَ آخَرُونَ مِنْ المُعْتَزِلة بِمُقْتَضَى مَا فَهِمُوهُ مِنْ الآيَة: أَنَّهُ لا يُرَى فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَة، فَخَالَفُوا أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعَة فِي ذَلِكَ، مَعَ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ الجَهْل بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ كِتَاب الله وَسُنَّة رَسُوله. أَمَّا الكِتَاب فَقَوْله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ الكَافِرِينَ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.

قَال الإِمَام الشَّافِعِيّ: فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ المُؤْمِنِينَ لا يُحْجَبُونَ عَنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَأَمَّا السُّنَّة: فَقَدْ تَوَاتَرَتْ الأَخْبَار عَنْ أَبِي سَعِيد، وَأَبِي هُرَيْرَة، وَأَنس، وجرير، وَصُهَيْب، وَبِلال، وَغَيْر وَاحِد مِنْ الصَّحَابَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ الله فِي الدَّار الآخِرَة فِي العَرَصَات، وَفِي رَوْضَات الجَنَّات جَعَلَنَا الله تَعَالَى مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمه، آمِينَ. وَقِيل: المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أَيْ: العُقُول. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن، عَنْ الفَلَّاس، عَنْ ابْن مَهْدِيّ، عَنْ أَبِي الحُصَيْن يَحْيَى بْن الحُصَيْن -قَارِئ أَهْل مَكَّة- أَنَّهُ قَال ذَلِكَ، وَهَذَا غَرِيب جِدًّا، وَخِلاف ظَاهِر الآيَة، وَكَأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ الإِدْرَاك فِي مَعْنَى الرُّؤْيَة، وَالله أَعْلم. وَقَال آخَرُونَ: لا مُنَافَاة بَيْن إِثْبَات الرُّؤْيَة وَنَفْي الإِدْرَاك، فَإِنَّ الإِدْرَاك أَخَصّ مِنْ الرُّؤْيَة، وَلا يَلْزَم مِنْ نَفْي الأَخَصّ انْتِفَاء الأَعَمّ. ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلاءِ فِي الإِدْرَاك المَنْفِيّ مَا هُوَ، فَقِيل: مَعْرِفَة الحَقِيقَة، فَإِنَّ هَذَا لا يَعْلمهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ رَآهُ المُؤْمِنُونَ، كَمَا أَنَّ مَنْ رَأَى القَمَر فَإِنَّهُ لا يُدْرِك حَقِيقَته وَكُنْهه وَمَاهِيَّته، فَالعَظِيم أَوْلَى بِذَلِكَ، وَلهُ المَثَل الأَعْلَى.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٧).

وَقَال آخَرُونَ: المراد بالإدراك: الإحَاطَة، قَالُوا: وَلا يَلزَم مِنْ عَدَم الإحَاطَة عَدَم الرُّؤيَة، كَمَا لا يَلزَم مِنْ إحَاطَة العِلم عَدَم العِلم، قَال تَعَالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ وَفِي صَحِيح مُسْلم: «**لا أُحصي ثَنَاء عَلَيْك أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلى نَفْسك**». وَلا يَلْزَم مِنْهُ عَدَم الثَّنَاء فَكَذَلكَ هَذَا. قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ قَال: لا يُحِيط بَصَر أَحَد بِالمُلكِ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن حَمَّاد بْن طَلحَة القَنَّاد، حَدَّثَنَا أَسْبَاط، عَنْ سِمَاك عَنْ عِكْرِمَة، أَنَّهُ قِيل لَهُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قَال: أَلسْت تَرَى السَّمَاء؟ قَال: بَلى. قَال: فَكُلّهَا تُرَى؟ وَقَال سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة فِي الآيَة: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وَهُوَ أَعْظَم مِنْ أَنْ تُدْرِكهُ الأَبْصَار. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا سَعْد بْن عَبْد الله بْن عَبْد الحَكَم، حَدَّثَنَا خَالد بْن عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا أَبُو عَرْفَجَة، عَنْ عَطِيَّة العَوْفِيّ، فِي قَوْله تَعَالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قَال: هُمْ يَنْظُرُونَ إِلى الله، لا تُحِيط أَبْصَارهمْ بِهِ مِنْ عَظَمَته، وَبَصَره مُحِيط بِهِمْ، فَذَلكَ قَوْله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾. وَقد وَرَدَ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة حَدِيث رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم هَاهُنَا فَقَال: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا مِنْجَاب بْن الحَارِث التميمي، حَدَّثَنَا بِشْر بْن عُمَارَة، عَنْ أَبِي رَوْق، عَنْ عَطِيَّة العَوْفِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ فِي قَوْله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ قَال: «**لوْ أَنَّ الجنّ وَالإِنْس وَالشَّيَاطِين وَالملائِكَة، مُنْذُ خُلقُوا إِلى أَنْ فَنَوْا صُفُّوا صَفًّا وَاحِدًا مَا أَحَاطُوا بِاللَّهِ أَبَدًا**»[1]. غَرِيب لا يُعْرَف إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه، وَلمْ يَرْوِهِ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة، وَالله أَعْلم.

وَقَال آخَرُونَ فِي: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بِمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي جَامِعه، وَابْن أَبِي عَاصِم فِي كِتَاب السُّنَّة لهُ، وَابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِيره، وَابْن مَرْدُوَيْه أَيْضًا، وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه: مِنْ حَدِيث الحَكَم بْن أَبَان قَال: سَمِعْت عِكْرِمَة يَقُول: سَمِعْت ابْن عَبَّاس يَقُول: رَأَى مُحَمَّد رَبّه تَبَارَكَ وَتَعَالى، فَقُلت: أَلَيْسَ الله يَقُول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؟ الآيَة. فَقَال لِي: لا أُمّ لك، ذَلكَ نُوره الَّذِي هُوَ نُوره، إِذَا تَجَلَّى بِنُورِهِ لا يُدْرِكهُ شَيْء. وَفِي رِوَايَة: لا يَقُوم لهُ شَيْء. قَال الحَاكِم: صَحِيح عَلى شَرْط الشَّيْخَيْنِ، وَلمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَفِي مَعْنَى هَذَا الأَثَر مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: مِنْ حَدِيث أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله لا يَنَام، وَلا يَنْبَغِي لهُ أَنْ يَنَام، يَخْفِض القِسْط وَيَرْفَعهُ، يُرْفَع إِلَيْهِ عَمَل الليل قَبْل عمل النهار، وَعَمَل النَّهَار قبل عمل الليل، حِجَابه النُّور -أَوْ: النَّار- وَلوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَات وَجْهه مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَره مِنْ خَلقه**»[2]. وَفِي الكُتُب المُتَقَدِّمَة: إِنَّ الله تَعَالى قَال لِمُوسَى لمَّا سَأَل الرُّؤْيَة: يَا مُوسَى، إِنَّهُ لا يَرَانِي حَيّ إِلَّا مَاتَ، وَلا يَابِس إِلَّا تَدَهْدَهَ -أَيْ: تَدَعْثَرَ-، وَقَال تَعَالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَنَفْيُ هَذَا الأَثَر الإِدْرَاكَ الخَاصّ لا يَنْفِي الرُّؤْيَة يَوْم القِيَامَة يَتَجَلَّى لعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ كَمَا يَشَاء، فَأَمَّا جَلاله وَعَظَمَته عَلى مَا هُوَ عَليْهِ تَعَالى وَتَقَدَّس وَتَنَزَّهَ فَلا تُدْرِكهُ الأَبْصَار، وَلِهَذَا كَانَتْ أُمّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَة رضي الله عنها تُثْبِت الرُّؤْيَة فِي الدَّار الآخِرَة وَتَنْفِيهَا فِي الدُّنْيَا، وَتَحْتَجّ بِهَذِهِ الآيَة ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فَالَّذِي نَفَتْهُ الإِدْرَاك الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى رُؤْيَة العَظَمَة وَالجَلال عَلى مَا هُوَ عَليْهِ، فَإِنَّ ذَلكَ غَيْر مُمْكِن للبَشَر وَلا للمَلائِكَة وَلا لشَيْء.

وَقَوْله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أَيْ: يُحِيط بِهَا وَيَعْلمهَا عَلى مَا هِيَ عَليْهِ، لأَنَّهُ خَلقَهَا كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وَقَدْ يَكُون عَبَّرَ بِالأَبْصَارِ عَنْ المُبْصِرِينَ، كَمَا قَال السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٧٣٦) بسند ضعيف فيه عطية العوفي: شيعي مدلس.
(٢) **صحيح**: تقدم.

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ لا يراهُ شَيْء، وَهُوَ يرى الخلائق، وَقَال أَبو العَالية فِي قَوْله تَعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قَال: اللَّطِيف لاسْتِخْرَاجِها، الخَبِير بِمكَانها، وَالله أَعْلم. وَهَذا كَما قَال تَعالى إِخْبارًا عَنْ لُقْمان فِيما وَعظَ بِهِ ابْنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

البَصائِر: هِيَ البَيِّنات وَالحُجج الَّتِي اشْتَمل عَلَيْهَا القُرْآن، وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول ﷺ: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وَلهَذا قَال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ لَمَّا ذَكَر البَصائِر قَال: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أَيْ: فإِنَّما يَعُود وبال ذلك عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أَيْ: بِحَافِظٍ وَلا رَقِيب، بَل إِنَّما أَنَا مُبَلِّغ وَالله يَهْدِي مَنْ يَشاء وَيُضِلّ مَنْ يَشاء. وَقَوْله: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أَيْ: وَكَما فَصَّلنَا الآيَات فِي هَذِهِ السُّورَة مِنْ بَيَان التَّوْحِيد، وَأَنَّهُ لا إله إِلَّا هُوَ، هَكَذَا نُوَضِّح الآيَات وَنُفَسِّرها وَنُبَيِّنها فِي كُلّ مَوْطِن لجَهَالةِ الجَاهِلِينَ، وَلِيَقُول المُشْرِكُونَ وَالكَافِرُونَ المُكَذِّبُونَ، دَارَسْت يَا مُحَمَّد مَنْ قَبْلك مِنْ أَهْل الكِتَاب، وَقَارَأْتَهُمْ وَتَعَلَّمْت مِنْهُمْ، هَكَذَا قَالَهُ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالضَّحَّاك، وَغَيْرهمْ. وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عَمْرو بْن كَيْسَان، قَال: سَمِعْت ابْن عَبَّاس يَقُول: دَارَسْت: تَلَوْت، خَاصَمْت: جَادَلْت، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ كَذِبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. وَقَال تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ زَعِيمِهِمْ وَكَاذِبِهِمْ: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، وَقَوْله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: وَلِنُوَضِّحهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الحَقّ فَيَتَّبِعُونَهُ، وَالبَاطِل فَيَجْتَنِبُونَهُ، فَلله تَعَالى الحِكْمَة البَالِغَة فِي إِضْلال أُولَئِكَ، وَبَيَان الحَقّ لهَؤُلاءِ، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، وَقَال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وَقَال تَعَالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾، وَقَال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إِلى غَيْر ذَلِكَ مِنْ الآيَات الدَّالَّة عَلى أَنَّهُ تَعَالى أَنْزَل القُرْآن هُدًى للمُتَّقِينَ، وَأَنَّهُ يُضِلّ بِهِ مَنْ يَشَاء وَيَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء، وَلهَذَا قَال هَاهُنَا: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وَقَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْت﴾ قَال التَّمِيمِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿دَارَسْتَ﴾ أَيْ: قَرَأْت وَتَعَلَّمْت، وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَالسُّدِّيّ، وَالضَّحَّاك، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، وَغَيْر وَاحِد، وَقَال عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر: قَال الحَسَن: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسَتْ﴾ يَقُول: تَقَادَمَتْ وَانْمَحَتْ، وَقَال عَبْد الرَّزَّاق أَيْضًا: أَنْبَأَنَا ابْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، سَمِعْت ابْن الزُّبَيْر يَقُول: إِنَّ صِبْيَانًا يَقْرَءُونَ هَاهُنَا دَارَسْت، وَإِنَّمَا ﴿دَرَسَتْ﴾. وَقَال شُعْبَة: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاق الهَمْدَانِيّ، قَال: فِي قِرَاءَة ابْن مَسْعُود: ﴿دَرَسَتْ﴾ يَعْنِي بِغَيْرِ أَلف

بِنَصْبِ السِّين، وَوَقَفَ عَلَى التَّاء. قَالَ ابْن جَرِير: وَمَعْنَاهُ انْمَحَتْ وَتَقَادَمَتْ: أَيْ أَنَّ هَذَا الَّذِي تَتْلُوهُ عَلَيْنَا قَدْ مَرَّ بِنَا قَدِيمًا وَتَطَاوَلَتْ مُدَّته، وَقَالَ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَة: أَنَّهُ قَرَأَهَا ﴿دُرِسَتْ﴾: أَيْ قُرِئَتْ وَتُعُلِّمَتْ. وَقَالَ مَعْمَر عَنْ قَتَادَة: ﴿دُرِسَتْ﴾: قُرِئَتْ، وَفِي حَرْف ابْن مَسْعُود: دَرَسَ، وَقَالَ أَبُو عَبِيد القَاسِم بْن سَلام، حَدَّثَنَا حَجَّاج عَنْ هَارُون قَالَ: هِيَ فِي حَرْف أُبَيّ بْن كَعْب وَابْن مَسْعُود، ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسَ﴾ قَالَ: يَعْنُونَ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ، وَهَذَا غَرِيب. فَقَدْ رُوِيَ عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب خِلاف هَذَا، قَالَ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن [لَيْث][1]، حَدَّثَنَا أَبُو سَلمَة، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن أَبِي بَزَّة المَكِّيّ، حَدَّثَنَا وَهْب بْن زَمْعَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ حُمَيْد الأَعْرَج، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب قَالَ: أَقْرَأَنِي رَسُول الله ﷺ: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾[2]. وَرَوَاهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ حَدِيث وَهْبِ بْن زَمْعَة وَقَالَ: يَعْنِي بِجَزْمِ السِّين وَنَصْب التَّاء، ثُمَّ قَالَ: صَحِيح الإِسْنَاد وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِمَنْ اتَّبَعَ طَرِيقَته: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أَيْ: اقْتَدِ بِهِ، وَاقْتَفِ أَثَره، وَاعْمَل بِهِ، فَإِنَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْك مِنْ رَبّك هُوَ الحَقّ الَّذِي لا مِرْيَة فِيهِ، لأَنَّهُ لا إِله إِلَّا هُوَ. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أَيْ: اعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ وَاحْتَمِل أَذَاهُمْ، حَتَّى يَفْتَح الله لك وَيَنْصُرك وَيُظْفِرك عَلَيْهِمْ، وَاعْلَمْ أَنَّ لله حِكْمَة فِي إِضْلالهمْ، فَإِنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهَدَى النَّاس كلهم جَمِيعًا. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ أَيْ: بَل لَهُ المَشِيئَة وَالحِكْمَة فِيمَا يَشَاؤُهُ وَيَخْتَارهُ، لا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أَيْ: حَافِظًا تَحْفَظ أَقْوَالهمْ وَأَعْمَالهمْ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أَيْ: مُوَكَّل عَلَى أَرْزَاقهمْ وَأُمُورهمْ إِنْ عَلَيْك إِلَّا البَلاغ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، وَقَالَ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

يَقُول الله تَعَالَى نَاهِيًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبّ آلِهَة المُشْرِكِينَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَة، إِلَّا أَنَّهُ يَتَرَتَّب عَلَيْهِ مَفْسَدَة أَعْظَم مِنْهَا، وَهِيَ مُقَابَلَة المُشْرِكِينَ بِسَبّ إِله المُؤْمِنِينَ وَهُوَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كَمَا قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة؛ قَالُوا: يَا مُحَمَّد، لَتَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبّك آلِهَتنَا أَوْ لَنَهْجُوَنَّ رَبّك، فَنَهَاهُمْ الله أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانهمْ ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة: كَانَ المُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أَصْنَام الكُفَّار، فَيَسُبّ الكُفَّار الله عَدْوًا بِغَيْرِ عِلم فَأَنْزَل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وَرَوَى ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ السُّدِّيّ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: لَمَّا حَضَرَ أَبَا طَالِب المَوْتُ، قَالَتْ قُرَيْش: انْطَلِقُوا فَلْنَدْخُل عَلَى هَذَا الرَّجُل فَلْنَأْمُرْهُ أَنْ يَنْهَى عَنَّا ابْن أَخِيهِ، فَإِنَّا نَسْتَحْيِي أَنْ نَقْتُلَهُ بَعْد مَوْته، فَتَقُول العَرَب: كَانَ يَمْنَعهُمْ فَلَمَّا مَاتَ قَتَلُوهُ، فَانْطَلَقَ أَبُو سُفْيَان وَأَبُو جَهْل وَالنَّضْر بْن الحَارِث وَأُمَيَّة وَأُبَيّ ابْنَا خَلَف وَعُقْبَة بْن أَبِي مُعَيْط وَعَمْرو بْن العَاص وَالأَسْوَد بْن البَخْتَرِيّ، وَبَعَثُوا رَجُلًا مِنْهُمْ يُقَال لَهُ: المُطَّلِب، قَالُوا: اسْتَأْذِنْ لَنَا عَلَى أَبِي طَالِب، فَأَتَى أَبَا طَالِب فَقَال: هَؤُلاءِ مَشْيَخَة قَوْمك يُرِيدُونَ الدُّخُول عَلَيْك، فَأَذِنَ لَهُمْ عَلَيْهِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِب أَنْتَ كَبِيرنَا وَسَيِّدنَا، وَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ آذَانَا وَآذَى آلِهَتنَا، فَنُحِبّ أَنْ تَدْعُوهُ فَتَنْهَاهُ عَنْ ذِكْر آلِهَتنَا،

(١) في نسخة: [الليث].

(٢) ضعيف: عزاه المصنف لابن مردويه، وأخرجه الحاكم (٢/ ٢٣٨) بسند ضعيف فيه حميد الأعرج، قال الحافظ: ضعيف.

ولندعه وإلهه، فدعاه، فجاء النبي ﷺ فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك، قال رسول الله ﷺ: «ما تريدون؟» قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا، ولندعك وإلهك، قال له أبو طالب: قد أنصفك قومك، فاقبل منهم، فقال النبي ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتكم هذا، هل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم، وأدت لكم الخراج». قال أبو جهل: وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها، فما هي؟ قال: «قولوا: لا إله إلا الله». فأبوا واشمأزوا، قال أبو طالب: يا ابن أخي قل غيرها، فإن قومك قد فزعوا منها، قال: «يا عم، ما أنا بالذي يقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي ولو أتوا بالشمس فوضعوها في يدي، ما قلت غيرها». إرادة أن يؤيسهم، فغضبوا وقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك. فذلك قوله: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1].

ومن هذا القبيل -وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها- ما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ، قال: «ملعون من سب والديه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه»[2]. أو كما قال ﷺ. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: من الأمم الخالية على الضلال ﴿عَمَلَهُمْ﴾ الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: معادهم ومصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازيهم بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين: أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيمانًا مؤكدة ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ أي: معجزة وخارق ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: ليصدقنها ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: قل يا محمد هؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتًا وكفرًا وعنادًا، لا على سبيل الهدى والاسترشاد، إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابكم، وإن شاء ترككم كما قال. قال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي، قال: كلم رسول الله ﷺ قريش، فقالوا: يا محمد؛ تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: «أي شيء تحبون أن آتيكم به؟» قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبًا، فقال لهم: «فإن فعلت تصدقوني؟» قالوا: نعم، والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون، فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل عليه السلام، فقال له: لك ما شئت، إن شئت أصبح الصفا ذهبًا، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم». فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[3]. وهذا مرسل وله شواهد من وجوه أخر.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا

---

(١) مرسل: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٧٦٢) بسند مرسل.
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٥/ ٣٠٦) بسند مرسل.

نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾، وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ قِيل: الْمُخَاطَب بِمَا يُشْعِركُمْ الْمُشْرِكُونَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُجَاهِد كَأَنَّهُ يَقُول لَهُمْ: وَمَا يُدْرِيكُمْ بِصِدْقِكُمْ فِي هَذِهِ الأَيْمَان الَّتِي تُقْسِمُونَ بِهَا، وَعَلَى هَذَا فَالقِرَاءَة: ﴿إِنَّهَا إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بِكَسْرِ ﴿إِنَّهَا﴾ عَلَى اسْتِئْنَاف الخَبَر عَنْهُمْ بِنَفْيِ الإِيمَان عِنْد مَجِيء الآيَات الَّتِي طَلَبُوهَا، وَقَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا تؤمنون﴾ بِالتَّاءِ الْمُثَنَّاة مِنْ فَوْق. وَقِيل: الْمُخَاطَب بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾: الْمُؤْمِنُونَ، يَقُول: وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَعَلَى هَذَا فَيَجُوز فِي قَوْله: ﴿أَنَّهَآ﴾ الكَسْر كَالأَوَّل، وَالفَتْح عَلَى أَنَّهُ مَعْمُول يُشْعِركُمْ، وَعَلَى هَذَا فتكُون ﴿لَا﴾ فِي قَوْله: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ صِلَة، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ وَقَوْله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾، أَيْ: مَا مَنَعَك أَنْ تَسْجُد إِذْ أَمَرْتك، وقوله: وَحَرَام أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَتَقْدِيره فِي هَذِهِ الآيَة: وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ تَوَدُّونَ لَهُمْ ذَلِكَ حِرْصًا عَلَى إِيمَانهمْ، أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمْ الآيَات يُؤْمِنُونَ. وقَال بَعْضهمْ: ﴿أَنَّهَآ﴾ بِمَعْنَى لَعَلَّهَا. قَال ابْن جَرِير: وَذَكَرُوا أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ فِي قِرَاءَة أُبَيّ بْن كَعْب. قَال: وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ العَرَب سَمَاعًا: اذْهَبْ إِلَى السُّوق أَنَّك تَشْتَرِي لَنَا شَيْئًا، بِمَعْنَى: لعَلَّك تَشْتَرِي. قَال: وَقَدْ قِيل: إِنَّ قَوْل عَدِيّ بْن زَيْد العَبَّادِيّ مِنْ هَذَا:

أَعَاذِل مَا يُدْرِيك أَنَّ مَنِيَّتِي ۞ إِلَى سَاعَة فِي اليَوْم أَوْ فِي ضُحَى الغَد

وَقَدْ اخْتَارَ هَذَا القَوْل ابْن جَرِير، وَذَكَرَ عَلَيْهِ شَوَاهِد مِنْ أَشْعَار العَرَب، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: لَمَّا جَحَدَ الْمُشْرِكُونَ مَا أَنْزَل الله لَمْ تَثْبُت قُلُوبهمْ عَلَى شَيْء، وَرُدَّتْ عَنْ كُلّ أَمْر. وَقَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ وَنَحُول بَيْنهمْ وَبَيْن الإِيمَان، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلّ آيَة فَلا يُؤْمِنُونَ، كَمَا حُلنَا بَيْنهمْ وَبَيْن الإِيمَان أَوَّل مَرَّة. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم. وَقَال ابْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنه أَنَّهُ قَال: أَخْبَرَ الله مَا العِبَاد قَائِلُونَ قَبْل أَنْ يَقُولُوهُ، وَعَمَلهمْ قَبْل أَنْ يَعْمَلُوهُ. وَقَال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ جَلَّ وَعَلا، وَقَال: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ إِلى قَوْله: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فَأَخْبَرَ الله سُبْحَانه أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الهُدَى، وَقَال: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، وَقَال: وَلَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا لِحِيل بَيْنهمْ وَبَيْن الهُدَى، كَمَا حُلنَا بَيْنهمْ وَبَيْنه أَوَّل مَرَّة وَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَقَوْله: ﴿وَنَذَرُهُمۡ﴾ أَيْ: نَتْرُكهُمْ ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَالسُّدِّيّ: فِي كُفْرهمْ. وَقَال أَبُو العَالِيَة، وَالرَّبِيع بْن أَنَس، وَقَتَادَة: فِي ضَلالهمْ. ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ قَال الأَعْمَش: يَلعَبُونَ. وَقَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَأَبُو العَالِيَة وَالرَّبِيع وَأَبُو مَالك وَغَيْرهم: فِي كُفْرهمْ يَتَرَدَّدُونَ.

﴿۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾

يَقُول تَعَالى: وَلَوْ أَنَّنَا أَجَبْنَا سُؤَال هَؤُلاءِ، الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِالله جَهْد أَيْمَانهمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَة لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، فَنَزَّلنَا عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَة تُخْبِرهُمْ بِالرِّسَالَةِ مِنْ الله بِتَصْدِيقِ الرُّسُل، كَمَا سَأَلُوا فَقَالُوا: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾، ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾. ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أَيْ: فَأَخْبَرُوهُمْ بِصِدْقِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُل ﴿وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾ قَرَأَ بَعْضهمْ: قِبَلًا بِكَسْرِ القَاف وَفَتْح البَاء، مِنْ الْمُقَابَلة وَالْمُعَايَنَة، وَقَرَأَ آخَرُونَ: بِضَمِّهِمَا، قِيل: مَعْنَاهُ مِنْ الْمُقَابَلة وَالْمُعَايَنَة أَيْضًا، كَمَا رَوَاهُ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة وَالعَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَبِهِ قَال قَتَادَة، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم.

وَقَال مُجاهِد: ﴿قُبُلًا﴾ أَيْ: أَفْوَاجًا قَبِيلًا قَبِيلًا، أَيْ: تَعْرِض عَلَيْهِمْ كُلّ أُمَّة بَعْد أُمَّة فَيُخْبِرُونَهُمْ بِصِدْقِ الرُّسُل فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ. ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: إِنَّ الهِدَايَة إِلَيْهِ لا إِلَيْهِمْ، بَل يَهْدِي مَنْ يَشَاء، وَيُضِلّ مَنْ يَشَاء، وَهُوَ الفَعَّال لِمَا يُرِيد، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، لعِلمِهِ وَحِكْمَته وَسُلطَانه وَقَهْره وَغَلبَته، وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى: وَكَمَا جَعَلنَا لك يَا مُحَمَّد أَعْدَاء يُخَالِفُونَك وَيُعَادُونَك، جَعَلنَا لِكُلِّ نَبِيّ مِنْ قَبْلك أَيْضًا أَعْدَاء فَلا يهيدنك ذَلِكَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾. وَقَال وَرَقَة بْن نَوْفَل لِرَسُول الله ﷺ: إِنَّهُ لَمْ يَأْتِ أَحَد بِمِثْل مَا جِئْت بِهِ إِلَّا عُودِيَ. وَقَوْله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ بَدَل مِنْ ﴿عَدُوًّا﴾ أَيْ: لَهُمْ أَعْدَاء مِنْ شَيَاطِين الإِنْس وَالجِنّ، وَالشَّيْطَان كُلّ مَنْ خَرَجَ عَنْ نَظِيره بِالشَّرِّ وَلا يُعَادِي الرُّسُل إِلَّا الشَّيَاطِين مِنْ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ، قَبَّحَهُمْ الله وَلعَنَهُمْ. قَال عَبْد الرَّزَّاق: حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ قَال: مِنْ الجِنّ شَيَاطِين وَمِنْ الإِنْس شَيَاطِين، يُوحِي بَعْضهمْ إِلى بَعْض. قَال قَتَادَة: وَبَلغَنِي أَنَّ أَبَا ذَرّ كَانَ يَوْمًا يُصَلِّي، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «**تَعَوَّذْ يَا أَبَا ذَرّ مِنْ شَيَاطِين الإِنْس وَالجِنّ**». فَقَال: أَوَ إِنَّ مِنْ الإِنْس شَيَاطِين؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**نَعَمْ**»[1]. وَهَذَا مُنْقَطِع بَيْن قَتَادَة وَأَبِي ذَرّ.

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ أَبِي ذَرّ رضي الله عنه، قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا المُثَنَّى، حَدَّثَنَا أَبُو صَالِح، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَة بْن صَالِح، عن أَبِي عَبْد الله مُحَمَّد بْن أَيُّوب، وَغَيْره مِنْ المَشْيَخَة، عَنْ ابْن عَائِذ، عَنْ أَبِي ذَرّ، قَال: أَتَيْت رَسُول الله ﷺ فِي مَجْلِس قَدْ أَطَال فِيهِ الجُلُوس، قَال: فَقَال: «**يَا أَبَا ذَرّ هَل صَلَّيْت؟**»، قُلت: لا يَا رَسُول الله. قَال: «**قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ**» قَال: ثُمَّ جِئْت فَجَلسْت إِليْهِ، فَقَال: «**يَا أَبَا ذَرّ هَل تَعَوَّذْت بِاللهِ مِنْ شَيَاطِين الجِنّ وَالإِنْس**». قَال: قُلت: لا يَا رَسُول الله، وَهَل للإِنْسِ مِنْ شَيَاطِين؟ قَال: «**نَعَمْ، هُمْ شَرّ مِنْ شَيَاطِين الجِنّ**». وَهَذَا أَيْضًا فِيهِ انْقِطَاع. وَرُوِيَ مُتَّصِلًا كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا المَسْعُودِيّ، أَنْبَأَنَا أَبُو عُمَر الدِّمَشْقِيّ، عَنْ عُبَيْد ابْن الخشخاش، عَنْ أَبِي ذَرّ قَال: أَتَيْت النَّبِيّ ﷺ، وَهُوَ فِي المَسْجِد، فَجَلسْت، فَقَال: «**يَا أَبَا ذَرّ، هَل صَلَّيْت؟**». قُلت: لا. قَال: «**قُمْ، فَصَلّ**»، قَال: فَقُمْت، فَصَلَّيْت، ثُمَّ جَلسْت، فَقَال: «**يَا أَبَا ذَرّ، تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرّ شَيَاطِين الإِنْس وَالجِنّ**». قَال: قُلت: يَا رَسُول الله؛ وَللإِنْسِ شَيَاطِين؟ قَال: «**نَعَمْ**». وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث بِطُولِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيره مِنْ حَدِيث جَعْفَر بْن عَوْن، وَيَعْلى بْن عُبَيْد، وَعُبَيْد الله بْن مُوسَى ثَلاثَتهمْ عَنْ المَسْعُودِيّ بِهِ.

طَرِيق أُخْرَى عَنْ أَبِي ذَرّ: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا المُثَنَّى، حَدَّثَنَا الحَجَّاج، حَدَّثَنَا حَمَّاد، عَنْ حُمَيْد بْن هِلال حَدَّثَنِي رَجُل مِنْ أَهْل دِمَشْق، عَنْ عَوْف بْن مَالك، عَنْ أَبِي ذَرّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**يَا أَبَا ذَرّ هَل تَعَوَّذْت بِاللهِ مِنْ شَرّ شَيَاطِين الإِنْس وَالجِنّ؟**» قَال: قُلت: يَا رَسُول الله؛ هَل للإِنْسِ مِنْ شَيَاطِين؟ قَال: «**نَعَمْ**».

طَرِيق أُخْرَى للحَدِيثِ: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَوْف الحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة، حَدَّثَنَا

---

(١) حسن لغيره: تقدم.

مُعَان بْن رِفَاعَة، عَنْ عَلِيّ بْن يَزِيد، عَنْ القَاسِم، عَنْ أَبِي أُمَامَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرّ تَعَوَّذْت مِنْ شَيَاطِين الجِنّ وَالإِنْس؟**» قَال: يَا رَسُول الله وَهَل للإِنْسِ شَيَاطِين؟ قَال: «**نَعَمْ** ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾». وَقَوْله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ فَهَذِهِ طُرُق لِهَذَا الحَدِيث، وَمَجْمُوعهَا يُفِيد قُوَّته وَصِحَّته وَالله أَعْلَم.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، عَنْ شَرِيك، عَنْ سَعِيد بْن مَسْرُوق، عَنْ عِكْرِمَة ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ قَال: لَيْسَ مِنْ الإِنْس شَيَاطِين وَلَكِنْ شَيَاطِين الجِنّ يُوحُونَ إِلَى شَيَاطِين الإِنْس، وَشَيَاطِين الإِنْس يُوحُونَ إِلَى شَيَاطِين الجِنّ. قَال: وَحَدَّثَنَا الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قَال: للإِنْسِ شَيَاطِين، وَللجِنّ شَيَاطِين، فَيَلْقَى شَيْطَان الإِنْس شَيْطَان الجِنّ، فَيُوحِي بَعْضهمْ إِلَى بَعْض زُخْرُف القَوْل غُرُورًا. وَقَال أَسْبَاط عَنْ السُّدِّيّ عَنْ عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: أَمَّا شَيَاطِين الإِنْس: فَالشَّيَاطِين الَّتِي تَضِلّ الإِنْس، وَشَيَاطِين الجِنّ: الَّتِي تَضِلّ الجِنّ، يَلْتَقِيَانِ، فَيَقُول كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنِّي أَضْلَلت صَاحِبِي بِكَذَا وَكَذَا، فَأَضِلِل أَنْتَ صَاحِبك بِكَذَا وَكَذَا، فَيُعَلِّم بَعْضهمْ بَعْضًا. فَفَهِمَ ابْن جَرِير مِنْ هَذَا: أَنَّ المُرَاد بِشَيَاطِين الإِنْس عِنْد عِكْرِمَة وَالسُّدِّيّ: الشَّيَاطِين مِنْ الجِنّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ النَّاس، لا أَنَّ المُرَاد مِنْهُ شَيَاطِين الإِنْس مِنْهُمْ، وَلا شَكَّ أَنَّ هَذَا ظَاهِر مِنْ كَلام عِكْرِمَة، وَأَمَّا كَلام السُّدِّيّ: فَلَيْسَ مِثْله فِي هَذَا المَعْنَى، وَهُوَ مُحْتَمَل.

وَقَدْ رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم نَحْو هَذَا عَنْ ابْن عَبَّاس مِنْ رِوَايَة الضَّحَّاك عَنْهُ قَال: إِنَّ للجِنّ شَيَاطِين يُضِلُّونَهُمْ مِثْل شَيَاطِين الإِنْس يُضِلُّونَهُمْ، قَال: فَيَلْتَقِي شَيَاطِين الإِنْس وَشَيَاطِين الجِنّ فَيَقُول هَذَا لِهَذَا: أَضْلِلهُ بِكَذَا فَهُوَ قَوْله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وَعَلَى كُلّ حَال، فَالصَّحِيح مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيث أَبِي ذَرّ: إِنَّ للإِنْسِ شَيَاطِين مِنْهُمْ وَشَيْطَان كُلّ شَيْء مَارِدُهُ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي صَحِيح مُسْلِم، عَنْ أَبِي ذَرّ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**الكلب الأسود شيطان**»[1]. وَمَعْنَاهُ -وَالله أَعْلَم-: شَيْطَان فِي الكِلاب. وَقَال ابْن جُرَيْج: قَال مُجَاهِد فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: كُفَّار الجِنّ شَيَاطِين يُوحُونَ إِلَى شَيَاطِين الإِنْس -كُفَّار الإِنْس- زُخْرُف القَوْل غُرُورًا. وَرَوَى ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ عِكْرِمَة، قَال: قَدِمْت عَلَى المُخْتَار فَأَكْرَمَنِي وَأَنْزَلَنِي، حَتَّى كَادَ يَتَعَاهَد مَبِيتِي بِاللَّيْل، قَال: فَقَال لِي: اخْرُجْ إِلَى النَّاس، فَحَدِّثْهُمْ قَال: فَخَرَجْت، فَجَاءَ رَجُل، فَقَال: مَا تَقُول فِي الوَحْي؟ فَقُلْت: الوَحْي وَحْيَانِ، قَال الله تَعَالَى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قَال: فَهَمُّوا بِي أَنْ يَأْخُذُونِي فَقُلْت لَهُمْ: مَا لَكُمْ ذَاكَ إِنِّي مُفْتِيكُمْ وَضَيْفكُمْ، فَتَرَكُونِي. وَإِنَّمَا عَرَّضَ عِكْرِمَة بِالمُخْتَارِ وَهُوَ ابْن أَبِي عُبَيْد قَبَّحَهُ الله، وَكَانَ يَزْعُم أَنَّهُ يَأْتِيه الوَحْي، وَقَدْ كَانَتْ أُخْته صَفِيَّة تَحْت عَبْد الله ابْن عُمَر، وَكَانَتْ مِنْ الصَّالِحَات، وَلَمَّا أُخْبِرَ عَبْد الله بْن عُمَر أَنَّ المُخْتَار يَزْعُم أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، قَال: صَدَقَ، قَال الله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أَيْ: يُلْقِي بَعْضهمْ إِلَى بَعْض القَوْل المُزَيَّن المُزَخْرَف: وَهُوَ المُزَوَّق الَّذِي يَغْتَرّ سَامِعه مِنْ الجَهَلَة بِأَمْرِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيْ: وَذَلِكَ كُلّه بِقَدَرِ الله وَقَضَائِهِ وَإِرَادَته وَمَشِيئَته، أَنْ يَكُون لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوّ مِنْ هَؤُلاءِ، ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أَيْ: فَدَعْهُمْ ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ: يَكْذِبُونَ، أَيْ: دَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّل عَلَى الله فِي عَدَاوَتِهِمْ، فَإِنَّ الله كَافِيك وَنَاصِرك عَلَيْهِمْ.

---

(١) صحيح: تقدم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: وَلِتَمِيلَ إِلَيْهِ قَالَهُ ابْن عَبَّاس. ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أَيْ: قُلُوبهمْ وَعُقُولهمْ وَأَسْمَاعهمْ. وَقَالَ السُّدِّيّ: قُلُوب الكَافِرِينَ، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ أَيْ: يُحِبُّوهُ وَيُرِيدُوهُ، وَإِنَّمَا يَسْتَجِيب لِذَلِكَ مَنْ لا يُؤْمِن بِالآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: وَلِيَكْتَسِبُوا مَا هُمْ مُكْتَسِبُونَ. وَقَالَ السُّدِّيّ وَابْن زَيْد: وَلِيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

يَقُول تَعَالَى لنبيِّه محمد ﷺ: قل لهَٰؤُلاءِ المُشْرِكِينَ بالله غيره، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْره: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أَيْ: بَيْنِي وَبَيْنكُمْ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ أَيْ: مُبَيَّنًا، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَيْ: مِنَ اليَهُود وَالنَّصَارَى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: بِمَا عِنْدهمْ مِنَ البِشَارَات بِك مِنَ الأَنْبِيَاء المُتَقَدِّمِينَ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ وَهَذَا شَرْط، وَالشَّرْط لا يَقْتَضِي وُقُوعه، وَلهَذَا جَاءَ عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لا أشكّ ولا أسأل**»[1]. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قَالَ قَتَادَة: صِدْقًا فِيمَا قَالَ، وَعَدْلًا فِيمَا حَكَمَ. يَقُول: صِدْقًا فِي الأَخْبَار، وَعَدْلًا فِي الطَّلَب، فَكُلّ مَا أَخْبَرَ بِهِ فَحَقّ لا مِرْيَة فِيهِ وَلا شَكّ، وَكُلّ مَا أَمَرَ بِهِ فَهُوَ العَدْل الَّذِي لا عَدْل سِوَاهُ، وَكُلّ مَا نَهَى عَنْهُ فَبَاطِل، فَإِنَّهُ لا يَنْهَى إِلَّا عَنْ مَفْسَدَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾. ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أَيْ: لَيْسَ أَحَد يُعَقِّب حُكْمه تَعَالَى لا فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأَقْوَال عِبَاده، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ الَّذِي يُجَازِي كُلّ عَامِل بِعَمَلِهِ.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ حَال أَكْثَر أَهْل الأَرْض مِنْ بَنِي آدَم: أَنَّهُ الضَّلال، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وَهُمْ فِي ضَلالهم لَيْسُوا عَلَى يَقِين مِنْ أَمرهمْ، وَإِنَّمَا هُمْ فِي ظُنُون كَاذِبَة وَحُسْبَان بَاطِل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فَإِنَّ الخَرْص هُوَ الحَزْر، وَمِنْهُ خَرْص النَّخْل: وَهُوَ حَزْر مَا عَلَيْهَا مِنَ التَّمْر، وَذَلِكَ كُلّه عَنْ قَدَر الله وَمَشِيئَته. ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فَيُيَسِّرهُ لِذَلِكَ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فَيُيَسِّرهُمْ لِذَلِكَ، «**وَكُلّ مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾

هَذَا إِبَاحَة مِنَ الله لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ: أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الذَّبَائِح مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمه، وَمَفْهُومه: أَنَّهُ لا يُبَاح مَا لَمْ يُذْكَر اسْم الله عَلَيْهِ، كَمَا كَانَ يَسْتَبِيحهُ كُفَّار قُرَيْش مِنْ أَكْل المَيْتَات، وَأَكْل مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُب وَغَيْرهَا، ثُمَّ نُدِبَ إِلَى

(١) مرسل: أخرجه عبد الرزاق (٦/ ١٠٢١١) بسند مرسل.

الأكل مِمَّا ذُكِرَ اسْم الله عَلَيْهِ. فَقَال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: قَدْ بَيَّنَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَوَضَّحَهُ. وَقَرَأَ بَعْضهمْ ﴿فَصَّلَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالتَّخْفِيفِ، وَالكُلّ بِمَعْنَى البَيَان وَالوُضُوح. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أَيْ: إِلَّا فِي حَال الاضْطِرَار فَإِنَّهُ يُبَاح لَكُمْ مَا وَجَدْتُمْ. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى جَهَالَة المُشْرِكِينَ فِي آرَائِهِمْ الفَاسِدَة فِي اسْتِحْلالهمْ المَيْتَات وَمَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْر اسْم الله تَعَالَى فَقَال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أَيْ: هُوَ أَعْلَم بِاعْتِدَائِهِمْ وَكَذِبهمْ وَافْتِرَائِهِمْ.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾

قَال مُجَاهِد: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ مَعْصِيَته فِي السِّرّ وَالعَلانِيَة. وَفِي رِوَايَة عَنْهُ: هُوَ مَا يُنْوَى مِمَّا هُوَ عَامِل. وَقَال قَتَادَة: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أَيْ: سِرّه وَعَلانِيَته، قَلِيله وَكَثِيره. وَقَال السُّدِّيّ: ظَاهِره الزِّنَا مَعَ البَغَايَا ذَوَات الرَّايَات، وَبَاطِنه الزِّنَا مَعَ الخَلِيلَة وَالصَّدَائِق وَالأَخْدَان. وَقَال عِكْرِمَة: ظَاهِره نِكَاح ذَوَات المَحَارِم. وَالصَّحِيح أَنَّ الآيَة عَامَّة فِي ذَلِكَ كُلّه، وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أَيْ: سَوَاء كَانَ ظَاهِرًا أَوْ خَفِيًّا، فَإِنَّ الله سَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الحَسَن بن عَرَفَة، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، عَنْ مُعَاوِيَة بْن صَالِح، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر بْن نُفَيْر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ النَّوَّاس بْن سَمْعَان قَال: سَأَلت رَسُول الله ﷺ عَنْ الإِثْم فَقَال: «**الإِثْم مَا حَاكَ فِي صَدْرِك، وَكَرِهْت أَنْ يَطَّلِع النَّاس عَلَيْهِ**»[1].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الذَّبِيحَة لا تَحِلّ إِذَا لَمْ يُذْكَر اسْم الله عَلَيْهَا، وَلَو كَانَ الذَّابِح مُسْلِمًا، وَقَدْ اخْتَلَفَ الأَئِمَّة -رَحِمَهُمْ الله- فِي هَذِهِ المَسْأَلَة عَلَى ثَلاثَة أَقْوَال: فَمِنْهُمْ مَنْ قَال: لا تَحِلّ هَذِهِ الذَّبِيحَة بِهَذِهِ الصِّفَة، وَسَوَاء مَتْرُوك التَّسْمِيَة عَمْدًا أَوْ سَهْوًا، وَهُوَ مَرْوِيّ عَنْ ابْن عُمَر وَنَافِع مَوْلاهُ وَعَامِر الشَّعْبِيّ وَمُحَمَّد بْن سِيرِينَ، وَهُوَ رِوَايَة عَنْ الإِمَام مَالِك، وَرِوَايَة عَنْ أَحْمَد بْن حَنْبَل نَصَرَهَا طَائِفَة مِنْ أَصْحَابه المُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ، وَهُوَ اخْتِيَار أَبِي ثَوْر وَدَاوُد الظَّاهِرِيّ، وَاخْتَارَ ذَلِكَ أَبُو الفُتُوح مُحَمَّد بْن مُحَمَّد بْن عَلِيّ الطَّائِيّ مِنْ مُتَأَخِّرِي الشَّافِعِيَّة فِي كِتَابه الأَرْبَعِينَ، وَاحْتَجُّوا لِمَذْهَبِهِمْ هَذَا بِهَذِهِ الآيَة، وَبِقَوْلِهِ فِي آيَة الصَّيْد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثُمَّ قَدْ أَكَّدَ فِي هَذِهِ الآيَة قَوْله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وَالضَّمِير قِيلَ: عَائِد عَلَى الأَكْل. وَقِيلَ: عَائِد عَلَى الذَّبْح لِغَيْرِ الله. وَبِالأَحَادِيثِ الوَارِدَة فِي الأَمْر بِالتَّسْمِيَة عِنْد الذَّبِيحَة وَالصَّيْد، كَحَدِيثَيْ عَدِيّ ابْن حَاتِم وَأَبِي ثَعْلَبَة: «**إِذَا أَرْسَلْت كَلْبك المُعَلَّم، وَذَكَرْت اسْم الله عَلَيْهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْك**»[2]، وَهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَحَدِيث رَافِع بْن خَدِيج: «**مَا أَنْهَرَ الدَّم، وَذُكِرَ اسْم الله عَلَيْهِ فَكُلُوهُ**»[3]، وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا، وَحَدِيث ابْن مَسْعُود: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال لِلجِنّ: «**لَكُمْ كُلّ عَظْم ذُكِرَ اسْم الله عَلَيْهِ**»[4]، رَوَاهُ مُسْلم. وَحَدِيث جُنْدُب بْن سُفْيَان البَجَلِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ ذَبَحَ قَبْل أَنْ يُصَلِّي فَلْيَذْبَحْ مَكَانهَا**

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٥٣).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: تقدم.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٤٥٠).

أُخْرَى، **وَمَنْ لمْ يَكُنْ ذَبَحَ حَتَّى صَلَّيْنَا فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ**»[١]. أَخْرَجَاهُ، وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لا نَدْرِي أَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ أَمْ لا؟ قَالَ: «**سَمُّوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوا**»[٢]. قَالت: وَكَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالكُفْرِ. رَوَاهُ البُخَارِيّ.

وَوَجْه الدَّلالة: أَنَّهُمْ فَهِمُوا أَنَّ التَّسْمِيَةَ لابُدَّ مِنْهَا، وَخَشَوْا أَنْ لا تَكُون وُجِدَتْ مِنْ أُولَئِكَ لِحَدَاثَةِ إِسْلامِهِمْ، فَأَمَرَهُمْ بِالاحْتِيَاطِ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الأَكْلِ، لِتَكُونَ كَالعِوَضِ عَنْ المَتْرُوكَةِ عِنْدَ الذَّبْحِ إِنْ لمْ تَكُنْ وُجِدَتْ، وَأَمَرَهُمْ بِإِجْرَاءِ أَحْكَامِ المُسْلِمِينَ عَلى السَّدَادِ، وَاللهُ أَعْلَم.

وَالمَذْهَب الثَّانِي فِي المَسْأَلة: أَنَّهُ لا يَشْتَرِط التَّسْمِيَة بَل هِيَ مُسْتَحَبَّة، فَإِنْ تُرِكَتْ عَمْدًا أَوْ نِسْيَانًا لمْ يَضُرّ، وَهَذَا مَذْهَب الإِمَام الشَّافِعِيّ رحمه الله وَجَمِيع أَصْحَابه، وَرِوَايَة عَنْ الإِمَام أَحْمَد نَقَلَهَا عَنْهُ حَنْبَل، وَهُوَ رِوَايَة عَنْ الإِمَام مَالِك، نَصَّ عَلى ذَلكَ أَشْهَب بْن عَبْد العَزِيز مِنْ أَصْحَابه، وَحُكِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَأَبِي هُرَيْرَة، وَعَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، وَاللهُ أَعْلَم. وَحَمَل الشَّافِعِيّ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ عَلى مَا ذُبِحَ لغَيْرِ اللهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وَقَال ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قَال: يَنْهَى عَنْ ذَبَائِح كَانَتْ تَذْبَحهَا قُرَيْش للأَوْثَانِ، وَيَنْهَى عَنْ ذَبَائِح المَجُوس. وَهَذَا المَسْلك الَّذِي طَرَقَهُ الإِمَام الشَّافِعِيّ قَوِيّ، وَقَدْ حَاوَل بَعْض المُتَأَخِّرِينَ أَنْ يُقَوِّيه بِأَنْ جَعَل الوَاو فِي قَوْله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حَالِيَّة، أَيْ: لا تَأْكُلُوا مِمَّا لمْ يُذْكَر اسْم اللهِ عَلَيْهِ فِي حَال كَوْنه فِسْقًا، وَلا يَكُون فِسْقًا حَتَّى يَكُون قَدْ أُهِلَّ بِهِ لغَيْرِ اللهِ. ثُمَّ ادَّعَى أَنَّ هَذَا مُتَعَيِّن، وَلا يَجُوز أَنْ تَكُون الوَاو عَاطِفَة، لأَنَّهُ يَلزَم مِنْهُ عَطْف جُمْلة اسْمِيَّة خَبَرِيَّة عَلى جُمْلة فِعْلِيَّة طَلَبِيَّة، وَهَذَا يُنْتَقَض عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ فَإِنَّهَا عَاطِفَة لا مَحَالة، فَإِنْ كَانَتْ الوَاو الَّتِي ادَّعَى أَنَّهَا حَالِيَّة صَحِيحَة عَلى مَا قَال، امْتَنَعَ عَطْف هَذِهِ عَلَيْهَا، فَإِنْ عُطِفَتْ عَلى الطَّلَبِيَّة وَرَد عَلَيْهِ مَا أَوْرَدَ عَلى غَيْره، وَإِنْ لمْ تَكُنْ الوَاو حَالِيَّة بَطَل مَا قَال مِنْ أَصْله، وَاللهُ أَعْلَم.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن المُغِيرَة، أَنْبَأَنَا جَرِير، عَنْ عَطَاء، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي الآيَة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قَال: هِيَ المَيْتَة. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ أَبِي زُرْعَة، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ ابْن لَهِيعَة، عَنْ عَطَاء وَهُوَ ابْن السَّائِب، بِهِ. وَقَدْ اسْتَدَلَّ لهَذَا المَذْهَب بِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي المَرَاسِيل: مِنْ حَدِيث ثَوْر بْن يَزِيد، عَنْ الصَّلت السَّدُوسِيّ -مَوْلى سُوَيْد بْن منجوف أَحَد التَّابِعِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ أَبُو حَاتِم ابْن حِبَّان فِي كِتَاب «الثِّقَات»- قَال: قَال رَسُول اللهِ ﷺ: «**ذَبِيحَةُ المُسْلِم حَلال، ذُكِرَ اسْمُ اللهِ أَوْ لمْ يُذْكَر، إِنَّهُ إِنْ ذَكَرَ لمْ يَذْكُر إِلا اسْمَ اللهِ**»[٣]. وَهَذَا مُرْسَل يُعَضَّد بِمَا رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: إِذَا ذَبَحَ المُسْلِمُ وَلمْ يَذْكُر اسْم اللهِ فَليَأْكُل: فَإِنَّ المُسْلم فِيهِ اسْم مِنْ أَسْمَاء اللهِ. وَاحْتَجَّ البَيْهَقِيّ أَيْضًا بِحَدِيثِ عَائِشَة رضي الله عنها المُتَقَدِّم: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُول اللهِ؛ إِنَّ قَوْمًا حَدِيثِي عَهْد بِجَاهِلِيَّةٍ يَأْتُونَنَا بِلحْمٍ، لا نَدْرِي أَذَكَرُوا اسْم اللهِ عَلَيْهِ أَمْ لا؟ فَقَال: «سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا». قَالُوا: فَلوْ كَانَ وُجُود التَّسْمِيَة شَرْطًا لمْ يُرَخِّص لهُمْ إِلَّا مَعَ تَحَقُّقِهَا، وَاللهُ أَعْلَم.

المَذْهَب الثَّالث فِي المَسْأَلة: إِنْ تَرَكَ البَسْمَلة عَلى الذَّبِيحَة نِسْيَانًا لمْ يَضُرّ، وَإِنْ تَرَكَهَا عَمْدًا لمْ تَحِل. هَذَا هُوَ المَشْهُور مِنْ مَذْهَب الإِمَام مَالك، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل، وَبِهِ يَقُول أَبُو حَنِيفَة وَأَصْحَابه، وَإِسْحَق بْن رَاهْوَيْهِ، وَهُوَ مَحْكِيّ عَنْ عَلِيّ، وَابْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن المُسَيَّب، وَعَطَاء، وَطَاوُس، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَأَبِي مَالك، وَعَبْد الرَّحْمَن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٩٤٢، ٥١٨١، ٥٢٤٢، ٦٢٩٧، ٦٩٦٥).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٣٧٨) بسند مرسل فيه الصلت الدوسي، قال الحافظ: لين الحديث، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠٣٩).

ابْن أَبِي لَيْلَى، وَجَعْفَر بْن مُحَمَّد، وَرَبِيعَة بْن أَبِي عَبْد الرَّحْمَن، وَنَقَل الإِمَام أَبُو الحَسَن المِرْغِينَانِيّ فِي كِتَابه «الهِدَايَة»، الإِجْمَاعَ قَبْل الشَّافِعِيّ عَلَى تَحْرِيم مَتْرُوك التَّسْمِيَة عَمْدًا، فَلِهَذَا قَال أَبُو يُوسُف وَالمَشَايِخ: لَوْ حَكَمَ حَاكِم بِجَوَاز بَيْعه لَمْ يَنْفُذ لِمُخَالَفَةِ الإِجْمَاع، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ غَرِيب جِدًّا، وَقَدْ تَقَدَّمَ نَقْل الخِلاف عَمَّنْ قَبْل الشَّافِعِيّ، وَالله أَعْلَم. وَقَال الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ: مَنْ حَرَّمَ ذَبِيحَة النَّاسِي فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَوْل جَمِيع الحُجَّة، وَخَالَفَ الخَبَر الثَّابِت عَنْ رَسُول الله ﷺ فِي ذَلِكَ، يَعْنِي مَا رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ، أَنْبَأَنَا أَبُو عَبْد الله الحَافِظ، حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاس الأَصَمّ، حَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّة الطَّرَسُوسِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَزِيد، حَدَّثَنَا مَعْقِل بْن عُبَيْد الله عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَال: «**المُسْلِم يَكْفِيه اسْمه إِنْ نَسِيَ أَنْ يُسَمِّي حِين يَذْبَح فَلْيَذْكُرْ اسْم الله وَلْيَأْكُلْهُ**»[1]. وَهَذَا الحَدِيث رَفْعُهُ خَطَأ، أَخْطَأَ فِيهِ مَعْقِل بْن عُبَيْد الله الجزيري، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ رِجَال مُسْلِم إِلَّا أَنَّ سَعِيد بْن مَنْصُور وَعَبْد الله بْن الزُّبَيْر الحُمَيْدِيّ رَوَيَاهُ عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو، عَنْ أَبِي الشَّعْثَاء، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس مِنْ قَوْله: فَزَادَا فِي إِسْنَاده أَبَا الشَّعْثَاء، ووقفاه، وَهَذَا أَصَحّ نَصَّ عَلَيْهِ البَيْهَقِيّ وَغَيْره مِنْ الحُفَّاظ، ثُمَّ نَقَل ابْن جَرِير وَغَيْره، عَنْ الشَّعْبِيّ وَمُحَمَّد بْن سِيرِينَ أَنَّهُمَا كَرِهَا مَتْرُوك التَّسْمِيَة نِسْيَانًا، وَالسَّلَف يُطْلِقُونَ الكَرَاهِيَة عَلَى التَّحْرِيم كَثِيرًا، وَالله أَعْلَم. إِلَّا أَنَّ مِنْ قَاعِدَة ابْن جَرِير: أَنَّهُ لا يَعْتَبِر قَوْل الوَاحِد وَلا الاثْنَيْنِ مُخَالِفًا لِقَوْلِ الجُمْهُور فَيَعُدّهُ إِجْمَاعًا، فَلْيُعْلَمْ هَذَا، وَالله المُوَفِّق.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة، عَنْ جهير بْن يَزِيد قَال: سُئِل الحَسَن سَأَلَهُ رَجُل: أُتِيت بِطَيْر كرى، فَمِنْهُ مَا قَدْ ذُبِحَ فَذُكِرَ اسْم الله عَلَيْهِ، وَمِنْهُ مَا نُسِيَ أَنْ يُذْكَر اسْم الله عَلَيْهِ، وَاخْتَلَطَ الطَّيْر؟ فَقَال الحَسَن: كُلْه كُلّه. قَال: وَسَأَلت مُحَمَّد بْن سِيرِينَ فَقَال: قَال الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. وَاحْتَجَّ لِهَذَا المَذْهَب بِالحَدِيثِ المَرْوِيّ مِنْ طُرُق عِنْد ابْن مَاجَة: عَنْ ابْن عَبَّاس، وَأَبِي هُرَيْرَة، وَأَبِي ذَرّ، وَعُقْبَة بْن عَامِر، وَعَبْد الله بْن عَمْرو، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: «**إِنَّ الله وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأ وَالنِّسْيَان وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»[2]. وَفِيهِ نَظَر، وَالله أَعْلَم. وَقَدْ رَوَى الحَافِظ أَبُو أَحْمَد ابْن عَدِيّ مِنْ حَدِيث مَرْوَان بْن سَالِم القَرْقَسَانِيّ، عَنْ الأَوْزَاعِيّ، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: جَاءَ رَجُل إِلَى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله؛ أَرَأَيْت الرَّجُل مِنَّا يَذْبَح وَيَنْسَى أَنْ يُسَمِّي؟ فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «**اسْم الله عَلَى كُلّ مُسْلِم**»[3]. وَلَكِنْ هَذَا إِسْنَاده ضَعِيف فَإِنَّ مَرْوَان بْن سَالِم القَرْقَسَانِيّ أَبَا عَبْد الله الشَّامِيّ ضَعِيف، تَكَلَّمَ فِيهِ غَيْر وَاحِد مِنْ الأَئِمَّة، وَالله أَعْلَم. وَقَدْ أَفْرَدْت هَذِهِ المَسْأَلَة عَلَى حِدَة، وَذَكَرْت مَذَاهِب الأَئِمَّة وَمَآخِذهمْ، وَأَدِلَّتهمْ، وَوَجْه الدَّلالات، وَالمُنَاقَضَات وَالمُعَارَضَات، وَالله أَعْلَم.

قَال ابْن جَرِير: وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْل العِلْم فِي هَذِهِ الآيَة، هَل نُسِخَ مِنْ حُكْمهَا شَيْء أَمْ لا؟ فَقَال بَعْضهمْ: لَمْ يُنْسَخ مِنْهَا شَيْء وَهِيَ مُحْكَمَة فِيمَا عُنِيَت بِهِ، وَعَلَى هَذَا قَوْل عَامَّة أَهْل العِلْم. وَرُوِيَ عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ وَعِكْرِمَة مَا حَدَّثَنَا بِهِ ابْن حُمَيْد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن وَاضِح، عَنْ الحُسَيْن بْن وَاقِد، عَنْ عِكْرِمَة وَالحَسَن البَصْرِيّ قَالا: قَال الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، وَقَال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾، فَنُسِخَ وَاسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ فَقَال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾، وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: قُرِئَ عَلَى العَبَّاس بْن الوَلِيد بْن مزيد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن شعيب، أَخْبَرَنِي النُّعْمَان -يَعْنِي ابْن المُنْذِر- عَنْ مَكْحُول، قَال: أَنْزَل الله فِي القُرْآن: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ثُمَّ نَسَخَهَا الرَّبّ وَرَحِمَ المُسْلِمِينَ فَقَال:

(١) **ضعيف**: أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٩٦)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٣٩) وقال: المحفوظ رواية عكرمة عن ابن عباس موقوفًا.
(٢) **صحيح**: تقدم.
(٣) **ضعيف**: أخرجه ابن عدي (٦/ ٢٣٨١) بسند ضعيف فيه مروان بن سالم: ضعيف كما قال المصنف عقب الحديث.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾، فَنَسَخَهَا بِذَلِكَ، وَأُحِلّ طَعَام أَهْل الكِتَاب، ثُمَّ قَال ابْن جَرير: وَالصَّوَاب أَنَّهُ لا تَعَارُض بَيْن حِلّ طَعَام أَهْل الكِتَاب وَبَيْن تَحْرِيم مَا لَمْ يُذْكَر اسْم الله عَلَيْهِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ صَحِيح، وَمَنْ أَطْلَقَ مِنَ السَّلَف النَّسْخ هَاهُنَا فَإِنَّمَا أَرَادَ التَّخْصِيص، وَالله سُبْحَانه وَتَعَالَى أَعْلَم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن عَيَّاش عَنْ أَبِي إِسْحَاق قَال: قَال رَجُل لابْنِ عُمَر: إِنَّ المُخْتَار يَزْعُم أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ قَال: صَدَقَ وَتَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾. وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو حُذَيْفَة، حَدَّثَنَا عِكْرِمَة بْن عَمَّار، عَنْ أَبِي زُمَيْل قَال: كُنْت قَاعِدًا عِنْد ابْن عَبَّاس وَحَجّ المُخْتَار بْن أَبِي عُبَيْد، فَجَاءَهُ رَجُل فَقَال: يَا بْن عَبَّاس؛ زَعَمَ أَبُو إِسْحَاق أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّيْلَة، فَقَال ابْن عَبَّاس: صَدَقَ، فَنَفَرْت، وَقُلْت: يَقُول ابْن عَبَّاس: صَدَقَ، فَقَال ابْن عَبَّاس: هُمَا وَحْيَانِ: وَحْي الله، وَوَحْي الشَّيْطَان، فَوَحْي الله إِلَى مُحَمَّد ﷺ، وَوَحْي الشَّيْطَان إِلَى أَوْلِيَائِهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾. وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ نَحْو هَذَا.

وَقَوْله: ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا عِمْرَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَال: خَاصَمَتْ اليَهُود النَّبِيّ ﷺ، فَقَالُوا: نَأْكُل مِمَّا قَتَلنَا وَلا نَأْكُل مِمَّا قَتَل الله؟ فَأَنْزَل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾[1]. هَكَذَا رَوَاهُ مُرْسَلًا، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد مُتَّصِلًا، فَقَال: حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا عِمْرَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: جَاءَتْ اليَهُود إِلَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالُوا: نَأْكُل مِمَّا قَتَلنَا وَلا نَأْكُل مِمَّا قَتَل الله؟ فَأَنْزَل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الآيَة[2]، وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرير: عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الأَعْلَى وَسُفْيَان بْن وَكِيع كِلاهُمَا، عَنْ عِمْرَان ابْن عُيَيْنَة، بِهِ. وَرَوَاهُ البَزَّار عَنْ مُحَمَّد بْن مُوسَى الحرشي، عَنْ عِمْرَان بْن عُيَيْنَة، بِهِ. وَهَذَا فِيهِ نَظَر مِنْ وُجُوه ثَلاثَة:

أَحَدهَا: أَنَّ اليَهُود لا يَرَوْنَ إِبَاحَة المَيْتَة حَتَّى يُجَادِلُوا.

الثَّانِي: أَنَّ الآيَة مِنَ الأَنْعَام وَهِيَ مَكِّيَّة.

الثَّالِث: أَنَّ هَذَا الحَدِيث رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ مُحَمَّد بْن مُوسَى الحرشي، عَنْ زِيَاد بْن عَبْد الله البَكَّائِيّ، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ بِلَفْظِ: أَتَى نَاس النَّبِيّ ﷺ، فَذَكَرَهُ. وَقَال حَسَن غَرِيب. وَرُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر مُرْسَلًا، وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن المُبَارَك، حَدَّثَنَا زَيْد بْن المُبَارَك، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا الحَكَم بْن أَبَان، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أَرْسَلَتْ فَارِس إِلَى قُرَيْش أَنْ خَاصِمُوا مُحَمَّدًا وَقُولُوا لَهُ: فَمَا تَذْبَح أَنْتَ بِيَدِك بِسِكِّين فَهُوَ حَلال، وَمَا ذَبَحَ الله ﷻ بِشمشير مِنْ ذَهَب -يَعْنِي المَيْتَة- فَهُوَ حَرَام، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ قَال: الشَّيَاطِين مِنْ فَارِس وَأولياؤهم مِنْ قُرَيْش. وَقَال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن كَثِير، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيل، حَدَّثَنَا سِمَاك عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ يَقُولُونَ: مَا ذَبَحَ الله فَلا تَأْكُلُوهُ، وَمَا ذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ فَكُلُوهُ فَأَنْزَل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ وَابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ عَمْرو بْن عَبْد الله عَنْ وَكِيع، عَنْ إِسْرَائِيل بِهِ، وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح. وَرَوَاهُ ابْن جَرير مِنْ طُرُق مُتَعَدِّدَة عَنْ ابْن عَبَّاس، وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْر اليَهُود، فَهَذَا هُوَ المَحْفُوظ، والله أعلم. وَقَال

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٨٣٢).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٨١٩)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٤٤٥) وقال: لكن ذِكر اليهود فيه منكر، والمحفوظ أنهم المشركون.

ابْن جُرَيْج: قَال عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عِكْرِمَة: إِنَّ مُشْرِكِي قُرَيْش كَاتَبُوا فَارِس عَلى الرُّوم، وَكَاتَبَتْهُمْ فَارِس، فَكَتَبَت فَارِس إِلى مشركي قريش: إِنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابه يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَمْر الله فَمَا ذَبَحَ الله بِسِكِّين مِنْ ذَهَب، فَلا يأكله محمد وأصحابه؛ للميتة، وَمَا ذَبَحُوا هُمْ يَأْكُلُونَهُ، فَكَتَبَ بِذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ إِلى أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ فَوَقَعَ فِي أَنْفُس نَاس مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذَلِكَ شَيْء فَأَنْزَل الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، وَنَزَلَتْ: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾. وَقَال السُّدِّيّ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا للمُسْلِمِينَ: كَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَتَّبِعُونَ مَرْضَات الله، وما ذبح الله فَلا تَأْكُلُونَهُ وَمَا ذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ تَأْكُلُونَهُ؟ فَقَال الله تَعَالى: وإن أطعتموهم فأكلتم الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. وَهَكَذَا قَال مُجَاهِد وَالضَّحَّاك، وَغَيْر وَاحِد مِنْ عُلَمَاء السَّلَف رحمهم الله. وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أَيْ: حَيْثُ عَدَلْتُمْ عَنْ أَمْر الله لَكُمْ وَشَرْعه إِلى قَوْل غَيْره، فَقَدَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْره، فَهَذَا هُوَ الشِّرْك، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيّ فِي تَفْسِيرهَا، عَنْ عَدِيّ بْن حَاتِم أَنَّهُ قَال: يَا رَسُول الله؛ مَا عَبَدُوهُمْ، فَقَال: «بَلى، إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمْ الحَرَام وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ الحَلال، فَاتَّبَعُوهُمْ فَذَلِكَ عِبَادَتهمْ إِيَّاهُمْ»[1].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

هَذَا مَثَل ضَرَبَهُ الله تَعَالى للمُؤْمِن الَّذِي كَانَ مَيْتًا، أَيْ: فِي الضَّلالة هَالكًا حَائِرًا فَأَحْيَاهُ الله، أَيْ: أَحْيَا قَلبه بِالإِيمَان وَهَدَاهُ لهُ وَوَفَّقَهُ لاتِّبَاع رُسُله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: يَهْتَدِي كَيْفَ يَسْلُك، وَكَيْفَ يَتَصَرَّف بِهِ، وَالنُّور هُوَ الْقُرْآن، كَمَا رَوَاهُ العَوْفِيّ وَابْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس، وَقَال السُّدِّيّ: الإِسْلام. وَالكُلّ صَحِيح. ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أَيْ: الجَهَالات وَالأَهْوَاء وَالضَّلالات المُتَفَرِّقَة ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أَيْ: لا يَهْتَدِي إِلى مَنْفَذ، وَلا مُخَلِّص مِمَّا هُوَ فِيهِ، وَفِي مُسْنَد الإِمَام أَحْمَد عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَال: «إِنَّ الله خَلَقَ خَلقه فِي ظُلمَة، ثُمَّ رَشَّ عَليْهِمْ مِنْ نُوره، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّور اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»[2]، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وَقَال تَعَالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة، وَوَجْه المُنَاسَبَة فِي ضَرْب المَثَلَيْن هَاهُنَا بِالنُّور وَالظُّلُمَات مَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّل السُّورَة: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾. وَزَعَمَ بَعْضهمْ أَنَّ المُرَاد بِهَذَا المَثَل: رَجُلانِ مُعَيَّنَانِ، فَقِيل: عُمَر بْن الخَطَّاب هُوَ الَّذِي كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَاهُ الله، وَجَعَل لهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاس، وَقِيل: عَمَّار بْن يَاسِر، وَأَمَّا الَّذِي فِي الظُّلُمَات لَيْسَ بِخَارِج مِنْهَا أَبُو جَهْل عَمْرو بْن هِشَام لعَنَهُ الله. وَالصَّحِيح: أَنَّ الآيَة عَامَّة يَدْخُل فِيهَا كُلّ مُؤْمِن وَكَافِر. وَقَوْله تَعَالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: حَسَّنَّا لهُم مَا هُم فِيهِ مِنْ الجَهَالة وَالضَّلالة، قَدَرًا مِنْ الله وَحِكْمَة بَالغَة، لا إِله إِلَّا هُوَ وَحْده لا شَرِيك لهُ.

---

(١) حسن: تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦)، وابن حبان (٦١٦٩)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١/ ٣٠٤) من حديث عبد الله بن عمرو، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٧٦).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلنَا فِي قَرْيَتك يَا مُحَمَّد أَكَابِر مِنْ الْمُجْرِمِينَ، وَرُؤَسَاء وَدُعَاة إِلَى الكُفْر وَالصَّدّ عَنْ سَبِيل الله، وَإِلَى مُخَالفتك وَعَداوتك، كَذَلِكَ كَانَتْ الرُّسُل مِنْ قَبْلك يُبْتَلوْنَ بِذَلك ثُمَّ تكُون لَهُمْ العَاقِبَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾، وَقِيل: مَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَات فَخَالفُوا فَدَمَّرْنَاهُمْ، وَقِيل: أَمَرْنَاهُمْ أَمْرًا قَدرِيًّا كَمَا قَال هَاهُنَا ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾. وَقَال ابْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ قَال: سَلَّطْنَا شِرَارهمْ فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلكَ أَهْلكْنَاهُمْ بِالعَذَابِ. وَقَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ عُظَمَاؤُهَا.

قُلت: وَهكَذَا قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وَالمُرَاد بِالمكْر هَاهُنَا: دُعَاؤُهُمْ إِلَى الضَّلالة بِزُخْرُفٍ مِنْ المَقَال وَالفِعَال، كَمَا قَال تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْم نُوح: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر، حَدَّثَنَا سُفْيَان، قَال: كُلّ مَكْر فِي القُرْآن فَهُوَ عَمَل.
وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ: وَمَا يَعُود وَبَال مَكْرهمْ ذَلكَ وَإِضْلالهمْ مَنْ أَضَلُّوهُ إِلَّا عَلَى أَنْفُسهمْ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، وَقَال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَة وَبُرْهَان وَحُجَّة قَاطِعَة ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: حَتَّى تَأْتِينَا المَلائِكَة مِنْ الله بِالرِّسَالةِ كَمَا تَأْتِي إِلَى الرُّسُل، كَقَوْلِهِ -جَلَّ وَعَلا-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾، وَقَوْله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ أَيْ: هُوَ أَعْلم حَيْثُ يَضَع رِسَالته، وَمَنْ يَصْلُح لهَا مِنْ خَلقه، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الآيَة، يَعْنُونَ لوْلا نُزِّل هَذَا القُرْآن عَلى رَجُل عَظِيم كَبِير جَلِيل مُبَجَّل فِي أَعْيُنهمْ: ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أَيْ: مِنْ مَكَّة وَالطَّائِف، وَذَلكَ أَنَّهُمْ قَبَّحَهُمْ الله كَانُوا يَزْدَرُونَ بِالرَّسُول -صَلوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ- بَغْيًا وَحَسَدًا، وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾،

هَذَا وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِفَضْلِهِ وَشَرَفِهِ وَنَسَبِهِ، وَطَهَارَةِ بَيْتِهِ وَمَرْبَاهُ، وَمَنْشَئِهِ صَلَّى اللهُ وَمَلائِكَتُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ، حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ بَيْنَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ: «**الأَمِين**». وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ رَئِيسُ الكُفَّارِ أَبُو سُفْيَانَ، حِينَ سَأَلَهُ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لا. الحَدِيثَ بِطُولِهِ الَّذِي اسْتَدَلَّ مَلِكُ الرُّومِ بِطَهَارَةِ صِفَاتِهِ ﷺ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ، وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ.

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُصْعَبٍ، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ، عَنْ شَدَّادٍ أَبِي عَمَّارٍ، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[(١)]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ الأَوْزَاعِيِّ: وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو إِمَامُ أَهْلِ الشَّامِ بِهِ نَحْوَهُ. وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ القَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ**»[(٢)]. وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَارِثِ ابْنِ نَوْفَلٍ، عَنْ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ، قَالَ: قَالَ العَبَّاسُ: بَلَغَهُ ﷺ بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَصَعِدَ المِنْبَرَ فَقَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**» قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ القَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا؛ فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا**»[(٣)]. صَدَقَ؛ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ.

وَفِي الحَدِيثِ أَيْضًا المَرْوِيِّ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ لِي جِبْرِيلُ: قَلَّبْتُ الأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ رَجُلًا أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَقَلَّبْتُ الأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ بَنِي أَبٍ أَفْضَلَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[(٤)]. رَوَاهُ الحَاكِمُ وَالبَيْهَقِيُّ. وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، حَدَّثَنَا عَاصِمٌ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ العِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ العِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ. وَقَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا شُجَاعُ بْنُ الوَلِيدِ، قَالَ: ذَكَرَ قَابُوسُ بْنُ أَبِي ظَبْيَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا سَلْمَانُ لا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ كَيْفَ أَبْغَضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللهُ؟ قَالَ: «**تَبْغَضُ العَرَبَ فَتَبْغَضُنِي**»[(٥)]. وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: ذَكَرَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورٍ الجَوَّازِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ ابْنِ أَبِي حُسَيْنٍ قَالَ: أَبْصَرَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ وَهُوَ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ المَسْجِدِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ رَاعَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: ابْنُ عَبَّاسٍ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾، هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، وأحمد (٤/ ١٠٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٥٥٧).

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٢١٠)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٠٣) من حديث العباس، وصححه الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١/ ١١).

(٤) **موضوع**: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١/ ١٧٦) بسند ضعيف فيه موسى بن عبيدة: ضعيف، وقال الألباني: موضوع. انظر «الضعيفة» (٤٠٤٦).

(٥) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣٩٢٧)، والحاكم (٤/ ٩٦)، وأحمد (٥/ ٤٤)، والطيالسي (١/ ٩١) بسند ضعيف فيه قابوس ابن ظبيان، قال الحافظ: فيه لين والإسناد فيه انقطاع بين أبي ظبيان وسلمان.

مِنْ الله، وَتهْدِيد أَكِيد لمَنْ تكبَّرَ عَنْ اتّبَاع رُسُله، وَالانْقِيَاد لهُمْ فِيهَا جَاءُوا بِهِ، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُهُ يَوْم القِيَامَة بَيْن يَدَيْ الله: صَغَار وَهُوَ الذِّلَّة الدَّائِمَة، كَمَا أَنَّهُمْ اسْتكْبَرُوا أَعْقبَهُمْ ذَلكَ ذُلَّا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أَيْ: صَاغِرِينَ ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ لَمَّا كَانَ المَكْر غَالبًا إِنَّمَا يَكُون خَفِيًّا، وَهُوَ التَّلطُّف فِي التَّحَيُّل وَالخَدِيعَة، قُوبِلُوا بِالعَذَابِ الشَّدِيد مِنْ الله يَوْم القِيَامَة جَزَاء وِفَاقًا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أَيْ: تَظْهَر المُسْتَتِرَات وَالمَكْنُونَات وَالضَّمَائِر، وَجَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَال: «**يُنْصَب لكُلِّ غَادِرٍ لوَاء عِنْد اسْته يَوْم القِيَامَة، فَيُقَال: هَذِهِ غَدْرَة فُلان ابْن فُلان**»[1]. وَالحِكْمَة فِي هَذَا: أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الغَدْر خَفِيًّا لا يَطَّلع عَليْهِ النَّاس، فَيَوْم القِيَامَة يَصِير عَلمًا مَنْشُورًا عَلى صَاحِبه بِمَا فَعَل.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ أَيْ: يُيَسِّرهُ لهُ وَيُنَشِّطهُ وَيُسَهِّلهُ لذَلكَ، فَهَذِهِ عَلامَة عَلى الخَيْر، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، وَقَال ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما فِي قَوْله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ يَقُول تَعَالَى: يُوَسِّع قَلبه للتَّوْحِيدِ وَالإِيمَان بِهِ، وَكَذَا قَال أَبُو مَالك وَغَيْر وَاحِد وَهُوَ ظَاهِر. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا الثَّوْرِيّ، عَنْ عَمْرو بْن قَيْس، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي جَعْفَر قَال: سُئِل رَسُول الله ﷺ أَيّ المُؤْمِنِينَ أَكْيَس؟ قَال: «**أَكْثَرهمْ ذِكْرًا للمَوْتِ، وَأَكْثَرهمْ لمَا بَعْده اسْتِعْدَادًا**»[2]. قَال: وَسُئِل النَّبِيّ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ قَالُوا: كَيْفَ يَشْرَح صَدْره يَا رَسُول الله؟ قَال: «**نُور يُقْذَف فِيهِ فَيَنْشَرِح لهُ وَيَنْفَسِح**» قَالُوا: فَهَل لذَلكَ مِنْ أَمَارَة يُعْرَف بِهَا؟ قَال: «**الإِنَابَة إِلى دَار الخُلُود، وَالتَّجَافِي عَنْ دَار الغُرُور، وَالاسْتِعْدَاد للمَوْتِ قَبْل لقَاء المَوْت**»[3].

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا هَنَّاد، حَدَّثَنَا قَبِيصَة، عَنْ سُفْيَان -يَعْنِي الثَّوْرِيّ- عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ رَجُل، يُكَنَّى أَبَا جَعْفَر، كَانَ يَسْكُن المَدَائِن قَال: سُئِل النَّبِيّ ﷺ عَنْ قَوْل الله تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ فَذَكَرَ نَحْو مَا تَقَدَّمَ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا ابْن إِدْرِيس، عَنْ الحَسَن بْن الفُرَات القَزَّاز، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي جَعْفَر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِذَا دَخَل الإِيمَان القَلب انْفَسَحَ لهُ القَلب وَانْشَرَحَ**» قَالُوا: يَا رَسُول الله، هَل لذَلكَ مِنْ أَمَارَة؟ قَال: «**نَعَمْ الإِنَابَة إِلى دَار الخُلُود، وَالتَّجَافِي عَنْ دَار الغُرُور، وَالاسْتِعْدَاد للمَوْتِ قَبْل المَوْت**» وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ سِوَار بْن عَبْد الله العَنْبَرِيّ، حَدَّثَنَا المُعْتَمِر بْن سُليْمَان، سَمِعْت أَبِي يُحَدِّث، عَنْ عَبْد الله ابْن مُرَّة، عَنْ أَبِي جَعْفَر فَذَكَرَهُ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالد الأَحْمَر، عَنْ عَمْرو ابْن قَيْس، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ عَبْد الله بْن المسور قَال: تَلا رَسُول الله ﷺ هَذِهِ الآيَة: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ مَا هَذَا الشَّرْح؟ قَال: «**نُور يُقْذَف به فِي القَلب**» قَالُوا: يَا رَسُول الله؛

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (٦١٧٧)، ومسلم (١٧٣٥).
(٢) **موضوع:** فيه أبو جعفر عبد الله بن مسور: كذَّاب وضَّاع.
(٣) **موضوع:** أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٨٧٣) وفيه أيضًا أبو جعفر عبد الله بن مسور: كذَّاب وضَّاع.

فَهَل لذَلكَ مِنْ أَمَارَة تُعْرَف؟ قَال: «**نَعَمْ**» قَالُوا: وَمَا هِيَ؟ قَال: «**الإِنَابَة إِلى دَار الخُلُود، وَالتَّجَافِي عَنْ دَار الغُرُور، وَالاستِعْدَاد للمَوْتِ قَبْل المَوْت**». وَقَال ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنِي هِلال بْن العَلاء، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن عَبْد المَلك ابْن وَاقِد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سلمة، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحِيم، عَنْ زَيْد بْن أَبِي أُنَيْسَة، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة عن عَبْد الله بْن مَسْعُود قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِذَا دَخَل النُّور القَلب انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ**» قَالُوا: فَهَل لذَلكَ مِنْ عَلامَة يُعْرَف بِهَا؟ قَال: «**الإِنَابَة إِلى دَار الخُلُود، وَالتَّنَحِّي عَنْ دَار الغُرُور، وَالاستِعْدَاد للمَوْتِ قَبْل لُقِيِّ المَوْت**»[1].

وَقَدْ رَوَاهُ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ ابْن مَسْعُود مُتَّصِلًا مَرْفُوعًا. فَقَال: حَدَّثَنِي ابْن سِنَان القَزَّاز، حَدَّثَنَا مَحْبُوب بْن الحَسَن الهَاشِمِيّ، عَنْ يُونُس عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عبد الله بْن عُتْبَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود عَنْ رَسُول الله ﷺ، قَال: ﴿**فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ**﴾ قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ وَكَيْفَ يُشْرَح صَدْره؟ قَال: «**يُدْخِل فِيهِ النُّور فَيَنْفَسِح**» قَالُوا: وَهَل لذَلكَ عَلامَة يَا رَسُول الله؟ قَال: «**التَّجَافِي عَنْ دَار الغُرُور، وَالإِنَابَة إِلى دَار الخُلُود، وَالاستِعْدَاد للمَوْتِ قَبْل أَنْ يَنْزِل المَوْت**». فَهَذِهِ طُرُق لِهَذَا الحَدِيث مُرْسَلة وَمُتَّصِلة يَشُدُّ بَعْضهَا بَعْضًا، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ قُرِئَ بِفَتْح الضَّاد وَتَسْكِين اليَاء، وَالأَكْثَرُونَ: ﴿**ضَيِّقًا**﴾ بِتَشْدِيدِ اليَاء وَكَسْرهَا، وَهُمَا لُغَتَانِ كَهَيْن وَهَيِّن، وَقَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿**حَرِجًا**﴾ بِفَتْح الحَاء وَكَسْر الرَّاء، قِيل: بِمَعْنَى أَثِم، قَالهُ السُّدِّيّ. وَقِيل: بِمَعْنَى القِرَاءَة الأُخْرَى ﴿**حَرَجًا**﴾ بِفَتْح الحَاء وَالرَّاء، وَهُوَ الَّذِي لا يَتَّسِع لشَيْءٍ مِنْ الهُدَى، وَلا يَخْلُص إِليْهِ شَيْء مما يَنْفَعهُ مِنْ الإِيمَان، وَلا يَنْفُذ فِيهِ. وَقَدْ سَأَل عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ رَجُلًا مِنْ الأَعْرَاب، مِنْ أَهْل البَادِيَة مِنْ مُدْلج: ما الحَرَجَة؟ فَقَال: هِيَ الشَّجَرَة تَكُون بَيْن الأَشْجَار لا تَصِل إِليْهَا رَاعِيَة وَلا وَحْشِيَّة وَلا شَيْء، فَقَال عُمَر ﷺ: كَذَلكَ قَلب المُنَافِق لا يَصِل إِليْهِ شَيْء مِنْ الخَيْر. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: يَجْعَل الله عَليْهِ الإِسْلام ضَيِّقًا وَالإِسْلام وَاسِع، وَذَلكَ حِين يَقُول: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ يَقُول: مَا جَعَل عَليْكُمْ فِي الإِسْلام مِنْ ضِيق. وَقَال مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ: ﴿**ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ شَاكًّا. وَقَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: ﴿**ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ أَيْ: ليْسَ للخَيْر فِيهِ مَنْفَذ، وَقَال ابْن المُبَارَك عَنْ ابْن جُرَيْج: ﴿**ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ بِلا إِله إِلَّا الله، حَتَّى لا تَسْتَطِيع أَنْ تَدْخُل قَلبه، كَأَنَّمَا يَصَّعَّد فِي السَّمَاء مِنْ شِدَّة ذَلكَ عَليْهِ. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر ﴿**يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ قَال: لا يَجِد فِيهِ مَسْلكًا إِلَّا صُعدًا، وَقَال السُّدِّيّ: ﴿**كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ**﴾ مِنْ ضِيق صَدْره. وَقَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: ﴿**كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ**﴾ يَقُول: مَثَله كَمَثَل الَّذِي لا يَسْتَطِيع أَنْ يَصْعَد إِلى السَّمَاء. وَقَال الحَكَم بْن أَبَان، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿**كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ**﴾ يَقُول: فَكَمَا لا يَسْتَطِيع ابْن آدَم أَنْ يَبْلُغ السَّمَاء فَكَذَلكَ لا يَسْتَطِيع أَنْ يُدْخِل التَّوْحِيد وَالإِيمَان قَلبه، حَتَّى يُدْخِلهُ الله فِي قَلبه، وَقَال الأَوْزَاعِيّ: ﴿**كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ**﴾ كَيْفَ يَسْتَطِيع مَنْ جَعَل الله صَدْره ضَيِّقًا أَنْ يَكُون مُسْلمًا. وَقَال الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: وَهَذَا مَثَل ضَرَبَهُ الله لقَلبِ هَذَا الكَافِر فِي شِدَّة تضييقه [إياه] عَنْ وُصُول الإِيمَان إِليْهِ، يَقُول: فَمَثَله فِي امْتِنَاعه مِنْ قَبُول الإِيمَان، وَضِيقه عَنْ وُصُوله إِليْهِ مَثَل امْتِنَاعه عَنْ الصُّعُود إِلى السَّمَاء، وَعَجْزه عَنْهُ؛ لأَنَّهُ ليْسَ فِي وُسْعه وَطَاقَته، وَقَال فِي قَوْله: ﴿**كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ يَقُول: كَمَا يَجْعَل الله صَدْر مَنْ أَرَادَ إِضْلاله ضَيِّقًا حَرَجًا، كَذَلكَ يُسَلِّط الله الشَّيْطَان عَليْهِ وَعَلى أَمْثَاله مِمَّنْ أَبَى الإِيمَان بِالله وَرَسُوله فَيُغْوِيه وَيَصُدّهُ عَنْ سَبِيل الله، وَقَال ابْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: الرِّجْس: الشَّيْطَان، وَقَال مُجَاهِد: الرِّجْس: كُلّ مَا لا خَيْر فِيهِ، وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: الرِّجْس: العَذَاب.

---

(١) ضعيف: ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٩٦٥).

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالى طَرِيق الضَّالِّينَ عَنْ سَبِيله الصَّادِّينَ عَنْهَا، نَبَّهَ عَلى أَشْرَف مَا أَرْسَل بِهِ رَسُوله مِنَ الهُدَى وَدِين الحَقّ فَقَال تَعَالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ مَنْصُوب عَلى الحَال، أَيْ: هَذَا الدِّين الَّذِي شَرَعْنَاهُ لك يَا مُحَمَّد بِمَا أَوْحَيْنَا إِليْك هَذَا القُرْآن هُوَ صِرَاط الله المُسْتَقِيم، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيث الحَارِث عَنْ عَلِيّ فِي نَعْت القُرْآن: هُوَ صِرَاط الله المُسْتَقِيم وَحَبْل الله المَتِين، وَهُوَ الذِّكْر الحَكِيم[1]. رَوَاهُ أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ بِطُوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أَيْ: وَضَّحْنَاهَا وَبَيَّنَّاهَا وَفَسَّرْنَاهَا ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَيْ: لِمَنْ لهُ فَهْم وَوَعْي يَعْقِل عَنْ الله وَرَسُوله. ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وَهِيَ الجَنَّة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ۖ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة، وَإِنَّمَا وَصَفَ الله الجَنَّة هَاهُنَا بِدَارِ السَّلَام، لِسَلامَتِهِمْ فِيمَا سَلَكُوهُ مِنَ الصِّرَاط المُسْتَقِيم، المُقْتَفِي أَثَر الأَنْبِيَاء وَطَرَائِقهمْ، فَكَمَا سَلمُوا مِنْ آفَات الاعْوِجَاج أَفْضَوْا إِلى دَار السَّلام. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي: والسلام -وهو الله- وليهم، أَيْ: حَافِظهمْ وَنَاصِرهمْ وَمُؤَيِّدهمْ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: جَزَاء عَلى أَعْمَالهمْ الصَّالِحَة تَوَلَّاهُمْ، وَأَثَابَهُمْ الجَنَّة بِمَنِّهِ وَكَرَمه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

يَقُول تَعَالى: وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّد فِيمَا تَقُصّهُ عَلَيْهِمْ وَتذكّرهم بِهِ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يَعْنِي: الجِنّ وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الإِنْس الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَعُوذُونَ بِهِمْ، وَيُطِيعُونَهُمْ، وَيُوحِي بَعْضهمْ إِلى بَعْض زُخْرُف القَوْل غُرُورًا: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾ أَيْ: يَقُول يَا مَعْشَر الجِنّ وَسِيَاق الكَلام يَدُلّ عَلى المَحْذُوف، وَمَعْنَى قَوْله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾ أَيْ: مِنْ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلالهمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾. وَقَال عَلِيّ بن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾ يَعْنِي: أَضْللتُمْ مِنْهُمْ كَثِيرًا، وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَالحَسَن وَقَتَادَة.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يَعْنِي: أَنَّ أَوْلِيَاء الجِنّ مِنَ الإِنْس قَالُوا مُجِيبِينَ لله تَعَالى عَنْ ذَلكَ بِهَذَا. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حدثنا أَبُو الأَشْهَب هَوْذَة بْن خَليفَة، حَدَّثَنَا عَوْف، عَنْ الحَسَن فِي هَذِهِ الآيَة، قَال: اسْتَكْثَرْ ربكم أَهْل النَّار يَوْم القِيَامَة، فَقَال أَوْليَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْس: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾. قَال الحَسَن: وَمَا كَانَ اسْتِمْتَاع بَعْضهمْ بِبَعْضٍ إِلَّا أَنَّ الجِنّ أَمَرَتْ وَعَمِلتْ الإِنْس. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب فِي قَوْله: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ قَال الصَّحَابَة فِي الدُّنْيَا. وَقَال ابْن جُرَيْج: كَانَ الرَّجُل فِي الجَاهِليَّة يَنْزِل الأَرْض، فَيَقُول: أَعُوذ بِكَبِيرِ هَذَا الوَادِي. فَذَلكَ اسْتِمْتَاعهم فَاعْتَذَرُوا يَوْم القِيَامَة. وَأَمَّا اسْتِمْتَاع الجِنّ بِالإِنْس: فَإِنَّهُ كَانَ فِيمَا ذُكِرَ: مَا يَنَال الجِنّ مِنَ الإِنْس مِنْ تَعْظِيمهمْ فِي اسْتِعَانَتهم بِهِمْ، فَيَقُولُونَ: قَدْ سُدْنَا الإِنْس وَالجِنّ. ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ﴾ قَال السُّدِّيّ: يَعْنِي المَوْت ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ أَيْ: مَأْوَاكُمْ وَمَنْزِلكُمْ أَنْتُمْ وَأَوْليَاؤُكُمْ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا مُكْثًا مُخَلَّدًا إِلَّا مَا شَاءَ الله. قَال بَعْضهمْ: يَرْجِع مَعْنَى الاسْتِثْنَاء إِلى البَرْزَخ. وَقَال بَعْضهمْ: هَذَا رَدّ إِلى مُدَّة الدُّنْيَا. وَقِيل غَيْر ذَلكَ مِنَ الأَقْوَال، الَّتِي سَيَأْتِي تَقْرِيرهَا عِنْد قَوْله تَعَالى فِي سُورَة هُود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. وَقَدْ رَوَى ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: مِنْ طَرِيق عَبْد الله بْن صَالح كَاتِب اللَّيْث، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَة بْن صَالح، عَنْ

---

(١) ضعيف: تقدم.

عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: ﴿النَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الآيَة آيَة لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَحْكُم عَلَى الله فِي خَلقه، وَلا يُنْزِلهُمْ جَنَّة وَلا نَارًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

قَالَ سَعِيد: عَنْ قَتَادَة فِي تَفْسِيرهَا: إِنَّمَا يُوَلِّي الله النَّاس: بِأَعْمَالِهِمْ، فَالْمُؤْمِن وَلِيّ الْمُؤْمِن أَيْنَ كَانَ وَحَيْثُ كَانَ، وَالكَافِر وَلِيّ الكَافِر أَيْنَمَا كَانَ وَحَيْثُمَا كَانَ، لَيْسَ الإِيمَان بِالتَّمَنِّي وَلا بِالتَّحَلِّي. وَاخْتَارَ هذا القول ابْن جَرِير. وَقَالَ مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة فِي تَفْسِير: ﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ فِي النَّار، يَتْبَع بَعْضهمْ بَعْضًا. وَقَالَ مَالِك بْن دِينَار: قَرَأْت فِي الزَّبُور: إِنِّي أَنْتَقِم مِنَ الْمُنَافِقِينَ بِالْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ أَنْتَقِم مِنَ الْمُنَافِقِينَ جَمِيعًا، وَذَلِكَ فِي كِتَاب الله قَوْل الله تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم فِي قَوْله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ قَالَ: ظَالِمِي الجِنّ وَظَالِمِي الإِنْس، وَقَرَأَ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ قَالَ: وَنُسَلِّط ظَلَمَة الجِنّ عَلَى ظَلَمَة الإِنْس. وَقَدْ رَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة عَبْد البَاقِي بْن أَحْمَد: مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن عَبْد الجَبَّار الكَرَابِيسِيّ، عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَاصِم، عَنْ زِرٍّ عَنْ ابْن مَسْعُود مَرْفُوعًا: «مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ»[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب. وَقَالَ بَعْض الشُّعَرَاء:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلا يَدُ الله فَوْقَهَا ❁ وَلا ظَالِم إِلا سَيُبْلَى بِظَالِم

وَمَعْنَى الآيَة الكَرِيمَة: كَمَا وَلَّيْنَا هَؤُلاءِ الخَاسِرِينَ مِنَ الإِنْس تِلْكَ الطَّائِفَة الَّتِي أَغْوَتْهُمْ مِنَ الجِنّ، كَذَلِكَ نَفْعَل بِالظَّالِمِينَ نُسَلِّط بَعْضهمْ عَلَى بَعْض، وَنُهْلِك بَعْضهمْ بِبَعْض، وَنَنْتَقِم مِنْ بَعْضهمْ بِبَعْض، جَزَاء عَلَى ظُلْمهمْ وَبَغْيهمْ.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يُقَرِّع الله بِهِ كَافِرِي الجِنّ وَالإِنْس يَوْم القِيَامَة، حَيْثُ يَسْأَلهُمْ وَهُوَ أَعْلَم هَل بَلَّغَتْهُمْ الرُّسُل رِسَالاته؟ وَهَذَا اسْتِفْهَام تَقْرِير ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ جُمْلَتكُمْ، وَالرُّسُل مِنَ الإِنْس فَقَطْ، وَلَيْسَ مِنَ الجِنّ رُسُل كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مُجَاهِد وَابْن جُرَيْج وَغَيْر وَاحِد مِنَ الأَئِمَّة مِنَ السَّلَف وَالخَلَف. وَقَالَ ابْن عَبَّاس: الرُّسُل مِنْ بَنِي آدَم، وَمِنْ الجِنّ نُذُر. وَحَكَى ابْن جَرِير عَنْ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم: أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ فِي الجِنّ رُسُلًا، وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، وَفِي الاستدلال بها على ذلك نَظَر؛ لأَنَّهَا مُحْتَمِلَة وَلَيْسَتْ بِصَرِيحَةٍ، وَهِيَ وَالله أَعْلَم كَقَوْلِهِ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وَمَعْلُوم أَنَّ اللُّؤْلُؤ وَالمَرْجَان إِنَّمَا يُسْتَخْرَجَانِ مِنَ المِلح لا مِنْ الحُلو، وَهَذَا وَاضِح وَللهِ الحَمْد. وَقَدْ نص على هَذَا الجَوَاب بِعَيْنِهِ ابْن جَرِير.

وَالدَّلِيل عَلَى أَنَّ الرُّسُل إِنَّمَا هُمْ مِنَ الإِنْس قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وَقَوْله تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، فَحَصَرَ النُّبُوَّة وَالكِتَاب بَعْد إِبْرَاهِيم فِي ذُرِّيَّته، وَلَمْ يَقُل أَحَد مِنَ النَّاس: إِنَّ النُّبُوَّة كَانَتْ فِي الجِنّ قَبْل إِبْرَاهِيم الخَلِيل، ثُمَّ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ بِبَعْثَتِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، وَقَالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، وَمَعْلُوم أَنَّ الجِنّ تَبَع للإِنْس فِي هَذَا البَاب، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ

(١) موضوع: قال الألباني: موضوع. انظر «الضعيفة» (١٩٣٧).

إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَغَيْره: أَنَّ رَسُول الله ﷺ تَلا عَلَيْهِمْ سُورَة الرَّحْمَن وَفِيهَا قَوْله تَعَالَى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1]. وَقَال تَعَالى فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ أَيْ: أَقْرَرْنَا أَنَّ الرُّسُل قَدْ بَلَّغُونَا رِسَالاتك، وَأَنْذَرُونَا لقَاءَك، وَأَنَّ هَذَا اليَوْم كَائِن لا مَحَالة. وَقَال تَعَالى: ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ: وَقَدْ فَرَّطُوا فِي حَيَاتهمْ الدُّنْيَا، وَهَلكُوا بِتَكْذِيبِهِمْ الرُّسُل، وَمُخَالفَتهمْ للمُعْجِزَاتِ، لَمَّا اغْتَرُّوا بِهِ مِنْ زُخْرُف الحَيَاة الدُّنْيَا وَزِينَتهَا وَشَهَوَاتهَا، ﴿ وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُل صَلوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِمْ.

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

يَقُول تَعَالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَعْذَرْنَا إِلى الثَّقَليْنِ بِإِرْسَال الرُّسُل وَإِنْزَال الكُتُب؛ لئَلَّا يُعاقب أَحَد بِظُلْمِهِ وَهُوَ لمْ تَبْلُغهُ دَعْوَة، وَلكِنْ أَعْذَرْنَا إِلى الأُمَم، وَمَا عَذَّبْنَا أَحَدًا إِلَّا بَعْد إِرْسَال الرُّسُل إِليْهِمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة. قَال الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: وَيَحْتَمِل قَوْله تَعَالى: ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ وَجْهَيْنِ: **أَحَدهمَا:** ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مِنْ أَجْل ﴿ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ أَهْلهَا بِالشِّرْكِ وَنَحْوه ﴿ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ يَقُول: لمْ يَكُنْ يُعَاجِلهُمْ بِالعُقُوبَةِ، حَتَّى يَبْعَث إِليْهِمْ رَسُولًا يُنَبِّهُهُمْ عَلى حُجَج الله عَليْهِمْ، وَيُنْذِرهُمْ عَذَاب الله يَوْم مَعَادهمْ، وَلمْ يَكُنْ بِالَّذِي يُؤَاخِذهُمْ غَفْلة فَيَقُولُوا: مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِير وَلا نَذِير.

وَالوَجْه الثَّانِي: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ يَقُول: لمْ يَكُنْ رَبّك ليُهْلكهُمْ دُون التَّنْبِيه وَالتَّذْكِير بِالرُّسُل، وَالآيَات وَالعِبَر، فَيَظْلمهُمْ بِذَلك، وَالله غَيْر ظَلَّام لعَبِيدِهِ. ثُمَّ شَرَعَ يُرَجِّح الوَجْه الأَوَّل، وَلا شَكَّ أَنَّهُ أَقْوَى، وَالله أَعْلم. قَال: وَقَوْله تَعَالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ أَيْ: وَلكُلِّ عَامِل مِنْ طَاعَة الله أَوْ مَعْصِيَته مَرَاتِب وَمَنَازِل مِنْ عَمَله، يُبْلغهُ الله إِيَّاهَا وَيُثِيبهُ بِهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ.

قُلت: وَيَحْتَمِل أَنْ يَعُود قَوْله: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ أَيْ: ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته مِنْ كَافِرِي الجِنّ وَالإِنْس، أَيْ: وَلكُلٍّ دَرَجَة فِي النَّار بِحَسَبِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾، وَقَوْله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قَال ابْن جَرِير: أَيْ: وَكُلّ ذَلكَ مِنْ عَمَلهمْ يَا مُحَمَّد بِعِلمِ مِنْ رَبّك يُحْصِيهَا وَيُثْبتُهَا لهُمْ عِنْده ليُجَازِيَهُمْ عَليْهَا عِنْد لقَائِهِمْ إِيَّاهُ وَمَعَادهمْ إِليْهِ.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٢٨٧)، والحاكم (٣/ ٤٧٣) من حديث جابر، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

يَقُول تَعَالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ أَيْ: عَنْ جَمِيع خَلقه مِنْ جَمِيع الوُجُوه، وَهُمْ الفُقَرَاء إِلَيْهِ فِي جَمِيع أَحْوَالهِمْ ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أَيْ: وَهُوَ مَعَ ذَلكَ رَحِيم بِهِمْ رؤوف، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أَيْ: إِذَا خَالفتُمْ أَمْره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أَيْ: قَوْمًا آخَرِينَ، أَيْ: يَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أَيْ: هُوَ قَادِر عَلى ذَلكَ، سَهْل عَليْهِ، يَسِير لدَيْهِ، كَمَا أَذْهَبَ القُرُون الأُول وَأَتَى بِالَّذِي بَعْدهَا، كَذَلكَ هُوَ قَادِر عَلى إِذْهَاب هَؤُلاءِ وَالإِتْيَان بِآخَرِينَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَعْقُوب بْن عُتْبَة قَال: سَمِعْتُ أَبَان بْن عُثْمَان يَقُول فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ الذُّرِّيَّة: الأَصْل، وَالذُّرِّيَّة: النَّسْل. وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيْ: أَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّد أَنَّ الَّذِي يُوعَدُونَ بِهِ مِنْ أَمْر المَعَاد كَائِن لا مَحَالَة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيْ: وَلا تُعْجِزُونَ الله، بَل هُوَ قَادِر عَلى إِعَادَتكُمْ، وَإِنْ صِرْتُمْ تُرَابًا رُفَاتًا وَعِظَامًا هُوَ قَادِر لا يُعْجِزهُ شَيْء. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِيرهَا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُصَفَّى، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حِمْيَر، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي مَرْيَم، عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «يَا بَنِي آدَم، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ المَوْتَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾»[1].

وَقَوْله تَعَالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تَهْدِيد شَدِيد، وَوَعِيد أَكِيد، أَيْ: اسْتَمِرُّوا عَلى طَرِيقَتكُمْ وَنَاحِيَتكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ عَلى هُدَىً، فَأَنَا مُسْتَمِرّ عَلى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أَيْ: نَاحِيَتكُمْ. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أَيْ: أَتَكُونُ لِي أَوْ لكُمْ، وَقَدْ أَنْجَزَ الله مَوْعُوده لرَسُوله صَلوَات الله عَليْهِ، فَإِنَّهُ تَعَالى مَكَّن له فِي البِلاد، وَحَكَّمَهُ فِي نَوَاصِي مُخَالفِيهِ مِنْ العِبَاد، وَفَتَحَ لهُ مَكَّة، وَأَظْهَرَهُ عَلى مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمه، وَعَادَاهُ، وَنَاوَأَهُ وَاسْتَقَرَّ أَمْره عَلى سَائِر جَزِيرَة العَرَب، وَكَذَلكَ اليَمَن وَالبَحْرَيْنِ، وَكُلّ ذَلكَ فِي حَيَاته، ثُمَّ فُتِحَتْ الأَمْصَار وَالأَقَاليم وَالرَّسَاتِيق بَعْد وَفَاته فِي أَيَّام خُلفَائِهِ رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ، كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وَقَال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، وَقَال تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ رُسُله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٩٠٧) بسند ضعيف فيه أبو بكر ابن أبي مريم: ضعيف، والإسناد منقطع بين عطاء وأبي سعيد.

مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ الآيَة. وَقَدْ فَعَلَ الله ذَلكَ بِهَذِهِ الأُمَّة المُحَمَّدِيَّة وَلَهُ الحَمْد وَالمِنَّة، أَوَّلًا وَآخِرًا وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

هَذَا ذَمّ وَتَوْبِيخ مِنْ الله للمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ ابْتَدَعُوا بِدَعًا وَكُفْرًا وَشِرْكًا، وَجَعَلُوا لله شُرَكَاء وَجُزْءًا مِنْ خَلقه، وَهُوَ خَالق كُلّ شَيْء سُبْحَانه وَتَعَالى عما يشركون، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أَيْ: مِمَّا خَلقَ وَبَرَأَ ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ أَيْ: مِنَ الزروع وَالثِّمَار ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ أَيْ: جُزْءًا وَقِسْمًا ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾، وَقَوْله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة، وَالعَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: إِنَّ أَعْدَاء الله كَانُوا إِذَا حَرَثُوا حَرْثًا، أَوْ كَانَتْ لَهُمْ ثَمَرَة، جَعَلُوا لله مِنْهُ جُزْءًا، وَللوَثَن جُزْءًا، فَمَا كَانَ مِنْ حَرْث أَوْ ثَمَرَة أَوْ شَيْء مِنْ نَصِيب الأَوْثَان حَفِظُوهُ وَأَحْصَوْهُ، وَإِنْ سَقَطَ مِنْهُ شَيْء فِيمَا سُمِّيَ للصَّمَدِ، رَدُّوهُ إِلى مَا جَعَلُوهُ للوَثَن، وَإِنْ سَبَقَهُمْ المَاء الَّذِي جَعَلُوهُ للوَثَنِ فَسَقَى شَيْئًا جَعَلُوهُ لله، جَعَلُوا ذَلكَ للوَثَن، وَإِنْ سَقَطَ شَيْء مِنْ الحَرْث وَالثَّمَرة التي جَعَلُوها لله فَاخْتَلطَ بِالَّذِي جَعَلُوهُ للوَثَنِ قَالُوا: هَذَا فَقِير وَلَمْ يَرُدُّوهُ إِلى مَا جَعَلُوهُ لله، وَإِنْ سَبَقَهُمْ المَاء الَّذِي جَعَلُوهُ لله فَسَقَى مَا سُمِّيَ للوَثَنِ تَرَكُوهُ للوَثَنِ، وَكَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ أنعامهم البَحِيرَة وَالسَّائِبَة وَالوَصِيلة وَالحَام، فَيَجْعَلُونه للأَوْثَانِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحَرِّمُونَهُ قُرْبَة لله، فَقَال الله تَعَالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ الآيَة. وَهَكَذَا قَال مُجَاهِد وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن ابْن زَيْد بْن أَسْلم فِي الآيَة: كُلّ شَيْء جَعَلوه لله مِنْ ذَبْح يَذْبَحُونَهُ لا يَأْكُلُونَهُ أَبَدًا، حَتَّى يَذْكُرُوا مَعَهُ أَسْمَاء الآلهَة، وَمَا كَانَ للآلهَةِ لمْ يَذْكُرُوا اسْم الله مَعَهُ، وَقَرَأَ الآيَة حَتَّى بَلغَ: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيْ: سَاءَ مَا يَقْسِمُونَ، فَإِنَّهُمْ أَخْطَئُوا أَوَّلًا فِي القسمة، لأَنَّ الله تَعَالى هُوَ رَبّ كُلّ شَيْء وَمَليكه، وَخَالقه وَلَهُ المُلك، وَكُلّ شَيْء لَهُ وَفِي تَصَرُّفه، وَتَحت قُدْرَته وَمَشِيئَته، لا إِله غَيْره وَلا رَبّ سِوَاهُ. ثُمَّ لَمَّا قَسَمُوا فِيمَا زَعَمُوا لم يحفظوا القِسْمَة التي هي الفَاسِدَة، بَل جَارُوا فِيهَا، كَقَوْلِهِ -جَلَّ وَعَلا-: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

يَقُول تَعَالى: وَكَمَا زَيَّنَتْ الشَّيَاطِين لهَؤُلاءِ المشركين أَنْ يَجْعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الحَرْث وَالأَنْعَام نَصِيبًا، كَذَلكَ زَيَّنُوا لهُمْ قَتْل أَوْلادهمْ خَشْيَة الإِمْلاق، وَوَأْد البَنَات خَشْيَة العَار. وَقَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ زَيَّنُوا لهُمْ قَتْل أَوْلادهمْ. وَقَال مُجَاهِد: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ شَيَاطِينهمْ يَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَئِدُوا أَوْلادهمْ خَشْيَة العَيْلة. وَقَال السُّدِّيّ: أَمَرَتْهُمْ الشَّيَاطِين أَنْ يَقْتُلُوا البَنَات، إِمَّا ليُرْدُوهُمْ فَيُهْلكُوهُمْ، وَإِمَّا ليَلبِسُوا عَليْهِمْ دِينهمْ، أَيْ: فَيَخْلطُوا عَليْهِمْ دِينهمْ. وَنَحْو ذَلكَ قَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ وَقَتَادَة. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ

مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾، وَقَدْ كَانُوا أَيْضًا يَقْتُلُونَ الأَوْلَادَ مِنَ الإِمْلَاقِ وَهُوَ الفقر، أَوْ خَشْيَةَ الإِمْلَاقِ أَنْ يَحْصُلَ لَهُمْ فِي تلف المَالِ، وَقَدْ نَهَاهُمْ عَنْ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ لذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا كُلُّه مِنْ شرع الشيطان وتزيينه لهم ذَلِكَ. قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيْ: كل هَذَا وَاقِع بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى، وَإِرَادَته وَاخْتِيَاره لذَلِكَ كَوْنًا، وَلَهُ الحِكْمَة التَّامَّة فِي ذَلِكَ، فَلا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ: فَدَعْهُمْ وَاجْتَنِبْهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ، فَسَيَحْكُمُ الله بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: الحِجْر: الحَرَام مِمَّا حَرَّمُوا مِنَ الوَصِيلة وَتَحْرِيم مَا حَرَّمُوا. وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم وَغَيْرهمَا. وَقَالَ قَتَادَة: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ الآيَة، تَحْرِيم كَانَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّيَاطِين فِي أَمْوَالهمْ وَتَغْلِيظ وَتَشْدِيد، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الله تَعَالَى. وَقَالَ ابْن زَيْد بْن أَسْلم: ﴿حِجْرٌ﴾ إِنَّمَا احْتَجَرُوهَا لآلِهَتِهِمْ. وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يَقُولُونَ: حَرَام أَنْ نُطْعِم إِلَّا مَنْ شِئْنَا. وَهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وَقَالَ السُّدِّيّ: أَمَّا الأَنْعَام الَّتِي حُرِّمَتْ ظُهُورهَا: فَهِيَ البَحِيرَة وَالسَّائِبَة وَالوَصِيلة وَالحَام، وَأَمَّا الأَنْعَام الَّتِي لا يَذْكُرُونَ اسْم الله عَلَيْهَا قَالَ: إِذَا أَوْلَدُوهَا وَلا إِنْ نَحَرُوهَا. وَقَالَ أَبُو بَكْر ابْن عَيَّاش، عَنْ عَاصِم بْن أَبِي النَّجُود، قَالَ لِي أَبُو وَائِل: أَتَدْرِي مَا فِي قَوْله: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾؟ قُلْت: لا، قَالَ: هِيَ البَحِيرَة كَانُوا لا يَحُجُّونَ عَلَيْهَا. وَقَالَ مُجَاهِد: كَانَ مِنْ إِبِلهمْ طَائِفَة لا يَذْكُرُونَ اسْم الله عَلَيْهَا فِي شأن مِنْ شَأْنهَا، لا إِنْ رَكِبُوا، وَلا إِنْ حَلَبُوا، وَلا إِنْ حَمَلُوا، وَلا إِنْ سحبوا، وَلا إِنْ عَمِلُوا شَيْئًا. ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عَلَى الله، وَكَذِبًا مِنْهُمْ فِي إِسْنَادهمْ ذَلِكَ إِلَى دِين الله وَشَرْعه، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْذَن لَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَلا رَضِيَهُ مِنْهُمْ ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ: عَلَيْهِ وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

قَالَ أَبُو إِسْحَاق السَّبِيعِيّ: عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي الهُذَيْل، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ الآيَة، قَالَ: اللَّبَن. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ فَهُوَ اللَّبَن كَانُوا يُحَرِّمُونَهُ عَلَى إِنَاثهمْ، وَيَشْرَبهُ ذُكْرَانهمْ، وَكَانَتْ الشَّاة إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ وَكَانَ لِلرِّجَال دُون النِّسَاء، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى تُرِكَتْ فَلَمْ تُذْبَح، وَإِنْ كَانَتْ مَيْتَة فَهُمْ فِيهَا شُرَكَاء، فَنَهَى الله عَنْ ذَلِكَ. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيّ. وَقَالَ الشَّعْبِيّ: البَحِيرَة لا يَأْكُل مِنْ لَبَنهَا إِلَّا الرِّجَال، وَإِنْ مَاتَ مِنْهَا شَيْء أَكَلَهُ الرِّجَال وَالنِّسَاء. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَة وَقَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم. وَقَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ قَالَ: هِيَ السَّائِبَة وَالبَحِيرَة.

وَقَالَ أَبُو العَالِيَة وَمُجَاهِد وَقَتَادَة فِي قَوْل الله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أَيْ: قَوْلهمْ الكَذِب فِي ذَلِكَ. يَعْنِي

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ...﴾ الآية. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ أي: في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل، بكذبهم على الله وافترائهم، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾. وقال الحافظ أبو بكر ابن مردويه في تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب، حدثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، وهكذا رواه البخاري منفردًا في كتاب مناقب قريش من صحيحه، عن أبي النعمان محمد بن الفضل عارم، عن أبي عوانة -واسمه: الوضاح بن عبد الله اليشكري- عن أبي بشر -واسمه: جعفر بن أبي وحشية إياس- به.

﴿۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

يقول تعالى مبينًا أنه الخالق لكل شيء: من الزروع والثمار والأنعام، التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة، وقسموها وجزءوها، فجعلوا منها حرامًا وحلالًا، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مسموكات. وفي رواية: المعروشات: ما عرش الناس، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما خرج في البر والجبال من الثمرات. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾: ما عرش من الكرم، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما لم يعرش من الكرم. وكذا قال السدي. وقال ابن جريج: ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ قال: متشابه في المنظر، وغير متشابه في المطعم، وقال محمد بن كعب: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قال: من رطبه وعنبه. وقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم: هي الزكاة المفروضة. حدثنا عمرو، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: الزكاة المفروضة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يعني: الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله، وكذا قال سعيد بن المسيب، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده لم يخرج مما حصد شيئًا فقال الله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد، وما يلقط الناس من سنبله.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود في سننه من حديث محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى بن حبان،

عَنْ عَمِّه وَاسِع بْن حِبَّان، عَنْ جَابِر بن عَبْد الله، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: أَمَرَ مِنْ كُلِّ جَاذَّ عَشَرَة أَوْسُق مِنَ التَّمْر بِقِنْوٍ يُعَلَّق فِي الْمَسْجِد لِلْمَسَاكِينِ[1]. وَهَذَا إِسْنَاد جَيِّد قَوِيّ. وَقَال طَاوُس، وَأَبُو الشَّعْثَاء، وَقَتَادَة، وَالْحَسَن، وَالضَّحَّاك، وَابْن جُرَيْج: هِيَ الزَّكَاة. وَقَال الْحَسَن الْبَصْرِيّ: هِيَ الصَّدَقَة مِنَ الْحَبّ وَالثِّمَار. وَكَذَا قَال ابن زَيْد بْن أَسْلَم. وَقَال آخَرُونَ: هُوَ حَقّ آخَر سِوَى الزَّكَاة، وَقَال أَشْعَث عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، وَنَافِع عَنْ ابْن عُمَر فِي قَوْله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قَال: كَانُوا يُعْطُونَ شَيْئًا سِوَى الزَّكَاة، رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ. وَرَوَى عَبْد الله بْن الْمُبَارَك وَغَيْره، عَنْ عَبْد الْمَلِك بْن أَبِي سُلَيْمَان، عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح فِي قَوْله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قَال: يُعْطِي مَنْ حَضَرَهُ يَوْمَئِذٍ مَا تَيَسَّرَ وَلَيْسَ بِالزَّكَاةِ. وَقَال مُجَاهِد: إِذَا حَضَرَك الْمَسَاكِين طَرَحْت لَهُمْ مِنْهُ. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ ابْن عُيَيْنَة، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قَال: عِنْد الزَّرْع يُعْطِي الْقَبْضَة، وَعِنْد الصِّرَام يُعْطِي الْقَبْضَة، وَيَتْرُكهُمْ فَيَتَّبِعُونَ آثَار الصِّرَام. وَقَال الثَّوْرِيّ، عَنْ حَمَّاد، عَنْ إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ قَال: يُعْطِي مِثْل الضِّغْث. وَقَال ابْن الْمُبَارَك، عَنْ شَرِيك، عَنْ سَالِم، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قَال: كَانَ هَذَا قَبْل الزَّكَاة، لِلْمَسَاكِين: الْقَبْضَة، وَالضِّغْث: لِعَلَفِ دَابَّته. وَفِي حَدِيث ابْن لَهِيعَة، عَنْ دَرَّاج عَنْ أَبِي الْهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد مَرْفُوعًا: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قَال: «مَا سَقَطَ مِنَ السُّنْبُل»[2]، رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ. وَقَال آخَرُونَ: هَذَا كله شَيْء كَانَ وَاجِبًا ثُمَّ نَسَخَهُ الله بِالْعُشْر، أَوْ نِصْف الْعُشْر. حَكَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَمُحَمَّد بْن الْحَنَفِيَّة وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَالْحَسَن وَالسُّدِّيّ وَعَطِيَّة الْعَوْفِيّ وَغَيْرهمْ. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ.

قلت: وَفِي تَسْمِيَة هَذَا نَسْخًا نَظَر، لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ شَيْئًا وَاجِبًا فِي الْأَصْل ثُمَّ إنه فَصَّل بَيَانه وَبَيَّنَ مِقْدَار الْمُخْرَج وَكَمِّيَّته. قَالُوا: وَكَانَ هَذَا فِي السَّنَة الثَّانِيَة مِنَ الْهِجْرَة، فَالله أَعْلَم.

وَقَدْ ذَمَّ الله سُبْحَانه الَّذِينَ يَصْرِمُونَ وَلَا يَتَصَدَّقُونَ، كَمَا ذَكَرَ عَنْ أَصْحَاب الْجَنَّة فِي سُورَة « ن »: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أَيْ: كَاللَّيْل الْمُدْلَهِمّ سَوْدَاء مُحْتَرِقَة ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أَيْ: قُوَّة وَجَلد وَهِمَّة ﴿قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قِيل: مَعْنَاهُ لَا تُسْرِفُوا فِي الْإِعْطَاء فَتُعْطُوا فَوْق الْمَعْرُوف. وَقَال أَبُو الْعَالِيَة: كَانُوا يُعْطُونَ يَوْم الْحَصَاد شَيْئًا ثُمَّ تَبَارَوْا فِيهِ وَأَسْرَفُوا فَأَنْزَل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾.

وَقَال ابْن جُرَيْج: نَزَلَتْ فِي ثَابِت بْن قَيْس بْن شِمَاس جَذَّ نَخْلًا لَهُ، فَقَال: لَا يَأْتِينِي الْيَوْم أَحَد إِلَّا أَطْعَمْته، فَأَطْعَمَ حَتَّى أَمْسَى، وَلَيْسَتْ لَهُ ثَمَرَة، فَأَنْزَل الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْهُ، وَقَال ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء: نُهُوا عَنِ السَّرَف فِي كُلّ شَيْء. وَقَال إِيَاس بْن مُعَاوِيَة: مَا جَاوَزْت بِهِ أَمْر الله فَهُوَ سَرَف. وَقَال السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ قَال: لَا تُعْطُوا أَمْوَالكُمْ فَتَقْعُدُوا فُقَرَاء. وَقَال سَعِيد بْن الْمُسَيِّب وَمُحَمَّد بْن كَعْب فِي قَوْله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ قَال: لَا تَمْنَعُوا الصَّدَقَة فَتَعْصُوا رَبّكُمْ. ثُمَّ اخْتَارَ ابْن جَرِير قَوْل عَطَاء

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٦٦٢)، وأحمد (٣/ ٣٥٩) من حديث جابر، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٤٦٤).
(٢) **ضعيف**: فيه ابن لهيعة: ضعيف، وفيه دراج أبو السمح قال الحافظ: صدوق، ولكن حديثه عن أبي الهيثم ضعيف.

أَنَّهُ نَهى عَنِ الإِسْرَافِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَلا شَكَّ أَنَّهُ صَحِيحٌ لكِنَّ الظَّاهِرَ وَاللهُ أَعلم مِنْ سِيَاقِ الآيَةِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أَنْ يَكُون عَائِدًا عَلى الأَكْلِ، أَيْ: لا تُسْرِفُوا فِي الأَكْلِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَضَرَّةِ العَقْلِ وَالبَدَنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ تَعْلِيقًا: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة»[1]. وَهَذَا مِنْ هَذَا، وَاللهُ أَعْلَم.

وَقَوْله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أَيْ: وَأَنْشَأَ لكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ مَا هُوَ حَمُولَة، وَمَا هُوَ فَرْش، قِيلَ المُرَاد بِالحَمُولَةِ: مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الإِبِلِ، وَالفَرْش: الصِّغَار مِنْهَا، كَمَا قَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد اللهِ فِي قَوْلِه: ﴿حَمُولَةً﴾ مَا حُمِلَ عَلَيْهِ مِنَ الإِبِلِ ﴿وَفَرْشًا﴾ الصِّغَار مِنَ الإِبِلِ. رَوَاهُ الحَاكِم وَقَالَ: صَحِيحُ الإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَقَالَ ابْن عَبَّاس: الحَمُولَةُ هِيَ الكِبَار، وَالفَرْش الصِّغَار مِنَ الإِبِلِ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنِ ابْنِ عَبَّاس: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أَمَّا الحَمُولَة فَالإِبِل وَالخَيْل وَالبِغَال وَالحَمِير، وَكُلُّ شَيْءٍ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الفَرْش: فَالغَنَم. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، قَالَ: وَأَحْسِبهُ إِنَّمَا سُمِّيَ فَرْشًا لِدُنُوِّهِ مِنَ الأَرْضِ. وَقَالَ الرَّبِيع بْن أَنَس وَالحَسَن وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَغَيْرُه: الحَمُولَة الإِبِل وَالبَقَر وَالفَرْش الغَنَم. وَقَالَ السُّدِّيّ: أَمَّا الحَمُولَة: فَالإِبِل، وَأَمَّا الفَرْش: فَالفُصْلان وَالعَجَاجِيل وَالغَنَم، وَمَا حُمِلَ عَلَيْهِ فَهو حَمُولَة. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم: الحَمُولَة: مَا تَرْكَبُونَ، وَالفُرُش: مَا تَأْكُلُونَ وَتَحْلُبُونَ، شَاة لا تَحْمِل تَأْكُلُونَ لَحمهَا، وَتَتَّخِذُونَ مِنْ صُوفِهَا لحافًا وفراشًا. وَهَذَا الَّذِي قَالَه عَبْد الرَّحْمَن فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ حَسَن، يَشْهَد لَهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ إِلى أَنْ قَالَ: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: مِنَ الثِّمَار وَالزُّرُوع وَالأَنْعَام، فَكُلّهَا خَلَقَهَا اللهُ وَجَعَلَهَا رِزْقًا لكُمْ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أَيْ: طرائقه وَأَوَامِره كَمَا اتَّبَعَهَا المُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ، أَيْ: مِنَ الثِّمَار وَالزُّرُوع افْتِرَاء عَلى اللهِ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ﴾ أَيْ: إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيُّهَا النَّاس لكُمْ ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أَيْ: بَيِّن ظَاهِر العَدَاوَة، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ الآية، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة فِي القُرْآن.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وَهَذَا بَيَان لِجَهْلِ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلامِ، فِيمَا كَانُوا حَرَّمُوا مِنَ الأَنْعَامِ، وَجَعَلُوهَا أَجْزَاء وَأَنْوَاعًا: بَحِيرَة وَسَائِبَة وَوَصِيلَة وَحَامًا، وَغَيْر ذَلِكَ مِنَ الأَنْوَاعِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا: فِي الأَنْعَامِ وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ، فَبَيَّنَ تَعَالى أَنَّهُ أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ، وَأَنَّهُ أَنْشَأَ مِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَة وَفُرُشًا. ثُمَّ بَيَّنَ أَصْنَاف الأَنْعَامِ إِلى غَنَم، وَهُوَ

---

[1] حسن: أخرجه البخاري معلقًا (١٠/ ٥٢)، وأحمد موصولًا (٢/ ١٨٢)، والترمذي (٢٨٢٠)، والنسائي (٥/ ٧٩).

بَيَاض: وَهُوَ الضَّأْن، وَسَوَاد: وَهُوَ المَعْز ذَكَرَهُ وَأُنْثَاهُ، وَإِلَى إِبِل ذُكُورهَا وَإِنَاثهَا، وَبَقَر كَذَلِكَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُحَرِّم شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا شَيْئًا مِنْ أَوْلَادهَا بَل كُلّهَا مَخْلُوقَة لِبَنِي آدَم أَكْلًا وَرُكُوبًا وَحَمُولَة وَحَلبًا، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ وُجُوه المَنَافِع كَمَا قَالَ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ الآيَة. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ رَدّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلهمْ: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أَيْ: أَخْبِرُونِي عَنْ يَقِين: كَيْفَ حَرَّمَ الله عَلَيْكُمْ مَا زَعَمْتُمْ تَحْرِيمه مِنَ البَحِيرَة وَالسَّائِبَة وَالوَصِيلة وَالحَام، وَنَحْو ذَلِكَ؟. وَقَالَ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ فَهَذِهِ أَرْبَعَة أَزْوَاج: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يَقُول: لَمْ أُحَرِّم شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يَعْنِي: هَل يَشْتَمِل الرَّحِم إِلَّا عَلَى ذَكَر أَوْ أُنْثَى، فَلِمَ تُحَرِّمُونَ بعضًا وَتُحِلُّونَ بَعْضًا؟ ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يَقُول تَعَالَى: كُلّه حَلال.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ تَهَكُّم بِهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ، وَافْتَرَوْهُ عَلَى الله مِنْ تَحْرِيم مَا حَرَّمُوهُ مِنْ ذَلِكَ، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَيْ: لا أَحَد أَظْلَم مِنْهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وَأَوَّل مَنْ دَخَل فِي هَذِهِ الآيَة عَمْرو بْن لُحَيّ بْن قَمْعَة، لأَنَّهُ أَوَّل مَنْ غَيَّرَ دِين الأَنْبِيَاء، وَأَوَّل مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِب وَوَصَل الوَصِيلة وَحَمَى الحَامِي، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيح.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا عَبْده وَرَسُوله مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿قُل﴾ لهَؤُلاءِ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمْ الله افْتِرَاء عَلَى الله ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أَيْ: آكِل يَأْكُلهُ، قِيل مَعْنَاهُ: لا أَجِد شَيْئًا مِمَّا حَرَّمْتُمْ حَرَامًا سِوَى هَذِهِ، وَقِيل مَعْنَاهُ: لا أَجِد مِنَ الحَيَوَانَات شَيْئًا حَرَامًا سِوَى هَذِهِ، فَعَلَى هَذَا يَكُون مَا وَرَدَ مِنَ التَّحْرِيمَات بَعْد هَذَا فِي سُورَة المَائِدَة، وَفِي الأَحَادِيث الوَارِدَة رَافِعًا لِمَفْهُوم هَذِهِ الآيَة، وَمِنَ النَّاس مَنْ يُسَمِّي هَذَا نَسْخًا، وَالأَكْثَرُونَ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ لا يُسَمُّونَهُ نَسْخًا، لأَنَّهُ مِنْ بَاب رَفْع مُبَاح الأَصْل، وَالله أَعْلَم.

وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ يَعْنِي: المُهْرَاق. وَقَال عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ لَوْلا هَذِهِ الآيَة لَتَتَبَّعَ النَّاس مَا فِي العُرُوق كَمَا تَتَبَّعَهُ اليَهُود. وَقَال حَمَّاد عَنْ عِمْرَان بْن حدير، قَال: سَأَلت أَبَا مِجْلَز عَنْ الدَّم، وَمَا يَتَلَطَّخ مِنَ الذَّبْح مِنَ الرَّأْس، وَعَنْ القِدْر يُرَى فِيهَا الحُمْرَة، فَقَال: إِنَّمَا نَهَى الله عَنْ الدَّم المَسْفُوح. وَقَال قَتَادَة: حَرَّمَ مِنَ الدِّمَاء مَا كَانَ مَسْفُوحًا، فَأَمَّا اللَّحْم خَالَطَهُ دَمٌ فَلا بَأْس بِهِ، وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا المُثَنَّى، حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مِنْهَال، حَدَّثَنَا حَمَّاد عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد عَنْ القَاسِم، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها، أَنَّهَا كَانَتْ لا تَرَى بِلُحُوم السِّبَاع بَأْسًا، وَالحُمْرَة وَالدَّم يَكُونَانِ عَلَى القِدْر بَأْسًا وَقَرَأَت هَذِهِ الآيَة، صَحِيح غَرِيب. وَقَال الحُمَيْدِيّ: حَدَّثَنَا سُفْيَان، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن دِينَار قَال: قُلت لِجَابِر بْن عَبْد الله: إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ نَهَى عَنْ لُحُوم الحُمُر الأَهْلِيَّة زَمَن خَيْبَر، فَقَال: قَدْ كَانَ يَقُول ذَلِكَ الحَكَم بْن عَمْرو عَنْ رَسُول الله ﷺ، وَلَكِنْ أَبَى ذَلِكَ الحَبْر -يَعْنِي ابْن عَبَّاس- وَقَرَأَ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾[1] الآيَة.

وَكَذَا رَوَاهُ البُخَارِيّ: عَنْ عَلِيّ ابْن المَدِينِيّ، عَنْ سُفْيَان، بِهِ. وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد: مِنْ حَدِيث ابْن جُرَيْج، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار. وَرَوَاهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مَعَ أَنَّهُ فِي صَحِيح البُخَارِيّ كَمَا رَأَيْت. وَقَال أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْه وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن عَلِي بْن دُحَيْم، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن حَازِم، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم الفَضْل بْن دُكَيْن،

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٥٢٠)، وأبو داود (٣٨٠٨)، والحميدي (٨٥٩).

حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن شَرِيك، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ أَبِي الشَّعْثَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: كَانَ أَهْل الجَاهِلِيَّة يَأْكُلُونَ أَشْيَاء وَيَتْرُكُونَ أَشْيَاء تَقَذُّرًا، فَبَعَثَ الله نَبِيّه، وَأَنْزَل كِتَابه، وَأَحَلَّ حَلاله، وَحَرَّمَ حَرَامه، فَمَا أَحَلَّ فَهُوَ حَلال، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَام، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْو، وتلا هَذِهِ الآيَة: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ إلى آخر الآيَة. وَهَذَا لفظ ابْن مَرْدُوَيْه، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد مُنْفَرِدًا بِهِ عَنْ مُحَمَّد بْن دَاوُد بْن صُبَيْح، عَنْ أَبِي نُعَيْم، بِهِ. وَقَال الحَاكِم: هَذَا حَدِيث صَحِيح الإِسْنَاد وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة عَنْ سِمَاك بْن حَرْب، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: مَاتَتْ شَاة لِسَوْدَةَ بِنْت زَمْعَة، فَقَالَتْ: يَا رَسُول الله مَاتَتْ فُلانَة -تَعْنِي الشَّاة- قَالَ: «**فَلِمَ لا أَخَذْتُمْ مِسْكَهَا؟**» قَالَتْ: نَأْخُذ مِسْك شَاة قَدْ مَاتَتْ؟ فَقَال لَهَا رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّمَا قَالَ الله:** ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ **وَإِنَّكُمْ لا تَطْعَمُونَهُ إِنْ تَدْبُغُوهُ، فَتَنْتَفِعُوا بِهِ**»، فَأَرْسَلَتْ، فَسَلَخَتْ مِسْكَهَا، فدبغته فَاتَّخَذَتْ مِنْهُ قِرْبَة حَتَّى تَخَرَّقَتْ عِنْدهَا[1]. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث الشَّعْبِيّ عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ سَوْدَة بِنْت زَمْعَة بِذَلِكَ، أَوْ نَحْوه. وَقَال سَعِيد بْن مَنْصُور: حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن مُحَمَّد، عَنْ عِيسَى بْن نُمَيْلَة الفَزَارِيّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْت عِنْد ابْن عُمَر فَسَأَلَهُ رَجُل عَنْ أَكْل القُنْفُذ فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الآيَة. فَقَال شَيْخ عِنْده: سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: ذُكِرَ عِنْد النَّبِيّ ﷺ، فَقَال: «**خَبِيث مِنَ الخَبَائِث**»[2]، فَقَال ابْن عُمَر: إِنْ كَانَ النَّبِيّ ﷺ قَالَهُ فَهُوَ كَمَا قَال. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد، عَنْ أَبِي ثَوْر، عَنْ سَعِيد بْن مَنْصُور بِهِ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أَيْ: فَمَنْ اضْطُرَّ إِلَى أَكْل شَيْء مِمَّا حَرَّمَ الله فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، وَهُوَ غَيْر مُتَلَبِّس بِبَغْيٍ وَلا عُدْوَان ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيْ: غَفُور لَهُ، رَحِيم بِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِير هَذِهِ الآيَة فِي سُورَة البَقَرَة بِمَا فِيهِ كِفَايَة.

وَالمقصود مِنْ سِيَاق هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة الرَّدّ عَلَى المُشْرِكِينَ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَحْرِيم المُحَرَّمَات عَلَى أَنْفُسهمْ، بِآرَائِهِمْ الفَاسِدَة مِنْ البَحِيرَة وَالسَّائِبَة وَالوَصِيلَة وَالحَام، وَنَحْو ذَلِكَ، فَأَمَرَ رَسُوله أَنْ يُخْبِرهُمْ أَنَّهُ لا يَجِد فِيمَا أَوْحَاهُ الله إِلَيْهِ أَنَّ ذَلِكَ مُحَرَّم، وَإِنَّمَا حَرَّمَ مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الآيَة مِنْ المَيْتَة وَالدَّم المَسْفُوح وَلَحْم الخِنْزِير، وَمَا أُهِلّ لِغَيْرِ الله بِهِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَلَمْ يُحَرَّم، وَإِنَّمَا هُوَ عَفْو مَسْكُوت عَنْهُ، فَكَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنْتُمْ أَنَّهُ حَرَام؟ وَمِنْ أَيْنَ حَرَّمْتُمُوهُ وَلَمْ يُحَرِّمهُ الله؟ وَعَلَى هَذَا فَلا يَبْقَى تَحْرِيم أَشْيَاء أُخَر فِيمَا بَعْد هَذَا، كَمَا جَاءَ النَّهْي عَنْ لُحُوم الحُمُر الأَهْلِيَّة وَلُحُوم السِّبَاع، وَكُلّ ذِي مِخْلَب مِنْ الطَّيْر، عَلَى المَشْهُور مِنْ مَذَاهِب العُلَمَاء.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

قَال ابْن جَرِير: يَقُول تَعَالَى: وَحَرَّمْنَا عَلَى اليَهُود كُلّ ذِي ظُفُر، وَهُوَ من البَهَائِم وَالطَّيْر مَا لَمْ يَكُنْ مَشْقُوق الأَصَابِع، كَالإِبِل وَالنَّعَام وَالأَوز وَالبَطّ. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وَهُوَ البَعِير وَالنَّعَامَة. وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ فِي رِوَايَة. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: هُوَ الَّذِي لَيْسَ بِمنفرج الأَصَابِع. وَفِي رِوَايَة عَنْهُ: كُلّ مفترق الأَصَابِع، وَمِنْهُ الدِّيك. وَقَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وَكَانَ يُقَال لِلبَعِيرِ وَالنَّعَامَة وَأَشْيَاء مِنْ الطَّيْر وَالحِيتَان. وَفِي رِوَايَة: البَعِير

(١) ضعيف بهذا السياق: أخرجه أحمد (١/ ٣٢٧) من طريق سماك عن عكرمة، ورواية سماك عن عكرمة مضطربة، وللحديث أصل في صحيح البخاري، وعند النسائي من طريق الشعبي عن عكرمة.

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٣٨١)، وأبو داود (٣٧٩٩) بسند ضعيف لجهالة عيسى بن نميلة الفزاري وأبيه ولإبهام الراوي عن أبي هريرة.

وَالنَّعَامَة، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ الطَّيْرِ البَطّ وَشَبَهه، وَكُلّ شَيْء لَيْسَ بِمَشْقُوقِ الأَصَابع. وَقَال ابْن جُرَيْج عَنْ مُجَاهِد: ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ﴾. قَال: النَّعَامَة وَالبَعِير شقًّا شقًّا، قُلت للقَاسِم بْن أَبِي بَزَّة وَحَدَّثَنِيه: مَا شقًّا شقًّا؟ قَال: كُلّ مَا لا يَفرج مِنْ قَوَائِم البَهَائِم، قَال: وَمَا انْفَرَجَ أَكَلته اليهود. قَال: انْفَرَجَ قَوَائِم البَهَائِم وَالعَصَافِير. قَال: فَيَهُود تَأْكُلها، قَال: وَلَمْ تَنْفَرِج قَائِمَة البَعِير -خُفّه- وَلا خُفّ النَّعَامَة، وَلا قَائِمَة الإِوَزّ، فَلا تَأْكُل اليَهُود الإِبِل وَلا النَّعَام وَلا الإِوَزّ، وَلا كُلّ شَيْء لَمْ تَنْفَرِج قَائِمَته، وَلا تَأْكُل حِمَار الوَحْش.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ قَال السُّدِّيّ: يَعْنِي الثَّرْب، وَشَحْم الكُلْيَتَيْنِ، وَكَانَتْ اليَهُود تَقُول: إِنَّهُ حَرَّمَهُ إِسْرَائِيل فَنَحْنُ نُحَرِّمهُ. وَكَذَا قَال ابْن زَيْد وَقَال قَتَادَة: الثَّرْب وَكُلّ شَحْم كَانَ كَذَلِكَ لَيْسَ فِي عَظْم. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ يَعْنِي: مَا عُلِّقَ بِالظَّهْرِ مِنْ الشُّحُوم، وَقَال السُّدِّيّ وَأَبُو صَالِح: الأَلْيَة مِمَّا حَمَلَتْ ظُهُورهمَا. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ قَال الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: الحَوَايَا: جَمْع، وَاحِدهَا حَاوِيَاء. وَحَاوِيَة وَحَوِيَّة: وَهُوَ مَا تَحْوِي مِنَ البَطْن فَاجْتَمَعَ وَاسْتَدَارَ، وَهِيَ بَنَات اللَّبَن، وَهِيَ المَبَاعِر: وَتُسَمَّى المَرَابِض، وَفِيهَا الأَمْعَاء. قَال: وَمَعْنَى الكَلام: وَمِنْ البَقَر وَالغَنَم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومهمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورهمَا، أَوَ مَا حَمَلَتْ الحَوَايَا. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وَهِيَ: المَبْعَر. وَقَال مُجَاهِد: الحَوَايَا: المَبْعَر وَالمَرْبِض. وَكَذَا قَال سَعِيد بْن جُبَيْر وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَأَبُو مَالِك وَالسُّدِّيّ. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم وَغَيْر وَاحِد: الحَوَايَا: المَرَابِض الَّتِي تَكُون فِيهَا الأَمْعَاء، تَكُون وَسَطهَا، وَهِيَ بَنَات اللَّبَن، وَهِيَ فِي كَلام العَرَب تُدْعَى المَرَابِض. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾ أي: وَإِلَّا مَا اخْتَلَطَ مِنْ الشُّحُوم بالعظام فَقَدْ أَحْلَلنَاهُ لَهُمْ. وَقَال ابْن جُرَيْج: شَحْم الأَلْيَة مَا اخْتَلَطَ بِالعُصْعُص فَهُوَ حَلال، وَكُلّ شَيْء فِي القَوَائِم وَالجَنْب وَالرَّأْس وَالعَيْن، وَمَا اخْتَلَطَ بِعَظْم فَهُوَ حَلال. وَنَحْوه قَالَهُ السُّدِّيّ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ﴾ أَيْ: هَذَا التَّضْيِيق إِنَّمَا فَعَلنَاهُ بِهِمْ وَأَلْزَمْنَاهُمْ بِهِ، مُجَازَاة لهم عَلَى بَغْيِهِمْ وَمُخَالَفتهمْ أَوَامِرنَا، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ وَقَوْله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أَيْ: وَإِنَّا لعَادِلُونَ فِيمَا جَزَيْنَاهُمْ بِهِ، وَقَال ابْن جَرِير: وَإِنَّا لصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرْنَاك بِهِ يَا مُحَمَّد مِنْ تَحْرِيمنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لا كَمَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّ إِسْرَائِيل هُوَ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسه، وَالله أَعْلَم. وَقَال عَبْد الله بْن عَبَّاس: بَلَغَ عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ أَنَّ سَمُرَة بَاعَ خَمْرًا، فَقَال: قَاتَلَ الله سَمُرَة، أَلَمْ يَعْلَم أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**لعَنَ الله اليَهُود حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الشُّحُوم فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا**»[1]. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ طَاوُس، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ عُمَر، بِهِ. وَقَال اللَّيْث: حَدَّثَنِي يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب قَال: قَال عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح: سَمِعْت جَابِر بْن عَبْد الله يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول عَام الفَتْح: «**إِنَّ الله وَرَسُوله حَرَّمَ بَيْع الخَمْر وَالمَيْتَة وَالخِنْزِير وَالأَصْنَام**» فَقِيل: يَا رَسُول الله؛ أَرَأَيْت شُحُوم المَيْتَة، فَإِنَّهَا يُدْهَن بِهَا الجُلُود، وَيُطْلَى بِهَا السُّفُن، وَيَسْتَصْبِح بِهَا النَّاس، فَقَال: «**لا، هُوَ حَرَام**». ثُمَّ قَال رَسُول الله ﷺ عِنْد ذَلِكَ: «**قَاتَلَ الله اليَهُود، إِنَّ الله لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومهَا جَمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ وَأَكَلُوا ثَمَنه**»[2]. وَرَوَاهُ الجَمَاعَة مِنْ طُرُق عَنْ يَزِيد بْن أَبِي حبيب بِهِ، وَقَال الزُّهْرِيّ عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٢٢٣)، ومسلم (١٥٨٢).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٢٢٤)، ومسلم (١٥٨٣).

«قاتل الله اليهود، حرِّمت عليهم الشحوم فباعوها، وأكلوا أثمانها»(١). وَرَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم جَمِيعًا عَنْ عَبْدَان، عَنْ ابْن المُبَارَك، عَنْ يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ بِهِ. وَقَال ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن حَرْب، حَدَّثَنَا وَهِيب، حَدَّثَنَا خَالد الحَذَّاء عَنْ بَرَكَة أَبِي الوَلِيد، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ قَاعِدًا خَلف المَقَام، فَرَفَعَ بَصَره إِلَى السَّمَاء فَقَال: «لعن الله اليهود -ثلاثًا- إنَّ الله حرَّم عليهم الشحوم فباعوها، وأكلوا ثمنها، وإنَّ الله لم يحرِّم على قوم أكل شيء إلا حرَّم عليهم ثمنه»(٢). وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَاصِم، أَنْبَأَنَا خَالد الحَذَّاء، عَنْ بَرَكَة أَبِي الوَلِيد، أَنْبَأَنَا ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ قَاعِدًا فِي المَسْجِد، مُسْتَقْبِلًا الحِجْر، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاء، فَضَحِكَ، ثُمَّ قَال: «لعن الله اليهود حرِّمت عليهم الشحوم فباعوها، وأكلوا أثمانها، وإنَّ الله إذا حرَّم على قوم أكل شيء حرَّم عليهم ثمنه»(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيث خَالد الحَذَّاء.

وَقَال الأَعْمَش عَنْ جَامِع بْن شَدَّاد، عَنْ كُلثُوم، عَنْ أُسَامَة بْن زَيْد قَال: دَخَلنَا عَلَى رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ مَرِيض نَعُودهُ، فَوَجَدْنَاهُ نَائِمًا، قَدْ غَطَّى وَجْهه بِبُرْدٍ عَدَنِيّ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهه، وَقَال: «لعن الله اليهود يحرِّمون شحوم الغنم ويأكلون أثمانها»، وَفِي رِوَايَة: «حرِّمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها».

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: فَإِنْ كَذَّبَك يَا مُحَمَّد مُخَالِفُوك مِنْ المُشْرِكِينَ وَاليَهُود وَمَنْ شَابَهَهُمْ ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وَهَذَا تَرْغِيب لَهُمْ فِي ابْتِغَاء رَحْمَة الله الوَاسِعَة وَاتِّبَاع رِضْوَانه ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ تَرْهِيب لَهُمْ مِن مُخَالَفَتهمْ الرَّسُول خَاتَم النَّبِيِّينَ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِن الله تَعَالَى بَيْن التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب فِي القُرْآن، كَمَا قَال تَعَالَى فِي آخِر هَذِهِ السُّورَة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وَقَال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، وَقَال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة جِدًّا.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

هَذِهِ مُنَاظَرَة ذَكَرَهَا الله تَعَالَى، وَشُبْهَة تَشَبَّثَ بِهَا المُشْرِكُونَ فِي شِرْكهمْ، وَتَحْرِيم مَا حَرَّمُوا، فَإِنَّ الله مُطَّلِع عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الشِّرْك، وَالتَّحْرِيم لِمَا حَرَّمُوهُ، وَهُوَ قَادِر عَلَى تَغْيِيره بِأَنْ يُلهِمنَا الإِيمَان، أَوْ يَحُول بَيْننَا وَبَيْن الكُفْر، فَلَمْ يُغَيِّرهُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَته وَرِضَاهُ مِنَّا ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾. وَكَذَلِكَ الآيَة الَّتِي فِي النَّحْل مِثْل هَذِهِ سَوَاء، قَال الله تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: بِهَذِهِ الشُّبْهَة ضَلَّ مَنْ ضَلَّ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢١٢١، ٤٠٤٥، ٤٣٥٧)، ومسلم (١٥٨١).
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٤٨٨) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٧٦٤).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٢٤٧)، وابن حبان (٤٩٣٨).

قَبْل هَؤُلاءِ، وَهِيَ حُجَّة دَاحِضَة بَاطِلة، لأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ صَحِيحَة لَمَا أَذَاقَهُمْ الله بَأْسه، وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ، وَأَدَال عَلَيْهِمْ رُسُله الكِرَام، وَأَذَاقَ المُشْرِكِينَ مِنْ أَلِيم الانْتِقَام. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أَيْ: بِأَنَّ الله رَاضٍ عَنْكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أَيْ: فَتُظْهِرُوهُ لَنَا وَتُبَيِّنُوهُ وَتُبْرِزُوهُ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أَيْ: الوَهْم وَالخَيَال، وَالمُرَاد بِالظَّنِّ هَهُنَا الاعْتِقَاد الفَاسِد ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: تَكْذِبُونَ عَلَى الله فِيمَا ادَّعَيْتُمُوهُ.

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، وَقَال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ثُمَّ قَال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: عِبَادَتنَا الآلهَة تُقَرِّبنَا إِلى الله زُلفَى، فَأَخْبَرَهُمْ الله أَنَّهَا لا تُقَرِّبهُمْ، فَقَوْله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ يَقُول تَعَالَى: لَوْ شِئْت لجَمَعْتهمْ عَلى الهُدَى أَجْمَعِينَ. وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يَقُول تَعَالى لنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهُمْ يَا مُحَمَّد: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أَيْ: لهُ الحِكْمَة التَّامَّة وَالحُجَّة البَالغَة فِي هِدَايَة مَنْ هَدَى، وَإِضْلال مَنْ أَضَلَّ ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فَكُلّ ذَلكَ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَته وَاخْتِيَاره، وَهُوَ مَعَ ذَلكَ يَرْضَى عَنْ المُؤْمِنِينَ، وَيَبْغَض الكَافِرِينَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ قَال الضَّحَّاك: لا حُجَّة لأَحَدٍ عَصَى الله، وَلكِنْ لله الحُجَّة البَالغَة عَلى عِبَاده.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أَيْ: أَحْضِرُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ، وَكَذَّبْتُمْ، وَافْتَرَيْتُمْ عَلى الله فِيهِ ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أَيْ: لأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ وَالحَالة هَذِهِ كَذِبًا وَزُورًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أَيْ: يُشْرِكُونَ بِهِ وَيَجْعَلُونَ لهُ عَدِيلًا.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

قَال دَاوُد الأَوْدِيّ: عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ عَلقَمَة، عَنْ ابْن مَسْعُود ﷺ قَال: مَنْ أَرَادَ أَنْ يقرأ صحيفة رَسُول الله ﷺ، الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمه فَليَقْرَأْ هَؤُلاءِ الآيَات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إِلى قَوْله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وَقَال الحَاكِم فِي مُسْتَدْركه: حَدَّثَنَا بَكْر بْن مُحَمَّد الصَّيْرَفِيّ بمَرْو، حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد بْن الفَضْل، حَدَّثَنَا مَالك بْن إِسْمَاعِيل المَهْدِيّ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الله بْن خَليفَة قَال: سَمِعْت ابْن عَبَّاس يَقُول: فِي الأَنْعَام آيَات مُحْكَمَات هُنَّ أُمّ الكِتَاب، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيَات. ثُمَّ قَال الحَاكِم: صَحِيح الإِسْنَاد، وَلمْ يُخَرِّجَاهُ.

قلت: وَرَوَاهُ زُهَيْر وَقَيْس بْن الرَّبِيع كِلاهُمَا عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الله بْن قَيْس، عَنْ ابْن عَبَّاس بِهِ، وَالله أَعْلم. وَرَوَى الحَاكِم أَيْضًا فِي مستدركه مِنْ حَدِيث يَزِيد بْن هَارُون، عَنْ سُفْيَان بْن حُسَيْن، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِي إِدْرِيس، عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**أَيُّكُمْ يُبَايِعنِي عَلى ثَلاث**»، ثُمَّ تَلا رَسُول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْ الآيَات. «**فَمَنْ وَفَى فَأَجْره عَلى الله، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ الله بِهِ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَته، وَمَنْ أَخَّرَ إِلى الآخِرَة فَأَمْره إِلى الله، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ،**

وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ»[1]. ثُمَّ قَال: صَحِيح الإِسْنَاد، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَإِنَّمَا اتَّفَقَا عَلَى حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِي إِدْرِيس، عَنْ عُبَادَة: «بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا...»[2]. الحَدِيث. وَقَدْ رَوَى سُفْيَان بْن حُسَيْن كِلا الحَدِيثَيْنِ، فَلا يَنْبَغِي أَنْ يُنْسَب إِلَى الوَهْم فِي أَحَد الحَدِيثَيْنِ إِذَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا، وَاللهُ أَعْلَم.

وَأَمَّا تَفْسِيرهَا: فَيَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُوله مُحَمَّد ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّد لِهَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْر الله، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمْ الله، وَقَتَلُوا أَوْلادهمْ، وَكُلّ ذَلِكَ فَعَلُوهُ بِآرَائِهِمْ وَتَسْوِيل الشَّيَاطِين لَهُمْ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿تَعَالَوْا﴾ أَيْ: هَلُمُّوا وَأَقْبِلُوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: أَقُصّ عَلَيْكُمْ وَأُخْبِرُكُمْ بِمَا حَرَّمَ رَبّكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا لا تَخَرُّصًا وَلا ظَنًّا، بَل وَحْيًا مِنْهُ وَأَمْرًا مِنْ عِنْده ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وَكَأَنَّ فِي الكَلام مَحْذُوفًا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاق وَتَقْدِيره: وَأَوْصَاكُمْ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وَلِهَذَا قَال فِي آخِر الآيَة: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَكَمَا قَال الشَّاعِر:

حَجَّ وَأَوْصَى بِسُلَيْمَى الأَعْبُدَا ❁ أَنْ لا تُرَى وَلا تُكَلِّم أَحَدَا

وَلا يَزَل شَرَابُهَا مُبَرَّدًا

وَتَقُول العَرَب: أَمَرْتُك أَنْ لا تَقُوم.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث أَبِي ذَرّ رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيل، فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لا يُشْرِك بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتك دَخَل الجَنَّة، قُلت: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَال: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قُلت: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَال: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قُلت: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ شَرِبَ الخَمْر؟ قَال: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ شَرِبَ الخَمْر». وَفِي بَعْض الرِّوَايَات أَنَّ قَائِل ذَلِكَ إِنما هُوَ أَبُو ذَرّ لِرَسُول الله ﷺ، وَأَنَّهُ -عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام- قَال فِي الثَّالِثَة: «وَإِنْ رَغِمَ أَنْف أَبِي ذَرّ»[3]، فَكَانَ أَبُو ذَرّ يَقُول بَعْد تَمَام الحَدِيث: وَإِنْ رَغِمَ أَنْف أَبِي ذَرّ. وَفِي بَعْض المَسَانِيد وَالسُّنَن: عَنْ أَبِي ذَرّ، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: يَقُول الله تَعَالَى: «يَا ابْنَ آدَم، إِنَّك مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَإِنِّي أَغْفِر لَك عَلَى مَا كَانَ مِنْك وَلا أُبَالِي، وَلَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْض خَطِيئَة أَتَيْتُك بِقُرَابِهَا مَغْفِرَة مَا لَمْ تُشْرِك بِي شَيْئًا، وَإِنْ أَخْطَأْت حَتَّى تَبْلُغ خَطَايَاك عَنَان السَّمَاء ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْت لَك»[4].

وَلِهَذَا شَاهِد فِي القُرْآن، قَال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وَفِي صَحِيح مُسْلِم: عَنْ ابْن مَسْعُود: «مَنْ مَاتَ لا يُشْرِك بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَل الجَنَّة». وَالآيَات وَالأَحَادِيث فِي هَذَا كَثِيرَة جِدًّا. وَرَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ: مِنْ حَدِيث عُبَادَة وَأَبِي الدَّرْدَاء: «لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ قُطِعْتُمْ أَوْ صُلِبْتُمْ أَوْ حُرِقْتُمْ»[5]. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَوْف الحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي مَرْيَم، حَدَّثَنَا نَافِع بْن يَزِيد، حَدَّثَنِي سَيَّار بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ يَزِيد بْن قوذر، عَنْ سَلَمَة بْن شُرَيْح، عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت قَال: أَوْصَانَا رَسُول الله ﷺ بِسَبْع خِصَال: «أَلا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ حُرِقْتُمْ وَقُطِعْتُمْ وَصُلِبْتُمْ». وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أَيْ: وَأَوْصَاكُمْ وَأَمَرَكُمْ بِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، أَيْ: أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم (٢/ ٣١٨) بسند ضعيف، فيه سفيان بن حسين قال الحافظ: ثقة في غير الزهري، وهذا الحديث يرويه عن الزهري، فهو ضعيف.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩) من طريق غير طريق سفيان بن حسين إلى الزهري.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

(٤) صحيح: تقدم.

(٥) صحيح بشواهده: أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٠٥٨) من حديث عبادة، وحديث أبي الدرداء، أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٨)، وله شاهد من حديث معاذ بن جبل أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٨)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٠٢٦).

وَقَرَأَ بَعْضهم: ﴿وَوَصَّى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَيْ: أَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، وَالله تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرِن بَيْن طَاعَته وَبِرّ الْوَالِدَيْنِ، كَمَا قَالَ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فَأَمَرَ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا وَإِنْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ بِحَسْبِهِمَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآيَة، وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَن ابْن مَسْعُود ﷺ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلت رَسُول الله ﷺ: أَيّ العَمَل أَفْضَل؟ قَالَ: **«الصَّلاة عَلى وَقتهَا»**، قُلت: ثُمَّ أَيّ؟ قَالَ: **«بِرّ الوَالدَيْنِ»**، قُلت: ثُمَّ أَيّ؟ قَالَ: **«الجِهَاد فِي سَبِيل الله»**. قَالَ ابْن مَسْعُود: حَدَّثَنِي بِهِنَّ رَسُول الله ﷺ وَلَوْ اسْتَزَدْته لَزَادَنِي[1]. وَرَوَى الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْه بِسَنَدِهِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، وَعَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت، كُلّ مِنْهُمَا يَقُول: أَوْصَانِي خَلِيلِي رَسُول الله ﷺ: **«أَطِعْ وَالدَيْك، وَإِنْ أَمَرَاك أَنْ تَخْرُج لَهُمَا مِنَ الدُّنْيَا فَافْعَل»**[2]. وَلَكِنْ فِي إِسْنَادَيْهِمَا ضَعْف، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لَمَّا أَوْصَى تَعَالَى بِبِر الآبَاء وَالأَجْدَاد، عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ الإِحْسَان إِلَى الأَبْنَاء وَالأَحْفَاد، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ أَوْلادهمْ، كَمَا سَوَّلَتْ لَهُمْ الشَّيَاطِين ذَلِكَ، فَكَانُوا يَئِدُونَ البَنَات خَشْيَة العَار، وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْض الذُّكُور خَشْيَة الافْتِقَار، وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن مَسْعُود ﷺ قلت: يا رَسُول الله؛ أَيّ الذَّنْب أَعْظَم؟ قَالَ: **«أَنْ تَجْعَل لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك»**، قُلت: ثُمَّ أَيّ؟ قَالَ: **«أَنْ تَقْتُل وَلَدَك خَشْيَة أَنْ يَطْعَم مَعَك»**، قُلت: ثُمَّ أَيّ؟ قَالَ: **«أَنْ تُزَانِي حَلِيلَة جَارك»**، ثُمَّ تَلا رَسُول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[3].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَغَيْره: هُوَ الفَقْر، أَيْ: وَلا تَقْتُلُوهُمْ مِنْ فَقْركُمْ الحَاصِل. وَقَالَ فِي سُورَة الإِسْرَاء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أَيْ: لا تَقْتُلُوهُمْ خشية حصول فقر فِي الآجِل، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فَبَدَأَ بِرِزْقِهِمْ لِلاهْتِمَام بِهِمْ، أَيْ: لا تَخَافُوا مِنْ فَقْركُمْ بِسَبَبِ رِزْقهمْ، فَهُوَ عَلَى الله، وَأَمَّا هُنَا فَلَمَّا كَانَ الفَقْر حَاصِلًا قَالَ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأَنَّهُ الأَهَمّ هَاهُنَا، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرهَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْن مَسْعُود ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«لا أَحَد أَغْيَر مِنْ الله؛ مِنْ أَجْل ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»**[4]. وَقَالَ عَبْد المَلِك بْن عُمَيْر، عَنْ وَرَّاد، عَنْ مَوْلاهُ المُغِيرَة قَالَ: قَالَ سَعْد بْن عُبَادَة: لَوْ رَأَيْت مَعَ امْرَأَتِي رَجُلًا لَضَرَبْته بِالسَّيْفِ، غَيْر مُصَفَّح. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: **«أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَة سَعْد؟ فَوَالله لأَنَا أَغْيَر مِنْ سَعْد، وَالله أَغْيَر مِنِّي، مِنْ أَجْل ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»**[5]. أَخْرَجَاهُ. وَقَالَ كَامِل أَبُو العَلاء، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُول الله؛ إِنَّا نَغَار، قَالَ: **«وَالله إِنِّي لأَغَار، وَالله أَغْيَر مِنِّي، وَمِنْ غَيْرَته نَهَى عَنْ**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٤، ٢٦٣٠، ٥٦٢٥، ٧٠٩٦).
(٢) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٨).
(٣) صحيح: تقدم.
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤١٩).

الفَوَاحِش»[١]. رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ، وَلَمْ يُخْرِجهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة، وَهو عَلى شَرْط التِّرمِذِيّ. فَقَدْ رُوِيَ بِهَذَا المَسْنَد: «**أَعمَار أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلى السَّبْعِينَ**»[٢]. وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وَهَذَا مِمَّا نَصَّ -تَبَارَكَ وَتَعَالى- عَنْ النَّهْي عَنْهُ تَأْكِيدًا، وَإِلَّا فَهُوَ دَاخِل فِي النَّهْي عَنْ الفَوَاحِش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، فَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ ابْن مَسْعُود ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ «**لا يَحِلّ دَم امْرِئٍ مُسْلم يَشْهَد أَنْ لا إِله إِلا الله وَأَنِّي رَسُول الله إِلا بِإِحْدَى ثَلاث: الثَّيِّب الزَّانِي، وَالنَّفْس بالنَّفْسِ، وَالتَّارِك لدِينِهِ المُفَارِق للجَمَاعَةِ**» وَفِي لفْظ لمُسْلم: «**وَالَّذِي لا إِله غَيْره لا يَحِلّ دَم رَجُل مُسْلم**»[٣]. وَذَكَرَهُ. قَال الأَعْمَش: فَحَدَّثْت بِهِ إِبْرَاهِيم، فَحَدَّثَنِي عَنْ الأَسْوَد، عَنْ عَائِشَة بِمِثْلِهِ.

وَرَوَى أَبو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ، عَنْ عَائِشَة ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**لا يَحِلّ دَم امْرِئٍ مُسْلم إِلا بِإِحْدَى ثَلاث خِصَال: زَانٍ مُحْصَن يُرْجَم، وَرَجُل قَتَل رجلاً مُتَعَمِّدًا فَيُقْتَل، وَرَجُل يَخْرُج مِنْ الإِسْلام وَحَارَبَ الله وَرَسُوله فَيُقْتَل، أَوْ يُصْلَب، أَوْ يُنْفَى مِنْ الأَرْض**»[٤]. وَهَذَا لفْظ النَّسَائِيّ. وَعَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُثْمَان بْن عَفَّان ﷺ أَنَّهُ قَال: -وَهُوَ مَحْصُور-: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**لا يَحِلّ دَم امْرِئٍ مُسْلم إِلا بِإِحْدَى ثَلاث: رَجُل كَفَرَ بَعْد إِسْلامه، أَوْ زَنَى بَعْد إِحْصَانه، أَوْ قَتَل نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْس؛ فَوَالله مَا زَنَيْت فِي جَاهِلِيَّة وَلا إِسْلام، وَلا تَمَنَّيْت أَنَّ لي بِدِينِي بَدَلا مِنْهُ بَعْد إِذْ هَدَانِي الله، وَلا قَتَلت نَفْسًا، فَبِمَ تَقْتُلُونَنِي؟**»[٥]. رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، وَالتِّرمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن مَاجَهْ، وَقَال التِّرمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن. وَقَدْ جَاءَ النَّهْي وَالزَّجْر وَالوَعِيد فِي قَتْل المُعَاهَد -وَهُوَ المُسْتَأْمَن مِنْ أَهْل الحَرْب- كما رواه البُخَارِيّ عَنْ عَبْد الله بْن عمرو ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: «**مَنْ قَتَل مُعَاهَدًا، لمْ يَرِحْ رَائِحَة الجَنَّة، وَإِنَّ رِيحهَا ليُوجَد مِنْ مَسِيرَة أَرْبَعِينَ عَامًا**»[٦]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**مَنْ قَتَل مُعَاهَدًا، لهُ ذِمَّة الله وَذِمَّة رَسُوله فَقَدْ أَخْفَرَ بِذِمَّةِ الله، فَلا يُرِحْ رَائِحَة الجَنَّة، وَإِنَّ رِيحهَا ليُوجَد مِنْ مَسِيرَة سَبْعِينَ خَرِيفًا**». رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ، وَالتِّرمِذِيّ، وَقَال: حَسَن صَحِيح. وَقَوْله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: هَذَا مَا وَصَّاكُمْ بِه، لعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ عَنْ الله أَمْره وَنَهْيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

قَال عَطَاء بْن السَّائِب: عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: لمَّا أَنْزَل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وَ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآيَة، فَانْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْده يَتِيم، فَعَزَل طَعَامه مِنْ طَعَامه وَشَرَابه مِنْ شَرَابه، فَجَعَل يَفْضل الشَّيْء فَيُحْبَس لهُ حَتَّى يَأْكُلهُ أَوْ يَفْسُد، فَاشْتَدَّ ذَلكَ عَليْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلكَ لرَسُول ﷺ الله فَأَنْزَل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ قَال: فَخَلطُوا طَعَامهمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابهمْ بِشَرَابِهِمْ[٧]. رَوَاهُ أَبو دَاوُد. وَقَوْله تَعَالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قَال الشَّعْبِيّ وَمَالك

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٦) من حديث أبي هريرة.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٣٥٥٠)، وابن ماجه (٤٢٣٦)، وابن حبان (٢٩٨٠)، والحاكم (٢/ ٤٦٣)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨١٥).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٧٦)، وأبو داود (٤٣٥٣).

(٤) صحيح: أخرجه النسائي (٧/ ١٠١) من حديث عائشة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٨٩).

(٥) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٦١)، والترمذي (٢١٥٨)، والنسائي (٧/ ٩١)، وابن ماجه (٢٥٣٢) من حديث عثمان، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢١٥٨).

(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٠٤)، والنسائي (١/ ٢٥).

(٧) حسن: تقدم.

وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف: يَعْنِي حَتَّى يَحْتَلم. وَقَال السُّدِّيّ: حَتَّى يَبْلُغ ثَلاثِينَ سَنَة، وَقِيل: أَرْبَعُونَ سَنَة، وَقِيل: سِتُّونَ سَنَة، قَال: وَهَذَا كُلّه بَعِيد هَاهُنَا، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يَأْمُر تَعَالَى بِإِقَامَةِ العَدْل فِي الأَخْذ وَالإِعْطَاء، كَمَا تَوَعَّدَ عَلَى تَرْكه فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَقَدْ أَهْلَكَ الله أُمَّة مِنَ الأُمَم كَانُوا يَبْخَسُونَ المِكْيَال وَالمِيزَان. وَفِي كِتَاب الجَامِع لأَبِي عِيسَى التِّرْمِذِيّ: مِنْ حَدِيث الحُسَيْن بْن قَيْس أَبِي عَلِيّ الرَّحَبِيّ، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ لأَصْحَابِ الكَيْل وَالمِيزَان: **«إِنَّكُمْ وُلِّيتُمْ أَمْرًا هَلَكَتْ فِيهِ الأُمَم السَّالِفَة قَبْلَكُمْ»**(١)، ثُمَّ قَال: لا نَعْرِفهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيث الحُسَيْن، وَهُوَ ضَعِيف فِي الحَدِيث. وَقَدْ رُوِيَ بِإِسْنَادٍ صَحِيح عَنْ ابْن عَبَّاس مَوْقُوفًا.

قُلت: وَقَدْ رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيره مِنْ حَدِيث شَرِيك عَنْ الأَعْمَش، عَنْ سَالِم بْن أَبِي الجَعْد، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّكُمْ مَعْشَر المَوَالِي قَدْ بَشَّرَكُمْ الله بِخَصْلَتَيْنِ: بِهَا هَلَكَتْ القُرُون المُتَقَدِّمَة، المِكْيَال، وَالمِيزَان»**(٢)، وَقَوْله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَيْ: مَنْ اجْتَهَدَ فِي أَدَاء الحَقّ وَأَخْذه فَإِنْ أَخْطَأَ بَعْد اسْتِفْرَاغ وُسْعه وَبَذْل جَهْده فَلا حَرَج عَلَيْهِ. وَقَدْ رَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيث بَقِيَّة، عَنْ مبشر ابْن عُبَيْد، عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون بْن مِهْرَان، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فَقَال: **«مَنْ أَوْفَى عَلَى يَدِه فِي الكَيْل وَالمِيزَان. وَالله يَعْلَم صِحَّة نِيَّته بِالوَفَاء فِيهِمَا لَمْ يُؤَاخَذ، وَذَلِكَ تَأْوِيل وُسْعهَا»**(٣). هَذَا مُرْسَل غَرِيب.

وَقَوْله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآيَة. وَكَذَا الَّتِي تُشْبِهُهَا فِي سُورَة النِّسَاء، يَأْمُر تَعَالَى بِالعَدْل فِي الفِعَال وَالمَقَال، عَلَى القَرِيب وَالبَعِيد، وَالله تَعَالَى يَأْمُر بِالعَدْل لِكُلِّ أَحَد فِي كُلّ وَقْت وَفِي كُلّ حَال. وَقَوْله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ قَال ابْن جَرِير: يَقُول: وَبِوَصِيَّةِ الله الَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا فَأَوْفُوا، وَإِيفَاء ذَلِكَ أَنْ تُطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ، وَتَعْمَلُوا بِكِتَابِهِ وَسُنَّة رَسُوله، وَذَلِكَ هُوَ الوَفَاء بِعَهْدِ الله. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يَقُول تَعَالَى: هَذَا أَوْصَاكُمْ بِهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ وَأَكَّدَ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ: تَتَّعِظُونَ وَتَنْتَهُونَ عما كُنْتُمْ فِيهِ قَبْل هَذَا، وَقَرَأَ بَعْضهمْ بِتَشْدِيد الذَّال وَآخَرُونَ بِتَخْفِيفِهَا.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وَفِي قَوْله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، وَنَحْو هَذَا فِي القُرْآن. قَال: أَمَرَ الله المُؤْمِنِينَ بِالجَمَاعَة، وَنَهَاهُمْ عَنْ الاخْتِلاف وَالفرقة، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلهمْ بِالمِرَاءِ وَالخُصُومَات فِي دِين الله. وَنَحْو هَذَا قَالهُ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد. وَقَال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا الأَسْوَد بْن عَامِر شَاذَان، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر -هُوَ ابْن عَيَّاش-، عَنْ عَاصِم -هُوَ ابْن أَبِي النَّجُود-، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود ﷺ- قَال: خَطَّ رَسُول الله ﷺ خَطًّا

---

(١) **ضعيف مرفوعًا:** أخرجه الترمذي (١٢١٧) بسند ضعيف جدًّا، فيه حسين بن قيس، قال الحافظ: متروك.
(٢) **ضعيف الإسناد:** فيه شريك بن عبد الله القاضي: سيء الحفظ، والحديث ثابت عن ابن عباس موقوفًا عند البيهقي في «الشعب» (٤/ ٥٢٨٧).
(٣) **ضعيف جدًّا:** في سنده مبشر بن عبد الله، قال الحافظ: متروك، والحديث مرسل أيضًا، فهاتان علتان في الحديث.

بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا»، وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(١)]. وَكَذَا رَوَاهُ الحَاكِمُ: عَنِ الأَصَمِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الجَبَّارِ، عَنْ أَبِي بَكْرِ ابْنِ عَيَّاشٍ بِهِ. وَقَالَ: صَحِيحٌ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، وَوَرْقَاءُ، وَعَمْرُو بْنُ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا، بِهِ نَحْوَهُ. وَكَذَا رَوَاهُ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ وَمُسَدَّدٌ وَالنَّسَائِيُّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ حَبِيبِ ابْنِ عَرَبِيٍّ، وَابْنُ حِبَّانَ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ وَهْبٍ، أَرْبَعَتُهُمْ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ: عَنِ المُثَنَّى، عَنِ الحِمَّانِيِّ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ بِهِ. وَرَوَاهُ الحَاكِمُ: عَنْ أَبِي بَكْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِسْحَاقَ القَاضِي، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، بِهِ كَذَلِكَ. وَقَالَ: صَحِيحٌ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيثَ النَّسَائِيُّ وَالحَاكِمُ: مِنْ حَدِيثِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ يُونُسَ، عَنْ أَبِي بَكْرِ ابْنِ عَيَّاشٍ عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، بِهِ مَرْفُوعًا. وَكَذَا رَوَاهُ الحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ يَحْيَى الحِمَّانِيِّ، عَنْ أَبِي بَكْرِ ابْنِ عَيَّاشٍ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، بِهِ. فَقَدْ صَحَّحَهُ الحَاكِمُ كَمَا رَأَيْتَ مِنَ الطَّرِيقَيْنِ، وَلَعَلَّ هَذَا الحَدِيثَ عِنْدَ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ: عَنْ زِرٍّ. وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ؛ كِلَاهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، بِهِ. وَاللهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ الحَاكِمُ: وَشَاهِدُ هَذَا الحَدِيثِ حَدِيثُ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرٍ مِنْ وَجْهٍ غَيْرِ مُعْتَمَدٍ. يُشِيرُ إِلَى الحَدِيثِ الَّذِي قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ جَمِيعًا، وَاللَّفْظُ لِأَحْمَدَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ -وَهُوَ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ- أَنْبَأَنَا أَبُو خَالِدٍ الأَحْمَرُ: عَنْ مُجَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ، فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ، وَقَالَ: «هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ»، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الخَطِّ الأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[(٢)]. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ مِنْ سُنَنِهِ وَالبَزَّارُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي خَالِدٍ الأَحْمَرِ، بِهِ.

قلت: وَرَوَاهُ الحَافِظُ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الكِنْدِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ، عَنْ مُجَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ خَطًّا، وَخَطَّ عَنْ يَسَارِهِ خَطًّا، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى الخَطِّ الأَوْسَطِ، وَتَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[(٣)]، وَلَكِنَّ العُمْدَةَ عَلَى حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الاخْتِلَافِ، إِنْ كَانَ مُؤَثِّرًا. وَقَدْ رُوِيَ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَبَانٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ: مَا الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ؟ قَالَ: تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ فِي أَدْنَاهُ وَطَرَفُهُ فِي الجَنَّةِ، وَعَنْ يَمِينِهِ جَوَادٌّ، وَعَنْ يَسَارِهِ جَوَادٌّ، وَثَمَّ رِجَالٌ يَدْعُونَ مَنْ مَرَّ بِهِمْ، فَمَنْ أَخَذَ فِي تِلْكَ الجَوَادِّ انْتَهَتْ بِهِ إِلَى النَّارِ، وَمَنْ أَخَذَ عَلَى الصِّرَاطِ انْتَهَى بِهِ إِلَى الجَنَّةِ. ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الآيَةَ.

وَقَالَ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرٍو، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ، حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ، حَدَّثَنَا أَبَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، سَأَلَ عَبْدُ اللهِ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ فِي أَدْنَاهُ وَطَرَفُهُ فِي الجَنَّةِ. وَذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيثِ كَمَا تَقَدَّمَ وَاللهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥)، والحاكم (٢/ ٣١٨)، وابن حبان (٧) بسند حسن من حديث ابن مسعود.

(٢) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٧)، وعبد بن حميد (١/ ٣٤٥) من حديث جابر بن عبد الله، وقال العلامة الألباني: صحيح لغيره، انظر «الظلال» (١٦).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (١١) من حديث جابر بن عبد الله، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١١).

النَّوَّاس بْن سَمْعَان نَحْوه. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنِي الحَسَن بْن سَوَّار أَبُو العَلاء، حَدَّثَنَا لَيْث -يَعْنِي ابْن سَعْد- عَنْ مُعَاوِيَة بْن صَالِح: أَنَّ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر بْن نُفَيْر حَدَّثَهُ عَنْ أَبِيه، عَنْ النَّوَّاس بْن سَمْعَان، عَنْ رَسُول الله ﷺ، قَال: «**ضَرَبَ الله مَثَلاً صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنْبَتي الصِّرَاط سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَاب مُفَتَّحَة، وَعَلى الأَبْوَاب سُتُور مُرْخَاة، وَعَلى بَاب الصِّرَاط دَاعٍ يَقُول: يَا أَيّهَا النَّاس ادْخُلُوا الصِّرَاط المُسْتَقِيم جَمِيعًا، وَلا تَفَرَّقُوا. وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْف الصِّرَاط، فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَان أَنْ يَفْتَح شَيْئًا مِنْ تِلكَ الأَبْوَاب قَال: وَيْحك لا تَفْتَحهُ، فَإِنَّك إِنْ تَفْتَحهُ تَلجهُ، فَالصِّرَاط الإِسْلام وَالسُّورَان: حُدُود الله، وَالأَبْوَاب المُفَتَّحَة: مَحَارِم الله، وَذَلكَ الدَّاعِي عَلى رَأْس الصِّرَاط: كِتَاب الله، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْق الصِّرَاط: وَاعِظ الله فِي قَلب كُلّ مُسْلم**»[1].

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ، عَنْ عَلِيّ بْن حُجْر. زَادَ النَّسَائِيّ: وَعَمْرو بْن عُثْمَان، كِلاهُمَا عَنْ بَقِيَّة بْن الوَلِيد، عَنْ بحير بْن سَعْد، عَنْ خَالد بْن مَعْدَان، عَنْ جُبَيْر بْن نُفَيْر، عَنْ النَّوَّاس بْن سَمْعَان بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ إِنَّمَا وَحَّدَ سَبِيله لأَنَّ الحَقّ وَاحِد، وَلِهَذَا جَمَعَ السُّبُل لتَفَرُّقهَا وَتَشَعُّبهَا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد ابْن سِنَان الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن حُسَيْن، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِي إِدْرِيس الخَوْلانِيّ، عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**أَيّكُمْ يُبَايِعنِي عَلى هَذه الآيَات الثَّلاث**» ثُمَّ تَلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْ ثَلاث آيَات، ثُمَّ قَال: «**وَمَنْ وَفَى بِهِنَّ فَأَجْره عَلى الله، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ الله فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَته، وَمَنْ أَخَّرَهُ إِلى الآخِرَة كَانَ أَمْره إِلى الله، إِنْ شَاءَ أَخَذَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**»[2].

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

قَال ابْن جَرِير: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تَقْدِيره: ثُمَّ قُل يَا مُحَمَّد مُخْبِرًا عَنَّا، بأنا آتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب بِدَلالةِ قَوْله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾.

قُلت: وَفِي هَذَا نَظَر، وَ﴿ثُمَّ﴾ هَاهُنَا إِنَّمَا هِيَ لعَطْفِ الخَبَر بَعْد الخَبَر، لا للتَّرْتِيب هَهُنَا، كَمَا قَال الشَّاعِر:

قُـل لِمَـنْ سَـادَ ثُـمَّ سَـادَ أَبُـوهُ ❁ ثُـمَّ قَـدْ سَـادَ قَبْـل ذَلـكَ جَـدّه

وَهَاهُنَا لَمَّا أَخْبَرَ الله سُبْحَانه عَنْ القُرْآن بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ﴾ عَطف بِمَدْح التَّوْرَاة وَرَسُولهَا فَقَال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وَكَثِيرًا مَا يَقْرِن سُبْحَانه بَيْن ذِكْر القُرْآن وَالتَّوْرَاة كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ وَقَوْله أَوَّل هَذِهِ السُّورَة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ الآيَة. وَبَعْدهَا: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ الآيَة، وَقَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ المُشْرِكِين: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ﴾ قَال تَعَالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾، وَقَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ الجِنّ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) ضعيف: تقدم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أَيْ: آتَيْنَاهُ الكِتَاب الَّذِي أَنْزَلنَاهُ إِلَيْهِ تَمَامًا كَامِلًا جَامِعًا لِمَا يَحْتَاج إِلَيْهِ فِي شَرِيعَته كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أَيْ: جَزَاء عَلَى إِحْسَانه فِي العَمَل وَقِيَامه بِأَوَامِرِنَا وَطَاعَتنَا كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وَقَال أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يَقُول: أَحْسَن فِيمَا أَعْطَاهُ الله. وَقَال قَتَادَة: مَنْ أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا تَمَّ لهُ ذَلكَ فِي الآخِرَة. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ تَقْدِيره: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ عَلى إِحْسَانه، فَكَأَنَّهُ جَعَل ﴿الَّذِي﴾ مَصْدَرِيَّة، كَمَا قِيل فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أَيْ: كَخَوْضِهِمْ وَقَال ابْن رَوَاحَة:

وَثَبَّتَ الله مَا آتَاك مِنْ حَسَن ❁ فِي المُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا

وَقَال آخَرُونَ: ﴿الَّذِي﴾ هَاهُنَا بِمَعْنَى الَّذِينَ، قَال ابْن جَرِير: وَقَدْ ذُكِرَ عن عَبْد الله بْن مَسْعُود أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا ﴿تَمَامًا عَلى الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قَال: عَلى المُؤْمِنِينَ وَالمُحْسِنِينَ. وَكَذَا قَال أَبُو عُبَيْدَة، وَقَال البَغَوِيّ: المُحْسِنُونَ الأَنْبِيَاء وَالمُؤْمِنُونَ. يَعْنِي: أَظْهَرْنَا فَضْله عَلَيْهِمْ.

قُلت: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ وَلا يَلزَم اصْطِفَاؤُهُ عَلى مُحَمَّد ﷺ خَاتَم الأَنْبِيَاء وَالخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَام لأَدِلَّةٍ أُخْرَى.

قَال ابْن جَرِير: وَرَوَى أَبُو عَمْرو ابْن العَلاء، عَنْ يَحْيَى بْن يَعْمُر أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ﴾ رَفْعًا بِتَأْوِيل عَلى الَّذِي هُوَ أَحْسَن. ثُمَّ قَال: وَهَذِهِ قِرَاءَة لا أَسْتَجِيز القِرَاءَة بِهَا، وَإِنْ كَانَ لَهَا فِي العَرَبِيَّة وَجْه صَحِيح. وَقِيل: مَعْنَاهُ تَمَامًا عَلى إِحْسَان الله إليه زِيَادَة عَلى مَا أَحْسَنَ الله إِلَيْهِ. حَكَاهُ ابْن جَرِير وَالبَغَوِيّ. وَلا مُنَافَاة بَيْنه وَبَيْن القَوْل الأَوَّل، وَبِهِ جَمَعَ ابْن جَرِير كَمَا بَيَّنَّاهُ وَلله الحَمْد.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ فِيهِ مَدْح لكِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلهُ الله عَليْه؛ ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فِيهِ الدَّعْوَة إِلى اتِّبَاع القُرْآن، وَوَصَفَهُ بِالبَرَكَةِ لِمَنْ اتَّبَعَهُ وَعَمِل بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، لأَنَّهُ حَبْل الله المَتِين.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

قَال ابْن جَرِير: مَعْنَاهُ وَهَذَا كِتَاب أَنْزَلنَاهُ لئَلَّا يَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يَعْنِي:

لِيَنْقَطِع عُذْرهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وَقَوْله تَعَالى: ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ قَال عَليّ بن أَبي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: هُمْ اليَهُود وَالنَّصَارَى. وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد.

وَقَوْله: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أَيْ: وَمَا كُنَّا نَفْهَم مَا يَقُولُونَ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِلِسَانِنَا وَنَحْنُ مَعَ ذَلِكَ فِي غَفْلة وَشُغْل عَمَّا هُمْ فِيهِ. وَقَوْله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، أَيْ: وَقَطَعْنَا تَعَلُّلكُمْ: أَنْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِل عَلَيْنَا مَا أُنزِل عَلَيْهِمْ، لكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فِيمَا أُوتُوهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، وَهَكَذَا قَال هَاهُنَا: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يَقُول: فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ الله عَلَى لِسَان مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيّ العَرَبِيّ قُرْآن عَظِيم، فِيهِ بَيَان للحَلال وَالحَرَام، وَهُدًى لِمَا فِي القُلُوب، وَرَحْمَة مِنْ الله بِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتَفُونَ مَا فِيهِ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أَيْ: لمْ يَنْتَفِع بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول، وَلا اتَّبَعَ مَا أُرْسِل بِهِ، وَلا تَرَكَ غَيْره، بَل صَدَفَ عَنْ اتِّبَاع آيَات الله، أَيْ: صَرَفَ النَّاس وَصَدَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ، قَالهُ السُّدِّيّ. وَعَنْ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أَعْرَضَ عَنْهَا. وَقَوْل السُّدِّيّ هَاهُنَا فِيهِ قُوَّة، لأَنَّهُ قَال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّل السُّورَة ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، وَقَال فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾.

وَقَدْ يَكُون المُرَاد فِيمَا قَالهُ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أَيْ: لا آمَنَ بِهَا وَلا عَمِل بِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾: وَغَيْر ذَلكَ مِنَ الآيَات الدَّالَّة عَلى اشْتِمَال الكَافِر عَلى التَّكْذِيب بِقَلبِهِ، وَتَرْك العَمَل بِجَوَارِحِهِ، وَلكِنَّ المعنى الأول أَقْوَى وَأَظْهَر وَالله أَعْلم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

يَقُول تَعَالى مُتَوَعِّدًا للكَافِرِينَ بِهِ، وَالمُخَالفِينَ لرُسُلهِ، وَالمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ، وَالصَّادِّينَ عَنْ سَبِيله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ وَذَلكَ كَائِن يَوْم القِيَامَة ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ وَذَلكَ قَبْل يَوْم القِيَامَة، كَائِن مِنْ أَمَارَات السَّاعَة وَأَشْرَاطهَا، كَمَا قَال البُخَارِيّ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة. حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا عَبْد الوَاحِد، حَدَّثَنَا عُمَارَة، حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى تَطلُع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاس آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا فَذَلكَ حِين: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾»**.

حَدَّثَنَا إِسْحَاق، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ هَمَّام بْن مُنَبِّه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ**»[1]. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة. هَكَذَا رُوِيَ هَذَا الحَدِيث مِنْ هَذَيْنِ الوَجْهَيْنِ، وَمِنْ الوَجْه الأَوَّل: أَخْرَجَهُ بَقِيَّة الجَمَاعَة فِي كُتُبهمْ إِلَّا التِّرْمِذِيّ، مِنْ طُرُق عَنْ عُمَارَة بْن القَعْقَاع بْن شُبْرُمَة، عَنْ أَبِي زُرْعَة ابْن عَمْرو بْن جَرِير، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، بِهِ.

وَأَمَّا الطَّرِيق الثَّانِي: فَرَوَاهُ عَنْ إِسْحَاق غَيْر مَنْسُوب، وَقِيلَ: هُوَ ابْن مَنْصُور الكَوْسَج، وَقِيلَ: إِسْحَاق بْن نَصْر، وَالله أَعْلَم. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِم عَنْ مُحَمَّد بْن رَافِع الجُنْدِيّ سَابُورِيّ كِلاهُمَا، عَنْ عَبْد الرَّزَّاق، بِهِ. وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الحَدِيث مِنْ طُرُق أُخَر عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، كَمَا انْفَرَدَ مُسْلِم بِرِوَايَتِهِ مِنْ حَدِيث العَلاء بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن يَعْقُوب مَوْلَى الحُرَقَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، بِهِ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا ابْن فُضَيْل، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**ثَلاث إِذَا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾؛ طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّال، وَدَابَّة الأَرْض**»[2].

وَرَوَاهُ أَحْمَد عَنْ وَكِيع، عَنْ فُضَيْل بْن غَزْوَان، عَنْ أَبِي حَازِم سَلْمَان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة بِهِ، وَعِنْده: «**وَالدُّخَان**».

وَرَوَاهُ مُسْلِم، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، وَزُهَيْر بْن حَرْب، عَنْ وَكِيع. وَرَوَاهُ هُوَ أَيْضًا، وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ فُضَيْل بْن غَزْوَان، بِهِ. وَرَوَاهُ إِسْحَاق بْن عَبْد الله الفَرَوِيّ، عَنْ مَالِك، عَنْ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَلَكِنْ لَمْ يُخَرِّجهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب مِنْ هَذَا الوَجْه لِضَعْفِ الفَرَوِيّ، وَالله أَعْلَم.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا الرَّبِيع بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا شُعَيْب بْن اللَّيْث، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَعْفَر بْن رَبِيعَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن هُرْمُز الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، وَذَلِكَ حِينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ الآيَة**»[3]. وَرَوَاهُ ابْن لَهِيعَة، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، بِهِ. وَرَوَاهُ وَكِيع، عَنْ فُضَيْل ابْن غَزْوَان، عَنْ أَبِي حَازِم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، بِهِ. أَخْرَجَ هَذِهِ الطُّرُق كُلّهَا الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيره.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن يَحْيَى، أَخْبَرَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ أَيُّوب، عَنْ ابْن سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا قُبِلَ مِنْهُ**»[4]، لَمْ يُخَرِّجهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٣٥)، ومسلم (١٥٧)، وأبو داود (٤٣١٢).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٥) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٤٦٧).

(٣) صحيح: أخرجه ابن جرير (٥/ ٤٠٤)، وأحمد (٢/ ٣٥٠)، وأبو يعلى (١٠/ ٤٧٢) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤١٢).

(٤) حسن الإسناد: أخرجه ابن جرير (٥/ ٤٠٤).

حَدِيث آخَر عَنْ أَبِي ذَرّ الغِفَارِيّ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرهمَا، مِنْ طُرُق عَنْ إِبْرَاهِيم بْن يَزِيد بْن شَرِيك التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرّ جُنْدُب بْن جُنَادَة ﷺ قَال: قَال لِي رَسُول الله ﷺ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَب الشَّمْس إِذَا غَرَبَتْ؟ قُلت: لا أَدْرِي! قَال: إِنَّهَا تَنْتَهِي دُون العَرْش، فَتَخِرّ سَاجِدَة، ثُمَّ تَقُوم حَتَّى يُقَال لهَا: ارْجِعِي، فَيُوشِك يَا أَبَا ذَرّ أَنْ يُقَال لهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْت، وَذَلِكَ حِين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾»[1].

حَدِيث آخَر عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد بْن أَبِي سَرِيحَة الغِفَارِيّ ﷺ: قَال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ فُرَات، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل، عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد الغِفَارِيّ قَال: أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ مِنْ غُرْفَة، وَنَحْنُ نَتَذَاكَر السَّاعَة، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى تَرَوْا عَشْر آيَات: طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا، وَالدُّخَان، وَالدَّابَّة، وَخُرُوج يَأْجُوج وَمَأْجُوج، وَخُرُوج عِيسَى ابْن مَرْيَم، وَخُرُوج الدَّجَّال، وَثَلاثَة خُسُوف: خَسْف بِالمَشْرِق، وَخَسْف بِالمَغْرِب، وَخَسْف بِجَزِيرَة العَرَب، وَنَار تَخْرُج مِنْ قَعْر عَدَن تَسُوق -أَوْ: تَحْشُر- النَّاس تَبِيت مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيل مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا»[2]. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِم وَأَهْل السُّنَن الأَرْبَعَة مِنْ حَدِيث فُرَات القَزَّاز، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل عَامِر بْن وَاثِلَة، عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد، بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

حَدِيث آخَر عَنْ حُذَيْفَة بْن اليَمَان ﷺ: قَال الثَّوْرِيّ، عَنْ مَنْصُور عَنْ رِبْعِيّ، عَنْ حُذَيْفَة قَال: سَأَلت رَسُول الله ﷺ، فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ مَا آيَة طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا؟ فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «تَطُول تِلكَ اللَّيْلَة حَتَّى تَكُون قَدْر لَيْلَتَيْنِ، فَبَيْنَمَا الَّذِينَ كَانُوا يُصَلُّونَ فِيهَا، يَعْمَلُونَ كَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَبْلهَا، وَالنُّجُوم لا تَسْرِي قَدْ قَامَتْ مَكَانهَا، ثُمَّ يَرْقُدُونَ، ثُمَّ يَقُومُونَ، فَيُصَلُّونَ، ثُمَّ يَرْقُدُونَ، ثُمَّ يَقُومُونَ فَيَطُل عَلَيْهِمْ جُنُوبهمْ حَتَّى يَتَطَاوَل عَلَيْهِمُ اللَّيْل، فَيَفْزَع النَّاس وَلا يُصْبِحُونَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَنْتَظِرُونَ طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَشْرِقهَا إِذْ طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاس آمَنُوا، فَلَمْ يَنْفَعهُمْ إِيمَانهمْ»[3]. رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ فِي شَيْء مِنْ الكُتُب السِّتَّة مِنْ هَذَا الوَجْه، وَالله أَعْلَم.

حَدِيث آخَر عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ -وَاسْمه سَعْد بْن مَالك بْن سِنَان رضي الله عنه وَأَرْضَاهُ- قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ عَطِيَّة العَوْفِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ قَال: «طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا»[4].

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، عَنْ سُفْيَان بْن وَكِيع، عَنْ أَبِيهِ بِهِ وَقَال: غَرِيب. وَرَوَاهُ بَعْضهمْ وَلَمْ يَرْفَعهُ، وَفِي حَدِيث

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٩٩، ٤٨٠٣)، ومسلم (١٥٩).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢٩٠١)، وأبو داود (٤٣١١).
(٣) موضوع: عزاه المصنف لابن مردويه، وكذا عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩٠) لابن مردويه.
(٤) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٣١)، والترمذي (٣٠٧٣) بسند ضعيف فيه عطية العوفي: مدلس.

طَالُوت بْن عَبَّاد عَنْ فَضَّال بْن جُبَيْر، عَنْ أَبِي أُمَامَة صُدَيّ بْن عِجْلان قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّل الآيَات طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبِهَا**»(١).

وَفِي حَدِيث عَاصِم ابْن أَبِي النَّجُود، عَنْ زِرّ بْن حُبَيْش، عَنْ صَفْوَان بْن عَسَّال قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**إِنَّ الله فَتَحَ بَابًا قِبَل الْمَغْرب عَرْضه سَبْعُونَ عَامًا للتَّوْبَةِ، لا يُغْلق حَتَّى تَطْلُع الشَّمْس مِنْهُ**»(٢). رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ النَّسَائِيّ، وَابْن مَاجَهْ فِي حَدِيث طَوِيل.

حَدِيث آخَر عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي أَوْفَى؛ قَال ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن دُحَيْم، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن حَازِم، حَدَّثَنَا ضِرَار بْن صُرَد، حَدَّثَنَا ابْن فُضَيْل، عَنْ سُلَيْمَان بْن زَيْد، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي أَوْفَى، قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**لَيَأْتِيَن عَلَى النَّاس لَيْلَة تَعْدِل ثَلاث لَيَالٍ مِنْ لَيَالِيكُمْ هَذِهِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ يَعْرِفهَا الْمُتَنَفِّلُونَ، يَقُوم أَحَدهمْ فَيَقْرَأ حِزْبه ثُمَّ يَنَام، ثُمَّ يَقُوم فَيَقْرَأ حِزْبه ثُمَّ يَنَام، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ صَاحَ النَّاس بَعْضهمْ مِنْ بَعْض فَقَالُوا: مَا هَذَا؟ فَيَفْزَعُونَ إِلَى الْمَسَاجِد، فَإِذَا هُمْ بِالشَّمْسِ قَدْ طَلَعَتْ مِن مغربها، فضج الناس ضجة واحدة، حَتَّى إِذَا صَارَتْ فِي وَسَط السَّمَاء رَجَعَتْ وَطَلَعَتْ مِنْ مَطْلَعهَا، قَال: حِينَئِذٍ لا يَنْفَع نَفْسًا إِيمَانهَا**»(٣). هَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه وَلَيْسَ هُوَ فِي شَيْء مِنْ الكُتُب السِّتَّة.

حَدِيث آخَر عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا أَبُو حَيَّان، عَنْ أَبِي زُرْعَة ابن عَمْرو بْن جَرِير قَال: جَلَسَ ثَلاثة نفر مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَرْوَان بِالْمَدِينَةِ، فَسَمِعُوهُ وَهُوَ يُحَدِّث عَنْ الآيَات، يَقُول: إِنَّ أَوَّلهَا خُرُوج الدَّجَّال، قَال: فَانْصَرَفُوا إِلَى عَبْد الله بْن عَمْرو، فَحَدَّثُوهُ بِالَّذِي سَمِعُوهُ مِنْ مَرْوَان فِي الآيَات، فَقَال: لَمْ يَقُل مَرْوَان شَيْئًا، قد حَفِظْت مِنْ رَسُول الله ﷺ في مثل ذلك حديثًا لم أَنْسَهُ بَعْدُ، سمعت رسول الله ﷺ، يَقُول: «**إِنَّ أَوَّل الآيَات خُرُوجًا طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا، وَخُرُوج الدَّابَّة ضُحًى، فَأَيَّتهمَا كَانَتْ قَبْل صَاحِبَتهَا فَالأُخْرَى عَلَى أَثَرهَا**». ثُمَّ قَال عَبْد الله -وَكَانَ يَقْرَأ الكُتُب- **وَأَظُنّ أولها خُرُوجًا طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا كُلَّمَا غَرَبَتْ أَتَتْ تَحْت الْعَرْش وَسَجَدَتْ، وَاسْتَأْذَنَتْ فِي الرُّجُوع، فَأُذِنَ لَهَا فِي الرُّجُوع، حَتَّى إِذَا بَدَا لله أَنْ تَطْلُع مِنْ مَغْرِبهَا فَعَلَتْ، كَمَا كَانَتْ تَفْعَل، أَتَتْ تَحْت الْعَرْش فَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنَتْ فِي الرُّجُوع فَلَمْ يُرَدّ عَلَيْهَا شَيْء، ثُمَّ اسْتَأْذَنَتْ فِي الرُّجُوع فَلا يُرَدّ عَلَيْهَا شَيْء، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ مِنْ اللَّيْل مَا شَاءَ الله أَنْ يَذْهَب وَعَرَفَتْ أَنَّهُ إِذَا أُذِنَ لَهَا فِي الرُّجُوع لَمْ تُدْرِك الْمَشْرِق، قَالَتْ: رَبّ مَا أَبْعَد الْمَشْرِق مَنْ لِي بِالنَّاسِ حَتَّى إِذَا صَارَ الأُفُق كَأَنَّهُ طَوْق اسْتَأْذَنَتْ فِي الرُّجُوع، فَيُقَال لَهَا: مِنْ مَكَانك فَاطْلُعِي، فَطَلَعَتْ عَلَى النَّاس مِنْ مَغْرِبهَا**» ثُمَّ تَلا عَبْد الله هَذِهِ الآيَة: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٦٣) من حديث أبي أمامة، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٨) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه فضالة بن جبير وهو ضعيف، وأنكر هذا الحديث. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٢٥)، والحديث له شواهد تأتي قريبًا.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٣٥٢٩)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٥٩)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٤٤).

(٣) ضعيف: عزاه المصنف لابن مردويه، وفيه سليمان بن زيد أبو آدم قال الحافظ: ضعيف رماه يحيى بن معين.

﴿ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[١]. وَأَخْرَجَهُ مُسْلم فِي صَحِيحه، وَأَبُو دَاوُد وَابْن مَاجَهْ فِي سُنَنَيْهِمَا مِنْ حَدِيث أَبِي حَيَّان التَّيْمِيّ -وَاسْمه يَحْيَى بْن سَعِيد بْن حَيَّان- عَنْ أَبِي زُرْعَة ابْن عَمْرو بْن جَرِير، بِهِ.

حَدِيث آخَر عَنْهُ: قَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن يَحْيَى بْن خَالد بْن حبان الرقيش، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم ابْن زُبَرِيْق الحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن سَعِيد بْن كَثِير بْن دِينَار، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، عَنْ حُيَي بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاص، قَال: قَال النَّبِيّ ﷺ: **«إِذَا طَلَعَتْ الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا؛ خَرَّ إِبْلِيس سَاجِدًا يُنَادِي وَيَجْهَر: إِلهِي مُرْنِي أَنْ أَسْجُد لِمَنْ شِئْت. قَال: فَيَجْتَمِع إِلَيْهِ زَبَانِيَته فَيَقُولُونَ: يَا سَيِّدهم؛ مَا هَذَا التَّضَرُّع؟ فَيَقُول: إِنَّمَا سَأَلت رَبِّي أَنْ يُنْظِرنِي إِلَى الوَقْت المَعْلُوم، وَهَذَا الوَقْت المَعْلُوم. قَال: ثُمَّ تَخْرُج دَابَّة الأَرْض مِنْ صَدْع فِي الصَّفَا، قَال: فَأَوَّل خُطْوَة تَضَعهَا بِأَنْطَاكِيَة فَتَأْتِي إِبْلِيس فَتَخْطِمه»**[٢]. هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا، وَسَنَده ضَعِيف، وَلَعَلَّهُ مِنْ الزَّامِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَصَابَهُمَا عَبْد الله بْن عَمْرو يَوْم اليَرْمُوك، فَأَمَّا رَفْعه فَمُنْكَر، وَالله أَعْلَم.

حَدِيث آخَر عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف، وَمُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا الحَكَم بْن نَافِع، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، عَنْ ضَمْضَم بْن زُرْعَة، عَنْ شُرَيْح بْن عُبَيْد -يَرُدّهُ إِلَى مَالك بْن يُخَامِر- عَنْ ابْن السَّعْدِيّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«لَا تَنْقَطِع الهِجْرَة مَادَامَ العَدُوّ يُقَاتِل»** فَقَال مُعَاوِيَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف، وَعَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاص: إِنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«إِنَّ الهِجْرَة خَصْلَتَانِ: إِحْدَاهُمَا: تَهْجُر السَّيِّئَات، وَالأُخْرَى: تُهَاجِر إِلَى الله وَرَسُوله، وَلَا تَنْقَطِع مَا تُقُبِّلَتْ التَّوْبَة، وَلَا تَزَال التَّوْبَة مَقْبُولَة حَتَّى تَطْلُع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلّ قَلْب بِمَا فِيهِ وَكُفِيَ النَّاس العَمَل»**[٣]. هَذَا الحَدِيث حَسَن الإِسْنَاد، وَلَمْ يُخَرِّجهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة، وَالله أَعْلَم.

حَدِيث آخَر عَنْ ابْن مَسْعُود ﷺ: قَال عَوْف الأَعْرَابِيّ: عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، حَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدَة، عَنْ ابْن مَسْعُود أَنَّهُ كَانَ يَقُول: مَا ذُكِرَ مِنْ الآيَات فَقَدْ مَضَى غَيْر أَرْبَع: طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا، وَالدَّجَّال، وَدَابَّة الأَرْض، وَخُرُوج يَأْجُوج وَمَأْجُوج. قَال: وَكَانَ يَقُول الآيَة الَّتِي تُخْتَم بِهَا الأَعْمَال طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَقُول: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآيَة كُلّهَا، يَعْنِي طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا.

حَدِيث ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيره: مِنْ حَدِيث عَبْد المُنْعِم بْن إِدْرِيس، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه عَنْ ابْن عَبَّاس مَرْفُوعًا، فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا غَرِيبًا مُنْكَرًا رَفَعَهُ، وَفِيهِ: «أَنَّ الشَّمْس

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٤١)، وأبو داود (٤٣١٠).

(٢) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٠٠) للطبراني وابن مردويه، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٦) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه إسحاق بن إبراهيم بن زبريق وهو ضعيف، وفيه ابن لهيعة: ضعيف أيضًا.

(٣) حسن: أخرجه أحمد (١/ ١٩٢)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٨١) و«الأوسط» (١/ ٢٣) من حديث ابن السعدي، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٤٥٦) وقال: رواه أحمد والطبراني في الأوسط والصغير من غير حديث ابن السعدي، والبزار من حديث عبد الرحمن بن عوف وابن السعدي فقط ورجال أحمد ثقات.

وَالقَمَر يَطْلُعَانِ يَوْمئِذٍ مِنْ المَغْرب مَقْرُونَيْنِ، وَإِذَا نصفا السَّمَاء رَجَعَا، ثُمَّ عَادَا إِلَى مَا كَانَا عَلَيْهِ»[١]. وَهُوَ حَدِيث غَرِيب جِدًّا، بَل مُنْكَر، بَل مَوْضُوع إِنْ ادُّعِيَ أَنَّهُ مَرْفُوع، فَأَمَّا وَقْفه عَلَى ابْن عَبَّاس أَوْ وَهْب بْن مُنَبِّه ،وَهُوَ الأَشْبَه فَغَيْر مَدْفُوع، وَالله أَعْلَم.

وَقَال سُفْيَان عَنْ مَنْصُور: عَنْ عَامِر، عَنْ عَائِشَة ﵂، قَالَتْ: إِذَا خَرَجَ أَوَّل الآيَات طُرِحَتْ الأقلام، وَحُبِسَتْ الحَفَظَة، وَشَهِدَتْ الأَجْسَاد عَلَى الأَعْمَال. رَوَاهُ ابْن جَرِير ﵀.

فَقَوْله تَعَالَى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: إِذَا أَنْشَأَ الكَافِر إِيمَانًا يَوْمئِذٍ لا يُقْبَل مِنْهُ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْل ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ مُصْلِحًا فِي عَمَله فَهُوَ بِخَيْرٍ عَظِيم، وَإِنْ كان مخلِّطًا فَأَحْدَثَ تَوْبَة حِينَئِذٍ لمْ تُقْبَل مِنْهُ تَوْبَته، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الأَحَادِيث المُتَقَدِّمَة، وَعَلَيْهِ يُحْمَل قَوْله تَعَالَى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أَيْ: وَلا يُقْبَل مِنْهَا كَسْب عَمَل صَالح إِذَا لمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْل ذَلِكَ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تَهْدِيد شَدِيد للكَافِرِينَ، وَوَعِيد أَكِيد لمَنْ سَوَّفَ بِإِيمَانِهِ وَتَوْبَته إِلى وَقْت لا يَنْفَعهُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الحُكْم عِنْد طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا؛ لاقْتِرَاب وقت القيامة، وَظُهُور أَشْرَاطهَا، كَمَا قَال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾

قَال مُجَاهِد وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي اليَهُود وَالنَّصَارَى. وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ اليَهُود وَالنَّصَارَى اخْتلفُوا قَبْل أَنْ يُبْعَثَ مُحَمَّد ﷺ فَتَفَرَّقُوا، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّد ﷺ أَنْزَل الله عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ الآيَة.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي سَعِيد بْن عَمْرو السَّكُونِيّ، حَدَّثَنَا بَقِيَّة بْن الوَلِيد كَتَبَ إِلَيَّ عَبَّاد بْن كَثِير، حَدَّثَنِي لَيْث عَنْ طَاوُس، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﵁، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ «**وَلَيْسُوا مِنْكَ، هُمْ أَهْل البِدَع، وَأَهْل الشُّبُهَات، وَأَهْل الضَّلالَة مِنْ هَذِهِ الأُمَّة**»[٢]. لكِنْ هَذَا إِسْنَاد لا يَصِحّ، فَإِنَّ عَبَّاد بْن كَثِير مَتْرُوك الحَدِيث، وَلَمْ يَخْتَلِق هَذَا الحَدِيث، وَلكِنَّهُ وَهَمَ فِي رَفْعه، فَإِنَّهُ رَوَاهُ سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ لَيْث -وَهُوَ ابْن أَبِي سُلَيْم- عَنْ طَاوُس، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فِي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أَنَّهُ قَال: نَزَلَتْ فِي هَذِهِ الأُمَّة. وَقَال أَبُو غَالِب، عَنْ أَبِي أُمَامَة فِي قَوْله: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ قَال: هُمْ الخَوَارِج. وَرُوِي عَنْهُ مَرْفُوعًا، وَلا يَصِحّ. وَقَال شُعْبَة، عَنْ مُجَالد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ شُرَيْح، عَنْ

---

(١) **منكر**: عزاه المصنف لابن مردويه، وقال: حديث غريب جدًا، بل منكر، بل موضوع.
(٢) **ضعيف**: فيه عباد بن كثير: متروك الحديث.

عُمَر ﵁، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: لعَائِشَة ﵂: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ قَال: «هُمْ أَصْحَاب البِدَع»[1]. وَهَذَا رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ، وَهُوَ غَرِيب أَيْضًا، وَلا يَصِحّ رَفْعه. وَالظَّاهِر أَنَّ الآيَة عَامَّة فِي كُلّ مَنْ فَارَقَ دِين الله، وَكَانَ مُخَالِفًا لهُ، فَإِنَّ الله بَعَثَ رَسُوله بِالهُدَى وَدِين الحَقّ لِيُظْهِرهُ عَلى الدِّين كُلّه، وَشَرْعه وَاحِد لا اخْتِلاف فِيهِ، وَلا افْتِرَاق، فَمَنْ اخْتَلفَ فِيهِ ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أَيْ: فِرَقًا كَأَهْل المِلل وَالنِّحَل وَالأَهْوَاء وَالضَّلالات، فَإِنَّ الله تَعَالى قَدْ بَرَّأَ رَسُول الله ﷺ مِمَّا هُمْ فِيهِ، وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾. وَفِي الحَدِيث: «نَحْنُ مَعَاشِر الأَنْبِيَاء أَوْلاد عَلات، دِينُنَا وَاحِد»[2].

فَهَذَا هُوَ الصِّرَاط المُسْتَقِيم، وَهُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل مِنْ عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَالتَّمَسُّك بِشَرِيعَةِ الرَّسُول المُتَأَخِّر، وَمَا خَالفَ ذَلكَ فَضَلالات، وَجَهَالات، وَآرَاء، وَأَهْوَاء، وَالرُّسُل بُرَآء مِنْهَا، كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾. ثُمَّ بَيَّنَ لُطْفه سُبْحَانه فِي حُكْمه وَعَدْله يَوْم القِيَامَة، فَقَال تَعَالى:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

وَهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة مُفَصِّلة لمَا أُجْمِل فِي الآيَة الأُخْرَى، وَهِيَ قَوْله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ وَقَدْ وَرَدَتْ الأَحَادِيث مُطَابِقَة لهَذِهِ الآيَة، كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل ﵀: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن سُليْمَان، حَدَّثَنَا الجَعْد أَبُو عُثْمَان، عَنْ أَبِي رَجَاء العُطَارِدِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس ﵄، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبّه تَبَارَكَ وَتَعَالى: «إِنَّ رَبَّكُمْ ﷻ رَحِيم، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلمْ يَعْمَلهَا كُتِبَتْ لهُ حَسَنَة، فَإِنْ عَمِلهَا كُتِبَتْ لهُ عَشْرًا إِلى سَبْعمِائَةٍ إِلى أَضْعَاف كَثِيرَة، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلمْ يَعْمَلهَا كُتِبَتْ لهُ حَسَنَة، فَإِنْ عَمِلهَا كُتِبَتْ لهُ وَاحِدَة أَوْ يَمْحُوهَا الله ﷻ، وَلا يَهْلك عَلى الله إِلا هَالك»[3]. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم وَالنَّسَائِيّ: مِنْ حَدِيث الجَعْد أَبِي عُثْمَان، بِهِ.

وَقَال أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ المَعْرُور بْن سُوَيْد، عَنْ أَبِي ذَرّ ﵁ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ يَقُول الله ﷻ: «مَنْ عَمِل حَسَنَة فَلهُ عَشْر أَمْثَالهَا وَأَزِيد، وَمَنْ عَمِل سَيِّئَة فَجَزَاؤُهَا مِثْلهَا أَوْ أَغْفِر، وَمَنْ عَمِل قُرَاب الأَرْض خَطِيئَة، ثُمَّ لقِيَنِي لا يُشْرِك بِي شَيْئًا جَعَلت لهُ مِثْلهَا مَغْفِرَة، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِليَّ شِبْرًا اقْتَرَبْت إِليْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِليَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْت إِليْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْته هَرْوَلة»[4].

---

(١) ضعيف: فيه مجالد بن سعيد بن عمير قال الحافظ: ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره، وقال الذهبي: ضعفه ابن معين، وفيه أيضًا بقية بن الوليد قال الحافظ: صدوق كثير التدليس عن الضعفاء.

(٢) صحيح: تقدم.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)، وأحمد (١/ ٢٧٩).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٣٨٢١)، وأحمد (٥/ ١٨٢).

وَرَوَاهُ مُسْلم: عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَة، وَعَنْ أَبِي بَكْر بْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ وَكِيع، عَنْ الأَعْمَش، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ، عَنْ عَلِيّ ابْن مُحَمَّد الطَّنَافُسِيّ، عَنْ وَكِيع، بِهِ.

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا شَيْبَان، حَدَّثَنَا حَمَّاد، حَدَّثَنَا ثَابِت، عَنْ أَنَس بْن مَالِك ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**مَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلهَا كُتِبَتْ لهُ حَسَنَة، فَإِنْ عَمِلهَا كُتِبَتْ لهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلهَا لمْ يُكْتَب عَليْهِ شَيْء، فَإِنْ عَمِلهَا كُتِبَتْ عَليْهِ سَيِّئَة وَاحِدَة**»[1].

وَاعْلَمْ أَنَّ تَارِك السَّيِّئَة الَّذِي لا يَعْمَلهَا عَلَى ثَلاثَة أَقْسَام: تَارَة يَتْرُكهَا لله فَهَذَا تُكْتَب لهُ حَسَنَة عَلَى كَفّه عَنْهَا لله تَعَالَى، وَهَذَا عَمَل وَنِيَّة، وَلِهَذَا جَاءَ أَنَّهُ يُكْتَب لهُ حَسَنَة، كَمَا جَاءَ فِي بَعْض أَلْفَاظ الصَّحِيح: «**فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي**» أَيْ: مِنْ أَجْلِي، وَتَارَة يَتْرُكهَا نِسْيَانًا وَذُهُولًا عَنْهَا، فَهَذَا لا لهُ وَلا عَليْهِ لأَنَّهُ لمْ يَنْوِ خَيْرًا وَلا فَعَل شَرًّا، وَتَارَة يَتْرُكهَا عَجْزًا وَكَسَلًا عَنْهَا بَعْد السَّعْي فِي أَسْبَابهَا وَالتَّلَبُّس بِمَا يَقْرُب مِنْهَا، فَهَذَا يتنزل مَنْزِلَة فَاعِلهَا، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث فِي الصحيحين عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «**إِذَا تواجه المُسْلمَان بسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِل وَالمَقْتُول فِي النَّار**». قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ هَذَا القَاتِل فَمَا بَال المَقْتُول؟ قَال: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلى قَتْل صَاحِبه**»[2].

وَقَال الإِمَام أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا مُجَاهِد بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا عَلِيّ، وَحَدَّثَنَا الحَسَن بْن الصَّبَّاح وَأَبُو خَيْثَمَة قَالا: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن سُلَيْمَان كِلاهُمَا عَنْ مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن عُبَيْد الله بْن أَنَس، عَنْ جَدّه أَنَس، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**مَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ كَتَبَ الله لهُ حَسَنَة، فَإِنْ عَمِلهَا كُتِبَتْ لهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ لمْ تُكْتَب عَليْهِ حَتَّى يَعْمَلهَا، فَإِنْ عَمِلهَا كُتِبَتْ عَليْهِ سَيِّئَة، فَإِنْ تَرَكَهَا كُتِبَتْ لهُ حَسَنَة، يَقُول الله تَعَالى: إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِي**». هَذَا لفْظ حَدِيث مُجَاهِد -يَعْنِي ابْن مُوسَى-.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، حَدَّثَنَا شَيْبَان بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ الرُّكَيْن بْن الرَّبِيع، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَمّه فُلان بْن عُمَيْلة، عَنْ خُرَيْم بْن فَاتِك الأَسَدِيّ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**النَّاس أَرْبَعَة وَالأَعْمَال سِتَّة، فَالنَّاس: مُوَسَّع لهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة وَمُوَسَّع لهُ فِي الدُّنْيَا، مَقْتُور عَليْهِ فِي الآخِرَة، وَمَقْتُور عَليْهِ فِي الدُّنْيَا مُوَسَّع لهُ فِي الآخِرَة، وَشَقِيّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَالأَعْمَال: مُوجِبَتَان، وَمِثْل بِمِثْل، وَعَشَرَة أَضْعَاف، وَسَبْعمِائَة ضِعْف، فَالمُوجِبَتَان: مَنْ مَاتَ مُسْلمًا مُؤْمِنًا لا يُشْرِك بِاللهِ شَيْئًا وَجَبَتْ لهُ الجَنَّة، وَمَنْ مَاتَ كَافِرًا وَجَبَتْ لهُ النَّار، وَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلهَا فَعَلِمَ الله أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَهَا قَلبه وَحَرَصَ عَليْهَا كُتِبَتْ لهُ حَسَنَة، وَمَنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ لمْ تُكْتَب عَليْهِ، وَمَنْ عَمِلهَا كُتِبَتْ وَاحِدَة وَلمْ تُضَاعَف عَليْهِ، وَمَنْ عَمِل حَسَنَة كَانَتْ عَليْهِ بعَشْر أَمْثَالهَا، وَمَنْ أَنْفَقَ نَفَقَة فِي سَبِيل الله ﷻ كَانَتْ بسَبْعمِائَة ضِعْف**»[3]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث الرُّكَيْن بْن الرَّبِيع، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ يسير بْن عُمَيْلة، عَنْ خُرَيْم بْن فَاتِك بِهِ بِبَعْضِهِ، وَالله أَعْلم.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٢)، وأبو يعلى (٣٤٥١).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٥)، والطبراني (٤/ ٢٠٦) من حديث خريم بن فاتك الأسدي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٠٤).

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن عُمَر القَوَارِيرِيّ، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن زُرَيْع، حَدَّثَنَا حَبِيب الْمُعَلِّم، عَنْ عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّه عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «يَحْضُر الجُمُعَة ثَلاثَة نَفَر، رَجُل حَضَرَهَا بلغْوٍ فَهُوَ حَظّه مِنْهَا، وَرَجُل حَضَرَهَا بِدُعَاء فَهُوَ رَجُل دَعَا الله فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ، وَرَجُل حَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُون وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَة مُسْلِم وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا فَهِيَ كَفَّارَة لَهُ إِلَى الجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَة ثَلاثَة أَيَّام، وَذَلِكَ لأَنَّ الله ﷻ يَقُول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾»[1].

وَقَال الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا هَاشِم بْن مَرْثَد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنِي ضَمْضَم بْن زُرْعَة، عَنْ شُرَيْح بْن عُبَيْد، عَنْ أَبِي مَالِك الأَشْعَرِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «الجُمُعَة كَفَّارَة لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الجُمُعَة الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَة ثَلاثَة أَيَّام». وَذَلِكَ لأَنَّ الله تَعَالَى قَال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[2].

وَعَنْ أَبِي ذَرّ ﵁، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ صَامَ ثَلاثَة أَيَّام مِنْ كُلِّ شَهْر فَقَدْ صَامَ الدَّهْر كُلَّه»[3]. رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَهَذَا لَفْظه، وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ وَالتِّرْمِذِيّ وَزَادَ: «فَأَنْزَل الله تَصْدِيق ذَلِكَ فِي كِتَابه ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ اليَوْم بِعَشَرَةِ أَيَّام». ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث حَسَن.

وَقَال ابْن مَسْعُود: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ مَنْ جَاءَ بِلا إِلَه إِلَّا الله، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يَقُول بِالشِّرْكِ. وَهَكَذَا جَاءَ عَنْ جَمَاعَة مِنَ السَّلَف، وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيث مَرْفُوع الله أَعْلَم بِصِحَّتِهِ، لَكِنِّي لَمْ أَره مِنْ وَجْه يَثْبُت، وَالأَحَادِيث وَالآثَار فِي هَذَا كَثِيرَة جِدًّا، وَفِيمَا ذُكِرَ كِفَايَة إِنْ شَاءَ الله وَبِهِ الثِّقَة.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا نَبِيَّه ﷺ سَيِّد الْمُرْسَلِينَ: أَنْ يُخْبِر بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الهِدَايَة إِلَى صِرَاطه الْمُسْتَقِيم، الَّذِي لا اعْوِجَاج فِيهِ وَلا انْحِرَاف ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أَيْ: قَائِمًا ثَابِتًا ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾، وَقَوْله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾، وَقَوْله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (١١١٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٢١٩) من حديث عبد الله بن عمرو، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٤٥).

(٢) صحيح لغيره: أخرجه الطبراني (٣/ ٢٩٨) من حديث أبي مالك، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٩٠) وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه قال أبو حاتم: لم يسمع من أبيه شيئًا، وقال الألباني: صحيح لغيره. انظر «صحيح الترغيب والترهيب».

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ١٤٥)، والنسائي (٤/ ٢١٩)، وابن ماجه (١٧٠٨) من حديث أبي ذر ﵁، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٢٤).

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وَلَيْسَ يَلزَم مِنْ كَوْنه ﷺ أَمَرَ بِاتِّبَاعِ مِلَّة إِبْرَاهِيم الحَنِيفِيَّة: أَنْ يَكُون إِبْرَاهِيم أَكْمَل مِنْهُ فِيهَا، لأَنَّهُ ﷺ قَامَ بِهَا قِيَامًا عَظِيمًا، وَأُكْمِلَتْ لهُ إِكْمَالًا تَامًّا، لمْ يَسْبِقهُ أَحَد إِلى هَذَا الكَمَال، وَلِهَذَا كَانَ خَاتَم الأَنْبِيَاء، وَسَيِّد وَلد آدَم عَلى الإِطْلاق، وَصَاحِب المَقَام المَحْمُود الَّذِي يَرْغَب إِلَيْهِ الخَلق حَتَّى إبراهيم الخَليل عليه السلام.

وَقَدْ قَال ابْن مَرْدُوَيْه: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن حَفص، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عِصَام حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ حَدَّثَنَا شُعْبَة، أَنْبَأَنَا سَلمَة بْن كُهَيْل، سَمِعْت ذَرّ بْن عَبْد الله الهَمْدَانِيّ يُحَدِّث، عَنْ ابْن أَبْزَى، عَنْ أَبِيهِ، قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا أَصْبَحَ قَال: «**أَصْبَحْنَا عَلى مِلَّة الإِسْلام، وَكَلِمَة الإِخْلاص، وَدِين نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وَمِلَّة أَبِينَا إِبْرَاهِيم حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنْ المُشْرِكِينَ**»[1].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ دَاوُد ابْن الحُصَيْن، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما أَنَّهُ قَال: قِيل لرَسُول الله ﷺ: أَيّ الأَدْيَان أَحَبّ إِلى الله تَعَالى؟ قَال: «**الحَنِيفِيَّة السَّمْحَة**»[2].

وَقَال أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا سُليمَان بْن دَاوُد، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها، قَالتْ: وَضَعَ رَسُول الله ﷺ ذَقَنِي عَلى مَنْكِبه، لأَنْظُر إِلى زَفْن الحَبَشَة، حَتَّى كُنْت الَّتِي مَللت فَانْصَرَفْت عَنْهُ. قَال عَبْد الرَّحْمَن عَنْ أَبِيهِ قَال: قَال لي عُرْوَة: إِنَّ عَائِشَة قَالتْ: قَال رَسُول الله ﷺ يَوْمئِذٍ: «**لتَعْلم يَهُود أَنَّ فِي دِيننَا فُسْحَة، إِنِّي أُرْسِلت بِحَنِيفِيَّة سَمْحَة**»[3].

أَصْل الحَدِيث مُخَرَّج فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَالزِّيَادَة لهَا شَوَاهِد مِنْ طُرُق عِدَّة، وَقَدْ اسْتَقْصَيْت طُرُقهَا فِي شَرْح البُخَارِيّ، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يَأْمُرُهُ تَعَالى أَنْ يُخْبِر المُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْر الله، وَيَذْبَحُونَ لغَيْر اسْمه: أَنَّهُ مُخَالف لهُمْ فِي ذَلكَ، فَإِنَّ صَلاته لله، وَنُسُكه عَلى اسْمه وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَهَذَا كَقَوْلهِ تَعَالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أَيْ: أَخْلص لهُ صَلاتك وَذَبْحك، فَإِنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الأَصْنَام وَيَذْبَحُونَ لهَا، فَأَمَرَهُ الله تَعَالى بِمُخَالفَتِهِمْ، وَالانْحِرَاف عَمَّا هُمْ فِيهِ، وَالإِقْبَال بِالقَصْدِ وَالنِّيَّة وَالعَزْم عَلى الإِخْلاص لله تَعَالى. قَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى ﴾ قَال: النُّسُك: الذَّبْح فِي الحَجّ وَالعُمْرَة. وَقَال الثَّوْرِيّ: عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر ﴿ وَنُسُكِى ﴾ قَال: ذَبْحِي. وَكَذَا قَال السُّدِّيّ وَالضَّحَّاك.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦) من حديث عبد الرحمن بن أبزى، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٥٦) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٢٣٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١/ ١٠٨)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٢٧) من حديث ابن عباس، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٠).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ١١٦) وأصله في الصحيحين، انظر البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢).

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَوْف، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن خَالد الوهبي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَزِيد ابْن أَبِي حَبِيب، عَنْ أبي عياش، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَال: ضَحَّى رَسُول الله ﷺ فِي يَوْم عِيد بِكَبْشَيْنِ، وَقَال حِين ذَبَحَهُمَا: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وَقَوْله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قَال قَتَادَة: أَيْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة. وَهُوَ كَمَا قَال، فَإِنَّ جَمِيع الأَنْبِيَاء قَبْله كُلّهمْ كَانَتْ دَعْوَتهمْ إِلى الإِسْلام، وَأَصْله عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، كَمَا قَال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالى عَنْ نُوح أَنَّهُ قَال لقَوْمِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وَقَال يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، وَقَال مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ الآية، وَقوله تَعَالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالى أَنَّهُ بَعَثَ رُسُله بِالإِسْلام، وَلكِنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِيهِ، بِحَسْب شَرَائِعهمْ الخَاصَّة الَّتِي يَنْسَخ بَعْضهَا بَعْضًا، إِلى أَنْ نُسِخَتْ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّد ﷺ، الَّتِي لا تُنْسَخ أَبَد الآبِدِينَ، وَلا تَزَال قَائِمَة مَنْصُورَة، وَأَعْلامهَا مَنْشُورَة إِلى قِيَام السَّاعَة، وَلهَذَا قَال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَحْنُ مَعَاشِر الأَنْبِيَاء أَوْلاد عَلات، دِينُنَا وَاحِد»[2]، فَإِنَّ أَوْلاد العَلَّات: هُمْ الإِخْوَة مِنْ أَب وَاحِد، وَأُمَّهَات شَتَّى، فَالدِّين وَاحِد: هُوَ عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ الشَّرَائِع: الَّتِي هِيَ بِمَنْزِلَةِ الأُمَّهَات، كَمَا أَنَّ إِخْوَة الأَخْيَاف عَكْس هَذَا: بَنُو الأُمّ الوَاحِدَة مِنْ آبَاء شَتَّى، وَالإِخْوَة الأَعْيَان: الأَشِقَّاء مِنْ أَب وَاحِد وَأُمّ وَاحِدَة، وَالله أَعْلم.

وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن عَبْد الله المَاجِشُون، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن الفَضْل الهَاشِمِيّ، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ عُبَيْد الله بْن أَبِي رَافِع، عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ إِذَا كَبَّرَ اسْتَفْتَحَ ثُمَّ قَال: «﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِك لا إِله إِلا أَنْتَ، أنت رَبِّي وَأَنَا عَبْدك، ظَلَمْت نَفْسِي وَاعْتَرَفْت بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لي ذُنُوبي جَمِيعًا لا يَغْفِر الذُّنُوب

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود(٢٧٩٥)، وابن ماجه(٣١٢١)، وفيه محمد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن، وأبو عياش المعافري: مجهول.
(٢) صحيح: تقدم.

إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك»[1]. ثُمَّ ذَكَرَ تَمَام الحَدِيث فِيمَا يَقُولهُ فِي الرُّكُوع وَالسُّجُود وَالتَّشَهُّد، وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلم فِي صَحِيحه.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد؛ لِهَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ بِالله فِي إِخْلَاص العِبَادَة لَهُ وَالتَّوَكُّل عَلَيْهِ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أَيْ: أَطْلُب رَبًّا سِوَاهُ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يُرَبِّينِي وَيَحْفَظنِي وَيَكْلَؤُنِي وَيُدَبِّر أَمْرِي، أَيْ: لا أَتَوَكَّل إِلَّا عَلَيْهِ، وَلا أُنِيب إِلَّا إِلَيْهِ، لأَنَّهُ رَبّ كُلّ شَيْء وَمَلِيكه، وَلَهُ الخَلْق وَالأَمْر. فَفِي هَذِهِ الآيَة الأَمْر بِإِخْلَاصِ العبادة والتوكل كما تَضَمَّنَتْ الَّتِي قَبْلَهَا إِخْلَاص العِبَادَة لله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَهَذَا المَعْنَى يُقْرَن بِالآخَرِ كَثِيرًا فِي القُرْآن، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُرْشِدًا لِعِبَادِهِ أَنْ يَقُولُوا لَهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَقَوْله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، وَقَوْله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، وَقَوْله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، وَأَشْبَاه ذَلِكَ مِنْ الآيَات.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، إِخْبَار عَنْ الوَاقِع يَوْم القِيَامَة، فِي جَزَاء الله تَعَالَى وَحُكْمه وَعَدْله: أَنَّ النُّفُوس إِنَّمَا تُجَازَى بِأَعْمَالِهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ، وَأَنَّهُ لا يُحْمَل مِنْ خَطِيئَة أَحَد عَلَى أَحَد، وَهَذَا مِنْ عَدْله تَعَالَى، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ قَالَ عُلَمَاء التَّفْسِير: أَيْ: فَلا يُظْلَم بِأَنْ يُحْمَل عَلَيْهِ سَيِّئَات غَيْره، وَلا يُهْضَم بِأَنْ يُنْقَص مِنْ حَسَنَاته، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ مَعْنَاهُ: كُلّ نَفْس مُرْتَهَنَة بِعَمَلِهَا السَّيِّئ إِلَّا أَصْحَاب اليَمِين، فَإِنَّهُ قَدْ تَعُود بَرَكَة أَعْمَالهمْ الصَّالِحَة عَلَى ذُرِّيَّاتهمْ وَقَرَابَاتهمْ كَمَا قَالَ فِي سُورَة الطُّور: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أَيْ: أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتهمْ فِي المَنْزِلَة الرَّفِيعَة فِي الجَنَّة، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ شَارَكُوهُمْ فِي الأَعْمَال، بَل فِي أَصْل الإِيمَان، ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ أَيْ: أَنْقَصْنَا أُولَئِكَ السَّادَة الرُّفَعَاء مِنْ أَعْمَالهمْ شَيْئًا، حَتَّى سَاوَيْنَاهُمْ وَهَؤُلاءِ الَّذِينَ هُمْ أَنْقَص مِنْهُمْ مَنْزِلَة، بَل رَفَعَهُمْ تَعَالَى إِلَى مَنَازِل الآبَاء بِبَرَكَةِ أَعْمَالهمْ بِفَضْلِهِ وَمِنَّته، ثُمَّ قَالَ: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أَيْ: مِنْ شَرّ.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أَيْ: اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتكُمْ، إِنَّا عَامِلُونَ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَسَتَعْرِضُونَ وَنَعْرِض عَلَيْهِ، وَيُنَبِّئُنَا وَإِيَّاكُمْ بِأَعْمَالِنَا وَأَعْمَالكُمْ، وَمَا كُنَّا نَخْتَلف [فيه] فِي الدَّار الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٤٤، ١٥٠٩)، والترمذي (٢٦٦، ٣٤١٨).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾

يَقُول تَعَالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ: جَعَلكُمْ تَعْمُرُونَهَا جِيلًا بَعْد جِيل، وَقَرْنًا بَعْد قَرْن، وَخلفًا بَعْد سَلف. قَالهُ ابْن زَيْد وَغيْره، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾، وَكَقَوْله تَعَالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾، وَقَوْله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وَقَوْله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أيْ: فَاوَتَ بَيْنكُمْ فِي الأَرْزَاق وَالأَخْلاق، وَالمَحَاسِن وَالمَسَاوِئ، وَالمَنَاظِر وَالأَشْكَال وَالأَلْوَان، وَلهُ الحِكْمَة فِي ذَلكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، وَقَوْله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾. وَقَوْله تَعَالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أيْ: ليَخْتَبِركُمْ فِي الَّذِي أنْعَمَ بِهِ عَليْكُمْ، وَامْتَحَنَكُمْ بِهِ، ليَخْتَبِر الغَنِيّ فِي غِنَاهُ وَيَسْأَلهُ عَنْ شُكْره، وَالفَقِير فِي فَقْره وَيَسْأَلهُ عَنْ صَبْره.

وَقد روى مُسْلم فِي صحيحه: مِنْ حَدِيث أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلوَة خَضِرَة، وَإِنَّ الله مُسْتَخْلفكُمْ فِيهَا، ينظر مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاء، فَإِنَّ أَوَّل فِتْنَة بَنِي إِسْرَائِيل كَانَتْ فِي النِّسَاء**»[1].

وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ تَرْهِيب وَتَرْغِيب، أَنَّ حِسَابه وَعِقَابه سَرِيع فِيمَنْ عَصَاهُ، وَخَالفَ رُسُله. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ لِمَنْ وَالاهُ، وَاتَّبَعَ رُسُله فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ خَبَر وَطَلب. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: ليَرْحَم العِبَاد عَلى مَا فِيهِمْ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَكَثِيرًا مَا يَقْرِن الله تَعَالى فِي القُرْآن بَيْن هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، كَقَوْله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وَقَوْله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، إِلى غَيْر ذَلكَ مِنْ الآيَات المُشْتَمِلة عَلى التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، فَتَارَة يَدْعُو عِبَاده إِليْهِ بِالرَّغْبَة، وَصِفَة الجَنَّة، وَالتَّرْغِيب فِيمَا لدَيْهِ، وَتَارَة يَدْعُوهُمْ إِليْهِ بِالرَّهْبَة، وَذِكْر النَّار وَأَنْكَالهَا وَعَذَابهَا وَالقِيَامَة وَأَهْوَالهَا، وَتَارَة بهذا وبهذا ليَنْجَع فِي كُلٍّ بِحَسَبِهِ، جَعَلنَا الله مِمَّنْ أَطَاعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَصَدَّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، إِنَّهُ قَرِيب مُجِيب، سَمِيع الدُّعَاء، جَوَاد كَرِيم وَهَّاب.

وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا زُهَيْر، عَنْ العَلاء، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، أَنَّ النبي ﷺ قَال: «**لوْ يَعْلم المُؤْمِن مَا عِنْد الله مِنْ العُقُوبَة مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَد، وَلوْ يَعْلم الكَافِر مَا عِنْد الله مِنْ الرَّحْمَة مَا قَنَطَ أَحَد مِنْ الجَنَّة، خَلقَ الله مِائَة رَحْمَة، فَوَضَعَ وَاحِدَة بَيْن خَلقه يَتَرَاحَمُونَ بِهَا، وَعِنْد الله**

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

تِسْعَة وتِسْعُونَ»[1]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ: عَنْ قُتَيْبَة، عَنْ عَبْد العَزِيز الدَّرَاوَرْدِيّ، عَنْ العَلاء، بِهِ. وَقَال: حَسَن. وَرَوَاهُ مُسْلم: عَنْ يَحْيَى بْن يَحْيَى وَقُتَيْبَة، وَعَلِيّ بْن حُجْر ثَلاثَتهمْ، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن جَعْفَر، عَنْ العَلاء.

[وَعَنْهُ أَيْضًا قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «لمَّا خَلَقَ الله الخَلق كَتَبَ فِي كِتَاب فَهُوَ عِنْده فَوْق العَرْش إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلب غَضَبِي»، وَعَنْهُ أَيْضًا قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «جَعَل الله الرَّحْمَة مِائَة جُزْء، فَأَمْسَكَ عِنْده تِسْعَة وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَل فِي الأَرْض جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلكَ الجُزْء تَتَرَاحَم الخَلَائِق حَتَّى تَرْفَع الدَّابَّة حَافِرهَا عَنْ وَلدهَا خَشْيَة أَنْ تُصِيبهُ». رَوَاهُ مُسْلم.]

آخِر تَفْسِير سُورَة الأَنْعَام، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

(١) صحيح: تقدم.

تفسير سُورَةُ الأَعْرَافِ وهي مكية

ترتيبها ٧ — وآياتها ٢٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ① كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَام فِي أَوَّل سُورَة البَقَرَة عَلَى مَا يَتَعَلَّق بِالحُرُوفِ وَبَسْطه وَاخْتِلَاف النَّاس فِيهِ، قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ شَرِيك، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿الٓمٓصٓ﴾: أَنَا الله أَفْصِل. وكذا قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر. ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ: هَذَا كِتَاب أُنْزِلَ إِلَيْك، أَيْ: مِنْ رَبّك ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قَالَ مُجَاهِد وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ: شَكّ مِنْهُ. وَقِيلَ: لا تَتَحَرَّج بِهِ فِي إِبْلَاغه وَالإِنْذَار بِهِ واصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْم مِنْ الرُّسُل، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْك لِتُنْذِر بِهِ الكَافِرِينَ، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. ثم قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْعَالَمِ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَيْ: اقْتَفُوا آثَار النَّبِيّ الأُمِّيّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِكِتَابٍ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبّ كُلّ شَيْء وَمَلِيكه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾ أَيْ: لا تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُول إِلَى غَيْره، فَتَكُونُوا قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْم الله إِلَى حُكْم غَيْره. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وَقَوْله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الآيَة. وَقَوْله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ④ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ⑤ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أَيْ: بِمُخَالَفَةِ رُسُلنَا وَتَكْذِيبهمْ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ خِزْي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلّ الآخِرَة؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾. وَقَوْله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أَيْ: فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُ أَمْر الله وَبَأْسه وَنِقْمَته ﴿بَيَٰتًا﴾ أَيْ: لَيْلًا ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ مِنْ القَيْلُولَة، وَهِيَ الإِسْتِرَاحَة وَسَط النَّهَار، وَكِلَا الوَقْتَيْنِ وَقْت غَفْلَة وَلَهْو؛ كَمَا قَالَ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ⑨⑦ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ④⑤ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ④⑥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. وَقَوْله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أَيْ: فَمَا كَانَ قَوْلهمْ عِنْد مَجِيء العَذَاب إِلَّا أَنْ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّهُمْ حَقِيقُونَ بِهَذَا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ إِلَى قَوْله: ﴿خَٰمِدِينَ﴾. وَقَالَ ابْن جَرِير: فِي هَذِهِ الآيَة الدَّلَالَة الوَاضِحَة عَلَى صِحَّة مَا جَاءَتْ بِهِ الرِّوَايَة عَنْ رَسُول الله ﷺ مِنْ قَوْله: «**مَا هَلَكَ قَوْم حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسهمْ**»، حَدَّثَنَا بِذَلِكَ ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ أَبِي سِنَان، عَنْ عَبْد المَلِك بْن مَيْسَرَة

الزَّرَّاد، قَالَ: قَالَ عَبْد الله بْن مَسْعُود: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَا هَلَكَ قَوْم حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»(١). قَالَ: قُلْت لعَبْدِ المَلِك: كَيْف يَكُون ذَاكَ؟ قَالَ: فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾؛ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وَقَوْله: ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ فَيَسْأَل الله الأُمَم يَوْم القِيَامَة عَمَّا أَجَابُوا رُسُله فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ، وَيَسْأَل الرُّسُل أَيْضًا عَنْ إِبْلَاغ رِسَالَاته؛ وَلِهَذَا قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ قَالَ: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عَمَّا بَلَّغُوا.

وَقَالَ ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن الحَسَن، حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الكِنْدِيّ، حَدَّثَنَا المُحَارِبِيّ، عَنْ لَيْث، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُول عَنْ رَعِيَّته، فَالإِمَام يُسْأَل عَنْ الرجل، وَالرَّجُل يُسْأَل عَنْ أَهْله، وَالمَرْأَة تُسْأَل عَنْ بَيْت زَوْجهَا، وَالعَبْد يُسْأَل عَنْ مَال سَيِّده»(٢). قَالَ اللَّيْث: وَحَدَّثَنِي ابْن طَاوُس مِثْله ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾. وَهَذَا الحَدِيث مُخَرَّج فِي الصَّحِيحَيْنِ بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَة. وَقَالَ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾: يُوضَع الكِتَاب يَوْم القِيَامَة فَيَتَكَلَّم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ تَعَالَى يُخْبِر عِبَاده يَوْم القِيَامَة بِمَا قَالُوا، وَبِمَا عَمِلُوا مِنْ قَلِيل وَكَثِير وَجَلِيل وَحَقِير؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى شهيد عَلَى كُلّ شَيْء، لا يَغِيب عَنْهُ شَيْء، وَلَا يَغْفُل عَنْ شَيْء، بَلْ هُوَ العَالِم بِخَائِنَةِ الأَعْيُن وَمَا تُخْفِي الصُّدُور ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ ﴾ أَيْ: لِلْأَعْمَالِ يَوْم القِيَامَة ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ: لا يَظْلِم تَعَالَى أَحَدًا؛ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾.

فَصْل

وَالَّذِي يُوضَع فِي المِيزَان يَوْم القِيَامَة قِيلَ: الأَعْمَال، وَإِنْ كَانَتْ أَعْرَاضًا، إِلَّا أَنَّ الله تَعَالَى يَقْلِبهَا يَوْم القِيَامَة أَجْسَامًا. قَالَ البَغَوِيّ: يُرْوَى نَحْو هَذَا عَنْ ابْن عَبَّاس؛ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيح مِنْ أَنَّ البَقَرَة وَآل عِمْرَان يَأْتِيَانِ يَوْم القِيَامَة كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْر صَوَافّ(٣). وَمِنْ ذَلِكَ فِي الصَّحِيح قِصَّة القُرْآن، وَإِنَّهُ يَأْتِي صَاحِبه فِي صُورَة شَابّ شَاحِب اللَّوْن، فَيَقُول: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُول: أَنَا القُرْآن الَّذِي أَسْهَرْت لَيْلك وَأَظْمَأْت

---

(١) **حسن لغيره**: أخرجه ابن جرير (٥/ ٤٢٩) فيه أبو سنان سعيد بن سنان البرجمي قال الحافظ: صدوق له أوهام، والحديث له شاهد صحيح عند أبي داود (٤٢٤٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (٨٢٩)، والترمذي (١٥٠٧).

(٣) **صحيح**: تقدم.

نهارك[1]. وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر: «فيأتي المؤمن شابٌ حسن اللون طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح»[2]. وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال؛ كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به، ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها «لا إله إلا الله»، فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: «إنك لا تظلم». فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله ﷺ: «فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة»[3]. رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه. وقيل: يوزن صاحب العمل؛ كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين، فلا يزن عند الله جناح بعوضة» ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾. وفي مناقب عبد الله بن مسعود، أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه؟ والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد»[4]. وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا؛ فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

يقول تعالى ممتنًا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قرارًا، وجعل فيها رواسي وأنهارًا، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا، وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب؛ لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش، أي: مكاسب وأسبابًا يكسبون بها، ويتجرون فيها، ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك؛ كقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. وقد قرأ الجميع ﴿مَعَايِشَ﴾ بلا همز إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها، والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز؛ لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشًا، ومعيشة أصلها معيشة، فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت معيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال، فقيل: معايش ووزنه مفاعل؛ لأن الياء أصلية في الكلمة، بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة، من مدن وصحف وأبصر؛ فإن الياء فيها زائدة؛ ولهذا تجمع على فعائل، وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم؛ ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب، وصوره بشرًا سويًا، ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيمًا لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير سورة البقرة.

وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام. وقال سفيان الثوري: عن الأعمش، عن منهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: خلقوا في أصلاب

---

(١) حسن: تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧، ٣٨).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥).

(٤) صحيح بطرقه: أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠)، وقد جمع العلامة الألباني طرق الحديث في «الإرواء» (٦٥).

الرِّجَال، وَصُوِّرُوا فِي أَرْحَام النِّسَاء. رَوَاهُ الحَاكِم. وَقَالَ: صَحِيح عَلَى شَرْط الشيخين، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَنَقَلَ ابْن جَرِير عَنْ بَعْض السَّلَف أَيْضًا: أَنَّ المُرَاد بِـ: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ الذُّرِّيَّة. وَقَالَ الرَّبِيع بْن أَنَس وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أَيْ: خَلَقْنَا آدم ثُمَّ صَوَّرْنَا الذُّرِّيَّة.

وَهَذَا فِيهِ نَظَر؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ المُرَاد بِذَلِكَ آدَم، وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ بِالجَمْع؛ لِأَنَّهُ أَبُو البَشَر؛ كَمَا قَال الله تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيل الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَن النَّبِيّ ﷺ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾، وَالمُرَاد آبَاؤُهُمْ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَن مُوسَى، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنَّة عَلَى الآبَاء الَّذِينَ هُمْ أَصْل صَارَ كَأَنَّهُ وَاقِع عَلَى الأَبْنَاء، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ الآيَة، فَإِنَّ المُرَاد مِنْهُ آدَم المَخْلُوق مِنْ السُّلَالَة، وَذُرِّيَّته مَخْلُوقُونَ مِنْ نُطْفَة، وَصَحَّ هَذَا؛ لِأَنَّ المُرَاد مِنْ ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الجِنْس لا مُعَيَّنًا، وَالله أَعْلَم.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

قَالَ بَعْض النُّحَاة فِي تَوْجِيه قَوْله تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ﴿لَا﴾ هُنَا زَائِدَة. وَقَالَ بَعْضهمْ: زِيدَتْ لِتَأْكِيدِ الجَحْد، كَقَوْلِ الشَّاعِر: **مَا إِنْ رَأَيْت وَلا سَمِعْت بِمِثْلِهِ**

فَأَدْخَلَ «إِنْ» وَهِيَ لِلنَّفْيِ عَلَى «مَا» النَّافِيَة لِتَأْكِيدِ النَّفْي. قَالُوا: وَكَذَا هُنَا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لا تَسْجُدَ﴾ مَعَ تَقَدُّم قَوْله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. حَكَاهُمَا ابْن جَرِير، وَرَدَّهُمَا وَاخْتَارَ: أَنَّ ﴿مَنَعَكَ﴾ تضمن مَعْنَى فِعْل آخر تَقْدِيره: مَا أَحْوَجَك وَأَلْزَمَك وَاضْطَرَّك أَلَّا تَسْجُد إِذْ أَمَرْتُك، وَنَحْو هَذَا. وَهَذَا القَوْل قَوِيّ حَسَن، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْل إِبْلِيس لعَنَهُ الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مِنْ العُذْر الَّذِي هُوَ أَكْبَر مِنْ الذَّنْب، كَأَنَّهُ امْتَنَعَ مِنْ الطَّاعَة؛ لِأَنَّهُ لا يُؤْمَر الفَاضِل بِالسُّجُودِ لِلْمَفْضُولِ، يَعْنِي -لعَنَهُ الله-: وَأَنَا خَيْر مِنْهُ فَكَيْف تَأْمُرنِي بِالسُّجُودِ لهُ؟ ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ خَيْر مِنْهُ بِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نَار، وَالنَّار أَشْرَف مِمَّا خَلَقْته مِنْهُ وَهُوَ الطِّين، فَنَظَرَ اللَّعِين إِلَى أَصْل العُنْصُر، وَلَمْ يَنْظُر إِلَى التَّشْرِيف العَظِيم، وَهُوَ أَنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ آدم بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحه، وَقَاسَ قِيَاسًا فَاسِدًا فِي مُقَابَلَة نَصّ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، فَشَذَّ مِنْ بَيْن المَلَائِكَة بِتَرْكِ السُّجُود، فَلِهَذَا أُبْلِسَ مِنْ الرَّحْمَة؛ أَيْ: آيَسَ مِنْ الرَّحْمَة، فَأَخْطَأَ قَبَّحَهُ الله فِي قِيَاسه وَدَعْوَاهُ أَنَّ النَّار أَشْرَف مِنْ الطِّين أَيْضًا، فَإِنَّ الطِّين مِنْ شَأْنه الرَّزَانَة وَالحِلْم وَالأَنَاة وَالتَّثَبُّت، وَالطِّين مَحَلّ النَّبَات وَالنُّمُوّ وَالزِّيَادَة وَالإِصْلَاح، وَالنَّار مِنْ شَأْنهَا الإِحْرَاق وَالطَّيْش وَالسُّرْعَة؛ وَلِهَذَا خَانَ إِبْلِيس عُنْصُره، وَنَفَعَ آدَم عُنْصُره بِالرُّجُوع وَالإِنَابَة وَالِاسْتِكَانَة وَالِانْقِيَاد وَالِاسْتِسْلَام لِأَمْرِ الله، وَالِاعْتِرَاف وَطَلَب التَّوْبَة وَالمَغْفِرَة. وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«خُلِقَتْ المَلَائِكَة مِنْ نُور، وَخُلِقَ إِبْلِيس مِنْ مَارِج مِنْ نَار، وَخُلِقَ آدم مِمَّا وُصِفَ لكُمْ»**[1]. هَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِم.

وَقَالَ ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَبْد الله بْن مَسْعُود، حَدَّثَنَا نُعَيْم بْن حَمَّاد، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة، قَالَتْ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«خَلَقَ الله المَلَائِكَة مِنْ نُور العَرْش، وَخَلَقَ الجَانّ مِنْ نَار، وَخَلَقَ آدم مِمَّا وُصِفَ لكُمْ»**[2]. قُلْت لِنُعَيْم بْن حَمَّاد: أَيْنَ سَمِعْت هَذَا مِنْ عَبْد الرَّزَّاق؟ قَالَ: بِاليَمَنِ. وَفِي بَعْض أَلْفَاظ هَذَا الحَدِيث فِي غَيْر الصَّحِيح: **«وَخُلِقَتْ الحُور العِين مِنْ الزَّعْفَرَان»**. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن كَثِير، عَنْ ابْن شَوْذَب، عَنْ مَطَر

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٦)، وأحمد (٦/ ١٥٣).

(٢) ضعيف: عزاه المصنف لابن مردويه من طريق نعيم بن حماد، ولا يعتمد تفرده، واللفظ المشهور عن الثقات: «**خُلقت الملائكة من نور**» فقط.

الوَرَّاق، عَنْ الحَسَن فِي قَوْله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ قَالَ: قَاسَ إِبْلِيس، وَهُوَ أَوَّل مَنْ قَاسَ. إِسْنَاده صَحِيح. وَقَالَ: حَدَّثَنِي عُمَر بْن مَالِك، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سُلَيْم الطَّائِفِيّ، عَنْ هِشَام، عَنْ ابْن سِيرِينَ، قَالَ: أَوَّل مَنْ قَاسَ إِبْلِيس، وَمَا عُبِدَتْ الشَّمْس وَالقَمَر إِلَّا بِالمَقَايِيسِ. إِسْنَاد صَحِيح أَيْضًا.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخَاطِبًا لِإِبْلِيس بِأَمْرٍ قَدَرِيّ كَوْنِيّ ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أَيْ: بِسَبَبِ عِصْيَانك لِأَمْرِي، وَخُرُوجك عَنْ طَاعَتِي، فَمَا يَكُون لك أَنْ تَتَكَبَّر فِيهَا. قَالَ كَثِير مِنْ المُفَسِّرِينَ: الضَّمِير عَائِد إِلَى الجَنَّة، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون عَائِدًا على المَنْزِلَة الَّتِي هُوَ فِيهَا فِي المَلَكُوت الأَعْلَى. ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أَيْ: الذَّلِيلِينَ الحَقِيرِينَ، مُعَامَلَة لهُ بِنَقِيضِ قَصْده، وَمُكَافَأَة لِمُرَادِهِ بِضِدِّهِ، فَعِنْد ذَلِكَ اسْتَدْرَكَ اللَّعِين، وَسَأَلَ النَّظِرَة إِلَى يَوْم الدِّين، قَالَ: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أَجَابَهُ تَعَالَى إِلَى مَا سَأَلَ؛ لِمَا لهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الحِكْمَة وَالإِرَادَة وَالمَشِيئَة الَّتِي لا تُخَالَف وَلَا تُمَانَع، وَلَا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَنْظَرَ إِبْلِيس ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وَاسْتَوْثَقَ إِبْلِيس بِذَلِكَ، أَخَذَ فِي المُعَانَدَة وَالتَّمَرُّد، فَقَالَ: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أَيْ: كَمَا أَغْوَيْتنِي. قَالَ ابْن عَبَّاس: كَمَا أَضْلَلْتنِي. وَقَالَ غَيْره: كَمَا أَهْلَكْتنِي لأَقْعُدَنَّ لِعِبَادِك الَّذِينَ تَخْلُقهُمْ مِنْ ذُرِّيَّة هَذَا الَّذِي أَبْعَدْتنِي بِسَبَبِهِ، عَلَى ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أَيْ: طَرِيق الحَقّ وَسَبِيل النَّجَاة، فَلَأُضِلَّنَّهُمْ عَنْهَا لِئَلَّا يَعْبُدُوك وَلَا يُوَحِّدُوك بِسَبَبِ إِضْلَالك إِيَّايَ. وَقَالَ بَعْض النُّحَاة: البَاء هُنَا قَسَمِيَّة، كَأَنَّهُ يَقُول: فَبِإِغْوَائِك إِيَّايَ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطك المُسْتَقِيم. قَالَ مُجَاهِد ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يَعْنِي: الحَقّ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن سُوقَة: عَنْ عَوْن بْن عَبْد الله: يَعْنِي طَرِيق مَكَّة. قَالَ ابْن جَرِير: وَالصَّحِيح أَنَّ الصِّرَاط المُسْتَقِيم أَعَمّ مِنْ ذَلِكَ.

قُلْت: لِمَا رَوَى الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هَاشِم بْن القَاسِم، حَدَّثَنَا أَبُو عُقَيْل -يَعْنِي: الثَّقَفِيّ عَبْد الله بْن عُقَيْل-، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن المُسَيِّب، أَخْبَرَنِي سَالِم بْن أَبِي الجَعْد، عَنْ سَبْرَة بْن أَبِي فَاكِه، قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول: **«إِنَّ الشَّيْطَان قَعَدَ لابْنِ آدَم بِطُرُقِهِ، فَقَعَدَ لهُ بِطَرِيقِ الإِسْلام، فَقَالَ: أَتُسْلِمُ وَتَذَر دِينك وَدِين آبَائِك، قَالَ: فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ»** قَالَ: **«وَقَعَدَ لهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَة فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَدَع أَرْضك وَسَمَاءَك وَإِنَّمَا مَثَل المُهَاجِر كَالفَرَسِ فِي الطِّوَل؟ فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لهُ بِطَرِيقِ الجِهَاد وَهُوَ جِهَاد النَّفْس وَالمَال فَقَالَ: تُقَاتِل فَتُقْتَل فَتُنْكَح المَرْأَة وَيُقْسَم المَال؟ قَالَ: فَعَصَاهُ وَجَاهَدَ»**. قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«فَمَنْ فَعَلَ ذَلِك مِنْهُمْ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلهُ الجَنَّة، وَإِنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلهُ الجَنَّة، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلهُ الجَنَّة، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّة كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلهُ الجَنَّة»**[1].

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآيَة. قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يقول: أُشَكِّكُهُمْ فِي آخِرَتهمْ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أُرَغِّبهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أُشَبِّه عَلَيْهِمْ أَمْر دِينهمْ،

---

(١) **صحيح:** أخرجه ابن جرير (٥/ ٤٤٣)، والنسائي (٣١٣٤)، وأحمد (٣/ ٤٨٣)، وابن حبان (٤٥٩٣) من حديث سبرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٥٢).

﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾: أُشَهِّي لَهُمْ المَعَاصِي. وَقَالَ ابْن أَبِي طَلْحَة فِي رِوَايَة العَوْفِيّ كِلَاهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاس: أَمَّا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ فَمِنْ قِبَل دُنْيَاهُمْ، وَأَمَّا مِنْ خَلْفهمْ فَأَمْر آخِرَتهمْ، وَأَمَّا عَنْ أَيْمَانهمْ فَمِنْ قِبَل حَسَنَاتهمْ، وَأَمَّا عَنْ شَمَائِلهمْ فَمِنْ قِبَل سَيِّئَاتهمْ. وَقَالَ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة: أَتَاهُمْ مِنْ بَيْن أَيْدِيهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لا بَعْث وَلَا جَنَّة وَلَا نَار، وَمِنْ خَلْفهمْ مِنْ أَمْر الدُّنْيَا فَزَيَّنَهَا لَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهَا، وَعَنْ أَيْمَانهمْ مِنْ قِبَل حَسَنَاتهمْ بَطَّأَهُمْ عَنْهَا، وَعَنْ شَمَائِلهمْ زَيَّنَ لَهُمْ السَّيِّئَات وَالمَعَاصِي وَدَعَاهُمْ إِلَيْهَا وَأَمَرَهُمْ بِهَا، آتَاك يَا بْن آدَم مِنْ كُلّ وَجْه، غَيْر أَنَّهُ لَمْ يَأْتِك مِنْ فَوْقك، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحُول بَيْنك وَبَيْن رَحْمَة الله. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَالحَكَم بْن عُتَيْبَة وَالسُّدِّيّ وَابْن جُرَيْج إِلَّا أَنَّهُمْ قَالُوا: مِنْ بَيْن أَيْدِيهِمْ: الدُّنْيَا، وَمِنْ خَلْفهمْ: الآخِرَة. وَقَالَ مُجَاهِد: مِنْ بَيْن أَيْدِيهِمْ وَعَنْ أَيْمَانهمْ: حَيْثُ يُبْصِرُونَ، وَمِنْ خَلْفهمْ وَعَنْ شَمَائِلهمْ: حَيْثُ لا يُبْصِرُونَ. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ المُرَاد: جَمِيع طُرُق الخَيْر وَالشَّرّ، فَالخَيْر يَصُدّهُمْ عَنْهُ، وَالشَّرّ يُحَبِّبه لَهُمْ. وَقَالَ الحَكَم بْن أَبَانَ: عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾: وَلَمْ يَقُلْ مِنْ فَوْقهمْ؛ لِأَنَّ الرَّحْمَة تَنْزِل مِنْ فَوْقهمْ. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ قَالَ: مُوَحِّدِينَ.

وَقَوْل إِبْلِيس هَذَا إِنَّمَا هُوَ ظَنّ مِنْهُ وَتَوَهُّم، وَقَدْ وَافَقَ فِي هَذَا الوَاقِع؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾. وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الحَدِيث: الِاسْتِعَاذَة مِنْ تَسَلُّط الشَّيْطَان عَلَى الإِنْسَان مِنْ جِهَاته كُلّهَا؛ كَمَا قَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا نَصْر بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن مُجَمِّع، عَنْ يُونُس بْن خَبَّاب، عَنْ ابْن جُبَيْر بْن مُطْعِم، -يَعْنِي: نَافِع بْن جُبَيْر-، عَنْ ابْن عَبَّاس. وَحَدَّثَنَاه عُمَر بْن الخَطَّاب -يَعْنِي: السِّجِسْتَانِيّ-، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا عُبَيد الله بْن عَمْرو، عَنْ زَيْد بْن أَبِي أُنَيْسَة، عَنْ يُونُس بْن خَبَّاب، عَنْ ابْن جُبَيْر بْن مُطْعِم، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ، يَدْعُو: «**اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلك العَفْو وَالعَافِيَة فِي دِينِي وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي وَمَالِي، اللهمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْن يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذ بِك اللهمَّ أَنْ أُغْتَال مِنْ تَحْتِي**»[1]. تَفَرَّدَ بِهِ البَزَّار وَحَسَّنَهُ. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا عُبَادَة بْن مُسْلِم الفَزَارِيّ، حَدَّثَنِي جبير بْن أَبِي سُلَيْمَان ابْن جُبَيْر بْن مُطْعِم، سَمِعْت عَبْد الله بْن عُمَر يَقُول: لَمْ يَكُنْ رَسُول الله ﷺ، يَدَع هَؤُلَاءِ الدَّعَوَات حِين يُصْبِح وَحِين يُمْسِي: «**اللهمَّ؛ إِنِّي أَسْأَلك العَافِيَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلك العَفْو وَالعَافِيَة فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللهمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللهمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْن يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذ بِعَظَمَتِك أَنْ أُغْتَال مِنْ تَحْتِي**»[2]. قَالَ وَكِيع: «مِنْ تَحْتِي» يَعْنِي: الخَسْف. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن مَاجَهْ، وَابْن حِبَّان، وَالحَاكِم مِنْ حَدِيث عُبَادَة بْن مُسْلِم، بِهِ. وَقَالَ الحَاكِم: صَحِيح الإِسْنَاد.

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

أَكَّدَ تَعَالَى عَلَيْهِ اللَّعْنَة وَالطَّرْد وَالإِبْعَاد وَالنَّفْي عَنْ مَحَلّ المَلَأ الأَعْلَى بِقَوْلِهِ: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ قَالَ ابْن جَرِير: أَمَّا المَذْءُوم: فَهُوَ المَعِيب، وَالذَّأْم -غَيْر مُشَدَّد-: العَيْب، يُقَال: ذَأَمَهُ يَذْأَمهُ ذَأْمًا فَهُوَ مَذْءُوم، وَيَتْرُكُونَ الهَمْز، فَيَقُولُون: ذُمْته أُذِيمهُ ذَيْمًا وَذَامًا، وَالذَّامّ وَالذَّيْم أَبْلَغ فِي العَيْب مِنْ الذَّمّ. قَالَ: وَالمَدْحُور: المُقْصَى، وَهُوَ

---

(١) ضعيف الإسناد: عزاه المصنف للبزار، وفيه يونس بن خباب: ضعيف.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وأحمد (٢/ ٢٥) من حديث ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٥٩).

المُبْعَد المَطْرُود. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: مَا نَعْرِف المَذْءُوم وَالمَذْمُوم إِلَّا وَاحِدًا. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ التَّمِيمِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ قَالَ: مَقِيتًا. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: صَغِيرًا منفيًا. وَقَالَ السُّدِّيّ: مَقِيتًا مَطْرُودًا. وَقَالَ قَتَادَة: لعِينًا مَقِيتًا. وَقَالَ مُجَاهِد: مَنْفِيًّا مَطْرُودًا. وَقَالَ الرَّبِيع بْن أَنَس: مَذْءُومًا مَنْفِيًّا، وَالمَدْحُور: المُصَغَّر.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾

يَذْكُر تَعَالَى أَنَّهُ أَبَاحَ لِآدَم عَلَيْهِ السَّلَام وَلِزَوْجَتِهِ حَوَّاء الجَنَّة، أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا مِنْ جَمِيع ثِمَارهَا إِلَّا شَجَرَة وَاحِدَة، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَام عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَة البَقَرَة، عِنْد ذَلِكَ حَسَدَهُمَا الشَّيْطَان، وَسَعَى فِي المَكْر وَالوَسْوَسَة وَالخَدِيعَة؛ لِيُسْلَبَا مَا هُمَا فِيهِ مِنْ النِّعْمَة وَاللِّبَاس الحَسَن، ﴿وَقَالَ﴾ كَذِبًا وَافْتِرَاء: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أَيْ: لِئَلَّا تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ خَالِدَيْنِ هَاهُنَا، وَلَوْ أَنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْهَا لَحَصَلَ لكُمَا ذَلِك؛ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أَيْ: لِئَلَّا تَكُونَا مَلَكَيْنِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ أَيْ: لِئَلَّا تَضِلُّوا، ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أَيْ: لِئَلَّا تَمِيد بِكُمْ. وَكَانَ ابْن عَبَّاس وَيَحْيَى بْن أَبِي كَثِير يَقْرَآنِ: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلِكَيْنِ﴾ بِكَسْرِ اللَّام، وَقِراءة الجُمْهُور بِفَتْحِهَا. ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أَيْ: حَلَفَ لَهُمَا بِالله ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فَإِنِّي مِنْ قَبْلكُمَا هَاهُنَا، وَأَعْلَم بِهَذَا المَكَان، وَهَذَا مِنْ بَاب المُفَاعَلَة، وَالمُرَاد أَحَد الطَّرَفَيْنِ؛ كَمَا قَالَ خَالِد بْن زُهَيْر ابْن عَمّ أَبِي ذُؤَيْب:

وَقَاسَمَهَا بِاللهِ جَهْدًا لأَنْتُمْ ۞ أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إِذْ مَا نَشُورُهَا

أَيْ: حَلَفَ لَهُمَا بِالله عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَدَعَهُمَا، وَقَدْ يُخْدَع المُؤْمِن بِالله، فَقَالَ: إِنِّي خُلِقْت قَبْلكُمَا، وَأَنَا أَعْلَم مِنْكُمَا، فَاتَّبِعَانِّ أُرْشِدكُمَا. وَكَانَ بَعْض أَهْل العِلْم يَقُول: مَنْ خَدَعَنَا بِالله انْخَدَعْنَا لَهُ.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

قَالَ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة: عَنْ قَتَادَة، عَنْ الحَسَن، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ آدَم رَجُلًا طِوَالًا كَأَنَّهُ نَخْلَة سَحُوق، كَثِير شَعْر الرَّأْس، فَلَمَّا وَقَعَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ الخَطِيئَة، بَدَتْ لَهُ عَوْرَته عِنْد ذَلِكَ وَكَانَ لا يَرَاهَا، فَانْطَلَقَ هَارِبًا فِي الجَنَّة، فَتَعَلَّقَتْ بِرَأْسِهِ شَجَرَة مِنْ شَجَر الجَنَّة، فَقَالَ لَهَا: أَرْسِلِينِي، فَقَالَتْ: إِنِّي غَيْر مُرْسِلَتك، فَنَادَاهُ رَبّه عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَم أَمِنِّي تَفِرّ؟ قَالَ: يَا رَبّ، إِنِّي اسْتَحْيَيْتك. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ طُرُق: عَنْ الحَسَن، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَرْفُوعًا، وَالمَوْقُوف أَصَحّ إِسْنَادًا.

وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة وَابْن المُبَارَك، عن الحَسَن بْن عُمَارَة، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: كَانَتْ الشَّجَرَة الَّتِي نَهَى الله عَنْهَا آدَم وَزَوْجَته السُّنْبُلَة، فَلَمَّا أَكَلَا مِنْهَا بَدَتْ

لهما سوآتهما، وكانَ الَّذي وارى عَنْهُما مِنْ سَوْآتهما أشعارهما، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ورق التين، يُلزِقانِ بعضه إلى بعض، فانطلَقَ آدم عليه السلام مُوَلِّيًا في الجنَّة، فعلقتْ برأسِهِ شجرة من الجنَّة، فناداهُ الله: يا آدم أمِنِّي تفِرّ؟ قالَ: لا؛ ولكنِّي استحييتك يا ربّ، قالَ: أمَا كانَ لك فِيمَا منحتُك مِنَ الجنَّة وأبحتُك مِنها مَندُوحة عمَّا حرَّمتُ عليكَ؟ قالَ: بلَى يا ربّ، ولكنْ وعِزَّتك ما حسِبْتُ أنَّ أحدًا يحلِف بك كاذبًا. قالَ: وهُوَ قولُ الله ﷻ: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾. قالَ: فبِعِزَّتي لأُهبِطَنَّكَ إلى الأرض، ثُمَّ لا تنالُ العيْش إلَّا كدًّا، قالَ: فأُهبِطَ مِنَ الجنَّة وكانا يأكُلانِ مِنها رغدًا، فأُهبِطَ إلى غيْر رغَد مِنْ طعَام وشرَاب، فعُلِّمَ صنْعَة الحدِيد، وأُمِرَ بالحرْثِ فحرَثَ وزرَعَ، ثُمَّ سقَى، حتَّى إذا بلَغَ حصَدَ، ثُمَّ داسَهُ، ثُمَّ ذرَاهُ، ثُمَّ طحَنَهُ، ثُمَّ عجَنَهُ، ثُمَّ خبزَهُ، ثُمَّ أكلَهُ فلَمْ يبْلُغهُ حتَّى بلَغَ مِنْهُ ما شَاءَ الله أنْ يبْلُغ.

وقَالَ الثَّوْرِيّ: عَنْ ابن أبي ليْلَى، عَنْ المِنْهَال بْن عمْرو، عَنْ سعِيد بْن جُبيْر، عَنْ ابن عبَّاس ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قالَ: ورَق التِّين. صحِيح إلَيْهِ. وقَالَ مُجاهِد: جعَلَا يخْصِفانِ علَيْهِما مِنْ ورَق الجنَّة، قالَ: كهَيْئَةِ الثَّوْب. وقَالَ وهْب بْن مُنبِّه في قوْله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قالَ: كانَ لِبَاس آدم وحوَّاء نُورًا علَى فُرُوجهما، لا يرَى هذَا عوْرَة هذِهِ، ولا هذِهِ عوْرَة هذَا، فلَمَّا أكَلَا مِنْ الشَّجرَة بدَتْ لهُما سوْآتهما. رواهُ ابن جرِير بسَنَدٍ صحِيح إلَيْهِ. وقَالَ عبْد الرَّزَّاق: أخْبرَنا معْمَر، عَنْ قتَادَة، قالَ: قالَ آدم: أيْ ربّ، أرأيْت إنْ تُبْت واسْتغْفرْت؟ قالَ: إذًا أُدْخِلك الجنَّة، وأمَّا إبْلِيس فلَمْ يسْألهُ التَّوْبَة، وسَألَهُ النَّظِرَة، فأُعْطِيَ كُلّ واحِد مِنْهُما الَّذِي سألَهُ. وقَالَ ابن جرِير: حدَّثَنا القاسِم، حدَّثَنا الحُسيْن، حدَّثَنا عبَّاد بْن العوَّام، عَنْ سُفْيان بْن حُسيْن، عَنْ يعْلَى ابن مُسْلِم، عَنْ سعِيد بْن جُبيْر، عَنْ ابن عبَّاس، قالَ: لمَّا أكَلَ آدم مِنْ الشَّجرَة، قِيلَ لهُ: لِمَ أكَلْت مِنْ الشَّجرَة الَّتِي نهَيْتُك عنْها؟ قالَ: حوَّاء أمرَتْنِي؛ قالَ: فإنِّي قدْ أعْقبْتها أنْ لا تحْمِل إلَّا كُرْهًا، ولا تضَع إلَّا كُرْهًا، قالَ: فرَنَّتْ عِنْد ذلِكَ حوَّاء، فقِيلَ لها: الرَّنَّة علَيْكِ وعلَى ولَدك. وقَالَ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم في قوْله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: هِيَ الكلِمات الَّتِي تلَقَّاها آدم مِنْ ربِّه.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾

قِيلَ: المُرَاد بالخِطَاب في: ﴿اهْبِطُوا﴾ آدم وحوَّاء وإبْلِيس والحيَّة، ومِنْهُمْ مَنْ لمْ يذْكُر الحيَّة، والله أعْلَم. والعُمْدَة في العدَاوَة آدم وإبْلِيس؛ ولهذَا قالَ تعَالَى في سُورَة طه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الآية، وحوَّاء تبَع لِآدم، والحيَّة إنْ كانَ ذِكْرها صحِيحًا فهِيَ تبَع لإبْلِيس. وقدْ ذكَرَ المُفسِّرُونَ الأماكِن الَّتِي هبَطَ فِيها كُلّ مِنْهُمْ، ويرْجِع حاصِل تِلْكَ الأخْبار إلَى الإسْرائِيلِيَّات، والله أعْلَم بصِحَّتِها، ولَوْ كانَ في تعْيِين تِلْكَ البِقَاع فائِدَة تعُود علَى المُكلَّفِينَ في أمْر دِينهم أوْ دُنْياهُمْ، لذَكَرَها الله تعَالَى في كِتَابه أوْ رسُوله ﷺ.

وقوْله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أيْ: قرَار وأعْمَار مضْرُوبَة إلَى آجَال معْلُومَة، قدْ جرَى بها القلَم، وأحْصَاها القدَر، وسُطِرَتْ في الكِتَاب الأوَّل. وقَالَ ابن عبَّاس: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ القُبُور. وعَنْهُ قالَ: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ فوْق الأرْض وتحْتها. رواهُما ابن أبي حاتِم. وقوْله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ كقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ يُخْبِر تعَالَى أنَّهُ جعَلَ الأرْض دارًا لِبَنِي آدم مُدَّة الحيَاة الدُّنْيَا؛ فِيها محْيَاهُمْ، وفِيها مماتهمْ وقُبُورهمْ، ومِنْها نُشُورهمْ لِيَوْمِ القِيامَة، الَّذِي يجْمَع الله فِيهِ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، ويُجازِي كُلًّا بعَمَلِهِ.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يَمْتَنّ تَعَالَى عَلَى عِبَاده بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنْ اللِّبَاس وَالرِّيَاش، فَاللِّبَاس المذكور ههنا لستر العَوْرَات، وَهِيَ: السَّوْآت، وَالرِّيَاش وَالرِّيش: وَهو مَا يُتَجَمَّل بِهِ ظَاهِرًا، فَالأَوَّل مِنْ الضَّرُورِيَّات، وَالرِّيش مِنْ التَّكْمِلَات وَالزِّيَادَات. قَالَ ابْن جَرِير: الرِّيَاش فِي كَلَام العَرَب: الأَثَاث، وَمَا ظَهَرَ مِنْ الثِّيَاب. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَحَكَاهُ البُخَارِيّ عَنْهُ: الرِّيَاش: المَال. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَعُرْوَة بْن الزُّبَيْر، وَالسُّدِّيّ، وَالضَّحَّاك، وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس: الرِّيَاش: اللِّبَاس، وَالعَيْش، وَالنَّعِيم. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: الرِّيَاش: الجَمَال.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، حَدَّثَنَا أَصْبَغ، عَنْ أَبِي العَلَاء الشَّامِيّ، قَالَ: لَبِسَ أَبُو أُمَامَةَ ثَوْبًا جَدِيدًا، فَلَمَّا بَلَغَ تَرْقُوَته قَالَ: الحَمْد لله الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّل بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْت عُمَر بْن الخَطَّاب يَقُول: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ اسْتَجَدَّ ثَوْبًا فَلَبِسَهُ، فَقَالَ حِين يَبْلُغ تَرْقُوَته: الحَمْد لله الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّل بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْب الخَلِق -أو: أَلْقَى- فَتَصَدَّقَ بِهِ، كَانَ فِي ذِمَّة الله، وَفِي جِوَار الله، وَفِي كَنَف الله حَيًّا وَمَيِّتًا»**[(١)]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَابْن مَاجَهْ مِنْ رِوَايَة يَزِيد بْن هَارُون، عَنْ أَصْبَغ -هُوَ: ابْن زَيْد الجُهَنِيّ-، وَقَدْ وَثَّقَهُ يَحْيَى بْن مَعِين وَغَيْره، وَشَيْخه أَبُو العَلَاء الشَّامِيّ لا يُعْرَف إِلَّا بِهَذَا الحَدِيث، وَلَكِنْ لَمْ يُخَرِّجهُ أَحَد، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُبَيْد، حَدَّثَنَا مُخْتَار بْن نَافِع التَّمَّار، عَنْ أَبِي مَطَر: أَنَّهُ رَأَى عَلِيًّا ﷺ أَتَى غُلَامًا حَدَثًا فَاشْتَرَى مِنْهُ قَمِيصًا بِثَلَاثَةِ دَرَاهِم، وَلَبِسَهُ مَا بَيْن الرُّسْغَيْنِ إِلَى الكَعْبَيْنِ، يَقُول حِين لَبِسَهُ: الحَمْد لله الَّذِي رَزَقَنِي مِنْ الرِّيَاش مَا أَتَجَمَّل بِهِ فِي النَّاس، وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي. فَقِيلَ: هَذَا شَيْء تَرْوِيه عَنْ نَفْسك أَوْ عَنْ النَّبِيّ ﷺ؟ قَالَ: هَذَا شَيْء سَمِعْته مِنْ رَسُول الله ﷺ، يَقُول عِنْد الكِسْوَة: **«الحَمْد لله الَّذِي رَزَقَنِي مِنَ الرِّيَاش مَا أَتَجَمَّل بِهِ فِي النَّاس وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي»**[(٢)].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ قَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾ بِالنَّصْبِ، وَقَرَأَ الآخَرُونَ بِالرَّفْع عَلَى الابْتِدَاء، ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ خَبَره. وَاخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ؛ فَقَالَ عِكْرِمَة: يُقَال: هُوَ مَا يَلْبَسهُ المتقون يَوْم القِيَامَة. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَالَ زَيْد بْن عَلِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة، وَابْن جُرَيْج: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾: الإِيمَان. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: العَمَل الصَّالِح. وقَالَ زياد بْن عَمْرو، عَنْ ابْن عَبَّاس: هُوَ السَّمْت الحَسَن فِي الوَجْه. وَعَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ خَشْيَة الله. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ يَتَّقِي الله فَيُوَارِي عَوْرَته، فَذَاكَ لِبَاس التَّقْوَى. وَكل هذه مُتَقَارِبَة، وَيُؤَيِّد ذَلِكَ الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ ابْن جَرِير حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنِي المُثَنَّى، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن الحَجَّاج، حَدَّثَنِي إِسْحَاق بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ سُلَيْمَان بْن أَرْقَم، عَنْ الحَسَن قَالَ: رَأَيْت عُثْمَان بْن عَفَّان ﷺ عَلَى مِنْبَر رَسُول الله ﷺ، عَلَيْهِ قَمِيص قُوهِيّ مَحْلُول الزِّرّ، وَسَمِعْته يَأْمُر بِقَتْلِ الكِلَاب، وَيَنْهَى عَنْ اللَّعِب بِالحَمَام، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا الله فِي هَذِهِ السَّرَائِر، فَإِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«وَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ، مَا عمل أَحَد قط سرًّا إلا أَلْبَسَهُ الله رِدَاءَ عَلَانِيَة، إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ»**[(٣)].

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٥٥٥)، وابن ماجه (٣٥٥٧)، وأحمد (١/ ٤٤) من حديث عمر بن الخطاب، وعلة الحديث أبو العلاء الشامي: مجهول، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٥٤٢).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ١٥٧)، وقال الهيثمي (٥/ ١٢١): وفيه مختار بن نافع: ضعيف.

(٣) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٥/ ٤٥٥).

ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَرِيَاشًا﴾ ولم يقرأ: ﴿وَرِيشًا﴾، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: السَّمْت الحَسَن. هَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ رِوَايَة سُلَيْمَان بْن أَرْقَم، وَفِيهِ ضَعْف. وَقَدْ رَوَى الأَئِمَّة الشَّافِعِيّ وَأَحْمَد وَالبُخَارِيّ فِي كِتَاب الأَدَب مِنْ طُرُق صَحِيحَة: عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ: أَنَّهُ سَمِعَ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُثْمَان بْن عَفَّان يَأْمُر بِقَتْلِ الكِلَاب، وَذَبْح الحَمَام يَوْم الجُمُعَة عَلَى المِنْبَر. وَأَمَّا المَرْفُوع مِنْهُ فَقَدْ رَوَى الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الكَبِير لَهُ شَاهِدًا مِنْ وَجْه آخَر حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا محمود بن محمد المروزي، ثنا حامد بن آدم المروزي، ثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن سلمة بن كهيل، عن جندب بن سفيان، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أسر عبدٌ سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر**».

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

[يُحَذِّر تَعَالَى][1] بَنِي آدَم مِنْ إِبْلِيس وَقَبِيله، مُبَيِّنًا لَهُمْ عَدَاوَته القَدِيمَة لِأَبِي البَشَر آدَم عَلَيْهِ السَّلَام فِي سَعْيه فِي إِخْرَاجه مِنْ الجَنَّة، الَّتِي هِيَ دَار النَّعِيم، إِلَى دَار التَّعَب وَالعَنَاء، وَالتَّسَبُّب فِي هَتْك عَوْرَته بَعْدَمَا كَانَتْ مَسْتُورَة عَنْهُ، وَمَا هَذَا إِلَّا عَنْ عَدَاوَة أَكِيدَة، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

قَالَ مُجَاهِد: كَانَ المُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ عُرَاة، يَقُولُونَ: نَطُوف كَمَا وَلَدَتْنَا أُمَّهَاتنَا، فَتَضَع المَرْأَة عَلَى فَرْجها النِّسْعَة أَوْ الشَّيْء وَتَقُول:

اليَوْم يَبْدُو بَعْضه أَوْ كُلّه ❁ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلّهُ

فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآيَة.

قُلْتُ: كَانَتْ العَرَب مَا عَدَا قُرَيْشًا لا يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ فِي ثِيَابهمْ الَّتِي لَبِسُوهَا، يَتَأَوَّلُونَ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لا يَطُوفُونَ فِي ثِيَاب عَصَوْا الله فِيهَا، وَكَانَتْ قُرَيْش وَهُمْ الحُمْس يَطُوفُونَ فِي ثِيَابهمْ، فَمَنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيّ ثَوْبًا طَافَ فِيهِ، وَمَنْ مَعَهُ ثَوْب جَدِيد طَافَ فِيهِ ثُمَّ يُلْقِيه فَلَا يَتَمَلَّكهُ أَحَد، وَمَنْ لمْ يَجِد ثَوْبًا جَدِيدًا وَلَا أَعَارَهُ أَحْمَسِيّ ثَوْبًا طَافَ عُرْيَانًا، وَرُبَّمَا كَانَتْ امْرَأَة فَتَطُوف عُرْيَانَة، فَتَجْعَل عَلَى فَرْجهَا شَيْئًا لِيَسْتُرهُ بَعْض الشيء، وَتَقُول:

اليَوْم يَبْدُو بَعْضه أَوْ كُلّه ❁ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلّهُ

وَأَكْثَر مَا كَانَ النِّسَاء يَطُفْنَ عُرَاة بِاللَّيْلِ، وَكَانَ هَذَا شَيْئًا قَدْ ابْتَدَعُوهُ مِنْ تِلْقَاء أَنْفُسهمْ، وَاتَّبَعُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِعْل آبَائِهِمْ مُسْتَنِد إِلَى أَمْر مِنْ الله وَشَرْع، فَأَنْكَرَ الله تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ﴾ أَيْ: قل يَا مُحَمَّد لِمَنْ ادَّعَى ذَلِكَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَهُ فَاحِشَة مُنْكَرَة، وَالله لا يَأْمُر بِمِثْلِ ذَلِكَ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: أَتُسْنِدُونَ إِلَى الله مِنْ الأَقْوَال مَا لا تَعْلَمُونَ صِحَّته.

---

(١) في نسخة: [يقول تعالى محذرًا].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أَيْ: بِالعَدْلِ وَالِاسْتِقَامَة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أَيْ: أَمَرَكُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي عِبَادَته فِي مَحَالِّهَا، وَهِيَ مُتَابَعَة الْمُرْسَلِينَ الْمُؤَيَّدِينَ بِالْمُعْجِزَاتِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنْ الله، وَمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ الشَّرَائِع، وَبِالْإِخْلَاصِ لهُ فِي عِبَادَته، فَإِنَّهُ تَعَالَى لا يَتَقَبَّل العَمَل حَتَّى يَجْمَع هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ: أَنْ يَكُون صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ، وَأَنْ يَكُون خَالِصًا مِنْ الشِّرْك.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿الضَّلَالَةُ﴾ اخْتُلِفَ فِي مَعْنَى قَوْله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾. فَقَالَ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يُحْيِيكُمْ بَعْد مَوْتكُمْ. وَقَالَ الْحَسَن الْبَصْرِيّ: كَمَا بَدَأَكُمْ فِي الدُّنْيَا، كَذَلِكَ تَعُودُونَ يَوْم القِيَامَة أَحْيَاء. وَقَالَ قَتَادَة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قَالَ: بَدَأَ فَخَلَقَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا شَيْئًا، ثُمَّ ذَهَبُوا، ثُمَّ يُعِيدهُمْ. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: كَمَا بَدَأَكُمْ أَوَّلًا كَذَلِكَ يُعِيدكُمْ آخِرًا. وَاخْتَارَ هَذَا القَوْل أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير، وَأَيَّدَهُ بِمَا رَوَاهُ: مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَشُعْبَة بْن الْحَجَّاج كِلَاهُمَا، عَنْ الْمُغِيرَة بْن النُّعْمَان، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُول الله ﷺ بِمَوْعِظَةٍ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى الله حُفَاة عُرَاة غُرْلًا**، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾»[1]. وَهَذَا الْحَدِيث مُخَرَّج فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث شُعْبَة، وَفِي حَدِيث الْبُخَارِيّ أَيْضًا مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ، بِهِ. وَقَالَ وَرْقَاء بْن إِيَاس أَبُو يَزِيد: عَنْ مُجَاهِد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قَالَ: يُبْعَث الْمُسْلِم مُسْلِمًا، وَالكَافِر كَافِرًا. وَقَالَ أَبُو العَالِيَة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: رُدُّوا إِلَى عِلْمه فِيهِمْ. وَقَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كَمَا كَتَبَ عَلَيْكُمْ تَكُونُونَ. وَفِي رِوَايَة: كَمَا كُنْتُمْ تَكونون عَلَيْهِ تَكُونُونَ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: مَنْ ابْتَدَأَ الله خَلْقه عَلَى الشَّقَاوَة صَارَ إِلَى مَا ابْتُدِئَ عَلَيْهِ خَلْقه، وَإِنْ عَمِلَ بِأَعْمَالِ أَهْل السَّعَادَة كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة، ثم صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه. وَمَنْ ابْتَدَأَ خَلْقه عَلَى السَّعَادَة صَارَ إِلَى مَا ابْتُدِئَ خَلْقه عَلَيْهِ، وَإِنْ عَمِلَ بِأَعْمَالِ أَهْل الشَّقَاء، كَمَا أَنَّ السَّحَرَة عَمِلُوا بِأَعْمَالِ أَهْل الشَّقَاء ثُمَّ صَارُوا إِلَى مَا ابْتُدِئُوا عَلَيْهِ. وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ يَقُول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كَمَا خَلَقْنَاكُمْ فَرِيق مُهْتَدُونَ، وَفَرِيق ضُلَّال، كَذَلِكَ تَعُودُونَ وَتُخْرَجُونَ مِنْ بُطُون أُمَّهَاتكُمْ. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَوْله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قَالَ: إِنَّ الله تَعَالَى بَدَأَ خَلْق ابْن آدَم مُؤْمِنًا وَكَافِرًا؛ كَمَا قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ ثُمَّ يُعِيدهُمْ يَوْم القِيَامَة كَمَا بَدَأَهُمْ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا.

قُلْت: وَيَتَأَيَّد هَذَا القَوْل بِحَدِيثِ ابْن مَسْعُود فِي صَحِيح الْبُخَارِيّ: «**فَوَالَّذِي لا إِلَه غَيْره، إِنَّ أَحَدكُمْ لَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْل الْجَنَّة حَتَّى مَا يَكُون بَيْنه وَبَيْنهَا إِلا بَاع أَوْ ذِرَاع، فَيَسْبِق عَلَيْهِ الكِتَاب، فَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْل النَّار فَيَدْخُلهَا، وَإِنَّ أَحَدكُمْ لَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْل النَّار حَتَّى مَا يَكُون بَيْنه وَبَيْنهَا إِلا بَاع أَوْ ذِرَاع، فَيَسْبِق عَلَيْهِ الكِتَاب، فَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْل الْجَنَّة فَيَدْخُل الْجَنَّة**»[2]. وَقَالَ أَبُو القَاسِم البَغَوِيّ: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الْجَعْد، حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّان، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ سَهْل بْن سَعْد، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ العَبْد لَيَعْمَل فِيمَا يَرَى النَّاس بِعَمَلِ أَهْل الْجَنَّة، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْل النَّار، وَإِنَّهُ لَيَعْمَل فِيمَا يَرَى النَّاس بِعَمَلِ أَهْل النَّار، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْل الْجَنَّة، وَإِنَّمَا الأَعْمَال بِالْخَوَاتِيم**» هَذَا قِطْعَة مِنْ حَدِيث رواه الْبُخَارِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي غَسَّان مُحَمَّد بْن مُطَرِّف الْمَدَنِيّ، فِي قِصَّة قُزْمَان يَوْم أُحُد.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٣٨٦٠)، والترمذي (٢٤٢٥).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٣٦، ٣١٥٤، ٦٢٢١، ٧٠١٦).

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ جَابِر، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «تُبْعَث كُلّ نَفْس عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ»[1]. وَهَذَا الحَدِيث رَوَاهُ مُسْلِم، وَابْن مَاجَهْ، مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ الأَعْمَش، بِهِ. وَلَفْظه: «يُبْعَث كُلّ عَبْد عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»[2].

قُلْت: وَلَابُدّ مِنْ الجَمْع بَيْن هَذَا القَوْل إِنْ كَانَ هُوَ المُرَاد مِنْ الآيَة، وَبَيْن قَوْله تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «كُلّ مَوْلُود يُولَد عَلَى الفِطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ»[3]. وَفِي صَحِيح مُسْلِم: عَنْ عِيَاض بْن حِمَار قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «يَقُول الله تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْت عِبَادِي حُنَفَاء، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِين، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينهمْ»[4]. الحَدِيث. وَوَجْه الجَمْع عَلَى هَذَا أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُمْ؛ لِيَكُونَ مِنْهُمْ مُؤْمِن وَكَافِر فِي ثَانِي الحَال، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَطَرَ الخَلْق كُلّهمْ عَلَى مَعْرِفَته وَتَوْحِيده وَالعِلْم بِأَنَّهُ لا إِلَه غَيْره، كَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ المِيثَاق بِذَلِكَ، وَجَعَلَهُ فِي غَرَائِزهمْ وَفِطَرهمْ، وَمَعَ هَذَا قَدَّرَ أَنَّ مِنْهُمْ شَقِيًّا وَمِنْهُمْ سَعِيدًا ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾، وَفِي الحَدِيث: «كُلّ النَّاس يَغْدُو، فَبَائِع نَفْسه فَمُعْتِقهَا أَوْ مُوبِقهَا»[5]. وَقَدَر الله نَافِذ فِي بَرِيَّته، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾، وَ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْ أَهْل السَّعَادَة فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْل السَّعَادَة، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْل الشَّقَاوَة فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْل الشَّقَاوَة»[6]. ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. قَالَ ابْن جَرِير: وَهَذَا مِنْ أَبْيَن الدَّلَالَة عَلَى خَطَأ مَنْ زَعَمَ: أَنَّ الله لا يُعَذِّب أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَة رَكِبَهَا، أَوْ ضَلَالَة اعْتَقَدَهَا إِلَّا أَنْ يَأْتِيهَا بَعْد عِلْم مِنْهُ بِصَوَابِ وَجْههَا، فَيَرْكَبهَا عِنَادًا مِنْهُ لِرَبِّهِ فِيهَا؛ لأن ذلك لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَيْن فَرِيق الضَّلَالَة الَّذِي ضَلَّ وَهُوَ يَحْسَب أَنَّهُ هَادٍ وَفَرِيق الهُدَى؛ فَرْق، وَقَدْ فَرَّقَ الله تَعَالَى بَيْن أَسْمَائِهِمَا وَأَحْكَامهمَا فِي هَذِهِ الآيَة.

﴿۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة رَدّ عَلَى المُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ مِنْ الطَّوَاف بِالبَيْتِ عُرَاة؛ كَمَا رَوَاهُ مُسْلِم وَالنَّسَائِيّ وَابْن جَرِير وَاللَّفْظ لَهُ: مِنْ حَدِيث شُعْبَة، عَنْ سَلَمَة بْن كُهَيْل، عَنْ مُسْلِم البُطَيْن، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: كَانُوا يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ عُرَاة: الرِّجَال وَالنِّسَاء، الرِّجَال بِالنَّهَارِ، وَالنِّسَاء بِاللَّيْلِ، وَكَانَتْ المَرْأَة تَقُول:

اليَوْم يَبْدُو بَعْضه أَوْ كُلّه ✽ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلا أُحِلّه[7]

فَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآيَة. قَالَ: كَانَ رِجَال يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ عُرَاة، فَأَمَرَهُمْ الله بِالزِّينَةِ، وَالزِّينَة: اللِّبَاس وَهُوَ مَا يُوَارِي السَّوْأَة، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ جَيِّد البَزّ وَالمَتَاع، فَأُمِرُوا أَنْ يَأْخُذُوا زِينَتهمْ عِنْد كُلّ مَسْجِد. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَعَطَاء، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَالضَّحَّاك، وَمَالِك، عَنْ الزُّهْرِيّ، وَغَيْر وَاحِد مِنْ أَئِمَّة السَّلَف، فِي تَفْسِيرهَا: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي طَوَاف المُشْرِكِينَ بِالبَيْتِ عُرَاة.

---

(١) ضعيف الإسناد: أخرجه ابن جرير (٥/ ٤٦٥).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٧٨).
(٣) صحيح: تقدم.
(٤) صحيح: تقدم.
(٥) صحيح: تقدم.
(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٤٧، ٤٩٤٨)، ومسلم (٢٦٤٧).
(٧) صحيح: أخرجه مسلم (٣٠٢٨)، والنسائي (٥/ ٢٣٣).

وَقَدْ رَوَى الحَافِظ ابْن مَرْدُوَيْهِ: مِنْ حَدِيث سَعِيد بْن بَشِير وَالأَوْزَاعِيّ، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس مَرْفُوعًا: أَنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الصَّلَاة فِي النِّعَال، وَلَكِنْ فِي صِحَّته نَظَر، وَالله أَعْلَم. وَلِهَذِهِ الآيَة وَمَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مِنْ السُّنَّة: يُسْتَحَبّ التَّجَمُّل عِنْد الصَّلَاة، وَلَا سِيَّمَا يَوْم الجُمُعَة وَيَوْم العِيد، وَالطِّيب؛ لِأَنَّهُ مِنْ الزِّينَة، وَالسِّوَاك؛ لِأَنَّهُ مِنْ تَمَام ذَلِكَ، وَمِنْ أَفْضَل اللِّبَاس البَيَاض؛ كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَاصِم، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خُثَيْم، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «البَسُوا مِنْ ثِيَابكُمْ البَيَاض، فَإِنَّهَا مِنْ خَيْر ثِيَابكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ، وَإِنَّ من خَيْر أَكْحَالكُمْ الإِثْمِد فَإِنَّهُ يَجْلُو البَصَر وَيُنْبِت الشَّعْر»(١). هَذَا حَدِيث جَيِّد الإِسْنَاد، رِجَاله عَلَى شَرْط مُسْلِم، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَة: مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خُثَيْم، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. وَلِلإِمَام أَحْمَد أَيْضًا، وَأَهْل السُّنَن بِإِسْنَادٍ جَيِّد عَنْ سَمُرَة بْن جُنْدُب، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِثِيَابِ البَيَاض فَالبَسُوهَا، فَإِنَّهَا أَطْهَر وَأَطْيَب وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ»(٢). وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ بِسَنَدٍ صَحِيح: عَنْ قَتَادَة، عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ: أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيّ اشْتَرَى رِدَاء بِأَلْفٍ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قَالَ بَعْض السَّلَف: جَمَعَ الله الطِّبّ كُلّه فِي نِصْف آيَة ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. وَقَالَ البُخَارِيّ: قَالَ ابْن عَبَّاس: كُلْ مَا شِئْت، وَالبَس شِئْت، مَا أَخْطَأَتْك خَصْلَتَانِ: سَرَف وَمَخِيلَة. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الأَعْلَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن ثَوْر، عَنْ مَعْمَر، عَنْ ابْن طَاوُس، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: أَحَلَّ الله الأَكْل وَالشُّرْب مَا لَمْ يَكُنْ سَرَفًا أَوْ مَخِيلَة. إِسْنَاده صَحِيح. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا بَهْز، حَدَّثَنَا هَمَّام، عَنْ قَتَادَة، عَنْ عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْر مَخِيلَة وَلَا سَرَف، فَإِنَّ الله يُحِبّ أَنْ يَرَى نِعْمَته عَلَى عَبْده»(٣). وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ وَابْن مَاجَة: مِنْ حَدِيث قَتَادَة، عَنْ عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالبَسُوا فِي غَيْر إِسْرَاف وَلَا مَخِيلَة». وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن سُلَيْم الكناني، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن جَابِر الطَّائِيّ، سَمِعْت المِقْدَام بْن مَعْدِي كَرِبَ الكِنْدِيّ قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «مَا مَلَأ ابْن آدَم وِعَاء شَرًّا مِنْ بَطْنه حَسْب ابْن آدَم أُكُلَات يُقِمْنَ صُلْبه فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا مَحَالَة فَثُلُث لِطَعَامِهِ وَثُلُث لِشَرَابِهِ وَثُلُث لِنَفَسِهِ»(٤). وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ طُرُق، عَنْ يَحْيَى بْن جَابِر، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن. وَفِي نُسْخَة: حَسَن صَحِيح. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا سُوَيْد بْن عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا بَقِيَّة، عَنْ يُوسُف بْن أَبِي كَثِير، عَنْ نُوح بْن ذَكْوَان، عَنْ الحَسَن، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ السَّرَف أَنْ تَأْكُل كُلّ مَا اشْتَهَيْت»(٥). وَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي الأَفْرَاد، وَقَالَ: هَذَا حَدِيث غَرِيب، تَفَرَّدَ بِهِ بَقِيَّة.

وَقَالَ السُّدِّيّ: كَانَ الَّذِينَ يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ عُرَاة يُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ الوَدَك مَا أَقَامُوا فِي المَوْسِم، فَقَالَ الله تَعَالَى لَهُمْ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. يَقُول: لَا تُسْرِفُوا فِي التَّحْرِيم. وَقَالَ مُجَاهِد: أَمَرَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ الله. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يَقُول: وَلَا تَأْكُلُوا حَرَامًا، ذَلِكَ الإِسْرَاف. وَقَالَ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَوْله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾: فِي

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٠٦١)، والترمذي (٩٩٤)، والنسائي (٨/ ١٤٩)، وابن ماجه (١٤٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٦).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٨١١)، والنسائي (٤/ ٣٤)، وابن ماجه (٣٥٦٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١١٥).

(٣) حسن: تقدم.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٨١)، وأحمد (٤/ ١٣٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٧٤).

(٥) موضوع: أخرجه أبو يعلى (٢٧٦٥)، وابن ماجه (٣٣٥٢) بسند ضعيف فيه بقية بن الوليد: صدوق يدلس عن الضعفاء، وفيه نوح بن ذكوان: ضعيف، ويوسف بن أبي كثير: لا يعرف، وقال الألباني: موضوع. انظر «ضعيف سنن ابن ماجه» (٧٢٩).

الطَّعَام وَالشَّراب. وَقَالَ ابْن جَرِير: وَقَوْله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ حدّه فِي حَلَال أَوْ حَرَام، الغَالِينَ فِيمَا أَحَلَّ بِإِحْلَالِ الحَرَام أَوْ بِتَحْرِيمِ الحَلَال، وَلَكِنَّهُ يُحِبّ أَنْ يُحَلِّل مَا أَحَلَّ وَيُحَرِّم مَا حَرَّمَ، وَذَلِكَ العَدْل الَّذِي أَمَرَ بِهِ.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

يَقُول تَعالَى رَدًّا عَلَى مَنْ حَرَّمَ شَيْئًا مِنْ المَآكِل أَوْ المَشَارِب أَوْ المَلَابِس، مِنْ تِلْقَاء نَفْسه مِنْ غَيْر شَرْع مِنْ الله: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّد لِهَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُونَ بِآرَائِهِمْ الفَاسِدَة وَابْتِدَاعهمْ: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: هِيَ مَخْلُوقَة لِمَنْ آمَنَ بِالله، وَعَبَدَهُ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا، وَإِنْ شَرِكَهُمْ فِيهَا الكُفَّار حِسًّا فِي الدُّنْيَا، فَهِيَ لَهُمْ خَاصَّة يَوْم القِيَامَة، لا يُشْرِكهُمْ فِيهَا أَحَد مِنَ الكُفَّار، فَإِنَّ الجَنَّة مُحَرَّمَة عَلَى الكَافِرِينَ. قَالَ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو حُصَيْن مُحَمَّد بْن الحُسَيْن القَاضِي، حَدَّثَنَا يَحْيَى الحِمَّانِيّ، حَدَّثَنَا يَعْقُوب القُمِّيّ، عَنْ جَعْفَر بْن أَبِي المُغِيرَة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: كَانَتْ قُرَيْش يَطُوفُون بِالبَيْتِ وَهُمْ عُرَاة، يُصَفِّرُونَ وَيُصَفِّقُونَ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ فَأُمِرُوا بِالثِّيَاب[1].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ شَقِيق، عَنْ عَبْد الله، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لا أَحَد أَغْيَر مِنْ الله؛ فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلا أَحَد أَحَبّ إِلَيْهِ المَدْح مِنْ الله**»[2]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث سُلَيْمَان بْن مِهْرَان الأَعْمَش، عَنْ شَقِيق أَبِي وَائِل، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود به. وَتَقَدَّمَ الكَلَام عَلَى مَا يَتَعَلَّق بِالفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ فِي سُورَة الأَنْعَام. وَقَوْله: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قَالَ السُّدِّيّ: أَمَّا الإِثْم فَالمَعْصِيَة، وَالبَغْي أَنْ تَبْغِي عَلَى النَّاس بِغَيْرِ الحَقّ. وَقَالَ مُجَاهِد: الإِثْم: المَعَاصِي كُلّهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّ البَاغِي بَغْيه كَائِنٌ عَلَى نَفْسه. وَحَاصِل مَا فُسِّرَ بِهِ الإِثْم أَنَّهُ الخَطَايَا المُتَعَلِّقَة بِالفَاعِلِ نَفْسه، وَالبَغْي هُوَ التَّعَدِّي إِلَى النَّاس، فَحَرَّمَ الله هَذَا وَهَذَا. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أَيْ: تَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاء فِي عِبَادَته ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنْ الافْتِرَاء وَالكَذِب مِنْ دَعْوَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا، وَنَحْو ذَلِكَ مِمَّا لا عِلْم لَكُمْ بِهِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: قَرْن وَجِيل ﴿أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أَيْ: مِيقَاتهمْ المُقَدَّر لَهُمْ ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ﴾ عن ذلك، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، ثم أَنْذَرَ تَعَالَى بَنِي آدم أَنَّهُ سَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا يَقُصُّونَ عَلَيْهِمْ آيَاته، وَبَشَّرَ وَحَذَّرَ، فَقَالَ: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ أَيْ: تَرَكَ المُحَرَّمَات وَفَعَلَ الطَّاعَات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ أَيْ: كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبهمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ العَمَل بِهَا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أَيْ: مَاكِثُونَ فِيهَا مُكْثًا مُخَلَّدًا.

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٢٣٤) بسند ضعيف فيه يحيى الحماني: ضعيف.

(٢) صحيح: تقدم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

يَقُول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أَيْ: لا أَحَد أَظْلَم مِمَّنْ افْتَرَى الكَذِب عَلَى الله أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ المُنَزَّلَة ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ فَقَالَ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس يَنَالهُمْ مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ وَكُتِبَ لِمَنْ يفتري عَلَى الله أَنَّ وَجْهه مُسْوَدّ. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس يَقُول: نَصِيبهمْ مِنْ الأَعْمَال، مَنْ عَمِلَ خَيْرًا جُزِيَ بِهِ، وَمَنْ عَمِلَ شَرًّا جُزِيَ بِهِ. وَقَالَ مُجَاهِد: مَا وُعِدُوا فيه مِنْ خَيْر وَشَرّ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَة وَالضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قَالَ: عَمَله وَرِزْقه وَعُمْره. وَكَذَا قَالَ الرَّبِيع بْن أَنَس وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم. وَهَذَا القَوْل قَوِيّ فِي المَعْنَى، وَالسِّيَاق يَدُلّ عَلَيْهِ، وَهُوَ قَوْله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ويصير المَعْنَى فِي هَذِهِ الآيَة كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، وَقَوْله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾. وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ يُخْبِر تَعَالَى أَنَّ المَلَائِكَة إِذَا تَوَفَّتْ المُشْرِكِينَ، تُفْزِعهُمْ عِنْد المَوْت وَقَبْض أَرْوَاحهمْ إِلَى النَّار، يَقُولُونَ لَهُمْ: أَيْنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِمْ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا، وَتَدْعُونَهُمْ وَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُون الله، ادْعُوهُمْ يُخَلِّصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، قَالُوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أَيْ: ذَهَبُوا عَنَّا، فَلَا نَرْجُو نَفْعهمْ وَلَا خَيْرهمْ ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أَيْ: أَقَرُّوا وَاعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسهمْ ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقُولهُ لِهَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ بِهِ، المُفْتَرِينَ عَلَيْهِ، المُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أَيْ: مِنْ أَشْكالكم وَعَلَى صِفَاتكُمْ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أَيْ: مِنْ الأُمَم السَّالِفَة الكَافِرَة ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون بَدَلًا مِنْ قَوْله ﴿فِي أُمَمٍ﴾، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أَيْ: مَعَ أُمَم. وَقَوْله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، كَمَا قَالَ الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أَيْ: اجْتَمَعُوا فِيهَا كُلّهمْ ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ أَيْ: أُخْرَاهُمْ دُخُولًا. وَهُمْ الأَتْبَاع لِأُولَاهُمْ وَهُمْ المَتْبُوعُونَ لِأَنَّهُمْ أَشَدّ جُرْمًا مِنْ أَتْبَاعهمْ، فَدَخَلُوا قَبْلهمْ، فَيَشْكُوهُمْ الأَتْبَاع إِلَى الله يَوْم القِيَامَة؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ عَنْ سَوَاء السَّبِيل، فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أَيْ: أَضْعِفْ عَلَيْهِمْ العُقُوبَة؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

وَقَوْله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: قَدْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، وَجَازَيْنَا كُلًّا بِحَسَبِهِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، وَقَوْله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ

أَثْقَالِهِمْ﴾، وَقَوْلِه: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾. ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ أَيْ: قَالَ المَتْبُوعُونَ لِلأَتْبَاعِ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قَالَ السُّدِّيّ: فَقَدْ ضَلَلْتُمْ كَمَا ضَلَلْنَا. ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وَهَذِهِ الحَالُ كَمَا أَخْبَرَ الله تَعَالَى عَنْهُمْ فِي حَالِ مَحْشَرِهِمْ فِي قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

قَوْله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قِيلَ: المُرَاد لا يُرْفَع لَهُمْ مِنْهَا عَمَل صَالِح وَلَا دُعَاء. قَالَهُ مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَرَوَاهُ العَوْفِيّ وَعَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس. وَكَذَا رَوَاهُ الثَّوْرِيّ: عَنْ لَيْث، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس. وَقِيلَ: المُرَاد: لا تُفَتَّح لِأَرْوَاحِهِمْ أَبْوَاب السَّمَاء. رَوَاهُ الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس، وَقَالَهُ السُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد، وَيُؤَيِّدهُ مَا قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن عَيَّاش، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ المِنْهَال -هُوَ ابْن عَمْرو-، عَنْ زَاذَان، عَنْ البَرَاء: أَنَّ رَسُول الله ﷺ ذَكَرَ قَبْض رُوح الفَاجِر، وَأَنَّهُ يُصْعَد بِهَا إِلَى السَّمَاء، قال: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يمرون عَلَى مَلأ مِنَ المَلائِكَة إِلا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوح الخَبِيثَة، فَيَقُولُونَ: فُلان، بِأَقْبَح أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُدْعَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاء، فَيَسْتَفْتِحُونَ بَابهَا لَهُ، فَلا يُفْتَح لَهُ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[1]. هَكَذَا رَوَاهُ وَهُوَ قِطْعَة مِنْ حَدِيث طَوِيل رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ طُرُق: عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، بِهِ. وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد بِطُولِهِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ زَاذَان، عَنْ البَرَاء بْن عَازِب قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ فِي جِنَازَة رَجُل مِنَ الأَنْصَار فَانْتَهَيْنَا إِلَى القَبْر وَلَمَّا يُلْحَد فَجَلَسَ رَسُول الله ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْله كَأَنَّ عَلَى رُءُوسنَا الطَّيْر وَفِي يَده عُود يَنْكُت بِهِ فِي الأَرْض فَرَفَعَ رَأْسه فَقَالَ: «اِسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَاب القَبْر» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ العَبْد المُؤْمِن إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاع مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَال إِلَى الآخِرَة، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَة مِنَ السَّمَاء، بِيض الوُجُوه كَأَنَّ وُجُوههمْ الشَّمْس، مَعَهُمْ كَفَن مِنْ أَكْفَان الجَنَّة، وَحَنُوط مِنْ حَنُوط الجَنَّة، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدّ البَصَر، ثُمَّ يَجِيء مَلَك المَوْت حَتَّى يَجْلِس عِنْد رَأْسه، فَيَقُول: أَيَّتهَا النَّفْس المُطْمَئِنَّة، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَة مِنْ الله وَرِضْوَان» قَالَ: «فَتَخْرُج تَسِيل كَمَا تَسِيل القَطْرَة مِنْ فِيّ السِّقَاء، فَيَأْخُذهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَده طَرْفَة عَيْن، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَن، وَفِي ذَلِكَ الحَنُوط، وَيَخْرُج مِنْهَا كَأَطْيَب نَفْحَة مِسْك وُجِدَتْ عَلَى وَجْه الأَرْض، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلا يَمُرُّونَ يعني بِهَا عَلَى مَلَأ مِنَ المَلائِكَة إِلا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوح الطَّيِّبَة؟ فَيَقُولُونَ: فُلان ابْن فُلان بِأَحْسَن أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَح لَهُ فَيُشَيِّعهُ مِنْ كُلّ سَمَاء مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاء الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِي بِهَا إِلَى السَّمَاء السَّابِعَة، فَيَقُول الله ﷻ: اكْتُبُوا كِتَاب عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْض،

---

(١) صحيح: تقدم.

فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتهمْ، وَفِيهَا أُعِيدهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجهُمْ تَارَة أُخْرَى». قَالَ: «فَتُعَاد رُوحه، فَيَأْتِيه مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبّكَ؟ فَيَقُول: رَبِّيَ الله. فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينكَ؟ فَيَقُول: دِينِي الإِسْلام. فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُل الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُول: هُوَ رَسُول الله ﷺ. فَيَقُولانِ لَهُ: وَمَا عِلْمكَ؟ فَيَقُول: قَرَأْت كِتَاب الله فَآمَنْت بِهِ وَصَدَّقْت. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاء: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّة، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّة، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّة. فَيَأْتِيه مِنْ رُوحهَا وَطِيبهَا، وَيُفْسَح لَهُ فِي قَبْره مَدّ البَصَر». قَالَ: «وَيَأْتِيه رَجُل حَسَن الوَجْه، حَسَن الثِّيَاب، طَيِّب الرِّيح، فَيَقُول: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرّك، هَذَا يَوْمك الَّذِي كُنْت تُوعَد. فَيَقُول لَهُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهك الوَجْه يَجِيء بِالخَيْرِ؟ فَيَقُول: أَنَا عَمَلك الصَّالِح. فَيَقُول: رَبِّ أَقِمْ السَّاعَة، رَبِّ أَقِمْ السَّاعَة، حَتَّى أَرْجِع إِلَى أَهْلِي وَمَالِي»، قَالَ: «وَإِنَّ العَبْد الكَافِر إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاع مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَال إِلَى الآخِرَة، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاء مَلائِكَة سُود الوُجُوه مَعَهُمْ المُسُوح، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدّ البَصَر، ثُمَّ يَجِيء مَلَك المَوْت حَتَّى يَجْلِس عِنْد رَأْسه، فَيَقُول: أَيَّتهَا النَّفْس الخَبِيثَة، اخْرُجِي إِلَى سَخَط الله وَغَضَب. قَالَ: فَتُفَرَّق فِي جَسَده، فَيَنْتَزِعهَا كَمَا يُنْتَزَع السَّفُّود مِنَ الصُّوف المَبْلُول، فَيَأْخُذهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَده طَرْفَة عَيْن، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوح، وَيَخْرُج مِنْهَا كَأَنْتَن رِيح جِيفَة وُجِدَتْ عَلَى وَجْه الأَرْض، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأ مِنَ المَلائِكَة إِلا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوح الخَبِيثَة؟ فَيَقُولُونَ: فُلان ابْن فُلان. بِأَقْبَح أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِي بِهَا إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَح لَه فَلا يُفْتَح»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ فَيَقُول الله ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابه فِي سِجِّين فِي الأَرْض السُّفْلَى فَتُطْرَح رُوحه طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فَتُعَاد رُوحه فِي جَسَده، وَيَأْتِيه مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبّكَ؟ فَيَقُول: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي. فَيَقُولانِ: مَا دِينكَ؟ فَيَقُول: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي. فَيَقُولانِ: مَا هَذَا الرَّجُل الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُول: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاء: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّار، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّار، فَيَأْتِيه مِنْ حَرّهَا وَسَمُومهَا وَيُضَيَّق عَلَيْهِ قَبْره حَتَّى تَخْتَلِف فِيهِ أَضْلاعه، وَيَأْتِيه رَجُل قَبِيح الوَجْه قَبِيح الثِّيَاب مُنْتِن الرِّيح، فَيَقُول: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءك هَذَا يَوْمك الَّذِي كُنْت تُوعَد. فَيَقُول: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهك الوَجْه يَجِيء بِالشَّرِّ؟ فَيَقُول: أَنَا عَمَلك الخَبِيث. فَيَقُول: رَبِّ لا تُقِمْ السَّاعَة»[1].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ يُونُس بْن خَبَّاب، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ زَاذَان، عَنْ البَرَاء بْن عَازِب، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ إِلَى جِنَازَة... فَذَكَرَ نَحْوه. وَفِيهِ: «حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحه صَلَّى عَلَيْهِ كُلّ مَلَك بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، وَكُلّ مَلَك فِي السَّمَاء، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَاب السَّمَاء، لَيْسَ مِنْ أَهْل بَاب إِلا وَهُمْ يَدْعُونَ الله ﷻ: أَنْ يُعْرَج بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلهمْ»، وَفِي آخِره: «ثُمَّ يُقَيَّض لَهُ أَعْمَى أَصَمّ أَبْكَم، فِي يَده مِرْزَبَّة، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَل كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبهُ ضَرْبَة فَيَصِير تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدهُ الله ﷻ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبهُ ضَرْبَة أُخْرَى، فَيَصِيح صَيْحَة يَسْمَعهَا كُلّ شَيْء إِلا الثَّقَلَيْنِ» قَالَ البَرَاء: ثُمَّ يُفْتَح لَهُ بَاب مِنَ النَّار، وَيُمَهَّد لَهُ مِنْ فُرُش النَّار.

وَفِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ وَابْن جَرِير -وَاللَّفْظ لَهُ-: مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَطَاء، عَنْ سَعِيد بْن يَسَار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «المَيِّت تَحْضُرهُ المَلائِكَة، فَإِذَا كَانَ الرَّجُل الصَّالِح، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتهَا النَّفْس الطَّيِّبَة، كَانَتْ فِي الجَسَد الطَّيِّب، اخْرُجِي حَمِيدَة، وَأَبْشِرِي بِرَوْح وَرَيْحَان، وَرَبّ غَيْر غَضْبَان. فَيَقُولُونَ ذَلِكَ حَتَّى يُعْرَج بِهَا إِلَى السَّمَاء، فَيُسْتَفْتَح لَهَا، فَيُقَال: مَنْ هَذَا؟

(١) صحيح: تقدم.

فَيَقُولُونَ: فُلان. فَيُقَال: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَة الَّتِي كَانَتْ فِي الجَسَد الطَّيِّب، ادْخُلِي حَمِيدَة، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَان، وَرَبّ غَيْر غَضْبَان. فَيُقَال لهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاء الَّتِي فِيهَا الله ﷻ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُل السُّوء؛ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتهَا النَّفْس الخَبِيثَة كَانَتْ فِي الجَسَد الخَبِيث، اخْرُجِي ذَمِيمَة وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاق وَآخَر مِنْ شَكْله أَزْوَاج. فَيَقُولُونَ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُج ثُمَّ يُعْرَج بِهَا إِلَى السَّمَاء فَيُسْتَفْتَح لهَا، فَيُقَال: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلان. فَيَقُولُونَ: لا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الخَبِيثَة، الَّتِي كَانَتْ فِي الجَسَد الخَبِيث، ارْجِعِي ذَمِيمَة فَإِنَّهُ لمْ تُفْتَح لكَ أَبْوَاب السَّمَاء، فَتُرْسَل بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض فَتَصِير إِلَى القَبْر».

وَقَدْ قَالَ ابْن جُرَيْج فِي قَوْله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قال: لا تُفَتَّح لِأَعْمَالِهِمْ وَلَا لِأَرْوَاحِهِمْ. وَهَذَا فِيهِ جَمْع بَيْن القَوْلَيْنِ وَالله أَعْلَم. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هَكَذَا قَرَأَهُ الجُمْهُور، وَفَسَّرُوهُ: بِأَنَّهُ البَعِير. قَالَ ابْن مَسْعُود: هُوَ الجَمَل ابْن النَّاقَة. وَفِي رِوَايَة: زَوْج النَّاقَة. وَقَالَ الحَسَن البَصْرِيّ حَتَّى يَدْخُل البَعِير فِي خَرْق الإِبْرَة، وَكَذَا قَالَ أَبُو العَالِيَة وَالضَّحَّاك، وَكَذَا رَوَى عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة وَالعَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَقَالَ مُجَاهِد وَعِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا ﴿يَلِجَ الجُمَّلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ بِضَمِّ الجِيم وَتَشْدِيد المِيم، يَعْنِي الحَبْل الغَلِيظ فِي خرم الإِبْرَة. وَهَذَا اخْتِيَار سَعِيد بْن جُبَيْر، وَفِي رِوَايَة أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿حَتَّى يَلِجَ الجملُ﴾[1] يَعْنِي قُلُوس السُّفُن، وَهِيَ الحِبَال الغِلَاظ. وقَوْله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قَالَ: الفُرُش، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قَالَ: اللُّحُف. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم وَالسُّدِّيّ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَال الأَشْقِيَاء عَطَفَ بِذِكْرِ حَال السُّعَدَاء، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَيْ: آمَنَتْ قُلُوبهمْ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَات بِجَوَارِحِهِمْ، ضِدّ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا. وينَبِّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الإِيمَان وَالعَمَل بِهِ سَهْل؛ لأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أَيْ: مِنْ حَسَد وَبُغْض؛ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيح البُخَارِيّ: مِنْ حَدِيث قَتَادَة، عَنْ أَبِي المُتَوَكِّل النَّاجِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ **«إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنْ النَّار، حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَة بَيْن الجَنَّة وَالنَّار، فَاقْتُصَّ لهُمْ مَظَالِم كَانَتْ بَيْنهمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لهُمْ فِي دُخُول الجَنَّة، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ أَحَدهمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّة أَدَلّ مِنْهُ بِمَسْكَنِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»**[2].

وقَالَ السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الآيَة: إِنَّ أَهْل الجَنَّة إِذَا سِيقُوا إِلَى الجَنَّة فبلغوا وَجَدُوا عِنْد بَابهَا شَجَرَة فِي أَصْل سَاقهَا عَيْنَانِ، فَشَرِبُوا مِنْ إِحْدَاهُمَا، فَيُنْزَع مَا فِي صُدُورهمْ مِنْ غِلّ، فَهُوَ الشَّرَاب الطَّهُور، وَاغْتَسَلُوا مِنْ الأُخْرَى فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَة النَّعِيم، فَلَمْ يَشْعَثُوا وَلَمْ يَشْحُبُوا بَعْدهَا أَبَدًا. وَقَدْ رَوَى أَبُو إِسْحَاق: عَنْ عَاصِم، عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب، نَحْوًا مِنْ هَذَا؛ كَمَا سَيَأْتِي فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ إِنْ شَاءَ الله، وَبِهِ الثِّقَة وَعَلَيْهِ التُّكْلَان. وَقَالَ قَتَادَة: قَالَ عَلِيّ رضي الله عنه: إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُون أَنَا وَعُثْمَان وَطَلْحَة وَالزُّبَيْر مِنْ الَّذِينَ قَالَ الله تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

---

(١) قال في «القاموس»: جمل؛ كسُكَّر وصُرَد وقُفْل وعُنُق وجَبَل: حبل السفينة، وقرئ بهن: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ﴾. انظر مادة (ج-م-ل).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤٠، ٦٥٣٥)، وأحمد (١٣/ ١٣، ٦٣، ٧٤).

رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا ابْن عُيَيْنَة، عَنْ إِسْرَائِيل، قَالَ: سَمِعْت الحَسَن يَقُول: قَالَ عَلِيٌّ: فِينَا وَالله أَهْل بَدْر نَزَلَتْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾. وَرَوَى النَّسَائِيّ وَابْن مَرْدُوَيْهِ -وَاللَّفْظ لَهُ-: مِنْ حَدِيث أَبِي بَكْر ابْن عَيَّاش، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «**كُلّ أَهْل الجَنَّة يَرَى مَقْعَده مِنْ النَّار، فَيَقُول: لَوْلا أَنَّ الله هَدَانِي، فَيَكُون لَهُ شُكْرًا، وَكُلّ أَهْل النَّار يَرَى مَقْعَده مِنْ الجَنَّة، فَيَقُول: لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي فَيَكُون لَهُ حَسْرَة**»[1]. وَلِهَذَا لَمَّا أُورِثُوا مَقَاعِد أَهْل النَّار مِنْ الجَنَّة نُودُوا: ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ أَعْمَالكُمْ نَالَتْكُمْ الرَّحْمَة، فَدَخَلْتُمْ الجَنَّة، وَتَبَوَّأْتُمْ مَنَازِلكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالكُمْ. وَإِنَّمَا وَجَبَ الحَمْل عَلَى هَذَا؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عن رسول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدكُمْ لَنْ يُدْخِلهُ عَمَله الجَنَّة**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**وَلا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْل**»[2].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى بِمَا يُخَاطِب بِهِ أَهلُ الجنة أَهْل النَّار وذلك عَلَى وَجْه التَّقْرِيع وَالتَّوْبِيخ إِذَا اسْتَقَرُّوا فِي مَنَازِلهمْ ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾. ﴿أَن﴾ هَاهُنَا مُفَسِّرَة لِلْقَوْلِ المَحْذُوف، وَ﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيق، أَيْ: قَالُوا لَهُمْ: قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدكُم رَبّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا: نَعَمْ. كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى فِي سُورَة الصَّافَّات عَنْ الَّذِي كَانَ لَهُ قَرِين مِنْ الكُفَّار: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أَيْ: يُنْكِر عَلَيْهِ مَقَالَته الَّتِي يَقُولهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُقْرِعهُ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال، وَكَذَلِكَ تُقْرِعهُمْ المَلَائِكَة يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وَكَذَلِكَ قَرَّعَ رَسُول الله ﷺ قَتْلَى القَلِيب يَوْم بَدْر؛ فَنَادَى: «**يَا أَبَا جَهْل ابْن هِشَام، وَيَا عُتْبَة بْن رَبِيعَة، وَيَا شَيْبَة بْن رَبِيعَة،** -وَسَمَّى رُءُوسهمْ-: **هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْت مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**». وَقَالَ عُمَر: يَا رَسُول الله؛ تُخَاطِب قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا؟ فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُول مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا**»[3]. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: أَعْلَم مُعْلِم، وَنَادَى مُنَادٍ: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: مُسْتَقِرَّة عَلَيْهِمْ.

ثم وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ: يَصُدُّونَ النَّاس عَنْ اتِّبَاع سَبِيل الله وَشَرْعه، وَمَا جَاءَتْ بِهِ الأَنْبِيَاء، وَيَبْغُونَ أَنْ يَكُون السَّبِيل مُعْوَجَّة غَيْر مُسْتَقِيمَة؛ حَتَّى لا يَتَّبِعهَا أَحَد ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أَيْ: وَهُمْ بِلِقَاءِ الله فِي الدَّار الآخِرَة كَافِرُونَ، أَيْ: جَاحِدُونَ مُكَذِّبُونَ بِذَلِكَ، لا يُصَدِّقُونَهُ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، فَلِهَذَا لا يُبَالُونَ بِمَا يَأْتُونَ مِنْ مُنْكَر مِنْ القَوْل وَالعَمَل؛ لِأَنَّهُمْ لا يَخَافُونَ حِسَابًا عَلَيْهِ وَلَا عِقَابًا، فَهُمْ شَرّ النَّاس أَقْوَالًا وَأَعْمَالًا.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مُخَاطَبَة أَهْل الجَنَّة مَعَ أَهْل النَّار، نَبَّهَ أَنَّ بَيْن الجَنَّة وَالنَّار حِجَابًا، وَهُوَ الحَاجِز المَانِع مِنْ وُصُول أَهْل النَّار إِلَى الجَنَّة. قَالَ ابْن جَرِير: وَهُوَ السُّور الَّذِي قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٥١٢)، والحاكم (٢/ ٢٣٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٢٤).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٧١)، وأحمد (٣/ ١٠٤).

وَظَاهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وَهُوَ الأَعْرَاف، الَّذِي قَالَ الله تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ ثُمَّ رُوِيَ بِإِسْنَادِهِ عَنْ السُّدِّيّ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾: هُوَ السُّور، وَهُوَ الأَعْرَاف. وَقَالَ مُجَاهِد: الأَعْرَاف حِجَاب بَيْن الجَنَّة وَالنَّار، سُور لهُ بَاب. قَالَ ابْن جَرِير: وَالأَعْرَاف جَمْع عُرْف، وَكُلّ مُرْتَفِع مِنْ الأَرْض عِنْد العَرَب يُسَمَّى عُرْفًا، وَإِنَّمَا قِيلَ لِعُرْفِ الدِّيك عُرْفًا لِارْتِفَاعِهِ. حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن وَكِيع، حَدَّثَنَا ابْن عُيَيْنَة، عَنْ عبيد الله بْن أَبِي يَزِيد، سَمِعَ ابْن عَبَّاس يَقُول: الأَعْرَاف هُوَ الشَّيْء المُشْرِف. وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ جَابِر، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: الأَعْرَاف سُور كَعُرْفِ الدِّيك. وَفِي رِوَايَة عَنْ ابْن عَبَّاس ﷺ، الأَعْرَاف: تَلّ بَيْن الجَنَّة وَالنَّار، حُبِسَ عَلَيْهِ نَاس مِنْ أَهْل الذُّنُوب بَيْن الجَنَّة وَالنَّار. وَفِي رِوَايَة عَنْهُ: هُوَ سُور بَيْن الجَنَّة وَالنَّار: وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد مِنْ عُلَمَاء التَّفْسِير. وَقَالَ السُّدِّيّ: إِنَّمَا سُمِّيَ الأَعْرَاف أَعْرَافًا؛ لِأَنَّ أَصْحَابه يَعْرِفُونَ النَّاس.

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَات المُفَسِّرِينَ فِي أَصْحَاب الأَعْرَاف مَنْ هُمْ؟ وَكُلّهَا قَرِيبَة تَرْجِع إِلَى مَعْنًى وَاحِد؛ وَهُوَ أَنَّهُمْ قَوْم اسْتَوَتْ حَسَنَاتهمْ وَسَيِّئَاتهمْ. نَصَّ عَلَيْهِ حُذَيْفَة وَابْن عَبَّاس وَابْن مَسْعُود وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف وَالخَلَف رَحِمَهُمْ الله، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيث مَرْفُوع رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا عبيد بْن الحسين، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن دَاوُدَ، حَدَّثَنَا النُّعْمَان بْن عَبْد السَّلَام، حَدَّثَنَا شَيْخ لَنَا يُقَال لهُ: أَبُو عَبَّاد، عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن عُقَيْل، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَالَ: سُئِلَ رَسُول الله ﷺ عَمَّنْ اسْتَوَتْ حَسَنَاته وَسَيِّئَاته فَقَالَ: «**أُولَئِكَ أَصْحَاب الأَعْرَاف لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ**»[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَرَوَاهُ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ سَعِيد بْن سَلَمَة بْن أَبِي الحُسَام، عَنْ مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ رَجُل مِنْ مُزَيْنَة، قَالَ: سُئِلَ رَسُول الله ﷺ، عَنْ أَصْحَاب الأَعْرَاف؟ فَقَالَ: «**إِنَّهُمْ قَوْم خَرَجُوا عُصَاة بِغَيْرِ إِذْن آبَائِهِمْ، فَقُتِلُوا فِي سَبِيل الله**». وَقَالَ سَعِيد بْن مَنْصُور: حَدَّثَنَا أَبُو مَعْشَر، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن شِبْل، عَنْ يَحْيَى بْن عَبْد الرَّحْمَن المُزَنِيّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سُئِلَ رَسُول الله ﷺ عَنْ أَصْحَاب الأَعْرَاف؟ قَالَ: «**هُمْ نَاس قُتِلُوا فِي سَبِيل الله بِمَعْصِيَةِ آبَائِهِمْ، فَمَنَعَهُمْ مِنْ دُخُول الجَنَّة مَعْصِيَة آبَائِهِمْ، وَمَنَعَهُمْ مِنْ النَّار قَتْلهمْ فِي سَبِيل الله**»[2]. وَهكذا رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ وَابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم مِنْ طُرُق عَنْ أَبِي مَعْشَر، بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيث أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ وَابْن عَبَّاس، وَالله أَعْلَم بِصِحَّةِ هَذِهِ الأَخْبَار المَرْفُوعَة، وَقُصَارَاهَا أَنْ تَكُون مَوْقُوفَة، وَفِيهِ دَلَالَة عَلَى مَا ذُكِرَ. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنَا هُشَيْم، أَخْبَرَنَا حُصَيْن، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ حُذَيْفَة، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَصْحَاب الأَعْرَاف؟ قَالَ: فَقَالَ: هُمْ قَوْم اسْتَوَتْ حَسَنَاتهمْ وَسَيِّئَاتهمْ، فقصرت بِهِمْ سَيِّئَاتهمْ عَنْ الجَنَّة، وَخَلَّفَتْ بِهِمْ حَسَنَاتهمْ عَنْ النَّار، قَالَ: فَوَقَفُوا هُنَالِكَ عَلَى السُّور حَتَّى يَقْضِي الله فِيهِمْ.

وَقَدْ رَوَاهُ مِنْ وَجْه آخَر أَبْسَط مِنْ هَذَا، فَقَالَ: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن وَاضِح، حَدَّثَنَا يُونُس بْن أَبِي إِسْحَاق، قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيّ: أَرْسَلَ إِلَى عَبْد الحَمِيد بْن عَبْد الرَّحْمَن، وَعِنْده أَبُو الزِّنَاد عَبْد الله بْن ذَكْوَان مَوْلَى قُرَيْش، وَإِذَا هُمَا قَدْ ذَكَرَا مِنْ أَصْحَاب الأَعْرَاف ذِكْرًا، لَيْسَ كَمَا ذَكَرَا، فَقُلْت لَهُمَا: إِنْ شِئْتُمَا أَنْبَأْتُكُمَا بِمَا ذَكَرَ حُذَيْفَة؛ فَقَالَا: هَاتِ. فَقُلْت: إِنَّ حُذَيْفَة ذَكَرَ أَصْحَاب الأَعْرَاف، فَقَالَ: هُمْ قَوْم تَجَاوَزَتْ بِهِمْ حَسَنَاتهمْ النَّار وَقصرت بِهِمْ سَيِّئَاتهمْ عَنْ الجَنَّة ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اطَّلَع عَلَيْهِمْ رَبّك فَقَالَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَادْخُلُوا الجَنَّة فَإِنِّي قَدْ غَفَرْت لَكُمْ.

وَقَالَ عَبْد الله بْن المُبَارَك: عَنْ أَبِي بَكْر الهُذَلِيّ، قَالَ: قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر وَهُوَ يُحَدِّث ذَلِكَ عَنْ ابْن مَسْعُود،

---

(١) ضعيف جداً: عزاه المصنف لابن مردويه بسند ضعيف فيه أبو عباد شيخ النعمان: مجهول، وفيه سليمان بن داود: متهم بالكذب.
(٢) منكر: أخرجه ابن جرير (٥/ ٤٩٧) وفيه أبو معشر: ضعيف، وقال الألباني: منكر. انظر «الضعيفة» (٢٧٩١).

قَالَ: يُحَاسَب النَّاس يَوْم القِيَامَة؛ فَمَنْ كَانَتْ حَسَنَاته أَكْثَر مِنْ سَيِّئَاته بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ الجَنَّة، وَمَنْ كَانَتْ سَيِّئَاته أَكْثَر مِنْ حَسَنَاته بِوَاحِدَةٍ دَخَلَ النَّار، ثُمَّ قَرَأَ قَوْل الله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: إن المِيزَان يَخِفّ بِمِثْقَالِ حَبَّة وَيَرْجَح. قَالَ: وَمَنْ اسْتَوَتْ حَسَنَاته وَسَيِّئَاته كَانَ مِنْ أَصْحَاب الأَعْرَاف، فَوَقَفُوا عَلَى الصِّرَاط، ثُمَّ عَرَفُوا أَهْل الجَنَّة وَأَهْل النَّار، فَإِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْل الجَنَّة نَادَوْا: سَلَام عَلَيْكُمْ، وَإِذَا صَرَفُوا أَبْصَارهمْ إِلَى يَسَارهمْ نَظَرُوا أصحاب النَّار: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تَعَوَّذُوا بِالله مِنْ مَنَازِلهم. قَالَ: فَأَمَّا أَصْحَاب الحَسَنَات فَإِنَّهُمْ يُعْطَوْنَ نُورًا، يَمْشُونَ بِهِ بَيْن أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، وَيُعْطَى كُلّ عَبْد يَوْمئِذٍ نُورًا، وَكُلّ أَمَة نُورًا، فَإِذَا أَتَوْا عَلَى الصِّرَاط سَلَبَ الله نُور كُلّ مُنَافِق وَمُنَافِقَة، فَلَمَّا رَأَى أَهْل الجَنَّة مَا لَقِيَ المُنَافِقُونَ، قَالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾، وَأَمَّا أَصْحَاب الأَعْرَاف فَإِنَّ النُّور كَانَ بِأَيْدِيهِمْ، فَلَمْ يُنْزَع، فَهُنَالِكَ يَقُول الله تَعَالَى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فَكَانَ الطَّمَع دُخُولًا. قَالَ: فَقَالَ ابْن مَسْعُود: إِنَّ العَبْد إِذَا عَمِلَ حَسَنَة كُتِبَ لَهُ بِهَا عَشْر، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَة لَمْ تُكْتَب إِلَّا وَاحِدَة، ثُمَّ يَقُول: هَلَكَ مَنْ غلب وحدانه أعشاره. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنِي ابْن وَكِيع، وابْن حُمَيْد قَالَا: حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ مَنْصُور، عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، عَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: الأَعْرَاف السُّور الَّذِي بَيْن الجَنَّة وَالنَّار، وَأَصْحَاب الأَعْرَاف بِذَلِكَ المَكَان، حَتَّى إِذَا بَدَا لله أَنْ يُعَافِيهُمْ؛ انْطَلَقَ بِهِمْ إِلَى نَهَر يُقَال لَهُ: نَهَر الحَيَاة، حَافَّتَاهُ قَصَب الذَّهَب، مُكَلَّل بِاللُّؤْلُؤ، تُرَابه المِسْك، فَأُلْقُوا فِيهِ حَتَّى تَصْلُح أَلْوَانهمْ، وَتَبْدُو فِي نُحُورهمْ شَامَة بَيْضَاء يُعْرَفُونَ بِهَا، حَتَّى إِذَا صَلَحَتْ أَلْوَانهمْ؛ أَتَى بِهِمْ الرَّحْمَن -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فَقَالَ: «**تَمَنَّوْا مَا شِئْتُمْ**» فَيَتَمَنَّوْنَ، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ أُمْنِيَّاتهمْ، قَالَ لَهُمْ: «**لَكُمْ الَّذِي تَمَنَّيْتُمْ وَمِثْله سَبْعُونَ ضِعْفًا**» فَيَدْخُلُونَ الجَنَّة وَفِي نُحُورهمْ شَامَة بَيْضَاء يُعْرَفُونَ بِهَا، يُسَمُّونَ: مَسَاكِين أَهْل الجَنَّة.

وَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ يَحْيَى بْن المُغِيرَة، عَنْ جَرِير، بِهِ. وَقَدْ رَوَاهُ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ حَبِيب ابْن أَبِي ثَابِت، عَنْ مُجَاهِد، وَعَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث، مِنْ قَوْله، وَهَذَا أَصَحّ وَالله أَعْلَم. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد، وَقَالَ سنيد بْن دَاوُدَ، حَدَّثَنِي جَرِير، عَنْ عُمَارَة بْن القَعْقَاع، عَنْ أَبِي زُرْعَة بْن عَمْرو بْن جَرِير، قَالَ: سُئِلَ رَسُول الله ﷺ، عَنْ أَصْحَاب الأَعْرَاف قَالَ: «**هُمْ آخِر مَنْ يُفْصَل بَيْنهمْ مِنْ العِبَاد فَإِذَا فَرَغَ رَبّ العَالَمِينَ مِنْ الفَصْل بَيْن العِبَاد، قَالَ: أَنْتُمْ قَوْم أَخْرَجَتْكُمْ حَسَنَاتكُمْ مِنْ النَّار، وَلَمْ تَدْخُلُوا الجَنَّة فَأَنْتُمْ عُتَقَائِي فَارْعَوْا مِنْ الجَنَّة حَيْثُ شِئْتُمْ**»[1]. وَهَذَا مُرْسَل حَسَن. وَقِيلَ: هُمْ أَوْلَاد الزِّنَا. حَكَاهُ القُرْطُبِيّ.

وَرَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة الوَلِيد بْن مُوسَى، عَنْ منبه بْن عُثْمَان، عَنْ عُرْوَة بْن رُوَيْم، عَنْ الحَسَن، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: «**أَنَّ مُؤْمِنِي الجِنّ لَهُمْ ثَوَاب وَعَلَيْهِمْ عِقَاب**»، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ثَوَابهمْ وَعَنْ مُؤْمِنِيهِمْ؟ فَقَالَ: «**عَلَى الأَعْرَاف، وَلَيْسُوا فِي الجَنَّة مَعَ أُمَّة مُحَمَّد** ﷺ» فَسَأَلْنَاهُ: وَمَا الأَعْرَاف؟ فَقَالَ: «**حَائِط الجَنَّة تَجْرِي فِيهَا الأَنْهَار، وَتَنْبُت فِيهِ الأَشْجَار وَالثِّمَار**»[2]. رَوَاهُ البَيْهَقِيّ: عَنْ ابْن بِشْرَان، عَنْ عَلِيّ بْن مُحَمَّد المِصْرِيّ، عَنْ يُوسُف بْن يَزِيد، عَنْ الوَلِيد بْن مُوسَى، بِهِ. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ خُصَيْف، عَنْ مُجَاهِد قَالَ: أَصْحَاب الأَعْرَاف قَوْم صَالِحُونَ فُقَهَاء عُلَمَاء. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة، عَنْ سُلَيْمَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِي مِجْلَز فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَـٰهُمْ﴾ قَالَ: هُمْ رِجَال مِنْ

---

(١) **مرسل**: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٦٣) إلى ابن جرير وابن المنذر، وفي إسناده سنيد بن داود: ضعيف.

(٢) **موضوع**: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٦٥) إلى أبي الشيخ وابن مردويه، وفي إسناده الوليد بن موسى الدمشقي قال الدارقطني: منكر الحديث. وقال الحاكم: أحاديثه موضوعة.

الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار. قال: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ في النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال: فهذا حين يدخل أهل الجنة الجنة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وهذا صحيح إلى أبي مجلز؛ لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله، وخلاف الظاهر من السياق، وقول الجمهور مقدم على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه. وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء، فيه غرابة أيضًا، والله أعلم. وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولًا؛ منها: أنهم شهدوا أنهم صلحاء تفزعوا من فزع الآخرة، وخلق يطلعون على أخبار الناس، وقيل: هم أنبياء، وقيل: هم ملائكة.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه، وكذا روى الضحاك عنه، وقال العوفي عن ابن عباس: أنزلهم الله تعالى تلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها وهم داخلوها إن شاء الله، وكذا قال مجاهد، والضحاك، والسدي، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وقال معمر: عن الحسن إنه تلا هذه الآية ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم، وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع. وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقال الضحاك، عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار، وعرفوهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال السدي: وإذا مروا بهم يعني بأصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال عكرمة: تحرد وجوههم للنار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة، وأعينهم مزرقة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

يقول الله تعالى مخبرًا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: كثرتكم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال.

﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني أصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا، يعني: أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار، قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وقال حذيفة: إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار، فجعلوا على الأعراف، يعرفون الناس بسيماهم، فلما قضى الله بين العباد، أذن لهم في طلب الشفاعة،

فَأْتَوْا آدَم، فَقَالُوا: يَا آدَم؛ أَنْتَ أَبُونَا فَاشْفَعْ لَنَا عِنْد رَبِّك، فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَحَدًا خَلَقَهُ الله بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحه وَسَبَقَتْ رَحْمَته إِلَيْهِ غَضَبه وَسَجَدَتْ لهُ المَلَائِكَة غَيْرِي؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيَقُول: مَا عملت كُنْهه مَا أَسْتَطِيع أَنْ أَشْفَع لكُمْ وَلَكِنْ ائْتُوا ابْنِي إِبْرَاهِيم. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيم ﷺ فَيَسْأَلُونَهُ أَنْ يَشْفَع لَهُمْ عِنْد رَبّهمْ فَيَقُول: تَعْلَمُونَ مِنْ أَحَد اتَّخَذَهُ الله خَلِيلًا، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَحَدًا أَحْرَقَهُ قَوْمه بِالنَّارِ فِي الله غَيْرِي؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيَقُول: مَا عملت كُنْهه، مَا أَسْتَطِيع أَنْ أَشْفَع لكُمْ، وَلَكِنْ ائْتُوا ابْنِي مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُول: هَلْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَحَد كَلَّمَهُ الله تَكْلِيمًا، وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا، غَيْرِي؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيَقُول: مَا عملت كُنْهه مَا أَسْتَطِيع أَنْ أَشْفَع لكُمْ، وَلَكِنْ ائْتُوا عِيسَى. فَيَأْتُونَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لهُ: اشْفَعْ لَنَا عِنْد رَبِّك، فَيَقُول: هَلْ تَعْلَمُونَ أَحَدًا خَلَقَهُ الله مِنْ غَيْر أَب غيري؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيَقُول: هَلْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَحَد كَانَ يُبْرِئ الأَكْمَه وَالأَبْرَص وَيُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ الله غَيْرِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لا. فَيَقُول: أَنَا حَجِيج نَفْسِي مَا عملت كُنْهه، مَا أَسْتَطِيع أَنْ أَشْفَع لكُمْ، وَلَكِنْ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَأْتُونِني؛ فَأَضْرِب بِيَدَيَّ عَلَى صَدْرِي، ثُمَّ أَقُول: أَنَا لَهَا. ثُمَّ أَمْشِي حَتَّى أَقِف بَيْن يَدَيْ العَرْش، فأثنى على رَبِّي ﷻ فَيَفْتَح لِي مِنْ الثَّنَاء مَا لَمْ يَسْمَع السَّامِعُونَ بِمِثْلِهِ قَطُّ، ثُمَّ أَسْجُد، فَيُقَال لِي: يَا مُحَمَّد، ارْفَعْ رَأْسك، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّع. فَأَرْفَع رَأْسِي، فَأَقُول: رَبِّي أُمَّتِي. فَيَقُول: هُمْ لك. فَلَا يَبْقَى نَبِيّ مُرْسَل وَلَا مَلَك مُقَرَّب، إِلَّا غَبَطَنِي بِذَلِكَ المَقَام، وَهُوَ المَقَام المَحْمُود، فَآتِي بِهِمْ الجَنَّة، فَأَسْتَفْتِح فَيُفْتَح لِي وَلَهُمْ فَيُذْهَب بِهِمْ إِلَى نَهَر يُقَال لهُ: نَهَر الحَيَوَان، حَافَتَاهُ قَصَب مُكَلَّل بِاللُّؤْلُؤ، تُرَابه المِسْك، وَحَصْبَاؤُهُ اليَاقُوت، فَيَغْتَسِلُونَ مِنْهُ فَتَعُود إِلَيْهِمْ أَلْوَان أَهْل الجَنَّة، وَرِيح أَهْل الجَنَّة، فَيَصِيرُونَ كَأَنَّهُمْ الكَوَاكِب الدُّرِّيَّة، وَيَبْقَى فِي صُدُورهمْ شَامَات بِيض يُعْرَفُونَ بِهَا، يُقَال لهم: مَسَاكِين أَهْل الجَنَّة»[1].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ ذِلَّة أَهْل النَّار، وَسُؤَالهمْ أَهْل الجَنَّة مِنْ شَرَابهمْ وَطَعَامهمْ، وَأَنَّهُمْ لا يُجَابُونَ إِلَى ذَلِكَ. قَالَ السُّدِّيّ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يَعْنِي: الطَّعَام. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ يَسْتَطْعِمُونَهُمْ وَيَسْتَسْقُونَهُمْ، وَقَالَ الثَّوْرِيّ: عَنْ عُثْمَان الثَّقَفِيّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر فِي هَذِهِ الآيَة، قَالَ: يُنَادِي الرَّجُل أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ، فَيَقُول لهُ: قَدْ احْتَرَقْت، فَأَفِضْ عَلَيَّ مِنْ المَاء. فَيُقَال لَهُمْ: أَجِيبُوهُمْ. فَيَقُولُونَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. وَرُوِيَ مِنْ وَجه آخر عَنْ سَعِيد، عَنْ ابْن عَبَّاس مِثْله سَوَاء. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يَعْنِي: طَعَام الجَنَّة وَشَرَابهَا. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا نَصْر بْن عَلِيّ، أَخْبَرَنَا مُوسَى بْن المُغِيرَة، حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى الصَّفَّار فِي دَار عَمْرو بْن مُسْلِم، قَالَ: سَأَلْت ابْن عَبَّاس أَوْ سُئِلَ: أَيّ الصَّدَقَة أَفْضَل؟ فَقَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَفْضَل الصَّدَقَة المَاء، أَلَمْ تَسْمَع إِلَى أَهْل النَّار لَمَّا اسْتَغَاثُوا بِأَهْلِ الجَنَّة، قَالُوا:** ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾»[2]. وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، قَالَ: لَمَّا مَرِضَ أَبُو طَالِب، قَالُوا لهُ: لَوْ أَرْسَلْت إِلَى ابْن أَخِيك هَذَا، فَيُرْسِل إِلَيْك بِعُنْقُودٍ مِنْ الجَنَّة لَعَلَّهُ أَنْ يُشْفِيك بِهِ. فَجَاءَهُ الرَّسُول وَأَبُو بَكْر عِنْد النَّبِيّ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[3].

---

(١) **منقطع**: أخرجه ابن جرير (٣/ ٤٦٢) بسند منقطع.
(٢) **حسن**: أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٥٣٣)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٣٤) وفي إسناده موسى بن المغيرة: مجهول، والحديث له شاهد عند أبي داود (١٦٧٩)، والنسائي (٦/ ٢٥٤)، وابن ماجه (٣٦٨٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١١١٣).
(٣) **مرسل**: أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٥٣٦).

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا، باتخاذهم الدين لهوًا ولعبًا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها، عمّا أُمروا به من العمل للدار الآخرة، وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: نُعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء، ولا ينساه؛ كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وقال: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا. وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»[(١)].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن إعذاره إلى المشركين، بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبيّن، كقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

وقوله: ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علم منا بما فصلناه به، كقوله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. وهذا الذي قاله فيه نظر؛ فإنه قد طال الفصل ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الدار الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدنيا؛ بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد. وقال مالك: ثوابه. وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أي: يوم القيامة. قاله ابن عباس. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي: في خلاصنا مما نحن فيه، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، كما قال هاهنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله؛ فلا يشفعون لهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

يخبر تعالى بأنه خالق العالم سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من

(١) صحيح: تقدم.

القُرْآن، وَالسِّتَّة أيَّام هِيَ: الأَحَد وَالاِثْنَيْنِ وَالثُّلاثَاء وَالأَرْبعَاء وَالخَمِيس وَالجُمُعَة، وَفِيهِ اجْتَمَعَ الخَلْق كُلّه، وَفِيهِ خُلِقَ آدَم عَلَيْهِ السَّلام وَاخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الأَيَّام: هَلْ كُلّ يَوْم مِنْهَا كَهَذِهِ الأَيَّام، كَمَا هُوَ المُتَبَادِر إِلَى الأَذْهَان، أَوْ كُلّ يَوْم كَأَلْفِ سَنَة، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مُجَاهِد وَالإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل؟ وَيُرْوَى ذَلِكَ مِنْ رِوَايَة الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس، فَأَمَّا يَوْم السَّبْت فَلَمْ يَقَع فِيهِ خَلْق؛ لِأَنَّهُ اليَوْم السَّابِع، وَمِنْهُ سُمِّيَ السَّبْت، وَهُوَ القَطْع، فَأَمَّا الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا حَجَّاج، حَدَّثَنَا ابْن جُرَيْج، أَخْبَرَنِي إِسْمَاعِيل بْن أُمَيَّة، عَنْ أَيُّوب بْن خَالِد، عَنْ عَبْد الله بْن رَافِع مَوْلَى أُمّ سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: أَخَذَ رَسُول الله ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: «**خَلَقَ الله التُّرْبَة يَوْم السَّبْت، وَخَلَقَ الجِبَال فِيهَا يَوْم الأَحَد، وَخَلَقَ الشَّجَر فِيهَا يَوْم الاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ المَكْرُوه يَوْم الثُّلاثَاء، وَخَلَقَ النُّور يَوْم الأَرْبِعَاء، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابّ يَوْم الخَمِيس، وَخَلَقَ آدَم بَعْد العَصْر يَوْم الجُمُعَة، آخِر الخَلْق فِي آخِر سَاعَة مِنْ سَاعَات الجُمُعَة، فِيمَا بَيْن العَصْر إِلَى اللَّيْل**»(١). فَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِم بْن الحَجَّاج فِي صَحِيحه، وَالنَّسَائِيّ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ حَجَّاج -وَهُوَ: ابْن مُحَمَّد الأَعْوَر-، عَنْ ابْن جُرَيْج، بِهِ. وَفِيهِ اسْتِيعَاب الأَيَّام السَّبْعَة، وَالله تَعَالَى قَدْ قَالَ: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وَلِهَذَا تَكَلَّمَ البُخَارِيّ وَغَيْر وَاحِد مِنْ الحُفَّاظ فِي هَذَا الحَدِيث، وَجَعَلُوهُ مِنْ رِوَايَة أَبِي هُرَيْرَة عَنْ كَعْب الأَحْبَار لَيْسَ مَرْفُوعًا، وَالله أَعْلَم.

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فَلِلنَّاسِ فِي هَذَا المَقَام مَقَالات كَثِيرَة جِدًّا لَيْسَ هَذَا مَوْضِع بَسْطهَا، وَإِنَّمَا يُسْلك فِي هَذَا المَقَام مَذْهَب السَّلَف الصَّالِح: مَالِك وَالأَوْزَاعِيّ وَالثَّوْرِيّ وَاللَّيْث بْن سَعْد وَالشَّافِعِيّ وَأَحْمَد بن حنبل وَإِسْحَاق بْن رَاهْوَيْهِ وَغَيْرهم مِنْ أَئِمَّة المُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهُوَ: إِمْرَارهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْر تَكْيِيف وَلَا تَشْبِيه وَلَا تَعْطِيل. وَالظَّاهِر المُتَبَادِر إِلَى أَذْهَان المُشَبِّهِينَ مَنْفِيّ عَنْ الله؛ فَإِنَّ الله لا يُشْبِهُهُ شَيْء مِنْ خَلْقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، بَلْ الأَمْر كَمَا قَالَ الأَئِمَّة: مِنْهُمْ نُعَيْم بْن حَمَّاد الخُزَاعِيّ شَيْخ البُخَارِيّ قَالَ: مَنْ شَبَّهَ الله بِخَلْقِهِ فقد كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ الله بِهِ نَفْسه فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ الله بِهِ نَفْسه وَلَا رَسُوله تَشْبِيه؛ فَمَنْ أَثْبَتَ لله تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الآيَات الصَّرِيحَة وَالأَخْبَار الصَّحِيحَة، عَلَى الوَجْه الَّذِي يَلِيق بِجَلَالِ الله تعالى، وَنَفَى عَنْ الله تَعَالَى النَّقَائِص فَقَدْ سَلَكَ سَبِيل الهُدَى.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أَيْ: يُذْهِب ظَلَام هَذَا بِضِيَاءِ هَذَا، وَضِيَاء هَذَا بِظَلَام هَذَا، وَكُلّ مِنْهُمَا يَطْلُب الآخَر طَلَبًا حَثِيثًا أَيْ: سَرِيعًا لا يَتَأَخَّر عَنْهُ، بَلْ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هذا وإذا جاء هذا ذهب هَذَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، فَقَوْله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أَيْ: لا يَفُوتهُ بِوَقْتٍ يَتَأَخَّر عَنْهُ، بَلْ هُوَ فِي أَثَره لَا وَاسِطَة بَيْنهمَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ مِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ، وَكِلَاهُمَا قَرِيب المَعْنَى. أَيْ: الجَمِيع تَحْت قَهْره وَتَسْخِيره وَمَشِيئَته، وَلِهَذَا قَالَ مُنَبِّهًا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أَيْ: لَهُ المُلْك وَالتَّصَرُّف. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي المُثَنَّى، حَدَّثَنَا إِسْحَاق، حَدَّثَنَا هِشَام أَبُو عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا بَقِيَّة بْن الوَلِيد، حَدَّثَنَا عَبْد الغَفَّار بْن عَبْد العَزِيز الأَنْصَارِيّ، عَنْ عَبْد العَزِيز الشَّامِيّ، عَنْ أَبِيهِ وَكَانَتْ لهُ صُحْبَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ لمْ يَحْمَد الله عَلَى مَا عَمِلَ مِنْ عَمَل صَالِح، وَحَمِدَ نَفْسه فَقَدْ كَفَرَ، وَحَبَطَ عَمَله، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الله**

(١) صحيح: تقدم.

جَعَلَ لِلعبادِ مِنَ الأمرِ شيئًا فقد كفرَ بما أنزلَ الله على أنبيائِه»(١)، لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾». وَفِي الدُّعَاء المَأْثُور، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، وَرُوِيَ مَرْفُوعًا: «اللهمَّ لكَ الملكُ كلُّه، ولكَ الحمدُ كلُّه، وإليكَ يرجعُ الأمرُ كلُّه؛ أسألكَ مِنَ الخيرِ كلِّه، وأعوذُ بكَ مِنَ الشرِّ كلِّه».

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

أَرْشَدَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عِبَاده إِلَى دُعَائِهِ، الَّذِي هُوَ صَلَاحهمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، فَقَالَ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ: تَذَلُّلًا وَاسْتِكَانَة ﴿وَخُفْيَةً﴾ كما قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ الآيَة. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ، قَالَ: رَفَعَ النَّاس أَصْوَاتهمْ بِالدُّعَاءِ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ «أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكُمْ؛ فإنَّكُمْ لا تدعُونَ أصمّ ولا غائبًا، إنَّ الذي تدعُونه سميعٌ قريبٌ»(٢). الحَدِيث.

وَقَالَ ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قَالَ: السِّرّ. وَقَالَ ابْن جَرِير: ﴿تَضَرُّعًا﴾ تَذَلُّلًا وَاسْتِكَانَة لِطَاعَتِهِ، ﴿وَخُفْيَةً﴾ يَقُول: بِخُشُوعِ قُلُوبكُمْ، وَصِحَّة اليَقِين بِوَحْدَانِيَّته وَرُبُوبِيَّته فِيمَا بَيْنكُمْ وَبَيْنه، لا جِهَارًا وَمُرَاءَاة. وَقَالَ عَبْد الله بْن المُبَارَك، عَنْ مُبَارَك بْن فَضَالَة، عَنْ الحَسَن قَالَ: إِنْ كَانَ الرَّجُل لَقَدْ جَمَعَ القُرْآن وَمَا يَشْعُر بِهِ جاره من النَّاس، وَإِنْ كَانَ الرَّجُل لَقَدْ فَقِهَ الفِقْه الكَثِير وَمَا يَشْعُر بِهِ النَّاس، وَإِنْ كَانَ الرَّجُل لَيُصَلِّي الصَّلَاة الطَّوِيلَة فِي بَيْته، وَعِنْده الزَّوْر وَمَا يَشْعُرُونَ بِهِ، وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَامًا مَا كَانَ عَلَى الأَرْض مِنْ عَمَل يَقْدِرُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي السِّرّ فَيَكُون عَلَانِيَة أَبَدًا، وَلقَدْ كَانَ المُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاء وَمَا يُسْمَع لَهُمْ صَوْت، إِنْ كَانَ إِلَّا هَمْسًا بَيْنهمْ وَبَيْن رَبّهمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الله ذَكَرَ عَبْدًا صَالِحًا رَضِيَ فِعْله، فَقَالَ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾.

وَقَالَ ابْن جُرَيْج: يُكْرَه رَفْع الصَّوْت وَالنِّدَاء وَالصِّيَاح فِي الدُّعَاء، وَيُؤْمَر بِالتَّضَرُّعِ وَالاسْتِكَانَة. ثُمَّ رُوِيَ عَنْ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فِي الدُّعَاء، وَلَا فِي غَيْره. وَقَالَ أَبُو مِجْلَز: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا يُسْأَل مَنَازِل الأَنْبِيَاء. وَقَالَ الإمام أَحْمَد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ زِيَاد بْن مِخْرَاق، سَمِعْت أَبَا نَعَامَة، عَنْ مَوْلًى لِسَعْدٍ أَنَّ سَعْدًا سَمِعَ ابْنًا لَهُ يَدْعُو وَهُوَ يَقُول: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلك الجَنَّة وَنَعِيمهَا وَإِسْتَبْرَقهَا، وَنَحْوًا مِنْ هَذَا، وَأَعُوذ بِك مِنْ النَّار وَسَلَاسِلهَا وَأَغْلَالهَا، فَقَالَ: لَقَدْ سَأَلْت الله خَيْرًا كَثِيرًا، وَتَعَوَّذْت بِهِ مِنْ شَرّ كَثِير، وَإِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إنَّهُ سيكُونُ قوم يعتدُونَ فِي الدُّعاءِ». وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ «وإنَّ بحسبكَ أنْ تقُول: اللهمَّ إنِّي أسألكَ الجنَّة وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ أوْ عمَل، وأعُوذ بكَ مِنَ النَّار وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ أوْ عمَل»(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيث شُعْبَة، عَنْ زِيَاد بْن مِخْرَاق، عَنْ أَبِي نَعَامَة، عَنْ ابن لِسَعْدٍ، عَنْ سَعْد، فَذَكَرَهُ. وَالله أَعْلَم.

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٥/ ٥١٣) بسند ضعيف فيه بقية بن الوليد قال الحافظ: صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، وفيه عبد الغفار -ويقال: عبد الغفور- بن عبد العزيز، قال ابن أبي حاتم: ضعيف الحديث «الجرح» (٦/ ٥٥)، وقال ابن عدي: منكر الحديث «الضعفاء» (٥/ ٣٢٩).

(٢) صحيح: تقدم.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (١٣١٣)، وأحمد (١/ ١٧٢) من حديث سعد، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٧٧).

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، أَخْبَرَنَا الجريري، عَنْ أَبِي نَعَامَة: أَنَّ عَبْد الله بْن مُغَفَّل سَمِعَ ابنه يَقُول: اللهمَّ، إِنِّي أَسْأَلك القَصْر الأَبْيَض عَنْ يَمِين الجَنَّة، إِذَا دَخَلْتهَا، فَقَالَ: يَا بُنَيّ، سَلِ الله الجَنَّة وَعُذْ بِهِ مِنَ النَّار، فَإِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول: «**يَكُون قَوْم يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاء وَالطُّهُور**»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ عَفَّان، بِهِ. وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنْ مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ سَعِيد بْن إِيَاس الجريري، عَنْ أَبِي نَعَامَة -وَاسْمه قَيْس بْن عَبَايَة الحَنَفِيّ البَصْرِيّ-، وَهُوَ إِسْنَاد حَسَن لا بَأْس بِهِ، وَالله أَعْلَم.

وقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنْ الإِفْسَاد فِي الأَرْض، وَمَا أَضَرَّهُ بَعْد الإِصْلَاح! فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الأُمُور مَاشِيَة عَلَى السَّدَاد، ثُمَّ وَقَعَ الإِفْسَاد بَعْد ذَلِكَ، كَانَ أَضَرّ مَا يَكُون عَلَى العِبَاد؛ فَنَهَى تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ وَالتَّضَرُّع إِلَيْهِ وَالتَّذَلُّل لَدَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَيْ: خَوْفًا مِمَّا عِنْده مِنْ وَبِيل العِقَاب، وَطَمَعًا فِيمَا عِنْده مِنْ جَزِيل الثَّوَاب. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ: إِنَّ رَحْمَته مُرْصَدَة لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَوَامِره، وَيَتْرُكُونَ زَوَاجِره، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾. وَقَالَ: ﴿قَرِيبٌ﴾ وَلَمْ يَقُلْ قَرِيبَة؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ الرَّحْمَة مَعْنَى الثَّوَاب، أَوْ لِأَنَّهَا مُضَافَة إِلَى الله، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وَقَالَ مَطَر الوَرَّاق: تَنَجَّزُوا مَوْعُود الله بِطَاعَتِهِ؛ فَإِنَّهُ قَضَى أَنَّ رَحْمَته قَرِيب مِنَ المُحْسِنِينَ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِق السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَأَنَّهُ المُتَصَرِّف الحَاكِم المُدَبِّر المُسَخِّر، وَأَرْشَدَ إِلَى دُعَائِهِ، لِأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاء قَادِر، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ الرَّزَّاق، وَأَنَّهُ يُعِيد المَوْتَى يَوْم القِيَامَة، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشْرًا﴾ أَيْ: نَاشِرَة بَيْنَ يَدَيِ السَّحَاب الحَامِل لِلْمَطَر، وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ: ﴿بُشْرًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾. وَقَوْله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيْ: بَيْنَ يَدَيِ المَطَر، كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وَقَالَ: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وَقَوْله: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أَيْ: حَمَلَتْ الرِّيَاح سَحَابًا ثِقَالًا، أَيْ: مِنْ كَثْرَة مَا فِيهَا مِنَ المَاء، تَكُون ثَقِيلَة قَرِيبَة مِنَ الأَرْض مُدْلَهِمَّة، كَمَا قَالَ زَيْد بْن عَمْرو بْن نُفَيْل رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ✿ لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ✿ لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالَا

وَقَوْله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ أَيْ: إِلَى أَرْض مَيِّتَة مُجْدِبَة لا نَبَات فِيهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أَيْ: كَمَا أَحْيَيْنَا هَذِهِ الأَرْض بَعْد مَوْتِهَا؛ كَذَلِكَ نُحْيِي الأَجْسَاد بَعْد صَيْرُورَتهَا رَمِيمًا يَوْم القِيَامَة، يُنْزِل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَاء مِنَ السَّمَاء، فَتُمْطِر الأَرْض أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَتَنْبُت مِنْهُ الأَجْسَاد فِي قُبُورهَا، كَمَا يَنْبُت الحَبّ فِي الأَرْض، وَهَذَا المَعْنَى كَثِير فِي القُرْآن، يَضْرِب الله مَثَلًا لِيَوْمِ القِيَامَة بِإِحْيَاءِ الأَرْض بَعْد مَوْتهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٣١١٦) من حديث عبد الله بن مغفل، وصححه الألباني في «المشكاة» (٤١٨).

وقوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أيْ: وَالأَرْض الطَّيِّبَة يَخْرُج نَبَاتهَا سَرِيعًا حَسَنًا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قَالَ مُجَاهِد وَغَيْره: كَالسِّبَاخ وَنَحْوهَا. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هذه الآيَة: هَذَا مَثَل ضَرَبَهُ الله لِلْمُؤْمِنِ وَالكَافِر. وَقَالَ البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن العَلَاء، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن أُسَامَة، عَنْ بريد بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِي بُرْدَة، عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَثَل مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنْ الهُدَى، وَالعِلْم كَمَثَل الغَيْث الكَثِير أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّة قَبِلَتْ المَاء، فَأَنْبَتَتْ الكَلأ وَالعُشْب الكَثِير، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِب، أَمْسَكَتْ المَاء، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاس: فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَة أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَان: لا تُمْسِك مَاء وَلا تُنْبِت كَلأ، فَذَلِكَ مَثَل مَنْ فَقِهَ فِي دِين الله وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَل مَنْ لمْ يَرْفَع بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَل هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْت بِهِ**»[1]. رَوَاهُ مُسْلِم، وَالنَّسَائِيّ مِنْ طُرُق، عَنْ أَبِي أُسَامَة حَمَّاد بْن أُسَامَة، بِهِ.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّة آدَم فِي أَوَّل السُّورَة، وَمَا يَتَعَلَّق بِذَلِكَ، وَمَا يَتَّصِل بِهِ، وَفَرَغَ مِنْهُ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْر قَصَص الأَنْبِيَاء عَلَيْهِمْ السَّلَام؛ الأَوَّل فَالأَوَّل، فَابْتَدَأَ بِذِكْرِ نُوح عليه السلام فَإِنَّهُ أَوَّل رَسُول بَعَثَهُ الله إِلَى أَهْل الأَرْض، بَعْد آدَم عليه السلام وَهُوَ نُوح بْن لامَك بْن متوشلح بْن خنُوخ -وَهُوَ إِدْرِيس النَّبِيّ عليه السلام فِيمَا يَزْعُمُونَ، وَهُوَ أَوَّل مَنْ خَطَّ بِالقَلَم-، ابْن برد بْن مهليل بْن قنين بْن يانش بْن شِيث بْن آدَم عليه السلام. هَكَذَا نَسَبَهُ ابْن إِسْحَاق وَغَيْر وَاحِد مِنْ أَئِمَّة النَّسَب، قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: وَلَمْ يَلْقَ نَبِيّ مِنْ قَوْمه مِنَ الأَذَى مِثْل نُوح إِلَّا نَبِيّ قُتِلَ. وَقَالَ يَزِيد الرَّقَاشِيّ: إِنَّمَا سُمِّيَ نُوحًا؛ لِكَثْرَةِ مَا نَاحَ عَلَى نَفْسه.

وَقَدْ كَانَ بَيْن آدَم إِلَى زَمَان نُوح عليه السلام عَشَرَة قُرُون، كُلّهمْ عَلَى الإِسْلَام. قَالَ عَبْد الله بْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد مِنْ عُلَمَاء التَّفْسِير: وَكَانَ أَوَّل مَا عُبِدَتْ الأَصْنَام؛ أَنَّ قَوْمًا صَالِحِينَ مَاتُوا، فَبَنَى قَوْمهمْ عَلَيْهِمْ مَسَاجِد، وَصَوَّرُوا صُوَر أُولَئِكَ فِيهَا؛ لِيَتَذَكَّرُوا حَالهمْ وَعِبَادَتهمْ فَيَتَشَبَّهُوا بِهِمْ، فَلَمَّا طَالَ الزَّمَان جَعَلُوا أَجْسَادًا عَلَى تِلْكَ الصُّوَر، فَلَمَّا تَمَادَى الزَّمَان عَبَدُوا تِلْكَ الأَصْنَام، وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَاء أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ: وَدًّا وَسُوَاعًا وَيَغُوث وَيَعُوق وَنَسْرًا، فَلَمَّا تَفَاقَمَ الأَمْر بَعَثَ الله سُبْحَانه وَتَعَالَى وَلَهُ الحَمْد وَالمِنَّة رَسُوله نُوحًا، يأمرهم بِعِبَادَةِ الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، فَقَالَ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أَيْ: مِنْ عَذَاب يَوْم القِيَامَة، إِذَا لقِيتُمْ الله وَأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ. ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أَيْ: الجُمْهُور وَالسَّادَة وَالقَادَة وَالكُبَرَاء مِنْهُمْ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: فِي دَعْوَتك إِيَّانَا إِلَى تَرْك عِبَادَة هَذِهِ الأَصْنَام، الَّتِي وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَيْهَا، وَهَكَذَا حَال الفُجَّار، إِنَّمَا يَرَوْنَ الأَبْرَار فِي ضَلَالَة، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنْ الآيَات.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: مَا أَنَا ضَالّ، وَلَكِنْ أَنَا رَسُول مِنْ رَبّ العَالَمِينَ رَبّ كُلّ شَيْء وَمَلِيكه، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَهَذَا شَأْن الرَّسُول أَنْ يَكُون بَلِيغًا فَصِيحًا نَاصِحًا عَالِمًا بِالله، لا يُدْرِكهُمْ أَحَد مِنْ خَلْق الله فِي هَذِهِ الصِّفَات، كَمَا جَاءَ فِي

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢)، وأحمد (٤/ ٣٩٩).

صَحِيح مُسْلِم: أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْم عَرَفَة وَهُمْ أَوْفَر مَا كَانُوا وَأَكْثَر جَمْعًا: «**أَيهَا النَّاس، إنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**» قَالُوا: نَشْهَد أَنَّك قَدْ بَلَّغْت وَأَدَّيْت وَنَصَحْت، فَجَعَلَ يَرْفَع أُصْبُعه إِلَى السَّمَاء، وَيُنَكِّتهَا عَلَيْهِمْ، وَيَقُول: «**اللهمَّ اشْهَدْ! اللهمَّ اشْهَدْ!**»[1].

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾

يقول تعالى إخبارًا عن قوم نوح أنه قال لقومه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، أي: لا تعجبوا من هذا؛ فإن هذا ليس بعجب، أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم، ولطفًا وإحسانًا إليكم؛ لينذركم ولتتقوا نقمة الله، ولا تشركوا به ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ﴾ أَيْ: فتَمادَوْا عَلَى تَكْذِيبه وَمُخَالَفَته، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيل، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ تعالى فِي مَوْضِع آخَر: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ﴾ وَهِي: السَّفِينَة كَمَا قَالَ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾. ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾. وَقَوْله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ أَيْ: عَنْ الحَقّ، لا يُبْصِرُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ لهُ. فَبَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ القِصَّة أَنَّهُ انْتَقَمَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَأَنْجَى رَسُوله وَالمُؤْمِنِينَ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُمْ مِنْ الكَافِرِينَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾. وَهَذِهِ سُنَّة الله فِي عِبَاده فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، أَنَّ العَاقِبَة فِيهَا لِلْمُتَّقِينَ، وَالظَّفَر وَالغَلَب لهُمْ، كَمَا أَهْلَكَ قَوْم نُوح بِالغَرَقِ، وَنَجَّى نُوحًا وَأَصْحَابه المُؤْمِنِينَ. وَقَالَ مَالِك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ: كَانَ قَوْم نُوح قَدْ ضَاقَ بِهِمْ السَّهْل وَالجَبَل. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: مَا عَذَّبَ الله قَوْم نُوح إِلَّا وَالأَرْض مَلْأَى بِهِمْ، وَلَيْس بُقْعَة مِنْ الأَرْض إِلَّا وَلَهَا مَالِك وَحَائِز. وَقَالَ ابْن وَهْب: بَلَغَنِي عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهُ نَجَا مَعَ نُوح فِي السَّفِينَة ثَمَانُونَ رَجُلًا، أَحَدهمْ جُرْهُم، وَكَانَ لِسَانه عَرَبِيًّا. رَوَاهُن ابْن أَبِي حَاتِم وَقد رُوِيَ هذا الأثر الأخير مِنْ وَجْه آخَر مُتَّصِلًا عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْم نُوح نُوحًا، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا إِلَى عَاد أَخَاهُمْ هُودًا. قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: وَهُمْ وَلَد عَاد بْن إِرَم بْن عَوْص بْن سَام بْن نُوح.

قُلْت: هَؤُلَاءِ هُمْ عَاد الأُولَى، الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ الله، وَهُمْ أَوْلَاد عَاد بْن إِرَم الَّذِينَ كَانُوا يَأْوُونَ إِلَى العَمَد فِي البَرّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ وَذَلِكَ لِشِدَّةِ بَأْسهمْ وَقُوَّتهمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾. وَقَدْ كَانَتْ مَسَاكِنهمْ بِاليَمَنِ بِالأَحْقَافِ وَهِي جِبَال الرَّمل. قَالَ مُحَمَّد ابْن إِسْحَاق: عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن أَبِي سَعِيد الخُزَاعِيّ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل عَامِر بْن وَاثِلَة، سَمِعْت علي بن أبي طالب

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (١٢١٨).

يَقُول لِرَجُلٍ مِنْ حَضْرَمَوْت: هَلْ رَأَيْت كَثِيبًا أَحْمَر تُخالطه مَدَرَة حَمْرَاء، ذَا أَرَاك وَسِدْر كَثِير بِنَاحِيَةِ كَذَا وَكَذَا مِنْ أَرْض حَضْرَمَوْت؟ هَلْ رَأَيْته؟ قَالَ: نَعَمْ يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ، وَالله إِنَّك لَتَنْعَتهُ نَعْت رَجُل قَدْ رَآهُ. قَالَ: لا، وَلَكِنِّي قَدْ حُدِّثْت عَنْهُ. فَقَالَ الحَضْرَمِيّ: وَمَا شَأْنه يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: فِيهِ قَبْر هُود عَلَيْهِ السَّلَامُ. رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَهَذَا فِيهِ فَائِدَة: أَنَّ مَسَاكِنهمْ كَانَتْ بِاليَمَنِ، وَأن هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ دُفِنَ هُنَاكَ وَقَدْ كَانَ مِنْ أَشْرَف قَوْمه نَسَبًا، لِأَنَّ الرُّسُل إِنَّمَا يَبْعَثهُمْ الله مِنْ أَفْضَل القَبَائِل وَأَشْرَفهمْ وَلَكِنْ كَانَ قَوْمه كَمَا شَدَّدَ خَلْقهمْ شَدَّدَ عَلَى قُلُوبهمْ، وَكَانُوا مِنْ أَشَدّ الأُمَم تَكْذِيبًا لِلْحَقِّ، وَلِهَذَا دَعَاهُمْ هُود عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَإِلَى طَاعَته وَتَقْوَاهُ.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ وَ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: هُمْ الجُمْهُور وَالسَّادَة وَالقَادَة مِنْهُمْ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ أَيْ: فِي ضَلَالَة حَيْثُ دعوتنا إِلَى تَرْك عِبَادَة الأَصْنَام، وَالإِقْبَال عَلَى عِبَادَة الله وَحْده، كَمَا تَعَجَّبَ المَلَأ مِنْ قُرَيْش مِنْ الدَّعْوَة إِلَى إِلَه وَاحِد، فَقَالُوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾.

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ: لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ، بَلْ جِئْتُكُمْ بِالحَقِّ مِنْ الله الَّذِي خَلَقَ كُلّ شَيْء، فَهُوَ رَبّ كُلّ شَيْء وَمَلِيكه. ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وَهَذِهِ الصِّفَات الَّتِي يَتَّصِف بِهَا الرُّسُل البَلَاغ وَالنُّصْح وَالأَمَانَة.

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ ﴾ أَيْ: لا تَعْجَبُوا أَنْ بَعَثَ الله إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسكُمْ، لِيُنْذِركُمْ أَيَّام الله وَلِقَاءَهُ، بَلْ احْمَدُوا الله عَلَى ذَاكُمْ، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أَيْ: وَاذْكُرُوا نِعْمَة الله عَلَيْكُمْ إذ جَعَلكُمْ مِنْ ذُرِّيَّة نُوح، الَّذِي أَهْلَكَ الله أَهْل الأَرْض بِدَعْوَتِهِ، لَمَّا خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ﴾ أَيْ: زَادَ طُولكُمْ عَلَى النَّاس ﴿بَصْۜطَةً ۖ﴾ أَيْ: جَعَلَكُمْ أَطْوَل مِنْ أَبْنَاء جِنْسكُمْ؛ كَقَوْلِهِ فِي قِصَّة طَالُوت: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ﴾، ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: نِعَمته وَمِنَّته عَلَيْكُمْ، وَالآلَاء جَمْع أَلًى وَقِيلَ إِلًى ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تَعَالَى مخبرًا عَنْ تَمَرُّدهمْ وَطُغْيَانهمْ، وَعِنَادهمْ وَإِنْكَارهمْ عَلَى هُود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ كَمَا قال الكُفَّار مِنْ قُرَيْش: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَغَيْره، أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا؛ فَصَنَم يُقَال لَهُ: صداء، وَآخَر يُقَال لَهُ: صَمُود، وَآخَر يُقَال لَهُ: الهباء. ولهذا قَالَ هُود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ ﴾ أَيْ: قَدْ وَجَبَ عَلَيْكُمْ بِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ رَبّكُمْ ﴿رِجْسٌ﴾ قِيلَ: هُوَ مَقْلُوب مِنْ رِجْز، وَعَنْ ابْن عَبَّاس: مَعْنَاهُ سَخَط وَغَضَب.

﴿أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أَيْ: أَتُحَاجُّونَنِي فِي هَذِهِ الأَصْنَام الَّتِي سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ آلِهَة، وَهِيَ لا تَضُرّ وَلَا تَنْفَع، وَلَا جَعَلَ الله لكُمْ عَلَى عِبَادَتهَا حُجَّة وَلَا دَلِيلًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾. وَهَذَا تَهْدِيد وَوَعِيد مِنْ الرَّسُول لِقَوْمِهِ؛ ولهذا عُقِّب بقَوْله: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾، وَقَدْ ذَكَرَ الله

سُبْحَانه صِفَة إِهْلَاكهمْ فِي أَمَاكِن أُخَر مِنَ القُرْآن، بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ الرِّيح العَقِيم مَا تَذَر مِنْ شَيْء أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيم، كَمَا قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ⑦ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾، لَمَّا تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا أَهْلَكَهُمْ الله بِرِيحٍ عَاتِيَة، فَكَانَتْ تَحْمِل الرَّجُل مِنْهُمْ فَتَرْفَعهُ فِي الهَوَاء ثُمَّ تُنَكِّسهُ عَلَى أُمّ رَأْسه فَتَثْلَغ رَأْسه حَتَّى تَبِينه مِنْ بَيْن جُثَّته؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: كَانُوا يَسْكُنُونَ بِاليَمَنِ بَيْن عُمَان وَحَضْرَمَوْت، وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ قَدْ فَشَوْا فِي الأَرْض، وَقَهَرُوا أَهْلهَا بِفَضْلِ قُوَّتهمْ الَّتِي آتَاهُمْ الله، وَكَانُوا أَصْحَاب أَوْثَان يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُون الله، فَبَعَثَ الله إِلَيْهِمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ مِنْ أَوْسَطهمْ نَسَبًا وَأَفْضَلهمْ مَوْضِعًا، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُوَحِّدُوا الله وَلَا يَجْعَلُوا مَعَهُ إِلَهًا غَيْره، وَأَنْ يَكُفُّوا عَنْ ظُلْم النَّاس، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ، وَقَالُوا: مَنْ أَشَدّ مِنَّا قُوَّة؟! وَاتَّبَعَهُ مِنْهُمْ نَاس وَهُمْ يَسِير مكتتمون بإيمانهم، فَلَمَّا عَتَتْ عَاد عَلَى الله وَكَذَّبُوا نَبِيّه، وَأَكْثَرُوا فِي الأَرْض الفَسَاد، وَتَجَبَّرُوا وَبَنَوْا بِكُلِّ رِيع آيَة عَبَثًا بِغَيْرِ نَفْع، كَلَّمَهُمْ هُود، فَقَالَ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ⑫⑧ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ⑫⑨ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ⑬⓪ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ⑤③ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أَيْ: بِجُنُونٍ ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ⑤④ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ⑤⑤ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: فَلَمَّا أَبَوْا إِلَّا الكُفْر بِهِ، أَمْسَكَ الله عَنْهُمْ القَطْر ثَلَاث سِنِينَ، فِيمَا يَزْعُمُونَ، حَتَّى جَهَدَهُمْ ذَلِكَ. قَالَ: وَكَانَ النَّاس إِذَا جَهَدَهُمْ أَمْر فِي ذَلِكَ الزَّمَان، فطَلَبُوا مِنْ الله الفَرَج فِيهِ، إِنَّمَا يَطْلُبُونَهُ بِحَرَمه وَمَكَان بَيْته، وَكَانَ مَعْرُوفًا عِنْد الملل، وَبِهِ العَمَالِيق مُقِيمُونَ، وَهُمْ مِنْ سُلَالَة عِمْلِيق بْن لَاوَذ بْن سَام بْن نُوح، وَكَانَ سَيِّدهمْ إِذْ ذَاكَ رَجُلًا يُقَال لَهُ مُعَاوِيَة بْن بَكْر، وَكَانَتْ لَهُ أُمّ مِنْ قَوْم عَاد وَاسْمهَا: كلهدة ابْنَة الخيبري.

قَالَ: فَبَعَثَتْ عَاد وَفْدًا قَرِيبًا مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا إِلَى الحَرَم؛ لِيَسْتَسْقُوا لَهُمْ عِنْد الحَرَم، فَمَرُّوا بِمُعَاوِيَة بْن بَكْر بِظَاهِرِ مَكَّة، فَنَزَلُوا عَلَيْهِ فَأَقَامُوا عِنْده شَهْرًا، يَشْرَبُونَ الخَمْر وَتُغَنِّيهِمْ الجَرَادَتَانِ -قَيْنَتَانِ لِمُعَاوِيَة- وَكَانُوا قَدْ وَصَلُوا إِلَيْهِ فِي شَهْر، فَلَمَّا طَالَ مُقَامهمْ عِنْده، وَأَخَذَتْهُ شَفَقَة عَلَى قَوْمه، وَاسْتَحْيَا مِنْهُمْ أَنْ يَأْمُرهُمْ بِالِانْصِرَافِ، عَمِلَ شِعْرًا يُعَرِّض لَهُمْ بِالِانْصِرَافِ، وَأَمَرَ القَيْنَتَيْنِ أَنْ تُغَنِّيَاهُمْ بِهِ، فَقَالَ:

أَلَا يَا قَيْل وَيْحك قُمْ فَهَيْنِمْ ۞ لَعَلَّ الله يُصْبِحنَا غَمَامَا

فَيَسْقِي أَرْض عَاد إِنَّ عَادًا ۞ قَدَ أمْسَوْا لَا يُبِينُونَ الكَلَامَا

مِنْ العَطَش الشَّدِيد فَلَيْسَ نَرْجُو ۞ بِهِ الشَّيْخ الكَبِير وَلَا الغُلَامَا

وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمُ بِخَيْرٍ ۞ فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمُ عَيَامَا

وَإِنَّ الوَحْش تَأْتِيهِمْ جِهَارًا ۞ وَلَا تَخْشَى لِعَادِيٍّ سِهَامَا

وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ ۞ نَهَارِكُمْ وَلَيْلكُمُ التَّمَامَا

فَقُبِّحَ وَفْدكُمْ مِنْ وَفْد قَوْم ۞ وَلَا لقُوْا التَّحِيَّة وَالسَّلَامَا

قَالَ: فَعِنْد ذَلِكَ تَنَبَّهَ القَوْم لِمَا جَاءُوا لَهُ، فَنَهَضُوا إِلَى الحَرَم، وَدَعَوْا لِقَوْمِهِمْ فَدَعَا دَاعِيهمْ، وَهُوَ: قَيْل بْن عَنْز، فَأَنْشَأَ الله سَحَابَات ثَلَاثًا؛ بَيْضَاء وَسَوْدَاء وَحَمْرَاء، ثُمَّ نَادَاهُ مُنَادٍ مِنْ السَّمَاء: اخْتَرْ لِنَفْسِك أَوْ لِقَوْمِك مِنْ هَذَا السَّحَاب. فَقَالَ: اخْتَرْت هَذِهِ السَّحَابَة السَّوْدَاء، فَإِنَّهَا أَكْثَر السَّحَاب مَاء. فَنَادَاهُ مُنَادٍ: اخْتَرْت رَمَادًا رِمْدَدًا، لَا تُبْقِي مِنْ عَاد أَحَدًا، لَا وَالِدًا تَتْرُك وَلَا وَلَدًا، إِلَّا جَعَلَتْهُ هَمْدًا، إِلَّا بَنِي اللوذية المُهَنَّدَا. قَالَ: وَبَنُو اللوذية بَطْن مِنْ

عَاد مُقِيمُونَ بِمَكَّة، فَلَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ قَوْمهمْ. قَالَ: وَهُمْ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَنْسَالهمْ وَذَرَارِيّهمْ عَاد الآخِرَة. قَالَ: وَسَاقَ الله السَّحَابَة السَّوْدَاء فِيمَا يَذْكُرُونَ، الَّتِي اخْتَارَهَا قَيْل بْن عَنْز، بِمَا فِيهَا مِنْ النِّقْمَة إِلَى عَاد، حَتَّى تَخْرُج عَلَيْهِمْ مِنْ وَادٍ يُقَال لَهُ: المُغِيث، فَلَمَّا رَأَوْهَا اسْتَبْشَرُوا، ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ يَقُول: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ أَيْ: تُهْلِك كُلّ شَيْء مَرَّتْ بِهِ، فَكَانَ أَوَّل مَنْ أَبْصَرَ مَا فِيهَا، وَعَرَفَ أَنَّهَا رِيح، فِيمَا يَذْكُرُونَ، امْرَأَة مِنْ عَاد يُقَال لَهَا: مهدد؟ فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ مَا فِيهَا صَاحَتْ، ثُمَّ صَعِقَتْ، فَلَمَّا أَفَاقَتْ قَالُوا: مَا رَأَيْت يَا مهدد؟ قَالَتْ: رِيحًا فِيهَا شهب النَّار، أَمَامهَا رِجَال يَقُودُونَهَا. فَسَخَّرَهَا الله عَلَيْهِمْ سَبْع لَيَالٍ وَثَمَانِيَة أَيَّام حُسُومًا، كَمَا قَالَ الله تَعَالَى، وَالحُسُوم: الدَّائِمَة، فَلَمْ تَدَع مِنْ عَاد أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، وَاعْتَزَلَ هُود عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذُكِرَ لِي وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ فِي حَظِيرَة، مَا يُصِيبهُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا مَا تَلِينَ عَلَيْهِ الجُلُود وَتَلتذّ الأَنْفُس، وَإِنَّهَا لَتَمُرّ عَلَى عَاد بِالطَّعْنِ مَا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، وَتَدْمَغهُمْ بِالحِجَارَةِ. وَذَكَرَ تَمَام القِصَّة بِطُولِهَا، وَهُوَ سِيَاق غَرِيب، فِيهِ فَوَائِد كَثِيرَة، وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده قَرِيب مِمَّا أَوْرَدَهُ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا زَيْد بْن الحُبَاب، حَدَّثَنِي أَبُو المُنْذِر سَلَام بْن سُلَيْمَان النَّحْوِيّ، حَدَّثَنَا عَاصِم بْن أَبِي النَّجُود، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ الحَارِث البَكْرِيّ، قَالَ: خَرَجْت أَشْكُو العَلَاء بْن الحَضْرَمِيّ إِلَى رَسُول الله ﷺ، فَمَرَرْت بِالرَّبَذَةِ، فَإِذَا عَجُوز مِنْ بَنِي تَمِيم مُنْقَطِع بِهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا عَبْد الله، إِنَّ لِي إِلَى رَسُول الله ﷺ، حَاجَة فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغِي إِلَيْهِ؟ قَالَ: فَحَمَلْتهَا فَأَتَيْت المَدِينَة، فَإِذَا المَسْجِد غَاصّ بِأَهْلِهِ، وَإِذَا رَايَة سَوْدَاء تَخْفِق، وَإِذَا بِلَال مُتَقَلِّد سَيْفًا بَيْن يَدَيْ رَسُول الله ﷺ، فَقُلْت: مَا شَأْن النَّاس؟ قَالُوا: يُرِيد أَنْ يَبْعَث عَمْرو بْن العَاص وَجْهًا. قَالَ: فَجَلَسْت. قَالَ: فَدَخَلَ مَنْزِله -أَوْ قَالَ: رَحْله-، فَاسْتَأْذَنْت عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلْت فَسَلَّمْت، فَقَالَ: هَلْ بَيْنكُمْ وَبَيْن تَمِيم شَيْء؟ قُلْت: نَعَمْ، وَكَانَتْ لَنَا الدبرة عَلَيْهِمْ، وَمَرَرْت بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيم مُنْقَطِع بِهَا فَسَأَلَتْنِي أَنْ أَحْمِلهَا إِلَيْك وَهَا هِيَ بِالبَابِ. فَأَذِنَ لَهَا فَدَخَلَتْ، فَقُلْت: يَا رَسُول الله، إِنْ رَأَيْت أَنْ تَجْعَل بَيْننَا وَبَيْن تَمِيم حَاجِزًا فَاجْعَلْ الدَّهْنَاء. فَحَمِيَتْ العَجُوز وَاسْتَوْفَزَت، وَقَالَتْ: يَا رَسُول الله، فَإِلَى أَيْنَ يُضْطَرّ مضرك؟ قَالَ: قُلْت: إِنَّ مَثَلِي مَثَل مَا قَالَ الأَوَّل: «مِعْزَى حَمَلَتْ حَتْفهَا»، حَمَلْت هَذِهِ وَلَا أَشْعُر أَنَّهَا كَانَتْ لِي خَصْمًا، أَعُوذ بِالله وَبِرَسُولِهِ أَنْ أَكُون كَوَافِدِ عَاد. قَالَ: «هيه، وَمَا وَافِد عَاد؟» وَهُوَ أَعْلَم بِالحَدِيثِ مِنْهُ، وَلَكِنْ يَسْتَطْعِمهُ. قُلْت: إِنْ عَادًا قَحَطُوا، فَبَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ يُقَال لَهُ: قَيْل، فَمَرَّ بِمُعَاوِيَة بْن بَكْر، فَأَقَامَ عِنْده شَهْرًا يَسْقِيه الخَمْر، وَتُغَنِّيه جَارِيَتَانِ يُقَال لَهُمَا: الجَرَادَتَانِ، فَلَمَّا مَضَى الشَّهْر خَرَجَ إِلَى جِبَال مُهْرَة، فَقَالَ: اللهمَّ إِنَّك تَعْلَم أَنِّي لَمْ أَجِئْ إِلَى مَرِيض فَأُدَاوِيه، وَلَا إِلَى أَسِير فَأُفَادِيه، اللهمَّ اسْقِ عَادًا مَا كُنْت تَسْقِيه، فَمَرَّتْ بِهِ سَحَابَات سُود، فَنُودِيَ مِنْهَا: اخْتَرْ، فَأَوْمَأَ إِلَى سَحَابَة مِنْهَا سَوْدَاء، فَنُودِيَ مِنْهَا: خُذْهَا رَمَادًا رَمْدَدًا، لا تُبْقِي مِنْ عَاد أَحَدًا، قَالَ: فَمَا بَلَغَنِي أَنَّهُ بَعَثَ الله عَلَيْهِمْ مِنْ الرِّيح، إِلَّا قَدْر مَا يَجْرِي فِي خَاتَمِي هَذَا حَتَّى هَلَكُوا -قَالَ أَبُو وَائِل: وَصَدَقَ- قَالَ: وَكَانَتْ المَرْأَة وَالرَّجُل إِذَا بَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ قَالُوا: لا تَكُنْ كَوَافِدِ عَاد[1].

هَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي المُسْنَد، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ: عَنْ عَبْد بْن حُمَيْد، عَنْ زَيْد بْن الحُبَاب بِهِ نَحْوه، وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ: من حَدِيث سَلَّام بْن أَبِي المُنْذِر، عَنْ عَاصِم -وَهُوَ ابْن بَهْدَلَة-، وَمِنْ طَرِيقه رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ أَيْضًا: عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ الحَارِث بْن حَسَّان البَكْرِيّ، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير: عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ زَيْد بْن حُبَاب، بِهِ. وَوَقَعَ

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٢٧٣)، وأحمد (٣/ ٤٨٢)، والطبراني (٣/ ٢٥٤)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٥/ ٣٩١).

عِنْده: عَنْ الحَارِث بْن يَزِيد البَكْرِيّ، فَذَكَرَهُ. وَرَوَاهُ أَيْضًا: عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن عَيَّاش، عَنْ عَاصِم، عَنْ الحَارِث بْن حَسَّان البَكْرِيّ، فَذَكَرَهُ. وَلَمْ أَرَ فِي النُّسْخَة أَبَا وَائِل، وَالله أَعْلَم.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾

قَالَ عُلَمَاء التَّفْسِير وَالنَّسَب: ثَمُود بْن عَاثِر بْن إِرَم بْن سَام بْن نُوح، وَهُوَ أَخُو جُدَيْس بْن عَاثِر، وَكَذَلِكَ قَبِيلَة طَسْم، كُلّ هَؤُلَاءِ كَانُوا أَحْيَاء مِنْ العَرَب العَارِبَة قَبْل إِبْرَاهِيم الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَتْ ثَمُود بَعْد عَاد، وَمَسَاكِنهمْ مَشْهُورَة فِيمَا بَيْن الحِجَاز وَالشَّام، إِلَى وَادِي القُرَى وَمَا حَوْله، وَقَدْ مَرَّ رَسُول الله ﷺ عَلَى قُرَاهم وَمَسَاكِنهمْ، وَهُوَ ذَاهِب إِلَى تَبُوك فِي سَنَة تِسْع. قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد، حَدَّثَنَا صَخْر بْن جُوَيْرِيَة، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ رَسُول الله ﷺ بِالنَّاسِ عام تَبُوك، نَزَلَ بِهِمْ الحِجْر عِنْد بُيُوت ثَمُود، فَاسْتَقَى النَّاس مِنْ الآبَار الَّتِي كَانَتْ تَشْرَب مِنْهَا ثَمُود، فَعَجَنُوا مِنْهَا وَنَصَبُوا منها القُدُور، فَأَمَرَهُمْ النَّبِيّ ﷺ، فَأَهْرَاقُوا القُدُور، وَعَلَفُوا العَجِين الإِبِل، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى البِئْر الَّتِي كَانَتْ تَشْرَب مِنْهَا النَّاقَة، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى القَوْم الَّذِينَ عُذِّبُوا، وَقَالَ: **«إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبكُمْ مِثْل مَا أَصَابَهُمْ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»**[1]. وَقَالَ أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن مُسْلِم، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن دِينَار، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ بِالحِجْر: **«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ؛ أَنْ يُصِيبكُمْ مِثْل مَا أَصَابَهُمْ»**[2]. وَأَصْل هَذَا الحَدِيث مُخَرَّج فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْر وَجْه.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون أخبرنا المَسْعُودِيّ، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَوْسَط، عَنْ مُحَمَّد بْن أَبِي كَبْشَة الأَنْمَارِيّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ فِي غَزْوَة تَبُوك، تَسَارَعَ النَّاس إِلَى أَهْل الحِجْر يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُول الله ﷺ، فَنَادَى فِي النَّاس: **«الصَّلَاة جَامِعَة»** قَالَ: فَأَتَيْت رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ مُمْسِك بَعِيره وَهُوَ يَقُول: **«مَا تَدْخُلُونَ عَلَى قَوْم غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ»** فَنَادَاهُ رَجُل مِنْهُمْ: نَعْجَب مِنْهُمْ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: **«أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَعْجَب مِنْ ذَلِكَ: رَجُل مِنْ أَنْفُسكُمْ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلكُمْ، وَبِمَا هُوَ كَائِن بَعْدكُمْ، فَاسْتَقِيمُوا وَسَدِّدُوا، فَإِنَّ الله لَا يَعْبَأ بِعَذَابِكُمْ شَيْئًا، وَسَيَأْتِي قَوْم لَا يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسهمْ شَيْئًا»**[3]. لَمْ يُخَرِّجهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب السُّنَن، وَأَبُو كَبْشَة: اسْمه عَمْرو بْن سَعْد، وَيُقَال: عَامِر بْن سَعْد، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خُثَيْم، عَنْ أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (٢٩٨١)، وأحمد (٢/ ١١٧).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠)، وأحمد (٢/ ٧٤).

(٣) **حسن:** أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١)، والطبراني (٢٢/ ٨٢٥) من حديث أبي كبشة، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٤٠٥) وقال: رواه الطبراني من طريق المسعودي وقد اختلط وبقية رجاله ثقات، ولا يضر اختلاط المسعودي فالراوي عنه عند الطبراني هو جعفر بن عون وقد روى عن المسعودي قبل اختلاطه.

جابر، قَالَ: لَمَّا مَرَّ رَسُول الله ﷺ، بِالحِجْرِ قَالَ: «**لا تَسْأَلُوا الآيَات، فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْم صَالِح فَكَانَتْ -يَعْنِي: النَّاقَة- تَرِد مِنْ هَذَا الفَجّ، وَتَصْدُر مِنْ هَذَا الفَجّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْر رَبّهِمْ فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَب مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَة أَخْمَدَ الله مَنْ تَحْت أَدِيم السَّمَاء مِنْهُمْ، إلا رَجُلا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَم الله**». فَقَالُوا: مَنْ هُوَ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**أَبُو رِغَال، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ الحَرَم أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمه**»[1]. وَهَذَا الحَدِيث لَيْسَ فِي شَيْء مِنْ الكُتُب السِّتَّة، وَهُوَ عَلَى شَرْط مُسْلِم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أَيْ: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَة ثَمُود أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ فَجَمِيع الرُّسُل يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

وَقَوْله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أَيْ: قَدْ جَاءَتْكُمْ حُجَّة مِنْ الله عَلَى صِدْق مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، وَكَانُوا هُمْ الَّذِينَ سَأَلُوا صَالِحًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَاقْتَرَحُوا عَلَيْهِ بِأَنْ تَخْرُج لَهُمْ مِنْ صَخْرَة صَمَّاء عَيَّنُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ صَخْرَة مُنْفَرِدَة فِي نَاحِيَة الحِجْر، يُقَال لَهَا: الكَاتِبَة، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ تَخْرُج لَهُمْ مِنْهَا نَاقَة عُشَرَاء تَمْخُض، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ صَالِح العُهُود وَالمَوَاثِيق: لَئِنْ أَجَابَهُمْ الله إِلَى سُؤَالهمْ، وَأَجَابَهُمْ إِلَى طَلْبَتهمْ، لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَتَّبِعُنَّهُ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ عَلَى ذَلِكَ عُهُودهمْ وَمَوَاثِيقهمْ، قَامَ صَالِح عليه السلام إِلَى صَلَاته وَدَعَا الله عز وجل فَتَحَرَّكَتْ تِلْكَ الصَّخْرَة، ثُمَّ انْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَة جَوْفَاء وَبْرَاء، يَتَحَرَّك جَنِينهَا بَيْن جَنْبَيْهَا كَمَا سَأَلُوا، فَعِنْد ذَلِكَ آمَنَ رَئِيسهمْ وهو: جُنْدُع بْن عَمْرو، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى أَمْره، وَأَرَادَ بَقِيَّة أَشْرَاف ثَمُود أَنْ يُؤْمِنُوا، فَصَدَّهُمْ ذُؤَاب بْن عَمْرو بْن لَبِيد وَالحُبَاب صَاحِب أَوْثَانهمْ، وَرَبَاب بْن صَمعَر بْن جلهس، وَكَانَ لِجُنْدُع بْن عَمْرو ابْن عَمّ يقال لَهُ: شِهَاب بْن خَلِيفَة ابْن مُحَلَّاة بْن لَبِيد بْن جواس، وَكَانَ مِنْ أَشْرَاف ثَمُود وَأَفَاضِلهَا، فَأَرَادَ أَنْ يُسْلِم أَيْضًا، فَنَهَاهُ أُولَئِكَ الرَّهْط، فَأَطَاعَهُمْ. فَقَالَ فِي ذَلِكَ رَجُل مِنْ مُؤْمِنِي ثَمُود، يُقَال لَهُ: مُهَوَّس بْن عَنْمَة بْن الدُّمَيْل رحمه الله:

وَكَانَتْ عُصْبَة مِنْ آل عَمْرو ۞ إِلَى دِين النَّبِيّ دَعَوْا شِهَابَا
عَزِيز ثَمُود كُلّهمْ جَمِيعًا ۞ فَهَمَّ بِأَنْ يُجِيب فَلَوْ أَجَابَا
لَأَصْبَحَ صَالِح فِينَا عَزِيزًا ۞ وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنَّ الغُوَاة مِنْ آل حُجْر ۞ تَوَلَّوْا بَعْد رُشْدهمْ ذِئَابَا

فَأَقَامَتْ النَّاقَة وَفَصِيلهَا بَعْدَمَا وَضَعَتْهُ بَيْن أَظْهُرهمْ مُدَّة، تَشْرَب مَاء بِئْرهَا يَوْمًا، وَتَدَعهُ لَهُمْ يَوْمًا، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ لَبَنهَا يَوْم شُرْبهَا، يَحْتَلِبُونَهَا فَيَمْلَئُونَ مَا شَاءُوا مِنْ أَوْعِيَتهمْ وَأَوَانِيهِمْ، كَمَا قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، وَكَانَتْ تَسْرَح فِي بَعْض تِلْكَ الأَوْدِيَة، تَرِد مِنْ فَجّ وَتَصْدُر مِنْ غَيْره لِيَسَعهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَتَضَلَّع مِنْ المَاء، وَكَانَتْ -عَلَى مَا ذُكِرَ- خَلْقًا هَائِلًا وَمَنْظَرًا رَائِعًا، إِذَا مَرَّتْ بِأَنْعَامِهِمْ نَفَرَتْ مِنْهَا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمْ ذلك وَاشْتَدَّ تَكْذِيبهمْ لِصَالِح النَّبِيّ عليه السلام؛ عَزَمُوا عَلَى قَتْلهَا لِيَسْتَأْثِرُوا بِالمَاءِ كُلّ يَوْم؛ فَيُقَال: إِنَّهُمْ اتَّفَقُوا كُلّهمْ عَلَى قَتْلهَا. قَالَ قَتَادَة: بَلَغَنِي أَنَّ الَّذِي قَتَل النَّاقَة، طَافَ عَلَيْهِمْ كُلّهمْ أَنَّهُمْ رَاضُونَ بِقَتْلِهَا، حَتَّى عَلَى النِّسَاء فِي خُدُورهنَّ، وَعَلَى الصِّبْيَان.

قُلْت: وَهَذَا هُوَ الظَّاهِر؛ لأن الله يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾،

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٦)، وقال الحافظ ابن كثير بعد إيراده: وهو على شرط مسلم.

وَقَالَ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾، وَقَالَ: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ فَأَسْنَدَ ذَلِكَ عَلَى مَجْمُوعِ القَبِيلَةِ، فَدَلَّ عَلَى رِضَا جَمِيعِهِمْ بِذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَذَكَرَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ فِي سَبَبِ قَتْلِ النَّاقَةِ: أَنَّ امْرَأَةً مِنْهُمْ، يُقَالُ لَهَا عُنَيْزَةُ ابْنَةُ غَنْمِ بْنِ مِجْلَزٍ، وَتُكَنَّى أُمَّ غَنْمٍ، كَانَتْ عَجُوزًا كَافِرَةً، وَكَانَتْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَتْ لَهَا بَنَاتٌ حِسَانٌ وَمَالٌ جَزِيلٌ، وَكَانَ زَوْجُهَا ذُؤَابُ بْنُ عَمْرٍو أَحَدَ رُؤَسَاءِ ثَمُودَ، وَامْرَأَةٌ أُخْرَى يُقَالُ لَهَا: صدوف ابنة المحيا بْنِ دهر بن المحيا، ذَاتُ حَسَبٍ وَمَالٍ وَجَمَالٍ، وَكَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ مِنْ ثَمُودَ فَفَارَقَتْهُ، فَكَانَتَا تَجْعَلَانِ لِمَنِ التَزَمَ لَهُمَا بِقَتْلِ النَّاقَةِ، فَدَعَتْ صدوف رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: الحُبَابُ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا إِنْ هُوَ عَقَرَ النَّاقَةَ فَأَبَى عَلَيْهَا، فَدَعَتِ ابْنَ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ: مِصْدَعُ بْنُ مُهَرِّجِ بْنِ المحيا فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، وَدَعَتْ عُنَيْزَةُ بِنْتُ غَنْمٍ قُدَارَ بْنَ سَالِفِ بْنِ جندع، وَكَانَ رَجُلًا أَحْمَرَ أَزْرَقَ قَصِيرًا، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ وَلَدَ زَنْيَةٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَبِيهِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ -وَهُوَ سَالِفٌ-، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ صهياد، وَلَكِنْ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ سَالِفٍ، وَقَالَتْ لَهُ: أُعْطِيكَ أَيَّ بَنَاتِي شِئْتَ عَلَى أَنْ تَعْقِرَ النَّاقَةَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ انْطَلَقَ قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ وَمِصْدَعُ بْنُ مُهَرِّجٍ، فاستنفرا غُوَاةً مِنْ ثَمُودَ، فَاتَّبَعَهُمَا سَبْعَةُ نَفَرٍ فَصَارُوا تِسْعَةَ رَهْطٍ، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وَكَانُوا رُؤَسَاءَ فِي قَوْمِهِمْ، فَاسْتَمَالُوا القَبِيلَةَ الكَافِرَةَ بِكَمَالِهَا، فَطَاوَعَتْهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَانْطَلَقُوا فَرَصَدُوا النَّاقَةَ حِينَ صَدَرَتْ عَنِ المَاءِ، وَقَدْ كَمَنَ لَهَا قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ فِي أَصْلِ صَخْرَةٍ عَلَى طَرِيقِهَا، وَكَمَنَ لَهَا مِصْدَعٌ فِي أَصْلِ أُخْرَى فَمَرَّتْ عَلَى مِصْدَعٍ فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ، فَانْتَظَمَ بِهِ عَضَلَةَ سَاقِهَا، وَخَرَجَتْ أُمُّ غَنْمٍ عُنَيْزَةُ، وَأَمَرَتِ ابْنَتَهَا -وَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا- فَسَفَرَتْ عَنْ وَجْهِهَا لِقُدَارٍ وَذَمَّرَتْه، فَشَدَّ عَلَى النَّاقَةِ بِالسَّيْفِ فَكَشَفَ عَنْ عُرْقُوبِهَا، فَخَرَّتْ سَاقِطَةً إِلَى الأَرْضِ، وَرَغَتْ رُغَاةً وَاحِدَةً تُحَذِّرُ سَقْبَهَا، ثُمَّ طَعَنَ فِي لَبَّتِهَا فَنَحَرَهَا، وَانْطَلَقَ سَقْبُهَا -وَهُوَ فَصِيلُهَا- حَتَّى أَتَى جَبَلًا مَنِيعًا، فَصَعِدَ أَعْلَى صَخْرَةٍ فِيهِ وَرَغَا. فَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ: عَنْ مَعْمَرٍ، عَمَّنْ سَمِعَ الحَسَنَ البَصْرِيَّ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ، أَيْنَ أُمِّي؟ وَيُقَالُ: إنه رَغَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَإنه دَخَلَ فِي صَخْرَةٍ فَغَابَ فِيهَا. وَيُقَالُ: إِنَّهُمُ اتَّبَعُوهُ فَعَقَرُوهُ مَعَ أُمِّهِ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ وَفَرَغُوا مِنْ عَقْرِ النَّاقَةِ، بَلَغَ الخَبَرُ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجَاءَهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ، فَلَمَّا رَأَى النَّاقَةَ بَكَى، وَقَالَ: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾. وَكَانَ قَتْلُهُمُ النَّاقَةَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، فَلَمَّا أَمْسَى أُولَئِكَ التِّسْعَةُ الرَّهْطُ، عَزَمُوا عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَقَالُوا: إِنْ كَانَ صَادِقًا عَجَّلْنَاهُ قَبْلَنَا، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾.

فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَوَاطَئُوا عَلَيْهِ، وَجَاءُوا مِنَ اللَّيْلِ؛ لِيَفْتِكُوا بِنَبِيِّ اللهِ صالح أَرْسَلَ اللهُ -سُبْحَانه وَتَعَالَى وَلَهُ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ- عَلَيْهِمْ حِجَارَةً، فَرَضَخَتْهُمْ سَلَفًا وَتَعْجِيلًا قَبْلَ قَوْمِهِمْ، وَأَصْبَحَ ثَمُود يَوْمَ الخَمِيسِ، وَهُوَ اليَوْمُ الأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ النَّظِرَةِ وَوُجُوهُهمْ مُصْفَرَّةٌ كَمَا وَعَدَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَصْبَحُوا فِي اليَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّأْجِيلِ وَهُوَ يَوْمُ الجُمُعَةِ، وَوُجُوهُهمْ مُحْمَرَّةٌ، وَأَصْبَحُوا فِي اليَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ أَيَّامِ المَتَاعِ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَوُجُوهُهمْ مُسْوَدَّةٌ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا مِنْ يَوْمِ الأَحَدِ وَقَدْ تَحَنَّطُوا، وَقَعَدُوا يَنْتَظِرُونَ نِقْمَةَ اللهِ وَعَذَابَه -عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ-، لا يَدْرُونَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ، وَلَا كَيْفَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَفَاضَتِ الأَرْوَاحُ، وَزَهَقَتِ النُّفُوسُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾

أيْ: صَرْعَى لا أَرْوَاح فِيهِمْ، وَلَمْ يَفْلِت مِنْهُمْ أَحَد: لا صَغِير وَلَا كَبِير، لا ذَكَر وَلَا أُنْثَى، قَالُوا: إِلَّا جَارِيَة كَانَتْ مُقْعَدَة، اسْمهَا: كَلْبَة ابْنَة السِّلْق، وَيُقَال لهَا: الذَّرِيقَة، وَكَانَتْ كَافِرَة شَدِيدَة العَدَاوَة لِصَالِح عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمَّا رَأَتْ مَا رَأَتْ مِنْ العَذَاب أَطْلَقَتْ رِجْلَاهَا، فَقَامَتْ تَسْعَى كَأَسْرَع شَيْء، فَأَتَتْ حَيًّا مِنْ الأَحْيَاء، فَأَخْبَرَتْهُمْ بِمَا رَأَتْ وَمَا حَلَّ بِقَوْمِهَا، ثُمَّ اسْتَسْقَتْهُمْ مِنْ المَاء، فَلَمَّا شَرِبَتْ مَاتَتْ. قَالَ عُلَمَاء التَّفْسِير: وَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذُرِّيَّة ثَمُود أَحَد سِوَى صَالِح عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ تَبِعَهُ رضي الله عنهم إِلَّا أَنَّ رَجُلًا يُقَال لهُ: أَبُو رِغَال، كَانَ لَمَّا وَقَعَتْ النِّقْمَة بِقَوْمِهِ مُقِيمًا فِي الحَرَم، فَلَمْ يُصِبْهُ شَيْء، فَلَمَّا خَرَجَ فِي بَعْض الأَيَّام إِلَى الحِلّ، جَاءَهُ حَجَر مِنْ السَّمَاء فَقَتَلَهُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّل القِصَّة حَدِيث جَابِر بْن عَبْد الله فِي ذَلِكَ، وَذَكَرُوا أَنَّ أَبَا رِغَال هَذَا هُوَ وَالِد ثَقِيف، الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ الطَّائِف.

قَالَ عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ مَعْمَر، أَخْبَرَنِي إِسْمَاعِيل بْن أُمَيَّة، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرِ أَبِي رِغَال، فَقَالَ: **«أَتَدْرُونَ مَنْ هَذَا؟»** قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: **«هَذَا قَبْر أَبِي رِغَال، رَجُل مِنْ ثَمُود، كَانَ فِي حَرَم الله فَمَنَعَهُ حَرَم الله عَذَاب الله، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمه، فَدُفِنَ هَاهُنَا، وَدُفِنَ مَعَهُ غُصْن مِنْ ذَهَب، فَنَزَلَ القَوْم فَابْتَدَرُوهُ بِأَسْيَافِهِمْ فَبَحَثُوا عَنْهُ فَاسْتَخْرَجُوا الغُصْن»**[1]. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: قَالَ مَعْمَر: قَالَ الزُّهْرِيّ: أَبُو رِغَال: أَبُو ثَقِيف. هَذَا مُرْسَل مِنْ هَذَا الوَجْه، وَقَدْ رُوِيَ مُتَّصِلًا مِنْ وَجْه آخَر، كَمَا قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أُمَيَّة، عَنْ بُجَيْر بْن أَبِي بُجَيْر، قَالَ: سَمِعْت عَبْد الله بْن عَمْرو يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول حِين خَرَجْنَا مَعَهُ إِلَى الطَّائِف فَمَرَرْنَا بِقَبْرٍ فَقَالَ: **«هَذَا قَبْر أَبِي رِغَال؛ وَهُوَ أَبُو ثَقِيف، وَكَانَ مِنْ ثَمُود، وَكَانَ بِهَذَا الحَرَم فَدُفِعَ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النِّقْمَة الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمه بِهَذَا المَكَان فَدُفِنَ فِيهِ، وَآيَة ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْن مِنْ ذَهَب إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصَبْتُمُوهُ فَابْتَدَرَهُ النَّاس فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ الغُصْن»**[2]. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنْ يَحْيَى بْن مَعِين، عَنْ وَهْب بْن جَرِير ابْن حَازِم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن إِسْحَاق، بِهِ. قَالَ شَيْخنَا أَبُو الحَجَّاج المِزِّيّ: وَهُوَ حَدِيث حَسَن عَزِيز.

قُلْت: تَفَرَّدَ بِوَصْلِهِ بُجَيْر بْن أَبِي بُجَيْر هَذَا، وَهُوَ شَيْخ لا يُعْرَف إِلَّا بِهَذَا الحَدِيث، قَالَ يَحْيَى بْن مَعِين: وَلَمْ أَسْمَع أَحَدًا رَوَى عَنْهُ غَيْر إِسْمَاعِيل بْن أُمَيَّة.

قُلْت: وَعَلَى هَذَا فَيُخْشَى أَنْ يَكُون وَهَمَ فِي رَفْع هَذَا الحَدِيث، وَإِنَّمَا يَكُون مِنْ كَلَام عَبْد الله بْن عَمْرو، مِمَّا أَخَذَهُ مِنْ الزَّامِلَتَيْنِ. قَالَ شَيْخنَا أَبُو الحَجَّاج بَعْد أَنْ عَرَضْت عَلَيْهِ ذَلِكَ: وَهَذَا مُحْتَمَل، وَالله أَعْلَم.

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

هَذَا تَقْرِيع مِنْ صَالِح عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، لَمَّا أَهْلَكَهُمْ الله بِمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَتَمَرُّدهمْ عَلَى الله، وَإِبَائِهِمْ عَنْ قَبُول الحَقّ، وَإِعْرَاضهمْ عَنْ الهُدَى إِلَى العَمَى، قَالَ لهُمْ صَالِح ذَلِكَ بَعْد هَلَاكهمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا، وَهُمْ يَسْمَعُونَ ذَلِكَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى أَهْل بَدْر، أَقَامَ هُنَاكَ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشُدَّتْ بَعْد ثَلَاث مِنْ آخِر اللَّيْل فَرَكِبَهَا، ثُمَّ سَارَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى القَلِيب قَلِيب بَدْر، فَجَعَلَ يَقُول: **«يَا أَبَا جَهْل ابْن هِشَام، يَا عُتْبَة بْن رَبِيعَة، يَا شَيْبَة بْن رَبِيعَة، وَيَا فُلَان ابْن فُلَان، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْت مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»**. فَقَالَ لهُ عُمَر: يَا رَسُول الله، مَا تُكَلِّم مِنْ أَقْوَام قَدْ جَيَّفُوا. فَقَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَع لِمَا أَقُول مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لا يُجِيبُونَ»**[3]. وَفِي السِّيرَة أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لهُمْ: **«بِئْسَ عَشِيرَة النَّبِيّ كُنْتُمْ**

---

(١) **ضعيف:** أخرجه ابن جرير (٥/ ٥٣٠)، وعبد الرزاق (١١/ ٢٠٩٨٩) بسند معضل، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٧٣٦).

(٢) **ضعيف:** أخرجه أبو داود (٣٠٨٨) من حديث عبد الله بن عمرو، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٦٧٨).

(٣) **صحيح:** تقدم.

لِنَبِيِّكُمْ؛ كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقَنِي النَّاس، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاس، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاس، فَبِئْسَ عَشِيرَة النَّبِيّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ»[1]. وَهَكَذَا صَالِح عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أَيْ: فَلَمْ تَنْتَفِعُوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّكُمْ لا تُحِبُّونَ الحَقّ وَلَا تَتَّبِعُونَ نَاصِحًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾. وَقَدْ ذَكَرَ بَعْض المُفَسِّرِينَ: أَنَّ كُلّ نَبِيّ هَلَكَتْ أُمَّته، كَانَ يَذْهَب فَيُقِيم فِي الحَرَم: حَرَم مَكَّة، وَاللهُ أَعْلَم.

وَقَدْ قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا زَمْعَة بْن صَالِح، عَنْ سَلَمَة بْن وَهْرَام، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: لَمَّا مَرَّ رَسُول الله ﷺ، بِوَادِي عُسْفَان حِين حَجَّ، قَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، أَيّ وَادٍ هَذَا؟». قَالَ: هَذَا وَادِي عُسْفَان. قَالَ: «لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُود وَصَالِح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، عَلَى بَكَرَات حُمْر خُطُمهَا اللِّيف، أُزُرهمْ العَبَاء، وَأَرْدِيَتهمْ النِّمَار، يُلَبُّونَ يَحُجُّونَ البَيْت العَتِيق»[2]. هَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، لَمْ يُخَرِّجهُ أَحَد مِنْهُمْ.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَ﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿لُوطًا﴾ أَوْ تَقْدِيره: ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ وَلُوط: هُوَ ابْن هَارِن بْن آزَر، وَهُوَ ابْن أَخِي إِبْرَاهِيم الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ قَدْ آمَنَ مَعَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى أَرْض الشَّام، فَبَعَثَهُ الله إِلَى أَهْل سَدُوم وَمَا حَوْلهَا مِنْ القُرَى، يَدْعُوهُمْ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ وَيَأْمُرهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَرْتَكِبُونَهُ مِنْ المَآثِم وَالمَحَارِم وَالفَوَاحِش الَّتِي اخْتَرَعُوهَا، لَمْ يَسْبِقهُمْ بِهَا أَحَد مِنْ بَنِي آدَم وَلَا غَيْرهمْ، وَهُوَ إِتْيَان الذُّكُور دُون الإِنَاث، وَهَذَا شَيْء لَمْ يَكُنْ بَنُو آدَم تَعْهَدهُ وَلَا تَأْلَفهُ وَلَا يَخْطِر بِبَالِهِمْ، حَتَّى صَنَعَ ذَلِكَ أَهْل سَدُوم عَلَيْهِمْ لَعَائِن الله! قَالَ عَمْرو بْن دِينَار فِي قَوْله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: مَا نَزَا ذَكَر عَلَى ذَكَر حَتَّى كَانَ قَوْم لُوط. وَقَالَ الوَلِيد بْن عَبْد المَلِك الخَلِيفَة الأُمَوِيّ بَانِي جَامِع دِمَشْق: لَوْلَا أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَصَّ عَلَيْنَا خَبَر قَوْم لُوط، مَا ظَنَنْت أَنَّ ذَكَرًا يَعْلُو ذَكَرًا. وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أَيْ: عَدَلْتُمْ عَنْ النِّسَاء، وَمَا خَلَقَ لَكُمْ رَبّكُمْ مِنْهُنَّ إِلَى الرِّجَال، وَهُوَ إِسْرَاف مِنْكُمْ وَجَهْل؛ لِأَنَّهُ وَضْع الشَّيْء فِي غَيْر مَحَلّه؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ، فَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهُمْ لا يَشْتَهُونَهُنَّ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أَيْ: لَقَدْ عَلِمْت أَنَّهُ لا أَرَب لَنَا فِي النِّسَاء وَلَا إِرَادَة، وَإِنَّك لَتَعْلَم مُرَادنَا مِنْ أَضْيَافك. وَذَكَرَ المُفَسِّرُونَ: أَنَّ الرِّجَال كَانُوا قَدْ اسْتَغْنَى بَعْضهمْ بِبَعْضٍ، وَكَذَلِكَ نِسَاؤُهُمْ كُنَّ قَدْ اسْتَغْنَيْنَ بَعْضهنَّ بِبَعْضٍ أَيْضًا.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

أَيْ: مَا أَجَابُوا لُوطًا لا أَنْ هَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ وَنَفْيه وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ، فَأَخْرَجَهُ الله تَعَالَى سَالِمًا، وَأَهْلَكَهُمْ فِي أَرْضهمْ صَاغِرِينَ مُهَانِينَ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قَالَ قَتَادَة: عَابُوهُمْ بِغَيْرِ عَيْب. وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ مِنْ أَدْبَار الرِّجَال وَأَدْبَار النِّسَاء. وَرُوِيَ مِثْله عَنْ ابْن عَبَّاس أَيْضًا.

---

(١) ضعيف: ضعفه الألباني في «فقه السيرة» (١/ ٢٣١).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٢٣٢) من حديث ابن عباس، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٥٠١) وقال: رواه أحمد وفيه زمعة بن صالح وفيه كلام وقد وُثّق، وقد ضعفه الحافظ كما في «التقريب» (١/ ٢١٧/ ٢٠٣٥)، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (٧١٣).

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: فَأَنْجَيْنَا لُوطًا وَأَهْله، وَلَمْ يُؤْمِن بِهِ أَحَد مِنْهُمْ سِوَى أَهْل بَيْته فَقَطْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إِلَّا امْرَأَته فَإِنَّهَا لَمْ تُؤْمِن بِهِ، بَلْ كَانَتْ عَلَى دِين قَوْمهَا تُمَالِئُهُمْ عَلَيْهِ، وَتُعْلِمهُمْ بِمَنْ يَقْدَم عَلَيْهِ مِنْ ضِيفَانه بِإِشَارَاتٍ بَيْنهَا وَبَيْنهمْ، وَلِهَذَا لَمَّا أُمِرَ لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يسري بِأَهْلِهِ أُمِرَ أَنْ لا يُعْلِم امرأته وَلَا يُخْرِجهَا مِنْ البَلَد، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول: بَلْ اتَّبَعَتْهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ العَذَاب التَفَتَتْ هِيَ فَأَصَابَهَا مَا أَصَابَهُمْ، وَالأَظْهَر: أَنَّهَا لَمْ تَخْرُج مِنْ البَلَد، وَلَا أَعْلَمَهَا لُوط، بَلْ بَقِيَتْ مَعَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أَيْ: البَاقِينَ، ومنهم من فسر ذلك ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: مِنْ الهَالِكِينَ وَهُوَ تَفْسِير بِاللَّازِم.

قَوْله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ مُفَسَّر بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أَيْ: انْظُرْ يَا مُحَمَّد، كَيْف كَانَ عَاقِبَة مَنْ تجهرم عَلَى مَعَاصِي الله عَزَّ وَجَلَّ وَكَذب رُسُله. وَقَدْ ذَهَبَ الإِمَام أَبُو حَنِيفَة رَحِمَهُ اللهُ، إِلَى أَنَّ اللَّائِط يُلْقَى مِنْ شَاهِق وَيُتْبَع بِالحِجَارَة، كَمَا فُعِلَ بِقَوْم لُوط، وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنَ العُلَمَاء إِلَى أَنَّهُ يُرْجَم، سَوَاء كَانَ مُحْصَنًا أَوْ غَيْر مُحْصَن وَهُوَ أَحَد قَوْلَيْ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ، وَالحُجَّة مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ، وَابْن مَاجَهْ، مِنْ حَدِيث الدَّرَاوَرْدِيّ، عَنْ عَمْرو بْن أَبِي عَمْرو، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَل عَمَل قَوْم لُوط، فَاقْتُلُوا الفَاعِل وَالمَفْعُول بِهِ**»[1]. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ كَالزَّانِي؛ فَإِنْ كَانَ مُحْصَنًا رُجِمَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُحْصَنًا جُلِدَ مِائَة جَلْدَة. وَهُوَ القَوْل الآخَر لِلشَّافِعِيّ، وَأَمَّا إِتْيَان النِّسَاء فِي الأَدْبَار فَهُوَ اللُّوطِيَّة الصُّغْرَى، وَهُوَ حَرَام بِإِجْمَاع العُلَمَاء، إِلَّا قَوْلًا شَاذًّا لِبَعْضِ السَّلَف، وَقَدْ وَرَدَ فِي النَّهْي عَنْهُ أَحَادِيث كَثِيرَة عَنْ رَسُول الله ﷺ وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَام عَلَيْهَا فِي سُورَة البَقَرَة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: هُمْ مِنْ سُلَالَة مَدْيَن بْن مديان بن إِبْرَاهِيم، وَشُعَيْب هُوَ ابْن ميكيل بْن يَشْجُر. قَالَ: وَاسْمه بِالسُّرْيَانِيَّة «يثرون».

قُلْت: «مَدْيَن» تُطْلَق عَلَى القَبِيلَة وَعَلَى المَدِينَة، وَهِيَ الَّتِي بِقُرْب «مَعَان» مِنْ طَرِيق الحِجَاز. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ وَهُمْ أَصْحَاب الأَيْكَة، كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ الله وَبِهِ الثِّقَة. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ هَذِهِ دَعْوَة الرُّسُل كُلّهمْ، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَيْ: قَدْ أَقَامَ الله الحُجَج وَالبَيِّنَات عَلَى صِدْق مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي مُعَامَلَتهمْ النَّاس، بِأَنْ يُوفُوا المِكْيَال وَالمِيزَان، وَلَا يَبْخَسُوا النَّاس أَشْيَاءَهُمْ، أَيْ: لا يَخُونُوا النَّاس فِي أَمْوَالهمْ، وَيَأْخُذُوهَا عَلَى وَجْه البَخْس وَهُوَ نَقْص المِكْيَال وَالمِيزَان خُفْيَة وَتَدْلِيسًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، وابن ماجه (٢٥٦١) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٨٩)، و«الإرواء» (٢٣٥٠)، و«المشكاة» (٣٥٧٥).

وَهَذَا تَهْدِيد شَدِيد، وَوَعِيد أَكِيد، نَسْأَل الله العَافِيَة مِنْهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ شُعَيْب، الَّذِي يُقَال لَهُ: خَطِيب الأَنْبِيَاء؛ لِفَصَاحَةِ عِبَارَته، وَجَزَالَة مَوْعِظَته.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

يَنْهَاهُمْ شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَام عَنْ قَطْع الطَّرِيق الحِسِّيّ وَالمَعْنَوِي، بِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أَيْ: تَتَوَعَّدُونَ النَّاس بِالقَتْلِ إِنْ لَمْ يُعْطُوكُمْ أَمْوَالهمْ. قَالَ السُّدِّيّ وَغَيْره: كَانُوا عَشَّارِينَ. وَعَنْ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَغَيْر وَاحِد: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أَيْ: تَتَوَعَّدُونَ المُؤْمِنِينَ الآتِينَ إِلَى شُعَيْب لِيَتَّبِعُوهُ. وَالأَوَّل أَظْهَر؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وَهِيَ الطرق، وَهَذَا الثَّانِي هُوَ قَوْله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ: وَتَوَدُّونَ أَنْ تَكُون سَبِيل الله عِوَجًا مَائِلَة، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أَيْ: كُنْتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ لِقِلَّتِكُمْ، فَصِرْتُمْ أَعِزَّة لِكَثْرَةِ عَدَدكُمْ، فَاذْكُرُوا نِعْمَة الله عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ: مِنْ الأُمَم الخَالِيَة وَالقُرُون المَاضِيَة، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال بِاجْتِرَائِهِمْ عَلَى مَعَاصِي الله وَتَكْذِيب رُسُله.

وَقَوْله: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أَيْ: قَدْ اخْتَلَفْتُمْ عَلَيَّ ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أَيْ: انْتَظِرُوا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وَبَيْنكُمْ، أَيْ: يَفْصِل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فَإِنَّهُ سَيَجْعَلُ العَاقِبَة لِلْمُتَّقِينَ، وَالدَّمَار عَلَى الكَافِرِينَ.

﴿ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾

هَذَا إِخْبَار مِنْ الله تَعَالَى عَمَّا وَاجَهَتْ بِهِ الكُفَّار نَبِيّه شُعَيْبًا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ المُؤْمِنِينَ، فِي تَوَعُّدهمْ إِيَّاهُ وَمَنْ مَعَهُ بِالنَّفْيِ من القَرْيَة أَوْ الإِكْرَاه عَلَى الرُّجُوع فِي مِلَّتهمْ وَالدُّخُول مَعَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، وَهَذَا خِطَاب مَعَ الرَّسُول، وَالمُرَاد: أَتْبَاعه الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ عَلَى المِلَّة.

وَقَوْله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يَقُول: أَوَ أَنْتُمْ فَاعِلُو ذَلِكَ وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَإِنَّا إِنْ رَجَعْنَا إِلَى مِلَّتكُمْ، وَدَخَلْنَا مَعَكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ، فَقَدْ أَعْظَمْنَا الفِرْيَة عَلَى الله فِي جَعْل الشُّرَكَاء مَعَهُ أَنْدَادًا، وَهَذَا تَنْفِير مِنْهُ عن اتِّبَاعهمْ، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وَهَذَا رَدّ إِلَى المشيئة فَإِنَّهُ يَعْلَم كُلّ شَيْء، وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْء عِلْمًا، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أَيْ: فِي أُمُورنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَر، ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ: افصل بَيْننَا وَبَيْن قَوْمنَا وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أَيْ: خَيْر الحَاكِمِينَ، فَإِنَّك العَادِل الَّذِي لا يَجُور أَبَدًا.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ شِدَّة كُفْر قوم شعيب، وَتَمَرُّدهمْ وَعُتُوّهُمْ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنْ الضَّلَال، وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبهمْ مِنْ المُخَالَفَة لِلْحَقِّ، وَلِهَذَا أَقْسَمُوا وَقَالُوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾؛ فلهذا عقب ذلك بقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى ههُنَا أَنَّهُمْ أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَة؛ وَذَلِكَ كَمَا أَرْجَفُوا شُعَيْبًا

وَأَصْحَابه وَتَوَعَّدُوهُمْ بِالجَلَاءِ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي سُورَة هُود، فَقَالَ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وَالمُنَاسَبَة فِي ذلك وَالله أَعْلَم: أَنَّهُمْ لَمَّا تَهَكَّمُوا بنبي الله شعيب فِي قَوْلِهِمْ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ فَجَاءَتْ الصَّيْحَة فَأَسْكَتَتْهُمْ.

وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ فِي سُورَة الشُّعَرَاء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا لهُ فِي سِيَاق القِصَّة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُمْ عَذَاب يَوْم الظُّلَّة، وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلّه أصابهم ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وَهِيَ سَحَابَة أَظَلَّتْهُمْ فِيهَا شَرَر مِنْ نَار، وَلَهَب وَوَهَج عَظِيم، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَة مِنْ السَّمَاء، وَرَجْفَة مِنْ الأَرْض شَدِيدَة مِنْ أَسْفَل مِنْهُمْ، فَزَهَقَتْ الأَرْوَاح، وَفَاضَتْ النُّفُوس، وَخَمَدَتْ الأَجْسَام ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. ثم قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ أَيْ: كَأَنَّهُمْ لَمَّا أَصَابَتْهُمْ النِّقْمَة، لمْ يُقِيمُوا بِدِيَارِهِمْ الَّتِي أَرَادُوا إِجْلَاء الرَّسُول وَصَحْبه مِنْهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لِقِيلِهِمْ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

أَيْ: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ العَذَاب وَالنِّقْمَة وَالنَّكَال، وَقَالَ مُقْرِعًا لهُمْ وَمُوَبِّخًا: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أَيْ: قَدْ أَدَّيْت إِلَيْكُمْ مَا أُرْسِلْت بِهِ، فَلَا آسَف عَلَيْكُمْ وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا اخْتَبَرَ بِهِ الأُمَم المَاضِيَة، الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ الأَنْبِيَاء ﴿بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ﴾، يَعْنِي بِالبَأْسَاءِ: مَا يُصِيبهُمْ فِي أَبْدَانهمْ مِنْ أَمْرَاض وَأَسْقَام، وَالضَّرَّاء: مَا يُصِيبهُمْ مِنْ فَقْر وَحَاجَة وَنَحْو ذَلِكَ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أَيْ: يَدْعُون وَيَخْشَعُونَ وَيَبْتَهِلُونَ إِلَى الله تَعَالَى فِي كَشْف مَا نَزَلَ بِهِمْ. **وَتَقْدِير الكَلَام**: أَنَّهُ ابْتَلَاهُمْ بِالشِّدَّةِ لِيَتَضَرَّعُوا، فَمَا فَعَلُوا شَيْئًا مِنْ الَّذِي أَرَادَ الله مِنْهُمْ، فَقَلَبَ عَلَيْهِمْ الحَال إِلَى الرَّخَاء لِيَخْتَبِرهُمْ فِيهِ؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أَيْ: حَوَّلْنَا الحَال مِنْ شِدَّة إِلَى رَخَاء، وَمِنْ مَرَض وَسَقَم إِلَى صِحَّة وَعَافِيَة، وَمِنْ فَقْر إِلَى غِنًى؛ لِيَشْكُرُوا عَلَى ذَلِكَ فَمَا فَعَلُوا.

وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أَيْ: كَثُرُوا وَكَثُرَتْ أَمْوَالهمْ وَأَوْلَادهمْ. يُقَال: عَفَا الشَّيْء إِذَا كَثُرَ. ﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُول تَعَالَى: ابْتَلَيْنَاهُمْ بِهَذَا وَهَذَا، لِيَتَضَرَّعُوا وَيُنِيبُوا إِلَى الله، فَمَا نَجَعَ فِيهِمْ لا هَذَا وَلَا هَذَا، وَلَا انْتَهَوْا بِهَذَا وَلَا بِهَذَا، بل قَالُوا: قَدْ مَسَّنَا مِنْ البَأْسَاء وَالضَّرَّاء ثُمَّ بَعْده مِنْ الرَّخَاء، مِثْل مَا أَصَابَ آبَاءَنَا فِي قَدِيم الدَّهْر، وَإِنَّمَا هُوَ الدَّهْر تَارَات وَتَارَات، وَلمْ يَتَفَطَّنُوا لِأَمْرِ الله فِيهِمْ وَلَا اسْتَشْعَرُوا ابْتِلَاء الله لهُمْ فِي الحَالَيْنِ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَال المُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ يَشْكُرُونَ الله عَلَى السَّرَّاء، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الضَّرَّاء، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ؛ لا يَقْضِي الله لهُ قَضَاء إلا كَانَ خَيْرًا لهُ؛ إنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لهُ**»[1]. فَالمُؤْمِن مَنْ يَتَفَطَّن لِمَا ابْتَلَاهُ الله بِهِ مِنْ الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء؛ وَلِهَذَا

---

(١) صحيح: تقدم.

جَاءَ فِي الحَدِيث: «لا يَزَال البَلاء بالمُؤمِن حَتَّى يَخرُج نَقِيًا مِنْ ذُنُوبه، وَالمُنَافِق مَثَله كَمَثَلِ الحمَار، لا يَدْرِي فِيمَ رَبَطَهُ أَهْله، وَلا فِيمَ أَرْسَلُوهُ»(١). أَوْ: كَمَا قَالَ.

وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الصِّفَة بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ: أَخَذْنَاهُمْ بِالعُقُوبَةِ بغْتَة، أَيْ: عَلَى بَغْتَة وَعَدَم شُعُور مِنْهُمْ، أَيْ: أَخَذْنَاهُمْ فَجْأَة؛ كَمَا فِي الحَدِيث: «مَوْت الفَجْأَة رَحْمَة لِلْمُؤْمِنِ، وَأَخْذَة أَسَف لِلْكَافِرِ»(٢).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ قِلَّة إِيمَان أَهْل القُرَى الَّذِينَ أُرْسِلَ فِيهِمْ الرُّسُل؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَيْ: مَا آمَنَتْ قَرْيَة بِتَمَامِهَا إِلَّا قَوْم يُونُس فَإِنَّهُمْ آمَنُوا، وَذَلِكَ بَعْدَمَا عَايَنُوا العَذَاب، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أَيْ: آمَنَتْ قُلُوبهمْ بِمَا جَاءَتهم بِهِ الرُّسُل، وَصَدَّقَتْ بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَاتَّقَوْا بِفِعْلِ الطَّاعَات وَتَرْك المُحَرَّمَات؛ ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: قَطْر السَّمَاء وَنَبَات الأَرْض. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ: وَلَكِنْ كَذَّبُوا رُسُلهمْ فَعَاقَبْنَاهُمْ بِالهَلَاكِ عَلَى مَا كَسَبُوا مِنْ المَآثِم وَالمَحَارِم. ثم قَالَ تَعَالَى مُخَوِّفًا وَمُحَذِّرًا مِنْ مُخَالَفَة أَوَامِره، وَالتَّجَرُّؤ عَلَى زَوَاجِره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أَيْ: الكَافِرَة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أَيْ: عَذَابنَا وَنَكَالنَا ﴿بَيَاتًا﴾ أَيْ: لَيْلًا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أَيْ: فِي حَال شُغْلهمْ وَغَفْلَتهمْ، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أَيْ: بَأْسه وَنِقْمَته وَقُدْرَته عَلَيْهِمْ، وَأَخْذه إِيَّاهُمْ فِي حَال سَهْوهمْ وَغَفْلَتهمْ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ وَلِهَذَا قَالَ الحَسَن البَصْرِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: المُؤْمِن يَعْمَل بِالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِق وَجِل خَائِف، وَالفَاجِر يَعْمَل بِالمَعَاصِي وَهُوَ آمِن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

قَالَ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: أَوَلَمْ نُبَيِّن لَهُمْ أَنْ لَوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير فِي تَفْسِيرهَا: يَقُول تَعَالَى: أَوَلَمْ نُبَيِّن لِلَّذِينَ يُسْتَخْلَفُونَ فِي الأَرْض مِنْ بَعْد إِهْلَاك آخَرِينَ قَبْلهمْ كَانُوا أَهْلهَا، فَسَارُوا سِيرَتهمْ وَعَمِلُوا أَعْمَالهمْ، وَعَتَوْا عَلَى رَبّهمْ ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ يَقُول: أَنْ لَوْ نَشَاء فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلهمْ، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يَقُول: وَنَخْتِم عَلَى قُلُوبهمْ ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ مَوْعِظَة وَلَا تَذْكِيرًا.

قُلْتُ: وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾

(١) لم أقف على لفظه ولا على سنده.

(٢) **ضعيف**: أورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٥٦) ولفظه: سُئِل رسول الله ﷺ عن موت الفجأة فقال: «**راحة للمؤمن، وأخذة أسف على الفاجر**»، وقال بعد ذكره: رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» وفيه قصة، وفيه عبيد الله بن الوليد الوصافي وهو متروك.

أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أَيْ: هَلْ تَرَى لَهُمْ شَخْصًا، أَوْ تَسْمَع لَهُمْ صَوْتًا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى بَعْد ذِكْره إِهْلَاكَ عَاد: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّة عَلَى حُلُول نِقَمه بِأَعْدَائِهِ، وَحُصُول نِعَمه لِأَوْلِيَائِهِ؛ وَلِهَذَا عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ وَهُوَ أَصْدَق القَائِلِينَ وَرَبّ العَالَمِينَ:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾

لَمَّا قَصَّ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّه ﷺ، خَبَر قَوْم نُوح وَهُود وَصَالِح وَلُوط وَشُعَيْب، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكه الكَافِرِينَ وَإِنْجَائِهِ المُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ بِأَنْ بَيَّنَ لَهُمْ الحَقّ بِالحُجَج عَلَى أَلْسِنَة الرُّسُل، صَلَوَات الله عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّد ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أَيْ: مِنْ أَخْبَارهَا ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أَيْ: بِالحُجَج عَلَى صِدْقهم فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ البَاء سَبَبِيَّة، أَيْ: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُل بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالحَقِّ أَوَّل مَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ. حَكَاهُ ابْن عَطِيَّة رَحِمَهُ اللهُ، وَهُوَ مُتَّجِه حَسَن، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أَيْ: لِأَكْثَر الأُمَم المَاضِيَة ﴿مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ أَيْ: وَلَقَدْ وَجَدْنَا أَكْثَرهمْ فَاسِقِينَ، خَارِجِينَ عَنْ الطَّاعَة وَالِامْتِثَال، وَالعَهْد الَّذِي أَخَذَهُ هُوَ مَا جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الأَصْلَاب: أَنَّهُ رَبّهمْ وَمَلِيكهمْ، وَأَنَّهُ لا إِلَه إِلَّا هُوَ، وَأَقَرُّوا بِذَلِكَ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسهمْ بِهِ، وَخَالَفُوهُ وَتَرَكُوهُ وَرَاء ظُهُورهمْ، وَعَبَدُوا مَعَ الله غَيْره بِلَا دَلِيل وَلَا حُجَّة، لا مِنْ عَقْل وَلَا شَرْع، وَفِي الفِطَر السَّلِيمَة خِلَاف ذَلِكَ، وَجَاءَتْ الرُّسُل الكِرَام مِنْ أَوَّلهمْ إِلَى آخِرهمْ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيح مُسْلِم: «يَقُول الله تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْت عِبَادِي حُنَفَاء، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِين فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينهمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْت لَهُمْ».[1] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «كُلّ مَوْلُود

(١) صحيح: تقدم.

يُولَد عَلَى الفِطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ»[1]. الحَدِيث. وَقَالَ تَعَالَى فِي كِتَابه العَزِيز: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنَ الآيَات.

وَقَدْ قِيلَ فِي تَفْسِير قَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ مَا رَوَى أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ: عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، فِي قَوْله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قَالَ: كَانَ فِي عِلْمه تَعَالَى يَوْم أَقَرُّوا لَهُ بِالمِيثَاقِ. أَيْ: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا لِعِلْمِ الله مِنْهُمْ ذَلِكَ. وَكَذَا قَالَ الرَّبِيع بْن أَنَس، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قَالَ: ذَلِكَ يَوْم أَخَذَ مِنْهُمْ المِيثَاق، فَآمَنُوا كَرْهًا. وَقَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ هَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أَيْ: الرُّسُل المُتَقَدِّم ذِكْرهم؛ كَنُوح وَهُود وَصَالِح وَلُوط وَشُعَيْب، صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِر أَنْبِيَاء الله أَجْمَعِين ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أَيْ: بِحُجَجِنَا وَدَلَائِلنَا البَيِّنَة إِلَى فِرْعَوْن، وَهُوَ مَلِك مِصْر فِي زَمَان مُوسَى ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أَيْ: قَوْمه ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أَيْ: جَحَدُوا وَكَفَرُوا بِهَا ظُلْمًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ: الَّذِينَ صَدُّوا عَنْ سَبِيل الله وَكَذَّبُوا رُسُله، أَيْ: انْظُرْ يَا مُحَمَّد، كَيْف فَعَلْنَا بِهِمْ، وَأَغْرَقْنَاهُمْ عَنْ آخِرهمْ بِمَرْأَى مِنْ مُوسَى وَقَوْمه، وَهَذَا أَبْلَغ فِي النَّكَال بِفِرْعَوْن وَقَوْمه، وَأَشْفَى لِقُلُوبِ أَوْلِيَاء الله: مُوسَى وَقَوْمه مِنَ المُؤْمِنِينَ بِهِ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ مُنَاظَرَة مُوسَى لِفِرْعَوْن، وَإِلْجَامه إِيَّاهُ بِالحُجَّة، وَإِظْهَاره الآيَات البَيِّنَات بِحَضْرَةِ فِرْعَوْن وَقَوْمه مِنْ قِبْط مِصْر، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: أَرْسَلَنِي الَّذِي هُوَ خَالِق كُلّ شَيْء وَرَبّه وَمَلِيكه.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فَقَالَ بَعْضهمْ: مَعْنَاهُ حَقِيق بِأَنْ لا أَقُول عَلَى الله إِلَّا الحَق، أَيْ: جَدِير بِذَلِكَ وَحَرِيّ بِهِ. قَالُوا: «وَالبَاء وَعَلَى» يَتَعَاقَبَانِ، فَيُقَال: رَمَيْت بِالقَوْس، وَعَلَى القَوْس، وَجَاءَ عَلَى حَال حَسَنَة، وَبِحَالٍ حَسَنَة. وَقَالَ بَعْض المُفَسِّرِينَ: مَعْنَاهُ: حَرِيص عَلَى أَنْ لا أَقُول عَلَى الله إِلَّا الحَق. وَقَرَأَ آخَرُونَ مِنْ أَهْل المَدِينَة: ﴿حَقِيقٌ عَلَىَّ﴾ بِمَعْنَى وَاجِب وَحَق عَلَيَّ ذَلِكَ: أَنْ لا أُخْبِر عَنْهُ إِلَّا بِمَا هُوَ حَق وَصِدْق لِمَا أَعْلَم مِنْ جَلَاله وَعَظِيم سلطانه. ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَيْ: بِحُجَّةٍ قَاطِعَة مِنَ الله أَعْطَانِيهَا دَلِيلًا عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أَيْ: أَطْلِقْهُمْ مِنْ أَسْرك وَقَهْرك، وَدَعْهُمْ وَعِبَادَة رَبّك وَرَبّهمْ، فَإِنَّهُمْ مِنْ سُلَالَة نَبِيّ كَرِيم إِسْرَائِيل، وَهُوَ يَعْقُوب بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم خَلِيل الرَّحْمَن. ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أَيْ: قَالَ فِرْعَوْن: لَسْت بِمُصَدِّقك فِيمَا قُلْت، وَلَا بِمُطِيعِك فِيمَا طَلَبْت، فَإِنْ كَانَتْ مَعَك حُجَّة فَأَظْهِرْهَا لِنَرَاهَا، إِنْ كُنْت صَادِقًا فِيمَا ادَّعَيْت.

---

(١) صحيح: تقدم.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الحَيَّة الذَّكَر. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيّ وَالضَّحَّاك. وَفِي حَدِيث الفُتُون مِنْ رِوَايَة يَزِيد بْن هَارُون أخبرنا الأَصْبَغ بْن زَيْد، عَنْ القَاسِم بْن أَبِي أَيُّوب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ فَتَحَوَّلَتْ حَيَّة عَظِيمَة فَاغِرَة فَاهَا مُسْرِعَة إِلَى فِرْعَوْن، فَلَمَّا رَآهَا فِرْعَوْن أَنَّهَا قَاصِدَة إِلَيْهِ اقْتَحَمَ عَنْ سَرِيره، وَاسْتَغَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكُفّهَا عَنْهُ، فَفَعَلَ.

وَقَالَ قَتَادَة: تَحَوَّلَتْ حَيَّة عَظِيمَة مِثْل المَدِينَة. وَقَالَ السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الثُّعْبَان: الذَّكَر مِنْ الحَيَّات، فَاتِحَة فَاهَا وَاضِعَة لحيَيهَا الأَسْفَل فِي الأَرْض، وَالآخَر عَلَى سُور القَصْر، ثُمَّ تَوَجَّهَتْ نَحْو فِرْعَوْن لِتَأْخُذهُ، فَلَمَّا رَآهَا ذُعِرَ مِنْهَا وَوَثَبَ وَأَحْدَثَ، وَلَمْ يَكُنْ يُحْدِث قَبْل ذَلِكَ، وَصَاحَ: يَا مُوسَى، خُذْهَا وَأَنَا أُومِن بِك، وَأُرْسِل مَعَك بَنِي إِسْرَائِيل. فَأَخَذَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَادَتْ عَصًا. وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس نَحْو هَذَا. وَقَالَ وَهْب بْن مُنَبِّه: لَمَّا دَخَلَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْن قَالَ لَهُ فِرْعَوْن: أَعْرِفك. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قَالَ: فَرَدَّ إِلَيْهِ مُوسَى الَّذِي رَدَّ. فَقَالَ فِرْعَوْن: خُذُوهُ. فَبَادَرَه مُوسَى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فَحَمَلَتْ عَلَى النَّاس فَانْهَزَمُوا مِنْهَا، فَمَاتَ مِنْهُمْ خَمْسَة وَعِشْرُونَ أَلْفًا قَتَلَ بَعْضهمْ بَعْضًا، وَقَامَ فِرْعَوْن مُنْهَزِمًا حَتَّى دَخَلَ البَيْت. رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَالإِمَام أَحْمَد فِي كِتَابه «الزُّهْد»، وَابْن أَبِي حَاتِم وَفِيهِ غَرَابَة فِي سِيَاقه، وَالله أَعْلَم. وقَوْله: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أَيْ: أَخْرَجَ يَده مِنْ دِرْعه بَعْدَمَا أَدْخَلَهَا فِيهِ، فخرجت بَيْضَاء تَتَلَأْلأ مِنْ غَيْر بَرَص وَلَا مَرَض؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، وَقَالَ ابْن عَبَّاس فِي حَدِيث الفُتُون[١]: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ يَعْنِي: مِنْ غَيْر بَرَص، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى كُمّه فَعَادَتْ إِلَى لونهَا الأَوَّل، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

أَيْ: قَالَ المَلَأ وَهُمْ الجُمْهُور وَالسَّادَة مِنْ قَوْم فِرْعَوْن، مُوَافِقِينَ لِقَوْلِ فِرْعَوْن فِيهِ، بَعْدَمَا رَجَعَ إِلَيْهِ رَوْعه، وَاسْتَقَرَّ عَلَى سَرِير مَمْلَكَته، بَعْد ذَلِكَ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فَوَافَقُوهُ وَقَالُوا كَمَقَالَتِهِ، وَتَشَاوَرُوا فِي أَمْره، وماذا يَصْنَعُونَ فِي أَمْره، وَكَيْف تَكُون حِيلَتهمْ فِي إِطْفَاء نُوره وَإِخْمَاد كَلِمَته، وَظُهُور كَذِبه وَافْتِرَائِهِ وَتَخَوَّفُوا أَنْ يَسْتَمِيل النَّاس إليه بِسِحْرِهِ فِيمَا يَعْتَقِدُونَ، فَيَكُون ذَلِكَ سَبَبًا لِظُهُورِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِخْرَاجه إِيَّاهُمْ مِنْ أَرْضهمْ، وَالَّذِي خَافُوا مِنْهُ وَقَعُوا فِيهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ فَلَمَّا تَشَاوَرُوا فِي شَأْنه، وَائْتَمَرُوا بِمَا فِيهِ، اتَّفَقَ رَأْيهمْ عَلَى مَا حَكَاهُ الله تَعَالَى عَنْهُمْ في قوله تعالى:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

قَالَ ابْن عَبَّاس: ﴿أَرْجِهْ﴾ أَخِّرْهُ. وَقَالَ قَتَادَة: احْبِسْهُ. ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أَيْ: ابْعَثْ ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ أَيْ: فِي الأَقَالِيم وَمَدَائِن مُلْكك ﴿حَاشِرِينَ﴾ أَيْ: مَنْ يَحْشُر لك السَّحَرَة مِنْ سَائِر البِلَاد وَيَجْمَعهُمْ. وَقَدْ كَانَ السِّحْر فِي زَمَانهمْ غَالِبًا كَثِيرًا ظَاهِرًا، وَاعْتَقَدَ مَنْ اعْتَقَدَ مِنْهُمْ، وَأُوهِمَ مَنْ أُوهِمَ مِنْهُمْ، أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبِيل مَا تُشَعْبِذهُ سَحَرَتهمْ، فَلِهَذَا جَمَعُوا لَهُ السَّحَرَة، لِيُعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا أَرَاهُمْ مِنْ البَيِّنَات. كما أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْن حَيْثُ قَالَ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا:

---

(١) صحيح موقوف: تقدم.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

يُخبِر تَعَالَى عَمَّا تَشَارَطَ عَلَيْهِ فِرْعَوْن وَالسَّحَرَة، الَّذِينَ اسْتَدْعَاهُمْ لِمُعَارَضَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْ غَلَبُوا مُوسَى لَيُثِيبَنَّهُمْ وَلَيُعْطِيَنَّهُمْ عَطَاء جَزِيلًا، فَوَعَدَهُمْ وَمَنَّاهُمْ أَنْ يُعْطِيهِمْ مَا أَرَادُوا، وَلَيَجْعَلنهم مِنْ جُلَسَائِهِ وَالْمُقَرَّبِينَ عِنْده، فَلَمَّا تَوَثَّقُوا مِنْ فِرْعَوْن لَعَنَهُ الله.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

هَذِهِ مُبَارَزَة مِنْ السَّحَرَة لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلهمْ: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ أَيْ: قَبْلك؛ كَمَا قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾.

فقَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَلْقُواْ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ أَوَّلًا قِبلي والحِكْمَة فِي هَذَا وَالله أَعْلَم؛ لِيُرِيَ النَّاس صَنِيعهمْ وَيَتَأَمَّلُوهُ، فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ بَهْرَجهمْ وَمُحَالهمْ جَاءَهُمْ الحَقّ الوَاضِح الجَلِيّ بَعْد التَّطَلُّب لهُ وَالِانْتِظَار مِنْهُمْ لِمَجِيئِهِ، فَيَكُون أَوْقَع فِي النُّفُوس، وَكَذَا كَانَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أَيْ: خَيَّلُوا إِلَى الأَبْصَار أَنَّ مَا فَعَلُوهُ لهُ حَقِيقَة فِي الخَارِج، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مُجَرَّد صَنْعَة وَخَيَال؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

قَالَ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة: حَدَّثَنَا أَبُو سعد، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَلْقَوْا حِبَالًا غِلَاظًا وَخَشَبًا طِوَالًا، قَالَ: فَأَقْبَلَتْ يُخَيَّل إِلَيْهِ مِنْ سِحْرهمْ أَنَّهَا تَسْعَى. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: صَفَّ خَمْسَة عَشَرَ أَلْف سَاحِر مَعَ كُلّ سَاحِر، حِباله وَعِصِيّه، وَخَرَجَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَهُ أَخُوهُ يَتَّكِئ عَلَى عَصَاهُ، حَتَّى أَتَى الجَمْع وَفِرْعَوْن فِي مَجْلِسه مَعَ أَشْرَاف أَهْل مَمْلَكَته، ثُمَّ قالت السَّحَرَة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ...﴾ فَكَانَ أَوَّل مَا اخْتَطَفُوا بِسِحْرِهِمْ بَصَر مُوسَى وَبَصَر فِرْعَوْن، ثُمَّ أَبْصَار النَّاس بَعْد، ثُمَّ أَلْقَى كُلّ رَجُل مِنْهُمْ مَا فِي يَده مِنْ الحِبَال وَالعِصِيّ، فَإِذَا حَيَّات كَأَمْثَالِ الجِبَال، قَدْ مَلَأَتْ الوَادِي يَرْكَب بَعْضهَا بَعْضًا. وَقَالَ السُّدِّيّ: كَانُوا بِضْعَة وَثَلَاثِينَ أَلْف رَجُل، لَيْسَ رَجُل مِنْهُمْ إِلَّا وَمَعَهُ حَبْل وَعَصًا ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يَقُول: فَرَقُوهُمْ، أَيْ: مِنْ الفَرَق. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة، عَنْ هِشَام الدَّسْتُوَائِيّ، حَدَّثَنَا القَاسِم بْن أَبِي بَزَّة، قَالَ: جَمَعَ فِرْعَوْن سَبْعِينَ أَلْف سَاحِر فَأَلْقَوْا سَبْعِينَ أَلْف حَبْل، وَسَبْعِينَ أَلْف عَصًا، حَتَّى جَعَلَ يُخَيَّل إِلَيْهِ مِنْ سِحْرهمْ أَنَّهَا تَسْعَى. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

يُخبِر تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْده وَرَسُوله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ المَوْقِف العَظِيم، الَّذِي فَرَّقَ الله تَعَالَى فِيهِ بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل، يَأْمُرهُ بِأَنْ يُلْقِي مَا فِي يَمِينه، وَهِيَ عَصَاهُ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أَيْ: تَأْكُل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أَيْ: مَا يُلْقُونَهُ، وَيُوهِمُونَ أَنَّهُ حَقّ وَهُوَ بَاطِل. قَالَ ابْن عَبَّاس: فَجَعَلَتْ لا تَمُرّ بِشَيْءٍ مِنْ حِبَالهمْ وَلَا مِنْ خَشَبهمْ إِلَّا التَقَمَتْهُ، فَعَرَفَتْ السَّحَرَة أَنَّ هَذَا أمر مِنَ السَّمَاء وَلَيْسَ هَذَا بِسِحْرٍ، فَخَرُّوا سُجَّدًا، وَقَالُوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: جَعَلَتْ [تبتلع][1] تِلْكَ الحِبَال وَالعِصِيّ وَاحِدَة وَاحِدَة، حَتَّى

---

(١) في نسخة: [تتبع].

مَا يُرَى بِالوَادِي قَلِيل وَلَا كَثِير مِمَّا أَلْقَوْا، ثُمَّ أَخَذَهَا مُوسَى، فَإِذَا هِيَ عَصًا فِي يَده كَمَا كَانَتْ، وَوَقَعَ السَّحَرَة سُجَّدًا ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لَوْ كَانَ هَذَا سَاحِرًا مَا غَلَبَنَا. وَقَالَ القَاسِم بْن أَبِي بَزَّة: أَوْحَى الله إِلَيْهِ أَنْ أَلْقِ عَصَاك، فَأَلْقَى عَصَاهُ، فَإِذَا هِيَ ثُعْبَان فَاغِر فَاهُ يَبْتَلِع حِبَالهمْ وَعِصِيّهمْ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَة عِنْد ذَلِكَ سُجَّدًا، فَمَا رَفَعُوا رُءُوسهمْ حَتَّى رَأَوْا الجَنَّة وَالنَّار وَثَوَاب أَهْلهمَا.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنُ -لَعَنَهُ الله- السَّحَرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا أَظْهَرَهُ لِلنَّاسِ مِنْ كَيْده وَمَكْره فِي قَوْله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أَيْ: إِنْ غَلَبَته لَكُمْ فِي يَوْمكُمْ هَذَا، إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَشَاوُر مِنْكُمْ وَرِضًا مِنْكُمْ لِذَلِكَ؛ كَقَوْلِهِ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وَهُوَ يَعْلَم وَكُلّ مَنْ لَهُ لُبّ أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ أَبْطَل البَاطِل، فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُجَرَّدِ مَا جَاءَ مِنْ مَدْيَن دَعَا فِرْعَوْن إِلَى الله، وَأَظْهَرَ المُعْجِزَات البَاهِرَة وَالحُجَج القَاطِعَة عَلَى صِدْق مَا جَاءَ بِهِ، فَعِنْد ذَلِكَ أَرْسَلَ فِرْعَوْن فِي مَدَائِن مُلْكه وَمُعَامَلَة سَلْطَنَته، فَجَمَعَ سَحَرَة مُتَفَرِّقِينَ مِنْ سَائِر الأَقَالِيم بِبِلَادِ مِصْر، مِمَّنْ اخْتَارَ هُوَ مِنْ قَوْمه وَأَحْضَرَهُمْ عِنْده، وَوَعَدَهُمْ بِالعَطَاءِ الجَزِيل؛ وَقَدْ كَانُوا مِنْ أَحْرَص النَّاس عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى الظُّهُور فِي مَقَامهمْ ذَلِكَ، وَالتَّقَدُّم عِنْد فِرْعَوْن. وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يَعْرِف أَحَدًا مِنْهُمْ، وَلَا رَآهُ وَلَا اجْتَمَعَ بِهِ، وَفِرْعَوْن يَعْلَم ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا تَسَتُّرًا وَتَدْلِيسًا عَلَى رَعَاع دَوْلَته وَجَهَلَتهمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾، فَإِنَّ قَوْمًا صَدَّقُوهُ فِي قَوْله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ مِنْ أَجْهَل خَلْق الله وَأَضَلّهمْ. وَقَالَ السُّدِّيّ فِي تَفْسِيره بِإِسْنَادِهِ المَشْهُور عَنْ ابْن مَسْعُود وَابْن عَبَّاس وَغَيْرهمَا مِنْ الصَّحَابَة فِي قَوْله تَعَالَى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قَالَ: التَقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمِير السَّحَرَة فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَرَأَيْتُك إِنْ غَلَبْتُك أَتُؤْمِنُ بِي، وَتَشْهَد أَنَّ مَا جِئْت بِهِ حَقّ؟ قَالَ السَّاحِر: لَآتِيَنَّ غَدًا بِسِحْرٍ لا يَغْلِبهُ سِحْر، فَوَالله لَئِنْ غَلَبْتَنِي لَأُومِنَنَّ بِك وَلَأَشْهَدَنَّ أَنَّك حَقّ. وَفِرْعَوْن يَنْظُر إِلَيْهِمَا. قَالُوا: فَلِهَذَا قَالَ مَا قَالَ. وَقَوْله: ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أَيْ: تَجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَهُوَ، وَتَكُون لَكُمْ دَوْلَة وَصَوْلَة، وَتُخْرِجُوا مِنْهَا الأَكَابِر وَالرُّؤَسَاء، وَتَكُون الدَّوْلَة وَالتَّصَرُّف لَكُمْ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: مَا أَصْنَع بِكُمْ. ثم فَسَّرَ هَذَا الوَعِيد بِقَوْلِهِ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يَعْنِي: يَقْطَع يَد الرَّجُل اليُمْنَى وَرِجْله اليُسْرَى، أَوْ بِالعَكْسِ، و﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وَقَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أَيْ: عَلَى الجُذُوع. قَالَ ابْن عَبَّاس: وَكَانَ أَوَّل مَنْ صَلَبَ، وَأَوَّل مَنْ قَطَعَ الأَيْدِي وَالأَرْجُل مِنْ خِلَاف فِرْعَوْن.

وقَوْل السَّحَرَة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أَيْ: قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَعَذَابه أَشَدّ مِنْ عَذَابك، وَنَكَاله عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَمَا أَكْرَهْتنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْر أَعْظَم مِنْ نَكَالك، فَلْنَصْبِرْ اليَوْم عَلَى عَذَابك؛ لِنَتَخَلَّص مِنْ عَذَاب الله؛ ولهذا قَالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَيْ: عُمَّنَا بِالصَّبْرِ عَلَى دِينك وَالثَّبَات عَلَيْهِ ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أَيْ: مُتَابِعِينَ لِنَبِيّك مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالُوا لِفِرْعَوْن: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ فَكَانُوا فِي أَوَّل النَّهَار سَحَرَة، فَصَارُوا فِي آخِره شُهَدَاء بَرَرَة. قَالَ ابْن عَبَّاس، وَعُبَيْد بن عُمَيْر، وَقَتَادَة، وَابْن جُرَيْج: كَانُوا فِي أَوَّل النَّهَار سَحَرَة، وَفِي آخِره شُهَدَاء.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

يُخبِر تَعَالَى عَمَّا تَمَالأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْن وَمَلَؤُهُ، وَمَا أَضْمَرُوهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمه مِنْ الأَذَى وَالبِغْضَة: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ: لِفِرْعَوْن ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ أَيْ: أَتَدعُهُمْ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْض، أَيْ: يُفْسِدُوا أَهْل رَعِيَّتك وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَة رَبّهمْ دُونك. يَا لله للعَجَب! صَارَ هَؤُلَاءِ يُشْفِقُونَ مِنْ إِفْسَاد مُوسَى وَقَوْمه! أَلَا إِنَّ فِرْعَوْن وَقَوْمه هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ؛ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ قَالَ بَعْضهمْ: الوَاو هَاهُنَا حَالِيَّة، أَيْ: أَتَذَرُهُ وَقَوْمه يُفْسِدُونَ فِي الأَرْض وَقَدْ تَرَكَ عِبَادَتك؟ وَقَرَأَ ذَلِكَ أُبَيّ بْن كَعْب: ﴿وَقَدْ تَرَكُوك أَنْ يَعْبُدُوك وَآلِهَتك﴾ حَكَاهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ عَاطِفَة، أَيْ: لا تدع موسى يصنع هو وقومه من الفَسَاد مَا قَدْ أَقْرَرْتهمْ عَلَيْهِ وَعَلَى تَرْك آلِهَتك. وَقَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿إِلَاهَتك﴾ أَيْ: عِبَادَتك. وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد. وَعَلَى القِرَاءَة الأُولَى قَالَ بَعْضهمْ: كَانَ لِفِرْعَوْن إِلَه يَعْبُدهُ. قَالَ الْحَسَن البَصْرِيّ: كَانَ لِفِرْعَوْن إِلَه يَعْبُدهُ فِي السِّرّ. وَقَالَ فِي رِوَايَة أُخْرَى: كَانَ لَهُ جُمَانة فِي عُنُقه مُعَلَّقَة يَسْجُد لَهَا. وَقَالَ السُّدِّيّ فِي قَوْله تَعَالَى ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾: وَآلِهَته، فِيمَا زَعَمَ ابْن عَبَّاس كانت البقر، كَانُوا إِذَا رَأَوْا بَقَرَة حَسْنَاء أَمَرَهُمْ فِرْعَوْن أَنْ يَعْبُدُوهَا، فَلِذَلِكَ أَخْرَجَ لَهُمْ السَّامِرِيّ عِجْلًا جَسَدًا. فَأَجَابَهُمْ فِرْعَوْن فِيمَا سَأَلُوا بِقَوْلِهِ: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ وَهَذَا أَمْر ثَانٍ بِهَذَا الصَّنِيع، وَقَدْ كَانَ نَكَّلَ بِهِمْ قَبْل وِلَادَة مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَذَرًا مِنْ وُجُوده، فَكَانَ خِلَاف مَا رامه وَضِدّ مَا قَصَدَهُ فِرْعَوْن، وَهَكَذَا عُومِلَ فِي صَنِيعه أَيْضًا إنما أَرَادَ قهر بَنِي إِسْرَائِيل وَإذلالهم، فَجَاءَ الأَمْر عَلَى خِلَاف مَا أَرَادَ؛ نصرهم الله عليه وَأَذَلَّهُ وَأَرْغَمَ أَنفه وَأَغْرَقَهُ وَجُنُوده. وَلَمَّا صَمَّمَ فِرْعَوْن عَلَى مَا ذَكَرَهُ مِنْ الْمَسَاءَة لِبَنِي إِسْرَائِيل ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾ وَوَعَدَهُمْ بِالعَاقِبَة، وَأَنَّ الدَّار سَتَصِيرُ لَهُمْ فِي قَوْله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أَيْ: قَدْ جرى علينا مِثْل مَا رَأَيت مِنْ الهَوَان وَالإِذْلَال مِنْ قَبْل مَا جِئْت يَا مُوسَى وَمِنْ بَعْد ذَلِكَ، فَقَالَ مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى حَالهمْ الحَاضِرة، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي ثَانِي الحَال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾، وَهَذَا تَحْضِيض لَهُمْ عَلَى العَزْم عَلَى الشُّكْر عِند حُلُول النِّعَم وَزَوَال النِّقَم.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ: اخْتَبَرْنَاهُمْ وَامْتَحَنَّاهُمْ وَابْتَلَيْنَاهُمْ ﴿بِٱلسِّنِينَ ﴾ وَهِيَ سِنِي الجُوع بِسَبَب قِلَّة الزُّرُوع ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ قَالَ مُجَاهِد وَهُوَ دُون ذَلِكَ. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق: عَنْ رَجَاء بْن حَيْوَة: كَانَتْ النَّخْلَة لا تَحْمِل إِلَّا ثَمَرَة وَاحِدَة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ أَيْ: مِنْ الخِصْب وَالرِّزْق ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أَيْ: هَذَا لَنَا بِمَا نَسْتَحِقّهُ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أَيْ: جَدْب وَقَحْط ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ أَيْ: هَذَا بِسَبَبِهِمْ وَمَا جَاءُوا بِهِ. ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ عَلِيّ بن أَبِي طَلْحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يَقُول: مَصَائِبهمْ عِنْد الله، قال الله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. وَقَالَ ابْن جُرَيْج: عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ: الأمر مِنْ قِبَل الله.

﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ، عَنْ تَمَرُّدِ قَوْمِ فِرْعَوْن وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى البَاطِلِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُونَ: أَيّ آيَة جِئْتَنَا بِهَا، وَدَلَالَة وَحُجَّة أَقَمْتَهَا رَدَدْنَاهَا، فَلَا نَقْبَلُهَا مِنْكَ، وَلَا نُؤْمِن بِكَ، وَلَا بِمَا جِئْت بِهِ. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ؛ فَعَنْ ابْن عَبَّاس فِي رِوَايَة: كَثْرَة الأَمْطَار المُغْرِقَة المُتْلِفَة لِلزُّرُوع وَالثِّمَار، وَبِهِ قَالَ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم. وَقَالَ ابْن عَبَّاس فِي رِوَايَة أُخْرَى: هُوَ كَثْرَة المَوْت. وَكَذَا قَالَ عَطَاء. وَقَالَ مُجَاهِد: الطُّوفَان: المَاء، وَالطَّاعُون عَلَى كُلّ حَال. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أبو هِشَام الرِّفَاعِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن يَمَان، حَدَّثَنَا المِنْهَال بْن خَلِيفَة، عَنْ الحَجَّاج، عَنْ الحَكَم بْن مِينَاء، عَنْ عَائِشَة ؓ قَالَتْ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**الطُّوفَان: المَوْت**»[1]. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ: مِنْ حَدِيث يَحْيَى بْن يَمَان، بِهِ. وَهُوَ حَدِيث غَرِيب. وَقَالَ ابْن عَبَّاس فِي رِوَايَة أُخْرَى: هُوَ أَمْر مِنَ الله طَافَ بِهِمْ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾.

وَأَمَّا الجَرَاد فَمَعْرُوف مَشْهُور، وَهُوَ مَأْكُول؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي يَعْفُور قَالَ: سَأَلْت عَبْد الله بْن أَبِي أَوْفَى عَنْ الجَرَاد، فَقَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ سَبْع غَزَوَات نَأْكُل الجَرَاد[2]. وَرَوَى الشَّافِعِيّ، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل، وَابْن مَاجَهْ، مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عُمَر، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: الحُوت وَالجَرَاد، وَالكَبِد وَالطِّحَال**»[3]. وَرَوَاهُ أَبُو القَاسِم البَغَوِيّ: عَنْ دَاوُدَ بْن رَشِيد، عَنْ سُوَيْد بْن عَبْد العَزِيز، عَنْ أَبِي هِشَام الأَيْلِيّ، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ، عَنْ ابْن عُمَر مَرْفُوعًا مِثْله. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ: عَنْ مُحَمَّد بْن الفَرَج، عَنْ مُحَمَّد ابْن زِبْرِقَان الأَهْوَازِيّ، عَنْ سُلَيْمَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِي عُثْمَان، عَنْ سَلْمَان قَالَ: سُئِلَ رَسُول الله ﷺ عَنْ الجَرَاد فَقَالَ: «**أَكْثَر جُنُود الله، لَا آكُلُهُ وَلَا أُحَرِّمُهُ**»[4]. وَإِنَّمَا تَرَكَهُ ﷺ لِأَنَّهُ كَانَ يَعَافُهُ، كَمَا عَافَتْ نَفْسه الشَّرِيفَة أَكْل الضَّبّ وَأَذِنَ فِيهِ. وَقَدْ رَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي جُزْء جَمَعَهُ فِي الجَرَاد: مِنْ حَدِيث أَبِي سَعِيد الحَسَن بْن عَلِيّ العَدَوِيّ حَدَّثَنَا نَصْر بْن يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن خَالِد، عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ لا يَأْكُل الجَرَاد وَلَا الكُلْوَتَيْنِ وَلَا الضَّبّ مِنْ غَيْر أَنْ يُحَرِّمهَا، أَمَّا الجَرَاد فَرِجْز وَعَذَاب، وَأَمَّا الكُلْوَتَانِ فَلِقُرْبِهِمَا مِنَ البَوْل، وَأَمَّا الضَّبّ فَقَالَ: «**أَتَخَوَّفُ أَنْ يَكُونَ مَسْخًا**»[5]. ثُمَّ قَالَ: غَرِيب لَمْ أَكْتُبْهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَدْ كَانَ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الخَطَّاب ؓ يَشْتَهِيه وَيُحِبّهُ، فَرَوَى عَبْد الله بْن دِينَار، عَنْ ابْن عُمَر: أَنَّ عُمَر سُئِلَ عَنْ الجَرَاد، فَقَالَ: لَيْتَ أَنَّ عِنْدَنَا مِنْهُ قَفْعَة أَوْ قَفْعَتَيْنِ نَأْكُلهُ. وَرَوَى ابْن مَاجَهْ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مَنِيع، عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ أَبِي سَعْد سَعِيد بْن المَرْزُبَان البَقَّال، سَمِعَ أَنَس بْن مَالِك يَقُول: كَانَ أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ يَتَهَادَيْنَ الجَرَاد عَلَى الأَطْبَاق[6]. وَقَالَ أَبُو القَاسِم البَغَوِيّ: حَدَّثَنَا دَاوُدَ بْن رَشِيد، حَدَّثَنَا بَقِيَّة بْن الوَلِيد، عَنْ نمير بْن يَزِيد القَينِي،

---

(١) **موضوع**: أخرجه ابن جرير (٩/ ٣١)، وابن أبي حاتم (٥/ ٨٨٥٥)، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٦٦٠): موضوع.
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٤٩٥)، ومسلم (١١٥٢).
(٣) **صحيح**: تقدم.
(٤) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٣٨١٣)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٥٣٣).
(٥) **إسناده ضعيف**.
(٦) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٣٢٢٠) بسند ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».

حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ صُدَيّ بْن عَجْلَان وهو أبو أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ : «**إِنَّ مَرْيَم بِنْت عِمْرَان عَلَيْهَا السَّلَام سَأَلَتْ رَبَّهَا ﷻ أَنْ يُطْعِمهَا لحمًا لا دَم لهُ، فَأَطْعَمَهَا الجرَاد، فَقَالَتْ: اللهمَّ أَعِشْهُ بِغَيْرِ رَضَاع، وَتَابِعْ بَيْنه بِغَيْرِ شِيَاع**»[1]. وَقَالَ نُمَيْر: الشِّيَاع: الصَّوْت. وَقَالَ أَبُو بَكْر ابْن أَبِي دَاوُدَ: حَدَّثَنَا أَبُو تقى هِشَام بْن عَبْد المَلِك اليزني، حَدَّثَنَا بَقِيَّة بْن الوَلِيد، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، عَنْ ضَمْضَم بْن زُرْعَة، عَنْ شُرَيْح بْن عُبَيْد، عَنْ أَبِي زُهَيْر النُّمَيْرِيّ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «**لا تُقَاتِلُوا الجرَاد، فَإِنَّهُ جُنْد الله الأَعْظَم**»[2]. غَرِيب جِدًّا. وَقَالَ ابْن أَبِي نَجِيح: عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ ﴾ قَالَ: كَانَتْ تَأْكُل مَسَامِير أَبْوَابهمْ وَتَدَع الخَشَب. وَرَوَى ابْن عَسَاكِر: مِنْ حَدِيث عَلِيّ بْن زَيْد الخَرَائِطِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن كَثِير، سَمِعْت الأَوْزَاعِيّ يَقُول: خَرَجْت إِلَى الصَّحْرَاء، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ مِنْ جَرَاد فِي السَّمَاء، فَإِذَا بِرَجُلٍ رَاكِب عَلَى جَرَادَة مِنْهَا وَهُوَ شَاكٌ فِي الحَدِيد، وَكُلَّمَا قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا مَالَ الجَرَاد مَعَ يَده وَهُوَ يَقُول: الدُّنْيَا بَاطِل، بَاطِل مَا فِيهَا، الدُّنْيَا بَاطِل، بَاطِل مَا فِيهَا، الدُّنْيَا بَاطِل، بَاطِل مَا فِيهَا. وَرَوَى الحَافِظ أَبُو الفَرَج المُعَافَى بْن زَكَرِيَّا الجريري: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الحَسَن بْن زِيَاد، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحِيم، أَخْبَرَنَا وَكِيع، عَنْ الأَعْمَش، أَنْبَأَنَا عَامِر قَالَ: سُئِلَ شُرَيْح القَاضِي عَنْ الجَرَاد، فَقَالَ: قَبَّحَ الله الجرادة، فِيهَا خِلْقَة سَبْعَة جَبَابِرَة، رَأْسهَا رَأْس فَرَس، وَعُنُقهَا عُنُق ثَوْر، وَصَدْرهَا صَدْر أَسَد، وَجَنَاحهَا جَنَاح نَسْر. وَرِجْلَاهَا رِجْلَا جَمَل، وَذَنَبهَا ذَنَب حَيَّة، وَبَطْنهَا بَطْن عَقْرَب. وَقَدَّمْنَا عِنْد قَوْله تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ أَبِي المُهَزِّم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ فِي حَجّ أَوْ عُمْرَة، فَاسْتَقْبَلْنَا رِجْل جَرَاد، فَجَعَلْنَا نَضْرِبهُ بِالعِصِيِّ وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ، فَسَأَلْنَا رَسُول الله ﷺ ، فَقَالَ: «**لا بَأْس بِصَيْد البَحْر**»[3]. وَرَوَى ابْن مَاجَهْ: عَنْ هَارُون الحَمَّانِيّ، عَنْ هاشم بْن القَاسِم، عَنْ زِيَاد بْن عَبْد الله بْن عُلَاثَة، عَنْ مُوسَى بْن مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَنَس، وَجَابِر، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَعَا عَلَى الجَرَاد قَالَ: «**اللهمَّ أَهْلِكْ كِبَاره وَاقْتُلْ صِغَاره، وَأَفْسِدْ بَيْضه وَاقْطَعْ دَابِره، وَخُذْ بِأَفْوَاهِهِ عَنْ مَعَايِشنَا وَأَرْزَاقنَا، إِنَّك سَمِيع الدُّعَاء**». فَقَالَ له جَابِر: يَا رَسُول الله أَتَدْعُو عَلَى جُنْد مِنْ أَجْنَاد الله بِقَطْع دَابِره؟ فَقَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ نَثْرَة حُوت فِي البَحْر**»[4]. قَالَ هاشم: أَخْبَرَنِي زِيَاد: أَنَّهُ أَخْبَرَهُ مَنْ رَآهُ يَنْثُرهُ الحُوت، قَالَ مَنْ حَقَّقَ ذَلِكَ: إِنَّ السَّمَك إِذَا بَاضَ فِي سَاحِل البَحْر فَنَضَبَ المَاء عَنْهُ وَبَدَا لِلشَّمْسِ، أَنَّهُ يَفْقِس كُلّه جَرَادًا طَيَّارًا. وَقَدَّمْنَا عِنْد قَوْله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ حَدِيث عُمَر ﷺ: أَنَّ الله خَلَقَ أَلْف أُمَّة؛ سِتّمِائَة فِي البَحْر وَأَرْبَعمِائَة فِي البَرّ، وَأَنَّ أَوَّلها هَلَاكًا الجَرَاد. وَقَالَ أَبُو بَكْر ابْن أَبِي دَاوُدَ: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن المُبَارَك، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن قَيْس، حَدَّثَنَا سَلْم بْن سَالِم، حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة الجَوْزَجَانِيّ مُحَمَّد ابْن مَالِك، عَنْ البَرَاء بْن عَازِب، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ : «**لا وَبَاء مَعَ السَّيْف، وَلا نجاء مَعَ الجرَاد**»[5]. حَدِيث غَرِيب. وَأَمَّا القُمَّل؛ فَعَنْ ابْن عَبَّاس: هُوَ السُّوس الَّذِي يَخْرُج مِنْ الحِنْطَة. وَعَنْهُ: أَنَّهُ الدَّبَى. وَهُوَ الجَرَاد الصِّغَار الَّذِي لا أَجْنِحَة لهُ، وَبِهِ قَالَ مُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَقَتَادَة. وَعَنْ الحَسَن وَسَعِيد بْن جُبَيْر: القُمَّل دَوَابّ سُود صِغَار. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: القُمَّل البَرَاغِيث. وَقَالَ ابْن جَرِير: القُمَّل جَمْع وَاحِدَتهَا قَمْلَة، وَهِيَ دَابَّة تُشْبِه القَمْل تَأْكُلهَا الإِبِل فِيمَا بَلَغَنِي، وَهِيَ الَّتِي عَنَاهَا الأَعْشَى بِقَوْلِهِ:

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الطبراني (٨/ ٧٦٣١) بسند ضعيف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٩٩٢).

(٢) **حسنه الألباني**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٩٧)، وفي «الأوسط» (٩٢٧٧)، وفي «مسند الشاميين» (١٦٥٦)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٢٣٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٨٩) وسنده ضعيف، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣٨٨).

(٣) **ضعيف**: تقدم.

(٤) **ضعيف جدًا**: تقدم.

(٥) **ضعيف جدًا**: انظر «ضعيف الجامع» (٦٣١٥).

قَــــوْم تُعَـــالِج قُمَّـــلا أَبْنَـــاؤُهُمْ ✽ وَسَلاسِـلا أُجُـدًا وَبَابًـا مُؤْصَـدًا

قَالَ: وَكَانَ بَعْض أَهْل العِلْم بِكَلَامِ العَرَب مِنْ أَهْل البَصْرَة يَزْعُم أَنَّ القُمَّل عِنْد العَرَب: الحَمْنَان، وَاحِدَتهَا حَمْنَانَة، وَهِيَ صِغَار القِرْدَانِ فَوْق القَمْقَامَة. وَقَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر بْن جَرِير[1]: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا يَعْقُوب القُمِّيّ، عَنْ جَعْفَر بْن أَبِي المُغِيرَة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، قَالَ: لَمَّا أَتَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِرْعَوْن قَالَ لَهُ: أَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيل فأبى عليه، فَأَرْسَلَ الله عَلَيْهِمْ الطُّوفَان وَهُوَ المَطَر، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ مِنْهُ شَيْئًا، خَافُوا أَنْ يَكُون عَذَابًا، فَقَالُوا لِمُوسَى: ادْعُ لَنَا رَبّك يَكْشِف عَنَّا المَطَر، فَنُؤْمِن لك وَنُرْسِل مَعَك بَنِي إِسْرَائِيل، فَدَعَا رَبّه، فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيل، فَأَنْبَتَ لَهُمْ فِي تِلْكَ السَّنَة شَيْئًا لَمْ يُنْبِتهُ قَبْل ذَلِكَ مِنْ الزُّرُوع وَالثِّمَار وَالكَلَأ، فَقَالُوا: هَذَا مَا كُنَّا نَتَمَنَّى، فَأَرْسَلَ الله عَلَيْهِمْ الجَرَاد فَسَلَّطَهُ عَلَى الكَلَأ، فَلَمَّا رَأَوْا أَثَره فِي الكَلَأ عَرَفُوا أَنَّهُ لا يُبْقِي الزَّرْع، فَقَالُوا: يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبّك يَكْشِف عَنَّا الجَرَاد فَنُؤْمِن لك وَنُرْسِل مَعَك بَنِي إِسْرَائِيل، فَدَعَا رَبّه فَكَشَفَ عَنْهُمْ الجَرَاد، فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيل، فَدَاسُوا وَأَحْرَزُوا فِي البُيُوت، فَقَالُوا: قَدْ أَحْرَزْنَا، فَأَرْسَلَ الله عَلَيْهِمْ القُمَّل وَهُوَ السُّوس الَّذِي يَخْرُج مِنْهُ، فَكَانَ الرَّجُل يُخْرِج عَشَرَة أَجْرِبَة إِلَى الرَّحَى، فَلَمْ يَرُدّ مِنْهَا ثَلَاثَة أَقْفِزَة، فَقَالُوا: يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبّك يَكْشِف عَنَّا القُمَّل، فَنُؤْمِن لك وَنُرْسِل مَعَك بَنِي إِسْرَائِيل. فَدَعَا رَبّه فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيل، فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِس عِنْد فِرْعَوْن إِذْ سَمِعَ نَقِيق ضُفْدَع، فَقَالَ لِفِرْعَوْن: مَا تَلْقَى أَنْتَ وَقَوْمك مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: وَمَا عَسَى أَنْ يَكُون كَيْد هَذَا؟ فَمَا أَمْسَوْا حَتَّى كَانَ الرَّجُل يَجْلِس إِلَى ذَقْنه فِي الضَّفَادِع، وَيَهِمّ أَنْ يَتَكَلَّم فَيَثِب الضُّفْدَع فِي فِيهِ، فَقَالُوا لِمُوسَى: ادْعُ لَنَا رَبّك يَكْشِف عَنَّا هَذِهِ الضَّفَادِع، فَنُؤْمِن لك وَنُرْسِل مَعَك بَنِي إِسْرَائِيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فَلَمْ يُؤْمِنُوا. وَأَرْسَلَ الله عَلَيْهِمْ الدَّم، فَكَانُوا مَا اسْتَقَوْا مِنْ الأَنْهَار وَالآبَار وَمَا كَانَ فِي أَوْعِيَتهمْ وَجَدُوهُ دَمًا عَبِيطًا، فَشَكَوْا إِلَى فِرْعَوْن فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ ابْتُلِينَا بِالدَّمِ وَلَيْسَ لنَا شَرَاب. فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ سَحَرَكُمْ، فَقَالُوا: مِنْ أَيْنَ سَحَرَنَا؟ وَنَحْنُ لا نَجِد فِي أَوْعِيَتنَا شَيْئًا مِنْ المَاء إِلَّا وَجَدْنَاهُ دَمًا عَبِيطًا. فَأَتَوْهُ وَقَالُوا: يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبّك يَكْشِف عَنَّا هَذَا الدَّم، فَنُؤْمِن لك وَنُرْسِل مَعَك بَنِي إِسْرَائِيل، فَدَعَا رَبّه فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيل. وَقَدْ رُوِيَ نَحْو هَذَا عَنْ ابْن عَبَّاس، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد مِنْ عُلَمَاء السَّلَف.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار رَحِمَهُ اللَّهُ: فَرَجَعَ عَدُوّ الله فِرْعَوْن حِين آمَنَتْ السَّحَرَة مَغْلُوبًا مَغْلُولًا، ثُمَّ أَبَى إِلَّا الإِقَامَة عَلَى الكُفْر وَالتَّمَادِي فِي الشَّرّ، فَتَابَعَ الله عَلَيْهِ الآيَات وَأَخَذَهُ بِالسِّنِينَ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الطُّوفَان، ثُمَّ الجَرَاد، ثُمَّ القُمَّل، ثُمَّ الضَّفَادِع، ثُمَّ الدَّم آيَات مُفَصَّلَات. فَأَرْسَلَ الطُّوفَان -وَهُوَ المَاء- فَفَاضَ عَلَى وَجْه الأَرْض ثُمَّ رَكَدَ لا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَحْرُثُوا وَلَا أَنْ يَعْمَلُوا شَيْئًا حَتَّى جَهِدُوا جُوعًا، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذَلِكَ ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فَدَعَا مُوسَى رَبّه فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَفُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ الله عَلَيْهِمْ الجَرَاد فَأَكَلَ الشَّجَر فِيمَا بَلَغَنِي، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيَأْكُل مَسَامِير الأَبْوَاب مِنْ الحَدِيد حَتَّى تَقَع دُورهمْ وَمَسَاكِنهمْ، فَقَالُوا مِثْل مَا قَالُوا، فَدَعَا رَبّه فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَفُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ الله عَلَيْهِمْ القُمَّل، فَذُكِرَ لِي أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمِرَ أَنْ يَمْشِي إِلَى كَثِيب حَتَّى يَضْرِبهُ بِعَصَاهُ، فَمَشَى إِلَى كَثِيب أَهْيَل عَظِيم، فَضَرَبَهُ بِهَا فَانْثَالَ عَلَيْهِمْ قُمَّلًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى البُيُوت

---

(١) إسناده ضعيف: فيه ابن حميد الرازي وهو محمد بن حميد: ضعيف جدًا وكذبه أهل بلده، وجعفر بن أبي المغيرة: ليس بالقوي في سعيد بن جبير كما قال ابن منده.

وَالأَطْعِمَة وَمَنَعَهُمُ النَّوْم وَالقَرَار، فَلَمَّا جَهَدَهُمْ، قَالُوا لَهُ مِثْل مَا قَالُوا لَهُ، فَدَعَا رَبّه فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَفُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ الله عَلَيْهِمُ الضَّفَادِع فَمَلَأَتِ البُيُوت وَالأَطْعِمَة وَالآنِيَة، فَلَا يَكْشِف أَحَد ثَوْبًا وَلَا طَعَامًا إِلَّا وَجَدَ فِيهِ الضَّفَادِع قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَهَدَهُمْ ذَلِكَ قَالُوا لَهُ مِثْل مَا قَالُوا، فَسَأَلَ رَبّه، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَفُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا. فَأَرْسَلَ الله عَلَيْهِمُ الدَّم، فَصَارَتْ مِيَاه آل فِرْعَوْن دَمًا، لا يَسْتَقُونَ مِنْ بِئْر وَلَا نَهر وَلَا يَغْتَرِفُونَ مِنْ إِنَاء إِلَّا عَادَ دَمًا عَبِيطًا.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مَنْصُور المَرْوَزِيّ، أَنَا النَّضْر، أَنَا إِسْرَائِيل أَنَا جَابِر بْن يَزِيد، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ عبد الله بْن عَمْرو، قَالَ: لا تَقْتُلُوا الضَّفَادِع، فَإِنَّهَا لَمَّا أُرْسِلَتْ عَلَى قَوْم فِرْعَوْن انْطَلَقَ ضُفْدَع مِنْهَا فَوَقَعَ فِي تَنُّور فِيهِ نَار يَطْلُب بِذَلِكَ مَرْضَات الله، فَأَبْدَلَهُنَّ الله مِنْ هَذَا أَبْرَد شَيْء يَعْلَمهُ مِنَ المَاء، وَجَعَلَ نَقِيقهنَّ التَّسْبِيح، وَرُوِيَ مِنْ طَرِيق عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، نَحوه. وَقَالَ زَيْد بْن أَسْلَمَ: يَعْنِي بِالدَّمِ الرُّعَاف. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا عَتَوْا وَتَمَرَّدُوا مَعَ ابْتِلَائِهِ إِيَّاهُمْ بِالآيَاتِ المُتَوَاتِرَة وَاحِدَة بَعْد وَاحِدَة، أنه انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِإِغْرَاقِهِ إِيَّاهُمْ فِي اليَمّ، وَهُوَ البَحْر الَّذِي فَرَقَهُ لِمُوسَى فَجَاوَزَهُ وَبَنُو إِسْرَائِيل مَعَهُ، ثُمَّ وَرَدَهُ فِرْعَوْن وَجُنُوده عَلَى إِثْرِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَكْمَلُوا فِيهِ ارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ، فَغَرِقُوا عَنْ آخِرهمْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبهمْ بِآيَاتِ الله وَتَغَافُلهمْ عَنْهَا.

وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْرَثَ القَوْم الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ -وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيل- ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾. وَعَنْ الحَسَن البَصْرِيّ، وَقَتَادَة فِي قَوْله: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾: يَعْنِي: الشَّام. وَقَوْله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِد وَابْن جَرِير: وَهِيَ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾. وَقَوْله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أَيْ: وَخَرَّبْنَا مَا كَانَ فِرْعَوْن وَقَوْمه يَصْنَعُونَهُ مِنَ العِمَارَات وَالمَزَارِع ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: يَبْنُونَ.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَمَّا قَالَهُ جَهَلَة بَنِي إِسْرَائِيل لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِين جَاوَزُوا البَحْر، وَقَدْ رَأَوْا مِنْ آيَات الله وَعَظِيم سُلْطَانه مَا رَأَوْا ﴿فَأَتَوْا﴾ أَيْ: فَمَرُّوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قَالَ بَعْض المُفَسِّرِينَ: كَانُوا مِنَ الكَنْعَانِيِّينَ. وَقِيلَ: كَانُوا مِنْ لَخْم. قَالَ ابْن جَرِير: وَكَانُوا يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا عَلَى صُوَر البَقَر، فَلِهَذَا أَثَارَ ذَلِكَ شُبْهَة لَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ العِجْل بَعْد ذَلِكَ فَقَالُوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. أَيْ: تَجْهَلُونَ عَظَمَة الله وَجَلَاله، وَمَا يَجِب أَنْ يُنَزَّه عَنْهُ مِنَ الشَّرِيك وَالمَثِيل. ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أَيْ: هَالِك ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وَرَوَى الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَعُقَيْل وَمَعْمَر، كُلّهمْ عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ سِنَان بْن أَبِي سِنَان، عَنْ أَبِي وَاقِد اللَّيْثِيّ: أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّة مَعَ رَسُول الله ﷺ، إِلَى حُنَيْن، قَالَ: وَكَانَ لِلْكُفَّارِ سِدْرَة يَعْكُفُونَ عِندهَا وَيُعَلِّقُونَ بِهَا أَسْلِحَتهمْ، يُقَال لَهَا: ذَات أَنْوَاط، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ خَضْرَاء عَظِيمَة، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُول الله؛ اجْعَلْ لَنَا ذَات أَنْوَاط كَمَا لَهُمْ ذَات أَنْوَاط. فَقَالَ: «قُلْتُمْ -وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- كَمَا قَالَ قَوْم مُوسَى لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾»[1]. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ سِنَان ابْن أَبِي سِنَان الدِّيْلِيّ، عَنْ أَبِي وَاقِد اللَّيْثِيّ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ، قِبَل حُنَيْن فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْت: يَا نَبِيّ الله؛ اجْعَلْ لَنَا هذه ذَات أَنْوَاط كَمَا لِلْكُفَّارِ ذَات أَنْوَاط، وَكَانَ الكُفَّار يَنُوطُونَ سِلَاحهمْ بِسِدْرَةٍ وَيَعْكُفُونَ حَوْلهَا، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «الله أَكْبَر؛ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيل لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ﴾ إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَن مَنْ قَبْلكُمْ»[2]. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث كَثِير بْن عَبْد الله بْن عَمْرو بْن عَوْف المُزَنِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه مَرْفُوعًا.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٤٠ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

يُذَكِّرهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بنعمة الله عَلَيْهِمْ، مِنْ إِنْقَاذهمْ مِنْ أَسْر فِرْعَوْن وَقَهْره، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الهَوَان وَالذِّلَّة. وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ العِزَّة وَالاشْتِفَاء مِنْ عَدُوّهُمْ وَالنَّظَر إِلَيْهِ فِي حَال هَوَانه وَهَلَاكه وَغَرَقه وَدَمَاره، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرهَا فِي البَقَرَة.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الهِدَايَة بِتَكْلِيمِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَاة وَفِيهَا أَحْكَامهمْ وَتَفَاصِيل شَرْعهمْ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ وَاعَدَ مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَة. قَالَ المُفَسِّرُونَ: فَصَامَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمَّا تَمَّ المِيقَات اسْتَاكَ بِلِحَاءِ شَجَرَة، فَأَمَرَهُ الله تَعَالَى أَنْ يُكْمِل بِعَشَرَة أَرْبَعِينَ. وَقَدْ اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ العَشْر: مَا هِيَ؟ فَالأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الثَّلَاثِينَ هِيَ ذُو القَعْدَة، وَالعَشْر عَشْر ذِي الحِجَّة. قَالَهُ مُجَاهِد، وَمَسْرُوق، وَابْن جُرَيْج. وَرُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَغَيْره. فَعَلَى هَذَا يَكُون قَدْ كَمُلَ المِيقَات يَوْم النَّحْر، وَحَصَلَ فِيهِ التَّكْلِيم لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِيهِ أَكْمَلَ الله الدِّين لِمُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾. فَلَمَّا تَمَّ المِيقَات وَعَزَمَ مُوسَى عَلَى الذَّهَاب إِلَى الطُّور؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ الآيَة، فَحِينَئِذٍ اسْتَخْلَفَ مُوسَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل أَخَاهُ هَارُون، وَوَصَّاهُ الإِصْلَاح وَعَدَم الإِفْسَاد، هَذَا تَنْبِيه وَتَذْكِير، وَإِلَّا فَهَارُون عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيّ شَرِيف كَرِيم عَلَى الله، لَهُ وَجَاهَة وَجَلَالَة، صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِر الأَنْبِيَاء.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) صحيح: أخرجه ابن جرير (٩/ ٤٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٤٦)، و«الجامع» لمعمر بن راشد (١١/ ٣٦٩)، والترمذي (٢١٨٠)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٤٠٨).

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

يُخبر تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ لِمِيقَاتِ الله تَعَالَى وَحَصَلَ لَهُ التَّسْلِيم مِنَ الله سَأَلَ الله تَعَالَى أَنْ يَنْظُر إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ وَقَدْ أَشْكَل حَرْف ﴿لَن﴾ هَاهُنَا عَلَى كَثِير مِنَ الْعُلَمَاء؛ لِأَنَّهَا مَوْضُوعَة لِنَفْيِ التَّأْبِيد، فَاسْتَدَلَّ بِهِ الْمُعْتَزِلَة عَلَى نَفْي الرُّؤْيَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَهَذَا أَضْعَف الأَقْوَال؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَتْ الأَحَادِيث عَنْ رَسُول الله ﷺ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ الله فِي الدَّار الآخِرَة؛ كَمَا سَنُورِدُهَا عِنْد قَوْله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾، وَقَوْله تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ الْكُفَّار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾. وَقِيلَ: إِنَّهَا لِنَفْيِ التَّأْبِيد فِي الدُّنْيَا، جَمْعًا بَيْن هَذِهِ الآيَة وَبَيْن الدَّلِيل الْقَاطِع عَلَى صِحَّة الرُّؤْيَة فِي الدَّار الآخِرَة. وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الْكَلَام فِي هَذَا الْمَقَام كَالْكَلَامِ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي الأَنْعَام، وَفِي الْكُتُب الْمُتَقَدِّمَة: أَنَّ الله تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا مُوسَى! إِنَّهُ لا يَرَانِي حَيّ إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَابِس إِلَّا تَدَهْدَهَ»؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾. قَالَ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سُهَيْل الْوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا قُرَّة بْن عِيسَى، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ رَجُل، عَنْ أَنَس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «لَمَّا تَجَلَّى رَبّه لِلْجَبَلِ أَشَارَ بِأُصْبُعِهِ، فَجَعَلَهُ دَكًّا»[1]. وَأَرَانَا أَبُو إِسْمَاعِيل بِأُصْبُعِهِ السَّبَّابَة. هَذَا الإِسْنَاد فِيهِ رَجُل مُبْهَم لَمْ يُسَمَّ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مِنْهَال، حَدَّثَنَا حَمَّاد، عَنْ لَيْث، عَنْ أَنَس، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ قَالَ: «هَكَذَا بِأُصْبُعِهِ؛ -وَوَضَعَ النَّبِيّ ﷺ أُصْبُعه الإِبْهَام عَلَى الْمَفْصِل الأَعْلَى مِنَ الْخِنْصَر- فَسَاخَ الْجَبَل»[2]. هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَة: حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ لَيْث، عَنْ أَنَس. والمشهور: حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، كَمَا قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا هُدْبَة بْن خَالِد، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، قَالَ: قَرَأَ رَسُول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ قَالَ: -وَوَضَعَ الإِبْهَام قَرِيبًا مِنْ طَرَف خِنْصَره- وَقَالَ: «فَسَاخَ الْجَبَل». قَالَ حُمَيْد لِثَابِتٍ: تَقُول هَكَذَا؟ فَرَفَعَ ثَابِت يَده فَضَرَبَ صَدْر حُمَيْد وَقَالَ: يَقُولهُ رَسُول الله ﷺ وَيَقُولهُ أَنَس، وَأَنَا أَكْتُمهُ؟[3].

وَهَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُثَنَّى مُعَاذ بْن مُعَاذ الْعَنْبَرِيّ، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، حَدَّثَنَا ثَابِت الْبُنَانِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، فِي قَوْله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ قَالَ: قَالَ: «هَكَذَا»، يَعْنِي: أَنَّهُ أَخْرَجَ طَرَف الْخِنْصَر. قَالَ أَحْمَد: أَرَانَا مُعَاذ، فَقَالَ لَهُ حُمَيْد الطَّوِيل: مَا تُرِيد إِلَى هَذَا يَا أَبَا مُحَمَّد؟ قَالَ: فَضَرَبَ صَدْره ضَرْبَة شَدِيدَة؟ وَقَالَ: مَنْ أَنْتَ يَا حُمَيْد؟ وَمَا أَنْتَ يَا حُمَيْد؟ يُحَدِّثنِي بِهِ أَنَس بْن مَالِك، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، فتقول أنت: مَا تُرِيد إِلَيْهِ؟[4]. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: عَنْ عَبْد الْوَهَّاب بْن الْحَكَم الْوَرَّاق، عَنْ مُعَاذ بْن مُعَاذ بِهِ. وَعَنْ عَبْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن الدَّارِمِيّ، عَنْ سُلَيْمَان بْن حَرْب، عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، بِهِ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيث حَسَن صَحِيح غَرِيب، لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث حَمَّاد. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ

---

(١) **ضعيف الإسناد**: أخرجه ابن جرير (٩/ ٥٣) بسند ضعيف فيه رجل لم يسم وهو الراوي عن أنس.
(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٠٧٥)، وأحمد (٣/ ١٢٥)، والحاكم (١/ ٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٥/ ٢٦٥).
(٣) **صحيح**: صححه الألباني في «الظلال» (٤٨٠).
(٤) **صحيح**: صححه الألباني في «الظلال» (٤٨١).

طُرُق، عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، بِهِ. وَقَالَ: هَذَا حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرْط مُسْلِم، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَرَوَاهُ أَبُو مُحَمَّد الحَسَن ابْن مُحَمَّد الخَلَّال، عَنْ مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن سُوَيْد، عَنْ أَبِي القَاسِم البَغَوِيّ، عَنْ هُدْبَة بْن خَالِد، عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، فَذَكَرَهُ. وَقَالَ: هَذَا إِسْنَاد صَحِيح لا عِلَّة فِيهِ. وَقَدْ رَوَاهُ دَاوُدُ بْن المُحَبَّر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، مَرْفُوعًا، وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّ دَاوُدَ بْن المُحَبَّر كَذَّاب، رَوَاهُ الحَافِظَانِ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ وَأَبُو بَكْر بْن مَرْدُوَيْهِ، مِنْ طَرِيقَيْنِ، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس، مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ. وَأَسْنَدَهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ طَرِيق ابْن البَيْلَمَانِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عُمَر، مَرْفُوعًا. وَلا يَصِحّ أَيْضًا. وَقَالَ السُّدِّيّ: عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، فِي قَوْل الله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قَالَ: مَا تَجَلَّى مِنْهُ إِلَّا قَدْر الخِنْصَر ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قَالَ: تُرَابًا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قَالَ: مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ قَتَادَة: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قَالَ: مَيِّتًا. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: سَاخَ الجَبَل فِي الأَرْض حَتَّى وَقَعَ فِي البَحْر، فَهُوَ يَذْهَب مَعَهُ. وَقَالَ سُنَيْد: عَنْ حَجَّاج بْن مُحَمَّد الأَعْوَر، عَنْ أَبِي بَكْر الهُذَلِيّ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ انْقَعَرَ فَدَخَلَ تَحْت الأَرْض، فَلا يَظْهَر إِلَى يَوْم القِيَامَة، وَجَاءَ فِي بَعْض الأَخْبَار أَنَّهُ سَاخَ فِي الأَرْض، فَهُوَ يَهْوِي فِيهَا إِلَى يَوْم القِيَامَة. رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عُمَر بْن شبَّة، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَحْيَى أَبُو غَسَّان الكِنَانِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن عِمْرَان، عَنْ مُعَاوِيَة بْن عَبْد الله، عَنْ الجَلْد بْن أَيُّوب، عَنْ مُعَاوِيَة بْن قُرَّة، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «**لَمَّا تَجَلَّى الله لِلْجِبَالِ طَارَتْ لِعَظَمَتِهِ سِتَّة أَجْبُل، فَوَقَعَتْ ثَلاثَة بِالمَدِينَةِ، وَثَلاثَة بِمَكَّة، بِالمَدِينَةِ أُحُد وَوَرِقَان وَرَضْوَى، وَوَقَعَ بِمَكَّة حِرَاء وَثَبِير وَثَوْر**»[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب، بَلْ مُنْكَر.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن أَبِي الثَّلْج، حَدَّثَنَا الهَيْثَم بْن خَارِجَة، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن حُصَيْن بْن علاق، عَنْ عُرْوَة بْن رُوَيْم، قَالَ: كَانَتْ الجِبَال قَبْل أَنْ يَتَجَلَّى الله لِمُوسَى عَلَى الطُّور صُمًّا مُلْسًا، فَلَمَّا تَجَلَّى الله لِمُوسَى عَلَى الطُّور دُكَّ، وَتَفَطَّرَتْ الجِبَال، فَصَارَتْ الشُّقُوق وَالكُهُوف. وَقَالَ الرَّبِيع بْن أَنَس: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الجَبَل حِين كُشِفَ الغِطَاء، وَرَأَى النُّور صَارَ مِثْل دَكّ مِنْ الدِّكَاك. وَقَالَ بَعْضهمْ: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أَيْ: فَتَّتَه.

وَقَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ فَإِنَّهُ أَكْبَر مِنْك وَأَشَدّ خَلْقًا ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ فَنَظَرَ إِلَى الجَبَل لا يَتَمَالَك، وَأَقْبَلَ الجَبَل فَدُكَّ عَلَى أَوَّله، وَرَأَى مُوسَى مَا يَصْنَع الجَبَل، فَخَرَّ صَعِقًا. وَقَالَ عِكْرِمَة: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ﴾ قَالَ: نَظَرَ الله إِلَى الجَبَل فَصَارَ صَحْرَاء تُرَابًا. وَقَدْ قَرَأَ بِهَذِهِ القِرَاءَة بَعْض القُرَّاء، وَاخْتَارَهَا ابْن جَرِير، وَقَدْ وَرَدَ فِيهَا حَدِيث مَرْفُوع رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ.

وَالمَعْرُوف أَنَّ الصَّعَق هُوَ الغَشْي هَاهُنَا، كَمَا فَسَّرَهُ ابْن عَبَّاس وَغَيْره، لا كَمَا فَسَّرَهُ قَتَادَة بِالمَوْتِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا فِي اللُّغَة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فَإِنَّ هُنَا قَرِينَة تَدُلّ عَلَى المَوْت كَمَا أَنَّ هُنَاكَ قَرِينَة تَدُلّ عَلَى الغَشْي، وَهِيَ قَوْله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وَالإِفَاقَة لا تَكُون إِلَّا من غَشْي.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تَنْزِيهًا وَتَعْظِيمًا وَإِجْلالًا أَنْ يَرَاهُ أَحَد مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ. وَقَوْله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قَالَ مُجَاهِد: أَنْ أَسْأَلك الرُّؤْيَة. ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير،

---

(١) موضوع: أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٩٣٩)، وفيه عبد العزيز بن عمران: يروي المناكير عن المشاهير، وانظر «الضعيفة» للألباني (١٦٢).

وَفِي رِوَايَة أُخرَى عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنَّهُ لا يَرَاك أَحد، وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَة: قَدْ كَانَ قَبْله مُؤْمِنُونَ، وَلَكِنْ يَقُول: أَنَا أَوَّل مَنْ آمَنَ بِك أَنَّهُ لَا يَرَاك أَحد مِنْ خَلْقك إِلَى يَوْم الْقِيَامَة. وَهَذَا قَوْل حَسَن لَهُ اِتِّجَاه، وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّد بْن جَرِير فِي تَفْسِيره هَاهُنَا أَثَرًا طَوِيلًا فِيهِ غَرَائِب وَعَجَائِب عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار، وَكَأَنَّهُ تَلَقَّاهُ مِنْ الإِسْرَائِيلِيَّات، وَالله أَعْلَم. وَقَوْله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فِيهِ أَبُو سَعِيد وَأَبُو هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ، فَأَمَّا حَدِيث أَبِي سَعِيد فَأَسْنَدَهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه هَاهُنَا فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يُوسُف، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو بْن يَحْيَى الْمَازِنِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ ﷺ، قَالَ: جَاءَ رَجُل مِنْ الْيَهُود إِلَى النَّبِيّ ﷺ، قَدْ لُطِمَ وَجْهه وَقَالَ: يَا مُحَمَّد؛ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابك مِنْ الأَنْصَار لَطَمَ وَجْهِي. قَالَ: «**اُدْعُوهُ**» فَدَعَوْهُ، قَالَ: «**لِمَ لَطَمْت وَجْهه؟**» قَالَ: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي مَرَرْت بِالْيَهُودِ فَسَمِعْته يَقُول: وَالَّذِي اِصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَر. قَالَ: قلت: وَعَلَى مُحَمَّد؟ قَالَ: وَعَلَى مُحَمَّد. فَأَخَذَتْنِي غَضْبَة، فَلَطَمْته. قَالَ: «**لا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْن الأَنْبِيَاء، فَإِنَّ النَّاس يَصْعَقُونَ يَوْم الْقِيَامَة فَأَكُون أَوَّل مَنْ يُفِيق، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِم الْعَرْش، فَلا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّور**»[1].

وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي أَمَاكِن كَثِيرَة مِنْ صَحِيحه، وَمُسْلِم فِي أَحَادِيث الأَنْبِيَاء مِنْ صَحِيحه، وَأَبُو دَاوُدَ فِي كِتَاب السُّنَّة مِنْ سُنَنه مِنْ طُرُق عَنْ عَمْرو بْن يَحْيَى بْن عُمَارَة بْن أَبِي الْحَسَن الْمَازِنِيّ الأَنْصَارِيّ الْمَدَنِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيد سَعْد بْن مَالِك بْن سِنَان الْخُدْرِيّ بِهِ. وَأَمَّا حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة، فَقَالَ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا أَبُو كَامِل، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعْد، حَدَّثَنَا اِبْن شِهَاب، عَنْ أَبِي سَلَمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن وَعَبْد الرَّحْمَن الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، قَالَ: اِسْتَبَّ رَجُلَانِ: رَجُل مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُل مِنْ الْيَهُود، فَقَالَ الْمُسْلِم: وَالَّذِي اِصْطَفَى مُحَمَّد عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِيّ: وَالَّذِي اِصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَغَضِبَ الْمُسْلِم عَلَى الْيَهُودِيّ فَلَطَمَهُ، فَأَتَى الْيَهُودِيّ رَسُول الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَدَعَاهُ رَسُول الله ﷺ فَسَأَلَهُ، فَاعْتَرَفَ بِذَلِكَ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاس يَصْعَقُونَ يَوْم الْقِيَامَة فَأَكُون أَوَّل مَنْ يُفِيق، فَاجِد مُوسَى مُمْسِكًا بِجَانِبِ الْعَرْش، فَلا أَدْرِي أَكَانَ مِمَّنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ كَانَ مِمَّنْ اِسْتَثْنَاه الله ﷻ**»[2]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، بِهِ.

وَقَدْ رَوَى الْحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن أَبِي الدُّنْيَا رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّ الَّذِي لَطَمَ الْيَهُودِيّ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّة هُوَ أَبُو بَكْر الصِّدِّيق ﷺ، وَلَكِنْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّهُ رَجُل مِنْ الأَنْصَار وَهَذَا هُوَ أَصَحّ وَأَصْرَح، وَالله أَعْلَم. وَالْكَلَام فِي قَوْله ﷺ: «**لا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى**» كَالْكَلَامِ عَلَى قَوْله: «**لا تُفَضِّلُونِي عَلَى الأَنْبِيَاء، وَلا عَلَى يُونُس بْن مَتَّى**» قِيلَ: مِنْ بَاب التَّوَاضُع، وَقِيلَ: قَبْل أَنْ يَعْلَم بِذَلِكَ، وَقِيلَ: نَهَى أَنْ يُفَضَّل بَيْنهمْ عَلَى وَجْه الْغَضَبِيَّة وَالتَّعَصُّب، وَقِيلَ: عَلَى وَجْه الْقَوْل بِمُجَرَّدِ الرَّأْي وَالتَّشَهِّي، وَالله أَعْلَم. وَقَوْله: «**فَإِنَّ النَّاس يَصْعَقُونَ يَوْم الْقِيَامَة**» الظَّاهِر: أَنَّ هَذَا الصَّعْق يَكُون فِي عَرَصَات الْقِيَامَة، يَحْصُل أَمْر يَصْعَقُونَ مِنْهُ، وَالله أَعْلَم بِهِ، وَقَدْ يَكُون ذَلِكَ إِذَا جَاءَ الرَّبّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لِفَصْلِ الْقَضَاء، وَتَجَلَّى لِلْخَلَائِقِ الْمَلِك الدَّيَّان، كَمَا صَعِقَ مُوسَى مِنْ تَجَلِّي الرَّبّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فَلا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّور**» وَقَدْ رَوَى الْقَاضِي عِيَاض فِي أَوَائِل كِتَابه «الشِّفَاء» بِسَنَدِهِ: عَنْ مُحَمَّد بْن مُحَمَّد بْن مَرْزُوق، حَدَّثَنَا قَتَادَة، حَدَّثَنَا الْحَسَن، عَنْ قَتَادَة، عَنْ يَحْيَى بْن وَثَّاب، عَنْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٣٨)، ومسلم (٢٣٧٤)، وأبو داود (٤٦٦٨).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٢٧٣)، وأبو داود (٤٦٧١).

أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ». ثم قال: ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى. انتهى ما قاله، وكأنه صحح هذا الحديث، وفي صحته نظر، ولا يخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله حتى ينتهي إلى منتهاه، والله أعلم.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وكلامه، ولا شك أن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه الله بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام، ولهذا قال الله تعالى له: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي: من الكلام والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب ﴿لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ قيل: كانت الألواح من جوهر، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكامًا مفصلة مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾. وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ قال سفيان بن عيينة: ثنا أبو سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه. وقوله: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟ قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غدًا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري. وقيل: معناه ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: من أهل الشام، وأعطيكم إياها، وقيل: منازل قوم فرعون والأول أولى والله أعلم لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾. وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر. وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدًا. وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ

﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قَالَ: أَنْزِع عَنْهُمْ فَهم القُرْآن، وَأَصْرِفهُمْ عَنْ آيَاتِي. قَالَ ابْن جَرِير: وَهَذَا يَدُلّ عَلَى أَنَّ هَذَا خِطَاب لِهَذِهِ الأُمَّة.

قُلْتُ: لَيْسَ هَذَا بِلازِمٍ؛ لأَنَّ ابْن عُيَيْنَة إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ هَذَا مُطَّرِد فِي حَقّ كُلّ أُمَّة، وَلا فَرْق بَيْن أَحَد وَأَحَد فِي هَذَا، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أَيْ: وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ أَيْ: طَرِيق النَّجَاة لا يَسْلُكُوهَا، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ طَرِيق الهَلاك وَالضَّلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾. ثُمَّ عَلَّلَ مَصِيرهمْ إِلَى هَذِهِ الحَال بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أَيْ: كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبهمْ ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أَيْ: لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِمَّا فِيهَا. وَقَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أَيْ: مَنْ فَعَلَ مِنْهُمْ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى المَمَات حَبِطَ عَمَله، وَقَوْله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا نُجَازِيهِمْ بِحَسَبِ أَعْمَالهمْ الَّتِي أَسْلَفُوهَا؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْر وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ، وَكَمَا تَدِين تُدَان.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ ضَلال مَنْ ضَلَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل فِي عِبَادَتهمْ العِجْل، الَّذِي اِتَّخَذَهُ لَهُمْ السَّامِرِيّ مِنْ حُلِيّ القِبْط، الَّذِي كَانُوا اِسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ، فَشَكَّلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا، ثُمَّ القَى فِيهِ القَبْضَة مِنْ التُّرَاب الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَر فَرَس جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلام فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَار، وَالخُوَار صَوْت البَقَر وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْد ذَهَاب مُوسَى لِمِيقَاتِ ربه تَعَالَى، فَأَعْلَمَهُ الله تَعَالَى بِذَلِكَ وَهُوَ عَلَى الطُّور، حَيْثُ يَقُول تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نَفْسه الكَرِيمَة قَالَ: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾. وَقَدْ اِخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي هَذَا العِجْل: هَلْ صَارَ لَحْمًا وَدَمًا لَهُ خُوَار، أَوْ اِسْتَمَرَّ عَلَى كَوْنه مِنْ ذَهَب إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُل فِيهِ الهَوَاء فَيُصَوِّت كَالْبَقَرِ، عَلَى قَوْلَيْنِ وَالله أَعْلَم. وَيُقَال: إِنَّهُمْ لَمَّا صَوَّتَ لَهُمْ العِجْل رَقَصُوا حَوْله وَافْتُتِنُوا بِهِ، ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾، فَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، وَقَالَ فِي هذه الآيَة الكَرِيمَة: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ يُنْكِر تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي ضَلالهمْ بِالْعِجْلِ، وَذُهُولهمْ عَنْ خَالِق السَّمَاوَات وَالأَرْض وَرَبّ كُلّ شَيْء وَمَلِيكه، أَنْ عَبَدُوا مَعَهُ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَار لا يُكَلِّمهُمْ وَلا يُرْشِدهُمْ إِلَى خَيْر، وَلَكِنْ غَطَّى عَلَى أَعْيُن بَصَائِرهمْ عَمَى الجَهْل وَالضَّلال، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ رِوَايَة الإِمَام أَحْمَد وَأَبِي دَاوُدَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «حُبّك الشَّيْء يُعْمِي وَيُصِمّ»[1].

وَقَوْله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: نَدِمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا، ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وَقَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا﴾ بِالتَّاءِ المُثَنَّاة مِنْ فَوْق، ﴿رَبَّنَا﴾ مُنَادَى ﴿وَتَغْفِرْ لَنَا﴾، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أَيْ: مِنْ الهَالِكِينَ، وَهَذَا اِعْتِرَاف مِنْهُمْ بِذَنْبِهِمْ، وَالْتِجَاء إِلَى الله عز وجل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٣٣٤)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٨٦٨).

يُخبر تَعَالَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجَعَ إِلَى قَوْمه مِنْ مُنَاجَاة رَبّه تَعَالَى وَهُوَ غَضْبَان أَسِف. قَالَ أَبُو الدَّرْدَاء: وَالأَسَفُ أَشَدّ الغَضَب. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ﴾ يَقُول: بِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ فِي عِبَادَتكم العِجْل بَعْد أَنْ ذَهَبْت وَتَرَكْتُكُمْ!.

وَقَوْله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يَقُول: اِسْتَعْجَلْتُمْ مَجِيئِي إِلَيْكُمْ وَهُوَ مُقَدَّر مِنَ الله تَعَالَى. وَقَوْله: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ قِيلَ: كَانَتْ الأَلْوَاح مِنْ زُمُرُّد، وَقِيلَ: مِنْ يَاقُوت، وَقِيلَ: مِنْ بَرَد. وَفِي هَذَا دَلَالَة عَلَى مَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «لَيْسَ الخَبَر كَالْمُعَايَنَةِ»[1]. ثُمَّ ظَاهِر السِّيَاق: أَنَّهُ إِنَّمَا القَى الأَلْوَاح غَضَبًا عَلَى قَوْمه، وَهَذَا قَوْل جُمْهُور العُلَمَاء سَلَفًا وَخَلَفًا، وَرَوَى اِبْن جَرِير عَنْ قَتَادَة فِي هَذَا قَوْلًا غَرِيبًا، لَا يَصِحّ إِسْنَاده إِلَى حِكَايَة قَتَادَة، وَقَدْ رَدَّهُ اِبْن عَطِيَّة وَغَيْر وَاحِد مِنَ العُلَمَاء، وَهُوَ جَدِير بِالرَّدِّ، وَكَأَنَّهُ تَلَقَّاهُ قَتَادَة عَنْ بَعْض أَهْل الكِتَاب، وَفِيهِمْ كَذَّابُونَ وَوَضَّاعُونَ وَأَفَّاكُونَ وَزَنَادِقَة.

وَقَوْله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ خَوْفًا أَنْ يَكُون قَدْ قَصَّرَ فِي نَهْيهمْ، كَمَا قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: لَا تَسُقْنِي مساقهم ولا تخلطني مَعَهُمْ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ لتكون أرأف وَأَنْجع عِنْده، وَإِلَّا فَهُوَ شَقِيقه لِأَبِيهِ وَأُمّه، فَلَمَّا تَحَقَّقَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَرَاءَة سَاحَة هَارُون عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. قَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن مُحَمَّد بْن الصَّبَّاح، ثَنَا عَفَّان، ثَنَا أَبُو عَوَانَة، عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى؛ لَيْسَ المُعَايِن كَالْمُخْبِرِ، أَخْبَرَهُ رَبُّه ﷻ أَنَّ قَوْمه فُتِنُوا بَعْده فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاح، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ القَى الأَلْوَاح»[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أَمَّا الغَضَب الَّذِي نَالَ بَنِي إِسْرَائِيل فِي عِبَادَة العِجْل، فَهُوَ أَنَّ الله تَعَالَى لَمْ يَقْبَل لَهُمْ تَوْبَة حَتَّى قَتَلَ بَعْضهمْ بَعْضًا؛ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَة البَقَرَة: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وَأَمَّا الذِّلَّة فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ ذُلًّا وَصَغَارًا فِي الحَيَاة الدُّنْيَا. وَقَوْله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ نَائِلَة لِكُلِّ مَنْ اِفْتَرَى بِدْعَة، فَإِنَّ ذُلّ البِدْعَة وَمُخَالَفَة الرسالة مُتَّصِلَة مِنْ قَلْبه عَلَى كَتِفَيْهِ؛ كَمَا قَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: إِنَّ ذُلّ البِدْعَة عَلَى أَكْتَافهمْ وَإِنْ هَمْلَجَتْ بِهِمْ البَغْلَات، وَطَقْطَقَتْ بِهِمْ البَرَاذِين. وَهَكَذَا رَوَى أَيُّوب السَّخْتِيَانِيّ: عَنْ أَبِي قِلَابَة الجَرْمِيّ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فَقَالَ: هِيَ وَالله لِكُلّ مُفْتَرٍ إِلَى يَوْم القِيَامَة. وَقَالَ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة: كُلّ صَاحِب بِدْعَة ذَلِيل. ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَاده وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّهُ يَقْبَل تَوْبَة عِبَاده مِنْ أَيّ ذَنْب كَانَ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ مِنْ كُفْر أَوْ شِرْك أَوْ نِفَاق أَوْ شِقَاق؛ وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ القِصَّة بِقَوْلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّد يَا رَسُول التَّوْبَة وَنَبِيّ الرَّحْمَة ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أَيْ: مِنْ بَعْد تِلْكَ الفَعْلَة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُسْلِم بْن إِبْرَاهِيم، ثَنَا أَبَان، ثَنَا قَتَادَة، عَنْ عَزْرَة،

---

(١) صحيح: أخرجه ابن جرير (٣/ ٤٩)، وأحمد (١/ ٢١٥)، وابن حبان (٦٢١٣)، والحاكم (٢/ ٣٥١)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ١٢) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٧٤).

(٢) صحيح: أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٩٩٨)، وابن حبان (٦٢١٤)، والحاكم (٢/ ٤١٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

عَنْ الحَسَن العُرَنِيّ، عَنْ عَلْقَمَة عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ -يَعْنِي: عَنْ الرَّجُل يَزْنِي بِالْمَرْأَةِ ثُمَّ يَتَزَوَّجهَا- فَتَلَا هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فَتَلَاهَا عَبْد الله عَشْر مَرَّات، فَلَمْ يَأْمُرهُمْ بِهَا وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْهَا.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ ﴾ أي: سكن ﴿عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ أَيْ: غَضَبه عَلَى قَوْمه ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ ﴾ أَيْ: الَّتِي كَانَ أَلْقَاهَا مِنْ شِدَّة الغَضَب عَلَى عِبَادَتهمْ العِجْل غَيْرَة لله وَغَضَبًا لَهُ ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾. يَقُول كَثِير مِنْ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهَا لَمَّا أَلْقَاهَا تَكَسَّرَتْ ثُمَّ جَمَعَهَا بَعْد ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْض السَّلَف: فَوَجَدَ فِيهَا هُدًى وَرَحْمَة، وَأَمَّا التَّفْصِيل فَذَهَبَ، وَزَعَمُوا أَنَّ رُضَاضهَا لَمْ يَزَلْ مَوْجُودًا فِي خَزَائِن الْمُلُوك لِبَنِي إِسْرَائِيل إِلَى الدَّوْلَة الإِسْلَامِيَّة، وَالله أَعْلَم بِصِحَّةِ هَذَا. وَأَمَّا الدَّلِيل القاطع عَلَى أَنَّهَا تَكَسَّرَتْ حِين أَلْقَاهَا، وَهِيَ مِنْ جَوْهَر الجَنَّة، فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَهَا بَعْدَمَا أَلْقَاهَا وَجَدَ فِيهَا ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾، ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ضَمَّنَ الرَّهْبَة مَعْنَى الخُضُوع؛ وَلِهَذَا عَدَّاهَا بِاللَّام. وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ ﴾ قَالَ: رَبّ إِنِّي أَجِد فِي الأَلْوَاح أُمَّة، خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَر، فاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي، قَالَ: تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد. قَالَ: رَبّ، إِنِّي أَجِد فِي الأَلْوَاح أُمَّة هُمْ الآخِرُونَ -أَيْ: آخِرُونَ فِي الخَلْق- السَابِقُونَ فِي دُخُول الجَنَّة، رَبّ اِجْعَلْهُمْ أُمَّتِي قَالَ: تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد. قَالَ: رَبّ، إِنِّي أَجِد فِي الأَلْوَاح أُمَّة أَنَاجِيلهمْ فِي صُدُورهمْ يَقْرَءُونَهَا وَكَانَ مَنْ قَبْلهمْ يَقْرَءُونَ كِتَابهمْ نَظَرًا حَتَّى إِذَا رَفَعُوهَا لَمْ يَحْفَظُوا شَيْئًا وَلَمْ يَعْرِفُوهُ -قال قتادة: وَإِنَّ الله أَعْطَاكُمْ؛ أيتها الأمة مِنْ الحِفْظ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا مِنْ الأُمَم-. قَالَ: رَبّ اِجْعَلْهُمْ أُمَّتِي، قَالَ: تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد. قَالَ: رَبّ، إِنِّي أَجِد فِي الأَلْوَاح أُمَّة يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ الأَوَّل وَبِالْكِتَابِ الآخِر وَيُقَاتِلُونَ فُضُول الضَّلَالَة حَتَّى يُقَاتِلُوا الأَعْوَر الكَذَّاب، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي، قَالَ: تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد. قَالَ: رَبّ، إِنِّي أَجِد فِي الأَلْوَاح أُمَّة صَدَقَاتهمْ يَأْكُلُونَهَا فِي بُطُونهمْ وَيُؤْجَرُونَ عَلَيْهَا، وَكَانَ مَنْ قَبْلهمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَقُبِلَتْ مِنْهُ بَعَثَ الله نَارًا فَأَكَلَتْهَا وَإِنْ رُدَّتْ عَلَيْهِ تُرِكَتْ، فَتَأْكُلهَا السِّبَاع وَالطَّيْر، وَإِنَّ الله أَخَذَ صَدَقَاتكمْ مِنْ غَنِيّكمْ لِفَقِيرِكِمْ، قَالَ: رَبّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد. قَالَ: رَبّ، إِنِّي أَجِد فِي الأَلْوَاح أُمَّة إِذَا هَمَّ أَحَدهمْ بِحَسَنَةٍ ثُمَّ لَمْ يَعْمَلهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْر أَمْثَالهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، رَبّ اِجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد. قَالَ: رَبّ إِنِّي أَجِد فِي الأَلْوَاح أُمَّة إذا همَّ أحدهم بسيئة لم تكتب حتى يعملها، فإذا عملها كتبت له سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هُمْ الْمَشْفُوعُونَ وَالْمَشْفُوع لَهُمْ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد. قَالَ قَتَادَة: فَذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيّ الله مُوسَى نَبَذَ الأَلْوَاح، وَقَالَ: اللهمَّ اِجْعَلْنِي مِنْ أُمَّة أَحْمَد.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: كَانَ الله أَمَرَهُ أَنْ يَخْتَار مِنْ قَوْمه سَبْعِينَ رَجُلًا، فَاخْتَارَ سَبْعِينَ رَجُلًا، فَبَرَزَ بهم لِيَدْعُوا رَبّهمْ، وَكَانَ فِيمَا دَعَوْا الله قَالُوا: اللهمَّ أَعْطِنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا قَبْلنَا وَلَا تُعْطِهِ أَحَدًا بَعْدنَا، فَكَرِهَ الله ذَلِكَ مِنْ دُعَائِهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ﴾ الآيَة. وَقَالَ السُّدِّيّ: إِنَّ الله أَمَرَ مُوسَى أَنْ يَأْتِيه فِي نَاس مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَة

العِجل، وَوَعَدَهُمْ مَوْعِدًا وَاخْتَارَ مُوسَى من قَوْمه سَبْعِينَ رَجُلًا عَلَى عينه، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمْ لِيَعْتَذِرُوا، فَلَمَّا أَتَوْا ذَلِكَ المَكَان قَالُوا: لَنْ نُؤْمِن لَك يَا مُوسَى حَتَّى نَرَى الله جَهْرَة فَإِنَّك قَدْ كَلَّمْته فَأَرِنَاهُ، فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَة فماتوا، فَقَامَ مُوسَى يَبْكِي وَيَدْعُو الله وَيَقُول: رَبّ؛ مَاذَا أَقُول لِبَنِي إِسْرَائِيل إِذَا لقيتهم وَقَدْ أَهْلَكْت خِيَارهمْ؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: اِخْتَارَ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل سَبْعِينَ رَجُلًا الخَيِّر فَالخَيِّر، وَقَالَ: اِنْطَلِقُوا إِلَى الله فَتُوبُوا إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعْتُمْ، وَسَلُوهُ التَّوْبَة عَلَى مَنْ تَرَكْتُمْ وَرَاءَكُم مِنْ قَوْمكُمْ، صُومُوا وتطهروا وَطَهِّرُوا ثِيَابكُمْ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُور سَيْنَاء لِمِيقَاتٍ وَقَّتَهُ لَهُ رَبّه، وَكَانَ لَا يَأْتِيه إِلَّا بِإِذْنٍ مِنْهُ وَعِلْم. فَقَالَ السَّبْعُونَ -فِيمَا ذُكِرَ لِي، حِين صَنَعُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَخَرَجُوا مَعَهُ لِلِقَاءِ رَبّه- لِمُوسَى: أُطْلُبْ لَنَا نَسْمَع كَلَام رَبّنَا، فَقَالَ: أَفْعَل، فَلَمَّا دَنَا مُوسَى مِنْ الجَبَل وَقَعَ عَلَيْهِ عَمُود الغَمَام، حَتَّى تَغَشَّى الجَبَل كُلّه، وَدَنَا مُوسَى فَدَخَلَ فِيهِ، وَقَالَ لِلْقَوْم: اُدْنُوا، وَكَانَ مُوسَى إِذَا كَلَّمَه الله وَقَعَ عَلَى جَبْهَة مُوسَى نُور سَاطِع، لَا يَسْتَطِيع أَحَد مِنْ بَنِي آدَم أَنْ يَنْظُر إِلَيْهِ، فَضُرِبَ دُونه بِالْحِجَابِ، وَدَنَا القَوْم، حَتَّى إِذَا دَخَلُوا فِي الغمام وَقَعُوا سُجُودًا، فَسَمِعُوهُ وَهُوَ يُكَلِّم موسى، يَأْمُرهُ وَيَنْهَاهُ: اِفْعَلْ، وَلَا تَفْعَل. فَلَمَّا فَرَغَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْره؛ انْكَشَفَ عَنْ مُوسَى الغَمَام، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا لِمُوسَى: لَنْ نُؤْمِن لَك حَتَّى نَرَى الله جَهْرَة فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَة وَهِيَ: الصَّاعِقَة، فافتلتت أَرْوَاحهمْ فَمَاتُوا جَمِيعًا، فَقَامَ مُوسَى يُنَاشِد رَبّه وَيَدْعُوهُ وَيَرْغَب إِلَيْهِ وَيَقُول: رَبّ؛ لَوْ شِئْت أَهْلَكْتهمْ مِنْ قَبْل وَإِيَّايَ، قَدْ سَفِهُوا، أَفَتُهْلِك مَنْ وَرَائِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل.

وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: حَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاق، عَنْ عُمَارَة بْن عبيد السَّلُولِيّ، عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ قَالَ: اِنْطَلَقَ مُوسَى وَهَارُون وَشَبَّر وَشُبَيْر، فَانْطَلَقُوا إِلَى سَفْح جَبَل، فَنَامَ هَارُون عَلَى سَرِير فَتَوَفَّاهُ الله ﷻ، فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيل قَالُوا لَهُ: أَيْنَ هَارُون؟ قَالَ: تَوَفَّاهُ الله ﷻ، قَالُوا: أَنْتَ قَتَلْته، حَسَدْتنَا عَلَى خُلُقه وَلِينه -أَوْ كَلِمَة نَحْوهَا- قَالَ: فَاخْتَارُوا مَنْ شِئْتُمْ. قَالَ: فَاخْتَارُوا سَبْعِينَ رَجُلًا، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ فَلَمَّا اِنْتَهَوْا إِلَيْهِ قَالُوا: يَا هَارُون! مَنْ قَتَلَك؟ قَالَ: مَا قَتَلَنِي أَحَد، وَلَكِنْ تَوَفَّانِي الله، قَالُوا: يَا مُوسَى، لَنْ تُعْصَى بَعْد اليَوْم، قال: فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَة. قَالَ: فَجَعَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرْجِع يَمِينًا وَشِمَالًا وَقَالَ: يَا ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ قَالَ: فَأَحْيَاهُمْ الله وَجَعَلَهُمْ أَنْبِيَاء كُلّهمْ.

هَذَا أَثَر غَرِيب جِدًّا، وَعُمَارَة بْن عبيد هَذَا لَا أَعْرِفهُ، وَقَدْ رَوَاهُ شُعْبَة: عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ رَجُل مِنْ بَنِي سَلُول، عَنْ عَلِيّ، فَذَكَرَهُ. وَقَالَ اِبْن عَبَّاس، وَقَتَادَة، وَمُجَاهِد، وَابْن جُرَيج: إنما أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَة، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُزَايِلُوا قَوْمهمْ فِي عِبَادَتهمْ العِجْل، وَلَا نَهَوْهُمْ. وَيَتَوَجَّه هَذَا القَوْل بِقَوْلِ مُوسَى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾. وَقَوْله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أَيْ: اِبْتِلَاؤُك وَاخْتِبَارك وَامْتِحَانك. قَالَهُ اِبْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَأَبُو العَالِيَة، وَالرَّبِيع ابْن أَنَس، وَغَيْر وَاحِد مِنْ عُلَمَاء السَّلَف وَالخَلَف، وَلَا مَعْنَى لَهُ غَيْر ذَلِكَ، يَقُول: إِنْ الأَمْر إِلَّا أَمْرك، وَإِنْ الحُكْم إِلَّا لَك، فَمَا شِئْت كَانَ، تُضِلّ مَنْ تَشَاء وَتَهْدِي مَنْ تَشَاء، وَلَا هَادِي لِمَنْ أَضْلَلْت، وَلَا مُضِلّ لِمَنْ هَدَيْت، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْت، وَلَا مَانِع لِمَا أَعْطَيْت، فَالمُلْك كُلّه لَك، وَالحُكْم كُلّه لَك، لَك الخَلْق وَالأَمْر.

وَقَوْله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ الغَفْر: هُوَ السَّتْر وَتَرْك المُؤَاخَذَة بِالذَّنْبِ، وَالرَّحْمَة إِذَا قُرِنَتْ مَعَ الغَفْر يُرَاد بِهَا أَنْ لَا يُوقِعهُ فِي مِثْله فِي المُسْتَقْبَل، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ أَي: لَا يَغْفِر الذُّنُوب إِلَّا أَنْتَ ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هناك الفَصْل الأَوَّل مِنْ الدُّعَاء فِي دَفْع المَحْذُور، وَهَذَا لِتَحْصِيلِ المَقْصُود، ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أَيْ: أَوْجِبْ لَنَا وَأَثْبِتْ لَنَا فِيهِمَا حَسَنَة، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذلك فِي سُورَة البَقَرَة. ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أَيْ: تُبْنَا وَرَجَعْنَا وَأَنَبْنَا إِلَيْك، قَالَهُ اِبْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُجَاهِد، وَأَبُو العَالِيَة، وَالضَّحَّاك، وَإِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد. وَهُوَ كَذَلِكَ لُغَة.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ شَرِيك، عَنْ جَابِر، عَنْ عَبْد الله بْن نجيّ، عَنْ عَلِيّ، قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ الْيَهُود؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾. جَابِر هو ابن يَزِيد الجُعْفِيّ: ضَعِيف.

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُجِيبًا لِمُوسى فِي قَوْله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾. قَالَ: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أَيْ: أَفْعَل مَا أَشَاء، وَأَحْكُم مَا أُرِيد، وَلِي الحِكْمَة وَالْعَدْل فِي كُلّ ذَلِكَ، سُبْحَانه لَا إِلَه إِلَّا هُوَ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ آية عَظِيمَة الشُّمُول وَالْعُمُوم؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ حَمَلَة العَرْش وَمَنْ حَوْله أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الجُرَيْرِيّ، عَنْ أَبِي عَبْد الله الجُشَمِيّ، حَدَّثَنَا جُنْدُب -هُوَ ابْن عَبْد الله البَجَلِيّ ﷺ- قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيّ فَأَنَاخَ رَاحِلَته ثُمَّ عَقَلَهَا ثُمَّ صَلَّى خَلْف رَسُول الله ﷺ فَلَمَّا صَلَّى رَسُول الله ﷺ أَتَى رَاحِلَته فَأَطْلَقَ عِقَالهَا ثُمَّ رَكِبَهَا ثُمَّ نَادَى: اللهمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تُشْرِك فِي رَحْمَتنَا أَحَدًا. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَتَقُولُونَ هَذَا أَضَلّ أَمْ بَعِيره؟ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «لَقَدْ حَظَرْتَ رَحْمَة وَاسِعَة، إِنَّ الله ﷻ خَلَقَ مِائَة رَحْمَة؛ فَأَنْزَلَ رَحْمَة وَاحِدة يَتَعَاطَف بِهَا الخَلْق جِنّهَا وَإِنْسهَا وَبَهَائِمهَا، وَأَخَّرَ عِنْده تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَة، أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلّ أَمْ بَعِيره؟»[1]. وَرَوَاهُ أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُدَ: عَنْ عَلِيّ بْن نَصْر، عَنْ عَبْد الصَّمَد بْن عَبْد الوَارِث، بِهِ.

وَقَالَ أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ سُلَيْمَان، عَنْ أَبِي عُثْمَان، عَنْ سَلْمَان، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِائَة رَحْمَة؛ فَمِنْهَا رَحْمَة يَتَرَاحَم بِهَا الخَلْق، وَبِهَا تَعْطِف الوُحُوش عَلَى أَوْلَادهَا، وَأَخَّرَ تِسْعَة وَتِسْعِينَ إِلَى يَوْم القِيَامَة»[2]. تَفَرَّدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِم فَرَوَاهُ مِنْ حَدِيث سُلَيْمَان -هُوَ ابْن طَرْخَان- وَدَاوُد بْن أَبِي هِنْد، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي عُثْمَان -وَاسْمه عَبْد الرَّحْمَن بْن مُلّ- عَنْ سَلْمَان -هو الفَارِسِيّ-، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، بِهِ. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد، عَنْ عَاصِم ابْن بَهْدَلَة، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، أَن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَة رَحْمَة؛ عِنْده تِسْعَة وَتِسْعُونَ، وَجَعَلَ عِنْدكُمْ وَاحِدَة تَتَرَاحَمُونَ بِهَا بَيْن الجِنّ وَالإِنْس وَبَيْن الخَلْق، فَإِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة ضَمَّهَا إِلَيْهِ»[3]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَالَ أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا عَبْد الوَاحِد، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي سَعِيد، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لِلَّهِ مِائَة رَحْمَة؛ فَقَسَمَ مِنْهَا جُزْءًا وَاحِدًا بَيْن الخَلْق، فِيهِ يَتَرَاحَم النَّاس وَالوَحْش وَالطَّيْر». وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث أَبِي مُعَاوِيَة، عَنْ الأَعْمَش، بِهِ.

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن يُونُس، حَدَّثَنَا سَعْد أَبُو غَيْلَان الشَّيْبَانِيّ، عَنْ حَمَّاد بْن أَبِي سُلَيْمَان، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ صِلَة بْن زُفَر، عَنْ حُذَيْفَة بْن اليَمَان ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّة الفَاجِر فِي دِينه الأَحْمَق فِي مَعِيشَته، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّة الَّذِي قَدْ مَحَشَتْهُ النَّار بِذَنْبِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَغْفِرَنَّ الله يَوْم القِيَامَة مَغْفِرَة يَتَطَاوَل لَهَا إِبْلِيس رَجَاء أَنْ تُصِيبهُ»[4]. هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا، وَسَعْد هَذَا لَا أَعْرِفهُ. وَقَوْله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ٣١٢)، وأبو داود (٤٨٨٥)، والحاكم (١/ ١٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٦١) من حديث جندب، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١٠٤١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٣)، وأحمد (٥/ ٤٣٩) من حديث سلمان.

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٢٩٣)، والحاكم (١/ ١٢٣) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٣٥).

(٤) ضعيف الإسناد: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ١٦٨) بسند ضعيف فيه حماد بن سليمان قال الحافظ: فقيه صدوق له أوهام، ورمي بالإرجاء، وسعد بن غيلان ضعفه أبو حاتم.

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآيَة. يَعْنِي: فَسَأُوجِبُ حُصُول رَحْمَتِي مِنَّة مِنِّي، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾. وَقَوْله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ: سَأَجْعَلُهَا لِلْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَات، وَهُمْ أُمَّة مُحَمَّد ﷺ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ: الشِّرْك وَالْعَظَائِم مِنْ الذُّنُوب. قَوْله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قِيلَ: زَكَاة النُّفُوس، وَقِيلَ: الأَمْوَال، وَيَحْتَمِل أَنْ تَكُون عَامَّة لَهُمَا، فَإِنَّ الآيَة مَكِّيَّة. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: يُصَدِّقُونَ.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ وَهَذِهِ صِفَة مُحَمَّد ﷺ فِي كُتُب الأَنْبِيَاء بَشَّرُوا أُمَمهمْ بِبَعْثِهِ، وَأَمَرُوهُمْ بِمُتَابَعَتِهِ، وَلَمْ تَزَلْ صِفَاته مَوْجُودَة فِي كُتُبهمْ، يَعْرِفهَا عُلَمَاؤُهُمْ وَأَحْبَارهمْ؛ كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل، عَنْ الجُرَيْرِيّ، عَنْ أَبِي صَخْر العُقَيْلِيّ، حَدَّثَنِي رَجُل مِنْ الأَعْرَاب، قَالَ: جَلَبْت جَلُوبَة إِلَى المَدِينَة فِي حَيَاة رَسُول الله ﷺ فَلَمَّا فَرَغْت مِنْ بَيْعِي قُلْت: لَأَلْقَيَنَّ هَذَا الرَّجُل فَلَأَسْمَعَنَّ مِنْهُ، قَالَ: فَتَلَقَّانِي بَيْن أَبِي بَكْر وَعُمَر يَمْشُونَ، فَتَبِعْتهمْ فِي أَقفائهم حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُل مِنْ اليَهُود نَاشِرًا التَّوْرَاة يَقْرَؤُهَا يُعَزِّي بِهَا نَفْسه عَنْ اِبْن لَهُ فِي المَوْت كَأَحسن الفِتْيَان وَأَجمله، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ **«أَنْشُدُك بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاة، هَلْ تَجِد فِي كِتَابك ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي؟»** فَقَالَ بِرَأْسِهِ: هَكَذَا، أَيْ: لَا. فَقَالَ اِبْنه: إِي؛ وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاة إِنَّا لَنَجِد فِي كِتَابنَا صِفَتك وَمَخْرَجك، وَإِنِّي أَشْهَد أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، وَأَشْهَد أَنَّك رَسُول الله. فَقَالَ: **«أَقِيمُوا اليَهُودِيّ عَنْ أَخِيكُمْ»**. ثُمَّ وَلَّى كَفَنه وَالصَّلَاة عَلَيْهِ[1]. هَذَا حَدِيث جَيِّد قَوِيّ، لَهُ شَاهِد فِي الصَّحِيح، عَنْ أَنَس.

وَقَالَ الحَاكِم صَاحِب «المُسْتَدْرَك»: أَخْبَرَنَا أَبو مُحَمَّد ابْن عَبْد الله بْن إِسْحَاق البَغَوِيّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن الهَيْثَم البَلَدِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن مُسْلِم بْن إِدْرِيس، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن إِدْرِيس، عَنْ شُرَحْبِيل بْن مُسْلِم، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيّ، عَنْ هِشَام بْن العَاص الأُمَوِيّ، قَالَ: بُعِثْت أَنَا وَرَجُل آخَر إِلَى هِرَقْل صَاحِب الرُّوم نَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلَام، فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا الغَوْطَة -يَعْنِي: غَوْطَة دِمَشْق-، فَنَزَلْنَا عَلَى جَبَلَة بْن الأَيْهَم الغَسَّانِيّ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ عَلَى سَرِير لَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا بِرَسُولٍ نُكَلِّمهُ، فَقُلْنَا: وَالله لَا نُكَلِّم رَسُولًا، وَإِنَّمَا بَعَثْنَا إِلَى المَلِك، فَإِنْ أَذِنَ لَنَا كَلَّمْنَاهُ، وَإِلَّا لَمْ نُكَلِّم الرَّسُول، فَرَجَعَ إِلَيْهِ الرَّسُول فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَأَذِنَ لَنَا، فَقَالَ: تَكَلَّمُوا، فَكَلَّمَهُ هِشَام بْن العَاص، وَدَعَاهُ إِلَى الإِسْلَام، فَإِذَا عَلَيْهِ ثِيَاب سواد، فَقَالَ لَهُ هِشَام: وَمَا هَذِهِ الَّتِي عَلَيْك؟ فَقَالَ: لَبِسْتهَا وَحَلَفْت أَنْ لَا أَنْزِعهَا حَتَّى أُخْرِجكُمْ مِنْ الشَّام، قُلْنَا: وَمَجْلِسك هَذَا، وَالله لنأخذنه مِنْك، وَلنأخذن مُلْك المُلْك الأَعْظَم إِنْ شَاءَ الله، أَخْبَرَنَا بِذَلِكَ نَبِيّنَا مُحَمَّد ﷺ قَالَ: **«لَسْتُمْ بِهِمْ؛ بَلْ هُمْ قَوْم يَصُومُونَ بِالنَّهَار وَيَقُومُونَ بِاللَّيْل، فَكَيْف صَوْمكُمْ؟»** فَأَخْبَرْنَاهُ فَمُلِئَ وَجْهه سَوَادًا، فَقَالَ: **«قُومُوا»**، وَبَعَثَ مَعَنَا رَسُولًا إِلَى المَلِك، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا قَرِيبًا مِنْ المَدِينَة قَالَ لَنَا الَّذِي مَعَنَا: إِنَّ دَوَابّكُمْ هَذِهِ لَا تَدْخُل مَدِينَة المَلِك، فَإِنْ شِئْتُمْ حَمَلْنَاكُمْ عَلَى بَرَاذِين وَبِغَال، قُلْنَا: وَالله لَا نَدْخُل إِلَّا عَلَيْهَا. فَأَرْسَلُوا إِلَى المَلِك أَنَّهُمْ يَأْبَوْنَ ذَلِكَ، فدخلنا عَلَى رَوَاحِلنَا مُتَقَلِّدِينَ سُيُوفنَا حَتَّى اِنْتَهَيْنَا إِلَى غُرْفَة، فَأَنَخْنَا فِي أَصْلهَا وَهُوَ يَنْظُر إِلَيْنَا، فَقُلْنَا: لَا إِلَه إِلَّا الله وَالله أَكْبَر، فَالله يَعْلَم لَقَدْ تنفضت الغُرْفَة حَتَّى صَارَتْ كَأَنَّهَا عِذْق تَصْفِقهُ الرِّيَاح. فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا: لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَجْهَرُوا عَلَيْنَا بِدِينِكُمْ، وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا:

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) من حديث رجل من الأعراب، وصححه الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١/ ٧٣).

أَنْ أُدْخُلُوا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَهُوَ عَلَى فِرَاش لَهُ، وَعِنْده بَطَارِقَة مِنْ الرُّوم، وَكُلّ شَيْء فِي مَجْلِسه أَحْمَر، وَمَا حَوْله حُمْرَة، وَعَلَيْهِ ثِيَاب مِنْ الحُمْرَة، فَدَنَوْنَا مِنْهُ فَضَحِكَ، فَقَالَ: مَا كان عَلَيْكُمْ لَوْ حييتموني بِتَحِيَّتِكُمْ فِيمَا بَيْنكُمْ؟ وَإِذَا عِنْده رَجُل فَصِيح بِالْعَرَبِيَّةِ كَثِير الكَلَام، فَقُلْنَا: إِنَّ تَحِيَّتنَا فِيمَا بَيْننَا لَا تَحِلّ لَك، وَتَحِيَّتك الَّتِي تُحَيَّا بِهَا لَا يَحِلّ لَنَا أَنْ نُحَيِّيك بِهَا، قَالَ: كَيْف تَحِيَّتكُمْ فِيمَا بَيْنكُمْ؟ قُلْنَا: السَّلَام عَلَيْك، قَالَ: فَكَيْف تُحَيُّونَ مَلِكَكُمْ؟ قُلْنَا: بِهَا، قَالَ: فَكَيْف يَرُدّ عَلَيْكُمْ؟ قُلْنَا: بِهَا، قَالَ: فَمَا أَعْظَم كَلَامكُمْ؟ قُلْنَا: لَا إِلَه إِلَّا الله وَالله أَكْبَر، فَلَمَّا تَكَلَّمْنَا بِهَا، وَالله يَعْلَم، لَقَدْ تنفضت الغُرْفَة حَتَّى رَفَعَ رَأْسه إِلَيْهَا، قَالَ: فَهَذِهِ الكَلِمَة الَّتِي قُلْتُمُوهَا حَيْثُ تنفضت الغُرْفَة، أَكُلَّمَا قُلْتُمُوهَا فِي بُيُوتكُمْ تنفضت عَلَيْكُمْ غُرَفكُمْ؟ قُلْنَا: لَا، مَا رَأَيْنَاهَا فَعَلَتْ هَذَا قَطُّ إِلَّا عِنْدك، قَالَ: لَوَدِدْت أَنَّكُمْ كُلَّمَا قُلْتُمْ تنفض كُلّ شَيْء عَلَيْكُمْ، وَأَنِّي قَدْ خَرَجْت مِنْ نِصْف مُلْكِي، قُلْنَا: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ كَانَ أَيْسَر لِشَأْنِهَا، وَأَجْدَر أَنْ لَا تَكُون مِنْ أَمْر النُّبُوَّة، وَأَنَّهَا تَكُون مِنْ حِيَل النَّاس، ثُمَّ سَأَلْنَا عَمَّا أَرَادَ فَأَخْبَرْنَاهُ، ثُمَّ قَالَ: كَيْف صَلَاتكُمْ وَصَوْمكُمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: قُومُوا؛ فقمنا فَأَمَرَ لَنَا بِمَنْزِلٍ حَسَن وَنُزُل كَثِير، فَأَقَمْنَا ثَلَاثًا.

فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا لَيْلًا فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَاسْتَعَادَ قَوْلنَا، فَأَعَدْنَاهُ، ثُمَّ دَعَا بِشَيْءٍ كَهَيْئَةِ الرَّبْعَة العَظِيمَة مُذَهَّبَة فِيهَا بُيُوت صِغَار عَلَيْهَا أَبْوَاب، فَفَتَحَ بَيْتًا وَقُفْلًا، فَاسْتَخْرَجَ حَرِيرَة سَوْدَاء، فَنَشَرَهَا، فَإِذَا فِيهَا صُورَة حَمْرَاء، وَإِذَا فِيهَا رَجُل ضَخْم العَيْنَيْنِ عَظِيم الأَلْيَتَيْنِ، لَمْ أَرَ مِثْل طُول عُنُقه وَإِذَا لَيْسَتْ لَهُ لِحْيَة، وَإِذَا لَهُ ضَفِيرَتَانِ أَحْسَن مَا خَلَقَ الله، فَقَالَ: أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا. قَالَ: هَذَا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِذَا هُوَ أَكْثَر النَّاس شَعْرًا.

ثُمَّ فَتَحَ بَابًا آخر، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ حَرِيرَة سَوْدَاء، وَإِذَا فِيهَا صُورَة بَيْضَاء، وَإِذَا لَهُ شَعْر كَشَعْرِ القِطَط، أَحْمَر العَيْنَيْنِ، ضَخْم الهَامَة، حَسَن اللِّحْيَة، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا، قَالَ: هَذَا نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ فَتَحَ بَابًا آخر، فَاسْتَخْرَجَ حَرِيرَة سَوْدَاء، وَإِذَا فِيهَا رَجُل شَدِيد البَيَاض، حَسَن العَيْنَيْنِ، صَلْت الجَبِين، طَوِيل الخَدّ، أَبْيَض اللِّحْيَة كَأَنَّهُ يَبْتَسِم، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا. قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ فَتَحَ بَابًا آخر، فَإِذَا فِيهِ صُورَة بَيْضَاء، وَإِذَا وَالله رَسُول الله ﷺ فَقَالَ أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: نَعَمْ. مُحَمَّد رَسُول الله ﷺ قَالَ: وَبَكَيْنَا. قَالَ: وَالله يَعْلَم أَنَّهُ قَامَ قَائِمًا ثُمَّ جَلَسَ، وَقَالَ: وَالله إِنَّهُ لَهُوَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ؛ إِنَّهُ لَهُوَ، كَأَنَّك تَنْظُر إِلَيْهِ، فَأَمْسَكَ سَاعَة يَنْظُر إِلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ كَانَ آخِر البُيُوت، وَلَكِنِّي عَجَّلْته لَكُمْ لِأَنْظُر مَا عِنْدكُمْ.

ثُمَّ فَتَحَ بَابًا آخر، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ حَرِيرَة سَوْدَاء، فَإِذَا فِيهَا صُورَة أَدْمَاء سَحْمَاء، وَإِذَا رَجُل جَعْد قَطِط، غَائِر العَيْنَيْنِ، حَدِيد النَّظَر عَابِس، مُتَرَاكِب الأَسْنَان مُتَقَلِّص الشَّفَة كَأَنَّهُ غَضْبَان، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا. قَالَ: هَذَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِلَى جَانبه صُورَة تُشْبِهُهُ إِلَّا أَنَّهُ مُدْهَانّ الرَّأْس عَرِيض الجَبِين فِي عَيْنَيْهِ قَبَل، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا. قَالَ: هَذَا هَارُون بْن عِمْرَان عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ فَتَحَ بَابًا آخر، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ حَرِيرَة بَيْضَاء، فَإِذَا فِيهَا صُورَة رَجُل آدَم سَبْط رَبْعَة، كَأَنَّهُ غَضْبَان، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا. قَالَ: هَذَا لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ فَتَحَ بَابًا آخر، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ حَرِيرَة بَيْضَاء، فَإِذَا فِيهَا صُورَة رَجُل أَبْيَض مُشْرَب حُمْرَة، أَقْنَى، خَفِيف العَارِضَيْنِ، حَسَن الوَجْه، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا، قَالَ: هَذَا إِسْحَاق عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ فَتَحَ بَابًا آخر، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ حَرِيرَة بَيْضَاء، فَإِذَا فِيهَا صُورَة تُشْبِه إِسْحَاق، إِلَّا أَنَّهُ عَلَى شَفَته خَال، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا. قَالَ: هَذَا يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ فَتَحَ بَابًا آخر، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ حَرِيرَة سَوْدَاء، فِيهَا صُورَة رَجُل أَبْيَض حَسَن الوَجْه، أَقْنَى الأَنْف، حَسَن القَامَة يَعْلُو وَجْهه نُور، يُعْرَف فِي وَجْهه الخُشُوع، يَضْرِب إِلَى الحُمْرَة، قَالَ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا. قَالَ: هَذَا إِسْمَاعِيل جَدّ نَبِيكُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ فَتَحَ بَابًا آخر، فَاسْتَخْرَجَ حَرِيرَة بَيْضَاء، فِيهَا صُورَة كأنها صورة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَأَنَّ وَجْهه الشَّمْس، فَقَالَ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا. قَالَ: هَذَا يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ فَتَحَ بَابًا

آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمر حمش الساقين أخفش العينين ضخم البطن ربعة متقلد سيفًا، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة رجل ضخم الأليتين، طويل الرجلين، راكب فرسًا، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة بيضاء وإذا شاب شديد سواد اللحية، كثير الشعر، حسن العينين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم عليه السلام. قلنا: من أين لك هذه الصور، لأنا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء عليهم السلام، لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله؟ فقال: إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل عليه صورهم فكانت في خزانة آدم عليه السلام، عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس، فدفعها إلى دانيال، ثم قال: أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي وإني كنت عبدًا لأشركم ملكة حتى أموت، ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا، فلما أتينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه فحدثناه بما أرانا، وبما قال لنا، وما أجازنا، قال: فبكى أبو بكر، وقال: مسكين، لو أراد الله به خيرًا؛ لفعل. ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ، أنهم واليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم[١]. هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي رحمه الله في كتاب «دلائل النبوة» عن الحاكم إجازة فذكره، وإسناده لا بأس به.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، في التوراة قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، أسميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًّا، وأعينًا عميًا. قال عطاء: ثم لقيت كعبًا فسألته عن ذلك، فما اختلف حرفًا، إلا أن كعبًا قال بلغته، قال: قلوبًا غلوفيًا، وآذانًا صموميًا، وأعينًا عموميًا[٢].

وقد رواه البخاري في صحيحه: عن محمد بن سنان، عن فليح، عن هلال بن علي، فذكر بإسناده نحوه، وزاد بعد قوله: ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب، وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا محمد بن إدريس وراق الحميدي، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم، من ولد جبير بن مطعم، قال: حدثتني أم عثمان بنت سعيد وهي جدتي، عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير، عن أبيه محمد بن جبير، عن أبيه جبير بن مطعم، قال: خرجت تاجرًا إلى الشام، فلما كنت بأدنى الشام لقيني رجل من أهل الكتاب، فقال: هل عندكم رجل تنبأ؟ قلت: نعم. قال: هل تعرف صورته إذا رأيتها؟ قلت: نعم. فأدخلني بيتًا فيه صور فلم أر صورة النبي ﷺ، فبينما أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهب بنا إلى منزله فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبي ﷺ، وإذا رجل آخذ بعقب النبي ﷺ قلت: من هذا الرجل القابض على عقبه؟ قال: إنه لم يكن نبي إلا كان بعده نبي إلا هذا النبي فإنه لا نبي بعده، وهذا الخليفة بعده، وإذا صفة أبي بكر رضي الله عنه[٣].

---

(١) حسن الإسناد: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٨٥، ٣٩٠)، وقال الحافظ ابن كثير عقبه: وإسناده لا بأس به.
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٢٥) وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٣٦): وفيه من لم أعرفهم.

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا حَفص بن عُمَر أَبُو عُمَر الضَّرِير، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، أَنَّ سَعِيد بْن إِيَاس الجُرَيْرِيّ، أَخْبَرَهُمْ عَنْ عَبْد الله بْن شَقِيق العُقَيْلِيّ، عَنْ الأَقْرَع مُؤَذِّن عُمَر بْن الخَطَّاب، قَالَ: بَعَثَنِي عُمَر إِلَى الأُسْقُف، فَدَعَوْته، فَقَالَ لَهُ عُمَر: هَلْ تَجِدنِي فِي الكِتَاب؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: كَيْف تَجِدنِي؟ قَالَ: أَجِدك قَرْنًا فَرَفَعَ عُمَر الدِّرَّة، وَقَالَ: قَرْن مَهْ؟ قَالَ: قَرْن حَدِيد أَمِير شَدِيد. قَالَ: فَكَيْف تَجِد الَّذِي بَعْدِي؟ قَالَ: أَجِد خَلِيفَة صَالِحًا غَيْر أَنَّهُ يُؤْثِر قَرَابَته. قَالَ عُمَر: يَرْحَم الله عُثْمَان، ثَلَاثًا. قَالَ: كَيْف تَجِد الَّذِي بَعْده؟ قَالَ: أَجِدهُ صَدَأ حَدِيد. قَالَ: فَوَضَعَ عُمَر يَده عَلَى رَأْسه، وَقَالَ: يَا دَفْرَاه يَا دَفْرَاه. قَالَ: يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ؛ إِنَّهُ خَلِيفَة صَالِح وَلَكِنَّهُ يُسْتَخْلَف حِين يُسْتَخْلَف، وَالسَّيْف مَسْلُول، وَالدَّم مُهْرَاق.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ هَذِهِ صِفَة الرَّسُول ﷺ فِي الكُتُب المُتَقَدِّمَة. وَهَكَذَا كَانَتْ حَاله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام، لَا يَأْمُر إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنْ شَرّ؛ كَمَا قَالَ عَبْد الله بْن مَسْعُود: إِذَا سَمِعْت الله يَقُول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعك، فَإِنَّهُ خَيْر يَأْمر بِهِ أَوْ شَرّ يَنْهَى عَنْهُ، وَمِنْ أَهَمّ ذَلِكَ وَأَعْظَمه مَا بَعَثَهُ الله بِهِ مِنَ الأَمْر بِعِبَادَتِهِ وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَالنَّهْي عَنْ عِبَادَة مَنْ سِوَاهُ، كَمَا أُرْسِلَ بِهِ جَمِيع الرُّسُل قَبْله، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر -هُوَ العَقَدِيّ عَبْد المَلِك بْن عَمْرو-، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان -هُوَ اِبْن بِلَال-، عَنْ رَبِيعَة بْن أَبِي عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ عَبْد المَلِك بْن سَعِيد، عَنْ أَبِي حُمَيْد، وَأَبِي أُسَيْد ﵄، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: **«إِذَا سَمِعْتُمْ الحَدِيث عَنِّي تَعْرِفهُ قُلُوبكُمْ، وَتَلِين لَهُ أَشْعَاركُمْ وَأَبْشَاركُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيب، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ الحَدِيث عَنِّي تُنْكِرهُ قُلُوبكُمْ، وَتَنْفِر مِنْهُ أَشْعَاركُمْ وَأَبْشَاركُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيد فَأَنَا أَبْعَدكُمْ مِنْهُ»**[1]. هذا حديث جَيِّد الإسناد، لَمْ يُخَرِّجهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي البَخْتَرِيّ، عَنْ عَلِيّ ﵁ قَالَ: إِذَا سَمِعْتُمْ عَنْ رَسُول الله ﷺ حَدِيثًا فَظُنُّوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَهْدَى، وَالَّذِي هُوَ أَهْنَى، وَالَّذِي هُوَ أَتْقَى. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ مِسْعَر، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي البَخْتَرِيّ، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن عَنْ عَلِيّ ﵁ قَالَ: إِذَا حَدَّثْتُمْ عَنْ رَسُول الله ﷺ حَدِيثًا، فَظُنُّوا بِهِ الَّذِي هُوَ أَهْدَاهُ، وَأَهْنَاهُ، وَأَتْقَاهُ. وَقَوْله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أَيْ: يُحِلّ لَهُمْ مَا كَانُوا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسهمْ مِنَ البَحَائِر وَالسَّوَائِب وَالوَصَائِل وَالحَام وَنَحْو ذَلِكَ، مِمَّا كَانُوا ضَيَّقُوا بِهِ عَلَى أَنْفُسهمْ.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ اِبْن عَبَّاس: كَلَحْمِ الخِنْزِير، وَالرِّبَا، وَمَا كَانُوا يَسْتَحِلُّونَهُ مِنَ المُحَرَّمَات مِنَ المَآكِل الَّتِي حَرَّمَهَا الله تَعَالَى. وَقَالَ بَعْض العُلَمَاء: كُلّ مَا أَحَلَّ الله تَعَالَى فَهُوَ طَيِّب نَافِع فِي البَدَن وَالدِّين، وَكُلّ مَا حَرَّمَهُ فَهُوَ خَبِيث ضَارّ فِي البَدَن وَالدِّين. وَقَدْ تَمَسَّكَ بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة مَنْ يَرَى التَّحْسِين وَالتَّقْبِيح العَقْلِيَّيْنِ، وَأُجِيبَ عَنْ ذَلِكَ بِمَا لَا يَتَّسِع هَذَا المَوْضِع لَهُ. وَكَذَا اِحْتَجَّ بِهَا مَنْ ذَهَبَ مِنَ العُلَمَاء إِلَى أَنَّ المَرْجِع فِي حِلّ المَآكِل الَّتِي لَمْ يُنَصّ عَلَى تَحْلِيلهَا وَلَا تَحْرِيمهَا إِلَى مَا اِسْتَطَابَته العَرَب فِي حَال رَفَاهِيَتهَا، وَكَذَا فِي جَانِب التَّحْرِيم إِلَى مَا اِسْتَخْبَثَتْهُ، وَفِيهِ كَلَام طَوِيل أَيْضًا.

وَقَوْله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: أَنَّهُ جَاءَ بِالتَّيْسِيرِ وَالسَّمَاحَة؛ كَمَا وَرَدَ الحَدِيث مِنْ طُرُق عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْت بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَة»[2]، وَقَالَ ﷺ لِأَمِيرَيْهِ مُعَاذ وَأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٧)، وابن حبان (٦٣) من حديث أبي أسيد، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٧٣٢).
(٢) حسن: تقدم.

لَمَّا بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَن: «بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»(١). وَقَالَ صَاحِبه أَبُو بَرزة الأَسْلَمِيّ: «إِنِّي صَحِبْت رَسُول الله ﷺ وَشَهِدت تَيْسِيره». وَقَدْ كَانَتْ الأُمَم الَّتِي قَبْلنَا فِي شَرَائِعهمْ ضِيق عَلَيْهِمْ، فَوَسَّعَ الله عَلَى هَذِهِ الأُمَّة أُمُورهَا وَسَهَّلَهَا لَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَل»(٢). وَقَالَ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأ وَالنِّسْيَان وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»(٣). وَلِهَذَا أَرْشَدَ الله هَذِهِ الأُمَّة أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وَثَبَتَ فِي صَحِيح مُسْلِم: أَنَّ الله تَعَالَى قَالَ بَعْد كُلّ سُؤَال مِنْ هَذِهِ: «قَدْ فَعَلْت، قَدْ فَعَلْت»(٤). وَقَوْله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أَيْ: عَظَّمُوهُ وَوَقَّرُوهُ. ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أَيْ: القُرْآن وَالوَحْي الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبَلِّغًا إِلَى النَّاس ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُوله مُحَمَّد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وَهَذَا خِطَاب لِلأَحْمَرِ وَالأَسْوَد وَالعَرَبِيّ وَالعَجَمِيّ ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أَيْ: جَمِيعكُمْ، وَهَذَا مِنْ شَرَفه وَعَظَمَته ﷺ، أَنَّهُ خَاتَم النَّبِيِّينَ، وَأَنَّهُ مَبْعُوث إِلَى النَّاس كَافَّة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة، كَمَا أَنَّ الأَحَادِيث فِي هَذَا أَكْثَر مِنْ أَنْ تُحْصَر، وَهُوَ مَعْلُوم مِنْ دِين الإِسْلَام ضَرُورَة أَنَّهُ ﷺ رَسُول الله إِلَى النَّاس كُلّهمْ.

قَالَ البُخَارِيّ رَحِمَهُ اللهُ، فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا عَبْد الله، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن عَبْد الرَّحْمَن وَمُوسَى بْن هَارُون قَالَا: حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلِم، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن العَلَاء بْن زَبْر، حَدَّثَنِي بُسْر بْن عُبَيْد الله، حَدَّثَنِي أَبُو إِدْرِيس الخَوْلَانِيّ، قَالَ: سَمِعْت أَبَا الدَّرْدَاء رضي الله عنه يَقُول: كَانَتْ بَيْن أَبِي بَكْر وَعُمَر رضي الله عنهما مُحَاوَرَة، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْر عُمَر، فَانْصَرَفَ عُمَر عَنْهُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعهُ أَبُو بَكْر يَسْأَلهُ أَنْ يَسْتَغْفِر لَهُ، فَلَمْ يَفْعَل حَتَّى أَغْلَقَ بَابه فِي وَجْهه، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْر إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاء: وَنَحْنُ عِنْده فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَمَّا صَاحِبكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ» أَيْ: غَاضَبَ وَحَاقَدَ، قَالَ: وَنَدِمَ عُمَر عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ وَقَصَّ عَلَى رَسُول الله ﷺ الخَبَر، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاء: فَغَضِبَ رَسُول الله ﷺ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْر يَقُول: وَالله يَا رَسُول الله؛ لَأَنَا كُنْت أَظْلَم، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْت: يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُول الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا. فَقُلْتُمْ: كَذَبْت. وَقَالَ أَبُو بَكْر: صَدَقْت»(٥). انْفَرَدَ بِهِ البُخَارِيّ. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن مُسْلِم، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، عَنْ مِقْسَم، عَنْ ابْن عَبَّاس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «أُعْطِيت خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيّ قَبْلِي، وَلَا أَقُولهُ فَخْرًا: بُعِثْت إِلَى النَّاس كَافَّة: الأَحْمَر وَالأَسْوَد، وَنُصِرْت بِالرُّعْب مَسِيرَة شَهْر، وَأُحِلَّتْ لِيَ

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: تقدم.
(٤) صحيح: تقدم.
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٦١، ٤٦٤٠).

الغَنَائِمِ وَلَمْ تُحَلّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ فَأَخَّرْتُهَا لأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ لِمَنْ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»[1]. إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ.

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ مُضَرٍ، عَنِ ابْنِ الهَادِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكٍ، قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي، فَاجْتَمَعَ وَرَاءَهُ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَحْرُسُونَهُ، حَتَّى إِذَا صَلَّى انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ: «لَقَدْ أُعْطِيتُ اللَّيْلَةَ خَمْسًا مَا أُعْطِيَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: أَمَّا أَنَا فَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَامَّةً، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ، وَنُصِرْتُ عَلَى العَدُوِّ بِالرُّعْبِ، وَلَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ لَمُلِئَ مِنِّي رُعْبًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ آكُلُهَا، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعَظِّمُونَ أَكْلَهَا، كَانُوا يُحْرِقُونَهَا، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسَاجِدَ وَطَهُورًا، أَيْنَمَا أَدْرَكَتْنِي الصَّلاةُ تَمَسَّحْتُ وَصَلَّيْتُ، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعَظِّمُونَ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَانُوا يُصَلُّونَ فِي بِيَعِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ، وَالخَامِسَةُ هِيَ مَا هِيَ، قِيلَ لِي: سَلْ؛ فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ سَأَلَ، فَأَخَّرْتُ مَسْأَلَتِي إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَهِيَ لَكُمْ وَلِمَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ»[2]. إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ أَيْضًا، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ.

وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَمِعَ بِي مِنْ أُمَّتِي أَوْ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِي لَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ»[3]. وَهَذَا الحَدِيثُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لا يُؤْمِنُ بِي إِلا دَخَلَ النَّارَ»[4]. وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو يُونُسَ -وَهُوَ: سُلَيْمُ بْنُ جُبَيْرٍ-، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلا يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[5]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا: بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ شَهْرًا، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَلَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلا وَقَدْ سَأَلَ الشَّفَاعَةَ، وَإِنِّي قَدِ اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي، ثُمَّ جَعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا»[6]. وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَلَمْ أَرَهُمْ خَرَّجُوهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَهَذَا الحَدِيثُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[7].

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٣٠١)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٧٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٠٣)، وعبد بن حميد (١/ ٢١٥) من حديث ابن عباس.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٢) بسند حسن من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٦٦٧) وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٣٤).

(٣) صحيح: تقدم.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٣).

(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣١٧، ٣٥٠) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٧).

(٦) صحيح: تقدم.

(٧) حسن: تقدم.

وَقَوْله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ صِفَة الله تَعَالَى فِي قَوْل رَسُول الله ﷺ: أي: إِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ خَالِق كُلّ شَيْء وَرَبّه وَمَلِيكه، الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْك وَالْإِحْيَاء وَالْإِمَاتَة وَلَهُ الْحُكْم.

وَقَوْله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَسُول الله إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِيمَان بِهِ ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أَيْ: الَّذِي وُعِدْتُمْ بِهِ وَبُشِّرْتُمْ بِهِ فِي الْكُتُب الْمُتَقَدِّمَة، فَإِنَّهُ منعوت بِذَلِكَ فِي كُتُبهمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أَيْ: يَصْدُق قَوْله عَمَله، وَهُوَ يُؤْمِن بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبّه، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أَيْ: اُسْلُكُوا طَرِيقه وَاقْتَفُوا أَثَره؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أَيْ: إِلَى الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيل: إِنَّ مِنْهُمْ طَائِفَة يَتَّبِعُونَ الْحَقّ وَيَعْدِلُونَ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾. وَقَدْ ذَكَرَ اِبْن جَرِير فِي تَفْسِيرهَا خَبَرًا عَجِيبًا فَقَالَ: حَدَّثَنَا الْقَاسِم، حَدَّثَنَا الْحُسَيْن، حَدَّثَنَا حَجَّاج، عَنْ اِبْن جُرَيْج، قَوْله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيل لَمَّا قَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُمْ وَكَفَرُوا وَكَانُوا اِثْنَيْ عَشَرَ سِبْطًا، تَبَرَّأَ سِبْط مِنْهُمْ مِمَّا صَنَعُوا، وَاعْتَذَرُوا، وَسَأَلُوا الله ﷻ أَنْ يُفَرِّق بَيْنهمْ وَبَيْنهمْ، فَفَتَحَ الله لَهُمْ نَفَقًا فِي الْأَرْض، فَسَارُوا فِيهِ حَتَّى خَرَجُوا مِنْ وَرَاء الصِّين، فَهُمْ هُنَالِكَ حُنَفَاء مُسْلِمون يَسْتَقْبِلُونَ قِبْلَتنَا. قَالَ اِبْن جُرَيْج: قَالَ اِبْن عَبَّاس: فَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، وَ﴿وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عِيسَى اِبْن مَرْيَم، قَالَ اِبْن جُرَيْج: قَالَ اِبْن عَبَّاس: سَارُوا فِي السَّرَب سَنَة وَنِصْفًا. وَقَالَ اِبْن عُيَيْنَة: عَنْ صَدَقَة أَبِي الْهُذَيْل، عَنْ السُّدِّيّ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ قَالَ: قَوْم بَيْنكُمْ وَبَيْنهمْ نَهَر مِنْ شَهْد.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة، وهي مدنية، وهذا السياق مكي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته، ولله الحمد والمنة.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾

هَذَا السِّيَاق هُوَ بَسْط لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

يَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ -صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ-: ﴿وَسْأَلْهُمْ﴾ أَيْ: وَاسْأَلْ هَؤُلَاءِ الْيَهُود الَّذِينَ بِحَضْرَتك عَنْ قِصَّة أَصْحَابِهِمْ الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْر الله، فَفَاجَأَتْهُمْ نِقْمَته عَلَى صَنِيعهمْ وَاعْتِدَائِهِمْ وَاحْتِيَالهمْ فِي الْمُخَالَفَة، وَحَذِّرْ هَؤُلَاءِ مِنْ كِتْمَان صِفَتك الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي كُتُبهمْ؛ لِئَلَّا يَحِلّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِإِخْوَانِهِمْ وَسَلَفهمْ، وَهَذِهِ الْقَرْيَة هِيَ «أَيْلَة»، وَهِيَ عَلَى شَاطِئِ بَحْر الْقُلْزُم. قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: عَنْ دَاوُدَ بْن الْحُصَيْن، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس، فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قَالَ: هِيَ قَرْيَة يُقَال لَهَا: «أَيْلَة» بَيْن مَدْيَن وَالطُّور. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَة وَمُجَاهِد وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ. وَقَالَ عَبْد الله بْن كَثِير الْقَارِئ: سَمِعْنَا أَنَّهَا أَيْلَة. وَقِيلَ: هِيَ مَدْيَن، وَهُوَ رِوَايَة عَنْ اِبْن عَبَّاس. وَقَالَ اِبْن زَيْد: هِيَ قَرْيَة يُقَال لَهَا: «مقنا» بَيْن مَدْيَن وَعَيْنُونَا. وَقَوْله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أَيْ: يَعْتَدُونَ فِيهِ وَيُخَالِفُونَ أَمْر الله فِيهِ لَهُمْ بِالْوَصَاةِ بِهِ إِذْ ذَاكَ. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ قَالَ الضَّحَّاك: عَنْ اِبْن عَبَّاس؛ أَيْ: ظَاهِرَة عَلَى الْمَاء. وَقَالَ الْعَوْفِيّ: عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿شُرَّعًا﴾: مِنْ كُلّ مَكَان.

قَالَ اِبْن جَرِير: وَقَوْله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أَيْ: نَخْتَبِرهُمْ بِإِظْهَارِ السَّمَك لَهُمْ عَلَى ظَهْر الْمَاء فِي الْيَوْم الْمُحَرَّم عَلَيْهِمْ صَيْده، وَإِخْفَائِهِ عَنْهُمْ فِي الْيَوْم الْمحلَّل لَهُمْ صَيْده، ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نَخْتَبِرهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يَقُول: بِفِسْقِهِمْ عَنْ طَاعَة الله وَخُرُوجهمْ عَنْهَا. وَهَؤُلَاءِ قَوْم اِحْتَالُوا عَلَى اِنْتِهَاك مَحَارِم الله، بِمَا تَعَاطَوْا مِنَ الأَسْبَاب الظَّاهِرَة الَّتِي مَعْنَاهَا فِي الْبَاطِن تَعَاطِي الْحَرَام. وَقَدْ قَالَ الْفَقِيه الإِمَام أَبُو عَبْد الله ابْن بَطَّة رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن مُسلم، حَدَّثَنَا الْحَسَن بْن مُحَمَّد بْن الصَّبَّاح الزَّعْفَرَانِيّ، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**لا تَرْتَكِبُوا مَا اِرْتَكَبَتْ الْيَهُود، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِم الله بِأَدْنَى الْحِيَل**»[1]. وَهَذَا إِسْنَاد جَيِّد، فَإِنَّ أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن مُسلم هَذَا ذَكَرَهُ الْخَطِيب فِي تَارِيخه وَوَثَّقَهُ، وَبَاقِي رِجَاله مَشْهُورُونَ ثِقَات، وَيُصَحِّح التِّرْمِذِيّ بِمِثْلِ هَذَا الإِسْنَاد كَثِيرًا.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ أَهْل هَذِهِ الْقَرْيَة أَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى ثَلَاث فِرَق: فِرْقَة اِرْتَكَبَتْ الْمَحْذُور، وَاحْتَالُوا عَلَى اِصْطِيَاد السَّمَك يَوْم السَّبْت، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانه فِي سُورَة الْبَقَرَة، وَفِرْقَة نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ وَاعْتَزَلَتْهُمْ، وَفِرْقَة سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَل وَلَمْ تَنْهَ وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكِرَةِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أَيْ: لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلَاءِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَة مِنْ الله؟ فَلَا فَائِدَة فِي نَهْيكُمْ إِيَّاهُمْ، قَالَتْ لَهُمْ الْمُنْكِرَة: ﴿مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ قَرَأَ بَعْضهمْ بِالرَّفْعِ، كَأَنَّهُ عَلَى تَقْدِير: هَذَا مَعْذِرَة، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّصْبِ أَيْ: نَفْعَل ذَلِكَ ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أَيْ: فِيمَا أُخِذَ عَلَيْنَا مِنَ الأَمْر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يَقُولُونَ: وَلَعَلَّ لِهَذَا الإِنْكَار يَتَّقُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَيَتْرُكُونَهُ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى الله تَائِبِينَ، فَإِذَا تَابُوا تَابَ الله عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أَيْ: فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُونَ الْمنكر قَبُول النَّصِيحَة ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَيْ: اِرْتَكَبُوا الْمَعْصِيَة ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فَنَصَّ عَلَى نَجَاة النَّاهِينَ وَهَلَاك الظَّالِمِينَ،

---

(١) حسن: حسنه الألباني في «صفة الفتوى» (١/ ٢٨).

وَسَكَتَ عَنْ السَّاكِتِينَ؛ لِأَنَّ الجَزَاء مِنْ جِنْس العَمَل، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَدْحًا فَيُمْدَحُوا، وَلَا اِرْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُذَمُّوا، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ اِخْتَلَفَ الأَئِمَّة فِيهِمْ هَلْ كَانُوا مِنْ الهَالِكِينَ أَوْ مِنْ النَّاجِينَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: هِيَ قَرْيَة عَلَى شَاطِئ البَحْر بَيْن مكة وَالْمَدِينَة يُقَال لَهَا: «أَيْلَة» فَحَرَّمَ الله عَلَيْهِمْ الحِيتَان يَوْم سَبْتهمْ، وَكَانَتْ الحِيتَان تَأْتِيهِمْ يَوْم سَبْتهمْ شُرَّعًا فِي سَاحِل البَحْر، فَإِذَا مَضَى يَوْم السَّبْت لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا، فَمَضَى عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ إِنَّ طَائِفَة مِنْهُمْ أَخَذُوا الحِيتَان يَوْم سَبْتهمْ فَنَهَتْهُمْ طَائِفَة وَقَالُوا: تَأْخُذُونَهَا وَقَدْ حَرَّمَهَا الله عَلَيْكُمْ يَوْم سَبْتكُمْ؟ فَلَمْ يَزْدَادُوا إِلَّا غَيًّا، وَعُتُوًّا، وَجَعَلَتْ طَائِفَة أُخْرَى تَنْهَاهُمْ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالَتْ طَائِفَة مِنْ النُّهَاة: تَعْلَمُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْم قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمْ العَذَاب ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وَكَانُوا أَشَدّ غَضَبًا لله مِنْ الطَّائِفَة الأُخْرَى فَقَالُوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وَكُلّ قَدْ كَانُوا يَنْهَوْنَ، فَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ غَضَب الله نَجَتْ الطَّائِفَتَانِ اللَّتَانِ قَالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وَالَّذِينَ قَالُوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وَأَهْلَكَ الله أَهْل مَعْصِيَته الَّذِينَ أَخَذُوا الحِيتَان فَجَعَلَهُمْ قِرَدَة. وَرَوَى العَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس قَرِيبًا مِنْ هَذَا.

وَقَالَ حَمَّاد بْن زَيْد: عَنْ دَاوُدَ بْن الحُصَيْن، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قَالَ: مَا أَدْرِي أَنَجَا الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أَمْ لَا؟ قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى عَرَّفْته أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، فَكَسَانِي حُلَّة. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا اِبْن جُرَيْج، حَدَّثَنِي رَجُل، عَنْ عِكْرِمَة قَالَ: جِئْت اِبْن عَبَّاس يَوْمًا وَهُوَ يَبْكِي، وَإِذَا المُصْحَف فِي حِجْره، فَأَعْظَمْت أَنْ أَدْنُو، ثُمَّ لَمْ أَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تَقَدَّمْت، فَجَلَسْت، فَقُلْت: مَا يُبْكِيك يَا أَبَا عَبَّاس، جَعَلَنِي الله فِدَاك؟ قَالَ: فَقَالَ هَؤُلَاءِ الوَرَقَات. قَالَ: وَإِذَا هُوَ فِي سُورَة الأَعْرَاف، قَالَ: تَعْرِف «أَيْلَة»؟ قُلْت: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهُ كَانَ بِهَا حَيّ مِنْ اليَهُود سِيقَتْ الحِيتَان إِلَيْهِمْ يَوْم السَّبْت، ثُمَّ غَاصَتْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يَغُوصُوا بَعْد كَدّ وَمُؤْنَة شَدِيدَة، كَانَتْ تَأْتِيهِمْ يَوْم السبت شُرَّعًا بِيضًا سِمَانًا كَأَنَّهَا المَاخِض تَتبطح ظُهُورهَا لِبُطُونِهَا بِأَفْنِيَتِهِمْ، فَكَانُوا كَذَلِكَ بُرْهَة مِنْ الدَّهْر، ثُمَّ إِنَّ الشَّيْطَان أَوْحَى إِلَيْهِمْ فَقَالَ: إِنَّمَا نُهِيتُمْ عَنْ أَكْلهَا يَوْم السَّبْت، فَخُذُوهَا فِيهِ وَكُلُوهَا فِي غَيْره مِنْ الأَيَّام. فَقَالَتْ ذَلِكَ طَائِفَة مِنْهُمْ، وَقَالَتْ طَائِفَة: بَلْ نُهِيتُمْ عَنْ أَكْلهَا وَأَخْذهَا وَصَيْدهَا يَوْم السَّبْت. فَكَانُوا كَذَلِكَ حَتَّى جَاءَتْ الجُمْعَة المُقْبِلَة، فَغَدَتْ طَائِفَة بِأَنْفُسِهَا وَأَبْنَائِهَا وَنِسَائِهَا، وَاعْتَزَلَتْ طَائِفَة ذَات اليَمِين، وَتَنَحَّتْ وَاعْتَزَلَتْ طَائِفَة ذَات اليَسَار وَسَكَتَتْ، وَقَالَ الأَيْمَنُونَ: وَيْلكُمْ؛ الله الله؛ نَنْهَاكُمْ أَنْ تَتَعَرَّضُوا لِعُقُوبَةِ الله. وَقَالَ الأَيْسَرُونَ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قَالَ الأَيْمَنُونَ: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ إِنْ يَنْتَهُوا فَهُوَ أَحَبّ إِلَيْنَا أَنْ لَا يُصَابُوا وَلَا يَهْلِكُوا، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا فَمَعْذِرَة إِلَى رَبّكُمْ، فَمَضَوْا عَلَى الخَطِيئَة، وَقَالَ الأَيْمَنُونَ: فَقَدْ فَعَلْتُمْ يَا أَعْدَاء الله، وَالله لَا نُبَايِتكُمْ اللَّيْلَة فِي مَدِينَتكُمْ، وَالله مَا نَرَاكُمْ تُصْبِحُونَ حَتَّى يُصَبِّحكُمْ الله بِخَسْفٍ أَوْ قَذْف أَوْ بَعْض مَا عِنْده مِنْ العَذَاب، فَلَمَّا أَصْبَحُوا ضَرَبُوا عَلَيْهِمْ البَاب، وَنَادَوْا، فَلَمْ يُجَابُوا، فَوَضَعُوا سُلَّمًا، فَأَعْلَوْا بِسُور المَدِينَة رَجُلًا، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَيْ عِبَاد الله قِرَدَة وَالله تُعَاوِي، لَهَا أَذْنَاب. قَالَ: فَفَتَحُوا فَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ، فَعَرَفَتْ القُرُود أَنْسَابهَا مِنْ الإِنْس، وَلَا تَعْرِف الإِنْس أَنْسَابهَا مِنْ القِرَدَة، فَجَعَلَتْ القُرُود يَأْتِيهَا نَسِيبهَا مِنْ الإِنْس فَتَشُمّ ثِيَابه وَتَبْكِي، فَيَقُول: أَلَمْ نَنْهَكُمْ عَنْ كَذَا؟ فَتَقُول بِرَأْسِهَا: أَيْ نَعَمْ. ثُمَّ قَرَأَ اِبْن عَبَّاس ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ قَالَ: فَأَرَى الَّذِينَ نَهَوْا قَدْ نَجَوْا، وَلَا أَرَى الآخَرِينَ ذُكِرُوا، وَنَحْنُ نَرَى أَشْيَاء نُنْكِرهَا وَلَا نَقُول فِيهَا، قَالَ: قُلْت: أَيْ، جَعَلَنِي الله فِدَاك، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَدْ كَرِهُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفُوهُمْ وَقَالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ قَالَ: فَأَمَرَ لِي، فَكُسِيت ثَوْبَيْنِ غَلِيظَيْنِ. وَكَذَا رَوَى مُجَاهِد عَنْهُ.

وَقَالَ ابْنِ جَرِير: حَدَّثَنَا يُونُس، أَخْبَرَنَا أَشْهَب بن عَبْد العَزِيز، عَنْ مَالِك قَالَ: زَعَمَ ابْن رُومَان أَنَّ قَوْله تَعَالَى: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ قَالَ: كَانَتْ تَأْتِيهِمْ يَوْم السَّبْت، فَإِذَا كَانَ المَسَاء ذَهَبَتْ، فَلَا يُرَى مِنْهَا شَيْء إِلَى يَوْم السَّبْت الآخر، فَاتَّخَذَ لِذَلِكَ رَجُل خَيْطًا وَوَتِدًا، فَرَبَطَ حُوتًا مِنْهَا فِي المَاء يَوْم السَّبْت، حَتَّى إِذَا أَمْسَوْا لَيْلَة الأَحَد أَخَذَهُ فَاشْتَوَاهُ، فَوَجَدَ النَّاس رِيحه، فَأَتَوْهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ، فَجَحَدَهُمْ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى قَالَ لَهُمْ: فَإِنَّهُ جِلْد حُوت وَجَدْنَاهُ. فَلَمَّا كَانَ السَّبْت الآخر فَعَلَ مِثْل ذَلِكَ وَلَا أَدْرِي لَعَلَّهُ قَالَ: رَبَطَ حُوتَيْنِ فَلَمَّا أَمْسَى مِنْ لَيْلَة الأَحَد أَخَذَهُ فَاشْتَوَاهُ، فَوَجَدُوا رَائِحَة، فَجَاءُوا فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لَهُمْ: لَوْ شِئْتُمْ صَنَعْتُمْ كَمَا أَصْنَع. فَقَالُوا لَهُ: وَمَا صَنَعْت؟ فَأَخْبَرَهُمْ، فَفَعَلُوا مِثْل مَا فَعَلَ حَتَّى كَثُرَ ذَلِكَ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَدِينَة لَهَا رَبَض يُغْلِقُونَهَا عَلَيْهِمْ، فَأَصَابَهُمْ مِنَ المَسْخ مَا أَصَابَهُمْ، فَغَدَا عَلَيْهِمْ جِيرَانهمْ مِمَّنْ كَانُوا حَوْلهمْ، يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ مَا يَطْلُب النَّاس، فَوَجَدُوا المَدِينَة مُغْلَقَة عَلَيْهِمْ، فَنَادَوْا فَلَمْ يُجِيبُوهُمْ، فَتَسَوَّرُوا عَلَيْهِمْ، فَإِذَا هُمْ قِرَدَة، فَجَعَلَ القِرْد يَدْنُو يَتَمَسَّح بِمَنْ كَانَ يَعْرِف قَبْل ذَلِكَ، وَيَدْنُو مِنْهُ وَيَتَمَسَّح بِهِ.

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَة «الْبَقَرَة» مِنَ الآثَار فِي خَبَر هَذِهِ القَرْيَة مَا فِيهِ مَقْنَع وَكِفَايَة، وَللهِ الحَمْد وَالمِنَّة.

القَوْل الثَّانِي: أَنَّ السَّاكِتِينَ كَانُوا مِنَ الهَالِكِينَ: قَالَ مُحَمَّد بن إِسْحَاق: عَنْ دَاوُدَ بن الحُصَيْن، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَالَ: ابْتَدَعُوا السَّبْت فَابْتُلُوا فِيهِ، فَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ فِيهِ الحِيتَان، فَكَانُوا إِذَا كَانَ يَوْم السَّبْت شَرَعَتْ لَهُمْ الحِيتَان يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا فِي البَحْر، فَإِذَا انْقَضَى السَّبْت ذَهَبَتْ فَلَمْ تُرَ حَتَّى السَّبْت المُقْبِل، فَإِذَا جَاءَ السَّبْت جَاءَتْ شُرَّعًا، فَمَكَثُوا مَا شَاءَ الله أَنْ يَمْكُثُوا كَذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ حُوتًا فخزمه بأنفه ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ وَتِدًا فِي السَّاحِل، وَرَبَطَهُ وَتَرَكَهُ فِي المَاء، فَلَمَّا كَانَ الغَد أَخَذَهُ فَشَوَاهُ فَأَكَلَهُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَلَا يُنْكِرُونَ، وَلَا يَنْهَاهُ مِنْهُمْ أَحَد، إِلَّا عُصْبَة مِنْهُمْ نَهَوْهُ، حَتَّى ظَهَرَ ذَلِكَ فِي الأَسْوَاق، فَفُعِلَ عَلَانِيَة، قَالَ: فَقَالَتْ طَائِفَة لِلَّذِينَ يَنْهَوْنَهُمْ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فَقَالُوا: نَسْخَط أَعْمَالهمْ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس: كَانُوا أَثْلَاثًا: ثُلُث نَهَوْا، وَثُلُث قَالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وَثُلُث أَصْحَاب الخَطِيئَة، فَمَا نَجَا إِلَّا الَّذِينَ نَهَوْا وَهَلَكَ سَائِرهمْ. وَهَذَا إِسْنَاد جَيِّد عَنْ ابْن عَبَّاس، وَلَكِنَّ رُجُوعه إِلَى قَوْل عِكْرِمَة فِي نَجَاة السَّاكِتِينَ أَوْلَى مِنَ القَوْل بِهَذَا، لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ حَالهمْ بَعْد ذَلِكَ، وَالله أَعْلَم. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فِيهِ دَلَالَة بِالمَفْهُوم عَلَى أَنَّ الَّذِينَ بَقُوا نَجَوْا. وَ﴿بَئِيسٍ﴾ فِيهِ قِرَاءَات كَثِيرَة، وَمَعْنَاهُ فِي قَوْل مُجَاهِد: الشَّدِيد، وَفِي رِوَايَة: أَلِيم، وَقَالَ قَتَادَة: مُوجِع، وَالْكُلّ مُتَقَارِب، وَالله أَعْلَم. وَقَوْله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ أَيْ: ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ مُهَانِينَ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿تَأَذَّنَ﴾ تَفَعَّلَ مِنَ الأَذَان أَيْ: أَعْلَمَ. قَالَهُ مُجَاهِد، وَقَالَ غَيْره: أَمَرَ. وَفِي قُوَّة الكَلَام مَا يُفِيد مَعْنَى القَسَم مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَة؛ وَلِهَذَا تلقيت بِاللَّام فِي قَوْله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: عَلَى اليَهُود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ عِصْيَانهمْ وَمُخَالَفَتهمْ أَوَامِر الله وَشَرْعه، وَاحْتِيَالهمْ عَلَى المَحَارِم. وَيُقَال: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام ضَرَبَ عَلَيْهِمْ الخَرَاج سَبْع سِنِينَ، وَقِيلَ: ثَلَاث عَشْرَة سَنَة، وَكَانَ أَوَّل مَنْ ضَرَبَ الخَرَاج، ثُمَّ كَانُوا فِي قَهْر المُلُوك مِنَ اليُونَانِيِّينَ وَالكَشْدَانِيِّينَ وَالكَلْدَانِيِّينَ، ثُمَّ صَارُوا إِلَى قَهْر النَّصَارَى وَإِذْلَالهمْ إِيَّاهُمْ، وَأَخْذهمْ مِنْهُمْ الجِزْيَة وَالخَرَاج، ثُمَّ جَاءَ الإِسْلَام وَمُحَمَّد ﷺ فَكَانُوا تَحْت صَغَاره وَذِمَّته يُؤَدُّونَ الخَرَاج وَالجِزْيَة. قَالَ العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة قَالَ: هِيَ المَسْكَنَة وَأَخْذ الجِزْيَة مِنْهُمْ. وَقَالَ عَلِيّ بن أَبِي طَلْحَة، عَنْهُ: هِيَ الجِزْيَة.

وَالَّذِين يَسُومُونهم سُوء العَذَاب: مُحَمَّد رَسُول الله ﷺ، وَأُمَّته إِلَى يَوْم القِيَامَة. وَكَذَا قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر وَابْن جُرَيْج وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَة. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ مَعْمَر، عَنْ عَبْد الكَرِيم الجَزَرِيّ، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، قَالَ: يُسْتَحَبّ أَنْ تُبْعَث الأَنْبَاط فِي الجِزْيَة.

قُلْت: ثُمَّ آخِر أَمْرهمْ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ أَنْصَارًا لِلدَّجَّالِ، فَيَقْتُلُهُمْ المُسْلِمُونَ مَعَ عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذَلِكَ آخِر الزَّمَان. وَقَوْله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أَيْ: لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ شَرْعه ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيْ: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ. وَهَذَا مِنْ بَاب قَرْن الرَّحْمَة مَعَ العُقُوبَة؛ لِئَلَّا يَحْصُل اليَأْس، فَيَقْرُن تَعَالَى بَيْن التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب كَثِيرًا، لِتَبْقَى النُّفُوس بَيْن الرَّجَاء وَالخَوْف.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

يَذْكُر تَعَالَى أَنَّهُ فَرَّقَهُمْ فِي الأَرْض أُمَمًا، أَيْ: طَوَائِف وَفِرَقًا، كَمَا قَالَ: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: فِيهِمْ الصَّالِح وَغَيْر ذَلِكَ، كَمَا قَالَت الجِنّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ أَيْ: اخْتَبَرْنَاهُمْ ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أَيْ: بِالرَّخَاء وَالشِّدَّة، وَالرَّغْبَة وَالرَّهْبَة، وَالعَافِيَة وَالبَلَاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، يَقُول تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ﴾ مِنْ بَعْد ذَلِكَ الجِيل الَّذِي فِيهِمْ الصَّالِح وَالطَّالِح ﴿خَلْفٌ﴾ آخَر لَا خَيْر فِيهِمْ، وَقَدْ ﴿وَرِثُوا۟﴾ دِرَاسَة ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وَهُوَ التَّوْرَاة. وَقَالَ مُجَاهِد: هُمْ النَّصَارَى. وَقَدْ يَكُون أَعَمّ مِنْ ذَلِكَ ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أَيْ: يَعْتَاضُونَ عَنْ بَذْل الحَقّ وَنَشْره بِعَرَضِ الحَيَاة الدُّنْيَا، وَيُسَوِّفُونَ أَنْفُسهمْ وَيَعِدُونَهَا بِالتَّوْبَة، وَكُلَّمَا لَاحَ لَهُمْ مِثْل الأَوَّل وَقَعُوا فِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، كَمَا قَالَ سَعِيد ابْن جُبَيْر: يَعْمَلُونَ الذَّنْب ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ الله مِنْهُ، فَإِنْ عَرَضَ ذَلِكَ الذَّنْب أَخَذُوهُ.

وَقَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قَالَ: لَا يُشْرِف لَهُمْ شَيْء مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا أَخَذُوهُ؛ حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا، وَيَتَمَنَّوْنَ المَغْفِرَة ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾. وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إِي وَالله؛ لَخَلْف سُوء ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بَعْد أَنْبِيَائِهِمْ وَرُسُلهمْ، وَرَّثَهُمْ الله وَعَهِدَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ الله تَعَالَى فِي آيَة أُخْرَى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، قَالَ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ تَمَنَّوْا عَلَى الله أَمَانِيّ وَغِرَّة يَغْتَرُّونَ بِهَا ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، لَا يَشْغَلهُمْ شَيْء عَنْ شَيْء، وَلَا يَنْهَاهُمْ شَيْء عَنْ ذَلِكَ، كُلَّمَا هَفَّ لَهُمْ شَيْء مِنْ الدُّنْيَا أَكَلُوهُ، وَلَا يُبَالُونَ حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا.

وَقَالَ السُّدِّيّ: قَوْله ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ قَالَ: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيل لَا يَسْتَقْضُونَ قَاضِيًا إِلَّا ارْتَشَى فِي الحُكْم، وَإِنَّ خِيَارهمْ اجْتَمَعُوا، فَأَخَذَ بَعْضهمْ عَلَى بَعْض العُهُود أَنْ لَا يَفْعَلُوا وَلَا يَرْتَشُوا، فَجَعَلَ الرَّجُل مِنْهُمْ إِذَا اسْتُقْضِيَ ارْتَشَى، فَيُقَال لَهُ: مَا شَأْنك تَرْتَشِي فِي الحُكْم؟ فَيَقُول: سَيُغْفَر لِي، فَيَطْعَن عَلَيْهِ البَقِيَّة الآخَرُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل فِيمَا صَنَعَ، فَإِذَا مَاتَ أَوْ نُزِعَ وَجُعِلَ مَكَانه رَجُل مِمَّنْ كَانَ يَطْعَن عَلَيْهِ فَيَرْتَشِي، يَقُول: وَإِنْ يَأْتِ الآخَرِينَ عَرَض الدُّنْيَا يَأْخُذُوهُ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ يَقُول تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِي صَنِيعهم هَذَا، مَعَ مَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ المِيثَاق لَيُبَيِّنُنَّ الحَقّ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

وَقَالَ اِبْن جُرَيْج: قَالَ اِبْن عَبَّاس ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ قَالَ: فِيمَا يوجبون عَلَى الله مِنْ غُفْرَان ذُنُوبهمْ الَّتِي لَا يَزَالُونَ يَعُودُونَ فِيهَا وَلَا يَتُوبُونَ مِنْهَا. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يُرَغِّبهُمْ تعالى فِي جَزِيل ثَوَابه، وَيُحَذِّرهُمْ مِنْ وَبِيل عِقَابه، أَيْ: وَثَوَابِي وَمَا عِنْدِي خَيْر لِمَنْ اِتَّقَى المَحَارِم، وَتَرَكَ هَوَى نَفْسه، وَأَقْبَلَ عَلَى طَاعَة رَبّه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يَقُول: أَفَلَيْسَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اِعْتَاضُوا بِعَرَضِ الدُّنْيَا عَمَّا عِنْدِي، عَقْل يَرْدَعهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ السَّفَه وَالتَّبْذِير، ثُمَّ أَثْنَى تَعَالَى عَلَى مَنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي يَقُودهُ إِلَى اِتِّبَاع رَسُوله مُحَمَّد ﷺ كَمَا هُوَ مَكْتُوب فِيهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أَيْ: اِعْتَصَمُوا بِهِ، وَاقْتَدُوا بِأَوَامِرِهِ، وَتَرَكُوا زَوَاجِره ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ اِبْن عَبَّاس قَوْله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يَقُول: رَفَعْنَاهُ، وَهُوَ قَوْله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ الأَعْمَش، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس: رَفَعَتْهُ المَلَائِكَة فَوْق رُءُوسهمْ، وَقَالَ القَاسِم بْن أَبِي أَيُّوب: عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: ثُمَّ سَارَ بِهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام متوجهًا نحو الأَرْض المُقَدَّسَة، وَأَخَذَ الأَلْوَاح بَعْدَمَا سَكَتَ عَنْهُ الغَضَب، فَأَمَرَهُمْ بِالَّذِي أَمَرَه الله أَنْ يُبَلِّغهُمْ مِنْ الوَظَائِف، فَثَقُلَتْ عَلَيْهِمْ، وَأَبَوْا أَنْ يُقِرُّوا بِهَا حَتَّى نَتَقَ الله الجَبَل فَوْقهم ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ قَالَ: رَفَعَتْهُ المَلَائِكَة فَوْق رُءُوسهمْ. رَوَاهُ النَّسَائِيّ بِطُولِهِ.

وَقَالَ سُنَيْد بْن دَاوُدَ فِي تَفْسِيره: عَنْ حَجَّاج بْن مُحَمَّد، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن عَبْد الله، قَالَ: هَذَا كِتَاب، أَتَقْبَلُونَهُ بِمَا فِيهِ؟ فَإِنَّ فِيهِ بَيَان مَا أَحَلَّ لَكُمْ وَمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَمَا أَمَرَكُمْ وَمَا نَهَاكُمْ؟ قَالُوا: أَنْشُرْ عَلَيْنَا مَا فِيهَا، فَإِنْ كَانَتْ فَرَائِضهَا يَسِيرَة وَحُدُودهَا خفيفة، قَبِلْنَاهَا. قَالَ: اِقْبَلُوهَا بِمَا فِيهَا. قَالُوا: لَا؛ حَتَّى نَعْلَم مَا فِيهَا، كَيْف حُدُودهَا وَفَرَائِضهَا؟ فَرَاجَعُوا موسى مِرَارًا، فَأَوْحَى الله إِلَى الجَبَل فَانْقَلَعَ فَارْتَفَعَ فِي السَّمَاء، حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْن رُءُوسهمْ وَبَيْن السَّمَاء، قَالَ لَهُمْ مُوسَى: أَلَا تَرَوْنَ مَا يَقُول رَبِّي ﷻ: لَئِنْ لَمْ تَقْبَلُوا التَّوْرَاة بِمَا فِيهَا لَأَرْمِيَنَّكُمْ بِهَذَا الجَبَل. قَالَ: فَحَدَّثَنِي الحَسَن البَصْرِيّ قَالَ: لَمَّا نَظَرُوا إِلَى الجَبَل خَرَّ كُلّ رَجُل سَاجِدًا عَلَى حَاجِبه الأَيْسَر، وَنَظَرَ بِعَيْنِهِ اليُمْنَى إِلَى الجَبَل، فَرَقًا مِنْ أَنْ يَسْقُط عَلَيْهِم، فَكَذَلِكَ لَيْسَ اليَوْم فِي الأَرْض يَهُودِيّ يَسْجُد إِلَّا عَلَى حَاجِبه الأَيْسَر، يَقُولُونَ: هَذِهِ السَّجْدَة الَّتِي رُفِعَتْ بِهَا العُقُوبَة. قَالَ أَبُو بَكْر: فَلَمَّا نَشَرَ الأَلْوَاح فِيهَا كِتَاب الله كَتَبَهُ بِيَدِهِ، لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْه الأَرْض جَبَل وَلَا شَجَر وَلَا حَجَر إِلَّا اِهْتَزَّ، فَلَيْسَ اليَوْم يَهُودِيّ عَلَى وَجْه الأَرْض صَغِير وَلَا كَبِير تُقْرَأ عَلَيْهِ التَّوْرَاة إِلَّا اِهْتَزَّ وَنَغَضَ لَهَا رَأْسه. أَيْ: حَوَّلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ والله أَعْلَم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ اِسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّة بَنِي آدَم مِنْ أَصْلَابهمْ، شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسهمْ أَنَّ الله رَبّهمْ وَمَلِيكهمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، قَالَ: قَالَ ﷺ: «**كُلّ مَوْلُود يُولَد عَلَى الفِطْرَة**»[١]. وَفِي رِوَايَة: «**عَلَى هَذِهِ المِلَّة؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُولَد البَهِيمَة بَهِيمَة جَمْعَاء، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاء؟**»[٢]. وَفِي صَحِيح مُسْلِم، عَنْ عِيَاض بْن حِمَار، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**يَقُول الله إِنِّي خَلَقْت عِبَادِي حُنَفَاء، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِين فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينهمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْت لَهُمْ**»[٣].

وَقَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا يُونُس بْن الأَعْلَى، حَدَّثَنَا اِبْن وَهْب، أَخْبَرَنِي السَّرِيّ بْن يَحْيَى: أَنَّ الحَسَن بْن أَبِي الحَسَن حَدَّثَهُمْ، عَنْ الأَسْوَد بْن سَرِيع مِنْ بَنِي سَعْد، قَالَ: غَزَوْت مَعَ رَسُول الله ﷺ أَرْبَع غَزَوَات قَالَ: فَتَنَاوَلَ القَوْم الذُّرِّيَّة بَعْدَمَا قَتَلُوا المُقَاتِلَة، فَبَلَغَ ذَلِكَ رسول الله ﷺ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا بَال أَقْوَام يَتَنَاوَلُونَ الذُّرِّيَّة**» فَقَالَ رَجُل: يَا رَسُول الله؛ أَلَيْسُوا أَبْنَاء المُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ: «**إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاء المُشْرِكِينَ، أَلَا إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَة تُولَد إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الفِطْرَة، فَمَا تَزَال عَلَيْهَا حَتَّى يُبِينَ عَنْهَا لِسَانهَا، فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا أَوْ يُنَصِّرَانِهَا**»[٤]. قَالَ الحَسَن: وَالله لَقَدْ قَالَ الله فِي كِتَابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآيَة.

وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: عَنْ إِسْمَاعِيل ابْن عُلَيَّة، عَنْ يُونُس بْن عُبَيْد، عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ بِهِ، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيّ فِي سُنَنه، مِنْ حَدِيث هُشَيْم عن يُونُس بْن عُبَيْد، عَنْ الحَسَن، قَالَ: حَدَّثَنِي الأَسْوَد بْن سَرِيع، فَذَكَرَهُ. وَلَمْ يَذْكُر قَوْل الحَسَن البَصْرِيّ، وَاسْتِحْضَاره الآيَة عِنْد ذَلِكَ. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيث فِي أَخْذ الذُّرِّيَّة مِنْ صُلْب آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَمْيِيزهمْ إِلَى أَصْحَاب اليَمِين وَأَصْحَاب الشِّمَال، وَفِي بَعْضهَا الِاسْتِشْهَاد عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الله رَبّهمْ. قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَجَّاج، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالِك ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «**يُقَال لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْل النَّار يَوْم القِيَامَة: أَرَأَيْت لَوْ كَانَ لَك مَا عَلَى الأَرْض مِنْ شَيْء أَكُنْت مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُول: نَعَمْ. فَيَقُول: قَدْ أَرَدْت مِنْك أَهْوَن مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْت عَلَيْك فِي ظَهْر آدَم أَنْ لَا تُشْرِك بِي شَيْئًا، فَأَبَيْت إِلَّا أَنْ تُشْرِك بِي**»[٥]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث شُعْبَة، بِهِ.

حَدِيث آخَر: وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حُسَيْن بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا جَرِير -يَعْنِي: اِبْن حَازِم-، عَنْ كُلْثُوم بْن جَبْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ الله أَخَذَ المِيثَاق مِنْ ظَهْر آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَعْمَان، يَعْنِي عَرَفَة، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبه كُلّ ذُرِّيَّة ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهَا بَيْن يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا قَالَ:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا﴾ إِلَى قَوْله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾»[٦]. وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيث، النَّسَائِيّ فِي كِتَاب «التَّفْسِير» مِنْ سُنَنه، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحِيم صَاعِقَة، عَنْ حُسَيْن بْن مُحَمَّد المَرْوَزِيّ، بِهِ.

وَرَوَاهُ اِبْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ حَدِيث حُسَيْن بْن مُحَمَّد، بِهِ. إِلَّا أَنَّ اِبْن أَبِي حَاتِم جَعَلَهُ مَوْقُوفًا. وَأَخْرَجَهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ حَدِيث حُسَيْن بْن مُحَمَّد وَغَيْره، عَنْ جَرِير بْن حَازِم، عَنْ كُلْثُوم بْن جَبْر، بِهِ. وَقَالَ: صَحِيح الإِسْنَاد، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَقَدْ اِحْتَجَّ مُسْلِم بِكُلْثُوم بْن جَبْر. هَكَذَا قَالَ. وَقَدْ رَوَاهُ عَبْد الوَارِث، عَنْ كُلْثُوم بْن جَبْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، فَوَقَفَهُ: وَكَذَا رَوَاهُ إِسْمَاعِيل ابْن عُلَيَّة وَوَكِيع، عَنْ رَبِيعَة بْن كُلْثُوم،

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٩٣، ١٣١٩، ٤٤٩٧، ٦٢٢٦)، ومسلم (٢٦٥٨).
(٣) صحيح: تقدم.
(٤) صحيح: أخرجه الطبري (٦/ ١١٠)، وأحمد (٣/ ٤٣٥).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥)، وأحمد (٣/ ١٢٧).
(٦) صحيح: أخرجه الطبري (٦/ ١١٠)، وأحمد (١/ ٢٧٢)، والحاكم (٢/ ٥٩٣)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٤٧) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «المشكاة» (١٢١).

عَنْ جُبَيْر عَنْ أَبِيهِ، بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ عَطَاء بْن السَّائِب وَحَبِيب بْن أَبِي ثَابِت وَعَلِيّ بْن بَذِيمَةَ: عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ اِبْن عَبَّاس قوله. وَكَذَا رَوَاهُ العَوْفِيّ وَعَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس. فَهَذَا أَكْثَر وَأَثْبَت، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا اِبْن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِي هِلَال، عَنْ أَبِي جمرة الضُّبَعِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: أَخْرَجَ الله ذُرِّيَّة آدَم مِنْ ظَهْره كَهَيْئَةِ الذَّرّ وَهُوَ فِي أَذًى مِنْ المَاء. وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن سَهْل، حَدَّثَنَا ضَمْرَة اِبْن رَبِيعَة، حَدَّثَنَا أَبُو مَسْعُود، عَنْ جويبر قَالَ: مَاتَ اِبْنٌ لِلضَّحَّاكِ بْن مُزَاحِم، اِبْن سِتَّة أَيَّام، قَالَ: فَقَالَ: يَا جَابِر، إِذَا أَنْتَ وَضَعْت اِبْنِي فِي لَحْده فَأَبْرِزْ وَجْهه وَحُلَّ عَنْهُ عُقَده، فَإِنَّ اِبْنِي مُجْلَس وَمَسْئُول، فَفَعَلْت بِهِ الَّذِي أَمَرَ، فَلَمَّا فَرَغْت، قُلْت: يَرْحَمك الله، عَمَّا يُسْأَل اِبْنك؟ مَنْ يَسْأَلهُ إِيَّاهُ؟ قَالَ: يُسْأَل عَنْ المِيثَاق الَّذِي أَقَرَّ بِهِ فِي صُلْب آدَم. قُلْت: يَا أَبَا القَاسِم، وَمَا هَذَا المِيثَاق الَّذِي أَقَرَّ بِهِ فِي صُلْب آدَم؟ قَالَ: حَدَّثَنِي اِبْن عَبَّاس: إِنَّ الله مَسَحَ صُلْب آدَم، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ كُلّ نَسَمَة هو خَالِقهَا إِلَى يَوْم القِيَامَة، فَأَخَذَ مِنْهُمْ المِيثَاق: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَتَكَفَّلَ لَهُمْ بِالأَرْزَاقِ، ثُمَّ أَعَادَهُمْ فِي صُلْبه، فَلَنْ تَقُوم السَّاعَة حَتَّى يُولَد مَنْ أُعْطِيَ المِيثَاق يَوْمئِذٍ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهُمْ المِيثَاق الآخَر فَوَفَّى بِهِ نَفَعَهُ المِيثَاق الأَوَّل، وَمَنْ أَدْرَكَ المِيثَاق الآخَر، فَلَمْ يَفِ بِهِ لَمْ يَنْفَعهُ المِيثَاق الأَوَّل، وَمَنْ مَاتَ صَغِيرًا قَبْل أَنْ يُدْرِك المِيثَاق الآخَر مَاتَ عَلَى المِيثَاق الأَوَّل عَلَى الفِطْرَة. فَهَذِهِ الطُّرُق كُلّهَا مِمَّا تُقَوِّي وَقْف هَذَا عَلَى اِبْن عَبَّاس، وَالله أَعْلَم.

حَدِيث آخَر: وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن الوَلِيد، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن أَبِي طَيْبَة، عَنْ سُفْيَان بْن سَعْد، عَنْ الأَجْلَح، عَنْ الضَّحَّاك، عَنْ مَنْصُور، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قَالَ: أَخَذَ مِنْ ظَهْره كَمَا يُؤْخَذ بِالمُشْطِ مِنْ الرَّأْس، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ قَالَتْ المَلَائِكَة: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾»[(١)]. أَحْمَد بْن أَبِي طَيْبَة هَذَا هُوَ أَبُو مُحَمَّد الجُرْجَانِيّ قَاضِي قُومَس، كَانَ أَحَد الزُّهَّاد، أَخْرَجَ لَهُ النَّسَائِيّ فِي سُنَنه، وَقَالَ أَبُو حَاتِم الرَّازِيّ: يُكْتَب حَدِيثه، وَقَالَ اِبْن عَدِيّ: حَدَّثَ بِأَحَادِيث أكثرها غَرَائِب. وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ مَنْصُور، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قوله. وَكَذَا رَوَاهُ جَرِير، عَنْ مَنْصُور، بِهِ. وَهَذَا أَصَحّ، وَالله أَعْلَم.

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح -هُوَ اِبْن عُبَادَة-، حَدَّثَنَا مَالِك. وَحَدَّثَنَا إِسْحَاق، حَدَّثَنَا مَالِك، عَنْ زَيْد بْن أَبِي أُنَيْسَة: أَنَّ عَبْد الحَمِيد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن الخَطَّاب أَخْبَرَهُ، عَنْ مُسْلِم بْن يَسَار الجُهَنِيّ: أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الآيَة، فَقَالَ عُمَر بْن الخَطَّاب: سَمِعْت رسول الله ﷺ، سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ: «**إِنَّ الله خَلَقَ آدَم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **ثُمَّ مَسَحَ ظَهْره بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّة، قَالَ: خَلَقْت هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْل الجَنَّة يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْره، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّة، قَالَ: خَلَقْت هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْل النَّار يَعْمَلُونَ**». فَقَالَ رَجُل: يَا رَسُول الله؛ فَفِيمَ العَمَل؟ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِذَا خَلَقَ الله العَبْد لِلْجَنَّةِ اِسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْل الجَنَّة حَتَّى يَمُوت عَلَى عَمَل مِنْ أَعْمَال أَهْل الجَنَّة فَيُدْخِلهُ بِهِ الجَنَّة، وَإِذَا خَلَقَ العَبْد لِلنَّارِ اِسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْل النَّار حَتَّى يَمُوت عَلَى عَمَل مِنْ أَعْمَال أَهْل النَّار فَيُدْخِلهُ بِهِ النَّار**»[(٢)]. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ القَعْنَبِيّ، وَالنَّسَائِيّ عَنْ قُتَيْبَة

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٦/ ١١٠) بسند ضعيف فيه أحمد بن أبي طيبة، قال ابن عدي: حدث بأحاديث أكثرها غرائب.

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٦/ ١١٠)، والترمذي (٣٠٧٥)، وابن حبان (٦١٦٦)، والحاكم (٢/ ٥٩٣) من حديث عمر ابن الخطاب، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٦٠٢).

وَالتِّرْمِذِيّ، عَنْ إِسْحَاق بْن مُوسَى، عَنْ مَعْن. وَابْن أَبِي حَاتِم عَنْ يُونُس بْن عَبْد الأَعْلَى، عَنْ اِبْن وَهْب، وَابْن جَرِير، من حديث رَوْح بْن عُبَادَة، وَسعد بْن عَبْد الحَمِيد بْن جَعْفَر، وَأَخْرَجَهُ اِبْن حِبَّان فِي صَحِيحه، مِنْ رِوَايَة أَبِي مُصْعَب الزهري، كُلّهمْ عَنْ الإِمَام مَالِك بْن أَنَس، بِهِ. قَالَ التِّرْمِذِيّ: وَهَذَا حَدِيث حَسَن، وَمُسْلِم بْن يَسَار لَمْ يَسْمَع عُمَر. وكَذَا قَالَ أَبُو حَاتِم وَأَبُو زُرْعَة، زَادَ أَبُو حَاتِم: وَبَيْنهمَا نُعَيْم بْن رَبِيعَة. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ أَبُو حَاتِم رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنه عَنْ مُحَمَّد بْن مُصَفًّى، عَنْ بَقِيَّة، عَنْ عُمَر بْن جُعْثُم القُرَشِيّ، عَنْ زَيْد بْن أَبِي أُنَيْسَة، عَنْ عَبْد الحَمِيد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن الخَطَّاب، عَنْ مُسْلِم بْن يَسَار الجُهَنِيّ، عَنْ نُعَيْم بْن رَبِيعَة، قَالَ: كُنْت عِنْد عُمَر بْن الخَطَّاب، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فَذَكَرَهُ. وَقَالَ الحَافِظ الدَّارَقُطْنِيّ: وَقَدْ تَابَعَ عُمَر بْن جُعْثُم يزيدُ بْن سِنَان أَبُو فَرْوَة الرَّهَاوِيّ، وَقَوْلهمَا أَوْلَى بِالصَّوَابِ مِنْ قَوْل مَالِك، وَالله أَعْلَم.

قُلْت: الظَّاهِر أَنَّ الإِمَام مَالِكًا إِنَّمَا أَسْقَطَ ذِكْر نُعَيْم بْن رَبِيعَة عَمْدًا لَمَّا جَهِلَ حَاله وَلَمْ يَعْرِفهُ، فَإِنَّهُ غَيْر مَعْرُوف إِلَّا فِي هَذَا الحَدِيث، وَكذلك يُسْقِط ذِكْر جَمَاعَة مِمَّنْ لَا يَرْتَضِيهِمْ؛ وَلِهَذَا يُرْسِل كَثِيرًا مِنْ المَرْفُوعَات، وَيَقْطَع كَثِيرًا مِنْ المَوْصُولَات، وَالله أَعْلَم.

حَدِيث آخَر: قَالَ التِّرْمِذِيّ عِنْد تَفْسِيره هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا عَبْد بْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا هِشَام بْن سَعْد، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لَمَّا خَلَقَ الله آدَم مَسَحَ ظَهْره فَسَقَطَ مِنْ ظَهْره كُلّ نَسَمَة هُوَ خَالِقهَا مِنْ ذُرِّيَّته إِلَى يَوْم القِيَامَة، وَجَعَلَ بَيْن عَيْنَيْ كُلّ إِنْسَان مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُور، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَم فَقَالَ: أَيْ رَبّ؛ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتك. فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيص مَا بَيْن عَيْنَيْهِ، قَالَ: أَيْ رَبّ؛ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُل مِنْ آخِر الأُمَم مِنْ ذُرِّيَّتك، يُقَال لَهُ: دَاوُدُ. قَالَ: رَبّ، وَكَمْ جَعَلْت عُمْره؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَة. قَالَ: أَيْ رَبّ؛ قَدْ وَهَبْت لَهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَة، فَلَمَّا اِنْقَضَى عُمْر آدَم جَاءَهُ مَلَك المَوْت، قَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَة؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا اِبْنك دَاوُدَ. قَالَ: فَجَحَدَ آدَم، فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّته، وَنَسِيَ آدَم، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّته، وَخَطِئَ آدَم، فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّته**»[(١)]. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن صَحِيح، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ. وَرَوَاهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ حَدِيث أَبِي نُعَيْم الفَضْل بْن دُكَيْن، بِهِ. وَقَالَ: صَحِيح عَلَى شَرْط مُسْلِم، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَرَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِيره، مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن اِبْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ حَدَّثَ، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَنْ رَسُول الله ﷺ، فَذَكَرَ نَحْو مَا تَقَدَّمَ، إِلَى أَنْ قَالَ: «**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَم فَقَالَ: يَا آدَم هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتك وَإِذَا فِيهِمْ الأَجْذَم وَالأَبْرَص وَالأَعْمَى وَأَنْوَاع الأَسْقَام، فَقَالَ آدَم: يَا رَبّ، لِمَ فَعَلْت هَذَا بِذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: كَيْ تُشْكَر نِعْمَتِي، وَقَالَ آدَم: يَا رَبّ، مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرَاهُمْ أَظْهَر النَّاس نُورًا؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الأَنْبِيَاء يَا آدَم مِنْ ذُرِّيَّتك**». ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّة دَاوُدَ، كَنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ.

حَدِيث آخَر: قَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن قَتَادَة النَّصْرِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ هِشَام بْن حَكِيم ﷺ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ أَتُبْدَأُ الأَعْمَال أَمْ قَدْ قُضِيَ القَضَاء؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الله قَدْ أَخَذَ ذُرِّيَّة آدَم مِنْ ظُهُورهمْ، ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسهمْ، ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ فِي كَفَّيْهِ، ثُمَّ قَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الجَنَّة وَهَؤُلَاءِ فِي النَّار، فَأَهْل الجَنَّة مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْل الجَنَّة، وَأَهْل النَّار مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْل النَّار**»[(٢)]. رَوَاهُ اِبْن جَرِير وَابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ طُرُق عَنْهُ.

حَدِيث آخَر: رَوَى جَعْفَر بْن الزُّبَيْر -وَهُوَ ضَعِيف-، عَنْ القَاسِم، عَنْ أَبِي أُمَامَة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لَمَّا**

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، والحاكم (٢/ ٦٤٠) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٠٨).
(٢) حسن: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٤٣٥)، وفي «مسند الشاميين» (٣/ ٩١).

خَلَقَ اللهُ الخلْق، وَقضَى القَضِيَّة، أَخَذَ أَهْل اليَمِين بِيَمِينِهِ وَأَهْل الشِّمَال بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: يَا أَصْحَاب اليَمِين؛ فَقَالُوا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: أَلَسْت بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: يَا أَصْحَاب الشِّمَال؛ قَالُوا: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: أَلَسْت بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. ثُمَّ خَلَطَ بَيْنهم، فَقَالَ قَائِل لَهُ: يَا رَبّ؛ لِمَ خَلَطْت بَيْنهم؟ قَالَ: لَهُمْ أَعْمَال مِنْ دُون ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ، أَنْ يَقُولُوا يَوْم القِيَامَة إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، ثُمَّ رَدَّهُمْ فِي صُلْب آدَم»[1]. رَوَاهُ اِبْن مَرْدُوَيْهِ.

أَثَر آخَر: قَالَ أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآيَة والتي بعدها، قَالَ: فَجَمَعَهُمْ لَهُ يَوْمئِذٍ جَمِيعًا، مَا هُوَ كَائِن مِنْهُ إِلَى يَوْم القِيَامَة، فَجَعَلَهُمْ ثُمَّ صَوَّرهمْ، ثُمَّ اِسْتَنْطَقَهُمْ فَتَكَلَّمُوا، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ العَهْد وَالْمِيثَاق، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسهمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الآيَة، قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِد عَلَيْكُمْ السَّمَاوَات السَّبْع، وَالْأَرَضِينَ السَّبْع، وَأُشْهِد عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَم، أَنْ تَقُولُوا يَوْم القِيَامَة: لَمْ نَعْلَم بِهَذَا، اِعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَه غَيْرِي، وَلَا رَبّ غَيْرِي، فَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا، وَإِنِّي سَأُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رُسُلًا يذكرونكم عَهْدِي وَمِيثَاقِي، وَأُنْزِل عَلَيْكُمْ كُتُبِي، قَالُوا: نَشْهَد أَنَّك رَبّنَا وَإِلَهنَا، لَا رَبّ لَنَا غَيْرك وَلَا إِلَه لَنَا غَيْرك. فَأَقَرُّوا لَهُ يَوْمئِذٍ بِالطَّاعَةِ، وَرَفَعَ أَبَاهُمْ آدَم فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ، فَرَأَى فِيهِمْ الغَنِيّ وَالْفَقِير، وَحَسَن الصُّورَة وَدُون ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَبّ، لَوْ سَوَّيْت بَيْن عِبَادك؟ قَالَ: إِنِّي أَحْبَبْت أَنْ أُشْكَر. وَرَأَى فِيهِمْ الأَنْبِيَاء مِثْل السُّرُج عَلَيْهِمْ النُّور، وَخُصُّوا بِمِيثَاقٍ آخَر مِنْ الرِّسَالَة وَالنُّبُوَّة، فَهُوَ الَّذِي يَقُول تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾، وَهُوَ الَّذِي يَقُول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾، وَمِنْ ذَلِكَ قَالَ: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾، وَمِنْ ذَلِكَ قَالَ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾. رَوَاهُ عَبْد الله اِبْن الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَد أَبِيهِ، وَرَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم، وَابْن جَرِير، وَابْن مَرْدُوَيْهِ فِي تَفَاسِيرهمْ، مِنْ رِوَايَة أبي جَعْفَر الرَّازِيّ، بِهِ. وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالْحَسَن، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد مِنْ عُلَمَاء السَّلَف، سِيَاقَات تُوَافِق هَذِهِ الأَحَادِيث، اِكْتَفَيْنَا بِإِيرَادِهَا عَنْ التَّطْوِيل بِتِلْكَ الآثَار كُلّهَا، وَبِالله المُسْتَعَان.

فَهَذِهِ الأَحَادِيث دَالَّة عَلَى أَنَّ الله ﷻ اِسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّة آدَم مِنْ صُلْبه، وَمَيَّزَ بَيْن أَهْل الجَنَّة وَأَهْل النَّار، وَأَمَّا الإِشْهَاد عَلَيْهِمْ هُنَاكَ بِأَنَّهُ رَبّهمْ فَمَا هُوَ إِلَّا فِي حَدِيث كُلْثُوم بْن جبر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس. وَفِي حَدِيث عَبْد الله بْن عَمْرو، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُمَا مَوْقُوفَانِ لَا مَرْفُوعَانِ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ قَائِلُونَ مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف: إِنَّ المُرَاد بِهَذَا الإِشْهَاد إِنَّمَا هُوَ فَطْرُهُمْ عَلَى التَّوْحِيد، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة، وَعِيَاض بْن حِمَار المُجَاشِعِيّ، وَمِنْ رِوَايَة الحَسَن البَصْرِيّ، عَنْ الأَسْوَد بْن سَرِيع، وَقَدْ فَسَّرَ الحَسَن البصري الآيَة بِذَلِكَ، قَالُوا: وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ آدَم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ ظَهْره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أَيْ: جَعَلَ نَسْلهمْ جِيلًا بَعْد جِيل، وَقَرْنًا بَعْد قَرْن، كما قال تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، وَقَالَ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾، وَقَالَ: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾ أَيْ: أَوْجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ، قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا، وَالشَّهَادَة تَارَة تَكُون بِالْقَوْلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ﴾ الآيَة، وَتَارَة تَكُون حَالًا؛ كما قال تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ أَيْ: حَالهمْ شَاهِد عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، لَا أَنَّهُمْ قَائِلُونَ ذَلِكَ، وَكَذَلك قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، كَمَا أَنَّ السُّؤَال تَارَة يَكُون بِالْقَالِ، وَتَارَة يَكُون

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٧٩٤٣) بسند ضعيف فيه جعفر بن الزبير: متروك.

بِالحَالِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ قَالُوا: وَمِمَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّ المُرَاد بِهَذَا هَذَا، أَنْ جَعَلَ هَذَا الإِشْهَاد حُجَّة عَلَيْهِمْ فِي الإِشْرَاك، فَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ هَذَا كَمَا قَالَهُ مَنْ قَالَ لَكَانَ كُلّ أَحَد يَذْكُرهُ، لِيَكُونَ حُجَّة عَلَيْهِ، فَإِنْ قِيلَ: إِخْبَار الرَّسُول ﷺ، بِهِ كَافٍ فِي وُجُوده، فَالجَوَاب: أَنَّ المُكَذِّبِينَ مِنْ المُشْرِكِينَ يُكَذِّبُونَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُل مِنْ هَذَا وَغَيْره، وَهَذَا جُعِلَ حُجَّة مُسْتَقِلَّة عَلَيْهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الفِطْرَة الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا مِنْ الإِقْرَار بِالتَّوْحِيدِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أَيْ: لِئَلَّا تَقُولُوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أَيْ: التَّوْحِيد ﴿غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ الآيَة.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

قَالَ عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ الأَعْمَش وَمَنْصُور، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوق، عَنْ عَبْد الله ابْن مَسْعُود ﷺ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ الآيَة، قَالَ: هُوَ رَجُل مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل يُقَال لَهُ: بُلْعُم بْن آبَر. وَكَذَا رَوَاهُ شُعْبَة وَغَيْر وَاحِد، عَنْ مَنْصُور، بِهِ. وَقَالَ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: هُوَ صَيْفِيّ بْن الرَّاهِب. قَالَ قَتَادَة: وَقَالَ كَعْب: كَانَ رَجُلًا مِنْ أَهْل البَلْقَاء، وَكَانَ يَعْلَم الإِسْم الأَكْبَر، وَكَانَ مُقِيمًا بِبَيْتِ المَقْدِس مَعَ الجَبَّارِينَ. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﷺ: هُوَ رَجُل مِنْ أَهْل اليَمَن، يُقَال لَهُ: بُلْعُم، آتَاهُ الله آيَاته فَتَرَكَهَا. وَقَالَ مَالِك بْن دِينَار: كَانَ مِنْ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيل، وَكَانَ مُجَاب الدَّعْوَة، يُقَدِّمُونَهُ فِي الشَّدَائِد، بَعَثَهُ نَبِيّ الله مُوسَى عليه السلام إِلَى مَلِك مَدْيَن يَدْعُوهُ إِلَى الله، فَأَقْطَعَهُ وَأَعْطَاهُ، فَتَبِعَ دِينه وَتَرَكَ دِين مُوسَى عليه السلام. وَقَالَ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ حُصَيْن، عَنْ عِمْرَان بْن الحَارِث، عَنْ اِبْن عَبَّاس: هُوَ بُلْعُم بْن باعر. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَعِكْرِمَة. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ مُغِيرَة، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: هُوَ بَلْعَام. وَقَالَتْ ثَقِيف: هُوَ أُمَيَّة بْن أَبِي الصَّلْت. وَقَالَ شُعْبَة، عَنْ يَعْلَى بْن عَطَاء، عَنْ نَافِع بْن عَاصِم، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو فِي قَوْله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ الآيَة. قَالَ: هُوَ صَاحِبكُمْ أُمَيَّة بْن أَبِي الصَّلْت. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْهُ، وَهُوَ صَحِيح إِلَيْهِ، وَكَأَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ أُمَيَّة ابْن أَبِي الصَّلْت يُشْبِهُهُ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ اِتَّصَلَ إِلَيْهِ عِلْم كَثِير مِنْ عِلْم الشَّرَائِع المُتَقَدِّمَة، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِع بِعِلْمِهِ، فَإِنَّهُ أَدْرَكَ زَمَان رَسُول الله ﷺ، وَبَلَغَتْهُ أَعْلَامه وَآيَاته وَمُعْجِزَاته وَظَهَرَتْ لِكُلِّ مَنْ لَهُ بَصِيرَة، وَمَعَ هَذَا اِجْتَمَعَ بِهِ، وَلَمْ يَتْبَعهُ، وَصَارَ إِلَى مُوَالَاة المُشْرِكِينَ وَمُنَاصَرَتهمْ وَامْتِدَاحهمْ، وَرَثَى أَهْل بَدْر مِنْ المُشْرِكِينَ بِمَرْثَاةٍ بَلِيغَة قَبَّحَهُ الله. وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْض الأَحَادِيث: «أَنَّهُ مِمَّنْ آمَنَ لِسَانه، وَلَمْ يُؤْمِن قَلْبه» فَإِنَّ لَهُ أَشْعَارًا رَبَّانِيَّة وَحِكَمًا وَفَصَاحَة، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشْرَح الله صَدْره لِلإِسْلَام.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا اِبْن أَبِي عمر، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي سعد الأَعْوَر، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس، فِي قَوْله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ قَالَ: هُوَ رَجُل أُعْطِيَ ثَلَاث دَعَوَات يُسْتَجَاب لَهُ فِيهِنَّ، وَكَانَتْ لَهُ اِمْرَأَة لَهُ مِنْهَا وَلَد، فَقَالَتْ: اِجْعَلْ لِي مِنْهَا وَاحِدَة. قَالَ: فَلَكِ وَاحِدَة، فَمَا الَّذِي تُرِيدِينَ؟ قَالَتْ: اُدْعُ الله أَنْ يَجْعَلنِي أَجْمَل اِمْرَأَة فِي بَنِي إِسْرَائِيل، فَدَعَا الله، فَجَعَلَهَا أَجْمَل اِمْرَأَة فِي بَنِي إِسْرَائِيل، فَلَمَّا عَلِمَتْ أَنَّ لَيْسَ فِيهِمْ مِثْلهَا رَغِبَتْ عَنْهُ، وَأَرَادَتْ شَيْئًا آخَر، فَدَعَا الله أَنْ يَجْعَلهَا كَلْبَة، فَصَارَتْ كَلْبَة، فَذَهَبَتْ

دَعْوَتَانِ، فَجَاءَ بَنُوهَا فَقَالُوا: لَيْسَ بِنَا عَلَى هَذَا قَرَار، قَدْ صَارَتْ أُمّنَا كَلْبَة يُعَيِّرنَا النَّاس بِهَا، فَادْعُ الله أَنْ يَرُدّهَا إِلَى الحَال الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا، فَدَعَا الله، فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ، فَذَهَبَتْ الدَّعَوَات الثَّلَاث، وَسميت البَسُوس. غَرِيب.

وَأَمَّا المَشْهُور فِي سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة فَإِنَّمَا هُوَ رَجُل مِنْ المُتَقَدِّمِينَ فِي زَمَن بَنِي إِسْرَائِيل؛ كَمَا قَالَ اِبْن مَسْعُود وَغَيْره مِنْ السَّلَف. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: هُوَ رَجُل مِنْ مَدِينَة الجَبَّارِينَ يُقَال لَهُ: بَلْعَام، وَكَانَ يَعْلَم اِسْم الله الأَكْبَر. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ وَغَيْره مِنْ عُلَمَاء السَّلَف: كَانَ مُجَاب الدَّعْوَة، وَلَا يَسْأَل الله شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ. وَأَغْرَبَ، بَلْ أَبْعَدَ، بَلْ أَخْطَأَ مَنْ قَالَ: كَانَ قَدْ أُوتِيَ النُّبُوَّة فَانْسَلَخَ مِنْهَا. حَكَاهُ اِبْن جَرِير، عَنْ بَعْضهمْ، وَلَا يَصِحّ.

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس لَمَّا نَزَلَ مُوسَى بِهِمْ -يَعْنِي بِالجَبَّارِينَ وَمَنْ مَعَهُ- أَتَاهُ -يَعْنِي بلعام- أتاه بَنُو عَمّه وَقَوْمه، فَقَالُوا: إِنَّ مُوسَى رَجُل حَدِيد، وَمَعَهُ جُنُود كَثِيرَة، وَإِنَّهُ إِنْ يَظْهَر عَلَيْنَا يُهْلِكنَا، فَادْعُ الله أَنْ يَرُدّ عَنَّا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، قَالَ: إِنِّي إِنْ دَعَوْت الله أَنْ يَرُدّ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ذَهَبَتْ دُنْيَايَ وَآخِرَتِي، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى دَعَا عَلَيْهِمْ، فَسَلَخَهُ الله مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. وَقَالَ السُّدِّيّ: إن الله لَمَّا اِنْقَضَتْ الأَرْبَعُونَ سَنَة الَّتِي قَالَ الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ بَعَثَ يُوشَع بْن نُون نَبِيًّا، فَدَعَا بَنِي إِسْرَائِيل، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ نَبِيّ، وَأَنَّ الله أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِل الجَبَّارِينَ، فَبَايَعُوهُ وَصَدَّقُوهُ، وَانطَلَقَ رَجُل مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل يُقَال لَهُ: بلعم، وَكَانَ عَالِمًا، يَعْلَم الإِسْم الأَعْظَم المَكْتُوم، فَكَفَرَ -لَعَنَهُ الله- وَأَتَى الجَبَّارِينَ وَقَالَ لَهُمْ: لَا تَرْهَبُوا بَنِي إِسْرَائِيل، فَإِنِّي إِذَا خَرَجْتُمْ تُقَاتِلُونَهُمْ أدعو عَلَيْهِمْ دَعْوَة فَيَهْلِكُونَ، وَكَانَ عِنْدهمْ فِيمَا شَاءَ مِنْ الدُّنْيَا، غَيْر أَنَّهُ كَانَ لَا يَسْتَطِيع أَنْ يَأْتِي النِّسَاء من عِظَمهنَّ، فَكَانَ يَنْكِح أَتَانًا لَهُ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أَيْ: اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ وَغلبه عَلَى أَمْره، فَمَهْمَا أَمَرَهُ اِمْتَثَلَ وَأَطَاعَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أَيْ: مِنْ الهَالِكِينَ الحَائِرِينَ البَائِرِينَ. وَقَدْ وَرَدَ فِي مَعْنَى هَذِهِ الآيَة حَدِيث رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ فِي مُسْنَده حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مَرْزُوق، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَكْر، عَنْ الصَّلْت بْن بَهْرَام، حَدَّثَنَا الحَسَن، حَدَّثَنَا جُنْدُب البَجَلِيّ فِي هَذَا المَسْجِد، أَنَّ حُذَيْفَة -يَعْنِي ابْن اليَمَان ﷺ- حَدَّثَهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَتَخَوَّف عَلَيْكُمْ رَجُل قَرَأَ القُرْآن، حَتَّى إِذَا رُئِيَتْ بَهْجَته عَلَيْهِ وَكَانَ ردء الإِسْلَام اِعْتَرَاهُ إِلَى مَا شَاءَ الله: اِنْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاء ظَهْره، وَسَعَى عَلَى جَاره بِالسَّيْفِ وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ**» قَالَ: قُلْت: يَا نَبِيّ الله؛ أَيّهمَا أَوْلَى بِالشِّرْكِ: المَرْمِيّ أَوْ الرَّامِي؟ قَالَ: «**بَلْ الرَّامِي**»[1]. هَذَا إِسْنَاد جَيِّد، وَالصَّلْت بْن بَهْرَام كَانَ مِنْ ثِقَات الكُوفِيِّينَ، وَلَمْ يُرْمَ بِشَيْءٍ سِوَى الإِرْجَاء، وَقَدْ وَثَّقَهُ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل، وَيَحْيَى بْن مَعِين وَغَيْرهمَا.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يَقُول تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أَيْ: لَرَفَعْنَاهُ مِنْ التَّدَنُّس عَنْ قَاذُورَات الدُّنْيَا بِالآيَاتِ الَّتِي آتَيْنَاهُ إِيَّاهَا ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أَيْ: مَالَ إِلَى زِينَة الحَيَاة الدُّنْيَا وَزَهْرَتهَا، وَأَقْبَلَ عَلَى لَذَّاتهَا وَنَعِيمهَا، وَغَرَّتْهُ كَمَا غَرَّتْ غَيْره مِنْ غير أُولِي البَصَائِر وَالنُّهَى. وَقَالَ أَبُو الزاهرية فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قَالَ: تَرَاءَى لَهُ الشَّيْطَان عَلَى غُلْوَة مِنْ قَنْطَرَة بَانْيَاس فَسَجَدَتْ الحِمَارَة لله، وَسَجَدَ بَلْعَام لِلشَّيْطَانِ. وَكَذَا قَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر بْن نُفَيْر وَغَيْر وَاحِد.

وَقَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ: وَكَانَ مِنْ قِصَّة هَذَا الرَّجُل: مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الأَعْلَى، حَدَّثَنَا المُعْتَمِر، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ فَحَدَّثَ عَنْ سَيَّار: أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يُقَال لَهُ: بَلْعَام وَكَانَ قد أوتي النبوة وكان مُجَاب الدَّعْوَة، قَالَ: وَإِنَّ مُوسَى أَقْبَلَ فِي بَنِي إِسْرَائِيل يُرِيد الأَرْض

(١) صحيح: أخرجه ابن حبان (٣٢٠١) من حديث حذيفة بن اليمان، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨١).

الَّتِي فِيهَا بَلْعَام، أَوْ قَالَ: الشَّام. قَالَ: فَرُعِبَ النَّاس مِنْهُ رُعْبًا شَدِيدًا، قال: فَأَتَوْا بَلْعَام، فَقَالُوا: اُدْعُ الله عَلَى هَذَا الرَّجُل وَجَيْشه، قَالَ: حَتَّى أُؤَامِر رَبِّي. -أَوْ حَتَّى أُوامِر-. قَالَ: فوامر فِي الدُّعَاء عَلَيْهِمْ؛ فَقِيلَ لَهُ: لَا تَدْعُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادِي وَفِيهِمْ نَبِيّهمْ. قَالَ: فَقَالَ لِقَوْمِهِ إِنِّي قَدْ وامرت رَبِّي فِي الدُّعَاء عَلَيْهِمْ وَإِنِّي قَدْ نُهِيت، فَأَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّة فَقَبِلَهَا ثُمَّ رَاجَعُوهُ، فَقَالُوا: اُدْعُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: حَتَّى أوامر. فوامر فَلَمْ يحر إليه شيء. فَقَالَ: قَدْ وَامَرْت فَلَمْ يحر إِلَيَّ شيء، فَقَالُوا: لَوْ كَرِهَ رَبّك أَنْ تَدْعُو عَلَيْهِمْ لَنَهَاك كَمَا نَهَاكَ المَرَّة الأُولَى، قَالَ: فَأَخَذَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ فَإِذَا دَعَا عَلَيْهِمْ جَرَى عَلَى لِسَانه الدُّعَاء عَلَى قَوْمه، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُو أَنْ يُفتح لِقَوْمِهِ دَعَا أَنْ يُفْتَح لِمُوسَى وَجَيْشه، أَوْ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ الله، قَالَ: فَقَالُوا: مَا نَرَاك تَدْعُو إِلَّا عَلَيْنَا، قَالَ: مَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِي إِلَّا هَكَذَا، وَلَوْ دَعَوْت عَلَيْهِ أَيْضًا مَا اُسْتُجِيبَ لِي، وَلَكِنْ سَأَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْر عَسَى أَنْ يَكُون فِيهِ هَلَاكهمْ إِنَّ الله يُبْغِض الزِّنَا، وَإِنَّهُمْ إِنْ وَقَعُوا فِي الزِّنَا هَلَكُوا وَرَجَوْت أَنْ يُهْلِكهُمْ الله فَأَخرِجُوا النِّسَاء يستقبلنهم، فَإِنَّهُمْ قَوْم مُسَافِرُونَ فَعَسَى أَنْ يَزْنُوا فَيَهْلِكُوا، قَالَ: فَفَعَلُوا فَأَخْرَجُوا النِّسَاء يستقبلنهم، قَالَ: وَكَانَ لِلْمَلِكِ اِبْنَة فَذَكَرَ مِنْ عِظَمهَا مَا الله أَعْلَم بِهِ. قَالَ: فَقَالَ أَبُوهَا أَوْ بَلْعَام: لَا تُمَكِّنِي نَفْسك إِلَّا مِنْ مُوسَى، قَالَ: فَوَقَعُوا فِي الزِّنَا، قَالَ: فَأَتَاهَا رَأْس سِبْط مِنْ أَسْبَاط بَنِي إِسْرَائِيل فَأَرَادَهَا عَلَى نفسه، فَقَالَتْ: مَا أَنَا بِمُمَكِّنَةٍ نَفْسِي إِلَّا مِنْ مُوسَى، فَقَالَ: إِنَّ مَنْزِلَتِي كَذَا وَكَذَا وَإِنَّ مِنْ حَالِي كَذَا وَكَذَا، فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَبِيهَا تَسْتَأْمِرهُ، قَالَ: فَقَالَ لَهَا: فأمكنيه. قَالَ: وَيَأْتِيهِمَا رَجُل مِنْ بَنِي هَارُون وَمَعَهُ الرُّمْح فَيَطْعَنهُمَا، قَالَ: وَأَيَّدَهُ الله بِقُوَّةٍ فَانْتَظَمَهُمَا جَمِيعًا، وَرَفَعَهُمَا عَلَى رُمْحه فَرَآهُمَا النَّاس -أَوْ كَمَا حَدَّثَ- قَالَ: وَسَلَّطَ الله عَلَيْهِمْ الطَّاعُون، فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا. قَالَ أَبُو المُعْتَمِر: فَحَدَّثَنِي سَيَّار، أَنَّ بَلْعَامًا رَكِبَ حِمَارَة لَهُ حَتَّى أَتَى علولي، أَوْ قَالَ: طَرِيقًا مِنْ علولي، جَعَلَ يَضْرِبهَا وَلَا تَقَدَّم، وَقَامَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: عَلَامَ تَضْرِبنِي؟ أَمَا تَرَى هَذَا الَّذِي بَيْن يَدَيْك؟ فَإِذَا الشَّيْطَان بَيْن يَدَيْهِ، قَالَ: فَنَزَلَ وَسَجَدَ لَهُ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ إِلَى قَوْله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. قَالَ: فَحَدَّثَنِي بِهَذَا سَيَّار، وَلَا أَدْرِي لَعَلَّهُ قَدْ دَخَلَ فِيهِ شَيْء مِنْ حَدِيث غَيْره.

قُلْت: هُوَ بَلْعَام، وَيُقَال: بُلْعُم بْن بَاعُورَاء، وَيُقَال: اِبْن آبر، وَيُقَال: اِبْن بَاعُور بْن شهوم بْن قوشتم بْن ماب ابْن لُوط بْن هَارَان وَيُقَال: اِبْن حَرَّان بْن آزر، وَكَانَ يَسْكُن قَرْيَة مِنْ قُرَى البَلْقَاء. قَالَ اِبْن عَسَاكِر: وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَعْرِف اِسْم الله الأَعْظَم، فَانْسَلَخَ مِنْ دِينه، لَهُ ذِكْر فِي القُرْآن. ثُمَّ أَوْرَدَ مِنْ قِصَّته نَحْوًا مِمَّا ذَكَرْنَا هَاهُنَا، أَوْرَدَهُ عَنْ وَهْب وَغَيْره، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يسار، عَنْ سَالِم أَبِي النَّضْر: أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نَزَلَ فِي أَرْض بَنِي كَنْعَان مِنْ أَرْض الشَّام، أَتَى قَوْم بَلْعَام إِلَيْهِ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا مُوسَى بْن عِمْرَان فِي بَنِي إِسْرَائِيل، قَدْ جَاءَ يُخْرِجنَا مِنْ بِلَادنَا وَيَقْتُلنَا وَيُحِلّهَا بَنِي إِسْرَائِيل، وَإِنَّا قَوْمك وَلَيْسَ لَنَا مَنْزِل وَأَنْتَ رَجُل مُجَاب الدَّعْوَة، فَاخْرُجْ فَادْعُ الله عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَيْلكُمْ، نَبِيّ الله مَعَهُ المَلَائِكَة وَالمُؤْمِنُونَ، كَيْف أَذْهَب أَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَأَنَا أَعْلَم مِنْ الله مَا أَعْلَم؟! قَالُوا لَهُ: مَا لَنَا مِنْ مَنْزِل، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ يُرَقِّقُونَهُ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى فَتَنُوهُ فَافْتُتِنَ، فَرَكِبَ حِمَارَة لَهُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الجَبَل الَّذِي يُطْلِعهُ عَلَى عَسْكَر بَنِي إِسْرَائِيل، وَهُوَ جَبَل حسبان، فَلَمَّا سَارَ عَلَيْهَا غَيْر كَثِير، رَبَضَتْ بِهِ، فَنَزَلَ عَنْهَا، فَضَرَبَهَا حَتَّى إِذَا أَزْلَقَهَا قَامَتْ فَرَكِبَهَا فَلَمْ تَسِرْ بِهِ كَثِيرًا حَتَّى رَبَضَتْ بِهِ فَضَرَبَهَا حَتَّى إِذَا أَزْلَقَهَا أَذِنَ الله لَهَا فَكَلَّمَتْهُ حُجَّة عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: وَيْحك يَا بُلْعُم، أَيْنَ تَذْهَب؟ أَمَا تَرَى المَلَائِكَة أَمَامِي تَرُدّنِي عَنْ وَجْهِي هَذَا؟ أَتَذْهَب إِلَى نَبِيّ الله وَالمُؤْمِنِينَ لِتَدْعُوَ عَلَيْهِمْ؟ فَلَمْ يَنْزِع عَنْهَا يَضرِبُهَا، فَخَلَّى الله سَبِيلهَا حِين فَعَلَ بِهَا ذَلِكَ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى إِذَا أَشْرَفَتْ بِهِ، عَلَى رَأْس حسبان عَلَى عَسْكَر مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيل، جَعَلَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَلَا يَدْعُو عَلَيْهِمْ

بِشَرٍّ إِلَّا صَرَفَ به لِسَانه إِلَى قَوْمه، وَلَا يَدْعُو لِقَوْمِهِ بِخَيْرٍ إِلَّا صَرَفَ لِسَانه إِلَى بَنِي إِسْرَائِيل، فَقَالَ لَهُ قَوْمه: أَتَدْرِي يَا بُلْعُم مَا تَصْنَع؟ إِنَّمَا تَدْعُو لَهُمْ، وَتَدْعُو عَلَيْنَا. قَالَ: فَهَذَا مَا لَا أَمْلِك، هَذَا شَيْء قَدْ غَلَبَ الله عَلَيْهِ. قَالَ: وَانْدَلَعَ لِسَانه، فَوَقَعَ عَلَى صَدْره، فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي الآن الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا المَكْر وَالْحِيلَة، فَسَأَمْكُرُ لَكُمْ وَأَحْتَال، جَمِّلُوا النِّسَاء وَأَعْطُوهُنَّ السِّلَع ثُمَّ أَرْسِلُوهُنَّ إِلَى المُعَسْكَر يَبِعْنَهَا فِيهِ، وَمُرُوهُنَّ فَلَا تَمْنَع اِمْرَأَة نَفْسهَا مِنْ رَجُل أَرَادَهَا فَإِنَّهُمْ إِنْ زَنَى رَجُل مِنْهُمْ وَاحِد كَفَيْتُمُوهُمْ، فَفَعَلُوا؛ فَلَمَّا دَخَلَ النِّسَاء العَسْكَر مَرَّتْ اِمْرَأَة مِنْ الكَنْعَانِيِّينَ اِسْمهَا كسبي -اِبْنَة صُور رَأْس أُمَّته- بِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاء بَنِي إِسْرَائِيل وَهُوَ زمري بْن شلوم، رَأْس سِبْط شَمْعُون بْن يَعْقُوب بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم عليهم السلام فَقَامَ إليها فَأَخَذَ بِيَدِهَا حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بِهَا على مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: إِنِّي أَظُنّك سَتَقُولُ هَذَا حَرَام عَلَيْك. قَالَ: أَجَلْ هِيَ حَرَام عَلَيْك، لَا تَقْرَبهَا. قَالَ: فَوَالله لَا أُطِيعك فِي هَذَا فَدَخَلَ بِهَا قُبَّته فَوَقَعَ عَلَيْهَا، وَأَرْسَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ الطَّاعُون فِي بَنِي إِسْرَائِيل، وَكَانَ فنحاص بْن العيزار بْن هَارُون صَاحِب أَمْر مُوسَى، وَكَانَ غَائِبًا حِين صَنَعَ زمري بْن شلوم مَا صَنَعَ، فَجَاءَ وَالطَّاعُون يجوس في بني إسرائيل، فَأُخْبِرَ الخَبَر فَأَخَذَ حَرْبَته وَكَانَتْ مِنْ حَدِيد كُلّهَا ثُمَّ دَخَلَ القُبَّة وَهُمَا مُتَضَاجِعَانِ فَانْتَظَمَهُمَا بِحَرْبَتِهِ ثُمَّ خَرَجَ بِهِمَا رَافِعهمَا إِلَى السَّمَاء وَالْحَرْبَة قَدْ أَخَذَهَا بِذِرَاعِهِ وَاعْتَمَدَ بِمِرْفَقِهِ عَلَى خَاصِرَته وَأَسْنَدَ الحَرْبَة إِلَى لحييه، وَكَانَ بَكْر العيزار، وَجَعَلَ يَقُول: اللهمَّ هَكَذَا نَفْعَل بِمَنْ يَعْصِيك، وَرُفِعَ الطَّاعُون فَحُسِبَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل فِي الطَّاعُون فِيمَا بَيْن أَنْ أَصَابَ زمري المَرْأَة إِلَى أَنْ قَتَلَهُ فنحاص، فَوَجَدُوهُ قَدْ هَلَكَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَالْمُقَلِّل لَهُمْ يَقُول عِشْرُونَ أَلْفًا فِي سَاعَة مِنْ النَّهَار، فَمِنْ هُنَالِكَ تُعْطِي بَنُو إِسْرَائِيل وَلَد فنحاص مِنْ كُلّ ذَبِيحَة ذَبَحُوهَا، القبة وَالذِّرَاع وَاللَّحْي، لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحييه؛ وَالْبِكْر مِنْ كُلّ أَمْوَالهمْ وَأَنْفُسهم، لِأَنَّهُ كَانَ بَكْر أَبِيهِ العيزار، فَفِي بَلْعَام بْن بَاعُورَاء أَنْزَلَ الله ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ اِخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ؛ فأما على سِيَاق اِبْن إِسْحَاق، عَنْ سَالِم أَبِي النَّضْر: أَنَّ بَلْعَامًا اِنْدَلَعَ لِسَانه عَلَى صَدْره، فَتَشْبِيهه بِالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهِ إِنْ زُجِرَ وَإِنْ تُرِكَ، ظَاهِر. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَصَارَ مِثْله فِي ضَلَاله، وَاسْتِمْرَاره فِيهِ وَعَدَم اِنْتِفَاعه بِالدُّعَاءِ إِلَى الإِيمَان، وَعَدَم الدُّعَاء كَالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي حَالَتَيْهِ، إِنْ حَمَلْت عَلَيْهِ وَإِنْ تَرَكْته، هُوَ يَلْهَث فِي الحَالَيْنِ، فَكَذَلِكَ هَذَا لَا يَنْتَفِع بِالْمَوْعِظَةِ وَالدَّعْوَة إِلَى الإِيمَان وَلَا عَدَمه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ وَنَحْو ذَلِكَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّ قَلْب الكَافِر وَالْمُنَافِق وَالضَّالّ ضَعِيف فَارِغ مِنْ الهُدَى، فَهُوَ كَثِير الوَجِيب، فَعَبَّرَ عَنْ هَذَا بِهَذَا. نُقِلَ نَحْوه عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ وَغَيْره.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّد ﷺ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴾ أَيْ: لَعَلَّ بَنِي إِسْرَائِيل العَالِمِينَ بِحَالِ بَلْعَام، وَمَا جَرَى لَهُ فِي إِضْلَال الله إِيَّاهُ وَإِبْعَاده مِنْ رَحْمَته؛ بِسَبَب أَنَّهُ اِسْتَعْمَلَ نِعْمَة الله عَلَيْهِ فِي تَعْلِيمه الِاسْم الأَعْظَم الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي غَيْر طَاعَة رَبّه، بَلْ دَعَا بِهِ عَلَى حِزْب الرَّحْمَن؛ وَشَعْب الإِيمَان، أَتْبَاع عَبْده وَرَسُوله فِي ذَلِكَ الزَّمَان، كَلِيم الله مُوسَى بْن عِمْرَان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَيْ: فَيَحْذَرُوا أَنْ يَكُونُوا مِثْله، فَإِنَّ الله قَدْ أَعْطَاهُمْ عِلْمًا، وَمَيَّزَهُمْ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ الأَعْرَاب، وَجَعَلَ بِأَيْدِيهِمْ صِفَة مُحَمَّد ﷺ، يَعْرِفُونَهَا كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، فَهُمْ أَحَقّ النَّاس وَأَوْلَاهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَمُنَاصَرَته وَمُؤَازَرَته، كَمَا أَخْبَرَتْهُمْ أَنْبِيَاؤُهُمْ بِذَلِكَ وَأَمَرَتْهُمْ بِهِ، وَلِهَذَا مَنْ خَالَفَ مِنْهُمْ مَا فِي كِتَابه وَكَتَمَهُ فَلَمْ يُعْلِم بِهِ العِبَاد أَحَلَّ الله بِهِ ذُلًّا فِي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الآخِرَة.

وقوله: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ يقول تعالى: ساءَ مَثَلًا مَثَل القَوْم الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، أي: ساءَ مَثَلهمْ أنْ شُبِّهُوا بالكِلابِ الَّتِي لا هِمَّةَ لها إلَّا في تحصِيل أَكْلَة أَوْ شَهْوَة، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ حَيِّز العِلْم والهُدَى، وأقْبَلَ عَلَى شَهْوَة نَفْسه، واتَّبَعَ هَوَاهُ، صَارَ شَبِيهًا بِالكَلْب، وَبِئْسَ المَثَل مَثَله؛ ولِهَذَا ثَبَتَ في الصَّحِيح أنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «لَيْسَ لَنَا مَثَل السُّوء، العَائِد فِي هِبَتِه كَالكَلْب يَعُود فِي قَيْئِهِ»[1]. وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ أي: مَا ظَلَمَهُمْ الله، ولَكِنْ هُمْ ظَلَمُوا أنْفُسهمْ بِإعْرَاضِهِمْ عَنْ اتِّبَاع الهُدَى، وطَاعَة المَوْلَى، إلَى الرُّكُون إلَى دَار البِلَى، والإقْبَال عَلَى تَحْصِيل اللَّذَّات ومُوَافَقَة الهَوَى.

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾

يَقُول تعالى: مَنْ هَدَاهُ الله فَإنَّهُ لا مُضِلّ لَهُ، ومَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ لا مَحَالَة، فَإنَّهُ تعالى مَا شَاءَ كَانَ، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ ولِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيث ابْن مَسْعُود: «إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَهْدِيه ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعُوذ بالله مِنْ شُرُور أَنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَات أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِي لَهُ، وأَشْهَد أنْ لا إلَه إلا الله وَحْدَه لا شَرِيك لَهُ، وأَشْهَد أنَّ مُحَمَّدًا عَبْده ورَسُوله»[2]. الحَدِيث بِتَمَامِهِ رَوَاهُ الإمَام أحْمَد، وأَهْل السُّنَن وغَيْرهمْ.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾

يَقُول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خَلَقْنَا وجَعَلْنَا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي: هَيَّأْنَاهُمْ لَهَا، وبِعَمَلِ أَهْلهَا يَعْمَلُونَ، فَإنَّهُ تعالى لَمَّا أَرَادَ أنْ يَخْلُق الخَلْق عَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْل كَوْنِهِمْ، فَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْده في كِتَاب، قَبْل أنْ يَخْلُق السَّمَاوَات والأرْض بِخَمْسِينَ ألف سَنَة، كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيح مُسْلِم، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، أنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «إنَّ الله قَدَّرَ مَقَادِير الخَلائِق قَبْل أنْ يَخْلُق السَّمَاوَات والأرْض بِخَمْسِينَ ألف سَنَة، وكَانَ عَرْشه عَلَى المَاء»[3]. وفِي صَحِيح مُسْلِم أيْضًا، مِنْ حَدِيث عَائِشَة بِنْت طَلْحَة، عَنْ خَالَتهَا عَائِشَة أُمّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: دُعِيَ النَّبِيّ ﷺ، إلَى جِنَازَة صَبِيّ مِنَ الأنْصَار، فَقُلْت: يَا رَسُول الله؛ طُوبَى لَهُ، عُصْفُور مِنْ عَصَافِير الجَنَّة، لَمْ يَعْمَل السُّوء ولَمْ يُدْرِكهُ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَوَغَيْر ذَلِكَ يَا عَائِشَة؛ إنَّ الله خَلَقَ الجَنَّة وخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وهُمْ فِي أَصْلاب آبَائِهِمْ، وخَلَقَ النَّار وخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وهُمْ فِي أَصْلاب آبَائِهِمْ»[4]. وفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث ابْن مَسْعُود: «ثُمَّ يَبْعَث الله إلَيْهِ المَلَك، فَيُؤْمَر بِأَرْبَع كَلِمَات، فَيَكْتُب: رِزْقه، وأَجَله، وعَمَله، وشَقِيّ أمْ سَعِيد»[5]. وتَقَدَّمَ أنَّ الله لَمَّا اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّة آدَم مِنْ صُلْبه، وجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ أَصْحَاب اليَمِين وأَصْحَاب الشِّمَال قَالَ: «هَؤُلاء لِلْجَنَّة ولا أُبَالِي، وهَؤُلاء لِلنَّار ولا أُبَالِي». والأحَادِيث فِي هَذَا كَثِيرَة، ومَسْأَلَة القَدَر كَبِيرَة لَيْسَ هَذَا مَوْضِع بَسْطهَا.

وقَوْله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ يَعْنِي: لَيْسَ يَنْتَفِعُونَ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٢٢).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (٣٢٧٨)، وأحمد (١/ ٣٩٢) من حديث ابن مسعود، وصححه الألباني في «المشكاة» (٣١٤٩).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٧)، وأحمد (٢/ ١٦٩).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٢)، وأبو داود (٤٧١٣)، والنسائي (٤/ ٥٧).

(٥) صحيح: تقدم.

بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الجَوَارِحِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ سَبَبًا لِلْهِدَايَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ هَذَا فِي حَقِّ المُنَافِقِينَ، وَقَالَ فِي حَقِّ الكَافِرِينَ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وَلَمْ يَكُونُوا صُمًّا وَبُكْمًا وَعُمْيًا إِلَّا عَنْ الهُدَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، وَقَالَ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ الحَقّ وَلَا يَعُونَهُ وَلَا يُبْصِرُونَ الهُدَى كَالأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِع بِهَذِهِ الحَوَاسّ مِنْهَا إِلَّا فِي الَّذِي يعيّشها فِي ظَاهِرِ الحَيَاة الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، أَيْ: وَمَثَلهمْ فِي حَال دُعَائِهِمْ إِلَى الإِيمَان، كَمَثَلِ الأَنْعَام إِذَا دَعَاهَا رَاعِيهَا، لَا تَسْمَع إِلَّا صَوْته، وَلَا تَفْقَه مَا يَقُول؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي هَؤُلَاءِ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أَيْ: مِنْ الدَّوَابّ؛ لأن الدواب قَدْ تَسْتَجِيب مَعَ ذَلِكَ لِرَاعِيهَا إِذَا أَبَسَّ بِهَا، وَإِنْ لَمْ تَفْقَه كَلَامه، بِخِلَافِ هَؤُلَاءِ، ولأن الدواب تفقه مَا خُلِقَتْ لَهُ إِمَّا بِطَبْعِهَا وَإِمَّا بِتَسْخِيرِهَا، بِخِلَافِ الكَافِرِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَعْبُد اللهَ وَيُوَحِّدهُ، فَكَفَرَ بِاللهِ وَأَشْرَكَ بِهِ؛ وَلِهَذَا مَنْ أَطَاعَ اللهَ مِنْ البَشَر كَانَ أَشْرَفَ مِنْ مِثْله مِنْ المَلَائِكَة فِي مَعَاده، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ البَشَر، كَانَتْ الدَّوَابّ أَتَمَّ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَة وَتِسْعِينَ اِسْمًا مِائَة إِلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّة، وَهُوَ وِتْر يُحِبّ الوِتْر**»[1]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْهُ. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ عَنْ أَبِى اليَمَان، عَنْ شُعَيْب بنْ أَبِي حَمْزَة، عَنْ أَبِي الزِّنَاد، بِهِ. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ فِي جَامِعه عَنْ الجَوْزَجَانِيّ، عَنْ صَفْوَان بْن صَالِح، عَنْ الوَلِيد بْن مُسْلِم، عَنْ شُعَيْب، فَذَكَرَ بِسندِهِ مِثْله، وَزَادَ بَعْد قَوْله: «**يُحِبّ الوِتْر**:

هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَه إِلا هُوَ الرَّحْمَن الرَّحِيم، المَلِك، القُدُّوس، السَّلام، المُؤْمِن، المُهَيْمِن، العَزِيز، الجَبَّار، المُتَكَبِّر، الخَالِق، البَارِئ، المُصَوِّر، الغَفَّار، القَهَّار، الوَهَّاب، الرَّزَّاق، الفَتَّاح، العَلِيم، القَابِض، البَاسِط، الخَافِض، الرَّافِع، المُعِزّ، المُذِلّ، السَّمِيع، البَصِير، الحَكَم، العَدْل، اللَّطِيف، الخَبِير، الحَلِيم، العَظِيم، الغَفُور، الشَّكُور، العَلِيّ، الكَبِير، الحَفِيظ، المُقِيت، الحَسِيب، الجَلِيل، الكَرِيم، الرَّقِيب، المُجِيب، الوَاسِع، الحَكِيم، الوَدُود، المَجِيد، البَاعِث، الشَّهِيد، الحَقّ، الوَكِيل، القَوِيّ، المَتِين، الوَلِيّ، الحَمِيد، المُحْصِي، المُبْدِئ، المُعِيد، المُحْيِي، المُمِيت، الحَيّ القَيُّوم، الوَاجِد، المَاجِد، الوَاحِد، الأَحَد، الفَرْد، الصَّمَد، القَادِر، المُقْتَدِر، المُقَدِّم، المُؤَخِّر، الأَوَّل، الآخِر، الظَّاهِر، البَاطِن، الوَالِي، المُتَعَالِي، البَرّ، التَّوَّاب، المُنْتَقِم، العَفُوّ، الرَّءُوف، مَالِك المُلْك، ذُو الجَلَال وَالإِكْرَام، المُقْسِط، الجَامِع، الغَنِيّ، المُغْنِي، المَانِع، الضَّارّ، النَّافِع، النُّور، الهَادِي، البَدِيع، البَاقِي، الوَارِث، الرَّشِيد، الصَّبُور». ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث غَرِيب، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَلَا نَعْلَم فِي كَثِير مِنْ الرِّوَايَات ذِكْر الأَسْمَاء إِلَّا فِي هَذَا الحَدِيث. وَرَوَاهُ اِبْن حِبَّان فِي صَحِيحه، مِنْ طَرِيق صَفْوَان بِهِ. وَقَدْ رَوَاهُ اِبْن مَاجَهْ فِي سُنَنه مِنْ طَرِيق آخَر، عَنْ مُوسَى بْن عُقْبَة، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، مَرْفُوعًا، فَسَرَدَ الأَسْمَاء كَنَحْوِ مِمَّا تَقَدَّمَ بِزِيَادَةٍ

---

(١) صحيح: تقدم.

وَنُقْصَان، وَالَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ جَمَاعَة مِنَ الحُفَّاظ أَنَّ سَرْد الأَسْمَاء فِي هَذَا الحَدِيث مُدْرَج فِيهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَمَا رَوَاهُ الوَلِيد بْن مُسْلِم وَعَبْد المَلِك بْن مُحَمَّد الصَّنْعَانِيّ، عَنْ زُهَيْر بْن مُحَمَّد: أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ غَيْر وَاحِد مِنْ أَهْل العِلْم أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ، أَيْ: أَنَّهُمْ جَمَعُوهَا مِنَ القُرْآن، كَمَا ورد عَنْ جعفر بْن مُحَمَّد وَسُفْيَان بْن عُيَيْنَة وَأَبِي زَيْد اللُّغَوِيّ، وَالله أَعْلَم.

ثُمَّ لِيُعْلَم أَنَّ الأَسْمَاء الحُسْنَى ليست مُنْحَصِرَة فِي تِسْعَة وَتِسْعِينَ، بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده، عَنْ يَزِيد بْن هَارُون، عَنْ فُضَيْل بْن مَرْزُوق، عَنْ أَبِي سَلَمَة الجُهَنِيّ، عَنْ القَاسِم بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود ﷺ، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: **«مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَن فَقَالَ: اللهمَّ! إِنِّي عَبْدك، ابْن عَبْدك، ابْن أَمَتك، نَاصِيَتِي بِيَدِك، مَاضٍ فِيَّ حُكْمك، عَدْل فِيَّ قَضَاؤُك، أَسْأَلك بِكُلِّ اسْم هُوَ لَك، سَمَّيْت بِهِ نَفْسك، أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابك، أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مِنْ خَلْقك، أَوْ اسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْم الغَيْب عِنْدك، أَنْ تَجْعَل القُرْآن العَظِيم رَبِيع قَلْبِي وَنُور صَدْرِي وَجَلاء حُزْنِي وَذَهَاب هَمِّي؛ إِلا أَذْهَبَ الله هَمَّهُ وَحُزْنه وَأَبْدَلَه مَكَانه فَرَحًا»** فَقِيلَ: يَا رَسُول الله؛ أَفَلَا نَتَعَلَّمهَا؟ فَقَالَ: **«بَلَى، يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمهَا»**[1]. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الإِمَام أَبُو حَاتِم ابْن حِبَّان البُسْتِيّ فِي صَحِيحه بِمِثْلِهِ.

وَذَكَرَ الفَقِيه الإِمَام أَبُو بَكْر ابْن العَرَبِيّ أَحَد أَئِمَّة المَالِكِيَّة فِي كِتَابه «عارضة الأَحْوَذِيّ فِي شَرْح التِّرْمِذِيّ» أَنَّ بَعْضهمْ جَمَعَ مِنَ الكِتَاب وَالسُّنَّة مِنْ أَسْمَاء الله الف اِسْم، فَالله أَعْلَم.

وَقَالَ العَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قَالَ: الحَاد المُلْحِدِينَ: أَنْ دَعَوْا اللَّاتَ فِي أَسْمَاء الله. وَقَالَ اِبْن جُرَيْج، عَنْ مُجَاهِد: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قَالَ: اِشْتَقُّوا «اللَّاتَ» مِنْ الله، وَاشتقوا «العُزَّى» مِنْ العزيز. وَقَالَ قَتَادَة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾: يُشْرِكُونَ. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: الإِلْحَاد: التَّكْذِيب. وَأَصْل الإِلْحَاد فِي كَلَام العَرَب: العُدُول عَنْ القَصْد؛ وَالمَيْل وَالجَوْر وَالانْحِرَاف، وَمِنْهُ اللَّحْد فِي القَبْر لِانْحِرَافِهِ إِلَى جِهَة القِبْلَة عَنْ سَمْت الحفر.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أَيْ: ومن الأُمَم ﴿أُمَّةٌ﴾ قَائِمَة بِالحَقّ، قَوْلًا وَعَمَلًا ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يَقُولُونَهُ وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يَعْمَلُونَ وَيَقْضُونَ. وَقَدْ جَاءَ فِي الآثَار أَنَّ المُرَاد بِهَذِهِ الأُمَّة المَذْكُورَة فِي الآيَة هِيَ هَذِهِ الأُمَّة المُحَمَّدِيَّة. قَالَ سَعِيد، عَنْ قَتَادَة فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: بَلَغَنَا أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ يَقُول إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: **«هَذِهِ لَكُمْ، وَقَدْ أُعْطِيَ القَوْم بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِثْلهَا ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾»**[2].

وَقَالَ أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا عَلَى الحَقّ، حَتَّى يَنْزِل عِيسَى ابْن مَرْيَم مَتَى مَا نَزَلَ»**[3]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«لا تَزَال طَائِفَة مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقّ لا يَضُرّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُوم السَّاعَة»**. وَفِي رِوَايَة: **«حَتَّى يَأْتِي أَمْر الله وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»**. وَفِي رِوَايَة: **«وَهُمْ بِالشَّام»**[4].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَفْتَح لَهُمْ أَبْوَاب الرِّزْق

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان (٩٧٢) من حديث ابن مسعود، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٩).
(٢) **ضعيف**: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦١٧) إلى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة مرسلًا.
(٣) **حسن لغيره**: أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٥٨٩) فيه أبو جعفر الرازي: صدوق سيء الحفظ، ويشهد للحديث ما بعده.
(٤) **صحيح**: تقدم.

وَوُجوه المَعَاش فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَغْتَرُّوا بِمَا هُمْ فِيهِ وَيَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أَيْ: وَسَأُمْلِي لَهُمْ، أَيْ: أُطَوِّل لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أَيْ: قَوِيّ شَدِيد.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِنَا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ بِهِ جُنُون، بَلْ هُوَ رَسُول الله حَقًّا، وَدَعَا إِلَى حَقّ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ: ظَاهِر لِمَنْ كَانَ لَهُ لُبّ وَقَلْب يَعْقِل بِهِ وَيَعِي بِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، يَقُول: إِنَّمَا أَطْلُب مِنْكُمْ أَنْ تَقُومُوا لله قِيَامًا خَالِصًا، لَيْسَ فِيهِ تَعَصُّب وَلَا عِنَاد، ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ أَيْ: مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ فِي هَذَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِالرِّسَالَةِ مِنْ الله: أَبِهِ جُنُون أَمْ لَا؟ فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ بَانَ لَكُمْ وَظَهَرَ أَنَّهُ رَسُول الله حَقًّا وَصِدْقًا.
وَقَالَ قَتَادَة ابْن دِعَامَة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ كَانَ عَلَى الصَّفَا، فَدَعَا قُرَيْشًا فَجَعَلَ يُفَخِّذهُمْ فَخِذًا فَخِذًا: يَا بَنِي فُلَان يَا بَنِي فُلَان، فَحَذَّرَهُمْ بَأْس الله وَوَقَائِع الله، فَقَالَ قَائِلهمْ: إِنَّ صَاحِبكُمْ هَذَا لَمَجْنُون، بَاتَ يُصَوِّت إِلَى الصَّبَاح أَوْ حَتَّى أَصْبَحَ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1].

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِآيَاتِنَا، فِي مُلْك الله وَسُلْطَانه فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض، وَفِيمَا خَلَقَ مِنْ شَيْء فِيهِمَا، فَيَتَدَبَّرُوا ذَلِكَ وَيَعْتَبِرُوا بِهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ لِمَنْ لَا نَظِير لَهُ وَلَا شَبِيه، وَمِنْ فِعْل مَنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُون الْعِبَادَة وَالدِّين الْخَالِص إِلَّا لَهُ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ، وَيُصَدِّقُوا رَسُوله، وَيُنِيبُوا إِلَى طَاعَته، وَيَخْلَعُوا الْأَنْدَاد وَالْأَوْثَان، وَيَحْذَرُوا أَنْ تَكُون آجَالهمْ قَدْ اِقْتَرَبَتْ، فَيَهْلِكُوا عَلَى كُفْرهمْ، وَيَصِيرُوا إِلَى عَذَاب الله وَأَلِيم عِقَابه.
وَقَوْله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يَقُول: فَبِأَيِّ تَخْوِيف وَتَحْذِير وَتَرْهِيب بَعْد تَحْذِير مُحَمَّد ﷺ وَتَرْهِيبه الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْد الله فِي آيِ كِتَابه يُصَدِّقُونَ إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذَا الْحَدِيث الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّد مِنْ عِنْد الله ﷻ؟.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَام أَحْمَد، عَنْ حَسَن بْن مُوسَى وَعَفَّان بْن مُسْلِم وَعَبْد الصَّمَد بْن عَبْد الْوَارِث، كُلّهمْ عَنْ حَمَّاد ابْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان، عَنْ أَبِي الصَّلْت، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«رَأَيْت لَيْلَة أُسْرِيَ بِي لَمَّا اِنْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاء السَّابِعَة، فَنَظَرْت فَوْقِي، فَإِذَا أَنَا بِرَعْدٍ وَبَرْق وَصَوَاعِق»، قَال: «وَأَتَيْت عَلَى قَوْم بُطُونهمْ كَالْبُيُوتِ فِيهَا الْحَيَّات تُرَى مِنْ خَارِج بُطُونهمْ، قُلْت: مَنْ هَؤُلَاء يَا جِبْرِيل؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ أَكَلَة الرِّبَا، فَلَمَّا نَزَلْت إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا فَنَظَرْت إِلَى أَسْفَل مِنِّي، فَإِذَا أَنَا بِرَهْجٍ وَدُخَان وَأَصْوَات، فَقُلْت: مَا هَذَا يَا جِبْرِيل؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِين، يَحُومُونَ عَلَى أَعْيُن بَنِي آدَم، أَنْ لَا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوت السَّمَاوَات وَالْأَرْض، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوْا الْعَجَائِب»**[2]. عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان لَهُ مُنْكَرَات. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٥٩٢) بسند مرسل.
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٣) بسند ضعيف فيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، وشيخه أبو الصلت: مجهول.

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: مَنْ كَتَبَ عَلَيْهِ الضَّلَالَة فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيه أَحَد، وَلَوْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِيمَا نَظَرَ، فإنه لَا يُجْزِي عَنْهُ شَيْئًا ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْش. وَقِيلَ: فِي نَفَر مِنْ الْيَهُود، وَالْأَوَّل أَشْبَه؛ لِأَنَّ الْآيَة مَكِّيَّة، وَكَانُوا يَسْأَلُونَ عَنْ وَقْت السَّاعَة، اِسْتِبْعَادًا لِوُقُوعِهَا، وَتَكْذِيبًا بِوُجُودِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

وَقَوْله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قَالَ عَلِيّ بن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: مُنْتَهَاهَا، أَيْ: مَتَى مَحَطّهَا، وَأَيَّانَ آخِر مُدَّة الدُّنْيَا الَّذِي هُوَ [أَوَّل][1] وَقْت السَّاعَة، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أَمَرَ تَعَالَى رَسُوله ﷺ، إِذَا سُئِلَ عَنْ وَقْت السَّاعَة، أَنْ يَرُدّ عِلْمهَا إِلَى الله تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا، أَيْ: يَعْلَم جَلِيَّة أَمْرهَا، وَمَتَى يَكُون عَلَى التَّحْدِيد، لَا يَعْلَم ذَلِكَ إِلَّا هُوَ تَعَالَى؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. قَالَ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ: ثَقُلَ عِلْمهَا عَلَى أَهْل السَّمَاوَات وَالْأَرْض، أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. قَالَ مَعْمَر: قَالَ الْحَسَن: إِذَا جَاءَتْ ثَقُلَتْ عَلَى أَهْل السَّمَاوَات وَالْأَرْض، يَقُول: كَبُرَتْ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الضَّحَّاك، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ: لَيْسَ شَيْء مِنْ الْخَلْق إِلَّا يُصِيبهُ مِنْ ضَرَر يَوْم الْقِيَامَة. وَقَالَ اِبْن جُرَيْج: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ: إِذَا جاءت اِنْشَقَّتْ السَّمَاء، وَانْتَثَرَتْ النُّجُوم، وَكُوِّرَتْ الشَّمْس، وَسُيِّرَتْ الْجِبَال، وَكَانَ مَا قَالَ الله ﷻ، فَذَلِكَ ثِقَلهَا. وَاخْتَارَ اِبْن جَرِير رحمه الله: أَنَّ الْمُرَاد ثِقَل عِلْم وَقْتهَا عَلَى أَهْل السَّمَاوَات وَالْأَرْض، كَمَا قَالَ قَتَادَة. وَهُوَ كَمَا قَالَاهُ؛ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، وَلَا يَنْفِي ذَلِكَ ثِقَل مَجِيئِهَا عَلَى أَهْل السَّمَاوَات وَالْأَرْض، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَقُول: خَفِيَتْ فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض، فَلَا يَعْلَم قِيَامهَا حِين تَقُوم مَلَك مُقَرَّب وَلَا نَبِيّ مُرْسَل. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ يَبْغَتهُمْ قِيَامهَا، تَأْتِيهِمْ عَلَى غَفْلَة. وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾: قَضَى الله أَنَّهَا ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ قَالَ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ، قال: **«إِنَّ السَّاعَة تَهِيج بِالنَّاسِ وَالرَّجُل يُصْلِح حَوْضه، وَالرَّجُل يَسْقِي مَاشِيَته، وَالرَّجُل يُقِيم سِلْعَته فِي السُّوق، وَيَخْفِض مِيزَانه وَيَرْفَعهُ»**.

وَقَالَ الْبُخَارِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَان، أَنْبَأَنَا شُعَيْب، أَنْبَأَنَا أَبُو الزِّنَاد، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: **«لَا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى تَطْلُع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاس آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِين لَا يَنْفَع نَفْسًا إِيمَانهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْل أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَة وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبهمَا بَيْنهمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَة وَقَدْ اِنْصَرَفَ الرَّجُل بِلَبَنِ لِقْحَته فَلَا يَطْعَمهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَة وَهُوَ يَلِيط حَوْضه فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَة وَالرَّجُل قَدْ رَفَعَ أَكْلَته إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمهَا»**[2]. وَقَالَ مُسْلِم فِي صَحِيحه: حَدَّثَنِي زُهَيْر بْن حَرْب، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ

---

(١) في نسخة: [أقل].
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٦).

الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، يَبْلُغ بِهِ النبي ﷺ، قَالَ: «تَقُوم السَّاعَة وَالرَّجُل يَحْلُب لِقْحَته، فَمَا يَصِل الإِنَاء إِلَى فِيهِ حَتَّى تَقُوم السَّاعَة، وَالرَّجُلانِ يَتَبَايَعَانِ الثَّوْب، فَمَا يَتَبَايَعَانِهِ حَتَّى تَقُوم السَّاعَة، وَالرَّجُل يَلُوط حَوْضه، فَمَا يَصْدُر حَتَّى تَقُوم»[1].

وَقَوْله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ؛ فَقِيلَ: مَعْنَاهُ كَمَا قَالَ الْعَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يَقُول: كَأَنَّ بَيْنك وَبَيْنهمْ مَوَدَّة، كَأَنَّك صَدِيق لَهُمْ. قَالَ اِبْن عَبَّاس: لَمَّا سَأَلَ النَّاس محمدًا ﷺ، عن السَّاعَة، سَأَلُوهُ سُؤَال قَوْم كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مُحَمَّدًا حَفِيّ بِهِمْ، فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ: إِنَّمَا عِلْمهَا عِنْده، اِسْتَأْثَر بعلمها فَلَمْ يُطْلِع الله عَلَيْهَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا رَسُولًا. وَقَالَ قَتَادَة: قَالَتْ قُرَيْش لِمُحَمَّدٍ ﷺ: إِنَّ بَيْننَا وَبَيْنك قَرَابَة، فَأَسِرَّ إِلَيْنَا مَتَى السَّاعَة؟ فَقَالَ الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَأَبِي مَالِك، وَالسُّدِّيّ، وَهَذَا قَوْل؛ وَالصَّحِيح عَنْ مُجَاهِد مِنْ رِوَايَة اِبْن أَبِي نَجِيح وَغَيْره ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قَالَ: اِسْتَحْفَيْت عَنْهَا السُّؤَال، حَتَّى عَلِمْت وَقْتهَا. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يَقُول: كَأَنَّك عَالِم بِهَا، لَسْت تَعْلَمهَا ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾. وَقَالَ مَعْمَر، عَنْ بَعْضهمْ: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كَأَنَّك عَالِم بِهَا. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كَأَنَّك عَالِم بِهَا ، وَقَدْ أَخْفَى الله عِلْمهَا عَلَى خَلْقه، وَقَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآيَة. وَهَذَا القَوْل أَرْجَح فِي المعنى مِنْ الأَوَّل، وَالله أَعْلَم. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَة أَعْرَابِيّ، لِيُعَلِّم النَّاس أَمْر دِينهمْ، فَجَلَسَ مِنْ رَسُول الله ﷺ، مَجْلِس السَّائِل الْمُسْتَرْشِد، وَسَأَلَهُ ﷺ، عَنْ الإِسْلَام، ثُمَّ عَنْ الإِيمَان، ثُمَّ عَنْ الإِحْسَان، ثُمَّ قَالَ: فَمَتَى السَّاعَة؟ قَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «**مَا الْمَسْئُول عَنْهَا بِأَعْلَم مِنْ السَّائِل**» أَيْ: لَسْت أَعْلَم بِهَا مِنْك، وَلَا أَحَد أَعْلَم بِهَا مِنْ أَحَد ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآيَة. وَفِي رِوَايَة: فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرَاط السَّاعَة، فَبَيَّنَ لَهُ أَشْرَاط السَّاعَة، ثُمَّ قَالَ: «**فِي خَمْس لَا يَعْلَمهُنَّ إِلَّا الله**»، وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَة. وَفِي هَذَا كُلّه يَقُول لَهُ بَعْد كُلّ جَوَاب: صَدَقْت؛ وَلِهَذَا عَجِبَ الصَّحَابَة مِنْ هَذَا السَّائِل يَسْأَلهُ وَيُصَدِّقهُ، ثُمَّ لَمَّا اِنْصَرَفَ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**هَذَا جِبْرِيل أَتَاكُمْ يُعَلِّمكُمْ دِينكُمْ**». وَفِي رِوَايَة قَالَ: «**وَمَا أَتَانِي فِي صُورَة إِلَّا عَرَفْته فِيهَا، إِلَّا صُورَته هَذِهِ**»[2]. وَقَدْ ذَكَرْت هَذَا الحَدِيث بِطُرُقِهِ وَأَلْفَاظه مِنْ الصِّحَاح وَالْحِسَان وَالْمَسَانِيد فِي أَوَّل شَرْح صحيح الْبُخَارِيّ، وَلله الْحَمْد وَالْمِنَّة.

وَلَمَّا سَأَلَهُ ذَلِكَ الأَعْرَابِيّ وَنَادَاهُ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيّ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّد؛ قَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «**هَاؤُمُ**» -عَلَى نَحْو مِنْ صَوْته-، قَالَ: يَا مُحَمَّد؛ مَتَى السَّاعَة؟ فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «**وَيْحك، إِنَّ السَّاعَة آتِيَة، فَمَا أَعْدَدْت لَهَا؟**» قَالَ: مَا أَعْدَدْت لَهَا كَبِير صَلَاة وَلَا صِيَام، وَلَكِنِّي أُحِبّ الله وَرَسُوله. فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «**الْمَرْء مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» فَمَا فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ فَرَحهمْ بِهَذَا الحَدِيث. وَهَذَا لَهُ طُرُق مُتَعَدِّدَة فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرهمَا عَنْ جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**الْمَرْء مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[3]. وَهِيَ مُتَوَاتِرَة عِنْد كَثِير مِنْ الحُفَّاظ الْمُتْقِنِينَ. فَفِيهِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ هَذَا الَّذِي لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى عِلْمه، أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ الأَهَمّ فِي حَقّهمْ، وَهُوَ الاِسْتِعْدَاد لِوُقُوعِ ذَلِكَ، وَالتَّهَيُّؤ لَهُ قَبْل نُزُوله، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوا تَعْيِين وَقْته. وَلِهَذَا قَالَ مُسْلِم فِي صَحِيحه: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، وَأَبُو كُرَيْب، قَالَا: حَدَّثَنَا أَبو أُسَامَة، عَنْ هِشَام، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها، قَالَتْ:

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٩٥٤).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).
(٣) **صحيح**: تقدم.

كَانَتْ الأَعْرَاب إِذَا قَدِمُوا عَلَى رَسُول الله ﷺ سَأَلُوهُ عَنْ السَّاعَة: مَتَى السَّاعَة؟ فَيَنْظُرُ إِلَى أَحْدَث إِنْسَان مِنْهُمْ فَيَقُول: «إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكهُ الهَرَم حتى قَامَتْ سَاعَتكُمْ»[١]. يَعْنِي بِذَلِكَ: مَوْتهمْ الَّذِي يُفْضِي بِهِمْ إِلَى الحُصُول فِي بَرْزَخ الدَّار الآخِرَة. ثُمَّ قَالَ مُسْلِم: وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا يُونُس بْن مُحَمَّد، عَنْ حَمَّاد ابْن سَلَمَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُول الله ﷺ عَنْ السَّاعَة، وعنده غلامٌ من الأنصار يقال له: محمد، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنْ يَعِشْ هَذَا الغُلام فَعَسَى أَنْ لا يُدْرِكهُ الهَرَم حَتَّى تَقُوم السَّاعَة»[٢]. اِنْفَرَدَ بِهِ مُسْلِم.

وَحَدَّثَنِي حَجَّاج بْن الشَّاعِر، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن حَرْب، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، حَدَّثَنَا معبد بْن هِلَال العنزي، عَنْ أَنَس بْن مَالِك ﷺ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: مَتَى السَّاعَة؟ فَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ هُنَيْهَة، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى غُلَام بَيْن يَدَيْهِ مِنْ أَزْد شَنُوءَة، فَقَالَ: «إِنْ عُمِّرَ هَذَا لَمْ يُدْرِكهُ الهَرَم حَتَّى تَقُوم السَّاعَة». قَالَ أَنَس: ذَلِكَ الغُلَام مِنْ أَتْرَابِي. وَقَالَ: حَدَّثَنَا هَارُون بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا عَفَّان بْن مُسْلِم، حَدَّثَنَا هَمَّام، حَدَّثَنَا قَتَادَة، عَنْ أَنَس، قَالَ: مَرَّ غُلَام لِلْمُغِيرَة ابْن شُعْبَة، وَكَانَ مِنْ أقراني، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «إِنْ يُؤَخَّر هَذَا لَمْ يُدْرِكهُ الهَرَم حَتَّى تَقُوم السَّاعَة». وَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي كِتَاب الأَدَب مِنْ صَحِيحه، عَنْ عَمْرو بْن عَاصِم، عَنْ هَمَّام بْن يَحْيَى، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْل البَادِيَة قَالَ: يَا رَسُول الله؛ مَتَى السَّاعَة؟ فَذَكَرَ الحَدِيث، وَفِي آخِره: فَمَرَّ غُلَام لِلْمُغِيرَة بْن شُعْبَة، وَذَكَرَهُ.

وَهَذَا الإِطْلَاق فِي هَذِهِ الرِّوَايَات مَحْمُول عَلَى التَّقْيِيد بِـ«سَاعَتكُمْ» فِي حَدِيث عَائِشَة ﷺ، وَقَالَ اِبْن جُرَيْج: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْر، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِر بْن عَبْد الله، يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول قَبْل أَنْ يَمُوت بِشَهْر: «تَسْأَلُونِي عَنْ السَّاعَة، وَإِنَّمَا عِلْمهَا عِنْد الله، وَأُقْسِم بِالله مَا عَلَى ظَهْر الأَرْض اليَوْم مِنْ نَفْس مَنْفُوسَة تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَة سَنَة»[٣]. رَوَاهُ مُسْلِم. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ اِبْن عُمَر مِثْله. قَالَ اِبْن عُمَر: وَإِنَّمَا أَرَادَ رَسُول الله ﷺ اِنْخِرَام ذَلِكَ القَرْن.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هُشَيْم، أَنْبَأَنَا العَوَّام، عَنْ جَبَلَة بْن سُحَيْم، عَنْ مُؤْثِر بْن عَفَازَة، عَنْ اِبْن مَسْعُود ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «لَقِيت لَيْلَة أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَعِيسَى، قَالَ: فتذاكروا أَمْر السَّاعَة قَالَ: فَرَدُّوا أَمْرهمْ إِلَى إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: لا عِلْم لِي بِهَا. فَرَدُّوا أَمْرهمْ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: لا عِلْم لِي بِهَا. فَرَدُّوا أَمْرهمْ إِلَى عِيسَى، فَقَالَ عِيسَى: أَمَّا وَجْبَتهَا فَلا يَعْلَم بِهَا أَحَد إِلا الله ﷻ، وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي ﷻ، أَنَّ الدَّجَّال خَارِج، قَالَ: وَمَعِي قَضِيبَانِ، فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوب الرَّصَاص، قَالَ: فَيُهْلِكهُ الله ﷻ إِذَا رَآنِي، حَتَّى إِنَّ الحَجَر وَالشَّجَر يَقُول: يَا مُسْلِم؛ إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، قَالَ: فَيُهْلِكهُمْ الله ﷻ، ثُمَّ يَرْجِع النَّاس إِلَى بلادهمْ وَأَوْطَانهمْ، قَالَ: فَعِنْد ذَلِكَ يَخْرُج يَأْجُوج وَمَأْجُوج، وَهُمْ مِنْ كُلّ حَدَب يَنْسِلُونَ فَيَطَئُونَ بلادهمْ، لا يَأْتُونَ عَلَى شَيْء إِلا أَهْلَكُوهُ، وَلا يَمُرُّونَ عَلَى مَاء إِلا شَرِبُوهُ، قَالَ: ثُمَّ يَرْجِع النَّاس إِلَيَّ فَيَشْكُونَهُمْ، فَأَدْعُو الله ﷻ عَلَيْهِمْ فَيُهْلِكهُمْ وَيُمِيتهُمْ حَتَّى تَجْوَى الأَرْض مِنْ نَتْن رِيحهمْ، -أَيْ: تُنْتِن- قَالَ: فَيُنْزِل الله ﷻ، المَطَر فَيَجْتَرِف أَجْسَادهمْ حَتَّى يَقْذِفهُمْ فِي البَحْر». قَالَ الإِمَام أَحْمَد: قَالَ يَزِيد بْن هَارُون: ثُمَّ تُنْسَف الجِبَال، وَتُمَدّ الأَرْض مَدّ الأَدِيم، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيث هُشَيْم قَالَ: «فَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي ﷻ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ السَّاعَة كَالحَامِلِ المُتِمّ، لا يَدْرِي أَهْلهَا مَتَى تفجؤهم بولادها لَيْلًا أَوْ نَهَارًا»[٤]. وَرَوَاهُ اِبْن مَاجَهْ، عَنْ بُنْدَار، عَنْ يَزِيد بْن هَارُون،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٦٥٢).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٥٣).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٣٨).
(٤) صحيح: تقدم.

عَنْ العَوَّام بْن حَوْشَب بِسَنَدِهِ، نَحوه. فَهَؤُلَاءِ أَكَابِر أُولِي العَزْم مِنْ الْمُرْسَلِينَ لَيْسَ عِنْدهمْ عِلْم بِوَقْتِ السَّاعَة عَلَى التَّعْيِين، وَإِنَّمَا رَدُّوا الأَمْر إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَكَلَّمَ عَلَى أَشْرَاطهَا؛ لِأَنَّهُ يَنْزِل فِي آخِر هَذِهِ الأُمَّة مُنَفِّذًا لِأَحْكَامِ رَسُول الله ﷺ، وَيَقْتُل الْمَسِيح الدَّجَّال، وَيَجْعَل الله هَلَاك يَأْجُوج وَمَأْجُوج بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ، فَأَخْبَرَ بِمَا أَعْلَمَهُ الله تَعَالَى بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَبِي بُكَيْر، حَدَّثَنَا عبيد الله بْن إِيَاد بْن لَقِيط، قَالَ: سَمِعْت أَبِي يَذْكُر، عَنْ حُذَيْفَة قَالَ: سُئِلَ رَسُول الله ﷺ، عَنْ السَّاعَة، فَقَالَ: «**عِلْمهَا عِنْد رَبِّي ﷻ، لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ، وَلَكِنْ سَأُخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا وَمَا يَكُون بَيْن يَدَيْهَا، إِنَّ بَيْن يَدَيْهَا فِتْنَة وَهَرْجًا**» قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ الفِتْنَة قَدْ عَرَفْنَاهَا، فالهَرْج ما هو؟ قَالَ: «**بِلِسَانِ الحَبَشَة القَتْل**» قَالَ: «**وَيُلْقَى بَيْن النَّاس التَّنَاكُر، فَلا يَكَاد أَحَد يَعْرِف أَحَدًا**»[1]. لَمْ يَرْوِهِ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَالَ وَكِيع: حَدَّثَنَا اِبْن أَبِي خَالِد، عَنْ طَارِق اِبْن شِهَاب، قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ، لَا يَزَال يَذْكُر مِنْ شَأْن السَّاعَة حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ الآيَة. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث عِيسَى بْن يُونُس، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالِد، بِهِ. وَهَذَا إِسْنَاد جَيِّد قَوِيّ. فَهَذَا النَّبِيّ الأُمِّيّ سَيِّد الرُّسُل وَخَاتَمهمْ ﷺ نَبِيّ الرَّحْمَة، وَنَبِيّ التَّوْبَة، وَنَبِيّ الْمَلْحَمَة، وَالْعَاقِب، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِر الَّذِي تُحْشَر النَّاس عَلَى قَدَمَيْهِ، مَعَ قَوْله فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيح مِنْ حَدِيث أَنَس وَسَهْل بْن سَعْد رضي الله عنهما: «**بُعِثْت أَنَا وَالسَّاعَة كَهَاتَيْنِ**»[2]. وَقَرَنَ بَيْن إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَة وَالَّتِي تَلِيهَا، وَمَعَ هَذَا كُلّه قَدْ أَمَرَهُ الله تعالى أَنْ يَرُدّ عِلْم وَقْت السَّاعَة إِلَيْهِ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أَمَرَهُ الله تَعَالَى أَنْ يُفَوِّض الأُمُور إِلَيْهِ، وَأَنْ يُخْبِر عَنْ نَفْسه أَنَّهُ لَا يَعْلَم الغَيْب، وَلَا اِطِّلَاع لَهُ عَلَى شَيْء مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُ الله عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾. وَقَوْله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ قَالَ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ الثَّوْرِيّ، عَنْ مَنْصُور، عَنْ مُجَاهِد: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ قَالَ: لَوْ كُنْت أَعْلَم مَتَى أَمُوت لَعَمِلْت عَمَلًا صَالِحًا. وَكَذَا رَوَى اِبْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد، وَقَالَ مِثْله اِبْن جُرَيْج. وَفِيهِ نَظَر؛ لِأَنَّ عَمَل رَسُول الله ﷺ كَانَ دِيمَة، وَفِي رِوَايَة: كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ، فَجَمِيع عَمَله كَانَ عَلَى مِنْوَال وَاحِد، كَأَنَّهُ يَنْظُر إِلَى الله ﷻ، فِي جَمِيع أَحْوَاله، اللهمَّ إِلَّا أَنْ يَكُون الْمُرَاد أَنْ يُرْشِد غَيْره إِلَى الِاسْتِعْدَاد لِذَلِكَ، وَالله أَعْلَم. وَالأَحْسَن فِي هَذَا مَا رَوَاهُ الضَّحَّاك، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أَيْ: مِنْ الْمَال، وَفِي رِوَايَة: لَعَلِمْت إِذَا اِشْتَرَيْت شَيْئًا مَا أَرْبَح فِيهِ، فلا أبيع شَيْئًا إِلَّا رَبِحت فِيهِ، ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾، قال: وَلَا يُصِيبنِي الفَقْر.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ: لَوْ كُنْت أَعْلَم الغَيْب لَأَعْدَدْت لِلسَّنَةِ الْمُجْدِبَة مِنْ الْمُخْصِبَة، وَلِوَقْتِ الغَلَاء مِنْ الرُّخْص، فَاسْتَعْدَدْت لَهُ مِنْ الرُّخْص. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ قَالَ: لَاجْتَنَبْت مَا يَكُون مِنْ الشَّرّ قَبْل أَنْ يَكُون وَاتَّقَيْته. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أَيْ: نَذِير مِنْ العَذَاب، وَبَشِير لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٩) من حديث حذيفة بن اليمان، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٦٠٢) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٧١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٩٥١، ٦٥٠٤) من حديث أنس، وأخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يُنَبِّه تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ جَمِيع النَّاس مِنْ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُ زَوْجه حَوَّاء، ثُمَّ اِنْتَشَرَ النَّاس مِنْهُمَا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الآيَة. وَقَالَ فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أَيْ: لِيَأْلَفهَا وَيَسْكُن بِهَا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فَلَا الفَة بَيْن رُوحَيْنِ أَعْظَم مِمَّا بَيْن الزَّوْجَيْنِ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ السَّاحِر رُبَّمَا تَوَصَّلَ بِكَيْدِهِ إِلَى التَّفْرِقَة بَيْن المَرْء وَزَوْجه.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أَيْ: وَطِئَهَا ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وَذَلِكَ أَوَّل الحَمْل لَا تَجِد المَرْأَة لَهُ أَلَمًا، إِنَّمَا هِيَ النُّطْفَة، ثُمَّ العَلَقَة، ثُمَّ المُضْغَة. وَقَوْله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قَالَ مُجَاهِد: اِسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهِ. وَرُوِيَ عَنْ الحَسَن، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَالسُّدِّيّ، نَحْوه. وَقَالَ مَيْمُون بْن مِهْرَان، عَنْ أَبِيهِ: اِسْتَخَفَّتْهُ. وَقَالَ أَيُّوب: سَأَلْت الحَسَن عَنْ قَوْله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قَالَ: لَوْ كُنْتَ رَجُلًا عَرَبِيًّا لَعَرَفْت مَا هِيَ؟ إِنَّمَا هِيَ: فَاسْتَمَرَّتْ بِهِ. وَقَالَ قَتَادَة ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: وَاِسْتَبَانَ حَمْلهَا. وَقَالَ اِبْن جَرِير: اِسْتَمَرَّتْ بِالمَاءِ، قَامَتْ بِهِ وَقَعَدَتْ. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: اِسْتَمَرَّتْ بِهِ: فَشَكَّتْ أَحَمَلَتْ أَمْ لَا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أَيْ: صَارَتْ ذَات ثِقَل بِحَمْلِهَا. وَقَالَ السُّدِّيّ: كَبِرَ الوَلَد فِي بَطْنهَا ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أَيْ: بَشَرًا سَوِيًّا. كَمَا قَالَ الضَّحَّاك، عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَشْفَقَا أَنْ يَكُون بَهِيمَة. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو البَخْتَرِيّ وَأَبُو مَالِك: أَشْفَقَا أَنْ لَا يَكُون إِنْسَانًا. وَقَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: لَئِنْ آتَيْتنَا غُلَامًا. ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ذَكَرَ المُفَسِّرُونَ هَاهُنَا آثَارًا وَأَحَادِيث سَأُورِدُهَا وَأُبَيِّن مَا فِيهَا، ثُمَّ نُتْبِع ذَلِكَ بِبَيَان الصَّحِيح فِي ذَلِكَ إِنْ شَاءَ الله، وَبِهِ الثِّقَة.

قَالَ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد، حَدَّثَنَا عُمَر بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا قَتَادَة، عَنْ الحَسَن، عَنْ سَمُرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «**لَمَّا وَلَدَتْ حَوَّاء طَافَ بِهَا إِبْلِيس -وَكَانَ لَا يَعِيش لَهَا وَلَد- فَقَالَ: سَمِّيهِ عَبْد الحَارِث؛ فَإِنَّهُ يَعِيش، فَسَمَّتْهُ عَبْد الحَارِث فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْي الشَّيْطَان وَأَمْره**»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ اِبْن جَرِير، عَنْ مُحَمَّد بْن بَشَّار بُنْدَار، عَنْ عَبْد الصَّمَد بْن عَبْد الوَارِث، بِهِ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة عَنْ مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، عَنْ عَبْد الصَّمَد، بِهِ. وَقَالَ: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب، لَا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث عُمَر بْن إِبْرَاهِيم عن قتادة، وَرَوَاهُ بَعْضهمْ عَنْ عَبْد الصَّمَد، وَلَمْ يَرْفَعهُ، وَرَوَاهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ حَدِيث عَبْد الصَّمَد، مَرْفُوعًا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيث صَحِيح الإِسْنَاد، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَرَوَاهُ الإِمَام أَبُو مُحَمَّد ابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِيره، عَنْ أَبِي زُرْعَة الرَّازِيّ، عَنْ هِلَال بْن فَيَّاض، عَنْ عُمَر بْن إِبْرَاهِيم، بِهِ مَرْفُوعًا. وَكَذَا رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيره، مِنْ حَدِيث شَاذّ بْن فَيَّاض، عَنْ عُمَر بْن إِبْرَاهِيم، به مَرْفُوعًا.

قُلْت: وَشَاذّ هُوَ: هِلَال، وَشَاذّ لَقَبه، وَالغَرَض أَنَّ هَذَا الحَدِيث مَعْلُول مِنْ ثَلَاثَة أَوْجُه:

أَحَدهَا: أَنَّ عُمَر بْن إِبْرَاهِيم هَذَا هُوَ البَصْرِيّ وَقَدْ وَثَّقَهُ اِبْن مَعِين، وَلَكِنْ قَالَ أَبُو حَاتِم الرَّازِيّ: لَا يُحْتَجّ بِهِ. وَلَكِنْ رَوَاهُ اِبْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيث المُعْتَمِر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الحَسَن، عَنْ سَمُرَة مَرْفُوعًا، فَالله أَعْلَم.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٥/ ١١)، والترمذي (٣٠٧٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ٨٦٣٧)، والحاكم (٢/ ٥٤٥)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٢١٥) من حديث سمرة، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٦٩).

الثَّانِي: أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ مِنْ قَوْل سَمُرَة نَفْسه، لَيْسَ مَرْفُوعًا، كَمَا قَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا اِبْن عَبْد الأَعْلَى، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِر، عَنْ أَبِيهِ، وَحَدَّثَنَا ابن عُلَيَّة عن سُلَيْمَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِي العَلَاء ابْن الشِّخِّير، عَنْ سَمُرَة بْن جُنْدُب، قَالَ: سَمَّى آدَم اِبْنه عَبْد الحَارِث.

الثَّالِث: أَنَّ الحَسَن نَفْسه فَسَّرَ الآيَة بِغَيْرِ هَذَا، فَلَوْ كَانَ هَذَا عِنْده عَنْ سَمُرَة مَرْفُوعًا لَمَا عَدَلَ عَنْهُ.

قَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا اِبْن وَكِيع، حَدَّثَنَا سَهْل بْن يُوسُف، عَنْ عَمْرو، عَنْ الحَسَن ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قَالَ: كَانَ هَذَا فِي بَعْض أَهْل المِلَل، وَلَمْ يَكُنْ بِآدَم. وَحَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الأَعْلَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن ثَوْر، عَنْ مَعْمَر، قَالَ: قَالَ الحَسَن: عَنَى بِهَا ذُرِّيَّة آدَم، وَمَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ بَعْده، يَعْنِي: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾. وَحَدَّثَنَا بِشْر، حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، قَالَ: كَانَ الحَسَن يَقُول: هُمْ اليَهُود وَالنَّصَارَى، رَزَقَهُمْ الله أَوْلَادًا فَهَوَّدُوا وَنَصَّرُوا. وَهَذِهِ أَسَانِيد صَحِيحَة عَنْ الحَسَن ﷺ، أَنَّهُ فَسَّرَ الآيَة بِذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَن التَّفَاسِير، وَأَوْلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ الآيَة، وَلَوْ كَانَ هَذَا الحَدِيث عِنْده مَحْفُوظًا عَنْ رَسُول الله ﷺ، لَمَا عَدَلَ عَنْهُ هُوَ وَلَا غَيْره، لَاسِيَّمَا مَعَ تَقْوَاهُ لله وَوَرَعه. فَهَذَا يَدُلّك عَلَى أَنَّهُ مَوْقُوف عَلَى الصَّحَابِيّ، وَيَحْتَمِل أَنَّهُ تَلَقَّاهُ مِنْ بَعْض أَهْل الكِتَاب مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ؛ مِثْل كَعْب أَوْ وَهْب بْن مُنَبِّه وَغَيْرِهِمَا، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه إِنْ شَاءَ الله، إِلَّا أَنَّنَا بَرِئْنَا مِنْ عُهْدَة المَرْفُوع، وَالله أَعْلَم. فَأَمَّا الآثَار فَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار، عَنْ دَاوُدَ بْن الحُصَيْن، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: كَانَتْ حَوَّاء تَلِد لِآدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْلَادًا فَيُعَبِّدهُمْ لله، وَيُسَمِّيهِمْ عَبْد الله، وَعُبَيْد الله، وَنَحْو ذَلِكَ فَيُصِيبهُمْ المَوْت، فَأَتَاهَا إِبْلِيسُ وَآدمَ فَقَالَ: إِنَّكُمَا لَوْ تُسميانه بِغَيْرِ الَّذِي تُسَمِّيَانِهِ بِهِ لَعَاش. قَالَ: فَوَلَدَتْ لَهُ رَجُلًا فَسَمَّاهُ عَبْد الحَارِث، فَفِيهِ أَنْزَلَ الله يَقُول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ إِلَى آخِر الآيَة.

وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: قَوْله فِي آدَم ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ شَكَّتْ حَمَلَتْ أَمْ لَا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فَأَتَاهُمَا الشَّيْطَان فَقَالَ: هَلْ تَدْرِيَانِ مَا يُولَد لَكُمَا؟ أَمْ هَلْ تَدْرِيَانِ مَا يَكُون؟ أَبَهِيمَة يكون أَمْ لَا؟ وَزَيَّنَ لَهُمَا البَاطِل، إِنَّهُ غَوِيّ مُبِين، وَقَدْ كَانَتْ قَبْل ذَلِكَ وَلَدَتْ وَلَدَيْنِ فَمَاتَا، فَقَالَ لَهُمَا الشَّيْطَان: إِنَّكُمَا إِنْ لَمْ تُسَمِّيَاهُ بِي لَمْ يَخْرُج سَوِيًّا، وَمَاتَ كَمَا مَاتَ الأَوَّلان فَسَمَّيَا وَلَدهمَا عَبْد الحَارِث؛ فَذَلِكَ قَوْل الله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآيَة.

وَقَالَ عَبْد الله بْن المُبَارَك، عَنْ شريك، عَنْ خُصَيْف، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قَالَ: قَالَ الله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ﴾ أَتَاهُمَا إِبْلِيس -لَعَنَهُ الله- فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنْ الجَنَّة؛ لَتُطِيعَانِي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أُيَّل، فَيَخْرُج مِنْ بَطْنك فَيَشُقّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ وَلَأَفْعَلَنَّ، يُخَوِّفهُمَا، فَسَمِّيَاهُ عَبْد الحَارِث، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ، يَعْنِي الثَّانية، فَأَتَاهُمَا أَيْضًا فَقَالَ: أَنَا صَاحِبكُمَا الَّذِي فَعَلْت مَا فَعَلْت، لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَأَفْعَلَنَّ -يُخَوِّفهُمَا- فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ الثَّالِثَة، فَأَتَاهُمَا أَيْضًا فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبّ الوَلَد، فَسَمَّيَاهُ عَبْد الحَارِث؛ فَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾. رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم.

وَقَدْ تَلَقَّى هَذَا الأَثَر عَنْ اِبْن عَبَّاس جماعة مِنْ أَصْحَابه؛ كَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَعِكْرِمَة. وَمِنْ الطَّبَقَة الثَّانِيَة قَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف، وَجَمَاعَة مِنْ الخَلَف، وَمِنْ المُفَسِّرِينَ مِنْ المُتَأَخِّرِينَ جَمَاعَات لَا يُحْصَوْنَ كَثْرَة، وَكَأَنَّهُ وَالله أَعْلَم أَصْله مَأْخُوذ مِنْ أَهْل الكِتَاب، فَإِنَّ اِبْن عَبَّاس رَوَاهُ عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، كَمَا رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الجُمَاهِر، حَدَّثَنَا سَعِيد -يَعْنِي اِبْن بَشِير-، عَنْ عُقْبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ مُجَاهِد،

عَنْ اِبْنِ عَبَّاس، عَنْ أُبَيِّ بْن كَعْب، قَالَ: لَمَّا حَمَلَتْ حَوَّاء أَتَاهَا الشَّيْطَان؛ فَقَالَ لَهَا: أَتُطِيعِينِي وَيَسْلَم لَك وَلَدك؟ سَمِّيهِ عَبْد الحَارِث، فَلَمْ تَفْعَل، فَوَلَدَتْ فَمَاتَ، ثُمَّ حَمَلَتْ، فَقَالَ لَهَا مِثْل ذَلِكَ، فَلَمْ تَفْعَل، ثُمَّ حَمَلَتْ الثَّالِثَة، فَجَاءَهَا فَقَالَ: إِنْ تُطِيعِينِي يَسْلَم، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يَكُون بَهِيمَة، فَهَيَّبَهُمَا فَأَطَاعَا.

وَهَذِهِ الآثَار يَظْهَر عَلَيْهَا -وَالله أَعْلَم- أَنَّهَا مِنْ آثَار أَهْل الكِتَاب، وَقَدْ صَحَّ الحَدِيث عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْل الكِتَاب فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ**»[1]. ثُمَّ أَخْبَارهمْ عَلَى ثَلَاثَة أَقْسَام: فَمِنْهَا مَا عَلِمْنَا صِحَّته بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيل مِنْ كِتَاب الله أَوْ سُنَّة رَسُوله، وَمِنْهَا مَا عَلِمْنَا كَذِبه بِمَا دَلَّ عَلَى خِلَافه مِنْ الكِتَاب وَالسُّنَّة أَيْضًا، وَمِنْهَا مَا هُوَ مَسْكُوت عَنْهُ، فَهُوَ المَأْذُون فِي رِوَايَته بِقَوْلِهِ ﷺ: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيل وَلَا حَرَج**»[2]. وَهُوَ الَّذِي لَا يُصَدَّق وَلَا يُكَذَّب لِقَوْلِهِ: «**فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ**». وَهَذَا الأَثَر هُوَ من القِسْم الثَّانِي أَوْ الثَّالِث؛ فِيهِ نَظَر، فَأَمَّا مَنْ حَدَّثَ بِهِ مِنْ صَحَابِيّ أَوْ تَابِعِيّ فَإِنَّهُ يَرَاهُ مِنْ القِسْم الثَّالِث، وَأَمَّا نَحْنُ فَعَلَى مَذْهَب الحَسَن البَصْرِيّ رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذَا، وَأَنَّهُ لَيْسَ المُرَاد مِنْ هَذَا السِّيَاق آدَم وَحَوَّاء، وَإِنَّمَا المُرَاد مِنْ ذَلِكَ المُشْرِكُونَ مِنْ ذُرِّيَّته، وَلِهَذَا قَالَ الله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: فَذَكَرَ آدَم وَحَوَّاء أَوَّلًا كَالتَّوْطِئَةِ لِمَا بَعْدهمَا مِنْ الوَالِدَيْنِ، وَهُوَ كَالِاسْتِطْرَادِ مِنْ ذِكْر الشَّخْص إِلَى الجِنْس، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الآيَة. وَمَعْلُوم أَنَّ المَصَابِيح وَهِيَ النُّجُوم الَّتِي زُيِّنَتْ بِهَا السَّمَاء لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي يُرْمَى بِهَا، وَإِنَّمَا هَذَا اِسْتِطْرَاد مِنْ شَخْص المَصَابِيح إِلَى جِنْسهَا، وَلِهَذَا نَظَائِر فِي القُرْآن، وَالله أَعْلَم.

﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾

هَذَا إِنْكَار مِنْ الله عَلَى المُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ الله غَيْره مِنْ الأَنْدَاد وَالأَصْنَام وَالأَوْثَان، وَهِيَ مَخْلُوقَة لله مَرْبُوبَة مَصْنُوعَة، لَا تَمْلِك شَيْئًا مِنْ الأَمْر وَلَا تَضُرّ وَلَا تنفع وَلَا تَنْتَصِر لِعَابِدِيهَا، بَلْ هِيَ جَمَاد لَا تَتَحَرَّك وَلَا تَسْمَع وَلَا تُبْصِر، وَعَابِدُوهَا أَكْمَل مِنْهَا بِسَمْعِهِمْ وَبَصَرهمْ وَبَطْشهمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ أَيْ: أَتُشْرِكُونَ بِهِ مِنْ المَعْبُودَات مَا لَا يَخْلُق شَيْئًا، وَلَا يَسْتَطِيع ذَلِكَ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ آلِهَتهمْ لَوْ اِجْتَمَعُوا كُلّهمْ مَا اِسْتَطَاعُوا خَلْق ذُبَابَة، بَلْ لَوْ سَلَبَتْهُمْ الذُّبَابَة شَيْئًا مِنْ حَقِير المَطَاعِم وَطَارَتْ لَمَا اِسْتَطَاعُوا استنقاذ ذلك مِنْهَا، فَمَنْ هَذِهِ صِفَته وَحَاله كَيْف يُعْبَد لِيَرْزُق وَيُسْتَنْصَر؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ أَيْ: بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ مَصْنُوعُونَ كَمَا قَالَ الخَلِيل: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

ثم قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾ أَيْ: لِعَابِدِيهِمْ ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ يَعْنِي: وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: تقدم.

يَنْصُرُونَ مِمَّنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ، كَمَا كَانَ الخَلِيل -عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام- يَكْسِر أَصْنَام قَوْمه، وَيُهِينهَا غَايَة الإِهَانَة، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُ فِي قَوْله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، وَكَمَا كَانَ مُعَاذ بْن عَمْرو بْن الجَمُوح وَمُعَاذ بْن جَبَل رضي الله عنهما، وَكَانَا شَابَّيْنِ قَدْ أَسْلَمَا، لَمَّا قَدِمَ رَسُول الله ﷺ المَدِينَة، فَكَانَا يَعْدُوَانِ فِي اللَّيْل عَلَى أَصْنَام المُشْرِكِينَ، يُكَسِّرَانِهَا وَيُتْلِفَانِهَا وَيَتَّخِذَانِهَا حَطَبًا لِلْأَرَامِلِ، لِيَعْتَبِر قَوْمهمَا بِذَلِكَ، وَيَرْتَئُوا لِأَنْفُسِهِمْ. فَكَانَ لِعَمْرِو بْن الجَمُوح -وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمه- كان له صَنَم يَعْبُدهُ وَيُطَيِّبهُ، فَكَانَا يَجِيئَانِ فِي اللَّيْل، فَيُنَكِّسَانِهِ عَلَى رَأْسه، وَيُلَطِّخَانِهِ بِالْعَذِرَةِ، فَيَجِيء عَمْرو بْن الجَمُوح، فَيَرَى مَا صُنِعَ بِهِ فَيَغْسِلهُ وَيُطَيِّبهُ وَيَضَع عِنْده سَيْفًا وَيَقُول لَهُ: اِنْتَصِرْ. ثُمَّ يَعُودَانِ لِمِثْلِ ذَلِكَ، وَيَعُود إِلَى صَنِيعه أَيْضًا، حَتَّى أَخَذَاهُ مَرَّة، فَقَرَنَا مَعَه جرو كَلْب مَيِّت وَدَلَّيَاهُ فِي حَبْل فِي بِئْر هُنَاكَ، فَلَمَّا جَاءَ عَمْرو بْن الجَمُوح وَرَأَى ذَلِكَ، نَظَرَ فَعَلِمَ أَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الدِّين بَاطِل، وَقَالَ:

تَاللهِ لَوْ كُنْتَ إِلَهًا مُسْتَدَنْ ❁ لَمْ تَكُ وَالْكَلْب جَمِيعًا فِي قَرَنْ

ثُمَّ أَسْلَمَ فَحَسُنَ إِسْلَامه، وَقُتِلَ يَوْم أُحُد شَهِيدًا رضي الله عنه وَأَرْضَاهُ، وَجَعَلَ جَنَّة الفِرْدَوْس مَأْوَاهُ.

وَقَوْله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ يَعْنِي: أَنَّ هَذِهِ الأَصْنَام لَا تَسْمَع دُعَاء مَنْ دَعَاهَا، وَسَوَاء لَدَيْهَا مَنْ دَعَاهَا وَمَنْ دَحَاهَا، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيم: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهَا عَبِيد مِثْل عَابِدِيهَا، أَيْ: مَخْلُوقَات مِثْلهمْ، بَلْ الأُنَاسِي أَكْمَل مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا تَسْمَع وَتُبْصِر وَتَبْطِش، وَتِلْكَ لَا تَفْعَل شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.

وَقَوْله: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أَيْ: اِسْتَنْصِرُوا بِهَا عَلَيَّ، فَلَا تُؤَخِّرُونِي طَرْفَة عَيْن، وَاجْهَدُوا جَهْدكُمْ، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أَيْ: الله حَسْبِي وَكَافِي، وَهُوَ نَصِيرِي، وَعَلَيْهِ مُتَّكَلِي، وَإِلَيْهِ الجَأ، وَهُوَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، وَهُوَ وَلِيّ كُلّ صَالِح بَعْدِي، وَهَذَا كَمَا قَالَ هُود عليه السلام لَمَّا قَالَ لَهُ قَوْمه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وَكَقَوْلِ الخَلِيل: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الآيَات، وَكَقَوْلِهِ لِأَبِيهِ وَقَوْمه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ إِلَى آخِر الآيَة، مُؤَكِّد لِمَا تَقَدَّمَ، إِلَّا أَنَّهُ بِصِيغَةِ الخِطَاب وَذَاكَ بِصِيغَةِ الغَيْبَة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، وَقَوْله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إِنَّمَا قَالَ: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ: يُقَابِلُونَك بِعُيُونٍ مُصَوَّرَة كَأَنَّهَا نَاظِرَة وَهِيَ جَمَاد، وَلِهَذَا عَامَلَهُمْ مُعَامَلَة مَنْ يَعْقِل؛ لِأَنَّهَا عَلَى صُوَر مُصَوَّرَة كَالْإِنْسَانِ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْك فَعَبَّرَ عَنْهَا بِضَمِيرِ مَنْ يَعْقِل. وَقَالَ السُّدِّيّ: المُرَاد بِهَذَا: المُشْرِكُونَ، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِد نَحْوه. وَالْأَوَّل أَوْلَى. وَهُوَ اِخْتِيَار اِبْن جَرِير، وَقَالَهُ قَتَادَة.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَوْله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يَعْنِي: خُذْ مَا عُفِيَ لَك مِنْ أَمْوَالهمْ، وَمَا أَتَوْك بِهِ

مِنْ شَيْءٍ فَخُذْهُ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِل بَرَاءَة بِفَرَائِض الصَّدَقَات وَتَفْصِيلها، وَمَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ الصَّدَقَات. قَالَهُ السُّدِّيّ. وَقَالَ الضَّحَّاك، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أَنْفِقْ الفَضْل. وَقَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قَالَ: الفَضْل. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ فِي قَوْله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أَمَرَهُ الله بِالْعَفْوِ وَالصَّفْح عَنْ الْمُشْرِكِينَ عَشْر سِنِينَ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْل اِبْن جَرِير، وَقَالَ غَيْر وَاحِد عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قَالَ: مِنْ أَخْلَاق النَّاس وَأَعْمَالهمْ مِنْ غَيْر تَجَسُّس. وَقَالَ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ: أَمَرَ الله رَسُوله ﷺ أَنْ يَأْخُذ العَفْو مِنْ أَخْلَاق النَّاس. وَفِي رِوَايَة قَالَ: خُذْ مَا عُفِيَ لَكَ مِنْ أَخْلَاقهمْ.

وَفِي صَحِيح البُخَارِيّ، عَنْ هِشَام، عَنْ أَبِيهِ عُرْوَة، عَنْ أَخِيهِ عَبْد الله بْن الزُّبَيْر، قَالَ: إِنَّمَا أَنْزَلَ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ مِنْ أَخْلَاق النَّاس، وَفِي رِوَايَة لِغَيْرِهِ: عَنْ هِشَام، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ اِبْن عُمَر، وَفِي رِوَايَة: عَنْ هِشَام، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة أَنَّهُمَا قَالَا مِثْل ذَلِكَ، وَالله أَعْلَم. وَفِي رِوَايَة سَعِيد بْن مَنْصُور، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَة، عَنْ هِشَام، عَنْ وَهْب بْن كَيْسَان، عَنْ ابن الزُّبَيْر: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قَالَ: مِنْ أَخْلَاق النَّاس؛ وَالله لَآخُذَنَّهُ مِنْهُمْ مَا صَحِبْتهمْ. وَهَذَا أَشْهَر الأَقْوَال، وَيَشْهَد لَهُ مَا رَوَاهُ اِبْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم جَمِيعًا: حَدَّثَنَا يُونُس، حَدَّثَنَا سُفْيَان -هُوَ اِبْن عُيَيْنَة-، عَنْ أُمَيٍّ، قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ الله ﷻ، عَلَى نَبِيّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ»**[1].

وَقَدْ رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا، عَنْ أَبِي يَزِيد القَرَاطِيسِيّ كِتَابَة، عَنْ أَصْبَغ بْن الفَرَج، عَنْ سُفْيَان، عَنْ أُمَيٍّ، عَنْ الشَّعْبِيّ، نَحْوه. وَهَذَا مُرْسَل عَلَى كُلّ حَال، وَقَدْ رُوِيَ لَهُ شَوَاهِد مِنْ وُجُوه أُخَر، وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا عَنْ جَابِر وَقَيْس بْن سَعْد بْن عُبَادَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، أَسْنَدَهُمَا اِبْن مَرْدُوَيْه. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَة، حَدَّثَنَا مُعَان ابْن رِفَاعَة، حَدَّثَنِي عَلِيّ بْن يَزِيد، عَنْ القَاسِم عن أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيّ، عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر ؓ قَالَ: لَقِيت رَسُول الله ﷺ، فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْت بِيَدِهِ، فَقُلْت: يَا رَسُول الله أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِل الأَعْمَال، فَقَالَ: **«يَا عُقْبَة، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»**[2]. وَرَوَى التِّرْمِذِيّ نَحْوه، مِنْ طَرِيق عُبَيْد الله بْن زَحْر، عَنْ عَلِيّ بْن يَزِيد بِهِ. وَقَالَ: حَسَن.

قُلْت: وَلَكِنْ عَلِيّ بْن يَزِيد وَشَيْخه القَاسِم أَبُو عَبْد الرَّحْمَن فِيهِمَا ضَعْف.

وَقَالَ البُخَارِيّ: قَوْله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ العُرْف الْمَعْرُوف؛ حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان، حَدَّثَنَا شُعَيْب، عَنْ الزُّهْرِيّ، أَخْبَرَنِي عُبَيْد الله بْن عَبْد الله بْن عُتْبَة، أَنَّ اِبْن عَبَّاس ؓ قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَة بْن حِصْن ابْن حُذَيْفَة، فَنَزَلَ عَلَى اِبْن أَخِيهِ الحُرّ بْن قَيْس، وَكَانَ مِنْ النَّفَر الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَر، وَكَانَ القُرَّاء أَصْحَاب مَجَالِس عُمَر وَمُشَاوَرَته كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا؛ فَقَالَ عُيَيْنَة لِابْنِ أَخِيهِ: يَا بْن أَخِي؛ لَكَ وَجْه عِنْد هَذَا الأَمِير، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ اِبْن عَبَّاس: فَاسْتَأْذَنَ الحُرّ لِعُيَيْنَة فَأَذِنَ لَهُ عُمَر، فلما دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ: هِيْ يَا بْن الخَطَّاب، فَوَالله مَا تُعْطِينَا الجَزْل، وَلَا تَحْكُم بَيْنَنَا بِالعَدْل. فَغَضِبَ عُمَر حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِع بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرّ: يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ الله تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنْ الجَاهِلِينَ. وَالله مَا جَاوَزَهَا عُمَر حِين تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْد كِتَاب الله ﷻ[3]. اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ.

---

(١) **ضعيف الإسناد:** أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٦٨٢) مرسلًا.

(٢) **صحيح لغيره:** أخرجه أحمد (٤/ ١٤٨) من حديث عقبة بن عامر، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٤٤)، وقال الألباني: صحيح لغيره. انظر «صحيح الترغيب» (٢٥٣٦).

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري (٤٦٤٢، ٧٢٨٦).

وَقَالَ ابْنِ أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يُونُس بن عَبْد الأَعْلَى قِرَاءَة، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي مَالِك بْن أَنَس، عَنْ عَبْد الله ابْن نَافِع، أَنَّ سَالِم بْن عَبْد الله بْن عُمَر مَرَّ عَلَى عِير لِأَهْلِ الشَّام وَفِيهَا جَرَس، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا مَنْهِيّ عَنْهُ فَقَالُوا: نَحْنُ أَعْلَم بِهَذَا مِنْك إِنَّمَا يُكْرَه الجُلْجُل الكَبِير فَأَمَّا مِثْل هَذَا فَلَا بَأْس بِهِ. فَسَكَتَ سَالِم، وَقَالَ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. وَقَوْل البُخَارِيّ: العُرْف المَعْرُوف، نَصَّ عَلَيْهِ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَة وَابْن جَرِير وَغَيْر وَاحِد، وَحَكَى ابْن جَرِير أَنَّهُ يُقَال: أَوْلَيْته مَعْرُوفًا وَعَارِفًا وعارفة، كُلّ ذَلِكَ بِمَعْنَى المَعْرُوف. قَالَ: وَقَدْ أَمَرَ الله نَبِيّه ﷺ، أَنْ يَأْمُر عِبَاده بِالمَعْرُوفِ، وَيَدْخُل فِي ذَلِكَ جَمِيع الطَّاعَات، وَبِالإِعْرَاضِ عَنِ الجَاهِلِينَ، وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ أَمْرًا لِنَبِيِّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ تَأْدِيب لِخَلْقِهِ بِاحْتِمَالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ، لَا بِالإِعْرَاضِ عَمَّنْ جَهِلَ الحَقّ الوَاجِب مِنْ حَقّ الله، وَلَا بِالصَّفْح عَمَّنْ كَفَرَ بِالله وَجَهِلَ وَحْدَانِيّته، وَهُوَ لِلْمُسْلِمِينَ حَرْب.

وَقَالَ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قَالَ: هَذِهِ أَخْلَاق أَمَرَ الله بِهَا نَبِيّه ﷺ، وَدَلَّهُ عَلَيْهَا وَقَدْ أَخَذَ بَعْض الحُكَمَاء هَذَا المَعْنَى فَسَبَكَهُ فِي بَيْتَيْنِ فِيهِمَا جِنَاس فَقَالَ:

خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفٍ كَمَا	۞	أُمِرْتَ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ
وَلِنْ فِي الكَلَامِ لِكُلِّ الأَنَام	۞	فَمُسْتَحْسَن مِنْ ذَوِي الجَاه لِين

وَقَالَ بَعْض العُلَمَاء: النَّاس رَجُلَانِ: فَرَجُل مُحْسِن، فَخُذْ مَا عَفَا لَكَ مِنْ إِحْسَانه، وَلَا تُكَلِّفهُ فَوْق طَاقَته، وَلَا مَا يُحْرِجهُ. وَإِمَّا مُسِيء، فَمُرْهُ بِالمَعْرُوفِ، فَإِنْ تَمَادَى عَلَى ضَلَاله وَاسْتَعْصَى عَلَيْك وَاسْتَمَرَّ فِي جَهْله فَأَعْرِض عَنْهُ؛ فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يَرُدّ كَيْده، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَيْ: هَذِهِ الوَصِيَّة. ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَة الكَرِيمَة أَيْضًا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فَهَذِهِ الآيَات الثَّلَاث فِي الأَعْرَاف، وَالمُؤْمِنُونَ، وحم السَّجْدَة، لَا رَابِع لَهُنَّ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يُرْشِد فِيهِنَّ إِلَى مُعَامَلَة العَاصِي مِنَ الإِنْس بِالمَعْرُوفِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُفّهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ التَّمَرُّد بِإِذْنِهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، ثُمَّ يُرْشِد تَعَالَى إِلَى الاسْتِعَاذَة بِهِ مِنْ شَيْطَان الجَانّ، فَإِنَّهُ لَا يَكُفّهُ عَنْك الإِحْسَان، وَإِنَّمَا يُرِيد هَلَاكك وَدَمَارك بِالكُلِّيَّةِ؛ فَإِنَّهُ عَدُوّ مُبِين لَكَ وَلِأَبِيك مِنْ قَبْلك.

قَالَ ابْن جَرِير فِي تَفْسِير قَوْله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ وَإِمَّا يُغْضِبَنَّك مِنَ الشَّيْطَان غَضَب، يَصُدّك عَنِ الإِعْرَاض عَنِ الجَاهِلِين، وَيَحْمِلك عَلَى مُجَازَاته ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ يَقُول: فَاسْتَجِرْ بِالله مِنْ نَزْغه ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: إن الله الذي تستعيذ به من نزغ الشيطان سَمِيع لِجَهْلِ الجَاهِل عَلَيْك، وَالاسْتِعَاذَة بِهِ مِنْ نَزْغه، وَلِغَيْر ذَلِكَ مِنْ كَلَام خَلْقه، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْء، عَلِيم بِمَا يُذْهِب عَنْك نَزْغ الشَّيْطَان، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ أُمُور خَلْقه. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم، لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قَالَ رسول الله ﷺ: «يَا رَبّ كَيْف بِالغَضَب؟» فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

قُلْت: وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّل الاسْتِعَاذَة حَدِيث الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَسَابَّا بِحَضْرَةِ النَّبِيّ ﷺ فَغَضِبَ أَحَدهمَا حَتَّى جَعَلَ أَنْفه يَتَمَزَّع غَضَبًا، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَم كَلِمَة لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِد: أَعُوذ بِالله مِنَ الشَّيْطَان الرَّجِيم**» فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: مَا بِي مِنْ جُنُون[2]. وَأَصْل «النَّزْغ» الفَسَاد، إِمَّا بِالغَضَبِ أَوْ غَيْره، قَالَ الله تَعَالَى:

---

(١) **ضعيف:** مرسل، وفيه عبد الرحمن بن زيد: ضعيف.

(٢) **صحيح:** تقدم.

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ و«العِيَاذ» الالْتِجَاء وَالاِسْتِنَاد وَالاِسْتِجَارَة مِنَ الشَّرّ. وَأَمَّا «المَلَاذ» فَفِي طَلَب الخَيْر، كَمَا قَالَ الحَسَن بْن هَانِئ فِي شِعْره:

يَا مَنْ أَلُوذ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلهُ ❁ وَمَنْ أَعُوذ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرهُ

لا يَجْبُر النَّاس عَظْمًا أَنْتَ كَاسِره ❁ وَلا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِره

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَحَادِيث الاِسْتِعَاذَة فِي أَوَّل التَّفْسِير، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته هَاهُنَا.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ المُتَّقِينَ مِنْ عِبَاده الَّذِينَ أَطَاعُوهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكُوا مَا عَنْهُ زَجَرَ، أَنَّهُمْ ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أَيْ: أَصَابَهُمْ ﴿طَيْف﴾، وَقَرَأَ الآخَرُونَ ﴿طَائِفٌ﴾، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ حَدِيث، وَهُمَا قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ، فَقِيلَ: بِمَعْنًى وَاحِد، وَقِيلَ: بَيْنهمَا فَرْق، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالغَضَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِمَسِّ الشَّيْطَان بِالصَّرْعِ وَنَحْوه، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالهَمِّ بِالذَّنْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِإِصَابَةِ الذَّنْب. وَقَوْله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أَيْ: عِقَاب الله وَجَزِيل ثَوَابه، وَوَعْده وَوَعِيده، فَتَابُوا وَأَنَابُوا، وَاسْتَعَاذُوا بِالله وَرَجَعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيب، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أَيْ: قَدْ اِسْتَقَامُوا وَصَحُّوا مِمَّا كَانُوا فِيهِ. وَقَدْ أَوْرَدَ الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدَوَيْهِ هَاهُنَا حَدِيث مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ: جَاءَتْ اِمْرَأَة إِلَى النَّبِيّ ﷺ وَبِهَا طَيْف فَقَالَتْ: يَا رَسُول الله، اُدْعُ الله أَنْ يَشْفِينِي، فَقَالَ: «إِنْ شِئْت دَعَوْت الله فَشَفَاك، وَإِنْ شِئْت فَاصْبِرِي وَلا حِسَاب عَلَيْك» فَقَالَتْ: بَلْ أَصْبِر وَلَا حِسَاب عَلَيَّ.

وَرَوَاهُ غَيْر وَاحِد مِنْ أَهْل السُّنَن وَعِنْدهمْ: قَالَتْ: يَا رَسُول الله، إِنِّي أُصْرَع وَأَتَكَشَّف؛ فَادْعُ الله أَنْ يَشْفِينِي. فَقَالَ: «إِنْ شِئْت دَعَوْت الله أَنْ يَشْفِيك، وَإِنْ شِئْت صَبَرْت وَلَك الجَنَّة». فَقَالَتْ: بَلْ أَصْبِر وَلِيَ الجَنَّة، وَلَكِنْ اُدْعُ الله أَنْ لَا أَتَكَشَّف، فَدَعَا لَهَا، فَكَانَتْ لَا تَتَكَشَّف[1]. وَأَخْرَجَهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، وَقَالَ: صَحِيح عَلَى شَرْط مُسْلِم، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَقَدْ ذَكَرَ الحَافِظ اِبْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة «عَمْرو بْن جَامِع» مِنْ تَارِيخه: أَنَّ شَابًّا كَانَ يَتَعَبَّد فِي المَسْجِد، فَهَوِيَتْهُ اِمْرَأَة، فَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسهَا، فَمَا زَالَتْ بِهِ حَتَّى كَادَ يَدْخُل مَعَهَا المَنْزِل؛ فَذَكَرَ هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَأَعَادَهَا، فَمَاتَ، فَجَاءَ عُمَر فَعَزَّى فِيهِ أَبَاهُ، وَكَانَ قَدْ دُفِنَ لَيْلًا، فَذَهَبَ فَصَلَّى عَلَى قَبْره بِمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ نَادَاهُ عُمَر فَقَالَ: يَا فَتَى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، فَأَجَابَهُ الفَتَى مِنْ دَاخِل القَبْر: يَا عُمَر، قَدْ أَعْطَانِيهِمَا رَبِّي ﷻ فِي الجَنَّة مَرَّتَيْنِ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أَيْ: وَإِخْوَان الشَّيَاطِين مِنْ الإِنْس، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ من الإنس وَهُمْ أَتْبَاعهمْ، وَالمُسْتَمِعُونَ لَهُمْ، القَابِلُونَ لِأَوَامِرِهِمْ ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أَيْ: تُسَاعِدهُمْ الشَّيَاطِين عَلَى المَعَاصِي وَتُسَهِّلهَا عَلَيْهِمْ وَتُحَسِّنهَا لَهُمْ. وَقَالَ اِبْن كَثِير[2]: «المَدّ»: الزِّيَادَة، يَعْنِي: يَزِيدُونَهُمْ فِي الغَيّ، يَعْنِي: الجَهْل وَالسَّفَه. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ: إِنَّ الشَّيَاطِين تَمُدّ الإِنْس لَا تُقَصِّر فِي أَعْمَالهمْ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ الآية، قَالَ: لَا الإِنْس يُقَصِّرُونَ عَمَّا يَعْمَلُونَ من السيئات، وَلَا الشَّيَاطِين تُمْسِك عَنْهُمْ.

وَقِيلَ مَعْنَاهُ: كَمَا رَوَاهُ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قَالَ: هُمْ الجِنّ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنْس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، يَقُول: لَا يَسْأَمُونَ. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيّ وَغَيْره: إِنَّ الشَّيَاطِين يَمُدُّونَ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٣٤٦)، وابن حبان (٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة.
(٢) هو عبد الله بن كثير المكي، صاحب القراءة المتواترة.

أَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الإِنْس، وَلَا تَسْأَم مِنْ إِمْدَادهمْ فِي الشَّرِّ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ طَبِيعَة لَهُمْ وَسَجِيَّة لَا تَفْتُر فِيهِ وَلَا تَبْطُل عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس وَغَيْره: تُزْعِجهُمْ إِلَى المَعَاصِي إِزْعَاجًا.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ يَقُول: لَوْلَا تَلَقَّيْتهَا. وَقَالَ مَرَّة أُخْرَى: لَوْلَا أَحْدَثْتهَا فَأَنْشَأْتهَا. وَقَالَ اِبْن جَرِير، عَنْ عَبْد الله بْن كَثِير، عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ قَالَ: لَوْلَا اِقْتَضَبْتهَا، قَالُوا: تُخْرِجهَا عَنْ نَفْسك. وَكَذَا قَالَ قَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَاخْتَارَهُ اِبْن جَرِير.

وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ يَقُول: تَلَقَّيْتهَا مِنْ الله تَعَالَى. وَقَالَ الضَّحَّاك: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ يَقُول: لَوْلَا أَخَذْتهَا أَنْتَ فَجِئْت بِهَا مِنْ السَّمَاء. وَمَعْنَى قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ أَيْ: مُعْجِزَة وَخَارِق، كما قال تَعَالَى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾، يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ: أَلَا تُجْهِد نَفْسك فِي طَلَب الآيَات حَتَّى نَرَاهَا وَنُؤْمِن بِهَا، قَالَ الله تَعَالَى لَهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ أَيْ: أَنَا لَا أَتَقَدَّم إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْء، وَإِنَّمَا أَتَّبِع مَا أَمَرَنِي بِهِ، فَأَمْتَثِل مَا يُوحِيه إِلَيَّ؛ فَإِنْ بَعَثَ آيَة قَبِلْتهَا، وَإِنْ مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلهُ اِبْتِدَاءَ إِيَّاهَا، إِلَّا أَنْ يَأْذَن لِي فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ حَكِيم عَلِيم. ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّ هَذَا القُرْآن هُوَ أَعْظَم المُعْجِزَات، وَأَبْيَن الدَّلَالَات، وَأَصْدَق الحُجَج وَالبَيِّنَات، فَقَالَ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ القُرْآن بَصَائِر لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَة، أَمَرَ تَعَالَى بِالإِنْصَاتِ عِنْد تِلَاوَته إِعْظَامًا لَهُ وَاحْتِرَامًا، لَا كَمَا كَانَ يعتمده كُفَّار قُرَيْش المُشْرِكُونَ فِي قَوْلهمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾. وَلَكِنْ يَتَأَكَّد ذَلِكَ فِي الصَّلَاة المَكْتُوبَة إِذَا جَهَرَ الإِمَام بِالقِرَاءَة، كَمَا ورد الحديث الذي رَوَاهُ مُسْلِم فِي صَحِيحه مِنْ حَدِيث أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَام لِيُؤْتَمّ بِهِ؛ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا**»[1]. وَكَذَا رَوَاهُ أَهْل السُّنَن مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة، وَصَحَّحَهُ مُسْلِم بْن الحَجَّاج أَيْضًا، وَلَمْ يُخَرِّجهُ فِي كِتَابه. وَقَالَ إِبْرَاهِيم بْن مُسْلِم الهَجَرِيّ، عَنْ أَبِي عِيَاض، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلَاة، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾، وَالآيَة الأُخْرَى، أُمِرُوا بِالإِنْصَاتِ.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابن عَيَّاش، عَنْ عَاصِم، عَنْ المُسَيَّب بْن رَافِع، قَالَ اِبْن مَسْعُود: كُنَّا يُسَلِّم بَعْضنَا عَلَى بَعْض فِي الصَّلَاة، فَجَاءَ القُرْآن ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا المُحَارِبِيّ، عَنْ دَاوُدَ بْن أَبِي هِنْد، عَنْ يسير بْن جَابِر، قَالَ: صَلَّى اِبْن مَسْعُود فَسَمِعَ نَاسًا يَقْرَءُونَ مَعَ الإِمَام، فَلَمَّا انْصَرَف قَالَ: أَمَا آنَ لَكُمْ أَنْ تَفْهَمُوا، أَمَا آنَ لَكُمْ أَنْ تَعْقِلُوا، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ كَمَا أَمَرَكُمْ الله. قَالَ: وَحَدَّثَنِي أَبُو السَّائِب، حَدَّثَنَا حَفْص، عَنْ أَشْعَث، عَنْ الزُّهْرِيّ، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي فَتًى مِنْ الأَنْصَار كَانَ رَسُول الله ﷺ كُلَّمَا قَرَأَ شَيْئًا قَرَأَهُ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾.

وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن، مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِي أكيمة اللَّيْثِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ اِنْصَرَفَ مِنْ صَلَاة جَهَرَ فِيهَا بِالقِرَاءَة، فَقَالَ: «**هَلْ قَرَأَ أَحَد مِنْكُمْ مَعِي آنِفًا؟**» قَالَ رَجُل: نَعَمْ يَا رَسُول الله. قَالَ:

(١) صحيح: تقدم.

«**إِنِّي أَقُول: مَا لِي أُنَازَع القُرْآن**». قَالَ: فَانْتَهَى النَّاس عَنْ القِرَاءَة مَعَ رَسُول الله ﷺ، فِيمَا جَهَرَ فِيهِ رسول الله ﷺ بِالْقِرَاءَةِ مِنْ الصَّلَاة، حِين سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ رَسُول الله ﷺ[1].

وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن. وَصَحَّحَهُ أَبُو حَاتِم الرَّازِيّ. وَقَالَ عَبْد الله بْن المُبَارَك، عَنْ يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ، قَالَ: لَا يَقْرَأ مَنْ وَرَاء الإِمَام فِيمَا يَجْهَر بِهِ الإِمَام، تَكْفِيهِمْ قِرَاءَة الإِمَام، وَإِنْ لَمْ يُسْمِعهُمْ صَوْته، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ فِيمَا لَا يَجْهَر بِهِ سِرًّا فِي أَنْفُسهمْ، وَلَا يَصْلُح لِأَحَدٍ خَلْفه أَنْ يَقْرَأ مَعَهُ فِيمَا يَجْهَر بِهِ سِرًّا وَلَا عَلَانِيَة؛ فَإِنَّ الله تَعَالَى قَالَ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قُلْت: وَهَذَا مَذْهَب طَائِفَة مِنْ العُلَمَاء: أَنَّ المَأْمُوم لَا يَجِب عَلَيْهِ فِي الصَّلَاة الجَهْرِيَّة قِرَاءَة فِيمَا جَهَرَ فِيهِ الإِمَام، لَا الفَاتِحَة وَلَا غَيْرهَا، وَهُوَ أَحَد قَوْلَيْ الشَّافِعِي، وَهُوَ القَدِيم، كَمَذْهَبِ مَالِك، وَرِوَايَة عَنْ أَحْمَد بْن حَنْبَل، لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ الأَدِلَّة المُتَقَدِّمَة، وَقَالَ فِي الجَدِيد: يَقْرَأ الفَاتِحَة فَقَطْ فِي سَكَتَات الإِمَام، وَهُوَ قَوْل طَائِفَة مِنْ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ فَمَنْ بَعْدهمْ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَة، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل: لَا يَجِب عَلَى المَأْمُوم قِرَاءَة أَصْلًا فِي السِّرِّيَّة وَلَا الجَهْرِيَّة؛ لما وَرَدَ فِي الحَدِيث: «**مَنْ كَانَ لَهُ إِمَام فَقِرَاءَته لَهُ قِرَاءَة**»[2]. وَهَذَا الحَدِيث رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده عَنْ جَابِر مَرْفُوعًا، وَهُوَ فِي مُوَطَّأ مَالِك عَنْ وَهْب بْن كَيْسَان عَنْ جَابِر مَوْقُوفًا، وَهَذَا أَصَحّ. وَهَذِهِ المَسْأَلَة مَبْسُوطَة فِي غَيْر هَذَا المَوْضِع، وَقَدْ أَفْرَدَ لَهَا الإِمَام أَبُو عَبْد الله البُخَارِيّ مُصَنَّفًا عَلَى حِدَة، وَاخْتَارَ وُجُوب القِرَاءَة خَلْف الإِمَام فِي السِّرِّيَّة وَالجَهْرِيَّة أَيْضًا، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ يَعْنِي: فِي الصَّلَاة المَفْرُوضَة. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَبْد الله بْن المُغَفَّل. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا حُمَيْد بْن مَسْعَدَة، حَدَّثَنَا بِشْر بْن المُفَضَّل، حَدَّثَنَا الجريري، عَنْ طَلْحَة بْن عُبَيْد الله بْن كُرَيْز، قَالَ: رَأَيْت عُبَيْد بْن عُمَيْر وَعَطَاء بْن أَبِي رَبَاح يَتَحَدَّثَانِ، وَالقَاصّ يَقُصّ، فَقُلْت: أَلَا تَسْتَمِعَانِ إِلَى الذِّكْر وَتَسْتَوْجِبَانِ المَوْعُود؟ قَالَ: فَنَظَرَا إِلَيَّ، ثُمَّ أَقْبَلَا عَلَى حَدِيثهمَا، قَالَ: فَأَعَدْت، فَنَظَرَا إِلَيَّ وَأَقْبَلَا عَلَى حَدِيثهمَا، قَالَ: فَأَعَدْت الثَّالِثَة فَنَظَرَا إِلَيَّ فَقَالَا: إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الصَّلَاة ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾.

وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي هَاشِم إِسْمَاعِيل بْن كَثِير، عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قَالَ: فِي الصَّلَاة. وَكَذَا رَوَاهُ غَيْر وَاحِد عَنْ مُجَاهِد. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ الثَّوْرِيّ، عَنْ لَيْث، عَنْ مُجَاهِد، قَالَ: لَا بَأْس إِذَا قَرَأَ الرَّجُل فِي غَيْر الصَّلَاة أَنْ يَتَكَلَّم. وَكَذَا قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر، وَالضَّحَّاك، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَقَتَادَة، وَالشَّعْبِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: أَنَّ المُرَاد بِذَلِكَ فِي الصَّلَاة. وَقَالَ شُعْبَة، عَنْ مَنْصُور، سَمِعْت إِبْرَاهِيم بْن أَبِي حرة يُحَدِّث، أَنَّهُ سَمِعَ مُجَاهِدًا يَقُول فِي هَذِهِ الآيَة ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قَالَ: فِي الصَّلَاة، وَالخُطْبَة يَوْم الجُمْعَة. وَكَذَا رَوَى اِبْن جُرَيْج عَنْ عَطَاء مِثْله. وَقَالَ هُشَيْم، عَنْ الرَّبِيع بْن صُبَيْح، عَنْ الحَسَن، قَالَ: فِي الصَّلَاة، وَعِنْد الذِّكْر. وَقَالَ اِبْن المُبَارَك، عَنْ بَقِيَّة، سَمِعْت ثَابِت بْن عَجْلَان، يَقُول: سَمِعْت سَعِيد بْن جُبَيْر، يَقُول فِي قَوْله ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قَالَ: الإِنْصَات يَوْم الأَضْحَى، وَيَوْم الفِطْر، وَيَوْم الجُمْعَة، وَفِيمَا يَجْهَر بِهِ الإِمَام مِنْ الصَّلَاة. وَهَذَا اِخْتِيَار اِبْن جَرِير، أَنَّ المُرَاد بِذَلِكَ الإِنْصَات فِي الصَّلَاة وَفِي الخُطْبَة. كَمَا جَاءَ فِي الأَحَادِيث مِنْ الأَمْر بِالإِنْصَاتِ خَلْف الإِمَام وَحَال الخُطْبَة. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ الثَّوْرِيّ، عَنْ لَيْث، عَنْ مُجَاهِد، أَنَّهُ كَرِهَ إِذَا مَرَّ الإِمَام بِآيَةِ خَوْف، أَوْ بِآيَةِ رَحْمَة، أَنْ يَقُول أَحَد مِنْ خَلْفه شَيْئًا، قَالَ: السُّكُوت. وَقَالَ مُبَارَك بْن فَضَالَة، عَنْ الحَسَن: إِذَا جَلَسْت إِلَى القُرْآن فَأَنْصِتْ لَهُ.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٨٢٦)، والترمذي (٣١٢)، وأحمد (٢/ ٢٨٤)، والنسائي في «الكبرى» (١/ ٣١٩) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٣٦).

(٢) ضعيف: تقدم.

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد مَوْلَى بَنِي هَاشِم، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن مَيْسَرَة، عَنْ الحَسَن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ ، قَالَ: «مَنْ إِسْتَمَعَ إِلَى آيَة مِنْ كِتَاب الله كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة مُضَاعَفَة، وَمَنْ تَلاهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْم القِيَامَة»[١]. تَفَرَّدَ بِهِ الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ الله تَعَالَى.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾

يَأْمُر تَعَالَى بِذِكْرِهِ أَوَّل النَّهَار وَآخِره، كَمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ فِي هَذَيْنِ الوَقْتَيْنِ فِي قَوْله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾. وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْل أَنْ تُفْرَض الصَّلَوَات الخَمْس لَيْلَة الإِسْرَاء وَهَذِهِ الآيَة مَكِّيَّة. وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ وَهُوَ أَوَّل النَّهَار ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ جَمْع أَصِيل، كَمَا أَنَّ الأَيْمَان جَمْع يَمِين. وَأَمَّا قَوْله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أَيْ: أُذْكُرْ رَبّك فِي نَفْسك، رَغْبَة وَرَهْبَة، وَبِالقَوْلِ لَا جَهْرًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، وَهَكَذَا يُسْتَحَبّ أَنْ يَكُون الذِّكْر، لَا يَكُون نِدَاء وَجَهْرًا بَلِيغًا، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلُوا رَسُول الله ﷺ فَقَالُوا: أَقَرِيب رَبّنَا فَنُنَاجِيه أَمْ بَعِيد فَنُنَادِيه؟ فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٢].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ ﷺ قَالَ: رَفَعَ النَّاس أَصْوَاتهمْ بِالدُّعَاءِ فِي بَعْض الأَسْفَار؛ فَقَالَ لَهُمْ النَّبِيّ ﷺ : «يَا أَيُّهَا النَّاس؛ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيع قَرِيب»[٣]. وَقَدْ يَكُون المُرَاد مِنْ هَذِهِ الآيَة كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ فَإِنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا القُرْآن سَبُّوهُ، وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَأَمَرَهُ الله تَعَالَى أَنْ لَا يَجْهَر بِهِ؛ لِئَلَّا يَنَال مِنْهُ المُشْرِكُونَ، وَلَا يُخَافِت بِهِ عَنْ أَصْحَابه فَلَا يُسْمِعهُمْ، وَلْيَتَّخِذْ سَبِيلًا بَيْن الجَهْر وَالإِسْرَار، وَكَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

وَقَدْ زَعَمَ اِبْن جَرِير، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ قَبْله، أَنَّ المُرَاد بِهَا: أَمْر السَّامِع لِلْقُرْآنِ فِي حَال اِسْتِمَاعه بِالذِّكْرِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَة، وَهَذَا بَعِيد مُنَافٍ لِلإِنْصَاتِ المَأْمُور بِهِ، ثُمَّ إِنَّ المُرَاد بِذَلِكَ فِي الصَّلَاة كَمَا تَقَدَّمَ، أَوْ فِي الصَّلَاة وَالخُطْبَة، وَمَعْلُوم أَنَّ الإِنْصَات إِذْ ذَاكَ أَفْضَل مِنْ الذِّكْر بِاللِّسَانِ، سَوَاء كَانَ سِرًّا أَوْ جَهْرًا، فَهَذَا الَّذِي قَالَاهُ لَمْ يُتَابَعَا عَلَيْهِ، بَلْ المُرَاد الحَضّ عَلَى كَثْرَة الذِّكْر، مِنْ العِبَاد بِالغُدُوّ وَالآصَال؛ لِئَلَّا يَكُونُوا مِنْ الغَافِلِينَ، وَلِهَذَا مَدَحَ المَلَائِكَة الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْل وَالنَّهَار لَا يَفْتُرُونَ، فَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾. وَإِنَّمَا ذَكَرَهُمْ بِهَذَا لِيُتَشَبَّه بِهِمْ فِي كَثْرَة طَاعَتهمْ وَعِبَادَتهمْ؛ وَلِهَذَا شُرِعَ لَنَا السُّجُود هَاهُنَا لَمَّا ذُكِرَ سُجُودهمْ للهِ ﷻ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «أَلا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلائِكَة عِنْد رَبِّهَا، يُتِمُّونَ الصُّفُوف الأُوَل، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفّ»[٤].

وَهَذِهِ أَوَّل سَجْدَة فِي القُرْآن، مِمَّا يُشْرَع لِتَالِيهَا وَمُسْتَمِعهَا السُّجُود بِالإِجْمَاعِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيث رَوَاهُ اِبْن مَاجَهْ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، عَنْ النَّبِيّ ﷺ ، أَنَّهُ عَدَّهَا فِي سَجَدَات القُرْآن[٥].

آخِر تَفْسِير سُورَة الأَعْرَاف، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّة.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ٣٤١) من حديث أبي هريرة، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٣٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٤٠٨).
(٢) ضعيف: تقدم.
(٣) صحيح: تقدم.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١).
(٥) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (١٠٥٦) بسند ضعيف، فيه عثمان بن فائد قال الحافظ: ضعيف. انظر «التقريب» (١/ ٣٨٦).

تفسير سورة الأنفال وهي مدنية

ترتيبها ٨ - آياتها ٧٥

آياتها: سَبْعُونَ وَخمس آيَات، كَلِمَاتها: ألف كَلِمَة وَستُّمِائَة كَلِمَة وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ كَلِمَة، حُرُوفهَا: خَمْسَة آلَاف وَمِائَتَانِ وَأَرْبَعَة وَتِسْعُونَ حَرْفًا، والله أَعْلَمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

قَالَ الْبُخَارِيّ: قَالَ ابْن عَبَّاس: ﴿الْأَنفَالُ﴾ الغنائم. حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحِيم، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سُلَيْمَان، أَخْبَرَنَا هُشَيْم، أَخْبَرَنَا أَبُو بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر؛ قَالَ: قُلت لِابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما: سُورَة الْأَنْفَال؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَدْر[1]. أَمَّا مَا عَلَّقَهُ عَنْ ابْن عَبَّاس، فَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَالَ: ﴿الْأَنفَالُ﴾ الْغَنَائِم، كَانَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ خَالِصَة، لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهَا شَيْء. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَعَطَاء، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَعَطَاء الْخُرَاسَانِيّ، وَمُقَاتِل بْن حَيَّان، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ وَغَيْر وَاحِد: أَنَّهَا الغنائم. وَقَالَ الْكَلْبِيّ، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَالَ: ﴿الْأَنفَالُ﴾ المغانم. قَالَ فِيهَا لَبِيد:

إنَّ تَقْـوَى رَبِّنَـا خَيْـرُ نَفَـل ❀ وَبِـإِذْنِ الله رَيْثِـي وَعَجَـل

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يُونُس، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي مَالِك بْن أَنَس، عَنْ ابْن شِهَاب، عَنْ الْقَاسِم بْن مُحَمَّد قَالَ: سَمِعْت رَجُلًا يَسْأَل ابْن عَبَّاس عَنْ ﴿الْأَنفَالُ﴾ فَقَالَ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: الْفَرَس مِنْ النَّفَل، وَالسَّلَب مِنْ النَّفَل. ثُمَّ عَادَ لِمَسْأَلَتِهِ، فَقَالَ ابْن عَبَّاس ذَلِكَ أَيْضًا. ثُمَّ قَالَ الرَّجُل: ﴿الْأَنفَالُ﴾ الَّتِي قَالَ الله فِي كِتَابه: مَا هِيَ؟ قَالَ الْقَاسِم: فَلَمْ يَزَل يَسْأَلهُ حَتَّى كَادَ يُحْرِجهُ، فَقَالَ ابْن عَبَّاس: أَتَدْرُونَ مَا مَثَل هَذَا؟ مَثَل صُبَيْغ الَّذِي ضَرَبَهُ عُمَر بْن الْخَطَّاب.

وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ الْقَاسِم بْن مُحَمَّد، قَالَ: قَالَ ابْن عَبَّاس: كَانَ عُمَر بْن الْخَطَّاب رضي الله عنه، إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْء قَالَ: لَا آمُرك وَلَا أَنْهَاك. ثُمَّ قَالَ ابْن عَبَّاس: وَالله مَا بَعَثَ الله نَبِيّه ﷺ إِلَّا زَاجِرًا آمِرًا مُحِلًّا مُحَرِّمًا. قَالَ الْقَاسِم: فَسُلِّطَ عَلَى ابْن عَبَّاس رَجُل يسأَلُهُ عَنْ الأَنفَال، فَقَالَ ابْن عَبَّاس: كَانَ الرَّجُل يُنَفَّل فَرَس الرَّجُل وَسِلَاحه، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الرَّجُل، فَقَالَ لَهُ مِثْل ذَلِكَ، ثُمَّ عَادَ عَلَيْهِ حَتَّى أَغْضَبَهُ، فَقَالَ ابْن عَبَّاس: أَتَدْرُونَ مَا مَثَل هَذَا؟ مَثَل صُبَيْغ الَّذِي ضَرَبَهُ عُمَر بْن الْخَطَّاب، حَتَّى سَالَتْ الدِّمَاء عَلَى عَقِبَيْهِ -أَوْ عَلَى رِجْلَيْهِ- فَقَالَ الرَّجُل: أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ انْتَقَمَ الله لِعُمَرَ مِنْك.

وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح إِلَى ابْن عَبَّاس، أَنَّهُ فَسَّرَ النَّفَل بِمَا يُنَفِّلهُ الإِمَام لِبَعْضِ الأَشْخَاص مِنْ سَلَب أَوْ نَحوه، بَعْد قَسْم أَصْل المَغْنَم، وَهُوَ الْمُتَبَادِر إِلَى فَهْم كَثِير مِنْ الْفُقَهَاء مِنْ لَفْظ النَّفَل، وَالله أَعْلَمُ. وَقَالَ ابْن أَبِي نَجِيح: عَنْ مُجَاهِد: إِنَّهُمْ سَأَلُوا رَسُول الله ﷺ، عَنْ الْخُمُس بَعْد الأَرْبَعَة الأَخْمَاس فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾[2]. وَقَالَ ابْن مَسْعُود وَمَسْرُوق: لَا نَفَل يَوْم الزَّحْف، إِنَّمَا النَّفَل قَبْل الْتِقَاء الصُّفُوف. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْهُمَا. وَقَالَ ابْن الْمُبَارَك وَغَيْر وَاحِد، عَنْ عَبْد الْمَلِك بْن أَبِي سُلَيْمَان، عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ قَالَ:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٤٥).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٩/ ١٧٠) بسند مرسل.

يَسْأَلُونَكَ فِيمَا شَذَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فِي غَيْرِ قِتَالٍ، مِنْ دَابَّةٍ، أَوْ عَبْدٍ، أَوْ أَمَةٍ، أَوْ مَتَاعٍ، فَهُوَ نَفَلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَصْنَعُ بِهِ مَا يَشَاءُ. وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ فَسَّرَ الأَنْفَالَ بِالفَيْءِ؛ وَهُوَ مَا أُخِذَ مِنَ الكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ أَنْفَالُ السَّرَايَا. حَدَّثَنِي الحَارِثُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ صَالِحِ بْنِ حَيٍّ، قَالَ: بَلَغَنِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قَالَ: السَّرَايَا. وَيَعْنَى هَذَا مَا يُنَفِّلُهُ الإِمَامُ لِبَعْضِ السَّرَايَا زِيَادَةً عَلَى قَسْمِهِمْ مَعَ بَقِيَّةِ الجَيْشِ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ الشَّعْبِيُّ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهَا الزِّيَادَاتُ عَلَى القَسْمِ، وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الآيَةِ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ عُبَيْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، وَقُتِلَ أَخِي عُمَيْرٌ، وَقَتَلْتُ سَعِيدَ بْنَ العَاصِ وَأَخَذْتُ سَيْفَهُ، وَكَانَ يُسَمَّى: «ذَا الكَتِيفَةِ»، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَاطْرَحْهُ فِي القَبَضِ**» قَالَ: فَرَجَعْتُ وَبِي مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، مِنْ قَتْلِ أَخِي وَأَخْذِ سَلَبِي، قَالَ: فَمَا جَاوَزْتُ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ الأَنْفَالِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**اذْهَبْ فَخُذْ سَيْفَكَ**»(١).

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ مُصْعَبِ ابْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ شَفَانِي اللهُ اليَوْمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَهَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَا لَكَ وَلَا لِي، ضَعْهُ**» قَالَ: فَوَضَعْتُهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَقُلْتُ: عَسَى أَنْ يُعْطَى هَذَا السَّيْفَ مَنْ لَا يُبْلِي بَلَائِي، قَالَ: فَإِذَا رَجُلٌ يَدْعُونِي مِنْ وَرَائِي، قَالَ: قُلْتُ: قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيَّ شَيْئًا؟ قَالَ: «**كُنْتَ سَأَلْتَنِي السَّيْفَ، وَلَيْسَ هُوَ لِي، وَإِنَّهُ قَدْ وُهِبَ لِي، فَهُوَ لَكَ**». قَالَ: وَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾(٢). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ طُرُقٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ عَيَّاشٍ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، أَخْبَرَنَا سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ مُصْعَبَ بْنَ سَعْدٍ، يُحَدِّثُ عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ: أَصَبْتُ سَيْفًا يَوْمَ بَدْرٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقُلْتُ: نَفِّلْنِيهِ، فَقَالَ: «**ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ**»، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ عَاوَدْتُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ**»؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾(٣). وَتَمَامُ الحَدِيثِ فِي نُزُولِ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾، وَآيَةِ الوَصِيَّةِ. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِهِ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ بَعْضِ بَنِي سَاعِدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُسَيْدٍ مَالِكَ بْنَ رَبِيعَةَ يَقُولُ: أَصَبْتُ سَيْفَ ابْنِ عَائِذٍ يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانَ السَّيْفُ يُدْعَى بِالْمَرْزُبَانِ، فَلَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، النَّاسَ أَنْ يَرُدُّوا مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ النَّفَلِ، أَقْبَلْتُ بِهِ فَأَلْقَيْتُهُ فِي النَّفَلِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، لَا يَمْنَعُ شَيْئًا يُسْأَلُهُ، فَرَآهُ الأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الأَرْقَمِ الْمَخْزُومِيُّ، فَسَأَلَهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ(٤). وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ.

سَبَبٌ آخَرُ فِي نُزُولِ الآيَةِ: وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى، عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عُبَادَةَ عَنِ الأَنْفَالِ، فَقَالَ: فِينَا -أَصْحَابَ بَدْرٍ- نَزَلَتْ، حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفَلِ، وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا، فَانْتَزَعَهُ اللهُ مِنْ أَيْدِينَا، وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، عَنْ بَوَاءٍ يَقُولُ: عَنْ سَوَاءٍ(٥). وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو،

---

(١) **حسن لغيره**: أخرجه ابن جرير (٦/ ١٦٨)، وأحمد (١/ ١٨٠)، وسعيد بن منصور (٢/ ٢٥٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٧٨).
(٢) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (١/ ١٧٨) من حديث سعد بن مالك.
(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧٤٨)، والطيالسي (٢٠٨).
(٤) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٩/ ١٧٣، ١٧٤) بسند ضعيف لجهالة بعض بني ساعدة.
(٥) **حسن لغيره**: أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٢).

أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن الحَارِث بْن عَبْد الله بْن عَيَّاش بْن أَبِي رَبِيعَة، عَنْ سُلَيْمَان بْن مُوسَى، عَنْ أَبِي سَلَام، عَنْ أَبِي أُمَامَة، عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ، فَشَهِدْت مَعَهُ بَدْرًا، فَالتَقَى النَّاس، فَهَزَمَ الله تَعَالَى العَدُوّ، فَانْطَلَقَتْ طَائِفَة فِي آثَارهمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ، وَأكبت طَائِفَة عَلَى العَسْكَر يَحوونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ، وَأَحْدَقَتْ طَائِفَة بِرَسُولِ الله ﷺ، لَا يُصِيب العَدُوّ مِنْهُ غِرَّة، حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْل، وَفَاءَ النَّاس بَعْضهمْ إِلَى بَعْض، قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الغَنَائِم: نَحْنُ حَوَيْنَاهَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيب، وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَب العَدُوّ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا، نَحْنُ مَنَعْنَا عنها العَدُوّ وَهَزَمْنَاهُمْ، وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخِفْنَا أَنْ يُصِيب العَدُوّ مِنْهُ غِرَّة فَاشْتَغَلنَا بِهِ؛ فَنَزَلَتْ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فَقَسَمَهَا رَسُول الله ﷺ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَكَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا أَغَارَ فِي أَرْض العَدُوّ نَفَّلَ الرُّبُع، فَإِذَا أَقْبَلَ -وكَلَّ النَّاسُ- رَاجِعًا، نَفَّلَ الثُّلُث، وَكَانَ يَكْرَه الأَنْفَال ويقول: **«لِيَرُد قويُّ المؤمنينَ على ضَعيفِهم»**[1]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَابْن مَاجَهْ، مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن الحَارِث، بِهِ نَحْوه. وقَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حسن. وَرَوَاهُ ابْن حِبَّان فِي صَحِيحه، وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن الحَارِث، وَقَالَ الحَاكِم: صَحِيح الإِسْنَاد عَلَى شَرْط مُسْلِم وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.
وَرَوَى أَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن جَرِير، وَابْن مَرْدُوَيْهِ، -وَاللَّفْظ لَهُ- وَابْن حِبَّان، وَالحَاكِم مِنْ طُرُق، عَنْ دَاوُد ابْن أَبِي هِنْد، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْر قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ صَنَعَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا»** فَتَسَارَعَ فِي ذَلِكَ شُبَّان الرجال، وَبَقِيَ الشُّيُوخ تَحْت الرَّايَات، فَلَمَّا كَانَتْ المَغَانِمُ جَاءُوا يَطْلُبُونَ الَّذِي جُعِلَ لَهُمْ، فَقَالَ الشُّيُوخ: لَا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْنَا؛ فَإِنَّا كُنَّا رِدْءًا لَكُمْ، لَوْ انْكَشَفْتُمْ لَفِئْتُمْ إِلَيْنَا. فَتَنَازَعُوا، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ الكَلْبِيّ، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْم بَدْر، قَالَ رَسُول الله، ﷺ: **«مَنْ قَتَلَ قَتِيلا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ أَتَى بِأَسِيرٍ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا»**. فَجَاءَ أَبُو اليُسْر بِأَسِيرَيْنِ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله! وَعَدْتَنَا. فَقَامَ سَعْد بْن عُبَادَة فَقَالَ: يَا رَسُول الله! إن أَعْطَيْت هَؤُلَاءِ لَمْ يَبْقَ لِأَصْحَابِك شَيْء، وَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنَا مِنْ هَذَا زَهَادَة فِي الأَجْر، وَلَا جُبْن عَنْ العَدُوّ، وَإِنَّمَا قُمْنَا هَذَا المَقَام مُحَافَظَة عَلَيْك، مَخَافَة أَنْ يَأْتُوك مِنْ وَرَائِك، فَتَشَاجَرُوا، وَنَزَلَ القُرْآن: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ قَالَ: وَنَزَلَ القُرْآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إِلَى آخِر الآيَة[3]. وَقَالَ الإِمَام أَبُو عُبَيْد القَاسِم بْن سَلَّام رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَاب «الأَمْوَال الشَّرْعِيَّة وَبَيَان جِهَاتهَا وَمَصَارِفهَا»: أَمَّا الأَنْفَال فَهِيَ الغَنَائِم، وَكُلّ نَيْل نَالَهُ المُسْلِمُونَ مِنْ أَمْوَال أَهْل الحَرْب، فَكَانَتْ الأَنْفَال الأُولَى لِرَسُولِ الله ﷺ، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، فَقَسَمَهَا يَوْم بَدْر عَلَى مَا أَرَاهُ الله مِنْ غَيْر أَنْ يُخَمِّسهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فِي حَدِيث سَعْد، ثُمَّ نَزَلَتْ بَعْد ذَلِكَ آيَة الخُمُس، فَنَسَخَتْ الأُولَى.

قُلت: هَكَذَا رَوَى عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس سَوَاء، وَبِهِ قَالَ مُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَالسُّدِّيّ.

وَقَالَ ابْن زَيْد: لَيْسَتْ مَنْسُوخَة بَل هِيَ مُحْكَمَة. قَالَ أَبُو عُبَيْد: وَفِي ذَلِكَ آثَار... وَالأَنْفَال أَصْلهَا جِمَاع الغَنَائِم، إِلَّا أَنَّ الخُمُس مِنْهَا مَخْصُوص لِأَهْلِهِ، عَلَى مَا نَزَلَ بِهِ الكِتَاب وَجَرَتْ بِهِ السُّنَّة، وَمَعْنَى الأَنْفَال فِي كَلَام العَرَب: كُلّ إِحْسَان فَعَلَهُ فَاعِل تَفَضُّلًا مِنْ غَيْر أَنْ يَجِبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَذَلِكَ النَّفَل الَّذِي أَحَلَّهُ الله لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٣)، وابن حبان (٤٨٥٥)، وصححه الألباني في «فقه السيرة» (١/ ١).
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٣٧)، والحاكم (٢/ ١٤٢) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٣٧٦).
(٣) ضعيف: فيه الكلبي قال الحافظ: متهم بالكذب ورمي بالرفض، والحديث له طريق أخرى صحيحة عند أبي داود (٢٧٣٨).

أَمْوَال عَدُوّهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْء خَصَّهُمْ الله بِهِ تَطَوُّلًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ، بَعْد أَنْ كَانَتْ المَغَانِم مُحَرَّمَة عَلَى الأُمَم قَبْلهمْ، فَنَفَّلَهَا الله تَعَالَى هَذِهِ الأُمَّة. فَهَذَا أَصْل النَّفَل.

قلت: شَاهِد هَذَا مَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِر ﷺ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**أعطيت خمسًا لم يُعطَهُنَّ أحد قبلي**» –فَذَكَرَ الحَدِيث إِلَى أَنْ قَالَ:– «**وأُحِلَّتْ لِيَ الغنائم، ولم تحلّ لأحدٍ قبلي**»[1]. وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث.

ثُمَّ قَالَ أَبُو عُبَيْد: وَلِهَذَا سُمِّيَ مَا جَعَلَ الإِمَام لِلْمُقَاتِلَةِ نَفَلًا، وَهُوَ تَفْضِيله بَعْض الجَيْش عَلَى بَعْض بِشَيْءٍ سِوَى سِهَامهمْ، يَفْعَل ذَلِكَ بِهِمْ عَلَى قَدْر الغَنَاء عَنْ الإِسْلَام وَالنِّكَايَة فِي العَدُوّ، وَفِي النَّفَل الَّذِي يُنَفِّلهُ الإِمَام سُنَنٌ أَرْبَع، لِكُلِّ وَاحِدَة مِنْهُنَّ مَوْضِع غَيْر مَوْضِع الأُخْرَى: **فإحداهنّ**: فِي النَّفَل لَا خُمُس فِيهِ، وَذَلِكَ السَّلَب.

والثانية: فِي النَّفَل الَّذِي يَكُون مِنْ الغَنِيمَة بَعْد إِخْرَاج الخُمُس، وَهُوَ أَنْ يُوَجِّه الإِمَام السَّرَايَا فِي أَرْض الحَرْب، فَتَأْتِي بِالغَنَائِمِ، فَيَكُون لِلسَّرِيَّةِ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّبْع أَوْ الثُّلُث بَعْد الخُمُس.

والثالثة: فِي النَّفَل مِنْ الخُمُس نَفْسه، وَهُوَ أَنْ تُحَاز الغَنِيمَة كُلّهَا، ثُمَّ تُخَمَّس، فَإِذَا صَارَ الخُمُس فِي يَدَيْ الإِمَام نَفَّلَ مِنْهُ عَلَى قَدْر مَا يَرَى.

والرابعة: فِي النَّفَل فِي جُمْلَة الغَنِيمَة قَبْل أَنْ يُخَمَّس مِنْهَا شَيْء، وَهُوَ أَنْ يُعْطِي الأَدِلَّاء وَرُعَاة المَاشِيَة وَالسُّوَّاق لَهَا، وَفِي كُلّ ذَلِكَ اخْتِلَاف.

قَالَ الرَّبِيع: قَالَ الشَّافِعِيّ: الأَنْفَال أَنْ لَا يُخْرَج مِنْ رَأْس الغَنِيمَة قَبْل الخُمُس شَيْء غَيْر السَّلَب. قَالَ أَبُو عُبَيْد: وَالوَجْه الثَّانِي مِنْ النَّفَل: هُوَ شَيْء زِيدُوهُ غَيْر الَّذِي كَانَ لَهُمْ، وَذَلِكَ مِنْ خُمُس النَّبِيّ ﷺ فَإِنَّ لَهُ خُمُس الخُمُس مِنْ كُلّ غَنِيمَة، فَيَنْبَغِي لِلإِمَامِ أَنْ يَجْتَهِد، فَإِذَا كَثُرَ العَدُوّ، وَاشْتَدَّتْ شَوْكَتهمْ، وَقَلَّ مَنْ بِإِزَائِهِ مِنْ المُسْلِمِينَ، نَفَّلَ مِنْهُ اتِّبَاعًا لِسُنَّةِ رَسُول الله ﷺ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَمْ يُنَفِّل.

والوجه الثالث من النفل: إِذَا بَعَثَ الإِمَام سَرِيَّة أَوْ جَيْشًا، فَقَالَ لَهُمْ قَبْل اللِّقَاء: مِنْ غَنِمَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ بَعْد الخُمُس، فذلك لَهُمْ عَلَى ما شَرَط الإِمَام، لِأَنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ غَزَوْا وَبِهِ رَضُوا. انْتَهَى كَلَامه. وَفِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامه، وَهُوَ قَوْله: إِنَّ غَنَائِم بَدْر لَمْ تُخَمَّس –نَظَرٌ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِ حَدِيث عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب فِي شَارِفَيْهِ اللَّذَيْنِ حَصَلَا لَهُ مِنْ الخُمُس يَوْم بَدْر، وَقَدْ بَيَّنْت ذَلِكَ فِي كِتَاب «السِّيرَة» بَيَانًا شَافِيًا، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أَيْ: وَاتَّقُوا الله فِي أُمُوركُمْ، وَأَصْلِحُوا فِيمَا بَيْنكُمْ، وَلَا تَظَالَمُوا، وَلَا تَخَاصَمُوا، وَلَا تَشَاجَرُوا، فَمَا آتَاكُمْ الله مِنْ الهُدَى وَالعِلم خَيْر مِمَّا تَخْتَصِمُونَ بِسَبَبِهِ. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيْ: فِي قَسْمه بَيْنكُمْ عَلَى مَا أَرَادَهُ الله، فَإِنَّهُ إِنَّمَا قَسَمه كَمَا أَمَرَهُ الله مِنْ العَدْل وَالإِنْصَاف.

وَقَالَ ابْن عَبَّاس: هَذَا تَحْرِيج مِنْ الله على المؤمنين أَنْ يَتَّقُوا وَيُصْلِحُوا ذَات بَيْنهمْ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد. وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أَيْ: لَا تَسْتَبُّوا. وَلْنَذْكُرْ هَاهُنَا حَدِيثًا أَوْرَدَهُ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى أَحْمَد بْن عَلِيّ بْن المُثَنَّى المَوْصِلِيّ رَحِمَهُ اللهُ، فِي مُسْنَده فَإِنَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُجَاهِد بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن بكر، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن شَيْبَة الحَبَطِيّ، عَنْ سَعِيد بْن أَنَس، عَنْ أَنَس ﷺ، قَالَ: بَيْنَا رَسُول الله ﷺ جَالِس إِذْ رَأَيْنَاهُ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ ثَنَايَاهُ، فَقَالَ عُمَر: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُول الله؟ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! فَقَالَ: «**رجلان من أمّتي جثيا بين يدي ربّ العزّة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا ربّ خذ لي مظلمتي من أخي. قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته، قال: يا ربّ لم يبق من حسناتي شيء. قال: ربّ، فليحمل عنّي من أوزاري**». قَالَ: وفَاضَتْ عَيْنَا رَسُول الله ﷺ بِالبُكَاءِ،

---

(١) صحيح: تقدم.

ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيم، يَوْم يَحْتَاج النَّاس إِلَى مَنْ يَتَحَمَّل عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارهمْ، فَقَالَ الله تَعَالَى لِلطَّالِبِ: ارْفَعْ بَصَرك وَانْظُرْ فِي الجِنَان، فَرَفَعَ رَأْسه فَقَالَ: يَا رَبّ، أَرَى مَدَائِن مِنْ فِضَّة، وَقُصُورًا مِنْ ذَهَب مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ، لِأَيِّ نَبِيّ هَذَا؟ لِأَيِّ صِدِّيق هَذَا؟ لِأَيِّ شَهِيد هَذَا؟ قَالَ: هَذَا لِمَنْ أَعْطَى الثَّمن، قَالَ: يَا رَبّ وَمَنْ يَمْلِك ذلك؟ قَالَ: أَنْتَ تَمْلِكهُ، قَالَ: مَاذَا يَا رَبّ؟ قَالَ: تَعْفُو عَنْ أَخِيك، قَالَ: يَا رَبّ، فَإِنِّي قَدْ عَفَوْت عَنْهُ، قَالَ الله تَعَالَى: خُذْ بِيَدِ أَخِيك فَادخِلِه الجَنَّة». ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «فَاتَّقُوا الله، وَأَصْلِحُوا ذَات بَيْنكُمْ، فَإِنَّ الله تَعَالَى يُصْلِح بَيْن المُؤْمِنِينَ يَوْم القِيَامَة»(١).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

قَالَ عَلِيّ بن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قَالَ: المُنَافِقُونَ، لَا يَدْخُل قُلُوبَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذِكْر الله عِنْد أَدَاء فَرَائِضه، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ آيَات الله، وَلَا يَتَوَكَّلُونَ، وَلَا يُصَلُّونَ إِذَا غَابُوا، وَلَا يُؤَدُّونَ زَكَاة أَمْوَالهمْ، فَأَخْبَرَ الله تَعَالَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ وَصَفَ الله المُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَأَدَّوْا فَرَائِضَهُ، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يَقُول: تَصْدِيقًا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يَقُول: لَا يَرْجُونَ غَيْره. وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَرِقَتْ، أَيْ فَزِعَتْ وَخَافَتْ. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد.

وَهَذِهِ صِفَة المُؤْمِن حَقُّ المُؤْمِن، الَّذِي إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَ قَلبه، أَيْ: خَافَ مِنْهُ، فَفَعَلَ أَوَامِره، وَتَرَكَ زَوَاجِره، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾. وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: سَمِعْت السُّدِّيّ يَقُول فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُل يُرِيد أَنْ يَظْلِم -أَوْ قَالَ: يَهُمّ بِمَعْصِيَةٍ- فَيُقَال لَهُ: اتَّقِ الله فَيَجِلُ قَلبه. وَقَالَ الثَّوْرِيّ أَيْضًا، عَنْ عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خُثَيْم، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أُمّ الدَّرْدَاء فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قَالَت: الوَجَل فِي القَلب كَإِحراق السَّعفَة، أَمَا تَجِد لَهَا قُشَعْرِيرَة؟ قَالَ: بَلَى. قَالَتْ: إِذَا وَجَدْت ذَلِكَ، فَادْعُ الله عِنْد ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الدُّعَاء يُذْهِب ذَلِكَ.

وَقَوْله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وَقَدْ اسْتَدَلَّ البُخَارِيّ وَغَيْره مِنْ الأَئِمَّة بِهَذِهِ الآيَة وَأَشْبَاهها عَلَى زِيَادَة الإِيمَان وَتَفَاضُله فِي القُلُوب، كَمَا هُوَ مَذْهَب جُمْهُور الأُمَّة. بَل قَدْ حَكَى الإِجْمَاعَ على ذلك غَيْرُ وَاحِد مِنْ الأَئِمَّة، كَالشَّافِعِيّ، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل، وَأَبِي عُبَيْد، كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ مُسْتَقْصًى فِي أَوَّل شَرْح البُخَارِيّ، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أَيْ: لَا يَرْجُونَ سِوَاهُ، وَلَا يَقْصِدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَلُوذُونَ إِلَّا بِجَنَابِهِ، وَلَا يَطْلُبُونَ الحَوَائِج إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يَرْغَبُونَ إِلَّا إِلَيْهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ المُتَصَرِّف فِي المُلك، وَحْدَهُ لَا شَرِيك لَهُ، وَلَا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيع الحِسَاب، وَلِهَذَا قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر: التَّوَكُّل عَلَى الله جِمَاع الإِيمَان.

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الحاكم (٤/ ٦٢٠) من حديث أنس بن مالك، وقال الألباني: ضعيف جدًا، انظر «ضعيف الترغيب» (١٤٦٩).

وَقَوْله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، يُنَبِّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، بَعْد مَا ذَكَرَ اعْتِقَادَهُمْ. وَهَذِهِ الأَعْمَال تَشْمَل أَنْوَاع الخَيْر كُلّهَا، وَهُوَ إِقَامَة الصَّلَاة، وَهُوَ حَقّ الله تَعَالَى. وَقَالَ قَتَادَة: إِقَامَة الصَّلَاة: الْمُحَافَظَة عَلَى مَوَاقِيتهَا، وَوُضُوئِهَا، وَرُكُوعهَا، وَسُجُودهَا. وَقَالَ مُقَاتِل بْن حَيَّان: إِقَامَتهَا: الْمُحَافَظَة عَلَى مَوَاقِيتهَا، وَإِسْبَاغ الطَّهُور فِيهَا، وَتَمَام رُكُوعهَا وَسُجُودهَا، وَتِلَاوَة الْقُرْآن فِيهَا، وَالتَّشَهُّد، وَالصَّلَاة عَلَى النَّبِيّ ﷺ -هَذَا إِقَامَتهَا. وَالإِنْفَاق مِمَّا رَزَقَهُمْ الله: يَشْمَل إِخْرَاج الزَّكَاة وَسَائِر الْحُقُوق لِلْعِبَادِ، مِنْ وَاجِب وَمُسْتَحَبّ، وَالخَلْق كُلّهمْ عِيَال الله فَأَحَبُّهُمْ إِلَى الله أَنْفَعهُمْ لِخَلْقِهِ. قَالَ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فَأَنْفِقُوا مِمَّا أَعطَاكُمْ الله، فَإِنَّمَا هَذِهِ الأَمْوَال عَوَارِيّ وَوَدَائِع عِنْدك يَا بْن آدَم، أَوْشَكْت أَنْ تُفَارِقهَا.

وَقَوْله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أَيْ: الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَات، هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقّ الإِيمَان. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن عَبْد الله الحَضْرَمِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا زَيْد بن الحُبَاب، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، عَنْ خَالِد بْن يَزِيد السَّكْسَكِيّ، عَنْ سَعِيد بن أَبِي هِلَال، عَنْ مُحَمَّد بن أَبِي الجَهْم، عَنْ الحَارِث بْن مَالِك الأَنْصَارِيّ أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «**كَيْف أَصْبَحْت يَا حَارِث؟**» قَالَ: أَصْبَحْت مُؤْمِنًا حَقًّا. قَالَ: «**انْظُرْ مَاذَا تَقُول؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْء حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَة إِيمَانك؟**» فَقَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنْ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرْت لَيْلِي، وَأَظْمَأْت نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُر إِلَى عَرْش رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُر إِلَى أَهْل الجَنَّة يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُر إِلَى أَهْل النَّار يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ: «**يَا حَارِث؛ عَرَفْت فَالْزَمْ**» ثَلَاثًا[1]. وَقَالَ عَمْرو بْن مُرَّة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾، إِنَّمَا أُنْزِلَ الْقُرْآن بِلِسَانِ العَرَب، كَقَوْلِك: فُلَان سَيِّد حَقًّا، وَفِي القَوْم سَادَة، وَفُلَان تَاجِر حَقًّا، وَفِي القَوْم تُجَّار. وَفُلَان شَاعِر حَقًّا، وَفِي القَوْم شُعَرَاء.

وَقَوْله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ: مَنَازِل وَمَقَامَات وَدَرَجَات فِي الجَنَّات. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾. ﴿وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ: يَغْفِر لَهُمْ السَّيِّئَات، وَيَشْكُر لَهُمْ الحَسَنَات. وَقَالَ الضَّحَّاك فِي قَوْله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾: أَهْل الجَنَّة بَعْضهمْ فَوْق بَعْض، فَيَرَى الَّذِي هُوَ فَوْق فَضْله عَلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَل مِنْهُ، وَلَا يَرَى الَّذِي هُوَ أَسْفَل مِنْهُ أَنَّهُ فُضِّلَ عَلَيْهِ أَحَد. وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ أَهْل عِلِّيِّينَ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَل مِنْهُمْ، كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَب الغَابِر فِي أُفُق مِنْ آفَاق السَّمَاء**». قَالُوا: يَا رَسُول الله، تِلْكَ مَنَازِل الأَنْبِيَاء، لَا يَنَالهَا غَيْرهمْ. فَقَالَ: «**بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَال آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ**»[2].
وَفِي الحَدِيث الآخَر الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن مِنْ حَدِيث عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ أَهْل الجَنَّة لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْل الدَّرَجَات العُلَى، كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَب الغَابِر فِي أُفُق السَّمَاء، وَإِنَّ أَبَا بَكْر وَعُمَر مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا**»[3].

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

---

(١) **ضعيف الإسناد**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٦٦)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٣٦٣) بسند ضعيف، فيه ابن لهيعة: ضعيف.

(٢) **صحيح**: تقدم.

(٣) **ضعيف الإسناد**: أخرجه أحمد (٣/ ٢٦)، وأبو داود (٣٩٨٧)، والترمذي (٣٦٥٩)، وابن ماجه (٩٦) بسند ضعيف، فيه عطية العوفي: مدلس، وضعفه النسائي في «الضعفاء» (١/ ٨٥).

قَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر الطَّبَرِيّ: اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي السَّبَب الجَالِب لِهَذِهِ «الكَاف» فِي قَوْله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فَقَالَ بَعْضهمْ: شُبِّهَ بِهِ فِي الصَّلَاح لِلْمُؤْمِنِينَ، اتِّقَاؤُهُمْ رَبّهمْ، وَإِصْلَاحهمْ ذَات بَيْنهمْ، وطَاعَتهمْ الله وَرَسُوله. ثُمَّ رَوَى عَنْ عِكْرِمَة نَحْو هَذَا. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: كَمَا أَنَّكُمْ لَمَّا اخْتَلَفْتُمْ فِي المَغَانِم، وَتَشَاحَحْتُمْ فِيهَا، فَانْتَزَعَهَا الله مِنْكُمْ، وَجَعَلَهَا إِلَى قَسْمه وَقَسْم رَسُوله ﷺ، فَقَسَمَهَا عَلَى العَدْل وَالتَّسْوِيَة، فَكَانَ هَذَا هُوَ المَصْلَحَة التَّامَّة لَكُمْ، وَكَذَلِكَ لَمَّا كَرِهْتُمْ الخُرُوج إِلَى الأَعْدَاء مِنْ قِتَال ذَات الشَّوْكَة -وَهُمْ النَّفِير الَّذِينَ خَرَجُوا لِنَصْرِ دِينهمْ، وَإِحْرَاز عِيرهمْ- فَكَانَ عَاقِبَة كَرَاهَتكُمْ لِلقِتَالِ، بِأَنْ قَدَّرَهُ لَكُمْ، وَجَمَعَ بِهِ بَيْنَكُمْ وَبَيْن عَدُوّكُمْ عَلَى غَيْر مِيعَاد، رُشْدًا وَهُدًى وَنَصْرًا وَفَتْحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قَالَ ابْن جَرِير: وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ عَلَى كُرْه مِنْ فَرِيق مِنَ المُؤْمِنِينَ، كَذَلِكَ هُمْ كَارِهُونَ لِلقِتَالِ، فَهُمْ يُجَادِلُونَكَ فِيهِ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ. ثُمَّ رَوَى نَحْوه عَنْ مُجَاهِد؛ أَنَّهُ قَالَ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ قَالَ: كَذَلِكَ يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقّ. وَقَالَ السُّدِّيّ: أَنْزَلَ الله فِي خُرُوجه إِلَى بَدْر وَمُجَادَلَتهمْ إِيَّاهُ، فَقَالَ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ لِطَلَبِ المُشْرِكِينَ، ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾. وَقَالَ بَعْضهمْ: يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَال مُجَادَلَة؛ كَمَا جَادَلُوكَ يَوْم بَدْر فَقَالُوا: أَخْرَجْتَنَا لِلعِير، وَلَمْ تُعْلِمْنَا قِتَالًا فَنَسْتَعِدّ لَهُ.

قلت: رَسُول الله ﷺ، إِنَّمَا خَرَجَ مِنْ المَدِينَة طَالِبًا لِعِيرِ أَبِي سُفْيَان، الَّتِي بَلَغَهُ خَبَرهَا أَنَّهَا صَادِرَة مِنْ الشَّام، فِيهَا أَمْوَال جَزِيلَة لِقُرَيْشٍ، فَاسْتَنْهَضَ رَسُول الله ﷺ، المُسْلِمِينَ مَنْ خَفَّ مِنْهُمْ، فَخَرَجَ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَطَلَبَ نَحْو السَّاحِل مِنْ عَلَى طَرِيق بَدْر، وَعَلِمَ أَبُو سُفْيَان بِخُرُوجِ رَسُول الله ﷺ، فِي طَلَبه، فَبَعَثَ ضَمْضَم بْن عَمْرو نَذِيرًا إِلَى مَكَّة، فَنَهَضُوا فِي قَرِيب مِنْ أَلْف مُقَنَّع مَا بَيْن التِّسْعِمِائَةِ إِلَى الأَلْف، وَتَيَامَنَ أَبُو سُفْيَان بِالعِيرِ إِلَى سِيف البَحْر فَنَجَا، وَجَاءَ النَّفِير فَوَرَدُوا مَاء بَدْر، وَجَمَعَ الله بَيْن المُسْلِمِينَ وَالكَافِرِينَ عَلَى غَيْر مِيعَاد، لِمَا يُرِيد الله تَعَالَى مِنْ إِعْلَاء كَلِمَة المُسْلِمِينَ، وَنَصْرِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَالتَّفْرِقَة بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه.

وَالغَرَض أَنَّ رَسُول الله ﷺ، لَمَّا بَلَغَهُ خُرُوج النَّفِير، أَوْحَى الله إِلَيْهِ يَعِدُهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ؛ إِمَّا العِير وَإِمَّا النَّفِير، وَرَغِبَ كَثِير مِنْ المُسْلِمِينَ إِلَى العِير؛ لأَنَّهُ كَسْب بِلَا قِتَال، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. قَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيره: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن أَحْمَد الطَّبَرَانِيّ، حَدَّثَنَا بَكْر بْن سَهْل، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن يُوسُف، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ أَسْلَمَ بن أَبِي عِمْرَان، حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا أَيُّوب الأَنْصَارِيّ، يَقُول: قَالَ رَسُول الله ﷺ، وَنَحْنُ بِالمَدِينَةِ: «**إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَة، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نَخْرُجَ قِبَلَ هَذِهِ العِيرِ؛ لَعَلَّ الله أَنْ يُغْنِمْنَاهَا؟**» فَقُلْنَا: نَعَمْ، فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا، فَلَمَّا سِرْنَا يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ قَالَ لَنَا: «**مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ القَوْمِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أُخْبِرُوا بِمخرجكم؟**» فَقُلْنَا: لَا، وَالله مَا لَنَا طَاقَة بِقِتَالِ العَدُوّ، وَلَكِنَّا أَرَدْنَا العِير. ثُمَّ قَالَ: «**مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ القَوْمِ؟**» فَقُلْنَا مِثْل ذَلِكَ. فَقَالَ المِقْدَاد بْن عَمْرو: إِذًا لَا نَقُول لَكَ يَا رَسُول الله، كَمَا قَالَ قَوْم مُوسَى لِمُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾. قَالَ: فَتَمَنَّيْنَا -مَعْشَر الأَنْصَار- أَنْ لَوْ قُلْنَا كَمَا قَالَ المِقْدَاد، أَحَبّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ يَكُون لَنَا مَال عَظِيم. قَالَ: فَأَنْزَلَ الله عَلَى رَسُوله ﷺ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾[1]. وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ حَدِيث ابْن لَهِيعَة بِنَحْوِهِ. وَرَوَى

---

(١) حسن: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤/ ١٧٤) من حديث أبي أيوب، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٧٤) وحسنه.

ابْن مَرْدُوَيْهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَلْقَمَة بْن وَقَّاص اللَّيْثِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه؛ قَالَ: خَرَجَ رَسُول الله ﷺ إِلَى بَدْر، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالرَّوْحَاءِ، خَطَبَ النَّاس فَقَالَ: «كَيْفَ تَرَوْنَ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْر ﷺ: يَا رَسُول الله، بَلَغَنَا أَنَّهُمْ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: ثُمَّ خَطَبَ النَّاس فَقَالَ: «كَيْفَ تَرَوْنَ؟» فَقَالَ عُمَر مِثْل قَوْل أَبِي بَكْر، ثُمَّ خَطَبَ النَّاس فَقَالَ: «كَيْفَ تَرَوْنَ؟» فَقَالَ سَعْد بْن مُعَاذ: يَا رَسُول الله إِيَّانَا تُرِيد؟ فَوَالَّذِي أَكْرَمَك وَأَنْزَلَ عَلَيْك الكِتَاب، مَا سَلَكْتهَا قَطُّ، وَلَا لِي بِهَا عِلم، وَلَئِنْ سِرْت حَتَّى تَأْتِيَ بَرْك الغِمَاد مِنْ ذِي يَمَن لَنَسِيرَنَّ مَعَك، وَلَا نَكُون كَالَّذِينَ قَالُوا لِمُوسَى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلَا إِنَّا معكم متبعون، وَلَعَلَّك أَنْ تَكُون خَرَجْت لِأَمْرٍ، وَأَحْدَثَ الله إِلَيْك غَيْره، فَانْظُرْ الَّذِي أَحْدَثَ الله إِلَيْك، فَامْضِ لَهُ، فَصِلْ حِبَال مَنْ شِئْت، وَاقْطَعْ حِبَال مَنْ شِئْت، وَعَادِ مَنْ شِئْت، وَسَالِمْ مَنْ شِئْت، وَخُذْ مِنْ أَمْوَالنَا مَا شِئْت، فَنَزَلَ القُرْآن عَلَى قَوْل سَعْد: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ الآيَات.

وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: لَمَّا شَاوَرَ النَّبِيّ ﷺ فِي لِقَاء العَدُوّ وَقَالَ لَهُ سَعْد بْن عُبَادَة مَا قَالَ، وَذَلِكَ يَوْم بَدْر، أَمَرَ النَّاس فعبأوا لِلقِتَالِ، وَأَمَرَهُمْ بِالشَّوْكَةِ، فَكَرِهَ ذَلِكَ أَهْل الإِيمَان، فَأَنْزَلَ الله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾.

وقال مجاهد: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾، في القتال. وقال محمد بن إسحاق: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم. وقال السدي: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به. قال ابن جرير: وقال آخرون: عني بذلك المشركين. حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب؛ قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾، قال: هؤلاء المشركون جادلوه في الحق، ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾ حين يدعون إلى الإسلام، ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ قال: وليس هذا من صفة الآخرين. هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر. ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله؛ لأن الذي قبل قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خبر عنهم، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق: إنه خبر عن المؤمنين. وهذا الذي ذكره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام. والله أعلم.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَبِي بُكَيْر وَعَبْد الرَّزَّاق؛ قَالَا: حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ حِين فَرَغَ مِنْ بَدْر، عَلَيْك بِالعِيرِ لَيْسَ دُونهَا شَيْء، فَنَادَاهُ العَبَّاس بْن عَبْد المُطَّلِب: -قَالَ عَبْد الرَّزَّاق: وَهُوَ أَسِير فِي وَثَاقه. ثم اتفقا- إِنَّهُ لَا يَصْلُح لَك. قَالَ «وَلِمَ؟» قَالَ: لِأَنَّ الله ﷻ إِنَّمَا وَعَدَك إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَقَدْ أَعْطَاك مَا وَعَدَك[1]. إِسْنَاد جَيِّد، وَلَمْ يُخَرِّجُوه.

وَمَعْنَى قَوْله تَعَالَى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ أَيْ: يُحِبُّونَ أَنَّ الطَّائِفَة الَّتِي لَا حَدّ لَهَا وَلَا مَنَعَة وَلَا قِتَال تَكُون لَهُمْ، وَهِيَ العِير، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أَيْ: هُوَ يُرِيد أَنْ يَجْمَع بَيْنكُمْ وَبَيْن الطَّائِفَة الَّتِي لَهَا الشَّوْكَة وَالقِتَال؛ لِيُظَفِّرَكُمْ بِهِمْ وَيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُظْهِر دِينَهُ، وَيَرْفَع كَلِمَة الإِسْلَام، وَيَجْعَلهُ غَالِبًا عَلَى الأَدْيَان، وَهُوَ أَعْلَم بِعَوَاقِبِ الأُمُور، وَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُكُمْ بِحُسْنِ تَدْبِيره، وَإِنْ كَانَ العِبَاد يُحِبُّونَ خِلَاف ذَلِكَ فِيمَا يَظْهَر لَهُمْ، كما قَالَ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن مُسْلِم الزُّهْرِيّ، وَعَاصِم بْن عُمَر بْن قَتَادَة، وَعَبْد الله

---

(١) **ضعيف الإسناد:** أخرجه أحمد (١/ ٢٩٩)، والترمذي (٣٠٨٠)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٧٩)، وأبو يعلى (٤/ ٢٦١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٦١).

ابْن أَبِي بَكْر، وَيَزِيد بْن رُومَان، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر وَغَيْرهمْ مِنْ عُلَمَائِنَا، عَنْ عَبْد الله بْن عَبَّاس، -كُلّ قَدْ حَدَّثَنِي بَعْض هَذَا الحَدِيث، فَاجْتَمَعَ حَدِيثهمْ فِيمَا سُقْت مِنْ حَدِيث بَدْر- قَالُوا: لَمَّا سَمِعَ رَسُول الله ﷺ، بِأَبِي سُفْيَان مُقْبِلًا مِنْ الشَّام نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ. وَقَالَ: «**هَذِهِ عِير قُرَيْش فِيهَا أَمْوَالهمْ فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا؛ لَعَلَّ الله أَنْ يُنَفِّلَكُمُوهَا**»، فَانْتَدَبَ النَّاس فَخَفَّ بَعْضهمْ وَثَقُلَ بَعْضهمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُول الله ﷺ، يَلْقَى حَرْبًا، وَكَانَ أَبُو سُفْيَان قَدْ اسْتَنْفَرَ حِين دَنَا مِنْ الحِجَاز يَتَجَسَّس الأَخْبَار، وَيَسْأَل مَنْ لَقِيَ مِنْ الرُّكْبَان، تَخَوُّفًا عَلَى أَمْر النَّاس حَتَّى أَصَابَ خَبَرًا مِنْ بَعْض الرُّكْبَان: أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ اسْتَنْفَرَ أَصْحَابه لَك وَلِعِيرِك؛ فَحَذِرَ عِنْد ذَلِكَ فَاسْتَأْجَرَ ضَمْضَم بْن عَمْرو الغِفَارِيّ، فَبَعَثَهُ إِلَى أَهْل مَكَّة، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِي قُرَيْشًا، فَيَسْتَنْفِرهُمْ إِلَى أَمْوَالهمْ، وَيُخْبِرهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابه، فَخَرَجَ ضَمْضَم بْن عَمْرو سَرِيعًا إِلَى مَكَّة، وَخَرَجَ رَسُول الله ﷺ فِي أَصْحَابه، حَتَّى بَلَغَ وَادِيًا يُقَال لَهُ «ذَفِرَان» فَخَرَجَ مِنْهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَعْضِهِ نَزَلَ، وَأَتَاهُ الخَبَر عَنْ قُرَيْش بِمَسِيرِهِمْ لِيَمْنَعُوا عِيرَهُمْ، فَاسْتَشَارَ رَسُول الله ﷺ النَّاس، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ قُرَيْش، فَقَامَ أَبُو بَكْر ؓ فَقَالَ فَأَحْسَنَ. ثُمَّ قَامَ عُمَر ؓ فَقَالَ فَأَحْسَنَ. ثُمَّ قَامَ المِقْدَاد ابْن عَمْرو فَقَالَ: يَا رَسُول الله، امْضِ لِمَا أَمَرَكَ الله بِهِ؛ فَنَحْنُ مَعَك، وَالله لَا نَقُول لَك كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيل لِمُوسَى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلَا، إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فَوَالَّذِي بَعَثَك بِالحَقِّ لَوْ سِرْت بِنَا إِلَى «بَرْك الغِمَاد» -يَعْنِي مَدِينَة الحَبَشَة- لَجَالَدْنَا مَعَك مِنْ دُونه، حَتَّى تَبْلُغَهُ. فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ، خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِخَيْر. ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيهَا النَّاس**»، وَإِنَّمَا يُرِيد الأَنْصَار، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَدَد النَّاس، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِين بَايَعُوهُ بِالعَقَبَةِ قَالُوا: يَا رَسُول الله إِنَّا بُرَآء مِنْ ذِمَامِك حَتَّى تَصِلَ إِلَى دَارنَا، فَإِذَا وَصَلت إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَامنَا نَمْنَعك مِمَّا نَمْنَع مِنْهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا. فَكَانَ رَسُول الله ﷺ يَتَخَوَّف أَنْ لَا تَكُون الأَنْصَار تَرَى عَلَيْهَا نُصْرَتَهُ إِلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ بِالمَدِينَةِ مِنْ عَدُوّه، وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِير بِهِمْ إِلَى عَدُوّ مِنْ بِلَادهمْ، فَلَمَّا قَالَ رَسُول الله ﷺ ذَلِكَ، قَالَ لَهُ سَعْد بْن مُعَاذ: وَالله لَكَأَنَّك تُرِيدنَا يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**أَجَل**». فَقَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِك وَصَدَّقْنَاك، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْت بِهِ هُوَ الحَقّ، وَأَعْطَيْنَاك عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْع وَالطَّاعَة، فَامْضِ يَا رَسُول الله لما أَرَدْتَ، فَوَالَّذِي بَعَثَك بِالحَقِّ، إِنْ اسْتَعْرَضْت بِنَا هَذَا البَحْر فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك، مَا يَتَخَلَّف مِنَّا رَجُل وَاحِد، وَمَا نَكْرَه أَنْ تَلقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ عِنْد الحَرْب صُدُقٌ عِنْد اللِّقَاء، وَلَعَلَّ الله يُرِيك مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنك، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَة الله، فَسُرَّ رَسُول الله ﷺ بِقَوْلِ سَعْد، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «**سِيرُوا عَلَى بَرَكَة الله، وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ الله قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَالله لَكَأَنِّي الآن أَنْظُر إِلَى مَصَارِع القَوْم**»[1].

وَرَوَى العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس نَحْو هَذَا، وَكَذَلِكَ قَالَ السُّدِّيّ وَقَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ وَغَيْر وَاحِد مِنْ عُلَمَاء السَّلَف وَالخَلَف، اخْتَصَرْنَا أَقْوَالهمْ اكْتِفَاء بِسِيَاقِ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو نُوح قُرَاد، حَدَّثَنَا عِكْرِمَة بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا سِمَاك الحَنَفِيّ أَبُو زُمَيْل، حَدَّثَنِي ابْن عَبَّاس، حَدَّثَنِي عُمَر بْن الخَطَّاب ؓ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْم بَدْر نَظَرَ النَّبِيّ ﷺ إِلَى أَصْحَابه وَهُمْ ثَلَثمِائَةٍ وَنَيِّف، وَنَظَرَ إِلَى المُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْف وَزِيَادَة، فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيّ ﷺ القِبْلَة ثم مد يديه وَعَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَإِزَاره ثُمَّ قَالَ: «**اللهمَّ؛ أين ما وعدتني، اللهم؛ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهمَّ؛ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَة مِنْ أَهْل الإِسْلام فَلا تُعْبَد فِي الأَرْض أَبَدًا**».

(١) **صحيح**: أخرجه ابن جرير (٦/ ١٨٠) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «فقه السيرة» (١/ ٢١٨).

قَالَ: فَمَا زَالَ يَسْتَغِيث رَبّه وَيَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْر، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ، -ألبسه- ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيّ الله؛ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُك رَبَّك؛ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَك مَا وَعَدَك. فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾. فَلَمَّا كَانَ يَوْمئِذٍ التَقَوْا، فَهَزَمَ الله الْمُشْرِكِينَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا. وَاسْتَشَارَ رَسُول الله ﷺ أَبَا بَكْر وَعُمَر وَعَلِيًّا، فَقَالَ أَبُو بَكْر: يَا رَسُول الله؛ هَؤُلَاءِ بَنُو العَمّ وَالعَشِيرَة وَالإِخْوَان، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْخُذ مِنْهُمْ الفِدْيَة؛ فَيَكُون مَا أَخَذْنَاهُ مِنْهُمْ قُوَّة لَنَا عَلَى الكُفَّار، وَعَسَى أَنْ يَهْدِيَهُمْ الله فَيَكُونُوا لَنَا عَضُدًا. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ **«مَا تَرَى يَا بْنَ الخَطَّابِ؟»** قَالَ: قُلت: وَالله مَا أَرَى مَا رَأَى أَبُو بَكْر، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَنِي مِنْ فُلَان -قَرِيبٍ لِعُمَرَ- فَأَضْرِبَ عُنُقه، وَتُمَكِّن عَلِيًّا مِنْ عَقِيل فَيَضْرِب عُنُقه، وَتُمَكِّن حَمْزَة مِنْ فُلَانٍ -أَخِيهِ- فَيَضْرِب عُنُقه، حَتَّى يَعْلَم الله أَنْ لَيْسَ فِي قُلُوبنَا هَوَادَة لِلْمُشْرِكِينَ، هَؤُلَاءِ صَنَادِيدهمْ وَأَئِمَّتهمْ وَقَادَتُهُمْ. فَهَوِيَ رَسُول الله ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْر، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلت، وَأَخَذَ مِنْهُمْ الفِدَاء. فَلَمَّا كَانَ مِنْ الغَد -قَالَ عُمَر:- فَغَدَوْت إِلَى النَّبِيّ ﷺ وَأَبِي بَكْر وَهُمَا يَبْكِيَانِ، فَقُلت: يا رسول الله، مَا يُبْكِيك أَنْتَ وَصَاحِبَك؟ فَإِنْ وَجَدْت بُكَاء بَكَيْت، وَإِنْ لَمْ أَجِد بُكَاء تَبَاكَيْت لِبُكَائِكُمَا. قَالَ النَّبِيّ ﷺ **«الَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابك مِنْ أَخْذِهِمْ الفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَة»** لِشَجَرَةٍ قَرِيبَة، وَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء، ثم أَحَلَّ لَهُمْ الغَنَائِم. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ مِنْ العَام الْمُقْبِل، عُوقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْم بَدْر، مِنْ أَخْذهمْ الفِدَاءَ؛ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَفَرَّ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِّمَتْ البَيْضَة عَلَى رَأْسه، وَسَالَ الدَّم عَلَى وَجْهه، فَأَنْزَلَ الله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ الآيَة، بِأَخْذِكُمْ الفِدَاء[1].

وَرَوَاهُ مُسْلِم وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن جَرِير وَابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ طُرُق، عَنْ عِكْرِمَة بْن عَمَّار بِهِ. وَصَحَّحَهُ عَلِيّ ابْن الْمَدِينِيّ وَالتِّرْمِذِيّ، وَقَالَا: لَا يُعْرَف إِلَّا مِنْ حَدِيث عِكْرِمَة بْن عَمَّار [اليَمَامِيّ][2]. وَهَكَذَا رَوَى عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة وَالعَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ أَنَّ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة قَوْله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أنها فِي دُعَاء النَّبِيّ ﷺ وَكَذَا قَالَ يَزِيد بْن تُبَيْع، وَالسُّدِّيّ، وَابْن جُرَيْج. وَقَالَ أَبُو بَكْر ابْن عَيَّاش، عَنْ أَبِي حُصَيْن، عَنْ أَبِي صَالِح، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْر جَعَلَ النَّبِيّ ﷺ يُنَاشِد رَبّه أَشَدّ النِّشْدَة، يَدْعُو، فَأَتَاهُ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ بَعْض نِشْدَتك، فَوَالله لَيَفِيَنَّ الله لَك بِمَا وَعَدَك.

وقَالَ البُخَارِيّ فِي «كِتَاب الْمَغَازِي» بَاب قَوْل الله تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ مُخَارِق، عَنْ طَارِق بْن شِهَاب؛ قَالَ: سَمِعْت ابْن مَسْعُود يَقُول: شَهِدْت مِنْ الْمِقْدَاد بْن الأَسْوَد مَشْهَدًا، لَأَنْ أَكُون صَاحِبه أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ؛ أَتَى النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لَا نَقُول كَمَا قَالَ قَوْم مُوسَى لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، وَلَكِنْ نُقَاتِل عَنْ يَمِينك، وَعَنْ شِمَالِك، وَبَيْن يَدَيْك وَخَلفَك، فَرَأَيْت النَّبِيّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهه وَسَرَّهُ -يَعْنِي: قَوْله-[3].

وَحَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن حَوْشَبٍ، حَدَّثَنَا عَبْد الوَهَّاب، حَدَّثَنَا خَالِد الحَذَّاء، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ يَوْم بَدْر: **«اللهمَّ، أَنْشُدك عَهْدك ووَعْدَك. اللهمَّ إِنْ شِئْت لَمْ تُعْبَدْ»**. فَأَخَذَ أَبُو بَكْر بِيَدِهِ، فَقَالَ: حَسْبُك.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٦٣)، وأبو داود (٢٦٩٠)، وأحمد (١/ ٣٠).
(٢) في نسخة: [اليماني].
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٩٥٢).

فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[١]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ، عَنْ بُنْدَار، عَنْ عَبْد الوَهَّاب بن عَبْد المَجِيد الثَّقَفِي.
وَقَوْله تَعَالَى: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أَيْ: يَرْدُف بَعْضهمْ بَعْضًا، كَمَا قَالَ هَارُون بْن عنترة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ مُتَتَابِعِينَ. وَيَحْتَمِل أَنَّ المُرَاد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لَكُمْ، أَيْ: نَجْدَةً لَكُمْ، كَمَا قَالَ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يَقُول: المَدَد، كَمَا تَقُول ايتِ لِلرَّجُلِ فزِدْهُ كَذَا وَكَذَا. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَابْن كَثِير القَارِئ وَابْن زَيْد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾: مُمِدِّينَ. وَقَالَ أَبُو كُدَيْنَة، عَنْ قَابُس، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قَالَ: وَرَاء كُلّ مَلَك مَلَك. وَفِي رِوَايَة بِهَذَا الإِسْنَاد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، قَالَ: بَعْضهمْ عَلَى أَثَر بَعْض. وَكَذَا قَالَ أَبُو ظَبْيَان وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي المُثَنَّى، حَدَّثَنَا إِسْحَاق، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن مُحَمَّد الزُّهْرِيّ، حَدَّثَنِي عَبْد العَزِيز بْن عِمْرَان، عَنْ الزمعي، عَنْ أَبِي الحُوَيْرِث، عَنْ مُحَمَّد بْن جُبَيْر، عَنْ عَلِيّ ﷺ قَالَ: نَزَلَ جِبْرِيل فِي أَلْف مِنْ المَلَائِكَة عَنْ مَيْمَنَة النَّبِيّ ﷺ، وَفِيهَا أَبُو بَكْر، وَنَزَلَ مِيكَائِيل فِي أَلْف مِنْ المَلَائِكَة عَنْ مَيْسَرَة النَّبِيّ ﷺ، وَأَنَا فِي المَيْسَرَة. وَهَذَا يَقْتَضِي -إِنْ صَحَّ إِسْنَاده- أَنَّ الأَلْف مُرْدَفَة بِمِثْلِهَا؛ وَلِهَذَا قَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿مُرْدَفِينَ﴾ بِفَتْحِ الدَّال، فَالله أَعْلَمُ.
وَالمَشْهُور مَا رَوَاهُ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَالَ: وَأَمَدَّ الله نَبِيّه ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ؛ بِأَلْفٍ مِنْ المَلَائِكَة، فَكَانَ جِبْرِيل فِي خَمْسِمِائَةٍ مِنْ المَلَائِكَة مُجَنِّبَةٍ، وَمِيكَائِيل فِي خَمْسِمِائَةٍ مُجَنِّبَة.

وَرَوَى الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير وَمُسْلِم، مِنْ حَدِيث عِكْرِمَة بْن عَمَّار، عَنْ أَبِي زُمَيْلٍ سِمَاك بْن وَلِيد الحَنَفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ عُمَر الحَدِيث المُتَقَدِّم. ثُمَّ قَالَ أَبُو زُمَيْل: حَدَّثَنِي ابْن عَبَّاس قَالَ: بَيْنَا رَجُل مِنْ المُسْلِمِينَ يَشْتَدّ فِي أَثَر رَجُل مِنْ المُشْرِكِينَ أَمَامه، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَة بِالسَّوْطِ فَوْقه، وَصَوْت الفَارِس يَقُول: «**أَقْدِمْ حَيْزُومُ**». إِذْ نَظَرَ إِلَى المُشْرِك أَمَامه، فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِّمَ أنفه، وَشُقَّ وَجْهه كَضَرْبَةِ السَّوْط، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَع، فَجَاءَ الأَنْصَارِيّ، فَحَدَّثَ ذَلِكَ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: «**صَدَقْت، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاء الثَّالِثَة**»، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ[٢].

وَقَالَ البُخَارِيّ: (بَاب شُهُود المَلَائِكَة بَدْرًا): حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ مُعَاذ بْن رِفَاعَة بْن رَافِع الزُّرَقِيّ، عَنْ أَبِيهِ -وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْل بَدْر-، قَالَ: جَاءَ جِبْرِيل إِلَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: مَا تَعُدُّونَ أَهْل بَدْر فِيكُمْ؟ قَالَ: «**مِنْ أَفْضَل المُسْلِمِينَ**» أَوْ كَلِمَة نَحْوهَا قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ المَلَائِكَة[٣].
انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ، وَقَدْ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي المُعْجَم الكَبِير مِنْ حَدِيث رَافِع بْن خَدِيج وَهُوَ خَطَأ، وَالصَّوَاب رِوَايَة البُخَارِيّ، وَالله أَعْلَمُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ لِعُمَر لَمَّا شَاوَرَهُ فِي قَتْل حَاطِب بْن أَبِي بَلْتَعَة: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيك لَعَلَّ الله قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْل بَدْر فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْت لَكُمْ**»[٤].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ﴾ أَيْ: وَمَا جَعَلَ الله بَعْث المَلَائِكَة وَإِعْلَامه إِيَّاكُمْ بِهِمْ إِلَّا بُشْرَى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾، وَإِلَّا فَهُوَ تَعَالَى قَادِر عَلَى نَصْركُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، بِدُونِ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٩٥٣).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٦٣).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٩٩٢).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

بِبَعْضٍۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾. فَهَذِهِ حِكَمٌ شَرَعَ اللهُ جِهَادَ الكُفَّارِ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِهَا، وَقَدْ كَانَ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَاقِبُ الأُمَمَ السَّالِفَةَ المُكَذِّبَةَ لِلأَنْبِيَاءِ بِالقَوَارِعِ الَّتِي تَعُمّ تِلْكَ الأُمَّةَ المُكَذِّبَة، كَمَا أَهْلَكَ قَوْم نُوحٍ بِالطُّوفَانِ، وَعَادًا الأُولَى بِالدَّبُورِ، وَثَمُود بِالصَّيْحَةِ، وَقَوْم لُوط بِالخَسْفِ وَالقَلب وَحِجَارَة السِّجِّيل، وَقَوْم شُعَيْب بِيَوْمِ الظُّلَّة، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى، وَأَهْلَكَ عَدُوَّهُ فِرْعَوْن وَقَوْمه بِالغَرَقِ فِي اليَمّ، ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى التَّوْرَاة، شَرَعَ فِيهَا قِتَال الكُفَّار، وَاسْتَمَرَّ الحُكْم فِي بَقِيَّة الشَّرَائِع بَعْده عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ﴾، وَقَتْل الْمُؤْمِنِينَ لِلكَافِرِينَ أَشَدّ إِهَانَة لِلكَافِرِينَ، وَأَشْفَى لِصُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِلمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

وَلِهَذَا كَانَ قَتْل صَنَادِيد قُرَيْش بِأَيْدِي أَعْدَائِهِمْ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِأَعْيُنِ ازْدِرَائِهِمْ أَنْكَى لَهُمْ وَأَشْفَى لِصُدُورِ حِزْب الإِيمَان، فَقَتْل أَبِي جَهْل فِي مَعْرَكَة القِتَال وَحَوْمَة الوَغَى أَشَدّ إِهَانَة لَهُ مِنْ أن يموت عَلَى فِرَاشه بِقَارِعَةٍ أَوْ صَاعِقَةٍ أَوْ نَحْو ذَلِكَ، كَمَا مَاتَ أَبُو لَهَب -لَعَنَهُ الله- بِالعَدَسَةِ، بِحَيْثُ لَمْ يَقْرَبْهُ أَحَد مِنْ أَقَارِبه، وَإِنَّمَا غَسَّلُوهُ بِالمَاءِ قَذْفًا مِنْ بَعِيدٍ، وَرَجَمُوهُ حَتَّى دَفَنُوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أَيْ: لَهُ العِزَّة وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤْمِنِينَ بِهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، كما قال تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾. ﴿حَكِيمٌ﴾: فِيمَا شَرَعَهُ مِنْ قِتَال الكُفَّار، مَعَ القُدْرَة عَلَى دَمَارهمْ وَإِهْلَاكهمْ بِحَوْلِهِ وَقُوَّته، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُواۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾

يُذَكِّرُهُمْ الله تَعَالَى بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِلْقَائِهِ النُّعَاس عَلَيْهِمْ، أَمَانًا مِنْ خَوْفهمْ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كَثْرَة عَدُوّهُمْ وَقِلَّة عَدَدِهِمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى بِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾. قَالَ أَبُو طَلْحَة: كُنْت مِمَّنْ أَصَابَهُ النُّعَاسُ يَوْم أُحُد، وَلَقَدْ سَقَطَ السَّيْف مِنْ يَدِي مِرَارًا يَسْقُط وَآخُذهُ، وَيَسْقط وَآخُذهُ، وَلَقَدْ نَظَرْت إِلَيْهِمْ يَمِيدُونَ وَهُمْ تَحْت الحَجَف. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا زُهَيْر، حَدَّثَنَا ابْن مَهْدِيّ، عَنْ شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ حَارِثَة بْن مُضَرِّب، عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه قَالَ: مَا كَانَ فِينَا فَارِس يَوْم بَدْر غَيْر المِقْدَاد، وَلَقَدْ رَأَيْتنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِم إِلَّا رَسُول الله ﷺ يُصَلِّي تَحْت شَجَرَة، وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَاصِم عَنْ أَبِي رَزِين، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: النُّعَاس فِي القِتَال أَمَنَة مِنْ الله، وَفِي الصَّلَاة مِنْ الشَّيْطَان. وَقَالَ قَتَادَة: النُّعَاس فِي الرَّأْس، وَالنَّوْم فِي القَلب.

قلت: أَمَّا النُّعَاس فَقَدْ أَصَابَهُمْ يَوْم أُحُد، وَأَمْر ذَلِكَ مَشْهُور جِدًّا، وَأَمَّا يوم بدر فهذه الآيَة الشَّرِيفَة إِنَّمَا هِيَ فِي سِيَاق قِصَّة بَدْر، وَهِيَ دَالَّة عَلَى وُقُوع ذَلِكَ أَيْضًا، وَكَأَنَّ ذَلِكَ كَان سجية لِلمُؤْمِنِينَ عِنْد شِدَّة البَأْس؛ لِتَكُونَ قُلُوبهمْ آمِنَة مُطْمَئِنَّة بِنَصْرِ الله، وَهَذَا مِنْ فَضْل الله وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ، لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْر فِي العَرِيش مَعَ الصِّدِّيق رضي الله عنه،

وَهُمَا يَدْعُوَانِ، أَخَذَتْ رَسُولَ الله ﷺ سِنَةٌ مِنَ النَّوْم، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ مُتَبَسِّمًا، فَقَالَ: **«أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْر، هَذَا جِبْرِيل عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْع»**. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَاب العَرِيش وَهُوَ يَتْلُو قَوْله تَعَالَى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، قَالَ عَلِيّ بن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَالَ: نَزَلَ النَّبِيّ ﷺ -يعني: حِين سَارَ إِلَى بَدْر- وَالمُسلمونَ بَيْنهمْ وَبَيْنَ المَاء رَمْلَة دَعْصَة، وَأَصَابَ المُسْلِمِينَ ضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَأَلْقَى الشَّيْطَان فِي قُلُوبِهِمْ الغَيْظ، يُوَسْوِس بَيْنهمْ: تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء الله تَعَالَى وَفِيكُمْ رَسُوله، وَقَدْ غَلَبَكُمْ المُشْرِكُونَ عَلَى المَاء، وَأَنْتُمْ تُصَلُّونَ مُجْنِبِينَ؛ فَأَمْطَرَ الله عَلَيْهِمْ مَطَرًا شَدِيدًا، فَشَرِبَ المُسْلِمُونَ وَتَطَهَّرُوا، وَأَذْهَبَ الله عَنْهُمْ رِجْس الشَّيْطَان، وَأنشف الرَّمَل حِين أَصَابَهُ المَطَر وَمَشَى النَّاس عَلَيْهِ وَالدَّوَابّ، فَسَارُوا إِلَى القَوْم وَأَمَدَّ الله نَبِيّه ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ بِأَلفٍ مِنْ المَلَائِكَة؛ فَكَانَ جِبْرِيل فِي خَمْسِمِائَةٍ مُجَنِّبَةٍ، وَمِيكَائِيل فِي خَمْسِمِائَةٍ مُجَنِّبَة. وَكَذَا قَالَ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: إِنَّ المُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْش لَمَّا خَرَجُوا لِيَنْصُرُوا العِير وَلِيُقَاتِلُوا عَنْهَا، نَزَلُوا عَلَى المَاء يَوْم بَدْر فَغَلَبُوا المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ؛ فَأَصَابَ المُؤْمِنِينَ الظَّمَأُ، فَجَعَلُوا يُصَلُّونَ مُجْنِبِينَ مُحْدِثِينَ، حَتَّى تَعَاطَوْا ذَلِكَ فِي صُدُورهمْ، فَأَنْزَلَ الله مِنْ السَّمَاء مَاء، حَتَّى سَالَ الوَادِي، فَشَرِبَ المُؤْمِنُونَ وَمَلَئُوا الأَسْقِيَة، وَسَقَوْا الرِّكَاب، وَاغْتَسَلُوا مِنْ الجَنَابَة، فَجَعَلَ الله فِي ذَلِكَ طَهُورًا، وَثَبَّتَ الأَقْدَام، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنهمْ وَبَيْنَ القَوْم رَمْلَة، فَبَعَثَ الله المَطَر عَلَيْهَا فَضَرَبَهَا حَتَّى اشْتَدَّتْ، وَثَبَتَتْ عَلَيْهَا الأَقْدَام. وَنَحْو ذَلِكَ رُوِيَ عَنْ قَتَادَة وَالضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب وَالشَّعْبِيّ وَالزُّهْرِيّ وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ أَنَّهُ طَشٌّ أَصَابَهُمْ يَوْم بَدْر.

وَالمَعْرُوف أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَمَّا سَارَ إِلَى بَدْر، نَزَلَ عَلَى أَدْنَى مَاء هُنَاكَ، أَيْ: أَوَّل مَاء وَجَدَهُ فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الحُبَاب ابْن المُنْذِر، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، هَذَا المَنْزِل الَّذِي نَزَلته مَنْزِل أَنْزَلَكه الله؛ فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُجَاوِزهُ، أَوْ مَنْزِل نَزَلته لِلحَرْبِ وَالمَكِيدَة؟ فَقَالَ: **«بَل مَنْزِل نَزَلته لِلحَرْبِ وَالمَكِيدَة»**. فَقَالَ: يَا رَسُول الله، إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، وَلَكِنْ سِرْ بِنَا حَتَّى نَنْزِل عَلَى أَدْنَى مَاء يَلِي القَوْم، وَنُغَوِّر مَا وَرَاءَهُ مِنْ القُلُب، وَنَسْتَقِي الحِيَاض، فَيَكُون لَنَا مَاء وَلَيْسَ لَهُمْ مَاء، فَسَارَ رَسُول الله ﷺ فَفَعَلَ كَذَلِكَ. وَفِي «مَغَازِي الأُمَوِيّ» أَنَّ الحُبَاب لَمَّا قَالَ ذَلِكَ، نَزَلَ مَلَكٌ مِنْ السَّمَاء، وَجِبْرِيل جَالِس عِنْد رَسُول الله ﷺ فَقَالَ ذَلِكَ المَلَك: يَا مُحَمَّد؛ إِنَّ رَبّك يُقْرِئك السَّلَام، وَيَقُول لَك: إِنَّ الرَّأْي مَا أَشَارَ بِهِ الحُبَاب بْن المُنْذِر، فَالتَفَتَ رَسُول الله ﷺ إِلَى جِبْرِيل عليه السلام فَقَالَ: **«هَل تَعْرِف هَذَا؟»** فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا كُلّ المَلَائِكَة أَعْرِفُهُمْ وَإِنَّهُ مَلَك وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ. وَأَحْسَنُ مَا فِي هَذَا مَا رَوَاهُ الإِمَام مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار صَاحِب «المَغَازِي» رحمه الله: حَدَّثَنِي يَزِيد بْن رُومَان، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر؛ قَالَ: بَعَثَ الله السَّمَاء، وَكَانَ الوَادِي دَهْسًا، فَأَصَابَ رَسُول الله ﷺ وَأَصْحَابه مَا لَبَّدَ لَهُمْ الأَرْض، وَلَمْ يَمْنَعهُمْ مِنْ المَسِير، وَأَصَابَ قُرَيْشًا مَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يرتحلوا مَعَهُ. وَقَالَ مُجَاهِد: أَنْزَلَ الله عَلَيْهِمْ المَطَر قَبْل النُّعَاس؛ فَأَطْفَأَ بِالمَطَرِ الغُبَار، وَتَلَبَّدَتْ بِهِ الأَرْض، وَطَابَتْ نُفُوسهمْ وَثَبَتَتْ بِهِ أَقْدَامهمْ. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا هَارُون بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا مُصْعَب بْن المِقْدَام، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاق، عَنْ حارثة، عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه، قَالَ: أَصَابَنَا مِنْ اللَّيْل طَشٌّ مِنْ المَطَر -يَعْنِي اللَّيْلَة الَّتِي كَانَتْ فِي صَبِيحَتهَا وَقْعَة بَدْر- فَانْطَلَقْنَا تَحْت الشَّجَر وَالحَجَف، نَسْتَظِلّ تَحْتهَا مِنْ المَطَر، وَبَاتَ رَسُول الله ﷺ يدعو ربه: **«اللهم، إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»**. فلما أن طلع الفجر نادى: **«الصلاة، عباد الله!»** فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وَحَرَّضَ عَلَى القِتَال.

وَقَوْله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أَيْ: مِنْ حَدَثٍ أَصْغَر أَوْ أَكْبَر، وَهُوَ تَطْهِير الظَّاهِر، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أَيْ: مِنْ وَسْوَسَة أَوْ خَاطِر سَيِّئ وَهُوَ تَطْهِير البَاطِن، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقّ أَهْل الجَنَّة: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فَهَذَا زِينَة الظَّاهِر، ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أَيْ: مُطَهِّرًا لِمَا كَانَ مِنْ غِلّ أَوْ

حَسَد أَوْ تَبَاغُضٍ، وَهُوَ زِينَة البَاطِنِ وَطَهَارَته. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أَيْ: بِالصَّبْرِ وَالإِقْدَام عَلَى مُجَالَدَة الأَعْدَاء، وَهُوَ شَجَاعَة البَاطِنِ. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ وَهُوَ شَجَاعَة الظَّاهِر، والله أَعْلَمُ.

وَقَوْله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وَهَذِهِ نِعْمَة خَفِيَّة أَظْهَرَهَا الله تَعَالَى لَهُمْ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا، وَهُوَ أَنَّهُ -تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَبَارَكَ وَتَمَجَّدَ- أَوْحَى إِلَى المَلَائِكَة الَّذِينَ أَنْزَلَهُمْ لِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَدِينه وَحِزْبه المُؤْمِنِينَ، يُوحِي إِلَيْهِمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَنْ يُثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا. قَالَ ابْن إِسْحَاق: وَآزِرُوهُمْ. وَقَالَ غَيْره: قَاتِلُوا مَعَهُمْ. وَقِيلَ: كَثِّرُوا سَوَادهمْ. وَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ بِأَنَّ المَلَك كَانَ يَأْتِي الرَّجُل مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ، يَقُول: سَمِعْت هَؤُلَاءِ القَوْم -يَعْنِي المُشْرِكِينَ- يَقُولُونَ: وَالله لَئِنْ حَمَلُوا عَلَيْنَا لننكشفن، فَيُحَدِّث المُسْلِمُونَ بَعْضهمْ بَعْضًا بِذَلِكَ؛ فَتَقْوَى أَنْفُسهمْ. حَكَاهُ ابْن جَرِير، وَهَذَا لَفْظه بِحُرُوفِهِ.

وَقَوْله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ أَيْ: ثَبِّتُوا أَنْتُمْ المُؤْمِنِينَ، وَقَوُّوا أَنْفُسهمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، عَنْ أَمْرِي لَكُمْ بِذَلِكَ، سَأُلْقِي الرُّعْب [وَالذِّلَّة][1] وَالصَّغَار عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَكَذَّبَ رَسُولِي؛ ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أَيْ: اضْرِبُوا الهَامَ فَفَلِّقُوهَا، وَاحْتَزُّوا الرِّقَاب فَقَطِّعُوهَا، وَقَطِّعُوا الأَطْرَاف مِنْهُمْ، وَهِيَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلهمْ. وَقَدْ اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ فَقِيلَ: مَعْنَاهُ اضْرِبُوا الرُّءُوس. قَالَهُ عِكْرِمَة. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أَيْ: عَلَى الأَعْنَاق، وَهِيَ الرِّقَاب. قَالَهُ الضَّحَّاك وَعَطِيَّة العَوْفِيّ. وَيَشْهَد لِهَذَا المَعْنَى أَنَّ الله تَعَالَى أَرْشَدَ المُؤْمِنِينَ إِلَى هَذَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾. وَقَالَ وَكِيع: عَنْ المَسْعُودِيّ، عَنْ القَاسِم، قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِأُعَذِّبَ بِعَذَابِ الله؛ إِنَّمَا بُعِثْتُ بِضَرْبِ الرِّقَابِ، وَشَدِّ الوَثَاقِ»[2]. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّهَا تَدُلّ عَلَى ضَرْب الرِّقَاب وَفَلْق الهَام.

قُلت: وَفِي مَغَازِي الأُمَوِيّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، جَعَلَ يَمُرّ بَيْن القَتْلَى يَوْم بَدْر، فَيَقُول: «نُفَلِّقُ هَامًا ...».

فَيَقُول أَبُو بَكْر: .... مِــــنْ رِجَـــالٍ أَعِـــزَّةٍ ❁ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

فَيَبْتَدِئ رَسُول الله ﷺ بِأَوَّلِ البَيْت، وَيَسْتَطْعِم أَبَا بَكْر ﷺ إِنْشَاد آخِره؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يُحْسِن إِنْشَاد الشِّعْر، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[3]. وَقَالَ الرَّبِيع بْن أَنَس: كَانَ النَّاس يَوْم بَدْر يَعْرِفُونَ قَتْلَى المَلَائِكَة مِمَّنْ قَتَلُوهُمْ، بِضَرْبِ فَوْق الأَعْنَاق وَعَلَى البَنَان، مِثْل سِمَة النَّار قَدْ أُحْرِقَ بِهِ. وَقَوْله: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قَالَ ابْن جَرِير: مَعْنَاهُ: وَاضْرِبُوا مِنْ عَدُوّكُمْ أَيّهَا المُؤْمِنُونَ كُلّ طَرَف وَمَفْصِل، مِنْ أَطْرَاف أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلهمْ، وَالبَنَان: جَمْع بَنَانَة، كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

أَلَا لَيْتَنِـــي قَطَعْـــتُ مِنّـــي بَنَانَـــةً ❁ وَلَاقَيْتُـــه فِـــي البَيْـــتِ يَقْظَـــانَ حَـــاذِرَا

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يَعْنِي بِالبَنَانِ: الأَطْرَاف. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك وَابْن جَرِيج. وَقَالَ السُّدِّيّ: البَنَان: الأَطْرَاف. وَيُقَال: كُلّ مَفْصِل. وَقَالَ عِكْرِمَة وَعَطِيَّة العَوْفِيّ وَالضَّحَّاك فِي رِوَايَة أُخْرَى: كُلّ مَفْصِل. وَقَالَ الأَوْزَاعِيّ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قَالَ: اضْرِبْ مِنْهُ الوَجْه وَالعَيْن، وَارْمِهِ بِشِهَابٍ مِنْ نَار، فَإِذَا أَخَذْته حَرُمَ ذَلِكَ كُلّه عَلَيْك. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، فَذَكَرَ قِصَّة بَدْر إِلَى أَنْ قَالَ: فَقَالَ أَبُو جَهْل: لَا تَقْتُلُوهُمْ قَتْلًا، وَلَكِنْ خُذُوهُمْ أَخْذًا، حَتَّى تُعَرِّفُوهُمْ الَّذِي صَنَعُوا مِنْ طَعْنِهِمْ فِي دِينكُمْ، وَرَغْبَتهمْ عَنْ اللَّاتِ وَالعُزَّى. فَأَوْحَى الله إِلَى المَلَائِكَة: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

---

(١) في نسخة: [المذلة].
(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٦/ ١٩٦) بسند مرسل.
(٣) لم أقف عليه مسندًا.

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾، فَقُتِلَ أَبُو جَهْل -لَعَنَهُ اللهُ- فِي تِسْعَةٍ وَسِتِّينَ رَجُلًا، وَأُسِرَ عُقْبَة بن أَبِي مُعَيْط فَقُتِلَ صَبْرًا، فَوَفَّى ذَلِكَ سَبْعِينَ، يَعْنِي: قَتِيلًا. ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيْ: خَالَفُوهُمَا فَسَارُوا فِي شِقّ، وَتَرَكُوا الشَّرْعَ وَالإِيمَان بِهِ وَاتِّبَاعه فِي شِقّ، وَهو مَأْخُوذ أَيْضًا مِنْ شَقّ العَصَا، وَهُوَ جَعْلُهَا فِرْقَتَيْنِ. ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ: هُوَ الطَّالِب الغَالِب لِمَنْ خَالَفَهُ وَنَاوَأَهُ، لا يَفُوتهُ شَيْء، وَلَا يَقُوم لِغَضَبِهِ شَيْء، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لا إِلَه غَيْرُه، وَلَا رَبّ سِوَاهُ. ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ هَذَا خِطَاب لِلكُفَّارِ، أَيْ: ذُوقُوا هَذَا العَذَاب وَالنَّكَال فِي الدُّنْيَا، وَاعْلَمُوا أَيْضًا أَنَّ لِلكَافِرِينَ عَذَابَ النَّار فِي الآخِرَة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُتَوَعِّدًا عَلَى الفِرَار مِنَ الزَّحْف بِالنَّارِ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أَيْ: تَقَارَبْتُمْ مِنْهُمْ وَدَنَوْتُم منهمْ. ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أَيْ: تَفِرُّوا وَتَتْرُكُوا أَصْحَابكُمْ. ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أَيْ: يَفِرّ بَيْن يَدَيْ قِرْنِهِ مَكِيدَة؛ لِيُرِيَهُ أَنَّهُ قَدْ خَافَ مِنْهُ فَيَتْبَعهُ، ثُمَّ يَكُرّ عَلَيْهِ فَيَقْتُلهُ، فَلَا بَأْس عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، نَصَّ عَلَيْهِ سَعِيد بن جُبَيْر وَالسُّدِّيّ. وَقَالَ الضَّحَّاك: أَنْ يَتَقَدَّم عَنْ أَصْحَابه لِيَرَى غِرَّة مِنَ العَدُوّ فَيُصِيبهَا. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أَيْ: فَرَّ مِنْ هَاهُنَا إِلَى فِئَة أُخْرَى مِنَ المُسْلِمِينَ؛ يُعَاوِنهُمْ وَيُعَاوِنُونَهُ، فَيَجُوز لَهُ ذَلِكَ حَتَّى لَوْ كَانَ فِي سَرِيَّة، فَفَرَّ إِلَى أَمِيره أَوْ إِلَى الإِمَام الأَعْظَم، دَخَلَ فِي هَذِهِ الرُّخْصَة.

قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا زُهَيْر، حَدَّثَنَا يَزِيد بن أَبِي زِيَاد، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ عَبْد الله ابْن عُمَر ﭬ، قَالَ: كُنْت فِي سَرِيَّة مِنْ سَرَايَا رَسُول الله ﷺ، فَحَاصَ النَّاس حَيْصَة، وَكُنْت فِيمَنْ حَاصَ، فَقُلْنَا: كَيْف نَصْنَع وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الزَّحْف وَبُؤْنَا بِالغَضَبِ؟ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ دَخَلْنَا المَدِينَة فَبِتْنَا، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسنَا عَلَى رَسُول الله ﷺ، فَإِنْ كَانَتْ لَنَا تَوْبَةٌ وَإِلَّا ذَهَبْنَا، فَأَتَيْنَاهُ قَبْل صَلَاة الغَدَاة، فَخَرَجَ فَقَالَ: «**مَنِ القَوْم؟**» فَقُلْنَا: نَحْنُ الفَرَّارُونَ. فَقَالَ: «**لا، بَل أَنْتُمُ العَكَّارُونَ، أَنَا فِئَتكُمْ، وَأَنَا فِئَة المُسْلِمِينَ**». قَالَ: فَأَتَيْنَاهُ حَتَّى قَبَّلْنَا يَده[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَة مِنْ طُرُق: عَنْ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن لَا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث ابْن أَبِي زِيَاد.

وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد بِهِ، وَزَادَ فِي آخِره: وَقَرَأَ رَسُول الله ﷺ، هَذِهِ الآيَة: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ قَالَ أَهْل العِلم: مَعْنَى قَوْله: «**العَكَّارُون**» أَيْ: العَطَّافُونَ، وَكَذَلِكَ قَالَ عُمَر بْن الخَطَّاب ﭬ فِي أَبِي عُبَيْدَة، لَمَّا قُتِلَ عَلَى الجِسْر بِأَرْض فَارِس، لِكَثْرَةِ الجَيْش مِنْ نَاحِيَة المَجُوس، فَقَالَ عُمَر: لَوْ انحاز إِلَيَّ لَكُنْت لَهُ فِئَة. هَكَذَا رَوَاهُ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، عَنْ عُمَر. وَفِي رِوَايَة أَبِي عُثْمَان النَّهْدِيّ، عَنْ عُمَر قَالَ: لَمَّا قُتِلَ أَبُو عُبَيْدَة؛ قَالَ عُمَر: أَيُّهَا النَّاس، أَنَا فِئَتكُمْ. وَقَالَ مُجَاهِد: قَالَ عُمَر: أَنَا فِئَة كُلّ مُسْلِم. وَقَالَ عَبْد المَلِك بْن عُمَيْر، عَنْ عُمَر: أَيُّهَا النَّاس، لَا تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ الآيَة، فَإِنَّمَا كَانَتْ يَوْم بَدْر، وَأَنَا فِئَة كُلّ مُسْلِم.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا حَسَّان بْن عَبْد الله المِصْرِيّ، حَدَّثَنَا خَلَّاد بْن سُلَيْمَان الحَضْرَمِيّ، حَدَّثَنَا نَافِع أَنَّهُ سَأَلَ ابْن عُمَر، قُلت: إِنَّا قَوْم لَا نَثْبُت عِنْد قِتَال عَدُوّنَا، وَلَا نَدْرِي مَنِ الفِئَة: إِمَامنَا أَوْ عَسْكَرنَا؟ فَقَالَ:

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ٧٠)، (٢/ ١٠٠)، وأبو داود (٢٦٤٧) من حديث عبد الله بن عمر، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٥٦٧).

إنَّ الفِئَة: رَسُول الله ﷺ فقُلت: إنَّ الله يَقُول: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ فَقَالَ: إنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي يَوْم بَدْر، لَا قَبْلهَا وَلَا بَعْدهَا. وَقَالَ الضَّحَّاك فِي قَوْله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ المُتَحَيِّز: الفَارّ إِلَى النَّبِيّ وَأَصْحَابه، وَكَذَلِكَ مَنْ فَرَّ اليَوْم إِلَى أَمِيره أَوْ أَصْحَابه. فَأَمَّا إِنْ كَانَ الفِرَار لَا عَنْ سَبَب مِنْ هَذِهِ الأَسْبَاب؛ فَإِنَّهُ حَرَام وَكَبِيرَة مِنْ الكَبَائِر، لِمَا رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِم فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«اجْتَنِبُوا السَّبْع المُوبِقَات»** قِيلَ: يَا رَسُول الله، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: **«الشِّرْك بِالله، وَالسِّحْر، وَقَتْل النَّفْس الَّتِي حَرَّمَ الله إِلا بِالحَقّ، وَأَكْل الرِّبَا، وَأَكْل مَال اليَتِيم، وَالتَّوَلِّي يَوْم الزَّحْف، وَقَذْف المُحْصَنَات الغَافِلات المُؤْمِنَات»**[1]. وَلهذا الحديث شَوَاهِد مِنْ وُجُوه أُخَر، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ أَيْ: رَجَعَ ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ﴾ أَيْ: مَصِيره وَمُنْقَلَبه يَوْم مِيعَاده ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْن عَدِيٍّ، حَدَّثَنَا عبيد الله بْن عمرو الرَّقِّيّ، عَنْ زَيْد بْن أَبِي أُنَيْسَة، حَدَّثَنَا جَبَلَة بْن سُحَيْم، عَنْ أَبِي المُثَنَّى العَبْدِيّ، سَمِعْت السَّدُوسِيّ -يَعْنِي ابْن الخَصَاصِيَّة، وَهُوَ بَشِير بْن مَعْبَد- قَالَ: أَتَيْت النَّبِيّ ﷺ، لِأُبَايِعَهُ؛ فَاشْتَرَطَ عَلَيَّ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْده وَرَسُوله، وَأَنْ أُقِيم الصَّلَاة، وَأَنْ أُؤَدِّيَ الزَّكَاة، وَأَنْ أَحُجّ حَجَّة الإِسْلَام، وَأَنْ أَصُوم شَهْر رَمَضَان، وَأَنْ أُجَاهِد فِي سَبِيل الله. فَقُلْت: يَا رَسُول الله، أَمَّا اثْنَتَانِ فَوَالله لَا أُطِيقهُمَا؛ الجِهَاد: فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ مَنْ وَلَّى الدُّبُر، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ الله؛ فَأَخَاف إِنْ حَضَرْت ذَلِكَ خَشَعَتْ نَفْسِي وَكَرِهَتْ المَوْت. وَالصَّدَقَة: فَوَالله؛ مَا لِي إِلَّا غُنَيْمَة وَعَشْر ذَوْد، هُنَّ رَسَلُ أَهْلِي وَحَمُولَتهمْ. فَقَبَضَ رَسُول الله ﷺ يَده، ثم حرك يده، ثم قَالَ: **«فَلَا جِهَاد وَلَا صَدَقَة، فَبِمَ تَدْخُل الجَنَّة إِذًا؟»** فقُلت: يَا رَسُول الله، أَنَا أُبَايِعك. فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِنَّ كُلّهنَّ[2]. هَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ فِي الكُتُب السِّتَّة. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن حَمْزَة، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم أَبُو النَّضْر، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن رَبِيعَة، حَدَّثَنَا أَبُو الأَشْعَث، عَنْ ثَوْبَان، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: **«ثَلَاثَة لَا يَنْفَع مَعَهُنَّ عَمَل: الشِّرْك بِالله، وَعُقُوق الوَالِدَيْنِ، وَالفِرَار مِنْ الزَّحْف»**[3]. وَهَذَا أَيْضًا حَدِيث غَرِيب جِدًّا.

وَقَالَ الطَّبَرَانِيّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا العَبَّاس بْن الفضل الأَسْفَاطِيّ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا حَفْص بْن عُمَر الشَّنِّي، حَدَّثَنِي عَمْرو بْن مُرَّة، قَالَ: سَمِعْت بِلَال بْن يَسَار بْن زَيْد مَوْلَى رَسُول الله ﷺ قَالَ: سَمِعْت أَبِي يُحَدِّث عَنْ جَدِّي، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِر الله الَّذِي لَا إِلَه إِلا هُوَ وَأَتُوب إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنْ الزَّحْف»**[4]. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد عَنْ مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل بِهِ. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ البُخَارِيّ، عَنْ مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل بِهِ. وَقَالَ: غَرِيب لَا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه.

قُلت: وَلَا يُعْرَف لِزَيْدٍ مَوْلَى النَّبِيّ ﷺ عَنْهُ سِوَاهُ. وَقَدْ ذَهَبَ ذَاهِبُونَ إِلَى أَنَّ الفِرَار إِنَّمَا كَانَ حَرَامًا عَلَى الصَّحَابَة، لِأَنَّهُ -يعني: الجهاد- كَانَ فَرْض عَيْن عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ: عَلَى الأَنْصَار خَاصَّة؛ لِأَنَّهُمْ بَايَعُوا عَلَى السَّمْع وَالطَّاعَة فِي المَنْشَط وَالمَكْرَه. وَقِيلَ: المُرَاد بِهَذِهِ الآيَة أَهْل بَدْر خَاصَّة، يُرْوَى هَذَا عَنْ عُمَر، وَابْن عُمَر، وَابْن عَبَّاس،

---

(١) **صحيح:** تقدم.

(٢) **ضعيف:** أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٤) بسند ضعيف، فيه أبو المثنى العبدي واسمه مؤثر بن عفارة: مجهول، وضعفه الألباني في «كلمة الإخلاص» (١٦).

(٣) **ضعيف جدًّا:** أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٩٥) من حديث ثوبان، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٩٣) وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وفيه يزيد بن ربيعة: ضعيف جدًّا، وقال الألباني: ضعيف جدًّا. انظر «ضعيف الجامع» (٢٦٠٦).

(٤) **صحيح:** أخرجه أبو داود (١٥١٧)، والترمذي (٣٥٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ٨٩)، من حديث زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٣٤٣).

وَأَبِي هُرَيْرَة، وَأَبِي سَعِيد، وَأَبِي نَضْرَة، وَنَافِع مَوْلَى ابْن عُمَر، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَعِكْرِمَة، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك، وَغَيْرهمْ. وَحُجَّتهمْ فِي هَذَا: أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ عِصَابَة لَهَا شَوْكَة يَفِيئُونَ إِلَيْهَا سوى عِصَابَتهمْ تِلْكَ، كَمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «اللهمَّ، إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَة لا تُعْبَد فِي الأَرْض»[1]، وَلِهَذَا قَالَ عَبْد الله بْن المُبَارَك، عَنْ مُبَارَك بْن فَضَالَة، عَنْ الحَسَن فِي قَوْله: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ﴾ قَالَ: ذَلِكَ يَوْم بَدْر، فَأَمَّا اليَوْم فَإِنْ انْحَازَ إِلَى فِئَة أَوْ مِصْر -أَحْسَبهُ قَالَ: فَلَا بَأْس عَلَيْهِ.

وَقَالَ ابْن المُبَارَك أَيْضًا، عَنْ ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنِي يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، قَالَ: أَوْجَبَ الله تَعَالَى لِمَنْ فَرَّ يَوْم بَدْر النَّار، قَالَ: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُد بَعْد ذَلِكَ، قَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ ﴾، ثُمَّ كَانَ يَوْم حُنَيْن بَعْد ذَلِكَ بِسَبْعِ سِنِينَ، قَالَ: ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ ﴾. وَفِي سُنَن أَبِي دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ، وَمُسْتَدْرَك الحَاكِم، وَتَفْسِير ابْن جَرِير، وَابْن مَرْدُوَيْه مِنْ حَدِيث دَاوُد بْن أَبِي هِنْد، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد، أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ﴾ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِي أَهْل بَدْر. وَهَذَا كُلّه لَا يَنْفِي أَنْ يَكُون الفِرَار مِنْ الزَّحْف حَرَامًا عَلَى غَيْر أَهْل بَدْر؛ وَإِنْ كَانَ سَبَب نُزُول الآيَة فِيهِمْ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة المُتَقَدِّم، مِنْ أَنَّ الفِرَار مِنْ الزَّحْف مِنْ المُوبِقَات، كَمَا هُوَ مَذْهَب الجَمَاهِير، والله أَعْلَمُ.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

يُبَيِّن تَعَالَى أَنَّهُ خَالِق أَفْعَال العِبَاد، وَأَنَّهُ المَحْمُود عَلَى جَمِيع مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنْ خَيْر، لأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَفَّقَهُمْ لِذَلِكَ، وَأَعَانَهُمْ عليه، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ ﴾ أَيْ: لَيْسَ بِحَوْلِكُمْ وَقُوَّتكُمْ قَتَلْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ، مَعَ كَثْرَة عَدَدهمْ وَقِلَّة عَدَدكُمْ، أَيْ: بَلْ هُوَ الَّذِي أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾، يُعْلِم تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّصْر لَيْسَ عن كَثْرَة العَدَد، وَلَا بِلُبْسِ اللَّأْمَة وَالعُدَد، وَإِنَّمَا النَّصْر مِنْ عِنْده تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ أَيْضًا: فِي شَأْن القَبْضَة مِنْ التُّرَاب، الَّتِي حَصَبَ بِهَا وُجُوه الكَافِرِينَ يَوْم بَدْر، حِين خَرَجَ مِنْ العَرِيش، بَعْد دُعَائِهِ وَتَضَرُّعه وَاسْتِكَانَته، فَرَمَاهُمْ بِهَا، وَقَالَ: «شَاهَتْ الوُجُوه»، ثُمَّ أَمَرَ أَصْحَابه أَنْ يَصْدُقُوا الحَمْلَة إِثْرَهَا فَفَعَلُوا، فَأَوْصَلَ الله تِلْكَ الحَصْبَاء إِلَى أَعْيُن المُشْرِكِينَ؛ فَلَمْ يَبْقَ أَحَد مِنْهُمْ إِلَّا نَالَهُ مِنْهَا مَا شَغَلَهُ عَنْ حَاله، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ ﴾[2]. أَيْ: هُوَ الَّذِي بَلَّغَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ وَكَبَتَهُمْ بِهَا لَا أَنْتَ.

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: رَفَعَ رَسُول الله ﷺ، يَدَيْهِ -يَعْنِي: يَوْم بَدْر- فَقَالَ: «يَا رَبِّ، إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَة فَلَنْ تُعْبَد فِي الأَرْض أَبَدًا». فَقَالَ لَهُ جِبْرِيل: خُذْ قَبْضَة مِنْ التُّرَاب، فَارْمِ بِهَا فِي وُجُوههمْ، فَأَخَذَ قَبْضَة مِنْ التُّرَاب، فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوههمْ، فَمَا مِنْ المُشْرِكِينَ أَحَد إِلَّا أَصَابَ عَيْنَيْهِ وَمَنْخِرَيْهِ وَفَمَه تُرَابٌ مِنْ تِلْكَ

---

(١) حسن: تقدم.

(٢) مرسل: أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٠٢) بسند مرسل، وأورده المصنف بلا إسناد.

القَبْضَة فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ[١]. وَقَالَ السُّدِّيّ: قَالَ رَسُول الله ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه يَوْم بَدْر: «**أَعْطِنِي حَصْبًا مِنْ الأَرْض**». فَنَاوَلَهُ حَصْبًا عَلَيْهِ تُرَاب، فَرَمَى بِهِ فِي وُجُوه القَوْم، فَلَمْ يَبْقَ مُشْرِكٌ إِلَّا دَخَلَ فِي عَيْنَيْهِ مِنْ ذَلِكَ التُّرَاب شَيْء، ثُمَّ رَدَفَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْسِرُونَهُمْ، وَأَنْزَلَ الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾. وَقَالَ أَبُو مَعْشَر المَدَنِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن قَيْس وَمُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، قَالَا: لَمَّا دَنَا القَوْم بَعْضهمْ مِنْ بَعْض، أَخَذَ رَسُول الله ﷺ قَبْضَة مِنْ تُرَاب فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوه القَوْم، وَقَالَ: «**شَاهَتْ الوُجُوه**». فَدَخَلَتْ فِي أَعْيُنهمْ كُلّهمْ، وَأَقْبَلَ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْسِرُونَهُمْ، وَكَانَتْ هَزِيمَتهمْ فِي رَمْيَة رَسُول الله ﷺ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ قَالَ: هَذَا يَوْم بَدْر، أَخَذَ رَسُول الله ﷺ ثَلَاث حَصَيَات، فَرَمَى بِحَصَاة مَيْمَنَة القَوْم، وَحَصَاة فِي مَيْسَرَة القَوْم، وَحَصَاة بَيْن أَظْهُرهمْ، وَقَالَ: «**شَاهَتْ الوُجُوه**». فَانْهَزَمُوا. وَقَدْ رُوِيَ فِي هَذِهِ القِصَّة، عَنْ عُرْوَة بن الزبير، ومُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد مِنْ الأَئِمَّة: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَمْيَة النَّبِيّ ﷺ يَوْم بَدْر، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ يَوْم حُنَيْن أَيْضًا.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مَنْصُور، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن عِمْرَان، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن يَعْقُوب بْن عَبْد الله بْن زمعَة، عَنْ يَزِيد بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن سُلَيْمَان بْن أَبِي حثْمَة، عَنْ حَكِيم بْن حِزَام قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْم بَدْر سَمِعْنَا صَوْتًا وَقَعَ مِنْ السَّمَاء، كَأَنَّهُ صَوْت حَصَاة وَقَعَتْ فِي طَسْت، وَرَمَى رَسُول الله ﷺ، تِلْكَ الرَّمْيَة فَانْهَزَمْنَا[٢]. غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، وَهَاهُنَا قَوْلَانِ آخَرَانِ غَرِيبَانِ جِدًّا.

أَحَدهمَا: قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَوْف الطَّائِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان بْن عَمْرو، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر: أَنَّ رَسُول الله ﷺ، -يَوْم ابْن أَبِي الحَقِيق بِخَيْبَر- دَعَا بِقَوْسٍ فَأُتِيَ بِقَوْسٍ طَوِيلَة، وَقَالَ: «**جِيئُونِي بِقَوْسٍ غَيْرهَا**» فَجَاءُوهُ بِقَوْسٍ كَبْدَاء، فَرَمَى النَّبِيّ ﷺ الحِصْن، فَأَقْبَلَ السَّهْم يَهْوِي، حَتَّى قَتَلَ ابْن أَبِي الحَقِيق وَهُوَ فِي فِرَاشه، فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾[٣]. وَهَذَا غَرِيب وَإِسْنَاده جَيِّد إِلَى عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر بْن نُفَيْر، وَلَعَلَّهُ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ، أَوْ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ الآيَة تَعُمّ هَذَا كُلّه، وَإِلَّا فَسِيَاق الآيَة فِي سُورَة الأَنْفَال فِي قِصَّة بَدْر لَا مَحَالَة، وَهَذَا مِمَّا لَا يَخْفَى عَلَى أَئِمَّة العِلْم، والله أَعْلَمُ.

وَالثَّانِي: رَوَى ابْن جَرِير أَيْضًا، وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، بِإِسْنَادٍ صَحِيح إِلَى سَعِيد بْن الْمُسَيَّب وَالزُّهْرِيّ أَنَّهُمَا قَالَا: أُنْزِلَتْ فِي رَمْيَة النَّبِيّ ﷺ، يَوْم أُحُد أُبَيّ بْن خَلَف بِالحَرْبَةِ، وَهُوَ فِي لَأْمَتِهِ فَخَدَشَهُ فِي تَرْقُوَته، فَجَعَلَ يَتَدَأْدَأُ عَنْ فَرَسه مِرَارًا، حَتَّى كَانَتْ وَفَاته بَعْد أَيَّام، قَاسَى فِيهَا العَذَاب الأَلِيم، مَوْصُولًا بِعَذَابِ البَرْزَخ الْمُتَّصِل بِعَذَابِ الآخِرَة. وَهَذَا القَوْل عَنْ هَذَيْنِ الإِمَامَيْنِ غَرِيب أَيْضًا جِدًّا، وَلَعَلَّهُمَا أَرَادَا: أَنَّ الآيَة تَتَنَاوَلهُ بِعُمُومِهَا، لَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ خَاصَّة، كَمَا تَقَدَّمَ، والله أَعْلَمُ.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن جَعْفَر بْن الزُّبَيْر، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، فِي قَوْله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ﴾ أَيْ: لِيُعَرِّف الْمُؤْمِنِينَ من نِعْمَته عَلَيْهِمْ؛ مِنْ إِظْهَارهمْ عَلَى عَدُوّهُمْ، مَعَ كَثْرَة عَدُوّهُمْ وَقِلَّة عَدَدهمْ، لِيَعْرِفُوا بِذَلِكَ حَقَّهُ، وَيَشْكُرُوا بِذَلِكَ نِعْمَته. وَهَكَذَا فَسَّرَهُ ابْن جَرِير أَيْضًا، وَفِي الحَدِيث: «**وَكُلّ بَلَاء حَسَن أَبْلَانَا**». وَقَوْله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: سَمِيع الدُّعَاء، عَلِيم بِمَنْ يَسْتَحِقّ النَّصْر وَالغَلَب. وَقَوْله:

---

(١) **مرسل**.
(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٩/ ٢٠٥) بسند ضعيف، فيه عبد العزيز بن عمران: ضعيف.
(٣) **مرسل**: أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٨٩١١) بسند مرسل.

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هَذِهِ بِشَارَة أُخْرَى مَعَ مَا حَصَلَ مِنَ النَّصر، أَنَّهُ أَعْلَمَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُضْعِف كَيْد الكَافِرِينَ فِيمَا يُسْتَقْبَل، مُصَغِّر أَمْرهِمْ، وَأَنَّهُمْ كُلّ مَا لَهُمْ فِي تَبَار وَدَمَار، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يَقُول تَعَالَى لِلكُفَّار: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ ﴾ أَيْ: تَسْتَنْصِرُوا وَتَسْتَقْضُوا الله، وَتَسْتَحْكِمُوهُ أَنْ يَفْصِل بَيْنَكُمْ وَبَيْن أَعْدَائِكُمْ المُؤْمِنِينَ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ، كَمَا قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَغَيْره، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن ثَعْلَبَة ابْن صُعَيْر؛ أَنَّ أَبَا جَهْل قَالَ يَوْم بَدْر: اللهمَّ؛ أَقْطَعنا لِلرَّحِم، وَآتَانَا بِمَا لَا نَعْرِف، فَأَحْنِهِ الغَدَاة. وَكَانَ ذلك اسْتِفْتَاحًا مِنْهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ إِلَى آخِر الآيَة. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد -يَعْنِي: ابْن هَارُون-، أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي الزُّهْرِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن ثَعْلَبَة، أَنَّ أَبَا جَهْل قَالَ حِين التَقَى القَوْم: اللهمَّ، أَقْطَعنَا لِلرَّحِم، وَآتَانَا بِمَا لَا نَعْرِف، فَأَحْنِهِ الغَدَاة. فَكَانَ المُسْتَفْتِح[1]. وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير مِنْ حَدِيث صَالِح بْن كَيْسَان، عَنْ الزُّهْرِيّ بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ طَرِيق الزُّهْرِيّ بِهِ. وَقَالَ: صَحِيح عَلَى شَرْط الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ. وَرُوِيَ نَحْو هَذَا عَنْ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَيَزِيد بْن رُومَان، وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ السُّدِّيّ: كَانَ المُشْرِكُونَ حِين خَرَجُوا مِنْ مَكَّة إِلَى بَدْر، أَخَذُوا بِأَسْتَار الكَعْبَة، فَاسْتَنْصَرُوا الله، وَقَالُوا: اللهمَّ انْصُرْ أَعْلَى الجُنْدَيْنِ، وَأَكْرَم الفِئَتَيْنِ، وَخَيْر القَبِيلَتَيْنِ. فَقَالَ الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ يَقُول: قَدْ نَصَرْت مَا قُلْتُمْ، وَهُوَ مُحَمَّد ﷺ. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم: هُوَ قَوْله تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ أَيْ: عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الكُفْر بِالله، وَالتَّكْذِيب لِرَسُولِهِ، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ مَعْنَاهُ: وَإِنْ عُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الكُفْر وَالضَّلَالَة، نَعُدْ لَكُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الوَاقِعَة. وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ أَيْ: إِلَى الاسْتِفْتَاح، ﴿نَعُدْ﴾ أَيْ: إِلَى الفَتْح لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالنَّصْر لَهُ، وَتَظْفِيره عَلَى أَعْدَائِهِ، وَالأَوَّل أَقْوَى. ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أَيْ: وَلَوْ جَمَعْتُمْ مِنَ الجُمُوع مَا عَسَى أَنْ تَجْمَعُوا، فَإِنَّ مَنْ كَانَ الله مَعَهُ، فَلَا غَالِب لَهُ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَهُمْ الحِزْب النَّبَوِيّ، وَالجَنَاب المُصْطَفَوِيّ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

يَأْمُر تَعَالَى عِبَاده المُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَة رَسُوله، وَيَزْجُرهُمْ عَنْ مُخَالَفَتِهِ، وَالتَّشَبُّه بِالكَافِرِينَ بِهِ المُعَانِدِينَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ أَيْ: تَتْرُكُوا طَاعَته وَامْتِثَال أَوَامِره، وَتَرْك زَوَاجِره ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أَيْ: بَعْد مَا عَلِمْتُمْ مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ. ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قِيلَ: المُرَاد المُشْرِكُونَ. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ ابْن إِسْحَاق: هُمْ المُنَافِقُونَ؛ فَإِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ قَدْ سَمِعُوا وَاسْتَجَابُوا، وَلَيْسُوا كَذَلِكَ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الضَّرْب مِنْ بَنِي آدَم شَرّ الخَلق وَالخَلِيقَة، فَقَالَ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ أَيْ: عَنْ سَمَاع الحَقّ،

---

(١) حسن الإسناد: أخرجه أحمد (٥/ ٤٣١).

﴿الْبُكْمُ﴾ عَنْ فَهْمِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فَهَؤُلَاءِ شَرُّ البَرِيَّةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ دَابَّةٍ مِمَّا سِوَاهُمْ مُطِيعَةٌ لله فِيمَا خَلَقَهَا لَهُ، وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لِلعِبَادَةِ فَكَفَرُوا؛ وَلِهَذَا شَبَّهَهُمْ بِالأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وَقَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾. وَقِيلَ: المُرَادُ بِهَؤُلَاءِ المَذْكُورِينَ نَفَرٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ مِنْ قُرَيْشٍ. رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُمُ المُنَافِقُونَ.

قلت: وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ المُشْرِكِينَ وَالمُنَافِقِينَ فِي هَذَا؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ مَسْلُوبُ الفَهْمِ الصَّحِيحِ، وَالقَصْدِ إِلَى العَمَلِ الصَّالِحِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا فَهْمَ لَهُمْ صَحِيحٌ، وَلَا قَصْدَ لَهُمْ صَحِيحٌ، لَوْ فُرِضَ أَنَّ لَهُمْ فَهْمًا، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أَيْ: لَأَفْهَمَهُمْ، وَتَقْدِيرُ الكَلَامِ «وَلَكِنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ» فَلَمْ يُفْهِمْهُمْ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أَيْ: أَفْهَمَهُمْ؛ ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عَنْ ذَلِكَ قَصْدًا وَعِنَادًا بَعْدَ فَهْمِهِمْ ذَلِكَ. ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عَنْهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

قَالَ البُخَارِيُّ: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أَجِيبُوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لِمَا يُصْلِحُكُمْ. حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ خُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: سَمِعْتُ حَفْصَ بْنَ عَاصِمٍ يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِي سعيد ابن المُعَلَّى ﷺ قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي، فَمَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ فَدَعَانِي، فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**»، ثُمَّ قَالَ: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ**». فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيَخْرُجَ فَذَكَرْتُ لَهُ[1]. وَقَالَ مُعَاذٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ خُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، سَمِعَ حَفْصَ بْنَ عَاصِمٍ، سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذَا، وَقَالَ: «**هِيَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السَّبْعُ المَثَانِي**». هَذَا لَفْظُهُ بِحُرُوفِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى هَذَا الحَدِيثِ بِذِكْرِ طُرُقِهِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الفَاتِحَةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قَالَ: الحَقُّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قَالَ: هُوَ هَذَا القُرْآنُ، فِيهِ النَّجَاةُ وَالتَّقَاةُ وَالحَيَاةُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فَفِي الإِسْلَامِ إِحْيَاؤُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ بِالكُفْرِ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أَيْ: لِلْحَرْبِ الَّتِي أَعَزَّكُمُ اللهُ تَعَالَى بِهَا بَعْدَ الذُّلِّ، وَقَوَّاكُمْ بِهَا بَعْدَ الضَّعْفِ، وَمَنَعَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بَعْدَ القَهْرِ مِنْهُمْ لَكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَحُولُ بَيْنَ المُؤْمِنِ وَبَيْنَ الكُفْرِ، وَبَيْنَ الكَافِرِ وَبَيْنَ الإِيمَانِ. رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مَوْقُوفًا، وَقَالَ: صَحِيحٌ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، وَرَوَاهُ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ مَرْفُوعًا، وَلَا يَصِحُّ؛ لِضَعْفِ إِسْنَادِهِ، وَالمَوْقُوفُ أَصَحُّ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ وَعَطِيَّةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَالسُّدِّيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ حَتَّى تَرَكَهُ لَا يَعْقِلُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَحُولُ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ؛ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَكْفُرَ إِلَّا بِإِذْنِهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. وَقَدْ وَرَدَتِ الأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بِمَا يُنَاسِبُ هَذِهِ الآيَةَ.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٦٤٧).

فَهَل تَخَاف عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ القُلُوب بَيْن أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابع الله تَعَالَى يُقَلِّبهَا»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَاب القَدَر مِنْ جَامِعه، عَنْ هَنَّاد بْن السَّرِيّ، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَة مُحَمَّد بْن حَازِم الضَّرِير، عَنْ الأَعْمَش -وَاسْمه سُلَيْمَان ابْن مِهْرَان-، عَنْ أَبِي سُفْيَان -وَاسْمه طَلْحَة بْن نَافِع-، عَنْ أَنَس، ثُمَّ قَالَ: حَسَن. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ غَيْر وَاحِد، عَنْ الأَعْمَش، وَرَوَاهُ بَعْضهمْ عَنْهُ، عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ جَابِر، عَنْ النَّبِيّ ﷺ وَحَدِيث أَبِي سُفْيَان عَنْ أَنَس أَصَحّ.

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: قال عَبْد بْن حُمَيْد فِي مُسْنَده، حَدَّثَنَا عَبْد المَلِك بْن عَمْرو، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ الحَكَم، عَنْ ابْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ بِلَال رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ يَدْعُو: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوب، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك» هَذَا حَدِيث جَيِّد الإِسْنَاد إِلَّا أَنَّ فِيهِ انْقِطَاعًا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى شَرْط أَهْل السُّنَن، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ.

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلِم قَالَ: سَمِعْت ابْن جَابِر يَقُول: حَدَّثَنِي بُسْر بْن عبد الله الحَضْرَمِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا إِدْرِيس الخَوْلَانِيّ، يَقُول: سَمِعْت النَّوَّاس بْن سَمْعَان الكِلَابِيّ رضي الله عنه يَقُول: سَمِعْت النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «مَا مِنْ قَلْب إِلا وَهُوَ بَيْن أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابع الرَّحْمَن رَبّ العَالَمِينَ، إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ». وَكَانَ يَقُول: «يَا مُقَلِّب القُلُوب، ثَبِّتْ قلوبنا عَلَى دِينِك». قَالَ: «وَالمِيزَان بِيَدِ الرَّحْمَن، يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ»[2]. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ وَابْن مَاجَة، مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد بْن جَابِر، فَذَكَرَ مِثْله.

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يُونُس، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ المُعَلَّى بْن زِيَاد، عَنْ الحَسَن؛ أَنَّ عَائِشَة قَالَتْ: دَعَوَاتٌ كَانَ رَسُول الله ﷺ يَدْعُو بِهَا: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوب، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك». قَالَتْ: فَقُلت: يَا رَسُول الله، إِنَّك تُكْثِر أَنْ تَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاء. فَقَالَ: «إِنَّ قَلب الآدَمِيِّ بَيْن أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِع الله؛ فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ؛ وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ»[3].

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هَاشِم، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد، حَدَّثَنِي شَهْر، سَمِعْت أُمّ سَلَمَة تُحَدِّث؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يُكْثِر فِي دُعَائِهِ يَقُول: «اللهمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوب، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك». قَالَتْ: فَقُلت: يَا رَسُول الله، أَوَإِنَّ القُلُوب لَتُقَلَّب؟ قَالَ: «نَعَمْ، مَا خَلَقَ الله مِنْ بَشَر مِنْ بَنِي آدَم، إِلا أَنَّ قَلبه بَيْن أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِع الله عز وجل، فَإِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ، فَنَسْأَل الله رَبَّنَا أَنْ لا يُزِيغ قُلُوبنَا بَعْد إِذْ هَدَانَا، وَنَسْأَلهُ أَنْ يَهَب لَنَا مِنْ لَدُنْه رَحْمَة، إِنَّهُ هُوَ الوَهَّاب». قَالَتْ: فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ أَلَا تُعَلِّمنِي دَعْوَة أَدْعُو بِهَا لِنَفْسِي؟ قَالَ: «بَلَى، قُولِي: اللهمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّد، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظ قَلبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلات الفِتَن مَا أَحْيَيْتَنِي»[4].

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا حَيْوَة، أَخْبَرَنِي أَبُو هَانِئ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْد الله بْن عَمْرو، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ قُلُوب بَنِي آدَم بَيْن أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِع الرَّحْمَن، كَقَلب وَاحِد، يُصَرِّف كَيْف شَاءَ». ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «اللهمَّ مُصَرِّفَ القُلُوب، صَرِّفْ قُلُوبنَا إِلَى طَاعَتك»[5]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِم عَنْ البُخَارِيّ، فَرَوَاهُ مَعَ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث حَيْوَة بْن شُرَيْح المِصْرِيّ بِهِ.

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يُحَذِّر تَعَالَى عِبَاده المُؤْمِنِينَ ﴿فِتْنَةً﴾، أَيْ: اخْتِبَارًا وَمِحْنَة يَعُمّ بِهَا المُسِيء وَغَيْرَهُ، لَا يَخُصّ بِهَا أَهْل المَعَاصِي،

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (٣/ ١١٢) من حديث أنس بن مالك، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٨٧).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢) من حديث النواس بن سمعان، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٨٨).

(٣) صحيح لغيره: أخرجه أحمد (٦/ ٩١).

(٤) صحيح بشواهده: أخرجه أحمد (٦/ ٣١٥).

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٤)، وأحمد (٢/ ١٦٨).

وَلَا مَنْ بَاشَرَ الذَّنب، بَل يَعُمّهَا حيث لَمْ تُدفَع وَتُرفَع، كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد مَوْلَى بَنِي هَاشِم، حَدَّثَنَا شَدَّاد بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا غَيْلَان بْن جَرِير، عَنْ مُطَرِّف؛ قَالَ: قُلنَا لِلزُّبَيْرِ: يَا أَبَا عَبْد الله؛ مَا جَاءَ بِكُمْ؟ ضَيَّعْتُمْ الخَلِيفَة الَّذِي قُتِلَ، ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ دَمه؟ فَقَالَ الزُّبَيْر ﷺ: إِنَّا قَرَأْنَا عَلَى عَهْد رَسُول الله ﷺ، وَأَبِي بَكْر، وَعُمَر، وَعُثْمَان، ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ لَمْ نَكُنْ نَحْسَب أَنَّا أَهْلهَا، حَتَّى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ. وَقَدْ رَوَاهُ البَزَّار، مِنْ حَدِيث مُطَرِّف، عَنْ الزُّبَيْر. وَقَالَ: لَا نَعْرِف مُطَرِّفًا رَوَى عَنْ الزُّبَيْر غَيْر هَذَا الحَدِيث. وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث جَرِير بْن حَازِم، عَنْ الحَسَن، عَنْ الزُّبَيْر نَحْو هَذَا.

وَرَوَى ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا مُبَارَك بْن فَضَالَة، عَنْ الحَسَن قَالَ: قَالَ الزُّبَيْر: لَقَدْ خَوَّفَنَا بها، يَعْنِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، وَنَحْنُ مَعَ رَسُول الله ﷺ، وَمَا ظَنَنَّا أَنَّا خُصِّصْنَا بِهَا خَاصَّة. وَكَذَا رَوَاهُ حُمَيْد، عَنْ الحَسَن عَنْ الزُّبَيْر ﷺ. وَقَالَ دَاوُد بْن أَبِي هِنْد، عَنْ الحَسَن فِي هَذِهِ الآيَة، قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَلِيّ وَعَمَّار وَطَلحَة وَالزُّبَيْر ﷺ. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ الصَّلت بْن دِينَار، عَنْ عُقْبَة بْن صَهْبَان، سَمِعْت الزُّبَيْر يَقُول: لَقَدْ قَرَأْت هَذِهِ الآيَة زَمَانًا، وَمَا أَرَانَا مِنْ أَهْلهَا، فَإِذَا نَحْنُ المَعْنِيُّونَ بِهَا: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْر وَجْه، عَنْ الزُّبَيْر بْن العَوَّام. وَقَالَ السُّدِّيّ: نَزَلَتْ فِي أَهْل بَدْر خَاصَّة، فَأَصَابَتْهُمْ يَوْم الجَمَل فَاقْتَتَلُوا. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ يَعْنِي: أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ خَاصَّة. وَقَالَ فِي رِوَايَة لَهُ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: أَمَرَ الله المُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُقِرُّوا المُنْكَر بَيْن ظَهْرَانِيهِمْ، فَيَعُمّهُمْ الله بِالعَذَاب.

وَهَذَا تَفْسِير حَسَن جِدًّا، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾: هِيَ أَيْضًا لَكُمْ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك وَيَزِيد بْن أَبِي حَبِيب وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ ابْن مَسْعُود: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِل عَلَى فِتْنَة، إِنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، فَأَيّكُمْ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنْ مُضِلَّات الفِتَن. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَالقَوْل بِأَنَّ هَذَا التَّحْذِير يَعُمّ الصَّحَابَة وَغَيْرهمْ، وَإِنْ كَانَ الخِطَاب مَعَهُمْ هُوَ الصَّحِيح؛ وَيَدُلّ عَلَيْهِ الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي التَّحْذِير مِنْ الفِتَن؛ وَلِذَلِكَ كِتَاب مُسْتَقِلّ يُوَضَّح فِيهِ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى، كَمَا فَعَلَهُ الأَئِمَّة وَأَفْرَدُوهُ بِالتَّصْنِيفِ؛ وَمِنْ أَخَصّ مَا يُذْكَر هَاهُنَا، مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن الحَجَّاج، أَخْبَرَنَا عَبْد الله -يَعْنِي: ابْن المُبَارَك-، أَنْبَأَنَا سَيْف بْن أَبِي سُلَيْمَان، سَمِعْت عَدِيّ بْن عَدِيّ الكِنْدِيّ، يَقُول: حَدَّثَنِي مَوْلًى لَنَا أَنَّهُ سَمِعَ جَدِّي -يَعْنِي: عَدِيّ بْن عُمَيْرَة- يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول: «**إِنَّ الله ﷻ لا يُعَذِّب العَامَّة بِعَمَلِ الخَاصَّة؛ حَتَّى يَرَوْا المُنْكَر بَيْن ظَهْرَانِيهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ، فَلا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ الله الخَاصَّة وَالعَامَّة**»(١). فِيهِ رَجُل مُبْهَم، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ فِي الكُتُب السِّتَّة، وَلَا وَاحِد مِنْهُمْ، وَالله أَعْلَمُ.

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان الهَاشِمِيّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل -يَعْنِي ابْن جَعْفَر-، أَخْبَرَنِي عَمْرو ابْن أَبِي عَمْرو، عَنْ عَبْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن الأَشْهَل، عَنْ حُذَيْفَة بْن اليَمَان؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ المُنْكَر، أَوْ لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يَبْعَث عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْده، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلا يَسْتَجِيب لَكُمْ**». وَرَوَاهُ عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن جَعْفَر، وَقَالَ: «**أَوْ لَيَبْعَثَنَّ الله عَلَيْكُمْ قَوْمًا، ثُمَّ**

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ١٩٢) بسند ضعيف فيه رجل مجهول.

تَدْعُونَهُ فَلا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»[١]. وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن نُمَيْر، حَدَّثَنَا رَزِين بْن حَبِيب الجُهَنِيّ، حَدَّثَنِي أَبُو الرُّقَّاد، قَالَ: خَرَجْت مَعَ مَوْلَايَ، فَدُفِعْت إِلَى حُذَيْفَة، وَهُوَ يَقُول: إِنْ كَانَ الرَّجُل لَيَتَكَلَّم بِالكَلِمَةِ، عَلَى عَهْد رَسُول الله ﷺ، فَيَصِير مُنَافِقًا، وَإِنِّي لَأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدكُمْ فِي المَقْعَد الوَاحِد أَرْبَع مَرَّات، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ المُنْكَر، وَلَتَحَاضُّنَّ عَلَى الخَيْر، أَوْ لَيُسْحِتَنَّكُمْ الله جَمِيعًا بِعَذَابٍ، أَوْ لَيُؤَمِّرَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَاركُمْ؛ ثُمَّ يَدْعُو خِيَاركُمْ فَلَا يُسْتَجَاب لَهُمْ.

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ زَكَرِيَّا، حَدَّثَنَا عَامِر ﷺ قَالَ: سَمِعْت النُّعْمَان بْن بَشِير ﷺ يَخْطُب يَقُول: وَأَوْمَأَ بِأُصْبُعَيْهِ إِلَى أُذُنه يَقُول: مَثَل القَائِم عَلَى حُدُود الله، وَالوَاقِع فِيهَا، وَالمُدهِن فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْم رَكِبُوا سَفِينَة، فَأَصَابَ بَعْضهمْ أَسْفَلَهَا وَأَوْعَرَهَا وَشَرَّهَا، وَأَصَابَ بَعْضهمْ أَعْلَاهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلَهَا إِذَا اسْتَقَوْا المَاء، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقهمْ فَآذَوْهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبنَا خَرْقًا فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقنَا. فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَأَمْرَهُمْ هَلَكُوا جَمِيعًا؛ وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا[٢]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ دُون مُسْلِم، فَرَوَاهُ فِي الشَّرِكَة وَالشَّهَادَات، وَالتِّرْمِذِيّ فِي الفِتَن، مِنْ غَيْر وَجْه، عَنْ سُلَيْمَان بْن مِهْرَان الأَعْمَش، عَنْ عَامِر بْن شَرَاحِيل الشَّعْبِيّ بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد حَدَّثَنَا حُسَيْن، حَدَّثَنَا خَلَف بْن خَلِيفَة، عَنْ لَيْث، عَنْ عَلْقَمَة بْن مَرْثَد، عَنْ المَعْرُور بْن سُوَيْد، عَنْ أُمّ سَلَمَة زَوْج النَّبِيّ ﷺ، قَالَتْ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول: **«إِذَا ظَهَرَتْ المَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمْ الله بِعَذَابٍ مِنْ عِنْده»**. فَقُلْت: يَا رَسُول الله، أَمَا فِيهِمْ أُنَاس صَالِحُونَ؟ قَالَ: **«بَلَى»** قَالَتْ: فَكَيْف يَصْنَع أُولَئِكَ؟ قَالَ: **«يُصِيبهُمْ مَا أَصَابَ النَّاس، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَة مِنْ الله وَرِضْوَان»**[٣].

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا شَرِيك، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ المُنْذِر بْن جَرِير، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«مَا مِنْ قَوْم يَعْمَلُونَ بِالمَعَاصِي، وَفِيهِمْ رَجُل أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَع لا يُغَيِّرُون؛ إِلا عَمَّهُمْ الله بِعِقَابٍ، أَوْ أَصَابَهُمْ العِقَاب»**[٤]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد: عَنْ مُسَدَّد، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ أَبِي إِسْحَاق بِهِ. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، سَمِعْت أَبَا إِسْحَاق يُحَدِّث، عَنْ عُبَيْد الله بْن جَرِير، عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: **«مَا مِنْ قَوْم يُعْمَل فِيهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَعَزّ وَأَكْثَر مِمَّنْ يَعْمَلهُ، ثُمَّ لَمْ يُغَيِّرُوهُ إِلا عَمَّهُمْ الله بِعِقَابٍ»**[٥]. ثُمَّ رَوَاهُ أَيْضًا، عَنْ وَكِيع، عَنْ إِسْرَائِيل. وَعَنْ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، وَعَنْ أَسْوَد، عَنْ شَرِيك، وَيُونُس كُلّهمْ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، بِهِ. وَأَخْرَجَهُ ابْن مَاجَهْ عَنْ عَلِيّ بْن مُحَمَّد، عَنْ وَكِيع، بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُفْيَان، حَدَّثَنَا جَامِع بْن أَبِي رَاشِد، عَنْ مُنْذِر، عَنْ الحَسَن بْن مُحَمَّد، عَنْ امْرَأَته، عَنْ عَائِشَة تَبْلُغ بِهِ النَّبِيّ ﷺ: **«إِذَا ظَهَرَ السُّوء فِي الأَرْض؛ أَنْزَلَ الله بِأَهْلِ الأَرْض بَأْسه»**. فقالت: وَفِيهِمْ أَهْل طَاعَة الله؟ قَالَ: **«نَعَمْ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى رَحْمَة الله»**[٦].

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

---

(١) حسن: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٩٣، ٢٦٨٦).
(٣) صحيح لغيره: أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٤، ٣٠٤).
(٤) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ٣٦١، ٣٦٤).
(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٤) من حديث جرير، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٤٩).
(٦) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٤١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٩) من حديث عائشة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١٥٦).

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانه إِلَيْهِمْ، حَيْثُ كَانُوا قَلِيلِينَ فَكَثَّرَهُمْ، وَمُسْتَضْعَفِينَ خَائِفِينَ فَقَوَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ، وَفُقَرَاء عَالَة فَرَزَقَهُمْ مِنْ الطَّيِّبَات، وَاسْتَشْكَرَهُمْ فَأَطَاعُوهُ، وَامْتَثَلُوا جَمِيع مَا أَمَرَهُمْ. وَهَذَا كَانَ حَال الْمُؤْمِنِينَ حَال مَقَامهمْ بِمَكَّة، قَلِيلِينَ مُسْتَخْفِينَ مضطرين، يَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَهُمْ النَّاس مِنْ سَائِر بِلَاد الله، مِنْ مُشْرِك وَمَجُوسِيّ وَرُومِيّ، كُلّهمْ أَعْدَاء لَهُمْ؛ لِقِلَّتِهِمْ وَعَدَم قُوَّتهمْ، فَلَمْ يَزَل ذَلِكَ دَأْبهمْ، حَتَّى أَذِنَ الله لَهُمْ فِي الهِجْرَة إِلَى الْمَدِينَة، فَآوَاهُمْ إِلَيْهَا، وَقَيَّضَ لَهُمْ أَهْلَهَا؛ آوَوْا وَنَصَرُوا يَوْم بَدْر وَغَيْره، وَوَاسَوْا بِأَمْوَالِهِمْ، وَبَذَلُوا مُهَجَهُمْ فِي طَاعَة الله وَطَاعَة رَسُوله ﷺ.

قَالَ قَتَادَة ابْن دِعَامَة السَّدُوسِيّ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ: كَانَ هَذَا الحَيّ مِنْ العَرَب أَذَلَّ النَّاس ذُلًّا، وَأَشْقَاهُ عَيْشًا، وَأَجْوَعه بُطُونًا، وَأَعْرَاهُ جُلُودًا، وَأَبْيَنه ضَلَالًا، مكعومين على رأس حجر بين الأسدين: فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحسَدون عليه، مَنْ عَاشَ مِنْهُمْ عَاشَ شَقِيًّا، وَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ رَدِيَ فِي النَّار، يُؤْكَلُونَ وَلَا يَأْكُلُونَ، وَالله مَا نَعْلَم قَبِيلًا مِنْ حَاضِر أَهْل الأَرْض يَوْمَئِذٍ كَانُوا أَشَرَّ مَنْزِلًا مِنْهُمْ، حَتَّى جَاءَ الله بِالإِسْلَام، فَمَكَّنَ بِهِ فِي البِلَاد، وَوَسَّعَ بِهِ فِي الرِّزْق، وَجَعَلَهُمْ بِهِ مُلُوكًا عَلَى رِقَاب النَّاس، وَبِالإِسْلَام أَعْطَى الله مَا رَأَيْتُمْ، فَاشْكُرُوا لله نِعَمَهُ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ مُنْعِم يُحِبّ الشُّكْر، وَأَهْل الشُّكْر فِي مَزِيد مِنْ الله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

قَالَ عَبْد الله بْن أَبِي قَتَادَة وَالزُّهْرِيّ: أُنْزِلَتْ فِي أَبِي لُبَابَة ابْن عَبْد الْمُنْذِر، حِين بَعَثَهُ رَسُول الله ﷺ، إِلَى بَنِي قُرَيْظَة؛ لِيَنْزِلُوا عَلَى حُكْم رَسُول الله ﷺ، فَاسْتَشَارُوهُ فِي ذَلِكَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلقه، أَيْ: إِنَّهُ الذَّبْح، ثُمَّ فَطِنَ أَبُو لُبَابَة، وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ خَانَ الله وَرَسُوله؛ فَحَلَفَ لَا يَذُوق ذَوَاقًا حَتَّى يَمُوت، أَوْ يَتُوب الله عَلَيْهِ. وَانْطَلَقَ إِلَى مَسْجِد الْمَدِينَة، فَرَبَطَ نَفْسه فِي سَارِيَة مِنْهُ، فَمَكَثَ كَذَلِكَ تِسْعَة أَيَّام، حَتَّى كَانَ يَخِرّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ مِنْ الجَهْد، حَتَّى أَنْزَلَ الله تَوْبَته عَلَى رَسُوله؛ فَجَاءَ النَّاس يُبَشِّرُونَهُ بِتَوْبَةِ الله عَلَيْهِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَحُلُّوهُ مِنْ السَّارِيَة، فَحَلَفَ لَا يَحُلّهُ مِنْهَا إِلَّا رَسُول الله ﷺ، بِيَدِهِ، فَحَلَّهُ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي كُنْت نَذَرْت أَنْ أَنْخَلِع مِنْ مَالِي صَدَقَة. فَقَالَ: «يَجْزِيك الثُّلُث أَنْ تَصَدَّقَ بِهِ»[(١)].

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا يُونُس بْن الحَارِث الطَّائِفِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عبيد الله أبوعَوْن الثَّقَفِيّ، عَنْ الْمُغِيرَة بْن شُعْبَة، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي قَتْل عُثْمَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الآيَة. وَقَالَ ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنَا القَاسِم بْن بِشْر بْن مَعْرُوف، حَدَّثَنَا شَبَابَة بْن سِوَار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الْمُحْرِم، قَالَ: لَقِيتُ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، فَحَدَّثَنِي قَالَ: حَدَّثَنِي جَابِر بْن عَبْد الله، أَنَّ أَبَا سُفْيَان خَرَجَ مِنْ مَكَّة فَأَتَى جِبْرِيلُ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَبَا سُفْيَان بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ النبي ﷺ لأصحابه: «إِنَّ أَبَا سُفْيَان فِي مَوْضِع كَذَا وَكَذَا، فَاخْرُجُوا إِلَيْهِ وَاكْتُمُوا». فَكَتَبَ رَجُل مِنْ الْمُنَافِقِينَ إِلَيْهِ: إِنَّ مُحَمَّدًا يُرِيدكُمْ، فَخُذُوا حِذْرَكُمْ. فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ الآيَة[(٢)]. هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا، وَفِي سَنَدِهِ وَسِيَاقه نَظَرٌ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ قِصَّة حَاطِب بْن أَبِي بَلْتَعَة، أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى قُرَيْش يُعْلِمهُمْ بِقَصْدِ رَسُول الله ﷺ،

---

(١) **مرسل**: أخرجه ابن جرير (٩/ ٢٢١) بسند مرسل.

(٢) **ضعيف**: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨) لابن جرير وابن المنذر، وقال المصنف بعد ذكره للحديث: هذا حديث غريب جدًا، وفي سنده نظر.

إِيَّاهُمْ عَام الفَتْح، فَأَطْلَعَ الله رَسُوله عَلَى ذَلِكَ، فَبَعَثَ فِي إِثْر الكِتَاب فَاسْتَرْجَعَهُ، وَاسْتَحْضَرَ حَاطِبًا فَأَقَرَّ بِمَا صَنَعَ، فَقَامَ عُمَر بْن الخَطَّاب فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ أَلَا أَضْرِب عُنُقه؛ فَإِنَّهُ قَدْ خَانَ الله وَرَسُوله وَالمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: «دَعْهُ، فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيك لَعَلَّ الله اطَّلَعَ عَلَى أَهْل بَدْر، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْت لَكُمْ»[١].

قلت: وَالصَّحِيح أَنَّ الآيَة عَامَّة، وَإِنْ صَحَّ أَنَّهَا وَرَدَتْ عَلَى سَبَب خَاصّ، فَالأَخْذ بِعُمُومِ اللَّفْظ لَا بِخُصُوصِ السَّبَب عِنْد الجَمَاهِير مِنْ العُلَمَاء، وَالخِيَانَة تَعُمّ الذُّنُوب الصِّغَار وَالكِبَار، اللَّازِمَة وَالمُتَعَدِّيَة.

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ الأَمَانَة: الأَعْمَال الَّتِي ائْتَمَنَ الله عَلَيْهَا العِبَاد، يَعْنِي: الفَرِيضَة، يَقُول: ﴿لَا تَخُونُوا۟﴾ لَا تَنْقُضُوهَا. وَقَالَ فِي رِوَايَة: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ يَقُول: بِتَرْكِ سُنَّتِهِ، وَارْتِكَاب مَعْصِيَته. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن جَعْفَر بْن الزُّبَيْر، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر فِي هَذِهِ الآيَة، أَيْ: لَا تُظْهِرُوا لَهُ مِنْ الحَقّ مَا يَرْضَى بِهِ مِنْكُمْ، ثُمَّ تُخَالِفُوهُ فِي السِّرّ إِلَى غَيْره؛ فَإِنَّ ذَلِكَ هَلَاك لِأَمَانَاتِكُمْ، وَخِيَانَة لِأَنْفُسِكُمْ. وَقَالَ السُّدِّيّ: إِذَا خَانُوا الله وَالرَّسُول فَقَدْ خَانُوا أَمَانَاتهمْ. وَقَالَ أَيْضًا: كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْ النَّبِيّ ﷺ الحَدِيث، فَيُفْشُونَهُ حَتَّى يَبْلُغ المُشْرِكِينَ. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: نَهَاكُمْ أَنْ تَخُونُوا الله وَالرَّسُول كَمَا صَنَعَ المُنَافِقُونَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أَيْ: اخْتِبَار وَامْتِحَان مِنْهُ لَكُمْ إِذْ أَعْطَاكُمُوهَا؛ لِيَعْلَم أَتَشْكُرُونَهُ عَلَيْهَا، وَتُطِيعُونَهُ فِيهَا أَوْ تَشْتَغِلُونَ بِهَا عَنْهُ، وَتَعْتَاضُونَ بِهَا مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وَقَالَ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ الآيَة.

وَقَوْله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: ثَوَابه وَعَطَاؤُهُ وَجَنَّاته، خَيْر لَكُمْ مِنْ الأَمْوَال وَالأَوْلَاد؛ فَإِنَّهُ قَدْ يُوجَد مِنْهُمْ عَدُوّ، وَأَكْثَرهمْ لَا يُغْنِي عَنْك شَيْئًا، وَالله سُبْحَانَهُ هُوَ المُتَصَرِّف المَالِك لِلدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَلَدَيْهِ الثَّوَاب الجَزِيل يَوْم القِيَامَة. وَفِي الأَثَر يَقُول الله تَعَالَى: «يَا بن آدم: اُطْلُبْنِي تَجِدْنِي، فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْت كُلّ شَيْء، وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلّ شَيْء، وَأَنَا أَحَبّ إِلَيْك مِنْ كُلّ شَيْء». وَفِي الصَّحِيح عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاث مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَة الإِيمَان: مَنْ كَانَ الله وَرَسُوله أَحَبّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبّ المَرْء لَا يُحِبّهُ إِلَّا لله، وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّار أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِع إِلَى الكُفْر بَعْد إِذْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ»[٢]. بَل حُبّ رَسُول الله ﷺ، مُقَدَّم عَلَى الأَوْلَاد وَالأَمْوَال وَالنُّفُوس، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى أَكُون أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسه وَأَهْله وَمَاله وَالنَّاس أَجْمَعِينَ»[٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

قَالَ ابْن عَبَّاس، وَالسُّدِّيّ، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَمُقَاتِل بْن حَيَّان، وَغَيْر وَاحِد: ﴿فُرْقَانًا﴾: مَخْرَجًا. زَادَ مُجَاهِد: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. وَفِي رِوَايَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فُرْقَانًا﴾: نَجَاة. وَفِي رِوَايَة عَنْهُ: نَصْرًا. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أَيْ: فَصْلًا بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل. وَهَذَا التَّفْسِير مِنْ ابْن إِسْحَاق أَعَمّ مِمَّا تَقَدَّمَ، وَهُوَ يَسْتَلْزِم ذَلِكَ كُلّه؛ فَإِنَّ مَنْ اتَّقَى الله بِفِعْلِ أَوَامِره، وَتَرْك زَوَاجِره، وُفِّقَ لِمَعْرِفَةِ الحَقّ مِنْ البَاطِل، فَكَانَ

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٢، ٥٦٩٤، ٦٥٤٢)، ومسلم (٤٣).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٤٤).

ذَلِكَ سَبَبَ نَصْره وَنَجَاته وَمَخْرجه مِنْ أُمُور الدُّنْيَا، وَسَعَادَته يَوْم القِيَامَة، وَتَكْفِير ذُنُوبه، وَهُوَ مَحْوُهَا، وَغَفْرُهَا وسَتْرُهَا عَنْ النَّاس سَبَبًا لِنَيْلِ ثَوَاب الله الجَزِيل، كما قال تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

قَالَ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ لِيُقَيِّدُوك. وَقَالَ عَطَاء وَابْن زَيْد: لِيَحْبِسُوك. وَقَالَ السُّدِّيّ: الإِثْبَات هُوَ الحَبْس وَالوَثَاق. وَهَذَا يَشْمَل مَا قَالَهُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَهُوَ مَجْمَع الأَقْوَال، وَهُوَ الغَالِب مِنْ صَنِيع مَنْ أَرَادَ غَيْره بِسُوءٍ. وَقَالَ سُنَيْد، عَنْ حَجَّاج، عَنْ ابْن جُرَيْج، قَالَ عَطَاء: سَمِعْت عُبَيْد بْن عُمَيْر، يَقُول: لَمَّا ائْتَمَرُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ لِيُثْبِتُوهُ أَوْ يَقْتُلُوهُ أَوْ يُخْرِجُوهُ؛ قَالَ لَهُ عَمّه أَبُو طَالِب: هَل تَدْرِي مَا ائْتَمَرُوا بِك؟ قَالَ: «يُرِيدُونَ أَنْ يسحروني أَوْ يَقْتُلُونِي أَوْ يُخْرِجُونِي». فَقَالَ: مَنْ أَخْبَرَك بِهَذَا؟ قَالَ: «رَبِّي». قَالَ: نِعْمَ الرَّبُّ رَبُّك، اسْتَوْصِ بِهِ خَيْرًا. قَالَ: «أَنَا أَسْتَوْصِي بِهِ! بَل هُوَ يَسْتَوْصِي بِي».

وَقَالَ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل البصري المَعْرُوف بِالوَسَاوِسِيّ، أَخْبَرَنَا عَبْد الحَمِيد ابْن أَبِي رَوَّاد، عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء، عَنْ عُبَيْد بْن عُمَيْر، عَنْ المُطَّلِب بْن أَبِي وَدَاعَة، أَنَّ أَبَا طَالِب قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: مَا يَأْتَمِر بِك قَوْمك؟ قَالَ: «يُرِيدُونَ أَنْ يسحروني أَوْ يَقْتُلُونِي أَوْ يُخْرِجُونِي». فَقَالَ: مَنْ أَخْبَرَك بِهَذَا؟ قَالَ: «رَبِّي». قَالَ: نِعْمَ الرَّبّ رَبّك؛ فَاسْتَوْصِ بِهِ خَيْرًا. قَالَ: «أَنَا أَسْتَوْصِي بِهِ؟! بَل هُوَ يَسْتَوْصِي بِي». قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ الآيَة[1].

وَذِكْر أَبِي طَالِب فِي هَذَا غَرِيب جِدًّا؛ بَل مُنْكَر؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَة مَدَنِيَّة؛ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ القِصَّة، وَاجْتِمَاع قُرَيْش عَلَى هَذَا الِائْتِمَار وَالمُشَاوَرَة عَلَى الإِثْبَات أَوْ النَّفْي أَوْ القَتْل، إِنَّمَا كَانَ لَيْلَة الهِجْرَة، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْد مَوْت أَبِي طَالِب بِنَحْوِ مِنْ ثَلَاث سِنِينَ، لَمَّا تَمَكَّنُوا مِنْهُ وَاجْتَرَءُوا عَلَيْهِ بعد مَوْت عَمّه أَبِي طَالِب، الَّذِي كَانَ يَحُوطهُ وَيَنْصُرهُ وَيَقُوم بِأَعْبَائِهِ، وَالدَّلِيل عَلَى صِحَّة مَا قُلْنَا: مَا رَوَاه الإِمَام مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار صَاحِب المَغَازِي، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَالَ: وَحَدَّثَنِي الكَلْبِيّ، عَنْ بَاذَان مَوْلَى أُمّ هَانِئ، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ نَفَرًا مِنْ قُرَيْش مِنْ أَشْرَاف كُلّ قَبِيلَة، اجْتَمَعُوا لِيَدْخُلُوا دَار النَّدْوَة، فَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيس فِي صُورَة شَيْخ جَلِيل، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: شَيْخ مِنْ أَهْل نَجْد، سَمِعْت أَنَّكُمْ اجْتَمَعْتُمْ، فَأَرَدْت أَنْ أَحْضُرَكُمْ، وَلَنْ يَعْدَمكُمْ رَأْيِي وَنُصْحِي. قَالُوا: أَجَل، ادْخُل؛ فَدَخَلَ مَعَهُمْ فَقَالَ: انْظُرُوا فِي شَأْن هَذَا الرَّجُل، وَالله لَيُوشِكَنَّ أَنْ يُوَاثِبَكُمْ فِي أَمْرِكُمْ بِأَمْرِهِ. فَقَالَ قَائِل مِنْهُمْ: احْبِسُوهُ فِي وَثَاق، ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ رَيْب المَنُون حَتَّى يَهْلِك، كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْله مِنْ الشُّعَرَاء: زُهَيْر، وَالنَّابِغَة، إِنَّمَا هُوَ كَأَحَدِهِمْ، قَالَ: فَصَرَخَ عَدُوّ الله الشَّيْخ النَّجْدِيّ، فَقَالَ: وَالله، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، وَالله لَيُخْرِجَنَّهُ رَبّه مِنْ مَحْبِسه إِلَى أَصْحَابه، فَلَيُوشِكَنَّ أَنْ يَثِبُوا عَلَيْهِ حَتَّى يَأْخُذُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ، فَيَمْنَعُوهُ مِنْكُمْ، فَمَا آمَنُ عَلَيْكُمْ أَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ بِلَادكُمْ. قال: فَانْظُرُوا فِي غَيْر هَذَا.

قَالَ: فقال قَائِل مِنْهُمْ: أَخْرِجُوهُ مِنْ بَيْن أَظْهُرِكُمْ فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ إِذَا خَرَجَ لَنْ يَضُرّكُمْ مَا صَنَعَ وَأَيْنَ وَقَعَ، إِذَا غَابَ عَنْكُمْ أَذَاهُ وَاسْتَرَحْتُمْ، وَكَانَ أَمْره فِي غَيْركُمْ. فَقَالَ الشَّيْخ النَّجْدِيّ: وَالله مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، أَلَمْ تَرَوْا حَلَاوَة قَوْله، وَطَلَاوَة لِسَانه، وَأَخْذ القُلُوب مَا تَسْمَع مِنْ حَدِيثه؟ وَالله لَئِنْ فَعَلْتُمْ ثُمَّ اسْتَعْرَضَ العَرَب لَيَجْتَمِعُنَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ لَيَأْتِيَنَّ إِلَيْكُمْ حَتَّى يُخْرِجَكُمْ مِنْ بِلَادكُمْ، وَيَقْتُل أَشْرَافكُمْ. قَالُوا صَدَقَ وَالله، فَانْظُرُوا رَأْيًا غَيْر هَذَا.

---

(١) منكر: أخرجه ابن جرير (٩/ ٢٢٧) بسند ضعيف فيه عبد المجيد بن أبي رواد: صدوق يخطئ، وهذا من خطئه فالآية مدنية، والقصة: إنما كانت ليلة الهجرة، راجع كلام المصنف بعد ذكره للحديث.

قَالَ: فَقَالَ أَبُو جَهْل -لَعَنَهُ اللهُ-: وَالله لَأُشِيرَنَّ عَلَيْكُمْ بِرَأْيٍ مَا أَرَاكُمْ تصرمونه بَعْدُ، لَا أَرَى غَيْرَه. قَالُوا: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: نأخذ مِنْ كُلِّ قَبِيلَة غُلَامًا شَابًّا وَسِيطًا نَهْدًا، ثُمَّ يُعْطَى كُلّ غُلَام مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ ضَرْبَة رَجُل وَاحِد، فَإِذَا قَتَلُوهُ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي القَبَائِل، فَمَا أَظُنّ هَذَا الحَيّ مِنْ بَنِي هَاشِم يَقْوُونَ عَلَى حَرْب قُرَيْش كُلّهَا، فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ قَبِلُوا العَقْل وَاسْتَرَحْنَا، وَقَطَعْنَا عَنَّا أَذَاهُ. قَالَ: فَقَالَ الشَّيْخ النَّجْدِيّ: هَذَا وَالله الرَّأْي، القَوْل مَا قَالَ الفَتَى لَا رأي غَيْره. قَالَ: فَتَفَرَّقُوا عَلَى ذَلِكَ، وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ، فَأَتَى جِبْرِيل النَّبِيّ ﷺ، فَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَبِيت فِي مَضْجَعِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيت فِيهِ، وَأَخْبَرَهُ بِمَكْرِ القَوْم؛ فَلَمْ يَبِتْ رَسُول الله ﷺ فِي بَيْته تِلْكَ اللَّيْلَة، وَأَذِنَ الله لَهُ عِنْد ذَلِكَ بِالخُرُوج، وَأَنْزَلَ الله عَلَيْهِ بَعْد قُدُومه المَدِينَة الأَنْفَال، يَذْكُر نِعَمه عَلَيْهِ، وَبَلَاءَهُ عِنْده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾. وَأَنْزَلَ فِي قَوْلهمْ: تَرَبَّصُوا بِهِ رَيْب المَنُون حَتَّى يَهْلِك كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْله مِنْ الشُّعَرَاء: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، وَكَانَ ذَلِكَ اليَوْم يُسَمَّى يَوْم الزَّحْمَة؛ لِلَّذِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ مِنْ الرَّأْي.

وَعَنْ السُّدِّيّ نَحْو هَذَا السِّيَاق، وَأَنْزَلَ الله فِي إِرَادَتهمْ إِخْرَاجَهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس. وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَعُرْوَة بْن الزُّبَيْر وَمُوسَى بْن عُقْبَة وَقَتَادَة وَمِقْسَم وَغَيْر وَاحِد، نَحْو ذَلِكَ. وَقَالَ يُونُس بْن بُكَيْر، عَنْ ابْن إِسْحَاق: فَأَقَامَ رَسُول الله ﷺ، يَنْتَظِر أَمْر الله، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ قُرَيْش فَمَكَرَتْ بِهِ، وَأَرَادُوا بِهِ مَا أَرَادُوا، أَتَاهُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام، فَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَبِيت فِي مَكَانه الَّذِي كَانَ يَبِيت فِيهِ، فَدَعَا رَسُول الله ﷺ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب، فَأَمَرَهُ أَنْ يَبِيت عَلَى فِرَاشه، وَأن يَتَسَجَّى بِبُرْدٍ لَهُ أَخْضَر، فَفَعَلَ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُول الله ﷺ عَلَى القَوْم وَهُمْ عَلَى بَابه، وَخَرَجَ مَعَهُ بِحَفْنَةٍ مِنْ تُرَاب؛ فَجَعَلَ يَذُرّهَا عَلَى رُءُوسهمْ، وَأَخَذَ الله أَبْصَارَهُمْ عَنْ نَبِيّه مُحَمَّد ﷺ، وَهُوَ يَقْرَأ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ: وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَة مَا يُؤَكِّد هَذَا.

وَقَدْ رَوَى ابْن حِبَّان فِي صَحِيحه، وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خُثَيْم، عَنْ سَعِيد ابْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَالَ: دَخَلَتْ فَاطِمَة عَلَى رَسُول الله ﷺ، وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيك يَا بُنَيَّة؟» قَالَتْ: يَا أَبَتِ؛ وَمَا لِي لَا أَبْكِي، وَهَؤُلَاءِ المَلَأ مِنْ قُرَيْش فِي الحِجْر، يَتَعَاقَدُونَ بِاللَّاتِ وَالعُزَّى وَمَنَاة الثَّالِثَة الأُخْرَى، لَوْ قَدْ رَأَوْكَ لَقَامُوا إِلَيْك فَيَقْتُلُونَك، وَلَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمك. فَقَالَ: «يَا بُنَيَّة، ائْتِينِي بِوَضُوء»، فَتَوَضَّأَ رَسُول الله ﷺ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى المَسْجِد، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: إنما هُوَ ذَا. فَطَأْطَئُوا رُءُوسَهُمْ، وَسَقَطَتْ أذقانهم بَيْن أَيْدِيهِمْ، فَلَمْ يَرْفَعُوا أَبْصَارهمْ، فَتَنَاوَلَ رَسُول الله ﷺ قَبْضَة مِنْ تُرَاب فَحَصَبَهُمْ بِهَا، وَقَالَ: «شَاهَتْ الوُجُوه». فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ حَصَاة مِنْ حَصَيَاته، إِلَّا قُتِلَ يَوْم بَدْر كَافِرًا[1]. ثُمَّ قَالَ الحَاكِم: صَحِيح عَلَى شَرْط مُسْلِم وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَلَا أَعْرِف لَهُ عِلَّة.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، أَخْبَرَنِي عُثْمَان الجزرِيّ، عَنْ مِقْسَم مَوْلَى ابْن عَبَّاس، أَخْبَرَهُ عن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ قَالَ: تَشَاوَرَتْ قُرَيْش لَيْلَة بِمَكَّة، فَقَالَ بَعْضهمْ: إِذَا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالوَثَاقِ. يُرِيدُونَ النَّبِيّ ﷺ. وَقَالَ بَعْضهمْ: بَلْ اُقْتُلُوهُ. وَقَالَ بَعْضهمْ: بَلْ أَخْرِجُوهُ. فَأَطْلَعَ الله نَبِيّه ﷺ، عَلَى ذَلِكَ، فَبَاتَ عَلِيّ رضي الله عنه عَلَى فِرَاش رَسُول الله ﷺ، وَخَرَجَ النَّبِيّ ﷺ حَتَّى لَحِقَ بِالغَارِ، وَبَاتَ المُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلِيًّا يَحْسَبُونَهُ النَّبِيّ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ الله تَعَالَى مَكْرَهُمْ،

---

(١) صحيح: أخرجه ابن حبان (٦٥٠٢)، والحاكم (١/ ٢٦٨)، وصححه ووافقه الذهبي من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٢٤).

فَقَالُوا: أَيْنَ صَاحِبك هَذَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي. فَاقْتَصُّوا أَثَرَهُ، فَلَمَّا بَلَغُوا الجَبَل اخْتَلَطَ عَلَيْهِمْ، فَصَعِدُوا فِي الجَبَلِ، فَمَرُّوا بِالغَارِ، فَرَأَوْا عَلَى بَابه نَسْج العَنْكَبُوت، فَقَالُوا: لَوْ دَخَلَ هَاهُنَا لَمْ يَكُنْ نَسْج العَنْكَبُوت عَلَى بَابه، فَمَكَثَ فِيهِ ثَلَاث لَيَالٍ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ مُحَمَّد بْن جَعْفَر بْن الزُّبَيْر، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، فِي قَوْله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أَيْ: فَمَكَرْتُ بِهِمْ بِكَيْدِي المَتِين حَتَّى خَلَّصْتُكَ مِنْهُمْ.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ كُفْر قُرَيْش وَعُتُوّهمْ وَتَمَرُّدهمْ وَعِنَادهمْ وَدَعْوَاهُمْ البَاطِل عِنْد سَمَاع آيَاته، حِين تُتْلَى عَلَيْهِمْ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾. وَهَذَا مِنْهُمْ قَوْل بِلَا فِعْل، وَإِلَّا فَقَدْ تُحُدُّوا غَيْر مَا مَرَّة أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْله، فَلَا يَجِدُونَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَإِنَّمَا هَذَا القَوْل مِنْهُمْ يَغُرُّونَ بِهِ أَنْفُسهمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى بَاطِلهمْ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ القَائِل لِذَلِكَ هُوَ النَّضْر بْن الحَارِث -لَعَنَهُ الله-، كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ سَعِيد بْن جُبَيْر وَالسُّدِّيّ وَابْن جُرَيْج وَغَيْرهمْ، فَإِنَّهُ لَعَنَهُ الله؛ كَانَ قَدْ ذَهَبَ إِلَى بِلَاد فَارِس، وَتَعَلَّمَ مِنْ أَخْبَار مُلُوكهمْ رُسْتُم واسفنديار، وَلَمَّا قَدِمَ وَجَدَ رَسُول الله ﷺ، قَدْ بَعَثَهُ الله، وَهُوَ يَتْلُو عَلَى النَّاس القُرْآن، فَكَانَ إِذَا قَامَ ﷺ مِنْ مَجْلِس جَلَسَ فِيهِ النَّضْر فيحدثهم مِنْ أَخْبَار أُولَئِكَ، ثُمَّ يَقُول: بِالله أَيّنَا أَحْسَن قَصَصًا: أَنَا أَوْ مُحَمَّد؟ وَلِهَذَا لَمَّا أَمْكَنَ الله تَعَالَى مِنْهُ يَوْم بَدْر، وَوَقَعَ فِي الأُسَارَى؛ أَمَرَ رَسُول الله ﷺ أَنْ تُضْرَب رَقَبَته صَبْرًا بَيْن يَدَيْهِ، فَفُعِلَ ذَلِكَ وَلله الحَمْد، وَكَانَ الَّذِي أَسَرَهُ المِقْدَاد بْن الأَسْوَد رضي الله عنه، كَمَا قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد ابْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر؛ قَالَ: قَتَلَ النَّبِيّ ﷺ يَوْم بَدْر صَبْرًا عُقْبَة بْن أَبِي مُعَيْط، وَطُعَيْمَة بْن عَدِيّ، وَالنَّضْر بْن الحَارِث، وَكَانَ المِقْدَاد أَسَرَ النَّضْر، فَلَمَّا أَمَرَ بِقَتْلِهِ قَالَ المِقْدَاد: يَا رَسُول الله، أَسِيرِي. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّهُ كَانَ يَقُول فِي كِتَاب الله ﷻ مَا يَقُول**». فَأَمَرَ رَسُول الله ﷺ بِقَتْلِهِ، فَقَالَ المِقْدَاد: يا رسول الله؛ أسيري. فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم؛ أَغْنِ المقداد من فضلك**»، فقال المقداد: هَذَا الَّذِي أَرَدْت. قَالَ: وَفِيهِ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]. وَكَذَا رَوَاهُ هُشَيْم، عَنْ أَبِي بِشْر جَعْفَر بْن أَبِي وحشية، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، أَنَّهُ قَالَ: المُطْعِم بْن عَدِيّ بَدَلَ طُعَيْمَة، وَهُوَ غَلَط، لِأَنَّ المُطْعِم بْن عَدِيّ، لَمْ يَكُنْ حَيًّا، يَوْم بَدْر، وَلِهَذَا قَالَ رَسُول الله ﷺ، يَوْمَئِذٍ: «**لَوْ كَانَ المُطْعِم بْن عَدِيّ حَيًّا، ثُمَّ سَأَلَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَوَهَبْتهمْ لَهُ**»[2]. يَعْنِي: الأُسَارَى، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ أَجَارَ رَسُول الله ﷺ يَوْم رَجَعَ مِنْ الطَّائِف.

وَمَعْنَى: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وَهُوَ جَمْع أُسْطُورَة، أَيْ: كُتُبهمْ اقْتَبَسَهَا فَهُوَ يَتَعَلَّم مِنْهَا، وَيَتْلُوهَا عَلَى النَّاس؛ وَهَذَا هُوَ الكَذِب البَحْت كَمَا أَخْبَرَ الله عَنْهُمْ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أَيْ: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ، فَإِنَّهُ يَتَقَبَّل مِنْهُ وَيَصْفَح عَنْهُ.

وَقَوْله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا

---

(١) **مرسل**: أخرجه ابن جرير (٩/ ٢٣١) بسند مرسل، ورجاله ثقات.
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٩٧٠، ٣٧٩٩).

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هَذَا مِنْ كَثْرَة جَهْلهمْ وَعُتُوّهُمْ وَعِنَادهمْ وَشِدَّة تَكْذِيبهمْ، وَهَذَا مِمَّا عِيبُوا بِهِ، وَكَانَ الأَوْلَى لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: اللهمَّ، إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدك فَاهْدِنَا لَهُ وَوَفِّقْنَا لِاتِّبَاعِهِ، وَلَكِنْ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسهمْ، وَاسْتَعْجَلُوا العَذَاب، وَتَقْدِيم العُقُوبَة؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾. وَكَذَلِكَ قَالَ الجَهَلَة مِنْ الأُمَم السَّالِفَة، كَمَا قَالَ قَوْم شُعَيْب لَهُ: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾. وَقَالَ هَؤُلَاءِ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. قَالَ شُعْبَة، عَنْ عَبْد الحَمِيد صَاحِب الزِّيَادِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، قَالَ: هو أَبُو جَهْل ابْن هِشَام؛ قَالَ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فَنَزَلَتْ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الآيَة. رَوَاهُ البُخَارِيّ عَنْ أَحْمَد وَمُحَمَّد بْن النَّضْر، كِلَاهُمَا عَنْ عُبَيْد الله بْن مُعَاذ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ شُعْبَة، بِهِ. وَأَحْمَد هَذَا هُوَ أَحْمَد بْن النَّضْر بْن عَبْد الوَهَّاب، قَالَهُ الحَاكِم أَبُو أَحْمَد، وَالحَاكِم أَبُو عَبْد الله النَّيْسَابُورِيّ، والله أَعْلَمُ. وَقَالَ الأَعْمَش، عَنْ رَجُل، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قَالَ: هُوَ النَّضْر ابْن الحَارِث بْن كِلدَة قَالَ: فَأَنْزَلَ الله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَعَطَاء وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالسُّدِّيّ: إِنَّهُ النَّضْر بْن الحَارِث. زَادَ عَطَاء: فَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾، وَقَالَ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، وَقَالَ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ قَالَ عَطَاء: وَلَقَدْ أَنْزَلَ الله فِيهِ بِضْع عَشْرَة آيَة مِنْ كِتَاب الله ﷻ. وَقَالَ ابْن مَرْدُوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا الحَسَن ابْن أَحْمَد بْن اللَّيْث، حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّان، حَدَّثَنَا أَبُو تُمَيلَة، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، عَنْ ابْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَأَيْت عَمْرو ابْن العَاص وَاقِفًا يَوْم أُحد عَلَى فَرَس، وَهُوَ يَقُول: اللهمَّ، إِنْ كَانَ مَا يَقُول مُحَمَّد حَقًّا فَاخْسِفْ بِي وَبِفَرَسِي.

وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ الآيَة. قَالَ: قَالَ ذَلِكَ سَفَهَةُ هَذِهِ الأُمَّة وَجَهَلَتُهَا، فَعَادَ الله بِعَائِدَتِهِ وَرَحْمَته عَلَى سَفَهَة هَذِهِ الأُمَّة وَجَهَلَتهَا. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾. قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو حُذَيْفَة مُوسَى بْن مَسْعُود، حَدَّثَنَا عِكْرِمَة بْن عَمَّار، عَنْ أَبِي زُمَيْل سِمَاك الحَنَفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: كَانَ المُشْرِكُون يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ، وَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْك، لَبَّيْكَ لَا شَرِيك لَك. فَيَقُول النَّبِيّ ﷺ: «قَدْ قَدْ». وَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْك لَا شَرِيك لَك، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك، تَمْلِكهُ وَمَا مَلَكَ. وَيَقُولُونَ: غُفْرَانَك غُفْرَانَك. فَأَنْزَلَ الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1]. قَالَ ابْن عَبَّاس: كَانَ فِيهِمْ أَمَانَانِ: النَّبِيّ ﷺ، وَالِاسْتِغْفَار، فَذَهَبَ النَّبِيّ ﷺ، وَبَقِيَ الِاسْتِغْفَار. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحَارِث حدثنا عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْشَر، عَنْ يَزِيد بْن رُومَان، وَمُحَمَّد بْن قَيْس، قَالَا: قَالَتْ قُرَيْش بَعْضهَا لِبَعْضٍ: مُحَمَّد أَكْرَمَهُ الله مِنْ بَيْنِنَا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. فَلَمَّا أَمْسَوْا نَدِمُوا عَلَى مَا قَالُوا، فَقَالُوا: غُفْرَانَك اللهمَّ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ إِلَى قَوْله:

---

(١) **ضعيف الإسناد**: أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٩٠١٧)، وابن جرير (٩/ ٢٣٢) بسند ضعيف فيه موسى بن مسعود: صدوق سيئ الحفظ، وعكرمة بن عمار: صدوق يغلط.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلحة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يَقُول: مَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَ قَوْمًا، وَأَنْبِيَاؤُهُمْ بَيْن أَظْهُرهِمْ، حَتَّى يُخْرِجهُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يَقُول: وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ سَبَقَ لَهُ مِنْ الله الدُّخُول فِي الإِيمَان، وَهُوَ الاِسْتِغْفَار ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يَعْنِي يُصَلُّونَ، يَعْنِي بِهَذَا أَهْل مَكَّة. وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَعَطِيَّة العَوْفِيّ وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالسُّدِّيّ نَحْو ذَلِكَ. وَقَالَ الضَّحَّاك وَأَبُو مَالِك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِين كَانُوا بِمَكَّة. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الغَفَّار بْن دَاوُد، حَدَّثَنَا النَّضْر بْن عربي؛ قَالَ: قَالَ ابْن عَبَّاس: إِنَّ الله جَعَلَ فِي هَذِهِ الأُمَّة أَمَانَيْنِ لَا يَزَالُونَ مَعْصُومِينَ مُجَارِينَ مِنْ قَوَارِع العَذَاب، مَا دَامَا بَيْن أَظْهُرهِمْ، فَأَمَان قَبَضَهُ الله إِلَيْهِ، وَأَمَان بَقِيَ فِيكُمْ. قَوْله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. وَقَالَ أَبُو صَالِح عَبْد الغَفَّار: حَدَّثَنِي بَعْض أَصْحَابنَا، أَنَّ النَّضْر بْن عربي، حَدَّثَهُ هَذَا الحَدِيث، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس. وَرَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ وَابْن جَرِير عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ نَحْوًا مِنْ هَذَا، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَة، وَأَبِي العَلَاء النَّحْوِيّ الْمُقْرِئ. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن وَكِيع، حَدَّثَنَا ابْن نُمَيْر، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم بْن مُهَاجِر، عَنْ عَبَّاد بْن يُوسُف، عَنْ أَبِي بُرْدَة ابْن أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«أَنْزَلَ الله عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فَإِذَا مَضَيْت تَرَكْت فِيهِمْ الاسْتِغْفَار إِلَى يَوْم القِيَامَة»**(1). وَيَشْهَد لِهَذَا مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده، وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ حَدِيث عَبْد الله ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، عَنْ دَرَّاج، عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: **«إِنَّ الشَّيْطَان قَالَ: وَعِزَّتِك يَا رَبّ، لَا أَبْرَح أُغْوِي عِبَادَك مَا دَامَتْ أَرْوَاحهمْ فِي أَجْسَادهمْ. فَقَالَ الرَّبّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَزَالَ أَغْفِر لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»**(2). ثُمَّ قَالَ الحَاكِم: صَحِيح الإِسْنَاد، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن عَمْرو، حَدَّثَنَا رشدين -هُوَ ابْن سَعْد-، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَة بْن سَعْد التُّجِيبِيّ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنْ فَضَالَة ابْن عُبَيْد، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«العَبْد آمِنٌ مِنْ عَذَاب الله مَا اسْتَغْفَرَ الله ﷻ»**(3).

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُمْ أَهْل لِأَنْ يُعَذِّبهُمْ، وَلَكِنْ لَمْ يُوقِع ذَلِكَ بِهِمْ؛ لِبَرَكَةِ مَقَام الرَّسُول ﷺ بَيْن أَظْهُرهِمْ، وَلِهَذَا لَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْن أَظْهُرهِمْ؛ أَوْقَعَ الله بِهِمْ بَأْسه يَوْم بَدْر، فَقُتِلَ صَنَادِيدهمْ، وَأُسِرَ سَرَاتُهُمْ، وَأَرْشَدَهُمْ تَعَالَى إِلَى الاِسْتِغْفَار مِنْ الذُّنُوب، الَّتِي هُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِهَا مِنْ الشِّرْك وَالفَسَاد. وَقَالَ قَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَغَيْرهمَا: لَمْ يَكُنْ القَوْم يَسْتَغْفِرُونَ، وَلَوْ كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ مَا عُذِّبُوا. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير؛ فَلَوْلَا مَا كَانَ بَيْن أَظْهُرهِمْ مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَغْفِرِينَ، لَأَوْقَعَ بِهِمْ البَأْس الَّذِي لَا يُرَدّ، وَلَكِنْ دُفِعَ عَنْهُمْ بِسَبَبِ أُولَئِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي يَوْم الحُدَيْبِيَة: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ

---

(1) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٠٨٢) بسند ضعيف فيه إسماعيل بن مهاجر: ضعيف، وعباد بن يوسف: مجهول.
(2) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٢٩)، وأبو يعلى (٢/ ٥٣٠) من حديث أبي سعيد، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٤).
(3) ضعيف: أخرجه أحمد (٦/ ٢٠) بسند ضعيف، فيه رشدين بن سعد: ضعيف، وشيخه معاوية: مجهول.

كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾. قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا يَعْقُوب، عَنْ جَعْفَر بْن أَبِي الْمُغِيرَة، عَنْ ابْن أَبْزَى، قَالَ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ، بِمَكَّة، فَأَنْزَلَ الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾. قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيّ ﷺ، إِلَى الْمَدِينَة، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾. قَالَ: وَكَانَ أُولَئِكَ الْبَقِيَّة مِنْ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بَقَوْا فِيهَا مُسْتَضْعَفِينَ -يَعْنِي: بِمَكَّة-. فَلَمَّا خَرَجُوا أَنْزَلَ الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ﴾ قَالَ: فَأَذِنَ الله فِي فَتْح مَكَّة، فَهُوَ الْعَذَاب الَّذِي وَعَدَهُمْ. وَرُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس وَأَبِي مَالِك وَالضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد -نَحْو هَذَا. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الآيَة نَاسِخَة لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ عَلَى أَنْ يَكُون الْمُرَاد صُدُور الِاسْتِغْفَار مِنْهُمْ أَنْفُسهمْ.

قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، ثَنَا يَحْيَى بْن وَاضِح، عَنْ الْحُسَيْن بْن وَاقِد، عَنْ يَزِيدَ النَّحْوِيِّ، عَنْ عِكْرِمَة، وَالْحَسَن الْبَصْرِيّ، قَالَا: قَالَ فِي الأَنْفَال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، فَنَسَخَتْهَا الآيَة الَّتِي تَلِيهَا: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فَقُوتِلُوا بِمَكَّة، فَأَصَابَهُمْ فِيهَا الْجُوع وَالضُّرّ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ حَدِيث أَبِي تُمَيْلَةَ يَحْيَى ابْن وَاضِح. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الْحَسَن بْن مُحَمَّد بْن الصَّبَّاح، حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مُحَمَّد، عَنْ ابْن جُرَيْج، وَعُثْمَان بْن عَطَاء، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ثُمَّ اسْتَثْنَى أَهْل الشِّرْك فَقَالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ: وَكَيْف لَا يُعَذِّبُهُمْ الله، وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ الْمَسْجِد الْحَرَام، أَيْ: الَّذِي بِمَكَّة، يَصُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْله عَنْ الصَّلَاة عِنْده وَالطَّوَاف بِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أَيْ: هُمْ لَيْسُوا أَهْل الْمَسْجِد الْحَرَام، وَإِنَّمَا أَهْله النَّبِيّ ﷺ، وَأَصْحَابه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ الآيَة. وَقَالَ الْحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان ابْن أَحْمَد -هُوَ الطَّبَرَانِيّ-، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن إِلْيَاس بْن صَدَقَة الْمِصْرِيّ، حَدَّثَنَا نُعَيْم بْن حَمَّاد، حَدَّثَنَا نُوح بْن أَبِي مَرْيَم، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد الأَنْصَارِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالِك رضي الله عنه قَالَ: سُئِلَ رَسُول الله ﷺ : مَنْ آلُك؟ قَالَ: «كُلّ تَقِيّ». وَتَلَا رَسُول الله ﷺ : ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1]. وَقَالَ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر الشَّافِعِيّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن الْحَسَن، حَدَّثَنَا أَبُو حُذَيْفَة، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَبْد الله بْن عثمان بن خُثَيْم، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن عُبَيْد ابْن رِفَاعَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه قَالَ: جَمَعَ رَسُول الله ﷺ قُرَيْشًا فَقَالَ: «**هَلْ فِيكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ؟**». فَقَالُوا: فِينَا ابْن أُخْتنَا، وَفِينَا حَلِيفنَا، وَفِينَا مَوْلَانَا. فَقَالَ: «**حَلِيفنَا مِنَّا، وَابْن أُخْتنَا مِنَّا، وَمَوْلَانَا مِنَّا، إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ**»[2]. ثُمَّ قَالَ: هَذَا صَحِيح، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ. وَقَالَ عُرْوَة وَالسُّدِّيّ وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي قَوْله تَعَالَى:

---

(١) موضوع: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣/ ٣٣٨)، و«الصغير» (١/ ١٩٩) بسند ضعيف فيه نوح بن أبي مريم؛ قال الحافظ: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع الحديث.

(٢) حسن: أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٨)، وصححه، ووافقه الذهبي. والبخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٥/ ٤٥) من حديث رفاعة بن رافع، وحسنه الألباني في «الأدب المفرد» (٧٥).

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ قَالَ: هُمْ مُحَمَّد ﷺ وَأَصْحَابه ﷺ. وَقَالَ مُجَاهِد: هُمُ الْمُجَاهِدُونَ مَنْ كَانُوا، وَحَيْثُ كَانُوا. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ عِنْد الْمَسْجِد الْحَرَام، وَمَا كَانُوا يُعَامِلُونَهُ بِهِ؛ فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾. قَالَ عَبْد الله بْن عُمَر، وَابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَأَبُو رَجَاء الْعُطَارِدِيّ، وَمُحَمَّد بْن كَعْب الْقُرَظِيّ، وَحُجْر بْن عَنْبَس، وَنُبَيْط بْن شَرِيط، وَقَتَادَة، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: هُوَ الصَّفِير. وَزَادَ مُجَاهِد: وَكَانُوا يُدْخِلُونَ أَصَابِعهمْ فِي أَفْوَاههمْ. وَقَالَ السُّدِّيّ: الْمُكَاء: الصَّفِير، عَلَى نَحْو طَيْر أَبْيَض، يُقَال لَهُ: الْمُكَاء، وَيَكُون بِأَرْضِ الْحِجَاز، ﴿وَتَصْدِيَةً﴾: التصفيق.

قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو خَلَّاد سُلَيْمَان بْن خَلَّاد، حَدَّثَنَا يُونُس بْن مُحَمَّد الْمُؤَدِّب، حَدَّثَنَا يَعْقُوب -يَعْنِي ابْن عَبْد الله الْأَشْعَرِيّ- حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن الْمُغِيرَة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قَالَ: كَانَتْ قُرَيْش تَطُوف بِالْبَيْتِ عُرَاة تُصَفِّر وَتُصَفِّق. وَالْمُكَاء: الصَّفِير، وإنما شبهوا بصفير الطير، وَالتَّصْدِيَة: التَّصْفِيق. وَهَكَذَا رَوَى عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة وَالْعَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْن عُمَر، وَمُجَاهِد، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَأَبِي سَلَمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَعَطِيَّة الْعَوْفِيّ، وَحُجْر بْن عَنْبَس، وَابْن أَبْزَى -نَحْو هَذَا. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر، حَدَّثَنَا قُرَّة، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ ابْن عُمَر فِي قَوْله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قَالَ: الْمُكَاء: التَّصْفِير، وَالتَّصْدِيَة: التَّصْفِيق. قَالَ قُرَّة: وَحَكَى لَنَا عَطِيَّة فِعْل ابْن عُمَر، فَصَفَّرَ ابْن عُمَر، وَأَمَالَ خَدَّهُ، وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ. وَعَنْ ابْن عُمَر أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَضَعُونَ خُدُودهمْ عَلَى الْأَرْض، وَيُصَفِّقُونَ وَيُصَفِّرُونَ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ عَنْهُ. وَقَالَ عِكْرِمَة: كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عَلَى الشِّمَال. قَالَ مُجَاهِد: وَإِنَّمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ذَلِكَ لِيُخَلِّطُوا بِذَلِكَ عَلَى النَّبِيّ ﷺ صَلَاته. وَقَالَ الزُّهْرِيّ: يَسْتَهْزِئُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ. وَعَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ قَالَ: صَدّهمْ النَّاسَ عَنْ سَبِيل الله ﷻ.

قَوْله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قَالَ الضَّحَّاك، وَابْن جُرَيْج، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق: هُوَ مَا أَصَابَهُمْ يَوْم بَدْر مِنْ الْقَتْل وَالسَّبْي. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير وَلَمْ يَحْكِ غَيْره. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد قَالَ: عَذَاب أَهْل الْإِقْرَار بِالسَّيْفِ، وَعَذَاب أَهْل التَّكْذِيب بِالصَّيْحَةِ وَالزَّلْزَلَة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي الزُّهْرِيّ وَمُحَمَّد بْن يَحْيَى بْن حِبَّان، وَعَاصِم بْن عُمَر بْن قَتَادَة، وَالْحُصَيْن بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن عَمْرو بْن سَعِد بْن مُعَاذ؛ قَالُوا: لَمَّا أُصِيبَتْ قُرَيْش يَوْم بَدْر، وَرَجَعَ فَلُّهُمْ إِلَى مَكَّة، وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَان بِعِيرِهِ -مَشَى عَبْد الله بْن أَبِي رَبِيعَة، وَعِكْرِمَة بْن أَبِي جَهْل، وَصَفْوَان بْن أُمَيَّة فِي رِجَال مِنْ قُرَيْش، أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانهمْ بِبَدْر، فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَان ابْن حَرْب، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِير مِنْ قُرَيْش تِجَارَة، فَقَالُوا: يَا مَعْشَر قُرَيْش؛ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكُمْ، وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ؛ فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَال عَلَى حَرْبه؛ لَعَلَّنَا أَنْ نُدْرِك مِنْهُ ثَأْرًا بِمَنْ أُصِيبَ مِنَّا! فَفَعَلُوا. قَالَ: فَفِيهِمْ -كَمَا ذُكِرَ عَنْ ابْن عَبَّاس- أَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد،

وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالحَكَم بْن عُتَيْبَة، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَابْن أَبْزَى: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَان وَنَفَقَتِهِ الأَمْوَال فِي أُحُد لِقِتَالِ رَسُول الله ﷺ. وَقَالَ الضَّحَّاك: نَزَلَتْ فِي أَهْل بَدْر.

وَعَلَى كُلّ تَقْدِير فَهِيَ عَامَّة، وَإِنْ كَانَ سَبَب نُزُولهَا خَاصًّا، فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الكُفَّار يُنْفِقُونَ أَمْوَالهمْ لِيَصُدُّوا عَنْ اتِّبَاع طَرِيق الحَقّ، فَسَيَفْعَلُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَذْهَب أَمْوَالهمْ، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، أَيْ: نَدَامَة حَيْثُ لَمْ تُجْدِ شَيْئًا؛ لأَنَّهُمْ أَرَادُوا إِطْفَاء نُور الله، وَظُهُور كَلِمَتهمْ عَلَى كَلِمَة الحَقّ، ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وَنَاصِر دِينه، وَمُعْلِن كَلِمَته، وَمُظْهِر دِينه عَلَى كُلّ دِين، فَهَذَا الخِزْي لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ فِي الآخِرَة عَذَاب النَّار؛ فَمَنْ عَاشَ مِنْهُمْ رَأَى بِعَيْنِهِ وَسَمِعَ بِأُذُنِهِ مَا يَسُوءهُ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ أَوْ مَاتَ فَإِلَى الخِزْي الأَبَدِيّ وَالعَذَاب السَّرْمَدِيّ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: فَيَمِيز أَهْل السَّعَادَة مِنْ أَهْل الشَّقَاء. وَقَالَ السُّدِّيّ: يَمِيز المُؤْمِن مِنْ الكَافِر. وَهَذَا يَحْتَمِل أَنْ يَكُون هَذَا التَّمْيِيز فِي الآخِرَة، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾. وَقَال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾، وَقَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون هَذَا التَّمْيِيز فِي الدُّنْيَا، بِمَا يَظْهَر مِنْ أَعْمَالهمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَكُون اللَّام مُعَلِّلَة لِمَا جَعَلَ الله للكفار مِنْ مَال، يُنْفِقُونَهُ فِي الصَّدّ عَنْ سَبِيل الله، أَيْ: إِنَّمَا أَقْدَرْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ. ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أَيْ: مَنْ يُطِيعهُ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ الكَافِرِينَ؛ أَوْ يَعْصِيه بِالنُّكُولِ عَنْ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾. وَنَظِيرَتهَا فِي بَرَاءَة أَيْضًا.

فَمَعْنَى الآيَة عَلَى هَذَا إِنَّمَا ابْتَلَيْنَاكُمْ بِالكُفَّارِ يُقَاتِلُونَكُمْ، وَأَقْدَرْنَاهُمْ عَلَى إِنْفَاق الأَمْوَال وَبَذْلهَا فِي ذَلِكَ؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ﴾ أَيْ: يَجْمَعهُ كُلَّهُ، وَهُوَ جَمْع الشَّيْء بَعْضه عَلَى بَعْض، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّحَاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أَيْ: مُتَرَاكِبًا مُتَرَاكِبًا، ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ هُمْ الخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

يَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أَيْ: عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ الكُفْر وَالمُشَاقَّة وَالعِنَاد، وَيَدْخُلُوا فِي الإِسْلَام وَالطَّاعَة وَالإِنَابَة؛ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أَيْ: مِنْ كُفْرهمْ وَذُنُوبهمْ وَخَطَايَاهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيح مِنْ حَدِيث أَبِي وَائِل عَنْ ابْن مَسْعُود رضي الله عنه، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلَامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ**»[1]. وَفِي الصَّحِيح أَيْضًا أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا**»[2]. وَقَوْله: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ أَيْ: يَسْتَمِرُّوا عَلَى مَا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٨٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١)، وأحمد (٤/ ٢١٢).

هُمْ فِيهِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُنَا فِي الأَوَّلِينَ، أَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى عِنَادِهِمْ، أَنَّا نُعَاجِلُهُمْ بِالعَذَابِ وَالعُقُوبَةِ. قَالَ مُجَاهِد فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: فِي قُرَيْش يَوْم بَدْر، وَغَيْرِهَا مِنْ الأُمَم. وَقَالَ السُّدِّيّ وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق: أَيْ: يَوْم بَدْر.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ قَالَ البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا الحَسَن ابْن عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن يَحْيَى، حَدَّثَنَا حَيْوَة بْن شُرَيْح، عَنْ بَكْر بْن عَمْرو، عَنْ بُكَيْر، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَن؛ أَلَا تَسمع مَا ذَكَرَ الله فِي كِتَابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ الآيَة. فَمَا يَمْنَعك أَنْ لَا تُقَاتِل، كَمَا ذَكَرَ الله فِي كِتَابه؟ فَقَالَ: يَا بْن أَخِي، أُعَيَّرُ بِهَذِهِ الآيَة وَلَا أُقَاتِل أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعَيَّرَ بِالآيَةِ الَّتِي يَقُول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ إِلَى آخِر الآيَة. قَالَ: فَإِنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قَالَ ابْن عُمَر: قَدْ فَعَلنَا عَلَى عَهْد رَسُول الله ﷺ، إِذْ كَانَ الإِسْلَام قَلِيلًا، وَكَانَ الرَّجُل يُفْتَن فِي دِينه، إِمَّا أَنْ يَقْتُلُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُوثِقُوهُ، حتى كَثُرَ الإِسْلَام فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَة. فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُوَافِقهُ فِيمَا يُرِيد، قَالَ: فَمَا قَوْلك فِي عَلِيّ وَعُثْمَان؟ قَالَ ابْن عُمَر: أَمَّا قَوْلِي فِي عَلِيّ وَعُثْمَان: أَمَّا عُثْمَان فَكَانَ الله قَدْ عَفَا عَنْهُ، وَكَرِهْتُمْ أَنْ يَعْفُو الله عَنْهُ، وَأَمَّا عَلِيّ فَابْن عَمّ رَسُول الله ﷺ، وَخَتَنه -وَأَشَارَ بِيَدِهِ- وَهَذِهِ ابْنَته -أَوْ بِنْته- حَيْثُ تَرَوْنَ. وَحَدَّثَنَا أَحْمَد بْن يُونُس، حَدَّثَنَا زُهَيْر، حَدَّثَنَا بَيَان، أَنَّ وَبَرَةَ حَدَّثَهُ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيد بْن جُبَيْر، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا أَوْ إِلَيْنَا ابْن عُمَر رضي الله عنهما فَقَالَ رجل: كَيْف تَرَى فِي قِتَال الفِتْنَة؟ فَقَالَ: وَهَل تَدْرِي مَا الفِتْنَة؟ كَانَ مُحَمَّد ﷺ يُقَاتِل الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ الدُّخُول عَلَيْهِمْ فِتْنَة، وَلَيْسَ بِقِتَالِكُمْ عَلَى الْمُلك. هَذَا كُلّه سِيَاق البُخَارِيّ رحمه الله.

وَقَالَ عُبَيْد الله، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر، أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلَانِ فِي فِتْنَة ابْن الزُّبَيْر، فَقَالَا: إِنَّ النَّاس قَدْ صَنَعُوا مَا تَرَى، وَأَنْتَ ابْن عُمَر بْن الخَطَّاب، وَأَنْتَ صَاحِب رَسُول الله ﷺ، فَمَا يَمْنَعُك أَنْ تَخْرُج؟ قَالَ: يَمْنَعُنِي أَنَّ الله حَرَّمَ عَلَيَّ دَم أَخِي الْمُسْلِم. قَالُوا: أَوَلَمْ يَقُل الله: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ قَالَ: قَدْ قَاتَلنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَة، وَكَانَ الدِّين كُلّه لله، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُون فِتْنَةٌ، وَيَكُون الدِّين لِغَيْرِ الله. وَكَذَا رَوَاه حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ أَيُّوب بْن عَبْد الله اللَّخْمِيّ، قَالَ: كُنْت عِنْد عَبْد الله بْن عُمَر رضي الله عنهما، فَأَتَاهُ رَجُل فَقَالَ: إِنَّ الله يَقُول: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾. فَقَالَ ابْن عُمَر: قَاتَلت أَنَا وَأَصْحَابِي حَتَّى كَانَ الدِّين كُلّه لله، وَذَهَبَ الشِّرْك، وَلَمْ تَكُنْ فِتْنَة، وَلَكِنَّك وَأَصْحَابَك تُقَاتِلُونَ حَتَّى تَكُون فِتْنَة، وَيَكُون الدِّين لِغَيْرِ الله. رَوَاهُمَا ابْن مَرْدُوَيْه.

وَقَالَ أَبُو عَوَانَة، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: قَالَ ذُو البُطَيْن -يَعْنِي أُسَامَة بْن زَيْد-: لَا أُقَاتِل رَجُلًا يَقُول: لَا إِلَه إِلَّا الله أَبَدًا. قال: فَقَالَ سَعْد بْن مَالِك: وَأَنَا وَالله، لَا أُقَاتِل رَجُلًا يَقُول: لَا إِلَه إِلَّا الله أَبَدًا. فَقَالَ رَجُل أَلَمْ يَقُل الله: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فَقَالَا: قَدْ قَاتَلنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَة، وَكَانَ الدِّين كُلّه لله. رَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْه. وَقَالَ الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يَعْنِي: لَا يَكُون شِرْك. وَكَذَا قَالَ أَبُو العَالِيَة، وَمُجَاهِد، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالرَّبِيع بْن أَنَس، وَالسُّدِّيّ، وَمُقَاتِل بْن حَيَّان، وَزَيْد بْن أَسْلَمَ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: بَلَغَنِي عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر وَغَيْره مِنْ عُلَمَائِنَا: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: حَتَّى لَا يُفْتَن مُسْلِم عَنْ دِينه.

وَقَوْله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ قَالَ الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة، قَالَ: يُخْلِص التَّوْحِيد لله. وَقَالَ الحَسَن وَقَتَادَة وَابْن جُرَيْج: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أَنْ يُقَال: لَا إِلَه إِلَّا الله. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: وَيَكُون التَّوْحِيد خَالِصًا لله؛ لَيْسَ فِيهِ شِرْك، وَيُخْلَع مَا دُونه مِنْ الأَنْدَاد. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ:

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ لَا يَكُون مَعَ دِينكُمْ كُفْر. وَيَشْهَد لِهَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِل النَّاس حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَه إِلَّا الله؛ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالهمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابهمْ عَلَى الله** ﷻ»[1]. وَفِي الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ؛ قَالَ: سُئِلَ رَسُول اللهِ ﷺ، عَنْ الرَّجُل يُقَاتِل شَجَاعَة، وَيُقَاتِل حَمِيَّة، وَيُقَاتِل رِيَاء، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيل الله ﷻ؟ فَقَالَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا؛ فَهُوَ فِي سَبِيل الله** ﷻ»[2].

وَقَوْله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ أَيْ: بِقِتَالِكُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ الكُفْر، فَكُفُّوا عَنْهُم، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بَوَاطِنهمْ؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَفِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، وَقَالَ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وَفِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ، قَالَ لِأُسَامَة لَمَّا عَلَا ذَلِكَ الرَّجُلَ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: لَا إِلَه إِلَّا الله؛ فَضَرَبَهُ فَقَتَلَهُ فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لِأُسَامَة: «**أَقَتَلْته بَعْد مَا قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا الله؟ وَكَيْف تَصْنَع بِلَا إِلَه إِلَّا الله يَوْم القِيَامَة؟**» فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا. قَالَ: «**هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبه؟**». وَجَعَلَ يَقُول وَيُكَرِّر عَلَيْهِ: «**مَنْ لَكَ بِلَا إِلَه إِلَّا الله يَوْم القِيَامَة؟**» قَالَ أُسَامَة: حَتَّى تَمَنَّيْت أَنْ لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْت إِلَّا ذلك اليوم[3].

وَقَوْله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أَيْ: وَإِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلَافكُمْ وَمُحَارَبَتكُمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَوْلَاكُمْ وَسَيِّدكُمْ وَنَاصِركُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، فَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير. وَقَالَ مُحَمَّد بْن جَرِير: حَدَّثَنِي عَبْد الوَارِث بْن عَبْد الصَّمَد، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبَانُ العَطَّار، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ عُرْوَة؛ أَنَّ عَبْد المَلِك بْن مَرْوَان كَتَبَ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاء، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُرْوَة: سَلَام عَلَيْك؛ فَإِنِّي أَحْمَد إِلَيْك الله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْد، فَإِنَّك كَتَبْت إِلَيَّ تَسْأَلنِي عَنْ مَخْرَج رَسُول اللهِ ﷺ، مِنْ مَكَّة، وَسَأُخْبِرُك بِهِ، وَلَا حَوْل وَلَا قُوَّة إِلَّا بِالله: كَانَ مِنْ شَأْن خُرُوج رَسُول اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّة، أَنَّ الله أَعْطَاهُ النُّبُوَّة، فَنِعْمَ النَّبِيُّ، وَنِعْمَ السَّيِّد، وَنِعْمَ العَشِيرَة، فَجَزَاهُ الله خَيْرًا، وَعَرَّفَنَا وَجْهه فِي الجَنَّة، وَأَحْيَانَا عَلَى مِلَّته، وَأَمَاتَنَا عليها، وَبَعَثَنَا عَلَيْهَا، وَأَنَّهُ لَمَّا دَعَا قَوْمه لِمَا بَعَثَهُ الله بِهِ مِنْ الهُدَى وَالنُّور الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ، لَمْ يَبْعُدُوا مِنْهُ أَوَّل مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَكَانُوا يَسْمَعُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا ذَكَرَ طَوَاغِيتَهُمْ، وَقَدِمَ نَاس مِنْ الطَّائِف مِنْ قُرَيْش لَهُمْ أَمْوَال، أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ نَاس، وَاشْتَدُّوا عَلَيْهِ، وَكَرِهُوا مَا قَالَ، وَأَغْرَوْا بِهِ مَنْ أَطَاعَهُمْ، فانصفق عَنْهُ عَامَّة النَّاس فَتَرَكُوهُ، إِلَّا مَنْ حَفِظَهُ الله مِنْهُمْ، وَهُمْ قَلِيل، فَمَكَثَ بِذَلِكَ مَا قَدَّرَ الله أَنْ يَمْكُث، ثُمَّ ائْتَمَرَتْ رُءُوسهمْ بِأَنْ يَفْتِنُوا مَنْ اتَّبَعَهُ عَنْ دِين الله، مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانهمْ وَقَبَائِلهمْ، فَكَانَتْ فِتْنَة شَدِيدَة الزِّلْزَال، فَافْتُتِنَ مَنْ افْتُتِنَ، وَعَصَمَ الله مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا فُعِلَ ذَلِكَ بِالمُسْلِمِينَ، أَمَرَهُمْ رَسُول اللهِ ﷺ؛ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى أَرْض الحَبَشَة، وَكَانَ بِالحَبَشَةِ مَلِك صَالِح يُقَال لَهُ: النَّجَاشِيّ، لَا يُظْلَم أَحَد بِأَرْضِهِ، وَكَانَ يُثْنَى عَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ، وَكَانَتْ أَرْض الحَبَشَة مَتْجَرًا لِقُرَيْشٍ يَتَّجِرُونَ فِيهَا، وَكَانَتْ مسكنًا لِتُجَّارِهِمْ، يَجِدُونَ فِيهَا رَفَاغًا مِنْ الرِّزْق، وَأَمْنًا وَمَتْجَرًا حَسَنًا، فَأَمَرَهُمْ بِهَا النَّبِيّ ﷺ، فَذَهَبَ إِلَيْهَا عَامَّتهمْ لَمَّا قُهِرُوا بِمَكَّة، وَخَاف عَلَيْهِمْ الفِتَن، وَمَكَثَ هُوَ فَلَمْ يَبْرَح، فَمَكَثَ بِذَلِكَ سَنَوَات يَشْتَدُّونَ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ، ثُمَّ إِنَّهُ فَشَا الإِسْلَام فِيهَا، وَدَخَلَ فِيهِ رِجَال مِنْ أَشْرَافهمْ وَمَنَعَتِهِمْ.

فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ اسْتَرْخَوْا اسْتِرْخَاءَة عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ، وَعَنْ أَصْحَابه، وَكَانَتْ الفِتْنَة الأُولَى هِيَ الَّتِي

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

أَخْرَجَتْ مَنْ خَرَجَ مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ قِبَل أَرْض الحَبَشَة مَخَافَتهَا، وَفِرَارًا مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الفِتَن وَالزِّلْزَال، فَلَمَّا اسْتَرْخَى عَنْهُمْ، وَدَخَلَ فِي الإِسْلَام مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ، تَحَدَّثَ بِاسْتِرْخَائِهِمْ عَنْهُمْ، فَبَلَغَ مَنْ كَانَ بِأَرْضِ الحَبَشَة مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ ، أَنَّهُ قَدْ أُسْتُرْخِيَ عَمَّنْ كَانَ مِنْهُمْ بِمَكَّة، وَأَنَّهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، فَرَجَعُوا إِلَى مَكَّة، وَكَادُوا يَأْمَنُونَ بِهَا، وَجَعَلُوا يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ، وَأَنَّهُ أَسْلَمَ مِنَ الأَنْصَار بِالمَدِينَةِ نَاس كَثِير، وَفَشَا الإِسْلَام بِالمَدِينَةِ، وَطَفِقَ أَهْل المَدِينَة يَأْتُونَ رَسُول الله ﷺ ، بِمَكَّة، فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْش ذَلِكَ تَآمَرُن عَلَى أَنْ يَفْتِنُوهُمْ وَيَشْتَدُّوا، فَأَخَذُوهُمْ فَحَرَصُوا عَلَى أَنْ يَفْتِنُوهُمْ، فَأَصَابَهُمْ جَهْد شَدِيد، فَكَانَتْ الفِتْنَة الأَخِيرَة، فَكَانَتْ فِتْنَتَانِ، فِتْنَة أَخْرَجَتْ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ إِلَى أَرْض الحَبَشَة، حِين أَمَرَهُمْ النَّبِيّ ﷺ بِهَا، وَأَذِنَ لَهُمْ فِي الخُرُوج إِلَيْهَا، وَفِتْنَة لَمَّا رَجَعُوا وَرَأَوْا مَنْ يَأْتِيهِمْ مِنْ أَهْل المَدِينَة. ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَ رَسُول الله ﷺ ، مِنْ المَدِينَة سَبْعُونَ نَقِيبًا، رُءُوس الَّذِينَ أَسْلَمُوا فَوَافَوْهُ بِالحَجِّ، فَبَايَعُوهُ بِالعَقَبَةِ، وَأَعْطَوْهُ عُهُودهمْ عَلَى أَنَّا مِنْك وَأَنْتَ مِنَّا، وَعَلَى أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْ أَصْحَابك أَوْ جِئْتَنَا؛ فَإِنَّا نَمْنَعك مِمَّا نَمْنَع مِنْهُ أَنْفُسنَا. فَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ قُرَيْش عِنْد ذَلِكَ، فَأَمَرَ رَسُول الله ﷺ ، أَصْحَابه أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى المَدِينَة، وَهِيَ الفِتْنَة الآخِرَة الَّتِي أَخْرَجَ فِيهَا رَسُول الله ﷺ أَصْحَابه، وَخَرَجَ هُوَ. وَهِيَ الَّتِي أَنْزَلَ الله ﷻ فِيهَا: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ يُونُس بْن عَبْد الأَعْلَى، عَنْ ابْن وَهْب، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى الوَلِيد -يَعْنِي ابْن عَبْد المَلِك ابْن مَرْوَان- بِهَذَا، فَذَكَرَ مِثْله، وَهَذَا صَحِيح إِلَى عُرْوَة رَحِمَهُ اللهُ.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

يُبَيِّن تَعَالَى تَفْصِيل مَا شَرَعَهُ مُخَصِّصًا لِهَذِهِ الأُمَّة الشَّرِيفَة، مِنْ بَيْن سَائِر الأُمَم المُتَقَدِّمَة من إِحْلَالِ المغانم. وَالغَنِيمَة هِيَ المَال المَأْخُوذ مِنْ الكُفَّار بِإِيجَافِ الخَيْل. وَالرِّكَاب وَالفَيْء مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ؛ كَالأَمْوَالِ الَّتِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا، أَوْ يُتَوَفَّوْنَ عَنْهَا وَلَا وَارِث لَهُمْ، وَالجِزْيَة وَالخَرَاج وَنَحْو ذَلِكَ، هَذَا مَذْهَب الإِمَام الشَّافِعِيّ فِي طَائِفَة مِنْ عُلَمَاء السَّلَف وَالخَلَف. وَمِنْ العُلَمَاء مَنْ يُطْلِق الفَيْء عَلَى مَا تُطْلَق عَلَيْهِ الغَنِيمَة، وَالغنيمة على الفيء أَيْضًا؛ وَلِهَذَا ذَهَبَ قَتَادَة إِلَى أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَاسِخَة لِآيَةِ الحَشْر: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾. قَالَ: فَنَسَخَتْ آيَةُ الأَنْفَال تِلْكَ، وَجَعَلَتْ الغَنَائِم أَرْبَعَة أَخْمَاسها لِلْمُجَاهِدِينَ، وَخُمُسًا مِنْهَا لِهَؤُلَاءِ المَذْكُورِينَ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ بَعِيدٌ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ بَعْد وَقْعَة بَدْر، وَتِلْكَ نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِير، وَلَا خِلَاف بَيْن عُلَمَاء السِّيَر وَالمَغَازِي قَاطِبَة أَنَّ بَنِي النَّضِير بَعْد بَدْر، وَهَذَا أَمْر لَا يُشَكّ فِيهِ وَلَا يُرْتَاب، فَمَنْ يُفَرِّق بَيْن مَعْنَى الفَيْء وَالغَنِيمَة يَقُول: تِلْكَ نَزَلَتْ فِي أَمْوَال الفَيْء، وَهَذِهِ فِي المغانم. وَمَنْ يَجْعَل أَمْر المغانم وَالفَيْء رَاجِعًا إِلَى رَأْي الإِمَام يَقُول: لَا مُنَافَاة بَيْن آيَة الحَشْر وَبَيْن التَّخْمِيس، إِذَا رَآهُ الإِمَام ، والله أَعْلَمُ. فَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ تَوْكِيد لِتَخْمِيسِ كُلّ قَلِيل وَكَثِير، حَتَّى الخَيْط وَالمِخْيَط؛ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ هَاهُنَا، فَقَالَ بَعْضهمْ: لله نَصِيب مِنْ الخُمُس، يُجْعَل فِي الكَعْبَة. قَالَ أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع، عَنْ أَبِي العَالِيَة الرِّيَاحِيّ، قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ ، يُؤْتَى بِالغَنِيمَةِ فَيُقَسِمهَا عَلَى خَمْسَة، تَكُون أَرْبَعَة أَخْمَاس لِمَنْ شَهِدَهَا، ثُمَّ يَأْخُذ الخُمُس فَيَضْرِب بِيَدِهِ فِيهِ، فَيَأْخُذ مِنْهُ الَّذِي قَبَضَ كَفُّهُ، فَيَجْعَلهُ لِلكَعْبَةِ، وَهُوَ سَهْم الله، ثُمَّ يَقْسِم مَا بَقِيَ عَلَى خَمْسَة أَسْهُم؛ فَيَكُون سَهْم لِلرَّسُولِ، وَسَهْم لِذَوِي

القُرْبَى، وَسَهْم لِلْيَتَامَى، وَسَهْم لِلمَسَاكِينِ، وَسَهْم لِابْنِ السَّبِيل. وَقَالَ آخَرُونَ: ذِكْر الله هَاهُنَا اسْتِفْتَاحُ كَلَام لِلتَّبَرُّك، وَسَهْم لِرَسُولِهِ ﷺ. قَالَ الضَّحَّاك، عَنْ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً فَغَنِمُوا، خَمَّسَ الغَنِيمَة فَضَرَبَ ذَلِكَ الخُمُس فِي خَمْسَة، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مِفْتَاح كَلَام: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فَجَعَلَ سَهْم الله وَسَهْم الرَّسُول ﷺ وَاحِدًا، وَهَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَالحَسَن بْن مُحَمَّد ابْنِ الحَنَفِيَّة، وَالحَسَن البَصْرِيّ وَالشَّعْبِيّ، وَعَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، وَعَبْد الله بْن بُرَيْدَة، وَقَتَادَة وَمُغِيرَة وَغَيْر وَاحِد: أَنَّ سَهْم الله وَرَسُوله وَاحِد. وَيُؤَيِّد هَذَا مَا رَوَاهُ الإِمَام الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ بِإِسْنَادٍ صَحِيح، عَنْ عَبْد الله بْن شَقِيق، عَنْ رَجُل من بلقين، قَالَ: أَتَيْت النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ بِوَادِي القُرَى، وَهُوَ يَعْرِض فَرَسًا، فَقُلت: يَا رَسُول الله، مَا تَقُول فِي الغَنِيمَة؟ فَقَالَ: «لله خُمُسهَا، وَأَرْبَعَة أَخْمَاسهَا للجَيْش». قُلت: فَمَا أَحَد أَوْلَى بِهِ مِنْ أَحَد؟ قَالَ: «لا، وَلا السَّهْم تَسْتَخْرِجهُ مِنْ جَيْبك لَيْسَ أَنْتَ أَحَق بِهِ مِنْ أَخِيك المُسْلِم»[1].

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عِمْرَان بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا عَبْد الوَارِث، حَدَّثَنَا أَبَان، عَنْ الحَسَن، قَالَ: أَوْصَى أبو بكر رضي الله عنه بِالخُمُس مِنْ مَاله، وَقَالَ: أَلَا أَرْضَى مِنْ مَالِي بِمَا رَضِيَ الله لِنَفْسِهِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ قَائِلُو هَذَا القَوْل، فَرَوَى عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَالَ: كَانَتْ الغَنِيمَة تُقسم عَلَى خَمْسَة أَخْمَاس؛ فَأَرْبَعَة مِنْهَا بَيْن مَنْ قَاتَلَ عَلَيْهَا، وَخُمُس وَاحِد يُقْسَم عَلَى أَرْبَعَة أَخْمَاس: فَرُبُع لله وَلِلرَّسُولِ ﷺ ولذي القربى -يعني: قرابة النبي ﷺ- فَمَا كَانَ لله وَلِلرَّسُولِ فَهُوَ لِقَرَابَةِ النَّبِيّ ﷺ وَلَمْ يَأْخُذ النَّبِيّ ﷺ مِنْ الخُمُس شَيْئًا، والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: ثَنَا أَبِي، ثَنَا أَبُو مَعْمَر المِنْقَرِيّ، ثَنَا عَبْد الوَارِث بْن سَعِيد، عَنْ حُسَيْن المُعَلِّم، عَنْ عَبْد الله بْن بُرَيْدَة فِي قَوْله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ قَالَ: الَّذِي لله فَلِنَبِيِّهِ، وَالَّذِي لِلرَّسُولِ لِأَزْوَاجِهِ. وَقَالَ عَبْد المَلِك بْن أَبِي سُلَيْمَان، عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، قَالَ: خُمُس الله وَالرَّسُول وَاحِد، كان يَحْمِل مِنْهُ وَيَصْنَع فِيهِ مَا شَاءَ -يَعْنِي: النَّبِيّ ﷺ-. وَهَذَا أَعَمّ وَأَشْمَل، وَهُوَ أن الرسول ﷺ يَتَصَرَّف فِي الخُمُس الَّذِي جَعَلَهُ الله له بِمَا شَاءَ، وَيَرُدّهُ فِي أُمَّته كَيْف شَاءَ، وَيَشْهَد لِهَذَا مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن عِيسَى، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، عَنْ أَبِي بَكْر بْن عَبْد الله بْن أَبِي مَرْيَم، عَنْ أَبِي سَلَّام الأَعْرَج، عَنْ المِقْدَام بْن مَعْدِيكَرِبَ الكِنْدِيّ، أَنَّهُ جَلَسَ مَعَ عُبَادَة بْن الصَّامِت، وَأَبِي الدَّرْدَاء، وَالحَارِث بْن مُعَاوِيَة الكِنْدِيّ رضي الله عنهم، فَتَذَاكَرُوا حَدِيث رَسُول الله ﷺ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاء لِعُبَادَة: يَا عُبَادَة، كَلِمَات رَسُول الله ﷺ فِي غَزْوَة كَذَا وَكَذَا فِي شَأْن الأَخْمَاس. فَقَالَ عُبَادَة: إِنَّ رَسُول الله ﷺ، صَلَّى بِهِمْ فِي غَزْوَة إِلَى بَعِير مِنْ المَغْنَم، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ رَسُول الله ﷺ فَتَنَاوَلَ وَبَرَة بَيْن أُنْمُلَتَيْهِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ مِنْ غَنَائِمكُمْ، وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلا نَصِيبِي مَعَكُمْ؛ إِلا الخُمُس، وَالخُمُس مَرْدُود عَلَيْكُمْ؛ فَأَدُّوا الخَيْط وَالمخْيَط، وَأَكْبَر مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَر، وَلا تَغُلُّوا فَإِنَّ الغُلُول عَارٌ وَنَار عَلَى أَصْحَابه فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَجَاهِدُوا النَّاس فِي الله؛ القَرِيبَ وَالبَعِيدَ، وَلا تُبَالُوا فِي الله لَوْمَة لائِم، وَأَقِيمُوا حُدُود الله فِي السَّفَر وَالحَضَر، وَجَاهِدُوا فِي سبيل الله؛ فَإِنَّ الجِهَاد بَاب مِنْ أَبْوَاب الجَنَّة، يُنْجِي الله بِهِ مِنْ الهَمّ وَالغَمّ»[2]. هَذَا حَدِيث حَسَن عَظِيم، وَلَمْ أَرَهُ فِي شَيْء مِنْ الكُتُب السِّتَّة مِنْ هَذَا الوَجْه، وَلَكِنْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا، وَأَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه عَبْد الله بْن عَمْرو، عَنْ رَسُول الله ﷺ، نَحوه فِي قِصَّة الخُمُس، وَالنَّهْي عَنْ الغُلُول.

---

(١) صحيح: أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٦/ ٣٢٤، ٩/ ٦٢).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦، ٥/ ٣٢٦) من حديث عبادة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٧٣٧).

وَعَنْ عَمْرو بْن عَبَسَة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، صَلَّى بِهِمْ إِلَى بَعِير مِنَ المَغْنَم، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخَذَ وَبَرَة مِنْ هَذَا البَعِير، ثُمَّ قَالَ: **«وَلا يَحِلّ لِي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْل هَذِهِ إِلا الخُمُس، وَالخُمُس مَرْدُود فِيكُم»**. رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ. وَقَدْ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، مِنَ المغانم شَيْء يَصْطَفِيه لِنَفْسِهِ: عَبْد، أَوْ أَمَة، أَوْ فَرَس، أَوْ سَيْف، أَوْ نَحْو ذَلِكَ. كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، وَعَامِر الشَّعْبِيّ، وَتَبِعَهُمَا عَلَى ذَلِكَ أَكْثَر العُلَمَاء. وَرَوَى الإِمَام أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ -وَحَسَّنَهُ- عَنِ ابْن عَبَّاس: أَنَّ رَسُول الله ﷺ، تَنَفَّلَ سَيْفه ذَا الفَقَار يَوْم بَدْر، وَهُوَ الَّذِي رَأَى فِيهِ الرُّؤْيَا يَوْم أُحُد[1]. وَعَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَتْ صَفِيَّة مِنَ الصَّفِيّ[2]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سُنَنه. وَرَوَى أَيْضًا بِإِسْنَادِهِ، وَالنَّسَائِيّ أَيْضًا، عَنْ يَزِيد بْن عَبْد الله قَالَ: كُنَّا بِالمِرْبَدِ، إِذْ دَخَلَ رَجُل مَعَهُ قِطْعَة أَدِيم، فَقَرَأْنَاهَا فَإِذَا فِيهَا: **«مِنْ مُحَمَّد رَسُول الله إِلَى بَنِي زُهَيْر بْن أُقَيش، إِنَّكُمْ إِنْ شَهِدْتُمْ أَنْ لا إِلَه إِلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله، وَأَقَمْتُمْ الصَّلاة، وَآتَيْتُمْ الزَّكَاة، وَأَدَّيْتُمْ الخُمُس مِنَ المَغْنَم، وَسَهْم النَّبِيّ ﷺ، وَسَهْم الصَّفِيّ، أَنْتُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ الله وَرَسُوله»**، فَقُلْنَا: مَنْ كَتَبَ لك هَذَا؟ فَقَالَ: رَسُول الله ﷺ[3]. فَهَذِهِ أَحَادِيث جَيِّدَة تَدُلّ عَلَى تَقْرِير هَذَا وَثُبُوته، وَلِهَذَا جَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرُونَ مِنَ الخَصَائِص لَهُ صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ الخُمُس يَتَصَرَّف فِيهِ الإِمَام بِالمَصْلَحَةِ لِلمُسْلِمِينَ، كَمَا يَتَصَرَّف فِي مَال الفَيْء. وَقَالَ شَيْخنَا الإِمَام العَلَّامَة ابْن تَيْمِيَّة رحمه الله: وَهَذَا قَوْل مَالِك وَأَكْثَر السَّلَف، وَهُوَ أَصَحّ الأَقْوَال. فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا وَعُلِمَ، فَقَدْ اخْتُلِفَ أَيْضًا فِي الَّذِي كَانَ يَنَالهُ عليه السلام مِنَ الخُمُس، مَاذَا يُصْنَع بِهِ مِنْ بَعْده؟ فَقَالَ قَائِلُونَ: يَكُون لِمَنْ يَلِي الأَمْر مِنْ بَعْده. رُوِيَ هَذَا عَنْ أَبِي بَكْر، وَعَلِيّ، وَقَتَادَة، وَجَمَاعَة. وَجَاءَ فِيهِ حَدِيث مَرْفُوع. وَقَالَ آخَرُونَ: يُصْرَف فِي مَصَالِح المُسْلِمِينَ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَل هُوَ مَرْدُود عَلَى بَقِيَّة الأَصْنَاف: ذَوِي القُرْبَى، وَاليَتَامَى، وَالمَسَاكِين، وَابْن السَّبِيل. اخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ آخَرُونَ: بَل سَهْم النَّبِيّ ﷺ، وَسَهْم ذَوِي القُرْبَى، مَرْدُودَانِ عَلَى اليَتَامَى، وَالمَسَاكِين، وَابْن السَّبِيل. قَالَ ابْن جَرِير: وَذَلِكَ قَوْل جَمَاعَة مِنْ أَهْل العِرَاق.

وَقِيلَ: إِنَّ الخُمُس جَمِيعه لِذَوِي القُرْبَى، كَمَا رَوَاهُ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا عَبْد الغَفَّار، حَدَّثَنَا المِنْهَال بْن عَمْرو، سَأَلت عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن عَلِيّ، وَعَلِيّ بْن الحُسَيْن، عَنِ الخُمُس. فَقَالَا: هُوَ لَنَا فَقُلت لِعَلِيّ: فَإِنَّ الله يَقُول: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فَقَالَا: يَتَامَانَا، وَمَسَاكِينِنَا. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، وَأَبُو نُعَيْم، وَأَبُو أُسَامَة، عَنْ قَيْس بْن مُسْلِم، سَأَلت الحَسَن بْن مُحَمَّد ابْن الحَنَفِيَّة رحمه الله عَنْ قَوْل الله تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ فَقَالَ: هَذَا مِفْتَاح كَلَام الله، الدُّنْيَا وَالآخِرَة. ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاس فِي هَذَيْنِ السَّهْمَيْنِ بَعْد وَفَاة رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ قَائِلُونَ: سَهْم النَّبِيّ ﷺ، لِلخَلِيفَةِ مِنْ بَعْده. وَقَالَ آخَرُونَ: لِقَرَابَةِ النَّبِيّ ﷺ. وَقَالَ آخَرُونَ: سَهْم القَرَابَة لِقَرَابَةِ الخَلِيفَة، وَاجْتَمَعَ رَأْيهمْ أَنْ يَجْعَلُوا هَذَيْنِ السَّهْمَيْنِ فِي الخَيْل وَالعُدَّة فِي سَبِيل الله، فَكَانَا عَلَى ذَلِكَ فِي خِلَافَة أَبِي بَكْر وَعُمَر رضي الله عنهما. قَالَ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم: كَانَ أَبُو بَكْر وَعُمَر يَجْعَلَانِ سَهْم النَّبِيّ ﷺ، فِي الكُرَاع وَالسِّلَاح، فَقُلت لِإِبْرَاهِيم: مَا كَانَ عَلِيّ يقول فِيهِ؟ قَالَ: كَانَ أَشَدَّهُمْ فِيهِ. وَهَذَا قَوْل طَائِفَة كَثِيرَة مِنَ العُلَمَاء رَحِمَهُمْ الله.

وَأَمَّا سَهْم ذَوِي القُرْبَى، فَإِنَّهُ يُصْرَف إِلَى بَنِي هَاشِم وَبَنِي المُطَّلِب؛ لِأَنَّ بَنِي المُطَّلِب وَازَرُوا بَنِي هَاشِم فِي

---

(١) حسن الإسناد: أخرجه الترمذي (١٥٦١)، وابن ماجه (٢٨٠٨)، وأحمد (١/ ٢٧١) وصحح إسناده الشيخ أحمد محمد شاكر في تحقيقه على المسند.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٩٩٤)، وابن حبان (٤٨٢٢)، والحاكم (٢/ ١٤٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٨٧).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٩٩٩) من حديث يزيد بن عبد الله، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٩٢).

الجاهلِيَّة، وَفِي أَوَّل الإسْلَام، وَدَخَلُوا مَعَهُمْ فِي الشِّعْب غَضَبًا لِرَسُولِ الله ﷺ وَحِمَايَة لَهُ: مُسْلِمُهُمْ طَاعَةً لله وَلِرَسُولِهِ، وَكَافِرُهُمْ حَمِيَّةً لِلعَشِيرَةِ وَأَنَفَةً، وَطَاعَةً لِأَبِي طَالِب عَمّ رَسُول الله ﷺ وَأَمَّا بَنُو عَبْد شَمْس وَبَنُو نَوْفَل، وَإِنْ كَانُوا بَنِي عَمّهمْ، فَلَمْ يُوَافِقُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، بَل حَارَبُوهُمْ وَنَابَذُوهُمْ وَمَالَئُوا بُطُون قُرَيْش عَلَى حَرْب الرَّسُول، وَلِهَذَا كَانَ ذَمّ أَبِي طَالِب لَهُمْ فِي قَصِيدَته اللَّامِيَّة أَشَدّ مِنْ غَيْرهمْ؛ لِشِدَّةِ قُرْبِهِمْ، وَلِهَذَا يَقُول فِي أَثْنَاء قَصِيدَته:

جَزَى الله عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلا ❁ عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلِ

بِمِيزَانِ قِسْطٍ لا يَخِيسُ شَعِيرَةً ❁ لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلِ

لَقَدْ سُفِّهَتْ أَحْلامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا ❁ بَنِي خَلَفٍ قَيْضًا بِنَا وَالغَيَاطِلِ

وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ ❁ وَآلُ قُصَيٍّ فِي الخُطُوبِ الأَوَائِلِ

وَقَالَ جُبَيْر بْن مُطْعِم بْن عَدِيّ بْن نَوْفَل: مَشَيْت أَنَا وَعُثْمَان بْن عَفَّان يَعْنِي ابْن أَبِي العَاص ابْن أُمَيَّة بْن عَبْد شَمْس إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُول الله، أَعْطَيْت بَنِي المُطَّلِب، مِنْ خُمُس خَيْبَر، وَتَرَكْتنَا وَنَحْنُ وَهُمْ مِنْك بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَة، فَقَالَ: «إِنَّمَا بَنُو هَاشِم وَبَنُو المُطَّلِب شَيْء وَاحِد»[1]. رَوَاهُ مُسْلِم. وَفِي بَعْض رِوَايَات هَذَا الحَدِيث: «إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَّة وَلا إِسْلام». وَهَذَا قَوْل جُمْهُور العُلَمَاء، أَنَّهُمْ بَنُو هَاشِم وَبَنُو المُطَّلِب.

قَالَ ابْن جَرِير: وَقَالَ آخَرُونَ: هُمْ بَنُو هَاشِم. ثُمَّ رَوَى عَنْ خُصَيْف عَنْ مُجَاهِد قَالَ: عَلِمَ الله أَنَّ فِي بَنِي هَاشِم فُقَرَاءَ، فَجَعَلَ لَهُمْ الخُمُس مَكَان الصَّدَقَة. وَفِي رِوَايَة عَنْهُ، قَالَ: هُمْ قَرَابَة رَسُول الله ﷺ الَّذِينَ لَا تَحِلّ لَهُمْ الصَّدَقَة. ثُمَّ رَوَى عَنْ عَلِيّ بْن الحسين نَحْو ذَلِكَ. قَالَ ابْن جَرِير: وَقَالَ آخَرُونَ: بَل هُمْ قُرَيْش كُلّهَا. حَدَّثَنِي يُونُس بْن عَبْد الأَعْلَى، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن نَافِع، عَنْ أَبِي مَعْشَر، عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، قَالَ: كَتَبَ نَجْدَةُ إِلَى عَبْد الله ابْن عَبَّاس يَسْأَلهُ عَنْ ذَوِي القُرْبَى؛ فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْن عَبَّاس كُنَّا نَقُول: إِنَّا هُمْ، فَأَبَى عَلَيْنَا ذَلِكَ قَوْمُنَا، وَقَالُوا: قُرَيْش كُلّهَا ذَوُو قُرْبَى. وَهَذَا الحَدِيث صَحِيح، رَوَاهُ مُسْلِم، وَأَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ يَزِيد بْن هُرْمُز، أَنَّ نَجْدَةَ كَتَبَ إِلَى ابْن عَبَّاس يَسْأَلهُ عَنْ ذَوِي القُرْبَى، فَذَكَرَهُ. إِلَى قَوْله: فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْنَا قَوْمنَا. وَالزِّيَادَة مِنْ أَفْرَاد أَبِي مَعْشَر نَجِيح بْن عَبْد الرَّحْمَن المَدَنِيّ، وَفِيهِ ضَعْف.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إبراهيم بْن مَهْدِيّ المِصِّيصِيّ، حَدَّثَنَا المُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ حَنَش، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «رَغِبْتُ لَكُمْ عَنْ غُسَالَة الأَيْدِي، لأَنَّ لَكُمْ مِنْ خُمُس الخُمُس، مَا يُغْنِيكُمْ أَوْ يَكْفِيكُمْ»[2]. هَذَا حَدِيث حَسَن الإِسْنَاد، وَإِبْرَاهِيم بْن مَهْدِيّ هَذَا وَثَّقَهُ أَبُو حَاتِم، وَقَالَ يَحْيَى بْن مَعِين: يَأْتِي بِمَنَاكِيرَ، والله أَعْلَمُ.

وَقَوْله: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ أَيْ: أَيْتَام المُسْلِمِينَ، وَاخْتَلَفَ العُلَمَاء هَل يَخْتَصّ بِالأَيْتَام الفُقَرَاء، أَوْ يَعُمّ الأَغْنِيَاء وَالفُقَرَاء؟ عَلَى قَوْلَيْنِ. ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ هُمْ المَحَاوِيج، الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَسُدّ خَلَّتَهُمْ وَمَسْكَنَتهمْ. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هُوَ المُسَافِر أَوْ المُرِيد لِلسَّفَرِ إِلَى مَسَافَة تُقْصَر فِيهَا الصَّلَاة، وَلَيْسَ لَهُ مَا يُنْفِقهُ فِي سَفَره ذَلِكَ. وَسَيَأْتِي تَفْسِير ذَلِكَ فِي آيَة الصَّدَقَات مِنْ سُورَة بَرَاءَة إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى وَبِهِ الثِّقَة وَعَلَيْهِ التُّكْلَان. وَقَوْله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أَيْ: امْتَثِلُوا مَا شَرَعْنَا لَكُمْ مِنَ الخُمُس فِي الغَنَائِم، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَاليَوْم الآخِر، وَمَا أُنْزَل عَلَى رَسُوله؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن عَبَّاس، فِي حَدِيث وَفْد عَبْد القَيْس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لَهُمْ: «وَآمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِالله» ثُمَّ قَالَ: «هَل تَدْرُونَ مَا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٤٠)، وأبو داود (٢٩٧٨).
(٢) ضعيف الإسناد: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٨) لابن أبي حاتم.

الإِيمَان بالله؟ شَهَادَة أَنْ لا إِلَه إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله، وَإِقَام الصَّلاة، وَإِيتَاء الزَّكَاة، وَأَنْ تُؤَدُّوا الخُمُس مِنْ المَغْنَم»[1]. الحَدِيثَ بِطُولِهِ، فَجَعَلَ أَدَاء الخُمُس مِنْ جُمْلَة الإِيمَان، وَقَدْ بَوَّبَ البُخَارِيّ عَلَى ذَلِكَ فِي كِتَاب الإِيمَان مِنْ صَحِيحه، فَقَالَ: «بَاب أَدَاء الخُمُس مِنْ الإِيمَان» ثُمَّ أَوْرَدَ حَدِيث ابْن عَبَّاس هَذَا، وَقَدْ بَسَطْنَا الكَلَام عَلَيْهِ فِي شَرْح البُخَارِيّ، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة. وَقَالَ مُقَاتِل بْن حَيَّان: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ أَيْ: فِي القِسْمَة. وَقَوْله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ يُنَبِّه تَعَالَى عَلَى نِعْمَته وَإِحْسَانه إِلَى خَلقه، بِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل بِبَدْرٍ، وَيُسَمَّى الفُرْقَان؛ لِأَنَّ الله أَعْلَى فِيهِ كَلِمَة الإِيمَان عَلَى كَلِمَة البَاطِل، وَأَظْهَرَ دِينَهُ وَنَصَرَ نَبِيّه وَحِزْبه. قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة وَالعَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: يَوْم الفُرْقَان يَوْم بَدْر؛ فَرَّقَ الله فِيهِ بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل. رَوَاهُ الحَاكِم. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَمِقْسَم، وَعُبَيْد الله بْن عَبْد الله وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَمُقَاتِل بْن حَيَّان وَغَيْر وَاحِد: إنه يَوْم بَدْر. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، فِي قَوْله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ يَوْم فَرَّقَ الله بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل، وَهُوَ يَوْم بَدْر، وَهُوَ أَوَّل مَشْهَد شَهِدَهُ رَسُول الله ﷺ ، وَكَانَ رَأْس المُشْرِكِينَ عُتْبَة بْن رَبِيعَة؛ فَالتَقَوْا يَوْم الجُمُعَة لِتِسْعَ عَشْرَةَ أَوْ سَبْعَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَان، وَأَصْحَاب رَسُول الله ﷺ ، يَوْمَئِذٍ ثَلَثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَالمُشْرِكُونَ بَيْنَ الأَلْف وَالتِّسْعِمِائَةِ، فَهَزَمَ الله المُشْرِكِينَ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ زِيَادَة عَلَى السَّبْعِينَ، وَأُسِرَ مِنْهُمْ مِثْل ذَلِكَ. وَقَدْ رَوَى الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ حَدِيث الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ الأَسْوَد، عَنْ ابْن مَسْعُود، قَالَ فِي لَيْلَة القَدْر: تَحَرَّوْهَا لِإِحْدَى عَشْرَة يَبْقَيْنَ؛ فَإِنَّ فِي صَبِيحَتهَا يَوْمَ بَدْر؛. وَقَالَ: عَلَى شَرْطهمَا. وَرُوِيَ مِثْله عَنْ عَبْد الله بْن الزُّبَيْر أَيْضًا، مِنْ حَدِيث جَعْفَر بْن بَرْقَان، عَنْ رَجُل عَنْهُ. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن وَاضِح، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن يَعْقُوب أَبُو طَالِب، عَنْ ابْن عَوْن، عَنْ مُحَمَّد ابْن عَبْد الله الثَّقَفِيّ، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن السُّلَمِيّ، قَالَ: قَالَ الحَسَن بْن عَلِيّ: كَانَتْ لَيْلَة الفُرْقَان، يَوْم التَقَى الجَمْعَانِ، لِسَبْعَ عَشْرَة مِنْ رَمَضَان. إِسْنَاد جَيِّد قَوِيّ. وَرَوَاهُ ابْن مَرْدَوَيْه، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن عَبْد الله بْن حَبِيب، عَنْ عَلِيّ قَالَ: كَانَتْ لَيْلَة الفُرْقَان لَيْلَة التَقَى الجَمْعَانِ فِي صَبِيحَتهَا لَيْلَة الجُمْعَة، لِسَبْعَ عَشْر مَضَتْ مِنْ شَهْر رَمَضَان. وَهُوَ الصَّحِيح عِنْد أَهْل المَغَازِي وَالسِّيَر. وَقَالَ يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب إِمَام أَهْل الدِّيَار المِصْرِيَّة فِي زَمَانه: كَانَ يَوْم بَدْر يَوْم الاِثْنَيْنِ. وَلَمْ يُتَابَع عَلَى هَذَا، وَقَوْل الجُمْهُور مُقَدَّم عَلَيْهِ، الله أَعْلَمُ.

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْم الفُرْقَان: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أَيْ: إِذْ أَنْتُمْ نُزُولٌ بِعُدْوَةِ الوَادِي الدُّنْيَا القَرِيبَة إِلَى المَدِينَة، ﴿وَهُم﴾ أَيْ: المُشْرِكُونَ نُزُولٌ ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ أَيْ: البَعِيدَة مِنْ المَدِينَة إِلَى نَاحِيَة مَكَّة، ﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾ أَيْ: العِير الَّذِي فِيهِ أَبُو سُفْيَان بِمَا مَعَهُ مِنْ التِّجَارَة، ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ أَيْ: مِمَّا يَلِي سِيف البَحْر، ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ وَالمُشْرِكُونَ إِلَى مَكَان، ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾. قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْن عَبَّاد بْن عَبْد الله بْن الزُّبَيْر عَنْ أَبِيهِ فِي هَذِهِ الآيَة، قَالَ: وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ مِيعَاد مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ، ثُمَّ بَلَغَكُمْ كَثْرَة عَدَدهمْ وَقِلَّة عَدَدكُمْ؛ مَا لَقِيتُمُوهُمْ، ﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ أَيْ: لِيَقْضِيَ الله مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ، مِنْ إِعْزَاز الإِسْلَام وَأَهْله، وَإِذْلَال الشِّرْك وَأَهْله مِنْ غَيْر مَلَأ مِنْكُمْ، فَفَعَلَ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ بِلُطْفِهِ. وَفِي حَدِيث كَعْب بْن مَالِك قَالَ: إِنَّمَا خَرَجَ رَسُول الله ﷺ ، وَالمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِير قُرَيْش حَتَّى جَمَعَ الله بَيْنهمْ وَبَيْن

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

عَدُوَّهُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ[1]. وَقَالَ ابن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنِي ابْن عُلَيَّة، عَنْ ابْن عَوْن، عَنْ عُمَيْر بْن إِسْحَاق، قَالَ: أَقْبَلَ أَبُو سُفْيَان فِي الرَّكْب مِنَ الشَّام، وَخَرَجَ أَبُو جَهْل لِيَمْنَعَهُ مِنْ رَسُول الله ﷺ، وَأَصْحَابه، فَالتَقَوْا بِبَدْرٍ، وَلَا يَشْعُر هَؤُلَاءِ بِهَؤُلَاءِ، وَلَا هَؤُلَاءِ بِهَؤُلَاءِ، حَتَّى التَقَت السُّقَاة، وَنَهَدَ النَّاس بَعْضهمْ لِبَعْضٍ.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي السِّيرَة: وَمَضَى رَسُول الله ﷺ، عَلَى وَجْهه ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنَ الصَّفْرَاء، بَعَثَ بُسْبَسَ بْن عَمْرو، وَعَدِيّ بْن أَبِي الزَّغْبَاء الجُهَنِيَّيْنِ يَلتَمِسَانِ الخَبَر عَنْ أَبِي سُفْيَان؛ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا وَرَدَا بَدْرًا فَأَنَاخَا بَعِيرَيْهِمَا إِلَى تَلّ مِنَ البَطْحَاء، فَاسْتَقَيَا فِي شَنّ لَهُمَا مِنَ المَاء، فَسَمِعَا جَارِيَتَيْنِ تَخْتَصِمَانِ، تَقُول إِحْدَاهُمَا لِصَاحِبَتِهَا: اقْضِينِي حَقِّي، وَتَقُول الأُخْرَى: إِنَّمَا تَأْتِي العِير غَدًا أَوْ بَعْد غَد؛ فَأَقْضِيك حَقّك، فَخَلَّصَ بَيْنهمَا مَجْدِيّ ابْن عَمْرو، وَقَالَ: صَدَقْت، فَسَمِعَ بِذَلِكَ بُسْبَس وَعَدِيّ، فَجَلَسَا عَلَى بَعِيرَيْهِمَا، حَتَّى أَتَيَا رَسُول الله ﷺ، فَأَخْبَرَاهُ الخَبَر. وَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَان حِين وَلَّيَا وَقَدْ حَذِرَ، فَتَقَدَّمَ أَمَام عِيره، وَقَالَ لِمَجْدِيِّ بْن عَمْرو: هَل أَحْسَسْت عَلَى هَذَا المَاء مِنْ أَحَد تُنْكِرهُ؟ فَقَالَ: لَا وَالله، إِلَّا أَنِّي قَدْ رَأَيْت رَاكِبَيْنِ أَنَاخَا إِلَى هَذَا التَّل، فَاسْتَقَيَا فِي شَنّ لَهُمَا، ثُمَّ انْطَلَقَا. فَجَاءَ أَبُو سُفْيَان إِلَى مَنَاخ بَعِيرَيْهِمَا، فَأَخَذَ مِنْ أَبْعَارِهِمَا فَفَتَّهُ، فَإِذَا فِيهِ النَّوَى، فَقَالَ: هَذِهِ وَالله عَلَائِف يَثْرِب، ثُمَّ رَجَعَ سَرِيعًا فَضَرَبَ وَجْه عِيره، فَانْطَلَقَ بِهَا، فَسَاحَلَ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عِيره بعث إِلَى قُرَيْش فَقَالَ: إِنَّ الله قَدْ نَجَّى عِيرَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَرِجَالَكُمْ فَارْجِعُوا. فَقَالَ أَبُو جَهْل: وَالله، لَا نَرْجِع حَتَّى نَأْتِيَ بَدْرًا -وَكَانَتْ بَدْر سُوقًا مِنْ أَسْوَاق العَرَب- فَنُقِيم بِهَا ثَلَاثًا، فَنَطْعَم بِهَا الطَّعَام، وَنَنْحَر بِهَا الجُزُر، وَنَسْقِي بِهَا الخَمْر، وَتَعْزِف عَلَيْنَا القِيَان، وَتَسْمَع بِنَا العَرَب وَبِمَسِيرِنَا؛ فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا بَعْدهَا أَبَدًا. فَقَالَ الأَخْنَس بْن شَرِيق: يَا مَعْشَر بَنِي زُهْرَة، إِنَّ الله قَدْ نجَّى أَمْوَالَكُمْ وَنَجَّى صَاحِبَكُمْ فَارْجِعُوا [فأطاعوه]؛ فَرَجَعَتْ بَنُو زُهْرَة، فَلَمْ يَشْهَدُوهَا وَلَا بَنُو عَدِيّ[2].

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: وَحَدَّثَنِي يَزِيد بْن رُومَان، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، قَالَ: وَبَعَثَ رَسُول الله ﷺ، حِين دَنَا مِنْ بَدْر، عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب، وَسَعْد بْن أَبِي وَقَّاص، وَالزُّبَيْر بْن العَوَّام، فِي نَفَر مِنْ أَصْحَابه، يَتَجَسَّسُونَ لَهُ الخَبَر، فَأَصَابُوا سُقَاة لِقُرَيْش؛ غُلَامًا لِبَنِي سَعِيد بْن العَاص، وَغُلَامًا لِبَنِي الحَجَّاج، فَأَتَوْا بِهِمَا رَسُول الله ﷺ، فَوَجَدُوهُ يُصَلِّي، فَجَعَلَ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ، يَسْأَلُونَهُمَا: لِمَنْ أَنْتُمَا؟ فَيَقُولَانِ: نَحْنُ سُقَاة لِقُرَيْش، بَعَثُونَا نَسْقِيهِمْ مِنَ المَاء، فَكَرِهَ القَوْم خَبَرهمَا، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَا لِأَبِي سُفْيَان؛ فَضَرَبُوهُمَا فَلَمَّا أَزْلَقُوهُمَا، قَالَا: نَحْنُ لِأَبِي سُفْيَان؛ فَتَرَكُوهُمَا، وَرَكَعَ رَسُول الله ﷺ، وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، وَقَالَ: **«إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا وَالله إِنَّهُمَا لِقُرَيْش، أَخْبِرَانِي عَنْ قُرَيْش»**. قَالَا: هُمْ وَرَاء هَذَا الكَثِيب الَّذِي تَرَى بِالعُدْوَةِ القُصْوَى، وَالكَثِيب: العَقَنْقَل، فَقَالَ لَهُمَا رَسُول الله ﷺ: **«كَمْ القَوْم؟»** قَالَا: كَثِير. قَالَ: **«مَا عِدَّتُهُمْ؟»** قَالَا: مَا نَدْرِي. قَالَ: **«كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟»** قَالَا: يَوْمًا تِسْعًا، وَيَوْمًا عَشْرًا. قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«القَوْم مَا بَيْنَ التِّسْعمِائَةِ إِلَى الأَلف»** ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: **«فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَاف قُرَيْش؟»** قَالَا: عُتْبَة بْن رَبِيعَة، وَشَيْبَة ابْن رَبِيعَة، وَأَبُو البَخْتَرِيّ ابْن هِشَام، وَحَكِيم بْن حِزَام، وَنَوْفَل بْن خُوَيْلِد، وَالحَارِث بْن عَامِر بْن نَوْفَل، وَطُعَيْمَة بْن عَدِيّ بْن نَوْفَل، وَالنَّضْر بْن الحَارِث، وَزَمْعَة بْن الأَسْوَد، وَأَبُو جَهْل ابْن هِشَام، وَأُمَيَّة بْن خَلَف، وَنَبِيه وَمُنَبِّه ابْنَا الحَجَّاج، وَسُهَيْل بْن عَمْرو، وَعَمْرو بْن عَبْد وُدّ، فَأَقْبَلَ رَسُول الله ﷺ عَلَى النَّاس فَقَالَ: **«هَذِهِ مَكَّة قَدْ أَلقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَاذ كَبِدهَا»**.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٩٥١).
(٢) **مرسل**: أخرجه ابن جرير (١٠/ ١١) بإسناد مرسل.

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق رَحِمَهُ اللَّهُ: وَحَدَّثَنِي عَبْد الله بْن أَبِي بَكْر ابْن حَزْم أَنَّ سَعْد بْن مُعَاذ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ، لَمَّا الْتَقَى النَّاس يَوْم بَدْر: يَا رَسُول الله، أَلَا نَبْنِي لَك عَرِيشًا تَكُون فِيهِ، وَنُنِيخ إِلَيْك رَكَائِبك، وَنَلْقَى عَدُوّنَا؛ فَإِنْ أَظْهَرَنَا الله عَلَيْهِمْ وَأَعَزَّنَا فَذَاكَ مَا نحب، وَإِنْ تَكُنْ الْأُخْرَى فَتَجْلِس عَلَى رَكَائِبك، وَتَلْحَق بِمَنْ وَرَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا، فَقَدْ وَالله تَخَلَّفَ عَنْك أَقْوَام مَا نَحْنُ بِأَشَدَّ لَك حُبًّا مِنْهُمْ، لَوْ عَلِمُوا أَنَّك تَلْقَى حَرْبًا مَا تَخَلَّفُوا عَنْك، وَيُؤَازِرُونَك وَيَنْصُرُونَك. فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ، خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِهِ، فَبُنِي لَهُ عَرِيش، فَكَانَ فِيهِ رَسُول الله ﷺ وَأَبُو بَكْر، مَا مَعَهُمَا غَيْرهمَا. قَالَ ابْن إِسْحَاق: وَارْتَحَلَتْ قُرَيْش حِين أَصْبَحَتْ، فَلَمَّا أَقْبَلَتْ وَرَآهَا رَسُول الله ﷺ، تُصَوِّب مِنْ الْعَقَنْقَل، وَهُوَ الْكَثِيب الَّذِي جَاءُوا مِنْهُ إِلَى الْوَادِي، فَقَالَ: **«اللهمَّ هَذِهِ قُرَيْش قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا؛ تُحَادُّك وَتُكَذِّب رَسُولَك، اللهمَّ أَحِنْهِمْ الْغَدَاة»**.

وَقَوْله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: أَيْ لِيَكْفُر مَنْ كَفَرَ بَعْد الْحُجَّة، لِمَا رَأَى مِنْ الْآيَة وَالْعِبْرَة، وَيُؤْمِن مَنْ آمَنَ عَلَى مِثْل ذَلِكَ. وَهَذَا تَفْسِير جَيِّد. وَبَسْط ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى يَقُول: إِنَّمَا جَمَعَكُمْ مَعَ عَدُوّكُمْ فِي مَكَان وَاحِد عَلَى غَيْر مِيعَاد؛ لِيَنْصُركُمْ عَلَيْهِمْ، وَيَرْفَع كَلِمَة الْحَقّ عَلَى الْبَاطِل، لِيَصِير الْأَمْر ظَاهِرًا، وَالْحُجَّة قَاطِعَة، وَالْبَرَاهِين سَاطِعَة، وَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّة وَلَا شُبْهَة، فَحِينَئِذٍ يَهْلِك مَنْ هَلَكَ أَيْ: يَسْتَمِرّ فِي الْكُفْر مَنْ اسْتَمَرَّ فِيهِ عَلَى بَصِيرَة مِنْ أَمْره، أَنَّهُ مُبْطِل لِقِيَامِ الْحُجَّة عَلَيْهِ، ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ﴾ أَيْ: يُؤْمِن مَنْ آمَنَ، ﴿عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ أَيْ: حُجَّة وَبَصِيرَة. وَالْإِيمَان هُوَ حَيَاة الْقُلُوب، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ وَقَالَتْ عَائِشَة فِي قِصَّة الْإِفْك: فَيَّ هلك مَنْ هَلَكَ، أَيْ: قَالَ فِيهَا مَا قَالَ مِنْ الْكَذِب وَالْبُهْتَان وَالْإِفْك. وَقَوْله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أَيْ: لِدُعَائِكُمْ وَتَضَرُّعِكُمْ وَاسْتِغَاثَتِكُمْ بِهِ. ﴿عَلِيمٌ﴾ أَيْ: بِكُمْ وَأَنَّكُمْ تَسْتَحِقُّونَ النَّصْر عَلَى أَعْدَائِكُمْ الْكَفَرَة الْمُعَانِدِينَ.

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾

قَالَ مُجَاهِد: أَرَاهُ الله إِيَّاهُمْ فِي مَنَامه قَلِيلًا، وَأَخْبَرَ النَّبِيّ ﷺ أَصْحَابه بِذَلِكَ؛ فَكَانَ تَثْبِيتًا لَهُمْ. وَكَذَا قَالَ ابْن إِسْحَاق وَغَيْر وَاحِد. وَحَكَى ابْن جَرِير عَنْ بَعْضهمْ، أَنَّهُ رَآهُمْ بِعَيْنِهِ الَّتِي يَنَام بِهَا. وَقَدْ رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يُوسُف بْن مُوسَى المدبر، حَدَّثَنَا أَبُو قُتَيْبَة، عَنْ سَهْل السَّرَّاج، عَنْ الْحَسَن فِي قَوْله: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ﴾ قَالَ: بِعَيْنِك. وَهَذَا الْقَوْل غَرِيب، وَقَدْ صَرَّحَ بِالْمَنَامِ هَاهُنَا، فَلَا حَاجَة إِلَى التَّأْوِيل الَّذِي لَا دَلِيل عَلَيْهِ. وَقَوْله: ﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أَيْ: لَجَبُنْتُمْ عَنْهُمْ، وَاخْتَلَفْتُمْ فِيمَا بَيْنكُمْ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾ أَيْ: مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ أَرَاكَهُمْ قَلِيلًا. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أَيْ: بِمَا تُجِنُّهُ الضَّمَائِر، وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ الْأَحْشَاء؛ فإنه ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾. وَقَوْله: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ لُطْفه تَعَالَى بِهِمْ؛ إِذْ أَرَاهُمْ إِيَّاهُمْ قَلِيلًا فِي رَأْي الْعَيْن؛ فَيُجَرِّئُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُطَمِّعُهُمْ فِيهِمْ. قَالَ أَبُو إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنه قَالَ: لَقَدْ قُلِّلُوا فِي أَعْيُنِنَا يَوْم بَدْر، حَتَّى قُلْت لِرَجُلٍ إِلَى جَنْبِي: تَرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: لَا، بَل هُمْ مِائَة حَتَّى أَخَذْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ فَسَأَلْنَاهُ، فَقَالَ: كُنَّا أَلْفًا. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير.

وَقَوْله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن حَرْب، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد،

عَنْ الزُّبَيْر بن الخريت، عَنْ عِكْرِمَة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ قَالَ: حَضَّض بَعْضهمْ عَلَى بَعْض. إِسْنَاد صَحِيح. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْن عَبَّاد بْن عَبْد الله بْن الزُّبَيْر، عَنْ أَبِيهِ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أَيْ: لِيُلْقِيَ بَيْنهمْ الْحَرْب لِلنِّقْمَةِ مِمَّنْ أَرَادَ الِانْتِقَام مِنْهُ، وَالإِنْعَام عَلَى مَنْ أَرَادَ تَمَام النِّعْمَة عَلَيْهِ مِنْ أَهْل وِلَايَته. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ تَعَالَى أَغْرَى كُلًّا مِنْ الفَرِيقَيْنِ بِالآخَر، وَقَلَّلَهُ فِي عَيْنه لِيَطْمَعَ فِيهِ، وَذَلِكَ عِنْد المُوَاجَهَة، فَلَمَّا التَحَمَ القِتَال، وَأَيَّدَ الله الْمُؤْمِنِينَ بِأَلفٍ مِنْ المَلَائِكَة مُرْدِفِينَ، بَقِيَ حِزْب الكُفَّار يَرَى حِزْب الإِيمَان ضِعْفَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وَهَذَا هُوَ الجَمْع بَيْن هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

هَذَا تَعْلِيم مِنْ الله تعالى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، آدَاب اللِّقَاء، وَطَرِيق الشَّجَاعَة عِنْد مُوَاجَهَة الأَعْدَاء فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾. ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي أَوْفَى، عن رَسُول الله ﷺ، أنه انْتَظَرَ فِي بَعْض أَيَّامه الَّتِي لَقِيَ فِيهَا العَدُوّ، حَتَّى إِذَا مَالَتْ الشَّمْس؛ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ: **«يَا أَيهَا النَّاس لا تَتَمَنَّوْا لِقَاء العَدُوّ، وَاسْأَلُوا الله العَافِيَة؛ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّة تَحْت ظِلال السُّيُوف»**. ثُمَّ قَامَ النَّبِيّ ﷺ، وَقَالَ: **«اللهمَّ؛ مُنْزِلَ الكِتَاب، وَمُجْرِيَ السَّحَاب، وَهَازِمَ الأَحْزَاب، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»**[(١)]. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن زِيَاد، عَنْ عَبْد الله بْن يَزِيد، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«لا تَتَمَنَّوْا لِقَاء العَدُوّ، وَاسْأَلُوا الله العَافِيَة؛ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاثْبُتُوا، وَاذْكُرُوا الله، فَإِنْ اجلبوا وضجوا فَعَلَيْكُمْ بِالصَّمْتِ»**.

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن هَاشِم البَغَوِيّ، حَدَّثَنَا أُمَيَّة بْن بِسطَام، حَدَّثَنَا مُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا ثَابِت بْن زَيْد، عَنْ رَجُل، عَنْ زَيْد بْن أَرْقَم، عَنْ النَّبِيّ ﷺ مَرْفُوعًا قَالَ: **«إِنَّ الله يُحِبّ الصَّمْت عِنْد ثَلاث: عِنْد تِلاوَة القُرْآن، وَعِنْد الزَّحْف، وَعِنْد الجَنَازَة»**[(٢)]. وَفِي الحَدِيث الآخَر المَرْفُوع يَقُول الله تَعَالَى: **«إِنَّ عَبْدِي كُلّ عَبْدِي الَّذِي يَذْكُرنِي، وَهُوَ مُنَاجِز قِرْنه»**[(٣)]. أَيْ: لَا يَشْغَلهُ ذَلِكَ الحَال عَنْ ذِكْرِي وَدُعَائِي وَاسْتِعَانَتِي.

وَقَالَ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة: عَنْ قَتَادَة فِي هَذِهِ الآيَة، قَالَ: افْتَرَضَ الله ذِكْرَهُ عِنْد أَشْغَل مَا يَكُون، عِنْد الضَّرْب بِالسُّيُوف. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدَة بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا ابْن المُبَارَك، عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء، قَالَ: وَجَبَ الإِنْصَات وَذِكْر الله عِنْد الزَّحْف، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَة، قُلت: يَجْهَرُونَ بِالذِّكْرِ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَقَالَ أَيْضًا: قُرِئ علي يُونُس بْن عَبْد الأَعْلَى، أَنْبَأَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَبْد الله بْن عياش، عَنْ يَزِيد بْن قَوْذَر، عَنْ كَعْب الأَحْبَار قَالَ: مَا مِنْ شَيْء أَحَبّ إِلَى الله تَعَالَى مِنْ قِرَاءَة القُرْآن وَالذِّكْر، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَمَرَ النَّاس بِالصَّلَاةِ فِي القِتَال؛ أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ أَمَرَ النَّاس بِالذِّكْرِ عِنْد القِتَال، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢).

(٢) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥/ ٢١٣) من حديث زيد بن أرقم، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٣٠) بسند ضعيف فيه رجل لم يسم، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٠٣).

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٥٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٤٠٨) من حديث عمارة بن زعكرة، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٥٠).

قَالَ الشَّاعِر:

ذَكَرْتُكِ وَالخَطِّيّ يَخْطِر بَيْنَنَا ❁ وَقَدْ نَهِلَتْ فِينَا الْمُثَقَّفَة السُّمْر

وَقَالَ عَنْتَرَة:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلُ ❁ مِنِّي وَبِيض الهِنْد تَقْطُر مِنْ دَمِي

فَأَمَرَ تَعَالَى بِالثَّبَاتِ عِنْد قِتَال الأَعْدَاء، وَالصَّبْر عَلَى مُبَارَزَتهمْ، فَلَا يَفِرُّوا، وَلَا يَنْكِلُوا، وَلَا يَجْبُنُوا، وَأَنْ يَذْكُرُوا الله فِي تِلْكَ الحَال، وَلَا يَنْسَوْهُ بَل يَسْتَعِينُوا بِهِ وَيَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، وَيَسْأَلُوهُ النَّصر عَلَى أَعْدَائِهِمْ. أَنْ يُطِيعُوا الله وَرَسُوله فِي حَالهمْ ذَلِكَ، فَمَا أَمَرَهُمْ الله تَعَالَى بِهِ ائْتَمَرُوا. وَمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ انْزَجَرُوا، وَلَا يَتَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنهمْ أَيْضًا فَيَخْتَلِفُوا فَيَكُون سَبَبًا لِتَخَاذُلِهِمْ وَفَشَلهمْ. ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أَيْ: قُوَّتكُمْ وَحِدَّتكُمْ، وَمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ الإِقْبَال، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وَقَدْ كَانَ لِلصَّحَابَةِ ﷺ فِي بَاب الشَّجَاعَة وَالائْتِمَار بِمَا أَمَرَهُمْ الله وَرَسُوله، وَامْتِثَال مَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ، مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ الأُمَم وَالقُرُون قَبْلهمْ، وَلَا يَكُون لِأَحَدٍ مِمَّنْ بَعْدهمْ؛ فَإِنَّهُمْ بِبَرَكَةِ الرَّسُول ﷺ وَطَاعَته فِيمَا أَمَرَهُمْ، فَتَحُوا القُلُوب وَالأَقَالِيم شَرْقًا وَغَرْبًا فِي المُدَّة اليَسِيرَة، مَعَ قِلَّة عَدَدهمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جُيُوش سَائِر الأَقَالِيم مِنْ الرُّوم وَالفُرْس وَالتُّرْك وَالصَّقَالِبَة وَالبَرْبَر وَالحُبُوش وَأَصْنَاف السُّودَان وَالقِبْط وَطَوَائِف بَنِي آدَم. قَهَرُوا الجَمِيع حَتَّى عَلَتْ كَلِمَة الله وَظَهَرَ دِينه عَلَى سَائِر الأَدْيَان، وَامْتَدَّتْ المَمَالِك الإِسْلَامِيَّة فِي مَشَارِق الأَرْض وَمَغَارِبهَا فِي أَقَلّ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَة، فَرَضِيَ الله عنهمْ وَأَرْضَاهُمْ أَجْمَعِينَ، وَحَشَرَنَا فِي زُمْرَتهمْ إِنَّهُ كَرِيم وَهَّاب.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يَقُول تَعَالَى بَعْد أَمْره المُؤْمِنِينَ بِالإِخْلَاصِ فِي القِتَال فِي سَبِيله، وَكَثْرَة ذِكْره، نَاهِيًا لَهُمْ عَنْ التَّشَبُّه بِالمُشْرِكِينَ فِي خُرُوجهمْ مِنْ دِيَارهمْ ﴿بَطَرًا﴾ أَيْ: دَفْعًا لِلحَقِّ، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وَهُوَ المُفَاخَرَة وَالتَّكَبُّر عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ أَبُو جَهْل لَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ العِير قَدْ نَجَا فَارْجِعُوا، فَقَالَ: لَا وَالله، لَا نَرْجِع حَتَّى نَرِدَ مَاء بَدْر، وَنَنْحَر الجُزُر، وَنَشْرَب الخَمْر، وَتَعْزِف عَلَيْنَا القِيَان، وَتَتَحَدَّث العَرَب بِمَكَانِنَا فِيهَا يَوْمَنَا أَبَدًا؛ فَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَجْمَع، لِأَنَّهُمْ لَمَّا وَرَدُوا مَاء بَدْر وَرَدُوا بِهِ الحِمَام، وَرُمُوا فِي أَطْوَاء بَدْر مُهَانِينَ أَذِلَّاء صَغَرَة أَشْقِيَاء، فِي عَذَاب سَرْمَدِيّ أَبَدِيّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أَيْ: عَالِم بِمَا جَاءُوا بِهِ وَلَهُ، وَلِهَذَا جَازَاهُمْ عَلَيْهِ شَرّ الجَزَاء لَهُمْ.

قَالَ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك، وَالسُّدِّيّ، فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ قَالُوا: هُمْ المُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَسُول الله ﷺ يَوْم بَدْر. وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب: لَمَّا خَرَجَتْ قُرَيْش مِنْ مَكَّة إِلَى بَدْر خَرَجُوا بِالقِيَانِ وَالدُّفُوف، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآيَة، حَسَّنَ لَهُمْ -لَعَنَهُ الله- مَا جَاءُوا لَهُ، وَمَا هَمُّوا بِهِ، وَأَطْمَعَهُمْ أَنَّهُ لَا غَالِب لَهُمْ اليَوْم مِنَ النَّاس، وَنَفَى عَنْهُمْ الخَشْيَة مِنْ أَنْ يُؤْتَوْا فِي دِيَارهمْ مِنْ عَدُوّهمْ بَنِي بَكْر، فَقَالَ: إِنِّي جَارٌ لَكُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَدَّى لَهُمْ فِي صُورَة سُرَاقَة بْن مَالِك بْن جُعْشُم سَيِّد بَنِي

مُدْلِج، كَبِير تِلكَ النَّاحِيَة، وَكُلّ ذَلِكَ مِنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.
قَالَ ابْن جُرَيْج: قَالَ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: لَمَّا كَانَ يَوْم بَدْر سَارَ إِبْلِيس بِرَايَتِهِ وَجُنُوده مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَلقَى فِي قُلُوب الْمُشْرِكِينَ، أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَغْلِبَكُمْ، وَإِنِّي جَار لَكُمْ، فَلَمَّا التَقَوْا وَنَظَرَ الشَّيْطَان إِلَى إِمْدَاد الْمَلَائِكَة ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قَالَ: رَجَعَ مُدْبِرًا، وَقَالَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآيَة.

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: جَاءَ إِبْلِيس يَوْم بَدْر، فِي جُنْد مِنْ الشَّيَاطِين، مَعَهُ رَايَته فِي صُورَة رَجُل مِنْ مُدْلِج، وَالشيطان فِي صُورَة سُرَاقَة بْن مَالِك بْن جُعْشُم، فَقَالَ الشَّيْطَان لِلمُشْرِكِينَ: لَا غَالِب لَكُمْ اليَوْم مِنْ النَّاس، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ، فَلَمَّا اصْطَفَّ النَّاس أَخَذَ رَسُول الله ﷺ، قَبْضَة مِنْ التُّرَاب، فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوه الْمُشْرِكِينَ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَأَقْبَلَ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى إِبْلِيس؛ فَلَمَّا رَآهُ، وَكَانَتْ يَده فِي يَد رَجُل مِنْ الْمُشْرِكِينَ انْتَزَعَ يَده، ثُمَّ وَلَّى مُدْبِرًا هو وَشِيعَته، فَقَالَ الرَّجُل: يَا سُرَاقَة أَتَزْعُمُ أَنَّك لَنَا جَار فَقَالَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وَذَلِكَ حِين رَأَى الْمَلَائِكَة. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي الكَلبِيّ، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ إِبْلِيس خَرَجَ مَعَ قُرَيْش فِي صُورَة سُرَاقَة بْن مَالِك بْن جُعْشُم، فَلَمَّا حَضَرَ القِتَال وَرَأَى الْمَلَائِكَة، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ فَتَشَبَّثَ بِهِ الحَارِث بْن هِشَام، [فنخر في وجهه فخر صعقًا، فقيل له: ويلك يا سراقة على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا، فقال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقال محمد بن عمر الواقدي: أخبرني عمر بن عقبة عن شعبة مولى ابن عباس عن ابن عباس قال: لما تواقف الناس أُغمي على رسول الله ﷺ ساعة ثم كشف عنه، فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر ألف، وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي يدبر للمشركين، ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس فلما أبصر عدو الله الملائكة ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ فتشبث به الحارث بن هشام] وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ سُرَاقَة لِمَا سَمِعَ مِنْ كَلَامه، فَضَرَبَ فِي صَدْر الحَارِث، فَسَقَطَ الحَارِث، وَانْطَلَقَ إِبْلِيس لَا يُرَى حَتَّى سَقَطَ فِي البَحْر، وَرَفَعَ ثَوْبه، وَقَالَ: يَا رَبِّ مَوْعِدَك الَّذِي وَعَدْتنِي. وَفِي الطَّبَرَانِيّ عَنْ رِفَاعَة بْن رَافِع قَرِيب مِنْ هَذَا السِّيَاق، وَأَبْسَطُ مِنْهُ ذَكَرْنَاهُ فِي السِّيرَة. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي يَزِيد بْن رُومَان، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، قَالَ: لَمَّا أَجْمَعَتْ قُرَيْش المَسِير ذَكَرَتْ الَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْن بَنِي بَكْر مِنْ الحَرْب؛ فَكَادَ ذَلِكَ أَنْ يُثْنِيهِمْ، فَتَبَدَّى لَهُمْ إِبْلِيس فِي صُوَّة سُرَاقَة بْن مَالِك بْن جُعْشُم الْمُدْلِجِيّ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَاف بَنِي كِنَانَة، فَقَالَ: أَنَا جَار لَكُمْ أَنْ تَأْتِيَكُمْ كِنَانَة بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَخَرَجُوا سِرَاعًا.

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: فَذُكِرَ لِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَهُ فِي كُلّ مَنْزِل فِي صُورَة سُرَاقَة بْن مَالِك، لَا يُنْكِرُونَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْم بَدْر، وَالتَقَى الجَمْعَانِ، كَانَ الَّذِي رَآهُ حِين نَكَصَ الحَارِث بْن هِشَام، أَوْ عُمَيْر بْن وَهْب، فَقَالَ: أَيْنَ؛ أَيْ سُرَاقَة؟ وَمَالَ عَدُوّ الله فَذَهَبَ. قَالَ: فَأَوْرَدَهُمْ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ، قَالَ: وَنَظَرَ عَدُوّ الله إِلَى جُنُود الله قَدْ أَيَّدَ الله بِهِمْ رَسُوله وَالْمُؤْمِنِينَ؛ فـ ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وَصَدَقَ عَدُوّ الله. وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ السُّدِّيّ، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَمُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، وَغَيْرهمْ رَحِمَهُمْ الله. وَقَالَ قَتَادَة: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، تَنْزِل مَعَهُ الْمَلَائِكَة؛ فَعَلِمَ عَدُوّ الله أَنَّهُ لَا يَدَانِ لَهُ بِالْمَلَائِكَةِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وَكَذَبَ عَدُوّ الله. وَالله مَا بِهِ مَخَافَة الله وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا قُوَّة لَهُ، وَلَا مَنَعَة، وَتِلكَ عَادَة عَدُوّ الله لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاسْتَقَادَ لَهُ، حَتَّى إِذَا التَقَى الحَقّ وَالبَاطِل أَسْلَمَهُمْ شَرّ مَسْلَم، وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ عِنْد ذَلِكَ.

قلت: يَعْنِي بِعَادَتِهِ لِمَنْ أَطَاعَهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ

إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. وَقَالَ يُونُس بن بُكَيْر، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي عَبْد الله ابْن أَبِي بَكْر بن عَمْرو بن حَزْم، عَنْ بَعْض بَنِي سَاعِدَة قَالَ: سَمِعْت أَبَا أُسَيْد مَالِك بْن رَبِيعَة بَعْدَمَا كُفَّ بَصَرُهُ يَقُول: لَوْ كُنْت مَعَكُمْ الآن بِبَدْرٍ، وَمَعِي بَصَرِي؛ لَأَخْبَرْتُكُمْ بِالشِّعْبِ الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ الْمَلَائِكَة، لَا أَشُكُّ وَلَا أَتَمَارَى. فَلَمَّا نَزَلَتْ الْمَلَائِكَة، وَرَآهَا إِبْلِيس، وَأَوْحَى الله إِلَيْهِمْ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، وَتَثْبِيتهمْ أَنَّ الْمَلَائِكَة كَانَتْ تَأْتِي الرَّجُل فِي صُورَة الرَّجُل يَعْرِفُهُ، فَيَقُول لَهُ: أَبْشِرْ فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ وَالله مَعَكُمْ، فَكُرُّوا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَأَى إِبْلِيس الْمَلَائِكَة ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ وَهُوَ فِي صُورَة سُرَاقَة، وَأَقْبَلَ أَبُو جَهْل يُحَضِّضُ أَصْحَابه وَيَقُول: لَا يَهُولَنَّكُمْ خِذْلَان سُرَاقَة إِيَّاكُمْ؛ فَإِنَّهُ كَانَ عَلَى مَوْعِد مِنْ مُحَمَّد وَأَصْحَابه. ثُمَّ قَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَا نَرْجِع حَتَّى نَقْرِن مُحَمَّدًا وَأَصْحَابه فِي الْحِبَال؛ فَلَا تَقْتُلُوهُمْ وَخُذُوهُمْ أَخْذًا. وَهَذَا مِنْ أَبِي جَهْل -لَعَنَهُ الله- كَقَوْلِ فِرْعَوْن لِلسَّحَرَةِ لَمَّا أَسْلَمُوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾. وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ وَهُوَ مِنْ بَاب الْبُهْت وَالِافْتِرَاء؛ وَلِهَذَا كَانَ أَبُو جَهْل فِرْعَوْن هَذِهِ الْأُمَّة. وَقَالَ مَالِك بْن أَنَس، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن أَبِي عبلة، عَنْ طَلْحَة بْن عُبَيْد الله بْن كُرَيْز: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**مَا رُئِيَ إِبْلِيس يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَر، وَلَا أَحْقَر، وَلَا أَدْحَر، وَلَا أَغْيَظ مِنْهُ فِي يَوْم عَرَفَة، وَذَلِكَ مِمَّا يَرَى مِنْ تَنَزُّل الرَّحْمَة، وَالْعَفْو عَنْ الذُّنُوب، إِلَّا مَا رَأَى يَوْم بَدْر**». قَالُوا: يَا رَسُول الله، وَمَا رَأَى يَوْم بَدْر؟ قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ رَأَى جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ يَزَعُ الْمَلَائِكَة**»[1]. وَهَذَا مُرْسَل مِنْ هَذَا الْوَجْه.

وَقَوْله: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الْآيَة: لَمَّا دَنَا الْقَوْم بَعْضهمْ مِنْ بَعْض، قَلَّلَ الله الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُن الْمُشْرِكِينَ، وَقَلَّلَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيُن الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينهمْ؛ وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ قِلَّتِهِمْ فِي أَعْيُنهمْ؛ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ سَيَهْزِمُونَهُمْ لَا يَشُكُّونَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾. وَقَالَ قَتَادَة: رَأَوْا عِصَابَة مِنْ الْمُؤْمِنِينَ تَشَدَّدَتْ لِأَمْرِ الله، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ أَبَا جَهْل عَدُوَّ الله، لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى مُحَمَّد ﷺ، وَأَصْحَابه، قَالَ: وَالله لَا يعبدون الله بَعْد الْيَوْم -قَسْوَة وَعُتُوًّا. وَقَالَ ابْن جُرَيْج فِي قَوْله: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هُمْ قَوْم كَانُوا مِنْ الْمُنَافِقِينَ بِمَكَّة قَالُوهُ يَوْم بَدْر. وَقَالَ عَامِر الشَّعْبِيّ: كَانَ نَاس مِنْ أَهْل مَكَّة قَدْ تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ، فَخَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْم بَدْر؛ فَلَمَّا رَأَوْا قِلَّة الْمُسْلِمِينَ قَالُوا: غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله ﷻ: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ قَالَ: فِئَة مِنْ قُرَيْش؛ أبو قَيْس بْن الْوَلِيد ابْن الْمُغِيرَة، وَأَبُو قَيْس ابْن الْفَاكِهِ بْن الْمُغِيرَة، وَالْحَارِث بْن زَمْعَة بْن الْأَسْوَد بْن الْمُطَّلِب، وَعَلِيّ بْن أُمَيَّة بْن خَلَف، وَالْعَاص بْن مُنَبِّه بْن الْحَجَّاج، خَرَجُوا مَعَ قُرَيْش مِنْ مَكَّة، وَهُمْ عَلَى الِارْتِيَاب فَحَبَسَهُمْ ارْتِيَابُهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْا قِلَّة أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ، قَالُوا: غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ، حَتَّى قَدِمُوا عَلَى مَا قَدِمُوا عَلَيْهِ مَعَ قِلَّة عَدَدهمْ وَكَثْرَة عَدُوّهِمْ. وَكَذَا قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار سَوَاء.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن ثَوْر، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الْحَسَن فِي هَذِهِ الْآيَة. قَالَ: هُمْ قَوْم لَمْ يَشْهَدُوا الْقِتَال يَوْم بَدْر فَسُمُّوا مُنَافِقِينَ، قَالَ مَعْمَر: وَقَالَ بَعْضهمْ: هُمْ قَوْم كَانُوا أَقَرُّوا بِالْإِسْلَامِ وَهُمْ بِمَكَّة،

---

(١) ضعيف: أخرجه مالك (١/ ٤٢٢)، وعبد الرزاق (٨٨٢٢)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (١٩٣٠) بسند مرسل، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (٧٣٩).

فَخَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْم بَدْر، فَلَمَّا رَأَوْا قِلَّة الْمُسْلِمِينَ، قَالُوا: غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ. وَقَوْله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: يَعْتَمِد عَلَى جَنَابِهِ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أَيْ: لَا يُضَام مَنْ التَجَأَ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الله عَزِيز مَنِيع الْجَنَاب عَظِيم السُّلْطَان ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَفْعَاله لَا يَضَعهَا إِلَّا فِي مَوَاضِعهَا، فَيَنْصُر مَنْ يَسْتَحِق النَّصْر، وَيَخْذُل مَنْ هُوَ أَهْل لِذَلِكَ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَلَوْ عَايَنْت يَا مُحَمَّدُ، حَال تَوَفِّي الْمَلَائِكَةِ أَرْوَاحَ الْكُفَّار؛ لَرَأَيْت أَمْرًا عَظِيمًا هَائِلًا فَظِيعًا مُنْكَرًا إذ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. قَالَ ابْن جُرَيْج، عَنْ مُجَاهِد: ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أَسْتَاهُهُمْ، قَالَ: يَوْم بَدْر. قَالَ ابْن جُرَيْج: قَالَ ابْن عَبَّاس: إِذَا أَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ؛ ضَرَبُوا وُجُوههمْ بِالسُّيُوفِ، وَإِذَا وَلَّوْا أَدْرَكَتْهُمْ الْمَلَائِكَة فضربوا أَدْبَارهمْ. وَقَالَ ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ يَوْم بَدْر. وَقَالَ وَكِيع، عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي هَاشِم إِسْمَاعِيل بْن كَثِير، عَنْ مُجَاهِد. وَعَنْ شُعْبَة، عَنْ يَعْلَى بْن مُسْلِم، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ قَالَ: وَأَسْتَاهَهُمْ، وَلَكِنَّ الله يُكَنِّي. وَكَذَا قَالَ عُمَر مَوْلَى غُفْرَة. وَعَنْ الْحَسَن الْبَصْرِيّ قَالَ: قَالَ رَجُل: يَا رَسُول الله، إِنِّي رَأَيْت بِظَهْرِ أَبِي جَهْل مِثْل الشِّرَاك، ما ذاك؟ قَالَ: «**ذَاكَ ضَرْب الْمَلَائِكَة**»[1]. رَوَاهُ ابْن جَرِير وَهُوَ مُرْسَل. وَهَذَا السِّيَاق وَإِنْ كَانَ سَبَبه وَقْعَة بَدْر وَلَكِنَّهُ عَامّ فِي حَقّ كُلّ كَافِر، وَلِهَذَا لَمْ يُخَصِّصْهُ تَعَالَى بِأَهْلِ بَدْر. بَل قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ وَفِي سُورَة الْقِتَال مِثْلهَا، وَتَقَدَّمَ فِي سُورَة الْأَنْعَام قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أَيْ: بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ بِالضَّرْبِ فِيهِمْ يأمرونهم، إِذْ اسْتَصْعَبَتْ أَنْفُسهمْ، وَامْتَنَعَتْ مِنْ الْخُرُوج مِنْ الْأَجْسَاد، أَنْ تَخْرُج قَهْرًا، وَذَلِكَ إِذَا بَشَّرُوهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْغَضَب مِنْ الله، كَمَا فِي حَدِيث الْبَرَاء: أَنَّ مَلَكَ الْمَوْت إِذَا جَاءَ الْكَافِر عِنْد احْتِضَاره فِي تِلْكَ الصُّورَة الْمُنْكَرَة يَقُول: أُخْرُجِي أَيَّتهَا النَّفْس الْخَبِيثَة، إِلَى سَمُوم وَحَمِيم وَظِلّ مِنْ يَحْمُوم؛ فَتَفَرَّقُ فِي بَدَنه فَيَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ جَسَده، كَمَا يُخْرَج السَّفُّود مِنْ الصُّوف الْمَبْلُول، فَتَخْرُج مَعَهَا الْعُرُوق وَالْعَصَب[2]. وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمَلَائِكَة تَقُول لَهُمْ: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أَيْ: هَذَا الْجَزَاء بِسَبَبِ مَا عَمِلْتُمْ مِنْ الْأَعْمَال السَّيِّئَة فِي حَيَاتكُمْ الدُّنْيَا، جَازَاكُمْ الله بِهَا هَذَا الْجَزَاء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أَيْ: لَا يَظْلِم أَحَدًا مِنْ خَلْقه، بَل هُوَ الْحَكَم الْعَدْل الَّذِي لَا يَجُور تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ الْغَنِيّ الْحَمِيد؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيث الصَّحِيح عند مُسْلِم رَحِمَهُ اللهُ مِنْ رِوَايَة أَبِي ذَرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الله تَعَالَى يَقُول: يَا عِبَادِي؛ إِنِّي حَرَّمْت الظُّلْم عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْته بَيْنكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي؛ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْر ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسه**»[3]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

يَقُول تَعَالَى: فَعَلَ هَؤُلَاءِ المشركون المكذبون، بِمَا أُرْسِلت بِهِ يَا مُحَمَّد، كَمَا فَعَلَ الْأُمَم الْمُكَذِّبَة قَبْلهمْ، فَفَعَلنَا

---

(١) مرسل: أخرجه ابن جرير (١٠/ ٢٢) بسند مرسل.

(٢) صحيح: تقدم.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

بِهِمْ مَا هُوَ دَأْبُنَا، أَيْ: عَادَتُنَا وَسُنَّتُنَا فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ، الْكَافِرِينَ بِآيَاتِ اللهِ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ أَهْلَكَهُمْ وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أَيْ: لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ وَلَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ فِي حُكْمِهِ، بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُغَيِّرُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أَيْ: كَصُنْعِهِ بِآلِ فِرْعَوْنَ وَأَمْثَالِهِمْ، حِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَسَلَبَهُمْ تِلْكَ النِّعَمَ الَّتِي أَسْدَاهَا إِلَيْهِمْ، مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ فِي ذَلِكَ، بَلْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ شَرَّ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَقَضُوهُ، وَكُلَّمَا أَكَّدُوهُ بِالأَيْمَانِ نَكَثُوهُ، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أَيْ: لَا يَخَافُونَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ ارْتَكَبُوهُ مِنَ الآثَامِ.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ أَيْ: تَغْلِبُهُمْ وَتَظْفَرُ بِهِمْ فِي حَرْبٍ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أَيْ: نَكِّلْ بِهِمْ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ، وَابْنُ عُيَيْنَةَ، وَمَعْنَاهُ: غَلِّظْ عُقُوبَتَهُمْ، وَأَثْخِنْهُمْ قَتْلًا، لِيَخَافَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الأَعْدَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، وَيَصِيرُوا لَهُمْ عِبْرَةً؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَقُولُ: لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا؛ فَيُصْنَعَ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قَدْ عَاهَدْتَهُمْ ﴿خِيَانَةً﴾ أَيْ: نَقْضًا لِمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمَوَاثِيقِ وَالْعُهُودِ، ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: عَهْدَهُمْ ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أَيْ: أَعْلِمْهُمْ بِأَنَّكَ قَدْ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ، حَتَّى يَبْقَى عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِأَنَّكَ حَرْبٌ لَهُمْ، وَهُمْ حَرْبٌ لَكَ، وَأَنَّهُ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ، أَيْ: تَسْتَوِي أَنْتَ وَهُمْ فِي ذَلِكَ، قَالَ الرَّاجِزُ:

فَاضْرِبْ وُجُوهَ الْغُدَّرِ لِلأَعْدَاءِ ❁ حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى السَّوَاءِ

وَعَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أَيْ: عَلَى مَهَلٍ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أَيْ: حَتَّى وَلَوْ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ لَا يُحِبُّهَا أَيْضًا. قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي الْفَيْضِ، عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: كَانَ مُعَاوِيَةُ يَسِيرُ فِي أَرْضِ الرُّومِ وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَمَدٌ، فَأَرَادَ أَنْ يَدْنُوَ مِنْهُمْ، فَإِذَا انْقَضَى الأَمَدُ؛ غَزَاهُمْ. فَإِذَا شَيْخٌ عَلَى دَابَّةٍ يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَا غَدْرٌ؛ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ؛ فَلَا يَحِلَّنَّ عُقْدَةً، وَلَا يَشُدَّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**» قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ، فَرَجَعَ؛ فَإِذَا بِالشَّيْخِ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ ﷺ[1]. وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠)، وأحمد (٤/ ١١١)، من حديث سليم بن عامر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٥٧).

عَنْ شُعْبَة، وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن حِبَّان فِي صَحِيحه، مِنْ طُرُق عَنْ شُعْبَة، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله الزُّبَيْرِيّ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ أَبِي البَخْتَرِيّ، عَنْ سَلْمَان يَعْنِي الفَارِسِيّ ﷺ، أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى حِصْن أَوْ مَدِينَة، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: دَعُونِي أَدْعُوهُمْ؛ كَمَا رَأَيْت رَسُول الله ﷺ، يَدْعُوهُمْ. فَقَالَ: إِنَّمَا كُنْت رَجُلًا مِنْكُمْ، فَهَدَانِي الله ﷻ لِلإِسْلَام، فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مَا لَنَا، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَدُّوا الجِزْيَة وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ نَابَذْنَاكُمْ عَلَى سَوَاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يَفْعَل ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَة أَيَّام فَلَمَّا كَانَ اليَوْم الرَّابِع غَدَا النَّاس إِلَيْهَا فَفَتَحُوهَا بِعَوْنِ الله(١).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ أَيْ: فَاتُونَا فَلَا نَقْدِر عَلَيْهِمْ، بَلْ هُمْ تَحْت قَهْر قُدْرَتِنَا وَفِي قَبْضَة مَشِيئَتِنَا فَلَا يُعْجِزُونَنَا، كما قال تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيْ: يَظُنُّونَ. وَقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وَقَال تَعَالَى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١٩٦ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِإِعْدَادِ آلَات الحَرْب لِمُقَاتَلَتِهِمْ حَسَب الطَّاقَة وَالإِمْكَان وَالاِسْتِطَاعَة، فَقَالَ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ أَيْ: مَهْمَا أَمْكَنَكُمْ، ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾. قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هَارُون بْن مَعْرُوف، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، عَنْ أَبِي عَلِيّ ثُمَامَة بْن شُفَيّ أنه سمع عُقْبَة بْن عَامِر يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول وَهُوَ عَلَى المِنْبَر: «﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ **أَلا إِنَّ القُوَّة الرَّمْي، أَلا إِنَّ القُوَّة الرَّمْي**»(٢). رَوَاهُ مُسْلِم عَنْ هَارُون بْن مَعْرُوف، وَأَبُو دَاوُد عَنْ سَعِيد بْن مَنْصُور، وَابْن مَاجَة عَنْ يُونُس بْن عَبْد الأَعْلَى، ثَلَاثَتهمْ عَنْ عَبْد الله بْن وَهْب، بِهِ. وَلِهَذَا الحَدِيث طُرُق أُخَر عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر، مِنْهَا مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، مِنْ حَدِيث صَالِح بْن كَيْسَان عَنْ رَجُل، عَنْهُ. وَرَوَى الإِمَام أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن، عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا خَيْر مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا**»(٣). وَقَالَ الإِمَام مَالِك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي صَالِح السَّمَّان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**الخَيْل لِثَلَاثَة: لِرَجُل أَجْر، وَلِرَجُل سِتْر، وَعَلَى رَجُل وِزْر، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْر فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيل الله، فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْج أَوْ رَوْضَة، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنَ المَرْج أَوْ الرَّوْضَة كَانَتْ لَهُ حَسَنَات، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، كَانَتْ آثَارهَا وَأَرْوَاثهَا حَسَنَات لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَر فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَات لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُل أَجْر. وَرَجُل رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقّ الله فِي رِقَابهَا وَلَا ظُهُورهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْر. وَرَجُل رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاء وَنِوَاء فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْر**»(٤). وَسُئِلَ

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٠)، وسعيد بن منصور (٢/ ١٧٧) من حديث سلمان، وضعفه الألباني في «الإرواء» (٥/ ٨٨) لانقطاع الحديث بين أبي البختري وسلمان لأن أبا البختري لم يدرك سلمان.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩١٧)، وأبو داود (٢٥١٤).

(٣) حسن بشواهده: أخرجه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (٢٨١١)، وأحمد (٤/ ١٤٤).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٠٢، ٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧).

رَسُول الله ﷺ عَنْ الحُمُر فَقَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا شَيْئًا إِلا هَذِهِ الآيَةَ الجَامِعَةَ الفَاذَّةَ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾». رَوَاهُ البُخَارِيّ وَهَذَا لَفْظه، وَمُسْلِم، كِلَاهُمَا مِنْ حَدِيث مَالِك.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَجَّاج، أَخْبَرَنَا شَرِيك، عَنْ الرُّكَيْن بْن الرَّبِيع، عَنْ القَاسِم بْن حَسَّان، عَنْ عَبْد الله ابْن مَسْعُود، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «الخَيْل ثَلَاثَة: فَفَرَس لِلرَّحْمَن، وَفَرَس لِلشَّيْطَان، وَفَرَس لِلإِنْسَان، فَأَمَّا فَرَس الرَّحْمَن؛ فَالَّذِي يُرْبَط فِي سَبِيل الله، فَعَلَفه وَرَوْثه وَبَوْله، -وَذَكَرَ مَا شَاءَ الله-. وَأَمَّا فَرَس الشَّيْطَان؛ فَالَّذِي يُقَامَر أَوْ يُرَاهَن عَلَيْهِ، وَأَمَّا فَرَس الإِنْسَان؛ فَالفَرَس يرتبطها الإِنْسَان يَلْتَمِس بَطْنَهَا فَهِيَ سِتْر مِنْ الفَقْر»[1].

وَقَدْ ذَهَبَ أَكْثَر العُلَمَاء إِلَى أَنَّ الرَّمْي أَفْضَل مِنْ رُكُوب الخَيْل، وَذَهَبَ الإِمَام مَالِك ﷺ إِلَى أَنَّ الرُّكُوب أَفْضَل مِنْ الرَّمْي، وَقَوْل الجُمْهُور أَقْوَى لِلحَدِيثِ، والله أَعْلَمُ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَجَّاج وَهِشَام قَالَا: حَدَّثَنَا لَيْث؛ حَدَّثَنِي يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ ابْن شَمَّاسَة؛ أَنَّ مُعَاوِيَة بْن حُدَيج مَرَّ عَلَى أَبِي ذَرّ، وَهُوَ قَائِم عِنْد فَرَس لَهُ، فَسَأَلَهُ: مَا تعالج مِنْ فَرَسك هَذَا؟ فَقَالَ: إِنِّي أَظُنّ أَنَّ هَذَا الفَرَس قَدْ أُسْتُجِيبَ لَهُ دَعْوَته! قَالَ: وَمَا دُعَاء بَهِيمَة مِنْ البَهَائِم؟ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ فَرَس إِلَّا وَهُوَ يَدْعُو كُلّ سَحَر فَيَقُول: اللهمَّ؛ أَنْتَ خَوَّلتنِي عَبْدًا مِنْ عِبَادك، وَجَعَلت رِزْقِي بِيَدِهِ، فَاجْعَلنِي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْله وَمَاله وَوَلَده. قَالَ: وَحَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ عَبْد الحَمِيد بْن جَعْفَر؛ حَدَّثَنِي يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ سُوَيْد بْن قَيْس، عَنْ مُعَاوِيَة بْن حُدَيج؛ عَنْ أَبِي ذَرّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَس عَرَبِيّ إِلا يُؤْذَن لَهُ مَعَ كُلّ فَجْر، يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ. يَقُول: اللهمَّ، إِنَّك خَوَّلتنِي مَنْ خَوَّلتنِي مِنْ بَنِي آدَم، فَاجْعَلنِي مِنْ أَحَبّ أَهْله وَمَاله إِلَيْهِ -أَوْ: أَحَبّ أَهْله وَمَاله إِلَيْهِ»[2]. رَوَاهُ النَّسَائِيّ، عَنْ عَمْرو بْن عَلِيّ الفَلَّاس، عَنْ يَحْيَى القَطَّان، بِهِ. وَقَالَ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن إِسْحَاق التُّسْتَرِيّ، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن حَمْزَة، حَدَّثَنَا المُطْعِم بْن المِقْدَام الصَّنْعَانِيّ، عَنْ الحَسَن بْن أَبِي الحَسَن؛ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ الحَنْظَلِيَّة -يَعْنِي سَهْلًا-: حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْته مِنْ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «الخَيْل مَعْقُود فِي نَوَاصِيهَا الخَيْر إِلَى يَوْم القِيَامَة، وَأَهْلهَا مُعَانُونَ عَلَيْهَا، وَمَنْ رَبَطَ فَرَسًا فِي سَبِيل الله كَانَتْ النَّفَقَة عَلَيْهِ، كَالمَادّ يَده بِالصَّدَقَةِ لا يَقْبِضهَا». وَالأَحَادِيث الوَارِدَة فِي فَضْل ارْتِبَاط الخَيْل كَثِيرَة، وَفِي صَحِيح البُخَارِيّ، عَنْ عُرْوَة بْن أَبِي الجَعْد البَارِقِيّ؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «الخَيْل مَعْقُود فِي نَوَاصِيهَا الخَيْر إِلَى يَوْم القِيَامَة: الأَجْر وَالمَغْنَم»[3].

وَقَوْله: ﴿تُرْهِبُونَ﴾ أَيْ: تُخَوِّفُونَ ﴿بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ الكُفَّار ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ قَالَ مُجَاهِد: يَعْنِي «قُرَيْظَة». وَقَالَ السُّدِّيّ: «فَارِس»، وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: قَالَ ابْن يَمَان: «هُمْ الشَّيَاطِين الَّتِي فِي الدُّور». وَقَدْ وَرَدَ حَدِيثٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ، قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو عُتْبَة أَحْمَد بْن الفَرَج الحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو حَيْوَة -يَعْنِي: شُرَيْح بْن يَزِيد المُقْرِئ-، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سِنَان، عَنْ ابْن عريب -يَعْنِي: يَزِيد بْن عَبْد الله بْن عريب-، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، كَانَ يَقُول فِي قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ قَالَ: «هُمْ الجِنّ». وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن دُحَيْم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّد بْن شُعَيْب، عَنْ سِنَان بْن سَعِيد بْن سِنَان، عَنْ يَزِيد

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٢١) من حديث ابن مسعود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٥٠).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٣٥٧٩)، وأحمد (٥/ ١٧٠) من حديث أبي ذر، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب».

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٥٠).

ابْن عَبْد الله بْن عريب، بِهِ. وَزَادَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «**لا يُخْبَل بَيْت فِيهِ عَتِيق مِنْ الخَيْل**»[١]. وَهَذَا الحَدِيث مُنْكَر، لَا يَصِحّ إِسْنَاده وَلَا مَتْنه. وَقَالَ مُقَاتِل بْن حَيَّان، وَعَبْد الرَّحْمَن بْنِ زَيْد بْن أَسْلَمَ: هُمْ المُنَافِقُونَ. وَهَذَا أَشْبَهَ الأَقْوَال، وَيَشْهَد لَهُ قَوْله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أَيْ: مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ فِي الجِهَاد، فَإِنَّهُ يُوَفَّى إِلَيْكُمْ عَلَى التَّمَام وَالكَمَال، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حديث رَوَاهُ أَبو دَاوُد؛ أَنَّ الدِّرْهَم يُضَاعَف ثَوَابه فِي سَبِيل الله إِلَى سَبْعمِائَةِ ضِعْف، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن القَاسِم بْن عَطِيَّة، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَن الدَّشْتكِيّ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، حَدَّثَنَا الأَشْعَث بْن إِسْحَاق، عَنْ جَعْفَر، عن سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُر أَنْ لَا يُتَصَدَّق إِلَّا عَلَى أَهْل الإِسْلَام، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، فَأَمَرَ بِالصَّدَقَةِ بَعْدهَا عَلَى كُلّ مَنْ سَأَلَك مِنْ كُلّ دِين[٢]. وَهَذَا أَيْضًا غَرِيب.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يَقُول تَعَالَى: إِذَا خِفْت مِنْ قَوْم خِيَانَة فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدهمْ عَلَى سَوَاء، فَإِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى حَرْبك وَمُنَابَذَتك فَقَاتِلهُمْ، ﴿وَإِن جَنَحُوا۟﴾ أَيْ: مَالُوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أَيْ: المُسَالَمَة وَالمُصَالَحَة وَالمُهَادَنَة، ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، أَيْ: فَمِلْ إِلَيْهَا، وَاقْبَل مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَ المُشْرِكُونَ عَام الحُدَيْبِيَة الصُّلح، وَوَضْع الحَرْب بَيْنهمْ وَبَيْن رَسُول الله ﷺ تِسْع سِنِينَ؛ أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ مَعَ مَا اشْتَرَطُوا مِنْ الشُّرُوط الأُخَر. وَقَالَ عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر المُقَدَّمِيّ، حَدَّثَنِي فُضَيْل بْن سُلَيْمَان -يَعْنِي: النُّمَيْرِيّ-، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي يَحْيَى، عَنْ إِيَاس بْن عَمْرو الأَسْلَمِيّ، عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ بعدي اخْتِلَاف -أَوْ: أَمْر- فَإِنْ اسْتَطَعْت أَنْ يَكُون السِّلْم، فَافْعَل**»[٣]. وَقَالَ مُجَاهِد: نَزَلَتْ فِي بَنِي قُرَيْظَة. وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ السِّيَاق كُلّه فِي وَقْعَة بَدْر، وَذِكْرهَا مُكْتَنِف لِهَذَا كُلّه. وَقَول ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَزَيْد بْن أَسْلَمَ، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة: إِنَّ هَذِهِ الآيَة مَنْسُوخَة بِآيَةِ السَّيْف فِي «بَرَاءَة»: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآيَة؛ فِيهِ نَظَر أَيْضًا لِأَنَّ آيَة بَرَاءَة فِيهَا الأَمْر بِقِتَالِهِمْ إِذَا أَمْكَنَ ذَلِكَ، فَأَمَّا إِذا كَانَ العَدُوّ كَثِيفًا، فَإِنَّهُ تَجُوز مُهَادَنَتهمْ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، وَكَمَا فَعَلَ النَّبِيّ ﷺ يَوْم الحُدَيْبِيَة، فَلَا مُنَافَاة وَلَا نَسْخ وَلَا تَخْصِيص، والله أَعْلَمُ. وَقَوْله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: صَالِحْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى الله، فَإِنَّ الله كَافِيك وَنَاصِرك، وَلَوْ كَانُوا يُرِيدُونَ بِالصُّلح خَدِيعَة لِيَتَقَوَّوا وَيَسْتَعِدُّوا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾، أَيْ: كَافِيك وَحْدَهُ. ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ مِمَّا أَيَّدَهُ بِهِ مِنْ المُؤْمِنِينَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار، فَقَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، أَيْ: جَمَعَهَا عَلَى الإِيمَان بِك، وَعَلَى طَاعَتك وَمُنَاصَرَتك وَمُؤَازَرَتك.

---

(١) **موضوع**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٨٩) من حديث عريب، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٠) وقال: رواه الطبراني وفيه مجاهيل، وقال الألباني: موضوع. انظر «ضعيف الجامع» (٢٦٦٤).

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ٩١١٤) وفيه جعفر بن أبي المغيرة: ليس بالقوي في سعيد بن جبير.

(٣) **ضعيف الإسناد**: أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (١/ ٩٠)، وفيه إياس بن عمرو الأسلمي لم يوثقه غير ابن حبان في «تعجيل المنفعة» (١/ ٤٤)، وفضيل بن سليمان النميري: صدوق له خطأ كما قال الحافظ، وقال فيه يحيى بن معين: ليس بالثقة، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ: لِمَا كَانَ بَيْنهمْ مِنَ العَدَاوَة وَالبَغْضَاء؛ فَإِنَّ الأَنْصَار كَانَتْ بَيْنهمْ حُرُوب كَثِيرَة فِي الجَاهِلِيَّة، بَيْن الأَوْس وَالخَزْرَج، وَأُمُور يَلْزَم مِنْهَا التَّسَلْسُل فِي الشَّرّ، حَتَّى قَطَعَ الله ذَلِكَ بِنُورِ الإِيمَان، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَمَّا خَطَبَ الأَنْصَار فِي شَأْن غَنَائِم حُنَيْن قَالَ لَهُمْ: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ الله بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ الله بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ الله بِي**» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: الله وَرَسُوله أَمَنُّ[1]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: عَزِيز الجَنَاب. فَلَا يَخِيب رَجَاء مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، حَكِيم فِي أَفْعَاله وَأَحْكَامه. قَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ: أَخْبَرَنَا أَبُو عبد الله الحَافِظ، أَنْبَأَنَا عَلِيّ بْن بِشْر الصَّيْرَفِيّ القَزْوِينِيّ فِي مَنْزِلنَا، أَنْبَأَنَا أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد بْن الحُسَيْن القِنْدِيلِيّ الإِسْتِرَابَادِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاق إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن النُّعْمَان الصَّفَّار، حَدَّثَنَا مَيْمُون بْن الحَكَم، حَدَّثَنَا بَكْر بْن الشَّرُود، عَنْ مُحَمَّد بْن مُسْلِم الطَّائِفِيّ، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن مَيْسَرَة، عَنْ طَاوُس، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَالَ: قَرَابَة الرَّحِم تُقْطَع، وَمِنَّةُ النِّعْمَة تُكْفَر، وَلَمْ يُرَ مِثْل تَقَارُب القُلُوب؛ يَقُول الله تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وَذَلِكَ مَوْجُود فِي الشِّعْر:

إِذَا مَتَّ ذُو القُرْبَى إِلَيْكَ بِرَحِمِهِ	**فَغَشَّكَ وَاسْتَغْنَى فَلَيْسَ بِذِي رَحِمِ**
وَلَكِنَّ ذَا القُرْبَى الَّذِي إِنْ دَعَوْتَه	**أَجَابَ وَمَنْ يَرْمِي العَدُوَّ الَّذِي تَرْمِي**

قَالَ: وَمِنْ ذَلِكَ قَوْل القَائِل:

وَلَقَدْ صَحِبْتُ النَّاسَ ثُمَّ سَبَرْتُهمْ	**وَبَلَوْتُ مَا وَصَلُوا مِنَ الأَسْبَاب**
فَإِذَا القَرَابَة لَا تُقَرِّب قَاطِعًا	**وَإِذَا المَوَدَّة أَقْرَب الأَسْبَاب**

قَالَ البَيْهَقِيّ: لَا أَدْرِي هَذَا مَوْصُول بِكَلَام ابْن عَبَّاس، أَوْ هُوَ مِنْ قَوْل مَنْ دُونه مِنَ الرُّوَاة. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق السَّبِيعِيّ: عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود ﷺ سَمِعْتُهُ يَقُول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآيَة. قَالَ: هُمْ المُتَحَابُّونَ فِي الله، وَفِي رِوَايَة: نَزَلَتْ فِي المُتَحَابِّينَ فِي الله. رَوَاهُ النَّسَائِيّ وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، وَقَالَ: صَحِيح. وَقَالَ عَبْد الرزاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ ابْن طَاوُس، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: إِنَّ الرَّحِم لَتُقْطَع، وَإِنَّ النِّعْمَة لَتُكْفَر، وَإِنَّ الله إِذَا قَارَبَ بَيْن القُلُوب لَمْ يُزَحْزِحها شَيْء، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾. رَوَاهُ الحَاكِم أَيْضًا. وَقَالَ أَبُو عَمْرو الأَوْزَاعِيّ: حَدَّثَنِي عَبْدَة بْن أَبِي لُبَابَة، عَنْ مُجَاهِد وَلَقِيته فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: إِذَا تراءى المُتَحَابَّانِ فِي الله، فَأَخَذَ أَحَدهمَا بِيَدِ صَاحِبه، وَضَحِكَ إِلَيْهِ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُمَا كَمَا يتحاتُّ وَرَق الشَّجَر. قَالَ عَبْدَة: فَقُلت لَهُ: إِنَّ هَذَا لَيَسِير!. فَقَالَ: لَا تَقُل ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الله تعالى يَقُول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾!. قَالَ عَبْدَة: فَعَرَفْت أَنَّهُ أَفْقَه مِنِّي.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا ابْن يَمَان، عَنْ إِبْرَاهِيم الخوزي، عَنْ الوَلِيد بْن أَبِي مُغِيث، عَنْ مُجَاهِد، قَالَ: إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ فَتَصَافَحَا غُفِرَ لَهُمَا، قَالَ: قُلت لِمُجَاهِد: بِمُصَافَحَة يُغْفَر لَهُمَا؟ قَالَ مُجَاهِد: أَمَا سَمِعْته يَقُول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾؟ فَقَالَ الوَلِيد لِمُجَاهِد: أَنْتَ أَعْلَم مِنِّي. وَكَذَا رَوَى طَلْحَة بْن مُصَرِّف، عَنْ مُجَاهِد. وَقَالَ ابْن عَوْن، عَنْ عُمَيْر بْن إِسْحَاق، قَالَ: كُنَّا نُحَدَّث أَنَّ أَوَّل مَا يُرْفَع مِنْ النَّاس -أو قال: عن الناس- الأُلْفَة. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو القَاسِم سُلَيْمَان بْن أَحْمَد

---

(١) صحيح: تقدم

الطَّبَرَانِيّ رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن إِسْحَاق التُّسْتَرِيّ، حَدَّثَنَا عبيد الله بْن عُمَر القَوَارِيرِيّ، حَدَّثَنَا سَالِم بْن غَيْلَان، سَمِعْت جَعْدًا أَبَا عُثْمَان، حَدَّثَنِي أَبُو عُثْمَان النَّهْدِيّ، عَنْ سَلْمَان الفَارِسِيّ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ المُسْلِم إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ المُسْلِم، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، تَحَاتَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبهمَا، كَمَا يَتَحَاتُّ الوَرَق عَنْ الشَّجَرَة اليَابِسَة فِي يَوْم رِيح عَاصِف، وَإِلَّا غُفِرَ لَهُمَا وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبهمَا مِثْل زَبَد البِحَار**»[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

يُحَرِّض تَعَالَى نَبِيّه ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَال وَمُنَاجَزَة الأَعْدَاء وَمُبَارَزَة الأَقْرَان، وَيُخْبِرهُمْ أَنَّهُ حَسْبهمْ، أَيْ: كَافِيهِمْ وَنَاصِرهُمْ وَمُؤَيِّدهُمْ عَلَى عَدُوّهِمْ، وَإِنْ كَثُرَتْ أَعْدَادهمْ وَتَرَادَفَتْ أَمْدَادهُمْ، وَلَوْ قَلَّ عَدَد المُؤْمِنِينَ. قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عُثْمَان بْن حَكِيم، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن مُوسَى، أَنْبَأَنَا سُفْيَان، عَنْ شَوْذَب، عَنْ الشَّعْبِيّ فِي قَوْله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، قَالَ: حَسْبك الله، وَحَسْب مَنْ شَهِدَ مَعَك. قَالَ: وَرُوِيَ عَنْ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد مِثْله. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ ﴾، أَيْ: حُثَّهُمْ وزمِّر عَلَيْهِ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُول الله ﷺ يُحَرِّض عَلَى القِتَال عِنْد صَفِّهِمْ وَمُوَاجَهَة العَدُوّ، كَمَا قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْم بَدْر، حِين أَقْبَلَ المُشْرِكُونَ فِي عَدَدهمْ وَعُدَدهِمْ: «**قُومُوا إِلَى جَنَّة عَرْضهَا السَّمَوَات وَالأَرْض**». فَقَالَ عُمَيْر بْن الحُمَام: عَرْضُهَا السَّمَوَات وَالأَرْض؟! فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**نَعَمْ**». فَقَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ: «**مَا يَحْمِلُك عَلَى قَوْلِك: بَخٍ بَخٍ؟**» قَالَ: رَجَاء أَنْ أَكُون مِنْ أَهْلهَا! قَالَ: «**فَإِنَّك مِنْ أَهْلهَا**». فَتَقَدَّمَ الرَّجُل فَكَسَرَ جِفْن سَيْفه، وَأَخْرَجَ تَمَرَات فَجَعَلَ يَأْكُل مِنْهُنَّ، ثُمَّ أَلْقَى بَقِيَّتهنَّ مِنْ يَده، وَقَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيت حَتَّى آكُلَهُنَّ إِنَّهَا لَحَيَاة طَوِيلَة! ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ رضي الله عنه[2]. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، وَسَعِيد بْن جُبَيْر؛ أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ حِين أَسْلَمَ عُمَر بْن الخَطَّاب وَكَمَلَ بِهِ الأَرْبَعُونَ. وَفِي هَذَا نَظَرٌ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَة مَدَنِيَّة، وَإِسْلَام عُمَر كَانَ بِمَكَّة بَعْد الهِجْرَة إِلَى أَرْض الحَبَشَة وَقَبْل الهِجْرَة إِلَى المَدِينَة، والله أَعْلَم. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَآمِرًا: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، كُلّ وَاحِد بِعَشَرَة. ثُمَّ نُسِخَ هَذَا الأَمْر وَبَقِيَتْ البِشَارَة. قَالَ عَبْد الله بْن المُبَارَك: حَدَّثَنَا جَرِير بْن حَازِم، حَدَّثَنِي الزُّبَيْر بْن الخِرِّيت، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ حَتَّى فَرَضَ الله عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرّ وَاحِد مِنْ عَشَرَة ثُمَّ جَاءَ التَّخْفِيف. فَقَالَ: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ ﴾، قَالَ: خَفَّفَ الله عَنْهُمْ مِنَ العِدَّة، وَنَقَصَ مِنَ الصَّبْر بِقَدْرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ. وَرَوَى البُخَارِيّ مِنْ حَدِيث ابْن المُبَارَك نَحْوه. وَقَالَ سَعِيد بْن مَنْصُور: حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة قَالَ: كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرّ عِشْرُونَ مِنْ مِائَتَيْنِ، ثُمَّ خَفَّفَ الله عَنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾، فَلَا يَنْبَغِي لِمِائَةٍ أَنْ يَفِرُّوا مِنْ مِائَتَيْنِ. وَرَوَى

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ٢٥٦) من حديث سلمان الفارسي، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٧٧)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير سالم بن غيلان وهو ثقة، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٦٢٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٠١).

 ٤٠٧

البُخَارِيّ، عَنْ عَلِيِّ بْن عَبْد الله، عَنْ سُفْيَان، بِهِ نَحْوه. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة ثَقُلَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْظَمُوا أَنْ يُقَاتِل عِشْرُونَ مِائَتَيْنِ، وَمِائَةٌ أَلْفًا، فَخَفَّفَ الله عَنْهُمْ، فَنَسَخَهَا بِالآيَةِ الأُخْرَى فَقَالَ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآيَة، فَكَانُوا إِذَا كَانُوا عَلَى الشَّطْر مِنْ عَدُوّ لَهُمْ لَمْ يَنْبَغِ لَهُمْ أَنْ يَفِرُّوا مِنْ عَدُوّهُمْ، وَإِذَا كَانُوا دُون ذَلِكَ، لَمْ يَجِب عَلَيْهِمْ قِتَالهمْ، وَجَازَ لَهُمْ أَنْ يَتَحَوَّزُوا عَنْهُمْ. وَرَوَى عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة وَالعَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، نَحْو ذَلِكَ. قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِد، وَعَطَاء، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَزَيْد بْن أَسْلَمَ، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَالضَّحَّاك، نَحْو ذَلِكَ. وَرَوَى الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ، مِنْ حَدِيث الْمُسَيِّب بْن شَرِيك، عَنْ ابْن عَوْن، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر رضي الله عنهما فِي قَوْله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِينَا أَصْحَاب مُحَمَّد ﷺ. وَرَوَى الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ حَدِيث أَبِي عَمْرو ابْن العَلَاء، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَرَأَ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، رَفَعَ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيح الإِسْنَاد وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عاصم، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس رضي الله عنه قَالَ: اسْتَشَارَ رسول الله ﷺ، النَّاس فِي الأُسَارَى يَوْم بَدْر، فَقَالَ: **«إِنَّ الله قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ»**. فَقَامَ عُمَر بْن الخَطَّاب، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ اضْرِبْ أَعْنَاقهمْ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ عَادَ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: **«يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ الله قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانكُمْ بِالأَمْسِ»** فَقَامَ عُمَر فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ اضْرِبْ أَعْنَاقهمْ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ عاد النبي ﷺ فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْل ذَلِكَ، فَقَامَ أَبُو بَكْر الصِّدِّيق رضي الله عنه فَقَالَ: يَا رَسُول الله، نَرَى أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَأَنْ تَقْبَل مِنْهُمْ الفِدَاء. قَالَ: فَذَهَبَ عَنْ وَجْه رَسُول الله ﷺ، مَا كَانَ فِيهِ مِنْ الغَمّ، فَعَفَا عَنْهُمْ، وَقَبِلَ مِنْهُمْ الفِدَاء. قَالَ: وَأَنْزَلَ الله عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]. وَقَدْ سَبَقَ فِي أَوَّل السُّورَة حَدِيث ابْن عَبَّاس فِي صَحِيح مُسْلِم بِنَحْوِ ذَلِكَ. وَقَالَ الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْم بَدْر قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الأُسَارَى؟»** قال: فَقَالَ أَبُو بَكْر: يَا رَسُول الله، قَوْمُك وَأَهْلُك، اسْتَبْقِهِمْ وَاسْتَتِبْهُمْ، لَعَلَّ الله أَنْ يَتُوب عَلَيْهِمْ. قال: وَقَالَ عُمَر: يَا رَسُول الله؛ كَذَّبُوك، وَأَخْرَجُوك، فَقَدِّمْهُمْ فَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ. قال: وَقَالَ عَبْد الله بْن رَوَاحَة: يَا رَسُول الله، أَنْتَ فِي وَادٍ كَثِير الحَطَب، فَأَضْرِمْ الوَادِي عَلَيْهِمْ نَارًا، ثُمَّ أَلْقِهِمْ فِيهِ. قَالَ: فقال العباس: قطعت رحمك. قال: فَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ، فَلَمْ يَرُدّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، ثُمَّ قَامَ فَدَخَلَ، فَقَالَ نَاس: يَأْخُذ بِقَوْلِ أَبِي بَكْر. وَقَالَ نَاس: يَأْخُذ بِقَوْلِ عُمَر. وَقَالَ نَاس: يَأْخُذ بِقَوْلِ عَبْد الله بْن رَوَاحَة. ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: **«إِنَّ الله لَيُلَيِّنُ قُلُوب رِجَال حَتَّى تَكُون أَلْيَنَ مِنْ اللَّبَن، وَإِنَّ الله لَيُشَدِّدُ قُلُوب رِجَال فِيهِ حَتَّى تَكُون أَشَدّ مِنْ الحِجَارَة، وَإِنَّ مَثَلك يَا أَبَا بَكْر كَمَثَلِ إِبْرَاهِيم عليه السلام قَالَ: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وَإِنَّ مَثَلك يَا أَبَا بَكْر كَمَثَلِ عِيسَى عليه السلام قَالَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وَإِنَّ مَثَلك يَا عُمَر كَمَثَلِ مُوسَى عليه السلام قَالَ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وَإِنَّ مَثَلك يَا عُمَر كَمَثَلِ نُوح عليه السلام قَالَ: ﴿رَّبِّ لَا**

---

(١) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٣) من حديث أنس بن مالك.

﴿تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، **أَنْتُمْ عَالَة فَلا يَنْفَلتَنَّ أَحَد مِنْهُمْ إلا بِفِدَاء أَوْ ضَرْبَة عُنُق**». قَالَ ابْن مَسْعُود: قُلت: يَا رَسُول الله، إِلَّا سُهَيْل ابْن بَيْضَاء فَإِنَّهُ يَذْكُر الإِسْلَام، فَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ، فَمَا رَأَيْتنِي فِي يَوْم أَخْوَف أَنْ تَقَع عَلَيَّ حِجَارَة مِنَ السَّمَاء مِنِّي فِي ذَلِكَ اليَوْم، حَتَّى قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إلا سُهَيْل ابْن بَيْضَاء**». فَأَنْزَلَ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ إِلَى آخِر الآيَة[1]. رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ، مِنْ حَدِيث أَبِي مُعَاوِيَة، عَنْ الأَعْمَش. وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، وَقَالَ: صَحِيح الإِسْنَاد، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ. وَرَوَى الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر، وَأَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنهما، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، نَحْوه. وَفِي البَاب عَنْ أَبِي أَيُّوب الأَنْصَارِيّ.

وَرَوَى ابْن مَرْدُوَيْهِ أَيْضًا وَاللَّفْظ لَهُ، وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ حَدِيث عُبَيْد الله بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن مُهَاجِر، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عُمَر؛ قَالَ: لَمَّا أُسِرَ الأُسَارَى يَوْم بَدْر، أُسِرَ العَبَّاس فِيمَنْ أُسِرَ، أَسَرَهُ رَجُل مِنْ الأَنْصَار، قَالَ: وَقَدْ أَوْعَدَتْهُ الأَنْصَار أَنْ يقتلوه. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أَنَمْ اللَّيْلَة مِنْ أَجْل عَمِّي العَبَّاس، وَقَدْ زَعَمَتْ الأَنْصَار أَنَّهُمْ قَاتِلُوهُ**». فَقَالَ لَهُ عُمَر: أَفَآتِيهِمْ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». فَأَتَى عُمَر الأَنْصَار فَقَالَ لَهُمْ: أَرْسِلُوا العَبَّاس. فَقَالُوا: لَا وَالله، لَا نُرْسِلهُ. فَقَالَ لَهُمْ عُمَر: فَإِنْ كَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ رِضًا؟ قَالُوا: فَإِنْ كَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ، رِضًا فَخُذْهُ. فَأَخَذَهُ عُمَر فَلَمَّا صَارَ فِي يَده قَالَ لَهُ: يَا عَبَّاس، أَسْلِمْ، فَوَالله لَئِنْ تُسْلِم أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُسْلِم الخَطَّاب، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَيْت رَسُول الله ﷺ يُعْجِبهُ إِسْلَامُك. قَالَ: فَاسْتَشَارَ رَسُول الله ﷺ، أَبَا بَكْر. فَقَالَ أَبُو بَكْر: عَشِيرَتك. فَأَرْسِلْهُمْ، فَاسْتَشَارَ عُمَر، فَقَالَ: اُقْتُلْهُمْ. فَفَادَاهُمْ رَسُول الله ﷺ فَأَنْزَلَ الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآيَة[2]. قَالَ الحَاكِم: صَحِيح الإِسْنَاد، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ هِشَام -هو ابْن حَسَّان-، عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، عَنْ عَبِيدَة، عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ جِبْرِيل إِلَى النَّبِيّ ﷺ، يَوْم بَدْر فَقَالَ: خَيِّرْ أَصْحَابك فِي الأُسَارَى: إِنْ شَاءُوا الفِدَاء، وَإِنْ شَاءُوا القَتْل عَلَى أَنْ يُقْتَل مِنْهُمْ مُقْبِلًا مِثْلُهُمْ. قَالُوا: الفِدَاء وَيُقْتَل مِنَّا[3]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن حِبَّان فِي صَحِيحه، مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ، بِهِ. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا. وَقَالَ ابْن عَوْن، عَنْ عَبِيدَة، عَنْ عَلِيّ؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ، فِي أُسَارَى يَوْم بَدْر: «**إِنْ شِئْتُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ، وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِالفِدَاء، وَاسْتُشْهِدَ مِنْكُمْ بِعِدَّتِهِمْ**». قَالَ: فَكَانَ آخِر السَّبْعِينَ ثَابِت بْن قَيْس، قُتِلَ يَوْم اليَمَامَة رضي الله عنه. وَمِنْهُمْ مَنْ رَوَى هَذَا الحَدِيث عَنْ عُبَيْدَة مُرْسَلًا، فَالله أَعْلَم. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قَالَ: غَنَائِم بَدْر قَبْل أَنْ يُحِلَّهَا لَهُمْ، يَقُول: لَوْلَا أَنِّي لَا أُعَذِّب مَنْ عَصَانِي حَتَّى أَتَقَدَّم إِلَيْهِ، لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَاب عَظِيم. وَكَذَا رَوَى ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد. وَقَالَ الأَعْمَش: سَبَقَ مِنْهُ أَنْ لَا يُعَذِّب أَحَدًا شَهِدَ بَدْرًا. وَرُوِيَ نَحْوه عَنْ سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَعَطَاء. وَقَالَ شُعْبَة، عَنْ أَبِي هَاشِم، عَنْ مُجَاهِد: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أَيْ: لَهُمْ بِالمَغْفِرَة. وَنَحْوه عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ رحمه الله. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ يَعْنِي: فِي أُمّ الكِتَاب الأَوَّل، أَنَّ المَغَانِم وَالأُسَارَى؛ حَلَال لَكُمْ. ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ مِنْ الأُسَارَى: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٣٨٣، ٣٨٤)، والحاكم (٣/ ٢١، ٢٢)، والترمذي (٣٠٨٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٩)، والبيهقي في «الكبرى» (٦/ ٣٢١)، عن أبي عبيدة ابن عبد الله عن أبيه، وهذا إسناد منقطع لأن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه كما قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٨٧)، وضعفه الألباني في «الإرواء» (٥/ ٤٧، ٤٨).

(٢) حسن: أخرجه الحاكم (٢/ ٣٢٩).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (١٥٦٧)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٠٠) من حديث علي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآيَة. وَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس. وَرُوِيَ مِثْله عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَابْن مَسْعُود، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَعَطَاء، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَقَتَادَة، وَالأَعْمَش أَيْضًا؛ أَنَّ المُرَاد: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لِهَذِهِ الأُمَّة بِإِحْلَالِ الغَنَائِم. وَهُوَ اخْتِيَار ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ. وَيُسْتَشْهَد لِهَذَا القَوْل بِمَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ **«أُعْطِيت خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَد مِنْ الأَنْبِيَاء قَبْلِي: نُصِرْت بِالرُّعْبِ مَسِيرَة شَهْر، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْض مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِم وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَد قَبْلِي، وَأُعْطِيت الشَّفَاعَة، وَكَانَ النَّبِيّ يُبْعَث إِلَى قَوْمه وَبُعِثْت إِلَى النَّاس عَامَّة»**[1]. وَقَالَ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ **«لَمْ تَحِلَّ الغَنَائِم لِسُودِ الرُّءُوس غَيْرنَا»**[2]. وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فَعِنْد ذَلِكَ أَخَذُوا مِنْ الأُسَارَى الفِدَاء. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَبُو دَاوُد فِي سُنَنه؛ حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن المُبَارَك العيشي، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن حَبِيب، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي العَنْبَس، عَنْ أَبِي الشَّعْثَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ جَعَلَ فِدَاء أَهْل الجَاهِلِيَّة يَوْم بَدْر أَرْبَعمِائَةٍ[3]. وَقَدْ استقر الحُكْم فِي الأَسْرَى عِنْد جُمْهُور العُلَمَاء؛ أَنَّ الإِمَام مُخَيَّر فِيهِمْ، إِنْ شَاءَ قَتَلَ كَمَا فَعَلَ بِبَنِي قُرَيْظَة، وَإِنْ شَاءَ فَادَى بِمَالٍ كَمَا فَعَلَ بِأَسْرَى بَدْر، أَوْ بِمَنْ أُسِرَ مِنْ المُسْلِمِينَ، كَمَا فَعَلَ رَسُول الله ﷺ فِي تِلْكَ الجَارِيَة وَابْنَتهَا اللَّتَيْنِ كَانَتَا فِي سَبْي سَلَمَة ابْن الأَكْوَع، حَيْثُ رَدَّهُمَا وَأَخَذَ فِي مُقَابَلَتهمَا المُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْد المُشْرِكِينَ، وَإِنْ شَاءَ اسْتَرَقَّ مَنْ أَسَرَ. هَذَا مَذْهَب الإِمَام الشَّافِعِيّ وَطَائِفَة مِنْ العُلَمَاء، وَفِي المَسْأَلَة خِلَاف آخَر بَيْن الأَئِمَّة مُقَرَّر فِي مَوْضِعه مِنْ كُتُب الفِقْه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي العَبَّاس بْن عَبْد الله بْن مُغَفَّل، عَنْ بَعْض أَهْله، عَنْ عَبْد الله بْن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ يَوْم بَدْر: **«إِنِّي قَدْ عَرَفْت أَنَّ أُنَاسًا مِنْ بَنِي هَاشِم وَغَيْرهمْ، قَدْ أُخْرِجُوا كَرْهًا، لَا حَاجَة لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْهُمْ -أَيْ مِنْ بَنِي هَاشِم- فَلَا يَقْتُلهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا البَخْتَرِيّ ابْن هِشَام فَلَا يَقْتُلهُ، وَمَنْ لَقِيَ العَبَّاس بْن عَبْد المُطَّلِب فَلَا يَقْتُلهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا»** فَقَالَ أَبُو حُذَيْفَة ابْن عُتْبَة: أَنَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَعَشَائِرَنَا وَنَتْرُك العَبَّاس؟! وَالله لَئِنْ لَقِيته لَأُلْجِمَنَّهُ بِالسَّيْفِ! فَبَلَغَتْ رَسُول الله ﷺ فَقَالَ لِعُمَر بْن الخَطَّاب: **«يَا أَبَا حَفْص؛»** -قَالَ عُمَر: وَالله إِنَّهُ لَأَوَّل يَوْم كَنَّانِي فِيهِ رَسُول الله ﷺ- **«أَيُضْرَبُ وَجْهُ عَمّ رَسُول الله ﷺ بِالسَّيْفِ؟»**. فَقَالَ عُمَر: يَا رَسُول الله، ائْذَنْ لِي فَأَضْرِب عُنُقه، فَوَالله لَقَدْ نَافَقَ. فَكَانَ أَبُو حُذَيْفَة يَقُول بَعْد ذَلِكَ: وَالله، مَا آمَنُ مِنْ تِلْكَ الكَلِمَة الَّتِي قُلت، وَلَا أَزَال مِنْهَا خَائِفًا، إِلَّا أَنْ يُكَفِّرهَا الله تَعَالَى عَنِّي بِشَهَادَةٍ. فَقُتِلَ يَوْم اليَمَامَة شَهِيدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4]. وَبِهِ عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: لَمَّا أَمْسَى رَسُول الله ﷺ يَوْم بَدْر، وَالأُسَارَى مَحْبُوسُونَ بِالوَثَاق، بَاتَ رَسُول الله ﷺ سَاهِرًا أَوَّل اللَّيْل، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابه: يَا رَسُول الله، مَا لَكَ لَا تَنَام؟ -وَقَدْ أَسَرَ العَبَّاسَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَار- فَقَالَ رَسُول الله ﷺ **«سَمِعْت أَنِين عَمِّي العَبَّاس فِي وَثَاقه فَأَطْلِقُوهُ»**. فَسَكَتَ فَنَامَ رَسُول الله ﷺ[5].

---

(١) **صحيح**: تقدم.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٠٨٥) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٦٩١)، والحاكم (٢/ ١٣٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٦/ ٣٢١)، والنسائي (٥/ ٢٠٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٣٤٠) وقال: صحيح دون «**الأربعمائة**».

(٤) **ضعيف الإسناد**: ففيه جهالة في قوله: «عن بعض أهله».

(٥) **ضعيف الإسناد**: كالحديث السابق إذ هو بنفس الإسناد.

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: وَكَانَ أَكْثَر الأُسَارَى يَوْم بَدْر فِدَاء العَبَّاس بْن عَبْد المُطَّلِب، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا مُوسِرًا، فَافْتَدَى نَفْسه بِمِائَةِ أُوقِيَّة ذَهَبًا. وَفِي صَحِيح البُخَارِيّ، مِنْ حَدِيث مُوسَى بْن عُقْبَة، قَالَ ابْن شِهَاب: حَدَّثَنِي أَنَس بْن مَالِك، أَنَّ رِجَالًا مِنْ الأَنْصَار، استأذنوا رَسُول الله ﷺ، فقالوا: ائْذَنْ لَنَا فَلْنَتْرُكْ لِابْنِ أُخْتنَا عَبَّاس فِدَاءَهُ. قَالَ: «**لا وَالله لا تَذَرُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا**»[1]. وَقَالَ يُونُس بْن بُكَيْر، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَزِيد بْن رُومَان، عَنْ عُرْوَة، وَعَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ جَمَاعَة سَمَّاهُمْ، قَالُوا: بَعَثَتْ قُرَيْش إِلَى رَسُول الله ﷺ، فِي فِدَاء أَسْرَاهُمْ، فَفَدَى كُلّ قَوْم أَسِيرهُمْ بِمَا رَضُوا، وَقَالَ العَبَّاس: يَا رَسُول الله، قَدْ كُنْت مُسْلِمًا، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**الله أَعْلَم بِإِسْلامِك، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُول فَإِنَّ الله يَجْزِيك، وَأَمَّا ظَاهِرُك فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا، فَافْتَدِ نَفْسك وَابْنَيْ أَخِيك: نَوْفَل بْن الحَارِث بْن عَبْد المُطَّلِب، وَعَقِيل بْن أَبِي طَالِب بْن عَبْد المطلب، وَحَلِيفَك عُتْبَة بْن عَمْرو، أَخِي بَنِي الحَارِث بْن فِهْر**» قَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُول الله، قَالَ: «**فَأَيْنَ المَال الَّذِي دَفَنْته أَنْتَ وَأُمّ الفَضْل؟ فَقُلْتَ لَهَا: إِنْ أُصِبْت فِي سَفَرِي هَذَا، فَهَذَا المَال الَّذِي دَفَنْته لِبَنِيَّ: الفَضْل، وَعَبْد الله، وَقُثَم؟**» قَالَ: وَالله، يَا رَسُول الله، إِنِّي لَأَعْلَم أَنَّك رَسُول الله، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ، مَا عَلِمَهُ أَحَد غَيْرِي، وَغَيْر أُمّ الفَضْل، فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُول الله؛ مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي: عِشْرِينَ أُوقِيَّة مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي؟ فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لا، ذَاكَ شَيْء أَعْطَانَا الله تَعَالَى مِنْك**» فَفَدَى نَفْسه وَابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ وَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قَالَ العَبَّاس: فَأَعْطَانِي الله مَكَان العِشْرِينَ الأُوقِيَّة فِي الإِسْلَام عِشْرِينَ عَبْدًا، كُلّهمْ فِي يَده مَال يَضْرِب بِهِ، مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَة الله ﷻ[2].

وَقَدْ رَوَى ابْن إِسْحَاق أَيْضًا، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس، فِي هَذِهِ الآيَة، بِنَحْوٍ مِمَّا تَقَدَّمَ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا ابْن إِدْرِيس، عن ابن إسحاق، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَالَ: قَالَ العَبَّاس: فِيَّ نَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ...﴾، فَأَخْبَرْت النَّبِيّ ﷺ، بِإِسْلَامِي، وَسَأَلته أَنْ يُحَاسِبَنِي بِالعِشْرِينَ الأُوقِيَّةِ الَّتِي أَخَذ مِنِّي، فَأَبَى، فَأَبْدَلَنِي الله بِهَا عِشْرِينَ عَبْدًا، كُلّهمْ تَاجِر، مَالِي فِي يَده[3]. وَقَالَ ابْن إِسْحَاق أَيْضًا: حَدَّثَنِي الكَلْبِيّ، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله بْن رئاب، قَالَ: كَانَ العَبَّاس بْن عَبْد المُطَّلِب يَقُول: فِيَّ نَزَلَتْ وَالله، حِين ذَكَرْت لِرَسُولِ الله ﷺ، إِسْلَامِي[4]، ثُمَّ ذَكَرَ نَحْو الحَدِيث كالَّذِي قَبْله. وَقَالَ ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾: عَبَّاس وَأَصْحَابه، قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: آمَنَا بِمَا جِئْت بِهِ، وَنَشْهَد أَنَّك رَسُول الله، لَنَنْصَحَنَّ لَك عَلَى قَوْمنَا. فَأَنْزَلَ الله: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾، إِيمَانًا وَتَصْدِيقًا، يُخْلِف لَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ الشِّرْك الَّذِي كُنْتُمْ عَلَيْهِ. قَالَ: فَكَانَ العَبَّاس يَقُول: مَا أُحِبُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَة لَمْ تَنْزِل فِينَا، وَأَنَّ لِي الدُّنْيَا، لَقَدْ قَالَ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾، فَقَدْ أَعْطَانِي خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنِّي مِائَةَ ضِعْف، وَقَالَ: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وَأَرْجُو أَنْ يَكُون غُفِرَ لِي.

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي الآيَة: كَانَ العَبَّاس أُسِرَ يَوْم بَدْر، فَافْتَدَى نَفْسه بِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّة مِنْ ذَهَب، فَقَالَ العَبَّاس حِين قُرِئَتْ هَذِهِ الآيَة: لَقَدْ أَعْطَانَا الله ﷻ خَصْلَتَيْنِ، مَا أُحِبّ أَنَّ لِي بِهِمَا الدُّنْيَا، أَنِّي أُسِرْت يَوْم بَدْر فَفَدَيْت نَفْسِي بِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّة، فَآتَانِي أَرْبَعِينَ عَبْدًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو المَغْفِرَة الَّتِي وَعَدَنَا الله جَلَّ ثناؤه. وقَالَ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٠٢٦).
(٢) مرسل: أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١١١)، وعزاه لابن مردويه.
(٣) ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٠/ ٤٩) بسند ضعيف فيه سفيان بن وكيع: ضعيف.
(٤) ضعيف: وفيه الكلبي وهو متهم بالكذب.

قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ مَالُ البَحْرَيْنِ ثَمَانُونَ أَلْفًا، وَقَدْ تَوَضَّأَ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ، فَمَا أَعْطَى يَوْمَئِذٍ سَاكِتًا، وَلَا حَرَمَ سَائِلًا، وَمَا صَلَّى يَوْمَئِذٍ حَتَّى فَرَّقَهُ، فَأَمَرَ العَبَّاسَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ وَيَحْتَثِي، فأخذ. قال: فَكَانَ العَبَّاسُ يَقُولُ: هَذَا خَيْرٌ مِمَّا أُخِذَ مِنَّا، وَأَرْجُو المَغْفِرَةَ. وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو ابْنُ عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ المُغِيرَةِ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ؛ قَالَ: بَعَثَ ابْنُ الحَضْرَمِيِّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، مِنَ البَحْرَيْنِ ثَمَانِينَ أَلْفًا، مَا أَتَاهُ مَالٌ أَكْثَرَ مِنْهُ لَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ. قَالَ فَنُثِرَتْ عَلَى حَصِيرٍ وَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ. قَالَ: وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَثَلَ قَائِمًا عَلَى المَالِ، وَجَاءَ أَهْلُ المَسْجِدِ فَمَا كَانَ يَوْمَئِذٍ عَدَدٌ وَلَا وَزْنٌ، مَا كَانَ إِلَّا قَبْضًا، وَجَاءَ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ يَحْثِي فِي خَمِيصَةٍ عَلَيْهِ، وَذَهَبَ يَقُومُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ارْفَعْ عَلَيَّ. قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّى خَرَجَ ضَاحِكُهُ -أَوْ: نَابُهُ- وَقَالَ لَهُ: «**أَعِدْ مِنَ المَالِ طَائِفَةً، وَقُمْ بِمَا تُطِيقُ**» قَالَ: فَفَعَلَ، وَجَعَلَ العَبَّاسُ يَقُولُ: -وَهُوَ مُنْطَلِقٌ-: أَمَّا إِحْدَى اللَّتَيْنِ وَعَدَنَا اللهُ فَقَدْ أَنْجَزَنَا، وَمَا نَدْرِي مَا يَصْنَعُ فِي الأُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا خَيْرٌ مِمَّا أُخِذَ مِنَّا، وَمَا أَدْرِي مَا يَصْنَعُ اللهُ فِي الأُخْرَى، فَمَا زَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، مَاثِلًا عَلَى ذَلِكَ المَالِ، حَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهُ دِرْهَمٌ، وَمَا بَعَثَ إِلَى أَهْلِهِ بِدِرْهَمٍ، ثُمَّ أَتَى الصَّلَاةَ فَصَلَّى[1].

حَدِيثٌ آخَرُ فِي ذَلِكَ: قَالَ الحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ البَيْهَقِيُّ: أَنْبَأَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَافِظُ، أَخْبَرَنِي أَبُو الطَّيِّبِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الشعيري، حَدَّثَنَا محمش بْنُ عِصَامٍ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ، عَنْ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ فَقَالَ: «**انْثُرُوهُ فِي المسجد**» قَالَ: وَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ، فَمَا كَانَ يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَعْطَاهُ، إِذْ جَاءَهُ العَبَّاسُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَعْطِنِي فَإِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وَفَادَيْتُ عَقِيلًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُذْ**» فَحَثَا فِي ثَوْبِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ: مُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ إِلَيَّ. قَالَ: «**لَا**». قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ. قَالَ: «**لَا**». فَنَثَرَ مِنْهُ ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، فَمَا زَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ حَتَّى خَفِيَ عَنْهُ، عَجَبًا مِنْ حِرْصِهِ، فَمَا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَثَمَّ مِنْهَا دِرْهَمٌ[2]. وَقَدْ رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ مِنْ صَحِيحِهِ تَعْلِيقًا بِصِيغَةِ الجَزْمِ، يَقُولُ: «وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ»، وَيَسُوقُهُ وَفِي بَعْضِ السِّيَاقَاتِ أَتَمُّ مِنْ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ أَيْ: فِيمَا أَظْهَرُوا لَكَ مِنَ الأَقْوَالِ، ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾، أَيْ: مِنْ قَبْلِ بَدْرٍ بِالكُفْرِ بِهِ، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: بالإسار يَوْمَ بَدْرٍ. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: عَلِيمٌ بما يفعله، حَكِيمٌ فِيهِ. قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ الكَاتِبِ حِينَ ارْتَدَّ، وَلَحِقَ بِالمُشْرِكِينَ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ الخُرَاسَانِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي عَبَّاسٍ وَأَصْحَابِهِ، حِينَ قَالُوا: «**لَنَنْصَحَنَّ لَكَ عَلَى قَوْمِنَا**». وَفَسَّرَهَا السُّدِّيُّ عَلَى العُمُومِ، وَهُوَ أَشْمَلُ وَأَظْهَرُ، واللهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ذَكَرَ تَعَالَى أَصْنَافَ المُؤْمِنِينَ، وَقَسَّمَهُمْ إِلَى مُهَاجِرِينَ: خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَجَاءُوا لِنَصْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ، وَبَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَإِلَى أَنْصَارٍ، وَهُمُ المُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ، إِذْ ذَاكَ

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٣/ ٣٢٩)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري تعليقًا (٤٢١، ٣٠٤٩، ٣١٦٥)، وأخرجه البيهقي (٦/ ٣٥٦).

آوَوْا إِخْوَانهمْ المُهَاجِرِينَ فِي مَنَازِلهِمْ، وَوَاسَوْهُمْ فِي أَمْوَالهِمْ، وَنَصَرُوا الله وَرَسُوله، بِالقِتَالِ مَعَهُمْ، فَهَؤُلَاءِ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أَيْ: كُلّ مِنْهُمْ أَحَقّ بِالآخَرِ مِنْ كُلّ أحد. وَلِهَذَا آخَى رَسُول الله ﷺ، بَيْن المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار، كُلّ اثْنَيْنِ أَخَوَانِ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِذَلِكَ إِرْثًا مُقَدَّمًا عَلَى القَرَابَة، حَتَّى نَسَخَ الله تَعَالَى ذَلِكَ بِالمَوَارِيثِ[١]، ثَبَتَ ذَلِكَ فِي صَحِيح البُخَارِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس. وَرَوَاهُ العَوْفِيّ، وَعَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْهُ. وَقَالَ به مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَغيرهم. قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ شَرِيك، عَنْ عَاصِم، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ جَرِير -هُوَ ابْن عَبْد الله البَجَلِيّ ﷺ- قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَار أَوْلِيَاء بعضهم لبعض، وَالطُّلَقَاء مِنْ قُرَيْش، وَالعُتَقَاء مِنْ ثَقِيف؛ بَعْضهمْ أَوْلِيَاء بَعْض إِلَى يَوْم القِيَامَة**»[٢]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد.

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا شيبان، حَدَّثَنَا عِكْرِمَة -يَعْنِي ابْن إِبْرَاهِيم الأَزْدِيّ-، حَدَّثَنَا عَاصِم، عَنْ شَقِيق، عَنْ ابْن مَسْعُود، قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَار وَالطُّلَقَاء مِنْ قُرَيْش وَالعُتَقَاء مِنْ ثَقِيف بَعْضهمْ أَوْلِيَاء بَعْض فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة**»[٣]. هَكَذَا رَوَاهُ فِي مُسْنَد عَبْد الله بْن مَسْعُود. وَقَدْ أَثْنَى الله وَرَسُوله عَلَى المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار فِي غَيْر مَا آيَة فِي كِتَابه، فَقَالَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآيَة. وَقَالَ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآيَة.

وَأَحْسَن مَا قِيلَ فِي قَوْله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أَيْ: لَا يَحْسُدُونَهُمْ عَلَى فَضْل مَا أَعْطَاهُمْ الله عَلَى هِجْرَتهمْ، فَإِنَّ ظَاهِر الآيَات تَقْدِيم المُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَار، وَهَذَا أَمْر مُجْمَع عَلَيْهِ بَيْن العُلَمَاء، لَا يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ الإِمَام أَبُو بَكْر أَحْمَد بْن عَمْرو بْن عَبْد الخَالِق البَزَّار فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مَعْمَر، حَدَّثَنَا مُسْلِم بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، عَنْ حُذَيْفَة قَالَ: خَيَّرَنِي رَسُول الله ﷺ، بَيْن الهِجْرَة وَالنُّصْرَة، فَاخْتَرْت الهِجْرَة[٤]. ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾، قَرَأَ حَمْزَة: ﴿وِلَايَتهمْ﴾ بِالكَسْرِ، وَالبَاقُونَ بِالفَتْحِ، وَهُمَا وَاحِد كَالدَّلَالَةِ وَالدِّلَالَة. ﴿مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾، هَذَا هُوَ الصِّنْف الثَّالِث مِنْ المُؤْمِنِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا، بَل أَقَامُوا فِي بَوَادِيهِمْ، فَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ فِي المَغَانِم نَصِيب، وَلَا فِي خُمُسهَا إِلَّا مَا حَضَرُوا فِيهِ القِتَال، كَمَا قَالَ الإمام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَلْقَمَة بْن مَرْثَد، عَنْ سُلَيْمَان بْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أبيه بريدة بن الحَصِيب الأَسْلَمِيّ ﷺ، قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ، إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَّة أَوْ جَيْش، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّة نَفْسه بِتَقْوَى الله وَبِمَنْ مَعَهُ مِنْ المُسْلِمِينَ خَيْرًا، وَقَالَ: «**اُغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيل الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، إِذَا لَقِيت عَدُوّكُمْ مِنْ المُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاث خِصَال -أَوْ: خِلَال- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوك إِلَيْهَا فَاقْبَل مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ: اُدْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَام، فَإِنْ أَجَابُوك فَاقْبَل مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ. ثُمَّ اُدْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّل مِنْ دَارهمْ إِلَى**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٤٧)، ومسلم (٢٥٢٩).
(٢) حسن صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٣)، وابن حبان (٧٢٦٠)، والطيالسي (١/ ٩٣) من حديث جرير بن عبد الله.
(٣) ضعيف: أخرجه أبو يعلى (٨/ ٤٤٦)، وفيه عكرمة بن إبراهيم الأزدي: ضعيف، قال ابن حبان: كان ممن يقلب الأخبار، ويرفع المراسيل، ولا يجوز الاحتجاج به.
(٤) ضعيف: أخرجه البزار (٢٧١٨) بسند ضعيف فيه علي بن يزيد: ضعيف.

دَار المُهَاجِرِينَ، وَأَعْلِمْهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلمُهَاجِرِينَ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى المُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهمْ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْم الله الَّذِي يَجْرِي عَلَى المُؤْمِنِينَ، وَلا يَكُون لَهُمْ فِي الفَيْء وَالغَنِيمَة نَصِيب، إلا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاء الجِزْيَة، فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَل مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِالله ثُمَّ قَاتِلهمْ»[١]. انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِم وَعِنْده زِيَادَات أُخَر.

وَقَوْله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يَقُول تَعَالَى: وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ هَؤُلَاءِ الأَعْرَاب، الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا فِي قِتَال دِينِيّ، عَلَى عَدُوّ لَهُمْ فَانْصُرُوهُمْ، فَإِنَّهُ وَاجِب عَلَيْكُمْ نَصْرهمْ، لِأَنَّهُمْ إِخْوَانكُمْ فِي الدِّين، إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ عَلَى قَوْم مِنَ الكُفَّار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ أَيْ: مُهَادَنَة إِلَى مُدَّة، فَلَا تَخْفِرُوا ذِمَّتكُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا أَيْمَانكُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ. وَهَذَا مَرْوِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ المُؤْمِنِينَ بَعْضهمْ أَوْلِيَاء بَعْض قَطَعَ المُوَالَاة بَيْنهمْ وَبَيْن الكُفَّار، كَمَا قَالَ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن صَالِح بْن هَانِئ، حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد يَحْيَى بْن مَنْصُور الهَرَوِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبَان، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَزِيد، وَسُفْيَان بْن حُسَيْن، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن، عَنْ عَمْرو بْن عُثْمَان، عَنْ أُسَامَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «لا يَتَوَارَث أَهْل مِلَّتَيْنِ، وَلا يَرِث مُسْلِمٌ كَافِرًا، وَلا كَافِرٌ مُسْلِمًا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾»[٢]. ثُمَّ قَالَ الحَاكِم: صَحِيح الإِسْنَاد وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

قُلت: الحَدِيث فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَة أُسَامَة بْن زَيْد قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لا يَرِث المُسْلِم الكَافِر، وَلا الكَافِر المُسْلِم»[٣]. وَفِي المُسْنَد وَالسُّنَن مِنْ حَدِيث عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لا يَتَوَارَث أَهْل مِلَّتَيْنِ شَتَّى»[٤]. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. وَقَالَ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد، عن محمد بن ثور، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، أَخَذَ عَلَى رَجُل دَخَلَ فِي الإِسْلَام فَقَالَ: «تُقِيم الصَّلَاة، وَتُؤْتِي الزَّكَاة، وَتَحُجّ البَيْت، وَتَصُوم رَمَضَان، وَأَنَّكَ لا تَرَى نَار مُشْرِك إلا وَأَنْتَ لَهُ حَرْب»[٥]. وَهَذَا مُرْسَل مِنْ هَذَا الوَجْه، وَقَدْ رُوِيَ مُتَّصِلًا مِنْ وَجْه آخَر عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «أَنَا بَرِيء مِنْ كُلّ مُسْلِم بَيْن ظَهْرَانَيْ المُشْرِكِينَ» ثُمَّ قَالَ: «لا يَتَرَاءَى نَارَاهُمَا»[٦]. وَقَالَ أَبُو دَاوُد فِي آخِر كِتَاب الجِهَاد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن دَاوُد ابْن سُفْيَان، أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْن حَسَّان، أَنْبَأَنَا سُلَيْمَان بْن مُوسَى أَبُو دَاوُد، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن سعد بْن سَمُرَة بْن جُنْدَب، حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة، عَنْ سَمُرَة بْن جُنْدَب: أَمَّا بَعْد، قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ جَامَعَ المُشْرِك وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْله»[٧]. وَذَكَرَ الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيث حَاتِم بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ عَبْد الله بْن هُرْمُز، عَنْ مُحَمَّد وَسَعِيد ابْنَيْ عُبَيْد، عَنْ أَبِي حَاتِم المُزَنِيّ؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينه وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَة فِي الأَرْض وَفَسَاد عَرِيض». قَالُوا: يَا رَسُول الله،

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) حسن صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤) من حديث أسامة.
(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٠٨)، وابن ماجه (٢٧٣١) من حديث عبد الله بن عمرو، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦١٤).
(٥) مرسل: أخرجه ابن جرير (١٠/ ٥٤) بسند مرسل.
(٦) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) من حديث جرير بن عبد الله، وقال الألباني: صحيح دون جملة: «العقل» انظر «الصحيحة» (٢٣٠٤).
(٧) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٨٧)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٢٥١) من حديث سمرة، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٢٠).

وَإِنْ كَانَ؟ قَالَ: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينه وَخُلُقه فَأَنْكِحُوهُ». ثَلَاث مَرَّات. وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث حَاتِم بْن إِسْمَاعِيل بِهِ بِنَحْوِهِ. ثُمَّ رَوَى مِنْ حَدِيث عَبْد الْحَمِيد بْن سُلَيْمَان، عَنْ ابْن عَجْلَان، عَنْ أَبِي وَثِيمَة النصري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقه وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَة فِي الأَرْض وَفَسَاد عَرِيض»[1]. وَمَعْنَى قَوْله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أَيْ: إِنْ لَمْ تُجَانِبُوا الْمُشْرِكِينَ وَتُوَالُوا الْمُؤْمِنِينَ وَإِلَّا وَقَعَتْ فِتْنَة فِي النَّاس وَهُوَ الْتِبَاس الأَمْر وَاخْتِلَاط الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَافِرِينَ فَيَقَع بَيْن النَّاس فَسَاد مُنْتَشِر عَرِيض طَوِيل.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْم الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا عَطَفَ بِذِكْرِ مَا لَهُمْ فِي الآخِرَة، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَقِيقَةِ الإِيمَان كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّل السُّورَة، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ سَيُجَازِيهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالصَّفْح عَنْ الذُّنُوب إِنْ كَانَتْ، وَبِالرِّزْقِ الْكَرِيم وَهُوَ الْحَسَن الْكَثِير الطَّيِّب الشَّرِيف دَائِم مُسْتَمِرّ أَبَدًا لَا يَنْقَطِع وَلَا يَنْقَضِي وَلَا يُسْأَم وَلَا يُمَلّ لِحُسْنِهِ وَتَنَوُّعِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الأَتْبَاع لَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ الإِيمَان وَالْعَمَل الصَّالِح فَهُمْ مَعَهُمْ فِي الآخِرَة، كَمَا قَالَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآيَة، وَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآيَة. وَفِي الْحَدِيث الْمُتَّفَق عَلَيْهِ بَل الْمُتَوَاتِر مِنْ طُرُق صَحِيحَة عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَرْء مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[2]. وَفِي الْحَدِيث الآخَر: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ». وَفِي رِوَايَة: «حُشِرَ مَعَهُمْ»[3]. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ شَرِيك، عَنْ عَاصِم، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ جَرِير، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَار أَوْلِيَاء بَعْضهمْ لِبَعْضٍ، وَالطُّلَقَاء مِنْ قُرَيْش وَالْعُتَقَاء مِنْ ثَقِيف؛ بَعْضهمْ أَوْلِيَاء بَعْض إِلَى يَوْم الْقِيَامَة»[4]. قَالَ شَرِيك: فَحَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ تَمِيم ابْن سَلَمَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن هِلَال، عَنْ جَرِير، عَنْ النَّبِيّ ﷺ مِثْله. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ.

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: فِي حُكْم الله، وَلَيْسَ الْمُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ خُصُوصِيَّة مَا يُطْلِقُهُ عُلَمَاء الْفَرَائِض عَلَى الْقَرَابَة الَّذِينَ لَا فَرْض لَهُمْ وَلَا هُمْ عَصَبَة، بَل يُدْلُونَ بِوَارِثٍ كَالْخَالَةِ وَالْخَال وَالْعَمَّة وَأَوْلَاد الْبَنَات وَأَوْلَاد الأَخَوَات وَنَحْوهمْ، كَمَا قَدْ يَزْعُمهُ بَعْضهمْ وَيَحْتَجّ بِالآيَةِ، وَيَعْتَقِد ذَلِكَ صَرِيحًا فِي الْمَسْأَلَة، بَل الْحَقّ أَنَّ الآيَة عَامَّة تَشْمَل جَمِيع الْقَرَابَات، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَالْحَسَن وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد عَلَى أَنَّهَا نَاسِخَة لِلإِرْثِ بِالْحِلْفِ وَالإِخَاء اللَّذَيْنِ كَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِهِمَا أَوَّلًا، وَعَلَى هَذَا فَتَشْمَل ذَوِي الأَرْحَام بِالاسْمِ الْخَاصّ، وَمَنْ لَمْ يُوَرِّثْهُمْ يَحْتَجّ بِأَدِلَّةٍ، مِنْ أَقْوَاهَا حَدِيث: «إِنَّ الله قَدْ أَعْطَى كُلّ ذِي حَقّ حَقّه فَلَا وَصِيَّة لِوَارِثٍ»[5]. قَالُوا: فَلَوْ كَانَ لَهُ حَقّ لَكَانَ ذَا فَرْض فِي كِتَاب الله مُسَمًّى، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَارِثًا، والله أَعْلَمُ.

آخِر تَفْسِير سُورَة الأَنْفَال، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

---

(١) حسن بشواهده: أخرجه الترمذي (١٠٨٥) من حديث أبي هريرة، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٦/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) صحيح: تقدم.

(٣) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ١٩) من حديث أبي قرصافة، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٥٠) وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٣٤٣).

(٤) حسن صحيح: تقدم.

(٥) صحيح: تقدم.

تفسير سُورَةُ التَّوْبَةِ وهي مدنية

ترتيبها ٩ — آياتها ١٢٩

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾

هَذِهِ السُّورَة الكَرِيمَة مِنْ أَوَاخِر مَا نَزَلَ عَلَى رَسُول الله ﷺ، كَمَا قَالَ البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيد، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، قَالَ: سَمِعْت البَرَاء يَقُول: آخِر آيَة نَزَلَتْ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ﴾ وَآخِر سُورَة نَزَلَتْ بَرَاءَة[1]. وَإِنَّمَا لا يُبَسْمَل فِي أَوَّلَهَا لأَنَّ الصَّحَابَة لَمْ يَكْتُبُوا البَسْمَلَة فِي أَوَّلَهَا فِي المُصْحَف الإِمَام، بَل اِقْتَدَوْا فِي ذَلِكَ بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُثْمَان بْن عَفَّان ﷺ وَأَرْضَاهُ. كَمَا قَالَ التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد وَمُحَمَّد بْن جَعْفَر وَابْن أَبِي عَدِيّ وَسهل بْن يُوسُف، قَالُوا: حَدَّثَنَا عَوْف بنْ أَبِي جَمِيلَة، أَخْبَرَنِي يَزِيد الفَارِسِيّ، أَخْبَرَنِي اِبْن عَبَّاس، قَالَ: قُلت لِعُثْمَان بْن عَفَّان: مَا حَمَلَكُمْ أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى الأَنْفَال وَهِيَ مِنْ المَثَانِي، وَإِلَى بَرَاءَة وَهِيَ مِنَ المِئِينَ، وَقَرَنْتُمْ بَيْنَهمَا وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهمَا سَطْر بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، وَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْع الطُّوَل، مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ عُثْمَان: كَانَ رَسُول الله ﷺ، مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَان وَهُوَ يَنْزِل عَلَيْهِ السُّوَر ذَوَات العَدَد، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْء دَعَا بَعْض مَنْ كَانَ يَكْتُب فَيَقُول: «ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا». فإذا نزلت عليه الآية فيقول: «ضَعُوا هَذِهِ الآيَة فِي السُّورَة الَّتِي يُذْكَر فِيهَا كَذَا وَكَذَا» وَكَانَتْ الأَنْفَال مِنْ أَوَّل مَا نَزَلَ بِالمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَرَاءَة مِنْ آخِر مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآن، وَكَانَتْ قِصَّتهَا شَبِيهَة بِقِصَّتِهَا، وَحسبت أَنَّهَا مِنْهَا، وَقُبِضَ رَسُول الله ﷺ وَلَمْ يُبَيِّن لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ أَجْل ذَلِكَ قَرَنْت بَيْنَهمَا، وَلَمْ أَكْتُب بَيْنَهمَا سَطْر بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم وَوَضَعْتهَا فِي السَّبْع الطُّوَل[2]. وَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن حِبَّان فِي صَحِيحه، وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ طُرُق أُخَر عَنْ عَوْف الأَعْرَابِيّ، بِهِ. وَقَالَ الحَاكِم: صَحِيح الإِسْنَاد وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَأَوَّل هَذِهِ السُّورَة الكَرِيمَة نَزَلَ عَلَى رَسُول الله ﷺ، لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَة تَبُوك وَهَمَّ بِالحَجِّ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ المُشْرِكِينَ يَحْضُرُونَ عَامهمْ هَذَا المَوْسِم عَلَى عَادَتهمْ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ عُرَاة، فَكَرِهَ مُخَالَطَتهمْ وَبَعَثَ أَبَا بَكْر الصِّدِّيق ﷺ أَمِيرًا عَلَى الحَجّ هذه السَّنَة، لِيُقِيمَ لِلنَّاسِ مَنَاسِكهمْ، وَيُعْلِم المُشْرِكِينَ أَنْ لَا يَحُجُّوا بَعْد عَامهمْ هَذَا، وَأَنْ يُنَادِي فِي النَّاس بِبَرَاءَة، فَلَمَّا قَفَلَ أَتْبَعَهُ بِعَلِيّ بْن أَبِي طَالِب لِيَكُونَ مُبَلِّغًا عَنْ رَسُوله ﷺ لِكَوْنِهِ عَصَبَة لَهُ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه. فَقَوْله تَعَالَى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أَيْ: هَذِهِ بَرَاءَة. أَيْ: تَبَرُّؤ مِنْ الله وَرَسُوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

اِخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ هَاهُنَا اِخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَقَالَ قَائِلُونَ: هَذِهِ الآيَة لِذَوِي العُهُود المُطْلَقَة غَيْر المُؤَقَّتَة، أَوْ مَنْ لَهُ عَهْد دُون أَرْبَعَة أَشْهُر فَيُكَمَّل لَهُ أَرْبَعَة أَشْهُر، فَأَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ عَهْد مُؤَقَّت فَأَجَله إِلَى مُدَّته مَهْمَا كَانَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وَلِمَا سَيَأْتِي فِي الحَدِيث: «وَمَنْ كَانَ بَيْنَه وَبَيْن رَسُول الله ﷺ عَهْد، فَعَهْده إِلَى مُدَّته». وَهَذَا أَحْسَن الأَقْوَال وَأَقْوَاهَا، وَقَدْ اِخْتَارَهُ اِبْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ، وَرُوِيَ عَنْ الكَلْبِيّ، وَمُحَمَّد ابْن كَعْب القُرَظِيّ، وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الآيَة، قَالَ: حَدَّ الله لِلَّذِينَ عَاهَدُوا رَسُوله أَرْبَعَة أَشْهُر

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦)، وأحمد (١/ ٥٧) من حديث عثمان، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١٦٨).

يَسِيحُونَ فِي الأَرْض حَيْثُ شَاءُوا، وَأَجَّلَ أَجَل مَنْ لَيْسَ لَهُ عَهْد انْسِلَاخ الأَشْهُر الحُرُم، مِنْ يَوْم النَّحْر إِلَى انسلاخ المُحَرَّم، فَذَلِكَ خَمْسُونَ لَيْلَة.

وقال الضحاك: فَأَمَرَ الله نَبِيّه إِذَا انْسَلَخَ المُحَرَّم أَنْ يَضَع السَّيْف فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنه وَبَيْنه عَهْد يَقْتُلهُمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَام، وَأَمَرَ بِمَنْ كَانَ لَهُ عَهْد إِذَا انْسَلَخَ أَرْبَعَة أَشْهُر مِنْ يَوْم النَّحْر إِلَى عَشْر خَلَوْنَ مِنْ رَبِيع الآخِر أَنْ يَضَع فِيهِمْ السَّيْف أَيْضًا حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَام. وَقَالَ أَبُو مَعْشَر المَدَنِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ وَغَيْره قَالُوا: بَعَثَ رَسُول الله ﷺ أَبَا بَكْر أَمِيرًا عَلَى المَوْسِم سَنَة تِسْع، وَبَعَثَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب بِثَلَاثِينَ آيَة أَوْ أَرْبَعِينَ آيَة مِنْ بَرَاءَة فَقَرَأَهَا عَلَى النَّاس، يُؤَجِّل المُشْرِكِينَ أَرْبَعَة أَشْهُر يَسِيحُونَ فِي الأَرْض، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ يَوْم عَرَفَة أَجَّلَ المشركين عِشْرِينَ مِنْ ذِي الحَجَّة وَالمُحَرَّم وَصَفَر وَشَهْر رَبِيع الأَوَّل وَعَشْرًا مِنْ رَبِيع الآخِر، وَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلهمْ وَقَالَ: «**لا يَحُجَّنَّ بَعْد عَامنَا هَذَا مُشْرِك وَلا يَطُوفَنَّ بِالبَيْتِ عُرْيَان**»[1]. وَقَالَ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ إِلَى أَهْل العَهْد خُزَاعَة وَمُدْلِج وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْد أَوْ غَيْرهمْ، أقبل رَسُول الله ﷺ مِنْ تَبُوك حِين فَرَغَ، فَأَرَادَ رَسُول الله ﷺ الحَجّ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا يَحْضُر المُشْرِكُونَ فَيَطُوفُونَ عُرَاة فَلا أُحِبّ أَنْ أَحُجّ حَتَّى لا يَكُون ذَلِكَ**». فَأَرْسَلَ أَبَا بَكْر وَعَلِيًّا رضي الله عنهما، فَطَافَا بِالنَّاسِ فِي ذِي المَجَاز وَبِأَمْكِنَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا يُتَابِعُونَ بِهَا وَبِالمَوَاسِم كُلّهَا فَآذَنُوا أَصْحَاب العَهْد بِأَنْ يُؤَمَّنُوا أَرْبَعَة أَشْهُر: فَهِيَ الأَشْهُر المُتَوَالِيَات عِشْرُونَ مِنْ ذِي الحَجَّة إِلَى عَشْر يَخْلُونَ مِنْ رَبِيع الآخِر ثُمَّ لَا عَهْد لَهُمْ وَآذَنَ النَّاس كُلّهمْ بِالقِتَالِ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ السُّدِّيّ وَقَتَادَة. قَالَ الزُّهْرِيّ: كَانَ ابْتِدَاء التَّأْجِيل مِنْ شَوَّال وَآخِره سَلخ المُحَرَّم. وَهَذَا القَوْل غَرِيب، وَكَيْف يُحَاسَبُونَ بِمُدَّةٍ لَمْ يَبْلُغهُمْ حُكْمهَا! وَإِنَّمَا ظَهَرَ لَهُمْ أَمْرهَا يَوْم النَّحْر حِين نَادَى أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ بِذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَإِعْلَام ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وَتَقَدُّم، وَإِنْذَار إِلَى النَّاس ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وَهُوَ يَوْم النَّحْر الَّذِي هُوَ أَفْضَل أَيَّام المَنَاسِك، وَأَظْهَرهَا وَأَكْثَرهَا جَمْعًا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ أَيْ: بَرِيء مِنْهُمْ أَيْضًا، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَة إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أَيْ: مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ الشِّرْك وَالضَّلَال ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَيْ: اسْتَمْرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ﴾ بَل هُوَ قَادِر عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي قَبْضَته وَتَحْت قَهْره وَمَشِيئَته ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا بِالخِزْي وَالنَّكَال، وَفِي الآخِرَة بِالمَقَامِع وَالأَغْلَال. قَالَ البُخَارِيّ رحمه الله: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن يُوسُف، حَدَّثَنَا اللَّيْث، حَدَّثَنِي عُقَيْل، عَنْ ابْن شِهَاب قَالَ: أَخْبَرَنِي حُمَيْد بْن عَبْد الرَّحْمَن أَنَّ أَبَا هُرَيْرَة قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْر رضي الله عنه فِي تِلْكَ الحَجَّة فِي المُؤَذِّنِينَ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ يَوْم النَّحْر يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى أَنْ لَا يَحُجّ بَعْد العَام مُشْرِك، وَلَا يَطُوفَ بِالبَيْتِ عُرْيَان[2]. قَالَ حُمَيْد: ثُمَّ أَرْدَفَ النَّبِيّ ﷺ بِعَلِيِّ بْن أَبِي طَالِب فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّن بِبَرَاءَة. قَالَ أَبُو هُرَيْرَة: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيّ فِي أَهْل مِنًى يَوْم النَّحْر بِبَرَاءَة وَأَنْ لَا يَحُجّ بَعْد هَذَا العَام مُشْرِك وَلَا يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان[3]. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان، أَخْبَرَنَا شُعَيْب، عَنْ الزُّهْرِيّ، أَخْبَرَنِي حُمَيْد بْن عَبْد الرَّحْمَن، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَة قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْر فِيمَنْ يُؤَذِّن يَوْم النَّحْر بِمِنًى: لا يَحُجّ

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤١٥٥)، ومسلم (٦٦).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٧٧).

بَعْد العَام مُشْرِك وَلَا يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان. وَيَوْم الحَجّ الأَكْبَر: يَوْم النَّحْر، وَإِنَّمَا قِيلَ: الأَكْبَر؛ مِنْ أَجْل قَوْل النَّاس: الحَجّ الأَصْغَر، فَنَبَذَ أَبُو بَكْر إِلَى النَّاس فِي ذَلِكَ العَام فَلَمْ يَحُجّ عَام حَجَّة الوَدَاع الَّذِي حَجّ فِيهِ رَسُول الله ﷺ مُشْرِك. هَذَا لَفْظ البُخَارِيّ فِي كِتَاب الجِهَاد. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ اِبْن المُسَيَّب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، فِي قَوْله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ قَالَ: لَمَّا كَانَ النَّبِيّ ﷺ زَمَن حُنَيْن اِعْتَمَرَ مِنْ الجِعْرَانَة ثُمَّ أَمَّرَ أَبَا بَكْر عَلَى تِلْكَ الحَجَّة، قَالَ مَعْمَر: قَالَ الزُّهْرِيّ: وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَة يُحَدِّث أَنَّ أَبَا بَكْر أَمَرَ أَبَا هُرَيْرَة أَنْ يُؤَذِّن بِبَرَاءَة فِي حَجَّة أَبِي بَكْر. قَالَ أَبُو هُرَيْرَة: ثُمَّ أَتْبَعَنَا النَّبِيّ ﷺ عَلِيًّا وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّن بِبَرَاءَة، وَأَبُو بَكْر عَلَى المَوْسِم كَمَا هُوَ. أَوْ قَالَ: عَلَى هَيْئَته. وَهَذَا السِّيَاق فِيهِ غَرَابَة مِنْ جِهَة أَنَّ أَمِير الحَجّ كَانَ سَنَة عُمْرَة الجِعْرَانَة إِنَّمَا هُوَ عَتَّاب بْن أَسِيد، فَأَمَّا أَبُو بَكْر إِنَّمَا كَانَ أَمِيرًا سَنَة تِسْع.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ مُغِيرَة، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ مُحَرَّر بْن أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْت مَعَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب حِينَ بَعَثَهُ رَسُول الله ﷺ، إِلَى أَهْل مَكَّة بِبَرَاءَة فَقَالَ: مَا كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ: كُنَّا نُنَادِي أَنَّهُ لَا يَدْخُل الجَنَّة إِلَّا مؤمن، وَلَا يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان، وَمَنْ كَانَ بَيْنه وَبَيْن رَسُول الله ﷺ، عَهْد فَإِنَّ أَجَله أَوْ أمده إِلَى أَرْبَعَة أَشْهُر، فَإِذَا مَضَتْ الأَرْبَعَة الأَشْهُر فَإِنَّ الله بَرِيء مِنْ المُشْرِكِينَ وَرَسُولَه، وَلَا يَحُجّ هَذَا البَيْت بَعْد العام مُشْرِك، قَالَ: فَكُنْت أُنَادِي حَتَّى صَحِلَ صَوْتِي[1]. وَقَالَ الشَّعْبِيّ: حَدَّثَنِي مُحَرَّر بْن أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْت مَعَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ حِين بَعَثَهُ النَّبِيّ ﷺ، يُنَادِي فَكَانَ إِذَا صَحِلَ نَادَيْت. فَقُلت: بِأَيِّ شَيْء كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ: بِأَرْبَع: لَا يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْد عِنْد رَسُول الله ﷺ فَعَهْده إِلَى مُدَّته، وَلَا يَدْخُل الجَنَّة إِلَّا نَفْس مُؤْمِنَة، وَلَا يَحُجّ بَعْد عَامنَا مُشْرِك. رَوَاهُ اِبْن جَرِير مِنْ غَيْر ما وَجْه عَنْ الشَّعْبِيّ. وَرَوَاهُ شُعْبَة، عَنْ مُغِيرَة، عَنْ الشَّعْبِيّ، بِهِ. إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: وَمَنْ كَانَ بَيْنه وَبَيْن رَسُول الله ﷺ عَهْد فَعَهْده إِلَى أَرْبَعَة أَشْهُر. وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث. قَالَ اِبْن جَرِير: وأخشى أن يكون وهمًا من بعض نقلته؛ لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه. وقال الإمام أحمد: حَدَّثنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد، عَنْ سِمَاك، عَنْ أَنَس بْن مَالِك ﷺ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ بَعَث بِبَرَاءَة مَعَ أَبِي بَكْر، فَلَمَّا بَلَغَ ذَا الحُلَيْفَة قَالَ: «**لا يُبَلِّغهَا إلا أَنَا أَوْ رَجُل مِنْ أَهْل بَيْتِي**» فَبَعَثَ بِهَا مَعَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ[2]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير عَنْ بُنْدَار، عَنْ عَفَّان وَعَبْد الصَّمَد، كِلَاهُمَا عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، به. ثُمَّ قَالَ: حَسَن غَرِيب مِنْ حَدِيث أَنَس ﷺ.

وَقَالَ عَبْد الله بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سُلَيْمَان لُوَيْن، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَابِر، عَنْ سِمَاك، عَنْ حَنَش، عَنْ عَلِيّ ﷺ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَشْر آيَات مِنْ بَرَاءَة عَلَى النَّبِيّ ﷺ، دَعَا النَّبِيّ ﷺ أَبَا بَكْر، فَبَعَثَهُ بِهَا لِيَقْرَأهَا عَلَى أَهْل مَكَّة، ثُمَّ دَعَانِي فَقَالَ: «**أَدْرِكْ أَبَا بَكْر فَحَيْثُمَا لَحِقْته فَخُذْ الكِتَاب مِنْهُ، فَاذْهَبْ إِلَى أَهْل مَكَّة فَاقْرَأْهُ عَلَيْهِمْ**». فَلَحِقْته بِالجُحْفَةِ فَأَخَذْت الكِتَاب مِنْهُ، وَرَجَعَ أَبُو بَكْر إِلَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ نَزَلَ فِيَّ شَيْء؟ فَقَالَ: «**لا، وَلَكِنَّ جِبْرِيل جَاءَنِي فَقَالَ: لَنْ يُؤَدِّي عَنْك إلا أَنْتَ أَوْ رَجُل مِنْك**»[3]. هَذَا إِسْنَاد فِيهِ ضَعْف، وَلَيْسَ المُرَاد أَنَّ أَبَا بَكْر ﷺ رَجَعَ مِنْ فَوْره، بَل بَعْد قَضَائِهِ المَنَاسِك الَّتِي أَمَّرَهُ عَلَيْهَا رَسُول الله ﷺ، كَمَا جَاءَ مُبَيَّنًا فِي الرِّوَايَة الأُخْرَى. وَقَالَ عَبْد الله أَيْضًا: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْر، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن حَمَّاد، عَنْ أَسْبَاط بْن نَصْر، عَنْ سِمَاك، عَنْ حَنَش، عَنْ عَلِيّ ﷺ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، حِين بَعَثَهُ بِبَرَاءَة قَالَ: يَا نَبِيّ الله؛ إِنِّي لَسْت بِاللَّسِنِ وَلَا بِالخَطِيبِ.

---

(١) **ضعيف الإسناد**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٠١)، وأحمد (٢/ ٢٩٩).
(٢) **حسن صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٢٨)، والترمذي (٣٠٩٠).
(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١/ ١٥١) بسند ضعيف، فيه محمد بن جابر الحليمي: ضعيف، وحنش بن المعتمر: صدوق وكان يرسل.

قَالَ: «ما بُدّ لِي أَنْ أَذْهَب بِهَا أَنَا أَوْ تَذْهَب بِهَا أَنْتَ» قَالَ: فَإِنْ كَانَ وَلَابُدّ، فَسَأَذْهَبُ بِها أَنَا. قَالَ: «إنْطَلِقْ فَإِنَّ الله يُثَبِّت لِسَانك وَيَهْدِي قَلبك» قَالَ: ثُمَّ وَضَعَ يَده عَلَى فِيهِ[1].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ زَيْد بْن يُثَيْع -رَجُل مِنْ هَمْدَان-: سَأَلنَا عَلِيًّا: بِأَيّ شَيْء بُعِثْت؟ يَعْنِي يَوْم بَعَثَهُ النَّبِيّ ﷺ مَعَ أَبِي بَكْر فِي الحَجَّة، قَالَ: بُعِثْت بِأَرْبَع: لَا يَدْخُل الجَنَّة إِلَّا نَفْس مُؤْمِنَة، وَلَا يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان، وَمَنْ كَانَ بَيْنه وَبَيْن النَّبِيّ ﷺ عَهْد فَعَهْده إِلَى مُدَّته، وَلَا يَحُجّ المُشْرِكُونَ والمسلمون بَعْد عَامهمْ هَذَا[2]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ قِلَابَة، عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، وَقَالَ: حَسَن صَحِيح. كَذَا قَالَ. وَرَوَاهُ شُعْبَة عَنْ أَبِي إِسْحَاق، فَقَالَ: عن زَيْد بْن أُثَيل وَهِمَ فِيهِ. وَرَوَاهُ الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ بَعْض أَصْحَابه، عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا اِبْن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة، عَنْ زَكَرِيَّا، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ زَيْد بْن يُثَيْع، عَنْ عَلِيّ، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُول الله ﷺ حِين أُنْزِلَتْ بَرَاءَة بِأَرْبَع: أَنْ لَا يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان، وَلَا يَقْرَب المَسْجِد الحَرَام مُشْرِك بَعْد عَامهمْ هَذَا، وَمَنْ كَانَ بَيْنه وَبَيْن رَسُول الله ﷺ عَهْد فَهُوَ إِلَى مُدَّته، وَلَا يَدْخُل الجَنَّة إِلَّا نَفْس مُؤْمِنَة. ثُمَّ رَوَاهُ اِبْن جَرِير عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الأَعْلَى، عَنْ أَبِي ثَوْر، عَنْ مَعْمَر، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ الحَارِث، عَنْ عَلِيّ قَالَ: أُمِرْت بِأَرْبَع... فَذَكَرَهُ. وَقَالَ إِسْرَائِيل عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ زَيْد بْن يُثَيْع، قَالَ: نَزَلَتْ بَرَاءَة؛ فَبَعَثَ رَسُول الله ﷺ أَبَا بَكْر ثُمَّ أَرْسَلَ عَلِيًّا فَأَخَذَهَا منه، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو بَكْر قَالَ: نَزَلَ فِيَّ شَيْء؟ قَالَ: «لا وَلَكِنْ أُمِرْت أَنْ أُبَلِّغهَا أَنَا أَوْ رَجُل مِنْ أَهْل بَيْتِي». فَانْطَلَقَ إِلَى أَهْل مَكَّة، فَقَامَ فِيهِمْ بِأَرْبَع: لَا يَدْخُل مَكَّة مُشْرِك بَعْد عَامه هَذَا، وَلَا يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان، وَلَا يَدْخُل الجَنَّة إِلَّا نَفْس مُسْلِمَة، وَمَنْ كَانَ بَيْنه وَبَيْن رَسُول الله ﷺ عَهْد فَعَهْده إِلَى مُدَّته. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق عَنْ حَكِيم بْن حَكِيم بْن عَبَّاد بْن حُنَيْف، عَنْ أَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بن عَلِيّ بْن الحُسَيْن بْن عَلِيّ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَة عَلَى رَسُول الله ﷺ وَقَدْ كَانَ بَعَثَ أَبَا بَكْر لِيُقِيمَ الحَجّ لِلنَّاسِ، فَقِيل: يَا رَسُول الله؛ لَوْ بَعَثْت إِلَى أَبِي بَكْر، فَقَالَ: «لا يُؤَدِّي عَنِّي إلا رَجُل مِنْ أَهْل بَيْتِي» ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا؛ فَقَالَ: «اخرج بِهَذِهِ القِصَّة مِنْ صدر بَرَاءَة وَأَذِّنْ فِي النَّاس يَوْم النَّحْر إِذَا اِجْتَمَعُوا بِمِنَى أَنَّهُ: لا يَدْخُل الجَنَّة كَافِر، وَلا يَحُجّ بَعْد العَام مُشْرِك، وَلا يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْد عِنْد رَسُول الله ﷺ فَهُوَ لَهُ إِلَى مُدَّته». فَخَرَجَ عَلِيّ رضي الله عنه عَلَى نَاقَة رَسُول الله ﷺ العَضْبَاء حَتَّى أَدْرَكَ أَبَا بَكْر فِي الطَّرِيق، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْر قَالَ: أَمِير أَوْ مَأْمُور؟ فَقَالَ: بَل مَأْمُور ثُمَّ مَضَيَا، فَأَقَامَ أَبُو بَكْر لِلنَّاسِ الحَجّ، والعرب إِذْ ذَاكَ فِي تِلْكَ السَّنَة عَلَى مَنَازِلهمْ مِنْ الحَجّ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الجَاهِلِيَّة، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْم النَّحْر قَامَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب فَأَذَّنَ فِي النَّاس بِالَّذِي أَمَرَهُ رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيّهَا النَّاس إِنَّهُ لَا يَدْخُل الجَنَّة كَافِر، وَلَا يَحُجّ بَعْد العَام مُشْرِك، وَلَا يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْد عِنْد رَسُول الله ﷺ فَهُوَ إِلَى مُدَّته». فَلَمْ يَحُجّ بَعْد ذَلِكَ العَام مُشْرِك، وَلَمْ يَطُفْ بِالبَيْتِ عُرْيَان، ثُمَّ قَدِمَا عَلَى رَسُول الله ﷺ فَكَانَ هَذَا مِنْ بَرَاءَة فِيمَنْ كَانَ مِنْ أَهْل الشِّرْك مِنْ أَهْل العَهْد العَامّ وَأَهْل المُدَّة إِلَى الأَجَل المُسَمَّى[3].

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن عَبْد الحَكَم، أَخْبَرَنَا أَبُو زُرْعَة وهب الله بْن رَاشِد، أَخْبَرَنَا حَيْوَة بْن شُرَيْح، أَخْبَرَنَا اِبْن صَخْر أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا مُعَاوِيَة البَجَلِيّ -مِنْ أَهْل الكُوفَة-، يَقُول: سَمِعْت أَبَا الصَّهْبَاء البَكْرِيّ، وَهُوَ يَقُول: سَأَلت عَلِيَّ بن أبي طالب عَنْ يَوْم الحَجّ الأَكْبَر، فَقَالَ: إِنَّ رَسُول الله ﷺ بَعَثَ أَبَا بَكْر ابْن أَبِي قُحَافَة يُقِيم لِلنَّاسِ

---

(١) حسن لغيره: أخرجه أحمد (١/ ١٥٠).

(٢) صحيح بشواهده: أخرجه أحمد (١/ ٧٩)، والدارمي (٢/ ٩٤)، والحاكم (٣/ ٥٤). وقوله: «ولا يحج المشركون والمسلمون» الواو هنا للمعية، يريد: ولا يحج المشركون مع المسلمين.

(٣) حسن: أخرجه الطبري (٦/ ٣٠١) من حديث محمد بن علي، وحسنه الألباني في «فقه السيرة» (١/ ٤١٥).

الحَجِ، وبَعَثَنِي مَعَهُ بِأَرْبَعِينَ آيَة مِنْ بَرَاءَة، حَتَّى أَتَى عَرَفَة فَخَطَبَ النَّاس يَوْم عَرَفَة، فَلَمَّا قَضَى خُطْبَته اِلتَفَتَ إِلَيَّ، فَقَالَ: قُمْ يَا عَلِيّ فَأَدِّ رِسَالَة رَسُول الله ﷺ، فَقُمْت؛ فَقَرَأْت عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ آيَة مِنْ بَرَاءَة، ثُمَّ صَدَرْنَا فَأَتَيْنَا مِنًى فَرَمَيْت الجَمْرَة وَنَحَرْت البَدَنَة ثُمَّ حَلَقْت رَأْسِي وَعَلِمْت أَنَّ أَهْل الجَمْع لَمْ يَكُونُوا حَضَرُوا كُلّهمْ خُطْبَة أَبِي بَكْر يَوْم عَرَفَة، فَطُفْت أَتَتَبَّع بِهَا الفَسَاطِيط، أَقْرَؤُهَا عَلَيْهِمْ، فَمِنْ ثَمَّ أَخَال حَسِبْتُمْ أَنَّهُ يَوْم النَّحْر، أَلَا وَهُوَ يَوْم عَرَفَة[1].

وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ أَبِي إِسْحَاق: سَأَلت أَبَا جُحَيْفَة عَنْ يَوْم الحَجّ الأَكْبَر؟ قَالَ: يَوْم عَرَفَة. فَقُلت: أَمِنْ عِنْدك أَمْ مِنْ أَصْحَاب مُحَمَّد ﷺ؟ قَالَ: كُلّ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق أَيْضًا، عَنْ اِبْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء، قَالَ: يَوْم الحَجّ الأَكْبَر يَوْم عَرَفَة[2]. وَقَالَ عُمَر بْن الوَلِيد الشني: حَدَّثَنَا شِهَاب بْن عَبَّاد العَصْرِيّ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: سَمِعْت عُمَر بْن الخَطَّاب، يَقُول: هَذَا يَوْم عَرَفَة، هَذَا يَوْم الحَجّ الأَكْبَر، فَلَا يَصُومَنَّهُ أَحَد. قَالَ: فَحَجَجْت بَعْد أَبِي، فَأَتَيْت المَدِينَة فَسَأَلت عَنْ أَفْضَل أَهْلهَا فَقَالُوا: سَعِيد بْن المُسَيَّب، فَأَتَيْته، فَقُلت: إِنِّي سَأَلت عَنْ أَفْضَل المَدِينَة فَقَالُوا: سَعِيد اِبْن المُسَيَّب، فَأَخْبِرْنِي عَنْ صَوْم يَوْم عَرَفَة، فَقَالَ: أُخْبِرك عَمَّنْ هُوَ أَفْضَل مِنِّي مِائَة ضِعْف، عُمَر أَوْ اِبْن عُمَر، كَانَ يَنْهَى عَنْ صَوْمه، وَيَقُول: هو يَوْم الحَجّ الأَكْبَر. رَوَاهُ اِبْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَعَبْد الله اِبْن الزُّبَيْر، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَطَاوُس، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَوْم عَرَفَة هُوَ يَوْم الحَجّ الأَكْبَر، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذلك حَدِيث مُرْسَل رَوَاهُ اِبْن جُرَيْج، أُخْبِرْت عَنْ مُحَمَّد بْن قَيْس بْن مَخْرَمَة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، خَطَبَ يَوْم عَرَفَة. فَقَالَ: **«هَذَا يَوْم الحَجّ الأَكْبَر»**. وَرُوِيَ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ اِبْن جُرَيْج، عَنْ مُحَمَّد بْن قَيْس، عَنْ المِسْوَر بْن مَخْرَمَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ خَطَبَهُمْ بِعَرَفَاتٍ فَحَمِدَ الله، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **«أَمَّا بَعْد، فَإِنَّ هَذَا يَوْم الحَجّ الأَكْبَر»**.

وَالقَوْل الثَّانِي: أَنَّهُ يَوْم النَّحْر. قَالَ هُشَيْم، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالِد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ عَلِيّ ﷺ قَالَ: يَوْم الحَجّ الأَكْبَر يَوْم النَّحْر[3]. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق السَّبِيعِيّ عَنْ الحَارِث الأَعْوَر: سَأَلت عَلِيًّا ﷺ، عَنْ يَوْم الحَجّ الأَكْبَر فَقَالَ: هُوَ يَوْم النَّحْر. وَقَالَ شُعْبَة، عَنْ الحَكَم: سَمِعْت يَحْيَى بْن الجَزَّار يُحَدِّث عَنْ عَلِيّ ﷺ، أَنَّهُ خَرَجَ يَوْم النَّحْر عَلَى بَغْلَة بَيْضَاء يُرِيد الجَبَّانَة، فَجَاءَ رَجُل فَأَخَذَ بِلِجَامِ دَابَّته فَسَأَلَهُ عَنْ الحَجّ الأَكْبَر فَقَالَ: هُوَ يَوْمك هَذَا خَلِّ سَبِيلهَا. وَقَالَ عَبْد الرزاق: عَنْ سُفْيَان، وَشُعْبَة، عَنْ عَبْد المَلِك بْن عُمَيْر، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي أَوْفَى، أَنَّهُ قَالَ: يَوْم الحَجّ الأَكْبَر يَوْم النَّحْر. وَرَوَى شُعْبَة وَغَيْره، عَنْ عَبْد المَلِك بْن عُمَيْر، بِهِ نَحْوه. وَهَكَذَا رَوَاهُ هُشَيْم وَغَيْره، عَنْ الشَّيْبَانِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي أَوْفَى، وَقَالَ الأَعْمَش: عَنْ عَبْد الله بْن سِنَان، قَالَ: خَطَبَنَا المُغِيرَة بْن شُعْبَة يَوْم الأَضْحَى عَلَى بَعِير، فَقَالَ: هَذَا يَوْم الأَضْحَى، وَهَذَا يَوْم النَّحْر، وَهَذَا يَوْم الحَجّ الأَكْبَر. وَقَالَ حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أنه قال: الحج الأكبر يوم النحر. وكذا رُوي عن أبي جحيفة، وسعيد بْن جُبَيْر، وَعَبْد الله بْن شَدَّاد بْن الهَادِ وَنَافِع بْن جُبَيْر بْن مُطْعِم وَالشَّعْبِيّ وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَمُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَأَبِي جَعْفَر البَاقِر وَالزُّهْرِيّ وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَوْم الحَجّ الأَكْبَر هُوَ يَوْم النَّحْر.

وَاخْتَارَهُ اِبْن جَرِير، وَقَدْ تَقَدَّمَ الحَدِيث عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فِي صَحِيح البُخَارِيّ؛ أَنَّ أَبَا بَكْر بَعَثَهُمْ يَوْم النَّحْر يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيث أُخَر؛ كَمَا قَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي سَهْل بْن مُحَمَّد السجستاني، حَدَّثَنَا أَبُو جَابِر الحَرَمِيّ، حَدَّثَنَا هِشَام بْن الغَاز الجُرَشِيّ، عَنْ نَافِع، عَنْ اِبْن عُمَر، قَالَ: وَقَفَ رَسُول الله ﷺ، يَوْم النَّحْر عِنْد الجَمَرَات فِي حَجَّة الوَدَاع، فَقَالَ: **«هَذَا يَوْم الحَجّ الأَكْبَر»**. وَهَكَذَا رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم،

---

(١) **ضعيف:** أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦٧) بسند ضعيف.
(٢) **مرسل:** أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦٨، ٦٩) بسند مرسل.
(٣) **مرسل:** أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٠٩).

وَابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيث أبي جَابِر، وَاسْمه مُحَمَّد بن عَبْد الْمَلِك، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن مَرْدُوَيْهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيث الْوَلِيد ابْن مُسْلِم، عَنْ هِشَام بْن الْغَاز، بِهِ. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ حَدِيث سَعِيد بْن عَبْد الْعَزِيز، عَنْ نَافِع، بِهِ. وَقَالَ شُعْبَة، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عن مرة الهَمْدَانِيّ، عَنْ رَجُل مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُول الله ﷺ، عَلَى نَاقَة حَمْرَاء مُخَضْرَمَة فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ أَيّ يَوْم يَوْمكُمْ هَذَا؟» قَالُوا: يَوْم النَّحْر. قَالَ: «صَدَقْتُمْ يَوْم الحَجّ الأَكْبَر»[1].

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن الْمِقْدَام، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن زُرَيْع، حَدَّثَنَا ابْن عَوْن، عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِين، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي بَكْرَة، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْم قَعَدَ رَسُول الله ﷺ عَلَى بَعِير لَهُ وَأَخَذَ النَّاس بِخِطَامِهِ أَوْ زِمَامه فَقَالَ: «أَيّ يَوْم هَذَا؟» قَالَ: فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمه، فَقَالَ: «أَلَيْسَ هَذَا يَوْم الحَجّ الأَكْبَر؟». وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح، وَأَصْله مُخَرَّج فِي الصَّحِيح. وَقَالَ أَبُو الأَحْوَص: عَنْ شَبِيب بن غرقدة، عَنْ سُلَيْمَان بْن عَمْرو بْن الأَحْوَص، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، فِي حَجَّة الْوَدَاع فَقَالَ: «أَيّ يَوْم هَذَا؟» فَقَالُوا: الْيَوْم الحَجّ الأَكْبَر. وَعَنْ سَعِيد بْن الْمُسَيَّب، أَنَّهُ قَالَ: يَوْم الحَجّ الأَكْبَر الْيَوْم الثَّانِي مِنْ يَوْم النَّحْر. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَالَ مُجَاهِد أَيْضًا: يَوْم الحَجّ الأَكْبَر أَيَّام الحَجّ كُلّهَا. وَكَذَا قَالَ أَبُو عُبَيْدَة: قَالَ سُفْيَان: يَوْم الحَجّ، وَيَوْم الجَمَل، وَيَوْم صِفِّين، أَيْ: أَيَّامه كُلّهَا. وَقَالَ سَهْل السَّرَّاج: سُئِلَ الحَسَن البَصْرِيّ عَنْ يَوْم الحَجّ الأَكْبَر، فَقَالَ: مَا لَكُمْ وَلِلْحَجّ الأَكْبَر؟ ذَاكَ عَام حَجَّ فِيهِ أَبُو بَكْر الَّذِي اسْتَخْلَفَهُ رَسُول الله ﷺ فَحَجَّ بِالنَّاس. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة، عَنْ ابْن عَوْن: سَأَلْت مُحَمَّدًا -يَعْنِي ابْن سِيرِين- عَنْ يَوْم الحَجّ الأَكْبَر فَقَالَ: كَانَ يَوْمًا وَافَقَ فِيهِ حَجّ رَسُول الله ﷺ حَجّ أَهْل الْوَبَر.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

هَذَا اسْتِثْنَاء مِنْ ضَرْب مُدَّة التَّأْجِيل بِأَرْبَعَةِ أَشْهُر لِمَنْ لَهُ عَهْد مُطْلَق لَيْسَ بِمُؤَقَّتٍ، فَأَجَله أَرْبَعَة أَشْهُر يَسِيح فِي الأَرْض يَذْهَب فِيهَا لِيَنْجُو بِنَفْسِهِ حَيْثُ شَاءَ، إِلَّا مَنْ لَهُ عَهْد مُؤَقَّت فَأَجَله إِلَى مُدَّته الْمَضْرُوبَة الَّتِي عُوهِدَ عَلَيْهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ الأَحَادِيث، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْد مَعَ رَسُول الله ﷺ فَعَهْده إِلَى مُدَّته، وَذَلِكَ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَنْقُض الْمُعَاهِد عَهْده، وَلَمْ يُظَاهِر عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا، أَيْ: يُمَالِئ عَلَيْهِمْ مَنْ سِوَاهُمْ فَهَذَا الَّذِي يُوَفَّى لَهُ بِذِمَّتِهِ وَعَهْده إِلَى مُدَّته. وَلِهَذَا حَرَّضَ تَعَالَى عَلَى الْوَفَاء بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: الْمُوفِينَ بِعَهْدِهِمْ.

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَاد بِالأَشْهُرِ الْحُرُم هَاهُنَا مَا هِيَ؛ فَذَهَبَ ابْن جَرِير إِلَى أَنَّهَا الْمَذْكُورَة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ الآيَة. قَالَهُ أَبُو جَعْفَر الْبَاقِر. وَلَكِنْ قَالَ ابْن جَرِير: آخِر الأَشْهُر الْحُرُم فِي حَقّهمْ الْمُحَرَّم. وَهَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ حَكَاهُ عَلِيّ بن أبي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الضَّحَّاك أَيْضًا، وَفِيهِ نَظَر. وَالَّذِي يَظْهَر مِنْ حَيْثُ السِّيَاق مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْن عَبَّاس، فِي رِوَايَة الْعَوْفِيّ عَنْهُ، وَبِهِ قَالَ مُجَاهِد، وَعَمْرو بْن شُعَيْب، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم؛ أَنَّ الْمُرَاد بِهَا أَشْهُر التَّسْيِير الأَرْبَعَة الْمَنْصُوص عَلَيْهَا فِي قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أَيْ: إِذَا انْقَضَتْ الأَشْهُر الأَرْبَعَة الَّتِي حَرَّمْنَا عَلَيْكُمْ فِيهَا قِتَالهمْ وَأَجَّلْنَاهُمْ فِيهَا فَحَيْثُمَا وَجَدْتُمُوهُمْ

(١) إسناده صحيح: أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٠٩)، وأحمد (٥/ ٤١٢)، والنسائي في «الكبرى» (٢/ ٤٤٤).

فَاقْتُلُوهُمْ؛ لأَنَّ عَوْد العَهْد عَلَى مَذْكُور أَوْلَى مِنْ مُقَدَّر، ثُمَّ إِنَّ الأَشْهُر الأَرْبَعَة المُحَرَّمَة سَيَأْتِي بَيَان حُكْمهَا فِي آيَة أُخْرَى بَعْد فِي هَذِهِ السُّورَة الكَرِيمَة.

وَقَوْله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أَيْ: مِنْ الأَرْض، وَهَذَا عَامّ وَالمَشْهُور تَخْصِيصه بِتَحْرِيم القِتَال فِي الحَرَم، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾. وَقَوْله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أَيْ: وَأْسِرُوهُمْ إِنْ شِئْتُمْ قَتْلًا وَإِنْ شِئْتُمْ أَسْرًا. وَقَوْله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أَيْ: لَا تَكْتَفُوا بِمُجَرَّدِ وِجْدَانكُمْ لَهُمْ، بَلْ اِقْصِدُوهُمْ بِالحِصَارِ فِي مَعَاقِلهمْ وَحُصُونهمْ، وَالرَّصْد فِي طُرُقهمْ وَمَسَالِكهمْ، حَتَّى تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ الوَاسِع، وَتَضْطَرُّوهُمْ إِلَى القَتْل أَوْ الإِسْلَام، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَلِهَذَا اِعْتَمَدَ الصِّدِّيق ﷺ فِي قِتَال مَانِعِي الزَّكَاة عَلَى هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة وَأَمْثَالهَا، حَيْثُ حَرَّمَتْ قِتَالهمْ بِشَرْطِ هَذِهِ الأَفْعَال، وَهِيَ الدُّخُول فِي الإِسْلَام، وَالقِيَام بِأَدَاءِ وَاجِبَاته، وَنَبَّهَ بِأَعْلَاهَا عَلَى أَدْنَاهَا، فَإِنَّ أَشْرَفَ أَرْكَان الإِسْلَام بَعْد الشَّهَادَتَيْنِ الصَّلَاة الَّتِي هِيَ حَقّ الله ﷻ، وَبَعْدهَا أَدَاء الزَّكَاة الَّتِي هِيَ نَفْع مُتَعَدٍّ إِلَى الفُقَرَاء وَالمَحَاوِيج، وَهِيَ أَشْرَف الأَفْعَال المُتَعَلِّقَة بِالمَخْلُوقِينَ؛ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَقْرِن الله بَيْن الصَّلَاة وَالزَّكَاة، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ اِبْن عُمَر ﷺ عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ...»** الحَدِيث[١]. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق: عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود ﷺ، قَالَ: أُمِرْتُمْ بِإِقَامِ الصَّلَاة وَإِيتَاء الزَّكَاة، وَمَنْ لَمْ يُزَكِّ فَلَا صَلَاةَ لَهُ. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن ابْن زَيْد بْن أَسْلَم: أَبَى الله أَنْ يَقْبَل الصَّلَاة إِلَّا بِالزَّكَاةِ. وَقَالَ: يَرْحَم الله أَبَا بَكْر! مَا كَانَ أَفْقَهه.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن إِسْحَاق، أَنْبَأَنَا عَبْد الله بْن المُبَارَك، أَنْبَأَنَا حُمَيْد الطَّوِيل، عَنْ أَنَس؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا، وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا؛ فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ»**. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه وَأَهْل السُّنَن إِلَّا اِبْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن المُبَارَك، بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عَبْد الأَعْلَى بْن وَاصِل الأَسَدِيّ، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن مُوسَى، أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عن أنس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ **«مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الإِخْلَاصِ للهِ وَحْدَهُ، وَعِبَادَتِهِ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَارَقَهَا وَاللهُ عَنْهُ رَاضٍ»**[٢]. قَالَ: وَقَالَ أَنَس: هُوَ دِين الله الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل وَبَلَّغُوهُ عَنْ رَبّهمْ، قَبْل هَرْج الأَحَادِيث وَاخْتِلَاف الأَهْوَاء، وَتَصْدِيق ذَلِكَ فِي كِتَاب الله فِي آخِر مَا أُنْزِلَ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ قَالَ: تَوْبَتهمْ خَلع الأَوْثَان، وَعِبَادَة رَبّهمْ، وَإِقَام الصَّلَاة، وَإِيتَاء الزَّكَاة، ثُمَّ قَالَ فِي آيَة أُخْرَى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وَرَوَاهُ اِبْن مَرْدُوَيْه. وَرَوَاهُ مُحَمَّد بْن نَصْر المَرْوَزِيّ فِي كِتَاب الصَّلَاة لَهُ: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، أَنْبَأَنَا حَكَّام بْن سَلْم، حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، بِهِ سَوَاء.

وَهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة هِيَ آيَة السَّيْف الَّتِي قَالَ فِيهَا الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم: أَنَّهَا نَسَخَتْ كُلّ عَهْد بَيْن النَّبِيّ ﷺ وَبَيْن أَحَد مِنْ المُشْرِكِينَ، وَكُلّ عَهْد، وَكُلّ مُدَّة. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: لَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ مِنْ

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) ضعيف: تقدم.

الْمُشْرِكِينَ عَهْد وَلَا ذِمَّة مُنْذُ نَزَلَتْ بَرَاءَة، وَانْسِلَاخ الْأَشْهُر الْحُرُم، وَمُدَّة مَنْ كَانَ لَهُ عَهْد مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَبْل أَنْ تَنْزِل أَرْبَعَة أَشْهُر، مِنْ يَوْم أَذَّنَ بِبَرَاءَة إِلَى عَشْر مِنْ أَوَّل شَهْر رَبِيع الْآخِر، وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنِ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الْآيَة، قَالَ: أَمَرَهُ الله تَعَالَى أَنْ يَضَع السَّيْف فِيمَنْ عَاهَدَ إِنْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَام؛ وَنَقْض مَا كَانَ سُمِّيَ لَهُمْ مِنَ الْعَهْد وَالْمِيثَاق؛ وَأَذْهَبَ الشَّرْط الْأَوَّل. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن مُوسَى الْأَنْصَارِيّ، قَالَ: قَالَ سُفْيَان ابْن عُيَيْنَة: قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب: بُعِثَ النَّبِيّ ﷺ بِأَرْبَعَةِ أَسْيَاف: سَيْف فِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَب، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. هَكَذَا رَوَاهُ مُخْتَصَرًا، وَأَظُنّ أَنَّ **السَّيْف الثَّانِي**: هُوَ قِتَال أَهْل الْكِتَاب؛ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. **وَالسَّيْف الثَّالِث**: قِتَال الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الْآيَة. **وَالرَّابِع**: قِتَال الْبَاغِينَ فِي قَوْله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾. ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي آيَة السَّيْف هَذِهِ؛ فَقَالَ الضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ: هِيَ مَنْسُوخَة بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، وَقَالَ قَتَادَة بِالْعَكْس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الَّذِينَ أَمَرْتُك بِقِتَالِهِمْ، وَأَحْلَلْت لَك اسْتِبَاحَة نُفُوسهمْ وَأَمْوَالهمْ ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أَيْ: اسْتَأْمَنَك فَأَجِبْهُ إِلَى طِلْبَته حَتَّى يَسْمَع كَلَام الله. أَيْ الْقُرْآن: تَقْرَؤُهُ عَلَيْهِ، وَتَذْكُر لَهُ شَيْئًا مِنَ الدِّين تُقِيم عَلَيْهِ بِهِ حُجَّة الله، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أَيْ: وَهُوَ آمِن مُسْتَمِرّ الْأَمَان، حَتَّى يَرْجِع إِلَى بِلَاده وَدَاره وَمَأْمَنه؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا شَرَعْنَا أَمَان مِثْل هَؤُلَاءِ؛ لِيَعْلَمُوا دِين الله، وَتَنْتَشِر دَعْوَة الله فِي عِبَاده. وَقَالَ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد فِي تَفْسِير هَذِهِ الْآيَة، قَالَ: إِنْسَان يَأْتِيك يَسْمَع مَا تَقُول وَمَا أُنْزِل عَلَيْك فَهُوَ آمِن حَتَّى يَأْتِيك فيسمع كَلَام الله، وَحَتَّى يَبْلُغ مَأْمَنه حَيْثُ جَاءَ. وَمِنْ هَذَا كَانَ رَسُول الله ﷺ يُعْطِي الْأَمَان لِمَنْ جَاءَهُ مُسْتَرْشِدًا أَوْ فِي رِسَالَة، كَمَا جَاءَه يَوْم الْحُدَيْبِيَة جَمَاعَة مِنَ الرُّسُل مِنْ قُرَيْش مِنْهُمْ: عُرْوَة بْن مَسْعُود، وَمِكْرَز بْن حَفْص، وَسُهَيْل بْن عَمْرو وَغَيْرهمْ، وَاحِدًا بَعْد وَاحِد يَتَرَدَّدُونَ فِي الْقَضِيَّة بَيْنه وَبَيْن الْمُشْرِكِينَ، فَرَأَوْا مِنْ إِعْظَام الْمُسْلِمِينَ رَسُول الله ﷺ مَا بَهَرَهُمْ، وَمَا لَمْ يُشَاهِدُوهُ عِنْد مَلِك وَلَا قَيْصَر، فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمهمْ وَأَخْبَرُوهُمْ بِذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ وَأَمْثَاله مِنْ أَكْبَر أَسْبَاب هِدَايَة أَكْثَرهمْ. وَلِهَذَا أَيْضًا لَمَّا قَدِمَ رَسُول مُسَيْلِمَة الْكَذَّاب عَلَى رَسُول الله ﷺ، قَالَ لَهُ: **«أَتَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ رَسُولُ اللهِ؟»** قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: **«لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ»**[1].

وَقَدْ قَيَّضَ الله لَهُ ضَرْب الْعُنُق فِي إِمَارَة ابْن مَسْعُود عَلَى الْكُوفَة، وَكَانَ يُقَال لَهُ ابْن النَّوَّاحَة، ظَهَرَ عَنْهُ فِي زَمَان ابْن مَسْعُود أَنَّهُ يَشْهَد لِمُسَيْلِمَة بِالرِّسَالَة، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ابْن مَسْعُود فَقَالَ لَهُ: إِنَّك الْآن لَسْت فِي رِسَالَة، وَأَمَرَ بِهِ فَضُرِبَتْ عُنُقه لَا رَحِمَهُ الله وَلَعَنَهُ! وَالْغَرَض أَنَّ مَنْ قَدِمَ مِنْ دَار الْحَرْب إِلَى دَار الْإِسْلَام فِي أَدَاء رِسَالَة، أَوْ تِجَارَة، أَوْ طَلَب صُلْح أَوْ مُهَادَنَة، أَوْ حَمْل جِزْيَة، أَوْ نَحْو ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَاب، وَطَلَبَ مِنَ الْإِمَام أَوْ نَائِبه أَمَانًا أُعْطِيَ أَمَانًا مَادَامَ مُتَرَدِّدًا فِي دَار الْإِسْلَام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، وَيَجُوز أَنْ يُمَكَّن مِنْ إِقَامَة أَرْبَعَة أَشْهُر، وَفِيمَا بَيْن ذَلِكَ فِيمَا زَادَ عَلَى أَرْبَعَة أَشْهُر وَنَقَصَ عَنْ سَنَة قَوْلَانِ عَنِ الْإِمَام الشَّافِعِيّ وَغَيْره مِنَ الْعُلَمَاء رَحِمَهُمُ الله.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم (٢/ ١٥٥، ٣/ ٤٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢١١)، وأحمد (٣/ ١٨٧) من حديث نعيم بن مسعود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٢٠).

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

يبين تَعَالَى حِكْمَته فِي البَرَاءَة مِنْ المُشْرِكِينَ وَنَظِرَته إِيَّاهُمْ أَرْبَعَة أَشْهُر، ثُمَّ بَعْد ذَلِكَ السَّيْف المُرْهَف أَيْنَ ثُقِفُوا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ وَأَمَان، وَيُتْرَكُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِالله كَافِرُونَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يَعْنِي يَوْم الحُدَيْبِيَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ . الآيَة.

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ أَيْ: مَهْمَا تَمَسَّكُوا بِمَا عَاقَدْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَعَاهَدْتُمُوهُمْ مِنْ تَرْك الحَرْب بَيْنكُمْ وَبَيْنهمْ عَشْر سِنِينَ ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وَقَدْ فَعَلَ رَسُول الله ﷺ ذَلِكَ وَالمُسْلِمُونَ. اِسْتَمَرَّ العَقْد وَالهُدْنَة مَعَ أَهْل مَكَّة مِنْ ذِي القَعْدَة فِي سَنَة سِتّ إِلَى أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْش العَهْد وَمَالَئُوا حُلَفَاءَهُمْ وَهُمْ بَنُو بَكْر عَلَى خُزَاعَة أَحْلَاف رَسُول الله ﷺ فَقَتَلُوهُمْ مَعَهُمْ فِي الحرم، أَيْضًا. فَعِنْد ذَلِكَ غَزَاهُمْ رَسُول الله ﷺ فِي رَمَضَان سَنَة ثَمَان، فَفَتَحَ الله عَلَيْهِ البَلَد الحَرَام، وَمَكَّنَهُ مِنْ نَوَاصِيهمْ، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة. فَأَطْلَقَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْد القَهْر وَالغَلَبَة عَلَيْهِمْ فَسُمُّوا الطُّلَقَاء، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَلفَيْنِ، وَمَنْ اِسْتَمَرَّ عَلَى كُفْره وَفَرَّ مِنْ رَسُول الله ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِ بِالأَمَانِ وَالتَّسْيِيرِ فِي الأَرْض أَرْبَعَة أَشْهُر يَذْهَب حَيْثُ شَاءَ، وَمِنْهُمْ صَفْوَان بْن أُمَيَّة، وَعِكْرِمَة بْن أَبِي جَهْل، وَغَيْرهمَا، ثُمَّ هَدَاهُمْ الله بَعْد ذَلِكَ إِلَى الإِسْلَام التَّامّ، وَالله المَحْمُود عَلَى جَمِيع مَا يُقَدِّرهُ وَيَفْعَلهُ.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُحَرِّضًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُعَادَاة المشركين والتبري مِنْهُمْ، وَمُبَيِّنًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُون لَهُمْ عَهْد لِشِرْكِهِمْ بِالله تَعَالَى وَكُفْرهمْ بِرَسُولِ الله ﷺ وَلأَنَّهُمْ لَوْ ظَهَرُوا عَلَى المُسْلِمِينَ وَأُدِيلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يُبْقُوا وَلَمْ يَذَرُوا وَلَا رَاقَبُوا فِيهِمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّة. قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، وَعِكْرِمَة، وَالعَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: الإِلّ: القَرَابَة، وَالذِّمَّة: العَهْد. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ كَمَا قَالَ تَمِيم بْن مُقْبِل:

أَفْسَدَ النَّاس خُلُوف خَلَفُوا ۞ قَطَعُوا الإِلّ وَأَعْرَاق الرَّحِم

وَقَالَ حَسَّان بْن ثَابِت رضي الله عنه:

وَجَدْنَاهُمْ كَاذِبًا إِلُّهُمْ ۞ وَذُو الإِلّ وَالعَهْد لَا يَكْذِب

وَقَالَ اِبْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ قَالَ: الله، وَفِي رِوَايَة: لَا يَرْقُبُونَ الله وَلَا غَيْره. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنَا اِبْن عُلَيَّة، عَنْ سُلَيْمَان، عَنْ أَبِي مِجْلَز فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ مِثْل قَوْله جِبْرِيل مِيكَائِيل إِسْرَافِيل، كَأَنَّهُ يضيف «جبر» و«ميكا» و«إسراف» إلى «إيل»، يَقُول: عبد الله ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ كأنه يقول: لَا يَرْقُبُونَ الله. وَالقَوْل الأَوَّل أَظْهَر وَأَشْهَر وَعَلَيْهِ الأَكْثَر. وَعَنْ مُجَاهِد أَيْضًا: الإِلّ العَهْد. وَقَالَ قَتَادَة: الإِلّ الحَلِف.

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى ذَمًّا لِلْمُشْرِكِينَ وَحَثًّا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَعْنِي: أَنَّهُمْ اعْتَاضُوا عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِ الله بِمَا الْتَهَوْا بِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْخَسِيسَة ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أَيْ: مَنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره، وَكَذَا الآيَة الَّتِي بَعْدهَا ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إِلَى آخِرهَا تَقَدَّمَتْ. وَقَالَ الْحَافِظ أَبُو بَكْر الْبَزَّار: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَبِي بَكْر، حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا الرَّبِيع بْن أَنَس، قَالَ: سَمِعْت أَنَس بْن مَالِك، يَقُول: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الإِخْلاصِ لله وَعِبَادَتِه لا يُشْرِك بِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاة، وَآتَى الزَّكَاة، فَارَقَهَا وَالله عَنْهُ رَاضٍ»[1]. وَهُوَ دِين الله الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل وَبَلَّغُوهُ عَنْ رَبّهمْ قَبْل هَرْج الأَحَادِيث، وَاخْتِلَاف الأَهْوَاء، وَتَصْدِيق ذَلِكَ فِي كِتَاب الله ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ يَقُول: فَإِنْ خَلَعُوا الأَوْثَان وَعِبَادَتهَا ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ وَقَالَ فِي آيَة أُخْرَى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾. ثُمَّ قَالَ الْبَزَّار: آخِر الْحَدِيث عِنْدِي وَالله أَعْلَم فَارَقَهَا وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ، وَبَاقِيه عِنْدِي مِنْ كَلَام الرَّبِيع بْن أَنَس.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟﴾ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَى مُدَّة مُعَيَّنَة ﴿أَيْمَـٰنَهُم﴾ أَيْ: عُهُودهمْ وَمَوَاثِيقهمْ ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ أَيْ: عَابُوهُ وَانْتَقَصُوهُ، وَمِنْ هَاهُنَا أُخِذَ قَتْل مَنْ سَبَّ الرَّسُول ﷺ أَوْ مَنْ طَعَنَ فِي دِين الإِسْلَام أَوْ ذَكَرَهُ بِتَنَقُّص، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أَيْ: يَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ الْكُفْر وَالْعِنَاد وَالضَّلَال. وَقَدْ قَالَ قَتَادَة وَغَيْره: أَئِمَّة الْكُفْر كَأَبِي جَهْل، وَعُتْبَة، وَشَيْبَة، وَأُمَيَّة بْن خَلَف، وَعَدَّدَ رِجَالًا. وَعَنْ مُصْعَب بْن سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص قَالَ: مَرَّ سَعِيد بْن أَبِي وَقَّاص بِرَجُلٍ مِنْ الْخَوَارِج فَقَالَ الْخَارِجِيّ: هَذَا مِنْ أَئِمَّة الْكُفْر، فَقَالَ سَعْد: كَذَبْتَ، بَلْ أَنَا قَاتَلت أَئِمَّة الْكُفْر. رَوَاهُ اِبْن مَرْدُوَيْهِ. وَقَالَ الأَعْمَش عَنْ زَيْد بْن وَهْب، عَنْ حُذَيْفَة، أَنَّهُ قَالَ: مَا قُوتِلَ أَهْل هَذِهِ الآيَة بَعْد. وَرُوِيَ عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ مِثْله. وَالصَّحِيح أَنَّ الآيَة عَامَّة وَإِنْ كَانَ سَبَب نُزُولهَا مُشْرِكِي قُرَيْش فَهِيَ عَامَّة لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ، وَالله أَعْلَم. وَقَالَ الْوَلِيد بْن مُسْلِم: حَدَّثَنَا صَفْوَان بْن عَمْرو، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر بْن نُفَيْر: أَنَّهُ كَانَ فِي عَهْد أَبِي بَكْر ﷺ إِلَى النَّاس حِين وَجَّهَهُمْ إِلَى الشَّام قَالَ: إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ قَوْمًا مُحَوَّقَة رُءُوسهمْ فَاضْرِبُوا مَعَاقِد الشَّيْطَان مِنْهُمْ بِالسُّيُوفِ، فَوَالله لَأَنْ أَقْتُل رَجُلًا مِنْهُمْ أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُل سَبْعِينَ مِنْ غَيْرهمْ، وَذَلِكَ بِأَنَّ الله يَقُول: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾. رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم.

﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

وَهَذَا أَيْضًا تَهْيِيج وَتَحْضِيض وَإِغْرَاء عَلَى قِتَال الْمُشْرِكِينَ النَّاكِثِينَ أَيْمَانهمْ الَّذِينَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُول مِنْ مَكَّة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآيَة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وَقَوْله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٦/ ٣١٩)، والحاكم (٢/ ٣٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٣٤١) من حديث أنس، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧١٩).

أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قِيلَ: الْمُرَاد بِذَلِكَ يَوْم بَدْر حِين خَرَجُوا لِنَصْرِ عِيرِهِمْ، فَلَمَّا نَجَتْ وَعَلِمُوا بِذَلِكَ اسْتَمَرُّوا عَلَى وَجْوهِهِمْ طَلَبًا لِلْقِتَالِ بَغْيًا وَتَكَبُّرًا كَمَا تَقَدَّمَ بَسْط ذَلِكَ. وَقِيلَ: الْمُرَاد نَقْضهمْ الْعَهْد وَقِتَالهمْ مَعَ حُلَفَائِهِمْ بَنِي بَكْر لِخُزَاعَة أَحْلَاف رَسُول الله ﷺ حَتَّى سَارَ إِلَيْهِمْ رَسُول الله ﷺ عَام الْفَتْح وَكَانَ مَا كَانَ، وَلله الْحَمْد وَالْمِنَّة.

وَقَوْله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يَقُول تَعَالَى: لَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ فَأَنَا أَهْل أَنْ يَخْشَى الْعِبَاد مِنْ سَطْوَتِي، وَعُقُوبَتِي؛ فَبِيَدِي الأَمْر، وَمَا شِئْت كَانَ، وَمَا لَمْ أَشَأْ لَمْ يَكُنْ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى عَزِيمَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَبَيَانًا لِحِكْمَتِهِ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْجِهَاد مَعَ قُدْرَته عَلَى إِهْلَاك الأَعْدَاء بِأَمْرٍ مِنْ عِنْده: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وَهَذَا عَامّ فِي الْمُؤْمِنِينَ كُلّهمْ. وَقَالَ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالسُّدِّيّ، فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي خُزَاعَة. وَأَعَادَ الضَّمِير فِي قَوْله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عَلَيْهِمْ أَيْضًا. وَقَدْ ذَكَرَ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة مُؤَذِّن لِعُمَر بْن عَبْد الْعَزِيز ﵀ عَنْ مُسْلِم بْن يَسَار، عَنْ عَائِشَة ﵂ أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ إِذَا غَضِبَتْ أَخَذَ بِأَنْفِهَا، وَقَالَ: «**يَا عُوَيْش؛ قُولِي: اللهمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّد، اغْفِرْ ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّات الْفِتَن**»[1]. سَاقَهُ مِنْ طَرِيق أَبِي أَحْمَد الْحَاكِم، عَنِ الْبَاغَنْدِيّ، عَنْ هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي الْجَوْن، عَنْهُ.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أَيْ: مِنْ عِبَاده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: بِمَا يُصْلِح عِبَاده ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَفْعَاله، وَأَقْوَاله الْكَوْنِيَّة، وَالشَّرْعِيَّة، فَيَفْعَل مَا يَشَاء، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيد، وَهُوَ الْعَادِل الْحَاكِم الَّذِي لَا يَجُور أَبَدًا وَلَا يُضَيِّع مِثْقَال ذَرَّة مِنْ خَيْر وَشَرّ، بَلْ يُجَازِي عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنِينَ؛ أَنْ نَتْرُكَكُمْ مُهْمَلِينَ لَا نَخْتَبِرُكُمْ بِأُمُورٍ يَظْهَر فِيهَا أَهْل الْعَزْم الصَّادِق مِنَ الْكَاذِب؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أَيْ: بِطَانَة وَدَخِيلَة، بَل هُمْ فِي الظَّاهِر وَالْبَاطِن عَلَى النُّصْح لله وَلِرَسُولِهِ، فَاكْتَفَى بِأَحَدِ الْقِسْمَيْنِ عَنِ الآخَر، كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا ❁ أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآيَة. وَالْحَاصِل: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْجِهَاد بَيَّنَ أَنَّ لَهُ فِيهِ حِكْمَة وَهُوَ اخْتِبَار عَبِيده مَنْ يُطِيعهُ مِمَّنْ يَعْصِيه، وَهُوَ تَعَالَى الْعَالِم بِمَا كَانَ وَمَا يَكُون وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُون، فَيَعْلَم الشَّيْء قَبْل كَوْنه وَمَعَ كَوْنه عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، لَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَلَا رَبّ سِوَاهُ، وَلَا رَادّ لِمَا قَدَّرَهُ وَأَمْضَاهُ.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۝١٧ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

---

(١) ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٢٠٧).

يَقُول تَعَالَى: مَا يَنْبَغِي لِلْمُشْرِكِينَ بِالله أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِد الله الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى اِسْمه وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَمَنْ قَرَأَ ﴿مَسْجِدَ اللهِ﴾ فَأَرَادَ بِهِ الْمَسْجِد الْحَرَام أَشْرَف الْمَسَاجِد فِي الْأَرْض، الَّذِي بُنِيَ مِنْ أَوَّل يَوْم عَلَى عِبَادَة الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَأَسَّسَهُ خَلِيل الرَّحْمَن، هَذَا وَهُمْ شَاهِدُونَ عَلَى أَنْفُسهمْ بِالْكُفْرِ أَيْ: بِحَالِهِمْ وَقَالهمْ، كَمَا قَالَ السُّدِّيّ: لَوْ سَأَلْت النَّصْرَانِيّ: مَا دِينك؟ لَقَالَ: نَصْرَانِيّ. وَلَوْ سَأَلْت الْيَهُودِيّ: مَا دِينك؟ لَقَالَ: يَهُودِيّ. وَالصَّابِئ لَقَالَ: صَابِئ. وَالْمُشْرِك؟ لَقَالَ: مُشْرِك. ﴿أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أَيْ: بِشِرْكِهِمْ ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فَشَهِدَ تَعَالَى بِالْإِيمَانِ لِعُمَّارِ الْمَسَاجِد، كَمَا قَالَ الْإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سريج، حَدَّثَنَا اِبْن وَهْب، عَنْ عَمْرو ابْن الْحَارِث، أَنَّ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْح حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُل يَعْتَاد الْمَسْجِد فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ**»[1]. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَرْدُوَيْهِ وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن وَهْب، بِهِ. وَقَالَ عَبْد بْن حُمَيْد فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا يُونُس بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا صَالِح الْمُرِّيّ، عَنْ ثَابِت الْبُنَانِيّ، عَنْ مَيْمُون بْن سياه وَجَعْفَر بْن زَيْد، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّمَا عُمَّار الْمَسَاجِد هُمْ أَهْل الله**». وَرَوَاهُ الْحَافِظ أَبُو بَكْر الْبَزَّار: عَنْ عَبْد الْوَاحِد بْن غِيَاث، عَنْ صَالِح بْن بَشِير الْمُرِّيّ، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّمَا عُمَّار الْمَسَاجِد هُمْ أَهْل الله**»[2]. ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْلَم رَوَاهُ عَنْ ثَابِت غَيْر صَالِح. وَقَدْ رَوَى الدَّارَقُطْنِيّ فِي الْأَفْرَاد مِنْ طَرِيق حَكَّامَة بِنْت عُثْمَان بْن دِينَار، عَنْ أَبِيهَا، عَنْ أَخِيهِ مَالِك بْن دِينَار، عَنْ أَنَس، مَرْفُوعًا: «**إِذَا أَرَادَ الله بِقَوْمٍ عَاهَة نَظَرَ إِلَى أَهْل الْمَسَاجِد فَصَرَفَ عَنْهُمْ**»[3]. ثُمَّ قَالَ: غَرِيب. وَرَوَى الْحَافِظ الْبَهَائِيّ فِي الْمُسْتَقْصَى عَنْ أَبِيهِ بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي أُمَيَّة الطَّرَسُوسِيّ، حَدَّثَنَا مَنْصُور بْن صُقَيْر، حَدَّثَنَا صَالِح الْمُرِّيّ، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، مَرْفُوعًا، يَقُول الله: «**وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، إِنِّي لَأَهُمّ بِأَهْلِ الْأَرْض عَذَابًا؛ فَإِذَا نَظَرْت إِلَى عُمَّار بُيُوتِي، وَإِلَى الْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَإِلَى الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ؛ صَرَفْت ذَلِكَ عَنْهُمْ**»[4]. ثُمَّ قَالَ اِبْن عَسَاكِر: حَدِيث غَرِيب. وَقَالَ الْإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح، حَدَّثَنَا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، حَدَّثَنَا الْعَلَاء بْن زِيَاد، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ الشَّيْطَان ذِئْب الْإِنْسَان، كَذِئْبِ الْغَنَم يَأْخُذ الشَّاة الْقَاصِيَة وَالنَّاحِيَة، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَاب وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّة وَالْمَسْجِد**»[5]. وَقَالَ عَبْد الرزاق: عَنْ مَعْمَر، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون الْأَوْدِيّ، قَالَ: أَدْرَكْت أَصْحَاب النبي ﷺ وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَسَاجِد بُيُوت الله فِي الْأَرْض، وَإِنَّهُ حَقّ عَلَى الله أَنْ يُكْرِم مَنْ زَارَهُ فِيهَا. وَقَالَ الْمَسْعُودِيّ: عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت وَعَدِيّ بْن ثَابِت، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس رضي الله عنهما، قَالَ: مَنْ سَمِعَ النِّدَاء بِالصَّلَاةِ، ثُمَّ لَمْ يُجِبْ وَيَأْتِ الْمَسْجِد وَيُصَلِّي فَلَا صَلَاة لَهُ، وَقَدْ عَصَى الله وَرَسُوله، قَالَ الله تَعَالَى:

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ٦٨)، والترمذي (٣٠٩٣)، وابن ماجه (٨٠٢) من حديث أبي سعيد، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٠٩).

(٢) **ضعيف الإسناد**: أخرجه البزار (٤٣٣) بسند ضعيف، فيه صالح المري: متروك الحديث، كما في «الضعفاء والمتروكين» للنسائي (١/ ٥٧).

(٣) ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٤٥).

(٤) **ضعيف**: مدار الحديث على صالح المري وهو متروك الحديث كما تقدم.

(٥) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٢، ٢٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤٧) من حديث معاذ بن جبل، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ١٣٦، ٥/ ٣٩٤) وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات إلا أن العلاء بن زياد قيل: إنه لم يسمع من معاذ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٧٧).

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآيَة. رَوَاهُ اِبْن مَرْدُوَيْهِ. وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا مِنْ وَجْه آخَر، وَلَهُ شَوَاهِد مِنْ وُجُوه أُخَر، لَيْسَ هَذَا مَوْضِع بَسْطهَا.

وَقَوْله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَيْ: الَّتِي هِيَ أَكْبَر عِبَادَات البَدَن، ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أَيْ: الَّتِي هِيَ أَفْضَل الأَعْمَال المُتَعَدِّيَة إِلَى بِرّ الخَلَائِق. وَقَوْله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أَيْ: وَلَمْ يَخَفْ إِلَّا مِنْ الله تَعَالَى وَلَمْ يَخْشَ سِوَاهُ، ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾. قَالَ علي بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يَقُول: مَنْ وَحَّدَ الله وَآمَنَ بِاليَوْمِ الآخِر، يَقُول: مَنْ آمَنَ بِمَا أَنْزَلَ الله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَعْنِي: الصَّلَوَات الخَمْس ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يَقُول: لَمْ يَعْبُد إِلَّا الله. ثُمَّ قَالَ: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ يَقُول تَعَالَى: إِنَّ أُولَئِكَ هُمْ المُفْلِحُونَ، كَقَوْلِهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يقول: إن ربك سيبعثك مقامًا محمودًا وَهِيَ: الشَّفَاعَة، وَكُلّ ﴿عَسَىٰٓ﴾ فِي القُرْآن فَهِيَ وَاجِبَة. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار رَحِمَهُ اللهُ: وَعَسَى مِنْ الله حَقّ.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

قَالَ العَوْفِيّ فِي تَفْسِيره عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة، قَالَ: إِنَّ المُشْرِكِينَ قَالُوا: عِمَارَة بَيْت الله، وَقِيَام عَلَى السِّقَايَة خَيْر مِمَّنْ آمَنَ وَجَاهَدَ، وَكَانُوا يَفْخَرُونَ بِالحَرَم وَيَسْتَكْبِرُونَ بِهِ مِنْ أَجْل أَنَّهُمْ أَهْله وَعُمَّاره، فَذَكَرَ الله اِسْتِكْبَارهمْ وَإِعْرَاضهمْ فَقَالَ لِأَهْلِ الحَرَم مِنْ المُشْرِكِينَ: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِالحَرَم، قَالَ: ﴿بِهِۦ سَٰمِرًا﴾ كَانُوا يَسْمُرُونَ بِهِ وَيَهْجُرُونَ القُرْآن وَالنَّبِيّ ﷺ، فَخَيَّرَ الله الإِيمَان وَالجِهَاد مَعَ النَّبِيّ ﷺ، عَلَى عِمَارَة المُشْرِكِينَ البَيْت وَقِيَامهمْ عَلَى السِّقَايَة، وَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعهُمْ عِنْد الله مَعَ الشِّرْك بِهِ، وَإِنْ كَانُوا يَعْمُرُونَ بَيْته وَيخدمونه بِهِ. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَهْل العِمَارَة فَسَمَّاهُمْ الله ظَالِمِينَ بِشِرْكِهِمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ العِمَارَة شَيْئًا.

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة، قَالَ: قَدْ نَزَلَتْ فِي العَبَّاس بْن عَبْد المُطَّلِب حِين أُسِرَ بِبَدْرٍ، قَالَ: لَئِنْ كُنْتُمْ سَبَقْتُمُونَا بِالإِسْلَام وَالهِجْرَة وَالجِهَاد لَقَدْ كُنَّا نَعْمُر المَسْجِد الحَرَام نَسْقِي وَنَفُكّ العَانِي، قَالَ الله ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَعْنِي: أَنَّ ذَلِكَ كُلّه كَانَ فِي الشِّرْك وَلَا أَقْبَل مَا كَانَ فِي الشِّرْك. وَقَالَ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم: أَقْبَلَ المُسْلِمُونَ عَلَى العَبَّاس وَأَصْحَابه الَّذِينَ أُسِرُوا يَوْم بَدْر يُعَيِّرُونَهُمْ بِالشِّرْكِ، فَقَالَ العَبَّاس: أَمَا وَالله لَقَدْ كُنَّا نَعْمُر المَسْجِد الحَرَام، وَنَفُكّ العَانِي، وَنَحْجُب البَيْت، وَنَسْقِي الحَاجّ فَأَنْزَلَ الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآيَة. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا اِبْن عُيَيْنَة، عَنْ إِسْمَاعِيل، عَنْ الشَّعْبِيّ، قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَلِيّ وَالعَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا تَكَلَّمَا فِي ذَلِكَ.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا يُونُس، أَخْبَرَنَا اِبْن وَهْب، أَخْبَرَنِي اِبْن لَهِيعَة، أخبرت عَنْ أَبِي صَخْر، قَالَ: سَمِعْت مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، يَقُول: اِفْتَخَرَ طَلْحَة بْن شَيْبَة مِنْ بَنِي عَبْد الدَّار وَعَبَّاس بْن عَبْد المُطَّلِب وَعَلِيّ بْن أَبِي طَالِب، فَقَالَ طَلْحَة: أَنَا صَاحِب البَيْت مَعِي مِفْتَاحه، وَلَوْ أَشَاء بِتّ فِيهِ. وَقَالَ العَبَّاس: أَنَا صَاحِب السِّقَايَة، وَالقَائِم عَلَيْهَا، وَلَوْ أَشَاء بِتّ فِي المَسْجِد. فَقَالَ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا أَدْرِي مَا تَقُولَانِ، لَقَدْ صَلَّيْت إِلَى القِبْلَة سِتَّة أَشْهُر قَبْل النَّاس

وَأَنَا صَاحِب الجِهَاد، فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ﴾ الآيَة كُلّهَا[1]. وَهَكَذَا قَالَ السُّدِّيّ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: اِفْتَخَرَ عَلِيّ وَالعَبَّاس وعثمان وَشَيْبَة بن عُثْمَان، وَذَكَرَ نَحْوه. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ عَمْرو، عَنْ الحَسَن، قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَلِيّ، وَعبَّاس، وَشَيْبَة، تَكَلَّمُوا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ العَبَّاس: مَا أُرَانِي إِلَّا أَنِّي تَارِك سِقَايَتنَا، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَقِيمُوا عَلَى سِقَايَتِكُمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا خَيْرًا»[2]. وَرَوَاهُ مُحَمَّد بْن ثَوْر، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الحَسَن، فَذَكَرَ نَحْوه.

وَقَدْ وَرَدَ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة حَدِيث مَرْفُوع، فَلَابُدّ مِنْ ذِكْره هاهُنَا: قَالَ عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ النُّعْمَان بْن بَشِير رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: مَا أُبَالِي أَنْ أَعْمَل عَمَلًا بَعْد الإِسْلَام؛ إِلَّا أَنْ أَسْقِي الحَاجّ. وَقَالَ آخَر: مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَل عَمَلًا بَعْد الإِسْلَام؛ إِلَّا أَنْ أَعْمُر المَسْجِد الحَرَام. وَقَالَ آخر: الجِهَاد فِي سَبِيل الله أَفْضَل مِمَّا قُلتُم. فَزَجَرَهُمْ عُمَر رضي الله عنه. وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتكُمْ عِنْد مِنْبَر رَسُول الله ﷺ، وَذَلِكَ يَوْم الجُمُعَة، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْنَا الجُمُعَة دَخَلنَا عَلَى النَّبِيّ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ. فَنَزَلَتْ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

طَرِيق أُخْرَى: قَالَ الوَلِيد بْن مُسْلِم: حَدَّثَنِي مُعَاوِيَة بْن سَلَام، عَنْ جَدّه أَبِي سَلَام الأَسْوَد، عَنْ النُّعْمَان بْن بَشِير الأَنْصَارِيّ، قَالَ: كُنْت عِنْد مِنْبَر رَسُول الله ﷺ فِي نَفَر مِنْ أَصْحَابه، فَقَالَ رَجُل مِنْهُمْ: مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَل لله عَمَلًا بَعْد الإِسْلَام؛ إِلَّا أَنْ أَسْقِي الحَاجّ. وَقَالَ آخر: بَل عِمَارَة المَسْجِد الحَرَام. وَقَالَ آخر: بَل الجِهَاد فِي سَبِيل الله خَيْر مِمَّا قُلتُم. فَزَجَرَهم عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتكُمْ عِنْد مِنْبَر رَسُول الله ﷺ، وَذَلِكَ يَوْم الجُمُعَة، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْت الجُمُعَة دَخَلت عَلَى رَسُول الله ﷺ، فَاسْتَفْتَيْته فِيمَا اِخْتَلَفْتُمْ فِيهِ. قَالَ فَفَعَلَ فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. وَرَوَاهُ مُسْلِم فِي صَحِيحه، وَأَبُو دَاوُد، وَابْن جَرِير وَهَذَا لَفْظه، وَابْن مَرْدُوَيْهِ، وَابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفَاسِيرهمْ، وَابْن حِبَّان فِي صَحِيحه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

أَمَرَ الله تَعَالَى بِمُبَايَنَةِ الكُفَّار به وَإِنْ كَانُوا آبَاء أَوْ أَبْنَاء، وَنَهَى عَنْ مُوَالَاتهمْ إِنْ اِسْتَحَبُّوا أَيْ: اِخْتَارُوا الكُفْر عَلَى الإِيمَان، وَتَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآيَة. وَرَوَى الحَافِظ البَيْهَقِيّ مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن شَوْذَب، قَالَ: جَعَلَ أَبُو أَبِي عُبَيْدَة ابن الجَرَّاح يَنْعَت لَهُ الآلِهَة يَوْم بَدْر، وَجَعَلَ أَبُو عُبَيْدَة يَحِيد عَنْهُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ الجَرَّاح قَصَدَهُ اِبْنه أَبُو عُبَيْدَة فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ الله فِيهِ هَذِهِ الآيَة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيَة. ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى رَسُوله أَنْ يَتَوَعَّد مَنْ آثَرَ أَهْله وَقَرَابَته وَعَشِيرَته عَلَى الله وَرَسُوله وَجِهَاد فِي سَبِيله، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصّلتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٠/ ٩٦) بسند معضل، فمحمد بن كعب القرظي لم يسمع من العباس فقد وُلد آخر خلافة علي، وبذلك فهو لم يسمع من علي أيضًا فهو يروي عنه بواسطة «الإصابة» (٦/ ٣٤٥)، و«جامع التحصيل» (١/ ٢٦٨).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٣٥) بسند ضعيف فيه الحسن البصري: مدلس، وهذه رواية مرسلة.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٧٢)، وابن جرير (١٠/ ٩٥).

﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أَيْ: تُحِبُّونَهَا لِطِيبِهَا وَحُسْنِهَا أَيْ: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الأَشْيَاء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أَيْ: فَانْتَظِرُوا مَاذَا يَحِلّ بِكُمْ مِنْ عِقَابه وَنَكَاله بِكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا اِبْن لَهِيعَة، عَنْ زُهْرَة بْن مَعْبَد، عَنْ جَدّه، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ آخِذ بِيَدِ عُمَر بْن الخَطَّاب فَقَالَ: وَالله يَا رَسُول الله؛ لَأَنْتَ أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ كُلّ شَيْء إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: **«لا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى أَكُون أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسه»** فَقَالَ عُمَر: فَأَنْتَ الآنَ وَالله أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: **«الآنَ يَا عُمَر»**[1]. اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ فَرَوَاهُ عَنْ يَحْيَى بْن سُلَيْمَان، عَنْ اِبْن وَهْب، عَنْ حَيْوَة بْن شُرَيْح، عَنْ أَبِي عُقَيْل زُهْرَة بْن مَعْبَد، أَنَّهُ سَمِعَ جَدّه عَبْد الله بْن هِشَام، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، بِهَذَا. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيح عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى أَكُون أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِده، وَوَلَده، وَالنَّاس أَجْمَعِينَ»**[2]. وَرَوَى الإِمَام أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُد وَاللَّفْظ لَهُ مِنْ حَدِيث أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الخُرَاسَانِيّ، عَنْ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، عَنْ نَافِع، عَنْ اِبْن عُمَر قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ البَقَر، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الجِهَاد؛ سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلًّا لا يَنْزِعهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينكُمْ»**[3]. وَرَوَى الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا، عَنْ يَزِيد بْن هَارُون، عَنْ أَبِي جناب، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْد الله بْن عَمْرو، عَنْ رَسُول الله ﷺ، وَهَذَا شَاهِد لِلَّذِي قَبْله، وَالله أَعْلَم.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قَالَ اِبْن جُرَيْج، عَنْ مُجَاهِد: هَذِهِ أَوَّل آيَة نَزَلَتْ مِنْ بَرَاءَة، يَذْكُر تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَضْله عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانه لَدَيْهِمْ، فِي نَصْره إِيَّاهُمْ فِي مَوَاطِن كَثِيرَة مِنْ غَزَوَاتهمْ مَعَ رَسُوله، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْده تَعَالَى، وَبِتَأْيِيدِهِ وَتَقْدِيره لَا بِعَدَدِهِمْ، وَلَا بِعُدَدهم، وَنَبَّهَهُمْ عَلَى أَنَّ النَّصْر مِنْ عِنْده سَوَاء قَلَّ الجَمْع أَوْ كَثُرَ، فَإِنَّ يَوْم حُنَيْن أَعْجَبَتْهُمْ كَثْرَتهمْ، وَمَعَ هَذَا مَا أَجْدَى ذَلِكَ عَنْهُمْ شَيْئًا، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ إِلَّا القَلِيل مِنْهُمْ مَعَ رَسُول الله ﷺ، ثُمَّ أَنْزَلَ نَصْره وَتَأْيِيده عَلَى رَسُوله وَعَلَى المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مَعَهُ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى مُفَصَّلًا، لِيُعْلِمهُمْ أَنَّ النَّصْر مِنْ عِنْده تَعَالَى وَحْده، وَبِإِمْدَادِهِ وَإِنْ قَلَّ الجَمْع، فَكَمْ مِنْ فِئَة قَلِيلَة غَلَبَتْ فِئَة كَثِيرَة بِإِذْنِ الله، وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ. وَقَدْ قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَهْب بْن جَرِير، حَدَّثَنَا أَبِي، سَمِعْت يُونُس يُحَدِّث، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُبَيْد الله، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«خَيْر الصَّحَابَة أَرْبَعَة، وَخَيْر السَّرَايَا أَرْبَعمِائَة، وَخَيْر الجُيُوش أَرْبَعَة آلَاف، وَلَنْ تُغْلَب اِثْنَا عَشَر أَلْفًا مِنْ قِلَّة»**[4]. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب، لَا يُسْنِدهُ كَبِير أَحَد غَيْر جَرِير بْن حَازِم، وَإِنَّمَا رُوِيَ عَنْ الزُّهْرِيّ عَنْ النَّبِيّ ﷺ، مُرْسَلًا. وَقَدْ رَوَاهُ اِبْن مَاجَهْ، وَالبَيْهَقِيّ، وَغَيْره

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٦).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٣٢).
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، وأحمد (٢/ ٤٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٥/ ٣١٦) من حديث ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٢٣).
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦١١)، والترمذي (١٥٥٥)، وأحمد (١/ ٢٩٤) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٧٨).

عَنْ أَكْثَم بْن الجَوْن، عَنْ رَسُول الله ﷺ بِنَحْوِهِ، وَالله أَعْلَم. وَقَدْ كَانَتْ وَقْعَة حُنَيْن بَعْد فَتْح مَكَّة فِي شَوَّال سَنَة ثَمَان مِنْ الهِجْرَة، وَذَلِكَ لَمَّا فَرَغَ ﷺ مِنْ فَتْح مَكَّة، وَتَمَهَّدَتْ أُمُورهَا وَأَسْلَمَ عَامَّة أَهْلهَا، وَأَطْلَقَهُمْ رَسُول الله ﷺ فَبَلَغَهُ أَنَّ هَوَازِن جَمَعُوا لَهُ لِيُقَاتِلُوهُ، وَأَنَّ أَمِيرهمْ مَالِك بْن عَوْف النَّضْرِيّ، وَمَعَهُ ثَقِيف بِكَمَالِهَا، وَبَنُو جُشَم، وَبَنُو سَعْد بْن بَكْر، وَأَوْزَاع مِنْ بَنِي هِلَال وَهُمْ قَلِيل، وَنَاس مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَامِر، وَعَوْف بْن عَامِر، وَقَدْ أَقْبَلُوا وَمَعَهُمْ النِّسَاء وَالوِلْدَان وَالشَّاء وَالنَّعَم، وَجَاءُوا بِقَضّهمْ وَقَضِيضهمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُول الله ﷺ فِي جَيْشه الَّذِي جَاءَ مَعَهُ لِلفَتْح، وَهُوَ عَشَرَة آلَاف مِنْ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار وَقَبَائِل العَرَب، وَمَعَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْل مَكَّة، وَهُمْ الطُّلَقَاء فِي أَلْفَيْنِ، فَسَارَ بِهِمْ إِلَى العَدُوّ، فَالتَقَوْا بِوَادٍ بَيْن مَكَّة وَالطَّائِف يُقَال لَهُ حُنَيْن، فَكَانَتْ فِيهِ الوَقْعَة فِي أَوَّل النَّهَار فِي غَلَس الصُّبْح، اِنْحَدَرُوا فِي الوَادِي، وَقَدْ كَمَنَتْ فِيهِ هَوَازِن، فَلَمَّا تَوَاجَهُوا لَمْ يَشْعُر المُسْلِمُونَ إِلَّا بِهِمْ قَدْ ثاوروهم وَرَشَقُوا بِالنِّبَالِ وَأَصْلَتُوا السُّيُوف وَحَمَلُوا حَمْلَة رَجُل وَاحِد كَمَا أَمَرَهُمْ مَلِكهمْ، فَعِنْد ذَلِكَ وَلَّى المُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، كَمَا قَالَ الله ﷻ، وَثَبَتَ رَسُول الله ﷺ وَهُوَ رَاكِب يَوْمئِذٍ بَغْلَته الشَّهْبَاء يَسُوقهَا إِلَى نَحْر العَدُوّ، وَالعَبَّاس عَمّه آخِذ بِرِكَابِهَا الأَيْمَن، وَأَبُو سُفْيَان ابْن الحَارِث بْن عَبْد المُطَّلِب آخِذ بِرِكَابِهَا الأَيْسَر يُثْقِلَانِهَا لِئَلَّا تُسْرِع السَّيْر، وَهُوَ يُنَوِّه بِاسْمِهِ ﷺ وَيَدْعُو المُسْلِمِينَ إِلَى الرَّجْعَة: **«أين يا عِباد الله، إليَّ أنا رَسُول الله»**. وَيَقُول فِي تِلْكَ الحَال: **«أَنَا النَّبِيّ لا كَذِب، أَنَا اِبْن عَبْد المُطَّلِب»**. وَثَبَتَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابه قَرِيب مِنْ مِائَة، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ثَمَانُونَ، فَمِنْهُمْ أَبُو بَكْر وَعُمَر وَالعَبَّاس وَعَلِيّ وَالفَضْل بْن عَبَّاس وَأَبُو سُفْيَان ابْن الحَارِث وَأَيْمَن ابْن أُمّ أَيْمَن وَأُسَامَة بْن زَيْد وَغَيْرهمْ ﷺ . ثُمَّ أَمَرَ ﷺ عَمّه العَبَّاس وَكَانَ جَهِير الصَّوْت أَنْ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْته: يَا أَصْحَاب الشَّجَرَة -يَعْنِي شَجَرَة بَيْعَة الرِّضْوَان الَّتِي بَايَعَهُ المُسْلِمُونَ مِنْ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار تَحْتهَا، عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا عَنْهُ- فَجَعَلَ يُنَادِي بِهِمْ: يَا أَصْحَاب السَّمُرَة، وَيَقُول تَارَة: يَا أَصْحَاب سُورَة البَقَرَة؛ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا لَبَّيْكَ، يَا لَبَّيْكَ، وَانْعَطَفَ النَّاس، فجعلوا يتراجعون إِلَى رَسُول الله ﷺ حَتَّى إِنَّ الرَّجُل مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يُطَاوِعهُ بَعِيره عَلَى الرُّجُوع لَبِسَ دِرْعه ثُمَّ اِنْحَدَرَ عَنْهُ، وَأَرْسَلَهُ وَرَجَعَ بِنَفْسِهِ إِلَى رَسُول الله ﷺ فَلَمَّا اِجْتَمَعَتْ شِرْذِمَة مِنْهُمْ، عِنْد رَسُول الله ﷺ أَمَرَهُمْ عليه السلام أَنْ يَصْدُقُوا الحَمْلَة، وَأَخَذَ قَبْضَة مِنْ التُّرَاب بَعْد مَا دَعَا رَبّه وَاسْتَنْصَرَهُ، وَقَالَ: **«اللهمَّ؛ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي»** ثُمَّ رَمَى القَوْم بِهَا، فَمَا بَقِيَ إِنْسَان مِنْهُمْ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْهَا فِي عَيْنَيْهِ وَفَمه مَا شَغَله عَنْ القِتَال، ثُمَّ اِنْهَزَمُوا فَاتَّبَعَ المُسْلِمُونَ أَقْفَاءَهُمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ، وَمَا تَرَاجَعَ بَقِيَّة النَّاس إِلَّا وَالأَسْرَى مجدلة بَيْن يَدَيْ رَسُول الله ﷺ

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، أَخْبَرَنَا يَعْلَى بْن عَطَاء، عَنْ عبد الله بْن يسار، عَنْ أَبِي هَمَّام، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الفِهْرِيّ -وَاسْمه يَزِيد بْن أُسَيْد. وَيُقَال: يَزِيد بْن أُنَيْس. وَيُقَال: كُرْز- قَالَ: كُنْت مَعَ رَسُول الله ﷺ فِي غَزْوَة حُنَيْن، فَسِرْنَا فِي يَوْم قَائِظ شَدِيد الحَرّ، فَنَزَلنَا تَحْت ظِلَال الشَّجَر، فَلَمَّا زَالَتْ الشَّمْس لَبِسْت لَأْمَتِي وَرَكِبْت فَرَسِي، فَانْطَلَقْت إِلَى رَسُول الله ﷺ وَهُوَ فِي فُسْطَاطه فَقُلت: السَّلَام عَلَيْك يَا رَسُول الله وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته، حَانَ الرَّوَاح؟ فَقَالَ: **«أَجَل»**. فَقَالَ: **«يَا بِلال»**. فَثَارَ مِنْ تَحْت سَمُرَة كَأَنَّ ظِلّهَا ظِلّ طَائِر، فَقَالَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَأَنَا فِدَاؤُك. فَقَالَ: **«أَسْرِجْ لِي فَرَسِي»**. فَأَخْرَجَ سَرْجًا دَفَّتَاهُ مِنْ لِيف لَيْسَ فِيهِمَا أَشَر وَلَا بَطَر. قَالَ: فَأَسْرَجَ فَرَكِبَ وَرَكِبْنَا فَصَافَفْنَاهُمْ عَشِيَّتنَا وَلَيْلَتنَا، فَتَشَامَتَ الخَيْلَانِ فَوَلَّى المُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، كَمَا قَالَ الله ﷻ: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ **«يَا عِبَاد الله، أَنَا عَبْد الله وَرَسُوله»**. ثُمَّ قَالَ: **«يَا مَعْشَر المُهَاجِرِينَ، أَنَا عَبْد الله وَرَسُوله»** قَالَ: ثُمَّ اِقْتَحَمَ رسول الله ﷺ عَنْ فَرَسه، فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَاب، فَأَخْبَرَنِي الَّذِي كَانَ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنِّي أَنَّهُ ضَرَبَ بِهِ وُجُوههمْ، وَقَالَ: **«شَاهَت الوُجُوه!»** فَهَزَمَهُمْ الله تَعَالَى. قَالَ يَعْلَى بْن عَطَاء:

فَحَدَّثَنِي أَبْنَاؤُهُمْ عَنْ آبَائِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَمْ يَبْقَ مِنَّا أَحد إِلَّا امْتَلَأَتْ عَيْنَاهُ وَفَمه تُرَابًا، وَسَمِعْنَا صَلصَلَة بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض كَإِمْرَارِ الحَدِيد عَلَى الطَّسْت الحَدِيد[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ الحَافِظ البَيْهَقِيّ فِي «دَلَائِل النُّبُوَّة» مِنْ حَدِيث أَبِي دَاوُد الطَّيَالِسِيّ، عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، بِهِ.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي عَاصِم بْن عُمَر بْن قَتَادَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جَابِر، عَنْ أَبِيهِ جابر بن عَبْد الله قَالَ: فَخَرَجَ مَالِك بْن عَوْف بِمَنْ مَعَهُ إِلَى حُنَيْن، فَسَبَقَ رَسُول الله ﷺ إليه، فَأَعَدُّوا وَتَهَيَّئُوا فِي مَضَايِق الوَادِي وَأَحْنَائِهِ، وَأَقْبَلَ رَسُول الله ﷺ وَأَصْحَابه حَتَّى انْحَطَّ بِهِمْ الوَادِي فِي عَمَايَة الصُّبْح، فَلَمَّا انْحَطَّ النَّاس ثَارَتْ فِي وُجُوههمْ الخَيْل فَشَدَّتْ عَلَيْهِمْ وَانْكَفَأَ النَّاس مُنْهَزِمِينَ لَا يُقْبِل أَحَد عَلَى أَحَد، وَانْحَازَ رَسُول الله ﷺ ذَات اليَمِين يَقُول: «**أَيُّهَا النَّاس، هَلُمُّوا إِلَيَّ أَنَا رَسُول الله، أَنَا رَسُول الله، أَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله**» فَلَا شَيْء وَرَكِبَتْ الإِبِل بَعْضهَا بَعْضًا، فَلَمَّا رَأَى رَسُول الله ﷺ أَمْر النَّاس قَالَ: «**يَا عَبَّاس، اُصْرُخْ: يَا مَعْشَر الأَنْصَار يَا أَصْحَاب السَّمُرَة**». فَأَجَابُوهُ لَبَّيْكَ! لَبَّيْكَ! فَجَعَلَ الرَّجُل يَذْهَب لِيَعْطِف بَعِيره فَلَا يَقْدِر عَلَى ذَلِكَ فَيَقْذِف دِرْعه فِي عُنُقه وَيَأْخُذ سَيْفه وَقَوْسه ثُمَّ يَؤُمّ الصَّوْت، حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَى رَسُول الله ﷺ، مِنْهُمْ مِائَة، فَاسْتَعْرَضَ النَّاس فَاقْتَتَلُوا وَكَانَتْ الدَّعْوَة أَوَّل مَا كَانَتْ بِالأَنْصَارِ، ثُمَّ جُعِلَتْ آخِرًا بِالخَزْرَج، وَكَانُوا صُبْرًا عِنْد الحَرْب، وَأَشْرَفَ رَسُول الله ﷺ، فِي رِكَابه، فَنَظَرَ إِلَى مُجْتَلَد القَوْم فَقَالَ: «**الآنَ حَمِيَ الوَطِيس**». قَالَ: فَوَالله مَا رَاجَعَهُ النَّاس إِلَّا وَالأَسَارَى عِنْد رَسُول الله ﷺ، مُلقوْنَ، فَقَتَلَ الله مِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ، وَانْهَزَمَ مِنْهُمْ مَنْ انْهَزَمَ، وَأَفَاءَ الله عَلَى رَسُوله أَمْوَالهمْ وَأَبْنَاءَهُمْ[2].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ البَرَاء بْن عَازِب رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: يَا أَبَا عُمَارَة؛ أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُول الله ﷺ، يَوْم حُنَيْن؟ فَقَالَ: لَكِنَّ رَسُول الله ﷺ، لَمْ يَفِرّ، إِنَّ هَوَازِن كَانُوا قَوْمًا رُمَاة، فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ وَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ انْهَزَمُوا، فَأَقْبَلَ النَّاس عَلَى الغَنَائِم فَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ فَانْهَزَمَ النَّاس، فَلَقَدْ رَأَيْت رَسُول الله ﷺ، وَأَبُو سُفْيَان ابْن الحَارِث آخِذ بِلِجَامِ بَغْلَته البَيْضَاء، وَهُوَ يَقُول: «**أَنَا النَّبِيّ لَا كَذِب، أَنَا ابْن عَبْد المُطَّلِب**»[3].

قُلْت: وَهَذَا فِي غَايَة مَا يَكُون مِنْ الشَّجَاعَة التَّامَّة، أَنَّهُ فِي مِثْل هَذَا اليَوْم فِي حَوْمَة الوَغَى، وَقَدْ انْكَشَفَ عَنْهُ جَيْشه، وَهُوَ مَعَ هَذَا عَلَى بَغْلَة وَلَيْسَتْ سَرِيعَة الجَرْي، وَلَا تَصْلُح لِفَرٍّ وَلَا لِكَرٍّ وَلَا لِهَرَب، وَهُوَ مَعَ هَذَا أَيْضًا يَرْكُضهَا إِلَى وُجُوههمْ، وَيُنَوِّه بِاسْمِهِ لِيَعْرِفهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفهُ صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْم الدِّين، وَمَا هَذَا كُلّه إِلَّا ثِقَة بِالله، وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَعِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُ وَيُتِمّ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ، وَيُظْهِر دِينه عَلَى سَائِر الأَدْيَان، وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ: طُمَأْنِينَته وَثَبَاته عَلَى رَسُوله ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ: الَّذِينَ مَعَهُ ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وَهُمْ المَلَائِكَة. كَمَا قَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حدثنا القاسم؛ قال: حَدَّثَنِي الحَسَن بْن عَرَفَة، قَالَ: حَدَّثَنِي المُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، عَنْ عَوْف -هُوَ ابْن أَبِي جَمِيلَة الأَعْرَابِيّ-، قَالَ: سَمِعْت عَبْد الرَّحْمَن مَوْلَى ابْن بُرْثُن، حَدَّثَنِي رَجُل كَانَ مَعَ المُشْرِكِينَ يَوْم حُنَيْن، قَالَ: لَمَّا الْتَقَيْنَا نَحْنُ وَأَصْحَاب رَسُول الله ﷺ يَوْم حُنَيْن لَمْ يَقُومُوا لَنَا حَلب شَاة، قَالَ: فَلَمَّا كَشَفْنَاهُمْ جَعَلْنَا نَسُوقهُمْ فِي آثَارهمْ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى أَصْحَاب البَغْلَة البَيْضَاء فَإِذَا هُوَ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: فَتَلَقَّانَا عِنْده رِجَال بِيض حِسَان الوُجُوه، فَقَالُوا لَنَا: شَاهَتْ الوُجُوه، اِرْجِعُوا. قَالَ: فَانْهَزَمْنَا وَرَكِبُوا أَكْتَافنَا، فَكَانَتْ إِيَّاهَا.

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ: أَنْبَأَنَا أَبُو عَبْد الله الحَافِظ، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن بَالَوَيْه، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن الحَسَن

---

(١) حسن: أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٤٠)، وأبو داود (٥٢٣٣)، وأحمد (٥/ ٢٨٦)، والطيالسي (١/ ١٩٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٨٨) من حديث أبي عبد الرحمن الفهري، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٧٨٠).

(٢) صحيح: رجاله ثقات، ويشهد للحديث السابق.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

الحَرْبِيّ، حَدَّثَنا عَفَّان بْن مُسْلِم، حَدَّثَنا عَبْد الوَاحِد بْن زِيَاد، حَدَّثَنا الحارث بْن حَصِيرَة، حَدَّثَنَا القَاسِم بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ اِبْن مَسْعُود ﷺ: كُنْت مَعَ رَسُول الله ﷺ يَوْم حُنَيْن، فَوَلَّى عَنْهُ النَّاس وَبَقِيت مَعَهُ فِي ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار، قَدِمْنَا وَلَمْ نُوَلِّهِمْ الدُّبُر، وَهُمْ الَّذِينَ أَنْزَلَ الله عَلَيْهِمْ السَّكِينَة، قَالَ: وَرَسُول الله ﷺ عَلَى بَغْلَته البَيْضَاء يَمْضِي قُدُمًا فَحَادَتْ بَغْلَته فَمَالَ عَنْ السَّرْج فَقُلت: اِرْتَفِعْ رَفَعَك الله، قَالَ: «**نَاوِلنِي كَفًّا مِنْ التُّرَاب**» فَنَاوَلته. قَالَ: فَضَرَبَ بِهِ وُجُوههمْ فَامْتَلَأَتْ أَعْيُنهمْ تُرَابًا. قَالَ: «**أَيْنَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَار؟**» قُلت: هُمْ هُنَاكَ قَالَ: «**اِهْتِفْ بِهِمْ**». فَهَتَفْت بِهِم فَجَاءُوا وَسُيُوفهمْ بِأَيْمَانِهِمْ كَأَنَّهَا الشُّهُب، وَوَلَّى المُشْرِكُونَ أَدْبَارهمْ[1]. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده عَنْ عَفَّان، بِهِ نَحْوه.

وَقَالَ الوَلِيد بْن مُسْلِم: حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن المُبَارَك، عَنْ أَبِي بَكْر الهُذَلِيّ، عَنْ عِكْرِمَة مَوْلَى اِبْن عَبَّاس، عَنْ شَيْبَة ابْن عُثْمَان، قَالَ: لَمَّا رَأَيْت رَسُول الله ﷺ يَوْم حُنَيْن قَدْ عَرِيَ ذَكَرْت أَبِي وَعَمِّي وَقَتْل عَلِيّ وَحَمْزَة إِيَّاهُمَا، فَقُلت: اليَوْم أُدْرِك ثَأْرِي مِنْهُ. قَالَ: فَذَهَبْت لِأَجِيئَهُ عَنْ يَمِينه، فَإِذَا أَنَا بِالعَبَّاسِ بْن عَبْد المُطَّلِب قَائِمًا عَلَيْهِ دِرْع بَيْضَاء كَأَنَّهَا فِضَّة يَكْشِف عَنْهَا العَجَاج، فَقُلت: عَمّه وَلَنْ يَخْذُلهُ قَالَ: فَجِئْته عَنْ يَسَاره فَإِذَا أَنَا بِأَبِي سُفْيَان ابْن الحَارِث بْن عَبْد المُطَّلِب فَقُلت: اِبْن عَمّه وَلَنْ يَخْذُلهُ فَجِئْته مِنْ خَلفه فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ أُسَوِّرهُ سَوْرَة بِالسَّيْفِ، إِذْ رُفِعَ لِي شُوَاظ مِنْ نَار بَيْنِي وَبَيْنه كَأَنَّهُ بَرْق فَخِفْت أَنْ تمحشني، فَوَضَعْت يَدِي عَلَى بَصَرِي وَمَشَيْت القَهْقَرَى، فَالتَفَتَ رَسُول الله ﷺ وَقَالَ: «**يَا شَيْب يَا شَيْب؛ اُدْنُ مِنِّي؛ اللهمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ الشَّيْطَان**» قَالَ: فَرَفَعْت إِلَيْهِ بَصَرِي وَلَهُوَ أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ سَمْعِي وَبَصَرِي، فَقَالَ: «**يَا شَيْب؛ قَاتِل الكُفَّار**». رَوَاهُ البَيْهَقِيّ مِنْ حَدِيث الوَلِيد فَذَكَرَهُ، ثُمَّ رُوِيَ مِنْ حَدِيث أَيُّوب بْن جَابِر، عَنْ صَدَقَة بْن سَعِيد، عَنْ مُصْعَب بْن شَيْبَة، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: خَرَجْت مَعَ رَسُول الله ﷺ يَوْم حُنَيْن، وَالله مَا أَخْرَجَنِي إِسْلَام وَلَا مَعْرِفَة بِهِ، وَلَكِنَّنِي أَبَيْت أَنْ تَظْهَر هَوَازِن عَلَى قُرَيْش، فَقُلت وَأَنَا وَاقِف مَعَهُ: يَا رَسُول الله، إِنِّي أَرَى خَيْلًا بُلْقًا فَقَالَ: «**يَا شَيْبَة، إِنَّهُ لا يَرَاهَا إِلا كَافِر**». فَضَرَبَ يَدَه فِي صَدْرِي، ثُمَّ قَالَ: «**اللهمَّ اِهْدِ شَيْبَة**». ثُمَّ ضَرَبَهَا الثَّانِيَة، ثُمَّ قَالَ: «**اللهمَّ اِهْدِ شَيْبَة**» ثُمَّ ضَرَبَهَا الثَّالِثَة، ثُمَّ قَالَ: «**اللهمَّ اِهْدِ شَيْبَة**». قَالَ: فَوَالله مَا رَفَعَ يَده عَنْ صَدْرِي فِي الثَّالِثَة حَتَّى مَا كَانَ أَحَد مِنْ خَلق الله أَحَبّ إِلَيَّ مِنْهُ[2]. وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث فِي اِلتِقَاء النَّاس، وَانْهِزَام المُسْلِمِينَ، وَنِدَاء العَبَّاس، وَاسْتِنْصَار رَسُول الله ﷺ حَتَّى هَزَمَ الله تَعَالَى المُشْرِكِينَ.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي والدي إِسْحَاق بْن يَسَار، عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ جُبَيْر بْن مُطْعَم ﷺ قَالَ: إِنَّا لَمَعَ رَسُول الله ﷺ يَوْم حُنَيْن وَالنَّاس يَقْتَتِلُونَ، إِذْ نَظَرْت إِلَى مِثْل البِجَاد الأَسْوَد يَهْوِي، مِنْ السَّمَاء حَتَّى وَقَعَ بَيْننَا وَبَيْن القَوْم، فَإِذَا نَمْل مَنْثُور، قَدْ مَلَأَ الوَادِي، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا هَزِيمَة القَوْم، فَمَا كُنَّا نَشُكّ أَنَّهَا المَلَائِكَة. وَقَالَ سَعِيد بْن السَّائِب بْن يَسَار، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْت يَزِيد بْن عَامِر السُّوَائِيّ، وَكَانَ شَهِدَ حُنَيْنًا مَعَ المُشْرِكِينَ ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْد، فَكُنَّا نَسْأَلهُ عَنْ الرُّعْب الَّذِي أَلقَى الله فِي قُلُوب المُشْرِكِينَ يَوْم حُنَيْن، فَكَانَ يَأْخُذ الحَصَاة فَيَرْمِي بِهَا فِي الطَّسْت فَيَطِنّ فَيَقُول: كُنَّا نَجِد فِي أَجْوَافنَا مِثْل هَذَا. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَهُ شَاهِد مِنْ حَدِيث يَزِيد بْن أَبِي أُسَيْد، فَالله أَعْلَم. وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ مُحَمَّد بْن رَافِع، عَنْ عَبْد الرَّزَّاق، أَنْبَأَنَا مَعْمَر عَنْ هَمَّام، قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**نُصِرْت بِالرُّعْبِ، وَأُوتِيت جَوَامِع الكَلِم**»[3]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٤٣)، وأحمد (١/ ٤٥٣)، والحاكم (٢/ ١٢٨)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٦٩) من حديث ابن مسعود.

(٢) ضعيف: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٤٥) بسند ضعيف فيه مصعب بن شيبة: لين الحديث كما في «التقريب» (١/ ٥٣٣).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٥٢٣)، وأحمد (٢/ ٣١٤).

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قَدْ تَابَ الله عَلَى بَقِيَّة هَوَازِن وَأَسْلَمُوا وَقَدِمُوا عَلَيْهِ مُسْلِمِينَ، وَلَحِقُوهُ وَقَدْ قَارَبَ مَكَّة عِنْد الجِعْرَانَة، وَذَلِكَ بَعْد الوَقْعَة بِقَرِيبٍ مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا، فَعِنْد ذَلِكَ خَيَّرَهُمْ بَيْن سَبْيهمْ وَبَيْن أَمْوَالهمْ، فَاخْتَارُوا سَبْيهمْ، وَكَانُوا سِتَّة آلَاف أَسِير مَا بَيْن صَبِيّ وَامْرَأَة، فَرَدَّهُ عَلَيْهِمْ وَقَسَمَ الأَمْوَال بَيْن الغَانِمِينَ، وَنَفَلَ أُنَاسًا مِنَ الطُّلَقَاء؛ لِيَتَأَلَّف قُلُوبهمْ عَلَى الإِسْلَام، فَأَعْطَاهُمْ مائة مِائَة مِنَ الإِبِل، وَكَانَ مِنْ جُمْلَة مَنْ أُعْطِيَ مائة مَالِك بْن عَوْف النَّصْرِيّ، وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى قَوْمه كَمَا كَانَ، فَامْتَدَحَهُ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُول فِيهَا:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ۞ فِي النَّاسِ كُلِّهِمُ بِمِثْلِ مُحَمَّدِ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتُدِي ۞ وَمَتَى تَشَأْ يُخْبِرْكَ عَمَّا فِي غَدِ
وَإِذَا الكَتِيبَةُ عَرَّدَتْ أَنْيَابُهَا ۞ بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ ۞ وَسْطَ الهَبَاءَةِ خَادِرٌ فِي مَرْصَدِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾

أَمَرَ تَعَالَى عِبَاده المُؤْمِنِينَ الطَّاهِرِينَ دِينًا وَذَاتًا بِنَفْيِ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ نَجَس دِينًا عَنْ المَسْجِد الحَرَام، وَأَنْ لَا يَقْرَبُوهُ بَعْد نُزُول هَذِهِ الآيَة، وَكَانَ نُزُولهَا فِي سَنَة تِسْع؛ وَلِهَذَا بَعَثَ رَسُول الله ﷺ، عَلِيًّا صُحْبَة أَبِي بَكْر ﵄ عَامَئِذٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُنَادِي مِنَ المُشْرِكِينَ: أَنْ لَا يَحُجّ بَعْد العَام مُشْرِك، وَلَا يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان، فَأَتَمَّ الله ذَلِكَ وَحَكَمَ بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا. وَقَالَ عَبْد الرزاق: أَخْبَرَنَا ابْن جُرَيْج، أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْر؛ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِر بْن عَبْد الله يَقُول فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾: إِلَّا أَنْ يَكُون عَبْدًا أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْل الذِّمَّة. وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا مِنْ وَجْه آخَر، فَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا شَرِيك، عَنْ الأَشْعَث -يَعْنِي ابْن سِوَار- عَنْ الحَسَن، عَنْ جَابِر؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لا يَدْخُل مَسْجِدنَا هذا بَعْد عَامنَا هَذَا مُشْرِك إلا أَهْل العَهْد وَخَدَمكم**»[1]. تَفَرَّدَ بِهِ الإِمَام أَحْمَد مَرْفُوعًا، وَالمَوْقُوف أَصَحّ إِسْنَادًا. وَقَالَ الإِمَام أَبُو عمرو الأَوْزَاعِيّ: كَتَبَ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز ﵁: أَنْ امْنَعُوا اليَهُود وَالنَّصَارَى مِنْ دُخُول مَسَاجِد المُسْلِمِينَ وَأَتْبَعَ نَهْيه قَوْل الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ وَقَالَ عَطَاء: الحَرَم كُلّه مَسْجِد؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾. وَدَلَّتْ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة عَلَى نَجَاسَة المُشْرِك، كما دلت على طهارة المؤمن؛ لما وَرَدَ فِي الصَّحِيح: «**المُؤْمِن لا يَنْجُس**»[2]. وَأَمَّا نَجَاسَة بَدَنه فَالجُمْهُور عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِنَجِسِ البَدَن وَالذَّات؛ لأَنَّ الله تَعَالَى أَحَلَّ طَعَام أَهْل الكِتَاب، وَذَهَبَ بَعْض الظَّاهِرِيَّة إِلَى نَجَاسَة أَبْدَانهمْ. وَقَالَ أَشْعَث عَنْ الحَسَن: مَنْ صَافَحَهُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ، رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَوْله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: وَذَلِكَ أَنَّ النَّاس قَالُوا: لتنقطعن عَنَّا الأَسْوَاق، وَلَتَهْلِكَنَّ التِّجَارَة، وَلَيَذْهَبَنَّ عَنَّا مَا كُنَّا نُصِيب فِيهَا مِنَ المَرَافِق، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ مِنْ وَجْه غَيْر ذَلِكَ ﴿إِن شَآءَ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أَيْ: إن هَذَا

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٢٣٩، ٣٩٢) من حديث جابر بن عبد الله، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٦٨١) وقال: رواه أحمد، وفيه أشعث بن سوار وفيه ضعف وقد وُثِّق.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٣٧١).

عِوَض مَا تَخَوَّفْتُمْ مِنْ قَطع تِلكَ الأَسْوَاق، فَعَوَّضَهُمُ الله بما قَطَعَ عنهم من أَمْرِ الشِّرْك مَا أَعْطَاهُمْ مِنْ أَعْنَاق أَهْل الكِتَاب مِنْ الجِزْيَة. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك وَغَيْرهمْ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: بِمَا يُصْلِحكُمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيْ: فِيمَا يَأْمُر بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ؛ لأَنَّهُ الكَامِل فِي أَفْعَاله وَأَقْوَاله، العَادِل فِي خَلقه وَأَمْره تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِهَذَا عَوَّضَهُمْ عَنْ تِلكَ المَكَاسِب بِأَمْوَالِ الجِزْيَة الَّتِي يَأْخُذُونَهَا مِنْ أَهْل الذِّمَّة، فقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ فَهُمْ فِي نَفْس الأَمْر لَمَّا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِيمَان صَحِيح بِأَحَدٍ من الرُّسُل وَلا بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَآبَاءَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، لا لأَنَّهُ شَرْع الله وَدِينه؛ لأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِمَا بِأَيْدِيهِمْ إِيمَانًا صَحِيحًا لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الإِيمَان بِمُحَمَّدٍ ﷺ، لأَنَّ جَمِيع الأَنْبِيَاء بَشَّرُوا بِهِ وَأَمَرُوا بِاتِّبَاعِهِ، فَلَمَّا جَاءَ كَفَرُوا بِهِ -وَهُوَ أَشْرَفَ الرُّسُل- عُلِمَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مُتَمَسِّكِينَ بِشَرْع الأَنْبِيَاء الأَقْدَمِينَ؛ لأَنَّهُ مِنْ عند الله. بَل لِحُظُوظِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ؛ فَلِهَذَا لَا يَنْفَعهُمْ إِيمَانهمْ بِبَقِيَّةِ الأَنْبِيَاء وَقَدْ كَفَرُوا بِسَيِّدِهِمْ وَأَفْضَلهمْ وَخَاتَمَهِمْ وَأَكْمَلهمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وَهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة نزلت أَوَّل الأَمْر بِقِتَالِ أَهْل الكِتَاب، بَعْد مَا تَمَهَّدَتْ أُمُور المُشْرِكِينَ وَدَخَلَ النَّاس فِي دِين الله أَفْوَاجًا، فلما استقرت جَزِيرَة العَرَب أَمَرَ الله رَسُوله بِقِتَالِ أَهْل الكِتَابَيْنِ؛ اليَهُود وَالنَّصَارَى، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَة تِسع؛ وَلِهَذَا تَجَهَّزَ رَسُول الله ﷺ لِقِتَالِ الرُّوم، وَدَعَا النَّاس إِلَى ذَلِكَ وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ، وَبَعَثَ إِلَى أَحْيَاء العَرَب حَوْل المَدِينَة فَنَدَبَهُمْ، فَأَوْعَبُوا مَعَهُ، وَاجْتَمَعَ مِنَ المُقَاتِلَة نَحْو مِنْ ثَلَاثِينَ أَلفًا، وَتَخَلَّفَ بَعْض النَّاس مِنْ أَهْل المَدِينَة وَمَنْ حَوْلهَا مِنْ المُنَافِقِينَ وَغَيْرهمْ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَام جَدْب وَوَقْت قَيْظ وَحَرّ، وَخَرَجَ رَسُول الله ﷺ، يُرِيد الشَّام؛ لِقِتَالِ الرُّوم، فَبَلَغَ تَبُوك فَنَزَلَ بِهَا وَأَقَامَ على مائها قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا، ثُمَّ اِسْتَخَارَ الله فِي الرُّجُوع فَرَجَعَ عَامه ذَلِكَ؛ لِضِيقِ الحَال وَضَعْف النَّاس، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه بَعْد إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى.

وَقَدْ اِسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة مَنْ يَرَى أَنَّهُ لَا تُؤْخَذ الجِزْيَة إِلَّا مِنْ أَهْل الكِتَاب أَوْ مِنْ أَشْبَاههمْ كَالمَجُوس، كَمَا صَحَّ فِيهِمْ الحَدِيث أَنَّ رَسُول الله ﷺ، أَخَذَهَا مِنْ مَجُوس هَجَر، وَهَذَا مَذْهَب الشَّافِعِيّ وَأَحْمَد فِي المَشْهُور عَنْهُ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَة رَحِمَهُ اللهُ: بَل تُؤْخَذ مِنْ جَمِيع الأَعَاجِم سَوَاء كَانُوا مِنْ أَهْل الكِتَاب أَوْ مِنَ المُشْرِكِينَ وَلَا تُؤْخَذ مِنْ العَرَب إِلَّا مِنْ أَهْل الكِتَاب. وَقَالَ الإِمَام مَالِك: بَل يَجُوز أَنْ تُضْرَب الجِزْيَة عَلَى جَمِيع الكُفَّار، مِنْ كِتَابِيّ، وَمَجُوسِيّ، وَوَثَنِيّ وَغَيْر ذَلِكَ. وَلمآخذ هَذِهِ المَذَاهِب وَذِكْر أَدِلَّتهَا مَكَان غَيْر هَذَا، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أَيْ: إِنْ لَمْ يُسْلِمُوا ﴿عَن يَدٍ﴾ أَيْ: عَنْ قَهْر لَهُمْ وَغَلَبَة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أَيْ: ذَلِيلُونَ حَقِيرُونَ مُهَانُونَ، فَلِهَذَا لَا يَجُوز إِعْزَاز أَهْل الذِّمَّة وَلَا رَفْعهمْ عَلَى المُسْلِمِينَ، بَل هُمْ أَذِلَّاء صَغَرَة أَشْقِيَاء، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيح مُسْلِم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: **«لا تَبْدَءُوا اليَهُود وَالنَّصَارَى بالسَّلام، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدهمْ فِي طَرِيق فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقه»**[1]؛ وَلِهَذَا اِشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه، تِلكَ الشُّرُوط المَعْرُوفَة فِي إِذْلَالهمْ وَتَصْغِيرهمْ وَتَحْقِيرهمْ، وَذَلِكَ مِمَّا رَوَاهُ الأَئِمَّة الحُفَّاظ مِنْ رِوَايَة عَبْد الرَّحْمَن ابْن غَنْم الأَشْعَرِيّ، قَالَ: كَتَبْت لِعُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه، حِين صَالَحَ نَصَارَى مِنْ أَهْل الشَّام: «بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، هَذَا كِتَاب لِعَبْدِ الله عُمَر أَمِير المُؤْمِنِينَ مِنْ نَصَارَى مَدِينَة كَذَا وَكَذَا، إِنَّكُمْ لَمَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْنَا سَأَلنَاكُمْ الأَمَان لِأَنْفُسِنَا

(١) صحيح: تقدم.

وَذَرَارِيِّنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا، وَشَرَطْنَا لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا أَنْ لَا نُحْدِثَ فِي مَدِينَتِنَا وَلَا فِيمَا حَوْلَهَا دَيْرًا وَلَا كَنِيسَة وَلَا قلاية وَلَا صَوْمَعَة رَاهِب، وَلَا نُجَدِّد مَا خَرِبَ مِنْهَا، وَلَا نُحْيِي مِنْهَا مَا كَانَ خُطَطًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ لَا نَمْنَع كَنَائِسَنَا أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَد مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي لَيْل وَلَا نَهَار، وَأَنْ نُوَسِّع أَبْوَابَهَا لِلْمَارَّةِ وَابْنِ السَّبِيل، وَأَنْ نُنْزِل مَنْ مَرَّ بِنَا من الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَة أَيَّام نُطْعِمهُمْ، وَلَا نُؤْوِي فِي كَنَائِسنَا وَلَا مَنَازِلنَا جَاسُوسًا، وَلَا نَكْتُم غِشًّا لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَا نُعَلِّم أَوْلَادنَا الْقُرْآن، وَلَا نُظْهِر شِرْكًا، وَلَا نَدْعُو إِلَيْهِ أَحَدًا، وَلَا نَمْنَع أَحَدًا مِنْ ذَوِي قَرَابَتنَا الدُّخُول فِي الإِسْلَام إِنْ أَرَادُوهُ، وَأَنْ نُوَقِّر الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ نَقُوم لَهُمْ مِنْ مَجَالِسنَا إِنْ أَرَادُوا الْجُلُوس، وَلَا نَتَشَبَّه بِهِمْ فِي شَيْء مِنْ مَلَابِسهمْ فِي قَلَنْسُوَة، وَلَا عِمَامَة، وَلَا نَعْلَيْنِ، وَلَا فَرْق شَعْر، وَلَا نَتَكَلَّم بِكَلَامِهِمْ، وَلَا نَكْتَنِي بِكُنَاهُمْ، وَلَا نَرْكَب السُّرُوج، وَلَا نَتَقَلَّد السُّيُوف، وَلَا نَتَّخِذ شَيْئًا مِنَ السِّلَاح وَلَا نَحْمِلهُ مَعَنَا، وَلَا نَنْقُش خَوَاتِيمنَا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا نَبِيع الْخُمُور، وَأَنْ نَجُزّ مَقَادِيم رُءُوسنَا، وَأَنْ نَلْزَم زِيّنَا حَيْثُمَا كُنَّا، وَأَنْ نَشُدّ الزَّنَانِير عَلَى أَوْسَاطنَا، وَأَنْ لَا نُظْهِر الصَّلِيب عَلَى كَنَائِسنَا، وَأَنْ لَا نُظْهِر صُلُبنَا وَلَا كُتُبنَا فِي شَيْء مِنْ طُرُق الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقهمْ، وَلَا نَضْرِب نَوَاقِيسنَا فِي كَنَائِسنَا إِلَّا ضَرْبًا خَفِيًا، وَأَنْ لَا نَرْفَع أَصْوَاتنَا بِالْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسنَا فِي شَيْء من حَضْرَة الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نَخْرُج شَعَّانِينَ وَلَا بُعُوثًا، وَلَا نَرْفَع أَصْوَاتنَا مَعَ مَوْتَانَا، وَلَا نُظْهِر النِّيرَان مَعَهُمْ فِي شَيْء مِنْ طُرُق الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقهمْ، وَلَا نُجَاوِرهُمْ بِمَوْتَانَا، وَلَا نَتَّخِذ مِنَ الرَّقِيق مَا جَرَى عَلَيْهِ سِهَام الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ نُرْشِد الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نَطَّلِع عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلهمْ». قَالَ: فَلَمَّا أَتَيْت عُمَر بِالْكِتَابِ زَادَ فِيهِ: وَلَا نَضْرِب أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، شَرَطْنَا لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسنَا وَأَهْل مِلَّتنَا، وَقَبِلْنَا عَلَيْهِ الأَمَان، فَإِنْ نَحْنُ خَالَفْنَا فِي شَيْء مِمَّا شَرَطْنَاهُ لَكُمْ، وَوَظَّفْنَا عَلَى أَنْفُسنَا؛ فَلَا ذِمَّة لَنَا، وَقَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنَّا مَا يَحِلّ مِنْ أَهْل الْمُعَانَدَة وَالشِّقَاق.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وَهَذَا إِغْرَاء مِنَ الله تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَال المشركين الْكُفَّار مِنَ الْيَهُود وَالنَّصَارَى؛ لِمَقَالَتِهِمْ هَذِهِ الْمَقَالَة الشَّنِيعَة وَالْفِرْيَة عَلَى الله تَعَالَى؛ فَأَمَّا الْيَهُود فَقَالُوا فِي الْعُزَيْر: إِنَّهُ ابن الله، تَعَالَى الله عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَذَكَرَ السُّدِّيّ وَغَيْره: أَنَّ الشُّبْهَة الَّتِي حَصَلَتْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْعَمَالِقَة لَمَّا غَلَبَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل، فَقَتَلُوا عُلَمَاءَهُمْ وَسَبَوْا كِبَارهمْ، بَقِيَ الْعُزَيْر يَبْكِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل وَذَهَاب الْعِلْم مِنْهُمْ، حَتَّى سَقَطَتْ جُفُون عَيْنَيْهِ فَبَيْنَا هُوَ ذَات يَوْم إِذْ مَرَّ عَلَى جَبَّانَة، وَإِذَا امْرَأَة تَبْكِي عِنْد قَبْر وَهِيَ تَقُول: وَامُطْعِمَاه! وَاكَاسِيَاه! فَقَالَ لَهَا: وَيْحك! مَنْ كَانَ يُطْعِمك قَبْل هَذَا؟ قَالَتْ: الله. قَالَ: فَإِنَّ الله حَيّ لَا يَمُوت. قَالَتْ: يَا عُزَيْر، فَمَنْ كَانَ يُعَلِّم الْعُلَمَاء قَبْل بَنِي إِسْرَائِيل؟ قَالَ: الله. قَالَتْ: فَلِمَ تَبْكِي عَلَيْهِمْ؟! فَعَرَفَ أَنَّهُ شَيْء قَدْ وُعِظَ بِهِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: اِذْهَبْ إِلَى نَهَر كَذَا فَاغْتَسِل مِنْهُ وَصَلِّ هُنَاكَ رَكْعَتَيْنِ، فَإِنَّك سَتَلْقَى هُنَاكَ شَيْخًا فَمَا أَطْعَمَك فَكُلْهُ، فَذَهَبَ فَفَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ، فَإِذَا الشَّيْخ فَقَالَ لَهُ: اِفْتَحْ فَمك، فَفَتَح فَمه فَأَلْقَى فِيهِ شَيْئًا كَهَيْئَةِ الْجَمْرَة الْعَظِيمَة ثَلَاث مَرَّات، فَرَجَعَ عُزَيْر وَهُوَ مِنْ أَعْلَم النَّاس بِالتَّوْرَاةِ، فَقَالَ: يَا بَنِي إِسْرَائِيل، قَدْ جِئْتُكُمْ بِالتَّوْرَاةِ. فَقَالُوا: يَا عُزَيْر، مَا كُنْت كَذَّابًا! فَعَمَدَ فَرَبَطَ عَلَى إِصْبَع مِنْ أَصَابِعه قَلَمًا، وَكَتَبَ التَّوْرَاة بِإِصْبَعِهِ كُلّهَا، فَلَمَّا تَرَاجَعَ النَّاس مِنْ عَدُوّهمْ، وَرَجَعَ الْعُلَمَاء أُخْبِرُوا بِشَأْنِ عُزَيْر، فَاسْتَخْرَجُوا النُّسَخ الَّتِي كَانُوا أَوْدَعُوهَا فِي الْجِبَال وَقَابَلُوهَا بِهَا، فَوَجَدُوا مَا جَاءَ بِهِ صَحِيحًا، فَقَالَ بَعْض جَهَلَتهمْ: إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا لِأَنَّهُ ابن الله!!

وَأَمَّا ضَلَال النَّصَارَى فِي المَسِيح فَظَاهِر، وَلِهَذَا كَذَّبَ الله سُبْحَانه الطَّائِفَتَيْنِ فَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أَيْ: لَا مُسْتَنَد لَهُمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ سِوَى افْتِرَائِهِمْ وَاخْتِلَافهمْ، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أَيْ: يُشَابِهُونَ ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْلهمْ مِنْ الأُمَم، ضَلُّوا كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس: لَعَنَهُمْ الله، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أَيْ: كَيْف يَضِلُّونَ عَنْ الحَقّ وَهُوَ ظَاهِر، وَيَعْدِلُونَ إِلَى البَاطِل.

وَقَوْله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ رَوَى الإِمَام أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن جَرِير: مِنْ طُرُق، عَنْ عَدِيّ بْن حَاتِم ﷺ، أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَتْهُ دَعْوَة رَسُول الله ﷺ، فَرَّ إِلَى الشَّام وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّة فَأُسِرَتْ أُخْته وَجَمَاعَة مِنْ قَوْمه، ثُمَّ مَنَّ رَسُول الله ﷺ عَلَى أُخْته وَأَعطاها، فَرَجَعَتْ إِلَى أَخِيهَا فَرَغَّبَتْهُ فِي الإِسْلَام وَفِي القُدُوم عَلَى رَسُول الله ﷺ، فَقَدِمَ عَدِيّ إِلَى المَدِينَة وَكَانَ رَئِيسًا فِي قَوْمه طَيِّئ وَأَبُوهُ حَاتِم الطَّائِيّ المَشْهُور بِالكَرَم، فَتَحَدَّثَ النَّاس بِقُدُومِهِ فَدَخَلَ عَلَى رَسُول الله ﷺ وَفِي عُنُق عَدِيّ صَلِيب مِنْ فِضَّة، فقرأ رسول الله ﷺ هَذِهِ الآيَة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: فَقُلت: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ، فَقَالَ: **«بَلَى، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ الحَلَال، وَحَلَّلُوا لَهُمْ الحَرَام فَاتَّبَعُوهُمْ فَذَلِكَ عِبَادَتهمْ إِيَّاهُمْ»** وَقَالَ رَسُول الله ﷺ: **«يَا عَدِيّ، مَا تَقُول؟ أَيَفِرك أَنْ يُقَال: الله أَكْبَر؟ فَهَل تَعْلَم شَيْئًا أَكْبَر مِنْ الله؟ مَا يَفِرك، أَيَفِرك أَنْ يُقَال: لَا إِلَه إِلَّا الله فَهَل تَعْلَم مِن إِلَه إِلَّا الله؟»** ثُمَّ دَعَاهُ إِلَى الإِسْلَام، فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ شَهَادَة الحَقّ، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْت وَجْهه اسْتَبْشَرَ ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّ اليَهُود مَغْضُوب عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ»**[1].

وَهَكَذَا قَالَ حُذَيْفَة بْن اليَمَان، وَعَبْد الله بْن عَبَّاس وَغَيْرهمَا فِي تَفْسِير: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: إِنَّهُمْ اتَّبَعُوهُمْ فِيمَا حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا. وَقَالَ السُّدِّيّ: اسْتَنْصَحُوا الرِّجَال وَتركوا كِتَاب الله وَرَاء ظُهُورهمْ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أَيْ: الَّذِي إِذَا حَرَّمَ الشَّيْء فَهُوَ الحَرَام، وَمَا حَلَّلَهُ فَهُوَ الحَلَال، وَمَا شَرَعَهُ اُتُّبِعَ، وَمَا حَكَمَ بِهِ نَفَذَ. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء، والنظراء، والأعوان، والأضداد، والأولاد، لا إله إلا هو ولا ربَّ سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: يُرِيد هَؤُلَاءِ الكُفَّار مِنْ المُشْرِكِينَ وَأَهْل الكِتَاب ﴿أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مَا بُعِثَ بِهِ رَسُول الله ﷺ، مِنْ الهُدَى وَدِين الحَقّ، بِمُجَرَّدِ جِدَالهمْ وَافْتِرَائِهِمْ، فَمَثَلهمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيد أَنْ يُطْفِئ شُعَاع الشَّمْس، أَوْ نُور القَمَر بِنَفْخَةٍ، وَهَذَا لَا سَبِيل إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ مَا أُرْسِلَ بِهِ رَسُول الله ﷺ، لَابُدَّ أَنْ يَتِمّ وَيَظْهَر؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لَهُمْ فِيمَا رَامُوهُ وَأَرَادُوهُ ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وَالكَافِر: هُوَ الَّذِي يَسْتُر الشَّيْء وَيُغَطِّيه، وَمِنْهُ سُمِّيَ اللَّيْل كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ يَسْتُر الأَشْيَاء؛ وَالزَّارِع كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ يُغَطِّي الحَبّ فِي الأَرْض، كَمَا قَالَ: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ فَالهُدَى: هُوَ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الإِخْبَارَات الصَّادِقَة، وَالإِيمَان الصَّحِيح، وَالعِلم النَّافِع، وَدِين الحَقّ: هُوَ الأَعْمَال الصَّالِحَة الصَّحِيحَة النَّافِعَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أَيْ: عَلَى سَائِر الأَدْيَان، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: **«إِنَّ الله زَوَى لِيَ الأَرْض مَشَارِقهَا وَمَغَارِبهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلك أُمَّتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا»**[2]. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد:

(١) حسن، تقدم.
(٢) صحيح، أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢).

حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة عَنْ مُحَمَّد بْن أَبِي يَعْقُوب، سَمِعْت شَقِيق بْن حَيَّان يُحَدِّث، عَنْ مَسْعُود بْن قَبِيصَة -أَوْ: قَبِيصَة بْن مَسْعُود-، يَقُول: صَلَّى هَذَا الحَيّ مِنْ مُحَارِب الصُّبْح، فَلَمَّا صَلَّوْا قَالَ شَاب مِنْهُمْ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول: «**إِنَّهُ سَيُفْتَحُ لَكُمْ مَشَارِق الأَرْض وَمَغَارِبهَا، وَإِنَّ عُمَّالهَا فِي النَّار إِلا مَنْ اتَّقَى الله وَأَدَّى الأَمَانَة**»(١). وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان، حَدَّثَنَا سُلَيْم بْن عَامِر، عَنْ تَمِيم الدَّارِيّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْر مَا بَلَغَ اللَّيْل وَالنَّهَار، وَلا يَتْرُك الله بَيْت مَدَر وَلا وَبَر إِلا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّين، بِعِزّ عَزِيز أَو بِذُلّ ذَلِيل، عِزًّا يُعِزّ الله بِهِ الإِسْلام، وَذُلا يُذِلّ الله بِهِ الكُفْر**» فَكَانَ تَمِيم الدَّارِيّ يَقُول: قَدْ عَرَفْت ذَلِكَ فِي أَهْل بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الخَيْر وَالشَّرَف وَالعِزّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلّ وَالصَّغَار وَالجِزْيَة(٢).

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن عَبْد رَبّه، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلِم، حَدَّثَنِي ابْن جَابِر، سَمِعْت سُلَيْم بْن عَامِر، قَالَ: سَمِعْت المِقْدَاد بْن الأَسْوَد، يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول: «**لا يَبْقَى عَلَى وَجْه الأَرْض بَيْت مَدَر وَلا وَبَر إِلا أدخله الله كَلِمَة الإِسْلام، بعز عزيز أو بذل ذليل، إِمَّا يُعِزّهُمْ الله فَيَجْعَلهُمْ مِنْ أَهْلهَا، وَإِمَّا يُذِلّهُمْ فَيَدِينُونَ لَهَا**»(٣). وَفِي المُسْنَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ ابْن عَوْن، عَنْ ابْن سِيرِين، عَنْ أَبِي حُذَيْفَة، عَنْ عَدِيّ بْن حَاتِم، سَمِعَهُ يَقُول: دَخَلت عَلَى رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: «**يَا عَدِيّ أَسْلِمْ تَسْلَم**» فَقُلت: إِنِّي مِنْ أَهْل دِين. قَالَ: «**أَنَا أَعْلَم بِدِينِك مِنْك**». فَقُلت: أَنْتَ أَعْلَم بِدِينِي مِنِّي؟ قَالَ: «**نَعَمْ أَلَسْت مِنْ الرَّكُوسِيَّة، وَأَنْتَ تَأْكُل مِرْبَاع قَوْمك؟**» قُلت: بَلَى! قَالَ: «**فَإِنَّ هَذَا لا يَحِلّ لَك فِي دِينك**» قَالَ: فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا فَتَوَاضَعْت لَهَا. قَالَ: «**أَمَا إِنِّي أَعْلَم مَا الَّذِي يَمْنَعك مِنْ الإِسْلام، تَقُول: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَة النَّاس وَمَنْ لا قُوَّة لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمْ العَرَب، أَتَعْرِفُ الحِيرَة؟**» قُلت: لَمْ أَرَهَا وَقَدْ سَمِعْت بِهَا. قَالَ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ الله هَذَا الأَمْر، حَتَّى تَخْرُج الظَّعِينَة مِنْ الحِيرَة حَتَّى تَطُوف بِالبَيْتِ مِنْ غَيْر جِوَار أَحَد، وَلَتُفْتَحَنَّ كُنُوز كِسْرَى بْن هُرْمُز**» قُلت: كِسْرَى بْن هُرْمُز؟! قَالَ: «**نَعَمْ، كِسْرَى بْن هُرْمُز، وَلَيُبْذَلَنَّ المَال حَتَّى لا يَقْبَلهُ أَحَد**» قَالَ عَدِيّ بن حاتم: فَهَذِهِ الظَّعِينَة تَخْرُج مِنْ الحِيرَة فَتَطُوف بِالبَيْتِ مِنْ غَيْر جِوَار أَحَد، وَلَقَدْ كُنْت فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوز كِسْرَى بْن هُرْمُز، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَة؛ لأَنَّ رَسُول الله ﷺ قَدْ قَالَهَا(٤).

وَقَالَ مُسْلِم: حَدَّثَنَا أَبُو مَعْن زَيْد بْن يَزِيد الرَّقَاشِيّ، حَدَّثَنَا خَالِد بْن الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد بْن جَعْفَر، عَنْ الأَسْوَد بْن العَلاء، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**لا يَذْهَب اللَّيْل وَالنَّهَار، حَتَّى تُعْبَد اللات وَالعُزَّى**» فَقُلت: يَا رَسُول الله إِنْ كُنْت لأَظُنّ حِين أَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ أَنَّ ذَلِكَ تَام. قَالَ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ الله ﷻ، ثُمَّ يَبْعَث الله رِيحًا طَيِّبَة، فَيُتَوَفَّى كُلّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبه مِثْقَال حَبَّة خَرْدَل مِنْ إِيمَان، فَيَبْقَى مَنْ لا خَيْر فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِين آبَائِهِمْ**»(٥).

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٦) من حديث مسعود بن قبيصة، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٣٧) وقال: رواه أحمد وفيه مسعود وشقيق بن حبان وهما مجهولان، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في «ضعيف الترغيب» (٤٧٧).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣)، والحاكم (٤/ ٤٧٧) من حديث تميم الداري، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٤)، وابن حبان (٦٦٩٩) من حديث المقداد.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٧، ٣٧٧)، وابن حبان (٦٦٧٩)، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ٣٥٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٤٢) من حديث عدي بن حاتم.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٠٧)، والحاكم (٤/ ٤٤٦).

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾

قَالَ السُّدِّيّ: الأَحْبَار مِنْ اليَهُود، وَالرُّهْبَان مِنْ النَّصَارَى. وَهُوَ كَمَا قَالَ؛ فَإِنَّ الأَحْبَار هُمْ عُلَمَاء اليَهُود؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ ﴾ وَالرُّهْبَان: عُبَّاد النَّصَارَى، وَالقِسِّيسُونَ: عُلَمَاؤُهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ وَالمَقْصُود: التَّحْذِير مِنْ عُلَمَاء السُّوء وَعُبَّاد الضَّلَالَة، كَمَا قَالَ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ شَبَه مِنْ اليَهُود، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادنَا كَانَ فِيهِ شَبَه مِنْ النَّصَارَى. وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح: «لَتَرْكَبُنَّ سُنَن مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْو القُذَّة بِالقُذَّة» قَالُوا: اليَهُود وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟»[1]. وَفِي رِوَايَة: فَارِس وَالرُّوم؟ قَالَ: «فَمَنْ النَّاس إِلا هَؤُلاء؟».

وَالحَاصِل: التَّحْذِير مِنْ التَّشَبُّه بِهِمْ فِي أَحْوَالهمْ وَأَقْوَالهمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّين وَمَنَاصِبهمْ وَرِيَاسَتهمْ فِي النَّاس يَأْكُلُونَ أَمْوَالهمْ بِذَلِكَ، كَمَا كَانَ لِأَحْبَارِ اليَهُود عَلَى أَهْل الجَاهِلِيَّة شَرَف، وَلَهُمْ عِنْدهمْ خَرْج وَهَدَايَا وَضَرَائِب تَجِيء إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا بَعَثَ الله رَسُوله ﷺ اِسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالهمْ وَكُفْرهمْ وَعِنَادهمْ؛ طَمَعًا مِنْهُمْ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ تِلْكَ الرِّيَاسَات، فَأَطْفَأَهَا الله بِنُورِ النُّبُوَّة، وَسَلَبَهُمْ إِيَّاهَا، وَعَوَّضَهُمْ الذُّلّ وَالصَّغَار، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ الله تَعَالَى. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ أَيْ: وَهُمْ مَعَ أَكْلهمْ الحَرَام يَصُدُّونَ النَّاس عَنْ اِتِّبَاع الحَقّ، وَيُلْبِسُونَ الحَقّ بِالبَاطِلِ، وَيُظْهِرُونَ لِمَنْ اِتَّبَعَهُمْ مِنْ الجَهَلَة أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْر، وَلَيْسُوا كَمَا يَزْعُمُونَ، بَل هُمْ دُعَاة إِلَى النَّار، وَيَوْم القِيَامَة لَا يُنْصَرُونَ. وَقَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ هَؤُلَاءِ هُمْ القِسْم الثَّالِث مِنْ رُءُوس النَّاس، فَإِنَّ النَّاس عَالَة عَلَى العُلَمَاء، وَعَلَى العُبَّاد، وَعَلَى أَرْبَاب الأَمْوَال، فَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَال هَؤُلَاءِ فَسَدَتْ أَحْوَال النَّاس، كَمَا قَالَ اِبْن المُبَارَك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلا المُلُوكُ ۞ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

وَأَمَّا الكَنْز: فَقَالَ مَالِك، عَنْ عَبْد الله بْن دِينَار، عَنْ اِبْن عُمَر: هُوَ المَال الَّذِي لَا تُؤَدَّى منه زكاة. وَرَوَى الثَّوْرِيّ وَغَيْره، عَنْ عُبَيْد الله، عَنْ نَافِع، عَنْ اِبْن عُمَر، قَالَ: مَا أُدِّيَ زَكَاته فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَإِنْ كَانَ تَحْت سَبْع أَرَضِينَ، وَمَا كَانَ ظَاهِرًا لَا تُؤَدَّى زَكَاته فَهُوَ كَنْز، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَجَابِر، وَأَبِي هُرَيْرَة، مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا. وَقَالَ عُمَر بْن الخَطَّاب نَحْوه: أَيّمَا مَال أُدِّيَتْ زَكَاته فَلَيْسَ بِكَنْزٍ، وَإِنْ كَانَ مَدْفُونًا فِي الأَرْض، وَأَيّمَا مَال لَمْ تُؤَدَّ زَكَاته فَهُوَ كَنْز يُكْوَى بِهِ صَاحِبه وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْه الأَرْض. وَرَوَى البُخَارِيّ: مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ خَالِد بْن أَسْلَم قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْد الله بْن عُمَر فَقَالَ: هَذَا قَبْل أَنْ تَنْزِل الزَّكَاة، فَلَمَّا نَزَلَتْ جَعَلَهَا الله طُهْرَة لِلأَمْوَالِ. وَكَذَا قَالَ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز وَعِرَاك بْن مَالِك: نَسَخَهَا قَوْله تَعَالَى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ ﴾ الآيَة. وَقَالَ سَعِيد عن مُحَمَّد بْن زِيَاد، عَنْ أَبِي أُمَامَة أَنَّهُ قَالَ: حِلْيَة السُّيُوف مِنْ الكَنْز، مَا أُحَدِّثكُمْ إِلَّا مَا سَمِعْت مِنْ رَسُول الله ﷺ وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي حُصَيْن، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ جَعْدَة بْن هُبَيْرَة، عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه قَالَ: أَرْبَعَة آلَاف فَمَا دُونهَا نَفَقَة، فَمَا كَانَ أَكْثَر مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ كَنْز. وَهَذَا غَرِيب، وَقَدْ جَاءَ فِي مَدْح التَّقَلُّل مِنْ الذَّهَب وَالفِضَّة، وَذَمّ التَّكَثُّر منهما أَحَادِيث كَثِيرَة، وَلْنُورِدْ مِنْهَا هُنَا طَرَفًا يَدُلّ عَلَى البَاقِي:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

قَالَ عَبْد الرزاق: أَخْبَرَنَا الثَّوْرِيّ، أَخْبَرَنِي أَبُو حُصَيْن، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ جَعْدَة بْن هُبَيْرَة، عَنْ عَلِيّ ﷺ فِي قَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «تَبًّا لِلذَّهَبِ تَبًّا لِلفِضَّةِ» يَقُولهَا ثَلَاثًا، قَالَ: فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ، وَقَالُوا: فَأَيّ مَال نَتَّخِذ؟ فَقَالَ عُمَر ﷺ: أَنَا أَعْلَم لَكُمْ ذَلِكَ. فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ إِنَّ أَصْحَابك قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: فَأَيّ المَال نَتَّخِذ؟ قَالَ: «لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَزَوْجَة تُعِين أَحَدكُمْ عَلَى دِينه».

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، حَدَّثَنِي سَالِم بْن عَبْد الله، أَخْبَرَنَا عَبْد الله ابْن أَبِي الهُذَيْل، حَدَّثَنِي صَاحِب لِي، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «تَبًّا لِلذَّهَبِ وَالفِضَّة» قَالَ: فَحَدَّثَنِي صَاحِبِي، أَنَّهُ اِنْطَلَقَ مَعَ عُمَر بْن الخَطَّاب، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ قَوْلك: «تَبًّا لِلذَّهَبِ وَالفِضَّة» مَاذَا نَدَّخِر؟ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَزَوْجَة تُعِين عَلَى الآخِرَة»[1].

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَالِم بْن أَبِي الجَعْد، عَنْ ثَوْبَان، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ فِي الذَّهَب وَالفِضَّة مَا نَزَلَ، قَالُوا: فَأَيّ المَال نَتَّخِذ؟ قَالَ عُمَر: فَأَنَا أَعْلَم ذَلِكَ لَكُمْ. فَأَوْضَعَ عَلَى بَعِير فَأَدْرَكَهُ، وَأَنَا فِي أَثَره، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ أَيّ المَال نَتَّخِذ؟ قَالَ: «لِيَتَّخِذ أَحَدكُم قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَة تُعِين أَحَدكُمْ عَلَى أَمْر الآخِرَة»[2]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَابْن مَاجَهْ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ سَالِم بْن أَبِي الجَعْد. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن. وَحُكِيَ عَنْ البُخَارِيّ أَنَّ سَالِمًا لَمْ يَسْمَعهُ مِنْ ثَوْبَان. قُلت: وَلِهَذَا رَوَاهُ بَعْضهمْ عَنْهُ مُرْسَلًا، وَالله أَعْلَم.

حَدِيث آخَر: قَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا حُمَيْد بْن مَالِك، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن يَعْلَى المُحَارِبِيّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا غَيْلَان بْن جَامِع المُحَارِبِيّ، عَنْ عُثْمَان بْن أَبِي اليَقْظَان، عَنْ جَعْفَر بْن إِيَاس، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ الآيَة، كَبُرَ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَقَالُوا: مَا يَسْتَطِيع أَحَد مِنَّا أَن يترك لِوَلَدِهِ مَالًا يَبْقَى بَعْده. فَقَالَ عُمَر: أَنَا أُفَرِّج عَنْكُمْ. فَانْطَلَقَ عُمَر وَاتَّبَعَهُ ثَوْبَان، فَأَتَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِيّ الله؛ إِنَّهُ قَدْ كَبُرَ عَلَى أَصْحَابك هَذِهِ الآيَة. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله لَمْ يَفْرِض الزَّكَاة إِلا لِيُطَيِّب بِهَا مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالكُمْ، وَإِنَّمَا فَرَضَ المَوَارِيث مِنْ أَمْوَال تَبْقَى بَعْدكُمْ» قَالَ: فَكَبَّرَ عُمَر، ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ: «أَلا أُخْبِرك بِخَيْرِ مَا يَكْنِز المَرْء: المَرْأَة الصَّالِحَة الَّتِي إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ»[3]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، وَابْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيث يَحْيَى بْن يَعْلَى، بِهِ. وَقَالَ الحَاكِم: صَحِيح عَلَى شَرْطهمَا وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيّ، عَنْ حَسَّان بْن عَطِيَّة، قَالَ: كَانَ شَدَّاد بْن أَوْس ﷺ، فِي سَفَر فَنَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ لِغُلَامِهِ: اِئْتِنَا بِالشَّفْرَة نَعْبَث بِهَا، فَأَنْكَرْت عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا تَكَلَّمْت بِكَلِمَةٍ مُنْذُ أَسْلَمْت إِلَّا وَأَنَا أَخْطِمهَا وَأَزُمّهَا غَيْر كَلِمَتِي هَذِهِ، فَلَا تَحْفَظُوهَا عَلَيَّ، وَاحْفَظُوا مَا أَقُول لَكُمْ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِذَا كَنَزَ النَّاس الذَّهَب وَالفِضَّة فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الكَلِمَات: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلك الثَّبَات فِي الأَمْر، وَالعَزِيمَة عَلَى الرُّشْد، وَأَسْأَلك شُكْر نِعْمَتك، وَأَسْأَلك حُسْن عِبَادَتك، وَأَسْأَلك قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلك لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلك مِنْ خَيْر مَا تَعْلَم، وَأَعُوذ بِك مِنْ شَرّ مَا تَعْلَم، وَأَسْتَغْفِرك لِمَا تَعْلَم، إِنَّك أَنْتَ عَلَّام الغُيُوب»[4].

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٥٧)، وأحمد (٥/ ٣٦٦) من حديث عمر بن الخطاب، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٠٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٢)، والترمذي (٣٠٩٤) من حديث ثوبان، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٧٦).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (١٦٦٤)، والحاكم (١/ ٥٦٧، ٢/ ٣٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ١٩٤) من حديث ابن عباس، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٣١٩).

(٤) **حسن لغيره**: أخرجه أحمد (٤/ ١٢٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٦) من حديث شداد بن أوس.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: يُقال لهم هذا الكلام تبكيتًا وتقريعًا وتهكمًا، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: هذا بذاك، وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يُقال: من أحبَّ شيئًا، وقدَّمه على طاعة الله عُذِّب به، وهؤلاء لمَّا كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عندهم عُذِّبوا بها، كما كان أبو لهب -لعنه الله- جاهدًا في عداوة الرسول ﷺ، وامرأته تُعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضًا، ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: عُنُقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: تجمع من الحطب في النار، وتُلقي عليه؛ ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممَّن هو أشفق عليه في الدنيا، كما أنَّ هذه الأموال لمَّا كانت أعزَّ الأموال على أربابها، كانت أضرَّ الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيُحمى عليها في نار جهنم -وناهيك بحرِّها- فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. قال سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره، لا يُكوى عبد بكنز فيمسّ دينار دينارًا، ولا درهم درهمًا، ولكن يُوسَّع جلده فيُوضع كلُّ دينار ودرهم على حدته. وقد رواه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعًا، ولا يصحّ رفعه، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، قال: بلغني أنَّ الكنز يتحوَّل يوم القيامة شجاعًا يتبع صاحبه، وهو يفرّ منه ويقول: أنا كنزك، لا يُدرك منه شيئًا إلَّا أخذه. وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدَّثنا بشر، حدَّثنا يزيد، حدَّثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن ثوبان، أنَّ رسول الله ﷺ، كان يقول: **«مَنْ تَرَكَ بعده كنزًا، مُثِّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع، له زبيبتان يتبعه ويقول: ويلك؛ ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك. ولا يزال يتبعه حتَّى يُلقمه يده فيقضمها، ثمَّ يُتبعها سائر جسده»**[1]. ورواه ابن حبَّان في صحيحه من حديث يزيد، عن سعيد، به. وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة ﷺ. وفي صحيح مسلم: من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من رجل لا يؤدِّي زكاة ماله، إلا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيُكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتَّى يُقضى بين الناس، ثمَّ يرى سبيله إمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النار»**[2]. وذكر تمام الحديث. وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا جرير، عن حُصين، عن زيد بن وهب، قال: مررت على أبي ذرّ بالرَّبذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنَّا بالشام فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال معاوية: ما هذا فينا، ما هذه إلَّا في أهل الكتاب. قال: قلت إنَّها لفينا وفيهم.

ورواه ابن جرير: من حديث عبثر بن القاسم، عن حُصين، عن زيد بن وهب، عن أبي ذرّ ﷺ، فذكره وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أُقبل إليه. قال: فأقبلت، فلمَّا قدمت المدينة ركبني الناس كأنَّهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لي: تنحَّ قريبًا. قلت: والله لن أدع ما كنت أقول.

قلت: كان مذهب أبي ذرّ ﷺ، تحريم ادِّخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يُفتي بذلك، ويحثُّهم عليه، ويأمرهم به، ويُغلظ في خلافه، فنهاه معاوية فلم ينتهِ، فخشي أن يضرّ بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير

---

(١) **صحيح:** أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٦٢)، وابن خزيمة (٤/ ١١)، وابن حبان (٣٢٥٧)، والحاكم (١/ ٥٤٦) من حديث ثوبان، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٧٥٩).

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (٩٨٧)، وأبو داود (١٦٥٨، ١٦٥٩).

الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَان، وَأَنْ يأخذ الذي يَأْخُذهُ إِلَيْهِ، فَاسْتَقْدَمَهُ عُثْمَان إِلَى الْمَدِينَة، وَأَنْزَلَهُ بِالرَّبَذَة وَحْده، وَبِهَا مَاتَ ﷺ فِي خِلَافَة عُثْمَان. وَقَدْ اِخْتَبَرَهُ مُعَاوِيَة ﷺ، وَهُوَ عِنْده هَل يُوَافِق عَمَله قَوْله؟ فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِأَلفِ دِينَار، فَفَرَّقَهَا مِنْ يَوْمه. ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ الَّذِي أَتَاهُ بِهَا، فَقَالَ: إِنَّ مُعَاوِيَة إِنَّمَا بَعَثَنِي إِلَى غَيْرك فَأَخْطَأْت فَهَاتِ الذَّهَب. فَقَالَ: وَيْحك! إِنَّهَا خَرَجَتْ، وَلَكِنْ إِذَا جَاءَ مَالِي حَاسَبْنَاك بِهِ. وَهَكَذَا رَوَى عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس أَنَّهَا عَامَّة. وَقَالَ السُّدِّيّ: هِيَ فِي أَهْل الْقِبْلَة. وَقَالَ الأَحْنَف بْن قَيْس: قَدِمْت الْمَدِينَة، فَبَيْنَا أَنَا فِي حَلقَة فِيهَا مَلأ مِنْ قُرَيْش، إِذْ جَاءَ رَجُل أَخْشَن الثِّيَاب، أَخْشَن الجَسَد، أَخْشَن الوَجْه، فَقَامَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: بَشِّرْ الكانزين بِرَضْفٍ يُحْمَى عَلَيْهِ فِي نَار جَهَنَّم، فَيُوضَع عَلَى حَلَمَة ثَدْي أَحَدهمْ، حَتَّى يَخْرُج مِنْ نُغْضِ كَتِفه، وَيُوضَع عَلَى نُغْضِ كَتِفه حَتَّى يَخْرُج مِنْ حَلَمَة ثَدْيه يَتَزَلْزَل. قَالَ: فَوَضَعَ الْقَوْم رُءُوسهمْ، فَمَا رَأَيْت أَحَدًا مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَيْهِ شَيْئًا، قَالَ: وَأَدْبَرَ فَاتَّبَعْته حَتَّى جَلَسَ إِلَى سَارِيَة، فَقُلت: مَا رَأَيْت هَؤُلَاءِ إِلَّا كَرِهُوا مَا قُلت لَهُمْ. فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا. وَفِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ لِأَبِي ذَرّ: «**مَا يَسُرّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْل أُحُد ذَهَبًا، يَمُرّ عَلَيَّ ثَلاثَة أَيَّام وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْء، إِلا دِينَار أَرْصُدهُ لِدَيْنٍ**»[1]. فَهَذَا -وَالله أَعْلَم- هُوَ الَّذِي حَدَا بِأَبِي ذَرّ عَلَى الْقَوْل بِهَذَا.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا هَمَّام، حَدَّثَنَا قَتَادَة، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي الحَسَن، عَنْ عَبْد الله بْن الصَّامِت ﷺ، أَنَّهُ كَانَ مَعَ أَبِي ذَرّ، فَخَرَجَ عَطَاؤُهُ وَمَعَهُ جَارِيَة، فَجَعَلَتْ تَقْضِي حَوَائِجه، فَفَضَلَتْ مَعَهَا سَبْعَة، فَأَمَرَهَا أَنْ تَشْتَرِي بِهِ فُلُوسًا. قَالَ: قُلت: لَوْ اِدَّخَرْته لِحَاجَةٍ تَنُوبُكَ وَلِلضَّيْفِ يَنْزِل بِك. قَالَ: إِنَّ خَلِيلِي عَهِدَ إِلَيَّ أَنَّ: «**أَيّمَا ذَهَب أَوْ فِضَّة أُوكِيَ عَلَيْهِ، فَهُوَ جَمْر عَلَى صَاحِبه حَتَّى يُفْرِغهُ فِي سَبِيل الله** ﷻ»[2]. وَرَوَاهُ عَنْ يَزِيد عَنْ هَمَّام، بِهِ. وَزَادَ «**...إِفْرَاغًا**». وَقَالَ الحَافِظ اِبْن عَسَاكِر بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي بَكْر الشِّبْلِيّ فِي تَرْجَمَته عَنْ مُحَمَّد بْن مَهْدِيّ: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن أَبِي سَلَمَة، عَنْ صَدَقَة بْن عَبْد الله، عَنْ طَلحَة بْن زَيْد، عَنْ أَبِي فَرْوَة الرَّهَاوِيّ، عَنْ عَطَاء، عَنْ أَبِي سَعِيد ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ، «**اِلْقَ الله فَقِيرًا وَلا تَلْقَهُ غَنِيًّا**» قَالَ: يَا رَسُول الله، كَيْف لِي بِذَلِكَ؟ قَالَ: «**مَا سَأَلت فَلا تَمْنَع، وَمَا رُزِقْت فَلا تَخْتَبِئ**» قَالَ: يَا رَسُول الله؛ كَيْف لِي بِذَلِكَ؟ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**هُوَ ذَاكَ وَإِلا فَالنَّار**»[3]. إِسْنَاده ضَعِيف.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا عُتَيبة، عَنْ بَرِيد بْن الصِّرْم، قَالَ: سَمِعْت عَلِيًّا ﷺ يَقُول: مَاتَ رَجُل مِنْ أَهْل الصُّفَّة، وَتَرَكَ دِينَارَيْنِ أَوْ دِرْهَمَيْنِ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**كَيَّتَان! صَلُّوا عَلَى صَاحِبكُمْ**»[4]. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مِنْ طُرُق أُخَر. وَقَالَ قَتَادَة، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أَبِي أُمَامَة صُدَيّ بْن عَجْلَان، قَالَ: مَاتَ رَجُل مِنْ أَهْل الصُّفَّة، فَوُجِدَ فِي مِئْزَره دِينَار، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**كَيَّة**». ثُمَّ تُوُفِّيَ رَجُل آخَر فَوُجِدَ فِي مِئْزَره دِينَارَانِ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**كَيَّتَان**». وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْر إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم الفَرَادِيسِيّ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن يَحْيَى الأَطْرَابُلُسِيّ، حَدَّثَنِي أَرْطَاة، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر الهَوْزَنِيّ، سَمِعْت ثَوْبَان مَوْلَى رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «مَا مِنْ رَجُل يَمُوت وَعِنْده أَحْمَر أَوْ أَبْيَض، إِلَّا جَعَلَ الله بِكُلِّ قِيرَاط صَفْحَة مِنْ نَار، يُكْوَى بِهَا مِنْ قَدَمِهِ إِلَى ذَقْنه»[5]. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا محمود بْن خِدَاش، حَدَّثَنَا سَيْف

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٠٧)، ومسلم (٩٩٢).

(٢) **ضعيف الإسناد**: أخرجه أحمد (٥/ ١٥٦)، وفيه قتادة ابن دعامة مدلس.

(٣) **ضعيف**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ٣٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٥٠) من حديث بلال، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣١١) وقال: رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه طلحة بن زيد القرشي وهو ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (٥٤٣).

(٤) **حسن لغيره**: أخرجه أحمد (١/ ١٠١، ١٣٧، ١٣٨)، والبزار (٣/ ١١٤)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٢٧١، ٧/ ٣٤٠) من حديث علي.

(٥) **حسن**: عزاه لابن أبي حاتم وإسناده حسن.

ابن مُحَمَّد الثَّوْرِيّ، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «لا يُوضَع الدِّينَار عَلَى الدِّينَار، وَلا الدِّرْهَم عَلَى الدِّرْهَم، وَلَكِنْ يُوَسَّع جِلْده فَيُكْوَى بِهَا جِبَاههمْ وَجُنُوبهمْ وَظُهُورهمْ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ»[1]. سَيْف هَذَا كَذَّاب مَتْرُوك.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل، أَخْبَرَنَا أَيُّوب، أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن سِيرِين، عَنْ أَبِي بَكْرَة، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ خَطَبَ فِي حَجَّته، فَقَالَ: «أَلا إِنَّ الزَّمَان قَدْ اِسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلَقَ الله السَّمَوَات وَالأَرْض، السَّنَة اِثْنَا عَشَر شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَة حُرُم، ثَلاثَة مُتَوَالِيَات: ذُو الْقَعْدَة، وَذُو الْحِجَّة، وَالْمُحَرَّم، وَرَجَب مُضَر الَّذِي بَيْن جُمَادَى وَشَعْبَان» ثُمَّ قَالَ: «أَيّ يَوْم هَذَا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. فَسَكَتَ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اِسْمه. قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْم النَّحْر؟» قُلْنَا: بَلَى. ثُمَّ قَالَ: «أَيّ شَهْر هَذَا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قال: فَسَكَتَ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اِسْمه. قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّة؟» قُلْنَا: بَلَى. ثُمَّ قَالَ: «أَيّ بَلَد هَذَا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قال: فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اِسْمه. قَالَ: «أَلَيْسَتْ الْبَلْدَة؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالكُمْ -وَأَحْسِبهُ قَالَ: وَأَعْرَاضكُمْ- عَلَيْكُمْ حَرَام، كَحُرْمَةِ يَوْمكُمْ هَذَا، فِي شَهْركُمْ هَذَا، فِي بَلَدكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبّكُمْ فَيَسْأَلكُمْ عَنْ أَعْمَالكُمْ، أَلا لا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلالا يَضْرِب بَعْضكُمْ رِقَاب بَعْض، أَلا هَل بَلَّغْت؟ أَلا لِيُبَلِّغ الشَّاهِد مِنْكُمْ الْغَائِب، فَلَعَلَّ مَنْ يَبْلُغهُ يَكُون أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْض مَنْ يَسْمعه»[2]. رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَغَيْره. وَمُسْلِم مِنْ حَدِيث أَيُّوب، عَنْ مُحَمَّد -وَهُوَ اِبْن سِيرِين-، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي بَكْرَة، عَنْ أَبِيهِ، بِهِ.

وَقَدْ قَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا محمد بن مَعْمَر، حَدَّثَنَا رَوْح، حَدَّثَنَا أَشْعَث، عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «إِنَّ الزَّمَان قَدْ اِسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلَقَ الله السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَإِنَّ عِدَّة الشُّهُور عِنْد الله اِثْنَا عَشَر شَهْرًا فِي كِتَاب الله يَوْم خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض، مِنْهَا أَرْبَعَة حُرُم، ثَلاثَة مُتَوَالِيَات: ذُو الْقَعْدَة، وَذُو الْحَجَّة، وَالْمُحَرَّم، وَرَجَب مُضَر الَّذِي بَيْن جُمَادَى وَشَعْبَان»[3]. وَرَوَاهُ الْبَزَّار، عَنْ مُحَمَّد بْن مَعْمَر، بِهِ. ثُمَّ قَالَ: لَا يُرْوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَة إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْه، وَقَدْ رَوَاهُ اِبْن عَوْن وَقُرَّة، عَنْ اِبْن سِيرِين، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن اِبْن أَبِي بَكْرَة، عَنْ أَبِيهِ؛ به. وَقَالَ اِبْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنِي مُوسَى بْن عَبْد الرَّحْمَن الْمَسْرُوقِيّ، حَدَّثَنَا زَيْد بْن حَبَّاب، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن عُبَيْدَة الرَّبَذِيّ، حَدَّثَنِي صَدَقَة بْن يَسَار، عَنْ اِبْن عُمَر قَالَ: خَطَبَ رَسُول الله ﷺ فِي حَجَّة الْوَدَاع بِمِنًى فِي أَوْسَط أَيَّام التَّشْرِيق، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاس؛ إِنَّ الزَّمَان قَدْ اِسْتَدَارَ فَهُوَ الْيَوْم كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلَقَ الله السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَإِنَّ عِدَّة الشُّهُور عِنْد الله اِثْنَا عَشَر شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَة حُرُم، أَوَّلهنَّ رَجَب مُضَر بَيْن جُمَادَى وَشَعْبَان، وَذُو الْقَعْدَة، وَذُو الْحَجَّة، وَالْمُحَرَّم»[4]. وَرَوَى اِبْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ حَدِيث مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله بْن دِينَار، عَنْ اِبْن عُمَر، مِثْله أَوْ نَحْوه. وَقَالَ حَمَّاد بْن سَلَمَة: حَدَّثَنِي عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ أَبِي حرة، حدثني الرَّقَاشِيّ، عَنْ عَمّه، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَة، قَالَ: كُنْت آخِذًا بِزِمَامِ نَاقَة رَسُول الله ﷺ فِي أَوْسَط أَيَّام التَّشْرِيق، أَذُود النَّاس

---

(١) ضعيف جداً: فيه سيف بن محمد الثوري، قال ابن كثير: كذاب متروك.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧، ١٦٧٩).
(٣) صحيح لغيره: أخرجه ابن جرير (١٠/ ١٢٥).
(٤) ضعيف الإسناد: أخرجه ابن جرير (١٠/ ١٢٦).

عَنْهُ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَلا إِنَّ الزَّمَان قَدْ إِسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلَقَ الله السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَإِنَّ عِدَّة الشُّهُور عِنْد الله إِثْنَا عَشَر شَهْرًا، فِي كِتَاب الله يَوْم خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض، مِنْهَا أَرْبَعَة حُرُم، فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسكُمْ**». وَقَالَ سَعِيد بْن مَنْصُور: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، عَنْ الكَلْبِيّ، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ اِبْن عَبَّاس، فِي قَوْله: ﴿**مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**﴾ قَالَ: مُحَرَّم، وَرَجَب، وَذُو القَعْدَة، وَذُو الحَجَّة.

وَقَوْله ﷺ فِي الحَدِيث: «**إِنَّ الزَّمَان قَدْ إِسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلَقَ الله السَّمَاوَات وَالأَرْض**» تَقْرِير مِنْهُ صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ، وَتَثْبِيت لِلأَمْرِ عَلَى مَا جَعَلَهُ الله تعالى فِي أَوَّل الأَمْر، مِنْ غَيْر تَقْدِيم وَلَا تَأْخِير وَلَا زِيَادَة وَلَا نَقْص وَلَا نَسِيء وَلَا تَبْدِيل، كَمَا قَالَ فِي تَحْرِيم مَكَّة: «**إِنَّ هَذَا البَلَد حَرَّمَهُ الله يَوْم خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض فَهُوَ حَرَام بِحُرْمَة الله تَعَالَى إِلَى يَوْم القِيَامَة**»، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: «**إِنَّ الزَّمَان قَدْ إِسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلَقَ الله السَّمَاوَات وَالأَرْض**» أَيْ: الأَمْر اليَوْم شَرْعًا كَمَا اِبْتَدَأَ الله ذَلِكَ فِي كِتَابه يَوْم خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض.

وَقَدْ قَالَ بَعْض المُفَسِّرِينَ وَالمُتَكَلِّمِينَ عَلَى هَذَا الحَدِيث: إِنَّ المُرَاد بِقَوْلِهِ: «**قَدْ إِسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلَقَ الله السَّمَاوَات وَالأَرْض**» أَنَّهُ اِتَّفَقَ أَنَّ حَجّ رَسُول الله ﷺ فِي تِلْكَ السَّنَة فِي ذِي الحَجَّة، وَأَنَّ العَرَب قَدْ كَانَتْ نَسَأَتْ النَّسِيء يَحُجُّونَ فِي كَثِير مِنْ السِّنِينَ، بَلْ أَكْثَرهَا فِي غَيْر ذِي الحَجَّة، وَزَعَمُوا أَنَّ حَجَّة التَّصْدِيق فِي سَنَة تِسْع، كَانَتْ فِي ذِي القَعْدَة، وَفِي هَذَا نَظَر كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إِذَا تَكَلَّمْنَا عَنْ النَّسِيء. وَأَغْرَب مِنْهُ مَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ عَنْ بَعْض السَّلَف فِي جُمْلَة حَدِيث، أَنَّهُ اِتَّفَقَ حَجّ المُسْلِمِينَ وَاليَهُود وَالنَّصَارَى فِي يَوْم وَاحِد، وَهُوَ يَوْم النَّحْر عَام حَجَّة الوَدَاع، وَالله أَعْلَم.

فَصْلٌ

ذَكَرَ الشَّيْخ عَلَم الدِّين السَّخَاوِيّ فِي جُزْء جَمَعَهُ سَمَّاهُ: «المَشْهُور فِي أَسْمَاء الأَيَّام وَالشُّهُور» أَنَّ المُحَرَّم سُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَوْنِهِ شَهْرًا مُحَرَّمًا، وَعِنْدِي أَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ تَأْكِيدًا لِتَحْرِيمِهِ؛ لأَنَّ العَرَب كَانَتْ تَتَقَلَّب بِهِ، فَتُحِلّهُ عَامًا وَتُحَرِّمهُ عَامًا، قَالَ: وَيُجْمَع عَلَى مُحَرَّمَات وَمَحَارِم وَمَحَارِيم. وَصَفَر سُمِّيَ بِذَلِكَ لِخُلُوِّ بُيُوتهمْ مِنْهُمْ حِين يَخْرُجُونَ لِلقِتَالِ وَالأَسْفَار، يُقَال صَفِرَ المَكَان إِذَا خَلَا. وَيُجْمَع عَلَى أَصْفَار، كَجَمَلٍ وَأَجْمَال. وَشَهْر رَبِيع الأَوَّل سُمِّيَ بِذَلِكَ لِارْتِبَاعِهِمْ فِيهِ، وَالِارْتِبَاع: الإِقَامَة فِي عِمَارَة الرَّبْع، وَيُجْمَع عَلَى أَرْبِعَاء، كَنَصِيب وَأَنْصِبَاء، وَعَلَى أَرْبِعَة، كَرَغِيف وَأَرْغِفَة. وَرَبِيع الآخِر كَالأَوَّلِ. وَجُمَادَى سُمِّيَ بِذَلِكَ لِجُمُودِ المَاء فِيهِ. قَالَ: وَكَانَتْ الشُّهُور فِي حِسَابهمْ لَا تَدُور، وَفِي هَذَا نَظَر؛ إِذْ كَانَتْ شُهُورهم مَنُوطَة بِالأَهِلَّةِ، فَلَابُدَّ مِنْ دَوَرَانهَا، فَلَعَلَّهُمْ سَمَّوْهُ بِذَلِكَ أَوَّل مَا سُمِّيَ عِنْد جُمُود المَاء فِي البَرْد، كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

وَلَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَات أَنْدِيَة ❁ لا يُبْصِر العَبْد فِي ظَلْمَائِهَا الطُّنُبَا
لا يَنْبَح الكَلْب فِيهَا غَيْر وَاحِدَة ❁ حَتَّى يَلُفّ عَلَى خُرْطُومه الذَّنَبَا

وَيُجْمَع عَلَى جُمَادَيَات كَحُبَارَى وَحُبَارَيَات، وَقَدْ يُذَكَّر وَيُؤَنَّث، فَيُقَال: جُمَادَى الأُولَى، وَالأَوَّل، وَجُمَادَى الآخِر، وَالآخِرَة. وَرَجَب مِنْ التَّرْجِيب وَهُوَ التَّعْظِيم، وَيُجْمَع عَلَى أَرْجَاب وَرِجَاب وَرَجَبَات. وَشَعْبَان مِنْ تَشَعُّب القَبَائِل وَتَفَرُّقهَا لِلغَارَة، وَيُجْمَع عَلَى شَعَابِين وَشَعْبَانَات. وَرَمَضَان مِنْ شِدَّة الرَّمْضَاء وَهُوَ الحَرّ، يُقَال: رَمِضَتْ الفِصَال إِذَا عَطِشَتْ، وَيُجْمَع عَلَى رَمَضَانَات، وَرَمَاضِين، وَأَرْمِضَة. قَالَ: وَقَوْل مَنْ قَالَ: إِنَّهُ اِسْم مِنْ أَسْمَاء الله خَطَأ. لَا يُعَرَّج عَلَيْهِ. وَلَا يُلْتَفَت إِلَيْهِ. **قُلت**: قَدْ وَرَدَ فِيه حَدِيث، وَلَكِنَّهُ ضَعِيف، وَبَيَّنْته فِي أَوَّل كِتَاب الصِّيَام. وَشَوَّال مِنْ شَالَتْ الإِبِل بِأَذْنَابِهَا لِلطِّرَاق، قَالَ: وَيُجْمَع عَلَى شَوَاوِل، وَشَوَاوِيل، وَشَوَّالَات. القَعْدَة بِفَتْح القَاف -**قُلت**: وَكَسْرهَا- لِقُعُودِهِمْ فِيهِ عَنْ القِتَال وَالتَّرْحَال، وَيُجْمَع عَلَى ذَوَات القَعْدَة. الحِجَّة بِكَسْر الحَاء -**قُلت**: وَفَتْحهَا- سُمِّيَ بِذَلِكَ لِإِيقَاعِهِمْ الحَجّ فِيهِ، وَيُجْمَع عَلَى ذَوَات الحِجَّة.

أَسْمَاء الأَيَّام: أَوَّلُهَا الأَحَد: وَيُجْمَع عَلَى آحَاد، وَأُحَاد، وَوُحُود. ثُمَّ يَوْم الإِثْنَيْنِ: وَيُجْمَع عَلَى أَثَانِين. الثُّلَاثَاء يُمَدّ وَيُذَكَّر وَيُؤَنَّث وَيُجْمَع عَلَى ثَلَاثَاوَات وَأَثَالِث. ثُمَّ الأَرْبِعَاء بِالْمَدِّ وَيُجْمَع عَلَى أَرْبِعَاوَات وَأَرَابِيع. وَالخَمِيس يُجْمَع عَلَى أَخْمِسَة وَأَخَامِس. ثُمَّ الجُمُعَة بِضَمِّ المِيم وَإِسْكَانِهَا وَفَتْحِهَا أَيْضًا وَيُجْمَع عَلَى جُمَع وَجُمَعَات. السَّبْت مَأْخُوذ مِنْ السَّبْت وَهُوَ القَطْع لِانْتِهَاءِ العَدَد عِنْده، وَكَانَتْ العَرَب تُسَمِّي الأَيَّام أَوَّل ثُمَّ أَهْوَن ثُمَّ جُبَار ثُمَّ دُبَار ثُمَّ مُؤْنِس ثُمَّ العَرُوبَة ثُمَّ شِيَار. قَالَ الشَّاعِر مِنْ العَرَب العَرْبَاء العَارِبَة المُتَقَدِّمِينَ:

أُرَجِّي أَنْ أَعِيش وَإِنَّ يَوْمِي ❁ بِأَوَّل أَوْ بِأَهْوَن أَوْ جُبَار
أَوْ التَّالِي دُبَار فَإِنْ أَفُتْهُ ❁ فَمُؤْنِس أَوْ عَرُوبَة أَوْ شِيَار

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ فَهَذَا مِمَّا كَانَتْ العَرَب أَيْضًا فِي الجَاهِلِيَّة تُحَرِّمهُ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جُمْهُورهمْ إِلَّا طَائِفَة مِنْهُمْ، يُقَال لَهُمْ: البَسْل، كَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ السَّنَة ثَمَانِيَة أَشْهُر تَعَمُّقًا وَتَشْدِيدًا. وَأَمَّا قَوْله: «ثَلَاثَة مُتَوَالِيَات: ذُو القَعْدَة، وَذُو الحَجَّة، وَالمُحَرَّم، وَرَجَب مُضَر الَّذِي بَيْن جُمَادَى وَشَعْبَان» فَإِنَّمَا أَضَافَهُ إِلَى مُضَر لِيُبَيِّن صِحَّة قَوْلهمْ فِي رَجَب: أَنَّهُ الشَّهْر الَّذِي بَيْن جُمَادَى وَشَعْبَان لَا كَمَا كانت تَظُنّهُ رَبِيعَة مِنْ أَنَّ رَجَب المُحَرَّم هُوَ الشَّهْر الَّذِي بَيْن شَعْبَان وَشَوَّال وَهُوَ رَمَضَان اليَوْم، فَبَيَّنَ ﷺ، أَنَّهُ رَجَب مُضَر لَا رَجَب رَبِيعَة، وَإِنَّمَا كَانَتْ الأَشْهُر المُحَرَّمَة أَرْبَعَة، ثَلَاثَة سَرْد وَوَاحِد فَرْد، لِأَجْلِ أَدَاء مَنَاسِك الحَجّ وَالعُمْرَة فَحَرَّمَ قَبْل أَشْهُر الحَجّ شَهْرًا، وَهُوَ ذُو القَعْدَة لِأَنَّهُمْ يَقْعُدُونَ فِيهِ عَنْ القِتَال، وَحُرِّمَ شَهْر ذِي الحَجَّة لِأَنَّهُمْ يُوقِعُونَ فِيهِ الحَجّ وَيَشْتَغِلُونَ بِأَدَاءِ المَنَاسِك، وَحُرِّمَ بَعْده شَهْرًا آخَر وَهُوَ المُحَرَّم لِيَرْجِعُوا فِيهِ إِلَى نَائِي أَقْصَى بِلَادهمْ آمِنِينَ، وَحَرَّمَ رَجَب فِي وَسَط الحَوْل لِأَجْلِ زِيَارَة البَيْت وَالاعْتِمَار بِهِ لِمَنْ يَقْدَم إِلَيْهِ مِنْ أَقْصَى جَزِيرَة العَرَب فَيَزُورهُ ثُمَّ يَعُود إِلَى وَطَنه فِيهِ آمِنًا. وَقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أَيْ: هَذَا هُوَ الشَّرْع المُسْتَقِيم، مِنْ اِمْتِثَال أَمْر الله فِيمَا جَعَلَ مِنْ الأَشْهُر الحُرُم، وَالحَذْو بِهَا عَلَى مَا سَبَقَ فِي كِتَاب الله الأَوَّل. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ أَيْ: فِي هَذِهِ الأَشْهُر المُحَرَّمَة؛ لِأَنَّهَا آكَد وَأَبْلَغ فِي الإِثْم مِنْ غَيْرهَا، كَمَا أَنَّ المَعَاصِي فِي البَلَد الحَرَام تُضَاعَف؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وَكَذَلِكَ الشَّهْر الحَرَام تَغْلُظ فِيهِ الآثَام، وَلِهَذَا تَغْلُظ فِيهِ الدِّيَة فِي مَذْهَب الشَّافِعِيّ وَطَائِفَة كَثِيرَة مِنْ العُلَمَاء، وَكَذَا فِي حَقّ مَنْ قَتَلَ فِي الحَرَم أَوْ قَتَلَ ذَا مَحْرَم. وَقَالَ حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ ابْن زَيْد، عَنْ يُوسُف بْن مَهْرَان، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ قَالَ: فِي الشُّهُور كُلّهَا. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَوْله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ الآيَة، ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ فِي كُلّهنَّ، ثُمَّ اِخْتَصَّ مِنْ ذَلِكَ أَرْبَعَة أَشْهُر، فَجَعَلَهُنَّ حَرَامًا وَعَظَّمَ حُرُمَاتهنَّ، وَجَعَلَ الذَّنْب فِيهِنَّ أَعْظَم، وَالعَمَل الصَّالِح وَالأَجْر أَعْظَم. وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾: إِنَّ الظُّلْم فِي الأَشْهُر الحُرُم أَعْظَم خَطِيئَة وَوِزْرًا مِنْ الظُّلْم فِيمَا سِوَاهَا. وَإِنْ كَانَ الظُّلْم عَلَى كُلّ حَال عَظِيمًا، وَلَكِنَّ الله يُعَظِّم مِنْ أَمْره مَا يَشَاء، وَقَالَ: إِنَّ الله اِصْطَفَى صَفَايَا مِنْ خَلقه؛ اِصْطَفَى مِنْ المَلَائِكَة رُسُلًا وَمِنْ النَّاس رُسُلًا، وَاصْطَفَى مِنْ الكَلَام ذِكْره، وَاصْطَفَى مِنْ الأَرْض المَسَاجِد، وَاصْطَفَى مِنْ الشُّهُور رَمَضَان وَالأَشْهُر الحُرُم، وَاصْطَفَى مِنْ الأَيَّام يَوْم الجُمُعَة، وَاصْطَفَى مِنْ اللَّيَالِي لَيْلَة القَدْر، فَعَظِّمُوا مَا عَظَّمَ الله. فَإِنَّمَا يُعَظِّم الأُمُور مَا عَظَّمَهَا الله بِهِ عِنْد أَهْل الفَهْم وَأَهْل العَقْل. وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ قَيْس بْن مُسْلِم، عَنْ الحَسَن، عَنْ مُحَمَّد ابْن الحَنَفِيَّة: بِأَنْ لَا تُحَرِّمُوهُنَّ كَحُرْمَتِهِنَّ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ أَيْ: لَا تَجْعَلُوا حَرَامهَا حَلَالًا، وَلَا حَلَالهَا حَرَامًا، كَمَا فَعَلَ أَهْل الشِّرْك، فَإِنَّمَا النَّسِيء الَّذِي كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنْ ذَلِكَ زِيَادَة فِي الكُفْر ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآيَة. وَهَذَا القَوْل اِخْتِيَار اِبْن جَرِير.

وَقَوْله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أَيْ: جَمِيعكُمْ ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أَيْ: جَمِيعهمْ، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي تَحْرِيم اِبْتِدَاء الْقِتَال فِي الشَّهْر الْحَرَام هَل هُوَ مَنْسُوخ أَوْ مُحْكَم؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: أحدهما: -وَهُوَ الأَشْهَر- أَنَّهُ مَنْسُوخ؛ لأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ هَاهُنَا: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وَأَمَرَ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَظَاهِر السِّيَاق مُشْعِر بِأَنَّهُ أَمَرَ بِذَلِكَ أَمْرًا عَامًّا، وَلَوْ كَانَ مُحَرَّمًا فِي الشَّهْر الْحَرَام لأَوْشَكَ أَنْ يُقَيِّدهُ بِانْسِلَاخِهَا؛ وَلأَنَّ رَسُول الله ﷺ حَاصَرَ أَهْل الطَّائِف فِي شَهْر حَرَام وَهُوَ ذُو الْقَعْدَة، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى هَوَازِن فِي شَوَّال، فَلَمَّا كَسَرَهُمْ وَاسْتَفَاءَ أَمْوَالهمْ وَرَجَعَ فَلّهمْ فَلَجَئُوا إِلَى الطَّائِف -عَمَدَ إِلَى الطَّائِف فَحَاصَرَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَانْصَرَفَ وَلَمْ يَفْتَتِحهَا، فَثَبَتَ أَنَّهُ حَاصَرَ فِي الشَّهْر الْحَرَام.

وَالقَوْل الآخَر: أَنَّ اِبْتِدَاء الْقِتَال فِي الشَّهْر الْحَرَام حَرَام، وَأَنَّهُ لَمْ يُنْسَخ تَحْرِيم الشَّهْر الْحَرَام لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، وَقَالَ: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الآيَة، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآيَة.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهَا الأَرْبَعَة الْمُقَرَّرَة فِي كُلّ سَنَة، لَا أَشْهُر التَّسْيِير عَلَى أَحَد الْقَوْلَيْنِ. وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فَيَحْتَمِل أَنَّهُ مُنْقَطِع عَمَّا قَبْله، وَأَنَّهُ حُكْم مُسْتَأْنَف، وَيَكُون مِنْ بَاب التَّهْيِيج وَالتَّحْضِيض، أَيْ: كَمَا يَجْتَمِعُونَ لِحَرْبِكُمْ إِذَا حَارَبُوكُمْ، فَاجْتَمِعُوا أَنْتُمْ أَيْضًا لَهُمْ إِذَا حَارَبْتُمُوهُمْ، وَقَاتِلُوهُمْ بِنَظِيرِ مَا يَفْعَلُونَ. وَيَحْتَمِل أَنَّهُ إِذْن لِلْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي الشَّهْر الْحَرَام إِذَا كَانَتْ الْبَدَاءَة مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ الآيَة. وَهَكَذَا الْجَوَاب عَنْ حِصَار رَسُول الله ﷺ أَهْل الطَّائِف، وَاسْتِصْحَابه الْحِصَار إِلَى أَنْ دَخَلَ الشَّهْر الْحَرَام، فَإِنَّهُ مِنْ تَتِمَّة قِتَال هَوَازِن وَأَحْلَافهَا مِنْ ثَقِيف، فَإِنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ اِبْتَدَءُوا الْقِتَال، وَجَمَعُوا الرِّجَال وَدَعَوْا إِلَى الْحَرْب وَالنِّزَال، فَعِنْدَهَا قَصَدَهُمْ رَسُول الله ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ، فَلَمَّا تَحَصَّنُوا بِالطَّائِفِ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ لِيُنْزِلهُمْ مِنْ حُصُونهمْ، فَنَالُوا مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَقَتَلُوا جَمَاعَة، وَاسْتَمَرَّ الْحِصَار بِالْمَجَانِيقِ وَغَيْرهَا قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَكَانَ اِبْتِدَاؤُهُ فِي شَهْر حَلَال وَدَخَلَ الشَّهْر الْحَرَام فَاسْتَمَرَّ فِيهِ أَيَّامًا، ثُمَّ قَفَلَ عَنْهُمْ؛ لأَنَّهُ يُغْتَفَر فِي الدَّوَام مَا لَا يُغْتَفَر فِي الاِبْتِدَاء، وَهَذَا أَمْر مُقَرَّر وَلَهُ نَظَائِر كَثِيرَة، وَالله أَعْلَم. وَلْنَذْكُرْ الأَحَادِيث الْوَارِدَة فِي ذَلِكَ. وَقَدْ حَرَّرْنَا ذَلِكَ فِي السِّيرَة، وَالله أَعْلَم.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

هَذَا مِمَّا ذَمَّ الله تَعَالَى بِهِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ تَصَرُّفهمْ فِي شَرْع الله بِآرَائِهِمْ الْفَاسِدَة، وَتَغْيِيرهمْ أَحْكَام الله بِأَهْوَائِهِمْ الْبَارِدَة، وَتَحْلِيلهمْ مَا حَرَّمَ الله، وَتَحْرِيمهمْ مَا أَحَلَّ الله، فَإِنَّهُمْ كَانَ فِيهِمْ مِنْ الْقُوَّة الْغَضَبِيَّة وَالشهامة والحمية مَا اِسْتَطَالُوا بِهِ مُدَّة الأَشْهُر الثَّلَاثَة فِي التَّحْرِيم الْمَانِع لَهُمْ مِنْ قَضَاء أَوْطَارهمْ مِنْ قِتَال أَعْدَائِهِمْ، فَكَانُوا قَدْ أَحْدَثُوا قَبْل الإِسْلَام بِمُدَّةٍ تَحْلِيل الْمُحَرَّم وَتأخيره إِلَى صَفَر، فَيُحِلُّونَ الشَّهْر الْحَرَام وَيُحَرِّمُونَ الشَّهْر الْحَلَال؛ لِيُوَاطِئُوا عِدَّة الأَشْهُر الأَرْبَعَة، كَمَا قَالَ شَاعِرهمْ وَهُوَ عُمَيْر بْن قَيْس الْمَعْرُوف بِجِذْلِ الطِّعَان:

لَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدّ أَنَّ قَوْمِي ۞ كِرَام النَّاس إِنَّ لَهُمْ كِرَامَا
أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدّ ۞ شُهُور الْحِلّ نَجْعَلهَا حَرَامَا
فَأَيّ النَّاس لَمْ نُدْرِك بِوِتْرٍ ۞ وَأَيّ النَّاس لَمْ نَعْلُك لِجَامَا

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ قَالَ: النَّسِيء: أَنَّ جُنَادَة بْن عَوْف بْن أُمَيَّة الكِنَانِيّ كَانَ يُوَافِي المَوْسِم فِي كُلّ عَام، وَكَانَ يُكَنَّى أَبَا ثُمَامَة، فَيُنَادِي: أَلَا إِنَّ أَبَا ثُمَامَة لَا يُحَاب وَلَا يُعَاب، أَلَا وَإِنَّ صَفَر العَام الأَوَّل العَام حَلَال، فَيُحِلّهُ لِلنَّاسِ، فَيُحَرِّم صَفَرًا عَامًا وَيُحَرِّم المُحَرَّم عَامًا، فَذَلِكَ قَوْل الله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ يَقُول: يَتْرُكُونَ المُحَرَّم عَامًا، وَعَامًا يُحَرِّمُونَهُ. وَرَوَى العَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس، نَحْوه.

وَقَالَ لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ مُجَاهِد: كَانَ رَجُل مِنْ بَنِي كِنَانَة يَأْتِي كُلّ عَام إِلَى المَوْسِم عَلَى حِمَار لَهُ، فَيَقُول: يا أَيُّهَا النَّاس؛ إِنِّي لَا أُعَاب وَلَا أُحَاب، وَلَا مَرَدّ لِمَا أَقُول، إِنَّا قَدْ حَرَّمْنَا المُحَرَّم وَأَخَّرْنَا صَفَر. ثُمَّ يَجِيء العَام المُقْبِل بَعْده فيَقُول مِثْل مَقَالَته، وَيَقُول: إِنَّا قَدْ حَرَّمْنَا صَفَرًا وَأَخَّرْنَا المُحَرَّم، فَهُوَ قَوْله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قَالَ: يَعْنِي الأَرْبَعَة، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ الله بِتَأْخِيرِ هَذَا الشَّهْر الحَرَام. وَرُوِيَ عَنْ أَبِي وَائِل وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة نَحْو هَذَا. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ الآيَة. قَالَ: هَذَا رَجُل مِنْ بَنِي كِنَانَة يُقَال لَهُ: القَلَمَّس، وَكَانُوا فِي الجَاهِلِيَّة لَا يُغِير بَعْضهمْ عَلَى بَعْض فِي الشَّهْر الحَرَام، يَلْقَى الرَّجُل قَاتِل أَبِيهِ وَلَا يَمُدّ إِلَيْهِ يَده، فَلَمَّا كَانَ هُوَ قَالُوا: أُخْرُجُوا بِنَا. قَالُوا لَهُ: هَذَا المُحَرَّم. قَالَ: نُنْسِئهُ العَام هُمَا العَام صَفَرَانِ، فَإِذَا كَانَ العَام القَابِل قَضَيْنَا جَعلنَاهُمَا مُحَرَّمَيْنِ، قَالَ: فَفعَلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ عَام قَابِل قَالَ: لَا تَغْزُوا فِي صَفَر حَرِّمُوهُ مَعَ المُحَرَّم هُمَا مُحَرَّمَانِ. فَهَذِهِ صِفَة غَرِيبَة فِي النَّسِيء، وَفِيهَا نَظَر؛ لأَنَّهُمْ فِي عَام إِنَّمَا يُحَرِّمُونَ عَلَى هَذَا ثَلَاثَة أَشْهُر فَقَطْ، وَفِي العَام الَّذِي يَلِيه يُحَرِّمُونَ خَمْسَة أَشْهُر، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؟.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد صِفَة أُخْرَى غَرِيبَة أَيْضًا، فَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَنَا مَعْمَر، عَنْ ابن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ الآيَة. قَالَ: فَرَضَ الله ﷻ، الحَجّ فِي ذِي الحَجَّة، قَالَ: وَكَانَ المُشْرِكُونَ يُسَمُّونَ الأشهر: ذَا الحَجَّة، والمُحَرَّم، وَصَفَر، وَرَبِيع، وَرَبِيع الأول، وَجُمَادَى، وَجُمَادَى، وَرَجَب، وَشَعْبَان، وَرَمَضَان، وَشَوَّالًا، وَذَا القَعْدَة، وَذَا الحَجَّة يَحُجُّونَ فِيهِ مَرَّة أُخْرَى، ثُمَّ يَسْكُتُونَ عَنْ المُحَرَّم وَلَا يَذْكُرُونَهُ، ثُمَّ يَعُودُون فَيُسَمُّونَ صفرًا صَفَرًا، ثُمَّ يُسَمُّونَ رَجَبًا جُمَادَى الآخِر، ثُمَّ يُسَمُّونَ شَعْبَان رَمَضَان، ثُمَّ يُسَمُّونَ شَوَّالًا رَمَضَان، ثُمَّ يُسَمُّونَ ذَا القَعْدَة شَوَّالًا، ثُمَّ يُسَمُّونَ ذَا الحَجَّة ذَا القَعْدَة، ثُمَّ يُسَمُّونَ المُحَرَّم ذَا الحَجَّة فَيَحُجُّونَ فِيهِ، وَاسْمه عِنْدهمْ ذُو الحَجَّة، ثُمَّ عَادُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّفَة فَكَانُوا يَحُجُّونَ فِي كُلّ شَهْر عَامَيْنِ، حَتَّى وَافَقَ حَجَّة أَبِي بَكْر الآخِر مِنْ العَامَيْنِ فِي ذِي القَعْدَة ثُمَّ حَجَّ النَّبِيّ ﷺ حَجَّته الَّتِي حَجَّ فَوَافَقَ ذَا الحَجَّة، فَذَلِكَ حِين يَقُول النَّبِيّ ﷺ فِي خُطْبَته: **«إِنَّ الزَّمَان قَدْ اِسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلَقَ الله السَّمَاوَات وَالأَرْض»**. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُجَاهِد فِيهِ نَظَر أَيْضًا، وَكَيْف تَصِحّ حَجَّة أَبِي بَكْر وَقَدْ وَقَعَتْ فِي ذِي القَعْدَة وَأَنَّى هَذَا؟ وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآيَة، وَإِنَّمَا نُودِيَ بذلك فِي حَجَّة أَبِي بَكْر، فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي ذِي الحَجَّة لَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ وَلَا يَلزَم مِنْ فِعْلهمْ النَّسِيء هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ دَوَرَان السَّنَة عَلَيْهِمْ، وَحَجّهمْ فِي كُلّ شَهْر عَامَيْنِ، فَإِنَّ النَّسِيء حَاصِل بِدُونِ هَذَا، فَإِنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا يُحِلُّونَ شَهْر المُحَرَّم عَامًا يُحَرِّمُونَ عِوَضه صَفَرًا، وَبَعْده رَبِيع وَرَبِيع، إِلَى آخِر السَّنَة بِحَالِهَا عَلَى نِظَامهَا وَعِدَّتهَا وَأَسْمَاء شُهُورهَا، ثُمَّ فِي السَّنَة الثَّانِيَة يُحَرِّمُونَ المُحَرَّم وَيَتْرُكُونَهُ عَلَى تَحْرِيمه، وَبَعْده صَفَر وَرَبِيع وَرَبِيع إِلَى آخِرهَا فـ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فيحلوا ما حرم، أَيْ: فِي تَحْرِيم أَرْبَعَة أَشْهُر مِنْ السَّنَة، إِلَّا أَنَّهُمْ تَارَة يُقَدِّمُونَ تَحْرِيم الشَّهْر الثَّالِث مِنْ الثَّلَاثَة المُتَوَالِيَة وَهُوَ المُحَرَّم، وَتَارَة يُنْسِئُونَهُ إِلَى صَفَر، أَيْ: يُؤَخِّرُونَهُ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الكَلَام عَلَى قَوْله ﷺ: **«إِنَّ الزَّمَان قَدْ اِسْتَدَارَ كهيئته يوم خلق الله**

السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرُم، ثلاث متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم، ورجب مُضَر». أَيْ: إِنَّ الأَمْر فِي عِدَّة الشُّهُور، وَتَحْرِيم مَا هُوَ مُحَرَّم مِنْهَا، عَلَى مَا سَبَقَ فِي كِتَاب الله مِنَ العَدَد وَالتَّوَالِي، لَا كَمَا تَعْتَمِدهُ جَهَلَة العَرَب مِنْ فَصْلهمْ تَحْرِيم بَعْضهَا بِالنَّسِيءِ عَنْ بَعْض، وَالله أَعْلَم. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا صَالِح بْن بِشْر بْن سَلَمَة الطَّبَرَانِيّ، حَدَّثَنَا مَكِّيّ بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله ابْن دِينَار، عَنْ اِبْن عُمَر، أَنَّهُ قَالَ: وَقَفَ رَسُول الله ﷺ بِالعَقَبَة فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مَنْ شَاءَ الله مِنْ الْمُسْلِمِينَ، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْل، ثُمَّ قَالَ: «وَإِنَّمَا النَّسِيء مِنْ الشَّيْطَان زِيَادَة فِي الكُفْر يُضَلّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا»[1]. فَكَانُوا يُحَرِّمُونَ الْمُحَرَّم عَامًا وَيَسْتَحِلُّونَ صَفَرًا، وَيَسْتَحِلُّونَ الْمُحَرَّم وَهُوَ النَّسِيء.

وَقَدْ تَكَلَّمَ الإِمَام مُحَمَّد بْن إِسْحَاق عَلَى هَذَا فِي كِتَاب السِّيرَة كَلَامًا جَيِّدًا مُفِيدًا حَسَنًا، فَقَالَ: كَانَ أَوَّل مَنْ نَسَأَ الشُّهُور عَلَى العَرَب، فَأَحَلَّ مِنْهَا مَا حَرَّمَ الله وَحَرَّمَ مِنْهَا مَا أَحَلَّ الله ﷻ القَلَمَّس، وَهُوَ حُذَيْفَة بْن عَبْد فُقَيْم ابْن عَدِيّ بْن عَامِر بْن ثَعْلَبَة بْن الحَارِث بْن مَالِك بْن كِنَانَة بْن خُزَيْمَة بْن مُدْرِكَة بْن إِلْيَاس بْن مُضَر بْن نِزَار بْن مَعَدّ بْن عَدْنَان، ثُمَّ قَامَ بَعْده عَلَى ذَلِكَ اِبْنه عَبَّاد، ثُمَّ مِنْ بَعْد عَبَّاد اِبْنه قلع بْن عَبَّاد، ثُمَّ اِبْنه أُمَيَّة بْن قلع، ثُمَّ اِبْنه عَوْف بْن أُمَيَّة، ثُمَّ اِبْنه أَبُو ثُمَامَة جُنَادَة بْن عَوْف، وَكَانَ آخِرهمْ وَعَلَيْهِ قَامَ الإِسْلَام، فَكَانَتْ العَرَب إِذَا فَرَغَتْ مِنْ حَجّهَا اِجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ، فَقَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا فَحَرَّمَ رَجَبًا وَذَا القَعْدَة وَذَا الحَجَّة وَيُحِلّ الْمُحَرَّم عَامًا وَيَجْعَل مَكَانه صَفَرًا، وَيُحَرِّمهُ عَامًا لِيُوَاطِئ عِدَّة مَا حَرَّمَ الله فَيُحِلّ مَا حَرَّمَ الله يَعْنِي وَيُحَرِّم مَا أَحَلَّ الله. وَالله أَعْلَم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾

هَذَا شُرُوع فِي عِتَاب مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُول الله ﷺ فِي غَزْوَة تَبُوك، حِين طَابَتْ الثِّمَار وَالظِّلَال فِي شِدَّة الحَرّ وَحَمَارَة القَيْظ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الجِهَاد فِي سَبِيل الله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ أَيْ: تَكَاسَلْتُمْ وَمِلْتُمْ إِلَى الْمُقَام فِي الدَّعَة وَالخَفْض وَطِيب الثِّمَار ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ أَيْ: مَا لَكُمْ فَعَلْتُمْ هَكَذَا؟ أَرِضًا مِنْكُمْ بِالدُّنْيَا بَدَلًا مِنْ الآخِرَة؟.

ثُمَّ زَهَّدَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي الدُّنْيَا، وَرَغَّبَ فِي الآخِرَة فَقَالَ: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع وَيَحْيَى بْن سَعِيد، قَالَا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالِد، عَنْ قَيْس، عَنْ الْمُسْتَوْرِد أَخِي بَنِي فِهْر، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَة إِلَّا كَمَا يَجْعَل أَحَدكُمْ أُصْبُعه هَذِهِ فِي اليَمّ، فَلْيَنْظُر بِمَا تَرْجِع؟» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَة[2]. اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِم. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم، حَدَّثَنَا بِشْر بْن مُسْلِم بْن عَبْد الحَمِيد الحِمْصِيّ بِحِمْص، حَدَّثَنَا الرَّبِيع بْن رَوْح، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن خَالِد الوَهْبِيّ، حَدَّثَنَا زِيَاد -يَعْنِي الجَصَّاص-، عَنْ أَبِي عُثْمَان، قَالَ: قُلْت: يَا أَبَا هُرَيْرَة؛ سَمِعْت مِنْ إِخْوَانِي بِالبَصْرَة أَنَّكَ تَقُول: سَمِعْت نَبِيّ الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ الله يَجْزِي بِالحَسَنَة أَلْف أَلْف حَسَنَة» قَالَ أَبُو هُرَيْرَة: بَل سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ الله يَجْزِي بِالحَسَنَة أَلْفَيْ أَلْف حَسَنَة» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَة ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3]. فَالدُّنْيَا: مَا مَضَى مِنْهَا وَمَا بَقِيَ مِنْهَا، عِنْد الله قَلِيل. وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ الأَعْمَش، فِي الآيَة ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٠٠١٩) بسند ضعيف، فيه موسى بن عبيدة: ضعيف.
(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٣).
(٣) **حسن لغيره**: تقدم.

﴿الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب. وقال عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه [قال]: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة، قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول: أف لك من دار، إن كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور.

ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ، حيًّا من العرب فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: ولا تضروا الله شيئًا بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتثاقلكم عنه، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم. وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾: أنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ روي هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم، ورده ابن جرير، وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ، إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه، وهذا له اتجاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي: عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا صحبة صديقه وصديقه وصاحبه أبي بكر ابن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام؛ ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبو بكر ﷺ يجزع أن يطلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول ﷺ، منهم أذى، فجعل النبي ﷺ، يسكنه ويثبته ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟». كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس، أن أبا بكر حدثه، قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[(١)]. أخرجاه في الصحيحين. ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول ﷺ، في أشهر القولين: وقيل: على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره قالوا: لأن الرسول ﷺ، لم تزل معه سكينة. وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ قال ابن عباس: يعني بكلمة الذين كفروا الشرك، وكلمة الله هي لا إله إلا الله. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: سئل رسول الله ﷺ، عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[(٢)]. وقوله:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).
(٢) صحيح: تقدم.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيْ: فِي اِنْتِقَامه وَانْتِصَاره، مَنِيع الجَنَاب لَا يُضَام مَنْ لَاذَ بِبَابِهِ، وَاحْتَمَى بِالتَّمَسُّكِ بِخِطَابِهِ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَقْوَاله وَأَفْعَاله.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى مُسْلِم بْن صُبَيْح: هَذِهِ الآيَة ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أَوَّل مَا نَزَلَ مِنْ سُورَة بَرَاءَة. وَقَالَ مُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: زَعَمَ حَضْرَمِيّ أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ نَاسًا كَانُوا عَسَى أَنْ يَكُون أَحَدهمْ عَلِيلًا أو كَبِيرًا، فَيَقُول: إِنِّي لَا آثَم. فَأَنْزَلَ الله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآيَة. أَمَرَ الله تَعَالَى بِالنَّفِيرِ العَامّ مَعَ رَسُول الله ﷺ، عَام غَزْوَة تَبُوك؛ لِقِتَالِ أَعْدَاء الله مِنْ الرُّوم الكَفَرَة مِنْ أَهْل الكِتَاب، وَحَتَّمَ عَلَى المُؤْمِنِينَ فِي الخُرُوج مَعَهُ عَلَى كُلّ حَال؛ فِي المَنْشَط وَالمَكْرَه، وَالعُسْر وَاليُسْر، فَقَالَ: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وَقَالَ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ أَنَس، عَنْ أَبِي طَلْحَة: كُهُولًا وَشُبَّانًا، مَا سَمِعَ الله عُذْر أَحَد، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الشَّام فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ. وَفِي رِوَايَة: قَرَأَ أَبُو طَلْحَة سُورَة بَرَاءَة فَأَتَى عَلَى هَذِهِ الآيَة ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ فَقَالَ: أَرَى رَبّنَا يستَنْفِرُنَا شُيُوخًا وَشُبَّانًا، جَهِّزُونِي يَا بَنِيَّ. فَقَالَ بَنُوهُ: يَرْحَمك الله؛ قَدْ غَزَوْت مَعَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى مَاتَ، وَمَعَ أَبِي بَكْر حَتَّى مَاتَ، وَمَعَ عُمَر حَتَّى مَاتَ، فَنَحْنُ نَغْزُو عَنْك، فَأَبَى فَرَكِبَ البَحْر فَمَاتَ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَة يَدْفِنُونَهُ بِهَا إِلَّا بَعْد تِسْعَة أَيَّام فَلَمْ يَتَغَيَّر فَدَفَنُوهُ بها. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَعِكْرِمَة، وَأَبِي صَالِح، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَشَمر بْن عَطِيَّة، وَمُقَاتِل بْن حَيَّان، وَالشَّعْبِيّ، وَزَيْد بْن أَسْلَم: أَنَّهُمْ قَالُوا فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: كُهُولًا وَشُبَّانًا، وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَة، وَالضَّحَّاك، وَمُقَاتِل بْن حَيَّان، وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ مُجَاهِد: شُبَّانًا وَشُيُوخًا وَأَغْنِيَاء وَمَسَاكِين، وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِح وَغَيْره.

وقَالَ الحَكَم بْن عُتَيْبَة: مَشَاغِيل وَغَيْر مَشَاغِيل. وَقَالَ العَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يَقُول: اِنْفِرُوا نِشَاطًا وَغَيْر نِشَاط. وَكَذَا قَالَ قَتَادَة. وَقَالَ اِبْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قَالُوا: فَإِنَّ فِينَا الثَّقِيل وَذا الحَاجَة وَالضَّيْعَة وَالشَّغِل وَالمُتَيَسِّر بِهِ أَمْره، فَأَنْزَلَ الله وَأَبَى أَنْ يَعْذُرهُمْ دُون أَنْ يَنْفِرُوا ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أَيْ: عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ. وَقَالَ الحَسَن بْن أَبِي الحَسَن البَصْرِيّ أَيْضًا: فِي العُسْر وَاليُسْر، وَهَذَا كُلّه مِنْ مُقْتَضَيَات العُمُوم فِي الآيَة، وَهَذَا اِخْتِيَار اِبْن جَرِير. وَقَالَ الإِمَام أَبُو عَمْرو الأَوْزَاعِيّ: إِذَا كَانَ النَّفِير إِلَى دُرُوب الرُّوم نَفَر النَّاس إِلَيْهَا خِفَافًا وَرُكْبَانًا، وَإِذَا كَانَ النَّفِير إِلَى هَذِهِ السَّوَاحِل نَفَرُوا إِلَيْهَا خِفَافًا وَثِقَالًا وَرُكْبَانًا وَمُشَاة، وَهَذَا تَفْصِيل فِي المَسْأَلَة. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَغَيْرهمْ: أَنَّ هَذِهِ الآيَة مَنْسُوخَة بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ وَسَيَأْتِي الكَلَام عَلَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ الله، وَقَالَ السُّدِّيّ قَوْله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يَقُول: غَنِيًّا وَفَقِيرًا، وَقَوِيًّا وَضَعِيفًا، فَجَاءَهُ رَجُل يَوْمئِذٍ -زَعَمُوا أَنَّهُ المِقْدَاد- وَكَانَ عَظِيمًا سَمِينًا، فَشَكَى إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَن لَهُ، فَأَبَى فَنَزَلَتْ يَوْمئِذٍ: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة اِشْتَدَّ عَلَى النَّاس شأنها، فَنَسَخَهَا الله تَعَالَى فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنَا اِبْن عُلَيَّة، حَدَّثَنَا أَيُّوب، عَنْ مُحَمَّد، قَالَ: شَهِدَ أَبُو أَيُّوب مَعَ رَسُول الله ﷺ، بَدْرًا ثُمَّ لَمْ يَتَخَلَّف عَنْ غَزَاة لِلمُسْلِمِينَ إلا وهو فِي آخرين إِلَّا عَامًا وَاحِدًا، قَالَ: وَكَانَ أَبُو أَيُّوب يَقُول: قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فَلَا أَجِدنِي إِلَّا خَفِيفًا أَوْ ثَقِيلًا. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي سَعِيد بْن عَمْرو السَّكُونِيّ، حَدَّثَنَا بَقِيَّة، حَدَّثَنَا حريز، حَدَّثَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن مَيْسَرَة، حَدَّثَنِي أَبُو رَاشِد الحبراني، قَالَ: وَافَيْت المِقْدَاد بْن الأَسْوَد،

فَارِس رَسُول الله ﷺ جَالِسًا عَلَى تَابُوت مِنْ تَوَابِيت الصَّيَارِفَة بِحِمْص، وَقَدْ فَضَلَ عَنْهَا مِنْ عِظَمه يُرِيد الغَزْو، فَقُلت لَهُ: قَدْ أَعْذَرَ الله إِلَيْك. فَقَالَ: أَتَتْ عَلَيْنَا سُورَة البَحُوث ﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وَبه قَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي حَبَّان بْن زَيْد الشَّرْعبيّ، قَالَ: نَفَرنَا مَعَ صَفْوَان بْن عَمْرو، وَكَانَ وَالِيًا عَلَى حِمْص، قَبْل الأُفْسُوس إِلَى الجراجمة، فَرَأَيْت شَيْخًا كَبِيرًا هِمًّا قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، مِنْ أَهْل دِمَشْق عَلَى رَاحِلَته فِيمَنْ أَغَارَ، فَأَقْبَلت إِلَيْهِ، فَقُلت: يَا عَمّ؛ لَقَدْ أَعْذَرَ الله إِلَيْك. قَالَ: فَرَفَعَ حَاجِبِيهِ فَقَالَ: يَا بْن أَخِي؛ اِسْتَنْفَرَنَا الله خِفَافًا وَثِقَالًا، إِنَّهُ مَنْ يُحِبّهُ الله يَبْتَلِيه، ثُمَّ يُعِيدهُ الله فَيُبْقِيه، وَإِنَّمَا يَبْتَلِي الله مِنْ عِبَادِهِ مَنْ شَكَرَ وَصَبَرَ وَذَكَرَ، وَلَمْ يَعْبُد إِلَّا الله ﷻ.

ثُمَّ رَغَّبَ تَعَالَى فِي النَّفَقَة فِي سَبِيله، وَبَذْل المُهَج فِي مَرْضَاته وَمَرْضَاة رَسُوله، فَقَالَ: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: هَذَا خَيْر لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة؛ لأَنَّكُمْ تَغْرَمُونَ فِي النَّفَقَة قَلِيلًا، فَيُغْنِمكُمْ الله أَمْوَال عَدُوّكُمْ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِر لَكُمْ مِنْ الكَرَامَة فِي الآخِرَة، كَمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ: **«تَكَفَّلَ الله لِلمُجَاهِدِ فِي سَبِيله؛ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلهُ الجَنَّة، أَوْ يَرُدّهُ إِلَى مَنْزِله نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْر أَوْ غَنِيمَة»**[1].

وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَمِنْ هَذَا القَبِيل مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس، أن رَسُول الله ﷺ، قَالَ لِرَجُلٍ: **«أَسْلِمْ»**. قَالَ: أَجِدنِي كَارِهًا. قَالَ: **«أَسْلِمْ وَإِنْ كُنْت كَارِهًا»**[2].

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُوَبِّخًا لِلَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ النَّبِيّ ﷺ، فِي غَزْوَة تَبُوك وَقَعَدُوا عن النبي ﷺ بَعْد مَا اِسْتَأْذَنُوهُ فِي ذَلِكَ، مُظْهِرِينَ أَنَّهُمْ ذَوُو أَعْذَار، وَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس: غَنِيمَة قَرِيبَة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أَيْ: قَرِيبًا أَيْضًا؛ ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ أَيْ: لَكَانُوا جَاءُوا مَعَك لِذَلِكَ، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ أَيْ: المَسَافَة إِلَى الشَّام، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أَيْ: لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أَيْ: لَوْ لَمْ تَكُنْ لَنَا أَعْذَار لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ؛ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾

قَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو حُصَيْن بْن سُلَيْمَان الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ مِسْعَر، عَنْ عَوْن، قَالَ: هَل سَمِعْتُمْ بِمُعَاتَبَةٍ أَحْسَن مِنْ هَذَا؟ بدأ بِالعَفْوِ قَبْل المُعَاتَبَة فَقَالَ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾. وَكَذَا قَالَ مُوَرِّق العِجْلِيّ وَغَيْره. وَقَالَ قَتَادَة: عَاتَبَهُ كَمَا تَسْمَعُونَ، ثُمَّ أَنْزَلَ الَّتِي فِي سُورَة النُّور، فَرَخَّصَ لَهُ فِي أَنْ يَأْذَن لَهُمْ إِنْ شَاءَ، فَقَالَ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الآيَة. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ. وَقَالَ مُجَاهِد: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي أُنَاس قَالُوا: اِسْتَأْذِنُوا رَسُول الله ﷺ، فَإِنْ أَذِنَ لَكُمْ فَاقْعُدُوا، وَإِنْ لَمْ يَأْذَن لَكُمْ فَاقْعُدُوا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أَيْ: فِي إِبْدَاء الأَعْذَار، ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. يَقُول تَعَالَى: هَلَّا تَرَكْتهمْ لَمَّا اِسْتَأْذَنُوك فَلَمْ تَأْذَن لأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي القُعُود؛ لِتَعْلَم الصَّادِق مِنْهُمْ فِي

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٦٣)، ومسلم (١٨٧٦).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٠٩، ١٨١)، وأبو يعلى (٦/ ٤٧١) من حديث أنس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٧٩).

إِظْهَار طَاعَتك مِنْ الكَاذِب، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا مُصِرِّينَ عَلَى القُعُود عَنْ الغَزْو وَإِنْ لَمْ تَأْذَن لَهُمْ فِيهِ. وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَسْتَأْذِنهُ فِي القُعُود عَنْ الغَزْو أَحَد يُؤْمِن بِالله وَرَسُوله، فَقَالَ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أَيْ: فِي القُعُود عَنْ الغَزْو ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ لأن أولئك يَرَوْنَ الجِهَاد قُرْبَة، وَلَمَّا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ بَادَرُوا وَامْتَثَلُوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝٤٤ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أَيْ: فِي القُعُود مِمَّنْ لَا عُذْر لَهُ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أَيْ: لَا يَرْجُونَ ثَوَاب الله فِي الدَّار الآخِرَة عَلَى أَعْمَالهمْ، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيْ: شَكَّتْ فِي صِحَّة مَا جِئْتهمْ بِهِ، ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أَيْ: يَتَحَيَّرُونَ، يُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُونَ أُخْرَى، وَلَيْسَتْ لَهُمْ قَدَم ثَابِتَة فِي شَيْء، فَهُمْ قَوْم حَيَارَى هَلكَى، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ، وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ، وَمَنْ يُضْلِل الله فَلَنْ تَجِد لَهُ سَبِيلًا.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ أَيْ: مَعَك إِلَى الغَزْو ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أَيْ: لَكَانُوا تَأَهَّبُوا لَهُ ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أَيْ: أَبْغَض أَنْ يَخْرُجُوا مَعَكُمْ قَدَرًا ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أَيْ: أَخَّرَهُمْ ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أَيْ: قَدَرًا. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى وَجْه كَرَاهِيَته لِخُرُوجِهِمْ مَعَ المُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أَيْ: لأَنَّهُمْ جُبَنَاء مَخْذُولُونَ، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أَيْ: وَلَأَسْرَعُوا السَّيْر وَالمَشْي بَيْنَكُمْ بِالنَّمِيمَةِ وَالبَغْضَاء وَالفِتْنَة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أَيْ: مُطِيعُونَ لَهُمْ، وَمُسْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَكَلَامهمْ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالهمْ؛ فَيُؤَدِّي هذا إِلَى وُقُوع شَرّ بَيْن المُؤْمِنِينَ وَفَسَاد كَبِير. وَقَالَ مُجَاهِد، وَزَيْد ابْن أَسْلَم، وَابْن جَرِير ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أَيْ: عُيُون يَسْمَعُونَ لَهُمْ الأَخْبَار وَيَنْقُلُونَهَا إِلَيْهِمْ. وَهَذَا لَا يَبْقَى لَهُ اِخْتِصَاص بِخُرُوجِهِمْ مَعَهُمْ، بَل هَذَا عَامّ فِي جَمِيع الأَحْوَال، وَالمَعْنَى الأَوَّل أَظْهَر فِي المُنَاسَبَة بِالسِّيَاق، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ قَتَادَة، وَغَيْره مِنْ المُفَسِّرِينَ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: كَانَ الَّذِينَ اِسْتَأْذَنُوا فِيمَا بَلَغَنِي مِنْ ذَوِي الشَّرَف مِنْهُمْ: عَبْد الله ابْن أُبَيّ ابْن سَلُول، وَالجَدّ بْن قَيْس، وَكَانُوا أَشْرَافًا فِي قَوْمهمْ، فَثَبَّطَهُمْ الله؛ لِعِلمِهِ بِهِمْ؛ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ فَيُفْسِدُوا عَلَيْهِ جُنْده، وَكَانَ فِي جُنْده قَوْم أَهْل مَحَبَّة لَهُمْ، وَطَاعَة فِيمَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ؛ لِشَرَفِهِمْ فِيهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَام عِلمه فَقَالَ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَم مَا كَانَ، وَمَا يَكُون، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْف كَانَ يَكُون، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فَأَخْبَرَ عَنْ حَالهمْ كَيْف يَكُون لَوْ خَرَجُوا؛ وَمَعَ هَذَا مَا خَرَجُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُحَرِّضًا لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى المُنَافِقِينَ: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أَيْ: لَقَدْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ، وَأَجَالُوا آرَاءَهُمْ فِي كَيْدِك وَكَيْد أَصْحَابك، وَخِذْلَان دِينك وَإِخْمَاله مُدَّة طَوِيلَة؛ وَذَلِكَ أَوَّل مَقْدِم النَّبِيّ ﷺ المَدِينَة، رَمَتْهُ العَرَب عَنْ قَوْس وَاحِدَة، وَحَارَبَتْهُ يَهُود المَدِينَة وَمُنَافِقُوهَا، فَلَمَّا نَصْره الله يَوْم بَدْر وَأَعْلَى كَلِمَته، قَالَ عَبْد الله بْن أُبَيّ وَأَصْحَابه: هَذَا أَمْر قَدْ تَوَجَّهَ فَدَخَلُوا فِي الإِسْلَام ظَاهِرًا، ثُمَّ كُلَّمَا أَعَزَّ الله الإِسْلَام وَأَهْله غَاظَهُمْ ذَلِكَ وَسَاءَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَقُول لَك: يَا مُحَمَّد؛ ﴿ائْذَن لِّي﴾ فِي الْقُعُود، ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ بِالْخُرُوجِ مَعَك بِسَبَبِ الْجَوَارِي مِنْ نِسَاء الرُّوم. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أَيْ: قَدْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَة بِقَوْلِهِمْ هَذَا، كَمَا قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ الزُّهْرِيّ وَيَزِيد بْن رُومَان وَعَبْد الله بْن أَبِي بَكْر وَعَاصِم بْن عمر بن قَتَادَة وَغَيْرهمْ، قَالُوا: قَالَ رَسُول الله ﷺ ذَات يَوْم وَهُوَ فِي جَهَازه لِلْجَدِّ بْن قَيْس أَخِي بَنِي سَلَمَة: «**هَل لَكَ يَا جَدّ الْعَام فِي جِلَاد بَنِي الْأَصْفَر؟**» فَقَالَ: يَا رَسُول الله، أَوَتَأْذَن لِي وَلَا تَفْتِنِّي، فَوَالله لَقَدْ عَرَفَ قَوْمِي مَا رَجُل أَشَدّ عَجَبًا بِالنِّسَاءِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ رَأَيْت نِسَاء بَنِي الْأَصْفَر أَنْ لَا أَصْبِر عَنْهُنَّ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُول الله ﷺ، وَقَالَ: «**قَدْ أَذِنْتُ لَكَ**»[1]. فَفِي الْجَدّ بْن قَيْس نَزَلَتْ هَذِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ الْآيَة. أَيْ: إِنْ كَانَ إِنَّمَا يَخْشَى مِنْ نِسَاء بَنِي الْأَصْفَر وَلَيْسَ ذَلِكَ بِهِ، فَمَا سَقَطَ فِيهِ مِنْ الْفِتْنَة بِتَخَلُّفِهِ عَنْ رَسُول الله ﷺ، وَالرَّغْبَة بِنَفْسِهِ عَنْ نَفْسه أَعْظَم. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَغَيْر وَاحِد أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجَدّ بْن قَيْس، وَقَدْ كَانَ الْجَدّ بْن قَيْس، هَذَا مِنْ أَشْرَاف بَنِي سَلَمَة. وَفِي الصَّحِيح: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لَهُمْ: «**مَنْ سَيِّدكُمْ يَا بَنِي سَلَمَة؟**» قَالُوا: الْجَدّ بْن قَيْس عَلَى أَنَّا نُبَخِّلُهُ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**وَأَيّ دَاءٍ أَدْوَأ مِنْ الْبُخْل؟ وَلَكِنَّ سَيِّدكُمْ الْفَتَى الْأَبْيَض الْجَعْد: بِشْر بْن الْبَرَاء بْن مَعْرُور**»[2]. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أَيْ: لَا مَحِيد لَهُمْ عَنْهَا وَلَا مَحِيص وَلَا مَهْرَب.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

يُعْلِم -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- نَبِيّه ﷺ، بِعَدَاوَةِ هَؤُلَاءِ لَهُ؛ لِأَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَهُ مِنْ حَسَنَة أَيْ: فَتْح، وَنَصْر، وَظَفَر عَلَى الْأَعْدَاء، مِمَّا يَسُرّهُ وَيَسُرّ أَصْحَابه سَاءَهُمْ ذَلِكَ، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَدْ اِحْتَرَزْنَا مِنْ مُتَابَعَته مِنْ قَبْل هَذَا، ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، فَأَرْشَدَ الله تَعَالَى رَسُوله ﷺ، إِلَى جَوَابهمْ فِي عَدَاوَتهمْ هَذِهِ التَّامَّة فَقَالَ: ﴿قُل﴾ أَيْ: لَهُمْ ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أَيْ: نَحْنُ تَحْت مَشِيئَة الله وَقَدَره، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أَيْ: سَيِّدنَا وَمَلْجَؤُنَا، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: وَنَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ، وَهُوَ حَسْبنَا وَنِعْمَ الْوَكِيل.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّد: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ أَيْ: تَنْتَظِرُونَ بِنَا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ شَهَادَة أَوْ ظَفَر بِكُمْ؛ قَالَهُ اِبْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَغَيْرهمْ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أَيْ: نَنْتَظِر بِكُمْ ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أَيْ: نَنْتَظِر بِكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا، إِمَّا أَنْ يُصِيبكُمْ الله بِقَارِعَة مِنْ عِنْده، أَوْ بِأَيْدِينَا بِسَبْيٍ أَوْ بِقَتْلٍ ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

---

(١) مرسل: أخرجه ابن جرير (١٠/ ١٤٧) بسند مرسل.
(٢) صحيح: أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٨٦)، والبخاري تعليقًا (٥/ ٧٨)، والحاكم (٣/ ٢٤٢)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٨١).

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أَيْ: مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَة طَائِعِينَ، أَوْ مُكْرَهِينَ ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾. ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم؛ لأنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل ﴿وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾. وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ، أن: «**الله لا يمل حتى تملوا، وإنه طيب لا يقبل إلا طيبًا**» فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملًا؛ لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾، وَقَالَ: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾، وَقَوْله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: بِزَكَاتِهَا وَالنَّفَقَة مِنْهَا فِي سَبِيل الله. وَقَالَ قَتَادَة: هَذَا مِنْ المُقَدَّم وَالمُؤَخَّر، تَقْدِيره: فَلَا تُعْجِبك أَمْوَالهمْ وَلَا أَوْلَادهمْ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا، إِنَّمَا يُرِيد الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الآخِرَة. وَاخْتَارَ اِبْن جَرِير قَوْل الحَسَن، وَهُوَ القَوْل القَوِيّ الحَسَن.

وَقَوْله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ أَيْ: وَيُرِيد أَنْ يُمِيتهُمْ حِين يُمِيتهُمْ عَلَى الكُفْر؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَنْكَى لَهُمْ وَأَشَدّ لِعَذَابِهِمْ. عِيَاذًا بِالله! مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا يَكُون مِنْ بَاب الِاسْتِدْرَاج لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

يُخْبِر الله تَعَالَى نَبِيّه ﷺ عَنْ جَزَعهمْ وَفَزَعهمْ وَفَرَقهمْ وَهَلَعهمْ: أَنَّهُمْ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ يَمِينًا مُؤَكَّدَة، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أَيْ: فِي نَفْس الأَمْر، ﴿وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أَيْ: فَهُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الحَلِف. ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ أَيْ: حِصْنًا يَتَحَصَّنُونَ بِهِ، وَحِرْزًا يَحْتَرِزُونَ بِهِ ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ ﴾ وَهِيَ الَّتِي فِي الجِبَال ﴿أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ وَهُوَ السَّرَب فِي الأَرْض وَالنَّفَق، قَالَ ذَلِكَ فِي الثَّلَاثَة: اِبْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أَيْ: يُسْرِعُونَ فِي ذَهَابهمْ عَنْكُمْ؛ لأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَالِطُونَكُمْ كُرْهًا لَا مَحَبَّة، وَوَدُّوا أَنَّهُمْ لَا يُخَالِطُونَكُمْ، وَلَكِنْ لِلضَّرُورَةِ أَحْكَام؛ وَلِهَذَا لَا يَزَالُونَ فِي هَمّ وَحُزْن وَغَمّ؛ لأَنَّ الإِسْلَام وَأَهْله لَا يَزَال فِي عِزّ وَنَصْر وَرِفْعَة؛ فَلِهَذَا كُلَّمَا سُرَّ المؤمنون سَاءَهُمْ ذَلِكَ، فَهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لَا يُخَالِطُوا المُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُم ﴾ أَيْ: وَمِنْ المُنَافِقِينَ ﴿مَّن يَلْمِزُكَ ﴾ أَيْ: يَعِيب عَلَيْك ﴿فِى ﴾ قَسْم ﴿ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ إِذَا فَرَّقْتهَا، وَيَتَّهِمك فِي ذَلِكَ، وَهُمْ المُتَّهَمُونَ المَأْبُونُونَ، وَهُمْ مَعَ هَذَا لَا يُنْكِرُونَ لِلدِّينِ، وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ لِحَظِّ أَنْفُسهمْ؛ وَلِهَذَا إِنْ أُعْطُوا مِنْ الزَّكَاة رضوا ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أَيْ: يَغْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ. قَالَ اِبْن جُرَيْج: أَخْبَرَنِي دَاوُد بْن أَبِي عَاصِم، قَالَ: أُتِيَ النَّبِيّ ﷺ، بِصَدَقَةٍ فَقَسَمَهَا هَاهُنَا وَهَاهُنَا حَتَّى ذَهَبَتْ. قَالَ: وَوَرَاءَهُ رَجُل مِنْ الأَنْصَار، فَقَالَ: مَا هَذَا بِالعَدْلِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة. وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ يَقُول: وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْعَن عَلَيْك فِي الصَّدَقَات، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْل البَادِيَة حَدِيث عَهْد بِأَعْرَابِيَّةٍ، أَتَى النَّبِيّ ﷺ، وَهُوَ يَقْسِم ذَهَبًا وَفِضَّة، فَقَالَ: يَا مُحَمَّد، وَالله لَئِنْ كَانَ الله أَمَرَك أَنْ تَعْدِل مَا عَدَلت. فَقَالَ نَبِيّ الله ﷺ: «**وَيْلك، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْدِل عَلَيْك بَعْدِي؟**»، ثُمَّ قَالَ نَبِيّ الله: «**اِحْذَرُوا هَذَا وَأَشْبَاهه، فَإِنَّ فِي أُمَّتِي أَشْبَاه هَذَا يَقْرَءُون**

القرآن لا يُجاوز تراقيهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثمَّ إذا خرجوا فاقتلوهم، ثُمَّ إذا خرجوا فاقتلوهم»[1]، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ، كَانَ يَقُول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُعْطِيكُمْ شَيْئًا وَلا أَمْنَعكُمُوهُ إِنَّمَا أَنَا خَازِن».

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ قَتَادَة شبيه بما رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي سَعِيد فِي قِصَّة ذِي الْخُوَيْصِرَة -وَاسْمه حُرْقُوص- لَمَّا اِعْتَرَضَ عَلَى النَّبِيّ ﷺ، حِين قَسَمَ غَنَائِم حُنَيْن، فَقَالَ لَهُ: اِعْدِلْ فَإِنَّك لَمْ تَعْدِل. فَقَالَ: «لَقَدْ خِبْت وَخَسِرْت إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِل». ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ، وَقَدْ رَآهُ مُقَفِّيًا: «إِنَّهُ يَخْرُج مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْم يَحْقِر أَحَدكُمْ صَلاته مَعَ صَلاتهمْ، وَصِيَامه مَعَ صِيَامهمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّين مُرُوق السَّهْم مِنْ الرَّمِيَّة، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ شَرّ قَتْلَى تَحْت أَدِيم السَّمَاء»[2]. وَذَكَرَ بَقِيَّة الْحَدِيث. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْر لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَة الْكَرِيمَة أَدَبًا عَظِيمًا وَسِرًّا شَرِيفًا، حَيْثُ جَعَلَ الرِّضَا بِمَا آتَاهُ الله وَرَسُوله، وَالتَّوَكُّل عَلَى الله وَحْده وَهُوَ قَوْله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وَكَذَلِكَ الرَّغْبَة إِلَى الله وَحْده فِي التَّوْفِيق لِطَاعَةِ الرَّسُول ﷺ، وَامْتِثَال أَوَامِره، وَتَرْك زَوَاجِره، وَتَصْدِيق أَخْبَاره، وَالاقْتِفَاء بِآثَارِهِ.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اِعْتِرَاض الْمُنَافِقِينَ الْجَهَلَة عَلَى النَّبِيّ ﷺ، وَلَمْزهمْ إِيَّاهُ فِي قَسْم الصَّدَقَات، بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَسَمَهَا، وَبَيَّنَ حُكْمهَا، وَتَوَلَّى أَمْرهَا بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِل قَسْمهَا إِلَى أَحَد غَيْره، فَجَزَّأَهَا لِهَؤُلاءِ الْمَذْكُورِينَ، كَمَا رَوَاهُ الإِمَام أَبُو دَاوُد فِي سُنَنه مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن زِيَاد بْن أَنْعَم وَفِيهِ ضَعْف، عَنْ زِيَاد بْن نُعَيْم، عَنْ زِيَاد بْن الْحَارِث الصُّدَائِيّ ﷺ، قَالَ: أَتَيْت النَّبِيّ ﷺ فَبَايَعْته، فَأَتَى رَجُل فَقَالَ: أَعْطِنِي مِنْ الصَّدَقَة. فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ الله لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيّ، وَلا غَيْره فِي الصَّدَقَات حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَة أَصْنَاف، فَإِنْ كُنْت مِنْ تِلْكَ الأَجْزَاء أَعْطَيْتُك»[3]. وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي هَذِهِ الأَصْنَاف الثَّمَانِيَة: هَل يَجِب اِسْتِيعَاب الدَّفْع إِلَيْهَا، أَوْ إِلَى مَا أَمْكَنَ مِنْهَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدهمَا: أَنَّهُ يَجِب ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْل الشَّافِعِيّ وَجَمَاعَة. وَالثَّانِي: أَنَّهُ لا يَجِب اِسْتِيعَابهَا، بَل يَجُوز الدَّفْع إِلَى وَاحِد مِنْهَا، وَيُعْطَى جَمِيع الصَّدَقَة مَعَ وُجُود الْبَاقِينَ، وَهُوَ قَوْل مَالِك وَجَمَاعَة مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف، مِنْهُمْ عُمَر، وَحُذَيْفَة، وَابْن عَبَّاس، وَأَبُو الْعَالِيَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمَيْمُون بْن مِهْرَان، قَالَ اِبْن جَرِير: وَهُوَ قَوْل عَامَّة أَهْل الْعِلْم، وَعَلَى هَذَا فَإِنَّمَا ذُكِرَتْ الأَصْنَاف هَاهُنَا لِبَيَانِ الْمَصْرِف لا لِوُجُوبِ اِسْتِيعَاب الإِعْطَاء. وَلِوُجُوهِ الْحِجَاج وَالْمَآخِذ مَكَان غَيْر هَذَا، وَالله أَعْلَم. وَإِنَّمَا قَدَّمَ الْفُقَرَاء هَاهُنَا؛ لأَنَّهُمْ أَحْوَج مِنْ الْبَقِيَّة عَلَى الْمَشْهُور؛ وَلِشِدَّةِ فَاقَتهمْ وَحَاجَتهمْ، وَعِنْد أَبِي حَنِيفَة أَنَّ الْمِسْكِين أَسْوَأ حَالاً مِنْ الْفَقِير، وَهُوَ كَمَا قَالَ.

قَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنَا اِبْن عُلَيَّة، أَنْبَأَنَا اِبْن عَوْن، عَنْ مُحَمَّد، قَالَ: قَالَ عُمَر ﷺ: الْفَقِير لَيْسَ بِالَّذِي لا مَال لَهُ، وَلَكِنَّ الْفَقِير الأَخْلَق الْكَسْب. قَالَ اِبْن عُلَيَّة: الأَخْلَق: الْمُحَارِف عِنْدنَا. وَالْجُمْهُور عَلَى خِلافه. وَرُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالْحَسَن الْبَصْرِيّ، وَابْن زَيْد، وَاخْتَارَهُ اِبْن جَرِير وَغَيْر وَاحِد، أَنَّ الْفَقِير هُوَ الْمُتَعَفِّف الَّذِي لا يَسْأَل النَّاس شَيْئًا، وَالْمِسْكِين هُوَ الَّذِي يَسْأَل وَيَطُوف وَيَتْبَع النَّاس. وَقَالَ قَتَادَة: الْفَقِير مَنْ بِهِ زَمَانَة،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٩٠)، ومسلم (١٠٦٦).
(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (١٦٣٠) من حديث زياد بن الحارث الصدائي،وضعفه الألباني في «الإرواء» (٣/ ٣٥٣)، وقال: وهذا سند ضعيف من أجل عبد الرحمن بن زياد وهو الأفريقي. قال الحافظ في «التقريب»: ضعيف في حفظه.

وَالمِسْكِين الصَّحِيح الجِسْم. وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ مَنْصُور، عَنْ إِبْرَاهِيم: هُمْ فُقَرَاء المُهَاجِرِينَ. قَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: يَعْنِي وَلَا يُعْطَى الأَعْرَاب مِنْهَا شَيْئًا. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، وَسَعِيد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبْزَى، وَقَالَ عِكْرِمَة: وَلَا تَقُولُوا لِفُقَرَاء المُسْلِمِينَ مَسَاكِين، إِنَّمَا المَسَاكِين مساكين أَهْل الكِتَاب. وَلْنَذْكُرْ أَحَادِيث تَتَعَلَّق بِكُلٍّ من الأَصْنَاف الثَّمَانِيَة.

فَأَمَّا الفُقَرَاء: فَعَنْ اِبْن عَمْرو قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لا تَحِلّ الصَّدَقَة لِغَنِيٍّ وَلا لِذِي مِرَّة سَوِيّ**»(١). رَوَاهُ أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ. وَلِأَحْمَد أَيْضًا، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن مَاجَهْ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مِثْله. وَعَنْ عُبَيْد الله بْن عَدِيّ ابْن الخِيَار؛ أَنَّ رَجُلَيْنِ أَخْبَرَاهُ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيّ ﷺ، يَسْأَلَانِهِ مِنْ الصَّدَقَة، فَقَلَّبَ فِيهِمَا البَصَر، فَرَآهُمَا جَلْدَيْنِ فَقَالَ: «**إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا، وَلا حَظّ فِيهَا لِغَنِيّ وَلا لِقَوِيّ مُكْتَسِب**». رَوَاهُ أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ بِإِسْنَادٍ جَيِّد قَوِيّ. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم فِي كِتَاب «الجَرْح وَالتَّعْدِيل»: أَبُو بَكْر العَبْسِيّ قَالَ: قَرَأَ عمر ﷺ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ قَالَ: هُمْ أَهْل الكِتَاب. رَوَى عَنْهُ عُمَر بْن نَافِع، سَمِعْت أَبِي يَقُول ذَلِكَ.

قلت: وَهَذَا قَوْل غَرِيب جِدًّا بِتَقْدِيرِ صِحَّة الإِسْنَاد، فَإِنَّ أَبَا بَكْر هَذَا، وَإِنْ لَمْ يَنُصّ أَبُو حَاتِم عَلَى جَهَالَته لَكِنَّهُ فِي حُكْم المَجْهُول. وَأَمَّا المَسَاكِين فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ المِسْكِين بِهَذَا الطَّوَّاف الَّذِي يَطُوف عَلَى النَّاس، فَتَرُدّهُ اللُّقْمَة وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَة وَالتَّمْرَتَانِ**» قَالُوا: فَمَا المِسْكِين يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**الَّذِي لا يَجِد غِنًى يُغْنِيه، وَلا يُفْطَن لَهُ فَيُتَصَدَّق عَلَيْهِ، وَلا يَسْأَل النَّاس شَيْئًا**»(٢). رَوَاهُ الشَّيْخَانِ البخاري ومسلم.

وَأَمَّا العَامِلُونَ عَلَيْهَا: فَهُمْ الجُبَاة وَالسُّعَاة يَسْتَحِقُّونَ مِنْهَا قِسْطًا عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَجُوز أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَقْرِبَاء رَسُول الله ﷺ، الَّذِينَ تَحْرُم عَلَيْهِمْ الصَّدَقَة؛ لِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ عَبْد المُطَّلِب بْن رَبِيعَة بْن الحَارِث أَنَّهُ انْطَلَقَ هُوَ وَالفَضْل بْن العَبَّاس يَسْأَلَانِ رَسُول الله ﷺ، لِيَسْتَعْمِلَهُمَا عَلَى الصَّدَقَة، فَقَالَ: «**إِنَّ الصَّدَقَة لا تَحِلّ لِمُحَمَّدٍ وَلا لِآلِ مُحَمَّد؛ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخ النَّاس**»(٣).

وَأَمَّا المُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ فَأَقْسَام: مِنْهُمْ: مَنْ يُعْطَى لِيُسْلِم، كَمَا أَعْطَى النَّبِيّ ﷺ صَفْوَان بْن أُمَيَّة مِنْ غَنَائِم حُنَيْن، وَقَدْ كَانَ شَهِدَهَا مُشْرِكًا، قَالَ: فَلَمْ يَزَل يُعْطِينِي حَتَّى سَارَ أَحَبّ النَّاس إِلَيّ بَعْد أَنْ كَانَ أَبْغَض النَّاس إِلَيّ، كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْن عَدِيّ، أَنَا اِبْن المُبَارَك، عَنْ يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، عَنْ صَفْوَان بْن أُمَيَّة، قَالَ: أَعْطَانِي رَسُول الله ﷺ يَوْم حُنَيْن وَإِنَّهُ لَأَبْغَض النَّاس إِلَيّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى صار وَإِنَّهُ لَأَحَبّ النَّاس إِلَيّ(٤). وَرَوَاهُ مُسْلِم، وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ، بِهِ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ يُعْطَى لِيَحْسُن إِسْلَامه، وَيَثْبُت قَلْبه، كَمَا أَعْطَى يَوْم حُنَيْن أَيْضًا جَمَاعَة مِنْ صَنَادِيد الطُّلَقَاء وَأَشْرَافهمْ مِائَة مِنْ الإِبِل، وَقَالَ: «**إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُل وَغَيْرُهُ أَحَبّ إِلَيّ مِنْهُ مخافة أَنْ يَكُبّهُ الله عَلَى وَجْهه فِي نَار جَهَنَّم**»(٥). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيد: أَنَّ عَلِيًّا بَعَثَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ بِذُهَيْبَة فِي تُرْبَتهَا مِنْ اليَمَن، فَقَسَمَهَا بَيْن أَرْبَعَة نَفَر: الأَقْرَع بْن حَابِس، وَعُيَيْنَة بْن بَدْر، وَعَلْقَمَة بْن عُلَاثَة، وَزَيْد الخَيْر، وَقَالَ: «**أَتَأَلَّفهُمْ**»(٦).

وَمِنْهُمْ: مَنْ يُعْطَى لِمَا يُرْجَى مِنْ إِسْلَام نُظَرَائِهِ.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٦٣٧)، والترمذي (٦٥٢)، والنسائي (٢٥٩٧)، وابن ماجه (١٨٣٩)، وأحمد (٢/ ١٦٤)، وابن حبان (٣٣٩٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٥١).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٧٢).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣١٣)، والترمذي (٦٦٦).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧، ١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠).
(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

وَمِنْهُمْ: مَنْ يُعْطَى لِيَجْبِيَ الصَّدَقَات مِمَّنْ يَلِيه، أَوْ لِيَدْفَع عَنْ حَوْزَة الْمُسْلِمِينَ الضَّرَر مِنْ أَطْرَاف الْبِلَاد، وَمَحَلّ تَفْصِيل هَذَا فِي كُتُب الْفُرُوع، وَالله أَعْلَم.

وَهَل تُعْطَى الْمُؤَلَّفَة عَلَى الإِسْلَام بَعْد النَّبِيّ ﷺ؟ فِيهِ خِلَاف: فَرُوِيَ عَنْ عُمَر، وَعَامِر الشَّعْبِيّ، وَجَمَاعَة أَنَّهُمْ لَا يُعْطَوْنَ بَعْده لأَنَّ الله قَدْ أَعَزَّ الإِسْلَام وَأَهْله، وَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْبِلَاد، وَأَذَلَّ لَهُمْ رِقَاب الْعِبَاد. وَقَالَ آخَرُونَ: بَل يُعْطَوْنَ لأَنَّهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام- قَدْ أَعْطَاهُمْ بَعْد فَتْح مَكَّة وَكَسْر هَوَازِن، وَهَذَا أَمْر قَدْ يُحْتَاج إِلَيْهِ، فَيُصْرَف إِلَيْهِمْ.

وَأَمَّا الرِّقَاب: فَرُوِيَ عَنْ الْحَسَن الْبَصْرِيّ، وَمُقَاتِل بْن حَيَّان، وَعُمَر بْن عَبْد الْعَزِيز، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالنَّخَعِيّ، وَالزُّهْرِيّ، وَابْن زَيْد: أَنَّهُمْ الْمُكَاتَبُونَ. وَرُوِيَ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ نَحْوه. وَهُوَ قَوْل الشَّافِعِيّ وَاللَّيْث رحمهما الله. وَقَالَ ابْن عَبَّاس، وَالْحَسَن: لَا بَأْس أَنْ تُعْتَق الرَّقَبَة مِنْ الزَّكَاة، وَهُوَ مَذْهَب الإمام أحمد بن حنبل، وَمَالِك، وَإِسْحَاق، أَيْ: أَنَّ الرِّقَاب أَعَمّ مِنْ أَنْ يُعْطِي الْمُكَاتَب أَوْ يَشْتَرِي رَقَبَة فَيُعْتِقهَا اِسْتِقْلَالًا، وَقَدْ وَرَدَ فِي ثَوَاب الإِعْتَاق وَفَكّ الرَّقَبَة أَحَادِيث كَثِيرَة وَأَنَّ الله يُعْتِق بِكُلِّ عُضْو مِنْهَا عُضْوًا مِنْ مُعْتِقهَا حَتَّى الْفَرْج بِالْفَرْجِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لأَنَّ الْجَزَاء مِنْ جِنْس الْعَمَل، ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثَة حَقّ عَلَى الله عَوْنهمْ: الْغَازِي فِي سَبِيل الله، وَالْمُكَاتَب الَّذِي يُرِيد الأَدَاء، وَالنَّاكِح الَّذِي يُرِيد الْعَفَاف**»[1]. رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، وَأَهْل السُّنَن إِلَّا أَبَا دَاوُد، وَفِي الْمُسْنَد عَنْ الْبَرَاء ابْن عَازِب، قَالَ: جَاءَ رَجُل فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ دُلَّنِي عَلَى عَمَل يُقَرِّبنِي مِنْ الْجَنَّة وَيُبَاعِدنِي مِنْ النَّار. فَقَالَ: «**أَعْتِقْ النَّسَمَة وَفُكَّ الرَّقَبَة**». فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ أَوَلَيْسَا وَاحِدًا؟ قَالَ: «**لَا؛ عِتْق النَّسَمَة أَنْ تَفَرَّد بِعِتْقِهَا. وَفَكّ الرَّقَبَة أَنْ تُعِين فِي ثَمَنهَا**»[2].

وَأَمَّا الْغَارِمُونَ فَهُمْ أَقْسَام: فَمِنْهُمْ مَنْ تَحَمَّلَ حَمَالَة أَوْ ضَمِنَ دَيْنًا فَلَزِمَهُ، فَأَجْحَفَ بِمَالِهِ، أَوْ غَرِمَ فِي أَدَاء دَيْنه، أَوْ فِي مَعْصِيَة ثُمَّ تَابَ، فَهَؤُلَاءِ يُدْفَع إِلَيْهِمْ. وَالأَصْل فِي هَذَا الْبَاب حَدِيث قَبِيصَة بْن مُخَارِق الْهِلَالِيّ؛ قَالَ: تَحَمَّلْت حَمَالَة فَأَتَيْت رَسُول الله ﷺ، أَسْأَلهُ فِيهَا فَقَالَ: «**أَقِمْ حَتَّى تَأْتِينَا الصَّدَقَة فَنَأْمُر لَك بِهَا**». قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**يَا قَبِيصَة؛ إِنَّ الْمَسْأَلَة لَا تَحِلّ إِلَّا لأَحَدِ ثَلَاثَة: رَجُل تَحَمَّلَ حَمَالَة فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَة حَتَّى يُصِيبهَا ثُمَّ يُمْسِك، وَرَجُل أَصَابَتْهُ جَائِحَة اِجْتَاحَتْ مَاله، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَة حَتَّى يُصِيب قِوَامًا مِنْ عَيْش -أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْش-، وَرَجُل أَصَابَتْهُ فَاقَة حَتَّى يَقُوم ثَلَاثَة مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمه، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَة فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَة، حَتَّى يُصِيب قِوَامًا مِنْ عَيْش -أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْش-، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنْ الْمَسْأَلَة سُحْت، يَأْكُلهَا صَاحِبهَا سُحْتًا**»[3]. رَوَاهُ مُسْلِم. وَعَنْ أَبِي سَعِيد قَالَ: أُصِيبَ رَجُل فِي عَهْد رَسُول الله ﷺ، فِي ثِمَار اِبْتَاعَهَا، فَكَثُرَ دَيْنه، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ**» فَتَصَدَّقَ النَّاس عَلَيْهِ فَلَمْ يَبْلُغ ذَلِكَ وَفَاء دَيْنه فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ لِغُرَمَائِهِ: «**خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ**»[4]. رَوَاهُ مُسْلِم. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد، أَنْبَأَنَا صَدَقَة بْن مُوسَى، عَنْ أَبِي عِمْرَان الْجَوْنِيّ، عَنْ قَيْس بن زيد، عَنْ قَاضِي الْمِصْرَيْنِ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي بَكْر، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**يَدْعُو الله بِصَاحِبِ الدَّيْن يَوْم الْقِيَامَة حَتَّى يُوقَف بَيْن يَدَيْهِ فَيَقُول: يَا بْن آدَم؛ فِيمَ أَخَذْت هَذَا الدَّيْن؟ وَفِيمَ ضَيَّعْت حُقُوق النَّاس؟ فَيَقُول: يَا رَبّ؛ إِنَّك أَعْلَم أَنِّي أَخَذْته فَلَمْ آكُل وَلَمْ أَشْرَب وَلَمْ أُضَيِّع؛**

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٣٢١٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٥٠).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٩)، وابن حبان (٣٧٤)، والدارقطني (٢/ ١٣٥) من حديث البراء بن عازب، وصححه الألباني في «المشكاة» (٣٣٨٤).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٤٤)، وأبو داود (١٦٤٠).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٥٩).

وَلَكِنْ أَتَى عَلَى يَدَيَّ إِمَّا حَرَق وَإِمَّا سَرَق وَإِمَّا وَضِيعَة، فَيَقُول الله: صَدَقَ عَبْدِي. أَنَا أَحَقّ مَنْ قَضَى عَنْك الْيَوْم فَيَدْعُو الله بِشَيْء فَيَضَعُهُ فِي كِفَّة مِيزَانه فَتَرْجَح حَسَنَاته عَلَى سَيِّئَاته فَيَدْخُل الْجَنَّة بِفَضْلِ الله وَرَحْمَته»[1].

وَأَمَّا فِي سَبِيل الله: فَمِنْهُمْ الْغُزَاة الَّذِينَ لَا حَقّ لَهُمْ فِي الدِّيوَان، وَعِنْد الْإِمَام أَحْمَد، وَالْحَسَن، وَإِسْحَاق، وَالْحَجّ فِي سَبِيل الله، لِلْحَدِيثِ. وَكَذَلِكَ ابْن السَّبِيل: وَهُوَ الْمُسَافِر الْمُجْتَاز فِي بَلَد لَيْسَ مَعَهُ شَيْء يَسْتَعِين بِهِ عَلَى سَفَره فَيُعْطَى مِنْ الصَّدَقَات مَا يَكْفِيه إِلَى بَلَده، وَإِنْ كَانَ لَهُ مَال. وَهَكَذَا الْحُكْم فِيمَنْ أَرَادَ إِنْشَاء سَفَر مِنْ بَلَده وَلَيْسَ مَعَهُ شَيْء فَيُعْطَى مِنْ مَال الزَّكَاة كِفَايَته فِي ذَهَابه وَإِيَابه، وَالدَّلِيل عَلَى ذَلِكَ الْآيَة. وَمَا رَوَاهُ الْإِمَام أَبُو دَاوُد، وَابْن مَاجَهْ، مِنْ حَدِيث مَعْمَر، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَم، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ أَبِي سَعِيد رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَا تَحِلّ الصَّدَقَة لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: الْعَامِل عَلَيْهَا، أَوْ رَجُل اِشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ غَارِم، أَوْ غَازٍ فِي سَبِيل الله، أَوْ مِسْكِين تُصُدِّقَ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِغَنِيٍّ»[2]. وَقَدْ رَوَاهُ السُّفْيَانَانِ، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَم، عَنْ عَطَاء مُرْسَلًا، وَلِأَبِي دَاوُد عَنْ عَطِيَّة الْعَوْفِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَا تَحِلّ الصَّدَقَة لِغَنِيٍّ؛ إِلَّا فِي سَبِيل الله، وَابْن السَّبِيل، أَوْ جَار فَقِير فَيُهْدِي لَك أَوْ يَدْعُوك»[3].

وَقَوْله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: حُكْمًا مُقَدَّرًا بِتَقْدِيرِ الله وَفَرْضه وَقِسْمته، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: عَلِيم بِظَوَاهِر الْأُمُور وَبَوَاطِنهَا وَبِمَصَالِح عِبَاده، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا يَفْعَلهُ وَيَقُولهُ وَيَشْرَعهُ وَيَحْكُم بِهِ، لَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَلَا رَبّ سِوَاهُ.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَمِنْ الْمُنَافِقِينَ قَوْم يُؤْذُونَ رسول الله ﷺ، بِالْكَلَامِ فِيهِ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أَيْ: مَنْ قَالَ لَهُ شَيْئًا صَدَّقَهُ، وَمَنْ حَدَّثَهُ فِينَا صَدَّقَهُ، فَإِذَا جِئْنَاهُ وَحَلَفْنَا لَهُ صَدَّقَنَا. رُوِيَ مَعْنَاهُ عَنْ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أَيْ: هُوَ أُذُن خَيْر، يَعْرِف الصَّادِق مِنْ الْكَاذِب، ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: وَيُصَدِّق الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي: وَهُوَ حُجَّة عَلَى الْكَافِرِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾

قَالَ قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الْآيَة، قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْمُنَافِقِينَ قَالَ: وَالله، إِنَّ هَؤُلَاءِ لَخِيَارنَا وَأَشْرَافنَا، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُول مُحَمَّد حَقًّا، لَهُمْ شَرّ مِنْ الْحَمِير. قَالَ: فَسَمِعَهَا رَجُل مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: وَالله إِنَّ مَا يَقُول مُحَمَّد لَحَقّ وَلَأَنْتَ أَشَرّ مِنْ الْحِمَار. قَالَ: فَسَعَى بِهَا الرَّجُل إِلَى نبي الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُل فَدَعَاهُ فَقَالَ: «مَا حَمَلَك عَلَى الَّذِي قُلْت؟» فَجَعَلَ يَلْتَعِن وَيَحْلِف بِالله مَا قَالَ ذَلِكَ وَجَعَلَ

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ١٩٧) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٣٨) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في «الكبير»، وفيه صدقة الدقيقي وثقه مسلم بن إبراهيم وضعفه جماعة، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٥٣٣٨).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٦٣٥)، وابن ماجه (١٨٤١)، وأحمد (٣/ ٥٦)، وعبد الرزاق (٤/ ١٠٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٤٤٠).

(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (١٦٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١/ ٥١٤).

الرَّجُل المُسْلِم يَقُول: اللهمَّ صَدِّقِ الصَّادق، وَكَذِّبِ الكَاذِب، فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أَيْ: أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ حَادَّ الله ﷻ، أَيْ: شَاقَّهُ وَحَارَبَهُ وَخَالَفَهُ، وَكَانَ فِي حَدّ، وَالله وَرَسُوله فِي حَدّ؛ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أَيْ: مُهَانًا مُعَذَّبًا. وَ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أَيْ: وَهَذَا هُوَ الذُّل العَظِيم وَالشَّقَاء الكَبِير.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾

قَالَ مُجَاهِد: يَقُولُونَ القَوْل بَيْنهمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: عَسَى الله أَنْ لَا يُفْشِي عَلَيْنَا سِرّنَا هَذَا. وَهَذِهِ الآيَة شَبِيهَة بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وَقَالَ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أَيْ: إِنَّ الله سَيُنَزِّل عَلَى رَسُوله مَا يَفْضَحكُمْ بِهِ وَيُبَيِّن لَهُ أَمْركُمْ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَة: كَانَتْ تُسَمَّى هَذِهِ السُّورَة الفَاضِحَة؛ فَاضِحَة المُنَافِقِينَ.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾

قَالَ أَبُو مَعْشَر المدينِي، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، وَغَيْره قَالُوا: قَالَ رَجُل مِنَ المُنَافِقِينَ: مَا أَرَى قُرَّاءَنَا هَؤُلَاءِ إِلَّا أَرْغَبنَا بُطُونًا، وَأَكْذَبنَا أَلْسِنَة، وَأَجْبَننَا عِنْد اللِّقَاء. فَرُفِعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَته فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوض وَنَلْعَب. فَقَالَ: «﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾». وَإِنَّ رِجْلَيْهِ لَتَنْسِفَانِ الحِجَارَة، وَمَا يَلْتَفِت إِلَيْهِ رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ مُتَعَلِّق بنعسة رَسُول الله ﷺ.

وَقَالَ عَبْد الله بْن وَهْب: أَخْبَرَنِي هِشَام بْن سَعْد، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَم، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر؛ قَالَ: قَالَ رَجُل فِي غَزْوَة تَبُوك فِي مَجْلِس يومًا: مَا رَأَيْت مِثْل قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ: أَرْغَب بُطُونًا، وَلَا أَكْذَب أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَن عِنْد اللِّقَاء. فَقَالَ رَجُل فِي المَسْجِد: كَذَبْت، وَلَكِنَّك مُنَافِق، لَأُخْبِرَنَّ رَسُول الله ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُول الله ﷺ، وَنَزَلَ القُرْآن. فَقَالَ عَبْد الله بْن عُمَر: أَنَا رَأَيْته مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَة رَسُول الله ﷺ، تَنْكُبهُ الحِجَارَة، وَهُوَ يَقُول: يَا رَسُول الله؛ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوض وَنَلْعَب. وَرَسُول الله ﷺ يَقُول: «﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الآية»[2]. وَقَدْ رَوَاهُ اللَّيْث عَنْ هِشَام بْن سَعْد بِنَحْوٍ مِنْ هَذَا. وَقَالَ اِبْن إِسْحَاق: وَقَدْ كَانَ جَمَاعَة مِنَ المُنَافِقِينَ مِنْهُمْ: وَدِيعَة بْن ثَابِت أَخُو بَنِي أُمَيَّة بْن زَيْد بْن عَمْرو بْن عَوْف، وَرَجُل مِنْ أَشْجَع حَلِيف لِبَنِي سَلِمَة، يُقَال لَهُ: مخشن بْن حِمْيَر، [يَسِيرُونَ مَعَ][3] رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ مُنْطَلِق إِلَى تَبُوك، فَقَالَ بَعْضهمْ لِبَعْضٍ: أَتَحْسِبُونَ جِلَاد بَنِي الأَصْفَر كَقِتَالِ العَرَب بَعْضهمْ بَعْضًا، وَالله؛ لَكَأَنَّا بِكُمْ غَدًا مُقَرَّنِينَ فِي الحِبَال؛ إِرْجَافًا وَتَرْهِيبًا لِلمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ مخشن بْن حِمْيَر: وَالله؛ لَوَدِدْت أَنْ أُقَاضِي عَلَى أَنْ يُضْرَب كُلّ رَجُل مِنَّا مِائَة جَلْدَة، وَأَنَّنَا ننفلت أَنْ يَنْزِل فِينَا قُرْآن لِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ. وَقَالَ رَسُول الله ﷺ، فِيمَا بَلَغَنِي لِعَمَّارِ بْن يَاسِر: «أَدْرِك القَوْم، فَإِنَّهُمْ قَدْ اِحْتَرَقُوا، فَسَلهُمْ عَمَّا قَالُوا:

---

(١) مرسل: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٠٧).
(٢) صحيح: أخرجه ابن جرير (١٠/ ١٧٢).
(٣) في نسخة: [يشيرون إلى].

فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بَلَى، «قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا» فَانْطَلَقَ إِلَيْهِمْ عَمَّار، فَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَأَتَوْا رَسُول الله ﷺ، يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ وَدِيعَة بْن ثَابِت، وَرَسُول الله ﷺ، وَاقِف عَلَى رَاحِلَته، فَجَعَلَ يَقُول وَهُوَ آخِذ بِحَقَبِهَا: يَا رَسُول الله؛ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوض وَنَلْعَب. فنزلت الآية فَقَالَ مخشن بْن حِمْيَر: يَا رَسُول الله، قَعَدَ بِي اِسْمِي وَاسْم أَبِي. فَكَانَ الَّذِي عَفَا عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَة مخشن بْن حِمْيَر فَتَسَمَّى عَبْد الرَّحْمَن، وَسَأَلَ الله أَنْ يقتله شَهِيدًا لَا يُعْلَم بِمَكَانِهِ، فَقُتِلَ يَوْم الْيَمَامَة فَلَمْ يُوجَد لَهُ أَثَر[1]. وَقَالَ قَتَادَة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ قَالَ: فَبَيْنَمَا النَّبِيّ ﷺ، فِي غَزْوَة تَبُوك وَرَكْب مِنْ الْمُنَافِقِينَ يَسِيرُونَ بَيْن يَدَيْهِ، فَقَالُوا: يَظُنّ هَذَا أَنْ يَفْتَح قُصُور الرُّوم وَحُصُونهَا، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! فَأَطْلَعَ الله نَبِيّه ﷺ، عَلَى مَا قَالُوا. فَقَالَ: «عَلَيَّ بِهَؤُلَاءِ النَّفَر» فَدَعَاهُمْ؛ فَقَالَ: «قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا». فَحَلَفُوا مَا كُنَّا إِلَّا نَخُوض وَنَلْعَب. وَقَالَ عِكْرِمَة فِي تَفْسِير هَذِهِ الْآيَة: كَانَ رَجُل مِمَّنْ إِنْ شَاءَ الله عَفَا عَنْهُ يَقُول: اللهمَّ إِنِّي أَسْمَع آيَة أَنَا أُعْنَى بِهَا، تَقْشَعِرّ منها الْجُلُود وَتَجِبُ مِنْهَا الْقُلُوب، اللهمَّ؛ فَاجْعَلْ وَفَاتِي قَتْلًا فِي سَبِيلك، لَا يَقُول أَحَد أَنَا غَسَّلت أَنَا كَفَّنْت أَنَا دَفَنْت. قَالَ: فَأُصِيب يَوْم الْيَمَامَة فَمَا أَحَد مِنْ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَقَدْ وُجِدَ غَيْره.

وَقَوْله: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أَيْ: بِهَذَا الْمَقَال الَّذِي اِسْتَهْزَأْتُمْ بِهِ، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ أَيْ: لَا يُعْفَى عَنْ جَمِيعكُمْ، وَلَابُدّ مِنْ عَذَاب بَعْضكُمْ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ: مُجْرِمِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَة الْفَاجِرَة الْخَاطِئَة.

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى خِلَاف صِفَات الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَر، كَانَ هَؤُلَاءِ ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أَيْ: عَلَى الْإِنْفَاق فِي سَبِيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ ﴾ أَيْ: نَسُوا ذِكْر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ ﴾ أَيْ: عَامَلَهُمْ مُعَامَلَة مِنْ نَسِيَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَيْ: الْخَارِجُونَ مِنْ طَرِيق الْحَقّ، الدَّاخِلُونَ فِي طَرِيق الضَّلَالَة.

وَقَوْله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أَيْ: عَلَى هَذَا الصَّنِيع الَّذِي ذُكِرَ عَنْهُمْ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا مُخَلَّدِينَ هُمْ وَالْكُفَّار، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أَيْ: كِفَايَتهمْ فِي الْعَذَاب، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أَيْ: طَرَدَهُمْ وَبَعَّدَهُمْ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: أَصَابَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَاب الله تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، كَمَا أَصَابَ مَنْ قَبْلهمْ، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا، وَقَوْله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ﴾ قَالَ الْحَسَن البصري: بدينهم. وَقَوْله: ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ أَيْ: فِي الْكَذِب وَالْبَاطِل ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

---

(١) مرسل: رواه ابن إسحاق بسند مرسل.

أَيْ: بَطَلَتْ مَسَاعِيهِمْ، فَلَا ثَوَاب لَهُمْ عَلَيْهَا؛ لأَنَّهَا فَاسِدَة ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأَنَّهُمْ لَمْ يَحْصُل لَهُمْ عَلَيْهَا ثَوَاب. قَالَ اِبْن جريج: عَنْ عُمَر بْن عَطَاء، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾ الآيَة، قَالَ اِبْن عَبَّاس: مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَة بِالبَارِحَةِ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هَؤُلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيل شُبِّهْنَا بِهِمْ، لَا أَعْلَم إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَتَّبِعُنَّهُمْ حَتَّى لَوْ دَخَلَ الرَّجُل مِنْهُمْ جُحْر ضَبّ لَدَخَلْتُمُوهُ**». قَالَ اِبْن جُرَيْج: وَأَخْبَرَنِي زِيَاد بْن سَعْد، عَنْ مُحَمَّد بْن زيد بْن مُهَاجِر، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، وَبَاعًا بِبَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْر ضَبّ لَدَخَلْتُمُوهُ**» قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُول الله؟ أَهْل الكِتَاب؟ قَالَ: «**فمه**»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو مَعْشَر، عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ فَذَكَرَهُ. وَزَادَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَة: اِقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ القُرْآن ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَة: الخَلَاق: الدِّين. ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ قَالُوا: يَا رَسُول الله، كَمَا صَنَعَتْ فَارِس وَالرُّوم؟ قَالَ: «**فَهَل النَّاس إِلا هُمْ؟**»[2]. وَهَذَا الحَدِيث لَهُ شَاهِد فِي الصَّحِيح.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى وَاعِظًا لِهَؤُلَاءِ المُنَافِقِينَ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: أَلَمْ تُخْبَرُوا خَبَر مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ مِنْ الأُمَم المُكَذِّبَة لِلرُّسُلِ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وَمَا أَصَابَهُمْ مِنْ الغَرَق العَامّ لِجَمِيعِ أَهْل الأَرْض، إِلَّا مَنْ آمَنَ بِعَبْدِهِ وَرَسُوله نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَعَادٍ﴾ كَيْف أُهْلِكُوا بِالرِّيحِ العَقِيم، لَمَّا كَذَّبُوا هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَثَمُودَ﴾ كَيْف أَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَة، لَمَّا كَذَّبُوا صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَقَرُوا النَّاقَة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كَيْف نَصَرَهُ الله عَلَيْهِمْ، وَأَيَّدَهُ بِالمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَة عَلَيْهِمْ، وَأَهْلَكَ مَلِكهمْ نُمْرُود بْن كَنْعَان بْن كوش الكَنْعَانِيّ لَعَنَهُ الله، ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ وَهُمْ قَوْم شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَيْف أَصَابَتْهُمْ الرَّجْفَة والصيحة وَعَذَاب يَوْم الظُّلَّة، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ قَوْم لُوط، وَقَدْ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي مَدَائِن، وَقَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ أَيْ: الأُمَّة المُؤْتَفِكَة، وَقِيلَ: أُمّ قُرَاهُمْ: وَهِيَ سَدُوم. وَالغَرَض أَنَّ الله تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ عَنْ آخِرهمْ بِتَكْذِيبِهِمْ نَبِيّ الله لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِتْيَانهمْ الفَاحِشَة الَّتِي لَمْ يَسْبِقهُمْ بِهَا أَحَد مِنْ العَالَمِينَ.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أَيْ: بِالحُجَجِ وَالدَّلَائِل القَاطِعَات، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أَيْ: بِإِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ؛ لأَنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِمْ الحُجَّة بِإِرْسَالِ الرُّسُل وَإِزَاحَة العِلَل ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَيْ: بِتَكْذِيبِهِمْ الرُّسُل، وَمُخَالَفَتهمْ الحَقّ، فَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ العَذَاب وَالدَّمَار.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى صِفَات المُنَافِقِينَ الذَّمِيمَة، عَطَفَ بِذِكْرِ صِفَات المُؤْمِنِينَ المَحْمُودَة، فَقَالَ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٣١٩)، وابن جرير (٣/ ١٧٦).

(٢) **ضعيف الإسناد**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤١٢) فيه أبو معشر، قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو داود والنسائي: ضعيف.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أَيْ: يَتَنَاصَرُونَ وَيَتَعَاضَدُونَ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضه بَعْضًا»، وَشَبَّكَ بَيْن أَصَابِعه[1]. وَفِي الصَّحِيح أَيْضًا: «مَثَل الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادّهمْ وَتَرَاحُمهمْ كَمَثَل الْجَسَد الْوَاحِد إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْو تَدَاعَى لَهُ سَائِر الْجَسَد بِالْحُمَّى وَالسَّهَر»[2]. وَقَوْله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أَيْ: يُطِيعُونَ الله وَيُحْسِنُونَ إِلَى خلقه. ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيْ: فِيمَا أَمَرَ، وَتَرْك مَا عَنْهُ زَجَرَ؛ ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: سيرحم الله مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَات، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أَيْ: عزيز وَمَنْ أَطَاعَهُ أعزه، فَإِنَّ العِزَّة لله وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي قِسْمَته هَذِهِ الصِّفَات لِهَؤُلَاءِ، وَتَخْصِيصه الْمُنَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمْ الْمُتَقَدِّمَة، فَإِنَّ لَهُ الْحِكْمَة فِي جَمِيع مَا يَفْعَلهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يُخْبِر تَعَالَى بِمَا أَعَدَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُؤْمِنَات، مِنْ الْخَيْرَات وَالنَّعِيم الْمُقِيم فِي ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا، ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أَيْ: حَسَنَة الْبِنَاء طَيِّبَة الْقَرَار، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: مِنْ حَدِيث أَبِي عِمْرَان الْجَوْنِيّ، عَنْ أَبِي بَكْر ابن أَبِي مُوسَى عَبْد الله بْن قَيْس الْأَشْعَرِيّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَب؛ آنِيَتهمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّة؛ آنِيَتهمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْن الْقَوْم وَبَيْن أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبّهمْ إِلا رِدَاء الْكِبْرِيَاء عَلَى وَجْهه فِي جَنَّة عَدْن»[3]. وَبِهِ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّة لَخَيْمَة مِنْ لُؤْلُؤَة وَاحِدَة مُجَوَّفَة، طُولهَا سِتُّونَ مِيلاً فِي السَّمَاء، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوف عَلَيْهِمْ لا يَرَى بَعْضهمْ بَعْضًا»[4]. أَخْرَجَاهُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُوله، وَأَقَامَ الصَّلاة، وَصَامَ رَمَضَان، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلهُ الْجَنَّة، هَاجَرَ فِي سَبِيل الله، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضه الَّتِي وُلِدَ فِيهَا». قَالُوا: يَا رَسُول الله، أَفَلَا نُخْبِر النَّاس؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّة مِائَة دَرَجَة، أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيله، بَيْن كُلّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْن السَّمَاء وَالْأَرْض، فَإِذَا سَأَلْتُمْ الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْس، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّة وَأَوْسَط الْجَنَّة، وَمِنْهُ تَفَجَّر أَنْهَار الْجَنَّة، وَفَوْقه عَرْش الرَّحْمَن»[5]. وَعِنْد الطَّبَرَانِيّ وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ رِوَايَة زَيْد بْن أَسْلَم، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل رضي الله عنه: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول:... فَذَكَرَ مِثْله. وَلِلتِّرْمِذِيّ عَنْ عِبَادَة بْن الصَّامِت مِثْله.

وَعَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ سَهْل بْن سَعْد، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْل الْجَنَّة لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرْفَة فِي الْجَنَّة كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَب فِي السَّمَاء»[6]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. ثُمَّ لِيُعْلَم أَنَّ أَعْلَى مَنْزِلَة فِي الْجَنَّة مَكَان يُقَال لَهُ الْوَسِيلَة؛ لِقُرْبِهِ مِنْ الْعَرْش، وَهُوَ مَسْكَن رَسُول الله ﷺ، مِنْ الْجَنَّة، كَمَا قَالَ الْإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرزاق، أَخْبَرَنَا سُفْيَان، عَنْ لَيْث، عَنْ كَعْب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ، فَسَلُوا الله لِي الْوَسِيلَة» قِيلَ: يَا رَسُول الله؛ مَا الْوَسِيلَة؟ فَقَالَ: «أَعْلَى دَرَجَة فِي الْجَنَّة، لا يَنَالهَا إِلا رَجُل وَاحِد، وَأَرْجُو أَنْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٧، ١٣٦٥، ٢٣١٤، ٥٦٨٠، ٥٦٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠)، والترمذي (٢٥٢٨).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٩٠).
(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٨٣٠).

أَكُون أنَا هُوَ»[١]. وَفِي صَحِيح مُسْلِم مِنْ حَدِيث كَعْب بْن عَلقَمَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاصِ؛ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ، يَقُول: «إِذَا سَمِعْتُمْ المُؤَذِّن فَقُولُوا مِثْل مَا يَقُول، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاة وَاحِدَة صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِي الوَسِيلَة، فَإِنَّهَا مَنْزِلَة مِنْ الجَنَّة لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَاد الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُون هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ الله لِي الوَسِيلَة حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَة يَوْم القِيَامَة»[٢].

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَلِيّ الأَبَّار، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن عَبْد المَلِك الحَرَّانِيّ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن أَعْيَن، عَنْ اِبْن أَبِي ذِئْب، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَطَاء، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «سَلُوا الله لِي الوَسِيلَة، فَإِنَّهُ لَمْ يَسْأَلهَا لِي عَبْد فِي الدُّنْيَا إِلا كُنْت لَهُ شَهِيدًا أَوْ شَفِيعًا يَوْم القِيَامَة»[٣]. وَفِي مُسْنَد الإِمَام أَحْمَد مِنْ حَدِيث سَعْد أَبِي مُجَاهِد الطَّائِيّ، عَنْ أَبِي المُدِلَّة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ: قُلنَا: يَا رَسُول الله؛ حَدِّثْنَا عَنْ الجَنَّة مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: «لَبِنَة ذَهَب وَلَبِنَة فِضَّة، وَمِلاطهَا المِسْك، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤ وَاليَاقُوت، وَتُرَابهَا الزَّعْفَرَان، مَنْ يَدْخُلهَا يَنْعَم لا يَبْأَس، وَيَخْلُد لا يَمُوت، لا تَبْلَى ثِيَابه وَلا يَفْنَى شَبَابه»[٤]. وَرُوِيَ عَنْ اِبْن عُمَر مَرْفُوعًا، نَحْوه.

وَعند التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق، عَنْ النُّعْمَان بْن سَعْد، عَنْ عَلِيّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّة لَغُرَفًا يُرَى ظُهورها مِنْ بطونها، وَبطونها مِنْ ظهورها». فَقَامَ أَعْرَابِيّ فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ لِمَنْ هِيَ؟ فَقَالَ: «لِمَنْ طَيَّبَ الكَلام، وَأَطْعَمَ الطَّعَام، وَأَدَامَ الصِّيَام، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاس نِيَام»[٥]. ثُمَّ قَالَ: حَدِيث غَرِيب. وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن عَمْرو، وأبي مالك الأشعري، كل منهما عن النبي ﷺ؛ بنحوه. وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو أبو مالك الأَشْعَرِيّ، فَالله أَعْلَم.

وَعَنْ أُسَامَة بْن زَيْد قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَلا هَل مُشَمِّر إِلَى الجَنَّة؟ فَإِنَّ الجَنَّة لا خَطَر لَهَا، هِيَ وَرَبّ الكَعْبَة نُور يَتَلأْلأ، وَرَيْحَانَة تَهْتَزّ، وَقَصْر مَشِيد، وَنَهَر مُطَّرِد، وَثَمَرَة نَضِيجَة، وَزَوْجَة حَسْنَاء جَمِيلَة، وَحُلَل كَثِيرَة، وَمَقَام فِي أَبَد فِي دَار سَلِيمَة، وَفَاكِهَة وَخُضْرَة وَحَبْرَة، وَنِعْمَة فِي مَحَلَّة عَلِيَّة بَهِيَّة» قَالُوا: نَعَم يَا رَسُول الله؛ نَحْنُ المُشَمِّرُونَ لَهَا. قَالَ: «قُولُوا: إِنْ شَاءَ الله». فَقَالَ القَوْم: إِنْ شَاءَ الله[٦]. رَوَاهُ اِبْن مَاجَهْ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أَيْ: رِضَا الله عَنْهُمْ أَكْبَر وَأَجَلّ وَأَعْظَم مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ النَّعِيم، كَمَا قَالَ الإِمَام مَالِك رحمه الله: عَنْ زَيْد بْن أَسْلَم، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ الله ﷻ يَقُول لأَهْلِ الجَنَّة: يَا أَهْل الجَنَّة، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْر فِي يَدَيْكَ. فَيَقُول: هَل رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرْضَى يَا رَبّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقك؟! فَيَقُول: أَلا أُعْطِيكُمْ أَفْضَل مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبّ، وَأَيّ شَيْء أَفْضَل مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُول: أُحِلّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلا أَسْخَط عَلَيْكُمْ بَعْده أَبَدًا»[٧]. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث مَالِك. وَقَالَ أَبُو عَبْد الله الحُسَيْن بْن إِسْمَاعِيل المَحَامِلِيّ: حَدَّثَنَا الفَضْل الرخامي، حَدَّثَنَا الفِرْيَابِيّ، عَنْ سُفْيَان، عَنْ مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ:

---

(١) صحيح بشواهده: أخرجه أحمد (٦/ ٢٥٦) من حديث أبي هريرة.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣).
(٣) حسن: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١/ ١٩٨)، وأحمد (٢/ ٣٠٤) من حديث ابن عباس، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٣٧).
(٤) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٣/ ٢٥٩) من حديث أبي هريرة، وقال الألباني: حسن لغيره. انظر «صحيح الترغيب» (٣٧١١).
(٥) حسن: أخرجه الترمذي (٢٥٢٧)، وأحمد (١/ ١٥٦)، وابن خزيمة (٣/ ٣٠٦)، وأبو يعلى (١/ ٣٤٤) من حديث علي بن أبي طالب، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٦) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢)، وابن حبان (٧٣٨١) من حديث أسامة، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢١٨٠).
(٧) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٨٣، ٧٠٨٠)، ومسلم (٢٨٢٩)، والترمذي (٢٥٥٥)، وأحمد (٣/ ٨٨).

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قَالَ اللهُ ﷻ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ؟ قَالُوا: يَا رَبَّنَا، مَا خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَيْتَنَا؟! قَالَ: رِضْوَانِي أَكْبَرُ»[1]. وَرَوَاهُ البَزَّارُ فِي مُسْنَده مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ، وَقَالَ الحَافِظُ الضِّيَاءُ المَقْدِسِيُّ فِي كِتَابه «صِفَةُ الجَنَّةِ»: هَذَا عِنْدِي عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

أَمَرَ تَعَالَى رَسُوله ﷺ بِجِهَادِ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ، وَالغِلظَة عَلَيْهِمْ، كَمَا أَمَرَهُ بِأَنْ يَخْفِض جَنَاحه لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ مَصِيرَ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ إِلَى النَّارِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ: بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعَةِ أَسْيَافٍ: سَيْف لِلْمُشْرِكِينَ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وَسَيْف لِكُفَّارِ أَهْلِ الكِتَابِ ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، وَسَيْف لِلْمُنَافِقِينَ ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وَسَيْف لِلْبُغَاةِ ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ يُجَاهَدُونَ بِالسُّيُوفِ إِذَا أَظْهَرُوا النِّفَاقَ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِه: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قَالَ: بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فَلْيَكْفَهِرَّ فِي وَجْهِه. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِجِهَادِ الكُفَّارِ بِالسَّيْفِ، وَالمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ، وَأَذْهَبَ الرِّفْقَ عَنْهُمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: جَاهِدْ الكُفَّارَ بِالسَّيْفِ، وَاغْلُظْ عَلَى المُنَافِقِينَ بِالكَلَامِ، وَهُوَ مُجَاهَدَتهمْ. وَعَنْ مُقَاتِلٍ وَالرَّبِيعِ مِثْله. وَقَالَ الحَسَنُ وَقَتَادَةُ: مُجَاهَدَتهمْ إِقَامَةُ الحُدُودِ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الأَقْوَالِ؛ لِأَنَّهُ تَارَةً يُؤَاخِذُهُمْ بِهَذَا، وَتَارَةً بِهَذَا، بِحَسَبِ الأَحْوَالِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ ابْنِ أُبَيٍّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ اقْتَتَلَ رَجُلَانِ جُهَنِيٌّ وَأَنْصَارِيٌّ، فَعَلَا الجُهَنِيُّ عَلَى الأَنْصَارِيِّ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ لِلْأَنْصَارِ: أَلَا تَنْصُرُوا أَخَاكُمْ؟ وَاللهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلَّا كَمَا قَالَ القَائِلُ: سَمِّنْ كَلبك يَأْكُلك. وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَسَعَى بِهَا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ فَجَعَلَ يَحْلِفُ بِاللهِ مَا قَالَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِ هَذِهِ الآيَةَ[2].

وَرَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ عَمِّه مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، قَالَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ الفَضْلِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ، يَقُولُ: حَزِنْتُ عَلَى مَنْ أُصِيبَ بِالحَرَّةِ مِنْ قَوْمِي، فَكَتَبَ إِلَيَّ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، وَبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزْنِي، يَذْكُرُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَلِأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ» وَشَكَّ ابْنُ الفَضْلِ فِي أَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ. قَالَ ابْنُ الفَضْلِ: فَسَأَلَ أَنَسًا بَعْضُ مَنْ كَانَ عِنْده عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، فَقَالَ: هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوْفَى اللهُ لَهُ بِأُذُنِه»[3]. وَذَلِكَ حِينَ سَمِعَ رَجُلًا مِنَ المُنَافِقِينَ يَقُولُ -وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ-: لَئِنْ كَانَ هذا صَادِقًا فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الحَمِيرِ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ: فَهُوَ وَاللهِ صَادِقٌ وَلَأَنْتَ شَرٌّ مِنَ الحِمَارِ. ثُمَّ رَفَعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَحَدَهُ القَائِلُ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ تَصْدِيقًا لِزَيْدٍ يَعْنِي قَوْله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ الآيَةَ.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (١/ ١٥٦)، والطبراني في «الأوسط» (٩/ ٢٦) من حديث جابر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٣).

(٢) مرسل: أخرجه ابن جرير (١٠/ ١٨٦) بسند مرسل.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢٣).

رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي أُوَيْس، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم بْن عُقْبَة، إِلَى قَوْله: «**هَذَا الَّذِي أَوْفَى الله لَهُ بِأُذُنِه**» وَلَعَلَّ مَا بَعْده مِنْ قَوْل مُوسَى بْن عُقْبَة. وَقَدْ رَوَاهُ مُحَمَّد بْن فُلَيْح عَنْ مُوسَى بْن عُقْبَة، بِإِسْنَادِهِ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ اِبْن شِهَاب، فَذَكَرَ مَا بَعْده عَنْ مُوسَى، عَنْ اِبْن شِهَاب، وَالْمَشْهُور فِي هَذِهِ القِصَّة أَنَّهَا كَانَتْ فِي غَزْوَة بَنِي الْمُصْطَلِق، فَلَعَلَّ الرَّاوِي وَهِمَ فِي ذِكْر الآيَة، وَأَرَادَ أَنْ يَذْكُر غَيْرهَا، فَذَكَرَهَا، وَالله أَعْلَم.

[حاشية:] قَالَ الأُمَوِيّ فِي مَغَازِيه: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله بْن كَعْب بْن مَالِك، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُول الله ﷺ، أَخَذَنِي قَوْمِي، فَقَالُوا: إِنَّك اِمْرُؤٌ شَاعِر فَإِنْ شِئْت أَنْ تَعْتَذِر إِلَى رَسُول الله ﷺ، بِبَعْضِ العِلَّة ثُمَّ يَكُون ذَنْبًا تَسْتَغْفِر الله مِنْهُ، وَذَكَرَ الحَدِيث بِطُولِهِ، إِلَى أَنْ قَالَ: وَكَانَ مِمَّنْ تَخَلَّفَ مِنْ الْمُنَافِقِينْ وَنَزَلَ فِيهِ القُرْآن مِنْهُمْ مِمَّنْ كَانَ مَعَ النَّبِيّ ﷺ، الجَلَّاس بْن سُوَيْد بْن الصَّامِت، وَكَانَ عَلَى أُمّ عُمَيْر بْن سَعْد، وَكَانَ عُمَيْر فِي حِجْره، فَلَمَّا نَزَلَ القُرْآن وَذَكَرَهُمْ الله بِمَا ذَكَرَ مِمَّا أَنْزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ، قَالَ الجَلَّاس: وَالله لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُل صَادِقًا فِيمَا يَقُول لَنَحْنُ شَرّ مِنْ الحَمِير، فَسَمِعَهَا عُمَيْر بْن سَعْد، فَقَالَ: وَالله يَا جَلَّاس إِنَّك لَأَحَبّ النَّاس إِلَيَّ وَأَحْسَنهمْ عِنْدِي بَلَاء وَأَعَزّهمْ عَلَيَّ أَنْ يَصِلَهُ شَيْء يَكْرَهُهُ، وَلَقَدْ قُلت مَقَالَة لئن ذَكَرْتهَا لَتَفْضَحَنَّك وَلَئِنْ كَتَمْتُهَا لَتُهْلِكَنِّي، وَلَإِحْدَاهُمَا أَهْوَن عَلَيَّ مِنْ الأُخْرَى فَمَشَى إِلَى رَسُول الله ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَ الجَلَّاس، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الجَلَّاس خَرَجَ حَتَّى أَتَى النَّبِيّ ﷺ، فَحَلَفَ بِالله مَا قَالَ مَا قَالَ عُمَيْر ابْن سَعْد، وَلَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ فِيهِ: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ إِلَى آخِر الآيَة. فَوَقَّفَهُ رَسُول الله ﷺ عَلَيْهَا، فَزَعَمُوا أَنَّ الجَلَّاس تَابَ فَحَسُنَتْ تَوْبَته، وَنَزَعَ فَأَحْسَن النُّزُوع[1]. هَكَذَا جَاءَ هَذَا مُدْرَجًا فِي الحَدِيث مُتَّصِلًا بِهِ، وَكَأَنَّهُ وَالله أَعْلَم مِنْ كَلَام اِبْن إِسْحَاق نَفْسه، لَا من كَلَام كَعْب بْن مَالِك. وَقَالَ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي الجَلَّاس بْن سُوَيْد بْن الصَّامِت، أَقْبَلَ هُوَ وَابْن اِمْرَأَته مُصْعَب مِنْ قُبَاء، فَقَالَ الجَلَّاس: إِنْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّد حَقًّا فَنَحْنُ أَشَرّ مِنْ حُمُرنَا هَذِهِ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا. فَقَالَ مُصْعَب: أَمَا وَالله يَا عَدُوّ الله لَأُخْبِرَنَّ رَسُول الله ﷺ بِمَا قُلت. فَأَتَيْت النَّبِيّ ﷺ وَخِفْت أَنْ يَنْزِل فِيَّ القُرْآن أَوْ تُصِيبنِي قَارِعَة أَوْ أَنْ أُخْلَط بِخَطِيئَةٍ؛ فَقُلت: يَا رَسُول الله، أَقْبَلت أَنَا وَالجَلَّاس مِنْ قُبَاء، فَقَالَ: كَذَا وَكَذَا، وَلَوْلَا مَخَافَة أَنْ أُخْلَط بِخَطِيئَةٍ أَوْ تُصِيبنِي قَارِعَة مَا أَخْبَرْتُك. قَالَ: فَدَعَا الجَلَّاس فَقَالَ: «**يَا جَلَاس؛ أَقُلت الَّذِي قَالَهُ مُصْعَب؟**» فَحَلَفَ؛ فَأَنْزَلَ الله ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: كَانَ الَّذِي قَالَ تِلْكَ المَقَالَة -فِيمَا بَلَغَنِي- الجَلَّاس بْن سُوَيْد بْن الصَّامِت، فَرَفَعَهَا عَلَيْهِ رَجُل كَانَ فِي حِجْره، يُقَال لَهُ: عُمَيْر بْن سَعْد. فَأَنْكَرَهَا؛ فَحَلَفَ بِالله مَا قَالَهَا. فَلَمَّا نَزَلَ فِيهِ القُرْآن تَابَ وَنَزَعَ وَحَسُنَتْ تَوْبَته، فِيمَا بَلَغَنِي[2]. وَقَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر بْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَيُّوب بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن رَجَاء، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ جَالِسًا فِي ظِلّ شَجَرَة، فَقَالَ: «**إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَان فَيَنْظُر إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيْ الشَّيْطَان، فَإِذَا جَاءَ فَلَا تُكَلِّمُوهُ**». فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ طَلَعَ رَجُل أَزْرَق، فَدَعَاهُ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: «**عَلَامَ تَشْتُمنِي أَنْتَ وَأَصْحَابك؟**» فَانْطَلَقَ الرَّجُل فَجَاءَ بِأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا بِالله مَا قَالُوا، حَتَّى تَجَاوَزَ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾ الآية[3].

وَقَوْله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ قِيلَ: نزلت فِي الجَلَّاس بْن سُوَيْد، وَذَلِكَ أَنَّهُ هَمَّ بِقَتْلِ اِبْن اِمْرَأَته حِين قَالَ:

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (١٠/ ١٨٥) بسند مرسل.

(٢) **ضعيف**: كما قال الإمام ابن كثير: إنه مدرج من كلام ابن إسحاق.

(٣) **حسن**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٢١)، والحاكم (٢/ ٥٢٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، وَقِيلَ: فِي عَبْد الله بن أُبَيّ هَمَّ بِقَتْلِ رَسُول الله ﷺ، وَقَالَ السُّدِّيّ: نَزَلَتْ فِي أُنَاس أَرَادُوا أَنْ يُتَوِّجُوا عَبْد الله بْن أُبَيّ، وَإِنْ لَمْ يَرْضَ رَسُول الله ﷺ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ هَمُّوا بِالفَتْكِ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ فِي غَزْوَة تَبُوك فِي بَعْض تِلْكَ اللَّيَالِي فِي حَال السَّيْر، وَكَانُوا بِضْعَة عَشَر رَجُلًا. قَالَ الضَّحَّاك: فَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة، وَذَلِكَ بَيِّن فِيمَا رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ فِي كِتَاب «دَلَائِل النُّبُوَّة» مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بن مُرَّة، عَنْ أَبِي البُخْتُرِيّ، عَنْ حُذَيْفَة بْن اليَمَان رضي الله عنه، قَالَ: كُنْت آخِذًا بِخِطَام نَاقَة رَسُول الله ﷺ، أَقُود بِهِ، وَعَمَّار يَسُوق النَّاقَة، أَوْ أَنَا أَسُوقهُ، وَعَمَّار يَقُودهُ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالعَقَبَةِ، فَإِذَا أَنَا بِاثْنَيْ عَشَر رَاكِبًا قَدْ اعْتَرَضُوهُ فِيهَا، قَالَ: فَأَنْبَهْت رَسُول الله ﷺ بِهِمْ، فَصَرَخَ بِهِمْ؛ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ. فَقَالَ لَنَا رَسُول الله: **«هَل عَرَفْتُمْ القَوْم؟»** قُلْنَا: لَا يَا رَسُول الله، قَدْ كَانُوا مُتَلَثِّمِينَ، وَلَكِنَّا قَدْ عَرَفْنَا الرِّكَاب. قَالَ: **«هَؤُلَاءِ المُنَافِقُونَ إِلَى يَوْم القِيَامَة، وَهَل تَدْرُونَ مَا أَرَادُوا؟»** قُلْنَا: لَا. قَالَ: **«أَرَادُوا أَنْ يَزْحموا رَسُول الله ﷺ فِي العَقَبَة، فَيُلْقُوهُ مِنْهَا»** قُلْنَا: يَا رَسُول الله؛ أَوَلَا تَبْعَث إِلَى عَشَائِرهمْ حَتَّى يَبْعَث إِلَيْك كُلّ قَوْم بِرَأْس صَاحِبهمْ؟ قَالَ: **«لَا؛ أَكْرَه أَنْ تَتَحَدَّث العَرَب بَيْنهَا أَنَّ مُحَمَّدًا قَاتَلَ بِقَوْمٍ حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ الله بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلهُمْ»** ثُمَّ قَالَ: **«اللهمَّ ارْمِهِمْ بِالدُّبَيْلَةِ»** قُلْنَا: يَا رَسُول الله وَمَا الدُّبَيْلَة؟ قَالَ: **«شِهَاب مِنْ نَار يَقَع عَلَى نِيَاط قَلْب أَحَدهمْ فَيَهْلِك»**[1].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد رحمه الله: حَدَّثَنَا يَزِيد، أَخْبَرَنَا الوَلِيد بن عَبْد الله بْن جُمَيْع، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل، قَالَ: لَمَّا أَقْبَلَ رَسُول الله ﷺ مِنْ غَزْوَة تَبُوك، أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى: إِنَّ رَسُول الله ﷺ أَخَذَ العَقَبَة، فَلَا يَأْخُذهَا أَحَد، فَبَيْنَمَا رَسُول الله ﷺ، يَقُودهُ حُذَيْفَة وَيَسُوقهُ عَمَّار، إِذْ أَقْبَلَ رَهْط مُتَلَثِّمُونَ عَلَى الرَّوَاحِل، فَغَشَوْا عَمَّارًا وَهُوَ يَسُوق بِرَسُولِ الله ﷺ، فَأَقْبَلَ عَمَّار رضي الله عنه، يَضْرِب وُجُوه الرَّوَاحِل فَقَالَ رَسُول الله لِحُذَيْفَة: **«قَدْ قَدْ»**. حَتَّى هَبَطَ رَسُول الله ﷺ؛ فَلَمَّا هَبَطَ نَزَلَ وَرَجَعَ عَمَّار فَقَالَ: **«يَا عَمَّار؛ هَل عَرَفْت القَوْم؟»** فَقَالَ: لَقَدْ عَرَفْت عَامَّة الرَّوَاحِل، وَالقَوْم مُتَلَثِّمُونَ قَالَ: **«هَل تَدْرِي مَا أَرَادُوا؟»** قَالَ: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: **«أَرَادُوا أَنْ يَنْفِرُوا بِرَسُول الله ﷺ رَاحِلَته فَيَطْرَحُوهُ»**. قَالَ: فَسَأَلَ عَمَّار رَجُلًا مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: نَشَدْتُك بِالله؛ كَمْ تَعْلَم كَانَ أَصْحَاب العَقَبَة؟ قَالَ: أَرْبَعَة عَشَر رَجُلًا، فَقَالَ: إِنْ كُنْت مِنْهُمْ فَقَدْ كَانُوا خَمْسَة عَشَر، قَالَ: فعذر رَسُول الله ﷺ مِنْهُمْ ثَلَاثَة. قَالُوا: وَالله مَا سَمِعْنَا مُنَادِي رَسُول الله ﷺ وَمَا عَلِمْنَا مَا أَرَادَ القَوْم، فَقَالَ عَمَّار: أَشْهَد أَنَّ الاثْنَيْ عَشَر البَاقِينَ حَرْب لله وَلِرَسُولِهِ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا وَيَوْم يَقُوم الأَشْهَاد. وَهَكَذَا رَوَى ابْن لَهِيعَة، عَنْ أَبِي الأَسْوَد، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، نَحْو هَذَا. وَأَنَّ رَسُول الله ﷺ، أَمَرَ أَنْ يَمْشِي النَّاس فِي بَطْن الوَادِي، وَصَعِدَ هُوَ وَحُذَيْفَة وَعَمَّار العَقَبَة، فَتَبِعَهُمْ هَؤُلَاءِ النَّفَر الأَرْذَلُونَ، وَهُمْ مُتَلَثِّمُونَ فَأَرَادُوا سُلُوك العَقَبَة، فَأَطْلَعَ الله عَلَى مُرَادهمْ رَسُول الله ﷺ، فَأَمَرَ حُذَيْفَة فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ، فَضَرَبَ وُجُوه رَوَاحِلهمْ فَفَزِعُوا، وَرَجَعُوا مَقْبُوحِينَ، وَأَعْلَمَ رَسُول الله ﷺ، حُذَيْفَة وَعَمَّارًا بِأَسْمَائِهِمْ وَمَا كَانُوا هَمُّوا بِهِ مِنْ الفَتْك بِهِ صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَكْتُمَا عَلَيْهِمْ. وَكَذَا رَوَى يُونُس بْن بُكَيْر، عَنْ ابْن إِسْحَاق، إِلَّا أَنَّهُ سَمَّى جَمَاعَة مِنْهُمْ، فَالله أَعْلَم.

وَكَذَا قَدْ حُكِيَ فِي مُعْجَم الطَّبَرَانِيّ، قَالَهُ البَيْهَقِيّ، وَيَشْهَد لِهَذِهِ القِصَّة بِالصِّحَّةِ مَا رَوَاهُ مُسْلِم، حَدَّثَنَا زُهَيْر بْن حَرْب، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد الكُوفِيّ، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن جُمَيْع، حَدَّثَنَا أَبُو الطُّفَيْل، قَالَ: كَانَ بَيْن رَجُل مِنْ أَهْل العَقَبَة وَبَيْن حُذَيْفَة بَعْض مَا يَكُون بَيْن النَّاس، فَقَالَ: أَنْشدك بِالله كَمْ كَانَ أَصْحَاب العَقَبَة؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ القَوْم أَخْبِرهُ إِذْ سَأَلَك، فَقَالَ: كُنَّا نُخْبَر أَنَّهُمْ أَرْبَعَة عَشَر فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَقَدْ كَانَ القَوْم خَمْسَة عَشَر، وَأَشْهَد بِالله أَنَّ اثْنَيْ عَشَر

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢٦٠)، وله شاهد عند أحمد من حديث أبي الطفيل (٥/ ٤٥٣).

مِنْهُمْ حَرْب لله وَلِرَسُولِهِ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا وَيَوْم يَقُوم الأَشْهَاد، وَعَذَرَ ثَلَاثَة قَالُوا: مَا سَمِعْنَا مُنَادِي رَسُول الله ﷺ وَلَا عَلِمْنَا بِمَا أَرَادَ القَوْم، وَقَدْ كَانَ فِي حَرَّة فمشى، فَقَالَ: «إِنَّ المَاءَ قَلِيل فَلَا يَسْبِقنِي إِلَيْهِ أَحَد» فَوَجَدَ قَوْمًا قَدْ سَبَقُوهُ، فَلَعَنَهُمْ يَوْمئِذٍ[1]، وَمَا رَوَاهُ مُسْلِم أَيْضًا مِنْ حَدِيث قَتَادَة، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ قَيْس بْن عَبَّاد، عَنْ عَمَّار بْن يَاسِر، قَالَ: أَخْبَرَنِي حُذَيْفَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَر مُنَافِقًا لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّة وَلَا يَجِدُونَ رِيحهَا حَتَّى يَلِج الجَمَل فِي سَمِّ الخِيَاط: ثَمَانِيَة مِنْهُمْ تَكْفِيكَهُمْ الدُّبَيْلَة، سِرَاج مِنْ نَار يَظْهَر بَيْن أَكْتَافهمْ حَتَّى يَنْجُم من صُدُورهم»[2]. وَلِهَذَا كَانَ حُذَيْفَة يُقَال لَهُ: صَاحِب السِّرّ، الَّذِي لَا يَعْلَمهُ غَيْره. أَيْ: مِنْ تَعْيِين جَمَاعَة مِنَ المُنَافِقِينَ وَهُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِمْ رَسُول الله ﷺ، دُون غَيْره، وَالله أَعْلَم.

وَقَدْ تَرْجَمَ الطَّبَرَانِيّ فِي مُسْنَد حُذَيْفَة تَسْمِيَة أَصْحَاب العَقَبَة، ثُمَّ رَوَى عَنْ عَلِيّ بْن عَبْد العَزِيز، عَنْ الزُّبَيْر بْن بَكَّار، أَنَّهُ قَالَ: هُمْ: مُعَتِّب بْن قُشَيْر، وَوَدِيعَة بْن ثَابِت، وَجَدّ بْن عَبْد الله بْن نبتل بْن الحَارِث مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَوْف، وَالحَارِث بْن يَزِيد الطَّائِيّ، وَأَوْس بْن قَيْظِيّ، وَالحَارِث بْن سُوَيْد، وَسَعْد بْن زُرَارَة، وَقَيْس بْن فَهْد، وَسُوَيْد وَدَاعِس من بَنِي الحُبْلِيّ، وَقَيْس بْن عَمْرو بْن سَهْل، وَزَيْد بْن اللصيت، وَسُلَالَة بْن الحمام وَهُمَا مِنْ بَنِي قَيْنُقَاع، أَظْهَرُوا الإِسْلَام.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أَيْ: وَمَا لِلرَّسُولِ عِندهمْ ذَنْب إِلَّا أَنَّ الله أَغْنَاهُمْ بِبَرَكَتِهِ وَيُمْن سفارته، وَلَوْ تَمَّتْ عَلَيْهِمْ السَّعَادَة لَهَدَاهُمْ الله لِمَا جَاءَ بِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ لِلأَنْصَار: «أَلَمْ أَجِدكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ الله بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ الله بِي؟ وَعَالَة فَأَغْنَاكُمْ الله بِي؟»[3]. كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: الله وَرَسُوله أَمَنّ. وَهَذِهِ الصِّيغَة تُقَال حَيْثُ لَا ذَنْب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الآيَة. وَكما قال عَلَيْهِ السَّلَام: «مَا يَنْقِم ابْن جَمِيل إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ الله»[4]. ثُمَّ دَعَاهُمْ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِلَى التَّوْبَة، فَقَالَ: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أَيْ: وَإِنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقهمْ ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: بِالقَتْل وَالهَمّ وَالغَمّ، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أَيْ: بِالعَذَاب وَالنَّكَال وَالهَوَان وَالصَّغَار، ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ أَحَد يُسْعِدهُمْ وَلَا يُنْجِدهُمْ، وَلَا يُحَصِّل لَهُمْ خَيْرًا وَلَا يَدْفَع عَنْهُمْ شَرًّا.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَمِنْ المُنَافِقِينَ مَنْ أَعْطَى الله عَهْده وَمِيثَاقه، لَئِنْ أَغْنَاهُ مِنْ فَضْله لَيَصَّدَّقَنَّ مِنْ مَاله وَلَيَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ، فَمَا وَفَّى بِمَا قَالَ وَلَا صَدَقَ فِيمَا ادَّعَى، فَأَعْقَبَهُمْ هَذَا الصَّنِيع نِفَاقًا سَكَنَ فِي قُلُوبهمْ إِلَى يَوْم يَلْقَوْن الله ﷻ يَوْم القِيَامَة. عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ كَثِير مِنْ المُفَسِّرِينَ، مِنْهُمْ ابْن عَبَّاس وَالحَسَن البَصْرِيّ: أَنَّ سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة فِي ثَعْلَبَة بْن حَاطِب الأَنْصَارِيّ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيث رَوَاهُ ابْن جَرِير هَاهُنَا، وَابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث معان بْن رِفَاعَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن القَاسِم بْن عَبْد الرَّحْمَن مَوْلَى عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد بْن مُعَاوِيَة، عَنْ أَبِي أُمَامَة البَاهِلِيّ، عَنْ ثَعْلَبَة بْن حَاطِب الأَنْصَارِيّ، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: ادْعُ الله أَنْ يَرْزُقنِي مَالًا، قَالَ: فَقَالَ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٧٩).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٧٩).
(٣) صحيح: تقدم.
(٤) صحيح: تقدم.

رَسُول الله ﷺ: «وَيْحك يَا ثَعْلَبَة؛ قَلِيل تُؤَدِّي شُكْره خَيْر مِنْ كَثِير لا تُطِيقه»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ مَرَّة أُخْرَى، فَقَالَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُون مِثْل نَبِيّ الله؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَوْ شِئْت أَنْ تَسِير الجِبَال مَعِي ذَهَبًا وَفِضَّة لَسَارَتْ». قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَك بِالحَقِّ لَئِنْ دَعَوْت الله فَرَزَقَنِي مَالًا لَأُعْطِيَنَّ كُلّ ذِي حَقّ حَقّه. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «اللهمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَة مَالًا». قَالَ: فَاتَّخَذَ غَنَمًا فَنَمَتْ كَمَا ينمو الدُّود، فَضَاقَتْ عَلَيْهِ المَدِينَة فَتَنَحَّى عَنْهَا فَنَزَلَ وَادِيًا مِنْ أَوْدِيَتهَا حَتَّى جَعَلَ يُصَلِّي الظُّهْر وَالعَصْر فِي جَمَاعَة، وَيَتْرُك مَا سِوَاهُمَا، ثُمَّ نَمَتْ وَكَثُرَتْ، فَتَنَحَّى حَتَّى تَرَكَ الصَّلَوَات إِلَّا الجُمُعَة، وَهِيَ تنمو كَمَا ينمو الدُّود، حَتَّى تَرَكَ الجُمُعَة فَطَفِقَ يَتَلَقَّى الرُّكْبَان يَوْم الجُمُعَة لِيَسْأَلَهُمْ عَنْ الأَخْبَار، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَا فَعَلَ ثَعْلَبَة؟» فَقَالُوا: يَا رَسُول الله؛ اتَّخَذَ غَنَمًا فَضَاقَتْ عَلَيْهِ المَدِينَة، فَأَخْبَرُوهُ بِأَمْرِهِ. فَقَالَ: «يَا وَيْح ثَعْلَبَة، يَا وَيْح ثَعْلَبَة، يَا وَيْح ثَعْلَبَة»[1]. وَأَنْزَلَ الله -جَلَّ ثَنَاؤُهُ-: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الآيَة. قَالَ: وَنَزَلَتْ عليه فَرَائِض الصَّدَقَة، فَبَعَثَ رَسُول الله ﷺ، رَجُلَيْنِ عَلَى الصَّدَقَة رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَة، وَرَجُلًا مِنْ سُلَيْم، وَكَتَبَ لَهُمَا كَيْف يَأْخُذَانِ الصَّدَقَة مِنْ المُسْلِمِينَ، وَقَالَ لَهُمَا: «مُرَّا بِثَعْلَبَة وَبِفُلَانٍ -رَجُل مِنْ بَنِي سُلَيْم- فَخُذَا صَدَقَاتهمَا» فَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَا ثَعْلَبَة، فَسَأَلَاهُ الصَّدَقَة، وَأَقْرَآهُ كِتَاب رَسُول الله ﷺ. فَقَالَ: مَا هَذِهِ إِلَّا جِزْيَة، مَا هَذِهِ إِلَّا أُخْت الجِزْيَة، مَا أَدْرِي مَا هَذَا؟ اِنْطَلِقَا حَتَّى تَفْرُغَا ثُمَّ عُودَا إِلَيَّ، فَانْطَلَقَا وَسَمِعَ بِهِمَا السُّلَمِيّ، فَنَظَرَ إِلَى خِيَار أَسْنَان إبله فَعَزَلَهَا لِلصَّدَقَةِ، ثُمَّ اِسْتَقْبَلَهُمَا بِهَا فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: مَا يَجِب عَلَيْك هَذَا، وَمَا نُرِيد أَنْ نَأْخُذ هَذَا مِنْك، فَقَالَ: بَلَى، فَخُذُوهَا فَإِنَّ نَفْسِي بِذَلِكَ طَيِّبَة، وَإِنَّمَا هِيَ لِي، فَأَخَذَاهَا مِنْهُ، فلما فرغا من صدقاتهما رَجَعَا حتى مرا بثعلبة. فَقَالَ: أَرُونِي كِتَابكُمَا فنظر فيه؛ فَقَالَ: مَا هَذِهِ إِلَّا أُخْت الجِزْيَة، اِنْطَلِقَا حَتَّى أَرَى رَأْيِي، فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا النَّبِيّ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُمَا قَالَ: «يَا وَيْح ثَعْلَبَة»، قَبْل أَنْ يُكَلِّمهُمَا وَدَعَا لِلسُّلَمِيّ بِالبَرَكَةِ، فَأَخْبَرَاهُ بِالَّذِي صَنَعَ ثَعْلَبَة، وَالَّذِي صَنَعَ السُّلَمِيّ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ الآيَة. قَالَ: وَعِنْد رَسُول الله ﷺ، رَجُل مِنْ أَقَارِب ثَعْلَبَة، فَسَمِعَ ذَلِكَ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَاهُ، فَقَالَ: وَيْحك يَا ثَعْلَبَة، قَدْ أَنْزَلَ الله فِيك كَذَا وَكَذَا، فَخَرَجَ ثَعْلَبَة حَتَّى أَتَى النَّبِيّ ﷺ، فَسَأَلَهُ أَنْ يَقْبَل مِنْهُ صَدَقَته، فَقَالَ: «إِنَّ الله مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْك صَدَقَتك»، فَجَعَلَ يحثو عَلَى رَأْسه التُّرَاب. فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «هَذَا عَمَلك قَدْ أَمَرْتُك فَلَمْ تُطِعْنِي». فَلَمَّا أَبَى رَسُول الله ﷺ أَنْ يَقْبِض صَدَقَته رَجَعَ إِلَى مَنْزِله فَقُبِضَ رَسُول الله ﷺ، وَلَمْ يَقْبَل مِنْهُ شَيْئًا، ثُمَّ أَتَى أَبَا بَكْر رضي الله عنه، حِين اُسْتُخْلِفَ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْت مَنْزِلَتِي مِنْ رَسُول الله، وَمَوْضِعِي مِنْ الأَنْصَار، فَاقْبَل صَدَقَتِي. فَقَالَ أَبُو بَكْر: لَمْ يَقْبَلهَا مِنْك رَسُول الله ﷺ، وَأَبَى أَنْ يَقْبَلهَا فَقُبِضَ أَبُو بَكْر، وَلَمْ يَقْبَلهَا. فَلَمَّا وُلِّيَ عُمَر رضي الله عنه، أَتَاهُ فَقَالَ: يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ؛ اِقْبَل صَدَقَتِي. فَقَالَ له: لَمْ يَقْبَلهَا رَسُول الله ﷺ، وَلَا أَبُو بَكْر وَأَنَا أَقْبَلهَا مِنْك؟! فَقُبِضَ وَلَمْ يَقْبَلهَا. فَلَمَّا وُلِّيَ عُثْمَان رضي الله عنه، أَتَاهُ؛ فَقَالَ: اِقْبَل صَدَقَتِي. فَقَالَ: لَمْ يَقْبَلهَا رَسُول الله ﷺ، وَلَا أَبُو بَكْر، وَلَا عُمَر، وَأَنَا أَقْبَلهَا مِنْك؟ فَلَمْ يَقْبَلهَا مِنْهُ. وَهَلَكَ ثَعْلَبَة فِي خِلَافَة عُثْمَان[2].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ أَيْ: أَعْقَبَهُمْ النِّفَاق فِي قُلُوبهمْ، بِسَبَبِ إِخْلَافهمْ الوَعْد وَكَذِبهمْ، كَمَا جاء فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «آيَة المُنَافِق ثَلَاث: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اُؤْتُمِنَ خَانَ»[3]. وَلَهُ شَوَاهِد كَثِيرَة، وَالله أَعْلَم.

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢١٨) من حديث أبي أمامة الباهلي، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٠٨١).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٢٤).
تنبيه: هذه القصة لا تصح، وهي مفتراة على الصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب، وهو ممن شهد بدرًا، وانظر للأهمية «تحذير الداعية» ص(٢٨٠-٢٨٩) ط. دار العقيدة.

(٣) صحيح: تقدم.

وَقَوْله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ يخبرهم تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَم السِّرّ وَأَخْفَى، وَأَنَّهُ أَعْلَم بِضَمَائِرِهِمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا أَنَّهُ إِنْ حَصَلَ لَهُمْ أَمْوَال تَصَدَّقُوا مِنْهَا، وَشَكَرُوا عَلَيْهَا، فإنه أَعْلَم بِهِمْ مِنْ أَنْفُسهمْ، لأَنَّهُ تَعَالَى عَلَّام الغُيُوب، أَيْ: يَعْلَم كُلّ غَيْب وَشَهَادَة، وَكُلّ سِرّ وَنَجْوَى، وَيَعْلَم مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وَهذه أَيْضًا مِنْ صِفَات الْمُنَافِقِينَ لَا يَسْلَم أَحَد مِنْ عَيْبهمْ، ولمزهم فِي جَمِيع الأَحْوَال، حَتَّى وَلَا الْمُتَصَدِّقُونَ يَسْلَمُونَ مِنْهُمْ، إِنْ جَاءَ أَحَد مِنْهُمْ بِمَالٍ جَزِيل قَالُوا: هَذَا مُرَاءٍ، وَإِنْ جَاءَ بِشَيْءٍ يَسِير قَالُوا: إِنَّ الله لَغَنِيّ عَنْ صَدَقَة هَذَا. كَمَا قال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَان البَصْرِيّ، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ سُلَيْمَان، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ أَبِي مَسْعُود ﷺ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَة الصَّدَقَة، كُنَّا نُحَامِل عَلَى ظُهُورنَا، فَجَاءَ رَجُل فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِير، فَقَالُوا: مُرَاءٍ، وَجَاءَ رَجُل فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا: إِنَّ الله لَغَنِيّ عَنْ صَدَقَة هَذَا. فَنَزَلَتْ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ الآيَة[1]. وَقد رواه مُسْلِم أَيْضًا فِي صَحِيحه مِنْ حَدِيث شُعْبَة، بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، ثنا الجُرَيْرِيّ، عَنْ أَبِي السَّلِيل، قَالَ: وَقَفَ عَلَيْنَا رَجُل فِي مَجْلِسنَا بِالبَقِيع، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، أَوْ عَمِّي، أَنَّهُ رَأَى رَسُول الله ﷺ بِالبَقِيعِ وَهُوَ يَقُول: «مَنْ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ، أَشْهَدُ لَهُ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ» قَالَ: فَحَلَلْت مِنْ عِمَامَتِي لَوْثًا أَوْ لَوْثَيْنِ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَصَدَّق بِهِمَا، فَأَدْرَكَنِي مَا يُدْرِك ابْن آدَم، فَعَقَدْت عَلَيَّ عِمَامَتِي. فَجَاءَ رَجُل لَمْ أَرَ بِالبَقِيعِ رَجُلًا أَشَدّ مِنْهُ سَوَادًا، وَلَا أَصْغَر مِنْهُ، وَلَا أَدَمّ بعين منه بِبَعِيرٍ سَاقَهُ، لَمْ أَرَ بِالبَقِيعِ نَاقَة أَحْسَن مِنْهَا. فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ أَصَدَقَة؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: دُونك هَذِهِ النَّاقَة. قَالَ: فَلَمَزَهُ رَجُل، فَقَالَ: هَذَا يَتَصَدَّق بِهَذِهِ فوَالله لَهِيَ خَيْر مِنْهُ. قَالَ: فَسَمِعَهَا رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: «كَذَبْتَ بَلْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ وَمِنْهَا» ثَلَاث مَرَّات، ثُمَّ قَالَ: «وَيْلٌ لأَصْحَابِ المِئِينَ مِنَ الإِبِلِ» ثَلَاثًا، قَالُوا: إِلَّا مَنْ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «إِلَّا مَنْ قَالَ بِالمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا». وَجَمَعَ بَيْن كَفَّيْهِ عَنْ يَمِينه وَعَنْ شِمَاله، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ المُزْهِدُ المُجْهِدُ» ثَلَاثًا. المُزْهِد فِي العَيْش المُجْهِد فِي العِبَادَة[2].

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة قَالَ: جَاءَ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف بِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّة مِنْ ذَهَب إِلَى رَسُول الله ﷺ وَجَاءَهُ رَجُل مِنَ الأَنْصَار بِصَاعٍ مِنْ طَعَام، فَقَالَ بَعْض الْمُنَافِقِينَ: وَالله مَا جَاءَ عَبْد الرَّحْمَن بِمَا جَاءَ بِهِ إِلَّا رِيَاء، وَقَالُوا: إن كان الله وَرَسُوله لَغَنِيَّيْنِ عَنْ هَذَا الصَّاع. وَقَالَ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: إِنَّ رَسُول الله خَرَجَ إِلَى النَّاس يَوْمًا فَنَادَى فِيهِمْ: أَنْ اجْمَعُوا صَدَقَاتكُمْ، فَجَمَعَ النَّاس صَدَقَاتهمْ ثُمَّ جَاءَ رَجُل مِنْ آخِرهمْ بِصَاعٍ مِنْ تَمْر، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ هَذَا صَاع مِنْ تَمْر بِتّ لَيْلَتِي أَجُرّ بِالجَرِير المَاء، حَتَّى نِلت صَاعَيْنِ مِنْ تَمْر، فَأَمْسَكْت أَحَدهمَا وَأَتَيْتُك بِالآخَر، فَأَمَرَهُ رَسُول الله ﷺ أَنْ يَنْثُرهُ فِي الصَّدَقَات، فَسَخِرَ مِنْهُ رِجَال، وَقَالُوا: إِنَّ الله وَرَسُوله لَغَنِيَّانِ عَنْ هَذَا، وَمَا يَصْنَعَانِ بِصَاعِك مِنْ شَيْء، ثُمَّ إِنَّ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: هَل بَقِيَ أَحَد مِنْ أَهْل الصَّدَقَات؟ فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرك» فَقَالَ لَهُ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف: فَإِنَّ عِنْدِي مِائَة أُوقِيَّة مِنْ ذهب فِي الصَّدَقَات، فَقَالَ لَهُ عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ: أَمَجْنُون أَنْتَ؟ قَالَ: لَيْسَ بِي جُنُون. قَالَ: أَفَعَلت مَا فَعَلت؟ قَالَ: نَعَمْ، مَالِي ثَمَانِيَة آلَاف، أَمَّا أَرْبَعَة آلَاف فَأُقْرِضهَا رَبِّي، وَأَمَّا أَرْبَعَة آلَاف فَلِي. فَقَالَ لَهُ رَسُول الله

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٤٩)، ومسلم (١٠١٨).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٣٤) من حديث أبي السليل، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣٠٣)، وقال: رواه أحمد وفيه رجل لم يسم.

ﷺ «بَارَكَ الله لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ» وَلَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ فَقَالُوا: وَالله مَا أَعْطَى عَبْدَ الرَّحْمَنِ عَطِيَّته إِلَّا رِيَاء. وَهُمْ كَاذِبُونَ إِنَّمَا كَانَ بِهِ مُتَطَوِّعًا، فَأَنْزَلَ الله ﷻ عُذْره وَعُذْر صَاحِبه الْمِسْكِين الَّذِي جَاءَ بِالصَّاعِ مِنَ التَّمْر. فَقَالَ تَعَالَى فِي كِتَابه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ الآيَة[1]. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد.

وَقَالَ اِبْن إِسْحَاق: كَانَ مِنْ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَات عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف تَصَدَّقَ بِأَرْبَعَةِ آلَاف دِرْهَم، وَعَاصِم بْن عَدِيّ أَخُو بَنِي الْعَجْلَان، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، رَغَّبَ فِي الصَّدَقَة وَحَضَّ عَلَيْهَا، فَقَامَ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف، فَتَصَدَّقَ بِأَرْبَعَةِ آلَاف، وَقَامَ عَاصِم بْن عَدِيّ وَتَصَدَّقَ بِمِائَةِ وَسْق مِنْ تَمْر، فَلَمَزُوهُمَا وَقَالُوا: مَا هَذَا إِلَّا رِيَاء. وَكَانَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِجُهْدِهِ أَبُو عُقَيْل أَخُو بَنِي أُنَيْف الْأَرَاشِيّ حَلِيف بَنِي عَمْرو بْن عَوْف، أَتَى بِصَاعٍ مِنْ تَمْر فَأَفْرَغَهُ فِي الصَّدَقَة فَتَضَاحَكُوا بِهِ. فَقَالُوا: إِنَّ الله لَغَنِيّ عَنْ صَاع أَبِي عُقَيْل. وَقَالَ الْحَافِظ أَبُو بَكْر الْبَزَّار: حَدَّثَنَا طَالُوت بْن عَبَّاد، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، عَنْ عُمَر بْن أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «تَصَدَّقُوا فَإِنِّي أُرِيد أَنْ أَبْعَث بَعْثًا» قَالَ: فَجَاءَ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف، فَقَالَ: يَا رَسُول الله عِنْدِي أَرْبَعَة آلَاف، أَلْفَيْنِ أُقْرِضهُمَا رَبِّي، وَأَلْفَيْنِ لِعِيَالِي. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «بَارَكَ الله لَكَ فِيمَا أَعْطَيْتَ وَبَارَكَ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ»، وَبَاتَ رَجُل مِنْ الْأَنْصَار، فَأَصَابَ صَاعَيْنِ مِنْ تَمْر، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ أَصَبْت صَاعَيْنِ مِنْ تَمْر؛ صَاع أُقْرِضهُ لِرَبِّي وَصَاع لِعِيَالِي. قَالَ: فَلَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا: مَا أَعْطَى الَّذِي أَعْطَى اِبْن عَوْف إِلَّا رِيَاء. وَقَالُوا: أَلَمْ يَكُنْ الله وَرَسُوله غَنِيَّيْنِ عَنْ صَاع هَذَا؟ فَأَنْزَلَ الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ أَبِي كَامِل، عَنْ أَبِي عَوَانَة، عَنْ عُمَر بْن أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِيهِ مُرْسَلًا، قَالَ: وَلَمْ يُسْنِدهُ أَحَد إِلَّا طَالُوت.

وَقَالَ الْإِمَام أَبُو جَعْفَر بْن جَرِير: حَدَّثَنَا اِبْن وَكِيع، حَدَّثَنَا زَيْد بْن الْحُبَاب، عَنْ مُوسَى بْن عُبَيْدَة، حَدَّثَنِي خَالِد اِبْن يَسَار، عَنْ اِبْن أَبِي عُقَيْل، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بِتّ أَجُرّ الْجَرِير عَلَى ظَهْرِي عَلَى صَاعَيْنِ مِنْ تَمْر، فَانْقَلَبْت بِأَحَدِهِمَا إِلَى أَهْلِي يَتَبَلَّغُونَ بِهِ، وَجِئْت بِالْآخَرِ أَتَقَرَّب إِلَى رَسُول الله ﷺ، فَأَتَيْته فَأَخْبَرْته فَقَالَ: «اُنْثُرْهُ فِي الصَّدَقَة» قَالَ: فَسَخِرَ الْقَوْم، وَقَالُوا: لَقَدْ كَانَ الله غَنِيًّا عَنْ صَدَقَة هَذَا الْمِسْكِين، فَأَنْزَلَ الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ الآيَتَيْنِ[2]. وَكَذَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ مِنْ حَدِيث زَيْد بْن الْحُبَاب، بِهِ. وَقَالَ: اِسْم أَبِي عُقَيْل حُبَاب، وَيُقَال: عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله بْن ثَعْلَبَة، وَقَوْله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هَذَا مِنْ بَاب الْمُقَابَلَة عَلَى سُوء صَنِيعهمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ الْجَزَاء مِنْ جِنْس الْعَمَل، فَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَة مَنْ سَخِرَ مِنْهُمْ اِنْتِصَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا، وَأَعَدَّ لِلْمُنَافِقِينَ فِي الْآخِرَة عَذَابًا أَلِيمًا؛ لِأَنَّ الْجَزَاء مِنْ جِنْس الْعَمَل.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى نَبِيّه ﷺ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا أَهْلًا لِلِاسْتِغْفَارِ، وَأَنَّهُ لَوْ اِسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَلَو سَبْعِينَ مَرَّة فَإِن الله لا يَغْفِر لَهُمْ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ السَّبْعِينَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ حَسْمًا لِمَادَّةِ الِاسْتِغْفَار لَهُمْ، لِأَنَّ الْعَرَب فِي أَسَالِيب كَلَامهَا تَذْكُر السَّبْعِينَ فِي مُبَالَغَة كَلَامهَا، وَلَا تُرِيد التَّحْدِيد بِهَا، وَلَا أَنْ يَكُون مَا زَادَ عَلَيْهَا بِخِلَافِهَا. وَقِيلَ: بَلْ لَهَا مَفْهُوم، كَمَا رَوَى الْعَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة: «أَسْمَع رَبِّي قَدْ رَخَّصَ لِي فِيهِمْ، فَوَالله،

(١) ضعيف الإسناد: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٢٩) بسند ضعيف فيه العوفي: شيعي مدلس.
(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٢٩)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٤٥) فيه موسى بن عبيدة: ضعيف.

لأستغفرنَّ لهم أكثر من سبعين مرَّة؛ لعلَّ الله أن يغفر لهم» فقال الله من شدَّة غضبه عليهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

وَقَالَ الشَّعْبِيّ: لَمَّا ثَقُلَ عَبْد الله بْن أُبَيّ، اِنْطَلَقَ اِبْنه إِلَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ أَبِي قَدْ اُحْتُضِرَ، فَأُحِبّ أَنْ تشهده وَتُصَلِّي عَلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ: «مَا اسْمك؟» قَالَ: الْحُبَاب بْن عَبْد الله. قَالَ: «بَل أنْتَ عَبْد الله بْن عَبْد الله إنَّ الحُبَاب اِسْم شَيْطَان» قال: فَانْطَلَقَ مَعَهُ حَتَّى شَهِدَهُ، وَأَلْبَسَهُ قَمِيصه وَهُوَ عَرِق، وَصَلَّى عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وهو منافق؟ فَقَالَ: «إنَّ الله قَالَ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وَلأستَغْفِرَنَّ لَهُمْ سَبْعِينَ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِينَ»[2]. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، وَمُجَاهِد بْن جبر، وَقَتَادَة ابْن دِعَامَة، رواها اِبْن جَرِير بِأَسَانِيدِهِ.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى ذَامًّا لِلْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ صَحَابَة رَسُول الله ﷺ، فِي غَزْوَة تَبُوك، وَفَرِحُوا بمقعدهم بَعْد خُرُوجه، ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ مَعَهُ ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟﴾ أَيْ: بَعْضهمْ لِبَعْضٍ ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾، وَذَلِكَ أَنَّ الْخُرُوج فِي غَزْوَة تَبُوك كَانَ فِي شِدَّة الْحَرّ عِنْد طِيب الظِّلَال وَالثِّمَار؛ فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ قَالَ الله تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ الَّتِي تَصِيرُونَ إِلَيْهَا بِسبب مُخَالَفَتِكُمْ ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مِمَّا فَرَرْتُمْ مِنْهُ مِنْ الْحَرّ، بَل أَشَدّ حَرًّا مِنْ النَّار، كَمَا قَالَ الإِمَام مَالِك، عَنْ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «نَار بَنِي آدم الَّتِي يوقدون بها جُزْء مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَار جَهَنَّم» فَقَالُوا: يَا رَسُول الله؛ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَة. فَقَالَ: «إنها فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا»[3]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث مَالِك، بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْء مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَار جَهَنَّم، وَضُرِبَتْ فِي الْبَحْر مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلا ذَلِكَ مَا جَعَلَ الله فِيهَا مَنْفَعَة لأَحَدٍ»[4]. وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَاد صَحِيح. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ، وَابْن مَاجَهْ، عَنْ عَبَّاس الدُّورِيّ، وَعَنْ يَحْيَى بن أَبِي بُكَيْر، عَنْ شَرِيك، عَنْ عَاصِم، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «أُوقِدَ عَلَى النَّار أَلْف سَنَة حَتَّى اِحْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْف سَنَة حَتَّى اِبْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْف سَنَة حَتَّى اِسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاء كَاللَّيْلِ الْمُظْلِم»[5]. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيّ: لَا أَعْلَم أَحَدًا رَفَعَهُ غَيْر يَحْيَى. كَذَا قَالَ: وَقَدْ رَوَاهُ الْحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْهِ، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد، عَنْ مُحَمَّد بْن الْحُسَيْن بْن مُكْرَم، عَنْ عُبَيْد الله بْن سَعِيد، عَنْ عَمّه، عَنْ شَرِيك -وَهُوَ اِبْن عَبْد الله النَّخَعِيّ-، بِهِ. وَرَوَى أَيْضًا اِبْن مَرْدُوَيْهِ مِنْ رِوَايَة مُبَارَك بْن فَضَالَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، قَالَ: تَلَا رَسُول الله ﷺ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ قَالَ: «أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْف عَام حَتَّى اِبْيَضَّتْ، وَأَلْف عَام حَتَّى اِحْمَرَّتْ، وَأَلْف عَام حَتَّى اِسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاء كَاللَّيْلِ الْمُظْلِم لا يُضِيء لَهِيبهَا». وَرَوَى الْحَافِظ أَبُو الْقَاسِم الطَّبَرَانِيّ مِنْ حَدِيث تَمَّام بْن نَجِيح -وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِيهِ-، عَنْ الْحَسَن، عَنْ أَنَس، مرفوعًا: «لَوْ أَنَّ شَرَارَة بِالْمَشْرِقِ -أَيْ: مِنْ نَار جَهَنَّم- لَوَجَدَ حَرّهَا مَنْ بِالْمَغْرِبِ»[6]. وَرَوَى الْحَافِظ أَبُو يَعْلَى عَنْ إِسْحَاق بْن أَبِي إِسْرَائِيل،

---

(١) ضعيف الإسناد: فيه عطية العوفي: مدلس.

(٢) ضعيف الإسناد: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٣٤) بسند ضعيف فيه سفيان بن وكيع: ضعيف، وكذا جرير بن عبد الحميد؛ قال الحافظ: كان يهم في آخر عمره من حفظه.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)، و«الموطأ» (٢/ ٩٩٤) من حديث أبي هريرة.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٤) من حديث أبي هريرة.

(٥) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٥٩١)، وابن ماجه (٤٣٢٠) من حديث أبي هريرة، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢١٢٥).

(٦) ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني (٤/ ٨٧) من حديث أنس، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٧٠٨)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه تمام بن نجيح وهو ضعيف، وقال الألباني: ضعيف جدًا. انظر «ضعيف الترغيب» (٢١٣٠).

عَنْ أَبِي عُبَيْدَة الحَدَّاد، عَنْ هِشَام بْن حَسَّان، عَنْ مُحَمَّد بْن شَبِيب، عَنْ جَعْفَر بْن أَبِي وَحْشِيَّة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَوْ كَانَ فِي هَذَا المَسْجِد مِائَة أَلف أَوْ يَزِيدُونَ، وَفِيهِمْ رَجُل مِنْ أَهْل النَّار، فَتَنَفَّسَ فَأَصَابَهُمْ نَفَسه لاحْتَرَقَ المَسْجِد وَمَنْ فِيهِ»[1]. غَرِيب.

وَقَالَ الأَعْمَش عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ النُّعْمَان بْن بَشِير؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْوَن أَهْل النَّار عَذَابًا يَوْم القِيَامَة لَمَنْ لَهُ نَعْلانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَار جَهَنَّم، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغه، كَمَا يَغْلِي المِرْجَل، لا يَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْل النَّار أَشَدّ عَذَابًا مِنْهُ، وَإِنَّهُ أَهْوَنهمْ عَذَابًا»[2]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث الأَعْمَش. وَقَالَ مُسْلِم أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَبِي بكير، حَدَّثَنَا زُهَيْر بْن مُحَمَّد، عَنْ سُهَيْل بْن أَبِي صَالِح، عَنْ النُّعْمَان بْن أَبِي عَيَّاش، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْل النَّار عَذَابًا يَوْم القِيَامَة يَنْتَعِل بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَار، يَغْلِي دِمَاغه مِنْ حَرَارَة نَعْلَيْهِ»[3]. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ اِبْن عَجْلَان، سَمِعْت أَبِي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْل النَّار عَذَابًا رَجُل يُجْعَل لَهُ نَعْلانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغه»[4]. وَهَذَا إِسْنَاد جَيِّد قَوِيّ، رِجَاله عَلَى شَرْط مُسْلِم، وَالله أَعْلَم.

وَالأَحَادِيث وَالآثَار النَّبَوِيَّة فِي هَذَا كَثِيرَة. وَقَالَ الله تَعَالَى فِي كِتَابه العَزِيز: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ أَيْ: لَوْ أَنَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَيَفْهَمُونَ لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُول فِي سَبِيل الله فِي الحَرّ؛ لِيَتَّقُوا بِهِ مِنْ حَرّ جَهَنَّم الَّذِي هُوَ أَضْعَاف أَضْعَاف هَذَا، وَلَكِنَّهُمْ كَمَا قَالَ الآخَر:

.... ❁ كَالمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ

وَقَالَ الآخَر:

عُمْرك بِالحِمْيَةِ أَفْنَيْته ❁ مَخَافَة البَارِد وَالحَارّ

وَكَانَ أَوْلَى بِك أَنْ تَتَّقِي ❁ مِنَ المَعَاصِي حَذَر النَّار

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﷻ مُتَوَعِّدًا هَؤُلَاءِ المُنَافِقِينَ عَلَى صَنِيعهمْ هَذَا: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

قَالَ اِبْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: الدُّنْيَا قَلِيل فَلْيَضْحَكُوا فِيهَا مَا شَاءُوا، فَإِذَا اِنْقَطَعَتْ الدُّنْيَا وَصَارُوا إِلَى الله ﷻ، اِسْتَأْنَفُوا بُكَاء لَا يَنْقَطِع أَبَدًا. وَكَذَا قَالَ أَبُو رَزِين وَالحَسَن وَقَتَادَة وَالرَّبِيع بْن خُثَيْم، وَعَوْن العُقَيْلِيّ، وَزَيْد بْن أَسْلَم.

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عَبْد الصَّمَد بْن أَبِي خِدَاش، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حميد، عَنْ اِبْن المُبَارَك، عَنْ عِمْرَان بْن زَيْد حَدَّثَنَا يَزِيد الرَّقَاشِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالِك؛ قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول: «يَا أَيُّهَا النَّاس اِبْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا، فَإِنَّ أَهْل النَّار يَبْكُونَ حَتَّى تَسِيل دُمُوعهمْ فِي وُجُوههمْ كَأَنَّهَا جَدَاوِل، حَتَّى تَنْقَطِع الدُّمُوع فَتَسِيل الدِّمَاء فَتَقَرَّح العُيُون، فَلَوْ أَنَّ سُفُنًا أُزْجِيَتْ فِيهَا لَجَرَتْ»[5]. وَرَوَاهُ اِبْن مَاجَهْ مِنْ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو يعلى (١٢/ ٢٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٧) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦٦٨).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢١١) من حديث أبي سعيد.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٨)، وابن حبان (٧٤٧٢)، وقال الألباني: حسن صحيح. انظر «صحيح الترغيب» (٣٦٨٧).

(٥) حسن لغيره: أخرجه أبو يعلى (٧/ ١٦١)، وابن ماجه (٤٣٢٤)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٦٧٩).

حَدِيث الأَعْمَش، عَنْ يَزِيد الرَّقَاشِيّ، بِهِ. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد ابْن العَبَّاس، حَدَّثَنَا حَمَّاد الجَزَرِيّ، عَنْ زَيْد بْن رَفِيع، رَفَعَهُ قَالَ: «**إِنَّ أَهْل النَّار إِذَا دَخَلُوا النَّار بَكَوْا الدُّمُوع زَمَانًا، ثُمَّ بَكَوْا القَيْح زَمَانًا، قَالَ: فَتَقُول لَهُمْ الخَزَنَة: يَا مَعْشَر الأَشْقِيَاء تَرَكْتُمْ البُكَاء فِي الدَّار المَرْحُوم فِيهَا أَهْلهَا فِي الدُّنْيَا، هَل تَجِدُونَ اليَوْم مَنْ تَسْتَغِيثُونَ بِهِ؟ قَالَ: فَيَرْفَعُونَ أَصْوَاتهم: يَا أَهْل الجَنَّة؛ يَا مَعْشَر الآبَاء وَالأُمَّهَات وَالأَوْلَاد، خَرَجْنَا مِنْ القُبُور عِطَاشًا، وَكُنَّا طُول المَوْقِف عِطَاشًا، وَنَحْنُ اليَوْم عِطَاش، فَـ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾. فَيَدْعُونَ أَرْبَعِينَ سَنَة لَا يُجِيبهُمْ، ثُمَّ يُجِيبهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ فَيَيْأَسُونَ مِنْ كُلّ خَيْر**».

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ أَيْ: رَدَّك الله مِنْ غَزْوَتك هَذِهِ ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قَالَ قَتَادَة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا اثْنَى عَشَر رَجُلًا ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أَيْ: مَعَك إِلَى غَزْوَة أُخْرَى ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أَيْ: تَعْزِيرًا لَهُمْ وَعُقُوبَة ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فَإِنَّ جَزَاء السَّيِّئَة السَّيِّئَة بَعْدهَا، كَمَا أَنَّ مِن ثَوَاب الحَسَنَة الحَسَنَة بَعْدهَا، كَقَوْلِهِ فِي عُمْرَة الحُدَيْبِيَة: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس: أَيْ: الرِّجَال الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ الغَزَاة. وَقَالَ قَتَادَة: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أَيْ: مَعَ النِّسَاء. قَالَ اِبْن جَرِير: وَهَذَا لَا يَسْتَقِيم؛ لِأَنَّ جَمْع النِّسَاء لَا يَكُون بِاليَاءِ وَالنُّون، وَلَوْ أُرِيد النِّسَاء لَقَالَ فَاقْعُدُوا مَعَ الخَوَالِف أَوْ الخَالِفَات، وَرَجَّحَ قَوْل اِبْن عَبَّاس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾

أَمَرَ الله تَعَالَى رَسُوله ﷺ، أَنْ يَبْرَأ مِنْ المُنَافِقِينَ، وَأَنْ لَا يُصَلِّي عَلَى أَحَد مِنْهُمْ إِذَا مَاتَ، وَأَنْ لَا يَقُوم عَلَى قَبْره لِيَسْتَغْفِر لَهُ أَوْ يَدْعُو لَهُ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَرَسُوله وَمَاتُوا عَلَيْهِ، وَهَذَا حُكْم عَامّ فِي كُلّ مَنْ عُرِفَ نِفَاقه، وَإِنْ كَانَ سَبَب نُزُول الآيَة فِي عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول رَأْس المُنَافِقِينَ، كَمَا قَالَ البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا عُبَيْد بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ أَبِي أُسَامَة، عَنْ عُبَيْد الله، عَنْ نَافِع، عَنْ اِبْن عُمَر، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْد الله بْن أُبَيّ، جَاءَ اِبْنه عَبْد الله بْن عَبْد الله إِلَى رَسُول الله ﷺ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيه قَمِيصه يُكَفِّن فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُول الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ عُمَر فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبّك أَنْ تُصَلِّي عَلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّمَا خَيَّرَنِي الله فَقَالَ:** ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾ **وَسَأَزِيدهُ عَلَى السَّبْعِينَ**» قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِق. قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ آيَة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ﴾[1]. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِم، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ أَبِي أُسَامَة حَمَّاد بْن أُسَامَة، بِهِ. ثُمَّ رَوَاهُ البُخَارِيّ، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن المُنْذِر، عَنْ أَنَس بْن عِيَاض، عَنْ عُبَيْد الله -وَهُوَ اِبْن عُمَر العُمَرِيّ-، بِهِ. وَقَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَأَنْزَلَ الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ﴾ الآيَة. وَهَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد القَطَّان، عَنْ عُبَيْد الله، بِهِ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٧٠)، ومسلم (٢٧٧٤).

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيث عُمَر بْن الخَطَّاب نَفسه أَيْضًا، بِنَحْوٍ مِنْ هَذَا. فَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ اِبْن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي الزُّهْرِيّ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: سَمِعْت عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ يَقُول: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْد الله بْن أُبَيّ دُعِيَ رَسُول الله ﷺ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ فَقَامَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ يُرِيد الصَّلَاة تَحَوَّلت حَتَّى قُمْت فِي صَدْره، فَقُلْت: يَا رَسُول الله؛ أَعَلَى عَدُوّ الله عَبْد الله بْن أُبَيّ القَائِل يَوْم كَذَا كَذَا وَكَذَا -يُعَدِّد أَيَّامه-؟ قَالَ: وَرَسُول الله ﷺ يَتَبَسَّم، حَتَّى إِذَا أَكْثَرْت عَلَيْهِ. قَالَ: «أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَر، إِنِّي خُيِّرْت فَاخْتَرْت، قَدْ قِيلَ لِي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لَوْ أَعْلَم أَنِّي إِنْ زِدْت عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْت». قَالَ: ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، وَمَشَى مَعَهُ وَقَامَ عَلَى قَبْره، حَتَّى فَرَغَ مِنْهُ، قَالَ: فَعَجِبْت مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُول الله ﷺ، وَالله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: فَوَالله مَا كَانَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ هَاتَانِ الآيَتَانِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾. فَمَا صَلَّى رَسُول الله ﷺ، بَعْده عَلَى مُنَافِق وَلَا قَامَ عَلَى قَبْره حَتَّى قَبَضَهُ الله ﷻ. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير مِنْ حَدِيث مُحَمَّد ابْن إِسْحَاق عَنْ الزُّهْرِيّ، بِهِ. وَقَالَ: حَسَن صَحِيح.

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ، عَنْ يَحْيَى بْن بُكَيْر، عَنْ اللَّيْث، عَنْ عُقَيْل، عَنْ الزُّهْرِيّ، بِهِ. فَذَكَرَ مِثْله، وَقَالَ: «أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَر» فَلَمَّا أَكْثَرْت عَلَيْهِ قَالَ: «إِنِّي خُيِّرْت فَاخْتَرْت وَلَوْ أَعْلَم أَنِّي إِنْ زِدْت عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْت عَلَيْهَا» قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ ثُمَّ اِنْصَرَفَ فلم يَلْبَث إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ الآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ الآية. فَعَجِبْت بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُول الله ﷺ، وَرَسُول الله ﷺ أَعْلَم(١). وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُبَيْد، حَدَّثَنَا عَبْد المَلِك، عَنْ أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر، قَالَ: لَمَّا مَاتَ عَبْد الله بْن أُبَيّ، أَتَى اِبْنه النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ إِنَّك إِنْ لَمْ تَأْتِهِ لَمْ نَزَلْ نُعَيَّر بها. فَأَتَاهُ النَّبِيّ ﷺ، فَوَجَدَهُ قَدْ أُدْخِل فِي حُفْرَته فَقَالَ: «أَفَلَا قَبْل أَنْ تُدْخِلُوهُ؟» فَأُخْرِجَ مِنْ حُفْرَته، وَتَفَلَ عَلَيْهِ مِنْ رِيقه مِنْ قَرْنه إِلَى قَدَمه، وَأَلْبَسَهُ قَمِيصه(٢). وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْ أَبِي دَاوُد الحَرَّانِيّ، عَنْ يَعْلَى بْن عُبَيْد، عَنْ عَبْد المَلِك -وَهُوَ اِبْن أَبِي سُلَيْمَان-، بِهِ. وَقَالَ البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عُثْمَان، أَخْبَرَنَا اِبْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو، سَمِعَ جَابِر بْن عَبْد الله، قَالَ: أَتَى النَّبِيّ ﷺ عَبْد الله بْن أُبَيّ، بَعْدَمَا أُدْخِلَ فِي قَبْره، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ، وَوُضِعَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَنَفَثَ عَلَيْهِ مِنْ رِيقه، وَأَلْبَسَهُ قَمِيصه(٣)، وَالله أَعْلَم.

وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا فِي غَيْر مَوْضِع مع مُسْلِم وَالنَّسَائِيّ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، بِهِ. وَقَالَ الإِمَام أَبُو بَكْر أَحْمَد بْن عَمْرو بْن عَبْد الخَالِق البَزَّار فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا مُجَالِد، حَدَّثَنَا عَامِر، حَدَّثَنَا جَابِر /ح/ وَحَدَّثَنَا يُوسُف بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَغْرَاء الدَّوْسِيّ، حَدَّثَنَا مُجَالِد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ جَابِر، قَالَ: لَمَّا مَاتَ رَأْس المُنَافِقِينَ -قَالَ يَحْيَى بْن سَعِيد: بِالمَدِينَةِ- فَأَوْصَى أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ، فَجَاءَ اِبْنه إِلَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ أَبِي أَوْصَى أَنْ يُكَفَّن فِي قَمِيصك -وَهَذَا الكَلَام فِي حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن مَغْرَاء، قَالَ يَحْيَى فِي حَدِيثه:- فَصَلَّى عَلَيْهِ وَأَلْبَسَهُ قَمِيصه، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ -وَزَادَ عَبْد الرَّحْمَن:- وَخَلَعَ النَّبِيّ ﷺ قَمِيصه، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَمَشَى فَصَلَّى عَلَيْهِ، وَقَامَ عَلَى قَبْره، فَأَتَاهُ جِبْرِيل ﷺ لَمَّا وَلَّى قَالَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ وهذا إسناد لَا بَأْس بِهِ. وَمَا قَبْله شَاهِد لَهُ.

وَقَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر الطَّبَرِيّ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ يَزِيد

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٧١)، والترمذي (٣٠٩٧)، وأحمد (١/ ١٦).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٣٧١) من حديث جابر.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٧٠، ١٣٥٠، ٥٧٩٥).

الرَّقَاشِيّ، عَنْ أَنَس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ أَرَادَ أَنْ يُصَلِّي عَلَى عَبْد الله بْن أُبَيّ، فَأَخَذَ جِبْرِيل بِثَوْبِهِ، وَقَالَ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾. وَرَوَاهُ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَده، مِنْ حَدِيث يَزِيد الرَّقَاشِيّ، وَهُوَ ضَعِيف. وَقَالَ قَتَادَة: أَرْسَلَ عَبْد الله بْن أُبَيّ إِلَى رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ مَرِيض، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ: «**أَهْلَكَكَ حُبّ يَهُود**» قَالَ: يَا رَسُول الله؛ إِنَّمَا أَرْسَلت إِلَيْك لِتَسْتَغْفِر لِي وَلَمْ أُرْسِل إِلَيْك لِتُؤَنِّبنِي. ثُمَّ سَأَلَهُ عَبْد الله أَنْ يُعْطِيه قَمِيصه يُكَفِّن فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَصَلَّى عَلَيْهِ، وَقَامَ عَلَى قَبْره، فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾. وَقَدْ ذَكَرَ بَعْض السَّلَف أنه إنما ألبسه قَمِيصه؛ لأَنَّ عَبْد الله بْن أُبَيّ لَمَّا قَدِمَ العَبَّاس طُلِبَ لَهُ قَمِيص فَلَمْ يُوجَد عَلَى تَفْصِيله إِلَّا ثَوْب عَبْد الله بْن أُبَيّ؛ لأَنَّهُ كَانَ ضَخْمًا طَوِيلًا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِ رَسُول الله ﷺ، مُكَافَأَة لَهُ، فَالله أَعْلَم. وَلِهَذَا كَانَ رَسُول الله ﷺ، بَعْد نُزُول هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة عَلَيْهِ لَا يُصَلِّي عَلَى أَحَد مِنْ المُنَافِقِينَ، وَلَا يَقُوم عَلَى قَبْره. كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن أَبِي قَتَادَة، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ، إِذَا دُعِيَ لِجَنَازَة سَأَلَ عَنْهَا؛ فَإِنْ أُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا قَامَ فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَإِنْ أُثْنِيَ عليها غَيْر ذَلِكَ قَالَ لِأَهْلِهَا: شَأْنكُمْ بِهَا، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهَا[1]. وَكَانَ عُمَر بْن الخَطَّاب لَا يُصَلِّي عَلَى جِنَازَة مَنْ جَهِلَ حَاله حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا حُذَيْفَة بْن اليَمَان، لأَنَّهُ كَانَ يَعْلَم أَعْيَان المُنَافِقِينَ، قَدْ أَخْبَرَهُ بِهِمْ رَسُول الله ﷺ، وَلِهَذَا كَانَ يُقَال لَهُ: صَاحِب السِّرّ الَّذِي لَا يَعْلَمهُ غَيْره، أَيْ: مِنْ الصَّحَابَة.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْد فِي كِتَاب «الغَرِيب» فِي حَدِيث عُمَر: أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى جِنَازَة رَجُل فَمَرَزَهُ حُذَيْفَة كَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَصُدّهُ عَنْ الصَّلَاة عَلَيْهَا، ثُمَّ حَكَى عَنْ بَعْضهمْ أَنَّ المَرْز بِلُغَة أَهْل اليَمَامَة هُوَ القَرْص بِأَطْرَافِ الأَصَابع. وَلَمَّا نَهَى الله ﷻ، عَنْ الصَّلَاة عَلَى المُنَافِقِينَ وَالقِيَام عَلَى قُبُورهمْ لِلاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، كَانَ هَذَا الصَّنِيع مِنْ أَكْبَر القُرُبَات فِي حَقّ المُؤْمِنِينَ، فَشُرِعَ ذَلِكَ، وَفِي فِعْله الأَجْر الجَزِيل، كَمَا ثَبَتَ فِي الصِّحَاح وَغَيْرهَا مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**مَنْ شَهِدَ الجِنَازَة حَتَّى يُصَلِّي عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاط، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَن فَلَهُ قِيرَاطَانِ**»، قِيلَ: وَمَا القِيرَاطَانِ؟ قَالَ: «**أَصْغَرهمَا مِثْل أُحُد**»[2]، وَأَمَّا القِيَام عِنْد قَبْر المُؤْمِن إِذَا مَاتَ، فقد قال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُوسَى الرَّازِيّ، أَخْبَرَنَا هِشَام، عَنْ عَبْد الله بْن بُحَيْر، عَنْ هَانِئ، وَهُوَ أَبُو سَعِيد البَرْبَرِيّ مَوْلَى عُثْمَان بْن عَفَّان، عَنْ عُثْمَان رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ، إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْن الرجل وَقَفَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**اِسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيت فَإِنَّهُ الآن يُسْأَل**»[3]. اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ أَبُو دَاوُد رحمه الله.

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

وقد تقدم نظير تفسير هذه الآية الكريمة، ولله الحمد والمنة.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُنْكِرًا وَذَامًّا لِلْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ الجِهَاد النَّاكِلِينَ عَنْهُ مَعَ القُدْرَة عَلَيْهِ وَوُجُود السَّعَة وَالطَّوْل، وَاسْتَأْذَنُوا الرَّسُول فِي القُعُود وَقَالُوا: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ وَرَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِالعَارِ وَالقُعُود فِي البَلَد مَعَ النِّسَاء، وَهُنَّ الخَوَالِف بَعْد خُرُوج الجَيْش، فَإِذَا وَقَعَ الحَرْب كَانُوا أَجْبَن النَّاس، وَإِذَا كَانَ أَمْن كَانُوا أَكْثَر النَّاس

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٩)، وعبد بن حميد (١/ ٩٧) من حديث أبي قتادة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٥١٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٢٥)، ومسلم (٩٤٥).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم (١/ ٥٢٦)، والبيهقي في «الكبرى» (٤/ ٥٦) من حديث عثمان بن عفان، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٤٥).

كَلَامًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أَيْ: عَلَتْ أَلْسِنَتهمْ بِالكَلَامِ الحَادّ القَوِيّ فِي الأَمْن، وَفِي الحَرْب أَجْبَن شَيْء، وَكَمَا قَالَ الشَّاعِر:

أَفِـي الـسِّلْم أَعْيَـار جَفَـاء وَغِلْظَـة ❁ وَفِي الحَرْب أَشْبَاه النِّسَاء العَوَارِك؟

وَقَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ الآيَة.

وَقَوْله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ نُكُولِهِمْ عَنْ الجِهَاد وَالخُرُوج مَعَ الرَّسُول فِي سَبِيل الله ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أَيْ: لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ صَلَاح لَهُمْ فَيَفْعَلُوهُ وَلَا مَا فِيهِ مَضَرَّة لَهُمْ فَيَجْتَنِبُوهُ.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى ذم المُنَافِقِينَ، بَيَّنَ ثَنَاءَهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ، وَمَا لَهُمْ فِي آخِرَتهمْ، فَقَالَ: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ﴾ إِلَى آخِر الآيَتَيْنِ مِنْ بَيَان حَالهمْ وَمَآلهمْ. وَقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة فِي جَنَّات الفِرْدَوْس وَالدَّرَجَات العُلَى.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حَال ذَوِي الأَعْذَار فِي تَرْك الجِهَاد الَّذِينَ جَاءُوا رَسُول الله ﷺ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيُبَيِّنُونَ لَهُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّعْف وَعَدَم القُدْرَة عَلَى الخُرُوج، وَهُمْ مِنْ أَحْيَاء العَرَب مِمَّنْ حَوْل المَدِينَة. قَالَ الضَّحَّاك: عَنْ اِبْن عَبَّاس أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأ ﴿وَجَاءَ المُعْذِرُونَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَيَقُول: هُمْ أَهْل العُذْر. وَكَذَا رَوَى اِبْن عُيَيْنَة، عَنْ حُمَيْد، عَنْ مُجَاهِد سَوَاء. قَالَ اِبْن إِسْحَاق: وَبَلَغَنِي أَنَّهُمْ نَفَر مِنْ بَنِي غِفَار منهم: خُفَاف بْن إِيمَاء بْن رَحَضَة.

وَهَذَا القَوْل هُوَ الأَظْهَر فِي مَعْنَى الآيَة؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْد هَذَا: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ أَيْ: لَمْ يَأْتُوا فَيَعْتَذِرُوا. وَقَالَ اِبْن جُرَيْج، عَنْ مُجَاهِد: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ قَالَ: نَفَر مِنْ بَنِي غِفَار جَاءُوا فَاعْتَذَرُوا فَلَمْ يَعْذِرهُمْ الله، وَكَذَا قَالَ الحَسَن وَقَتَادَة وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق. وَالقَوْل الأَوَّل أَظْهَر، وَالله أَعْلَم. لِمَا قَدَّمْنَا مِنْ قَوْله بَعْده: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ أَيْ: وَقَعَدَ آخَرُونَ مِنَ الأَعْرَاب عَنْ المَجِيء لِلاعْتِذَارِ، ثُمَّ أَوْعَدَهُمْ بِالعَذَابِ الأَلِيم، فَقَالَ: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى الأَعْذَار الَّتِي لَا حَرَج عَلَى مَنْ قَعَدَ مَعَهَا عَنْ القِتَال، فَذَكَرَ مِنْهَا: مَا هُوَ لَازِم لِلشَّخْصِ لَا يَنْفَكّ عَنْهُ وَهُوَ الضَّعْف فِي التَّرْكِيب الَّذِي لَا يَسْتَطِيع مَعَهُ الجِلَاد فِي الجِهَاد، وَمِنْهُ العَمَى وَالعَرَج وَنَحْوهمَا؛ وَلِهَذَا بَدَأَ بِهِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَارِض بِسَبَبِ مَرَض عَنَّ لَهُ فِي بَدَنه شَغَلَهُ عَنْ الخُرُوج فِي سَبِيل الله، أَوْ بِسَبَبِ فَقْره لَا يَقْدِر عَلَى

التجهُّز لِلحرْبِ، فَلَيْسَ عَلَى هَؤُلَاءِ حَرَج إِذَا قَعَدُوا وَنَصَحُوا فِي حَال قُعُودهمْ، وَلَمْ يُرْجِفُوا بِالنَّاس، وَلَمْ يُثَبِّطُوهُمْ، وَهُمْ مُحْسِنُونَ فِي حَالهمْ هَذَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَبْد العَزِيز بْن رُفَيْع، عَنْ أَبِي ثُمَامَة ﷺ، قَالَ: قَالَ الحَوَارِيُّونَ: يَا رُوح الله، أَخْبِرْنَا عَنْ النَّاصِح لله؟ قَالَ: الَّذِي يُؤْثِر حَقّ الله عَلَى حَقّ النَّاس، وَإِذَا حَدَثَ لَهُ أَمْرَانِ أَوْ بَدَا لَهُ أَمْر الدُّنْيَا وَأَمْر الآخِرَة بَدَأَ بِالَّذِي لِلآخِرَةِ، ثُمَّ تَفَرَّغَ لِلَّذِي لِلدُّنْيَا.

وَقَالَ الأَوْزَاعِيّ: خَرَجَ النَّاس لِلاسْتِسْقَاء، فَقَامَ فِيهِمْ بِلَال بْن سَعْد، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَر مَنْ حَضَرَ؛ أَلَسْتُمْ مُقِرِّينَ بِالإِسَاءَة؟ قَالُوا: اللهمَّ نَعَمْ. فقال: اللهمَّ إِنَّا نسْمَعك تَقُول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ اللهمَّ؛ وَقَدْ أَقْرَرْنَا بِالإِسَاءَة؛ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَاسْقِنَا. وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَرَفَعُوا أَيْدِيهِم، فَسُقُوا. وَقَالَ قَتَادَة: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي عَائِذ بْن عَمْرو الْمُزَنِيّ. وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عُبَيْد الله الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا ابْن جَابِر، عَنْ أَبِي فَرْوَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ زَيْد بْن ثَابِت، قَالَ: كُنْت أَكْتُب لِرَسُولِ الله ﷺ، فَكُنْت أَكْتُب بَرَاءَة، فَإِنِّي لَوَاضِع القَلَم عَلَى أُذُنِي إِذْ أُمِرْنَا بِالقِتَالِ، فَجَعَلَ رَسُول الله ﷺ، يَنْظُر مَا يَنْزِل عَلَيْهِ، إِذْ جَاءَ أَعْمَى فَقَالَ: كَيْف بِي يَا رَسُول الله، وَأَنَا أَعْمَى؟! فَنَزَلَتْ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ إلى آخر الآيَة[1].

وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: وَذَلِكَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، أَمَرَ النَّاس أَنْ يَنْبَعِثُوا غَازِينَ مَعَهُ، فَجَاءَتْهُ عِصَابَة مِنْ أَصْحَابه -فِيهِمْ عَبْد الله بْن مُغَفَّل الْمُزَنِيّ-، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله؛ احْمِلْنَا. فَقَالَ لَهُمْ: «وَالله، لا أجد ما أَحْمِلكُمْ عَلَيْهِ» فَتَوَلَّوْا وَلَهُمْ بكاء وَعَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْلِسُوا عَنْ الجِهَاد وَلَا يَجِدُونَ نَفَقَة وَلَا مَحْمَلًا. فَلَمَّا رَأَى الله حِرْصهمْ عَلَى مَحَبَّته وَمَحَبَّة رَسُوله أَنْزَلَ عُذْرهمْ فِي كِتَابه، وَقَالَ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. وَقَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: نَزَلَتْ فِي بَنِي مُقَرِّن مِنْ مُزَيْنَة.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب: كَانُوا سَبْعَة نَفَر؛ مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَوْف: سَالِم بْن عَوْف؛ وَمِنْ بَنِي وَاقِف: هَرَمِيّ بْن عَمْرو؛ وَمِنْ بَنِي مَازِن بْن النَّجَّار: عَبْد الرَّحْمَن بْن كَعْب، وَيُكَنَّى أَبَا لَيْلَى؛ وَمِنْ بَنِي الْمُعَلَّى: سلمان بن صخر، ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد أبو عبلة وهو الذي تصدق بعرضه فقبله الله منه، وَمِنْ بَنِي سَلَمَة: عَمْرو ابْن عنمة وَعَبْد الله بْن عَمْرو الْمُزَنِيّ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي سِيَاق غَزْوَة تَبُوك: ثُمَّ إِنَّ رِجَالًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَتَوْا رَسُول الله ﷺ وَهُمْ البَكَّاءُونَ، وَهُمْ سَبْعَة نَفَر مِنْ الأَنْصَار، وَغَيْرهمْ مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَوْف: سَالِم بْن عُمَيْر، وَعُلْبَة بْن زَيْد أَخُو بَنِي حَارِثَة، وَأَبُو لَيْلَى عَبْد الرَّحْمَن بْن كَعْب أَخُو بَنِي مَازِن بْن النَّجَّار، وَعَمْرو بْن الحمام بْن الجَمُوح أَخُو بَنِي سَلَمَة، وَعَبْد الله بْن الْمُغَفَّل الْمُزَنِيّ، وَبَعْض النَّاس يَقُول: بَل هُوَ عَبْد الله بْن عَمْرو الْمُزَنِيّ، وَهَرَمِيّ بْن عَبْد الله أَخُو بَنِي وَاقِف، وَعِرباض بْن سَارِيَة الفَزَارِيّ. فَاسْتَحْمَلُوا رَسُول الله ﷺ وَكَانُوا أَهْل حَاجَة، فَقَالَ: «﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾».

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عُمَر بْن الأَوْدِيّ، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ الرَّبِيع، عَنْ الحَسَن؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَقَدْ خَلَّفْتُمْ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَة، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلا نِلْتُمْ مِنْ عَدُوّ نَيْلًا، إِلا وَقَدْ شَرِكُوكُمْ فِي الأَجْر». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآيَة. وَأَصْل الحَدِيث فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث أَنَس؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلا سِرْتُمْ سَيْرًا إِلا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٦١/ ١٠٢٠٥).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٦٣/ ١٠٢٠٠).

وَهُمْ مَعَكُمْ» قَالُوا: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟! قَالَ: «نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»(١). وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ جَابِر، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَقَدْ خَلَّفْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رِجَالاً مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا وَلا سَلَكْتُمْ طَرِيقًا؛ إِلا شَرَكُوكُمْ فِي الأَجْرِ حَبَسَهُمُ الْمَرَض»(٢). وَرَوَاهُ مُسْلِم وَابْن مَاجَهْ مِنْ طُرُق عَنْ الأَعْمَش، بِهِ.

ثُمَّ رَدَّ تَعَالَى الْمَلامَةَ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْقُعُود وَهُمْ أَغْنِيَاء، وَأَنَّبَهُمْ فِي رِضَاهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ النِّسَاء الْخَوَالِف فِي الرِّحَال، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَة أَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِمْ ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أَيْ: لَنْ نُصَدِّقكُمْ ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أَيْ: قَدْ أَعْلَمَنَا الله أَحْوَالكُمْ ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أَيْ: سَيُظْهِرُ أَعْمَالكُمْ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: فَيُخْبِركُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ خَيْرهَا وَشَرّهَا، وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهَا. ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ مُعْتَذِرِينَ ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فَلا تُؤَنِّبُوهُمْ، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احْتِقَارًا لَهُمْ؛ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أَيْ: خُبثاء، نَجس بَوَاطِنهمْ وَاعْتِقَادَاتهمْ، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ فِي آخِرَتهمْ ﴿جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ: مِنَ الآثَام وَالْخَطَايَا. وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِنْ رَضُوا عَنْهُمْ بِحَلِفِهِمْ لَهُمْ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أَيْ: الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَة الله وَطَاعَة رَسُوله؛ فَإِنَّ الْفِسْق هُوَ الْخُرُوج، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ الْفَأْرَة فُوَيْسِقَة، لِخُرُوجِهَا مِنْ جُحْرهَا لِلإِفْسَادِ، وَيُقَال: فَسَقَتْ الرُّطَبَة إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامهَا.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ فِي الأَعْرَاب كُفَّارًا وَمُنَافِقِينَ وَمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ كُفْرهمْ وَنِفَاقهمْ أَعْظَم مِنْ غَيْرهمْ وَأَشَدّ ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أَيْ: أَحْرَى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ كَمَا قَالَ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم قَالَ: جَلَسَ أَعْرَابِيّ إِلَى زَيْد بْن صَوْحَان وَهُوَ يُحَدِّث أَصْحَابه، وَكَانَتْ يَده قَدْ أُصِيبَتْ يَوْم «نَهَاوَنْد» فَقَالَ الأَعْرَابِيّ: وَالله إِنَّ حَدِيثك لَيُعْجِبنِي، وَإِنَّ يَدك لَتَرِيبنِي. فَقَالَ زَيْد: مَا يَرِيبك مِنْ يَدِي إِنَّهَا الشِّمَال؟ فَقَالَ الأَعْرَابِيّ: وَالله مَا أَدْرِي الْيَمِين يَقْطَعُونَ أَوْ الشِّمَال. فَقَالَ زَيْد بْن صَوْحَان: صَدَقَ الله ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه، عَنْ اِبْن عَبَّاس،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٨٤).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩١١).

عَنْ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «مَنْ سَكَنَ البَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ»(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ، مِنْ طُرُق عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِي، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب لَا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ. وَلَمَّا كَانَتْ الغِلْظَة وَالجَفَاء فِي أَهْل البَوَادِي، لَمْ يَبْعَث الله مِنْهُمْ رَسُولًا، وَإِنَّمَا كَانَتْ البَعْثَة مِنْ أَهْل القُرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ وَلَمَّا أَهْدَى ذَلِكَ الأَعْرَابِيّ تِلْكَ الهَدِيَّة لِرَسُولِ الله ﷺ، فَرَدَّ عَلَيْهِ أَضْعَافهَا حَتَّى رَضِيَ قَالَ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَقْبَلَ هَدِيَّةً إِلَّا مِنْ: قُرَشِيّ، أَوْ ثَقَفِيّ، أَوْ أَنْصَارِيّ، أَوْ دَوْسِيّ»(٢). لأَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا يَسْكُنُونَ المُدُن: مَكَّة وَالطَّائِف وَالمَدِينَة وَاليَمَن، فَهُمْ أَلطَف أَخْلَاقًا مِنْ الأَعْرَاب؛ لِمَا فِي طِبَاع الأَعْرَاب مِنْ الجَفَاء.

حَدِيث الأَعْرَابِيّ فِي تَقْبِيل الوَلَد: قَالَ مُسْلِم: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة وَأَبُو كُرَيْب قَالَا: ثَنَا أَبُو أُسَامَة وَابْن نُمَيْر، عَنْ هِشَام، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة، قَالَتْ: قَدِمَ نَاس مِنْ الأَعْرَاب عَلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالُوا: أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالُوا: لَكِنَّا وَالله مَا نُقَبِّل، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «وَأَمْلِكُ؛ إِنْ كَانَ الله نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَة». وَقَالَ ابْن نُمَيْر: «مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَة»(٣).

وَقَوْله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: عَلِيم بِمَنْ يَسْتَحِق أَنْ يُعَلِّمهُ الإِيمَان وَالعِلْم، حَكِيم فِيمَا قَسَمَ بَيْن عِبَاده مِنْ العِلْم وَالجَهْل، وَالإِيمَان وَالكُفْر وَالنِّفَاق، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَته. وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مِنْهُمْ ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أَيْ: فِي سَبِيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أَيْ: غَرَامَة وَخَسَارَة ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أَيْ: يَنْتَظِر بِكُمْ الحَوَادِث وَالآفَات، ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أَيْ: هِيَ مُنْعَكِسَة عَلَيْهِمْ، وَالسَّوْء دَائِر عَلَيْهِمْ، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: سَمِيع لِدُعَاءِ عِبَاده، عَلِيم بِمَنْ يَسْتَحِق النَّصْر مِمَّنْ يَسْتَحِق الخِذْلَان. وَقَوْله: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ هَذَا هُوَ القِسْم المَمْدُوح مِنْ الأَعْرَاب وَهُمْ: الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مَا يُنْفِقُونَ فِي سَبِيل الله قُرْبَة يَتَقَرَّبُونَ بِهَا عِنْد الله، وَيَبْتَغُونَ بذلك دُعَاء الرَّسُول لَهُمْ ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أَيْ: أَلَا إِنَّ ذَلِكَ حَاصِل لَهُمْ، ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ رضاه عن السَّابِقِينَ مِنْ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ جَنَّات النَّعِيم، والنَّعِيم المُقِيم. قَالَ الشَّعْبِيّ: السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار: مَنْ أَدْرَكَ بَيْعَة الرِّضْوَان عَام الحُدَيْبِيَة. وَقَالَ أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيّ وَسَعِيد بْن المُسَيِّب وَمُحَمَّد بْن سِيرِين وَالحَسَن وَقَتَادَة: هُمْ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى القِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُول الله ﷺ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: مَرَّ عُمَر بْن الخَطَّاب بِرَجُلٍ يَقْرَأ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فَأَخَذَ عُمَر بِيَدِهِ فَقَالَ: مَنْ أَقْرَأَك هَذَا؟ فَقَالَ: أُبَيّ بْن كَعْب. فَقَالَ: لَا تُفَارِقنِي حَتَّى أَذْهَب بِك إِلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَهُ. قَالَ عُمَر: أَنْتَ أَقْرَأْت هَذَا هَذِهِ الآيَة هَكَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَسَمِعْتهَا مِنْ رَسُول الله ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَقَدْ كُنْت أَرَى أَنَّا رُفِعْنَا رِفْعَة لَا يَبْلُغهَا أَحَد بَعْدنَا. فَقَالَ أُبَيّ:

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، وأحمد (١/ ٣٥٧)، والنسائي (٤٣٠٩) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٦).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٩٤٥)، والنسائي (٣٧٥٩)، وابن حبان (٦٣٨٣) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١١٩).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣١٧).

تَصْدِيق هَذِهِ الآيَة فِي أَوَّل سُورَة الجُمُعَة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وَفِي سُورَة الحَشْر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وَفِي الأَنْفَال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ﴾ إلى آخر الآيَة. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير قَالَ: وَذُكِرَ عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ، أَنَّهُ كَانَ يَقْرَءُوهَا بِرَفْع ﴿الأَنْصَارُ﴾ عطفًا عَلَى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

فَقَدْ أَخْبَرَ الله العَظِيم أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنْ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَيَا وَيْل مَنْ أَبْغَضَهُمْ أَوْ سَبَّهُمْ، أَوْ أَبْغَض أَوْ سَبَّ بَعْضهمْ، وَلَاسِيَّمَا سَيِّد الصَّحَابَة بَعْد الرَّسُول وَخَيْرهمْ وَأَفْضَلهمْ، أَعْنِي الصِّدِّيق الأَكْبَر وَالخَلِيفَة الأَعْظَم أَبَا بَكْر ابْن أَبِي قُحَافَة ﷺ، فَإِنَّ الطَّائِفَة المَخْذُولَة مِنْ الرَّافِضَة يُعَادُونَ أَفْضَل الصَّحَابَة وَيُبْغِضُونَهُمْ وَيَسُبُّونَهُمْ. عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلِكَ. وَهَذَا يَدُلّ عَلَى أَنَّ عُقُولهمْ مَعْكُوسَة، وَقُلُوبهمْ مَنْكُوسَة، فَأَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنْ الإِيمَان بِالقُرْآنِ إِذْ يَسُبُّونَ مَنْ رَضِيَ الله عنهم؟ وَأَمَّا أَهْل السُّنَّة فَإِنَّهُمْ يترضون عَمَّنْ رضي الله عنه وَيَسُبُّونَ مَنْ سَبَّهُ الله وَرَسُوله، وَيُوَالُونَ مَنْ يُوَالِي الله، وَيُعَادُونَ مَنْ يُعَادِي الله، وَهُمْ مُتَّبِعُونَ لَا مُبْتَدِعُونَ، وَيَقْتَدُونَ لَا يَبْتَدُونَ، وَلِهَذَا هُمْ حِزْب الله المُفْلِحُونَ، وَعِبَاده المُؤْمِنُونَ.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۙ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

يُخْبِر تَعَالَى رَسُوله -صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ-، أَنَّ فِي أَحْيَاء العَرَب مِمَّنْ حَوْل المَدِينَة مُنَافِقِينَ، وَفِي أَهْل المَدِينَة أَيْضًا مُنَافِقُونَ ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أَيْ: مَرَّنُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ، وَمِنْهُ يُقَال: شَيْطَان مَرِيد وَمَارِد، وَيُقَال: تَمَرَّدَ فُلَان عَلَى الله، أَيْ: عَتَا وَتَجَبَّرَ. وَقَوْله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ لَا يُنَافِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ الآيَة، لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَاب التَّوَسُّم فِيهِمْ بِصِفَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا، لَا أَنَّهُ يَعْرِف جَمِيع مَنْ عِنْده مِنْ أَهْل النِّفَاق وَالرَّيْب عَلَى التَّعْيِين، وَقَدْ كَانَ يَعْلَم أَنَّ فِي بَعْض مَنْ يُخَالِطهُ مِنْ أَهْل المَدِينَة نِفَاقًا، وَإِنْ كَانَ يَرَاهُ صَبَاحًا وَمَسَاء، وَشَاهِد هَذَا بِالصِّحَّةِ مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد ابْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ النُّعْمَان بْن سَالِم، عَنْ رَجُل، عَنْ جُبَيْر بْن مُطْعِم ﷺ، قَالَ: قُلْت: يَا رَسُول الله ﷺ، إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَجْر بِمَكَّة. فَقَالَ: «لَتَأْتِيَنَّكُمْ أُجُورُكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي جُحْرِ ثَعْلَبٍ». وَأَصْغَى إِلَيَّ رَسُول الله ﷺ بِرَأْسِهِ فَقَالَ: «إِنَّ فِي أَصْحَابِي مُنَافِقِينَ»[1]. وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ قَدْ يَبُوح بَعْض المُنَافِقِينَ وَالمُرْجِفِينَ مِنْ الكَلَام بِمَا لَا صِحَّة لَهُ، وَمِنْ مِثْلهمْ صَدَرَ هَذَا الكَلَام الَّذِي سَمِعَهُ جُبَيْر بْن مُطْعِم، وَتَقَدَّمَ فِي تَفْسِير قَوْله: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ﴾ أَنَّهُ ﷺ أَعْلَمَ حُذَيْفَة بِأَعْيَانِ أَرْبَعَة عَشَر أَوْ خَمْسَة عَشَر مُنَافِقًا، وَهَذَا تَخْصِيص لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ اطَّلَعَ عَلَى أَسْمَائِهِمْ وَأَعْيَانهمْ كُلّهمْ، وَالله أَعْلَم.

وَرَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة أَبِي عُمَر البَيْرُوتِيّ، مِنْ طَرِيق هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا صَدَقَة بْن خَالِد، حَدَّثَنَا ابْن جَابِر، حَدَّثَنِي شَيْخ بِبَيْرُوت يُكَنَّى أَبَا عُمَر أَظُنّهُ حَدَّثَنِي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء؛ أَنَّ رَجُلًا يُقَال لَهُ حَرْمَلَة أَتَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: الإِيمَان هَاهُنَا، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى لِسَانه. وَالنِّفَاق هَاهُنَا، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى قَلْبه. وَلَمْ يَذْكُر الله إِلَّا قَلِيلًا. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «اللهمَّ؛ اجْعَلْ لَهُ لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَارْزُقْهُ حُبِّي وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّنِي، وَصَيِّرْ أَمْرَه إِلَى خَيْرٍ». فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ إِنَّهُ كَانَ لِي أَصْحَاب مِنْ المُنَافِقِينَ، وَكُنْت رَأْسًا فِيهِمْ أَفَلَا آتِيك بِهِمْ؟ قَالَ:

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ٨٣)، وأبو يعلى (١٣/ ٣٣١) من حديث جبير بن مطعم، وأورده الهيثمي في «الزوائد» (٥/ ٤٥٩) وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، وفيه رجل لم يسم. الراوي عن جبير.

«مَنْ أَتَانَا اسْتَغْفَرْنَا لَهُ، وَمَنْ أَصَرَّ على دينه فالله أَوْلَى بِهِ، وَلا تَخْرِقَنَّ عَلَى أحد سِتْرًا»[1]. قَالَ: وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو أَحْمَد الحَاكِم عَنْ أَبِي بَكْر البَاغَنْدِيّ عَنْ هِشَام بْن عَمَّار، بِهِ.

وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة فِي هَذِهِ الآيَة، أَنَّهُ قَالَ: مَا بَال أَقْوَام يَتَكَلَّفُونَ عِلم النَّاس، فُلَان فِي الجَنَّة وَفُلَان فِي النَّار، فَإِذَا سَأَلت أَحَدهمْ عَنْ نَفسه قَالَ: لَا أَدْرِي. لَعَمْرِي أَنْتَ بنفسك أَعْلَم مِنْك بِأَحْوَالِ النَّاس، وَلَقَدْ تَكَلَّفْت شَيْئًا مَا تَكَلَّفَهُ الأَنْبِيَاء قَبْلك، قَالَ نَبِيّ الله نُوح عليه السلام: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وَقَالَ نَبِيّ الله شُعَيْب عليه السلام: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، وَقَالَ الله تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

وَقَالَ السُّدِّيّ: عَنْ أَبِي مَالِك، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة، قَالَ: قَامَ رَسُول الله ﷺ، خَطِيبًا يَوْم الجُمُعَة فَقَالَ: «اخْرُجْ يَا فُلان فإِنَّكَ مُنَافِق، واخْرُجْ يَا فُلان فإِنَّكَ مُنَافِق» فَأَخْرَجَ مِنَ المَسْجِد نَاسًا مِنْهُمْ فَضَحَهُمْ، فَجَاءَ عُمَر وَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ المَسْجِد، فَاخْتَبَأَ مِنْهُمْ حَيَاء أَنَّهُ لَمْ يَشْهَد الجُمُعَة، وَظَنَّ أَنَّ النَّاس قَدْ اِنْصَرَفُوا، وَاخْتَبَئُوا هُمْ مِنْ عُمَر ظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِأَمْرِهِمْ، فَجَاءَ عُمَر فَدَخَلَ المَسْجِد، فَإِذَا النَّاس لَمْ يُصَلُّوا، فَقَالَ لَهُ رَجُل مِنَ المُسْلِمِينَ: أَبْشِرْ يَا عُمَر؛ قَدْ فَضَحَ الله المُنَافِقِينَ اليَوْم. قَالَ اِبْن عَبَّاس: فَهَذَا العَذَاب الأَوَّل حِين أَخْرَجَهُمْ مِنَ المَسْجِد، وَالعَذَاب الثَّانِي عَذَاب القَبْر[2]. وَكَذَا قَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ أَبِي مَالِك، نَحْو هَذَا. وَقَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يَعْنِي: القَتْل وَالسباء. وَقَالَ فِي رِوَايَة: بِالجُوعِ، وَعَذَاب القَبْر، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَاب عَظِيم. وَقَالَ اِبْن جُرَيْج: عَذَاب فِي الدُّنْيَا، وَعَذَاب فِي القَبْر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾: النَّار. وَقَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: عَذَاب فِي الدُّنْيَا، وَعَذَاب فِي القَبْر. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: أَمَّا عَذَاب فِي الدُّنْيَا: فَالأَمْوَال وَالأَوْلَاد، وَقَرَأَ قول الله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فَهَذِهِ المَصَائِب لَهُمْ عَذَاب وَهِيَ لِلمُؤْمِنِينَ أَجْر، وَعَذَاب فِي الآخِرَة فِي النَّار، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قَالَ: النَّار.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قَالَ: هُوَ فِيمَا بَلَغَنِي مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَمْر الإِسْلَام، وَمَا يَدْخُل عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْظ ذَلِكَ عَلَى غَيْر حِسْبَة، ثُمَّ عَذَابهمْ فِي القُبُور إِذَا صَارُوا إِلَيْهَا، ثُمَّ العَذَاب العَظِيم الَّذِي يُرَدُّونَ إِلَيْهِ عَذَاب الآخِرَة وَالخُلد فِيهِ. وَقَالَ سَعِيد، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: عَذَاب الدُّنْيَا، وَعَذَاب القَبْر. ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ، أَسَرَّ إِلَى حُذَيْفَة بِاثْنَيْ عَشَر رَجُلًا مِنَ المُنَافِقِينَ فَقَالَ: «سِتَّة مِنْهُمْ تَكْفِيهِمْ الدُّبَيْلَة: سِرَاج مِنْ نَار جَهَنَّم يَأْخُذ فِي كَتِف أَحَدهمْ حَتَّى يُفْضِي إِلَى صَدْرِه، وَسِتَّة يَمُوتُونَ مَوْتًا». وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه، كَانَ إِذَا مَاتَ رَجُل مِمَّنْ يَرَى أَنَّهُ مِنْهُمْ نَظَرَ إِلَى حُذَيْفَة فَإِنْ صَلَّى عَلَيْهِ وَإِلَّا تَرَكَهُ، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ عُمَر قَالَ لِحُذَيْفَة: أَنْشُدك الله؛ أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: لَا. وَلَا أُومِن مِنْهَا أَحَدًا بَعْدك[3].

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى حَال المُنَافِقِينَ المُتَخَلِّفِينَ عَنْ الغَزَاة رَغْبَة عَنْهَا وَتَكْذِيبًا وَشَكًّا شَرَعَ فِي بَيَان حَال المُذْنِبِينَ الَّذِينَ تَأَخَّرُوا عَنْ الجِهَاد كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَى الرَّاحَة، مَعَ إِيمَانهمْ وَتَصْدِيقهمْ بِالحَقِّ فَقَالَ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيْ: أَقَرُّوا بِهَا، وَاعْتَرَفُوا فِيمَا بَيْنهمْ وَبَيْن رَبّهمْ، وَلَهُمْ أَعْمَال أُخَر صَالِحَة، خَلَطُوا هَذِهِ بِتِلْكَ، فَهَؤُلَاءِ تَحْت عَفْو الله وَغُفْرَانه. وَهَذِهِ الآيَة وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي أُنَاس مُعَيَّنِينَ، إِلَّا أَنَّهَا عَامَّة فِي كُلّ المُذْنِبِينَ الخَطَّائِينَ المُخَلِّطِينَ

---

(١) ضعيف: أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٣/ ٨٤) بسند ضعيف، فيه رجل مجهول وهو أبو عمر البيروتي.
(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (١١/ ١٠) فيه محمد بن الحسين العنقزي شيخ ابن جرير قال أبو زرعة: لا يصدق.
(٣) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٥٦) بسند معضل.

الْمُتَلَوِّثِينَ، وَقَدْ قَالَ مُجَاهِد: إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَة لَمَّا قَالَ لِبَنِي قُرَيْظَةَ: إِنَّهُ الذَّبْح، وَأَشَارَ بِيَده إِلَى حَلقه. وَقَالَ ابْن عَبَّاس: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَة وَجَمَاعَة مِنْ أَصْحَابه، تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُول الله ﷺ فِي غَزْوَة تَبُوك، فَقَالَ بَعْضهمْ: أَبُو لُبَابَة وَخَمْسَة مَعَهُ، وَقِيلَ: وَسَبْعَة مَعَهُ، وَقِيلَ: وَتِسْعَة مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُول الله ﷺ مِنْ غَزْوَته رَبَطُوا أَنْفُسهمْ بِسَوَارِي الْمَسْجِد، وَحَلَفُوا لَا يُحِلّهُمْ إِلَّا رَسُول الله ﷺ، فَلَمَّا أَنْزَلَ الله هَذِهِ الآيَة: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَطْلَقَهُمْ رَسُول الله ﷺ وَعَفَا عَنْهُمْ.

وَقَالَ الْبُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُؤَمَّل بْن هِشَام، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا عَوْف، حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاء، حَدَّثَنَا سَمُرَة بْن جُنْدُب، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ لَنَا: **«أَتَانِي اللَّيْلَة آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَة مَبْنِيَّة بِلَبِنِ ذَهَب وَلَبِن فِضَّة، فَتَلَقَّانَا رِجَال، شَطْر مِنْ خَلْقهمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْر كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَر، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوء عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَن صُورَة، قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّة عَدْن، وَهَذَا مَنْزِلك. قَالَا: وَأَمَّا الْقَوْم الَّذِينَ كَانُوا شَطْر مِنْهُمْ حَسَن وَشَطْر مِنْهُمْ قَبِيح، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَر سَيِّئًا فَتَجَاوَزَ الله عَنْهُمْ»**[١]. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيّ مُخْتَصَرًا فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

أَمَرَ تَعَالَى رَسُوله ﷺ، بِأَنْ يَأْخُذ مِنْ أَمْوَالهمْ صَدَقَة يُطَهِّرهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا، وَهَذَا عَامّ وَإِنْ أَعَادَ بَعْضهمْ الضَّمِير فِي أَمْوَالهمْ إِلَى الذين ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وَلِهَذَا اِعْتَقَدَ بَعْض مَانِعِي الزَّكَاة مِنْ أَحْيَاء الْعَرَب أَنَّ دَفْع الزَّكَاة إِلَى الإِمَام لَا يَكُون، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا خَاصًّا برسول الله ﷺ، وَلِهَذَا اِحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّأْوِيل وَالفَهْم الفَاسِد الصِّدِّيق أَبُو بَكْر وَسَائِر الصَّحَابَة، وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى أَدَّوْا الزَّكَاة إِلَى الْخَلِيفَة كَمَا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُول الله ﷺ، حَتَّى قَالَ الصِّدِّيق: وَالله لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا -وَفِي رِوَايَة: عِقَالًا- كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُول الله ﷺ، لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى مَنْعه[٢].

وَقَوْله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: اُدْعُ لَهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِم فِي صَحِيحه: عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي أَوْفَى؛ قَالَ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ، إِذَا أُتِيَ بِصَدَقَةِ قَوْم صَلَّى عَلَيْهِمْ، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: **«اللهمَّ؛ صَلِّ عَلَى آل أَبِي أَوْفَى»**[٣]. وَفِي الْحَدِيث الآخَر: أَنَّ امْرَأَة قَالَتْ: يَا رَسُول الله ﷺ؛ صَلِّ عَلَيَّ وَعَلَى زَوْجِي. فَقَالَ: **«صَلَّى الله عَلَيْك وَعَلَى زَوْجك»**[٤]. وَقَوْله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿صَلَوَاتِكَ﴾ عَلَى الْجَمْع، وَآخَرُونَ قَرَءُوا: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ عَلَى الإِفْرَاد، ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس: رَحْمَة لَهُمْ. وَقَالَ قَتَادَة: وَقَار. وَقَوْله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أَيْ: لِدُعَائِك، ﴿عَلِيمٌ﴾ أَيْ: بِمَنْ يَسْتَحِقّ ذَلِكَ مِنْك وَمَنْ هُوَ أَهْل لَهُ. قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبُو الْعُمَيْس، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن عَمْرو بْن عُتْبَة، عَنْ ابْن لِحُذَيْفَة، عَنْ أَبِيه، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ، كَانَ إِذَا دَعَا لِرَجُلٍ أَصَابَتْهُ وَأَصَابَتْ وَلَده وَوَلَد وَلَده[٥]. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ أَبِي نُعَيْم، عَنْ مِسْعَر، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن عَمْرو بْن عُتْبَة، عَنْ اِبْن لِحُذَيْفَة، قَالَ مِسْعَر: وَقَدْ ذَكَرَهُ مَرَّة عَنْ حُذَيْفَة: أَنَّ صَلَاة النَّبِيّ ﷺ، لَتُدْرِك الرَّجُل وَوَلَده وَوَلَد وَلَده.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٦٧٤، ٧٠٤٧)، ومسلم (٢٢٧٥).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠).
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).
(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٥٣٣)، وابن حبان (٩١٦) من حديث جابر، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٣٥٧).
(٥) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٥، ٤٠٠)، وابن أبي شيبة (٦/ ٩٣) بسند ضعيف لجهالة ابن حذيفة، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤١٩٣).

وَقَوْله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ هَذَا تَهْيِيج إِلَى التَّوْبَة وَالصَّدَقَة اللَّتَيْنِ كُلّ مِنْهُمَا يَحُطّ الذُّنُوب وَيُمَحِّصهَا وَيَمْحَقهَا. وَأَخْبَرَ تَعَالَى أنه كُلّ مَنْ تابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْب حَلَال فَإِنَّ الله تَعَالَى يَتَقَبَّلهَا بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا حَتَّى تَصِير التَّمْرَة مِثْل أُحُد، كَمَا جَاءَ بِذَلِكَ الْحَدِيث عَنْ رَسُول الله ﷺ، كَمَا قَالَ الثَّوْرِيّ وَوَكِيع؛ كِلَاهُمَا عَنْ عَبَّاد بْن مَنْصُور، عَنْ الْقَاسِم بْن مُحَمَّد، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الله يَقْبَل الصَّدَقَة وَيَأْخُذهَا بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا لأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدكُمْ مُهْرَه، حَتَّى إِنَّ اللُّقْمَة لَتَكُون مِثْل أُحُد**»[1]. وَتَصْدِيق ذَلِكَ فِي كِتَاب الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ وَقَوْله: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾. وَقَالَ الثَّوْرِيّ وَالأَعْمَش؛ كِلَاهُمَا عَنْ عَبْد الله بْن السَّائِب، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي قَتَادَة، قَالَ: قَالَ عَبْد الله بْن مَسْعُود ﷺ: إِنَّ الصَّدَقَة تَقَع فِي يَد الله ﷻ، قَبْل أَنْ تَقَع فِي يَد السَّائِل، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

وَقَدْ رَوَى اِبْن عَسَاكِر فِي تَارِيخه فِي تَرْجَمَة عَبْد الله بْن الشَّاعِر السَّكْسَكِيّ الدِّمَشْقِيّ، وَأَصْله حِمْصِيّ، وَكَانَ أَحَد الْفُقَهَاء، رَوَى عَنْ مُعَاوِيَة وَغَيْره، وَحَكَى عَنْهُ حَوْشَب بْن سَيْف السَّكْسَكِيّ الْحِمْصِيّ؛ قَالَ: غَزَا النَّاس فِي زَمَان مُعَاوِيَة ﷺ، وَعَلَيْهِمْ عَبْد الرَّحْمَن بْن خَالِد بْن الْوَلِيد، فَغَلَّ رَجُل مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِائَة دِينَار رُومِيَّة، فَلَمَّا قَفَلَ الْجَيْش نَدِمَ وَأَتَى الأَمِير فَأَبَى أَنْ يَقْبَلهَا مِنْهُ، وَقَالَ: قَدْ تَفَرَّقَ النَّاس، وَلَنْ أَقْبَلهَا مِنْك حَتَّى تَأْتِي الله بِهَا يَوْم الْقِيَامَة. فَجَعَلَ الرَّجُل يستقرئ الصَّحَابَة فَيَقُولُونَ لَهُ مِثْل ذَلِكَ، فَلَمَّا قَدِمَ دِمَشْق ذَهَبَ إِلَى مُعَاوِيَة لِيَقْبَلهَا مِنْهُ فَأَبَى عَلَيْهِ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْده وَهُوَ يَبْكِي وَيَسْتَرْجِع، فَمَرَّ بِعَبْدِ الله بْن الشَّاعِر السَّكْسَكِيّ، فَقَالَ لَهُ: مَا يُبْكِيك؟ فَذَكَرَ لَهُ أَمْره، فَقَالَ لَهُ: أمطيعني أَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: اِذْهَبْ إِلَى مُعَاوِيَة، فَقُلْ لَهُ: اِقْبَلْ مِنِّي خُمُسك، فَادْفَعْ إِلَيْهِ عِشْرِينَ دِينَارًا، وَانْظُرْ إِلَى الثَّمَانِينَ الْبَاقِيَة فَتَصَدَّقْ بِهَا عَنْ ذَلِكَ الْجَيْش، فَإِنَّ الله يَقْبَل التَّوْبَة عَنْ عِبَاده، وَهُوَ أَعْلَم بِأَسْمَائِهِمْ وَمَكَانهمْ، فَفَعَلَ الرَّجُل، فَقَالَ مُعَاوِيَة ﷺ: لَأَنْ أَكُون أَفْتَيْته بِهَا أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ كُلّ شَيْء أَمْلِكهُ، أَحْسَنَ الرَّجُل.

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قَالَ مُجَاهِد: هَذَا وَعِيد. يَعْنِي مِنْ الله تَعَالَى لِلْمُخَالِفِينَ أَوَامِره، بِأَنَّ أَعْمَالهمْ سَتُعْرَض عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَعَلَى الرَّسُول ﷺ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا كَائِن لَا مَحَالَة يَوْم الْقِيَامَة، كَمَا قَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، وَقَالَ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾، وَقَدْ يُظْهِر الله تَعَالَى ذَلِكَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا اِبْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا دَرَّاج، عَنْ أَبِي الْهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدكُمْ يَعْمَل فِي صَخْرَة صَمَّاء، لَيْسَ لَهَا بَاب وَلَا كُوَّة، لأَخْرَجَ الله عَمَله لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ**»[2]. وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ أَعْمَال الأَحْيَاء تُعْرَض عَلَى الأَمْوَات مِنْ الأَقْرِبَاء وَالْعَشَائِر فِي الْبَرْزَخ كَمَا قَالَ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا الصَّلْت بْن دِينَار، عَنْ الْحَسَن، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ أَعْمَالكُمْ تُعْرَض عَلَى أَقْرِبَائِكُمْ وَعَشَائِركُمْ فِي قُبُورهمْ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اِسْتَبْشَرُوا بِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْر ذَلِكَ قَالُوا: اللَّهُمَّ أَلْهِمْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِك**». وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: أخبرنا عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ سُفْيَان، عَمَّنْ سَمِعَ أَنَسًا، يَقُول: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**إِنَّ أَعْمَالكُمْ تُعْرَض عَلَى أَقَارِبكُمْ وَعَشَائِركُمْ مِنْ الأَمْوَات، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اِسْتَبْشَرُوا بِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْر ذَلِكَ قَالُوا: اللَّهُمَّ؛ لَا تُمِتْهُمْ حَتَّى تَهْدِيهِمْ كَمَا هَدَيْتنَا**»[3]. وَقَالَ الْبُخَارِيّ:

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٦٦٢)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٥١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٢٠٩).
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٢٨)، وابن حبان (٥٦٧٨)، وأبو يعلى (٢/ ٥٢١) من حديث أبي سعيد، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٩٩).
(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ١٦٤) بسند ضعيف لإبهام الراوي بين سفيان وأنس، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٣٩٦).

قَالَتْ عَائِشَة رضي الله عنها: إِذَا أَعْجَبَك حُسْن عَمَل اِمْرِئٍ مُسْلِم فَقُل: ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.
وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث شَبِيه بِهَذَا؛ قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا حُمَيْد، عَنْ أَنَس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**لا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَم لَهُ؛ فَإِنَّ العَامِل يَعْمَل زَمَانًا مِنْ عُمْره أَوْ بُرْهَة مِنْ دَهْره بِعَمَلٍ صَالِح، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ لدَخَلَ الجَنَّة، ثُمَّ يَتَحَوَّل فَيَعْمَل عَملا سَيِّئًا. وَإِنَّ العَبْد لَيَعْمَل البُرْهَة مِنْ دَهْره بِعَمَلٍ سَيِّئٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّار، ثُمَّ يَتَحَوَّل فَيَعْمَل عَمَلاً صَالِحًا. وَإِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ خَيْرًا اِسْتَعْمَلَهُ قَبْل مَوْته**» قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ وَكَيْف يَسْتَعْمِلهُ؟ قَالَ: «**يُوَفِّقهُ لِعَمَلٍ صَالِح ثُمَّ يَقْبِضهُ عَلَيْهِ**»[1]. تَفَرَّدَ بِهِ الإِمَام أَحْمَد مِنْ هَذَا الوَجْه.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَالضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد: هُمْ الثَّلَاثَة الَّذِينَ خُلِّفُوا. أَيْ: عَنْ التَّوْبَة، وَهُمْ مُرَارَة بْن الرَّبِيع، وَكَعْب بْن مَالِك، وَهِلَال بْن أُمَيَّة. قَعَدُوا عَنْ غَزْوَة تَبُوك فِي جُمْلَة مَنْ قَعَدَ كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَى الدَّعَة وَالحِفْظ وَطِيب الثِّمَار وَالظِّلَال، لَا شَكًّا وَنِفَاقًا، فَكَانَتْ مِنْهُمْ طَائِفَة رَبَطُوا أَنْفُسهمْ بِالسَّوَارِي كَمَا فَعَلَ أَبُو لُبَابَة وَأَصْحَابه، وَطَائِفَة لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَهُمْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَة المَذْكُورُونَ، فَنَزَلَتْ تَوْبَة أُولَئِكَ قَبْل هَؤُلَاءِ، وَأُرْجِي هَؤُلَاءِ عَنْ التَّوْبَة حَتَّى نَزَلَتْ الآيَة الآتِيَة وَهِيَ قَوْله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الآيَة، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ الآيَة، كَمَا سَيَأْتِي بيانه فِي حَدِيث كَعْب ابْن مَالِك. وَقَوْله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: هُمْ تَحْت عَفْو الله إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ هَذَا، وَإِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ ذَاكَ، وَلَكِنَّ رَحْمَته تَغْلِب غَضَبه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: عَلِيم بِمَنْ يَسْتَحِقّ العُقُوبَة مِمَّنْ يَسْتَحِقّ العَفْو، حَكِيم فِي أَفْعَاله وَأَقْوَاله، لَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَلَا رَبّ سِوَاهُ.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾

سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَات الكَرِيمَات أَنَّهُ كَانَ بِالمَدِينَةِ قَبْل مَقْدَم رَسُول الله ﷺ إِلَيْهَا رَجُل مِنْ الخَزْرَج، يُقَال لَهُ: أَبُو عَامِر الرَّاهِب، وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّة، وَقَرَأَ عِلم أَهْل الكِتَاب، وَكَانَ فِيهِ عِبَادَة فِي الجَاهِلِيَّة، وَلَهُ شَرَف فِي الخَزْرَج كَبِير، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُول الله ﷺ، مُهَاجِرًا إِلَى المَدِينَة، وَاجْتَمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِ، وَصَارَتْ لِلإِسْلَام كَلِمَة عَالِيَة، وَأَظْهَرَهُمْ الله يَوْم بَدْر شَرِقَ اللَّعِين أَبُو عَامِر بِرِيقِهِ، وَبَارَزَ بِالعَدَاوَةِ، وَظَاهَرَ بِهَا، وَخَرَجَ فَارًّا إِلَى كُفَّار مَكَّة مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْش فَأَلَّبهم عَلَى حَرْب رَسُول الله ﷺ، فَاجْتَمَعُوا بِمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ أَحْيَاء العَرَب، وَقَدِمُوا عَام أُحُد، فَكَانَ مِنْ أَمْر المُسْلِمِينَ مَا كَانَ، وَامْتَحَنَهُمْ الله ﷻ، وَكَانَتْ العَاقِبَة لِلمُتَّقِينَ. وَكَانَ هَذَا الفَاسِق قَدْ حَفَرَ حَفَائِر فِيمَا بَيْن الصَّفَّيْنِ، فَوَقَعَ فِي إِحْدَاهُنَّ رَسُول الله ﷺ، وَأُصِيبَ ذَلِكَ اليَوْم، فَجُرِحَ فِي وَجْهه وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَته اليُمْنَى السُّفْلَى، وَشُجَّ رَأْسُهُ صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ، وَتَقَدَّمَ أَبُو عَامِر فِي أَوَّل المُبَارَزَة إِلَى قَوْمه مِنْ الأَنْصَار، فَخَاطَبَهُمْ وَاسْتَمَالَهُمْ إِلَى نَصْره وَمُوَافَقَته، فَلَمَّا عَرَفُوا كَلَامه قَالُوا: لَا أَنْعَمَ الله بِك عَيْنًا يَا فَاسِق يَا عَدُوّ الله، وَنَالُوا مِنْهُ وَسَبُّوهُ، فَرَجَعَ وَهُوَ يَقُول: وَالله لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بَعْدِي شَرّ. وَكَانَ رَسُول الله ﷺ، قَدْ دَعَاهُ إِلَى الله قَبْل فِرَاره، وَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ القُرْآن، فَأَبَى أَنْ يُسْلِم وَتَمَرَّدَ؛ فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ أَنْ يَمُوت بَعِيدًا طَرِيدًا فَنَالَتْهُ هَذِهِ الدَّعْوَة، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَغَ النَّاس مِنْ أُحُد، وَرَأَى أَمْر الرَّسُول ﷺ فِي اِرْتِفَاع وَظُهُور، ذَهَبَ إِلَى

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠)، وأبو يعلى (٦/ ٤٠١) من حديث أنس، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٢٩) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح.

هِرَقْل مَلِك الرُّوم يَسْتَنْصِرهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَوَعَدَهُ وَمَنَّاهُ وَأَقَامَ عِنْده، وَكَتَبَ إِلَى جَمَاعَة مِنْ قَوْمه مِنَ الأَنْصَار مِنْ أَهْل النِّفَاق وَالرَّيْب، يَعِدهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ أَنَّهُ سَيَقْدَمُ بِجَيْشٍ يُقَاتِل بِهِ رَسُول الله ﷺ، وَيَغْلِبهُ وَيَرُدّهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا لَهُ مَعْقِلًا يَقْدَم عَلَيْهِمْ فِيهِ مَنْ يَقْدَم مِنْ عِنْده لِأَدَاءِ كُتُبه، وَيَكُون مَرْصَدًا لَهُ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ بَعْد ذَلِكَ. فَشَرَعُوا فِي بِنَاء مَسْجِد مُجَاوِر لِمَسْجِدِ قُبَاء، فَبَنَوْهُ وَأَحْكَمُوهُ وَفَرَغُوا مِنْهُ قَبْل خُرُوج رَسُول الله ﷺ، إِلَى تَبُوك، وَجَاءُوا فَسَأَلُوا رَسُول الله ﷺ، أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِمْ فَيُصَلِّي فِي مَسْجِدهمْ؛ لِيَحْتَجُّوا بِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ عَلَى تَقْرِيره وَإِثْبَاته، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا بَنَوْهُ لِلضُّعَفَاءِ مِنْهُمْ وَأَهْل العِلَّة فِي اللَّيْلَة الشَّاتِيَة، فَعَصَمَهُ الله مِنَ الصَّلَاة فِيهِ، فَقَالَ: «**إِنَّا عَلَى سَفَر وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ الله**» فَلَمَّا قَفَلَ ﷺ رَاجِعًا إِلَى المَدِينَة مِنْ تَبُوك، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنه وَبَيْنهَا إِلَّا يَوْم أَوْ بَعْض اليَوْم، نَزَلَ عَلَيْهِ الوحي بِخَبَرِ مَسْجِد الضِّرَار، وَمَا اِعْتَمَدَهُ بَانُوهُ مِنَ الكُفْر وَالتَّفْرِيق بَيْن جَمَاعَة المُؤْمِنِينَ فِي مَسْجِدهمْ: مَسْجِد قُبَاء الَّذِي أُسِّسَ من أَوَّل يَوْم عَلَى التَّقْوَى. فَبَعَثَ رَسُول الله ﷺ، إِلَى ذَلِكَ المَسْجِد مَنْ هَدَمَهُ قَبْل مَقْدِمه المَدِينَة.

كَمَا قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾: هُمْ أُنَاس مِنَ الأَنْصَار ابتنوا مَسْجِدًا، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو عَامِر: اِبْنُوا مَسْجِدًا وَاسْتَعِدُّوا بِمَا اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة وَمِنْ سِلَاح، فَإِنِّي ذَاهِب إِلَى قَيْصَر مَلِك الرُّوم، فَآتِي بِجُنْدٍ مِنَ الرُّوم، وَأُخْرِج مُحَمَّدًا وَأَصْحَابه، فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ مَسْجِدهمْ أَتَوْا النَّبِيّ ﷺ، فَقَالُوا لَهُ: قَدْ فَرَغْنَا مِنْ بِنَاء مَسْجِدنَا فَنُحِبّ أَنْ تُصَلِّيَ فِيهِ، وَتَدْعُو لَنَا بِالبَرَكَة. فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ إِلَى قَوْله: ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُجَاهِد، وَعُرْوَة بْن الزُّبَيْر، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد مِنَ العُلَمَاء، وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار، عَنْ الزُّهْرِيّ، وَيَزِيد بْن رُومَان، وَعَبْد الله بْن أَبِي بَكْر، وَعَاصِم بْن عُمَر بْن قَتَادَة وَغَيْرهمْ، قَالُوا: أَقْبَلَ رَسُول الله ﷺ -يَعْنِي مِنْ تَبُوك- حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَان -بَلَد بَيْنه وَبَيْن المَدِينَة سَاعَة مِنْ نَهَار-، وَكَانَ أَصْحَاب مَسْجِد الضِّرَار قَدْ كَانُوا أَتَوْهُ وَهُوَ يَتَجَهَّز إِلَى تَبُوك فَقَالُوا: يَا رَسُول الله؛ إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي العِلَّة وَالحَاجَة وَاللَّيْلَة المَطِيرَة وَاللَّيْلَة الشَّاتِيَة، وَإِنَّا نُحِبّ أَنْ تَأْتِينَا فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ، فَقَالَ: «**إِنِّي عَلَى جَنَاح سَفَر وَحَال شُغْل**» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُول الله ﷺ، «**وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ**». فَلَمَّا نَزَلَ بِذِي أَوَان أَتَاهُ خَبَر المَسْجِد، فَدَعَا رَسُول الله ﷺ، مَالِك بْن الدُّخْشُم أَخَا بَنِي سَالِم بْن عَوْف، وَمَعْن بْن عَدِيّ أَوْ أَخَاهُ عَامِر بْن عَدِيّ أَخَا بَنِي عَجْلَان، فَقَالَ: «**اِنْطَلِقَا إِلَى هَذَا المَسْجِد الظَّالِم أَهْله فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ**». فَخَرَجَا سَرِيعَيْنِ حَتَّى أَتَيَا بَنِي سَالِم بْن عَوْف، وَهُمْ رَهْط مَالِك بْن الدُّخْشُم، فَقَالَ مَالِك لِمَعْنٍ: أَنْظِرْنِي حَتَّى أُخْرِج إِلَيْك بِنَارٍ مِنْ أَهْلِي، فَدَخَلَ أَهْله، فَأَخَذَ سَعَفًا مِنَ النَّخْل، فَأَشْعَلَ فِيهِ نَارًا، ثُمَّ خَرَجَا يَشْتَدَّانِ حَتَّى دَخَلَا المَسْجِد وَفِيهِ أَهْله، فَحَرَقَاهُ وَهَدَمَاهُ وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، وَنَزَلَ فِيهِمْ مِنَ القُرْآن مَا نَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ إِلَى آخر القِصَّة[1]، وَكَانَ الَّذِينَ بَنَوْهُ اِثْنَيْ عَشَر رَجُلًا: خِذَام بْن خَالِد مِنْ بَنِي عبيد بْن زَيْد أَحَد بَنِي عَمْرو بْن عَوْف وَمِنْ دَاره أُخْرِج مَسْجِد الشِّقَاق، وَثَعْلَبَة بْن حَاطِب مِنْ بَنِي عُبَيْد وَهو إِلى بَنِي أُمَيَّة بْن زَيْد، وَمُعَتِّب بْن قُشَيْر مِنْ بَنِي ضبيعة بْن زَيْد، وَأَبُو حَبِيبَة ابْن الأَزْعَر مِنْ بَنِي ضُبَيْعَة بْن زَيْد، وَعَبَّاد بْن حُنَيْف أَخُو سَهْل بْن حُنَيْف مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَوْف، وَجارية بْن عَامِر وَابْنَاهُ مُجَمِّع بْن جارية وَزَيْد بْن جارية، ونبتل بن الحَارِث وَهُمْ مِنْ بَنِي ضُبَيْعَة، وبخرج وَهو مِنْ بَنِي ضُبَيْعَة، وَبِجَاد بْن عثمان وَهُوَ مِنْ بَنِي ضُبَيْعَة، وَوَدِيعَة بْن ثَابِت وَهو إِلى بَنِي أُمَيَّة رَهْط أَبِي لُبَابَة ابْن عَبْد المُنْذِر.

وَقَوْله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أَيْ: الَّذِينَ بَنَوْهُ ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَيْ: مَا أَرَدْنَا بِبُنْيَانِهِ إِلَّا خَيْرًا وَرِفْقًا بِالنَّاسِ،

---

(١) مرسل: أخرجه ابن جرير (١١/ ٢٣) بسند مرسل.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيْ: فِيمَا قَصَدُوا وَفِيمَا نَوَوْا، وَإِنَّمَا بَنَوْهُ ضِرَارًا لِمَسْجِدِ قُبَاء، وَكُفْرًا بِالله، وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُوله مِنْ قَبْل، وَهُوَ: أَبُو عَامِر الفَاسِق الَّذِي يُقَال لَهُ الرَّاهِب لَعَنَهُ الله.

وَقَوْله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نَهْي من الله لرسوله ﷺ، وَالأُمَّة تَبَع لَهُ فِي ذَلِكَ، عَنْ أَنْ يَقُوم فِيهِ، أَيْ: يُصَلِّي فيه أَبَدًا. ثُمَّ حَثَّهُ عَلَى الصَّلَاة بِمَسْجِدِ قُبَاء: الَّذِي أُسِّسَ مِنْ أَوَّل يَوْم بِنَائِهِ عَلَى التَّقْوَى، وَهِيَ طَاعَة الله وَطَاعَة رَسُوله، وَجَمْعًا لِكَلِمَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَعْقِلًا وَمَوْئِلًا لِلإِسْلَام وَأَهْله؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ وَالسِّيَاق إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِض مَسْجِد قُبَاء؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث الصَّحِيح، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «صَلاة فِي مَسْجِد قُبَاء كَعُمْرَة»[1]. وَفِي الصَّحِيح: أَنَّ رَسُول الله ﷺ، كَانَ يَزُور مَسْجِد قُبَاء رَاكِبًا وَمَاشِيًا[2]، وَفِي الحَدِيث أَنَّ رَسُول الله ﷺ، لَمَّا بَنَاهُ وَأَسَّسَهُ أَوَّل قُدُومه وَنُزُوله عَلَى بَنِي عَمْرو بْن عَوْف، كَانَ جِبْرِيل هُوَ الَّذِي عَيَّنَ لَهُ جِهَة القِبْلَة، فَالله أَعْلَم. وَقَالَ أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن العَلَاء، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن هِشَام، عَنْ يُونُس بْن الحَارِث، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن أَبِي مَيْمُونَة، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي أَهْل قُبَاء، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾»، قَالَ: كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَة[3]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَة مِنْ حَدِيث يُونُس بْن الحَارِث، وَهُوَ ضَعِيف. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَقَالَ الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن عَلِيّ المعمري، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حُمَيْد الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا سَلَمَة بْن الفَضْل، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ بَعَثَ رَسُول الله ﷺ، إِلَى عُوَيْم بْن سَاعِدَة، فَقَالَ: «مَا هَذَا الطُّهُور الَّذِي أَثْنَى الله عَلَيْكُمْ؟» فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ مَا خَرَجَ مِنَّا رَجُل وَلَا امْرَأَة مِنْ الغَائِط إِلَّا غَسَلَ فَرْجه -أَوْ قَالَ: مَقْعَدَته- فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «هُوَ هَذَا»[4]. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حسين بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا أَبُو أُوَيْس، حَدَّثَنَا شُرَحْبِيل عَنْ عُوَيْم بْن سَاعِدَة الأَنْصَارِيّ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ، أَتَاهُمْ فِي مَسْجِد قُبَاء فَقَالَ: «إِنَّ الله تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الثَّنَاء فِي الطُّهُور فِي قِصَّة مَسْجِدكُمْ، فَمَا هَذَا الطُّهُور الَّذِي تَطَهَّرُونَ بِهِ؟» فَقَالُوا: وَالله يَا رَسُول الله؛ مَا نَعْلَم شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَنَا جِيرَان مِنْ اليَهُود، فَكَانُوا يَغْسِلُونَ أَدْبَارهمْ مِنْ الغَائِط، فَغَسَلْنَا كَمَا غَسَلُوا[5]. وَرَوَاهُ ابْن خُزَيْمَة فِي صَحِيحه. وَقَالَ هُشَيْم، عَنْ عَبْد الحَمِيد المَدَنِيّ، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن المُعَلَّى الأَنْصَارِيّ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لِعُوَيْم ابْن سَاعِدَة: «مَا هَذَا الَّذِي أَثْنَى الله عَلَيْكُمْ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾؟» قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ إِنَّا نَغْسِل الأَدْبَار بِالْمَاءِ. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عِمَارَة الأَسَدِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سَعْد، ثنا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد، عَنْ شُرَحْبِيل بْن سَعْد، قَالَ: سَمِعْت خُزَيْمَة بْن ثَابِت يَقُول: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ قَالَ: كَانُوا يَغْسِلُونَ أَدْبَارهمْ مِنْ الغَائِط.

حَدِيث آخَر: قَالَ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن آدَم، حَدَّثَنَا مَالِك -يَعْنِي: ابْن مِغْوَل-، سَمِعْت سَيَّارًا أَبَا الحَكَم، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن سَلَام، قَالَ: لَقَدْ قَدِمَ رَسُول الله ﷺ، يَعْنِي قُبَاء فَقَالَ: «إِنَّ الله ﷻ قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُور خَيْرًا، أَفَلَا تُخْبِرُونِي؟» يَعْنِي قَوْله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٤)، وابن ماجه (١٤١١) من حديث أسيد بن حضير، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٧٢).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٩).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٤)، والترمذي (٣١٠٠)، وابن ماجه (٣٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٠).

(٤) صحيح بشواهده: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٦٧) من حديث عويم بن ساعدة الأنصاري.

(٥) صحيح بشواهده: أخرجه ابن خزيمة (١/ ٤٥) من حديث عويم بن ساعدة.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، إِنَّا نَجِدهُ مَكْتُوبًا عَلَيْنَا فِي التَّوْرَاة: الإِسْتِنْجَاء بِالْمَاءِ[1]. وَقَدْ صَرَّحَ بِأَنَّهُ مَسْجِد قُبَاء جَمَاعَة مِنَ السَّلَف. رَوَاهُ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس. وَرَوَاهُ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر. وَقَالَهُ عَطِيَّة الْعَوْفِيّ، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم، وَالشَّعْبِيّ، وَالْحَسَن الْبَصْرِيّ، وَنَقَلَهُ الْبَغَوِيّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر وَقَتَادَة. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيث الصَّحِيح أَنَّ مَسْجِد رَسُول الله ﷺ، الَّذِي هو فِي جَوْف الْمَدِينَة هُوَ الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وَهَذَا صَحِيح. وَلَا مُنَافَاة بَيْن الْآيَة وَبَيْن هَذَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَسْجِد قُبَاء قَدْ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّل يَوْم، فَمَسْجِد رَسُول الله ﷺ، بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى؛ وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عَامِر الْأَسْلَمِيّ، عَنْ عِمْرَان بْن أَبِي أَنَس، عَنْ سَهْل بْن سَعْد، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مَسْجِدِي هَذَا**»[2]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد.

حديث آخر: قَالَ الْإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا رَبِيعَة بْن عُثْمَان التَّيْمِيّ، عَنْ عِمْرَان بْن أَبِي أَنَس، عَنْ سَهْل بْن سَعْد السَّاعِدِيّ، قَالَ: اِخْتَلَفَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْد رَسُول الله ﷺ فِي الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى فَقَالَ أَحَدهمَا: هُوَ مَسْجِد رَسُول الله ﷺ. وَقَالَ الْآخَر: هُوَ مَسْجِد قُبَاء. فَأَتَيَا النَّبِيّ ﷺ فَسَأَلَاهُ فَقَالَ: «**هُوَ مَسْجِدِي هَذَا**» تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد أَيْضًا[3].

حديث آخر: قَالَ الْإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُوسَى بْن دَاوُد، حَدَّثَنَا لَيْث، عَنْ عِمْرَان بْن أَبِي أَنَس، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ، قَالَ: تَمَارَى رَجُلَانِ فِي الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّل يَوْم، فَقَالَ أَحَدهمَا: هُوَ مَسْجِد قُبَاء، وَقَالَ الْآخَر: هُوَ مَسْجِد رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**هُوَ مَسْجِدِي هَذَا**»[4]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد.

طَرِيق أُخْرَى: قَالَ الْإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن عِيسَى، حَدَّثَنَا لَيْث، حَدَّثَنِي عِمْرَان بْن أَبِي أَنَس، عَنْ اِبْن أَبِي سَعِيد، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ قَالَ: تَمَارَى رَجُلَانِ فِي الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّل يَوْم، فَقَالَ أَحَدهمَا: هُوَ مَسْجِد قُبَاء. وَقَالَ الْآخَر: هُوَ مَسْجِد رَسُول الله ﷺ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**هُوَ مَسْجِدِي**». وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ، عَنْ قُتَيْبَة، عَنْ اللَّيْث، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيّ، وَرَوَاهُ مُسْلِم كَمَا سَيَأْتِي.

طَرِيق أُخْرَى: قَالَ الْإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ أُنَيْس بْن أَبِي يَحْيَى، حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: سَمِعْت أَبَا سَعِيد الْخُدْرِيّ، قَالَ: اِخْتَلَفَ رَجُلَانِ، رَجُل مِنْ بَنِي خُدْرَة، وَرَجُل مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَوْف، فِي الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، فَقَالَ الْخُدْرِيّ: هُوَ مَسْجِد رَسُول الله ﷺ، وَقَالَ الْعُمَرِيّ: هُوَ مَسْجِد قُبَاء، فَأَتَيَا رَسُول الله ﷺ، فَسَأَلَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**هُوَ هَذَا الْمَسْجِد**». لِمَسْجِدِ رَسُول الله ﷺ، وَقَالَ: «**فِي ذَلِكَ خير كثير**» يَعْنِي مَسْجِد قُبَاء.

طَرِيق أُخْرَى: قَالَ أَبُو جَعْفَر ابن جرير: حَدَّثَنَا اِبْن بَشَّار، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا حُمَيْد الْخَرَّاط الْمَدَنِيّ، سَأَلت أَبَا سَلَمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن قال: مر بس عبد الرحمن بْن أَبِي سَعِيد، فَقُلت: كَيْف سَمِعْت أَبَاك يَقُول فِي الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ فَقَالَ: قال أَبِي: أَتَيْت رَسُول الله ﷺ، فَدَخَلت عَلَيْهِ فِي بَيْت لِبَعْضِ نِسَائِهِ، فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ أَيْنَ الْمَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ قَالَ: فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاء فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْض، ثُمَّ قَالَ: «**هُوَ مَسْجِدكُمْ هَذَا**». ثُمَّ قَالَ: فقلت له: هكذا سَمِعْتَ أَبَاكَ يَذْكُرهُ. رَوَاهُ مُسْلِم، مُنْفَرِدًا بِهِ عَنْ مُحَمَّد بْن حَاتِم، عَنْ يَحْيَى ابْن سَعِيد، بِهِ. وَرَوَاهُ عَنْ أَبِي بَكْر ابن أَبِي شَيْبَة وَغَيْره عَنْ حَاتِم بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ حُمَيْد الْخَرَّاط، بِهِ. وَقَدْ قَالَ

---

(١) صحيح بشواهده: أخرجه أحمد (٦/ ٦) من حديث محمد بن عبد الله بن سلام.
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ١١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٠١).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٠١).
(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٠٩٩)، والنسائي (٦٩٧)، وأحمد (٣/ ٨) من حديث أبي سعيد، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١١٧٦).

بِأَنَّهُ مَسْجِد النَّبِيّ ﷺ، جَمَاعَة مِنَ السَّلَف وَالخَلَف، وَهُوَ مَرْوِيّ عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب، وَابنه عَبْد الله، وَزَيْد بْن ثَابِت، وَسَعِيد بْن المُسَيَّب، وَاخْتَارَهُ اِبْن جَرِير.

وَقَوْله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ دَلِيل عَلَى اِسْتِحْبَاب الصَّلَاة فِي المَسَاجِد القَدِيمَة المُؤَسَّسَة مِنْ أَوَّل بِنَائِهَا عَلَى عِبَادَة الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَعَلَى اِسْتِحْبَاب الصَّلَاة مَعَ الجَمَاعَة الصَّالِحِينَ، وَالعِبَاد العَامِلِينَ، المُحَافِظِينَ عَلَى إِسْبَاغ الوُضُوء، وَالتَّنَزُّه عَنْ مُلَابَسَة القَاذُورَات. وَقَدْ قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ عَبْد المَلِك بْن عُمَيْر، سَمِعْت شُبَيْبًا أَبَا رَوْح، يُحَدِّث عَنْ رَجُل مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ صَلَّى بِهِمْ الصُّبْح فَقَرَأَ بِهِم الرُّوم فَأَوْهَمَ، فَلَمَّا اِنْصَرَفَ قَالَ: «**إِنَّهُ يَلْبِس عَلَيْنَا القُرْآن، أَنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الوُضُوء، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلَاة مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الوُضُوء**»[1]. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ طَرِيقَيْنِ آخَرَيْنِ، عَنْ عَبْد المَلِك بْن عُمَيْر، عَنْ شُبَيْب أَبِي رَوْح عن ذِي الكَلَاع أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيّ ﷺ، فَذَكَره فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ إِكْمَال الطَّهَارَة يُسَهِّل القِيَام فِي العِبَادَة وَيُعِين عَلَى إِتْمَامهَا وَإِكْمَالهَا وَالقِيَام بِمَشْرُوعَاتِهَا، وَقَالَ أَبُو العَالِيَة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: إِنَّ الطُّهُور بِالمَاءِ لَحَسَن، وَلَكِنَّهُمْ المُطَهَّرُونَ مِنَ الذُّنُوب. وَقَالَ الأَعْمَش: التَّوْبَة مِنَ الذُّنُوب، وَالتطهير مِنَ الشِّرْك. وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث المَرْوِيّ مِنْ طُرُق فِي السُّنَن وَغَيْرهَا: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لِأَهْلِ قُبَاء: «**قَدْ أَثْنَى الله عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُور فَمَاذَا تَصْنَعُونَ؟**» فَقَالُوا: نَسْتَنْجِي بِالمَاءِ. وَقَدْ قَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن شُبَيْب، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن عَبْد العَزِيز، قَالَ: وَجَدْته فِي كِتَاب أَبِي، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي أَهْل قُبَاء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ فَسَأَلَهُمْ رَسُول الله ﷺ فَقَالُوا: إِنَّا نُتْبِع الحِجَارَة المَاءَ[2]. رَوَاهُ البَزَّار، ثُمَّ قَالَ: تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّد ابْن عَبْد العَزِيز، عَنْ الزُّهْرِيّ، وَلَمْ يَرْوِه عَنْهُ سِوَى اِبْنه.

قُلت: وَإِنَّمَا ذَكَرْته بِهَذَا اللَّفْظ؛ لِأَنَّهُ مَشْهُور بَيْن الفُقَهَاء، وَلَمْ يَعْرِفهُ كَثِير مِنَ المُحَدِّثِينَ المُتَأَخِّرِينَ أَوْ كُلّهمْ، وَالله أَعْلَم.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

يَقُول تَعَالَى: لَا يَسْتَوِي مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانه عَلَى تَقْوَى مِنْ الله وَرِضْوَان، وَمَنْ بَنَى مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا، وَتَفْرِيقًا بَيْن المُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُوله مِنْ قَبْل. فَإِنَّمَا بنى هَؤُلَاءِ بُنْيَانهمْ عَلَى شَفَا جُرُف هَارٍ أَيْ: طَرَف حَفِيرَة مُثَالَة ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أَيْ: لَا يُصْلِح عَمَل المُفْسِدِينَ. قَالَ جَابِر بْن عَبْد الله: رَأَيْت المَسْجِد الَّذِي بُنِيَ ضِرَارًا يَخْرُج مِنْهُ الدُّخَان عَلَى عَهْد رَسُول الله ﷺ. وَقَالَ اِبْن جُرَيْج: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رِجَالًا حَفَرُوا فَوَجَدُوا الدُّخَان يَخْرُج مِنْهُ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَة. وَقَالَ خَلَف بْن يَاسِين الكُوفِيّ: رَأَيْت مَسْجِد المُنَافِقِينَ الَّذِي ذَكَرَهُ الله تَعَالَى فِي القُرْآن، وَفِيهِ جُحْر يَخْرُج مِنْهُ الدُّخَان، وَهُوَ اليَوْم مَزْبَلَة. رَوَاهُ اِبْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ: شَكًّا وَنِفَاقًا؛ بِسَبَبِ إِقْدَامهمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيع الشَّنِيع، أَوْرَثَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبهمْ، كَمَا أُشْرِب عَابِدُو العِجْل حُبّه. وَقَوْله: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيْ: بِمَوْتِهِمْ.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٤٧١) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، والنسائي (٢/ ١٥٦)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥٥٠)، وقال: رواه أحمد والنسائي، ورجال الروايتين محتج بهم في الصحيح.

(٢) ضعيف: أخرجه البزار (٢٤٧) بسند ضعيف، وفيه محمد بن عبد العزيز بن عمر الزهري: ضعيف.

قَالَه اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة وَزَيْد بْن أَسْلَم، وَالسُّدِّيّ وَحَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، وَالضَّحَّاك، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم، وَغَيْر وَاحِد مِنْ عُلَمَاء السَّلَف. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: بِأَعْمَالِ خَلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي مُجَازَاتهمْ عَنْهَا مِنْ خَيْر وَشَرّ.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ عَاوَضَ مِنْ عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْفُسهمْ وَأَمْوَالهمْ إِذْ بَذَلُوهَا فِي سَبِيله بِالْجَنَّةِ، وَهَذَا مِنْ فَضْله وَكَرَمه وَإِحْسَانه، فَإِنَّهُ قَبِلَ الْعِوَض عَمَّا يَمْلِكهُ بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَى عِبَاده الْمُطِيعِينَ لَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَن الْبَصْرِيّ وَقَتَادَة: بَايَعَهُمْ -وَالله- فَأَغْلَى ثَمَنهمْ. وَقَالَ شِمْر بْن عَطِيَّة: مَا مِنْ مُسْلِم إِلَّا وَلله ﷻ، فِي عُنُقه بَيْعَة، وَفَّى بِهَا أَوْ مَاتَ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَة؛ وَلِهَذَا يُقَال: مَنْ حَمَلَ فِي سَبِيل الله بَايَعَ الله. أَيْ: قَبِلَ هَذَا الْعَقْد وَوَفَّى بِهِ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب الْقُرَظِيّ وَغَيْره: قَالَ عَبْد الله بْن رَوَاحَة ﷺ، لِرَسُولِ الله ﷺ يَعْنِي لَيْلَة الْعَقَبَة: اِشْتَرِطْ لِرَبِّك وَلِنَفْسِك مَا شِئْت فَقَالَ: «**أَشْتَرِط لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَشْتَرِط لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسكُمْ وَأَمْوَالكُمْ**» قَالُوا: فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ: «**الْجَنَّة**». قَالُوا: رَبِحَ الْبَيْع؛ لَا نُقِيل وَلَا نَسْتَقِيل. فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الْآيَة.

وَقَوْله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أَيْ: سَوَاء قَتَلُوا أَوْ قُتِلُوا، أَوْ اِجْتَمَعَ لَهُمْ هَذَا وَهَذَا فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُمْ الْجَنَّة؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**وَتَكَفَّلَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيله، لَا يُخْرِجهُ إِلَّا جِهَاد فِي سَبِيلِي وَتَصْدِيق بِرُسُلِي بِأَنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلهُ الْجَنَّة، أَوْ يُرْجِعهُ إِلَى مَنْزِله الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْر أَوْ غَنِيمَة**». وَقَوْله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ تَأْكِيد لِهَذَا الْوَعْد، وَإِخْبَار بِأَنَّهُ قَدْ كَتَبَهُ عَلَى نَفْسه الْكَرِيمَة، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رُسُله فِي كُتُبه الْكِبَار؛ وَهِيَ التَّوْرَاة الْمُنَزَّلَة عَلَى مُوسَى، وَالْإِنْجِيل الْمُنَزَّل عَلَى عِيسَى، وَالْقُرْآن الْمُنَزَّل عَلَى مُحَمَّد صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَقَوْله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فَإِنَّهُ لَا يُخْلِف الْمِيعَاد، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أَيْ: فَلْيَسْتَبْشِر مَنْ قَامَ بِمُقْتَضَى هَذَا الْعَقْد، وَوَفَّى بِهَذَا الْعَهْد، بِالْفَوْزِ الْعَظِيم وَالنَّعِيم الْمُقِيم.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

هَذَا نَعْت الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اِشْتَرَى الله مِنْهُمْ أَنْفُسهمْ وَأَمْوَالهمْ، بِهَذِهِ الصِّفَات الْجَمِيلَة وَالْخِلَال الْجَلِيلَة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ مِنْ الذُّنُوب كُلّهَا، التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِش، ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ أَيْ: الْقَائِمُونَ بِعِبَادَةِ رَبّهمْ مُحَافِظِينَ عَلَيْهَا، وَهِيَ الْأَقْوَال وَالْأَفْعَال، فَمِنْ أَخَصّ الْأَقْوَال: الْحَمْد، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾، وَمِنْ أَفْضَل الْأَعْمَال: الصِّيَام، وَهُوَ تَرْك الْمَلَاذّ مِنْ الطَّعَام وَالشَّرَاب وَالْجِمَاع، وَهُوَ الْمُرَاد بِالسِّيَاحَةِ هَاهُنَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ كَمَا وَصَفَ أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ، بِذَلِكَ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أَيْ: صَائِمَات، وَكَذَا الرُّكُوع وَالسُّجُود وَهُمَا عِبَارَة عَنْ الصَّلَاة؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَنْفَعُونَ خَلق الله وَيُرْشِدُونَهُمْ إِلَى طَاعَة الله بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيهمْ عَنْ الْمُنْكَر، مَعَ الْعِلم بِمَا يَنْبَغِي فِعْله وَيَجِب تَرْكه، وَهُوَ حِفْظ حُدُود الله فِي تَحْلِيله وَتَحْرِيمه، عِلْمًا وَعَمَلًا، فَقَامُوا بِعِبَادَةِ الْحَقّ وَنُصْح الْخَلق؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّ الْإِيمَان يَشْمَل هَذَا كُلّه، وَالسَّعَادَة كُلّ السَّعَادَة لِمَنْ اِتَّصَفَ بِهِ.

بَيَان أَنَّ الْمُرَاد بِالسِّيَاحَةِ الصِّيَام: قَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ عَاصِم، عَنْ زِرّ، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَالَ: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ الصَّائِمُونَ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، وَالعَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: كُلّ مَا ذَكَرَ الله فِي القُرْآن السِّيَاحَة هُمْ الصَّائِمُونَ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك رَحِمَهُ اللهُ. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن يَزِيد، عَنْ الوَلِيد بْن عَبْد الله، عَنْ عَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سِيَاحَة هَذِهِ الأُمَّة الصِّيَام. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَعَطَاء، وَأَبُو عَبْد الرَّحْمَن السُّلَمِيّ، وَالضَّحَّاك بْن مُزَاحِم، وَسُفْيَان بْن عُيَيْنَة وَغَيْرهمْ: أَنَّ الْمُرَاد بِالسَّائِحِينَ الصَّائِمُونَ. وَقَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾: الصَّائِمُونَ شَهْر رَمَضَان. وَقَالَ أَبُو عَمْرو العَبْدِيّ: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾: الَّذِينَ يُدِيمُونَ الصِّيَام مِنْ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيث مَرْفُوع نَحْو هَذَا. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن بَزِيع، حَدَّثَنَا حَكِيم بْن حِزَام، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**السَّائِحُونَ هُمْ الصَّائِمُونَ**»[1]. وَهَذَا الْمَوْقُوف أَصَحّ. وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنِي يُونُس، عَنْ اِبْن وَهْب، عَنْ عُمَر بْن الحَارِث، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عُبَيْد بْن عُمَيْر قَالَ: سُئِلَ النَّبِيّ ﷺ، عَنْ السَّائِحِينَ فَقَالَ: «**هُمْ الصَّائِمُونَ**»[2]. وَهَذَا مُرْسَل جَيِّد، فَهَذَا أَصَحّ الأَقْوَال وَأَشْهَرهَا.

وَجَاءَ مَا يَدُلّ عَلَى أَنَّ السِّيَاحَة الجِهَاد، وَهُوَ مَا رَوَى أَبُو دَاوُد فِي سُنَنه مِنْ حَدِيث أَبِي أُمَامَة؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُول الله، اِئْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَة؛ فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**سِيَاحَة أُمَّتِي الجِهَاد فِي سَبِيل الله**»[3]. وَقَالَ اِبْن الْمُبَارَك، عَنْ اِبْن لَهِيعَة: أَخْبَرَنِي عِمَارَة بْن غَزِيَّة؛ أَنَّ السِّيَاحَة ذُكِرَتْ عِنْد رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَبْدَلَنَا الله بِذَلِكَ الجِهَاد فِي سَبِيل الله، وَالتَّكْبِير عَلَى كُلّ شَرَف**». وَعَنْ عِكْرِمَة أَنَّهُ قَالَ: هُمْ طَلَبَة العِلْم. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن اِبْن زَيْد بْن أَسْلَم: هُمْ الْمُهَاجِرُونَ. رَوَاهُمَا اِبْن أَبِي حَاتِم.

وَلَيْسَ الْمُرَاد مِنْ السِّيَاحَة مَا قَدْ يَفْهَمهُ بَعْض مَنْ يَتَعَبَّد بِمُجَرَّدِ السِّيَاحَة فِي الأَرْض، وَالتَّفَرُّد فِي شَوَاهِق الجِبَال وَالكُهُوف وَالبَرَارِي، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَشْرُوع إِلَّا فِي أَيَّام الفِتَن وَالزَّلَازِل فِي الدِّين، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيح البُخَارِيّ عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**يُوشِك أَنْ يَكُون خَيْر مَال الرَّجُل غَنَمًا يَتْبَع بِهَا شَعَف الجِبَال، وَمَوَاقِع القَطْر، يَفِرّ بِدِينِهِ مِنْ الفِتَن**»[4]. وَقَالَ العَوْفِيّ، وَعَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: القَائِمُونَ بِطَاعَةِ الله؛ وَكَذَا قَالَ الحَسَن البَصْرِيّ، وَعَنْهُ رِوَايَة ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: لِفَرَائِض الله. وَفِي رِوَايَة: القَائِمُونَ عَلَى أَمْر الله.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾

قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ اِبْن الْمُسَيِّب، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِب الوَفَاة، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ، وَعِنْده أَبُو جَهْل، وَعَبْد الله بْن أَبِي أُمَيَّة، فَقَالَ: «**أَيْ عَمّ، قُلْ: لَا إِلَه إِلَّا الله،**

---

(١) ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٣٣٠).
(٢) مرسل: أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٤/ ٣٠٥).
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٤٨٦)، والحاكم (٢/ ٨٣)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١٨٣) من حديث أبي أمامة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٩٣).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٩)، والنسائي (٨/ ٣٩٨)، وابن ماجه (٣٩٨٠).

كَلِمَةً أُحَاجّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله ﷻ». فَقَالَ أَبُو جَهْل، وَعَبْد الله بْن أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِب، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّة عَبْد المُطَّلِب؟ قال: فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: أَنَا عَلَى مِلَّة عَبْد المُطَّلِب. فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قَالَ: وَنَزَلَتْ فِيهِ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[1]. أَخْرَجَاهُ. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن آدَم، أَخْبَرَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الخَلِيل، عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْت رَجُلًا يَسْتَغْفِر لِأَبَوَيْهِ وَهُمَا مُشْرِكَانِ، فَقُلت: أَيَسْتَغْفِرُ الرَّجُل لِأَبَوَيْهِ وَهُمَا مُشْرِكَانِ؟! فَقَالَ: أَوَلَمْ يَسْتَغْفِر إِبْرَاهِيم لِأَبِيهِ؟! فَذَكَرْت ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ الآيَة. قَالَ: لَمَّا مَاتَ. فَلَا أَدْرِي قَالَهُ سُفْيَان أَوْ قَالَهُ إِسْرَائِيل، أَوْ هُوَ فِي الحَدِيث: «لَمَّا مَاتَ». قُلت: هَذَا ثَابِت عَنْ مُجَاهِد أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا مَاتَ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا زُهَيْر، حَدَّثَنَا زُبَيْد بْن الحَارِث اليَامِيّ، عَنْ مُحَارِب بْن دِثَار، عَنْ اِبْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيّ ﷺ، وَنَحْنُ فِي سَفَر، فَنَزَلَ بِنَا وَنَحْنُ معه قَرِيب مِنْ أَلْف رَاكِب فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَر بْن الخَطَّاب، وَفَدَاهُ بِالأَبِ وَالأُمّ، وَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ مَا لَكَ؟ قَالَ: «إِنِّي سَأَلت رَبِّي ﷻ فِي الاسْتِغْفَار لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَن لِي، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَة لَهَا مِنْ النَّار، وَإِنِّي كُنْت نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاث: نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَة القُبُور فَزُورُوهَا؛ لِتُذَكِّركُمْ زِيَارَتهَا خَيْرًا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُوم الأَضَاحِيّ بَعْد ثَلَاث فَكُلُوا وَأَمْسِكُوا مَا شِئْتُمْ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ الأَشْرِبَة فِي الأَوْعِيَة فَاشْرَبُوا فِي أَيّ وِعَاء شِئْتُمْ، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا»[2].

وَرَوَى اِبْن جَرِير مِنْ حَدِيث عَلْقَمَة بْن مَرْثَد، عَنْ سُلَيْمَان بْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ، لَمَّا قَدِمَ مَكَّة أَتَى رَسْم قَبْر فَجَلَسَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ يُخَاطِب، ثُمَّ قَامَ مُسْتَعْبِرًا، فَقُلْنَا: يَا رَسُول الله، إِنَّا رَأَيْنَا مَا صَنَعْت! قَالَ: «إِنِّي اِسْتَأْذَنْت رَبِّي فِي زِيَارَة قَبْر أُمِّي فَأَذِنَ لِي، وَاسْتَأْذَنْته فِي الاسْتِغْفَار لَهَا فَلَمْ يَأْذَن لِي». فَمَا رُئِيَ بَاكِيًا أَكْثَر مِنْ يَوْمئِذٍ[3]. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِيره: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا خَالِد بْن خِدَاش، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن وَهْب، عَنْ اِبْن جُرَيْج، عَنْ أَيُّوب بْن هَانِئ، عَنْ مَسْرُوق، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَالَ: خَرَجَ رَسُول الله ﷺ يَوْمًا إِلَى المَقَابِر؛ فَاتَّبَعْنَاهُ فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَى قَبْر مِنْهَا فَنَاجَاهُ طَوِيلًا، ثُمَّ بَكَى فَبَكَيْنَا لِبُكَائِهِ، ثُمَّ قَامَ فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَر بْن الخَطَّاب فَدَعَاهُ، ثُمَّ دَعَانَا فَقَالَ: «مَا أَبْكَاكُمْ؟» فَقُلْنَا: بَكَيْنَا لِبُكَائِك. قَالَ: «إِنَّ القَبْر الَّذِي جَلَسْت عِنْده قَبْر آمِنَة، وَإِنِّي اِسْتَأْذَنْت رَبِّي فِي زِيَارَتهَا فَأَذِنَ لِي». ثُمَّ أَوْرَدَهُ مِنْ وَجْه آخَر، ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ حَدِيث اِبْن مَسْعُود قَرِيبًا منه. وَفِيهِ: «وَإِنِّي اِسْتَأْذَنْت رَبِّي فِي الدُّعَاء لَهَا فَلَمْ يَأْذَن لِي، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ الآيَة. فَأَخَذَنِي مَا يَأْخُذ الوَلَد لِلْوَالِد، وَكُنْت نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَة القُبُور فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّر الآخِرَة»[4].

حَدِيث آخَر فِي مَعْنَاهُ: قَالَ الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيّ المَرْوَزِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو الدَّرْدَاء عَبْد العَزِيز بْن مُنِيب، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن عَبْد الله بْن كَيْسَان، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس أَنَّ رَسُول الله ﷺ، لَمَّا أَقْبَلَ مِنْ غَزْوَة

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٦٠)، ومسلم (٢٤).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٥)، وابن حبان (٥٣٩٠)، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ٢٧٤).
(٣) صحيح: أخرجه ابن جرير (٦/ ٤٨٧).
(٤) ضعيف الإسناد: أخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٦)، وابن حبان (٩٨١).

تَبُوك وَاعْتَمَرَ، فَلَمَّا هَبَطَ مِنْ ثَنِيَّة عُسْفَان أَمَرَ أَصْحَابه: **«أَنْ اِسْتَنِدُوا إِلَى العَقَبَة حَتَّى أَرْجِع إِلَيْكُمْ»**. فَذَهَبَ فَنَزَلَ عَلَى قَبْر أُمّه، فَنَاجَى رَبّه طَوِيلًا، ثُمَّ إِنَّهُ بَكَى فَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ، وَبَكَى هَؤُلَاءِ لِبُكَائِهِ، وَقَالُوا: مَا بَكَى نَبِيّ الله بِهَذَا المَكَان إِلَّا وَقَدْ أَحْدَثَ الله فِي أُمَّته شَيْئًا لَا تُطِيقهُ، فَلَمَّا بَكَى هَؤُلَاءِ قَامَ فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: **«مَا يُبْكِيكُمْ؟»** قَالُوا: يَا نَبِيّ الله، بَكَيْنَا لِبُكَائِك؛ فَقُلْنَا: لَعَلَّهُ أُحْدِثَ فِي أُمَّتك شَيْء لَا تُطِيقهُ. قَال: **«لا، وَقَدْ كَانَ بَعْضه، وَلَكِنْ نَزَلت عَلَى قَبْر أُمِّي فَسَأَلت الله أَنْ يَأْذَن لِي فِي شَفَاعَتهَا يَوْم القِيَامَة فَأَبَى الله أَنْ يَأْذَن لِي، فَرَحِمْتهَا وَهِيَ أُمِّي فَبَكَيْت، ثُمَّ جَاءَنِي جِبْرِيل فَقَالَ:** ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ **فَتَبَرَّأْ أَنْتَ مِنْ أُمّك، كَمَا تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيم مِنْ أَبِيهِ، فَرَحِمْتهَا وَهِيَ أُمِّي، وَدَعَوْت رَبِّي أَنْ يَرْفَع عَنْ أُمَّتِي أَرْبَعًا، فَرَفَعَ عَنْهُمْ اِثْنَتَيْنِ، وَأَبَى أَنْ يَرْفَع عَنْهُمْ اِثْنَتَيْنِ: دَعَوْت رَبِّي أَنْ يَرْفَع عَنْهُمْ الرَّجْم مِنْ السَّمَاء، وَالغَرَق مِنْ الأَرْض، وَأَنْ لا يَلْبِسهُمْ شِيَعًا، وَأَنْ لا يُذِيق بَعْضهمْ بَأْس بَعْض، فَرَفَعَ الله عَنْهُمْ الرَّجْم مِنْ السَّمَاء، وَالغَرَق مِنْ الأَرْض، وَأَبَى الله أَنْ يَرْفَع عَنْهُمْ القَتْل وَالهَرْج»**[1]. وَإِنَّمَا عَدَلَ إِلَى قَبْر أُمّه؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَدْفُونَة تَحْت كَدَاء، وَكَانَتْ عُسْفَان لَهُمْ. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب، وَسِيَاق عَجِيب، وَأَغْرَب مِنْهُ وَأَشَدّ نَكَارَة مَا رَوَاهُ الخَطِيب البَغْدَادِيّ فِي كِتَاب «السَّابِق وَاللَّاحِق» بِسَنَدٍ مَجْهُول عَنْ عَائِشَة فِي حَدِيث فِيهِ قِصَّة: أَنَّ الله أَحْيَا أُمّه فَآمَنَتْ ثُمَّ عَادَتْ. وَكَذَلِكَ مَا رَوَاهُ السُّهَيْلِيّ فِي الرَّوْض بِسَنَدٍ فِيهِ جَمَاعَة مَجْهُولُونَ؛ أَنَّ الله أَحْيَا لَهُ أَبَاهُ وَأُمّه فَآمَنَا بِهِ. وَقَدْ قَالَ الحَافِظ اِبْن دِحْيَة: هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع، قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. وقال القرطبي: إن مقتضى هذا الحديث... ورد على ابن دحية فِي هَذَا الِاسْتِدْلَال بِمَا حَاصِله أَنَّ هَذِهِ حَيَاة جَدِيدَة كَمَا رَجَعَتْ الشَّمْس بَعْد غَيْبُوبَتهَا فَصَلَّى عَلِيّ العَصْر. قَالَ الطَّحَاوِيّ: وَهُوَ حَدِيث ثَابِت. يَعْنِي: حَدِيث الشَّمْس. قَالَ القُرْطُبِيّ: فَلَيْسَ إِحْيَاؤُهُمَا يَمْتَنِع عَقْلًا وَلَا شَرْعًا. قَالَ: وَقَدْ سَمِعْت أَنَّ الله أَحْيَا عَمّه أَبَا طَالِب فَآمَنَ بِهِ.

قلت: وَهَذَا كُلّه مُتَوَقِّف عَلَى صِحَّة الحَدِيث، فَإِذَا صَحَّ فَلَا مَانِع مِنْهُ، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ العَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآيَة: إِنَّ النَّبِيّ ﷺ، أَرَادَ أَنْ يَسْتَغْفِر لِأُمِّهِ فَنَهَاهُ الله ﷻ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: **«فَإِنَّ إِبْرَاهِيم خَلِيل الله ﷺ، قَدْ اِسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ»** فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ الآيَة. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة، فلما نزلت فَأَمْسَكُوا عَنْ الِاسْتِغْفَار لِأَمْوَاتِهِمْ وَلَمْ يُنْهَوْا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْأَحْيَاءِ حَتَّى يَمُوتُوا، ثُمَّ أَنْزَلَ الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآيَة.

وَقَالَ قَتَادَة فِي هذه الآيَة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ، قَالُوا: يَا نَبِيّ الله، إِنَّ مِنْ آبَائِنَا مَنْ كَانَ يُحْسِن الجِوَار، وَيَصِل الأَرْحَام، وَيَفُكّ العَانِي، وَيُوفِي بِالذِّمَم، أَفَلَا نَسْتَغْفِر لَهُمْ؟ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: **«بلى وَالله إِنِّي لأَسْتَغْفِر لأَبِي كَمَا اِسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيم لأَبِيهِ»**، فَأَنْزَلَ الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ حَتَّى بَلَغَ قَوْله: ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾، ثُمَّ عَذَرَ الله تَعَالَى إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾. قَالَ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ، قَالَ: **«أُوحِيَ إِلَيَّ كَلِمَات، فَدَخَلْنَ فِي أُذُنِي وَوَقَرْنَ فِي قَلْبِي: أُمِرْت أَنْ لا أَسْتَغْفِر لِمَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، وَمَنْ أَعْطَى فَضْل مَاله فَهُوَ خَيْر لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكَ فَهُوَ شَرّ لَهُ، وَلا يَلُوم الله عَلَى كَفَاف»**[2].

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٧٤) بسند ضعيف، وعلته عبد الله بن كيسان: ضعفه أبو حاتم، وقال البخاري: منكر الحديث.

(٢) مرسل: أخرجه الطبري (٦/ ٤٨٧).

وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ الشَّيْبَانِيّ، عَنْ سَعِيد بن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: مَاتَ رَجُل يَهُودِيّ وَلَهُ اِبْن مُسْلِم فَلَمْ يَخْرُج مَعَهُ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِابْنِ عَبَّاس؛ فَقَالَ: فَكَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَمْشِي مِنْهُ وَيَدْفِنهُ، وَيَدْعُو بِالصَّلَاحِ مَا دَامَ حَيًّا، فَإِذَا مَاتَ وَكَلَهُ إِلَى شَأْنه، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾: لَمْ يَدْعُ. وَهذا يشهد لَهُ بِالصِّحَّةِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْره: عَنْ عَلِيّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لَمَّا مَاتَ أَبُو طَالِب قُلت: يَا رَسُول الله؛ إِنَّ عَمّك الشَّيْخ الضَّالّ قَدْ مَاتَ. قَالَ: «اِذْهَبْ فَوَارِهِ وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينِي»[1]. وَذَكَرَ تَمام الحَدِيث. وَيُرْوَى أَنَّهُ ﷺ لَمَّا مَرَّتْ بِهِ جِنَازَة عَمّه أَبِي طَالِب قَالَ: «وَصَلَتْك رَحِم يَا عَمّ».

وَقَالَ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح: مَا كُنْت لِأَدَع الصَّلَاة عَلَى أَحَد مِنْ أَهْل القِبْلَة، وَلَوْ كَانَتْ حَبَشِيَّة حُبْلَى مِنْ الزِّنَا؛ لِأَنِّي لَمْ أَسْمَع الله حَجَبَ الصَّلَاة إِلَّا عَنْ المُشْرِكِينَ، يَقُول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآيَة. وَرَوَى اِبْن جَرِير، عَنْ اِبْن وَكِيع، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِصْمَة بْن زامل، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: رَحِمَ الله رَجُلًا اِسْتَغْفَرَ لِأَبِي هُرَيْرَة، وَلِأُمِّهِ. قُلْتُ: وَلِأَبِيهِ. قَالَ: لَا. قَالَ: إِنَّ أَبِي مَاتَ مُشْرِكًا.

وَقَوْله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس: مَا زَالَ إِبْرَاهِيم يَسْتَغْفِر لِأَبِيهِ حَتَّى مَاتَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ. وَفِي رِوَايَة: لَمَّا مَاتَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوّ لله. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة وَغَيْرهمْ رَحِمَهُمْ الله. وَقَالَ عُبَيْد بْن عُمَيْر وَسَعِيد بْن جُبَيْر: أَنَّهُ يَتَبَرَّأ مِنْهُ يَوْم القِيَامَة حِين يَلْقَى أَبَاهُ، وَعَلَى وَجْه أَبِيهِ الغَبَرَة وَالقَتَرَة، فَيَقُول: يَا إِبْرَاهِيم؛ إِنِّي كُنْت أَعْصِيك وَإِنِّي اليَوْم لَا أَعْصِيك. فَيَقُول: أَيْ رَبّ؛ أَلَمْ تَعِدنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْم يُبْعَثُونَ؟ فَأَيّ خِزْي أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَد؟ فَيُقَال: اُنْظُرْ إِلَى مَا وَرَاءَك، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخ. أَيْ: قَدْ مُسِخَ ضَبُعًا، ثُمَّ يُسْحَب بِقَوَائِمِهِ وَيُلْقَى فِي النَّار.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ قَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَغَيْر وَاحِد، عَنْ عَاصِم ابْن بَهْدَلَة، عَنْ زِرّ بْن حُبَيْش، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، أَنَّهُ قَالَ: الأَوَّاه: الدَّعَّاء. وَكَذَا رُوِيَ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ اِبْن مَسْعُود. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي المُثَنَّى، حَدَّثَنَا الحَجَّاج بْن مِنْهَال، حَدَّثَنِي عَبْد الحَمِيد بْن بَهْرَام، حَدَّثَنَا شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ عَبْد الله بْن شَدَّاد بْن الهَادِ، قَالَ: بَيْنَمَا رسول الله ﷺ جَالِس، قَالَ رَجُل: يَا رَسُول الله؛ مَا الأَوَّاه؟ قَالَ: «المُتَضَرِّع»، قَالَ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾[2]. وَرَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث اِبْن المُبَارَك، عَنْ عَبْد الحَمِيد بْن بَهْرَام، بِهِ. وَلَفْظه: قَالَ: «الأَوَّاه: المُتَضَرِّع الدَّعَّاء». وَقَالَ الثَّوْرِيّ: عَنْ سَلَمَة بْن كُهَيْل، عَنْ مُسْلِم البطين، عَنْ أَبِي العبيدين، أَنَّهُ سَأَلَ اِبْن مَسْعُود عَنْ الأَوَّاه؟ فَقَالَ: هُوَ الرَّحِيم. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِد، وَأَبُو مَيْسَرَة عَمْرو بْن شُرَحْبِيل، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَقَتَادَة: أَنَّهُ الرَّحِيم، أَيْ: بِعِبَادِ الله. وَقَالَ اِبْن المُبَارَك، عَنْ خَالِد، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: الأَوَّاه: المُوقِن، بِلِسَانِ الحَبَشَة. وَكَذَا قَالَ العَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّهُ المُوقِن، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَالضَّحَّاك. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة وَمُجَاهِد عَنْ اِبْن عَبَّاس: الأَوَّاه: المُؤْمِن. زَادَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْهُ: المُؤْمِن التَّوَّاب. وَقَالَ العَوْفِيّ عَنْهُ: هُوَ المُؤْمِن، بِلِسَانِ الحَبَشَة. وَكَذَا قَالَ اِبْن جُرَيْج: هُوَ المُؤْمِن، بِلِسَانِ الحَبَشَة.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُوسَى، حَدَّثَنَا اِبْن لَهِيعَة، عَنْ الحَارِث بْن يَزِيد، عَنْ عَلِيّ بْن رَبَاح، عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ يُقَال لَهُ: ذُو البِجَادَيْنِ: «إِنَّهُ أَوَّاه» وَذَلِكَ أَنَّهُ رَجُل كثير الذكر لله فِي القُرْآن ويرفع صَوْته بِالدُّعَاءِ[3]. وَرَوَاهُ اِبْن جَرِير. وَقَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر، وَالشَّعْبِيّ: الأَوَّاه: المُسَبِّح. وَقَالَ اِبْن وَهْب، عَنْ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٢١٤)، والنسائي (٢٠٠٦) من حديث علي، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٧٥٣).
(٢) ضعيف: أخرجه الطبري (١١/ ٥١) بسند ضعيف مرسل، فيه شهر بن حوشب كثير الإرسال والأوهام.
(٣) حسن لغيره: أخرجه الطبري (٦/ ٤٩٠)، وأحمد (٤/ ١٥٩)، والطبراني (١٧/ ٢٩٥) من حديث عقبة بن عامر، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٦١٦) وقال: رواه أحمد والطبراني وإسنادهما حسن.

مُعَاوِيَة بْن صَالِح، عَنْ أَبِي الزَّاهِرِيَّة، عَنْ جُبَيْر بْن نُفَيْر، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء ﷺ، قَالَ: لا يحافظ عَلَى سُبْحَة الضُّحَى إلا أواه. وَقَالَ شُفَيّ بْن مَاتِع، عَنْ أَبِي أَيُّوب: الأَوَّاه الَّذِي إِذَا ذَكَرَ خَطَايَاهُ اِسْتَغْفَرَ مِنْهَا. وَعَنْ مُجَاهِد: الأَوَّاه الحَفِيظ الوَجِل، يُذْنِب الذَّنْب سِرًّا ثُمَّ يَتُوب مِنْهُ سِرًّا. ذَكَرَ ذَلِكَ كُلّه اِبْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا اِبْن وَكِيع، حَدَّثَنَا المُحَارِبِيّ، عَنْ حَجَّاج، عَنْ الحكم، عَنْ الحَسَن بْن مُسْلِم بْن يَنَّاق أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُكْثِر ذِكْر الله وَيُسَبِّح، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّهُ أَوَّاهٌ». وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا اِبْن هَانِئ، حَدَّثَنَا المِنْهَال بْن خَلِيفَة، عَنْ حَجَّاج بْن أَرْطَاة، عَنْ عَطَاء، عَنْ اِبْن عَبَّاس، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ دَفَنَ مَيِّتًا فَقَالَ: «رَحِمَكَ الله إِنْ كُنْتَ لأَوَّاهًا». يَعْنِي: تَلَّاء لِلْقُرْآنِ[1]. وَقَالَ شُعْبَة عَنْ أَبِي يُونُس البَاهِلِيّ قَالَ: سَمِعْت رَجُلًا بِمَكَّة -وَكَانَ أَصْله رُومِيًّا، وَكَانَ قَاصًّا- يُحَدِّث، عَنْ أَبِي ذَرّ، قَالَ: كَانَ رَجُل يَطُوف بِالبَيْتِ الحَرَام وَيَقُول فِي دُعَائِهِ: أَوَّهْ أَوَّهْ. فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّهُ أَوَّاه»، قَالَ: فَخَرَجْت ذَات لَيْلَة فَإِذَا رَسُول الله ﷺ، يَدْفِن ذَلِكَ الرَّجُل لَيْلًا وَمَعَهُ المِصْبَاح[2]. هَذَا حَدِيث غَرِيب، رَوَاهُ اِبْن جرير ومشّاه. وَرُوِيَ عَنْ كَعْب الأَحْبَار، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْت ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ قَالَ: كَانَ إِذَا ذَكَرَ النَّار قَالَ: أَوَّهْ مِنْ النَّار. وَقَالَ اِبْن جريج، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ قَالَ: فَقِيه. قَالَ الإِمَام العَلَم أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: وَأَوْلَى الأَقْوَال قَوْل مَنْ قَالَ: إِنَّهُ الدَّعَّاء، وَهُوَ المُنَاسِب لِلسِّيَاقِ، وَذَلِكَ أَنَّ الله تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيم إِنَّمَا اِسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ عَنْ مَوْعِدَة وَعَدَهَا إِيَّاه، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيم كَثِير الدُّعَاء، حَلِيمًا عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَأَنَالَهُ مَكْرُوهًا؛ وَلِهَذَا اِسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ مَعَ شِدَّة أَذَاهُ لَهُ فِي قَوْله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾، فَحَلُمَ عَنْهُ مَعَ أَذَاهُ لَهُ، وَدَعَا لَهُ وَاسْتَغْفَرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسه الكَرِيمَة وَحُكْمه العَادِل: إِنَّهُ لَا يُضِلّ قَوْمًا إِلَّا بَعْد بَلَاغ الرِّسَالَة إِلَيْهِمْ، حَتَّى يَكُونُوا قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ الحُجَّة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الآيَة. وَقَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ﴾. قَالَ: بَيَان الله ﷻ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي تَرْك الاِسْتِغْفَار لِلْمُشْرِكِينَ خَاصَّة، وَفِي بَيَانه لَهُمْ فِي طَاعَته وَمَعْصِيَته عَامَّة، فَافْعَلُوا أَوْ ذَرُوا.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: يَقُول الله تَعَالَى: وَمَا كَانَ الله لِيَقْضِيَ عَلَيْكُمْ فِي اِسْتِغْفَاركُمْ لِمَوْتَاكُمْ المُشْرِكِينَ بِالضَّلَال، بَعْد إِذْ رَزَقَكُمْ الهِدَايَة، وَوَفَّقَكُمْ لِلإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، حَتَّى يَتَقَدَّم إِلَيْكُمْ بِالنَّهْيِ عَنْهُ فَتَتْرُكُوا، فَأَمَّا قَبْل أَنْ يُبَيِّن لَكُمْ كَرَاهَته ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ، ثُمَّ تتعدوا نَهْيه إِلَى مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحْكُم عَلَيْكُمْ بِالضَّلَال؛ فَإِنَّ الطَّاعَة وَالمَعْصِيَة إِنَّمَا يَكُونَانِ مِنْ المَأْمُور وَالمَنْهِيّ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يُؤْمَر، وَلَمْ يُنْهَ فَغَيْر كَائِن مُطِيعًا كان أَوْ عَاصِيًا فِيمَا لَمْ يُؤْمَر بِهِ وَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قَالَ اِبْن جَرِير: هَذَا تَحْرِيض مِنْ الله تَعَالَى لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ فِي قِتَال المُشْرِكِينَ وَمُلُوك الكُفْر: أن يَثِقُوا بِنَصْرِ الله مَالِك السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَلَا يَرْهَبُوا مِنْ أَعْدَائِهِ، فَإِنَّهُ لَا وَلِيّ لَهُمْ مِنْ دُون الله، وَلَا نَصِير لَهُمْ سِوَاهُ. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن أَبِي دُلَامَة البَغْدَادِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الوَهَّاب بْن عَطَاء، حَدَّثَنَا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، عَنْ

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبري (٦/ ٤٩٠)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٤٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٤/ ٥٥) من حديث ابن عباس، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (١٧٨).

(٢) ضعيف: أخرجه الطبري (٦/ ٤٩٠) بسند معضل.

صَفْوَان بْن مُحْرِز، عَنْ حَكِيم بْن حِزَام، قَالَ: بَيْنَا رَسُول الله ﷺ، بَيْن أَصْحَابه إِذْ قَالَ لَهُمْ: «**هَل تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَع؟**» قَالُوا: مَا نَسْمَع مِنْ شَيْء. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنِّي لأَسْمَع أَطِيط السَّمَاء، وَمَا تُلام أَنْ تَئِط، وَمَا فِيهَا مِنْ مَوْضِع شِبْر إِلا وَعَلَيْهِ مَلَك سَاجِد أَوْ قَائِم**». وَقَالَ كَعْب الأَحْبَار: مَا مِنْ مَوْضِع خُرْمَة إِبْرَة مِنَ الأَرْض، إِلَّا وَمَلَك مُوَكَّل بِهَا، يَرْفَع عِلم ذَلِكَ إِلَى الله، وَإِنَّ مَلَائِكَة السَّمَاء لَأَكْثَر مِنْ عَدَد التُّرَاب، وَإِنَّ حَمَلَة العَرْش مَا بَيْن كَعْب أَحَدهمْ إِلَى مُخّه مَسِيرَة مِائَة عَام.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

قَالَ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي غَزْوَة تَبُوك، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا إِلَيْهَا فِي شِدَّة مِنْ الأَمْر، فِي سَنَة مُجْدِبَة وَحَرّ شَدِيد، وَعُسْر مِنْ الزَّاد وَالمَاء. قَالَ قَتَادَة: خَرَجُوا إِلَى الشَّام عَام تَبُوك فِي لَهَبَان الحَرّ، عَلَى مَا يَعْلَم الله مِنْ الجَهْد، أَصَابَهُمْ فِيهَا جَهْد شَدِيد، حَتَّى لَقَدْ ذُكِرَ لَنَا: أَنَّ الرَّجُلَيْنِ كَانَا يَشُقَّانِ التَّمْرَة بَيْنهمَا، وَكَانَ النَّفَر يَتَدَاوَلُونَ التَّمْرَة بَيْنهمْ، يَمُصّهَا هَذَا، ثُمَّ يَشْرَب عَلَيْهَا، ثُمَّ يَمُصّهَا هَذَا، وَيَشْرَب عَلَيْهَا، فَتَابَ الله عَلَيْهِمْ وَأَقْفَلَهُمْ مِنْ غَزْوَتهمْ. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي يُونُس بْن عَبْد الأَعْلَى، أَخْبَرَنَا اِبْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي هِلَال، عَنْ عُتْبَة بْن أَبِي عُتْبَة، عَنْ نَافِع بْن جُبَيْر بْن مُطْعِم، عَنْ عَبْد الله بْن عَبَّاس: أَنَّهُ قِيلَ لِعُمَر بْن الخَطَّاب فِي شَأْن العُسْرَة، فَقَالَ عُمَر بْن الخَطَّاب: خَرَجْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ، إِلَى تَبُوك فِي قَيْظ شَدِيد، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَأَصَابَنَا فِيهِ عَطَش، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابنَا سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُل لَيَذْهَب يَلْتَمِس المَاء فَلَا يَرْجِع حَتَّى يَظُنّ أَنَّ رَقَبَته سَتَنْقَطِعُ، وَحَتَّى إِنَّ الرَّجُل لَيَنْحَر بَعِيره فَيَعْصِر فَرْثه فَيَشْرَبهُ، وَيَجْعَل مَا بَقِيَ عَلَى كَبِده، فَقَالَ أَبُو بَكْر الصِّدِّيق: يَا رَسُول الله ﷺ، إِنَّ الله ﷻ قَدْ عَوَّدَكَ فِي الدُّعَاء خَيْرًا فَادْعُ لَنَا. فَقَالَ: «تُحِبّ ذَلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ. فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يُرْجِعهُمَا حَتَّى مَالَتْ السَّمَاء فَأَهْطَلَتْ، ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلَئُوا مَا مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُر فَلَمْ نَجِدهَا جَاوَزَتْ العَسْكَر[1].

وَقَالَ اِبْن جَرِير فِي قَوْله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾. أَيْ: مِنْ النَّفَقَة وَالظَّهْر وَالزَّاد وَالمَاء، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أَيْ: عَنْ الحَقّ، وَيَشُكّ فِي دِين رسول الله ﷺ، وَيَرْتَاب بِالَّذِي نَالَهُمْ مِنْ المَشَقَّة وَالشِّدَّة فِي سَفَره وَغَزْوه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يَقُول: ثُمَّ رَزَقَهُمْ الإِنَابَة إِلَى رَبّهمْ، وَالرُّجُوع إِلَى الثَّبَات عَلَى دِينه؛ ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا اِبْن أَخِي الزُّهْرِيّ مُحَمَّد بْن عَبْد الله، عَنْ عَمّه مُحَمَّد بْن مُسْلِم الزُّهْرِيّ، أَخْبَرَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله بْن كَعْب بْن مَالِك، أَنَّ عبد الله بْن كَعْب بْن مَالِك -وَكَانَ قَائِد كَعْب مِنْ بَنِيهِ حِين عَمِيَ- قَالَ: سَمِعْت كَعْب بْن مَالِك يُحَدِّث حَدِيثه حِين تَخَلَّفَ عَنْ رَسُول الله ﷺ، فِي غَزْوَة تَبُوك، فَقَالَ كَعْب بْن مَالِك: لَمْ أَتَخَلَّف عَنْ رَسُول الله ﷺ، فِي غَزَاة غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزَاة تَبُوك، غَيْر أَنِّي كُنْت تَخَلَّفْت فِي غَزَاة بَدْر، وَلَمْ يُعَاتَب أَحَد تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُول الله ﷺ، يُرِيد عِير قُرَيْش، حَتَّى جَمَعَ الله بَيْنهمْ وَبَيْن

---

(١) صحيح: أخرجه الطبري (٦/ ٥٠١)، وابن خزيمة (١٠١)، وابن حبان (١٣٨٣)، والحاكم (١/ ٢٦٣)، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ٣٢٣) من حديث عمر، وصححه الألباني في «فقه السيرة» (١/ ٤٠٧).

عَدُوَّهُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَاد، وَلَقَدْ شَهِدْت مَعَ رَسُول الله ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَة حِين تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلَام، وَمَا أُحِبّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَد بَدْر، وَإِنْ كَانَتْ بَدْر أَذْكَر فِي النَّاس مِنْهَا وَأَشْهَر، وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِين تَخَلَّفْت عَنْ رَسُول الله ﷺ فِي غَزْوَة تَبُوك: أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَر مِنِّي حِين تَخَلَّفْت عَنْهُ فِي تِلْكَ الغَزَاة، وَالله مَا جَمَعْت قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتهمَا فِي تِلْكَ الغَزَاة، وَكَانَ رَسُول الله ﷺ قَلَّمَا يُرِيد غَزْوَة يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الغَزْوَة فَغَزَاهَا رَسُول الله ﷺ فِي حَرّ شَدِيد، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاستقبل عَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَة عَدُوّهُمْ، فَأَخْبَرَهُمْ وَجْهه الَّذِي يُرِيد، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُول الله ﷺ كَثِير، لَا يَجْمَعهُمْ كِتَاب حَافِظ -يُرِيد الدِّيوَان-، قَالَ كَعْب: فَقَلَّ رَجُل يُرِيد أَنْ يَتَغَيَّب إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى له، مَا لَمْ يَنْزِل فِيهِ وَحْي مِنْ الله ﷻ، وَغَزَا رَسُول الله ﷺ تِلْكَ الغَزَاة حِين طَابَتْ الثِّمَار وَالظِّل، وَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَر -أميل-، فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُول الله ﷺ، وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، وَطَفِقْت أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّز مَعَهُمْ، فَأَرْجِع وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَأَقُول لِنَفْسِي: أَنَا قَادِر عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْت، فَلَمْ يَزَل ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى شمر بِالنَّاسِ الجِدّ، فَأَصْبَحَ رَسُول الله ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، وَقُلت: الجهاز بَعْد يَوْم أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلحقهُ، فَغَدَوْت بَعْدَمَا فصلَوْا لِأَتَجَهَّز، فَرَجَعْت وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا مِنْ جَهَازِي، ثُمَّ غَدَوْت فَرَجَعْت وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَل ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الغَزْو، فَهَمَمْت أَنْ أَرْتَحِل فأدركهم -وَلَيْتَ أَنِّي فَعَلت- ثُمَّ لَمْ يُقَدَّر ذَلِكَ لِي، فَطَفِقْت إِذَا خَرَجْت فِي النَّاس بَعْد خروج رَسُول الله ﷺ، فطفتُ فيهم يُحْزِننِي أَنَّ لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاق، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَهُ الله ﷻ، وَلَمْ يَذْكُرنِي رَسُول الله ﷺ، حَتَّى بَلَغَ تَبُوك، فَقَالَ وَهُوَ جَالِس فِي القَوْم بِتَبُوك: «**مَا فَعَلَ كَعْب بْن مَالِك؟**» فَقَالَ رَجُل مِنْ بَنِي سَلِمَة: حَبَسَهُ يَا رَسُول الله بُرْدَاهُ وَالنَّظَر فِي عِطْفَيْهِ. فَقَالَ له مُعَاذ بْن جَبَل: بِئْسَمَا قُلتَ! وَالله يَا رَسُول الله؛ مَا عِلمنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ.

قَالَ كَعْب بْن مَالِك: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوك حَضَرنِي بَثِّي، وَطَفِقْت أَتَذَكَّر الكَذِب، وَأَقُول: بِمَاذَا أَخْرُج مِنْ سَخَطه غَدًا؟ أَسْتَعِين عَلَى ذَلِكَ كُلَّ ذِي رَأْي مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُول الله ﷺ، قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي البَاطِل، وَعَرَفْت أَنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْت صِدْقه، فَأَصْبَحَ رَسُول الله ﷺ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَر بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فركع رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُتَخَلِّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَة وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِل مِنْهُمْ رَسُول الله ﷺ، عَلَانِيَتهمْ وَيَسْتَغْفِر لَهُمْ، وَيَكِل سَرَائِرهمْ إِلَى الله تَعَالَى، حَتَّى جِئْت. فَلَمَّا سَلَّمْت عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّم الْمُغْضَب، ثُمَّ قَالَ لِي: «**تَعَالَ**». فَجِئْت أَمْشِي حَتَّى جَلَسْت بَيْن يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «**مَا خَلَّفَك، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ اشْتَرَيْت ظَهْرك؟**». فَقُلت: يَا رَسُول الله، إِنِّي لَوْ جَلَسْت عِنْد غَيْرك مِنْ أَهْل الدُّنْيَا لَرَأَيْت أَنْ أَخْرُج مِنْ سَخَطه بِعُذْرٍ؛ لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنه وَالله لَقَدْ عَلِمْت لَئِنْ حَدَّثْتُك اليَوْم بِحَدِيثِ كَذِب تَرْضَى بِهِ عَنِّي؛ لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يُسْخِطك عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُك بِصِدْقٍ تَجِد عَلَيَّ فِيهِ؛ إِنِّي لَأَرْجُو أقرب عُقْبَى ذَلِكَ مِنْ الله ﷻ، وَالله مَا كَانَ لِي عُذْر، وَالله مَا كُنْت قَطُّ أَفْرَغ وَلَا أَيْسَر مِنِّي حِين تَخَلَّفْت عَنْك. قَالَ: فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِي الله فِيك**». فَقُمْت وبادرني رِجَال مِنْ بَنِي سَلِمَة وَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَالله مَا عَلِمْنَاك كُنْت أَذْنَبْت ذَنْبًا قَبْل هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْت إِلَّا أَنْ تَكُون اِعْتَذَرْت إِلَى رَسُول الله ﷺ، بِمَا اِعْتَذَرَ بِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيك مِنْ ذَنْبك اِسْتِغْفَار رَسُول الله ﷺ، لَك. قَالَ: فَوَالله مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْت أَنْ أَرْجِع فَأُكَذِّب نَفْسِي. قَالَ: ثُمَّ قُلت لَهُمْ: هَل لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَد؟ قَالُوا: نَعَمْ، لَقِيَهُ مَعَك رَجُلَانِ قَالَا مِثْل مَا قُلت، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْل مَا قِيلَ لَك، فَقُلت: فَمَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَة بْن الرَّبِيع العَامِرِيّ، وَهِلَال بْن أُمَيَّة الوَاقِفِيّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، لِي فِيهِمَا أُسْوَة. قَالَ: فَمَضَيْت حِين ذَكَرُوهُمَا لِي.

فَقَالَ: وَنَهَى رَسُول الله ﷺ، الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلامنَا أَيهَا الثَّلَاثَة مِنْ بَيْن مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتنبنَا النَّاس وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِي الأَرْض، فَمَا هِيَ بِالأَرْضِ الَّتِي كُنت أَعْرِف، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَة، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتهمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْت أَشَدُّ الْقَوْم وَأَجْلَدهمْ، فَكُنْت أَشْهَد الصَّلَاة مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوف بِالأَسْوَاقِ فَلَا يُكَلِّمنِي أَحَد، وَآتِي رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ فِي مَجْلِسه بَعْد الصَّلَاة فَأُسَلِّم وَأَقُول فِي نَفْسِي: أَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَام عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقهُ النَّظَر، فَإِذَا أَقْبَلت عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، فَإِذَا اِلتَفَتُّ نَحْوه أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ هَجْر الْمُسْلِمِينَ، مَشَيْت حَتَّى تَسَوَّرْت حَائِط أَبِي قَتَادَة -وَهُوَ اِبْن عَمِّي وَأَحَبّ النَّاس إِلَيَّ- فَسَلَّمْت عَلَيْهِ، فَوَالله مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَام، فَقُلت لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَة، أَنْشُدك الله هَل تَعْلَم أَنِّي أُحِبّ الله وَرَسُوله؟ قَالَ: فَسَكَتَ، قَالَ: فَعُدْت لَهُ فَنَشَدْته فَسَكَتَ، فَعُدْت لَهُ فَنَشَدْته فَسَكَتَ، فَقَالَ: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْت حَتَّى تَسَوَّرْت الْجِدَار. فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَة، إِذَا أَنَا بِنَبَطِيٍّ مِنْ أَنْبَاط الشَّام مِمَّنْ قَدِمَ بِطَعَام يَبِيعهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُول: مَنْ يَدُلّ عَلَى كَعْب بْن مَالِك. قَالَ: فَطَفِقَ النَّاس يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَ فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِك غَسَّان، وَكُنْت كَاتِبًا فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْد، فَقَدْ بَلَغْنَا أَنَّ صَاحِبك قَدْ جَفَاك، وَلَمْ يَجْعَلك الله بِدَار هَوَان وَلَا مَضْيَعَة، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِك. قَالَ: فَقُلت حِين قَرَأْتها: وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاء. قَالَ: فَتَيَمَّمْت بِهَا التَّنُّور فَسَجَرْته بِهَا. حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَة مِنْ الْخَمْسِينَ، إِذَا بِرَسُولِ رَسُول الله ﷺ، يَأْتِينِي يَقُول: إِن رَسُول الله ﷺ يَأْمُرك أَنْ تَعْتَزِل اِمْرَأَتك. قَالَ: فَقُلت: أُطَلِّقهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَل؟ فَقَالَ: بَل اِعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبهَا. قَالَ: وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ. قَالَ: فَقُلت لِامْرَأَتِي: اِلحَقِي بِأَهْلِك، فَكُونِي عِنْدهمْ حَتَّى يَقْضِي الله فِي هَذَا الأَمْر مَا يَشَاء. قَالَ: فَجَاءَتْ اِمْرَأَة هِلَال بْن أُمَيَّة رَسُول الله ﷺ، فَقَالَتْ له: يَا رَسُول الله، إِنَّ هِلَالًا شَيْخ ضَعِيف لَيْسَ لَهُ خَادِم، فَهَل تَكْرَه أَنْ أَخْدُمهُ؟ قَالَ: «لا وَلَكِنْ لا يَقْرَبنك». قَالَتْ: وَإِنَّهُ وَالله مَا بِهِ مِنْ حَرَكَة إِلَى شَيْء، وَوالله مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْره مَا كَانَ إِلَى يَوْمه هَذَا. قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْض أَهْلِي: لَوْ اِسْتَأْذَنْت رَسُول الله ﷺ فِي اِمْرَأَتك فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَال بْن أُمَيَّة أَنْ تَخْدُمهُ، قَالَ: فَقُلت: وَالله لَا أَسْتَأْذِن فِيهَا رَسُول الله ﷺ، وَمَا أَدْرِي مَا يَقُول رَسُول الله ﷺ إِذَا اِسْتَأْذَنْته، وَأَنَا رَجُل شَابّ. قَالَ: فَلَبِثْنَا عَشر لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَة مِنْ حِين نَهَى عَنْ كَلامنَا، قَالَ: ثُمَّ صَلَّيْت صَلَاة الفجر صَبَاح خَمْسِينَ لَيْلَة عَلَى ظَهْر بَيْت مِنْ بُيُوتنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِس عَلَى الْحَال الَّتِي ذَكَرَ الله تَعَالَى مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْض بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْت صَارِخًا أَوْفَى عَلَى جَبَل سَلع يَقُول بِأَعْلَى صَوْته: يَا كَعْب بْن مَالِك أَبْشِرْ. قَالَ: فَخَرَرْت سَاجِدًا وَعَرَفْت أَنْ قَدْ جَاءَ الْفَرَج مِنْ الله ﷻ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْنَا، فَآذَنَ رَسُول الله ﷺ بِتَوْبَةِ الله عَلَيْنَا حِين صَلَّى الْفَجْر، فَذَهَبَ النَّاس يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَل صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُل فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَم وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَل، فَكَانَ الصَّوْت أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَس، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْت صَوْته يُبَشِّرنِي فَنَزَعْت لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتهمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ لِي، وَالله مَا أَمْلِك يَوْمئِذٍ غَيْرهمَا وَاسْتَعَرْت ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتهمَا، وَانْطَلَقْت أَؤُمّ رَسُول الله ﷺ، وَيَلْقَانِي النَّاس فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِتَوْبَةِ الله، يَقُولُونَ: لِيَهْنِكَ تَوْبَة الله عَلَيْك. حَتَّى دَخَلت الْمَسْجِد، فَإِذَا رَسُول الله ﷺ، جَالِس فِي الْمَسْجِد حَوْله النَّاس، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَة بْن عبيد الله يُهَرْوِل حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَالله مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُل مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْره. قَالَ: فَكَانَ كَعْب لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَة. قَالَ كَعْب: فَلَمَّا سَلَّمْت عَلَى رَسُول الله ﷺ، قَالَ وَهُوَ يَبْرُق وَجْهه مِنْ السُّرُور: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْم مَرَّ عَلَيْك مُنْذُ وَلَدَتْك أُمّك» قَالَ: قُلت: أَمِنَ عِنْدك يَا رَسُول الله؟ أَمْ مِنْ عِنْد الله؟ قَالَ: «لا بَل مِنْ عِنْد الله» قَالَ: وَكَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا سُرَّ اِسْتَنَارَ وَجْهه حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَة قَمَر حَتَّى يُعْرَف ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْت بَيْن يَدَيْهِ، قُلت: يَا رَسُول الله، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِع مِنْ مَالِي صَدَقَة إِلَى الله

وَإِلَى رَسُوله، قَالَ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**». قَالَ: فَقُلت: فَإِنِّي أُمْسِك سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَر، وَقُلت: يَا رَسُول الله إِنَّمَا نَجَّانِي الله بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّث إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيت. قَالَ: فَوَالله مَا أَعْلَم أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ الله مِنَ الصِّدْق فِي الْحَدِيث مُنْذُ ذَكَرْت ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ أَحْسَن مِمَّا أَبْلَانِي الله تَعَالَى، وَالله مَا تَعَمَّدْت كَذِبَة مُنْذُ قُلت ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي الله ﷻ فِيمَا بَقِيَ. قَالَ: وَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿**لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ**﴾. قَالَ كَعْب: فَوَالله مَا أَنْعَمَ الله عَلَيَّ مِنْ نِعْمَة قَطُّ بَعْد أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلَام، أَعْظَم فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُول الله ﷺ يَوْمئِذٍ: أَنْ لَا أَكُون كَذَبْته فَأَهْلِك كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوهُ حين كذبوه، فَإِنَّ الله تَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوهُ حِين أَنْزَلَ الوَحْي شَرّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ**﴾ قَالَ: وَكُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَة عَنْ أَمْر أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُول الله ﷺ، حِين حَلَفُوا فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُول الله ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى الله فِيهِ، فَلِذَلِكَ قَالَ الله ﷻ: ﴿**وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟**﴾ وَلَيْسَ تَخْلِيفه إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا بِتَخَلُّفِنَا عَنْ الغَزْو، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ»[1].

هَذَا حَدِيث صَحِيح ثَابِت مُتَّفَق عَلَى صِحَّته، رَوَاهُ صَاحِبَا الصَّحِيح: البُخَارِيّ وَمُسْلِم مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ بِنَحْوِهِ، فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الحَدِيث تَفْسِير هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة بِأَحْسَن الوُجُوه وَأَبْسَطهَا، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف فِي تَفْسِيرهَا، كَمَا رَوَاهُ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿**وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟**﴾ قَالَ: هُمْ كَعْب بْن مَالِك، وَهِلَال بْن أُمَيَّة، وَمُرَارَة بْن الرَّبِيع، وَكُلّهمْ مِنْ الأَنْصَار. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد، وَكُلّهمْ قَالَ: مُرَارَة بْن رَبِيعَة، وفي رواية عن سعيد بن جبير: ربيع ابن مرارة. وقال الحسن البصري: ربيع بن مرارة بن ربيع. وَكَذَا فِي مُسْلِم: رَبِيعَة، فِي بَعْض نُسَخه، وَفِي بَعْضهَا: مُرَارَة بْن الرَّبِيع. وَفِي رِوَايَة عَنْ الضَّحَّاك: مُرَارَة بْن الرَّبِيع؛ كَمَا وَقَعَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَهُوَ الصَّوَاب. وَقَوْله: «فَسَمَّوْا رَجُلَيْنِ شَهِدَا بَدْرًا»، قِيلَ: إِنَّهُ خَطَأ مِنْ الزُّهْرِيّ، فَإِنَّهُ لَا يُعْرَف شُهُود وَاحِد مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَة بَدْرًا، وَالله أَعْلَم.

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فَرَّجَ بِهِ عَنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَة مِنْ الضِّيق وَالكَرْب، مِنْ هَجْر الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ لَيْلَة بِأَيَّامِهَا، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسهمْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الأَرْض بِمَا رَحُبَتْ -أَيْ: مَعَ سَعَتِهَا- فَسُدِّدَتْ عَلَيْهِمْ المَسَالِك وَالمَذَاهِب، فَلَا يَهْتَدُونَ مَا يَصْنَعُونَ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ الله وَاسْتَكَانُوا لِأَمْرِ الله، وَثَبَتُوا حَتَّى فَرَّجَ الله عَنْهُمْ بِسَبَبِ صِدْقهمْ رَسُول الله ﷺ، فِي تَخَلُّفهمْ، وَأَنَّهُ كَانَ عَنْ غَيْر عُذْر، فَعُوقِبُوا عَلَى ذَلِكَ هَذِهِ المُدَّة ثُمَّ تَابَ الله عَلَيْهِمْ، فَكَانَ عَاقِبَة صِدْقهمْ خَيْرًا لَهُمْ وَتَوْبَة عَلَيْهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ**﴾ أَيْ: اُصْدُقُوا وَالزَمُوا الصِّدْق تَكُونُوا مع أَهْله، وَتَنْجُوا مِنْ المَهَالِك، وَيَجْعَل لَكُمْ فَرَجًا مِنْ أُمُوركُمْ وَمَخْرَجًا. وَقَدْ قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ شَقِيق، عَنْ عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود ؓ- قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْق يَهْدِي إِلَى البِرّ، وَإِنَّ البِرّ يَهْدِي إِلَى**

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٥٧)، ومسلم (٢٧٦٩)، وأحمد (٣/ ٤٥٦) من حديث كعب بن مالك.

الجنَّة، ولا يَزال الرَّجُل يَصْدُق وَيَتَحَرَّى الصِّدْق حَتَّى يُكْتَب عِنْد الله صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِب؛ فَإِنَّ الكَذِب يَهْدِي إِلَى الفُجُور، وَإِنَّ الفُجُور يَهْدِي إِلَى النَّار، ولا يَزال الرَّجُل يَكْذِب وَيَتَحَرَّى الكَذِب حَتَّى يُكْتَب عِنْد الله كَذَّابًا»[1].

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَقَالَ شُعْبَة، عَنْ عَمْرِو بْن مُرَّة، سَمِعَ أَبَا عُبَيْدَة يُحَدِّث، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: الكَذِب لَا يَصْلُح مِنْهُ جِدّ وَلَا هَزْل، اِقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هَكَذَا قَرَأَهَا، ثُمَّ قَالَ: فَهَل تَجِدُونَ لِأَحَدٍ فِيهِ رُخْصَة؟ وَعَنْ عَبْد الله بْن عُمَر فِي قَوْله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قَالَ: مَعَ مُحَمَّد ﷺ وَأَصْحابه. وَقَالَ الضَّحَّاك: مَعَ أَبِي بَكْر وَعُمَر وَأَصْحَابهمَا. وَقَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: إِنْ أَرَدْت أَنْ تَكُون مَعَ الصَّادِقِينَ فَعَلَيْك بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَالكَفِّ عَنْ أَهْل المِلَّة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

يُعَاتِب -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- المُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُول الله ﷺ فِي غَزْوَة تَبُوك، مِنْ أَهْل المَدِينَة، وَمَنْ حَوْلهَا مِنْ أَحْيَاء العَرَب، وَرَغْبَتهمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مُوَاسَاته فِيمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ المَشَقَّة، فَإِنَّهُمْ نَقَصُوا أَنْفُسهمْ مِنَ الأَجْر؛ لِأَنَّهُمْ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وَهُوَ العَطَش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وَهُوَ التَّعَب، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وَهِيَ المَجَاعَة، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أَيْ: يَنْزِلُونَ مَنْزِلًا يُرْهِب عَدُوّهُمْ، ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ مِنْهُ ظَفَرًا وَغَلَبَة عَلَيْهِ إلا كتب الله لهم بِهَذِهِ الأَعْمَال الَّتِي لَيْسَتْ دَاخِلَة تَحْت قدرهم، وَإِنَّمَا هِيَ نَاشِئَة عَنْ أَفْعَالهمْ أَعْمَالًا صَالِحَة وَثَوَابًا جَزِيلًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ هَؤُلَاءِ الغُزَاة فِي سَبِيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أَيْ: قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أَيْ: فِي السَّيْر إِلَى الأَعْدَاء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُل هَهُنَا بِهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ أَفْعَال صَادِرَة عَنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. وَقَدْ حَصَلَ لِأَمِير المُؤْمِنِينَ عُثْمَان بْن عَفَّان رضي الله عنه، مِنْ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة حَظّ وَافِر وَنَصِيب عَظِيم، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْفَقَ فِي هَذِهِ الغَزْوَة النَّفَقَات الجَلِيلَة وَالأَمْوَال الجَزِيلَة، كَمَا قَالَ عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى العنزي، حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد بْن عَبْد الوَارِث، حَدَّثَنِي سكن بْن المُغِيرَة، حَدَّثَنِي الوَلِيد بْن أَبِي هَاشِم، عَنْ فَرْقَد أَبِي طَلْحَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن خَبَّاب السُّلَمِيّ؛ قَالَ: خَطَبَ رَسُول الله ﷺ فَحَثَّ عَلَى جَيْش العُسْرَة، فَقَالَ عُثْمَان بْن عَفَّان رضي الله عنه: عَلَيَّ مِائَة بَعِير بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا، قَالَ: ثُمَّ حَثَّ، فَقَالَ عُثْمَان: عَلَيَّ مِائَة بَعِير أُخْرَى بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا، قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ مِرْقَاة مِنَ المِنْبَر ثُمَّ حَثَّ فَقَالَ عُثْمَان بْن عَفَّان: عَلَيَّ مِائَة أُخْرَى بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا. قَالَ: فَرَأَيْت رَسُول الله ﷺ يقول بِيَدِهِ هَكَذَا يُحَرِّكهَا. وَأَخْرَجَ عَبْد الصَّمَد يَده كَالمُتَعَجِّب: **«مَا عَلَى عُثْمَان مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا!!!»**[2].

وَقَالَ عَبْد الله أَيْضًا: حَدَّثَنَا هَارُون بْن مَعْرُوف، حَدَّثَنَا ضَمْرَة، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن شَوْذَب، عَنْ عَبْد الله بْن القَاسِم، عَنْ كَثِير مَوْلَى عَبْد الرَّحْمَن بْن سَمُرَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن سَمُرَة؛ قَالَ: جَاءَ عُثْمَان رضي الله عنه، إِلَى النَّبِيّ ﷺ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٧٠٠)، وأحمد (٤/ ٧٥)، والطيالسي (١/ ١٦٤) من حديث عبد الرحمن بن خباب، وضعفه الألباني في «المشكاة» (٦٠٦٣).

بِأَلفِ دِينَار فِي ثَوْبه حَتَّى جَهَّزَ النَّبِيّ ﷺ جَيْش العُسْرَة، قَالَ: فَصَبَّهَا فِي حِجْر النَّبِيّ ﷺ، فجعل النَّبِيّ ﷺ يُقَلِّبهَا بِيَدِهِ وَيَقُول: «**مَا ضَرَّ ابْن عَفَّان مَا عَمِلَ بَعْد اليَوْم!!!**». يُرَدِّدهَا مِرَارًا[1]. وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ الآيَة: مَا ازْدَادَ قَوْم مِنْ أَهْلِيهِمْ فِي سَبِيلِ الله بُعْدًا إِلَّا ازْدَادُوا قُرْبًا مِنْ الله.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

هَذَا بَيَان مِنْ الله تَعَالَى لِمَا أَرَادَ مِنْ نَفِير الأَحْيَاء مَعَ الرَّسُول ﷺ، فِي غَزْوَة تَبُوك، فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَة مِنْ السَّلَف إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَجِب النَّفِير عَلَى كُلّ مُسْلِم إِذَا خَرَجَ رَسُول الله ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وَقَالَ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾، قَالُوا: فَنُسِخَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الآيَة. وَقَدْ يُقَال: إِنَّ هَذَا بَيَان لِمُرَادِهِ تَعَالَى مِنْ نَفِير الأَحْيَاء كُلّهَا، وَشِرْذِمَة مِنْ كُلّ قَبِيلَة إِنْ لَمْ يَخْرُجُوا كُلّهمْ؛ لِيَتَفَقَّه الخَارِجُونَ مَعَ الرَّسُول بِمَا يَنْزِل مِنْ الوَحْي عَلَيْهِ، وَيُنْذِرُوا قَوْمهمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْر العَدُوّ، فَيَجْتَمِع لَهُمْ الأَمْرَانِ فِي هَذَا النَّفِير المُعَيَّن، وَبَعْده ﷺ، تَكُون الطَّائِفَة النَّافِرَة مِنْ الحَيّ إِمَّا لِلتَّفَقُّه، وَإِمَّا لِلجِهَادِ فَإِنَّهُ فَرْض كِفَايَة عَلَى الأَحْيَاء. وَقَالَ عَلِيّ بن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي الآيَة: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ يَقُول: مَا كَانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا جَمِيعًا وَيَتْرُكُوا النَّبِيّ ﷺ وَحْده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يَعْنِي: عُصْبَة، يَعْنِي: السَّرَايَا، وَلَا يَسِيرُوا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا رَجَعَتْ السَّرَايَا وَقَدْ نزل بَعْدهمْ قُرْآن تَعَلَّمَهُ القَاعِدُونَ مَعَ النَّبِيّ ﷺ، وَقَالُوا: إِنَّ الله قَدْ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيّكُمْ قُرْآنًا وَقَدْ تَعَلَّمْنَاهُ، فَتَمْكُث السَّرَايَا يَتَعَلَّمُونَ مَا أَنْزَلَ الله عَلَى نَبِيّهمْ بَعْدهمْ، وَيَبْعَث سَرَايَا أُخْرَى، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ يَقُول: لِيَتَعَلَّمُوا مَا أَنْزَلَ الله عَلَى نَبِيّهمْ، وَلِيُعَلِّمُوا السَّرَايَا إِذَا رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وَقَالَ مُجَاهِد: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة فِي أُنَاس مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ، خَرَجُوا فِي البَوَادِي فَأَصَابُوا مِنْ النَّاس مَعْرُوفًا، وَمِنْ الخِصْب مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ؛ وَدَعَوْا مَنْ وَجَدُوا مِنْ النَّاس إِلَى الهُدَى، فَقَالَ النَّاس لَهُمْ: مَا نَرَاكُمْ إِلَّا وَقَدْ تَرَكْتُمْ أَصْحَابكُمْ وَجِئْتُمُونَا، فَوَجَدُوا فِي أَنْفُسهمْ مِنْ ذَلِكَ تَحَرُّجًا، وَأَقْبَلُوا مِنْ البَادِيَة كُلّهمْ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يبتغون الخَيْر؛ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ وَلِيَسْمَعُوا مَا فِي النَّاس، وَمَا أَنْزَلَ الله بعدهم، ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ النَّاس كُلّهمْ ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وَقَالَ قَتَادَة فِي هذه الآيَة: هَذَا إِذَا بَعَثَ رَسُول الله ﷺ، الجُيُوش، أَمَرَهُمْ الله أَنْ لا يُعَرُّوا نبيَّه ﷺ، وَتُقِيم طَائِفَة مَعَ رَسُول الله ﷺ تَتَفَقَّه فِي الدِّين، وَتَنْطَلِق طَائِفَة تَدْعُو قَوْمهَا وَتُحَذِّرهُمْ وَقَائِع الله فِيمَنْ خَلَا قَبْلهمْ.

وَقَالَ الضَّحَّاك: كَانَ رَسُول الله ﷺ، إِذَا غَزَا بِنَفْسِهِ لَمْ يَحِلّ لِأَحَدٍ مِنْ المُسْلِمِينَ أَنْ يَتَخَلَّف عَنْهُ إِلَّا أَهْل العذر، وَكَانَ إِذَا قَامَ فاسترت السَّرَايَا لَمْ يَحِلّ لَهُمْ أَنْ يَنْطَلِقُوا إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَكَانَ الرَّجُل إِذَا استرى فَنَزَلَ بَعْده قُرْآن، وَتَلَاهُ نَبِيّ الله ﷺ عَلَى أَصْحَابه القَاعِدِينَ مَعَهُ، فَإِذَا رَجَعَتْ السَّرِيَّة قَالَ لَهُمْ الَّذِينَ أَقَامُوا مَعَ رَسُول الله ﷺ: إِنَّ الله أَنْزَلَ بَعْدكُمْ عَلَى نَبِيّه قُرْآنًا فَيُقْرِئُونَهُمْ وَيُفَقِّهُونَهُمْ فِي الدِّين، وَهُوَ قَوْله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ يَقُول: إِذَا قَامَ رَسُول الله ﷺ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْفِرُوا جَمِيعًا وَنَبِيّ الله ﷺ قَاعِد، وَلَكِنْ إِذَا قَعَدَ نَبِيّ الله فَسَرَتْ السَّرَايَا وَقَعَدَ مَعَهُ عُظْم النَّاس.

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة أَيْضًا، عَنْ ابْن عَبَّاس: قَوْله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ إِنَّهَا لَيْسَتْ فِي الجِهَاد، وَلَكِنْ لَمَّا دَعَا رَسُول الله ﷺ، عَلَى مُضَر بِالسِّنِينَ أَجْدَبَتْ بِلَادهمْ، وَكَانَتْ القَبِيلَة مِنْهُمْ تُقْبِل بِأَسْرِهَا حَتَّى

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٥/ ٦٣)، والطبراني في «الأوسط» (٩/ ٩٤).

يَحِلُّوا بِالمَدِينَةِ مِنَ الجَهْد، وَيَعْتَلُّوا بِالإِسْلَام وَهُمْ كَاذِبُونَ، فَضَيَّقُوا عَلَى أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ، وَأَجْهَدُوهُمْ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى يُخْبِر رَسُوله أَنَّهُمْ لَيْسُوا مُؤْمِنِينَ، فَرَدَّهُمْ رَسُول الله ﷺ إِلَى عَشَائِرهمْ، وَحَذَّرَ قَوْمهمْ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلهمْ، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: كَانَ يَنْطَلِق مِنْ كُلّ حَيّ مِنْ العَرَب عِصَابَة، فَيَأْتُونَ النَّبِيّ ﷺ، فَيَسْأَلُونَهُ عَمَّا يُرِيدُونَ مِنْ أَمْر دِينهمْ، وَيَتَفَقَّهُونَ فِي دِينهمْ، وَيَقُولُونَ لنبي الله ﷺ: مَا تَأْمُرنَا أَنْ نَفْعَلهُ؟ وَأَخْبِرْنَا بِمَا نقول لعَشَائِرنَا إِذَا قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ. قَالَ: فَيَأْمُرهُمْ نَبِيّ الله ﷺ، بِطَاعَةِ الله وَطَاعَة رَسُوله، وَيَبْعَثهُمْ إِلَى قَوْمهمْ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاة، وَكَانُوا إِذَا أَتَوْا قَوْمهمْ نادوا: إِنَّ مَنْ أَسْلَمَ فَهُوَ مِنَّا، وَيُنْذِرُونَهُمْ ربهم حَتَّى إِنَّ الرَّجُل لَيُفَارِق أَبَاهُ وَأُمّه، وَكَانَ النَّبِيّ ﷺ يُخْبِرهُمْ وَيُنْذِرهُمْ قَوْمهمْ، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى الإِسْلَام، وَيُنْذِرُونَهُمْ النَّار وَيُبَشِّرُونَهُمْ بِالجَنَّةِ. وَقَالَ عِكْرِمَة: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وَ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾. قَالَ المُنَافِقُونَ: هَلَكَ أَصْحَاب البَدْو الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ مُحَمَّد وَلَمْ يَنْفِرُوا مَعَهُ، وَقَدْ كَانَ نَاس مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ، خَرَجُوا إِلَى البَدْو إِلَى قَوْمهمْ يُفَقِّهُونَهُمْ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ الآيَة، وَنَزَلَتْ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. وَقَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ قال: لِيَتَفَقَّه الَّذِينَ خَرَجُوا بِمَا يُرِيهِمْ الله مِنْ الظُّهُور عَلَى المُشْرِكِينَ وَالنُّصْرَة، وَيُنْذِرُوا قَوْمهمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

أَمَرَ الله تَعَالَى المُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا الكُفَّار أَوَّلًا فَأَوَّلًا، الأَقْرَب فَالأَقْرَب إِلَى حَوْزَة الإِسْلَام، وَلِهَذَا بَدَأَ رَسُول الله ﷺ، بِقِتَالِ المُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَة العَرَب، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُمْ، وَفَتَحَ الله عَلَيْهِ مَكَّة وَالمَدِينَة، وَالطَّائِف وَاليَمَن، وَاليَمَامَة وَهَجَر، وَخَيْبَر وَحَضْرَمَوْت، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ أَقَالِيم جَزِيرَة العَرَب، وَدَخَلَ النَّاس مِنْ سَائِر أَحْيَاء العَرَب فِي دِين الله أَفْوَاجًا، شَرَعَ فِي قِتَال أَهْل الكِتَاب، فَتَجَهَّزَ لِغَزْوِ الرُّوم الَّذِينَ هُمْ أَقْرَب النَّاس إِلَى جَزِيرَة العَرَب، وَأَوْلَى النَّاس بِالدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلَام؛ لكونهم أَهْل الكِتَاب، فَبَلَغَ تَبُوك ثُمَّ رَجَعَ؛ لِأَجْلِ جَهْد النَّاس وَجَدْب البِلَاد وَضِيق الحَال، وَذَلِكَ سَنَة تِسْع مِنْ هِجْرَته عليه السلام. ثُمَّ اِشْتَغَلَ فِي السَّنَة العَاشِرَة بحجته حجة الوَدَاع، ثُمَّ عَاجَلَتْهُ المَنِيَّة، صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ بَعْد حَجَّته بِأَحَدٍ وَثَمَانِينَ يَوْمًا، فَاخْتَارَهُ الله لِمَا عِنْده. وَقَامَ بِالأَمْرِ بَعْده وَزِيره وَصِدِّيقه وَخَلِيفَته أَبُو بَكْر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وَقَدْ مَالَ الدِّين مَيْلَة كَادَ أَنْ يَنْجَفِل فَثَبَّتَهُ الله تَعَالَى بِهِ، فَوَطَّدَ القَوَاعِد وَثَبَّتَ الدَّعَائِم، وَرَدَّ شَارِد الدِّين وَهُوَ رَاغِم، وَرَدَّ أَهْل الرِّدَّة إِلَى الإِسْلَام، وَأَخَذَ الزَّكَاة مِمَّنْ مَنَعَهَا مِنْ الطُّغَاة، وَبَيَّنَ الحَقّ لِمَنْ جَهِلَهُ، وَأَدَّى عَنْ الرَّسُول مَا حَمَلَهُ، ثُمَّ شَرَعَ فِي تَجْهِيز الجُيُوش الإِسْلَامِيَّة إِلَى الرُّوم عَبَدَة الصُّلْبَانِ، وَإِلَى الفُرْس عَبَدَة النِّيرَان، فَفَتَحَ الله بِبَرَكَةِ سِفَارَته البِلَاد، وَأَرْغَمَ أَنْف كِسْرَى وَقَيْصَر وَمَنْ أَطَاعَهُمَا مِنْ العِبَاد، وَأَنْفَقَ كُنُوزهمَا فِي سَبِيل الله كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُول الله، وَكَانَ تَمَام الأَمْر عَلَى يَدَيْ وَصِيّه مِنْ بَعْده، وَوَلِيّ عَهْده الفَارُوق الأَوَّاب، شَهِيد المِحْرَاب، أَبِي حَفْص عُمَر ابْن الخَطَّاب رضي الله عنه، فَأَرْغَمَ الله بِهِ أُنُوف الكَفَرَة المُلْحِدِينَ، وَقَمَعَ الطُّغَاة وَالمُنَافِقِينَ، وَاسْتَوْلَى عَلَى المَمَالِك شَرْقًا وَغَرْبًا، وَحُمِلَتْ إِلَيْهِ خَزَائِن الأَمْوَال مِنْ سَائِر الأَقَالِيم بُعْدًا وَقُرْبًا، فَفَرَّقَهَا عَلَى الوَجْه الشَّرْعِيّ، وَالسَّبِيل المَرْضِيّ.

ثُمَّ لَمَّا مَاتَ شَهِيدًا، وَقَدْ عَاشَ حَمِيدًا، أَجْمَعَ الصَّحَابَة مِنْ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار عَلَى خِلَافَة أَمِير المُؤْمِنِينَ عُثْمَان ابْن عَفَّان رضي الله عنه، شَهِيد الدَّار فَكَسَى الإِسْلَام رِيَاسَة حُلَّة سَابِغَة، وَامْتَدَّتْ فِي سَائِر الأَقَالِيم عَلَى رِقَاب العِبَاد حُجَّة الله البَالِغَة، فَظَهَرَ الإِسْلَام فِي مَشَارِق الأَرْض وَمَغَارِبهَا، وَعَلَتْ كَلِمَة الله وَظَهَرَ دِينه، وَبَلَغَتْ الأمة الحَنِيفِيَّة مِنْ أَعْدَاء الله غَايَة مَآرِبهَا، وَكُلَّمَا عَلَوْا أُمَّة اِنْتَقَلُوا إِلَى مَنْ بَعْدهمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنْ العُتَاة الفُجَّار، اِمْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أَيْ: وَلْيَجِدْ الْكُفَّار مِنْكُمْ غِلْظَة عَلَيْهِمْ فِي قِتَالكُمْ لَهُمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِن الْكَامِل هُوَ الَّذِي يَكُون رَفِيقًا لِأَخِيهِ الْمُؤْمِن، غَلِيظًا عَلَى عَدُوّهُ الْكَافِر، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وَقَوْله تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وَفِي الْحَدِيث أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**أَنَا الضَّحُوك الْقَتَّال**». يَعْنِي: أَنَّهُ ضَحُوك فِي وَجْه وَلِيّه، قَتَّال لِهَامَةِ عَدُوّه.

وَقَوْله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: قَاتِلُوا الْكُفَّار، وَتَوَكَّلُوا عَلَى الله، وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَكُمْ إِن اِتَّقَيْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ. وَهَكَذَا الْأَمْر لَمَّا كَانَتْ الْقُرُون الثَّلَاثَة الَّذِينَ هُمْ خَيْر هَذِهِ الْأُمَّة، فِي غَايَة الِاسْتِقَامَة وَالْقِيَام بِطَاعَةِ الله تَعَالَى لَمْ يَزَالُوا ظَاهِرِينَ عَلَى عَدُوّهمْ، وَلَمْ تَزَل الْفُتُوحَات كَثِيرَة، وَلَمْ تَزَل الْأَعْدَاء فِي سَفَال وَخَسَار، ثُمَّ لَمَّا وَقَعَتْ الْفِتَن وَالْأَهْوَاء وَالِاخْتِلَافَات بَيْن الْمُلُوك، طَمِعَ الْأَعْدَاء فِي أَطْرَاف الْبِلَاد، وَتَقَدَّمُوا إِلَيْهَا، فَلَمْ يُمَانَعُوا لِشُغْلِ الْمُلُوك بَعْضهمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ تَقَدَّمُوا إِلَى حَوْزَة الْإِسْلَام فَأَخَذُوا مِنْ الْأَطْرَاف بُلْدَانًا كَثِيرَة، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا حَتَّى اِسْتَحْوَذُوا عَلَى كَثِير مِنْ بِلَاد الْإِسْلَام، وَلله سبحانه الْأَمْر مِنْ قَبْل وَمِنْ بَعْد!! فَكُلَّمَا قَامَ مَلِك مِنْ مُلُوك الْإِسْلَام، وَأَطَاعَ أَوَامِر الله وَتَوَكَّلَ عَلَى الله فَتَحَ الله عَلَيْهِ مِنْ الْبِلَاد، وَاسْتَرْجَعَ مِنْ الْأَعْدَاء بِحَسَبِهِ وَبِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْ وِلَايَة الله، وَالله الْمَسْئُول الْمَأْمُول أَنْ يُمَكِّن الْمُسْلِمِينَ مِنْ نَوَاصِي أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ، وَأَنْ يُعْلِي كَلِمَتهمْ فِي سَائِر الْأَقَالِيم، إِنَّهُ جَوَاد كَرِيم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فَمِنْ الْمُنَافِقِينَ ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ أَيْ: يَقُول بَعْضهمْ لِبَعْضٍ: أَيّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَة إِيمَانًا، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وَهَذِهِ الْآيَة مِنْ أَكْبَر الدَّلَائِل عَلَى أَنَّ الْإِيمَان يَزِيد وَيَنْقُص، كَمَا هُوَ مَذْهَب أَكْثَر السَّلَف وَالْخَلَف مِنْ أَئِمَّة الْعُلَمَاء، بَل قَدْ حَكَى الْإِجْمَاع عَلَى ذَلِكَ غَيْر وَاحِد. وَقَدْ بَسَطْتُ الْكَلَام عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَة فِي أَوَّل شَرْح الْبُخَارِيّ رَحِمَهُ اللهُ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أَيْ: زَادَتْهُمْ شَكًّا إِلَى شَكّهمْ، وَرَيْبًا إِلَى رَيْبهمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾. وَقَالَ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وَهَذَا مِنْ جُمْلَة شَقَائِهِمْ، أَنَّ مَا يَهْدِي الْقُلُوب يَكُون سَبَبًا لِضَلَالِهِمْ وَدَمَارهمْ! كَمَا أَنَّ سَيِّئ الْمِزَاج لَوْ غُذِّيَ بِمَا غُذِّيَ بِهِ لَا يَزِيدهُ إِلَّا خَبَالًا وَنَقْصًا.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: أَوَلَا يَرَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أَيْ: يُخْتَبَرُونَ ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَيْ: لَا يَتُوبُونَ مِنْ ذُنُوبهمْ السَّالِفَة، وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ فِيمَا يُسْتَقْبَل مِنْ أَحْوَالهمْ. قَالَ مُجَاهِد: يُخْتَبَرُونَ بِالسَّنَةِ وَالْجُوع. وَقَالَ قَتَادَة: بِالْغَزْوِ فِي السَّنَة مَرَّة أَوْ مَرَّتَيْنِ. وَقَالَ شَرِيك، عَنْ جَابِر -هو الْجُعْفِيّ- عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ حُذَيْفَة فِي قَوْله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قَالَ: كُنَّا نَسْمَع فِي كُلّ عَام كَذْبَة أَوْ كَذْبَتَيْنِ، فَيَضِلّ بِهَا فِئَام مِنْ النَّاس كَثِير. رَوَاهُ اِبْن جَرِير. وَفِي الْحَدِيث عَنْ أَنَس: «**لا يَزْدَاد الأَمْر إلا شِدَّة، وَلا يَزْدَاد النَّاس إلا شُحًّا، وَمَا مِنْ عَام إلا وَالَّذِي بَعْده شَرّ مِنْهُ**». سَمِعْته مِنْ نَبِيّكُمْ ﷺ[1].

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٩) من حديث أنس، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٧٧).

وَقَوْله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ هَذَا أَيْضًا إِخْبَار عَنْ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَة عَلَى رَسُول الله ﷺ: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أَيْ: تَلَفَّتُوا ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ﴾ أَيْ: تَوَلَّوْا عَنْ الحَقّ وَانْصَرَفُوا عَنْهُ، وَهَذَا حَالهمْ فِي الدُّنْيَا: لَا يَثْبُتُونَ عِنْد الحَقّ وَلَا يَقْبَلُونَهُ وَلَا يَفْهَمُونَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أَيْ: مَا هَؤُلَاء الْقَوْم يَتَفَلَّلُونَ عَنْك يَمِينًا وَشِمَالًا، هُرُوبًا مِنْ الحَقّ وَذَهَابًا إِلَى البَاطِل. وَقَوْله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أَيْ: لَا يَفْهَمُونَ عَنْ الله خِطَابه وَلَا يَقْصِدُونَ لِفَهْمِهِ وَلَا يُرِيدُونَهُ، بَل هُمْ فِي شُغْل عَنْهُ وَنُفُور مِنْهُ، فَلِهَذَا صَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

يَقُول تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسهمْ، أَيْ: مِنْ جِنْسهمْ وَعَلَى لُغَتهمْ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أَيْ: مِنْكُمْ وَبِلُغَتِكُمْ، كَمَا قَالَ جَعْفَر بْن أَبِي طَالِب رضي الله عنه، لِلنَّجَاشِيّ، وَالْمُغِيرَة بْن شُعْبَة لِرَسُولِ كِسْرَى: إِنَّ الله بَعَثَ فِينَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِف نَسَبه وَصِفَته، وَمَدْخَله وَمَخْرَجه، وَصِدْقه وَأَمَانَته... وَذَكَرَ الحَدِيث.

وَقَالَ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ جَعْفَر بْن مُحَمَّد، عَنْ أَبِيهِ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قَالَ: لَمْ يُصِبْهُ شَيْء مِنْ وِلَادَة الجَاهِلِيَّة. وَقَالَ ﷺ: «**خَرَجْت مِنْ نِكَاح وَلَمْ أَخْرُج مِنْ سِفَاح**». وَقَدْ وُصِلَ هَذَا مِنْ وَجْه آخَر؛ كَمَا قَالَ الحَافِظ أَبُو مُحَمَّد الحَسَن بْن عَبْد الرَّحْمَن الرَّامَهُرْمُزِيّ فِي كِتَابه «الفَاصِل بَيْن الرَّاوِي وَالوَاعِي»: حَدَّثَنَا أبو أَحْمَد يُوسُف بْن هَارُون بْن زِيَاد، حَدَّثَنَا اِبْن أَبِي عُمَر، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر بْن مُحَمَّد، قَالَ: أَشْهَد عَلَى أَبِي لَحَدَّثَنِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، عَنْ عَلِيّ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**خَرَجْت مِنْ نِكَاح وَلَمْ أَخْرُج مِنْ سِفَاح، مِنْ لَدُنْ آدَم إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي لَمْ يَمَسَّنِي مِنْ سِفَاح الجَاهِلِيَّة شَيْء**»[1]. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أَيْ: يَعِزّ عَلَيْهِ الشَّيْء الَّذِي يُعْنِت أُمَّته وَيَشُقّ عَلَيْهَا؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث المَرْوِيّ مِنْ طُرُق عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «**بُعِثْت بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَة**»[2]. وَفِي الصَّحِيح: «**إِنَّ هذا الدِّين يُسْر**»[3]. وَشَرِيعَته كُلّهَا سَهْلَة سَمْحَة كَامِلَة، يَسِيرَة عَلَى مَنْ يَسَّرَهَا الله تَعَالَى عَلَيْهِ. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أَيْ: عَلَى هِدَايَتكُمْ وَوُصُول النَّفْع الدُّنْيَوِيّ وَالأُخْرَوِيّ إِلَيْكُمْ. وَقَالَ الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله الحَضْرَمِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن يَزِيد المُقْرِي، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ فطر، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل، عَنْ أَبِي ذَرّ، قَالَ: تَرَكَنَا رَسُول الله ﷺ، وَمَا طَائِر يُقَلِّب جَنَاحَيْهِ فِي الهَوَاء إِلَّا وَهُوَ يَذْكُر لَنَا مِنْهُ عِلْمًا. قَالَ: وَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَا بَقِيَ شَيْء يُقَرِّب مِنْ الجَنَّة وَيُبَاعِد مِنْ النَّار إِلا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ**»[4]. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أبو قَطَن، حَدَّثَنَا المَسْعُودِيّ، عَنْ الحَسَن بْن سعد، عَنْ عَبْدَة

---

(١) **حسن لغيره**: أخرجه الطبري (٦/ ٥٢٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥/ ٨٠)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٠٣) من حديث علي، قال الألباني في «الإرواء» (٦/ ٣٣٠، ٣٣٤): حسن لغيره.

(٢) **حسن**: تقدم.

(٣) **صحيح**: تقدم.

(٤) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٥٥) من حديث أبي ذر، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٤٧٢) وقال: رجال الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة.

النهدي، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ الله لَمْ يُحَرِّم حُرْمَة إلا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَطَّلِعُهَا مِنْكُمْ مُطَّلِع، أَلا وَإِنِّي آخِذ بِحُجَزِكُمْ أَنْ تَهَافَتُوا فِي النَّار كَتَهَافُتِ الفَرَاش أَوْ الذُّبَاب»**[1].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان، عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، عَنْ اِبْن عَبَّاس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ أَتَاهُ مَلَكَانِ فِيمَا يَرَى النَّائِم، فَقَعَدَ أَحَدهمَا عِنْد رِجْلَيْهِ، وَالآخَر عِنْد رَأْسه، فَقَالَ الَّذِي عِنْد رِجْلَيْهِ لِلَّذِي عِنْد رَأْسه: اِضْرِبْ مَثَل هَذَا وَمَثَل أُمَّته، فَقَالَ: إِنَّ مَثَله وَمَثَل أُمَّته كَمَثَلِ قَوْم سَفْر اِنْتَهَوْا إِلَى رَأْس مَفَازَة، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنْ الزَّاد مَا يَقْطَعُونَ بِهِ المَفَازَة، وَلا مَا يَرْجِعُونَ بِهِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَتَاهُمْ رَجُل فِي حُلَّة حِبَرَة فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ وَرَدْتُ بِكُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَة، وَحِيَاضًا رُوَاء أَتَتَّبِعُونِي؟ فَقَالُوا: نَعَمْ!. قَالَ: فَانْطَلَقَ بِهِمْ فَأَوْرَدَهُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَة وَحِيَاضًا رُوَاء، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا وَسَمِنُوا، فَقَالَ لَهُمْ: أَلَمْ أَلْفَكُمْ عَلَى تِلْكَ الحَال، فَجَعَلْتُمْ لِي إِنْ وَرَدْتُ بِكُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَة وَحِيَاضًا رُوَاء أَنْ تَتَّبِعُونِي؟ فَقَالُوا: بَلَى. فَقَالَ: فَإِنَّ بَيْن أَيْدِيكُمْ رِيَاضًا هِيَ أَعْشَب مِنْ هَذِهِ، وَحِيَاضًا هِيَ أَرْوَى مِنْ هَذِهِ فَاتَّبِعُونِي. فَقَالَتْ طَائِفَة: صَدَقَ وَالله، لَنَتَّبِعَنَّهُ. وَقَالَتْ طَائِفَة: قَدْ رَضِينَا بِهَذَا نُقِيم عَلَيْهِ[2].

وَقَالَ البَزَّار: حَدَّثَنَا سَلَمَة بْن شَبِيب، وَأَحْمَد بْن مَنْصُور، قَالَا: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن الحَكَم بْن أَبَان، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُول الله ﷺ، يَسْتَعِينهُ فِي شَيْء. قَالَ عِكْرِمَة: أُرَاهُ قَالَ: فِي دَم، فَأَعْطَاهُ رَسُول الله ﷺ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: **«أَحْسَنْت إِلَيْك؟»**. قَالَ الأَعْرَابِيّ: لَا، وَلَا أَجْمَلت. فَغَضِبَ بَعْض الْمُسْلِمِينَ وَهَمُّوا أَنْ يَقُومُوا إِلَيْهِ، فَأَشَارَ رَسُول الله ﷺ إِلَيْهِمْ أَنْ كُفُّوا، فَلَمَّا قَامَ رَسُول الله ﷺ وَبَلَغَ إِلَى مَنْزِله دَعَا الأَعْرَابِيّ إِلَى البَيْت فَقَالَ: **«إِنك جِئْتَنَا فسألتنا فَأَعْطَيْنَاك فَقُلت مَا قُلت»**. فَزَادَهُ رَسُول الله ﷺ، شَيْئًا، وَقَالَ: **«أَحْسَنْت إِلَيْك؟»** فَقَالَ الأَعْرَابِيّ: نَعَمْ فَجَزَاك الله مِنْ أَهْل وَعَشِيرَة خَيْرًا. قَالَ النَّبِيّ ﷺ: **«إِنَّك جِئْتَنَا تسألنا فَأَعْطَيْنَاك، فَقُلت مَا قُلت، وَفِي أَنْفُس أَصْحَابِي عَلَيْك مِنْ ذَلِكَ شَيْء، فَإِذَا جِئْت فَقُل بَيْن أَيْدِيهِمْ مَا قُلت بَيْن يَدَيَّ حَتَّى يَذْهَب عَنْ صُدُورهمْ»**. فَقَالَ: نَعَمْ. فَلَمَّا جَاءَ الأَعْرَابِيّ، قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ صَاحِبكُمْ كَانَ جَاءَنَا فَسَأَلَنَا فَأَعْطَيْنَاهُ فَقَالَ مَا قَالَ، وَإِنَّا قَدْ دَعَوْنَاهُ فَأَعْطَيْنَاهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ، كَذَلِكَ يَا أَعْرَابِيّ؟»** فَقَالَ الأَعْرَابِيّ: نَعَمْ، فَجَزَاك الله مِنْ أَهْل وَعَشِيرَة خَيْرًا[3]. فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: **«إِنَّ مَثَلِي وَمَثَل هَذَا الأَعْرَابِيّ؛ كَمَثَلِ رَجُل كَانَتْ لَهُ نَاقَة فَشَرَدَتْ عَلَيْهِ فَاتَّبَعَهَا النَّاس فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلا نُفُورًا، فَقَالَ لَهُمْ صَاحِب النَّاقَة: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْن نَاقَتِي فَأَنَا أَرْفَق بِهَا، وَأَنَا أَعْلَم بِهَا، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُمَام الأَرْض، وَدَعَاهَا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَجَابَتْ وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلهَا، وَإِنِّي لَوْ أَطَعْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ مَا قَالَ لَدَخَلَ النَّار»**[4]. ثُمَّ قَالَ البَزَّار: لَا نَعْلَمهُ يُرْوَى إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه. **قُلت**: وَهُوَ ضَعِيف بِحَالِ إِبْرَاهِيم بْن الحَكَم بْن أَبَان، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾. وَهَكَذَا أَمَرَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة وَهِيَ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أَيْ: تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتهمْ بِهِ مِنْ الشَّرِيعَة العَظِيمَة الْمُطَهَّرَة الكَامِلَة الشَّامِلَة، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ: الله كَافِيَّ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلت، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾. ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أَيْ: هُوَ مَالِك كُلّ شَيْء وَخَالِقه، لأَنَّهُ رَبّ العَرْش العَظِيم الَّذِي هُوَ سَقْف المَخْلُوقَات، وَجَمِيع الخَلَائِق مِنْ السَّمَوَات وَالأَرَضِينَ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنهمَا تَحْت العَرْش مَقْهُورِين، بِقُدْرَةِ الله تَعَالَى وَعِلمه مُحِيط بِكُلِّ شَيْء، وَقَدَره نَافِذ فِي

---

(١) **حسن الإسناد**: أخرجه أحمد (١/ ٣٩٠)، وأبو يعلى (٩/ ١٩١) من حديث ابن مسعود، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٥٦) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى.

(٢) **ضعيف الإسناد**: أخرجه أحمد (١/ ٢٦٧)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١/ ٢٢٢) من حديث ابن عباس.

(٣) **ضعيف جدًا**: أخرجه البزار (٢٤٧٦) بسند ضعيف، فيه إبراهيم بن الحكم بن أبان: متروك الحديث.

(٤) انظر ما قبله.

كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل. قَالَ عبد الله ابن الإمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي بكر، حَدَّثَنَا بِشْر بْن عُمَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ عَلِيِّ بْن زَيْد، عَنْ يُوسُف بْن مَهْرَان، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما، عَنْ أُبَيِّ بْن كَعْب قَالَ: آخِر آيَة نَزَلَتْ مِنْ القُرْآن هَذِهِ الآيَة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إِلَى آخِر السُّورَة[1].

وَقَالَ عَبْد الله ابْن الإمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح بن عَبْد المُؤْمِن، حَدَّثَنَا عُمَر بْن شَقِيق، حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العالية، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب رضي الله عنه أَنَّهُمْ جَمَعُوا القُرْآن فِي مَصَاحِف فِي خِلَافَة أَبِي بَكْر رضي الله عنه، فَكَانَ رِجَال يَكْتُبُونَ وَيُمْلِي عَلَيْهِمْ أُبَيّ بْن كَعْب، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى هَذِهِ الآيَة مِنْ سُورَة بَرَاءَة ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فَظَنُّوا أَنَّ هَذَا آخِر مَا نَزَلَ مِنْ القُرْآن، فَقَالَ لَهُمْ أُبَيّ بْن كَعْب: إِنَّ رَسُول الله ﷺ أَقْرَأَنِي بَعْدهَا آيَتَيْنِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ: هَذَا آخِر مَا نَزَلَ مِنْ القُرْآن فَخَتَمَ بِمَا فُتِحَ بِهِ –بِالله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ– وَهُوَ قَوْل الله تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2]. وَهَذَا غَرِيب أَيْضًا.

وَقَالَ الإمام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن بَحْر، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سَلَمَة، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَحْيَى بْن عَبَّاد، عَنْ أَبِيهِ عَبَّاد بْن عبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنه، قَالَ: أَتَى الحَارِث بْن خُزَيْمَة بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِر بَرَاءَة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إِلَى عُمَر بْن الخَطَّاب، فَقَالَ: مَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، وَالله إِنِّي لَأَشْهَد لَسَمِعْتهَا مِنْ رَسُول الله ﷺ وَوَعَيْتهَا وَحَفِظْتهَا فَقَالَ عُمَر: وَأَنَا أَشْهَد لَسَمِعْتهَا مِنْ رَسُول الله ﷺ. ثُمَّ قَالَ: لَوْ كَانَتْ ثَلَاث آيَات لَجَعَلْتهَا سُورَة عَلَى حِدَة فَانْظُرُوا سُورَة مِنْ القُرْآن فَضَعُوهَا فِيهَا فَوَضَعُوهَا فِي آخِر بَرَاءَة.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَى أَبِي بَكْر الصِّدِّيق رضي الله عنهما، بِجَمْع القُرْآن، فَأَمَرَ زَيْد بْن ثَابِت فَجَمَعَهُ، وَكَانَ عُمَر يَحْضُرهُمْ وَهُمْ يَكْتُبُونَ ذَلِكَ. وَفِي الصَّحِيح أَنَّ زَيْدًا قَالَ: فَوَجَدْت آخِر سُورَة بَرَاءَة مَعَ خُزَيْمَة بْن ثَابِت أَوْ أَبِي خُزَيْمَة. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة تَذَكَّرُوا ذَلِكَ عن رَسُول الله ﷺ، كَمَا قَالَ خُزَيْمَة بْن ثَابِت حِين ابْتَدَأَهُمْ بِهَا، وَالله أَعْلَم.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد عَنْ يَزِيد بْن مُحَمَّد، عَنْ عَبْد الرَّزَّاق بْن عُمَر –وَقَالَ: كَانَ مِنْ ثِقَات المُسْلِمِينَ مِنْ المُتَعَبِّدِينَ عَنْ مُدْرِك بْن سَعْد –قَالَ يَزِيد: شَيْخ ثِقَة –عَنْ يُونُس بْن مَيْسَرَة، عَنْ أُمّ الدَّرْدَاء، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء قَالَ: «مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: حَسْبِيَ الله لا إِلَه إلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلت وَهُوَ رَبّ العَرْش العَظِيم –سَبْع مَرَّات– إلا كَفَاهُ الله مَا يُهِمّه»[3].

وَقَدْ رَوَاهُ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة عَبْد الرَّزَّاق بن عُمَر هَذَا مِنْ رِوَايَة أَبِي زُرْعَة الدِّمَشْقِيّ عَنْهُ، عَنْ أَبِي سَعْد مُدْرِك بْن أَبِي سَعْد الفَزَارِيّ، عَنْ يُونُس بْن مَيْسَرَة بْن حَلْبَس، عَنْ أُمّ الدَّرْدَاء سَمِعْت أَبَا الدَّرْدَاء يَقُول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُول: حَسْبِيَ الله لَا إِلَه إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبّ العَرْش العَظِيم. سَبْع مَرَّات –صَادِقًا كَانَ بِهَا أَوْ كَاذِبًا– إِلَّا كَفَاهُ الله مَا أَهَمَّهُ». وَهَذِهِ زِيَادَة غَرِيبَة، ثُمَّ رَوَاهُ فِي تَرْجَمَة عَبْد الرَّزَّاق أَبِي مُحَمَّد، عَنْ أَحْمَد بْن عَبْد الله بْن عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ جَدّه عَبْد الرَّزَّاق بْن عُمَر بِسَنَدِهِ، فَرَفَعَهُ فَذَكَرَ مِثْله بِالزِّيَادَة، وَهَذَا مُنْكَر، وَالله أَعْلَم.

آخر تفسير سورة براءة والحمد لله وحده.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ١١٧) بسند ضعيف، فيه علي بن زيد بن جدعان، قال أحمد ويحيى بن معين: ضعيف. انظر «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٤١).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤)، وعلته الربيع بن أنس: صدوق يهم، وفيه أبو جعفر الرازي: صدوق سيئ الحفظ.

(٣) موضوع: أخرجه أبو داود (٥٠٨١) من حديث أبي الدرداء، وقال الألباني: موضوع. انظر «ضعيف سنن أبي داود» (١٠٨٥).

تفسير سُورَةُ يُونُسَ عليه السلام وهي مكية

ترتيبها ١٠ — آياتها ١٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾

أَمَّا الحُرُوف المُقَطَّعَة فِي أَوَائِل السُّوَر فَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَام عَلَيْهَا فِي أَوَائِل سُورَة البَقَرَة. وَقَالَ أَبُو الضُّحَى عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿الر﴾ أَيْ: أَنَا الله أَرَى. وَكَذَلِكَ قَالَ الضَّحَّاك وَغَيْره. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أَيْ: هَذِهِ آيَات القُرْآن المُحْكَم المُبِين. وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وَقَالَ الحَسَن: التَّوْرَاة وَالزَّبُور. وَقَالَ قَتَادَة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ قَالَ: الكُتُب الَّتِي كَانَتْ قَبْل القُرْآن. وَهَذَا القَوْل لَا أَعْرِف وَجْهه وَلَا مَعْنَاهُ. وَقَوْله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. يَقُول تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنْ تَعَجَّبَ مِنْ الكُفَّار مِنْ إِرْسَال المُرْسَلِينَ مِنْ البَشَر، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ القُرُون المَاضِيَة مِنْ قَوْلهمْ ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾، وَقَول هُود وَصَالِح لِقَوْمِهِمَا: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفَّار قُرَيْش أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

وَقَالَ الضَّحَّاك، عَنْ اِبْن عَبَّاس: لَمَّا بَعَثَ الله تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولًا أَنْكَرَتْ العَرَب ذَلِكَ، أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ فَقَالُوا: الله أَعْظَم مِنْ أَنْ يَكُون رَسُوله بَشَرًا مِثْل مُحَمَّد، قَالَ: فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾[1]. وَقَوْله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اِخْتَلَفُوا فِيهِ؛ فَقَالَ عَلِيّ بن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يَقُول: سَبَقَتْ لَهُمْ السَّعَادَة فِي الذِّكْر الأَوَّل. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يَقُول: أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوا. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك، وَالرَّبِيع بْن أَنَس، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾. وَقَالَ مُجَاهِد ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: الأَعْمَال الصَّالِحَة؛ صَلَاتهمْ، وَصَوْمهمْ، وَصَدَقَتهمْ، وَتَسْبِيحهمْ، قَالَ: وَمُحَمَّد ﷺ شفيع لَهُمْ، وَكَذَا قَالَ زَيْد ابْن أَسْلَمَ وَمُقَاتِل بْن حَيَّان. وَقَالَ قَتَادَة: سَلَف صِدْق عِنْد رَبّهمْ. وَاخْتَارَ اِبْن جَرِير قَوْل مُجَاهِد: أَنَّهَا الأَعْمَال الصَّالِحَة الَّتِي قَدَّمُوهَا، قال: كَمَا يُقَال: لَهُ قَدَم فِي الإِسْلَام، كَقَوْلِ حَسَّان:

لَنَا القَدَمُ العُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلْفَنَا ❁ لِأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ الله تَابِع

وَقَوْل ذِي الرُّمَّة:

لَكُمْ قَدَمٌ لا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّهَا ❁ مَعَ الحَسَبِ العَادِيِّ طَمَّتْ عَلَى البَحْرِ

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ: مَعَ أَنَّا بَعَثْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ جِنْسهمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ: ظَاهِر وَهُمْ الكَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ رَبّ العَالَم جَمِيعه، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْض فِي سِتَّة أَيَّام، قِيلَ: كَهَذِهِ الأَيَّام. وَقِيلَ: كُلّ يَوْم

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (١١/ ٨١) بسند ضعيف فيه الضحاك ولم يسمع من ابن عباس، وفيه بشر بن عمارة: ضعيف.

كألف سنة مما تعدون، كما سيأتي بيانه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، قال: سمعت سعدًا الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء. وقال وهب بن منبه: خلقه الله من نوره، وهذا غريب. وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يدبر أمر الخلائق ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال، والبحار، والعمران، والقفار ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾. وقال الدراوردي، عن سعد بن إسحاق بن كعب؛ أنه قال لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: من الجن، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله إلهًا غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحدًا حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب؛ من سموم وحميم، وظل من يحموم ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾، ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل شعاع القمر نورًا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيرًا، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: لَمْ يَخْلُقهُ عَبَثًا بَل لَهُ حِكْمَة عَظِيمَة فِي ذَلِكَ، وَحُجَّة بَالِغَة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

وَقَوْله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أَيْ: نُبَيِّن الحُجَج وَالأَدِلَّة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أَيْ: تَعَاقُبهما إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا، وَإِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا لَا يَتَأَخَّر عَنْهُ شَيْئًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، وَقَالَ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. وَقَوْله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: مِنْ الآيَات الدَّالَّة عَلَى عَظَمَته تَعَالَى، كَمَا قَالَ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيَة. وَقَوْله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وَقَالَ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أَيْ: العُقُول، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ: عِقَاب الله وَسَخطه وَعَذَابه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

يقول تَعَالَى مُخبرًا عَنْ حَال الأَشْقِيَاء؛ الَّذِينَ كَفَرُوا بِلِقَاءِ الله يَوْم القِيَامَة، وَلَا يَرْجُونَ فِي لقاء الله شَيْئًا، وَرَضُوا بِهَذِهِ الحَيَاة الدُّنْيَا، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهَا أنفسهم. قَالَ الحَسَن: وَالله مَا زَيَّنُوهَا وَلَا رَفَعُوهَا حَتَّى رَضُوا بِهَا، وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ آيَات الله الكَوْنِيَّة فَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا، وَالشَّرْعِيَّة فَلَا يَأْتَمِرُونَ بِهَا. فَإِنَّ مَأْوَاهُمْ يَوْم مَعَادهمْ النَّار جَزَاء عَلَى مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فِي دُنْيَاهُمْ مِنْ الآثَام وَالخَطَايَا وَالإِجْرَام، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الكُفْر بِالله وَرسله وَاليَوْم الآخِر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

وَهَذَا إِخْبَار عَنْ حَال السُّعَدَاء الَّذِينَ آمَنُوا بِالله، وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ، وَامْتَثَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فَعَمِلُوا الصَّالِحَات، بِأَنَّهُ سَيَهْدِيهِمْ بِإِيمَانِهِمْ. يَحْتَمِل أَنْ تَكُون البَاء هَاهُنَا سَبَبِيَّة، فَتَقْدِيره: بِسَبَبِ إِيمَانهمْ فِي الدُّنْيَا يَهْدِيهِمْ الله يَوْم القِيَامَة عَلَى الصِّرَاط المُسْتَقِيم، حَتَّى يَجُوزُوهُ وَيَخْلُصُوا إِلَى الجَنَّة. وَيَحْتَمِل أَنْ تَكُون لِلاسْتِعَانَة، كَمَا قَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ قَالَ: يَكُون لَهُمْ نُور يَمْشُونَ بِهِ. وَقَالَ اِبْن جُرَيْج فِي الآيَة: يُمَثَّل لَهُ عَمَله فِي صُورَة حَسَنَة وَرِيح طَيِّبَة، إِذَا قَامَ مِنْ قَبْره يُعَارِض صَاحِبه وَيُبَشِّرهُ بِكُلِّ خَيْر، فَيَقُول لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُول: أَنَا عَمَلك. فَيُجْعَل لَهُ نُورًا مِنْ بَيْن يَدَيْهِ حَتَّى يُدْخِلهُ الجَنَّة، فَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾، وَالكَافِر يُمَثَّل لَهُ عَمَله فِي صُورَة سَيِّئَة وَرِيح مُنْتِنَة، فيلازم صَاحِبه وَيُلَازّهُ حَتَّى يَقْذِفهُ فِي النَّار، وَرُوِيَ نَحْوه عَنْ قَتَادَة مُرْسَلًا، فَالله أَعْلَم.

وقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: هَذَا حَال أَهْل الجَنَّة. وقَالَ اِبْن جُرَيْج: أُخبرت أَنَّ قَوْله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قَالَ: إِذَا مَرَّ بِهِمْ الطَّيْر يَشْتَهُونَهُ قَالُوا: سُبْحَانك اللهمَّ، وَذَلِكَ دَعْوَاهُمْ، فَيَأْتِيهِمْ المَلَك بِمَا يَشْتَهُونَهُ، فَيُسَلِّم عَلَيْهِمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾، قَالَ: فَإِذَا أَكَلُوا حَمِدُوا الله رَبّهمْ، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَقَالَ مُقَاتِل بْن حَيَّان: إِذَا أَرَادَ أَهْل الجَنَّة أَنْ يَدْعُوا بِالطَّعَام؛ قَالَ أَحَدهمْ: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قَالَ: فَيَقُوم عَلَى أَحَدهمْ عَشَرَة آلَاف خَادِم، مَعَ كُلّ خَادِم صَحْفَة مِنْ ذَهَب فِيهَا طَعَام لَيْسَ فِي الأُخْرَى، قَالَ: فَيَأْكُل مِنْهُنَّ كُلّهنَّ.

وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: إِذَا أَرَادَ أَحدهمْ أَنْ يَدْعُو بِشَيْءٍ قَالَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾. وَهَذِهِ الآيَة فِيهَا شَبَه مِنْ قَوْله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، وَقَوْله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾، وَقَوْله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، وَقَوْله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾. وَقَوْله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هَذَا فِيهِ دَلَالَة عَلَى أَنَّ الله تَعَالَى هُوَ المَحْمُود أَبَدًا، المَعْبُود عَلَى طُول المَدَى؛ وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسه عِنْد اِبْتِدَاء خَلقه وَاسْتِمْرَاره، وَفِي اِبْتِدَاء كِتَابه، وَعِنْد اِبْتِدَاء تَنْزِيله، حَيْثُ يَقُول تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنْ الأَحْوَال الَّتِي يَطُول بَسْطهَا، وَأَنَّهُ المَحْمُود فِي الأُولَى وَالآخِرَة، فِي الحَيَاة الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَة، فِي جَمِيع الأَحْوَال؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «**إِنَّ أَهْل الجَنَّة يُلهَمُونَ التَّسْبِيح وَالتَّحْمِيد كَمَا يُلهَمُونَ النَّفَس**»[١]. وَإِنَّمَا يَكُون ذَلِكَ كَذَلِكَ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ تضاعف نِعَم الله عَلَيْهِمْ فَتُكَرَّر وَتُعَاد وَتَزْدَاد فَلَيْسَ لَهَا اِنْقِضَاء وَلَا أَمَد، فَلَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَلَا رَبّ سِوَاهُ.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ حِلمه وَلُطْفه بِعِبَادِهِ أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيب لَهُمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى أَنْفُسهمْ أَوْ أَمْوَالهمْ أَوْ أَوْلَادهمْ فِي حَال ضَجَرهمْ وَغَضَبهمْ، وَأَنَّهُ يَعْلَم مِنْهُمْ عَدَم القَصْد إِلَى إِرَادَة ذَلِكَ، فَلِهَذَا لَا يَسْتَجِيب لَهُمْ وَالحَالَة هَذِهِ لُطْفًا وَرَحْمَة، كَمَا يَسْتَجِيب لَهُمْ إِذَا دَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَوْ لِأَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَوْلَادِهِمْ بِالخَيْرِ وَالبَرَكَة وَالنَّمَاء، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أَيْ: لَوْ اِسْتَجَابَ لَهُمْ كُلّ مَا دَعَوْهُ بِهِ فِي ذَلِكَ لَأَهْلَكَهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي الإِكْثَار مِنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مَعْمَر، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا حَاتِم بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن مُجَاهِد أَبُو حَزْرَة، عَنْ عُبَادَة بْن الوَلِيد، حَدَّثَنَا جَابِر قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسكُمْ، لا تَدْعُوا عَلَى أَوْلادكُمْ، لا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالكُمْ، لا تُوَافِقُوا مِنْ الله سَاعَة فِيهَا إِجَابَة فَيَسْتَجِيب لَكُمْ**»[٢]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيث حَاتِم ابْن إِسْمَاعِيل بِهِ. قَالَ البَزَّار: وَتَفَرَّدَ بِهِ عُبَادَة بْن الوَلِيد بْن عُبَادَة بْن الصَّامِت الأَنْصَارِيّ، لَمْ يُشَارِكهُ أَحَد فِيهِ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ الآيَة. وَقَالَ مُجَاهِد فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ الآيَة: هُوَ قَوْل الإِنْسَان لِوَلَدِهِ أَوْ مَاله إِذَا غَضِبَ عَلَيْهِ: اللهمَّ لَا تُبَارِك فِيهِ وَالعَنْهُ. فَلَوْ يُعَجِّل لَهُمْ الاِسْتِجَابَة فِي ذَلِكَ كَمَا يُسْتَجَاب لَهُمْ فِي الخَيْر لَأَهْلَكَهُمْ.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ الإِنْسَان وَضَجَره وَقَلَقه إِذَا مَسَّهُ الشَّرّ، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أَيْ: كَثِير، وَهُمَا فِي مَعْنًى وَاحِد، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّة قَلِقَ لَهَا وَجَزِعَ مِنْهَا، وَأَكْثَر الدُّعَاء عِنْد ذَلِكَ فَدَعَا الله فِي كَشْفهَا وَزوالها عَنْهُ، فِي حَال اِضْطِجَاعه وَقُعُوده، وَقِيَامه وَفِي جَمِيع أَحْوَاله، فَإِذَا فَرَّجَ الله شِدَّته، وَكَشَفَ كُرْبَته، أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَذَهَبَ كَأَنَّهُ مَا كَانَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾. ثُمَّ ذَمَّ تَعَالَى مَنْ هَذِهِ صِفَته وَطَرِيقَته فَقَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فَأَمَّا مَنْ رَزَقَهُ الله الهِدَايَة وَالسَّدَاد، وَالتَّوْفِيق

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٣٥)، وأحمد (٣/ ٣٤٩، ٣٥٤، ٣٨٤).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٠٠٩)، وأبو داود (١٣٥٦) من حديث جابر.

وَالرَّشَاد، فَإِنَّهُ مُسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وَكَقَوْلِ رَسُول الله ﷺ: «عَجَبًا لأمْرِ المُؤْمِن لا يَقْضِي الله لَهُ قَضَاء إلا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ؛ وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأحَدٍ إلا لِلمُؤْمِن»[1].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا أَحَلَّ بِالقُرُونِ المَاضِيَةِ فِي تَكْذِيبِهِمْ الرُّسُل فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنَ البَيِّنَات، وَالحُجَج الوَاضِحَات، ثُمَّ اسْتَخْلَفَ الله هَؤُلَاءِ القَوْم مِنْ بَعْدهمْ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا لِيَنْظُر طَاعَتهمْ لَهُ، وَاتِّبَاعهمْ رَسُوله، وَفِي صَحِيح مُسْلِم مِنْ حَدِيث أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَة خَضِرَة، وَإِنَّ الله مُسْتَخْلِفكُمْ فِيهَا فَنَاظِر ماذا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاء، فَإِنَّ أَوَّل فِتْنَة بَنِي إِسْرَائِيل كَانَتْ فِي النِّسَاء»[2]. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي المُثَنَّى، حَدَّثَنَا زَيْد بْن عَوْف، أَبُو رَبِيعَة فهد، أَنْبَأَنَا حَمَّاد، عَنْ ثَابِت البُنَانِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بن أَبِي لَيْلَى، أَنَّ عَوْف بْن مَالِك، قَالَ لِأَبِي بَكْر: رَأَيْت فِيمَا يَرَى النَّائِم: كَأَنَّ سَبَبًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاء، فَانْتَشَطَ رَسُول الله ﷺ، ثُمَّ أُعِيدَ فَانْتَشَطَ أَبُو بَكْر، ثُمَّ ذَرَعَ النَّاس حَوْل المِنْبَر، فَفَضَلَ عُمَر بِثَلَاثِ أَذْرُع إِلى المِنْبَر. فَقَالَ عُمَر: دَعْنَا مِنْ رُؤْيَاك، لَا أَرَب لَنَا فِيهَا. فَلَمَّا اُسْتُخْلِفَ عُمَر قَالَ: يَا عَوْف رُؤْيَاك؟ فَقَالَ: وَهَل لَكَ فِي رُؤْيَايَ مِنْ حَاجَة أَوَلَمْ تَنْتَهِرنِي؟ قَالَ: وَيْحك إِنِّي كَرِهْت أَنْ تَنْعَى لِخَلِيفَةِ رَسُول الله ﷺ نَفْسه. فَقَصَّ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَ ذَرَعَ النَّاس إِلَى المِنْبَر بِهَذِهِ الثَّلَاث الأَذْرُع، قَالَ: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ فَإِنَّهُ كَانَ خَلِيفَة، وَأَمَّا الثَّانِيَة فَإِنَّهُ لَا يَخَاف فِي الله لَوْمَة لَائِم، وَأَمَّا الثَّالِثَة فَإِنَّهُ شَهِيد. قَالَ: فَقَالَ: يَقُول الله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فَقَدْ اُسْتُخْلِفْت يَا بْن أُمّ عُمَر، فَانْظُرْ كَيْف تَعْمَل؟ وَأَمَّا قَوْله: فَإِنِّي لَا أَخَاف فِي الله لَوْمَة لَائِم؛ فما شَاءَ الله، وَأَمَّا قَوْله: شَهِيد؛ فَأَنَّى لِعُمَر الشَّهَادَة وَالنَّاس مُطِيفُونَ بِهِ؟.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ تَعَنُّت الكُفَّار مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْش الجَاحِدِينَ الحق المُعْرِضِينَ عَنْهُ: أَنَّهُمْ إِذَا قَرَأَ عَلَيْهِمْ الرَّسُول ﷺ كِتَاب الله وَحججه الوَاضِحَة قَالُوا لَهُ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أَيْ: رُدَّ هَذَا وَجِئْنَا بِغَيْرِهِ مِنْ نَمَط آخَر، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ إِلَى وَضع آخَر، قَالَ الله تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ أَيْ: لَيْسَ هَذَا إِلَيَّ، إِنَّمَا أَنَا عَبْد مَأْمُور وَرَسُول مُبَلِّغ عَنْ الله، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثُمَّ قَالَ مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ فِي صِحَّة مَا جَاءَهُمْ بِهِ: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أَيْ: هَذَا إِنَّمَا جِئْتُكُمْ بِهِ عَنْ إِذْن الله لِي فِي ذَلِكَ وَمَشِيئَته وَإِرَادَته، وَالدَّلِيل عَلَى أَنِّي لَسْت أَتَقَوَّلهُ مِنْ عِنْدِي وَلَا افْتَرَيْته: أَنَّكُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَته، وَأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي وَأَمَانَتِي مُنْذُ نَشَأْت بَيْنكُمْ إِلَى حِين بَعَثَنِي الله ﷻ، لَا تَنْتَقِدُونَ عَلَيَّ شَيْئًا تَغْمِصُونِي بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: أَفَلَيْسَ لَكُمْ عُقُول تَعْرِفُونَ بِهَا الحَقّ مِنْ البَاطِل؟ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ هِرَقْل مَلِك الرُّوم أَبَا سُفْيَان وَمَنْ مَعَهُ فِيمَا سَأَلَهُ

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: تقدم.

مِنْ صِفَة النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ هِرَقْل لِأَبِي سُفْيَان: هَل كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْل أَنْ يَقُول مَا قَالَ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَان: فَقُلت: لَا. وَقد كَانَ أَبُو سُفْيَان إِذْ ذَاكَ رَأْس الكَفَرَة، وَزَعِيم المُشْرِكِين، وَمَعَ هَذَا اِعْتَرَفَ بِالحَقِّ، وَالفَضْل مَا شَهِدَتْ بِهِ الأَعْدَاء، فَقَالَ لَهُ هِرَقْل: فَقَدْ أَعْرِف أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَع الكَذِب عَلَى النَّاس ثُمَّ يَذْهَب فَيَكْذِب عَلَى الله[1]. وَقَالَ جَعْفَر بْن أَبِي طَالِب لِلنَّجَاشِيِّ مَلِك الحَبَشَة: بَعَثَ الله فِينَا رَسُولًا نَعْرِف صِدْقه وَنَسَبَهُ وَأَمَانَته. وَقَدْ كَانَتْ مُدَّة مُقَامه عليه السلام بَيْن أَظْهُرنَا قَبْل النُّبُوَّة أَرْبَعِينَ سَنَة[2]، وَعَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب: ثَلَاثًا وَأَرْبَعِينَ سَنَة، وَالصَّحِيح المَشْهُور الأَوَّل.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: لَا أَحَد أَظْلَم وَلَا أَعْتَى وَلَا أَشَدّ إِجْرَامًا ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وَتَقَوَّلَ عَلَى الله، وَزَعَمَ أَنَّ الله أَرْسَلَهُ وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، فَلَيْسَ أَحَد أَكْبَر جُرْمًا وَلَا أَعْظَم ظُلْمًا مِنْ هَذَا، وَمِثْل هَذَا لَا يَخْفَى أَمْره عَلَى الأَغْبِيَاء، فَكَيْفَ يَشْتَبِه حَال هَذَا بِالأَنْبِيَاءِ؟ فَإِنَّ مَنْ قَالَ هَذِهِ المَقَالَة صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا، فَلَابُدّ أَنَّ الله يَنْصِب عَلَيْهِ مِنَ الأَدِلَّة عَلَى بِرّه أَوْ فُجُوره مَا هُوَ أَظْهَر مِنَ الشَّمْس، فَإِنَّ الفَرْق بَيْن مُحَمَّد ﷺ وَبَيْن مُسَيْلِمَة الكَذَّاب لِمَنْ شَاهَدَهُمَا أَظْهَر مِنَ الفَرْق بَيْن وَقْت الضُّحَى وَبَيْن نِصْف اللَّيْل فِي حِنْدِس الظَّلْمَاء، فَمِنْ سيما كُلّ مِنْهُمَا وَأَفْعَاله وَكَلَامه يَسْتَدِلّ مَنْ لَهُ بَصِيرَة عَلَى صِدْق مُحَمَّد ﷺ، وَكَذِب مُسَيْلِمَة الكَذَّاب، وَسِجَاح، وَالأَسْوَد العَنْسِي. قَالَ عَبْد الله ابْن سَلَام: لَمَّا قَدِمَ رَسُول الله ﷺ المَدِينَة اِنْجَفَلَ النَّاس فَكُنْت فِيمَنْ اِنْجَفَلَ، فَلَمَّا رَأَيْته عَرَفْت أَنَّ وَجْهه لَيْسَ بِوَجْهِ رَجُل كَذَّاب. قَالَ: فَكَانَ أَوَّل مَا سَمِعْته يَقُول: «**يَا أَيُّهَا النَّاس؛ أَفْشُوا السَّلَام، وَأَطْعِمُوا الطَّعَام، وَصِلُوا الأَرْحَام، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاس نِيَام، تَدْخُلُوا الجَنَّة بِسَلَام**»[3]. وَلَمَّا قَدِمَ ضِمَام بْن ثَعْلَبَة عَلَى رَسُول الله ﷺ، فِي قَوْمه بَنِي سَعْد بْن بَكْر قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ فِيمَا قَالَ لَهُ: مَنْ رَفَعَ هَذِهِ السَّمَاء؟ قَالَ: «**الله**» قَالَ: وَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الجِبَال؟ قَالَ: «**الله**» قَالَ: وَمَنْ سَطَحَ هَذِهِ الأَرْض؟ قَالَ: «**الله**» قَالَ: فَبِالَّذِي رَفَعَ هَذِهِ السَّمَاء، وَنَصَبَ هَذِهِ الجِبَال، وَسَطَحَ هَذِهِ الأَرْض، آلله أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاس كُلّهمْ؟ قَالَ: «**اللهمَّ نَعَمْ**»، ثُمَّ سَأَلَهُ عَنِ الصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالحَجّ وَالصِّيَام، وَيُحَلِّفهُ عِنْد كُلّ وَاحِدَة هَذِهِ اليَمِين، وَيَحْلِف لَهُ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ: صَدَقْت، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَا أَزِيد عَلَى ذَلِكَ وَلَا أَنْقُص[4]. فَاكْتَفَى هَذَا الرَّجُل بِمُجَرَّدِ هَذَا، وَقَدْ أَيْقَنَ بِصِدْقِهِ -صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ- بِمَا رَأَى وَشَاهَدَ مِنَ الدَّلَائِل الدَّالَّة عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ حَسَّان بْن ثَابِت:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَات مُبَيِّنَة ❁ كَانَتْ بَدِيهَته تَأْتِيك بِالخَبَرِ

وَأَمَّا مُسَيْلِمَة فَمَنْ شَاهَدَهُ مِنْ ذَوِي البَصَائِر عَلِمَ أَمْره لَا مَحَالَة، بِأَقْوَالِهِ الرَّكِيكَة الَّتِي لَيْسَتْ بِفَصِيحَةٍ، وَأَفْعَاله غَيْر الحَسَنَة بَل القَبِيحَة، وَقُرْآنه الَّذِي يَخْلُد بِهِ فِي النَّار يَوْم الحَسْرَة وَالفَضِيحَة، وَكَمْ مِنْ فَرْق بَيْن قَوْله تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ إِلَى آخِرهَا، وَبَيْن عُلَاكِ مُسَيْلِمَة قَبَّحَهُ الله وَلَعَنَهُ: يَا ضُفْدَع بِنْت ضُفْدَعِين، نِقِّي كَمَا تَنِقِّين، لَا المَاء تُكَدِّرِين، وَلَا الشَّارِب تَمْنَعِين. وَقَوْله قَبَّحَهُ الله: لَقَدْ أَنْعَمَ الله عَلَى الحُبْلَى، إِذْ أَخْرَجَ مِنْهَا نَسَمَة تَسْعَى، مِنْ بَيْن صِفَاق وَحَشَى. وَقَوْله خَدَّره الله فِي نَار جَهَنَّم وَقَدْ فَعَلَ: الفِيل، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الفِيل، لَهُ زلقوم طَوِيل. وَقَوْله أَبْعَدَهُ الله مِنْ رَحْمَته: وَالعَاجِنَات عَجْنًا، وَالخَابِزَات خَبْزًا، وَاللَّاقِمَات

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧).

(٢) حسن الإسناد: أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢، ٥/ ٢٩٠).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٨٧)، وابن ماجه (١٣٣٤)، والدارمي (١/ ٤٠٥) من حديث عبد الله بن سلام، وصححه الألباني في «الإرواء» (٣/ ٢٣٩).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢)، وأبو داود (١٨٦).

لَمَّا، إهَالَة وَسمْنًا، إنَّ قُرَيْشًا قَوْم يَعْتَدُونَ. إلَى غَيْر ذَلِكَ مِنَ الخُرَافَات وَالهَذَيَانَات الَّتِي يَأْنَف الصِّبْيَان أَنْ يَتَلفظوا بِهَا إلَّا عَلَى وَجْه السُّخْرِيَة وَالاِسْتِهْزَاء، وَلِهَذَا أَرْغَمَ الله أَنْفه وَشَرِبَ يَوْم حَدِيقَة المَوت حَتْفه، وَمَزَّقَ شَمْله وَلَعَنَهُ صَحْبه وَأَهْله. وَقَدِمُوا عَلَى الصِّدِّيق تَائِبِينَ، وَجَاءُوا فِي دِين الله رَاغِبِينَ، فَسَأَلَهُمْ الصِّدِّيق خَلِيفَة الرَّسُول صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ وَرَضِيَ عَنْهُ، أَنْ يَقْرَءُوا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ قُرْآن مُسَيْلِمَة لَعَنَهُ الله، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُعْفِيَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَأَبَى عَلَيْهِمْ إلَّا أَنْ يَقْرَءُوا شَيْئًا مِنْهُ؛ لِيَسْمَعهُ مَنْ لَمْ يَسْمَعهُ مِنَ النَّاس، فَيَعْرِفُوا فَضْل مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلم، فَقَرَءُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَأَشْبَاهه، فَلَمَّا فَرَغُوا قَالَ لَهُمْ الصِّدِّيق ﷺ: وَيْحَكُمْ أَيْنَ كَانَ يَذْهَب بِعُقُولِكُمْ؟ وَالله؛ إنَّ هَذَا لَمْ يَخْرُج مِنْ إلّ.

وَذَكَرُوا أَنَّ عَمْرو بْن العَاص وَفَدَ عَلَى مُسَيْلِمَة، وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ فِي الجَاهِلِيَّة، وَكَانَ عَمْرو لَمْ يُسْلِم بَعْد، فَقَالَ لَهُ مُسَيْلِمَة: وَيْحك يَا عَمْرو! وَمَاذَا أُنْزِلَ عَلَى صَاحِبِكُمْ -يَعْنِي رَسُول الله ﷺ- فِي هَذِهِ المُدَّة؟ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْت أَصْحَابه يَقْرَءُونَ سُورَة عَظِيمَة قَصِيرَة. فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إلَى آخِر السُّورَة، فَفَكَّرَ مُسَيْلِمَة سَاعَة، ثُمَّ قَالَ: وَأَنَا قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ مِثْله. فَقَالَ: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: يَا وَبْر يَا وَبْر إنَّمَا أَنْتَ أُذُنَانِ وَصَدْر وَسَائِرك حَفْر نَقْر. كَيْف تَرَى يَا عَمْرو؟ فَقَالَ لَهُ عَمْرو: وَالله؛ إنَّك لَتَعْلَم أَنِّي أَعْلَم أَنَّك لَتَكْذِب. فَإِذَا كَانَ هَذَا مِنْ مُشْرِك فِي حَال شِرْكه لَمْ يَشْتَبِه عَلَيْهِ حَال مُحَمَّد ﷺ، وَصِدْقه، وَحَال مُسَيْلِمَة -لَعَنَهُ الله- وَكَذِبه، فَكَيْف بِأُولِي البَصَائِر وَالنُّهَى وَأَصْحَاب العُقُول السَّلِيمَة المُسْتَقِيمَة وَالحِجَا. وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، وَقَالَ فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾، وَكَذَلِكَ مَنْ كَذَّبَ بِالحَقِّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الحُجَج، لَا أَحَد أَظْلَم مِنْهُ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «أَعْتَى النَّاس عَلَى الله رَجُل قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيّ»[1].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

يُنْكِر تَعَالَى عَلَى المُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ الله غَيْره، ظَانِّينَ أَنَّ تِلْكَ الآلِهَة تَنْفَعهُمْ شَفَاعَتهَا عِنْد الله، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهَا لَا تَضُرّ وَلَا تَنْفَع وَلَا تَمْلِك شَيْئًا، وَلَا يَقَع شَيْء مِمَّا يَزْعُمُونَ فِيهَا وَلَا يَكُون هَذَا أَبَدًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وَقَالَ ابْن جَرِير: مَعْنَاهُ أَتُخْبِرُونَ الله بِمَا لَا يَكُون فِي السَّمَوَات وَلَا فِي الأَرْض؟ ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسه عَنْ شِرْكهمْ وَكُفْرهمْ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الشِّرْك حَادِث لِلنَّاسِ، كَائِن بَعْد أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّ النَّاس كُلّهمْ كَانُوا عَلَى دِين وَاحِد وَهُوَ الإِسْلَام. قَالَ ابْن عَبَّاس: كَانَ بَيْن آدَم وَنُوح عَشَرَة قُرُون كُلّهمْ عَلَى الإِسْلَام، ثُمَّ وَقَعَ الاِخْتِلَاف بَيْن النَّاس، وَعُبِدَتْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد وَالأَوْثَان، فَبَعَثَ الله الرُّسُل بِآيَاتِهِ وَبَيِّنَاته، وَحُجَجه البَالِغَة وَبَرَاهِينه الدَّامِغَة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[2].

وَقَوْله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَيْ: لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ الله تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّب أَحَدًا إلَّا بَعْد قِيَام الحُجَّة عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَدْ أَجَّلَ الخَلق إلَى أَجَل مَعْدُود، لَقَضَى بَيْنهمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ فَأَسْعَدَ المُؤْمِنِينَ وَأَعْنَتَ الكَافِرِينَ.

---

(١) **حسن الإسناد**: أخرجه أحمد (١/ ٤٠٧)، والطبراني (١٠/ ٢١١) من حديث ابن مسعود، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٠٠).

(٢) **صحيح**: تقدم.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾

أَيْ: وَيَقُول هَؤُلَاءِ الكَفَرَة الملحدون المُكَذِّبُونَ المُعَانِدُونَ: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّد آيَة مِنْ رَبّه، يَعْنُونَ كَمَا أَعْطَى الله ثَمُود النَّاقَة، أَوْ أَنْ يُحَوِّل لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا، أَوْ يُزِيح عَنْهُمْ جِبَال مَكَّة وَيَجْعَل مَكَانهَا بَسَاتِين وَأَنْهَارًا، أَوْ نَحْو ذَلِكَ مِمَّا الله عَلَيْهِ قَادِر، وَلَكِنَّهُ حَكِيم فِي أَفْعَاله وَأَقْوَاله، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾. يَقُول تَعَالَى: إِنَّ سُنَّتِي فِي خَلقِي أَنِّي إِذَا آتَيْتهمْ مَا سَأَلُوا فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عَاجَلتهمْ بِالعُقُوبَةِ. وَلِهَذَا لَمَّا خُيِّرَ رَسُول الله ﷺ بَيْن أن يُعْطِي مَا سَأَلُوا فَإِنْ أجابوا وَإِلَّا عُوجلوا، وَبَيْن أن يتركهم ويُنْظرهم؛ اِخْتَارَ إِنْظَارهمْ، كَمَا حَلُمَ عَنْهُمْ غَيْر مَرَّة رَسُول الله ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِرْشَادًا لِنَبِيِّهِ ﷺ إِلَى الجَوَاب لهم عَمَّا سَأَلُوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أَيْ: الأَمْر كُلّه لله، وَهُوَ يَعْلَم العَوَاقِب فِي الأُمُور، ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ حَتَّى تُشَاهِدُوا مَا سَأَلْتُمْ، فَانْتَظِرُوا حُكْم الله فِيَّ وَفِيكُمْ.

هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ معجزاته ﷺ أَعْظَم مِمَّا سَأَلُوا، حِين أَشَارَ بِحَضْرَتِهِمْ إِلَى القَمَر لَيْلَة إِبْدَاره فَانْشَقَّ اِثْنَتَيْنِ فِرْقَة مِنْ وَرَاء الجَبَل وَفِرْقَة مِنْ دُونه. وَهَذَا أَعْظَم مِنْ سَائِر الآيَات الأَرْضِيَّة مِمَّا سَأَلُوا وَمِمَّا لَمْ يَسْأَلُوا، وَلَوْ عَلِمَ الله مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ اِسْتِرْشَادًا وَتثبُّتًا لَأَجَابَهُمْ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا فَتَرَكَهُمْ فِيمَا رَابَهُمْ، وَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِن مِنْهُمْ أَحَد، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، وَلِمَا فِيهِمْ مِنْ المُكَابَرَة كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فَمِثْل هَؤُلَاءِ أَقَلّ مِنْ أَنْ يُجَابُوا إِلَى مَا سَأَلُوا؛ لأَنَّهُ لَا فَائِدَة فِي جواب هؤلاء؛ لأَنَّهُ دَائِر عَلَى تَعَنُّتهمْ وَعِنَادهمْ لِكَثْرَةِ فُجُورهمْ وَفَسَادهمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا أَذَاقَ النَّاس رَحْمَة مِنْ بَعْد ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ، كَالرَّخَاءِ بَعْد الشِّدَّة، وَالخِصْب بَعْد الجَدْب، وَالمَطَر بَعْد القَحْط، وَنَحْو ذَلِكَ ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾. قَالَ مُجَاهِد: اِسْتِهْزَاء وَتَكْذِيب كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾، وَفِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ صَلَّى بِهِمْ الصُّبْح عَلَى إِثْر سَمَاء كَانَتْ مِنْ اللَّيْل -أَيْ: مَطَر-، ثُمَّ قَالَ: «**هَل تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبّكُمْ اللَّيْلَة؟**» قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: «**قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِن بِي وَكَافِر، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَته فَذَاكَ مُؤْمِن بِي كَافِر بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْء كَذَا وَكَذَا فَذَاكَ كَافِر بِي**

مُؤْمِن بالكوْكَب»(١). وَقَوْله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أَيْ: أَشَدّ اِسْتِدْرَاجًا وَإِمْهَالًا، حَتَّى يَظُنّ الظَّانّ مِنْ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُعَذَّبٍ وَإِنَّمَا هُوَ فِي مُهْلَة، ثُمَّ يُؤْخَذ عَلَى غِرَّة مِنْهُ، وَالكَاتِبُونَ الكِرَام يَكْتُبُونَ عَلَيْهِ جَمِيع مَا يَفْعَلهُ وَيُحْصُونَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَعْرِضونه عَلَى عَالِمِ الغَيْب وَالشَّهَادَة، فَيُجَازِيه عَلَى الجَلِيل وَالحَقِير وَالنَّقِير وَالقِطْمِير.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أَيْ: يحيطكم وَيَكْلَؤُكُمْ بِحِرَاسَتِهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أَيْ: بِسُرْعَةِ سَيْرهمْ رَافِقِينَ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ ﴿جَآءَتْهَا﴾ أَيْ: تِلكَ السُّفُن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أَيْ: شَدِيدَة ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَيْ: اِغْتَلَمَ البَحْر عَلَيْهِمْ ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أَيْ: هَلَكُوا ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أَيْ: لَا يَدْعُونَ مَعَهُ صَنَمًا وَلَا وَثَنًا، بَل يُفْرِدُونَهُ بِالدُّعَاءِ وَالِابْتِهَال، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أَيْ: هَذِهِ الحَال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أَيْ: لَا نُشْرِك بِك أَحَدًا، وَلَنُفْرِدَنَّك بِالعِبَادَةِ هُنَاكَ، كَمَا أَفْرَدْنَاك بِالدُّعَاءِ هَاهُنَا، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ أَيْ: مِنْ تِلكَ الوَرْطَة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: كَأَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَذُوق وَبَال هَذَا البَغْي أَنْتُمْ أَنْفُسكُمْ، وَلَا تَضُرُّونَ بِهِ أَحَدًا غَيْركُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: **«مَا مِنْ ذَنْب أَجْدَر مِنْ أَنْ يُعَجِّل الله عُقُوبَته فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِر الله لِصَاحِبِهِ فِي الآخِرَة مِنْ البَغْي وَقَطِيعَة الرَّحِم»**(٢)، وَقَوْله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: إِنَّمَا لَكُمْ مَتَاع فِي الحَيَاة الدُّنْيَا الدَّنِيئَة الحَقِيرَة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيْ: مَصِيركُمْ وَمَآلكُمْ، ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ أَيْ: فَنُخْبِركُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَنُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْر ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلًا لِزَهْرَةِ الحَيَاة الدُّنْيَا وَزِينَتهَا، وَسُرْعَة اِنْقِضَائِهَا وَزَوَالهَا، بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الله مِنْ الأَرْض بِمَا أُنْزِلَ مَنْ السَّمَاء من الماء مِمَّا يَأْكُل النَّاس مِنْ زُرُوع وَثِمَار عَلَى اِخْتِلَاف أَنْوَاعهَا وَأَصْنَافهَا، وَمَا تَأْكُل الأَنْعَام مِنْ أَبّ وَقَضْب وَغَيْر ذَلِكَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أَيْ: زِينَتهَا الفَانِيَة ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أَيْ: حَسُنَتْ بِمَا خَرَجَ فِي رُبَاهَا مِنْ زُهُور نَضِرَة مُخْتَلِفَة الأَشْكَال وَالأَلْوَان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ الَّذِينَ زَرَعُوهَا وَغَرَسُوهَا ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أَيْ: عَلَى جِذَاذهَا وَحَصَادهَا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَتْهَا صَاعِقَة أَوْ رِيح شَدِيدَة بَارِدَة، فَأَيْبَسَتْ أَوْرَاقهَا وَأَتْلَفَتْ ثِمَارهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أَيْ: يَبَسًا بَعْد الخُضْرَة وَالنَّضَارَة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أَيْ: كَأَنَّهَا مَا كَانَتْ حسناء قَبْل ذَلِكَ.

وَقَالَ قَتَادَة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كَأَنْ لَمْ تُنَعَّم. وَهَكَذَا الأُمُور بَعْد زَوَالهَا كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث: **«يُؤْتَى بِأَنْعَم أَهْل الدُّنْيَا فَيُغْمَس فِي النَّار غَمْسَة فَيُقَال لَهُ: هَل رَأَيْت خَيْرًا قَطُّ؟ هَل مَرَّ بِك نَعِيم قَطُّ؟ فَيَقُول: لَا. وَيُؤْتَى بِأَشَدّ النَّاس عَذَابًا فِي الدُّنْيَا فَيُغْمَس فِي النَّعِيم غَمْسَة، ثُمَّ يُقَال لَهُ: هَل رَأَيْت بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُول: لَا»**(٣). وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ الْمُهْلَكِينَ: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أَيْ:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)، وأبو داود (٣٩٠٦).
(٢) **صحيح**: تقدم.
(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨٠٧)، والنسائي (١/ ٣٦).

نُبَيِّن الحُجَج وَالأدِلَّة؛ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا المَثَل فِي زَوَال الدُّنْيَا عن أَهْلهَا سَرِيعًا، مَعَ اغْتِرَارهمْ بِهَا وَتَمَكُّنهمْ وَثِقَتهمْ بِمَوَاعِيدِهَا وَتَفَلُّتها عَنْهُمْ، فَإِنَّ مِنْ طَبْعهَا الهَرَب مِمَّنْ طَلَبَهَا، وَالطَّلَب لِمَنْ هَرَبَ مِنْهَا، وَقَدْ ضَرَبَ الله تَعَالَى مَثَل الحياة الدُّنْيَا بِنَبَاتِ الأَرْض فِي غَيْر مَا آيَة مِنْ كِتَابه العَزِيز، فَقَالَ فِي سُورَة الكَهْف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، وَكَذَا فِي سُورَة الزُّمَر، وَالحَدِيد يَضْرِب الله بِذَلِكَ مَثَل الحَيَاة الدُّنْيَا كماء. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا ابْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي بَكْر ابْن عَبْد الرَّحْمَن بْن الحَارِث بْن هِشَام، قَالَ: سَمِعْتُ مَرْوَان -يَعْنِي: ابْن الحَكَم- يَقْرَأ عَلَى المِنْبَر: (**وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا، وَمَا كَانَ الله لِيُهْلِكها إِلَّا بِذُنُوبِ أَهْلهَا**) قَالَ: قَدْ قَرَأْتُهَا وَلَيْسَتْ فِي المُصْحَف. فَقَالَ عَبَّاس بْن عَبْد الله بْن عَبَّاس: هَكَذَا يَقْرَؤُهَا ابْن عَبَّاس فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْن عَبَّاس، فَقَالَ: هَكَذَا أَقْرَأَنِي أُبَيّ بْن كَعْب وَهَذِهِ قِرَاءَة غَرِيبَة وَكَأَنَّهَا زيادة لِلتَّفْسِيرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ﴾ الآيَة، لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الدُّنْيَا وَسُرْعَة زَوَالهَا، رَغَّبَ فِي الجَنَّة وَدَعَا إِلَيْهَا وَسَمَّاهَا دَار السَّلَام، أَيْ: مِنْ الآفَات وَالنَّقَائِص وَالنَّكَبَات، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قَالَ أَيُّوب، عَنْ أَبِي قِلَابَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «**قِيلَ لِي: لِتَنَمْ عَيْنك، وَلْيَعْقِل قَلْبك، وَلْتَسْمَعْ أُذُنك، فَنَامَتْ عَيْنِي، وَعَقَلَ قَلْبِي، وَسَمِعَتْ أُذُنِي، ثُمَّ قِيلَ لِي: مَثَلِي وَمَثَل مَا جِئْت كَمَثَلِ سَيِّد بَنَى دَارًا، ثُمَّ صَنَعَ مَأْدُبَة وَأَرْسَلَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّار وَأَكَلَ مِنْ المَأْدُبَة وَرَضِيَ عَنْهُ السَّيِّد، وَمَنْ لَمْ يُجِبْ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُل الدَّار وَلَمْ يَأْكُل مِنْ المَأْدُبَة وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ السَّيِّد، فالله السَّيِّد، وَالدَّار الإِسْلَام وَالمَأْدُبَة الجَنَّة وَالدَّاعِي مُحَمَّد ﷺ**»[1]. وَهَذَا حَدِيث مُرْسَل، وَقَدْ جَاءَ مُتَّصِلًا مِنْ حَدِيث اللَّيْث، عَنْ خَالِد بْن يَزِيد، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي هِلَال، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله ﷺ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «**إِنِّي رَأَيْت فِي المَنَام كَأَنَّ جِبْرِيل عِنْد رَأْسِي، وَمِيكَائِيل عِنْد رِجْلِي، يَقُول أَحَدهمَا لِصَاحِبِهِ: اِضْرِبْ لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ: اِسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنك، وَاعْقِل عَقَلَ قَلْبك، إِنَّمَا مَثَلك وَمَثَل أُمَّتك كَمَثَلِ مَلِك اتَّخَذَ دَارًا ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَة ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاس إِلَى طَعَامه؛ فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُول وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ فَالله المَلِك، وَالدَّار الإِسْلَام، وَالبَيْت الجَنَّة، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّد الرَّسُول فَمَنْ أَجَابَك دَخَلَ الإِسْلَام، وَمَنْ دَخَلَ الإِسْلَام دَخَلَ الجَنَّة، وَمَنْ دَخَلَ الجَنَّة أَكَلَ مِنْهَا**»[2]. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ قَتَادَة: حَدَّثَنِي خُلَيْد العَصَرِيّ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْم طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْس إِلَّا وَبِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ، يَسْمَعهُمَا خَلْق الله كُلّهمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاس؛ هَلُمُّوا إِلَى رَبّكُمْ، إِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْر مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى**»[3]. قَالَ: وَأُنْزِلَ ذلك في القرآن فِي قَوْله: «**يَا أَيُّهَا النَّاس هَلُمُّوا إِلَى رَبّكُمْ** ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾». رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، وَابْن جَرِير.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّ لِمَنْ أَحْسَن العَمَل فِي الدُّنْيَا بِالإِيمَانِ وَالعَمَل الصَّالِح: أن له الحُسْنَى فِي الدَّار الآخِرَة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَآءُ الْإِحْسَٰنِ إِلَّا الْإِحْسَٰنُ﴾. وَقَوْله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ يشمل تَضْعِيف ثَوَاب الأَعْمَال بِالحَسَنَة عَشْر أَمْثَالهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْف وَزِيَادَة عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا، وَيَشْمَل مَا يُعْطِيهِمْ الله فِي الجِنَان مِنْ القُصُور وَالحُور وَالرِّضَا عَنْهُمْ،

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٤٨) بسند مرسل.

(٢) **ضعيف الإسناد**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٤٨)، والترمذي (٢٨٦٠)، والحاكم (٢/ ٣٦٩) من حديث جابر، وقال الألباني: ضعيف الإسناد. انظر «ضعيف سنن الترمذي» (٥٣٧).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن جرير (١١/ ١٠٤)، وابن حبان (٣٣٢٩).

وَمَا أَخْفَاهُ لَهُمْ مِنْ قُرَّة أَعْيُن، وَأَفْضَل مِنْ ذَلِكَ وَأَعْلَاهُ النَّظَر إِلَى وَجْهه الكَرِيم، فَإِنَّهُ زِيَادَة أَعْظَم مِنْ جَمِيع مَا أُعْطُوهُ، لَا يَسْتَحِقُّونَهَا بِعَمَلِهِمْ بَل بِفَضْلِهِ وَرَحْمَته، وَقَدْ رُوِيَ تَفْسِير الزِّيَادَة بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهه الكَرِيم عَنْ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق، وَحُذَيْفَة بْن اليَمَان، وَعَبْد الله بْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن الْمُسَيَّب، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلَى، وَعَبْد الرَّحْمَن ابْن سَابِط، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَعَامِر بْن سَعْد، وَعَطَاء، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَغَيْرهمْ مِنَ السَّلَف وَالخَلَف، وَقَدْ وَرَدَتْ فِيهِ أَحَادِيث كَثِيرَة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، أَخْبَرَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ ثَابِت البُنَانِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ صُهَيْب ﷺ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ تَلَا هَذِهِ الآيَة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وَقَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثْقِلْ مَوَازِينَنَا؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَيُزَحْزِحْنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ لَهُمُ الحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ**»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِم وَجَمَاعَة مِنَ الأَئِمَّة مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلَمَة، بِهِ. وَقَالَ ابْن جَرِير: أَخبرنا يُونُس، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، قَالَ: أَخْبَرَنِي شَبِيب، عَنْ أَبَانَ بْن أَبِي تَمِيمَة الهُجَيْمِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيّ يُحَدِّث عَنْ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُنَادِيًا يُنَادِي: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؛ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ: إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمُ الحُسْنَى وَزِيَادَةً، فَالحُسْنَى الجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ ﷻ**»[2]. رَوَاهُ أَيْضًا ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث أَبِي بَكْر الهُذَلِيّ، عَنْ أَبِي تَمِيمَة الهُجَيْمِيّ بِهِ. وَقَالَ ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن الْمُخْتَار، عَنْ ابْن جريج، عَنْ عَطَاء، عَنْ كَعْب بْن عُجْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قَالَ: «**الزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ ﷻ**». وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا ابْن عَبْد الرَّحِيم، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن أَبِي سَلَمَة، سَمِعْت زُهَيْرًا، عَمَّنْ سَمِعَ أَبَا العَالِيَة، حَدَّثَنَا أُبَيّ بْن كَعْب؛ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُول الله ﷺ عَنْ قَوْل الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قَالَ: «**الحُسْنَى الجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ ﷻ**»[3]. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا مِنْ حَدِيث زُهَيْر، بِهِ. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أَيْ: قَتَام وَسَوَاد فِي عَرَصَات المَحْشَر، كَمَا يَعْتَرِي وُجُوه الكَفَرَة الفَجَرَة مِنَ القَتَرَة وَالغَبَرَة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أَيْ: هَوَان وَصَغَار، أَيْ: لَا يَحْصُل لَهُمْ إِهَانَة فِي البَاطِن وَلَا فِي الظَّاهِر، بَل هُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أَيْ: نَضْرَة فِي وُجُوههمْ وَسُرُورًا فِي قُلُوبهمْ، جَعَلَنَا الله مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَته آمِينَ!.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَال السُّعَدَاء الَّذِينَ يُضَاعَف لَهُمْ الحَسَنَات، وَيَزْدَادُونَ عَلَى ذَلِكَ، عَطَفَ بِذِكْر حَال الأَشْقِيَاء، فَذَكَرَ تَعَالَى عَدْله فِيهِمْ، وَأَنَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى السَّيِّئَة بِمِثْلِهَا لَا يَزِيدهُمْ عَلَى ذَلِكَ، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أَيْ: تَعْتَرِيهِمْ وَتَعْلُوهُمْ ذِلَّة مِنْ مَعَاصِيهِمْ وَخَوْفهمْ مِنْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾. وَقَوْله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أَيْ: مَانِع وَلَا وَاقٍ يَقِيهِمْ العَذَاب، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٦٥٥٥).
(٢) ضعيف جدًا: أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٤٩)، وعلته أبان ابن أبي عياش قال الحافظ: متروك الحديث.
(٣) حسن لغيره: أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٤٩).

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾. وَقَوْله: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ إِخْبَار عَنْ سَوَاد وُجُوههمْ فِي الدَّار الآخِرَة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۝٢٩ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أَيْ: أَهْل الأَرْض كُلّهمْ؛ مِنْ جِنّ وَإِنْس، وَبَرّ وَفَاجِر، كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أَيْ: اِلزَمُوا أَنْتُمْ وَهُمْ مَكَانًا مُعَيَّنًا، اِمْتَازُوا فِيهِ عَنْ مَقَام الْمُؤْمِنِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾، وَقَوْله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾، وَفِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أَيْ: يَصِيرُونَ صَدْعَيْنِ، وَهَذَا يَكُون إِذَا جَاءَ الرَّبّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لِفَصْلِ الْقَضَاء؛ وَلِهَذَا قِيلَ ذَلِكَ يَسْتَشْفِع الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الله تَعَالَى أَنْ يَأْتِي لِفَصْلِ الْقَضَاء وَيُرِيحنَا مِنْ مَقَامنَا هَذَا، وَفِي الْحَدِيث الآخَر: «**نَحْنُ يَوْم الْقِيَامَة عَلَى كَوْم فَوْق النَّاس**»[1].

وَقَالَ الله تَعَالَى فِي هذه الآيَة الكَرِيمَة، إِخْبَارًا عَمَّا يَأْمُر بِهِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْثَانهمْ يَوْم الْقِيَامَة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا عِبَادَتهمْ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. وَقَوْله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾، وَقَوْله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. وَقَوْله فِي هَذِهِ الآيَة إِخْبَارًا عَنْ قَوْل الشُّرَكَاء فِيمَا رَاجَعُوا فِيهِ عَابِدِيهِمْ عِنْد اِدِّعَائِهِمْ عِبَادَتهمْ: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ أَيْ: مَا كُنَّا نَشْعُر بِهَا وَلَا نَعْلَم بِهَا، وَإِنَّمَا أنتم كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي بِكُمْ، وَالله شَهِيد بَيْننَا وَبَيْنكُمْ أَنَّا مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى عِبَادَتنَا، وَلَا أَمَرْنَاكُمْ بِهَا، وَلَا رَضِينَا مِنْكُمْ بِذَلِكَ. وَفِي هَذَا تَبْكِيت عَظِيم لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ الله غَيْره، مِمَّنْ لَا يَسْمَع وَلَا يُبْصِر وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَمْ يَأْمُرهُمْ بِذَلِكَ وَلَا رَضِيَ بِهِ وَلَا أَرَادَهُ، بَل تَبَرَّأَ مِنْهُمْ فِي وَقْت أَحْوَج مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ تَرَكُوا عِبَادَة الْحَيّ الْقَيُّوم السَّمِيع الْبَصِير الْقَادِر عَلَى كُلّ شَيْء العَلِيم بِكُلِّ شَيْء، وَقَدْ أَرْسَلَ رُسُله وَأَنْزَلَ كُتُبه، آمِرًا بِعِبَادَتِهِ وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، نَاهِيًا عَنْ عِبَادَة مَا سِوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، وَقَالَ: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾. وَالْمُشْرِكُونَ أَنْوَاع وَأَقْسَام كثيرون قَدْ ذَكَرَهُمْ الله فِي كِتَابه، وَبَيَّنَ أَحْوَالهمْ وَأَقْوَالهمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ أَتَمَّ رَدٍّ.

وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أَيْ: فِي مَوْقِف الْحِسَاب يَوْم الْقِيَامَة تُخْتَبَر كُلّ نَفْس، وَتَعْلَم مَا أسلفت مِنْ خَيْر وَشَرّ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. وَقَدْ قَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ وَفَسَّرَهَا بَعْضهمْ بِالقِرَاءَة، وَفَسَّرَهَا بَعْضهمْ بِمَعْنَى تَتْبَع مَا قَدَّمَته مِنْ خَيْر

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٩/ ٣٨) من حديث جابر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٥١).

وَشَرّ، وَفَسَّرَهَا بَعْضهمْ بِحَدِيثِ: «لِتَتْبَع كُلّ أُمَّة مَا كَانَتْ تَعْبُد، فَيَتْبَع مَنْ كَانَ يَعْبُد الشَّمْس الشَّمْس، وَيَتْبَع مَنْ كَانَ يَعْبُد القَمَر القَمَر، وَيَتْبَع مَنْ كَانَ يَعْبُد الطَّوَاغِيت الطَّوَاغِيت»[1]. الحَدِيث. وَقَوْله: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: وَرَجَعَتْ الأُمُور كُلّهَا إِلَى الله الحَكَم العَدْل، فَفَصَّلَهَا وَأَدْخَلَ أَهْل الجَنَّة الجَنَّة، وَأَهْل النَّار النَّار. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أَيْ: ذَهَبَ عَنْ المُشْرِكِينَ ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ: مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله اِفْتِرَاء عَلَيْهِ.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يَحْتَجّ تَعَالَى عَلَى المُشْرِكِينَ بِاعْتِرَافِهِمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّته عَلَى وحدانية الله، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: مَنْ ذَا الَّذِي يُنْزِل مِنْ السَّمَاء مَاء المَطَر فَيَشُقّ الأَرْض شَقًّا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَته، فَيُخْرِج مِنْهَا ﴿حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ وكذلك قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، وَقَوْله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أَيْ: الَّذِي وَهَبَكُمْ هَذِهِ القُوَّة السَّامِعَة، وَالقُوَّة البَاصِرَة، وَلَوْ شَاءَ لَذَهَبَ بِهَا وَلَسَلَبَكُمْ إِيَّاهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾. وقوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أَيْ: بِقُدْرَتِهِ العَظِيمَة وَمِنَّته العَمِيمَة؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْر الخِلَاف فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ الآيَة عَامَّة فِي ذَلِكَ كُلّه. وَقَوْله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أَيْ: مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوت كُلّ شَيْء، وَهُوَ يُجِير وَلَا يُجَار عَلَيْهِ، وَهُوَ المُتَصَرِّف الحَاكِم الَّذِي لَا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ فَالمُلْك كُلّه؛ العُلْوِيّ وَالسُّفْلِيّ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ مَلَائِكَة وَإِنْس وَجَانّ، فَقِيرُونَ إِلَيْهِ، عَبِيد لَهُ، خَاضِعُونَ لَدَيْهِ. ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: هُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَيْ: أَفَلَا تَخَافُونَ مِنْهُ أَنْ تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْره بِآرَائِكُمْ وَجَهْلكُمْ. وقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أَيْ: فَهَذَا الَّذِي اِعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّهُ فَاعِل ذَلِكَ كُلّه هُوَ رَبّكُمْ وَإِلَهكُمْ الحَقّ، الَّذِي يَسْتَحِقّ أَنْ يُفْرَد بِالعِبَادَةِ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أَيْ: فَكُلّ مَعْبُود سِوَاهُ بَاطِل، لَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَاحِد لَا شَرِيك لَهُ. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أَيْ: فَكَيْف تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَته إِلَى عِبَادَة مَا سِوَاهُ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبّ الَّذِي خَلَقَ كُلّ شَيْء، وَالمُتَصَرِّف فِي كُلّ شَيْء. وَقَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: كَمَا كَفَرَ هَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى شِرْكهمْ، وَعِبَادَتهمْ مَعَ الله غَيْره، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الخَالِق الرَّازِق المُتَصَرِّف فِي المُلْك وَحْده، الَّذِي بَعَثَ رُسُله بِتَوْحِيدِهِ، فَلِهَذَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَة الله أَنَّهُمْ أَشْقِيَاء مِنْ سَاكِنِي النَّار، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

وَهَذَا إِبْطَال لِدَعْوَاهُمْ فِيمَا أَشْرَكُوا بِالله غَيْره وَعَبَدُوا مِنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أَيْ: مَنْ بَدَأَ خَلق هَذِهِ السَّمَوَات وَالأَرْض، ثُمَّ يُنْشِئ مَا فِيهِمَا مِنْ الخَلَائِق، وَيُفَرِّق أَجْرَام السَّمَوَات وَالأَرْض

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٠٠٠)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة.

وَيُبْدِهُما بِفَنَاءِ مَا فِيهِمَا، ثُمَّ يُعِيد الخَلق خلقًا جَدِيدًا، ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هُوَ الَّذِي يَفْعَل هَذَا، وَيَسْتَقِلّ بِهِ وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أَيْ: فَكَيْف تُصْرَفُونَ عَنْ طَرِيق الرُّشْد إِلَى البَاطِل. ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ شُرَكَاءَكُمْ لَا تَقْدِر عَلَى هِدَايَة ضَالّ، وَإِنَّمَا يَهْدِي الحَيَارَى وَالضُّلَّال، وَيُقَلِّب القُلُوب مِنْ الغَيّ إِلَى الرُّشْد، الله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أَيْ: أَفَيَتَّبِع العَبْد الَّذِي يَهْدِي إِلَى الحَقّ، وَيُبَصِّر بَعْد العَمَى، أَمْ الَّذِي لَا يَهْدِي إِلَى شَيْء إِلَّا أَنْ يُهْدَى لِعَمَاهُ وَبَكَمه، كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيم أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾، وَقَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنْ الآيَات. وَقَوْله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَيْ: مَا بَالكُمْ أَنْ يَذْهَب بِعُقُولِكُمْ؟! كَيْف سَوَّيْتُمْ بَيْن الله وَبَيْن خَلقه، وَعَدَلتُمْ هَذَا بِهَذَا، وَعَبَدْتُمْ هَذَا وَهَذَا؟ وَهَلَّا أَفْرَدْتُمْ الرَّبّ جَلَّ جَلَاله المَالِك الحَاكِم الهَادِي مِنْ الضَّلَالَة بِالعِبَادَةِ وَحْده، وَأَخْلَصْتُمْ إِلَيْهِ الدَّعْوَة وَالإِنَابَة؟. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ فِي دِينهمْ هَذَا دَلِيلًا وَلَا بُرْهَانًا، وَإِنَّمَا هُوَ ظَنّ مِنْهُمْ أَيْ: تَوَهُّم وَتَخَيُّل، وَذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تَهْدِيد لَهُمْ وَوَعِيد شَدِيد؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمّ الجَزَاء.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾

هَذَا بَيَان لِإِعْجَازِ القُرْآن، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيع البَشَر أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَلَا بِعَشْرِ سُوَر وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْله؛ لِأَنَّهُ بِفَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَته وَوَجَازَته وَحَلَاوَته، وَاشْتِمَاله عَلَى المَعَانِي العَزِيزَة النَّافِعَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، لَا تَكُون إِلَّا مِنْ عِنْد الله الَّذِي لَا يُشْبِههُ شَيْء فِي ذَاته وَلَا فِي صِفَاته وَلَا فِي أَفْعَاله وَأَقْوَاله، فَكَلَامه لَا يُشْبِه كَلَام المَخْلُوقِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مِثْل هَذَا القُرْآن لَا يَكُون إِلَّا مِنْ عِنْد الله، وَلَا يُشْبِه هَذَا كَلَام البَشَر، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيْ: مِنْ الكُتُب المُتَقَدِّمَة، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهَا، وَمُبَيِّنًا لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ التَّحْرِيف وَالتَّأْوِيل وَالتَّبْدِيل. وَقَوْله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: وَبَيَان الأَحْكَام وَالحَلَال وَالحَرَام بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا، حَقًّا لَا مِرْيَة فِيهِ مِنْ الله رَبّ العَالَمِينَ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيث الحَارِث الأَعْوَر عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب: «فِيهِ خَبَر مَا قَبْلكُمْ، وَنَبَأ مَا بَعْدكُمْ، وَفَصْل مَا بَيْنكُمْ» أَيْ: خَبَر عَمَّا سَلَفَ وَعَمَّا سَيَأْتِي، وَحُكْم فِيمَا بَيْن النَّاس بِالشَّرْعِ الَّذِي يُحِبّهُ الله وَيَرْضَاهُ.

وَقَوْله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أَيْ: إِنْ ادَّعَيْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ وَشَكَكْتُمْ فِي أَنَّ هَذَا مِنْ عِنْد الله، وَقُلتُمْ كَذِبًا وَمَينًا إِنَّ هَذَا مِنْ عِنْد مُحَمَّد، فَمُحَمَّد بَشَر مِثْلكُمْ، وَقَدْ جَاءَ فِيمَا زَعَمْتُمْ بِهَذَا القُرْآن فَأْتُوا أَنْتُمْ بِسُورَةٍ مِثْله. أَيْ: مِنْ جِنْس هَذَا القُرْآن، وَاسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مَنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ: مِنْ إِنْس وَجَانّ. وَهَذَا هُوَ المَقَام الثَّالِث فِي التَّحَدِّي، فَإِنَّهُ تَعَالَى تَحَدَّاهُمْ وَدَعَاهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْد مُحَمَّد، فَلتُعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ وَحْده، وَاستعينوا بِمَنْ شئتم، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا سَبِيل لَهُمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، ثُمَّ تَقَاصَرَ مَعَهُمْ إِلَى عَشْر سُوَر مِنْهُ، فَقَالَ فِي أَوَّل سُورَة هُود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. ثُمَّ

تَنَازَلَ إِلَى سُورَة، فَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. وَكَذَا فِي سُورَةِ البَقَرَة وَهِيَ مَدَنِيَّة تَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ مِنْهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ أَبَدًا، فَقَالَ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآيَة. هَذَا وَقَدْ كَانَتِ الفَصَاحَة مِنْ سَجَايَاهُمْ، وَأَشْعَارهمْ وَمُعَلَّقَاتهمْ إِلَيْهَا المُنْتَهَى فِي هَذَا البَاب، وَلَكِنْ جَاءَهُمْ مِنَ الله مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ، وَلِهَذَا آمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِمَا عَرَفَ مِنْ بَلَاغَة هَذَا الكَلَام وَحَلَاوَته، وَجَزَالَته وَطَلَاوَته، وَإِفَادَته وَبَرَاعَته، فَكَانُوا أَعْلَم النَّاس بِهِ، وَأَفْهَمهُمْ لَهُ، وَأَتْبَعهُمْ لَهُ، وَأَشدهم لَهُ انْقِيَادًا، كَمَا عَرَفَ السَّحَرَة لِعِلمِهِمْ بِفُنُونِ السِّحْر أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَصْدُر إِلَّا عَنْ مُؤَيَّد مُسَدَّد مُرْسَل مِنَ الله، وَأَنَّ هَذَا لَا يُسْتَطَاع لِبَشَرٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله. وَكَذَلِكَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بُعِثَ فِي زَمَان عُلَمَاء الطِّبّ وَمُعَالَجَة المَرْضَى، فَكَانَ يُبْرِئ الأَكْمَه وَالأَبْرَص وَيُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ الله، وَمِثْل هَذَا لَا مَدْخَل لِلعِلَاج وَالدَّوَاء فِيهِ، فَعَرَفَ مَنْ عَرَفَ مِنْهُمْ أَنَّهُ عَبْد الله وَرَسُوله؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيح عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِه البَشَر، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيته وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَكْثَرهمْ تَابِعًا»[1].

وَقَوْله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يَقُول: بَل كَذَّبَ هَؤُلَاءِ بِالقُرْآنِ وَلَمْ يَفْهَمُوهُ وَلَا عَرَفُوهُ، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أَيْ: وَلَمْ يُحَصِّلُوا مَا فِيهِ مِنَ الهُدَى وَدِين الحَقّ إِلَى حِين تَكْذِيبهمْ بِهِ جَهْلًا وَسَفَهًا ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: مِنَ الأُمَم السَّالِفَة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ: فَانْظُرْ كَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلنَا ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَجَهْلًا، فَاحْذَرُوا أَيُّهَا المُكَذِّبُونَ أَنْ يُصِيبكُمْ مَا أَصَابَهُمْ.

وَقَوْله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ: وَمِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بُعِثْت إِلَيْهِمْ يَا مُحَمَّد مَنْ يُؤْمِن بِهَذَا القُرْآن وَيَتْبَعك، وَيَنْتَفِع بِمَا أُرْسِلت بِهِ، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بَل يَمُوت عَلَى ذَلِكَ وَيُبْعَث عَلَيْهِ، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ: وَهُوَ أَعْلَم بِمَنْ يَسْتَحِقّ الهِدَايَة فَيَهْدِيه، وَمَنْ يَسْتَحِقّ الضَّلَالَة فَيُضِلّهُ، وَهُوَ العَادِل الَّذِي لَا يَجُور، بَل يُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، لَا إِلَه إِلَّا هُوَ.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: وَإِنْ كَذَّبَك هَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ فَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ وَمِنْ عَمَلهمْ ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إِلَى آخِرهَا، وَقَالَ إِبْرَاهِيم الخَلِيل وَأَتْبَاعه لِقَوْمِهِمِ المُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾. وَقَوْله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ: يَسْمَعُونَ كَلَامك الحَسَن وَالقُرْآن العَظِيم، وَالأَحَادِيث الصَّحِيحَة الفَصِيحَة النَّافِعَة فِي القُلُوب وَالأَدْيَان وَالأَبْدَان، وَفِي هَذَا كِفَايَة عَظِيمَة، وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْك وَلَا إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ لَا تَقْدِر عَلَى إِسْمَاع الأَصَمّ وَهُوَ الأَطْرَش، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِر عَلَى هِدَايَة هَؤُلَاءِ إِلَّا أَنْ يَشَاء الله. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ وَإِلَى مَا أَعْطَاك الله مِنَ التُّؤَدَة وَالسَّمْت الحَسَن وَالخُلُق العَظِيم، وَالدَّلَالَة الظَّاهِرَة عَلَى نُبُوتك لِأُولِي البَصَائِر وَالنُّهَى، وَهَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ كَمَا يَنْظُر غَيْرهمْ وَلَا يَحْصُل لَهُمْ مِنَ الهِدَايَة شَيْء كَمَا يَحْصُل لِغَيْرِهِمْ، بَل المُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْك بِعَيْنِ الوَقَار، وَالكَافِرُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْك بِعَيْنِ الاحْتِقَار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن

---

(١) صحيح: تقدم.

يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَظْلِم أَحَدًا شَيْئًا وَإِنْ كَانَ قَدْ هَدَى بِهِ مَنْ هَدَى، وَبَصَّرَ بِهِ مِنْ العَمَى، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَأَضَلَّ بِهِ عَنْ الإِيمَانِ آخَرِينَ، فَهُوَ الحَاكِم المُتَصَرِّف فِي مُلكه بِمَا يَشَاء الَّذِي لَا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْأَلُونَ، لِعِلْمِهِ وَحِكْمَته وَعَدْله. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وَفِي الحَدِيث: عَنْ أَبِي ذَرّ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيه عَنْ رَبّه ﷻ: **«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلم عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا** -إِلَى أَنْ قَالَ فِي آخِره:- **يَا عِبَادِي؛ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْر ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسه»**[1]. رَوَاهُ مُسْلِم بِطُولِهِ.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُذَكِّرًا لِلنَّاسِ قِيَام السَّاعَة، وَحَشرهمْ مِنْ أَجْدَاثهمْ إِلَى عَرَصَات القِيَامَة كأنهم يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار، كَقَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ الآيَتَيْنِ، وَهَذَا كُلّه دَلِيل عَلَى اِسْتِقْصَار الحَيَاة الدُّنْيَا فِي الدَّار الآخِرَة، كَقَوْلِهِ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: يَعْرِف الأَبْنَاء الآبَاء، وَالقَرَابَات بَعْضهمْ بعضًا كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ كُلّ مَشْغُول بِنَفْسِهِ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ الآيَات.

وَقَوْله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ لأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسهمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْم القِيَامَة، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَان المُبِين فهذه هي الخسارة العظيمة، وَلَا خَسَارَة أَعْظَم مِنْ خَسَارَة مَنْ فُرِّقَ بَيْنه وَبَيْن أَحِبَّته يَوْم الحَسْرَة وَالنَّدَامَة.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أَيْ: نَنْتَقِم مِنْهُمْ فِي حَيَاتك؛ لِتَقَرّ عَيْنك مِنْهُمْ، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أَيْ: مَصِيرهمْ وَمُنْقَلَبهمْ، وَالله شَهِيد عَلَى أَفْعَالهمْ بَعْدك. وَقَدْ قَالَ الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا عُقْبَة بْن مُكْرَم، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر الحَنَفِيّ، حَدَّثَنَا دَاوُد بْن الجَارُود، عَنْ أَبِي الطفيل، عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: **«عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمَّتِي البَارِحَة لَدَى هَذِهِ الحُجْرَة أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا»** فَقَالَ رَجُل: يَا رَسُول الله؛ هذا عُرِضَ عَلَيْك مَنْ خُلِقَ، فَكَيْف عُرِض عَلَيك مَنْ لَمْ يُخْلَق؟ فَقَالَ: **«صُوِّرُوا لِي فِي الطِّين حَتَّى إِنِّي لأَعْرَف بِالإِنْسَانِ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدكُمْ بِصَاحِبِهِ»**[2]. وَرَوَاهُ عَنْ مُحَمَّد بْن عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ عُقْبَة بْن مُكْرَم، عَنْ يُونُس بْن بُكَيْر، عَنْ زِيَاد بْن المُنْذِر، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل، عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد، بِهِ نَحْوه. وَقَوْله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِد: يَعْنِي يَوْم القِيَامَة. ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٠).
(٢) ضعيف: أخرجه الطبراني (٣/ ١٨١) من حديث حذيفة بن أسيد، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣٨٦١).

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾. فَكُلّ أُمَّة تُعْرَض عَلَى الله بِحَضْرَةِ رَسُولها، وَكِتَاب أَعْمَالهَا مِنْ خَيْر وَشَرّ مَوْضُوع شَاهِد عَلَيْهِمْ، وَحَفَظَتهمْ مِنْ الْمَلَائِكَة شُهُود أَيْضًا، أُمَّة بَعْد أُمَّة، وَهَذِهِ الْأُمَّة الشَّرِيفَة وَإِنْ كَانَتْ آخِر الْأُمَم فِي الْخَلْق، إِلَّا أَنَّهَا أَوَّل الْأُمَم يَوْم الْقِيَامَة يُفْصَل بَيْنهمْ وَيُقْضَى لَهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْم الْقِيَامَة، الْمَقْضِيّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِق**»(1). فَأُمَّته إِنَّمَا حَازَتْ قَصَب السَّبْق بِشَرَفِ رَسُولهَا صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْم الدِّين.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْر هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي اِسْتِعْجَالهمْ الْعَذَاب، وَسُؤَالهمْ عَنْ وَقْته قَبْل التعيين، مِمَّا لَا فَائِدَة لَهُمْ فِيهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ: كَائِنَة لَا مَحَالَة، وَوَاقِعَة وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا وَقْتهَا عَيْنًا، وَلِهَذَا أَرْشَدَ تَعَالَى رَسُوله ﷺ إِلَى جَوَابهمْ فَقَالَ: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ: لَا أَقُول إِلَّا مَا عَلَّمَنِي، وَلَا أَقْدِر عَلَى شَيْء مِمَّا اِسْتَأْثَرَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُطْلِعنِي عَلَيْهِ، فَأَنَا عَبْده وَرَسُوله إِلَيْكُمْ، وَقَدْ أَخْبَرْتُكُمْ بِمَجِيءِ السَّاعَة وَأَنَّهَا كَائِنَة، وَلَمْ يُطْلِعنِي عَلَى وَقْتهَا، وَلَكِنْ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أَيْ: لِكُلِّ قَرْن مُدَّة مِنْ الْعُمْر مُقَدَّرَة، فَإِذَا اِنْقَضَى أَجَلهمْ ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ ﴾ الْآيَة، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ عَذَاب الله سَيَأْتِيهِمْ بَغْتَة؛ فَقَالَ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ أَيْ: لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ الْعَذَاب قَالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾ أَيْ: يَوْم الْقِيَامَة يُقَال لَهُمْ هَذَا تَبْكِيتًا وَتَقْرِيعًا، كَقَوْلِهِ: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَيَسْتَخْبِرُونَك ﴿أَحَقٌّ هُوَ ۖ ﴾؟ أَيْ: الْمِيعَاد وَالْقِيَامَة مِنْ الْأَجْدَاث بَعْد صَيْرُورَة الْأَجْسَام تُرَابًا ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أَيْ: لَيْسَ صَيْرُورَتكُمْ تُرَابًا بِمُعْجِزِ الله عَنْ إِعَادَتكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ مِنْ الْعَدَم، فَـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، وَهَذِهِ الْآيَة لَيْسَ لَهَا نَظِير فِي الْقُرْآن إِلَّا آيَتَانِ أُخْرَيَانِ يَأْمُر الله تَعَالَى رَسُوله أَنْ يُقْسِم بِهِ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْمَعَاد فِي سُورَة سَبَأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾، وَفِي التَّغَابُن: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

---

(1) صحيح: تقدم.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا قَامَتْ القِيَامَةُ يَوَدّ الكَافِر لَوْ افْتَدَى مِنْ عَذَاب الله بِمِلءِ الأَرْض ذَهَبًا ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أَيْ: بِالحَقّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ مَالِك السَّمَوَات وَالأَرْض، وَأَنَّ وَعْده حَق كَائِن لَا مَحَالَة، وَأَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيت وَإِلَيْهِ مَرْجِعهمْ، وَأَنَّهُ القَادِر عَلَى ذَلِكَ، العَلِيم بِمَا تَفَرَّقَ مِنْ الأَجْسَام، وَتَمَزَّقَ فِي سَائِر أَقْطَار الأَرْض وَالبِحَار وَالقِفَار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى خَلقه بِمَا أَنْزَلَ إِليهم مِنَ القُرْآن العَظِيم عَلَى رَسُوله الكَرِيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَيْ: زَاجِر عَنْ الفَوَاحِش ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أَيْ: مِنْ الشُّبَه وَالشُّكُوك، وَهُوَ إِزَالَة مَا فِيهَا مِنْ رِجْس وَدَنَس. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أَيْ: فحصل بِهِ الهِدَايَة وَالرَّحْمَة مِنْ الله تَعَالَى، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَالمُصَدِّقِينَ المُوقِنِينَ بِمَا فِيهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، وَقَوْله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيْ: بِهَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ الله مِنْ الهُدَى وَدِين الحَقّ فَلْيَفْرَحُوا، فَإِنَّهُ أَوْلَى مَا يَفْرَحُونَ بِهِ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيْ: مِنْ حُطَام الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا مِنْ الزَّهْرَة الفَانِيَة الذَّاهِبَة لَا مَحَالَة، كَمَا قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة وَذَكَرَ بِسَنَدِهِ عَنْ بَقِيَّة -يعني ابن الوَلِيد-، عَنْ صَفْوَان بْن عَمْرو: سَمِعْت أَيْفَع بْن عَبْد الكَلَاعِيّ يَقُول: لَمَّا قَدِمَ خَرَاج العِرَاق إِلَى عُمَر ﷺ خَرَجَ عُمَر وَمَوْلَى لَهُ، فَجَعَلَ عُمَر يَعُدّ الإِبِل، فَإِذَا هِيَ أَكْثَر مِنْ ذَلِكَ، فَجَعَلَ عُمَر يَقُول: الحَمْد لله تَعَالَى ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، وَيَقُول مَوْلَاهُ: هَذَا وَالله مِنْ فَضْل الله وَرَحْمَته. فَقَالَ عُمَر: كَذَبْت، لَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقُول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وَهَذَا مِمَّا يَجْمَعُونَ. وَقَدْ أَسْنَدَهُ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ فَرَوَاهُ عَنْ أَبِي زُرْعَة الدِّمَشْقِيّ، عَنْ حَيْوَة بْن شُرَيْح، عَنْ بَقِيَّة فَذَكَرَهُ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

قَالَ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَغَيْرهمْ: نَزَلَتْ إِنْكَارًا عَلَى المُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يُحِلُّونَ وَيُحَرِّمُونَ مِنْ البَحَائِر وَالسَّوَائِب وَالوَصَايِل، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ الآيَات. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَق، سَمِعْت أَبَا الأَحْوَص -وَهُوَ عَوْف بْن مَالِك بْن نَضْلَة- يُحَدِّث عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْت رَسُول الله ﷺ، وَأَنَا قشف الهَيْئَة فَقَالَ: «هَل لَكَ مَال؟» قُلت: نَعَمْ. قَالَ: «مِنْ أَيّ المَال؟» قَالَ: قُلت: مِنْ كُلّ المَال؛ مِنْ الإِبِل، وَالرَّقِيق، وَالخَيْل، وَالغَنَم، فَقَالَ: «إِذَا آتَاكَ الله مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ»، وَقَالَ: «هَل تُنْتَج إِبِلك صِحَاحًا آذَانهَا، فَتَعْمِد إِلَى مُوسَى فَتَقْطَع آذَانهَا، فَتَقُول: هَذِهِ بُحُر، وتشقها او تَشُقّ جُلُودهَا وَتَقُول: هَذِهِ صُرُم، وَتُحَرِّمهَا عَلَيْك وَعَلَى أَهْلِك». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنَّ مَا آتَاكَ الله ﷻ لَك حِلّ، وسَاعِد الله أَشَدّ مِنْ سَاعِدك، وَمُوسَى الله أَحَدّ مِنْ مُوسَاك»[1]. وَذَكَرَ تَمَام

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٢٠٠٧)، وأحمد (٣/ ٤٧٣) من حديث مالك بن نضلة، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

الحَدِيث. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَةَ، عَنْ أَبِي الزَّعْرَاء عَمْرو بْن عَمْرو، عَنْ عَمِّه أَبِي الأَحْوَص، وَعَنْ بَهْز بْن أَسَد، عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَبْد المَلِك بْن عُمَيْر، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، بِهِ. وَهَذَا حَدِيث جَيِّد، قَوِيّ الإِسْنَاد، وَقَدْ أَنْكَرَ الله تَعَالَى عَلَى مَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ الله، أَوْ أَحَلَّ مَا حَرَّمَ بِمُجَرَّدِ الآرَاء وَالأَهْوَاء الَّتِي لَا مُسْتَنَد لَهَا وَلَا دَلِيل عَلَيْهَا، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْم القِيَامَة. فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أَيْ: مَا ظَنّهمْ أَنْ نَصْنَع بِهِمْ يَوْم مَرْجِعهمْ إِلَيْنَا يَوْم القِيَامَة. وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قَالَ اِبْن جَرِير: فِي تَرْكه مُعَاجَلَتهمْ بِالعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا.

قُلت: وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون المُرَاد: لَذُو فَضْل عَلَى النَّاس فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِمَّا خَلَقَهُ مِنْ المَنَافِع فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يُحَرِّم عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا هُوَ ضَارّ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ أَوْ دِينهمْ. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بَل يُحَرِّمُونَ مَا أَنْعَمَ الله بِهِ عَلَيْهِمْ، وَيُضَيِّقُونَ عَلَى أَنْفُسهمْ، فَيَجْعَلُونَ بَعْضًا حَلَالًا وَبَعْضًا حَرَامًا، وَهَذَا قَدْ وَقَعَ فِيهِ المُشْرِكُونَ فِيمَا شَرَعُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَهْل الكِتَاب فِيمَا اِبْتَدَعُوهُ فِي دِينهمْ. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَد ابْن أَبِي الحَوَارِيّ، حَدَّثَنَا رَبَاح، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن الصَّبَّاح فِي قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قَالَ: إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة يُؤْتَى بِأَهْلِ وِلَايَة الله ﷻ، فَيَقُومُونَ بَيْن يَدَيْ الله ﷻ ثَلَاثَة أَصْنَاف، قال: فَيُؤْتَى بِرَجُلٍ مِنْ الصِّنْف الأَوَّل فَيَقُول: عَبْدِي؛ لِمَاذَا عَمِلت؟ فَيَقُول: يَا رَبّ، خَلَقْت الجَنَّة وَأَشْجَارهَا، وَثِمَارهَا وَأَنْهَارهَا، وَحُورهَا وَنَعِيمهَا، وَمَا أَعْدَدْت لِأَهْلِ طَاعَتك فِيهَا، فَأَسْهَرْت لَيْلِي وَأَظْمَأْت نَهَارِي شَوْقًا إِلَيْهَا. قَالَ: فَيَقُول الله تَعَالَى: عَبْدِي؛ إِنَّمَا عَمِلت لِلجَنَّةِ، هَذِهِ الجَنَّة فَادْخُلهَا، وَمِنْ فَضْلِي عَلَيْك أَنْ أَعْتَقْتك مِنْ النَّار، وَمِنْ فَضْلِي عَلَيْك أَنْ أُدْخِلك جَنَّتِي، قال: فَيَدْخُل هو وَمَنْ مَعَهُ الجَنَّة، قَالَ: ثُمَّ يُؤْتَى بِرَجُلٍ مِنْ الصِّنْف الثَّانِي، قال: فَيَقُول: عَبْدِي؛ لِمَاذَا عَمِلت؟ فَيَقُول: يَا رَبّ، خَلَقْت نَارًا، وَخَلَقْت أَغْلَالهَا وَسَعِيرهَا، وَسَمُومهَا وَيَحْمُومهَا، وَمَا أَعْدَدْت لِأَعْدَائِك وَأَهْل مَعْصِيَتك فِيهَا، فَأَسْهَرْت لَيْلِي وَأَظْمَأْت نَهَارِي خَوْفًا مِنْهَا، فَيَقُول: عَبْدِي؛ إِنَّمَا عَمِلت ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ نَارِي، فَإِنِّي قَدْ أَعْتَقْتُك مِنْ النَّار، وَمِنْ فَضْلِي عَلَيْك أَنْ أُدْخِلك جَنَّتِي، فَيَدْخُل هو وَمَنْ مَعَهُ الجَنَّة. ثُمَّ يُؤْتَى بِرَجُلٍ مِنْ الصِّنْف الثَّالِث، فَيَقُول: عَبْدِي؛ لِمَاذَا عَمِلت؟ فَيَقُول: رَبّ حُبًّا لَك، وَشَوْقًا إِلَيْك، وَعِزَّتك لَقَدْ أَسْهَرْت لَيْلِي وَأَظْمَأْت نَهَارِي شَوْقًا إِلَيْك وَحُبًّا لَك. فَيَقُول -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: عَبْدِي إِنَّمَا عَمِلت حُبًّا لِي وَشَوْقًا إِلَيَّ؛ فَيَتَجَلَّى لَهُ الرَّبّ جَلَّ جَلَاله، وَيَقُول: هَا أَنَا ذَا فَانْظُرْ إِلَيَّ. ثُمَّ يَقُول: مِنْ فَضْلِي عَلَيْك أَنْ أُعْتِقك مِنْ النَّار، وَأُبِيحك جَنَّتِي، وَأُزِيرك مَلَائِكَتِي، وَأُسَلِّم عَلَيْك بِنَفْسِي، فَيَدْخُل هُوَ وَمَنْ مَعَهُ الجَنَّة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾

يُخْبِر تَعَالَى نَبِيّه ﷺ: أَنَّهُ يَعْلَم جَمِيع أَحْوَاله وَأَحْوَال أُمَّته وَجَمِيع الخَلَائِق، فِي كُلّ سَاعَة وَأَوَان وَلَحْظَة، وَأَنَّهُ لَا يَعْزُب عَنْ عِلمه وَبَصَره مِثْقَال ذَرَّة فِي حَقَارَتهَا وَصِغَرهَا فِي السَّمَوَات وَلَا فِي الأَرْض، وَلَا أَصْغَر مِنْهَا وَلَا أَكْبَر إِلَّا فِي كِتَاب مُبِين، كَقَوْلِهِ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَم حَرَكَة الأَشْجَار وَغَيْرهَا مِنْ الجَمَادَات، وَكَذَلِكَ الدَّوَابّ السَّارِحَة فِي قَوْله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾. فَإِذَا كَانَ هَذَا عِلمه بِحَرَكَاتِ هَذِهِ الأَشْيَاء، فَكَيْف بِعِلمه بِحَرَكَاتِ المُكَلَّفِينَ المَأْمُورِينَ بِالعِبَادَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾،

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أَيْ: إِذْ تَأْخُذُونَ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ نَحْنُ مُشَاهِدُونَ لَكُمْ رَاءُونَ سَامِعُونَ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ لَمَّا سَأَلَهُ جِبْرِيل عَنْ الإِحْسَان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاك»[1].

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ هُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ كَمَا فَسَّرَهُمْ رَبّهمْ، فَكُلّ مَنْ كَانَ تَقِيًّا كَانَ للهِ وَلِيًّا، فَـ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَال الآخِرَة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَقَالَ عَبْد الله ابْن مَسْعُود، وَابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف: أَوْلِيَاء الله الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ الله. وَقَدْ وَرَدَ هَذَا فِي حَدِيث مَرْفُوع؛ كَمَا قَالَ البَزَّار: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن حَرْب الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سَعِيد بْن سَابِق، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن عَبْد الله الأَشْعَرِيّ وَهُوَ القُمِّيّ، عَنْ جَعْفَر بْن أَبِي الْمُغِيرَة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَجُل: يَا رَسُول الله؛ مَنْ أَوْلِيَاء الله؟ قَالَ: «**الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ الله**»[2]. ثُمَّ قَالَ البَزَّار: وَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَعِيد مُرْسَلًا. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو هِشَام الرِّفَاعِيّ، حَدَّثَنَا ابن فُضَيْل، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ عُمَارَة بْن القَعْقَاع، عَنْ أَبِي زُرْعَة ابنْ عَمْرو بْن جَرِير البَجَلِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَاد الله عِبَادًا يَغْبِطهُمْ الأَنْبِيَاء وَالشُّهَدَاء**» قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُول الله، لَعَلَّنَا نُحِبّهُمْ؟ قَالَ: «**هُمْ قَوْم تَحَابُّوا فِي الله مِنْ غَيْر أَمْوَال وَلَا أَنْسَاب، وُجُوههمْ نُور عَلَى مَنَابِر مِنْ نُور، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاس، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاس**»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]. ثُمَّ رَوَاهُ أَيْضًا أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيث جَرِير، عَنْ عُمَارَة بْن القَعْقَاع، عَنْ أَبِي زُرْعَة ابْن عَمْرو ابْن جَرِير، عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، بِمِثْلِهِ. وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَاد جَيِّد، إِلَّا أَنَّهُ مُنْقَطِع بَيْن أَبِي زُرْعَة وَعُمَر بْن الخَطَّاب، وَالله أَعْلَم. وَفِي حَدِيث الإِمَام أَحْمَد، عَنْ أَبِي النَّضْر، عَنْ عَبْد الحَمِيد بْن بَهْرَام، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن غَنْم، عَنْ أَبِي مَالِك الأَشْعَرِيّ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**يَأْتِي مِنْ أَفْنَاء النَّاس وَنَوَازِع القَبَائِل قَوْم لَمْ تَتَّصِل بَيْنهمْ أَرْحَام مُتَقَارِبَة؛ تَحَابُّوا فِي الله، وَتَصَافَوْا فِي الله، يَضَع الله لَهُمْ يَوْم القِيَامَة مَنَابِر مِنْ نُور؛ فَيُجْلِسهُمْ عَلَيْهَا، يَفْزَع النَّاس وَلَا يَفْزَعُونَ، وَهُمْ أَوْلِيَاء الله الَّذِينَ لَا خَوْف عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**»[4]. وَالحَدِيث مُطَوَّل. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا سُفْيَان، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ ذَكْوَان أَبِي صَالِح، عَنْ رَجُل، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قَالَ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا المُسْلِم، أَوْ تُرَى لَهُ**». وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَبُو السَّائِب، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ رَجُل مِنْ أَهْل مِصْر، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء فِي قَوْله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قَالَ: سَأَلَ رَجُل أَبَا الدَّرْدَاء عَنْ هَذِهِ الآيَة فَقَالَ: لَقَدْ سَأَلت عَنْ شَيْء مَا سَمِعْت أَحَدًا سَأَلَ عَنْهُ بَعْد رَجُل سَأَلَ عَنْهُ رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: «**هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الرَّجُل المُسْلِم أَوْ تُرَى لَهُ، بُشْرَاهُ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا وَبُشْرَاهُ فِي الآخِرَة الجَنَّة**»[5]. ثُمَّ رَوَاهُ اِبْن جَرِير، من حديث سُفْيَان، عَنْ اِبْن المُنْكَدِر، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار،

---

(١) **صحيح**: تقدم.
(٢) **صحيح**: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٦٢) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٤٦).
(٣) **صحيح الإسناد**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٧٤)، وأبو يعلى (١٠/ ٤٩٥)، وابن حبان (٥٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٦٢).
(٤) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٣) من حديث أبي مالك الأشعري، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٠٢٧).
(٥) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٢) قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في مسند أحمد: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف.

عَنْ رَجُل مِنْ أَهْل مِصْر، أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا الدَّرْدَاء عَنْ هَذِهِ الآيَة، فَذَكَرَ نَحْو مَا تَقَدَّمَ. ثُمَّ قَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مِنْهَال، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ عَاصِم ابْن بَهْدَلَة، عَنْ أَبِي صَالِح، قَالَ: سَمِعْت أَبَا الدَّرْدَاء سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ فَذَكَرَ نَحْوه سَوَاء.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا أَبَان، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت، أَنَّهُ سَأَلَ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ أَرَأَيْت قَوْل الله تَعَالَى ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فَقَالَ: «**لَقَدْ سَأَلتنِي عَنْ شَيْء مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَد مِنْ أُمَّتِي -أَوْ قَالَ: أَحَد قَبْلك. قَالَ:- تِلْكَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الرَّجُل أَوْ تُرَى لَهُ**»(١). وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ، عَنْ عِمْرَان الْقَطَّان، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، بِهِ. وَرَوَاهُ الأَوْزَاعِيّ، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، فَذَكَرَهُ. وَرَوَاهُ عَلِيّ بْن الْمُبَارَك، عَنْ يَحْيَى، عَنْ أَبِي سَلَمَة، قَالَ: نُبِّئْنَا عَنْ عُبَادَة ابْن الصَّامِت، سَأَلَ رَسُول الله ﷺ، عَنْ هَذِهِ الآيَة، فَذَكَرَهُ. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَبُو حُمَيْد الْحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا عُمَر بْن عَمْرو بْن عَبْد الأَحْمُوسِيّ، عَنْ حُمَيْد بْن عَبْد الله الْمُزَنِيّ، قَالَ: أَتَى رَجُل عُبَادَة بْن الصَّامِت، فَقَالَ: آيَة فِي كِتَاب الله أَسْأَلك عَنْهَا قَوْل الله تَعَالَى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فَقَالَ عُبَادَة: مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَد قَبْلك، سَأَلت عَنْهَا نَبِيّ الله، فَقَالَ مِثْل ذَلِكَ: «**مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَد قَبْلك، الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الْعَبْد الْمُؤْمِن فِي الْمَنَام، أَوْ تُرَى لَهُ**». ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ حَدِيث مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ أَيُّوب بْن خَالِد بْن صَفْوَان، عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فَقَدْ عَرَفْنَا بُشْرَى الآخِرَة؛ الْجَنَّة. فَمَا بُشْرَى الدُّنْيَا؟ قَالَ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الْعَبْد الْمُؤْمِن أَوْ تُرَى لَهُ، وَهِيَ جُزْء مِنْ أَرْبَعَة وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا أَوْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّة**». وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا بَهْز، حَدَّثَنَا حَمَّاد، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَان، عَنْ عَبْد الله بْن الصَّامِت، عَنْ أَبِي ذَرّ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُول الله؛ الرَّجُل يَعْمَل الْعَمَل وَيَحْمَدهُ النَّاس عَلَيْهِ، وَيُثْنُونَ عَلَيْهِ بِهِ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**تِلْكَ عَاجِل بُشْرَى الْمُؤْمِن**»(٢). رَوَاهُ مُسْلِم. وَقَالَ أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا حَسَن -يَعْنِي الأَشْيَب-، حَدَّثَنَا اِبْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا دَرَّاج، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ قَالَ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يُبَشَّرُهَا الْمُؤْمِن، هِيَ جُزْء مِنْ تِسْعَة وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّة، فَمَنْ رَأَى ذَلِكَ فَلْيُخْبِرْ بِهَا، وَمَنْ رَأَى سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ الشَّيْطَان لِيُحْزِنهُ، فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَاره ثَلاثًا، وَلْيَسْكُتْ وَلا يُخْبِر بِهَا أَحَدًا**»(٣). لَمْ يُخَرِّجُوهُ. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي يُونُس، أَنْبَأَنَا اِبْن وَهْب، حَدَّثَنِي عَمْرو بْن الْحَارِث، أَنَّ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْح حَدَّثَهُ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جبير، عَنْ عَبْد الله ابْن عَمْرو، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يُبَشَّرُ بِهَا الْمُؤْمِن، جُزْء مِنْ سِتَّة وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّة**». وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن حَاتِم الْمُؤَدِّب، حَدَّثَنَا عَمَّار بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ قَالَ: «**هِيَ فِي الدُّنْيَا؛ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الْعَبْد أَوْ تُرَى لَهُ، وَهِيَ فِي الآخِرَة الْجَنَّة**». ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن عَيَّاش، عَنْ أَبِي حُصَيْن، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، أَنَّهُ قَالَ: الرُّؤْيَا الْحَسَنَة بُشْرَى مِنْ الله، وَهِيَ مِنْ الْمُبَشِّرَات. هَكَذَا رَوَاهُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيق مَوْقُوفًا. وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر، حَدَّثَنَا هِشَام، عَنْ اِبْن سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**الرُّؤْيَا الْحَسَنَة هِيَ الْبُشْرَى، يَرَاهَا الْمُسْلِم أَوْ**

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٧٧)، والترمذي (٢٢٧٥)، وأحمد (٥/ ٣٢٥) من حديث عبادة بن الصامت، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٤٨٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٤٢).

(٣) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٢/ ٢١٩) من حديث عبد الله بن عمرو.

تُرَى لَهُ»[1]. وَقَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ حَمَّادٍ الدُّولَابِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عُبَيْد الله بْن أَبِي يَزِيد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سِبَاع بْن ثَابِت، عَنْ أُمّ كُرْز الكَعْبِيَّة، سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «ذَهَبَتْ النُّبُوَّة، وَبَقِيَتْ المُبَشِّرَات»[2]. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ اِبْن مَسْعُود، وَأَبِي هُرَيْرَة، وَابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعُرْوَة بْن الزُّبَيْر، وَيَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَعَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، وَغَيْرهمْ: أَنَّهُمْ فَسَّرُوا ذَلِكَ بِالرُّؤْيَا الصَّالِحَة. وَقِيلَ: المُرَاد بِذَلِكَ؛ بُشْرَى المَلَائِكَة لِلمُؤْمِنِ عِنْد اِحْتِضَاره بِالجَنَّةِ وَالمَغْفِرَة. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾. وَفِي حَدِيث البَرَاء ﷺ: أَنَّ المُؤْمِن إِذَا حَضَرَهُ المَوْت جَاءَهُ مَلَائِكَة بِيض الوُجُوه، بِيض الثِّيَاب، فَقَالُوا: اُخْرُجِي أَيَّتهَا الرُّوح الطَّيِّبَة؛ إِلَى رَوْح وَرَيْحَان، وَرَبّ غَيْر غَضْبَان. فَتَخْرُج مِنْ فَمه كَمَا تَسِيل القَطْرَة مِنْ فَم السِّقَاء[3]، وَأَمَّا بُشْرَاهُمْ فِي الآخِرَة فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. وَقَوْله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: هَذَا الوَعْد لَا يُبَدَّل وَلَا يُخْلَف وَلَا يُغَيَّر، بَل هُوَ مُقَرَّر مُثْبَت كَائِن لَا مَحَالَة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٥ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٦٦ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قَوْل هَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ، وَاسْتَعِنْ بِالله عَلَيْهِمْ، وَتَوَكَّل عَلَيْهِ، فـ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أَيْ: جَمِيعهَا لَهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤْمِنِينَ، ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أَيْ: السَّمِيع لِأَقْوَالِ عِبَاده العَلِيم بِأَحْوَالِهِمْ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلك السَّمَوَات وَالأَرْض، وَأَنَّ المُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الأَصْنَام، وَهِيَ لَا تَمْلِك شَيْئًا، لَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا دَلِيل لَهُمْ عَلَى عِبَادَتهَا، بَل إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ ظُنُونهمْ وَتَخَرُّصهمْ وَكَذِبهمْ وَإِفْكهمْ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لِعِبَادِهِ اللَّيْل لِيَسْكُنُوا فِيهِ، أَيْ: يَسْتَرِيحُونَ مِنْ نَصَبهمْ وَكَلَالِهِمْ وَحَرَكَاتهمْ، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أَيْ: مُضِيئًا لِمَعَاشِهِمْ وَسَعْيهمْ وَأَسْفَارهمْ وَمَصَالِحِهِمْ؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَيْ: يَسْمَعُونَ هَذِهِ الحُجَج وَالأَدِلَّة فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى عَظَمَة خَالِقهَا وَمُقَدِّرهَا وَمُسَيِّرهَا.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٨ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنْ اِدَّعَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أَيْ: تَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عَنْ كُلّ مَا سِوَاهُ، وَكُلّ شَيْء فَقِير إِلَيْهِ، ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: فَكَيْف يَكُون لَهُ وَلَد مِمَّا خَلَقَ، وَكُلّ شَيْء مَمْلُوك

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٥٧٧) من حديث أبي هريرة، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٢٧).

(٢) صحيح: أخرجه ابن جرير (٦/ ٥٧٧)، وابن ماجه (٣٨٩٦)، وأحمد (٦/ ٣٨١) من حديث أم كرز الكعبية، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٤٤).

(٣) صحيح: تقدم.

لَهُ عَبْد لَهُ ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ أَيْ: لَيْسَ عِنْدكُمْ دَلِيل عَلَى مَا تَقُولُونَهُ مِنْ الكَذِب وَالبُهْتَان ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِنْكَار وَوَعِيد أَكِيد وَتَهْدِيد شَدِيد، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾. ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الكَاذِبِينَ عَلَيْهِ المُفْتَرِينَ، مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا، بِأَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَة، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ إِذَا اِسْتَدْرَجَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ مَتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ يَضْطَرّهُمْ إِلَى عَذَاب غَلِيظ. كما قال تعالى هاهنا: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أَيْ: مُدَّة قَرِيبَة، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أَيْ: المُوجِع المُؤْلِم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ كُفْرهمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكَذِبهمْ عَلَى الله فِيمَا اِدَّعَوْهُ مِنْ الإِفْك وَالزُّور.

﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَاتْلُ﴾ أَيْ: أَخْبِرْهُمْ وَاقْصُصْ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: عَلَى كُفَّار مَكَّة الَّذِينَ يُكَذِّبُونَك وَيُخَالِفُونَك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أَيْ: خَبَره مَعَ قَوْمه الَّذِينَ كَذَّبُوهُ، كَيْف أَهْلَكَهُمْ الله وَدَمَّرَهُمْ بِالغَرَقِ أَجْمَعِينَ عَنْ آخِرهمْ، لِيُحَذِّر هَؤُلَاءِ أَنْ يُصِيبهُمْ مِنْ الهَلَاك وَالدَّمَار مَا أَصَابَ أُولَئِكَ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ أَيْ: عَظُمَ عَلَيْكُمْ ﴿مَّقَامِي﴾ أَيْ: فِيكُمْ بَيْن أَظْهُركُمْ، ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إِيَّاكُمْ ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَيْ: بِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينه؛ ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَيْ: فَإِنِّي لَا أُبَالِي وَلَا أَكُفّ عَنْكُمْ، سَوَاء عَظُمَ عَلَيْكُمْ أَوْ لَا، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أَيْ: فَاجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُون الله مِنْ صَنَم وَوَثَن، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَيْ: وَلَا تَجْعَلُوا أَمْركُمْ عَلَيْكُمْ مُلْتَبِسًا، بَل اِفْصِلُوا حَالكُمْ مَعِي، فَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ مُحِقُّونَ، فَـ﴿اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أَيْ: وَلَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَة وَاحِدَة، أَيْ: مَهْمَا قَدَرْتُمْ فَافْعَلُوا فَإِنِّي لَا أُبَالِيكُمْ وَلَا أَخَاف مِنْكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْء، كَمَا قَالَ هُود لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَيْ: كَذَّبْتُمْ وَأَدْبَرْتُمْ عَنْ الطَّاعَة ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أَيْ: لَمْ أَطْلُب مِنْكُمْ عَلَى نُصْحِي إِيَّاكُمْ شَيْئًا ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَيْ: وَأَنَا مُمْتَثِل مَا أُمِرْت بِهِ مِنْ الإِسْلَام لله ﷻ، وَالإِسْلَام هُوَ دِين جَمِيع الأَنْبِيَاء مِنْ أَوَّلهمْ إِلَى آخِرهمْ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعهمْ وَتَعَدَّدَتْ مَنَاهِجهمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس: سَبِيلًا وَسُنَّة. فَهَذَا نُوح يَقُول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيم الخَلِيل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وَقَالَ يُوسُف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، وَقَالَ مُوسَى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾، وَقَالَت السَّحَرَة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، وَقَالَتْ بِلقِيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، وَقَالَ خَاتَم الرُّسُل وَسَيِّد البَشَر ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أَيْ: مِنْ هَذِهِ الأُمَّة، وَلِهَذَا قَالَ فِي الحَدِيث الثَّابِت عَنْهُ: «نَحْنُ مَعَاشِرِ الأَنْبِيَاء أَوْلَاد عَلَات، وَدِينُنَا وَاحِد»[1]. أَيْ: هُوَ عِبَادَة الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعنَا، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْله: «أَوْلَاد عَلَات»، وَهُمْ الإِخْوَة مِنْ أُمَّهَات شَتَّى وَالأَب وَاحِد. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أَيْ: عَلَى دِينه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وَهِيَ السَّفِينَة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أَيْ: فِي الأَرْض ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّد كَيْف أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الْمُكَذِّبِينَ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْد نُوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أَيْ: بِالحُجَج وَالأَدِلَّة وَالبَرَاهِين عَلَى صِدْق مَا جَاءُوهُمْ بِهِ ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: فَمَا كَانَتْ الأُمَم لِتُؤْمِنَ بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلهمْ؛ بِسَبَب تَكْذِيبهمْ إِيَّاهُمْ أَوَّل مَا أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وَقَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أَيْ: كَمَا طَبَعَ الله عَلَى قُلُوب هَؤُلَاءِ فَمَا آمَنُوا بِسَبَب تَكْذِيبهمْ الْمُتَقَدِّم، هَكَذَا يَطْبَع الله عَلَى قُلُوب مَنْ أَشْبَهَهُمْ مِمَّنْ بَعْدهمْ، وَيَخْتِم عَلَى قُلُوبهمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا العَذَاب الأَلِيم. وَالْمُرَاد أَنَّ الله تَعَالَى أَهْلَكَ الأُمَم الْمُكَذِّبَة لِلرُّسُلِ، وَأَنْجَى مَنْ آمَنَ بِهِمْ، وَذَلِكَ مِنْ بَعْد نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنَّ النَّاس كَانُوا مِنْ قَبْله مِنْ زَمَان آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الإِسْلَام، إِلَى أَنْ أَحْدَثَ النَّاس عِبَادَة الأَصْنَام، فَبَعَثَ الله إِلَيْهِمْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا يَقُول لَهُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْم القِيَامَة: «أَنْتَ أَوَّل رَسُول بَعَثَهُ الله إِلَى أَهْل الأَرْض». قَالَ اِبْن عَبَّاس: كَانَ بَيْن آدَم وَنُوح عَشَرَة قُرُون كُلّهمْ عَلَى الإِسْلَام. وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾، وَفِي هَذَا إِنْذَار عَظِيم لِمُشْرِكِي العَرَب الَّذِينَ كَذَّبُوا سَيِّد الرُّسُل وَخَاتَم الأَنْبِيَاء وَالْمُرْسَلِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ أَصَابَ مَنْ كَذَّبَ بِتِلْكَ الرُّسُل مَا ذَكَرَهُ الله تَعَالَى مِنَ العَذَاب وَالنَّكَال، فَمَا ظَنّ هَؤُلَاءِ وَقَدْ اِرْتَكَبُوا أَكْبَر مِنْ أُولَئِكَ؟.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ مِنْ بَعْد تِلْكَ الرُّسُل ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أَيْ: قَوْمه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أَيْ: حُجَجنَا وَبَرَاهِيننَا ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أَيْ: اِسْتَكْبَرُوا عَنْ اِتِّبَاع الحَقّ وَالاِنْقِيَاد لَهُ، وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ كَأَنَّهُمْ قَبَّحَهُمْ الله أَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَالُوهُ كَذِب وَبُهْتَان، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ لَهُمْ ﴿مُوسَىٰٓ﴾ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أَيْ: تُثْنِينَا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أَيْ: الدِّين الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أَيْ: لَك وَلِهَارُون ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أَيْ: العَظَمَة وَالرِّيَاسَة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾. وَكَثِيرًا مَا يَذْكُر الله تَعَالَى قِصَّة مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فِرْعَوْن فِي كِتَابه العَزِيز لأَنَّهَا مِنْ أَعْجَب القَصَص، فَإِنَّ فِرْعَوْن حَذِرَ مِنْ مُوسَى كُلّ الحَذَر، فَسَخَّرَهُ

---

(١) صحيح: تقدم.

القَدَر أَنَّ رُبِّيَ هَذَا الَّذِي يَحْذَر مِنْهُ عَلَى فِرَاشه وَمَائِدَته بِمَنْزِلَةِ الوَلَد، ثُمَّ تَرَعْرَعَ وَعَقَدَ الله لَهُ سَبَبًا أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ، وَرَزَقَهُ النُّبُوَّة وَالرِّسَالَة وَالتَّكْلِيم، وَبَعَثَهُ إِلَيْهِ لِيَدْعُوَهُ إِلَى الله تَعَالَى لِيَعْبُدهُ، وَيَرْجِع إِلَيْهِ، هَذَا مع مَا كَانَ عَلَيْهِ فِرْعَوْن مِنْ عَظَمَة المَمْلَكَة وَالسُّلطَان، فَجَاءَهُ بِرِسَالَةِ الله تَعَالَى، وَلَيْسَ لَهُ وَزِير سِوَى أَخِيهِ هَارُون عَلَيْهِ السَّلَام فَتَمَرَّدَ فِرْعَوْن وَاسْتَكْبَرَ، وَأَخَذَتْهُ الحَمِيَّة، وَالنَّفْس الخَبِيثَة الأَبِيَّة، وَقَوِيَ رَأْسه وَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ، وَادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَتجهرم عَلَى الله وَعَتَا وَبَغَى، وَأَهَانَ حِزْب الإِيمَان مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، وَالله تَعَالَى يَحْفَظ رَسُوله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام وَأَخَاهُ هَارُون وَيَحُوطهُمَا بِعِنَايَتِهِ وَيَحْرُسهُمَا بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَام، وَلَمْ تَزَل المُحَاجَّة وَالمُجَادَلَة وَالآيَات تَقُوم عَلَى يَد مُوسَى شَيْئًا بَعْد شَيْء، وَمَرَّة بَعْد مَرَّة، مِمَّا يُبْهِر العُقُول، وَيُدْهِش الأَلْبَاب، مِمَّا لَا يَقُوم لَهُ شَيْء، وَلَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا مَنْ هُوَ مُؤَيَّد مِنْ الله، ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ وَصَمَّمَ فِرْعَوْن وَمَلَؤُهُ، قَبَّحَهُمْ الله، عَلَى التَّكْذِيب بِذَلِكَ كُلّه، وَالجَحْد وَالعِنَاد وَالمُكَابَرَة، حَتَّى أَحَلَّ الله بِهِمْ بَأْسه الَّذِي لَا يُرَدّ، وَأَغْرَقَهُمْ فِي صَبِيحَة وَاحِدَة أَجْمَعِينَ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

ذَكَرَ الله سُبْحَانه قِصَّة السَّحَرَة مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام فِي سُورَة الأَعْرَاف، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَام عَلَيْهَا هُنَاكَ، وَفِي هَذِهِ السُّورَة، وَفِي سُورَة طَه، وَفِي الشُّعَرَاء، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْن -لَعَنَهُ الله- أَرَادَ أَنْ يَتَهَرج عَلَى النَّاس، وَيُعَارِض مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ الحَقّ المُبِين، بِزَخَارِف السَّحَرَة وَالمشعبذين، فَانْعَكَسَ عَلَيْهِ النِّظَام، وَلَمْ يَحْصُل لَهُ مِنْ ذَلِكَ المَرَام، وَظَهَرَتْ البَرَاهِين الإِلَهِيَّة فِي ذَلِكَ المَحْفِل العَامّ ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ فَظَنَّ فِرْعَوْن أَنَّهُ يَنْتَصِر بِالسُّحَّار، عَلَى رَسُول عَالِم الأَسْرَار، فَخَابَ وَخَسِرَ الجَنَّة وَاسْتَوْجَبَ النَّار.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا اِصْطَفُّوا وَقَدْ وُعِدُوا مِنْ فِرْعَوْن بِالتَّقْرِيبِ وَالعَطَاء الجَزِيل ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ فَأَرَادَ مُوسَى أَنْ تَكُون البَدَاءَة مِنْهُمْ لِيَرَى النَّاس مَا صَنَعُوا، ثُمَّ يَأْتِي بِالحَقّ بَعْده فَيَدْمَغ بَاطِلَهُمْ؛ وَلِهَذَا لَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُن النَّاس وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيم، ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فَعِنْد ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَمَّا أَلْقَوْا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمَّار بْن الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن -يَعْنِي: الدَّشْتَكِيّ-، أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ عَنْ لَيْث -وَهُوَ: اِبْن أَبِي سُلَيْم-، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الآيَات شِفَاء مِنْ السِّحْر بِإِذْنِ الله تَعَالَى، تُقْرَأ فِي إِنَاء فِيهِ مَاء، ثُمَّ يُصَبّ عَلَى رَأْس المَسْحُور؛ الآيَة الَّتِي مِنْ سُورَة يُونُس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وَالآيَة الأُخْرَى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إِلَى آخِر أَرْبَع آيَات، وَقَوْله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِن بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الآيَات البَيِّنَات وَالحُجَج القَاطِعَات وَالبَرَاهِين

السَّاطِعَات، إِلَّا قَلِيل مِنْ قَوْم فِرْعَوْن مِنَ الذُّرِّيَّة وَهُمْ الشَّبَاب، عَلَى وَجَل وَخَوْف مِنْهُ وَمِنْ مَلَئِهِ أَنْ يَرُدُّوهُمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الكُفْر، لأَنَّ فِرْعَوْن -لَعَنَهُ الله- كَانَ جَبَّارًا عَنِيدًا، مُسْرِفًا فِي التَّمَرُّد وَالعُتُوّ، وَكَانَتْ لَهُ سَطْوَة وَمَهَابَة تَخَاف رَعِيَّته مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ قَالَ: فَإِنَّ الذُّرِّيَّة الَّتِي آمَنَتْ لِمُوسَى مِنْ أُنَاس غَيْر بَنِي إِسْرَائِيل مِنْ قَوْم فِرْعَوْن يَسِير، مِنْهُمْ اِمْرَأَة فِرْعَوْن، وَمُؤْمِن آل فِرْعَوْن، وَخَازِن فِرْعَوْن، وَامْرَأَة خَازِنه. وَرَوَى عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ يَقُول: بَنِي إِسْرَائِيل. وَعَنْ اِبْن عَبَّاس وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة: الذُّرِّيَّة: القَلِيل. وَقَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ قَالَ: هُمْ أَوْلَاد الَّذِينَ أُرْسِل إِلَيْهِمْ مُوسَى مِنْ طُول الزَّمَان وَمَاتَ آبَاؤُهُمْ. وَاخْتَارَ اِبْن جَرِير قَوْل مُجَاهِد فِي الذُّرِّيَّة: أَنَّهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل لَا مِنْ قَوْم فِرْعَوْن، لِعَوْدِ الضَّمِير عَلَى أَقْرَب المَذْكُورِينَ، وَفِي هَذَا نَظَر؛ لأَنَّهُ أَرَادَ بِالذُّرِّيَّةِ الأَحْدَاث وَالشَّبَاب وَأَنَّهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، فَالمَعْرُوف أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيل كُلّهمْ آمَنُوا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاسْتَبْشَرُوا بِهِ، وَقَدْ كَانُوا يَعْرِفُونَ نَعْته وَصِفَته وَالبِشَارَة بِهِ مِنْ كُتُبهمْ المُتَقَدِّمَة، وَأَنَّ الله تَعَالَى سَيُنْقِذُهُمْ بِهِ مِنْ أَسْر فِرْعَوْن وَيُظْهِرهُمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا لَمَّا بَلَغَ هَذَا فِرْعَوْن حَذِرَ كُلّ الحَذَر فَلَمْ يُجْدِ عَنْهُ شَيْئًا، وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى آذَاهُمْ فِرْعَوْن أَشَدّ الأَذَى، وَ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَكَيْف يَكُون المُرَاد: إِلَّا ذُرِّيَّة مِنْ قَوْم مُوسَى وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيل؟!. ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أَيْ: وَأَشْرَاف قَوْمه أَنْ يَفْتِنهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيل مَنْ يُخَاف مِنْهُ أَنْ يَفْتِن عَنْ الإِيمَان سِوَى قَارُون، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ قَوْم مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ، لَكِنَّهُ كَانَ طَاوِيًا إِلَى فِرْعَوْن مُتَّصِلًا بِهِ مُتَعَلِّقًا بِحِبَالِهِ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الضَّمِير فِي قَوْله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عَائِد إِلَى فِرْعَوْن وَعِظَم المُلْك مِنْ أَجْل اِتِّبَاعه أَوْ بِحَذْفِ آل فِرْعَوْن وَإِقَامَة المُضَاف إِلَيْهِ مَقَامه فَقَدْ أَبْعَدَ، وَإِنْ كَانَ اِبْن جَرِير قَدْ حَكَاهُمَا عَنْ بَعْض النُّحَاة. وَمِمَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيل إِلَّا مُؤْمِن، قَوْله تَعَالَى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيل ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أَيْ: فَإِنَّ الله كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ وَكَثِيرًا مَا يَقْرُن الله تَعَالَى بَيْن العِبَادَة وَالتَّوَكُّل، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، وَأَمَرَ الله تَعَالَى المُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي كُلّ صَلَوَاتهمْ مَرَّات مُتَعَدِّدَة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَقَدْ اِمْتَثَلَ بَنُو إِسْرَائِيل ذَلِكَ فَقَالُوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: لَا تُظْفِرهُمْ بِنَا وَتُسَلِّطهُمْ عَلَيْنَا، فَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا سُلِّطُوا لأَنَّهُمْ عَلَى الحَقّ وَنَحْنُ عَلَى البَاطِل فَيُفْتَنُوا بِذَلِكَ، هَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي مِجْلَز وَأَبِي الضُّحَى. وَقَالَ اِبْن أَبِي نَجِيح وَغَيْر وَاحِد، عَنْ مُجَاهِد: لَا تُعَذِّبنَا بِأَيْدِي قوم فِرْعَوْن، وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدك، فَيَقُول قَوْم فِرْعَوْن: لَوْ كَانُوا عَلَى حَقّ مَا عُذِّبُوا وَلَا سُلِّطْنَا عَلَيْهِمْ فَيُفْتَنُوا بِنَا. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا اِبْن عُيَيْنَة، عَنْ اِبْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لَا تُسَلِّطهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَا. وَقَوْله: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أَيْ: خَلِّصْنَا بِرَحْمَةٍ مِنْك وَإِحْسَان ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَيْ: الَّذِينَ كَفَرُوا الحَقّ وَسَتَرُوهُ، وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا بِك وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْك.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

يَذْكُر تَعَالَى سَبَب إِنْجَائِهِ بَنِي إِسْرَائِيل مِنْ فِرْعَوْن وَقَوْمه، وَكَيْفِيَّة خَلَاصهمْ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الله تَعَالَى أَمَرَ

مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُون عَلَيْهِمَا السَّلَام أَنْ يَتَبَوَّآ أَيْ: يَتَّخِذَا لِقَوْمِهِمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا. وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فَقَالَ الثَّوْرِيّ وَغَيْره، عَنْ خُصَيْف، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قَالَ: أُمِرُوا أَنْ يَتَّخِذُوهَا مَسَاجِد. وَقَالَ الثَّوْرِيّ أَيْضًا، عَنْ اِبْن مَنْصُور، عَنْ إِبْرَاهِيم ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قَالَ: كَانُوا خَائِفِينَ، فَأُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتهمْ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَأَبُو مَالِك، وَالرَّبِيع بْن أَنَس، وَالضَّحَّاك، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَأَبُوهُ زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَكَأَنَّ هَذَا وَاللهُ أَعْلَم: لَمَّا اِشْتَدَّ بِهِمْ الْبَلَاء مِنْ قِبَل فِرْعَوْن وَقَوْمه، وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ؛ أُمِرُوا بِكَثْرَةِ الصَّلَاة كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، وَفِي الْحَدِيث: «كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْر صَلَّى»[1]. أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَة: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: بِالثَّوَابِ وَالنَّصْر الْقَرِيب.

وَقَالَ الْعَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير هَذِهِ الْآيَة قَالَ: قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيل لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام: لَا نَسْتَطِيع أَنْ نُظْهِر صَلَاتنَا مَعَ الْفَرَاعِنَة، فَأَذِنَ الله تَعَالَى لَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتهمْ، وَأُمِرُوا أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتهمْ قِبَل الْقِبْلَة. وَقَالَ مُجَاهِد ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: لَمَّا خَافَ بَنُو إِسْرَائِيل مِنْ فِرْعَوْن أَنْ يُقْتَلُوا فِي الْكَنَائِس الْجَامِعَة؛ أُمِرُوا أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتهمْ مَسَاجِد مُسْتَقْبِلَة الْكَعْبَة، يُصَلُّونَ فِيهَا سِرًّا. وَكَذَا قَالَ قَتَادَة، وَالضَّحَّاك. وَقَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أَيْ: يُقَابِل بَعْضهَا بَعْضًا.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

هَذَا إِخْبَار مِنْ الله تَعَالَى عَمَّا دَعَا بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام عَلَى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ، لَمَّا أَبَوْا قَبُول الْحَقّ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالهمْ وَكُفْرهمْ، مُعَانِدِينَ جَاحِدِينَ ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَتَكَبُّرًا وَعُتُوًّا قَالَ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أَيْ: مِنْ أَثَاث الدُّنْيَا وَمَتَاعهَا ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أَيْ: جَزِيلَة كَثِيرَة ﴿فِى﴾ هَذِهِ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ بِفَتْحِ الْيَاء أَيْ: أَعْطَيْتهمْ ذَلِكَ، وَأَنْتَ تَعْلَم أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَرْسَلْتنِي بِهِ إِلَيْهِمْ، اِسْتِدْرَاجًا مِنْك لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بِضَمِّ الْيَاء أَيْ: لِيَفْتَتِنَ بِمَا أَعْطَيْتهمْ مَنْ شِئْت مِنْ خَلْقك، لِيَظُنّ مَنْ أَغْوَيْته أَنَّك إِنَّمَا أَعْطَيْتهمْ هَذَا لِحُبِّك إِيَّاهُمْ، وَاعْتِنَائِك بِهِمْ. ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد: أَيْ أَهْلِكْهَا. وَقَالَ الضَّحَّاك وَأَبُو الْعَالِيَة وَالرَّبِيع بْن أَنَس: جَعَلَهَا الله حِجَارَة مَنْقُوشَة كَهَيْئَةِ مَا كَانَتْ. وَقَالَ قَتَادَة: بَلَغَنَا أَنَّ زُرُوعهمْ تَحَوَّلَتْ حِجَارَة. وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب الْقُرَظِيّ: جَعَلَ سُكَّرهمْ حِجَارَة. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبِي الْحَارِث، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَبِي بُكَيْر، عَنْ أَبِي مَعْشَر، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن قَيْس، أَنَّ مُحَمَّد بْن كَعْب قَرَأَ سُورَة يُونُس عَلَى عُمَر بْن عَبْد الْعَزِيز حَتَّى بَلَغَ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إِلَى قَوْله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ الْآيَة. فَقَالَ له عُمَر: يَا أَبَا حَمْزَة؛ أَيّ شَيْء الطَّمْس؟ قَالَ: عَادَتْ أَمْوَالهمْ كُلّهَا حِجَارَة. فَقَالَ عُمَر بْن عَبْد الْعَزِيز لِغُلَام لَهُ: اِئْتِنِي بِكِيسٍ، فَجَاءَهُ بِكِيسٍ فَإِذَا فِيهِ حِمَّص وَبَيْض قد قُطِّعَ قَدْ حُوِّلَ حِجَارَة.

وَقَوْله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس: أَيْ: اِطْبَعْ عَلَيْهَا ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾. وَهَذِهِ الدَّعْوَة كَانَتْ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام غَضَبًا لله وَلِدِينِهِ عَلَى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ الَّذِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ لَا خَيْر فِيهِمْ وَلَا يَجِيء

---

(١) حسن: أخرجه ابن جرير (١/ ٢٩٨)، وأبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨) من حديث حذيفة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٠٣).

مِنْهُمْ شَيْء، كَمَا دَعَا نُوح عليه السلام فَقَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، وَلِهَذَا اِسْتَجَابَ الله تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام فِيهِمْ هَذِهِ الدَّعْوَة، الَّتِي أَمَّنَ عَلَيْهَا أَخُوهُ هَارُون، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾. قَالَ أَبُو الْعَالِيَة، وَأَبُو صَالِح، وَعِكْرِمَة، وَمُحَمَّد بْن كَعْب الْقُرَظِيّ، وَالرَّبِيع بْن أَنَس: دَعَا مُوسَى وَأَمَّنَ هَارُون. أَيْ: قَدْ أَجَبْنَاكُمَا فِيمَا سَأَلْتُمَا مِنْ تَدْمِير آلِ فِرْعَوْن. وَقَدْ يَحْتَجّ بِهَذِهِ الْآيَة مَنْ يَقُول: إِنَّ تَأْمِين الْمَأْمُوم عَلَى قِرَاءَة الْفَاتِحَة يتنزل مَنْزِلَة قِرَاءَتهَا؛ لِأَنَّ مُوسَى دَعَا وَهَارُون أَمَّنَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ الآيَة. أَيْ: كَمَا أُجِيبَتْ دَعْوَتكُمَا فَاسْتَقِيمَا عَلَى أَمْرِي. قَالَ اِبْن جُرَيْج، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فَامْضِيَا لِأَمْرِي وَهِيَ الِاسْتِقَامَة. قَالَ اِبْن جُرَيْج يَقُولُونَ: إِنَّ فِرْعَوْن مَكَثَ بَعْد هَذِهِ الدَّعْوَة أَرْبَعِينَ سَنَة. وَقَالَ مُحَمَّد وَعَلِيّ بْن الْحُسَيْن: أَرْبَعِينَ يَوْمًا.

﴿۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

يَذْكُر تَعَالَى كَيْفِيَّة إِغْرَاقه فِرْعَوْن وَجُنُوده؛ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيل لَمَّا خَرَجُوا مِنْ مِصْر فِي صُحْبَة مُوسَى عليه السلام وَهُمْ فِيمَا قِيلَ سِتّمِائَةِ أَلْف مُقَاتِل سِوَى الذُّرِّيَّة، وَقَدْ كَانُوا اِسْتَعَارُوا مِنْ الْقِبْط حُلِيًّا كَثِيرًا فَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ، فَاشْتَدَّ حَنَق فِرْعَوْن عَلَيْهِمْ، فَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِن حَاشِرِينَ، يَجْمَعُونَ لَهُ جُنُوده مِنْ أَقَالِيمه، فَرَكِبَ وَرَاءَهُمْ فِي أُبَّهَة عَظِيمَة وَجُيُوش هَائِلَة لِمَا يُرِيدهُ الله تَعَالَى بِهِمْ، وَلَمْ يَتَخَلَّف عَنْهُ أَحَد مِمَّنْ لَهُ دَوْلَة وَسُلْطَان فِي سَائِر مَمْلَكَته، فَلَحِقُوهُمْ وَقْت شُرُوق الشَّمْس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا اِنْتَهَوْا إِلَى سَاحِل الْبَحْر، وَفِرْعَوْن وَرَاءَهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يتقاتل الْجَمْعَانِ، وَأَلَحَّ أَصْحَاب مُوسَى عليه السلام عَلَيْهِ فِي السُّؤَال: كَيْفَ الْمَخْلَص مِمَّا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُول: إِنِّي أُمِرْت أَنْ أَسْلُك هَاهُنَا، ﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فَعِنْدَ مَا ضَاقَ الْأَمْر اِتَّسَعَ، فَأَمَرَهُ الله تَعَالَى أَنْ يَضْرِب الْبَحْر بِعَصَاهُ، فَضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ الْبَحْر، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أَيْ: كَالْجَبَلِ الْعَظِيم، وَصَارَ اِثْنَيْ عَشَر طَرِيقًا لِكُلِّ سِبْط وَاحِد، وَأَمَرَ الله الرِّيح فَنَشَّفَتْ أَرْضه، ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ وَتَخَرَّقَ الْمَاء بَيْن الطُّرُق كَهَيْئَةِ الشَّبَابِيك؛ لِيَرَى كُلّ قَوْم الْآخَرِينَ لِئَلَّا يَظُنُّوا أَنَّهُمْ هَلَكُوا، وَجَاوَزَتْ بَنُو إِسْرَائِيل الْبَحْر، فَلَمَّا خَرَجَ آخِرهمْ مِنْهُ، اِنْتَهَى فِرْعَوْن وَجُنُوده إِلَى حَافَّته مِنْ النَّاحِيَة الْأُخْرَى، وَهُوَ فِي مِائَة أَلْف أَدْهَم سِوَى بَقِيَّة الْأَلْوَان، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ هَالَهُ وَأَحْجَمَ وَهَابَ، وَهَمَّ بِالرُّجُوعِ وَهَيْهَاتَ وَلَاتَ حِين مَنَاص، نَفَذَ الْقَدَر، وَاسْتُجِيبَتْ الدَّعْوَة، وَجَاءَ جِبْرِيل عليه السلام عَلَى فَرَس وَدِيق حَائِل، فَمَرَّ إِلَى جَانِب حِصَان فِرْعَوْن فَحَمْحَمَ إِلَيْهَا، وَتقدم جبْرِيل فاقتحم الْبَحْر ودخله، فَاقْتَحَمَ الْحِصَان وَرَاءَهُ، وَلَمْ يَبْقَ فِرْعَوْن يَمْلِك مِنْ نَفْسه شَيْئًا، فَتَجَلَّدَ لِأُمَرَائِهِ وَقَالَ لَهُمْ: لَيْسَ بَنُو إِسْرَائِيل بِأَحَقّ بِالْبَحْرِ مِنَّا، فَاقْتَحَمُوا كُلّهمْ عَنْ آخِرهمْ، وَمِيكَائِيل فِي سَاقَتهمْ لَا يَتْرُك مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا أَلْحَقَهُ بِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَوْسَقُوا فِيهِ وَتَكَامَلُوا، وَهَمَّ أَوَّلهمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ، أَمَرَ الله الْقَدِير الْبَحْرَ أَنْ يَرْتَطِم عَلَيْهِمْ، فَارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَد، وَجَعَلَتْ الْأَمْوَاج تَرْفَعهُمْ وَتَخْفِضهُمْ، وَتَرَاكَمَتْ الْأَمْوَاج فَوْق فِرْعَوْن وَغَشِيَتْهُ سَكَرَات الْمَوْت، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فَآمَنَ حَيْثُ لَا يَنْفَعهُ الْإِيمَان، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى فِي جَوَاب فِرْعَوْن حِين قَالَ مَا قَالَ: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أَيْ: أَهَذَا الْوَقْت تَقُول، وَقَدْ عَصَيْت الله قَبْل هَذَا فِيمَا بَيْنك وَبَيْنه، ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ: فِي الْأَرْض، الَّذِينَ أَضَلُّوا النَّاس

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، وَهَذَا الَّذِي حَكَى الله تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْن مِنْ قَوْله هَذَا فِي حَاله ذَلِكَ مِنْ أَسْرَار الغَيْب الَّتِي أَعْلَم الله بِهَا رَسُوله ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن حَرْب، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَانَ، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لَمَّا قَالَ فِرْعَوْن: آمَنْت أَنَّهُ لا إِلَه إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيل. قَالَ: قَالَ لِي جِبْرِيل: يا محمد: لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْت حالا مِنْ حَال البَحْر فَدَسَسْته فِي فِيهِ مَخَافَة أَنْ تَنَالهُ الرَّحْمَة**»[1]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفَاسِيرهمْ، مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلَمَة، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَدِيث حَسَن. وَقَالَ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ عَدِيّ بْن ثَابِت، وَعَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**قَالَ لِي جِبْرِيل** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذ مِنْ حَال البَحْر فَأَدُسّهُ فِي فَم فِرْعَوْن مَخَافَة أَنْ تُدْرِكهُ الرَّحْمَة**»[2]. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ أَيْضًا، وَابْن جَرِير أَيْضًا، مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ شُعْبَة، بِهِ. فَذَكَرَ مِثْله. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب صَحِيح. وَوَقَعَ فِي رِوَايَة عِنْد اِبْن جَرِير، عَنْ مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، عَنْ غُنْدَر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ عَطَاء، وَعَدِيّ، عَنْ سَعِيد، عَنْ اِبْن عَبَّاس، رَفَعَهُ أَحَدهمَا. وَكَأَنَّ الآخَر لَمْ يَرْفَعه، فَالله أَعْلَم.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِد الأَحْمَر، عَنْ عُمَر بْن عَبْد الله بْن يَعْلَى الثَّقَفِيّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: لَمَّا أَغْرَقَ الله فِرْعَوْن أَشَارَ بِأُصْبُعِهِ وَرَفَعَ صَوْته: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ قَالَ: فَخَافَ جِبْرِيل أَنْ تَسْبِق رَحْمَة الله فِيهِ غَضَبه، فَجَعَلَ يَأْخُذ الحَالَ بِجَنَاحَيْهِ فَيَضْرِب بِهِ وَجْهه فَيَرْمُسهُ. وَكَذَا رَوَاهُ اِبْن جَرِير: عَنْ سُفْيَان بْن وَكِيع، ثنا أَبِي، عَنْ أَبِي خَالِد، بِهِ مَوْقُوفًا. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة أَيْضًا فَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا اِبْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا حَكَّام، عَنْ عَنْبَسَة -هُوَ اِبْن سَعِيد-، عَنْ كَثِير بْن زَاذَان، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**قَالَ لِي جِبْرِيل: يَا مُحَمَّد؛ لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَغُطّهُ وَأَدُسّ مِنْ الحَال فِي فِيهِ مَخَافَة أَنْ تُدْرِكهُ رَحْمَة الله فَيَغْفِر لَهُ**»[3]. يَعْنِي فِرْعَوْن. كَثِير بْن زَاذَان هَذَا قَالَ اِبْن مَعِين: لَا أَعْرِفهُ. وَقَالَ أَبُو زُرْعَة وَأَبُو حَاتِم: مَجْهُول. وَبَاقِي رِجَاله ثِقَات. وَقَدْ أَرْسَلَ هَذَا الحَدِيث جَمَاعَة مِنْ السَّلَف: قَتَادَة، وَإِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ، وَمَيْمُون بْن مِهْرَان، وَنُقِلَ عَنْ الضَّحَّاك بْن قَيْس أَنَّهُ خَطَبَ بِهَذَا لِلنَّاسِ، فَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس وَغَيْره مِنْ السَّلَف: إِنَّ بَعْض بَنِي إِسْرَائِيل شَكُّوا فِي مَوْت فِرْعَوْن، فَأَمَرَ الله تَعَالَى البَحْر أَنْ يُلْقِيَهُ بِجَسَدِهِ سَوِيًّا بِلَا رُوح، وَعَلَيْهِ دِرْعه المَعْرُوفَة عَلَى نَجْوَة مِنْ الأَرْض، وَهُوَ المَكَان المُرْتَفِع، لِيَتَحَقَّقُوا مَوْته وَهَلَاكه، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أَيْ: نَرْفَعك عَلَى نَشَز مِنْ الأَرْض ﴿بِبَدَنِكَ﴾ قَالَ مُجَاهِد: بِجَسَدِك. وَقَالَ الحَسَن: بِجِسْمٍ لَا رُوح فِيهِ. وَقَالَ عَبْد الله بْن شَدَّاد: سَوِيًّا صَحِيحًا أَيْ: لَمْ يَتَمَزَّق لِيَتَحَقَّقُوهُ وَيَعْرِفُوهُ. وَقَالَ أَبُو صَخْر: بِدِرْعِك. وَكُلّ هَذِهِ الأَقْوَال لَا مُنَافَاة بَيْنهَا كَمَا تَقَدَّمَ، وَالله أَعْلَم. وَقَوْله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ أَيْ: لِتَكُونَ لِبَنِي إِسْرَائِيل دَلِيلًا عَلَى مَوْتك وَهَلَاكك، وَأَنَّ الله هُوَ القَادِر الَّذِي نَاصِيَة كُلّ دَابَّة بِيَدِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَقُوم لِغَضَبِهِ شَيْء، وَلِهَذَا قَرَأَ بَعْض السلف: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ أَيْ: لَا يَتَّعِظُونَ بِهَا وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَقَدْ كَانَ إِهْلَاك فرعون يَوْم عَاشُورَاء، كَمَا قَالَ البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا غُنْدَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيّ ﷺ المَدِينَة، وَاليَهُود تَصُوم يَوْم عَاشُورَاء، فَقَالَ: «**مَا هَذَا اليَوْم الَّذِي تَصُومُونَهُ**» فَقَالُوا: هَذَا يَوْم ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْن. فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**أَنْتُمْ أَحَقّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ**»[4].

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (١/ ٣٠٩) من حديث ابن عباس، قال الشيخ شعيب: إسناده ضعيف والأصح وقفه.
(٢) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢١٦) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٥٣).
(٣) **ضعيف الإسناد**: أخرجه ابن جرير (١١/ ١٦٣)، وفيه كثير بن زاذان؛ قال ابن معين: مجهول.
(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٦٨٠)، ومسلم (١١٣٠).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل مِنْ النِّعَم الدِّينِيَّة وَالدُّنْيَوِيَّة، وَقَوْله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قِيلَ: هُوَ بِلَاد مِصْر وَالشَّام مِمَّا يَلِي بَيْت الْمَقْدِس وَنَوَاحِيه، فَإِنَّ الله تَعَالَى لَمَّا أَهْلَكَ فِرْعَوْن وَجُنُوده اِسْتَقَرَّتْ يَد الدَّوْلَة الْمُوسَوِيَّة عَلَى بِلَاد مِصْر بِكَمَالِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾، وَقَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وَقَالَ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآيَات. وَلَكِنْ اِسْتَمَرُّوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام طَالِبِينَ إِلَى بِلَاد بَيْت الْمَقْدِس، وَهِيَ بِلَاد الْخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَام فَاسْتَمَرَّ مُوسَى بِمَنْ مَعَهُ طَالِبًا بَيْت الْمَقْدِس، وَكَانَ فِيهِ قَوْم مِنْ الْعَمَالِقَة، فَنَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيل عَنْ قِتَالهمْ، فَشَرَّدَهُمْ الله تَعَالَى فِي التِّيه أَرْبَعِينَ سَنَة، وَمَاتَ فِيهِ هَارُون، ثُمَّ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام، وَخَرَجُوا بَعْدهمَا مَعَ يُوشَع بْن نُون، فَفَتَحَ الله عَلَيْهِمْ بَيْت الْمَقْدِس، وَاسْتَقَرَّتْ أَيْدِيهمْ عَلَيْهَا، إِلَى أَنْ أَخَذَهَا مِنْهُمْ بُخْتُنَصَّر حِينًا مِنْ الدَّهْر، ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَخَذَهَا مُلُوك الْيُونَان فَكَانَتْ تَحْت أَحْكَامهمْ مُدَّة طَوِيلَة، وَبَعَثَ الله عِيسَى اِبْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَام فِي تِلْكَ الْمُدَّة، فَاسْتَعَانَتْ الْيَهُود قَبَّحَهُمْ الله! عَلَى مُعَادَاة عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام بِمُلُوكِ الْيُونَان وَكَانَتْ تَحْت أَحْكَامهمْ، وَوَشَوْا عِنْدهمْ وَأَوْحَوْا إِلَيْهِمْ أَنَّ هَذَا يُفْسِد عَلَيْكُمْ الرَّعَايَا، فَبَعَثُوا مَنْ يَقْبِض عَلَيْهِ، فَرَفَعَهُ الله إِلَيْهِ وَشُبِّهَ لَهُمْ بَعْض الْحَوَارِيِّينَ بِمَشِيئَةِ الله وَقَدَره، فَأَخَذُوهُ فَصَلَبُوهُ وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ هُوَ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

ثُمَّ بَعْد الْمَسِيح عَلَيْهِ السَّلَام بِنَحْوِ ثَلَثمِائَة سَنَة، دَخَلَ قُسْطَنْطِين أَحَد مُلُوك الْيُونَان فِي دِين النَّصْرَانِيَّة، وَكَانَ فَيْلَسُوفًا قَبْل ذَلِكَ، فَدَخَلَ فِي دِين النَّصَارَى، قِيلَ: تَقِيَّة، وَقِيلَ: حِيلَة لِيُفْسِدهُ، فَوَضَعَتْ لَهُ الأَسَاقِفَة مِنْهُمْ قَوَانِين وَشَرِيعَة وَبِدَعًا وَأَحْدَثُوهَا، فَبَنَى لَهُمْ الْكَنَائِس، وَالْبِيَع الْكِبَار وَالصِّغَار، وَالصَّوَامِع، وَالْهَيَاكِل، وَالْمَعَابِد، وَالْقِلَايَات، وَانْتَشَرَ دِين النَّصْرَانِيَّة فِي ذَلِكَ الزَّمَان، وَاشْتَهَرَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ تَبْدِيل وَتَغْيِير وَتَحْرِيف، وَوَضْع وَكَذِب وَمُخَالَفَة لِدِينِ الْمَسِيح، وَلَمْ يَبْقَ عَلَى دِين الْمَسِيح عَلَى الْحَقِيقَة مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيل مِنْ الرُّهْبَان، فَاتَّخَذُوا لَهُمْ الصَّوَامِع فِي الْبَرَارِيّ وَالْمَهَامِه وَالْقِفَار، وَاسْتَحْوَذَتْ يَد النَّصَارَى عَلَى مَمْلَكَة الشَّام وَالْجَزِيرَة وَبِلَاد الرُّوم، وَبَنَى هَذَا الْمَلِك الْمَذْكُور مَدِينَة قُسْطَنْطِينِيَّة، وَالْقُمَامَة، وَبَيْت لَحْم، وَكَنَائِس بِبِلَادِ بَيْت الْمَقْدِس وَمُدُن حُورَان كَبُصْرَى وَغَيْرهَا مِنْ الْبُلْدَان، بِنَاءَات هَائِلَة مُحْكَمَة، وَعَبَدُوا الصَّلِيب مِنْ حِينَئِذٍ، وَصَلَّوْا إِلَى الشَّرْق، وَصَوَّرُوا الْكَنَائِس، وَأَحَلُّوا لَحْم الْخِنْزِير وَغَيْر ذَلِكَ مِمَّا أَحْدَثُوهُ مِنْ الْفُرُوع فِي دِينهمْ وَالأُصُول، وَوَضَعُوا لَهُ الأَمَانَة الْحَقِيرَة، الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْكَبِيرَة، وَصَنَّفُوا لَهُ الْقَوَانِين، وَبَسْط هَذَا يَطُول. وَالْغَرَض أَنَّ يَدهمْ لَمْ تَزَل عَلَى هَذِهِ الْبِلَاد إِلَى أَنْ اِنْتَزَعَهَا مِنْهُمْ الصَّحَابَة رضي الله عنهم، وَكَانَ فَتْح بَيْت الْمَقْدِس عَلَى يَدَيْ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الْخَطَّاب رضي الله عنه، وَلله الْحَمْد وَالْمِنَّة.

وَقَوْله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أَيْ: الْحَلَال مِنْ الرِّزْق الطَّيِّب النَّافِع الْمُسْتَطَاب طَبْعًا وَشَرْعًا، وَقَوْله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أَيْ: مَا اِخْتَلَفُوا فِي شَيْء مِنْ الْمَسَائِل إِلَّا مِنْ بَعْد مَا جَاءَهُمْ الْعِلْم أَيْ: وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَخْتَلِفُوا وَقَدْ بَيَّنَ الله لَهُمْ وَأَزَالَ عَنْهُمْ اللَّبْس، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيث: «**إِنَّ الْيَهُود اِخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَإِنَّ النَّصَارَى اِخْتَلَفُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّة عَلَى ثَلَاث وَسَبْعِينَ فِرْقَة، مِنْهَا وَاحِدَة فِي الْجَنَّة، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّار**» قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[1]. رَوَاهُ

---

(١) صحيح: تقدم.

الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه بِهَذَا اللَّفْظ، وَهُوَ فِي السُّنَن وَالمَسَانِيد، وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: يَفْصِل بَيْنهمْ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

قَالَ قَتَادَة ابْن دِعَامَة: بَلَغَنَا أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**لا أَشُكُّ وَلا أَسْأَل**»[1]. وَكَذَا قَالَ اِبْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَهَذَا فِيهِ تَثْبِيت لِلأُمَّةِ، وَإِعْلَام لَهُمْ أَنَّ صِفَة نَبِيّهمْ ﷺ، مَوْجُودَة فِي الكُتُب المُتَقَدِّمَة الَّتِي بِأَيْدِي أَهْل الكِتَاب، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ الآيَة. ثُمَّ مَعَ هَذَا العِلم الَّذِي يَعْرِفُونَهُ مِنْ كُتُبهمْ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، يَلبِسُونَ ذَلِكَ وَيُحَرِّفُونَهُ وَيُبَدِّلُونَهُ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مَعَ قِيَام الحُجَّة عَلَيْهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَيْ: لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا يَنْفَعهُمْ، بَل حِين لَا يَنْفَع نَفْسًا إِيمَانهَا، وَلِهَذَا لَمَّا دَعَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام عَلَى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ قَالَ: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

يَقُول تَعَالَى: فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَة آمَنَتْ بِكَمَالِهَا مِنْ الأُمَم السَّالِفَة الَّذِينَ بَعَثْنَا إِلَيْهِمْ الرُّسُل، بَل مَا أَرْسَلنَا مِنْ قَبْلك يَا مُحَمَّد مِنْ رَسُول إِلَّا كَذَّبَهُ قَوْمه أَوْ أَكْثَرهمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾. وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح: «**عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِيَاء، فَجَعَلَ النَّبِيّ يَمُرّ وَمَعَهُ الفِئَام مِنْ النَّاس، وَالنَّبِيّ يَمُرّ مَعَهُ الرَّجُل، وَالنَّبِيّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَد**»[2]. ثُمَّ ذَكَرَ كَثْرَة أَتْبَاع مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام ثُمَّ ذَكَرَ كَثْرَة أُمَّته صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ، كَثْرَة سَدَّتْ الخَافِقَيْنِ الشَّرْقِيّ وَالغَرْبِيّ.

وَالغَرَض أَنَّهُ لَمْ تُوجَد قَرْيَة آمَنَتْ بِكَمَالِهَا بِنَبِيِّهِمْ مِمَّنْ سَلَفَ مِنْ القُرَى إِلَّا قَوْم يُونُس وَهُمْ أَهْل نِينَوَى، وَمَا كَانَ إِيمَانهمْ إِلَّا خَوْفًا مِنْ وُصُول العَذَاب الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولهمْ بَعْدَ مَا عَايَنُوا أَسْبَابه، وَخَرَجَ رَسُولهمْ مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ، فَعِنْدَهَا جَأَرُوا إِلَى الله وَاسْتَغَاثُوا بِهِ وَتَضَرَّعُوا لَهُ وَاسْتَكَانُوا، وَأَحْضَرُوا أَطْفَالهمْ وَدَوَابّهمْ وَمَوَاشِيَهُمْ، وَسَأَلُوا الله تَعَالَى أَنْ يَرْفَع عَنْهُمْ العَذَاب الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ نَبِيّهمْ، فَعِنْدَهَا رَحِمَهُمْ الله وَكَشَفَ عَنْهُمْ العَذَاب وَأُخِّرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾. وَاخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ: هَل كُشِفَ عَنْهُمْ العَذَاب الأُخْرَوِيّ مَعَ الدُّنْيَوِيّ، أَوْ إِنَّمَا كُشِفَ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَقَطْ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: **أحدهما**: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا كَمَا هُوَ مُقَيَّد فِي هَذِهِ الآيَة، **والقول الثاني**: فِيهِمَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فَأَطْلَقَ عَلَيْهِمْ الإِيمَان، وَالإِيمَان مُنْقِذ مِنْ العَذَاب الأُخْرَوِيّ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِر، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ قَتَادَة فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: لَمْ يَنْفَع قَرْيَة كَفَرَتْ، ثُمَّ آمَنَتْ حِين حَضَرَهَا العَذَاب فَتُرِكَتْ، إِلَّا قَوْم يُونُس

---

(١) مرسل: تقدم.
(٢) صحيح: تقدم.

لمَّا فقدوا نبيهم، وظنُّوا أنَّ العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرَّقوا بين كلِّ بهيمة وولدها، ثمَّ عجُّوا إلى الله أربعين ليلة، فلمَّا عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف عنهم العذاب بعد أن تدلَّى عليهم، قال قتادة: وذُكِر أنَّ قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل. وكذا رُوِيَ عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف. وكان ابن مسعود يقرؤها: ﴿فهلَّا كانت قرية آمنت﴾. وقال أبو عمران، عن أبي الجلد قال: لمَّا نزل بهم العذاب جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، فمشوا إلى رجل من علمائهم، فقالوا: علِّمنا دعاء ندعو به، لعلَّ الله أن يكشف عنَّا العذاب، فقال: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، يا حيّ محيي الموتى، لا إله إلَّا أنت! قال: فكُشِف عنهم العذاب. وتمام القصة سيأتي مفصَّلًا في سورة ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ إن شاء الله.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمَّد لأذن لأهل الأرض كلِّهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلُّهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ أي: تُلزمهم وتُلجئهم؛ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل الله يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالَّة على أنَّ الله تعالى هو الفعَّال لما يريد، الهادي من يشاء، المضلُّ لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: حُجج الله وأدلَّته وهو العادل في كلِّ ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضلَّ.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

يُرشد تعالى عباده إلى التفكُّر في آلائه، وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، ممَّا في السموات من كواكب نيِّرات، ثوابت وسيَّارات، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر حتَّى يطول هذا ويقصر هذا، ثمَّ يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتِّساعها وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دوابَّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخَّر مذلَّل للسالكين، يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلَّا هو ولا ربَّ سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأيُّ شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية والرسل، بآياتها وحججها وبراهينها الدالَّة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: فَهَل يَنْتَظِر هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لَك يَا مُحَمَّد؛ مِنْ النِّقْمَة وَالعَذَاب إِلَّا مِثْل أَيَّام الله فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلهمْ مِنْ الأُمَم المَاضِيَة الْمُكَذِّبَة لِرُسُلِهِمْ؛ ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ: وَنُهْلِك الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ؛ ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: حَقًّا أَوْجَبَهُ الله عَلَى نَفْسه الكَرِيمَة، كَقَوْلِهِ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، وَكَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«إِنَّ الله كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْده فَوْق العَرْش: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»**[1].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

يَقُول تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ: قُل: يَا أَيُّهَا النَّاس؛ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكّ مِنْ صِحَّة مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ الدِّين الحَنِيف، الَّذِي أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ، فَهَا أَنَا لَا أَعْبُد الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله، وَلَكِنْ أَعْبُد الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ كَمَا أَحْيَاكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعكُمْ، فَإِنْ كَانَتْ آلِهَتكُمْ الَّتِي تَدْعُونَ مِنْ دُون الله حَقًّا فَأَنَا لَا أَعْبُدهَا، فَادْعُوهَا فَلْتَضُرَّنِي فَإِنَّهَا لَا تَضُرّ وَلَا تَنْفَع، وَإِنَّمَا الَّذِي بِيَدِهِ الضُّرّ وَالنَّفْع هُوَ الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَأُمِرْت أَنْ أَكُون مِنْ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيْ: أَخْلِصْ العِبَادَة لله وَحْده ﴿حَنِيفًا﴾ أَيْ: مُنْحَرِفًا عَنْ الشِّرْك، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهُوَ مَعْطُوف عَلَى قَوْله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآيَة، فِيهِ بَيَان؛ لِأَنَّ الخَيْر وَالشَّرّ وَالنَّفْع وَالضُّرّ إِنَّمَا هُوَ رَاجِع إِلَى الله تَعَالَى وَحْده، لَا يُشَارِكهُ فِي ذَلِكَ أَحَد، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقّ العِبَادَة وَحْده لَا شَرِيك لَهُ. رَوَى الحَافِظ اِبْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة صَفْوَان ابْن سُلَيْم، مِنْ طَرِيق عَبْد الله بْن وَهْب، أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْن أَيُّوب، عَنْ عِيسَى بْن مُوسَى، عَنْ صَفْوَان بْن سُلَيْم، عَنْ أَنَس ابْن مَالِك، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: **«اُطْلُبُوا الخَيْر دَهْرَكُمْ كُلَّهُ، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رحمة رَبّكُمْ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَات مِنْ رَحْمَته، يُصِيب بِهَا مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده، وَاسْأَلُوهُ أَنْ يَسْتُر عَوْرَاتكُمْ، وَيُؤَمِّنَ رَوْعَاتكُمْ»**[2]. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ طَرِيق اللَّيْث، عَنْ عِيسَى بْن مُوسَى، عَنْ صَفْوَان، عَنْ رَجُل مِنْ أَشْجَع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، مَرْفُوعًا بِمِثْلِهِ سَوَاء. وَقَوْله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أَيْ: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَلَوْ مِنْ أَيِّ ذَنْب كَانَ، حَتَّى مِنْ الشِّرْك بِهِ فَإِنَّهُ يَتُوب عَلَيْهِ.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُخْبِر النَّاس أَنَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْد الله هُوَ الحَقّ الَّذِي لَا مِرْيَة فِيهِ وَلَا شَكّ، فَمَنْ اِهْتَدَى بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَإِنَّمَا يَعُود نَفْع ذَلِكَ الِاتِّبَاع عَلَى نَفْسه، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ فَإِنَّمَا يَرْجِع وَبَال ذَلِكَ عَلَيْهِ، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أَيْ: وَمَا أَنَا مُوَكَّل بِكُمْ حَتَّى تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ به، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِير لَكُمْ، وَالهِدَايَة عَلَى الله تَعَالَى. وَقَوْله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ أَيْ: تَمَسَّكْ بِمَا أَنْزَلَ الله عَلَيْك وَأَوْحَاهُ إِلَيْك، وَاصْبِرْ عَلَى مُخَالَفَة مَنْ خَالَفَك مِنْ النَّاس ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أَيْ: يَفْتَح بَيْنك وَبَيْنهمْ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أَيْ: خَيْر الفَاتِحِينَ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَته.

آخر تفسير سورة يونس، ولله الحمد والمنة.

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) ضعيف جداً: أخرجه القضاعي في «الشهاب» (١/ ٤٠٧) من حديث أنس، وقال الألباني: ضعيف جدًا. انظر «الضعيفة» (٢٤٨٨).

ترتيبها ١١ تفسير سُورَةُ هُودٍ وهي مكية آياتها ١٢٣

قَالَ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا خَلَف بْن هِشَام البَزَّار، حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَص، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عِكْرِمَة؛ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْر: سَأَلت رَسُول الله ﷺ مَا شَيَّبَك؟ قَالَ: «**شَيَّبَتْنِي هُود، وَالوَاقِعَة، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْس كُوِّرَتْ**»[1]. وَقَالَ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب مُحَمَّد بْن العَلَاء، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن هِشَام عَنْ شَيْبَان، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْر: يَا رَسُول الله قَدْ شِبْتَ! قَالَ: «**شَيَّبَتْنِي هُود، وَالوَاقِعَة، وَالمُرْسَلات، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْس كُوِّرَتْ**»[2]. وَفِي رِوَايَة: «**هُود وَأَخَوَاتهَا**». وَقَالَ الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَبْدَان بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا حماد بْن الحَسَن، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سَلَّام، حَدَّثَنَا عُمَر بْن مُحَمَّد، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ سَهْل بْن سَعْد؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**شَيَّبَتْنِي هُود وَأَخَوَاتهَا: الوَاقِعَة، وَالحَاقَّة، وَإِذَا الشَّمْس كُوِّرَتْ**» وَفِي رِوَايَة: «**هُود وَأَخَوَاتهَا**». وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيث اِبْن مَسْعُود نَحْوه: فَقَالَ الحَافِظ أبو القَاسِم سُلَيْمَان بْن أَحْمَد الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الكَبِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُثْمَان بْن أَبِي شَيبة، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن طَارِق الرَّائِشِيّ، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن ثَابِت، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود ﷺ، أَنَّ أَبَا بَكْر قَالَ: يَا رَسُول الله مَا شَيَّبَك؟ قَالَ: «**هُود وَالوَاقِعَة**»[3]. عَمْرو بْن ثَابِت مَتْرُوك، وَأَبُو إِسْحَاق لَمْ يُدْرِك اِبْن مَسْعُود، وَالله أَعْلَم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق. وَأَمَّا قَوْله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أَيْ: هِيَ مُحْكَمَة فِي لَفْظهَا، مُفَصَّلَة فِي مَعْنَاهَا، فَهُوَ كَامِل صُورَة وَمَعْنًى؛ هَذَا مَعْنَى مَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَقَتَادَة، وَاخْتَارَهُ اِبْن جَرِير. وَقَوْله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أَيْ: مِنْ عِنْد الله الحَكِيم فِي أَقْوَاله وَأَحْكَامه، خَبِير بِعَوَاقِب الأُمُور. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أَيْ: نَزَّلَ هَذَا القُرْآن المُحْكَم المُفَصَّل لِعِبَادَةِ الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾. وَقَوْله: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أَيْ: إِنِّي لَكُمْ نَذِير مِنْ العَذَاب إِنْ خَالَفْتُمُوهُ، وَبَشِير بِالثَّوَاب إِنْ أَطَعْتُمُوهُ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الصَّحِيح؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ صَعِدَ الصَّفَا، فَدَعَا بُطُون قُرَيْش الأَقْرَب ثُمَّ الأَقْرَب، فَاجْتَمَعُوا فَقَالَ: «**يَا مَعْشَر قُرَيْش؛ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تُصَبِّحكُمْ أَلَسْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» فَقَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْك كَذِبًا. قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِير لَكُمْ بَيْن يَدَيْ عَذَاب شَدِيد**»[4].

وَقَوْله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أَيْ: وَآمُرُكُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنْ الذُّنُوب السَّالِفَة، وَالتَّوْبَة مِنْهَا إِلَى الله ﷻ، فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ، وَأَنْ تَسْتَمِرُّوا عَلَى ذَلِكَ؛ ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو يعلى (١/ ١٠٢)، والحاكم (٢/ ٥١٨)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٠٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٥٢)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٧)، وقال: رواه الطبراني وفيه عمرو بن ثابت وهو متروك.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٩٧) من حديث أبي بكر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٠٣٤).

(٣) ضعيف الإسناد: قال المصنف: فيه عمرو بن ثابت: متروك، وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٩٤، ٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

حَسَنًا﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة. قَالَهُ قَتَادَة. كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لِسَعْدٍ: «**وَإِنَّك لَنْ تُنْفِق نَفَقَة تَبْتَغِي بِهَا وَجْه الله إِلا أُجِرْت بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَل فِي فِيّ اِمْرَأَتك**»[1]. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي الْمُسَيِّب بْن شَرِيك، عَنْ أَبِي بَكْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن مَسْعُود رضي الله عنه، فِي قَوْله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ قَالَ: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَة كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَة، وَمَنْ عَمِلَ حَسَنَة كُتِبَتْ لَهُ عَشْر حَسَنَات، فَإِنْ عُوقِبَ بِالسَّيِّئَةِ الَّتِي كَانَ عَمِلَهَا فِي الدُّنْيَا بَقِيَتْ لَهُ عَشْر حَسَنَات، وَإِنْ لَمْ يُعَاقَب بِهَا فِي الدُّنْيَا أُخِذَ مِنْ الْحَسَنَات الْعَشْر وَاحِدَة وَبَقِيَتْ لَهُ تِسْع حَسَنَات، ثُمَّ يَقُول: هَلَكَ مَنْ غَلَبَ آحَاده عَلَى أَعْشَاره. وَقَوْله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هَذَا تَهْدِيد شَدِيد لِمَنْ تَوَلَّى عَنْ أَوَامِر الله تَعَالَى وَكَذَّبَ رُسُله، فَإِنَّ الْعَذَاب يَنَالهُ يَوْم معاده لَا مَحَالَة. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيْ: مَعَادكُمْ ومرجعكم يَوْم الْقِيَامَة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيْ: وَهُوَ الْقَادِر عَلَى مَا يَشَاء مِنْ إِحْسَانه إِلَى أَوْلِيَائِهِ، وَانْتِقَامه مِنْ أَعْدَائِهِ، وَإِعَادَته الْخَلَائِق يَوْم الْقِيَامَة، وَهَذَا مَقَام التَّرْهِيب كَمَا أَنَّ الأَوَّل مَقَام تَرْغِيب.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

قَالَ اِبْن عَبَّاس: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَقْبِلُوا السَّمَاء بِفُرُوجِهِمْ وَحَالَ وِقَاعهمْ، فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الآيَة. رواه الْبُخَارِيّ مِنْ حديث اِبْن جُرَيْج، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبَّاد بْن جَعْفَر، أَنَّ اِبْن عَبَّاس قَرَأَ: (أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ) الآيَة. فَقُلت: يَا أَبَا الْعَبَّاس، مَا تَثْنَوْنِي صُدُورهمْ؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُل يُجَامِع اِمْرَأَته فَيَسْتَحْيِي أَوْ يَتَخَلَّى فَيَسْتَحْيِي، فَنَزَلَتْ: (أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ). وَفِي لَفْظ آخَر لَهُ قَالَ اِبْن عَبَّاس: أُنَاس كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاء، وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاء، فَنَزَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ. قال البخاري: وقال غيره عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ يغطون رءوسهم. ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، حَدَّثَنَا عَمْرو، قَالَ: قَرَأَ اِبْن عَبَّاس ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونِي صُدورُهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾[2]. وَقَالَ اِبْن عَبَّاس فِي رِوَايَة أُخْرَى فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: يَعْنِي بِهِ الشَّكّ فِي الله، وَعَمَل السَّيِّئَات. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَالْحَسَن وَغَيْرهمْ، أَيْ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَثْنُونَ صُدُورهمْ إِذَا قَالُوا شَيْئًا أَوْ عَمِلُوهُ، فَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَسْتَخْفُونَ مِنْ الله بِذَلِكَ، فَأَعلمهم الله تَعَالَى أَنَّهُمْ حِين يَسْتَغْشُونَ ثِيَابهمْ عِنْد مَنَامهمْ فِي ظُلْمَة اللَّيْل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِنْ الْقَوْل، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أَيْ: يَعْلَم مَا تُكِنّ صُدُورهمْ مِنْ النِّيَّات وَالضَّمَائِر وَالسَّرَائِر، وَمَا أَحْسَن مَا قَالَ زُهَيْر بْن أَبِي سَلمَى فِي مُعَلَّقته الْمَشْهُورَة:

فَلا تَكْتُمُنَّ الله مَا فِي نفوسكم ❁ لِيَخْفَى فَمَهْمَا يُكْتَم الله يَعْلَم

يُؤَخَّر فَيُوضَع فِي كِتَاب فَيُدَّخَر ❁ لِيَوْم حِسَاب أَوْ يُعَجَّل فَيُنْقَم

فَقَدْ اِعْتَرَفَ هَذَا الشَّاعِر الْجَاهِلِيّ بِوُجُودِ الصَّانِع، وَعِلمه بِالْجُزْئِيَّاتِ وَبِالْمَعَادِ وَبِالْجَزَاءِ، وَبِكِتَابَةِ الأَعْمَال فِي الصُّحُف لِيَوْم الْقِيَامَة. وَقَالَ عَبْد الله بْن شَدَّاد: كَانَ أَحَدهمْ إِذَا مَرَّ بِرَسُولِ الله ﷺ، ثَنَى صَدْره وَغَطَّى رَأْسَهُ، فَأَنْزَلَ الله ذَلِكَ. وَعَوْد الضَّمِير على الله أَوْلَى لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾. وَقَرَأَ اِبْن عَبَّاس: (أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ) بِرَفْعِ الصُّدُور عَلَى الْفَاعِلِيَّة وَهُوَ قَرِيب الْمَعْنَى.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٣٣، ٢٥٩١، ٢٥٩٣، ٣٧٢١، ٤١٤٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٨٢).

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مُتكفِّل بِأَرْزَاقِ المَخْلُوقَات مِنْ سَائِرِ دَوَابِّ الأَرْض؛ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، بَحْرِيِّهَا وَبَرِّيِّهَا، وَأَنَّهُ يَعْلَم مُسْتَقَرّهَا وَمُسْتَوْدعهَا، أَيْ: يَعْلَم أَيْنَ مُنْتَهَى سَيْرهَا فِي الأَرْض، وَأَيْنَ تَأْوِي إِلَيْهِ مِنْ وَكْرهَا، وَهُوَ مُسْتَوْدعهَا. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، وَغَيْره عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أَيْ: حَيْثُ تَأْوِي، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ حَيْثُ تَمُوت. وَعَنْ مُجَاهِد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ فِي الرَّحِم. ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فِي الصُّلب كَالَّتِي فِي الأَنْعَام. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس وَالضَّحَّاك وَجَمَاعَة، وَذَكَرَ اِبْن أَبِي حَاتِم أَقْوَال المُفَسِّرِينَ هَاهُنَا كَمَا ذَكَرَهُ عِنْد تِلْكَ الآيَة، فَالله أَعْلَم. وَأَنَّ جَمِيع ذَلِكَ مَكْتُوب فِي كِتَاب عِنْد الله مُبِين عَنْ جَمِيع ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾، وَقَوْله: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ قُدْرَته عَلَى كُلّ شَيْء، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض فِي سِتَّة أَيَّام، وَأَنَّ عَرْشه كَانَ عَلَى المَاء قبل ذَلِكَ، كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ جَامِع بْن شَدَّاد، عَنْ صَفْوَان بْن مُحْرِز، عَنْ عِمْرَان بْن حُصَيْن، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ **«اِقْبَلُوا البُشْرَى يَا بَنِي تَمِيم»**. قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتنَا فَأَعْطِنَا. قَالَ: **«اِقْبَلُوا البُشْرَى يَا أَهْل اليَمَن»**. قَالُوا: قَدْ قَبِلنَا فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّل هَذَا الأَمْر كَيْف كَانَ؟ قَالَ: **«كَانَ الله قَبْل كُلّ شَيْء، وَكَانَ عَرْشه عَلَى المَاء، وَكَتَبَ فِي اللَّوْح المَحْفُوظ ذِكْر كُلّ شَيْء»**. قَالَ: فَأَتَانِي آتٍ؛ فَقَالَ: يَا عِمْرَان اِنْحَلَّتْ نَاقَتك مِنْ عِقَالهَا. قَالَ: فَخَرَجْت فِي إِثْرهَا فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي[1]. وَهَذَا الحَدِيث مُخَرَّج فِي صَحِيحَيْ البُخَارِيّ وَمُسْلِم بِأَلْفَاظٍ كَثِيرَة؛ فَمِنْهَا: قَالُوا: جِئْنَاك نَسْأَلك عَنْ أَوَّل هَذَا الأَمْر. فَقَالَ: **«كَانَ الله وَلَمْ يَكُنْ شَيْء قَبْله»**، وَفِي رِوَايَة: **«غَيْره»**، وَفِي رِوَايَة: **«مَعَهُ، وَكَانَ عَرْشه عَلَى المَاء، وَكَتَبَ فِي الذِّكْر كُلّ شَيْء، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض»**.

وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاص؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ **«إِنَّ الله قَدَّرَ مَقَادِير الخَلَائِق قَبْل أَنْ يَخْلُق السَّمَاوَات وَالأَرْض بِخَمْسِينَ أَلْف سَنَة، وَكَانَ عَرْشه عَلَى المَاء»**[2]. وَقَالَ البُخَارِيّ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان، أَخْبَرَنَا شُعَيْب، حدثنا أَبُو الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ؓ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: **«قَالَ الله ﷻ: أَنْفِقْ أُنْفِق عَلَيْك»**. وَقَالَ: **«يَد الله مَلْأَى لَا يَغِيضهَا نَفَقَة، سَحَّاءُ اللَّيْل وَالنَّهَار»**. وَقَالَ: **«أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَده، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاء، وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»**[3].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَخْبَرَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ يَعْلَى بْن عَطَاء، عَنْ وَكِيع بْن عُدُس، عَنْ عَمّه أَبِي رَزِين -وَاسْمه لَقِيط بْن عَامِر بْن المُنْتَفِق العُقَيْلِيّ- قَالَ: قُلت: يَا رَسُول الله، أَيْنَ كَانَ رَبّنَا قَبْل أَنْ يَخْلُق خَلقه؟ قَالَ: **«كَانَ فِي عَمَاء -سحاب- مَا تَحْته هَوَاء وَمَا فَوْقَهُ هَوَاء، ثُمَّ خَلَقَ العَرْش بَعْد ذَلِكَ»**[4]. وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير، وَابْن مَاجَهْ فِي السُّنَّة، مِنْ حَدِيث يَزِيد بْن هَارُون، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٩٠)، والترمذي (٣٩٤٦).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).
(٤) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢)، وأحمد (٤/ ١١)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٥٣٢٠).

وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قَبْل أَنْ يَخْلُق شَيْئًا. وَكَذَا قَالَ وَهْب بْن مُنَبِّه، وَضَمْرَة بن حبيب، وَقاله قَتَادَة، وَابْن جَرِير، وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ يُنَبِّئكُمْ كَيْف كَانَ بَدْء خَلقه قَبْل أَنْ يَخْلُق السَّمَاوَات وَالأَرْض. وَقَالَ الرَّبِيع بْن أَنَس: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فَلَمَّا خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض قَسَمَ ذَلِكَ المَاء قِسْمَيْنِ؛ فَجَعَلَ نِصْفًا تَحْت العَرْش وَهُوَ البَحْر المَسْجُور. وَقَالَ اِبْن عَبَّاس: إِنَّمَا سُمِّيَ العَرْش عَرْشًا لِارْتِفَاعِهِ. وَقَالَ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالِد: سَمِعْت سَعْدًا الطَّائِيّ يَقُول: العَرْش يَاقُوتَة حَمْرَاء. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، فَكَانَ كَمَا وَصَفَ نَفْسه تَعَالَى، إِذْ لَيْسَ إِلَّا المَاء وَعَلَيْهِ العَرْش، وَعَلَى العَرْش ذُو الجَلَال وَالإِكْرَام، وَالعِزَّة وَالسُّلطَان، وَالمُلك وَالقُدْرَة، وَالحِلم وَالعِلم، وَالرَّحْمَة وَالنِّعْمَة، الفَعَّال لِمَا يُرِيد. وَقَالَ الأَعْمَش، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَالَ: سُئِلَ اِبْن عَبَّاس عَنْ قَوْل الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ عَلَى أَيّ شَيْء كَانَ المَاء؟ قَالَ: عَلَى مَتْن الرِّيح[(١)].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَيْ: خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض لِنَفْعِ عِبَاده الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وحده لا شريك له، وَلَمْ يَخْلُق ذَلِكَ عَبَثًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وَقَوْله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أَيْ: لِيَخْتَبِركُمْ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وَلَمْ يَقُل: أَكْثَر عَمَلًا، بَل أَحْسَن عَمَلًا، وَلَا يَكُون العَمَل حَسَنًا حَتَّى يَكُون خَالِصًا لله ﷻ، عَلَى شَرِيعَة رَسُول الله ﷺ فَمَتَى فَقَدَ العَمَلُ وَاحِدًا مِنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ حَبِطَ وَبَطَلَ. وَقَوْله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يَقُول تَعَالَى: وَلَئِنْ أَخْبَرْت يَا مُحَمَّد هَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ أَنَّ الله سَيَبْعَثُهُمْ بَعْد مَمَاتهمْ كَمَا بَدَأَهُمْ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الله تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وَهُمْ مَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ البَعْث وَالمَعَاد يَوْم القِيَامَة، الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى القُدْرَة أَهْوَن مِنْ البَدَاءَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. وَقَوْلهمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ: يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا: مَا نُصَدِّقك عَلَى وُقُوع البَعْث، وَمَا يَذْكُر ذَلِكَ إِلَّا مَنْ سَحَرْته فَهُوَ يَتَّبِعك عَلَى مَا تَقُول.

وَقَوْله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ يَقُول تَعَالَى: وَلَئِنْ أَخَّرْنَا العَذَاب وَالمُؤَاخَذَة عَنْ هَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ إِلَى أَجَل مَعْدُود، وَأَمَد مَحْصُور، وَأَوْعَدْنَاهُمْ به إِلَى مُدَّة مَضْرُوبَة، لَيَقُولُنَّ تَكْذِيبًا وَاسْتِعْجَالًا: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أَيْ: يُؤَخِّر هَذَا العَذَاب عَنَّا، فَإِنَّ سَجَايَاهُمْ قَدْ أَلِفَتْ التَّكْذِيب وَالشَّكّ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَحِيص عَنْهُ وَلَا مَحِيد. وَالأُمَّة تُسْتَعْمَل فِي القُرْآن وَالسُّنَّة فِي مَعَانٍ مُتَعَدِّدَة؛ فَيُرَاد بِهَا الأَمَد، كَقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾، وَقَوْله فِي يُوسُف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، وَتُسْتَعْمَل فِي الإِمَام المُقْتَدَى بِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وَتُسْتَعْمَل فِي المِلَّة وَالدِّين، كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنْ المُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، وَتُسْتَعْمَل فِي الجَمَاعَة كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا

---

(١) **صحيح موقوف**: أخرجه ابن جرير (٧/ ٥)، والحاكم (٢/ ٣٦٧)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٩٠) من حديث ابن عباس، وقال الألباني: صحيح موقوف. انظر «ظلال الجنة» (٥٨٤).

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، وَالْمُرَاد مِنَ الأُمَّة هَاهُنَا الَّذِينَ يُبْعَث فِيهِمْ الرَّسُول؛ مُؤْمِنهمْ وَكَافِرهمْ، كَمَا فِي صَحِيح مُسْلِم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَد مِنْ هَذِهِ الأُمَّة؛ يَهُودِيّ وَلا نَصْرَانِيّ، ثُمَّ لا يُؤْمِن بِي إِلا دَخَلَ النَّار»[١].

وَأَمَّا أُمَّة الأتباع فَهُمُ الْمُصَدِّقُونَ لِلرُّسُلِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، وَفِي الصَّحِيح: «فَأَقُول: أُمَّتِي أُمَّتِي». وَتُسْتَعْمَل الأُمَّة فِي الفِرْقَة وَالطَّائِفَة؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ وَكَقَوْلِهِ: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنِ الإِنْسَان وَمَا فِيهِ مِنَ الصِّفَات الذَّمِيمَة، إِلَّا مَنْ رَحِمَ الله مِنْ عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ: أَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّة بَعْد نِعْمَة، حَصَلَ لَهُ إِيَاس وَقُنُوط مِنَ الخَيْر بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَل، وَكُفْر وَجُحُود لِمَاضِي الحَال، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَ خَيْرًا وَلَمْ يَرْجُ بَعْد ذَلِكَ فَرَجًا، وَهَكَذَا إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَة بَعْد نِقْمَة ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ أَيْ: يَقُول: مَا بقى يَنَالنِي بَعْد هَذَا ضَيْم وَلَا سُوء ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أَيْ: فَرِح بِمَا فِي يَده بَطِر فَخُور عَلَى غَيْره، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أَيْ: فِي الشَّدَائِد وَالْمَكَارِه، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أَيْ: فِي الرَّخَاء وَالعَافِيَة؛ ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ: بِمَا يُصِيبهُمْ مِنَ الضَّرَّاء ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ بِمَا أَسْلَفُوهُ فِي زَمَن الرَّخَاء كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُصِيب الْمُؤْمِن هَمٌّ وَلا غَمٌّ، وَلا نَصَب وَلا وَصَب وَلا حَزَن حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكهَا، إِلا كَفَّرَ الله عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[٢]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَقْضِي الله لِلْمُؤْمِنِ قَضَاء إِلا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ غَيْر الْمُؤْمِن»[٣]. وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ، عَمَّا كَانَ يَتَعَنَّت بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فِيمَا كَانُوا يَقُولُونَهُ عَنِ الرَّسُول، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْله: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ فَأَمَرَ الله تَعَالَى رَسُوله ﷺ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ لَا يَضِيق بِذَلِكَ مِنْهُمْ صَدْره، وَلَا يَهِيدَنَّه ذَلِكَ وَلَا يثنيه عَنْ دُعَائِهِمْ إِلَى الله ﷻ، آنَاء اللَّيْل وَأَطْرَاف النَّهَار، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾. وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا ﴾ أَيْ: لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِير، وَلَكَ أُسْوَة بِإِخْوَانِك مِنَ الرُّسُل قَبْلك، فَإِنَّهُمْ كُذِّبُوا

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: تقدم.

وَأُوذُوا فَصَبَرُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْر الله ﷻ. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى إِعْجَاز الْقُرْآن، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيع البشر الإتيان بِمِثْلِهِ، وَلَا بِعَشْرِ سُوَر مِثْله، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْله؛ لِأَنَّ كَلَام الرَّبّ تَعَالَى لَا يُشْبِهه كَلَام المَخْلُوقِينَ، كَمَا أَنَّ صِفَاته لَا تُشْبِه صِفَات المُحْدَثَات، وَذَاته لَا يُشْبِههَا شَيْء، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، لَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَلَا رَبّ سِوَاهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ أَيْ: فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِمُعَارَضَةِ مَا دَعَوْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ هَذَا الكَلَام مُنَزَّل مِنْ عِنْد الله، مُتَضَمِّن عِلمه وَأَمْره وَنَهْيه، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

قَالَ العَوْفِيُّ عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: إِنَّ أَهْل الرِّيَاء يُعْطَوْنَ بِحَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا؛ يَقُول: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا اِلتِمَاس الدُّنْيَا؛ صَوْمًا أَوْ صَلَاة أَوْ تَهَجُّدًا بِاللَّيْلِ، لَا يَعْمَلهُ إِلَّا لالتِمَاس الدُّنْيَا، يَقُول الله تَعَالَى: أُوَفِّيه الَّذِي اِلتَمَسَ فِي الدُّنْيَا مِنْ المَثَابَة، وَحَبِطَ عَمَله الَّذِي كَانَ يَعْمَلهُ لِالتِمَاسِ الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الآخِرَة مِنْ الخَاسِرِينَ. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ أَنَس بْن مَالِك، وَالحَسَن: نَزَلَتْ فِي اليَهُود وَالنَّصَارَى[1]. وَقَالَ مُجَاهِد وَغَيْره: نَزَلَتْ فِي أَهْل الرِّيَاء، وَقَالَ قَتَادَة: مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ وسدمه، جَازَاهُ الله بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الآخِرَة وَلَيْس لَهُ حَسَنَة يُعْطَى بِهَا جَزَاء، وَأَمَّا المُؤْمِن فَيُجَازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَيُثَاب عَلَيْهَا فِي الآخِرَة. وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث المَرْفُوع نَحْو مِنْ هَذَا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ حَال المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى فِطْرَة الله تَعَالَى الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا عِبَادَهُ مِنْ الِاعْتِرَاف لَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«كُلّ مَوْلُود يُولَد عَلَى الفِطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُولَد البَهِيمَة بَهِيمَة جَمْعَاء، هَل تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاء؟»**[2]. الحَدِيث. وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ عِيَاض بْن حِمَار، عَنْ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: **«يَقُول الله تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْت عِبَادِي حُنَفَاء، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِين فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينهمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلت لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّل بِهِ سُلْطَانًا»**. وَفِي المُسْنَد وَالسُّنَن: **«كُلّ مَوْلُود يُولَد عَلَى هَذِهِ المِلَّة، حَتَّى يُعْرِب عَنْهُ لِسَانه»**[3]. الحَدِيث. فَالمُؤْمِن بَاقٍ عَلَى هَذِهِ الفِطْرَة. وَقَوْله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أَيْ: وَجَاءَهُ شَاهِد مِنْ الله، وَهُوَ مَا أَوْحَاهُ إِلَى الأَنْبِيَاء مِنْ الشَّرَائِع المُطَهَّرَة المُكَمَّلَة المُعَظَّمَة، المُخْتَتَمَة بِشَرِيعَةِ مُحَمَّد صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَلِهَذَا قَالَ اِبْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَأَبُو العَالِيَة، وَالضَّحَّاك، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَغَيْر وَاحِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: أَنَّهُ جِبْرِيل عليه السلام.

---

(١) **صحيح الإسناد**: أخرجه ابن جرير (١٢/ ١٢).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).
(٣) **صحيح**: تقدم.

وَعَنْ عَلِيٍّ ﵁، وَالحَسَن، وَقَتَادَة: هُوَ مُحَمَّد ﷺ. وَكِلَاهُمَا قَرِيب فِي المَعْنَى، لأَنَّ كُلًّا مِنْ جِبْرِيل وَمُحَمَّد، صَلَوَات الله عَلَيْهِمَا، بَلَّغَ رِسَالَةَ الله تَعَالَى، فَجِبْرِيل إِلَى مُحَمَّد، وَمُحَمَّد إِلَى الأُمَّة. وَقِيلَ: هُوَ عَلِيّ، وَهُوَ ضَعِيف لَا يَثْبُت لَهُ قَائِل، وَالأَوَّل والثاني هُوَ الحَقّ، وَذَلِكَ أَنَّ المُؤْمِن عِنْده مِنْ الفِطْرَة مَا يَشْهَد للشريعة مِنْ حَيْثُ الجُمْلَة، وَالتَّفَاصِيل تُؤْخَذ مِنْ الشَّرِيعَة، وَالفِطْرَة تُصَدِّقهَا وَتُؤْمِن بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وَهُوَ القُرْآن، بَلَّغَهُ جِبْرِيل إِلَى النَّبِيّ ﷺ، وَبَلَّغَهُ النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ إِلَى أُمَّته، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أَيْ: وَمِنْ قَبْل القُرْآن كِتَاب مُوسَى، وَهُوَ التَّوْرَاة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أَيْ: أَنْزَلَه الله تَعَالَى إِلَى تِلْكَ الأُمَّة إِمَامًا لَهُمْ، وَقُدْوَة يَقْتَدُونَ بِهَا وَرَحْمَة مِنْ الله بِهِمْ، فَمَنْ آمَنَ بِهَا حَقّ الإِيمَان قَادَهُ ذَلِكَ إِلَى الإِيمَان بِالقُرْآنِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَذَّبَ بِالقُرْآنِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنْهُ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أَيْ: وَمَنْ كَفَرَ بِالقُرْآنِ مِنْ سَائِر أَهْل الأَرْض؛ مُشْرِكِيهِمْ وَأَهْل الكِتَاب، وَغَيْرهمْ مِنْ سَائِر طَوَائِف بَنِي آدَم، عَلَى اِخْتِلَاف أَلْوَانهمْ وَأَشْكَالهمْ وَأَجْنَاسهمْ مِمَّنْ بَلَغَهُ القُرْآن، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾. وَفِي صَحِيح مُسْلِم مِنْ حَدِيث شُعْبَة، عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ ﵁، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْمَع بِي أَحَد مِنْ هَذِهِ الأُمَّة؛ يَهُودِيّ أَوْ نَصْرَانِيّ، ثُمَّ لا يُؤْمِن بِي إلا دَخَلَ النَّار**»[1]. وَقَالَ أَيُّوب السِّخْتِيَانِيّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، قَالَ: كُنْت لَا أَسْمَع بِحَدِيثٍ عَنْ النَّبِيّ ﷺ، عَلَى وَجْهه إِلَّا وَجَدْت مِصْدَاقه -أَوْ قَالَ: تَصْدِيقه- فِي القُرْآن، فَبَلَغَنِي أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**لا يَسْمَع بِي أَحَد مِنْ هَذِهِ الأُمَّة؛ وَلا يَهُودِيّ وَلا نَصْرَانِيّ؛ فَلا يُؤْمِن بِي إلا دَخَلَ النَّار**»، فَجَعَلْت أَقُول: أَيْنَ مِصْدَاقه فِي كِتَاب الله؟ وَقَالَ: وَقَلَّمَا سَمِعْت عَنْ رَسُول الله ﷺ، إِلَّا وَجَدْت لَهُ تَصْدِيقًا فِي القُرْآن، حَتَّى وَجَدْت هَذِهِ الآيَة: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ قَالَ: مِنْ المِلَل كُلّهَا.

وَقَوْله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أَيْ: القُرْآن حَقّ مِنْ الله لَا مِرْيَة فِيهِ وَلَا شَكّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وَقَوْله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٩ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ۝٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾

يُبَيِّن تَعَالَى حَال المُفْتَرِينَ عَلَيْهِ، وَفَضِيحَتهمْ فِي الدَّار الآخِرَة عَلَى رُءُوس الخَلَائِق؛ مِنْ المَلَائِكَة وَالرُّسُل وَالأَنْبِيَاء وَسَائِر البَشَر وَالجَانّ، كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا بَهْز وَعَفَّان؛ قَالَا: أَخْبَرَنَا هَمَّام، حَدَّثَنَا قَتَادَة، عَنْ صَفْوَان بْن مُحْرِز قَالَ: كُنْت آخِذًا بِيَدِ اِبْن عُمَر، إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُل قَالَ: كَيْف سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول فِي النَّجْوَى يَوْم القِيَامَة؟ قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**إِنَّ الله ﷻ يُدْنِي المُؤْمِن فَيَضَع عَلَيْهِ كَنَفه، وَيَسْتُرهُ**

---

(١) صحيح: تقدم.

مِنَ النَّاس، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُول لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْب كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْب كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْب كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسه أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرهَا لَكَ الْيَوْم. ثُمَّ يُعْطَى كِتَاب حَسَنَاته، وَأَمَّا الْكُفَّار وَالْمُنَافِقُون فَـ ﴿يَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾»[1]. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيّ، وَمُسْلِم فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث قَتَادَة، بِه.

وَقَوْله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ: يَرُدُّونَ النَّاس عَنْ اِتِّبَاع الْحَقّ، وَسُلُوك طَرِيق الْهُدَى الْمُوَصِّلَة إِلَى الله ﷻ، وَيُجَنِّبُونَهُمْ الْجَنَّة ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ: وَيُرِيدُونَ أَنْ يَكُون طَرِيقهمْ عِوَجًا غَيْر مُعْتَدِلَة ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ أَيْ: جَاحِدُونَ بِهَا مُكَذِّبُونَ بِوُقُوعِهَا وَكَوْنهَا. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أَيْ: بَلْ كَانُوا تَحْت قَهْره وَغَلَبَته، وَفِي قَبْضَته وَسُلْطَانه، وَهُوَ قَادِر عَلَى الِانْتِقَام مِنْهُمْ فِي الدَّار الدُّنْيَا قَبْل الْآخِرَة ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتهُ»[2]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ: يُضَاعَف عَلَيْهِمْ الْعَذَاب، وَذَلِكَ أَنَّ الله تَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَة، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعهمْ وَلَا أَبْصَارهمْ وَلَا أَفْئِدَتهمْ، بَلْ كَانُوا صُمًّا عَنْ سَمَاع الْحَقّ، عُمْيًا عَنْ اِتِّبَاعه، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ حِين دُخُولهمْ النَّار، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾، وَلِهَذَا يُعَذَّبُونَ عَلَى كُلّ أَمْر تَرَكُوهُ، وَعَلَى كُلّ نَهْي اِرْتَكَبُوهُ، وَلِهَذَا كَانَ أَصَحّ الْأَقْوَال أَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ بِفُرُوعِ الشَّرَائِع؛ أَمْرهَا وَنَهْيهَا، بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّار الْآخِرَة.

وقوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ: خَسِرُوا أَنْفُسهمْ؛ لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا نَارًا حَامِيَة فَهُمْ مُعَذَّبُونَ فِيهَا، لَا يَفْتُر عَنْهُمْ مِنْ عَذَابهَا طَرْفَة عَيْن، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أَيْ: ذَهَبَ عَنْهُمْ ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ مِنْ دُون الله مِنَ الْأَنْدَاد وَالْأَصْنَام، فَلَمْ تُجْدِ عَنْهُمْ شَيْئًا، بَلْ ضَرَّتهمْ كُلّ الضَّرَر، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾، وَقَالَ الْخَلِيل لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾، وَقَوْله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنَ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى خُسْرهمْ وَدَمَارهمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ يُخْبِر تَعَالَى عَنْ حَالهمْ أَنَّهُمْ أَخْسَر النَّاس صَفْقَة فِي الدَّار الْآخِرَة؛ لِأَنَّهُمْ اِسْتَبْدَلُوا الدَّرَكَات عَنْ الدَّرَجَات، وَاعْتَاضُوا عَنْ نَعِيم الْجِنَان بِحَمِيمٍ آنٍ، وَعَنْ شُرْب الرَّحِيق الْمَخْتُوم بِسَمُومٍ وَحَمِيم وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم، وَعَنْ الْحُور الْعِين بِطَعَامٍ مِنْ غِسْلِين، وَعَنْ الْقُصُور الْعَالِيَة بِالْهَاوِيَةِ، وَعَنْ قُرْب الرَّحْمَن وَرُؤْيَته بِغَضَبِ الدَّيَّان وَعُقُوبَته، فَلَا جَرَم أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَة هُمْ الْأَخْسَرُونَ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَال الْأَشْقِيَاء ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاء، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات، فَآمَنَتْ قُلُوبهمْ، وَعَمِلَتْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).
(٢) صحيح: تقدم.

جوارحهم الأعمال الصالحة؛ قولًا وفعلًا، من الإتيان بالطاعات، وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون، ولا يهرمون ولا يمرضون، ولا ينامون ولا يتغوطون، ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون. ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الذين وصفهم أولًا بالشقاء، والمؤمنين السعداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر: أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة، لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، وأما المؤمن: ففطن ذكي لبيب، بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام، أنه قال لقومه: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذابًا أليمًا موجعًا شاقًا في الدار الآخرة. ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ والملأ: هم السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: لست بملك ولكنك بشر، فكيف أوحي إليك من دوننا، ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا؛ كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: في أول بادئ الرأي، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق، ولا خلق ولا رزق ولا حال، لما دخلتم في دينكم هذا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه: أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالبًا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟

قَالَ: بَل ضُعَفَاؤُهُمْ. فَقَالَ هِرَقْل: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُل(١). وَقَوْلهمْ: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ لَيْسَ بِمَذَمَّةٍ وَلَا عَيْب؛ لأَنَّ الحَقّ إِذَا وَضَحَ لَا يَبْقَى لِلرَّأْيِ وَلَا لِلفِكْرِ مَجَالٌ، بَل لَابُدّ مِنْ اِتِّبَاع الحَقّ وَالحَالَة هَذِهِ، لِكُلِّ ذِي زَكَاء وَذَكَاء، بَل لَا يُفَكِّر هَاهُنَا إِلَّا عَبِيّ أَوْ غَبِيّ، وَالرُّسُل صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، إِنَّمَا جَاءُوا بِأَمْرٍ جَلِيّ وَاضِح. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الإِسْلَام إِلَّا كَانَتْ لَهُ كَبْوَة، غَيْر أَبِي بَكْر فَإِنَّهُ لَمْ يَتَلَعْثَم**»(٢). أَيْ: مَا تَرَدَّدَ وَلَا تَرَوَّى؛ لأَنَّهُ رَأَى أَمْرًا جَلِيًّا عَظِيمًا وَاضِحًا فَبَادَرَ إِلَيْهِ وَسَارَعَ. وَقَوْله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ هُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُمْ عُمْي عَنْ الحَقّ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ، بَل هُمْ فِي رَيْبهمْ يَتَرَدَّدُونَ، فِي ظُلُمَات الجَهْل يَعْمَهُونَ، وَهُمْ الأَفَّاكُونَ الكَاذِبُونَ، الأَقَلُّونَ الأَرْذَلُونَ، وَفِي الآخِرَة هُمْ الأَخْسَرُونَ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا رَدَّ بِهِ نُوح عَلَى قَوْمه فِي ذَلِكَ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أَيْ: عَلَى يَقِين وَأَمْر جَلِيّ وَنُبُوَّة صَادِقَة، وَهِيَ الرَّحْمَة العَظِيمَة مِنْ الله بِهِ وَبِهِمْ، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: خَفِيَتْ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَهْتَدُوا إِلَيْهَا، وَلَا عَرَفْتُمْ قَدْرهَا، بَل بَادَرْتُمْ إِلَى تَكْذِيبهَا وَرَدّهَا ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أَيْ: نَغْصِبكُمْ بِقَبُولِهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

يَقُول لِقَوْمِهِ: لَا أَسْأَلكُمْ عَلَى نُصْحِي لَكُمْ مَالًا أُجْرَة آخُذهَا مِنْكُمْ، إِنَّمَا أَبْتَغِي الأَجْر مِنْ الله ﷻ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُد المُؤْمِنِينَ عَنْهُ اِحْتِشَامًا وَنَفَاسَة مِنْهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ، كَمَا سَأَلَ أَمْثَالهمْ خَاتَم الرُّسُل ﷺ أَنْ يَطْرُد عَنْهُمْ جَمَاعَة مِنْ الضُّعَفَاء، وَيَجْلِس مَعَهُمْ مَجْلِسًا خَاصًّا، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآيَة، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الآيَة.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

يُخْبِرهُمْ أَنَّهُ رَسُول مِنْ الله، يَدْعُو إِلَى عِبَادَة الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، بِإِذْنِ الله لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَا يَسْأَلهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا، بَل هُوَ يَدْعُو مَنْ لَقِيَهُ مِنْ شَرِيف وَوَضِيع، فَمَنْ اِسْتَجَابَ لَهُ فَقَدْ نَجَا، وَيُخْبِرهُمْ أَنَّهُ لَا يَقدر لَهُ عَلَى التَّصَرُّف فِي خَزَائِن الله، وَلَا يَعْلَم مِنْ الغَيْب إِلَّا مَا أَطْلَعَهُ الله عَلَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ بِمَلَكٍ مِنْ المَلَائِكَة، بَل هُوَ بَشَر مُرْسَل مُؤَيَّد بِالمُعْجِزَاتِ، وَلَا أَقُول عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَحْتَقرونهم وَتَزْدَرُونَهُمْ: إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ عِنْد الله ثَوَاب عَلَى أَعْمَالهمْ، الله أَعْلَم بِمَا فِي أَنْفُسهمْ، فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بَاطِنًا كَمَا هُوَ الظَّاهِر مِنْ حَالهمْ؛ فَلَهُمْ جَزَاء الحُسْنَى، وَلَوْ قَطَعَ لَهُمْ أَحَد بِشَرٍّ بَعْد مَا آمَنُوا لَكَانَ ظَالِمًا قَائِلًا مَا لَا عِلم لَهُ بِهِ.

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) ثبت نحوه في «صحيح البخاري» (٣٦٦١).

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ اِسْتِعْجَال قَوْم نُوح نِقْمَة الله وَعَذَابه وَسَخَطه، وَالبَلَاء مُوَكَّل بِالمَنْطِق ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ أَيْ: حَاجَجْتنَا فَأَكْثَرت مِنْ ذَلِكَ، وَنَحْنُ لَا نَتَّبِعك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أَيْ: مِنَ النِّقْمَة وَالعَذَاب، اُدْعُ عَلَيْنَا بِمَا شِئْت فَلْيَأْتِنَا مَا تَدْعُو بِهِ؛ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا الَّذِي يُعَاقِبكُمْ وَيُعَجِّلهَا لَكُمْ الله الَّذِي لَا يُعْجِزهُ شَيْء، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أَيْ: أَيّ شَيْء يُجْدِي عَلَيْكُمْ إِبْلَاغِي لَكُمْ، وَإِنْذَارِي إِيَّاكُمْ وَنُصْحِي ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أَيْ: إِغْوَاءَكُمْ وَدَمَاركُمْ، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ: هُوَ مَالِك أَزِمَّة الأُمُور، المُتَصَرِّف الحَاكِم العَادِل الَّذِي لَا يَجُور، لَهُ الخَلق وَلَهُ الأَمْر، وَهُوَ المُبْدِئ المُعِيد مَالِك الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

هَذَا كَلَام مُعْتَرِض فِي وَسَط هَذِهِ القِصَّة مُؤَكِّد لَهَا وَمُقَرِّر شَأْنهَا؛ يَقُول تَعَالَى لنبيه مُحَمَّد ﷺ أَمْ يَقُول هَؤُلَاءِ الكَافِرُونَ الجَاحِدُونَ: اِفْتَرَى هَذَا وَافْتَعَلَهُ مِنْ عِنْده ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أَيْ: فَإِثْم ذَلِكَ عَلَيَّ ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أَيْ: لَيْسَ ذَلِكَ مُفْتَعَلًا وَلَا مُفْتَرًى؛ لأَنِّي أَعْلَم مَا عِنْد الله مِنَ العُقُوبَة لِمَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى نُوح لَمَّا اِسْتَعْجَلَ قَوْمه نِقْمَة الله بِهِمْ وَعَذَابه لَهُمْ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ نُوح دَعْوَته الَّتِي قَالَ الله تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ فَعِنْد ذَلِكَ أَوْحَى الله تعالى إِلَيْهِ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فَلَا تَحْزَن عَلَيْهِمْ وَلَا يُهِمَّنَّك أَمْرهمْ. ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ يَعْنِي: السَّفِينَة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أَيْ: بِمَرْأَى مِنَّا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أَيْ: وَتَعْلِيمنَا لَك مَاذَا تَصْنَعهُ ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾، فَقَالَ بَعْض السَّلَف: أَمَرَهُ الله تَعَالَى أَنْ يَغْرِز الخَشَب وَيُقَطِّعهُ وَيُيَبِّسهُ، فَكَانَ ذَلِكَ فِي مِائَة سَنَة، وَنَجَرَهَا فِي مِائَة سَنَة أُخْرَى، وَقِيلَ: فِي أَرْبَعِينَ سَنَة، وَالله أَعْلَم. وَذَكَرَ مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَنْ التَّوْرَاة: أَنَّ الله أَمَرَهُ أَنْ يَصْنَعهَا مِنْ خَشَب السَّاج، وَأَنْ يَجْعَل طُولهَا ثَمَانِينَ ذِرَاعًا، وَعَرْضهَا خَمْسِينَ ذِرَاعًا، وَأَنْ يَطْلِي بَاطِنهَا وَظَاهِرهَا بِالقَار، وَأَنْ يَجْعَل لَهَا جُؤْجُؤًا أَزْوَرًا يَشُقّ المَاء. وَقَالَ قَتَادَة: كَانَ طُولهَا ثَلَاثمِائَةِ ذِرَاع فِي عَرْض خَمْسِينَ. وَعَنْ الحَسَن: طُولهَا سِتّمِائَةِ ذِرَاع، وَعَرْضهَا ثَلَاثمِائَةِ ذِرَاع. وَعَنْهُ مَعَ اِبْن عَبَّاس: طُولهَا أَلْف وَمِائَتَا ذِرَاع فِي عَرْض سِتّمِائَةِ. وَقِيلَ: طُولهَا أَلْفَا ذِرَاع وَعَرْضهَا مِائَة ذِرَاع، فَالله أَعْلَم. قَالُوا كُلّهمْ: وَكَانَ اِرْتِفَاعهَا فِي السَّمَاء ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا، ثَلَاث طَبَقَات كُلّ طَبَقَة عَشَرَة أَذْرُع؛ فَالسُّفْلَى لِلدَّوَابّ وَالوُحُوش، وَالوُسْطَى لِلإِنْس، وَالعُلْيَا لِلطُّيُور، وَكَانَ بَابهَا فِي عَرْضهَا، وَلَهَا غِطَاء مِنْ فَوْقهَا مُطْبَق عَلَيْهَا. وَقَدْ ذَكَرَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير أَثَرًا غَرِيبًا مِنْ حَدِيث عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان، عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، عَنْ عَبْد الله بْن عَبَّاس؛ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ الحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى اِبْن مَرْيَم: لَوْ بَعَثْت لَنَا رَجُلًا شَهِدَ السَّفِينَة فَحَدَّثَنَا عَنْهَا. قَالَ: فَانْطَلَقَ بِهِمْ حَتَّى اِنْتَهَى بِهِمْ إِلَى كَثِيب مِنْ تُرَاب، فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ ذَلِكَ التُّرَاب بِكَفِّهِ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: هَذَا كَعْب حَام ابْن نُوح. قَالَ: فَضَرَبَ الكَثِيب بِعَصَاهُ، قَالَ: قُمْ بِإِذْنِ الله. فَإِذَا هُوَ قَائِم يَنْفُض التُّرَاب عَنْ رَأْسه قَدْ شَابَ. قَالَ لَهُ عِيسَى عليه السلام: هَكَذَا هَلَكْت؟ قَالَ: لَا. وَلَكِنِّي مُتّ وَأَنَا شَابّ، وَلَكِنِّي ظَنَنْت أَنَّهَا السَّاعَة فَمِنْ ثَمَّ شِبْت. قَالَ: حَدِّثْنَا عَنْ سَفِينَة نُوح؟ قَالَ: كَانَ طُولهَا أَلْف ذِرَاع وَمِائَتَيْ ذِرَاع، وَعَرْضهَا سِتّمِائَةِ ذِرَاع، وَكَانَتْ ثَلَاث طَبَقَات؛

فطَبَقَة فِيهَا الدَّوَابّ وَالوحش، وَطَبَقَة فِيهَا الإِنْس، وَطَبَقَة فِيهَا الطَّيْر، فَلَمَّا كَثُرَ أَرْوَاث الدَّوَابّ، أَوْحَى الله ﷻ إِلَى نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ اِغْمِزْ ذَنَب الفِيل، فَغَمَزَهُ فَوَقَعَ مِنْهُ خِنْزِير وَخِنْزِيرَة فَأَقْبَلَا عَلَى الرَّوْث، فَلَمَّا وَقَعَ الفَأْر بخرز السَّفِينَة يَقْرِضه وَحِبَالهَا، أَوْحَى الله إلى نوح أَنْ اِضْرِبْ بَيْن عَيْنَيْ الأَسَد، فَضَرَبَ فَخَرَجَ مِنْ مَنْخِره سِنَّوْر وَسِنَّوْرَة فَأَقْبَلَا عَلَى الفَأْر، فَقَالَ لَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَيْف عَلِمَ نُوح أَنَّ البِلَاد قَدْ غَرِقَتْ؟ قَالَ: بَعَثَ الغُرَاب يَأْتِيه بِالخَبَر، فَوَجَدَ جِيفَة فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَدَعَا عَلَيْهِ بِالخَوْفِ فَلِذَلِكَ لَا يَأْلَف البُيُوت. قَالَ: ثُمَّ بَعَثَ الحَمَامَة فَجَاءَتْ بِوَرَق زَيْتُون بِمِنْقَارِهَا وَطِين بِرِجْلَيْهَا، فَعَلِمَ أَنَّ البِلَاد قَدْ غَرِقَتْ قَالَ: فَطَوَّقَهَا الخُضْرَة الَّتِي فِي عُنُقهَا، وَدَعَا لَهَا أَنْ تَكُون فِي أُنْس وَأَمَانٍ، فَمِنْ ثَمَّ تَأْلَف البُيُوت قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُول الله؛ أَلَا نَنْطَلِق بِهِ إِلَى أَهْلِينَا فَيَجْلِس مَعَنَا وَيُحَدِّثنَا؟ قَالَ: كَيْف يَتْبَعكُمْ مَنْ لَا رِزْق لَهُ؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ: عُدْ بِإِذْنِ الله؛ فَعَادَ تُرَابًا[1]. وَقَوْله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ أَيْ: يطنزون[2] بِهِ، وَيُكَذِّبُونَ بِمَا يَتَوَعَّدهُمْ بِهِ مِنْ الغَرَق ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وَعِيد شَدِيد وَتَهْدِيد أَكِيد ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أَيْ: يُهِينهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أَيْ: دَائِم مُسْتَمِرّ أَبَدًا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

هَذِهِ مُوَاعَدَةٌ مِنْ الله تَعَالَى لِنُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا جَاءَ أَمْر الله مِنْ الأَمْطَار المُتَتَابِعَة وَالهَتَّانِ الَّذِي لَا يُقْلِع وَلَا يَفْتُر، بَل هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾، وَأَمَّا قَوْله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فَعَنْ اِبْن عَبَّاس: التَّنُّور: وَجْه الأَرْض. أَيْ: صَارَتْ الأَرْض عُيُونًا تَفُور، حَتَّى فَارَ المَاء مِنْ التَّنَانِير الَّتِي هِيَ مَكَان النَّار صَارَتْ تَفُور مَاء، وَهَذَا قَوْل جُمْهُور السَّلَف وَعُلَمَاء الخَلَف، وَعَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ: التَّنُّور: فَلَق الصُّبْح، وَتَنْوِير الفَجْر وَهُوَ ضِيَاؤُهُ وَإِشْرَاقه. وَالأَوَّل أَظْهَر. وَقَالَ مُجَاهِد وَالشَّعْبِيّ: كَانَ هَذَا التَّنُّور بِالكُوفَةِ. وَعَنْ اِبْن عَبَّاس: عَيْن بِالهِنْدِ. وَعَنْ قَتَادَة: عَيْن بِالجَزِيرَةِ يُقَال لَهَا عَيْن الوَرْدَة. وَهَذِهِ أَقْوَال غَرِيبَة. فَحِينَئِذٍ أَمَرَ الله نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَحْمِل مَعَهُ فِي السَّفِينَة مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اِثْنَيْنِ مِنْ صُنُوف المَخْلُوقَات ذَوَات الأَرْوَاح، قِيلَ: وَغَيْرهَا مِنْ النَّبَاتَات اِثْنَيْنِ: ذَكَرًا وَأُنْثَى، فَقِيلَ: كَانَ أَوَّل مَنْ أُدْخِل مِنْ الطُّيُور الدُّرَّة، وَآخِر مَنْ أُدْخِلَ مِنْ الحَيَوَانَات الحِمَار، فدخل إِبْلِيس متعلقًا بِذَنَبِهِ، فدخل بيده وَجَعَلَ يُرِيد أَنْ يَنْهَض فَيُثْقِلهُ إِبْلِيس وَهُوَ مُتَعَلِّق بِذَنَبِهِ، فَجَعَلَ يَقُول لَهُ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَالَك؟ وَيْحك! اُدْخُل، فَيَنْهَض وَلَا يَقْدِر، فَقَالَ: اُدْخُل وَإِنْ كَانَ إِبْلِيس مَعَك، فَدَخَلَا فِي السَّفِينَة. وَذَكَرَ أبو عبيدة ابن عبد الله بن مسعود: أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ الأَسَد حَتَّى أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ الحُمَّى.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن صَالِح كَاتِب اللَّيْث، حَدَّثَنِي اللَّيْث، حَدَّثَنِي هِشَام ابْن سَعْد، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: **«لَمَّا حَمَلَ نُوح فِي السَّفِينَة مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اِثْنَيْنِ قَالَ أَصْحَابه: وَكَيْف نطمئن -أو: تَطْمَئِنّ المَوَاشِي- وَمَعَهَا الأَسَد؟ فَسَلَّطَ الله عَلَيْهِ الحُمَّى، فَكَانَتْ أَوَّل حُمَّى نَزَلَتْ فِي الأَرْض، ثُمَّ شَكَوْا الفَأْرَة فَقَالُوا: الفُوَيْسِقَة تُفْسِد عَلَيْنَا طَعَامنَا وَمَتَاعنَا، فَأَوْحَى الله إِلَى الأَسَد فَعَطَسَ فَخَرَجَتْ الهِرَّة مِنْهُ فَتَخَبَّأَتْ الفَأْرَة مِنْهَا»**[3]. وَقَوْله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أَيْ: وَاحْمِل فِيهَا

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٢/ ٣٥).

(٢) يطنزون: أي يسخرون ويهزءون.

(٣) ضعيف مرسل: وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث؛ قال الحافظ: صدوق كثير الغلط.

أَهْلَكَ وَهُمْ أَهْلُ بَيْته وَقَرَابَته إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْل مِنْهُمْ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِن بِالله، فَكَانَ مِنْهُمْ اِبْنه يَام الَّذِي اِنْعَزَلَ وَحْده وَامْرَأَة نُوح وَكَانَتْ كَافِرَة بِالله وَرَسُوله. وَقَوْله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أَيْ: مِنْ قَوْمك ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أَيْ: نَزْر يَسِير مَعَ طُول الْمُدَّة وَالْمُقَام بَيْن أَظْهُرهمْ أَلْف سَنَة إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَعَنْ اِبْن عَبَّاس: كَانُوا ثَمَانِينَ نَفْسًا مِنْهُمْ نِسَاؤُهُمْ. وَعَنْ كَعْب الْأَحْبَار: كَانُوا اِثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ نَفْسًا. وَقِيلَ: كَانُوا عَشَرَة. وَقِيلَ: إِنَّمَا كَانُوا نُوح وَبَنُوهُ الثَّلَاثَة: سَام، وَحَام، وَيَافِث، وَكَنَائِنه الْأَرْبَع نِسَاء هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَة، وَامْرَأَة يَام، وَقِيلَ: بَل اِمْرَأَة نُوح كَانَتْ مَعَهُمْ فِي السَّفِينَة. وَهَذَا فِيهِ نَظَر، بَل الظَّاهِر أَنَّهَا هَلَكَتْ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَلَى دِين قَوْمهَا، فَأَصَابَهَا مَا أَصَابَهُمْ، كَمَا أَصَابَ اِمْرَأَة لُوط مَا أَصَابَ قَوْمهَا، وَالله أَعْلَم وَأَحْكَم.

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوح عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لِلَّذِينَ أُمِرَ بِحَمْلِهِمْ مَعَهُ فِي السَّفِينَة: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أَيْ: بِسْمِ الله يَكُون جَرْيهَا عَلَى وَجْه الْمَاء، وَبِسْمِ الله يَكُون مُنْتَهَى سَيْرهَا وَهُوَ رُسُوهَا، وَقَرَأَ أَبُو رَجَاء الْعُطَارِدِيّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا﴾. وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، وَلِهَذَا تُسْتَحَبّ التَّسْمِيَة فِي اِبْتِدَاء الْأُمُور عِنْد الرُّكُوب عَلَى السَّفِينَة وَعَلَى الدَّابَّة؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. وَجَاءَتْ السُّنَّة بِالْحَثِّ عَلَى ذَلِكَ وَالنَّدْب إِلَيْهِ، كَمَا سَيَأْتِي فِي سُورَة الزُّخْرُف إِنْ شَاءَ الله وَبِهِ الثِّقَة. وَقَالَ أَبُو الْقَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن هَاشِم الْبَغَوِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر الْمُقَدَّمِيّ. وَحَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْن يَحْيَى السَّاجِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُوسَى الحرشي قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْد الْحَمِيد بْن الْحَسَن الْهِلَالِيّ، عَنْ نَهْشَل بْن سَعِيد، عَنْ الضَّحَّاك بن مزاحم، عَنْ اِبْن عَبَّاس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «أَمَانُ أُمَّتِي مِنْ الْغَرَق إِذَا رَكِبُوا فِي السُّفُن أَنْ يَقُولُوا: بِسْمِ الله الْمَلِك ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[(١)].

وَقَوْله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مُنَاسِب عِنْد ذِكْر الِانْتِقَام مِنْ الْكَافِرِينَ بِإِغْرَاقِهِمْ أَجْمَعِينَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ غَفُور رَحِيم، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾، وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنْ الْآيَات الَّتِي يَقْرِن فِيهَا بَيْن اِنْتِقَامه وَرَحْمَته.

وَقَوْله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ أَيْ: السَّفِينَة سَائِرَة بِهِمْ عَلَى وَجْه الْمَاء الَّذِي قَدْ طَبَّقَ جَمِيع الْأَرْض حَتَّى طَفَتْ عَلَى رُءُوس الْجِبَال وَارْتَفَعَ عَلَيْهَا بِخَمْسَة عَشَر ذِرَاعًا وَقِيلَ بِثَمَانِينَ مِيلًا، وَهَذِهِ السَّفِينَة جَارِيَة عَلَى وَجْه الْمَاء سَائِرَة بِإِذْنِ الله وَتَحْت كَنَفه وَعِنَايَته وَحِرَاسَته وَامْتِنَانه؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وَقَوْله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هَذَا هُوَ الِابْن الرَّابِع وَاسْمه يَام وَكَانَ كَافِرًا، دَعَاهُ أَبُوهُ عِنْد رُكُوب السَّفِينَة أَنْ يُؤْمِن وَيَرْكَب مَعَهُمْ وَلَا يَغْرَق مِثْل مَا يَغْرَق

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو يعلى (١٢/ ١٥٢) بسند ضعيف، فيه جبارة بن مغلس، قال ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٢١): كان يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل.

الكَافِرُونَ، ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾، وَقِيلَ: إِنَّهُ اِتَّخَذَ لَهُ مَرْكَبًا مِنْ زُجَاج، وَهَذَا مِنَ الإِسْرَائِيلِيَّات وَالله أَعْلَم بِصِحَّتِهِ، وَالَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ القُرْآن أَنَّهُ قَالَ: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ اِعْتَقَدَ بِجَهْلِهِ أَنَّ الطُّوفَان لَا يَبْلُغ إِلَى رُءُوس الجِبَال، وَأَنَّهُ لَوْ تَعَلَّقَ فِي رَأْس جَبَل لَنَجَّاهُ ذَلِكَ مِنْ الغَرَق، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ أَيْ: لَيْسَ شَيْء يَعْصِم اليَوْم مِنْ أَمْر الله. وَقِيلَ: إِنَّ عَاصِمًا بِمَعْنَى مَعْصُوم كَمَا يُقَال طَاعِم وَكَاسٍ بِمَعْنَى مَطْعُوم وَمَكْسُوّ. ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا غَرِقَ أَهْل الأَرْض كُلّهمْ إِلَّا أَصْحَاب السَّفِينَة، أَمَرَ الأَرْض أَنْ تَبْلَع مَاءَهَا الَّذِي نَبَعَ مِنْهَا وَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا، وَأَمَرَ السَّمَاء أَنْ تُقْلِع عَنْ المَطَر، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ أَيْ: شَرَعَ فِي النَّقْص، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أَيْ: فُرِغَ مِنْ أَهْل الأَرْض قَاطِبَة، مِمَّنْ كَفَرَ بِالله وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ دَيَّار، ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ السَّفِينَة بِمَنْ فِيهَا ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، قَالَ مُجَاهِد: وَهُوَ جَبَل بِالجَزِيرَةِ، تَشَامَخَتْ الجِبَال يَوْمئِذٍ مِنْ الغَرَق وَتَطَاوَلَتْ، وَتَوَاضَعَ هُوَ لله عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمْ يَغْرَق وَأَرْسَتْ عَلَيْهِ سَفِينَة نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَالَ قَتَادَة: اِسْتَوَتْ عَلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى نَزَلُوا مِنْهَا. قَالَ قَتَادَة: وَقَدْ أَبْقَى الله سَفِينَة نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الجُودِيّ مِنْ أَرْض الجَزِيرَة عِبْرَة وَآيَة، حَتَّى رَآهَا أَوَائِل هَذِهِ الأُمَّة، وَكَمْ مِنْ سَفِينَة قَدْ كَانَتْ بَعْدهَا فَهَلَكَتْ وَصَارَتْ رَمَادًا. وَقَالَ الضَّحَّاك: الجُودِيّ جَبَل بِالمَوْصِل. وَقَالَ بَعْضهمْ: هُوَ الطُّور. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن رَافِع، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُبَيْد، عَنْ تَوْبَة بْن سَالِم -وَيقال: أبو سالم-، قَالَ: رَأَيْت زِرّ بْن حُبَيْش يُصَلِّي فِي الزَّاوِيَة حِين يَدْخُل مِنْ أَبْوَاب كِنْدَة عَلَى يَمِينك، فَسَأَلته: إِنَّك لَكَثِير الصَّلَاة هَاهُنَا يَوْم الجُمْعَة. قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ سَفِينَة نُوح أَرْسَتْ مِنْ هَاهُنَا. وَقَالَ عِلْبَاء بْن أَحْمَر، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: كَانَ مَعَ نُوح فِي السَّفِينَة ثَمَانُونَ رَجُلًا مَعَهُمْ أَهْلُوهُمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا في السفينة مِائَة وَخَمْسِينَ يَوْمًا، وَأَنَّ الله وَجَّهَ السَّفِينَة إِلَى مَكَّة، فَدارت بِالبَيْتِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ وَجَّهَهَا الله إِلَى الجُودِيّ فَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ، فَبَعَثَ نُوح الغُرَاب لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِ الأَرْض، فَذَهَبَ فَوَقَعَ عَلَى الجِيَف فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَبَعَثَ الحَمَامَة فَأَتَتْهُ بِوَرَقِ الزَّيْتُون فَلَطَّخَتْ رِجْلَيْهَا بِالطِّينِ، فَعَرَفَ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ المَاء قَدْ نَضَبَ، فَهَبَطَ إِلَى أَسْفَل الجُودِيّ، فَابْتَنَى قَرْيَة وَسَمَّاهَا ثَمَانِينَ. فَأَصْبَحُوا ذَات يَوْم وَقَدْ تَبَلْبَلَتْ أَلْسِنَتهمْ عَلَى ثَمَانِينَ لُغَة، إِحْدَاهَا اللِّسَان العَرَبِيّ، فَكَانَ بَعْضهمْ لَا يَفْقَه كَلَام بَعْض، فَكَانَ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَبِّر عَنْهُمْ.

وَقَالَ كَعْب الأَحْبَار: إِنَّ السَّفِينَة طَافَتْ مَا بَيْن المَشْرِق وَالمَغْرِب قَبْل أَنْ تَسْتَقِرّ عَلَى الجُودِيّ. وَقَالَ قَتَادَة وَغَيْره: رَكِبُوا فِي عَاشِر شَهْر رَجَب، فَسَارُوا مِائَة وَخَمْسِينَ يَوْمًا، وَاسْتَقَرَّتْ بِهِمْ عَلَى الجُودِيّ شَهْرًا، وَكَانَ خُرُوجهمْ مِنْ السَّفِينَة فِي يوم عَاشُورَاء مِنْ المُحَرَّم، وَقَدْ وَرَدَ نَحْو هَذَا فِي حَدِيث مَرْفُوع رَوَاهُ اِبْن جَرِير. وَأَنَّهُمْ صَامُوا يَوْمهمْ ذَلِكَ، وَالله أَعْلَم. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَر، حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد بْن حَبِيب الأَزْدِيّ، عَنْ أَبِيهِ حَبِيب بْن عَبْد الله، عَنْ شبيل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: مَرَّ النَّبِيّ ﷺ، بِأُنَاسٍ مِنْ اليَهُود وَقَدْ صَامُوا يَوْم عَاشُورَاء، فَقَالَ: «**مَا هَذَا من الصَّوْم؟**» قَالُوا: هَذَا اليَوْم الَّذِي نَجَّى الله فِيهِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيل مِنْ الغَرَق وَغَرِقَ فِيهِ فِرْعَوْن، وَهَذَا يَوْم اِسْتَوَتْ فِيهِ السَّفِينَة عَلَى الجُودِيّ، فَصَامَ نُوح وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ شُكْرًا لله عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**أَنَا أَحَقّ بِمُوسَى وَأَحَقّ بِصَوْمِ هَذَا اليَوْم**». فَصَامَ وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**مَنْ كَانَ أَصْبَحَ مِنْكُمْ صَائِمًا فَلْيُتِمَّ صَوْمه، وَمَنْ كَانَ أَصَابَ مِنْ غِذَاء أَهْله فَلْيُتِمّ بَقِيَّة يَوْمه**»[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه،

(١) ضعيف الإسناد: أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩).

وَلِبَعْضِهِ شَاهِد فِي الصَّحِيح. وَقَوْله: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: هَلَاكًا وَخَسَارًا لَهُمْ وَبُعْدًا مِنْ رَحْمَة الله، فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا عَنْ آخِرهمْ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَقِيَّة. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير، وَالحَبْر أَبُو مُحَمَّد ابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِيرَيْهِمَا، مِنْ حَدِيث مُوسَى بْن يَعْقُوب الزَّمْعِيّ، عَنْ فَائِد مَوْلَى عُبَيْد الله بْن أَبِي رَافِع، أن إِبْرَاهِيم بْن عَبْد الرَّحْمَن ابْن أَبِي رَبِيعَة، أَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَة زَوْج النَّبِيّ ﷺ، أَخْبَرَته أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «لَوْ رَحِمَ الله مِنْ قَوْم نُوح أَحَدًا لَرَحِمَ أُمّ الصَّبِيّ»، قَالَ رَسُول الله ﷺ: «كَانَ نُوح عَلَيْهِ السَّلَام مَكَثَ فِي قَوْمه أَلف سَنَة إِلا خَمْسِينَ عَامًا، يَدْعُوهم إِلى الله، وَغَرَسَ مِائَة سَنَة الشَّجَر، فَعَظُمَتْ وَذَهَبَتْ كُلّ مَذْهَب، ثُمَّ قَطَعَهَا، ثُمَّ جَعَلَهَا سَفِينَة، وَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُونَ: تَعْمَل سَفِينَة فِي البَرّ فَكَيْف تَجْرِي؟ قَالَ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ. فَلَمَّا فَرَغَ وَنَبَعَ المَاء وَصَارَ فِي السِّكَك، خَشِيَتْ أُمّ الصَّبِيّ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تُحِبّهُ حُبًّا شَدِيدًا، فَخَرَجَتْ إِلَى الجَبَل حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثه، فَلَمَّا بَلَغَهَا المَاء ارْتَفَعَتْ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَهَا المَاء خَرَجَتْ بِهِ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى الجَبَل، فَلَمَّا بَلَغَ المَاء رَقَبَتهَا رَفَعَتْهُ بِيَدَيْهَا فَغَرِقَا، فَلَوْ رَحِمَ الله مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمّ الصَّبِيّ»[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ كَعْب الأَحْبَار وَمُجَاهِد بْن جبر قِصَّة هَذَا الصَّبِيّ وَأُمّه بِنَحْوٍ مِنْ هَذَا.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

هَذَا سُؤَال اسْتِعْلَام وَكَشْف مِنْ نُوح عَلَيْهِ السَّلَام عَنْ حَال وَلَده الَّذِي غَرِقَ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ أَيْ: وَقَدْ وَعَدْتنِي بِنَجَاةِ أَهْلِي، وَوَعْدك الحَقّ الَّذِي لَا يُخْلَف، فَكَيْفَ غَرِقَ وَأَنْتَ أَحْكَم الحَاكِمِينَ؟ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ أَيْ: الَّذِينَ وَعَدْت إِنْجَاءَهُمْ؛ لأَنِّي إِنَّمَا وَعَدْتُك بِنَجَاةِ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِك، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾ فَكَانَ هَذَا الوَلَد مِمَّنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْل بِالغَرَقِ؛ لِكُفْرِهِ وَمُخَالَفَته أَبَاهُ نَبِيّ الله نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَام، وَقَدْ نَصَّ غَيْر وَاحِد مِنَ الأَئِمَّة عَلَى تَخْطِئَة مَنْ ذَهَبَ فِي تَفْسِير هَذَا إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِابْنِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ ابْن زَنْيَة، وَيُحْكَى القَوْل بِأَنَّهُ لَيْسَ بِابْنِهِ وَإِنَّمَا كَانَ ابْن امْرَأَته عَنْ مُجَاهِد، وَالحَسَن، وَعُبَيْد بْن عُمَيْر، وَأَبِي جَعْفَر البَاقِر، وَابْن جُرَيْج، وَاحْتَجَّ بَعْضهمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ وَبِقَوْلِهِ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فَمِمَّنْ قَالَهُ الحَسَن البَصْرِيّ احْتَجَّ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، وَبَعْضهمْ يَقُول: ابْن امْرَأَته، وَهَذَا يَحْتَمِل أَنْ يَكُون أَرَادَ مَا أَرَادَ الحَسَن، أَوْ أَرَادَ أَنَّهُ نُسِبَ إِلَيْهِ مَجَازًا لِكَوْنِهِ كَانَ رَبِيبًا عِنْده، فَالله أَعْلَم. وَقَالَ ابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد مِنَ السَّلَف: مَا زَنَتْ امْرَأَة نَبِيّ قَطُّ[2]. قَالَ: وَقَوْله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ أَيْ: الَّذِينَ وَعَدْتُك نَجَاتهمْ.

وَقَوْل ابْن عَبَّاس فِي هَذَا هُوَ الحَقّ الَّذِي لَا مَحِيد عَنْهُ، فَإِنَّ الله تعالى أَغْيَر مِنْ أَنْ يُمَكِّن امْرَأَة نَبِيّ هذه الفَاحِشَة، وَلِهَذَا غَضِبَ الله عَلَى الَّذِينَ رَمَوْا أُمّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَة بِنْت الصِّدِّيق زَوْج النَّبِيّ ﷺ، وَأَنْكَرَ عَلَى المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا بِهَذَا وَأَشَاعُوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة وَغَيْره، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: هُوَ ابْنه غَيْر أَنَّهُ خَالَفَهُ فِي العَمَل وَالنِّيَّة. قَالَ عِكْرِمَة: فِي بَعْض الحُرُوف: (إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْر صَالِح).

---

(١) ضعيف الإسناد: أخرجه ابن جرير (٧/ ٣٥)، والحاكم (٢/ ٣٧٢) من حديث عائشة، وعلة الضعف: موسى بن يعقوب؛ قال الحافظ: صدوق سيئ الحفظ.

(٢) صحيح: أخرجه ابن جرير (١٢/ ٥١)، والحاكم (٢/ ٥٣٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

وَالخِيَانَة تَكُون عَلَى غَيْر بَاب. وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَرَأَ بِذَلِك، فَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، ثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أَسْمَاء بِنْت يَزِيد، قَالَتْ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقْرَأ: «﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾» وَسَمِعْته يَقُول: «﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا يُبَالِي إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾»[1].

وَقَالَ أَحْمَد أَيْضًا: ثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا هَارُون النَّحْوِيّ، عَنْ ثَابِت البُنَانِيّ، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أُمّ سَلَمَة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَرَأَهَا: «﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾». أَعَادَهُ أَحْمَد أَيْضًا فِي مُسْنَد أُمّ سَلَمَة -هِيَ أُمّ المُؤْمِنِينَ-، وَالظَّاهِر -وَالله أَعْلَم- أَنَّهَا أَسْمَاء بِنْت يَزِيد، فَإِنَّهَا تُكَنَّى بِذَلِك أَيْضًا. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق أَيْضًا: أَنَا الثَّوْرِيّ وَابْن عُيَيْنَة، عَنْ مُوسَى بْن أَبِي عَائِشَة، عَنْ سُلَيْمَان بْن قُتَّة، قَالَ: سَمِعْت ابْن عَبَّاس سُئِلَ -وَهُوَ إِلَى جَنْب الكَعْبَة- عَنْ قَوْل الله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِالزِّنَا، وَلَكِنْ كَانَتْ هَذِهِ تُخْبِر النَّاس أَنَّهُ مَجْنُون، وَكَانَتْ هَذِهِ تَدُلّ عَلَى الأَضْيَاف، ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[2]. قَالَ ابْن عُيَيْنَة: وَأَخْبَرَنِي عَمَّار الدهني أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: كَانَ ابْن نُوح، إِنَّ الله لَا يَكْذِب. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾. قَالَ: وَقَالَ بَعْض العُلَمَاء: مَا فَجَرَتْ امْرَأَة نَبِيّ قَطُّ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد أَيْضًا، وَعِكْرِمَة، وَالضَّحَّاك، وَمَيْمُون بْن مِهْرَان، وَثَابِت بْن الحَجَّاج، وَهُوَ اخْتِيَار أَبِي جَعْفَر ابْن جَرِير، وَهُوَ الصَّوَاب الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَمَّا قِيلَ لِنُوح عَلَيْهِ السَّلَام حِين أَرْسَتْ السَّفِينَة عَلَى الجُودِيّ، مِنْ السَّلَام عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ مَعَهُ مِنْ المُؤْمِنِينَ، وَعَلَى كُلّ مُؤْمِن مِنْ ذُرِّيَّته إِلَى يَوْم القِيَامَة، كَمَا قَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب: دَخَلَ فِي هَذَا السَّلَام كُلّ مُؤْمِن وَمُؤْمِنَة إِلَى يَوْم القِيَامَة، وَكَذَلِكَ فِي العَذَاب وَالمَتَاع كُلّ كَافِر وَكَافِرَة إِلَى يَوْم القِيَامَة. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: لَمَّا أَرَادَ الله أَنْ يَكُفّ الطُّوفَان أَرْسَلَ رِيحًا عَلَى وَجْه الأَرْض، فَسَكَنَ المَاء وَانْسَدَّتْ يَنَابِيع الأَرْض الغَمْر الأَكْبَر وَأَبْوَاب السَّمَاء، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الآيَة. فَجَعَلَ المَاء يَنْقُص وَيَغِيض وَيُدْبِر، وَكَانَ اسْتِوَاء الفُلْك عَلَى الجُودِيّ -فِيمَا يَزْعُم أَهْل التَّوْرَاة- فِي الشَّهْر السَّابِع لِسَبْع عَشْرَة لَيْلَة مَضَتْ مِنْهُ، وَفِي أَوَّل يَوْم مِنْ الشَّهْر العَاشِر رَأَى رُءُوس الجِبَال، فَلَمَّا مَضَى بَعْد ذَلِكَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا فَتَحَ نُوح كُوَّة الفُلْك الَّتِي رَكِبَ فِيهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ الغُرَاب لِيَنْظُر لَهُ مَا صَنَعَ المَاء فَلَمْ يَرْجِع إِلَيْهِ، فَأَرْسَلَ الحَمَامَة فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ لَمْ تَجِد لِرِجْلَيْهَا مَوْضِعًا، فَبَسَطَ يَده لِلحَمَامَةِ فَأَخَذَهَا فَأَدْخَلَهَا، ثُمَّ مَضَى سَبْعَة أَيَّام ثُمَّ أَرْسَلَهَا لِتَنْظُر لَهُ، فَرَجَعَتْ حِين أَمْسَتْ وَفِي فِيهَا وَرَق زَيْتُون، فَعَلِمَ نُوح أَنَّ المَاء قَدْ قَلَّ عَنْ وَجْه الأَرْض، ثُمَّ مَكَثَ سَبْعَة أَيَّام ثُمَّ أَرْسَلَهَا فَلَمْ تَرْجِع، فَعَلِمَ نُوح أَنَّ الأَرْض قَدْ بَرَزَتْ، فَلَمَّا كَمُلَتْ السَّنَة فِيمَا بَيْن أَنْ أَرْسَلَ الله الطُّوفَان إِلَى أَنْ أَرْسَلَ نُوح الحَمَامَة، وَدَخَلَ يَوْم وَاحِد مِنْ الشَّهْر الأَوَّل مِنْ سَنَة اثْنَتَيْنِ، بَرَزَ وَجْه الأَرْض وَظَهَرَ اليبس، وَكَشَفَ نُوح غِطَاء الفُلْك، وَفِي الشَّهْر الثَّانِي مِنْ سَنَة اثْنَتَيْنِ فِي سَبْع وَعِشْرِينَ لَيْلَة مِنْهُ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ الآيَة.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ هَذِهِ القِصَّة وَأَشْبَاهُهَا ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ يَعْنِي مِنْ أَخْبَار الغُيُوب السَّالِفَة نُوحِيهَا إِلَيْك عَلَى وَجْهِهَا كَأَنَّك شَاهِدهَا. ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ أَيْ: نُعْلِمك بِهَا وَحْيًا مِنَّا إِلَيْك، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن

(١) ضعيف الإسناد: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٠١) وفيه شهر بن حوشب، قال الحافظ: صدوق كثير الإرسال والأوهام.
(٢) صحيح الإسناد: أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٣١٠)، وابن جرير (١٢/ ٥١).

قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: لَمْ يَكُنْ عِندك وَلَا عِند أحد مِنْ قَوْمك عِلم بِهَا، حَتَّى يَقُول مَنْ يُكَذِّبك: إِنَّك تَعَلَّمْتهَا مِنْهُ، بَل أَخْبَرَك الله بِهَا مُطَابِقَة لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الأَمْر الصَّحِيح، كَمَا تَشْهَد بِهِ كُتُب الأَنْبِيَاء قَبْلَك، فَاصْبِرْ عَلَى تَكْذِيب مَنْ كَذَّبَك مِنْ قَوْمك وَأَذَاهُمْ لَك، فَإِنَّا سَنَنْصُرك وَنَحُوطُك بِعِنَايَتِنَا، وَنَجْعَل العَاقِبَة لَك وَلِأَتْبَاعِك فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، كَمَا فَعَلْنَا بِالمُرْسَلِينَ حَيْثُ نَصَرْنَاهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ؛ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى ﴿وَ﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ آمِرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، نَاهِيًا لَهُمْ عَنْ الأَوْثَان الَّتِي اِفْتَرَوْهَا، وَاخْتَلَقُوا لَهَا أَسْمَاء الآلِهَة، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيد مِنْهُمْ أُجْرَة عَلَى هَذَا النُّصْح وَالبَلَاغ مِنْ الله، إِنَّمَا يَبْغِي ثَوَابه مِنْ الله الَّذِي فَطَرَهُ. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَا يُصْلِحكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة مِنْ غَيْر أُجْرَة. ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي فِيهِ تَكْفِير الذُّنُوب السَّالِفَة، وَبِالتَّوْبَةِ عَمَّا يَسْتَقْبِلُونَ، وَمَنْ اِتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَة يَسَّرَ الله عَلَيْهِ رِزْقه، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْره، وَحَفِظَ شَأْنه، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، وَفِي الحَدِيث: «**مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَار، جَعَلَ الله لَهُ مِنْ كُلّ هَمّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلّ ضِيق مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب**»[1].

﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُمْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أَيْ: بِحُجَّةٍ وَبُرْهَان عَلَى مَا تَدَّعِيه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أَيْ: بِمُجَرَّدِ قَوْلِك اُتْرُكُوهُمْ نَتْرُكهُمْ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بِمُصَدِّقِينَ، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يَقُولُونَ: مَا نَظُنّ إِلَّا أَنَّ بَعْض الآلِهَة أَصَابَك بِجُنُونٍ وَخَبَل فِي عَقْلِك؛ بِسَبَبِ نَهْيك عَنْ عِبَادَتهَا وَعَيْبك لَهَا، ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ﴾ يَقُول: إِنِّي بَرِيء مِنْ جَمِيع الأَنْدَاد وَالأَصْنَام، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أَيْ: أَنْتُمْ وَآلِهَتكُمْ إِنْ كَانَتْ حَقًّا، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أَيْ: طَرْفَة عَيْن. وَقَوْله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أَيْ: تَحْت قَهْره وَسُلْطَانه، وَهُوَ الحَاكِم العَادِل الَّذِي لَا يَجُور فِي حُكْمه، فَإِنَّهُ عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم. قَالَ الوَلِيد بْن مُسْلِم، عَنْ صَفْوَان بْن عَمْرو، عَنْ أَيْفَع بْن عَبْد الكُلَاعِيّ: أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قَالَ: فَيَأْخُذ بِنَوَاصِي عِبَاده فَيُلَقِّن المُؤْمِن حَتَّى يَكُون لَهُ أَلْيَن مِنْ الوَالِد لِوَلَدِهِ، وَيقال للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾. وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا المَقَام حُجَّة بَالِغَة وَدَلَالَة قَاطِعَة عَلَى صِدْق مَا جَاءَهُمْ بِهِ، وَبُطْلَان مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَة الأَصْنَام، الَّتِي لَا تَنْفَع وَلَا تَضُرّ، بَل هِيَ جَمَاد لَا تَسْمَع وَلَا تُبْصِر، وَلَا تُوَالِي وَلَا تُعَادِي، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقّ إِخْلَاص العِبَادَة: الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، الَّذِي بِيَدِهِ المُلْك وَلَهُ التَّصَرُّف، وَمَا مِنْ شَيْء إِلَّا تَحْت مُلْكه وَقَهْره وَسُلْطَانه، فَلَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَلَا رَبّ سِوَاهُ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨٢٩).

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

يَقُول لَهُمْ هُود: فَإِنْ تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَة الله رَبّكُمْ وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الحُجَّة بِإِبْلَاغِي إِيَّاكُمْ رِسَالَة الله الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يَعْبُدُونَهُ وَحْده لَا يُشْرِكُونَ بِهِ، وَلَا يُبَالِي بِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ، بَل يَعُود وَبَال ذَلِكَ عَلَيْكُمْ؛ ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أَيْ: شَاهِد وَحَافِظ لِأَقْوَالِ عِبَاده وَأَفْعَالهمْ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وَهُوَ الرِّيح العَقِيم فَأَهْلَكَهُمْ الله عَنْ آخِرهِمْ، وَنَجَّى هُودًا وَأَتْبَاعه مِنْ عَذَاب غَلِيظ بِرَحْمَتِهِ تَعَالَى وَلُطْفه. ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كَفَرُوا بِهَا، وَعَصَوْا رُسُل الله، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيٍّ فَقَدْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الأَنْبِيَاء؛ لِأَنَّهُ لَا فَرْق بَيْن أَحَد مِنْهُمْ فِي وُجُوب الإِيمَان بِهِ، فَعَادٌ كَفَرُوا بِهُودٍ فَنَزَلَ كُفْرهمْ مَنْزِلَة مَنْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الرُّسُل ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تَرَكُوا اِتِّبَاع رَسُولهمْ الرَّشِيد، وَاتَّبَعُوا أَمْر كُلّ جَبَّار عَنِيد، فلهذا أُتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله، ومن العباد المؤمنين كلما ذُكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ الآية. قال السُّدِّي: ما بعث نبي بعد عاد إلا لُعنوا على لسانه.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَ﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ مَدَائِن الحِجْر بَيْن تَبُوك وَالمَدِينَة، وَكَانُوا بَعْد عَادٍ، فَبَعَثَ الله مِنْهُمْ أَخَاهُمْ صَالِحًا، فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ الله وَحْده؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: اِبْتَدَأَ خَلقكُمْ مِنْهَا، خَلَقَ مِنْهَا أَبَاكُمْ آدَم ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أَيْ: جَعَلَكُمْ عُمَّارًا تَعْمُرُونَهَا وَتَسْتَغِلُّونَهَا ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ لِسَالِفِ ذُنُوبكُمْ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآيَة.

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾

يَذْكُر تَعَالَى مَا كَانَ مِنْ الكَلَام بَيْن صَالِح عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْن قَوْمه، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ قَوْمه مِنْ الجَهْل وَالعِنَاد فِي قَوْلهمْ: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أَيْ: كُنَّا نَرْجُوك فِي عَقْلك قَبْل أَنْ تَقُول مَا قُلْت، ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافنَا، ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أَيْ: شَكّ كَثِير. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ فِيمَا أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ عَلَى يَقِين وَبُرْهَان، ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ وَتَرَكْت دَعْوَتكُمْ إِلَى الحَقّ وَعِبَادَة الله وَحْده، فَلَوْ تَرَكْته لَمَا نَفَعْتُمُونِي، وَلَمَا زِدْتُمُونِي ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أَيْ: خَسَارَة.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾

تقدم الكلام عليها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته، فلله الحمد والمنة.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ وَهُمْ المَلَائِكَة ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ قِيلَ: تُبَشِّرهُ بِإِسْحَاق، وَقِيلَ: بِهَلَاكِ قَوْم لُوط، وَيَشْهَد لِلأَوَّلِ قَوْله تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾، ﴿قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أَيْ: عَلَيْكُمْ. قَالَ عُلَمَاء البَيَان: هَذَا أَحْسَن مِمَّا حَيَّوْهُ بِهِ؛ لِأَنَّ الرَّفْع يَدُلّ عَلَى الثُّبُوت وَالدَّوَام. ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أَيْ: ذَهَبَ سَرِيعًا فَأَتَاهُمْ بِالضِّيَافَةِ، وَهُوَ عِجْل؛ فَتَى البَقَر، حَنِيذ: مَشْوِيّ عَلَى الرَّضْف وَهِيَ الحِجَارَة المُحْمَاة. هَذَا مَعْنَى مَا رُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد، كَمَا قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾. وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَة آدَاب الضِّيَافَة مِنْ وُجُوه كَثِيرَة. وَقَوْله: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ تَنَكَّرَهُمْ، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ المَلَائِكَة لَا هِمَّة لَهُمْ إِلَى الطَّعَام، وَلَا يَشْتَهُونَهُ وَلَا يَأْكُلُونَهُ، فَلِهَذَا رَأَى حَالهمْ مُعْرِضِينَ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ، فَارِغِينَ عَنْهُ بِالكُلِّيَّةِ، فَعِنْد ذَلِكَ نَكِرَهُمْ، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾. قَالَ السُّدِّيّ: لَمَّا بَعَثَ الله المَلَائِكَة لِقَوْمِ لُوط، أَقْبَلَتْ تَمْشِي فِي صُوَر رِجَال شُبَّان، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى إِبْرَاهِيم فَتَضَيَّفُوهُ، فَلَمَّا رَآهُمْ أَجَلَّهُمْ، ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ فَذَبَحَهُ، ثُمَّ شَوَاهُ فِي الرَّضْف، وَأَتَاهُمْ بِهِ فَقَعَدَ مَعَهُمْ، وَقَامَتْ سَارَّة تَخْدُمهُمْ، فَذَلِكَ حِين يَقُول: ﴿وَامْرَأَته قَائِمَة وَهُوَ جَالِس﴾ فِي قِرَاءَة اِبْن مَسْعُود، فلما ﴿قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قَالُوا: يَا إِبْرَاهِيم إِنَّا لَا نَأْكُل طَعَامًا إِلَّا بِثَمَنٍ. قَالَ: فَإِنَّ لِهَذَا ثَمَنًا. قَالُوا: وَمَا ثَمَنه؟ قَالَ: تَذْكُرُونَ اِسْم الله عَلَى أَوَّلِهِ وَتَحْمَدُونَهُ عَلَى آخِره. فَنَظَرَ جِبْرِيل إِلَى مِيكَائِيل فَقَالَ: حُقَّ لِهَذَا أَنْ يَتَّخِذَهُ رَبُّهُ خَلِيلًا، ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يَقُول: فَلَمَّا رَآهُمْ لَا يَأْكُلُونَ فَزِعَ مِنْهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَة، فَلَمَّا نَظَرَتْ سَارَّة أَنَّهُ قَدْ أَكْرَمَهُمْ، وَقَامَتْ هِيَ تَخْدُمهُمْ ضَحِكَتْ وَقَالَتْ: عَجَبًا لِأَضْيَافِنَا هَؤُلَاءِ نَخْدُمهُمْ بِأَنْفُسِنَا كَرَامَة لَهُمْ، وَهُمْ لَا يَأْكُلُونَ طَعَامنَا!.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، ثَنَا نَصْر بْن عَلِيّ، ثَنَا نُوح بْن قَيْس، عَنْ عُثْمَان بْن مُحْصِن، فِي ضَيْف إِبْرَاهِيم قَالَ: كَانُوا أَرْبَعَة: جِبْرِيل، وَمِيكَائِيل، وَإِسْرَافِيل، وَرُفَائِيل، قَالَ نُوح بْن قَيْس: فَزَعَمَ عون بْن أَبِي شَدَّاد أَنَّهُمْ لَمَّا دَخَلُوا عَلَى إِبْرَاهِيم، فَقَرَّبَ إِلَيْهِمْ العِجْل، مَسَحَهُ جِبْرِيل بِجَنَاحِهِ فَقَامَ يَدْرُج حَتَّى لَحِقَ بِأُمِّهِ، وَأُمّ العِجْل فِي الدَّار. وَقَوْله تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ المَلَائِكَة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ أَيْ: قَالُوا: لَا تَخَفْ مِنَّا، إِنَّا مَلَائِكَة أُرْسِلنَا إِلَى قَوْم لُوط لِنُهْلِكهُمْ، فَضَحِكَتْ سَارَّة اِسْتِبْشَارًا بِهَلَاكِهِمْ لِكَثْرَةِ فَسَادِهِمْ وَغِلَظ كُفْرهمْ وَعِنَادهمْ، فَلِهَذَا جُوزِيَتْ بِالبِشَارَةِ بِالوَلَدِ بَعْد الإِيَاس. وَقَالَ قَتَادَة: ضَحِكَتْ وَعَجِبَتْ أَنَّ قَوْمًا يَأْتِيهِمْ العَذَاب وَهُمْ فِي غَفْلَة.

وَقَوْله: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ قَالَ العَوْفِيُّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿فَضَحِكَتْ ﴾ أَيْ: حَاضَتْ. وَقَوْل مُحَمَّد بْن قَيْس: إِنَّهَا إِنَّمَا ضَحِكَتْ مِنْ أَنَّهَا ظَنَّتْ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْمَلُوا كَمَا يَعْمَل قَوْم لُوط. وَقَوْل الكَلْبِيّ: إِنَّهَا إِنَّمَا ضَحِكَتْ لَمَّا رَأَتْ مِنْ الرَّوْع بِإِبْرَاهِيم؛ ضعيفان جدًا. وَإِنْ كَانَ اِبْن جَرِير قَدْ رَوَاهُمَا بِسَنَدِهِ إِلَيْهِمَا، فَلَا يُلْتَفَت إِلَى ذَلِكَ، وَالله أَعْلَم. وَقَالَ وَهْب بْن مُنَبِّه: إِنَّمَا ضَحِكَتْ لَمَّا بُشِّرَتْ بِإِسْحَاق، وَهَذَا مُخَالِف لِهَذَا السِّيَاق، فَإِنَّ البِشَارَة صَرِيحَة مُرَتَّبَة عَلَى ضَحِكهَا. ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أَيْ: بِوَلَدٍ لَهَا يَكُون لَهُ وَلَد وَعَقِب وَنَسْل، فَإِنَّ يَعْقُوب وَلَد إِسْحَاق، كَمَا قَالَ فِي سورة البَقَرَة: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ

مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾. وَمِنْ هَاهُنَا اِسْتَدَلَّ مَنْ اِسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَة عَلَى أَنَّ الذَّبِيح إِنَّمَا هُوَ إِسْمَاعِيل، وَأَنَّهُ يَمْتَنِع أَنْ يَكُون إِسْحَاق؛ لأَنَّهُ وَقَعَتْ الْبِشَارَة بِهِ وَأَنَّهُ سَيُولَد لَهُ يَعْقُوب، فَكَيْف يُؤْمَر إِبْرَاهِيم بِذَبْحِهِ، وَهُوَ طِفْل صَغِير، وَلَمْ يُولَد لَهُ بَعْد يَعْقُوب الْمَوْعُود بِوُجُودِهِ، وَوَعْد الله حَق لَا خُلف فِيهِ، فَيَمْتَنِع أَنْ يُؤْمَر بِذَبْحِ هَذَا وَالحَالَة هَذِهِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُون هُوَ إِسْمَاعِيل، وَهَذَا مِنْ أَحْسَن الاِسْتِدْلَال وَأَصَحّه وَأَبْيَنه، وَلله الحَمْد. ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ الآيَة، حَكَى قَوْلَهَا فِي هَذِهِ الآيَة كَمَا حَكَى فِعْلَهَا فِي الآيَة الأُخْرَى، فَإِنَّهَا ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾، وَفِي الذَّارِيَات: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَة النِّسَاء فِي أَقْوَالِهِنَّ وَأَفْعَالِهِنَّ عِنْد التَّعَجُّب، ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أَيْ: قَالَتْ المَلَائِكَة لَهَا: لَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْر الله، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُول لَهُ: كُنْ؛ فَيَكُون. فَلَا تَعْجَبِي مِنْ هَذَا وَإِنْ كُنْت عَجُوزًا عَقِيمًا وَبَعْلك شَيْخًا كَبِيرًا، فَإِنَّ الله عَلَى مَا يَشَاء قَدِير. ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ أَيْ: هُوَ الحَمِيد فِي جَمِيع أَفْعَاله وَأَقْوَاله، مَحْمُود مُمَجَّد فِي صِفَاته وَذَاته، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُمْ قَالُوا: قَدْ عَلِمْنَا السَّلَام عَلَيْك، فَكَيْف الصَّلَاة عَلَيْك يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آلِ مُحَمَّد كَمَا صَلَّيْت عَلَى إِبْرَاهِيم وَآلِ إِبْرَاهِيم، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آلِ مُحَمَّد كَمَا بَارَكْت عَلَى آلِ إِبْرَاهِيم إِنَّك حَمِيد مَجِيد**»[1].

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيم عليه السلام أَنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْع، وَهُوَ مَا أَوْجَسَ مِنْ المَلَائِكَة خِيفَة حِين لَمْ يَأْكُلُوا، وَبَشَّرُوهُ بَعْد ذَلِكَ بِالوَلَد، وَأَخْبَرُوهُ بِهَلَاكِ قَوْم لُوط، أَخَذَ يَقُول كَمَا قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر فِي الآيَة، قَالَ: لَمَّا جَاءَهُ جِبْرِيل وَمَنْ مَعَهُ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ قَالَ لَهُمْ: أَتُهْلِكُونَ قَرْيَة فِيهَا ثَلَاثُمِائَةِ مُؤْمِن؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: أَفَتُهْلِكُونَ قَرْيَة فِيهَا مِائَتَا مُؤْمِن؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: أَفَتُهْلِكُونَ قَرْيَة فِيهَا أَرْبَعُونَ مُؤْمِنًا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: ثَلَاثُونَ؟ قَالُوا: لَا. حَتَّى بَلَغَ خَمْسَة. قَالُوا: لَا. قَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا رَجُل وَاحِد مُسْلِم أَتُهْلِكُونَهَا؟ قَالُوا: لَا. فَقَالَ إِبْرَاهِيم عليه السلام عِنْد ذَلِكَ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ الآيَة. فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسه. وَقَالَ قَتَادَة وَغَيْره قَرِيبًا مِنْ هَذَا، زَادَ اِبْن إِسْحَاق: أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا مُؤْمِن وَاحِد؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَإِنْ كَانَ فِيهَا لُوط يُدْفَع بِهِ عَنْهُمْ العَذَاب؟ قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ الآيَة. وَقَوْله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ مَدْح لِإِبْرَاهِيم بِهَذِهِ الصِّفَات الجَمِيلَة، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرهَا. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أَيْ: إِنَّهُ قَدْ نَفَذَ فِيهِمْ القَضَاء، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ الكَلِمَة بِالهَلَاكِ وَحُلُول البَأْس الَّذِي لَا يُرَدّ عَنْ القَوْم المُجْرِمِينَ.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ قُدُوم رُسُله مِنْ المَلَائِكَة بَعْد مَا أَعْلَمُوا إِبْرَاهِيم بِهَلَاكِهِمْ، وَفَارَقُوهُ وَأَخْبَرُوهُ بِإِهْلَاكِ الله قَوْم لُوط هَذِهِ اللَّيْلَة، فَانْطَلَقُوا مِنْ عِنْده فَأَتَوْا لُوطًا عليه السلام، وَهُوَ عَلَى مَا قِيلَ فِي أَرْض لَهُ، وَقِيلَ فِي مَنْزِله، وَوَرَدُوا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٧)، وأبو داود (٩٧٦).

عَلَيْهِ وَهُمْ فِي أَجْمَل صُورَة تَكُون؛ عَلَى هَيْئَة شُبَّان حِسَان الوُجُوه، اِبْتِلَاء مِنَ الله، وَلَهُ الحِكْمَة وَالحُجَّة البَالِغَة، فَسَاءَهُ شَأْنهم وَضَاقَتْ نَفْسه بِسَبَبِهِمْ، وَخَشِيَ إِنْ لَمْ يُضِفْهُمْ أَنْ يُضَيِّفَهُمْ أَحَد مِنْ قَوْمه فَيَنَالهُمْ بِسُوءٍ، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾. قَالَ اِبْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد: شَدِيد بَلَاؤُهُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُدَافِعُ عَنْهُمْ وَيَشُقّ عَلَيْهِ ذَلِكَ. وَذَكَرَ قَتَادَة: أَنَّهُمْ أَتَوْهُ وَهُوَ فِي أَرْض لَهُ فَتَضَيَّفُوهُ، فَاسْتَحْيَا مِنْهُمْ فَانْطَلَقَ أَمَامَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ فِي أَثْنَاء الطَّرِيق كَالمُعَرِّضِ لَهُمْ بِأَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُ: إِنَّهُ وَالله يَا هَؤُلَاءِ، مَا أَعْلَم عَلَى وَجْه الأَرْضِ أَهْل بَلَد أَخْبَث مِنْ هَؤُلَاءِ، ثُمَّ مَشَى قَلِيلًا ثُمَّ أَعَادَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ حَتَّى كَرَّرَهُ أَرْبَع مَرَّات، قَالَ قَتَادَة: وَقَدْ كَانُوا أُمِرُوا أَنْ لَا يُهْلِكُوهُمْ حَتَّى يَشْهَد عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ بِذَلِكَ. وَقَالَ السُّدِّيّ: خَرَجَتْ المَلَائِكَة مِنْ عِنْد إِبْرَاهِيم نَحْو قَرْيَة لُوط، فَبَلَغُوا نَهَر سَدُوم نِصْف النَّهَار، وَلَقُوا بِنْت لُوط تَسْقِي فَقَالُوا: يَا جَارِيَة، هَل مِنْ مَنْزِل؟ فَقَالَتْ: مَكَانكُمْ حَتَّى آتِيكُمْ، وَفَرِقَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمهَا، فَأَتَتْ أَبَاهَا فَقَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ؛ أَدْرِكْ فِتْيَانًا عَلَى بَاب المَدِينَة، مَا رَأَيْت وُجُوه قَوْم أَحْسَن مِنْهُمْ لَا يَأْخُذهُمْ قَوْمك فيفضحوهم. وَكَانَ قَوْمه نَهَوْهُ أَنْ يُضَيِّف رَجُلًا، فَقَالُوا: خَلِّ عَنَّا فَلْنُضَيِّفْ الرِّجَال، فَجَاءَ بِهِمْ فَلَمْ يَعْلَم بِهِمْ أَحَد إِلَّا أَهْل بَيْته، فَخَرَجَتْ اِمْرَأَته فَأَخْبَرَتْ قَوْمهَا، فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ.

وَقَوْله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أَيْ: يُسْرِعُونَ وَيُهَرْوِلُونَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ. وَقَوْله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أَيْ: لَمْ يَزَل هَذَا مِنْ سَجِيَّتهمْ، حَتَّى أُخِذُوا وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الحَال. وَقَوْله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يُرْشِدهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ، فَإِنَّ النَّبِيّ لِلأُمَّةِ بِمَنْزِلَةِ الوَالِد، فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَنْفَع لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، كَمَا قَالَ لَهُمْ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، وَقَوْله فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: أَلَمْ نَنْهَك عَنْ ضِيَافَة الرِّجَال ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وَقَالَ فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِد: لَمْ يَكُنَّ بَنَاته، وَلَكِنْ كُنَّ مِنْ أُمَّته، وَكُلّ نَبِيّ أَبُو أُمَّته. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَة وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ اِبْن جُرَيْج: أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَزَوَّجُوا النِّسَاء، وَلَمْ يَعْرِض عَلَيْهِمْ سِفَاحًا. وَقَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر: يَعْنِي نِسَاءَهُمْ هُنَّ بَنَاته وَهُوَ أَب لَهُمْ بنيهم. وَيُقَال فِي بَعْض القِرَاءَات: ﴿النَّبِيّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجه أُمَّهَاتهمْ وَهُوَ أَب لَهُمْ﴾. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَغَيْرهمْ. وَقَوْله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ أَيْ: اِقْبَلُوا مَا آمُركُمْ بِهِ مِنَ الاِقْتِصَار عَلَى نِسَائِكُمْ، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أَيْ: فِيهِ خَيْر يَقْبَل مَا آمُرهُ بِهِ، وَيَتْرُك مَا أَنْهَاهُ عَنْهُ؟ ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أَيْ: إِنَّك لَتَعْلَم أَنَّ نِسَاءَنا لَا أَرَب لَنَا فِيهِنَّ وَلَا نَشْتَهِيهِنَّ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَنَا غَرَض إِلَّا فِي الذُّكُور وَأَنْتَ تَعْلَم ذَلِكَ، فَأَيّ حَاجَة فِي تَكْرَار القَوْل عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ؟ قَالَ السُّدِّيّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إِنَّمَا نُرِيد الرِّجَال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ (٨٠) قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عن نَبِيِّهُ لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ لُوطًا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ الآيَة، أَيْ: لَكُنْت نَكَّلت بِكُمْ، وَفَعَلت بِكُمْ الأَفَاعِيل بِنَفْسِي وَعَشِيرَتِي، وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الحَدِيث مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَلقَمَة، عن أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: **«رَحْمَة الله عَلَى لُوط؛ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْن شَدِيد -يَعْنِي: الله عَزَّ وَجَلَّ- فَمَا بَعَثَ الله بَعْده مِنْ نَبِيّ إِلا فِي ثَرْوَة مِنْ قَوْمه»**[1]. فَعِنْد ذَلِكَ أَخْبَرَتْهُ المَلَائِكَة أَنَّهُمْ رُسُل الله إِلَيْهِ، وَأَنَّهُمْ لَا

---

(١) حسن: أخرجه ابن جرير (٧/ ٨٥)، والترمذي (٣١١٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٢) من حديث أبي هريرة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٨٦).

وُصُول لَهُمْ إِلَيْهِ؛ ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ وَأَمَرُوهُ أَنْ يَسْرِي بِأَهْلِهِ مِنْ آخِر اللَّيْل، وَأَنْ يَتَّبِع أَدْبَارهمْ، أَيْ: يَكُون سَاقَة لِأَهْلِهِ ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ أَيْ: إِذَا سَمِعْت مَا نَزَلَ بِهِمْ، وَلَا تَهُولَنكُمْ تِلْكَ الأَصْوَات المُزْعِجَة، وَلَكِنْ اِسْتَمِرُّوا ذَاهِبِينَ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ قَالَ الأَكْثَرُونَ: هُوَ اِسْتِثْنَاء مِنْ المُثْبَت، وَهُوَ قَوْله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ تَقْدِيره: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾، وَكَذَلِكَ قَرَأَهَا اِبْن مَسْعُود، وَنَصَبَ هَؤُلَاءِ اِمْرَأَتك؛ لأَنَّهُ مُثْبَت فَوَجَبَ نَصْبه عِنْدهمْ. وَقَالَ آخَرُونَ مِنْ القُرَّاء وَالنُّحَاة: هُوَ اِسْتِثْنَاء مِنْ قَوْله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ فَجَوَّزُوا الرَّفْع وَالنَّصْب، وَذَكَرَ هَؤُلَاءِ أَنَّهَا خَرَجَتْ مَعَهُمْ وَأَنَّهَا لَمَّا سَمِعَتْ الوَجْبَة اِلْتَفَتَتْ وَقَالَتْ: وَاقَوْمَاه! فَجَاءَهَا حَجَر مِنْ السَّمَاء فَقَتَلَهَا. ثُمَّ قَرَّبُوا لَهُ هَلَاك قَوْمه تَبْشِيرًا لَهُ؛ لأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: أَهْلِكُوهُمْ السَّاعَة، فَقَالُوا: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾. هَذَا وَقَوْم لُوط وُقُوف عَلَى البَاب عُكُوف، قَدْ جَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلّ جَانِب، وَلُوط وَاقِف عَلَى البَاب يُدَافِعهُمْ وَيَرْدَعُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، وَهُمْ لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ، بَل يَتَوَعَّدُونَهُ وَيَتَهَدَّدُونَهُ، فَعِنْد ذَلِكَ خَرَجَ عَلَيْهِمْ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضَرَبَ وُجُوههمْ بِجَنَاحِهِ، فَطَمَسَ أَعْيُنهمْ فَرَجَعُوا وَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ الطَّرِيق، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ الآيَة.

وَقَالَ مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة، عَنْ حُذَيْفَة بْن اليَمَان، قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يَأْتِي قَوْم لُوط فَيَقُول: أَنْهَاكُمْ الله أَنْ تَعَرَّضُوا لِعُقُوبَتِهِ! فَلَمْ يُطِيعُوهُ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الكِتَاب أَجَله اِنْتَهَتْ المَلَائِكَة إِلَى لُوط وَهُوَ يَعْمَل فِي أَرْض لَهُ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الضِّيَافَة فَقَالُوا: إِنَّا ضُيُوفك اللَّيْلَة، وَكَانَ الله قَدْ عَهِدَ إِلَى جِبْرِيل أَلَّا يُعَذِّبهُمْ حَتَّى يَشْهَد عَلَيْهِمْ لُوط ثَلَاث شَهَادَات، فَلَمَّا تَوَجَّهَ بِهِمْ لُوط إِلَى الضِّيَافَة ذَكَرَ مَا يَعْمَل قَوْمه مِنْ الشَّرّ، فَمَشَى مَعَهُمْ سَاعَة ثُمَّ اِلْتَفَتَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَمَا تَعْلَمُونَ مَا يَعْمَل أَهْل هَذِهِ القَرْيَة؟ مَا أَعْلَم عَلَى وَجْه الأَرْض شَرًّا مِنْهُمْ، أَيْنَ أَذْهَب بِكُمْ؟ إِلَى قَوْمِي وَهُمْ مِن أَشَرّ خَلق الله؟ فَالتَفَتَ جِبْرِيل إِلَى المَلَائِكَة، فَقَالَ: اِحْفَظُوهَا هَذِهِ وَاحِدَة، ثُمَّ مَشَى مَعَهُمْ سَاعَة، فَلَمَّا تَوَسَّطَ القَرْيَة، وَأَشْفَقَ عَلَيْهِمْ وَاسْتَحْيَا مِنْهُمْ، قَالَ: أَمَا تَعْلَمُونَ مَا يَعْمَل أَهْل هَذِهِ القَرْيَة؟ مَا أَعْلَم عَلَى وَجْه الأَرْض أَشَرّ مِنْهُمْ، إِنَّ قَوْمِي أَشَرّ خَلق الله، فَالتَفَتَ جِبْرِيل إِلَى المَلَائِكَة، فَقَالَ: اِحْفَظُوهَا هَاتَانِ اِثْنَتَانِ، فَلَمَّا اِنْتَهَى إِلَى بَاب الدَّار بَكَى حَيَاء مِنْهُمْ وَشَفَقَة عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي أَشَرّ خَلق الله، أَمَا تَعْلَمُونَ مَا يَعْمَل أَهْل هَذِهِ القَرْيَة؟ مَا أَعْلَم عَلَى وَجْه الأَرْض أَهْل قَرْيَة شَرًّا مِنْهُمْ. فَقَالَ جِبْرِيل لِلمَلَائِكَةِ: اِحْفَظُوا هَذِهِ ثَلَاث قَدْ حَقَّ العَذَاب، فَلَمَّا دَخَلُوا ذَهَبَتْ عَجُوزه عَجُوز السُّوء، فَصَعِدَتْ فَلَوَّحَتْ بِثَوْبِهَا، فَأَتَاهَا الفُسَّاق يُهْرَعُونَ سِرَاعًا قَالُوا: مَا عِنْدك؟ قَالَتْ: ضَيَّفَ لُوط قَوْمًا مَا رَأَيْت قَطُّ أَحْسَن وُجُوهًا مِنْهُمْ، وَلَا أَطْيَب رِيحًا مِنْهُمْ، فَهَرَعُوا يُسَارِعُونَ إِلَى البَاب، فَعَالَجَهُمْ لُوط عَلَى البَاب فَدَافَعُوهُ طَوِيلًا، وَهُوَ دَاخِل وَهُمْ خَارِج، يُنَاشِدهُمْ الله وَيَقُول: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ فَقَامَ المَلَك فَلَزَّ بِالبَابِ –يَقُول: فَسَدَّهُ– وَاسْتَأْذَنَ جِبْرِيل فِي عُقُوبَتهمْ فَأَذِنَ الله لَهُ، فَقَامَ فِي الصُّورَة الَّتِي يَكُون فِيهَا فِي السَّمَاء، فَنَشَرَ جَنَاحه –وَلِجِبْرِيل جَنَاحَانِ– وَعَلَيْهِ وِشَاح مِنْ دُرّ مَنْظُوم، وَهُوَ بَرَّاق الثَّنَايَا أَجْلَى الجَبِين، وَرَأْسه حُبُك حُبُك مِثْل المَرْجَانِ، وَهُوَ اللُّؤْلُؤ كَأَنَّهُ الثَّلج، وَرِجْلَاهُ إِلَى الخُضْرَة، فَقَالَ: يَا لُوط ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ اِمْضِ يَا لُوط عَنْ البَاب وَدَعْنِي وَإِيَّاهُمْ، فَتَنَحَّى لُوط عَنْ البَاب، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَنَشَرَ جَنَاحه، فَضَرَبَ بِهِ وُجُوههمْ ضَرْبَة شَدَخَ أَعْيُنهمْ، فَصَارُوا عُمْيًا لَا يَعْرِفُونَ الطَّرِيق ولا يهتدون إلى بيوتهم، ثُمَّ أُمِرَ لُوط فَاحْتُمِلَ بِأَهْلِهِ فِي لَيْلَته قَالَ: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ وَرُوِيَ عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ نَحْو هَذَا.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْد طُلُوع الشَّمْس ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا﴾ وَهِيَ سَدُوم

﴿ سَافِلَهَا ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَغَشَّـٰهَامَاغَشَّىٰ﴾ أَيْ: أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَة مِنْ سِجِّيل، وَهِيَ بِالفَارِسِيَّةِ حِجَارَة مِنْ طِين، قَالَهُ اِبْن عَبَّاس وَغَيْره. وَقَالَ بَعْضهمْ: أَيْ: مِنْ «سنك» وَهُوَ الحَجَر، و«كل» وَهُوَ الطِّين، وَقَدْ قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿حِجَارَةًمِّنطِينٍ﴾ أَيْ: مُسْتَحْجِرَة قَوِيَّة شَدِيدَة، وَقَالَ بَعْضهمْ: مَشْوِيَّة. وَقَالَ البُخَارِيّ: سِجِّيل: الشَّدِيد الكَبِير، سِجِّيل وَسِجِّين اللَّام وَالنُّون أُخْتَانِ. وَقَالَ تَمِيم بْن مُقْبِل:

وَرَجْلَـهٍ يَـضْرِبُونَ البَـيْض ضَـاحِيَة ❁ ضَـرْبًا تَوَاصَـى بِـهِ الأَبْطَـال سِـجِّينَا

وَقَوْله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ قَالَ بَعْضهمْ: مَنْضُودَة فِي السَّمَاء، أَيْ: مُعَدَّة لِذَلِكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أَيْ: يَتْبَع بَعْضهَا بَعْضًا فِي نُزُولهَا عَلَيْهِمْ.

وَقَوْله: ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أَيْ: مُعَلَّمَة مَخْتُومَة عَلَيْهَا أَسْمَاء أَصْحَابهَا كُلّ حَجَر مَكْتُوب عَلَيْهِ اِسْم الَّذِي يَنْزِل عَلَيْهِ. وَقَالَ قَتَادَة وَعِكْرِمَة: ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ مُطَوَّقَة بِهَا نَضْح مِنْ حُمْرَة. وَذَكَرُوا أَنَّهَا نَزَلَتْ عَلَى أَهْل البَلَد وَعَلَى المُتَفَرِّقِينَ فِي القُرَى مِمَّا حَوْلهَا، فَبَيْنَا أَحَدهمْ يَكُون عِنْد النَّاس يَتَحَدَّث، إِذْ جَاءَهُ حَجَر مِنْ السَّمَاء فَسَقَطَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْن النَّاس فَدَمَّرَهُ، فَتَتَبَّعَهُمْ الحِجَارَة مِنْ سَائِر البِلَاد حَتَّى أَهْلَكَتْهُمْ عَنْ آخِرهمْ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَد. وَقَالَ مُجَاهِد: أَخَذَ جِبْرِيل قَوْم لُوط مِنْ سُرُحهمْ وَدُورهمْ، حَمَلَهُمْ بِمَوَاشِيهِمْ وَأَمْتِعَتهمْ وَرَفَعَهُمْ حَتَّى سَمِعَ أَهْل السَّمَاء نُبَاح كِلَابهمْ ثُمَّ أَكْفَأَهُم، وَكَانَ حَمَلَهُمْ عَلَى خَوَافِي جَنَاحه الأَيْمَن. قَالَ: وَلَمَّا قَلَبَهَا كَانَ أَوَّل مَا سَقَطَ مِنْهَا شُذَّانُهَا. وَقَالَ قَتَادَة: بَلَغَنَا أَنَّ جِبْرِيل أَخَذَ بِعُرْوَةِ القَرْيَة الوُسْطَى، ثُمَّ أَلْوَى بِهَا إِلَى جَوّ السَّمَاء حَتَّى سَمِعَ أَهْل السَّمَاء ضَوَاغِي كِلَابهمْ، ثُمَّ دَمَّرَ بَعْضهَا عَلَى بَعْض، ثُمَّ أَتْبَعَ شُذَّاذ القَوْم صَخْرًا. قَالَ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا أَرْبَع قُرَى، فِي كُلّ قَرْيَة مِائَة أَلْف، وَفِي رِوَايَة: ثَلَاث قُرَى، الكُبْرَى مِنْهَا سَدُوم. قَالَ: وَبَلَغَنَا أَنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يُشْرِف عَلَى سَدُوم وَيَقُول: سَدُوم يَوْمٌ مَا لَكِ. وَفِي رِوَايَة عَنْ قَتَادَة وَغَيْره: بَلَغَنَا أَنَّ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام لَمَّا أَصْبَحَ نَشَرَ جَنَاحه، فَانْتَسَفَ بِهَا أَرْضَهُمْ بِمَا فِيهَا مِنْ قُصُورهَا وَدَوَابّهَا وَحِجَارَتهَا وَشَجَرهَا وَجَمِيع مَا فِيهَا، فَضَمَّهَا فِي جَنَاحه فَحَوَاهَا وَطَوَاهَا فِي جَوْف جَنَاحه، ثُمَّ صَعِدَ بِهَا إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا، حَتَّى سَمِعَ سُكَّان السَّمَاء أَصْوَات النَّاس وَالكِلَاب، وَكَانُوا أَرْبَعَة آلَاف أَلْف، ثُمَّ قَلَبَهَا فَأَرْسَلَهَا إِلَى الأَرْض مَنْكُوسَة، وَدَمْدَمَ بَعْضهَا عَلَى بَعْض، فَجَعَلَ عَالِيهَا سَافِلهَا، ثُمَّ أَتْبَعَهَا حِجَارَة مِنْ سِجِّيل. وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: كَانَتْ قُرَى قَوْم لُوط خَمْس قَرَيَات: سَدُوم وَهِيَ العُظْمَى، وصعبة، وصعوة، وَعثرة، وَدَوْمَا، اِحْتَمَلَهَا جِبْرِيل بِجَنَاحِهِ، ثُمَّ صَعِدَ بِهَا حَتَّى إِنَّ أَهْل السَّمَاء الدُّنْيَا لَيَسْمَعُونَ نَابِحَة كِلَابهَا وَأَصْوَات دَجَاجهَا، ثُمَّ كَفَأَهَا عَلَى وَجْههَا، ثُمَّ أَتْبَعهَا الله بِالحِجَارَةِ، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ فَأَهْلَكَهَا الله وَمَا حَوْلهَا مِنْ المُؤْتَفِكَات.

وَقَالَ السُّدِّيّ: لَمَّا أَصْبَحَ قَوْم لُوط نَزَلَ جِبْرِيل فَاقْتَلَعَ الأَرْض مِنْ سَبْع أَرَضِينَ، فَحَمَلَهَا حَتَّى بَلَغَ بِهَا السَّمَاء، حَتَّى سَمِعَ أَهْل السَّمَاء الدُّنْيَا نُبَاح كِلَابهمْ وَأَصْوَات دُيُوكهمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا فَقَتَلَهُمْ، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾، وَمَنْ لَمْ يَمُتْ حِين سَقَطَ لِلأَرْضِ، أَمْطَرَ الله عَلَيْهِ وَهُوَ تَحْت الأَرْض الحِجَارَة، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ شَاذًّا فِي الأَرْض يَتْبَعهُمْ فِي القُرَى، فَكَانَ الرَّجُل يَتَحَدَّث فَيَأْتِيه الحَجَر فَيَقْتُلهُ، فَذَلِكَ قَوْله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أَيْ: فِي القُرَى حِجَارَة مِنْ سِجِّيل. هَكَذَا قَالَ السُّدِّيّ. وَقَوْله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أَيْ: وَمَا هَذِهِ النِّقْمَة مِمَّنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ فِي ظُلْمهمْ بِبَعِيدٍ عَنْهُ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث المَرْوِيّ فِي السُّنَن عَنْ اِبْن عَبَّاس مَرْفُوعًا: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَل عَمَل قَوْم لُوط فَاقْتُلُوا الفَاعِل وَالمَفْعُول بِهِ»[1]. وَذَهَبَ الإِمَام الشَّافِعِيّ فِي قَوْل عَنْهُ، وَجَمَاعَة مِنْ العُلَمَاء:

(١) صحيح: تقدم.

إِلَى أَنَّ اللَّائِط يُقْتَل، سَوَاء كَانَ مُحْصَنًا أَوْ غَيْر مُحْصَن، عَمَلًا بِهَذَا الحَدِيث. وَذَهَبَ الإِمَام أَبُو حَنِيفَة إِلَى أَنَّهُ يُلقَى مِنْ شَاهِق وَيُتْبَع بِالحِجَارَةِ، كَمَا فَعَلَ الله بِقَوْمِ لُوط، وَالله سُبْحَانه وَتَعَالَى أَعْلَم بِالصَّوَابِ.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى مَدْيَن، وَهُمْ قَبِيلَة مِنْ العَرَب كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْن الحِجَاز وَالشَّام قَرِيبًا مِنْ بِلاد مَعَانٍ. فِي بَلَد يُعْرَف بِهِمْ، يُقَال لَهَا مَدْيَن، فَأَرْسَلَ الله إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا وَكَانَ مِنْ أَشْرَفِهِمْ نَسَبًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يَأْمُرهُمْ بِعِبَادَةِ الله تَعَالَى وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ التَّطْفِيف فِي المِكْيَال وَالمِيزَان، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أَيْ: فِي مَعِيشَتكُمْ وَرِزْقِكُمْ، وَإِنِّي أَخَاف أَنْ تُسْلَبُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ بِانْتِهَاكِكُمْ مَحَارِم الله، ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة.

﴿ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

يَنْهَاهُمْ أَوَّلًا عَنْ نَقْص المِكْيَال وَالمِيزَان إِذَا أَعْطَوْا النَّاس، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الكَيْل وَالوَزْن بِالقِسْطِ آخِذِينَ وَمُعْطِينَ، وَنَهَاهُمْ عَنْ العَيْثِ فِي الأَرْض بِالفَسَادِ وَقَدْ كَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيق.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس: رِزْق الله خَيْر لَكُمْ. وَقَالَ الحَسَن: رِزْق الله خَيْر مِنْ بَخْسكُمْ النَّاس. وَقَالَ الرَّبِيع بْن أَنَس: وَصِيَّة الله خَيْر لَكُمْ. وَقَالَ مُجَاهِد: طَاعَة الله، وَقَالَ قَتَادَة: حَظّكُمْ مِنْ الله خَيْر لَكُمْ، وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: الهَلَاك فِي العَذَاب وَالبَقِيَّة فِي الرَّحْمَة. وَقَالَ أَبُو جَعْفَر بْن جَرِير: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أَيْ: مَا يَفْضُل لَكُمْ مِنْ الرِّبْح بَعْد وَفَاء الكَيْل وَالمِيزَان خَيْر لَكُمْ مِنْ أَخْذ أَمْوَال النَّاس، وَقَالَ: وَقَدْ رُوِيَ هَذَا عَنْ اِبْن عَبَّاس.

قُلت: وَيُشْبِه قَوْله تَعَالَى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾ الآيَة. وَقَوْله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أَيْ: بِرَقِيبٍ وَلَا حَفِيظ، أَيْ: اِفْعَلُوا ذَلِكَ لله ﷻ، لَا تَفْعَلُوهُ لِيَرَاكُمْ النَّاس، بَل لله ﷻ.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾، يَقُولُونَ لَهُ عَلَى سَبِيل التَّهَكُّم -قَبَّحَهُمْ الله-: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ قَالَ الأَعْمَش: أَيْ: قِرَآنك يَأْمرك ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أَيْ: الأَوْثَان وَالأَصْنَام، ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ فَنَتْرُك التَّطْفِيف عَنْ قَوْلِك، وَهِيَ أَمْوَالنَا نَفْعَل فِيهَا مَا نُرِيد. قَالَ الحَسَن فِي قَوْله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أَيْ: وَالله إِنَّ صَلَاتَهُ لَتَأْمُرهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا مَا كَانَ يَعْبُد آبَاؤُهُمْ. وَقَالَ الثَّوْرِيّ فِي قَوْله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ يَعْنُونَ الزَّكَاة. وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس، وَمَيْمُون بْن مِهْرَان، وَابْن جُرَيْج، وَابن أَسْلَم، وَابْن جَرِير: يَقُولُونَ ذَلِكَ أَعْدَاء الله عَلَى سَبِيل الِاسْتِهْزَاء، قَبَّحَهُمْ الله وَلَعَنَهُمْ عَنْ رَحْمَته، وَقَدْ فَعَلَ.

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

يَقُول لَهُمْ: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يَا قَوْم ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أَيْ: عَلَى بَصِيرَة فِيمَا أَدْعُو إِلَيْهِ ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ﴾ قِيلَ: أَرَادَ النُّبُوَّة، وَقِيلَ: أَرَادَ الرِّزْق الحَلَال، وَيَحْتَمِل الأَمْرَيْنِ. وَقَالَ الثَّوْرِيّ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾ أَيْ: لَا أَنْهَاكُمْ عَنْ الشَّيْء وَأُخَالِف أَنَا فِي السِّرّ فَأَفْعَله خُفْيَة عَنْكُمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَة فِي قَوْله:

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ يقول: لَمْ أَكُنْ أَنهاكُمْ عَنْ أَمْر وَأَرْتَكِبُهُ، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أَيْ: فِيمَا آمُرُكُمْ وَأَنهاكُمْ، إِنَّمَا أُرِيد إِصْلَاحكُمْ جَهْدِي وَطَاقَتِي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ أَيْ: فِي إِصَابَة الحَقّ فِيمَا أُرِيدهُ ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فِي جَمِيع أُمُورِي، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أَيْ: أَرْجِع؛ قَالَهُ مُجَاهِد وغيره. قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، حَدَّثَنَا أَبُو قَزَعَة سُوَيْد بْن حُجَيْر البَاهِلِيّ، عَنْ حَكِيم بْن مُعَاوِيَة، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَخَاهُ مَالِكًا قَالَ: يَا مُعَاوِيَة، إِنَّ مُحَمَّدًا أَخَذَ جِيرَانِي، فَانْطَلِقْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ قَدْ كَلَّمَك وَعَرَفَك. فَانْطَلَقْت مَعَهُ فَقَالَ: دَعْ لِي جِيرَانِي فَقَدْ كَانُوا أَسْلَمُوا. فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ متمعطًا فَقَالَ: أَمَا وَالله لَئِنْ فَعَلت، إِنَّ النَّاس يَزْعُمُونَ أَنَّك تَأْمُر بِالأَمْرِ وَتُخَالِف إِلَى غَيْره. وَجَعَلت أَجُرّهُ وَهُوَ يَتَكَلَّم، فَقَالَ رَسُول الله: **«مَا تَقُول؟»** فَقَالَ: إِنَّك وَالله لَئِنْ فَعَلت ذَلِكَ إِنَّ النَّاس لَيَزْعُمُونَ أَنَّك لَتَأْمُر بِالأَمْرِ وَتُخَالِف إِلَى غَيْره. قَالَ: فَقَالَ: **«أَوَ قَدْ قَالُوهَا -أَيْ: قَائِلهمْ- وَلَئِنْ فَعَلت ذَاك، مَا ذَاكَ إِلا عَلَيَّ، وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْء، أَرْسِلُوا لَهُ جِيرَانه»**[1].

وَقَالَ أحمد أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ بَهْز بْن حَكِيم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه قَالَ: أَخَذَ النَّبِيّ ﷺ نَاسًا مِنْ قَوْمِي فِي تُهْمَة فَحَبَسَهُمْ، فَجَاءَ رَجُل مِنْ قَوْمِي إِلَى رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ يَخْطُب، فَقَالَ: يَا مُحَمَّد؛ عَلَامَ تَحْبِس جِيرَتِي؟ فَصَمَتَ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ نَاسًا لَيَقُولُونَ إِنَّك تَنْهَى عَنْ الشَّيْء وَتَسْتَخْلِي بِهِ. فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: **«مَا يَقُول؟»** قَالَ: فَجَعَلت أُعَرِّض بَيْنهمَا بِالكَلَام، مَخَافَة أَنْ يَسْمَعهَا فَيَدْعُو عَلَى قَوْمِي دَعْوَة لَا يُفْلِحُونَ بَعْدهَا أَبَدًا، فَلَمْ يَزَل رَسُول الله ﷺ به حَتَّى فَهِمَهَا، فَقَالَ: **«أَوَ قَدْ قَالُوهَا؟»** أَوْ: **«قَائِلهَا مِنْهُمْ، وَالله لَوْ فَعَلت لَكَانَ عَلَيَّ وَمَا كَانَ عَلَيْهِمْ، خَلُّوا له عَنْ جِيرَانِهِ»**[2]. وَمِنْ هَذَا القَبِيل الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن بِلَال، عَنْ رَبِيعَة بْن أَبِي عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ عبد المَلِك بْن سَعِيد بْن سُوَيْد الأَنْصَارِيّ، قَالَ: سَمِعْت أَبَا حُمَيْد، وَأَبَا أُسَيْد، يَقُولَانِ: قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا سَمِعْتُمْ الحَدِيث عَنِّي تَعْرِفهُ قُلُوبكُمْ، وَتَلِين لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيب فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ الحَدِيث عَنِّي تُنْكِرهُ قُلُوبكُمْ، وَتَنْفِر مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيد فَأَنَا أَبْعَدكُمْ مِنْهُ»**[3]. وهذا إِسْنَاده صَحِيح. وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِم بِهَذَا السَّنَد حَدِيث: **«إِذَا دَخَلَ أَحَدكُمْ المَسْجِد فَلْيَقُلْ: اللهمَّ، افْتَحْ لِي أَبْوَاب رَحْمَتك، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلك مِنْ فَضْلك»**[4]. وَمَعْنَاهُ -وَالله أَعْلَم-: مَهْمَا بَلَغَكُمْ عَنِّي مِنْ خَيْر فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ مَكْرُوه فَأَنَا أَبْعَدكُمْ مِنْهُ، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾. وَقَالَ قَتَادَة، عَنْ عزرة، عَنْ الحَسَن العُرَنِيّ، عَنْ يَحْيَى بْن الجزار، عَنْ مَسْرُوق أن امْرَأَة جَاءَتْ إِلَى ابْن مَسْعُود فَقَالَتْ: تَنْهَى عَنْ الوَاصِلَة؟ قَالَ: نَعَمْ. فقَالَتْ المرأة: فَلَعَلَّهُ فِي بَعْض نِسَائِك. فَقَالَ: مَا حَفِظْت إِذًا وَصِيَّة العَبْد الصَّالِح ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾. وَقَالَ عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة: حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ أَبِي سُلَيْمَان الضَّبِّيّ، قَالَ: كَانَتْ تَجِيئنَا كُتُب عُمَر بْن عَبْد العَزِيز فِيهَا الأَمْر وَالنَّهْي، فَيَكْتُب فِي آخرهَا: وَمَا كُنْت مِنْ ذَلِكَ إِلَّا كَمَا قَالَ العَبْد الصَّالِح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

يَقُول لَهُمْ: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ أَيْ: لَا تَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَتِي وَبُغْضِي عَلَى الإِصْرَار عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ

(١) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٧).
(٢) حسن الإسناد: أخرجه أحمد (٥/ ٢)، والحاكم (١/ ٢١٤).
(٣) صحيح: تقدم.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٧١٣)، وأبو داود (٤٦٥)، والنسائي (٢/ ٥٣).

الكُفر وَالفَسَاد، فَيُصِيبكُمْ مِثْل مَا أَصَابَ قَوْم نُوح، وَقَوْم هُود، وَقَوْم صَالِح، وَقَوْم لُوط مِنَ النِّقْمَة وَالعَذَاب، وَقَالَ قَتَادَة: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ يَقُول: لا يَحْمِلَنَّكُمْ فِرَاقِي -وَقَالَ السُّدِّيّ: عَدَاوَتِي- عَلَى أَنْ تَتَمَادَوْا فِي الضَّلَال وَالكُفر فَيُصِيبكُمْ مِنَ العَذَاب مَا أَصَابَهُمْ. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: ثَنَا محمد بْن عَوْف الحِمْصِيّ، ثَنَا أَبُو المُغِيرَة عَبْد القُدُّوس بْن الحَجَّاج، ثَنَا اِبْن أَبِي غنية، حَدَّثَنِي عَبْد المَلِك بْن أَبِي سُلَيْمَان، عَنْ أَبِي لَيْلَى الكِنْدِيّ قَالَ: كُنْت مَعَ مَوْلَايَ أُمْسِك دَابَّته، وَقَدْ أَحَاطَ النَّاس بِعُثْمَان بْن عَفَّان، إِذْ أَشْرَفَ عَلَيْنَا مِنْ دَاره فَقَالَ: ﴿يَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ يَا قَوْم، لَا تَقْتُلُونِي، إِنَّكُمْ إِنْ تقتلوني كُنْتُمْ هَكَذَا. وَشَبَّكَ بَيْن أَصَابِعه. وَقَوْله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ قِيلَ: المُرَاد فِي الزَّمَان، قَالَ قَتَادَة: يَعْنِي إِنَّمَا هَلَكُوا بَيْن أَيْدِيكُمْ بِالأَمْسِ، وَقِيلَ: فِي المَكَان، وَيَحْتَمِل الأَمْرَانِ. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: استغفروه مِنْ سَالِف الذُّنُوب، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الأَعْمَال السَّيِّئَة، وَقَوْله: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أَيْ: لِمَنْ تَابَ وأناب.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

يَقُولُونَ: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: مَا نَفْهَم كَثِيرًا مِنْ قَوْلك وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾. قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر وَالثَّوْرِيّ: وَكَانَ ضَرِير البَصَر. وَقَالَ الثَّوْرِيّ: كَانَ يُقَال لَهُ خَطِيب الأَنْبِيَاء. قَالَ السُّدِّيّ: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قَالَ: أَنْتَ وَاحِد. وَقَالَ أَبُو رَوْق: يَعْنُونَ ذَلِيلًا؛ لِأَنَّ عَشِيرَتك لَيْسُوا عَلَى دِينك. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ أَيْ: قَوْمك وعشيرتك، لَوْلَا عزة قومك عَلَيْنَا لَرَجَمْنَاك، قِيلَ: بِالحِجَارَةِ، وَقِيلَ: لَسَبَبْنَاك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَك عِنْدنَا مَعَزَّة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يَقُول: أَتَتْرُكُونَنِي لِأَجْلِ قَوْمِي، وَلَا تَتْرُكُونِي إِعْظَامًا لِجَنَابِ الرَّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنْ تَنَالُوا نَبِيَّهُ بِمُسَاءَةٍ، وَقَدْ اِتَّخَذْتُمْ كِتَاب الله ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أَيْ: نَبَذْتُمُوهُ خَلفكُمْ؛ لَا تُطِيعُونَهُ وَلَا تُعَظِّمُونَهُ، ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أَيْ: هُوَ يَعْلَم جَمِيع أَعْمَالكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ بها.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾

لَمَّا يَئِسَ نَبِيّ الله شُعَيْب مِنْ استجابة قومه لَهُ قَالَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أَيْ: على طَرِيقَتكُمْ، وَهَذَا تَهْدِيد ووعيد شَدِيد، ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ عَلَى طَرِيقَتِي ومنهجي، فـ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ أَيْ: مِنِّي وَمِنْكُمْ، ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾ أَيْ: اِنْتَظِرُوا ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم قومه، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. وَقَوْله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أَيْ: هَامِدِينَ لَا حَرَاكَ بِهِمْ، وَذُكِرَ هَاهُنَا أَنَّهُ أَتَتْهُمْ صَيْحَة، وَفِي الأَعْرَاف: رَجْفَة، وَفِي الشُّعَرَاء: عَذَاب يَوْم الظُّلَّة، وَهُمْ أُمَّة وَاحِدَة اِجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ يَوْم عَذَابهمْ هَذِهِ النِّقَم كُلّهَا، وَإِنَّمَا ذُكِرَ فِي كُلّ سِيَاق مَا يُنَاسِبهُ؛ فَفِي الأَعْرَاف لَمَّا قَالُوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ نَاسَبَ أَنْ يُذْكَر هُنَاكَ الرَّجْفَة، فَرَجَفَتْ بِهِمْ الأَرْض الَّتِي ظَلَمُوا بِهَا وَأَرَادُوا إِخْرَاج نَبِيّهمْ مِنْهَا، وَهَاهُنَا لَمَّا أَسَاءُوا الأَدَب فِي مَقَالَتهمْ عَلَى نَبِيّهمْ ناسب ذِكْر الصَّيْحَة الَّتِي أسكتتهم وَأَخْمَدَتْهُمْ، وَفِي الشُّعَرَاء لَمَّا قَالُوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قَالَ: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

وَهَذَا مِنْ الأَسْرَار الغريبة الدَّقِيقَة، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة كَثِيرًا دَائِمًا. وَقَوْله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾ أَيْ: يَعِيشُوا فِي دَارِهِمْ قَبْل ذَلِكَ؛ ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وَكَانُوا جِيرَانهمْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي الدَّار، وَشَبِيهًا بِهِمْ فِي الكُفْر وَقَطْع الطريق، وَكَانُوا عَرَبًا شبههم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِرْسَاله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِآيَاتِهِ وبيناته وحججه وَدَلَالَاته البَاهِرَة القاطعة، إِلَى فِرْعَوْن لعنه الله، وهو ملك ديار مصر على أمة القِبْط وَمَلَئِهِ: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أَيْ: مَسْلَكه وَمَنْهَجه وَطَرِيقَته فِي الغَيّ والضلال، ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ فِيهِ رُشْد وَلَا هُدًى، وَإِنَّمَا هُوَ جَهْل وَضَلَال وَكُفْر وَعِنَاد، وَكَمَا أَنَّهُمْ اِتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا وَكَانَ مُقَدَّمهمْ وَرَئِيسهمْ، كَذَلِكَ هُوَ يَقْدُمهُمْ يَوْم القِيَامَة إِلَى نَار جَهَنَّم فَأَوْرَدَهُمْ إِيَّاهَا، وَشَرِبُوا مِنْ حِيَاض رَدَاهَا، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الحَظّ الأَوْفَر مِنْ العَذَاب الأَكْبَر، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾، وَكَذَلِكَ شَأْن المَتْبُوعِينَ يَكُونُونَ مَوْفُورِينَ فِي العَذَاب يَوْم الميعاد، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ الكَفَرَة أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّار: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾، وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هُشَيْم، حَدَّثَنَا أَبُو الجَهْم، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**اِمْرُؤُ القَيْس حَامِل لِوَاء شُعَرَاء الجَاهِلِيَّة إِلَى النَّار**»[1]. وَقَوْله: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أَيْ: أَتْبَعْنَاهُمْ زِيَادَة عَلَى ما جازيناهم من عَذَاب النَّار لَعْنَة فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾. قَالَ مُجَاهِد: زِيدُوا لَعْنَة يَوْم القِيَامَة؛ فَتِلْكَ لَعْنَتَانِ. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ قَالَ: لَعْنَة الدُّنْيَا وَالآخِرَة. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك وَقَتَادَة، هكذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَبَر هؤلاء الأَنْبِيَاء، وَمَا جَرَى لَهُمْ مَعَ أُمَمهمْ، وَكَيْف أَهْلَكَ الكَافِرِينَ وَنَجَّى المُؤْمِنِينَ، قَالَ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أَيْ: من أَخْبَارهَا ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ أَيْ: عَامِر، ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أَيْ: هَالِك دائر. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أَيْ: إِذْ أَهْلَكْنَاهُمْ، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلنَا وَكُفْرهمْ بِهِمْ، ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ أي: أصنامهم وَأَوْثَانهمْ الَّتِي كانوا يَعْبُدُونَهَا وَيَدْعُونَهَا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: مَا نَفَعُوهُمْ وَلَا أَنْقَذُوهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْر الله بِإِهْلَاكِهِمْ، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ قَالَ مُجَاهِد، وَقَتَادَة وَغَيْرهمَا: أَيْ: غَيْر

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٨) من حديث أبي هريرة، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٢١)، وقال: رواه أحمد والبزار وفي إسناده أبو الجهم شيخ هشيم بن بشير ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٢٥٠).

تَخْسِيرٍ. وَذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِاتِّبَاعِهِمْ تِلْكَ الآلِهَةَ وعبادتهم إياها، فَبِهَذَا أصابهم ما أصابهم وَخَسِرُوا بهم فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَكَمَا أَهْلَكْنَا أُولَئِكَ القُرُون الظَّالِمَة المُكَذِّبَة لِرُسُلِنَا، كَذَلِكَ نَفْعَل بِنظائرهم وَأَشْبَاهِهِمْ وأمثالهم؛ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾

يَقُول تَعَالَى: إِنَّ فِي إِهْلَاكِنَا الكَافِرِينَ ونصرة الأنبياء وَإِنْجَائِنَا المُؤْمِنِينَ ﴿لَـَٔايَةً﴾ أَيْ: عِظَة وَاعْتِبَارًا عَلَى صِدْق مَوْعُودِنَا فِي الدار الآخِرَة؛ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾. وَقَوْله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَوَّلهمْ وَآخِرهمْ فلا يبقى منهم أحد، كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أَيْ: يوم عَظِيم تَحْضُرهُ المَلَائِكَة كلهم، وَيَجْتَمِع فِيهِ الرُّسُل جميعهم، وَتُحْشَر فيه الخَلَائِق بِأَسْرِهِمْ؛ مِنْ الإِنْس وَالجِنّ، وَالطَّيْر وَالوُحُوش وَالدَّوَابّ، وَيَحْكُم فِيهِم العَادِل الَّذِي لَا يَظْلِم مِثْقَال ذَرَّة، وَإِنْ تَكُ حَسَنَة يُضَاعِفهَا. وَقَوْله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أَيْ: مَا نُؤَخِّر إِقَامَة القِيَامَة إِلَّا لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَتْ كَلِمَة الله وقضاؤه وقدره فِي وُجُود أُنَاس مَعْدُودِينَ مِنْ ذُرِّيَّة آدَم، وَضَرْب مُدَّة مُعَيَّنَة إِذَا اِنْقَطَعَتْ وَتَكَامَلَ وُجُود أُولَئِكَ المُقَدَّر خُرُوجهمْ من ذرية آدم؛ أقام الله السَّاعَة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أَيْ: لِمُدَّةٍ مُؤَقَّتَة لَا يُزَاد عَلَيْهَا وَلَا يُنْقَص مِنْهَا. ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أَيْ: يَوْم يَأْتِي هذا اليوم، وهو يَوْم القِيَامَة؛ لَا يَتَكَلَّم أَحَد إِلَّا بِإِذْنِ الله، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، وَقَالَ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عن رسول الله في حَدِيث الشَّفَاعَة الطويل: «**وَلا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إلا الرُّسُل، وَدَعْوَى الرُّسُل يَوْمَئِذٍ: اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»[2]. وَقَوْله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أَيْ: فَمِنْ أَهْل الجَمْع شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ، كَمَا قَالَ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَده: ثَنَا مُوسَى بْن حيان، ثَنَا عَبْد المَلِك بْن عَمْرو، ثَنَا سُلَيْمَان بن سُفْيَان، ثَنَا عَبْد الله ابْن دِينَار، عَنْ اِبْن عُمَر، عَنْ عُمَر قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سَأَلت النَّبِيّ ﷺ، فَقُلْت: يَا رَسُول الله؛ عَلَامَ نَعْمَل؟ عَلَى شَيْء قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، أَمْ عَلَى شَيْء لَمْ يُفْرَغ مِنْهُ؟ فَقَالَ: «**عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ يَا عُمَر؛ وَجَرَتْ بِهِ الأَقْلام، وَلَكِنْ كُلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[3]. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حَال الأَشْقِيَاء وَحَال السُّعَدَاء؛ فَقَالَ:

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

(٣) صحيح: أخرجه ابن جرير (٧/ ١١٣)، والترمذي (٣١١١)، وعبد بن حميد (١/ ٣٦) من حديث عمر بن الخطاب، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس: الزَّفِير فِي الحلق، وَالشَّهِيق فِي الصَّدْر. أَيْ: تَنَفُّسهمْ زَفِير وَأَخْذهمْ النَّفَس شَهِيق، لِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ العَذَاب، عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلِكَ. ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ قَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: مِنْ عَادَة العَرَب إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَصِف الشَّيْء بِالدَّوَامِ أَبَدًا قَالَتْ: هَذَا دَائِم دَوَام السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ: هُوَ بَاقٍ مَا اِخْتَلَفَ اللَّيْل وَالنَّهَار، وَمَا سَمَرَ ابنا سَمِير، وَمَا لَأْلَأَتْ العفر بِأَذْنَابِهَا، يَعْنُونَ بِذَلِكَ كلمة أَبَدًا، فَخَاطَبَهُمْ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- بِمَا يَتَعَارَفُونَهُ بَيْنهمْ فَقَالَ: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾.

قُلت: وَيَحْتَمِل أَنَّ المُرَاد بِـ ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ الجِنس؛ لأَنَّهُ لَابُدّ فِي عَالَم الآخِرَة مِنْ سَمَاوَات وَأَرْض، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾. وَلِهَذَا قَالَ الحَسَن البَصْرِيّ فِي قَوْله ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ قَالَ: تُبدَّل سَمَاء غَيْر هَذِهِ السَّمَاء، وَأَرْض غَيْر هَذِهِ الأرض، فَمَا دَامَتْ تِلْكَ السَّمَاء وَتِلْكَ الأَرْض. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ سُفْيَان بْن حُسَيْن، عَنْ الحَكَم، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَوْله: ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ قَالَ: لِكُلِّ جَنَّة سَمَاء وَأَرْض. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: مَا دَامَتْ الأَرْض أَرْضًا، وَالسَّمَاء سَمَاء. وَقَوْله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

وَقَدْ اِخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي المُرَاد مِنْ هَذَا الاِسْتِثْنَاء عَلَى أَقْوَال كَثِيرَة، حَكَاهَا الشَّيْخ أَبُو الفَرَج ابْن الجَوْزِيّ فِي كِتَابِهِ «زَاد المَسِير»، وَغَيْره مِنْ عُلَمَاء التَّفْسِير، وَنَقَلَ كَثِيرًا مِنْهَا الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابه، وَاخْتَارَ هُوَ مَا نَقَلَهُ عَنْ خَالِد بْن مَعْدَان وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَأَبِي سِنَان، وَرَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم عَنْ اِبْن عَبَّاس وَالحَسَن أَيْضًا: أَنَّ الاِسْتِثْنَاء عَائِد عَلَى العُصَاة مِنْ أَهْل التَّوْحِيد، مِمَّنْ يُخْرِجُهُمْ الله مِنْ النَّار بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ، مِنْ المَلَائِكَة وَالنَّبِيِّينَ وَالمُؤْمِنِينَ، حين يَشْفَعُونَ فِي أَصْحَاب الكَبَائِر، ثُمَّ تَأْتِي رَحْمَة أَرْحَم الرَّاحِمِينَ، فَتُخْرِج مِنْ النَّار مَنْ لَمْ يَعْمَل خَيْرًا قَطُّ، وَقَالَ يَوْمًا مِنْ الدَّهْر: لَا إِلَه إِلَّا الله، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الأَخْبَار الصَّحِيحَة المُسْتَفِيضَة عَنْ رَسُول الله ﷺ، بِمَضْمُونِ ذَلِكَ؛ مِنْ حَدِيث أَنَس وَجَابِر وَأَبِي سَعِيد وَأَبِي هُرَيْرَة وَغَيْرهمْ مِنْ الصَّحَابَة، وَلَا يَبْقَى بَعْد ذَلِكَ فِي النَّار إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُود فِيهَا وَلَا مَحِيد لَهُ عَنْهَا، وَهَذَا الَّذِي عَلَيْهِ كَثِير مِنْ العُلَمَاء قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة. وَقَدْ رُوِيَ فِي تَفْسِيرهَا عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الخَطَّاب، وَابْن مَسْعُود، وَابْن عَبَّاس، وَأَبِي هُرَيْرَة، وَعَبْد الله ابْن عَمْرو، وَجَابِر، وَأَبِي سَعِيد مِنْ الصَّحَابَة، وَعَنْ أَبِي مِجْلَز وَالشَّعْبِيّ وَغَيْرهمَا مِنْ التَّابِعِينَ، وَعَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد ابْن أَسْلَمَ وَإِسْحَاق بْن رَاهْوَيْهِ وَغَيْرهمَا مِنْ الأَئِمَّة أَقْوَال غَرِيبَة، وَوَرَدَ حَدِيث غَرِيب فِي مُعْجَم الطَّبَرَانِيّ الكَبِير: عَنْ أَبِي أُمَامَة صُدَيّ بْن عَجْلَان البَاهِلِيّ، وَلَكِنَّ سَنَده ضَعِيف، وَالله أَعْلَم. وَقَالَ قَتَادَة: الله أَعْلَم بِثُنْيَاهُ. وَقَالَ السُّدِّيّ: هِيَ مَنْسُوخَة بِقَوْلِهِ: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾.

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ﴾ وَهُمْ أَتْبَاع الرُّسُل ﴿ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ أَيْ: فَمَأْوَاهُمْ الجَنَّة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا، ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ مَعْنَى الاِسْتِثْنَاء هَاهُنَا: أَنَّ دَوَامهمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ النَّعِيم لَيْسَ أَمْرًا وَاجِبًا بِذَاتِهِ، بَل هُوَ مَوْكُول إِلَى مَشِيئَة الله تَعَالَى، فَلَهُ المِنَّة عَلَيْهِمْ دَائِمًا، وَلِهَذَا «**يُلهَمُونَ التَّسْبِيح**

وَالتَّحْمِيد كَمَا يُلهَمُون النَّفَس». وَقَالَ الضَّحَّاك وَالحَسَن البَصْرِيّ: هِيَ فِي حَقّ عُصَاة المُوَحِّدِينَ، الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّار ثُمَّ أُخرِجُوا مِنْهَا، وَعَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أَيْ: غير مَقْطُوع، قَالَهُ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَأَبُو العَالِيَة، وَغَيْر وَاحِد؛ لِئَلَّا يَتَوَهَّم متوهم بَعْد ذِكْره المَشِيئَة أَنَّ ثَمَّ انْقِطَاعًا أَوْ لبسًا أو شيئًا، بَل خَتَمَ لَهُ بِالدَّوَام وَعَدَم الانْقِطَاع، كَمَا بَيَّنَ هُنَاكَ أَنَّ عَذَاب أَهْل النَّار فِي النَّار دَائِمًا مَرْدُود إِلَى مَشِيئَتِهِ، وَأَنَّهُ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَته عَذَّبَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ وَهُنَا طَيَّبَ القُلُوب وَثَبَّتَ المَقْصُود بِقَوْلِهِ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**يُؤْتَى بِالمَوْتِ فِي صُورَة كَبْش أَمْلَح فَيُذْبَح بَيْن الجَنَّة وَالنَّار، ثُمَّ يُقَال: يَا أَهْل الجَنَّة خُلُود بلا مَوْت، وَيَا أَهْل النَّار خُلُود بلا مَوْت**»[1]. وَفِي الصَّحِيح أَيْضًا: «**فَيُقَال: يَا أَهْل الجَنَّة، إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلا تَبْأَسُوا أَبَدًا**»[2].

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المُشْرِكُونَ، إِنَّهُ بَاطِل وَجَهْل وَضَلَال، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُد آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْل، أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَد فِيمَا هُمْ فِيهِ إِلَّا اتِّبَاع الآبَاء فِي الجَهَالَات، وَسَيَجْزِيهِمْ الله عَلَى ذَلِكَ أَتَمّ الجَزَاء، فَيُعَذِّب كافرهم عَذَابًا لَا يُعَذِّبهُ أَحَدًا من العالمين، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ حَسَنَات فَقَدْ وَفَّاهُمْ الله إِيَّاهَا فِي الدُّنْيَا قَبْل الآخِرَة. قَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ جَابِر الجُعْفِيّ، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ قَالَ: مَا وُعِدُوا به مِنْ خَيْر أَوْ شَرّ. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: لَمُوَفُّوهُمْ مِنْ العَذَاب نَصِيبهمْ غَيْر مَنْقُوص.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَى مُوسَى الكِتَاب فَاخْتَلَفَ النَّاس فِيهِ، فَمِنْ مُؤْمِن بِهِ وَمِنْ كَافِر بِهِ، فَلَكَ بِمَنْ سَلَفَ مِنْ الأَنْبِيَاء قَبْلَك يَا مُحَمَّد أُسْوَة، فَلَا يَغِيظَنك تَكْذِيبهمْ لَك، وَلَا يهيدنك ذَلِكَ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾. قَالَ ابْن جَرِير: لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَأْجِيله العَذَاب إِلَى أَجَل مَعْلُوم لَقَضَى الله بَيْنهمْ. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون المُرَاد بِالكَلِمَةِ: أَنَّهُ لَا يُعَذِّب أَحَدًا إِلَّا بَعْد قِيَام الحُجَّة عَلَيْهِ وَإِرْسَال الرَّسُول إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. ثم أخبر أن الكافرين في شك مما جاءهم به الرسول قوي فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَيَجْمَعُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ مِنْ الأُمَم، وَيَجْزِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيْ: عَلِيم بِأَعْمَالِهِمْ جَمِيعًا؛ جَلِيلهَا وَحَقِيرهَا، صَغِيرهَا وَكَبِيرهَا، وَفِي هَذِهِ الآيَة قِرَاءَات كَثِيرَة، يَرْجِع مَعْنَاهَا إِلَى هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

يَأْمُر تَعَالَى رَسُوله وَعِبَاده المُؤْمِنِينَ بِالثَّبَات وَالدَّوَام عَلَى الاسْتِقَامَة، وَذَلِكَ مِنْ أَكْبَر العَوْن عَلَى النَّصْر عَلَى الأَعْدَاء وَمُخَالَفَة الأَضْدَاد، وَنَهَى عَنْ الطُّغْيَان، وَهُوَ البَغْي، فَإِنَّهُ مَصْرَعَةٌ حَتَّى وَلَوْ كَانَ عَلَى مُشْرِك، وَأَعْلَمَ تَعَالَى

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٣٧)، والترمذي (٣٢٤١).

أَنَّهُ بَصِير بِأَعْمَالِ العِبَاد، لَا يَغْفُل عَنْ شَيْء، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء. وَقَوْله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قَالَ عَلِيّ ابْن أَبِي طَلحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: لَا تُدَاهِنُوا. وَقَالَ العَوْفِيُّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: هُوَ الرُّكُون إِلَى الشِّرْك. وَقَالَ أَبُو العَالِيَة: لَا تَرْضَوْا بِأَعْمَالِهِمْ. وَقَالَ اِبْن جَرِير، عَنْ اِبْن عَبَّاس: وَلَا تَمِيلُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا. وَهَذَا القَوْل حَسَن، أَيْ: لَا تَسْتَعِينُوا بِالظَّلَمَةِ فَتَكُونُوا كَأَنَّكُمْ قَدْ رَضِيتُمْ بباقي صنيعهم، ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونه مِنْ وَلِيّ يُنْقِذكُمْ وَلَا نَاصِر يُخَلِّصكُمْ مِنْ عَذَابه.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

قَالَ عَلِيّ بن أَبِي طَلحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ قَالَ: يَعْنِي الصُّبْح وَالمَغْرِب. وَكَذَا قَالَ الحَسَن وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ. وَقَالَ الحَسَن فِي رِوَايَة وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك وَغَيْرهمْ: هِيَ الصُّبْح وَالعَصْر. وَقَالَ مُجَاهِد: هِيَ الصُّبْح فِي أَوَّل النَّهَار، وَالظُّهْر وَالعَصْر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب القرظي والضحاك في رواية عنه. وقوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَالحَسَن وَغَيْرهمْ: يَعْنِي صَلَاة العِشَاء. وَقَالَ الحَسَن فِي رِوَايَة اِبْن المُبَارَك عَنْ مُبَارَك بْن فَضَالَة عَنْهُ: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ يَعْنِي: المَغْرِب وَالعِشَاء، قَالَ رَسُول الله ﷺ «**هُمَا زُلْفَتَا اللَّيْل المَغْرِب وَالعِشَاء**». وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَمُحَمَّد بْن كَعْب وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك: إِنَّهَا صَلَاة المَغْرِب وَالعِشَاء.

وَقَدْ يَحْتَمِل أَنْ تَكُون هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ قَبْل فَرْض الصَّلَوَات الخَمْس لَيْلَة الإِسْرَاء، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَجِب مِنَ الصَّلَاة صَلَاتَانِ؛ صَلَاة قَبْل طُلُوع الشَّمْس، وَصَلَاة قَبْل غُرُوبهَا، وَفِي أَثْنَاء اللَّيْل قيام عَلَيْهِ وَعَلَى الأُمَّة، ثُمَّ نُسِخَ فِي حَقّ الأُمَّة وَثَبَتَ وُجُوبه عَلَيْهِ، ثُمَّ نُسِخَ عَنْهُ أَيْضًا فِي قَوْلٍ، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يَقُول: إِنَّ فِعْل الخَيْرَات يُكَفِّر الذُّنُوب السَّالِفَة، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن: عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عَلِيّ بن أَبِي طَالِب قَالَ: كُنْت إِذَا سَمِعْت مِنْ رَسُول الله حَدِيثًا نَفَعَنِي الله بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْفَعنِي مِنْهُ، وَإِذَا حَدَّثَنِي عَنْهُ أَحَد اِسْتَحْلَفْته، فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدَّقْته، وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْر وَصَدَقَ أَبُو بَكْر، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**مَا مِنْ مُسْلِم يُذْنِب ذَنْبًا، فَيَتَوَضَّأ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ إِلا غُفِرَ لَهُ**»[1]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُثْمَان بْن عَفَّانَ: أَنَّهُ تَوَضَّأَ لَهُمْ كَوُضُوءِ رَسُول الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْت رَسُول الله ﷺ يَتَوَضَّأ، وَقَالَ: «**مَنْ تَوَضَّأَ نحو وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّث فِيهِمَا نَفْسه، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبه**»[2]. وَرَوَى الإِمَام أَحْمَد وَأَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث أَبِي عُقَيْل زُهْرَة بْن مَعْبَد، أَنَّهُ سَمِعَ الحَارِث مَوْلَى عُثْمَان يَقُول: جَلَسَ عُثْمَان يَوْمًا وَجَلَسْنَا مَعَهُ، فَجَاءَهُ المُؤَذِّن فَدَعَا عُثْمَان بِمَاءٍ فِي إِنَاء -أَظُنُّهُ سَيَكُونُ فِيهِ قَدْر مُدّ- فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْت رَسُول الله ﷺ يَتَوَضَّأ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ تَوَضَّأَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى صَلَاة الظُّهْر، غُفِرَ لَهُ مَا كَان بَيْنه وَبَيْن صَلَاة الصُّبْح، ثُمَّ صَلَّى العَصْر غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنه وَبَيْن صَلَاة الظُّهْر، ثُمَّ صَلَّى المَغْرِب غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنه وَبَيْن صَلَاة العَصْر، ثُمَّ صَلَّى العِشَاء غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنه وَبَيْن صَلَاة المَغْرِب، ثُمَّ لَعَلَّهُ يَبِيت يَتَمَرَّغ لَيْلَته، ثُمَّ إِنْ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى الصُّبْح غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنهَا وَبَيْن صَلَاة العِشَاء، وَهُنَّ الحَسَنَات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات**»[3]. وَفِي الصَّحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ**

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: تقدم.

(٣) حسن لغيره: أخرجه الطبري (٧/ ١٢٤)، وأحمد (١/ ٧١) من حديث عثمان بن عفان، وقال الألباني: حسن لغيره. انظر «صحيح الترغيب» (٣٦٦).

بِبَابِ أَحَدِكُمْ نَهْرًا غَمْرًا، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «كَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الذُّنُوبَ وَالخَطَايَا»[1]. وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا أَبُو الطَّاهِرِ وَهَارُونُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَا: حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ أَبِي صَخْرٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ إِسْحَاقَ مَوْلَى زَائِدَةَ حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، كَانَ يَقُولُ: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»[2].

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ، عَنْ ضَمْضَمِ بْنِ زُرْعَةَ، عَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ، أَنَّ أَبَا رُهْمٍ السَّمَعِيَّ كَانَ يُحَدِّثُ، أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ الأَنْصَارِيَّ، حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ كُلَّ صَلَاةٍ تَحُطُّ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ خَطِيئَةٍ»[3]. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ ضَمْضَمِ بْنِ زُرْعَةَ، عَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «جُعِلَتِ الصَّلَوَاتُ كَفَّارَاتٍ مَا بَيْنَهُنَّ، فَإِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾»[4]. وَقَالَ البُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَلِي هَذَا؟ قَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ». هَكَذَا رَوَاهُ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ، وَأَخْرَجَهُ فِي التَّفْسِيرِ: عَنْ مُسَدَّدٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ زُرَيْعٍ بِنَحْوِهِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ، مِنْ طُرُقٍ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ وَاسْمُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلٍّ، بِهِ. وَرَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ، وَمُسْلِمٌ، وأبو داود، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ وَهَذَا لَفْظُهُ، مِنْ طُرُقٍ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، أَنَّهُ سَمِعَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ يَزِيدَ يُحَدِّثُ، عَنْ عَلْقَمَةَ وَالأَسْوَدِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً فِي بُسْتَانٍ، فَفَعَلْتُ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَ أَنِّي لَمْ أُجَامِعْهَا، قَبَّلْتُهَا وَلَزِمْتُهَا وَلَمْ أَفْعَلْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَافْعَلْ بِي مَا شِئْتَ. فَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، شَيْئًا، فَذَهَبَ الرَّجُلُ. فَقَالَ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَوْ سَتَرَ عَلَى نَفْسِهِ. فَأَتْبَعَهُ رَسُولُ اللهِ بَصَرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «رُدُّوهُ عَلَيَّ» فَرَدُّوهُ عَلَيْهِ؛ فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ فَقَالَ مُعَاذٌ: وَفِي رِوَايَةِ عُمَرَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَلَهُ وَحْدَهُ أَمْ لِلنَّاسِ كَافَّةً؟ قَالَ: «بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً»[5].

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، ثَنَا أَبَانُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الصَّبَّاحِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُرَّةَ الهَمْدَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ». قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ قَالَ: «غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقُ مِنْهُ فَيُبَارَكُ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلُ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالحَسَنِ، إِنَّ الخَبِيثَ لَا يَمْحُو الخَبِيثَ»[6]. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو السَّائِبِ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٤١٣)، والطبراني (٤/ ١٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٤٤).
(٤) حسن لغيره: أخرجه ابن جرير (١٢/ ١٣٣) بسند ضعيف ويشهد له ما قبله.
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٦٣)، وأبو داود (٤٤٦٨).
(٦) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) من حديث ابن مسعود، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٠٧٦).

الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، قَالَ: كَانَ فُلَان اِبْن مُعَتِّب رَجُلًا مِنْ الأَنْصَار، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ دَخلت عَلَى اِمْرَأَة فَنِلت مِنْهَا مَا يَنَال الرَّجُل مِنْ أَهْله، إِلَّا أَنِّي لَمْ أُوَاقِعْهَا. فَلَمْ يَدْرِ رَسُول الله مَا يُجِيبهُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ فَدَعَاهُ رَسُول الله فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ. وَعَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّهُ عَمْرو بْن غُزَيَّةَ الأَنْصَارِيّ التَّمَّار، وَقَالَ مُقَاتِل: هُوَ أَبُو نُفَيْل عَامِر بْن قَيْس الأَنْصَارِيّ، وَذَكَرَ الخَطِيب البَغْدَادِيّ: أَنَّهُ أَبُو اليُسْر كَعْب بْن عَمْرو. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يُونُس وَعَفَّان، قَالَا: حَدَّثَنَا حَمَّاد -يَعْنِي اِبْن سَلَمَة-، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، قَالَ عَفَّانُ: أَنْبَأَنَا عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّ رَجُلًا أَتَى عُمَر فَقَالَ: اِمْرَأَة جَاءَتْ تُبَايِعهُ فَأَدْخَلتهَا الدَّوْلَج، فَأَصَبْت مِنْهَا مَا دُون الجِمَاع. فَقَالَ: وَيْحك! لَعَلَّهَا مُغِيبَة فِي سَبِيل الله؟ قَالَ: أَجَل. قَالَ: فَائْتِ أَبَا بَكْر فَسَلهُ. قَالَ: فَأَتَاهُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: لَعَلَّهَا مُغِيبَة فِي سَبِيل الله؟ فَقَالَ مِثْل قَوْل عُمَر. ثُمَّ أَتَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ مِثْل ذَلِكَ، قَالَ: «**فَلعَلَّهَا مُغِيبَة فِي سَبِيل الله؟**» وَنَزَلَ القُرْآن: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ إِلَى آخِر الآيَة، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، أَلِي خَاصَّة أَمْ لِلنَّاسِ عَامَّة؟ فَضَرَبَ -يَعْنِي عُمَر- صَدْره بِيَدِهِ وَقَالَ: لَا، وَلَا نِعْمَة عَيْن، بَل لِلنَّاسِ عَامَّة. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**صَدَقَ عُمَر!**»(١).

وَرَوَى الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: مِنْ حَدِيث قَيْس بْن الرَّبِيع، عَنْ عُثْمَان بْن مَوْهِب، عَنْ مُوسَى بْن طَلْحَة، عَنْ أَبِي اليُسْر كَعْب بْن عَمْرو الأَنْصَارِيّ، قَالَ: أَتَتْنِي اِمْرَأَة تَبْتَاع مِنِّي بِدِرْهَم تَمْرًا، فَقُلت: إِنَّ فِي البَيْت تَمْرًا أَجْوَد مِنْ هَذَا، فَدَخَلَتْ فَأَهْوَيْت إِلَيْهَا فَقَبَّلتهَا، فَأَتَيْت عُمَر فَسَأَلته، فَقَالَ: اِتَّقِ الله وَاسْتُرْ عَلَى نَفْسك، وَلَا تُخْبِرَن أَحَدًا، فَلَمْ أَصْبِر حَتَّى أَتَيْت أَبَا بَكْر فَسَأَلته، فَقَالَ: اِتَّقِ الله وَاسْتُرْ عَلَى نَفْسك، وَلَا تُخْبِرَن أَحَدًا، قَالَ: فَلَمْ أَصْبِر حَتَّى أَتَيْت النَّبِيّ ﷺ، فَأَخْبَرْته فَقَالَ: «**أَخْلَفْت رَجُلا غَازِيًا فِي سَبِيل الله فِي أَهْله بِمِثْلِ هَذَا؟**» حَتَّى ظَنَنْت أَنِّي مِنْ أَهْل النَّار، حَتَّى تَمَنَّيْت أَنِّي أَسْلَمْت سَاعَتَئِذٍ، فَأَطْرَقَ رَسُول الله ﷺ سَاعَة، فَنَزَلَ جِبْرِيل، فَقَالَ: أَين أَبُو اليُسْر؟ فَجِئْت فَقَرَأَ عَلَيَّ رَسُول الله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ فَقَالَ إِنْسَان: يَا رَسُول الله؛ أَلَهُ خَاصَّة أَمْ لِلنَّاسِ عَامَّة؟ قَالَ: «**لِلنَّاسِ عَامَّة**».

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو الحَسَن الدَّارَقُطْنِيّ: حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن إِسماعيل المَحَامِلِيّ، ثَنَا يُوسُف بْن مُوسَى، ثَنَا جَرِير، عَنْ عَبْد المَلِك بْن عُمَيْر، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل: أَنَّهُ كَانَ قَاعِدًا عِنْد النَّبِيّ ﷺ، فَجَاءَه رَجُل، فَقَالَ: يَا رَسُول الله؛ مَا تَقُول فِي رَجُل أَصَابَ مِنْ اِمْرَأَة لَا تَحِلّ لَهُ، فَلَمْ يَدَع شَيْئًا يُصِيبهُ الرَّجُل مِنْ اِمْرَأَته إِلَّا قَدْ أَصَابَهُ مِنْهَا، غَيْر أَنَّهُ لَمْ يُجَامِعهَا؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ: «**تَوَضَّأْ وُضُوءًا حَسَنًا ثُمَّ قُمْ فَصَلِّ**». قَال: فَأَنْزَلَ الله ﷻ هَذِهِ الآيَة، يَعْنِي قَوْله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ ﴾ فَقَالَ مُعَاذ: أَهِيَ لَهُ خَاصَّة أَمْ لِلمُسْلِمِينَ عَامَّة؟ قَالَ: «**بَل لِلمُسْلِمِينَ عَامَّة**»(٢). وَرَوَاهُ اِبْن جَرِير مِنْ طُرُق: عَنْ عَبْد المَلِك بْن عُمَيْر، بِهِ. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أخبرنا مُحَمَّد بْن مُسْلِم، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ يَحْيَى بْن جَعْدَة: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ، ذَكَرَ اِمْرَأَة وَهُوَ جَالِس مَعَ رَسُول الله، فَاسْتَأْذَنَهُ لِحَاجَةٍ فَأَذِنَ لَهُ، فَذَهَبَ يَطْلُبهَا فَلَمْ يَجِدْهَا، فَأَقْبَلَ الرَّجُل يُرِيد أَنْ يُبَشِّر النَّبِيّ ﷺ، بِالمَطَر، فَوَجَدَ المَرْأَة جَالِسَة عَلَى غَدِير، فَدَفَعَ فِي صَدْرهَا وَجَلَسَ بَيْن رِجْلَيْهَا، فَصَارَ ذَكَره مِثْل الهُدْبَة، فَقَامَ نَادِمًا حَتَّى أَتَى النَّبِيّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا صَنَعَ، فَقَالَ لَهُ: «**اِسْتَغْفِرْ رَبّك وَصَلِّ أَرْبَع رَكَعَات**». قَالَ: وَتَلَا عَلَيْهِ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ ﴾(٣). وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن أَحْمَد بْن شَبَّوَيْه، ثَنَا إِسْحَاق ابْن إِبْرَاهِيم،

---

(١) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (١/ ٢٤٥) فيه علي بن زيد: سيء الحفظ، وأخرجه الطبراني (١٢/ ٢١٥) من حديث ابن عباس.
(٢) **مرسل**: أخرجه الحاكم (١/ ٢٢٩)، والدارقطني (١/ ١٣٤)، والبيهقي (١/ ١٢٥)، فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى: يرسل عن معاذ.
(٣) **حسن الإسناد**: أخرجه ابن جرير (٧/ ١٢٤).

حَدَّثَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن سَالِم، عَنْ الزُّبَيْدِيّ، عَنْ سُلَيْم بْن عَامِر، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا أُمَامَة يَقُول: إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، أَقِمْ فِيَّ حَدّ الله -مَرَّة أَوْ اِثْنَتَيْنِ- فَأَعْرَض عَنْهُ رَسُول الله، ثُمَّ أُقِيمَتْ الصَّلَاة، فَلَمَّا فَرَغَ النَّبِيّ ﷺ من الصلاة، قَالَ: **«أَيْنَ هَذَا الرَّجُل القَائِل: أَقِمْ فِيَّ حَدّ الله؟»** قَالَ: أَنَا ذَا. قَالَ: **«هل أَتْمَمْت الوُضُوء وَصَلَّيْت مَعَنَا آنِفًا؟»** قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: **«فَإِنَّك مِنْ خَطِيئَتك كَمَا وَلَدَتْك أُمّك، فَلَا تَعُدْ»**. وَأَنْزَلَ الله عَلَى رَسُول الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[1].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، ثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، أَنْبَأَنَا عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ أَبِي عُثْمَان، قَالَ: كُنْت مَعَ سَلْمَان الفَارِسِيّ تَحْت شَجَرَة، فَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا عُثْمَان، أَلَا تَسْأَلنِي لِمَ أَفْعَل هَذَا؟ فَقُلت: وَلِمَ تَفْعَلهُ؟ فَقَالَ: هَكَذَا فَعَلَ بِي رَسُول الله ﷺ، وأنا معه تحت شجرة فأخذ منها غصنًا يابسًا فهزه حتى تحاتَّ ورقه فَقَالَ: **«يا سلمان؛ ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟»** قلت: ولم تفعله؟ فقال: **«إِنَّ المُسْلِم إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوء، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَات الخَمْس تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ هَذَا الوَرَق»**. وَقَالَ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[2]. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، ثَنَا سُفْيَان، عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، عَنْ مَيْمُون بْن أَبِي شَبِيب، عَنْ مُعَاذ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ لَهُ: **«يَا مُعَاذ؛ أَتْبِعْ السَّيِّئَة الحَسَنَة تَمْحُهَا، وَخَالِقْ النَّاس بِخُلُقٍ حَسَنٍ»**[3]. وَقَالَ أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، ثَنَا سُفْيَان، عَنْ حَبِيب، عَنْ مَيْمُون بْن أَبِي شَبِيب، عَنْ أَبِي ذَرّ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: **«اِتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْت، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَة الحَسَنَة تَمْحُهَا، وَخَالِقْ النَّاس بِخُلُقٍ حَسَنٍ»**[4]. وَقَالَ أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ شِمْر بْن عَطِيَّة، عَنْ أَشْيَاخه، عَنْ أَبِي ذَرّ، قَالَ: قُلت: يَا رَسُول الله؛ أَوْصِنِي. قَالَ: **«إِذَا عَمِلت سَيِّئَة فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا»**. قَالَ: قُلت: يَا رَسُول الله؛ أَمِنْ الحَسَنَات لَا إِلَه إِلَّا الله؟ قَالَ: **«هِيَ أَفْضَل الحَسَنَات»**[5].

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا هُذَيْل بْن إِبْرَاهِيم الجُمَّانِيّ، ثَنَا عُثْمَان بْن عَبْد الرَّحْمَن الزُّهْرِيّ من وَلَد سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص، عَنْ الزُّهْرِيّ. عَنْ أَنَس بْن مَالِك؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«مَا قَالَ عَبْد: لَا إِلَه إِلَّا الله فِي سَاعَة مِنْ لَيْل أَوْ نَهَار، إِلَّا طَمَسَتْ مَا فِي صَحِيفَته مِنْ السَّيِّئَات حَتَّى يَسْكُن إِلَى مِثْلهَا مِنْ الحَسَنَات»**[6]. عُثْمَان ابْن عَبْد الرَّحْمَن -يُقَال لَهُ: الوَقَّاصِيّ- فِيهِ ضَعْف. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا بِشْر بْن آدَم وَزَيْد بْن أَخْزَم، قَالَا: حَدَّثَنَا الضَّحَّاك بْن مَخْلَد، حَدَّثَنَا مَسْتُور بْن عَبَّاد، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُول الله؛ مَا تَرَكْت مِنْ حَاجَة وَلَا دَاجَة. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: **«أَلَيْس تَشْهَد أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُول الله؟»** قَالَ: بَلَى. قَالَ: **«فَإِنَّ هَذَا يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ»**[7]. تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الوَجْه مَسْتُور.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: فَهَلَّا وُجِدَ مِنْ القُرُون المَاضِيَة بَقَايَا مِنْ أَهْل الخَيْر، يَنْهَوْنَ عَمَّا كَانَ يَقَع بَيْنهمْ مِنْ الشُّرُور وَالمُنْكَرَات

---

(١) **ضعيف الإسناد**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ١٦٠) بسند ضعيف، فيه إسحاق بن إبراهيم بن زبريق؛ قال الحافظ: صدوق يهم، وقال محمد بن عوف: إنه يكذب.

(٢) **حسن لغيره**: أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٧)، والطيالسي (١/ ٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ٢٥٧) من حديث سلمان، وقال الألباني: حسن لغيره. انظر «صحيح الترغيب» (٣٦٣).

(٣) **حسن**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٨) من حديث معاذ، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٦٠).

(٤) **حسن**: أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨)، والترمذي (٤/ ٣٥٥، ١٩٨٧) من حديث أبي ذر، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٦٠).

(٥) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ١٦٩) من حديث أبي ذر، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٦٢).

(٦) **ضعيف جدًا**: أخرجه أبو يعلى (٣٦١١) بسند ضعيف، فيه عثمان بن عبد الرحمن الزهري: متروك الحديث.

(٧) **حسن الإسناد**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ١٣٢)، و«الصغير» (٢/ ٢٠١).

وَالفَسَاد فِي الأَرْض. وَقَوْله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ: قَدْ وُجِدَ مِنْهُمْ مِنْ هَذَا الضَّرْب قَلِيل لَمْ يَكُونُوا كَثِيرًا، وَهُمْ الَّذِينَ أَنْجَاهُمْ الله عِند حُلُول غِيَره وَفَجْأَة نِقَمِه، وَلِهَذَا أَمَرَ الله تَعَالَى هَذِهِ الأُمَّة الشَّرِيفَة أَنْ يَكُون فِيهَا مَنْ يَأْمُر بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنْ المُنكَر، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وَفِي الحَدِيث: «إِنَّ النَّاس إِذَا رَأَوْا المُنكَر فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ الله بِعِقَابٍ»[1]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾. وَقَوْله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أَيْ: اِسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ فيه مِنْ المَعَاصِي وَالمُنكَرَات، وَلَمْ يَلتَفِتُوا إِلَى إِنكَار أُولَئِكَ حَتَّى فَجَأَهُمْ العَذَاب ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُهْلِك قَرْيَة إِلَّا وَهِيَ ظَالِمَة لِنَفْسِهَا، وَلَمْ يَأْتِ قَرْيَة مَصْلَحَة بَأْسه وَعَذَابه قَطُّ حَتَّى يَكُونُوا هُمْ الظَّالِمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، وَقَالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ قَادِر عَلَى جَعْل النَّاس كُلّهمْ أُمَّة وَاحِدَة مِنْ إِيمَان أَوْ كُفْرَان، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾. وَقَوْله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أَيْ: وَلَا يَزَال الخُلْف بَيْن النَّاس فِي أَدْيَانهمْ، وَاعْتِقَادَات مِلَلِهِمْ وَنِحَلهمْ وَمَذَاهِبهمْ وَآرَائِهِمْ. وَقَالَ عِكْرِمَة: مُخْتَلِفِينَ فِي الهُدَى. وَقَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: مُخْتَلِفِينَ فِي الرِّزْق يُسَخِّر بَعْضهمْ بَعْضًا. وَالمَشْهُور الصَّحِيح الأَوَّل. وَقَوْله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أَيْ: إِلَّا المَرْحُومِينَ مِنْ أَتْبَاع الرُّسُل، الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ الدِّينَ، أَخْبَرَتْهُمْ بِهِ رُسُل الله إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَزَل ذَلِكَ دَأْبَهُمْ حَتَّى كَانَ النَّبِيّ الأُمِّي خَاتَم الرُّسُل وَالأَنْبِيَاء، فَاتَّبَعُوهُ وَصَدَّقُوهُ وَنصروه وَوَازَرُوهُ، فَفَازُوا بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَة؛ لِأَنَّهُمْ الفِرْقَة النَّاجِيَة، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث المَرْوِيّ فِي المَسَانِيد وَالسُّنَن مِنْ طُرُق يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا: «إِنَّ اليَهُودَ اِفْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَإِنَّ النَّصَارَى اِفْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاث وَسَبْعِينَ فِرْقَة، كُلّهَا فِي النَّار إِلَّا فِرْقَة وَاحِدَة». قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[2]. رَوَاهُ الحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه بِهَذِهِ الزِّيَادَة. وَقَالَ عَطَاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يَعْنِي اليَهُود وَالنَّصَارَى وَالمَجُوس ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي الحَنِيفِيَّة. وَقَالَ قَتَادَة: أَهْل رَحْمَة الله أَهْل الجَمَاعَة وَإِنْ تَفَرَّقَتْ دِيَارهمْ وَأَبْدَانهمْ، وَأَهْل مَعْصِيَته أَهْل فُرْقَة وَإِنْ اِجْتَمَعَتْ دِيَارهمْ وَأَبْدَانهمْ.

وَقَوْله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قَالَ الحَسَن البَصْرِيّ فِي رِوَايَة عَنْهُ: وَلِلِاخْتِلَافِ خَلَقَهُمْ. وَقَالَ علي بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: خَلَقَهُمْ فَرِيقَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وَقِيلَ: لِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ. قَالَ اِبْن وَهْب: أَخْبَرَنِي مُسْلِم بْن خَالِد، عَنْ اِبْن أَبِي نَجِيح، عَنْ طَاوُس: أَنَّ رَجُلَيْنِ اِخْتَصَمَا إِلَيْهِ فَأَكْثَرَا، فَقَالَ طَاوُس: اِخْتَلَفْتُمَا فَأَكْثَرْتُمَا. فَقَالَ أَحَد الرَّجُلَيْنِ: لِذَلِكَ خُلِقْنَا. فَقَالَ طَاوُس: كَذَبْتَ! فَقَالَ: أَلَيْسَ الله يَقُول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قَالَ: لَمْ يَخْلُقهُمْ لِيَخْتَلِفُوا وَلَكِنْ خَلَقَهُمْ لِلجَمَاعَةِ وَالرَّحْمَة. كَمَا قَالَ الحَكَم بْن أَبَان، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: لِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ وَلَمْ يَخْلُقهُمْ لِلعَذَابِ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة، وَيَرْجِع مَعْنَى هَذَا القَوْل إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وَقِيلَ: بَل المُرَاد: وَلِلرَّحْمَةِ وَالِاخْتِلَاف خَلَقَهُمْ، كَمَا قَالَ الحَسَن البَصْرِيّ فِي رِوَايَة عَنْهُ فِي قَوْله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قَالَ: النَّاس مُخْتَلِفُونَ عَلَى أَدْيَان شَتَّى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فَمَنْ

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) حسن لغيره: تقدم.

رَحِمَ رَبّك غَيْر مُخْتَلِف. قِيلَ لَهُ: فَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ. قَالَ: خَلَقَ هَؤُلَاءِ لِجَنَّتِهِ وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِنَارِهِ، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِرحمته، وَخَلَقَ هَؤُلَاءِ لِعَذَابِهِ. وَكَذَا قَالَ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح وَالأَعْمَش. وَقَالَ اِبْن وَهْب: سَأَلت مَالِكًا عَنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قَالَ: فَرِيق فِي الجَنَّة وَفَرِيق فِي السَّعِير. وَقَدْ اِخْتَارَ هَذَا القَوْل اِبْن جَرِير وَأَبُو عبيدة وَالفَرَّاء. وَعَنْ مَالِك فِيمَا رَوَيْنَاه عَنْهُ مِنْ التَّفْسِير ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قَالَ: لِلرَّحْمَةِ. وَقَالَ قَوْم: لِلاخْتِلَافِ. وَقَوْله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَره، لِعِلْمِهِ التَّامّ وَحِكْمَته النَّافِذَة؛ أَنَّ مِمَّنْ خَلَقَهُ مَنْ يَسْتَحِقّ الجَنَّة، وَمِنْهُمْ مِنْ يَسْتَحِقّ النَّار، وَأَنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يَمْلَأ جَهَنَّم مِنْ هَذَيْنَ الثَّقَلَيْنِ؛ الجِنّ وَالإِنْس، وَلَهُ الحُجَّة البَالِغَة وَالحِكْمَة التَّامَّة، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ **«اِخْتَصَمَتْ الجَنَّة وَالنَّار، فَقَالَتْ الجَنَّة: مَا لِي لا يَدْخُلنِي إِلا ضعفة النَّاس وَسَقَطهمْ. وَقَالَتْ النَّار: أُوثِرْت بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ. فَقَالَ الله ﷻ لِلجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَم بِك مَنْ أَشَاء، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَنْتَقِم بِك مِمَّنْ أَشَاء، وَلِكُلٍّ وَاحِدَة مِنْكُمَا مِلْؤُهَا. فَأَمَّا الجَنَّة فَلا يَزَال فِيهَا فَضْل حَتَّى يُنْشِئَ الله لَهَا خَلْقًا يَسْكُن فَضْل الجَنَّة، وَأَمَّا النَّار فَلا تَزَال تَقُول: هَل مِنْ مَزِيد؟ حَتَّى يَضَع عَلَيْهَا رَبّ العِزَّة قَدَمَهُ فَتَقُول: قَطْ قَطْ وَعِزَّتك»**(١).

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَكُلّ أَخْبَار نَقُصّهَا عَلَيْك مِنْ أَنْبَاء الرُّسُل المُتَقَدِّمِينَ مِنْ قَبْلك مَعَ أُمَمهمْ، وَكَيْفَ جَرَى لَهُمْ مِنْ المُحَاجَّات وَالخُصُومَات، وَمَا اِحْتَمَلَهُ الأَنْبِيَاء مِنْ التَّكْذِيب وَالأَذَى، وَكَيْف نَصَرَ الله حِزْبه المُؤْمِنِينَ وَخَذَلَ أَعْدَاءَهُ الكَافِرِينَ، كُلّ هَذَا مِمَّا نُثَبِّت بِهِ فُؤَادك يَا مُحَمَّد أَيْ: قَلبك، لِيَكُونَ لَك بِمَنْ مَضَى مِنْ إِخْوَانك المُرْسَلِينَ أُسْوَة. وَقَوْله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أَيْ: هَذِهِ السُّورَة، قَالَهُ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَجَمَاعَة مِنْ السَّلَف، وَعَنْ الحَسَن -فِي رِوَايَة عَنْهُ- وَقَتَادَة: فِي هَذِهِ الدُّنْيَا. وَالصَّحِيح: فِي هَذِهِ السُّورَة المُشْتَمِلَة عَلَى قَصَص الأَنْبِيَاء، وَكَيْفَ نَجَّاهم الله وَالمُؤْمِنِينَ بِهِمْ وَأَهْلَكَ الكَافِرِينَ، جَاءَكَ فِيهَا قَصَص حَقّ وَنَبَأ صِدْق، وَمَوْعِظَة يَرْتَدِع بِهَا الكَافِرُونَ، وَذِكْرَى يَتَذَكَّر بِهَا المُؤْمِنُونَ.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا رَسُوله: أَنْ يَقُول لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبّه عَلَى وَجْه التَّهْدِيد: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أَيْ: عَلَى طَرِيقَتكُمْ وَمَنْهَجكُمْ ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أَيْ: عَلَى طَرِيقَتنَا وَمَنْهَجنَا. ﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أَيْ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وَقَدْ أَنْجَزَ الله لِرَسُولِهِ وَعْده، وَنَصَرَهُ وَأَيَّدَهُ، وَجَعَلَ كَلِمَته هِيَ العُلْيَا، وَكَلِمَة الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَالله عَزِيز حَكِيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ عَالِم غَيْب السَّمَوَات وَالأَرْض، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ المَرْجِع وَالمَآب، وَسيوفى كُلّ عَامِل عَمَله يَوْم الحِسَاب، فَلَهُ الخَلق وَالأَمْر، فَأَمَرَ تَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَالتَّوَكُّل عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ. وَقَوْله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا عَلَيْهِ مُكَذِّبُوك يَا مُحَمَّد، بَل هُوَ عَلِيم بِأَحْوَالِهِمْ وَأَقْوَالهمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمّ الجَزَاء فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَسَيَنْصُرك وَحِزْبك عَلَيْهِمْ فِي الدَّارَيْنِ. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا اِبْن وَكِيع، حَدَّثَنَا زَيْد بْن الحُبَاب، عَنْ جَعْفَر بْن سُلَيْمَان، عَنْ أَبِي عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن رَبَاح، عَنْ كَعْب قَالَ: خَاتِمَة التَّوْرَاة خَاتِمَة هُود.

آخِر تَفْسِير سُورَة هُود؛ وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

(١) صحيح: تقدم.

رَوَى الثَّعْلَبِيّ وَغَيْره مِنْ طَرِيق سَلام بْن سَلْم -وَيُقَال: سُلَيْم- المَدَائِنِيّ، وَهُوَ مَتْرُوك، عَنْ هَارُون بْن كَثِير -وَقَدْ نَصَّ عَلَى جَهَالَته أَبُو حَاتِم- عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«عَلِّمُوا أَرِقَّاءكُمْ سُورَة يُوسُف، فَإِنَّهُ أَيّمَا مُسْلِم تَلاهَا أَوْ عَلَّمَهَا أَهْله أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينه، هَوَّنَ الله عَلَيْهِ سَكَرَات المَوْت، وَأَعْطَاهُ مِنَ القُوَّة أَنْ لا يَحْسُد مُسْلِمًا»**[١]. وَهَذَا مِنْ هَذَا الوَجْه لا يَصِح؛ لِضَعْفِ إِسْنَاده بِالكُلِّيَّةِ، وَقَدْ سَاقَ لَهُ الحَافِظ اِبْن عَسَاكِر مُتَابِعًا، مِنْ طَرِيق القَاسِم بْن الحَكَم، عَنْ هَارُون بْن كَثِير بِهِ، وَمِنْ طَرِيق شَبَابَة، عَنْ مخلد بْن عَبْد الوَاحِد البصريّ، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان، وَعَنْ عَطَاء بْن أَبِي مَيْمُونَة، عَنْ زِرّ بْن حُبَيْش، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، فَذَكَرَ نَحْوه، وَهُوَ مُنْكَر من سَائِر طُرُقه. وَرَوَى البَيْهَقِيّ فِي الدَّلائِل: أَنَّ طَائِفَة مِنْ اليَهُود حِين سَمِعُوا رَسُول الله ﷺ، يَتْلُو هَذِهِ السُّورَة أَسْلَمُوا؛ لِمُوَافَقَتِهَا مَا عِنْدهمْ. وَهُوَ مِنْ رِوَايَة الكَلْبِيّ، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ اِبْن عَبَّاس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾

أَمَّا الكَلام عَلَى الحُرُوف المُقَطَّعَة فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّل سُورَة البَقَرَة.

وَقَوْله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أَيْ: هَذِهِ آيَات الكِتَاب: وَهُوَ القُرْآن المُبِين، أَيْ: الوَاضِح الجَلِيّ، الَّذِي يُفْصِح عَنْ الأَشْيَاء المُبْهَمَة، وَيُفَسِّرهَا وَيُبَيِّنهَا. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها، وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ وَلِهَذَا قَالَ تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ بِسَبَبِ إِيحَائِنَا إِلَيْك هَذَا القُرْآن.

وَقَدْ وَرَدَ فِي سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَات مَا رَوَاهُ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي نَصْر بْن عَبْد الرَّحْمَن الأَوْدِيّ، حَدَّثَنَا حَكَّام الرَّازِيّ، عَنْ أَيُّوب، عَنْ عَمْرو -هُوَ اِبْن قَيْس المُلائِيّ- عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُول الله، لَوْ قَصَصْت عَلَيْنَا؟ فَنَزَلَت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾. وَرَوَاهُ مِنْ وَجْه آخر عَنْ عَمْرو بْن قَيْس مُرْسَلًا. وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سَعِيد العطار، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن مُحَمَّد، أَنْبَأَنَا خَلاد الصَّفَّار، عَنْ عَمْرو بْن قَيْس، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ مُصْعَب بْن سَعْد، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيّ ﷺ، القُرْآن، قَالَ: فَتَلا عَلَيْهِمْ زَمَانًا، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، لَوْ قَصَصْت عَلَيْنَا؟ فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآيَة، ثُمَّ تَلاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، لَوْ حَدَّثْتنَا؟ فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الآيَة[٢]، وَذَكَرَ الحَدِيث، وَرَوَاهُ الحَاكِم مِنْ حَدِيث إِسْحَاق بْن رَاهْوَيْهِ، عَنْ عَمْرو بْن مُحَمَّد القُرَشِيّ العنقزي بِهِ.

(١) منكر: فيه سلام بن سليم قال الحافظ: متروك، وقال البخاري: تركوه، وفيه أيضًا هارون بن كثير قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: هو مجهول. انظر «الجرح والتعديل» (٩/ ٩٤).

(٢) صحيح: أخرجه ابن جرير (٧/ ١٤٧)، وابن حبان (٩/ ٦٢٠٩)، والحاكم (٢/ ٣٧٦) وصححه، ووافقه الذهبي.

وَرَوَى ابْن جَرِير بِسَنَدِهِ عَنْ الْمَسْعُودِيّ، عَنْ عَوْن بْن عَبْد الله قَالَ: مَلَّ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ، مَلَّةً؛ فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، حَدِّثْنَا؛ فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ثُمَّ مَلُّوا مَلَّةً أُخْرَى، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، حَدِّثْنَا فَوْق الْحَدِيث وَدُون الْقُرْآن -يَعْنُونَ الْقَصَص- فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآيَة، فَأَرَادُوا الْحَدِيث، فَدَلَّهُمْ عَلَى أَحْسَن الْحَدِيث، وَأَرَادُوا الْقَصَص، فَدَلَّهُمْ عَلَى أَحْسَن الْقَصَص. وَمِمَّا يُنَاسِب ذِكْره عِنْد هَذِهِ الآيَة الْكَرِيمَة الْمُشْتَمِلَة عَلَى مَدْح الْقُرْآن، وَأَنَّهُ كَافٍ عَنْ كُلّ مَا سِوَاهُ مِنْ الْكُتُب مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سريج بْن النُّعْمَان، نَا هُشَيْم، أَنْبَأَنَا مُجَالِد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله: أَنَّ عُمَر بْن الْخَطَّاب أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْض أَهْل الْكِتَاب، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: فَغَضِبَ، وَقَالَ: **«أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا بْن الْخَطَّاب؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاء نَقِيَّة، لا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْء فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُونَهُ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُونَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعنِي»**[1].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَنَا سُفْيَان، عَنْ جَابِر، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن ثَابِت، قَالَ: جَاءَ عُمَر إِلَى رَسُول الله ﷺ؛ فَقَالَ: يَا رَسُول الله، إِنِّي مَرَرْت بِأَخٍ لِي مِنْ قُرَيْظَة، فَكَتَبَ لِي جَوَامِع مِنْ التَّوْرَاة، أَلا أَعْرِضهَا عَلَيْك؟ قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْه رَسُول الله ﷺ، قَالَ عَبْد الله بْن ثَابِت: فَقُلْت لَهُ: أَلا تَرَى مَا بِوَجْهِ رَسُول الله ﷺ؟ فَقَالَ عُمَر: رَضِينَا بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا. قَالَ: فَسُرِّيَ عَنْ النَّبِيّ ﷺ، وَقَالَ: **«وَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ، لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنْ الأُمَم، وَأَنَا حَظّكُمْ مِنْ النَّبِيِّينَ»**[2].

وَقَالَ الْحَافِظ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الْغَفَّار بْن عَبْد الله بْن الزُّبَيْر، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن مُسْهِر، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن ابْن إِسْحَاق، عَنْ خَلِيفَة بْن قَيْس، عَنْ خَالِد بْن عُرْفُطَة، قَالَ: كُنْت جَالِسًا عِنْدَ عُمَر، إِذْ أُتِيَ بِرَجُلٍ مِنْ عَبْد الْقَيْس مَسْكَنه بِالسُّوس، فَقَالَ لَهُ عُمَر: أَنْتَ فُلان ابْن فُلان الْعَبْدِيّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنْتَ النَّازِل بِالسُّوس؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِقَنَاةٍ مَعَهُ، قَالَ: فَقَالَ الرَّجُل: مَا لِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ لَهُ عُمَر: اِجْلِسْ؛ فَجَلَسَ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ إلى قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ ثَلاثًا، وَضَرَبَهُ ثَلاثًا، فَقَالَ لَهُ الرَّجُل: مَا لِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: أَنْتَ الَّذِي نَسَخْت كِتَاب دَانْيَال؟ قَالَ: مُرْنِي بِأَمْرِك أَتَّبِعهُ. قَالَ: اِنْطَلِقْ فَامْحُهُ بِالْحَمِيمِ وَالصُّوف الأَبْيَض، ثُمَّ لا تَقْرَأْهُ، وَلا تُقْرِئهُ أَحَدًا مِنْ النَّاس، فَلَئِنْ بَلَغَنِي عَنْك أَنَّك قَرَأْته، أَوْ أَقْرَأْته أَحَدًا مِنْ النَّاس لأُنْهِكَنَّك عُقُوبَة. ثُمَّ قَالَ له: اِجْلِسْ. فَجَلَسَ بَيْن يَدَيْهِ، فَقَالَ: اِنْطَلَقْت أَنَا، فَانْتَسَخْتُ كِتَابًا مِنْ أَهْل الْكِتَاب، ثُمَّ جِئْت بِهِ فِي أَدِيم، فَقَالَ لِي رَسُول الله ﷺ: **«مَا هَذَا فِي يَدك يَا عُمَر؟»**. قَالَ: قُلْت: يَا رَسُولَ الله، كِتَاب نَسَخْته لِنَزْدَادَ بِهِ عِلْمًا إِلَى عِلْمنَا، فَغَضِبَ رَسُول الله ﷺ، حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ، ثُمَّ نُودِيَ بِالصَّلاةِ جَامِعَة، فَقَالَتْ الأَنْصَار: أَغَضِبَ نَبِيّكُمْ ﷺ؟ السِّلاح السِّلاح. فَجَاءُوا حَتَّى أَحْدَقُوا بِمِنْبَرِ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: **«يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنِّي قَدْ أُوتِيت جَوَامِعَ الْكَلِم وَخَوَاتِيمه، وَاخْتُصِرَ لِي اِخْتِصَارًا، وَلَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاء نَقِيَّة فَلا تَتَهَوَّكُوا، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ**

---

(١) **صحيح بشواهده**: أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ١١٥)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٥/ ٢)، وقال الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٢٨٤): رواه أحمد وابن أبي شيبة والبزار ورجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفًا، وقال الألباني في «الإرواء» (١/ ٣٤): لكن الحديث قوي فإن له شواهد كثيرة، وذكر طرفًا كثيرًا منها.

(٢) **ضعيف الإسناد**: أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٠، ٤/ ٢٦٥)، وعبد الرزاق (٦/ ١١٣) من حديث عمر بن الخطاب، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١/ ٤٢٠) وقال:رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابرًا الجعفي وهو ضعيف.

المُتَهَوِّكُونَ». قَالَ عُمَر: فَقُمْت فَقُلت: رَضِيت بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلام دِينًا، وَبِك رَسُولًا، ثُمَّ نَزَلَ رَسُول الله ﷺ[١].

وَقَدْ رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِيره مُخْتَصَرًا: مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق بِهِ. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق هُوَ أَبُو شَيْبَة الوَاسِطِيّ، وَقَدْ ضَعَّفُوهُ وَشَيْخه، قَالَ البُخَارِيّ: لا يَصِحّ حَدِيثه.

قُلت: وَقَدْ رُوِيَ لَهُ شَاهِد مِنْ وَجْه آخر؛ فَقَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم الإِسْمَاعِيلِيّ: أَخْبَرَنِي الحَسَن ابْن سُفْيَان، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن سُفْيَان، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم بْن العَلاء الزُّبَيْدِيّ، حَدَّثَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن سَالِم الأَشْعَرِيّ، عَنْ الزُّبَيْدِيّ، حَدَّثَنَا سُلَيْم بْن عَامِر، أَنَّ جُبَيْر بْن نُفَيْر حَدَّثَهُمْ: أَنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا بِحِمْص فِي خِلافَة عُمَر رضي الله عنه، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا فِيمَنْ أَرْسَلَ مِنْ أَهْل حِمْص، وَكَانَا قَدْ اِكْتَتَبَا مِنْ اليَهُود تلا صفتين[٢]، فَأَخَذَاهَا مَعَهُمَا يَسْتَفْتِيَانِ فِيهَا أَمِير المُؤْمِنِينَ وَيَقُولُونَ: إِنْ رَضِيَهَا لَنَا أَمِير المُؤْمِنِينَ اِزْدَدْنَا فِيهَا رَغْبَة، وَإِنْ نَهَانَا عَنْهَا رَفَضْنَاهَا، فَلَمَّا قَدِمَا عَلَيْهِ قَالا: إِنَّا بِأَرْضِ أَهْل الكِتَابين، وَإِنَّا نَسْمَع مِنْهُمْ كَلامًا تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودنا أَفَنَأْخُذ مِنْهُ أَوْ نَتْرُك؟ فَقَالَ: لَعَلَّكُمَا كَتَبْتُمَا مِنْهُ شَيْئًا؟ فَقَالا: لا. قَالَ: سَأُحَدِّثُكُمَا: اِنْطَلَقْت فِي حَيَاة النَّبِيّ ﷺ، حَتَّى أَتَيْت خَيْبَر، فَوَجَدْت يَهُودِيًّا يَقُول قَوْلًا أَعْجَبَنِي، فَقُلت: هَل أَنْتَ مُكْتِبِي ما تَقُول؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَتَيْت بِأَدِيم، فَأَخَذَ يُمْلِي عَلَيَّ حَتَّى كَتَبْت فِي الأَكْرُع، فَلَمَّا رَجَعْت قُلت: يَا نَبِيّ الله، وَأَخْبَرْته. قَالَ: **«اِئْتِنِي بِهِ»**، فَانْطَلَقْت أَرْغَب عَنْ المَشْي رَجَاء أَنْ أَكُونَ أَتيت رَسُولَ الله ﷺ، بِبَعْضِ مَا يُحِبّ، فَلَمَّا أَتَيْت بِهِ قَالَ: **«اِجْلِسْ اِقْرَأْ عَلَيَّ»**. فَقَرَأْت سَاعَة، ثُمَّ نَظَرْت إِلَى وَجْهه، فَإِذَا هُوَ يَتَلَوَّن، فَتَحَيَّرْت مِنْ الفَرَق فَمَا اِسْتَطَعْت أَنْ أُجِيزَ مِنْهُ حَرْفًا، فَلَمَّا رَأَى الَّذِي بِي دفعَهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَتَّبِعهُ رَسْمًا رَسْمًا، فَيَمْحُوهُ بِرِيقِهِ، وَهُوَ يَقُول: **«لا تَتَّبِعُوا هَؤُلاء؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ هَوَّكُوا وَتَهَوَّكُوا»**. حَتَّى مَحَا آخِرَهُ حَرْفًا حَرْفًا، قَالَ عُمَر رضي الله عنه: فَلَوْ عَلِمْت أَنَّكُمَا كَتَبْتُمَا مِنْهُ شَيْئًا جَعَلتُكُمَا نَكَالًا لِهَذِهِ الأُمَّة. قَالا: وَالله مَا نَكْتُب مِنْهُ شَيْئًا أَبَدًا. فَخَرَجَا بِصفنيهما فَحَفَرَا لَهَا، فَلَمْ يَأْلُوَا أَنْ يُعَمِّقَا وَدَفَنَاهَا، فَكَانَ آخِر العَهْد مِنْهَا[٣]. وَكَذَا رَوَى الثَّوْرِيّ عَنْ جَابِر بْن يَزِيد الجُعْفِيّ، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن ثَابِت الأَنْصَارِيّ، عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب بِنَحْوِهِ، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي المَرَاسِيل: مِنْ حَدِيث أَبِي قِلابَة، عَنْ عُمَر نَحْوَهُ، وَالله أَعْلَم.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: اُذْكُرْ لِقَوْمِك يَا مُحَمَّد فِي قَصَصك عَلَيْهِمْ مِنْ قِصَّة يُوسُف؛ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ، وَأَبُوهُ هُوَ يَعْقُوب بْن إِسْحَاق ابْن إِبْرَاهِيم عَلَيْهِمْ الصَّلاة وَالسَّلام، كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: ثَنَا عَبْد الصَّمَد، ثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله بْن دِينَار، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ اِبْن عُمَر: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: **«إِن الكَرِيم اِبْن الكَرِيم اِبْن الكَرِيم: يُوسُف بْن يَعْقُوب بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم»**[٤]. اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ، فَرَوَاهُ عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد، عَنْ عَبْد الصَّمَد، بِهِ.

وَقَالَ البُخَارِيّ أَيْضًا: ثَنَا مُحَمَّد، أَنَا عَبْدَة، عَنْ عُبَيْد الله، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي سَعِيد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، قَالَ: سُئِلَ رَسُول الله ﷺ: أَيّ النَّاس أَكْرَمَ؟ قَالَ: **«أَكْرَمهمْ عِنْدَ الله أَتْقَاهُمْ»**. قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلك. قَالَ: **«فَأَكْرَم النَّاس: يُوسُف نَبِيّ الله اِبْن نَبِيّ الله اِبْن نَبِيّ الله اِبْن خَلِيل الله»**. قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلك. قَالَ: **«فَعَنْ مَعَادِن العَرَب تَسْأَلُونِي؟»**. قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: **«فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّة خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلام إِذَا فَقِهُوا»**[٥].

---

(١) ضعيف: قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث غريب من هذا الوجه، وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شيبة الواسطي وقد ضعفوه وشيخه، قال البخاري: لا يصح حديثه.

(٢) تلا صفتين: لعله يقصد ملء صفنين، والصُّفن -قال في «القاموس»: خريطة لطعام الراعي وزناده وأداته.

(٣) حسن لغيره: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٣٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٨٥).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٨٢، ٤٦٨٨)، وأحمد (٢/ ٩٦).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٩٤، ٤٤١٢).

ثُمَّ قَالَ: تَابَعَهُ أَبُو أُسَامَة عَنْ عُبَيْد الله. وَقَالَ ابْن عَبَّاس: رُؤْيَا الأَنْبِيَاء وَحْي. وَقَدْ تَكَلَّمَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى تَعْبِير هَذَا الْمَنَام: أَنَّ الأَحَد عَشَر كَوْكَبًا عِبَارَة عَنْ إِخْوَته، وَكَانُوا أَحَد عَشَر رَجُلًا سِوَاهُ، وَالشَّمْس وَالقَمَر عِبَارَة عَنْ أَبِيه وَأُمّه. رُوِيَ هَذَا عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَسُفْيَان الثَّوْرِيّ، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم، وَقَدْ وَقَعَ تَفْسِيرهَا بَعْد أَرْبَعِينَ سَنَة، وَقِيلَ: ثَمَانِينَ سَنَة، وَذَلِكَ حِين رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْش، وَهُوَ سَرِيره، وَإِخْوَته بَيْن يَدَيْهِ ﴿وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾. وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيث تَسْمِيَة هَذِهِ الأَحَد عَشَر كَوْكَبًا، فَقَالَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي عَلِيّ بْن سَعِيد الكِنْدِيّ، ثَنَا الحَكَم بْن ظُهَيْر، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن سَابِط، عَنْ جَابِر، قَالَ: أَتَى النَّبِيّ ﷺ رَجُل مِنْ يَهُود يُقَال لَهُ: بستانة اليَهُودِيّ، فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّد، أَخْبِرْنِي عَنْ الكَوَاكِب الَّتِي رَآهَا يُوسُف أَنَّهَا سَاجِدَة لَهُ مَا أَسْمَاؤُهَا؟ قَالَ: فَسَكَتَ النَّبِيّ ﷺ سَاعَة فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْبَرَهُ بِأَسْمَائِهَا، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُول الله ﷺ إِلَيْهِ فَقَالَ: **«هَل أَنْتَ مُؤْمِن إِن أَخْبَرْتُك بِأَسْمَائِهَا؟»** فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ: **«جَرَيَان، وَالطَّارِق، وَالذَّيَال، وَذُو الكَنَفَات، وَقَابِس، وَوَثَّاب، وَعَمُودَان، وَالفَلِيق، وَالمُصْبِح، وَالضَّرُوح، وَذُو الفَرْغ، وَالضِّيَاء، وَالنُّور»**. فَقَالَ اليَهُودِيّ: إِي وَالله إِنَّهَا لَأَسْمَاؤُهَا[1].

وَرَوَاهُ البَيْهَقِيّ فِي الدَّلَائِل: مِنْ حَدِيث سَعِيد بْن مَنْصُور، عَنْ الحَكَم بْن ظُهَيْر، وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيث الحَافِظَانِ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ، وَأَبُو بَكْر البَزَّار فِي مُسْنَدَيْهِمَا، وَابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِيره؛ أَمَّا أَبُو يَعْلَى فَرَوَاهُ عَنْ أَرْبَعَة مِنْ شُيُوخه عَنْ الحَكَم بْن ظُهَيْر بِهِ، وَزَادَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ **«لَمَّا رَآهَا يُوسُف قَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ يَعْقُوب، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: هَذَا أَمْر مُتَشَتِّت يَجْمَعهُ الله مِنْ بَعْد»** قَالَ: **«وَالشَّمْس أَبُوهُ، وَالقَمَر أُمّه»**. تَفَرَّدَ بِهِ الحَكَم بْن ظُهَيْر الفَزَارِيّ، وَقَدْ ضَعَّفَهُ الأَئِمَّة، وَتَرَكَهُ الأَكْثَرُونَ، وَقَالَ الجُوزَجَانِيّ: سَاقِط، وَهُوَ صَاحِب حَدِيث حُسْن يوسف.

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْل يَعْقُوب لِابْنِهِ يُوسُف حِين قَصَّ عَلَيْهِ مَا رَأَى مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا، الَّتِي تَعْبِيرهَا خُضُوع إِخْوَته لَهُ، وَتَعْظِيمهمْ إِيَّاهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا، بِحَيْثُ يَخِرُّونَ لَهُ سَاجِدِينَ إِجْلَالًا وَاحْتِرَامًا وَإِكْرَامًا، فَخَشِيَ يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنْ يُحَدِّث بِهَذَا المَنَام أَحَدًا مِنْ إِخْوَته فَيَحْسُدُوهُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَبْغُو لَهُ الغَوَائِل حَسَدًا مِنْهُمْ لَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أَيْ: يَحْتَالُوا لَك حِيلَة يُرْدُونَك فِيهَا؛ وَلِهَذَا ثَبَتَتْ السُّنَّة عَنْ رَسُول الله ﷺ أنه قَالَ: **«إِذَا رَأَى أَحَدكُمْ مَا يُحِبّ فَلْيُحَدِّثْ بِهِ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَه فَلْيَتَحَوَّل إِلَى جَنْبه الآخَر، وَلْيَتْفُل عَنْ يَسَاره ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنْ شَرّهَا، وَلَا يُحَدِّث بِهَا أَحَدًا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرّهُ»**[2]. وَفِي الحَدِيث الآخَر الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، وَبَعْض أَهْل السُّنَن: مِنْ رِوَايَة مُعَاوِيَة بْن حَيْدَة القُشَيْرِيّ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ **«الرُّؤْيَا عَلَى رِجْل طَائِر مَا لَمْ تُعَبَّر، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ»**[3]. وَمِنْ هَذَا يُؤْخَذ الأَمْر بِكِتْمَانِ النِّعْمَة حَتَّى تُوجَد وَتَظْهَر، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيث: **«اِسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاء الحَوَائِج بِكِتْمَانِهَا، فَإِنَّ كُلّ ذِي نِعْمَة مَحْسُود»**[4].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه ابن جرير (٧/ ١٤٨) بسند ضعيف فيه الحكم بن ظهير، قال الحافظ: متروك رمي بالرفض.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٩٢، ٦٩٨٥).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠٢٠)، والترمذي (٢٢٧٩)، وابن ماجه (٣٩١٤) من حديث أبي رزين، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٣٥).

(٤) صحيح: أخرجه الطبراني (٢٠/ ٩٤)، وفي «الأوسط» (٣/ ٥٥)، و«الصغير» (٢/ ٢٩٢) من حديث معاذ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٤٣).

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْل يَعْقُوب لِوَلَدِهِ يُوسُف: إِنَّهُ كَمَا اِخْتَارَك رَبّك، وَأَرَاك هَذِهِ الكَوَاكِب مَعَ الشَّمْس وَالقَمَر سَاجِدَة لَك ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أَيْ: يَخْتَارك وَيَصْطَفِيك لِنُبُوَّتِهِ، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قَالَ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد: يَعْنِي تَعْبِير الرُّؤْيَا. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أَيْ: بِإِرْسَالِك وَالإِيحَاء إِلَيْك. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وَهُوَ الخَلِيل، ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ وَلَده، وَهُوَ الذَّبِيح فِي قَوْل، وَلَيْسَ بِالرَّجِيحِ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: هُوَ أَعْلَم حَيْثُ يَجْعَل رِسَالَته كَمَا قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى.

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: لَقَدْ كَانَ فِي قِصَّة يُوسُف وَخَبَره مَعَ إِخْوَته آيَات، أَيْ: عِبْرَة وَمَوَاعِظ لِلسَّائِلِينَ عَنْ ذَلِكَ المُسْتَخْبِرِينَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ خَبَر عَجِيب يَسْتَحِقّ أَنْ يُسْتَخبر عَنْهُ ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ أَيْ: حَلَفُوا فِيمَا يَظُنُّونَ: وَالله، لَيُوسُف وَأَخُوهُ -يَعْنُونَ بِنْيَامِين، وَكَانَ شَقِيقه لِأُمِّهِ-: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أَيْ: جَمَاعَة فَكَيْف أَحَبَّ ذَيْنك الاِثْنَيْنِ أَكْثَر مِنْ الجَمَاعَة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَعْنُونَ فِي تَقْدِيمهمَا عَلَيْنَا، وَمَحَبَّته إِيَّاهُمَا أَكْثَر مِنَّا. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ دَلِيل عَلَى نُبُوَّة إِخْوَة يُوسُف، وَظَاهِر هَذَا السِّيَاق يَدُلّ عَلَى خِلاف ذَلِكَ، وَمِنْ النَّاس مَنْ يَزْعُم أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ بَعْد ذَلِكَ، وَفِي هَذَا نَظَر، وَيَحْتَاج مُدَّعِي ذَلِكَ إِلَى دَلِيل، وَلَمْ يَذْكُرُوا سِوَى قَوْله تَعَالَى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وَهَذَا فِيهِ اِحْتِمَال؛ لأَنَّ بُطُون بَنِي إِسْرَائِيل يُقَال لَهُمْ: الأَسْبَاط، كَمَا يُقَال لِلعَرَبِ قَبَائِل، وَلِلعَجَم شُعُوب. يَذْكُر تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى الأَنْبِيَاء مِنْ أَسْبَاط بَنِي إِسْرَائِيل، فَذَكَرَهمْ إِجْمَالًا؛ لأَنَّهُمْ كَثِيرُونَ، وَلَكِنَّ كُلّ سِبط مِنْ نَسْل رَجُل مِنْ إِخْوَة يُوسُف، وَلَمْ يَقُمْ دَلِيل عَلَى أَعْيَان هَؤُلاءِ أَنَّهُمْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ، وَالله أَعْلَم.

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ يَقُولُونَ: هَذَا الَّذِي يَزْحَمكُمْ فِي مَحَبَّة أَبِيكُمْ لَكُمْ أَعْدِمُوهُ مِنْ وَجه أَبِيكُمْ؛ لِيَخْلُوَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ، إِمَّا بِأَنْ تَقْتُلُوهُ، أَوْ تُلقُوهُ فِي أَرْض مِنْ الأَرَاضِي تَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، وَتَخْتَلُوا أَنْتُمْ بِأَبِيكُمْ، وَتَكُونُوا مِنْ بَعْد إِعدامه قَوْمًا صَالِحِينَ، فَأَضْمَرُوا التَّوْبَة قَبْل الذَّنْب. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قَالَ قَتَادَة، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق: وَكَانَ أَكْبَرهمْ وَاسْمه رُوبِيل. وَقَالَ السُّدِّيّ: الَّذِي قَالَ ذَلِكَ يَهُوذَا. وَقَالَ مُجَاهِد: هُوَ شَمْعُون. ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ أَيْ: لا تَصِلُوا فِي عَدَاوَته وَبُغْضه إِلَى قَتْله، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيل إِلَى قَتْله؛ لأَنَّ الله تَعَالَى كَانَ يُرِيد مِنْهُ أَمْرًا لابُدّ مِنْ إِمْضَائِهِ وَإِتْمَامه: مِنْ الإِيحَاء إِلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ، وَمِنْ التَّمْكِين لَهُ بِبِلادِ مِصْر وَالحُكْم بِهَا، فَصَرَفَهُمْ الله عَنْهُ بِمَقَالَةِ رُوبِيل فِيهِ، وَإِشَارَته عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُلقُوهُ فِي غَيَابَة الجُبّ وَهُوَ أَسْفَله. قَالَ قَتَادَة: وَهِيَ بِئْر بَيْت المَقْدِس. ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أَيْ: المَارَّة مِنْ المُسَافِرِينَ، فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ بِهَذَا، وَلا حَاجَة إِلَى قَتْله. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَى مَا تَقُولُونَ.

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار: لَقَدْ اِجْتَمَعُوا عَلَى أَمْر عَظِيم مِنْ قَطِيعَة الرَّحِم، وَعُقُوق الوَالِد، وَقِلَّة الرَّأْفَة بِالصَّغِيرِ الضَّرْع الَّذِي لا ذَنْب لَهُ، وَبِالكَبِيرِ الفَانِي ذِي الحَقّ وَالحُرْمَة وَالفَضْل، وَخَطَره عِنْد الله، مَعَ حَقّ الوَالِد عَلَى وَلَده؛ لِيُفَرِّقُوا بَيْنه وَبَيْن أَبِيهِ وَحَبِيبه، عَلَى كِبَر سِنّه، وَرِقَّة عَظْمه، مَعَ مَكَانه مِنْ الله فِيمَنْ أَحَبّه طِفْلًا صَغِيرًا، وَبَيْن اِبنه عَلَى ضَعْف قُوَّته وَصِغَر سِنّه، وَحَاجَته إِلَى لُطْف وَالِده وَسُكُونه إِلَيْهِ، يَغْفِر الله لَهُمْ وَهُوَ أَرْحَم الرَّاحِمِينَ، فَقَدْ اِحْتَمَلُوا أَمْرًا عَظِيمًا. رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق سَلَمَة بْن الفَضْل عَنْهُ.

﴿ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾

لَمَّا تَوَاطَئُوا عَلَى أَخْذه وَطَرْحه فِي الْبِئْر كَمَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَخُوهُمْ رُوبِيل، جَاءُوا أَبَاهُمْ يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالُوا: ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾ وَهَذِهِ تَوْطِئَة وسلف وَدَعْوَى وَهُمْ يُرِيدُونَ خِلاف ذَلِكَ؛ لِمَا لَهُ فِي قُلُوبهمْ مِنَ الْحَسَد لِحُبِّ أَبِيهِ لَهُ. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ أَيْ: ابْعَثْهُ مَعَنَا ﴿غَدًا نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ وَقَرَأَ بَعْضهمْ بِالْيَاءِ: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، قَالَ ابْن عَبَّاس: يَسْعَى وَيَنْشَط. وَكَذَا قَالَ قَتَادَة، وَالضَّحَّاك، وَالسُّدِّيّ، وَغَيْرهمْ. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ يَقُولُونَ: وَنَحْنُ نَحْفَظهُ، وَنَحُوطهُ مِنْ أَجْلِك.

﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيّه يَعْقُوب: إِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ فِي جَوَاب مَا سَأَلُوا مِنْ إِرْسَال يُوسُف مَعَهُمْ إِلَى الرَّعْي فِي الصَّحْرَاء: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أَيْ: يَشُقّ عَلَيَّ مُفَارَقته مُدَّة ذَهَابكُمْ بِهِ إِلَى أَنْ يَرْجِع، وَذَلِكَ لِفَرْطِ مَحَبَّته لَهُ، لِمَا يَتَوَسَّم فِيهِ مِنَ الْخَيْر الْعَظِيم، وَشَمَائِل النُّبُوَّة، وَالْكَمَال فِي الْخُلُق وَالْخَلق، صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ. وَقَوْله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾ يَقُول: وَأَخْشَى أَنْ تَشْتَغِلُوا عَنْهُ بِرَمْيِكُمْ وَرَعْيَتكُمْ، فَيَأْتِيه ذِئْب، فَيَأْكُلهُ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ، فَأَخَذُوا مِنْ فَمه هَذِهِ الْكَلِمَة وَجَعَلُوهَا عُذْرهمْ فِيمَا فَعَلُوهُ، وَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ عَنْهَا فِي السَّاعَة الرَّاهِنَة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ يَقُولُونَ: لَئِنْ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْب فَأَكَلَهُ من بَيْننَا. وَنَحْنُ جَمَاعَة إِنَّا إِذًا لَهَالِكُونَ عَاجِزُونَ.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى: فَلَمَّا ذَهَبت بِهِ إِخْوَته مِنْ عِنْد أَبِيهِ بَعْد مُرَاجَعَتهمْ لَهُ فِي ذَلِكَ، ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ هَذَا فِيهِ تَعْظِيم لِمَا فَعَلُوهُ، أَنَّهُمْ اِتَّفَقُوا كُلّهمْ عَلَى إِلْقَائِهِ فِي أَسْفَل ذَلِكَ الْجُبّ، وَقَدْ أَخَذُوهُ مِنْ عِنْد أَبِيهِ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ لَهُ، إِكْرَامًا لَهُ، وَبَسْطًا، وَشَرْحًا لِصَدْرِهِ، وَإِدْخَالًا لِلسُّرُورِ عَلَيْهِ، فَيُقَال: إِنَّ يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا بَعَثَهُ مَعَهُمْ ضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَبَّلَهُ وَدَعَا لَهُ. وَذَكَرَ السُّدِّيّ وَغَيْره: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْن إِكْرَامهمْ لَهُ، وَبَيْن إِظْهَار الأَذَى لَهُ، إلا أَنْ غَابُوا عَنْ عَيْن أَبِيهِ وَتَوَارَوْا عَنْهُ، ثُمَّ شَرَعُوا يُؤْذُونَهُ بِالْقَوْلِ مِنْ شَتْم وَنَحْوه، وَالْفِعْل مِنْ ضَرْب وَنَحْوه، ثُمَّ جَاءُوا بِهِ إِلَى ذَلِكَ الْجُبّ الَّذِي اِتَّفَقُوا عَلَى رَمْيه فِيهِ، فَرَبَطُوهُ بِحَبْلٍ وَدَلَّوْهُ فِيهِ، فجعل إِذَا لَجَأَ إِلَى وَاحِد مِنْهُمْ لَطَمَهُ وَشَتَمَهُ، وَإِذَا تَشَبَّثَ بِحَافَاتِ الْبِئْر ضَرَبُوا عَلَى يَدَيْهِ، ثُمَّ قَطَعُوا بِهِ الْحَبْل مِنْ نِصْف الْمَسَافَة، فَسَقَطَ فِي الْمَاء فَغَمَره، فَصَعِدَ إِلَى صَخْرَة تَكُون فِي وَسَطه يُقَال لَهَا: الرَّاغُوفَةُ فَقَامَ فَوْقهَا. وَقَوْله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُول تَعَالَى ذَاكِرًا لُطْفه وَرَحْمَته وَعَائِدَته وَإِنْزَاله الْيُسْر فِي حَال الْعُسْر: أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى يُوسُف فِي ذَلِكَ الْحَال الضَّيِّق، تَطْيِيبًا لِقَلْبِهِ وَتَثْبِيتًا لَهُ: إِنَّك لا تَحْزَن مِمَّا أَنْت فِيهِ، فَإِنَّ لَك مِنْ ذَلِكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا حَسَنًا، وَسَيَنْصُرك الله عَلَيْهِمْ وَيُعْلِيك وَيَرْفَع دَرَجَتك، وَسَتُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا مَعَك مِنْ هَذَا الصَّنِيع. وَقَوْله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِإِيحَاءِ الله إِلَيْهِ.

وَقَالَ ابْن عَبَّاس: سَتُنَبِّئُهُمْ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا فِي حَقّك، وَهُمْ لا يَعْرِفُونَك، وَلا يَسْتَشْعِرُونَ بك. كَمَا قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الْحَارِث، ثَنَا عَبْد الْعَزِيز، ثَنَا صَدَقَة بْن عُبَادَة الأَسَدِيّ، عَنْ أَبِيهِ، قال: سَمِعْت ابْن عَبَّاس، يَقُول: لَمَّا دَخَلَ إِخْوَة يُوسُف على يُوسُف فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ، قَالَ: جِيءَ بِالصُّوَاعِ فَوَضَعَهُ عَلَى يَده، ثُمَّ نَقَرَهُ فَطَنَّ،

فَقَالَ: إِنَّهُ لَيُخْبِرنِي هَذَا الجام أَنَّهُ كَانَ لَكُمْ أَخ مِنْ أَبِيكُمْ يُقَال لَهُ: يُوسُف، يُدْنِيه دُونكُمْ، وَأَنَّكُمْ اِنْطَلَقْتُمْ بِهِ فَأَلْقَيْتُمُوهُ فِي غَيَابَة الجُبّ. قَالَ: ثُمَّ نَقَرَهُ فَطَنَّ، قَالَ: فَأَتَيْتُمْ أَبَاكُمْ، فَقُلْتُمْ: إِنَّ الذِّئْب أَكَلَهُ، وَجِئْتُمْ عَلَى قَمِيصه بِدَمٍ كَذِب. قَالَ: فَقَالَ بَعْضهمْ لِبَعْضٍ: إِنَّ هَذَا الجام لَيُخْبِرهُ بِخَبَرِكُمْ. قَالَ اِبْن عَبَّاس ﷺ: فَلا نَرَى هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ إِلا فِيهِمْ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ الَّذِي اِعْتَمَدَهُ إِخْوَة يُوسُف بَعْدَمَا أَلْقَوْهُ فِي غَيَابَة الجُبّ: أَنهم رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ فِي ظُلْمَة اللَّيْل يَبْكُونَ، وَيُظْهِرُونَ الأَسَفَ وَالجَزَعَ عَلَى يُوسُف، وَيَتَغَمَّمُونَ لِأَبِيهِمْ، وَقَالُوا مُعْتَذِرِينَ عَمَّا وَقَعَ فِيمَا زَعَمُوا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أَيْ: نَتَرَامَى، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أَيْ: ثِيَابنَا وَأَمْتِعَتنَا، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ جَزِعَ مِنْهُ وَحَذِرَ عَلَيْهِ. وَقَوْلهم: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ تَلَطُّف عَظِيم فِي تَقْرِير مَا يُحَاوِلُونَهُ، يَقُولُونَ: وَنَحْنُ نَعْلَم أَنَّك لا تُصَدِّقنَا وَالحَالَة هَذِهِ لَوْ كُنَّا عِنْدك صَادِقِينَ، فَكَيْف وَأَنْتَ تَتَّهِمنَا فِي ذَلِكَ، لأَنَّك خَشِيت أَنْ يَأْكُلهُ الذِّئْب فَأَكَلَهُ الذِّئْب، فَأَنْتَ مَعْذُور فِي تَكْذِيبك لَنَا؛ لِغَرَابَةِ مَا وَقَعَ، وَعَجِيب مَا اِتَّفَقَ لَنَا فِي أَمْرنَا هَذَا. ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أَيْ: مَكْذُوب مُفْتَرَى، وَهَذَا مِنْ الأَفْعَال الَّتِي يُؤَكِّدُونَ بِهَا مَا تَمَالَئُوا عَلَيْهِ مِنْ المَكِيدَة، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى سَخْلَة فِيمَا ذَكَرَه مُجَاهِد، وَالسُّدِّيّ، وَغَيْر وَاحِد -فَذَبَحُوهَا، وَلَطَّخُوا ثَوْب يُوسُف بِدَمِهَا، مُوهِمِينَ أَنَّ هَذَا قَمِيصه الَّذِي أَكَلَهُ فِيهِ الذِّئْب، وَقَدْ أَصَابَهُ مِنْ دَمه، وَلَكِنَّهُمْ نَسُوا أَنْ يَخْرِقُوهُ؛ فَلِهَذَا لَمْ يَرُجْ هَذَا الصَّنِيع عَلَى نَبِيّ الله يَعْقُوب. بَل قَالَ لَهُمْ مُعْرِضًا عَنْ كَلامهمْ إِلَى مَا وَقَعَ فِي نَفْسه مِنْ تَمالئهم عَلَيْهِ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أَيْ: فَسَأَصْبِرُ صَبْرًا جَمِيلًا عَلَى هَذَا الأَمْر الَّذِي اِتَّفَقْتُمْ عَلَيْهِ، حَتَّى يُفَرِّجهُ الله بِعَوْنِهِ وَلُطْفه، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أَيْ: عَلَى مَا تَذْكُرُونَ مِنْ الكَذِب وَالمُحَال.

وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ سِمَاك، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قَالَ: لَوْ أَكَلَهُ السَّبُع لَخَرَقَ القَمِيص. وَكَذَا قَالَ الشَّعْبِيّ، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ مُجَاهِد: الصَّبْر الجَمِيل الَّذِي لا جَزَعَ فِيهِ. وَرَوَى هُشَيْم، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن يَحْيَى، عَنْ حِبَّان بْن أَبِي جَبَلَة، قَالَ: سُئِلَ رَسُول الله ﷺ، عَنْ قَوْله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فَقَالَ: «صَبْر لا شَكْوَى فِيهِ» وَهَذَا مُرْسَل. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: قَالَ الثَّوْرِيّ عَنْ بَعْض أَصْحَابه: إِنَّهُ قَالَ: ثَلاث مِنْ الصَّبْر؛ أَنْ لا تُحَدِّث بِوَجَعِك، وَلا بِمُصِيبَتِك، وَلا تُزَكِّي نَفْسَك. وَذَكَرَ البُخَارِيّ هَهُنَا حَدِيث عَائِشَة ﷺ، فِي الإِفْك، حَتَّى ذَكَرَ قَوْلَهَا: وَالله، لا أَجِد لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلا أَبَا يُوسُف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا جَرَى لِيُوسُف عليه السلام، حِين أَلْقَاهُ إِخْوَته، وَتَرَكُوهُ فِي ذَلِكَ الجُبّ فَرِيدًا وَحِيدًا، فَمَكَثَ فِي البِئْر ثَلاثَة أَيَّام؛ فِيمَا قَالَهُ أَبُو بَكْر ابْن عَيَّاش. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: لَمَّا أَلْقَاهُ إِخْوَته جَلَسُوا حَوْل البِئْر يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، يَنْظُرُونَ مَاذَا يَصْنَع وَمَا يُصْنَع بِهِ، فَسَاقَ الله لَهُ سَيَّارَة فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ تِلْكَ البِئْر، وَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ، هُوَ الَّذِي يَتَطَلَّب لَهُمْ المَاء، فَلَمَّا جَاءَ ذَلِكَ البِئْر وَأَدْلَى دَلْوه فِيهَا، تَشَبَّثَ يُوسُف عليه السلام، فِيهَا؛ فَأَخْرَجَهُ وَاسْتَبْشَرَ بِهِ وَقَالَ: ﴿يَا بُشْرَايَ هَٰذَا غُلَامٌ﴾.

وَقَرَأَ بَعْض القُرَّاء: ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ فَزَعَمَ السُّدِّيّ: أَنَّهُ اِسْم رَجُل نَادَاهُ ذَلِكَ الرَّجُل الَّذِي أَدْلَى دَلْوَه، مُعْلِمًا لَهُ أَنَّهُ أَصَابَ غُلامًا، وَهَذَا القَوْل مِنْ السُّدِّيّ غَرِيب؛ لأَنَّهُ لَمْ يُسْبَق إِلَى تَفْسِير هَذِهِ القِرَاءَة بِهَذَا إِلا فِي رِوَايَة عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَالله أَعْلَم. وَإِنَّمَا مَعْنَى القِرَاءَة عَلَى هَذَا النَّحْو يَرْجِع إِلَى القِرَاءَة الأُخْرَى، وَيَكُون قَدْ أَضَافَ البُشْرَى إِلَى نَفْسه، وَحَذَفَ يَاء الإِضَافَة وَهُوَ يُرِيدهَا، كَمَا تَقُول العَرَب: يَا نَفْس اِصْبِرِي، وَيَا غُلام أَقْبِل، بِحَذْفِ حَرْف الإِضَافَة، وَيَجُوز الكَسْر حِينَئِذٍ وَالرَّفْع، وَهَذَا مِنْهُ، وَتُفَسِّرهَا القِرَاءَة الأُخْرَى (يَا بُشْرَايَ)، وَالله أَعْلَم. وَقَوْله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أَيْ: وَأَسَرَّهُ الوَارِدُونَ مِنْ بَقِيَّة السَّيَّارَة، وَقَالُوا: اِشْتَرَيْنَاهُ وَتَبَضَّعْنَاهُ مِنْ أَصْحَاب المَاء، مَخَافَة أَنْ يُشَارِكُوهُمْ فِيهِ إِذَا عَلِمُوا خَبَرَهُ، قَالَهُ مُجَاهِد، وَالسُّدِّيّ، وَابْن جَرِير؛ هَذَا قَوْل. وَقَالَ العَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس قَوْله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ يَعْنِي إِخْوَة يُوسُف أَسَرُّوا شَأْنه، وَكَتَمُوا أَنْ يَكُون أَخَاهُمْ، وَكَتَمَ يُوسُف شَأْنَهُ مَخَافَة أَنْ يَقْتُلَهُ إِخْوَته، وَاخْتَارَ البَيْع، فَذَكَرَه إِخْوَته لِوَارِدِ القَوْم، فَنَادَى أَصْحَابه ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ يُبَاع، فَبَاعَهُ إِخْوَته. وَقَوْله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: عَلِيم بِمَا يَفْعَلهُ إِخْوَة يُوسُف وَمُشْتَرُوهُ، وَهُوَ قَادِر عَلَى تَغْيِير ذَلِكَ وَدَفْعه، وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَة وَقَدَر سَابِق، فَتَرَكَ ذَلِكَ لِيَمْضِيَ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وَفِي هَذَا تَعْرِيض لِرَسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ، وَإِعْلامِهِ لَهُ بِأَنِّي عَالِم بِأَذَى قَوْمك لَك، وَأَنَا قَادِر عَلَى الإِنْكَار عَلَيْهِمْ، وَلَكِنِّي سَأُمْلِي لَهُمْ، ثُمَّ أَجْعَل لَك العَاقِبَة وَالحُكْم عَلَيْهِمْ، كَمَا جَعَلت لِيُوسُف الحُكْم، وَالعَاقِبَة عَلَى إِخْوَته.

وقوله ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يَقُول تَعَالَى: وَبَاعَهُ إِخْوَته بِثَمَنٍ قَلِيل؛ قَالَه مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالبَخْس: هُوَ النَّقْص؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أَيْ: اِعْتَاضَ عَنْهُ إِخْوَته بِثَمَنٍ دُونٍ قَلِيل، وَمَعَ ذَلِكَ كَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ، أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ رَغْبَة فِيهِ بَل لَوْ سُئِلُوهُ بِلا شَيْء لأَجَابُوا. قَالَ اِبْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالضَّحَّاك: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْله ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عَائِد عَلَى إِخْوَة يُوسُف. وَقَالَ قَتَادَة: بَل هُوَ عَائِد عَلَى السَّيَّارَة. وَالأَوَّل أَقْوَى؛ لأَنَّ قَوْله ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إِنَّمَا أَرَادَ إِخْوَته لا أُولَئِكَ السَّيَّارَة، لأَنَّ السَّيَّارَةَ اِسْتَبْشَرُوا بِهِ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَة، وَلَوْ كَانُوا فِيهِ زَاهِدِينَ لَمَا اِشْتَرَوْهُ، فَتَرَجَّحَ مِنْ هَذَا أَنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إِنَّمَا هُوَ لإِخْوَتِهِ. وَقِيلَ: المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿بَخْسٍ﴾ الحَرَام، وَقِيلَ: الظُّلم، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ، لَكِنْ لَيْسَ هُوَ المُرَاد هُنَا؛ لأَنَّ هَذَا مَعْلُوم يَعْرِفهُ كُلّ أَحَد: أَنَّ ثَمَنه حَرَام عَلَى كُلّ حَال وَعَلَى كُلّ أَحَد؛ لأَنَّهُ نَبِيّ اِبْن نَبِيّ اِبْن نَبِيّ اِبْن خَلِيل الرَّحْمَن، فَهُوَ الكَرِيم اِبْن الكَرِيم اِبْن الكَرِيم اِبْن الكَرِيم، وَإِنَّمَا المُرَاد هُنَا بِالبَخْسِ النَّاقِص، أَوْ الزُّيُوف، أَوْ كِلاهُمَا، أَيْ: إِنَّهُمْ إِخْوَته وَقَدْ بَاعُوهُ وَمَعَ هَذَا بِأَنْقَص الأَثْمَان؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ فَعَنْ اِبْن مَسْعُود رضي الله عنه: بَاعُوهُ بِعِشْرِينَ دِرْهَمًا. وَكَذَا قَالَ اِبْن عَبَّاس، وَنَوْف البِكَالِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة، وَعَطِيَّة العَوْفِيّ، وَزَادَ: اِقْتَسَمُوهَا دِرْهَمَيْنِ دِرْهَمَيْنِ، وَقَالَ مُجَاهِد: اِثْنَانِ وَعِشْرُون دِرْهَمًا. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَعِكْرِمَة: أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا. وَقَالَ الضَّحَّاك فِي قَوْله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا نُبُوَّته وَمَنْزِلَته عِنْد الله عز وجل. وَقَالَ مُجَاهِد: لَمَّا بَاعُوهُ جَعَلُوا يَتْبَعُونَهُمْ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ: اِسْتَوْثِقُوا مِنْهُ لا يَأْبَق، حَتَّى وَقَفُوهُ بِمِصْرَ فَقَالَ: مَنْ يَبْتَاعنِي وَلْيُبَشَّرْ؟ فَاشْتَرَاهُ المَلِك وَكَانَ مُسْلِمًا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى بِأَلطَافِهِ بِيُوسُف عليه السلام: أَنَّهُ قَيَّضَ لَهُ الَّذِي اِشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ، حَتَّى اِعْتَنَى بِهِ وَأَكْرَمه، وَأَوْصَى أَهْله بِهِ، وَتَوَسَّمَ فِيهِ الخَيْر وَالفَلاح، فَقَالَ لاِمْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وَكَانَ الَّذِي اِشْتَرَاهُ

مِنْ مِصر عَزِيزهَا وَهُوَ الوَزِير بها. قال العَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس: وَكَانَ اِسْمه قطفير. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: اِسْمه أطفير بْن روحيب وَهُوَ العَزِيز، وَكَانَ عَلَى خَزَائِن مِصْر، وَكَانَ المَلِك يَوْمَئِذٍ الرَّيَّان بْن الوَلِيد رَجُل مِنْ العَمَالِيق. قَالَ: وَاسْم اِمْرَأَته رَاعِيل بِنْت رعائيل. وَقَالَ غَيْره: اِسْمهَا زُلَيْخَا. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق أَيْضًا، عَنْ مُحَمَّد بْن السَّائِب، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ اِبْن عَبَّاس: كَانَ الَّذِي بَاعَهُ بِمِصْرَ مَالِك بْن ذعر بْن بويب بْن عفقان بْن مديان بْن إِبْرَاهِيم. فَالله أَعْلَم. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق: عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود أَنَّهُ قَالَ: أَفْرَسُ النَّاس ثَلاثَة؛ عَزِيز مِصْر حِين قَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، وَالمَرْأَة الَّتِي قَالَتْ لِأَبِيهَا عن موسى: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ الآيَة، وَأَبُو بَكْر الصِّدِّيق حِين اِسْتَخْلَفَ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنهما.

يَقُول تَعَالَى: وَكَمَا أَنْقَذْنَا يُوسُف مِنْ إِخْوَته ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: بِلاد مِصْر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قَالَ مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ: هُوَ تَعْبِير الرُّؤْيَا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أي: إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَلا يُرَدّ، وَلا يُمَانَع، وَلا يُخَالَف، بَل هُوَ الغَالِب لِمَا سِوَاهُ. قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر فِي قَوْله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أَيْ: فَعَّال لِمَا يَشَاء. وَقَوْله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَقُول: لا يَدْرُونَ حِكْمَته فِي خَلقه، وَتَلَطُّفه وَفِعْله لِمَا يُرِيده. وَقَوْله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أَيْ: يُوسُف عليه السلام، ﴿أَشُدَّهُ﴾ أَيْ: اِسْتَكْمَلَ عَقْله، وَتَمَّ خَلقه ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يَعْنِي: النُّبُوَّة، أَنَّهُ حَبَاهُ بِهَا بَيْن أُولَئِكَ الأَقْوَام، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ: أَنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا فِي عَمَله عَامِلًا بِطَاعَةِ الله تَعَالَى، وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي مِقْدَار المُدَّة الَّتِي بَلَغَ فِيهَا أَشُدَّهُ؛ فَقَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة: ثَلاث وَثَلاثُونَ سَنَة، وَعَنْ اِبْن عَبَّاس: بِضْع وَثَلاثُونَ، وَقَالَ الضَّحَّاك: عِشْرُونَ، وَقَالَ الحَسَن: أَرْبَعُونَ سَنَة، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: خَمْس وَعِشْرُونَ سَنَة، وَقَالَ السُّدِّيّ: ثَلاثُونَ سَنَة، وَقَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر: ثماني عشرة سَنَة، وَقَالَ الإِمَام مَالِك، وَرَبِيعَة بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَالشَّعْبِيّ، الأَشُدّ: الحُلُم، وَقِيلَ غَيْر ذَلِكَ، وَالله أَعْلَم.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ اِمْرَأَة العَزِيز الَّتِي كَانَ يُوسُف فِي بَيْتهَا بِمِصْرَ، وَقَدْ أَوْصَاهَا زَوْجهَا بِهِ وَبِإِكْرَامِهِ، فَرَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسه، أَيْ: حَاوَلَتْهُ عَلَى نَفْسه وَدَعَتْهُ إِلَيْهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا أَحَبَّتْهُ حُبًّا شَدِيدًا؛ لِجَمَالِهِ وَحُسْنه وَبَهَائِهِ، فَحَمَلَهَا ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَجَمَّلَتْ لَهُ، وَغَلَّقَتْ عَلَيْهِ الأَبْوَاب، وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسهَا، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدّ الاِمْتِنَاع وَ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وَكَانُوا يُطْلِقُونَ الرَّبّ عَلَى السَّيِّد الكَبِير، أَيْ: إِنَّ بَعْلَك رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، أَيْ: مَنْزِلِي، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ؛ فَلا أُقَابِلهُ بِالفَاحِشَةِ فِي أَهْله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قَالَ ذَلِكَ مُجَاهِد، وَالسُّدِّيّ، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق، وَغَيْرهمْ. وَقَدْ اِخْتَلَفَ القُرَّاء فِي قراءة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فَقَرَأَهُ كَثِيرُونَ: بِفَتْحِ الهَاء، وَإِسْكَان اليَاء، وَفَتْح التَّاء، قَالَ اِبْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَغَيْر وَاحِد: مَعْنَاهُ أَنَّهَا تَدْعُوهُ إِلَى نَفْسهَا.

وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، وَالعَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تَقُول: هَلُمَّ لَك. وَكَذَا قَالَ زِرّ بْن حُبَيْش، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة. قَالَ عَمْرو بْن عُبَيْد، عَنْ الحَسَن: وَهِيَ كَلِمَة بِالسُّرْيَانِيَّةِ أَيْ: عَلَيْك. وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أَيْ: هَلُمَّ لَك، وَهِيَ بِالقِبْطِيَّةِ. قَالَ مُجَاهِد: هي لُغَة غريبة تَدْعُوهُ بِهَا. وَقَالَ البُخَارِيّ: وَقَالَ عِكْرِمَة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أَيْ: هَلُمَّ لَك بِالحَوْرَانِيَّة. وَهَكَذَا ذَكَرَه مُعَلَّقًا، وَقَدْ أَسْنَدَهُ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَحْمَد بْن سهيل الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا قُرَّة بْن عِيسَى، حَدَّثَنَا النَّضْر بْن عربي الجَزَرِيّ، عَنْ عِكْرِمَة مَوْلَى اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قَالَ: هَلُمَّ لَك؛ قَالَ: هِيَ بِالحَوْرَانِيَّة. وَقَالَ أَبُو عُبَيْد القَاسِم بْن سَلام: وَكَانَ

الكِسَائِيّ يَحكي هَذِهِ القِرَاءَة، يَعْنِي: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وَيَقُول: هي لُغَة لِأَهْل حَوْرَان، وَقَعَتْ إِلَى أَهْل الحِجَاز، وَمَعْنَاهَا: تَعَالَ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْد: سَأَلت شَيْخًا عَالِمًا مِنْ أَهْل حَوْرَان فَذَكَرَ أَنَّهَا لُغَتهمْ يَعْرِفُها.

وَاسْتَشْهَدَ الإِمَام اِبْن جَرِير عَلَى هَذِهِ القِرَاءَة بِقَوْلِ الشَّاعِر لِعَلِيِّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ:

أَبْلِـــغْ أَمِـــيرَ المُؤْمِنـــ ❁ ـــينَ أَخَا العِـــرَاقِ إِذَا أَتَيتَـــا

إِنَّ العِـــرَاقَ وَأَهْلَـــه ❁ عُنُـــقٌ إِلَيْـــكَ فَهَيْـــتَ هَيتَـــا

يَقُول: فَتَعَالَ وَاقْتَرِبْ.

وَقَرَأَ ذَلِكَ آخَرُونَ: (هِئْتُ لَكَ) بِكَسْرِ الهَاء، وَالهَمْزة، وَضَمّ التَّاء، بِمَعْنَى: تَهَيَّأت لَك، مِنْ قَوْل القَائِل: هِئْت للأَمْرِ أَهِيءُ هِيئَةً، وَمِمَّنْ رُوِيَ عَنْهُ هَذِهِ القِرَاءَة؛ اِبْن عَبَّاس، وَأَبُو عَبْد الرَّحْمَن السُّلَمِيّ، وَأَبُو وَائِل، وَعِكْرِمَة، وَقَتَادَة، وَكُلّهمْ يُفَسِّرهَا بِمَعْنَى: تَهَيَّأْت لَكَ. قَالَ اِبْن جَرِير: وَكَانَ أَبُو عَمْرو، وَالكِسَائِيّ يُنْكِرَانِ هَذِهِ القِرَاءَة. وَقَرَأَ عَبْد الله بْن إِسْحَاق: (هَيْتِ) بِفَتْحِ الهَاء وَكَسْر التَّاء، وَهِيَ غَرِيبَة. وَقَرَأَ آخَرُونَ مِنْهُمْ عَامَّة أَهْل المَدِينَة: (هَيْتُ) بِفَتْحِ الهَاء وَضَمّ التَّاء، وَأَنْشَدَ قَوْل الشَّاعِر:

لَـــيْسَ قَـــوْمِي بِالأَبْعَـــدِينَ إِذَا مَـــا ❁ قَـــالَ دَاعٍ مِـــنَ العَـــشِيرَةِ هَيْـــتُ

قَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا الثَّوْرِيّ، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي وَائِل قَالَ: قَالَ اِبْن مَسْعُود: قَدْ سَمِعْتُ القرأة فسمعتهم مُتَقَارِبِينَ: فَاقْرَءُوا كَمَا عُلِّمْتُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّع، وَالاِخْتِلاف، وَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحَدكُمْ: هَلُمَّ وَتَعَالَ. ثُمَّ قَرَأَ عَبْد الله ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فَقلتُ: يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَن، إن نَاسًا يَقْرَءُونَهَا (هَيْتُ). فقَالَ عَبْد الله: إِني أَقْرَؤهَا كَمَا عُلِّمْت أَحَبّ إِلَيّ. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حدثنا ابن وكيع، قال: حَدَّثَنَا اِبْن عُيَيْنَةَ، عَنْ مَنْصُور، عَنْ أَبِي وَائِل، قَالَ: قَالَ عَبْد الله ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فَقَالَ لَهُ مَسْرُوق: إِنَّ نَاسًا يَقْرَءُونَهَا (هَيْتُ لَك). فَقَالَ: دَعُونِي فَإِن أَقْرَأ كَمَا أقرئت أَحَبّ إِلَيّ. وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنِي المُثَنَّى؛ قال: حَدَّثَنَا آدَم بْن أَبِي إِيَاس، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عن الأعمش، عَنْ شَقِيق، عَنْ اِبْن مَسْعُود؛ قَالَ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بِنَصْبِ الهَاء وَالتَّاء وَبلا هَمْز. وَقَالَ آخَرُونَ: (هِيتُ لَك) بِكَسْرِ الهَاء، وَإِسْكَان اليَاء، وَضَمّ التَّاء. قَالَ أَبُو عُبَيْدَة مَعْمَر بْن المُثَنَّى: هَيْت لا تُثَنَّى، وَلا تُجْمَع، وَلا تُؤَنَّث، بَل يُخَاطَب الجَمِيع بِلَفْظٍ وَاحِد، فَيُقَال: هَيْتَ لَك، وهَيْتَ لكِ، وَهَيْتَ لَكُمَا، وَهَيْتَ لكم، وَهَيْتَ لَهُنَّ.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

اِخْتَلَفَتْ أَقْوَال النَّاس وَعِبَارَاتهمْ فِي هَذَا المَقَام؛ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَطَائِفَة مِنْ السَّلَف فِي ذَلِكَ مَا ذكرهُ اِبْن جَرِير، وَغَيْره وَالله أَعْلَم. وَقال بعضهم: المُرَاد بِهَمِّهِ بِهَا هَمّ خَطَرَات وَحَدِيث النَّفْس، حَكَاهُ البَغَوِيّ عَنْ بَعْض أَهْل التَّحْقِيق، ثُمَّ أَوْرَدَ البَغَوِيّ هَاهُنَا حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**يَقُول الله تَعَالَى: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَة، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالهَا، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَة، فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا**»[1]. وَهَذَا الحَدِيث مُخَرَّج فِي الصَّحِيحَيْنِ وَلَهُ أَلفَاظ كَثِيرَة هَذَا مِنْهَا.

وَقِيلَ: هَمَّ بِضَرْبِهَا. وَقِيلَ: تَمَنَّاهَا زَوْجَة. وَقِيلَ: هَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبّه، أَيْ: فَلَمْ يَهُمّ بِهَا، وَفِي هَذَا القَوْل نَظَر مِنْ حَيْثُ العَرَبِيَّة؛ حَكَاهُ اِبْن جَرِير وَغَيْره. وَأَمَّا البُرْهَان الَّذِي رَآهُ فَفِيهِ أَقْوَال أَيْضًا؛ فَعَنْ اِبْن عَبَّاس،

---

(١) صحيح: تقدم.

وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بن جُبَيْر، وَمُحَمَّد بْن سِيرِينَ، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَأَبِي صَالِح، وَالضَّحَّاك، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق، وَغَيْرهمْ: رَأَى صُورَة أَبِيهِ يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَاضًا عَلَى أُصْبُعه بِفَمِهِ. وَقِيلَ عَنْهُ فِي رِوَايَة: فَضَرَبَ فِي صَدْر يُوسُف. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: رَأَى خَيَال المَلِك -يَعْنِي: سَيِّدَهُ، وَكَذَا قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِيمَا حَكَاهُ عَنْ بَعْضهمْ: إِنَّمَا هُوَ خَيَال أطفير سَيِّده حِين دَنَا مِنْ البَاب. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، قال: حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ أَبِي مَوْدُود، قال: سَمِعْت مِنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ قَالَ: رَفَعَ يُوسُف رَأْسه إِلَى سَقْف البَيْت، فَإِذَا كِتَاب فِي حَائِط البَيْت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو مَعْشَر المَدَنِيّ عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب.

وَقَالَ عَبْد الله بْن وَهْب: أَخْبَرَنِي نَافِع بْن يَزِيد، عَنْ أَبِي صَخْر، قَالَ: سَمِعْت القُرَظِيّ يَقُول فِي البُرْهَان الَّذِي رَآهُ يُوسُف: ثَلَاث آيَات مِنْ كِتَاب الله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ الآيَة، وَقَوْله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ الآيَة، وَقَوْله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾. قَالَ نَافِع: سَمِعْت أَبَا هِلَال يَقُول مِثْل قَوْل القُرَظِيّ، وَزَادَ آيَة رَابِعَة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾. وَقَالَ الأَوْزَاعِيّ: رَأَى آيَة مِنْ كِتَاب الله فِي الجِدَار تَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ. قَالَ اِبْن جَرِير: وَالصَّوَاب أَنْ يُقَال: إِنَّهُ رَأَى مِنْ آيَات الله ما زَجَره عَمَّا كَانَ هَمَّ بِهِ، وَجَائِز أَنْ يَكُونَ صُورَة يَعْقُوب، وَجَائِز أَنْ يَكُون صُورَة المَلِك، وَجَائِز أَنْ يَكُون مَا رَآهُ مَكْتُوبًا مِنْ الزَّجْر عَنْ ذَلِكَ، وَلا حُجَّة قَاطِعَة عَلَى تَعْيِين شَيْء مِنْ ذَلِكَ، فَالصَّوَاب أَنْ يُطْلَق كَمَا قَالَ الله تَعَالَى.

قال: وَقَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أَيْ: كَمَا أَرَيْنَاهُ بُرْهَانًا صَرَفَهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ، كَذَلِكَ نَقِيه السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ فِي جَمِيع أُمُوره. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أَيْ: مِنْ المُجْتَبِينَ المُطَهَّرِينَ المُخْتَارِينَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَار، صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ حَالهمَا حِين خَرَجَا يَسْتَبِقَانِ إِلَى البَاب، يُوسُف هَارِب، وَالمَرْأَة تَطْلُبهُ لِيَرْجِع إِلَى البَيْت، فَلَحِقَتْهُ فِي أَثْنَاء ذَلِكَ، فَأَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ فَقَدَّتْهُ قَدًّا فَظِيعًا يُقَال: إِنَّهُ سَقَطَ عَنْهُ، وَاسْتَمَرَّ يُوسُف هَارِبًا ذَاهِبًا وَهِيَ فِي إِثْره، فَأَلْفَيَا سَيِّدهَا وَهُوَ زَوْجهَا عِنْد البَاب، فَعِنْد ذَلِكَ خَرَجَتْ مِمَّا هِيَ فِيهِ بِمَكْرِهَا وَكَيْدهَا، وَقَالَتْ لِزَوْجِهَا مُتَنَصِّلَة وَقَاذِفَة يُوسُف بِدَائِهَا: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أَيْ: فَاحِشَة ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ أَيْ: يُحْبَس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ: يُضْرَب ضَرْبًا شَدِيدًا مُوجِعًا، فَعِنْد ذَلِكَ اِنْتَصَرَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالحَقِّ، وَتَبَرَّأَ مِمَّا رَمَتْهُ بِهِ مِنْ الخِيَانَة، و﴿قَالَ﴾ بَارًّا صَادِقًا ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وَذَكَرَ أَنَّهَا اِتَّبَعَتْهُ تَجْذِبهُ إِلَيْهَا حَتَّى قَدَّتْ قَمِيصه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أَيْ: مِنْ قُدَّامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أَيْ: فِي قَوْلهَا إِنَّهُ أرادها على نَفْسهَا؛ لأَنَّهُ يَكُون لَمَّا دَعَاهَا وَأَبَتْ عَلَيْهِ، دَفَعَتْهُ فِي صَدْره فَقَدَّتْ قَمِيصه فَيَصِحّ مَا قَالَتْ. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وَذَلِكَ يَكُون كَمَا وَقَعَ، لَمَّا هَرَبَ مِنْهَا، وَتَطَلَّبَتْهُ أَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ لِتَرُدّهُ إِلَيْهَا، فَقَدَّتْ قَمِيصه مِنْ وَرَائِهِ. وَقَدْ اِخْتَلَفُوا فِي هَذَا الشَّاهِد: هَل هُوَ صَغِير أَوْ كَبِير؟ عَلَى قَوْلَيْنِ لِعُلَمَاء السَّلَف؛ فَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قَالَ: ذُو لِحْيَة. وَقَالَ

الثَّوْرِيّ، عَنْ جَابِر، عَنْ اِبْن أَبِي مُلَيْكَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: كَانَ مِنْ خَاصَّة الْمَلِك. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق، وَغَيْرهمْ: إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا. وَقَالَ زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَالسُّدِّيّ: كَانَ اِبْن عَمّهَا. وَقَالَ اِبْن عَبَّاس: كَانَ مِنْ خَاصَّة الْمَلِك. وَقَدْ ذَكَرَ اِبْن إِسْحَاق: أَنَّ زُلَيْخَا كَانَتْ بِنْت أُخْت الْمَلِك الرَّيَّان بْن الْوَلِيد.

وَقَالَ الْعَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس، فِي قَوْله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قَالَ: كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْد. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَهِلَال بْن يَسَاف، وَالحَسَن، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالضَّحَّاك بْن مُزَاحِم، أَنَّهُ كَانَ صَبِيًّا فِي الدَّار، وَاخْتَارَهُ اِبْن جَرِير. وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيث مَرْفُوع؛ فَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد -هُوَ اِبْن سَلَمَة-، أَخْبَرَنِي عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**تَكَلَّمَ أَرْبَعَة وَهُمْ صِغَار...**»[1]. فَذَكَرَ فِيهِمْ شَاهِد يُوسُف. وَرَوَاهُ غَيْره عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَطَاء، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، أَنَّهُ قَالَ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَة وَهُمْ صِغَار؛ اِبْن مَاشِطَة بِنْت فِرْعَوْن، وَشَاهِد يُوسُف، وَصَاحِب جُرَيْج، وَعِيسَى اِبْن مَرْيَم». وَقَالَ اللَّيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ مُجَاهِد: كان مِنْ أَمْر الله تَعَالَى وَلَمْ يَكُنْ إِنْسِيًّا. وَهَذَا قَوْل غَرِيب.

وَقَوْله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أَيْ: لَمَّا تَحَقَّقَ زَوْجهَا صِدْق يُوسُفَ، وَكَذِبهَا فِيمَا قَذَفَتْهُ وَرَمَتْهُ بِهِ؛ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أَيْ: إِنَّ هَذَا البَهْت وَاللَّطْخ الَّذِي لَطَّخْت عِرْض هَذَا الشَّاب بِهِ مِنْ جُمْلَة كَيْدكُنَّ، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. ثُمَّ قَالَ آمِرًا لِيُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكِتْمَانِ مَا وَقَعَ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أَيْ: اِضْرِبْ عَنْ هَذَا الأمر صَفْحًا، أَيْ: فَلا تَذْكُرهُ لِأَحَدٍ، ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ يَقُول لِامْرَأَتِهِ وَقَدْ كَانَ لَيِّن العَرِيكَة سَهْلًا، أَوْ أَنَّهُ عَذَرَهَا؛ لأَنَّهَا رَأَتْ مَا لا صَبْر لَهَا عَنْهُ، فَقَالَ لَهَا: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ أَيْ: الَّذِي وَقَعَ مِنْك مِنْ إِرَادَة السُّوء بِهَذَا الشَّاب، ثُمَّ قَذْفِهِ بِمَا هُوَ بَرِيء مِنْهُ، استغفري من هذا الذي وقع منك؛ ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّ خَبَر يُوسُف وَامْرَأَة العَزِيز شَاعَ فِي المَدِينَة، وَهِيَ مِصْر، حَتَّى تَحَدَّثَ بِهِ النَّاس ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مِثْل نِسَاء الكُبَرَاء وَالأُمَرَاء، يُنْكِرْنَ عَلَى اِمْرَأَة العَزِيز وَهُوَ الوَزِير، وَيَعِبْنَ ذَلِكَ عَلَيْهَا: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أَيْ: تُحَاوِل غُلامهَا عَنْ نَفْسه، وَتَدْعُوهُ إِلَى نَفْسهَا، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أَيْ: قَدْ وَصَلَ حُبّه إِلَى شِغَاف قَلبهَا وَهُوَ غِلَافه. قَالَ الضَّحَّاك، عَنْ اِبْن عَبَّاس: الشَّغَف الحُبّ القَاتِل، وَالشَّغَف دُون ذَلِكَ، وَالشَّغَاف حِجَاب القَلْب. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: فِي صَنِيعهَا هَذَا مِنْ حُبّهَا فَتَاهَا، وَمُرَاوَدَتهَا إِيَّاهُ عَنْ نَفْسه. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قَالَ بَعْضهمْ: بِقَوْلِهِنَّ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: بَل بَلَغَهُنَّ حُسْن يُوسُف فَأَحْبَبْنَ أَنْ يَرَيْنَهُ، فَقُلْنَ ذلك لِيَتَوَصَّلْنَ إِلَى رُؤْيَته وَمُشَاهَدَته، فَعِنْد ذَلِكَ: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أَيْ: دَعَتْهُنَّ إِلَى مَنْزِلهَا لِتُضَيِّفهُنَّ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾. قَالَ اِبْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُجَاهِد، وَالحَسَن، وَالسُّدِّيّ، وَغَيْرهمْ: هُوَ المَجْلِس المُعَدّ، فِيهِ مَفَارِش وَمَخَادّ وَطَعَام، فِيهِ مَا يُقْطَع بِالسَّكَاكِين مِنْ أُتْرُجّ وَنَحْوه؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ

(١) حسن: أخرجه ابن جرير (٧/ ١٩١)، بسند حسن، فحماد بن سلمة قد روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط.

مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وَكَانَ هَذَا مَكِيدَة مِنْهَا، وَمُقَابَلَة لَهُنَّ فِي اِحْتِيَالهنَّ عَلَى رُؤْيَته، ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ خبَّأَتْهُ فِي مَكَان آخر، ﴿فَلَمَّا﴾ خرَجَ و﴿رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أَيْ: أَعْظَمْنَ شَأْنه، وَأَجْلَلْنَ قَدْرَهُ، وَجَعَلنَ يُقَطِّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ دَهْشًا بِرُؤْيَتِهِ، وَهُنَّ يَظُنُّنَ أَنَّهُنَّ يَقْطَعْنَ الأُتْرُجّ بِالسَّكَاكِين، وَالْمُرَاد: أَنَّهُنَّ حَزَزْنَ أَيْدِيهنَّ بِهَا؛ قَالَهُ غَيْر وَاحِد. وَعَنْ مُجَاهِد وَقَتَادَة: قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ حَتَّى أَلْقَيْنَهَا، فَالله أَعْلَم.

وَقَدْ ذكَرَ عن زيد بن أسلم: أَنَّهَا قَالَتْ لَهُنَّ بَعْدَمَا أَكَلنَ وَطَابَتْ أَنْفُسهنَّ، ثُمَّ وَضَعَتْ بَيْن أَيْدِيهنَّ أُتْرُجًّا وَآتَتْ كُلّ وَاحِدَة مِنْهُنَّ سِكِّينًا: هَل لَكُنَّ فِي النَّظَر إِلَى يُوسُف؟ قُلنَ: نَعَمْ. فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ تَأْمُرُهُ أَنْ اُخْرُجْ إِلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ جَعَلنَ يُقَطِّعْنَ أَيْدِيهنَّ، ثُمَّ أَمَرْته أَنْ يَرْجع لِيَرَيْنَهُ مُقْبِلًا وَمُدْبِرًا، فَرَجَعَ وَهُنَّ يَحْزُزْنَ فِي أَيْدِيهنّ، فَلَمَّا أَحْسَسْنَ بِالأَلَم جَعَلنَ يُوَلوِلنَ، فَقَالَتْ: أَنْتُنَّ مِنْ نَظْرَة وَاحِدَة فَعَلتُنَّ هَذَا، فَكَيْف أُلام أَنَا؟ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ثُمَّ قُلنَ لَهَا: وَمَا نَرى عَلَيْك مِنْ لَوْم بَعْد هَذَا الَّذِي رَأَيْنَا. لأَنَّهُنَّ لَمْ يَرَيْنَ فِي الْبَشَر شَبهه وَلا قَرِيبًا مِنْهُ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ قَدْ أُعْطِي شَطْر الْحُسْن، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيث الصَّحِيح فِي حَدِيث الإِسْرَاء: أَنَّ رَسُول الله ﷺ مَرَّ بِيُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي السَّمَاء الثَّالِثَة قَالَ: **«فَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْر الحُسْن»**[1].

وَقَالَ حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«أُعْطِيَ يُوسُف وَأُمّه شَطْر الحُسْن»**[2].

وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَالَ: أُعْطِيَ يُوسُف وَأُمّه ثُلُث الْحُسْن. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق أَيْضًا: عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله، قَالَ: كَانَ وَجْه يُوسُف مِثْل الْبَرْق، وَقَالَتْ الْمَرْأَة إِذَا أَتَتْهُ لِحَاجَةٍ غَطَّى وَجْهه مَخَافَةَ أَنْ تفتتن بِهِ. وَرَوَاهُ الْحَسَن الْبَصْرِيّ مُرْسَلًا عَنْ النَّبِيّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: **«أُعْطِيَ يُوسُف وَأُمّه ثُلُث حُسْن أَهْل الدُّنْيَا، وَأُعْطِيَ النَّاس الثُّلُثَيْنِ»**. أَوْ قَالَ: **«أُعْطِيَ يُوسُف، وَأُمّه الثُّلُثَيْنِ، وَالنَّاس الثُّلُث»**.

وَقَالَ سُفْيَان، عَنْ مَنْصُور، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ رَبِيعَة الْجُرَشِيّ قَالَ: قُسِمَ الْحُسْن نِصْفَيْنِ؛ فَأُعْطِيَ يُوسُف وَأُمّه سَارَّة نِصْف الْحُسْن، وَالنِّصْف الآخَر بَيْن سَائِر الخَلق. وَقَالَ الإِمَام أَبُو الْقَاسِم السُّهَيْلِيّ: مَعْنَاهُ أَنَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ عَلَى النِّصْف مِنْ حُسْن آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ الله خَلَقَ آدَم بِيَدِهِ عَلَى أَكْمَل صُورَة وَأَحْسَنهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذُرِّيَّته مَنْ يُوَازِيه فِي جَماله، وَكَانَ يُوسُف قَدْ أُعْطِيَ شَطْر حُسْنه. فَلِهَذَا قَالَ هَؤُلاءِ النِّسْوَة عِنْد رُؤْيَته: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ قَالَ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد: مَعَاذ الله! ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، وَقَرَأَ بَعْضهمْ (مَا هَذَا بِشِرًى) أَيْ: بِمُشْتَرًى بِشِرَاء. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تَقُول هَذَا مُعْتَذِرَة إِلَيْهِنَّ بِأَنَّ هَذَا حَقِيق بِأَنْ يُحَبّ لِجَمَالِهِ وَكَمَاله.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أَيْ: فَامْتَنَعَ، قَالَ بَعْضهمْ: لَمَّا رَأَيْنَ جَماله الظَّاهِر، أَخْبَرَتْهُنَّ بِصِفَاتِهِ الْحَسَنَة الَّتِي تَخْفَى عَنْهُنَّ، وَهِيَ العِفَّة مَعَ هَذَا الجَمال، ثُمَّ قَالَتْ تَتَوَعَّدهُ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فَعِنْد ذَلِكَ اِسْتَعَاذَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ شَرّهنَّ وَكَيْدهنَّ، وقَالَ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أَيْ: مِنَ الفَاحِشَة ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَيْ: إِنْ وَكَلتني إِلَى نَفْسِي فَلَيْسَ لِي مِنْهَا قُدْرَة، وَلا أَمْلِك لَهَا ضَرًّا، وَلا نَفْعًا، إِلا بِحَوْلِك، وَقُوَّتك، أَنْتَ الْمُسْتَعَان، وَعَلَيْك التُّكْلانُ، فَلا تَكِلنِي إِلَى نَفْسِي.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَصَمَهُ الله عِصْمَة عَظِيمَة وَحَمَاهُ، فَامْتَنَعَ مِنْهَا أَشَدّ الامْتِنَاع، وَاخْتَارَ السِّجْن عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا فِي غَايَة مَقَامَات الكَمَال: أَنَّهُ مَعَ شَبَابه وَجَماله وَكَماله، تَدْعُوهُ سَيِّدَته، وَهِيَ اِمْرَأَة عَزِيز مِصْر، وَهِيَ مَعَ هَذَا فِي غَايَة الجَمال وَالْمَال وَالرِّيَاسَة، وَيَمْتَنِع مِنْ ذَلِكَ، وَيَخْتَار السِّجْن عَلَى ذَلِكَ؛ خَوْفًا مِنْ الله وَرَجَاء ثَوَابه. وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٢)، وأحمد (٣/ ١٤٨).

(٢) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٨).

الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «سَبْعَة يُظِلّهُمْ الله فِي ظِلّه يَوْم لا ظِلّ إلا ظِلّه: إِمَام عَادِل، وَشَابّ نَشَأَ فِي عِبَادَة الله، وَرَجُل قَلبه مُعَلّق بِالمَسْجِد إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُود إِلَيْهِ، وَرَجُلان تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَافترقا عَلَيْهِ، وَرَجُل تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَم شِمَاله مَا أَنْفَقَتْ يَمِينه، وَرَجُل دَعَتْهُ اِمْرَأَة ذَات مَنْصِب وَجَمَال فَقَالَ: إِنِّي أَخَاف الله، وَرَجُل ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[1].

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

يَقُول تَعَالَى: ثُمَّ ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ المَصْلَحَة فِيمَا رَأَوْهُ أَنَّهُمْ يَسْجُنُونَهُ إِلَى ﴿حِينٍ﴾ أَيْ: إِلَى مُدَّة، وَذَلِكَ بَعْدَمَا عَرَفُوا بَرَاءَته، وَظَهَرَتْ الآيَات وَهِيَ الأَدِلَّة عَلَى صِدْقه فِي عِفَّته وَنَزَاهَته، وَكَأَنَّهُمْ، وَالله أَعْلَم، إِنَّمَا سَجَنُوهُ لَمَّا شَاعَ الحَدِيث؛ إِيهَامًا أَنَّهُ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسهَا، وَأَنَّهُمْ سَجَنُوهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَه المَلِك الكَبِير فِي آخِر المُدَّة اِمْتَنَعَ مِنْ الخُرُوج حَتَّى تَتَبَيَّن بَرَاءَته مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ الخِيَانَة، فَلَمَّا تَقَرَّرَ ذَلِكَ خَرَجَ وَهُوَ نَقِيّ العِرْض، صَلَوَات الله عَلَيْهِ وَسَلامه. وَذَكَرَ السُّدِّيّ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَجَنُوهُ؛ لِئَلا يَشِيع مَا كَانَ مِنْهَا فِي حَقّه، وَيُبَرِّئ عِرْضه فَيَفْضَحهَا.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

قَالَ قَتَادَة: كَانَ أَحَدهمَا سَاقِي المَلِك، وَالآخَر خَبَّازه. قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: كَانَ اِسْم الَّذِي عَلَى الشَّرَاب: بنوا، وَالآخَر: مجلث. قَالَ السُّدِّيّ: وَكَانَ سَبَب حَبْس المَلِك إِيَّاهُمَا أَنَّهُ تَوَهَّمَ أَنَّهُمَا تَمَالآ عَلَى سَمّه فِي طَعَامه وَشَرَابه، وَكَانَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلام قَدْ اُشْتُهِرَ فِي السِّجْن بِالجُود وَالأَمَانَة، وَصِدْق الحَدِيث وَحُسْن السَّمْت، وَكَثْرَة العِبَادَة صَلَوَات الله عَلَيْهِ وَسَلامه، وَمَعْرِفَة التَّعْبِير، وَالإِحْسَان إِلَى أَهْل السِّجْن، وَعِيَادَة مَرْضَاهُمْ، وَالقِيَام بِحُقُوقِهِمْ، وَلَمَّا دَخَلَ هَذَانِ الفَتَيَانِ إِلَى السِّجْن تَأَلَّفَا بِهِ، وَأَحَبَّاهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَقَالا لَهُ: وَالله، لَقَدْ أَحْبَبْنَاك حُبًّا زَائِدًا. فَقَالَ: بَارَكَ الله فِيكُمَا، إِنَّهُ مَا أَحَبَّنِي أَحَد إِلا دَخَلَ عَلَيَّ مِنْ مَحَبَّته ضَرَر؛ أَحَبَّتْنِي عَمَّتِي، فَدَخَلَ عَلَيَّ الضَّرَر بِسَبَبِهَا؛ وَأَحَبَّنِي أَبِي فَأُوذِيت بِسَبَبِهِ، وَأَحَبَّتْنِي اِمْرَأَة العَزِيز فَكَذَلِكَ، فَقَالا: وَالله، مَا نَسْتَطِيع إِلا ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّهُمَا رَأَيَا مَنَامًا؛ فَرَأَى السَّاقِي أَنَّهُ يَعْصِر خَمْرًا، يَعْنِي: عِنَبًا، وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَة عَبْد الله بْن مَسْعُود: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِر عِنَبًا﴾ وَرَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم: عَنْ أَحْمَد بْن سِنَان، عَنْ يَزِيد بْن هَارُون، عَنْ شَرِيك، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ زَيْد ابْن وَهْب، عَنْ اِبْن مَسْعُود، أَنَّهُ قَرَأَهَا: (أَعْصِر عِنَبًا).

وَقَالَ الضَّحَّاك فِي قَوْله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ﴾ يَعْنِي: عِنَبًا؛ قَالَ: وَأَهْل عُمَان يُسَمُّونَ العِنَب خَمْرًا. وَقَالَ عِكْرِمَة: قَالَ لَهُ: إِنِّي رَأَيْت -فِيمَا يَرَى النَّائِم- أَنِّي غَرَسْت حَبْلَة مِنْ عِنَب، فَنَبَتَتْ فَخَرَجَ فِيهَا عَنَاقِيد فَعَصَرْتهنَّ، ثُمَّ سَقَيْتهنَّ المَلِك. فَقَالَ: تَمْكُث فِي السِّجْن ثَلاثَة أَيَّام ثُمَّ تَخْرُج فَتَسْقِيه خَمْرًا. وَقَالَ الآخَر وَهُوَ الخَبَّاز: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ الآيَة. وَالمَشْهُور عِنْد الأَكْثَرِينَ مَا ذَكَرْنَاهُ: أَنَّهُمَا رَأَيَا مَنَامًا، وَطَلَبَا تَعْبِيره. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا وَكِيع، وَابْن حُمَيْد؛ قَالا: حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ عُمَارَة بْن القَعْقَاع، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود؛ قَالَ: مَا رَأَى صَاحِبَا يُوسُف شَيْئًا إِنَّمَا كَانَا تَحَالَمَا لِيُجَرِّبَا عَلَيْهِ.

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

---

(١) صحيح: تقدم.

يُخبرهُمَا يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُمَا مَهْمَا رَأَيَا فِي مَنَامهمَا مِنْ حُلم، فَإِنَّهُ عَارِف بِتَفْسِيرِهِ، وَيُخْبِرهُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْل وُقُوعه؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾. قَالَ مُجَاهِد: يَقُول ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ فِي يَوْمكُمَا ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، وَكَذَا قَالَ السُّدِّيّ، وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن العَلَاء، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَزِيد شَيْخ لَهُ، عن رِشْدِين، عَنْ الحَسَن بْن ثَوْبَان، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: مَا أَدْرِي لَعَلَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَعْتَاف وَهُوَ كَذَلِكَ، لأَنِّي أَجِد فِي كِتَاب الله حِين قَالَ لِلرَّجُلَيْنِ: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ قَالَ: إِذَا جَاءَ الطَّعَام حُلوًا، أَوْ مُرًّا أَعْتَاف عِنْد ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ اِبْن عَبَّاس: إِنَّمَا عُلِّمَ فَعَلِمَ. وَهَذَا أَثَر غَرِيب. ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعْلِيم الله إِيَّايَ؛ لأَنِّي اِجْتَنَبْت مِلَّة الكَافِرِينَ بِالله وَاليَوْم الآخِر، فَلا يَرْجُونَ ثَوَابًا، وَلا عِقَابًا فِي المَعَاد، ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآيَة، يَقُول: هَجَرْت طَرِيق الكُفْر وَالشِّرْك، وَسَلَكْت طَرِيق هَؤُلَاءِ المُرْسَلِينَ، صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَهَكَذَا يَكُون حَال مَنْ سَلَكَ طَرِيق الهُدَى، وَاتَّبَعَ طَرِيق المُرْسَلِينَ، وَأَعْرَضَ عَنْ طَرِيق الظالمين، فَإِنَّ الله يَهْدِي قَلبه، وَيُعَلِّمهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَم، وَيَجْعَلهُ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي الخَيْر، وَدَاعِيًا إِلَى سَبِيل الرَّشَاد.

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هَذَا التَّوْحِيد: وَهُوَ الإِقْرَار بِأَنَّهُ لا إِلَه إِلا الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أَيْ: أَوْحَاهُ إِلَيْنَا، وَأَمَرَنَا بِهِ ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إِذْ جَعَلَنَا دُعَاة لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أَيْ: لا يَعْرِفُونَ نِعْمَة الله عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُل إِلَيْهِمْ، بَل ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا حَجَّاج، عَنْ عَطَاء، عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّهُ كَانَ يَجْعَل الجَدّ أَبًا، وَيَقُول: وَالله، لِمَنْ شَاءَ لاعناه عِنْد الحِجْر، مَا ذَكَرَ الله جَدًّا وَلا جَدَّة، قَالَ الله تَعَالَى -يَعْنِي إِخْبَارًا عَنْ يُوسُف-: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ثُمَّ إِنَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَقْبَلَ عَلَى الفَتَيَيْنِ بِالمُخَاطَبَة، وَالدُّعَاء لَهُمَا إِلَى عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَخَلع مَا سِوَاهُ مِنْ الأَوْثَان الَّتِي يَعْبُدهَا قَوْمهمَا، فَقَالَ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أَيْ: الَّذِي ولى كُلّ شَيْء بعِزّ جَلاله وَعَظَمَة سُلطَانه. ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمَا أَنَّ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، وَيُسَمُّونَهَا آلِهَة إِنَّمَا هو جهل مِنْهُمْ، وَتَسْمِيَة مِنْ تِلقَاء أَنْفُسهمْ تَلَقَّاهَا خَلَفهمْ عَنْ سَلَفهمْ، وَلَيْسَ لِذَلِكَ مُسْتَنَد مِنْ عِنْد الله؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أَيْ: حُجَّة وَلا بُرْهَان. ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الحُكْم وَالتَّصَرُّف وَالمَشِيئَة وَالمُلك كُلّه لله، وَقَدْ أَمَرَ عِبَاده قَاطِبَة: أَنْ لا يَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيد الله وَإِخْلاص العَمَل لَهُ هُوَ الدِّين المُسْتَقِيم، الَّذِي أَمَرَ الله بِهِ وَأَنْزَلَ بِهِ الحُجَّة وَالبُرْهَان، الَّذِي يُحِبّهُ وَيَرْضَاهُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: فَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرهمْ مُشْرِكِينَ، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَدْ قَالَ اِبْن جرِير: إِنَّمَا عَدَلَ بِهِمْ يُوسُف عَنْ تَعْبِير الرُّؤْيَا إِلَى هَذَا؛ لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهَا ضَارَّة لِأَحَدِهِمَا، فَأَحَبَّ أَنْ يَشْغَلهُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِئَلا يُعَاوِدُوهُ فِيهَا، فَعَاوَدُوهُ فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ المَوْعِظَة. وَفِي هَذَا الَّذِي قَالَهُ نَظَر؛ لأَنَّهُ قَدْ وَعَدَهُمَا أَوَّلًا بِتَعْبِيرِهَا، وَلَكِنْ جَعَلَ سُؤَالهمَا لَهُ عَلَى وَجْه التَّعْظِيم وَالاِحْتِرَام وَصْلَة، وَسَبَبًا إِلَى دُعَائِهِمَا إِلَى التَّوْحِيد وَالإِسْلام، لِمَا رَأَى فِي سَجِيَّتهمَا مِنْ قَبُول الخَيْر وَالإِقْبَال عَلَيْهِ وَالإِنْصَات إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا لَمَّا فَرَغَ مِنْ دَعْوَتهمَا شَرَعَ فِي تَعْبِير رُؤْيَاهُمَا مِنْ غَيْر تَكْرَار سُؤَال، فقال:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾

يقول لهما: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾ وَهُوَ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَعْصِر خَمْرًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُعَيِّنْهُ؛ لِئَلا يَحْزَن ذَاكَ، وَلِهَذَا أَبْهَمَهُ فِي قَوْله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ وَهُوَ فِي نَفْس الأَمْر الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَحْمِل فَوْق رَأْسه خُبْزًا. ثُمَّ أَعْلَمهُمَا أَنَّ هَذَا قَدْ فَرِغَ مِنْهُ وَهُوَ وَاقِع لا مَحَالَة؛ لأَنَّ الرُّؤْيَا عَلَى رِجْل طَائِر مَا لَمْ تُعَبَّر، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ، وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ عُمَارَة بْن الْقَعْقَاع، عَنْ إِبْرَاهِيم عن عَبْد الله؛ قَالَ: لَمَّا قَالا مَا قَالا وَأَخْبَرَهُمَا، قَالا: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا. فَقَالَ: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾. وَرَوَاهُ مُحَمَّد بْن فُضَيْل، عَنْ عُمَارَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَلقَمَة، عَنْ اِبْن مَسْعُود، بِهِ. وَكَذَا فَسَّرَهُ مُجَاهِد، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَغَيْرهمْ، وَحَاصِله: أَنَّ مَنْ تَحَلَّمَ بِبَاطِلٍ وَفَسَّرَهُ فَإِنَّهُ يُلزَم بِتَأْوِيلِهِ، وَالله تَعَالَى أَعْلَم، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيث الشَّرِيف الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: عَنْ مُعَاوِيَة بْن حَيْدَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**الرُّؤْيَا عَلَى رِجْل طَائِر مَا لَمْ تُعَبَّر، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ**»[1]. وَفِي مُسْنَد أَبِي يَعْلَى: مِنْ طَرِيق يَزِيد الرَّقَاشِيّ، عَنْ أَنَس مَرْفُوعًا: «**الرُّؤْيَا لأَوَّلِ عَابِر**»[2].

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾

وَلَمَّا ظَنَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، نجاة أحدهما وهو السَّاقِي، قَالَ لَهُ يُوسُف خُفْيَة عَنْ الآخَر، وَالله أَعْلَم، لِئَلا يُشْعِرهُ أَنَّهُ الْمَصْلُوب قَالَ لَهُ: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يَقُول: اُذْكُرْ قضيتي عِنْد رَبّك وَهُوَ الْمَلِك، فَنَسِيَ ذَلِكَ الْمُوصَى أَنْ يُذَكِّر مَوْلاهُ الْمَلِك بِذَلِكَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَة مَكَايِد الشَّيْطَان؛ لِئَلا يَطْلُع نَبِيّ الله مِنْ السِّجْن. هَذَا هُوَ الصَّوَاب أَنَّ الضَّمِير فِي قَوْله ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ عَائِد عَلَى النَّاجِي، كَمَا قَالَهُ مُجَاهِد وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَغَيْر وَاحِد، وَيُقَال: إِنَّ الضَّمِير عَائِد عَلَى يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، رَوَاهُ اِبْن جَرِير عَنْ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد أَيْضًا وَعِكْرِمَة وَغَيْرهمْ، وَأَسْنَدَ اِبْن جَرِير هَاهُنَا حَدِيثًا؛ فقال: حدثنا ابن وكيع، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن مُحَمَّد، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن يَزِيد، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ «**لَوْ لَمْ يَقُل -يَعْنِي: يُوسُف- الْكَلِمَة الَّتِي قَالَ، مَا لَبِثَ فِي السِّجْن طُول مَا لَبِثَ حَيْثُ يَبْتَغِي الْفَرَج مِنْ عِنْد غَيْر الله**»[3]. وَهَذَا الْحَدِيث ضَعِيف جِدًّا؛ لأَنَّ سُفْيَان بْن وَكِيع ضَعِيف، وَإِبْرَاهِيم بْن يَزِيد هُوَ الْخَوْزِيّ أَضْعَف مِنْهُ أَيْضًا، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الْحَسَن وَقَتَادَة مُرْسَلًا عَنْ كُلّ مِنْهُمَا، وَهَذِهِ الْمُرْسَلات هَاهُنَا لا تُقْبَل لَوْ قُبِلَ الْمُرْسَل مِنْ حَيْثُ هُوَ فِي غَيْر هَذَا الْمَوْطِن، وَالله أَعْلَم. وَأَمَّا الْبِضْع: فَقَالَ مُجَاهِد وَقَتَادَة: هُوَ مَا بَيْن الثَّلاث إِلَى التِّسْع. وَقَالَ وَهْب بْن مُنَبِّه: مَكَثَ أَيُّوب فِي الْبَلاء سَبْعًا، وَيُوسُف فِي السِّجْن سَبْعًا، وَعذاب بُخْتَنَصَّر سَبْعًا. وَقَالَ الضَّحَّاك عَنْ اِبْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ قَالَ: ثِنْتَا عَشْرَة سَنَة. وَقَالَ الضَّحَّاك: أَرْبَع عَشْرَة سَنَة.

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ

---

(١) **صحيح**: تقدم.

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٣٩١٥) من حديث أنس، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٨٤٩).

(٣) **ضعيف جدًا**: أخرجه ابن جرير (١٢/ ٢٢٣) بسند ضعيف، فيه سفيان بن وكيع: ضعيف، وإبراهيم بن يزيد: أضعف منه، كما قال الحافظ ابن كثير بعد إيراده للحديث.

عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنْ مَلِك مِصْر مِمَّا قَدَّرَ الله تَعَالَى أَنَّهَا كَانَتْ سَبَبًا لِخُرُوج يُوسُف عليه السلام، مِنْ السِّجْن مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا، وَذَلِكَ أَنَّ المَلِك رَأَى هَذِهِ الرُّؤْيَا فَهَالَتْهُ، وَتَعَجَّبَ مِنْ أَمْرهَا وَمَا يَكُون تَفْسِيرهَا، فَجَمَعَ الكَهَنَة وَالحزاة وَكِبَار دَوْلَته وَأُمَرَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى، وَسَأَلَهُمْ عَنْ تَأْوِيلهَا فَلَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ، وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّ هَذَا ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أَيْ: أَخْلاط اِقْتَضَتْ رُؤْيَاك هَذِهِ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أَيْ: وَلَوْ كَانَتْ رُؤْيَا صَحِيحَة مِنْ أَخْلاط، لَمَا كَانَ لَنَا مَعْرِفَة بِتَأْوِيلِهَا وَهُوَ تَعْبِيرهَا، فَعِنْد ذَلِكَ تَذَكَّرَ ذَلِكَ الَّذِي نَجَا مِنْ ذَيْنِك الفَتَيَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا فِي السِّجْن مَعَ يُوسُف، وَكَانَ الشَّيْطَان قَدْ أَنْسَاهُ مَا وَصَّاهُ بِهِ يُوسُف مِنْ ذِكْر أَمْره لِلمَلِكِ، فَعِنْد ذَلِكَ تَذَكَّرَ بَعْد أُمَّة، أَيْ: مُدَّة، وَقَرَأَ بَعْضهمْ: (بَعْد أَمَهٍ) أَيْ: بَعْد نِسْيَان، فَقَالَ لَهُمْ أَيْ: لِلمَلِكِ وَالَّذِينَ جَمَعَهُمْ لذلك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أَيْ: بِتَأْوِيلِ هَذَا المَنَام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أَيْ: فَابْعَثُونِ إِلَى يُوسُف الصِّدِّيق إِلَى السِّجْن، وَمَعْنَى الكَلام: فَبَعَثُوهُ فَجَاءَه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ وَذَكَرَ المَنَام الَّذِي رَآهُ المَلِك، فَعِنْد ذَلِكَ ذَكَرَ لَهُ يُوسُف عليه السلام، تَعْبِيرهَا، مِنْ غَيْر تَعْنِيف لذلك الفتى فِي نِسْيَانه مَا وَصَّاهُ بِهِ، وَمِنْ غَيْر اِشْتِرَاط لِلخُرُوج قَبْل ذَلِكَ، بَل قَالَ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أَيْ: يَأْتِيكُمْ الخِصْب وَالمَطَر سَبْع سِنِينَ مُتَوَالِيَات، فَفَسَّرَ البَقَر بِالسِّنِينَ، لأَنَّهَا تُثِير الأَرْض الَّتِي تُسْتَغَل مِنْهَا الثَّمَرَات وَالزُّرُوع وَهُنَّ السُّنْبُلات الخُضْر، ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يَعْتَمِدُونَهُ فِي تِلْكَ السِّنِينَ، فَقَالَ: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أَيْ: مَهْمَا اِسْتَغْلَلْتُمْ فِي هَذِهِ السَّبْع السِّنِينَ الخِصْب، فاخزنوه فِي سُنْبُله؛ لِيَكُونَ أَبْقَى لَهُ وَأَبْعَد عَنْ إِسْرَاع الفَسَاد إِلَيْهِ، إِلا المِقْدَار الَّذِي تَأْكُلُونَهُ، وَلْيَكُنْ قَلِيلًا قَلِيلًا لا تُسْرِفُوا فِيهِ؛ لِتَنْتَفِعُوا فِي السَّبْع الشِّدَاد، وَهُنَّ السَّبْع السِّنِينَ المَحْل الَّتِي تَعْقُب هَذِهِ السَّبْع المُتَوَالِيَات، وَهُنَّ البَقَرَات العِجَاف اللاتِي يأكلن السِّمَان، لأَنَّ سِنِي الجَدْب يُؤْكَل فِيهَا مَا جَمَعُوهُ فِي سِنِي الخِصْب وَهُنَّ السُّنْبُلات اليَابِسَات. وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُنَّ لا يُنْبِتْنَ شَيْئًا، وَمَا بَذَرُوهُ فَلا يَرْجِعُونَ مِنْهُ إِلَى شَيْء، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾. ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بَعْد الجَدْب العَامّ المُتَوَالِي: بِأَنَّهُ يَعْقُبهُمْ بَعْد ذَلِكَ عَام فِيهِ يُغَاث النَّاس، أَيْ: يَأْتِيهِمْ الغَيْث وَهُوَ المَطَر، وَتَغِلّ البِلاد، وَيَعْصِر النَّاس مَا كَانُوا يَعْصِرُونَ عَلَى عَادَتهمْ مِنْ زَيْت وَنَحْوه وَسُكَّر وَنَحْوه، حَتَّى قَالَ بَعْضهمْ: يَدْخُل فِيهِ حَلب اللَّبَن أَيْضًا. قَالَ عَلِيّ بن أَبِي طَلحة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يَحْلِبُونَ.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يَقُول تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ المَلِك لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِ بِتَعْبِير رُؤْيَاهُ الَّتِي كَانَ رَآهَا بِمَا أَعْجَبَهُ وَأَيْنَقه فَعَرَفَ فَضْل يُوسُف عليه السلام، وَعِلمه وَحُسْن اِطِّلاعه عَلَى رُؤْيَاهُ وَحُسْن أَخْلاقه عَلَى مَنْ بِبَلَدِهِ مِنْ رَعَايَاهُ فَقَالَ: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ أَيْ: أَخْرِجُوهُ مِنْ السِّجْن وَأَحْضِرُوهُ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُول بِذَلِكَ اِمْتَنَعَ مِنْ الخُرُوج حَتَّى يَتَحَقَّق المَلِك وَرَعِيَّته بَرَاءَة سَاحَته، وَنَزَاهَة عِرْضه مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَة اِمْرَأَة العَزِيز، وَأَنَّ هَذَا السِّجْن لَمْ يَكُنْ عَلَى أَمْر يَقْتَضِيه بَل كَانَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، فَقَالَ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الآيَة. وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّة بِمَدْحِهِ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّنْبِيه عَلَى فَضْله وَشَرَفه

وَعُلُوّ قَدْره وَصَبْره، صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ، فَفِي المُسْنَد وَالصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ سَعِيد وَأَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**نَحْنُ أَحَقّ بِالشَّكّ مِنْ إِبْرَاهِيم إِذْ قَالَ:** ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ **الآيَة، وَيَرْحَم الله لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْن شَدِيد، وَلَوْ لَبِثْت فِي السِّجْن مَا لَبِثَ يُوسُف لأَجَبْت الدَّاعِي**»(١). وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لَوْ كُنْت أنا لأَسْرَعْت الإِجَابَة وَمَا اِبْتَغَيْت العُذْر**»(٢).

وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا اِبْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عِكْرِمَة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لَقَدْ عَجِبْت مِنْ يُوسُف وَصَبْره وَكَرَمه -وَالله يَغْفِر لَهُ- حِين سُئِلَ عَنْ البَقَرَات العِجَاف وَالسِّمَان، وَلَوْ كُنْت مَكَانه مَا أَجَبْتهمْ حَتَّى أَشْتَرِط أَنْ يُخْرِجُونِي، وَلَقَدْ عَجِبْت مِنْ يُوسُف وَصَبْره وَكَرَمه -وَالله يَغْفِر لَهُ- حِين أَتَاهُ الرَّسُول، وَلَوْ كُنْت مَكَانه لَبَادَرْتهمْ البَاب، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُون لَهُ العُذْر**»(٣). هَذَا حَدِيث مُرْسَل. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إِخْبَار عَنْ المَلِك حِين جَمَعَ النِّسْوَة اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيهِنَّ عِنْد اِمْرَأَة العَزِيز فَقَالَ مُخَاطِبًا لَهُنَّ كُلّهنَّ وَهُوَ يُرِيد اِمْرَأَة وَزِيره العَزِيز: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أَيْ: شَأْنكُنَّ وَخَبَركُنَّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يَعْنِي يَوْم الضِّيَافَة، ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أَيْ: قَالَتْ النِّسْوَة جَوَابًا لِلمَلِكِ: حَاشَ لله! أَنْ يَكُون يُوسُف مُتَّهَمًا، وَالله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوء. فَعِنْد ذَلِكَ ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد: تَقُول: الآن تَبَيَّنَ الحَقّ وَظَهَرَ وَبَرَزَ. ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أَيْ: فِي قَوْله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾. ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ تَقُول: إِنَّمَا اِعْتَرَفْت بِهَذَا عَلَى نَفْسِي لِيَعْلَم زَوْجِي أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ فِي نَفْس الأَمْر وَلا وَقَعَ المَحْذُور الأَكْبَر، وَإِنَّمَا رَاوَدْت هَذَا الشَّابّ مُرَاوَدَة فَامْتَنَعَ، فَلِهَذَا اِعْتَرَفْت لِيَعْلَم أَنِّي بَرِيئَة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ تَقُول المَرْأَة: وَلَسْت أُبَرِّئ نَفْسِي؛ فَإِنَّ النَّفْس تَتَحَدَّث وَتَتَمَنَّى، وَلِهَذَا رَاوَدْته لأَنَّهَا ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ أَيْ: إلا مَنْ عَصَمَهُ الله تَعَالَى، ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَهَذَا القَوْل هُوَ الأَشْهَر وَالأَلْيَق وَالأَنْسَب بِسِيَاقِ القِصَّة وَمَعَانِي الكَلام، وَقَدْ حَكَاهُ المَاوَرْدِيّ فِي تَفْسِيره وَانْتُدِبَ لِنَصْرِهِ الإِمَام العلامة أَبُو العَبَّاس ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، فَأَفْرَدَهُ بِتَصْنِيفٍ عَلَى حِدَة. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ مِنْ كَلام يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام، من قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ فِي زوجته، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ الآيَتَيْنِ، أَيْ إِنَّمَا رَدَدْت الرَّسُول لِيَعْلَم المَلِك بَرَاءَتِي وَلِيَعْلَم العَزِيز ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ فِي زَوْجَته ﴿بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ الآيَة، وَهَذَا القَوْل هُوَ الَّذِي لَمْ يَحْكِ اِبْن جَرِير وَلا ابْن أَبِي حَاتِم سِوَاهُ. قَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: لَمَّا جَمَعَ المَلِك النِّسْوَة فَسَأَلَهُنَّ: هَل رَاوَدْتُنَّ يُوسُف عَنْ نَفْسه؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ الآيَة، قَالَ يُوسُف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ الآيَة. قال: فَقَالَ لَهُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام: وَلا يَوْم هَمَمْت بِمَا هَمَمْت بِهِ؟ فَقَالَ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ الآيَة. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَعِكْرِمَة وَابْن أَبِي الهُذَيْل وَالضَّحَّاك وَالحَسَن وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ، وَالقَوْل الأَوَّل أَقْوَى وَأَظْهَر؛ لأَنَّ سِيَاق الكَلام كُلّه مِنْ كَلام اِمْرَأَة العَزِيز بِحَضْرَةِ المَلِك، وَلَمْ يَكُنْ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام، عِنْدهمْ، بَل بَعْد ذَلِكَ أَحْضَرَهُ المَلِك.

---

(١) **صحيح**: تقدم.
(٢) **صحيح**: أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٣١)، وأحمد (٢/ ٣٤٦، ٣٨٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٠٠).
(٣) **مرسل**: أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٣١)، وثبت موصولًا عند أحمد (٢/ ٣٢٣)، وقال الألباني: إسناده جيد. انظر «الصحيحة» (١٩٤٥).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

يَقُول تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ الْمَلِك حِين تَحَقَّق بَرَاءَة يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَزَاهَة عِرْضه مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ قَالَ: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أَيْ: أَجْعَلهُ مِنْ أخصائي وَأَهْل مَشُورَتِي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أَيْ: خَاطَبَهُ الْمَلِك وَعَرَفَهُ، وَرَأَى فَضْله وَبَرَاعَته، وَعَلِمَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُق وَخَلق وَكَمَال، قَالَ لَهُ الْمَلِك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أَيْ: إِنَّك عِنْدنَا قَدْ بَقِيت ذَا مَكَانَة وَأَمَانَة. فَقَالَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مَدَحَ نَفْسه، وَيَجُوز لِلرَّجُلِ ذَلِكَ إِذَا جُهِلَ أَمْره لِلْحَاجَةِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ ﴿حَفِيظٌ﴾ أَيْ: خَازِن أَمِين ﴿عَلِيمٌ﴾ ذُو عِلْم وَبَصَر بِمَا يَتَوَلَّاهُ.

وَقَالَ شَيْبَة بْن نَعَامَة: حَفِيظ لِمَا اِسْتَوْدَعْتنِي، عَلِيم بِسِنِي الْجَدْب. رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم. وَسَأَلَ الْعَمَل لِعِلْمِهِ بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ، وَلِمَا فِي مِنْ الْمَصَالِح لِلنَّاسِ، وَإِنَّمَا سَأَلَ أَنْ يُجْعَل عَلَى خَزَائِن الْأَرْض: وَهِيَ الْأَهْرَام الَّتِي يُجْمَع فِيهَا الْغَلَات، لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ السِّنِينَ الَّتِي أَخْبَرَهُمْ بِشَأْنِهَا، ليتصرف لَهُمْ عَلَى الْوَجْه الْأَحْوَط وَالْأَصْلَح وَالْأَرْشَد، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ رَغْبَة فِيهِ وَتَكْرِمَة لَهُ، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: أَرْض مِصْر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾. قَالَ السُّدِّيّ وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: يَتَصَرَّف فِيهَا كَيْف يَشَاء. وَقَالَ اِبْن جَرِير: يَتَّخِذ مِنْهَا مَنْزِلًا حَيْثُ شَاء بَعْد الضِّيق وَالْحَبْس وَالْإِسَار، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ: وَمَا أَضَعْنَا صَبْر يُوسُف عَلَى أَذَى إِخْوَته وَصَبْره عَلَى الْحَبْس بِسَبَبِ اِمْرَأَة الْعَزِيز، فَلِهَذَا أَعْقَبَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ السَّلَام وَالنَّصْر وَالتَّأْيِيد. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يُخْبِر تَعَالَى: أَنَّ مَا اِدَّخَرَهُ الله تَعَالَى لِنَبِيِّهِ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي الدَّار الْآخِرَة أَعْظَم وَأَكْثَر وَأَجَلّ مِمَّا خَوَّلَهُ مِنْ التَّصَرُّف وَالنُّفُوذ فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ فِي حَقّ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وَالْغَرَض: أَنَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلاهُ مَلِك مِصْر الرَّيَّان بْن الْوَلِيد الْوَزَارَة فِي بِلَاد مِصْر، مَكَان الَّذِي اِشْتَرَاهُ مِنْ مِصْر زَوْج الَّتِي رَاوَدَتْهُ، وَأَسْلَمَ الْمَلِك عَلَى يَدَيْ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَهُ مُجَاهِد. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: لَمَّا قَالَ يُوسُف لِلْمَلِكِ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ قَالَ الْمَلِك: قَدْ فَعَلت، فَوَلاهُ فِيمَا ذَكَرُوا عَمَل أطفير، وَعَزَلَ أطفير عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، يَقُول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قَالَ: فَذُكِرَ لِي -وَالله أَعْلَم-: أَنَّ أطفير هَلَكَ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي، وَأَنَّ الْمَلِك الرَّيَّان بْن الْوَلِيد زَوَّجَ يُوسُف اِمْرَأَة أطفير رَاعِيل، وَأَنَّهَا حِين دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَالَ لَهَا: أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِمَّا كُنْت تُرِيدِينَ؟ قَالَ: فَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَيُّهَا الصِّدِّيق، لا تَلُمْنِي، فَإِنِّي كُنْت اِمْرَأَة كَمَا تَرَى حَسْنَاء جَمِيلَة نَاعِمَة فِي مُلْك وَدُنْيَا، وَكَانَ صَاحِبِي لا يَأْتِي النِّسَاء، وَكُنْت كَمَا جَعَلَكَ الله فِي حُسْنك وَهَيْئَتك عَلَى مَا رَأَيْت. فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ وَجَدَهَا عَذْرَاء فَأَصَابَهَا، فَوَلَدَتْ لَهُ رَجُلَيْنِ؛ أفرائيم بْن يُوسُف، وَميشا بْن يُوسُف، وَوُلِدَ لأفرائيم نُون وَالِد يُوشَع بْن نُون، وَرَحْمَة اِمْرَأَة أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَام. وَقَالَ الْفُضَيْل بْن عِيَاض: وَقَفَتْ اِمْرَأَة الْعَزِيز عَلَى ظَهْر الطَّرِيق حَتَّى مَرَّ يُوسُف فَقَالَتْ: الْحَمْد لله الَّذِي جَعَلَ الْعَبِيد مُلُوكًا بِطَاعَتِهِ، وَالْمُلُوك عَبِيدًا بِمَعْصِيَتِهِ.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

ذَكَرَ السُّدِّيّ وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَغَيْرهمَا مِنْ الْمُفَسِّرِينَ: أَنَّ السَّبَب الَّذِي أَقْدَم إِخْوَة يُوسُف بِلاد مِصْر، أَنَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا بَاشَرَ الْوَزَارَة بِمِصْرَ، وَمَضَتْ السَّبْع سِنِينَ الْمُخْصِبَة، ثُمَّ تَلَتْهَا سنين الجدب، وَعَمّ الْقَحْط بِلاد مِصْر بِكَمَالِهَا، وَوَصَلَ إِلَى بِلاد كَنْعَان، وَهِيَ الَّتِي فِيهَا يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَوْلاده، وَحِينَئِذٍ اِحْتَاطَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِلنَّاسِ فِي غلاتهم، وَجَمَعَهَا أَحْسَن جَمْع، فَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغ عَظِيم، وَأهراء مُتَعَدِّدَة هَائِلَة، وَوَرَدَ عَلَيْهِ النَّاس مِنْ سَائِر الأَقَالِيم وَالْمُعَامَلات، يَمْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَعِيَالهمْ، فَكَانَ لا يُعْطِي الرَّجُل أَكْثَر مِنْ حِمْل بَعِير فِي السَّنَة، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا يُشْبِع نَفْسه، وَلا يَأْكُل هُوَ وَالْمَلِك وَجُنُودهمَا إِلا أَكْلَة وَاحِدَة فِي وَسَط النَّهَار، حَتَّى يَتَكَفَّى النَّاس بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مُدَّة السَّبْع سِنِينَ، وَكَانَ رَحْمَة مِنْ الله عَلَى أَهْل مِصْر. وَمَا ذَكَرَه بَعْض الْمُفَسِّرِينَ مِنْ أَنَّهُ بَاعَهُمْ فِي السَّنَة الأُولَى بِالأَمْوَالِ، وَفِي الثَّانِيَة بِالْمَتَاع، وَفِي الثَّالِثَة بِكَذَا، وَفِي الرَّابِعَة بِكَذَا، حَتَّى بَاعَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلادهمْ، بَعْدَمَا تَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ جَمِيع مَا يَمْلِكُونَ، ثُمَّ أَعْتَقَهُمْ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَمْوَالهمْ كُلّهَا -الله أَعْلَم بِصِحَّةِ ذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ الإِسْرَائِيلِيَّات الَّتِي لا تُصَدَّق وَلا تُكَذَّب.

وَالْغَرَض: أَنَّهُ كَانَ فِي جُمْلَة مَنْ وَرَدَ لِلْمِيرَةِ إِخْوَة يُوسُف عَنْ أَمْر أَبِيهِمْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ بَلَغَهُمْ أَنَّ عَزِيز مِصْر يُعْطِي النَّاس الطَّعَام بِثَمَنِهِ، فَأَخَذُوا مَعَهُمْ بِضَاعَة يَعْتَاضُونَ بِهَا طَعَامًا، وَرَكِبُوا عَشَرَة نَفَر، وَاحْتَبَسَ يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، عِنْده اِبْنه بِنْيَامِين شَقِيق يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ أَحَبّ وَلَده إِلَيْهِ بَعْد يُوسُف، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُف وَهُوَ جَالِس فِي أُبَّهَته وَرِيَاسَته وَسِيَادَته، عَرَفَهُمْ حِين نَظَرَ إِلَيْهِمْ ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أَيْ: لا يَعْرِفُونَهُ؛ لأَنَّهُمْ فَارَقُوهُ وَهُوَ صَغِير حَدَث، وَبَاعُوهُ لِلسَّيَّارَةِ وَلَمْ يَدْرُوا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهِ، وَلا كَانُوا يَسْتَشْعِرُونَ فِي أَنْفُسهمْ أَنْ يَصِير إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ، فَلِهَذَا لَمْ يَعْرِفُوهُ، وَأَمَّا هُوَ فَعَرَفَهُمْ. فَذَكَرَ السُّدِّيّ وَغَيْره: أَنَّهُ شَرَعَ يُخَاطِبهُمْ فَقَالَ لَهُمْ كَالْمُنْكِرِ عَلَيْهِمْ: مَا أَقْدَمكُمْ بِلادِي؟ فَقَالُوا: أَيُّهَا الْعَزِيز، إِنَّا قَدِمْنَا لِلْمِيرَةِ. قَالَ: فَلَعَلَّكُمْ عُيُون؟ قَالُوا: مَعَاذ الله! قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: مِنْ بِلاد كَنْعَان، وَأَبُونَا يَعْقُوب نَبِيّ الله. قَالَ: وَلَهُ أَوْلاد غَيْركُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، كُنَّا اِثْنَيْ عَشَر، فَذَهَبَ أَصْغَرنَا هَلَكَ فِي الْبَرِّيَّة، وَكَانَ أَحَبّنَا إِلَى أَبِيهِ، وَبَقِيَ شَقِيقه فَاحْتَبَسَهُ أَبُوهُ لِيَتَسَلَّى بِهِ عَنْهُ. فَأَمَرَ بِإِنْزَالِهِمْ وَإِكْرَامهمْ. ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أَيْ: وفَّاهم كَيْلهمْ، وَحَمَلَ لَهُمْ أَحْمَالهمْ، قَالَ: اِئْتُونِي بِأَخِيكُمْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ؛ لِأَعْلَم صِدْقكُمْ فِيمَا ذَكَرْتُمْ، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يُرَغِّبهُمْ فِي الرُّجُوع إِلَيْهِ، ثُمَّ رَهَّبَهُمْ فَقَالَ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ الآيَة، أَيْ: إِنْ لَمْ تَقْدَمُوا بِهِ مَعَكُمْ فِي الْمَرَّة الثَّانِيَة فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي مِيرَة ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أَيْ: سَنَحْرِصُ عَلَى مَجِيئِهِ إِلَيْك بِكُلِّ مُمْكِن، وَلا نُبْقِي مَجْهُودًا لِتَعْلَم صِدْقنَا فِيمَا قُلْنَاهُ. وَذَكَرَ السُّدِّيّ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْهُمْ رَهَائِن حَتَّى يَقْدَمُوا بِهِ مَعَهُمْ، وَفِي هَذَا نَظَر؛ لأَنَّهُ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَرَغَّبَهُمْ كَثِيرًا، وَهَذَا لحرصه عَلَى رُجُوعهمْ. ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ أَيْ: غِلْمَانه ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ أَيْ: الَّتِي قَدِمُوا بِهَا لِيَمْتَارُوا عِوَضًا عَنْهَا ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أَيْ: فِي أَمْتِعَتهمْ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بِهَا. قِيلَ: خَشِيَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنْ لا يَكُون عِنْدهمْ بِضَاعَة أُخْرَى يَرْجِعُونَ لِلْمِيرَةِ بِهَا، وَقِيلَ: تَذَمَّمَ أَنْ يَأْخُذ مِنْ أَبِيهِ وَإِخْوَته عِوَضًا عَنْ الطَّعَام. وَقِيلَ: أَرَادَ أَنْ يَرُدّهُمْ إِذَا وَجَدُوهَا فِي مَتَاعهمْ تَحَرُّجًا وَتَوَرُّعًا؛ لأَنَّهُ يَعْلَم ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَالله أَعْلَم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

يخبر تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لما رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يَعْنُونَ بَعْد هَذِهِ الْمَرَّة إِنْ لَمْ تُرْسِل مَعَنَا أَخَانَا

بِنْيَامِين، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ قَرَأَ بَعْضهمْ بِالْيَاءِ أَيْ: يَكْتَل هُوَ، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أَيْ: لا تَخَفْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ إِلَيْك، وَهَذَا كَمَا قَالُوا لَهُ فِي يُوسُف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: هَل أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِهِ إِلا كَمَا صَنَعْتُمْ بِأَخِيهِ مِنْ قَبْل، تُغَيِّبُونَهُ عَنِّي وَتَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنه؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ وَقَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿حِفْظًا﴾، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَيْ: هُوَ أَرْحَم الرَّاحِمِينَ بِي، وَسَيَرْحَمُ كِبَرِي وَضَعْفِي وَوَجْدِي بِوَلَدِي، وَأَرْجُو مِنْ اللهِ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيَّ، وَيَجْمَع شَمْلِي بِهِ، إِنَّهُ أَرْحَم الرَّاحِمِينَ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَلَمَّا فَتَحَ إِخْوَة يُوسُف مَتَاعهمْ وَجَدُوا بِضَاعَتهمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ، وَهِيَ الَّتِي كَانَ أَمَرَ يُوسُف فِتْيَانه بِوَضْعِهَا فِي رِحَالهمْ، فَلَمَّا وَجَدُوهَا فِي مَتَاعهمْ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أَيْ: مَاذَا نُرِيد، ﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ كَمَا قَالَ قَتَادَة: مَا نَبْغِي وَرَاء هَذَا: إِنَّ بِضَاعَتنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَقَدْ أَوْفَى لَنَا الكَيْل. ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أَيْ: إِذَا أَرْسَلت أَخَانَا مَعَنَا نَأْتِي بِالْمِيرَةِ إِلَى أَهْلنَا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُف عليه السلام كَانَ يُعْطِي كُلّ رَجُل حِمْل بَعِير، وَقَالَ مُجَاهِد: حِمْل حِمَار، وَقَدْ يُسَمَّى فِي بَعْض اللُّغَات بَعِيرًا كَذَا قَالَ. ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ هَذَا مِنْ تَمَام الكَلام وَتَحْسِينه، أَيْ: أَنَّ هَذَا يَسِيرٌ فِي مُقَابَلَة أَخْذ أَخِيهِمْ، مَا يَعْدِل هَذَا هَذَا. ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أَيْ: تَحْلِفُونَ بِالْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيق ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إِلا أَنْ تُغْلَبُوا كُلّكُمْ وَلا تَقْدِرُونَ عَلَى تَخْلِيصه، ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أَكَّدَهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾. قَالَ اِبْن إِسْحَاق: وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لأَنَّهُ لَمْ يَجِد بُدًّا من بعثهم لِأَجْلِ المِيرَة الَّتِي لا غِنَى لَهُمْ عَنْهَا فَبَعَثَهُ مَعَهُمْ.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوب عليه السلام، إِنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ لَمَّا جَهَّزَهُمْ مَعَ أَخِيهِمْ بِنْيَامِين إِلَى مِصْر أَنْ لا يَدْخُلُوا كُلّهمْ مِنْ بَاب وَاحِد، وَلِيَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَاب مُتَفَرِّقَة، فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُحَمَّد بْن كَعْب وَمُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد: إِنَّهُ خَشِيَ عَلَيْهِمْ العَيْن، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي جَمَال وَهَيْئَة حَسَنَة وَمَنْظَر وَبَهَاء، فَخَشِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبهُمْ النَّاس بِعُيُونِهِمْ، فَإِنَّ العَيْن حَقّ تَسْتَنْزِل الفَارِس عَنْ فَرَسه. وَرَوَى اِبْن أَبِي حَاتِم: عَنْ إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ فِي الآيَة فِي قَوْله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ قَالَ: عَلِمَ أَنَّهُ سَيَلْقَى إِخْوَته فِي بَعْض تِلْكَ الأَبْوَاب. وَقَوْله: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أَيْ: أَنَّ هَذَا الاِحْتِرَاز لا يَرُدّ قَدَر الله وَقَضَاءَهُ، فَإِنَّ الله إِذَا أَرَادَ شَيْئًا لا يُخَالَف وَلا يُمَانَع ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قَالُوا: هِيَ دَفْع إِصَابَة العَيْن لَهُمْ ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾. قَالَ قَتَادَة وَالثَّوْرِيّ: لَذُو عمل بِعِلْمِهِ. وَقَالَ اِبْن جَرِير: لَذُو عِلْم لِتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ إِخْوَة يُوسُف لَمَّا قَدِمُوا عَلَى يُوسُف، وَمَعَهُمْ أَخُوهُ شَقِيقه بِنْيَامِين، وَأَدْخَلَهُمْ دَار كَرَامَته، وَمَنْزِل ضِيَافَته، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ الصِّلَة وَالأَلْطَاف وَالإِحْسَان، وَاخْتَلَى بِأَخِيهِ فَأَطْلَعَهُ عَلَى شَأْنه، وَمَا جَرَى لَهُ

وَعَرَّفَهُ أَنَّهُ أَخُوهُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أَيْ: لا تَأْسف عَلَى مَا صَنَعُوا بِي، وَأَمَرَهُ بِكِتْمَانِ ذَلِكَ عَنْهُم، وَأَنْ لا يُطْلِعهُمْ عَلَى مَا أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ أَخُوهُ، وَتَوَاطَأَ مَعَهُ أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَى أَنْ يُبْقِيه عِنْده مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا مُعَظَّمًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾

لَمَّا جَهَّزَهُمْ وَحَمَّلَ لَهُمْ أَبْعِرَتهمْ طَعَامًا، أَمَرَ بَعْض فِتْيَانه أَنْ يَضَع السِّقَايَة: وَهِيَ إِنَاء مِنْ فِضَّة فِي قَوْل الأَكْثَرِينَ، وَقِيلَ: مِنْ ذَهَب، -قَالَه اِبْن زَيْد- كَانَ يَشْرَب فِيهِ، وَيَكِيل لِلنَّاسِ بِهِ مِنْ عِزَّة الطَّعَام إِذْ ذَاكَ؛ قَالَهُ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد. وَقَالَ شُعْبَة، عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ قَالَ: كَانَ مِنْ فِضَّة يَشْرَبُونَ فِيهِ وَكَانَ مِثْل المَكُّوك، وَكَانَ لِلعَبَّاسِ مِثْله فِي الجَاهِلِيَّة. فَوَضَعَهَا فِي مَتَاع بِنْيَامِين مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُر أَحَد، ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ بَيْنهمْ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ فَالتَفَتُوا إِلَى المُنَادِي، وَقَالُوا: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أَيْ: صَاعه الَّذِي يَكِيل بِهِ، ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وَهَذَا مِنْ بَاب الجَعَالَة، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ وَهَذَا مِنْ بَاب الضَّمَان وَالكَفَالَة.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

لَمَّا اِتَّهَمَهُمْ أُولَئِكَ الفِتْيَان بِالسَّرِقَة، قَالَ لَهُمْ إِخْوَة يُوسُف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ أَيْ: لَقَدْ تَحَقَّقْتُمْ وَعَلِمْتُمْ مُنْذُ عَرَفْتُمُونَا؛ لأَنَّهُمْ شَاهَدُوا مِنْهُمْ سِيرَة حَسَنَة: أَنَّا ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾. أَيْ: لَيْسَتْ سَجَايَانَا تَقْتَضِي هَذِهِ الصِّفَة، فَقَالَتْ لَهُمْ الفِتْيَان: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أَيْ: السَّارِق إِنْ كَانَ فِيكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ أَيْ: أَيّ شَيْء يَكُون عُقُوبَته إِنْ وَجَدْنَا فِيكُمْ مَنْ أَخَذَهُ؟ ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وَهَكَذَا كَانَتْ شَرِيعَة إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ السَّارِق يُدْفَع إِلَى المَسْرُوق مِنْهُ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْل وِعَاء أَخِيهِ، أَيْ: فَتَّشَهَا قَبْله تَوْرِيَة، ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فَأَخَذَهُ مِنْهُمْ بِحُكْمِ اِعْتِرَافهمْ وَالتِزَامهمْ، وَإِلزَامًا لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وَهَذَا مِنْ الكَيْد المَحْبُوب المُرَاد، الَّذِي يُحِبّهُ الله وَيَرْضَاهُ، لِمَا فِيهِ مِنْ الحِكْمَة وَالمَصْلَحَة المَطْلُوبَة. وَقَوْله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أَيْ: لَمْ يَكُنْ لَهُ أَخْذه فِي حُكْم مَلِك مِصْر، قَالَهُ الضَّحَّاك وَغَيْره، وَإِنَّمَا قَيَّضَ الله لَهُ أَنْ اِلتَزَمَ لَهُ إِخْوَته بِمَا اِلتَزَمُوهُ، وَهُوَ كَانَ يَعْلَم ذَلِكَ مِنْ شَرِيعَتهمْ، وَلِهَذَا مَدَحَهُ الله تَعَالَى فَقَالَ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ الآيَة.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: لَيْسَ عَالِم إِلا فَوْقه عَالِم حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى الله ﷻ. وَكَذَا رَوَى عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَبْد الأَعْلَى الثَّعْلَبِيّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَالَ: كُنَّا عِنْد اِبْن عَبَّاس فَتَحَدَّثَ بِحَدِيثٍ عَجِيب، فَتَعَجَّبَ رَجُل فَقَالَ: الحَمْد لله! فَوْق كُلّ ذِي عِلم عَلِيم. فَقَالَ اِبْن عَبَّاس: بِئْسَ مَا قُلت! الله العَلِيم وَهو فَوْق كُلّ عَالِم. وَكَذَا رَوَى سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قَالَ: يَكُون هَذَا أَعْلَم مِنْ هَذَا، وَهَذَا أَعْلَم مِنْ هَذَا، وَالله فَوْق كُلّ عَالِم. وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَة. وَقَالَ قَتَادَة: وَفَوْق كُلّ ذِي عِلم عَلِيم حَتَّى يَنْتَهِي العِلم إِلَى الله، مِنْهُ بُدِئَ وَتَعَلَّمَتْ العُلَمَاء وَإِلَيْهِ يَعُود، وَفِي قِرَاءَة عَبْد الله: (وَفَوْق كُلّ عَالِمٍ عَلِيم).

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

وَقَالَ إِخْوَة يُوسُف لَمَّا رَأَوْا الصُّوَاع قَدْ أُخرِج مِنْ مَتَاع بِنْيَامِين: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يَتَنَصَّلُونَ إِلَى العَزِيز مِنْ التَّشَبُّه بِهِ، وَيَذْكُرُون أَنَّ هَذَا فَعَلَ كَمَا فَعَلَ أَخ لَهُ مِنْ قَبْل، يَعْنُونَ بِهِ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ قَتَادَة: كَانَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدْ سَرَق صَنَمًا لِجَدِّهِ أَبِي أُمّه فَكَسَرَهُ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد قَالَ: كَانَ أَوَّل مَا دَخَلَ عَلَى يُوسُف مِنْ البَلَاء -فِيمَا بَلَغَنِي-: أَنَّ عَمَّته اِبْنَة إِسْحَاق، وَكَانَتْ أَكْبَر وَلَد إِسْحَاق، وَكَانَتْ إليها مِنْطَقَة إِسْحَاق، وَكَانُوا يَتَوَارَثُونَهَا بِالكِبَرِ، وَكَانَ مَنْ اخْتَبَأَهَا مِمَّنْ وَلِيَهَا كَانَ لَهُ سَلَمًا لا يُنَازَع فِيهِ يَصْنَع فِيهِ مَا يَشَاء، وَكَانَ يَعْقُوب حِين وُلِدَ لَهُ يُوسُف قَدْ حَضَنَتْهُ عَمَّته، فَكَانَ منهَا وإليها، فَلَمْ يحب أحد شيئاً من الأشياء حُبّهَا إِيَّاهُ، حَتَّى إِذَا تَرَعْرَعَ وَبَلَغَ سَنَوَات، وقعت نَفْس يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَتَاهَا فَقَالَ: يَا أُخَيَّة، سَلِّمِي إِلَيَّ يُوسُف؛ فَوَالله، مَا أَقْدِر عَلَى أَنْ يَغِيب عَنِّي سَاعَة. قَالَتْ: فَوَالله مَا أَنَا بِتَارِكَتِهِ. ثُمَّ قَالَتْ: فَدَعْهُ عِنْدِي أَيَّامًا أَنْظُر إِلَيْهِ وَأَسْكُن عَنْهُ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُسَلِّينِي عَنْهُ. أَوْ كَمَا قَالَتْ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدهَا يَعْقُوب، عَمَدَتْ إِلَى مِنْطَقَة إِسْحَاق فَحَزَمَتْهَا عَلَى يُوسُف مِنْ تَحْت ثِيَابه، ثُمَّ قَالَتْ: فُقِدَتْ مِنْطَقَة إِسْحَاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَانْظُرُوا مَنْ أَخَذَهَا وَمَنْ أَصَابَهَا؟ فَالتَمَسَتْ، ثُمَّ قَالَتْ: اِكْشِفُوا أَهْل البَيْت، فَكَشَفُوهُمْ فَوَجَدُوهَا مَعَ يُوسُف، فَقَالَتْ: وَالله إِنَّهُ لِي لَسَلَم أَصْنَع فِيهِ مَا شِئْت، فَأَتَاهَا يَعْقُوب فَأَخْبَرَتْهُ الخَبَر، فَقَالَ لَهَا: أَنْتِ وَذَاكَ إِنْ كَانَ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ سَلَم لَك، مَا أَسْتَطِيع غَيْر ذَلِكَ، فَأَمْسَكَتْهُ فَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ يَعْقُوب حَتَّى مَاتَتْ. قَالَ: فَهُوَ الَّذِي يَقُول إِخْوَة يُوسُف حِين صَنَعَ بِأَخِيهِ مَا صَنَعَ حِين أَخَذَهُ ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾. وَقَوْله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ يَعْنِي الكَلِمَة الَّتِي بَعْدهَا، وَهِيَ قَوْله: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أَيْ: تَذْكُرُونَ، قَالَ هَذَا فِي نَفْسه وَلَمْ يُبْدِهِ لَهُمْ، وَهَذَا مِنْ بَاب الإِضْمَار قَبْل الذِّكْر، وَهُوَ كَثِير كَقَوْلِ الشَّاعِر:

جَزَى بَنُوهُ أَبَا الغِيلان عَنْ كِبَر ۞ وَحُسْن فِعْل كَمَا يُجْزَى سِنِمَّار

وَلَهُ شَوَاهِد كَثِيرَة فِي القُرْآن وَالحَدِيث وَاللُّغَة؛ فِي مَنْثُورهَا وَأَخْبَارهَا وَأَشْعَارهَا، قَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾ قَالَ: أَسَرَّ فِي نَفْسه ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾

لَمَّا تَعَيَّنَ أَخذ بِنْيَامِين، وَتَقَرَّرَ تَرْكه عِنْد يُوسُف بِمُقْتَضَى اِعْتِرَافهمْ شَرَعُوا يَتَرَقَّقُونَ لَهُ وَيَعْطِفُونَهُ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ يَعْنُونَ: وَهُوَ يُحِبّهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَيَتَسَلَّى بِهِ عَنْ وَلَده الَّذِي فَقَدَهُ، ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أَيْ: بَدَله يَكُون عِنْدك عِوَضًا عَنْهُ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أَيْ: من العَادِلِينَ المُنْصِفِينَ القَابِلِينَ لِلخَيْرِ؛ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، أَيْ: كَمَا قُلْتُمْ وَاعْتَرَفْتُمْ ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أَيْ: إِنْ أَخَذْنَا بَرِيئًا بِسَقِيم.

﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٨٠) ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ (٨١) وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

يُخبِر تعَالَى عَنْ إِخوَة يُوسُف: أَنَّهُمْ لَمَّا يَئِسُوا مِنْ تَخْلِيص أَخِيهِمْ بِنْيَامِين، الَّذِي قَدْ اِلتَزَمُوا لِأَبِيهِمْ بِرَدِّهِ إِلَيْهِ وَعَاهَدُوهُ عَلَى ذَلِكَ، فَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿خَلَصُوا﴾ أَيْ: اِنفَرَدُوا عَنْ النَّاس ﴿نَجِيًّا﴾ يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهمْ. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وَهُوَ رُوبِيل، وَقِيلَ: يَهُوذَا، وَهُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِإِلْقَائِهِ فِي البِئْر عِنْدَمَا هَمُّوا بِقَتْلِهِ، قَالَ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ لَتَرُدُّنَّهُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ كَيْف تَعَذَّر عَلَيْكُمْ ذَلِكَ مَعَ مَا تَقَدَّمَ لَكُمْ مِنْ إِضَاعَة يُوسُف عَنْهُ، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أَيْ: لَنْ أُفَارِق هَذِهِ البَلْدَة ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فِي الرُّجُوع إِلَيْهِ رَاضِيًا عَنِّي، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ قِيلَ: بِالسَّيْفِ، وَقِيلَ: بِأَنْ يُمَكِّنَنِي مِنْ أَخذ أَخِي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا أَبَاهُمْ بِصُورَةِ مَا وَقَعَ، حَتَّى يَكُون عُذْرًا لَهُمْ عِنْده، وَيَتَنَصَّلُوا إِلَيْهِ وَيَبْرَءُوا مِمَّا وَقَعَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قال قتادة وعكرمة: مَا نعلم أَنَّ اِبْنك يَسْرِق. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: مَا عَلِمْنَا فِي الغَيْب أَنَّهُ يسرق لَهُ شَيْئًا، إِنَّمَا سَأَلنَا: مَا جَزَاء السَّارِق؟ ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ قِيلَ: المُرَاد مِصْر، قَالَهُ قَتَادَة، وَقِيلَ: غَيْرهَا، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أَيْ: الَّتِي رَافَقْنَاهَا عَنْ صِدْقنَا وَأَمَانَتنَا وَحِفْظنَا وَحِرَاسَتنَا، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فِيمَا أَخْبَرْنَاك بِهِ مِنْ أَنَّهُ سَرَق وَأَخَذُوهُ بِسَرِقَتِهِ.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ لَهُمْ حِين جَاءُوا عَلَى قَمِيص يُوسُف بِدَم كَذِب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: لَمَّا جَاءُوا يَعْقُوب وَأَخْبَرُوهُ بِمَا جرى اِتَّهَمَهُمْ، وَظَنَّ أَنَّهَا كَفَعْلَتِهِمْ بِيُوسُف، قَالَ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وَقَالَ بَعْض النَّاس: لَمَّا كَانَ صَنِيعهمْ هَذَا مُرَتَّبًا عَلَى فِعْلهمْ الأَوَّل، سُحِبَ حُكْم الأَوَّل عَلَيْهِ، وَصَحَّ قَوْله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ثُمَّ تَرَجَّى مِنْ الله أَنْ يَرُدّ عَلَيْهِ أَوْلاده الثَّلاثَة: يُوسُف، وَأَخَاهُ بِنْيَامِين، وَرُوبِيل الَّذِي أَقَامَ بِدِيَارِ مِصْر يَنْتَظِر أَمْر الله فِيهِ، إِمَّا أَنْ يَرْضَى عَنْهُ أَبُوهُ فَيَأْمُرهُ بِالرُّجُوع إِلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذ أَخَاهُ خُفْيَة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أَيْ: العَلِيم بِحَالِي ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَفْعَاله وَقَضَائِهِ وَقَدَره. ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أَيْ: أَعْرَض عَنْ بَنِيهِ، وَقَالَ مُتَذَكِّرًا حُزْن يُوسُف القَدِيم الأَوَّل: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ جَدَّدَ لَهُ حُزْن الِابْنَيْنِ الحُزْن الدَّفِين. قَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَنَا الثَّوْرِيّ، عَنْ سُفْيَان العُصْفُرِيّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يُعْطَ أَحَد غَيْر هَذِهِ الأُمَّة الِاسْتِرْجَاع، أَلا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْل يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَيْ: سَاكِت لا يَشْكُو أَمْره إِلَى مَخْلُوق. قَالَهُ قَتَادَة وَغَيْره. وَقَالَ الضَّحَّاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كَمِيد حَزِين.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، ثنا أبو سلمة، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْنُ سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن يَزِيد، عَنْ الحَسَن، عَنْ الأَحْنَف بْن قَيْس، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيل يَسْأَلُونَك بِإِبْرَاهِيم وَإِسْحَاق وَيَعْقُوب فَاجْعَلْنِي لَهُمْ رَابِعًا، فَأَوْحَى الله تَعَالَى إِلَيْهِ: أَنْ يَا دَاوُدُ، إِنَّ إِبْرَاهِيم أُلْقِيَ فِي النَّار بِسَبَبِي فَصَبَرَ، وَتِلْكَ بَلِيَّة لَمْ تَنَلْك، وَإِنَّ إِسْحَاق بَذَلَ مُهْجَة دَمه بِسَبَبِي فَصَبَرَ، وَتِلْكَ بَلِيَّة لَمْ تَنَلْك، وَإِنَّ يَعْقُوب أَخَذت مِنْهُ حبيبه فَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ الحُزْن فَصَبَرَ، وَتِلْكَ بَلِيَّة لَمْ تَنَلْك**»[1]، وَهَذَا مُرْسَل وَفِيهِ نَكَارَة؛ فَإِنَّ الصَّحِيح أَنَّ إِسْمَاعِيل هُوَ الذَّبِيح، وَلَكِنَّ عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان لَهُ مَنَاكِير وَغَرَائِب كَثِيرَة، وَالله أَعْلَم.

---

(١) منكر: قال الحافظ ابن كثير بعد إيراد الحديث: علي بن زيد بن جدعان: له مناكير وغرائب كثيرة.

وَأَقْرَب مَا فِي هَذَا أَنَّ الأَحْنَف بْن قَيْس رحمه الله، حَكَاهُ عَنْ بَعْض بَنِي إِسْرَائِيل كَكَعْبٍ وَوَهْب وَنَحْوهمَا وَاللهُ أَعْلَم، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيل يَنْقُلُونَ أَنَّ يَعْقُوب كَتَبَ إِلَى يُوسُف لَمَّا احْتَبَسَ أَخَاهُ بِسَبَبِ السَّرِقَة، يَتَلَطَّف لَهُ فِي رَدّ ابْنه، وَيَذْكُر لَهُ أَنَّهُمْ أَهْل بَيْت مُصَابُونَ بِالْبَلاء، فَإِبْرَاهِيم ابْتُلِيَ بِالنَّارِ، وَإِسْحَاق بِالذَّبْحِ، وَيَعْقُوب بِفِرَاقِ يُوسُف، فِي حَدِيث طَوِيل لا يَصِحّ، وَاللهُ أَعْلَم. فَعِنْدَ ذَلِكَ رَقَّ لَهُ بَنُوهُ، وَقَالُوا لَهُ عَلَى سَبِيل الرِّفْق بِهِ وَالشَّفَقَة عَلَيْهِ: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أَيْ: لا تُفَارِق تَذَكُّر يُوسُف، ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أَيْ: ضعيف الجسم ضَعِيف الْقُوَّة، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يَقُولُونَ: إِنْ اسْتَمَرَّ بِك هَذَا الحَال خَشِينَا عَلَيْك الهلاك وَالتَّلَف. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أَيْ: أَجَابَهُمْ عَمَّا قَالُوا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي﴾ أَيْ: هَمِّي وَمَا أَنَا فِيهِ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وَحْده ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: أَرْجُو مِنْهُ كُلّ خَيْر. وَعَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَعْلَمُ أَنَّ رُؤْيَا يُوسُف صَادِقَة وَأَنِّي سَوْفَ أَسْجُد لَهُ. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الحَسَن ابْن عَرَفَة، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عَبْد المَلِك بْن أَبِي غنية، عَنْ حَفْص بْن عُمَر بْن أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ أَنَس بْن مَالِك رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«كَانَ لِيَعْقُوب النَّبِيّ عليه السلام، أخ مُؤَاخٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ ذَات يَوْم: مَا الَّذِي أَذْهَبَ بَصَرك وَقَوَّسَ ظَهْرك؟ قَالَ: أَمَّا الَّذِي أَذْهَب بَصَرِي فَالبُكَاء عَلَى يُوسُف، وَأَمَّا الَّذِي قَوَّسَ ظَهْرِي فَالحُزْن عَلَى بِنْيَامِين. فَأَتَاهُ جِبْرِيل عليه السلام فَقَالَ: يَا يَعْقُوب إِنَّ الله يُقْرِئك السَّلام، وَيَقُول لَك: أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَشْكُونِي إِلَى غَيْرِي؟ فَقَالَ يَعْقُوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فَقَالَ جِبْرِيل عليه السلام: الله أَعْلَمُ بِمَا تَشْكُو»**[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب فِيهِ نَكَارَة.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَعْقُوب عليه السلام: إِنَّهُ نَدَبَ بَنِيهِ عَلَى الذَّهَاب فِي الأَرْض يَسْتَعْلِمُونَ أَخْبَار يُوسُف وَأَخِيهِ بِنْيَامِين. وَالتَّحَسُّس يَكُون فِي الخَيْر، وَالتَّجَسُّس يُسْتعمل فِي الشَّرّ. وَنَهَّضَهُمْ وَبَشَّرَهُمْ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ لا يَيْأَسُوا مِنْ رَوْح الله، أَيْ: لا يَقْطَعُوا رَجَاءَهُمْ وَأَمَلهمْ مِنْ الله فِيمَا يَرُومُونَهُ وَيَقْصِدُون له، فَإِنَّهُ لا يَقْطَع الرَّجَاء ويقطع الإياس مِنْ رَوْح الله إلا القَوْم الكَافِرُونَ. وَقَوْله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تَقْدِير الكَلام: فَذَهَبُوا فَدَخَلُوا مِصْر وَدَخَلُوا عَلَى يُوسُف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يَعْنُونَ مِنْ الجَدْب وَالقَحْط وَقِلَّة الطَّعَام ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ أَيْ: وَمَعَنَا ثَمَن الطَّعَام الَّذِي نَمْتَارُهُ وَهُوَ ثَمَن قَلِيل، قَالَهُ مُجَاهِد وَالحَسَن وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ ابْن عَبَّاس: الرَّدِيء الذي لا يُنْفَق مِثْل خَلِق الغِرَارَة وَالحَبْل وَالشَّيْء. وَفِي رِوَايَة عَنْهُ: الدَّرَاهِم الرَّدِيئَة الَّتِي لا تَجُوز إلا بِنُقْصَانٍ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَة وَالسُّدِّيّ. وَقَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر: هِيَ الدَّرَاهِم الفُسُول. وَقَالَ أبو صَالِح: هُوَ الصَّنَوْبَر وَحَبَّة الخَضْرَاء. وَقَالَ الضَّحَّاك: كاسِدَة لا تُنْفَق. وَقَالَ أَبُو صَالِح: جَاءُوا بِحَبِّ البُطْم الأَخْضَر وَالصَّنَوْبَر. وَأَصْل الإِزْجَاء: الدَّفْع لِضَعْفِ الشَّيْء، كَمَا قَالَ حَاتِم الطائي:

لِيَبْكِ عَلَى مِلْحَان ضَيْف مُدَفَّع ❁ وَأَرْمَلَة تُزْجِي مَعَ اللَّيْل أَرْمَلا

وَقَالَ أَعْشَى بَنِي ثَعْلَبَة:

الوَاهِب المِائَة الهِجَان وَعَبْدها ❁ عُوذًا تُزَجِّي خَلفهَا أَطْفَالهَا

وَقَوْله إِخْبَارًا عَنْهُمْ ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أَيْ: أَعْطِنَا بِهَذَا الثَّمَن القَلِيل مَا كُنْت تُعْطِينَا قَبْل ذَلِكَ، وَقَرَأَ ابْن مَسْعُود:

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٨)، وقال الحافظ ابن كثير: وهذا حديث غريب فيه نكارة.

فَأَوْقِرْ رِكَابنَا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا. وَقَالَ ابْن جُرَيْج: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بِرَدِّ أَخِينَا إِلَيْنَا. وَقَالَ سَعِيد بن جبير وَالسُّدِّيّ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ يَقُولُونَ: تَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِقَبْضِ هَذِهِ الْبِضَاعَة الْمُزْجَاة وَتَجَوَّزْ فِيهَا. وَسُئِلَ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة: هَل حُرِّمَتْ الصَّدَقَة عَلَى أَحَد مِنْ الأَنْبِيَاء قَبْل النَّبِيّ ﷺ؟ فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَع قَوْله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾؟ رَوَاهُ ابْن جَرِير: عَنْ الحَارِث، عَنْ القَاسِم عَنْهُ. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا الحَارِث، حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا مَرْوَان بْن مُعَاوِيَة، عَنْ عُثْمَان بْن الأَسْوَد قال: سَمِعْت مُجَاهِدًا وَسُئِلَ هَل يُكْرَه أَنْ يَقُول الرَّجُل فِي دُعَائِهِ: اللهمَّ تَصَدَّقْ عَلَيَّ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّمَا الصَّدَقَة لِمَنْ يَبْتَغِي الثَّوَاب.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ لَهُ إِخْوَته مَا أَصَابَهُمْ مِنْ الجَهْد وَالضِّيق، وَقِلَّة الطَّعَام وَعُمُوم الجَدْب، وَتَذَكَّرَ أَبَاهُ وَمَا هُوَ فِيهِ مِنْ الحُزْن لِفَقْدِ وَلَدَيْهِ، مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ المُلْك وَالتَّصَرُّف وَالسَّعَة، فَعِنْد ذَلِكَ أَخَذَتْهُ رِقَّة وَرَأْفَة، وَرَحْمَة وَشَفَقَة عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ، وَبَدَرَهُ البُكَاء فَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ، فَيُقَال: إِنَّهُ رَفَعَ التَّاج عَنْ جَبْهَته وَكَانَ فِيهَا شَامَة، وَقَالَ: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ يَعْنِي: كَيْف فَرَّقُوا بَيْنه وَبَيْن أَخِيهِ ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا حَمَلَكُمْ عَلَى هَذَا الجَهْل بِمِقْدَارِ هَذَا الَّذِي ارْتَكَبْتُمُوهُ، كَمَا قَالَ بَعْض السَّلَف: كُلّ مَنْ عَصَى الله فَهُوَ جَاهِل، وَقَرَأَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ الآيَة.

وَالظَّاهِر وَالله أَعْلَم: أَنَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِنَّمَا تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ بِإِذْنِ الله تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْفَى مِنْهُمْ نَفْسه فِي المَرَّتَيْنِ الأُولَيَيْنِ بِأَمْرِ الله تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ وَالله أَعْلَم، وَلَكِنْ لَمَّا ضَاقَ الحَال وَاشْتَدَّ الأَمْر، فَرَّجَ الله تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ الضِّيق، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، فَعِنْد ذَلِكَ قَالُوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.
وَقَرَأَ أُبَيّ ابْن كَعْب: ﴿أَوَ أَنْتَ يُوسُفُ﴾، وَقَرَأَ ابْن مُحَيْصِن: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ وَالقِرَاءَة المَشْهُورَة هِيَ الأُولَى، لأَنَّ الاسْتِفْهَام يَدُلّ عَلَى الاسْتِعْظَام، أَيْ: أَنَّهُمْ تَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَنَتَيْنِ وَأَكْثَر وَهُمْ لا يَعْرِفُونَهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَعْرِفهُمْ وَيَكْتُم نَفْسه، فَلِهَذَا قَالُوا عَلَى سَبِيل الاسْتِفْهَام: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾.

وَقَوْله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أَيْ: بِجَمْعِهِ بَيْننَا بَعْد التَّفْرِقَة وَبُعْد المُدَّة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الآيَة، يَقُولُونَ مُعْتَرِفِينَ لَهُ بِالفَضْل وَالأَثَرَة عَلَيْهِمْ فِي الخُلُق وَالخَلْق، وَالسَّعَة وَالمُلْك وَالتَّصَرُّف، وَالنُّبُوَّة أَيْضًا عَلَى قَوْل مَنْ لَمْ يَجْعَلهُمْ أَنْبِيَاء، وَأَقَرُّوا له بِأَنَّهُمْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَأَخْطَئُوا فِي حَقّه. ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ يَقُول: أَيْ لا تَأْنِيب عَلَيْكُمْ وَلا عَتْب عَلَيْكُمْ اليَوْم، وَلا أُعِيد عَلَيْكُمْ ذَنْبكُمْ فِي حَقِّي بَعْد اليَوْم. ثُمَّ زَادَهُمْ الدُّعَاء لَهُمْ بِالمَغْفِرَةِ فَقَالَ: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. قَالَ السُّدِّيّ: اعْتَذَرُوا إِلَى يُوسُف، فَقَالَ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ يَقُول: لا أَذْكُر لَكُمْ ذَنْبكُمْ. وَقَالَ ابْن إِسْحَاق وَالثَّوْرِيّ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أَيْ: لا تَأْنِيب عَلَيْكُمْ اليَوْم عِنْدِي فِيمَا صَنَعْتُمْ ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أَيْ: يستر الله عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْتُمْ، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾

يَقُول: اذْهَبُوا بِهَذَا القَمِيص، ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وَكَانَ قَدْ عَمِيَ مِنْ كَثْرَة البُكَاء،

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بجميع بني يعقوب. ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: خرجت من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعني يعقوب عليه السلام، لمن بقي عنده من بنيه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفند والكبر. قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: سمعت ابن عباس يقول: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ قال: لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وكذا رواه سفيان الثوري وشعبة وغيرهما عن أبي سنان به، وقال الحسن وابن جريج: كان بينهما ثمانون فرسخًا، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة. وقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد ابن جبير: تسفهون. وقال مجاهد أيضًا والحسن: تهرمون. وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: لفي خطئك القديم. وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ، وكذا قال السدي وغيره.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

قال ابن عباس والضحاك: ﴿الْبَشِيرُ﴾: البريد. وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب. قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأراد أن يغسل ذاك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرًا. وقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم أن الله سيرده إلي، وقلت لكم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: من تاب إليه تاب عليه. قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر، عن محارب ابن دثار، قال: كان عم لي يأتي المسجد فسمع إنسانًا يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي. قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾. وقد ورد في الحديث إن ذلك كان ليلة الجمعة، كما قال ابن جرير أيضًا: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، أنبأنا ابن جريج، عن عطاء وعكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يقول: «حتى تأتي ليلة الجمعة وهو قول أخي يعقوب لبنيه»[1]. وهذا غريب من هذا الوجه وفي رفعه نظر والله أعلم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام، وقدومه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم إلى

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٣/ ٦٥)، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الواسطي: ضعيف، وقال الحافظ ابن كثير: وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر.

إِخْوَتِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِأَهْلِهِمْ أَجْمَعِينَ، فَتَحَمَّلُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَتَرَحَّلُوا مِنْ بِلاد كَنْعَان قَاصِدِينَ دِيار مِصْر، فَلَمَّا أُخْبِرَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلامُ بِاقْتِرَابِهِمْ خَرَجَ لِتَلَقِّيهِمْ، وَأَمَرَ الْمَلِك أُمَرَاءَهُ وَأَكَابِر النَّاس بِالْخُرُوجِ مَعَ يُوسُف لِتَلَقِّي نَبِيّ الله يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلامُ، وَيُقَال: إِنَّ الْمَلِك خَرَجَ أَيْضًا لِتَلَقِّيه وَهُوَ الأَشْبَه.

وَقَدْ أَشْكَلَ قَوْله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ عَلَى كَثِير مِنَ الْمُفَسِّرِينَ؛ فَقَالَ بَعْضهمْ: هَذَا مِنَ الْمُقَدَّم وَالْمُؤَخَّر، وَمَعْنَى الكَلام: وَقَالَ اُدْخُلُوا مِصْر إِنْ شَاءَ الله آمِنِينَ، وَأَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَرَفَعَهُمَا عَلَى العَرْش.

وَرَدَّ اِبْن جَرِير هَذَا وَأَجَادَ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ اِخْتَارَ مَا حَكَاهُ عَنْ السُّدِّيّ: أَنَّ يُوسُف آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ لَمَّا تَلَقَّاهُمَا، ثُمَّ لَمَّا وَصَلُوا بَاب البَلَد قَالَ: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وَفِي هَذَا نَظَر أَيْضًا؛ لأَنَّ الإِيوَاء إِنَّمَا يَكُون فِي الْمَنْزِل، كَقَوْلِهِ: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾. وَفِي الحَدِيث: «مَنْ آوَى مُحْدِثًا»[1]. وَمَا الْمَانِع أَنْ يَكُون قَالَ لَهُمْ بَعْدَمَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَآوَاهُمْ إِلَيْه: اُدْخُلُوا مِصْر، وَضَمَّنَهُ اُسْكُنُوا مِصْر ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، أَيْ: مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ الجَهْد وَالقَحْط؟ وَيُقَال وَالله أَعْلَم: إِنَّ الله تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أَهْل مِصْر بَقِيَّة السِّنِينَ الْمُجْدِبَة بِبَرَكَةِ قُدُوم يَعْقُوب عَلَيْهِمْ، كَمَا رَفَعَ بَقِيَّة السِّنِينَ الَّتِي دَعَا بِهَا رَسُول الله ﷺ عَلَى أَهْل مَكَّة حِين قَالَ: «**اللهمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُف**»، ثُمَّ لَمَّا تَضَرَّعُوا إِلَيْهِ وَاسْتَشْفَعُوا لَدَيْهِ وَأَرْسَلُوا أَبَا سُفْيَان فِي ذَلِكَ فَدَعَا لَهُمْ، فَرُفِعَ عَنْهُمْ بَقِيَّة ذَلِكَ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ[2].

وَقَوْله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ قَالَ السُّدِّيّ وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: إِنَّمَا كَانَ أَبَاهُ وَخَالَته، وَكَانَتْ أُمّه قَدْ مَاتَتْ قَدِيمًا. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَابْن جَرِير: كَانَ أَبُوهُ وَأُمّه يَعِيشَانِ. قَالَ اِبْن جَرِير: وَلَمْ يَقُمْ دَلِيل عَلَى مَوْت أُمّه، وَظَاهِر القُرْآن يَدُلّ عَلَى حَيَاتهَا. وَهَذَا الَّذِي نَصَرَهُ هُوَ الْمتصوَّر الَّذِي يَدُلّ عَلَيْهِ السِّيَاق. وَقَوْله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد: يَعْنِي السَّرِير. أَيْ: أَجْلَسَهُمَا مَعَهُ عَلَى سَرِيره. ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ أَيْ: سَجَدَ لَهُ أَبَوَاهُ وَإِخْوَته البَاقُونَ وَكَانُوا أَحَد عَشَر رَجُلًا. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ أَيْ: الَّتِي كَانَ قَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ مِنْ قَبْل: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ الآيَة. وَقَدْ كَانَ هَذَا سَائِغًا فِي شَرَائِعهمْ: إِذَا سَلَّمُوا عَلَى الكَبِير يَسْجُدُونَ لَهُ، وَلَمْ يَزَل هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَم إِلَى شَرِيعَة عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، فَحُرِّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّة، وَجُعِلَ السُّجُود مُخْتَصًّا بِجَنَابِ الرَّبّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هَذَا مَضْمُون قَوْل قَتَادَة وَغَيْره. وَفِي الحَدِيث: أَنَّ مُعَاذًا قَدِمَ الشَّام فَوَجَدَهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعَ سَجَدَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا مُعَاذ؟**» فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتهمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ، وَأَنْتَ أَحَقّ أَنْ يُسْجَد لَكَ يَا رَسُول الله، فَقَالَ: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا؛ مِنْ عِظَمِ حَقّه عَلَيْهَا**»[3]. وَفِي حَدِيث آخَر: أَنَّ سَلْمَان لَقِيَ النَّبِيّ ﷺ فِي بَعْض طُرُق الْمَدِينَة وَكَانَ سَلْمَان حَدِيث عَهْد بِالإِسْلام. فَسَجَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**لا تَسْجُدْ لِي يَا سَلْمَان، وَاسْجُدْ لِلْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوت**». وَالغَرَض: أَنَّ هَذَا كَانَ جَائِزًا فِي شَرِيعَتهمْ، وَلِهَذَا خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، فَعِنْدَهَا قَالَ يُوسُف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ أَيْ: هَذَا مَا آلَ إِلَيْهِ الأَمْر، فَإِنَّ التَّأْوِيل يُطْلَق عَلَى مَا يَصِير إِلَيْهِ الأَمْر، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة يَأْتِيهِمْ مَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ خَيْر وَشَرّ. وَقَوْله: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ أَيْ: صَحِيحَة صِدْقًا، يَذْكُر نِعَم الله عَلَيْهِ ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ أَيْ: البَادِيَة. قَالَ اِبْن جُرَيْج وَغَيْره: كَانُوا أَهْل بَادِيَة وَمَاشِيَة. وَقَالَ: كَانُوا يَسْكُنُونَ بِالعَرَبَاتِ مِنْ أَرْض فِلَسْطِين مِنْ غَوْر الشَّام. قَالَ: وَبَعْض يَقُول: كَانُوا بِالأَوْلاجِ مِنْ نَاحِيَة شِعْب أَسْفَل مِنْ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٧٨).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨).
(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣)، وأحمد (٤/ ٣٨١) من حديث معاذ، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٠٣).

حِسْمَى، وَكَانُوا أَصْحَاب بَادِيَة وَشَاءٍ وَإِبِل. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ﴾ أَيْ: إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَيَّضَ لَهُ أَسْبَابًا وَقَدَّرَهُ وَيَسَّرَهُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بِمَصَالِحِ عِبَاده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَاله وَأَفْعَاله وَقَضَائِهِ وَقَدَره وَمَا يَخْتَارهُ وَيُرِيدهُ. قَالَ أَبُو عُثْمَان النَّهْدِيّ، عَنْ سلمان: كَانَ بَيْن رُؤْيَا يُوسُف وَتَأْوِيلهَا أَرْبَعُونَ سَنَة. قَالَ عَبْد الله بْن شَدَّاد: وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي أقصى الرُّؤْيَا[1]. رَوَاهُ اِبْن جَرِير.

وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الوَهَّاب الثَّقَفِيّ، حَدَّثَنَا هِشَام، عَنْ الحَسَن، قَالَ: كَانَ مُنْذُ فَارَقَ يُوسُف يَعْقُوب إِلَى أَنْ اِلْتَقَيَا ثَمَانُونَ سَنَة، لَمْ يُفَارِق الحُزْن قَلْبه، وَدُمُوعه تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهِ، وَمَا عَلَى وَجْه الأَرْض عَبْد أَحَبّ إِلَى الله مِنْ يَعْقُوب. وَقَالَ هُشَيْم، عَنْ يُونُس، عَنْ الحَسَن: ثَلاث وَثَمَانُونَ سَنَة، وَقَالَ مُبَارَك بْن فُضَالَة، عَنْ الحَسَن: أُلْقِيَ يُوسُف فِي الجُبّ وَهُوَ اِبْن سَبْع عَشْرَة سَنَة، فَغَابَ عَنْ أَبِيهِ ثَمَانِينَ سَنَة، وَعَاشَ بَعْد ذَلِكَ ثَلاثًا وَعِشْرِينَ سَنَة، فَمَاتَ وَلَهُ عِشْرُونَ وَمِائَة سنة. وَقَالَ قَتَادَة: كَانَ بَيْنهمَا خَمْس وَثَلاثُونَ سَنَة. وَقَالَ مُحَمَّد اِبْن إِسْحَاق: ذُكِرَ وَالله أَعْلَم، أَنَّ غَيْبَة يُوسُف عَنْ يَعْقُوب كَانَتْ ثَمَانِي عَشْرَة سَنَة، قَالَ: وَأَهْل الكِتَاب يَزْعُمُونَ أَنَّهَا كَانَتْ أَرْبَعِينَ سَنَة أَوْ نَحْوهَا، وَأَنَّ يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَام؛ بَقِيَ مَعَ يُوسُف بَعْد أَنْ قَدِمَ عَلَيْهِ مِصْر سَبْع عَشْرَة سَنَة ثُمَّ قَبَضَهُ الله إِلَيْهِ. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَالَ: دَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيل مِصْر وَهُمْ ثَلاثَة وَسِتُّونَ إِنْسَانًا، وَخَرَجُوا مِنْهَا وَهُمْ سِتّمِائَةِ أَلْف وَسَبْعُونَ أَلْفًا. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق، عَنْ مَسْرُوق: دَخَلُوا وَهُمْ ثَلَثمِائَةٍ وَتِسْعُونَ، ما بَيْن رَجُل وَامْرَأَة، فَالله أَعْلَم. وَقَالَ مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن شَدَّاد: اِجْتَمَعَ آل يَعْقُوب إِلَى يُوسُف بِمِصْرَ وَهُمْ سِتّة وَثَمَانُونَ إِنْسَانًا، صَغِيرهمْ وَكَبِيرهمْ وَذَكَرهمْ وَأُنْثَاهُمْ، وَخَرَجُوا مِنْهَا وَهُمْ سِتّمِائَةِ أَلْف وَنَيِّف.

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

هَذَا دُعَاء مِنْ يُوسُف الصِّدِّيق، دَعَا بِهِ رَبّه ﷻ، لَمَّا تَمَّتْ النعمة عَلَيْهِ، بِاجْتِمَاعِهِ بِأَبَوَيْهِ وَإِخوَته، وَمَا مَنَّ الله بِهِ عَلَيْهِ مِنْ النُّبُوَّة وَالمُلك، سَأَلَ رَبّه ﷻ، كَمَا أَتَمَّ نِعْمَته عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَسْتَمِرّ بِهَا عَلَيْهِ فِي الآخِرَة، وَأَنْ يَتَوَفَّاهُ مُسْلِمًا حِين يَتَوَفَّاهُ، قَالَهُ الضَّحَّاك، وَأَنْ يُلحِقهُ بِالصَّالِحِينَ وَهُمْ إِخْوَته مِنْ النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ، صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَهَذَا الدُّعَاء يَحْتَمِل أَنَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام، قَالَهُ عِنْد اِحْتِضَاره كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها، أَنَّ رَسُول الله ﷺ جَعَلَ يَرْفَع أُصْبُعه عِنْد المَوْت وَيَقُول: «**اللهمَّ فِي الرَّفِيق الأَعْلَى، اللهمَّ فِي الرَّفِيق الأَعْلَى، اللهمَّ فِي الرَّفِيق الأَعْلَى**»[2].

وَيَحْتَمِل أَنّه سَأَلَ الوَفَاة عَلَى الإِسْلام وَاللَّحَاق بِالصَّالِحِينَ إِذَا حان أَجَله وَانْقَضَى عُمُره، لا أَنَّهُ سَأَلَهُ ذَلِكَ مُنَجَّزًا، كَمَا يَقُول الدَّاعِي لِغَيْرِهِ: أَمَاتَكَ الله عَلَى الإِسْلام. وَيَقُول الدَّاعِي: اللهمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَلحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ!. وَيَحْتَمِل أَنَّهُ سَأَلَ ذَلِكَ مُنَجَّزًا، وَكَانَ ذَلِكَ سَائِغًا فِي مِلَّتهمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَة: قَوْله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، لَمَّا جَمَعَ الله شَمْله وَأَقَرّ عَيْنه، وَهُوَ يَوْمئِذٍ مَغْمُوس فِي نبت الدُّنْيَا وَمُلكهَا وَنَضَارَتهَا وَاشْتَاقَ إِلَى الصَّالِحِينَ قَبْله. وَكَانَ اِبْن عَبَّاس يَقُول: مَا تَمَنَّى نَبِيّ قَطّ المَوْت قَبْل يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام. وَكَذَا ذَكَرَ اِبْن جَرِير وَالسُّدِّيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّهُ أَوَّل نَبِيّ دَعَا بِذَلِكَ، وَهَذَا يَحْتَمِل أَنَّهُ أَوَّل مَنْ سَأَلَ الوَفَاة عَلَى الإِسْلام، كَمَا

---

(١) يريد: أن تأويل الرؤيا لا يتعدى حدود الأربعين سنة.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٨٩٠)، ومسلم (٢٤٤٤).

أَنَّ نُوحًا أَوَّل مَنْ قَالَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾. وَيَحْتَمِل أَنَّهُ أَوَّل مِنْ سَأَلَ إِنْجَاز ذَلِكَ، وَهُوَ ظَاهِر سِيَاق قَوْل قَتَادَة، وَلَكِنَّ هَذَا لا يَجُوز فِي شَرِيعَتنَا.

قَالَ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن صُهَيْب، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لا يتمنَّى أَحَدكُمْ الْمَوْت لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ وَلابُدَّ مُتَمَنِّيًا الْمَوْت فَلْيَقُل: اللهمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الحَيَاة خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الوَفَاة خَيْرًا لِي**»[1]. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَعِنْدهمَا: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدكُمْ الْمَوْت لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، إِما مُحْسِنًا فَيَزْدَاد، وَإِما مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِب، وَلَكِنْ لِيَقُل: اللهمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الحَيَاة خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الوَفَاة خَيْرًا لِي**». وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَة، حَدَّثَنَا معان بْن رِفَاعَة، حَدَّثَنِي عَلِيّ بْن يَزِيد، عَنْ القَاسِم أَبِي عبد الرحمن، عَنْ أَبِي أُمَامَة، قَالَ: جَلَسْنَا إِلَى رَسُول الله ﷺ، فَذَكَّرَنَا وَرَقَّقَنَا، فَبَكَى سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص فَأَكْثَر البُكَاء، وَقَالَ: يَا لَيْتَنِي مِتّ! فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**يَا سَعْد أَعِنْدِي تَتَمَنَّى الْمَوْت؟**» فَرَدَّدَ ذَلِكَ ثَلاث مَرَّات، ثُمَّ قَالَ: «**يَا سَعْد، إِنْ كُنْت خُلِقْت لِلْجَنَّةِ، فَمَا طَالَ مِنْ عُمُرك، وَحَسُنَ مِنْ عَمَلك، فَهُوَ خَيْر لَك**»[2].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا اِبْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا أَبُو يُونُس -هُوَ سليم بْن جُبَيْر-، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لا يتمنَّى أَحَدكُمْ الْمَوْت، وَلا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْل أَنْ يَأْتِيَهُ، إِلا أَنْ يَكُون قَدْ وَثِقَ بِعَمَلِهِ، فَإِنَّهُ إِن مَاتَ أَحَدكُمْ اِنْقَطَعَ عَنْهُ عَمَله، وَإِنَّهُ لا يَزِيد الْمُؤْمِن عمره إِلا خَيْرًا**»[3]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد. وَهَذَا فِيمَا إِذَا كَانَ الضُّرّ خَاصًّا بِهِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِتْنَة فِي الدِّين، فَيَجُوز سُؤَال الْمَوْت، كَمَا قَالَ الله تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ السَّحَرَة، لَمَّا أَرَادَهُمْ فِرْعَوْن عَنْ دِينهمْ وَتَهَدَّدَهُمْ بِالقَتْل؛ قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، وَقَالَتْ مَرْيَم لَمَّا جَاءَهَا الْمَخَاض، وَهُوَ الطَّلْق، إِلَى جِذْع النَّخْلَة: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ لِمَا تعلم مِنْ أَنَّ النَّاس يَقْذِفُونَهَا بِالفَاحِشَةِ؛ لأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ذَات زَوْج، وَقَدْ حَمَلَتْ وَوَلدتْ وَقَدْ قَالُوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ فَجَعَلَ الله لَهَا مِنْ ذَلِكَ الحَال فَرَجًا وَمَخْرَجًا، وَأَنْطَقَ الصَّبِيّ فِي الْمَهْد بِأَنَّهُ عَبْد الله وَرَسُوله، فَكَانَ آيَة عَظِيمَة وَمُعْجِزَة بَاهِرَة صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ. وَفِي حَدِيث مُعَاذ الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ فِي قِصَّة الْمَنَام وَالدُّعَاء الَّذِي فِيهِ: «**وَإِذَا أَرَدْت بِقَوْم فِتْنَة فتوفني إِلَيْك غَيْر مَفْتُون**»[4]. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَة، أَنَا عَبْد العَزِيز بْن مُحَمَّد، عَنْ عَمْرو، عن عَاصِم بْن عمر بن قَتَادَة، عَنْ مَحْمُود بْن لَبِيد، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**اِثْنَتَانِ يَكْرَههُمَا اِبْن آدَم: يَكْرَه الْمَوْت، وَالْمَوْت خَيْر لِلْمُؤْمِنِ مِنْ الفِتْنَة، وَيَكْرَه قِلَّة الْمَال، وَقِلَّة الْمَال أَقَلّ لِلْحِسَابِ**»[5]. فَعِنْد حُلُول الفِتَن فِي الدِّين يَجُوز سُؤَال الْمَوْت، وَلِهَذَا قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب رضي الله عنه، فِي آخِر خِلافَته، لَمَّا رَأَى أَنَّ الأُمُور لا تَجْتَمِع لَهُ، وَلا يَزْدَاد الأَمْر إِلا شِدَّة فَقَالَ: «اللهمَّ خُذْنِي إِلَيْك فَقَدْ سَئِمْتهمْ وَسَئِمُونِي». وَقَالَ البُخَارِيّ رَحِمَهُ اللهُ، لَمَّا وَقَعَتْ لَهُ تِلكَ المحن، وَجَرَى لَهُ مَعَ أَمِير خُرَاسَان مَا جَرَى قَالَ: «اللهمَّ تَوَفَّنِي إِلَيْك». وَفِي الحَدِيث: «**إِنَّ الرَّجُل لَيَمُرّ بِالقَبْرِ -أَيْ: فِي زَمَان الدَّجَّال-**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٦٨٠)، وأحمد (٣/ ١٠١).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٧) بسند ضعيف، فيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف. والحديث ضعفه الألباني في «المشكاة» (١٦١٤).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦١٢).

(٤) في إسناده ضعف: أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٣)، وأسانيده فيها ضعف، وقد وضحت بعض ذلك في رسالة «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» للحافظ ابن رجب ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» طبعة أولاد الشيخ.

(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٧، ٤٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٩).

فيقول: يا ليتني مكانه»(١). لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل، والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون.
قال أبو جعفر ابن جرير: وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ذنوبهم.

ذكر من قال ذلك: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن صالح المري، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، قال: إن الله -تبارك وتعالى- لما جمع ليعقوب شمله وأقر عينه، خلا ولده نجيًّا، فقال بعضهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم، وما لقي منكم الشيخ وما لقي منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال: فيغركم عفوهما عنكم فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ، فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعدًا، قالوا: يا أبانا، إنا أتيناك في أمر لم نأتك في مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط، حتى حركوه، والأنبياء عليهم السلام أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بني؟ قالوا: ألست قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى. قالوا: أفلستما قد عفوتما لنا؟ قالا: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يغني عنا شيئًا إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نريد أن تدعو الله لنا، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قرت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قرة عين في الدنيا لنا أبدًا. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين. قال: فدعا وأمن يوسف، فلم يجب فيهم عشرين سنة. قال صالح المري: يخيفهم. قال: حتى إذا كان على رأس العشرين، نزل جبريل عليه السلام، على يعقوب عليه السلام، فقال: إن الله تعالى قد بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة. هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جدًّا. وذكر السدي: أن يعقوب عليه السلام، لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام فدفن عندهما عليهم السلام.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به يا محمد؛ لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرًا عندهم ولا مشاهدًا لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي: على إلقائه في الجب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحيًا إليك، وإنزالًا عليك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ الآية إلى أن قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية. وقال: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق، مما فيه عبرة للناس، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧١١٥)، ومسلم (١٥٧).

إِلَى الخَيْرِ وَالرُّشْد مِنْ أَجْر، أَيْ: مِنْ جَعَالَة وَلَا أُجْرَة على ذلك، بَل تَفْعَلهُ اِبْتِغَاء وَجْه الله وَنُصْحًا لِخَلْقِهِ. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ، وَيَنْجُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ غَفْلَة أَكْثَر النَّاس عَنْ التَّفَكُّر فِي آيَات الله وَدَلَائِل تَوْحِيده، بِمَا خَلَقَهُ الله فِي السَّمَوَات وَالأَرْض مِنْ كَوَاكِب زَاهِرَات ثَوَابِت، وَسَيَّارَات وَأَفْلاك دَائِرَات، وَالجَمِيع مُسَخَّرَات، وَكَمْ فِي الأَرْض مِنْ قِطَع مُتَجَاوِرَات، وَحَدَائِق، وَجَنَّات، وَجِبَال رَاسِيَات، وَبِحَار زَاخِرَات، وَأَمْوَاج مُتَلاطِمَات، وَقِفَار شَاسِعَات، وَكَمْ مِنْ أَحْيَاء، وَأَمْوَات، وَحَيَوَانات، وَنَبَات، وَثَمَرَات مُتَشَابِهَة وَمُخْتَلِفَات فِي الطُّعُوم وَالرَّوَائِح وَالأَلْوَان وَالصِّفَات، فَسُبْحَان الوَاحِد الأَحَد، خَالِق أَنْوَاع المَخْلُوقَات، المُتَفَرِّد بِالدَّوَام وَالبَقَاء وَالصَّمَدِيَّة، ذي الأَسْمَاء وَالصِّفَات. وَقَوْله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس: مِنْ إِيمَانهمْ أَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَات؟ وَمَنْ خَلَقَ الأَرْض؟ وَمَنْ خَلَقَ الجِبَال؟ قَالُوا: الله، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَعَطَاء وَعِكْرِمَة وَالشَّعْبِيّ وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ. وهكذا فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتهمْ: لَبَّيْكَ لا شَرِيك لَك، إلا شَرِيك هُوَ لَك تَمْلِكهُ وَمَا مَلَك. وَفِي صَحِيح مُسْلِم: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قَالُوا: لَبَّيْكَ لا شَرِيك لَك. يقول رَسُول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ». أَيْ: حَسْب حَسْب، لا تَزِيدُوا عَلَى هَذَا[1].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وَهَذَا هُوَ الشِّرْك الأَعْظَم يُعْبَد مَعَ الله غَيْره، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ اِبْن مَسْعُود؛ قُلت: يَا رَسُول الله؛ أَيّ الذَّنْب أَعْظَم؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَل لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك»[2].

وَقَالَ الحَسَن البَصْرِيّ فِي قَوْله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قَالَ: ذَلِكَ المُنَافِق يَعْمَل، إِذَا عَمِلَ، رِيَاء النَّاس وَهُوَ مُشْرِك بِعَمَلِهِ ذَلِكَ، يَعْنِي قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وَثَمَّ شِرْك خَفِيّ، لا يَشْعُر بِهِ غَالِبًا فَاعِله، كَمَا رَوَى حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَاصِم بْن أَبِي النَّجُود، عَنْ عُرْوَة قَالَ: دَخَلَ حُذَيْفَة عَلَى مَرِيض، فَرَأَى فِي عَضُده سَيْرًا فَقَطَعَهُ -أَوْ اِنْتَزَعَهُ-، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾. وَفِي الحَدِيث: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كفر او أَشْرَكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ، مِنْ رِوَايَة اِبْن عُمَر. وَفِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَد وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْره عَنْ اِبْن مَسْعُود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِم وَالتِّوَلَة شِرْك»[3]، وَفِي لَفْظ لَهُمَا: «الطِّيَرَة شِرْك وَمَا مِنَّا إلا، وَلَكِنَّ الله يُذْهِبهُ بِالتَّوَكُّلِ»[4]. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد بِأَبْسَط مِنْ هَذَا فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ يَحْيَى بن الجَزَّار، عَنْ اِبْن أَخِي زَيْنَب، عَنْ زَيْنَب اِمْرَأَة عَبْد الله اِبْن مَسْعُود قَالَتْ: كَانَ عَبْد الله إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَة فَانْتَهَى إِلَى البَاب تَنَحْنَحَ وَبَزَقَ كَرَاهَة أَنْ يَهْجُم مِنَّا عَلَى شيء يَكْرَههُ، قَالَتْ: وَإِنَّهُ جَاءَ ذَات يَوْم فَتَنَحْنَحَ وَعِنْدِي عَجُوز تَرْقِينِي مِنْ الحُمْرَة فَأَدْخَلتها تَحْت السَّرِير، قَالَتْ: فَدَخَلَ فَجَلَسَ إِلَى جنبي، فَرَأَى فِي عُنُقِي خَيْطًا قَالَ: مَا هَذَا الخَيْط؟ قَالَتْ: قُلت: خَيْط رُقِيَ لِي فِيهِ، فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ آل عَبْد الله لأَغْنِيَاء عَنْ الشِّرْك، سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِم وَالتِّوَلَة

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١١٨٥).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، وأحمد (١/ ٣٨١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٩١٠) وغيره، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

شرك» قَالَتْ: فقلت لَهُ: لِمَ تَقُول هَذَا وَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْذِف، فَكُنْت أَخْتَلِف إِلَى فُلان اليَهُودِيّ يَرْقِيهَا، فَكَانَ إِذَا رَقَاهَا سَكَنَتْ؟ قَالَ: إِنَّمَا ذلك عمل الشَّيْطَان كَانَ يَنْخُسهَا بِيَدِهِ، فَإِذَا رقيتها كَفّ عَنْهَا، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيك أَنْ تَقُولِي كَمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**أَذْهِبْ البَأْس، رَبّ النَّاس، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاء إلا شِفَاؤُك، شِفَاء لا يُغَادِر سَقَمًا**»[1].

وَفِي حَدِيث آخر رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، عَنْ وَكِيع، ثنا ابْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ عِيسَى بْن عَبْد الرَّحْمَن، قَالَ: دَخَلنا عَلَى عَبْد الله بْن عكيم وَهُوَ مَرِيض نَعُودهُ، فَقِيل لَهُ: لَوْ تَعَلَّقْت شَيْئًا؟ فَقَالَ: أَتَعَلَّق شَيْئًا وَقَدْ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»[2]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة. وَفِي مُسْنَد الإِمَام أَحْمَد: عنْ عُقْبَة بْن عَامِر قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَة فَقَدْ أَشْرَكَ**»[3]. وَفِي رِوَايَة: «**مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَة فَلا أَتَمَّ الله لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَة فَلا وَدَعَ الله لَهُ**»[4]. وَعَنْ العَلاء، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، سمعت: قَالَ رَسُول الله ﷺ، يَقُول: «**قال الله: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنْ الشِّرْك، مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْته وَشِرْكه**»[5]. رَوَاهُ مُسْلِم. وَعَنْ أَبِي سَعِيد ابن أَبِي فُضَالَةَ قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول: «**إِذَا جَمَعَ الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمٍ لا رَيْب فِيهِ، يُنَادِي مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَل عَمِلَهُ لله، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابه مِنْ عِنْد غَيْر الله، فَإِنَّ الله أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنْ الشِّرْك**»[6]. رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يُونُس، حَدَّثَنَا لَيْث، عَنْ يَزِيد -يَعْنِي ابْن الهَاد-، عَنْ عَمْرو، عَنْ مَحْمُود بْن لَبِيد: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَخْوَف مَا أَخَاف عَلَيْكُمْ الشِّرْك الأَصْغَر**» قَالُوا: وَمَا الشِّرْك الأَصْغَر يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**الرِّيَاء، يَقُول الله عز وجل لهم يَوْم القِيَامَة إِذَا جَازَى النَّاس بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَل تَجِدُونَ عِنْدهمْ جَزَاء؟**»[7]. وَقَدْ رَوَاهُ إِسْمَاعِيل بْن جَعْفَر، عَنْ عَمْرو بْن أَبِي عَمْرو مَوْلَى المُطَّلِب، عَنْ عَاصِم بْن عُمَر بن قَتَادة، عَنْ مَحْمُود بْن لَبِيد، بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، أَنْبَأَنَا ابْن لَهِيعَة، أَنْبَأَنَا ابْن هُبَيْرَة، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَة عَنْ حَاجَة فَقَدْ أَشْرَكَ**». قَالُوا: يَا رَسُول الله مَا كَفَّارَة ذَلِكَ؟ قَالَ: «**أَنْ يَقُول أَحَدهمْ: اللهمَّ لا خَيْر إلا خَيْرك، وَلا طَيْر إلا طَيْرك، وَلا إِلَه غَيْرك**»[8].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن نُمَيْر، حَدَّثَنَا عَبْد المَلِك بْن أَبِي سُلَيْمَان العَرْزَمِيّ، عَنْ أَبِي عَلِيّ -رَجُل مِنْ بَنِي كَاهِل- قَالَ: خَطَبَنَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاس، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْك فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيب النَّمْل، فَقَامَ عَبْد الله بْن حَزن، وَقَيْس بْن المُضَارِب فَقَالا: وَالله، لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قُلت، أَوْ لَنَأْتِيَنَّ عُمَر مَأْذُونًا لَنَا، أَوْ غَيْر مَأْذُون. قَالَ: بَل أَخْرُج مِمَّا قُلت، خَطَبَنَا رَسُول الله ﷺ، ذَات يَوْم فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاس، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْك فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيب النَّمْل**». فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ الله أَنْ يَقُول: فَكَيْف نَتَّقِيه وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيب النَّمْل يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللهمَّ، إِنَّا نَعُوذ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِك بِكَ شَيْئًا نَعْلَمهُ، وَنَسْتَغْفِرك لِمَا لا نَعْلَمهُ**»[9].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٨١) بسند ضعيف لجهالة ابن أخي زينب، والحديث صحيح لغيره.
(٢) حسن: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٣١٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٥٦).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٩٢).
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤) بسند ضعيف.
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥).
(٦) حسن: أخرجه الترمذي (٣١٥٢)، وابن ماجه (٤٢٠٣)، وأحمد (٣/ ٤٦٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٨٢).
(٧) حسن: أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، وانظر «الصحيحة» (٩٥١).
(٨) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٠٦٥).
(٩) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٣)، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦).

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وَجه آخر، وَفِيهِ أَنَّ السَّائِل فِي ذَلِكَ هُوَ الصِّدِّيق، كَمَا رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ: مِنْ حَدِيث عَبْد العَزِيز بْن مُسْلِم، عَنْ لَيْث بن أَبِي سُلَيْم، عَنْ أَبِي مُحَمَّد، عَنْ مَعْقِل بْن يَسَار، قَالَ: شَهِدْت النَّبِيّ ﷺ، أَوْ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْر الصِّدِّيق، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**الشِّرْك أَخْفَى فِيكُمْ مِنْ دَبِيب النَّمْل**». فَقَالَ أَبُو بَكْر: وَهَل الشِّرْك إِلا مَنْ دَعَا مَعَ الله إِلَهًا آخَر؟ فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**الشِّرْك فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيب النَّمْل**». ثُمَّ قَالَ: «**أَلا أَدُلّكَ عَلَى مَا يُذْهِب عَنْكَ صَغِير ذَلِكَ وَكَبِيره؟ قُل: اللهمَّ إِنِّي أَعُوذ بِكَ أَنْ أُشْرِك بِكَ وَأَنَا أَعْلَم، وَأَسْتَغْفِرك مِمَّا لا أَعْلَم**»[1]. وَقَدْ رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو القَاسِم البَغَوِيّ: عَنْ شَيْبَان بْن فَرُّوخ، عَنْ يَحْيَى بْن كَثِير، عَنْ الثَّوْرِيّ، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالِد، عَنْ قَيْس بْن أَبِي حَازِم، عَنْ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**الشِّرْك أَخْفَى فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيب النَّمْل عَلَى الصَّفَا**». قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْر: يَا رَسُول الله، فَكَيْف النَّجَاة وَالمَخْرَج مِنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**أَلا أُخْبِرك بِشَيْء إِذَا قُلْته بَرِئْت مِنْ قَلِيله وَكَثِيره وَصَغِيره وَكَبِيره؟**» قَالَ: بَلَى يَا رَسُول الله، قَالَ: «**قُل: اللهمَّ، إِنِّي أَعُوذ بِكَ أَنْ أُشْرِك بِكَ وَأَنَا أَعْلَم، وَأَسْتَغْفِرك لِمَا لا أَعْلَم**»[2]. قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ: يَحْيَى بْن كَثِير هَذَا يُقَال لَهُ: أَبُو النَّضْر، مَتْرُوك الحَدِيث. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد وأبو داود وَالتِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ، وَالنَّسَائِيّ: مِنْ حَدِيث يَعْلَى بْن عَطَاء، سَمِعْت عَمْرو بْن عَاصِم، سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة، قَالَ: قَال: أَبُو بَكْر الصِّدِّيق: يَا رَسُول الله؛ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَقُولهُ إِذَا أَصْبَحْت وَإِذَا أَمْسَيْت وَإِذَا أَخَذْت مَضْجَعِي. قَالَ: «**قُل: اللهمَّ فَاطِر السَّمَوَات وَالأَرْض، عَالِم الغَيْب وَالشَّهَادَة، رَبّ كُلّ شَيْء وَمَلِيكه، أَشْهَد أَنْ لا إِلَه إِلا أَنْتَ، أَعُوذ بِكَ مِنْ شَرّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرّ الشَّيْطَان وَشِرْكه**»[3]. وَزَادَ الإِمَام أَحْمَد فِي رِوَايَة لَهُ: مِنْ حَدِيث لَيْث بن أَبِي سُلَيْم، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق قَالَ: أَمَرَنِي رَسُول الله ﷺ أَنْ أَقُول: ...فَذَكَرَ هَذَا الدُّعَاء، وَزَادَ فِي آخِره: «**وَأَنْ أَقْتَرِف عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرّهُ إِلَى مُسْلِم**»[4].

وَقَوْله ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ الآيَة، أَيْ: أَفَأَمِنَ هَؤُلاءِ المُشْرِكُونَ بِالله أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْر يَغْشَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، وَقَال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يَقُول تَعَالَى لِعَبده وَرَسُولِهِ ﷺ، إِلَى الثَّقَلَيْنِ؛ الجِنّ وَالإِنس، آمِرًا لَهُ أَنْ يُخْبِر النَّاس أَنَّ هَذِهِ سَبِيله، أَيْ: طَرِيقه وَمَسْلَكه وَسُنَّته، وَهِيَ الدَّعْوَة إِلَى شَهَادَة: أَنْ لا إِلَه إِلا الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، يَدْعُو إِلَى الله بِهَا عَلَى بَصِيرَة مِنْ ذَلِكَ وَيَقِين وَبُرْهَان، هو وَكُلّ مَنْ اِتَّبَعَهُ يَدْعُو إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُول الله ﷺ عَلَى بَصِيرَة وَيَقِين وَبُرْهَان؛ شَرْعِيّ وَعَقْلِيّ. وَقَوْله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: وَأُنَزِّه الله وَأُجِلّهُ وَأُعَظِّمهُ وَأُقَدِّسهُ عَنْ أَنْ يَكُون لَهُ شَرِيك أَوْ نَظِير، أَوْ عَدِيل أَوْ نَدِيد، أَوْ وَلَد أَوْ وَالِد، أَوْ صَاحِبَة أَوْ وَزِير أَوْ مُشِير، تَبَارَكَ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلّه عُلُوًّا كَبِيرًا، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٥٨) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١١٢)، وسنده ضعيف جدًا.
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٩٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٦)، وسنده حسن.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

يُخبِر تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ رُسُله مِنَ الرِّجَال لا مِنَ النِّسَاء، وَهَذَا قَوْل جُمْهُور العُلَمَاء، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاق هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: إِنَّ الله تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى امْرَأَة مِنْ بَنَات بَنِي آدَم وَحْي تَشْرِيع. وَزَعَمَ بَعْضهمْ: أَنَّ سَارَّة امْرَأَة الخَلِيل، وَأُمّ مُوسَى، وَمَرْيَم بِنْت عِمْرَان أُمّ عِيسَى، نَبِيَّات. وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ المَلائِكَة بَشَّرَتْ سَارَّة بِإِسْحَاق وَمِنْ وَرَاء إِسْحَاق يَعْقُوب، وَبِقَوْلِهِ: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ ﴾ الآيَة، وَبِأَنَّ المَلَك جَاءَ إِلَى مَرْيَم وَبَشَّرَهَا بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾. وَهَذَا القَدْر حَاصِل لَهُنَّ، وَلَكِنْ لا يَلزَم مِنْ هَذَا أَنْ يَكُنَّ نَبِيَّات بِذَلِكَ، فَإِنْ أَرَادَ القَائِل بِنُبُوَّتِهِنَّ هَذَا القَدْر مِنَ التَّشْرِيف، فَهَذَا لا شَكَّ فِيهِ، وَيَبْقَى الكَلام مَعَهُ فِي أَنَّ هَذَا هَل يَكْفِي فِي الانْتِظَام فِي سِلك النُّبُوَّة بِمُجَرَّدِهِ أَمْ لا؟ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعَة، وَهُوَ الَّذِي نَقَلَهُ الشَّيْخ أَبُو الحَسَن عَلِيّ بن إِسْمَاعِيل الأَشْعَرِيّ عَنْهُمْ: أَنَّهُ لَيْسَ فِي النِّسَاء نَبِيَّة وَإِنَّمَا فِيهِنَّ صِدِّيقَات، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَشْرَفهنَّ مَرْيَم بِنْت عِمْرَان حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ﴾ فَوَصَفَهَا فِي أَشْرَف مَقَامَاتِهَا بِالصِّدِّيقِية، فَلَوْ كَانَتْ نَبِيَّة لَذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَقَام التَّشْرِيف وَالإِعْظَام، فَهِيَ صِدِّيقَة بِنَصّ القُرْآن.

وَقَالَ الضَّحَّاك، عَنِ ابْنِ عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ أَيْ: لَيْسُوا مِنْ أَهْل السَّمَاء كَمَا قُلتُمْ. وَهَذَا القَوْل مِنَ ابْنِ عَبَّاس يَعْتَضِد بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ﴾ الآيَة، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الآيَة. وَقَوْله: ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ المُرَاد بِالقُرَى: المُدُن، لا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْل البَوَادِي، الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَجْفَى النَّاس طِبَاعًا وَأَخْلاقًا وَهَذَا هُوَ المَعْهُود المَعْرُوف: أَنَّ أَهْل المُدُن أَرَقّ طِبَاعًا وَأَلطَف مِنْ أَهْل سَوادهم، وَأَهْل الرِّيف وَالسَّوَاد أَقْرَب حَالًا مِنَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي البَوَادِي، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ ﴾. وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ لأَنَّهُمْ أَعْلَم وَأَحْلَم مِنْ أَهْل العُمُور. وَفِي الحَدِيث الآخَر: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعْرَاب أَهْدَى لِرَسُولِ الله ﷺ نَاقَة، فَلَمْ يَزَل يُعْطِيه وَيَزِيدهُ حَتَّى رَضِيَ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لا أَتَّهِبَ هِبَةً إِلا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ»[1].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَجَّاج، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنِ الأَعْمَش، عَنْ يَحْيَى بن وَثَّاب، عَنْ شَيْخ مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ -قَالَ الأَعْمَش: هُوَ ابن عُمَر-، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «المُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لا يُخَالِطُهُمْ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[2]. وَقَوْله: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يَعْنِي: هَؤُلاءِ المُكَذِّبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّد فِي الأَرْض، ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ ﴾ أَيْ: مِنَ الأُمَم المُكَذِّبَة لِلرُّسُل، كَيْف دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلكَافِرِينَ أَمْثَالهَا، ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾ الآيَة، فَإِذَا اسْتَمَعُوا خَبَر ذَلِكَ رَأَوْا أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ الكَافِرِينَ وَنَجَّى المُؤْمِنِينَ، وَهَذِهِ كَانَتْ سُنَّته تَعَالَى فِي خَلقه؛ وَلِهَذَا قَالَ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٩٤٥)، وأبوداود (٣٥٣٧)، والنسائي (٦/ ٢٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٤٤)، والترمذي (٢٥٠٩)، وصححه الألباني.

تَعَالَى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ أَيْ: وَكَمَا أنجينا الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ كَتَبْنَا لَهُمُ النَّجَاة فِي الدَّار الآخِرَة أيضا وَهِيَ خَيْر لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِكَثِيرٍ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾. وَأَضَافَ الدَّار إِلَى الآخِرَة فَقَالَ: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كَمَا تقول: صَلاة الأُولَى، وَمَسْجِد الجَامِع، وَعَام أَوَّل، وَبَارِحَة الأُولَى، وَيَوْم الخَمِيس، قَالَ الشَّاعِر:

أَتَمْدَحُ فَقْعَسًا وَتَذُمّ عَبْسًا ۞ أَلا لله أُمّكَ مِنْ هَجِين
وَلَوْ أَقْوَتْ عَلَيْكَ دِيَار عَبْس ۞ عَرَفْت الذُّلّ عِرْفَان اليَقِين

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

يخبر تَعَالَى أَنَّ نَصْره يَنْزِل عَلَى رُسُله، صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، عِنْد ضِيق الحَال وَانْتِظَار الفَرَج مِنْ الله تعالى فِي أَحْوَج الأَوْقَات إِلَى ذَلِكَ، كما في قوله تَعَالَى: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾، وَفِي قَوْله: ﴿كُذِبُواْ﴾ قِرَاءَتَانِ؛ إِحْدَاهُمَا: بِالتَّشْدِيدِ ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾، وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَة ﵂ تَقْرَؤُهَا. قَالَ البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعْد، عن صَالِح، عَنْ اِبْن شِهَاب، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، عَنْ عَائِشَة: أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ وَهُوَ يَسْأَلهَا عَنْ قَوْل الله تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قَالَ: قُلت: أَكُذِبُوا أَمْ كُذِّبُوا؟ قَالَتْ عَائِشَة: ﴿كُذِّبُوا﴾ فقُلت: قَدْ اِسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمهمْ قد كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ؟ قَالَتْ: أَجَل، لَعَمْرِي لَقَدْ اِسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ. فَقُلْت لَهَا: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ فقَالَتْ: مَعَاذ الله، لَمْ تَكُنْ الرُّسُل تَظُنّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا، قُلت: فَمَا هَذِهِ الآيَة؟ قَالَتْ: هُمْ أَتْبَاع الرُّسُل الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، فَطَالَ عَلَيْهِمْ البَلاء وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمْ النَّصْر، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمهمْ، وَظَنَّتْ الرُّسُل أَنَّ أَتْبَاعهمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْر الله عِنْد ذَلِكَ. حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان، أَنْبَأَنَا شُعْبَة، عَنْ الزُّهْرِيّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَة: فَقُلْت لَهَا: لَعَلَّهَا ﴿قَدۡ كُذِبُواْ﴾ مُخَفَّفَة؟ قَالَتْ: مَعَاذ الله. اِنْتَهَى مَا ذَكَرَه[1].

وَقَالَ اِبْن جُرَيْج: أَخْبَرَنِي اِبْن أَبِي مُلَيْكَة: أَنَّ اِبْن عَبَّاس قَرَأَهَا: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ خَفِيفَة. قَالَ عَبْد الله -هُوَ اِبْن أَبِي مُلَيْكَة- ثُمَّ قَالَ لِي اِبْن عَبَّاس: كَانُوا بَشَرًا، ثُمَّ تَلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾. قَالَ اِبْن جُرَيْج: وَقَالَ لِي اِبْن أَبِي مُلَيْكَة: وَأَخْبَرَنِي عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة: أَنَّهَا خَالَفَتْ ذَلِكَ وَأَبَتْهُ، وَقَالَتْ: مَا وَعَدَ الله مُحَمَّدًا ﷺ، مِنْ شَيْء إِلا قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ حَتَّى مَاتَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَل البَلاء بِالرُّسُلِ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ مَنْ مَعَهُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، قَالَ اِبْن أَبِي مُلَيْكَة فِي حَدِيث عُرْوَة: كَانَتْ عَائِشَة تَقْرَؤُهَا ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ مُثَقَّلَة، مِنْ التَّكْذِيب.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: أَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلَى قِرَاءَة، أَنَا اِبْن وَهْب، أَخْبَرَنِي سُلَيْمَان بْن بِلال، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد، قَالَ: جَاءَ إِنْسَان إِلَى القَاسِم بْن مُحَمَّد فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ يقول هَذِهِ الآيَة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ فَقَالَ القَاسِم: أَخْبِرْهُ عَنِّي: أَنِّي سَمِعْت عَائِشَة زَوْج النَّبِيّ ﷺ، تَقُول: ﴿حَتَّى إِذَا اِسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ تَقُول: كَذَّبَتْهُمْ أَتْبَاعهمْ. إِسْنَاد صَحِيح أَيْضًا. وَالقِرَاءَة الثَّانِيَة: بِالتَّخْفِيفِ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرهَا؛ فَقَالَ اِبْن عَبَّاس مَا تَقَدَّمَ. وَعَنْ اِبْن مَسْعُود فِيمَا رَوَاهُ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوق، عَنْ عَبْد الله: أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ مُخَفَّفَة. قَالَ عَبْد الله: هُوَ الَّذِي

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤١٨).

تكْرَه. وَهَذَا عَنْ اِبْن مَسْعُود وَابْن عَبَّاس رضي الله عنهما، مُخَالِف لِمَا رَوَاهُ آخَرُونَ عَنْهُمَا. أَمَّا اِبْن عَبَّاس: فَرَوَى الأَعْمَش، عَنْ مُسْلِم عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قَالَ: لَمَّا أَيِسَتْ الرُّسُل أَنْ يَسْتَجِيب لَهُمْ قَوْمهمْ، وَظَنَّ قَوْمهمْ أَنَّ الرُّسُل قَدْ كَذَبُوهُمْ جَاءَهُمْ النَّصْر عَلَى ذَلِكَ، ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيد ابْن جُبَيْر وَعِمْرَان بْن الحَارِث السُّلَمِيّ وَعَبْد الرَّحْمَن بْن مُعَاوِيَة وَعَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة وَالعَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس بِمِثْلِهِ.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَارِم أَبُو النُّعْمَان، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، حَدَّثَنَا شُعَيْب، حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيم بْن أَبِي حرة الجَزَرِيّ قَالَ: سَأَلَ فَتًى مِنْ قُرَيْش سَعِيد بْن جُبَيْر فقَالَ: يا أَبَا عَبْد الله، كَيْف تقرأ هَذَا الحَرْف، فَإِنِّي إِذَا أَتَيْت عَلَيْهِ تَمَنَّيْت أَنْ لا أَقْرَأ هَذِهِ السُّورَة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾. قَالَ: نَعَمْ، حَتَّى إِذَا اِسْتَيْأَسَ الرُّسُل مِنْ قَوْمهمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُمْ، وَظَنَّ المُرْسَل إِلَيْهِمْ أَنْ الرُّسُل قَدْ كَذَبُوا. قال: فَقَالَ الضَّحَّاك ابْن مُزَاحِم: مَا رَأَيْت كَاليَوْم قَطُّ رَجُل يُدْعَى إِلَى عِلم فَيَتَلَكَّأ، لَوْ رَحَلت إِلَى اليَمَن فِي هَذِهِ كَانَ قَلِيلًا. ثُمَّ رَوَى اِبْن جَرِير أَيْضًا مِنْ وَجْه آخَر: أَنَّ مُسْلِم بْن يَسَار سَأَلَ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ذَلِكَ فَأَجَابَهُ بِهَذَا الجَوَاب، فَقَامَ إِلَى سَعِيد فَاعْتَنَقَهُ، وَقَالَ: فَرَّجَ الله عَنْك كَمَا فَرَّجْت عَنِّي.

وَهَكَذَا رُوِيَ مِنْ غَيْر وَجه عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر أَنَّهُ فَسَّرَهَا كَذَلِكَ. وَكَذَا فَسَّرَهَا مُجَاهِد بْن جبر وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف، حَتَّى أَنَّ مُجَاهِدًا قَرَأَهَا ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا﴾ بِفَتْح الذَّال. رَوَاهُ اِبْن جَرِير، إِلا أَنَّ بَعْض مَنْ فَسَّرَهَا كَذَلِكَ يُعِيد الضَّمِير فِي قَوْله ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كَذَبُوا﴾ إِلَى أَتْبَاع الرُّسُل مِنْ المُؤْمِنِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعِيدهُ إِلَى الكَافِرِينَ مِنْهُمْ، أَيْ: وَظَنَّ الكُفَّار أَنَّ الرُّسُل قَدْ كُذِبُوا -مُخَفَّفَة- فِيمَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ النَّصْر. وَأَمَّا اِبْن مَسْعُود؛ فَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن فُضَيْل، عَنْ جحش بْن زِيَاد الضَّبِّيّ، عَنْ تَمِيم بْن حَزْلم، قَالَ: سَمِعْت عَبْد الله بْن مَسْعُود، يَقُول فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ مِنْ إِيمَان قَوْمهمْ أَنْ يُؤْمِنُوا لهمْ، وَظَنَّ قَوْمهمْ حِين أَبْطَأَ الأَمْر أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا مخففة. فَهَاتَانِ رِوَايَتَانِ عَنْ كُلّ مِنْ اِبْن مَسْعُود وَابْن عَبَّاس، وَقَدْ أَنْكَرَتْ ذَلِكَ عَائِشَة عَلَى مَنْ فَسَّرَهَا بِذَلِكَ، وَانْتَصَرَ لَهَا اِبْن جَرِير وَوَجَّهَ المَشْهُور عَنْ الجُمْهُور، وَزَيَّفَ القَوْل الآخَر بِالكُلِّيَّة، وَرَدَّهُ وَأَبَاهُ وَلَمْ يَقْبَلهُ وَلا اِرْتَضَاهُ، وَالله أَعْلَم.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: لَقَدْ كَانَ فِي خَبَر المُرْسَلِينَ مَعَ قَوْمهمْ، وَكَيْف أنجينا المُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الكَافِرِينَ ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ وَهِيَ العُقُول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ أَيْ: وَمَا كَانَ لِهَذَا القُرْآن أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُون الله، أَيْ: يُكْذَب وَيُخْتَلق، ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أَيْ: مِنْ الكُتُب المُنَزَّلَة مِنْ السَّمَاء، وَهُوَ يُصَدِّق مَا فِيهَا مِنْ الصَّحِيح، وَيَنْفِي مَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيف وَتَبْدِيل وَتَغْيِير، وَيَحْكُم عَلَيْهَا بِالنَّسْخ أَوْ التَّقْرِير، ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِنْ تَحْلِيل وَتَحْرِيم وَمَحْبُوب وَمَكْرُوه، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الأَمْر بِالطَّاعَاتِ وَالوَاجِبَات وَالمُسْتَحَبَّات، وَالنَّهْي عَنْ المُحَرَّمَات وَمَا شَاكَلَهَا مِنْ المَكْرُوهَات، وَالإِخْبَار عَنْ الأُمُور الجَلِيَّة، وَعَنْ الغُيُوب المُسْتَقْبَلة؛ المُجْمَلَة وَالتَّفْصِيلِيَّة، وَالإِخْبَار عَنْ الرَّبّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِالأَسْمَاءِ وَالصِّفَات، وَتنزيه عَنْ مُمَاثَلَة المَخْلُوقَات، فَلِهَذَا كَانَ ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ تَهْتَدِي بِهِ قُلُوبُهُم مِنْ الغَيّ إِلَى الرَّشَاد، وَمِنْ الضَّلال إِلَى السَّدَاد، وَيَبْتَغُونَ بِهَا الرَّحْمَة مِنْ رَبّ العِبَاد، فِي هَذِهِ الحَيَاة الدُّنْيَا وَيَوْم المَعَاد، فَنَسْأَل الله العَظِيم أَنْ يَجْعَلنَا مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، يَوْم يَفُوز بِالرِّبْحِ المُبَيَّضَة وُجُوههمْ النَّاضِرَة، وَيَرْجِع المُسَوَّدَة وُجُوههمْ بِالصَّفْقَةِ الخَاسِرَة.

آخِر تَفْسِير سُورَة يُوسُف عليه السلام،

وَلله الحَمْد وَالمِنَّة، وَبِهِ المُسْتَعَان، وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تفسير سُورَةُ الرَّعْدِ وهي مدنية (ترتيبها ١٣) (وآياتها ٤٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

أَمَّا الكَلَام عَلَى الحُرُوف المُقَطَّعَة فِي أَوَائِل السُّور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة تبدئ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ أَيْ: هَذِهِ آيَات الكِتَاب وَهُوَ القُرْآن، وَقِيلَ: التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل، قَالَهُ مُجَاهِد وَقَتَادَة، وَفِيهِ نَظَر، بَل هُوَ بَعِيد، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ عَطْف صِفَات، فَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّد ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ خَبَر تَقَدَّمَ مُبْتَدَؤُهُ وَهُوَ قَوْله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هَذَا هُوَ الصَّحِيح المُطَابِق لِتَفْسِيرِ مُجَاهِد وَقَتَادَة، وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنْ تَكُون الوَاو زَائِدَة، أَوْعَاطِفَة صِفَة عَلَى صِفَة، كَمَا قَدَّمْنَا وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ الشَّاعِر:

إِلَى المَلِك القَرْمِ وَابْنِ الهُمَامِ ❁ وَلَيْثِ الكَتِيبَةِ فِي المُزْدَحَمِ

وَقَوْله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أَيْ: مَعَ هَذَا البَيَان وَالجَلَاء وَالوُضُوح لَا يُؤْمِن أَكْثَرهمْ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ الشِّقَاق وَالعِنَاد وَالنِّفَاق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾

يُخْبِر الله تَعَالَى عَنْ كَمَالِ قُدْرَته وَعَظِيم سُلطَانه: أَنَّهُ الَّذِي بِإِذْنِهِ وَأَمْره رَفَعَ السَّمَوَات بِغَيْرِ عَمَد، بَل بِإِذْنِهِ وَأَمْره وَتَسْخِيره رَفَعَهَا عَنْ الأَرْض بُعْدًا لَا تُنَال وَلَا يُدْرَك مَدَاهَا، فَالسَّمَاء الدُّنْيَا مُحِيطَة بِجَمِيعِ الأَرْض وَمَا حَوْلهَا؛ مِنْ المَاء وَالهَوَاء، مِنْ جَمِيع نَوَاحِيهَا وَجِهَاتِهَا وَأَرْجَائِهَا، مُرْتَفِعَة عَلَيْهَا مِنْ كُلّ جَانِب عَلَى السَّوَاء، وَبُعْد مَا بَيْنهَا وَبَيْن الأَرْض مِنْ كُلّ نَاحِيَة مَسِيرَة خَمْسِمِائَةِ عَام، وَسُمْكهَا فِي نَفْسهَا مَسِيرَة خَمْسِمِائَةِ عَام، ثُمَّ السَّمَاء الثَّانِيَة مُحِيطَة بِالسَّمَاءِ الدُّنْيَا وَمَا حَوَتْ، وَبَيْنهمَا مِنْ بُعْد مَسِيرة خَمْسِمِائَةِ عَام وَسُمْكهَا خَمْسِمِائَةِ عَام. وَهَكَذَا الثَّالِثَة وَالرَّابِعَة وَالخَامِسَة وَالسَّادِسَة وَالسَّابِعَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ الآيَة، وَفِي الحَدِيث: «**مَا السَّمَوَات السَّبْع وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنهنَّ فِي الكُرْسِيّ إلا كَحَلقَةٍ مُلقَاة بِأَرْضٍ فَلاة، وَالكُرْسِيّ فِي العَرْش المَجِيد كَتِلكَ الحَلقَة فِي تِلكَ الفَلاة**». وَفِي رِوَايَة: «**وَالعَرْش لا يُقَدِّر قَدْره إلا الله ﷻ**».

وَجَاءَ عَنْ بَعْض السَّلَف: أَنَّ بُعْد مَا بَيْن العَرْش إِلَى الأَرْض مَسِيرَة خَمْسِينَ أَلف سَنَة، وَبُعْد مَا بَيْن قُطْرَيْهِ مَسِيرَة خَمْسِينَ أَلف سَنَة، وَهُوَ مِنْ يَاقُوتَة حَمْرَاء. وَقَوْله: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَالحَسَن وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد أَنَّهُمْ قَالُوا: لَهَا عَمَد وَلَكِنْ لَا تُرَى. وَقَالَ إِيَاس بْن مُعَاوِيَة: السَّمَاء مقببة عَلَى الأَرْض مِثْل القُبَّة. يَعْنِي: بِلَا عَمَد، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَة، وَهَذَا هُوَ اللَّائِق بِالسِّيَاقِ، وَالظَّاهِر مِنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۗ﴾ فَعَلَى هَذَا يَكُون قَوْله ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ تَأْكِيدًا لِنَفْيِ ذَلِكَ، أَيْ: هِيَ مَرْفُوعَة بِغَيْرِ عَمَد كَمَا تَرَوْنَهَا وَهَذَا هُوَ الأَكْمَل فِي القُدْرَة، وَفِي شِعْر أُمَيَّة بْن أَبِي الصَّلت -الذي آمَنَ شِعْره وَكَفَرَ قَلبه كَمَا وَرَدَ فِي الحَدِيث-، وَيُرْوَى لِزَيْدِ بْن عَمْرو بْن نُفَيْل رضي الله عنه:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْل مَنّ وَرَحْمَة ❁ بَعَثْت إِلَى مُوسَى رَسُولاً مُنَادِيَا

فَقُلت لَهُ يَا اذْهَبْ وَهَارُون فَادْعُوَا ❁ إِلَى الله فِرْعَوْن الَّذِي كَانَ طَاغِيَا

وَقُـولا لَـهُ هَـل أَنْـتَ سَـوَّيْت هَـذِهِ ❁ بِـلا وَتَـد حَتَّـى اطمأنـت كَمَـا هِيَـا
وَقُـــولا لَـــهُ أأنْـــتَ رَفَعْـــت هَـــذِهِ ❁ بِـــلا عَمَـــد أَرْفِـــقْ إِذًا بِـــك بَانِيَـــا
وَقُـولا لَـهُ هَـل أَنْـتَ سَـوَّيْت وَسْـطهَا ❁ مُـنِيرًا إِذَا مَـا جَنَّـك اللَّيْـل هَادِيَـا
وَقُـولا لَـهُ مَـنْ يُرْسِـل الشَّمْس غَدْوَة ❁ فَيُصْبح مَا مَسَّتْ مِنْ الأَرْض ضَاحِيَا
وقُولا لَـهُ مَنْ يُنْبِتُ الحَبّ فِي الثَّرَى ❁ فَيُـصْبح مِنْـهُ البقـل يَهْتَـزّ رَابِيَـا
وَيُخْـرِج مِنْـهُ حَبّـه فِـي رُءُوسـه ❁ ففِـي ذَاكَ آيَـات لِمَـنْ كَـانَ وَاعِيَـا

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيره فِي سُورَة الأَعْرَاف، وَأَنَّهُ يُمَرّر كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْر تَكْيِيف وَلَا تَشْبِيه وَلَا تَعْطِيل وَلَا تَمْثِيل، تَعَالَى الله عُلُوًّا كَبِيرًا. وَقَوْله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قِيلَ: المُرَاد أَنَّهُمَا يَجْرِيَانِ إِلَى انْقِطَاعهمَا بِقِيَام السَّاعَة، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

وَقِيلَ: المُرَاد إِلَى مُسْتَقَرّهمَا؛ وَهُوَ تَحْت العَرْش مِمَّا يَلِي بَطْن الأَرْض مِنْ الجَانِب الآخَر، فَإِنَّهُمَا وَسَائِر الكَوَاكِب إِذَا وَصَلُوا هُنَالِكَ يَكُونُونَ أَبْعَد مَا يَكُون عَنْ العَرْش؛ لأَنَّهُ عَلَى الصَّحِيح الَّذِي تَقُوم عَلَيْهِ الأَدِلَّة: قُبَّة مِمَّا يَلِي العَالَمَ مِنْ هَذَا الوَجْه، وَلَيْسَ بِمُحِيطٍ كَسَائِرِ الأَفْلَاك؛ لأَنَّ لَهُ قَوَائِم وَحَمَلَة يَحْمِلُونَهُ، وَلَا يُتَصَوَّر هَذَا فِي الفَلَك المُسْتَدِير، وَهَذَا وَاضِح لِمَنْ تَدَبَّرَ مَا وَرَدَتْ بِهِ الآيَات وَالأَحَادِيث الصَّحِيحَة، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة. وَذَكَرَ الشَّمْس وَالقَمَر؛ لأَنَّهُمَا أَظْهَر الكَوَاكِب السَّيَّارَة السَّبْعَة، الَّتِي هِيَ أَشْرَف وَأَعْظَم مِنْ الثَّوَابِت، فَإِذَا كَانَ قَدْ سَخَّرَ هَذِهِ فَلَأَنْ يَدْخُل فِي التَّسْخِير سَائِر الكَوَاكِب بِطَرِيقِ الأَوْلَى وَالأَحْرَى، كَمَا نَبَّهَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ مَعَ أَنَّهُ قَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وَقَوْله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أَيْ: يُوَضِّح الآيَات وَالدَّلَالَات الدَّالَّة عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ يُعِيد الخَلق إِذَا شَاءَ كَمَا ابتدأ خلقه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى العَالَمَ العُلوِيّ، شَرَعَ فِي ذِكْر قُدْرَته وَحِكْمَته وَإِحْكَامه لِلعَالَمِ السُّفْلِيّ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أَيْ: جَعَلَهَا مُتَّسِعَة مُمْتَدَّة فِي الطُّول وَالعَرْض، وَأَرْسَاهَا بِجِبَالٍ رَاسِيَات شَامِخَات، وَأَجْرَى فِيهَا الأَنْهَار وَالجَدَاوِل وَالعُيُون؛ لِيَسْقِيَ مَا جُعِلَ فِيهَا مِنْ الثَّمَرَات المُخْتَلِفَة الأَلْوَان وَالأَشْكَال، وَالطُّعُوم وَالرَّوَائِح ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أَيْ: مِنْ كُلّ شَكْل صِنْفَانِ. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أَيْ: جَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا يَطْلُب الآخَر طَلَبًا حَثِيثًا، فَإِذَا ذَهَبَ هَذَا غَشِيَهُ هَذَا، وَإِذَا انْقَضَى هَذَا جَاءَ الآخَر، فَيَتَصَرَّف أَيْضًا فِي الزَّمَان كَمَا يَتَصَرَّف أيضـًا فِي المَكَان وَالسُّكَّان. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيْ: فِي آلَاء الله وَحكمته وَدَلَائِله. وَقَوْله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أَيْ: أَرَاضٍ يُجَاوِر بَعْضهَا بَعْضًا، مَعَ أَنَّ هَذِهِ طَيِّبَة تُنْبِت مَا ينتفع به النَّاس، وَهَذِهِ سَبِخَة مَالِحَة لَا تُنْبِت شَيْئًا. هَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالضَّحَّاك وَغَيْرهم، وَكذا يَدخَل فِي هَذِهِ الآيَة اخْتِلَاف أَلْوَان بِقَاع الأَرْض، فَهَذِهِ تُرْبَة حَمْرَاء، وَهَذِهِ بَيْضَاء، وَهَذِهِ صَفْرَاء وَهَذِهِ سَوْدَاء، وَهَذِهِ مُحَجَّرَة، وَهَذِهِ سَهْلَة، وَهَذِهِ مُرَمَّلَة، وَهَذِهِ سَمِيكَة، وَهَذِهِ رَقِيقَة، وَالكُلّ مُتَجَاوِرَات، فَهَذِهِ بِصِفَتِهَا، وَهَذِهِ بِصِفَتِهَا الأُخْرَى، فَهَذَا كُلّه مِمَّا يَدُلّ عَلَى الفَاعِلِ المُخْتَار لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبّ سِوَاهُ.

وَقَوْله: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ يَحْتَمِل أَنْ تَكُون عَاطِفَة عَلَى جَنَّات، فَيَكُون ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ مَرْفُوعِينَ، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون مَعْطُوفًا عَلَى ﴿أَعْنَٰبٍ﴾ فَيَكُون مَجْرُورًا، وَلِهَذَا قَرَأَ بِكُلٍّ مِنْهُمَا طَائِفَة مِنَ الأَئِمَّة.

وَقَوْله: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ الصِّنْوَان: هِيَ الأُصُول الْمُجْتَمِعَة فِي مَنْبَت وَاحِد، كَالرُّمَّانِ وَالتِّين وَبَعْض النَّخِيل وَنَحْو ذَلِكَ، وَغَيْر الصِّنْوَان: مَا كَانَ عَلَى أَصْل وَاحِد كَسَائِرِ الأَشْجَار، وَمِنْهُ سُمِّيَ عَمّ الرَّجُل صِنْو أَبِيهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ لِعُمَرَ: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ»[1]. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَشُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ الْبَرَاء ﷺ: الصِّنْوَان هِيَ النَّخَلَات فِي أَصْل وَاحِد، وَغَيْر الصِّنْوَان الْمُتَفَرِّقَات. وَقَالَهُ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم.

وَقَوْله: ﴿تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قَالَ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قَالَ: «الدَّقَلُ وَالفَارِسِيّ وَالحُلْو وَالحَامِض»[2]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَقَالَ: حَسَن غَرِيب. أَيْ: هَذَا الاِخْتِلَاف فِي أَجْنَاس الثَّمَرَات وَالزُّرُوع؛ فِي أَشْكَالهَا وَأَلْوَانهَا، وَطُعُومهَا وَرَوَائِحهَا، وَأَوْرَاقهَا وَأَزْهَارهَا، فَهَذَا فِي غَايَة الْحَلَاوَة، وَذَا فِي غَايَة الْحُمُوضَة، وَذَا فِي غَايَة الْمَرَارَة وَذَا عَفِص، وَهَذَا عَذْب، وَهَذَا جَمَع هذا وَهَذَا، ثُمَّ يَسْتَحِيل إِلَى طَعْم آخَر بِإِذْنِ الله تَعَالَى، وَهَذَا أَصْفَر وَهَذَا أَحْمَر وَهَذَا أَبْيَض وَهَذَا أَسْوَد وَهَذَا أَزْرَق، وَكَذَلِكَ الزُّهُورَات مَعَ أَنَّهَا كُلّهَا تَسْتَمِدّ مِنْ طَبِيعَة وَاحِدَة وَهُوَ الْمَاء، مَعَ هَذَا الاِخْتِلَاف الْكَثِير الَّذِي لَا يَنْحَصِر وَلَا يَنْضَبِط، فَفِي ذَلِكَ آيَات لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَم الدَّلَالَات عَلَى الْفَاعِل الْمُخْتَار، الَّذِي بِقُدْرَتِهِ فَاوَتَ بَيْن الأَشْيَاء، وَخَلَقَهَا عَلَى مَا يُرِيد، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ مِنْ تَكْذِيب هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِأَمر الْمَعَاد، مَعَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَات الله سُبْحَانه، وَدَلَالاته فِي خَلقه عَلَى أَنَّهُ الْقَادِر عَلَى مَا يَشَاء، وَمَعَ مَا يَعْتَرِفُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلق الأَشْيَاء، فَكَوَّنَهَا بَعْد أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، ثُمَّ هُمْ بَعْد هَذَا يُكَذِّبُونَ خَبَره فِي أَنَّهُ سَيُعِيدُ الْعَالَمِين خَلقًا جَدِيدًا، وَقَدْ اعْتَرَفُوا وَشَاهَدُوا مَا هُوَ أَعْجَب مِمَّا كَذَّبُوا بِهِ، فَالْعَجَب مِنْ قَوْلهمْ: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَقَدْ عَلِمَ كُلّ عَالِم وَعَاقِل: أَنَّ خَلق السَّمَوَات وَالأَرْض أَكْبَر مِنْ خَلق النَّاس، وَأَنَّ مَنْ بَدَأَ الْخَلق فَالإِعَادَة سهلة عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثُمَّ نَعَتَ الْمُكَذِّبِينَ بِهَذَا فَقَالَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أَيْ: يُسْحَبُونَ بِهَا فِي النَّار ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أَيْ: مَاكِثُونَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُحَوَّلُونَ عَنْهَا وَلَا يَزُولُونَ.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أَيْ: بِالْعُقُوبَة، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي قَوْله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الآيَتَيْنِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَلَ

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٩٨٣).

(٢) **لا يصح**: أخرجه الترمذي (٣١١٨)، وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني!! وقال ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وسيف متفق على كذبه، قال أحمد بن حنبل: كان يضع الحديث.

﴿سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، وَقَالَ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ الآية. أَيْ: عِقَابنَا وَحِسَابنَا، كَمَا قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ الآيَة، فَكَانُوا مِنْ شِدَّة تَكْذِيبهمْ وَعِنَادهمْ وَكُفْرهمْ يَطْلُبُونَ أَنْ يَأْتِيهمْ بِعَذَابِ الله. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ أَيْ: قَدْ أَوْقَعنَا نِقَمنَا بِالأُمَم الخَالِيَة، وَجَعَلنَاهُمْ مُثْلة وَعِبْرَة وَعِظَة لِمَنْ اتَّعَظَ بِهِمْ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّهُ لَوْلَا حِلمه وَعَفوه لَعَاجَلَهُمْ بِالعُقُوبَة، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾. وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ أَيْ: أَنَّهُ تَعَالَى ذُو عَفْو وَصَفْح وَسَتْر لِلنَّاسِ مَعَ أَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ وَيُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار، ثُمَّ قَرَنَ هَذَا الحُكْم بِأَنَّهُ شَدِيد العِقَاب؛ لِيَعْتَدِلَ الرَّجَاء وَالخَوْف، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، وَقَالَ: ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ إِلَى أَمْثَال ذَلِكَ مِنْ الآيَات الَّتِي تَجْمَع الرَّجَاء وَالخَوْف.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا حَمَّاد، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ الآيَة، قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لَوْلَا عَفْو الله وَتَجَاوُزه مَا هَنَأَ أَحَدًا العَيْش، وَلَوْلَا وَعِيده وَعِقَابه لَاتَّكَلَ كُلّ أَحد**». وَرَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة الحَسَن بْن عُثْمَان أَبِي حَسَّان الزيادي: أَنَّهُ رَأَى رَبّ العِزَّة فِي النَّوْم، وَرَسُول الله وَاقِف بَيْن يَدَيْهِ يَشْفَع فِي رَجُل مِنْ أُمَّته، فَقَالَ لَهُ: أَلَمْ يَكْفِك أَنِّي أَنْزَلت عَلَيْك فِي سُورَة الرَّعْد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ قَالَ: ثُمَّ انْتَبَهْت.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾

يَقُول تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ المُشْرِكِينَ: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبّه كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ، كَمَا تَعَنَّتُوا عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَل لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُزِيل عَنْهُمْ الجِبَال وَيَجْعَل مَكَانهَا مُرُوجًا وَأَنْهَارًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ الآيَة. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ أَيْ: إِنَّمَا عَلَيْك أَنْ تُبَلِّغ رِسَالَة الله الَّتِي أَمَرَك بِهَا، وَ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَيْ: وَلِكُلِّ قَوْم دَاعٍ. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي تفسيرها: يَقُول الله تَعَالَى: أَنْتَ يَا مُحَمَّد مُنْذِر، وَأَنَا هَادِي كُلّ قَوْم. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد. وَعَنْ مُجَاهِد: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ أَيْ: نَبِيّ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ وَبِهِ قَالَ قَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد. وَقَالَ أَبُو صَالِح وَيَحْيَى بْن رَافِع: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ أَيْ: قَائِد، وَقَالَ أَبُو العَالِيَة: الهَادِي: القَائِد، وَالقَائِد: الإِمَام، وَالإِمَام: العَمَل. وَعَنْ عِكْرِمَة وَأَبِي الضُّحَى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ قَالَا: هُوَ مُحَمَّد ﷺ. وَقَالَ مَالِك: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ من يَدْعُوهُمْ إِلَى الله ﷻ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَحْمَد بْن يَحْيَى الصُّوفِيّ، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن الحُسَيْن الأَنْصَارِيّ، حَدَّثَنَا مُعَاذ بْن مُسْلِم، بياع الهَرَوِيّ، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ قَالَ: وَضَعَ رَسُول الله ﷺ يَده عَلَى صَدْره وَقَالَ: «**أَنَا المُنْذِر وَلِكُلّ قَوْم هَادٍ**»، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى مَنْكِب عَلِيّ. فَقَالَ: «**أَنْتَ الهَادِي يَا عَلِيّ، بِك يَهْتَدِي المُهْتَدُونَ مِنْ بَعْدِي**»[1]. وَهَذَا الحَدِيث فِيهِ نَكَارَة شَدِيدَة. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا المُطَّلِب بْن زِيَاد، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ عَبْد خَيْر، عَنْ عَلِيّ ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ قَالَ:

---

(١) منكر: أخرجه الطبري (١٣/ ١٠٨)، وحكم عليه الشيخ الألباني بالوضع؛ انظر «الضعيفة» (٤٨٩٩).

الهَادِي رَجُل مِنْ بَنِي هَاشِم. قَالَ الجُنَيْد: هُوَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب رضي الله عنه. قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: وَرُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس فِي إِحْدَى الرِّوَايَات، وَعَنْ أَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بْن عَلِيّ نَحْو ذَلِكَ.

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ تَمَام عِلمه الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء، وَأَنَّهُ مُحِيط بِمَا تَحْمِلهُ الحَوَامِل مِنْ كُلّ إِنَاث الحَيَوَانَات، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أَيْ: مَا حَمَلَتْ مِنْ ذَكَر أَوْ أُنْثَى، أَوْ حَسَن أَوْ قَبِيح، أَوْ شَقِيّ أَوْ سَعِيد، أَوْ طَوِيل العُمْر أَوْ قَصِيره، كما قال تَعَالَى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ أَيْ: خَلَقَكُمْ طَوْرًا مِنْ بَعْد طَوْر، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْن مَسْعُود قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ خَلق أَحَدكُمْ يُجْمَع فِي بَطْن أُمّه أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُون عَلَقَة مِثْل ذَلِك، ثُمَّ يَكُون مُضْغَة مِثْل ذَلِك، ثُمَّ يُبْعَث إِلَيْهِ مَلَك فَيُؤْمَر بِأَرْبَع كَلِمَات: بِكَتْب رِزْقه وَعُمُره وَعَمَله وَشَقِيّ أَوْ سَعِيد**»[1]. وَفِي الحَدِيث الآخَر: «**فَيَقُول المَلَك: أَيْ رَبّ، أَذَكَر أَمْ أُنْثَى؟ أَيْ رَبّ، أَشَقِيّ أَمْ سَعِيد؟ فَمَا الرِّزْق؟ فَمَا الأَجَل؟ فَيَقُول الله وَيَكْتُب المَلَك**»[2].

وَقَوْله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قَالَ البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن المُنْذِر، حَدَّثَنَا مَعْن، حَدَّثَنَا مَالِك، عَنْ عَبْد الله بْن دِينَار، عَنْ ابْن عُمَر، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**مَفَاتِيح الغَيْب خَمْس لا يَعْلَمهَا إِلا الله: لا يَعْلَم مَا فِي غَد إِلا الله، وَلا يَعْلَم مَا تَغِيض الأَرْحَام إِلا الله، وَلا يَعْلَم مَتَى يَأْتِي المَطَر أَحَد إِلا الله، وَلا تَدْرِي نَفْس بِأَيِّ أَرْض تَمُوت، وَلا يَعْلَم مَتَى تَقُوم السَّاعَة إِلا الله**»[3]. وَقَالَ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ يَعْنِي السِّقْط، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يَقُول: مَا زَادَتْ الرَّحِم فِي الحَمْل عَلَى مَا غَاضَتْ حَتَّى وَلَدَتْهُ تَمَامًا، وَذَلِكَ أَنَّ مِنْ النِّسَاء مَنْ تَحْمِل عَشَرَة أَشْهُر وَمنهن مَنْ تَحْمِل تِسْعَة أَشْهُر، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَزِيد فِي الحَمْل، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَنْقُص، فَذَلِكَ الغَيْض وَالزِّيَادَة الَّتِي ذَكَرَ الله تَعَالَى، وَكُلّ ذَلِكَ بِعِلمِهِ تَعَالَى. وَقَالَ الضَّحَّاك: عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قَالَ: مَا نَقَصَتْ عَنْ تِسْعَة وَمَا زَادَ عَلَيْهَا. وَقَالَ الضَّحَّاك: وَضَعَتْنِي أُمِّي وَقَدْ حَمَلَتْنِي فِي بَطْنهَا سَنَتَيْنِ، وَوَلَدَتْنِي وَقَدْ نَبَتَتْ ثَنِيَّتِي. وَقَالَ ابْن جُرَيْج: عَنْ جَمِيلَة بِنْت سَعْد، عَنْ عَائِشَة قَالَتْ: لَا يَكُون الحَمْل أَكْثَر مِنْ سَنَتَيْنِ قَدْر مَا يَتَحَرَّك ظِلّ مِغْزَل. وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قَالَ: مَا تَرَى مِنْ الدَّم فِي حَمْلهَا، وَمَا تَزْدَاد عَلَى تِسْعَة أَشْهُر. وَبِهِ قَالَ عَطِيَّة العَوْفِيّ وَالحَسَن البَصْرِيّ وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك. وَقَالَ مُجَاهِد أَيْضًا: إِذَا رَأَتْ المَرْأَة الدَّم دُون التِّسْعَة زَادَ عَلَى التِّسْعَة مِثْل أَيَّام الحَيْض. وَقَالَه عِكْرِمَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَابْن زَيْد. وَقَالَ مُجَاهِد أَيْضًا: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ إِرَاقَة المرأة حَتَّى يَخِسّ الوَلَد، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ إِنْ لَمْ تُهْرِق المرأة تَمَّ الوَلَد وَعَظُمَ. وَقَالَ مَكْحُول: الجَنِين فِي بَطْن أُمّه لَا يَطْلُب وَلَا يَحْزَن وَلَا يَغْتَمّ، وَإِنَّمَا يَأْتِيه رِزْقه فِي بَطْن أُمّه مِنْ دَم حَيْضَتهَا، فَمِنْ ثَمَّ لَا تَحِيض الحَامِل، فَإِذَا وَقَعَ إِلَى الأَرْض اسْتَهَلَّ، وَاسْتِهْلَاله اسْتِنْكَاره لِمَكَانِهِ؛ فَإِذَا قُطِعَتْ سُرَّته حَوَّلَ الله رِزْقه إِلَى ثَدْيَيْ أُمّه، حَتَّى لَا يَحْزَن وَلَا يَطْلُب وَلَا يَغْتَمّ، ثُمَّ يَصِير طِفْلًا يَتَنَاوَل الشَّيْء

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: تقدم.

بِكَفِّهِ فَيَأْكُلهُ، فَإِذَا هُوَ بَلَغَ قَالَ: هُوَ المَوْت أَوْ القَتْل أَنَّى لِي بِالرِّزْقِ؟ فقال مَكْحُول: يَا وَيلك! غَذَّاك وَأَنْتَ فِي بَطْن أُمّك وَأَنْتَ طِفْل صَغِير، حَتَّى إِذَا اشْتَدَدْت وَعَقَلت قُلْت: هُوَ المَوْت أَوْ القَتْل أَنَّى لِي بِالرِّزْقِ؟ ثُمَّ قَرَأَ مَكْحُول: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ الآيَة. وَقَالَ قَتَادَة: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ أَيْ: بِأَجَل، حَفِظَ أَرْزَاق خَلقه وَآجَالهم، وَجَعَلَ لِذَلِكَ أَجَلًا مَعْلُومًا. وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح: أَنَّ إِحْدَى بَنَات النَّبِيِّ ﷺ بَعَثَتْ إِلَيْهِ أَنَّ ابْنًا لَهَا فِي المَوْت، وَأَنَّهَا تُحِبّ أَنْ يَحْضُرهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا يَقُول: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلّ شَيْء عِنده بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرُوهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»[1]. الحَدِيث بِتَمَامِهِ.

وَقَوْله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أَيْ: يَعْلَم كُلّ شَيْء مِمَّا يُشَاهِدهُ العِبَاد وَمِمَّا يَغِيب عَنْهُمْ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْء، ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الَّذِي هُوَ أَكْبَر مِنْ كُلّ شَيْء، ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ أَيْ: عَلَى كُلّ شَيْء. ﴿قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ وَقَهَرَ كُلّ شَيْء فَخَضَعَتْ لَهُ الرِّقَاب، وَدَانَ لَهُ العِبَاد طَوْعًا وَكَرْهًا.

﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ إِحَاطَة عِلمه بِجَمِيع خَلقه، وَسَوَاء مِنْهُمْ مَنْ أَسَرَّ قَوْله أَوْ جَهَرَ بِهِ، فَإِنَّهُ يَسْمَعهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾، وَقَالَ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾، وَقَالَتْ عَائِشَة رضي الله عنها: سُبْحَان الَّذِي وَسِعَ سَمْعه الأَصْوَات، وَالله لَقَدْ جَاءَتْ المُجَادِلَة تَشْتَكِي زَوْجهَا إِلَى رَسُول الله ﷺ، وَأَنَا فِي جَنْب البَيْت وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْض كَلَامهَا، فَأَنْزَلَ الله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾. وَقَوْله: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ أَيْ: مُخْتَفٍ فِي قَعْر بَيْته فِي ظَلَام اللَّيْل ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أَيْ: ظَاهِر مَاشٍ فِي بَيَاض النَّهَار وَضِيَائِهِ، فَإِنَّ كِلَيهمَا فِي عِلم الله عَلَى السَّوَاء، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾.

وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: لِلعَبْد مَلَائِكَة يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهِ، حَرَس بِاللَّيْل وَحَرَس بِالنَّهَار، يَحْفَظُونَهُ مِنَ الأَسْوَاء وَالحَادِثَات، كَمَا يَتَعَاقَب مَلَائِكَة آخَرُونَ لِحِفْظِ الأَعْمَال، مِنْ خَيْر أَوْ شَرّ، مَلَائِكَة بِاللَّيْل وَمَلَائِكَة بِالنَّهَار، فَاثْنَانِ عَنْ اليَمِين وَالشِّمَال يَكْتُبَانِ الأَعْمَال، صَاحِب اليَمِين يَكْتُب الحَسَنَات، وَصَاحِب الشِّمَال يَكْتُب السَّيِّئَات، وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَيَحْرُسَانِهِ، وَاحِد مِنْ وَرَائِهِ وَآخَر مِنْ قُدَّامه، فَهُوَ بَيْن أَرْبَعَة أَمْلَاك بِالنَّهَار، وَأَرْبَعَة آخَرِينَ بِاللَّيْل بَدَلًا حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيح: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَة بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَة بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاة الصُّبْح وَصَلَاة العَصْر فَيَصْعَد إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلهُمْ وَهُوَ أَعْلَم بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[2]. وَفِي الحَدِيث الآخَر: «إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقكُمْ إِلَّا عِنْد الخَلَاء وَعِنْد الجِمَاع، فَاسْتَحْيُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ»[3]. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، فِي قَوْله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ وَالمُعَقِّبَات مِنْ أَمر الله وَهِيَ المَلَائِكَة.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٣٧٧)، ومسلم (٩٢٣).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٨٠١) بسند ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢١٩٤).

وَقَالَ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: مَلَائِكَة يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفه، فَإِذَا جَاءَ قَدَر الله خَلَوْا عَنْهُ. وَقَالَ مُجَاهِد: مَا مِنْ عَبْد إِلَّا لَهُ مَلَك مُوَكَّل يَحْفَظهُ فِي نَوْمه وَيَقَظَته مِنَ الجِنّ وَالإِنْس وَالهَوَامّ، فَمَا مِنْهَا شَيْء يَأْتِيه يُرِيدهُ إِلَّا قَالَ لَهُ المَلَك: وَرَاءَك، إِلَّا شَيْء أَذِنَ الله فِيهِ فَيُصِيبهُ. وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ قَالَ: ذَلِكَ مَلِك مِنْ مُلُوك الدُّنْيَا، لَهُ حَرَس مِنْ دُونه حَرَس.

وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يَعْنِي وَلِيّ الشيطان يَكُون عَلَيْهِ الحَرَس. وَقَالَ عِكْرِمَة فِي تَفْسِيرهَا: هَؤُلَاءِ الأُمَرَاء المَوَاكِب مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفه. وَقَالَ الضَّحَّاك فِي الآيَة: هُوَ السُّلطَان المحترس مِنْ أَمْر الله، وَهُمْ أَهْل الشِّرْك. وَالظَّاهِر وَالله أَعْلَم أَنَّ مُرَاد ابْن عَبَّاس وَعِكْرِمَة وَالضَّحَّاك بِهَذَا أَنَّ حَرَس المَلَائِكَة للعبيد يُشْبِه حَرَس هَؤُلَاءِ لِمُلُوكِهِمْ وَأُمَرَائِهِمْ. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير هَاهُنَا حَدِيثًا غَرِيبًا جِدًّا فَقَالَ: حَدَّثَنِي المُثَنَّى، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن عَبْد السَّلَام بْن صَالِح القشيري، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن جَرِير، عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَبْد الحَمِيد بْن جَعْفَر، عَنْ كِنَانَة العدوي قال: دَخَلَ عُثْمَان بْن عفان عَلَى رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، أَخْبِرْنِي عَنْ العَبْد كَمْ مَعَهُ مِنْ مَلَك؟ فَقَالَ: «مَلَك عَنْ يَمِينك عَلَى حَسَنَاتك، وَهُوَ آمِر عَلَى الَّذِي عَلَى الشِّمَال، فَإِذَا عَمِلت حَسَنَة كُتِبَتْ عَشْرًا، وَإِذَا عَمِلت سَيِّئَة قَالَ الَّذِي عَلَى الشِّمَال لِلَّذِي عَلَى اليَمِين: أَكْتُبْ؟ قَالَ: لَا؛ لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِر الله وَيَتُوب، فَيَسْتَأْذِنهُ ثَلَاث مَرَّات، فَإِذَا قَالَ ثَلَاثًا، قَالَ: نعم اكتب، أَرَاحَنَا الله مِنْهُ فَبِئْسَ القَرِين، مَا أَقَلّ مُرَاقَبَته لِلَّهِ وَأَقَلّ اسْتِحْيَاءَهُ مِنَّا، يَقُول الله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وَمَلَكَانِ مِنْ بَيْن يَدَيْك وَمِنْ خَلفك، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، وَمَلَك قَابِض عَلَى نَاصِيَتك، فَإِذَا تَوَاضَعْت لِلَّهِ رَفَعَك، وَإِذَا تَجَبَّرْت عَلَى الله قَصَمَك، وَمَلَكَانِ عَلَى شَفَتَيْك لَيْسَ يَحْفَظَانِ عَلَيْك إِلا الصَّلَاة عَلَى مُحَمَّد ﷺ، وَمَلَك قَائِم عَلَى فِيك لَا يَدَع أَنْ تَدْخُل الحَيَّة فِي فِيك، وَمَلَكَانِ عَلَى عَيْنَيْك، فَهَؤُلَاءِ عَشَرَة أَمْلَاك عَلَى كُلّ آدَمِيّ، يَنْزِلُونَ مَلَائِكَة اللَّيْل عَلَى مَلَائِكَة النَّهَار؛ لِأَنَّ مَلَائِكَة اللَّيْل سِوَى مَلَائِكَة النَّهَار، فَهَؤُلَاءِ عِشْرُونَ مَلَكًا عَلَى كُلّ آدَمِيّ، وَإِبْلِيس بِالنَّهَار وَوَلَده بِاللَّيْل»[1].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا أَسْوَد بْن عَامِر، حَدَّثَنَا سُفْيَان، حَدَّثَنِي مَنْصُور، عَنْ سَالِم بْن أَبِي الجَعْد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد إِلا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينه مِنَ الجِنّ وَقَرِينه مِنَ المَلَائِكَة». قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ، وَلَكِنْ أَعَانَنِي الله عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرنِي إِلا بِخَيْر»[2]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِم.

وَقَوْله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قِيلَ: المُرَاد حِفظهم لَهُ مِنْ أَمْر الله، رَوَاهُ علي بْن أَبِي طَلْحَة وَغَيْره، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَإِبْرَاهِيم النخعي وَغَيْرهمْ، وَقَالَ قتادة: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: وَفِي بَعْض القِرَاءَات (يَحْفَظُونَهُ بِأَمْر الله). وَقَالَ كَعْب الأَحْبَار: لَوْ تَجَلَّى لِابْنِ آدَم كُلّ سَهْل وَحَزْن لَرَأَى على كُلّ شَيْء مِنْ ذَلِكَ شياطين، لَوْلَا أَنَّ الله وَكَّلَ بِكُمْ مَلَائِكَة يَذُبُّونَ عَنْكُمْ فِي مَطْعَمكُمْ وَمَشْرَبكُمْ وَعَوْرَاتكُمْ إِذًا لَتُخُطِّفْتُمْ. وَقَالَ أَبُو أُمَامَة: مَا مِنْ آدَمِيّ إِلَّا وَمَعَهُ مَلَك موكل يَذُود عَنْهُ حَتَّى يُسَلِّمهُ لِلَّذِي قُدِّرَ لَهُ.

وَقَالَ أَبُو مِجْلَز: جَاءَ رَجُل مِنْ مُرَاد إِلَى عَلِيّ رضي الله عنه، وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَ: احْتَرِسْ؛ فَإِنَّ نَاسًا مِنْ مُرَاد يُرِيدُونَ قَتْلك؛ فَقَالَ: إِنَّ مَعَ كُلّ رَجُل مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ مِمَّا لَمْ يُقَدَّر، فَإِذَا جَاءَ القَدَر خَلَّيَا بَيْنه وَبَيْنه، إِنَّ الأَجَل جُنَّة حَصِينَة. وَقَالَ بَعْضهمْ: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بِأَمْر الله، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُول الله، أَرَأَيْت رُقًى نَسْتَرْقِي بِهَا هَل

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٣٥٠)، وفيه من لم أقف له على ترجمة كإبراهيم بن عبد السلام بن صالح.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨١٤)، وأحمد (١/ ٣٩٧).

تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ الله شَيْئًا؟ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ الله»[١]. وَقَالَ ابن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا حَفص بْن غِيَاث، عَنْ أَشْعَث، عَنْ جَهْم، عَنْ إِبْرَاهِيم قَالَ: أَوْحَى الله ﷻ، إِلَى نَبِيّ مِنْ أَنْبِيَاء بَنِي إِسْرَائِيل أَنْ قُل لِقَوْمِك: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَة وَلَا أَهْلِ بَيْت، يَكُونُونَ عَلَى طَاعَة الله فَيَتَحَوَّلُونَ مِنْهَا إِلَى مَعْصِيَة الله، إِلَّا تحوَّلَ الله لهُمْ مما يُحِبُّونَ إِلَى مَا يَكْرَهُونَ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ مصداق ذَلِكَ فِي كِتَاب الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وَقَدْ وَرَدَ هَذَا فِي حَدِيث مَرْفُوع؛ فَقَالَ الحَافِظ مُحَمَّد بْن عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة فِي كِتَابه «صِفَة العَرْش»: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا الهَيْثَم بْن الأَشْعَث السُّلَمِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو حَنِيفَة اليَامِيّ الأَنْصَارِيّ، عَنْ عُمَيْر بْن عَبْد المَلِك قَالَ: خَطَبَنَا عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب عَلَى مِنْبَر الكُوفَة قَالَ: كُنْت إِذَا سكت عَنْ رَسُول الله ﷺ، ابْتَدَأَنِي، وَإِذَا سَأَلته عَنْ الخَبَر أَنْبَأَنِي، وَإِنَّهُ حَدَّثَنِي عَنْ رَبّه ﷻ، قَالَ: «**قَالَ الرَّبّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي، وَارْتِفَاعِي فَوْق عَرْشِي مَا مِنْ قَرْيَة وَلا أَهْل بَيْت كَانُوا عَلَى مَا كَرِهْت مِنْ مَعْصِيَتِي، ثُمَّ تَحَوَّلُوا عَنْهَا إِلَى مَا أَحْبَبْت مِنْ طَاعَتِي إلا تَحَوَّلت لَهُمْ عَمَّا يَكْرَهُونَ مِنْ عَذَابِي إِلَى مَا يُحِبُّونَ مِنْ رَحْمَتِي**»[٢]. وَهَذَا غَرِيب، وَفِي إِسْنَاده مَنْ لَا أَعْرِفهُ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾

يُخْبِر تَعَالَى: أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُسَخِّر البَرْق، وَهُوَ مَا يُرَى مِنَ النُّور اللَّامِع سَاطِعًا مِنْ خَلَل السَّحَاب. وَرَوَى ابْن جَرِير: أَنَّ ابْن عَبَّاس كَتَبَ إِلَى أَبِي الجَلد يَسْأَلهُ عَنْ البَرْق فَقَالَ: البَرْق المَاء. وَقَوْله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قَالَ قَتَادَة: خَوْفًا لِلْمُسَافِرِ يَخَاف أَذَاهُ وَمَشَقَّته، وَطَمَعًا لِلْمُقِيمِ، يَرْجُو بَرَكَته وَمَنْفَعَته، وَيَطْمَع فِي رِزْق الله.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أَيْ: وَيَخْلُقهَا مُنْشَأَة جَدِيدَة، وَهِيَ لِكَثْرَةِ مَائِهَا ثَقِيلَة قَرِيبَة إِلَى الأَرْض قَالَ مُجَاهِد: وَالسَّحَاب الثِّقَال الَّذِي فِيهِ المَاء. قَالَ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعْد، أَخْبَرَنِي أَبِي، قَالَ: كُنْت جَالِسًا إِلَى جَنْب حُمَيْد بْن عَبْد الرَّحْمَن فِي المَسْجِد؛ فَمَرَّ شَيْخ مِنْ بَنِي غِفَار؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ حُمَيْد؛ فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ: يَا ابْن أَخِي، وَسِّعْ له فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنك، فَإِنَّهُ قَدْ صَحِبَ رَسُول الله ﷺ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَس فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنه، فَقَالَ لَهُ حُمَيْد: مَا الحَدِيث الَّذِي حَدَّثْتنِي عَنْ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخ: سَمِعْت النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «**إِنَّ الله يُنْشِئ السَّحَاب فَيَنْطِق أَحْسَن النُّطْق وَيَضْحَك أَحْسَن الضَّحِك**»[٣]. وَالمُرَاد وَالله أَعْلَم: أَنَّ نُطْقَهَا الرَّعْد وَضَحِكهَا البَرْق.

وَقَالَ مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ سَعْد بْن إِبْرَاهِيم قَالَ: يَبْعَث الله الغَيْث فَلَا أَحْسَن مِنْهُ مَضْحَكًا، وَلَا آنس مِنْهُ مَنطِقًا، فَضَحِكه البَرْق وَمَنْطِقه الرَّعْد. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عُبَيْد الله الرازي، عَنْ مُحَمَّد بْن مُسْلِم، قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ البَرْق مَلَك لَهُ أَرْبَعَة وُجُوه: وَجْه إِنْسَان، وَوَجْه ثَوْر، وَوَجْه نَسْر، وَوَجْه أَسَد، فَإِذَا مَصَعَ بِذَنَبِهِ فَذَاكَ البَرْق. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا عَبْد الوَاحِد بْن زِيَاد، حَدَّثَنَا الحَجَّاج، حَدَّثَنَا أَبُو مَطَر، عَنْ سَالِم، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا سَمِعَ الرَّعْد وَالصَّوَاعِق قَالَ: «**اللهمَّ لا تَقْتُلنَا بِغَضَبك، وَلا تُهْلِكنَا بِعَذَابِك وَعَافِنَا قَبْل ذَلِك**»[٤]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَالبُخَارِيّ فِي كِتَاب الأَدَب، وَالنَّسَائِيّ فِي اليَوْم وَاللَّيْلَة، وَالحَاكِم فِي مُسْتَدْرَكه، مِنْ حَدِيث الحَجَّاج بْن أَرْطَاة، عَنْ أَبِي مَطَر، وَلَمْ يُسَمَّ بِهِ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَر

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٢١٤٩)، وابن ماجه (٣٤٣٧)، وضعفه الألباني.
(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي ستين في «العرش» (١٩)، وابن بطة في «الإبانة» (١٣٤)، وسنده ضعيف.
(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٢٠).
(٤) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣٤٤٦)، وأحمد (٣/ ١٠٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٤٢١).

ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَجُل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، رَفَعَ الحديث أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْد قَالَ: «**سُبْحَان مَنْ يُسَبِّح الرَّعْد بِحَمْدِهِ**»[1]. وَرُوِيَ عَنْ عَلِيّ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْت الرَّعْد قال: سُبْحَان مَنْ سَبَّحْتَ لَهُ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس وَطَاوُس وَالأَسْوَد بْن يَزِيد: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ كَذَلِكَ. وَقَالَ الأَوْزَاعِيّ: كَانَ ابْن أَبِي زَكَرِيَّا يَقُول: مَنْ قَالَ حِين يَسْمَع الرَّعْد: سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ لَمْ تُصِبْهُ صَاعِقَة. وَعَنْ عَبْد الله بْن الزُّبَيْر: أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْد تَرَكَ الحَدِيث، وَقَالَ: سُبْحَان الَّذِي يُسَبِّح الرَّعْد بِحَمْدِهِ وَالمَلَائِكَة مِنْ خِيفَته. وَيَقُول: إِنَّ هَذَا لَوَعِيد شَدِيد لِأَهْلِ الأَرْض. رَوَاهُ مَالِك فِي مُوَطَّئِهِ وَالبُخَارِيّ فِي كِتَاب الأَدَب.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن دَاوُد الطَّيَالِسِيّ، حَدَّثَنَا صَدَقَة بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن وَاسِع، عَنْ شتير بْن نَهَار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «**قَالَ رَبُّكُمْ ﷻ: لَوْ أَنَّ عَبِيدِي أَطَاعُونِي لَأَسْقَيْتُهمْ المَطَر بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْت عَلَيْهِمْ الشَّمْس بِالنَّهَارِ، وَلَمَا أَسْمَعْتهمْ صَوْت الرَّعْد**»[2]. وَقَالَ الطَّبَرَانِي: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْن يَحْيَى السَّاجِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو كَامِل الجَحْدَرِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن كَثِير أَبُو النَّضْر، حَدَّثَنَا عَبْد الكَرِيم، حَدَّثَنَا عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ الرَّعْد فَاذْكُرُوا الله؛ فَإِنَّهُ لَا يُصِيب ذَاكِرًا**»[3].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أَيْ: يُرْسِلهَا نِقْمَة يَنْتَقِم بِهَا مِمَّنْ يَشَاء، وَلِهَذَا تَكْثُر فِي آخِر الزَّمَان، كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُصْعَب، حَدَّثَنَا عُمَارَة، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**تَكْثُر الصَّوَاعِق عِنْد اقْتِرَاب السَّاعَة، حَتَّى يَأْتِي الرَّجُل القَوْم فَيَقُول: مَنْ صَعِقَ تِلْكُمْ الغَدَاة؟ فَيَقُولُونَ: صَعِقَ فُلَان وَفُلَان وَفُلَان**»[4]. وَقَدْ رُوِيَ فِي سَبَب نُزُولهَا مَا رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بن أبي إسرائيل، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن أَبِي سَارَة الشَّيْبَانِيّ، حَدَّثَنَا ثَابِت، عَنْ أَنَس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ بَعَثَ رَجُلًا مَرَّة إِلَى رَجُل مِنْ فَرَاعِنَة العَرَب، فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي**». قَالَ: فَذَهَبَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَدْعُوك رَسُول الله ﷺ. فَقَالَ لَهُ: مَنْ رَسُول الله؟ وَمَا الله؟ أَمِنْ ذَهَب هُوَ؟ أَمْ مِنْ فِضَّة هُوَ؟ أَمْ مِنْ نُحَاس هُوَ؟ قَالَ: فَرَجَعَ إِلَى رَسُول الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، قَدْ أخبرتُك أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ، قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ لِي: «**ارْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَة**» -أراه- فَذَهَبَ فَقَالَ لَهُ مِثْلهَا، فَرَجَعَ إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُول الله، قَدْ أَخْبَرْتُك أَنَّهُ أَعْتَى مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ: «**ارْجِعْ إِلَيْهِ فَادْعُهُ**». فَرَجَعَ إِلَيْهِ الثَّالِثَة، قَالَ: فَأَعَادَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الكَلَام، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمهُ إِذْ بَعَثَ الله ﷻ سَحَابَة حِيَال رَأْسه، فَرَعَدَتْ فَوَقَعَتْ مِنْهَا صَاعِقَة فَذَهَبَتْ بِقِحْفِ رَأْسه، فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآيَة[5]. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث عَلِيّ بْن أَبِي سَارَة بِهِ. وَرَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: عَنْ عَبْدَة ابْن عَبْد الله عَنْ يَزِيد بْن هَارُون، عَنْ دَيْلَم بْن غَزْوَان، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، فَذَكَرَ نَحْوه. وَقَالَ: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا أَبَان بْن يَزِيد، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن صُحَار العَبْدِيّ أَنَّهُ بَلَغَهُ: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ بَعَثَ إِلَى جَبَّار يَدْعُوهُ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ رَبّكُمْ أَذَهَب هُوَ؟ أَمْ فِضَّة هُوَ؟ أَمْ لُؤْلُؤ هُوَ؟ قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ يُجَادِلهُمْ إِذْ بَعَثَ الله سَحَابَة فَرَعَدَتْ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ صَاعِقَة، فَذَهَبَتْ بِقِحْفِ رَأْسه وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة[6].

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٢٤) بسند ضعيف، فيه جهالة الراوي عن أبي هريرة.
(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩) بسند ضعيف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٨٨٣).
(٣) **ضعيف**: أخرجه الطبراني (١١/ ١٦٤)، وسنده ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٥١).
(٤) **إسناده فيه ضعف**: أخرجه أحمد (٣/ ٦٤)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٨) وقال: رواه أحمد عن محمد بن مصعب وهو ضعيف.
(٥) **إسناده ضعيف**: أخرجه أبو يعلى (٣٣٤١، ٣٣٤٢)، والطبري (١٣/ ١٢٥) بسند ضعيف، فيه علي بن أبي سارة الشيباني وهو ضعيف، ولكن تشهد له الرواية التالية.
(٦) **صحيح**: أخرجه البزار (٣/ ٢٢٢١)، وسنده صحيح.

وَقَالَ أَبُو بَكْر ابن عَيَّاش، عَنْ لَيْث بن أَبِي سُلَيْم، عَنْ مُجَاهِد، قَالَ: جَاءَ يَهُودِيّ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّد، أَخْبِرْنِي عَنْ رَبّك مِنْ أَيّ شَيْء هُوَ؟ مِنْ نُحَاس هُوَ؟ أَمْ مِنْ لُؤْلُؤ أَوْ يَاقُوت؟ قَالَ: فَجَاءَتْ صَاعِقَة فَأَخَذَتْهُ، وَأَنْزَلَ الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآيَة. وَقَالَ قَتَادَة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا أَنْكَرَ القُرْآن وَكَذَّبَ النَّبِيّ ﷺ، فَأَرْسَلَ الله صَاعِقَة فَأَهْلَكَتْهُ، وَأَنْزَلَ الله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآيَة.

وَذَكَرُوا فِي سَبَب نُزُولهَا قِصَّة عَامِر بْن الطُّفَيْل وَأَرْبَد بْن رَبِيعَة لَمَّا قَدِمَا عَلَى رَسُول الله ﷺ، المَدِينَة فَسَأَلَاهُ أَنْ يَجْعَل لَهُمَا نِصْف الأَمْر، فَأَبَى عَلَيْهِمَا رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ عَامِر بْن الطُّفَيْل -لَعَنَهُ الله-: أَمَا وَالله لَأَمْلَأَنَّهَا عَلَيْك خَيْلًا جُرْدًا وَرِجَالًا مُرْدًا، فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «يَأْبَى الله عَلَيْكَ ذَلِكَ وَأَبْنَاءُ قَيْلَة» يَعْنِي: الأَنْصَار، ثُمَّ إِنَّهُمَا هَمَّا بِالفَتْكِ بِرَسُولِ الله ﷺ، فَجَعَلَ أَحَدهمَا يُخَاطِبهُ وَالآخَر يَسْتَلّ سَيْفه لِيَقْتُلهُ مِنْ وَرَائِهِ، فَحَمَاهُ الله تَعَالَى مِنْهُمَا وَعَصَمَهُ، فَخَرَجَا مِنْ المَدِينَة فَانْطَلَقَا فِي أَحْيَاء العَرَب يَجْمَعَانِ النَّاس لِحَرْبِهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ الله عَلَى أَرْبَد سَحَابَة فِيهَا صَاعِقَة فَأَحْرَقَتْهُ، وَأَمَّا عَامِر بْن الطُّفَيْل فَأَرْسَلَ الله عَلَيْهِ الطَّاعُون، فَخَرَجَتْ فِيهِ غُدَّة عَظِيمَة، فَجَعَلَ يَقُول: يَا آل عَامِر، غُدَّة كَغُدَّةِ البَكْر، وَمَوْت فِي بَيْت سَلُولِيَّة، حَتَّى مَاتَا لَعَنَهُمَا الله. وَأَنْزَلَ الله فِي مِثْل ذَلِكَ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾[1]. وَفِي ذَلِكَ يَقُول لَبِيد بْن رَبِيعَة أَخُو أَرْبَد يَرْثِيه:

أَخْشَى عَلَى أَرْبَد الحُتُوفَ وَلَا ❁ أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ وَالأَسَدِ

فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالـ ❁ ـفَارِسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجُدِ

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ[2]: حَدَّثَنَا مَسْعَدَة بْن سعد العَطَّار، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن المُنْذِر الحِزَامِيّ، حَدَّثَنِي عَبْد العَزِيز بْن عِمْرَان، حَدَّثَنِي عَبْد الرَّحْمَن وَعَبْد الله ابنا زَيْد بْن أَسْلَم، عَنْ أَبِيهِمَا، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ أَرْبَد بْن قَيْس بْن جزى بْن خالد بْن جَعْفَر بْن كِلَاب، وَعَامِر بْن الطُّفَيْل بْن مَالِك، قَدِمَا المَدِينَة عَلَى رَسُول الله ﷺ، فَانْتَهَيَا إِلَيْهِ وَهُوَ جَالِس، فَجَلَسَا بَيْن يَدَيْهِ، فَقَالَ عَامِر بْن الطُّفَيْل: يَا مُحَمَّد، مَا تَجْعَل لِي إِنْ أَسْلَمْت؟ فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ». قَالَ عَامِر بْن الطُّفَيْل: أَتَجْعَلُ لِي الأَمْر إِنْ أَسْلَمْت مِنْ بَعْدك؟ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ وَلَا لِقَوْمِكَ، وَلَكِنْ لَكَ أَعِنَّةُ الخَيْلِ» قَالَ: أَنَا الآنَ فِي أَعِنَّة خَيْل نَجْد، اجْعَل لِي الوَبَر وَلَك المَدَر. قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لا». فَلَمَّا قَفَلَا مِنْ عِنْده، قَالَ عَامِر: أَمَا وَالله لَأَمْلَأَنَّهَا عَلَيْك خَيْلًا وَرِجَالًا. فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «يَمْنَعُكَ الله». فَلَمَّا خَرَجَ أَرْبَد وَعَامِر، قَالَ عَامِر: يَا أَرْبَد، أَنَا أَشْغَل عَنْك مُحَمَّدًا بِالحَدِيثِ فَاضْرِبْهُ بِالسَّيْفِ، فَإِنَّ النَّاس إِذَا قَتَلت مُحَمَّدًا لَمْ يَزِيدُوا عَلَى أَنْ يَرْضَوْا بِالدِّيَةِ، وَيَكْرَهُوا الحَرْب فَنُعْطِيهِمْ الدِّيَة. قَالَ أَرْبَد: أَفْعَل. فَأَقْبَلَا رَاجِعَيْنِ إِلَيْهِ، فَقَالَ عَامِر: يَا مُحَمَّد قُمْ مَعِي أُكَلِّمك. فَقَامَ مَعَهُ رَسُول الله ﷺ، فَجَلَسَا إِلَى الجِدَار، وَوَقَفَ مَعَهُ رَسُول الله ﷺ، يُكَلِّمهُ، وَسَلَّ أَرْبَد السَّيْف، فَلَمَّا وَضَعَ يَده عَلَى قَائِم السَّيْف يَبِسَتْ يَده عَلَى قَائِم السَّيْف، فَلَمْ يَسْتَطِعْ سَلّ السَّيْف، فَأَبْطَأَ أَرْبَد عَلَى عَامِر بِالضَّرْب، فَالتَفَتَ رَسُول الله ﷺ، فَرَأَى أَرْبَد وَمَا يَصْنَع، فَانْصَرَفَ عَنْهُمَا، فَلَمَّا خَرَجَ عَامِر وَأَرْبَد مِنْ عِنْد رَسُول الله ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالحَرَّة -حَرَّة وَاقِم- نَزَلَا فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا سَعْد بْن مُعَاذ وَأُسَيْد بْن حُضَيْر، فَقَالَا: أَشْخِصَا يَا عَدُوَّيِ الله لَعَنَكُمَا الله. فَقَالَ عَامِر: مَنْ هَذَا يَا سَعْد؟ قَالَ: هَذَا أُسَيْد بْن حُضَيْر الكَتَائِب. فَخَرَجَا حَتَّى إِذَا كَانَا بِالرَّقْم، أَرْسَلَ الله عَلَى أَرْبَد صَاعِقَة فَقَتَلَتْهُ، وَخَرَجَ عَامِر حَتَّى إِذَا كَانَ بِالخَرِيم أَرْسَلَ الله قُرْحَة فَأَخَذَتْهُ، فَأَدْرَكَهُ اللَّيْل فِي بَيْت امْرَأَة مِنْ بَنِي سَلُول، فَجَعَلَ يَمَسّ قُرْحَته فِي حَلقه وَيَقُول: غُدَّة كَغُدَّةِ الجَمَل فِي بَيْت سَلُولِيَّة. يَرْغَب أَنْ

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٣/ ١٢٦) مرسلًا.

(٢) في «الكبير» (١٠٧٦٠) بسند ضعيف جدًا، فيه عبد العزيز بن عمران وهو متروك.

يَمُوت فِي بَيْتهَا، ثُمَّ رَكِبَ فَرَسَهُ فَأَحْضَرَهُ حَتَّى مَاتَ عَلَيْهِ رَاجِعًا، فَأَنْزَلَ الله فِيهِمَا: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ قَالَ: المُعَقِّبَات مِنْ أَمْر الله يَحْفَظُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، ثُمَّ ذَكَرَ أَرْبَد وَمَا قَتَلَهُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآيَة.

وَقَوْله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أَيْ: يَشُكُّونَ فِي عَظَمَته، وَأَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾. قَالَ ابْن جَرِير: شَدِيدَة مُمَاحَلَته فِي عُقُوبَة مَنْ طَغَى عَلَيْهِ وَعَتَا وَتَمَادَى فِي كُفْره. وَهَذِهِ الْآيَة شَبِيهَة بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وَعَنْ عَلِيّ ﷺ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أَيْ: شَدِيد الأَخْذ وَقَالَ مُجَاهِد: شَدِيد القُوَّة.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قَالَ: التَّوْحِيد. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ ابْن عَبَّاس وَقَتَادَة وَمَالِك عَنْ مُحَمَّد بْن الْمُنْكَدِر: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾: لَا إِلَه إِلَّا الله. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الآيَة، أَيْ: وَمَثَل الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَة غَيْر الله ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب: كَمَثَلِ الَّذِي يَتَنَاوَل المَاء مِنْ طَرَف البِئْر بِيَدِهِ، وَهُوَ لَا يَنَالهُ أَبَدًا فَكَيْفَ يَبْلُغ فَاهُ؟ وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾ يَدْعُو المَاء بِلِسَانِهِ وَيُشِير إِلَيْهِ فَلَا يَأْتِيه أَبَدًا.

وَقِيلَ: المُرَاد كَقَابِضٍ يَدَهُ عَلَى المَاء، فَإِنَّهُ لَا يُحْكِم مِنْهُ عَلَى شَيْء، كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

فَإِنِّي وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إِلَيْكُمْ ۞ كَقَابِضِ مَاءٍ لَمْ تَسْقِهِ أَنَامِلُه

وَقَالَ الآخَر:

فَأَصْبَحْت مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ۞ مِنْ الوُدّ مِثْل القَابِض المَاء بِاليَدِ

وَمَعْنَى هَذَا الكَلَام: أَنَّ الَّذِي يَبْسُط يَده إِلَى المَاء؛ إِمَّا قَابِضًا، وَإِمَّا مُتَنَاوِلًا لَهُ مِنْ بُعْد، كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْتَفِع بِالمَاءِ الَّذِي لَمْ يَصِل إِلَى فِيهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَحَلًّا لِلشُّرْبِ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ الله إِلَهًا غَيْره لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ أَبَدًا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ عَظَمَته وَسُلطَانه الَّذِي قَهَرَ كُلّ شَيْء، وَدَانَ لَهُ كُلّ شَيْء، وَلِهَذَا يَسْجُد لَهُ كُلّ شَيْء طَوْعًا مِنَ المُؤْمِنِينَ، وَكَرْهًا مِن الكَافِرِينَ، ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ﴾ أَيْ: البُكَر ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ وَهُوَ جَمْع أَصِيل: وَهُوَ آخِر النَّهَار، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ الآيَة.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾

يُقَرِّر تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ؛ لِأَنَّهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْض، وَهُوَ رَبّهَا وَمُدَبِّرهَا، وَهُمْ مَعَ هَذَا قَدْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونه أَوْلِيَاء يَعْبُدُونَهُمْ، وَأُولَئِكَ هُمْ الآلِهَة لَا تَمْلِك لِنفسِهَا وَلَا لِعَابِدِيهَا بِطَرِيقِ الأَوْلَى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، أَيْ: لَا تُحَصِّل مَنْفَعَة وَلَا تَدْفَع عَنْهُمْ مَضَرَّة، فَهَل يَسْتَوِي مَنْ عَبَدَ هَذِهِ الآلِهَة مَعَ الله، وَمَنْ عَبَدَ الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ فَهُوَ عَلَى نُور مِنْ رَبّه؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: أَجَعَلَ هَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ مَعَ الله آلِهَة تُنَاظِر الرَّبّ

وَمُماثِلهُ فِي الخلق، فَخَلَقُوا كَخَلقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِم، فَلَا يَدْرُونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَة مِنْ مَخْلُوق غَيْره، أَيْ: لَيْسَ الأَمْر كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يُشَابِهُهُ شَيْء وَلَا يُمَاثِلهُ، وَلَا نِدّ لَهُ، وَلَا عِدْل لَهُ، وَلَا وَزِير لَهُ، وَلَا وَلَد، وَلَا صَاحِبَة، تَعَالَى الله عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَإِنَّمَا عَبَدَ هَؤُلَاءِ الْمُشْركُونَ مَعَهُ آلِهَة هُمْ مُعْتَرِفُونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَة لَهُ عَبِيد لَهُ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلبِيَتهِمْ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيك لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكهُ وَمَا مَلَكَ.

وَكَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، فَأَنْكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ حَيْثُ اعْتَقَدُوا ذَلِكَ، وَهُوَ تَعَالَى لَا يَشْفَع عِنْده أَحَد إِلَّا بِإِذْنِهِ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآيَة، وَقَالَ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾، فَإِذَا كَانَ الجَمِيع عَبِيدًا فَلِمَ يَعْبُد بَعْضهمْ بَعْضًا بِلَا دَلِيل وَلَا بُرْهَان. بَل بِمُجَرَّد الرَّأْي وَالِاخْتِرَاع وَالِابْتِدَاع، ثُمَّ قَدْ أَرْسَلَ رُسُله مِنْ أَوَّلهمْ إِلَى آخِرهمْ تَزْجُرهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَتَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَة مَنْ سِوَى الله، فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَة العَذَاب لَا مَحَالَة، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة عَلَى مَثَلَيْنِ مَضْرُوبَيْنِ لِلحَقِّ فِي ثَبَاته وَبَقَائِهِ، وَالبَاطِل فِي اضْمِحْلَاله وَفَنَائِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أَيْ: مَطَرًا، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أَيْ: أَخَذَ كُلّ وَاحِد بِحَسَبِهِ، فَهَذَا كَبِير وَسِعَ كَثِيرًا مِنْ المَاء، وَهَذَا صَغِير فَوَسِعَ بِقَدْرِهِ، وَهُوَ إِشَارَة إِلَى القُلُوب وَتَفَاوُتهَا، فَمِنْهَا مَا يَسَع عِلمًا كَثِيرًا وَمِنْهَا مَا لَا يَتَّسِع لِكَثِيرٍ مِنْ العُلُوم، بَل يَضِيق عَنْهَا، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أَيْ: فَجَاءَ عَلَى وَجْه المَاء الَّذِي سَالَ فِي هَذِهِ الأَوْدِيَة زَبَد عَالٍ عَلَيْهِ، هَذَا مَثَل، وَقَوْله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ الآيَة، هَذَا هُوَ المَثَل الثَّانِي: هُوَ مَا يُسْبَك فِي النَّار مِنْ ذَهَب أَوْ فِضَّة ابْتِغَاء حِليَة، أَيْ: لِيُجْعَل حِليَة؛ نُحَاس أَوْ حَدِيد فَيُجْعَل مَتَاعًا، فَإِنَّهُ يَعْلُوهُ زَبَد مِنْهُ كَمَا يَعْلُو ذَلِكَ زَبَد مِنْهُ، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أَيْ: إِذَا اجْتَمَعَا لَا ثَبَات لِلبَاطِلِ وَلَا دَوَام لَهُ، كَمَا أَنَّ الزَّبَد لَا يَثْبُت مَعَ المَاء، وَلَا مَعَ الذَّهَب وَنَحوه، مِمَّا يُسْبَك فِي النَّار، بَل يَذْهَب وَيَضْمَحِلّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أَيْ: لَا يُنْتَفَع بِهِ، بَل يَتَفَرَّق وَيَتَمَزَّق وَيَذْهَب فِي جَانِبَيْ الوَادِي، وَيُعَلَّق بِالشَّجَرِ، وَتَنْسِفهُ الرِّيَاح، وَكَذَلِكَ خَبَث الذَّهَب وَالفِضَّة وَالحَدِيد وَالنُّحَاس يَذْهَب وَلَا يَرْجِع مِنْهُ شَيْء، وَلَا يَبْقَى إِلَّا المَاء، وَذَلِكَ الذَّهَب وَنَحوه يُنْتَفَع بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾. وَقَالَ بَعْض السَّلَف: كُنْت إِذَا قَرَأْت مَثَلًا مِنْ القُرْآن فَلَمْ أَفْهَمْهُ بَكَيْت عَلَى نَفْسِي؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ الآيَة: هَذَا مَثَل ضَرَبَهُ الله احْتَمَلَتْ مِنْهُ القُلُوب عَلَى قَدْر يَقِينهَا وَشَكّهَا، فَأَمَّا الشَّكّ فَلَا يَنْفَع مَعَهُ العَمَل، وَأَمَّا اليَقِين فَيَنْفَع الله بِهِ أَهْله، وَهُوَ قَوْله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ وَهُوَ الشَّكّ، ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وَهُوَ اليَقِين، وَكَمَا يُجْعَل الحُلِيّ فِي النَّار، فَيُؤْخَذ خَالِصه وَيُتْرَك خَبَثه فِي النَّار، فَكَذَلِكَ يَقْبَل الله اليَقِين وَيَتْرُك الشَّكّ.

وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ يَقُول: احْتَمَلَ السَّيْل مَا فِي الوَادِي مِنْ عُود وَدِمْنَة، ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ فَهُوَ الذَّهَب وَالفِضَّة وَالحِلية وَالمَتَاع

وَالنُّحَاس وَالحَدِيد، فَلِلنُّحَاسِ وَالحَدِيد خَبَث فَجَعَلَ الله مَثَل خَبَثه كَزَبَدِ المَاء، فَأَمَّا مَا يَنْفَع النَّاس فَالذَّهَب وَالفِضَّة، وَأَمَّا مَا يَنْفَع الأَرْض فَمَا شَرِبَتْ مِنَ المَاء فَأَنْبَتَتْ، فَجُعِلَ ذَاكَ مِثْل العَمَل الصَّالِح يَبْقَى لِأَهْلِهِ، وَالعَمَل السَّيِّئ يَضْمَحِلّ عَنْ أَهْله كَمَا يَذْهَب هَذَا الزَّبَد، وَكَذَلِكَ الهُدَى وَالحَقّ جَاءَا مِنْ عِنْد الله فَمَنْ عَمِلَ بِالحَقِّ كَانَ لَهُ، وَبَقِيَ كَمَا بَقِيَ مَا يَنْفَع النَّاس فِي الأَرْض، وَكَذَلِكَ الحَدِيد لَا يُسْتَطَاع أَنْ يُعْمَل مِنْهُ سِكِّين وَلَا سَيْف حَتَّى يُدْخَل فِي النَّار، فَتَأْكُل خَبَثه وَيَخْرُج جَيِّده فَيُنْتَفَع بِهِ، فَكَذَلِكَ يَضْمَحِلّ البَاطِل، فَإِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة وَأُقِيمَ النَّاس وَعُرِضَتْ الأَعْمَال، فَيَزِيغ البَاطِل وَيَهْلِك، وَيَنْتَفِع أَهْل الحَقّ بِالحَقِّ. وَهَكَذَا رُوِيَ فِي تَفْسِيرهَا عَنْ مُجَاهِد وَالحَسَن البَصْرِيّ وَعَطَاء وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد مِنَ السَّلَف وَالخَلَف.

وَقَدْ ضَرَبَ ﷻ فِي أَوَّل سُورَة البَقَرَة لِلْمُنَافِقِينَ مَثَلَيْنِ؛ نَارِيًّا وَمَائِيًّا، وَهُمَا قَوْله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ الآيَة، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الآيَة، وَهَكَذَا ضَرَبَ لِلْكَافِرِينَ فِي سُورَة النُّور مَثَلَيْنِ؛ أَحَدهمَا قَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ الآيَة، وَالسَّرَاب إِنَّمَا يَكُون فِي شِدَّة الحَرّ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: فَيُقَال لِلْيَهُودِ يَوْم القِيَامَة فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: أَيْ رَبّنَا عَطِشْنَا فَاسْقِنَا. فَيُقَال: أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيَرِدُونَ النَّار، فَإِذَا هِيَ كَسَرَابٍ يَحْطِم بَعْضهَا بَعْضًا[(١)]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي المَثَل الآخَر: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ الآيَة، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَثَل مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلم كَمَثَلِ غَيْث أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَة طَيِّبة قَبِلَتْ المَاء، فَأَنْبَتَتْ الكَلَأ وَالعُشْب الكَثِير، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِب أَمْسَكَتْ المَاء، فَنَفَعَ الله بِهَا النَّاس فَشَرِبُوا وَرَعَوْا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَة مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَان: لَا تُمْسِك مَاء وَلَا تُنْبِت كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَل مَنْ فَقِهَ فِي دِين الله وَنَفَعَهُ الله بِمَا بَعَثَنِي، وَنَفَعَ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَل مَنْ لَمْ يَرْفَع بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَل هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلت بِهِ**»[(٢)]. فَهَذَا مَثَل مَائِيّ.

وَقَالَ فِي الحَدِيث الآخَر الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر عَنْ هَمَّام بْن مُنَبِّه، قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**مَثَلِي وَمَثَلكُمْ: كَمَثَلِ رَجُل اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلهَا جَعَلَ الفَرَاش وَهَذِهِ الدَّوَابّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّار يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِزهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا -قَالَ- فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلكُمْ: أَنَا آخِذ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّار، هَلُمَّ عَنْ النَّار، هلم عن النار، هَلُمَّ، فَتَغْلِبُونِي فَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا**»[(٣)]. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا، فَهَذَا مَثَل نَارِيّ.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ مَآل السُّعَدَاء وَالأَشْقِيَاء، فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ أَيْ: أَطَاعُوا الله وَرَسُوله، وَانْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ، وَصَدَّقُوا أَخْبَاره المَاضِيَة وَالآتِيَة، فَلَهُمْ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وَهُوَ الجَزَاء الحَسَن، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ أَيْ: لَمْ يُطِيعُوا الله، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (٣٠٢).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٢٦)، ومسلم (٢٢٨٣).

لَوْ أَنْ يُمْكِنهُمْ أَنْ يَفْتَدُوا مِنْ عَذَاب الله بِمِلءِ الأَرْض ذَهَبًا وَمِثْله مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ، وَلَكِنْ لَا يُتقبل مِنْهُمْ؛ لأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَل مِنْهُمْ يَوْم القِيَامَة صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة، أَيْ: يُنَاقَشُونَ عَلَى النَّقِير وَالقِطْمِير وَالجَلِيل وَالحَقِير، «وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَاب عُذِّبَ»، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

يَقُول تَعَالَى: لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَم مِنْ النَّاس أَنَّ الَّذِي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هُوَ الحَقّ الَّذِي لَا شَكّ فِيهِ وَلَا مِرْيَة، وَلَا لُبْس فِيهِ وَلَا اخْتِلَاف فِيهِ، بَل هُوَ كُلّه حَقّ يُصَدِّق بَعْضه بَعْضًا، لَا يُضَادّ شَيْء مِنْهُ شَيْئًا آخَر، فَأَخْبَاره كُلّهَا حَقّ، وَأَوَامِره وَنَوَاهِيه عَدْل، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أَيْ: صِدْقًا فِي الإِخْبَار، وَعَدْلًا فِي الطَّلَب، فَلَا يَسْتَوِي مَنْ تَحَقَّقَ صِدْق مَا جِئْت بِهِ يَا مُحَمَّد، وَمَنْ هُوَ أَعْمَى لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْر وَلَا يَفْهَمهُ، وَلَوْ فَهِمَهُ مَا انْقَادَ لَهُ وَلَا صَدَّقَهُ وَلَا اتَّبَعَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وَقَالَ فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ أَيْ: أَفَهَذَا كَهَذَا؟ لَا اسْتِوَاء. وَقَوْله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَتَّعِظ وَيَعْتَبِر وَيَعْقِل أُولُو العُقُول السَّلِيمَة الصَّحِيحَة، جَعَلَنَا الله منهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة: بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ وَلَيْسُوا كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ «إِذَا عَاهَدَ أَحَدهمْ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ». ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أَيْ: فِيمَا يَأْتُونَ وَمَا يَذَرُونَ مِنْ الأَعْمَال، يُرَاقِبُونَ الله فِي ذَلِكَ، وَيَخَافُونَ سُوء الحِسَاب فِي الدَّار الآخِرَة، فَلِهَذَا أَمَرَهُمْ عَلَى السَّدَاد وَالِاسْتِقَامَة فِي جَمِيع حَرَكَاتهمْ وَسَكَنَاتهمْ، وَجَمِيع أَحْوَالهمْ القَاصِرَة وَالمُتَعَدِّيَة. ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: عَنْ المَحَارِم وَالمَآثِم فَفَطَمُوا أَنْفُسهمْ عَنْهَا لله ﷻ، ابْتِغَاء مَرْضَاته وَجَزِيل ثَوَابه، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بِحُدُودِهَا وَمَوَاقِيتهَا وَرُكُوعهَا وَسُجُودهَا وَخُشُوعهَا، عَلَى الوَجْه الشَّرْعِيّ المَرْضِيّ، ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أَيْ: عَلَى الَّذِينَ يَجِب عَلَيْهِمْ الإِنْفَاق لَهُمْ؛ مِنْ زَوْجَات وَقَرَابَات وَأَجَانِب، مِنْ فُقَرَاء وَمَحَاوِيج وَمَسَاكِين، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أَيْ: فِي السِّرّ وَالجَهْر، لَمْ يَمْنَعهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَال مِنْ الأَحْوَال، فِي آنَاء اللَّيْل وَأَطْرَاف النَّهَار، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أَيْ: يَدْفَعُونَ القَبِيح بِالحَسَن، فَإِذَا آذَاهُمْ أَحَد قَابَلُوهُ بِالجَمِيلِ صَبْرًا وَاحْتِمَالًا وَصَفْحًا وَعَفْوًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وَلِهَذَا قَالَ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السُّعَدَاء المُتَّصِفِينَ بهذه الصِّفَات الحَسَنَة: بِأَنَّ ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ وَالعَدْن: الإِقَامَة، أَيْ: جَنَّات إِقَامَة يَخْلُدُونَ فِيهَا. وَعَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ فِي الجَنَّة قَصْرًا يُقَال لَهُ عَدْن، حَوْله البُرُوج وَالمُرُوج، فِيهِ خَمْسَة آلَاف بَاب، عَلَى كُلّ بَاب خَمْسَة آلَاف حَبْرَة، لَا يَدْخُلهُ إِلَّا نَبِيّ، أَوْ صِدِّيق، أَوْ شَهِيد. وَقَالَ الضَّحَّاك فِي قَوْله ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ مَدِينَة الجَنَّة فِيهَا الرُّسُل وَالأَنْبِيَاء

وَالشُّهَدَاء وَأَئِمَّة الْهُدَى، وَالنَّاس حَوْلهمْ بَعْد وَالْجَنَّات حَوْلهَا. رَوَاهُمَا ابْن جَرِير. وَقَوْله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أَيْ: يُجْمَع بَيْنهمْ وَبَيْن أَحْبَابهمْ فِيهَا؛ مِنْ الْآبَاء وَالْأَهْلِينَ وَالْأَبْنَاء، مِمَّنْ هُوَ صَالِح لِدُخُولِ الْجَنَّة مِنْ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِتَقَرَّ أَعْيُنهمْ بِهِمْ، حَتَّى أَنَّهُ تُرْفَع دَرَجَة الْأَدْنَى إِلَى دَرَجَة الْأَعْلَى مِنْ غَيْر تَنْقِيص لِلْأَعْلَى عَنْ دَرَجَته، بل امْتِنَانًا مِنْ الله وَإِحْسَانًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الْآيَة.

وَقَوْله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أَيْ: وَتَدْخُل عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَة مِنْ هَاهُنَا وَمِنْ هَاهُنَا لِلتَّهْنِئَةِ بِدُخُولِ الْجَنَّة، فَعِنْد دُخُولهمْ إِيَّاهَا تَفِد عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَة مُسَلِّمِينَ، مُهَنِّئِينَ لَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ الله مِنْ التَّقْرِيب وَالْإِنْعَام، وَالْإِقَامَة فِي دَار السَّلَام فِي جِوَار الصِّدِّيقِينَ وَالْأَنْبِيَاء وَالرُّسُل الْكِرَام.

وَقَالَ الْإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنِي سَعِيد بْن أَبِي أَيُّوب، حَدَّثَنَا مَعْرُوف بْن سُوَيْد الْجذامي، عَنْ أَبِي عُشَّانَة الْمَعَافِرِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو بْن الْعَاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**هَل تَدْرُونَ أَوَّل مَنْ يَدْخُل الْجَنَّة مِنْ خَلق الله؟**» قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: «**أَوَّل مَنْ يَدْخُل الْجَنَّة مِنْ خَلق الله الْفُقَرَاء الْمُهَاجِرُونَ، الَّذِينَ تُسَدّ بِهِمْ الثُّغُور، وَتُتَّقَى بِهِمْ الْمَكَارِه، وَيَمُوت أَحَدهمْ وَحَاجَته فِي صَدْره لَا يَسْتَطِيع لَهَا قَضَاء، فَيَقُول الله تَعَالَى لِمَنْ يَشَاء مِنْ مَلَائِكَته: ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ. فَتَقُول الْمَلَائِكَة: نَحْنُ سُكَّان سَمَائِكَ وَخِيرَتك مِنْ خَلقك، أَفَتَأْمُرنَا أَنْ نَأْتِي هَؤُلَاء وَنُسَلِّم عَلَيْهِمْ؟ فَيَقُول: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدّ بِهِمْ الثُّغُور وَتُتَّقَى بِهِمْ الْمَكَارِه، وَيَمُوت أَحَدهمْ وَحَاجَته فِي صَدْره لَا يَسْتَطِيع لَهَا قَضَاء -قَالَ- فَتَأْتِيهِمْ الْمَلَائِكَة عِنْد ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلّ بَاب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾**»[1].

وَرَوَاهُ أَبُو الْقَاسِم الطَّبَرَانِيّ: عَنْ أَحْمَد بْن رِشْدِين، عَنْ أَحْمَد بْن صَالِح، عَنْ عَبْد الله بْن وَهْب، عَنْ عمرو بْن الْحَارِث، عَنْ أَبِي عُشَّانَة، سَمِعَ عَبْد الله بْن عَمْرو، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «**أَوَّل ثُلَّة يَدْخُلُونَ الْجَنَّة فُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ، الَّذِينَ تُتَّقَى بِهِمْ الْمَكَارِه، وَإِذَا أُمِرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا، وَإِنْ كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَة إِلَى سُلطَان لَمْ تُقْضَ حَتَّى يَمُوت وَهِيَ فِي صَدْره، وَإِنَّ الله يَدْعُو يَوْم الْقِيَامَة الْجَنَّة فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَزِينَتهَا، فَيَقُول: أَيْنَ عِبَادِي الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي؟ ادْخُلُوا الْجَنَّة بِغَيْرِ عَذَاب وَلَا حِسَاب. وَتَأْتِي الْمَلَائِكَة فَيَسْجُدُونَ وَيَقُولُونَ: رَبَّنَا نَحْنُ نُسَبِّح بِحَمْدِك اللَّيْل وَالنَّهَار وَنُقَدِّس لَك، مَنْ هَؤُلَاء الَّذِينَ آثَرْتهمْ عَلَيْنَا؟ فَيَقُول الرَّبّ عَزَّ وَجَلَّ: هَؤُلَاء عِبَادِي الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِي، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي فَتَدْخُل عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَة مِنْ كُلّ بَاب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾**».

وَقَالَ عَبْد الله بْن الْمُبَارَك: عَنْ بَقِيَّة بْن الْوَلِيد، حَدَّثَنَا أَرْطَاة بْن الْمُنْذِر، سَمِعْت رَجُلًا مِنْ مَشْيَخَة الْجُنْد يُقَال لَهُ أَبُو الْحَجَّاج، يَقُول: جَلَسْت إِلَى أَبِي أُمَامَة فَقَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِن لَيَكُون مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَته إِذَا دَخَلَ الْجَنَّة، وَعِنْده سِمَاطَانِ مِنْ خَدَم، وَعِنْد طَرَف السِّمَاطَيْنِ بَاب مُبَوَّب، فَيُقْبِل الْمَلَك فَيَسْتَأْذِن، فَيَقُول أقصى الخدم لِلَّذِي يَلِيه: مَلَك يَسْتَأْذِن، وَيَقُول الَّذِي يَلِيه لِلَّذِي يَلِيه: مَلَك يَسْتَأْذِن، حَتَّى يَبْلُغ الْمُؤْمِن، فَيَقُول: ائْذَنُوا. فَيَقُول أَقْرَبهمْ لِلْمُؤْمِنِ: ائْذَنُوا لَهُ، وَيَقُول الَّذِي يَلِيه لِلَّذِي يَلِيه: ائْذَنُوا لَهُ. فكذلك حَتَّى يُبْلغ أَقْصَاهُمْ الَّذِي عِنْد الْبَاب، فَيُفْتَح لَهُ فَيَدْخُل فَيُسَلِّم ثُمَّ يَنْصَرِف. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: مِنْ حَدِيث إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، عَنْ أَرْطَاة بْن الْمُنْذِر، عَنْ أَبِي الْحَجَّاج يُوسُف الْأَلْهَانِيّ، قَالَ: سَمِعْت أَبَا أُمَامَة: فَذَكَرَ نَحْوه. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيث أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يَزُور قُبُور الشُّهَدَاء فِي رَأْس كُلّ حَوْل فَيَقُول لَهُمْ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[2]. وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْر، وَعُمَر، وَعُثْمَان.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ١٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٨٣).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٣/ ١٤٢) بسند ضعيف مرسلًا.

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

هَذَا حَال الأَشْقِيَاء وَصِفَاتهمْ، وَذِكْرُ مَا لَهُمْ فِي الآخِرَة، وَمَصِيرهمْ إِلَى خِلاف مَا صَارَ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ، كَمَا أَنَّهُمْ اتَّصَفُوا بِخِلَافِ صِفَاتهمْ فِي الدُّنْيَا، فَأُولَئِكَ كَانُوا يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَيَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَل، وَهَؤُلَاءِ: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي الحَدِيث: «آيَة المُنَافِق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[1]. وَفِي رِوَايَة: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وَهِيَ الإِبْعَاد عَنْ الرَّحْمَة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وَهِيَ سُوء العَاقِبَة وَالمَآل، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾. وَقَالَ أَبُو العَالِيَة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الآيَة، قَالَ: هِيَ سِتّ خِصَال فِي المُنَافِقِينَ، إِذَا كَانَ فِيهِمْ الظَّهْرَة عَلَى النَّاس أَظْهَرُوا هَذِهِ الخِصَال؛ إِذَا حَدَّثُوا كَذَبُوا، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِذَا ائْتُمِنُوا خَانُوا، وَنَقَضُوا عَهْد الله مِنْ بَعْد مِيثَاقه، وَقَطَعُوا مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَل، وَأَفْسَدُوا فِي الأَرْض، وَإِذَا كَانَتْ الظَّهْرَة عَلَيْهِمْ أَظْهَرُوا الثَّلَاث الخِصَال: إِذَا حَدَّثُوا كَذَبُوا، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِذَا ائْتُمِنُوا خَانُوا.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾

يَذْكُر تَعَالَى: أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوَسِّع الرِّزْق عَلَى مَنْ يَشَاء، وَيُقَتِّره عَلَى مَنْ يَشَاء، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الحِكْمَة وَالعَدْل، وَفَرِحَ هَؤُلَاءِ الكُفَّار بِمَا أُوتُوا مِنْ الحَيَاة الدُّنْيَا اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ وَإِمْهَالًا، كَمَا قَالَ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾. ثُمَّ حَقَّرَ الحَيَاة الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا ادَّخَرَهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدَّار الآخِرَة، فَقَالَ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وَقَالَ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، وَيَحْيَى بْن سَعِيد، قَالَا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالِد، عَنْ قَيْس، عَنْ الْمُسْتَوْرِد، أَخِي بَنِي فِهْر قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «ما الدُّنْيَا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع». وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَة[2]. رَوَاهُ مُسْلِم فِي صَحِيحه. وَفِي الحَدِيث الآخَر: أَنَّ رَسُول الله ﷺ مَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكّ مَيِّت -وَالأَسَكّ: الصَّغِير الأُذُنَيْنِ- فَقَالَ: «والله للدُّنْيَا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»[3].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾

يخبر تعالى عن قيل المشركين: ﴿لَوْلَا﴾ أَيْ: هَلَّا. ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، كَقَوْلِهِمْ: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَام عَلَى هَذَا غَيْر مَرَّة، وَأَنَّ الله قَادِر عَلَى إِجَابَة مَا سَأَلُوا، وَفِي الحَدِيث: إِنَّ الله أَوْحَى إِلَى رَسُوله لَمَّا سَأَلُوهُ أَنْ يُحَوِّل لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُجْرِي لَهُمْ يَنْبُوعًا، وَأَنْ يُزِيح الجِبَال مِنْ حَوْل مَكَّة فَيَصِير مَكَانهَا مُرُوج وَبَسَاتِين: إِنْ شِئْت يَا مُحَمَّد أَعْطَيْتهمْ ذَلِكَ، فَإِنْ كَفَرُوا فإني أُعَذِّبهُمْ عَذَابًا لَا أُعَذِّبهُ أَحَدًا مِنْ

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٥٧).

العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْت فَتَحْت عَلَيْهِمْ بَاب التَّوْبَة وَالرَّحْمَة، فَقَالَ: «بَل تَفْتَح لَهُمْ بَاب التَّوْبَة وَالرَّحْمَة»[1]. وَلِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أَيْ: هُوَ المُضِلّ وَالهَادِي، سَوَاء بَعَثَ الرسول بِآيَةٍ عَلَى وَفْق مَا اقْتَرَحُوا، أَوَلَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى سُؤَالهمْ، فَإِنَّ الهِدَايَة وَالإِضْلَال لَيْسَ مَنُوطًا بِك وَلَا عَدَمه، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أَيْ: وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ إِلَى الله، ورجع إليه واستعان به وتضرَّع لديه. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: تَطِيب وَتَرْكَن إِلَى جَانِب الله، وَتَسْكُن عِنْد ذِكْره، وَتَرْضَى بِهِ مَوْلًى وَنَصِيرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: هو حقيق بذلك.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ قَالَ ابْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: فَرَح، وَقُرَّة عَيْن. وَقَالَ عِكْرِمَة: نِعْمَ مَا لهمْ. وَقَالَ الضَّحَّاك: غِبْطَة لَهُمْ. وَقَالَ إِبْرَاهِيم النخعي: خَيْر لَهُمْ. وَقَالَ قَتَادَة: هِيَ كَلِمَة عَرَبِيَّة، يَقُول الرَّجُل: طُوبَى لَك، أَيْ: أَصَبْت خَيْرًا. وَقَالَ فِي رِوَايَة: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ حُسْنَى لَهُمْ، ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أَيْ: مَرْجِع، وَهَذِهِ الأَقْوَال شَيْء وَاحِد، لَا مُنَافَاة بَيْنهَا. وَقَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ قَالَ: هِيَ أَرْض الجَنَّة بِالحَبَشِيَّةِ، وَقَالَ سَعِيد بْن مَسْجُوع: طُوبَى اسْم الجَنَّة بِالهِنْدِيَّةِ، وَكَذَا رَوَى السُّدِّيّ عَنْ عِكْرِمَة: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ هي الجَنَّة. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِد. وَقَالَ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: لَمَّا خَلَقَ الله الجَنَّة وَفَرَغَ مِنْهَا، قَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ وَذَلِكَ حِين أَعْجَبَتْهُ.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا يَعْقُوب، عَنْ جَعْفَر، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب قَالَ: طُوبَى شَجَرَة فِي الجَنَّة، كُلّ شَجَر الجَنَّة مِنْهَا، أَغْصَانهَا مِنْ وَرَاء سُور الجَنَّة، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَابْن عَبَّاس وَمُغِيث بْن سمي وَأَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف: أَنَّ طُوبَى شَجَرَة فِي الجَنَّة فِي كُلّ دَار مِنْهَا غُصْن مِنْهَا. وَذَكَرَ بَعْضهمْ أَنَّ الرَّحْمَن -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- غَرَسَهَا بِيَدِهِ مِنْ حَبَّة لُؤْلُؤَة، وَأَمَرَهَا أَنْ تَمْتَدّ، فَامْتَدَّتْ إِلَى حَيْثُ يَشَاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَخَرَجَتْ مِنْ أَصْلهَا يَنَابِيع أَنْهَار الجَنَّة، مِنْ عَسَل وَخَمْر وَمَاء وَلَبَن. وَقَدْ قَالَ عَبْد الله بْن وَهْب: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن الحَارِث، أَنَّ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْح حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ، مَرْفُوعًا: «**طُوبَى شَجَرَة فِي الجَنَّة مَسِيرَة مِائَة سَنَة، ثِيَاب أَهْل الجَنَّة تَخْرُج مِنْ أَكْمَامهَا**».

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن بْن مُوسَى، سَمِعْت عَبْد الله بْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا دَرَّاج أَبُو السَّمْح، أَنَّ أَبَا الهَيْثَم حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ عَنْ رَسُول الله ﷺ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُول الله، طُوبَى لِمَنْ رَآك وَآمَنَ بِك. قَالَ: «**طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي**». قَالَ لَهُ رَجُل: وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «**شَجَرَة فِي الجَنَّة مَسِيرَتهَا مِائَة عَام، ثِيَاب أَهْل الجَنَّة تَخْرُج مِنْ أَكْمَامهَا**»[2].

وَرَوَى البُخَارِيّ وَمُسْلِم جَمِيعًا، عَنْ إِسْحَاق بْن رَاهْوَيْهِ، عَنْ مُغِيرَة المَخْزُومِيّ، عَنْ وُهَيْب عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ سَهْل بْن سَعْد ﷺ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّة شَجَرَة يَسِير الرَّاكِب فِي ظِلّهَا مِائَة عَام لَا يَقْطَعهَا**». قَالَ: فَحَدَّثْت بِهِ النُّعْمَان بْن أَبِي عَيَّاش الزُّرَقِيّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ:

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٢٤٢)، والحاكم (١/ ٥٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٣٨٨).

(٢) **إسناده فيه ضعف**: أخرجه أحمد (٣/ ٧١)، وابن حبان (٧٤١٣)، وسنده ضعيف. رواية دراج عن أبي الهيثم ضعيفة، والحديث حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩١٨).

«إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الجَوَادَ المُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُهَا»[1]. وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ، مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ زُرَيْعٍ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ قَالَ: «فِي الجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُهَا»[2].

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سُرَيْجٌ، حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ، عَنْ هِلَالِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فِي الجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾»[3]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ وَحَجَّاجٌ، قَالَا: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، سَمِعْتُ أَبَا الضَّحَّاكِ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ -أَوْ مِائَةَ سَنَةٍ- هِيَ شَجَرَةُ الخُلْدِ»[4].

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَذَكَرَ سِدْرَةَ المُنْتَهَى قَالَ: «يَسِيرُ فِي ظِلِّ الفَنَنِ مِنْهَا الرَّاكِبُ مِائَةَ سَنَةٍ -أَوْ قَالَ- يَسْتَظِلُّ فِي الفَنَنِ مِنْهَا مِائَةُ رَاكِبٍ، فِيهَا فِرَاشُ الذَّهَبِ، كَأَنَّ ثَمَرَهَا القِلَالُ»[5]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ يُوسُفَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَّامٍ الأَسْوَدِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ البَاهِلِيَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلا انْطُلِقَ بِهِ إِلَى طُوبَى، فَتُفْتَحُ لَهُ أَكْمَامُهَا، يَأْخُذُ مِنْ أَيِّ ذَلِكَ شَاءَ، إِنْ شَاءَ أَبْيَضَ، وَإِنْ شَاءَ أَحْمَرَ، وَإِنْ شَاءَ أَصْفَرَ، وَإِنْ شَاءَ أَسْوَدَ، مِثْلَ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ وَأَرَقَّ وَأَحْسَنَ»[6].

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَشْعَثَ ابْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ، يَقُولُ اللهُ لَهَا: «تَفَتَّقِي لِعَبْدِي عَمَّا شَاءَ؛ فَتَتَفَتَّقُ لَهُ عَنِ الخَيْلِ بِسُرُوجِهَا وَلُجُمِهَا، وَعَنِ الإِبِلِ بِأَزِمَّتِهَا، وَعَمَّا شَاءَ مِنَ الكِسْوَةِ».

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ هَاهُنَا أَثَرًا غَرِيبًا عَجِيبًا، قَالَ وَهْبٌ -رَحِمَهُ اللهُ-: إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يُقَالُ لَهَا: «طُوبَى»، يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، زَهْرُهَا رِيَاطٌ، وَوَرَقُهَا بُرُودٌ، وَقُضْبَانُهَا عَنْبَرٌ، وَبَطْحَاؤُهَا يَاقُوتٌ، وَتُرَابُهَا كَافُورٌ، وَوَحْلُهَا مِسْكٌ، يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارُ الخَمْرِ وَاللَّبَنِ وَالعَسَلِ، وَهِيَ مَجْلِسٌ لِأَهْلِ الجَنَّةِ؛ فَبَيْنَا هُمْ فِي مَجْلِسِهِمْ إِذْ أَتَتْهُمْ مَلَائِكَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ يَقُودُونَ نُجُبًا مَزْمُومَةً بِسَلَاسِلَ مِنْ ذَهَبٍ، وُجُوهُهَا كَالمَصَابِيحِ حُسْنًا، وَوَبَرُهَا كَخَزِّ المِرْعِزِيِّ مِنْ لِينِهِ، عَلَيْهَا رِحَالٌ أَلْوَاحُهَا مِنْ يَاقُوتٍ، وَدُفُوفُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَثِيَابُهَا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، فَيُنِيخُونَهَا وَيَقُولُونَ: «إِنَّ رَبَّنَا أَرْسَلَنَا إِلَيْكُمْ لِتَزُورُوهُ وَتُسَلِّمُوا عَلَيْهِ». قَالَ: فَيَرْكَبُونَهَا، فَهِيَ أَسْرَعُ مِنَ الطَّائِرِ، وَأَوْطَأُ مِنَ الفِرَاشِ، نُجُبًا مِنْ غَيْرِ مِهْنَةٍ، يَسِيرُ الرَّجُلُ إِلَى جَنْبِ أَخِيهِ وَهُوَ يُكَلِّمُهُ وَيُنَاجِيهِ، لَا تُصِيبُ أُذُنُ رَاحِلَةٍ مِنْهَا أُذُنَ الأُخْرَى، وَلَا بَرْكُ رَاحِلَةٍ، بَرْكَ الأُخْرَى، حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ لَتَتَنَحَّى عَنْ طَرِيقِهِمْ؛ لِئَلَّا تُفَرِّقَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَخِيهِ، قَالَ: فَيَأْتُونَ إِلَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَيُسْفِرُ لَهُمْ عَنْ وَجْهِهِ الكَرِيمِ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَيْهِ،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٢٥١)، وأحمد (١١٠).
(٣) **صحيح**: تقدم.
(٤) **صحيح دون قوله**: «شجرة الخلد»؛ وقد تقدم.
(٥) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٢٥٤٤)، والحاكم (٢/ ٤٦٩)، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».
(٦) **إسناده ضعيف**: في إسناده يحيى بن أبي كثير وهو مدلس، وفيه أيضًا سعيد بن يوسف وهو ضعيف، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢٢١٢).

فَإِذَا رَأَوْهُ قَالُوا: **«اللهمَّ أَنْتَ السَّلام، وَمِنْك السَّلام، وَحُقَّ لَك الجَلَال وَالإِكْرَام»**. قَالَ: فَيَقُول تبارك وَتَعَالَى عِنْد ذَلِكَ: **«أَنَا السَّلام وَمِنِّي السَّلام، وَعَلَيْكُمْ حَقَّتْ رَحْمَتِي وَمَحَبَّتِي، مَرْحَبًا بِعِبَادِي الَّذِينَ خَشَوْنِي بِغَيْبٍ، وَأَطَاعُوا أَمْرِي»**. قَالَ: فَيَقُولُونَ: **«رَبَّنَا إنا لَمْ نَعْبُدك حَقَّ عِبَادَتك، وَلَمْ نُقَدِّرك حَقَّ قَدْرك، فَائْذَنْ لَنَا فِي السُّجُود قُدَّامك»**. قَالَ: فَيَقُول الله: **«إِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ نَصَب وَلا عِبَادَة، وَلَكِنَّهَا دَار مُلك وَنَعِيم، وَإِنِّي قَدْ رَفَعْت عَنْكُمْ نَصَبَ العِبَادَة، فَسَلُونِي مَا شِئْتُمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُل مِنْكُمْ أُمْنِيَّته»**. فَيَسْأَلُونَهُ، حَتَّى أَنَّ أَقْصَرهمْ أُمْنِيَّة لِيَقُولَ: **«رَبِّ، تَنَافَسَ أَهْل الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ فَتَضَايَقُوا فِيهَا، رَبِّ فَآتِنِي مِثْل كُلّ شَيْء كَانُوا فِيهِ مِنْ يَوْم خَلَقْتَهَا إِلَى أَنْ انْتَهَتْ الدُّنْيَا»**، فَيَقُول الله تَعَالَى: **«لَقَدْ قَصُرَتْ بِك أُمْنِيَّتك، وَلَقَدْ سَأَلت دُون مَنْزِلَتك، هَذَا لَك مِنِّي، وسأتحفك بمنزلتي، لأَنَّهُ لَيْسَ فِي عَطَائِي نَكَد وَلا تَصْرِيد»** قَالَ: ثُمَّ يَقُول: **«اعْرِضُوا عَلَى عِبَادِي مَا لَمْ يَبْلُغ أَمَانِيّهمْ، وَلَمْ يَخْطِر لَهُمْ عَلَى بَال»**. قَالَ: فَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَقْصُر بِهِمْ أَمَانِيّهمْ الَّتِي فِي أَنْفُسهمْ، فَيَكُون فِيمَا يَعْرِضُونَ عَلَيْهِمْ بَرَاذِين مُقَرَّنَة، عَلَى كُلّ أَرْبَعَة مِنْهَا سَرِير مِنْ يَاقُوتَة وَاحِدَة، عَلَى كُلّ سَرِير مِنْهَا قُبَّة مِنْ ذَهَب مُفَرَّغَة، فِي كُلّ قُبَّة مِنْهَا فُرُش مِنْ فُرُش الجَنَّة مُتَظَاهِرَة، فِي كُلّ قُبَّة مِنْهَا جَارِيَتَانِ مِنْ الحُور العِين، عَلَى كُلّ جَارِيَة مِنْهُنَّ ثَوْبَانِ مِنْ ثِيَاب الجَنَّة، وَلَيْسَ فِي الجَنَّة لَوْن إِلَّا وَهُوَ فِيهِمَا، وَلَا رِيح وَلَا طِيب إِلَّا قَدْ عَبِقَتا بِهِ، يَنْفُذ ضَوْء وُجُوههمَا غِلَظ القُبَّة حَتَّى يَظُنّ مَنْ يَرَاهُمَا أَنَّهُمَا دُون القُبَّة، يُرَى مُخّهمَا مِنْ فَوْق سُوقهمَا كَالسِّلْكِ الأَبْيَض فِي يَاقُوتَة حَمْرَاء يَرَيَانِ لَهُ مِنْ الفَضْل عَلَى صَاحِبه كَفَضْلِ الشَّمْس عَلَى الحِجَارَة أَوْ أَفْضَل، وَيَرَى هُوَ لَهُمَا مِثْل ذَلِكَ، وَيَدْخُل إِلَيْهِمَا فَيُحَيِّيَانِهِ، وَيُقَبِّلَانِهِ، وَيَتَعَلَّقَانِ بِهِ، وَيَقُولَانِ لَهُ: وَالله مَا ظَنَنَّا أَنَّ الله يَخْلُق مِثْلك، ثُمَّ يَأْمُر الله تَعَالَى المَلَائِكَة فَيَسِيرُونَ بِهِمْ صَفًّا فِي الجَنَّة حَتَّى يَنْتَهِي كُلّ رَجُل مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلَته الَّتِي أُعِدَّتْ لَهُ.

وَقَدْ رَوَى هَذَا الأَثَر ابْن أَبِي حَاتِم بِسَنَدِهِ عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه، وَزَادَ: فَانْظُرُوا إِلَى مَوْهُوب رَبّكُمْ الَّذِي وَهَبَ لَكُمْ، فَإِذَا هُوَ بِقِبَابٍ فِي الرَّفِيق الأَعْلَى، وَغُرَف مَبْنِيَّة مِنْ الدُّرّ وَالمَرْجَانِ، أَبْوَابهَا مِنْ ذَهَب، وَسُرُرهَا مِنْ يَاقُوت، وَفُرُشهَا مِنْ سُنْدُس وَإِسْتَبْرَق، وَمَنَابِرهَا مِنْ نُور يَفُور مِنْ أَبْوَابهَا، وَعِرَاصهَا نُور مِثْل شُعَاع الشَّمْس عِنْده مِثْل الكَوْكَب الدُّرِّيّ فِي النَّهَار المُضِيء، وَإِذَا بِقُصُورٍ شَامِخَة فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ مِنْ اليَاقُوت يَزْهُو نُورهَا، فَلَوْلَا أَنَّهُ مُسَخَّر إِذًا لَالتَمَعَ الأَبْصَار، فَمَا كَانَ مِنْ تِلْكَ القُصُور مِنْ اليَاقُوت الأَبْيَض فَهُوَ مَفْرُوش بِالحَرِيرِ الأَبْيَض، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ اليَاقُوت الأَحْمَر فَهُوَ مَفْرُوش بِالعَبْقَرِيِّ الأَحْمَر، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ اليَاقُوت الأَخْضَر فَهُوَ مَفْرُوش بِالسُّنْدُسِ الأَخْضَر، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ اليَاقُوت الأَصْفَر فَهُوَ مَفْرُوش بِالأُرْجُوَانِ الأَصْفَر، مُبَوَّبَة بِالزُّمُرُّدِ الأَخْضَر وَالذَّهَب الأَحْمَر وَالفِضَّة البَيْضَاء، قَوَائِمهَا وَأَرْكَانهَا مِنْ الجَوَاهِر، وَشُرَفهَا قِبَاب مِنْ لُؤْلُؤ، وَبُرُوجهَا غُرَف مِنْ المَرْجَانِ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا إِلَى مَا أَعْطَاهُمْ رَبّهمْ، قُرِّبَتْ لَهُمْ بَرَاذِين مِنْ يَاقُوت أَبْيَض، مَنْفُوخ فِيهَا الرَّوح، تُجَنِّبُهَا الوِلْدَان المُخَلَّدُونَ بِيَدِ كُلّ وَلِيد مِنْهُمْ حَكَمَة بِرْذَوْن مِنْ تِلْكَ البَرَاذِين، وَلُجُمهَا وَأَعِنَّتهَا مِنْ فِضَّة بَيْضَاء مَنْظُومَة بِالدُّرِّ وَاليَاقُوت، سُرُوجهَا سُرَر مَوْضُونَة مَفْرُوشَة بِالسُّنْدُسِ وَالإِسْتَبْرَق، فَانْطَلَقت بِهِمْ تِلْكَ البَرَاذِين تَزِفّ بِهِمْ بِبَطْنِ رِيَاض الجَنَّة، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى مَنَازِلهمْ، وَجَدُوا المَلَائِكَة قُعُودًا عَلَى مَنَابِر مِنْ نُور يَنْتَظِرُونَهُمْ لِيَزُورُوهُمْ وَيُصَافِحُوهُمْ وَيُهَنِّئُوهُمْ كَرَامَة رَبّهمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا قُصُورهمْ وَجَدُوا فِيهَا جَمِيع مَا تَطَاوَلَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَمَا سَأَلُوا وَتَمَنَّوْا، وَإِذَا عَلَى بَاب كُلّ قَصْر مِنْ تِلْكَ القُصُور أَرْبَعَة جِنَان: جَنَّتَانِ ذَوَاتَا أَفْنَان، وَجَنَّتَانِ مُدْهَامَّتَانِ، وَفِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ، وَفِيهِمَا مِنْ كُلّ فَاكِهَة زَوْجَانِ، وَحُور مَقْصُورَات فِي الخِيَام، فَلَمَّا تبينوا مَنَازِلهمْ وَاسْتَقَرُّوا قَرَارهمْ، قَالَ لَهُمْ رَبّهمْ: هَل وَجَدْتُمْ مَا وعدتكم حَقًّا. قَالُوا: نَعَمْ وَرَبّنَا. قَالَ: هَل رَضِيتُمْ ثَوَاب رَبّكُمْ؟ قَالُوا: رَبّنَا رَضِينَا فَارْضَ عَنَّا. قَالَ: بِرِضَايَ عَنْكُمْ حَلَلْتُمْ دَارِي وَنَظَرْتُمْ إِلَى وَجْهِي وَصَافَحَتْكُمْ مَلَائِكَتِي فَهَنِيئًا هَنِيئًا

لَكُمْ ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ لَيْسَ فِيهِ تَنْغِيص وَلَا تصريد، فَعِنْد ذَلِكَ قَالُوا: الحَمْد لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَن، وَأَدْخَلَنَا دَار المُقَامَة مِنْ فَضْله، لَا يَمَسّنَا فِيهَا نَصَب، وَلَا يَمَسّنَا فِيهَا لُغُوب. إِنَّ رَبّنَا لَغَفُور شَكُور.

وَهَذَا سِيَاق غَرِيب، وَأَثَر عَجِيب، وَلِبَعْضِهِ شَوَاهِد، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ الله تَعَالَى يَقُول لِذَلِكَ الرَّجُل الَّذِي يكون آخِر أَهْل الجَنَّة دُخُولًا الجَنَّة: «**تَمَنَّ**»، فَيَتَمَنَّى، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الأَمَانِيّ يَقُول الله تَعَالَى: «**تَمَنَّ مِنْ كَذَا، وَتَمَنَّ مِنْ كَذَا**» يُذَكِّرهُ ثُمَّ يَقُول: «**ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَة أَمْثَاله**»[1].

وَفِي صَحِيح مُسْلِم، عَنْ أَبِي ذَرّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ عَنْ الله ﷻ: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وَآخِركُمْ، وَإِنْسكُمْ وَجِنّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيد وَاحِد، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْت كُلّ إِنْسَان مَسْأَلَته، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إِلا كَمَا يُنْقِص المِخْيَط إِذَا أُدْخِلَ فِي البَحْر**»... الحَدِيث بِطُولِهِ[2]. وَقَالَ خَالِد بْن مَعْدَان: إِنَّ فِي الجَنَّة شَجَرَة يُقَال لَهَا: طُوبَى، لَهَا ضُرُوع كُلّهَا تُرْضِع صِبْيَان أَهْل الجَنَّة، وَإِنَّ سِقْط المَرْأَة يَكُون فِي نَهَر مِنْ أَنْهَار الجَنَّة، يَتَقَلَّب فِيهِ حَتَّى تَقُوم القِيَامَة، فَيُبْعَث ابْن أَرْبَعِينَ سَنَة. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَاك يَا مُحَمَّد فِي هَذِهِ الأُمَّة ﴿لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أَيْ: تُبَلِّغهُمْ رِسَالَة الله إِلَيْهِمْ، كَذَلِكَ أَرْسَلنَا فِي الأُمَم المَاضِيَة الكَافِرَة بِالله، وَقَدْ كُذِّبَ الرُّسُل مِنْ قَبْلك، فَلَك فِيهِم أُسْوَة، وَكَمَا أَوْقَعْنَا بَأْسنَا وَنِقْمَتنَا بِأُولَئِكَ، فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ مِنْ حُلُول النِّقَم بِهِمْ، فَإِنَّ تَكْذِيبهمْ لَك أَشَدّ مِنْ تَكْذِيب غَيْرك مِنْ المُرْسَلِينَ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾، أَيْ: كَيْفَ نَصَرْنَاهُمْ، وَجَعَلنَا العَاقِبَة لَهُمْ وَلِأَتْبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

وَقَوْله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أَيْ: هَذِهِ الأُمَّة الَّتِي بَعَثْنَاك فِيهِمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ، لَا يُقِرُّونَ بِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْنَفُونَ مِنْ وَصْف الله بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيم، وَلِهَذَا أَنِفُوا يَوْم الحُدَيْبِيَة أَنْ يَكْتُبُوا: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم**» وَقَالُوا: مَا نَدْرِي مَا الرَّحْمَن الرَّحِيم؟ قَالَهُ قَتَادَة، وَالحَدِيث فِي صَحِيح البُخَارِيّ، وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «**إِنَّ أَحَبّ الأَسْمَاء إِلَى الله عَبْد الله وَعَبْد الرَّحْمَن**»[3].

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي تَكْفُرُونَ بِهِ أَنَا مُؤْمِن بِهِ مُعْتَرِف مُقِرّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّة وَالإِلَهِيَّة هُوَ رَبِّي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَيْ: فِي جَمِيع أُمُورِي، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أَيْ: إِلَيْهِ أَرْجِع وَأُنِيب، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقّ ذَلِكَ أَحَد سِوَاهُ.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٣٠٨).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٣٢).

يَقُول تَعَالَى مَادِحًا لِلقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّد ﷺ، وَمُفَضِّلًا لَهُ عَلَى سَائِر الكُتُب المُنَزَّلَة قَبْله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أَيْ: لَوْ كَانَ فِي الكُتُب المَاضِيَة كِتَاب تَسِير بِهِ الجِبَال عَنْ أَمَاكِنهَا، أَوْ تُقَطَّع بِهِ الأَرْض وَتَنْشَق، أَوْ تُكَلَّم بِهِ المَوْتَى فِي قُبُورها، لَكَانَ هَذَا القُرْآن هُوَ المُتَّصِف بِذَلِكَ دُون غَيْره، أَوْ بِطَرِيقِ الأَوْلَى أَنْ يَكُون كَذَلِكَ، لِمَا فِيهِ مِنْ الإِعْجَاز الَّذِي لَا يَسْتَطِيع الإِنْس وَالجِنّ عَنْ آخِرهِمْ إِذَا اجْتَمَعُوا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْله، وَمَعَ هَذَا فَهَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ كَافِرُونَ بِهِ جَاحِدُونَ لَهُ، ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أَيْ: مَرْجِع الأُمُور كُلّهَا إِلَى الله ﷻ، مَا شَاءَ الله كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَلَا هَادِي لَهُ، وَمَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلّ له.

وَقَدْ يُطْلَق اسْم القُرْآن عَلَى كُلّ مِنْ الكُتُب المُتَقَدِّمَة، لأَنَّهُ مُشْتَق مِنْ الجَمْع، قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ هَمَّام بْن مُنَبِّه، قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**خُفِّفَتْ عَلَى دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **القُرْاءة، فَكَانَ يَأْمُر بِدَابَّتِهِ أَنْ تُسْرَج، فَكَانَ يَقْرَأ القُرْآن مِنْ قَبْل أَنْ تُسْرَج دَابَّته، وَكَانَ لا يَأْكُل إلا مِنْ عَمَل يَدَيْهِ**»[1]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ. وَالمُرَاد بِالقُرْآنِ هنا الزَّبُور.

وَقَوْله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أَيْ: مِنْ إِيمَان جَمِيع الخَلق وَيُعَلِّمُوا أَوْ يَتَبَيَّنُوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ حُجَّة وَلَا مُعْجِزَة أَبْلَغ وَلَا أَنْجَع فِي النُّفُوس وَالعُقُول مِنْ هَذَا القُرْآن، الَّذِي لَوْ أَنْزَلَهُ الله عَلَى جَبَل لَرَأَيْته خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَة الله، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ نَبِيّ إِلا وَقَدْ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْله البَشَر، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيته وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَكْثَرهمْ تَابِعًا يَوْم القِيَامَة**»[2]. مَعْنَاهُ أَنَّ مُعْجِزَة كُلّ نَبِيّ انْقَرَضَتْ بِمَوْتِهِ، وَهَذَا القُرْآن حُجَّة بَاقِيَة عَلَى الآبَاد، لَا تَنْقَضِي عَجَائِبه، وَلَا يَخْلُق عَنْ كَثْرَة الرَّدّ، وَلَا يَشْبَع مِنْهُ العُلَمَاء، هُوَ الفَصْل لَيْسَ بِالهَزْلِ. مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّار قَصَمَهُ الله، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْره أَضَلَّهُ الله.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا مِنْجَاب بْن الحَارِث، أَنْبَأَنَا بِشْر بْن عُمَارَة، حَدَّثَنَا عُمَر بْن حَسَّان، عَنْ عَطِيَّة العَوْفِيّ، قَالَ: قُلت لَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآيَة، قَالُوا لِمُحَمَّدٍ ﷺ: لَوْ سَيَّرْت لَنَا جِبَال مَكَّة حَتَّى تَتَّسِع فَنَحْرُث فِيهَا، أَوْ قُطِّعَتْ لِنَا الأَرْض كَمَا كَانَ سُلَيْمَان يَقْطَع لِقَوْمِهِ بِالرِّيح، أَوْ أَحْيَيْت لَنَا المَوْتَى كَمَا كَانَ عِيسَى يُحْيِي المَوْتَى لِقَوْمِهِ، فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الآيَة. قَالَ: قُلت: هَل تَرْوُونَ هَذَا الحَدِيث عَنْ أَحَد مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، عَنْ أَبِي سَعِيد عَنْ النَّبِيّ ﷺ[3]. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَالشَّعْبِيّ، وَقَتَادَة، وَالثَّوْرِيّ، وَغَيْر وَاحِد فِي سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة، وَالله أَعْلَم. وَقَالَ قَتَادَة: لَوْ فُعِلَ هَذَا بِقُرْآنٍ غَيْر قُرْآنكُمْ، لَفُعِلَ بِقُرْآنِكُمْ.

وَقَوْله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، قَالَ ابْن عَبَّاس: لَا يَصْنَع مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا شَاءَ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَفْعَل. رَوَاهُ ابْن إِسْحَاق بِسَنَدِهِ عَنْهُ، وَقَالَهُ ابْن جَرِير أَيْضًا. وَقَالَ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف فِي قَوْله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أَفَلَمْ يَعْلَم الَّذِينَ آمَنُوا. وَقَرَأَ آخَرُونَ: (**أَفَلَمْ يَتَبَيَّنْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاس جَمِيعًا**). وَقَالَ أَبُو العَالِيَة: قَدْ يَئِسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يُهْدَوْا، وَلَوْ يَشَاء الله لَهَدَى النَّاس جَمِيعًا.

وَقَوْله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أَيْ: بِسَبَب تَكْذِيبهمْ لَا تَزَال القَوَارِع تُصِيبهُمْ فِي الدُّنْيَا، أَوْ تُصِيب مَنْ حَوْلهمْ لِيَتَّعِظُوا وَيَعْتَبِرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤١٧)، وأحمد (٢/ ٣١٤).

(٢) **صحيح**: تقدم.

(٣) **إسناده ضعيف**: في إسناده عطية العوفي وهو ضعيف، وكذا بشر بن عمارة.

قَالَ قَتَادَة، عَنْ الحَسَن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أَيْ: القَارِعَة، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِر مِنْ السِّيَاق. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا المَسْعُودِيّ، عَنْ قَتَادَة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، فِي قَوْله ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ قَالَ: سَرِيَّة، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قَالَ: مُحَمَّد ﷺ، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: فَتْح مَكَّة. وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُجَاهِد، فِي رِوَايَة. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾، قَالَ: عَذَاب مِنْ السَّمَاء ينزل عَلَيْهِمْ، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، يَعْنِي نُزُول رَسُول الله ﷺ بِهِمْ وَقِتَاله إِيَّاهُمْ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَقَالَ عِكْرِمَة فِي رِوَايَة عنه، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿قَارِعَةٌ﴾، أَيْ: نَكْبَة. كُلّهمْ قَالَ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾، يَعْنِي: فَتْح مَكَّة. وَقَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: يَوْم القِيَامَة. وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أَيْ: لَا يَنْقُض وَعْده لِرُسُلِهِ بِالنُّصْرَةِ لَهُمْ وَلِأَتْبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

يَقُول تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ فِي تَكْذِيب مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أَيْ: فَلَك فِيهِمْ أُسْوَة، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أَيْ: أَنْظَرْتهمْ وَأَجَّلتهمْ، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أَخْذَة رَابِيَة، فَكَيْفَ بَلَغَك مَا صَنَعْت بِهِمْ وَعَاقَبْتهمْ؟، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتهُ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أَيْ: حَفِيظ عَلِيم رَقِيب عَلَى كُلّ نَفْس مَنْفُوسَة، يَعْلَم مَا يَعْمَل العَامِلُونَ مِنْ خَيْر وَشَرّ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة، ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، وَقَالَ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، وَقَالَ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، وَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، وَقَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَفَمَنْ هُوَ هكَذَا كَالأَصْنَام الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، لَا تَسْمَع وَلَا تُبْصِر وَلَا تَعْقِل، وَلَا تَمْلك نَفْعًا لِأَنْفُسِهَا وَلَا لِعَابِدِيهَا، وَلَا كَشْف ضُرّ عَنْهَا وَلَا عَنْ عَابِدِيهَا؟ وَحُذِفَ هَذَا الجَوَاب اكْتِفَاء بِدَلَالَةِ السِّيَاق عَلَيْهِ، وَهُوَ قَوْله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أَيْ: عَبَدُوهَا مَعَهُ، مِنْ أَصْنَام وَأَنْدَاد وَأَوْثَان. ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أَيْ: أَعْلِمُونَا بِهِمْ، وَاكْشِفُوا عَنْهُمْ حَتَّى يُعْرَفُوا، فَإِنَّهُمْ لَا حَقِيقَة لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: لَا وُجُود لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ له وُجُود فِي الأَرْض لَعَلِمَهُ، لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة. ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قَالَ مُجَاهِد: بِظَنٍّ مِنْ القَوْل. وَقَالَ الضَّحَّاك وَقَتَادَة: بِبَاطِلٍ مِنْ القَوْل. أَيْ: إِنَّمَا عَبَدْتُمْ هَذِهِ الأَصْنَام بِظَنٍّ مِنْكُمْ أَنَّهَا تَنْفَع وَتَضُرّ، وَسَمَّيْتُمُوهَا آلِهَة ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾. ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِد: قَوْلهمْ. أَيْ: مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الضَّلَال وَالدَّعْوَة إِلَيْهِ آنَاء اللَّيْل وَأَطْرَاف النَّهَار، كَمَا قال تَعَالَى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

---

(١) صحيح: تقدم.

وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾.

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ مَنْ قَرَأَهَا بِفَتْحِ الصَّاد، مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَمَّا زُيِّنَ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ وَأَنَّهُ حَقّ دَعَوْا إِلَيْهِ وَصَدُّوا النَّاس عَنْ اتِّبَاع طَرِيق الرُّسُل، وَمَنْ قَرَأَهَا: ﴿وَصُدُّوا﴾ أَيْ بِمَا زُيِّنَ لَهُمْ مِنْ صِحَّة مَا هُمْ عَلَيْهِ صُدُّوا بِهِ عَنْ سَبِيل الله، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، وَقَالَ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾

ذَكَرَ تَعَالَى عِقَاب الْكُفَّار وَثَوَاب الأَبْرَار: فَقَالَ بَعْد إِخْبَاره عَنْ حَال الْمُشْرِكِينَ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْر وَالشِّرْك: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ: بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ قَتْلًا وَأَسْرًا، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أَيْ: الْمُدَّخَر مَعَ هَذَا الْخِزْي فِي الدُّنْيَا ﴿أَشَقُّ﴾ أَيْ: مِنْ هَذَا بِكَثِير، كَمَا قَالَ رَسُول الله ﷺ لِلْمُتَلَاعِنَيْنِ: «**إِنَّ عَذَاب الدُّنْيَا أَهْوَن مِنْ عَذَاب الآخِرَة**»، وَهُوَ كَمَا قَالَ ﷺ، فَإِنَّ عَذَاب الدُّنْيَا لَهُ انْقِضَاء، وَذَاكَ دَائِم أَبَدًا فِي نَار هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ سَبْعُونَ ضِعْفًا، وَوَثَاق لَا يُتَصَوَّر كَثَافَته وَشِدَّته، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾.

ولهذا قرن هذا بهذا، فقال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صِفَتهَا وَنَعْتهَا، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ: سَارِحَة فِي أَرْجَائِهَا وَجَوَانِبهَا، وَحَيْثُ شَاءَ أَهْلهَا، يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا، أَيْ: يُصَرِّفُونَهَا كَيْفَ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا كما قال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

وَقَوْله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾، أَيْ: فِيهَا الْمَطَاعِم وَالْفَوَاكِه وَالْمَشَارِب، لَا انْقِطَاع وَلَا فَنَاء. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيث ابْن عَبَّاس فِي صَلَاة الْكُسُوف، وَفِيهِ قَالُوا: قالوا: يَا رَسُول الله؛ رَأَيْنَاك تَنَاوَلت شَيْئًا فِي مَقَامك هَذَا، ثُمَّ رَأَيْنَاك تَكَعْكَعْت، فَقَالَ: «**إِنِّي رَأَيْت الْجَنَّة -أَوْ أُرِيت الْجَنَّة- فَتَنَاوَلت مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْته لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا**»[1].

وَقَالَ الْحَافِظ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا أَبُو خيثمة، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله، حَدَّثَنَا أَبُو عُقَيْل، عَنْ جَابِر، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي صَلَاة الظُّهْر، إِذْ تَقَدَّمَ رَسُول الله ﷺ، فَتَقَدَّمْنَا ثُمَّ تَنَاوَلَ شَيْئًا لِيَأْخُذهُ ثُمَّ تَأَخَّرَ. فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاة قَالَ لَهُ أُبَيّ بْن كَعْب: يَا رَسُول الله صَنَعْت الْيَوْم فِي الصَّلَاة شَيْئًا مَا رَأَيْنَاك كُنْت تَصْنَعهُ. فَقَالَ: «**إِنِّي عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّة وَمَا فِيهَا مِنْ الزَّهْرَة وَالنَّضْرَة، فَتَنَاوَلت مِنْهَا قِطْفًا مِنْ عِنَب لآتِيَكُمْ بِهِ، فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنه، وَلَوْ أَتَيْتُكُمْ بِهِ لأَكَلَ مِنْهُ مَنْ بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض لَا يُنْقِصُونَهُ**»[2]. وَرَوَى مُسْلِم مِنْ حَدِيث أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر، شَاهِدًا لِبَعْضِهِ. وَعَنْ عُتْبَة بْن عَبْد السُّلَمِيّ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَ النَّبِيّ ﷺ عَنْ الْجَنَّة فَقَالَ: فِيهَا عِنَب؟ قَالَ:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩)، ومسلم (٢٠٧).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٩٠٤).

«نَعَمْ». قَالَ: فَمَا عِظَمِ العُنْقُود؟ قَالَ: «مَسِيرَة شَهْر لِلغُرَاب الأَبْقَع وَلا يَفْتُر»(١). رَوَاهُ أَحْمَد.

وَقَالَ الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُعَاذ بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَلِيّ ابْن المَدِينِيّ، حَدَّثَنَا رَيْحَان بْن سَعِيد، عَنْ عَبَّاد بْن مَنْصُور، عَنْ أَيُّوب، عَنْ أَبِي قِلَابَة، عَنْ أَبِي أَسْمَاء، عَنْ ثَوْبَان قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُل إِذَا نَزَعَ ثَمَرَة مِنَ الجَنَّة عَادَتْ مَكَانهَا أُخْرَى»(٢). وَعَنْ جَابِر بْن عَبْد الله قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «يَأْكُل أَهْل الجَنَّة وَيَشْرَبُونَ وَلا يَتَمَخَّطُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ وَلا يَبُولُونَ، طَعَامهمْ جُشَاء كَرِيح المِسْك، وَيُلهَمُونَ التَّسْبِيح وَالتَّقْدِيس كَمَا يُلهَمُونَ النَّفَس»(٣). رَوَاهُ مُسْلِم. وَرَوَى الإِمَام أَحْمَد وَالنَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث الأَعْمَش، عَنْ ثمامة بْن عُقْبَة، سَمِعْت زَيْد بْن أَرْقَم قَالَ: جَاءَ رَجُل مِنْ أَهْل الكِتَاب فَقَالَ: يَا أَبَا القَاسِم تَزْعُم أَنَّ أَهْل الجَنَّة يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُل مِنْهُمْ لَيُعْطَى قُوَّة مِائَة رَجُل فِي الأَكْل وَالشُّرْب وَالجِمَاع وَالشَّهْوَة». قَالَ: فَإِنَّ الَّذِي يَأْكُل وَيَشْرَب تَكُون لَهُ الحَاجَة، وَلَيْسَ فِي الجَنَّة أَذًى؟ قَالَ: «حَاجَة أَحَدهمْ رَشْح يَفِيض مِنْ جُلُودهمْ، كَرِيح المِسْك فَيَضْمَر بَطْنه»(٤). وَقَالَ الحَسَن بْن عَرَفَة: حَدَّثَنَا خَلَف بْن خَلِيفَة، عَنْ حُمَيْد الأَعْرَج، عَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لِي رَسُول الله ﷺ: «إِنَّك لَتَنْظُر إِلَى الطَّيْر فِي الجَنَّة، فَيَخِرّ بَيْن يَدَيْك مَشْوِيًّا»(٥). وَجَاءَ فِي بَعْض الأَحَادِيث: أَنَّهُ إِذَا فُرِغَ مِنْهُ عَادَ طَائِرًا كَمَا كَانَ بِإِذْنِ الله تَعَالَى.

وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، وَقَالَ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾. وَكَذَلِكَ ظِلّهَا لَا يَزُول وَلَا يَقْلَّص، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْر وَجْه أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّة شَجَرَة يَسِير الرَّاكِب المُجِدّ الجَوَاد المُضَمَّر السَّرِيع فِي ظِلّهَا مِائَة عَام لا يَقْطَعهَا» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾(٦). وَكَثِيرًا مَا يَقْرِن الله تَعَالَى بَيْن صِفَة الجَنَّة وَصِفَة النَّار، لِيُرَغِّب فِي الجَنَّة وَيُحَذِّر مِنْ النَّار، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ صِفَة الجَنَّة بِمَا ذَكَرَ، قَالَ بَعْده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

وَقَالَ بِلَال بْن سَعْد خَطِيب دِمَشْق فِي بَعْض خُطَبه: عِبَاد الله، هَل جَاءَكُمْ مُخْبِر يُخْبِركُمْ أَنَّ شَيْئًا مِنْ عِبَادَتكُمْ تُقُبِّلَتْ مِنْكُمْ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا مِنْ خَطَايَاكُمْ غُفِرَتْ لَكُمْ؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وَالله لَوْ عُجِّلَ لَكُمْ الثَّوَاب فِي الدُّنْيَا لَاسْتَقْلَلْتُمْ كُلّكُمْ مَا افْتُرِضَ عَلَيْكُمْ، أَوْ تَرْغَبُونَ فِي طَاعَة الله لِتَعْجِيل دُنْيَاكُمْ، وَلَا تُنَافَسُونَ فِي جَنَّة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ۝٣٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٨٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٢٩).

(٢) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٠٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٤٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٣٥).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٧)، وابن حبان (٧٤٢٤)، وكذا النسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٥٤)، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٦٦).

(٥) ضعيف: أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٤١) بسند ضعيف.

(٦) صحيح: تقدم.

يَقُول تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وَهُمْ قَائِمُونَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ: مِنْ القُرْآن لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الشَّوَاهِد عَلَى صِدْقه وَالبِشَارَة بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ أَيْ: إِنْ كَانَ مَا وَعَدَنَا الله بِهِ فِي كُتُبنَا مِنْ إِرْسَال مُحَمَّد ﷺ لَحَقًّا وَصِدْقًا مَفْعُولًا لَا مَحَالَة، وَكَائِنًا، فَسُبْحَانه مَا أَصْدَق وَعْده، فَلَهُ الحَمْد وَحْده، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ﴾ أَيْ: وَمِنْ الطَّوَائِف مَنْ يُكَذِّب بِبَعْضِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْك. وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ اليَهُود وَالنَّصَارَى، ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أَيْ: بَعْض مَا جَاءَك مِنْ الحَقّ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَة، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم. وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ﴾ أَيْ: إِنَّمَا بُعِثْت بِعِبَادَةِ الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، كَمَا أُرْسِلَ الأَنْبِيَاء مِنْ قَبْلِي، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ أَيْ: إِلَى سَبِيله أَدْعُو النَّاس، ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ أَيْ: مَرْجِعِي وَمَصِيرِي.

وَقَوْله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ﴾ أَيْ: وَكَمَا أَرْسَلنَا قَبْلك المُرْسَلِينَ، وَأَنْزَلنَا عَلَيْهِمْ الكُتُب مِنَ السَّمَاء، كَذَلِكَ أَنْزَلنَا عَلَيْك القُرْآن مُحْكَمًا مُعْرَبًا، شَرَّفْنَاك بِهِ وَفَضَّلنَاك عَلَى مَنْ سِوَاك بِهَذَا الكِتَاب المُبِين الوَاضِح الجَلِيّ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أَيْ: آرَاءَهُمْ، ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أَيْ: مِنْ الله تعالى، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾. وَهَذَا وَعِيد لِأَهْلِ العِلم أَنْ يَتَّبِعُوا سُبُل أَهْل الضَّلَالَة بَعْدَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ سُلُوك السُّنَّة النَّبَوِيَّة وَالمَحَجَّة المُحَمَّدِيَّة، عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا أَفْضَل الصَّلَاة وَالسَّلَام.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلنَاك يَا مُحَمَّد رَسُولًا بَشَرِيًّا، كَذَلِكَ بَعَثْنَا المُرْسَلِينَ قَبْلك بَشَرًا يَأْكُلُونَ الطَّعَام، وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاق وَيَأْتُونَ الزَّوْجَات، وَيُولَد لَهُمْ، وَجَعَلنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّة، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِأَشْرَفِ الرُّسُل وَخَاتَمِهِمْ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «أَمَّا أَنَا فَأَصُوم وَأُفْطِر، وَأَقُوم وَأَنَام، وَآكُل اللحم، وَأَتَزَوَّج النِّسَاء، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1]. وقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، أَنْبَأَ الحَجَّاج بْن أَرْطَاة، عَنْ مَكْحُول قَالَ: قَالَ أَبُو أَيُّوب: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَرْبَع مِنْ سُنَن المُرْسَلِينَ: التَّعَطُّر، وَالنِّكَاح، وَالسِّوَاك، وَالحِنَّاء»[2]. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ، عَنْ سُفْيَان بْن وَكِيع، عَنْ حَفْص بْن غياث، عَنْ الحَجَّاج، عَنْ مَكْحُول، عَنْ أَبِى الشمال، عَنْ أَبِي أَيُّوب، فَذَكَرَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا أَصَحّ مِنْ الحَدِيث الَّذِي لَمْ يُذْكَر فِيهِ أَبُو الشمال.

وَقَوْله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أَيْ: لَمْ يَكُنْ يَأْتِي قَوْمه بِخَارِقٍ إِلَّا إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ، لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْهِ، بَل إِلَى الله ﷻ يَفْعَل مَا يَشَاء، وَيَحْكُم مَا يُرِيد. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أَيْ: لِكُلِّ مُدَّة مَضْرُوبَة كِتَاب مَكْتُوب

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) دون قوله: «آكل اللحم».
(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (١٠٨٠)، وأحمد (٥/ ٣٢١)، وقال الترمذي: حسن غريب، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

بِهَا، وَكُلّ شَيْء عِنْده بِمِقْدَار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾. وَكَانَ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم يَقُول فِي قَوْله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أَيْ: لِكُلِّ كِتَاب أَجَل يَعْنِي لِكُلِّ كِتَاب أَنْزَلَهُ مِنْ السَّمَاء مُدَّة مَضْرُوبَة عِنْد الله وَمِقْدَار مُعَيَّن، فلهذا يمحو ما يشاء منها وَيُثْبِت، يَعْنِي: حَتَّى نُسِخَتْ كُلّهَا بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ الله عَلَى رَسُوله ﷺ.

وَقَوْله: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ الثَّوْرِيّ، وَوَكِيع، وَهُشَيْم، عَنْ ابْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ الْمِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس: يُدَبِّر أَمْر السَّنَة، فَيَمْحُو مَا يَشَاء، إِلَّا الشَّقَاء وَالسَّعَادَة، وَالْحَيَاة وَالْمَوْت، وَفِي رِوَايَة: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قَالَ: كُلّ شَيْء، إِلَّا الْحَيَاة وَالْمَوْت، وَالشَّقَاء وَالسَّعَادَة، فَإِنَّهُمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُمَا. وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ إِلَّا الْحَيَاة وَالْمَوْت، وَالشَّقَاء وَالسَّعَادَة، فَإِنَّهُمَا لَا يَتَغَيَّرَانِ. وَقَالَ مَنْصُور: سَأَلت مُجَاهِدًا فَقُلْت: أَرَأَيْت دُعَاء أَحَدنَا يَقُول: «اللهمَّ إِنْ كَانَ اسْمِي فِي السُّعَدَاء فَأَثْبِتْهُ فِيهِمْ، وَإِنْ كَانَ فِي الْأَشْقِيَاء فَامْحُهُ عَنْهُمْ وَاجْعَلْهُ فِي السُّعَدَاء». فَقَالَ: حَسَن. ثُمَّ لَقِيته بَعْد ذَلِكَ بِحَوْلٍ أَوْ أَكْثَر، فَسَأَلته عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ قَالَ: يَقْضِي فِي لَيْلَة الْقَدْر مَا يَكُون فِي السَّنَة مِنْ رِزْق أَوْ مُصِيبَة، ثُمَّ يُقَدِّم مَا يَشَاء وَيُؤَخِّر مَا يَشَاء، فَأَمَّا كِتَاب الشقاوة وَالسَّعَادَة فَهُوَ ثَابِت لَا يُغَيَّر. وَقَالَ الْأَعْمَش، عَنْ أَبِي وَائِل شَقِيق بْن سَلَمَة، أَنَّهُ كَانَ يكثر أَنْ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاء: «اللهمَّ إِنْ كُنْت كَتَبْتنَا أَشْقِيَاء فَامْحُهُ وَاكْتُبْنَا سُعَدَاء، وَإِنْ كُنْت كَتَبْتنَا سُعَدَاء فَأَثْبِتْنَا، فَإِنَّك تَمْحُو مَا تَشَاء وَتُثْبِت وَعِنْدك أُمّ الْكِتَاب». رَوَاهُ ابْن جَرِير. وقال ابن جرير أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا مُعَاذ ابْن هِشَام، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِي حَكِيمَة عِصْمَة، عَنْ أَبِي عُثْمَان النَّهْدِيّ: أَنَّ عُمَر بْن الْخَطَّاب ﷺ، قَالَ وَهُوَ يَطُوف بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَبْكِي: اللهمَّ، إِنْ كُنْت كَتَبْت عَلَيَّ شِقْوَة أَوْ ذَنْبًا فَامْحُهُ، فَإِنَّك تَمْحُو مَا تَشَاء وَتُثْبِت، وَعِنْدك أُمّ الْكِتَاب، فَاجْعَلْهُ سَعَادَة وَمَغْفِرَة. وَقَالَ حَمَّاد: عَنْ خَالِد الْحَذَّاء، عَنْ أَبِي قِلَابَة، عَنْ ابْن مَسْعُود ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاء أَيْضًا. وَرَوَاهُ شَرِيك، عَنْ هِلَال بْن حُمَيْد، عَنْ عَبْد الله بْن عَكِيم، عَنْ ابْن مَسْعُود بِمِثْلِهِ. وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا حَجَّاج، حَدَّثَنَا خَصَّاف، عَنْ أَبِي حَمْزَة، عَنْ إِبْرَاهِيم: أَنَّ كَعْبًا قَالَ لِعُمَرَ بْن الْخَطَّاب: يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ، لَوْلَا آيَة فِي كِتَاب الله لَأَنْبَأْتُك بِمَا هُوَ كَائِن إِلَى يَوْم الْقِيَامَة. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: قَوْل الله تَعَالَى: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ الْآيَة.

وَمَعْنَى هَذِهِ الْأَقْوَال: أَنَّ الْأَقْدَار يَنْسَخ الله مَا يَشَاء مِنْهَا وَيُثْبِت مِنْهَا مَا يَشَاء، وَقَدْ يُسْتَأْنَس لِهَذَا الْقَوْل بِمَا رَوَاهُ الْإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا سُفْيَان -هُوَ الثَّوْرِيّ- عَنْ عَبْد الله بْن عِيسَى، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي الْجَعْد، عَنْ ثَوْبَان، قَالَ: قَالَ رَسُول الله: **«إِنَّ الرَّجُل لَيُحْرَم الرِّزْق بِالذَّنْبِ يُصِيبهُ، وَلا يَرُدّ الْقَدَر إِلا الدُّعَاء، وَلا يَزِيد فِي الْعُمُر إِلا الْبِرّ»**[1]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ وَابْن مَاجَة مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ بِهِ. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيح أَنَّ صِلَة الرَّحِم تَزِيد فِي الْعُمْر، وَفِي حَدِيث آخَر: **«إِنَّ الدُّعَاء وَالْقَضَاء لَيَعْتَلِجَانِ بَيْن السَّمَاء وَالْأَرْض»**.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن سَهْل بْن عَسْكَر، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَنَا ابْن جُرَيج، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: إِنَّ لله ﷻ لَوْحًا مَحْفُوظًا مَسِيرَة خَمْسمِائَة عَام، مِنْ دُرَّة بَيْضَاء، لَهَا دَفَّتَانِ مِنْ يَاقُوت -وَالدَّفَّتَانِ لَوْحَانِ-، لله ﷻ كُلّ يَوْم ثَلَاثمِائَة وَسِتُّونَ لَحْظَة، يَمْحُو مَا يَشَاء وَيُثْبِت وَعِنْده أُمّ الْكِتَاب. وَقَالَ اللَّيْث بْن سَعْد: عَنْ زِيَادَة بْن مُحَمَّد، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب الْقُرَظِيّ، عَنْ فَضَالَة بْن عُبَيْد، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ **«إِن الله يَفْتَح**

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧)، وابن ماجه (٢٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٥٢).

الذِّكْر فِي ثَلاث سَاعَات يَبْقَيْنَ مِنْ اللَّيْل، فِي السَّاعَة الأُولَى مِنْهَا يُنْظَر فِي الذِّكْر الَّذِي لا يَنْظُر فِيهِ أَحَد غَيْره، فَيَمْحُو مَا يَشَاء وَيُثْبِت»[1]. وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث، رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَالَ الكَلْبِيّ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قَالَ: يَمْحُو مِنْ الرِّزْق وَيَزِيد فِيهِ، وَيَمْحُو مِنْ الأَجَل وَيَزِيد فِيهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ حَدَّثَك بِهَذَا؟ فَقَالَ: أَبُو صَالِح، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله بْن رِئَاب، عَنْ النَّبِيّ ﷺ ثُمَّ سُئِلَ بَعْد ذَلِكَ عَنْ هَذِهِ الآيَة فَقَالَ: يَكْتُب القَوْل كُلّه، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْم الخَمِيس، طَرَحَ مِنْهُ كُلّ شَيْء لَيْسَ فِيهِ ثَوَاب وَلَا عليه عِقَاب، مِثْل قَوْلك: أَكَلت وَشَرِبْت وَدَخَلت وَخَرَجْت، وَنَحْو ذَلِكَ مِنْ الكَلَام وَهُوَ صَادِق، وَيُثْبِت مَا كَانَ فِيهِ الثَّوَاب وَعَلَيْهِ العِقَاب. وَقَالَ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: الكِتَاب كِتَابَانِ؛ فَكِتَاب يَمْحُو الله مِنْهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِت وَعِنْده أُمّ الكِتَاب. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يَقُول: هُوَ الرَّجُل يَعْمَل الزَّمَان بِطَاعَةِ الله، ثُمَّ يَعُود لِمَعْصِيَةِ الله، فَيَمُوت عَلَى ضَلَالَة فَهُوَ الَّذِي يَمْحُو، وَالَّذِي يُثْبِت الرَّجُل يَعْمَل بِمَعْصِيَةِ الله، وَقَدْ كَانَ سَبَقَ لَهُ خَيْر، حَتَّى يَمُوت وَهُوَ فِي طَاعَة الله وَهُوَ الَّذِي يُثْبَت. وَرُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر أَنَّهَا بِمَعْنَى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ يَقُول: يُبَدِّل مَا يَشَاء فَيَنْسَخهُ، وَيُثْبِت مَا يَشَاء فَلَا يُبَدِّلهُ. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وَجُمْلَة ذَلِكَ عِنْده فِي أُمّ الكِتَاب، النَّاسِخ والمنسوخ، وَمَا يُبَدِّل وَمَا يُثْبِت كُلّ ذَلِكَ فِي كِتَاب. وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآيَة. وَقَالَ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قَالَ: قَالَتْ كُفَّار قُرَيْش حين أنزلت ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: مَا نَرَى مُحَمَّدًا يَمْلِك من شيء وَلَقَدْ فُرِغَ مِنْ الأَمْر، فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَة تَخْوِيفًا وَوَعِيدًا لَهُمْ: إِنَّا إِنْ شِئْنَا أَحْدَثْنَا لَهُ مِنْ أَمْرنا مَا شِئْنَا، وَنُحْدِث فِي كُلّ رَمَضَان، فَنَمْحُو مَا نَشَاء وَنُثْبِت مَا نَشَاء، مِنْ أَرْزَاق النَّاس وَمَصَائِبهمْ وَمَا نُعْطِيهِمْ وَمَا نَقْسِم لَهُمْ. وَقَالَ الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قَالَ: مَنْ جَاءَ أَجَله فَذَهَب، وَيُثْبِت الَّذِي هُوَ حَيّ يَجْرِي إِلَى أَجَله. وَقَدْ اخْتَارَ هَذَا القَوْل أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ. وَقَوْله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قَالَ: الحَلَال وَالحَرَام. وَقَالَ قَتَادَة: أَيْ: جُمْلَة الكِتَاب وَأَصْله. وَقَالَ الضَّحَّاك: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قَالَ: كِتَاب عِنْد رَبّ العَالَمِينَ. وَقَالَ سُنَيْد بْن دَاوُدَ: حَدَّثَنِي مُعْتَمِر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سيار، عَنْ ابْن عَبَّاس، أَنَّهُ سَأَلَ كَعْبًا عَنْ أُمّ الكِتَاب فَقَالَ: عَلِمَ الله مَا هُوَ خَالِق وَمَا خَلقُهُ عَامِلُونَ، ثُمَّ قَالَ لِعِلْمِه: كُنْ كِتَابًا فَكَانَ كِتَابًا. قَالَ ابْن جُرَيْج، قال ابْن عَبَّاس: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قَالَ: الذِّكْر.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

يَقُول تَعَالَى لِرَسُولِهِ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يَا مُحَمَّد بَعْض الَّذِي نَعِد أَعْدَاءَك مِنْ الخِزْي وَالنَّكَال فِي الدُّنْيَا، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أَيْ: قَبْل ذَلِكَ. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَرْسَلنَاك لِتُبَلِّغهُمْ رِسَالَة الله وَقَدْ بلغت مَا أُمِرْت بِهِ ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أَيْ: حِسَابهمْ وَجَزَاؤُهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

وَقَوْله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَفْتَح لِمُحَمَّدٍ ﷺ الأَرْض بَعْد

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الطبري (١٣/ ١٧٠)، وسنده ضعيف، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٧٦٠) وقال: رواه البزار وفيه زيادة بن محمد وهو ضعيف.

الأَرْض. وَقَالَ فِي رِوَايَة: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى القَرْيَة تُخَرَّب حَتَّى يَكُون العُمْرَان فِي نَاحِيَة. وَقَالَ مُجَاهِد وَعِكْرِمَة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قَالَ: خَرَابهَا. وَقَالَ الحَسَن وَالضَّحَّاك: هُوَ ظُهُور الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: نُقْصَان أَهْلهَا وَبَرَكَتهَا. وَقَالَ مُجَاهِد: نُقْصَان الأَنْفُس وَالثَّمَرَات وَخَرَاب الأَرْض. وَقَالَ الشَّعْبِيّ: لَوْ كَانَتْ الأَرْض تُنْقَص لَضَاقَ عَلَيْك حَشّك، وَلَكِنْ تَنْقُص الأَنْفُس وَالثَّمَرَات. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَة: لَوْ كَانَتْ الأَرْض تَنْقُص لَمْ تَجِد مَكَانًا تَقْعُد فِيهِ وَلَكِنْ هُوَ المَوْت. وَقَالَ ابْن عَبَّاس فِي رِوَايَة: خَرَابهَا بِمَوْتِ عُلَمَائِهَا وَفُقَهَائِهَا وَأَهْل الخَيْر مِنْهَا. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد أَيْضًا: هُوَ مَوْت العُلَمَاء. وَفِي هَذَا المَعْنَى رَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة أَحْمَد بْن عَبْد العَزِيز، أَبِي القَاسِم المِصْرِيّ الوَاعِظ، سَكَنَ أَصْبَهَان: حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّد طَلْحَة بْن أَسَد المَرْئِي بِدِمَشْق، أَنْشَدَنَا أَبُو بَكْر الآجُرِيّ بِمَكَّة، قَالَ: أَنْشَدَنَا أَحْمَد بْن غزال لِنَفْسِهِ:

الأَرْض تَحْيَا إِذَا مَا عَاشَ عَالِمهَا ❁ مَتَى يَمُتْ عَالِم مِنْهَا يَمُتْ طَرَف

كَالأَرْض تَحْيَا إِذَا مَا الغَيْث حَلَّ بِهَا ❁ وَإِنْ أَبَى عَادَ فِي أَكْنَافهَا التَّلَف

وَالقَوْل الأَوَّل أَوْلَى وَهُوَ ظُهُور الإِسْلَام عَلَى الشِّرْك قَرْيَة بَعْد قَرْيَة، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ الآيَة، وَهَذَا اخْتِيَار ابْن جَرِير.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بِرُسُلِهِمْ، وَأَرَادُوا إِخْرَاجهمْ مِنْ بِلَادهمْ، فَمَكَرَ الله بِهِمْ، وَجَعَلَ العَاقِبَة لِلْمُتَّقِينَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآيَتَيْنِ.

وَقَوْله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أَيْ: أَنَّهُ تَعَالَى عَالِم بِجَمِيعِ السَّرَائِر وَالضَّمَائِر، وَسَيَجْزِي كُلّ عَامِل بِعَمَلِهِ ﴿وَسَيَعْلَمُ الكَافِرُ﴾ وَالقِرَاءَة الأُخْرَى ﴿الْكُفَّارُ﴾، ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ لِمَنْ تَكُون الدَّائِرَة وَالعَاقِبَة، لَهُمْ أَوْ لِأَتْبَاع الرُّسُل؟ كَلَّا، بَل هِيَ لِأَتْبَاع الرُّسُل فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

يَقُول تَعَالَى: يُكَذِّبك هَؤُلَاءِ الكُفَّار وَيَقُولُونَ ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أَيْ: مَا أَرْسَلَك الله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيْ: حَسْبِي الله هُوَ الشَّاهِد عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ، شَاهِد عَلَيَّ فِيمَا بَلَّغْت عَنْهُ مِنْ الرِّسَالَة، وَشَاهِد عَلَيْكُمْ أَيّهَا الْمُكَذِّبُونَ فِيمَا تَفْتَرُونَهُ مِنْ البُهْتَان.

وَقَوْله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ فِي عَبْد الله بْن سَلَام. قَالَهُ مُجَاهِد. وَهَذَا القَوْل غَرِيب؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَة مَكِّيَّة، وَعَبْد الله بْن سَلَام إِنَّمَا أَسْلَمَ فِي أَوَّل مَقْدَم النَّبِيّ ﷺ المَدِينَة، وَالأَظْهَر فِي هَذَا مَا قَالَهُ العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: هُمْ مِنْ اليَهُود وَالنَّصَارَى. وَقَالَ قَتَادَة: مِنْهُمْ ابْن سَلَام وَسَلْمَان وَتَمِيم الدَّارِيّ. وَقَالَ مُجَاهِد فِي رِوَايَة عَنْهُ: هُوَ الله تَعَالَى. وَكَانَ سَعِيد بْن جُبَيْر يُنْكِر أَنْ يَكُون الْمُرَاد بِهَا عَبْد الله بْن سَلَام، وَيَقُول: هِيَ مَكِّيَّة، وَكَانَ يَقْرَؤُهَا ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ﴾ وَيَقُول: مِنْ عِنْد الله. وَكَذَا قَرَأَهَا مُجَاهِد وَالحَسَن البَصْرِيّ. وَقَدْ رَوَى ابْن جَرِير: مِنْ حَدِيث هَارُون الأَعْوَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ سَالِم، عَنْ ابْن عُمَر، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَرَأَهَا: ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ﴾. ثُمَّ قَالَ: لَا أَصْل لَهُ مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ عِنْد الثِّقَات.

قلت: وَقَدْ رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَده: مِنْ طَرِيق هَارُون بْن مُوسَى هَذَا، عَنْ سُلَيْمَان بْن أَرْقَم وَهُوَ

ضَعِيف، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ سَالِم، عَنْ أَبِيهِ مَرْفُوعًا كَذَلِكَ وَلَا يَثْبُت، وَالله أَعْلَم. وَالصَّحِيح فِي هَذَا أَنَّ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ اسْم جِنْس يَشْمَل عُلَمَاء أَهْل الكِتَاب، الَّذِينَ يَجِدُونَ صِفَة مُحَمَّد ﷺ وَنَعْته فِي كُتُبهمْ المُتَقَدِّمَة مِنْ بِشَارَات الأَنْبِيَاء بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ الآيَة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآيَة. وَأَمْثَال ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ مِنْ الإِخْبَار عَنْ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيل أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مِنْ كُتُبهمْ المُنَزَّلَة. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيث الأَحْبَار عَنْ عَبْد الله بْن سَلَام بِأَنَّهُ أَسْلَمَ بِمَكَّة قَبْل الهِجْرَة. قَالَ الحَافِظ أَبُو نُعَيْم الأَصْبَهَانِيّ فِي كِتَاب «دَلَائِل النُّبُوَّة» وَهُوَ كِتَاب جَلِيل:

حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن أَحْمَد الطَّبَرَانِيّ، حَدَّثَنَا عَبْدَان بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُصَفَّى، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلِم، عَنْ مُحَمَّد بْن حَمْزَة بْن يُوسُف بْن عَبْد الله بْن سَلَام، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، عَبْد الله بْن سَلَام، أَنَّهُ قَالَ لِأَحْبَارِ اليَهُود: إِنِّي أَرَدْت أَنْ أُجَدِّد بِمَسْجِدِ أَبِينَا إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيل عِيدًا، فَانْطَلَقَ إِلَى رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ بِمَكَّةَ فَوَافَاهُمْ وَقَدْ انْصَرَفُوا مِنْ الحَجّ، فَوَجَدَ رَسُول الله ﷺ بِمِنًى، وَالنَّاس حَوْله فَقَامَ مَعَ النَّاس، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ رَسُول الله ﷺ قَالَ: **«أَنْتَ عَبْد الله بْن سَلَام؟»** قَالَ: قُلْت: نَعَمْ. قَالَ: **«اُدْنُ»** قَالَ: فَدَنَوْت مِنْهُ، قَالَ: **«أَنْشُدك بِالله يَا عَبْد الله ابْن سَلَام، أَمَا تَجِدنِي فِي التَّوْرَاة رَسُول الله؟»** فَقُلْت لَهُ: انْعَتْ رَبّنَا. قَالَ: فَجَاءَ جِبْرِيل حَتَّى وَقَفَ بَيْن يَدَيْ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ إِلَى آخِرهَا، فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ ابْن سَلَام: أَشْهَد أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَنَّك رَسُول الله، ثُمَّ انْصَرَفَ ابْن سَلَام إِلَى المَدِينَة فَكَتَمَ إِسْلَامه، فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُول الله ﷺ إِلَى المَدِينَة، وَأَنَا فَوْق نَخْلَة لِي أَجُدّهَا، فَأَلْقَيْت نَفْسِي، فَقَالَتْ أُمِّي: لله أَنْتَ، لَوْ كَانَ مُوسَى ابْن عِمْرَان مَا كَانَ لَك أَنْ تُلْقِيَ نَفْسك مِنْ رَأْس النَّخْلَة. فَقُلْت: وَالله لَأَنَا أَسَرّ بِقُدُومِ رَسُول الله ﷺ مِنْ مُوسَى ابْن عِمْرَان إِذْ بُعِثَ، وَهَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا[1].

آخِر تَفْسِير سُورَة الرَّعْد وَلله الحَمْد.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (صـ٣٠٠)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٠٦) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات إلا أن حمزة لم يدرك جده عبد الله بن سلام.

تفسير سورة إبراهيم وهي مكية
ترتيبها ١٤ وآياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (١) ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ (٢) ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ أَيْ: هَذَا كِتَاب أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّد، وَهُوَ القُرْآن العَظِيم، الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ الله مِنَ السَّمَاء، عَلَى أَشْرَف رَسُول بَعَثَهُ الله فِي الأَرْض، إِلَى جَمِيع أَهْلهَا عَرَبهمْ وَعَجَمهمْ. ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا بَعَثْنَاكَ يَا مُحَمَّد بِهَذَا الكِتَاب؛ لِتُخْرِجَ النَّاس مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَال وَالغَيّ إِلَى الهُدَى وَالرُّشْد، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ الآيَة. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ الآيَة.

وَقَوْله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أَيْ: هُوَ الهَادِي لِمَنْ قَدَّرَ لَهُ الهِدَايَة عَلَى يَدَيْ رَسُوله المَبْعُوث عَنْ أَمْره يَهْدِيهِمْ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ أَيْ: العَزِيز الَّذِي لَا يُمَانَع وَلَا يُغَالَب، بَل هُوَ القَاهِر لِكُلِّ مَا سِوَاهُ، ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ أَيْ: المَحْمُود فِي جَمِيع أَفْعَاله وَأَقْوَاله وَشَرْعه وَأَمْره وَنَهْيه، الصَّادِق فِي خَبَره.

وَقَوْله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ قَرَأَه بَعْضهمْ مُسْتَأْنَفًا مَرْفُوعًا، وَقَرَأَ آخَرُونَ عَلَى الإِتْبَاع صِفَة لِلجَلَالَة؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الآيَة. وَقَوْله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ أَيْ: وَيْل لَهُمْ يَوْم القِيَامَة إِذْ خَالَفُوك يَا مُحَمَّد وَكَذَّبُوك. ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِبُّونَ الحَيَاة الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَة، أَيْ: يُقَدِّمُونَهَا وَيُؤْثِرُونَهَا عَلَيْهَا، وَيَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا، وَنَسُوا الآخِرَة وَتَرَكُوهَا وَرَاء ظُهُورهمْ، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وَهِيَ اتِّبَاع الرُّسُل، ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ أَيْ: وَيُحِبُّونَ أَنْ تَكُون سَبِيل الله عِوَجًا مَائِلَة عَائِلَة، وَهِيَ مُسْتَقِيمَة فِي نَفْسهَا لَا يَضُرّهَا مَنْ خَالَفَهَا وَلَا مَنْ خَذَلَهَا، فَهُمْ فِي ابْتِغَائِهِمْ ذَلِكَ فِي جَهْل، وَضَلَال بَعِيد مِنَ الحَقّ، لَا يُرْجَى لَهُمْ -وَالحَالَة هَذِهِ- صَلَاح.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

هَذَا مِنْ لُطْفه تَعَالَى بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يُرْسِل إِلَيْهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ بِلُغَاتِهِمْ؛ لِيَفْهَمُوا عَنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ وَمَا أُرْسِلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ عُمَر بْن ذَرّ، قَالَ: قَالَ مُجَاهِد عَنْ أَبِي ذَرّ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَمْ يَبْعَث الله ﷻ نَبِيًّا؛ إِلا بِلُغَةِ قَوْمِهِ»(١).

وَقَوْله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ أَيْ: بَعْد البَيَان وَإِقَامَة الحُجَّة عَلَيْهِمْ، يُضِلّ تعالى مَنْ يَشَاء عَنْ وَجْه الهُدَى، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء إِلَى الحَقّ، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فِي أَفْعَاله، فَيُضِلّ مَنْ يَسْتَحِق الإِضْلَال، وَيَهْدِي مَنْ هُوَ أَهْل لِذَلِكَ. وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ سُنَّتَهُ فِي خَلْقه، أَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي أُمَّة

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٩٧).

إِلَّا أَنْ يَكُون بِلُغَتِهِمْ، فَاخْتُصَّ كُلّ نَبِيّ بِإِبْلَاغ رِسَالَته إِلَى أُمَّته دُون غَيْرهمْ، وَاخْتُصَّ مُحَمَّد بْن عَبْد الله رَسُول الله ﷺ، بِعُمُومِ الرِّسَالَة إِلَى سَائِر النَّاس، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِر، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«أُعْطِيت خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَد مِنْ الْأَنْبِيَاء قَبْلِي: نُصِرْت بِالرُّعْبِ مَسِيرَة شَهْر، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْض مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِم وَلَمْ تَحِلّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيت الشَّفَاعَة، وَكَانَ النَّبِيّ يُبْعَث إِلَى قَوْمه خَاصَّة وَبُعِثْت إِلَى النَّاس عَامَّة»**[1]. وَلَهُ شَوَاهِد مِنْ وُجُوه كَثِيرَة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَاك يَا مُحَمَّد وَأَنْزَلْنَا عَلَيْك الْكِتَاب؛ لِتُخْرِجَ النَّاس كُلّهمْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْخُرُوج مِنْ الظُّلُمَات إِلَى النُّور، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا مُوسَى فِي بَنِي إِسْرَائِيل بِآيَاتِنَا. قَالَ مُجَاهِد: وَهِيَ التِّسْع الْآيَات. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أَيْ: أَمَرْنَاهُ قَائِلِينَ لَهُ: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أَيْ: اُدْعُهُمْ إِلَى الْخَيْر؛ لِيَخْرُجُوا مِنْ ظُلُمَات مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ الْجَهْل وَالضَّلَال، إِلَى نُور الْهُدَى وَبَصِيرَة الْإِيمَان. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أَيْ: بِأَيَادِيهِ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، فِي إِخْرَاجه إِيَّاهُمْ مِنْ أَسْر فِرْعَوْن وَقَهْره وَظُلْمه وَغَشْمه، وَإِنْجَائِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ عَدُوّهمْ، وَفَلْقه لَهُمْ الْبَحْر، وَتَظْلِيله إِيَّاهُمْ بِالْغَمَامِ، وَإِنْزَاله عَلَيْهِمْ الْمَنّ وَالسَّلْوَى، إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنْ النِّعَم؛ قَالَ ذَلِكَ مُجَاهِد وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد. وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ الْحَدِيث الْمَرْفُوع الَّذِي رَوَاهُ عَبْد الله بْن الْإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل فِي مُسْنَد أَبِيهِ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْن عَبْد الله مَوْلَى بَنِي هَاشِم، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبَان الْجُعْفِيّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾ قَالَ: **«بِنِعَمِ الله تبارك وتعالى»**[2]. وَرَوَاهُ اِبْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن أَبَان، بِهِ. وَرَوَاهُ عَبْد الله اِبْنه أَيْضًا، مَوْقُوفًا وَهُوَ أَشْبَه.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَيْ: إِنَّ فِي مَا صَنَعْنَا بِأَوْلِيَائِنَا بَنِي إِسْرَائِيل حِين أَنْقَذْنَاهُمْ مِنْ يَد فِرْعَوْن، وَأَنْجَيْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ الْعَذَاب الْمُهِين. لعبرة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أَيْ: فِي الضَّرَّاء. ﴿شَكُورٍ﴾ أَيْ: فِي السَّرَّاء، كَمَا قَالَ قَتَادَة: نِعْمَ الْعَبْد عَبْد إِذَا اُبْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ. وَكَذَا جَاءَ، فِي الصَّحِيح عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: **«إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِن كُلَّهُ عَجَبٌ، لا يَقْضِي الله لَهُ قَضَاءً إلا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»**[3].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى حِين ذَكَّرَ قَوْمه بِأَيَّامِ الله عِندهم، وَنِعَمه عَلَيْهِمْ إِذْ أَنْجَاهُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْن، وَمَا كَانُوا يَسُومُونَهُمْ بِهِ مِنْ الْعَذَاب وَالْإِذْلَال، حِين كَانُوا يُذَبِّحُونَ مَنْ وُجِدَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَيَتْرُكُونَ إِنَاثهمْ، فَأَنْقَذَ الله

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٢٢) بسند ضعيف، ولكن أصل الحديث عند مسلم (٢٣٨٠).
(٣) صحيح: تقدم.

بني إسرائيل مِنْ ذَلِكَ، وَهَذِهِ نِعْمَة عَظِيمَة؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: نِعْمَة عَظِيمَة مِنْهُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ، أَنْتُمْ عَاجِزُونَ عَنْ القِيَام بِشُكْرِهَا. وَقِيلَ: وَفِيمَا كَانَ يَصْنَعهُ بِكُمْ قَوْم فِرْعَوْن مِنْ تِلْكَ الأَفَاعِيل، ﴿بَلَآءٌ﴾ أَيْ: اِخْتِبَار عَظِيم، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون المُرَاد هَذَا وَهَذَا، وَالله أَعْلَم، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أَيْ: آذَنَكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِوَعْدِهِ لَكُمْ، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون المَعْنَى: وَإِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ وَآلَى بِعِزَّتِهِ وَجَلاله وَكِبْرِيَائِهِ، كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وَقَوْله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أَيْ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعَم الله لَأَزِيدَنكُمْ مِنْهَا. ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أَيْ: كَفَرْتُمْ النِّعَم وَسَتَرْتُمُوهَا وَجَحَدْتُمُوهَا، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وَذَلِكَ بِسَلْبِهَا عَنْهُمْ، وَعِقَابه إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرهَا. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث: «إِنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»[1]. وَفِي المُسْنَد أَنَّ رَسُول الله ﷺ، مَرَّ بِهِ سَائِل، فَأَعْطَاهُ تَمْرَة فَتَسَخَّطَهَا وَلَمْ يَقْبَلهَا، ثُمَّ مَرَّ بِهِ آخَر فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا فَقَبِلَهَا، وَقَالَ: تَمْرَة مِنْ رَسُول الله ﷺ، فَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا. أَوْ كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَسْوَد، حَدَّثَنَا عِمَارَة الصَّيْدَلَانِيّ، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ سَائِلٌ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِتَمْرَةٍ فَلَمْ يَأْخُذهَا، أَوْ وَحَّشَ بِهَا. قَالَ: وَأَتَاهُ آخَر؛ فَأَمَرَ لَهُ بِتَمْرَةٍ. فَقَالَ: سُبْحَانَ الله! تَمْرَةٌ مِنْ رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ لِلجَارِيَةِ: «اذْهَبِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَأَعْطِيهِ الأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا الَّتِي عِنْدَهَا»[2]. تَفَرَّدَ بِهِ الإِمَام أَحْمَد، وَعِمَارَة بْن زَاذَان وَثَّقَهُ اِبْن حِبَّان وَأَحْمَد وَيَعْقُوب بْن سُفْيَان، وَقَالَ اِبْن مَعِين: صَالِح. وَقَالَ أَبُو زُرْعَة: لَا بَأْس بِهِ. وَقَالَ أَبُو حَاتِم: يُكْتَب حَدِيثه وَلَا يُحْتَجّ بِهِ، لَيْسَ بِالمَتِينِ. وَقَالَ البُخَارِيّ: رُبَّمَا يَضْطَرِب فِي حَدِيثه. وَعَنْ أَحْمَد أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: رُوِيَ عَنْهُ أَحَادِيث مُنْكَرَة. وَقَالَ أَبُو دَاوُد: لَيْسَ بِذَلِكَ. وَضَعَّفَهُ الدَّارَقُطْنِيّ، وَقَالَ اِبْن عَدِيّ: لَا بَأْس بِهِ، مِمَّنْ يُكْتَب حَدِيثه.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أَيْ: هُوَ غَنِيّ عَنْ شُكْر عِبَاده، وَهُوَ الحَمِيد المَحْمُود وَإِنْ كَفَرَهُ مَنْ كَفَرَه؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾. وَفِي صَحِيح مُسْلِم: عَنْ أَبِي ذَرّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبّه ﷻ، أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي؛ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَه، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذْ أُدْخِلَ فِي البَحْرِ»[3]. فَسُبْحَانه وَتَعَالَى الغَنِيّ الحَمِيد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

قَالَ اِبْن جَرِير: هَذَا مِنْ تَمَام قِيل مُوسَى لِقَوْمِهِ. يَعْنِي: وَتذكاره إِيَّاهُمْ بِأَيَّام الله، بِانْتِقَامِهِ مِنْ الأُمَم المُكَذِّبَة بِالرُّسُلِ. وَفِيمَا قَالَ اِبْن جَرِير نَظَرٌ، وَالظَّاهِر أَنَّهُ خَبَر مُسْتَأْنَف مِنْ الله تَعَالَى لِهَذِهِ الأُمَّة، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: إِنَّ قِصَّة عَاد

---

(١) ضعيف: تقدم قريبًا.
(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ١٥٤) بسند ضعيف.
(٣) صحيح: تقدم.

وَثَمُود لَيْسَتْ مِنْ التَّوْرَاة، فَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ كَلَام مُوسَى لِقَوْمِهِ وَقَصّه عَلَيْهِمْ ذلك، فلَا شَكَّ أَنْ تَكُون هَاتَانِ الْقِصَّتَانِ فِي التَّوْرَاة، وَالله أَعْلَم. وَبِالجُمْلَةِ، فَالله تَعَالَى قَدْ قَصَّ عَلَيْنَا خَبَر قَوْم نُوح وَعَاد وَثَمُود، وَغَيْرهمْ مِنْ الأُمَم الْمُكَذِّبَة لِلرُّسُلِ، مِمَّا لَا يُحْصِي عَدَدهمْ إِلَّا الله ﷻ. ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أَيْ: بِالحُجَج وَالدَّلَائِل الوَاضِحَات البَاهِرَات القَاطِعَات. وَقَالَ أبو إِسْحَاق، عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون، عَنْ عَبْد الله أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْله: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾: كَذَبَ النَّسَّابُونَ. وَقَالَ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر: مَا وَجَدْنَا أَحَدًا يَعْرِف مَا بَعْد مَعَدّ بْن عَدْنَان.

وَقَوْله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ؛ فقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ أَشَارُوا إِلَى أَفْوَاه الرُّسُل، يَأْمُرُونَهُمْ بِالسُّكُوتِ عَنْهُمْ لَمَّا دَعَوْهُمْ إِلَى الله ﷻ. وَقِيلَ: بَل وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاههمْ تَكْذِيبًا لَهُمْ. وَقِيلَ: بَل هُوَ عِبَارَة عَنْ سُكُوتهمْ عَنْ جَوَاب الرُّسُل. وَقَالَ مُجَاهِد وَمُحَمَّد بْن كَعْب وَقَتَادَة: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كَذَّبُوهُمْ وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ. قَالَ اِبْن جَرِير: وَتَوْجِيهه أَنَّ ﴿فِيٓ﴾ هُاهنَا بِمَعْنَى البَاء، قَالَ: وَقَدْ سُمِعَ مِنْ العَرَب: أَدْخَلَك الله بِالجَنَّةِ، يَعْنُونَ فِي الجَنَّة، وَقَالَ الشَّاعِر:

وَأَرْغَب فِيهَا عَنْ لَقِيط وَرَهْطه ❁ وَلَكِنَّنِي عَنْ سنبس لَسْت أَرْغَب

يُرِيد: أَرْغَب بِهَا. **قُلت**: وَيُؤَيِّد قَوْل مُجَاهِد تَفْسِير ذَلِكَ بِتَمَامِ الكَلَام ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ فَكَأَنَ هَذَا وَالله أَعْلَم، تَفْسِير لِمَعْنَى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَإِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله، فِي قَوْله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قَالَ: عَضُّوا عَلَيْهَا غَضًّا[1]. وَقَالَ شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عن هُبَيْرَة بْن يَرِيم، عَنْ عَبْد الله، أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا. وَقَدْ اِخْتَارَهُ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَوَجَّهَهُ اِبْن جَرِير مُخْتَارًا لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: لَمَّا سَمِعُوا كَلَامَ الله عَجِبُوا، وَرَجَعُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ. ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ يَقُولُونَ: لَا نُصَدِّقُكُمْ فِيمَا جِئْتُمْ بِهِ، فَإِنَّ عِنْدنَا فِيهِ شَكًّا قَوِيًّا.

﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَمَّا دَارَ بَيْن الكُفَّار وَبَيْن رُسُلِهِمْ مِنْ الْمُجَادَلَة، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَمَهُمْ لَمَّا وَاجَهُوهُمْ بِالشَّكِّ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَة الله وَحْده لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَتْ الرُّسُل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ وَهَذَا يَحْتَمِل شَيْئَيْنِ؛ **أَحدهما**: أَفِي وُجُودِهِ شَكٌّ؟! فَإِنَّ الفِطَر شَاهِدَة بِوُجُودِهِ، وَمَجْبُولَة عَلَى الإِقْرَار بِهِ، فَإِنَّ الاِعْتِرَاف بِهِ ضَرُورِيّ فِي الفِطَر السَّلِيمَة، وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِض لِبَعْضِهَا شَكٌّ وَاضْطِرَاب، فَتَحْتَاج إِلَى النَّظَر فِي الدَّلِيل الْمُوَصِّل إِلَى وُجُودِهِ، وَلِهَذَا قَالَتْ لَهُمْ الرُّسُل تُرْشِدهُمْ إِلَى طَرِيق مَعْرِفَته بِأَنَّهُ: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الَّذِي خَلَقَهُمَا وَابْتَدَعَهُمَا عَلَى غَيْر مِثَال سَبَقَ، فَإِنَّ شَوَاهِد الحُدُوث وَالخَلق وَالتَّسْخِير ظَاهِر عَلَيْهِمَا، فَلَابُدّ لَهُمَا مِنْ صَانِع وَهُوَ الله لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، خَالِق كُلّ شَيْء وَإِلَهه وَمَلِيكه.

وَالمَعْنَى الثَّانِي فِي قَوْلهمْ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ أَيْ: أَفِي إِلَهِيَّته وَتَفَرُّده بِوُجُوبِ العِبَادَة لَهُ شَكّ، وَهُوَ الخَالِق

---

(١) غضًّا: أي انتقاصًا وخفضًا من شأن الرسل.

لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَات، وَلَا يَسْتَحِقّ العِبَادَة إِلَّا هُوَ وَحْده لَا شَرِيك لَهُ؛ فَإِنَّ غَالِب الأُمَم كَانَتْ مُقِرَّة بِالصَّانِع، وَلَكِنْ تَعْبُد مَعَهُ غَيْره مِنْ الوَسَائِط الَّتِي يَظُنُّونَهَا تَنْفَعُهُمْ، أَوْ تُقَرِّبُهُمْ مِنْ الله زُلْفَى. وَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلهمْ: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أَيْ: فِي الدَّارِ الآخِرَةِ، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ الآيَة، فَقَالَتْ لَهُمْ الأُمَم مُحَاجِّينَ فِي مَقَام الرِّسَالَة، بَعْد تَقْدِير تَسْلِيمهمْ للمَقَام الأَوَّل، وَحَاصِل مَا قَالُوهُ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أَيْ: كَيْف نَتَّبِعُكُمْ بِمُجَرَّدِ قَوْلكُمْ، وَلَمَّا نرى مِنْكُمْ مُعْجِزَة، ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: خَارِق نَقْتَرِحهُ عَلَيْكُمْ.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أَيْ: صَحِيح أَنَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فِي البَشَرِيَّة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أَيْ: بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّة. ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ عَلَى وَفْقِ مَا سَأَلْتُمْ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: بَعْد سُؤَالِنَا إِيَّاهُ، وَإِذْنه لَنَا فِي ذَلِكَ، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: فِي جَمِيع أُمُورهمْ. ثُمَّ قَالَتْ الرُّسُل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: وَمَا يَمْنَعُنَا مِنْ التَّوَكُّل عَلَيْهِ وَقَدْ هَدَانَا لِأَقْوَم الطُّرُق وَأَوْضَحِهَا وَأَبْيَنِهَا، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ أَيْ: مِنْ الكَلَام السَّيِّئ، وَالأَفْعَال السَّخِيفَة. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الأُمَم الكَافِرَة رُسُلَهُمْ مِنْ الإِخْرَاج مِنْ أَرْضِهِمْ، وَالنَّفْي مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ، كَمَا قَالَ قَوْم شُعَيْب لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، وَكَمَا قَالَ قَوْم لُوط: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْش: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

وَكَانَ مِنْ صُنْعه تَعَالَى أَنَّهُ أَظْهَرَ رَسُوله وَنَصَرَهُ، وَجَعَلَ لَهُ بِسَبَبِ خُرُوجه مِنْ مَكَّة أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا، وَجُنْدًا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيل الله تَعَالَى، وَلَمْ يَزَل يُرَقِّيه تَعَالَى مِنْ شَيْء إِلَى شَيْء حَتَّى فَتَحَ لَهُ مَكَّة الَّتِي أَخْرَجَتْهُ، وَمَكَّنَ لَهُ فِيهَا، وَأَرْغَمَ آنَاف أَعْدَائِهِ مِنْهُمْ وَمِنْ سَائِر أَهْل الأَرْض، حَتَّى دَخَلَ النَّاس فِي دِين الله أَفْوَاجًا، وَظَهَرَتْ كَلِمَة الله وَدِينه عَلَى سَائِر الأَدْيَان، فِي مَشَارِق الأَرْض وَمَغَارِبهَا، فِي أَيْسَر زَمَان، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، وَكَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، وَ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أَيْ: وَعدي هَذَا لِمَنْ خَافَ مَقَامه بَيْن يَدَيْ يَوْم القِيَامَة، وَخَشِيَ مِنْ وَعِيدِي وَهُوَ تَخْوِيفِي وَعَذَابِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، وَقَالَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أَيْ: اِسْتَنْصَرَتْ الرُّسُل رَبّهَا عَلَى قَوْمهَا؛ قَالَهُ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن ابْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: اِسْتَفْتَحَتْ الأُمَم عَلَى أَنْفُسهَا؛ كَمَا قَالُوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون هَذَا مُرَادًا وَهَذَا مُرَادًا، كَمَا أَنَّهُمْ اِسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ يَوْم بَدْر، وَاسْتَفْتَحَ رَسُول الله ﷺ، وَانتصر، وَقَالَ الله تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآيَة، وَالله أَعْلَم. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أَيْ: مُتَجَبِّرٍ فِي نَفْسه، مُعَانِد لِلْحَقِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾، وَفِي الحَدِيث: «**إِنَّهُ يُؤْتَى بِجَهَنَّم يَوْم القِيَامَة فَتُنَادِي الخَلَائِق، فَتَقُول: إِنِّي وُكِّلت بِكُلِّ جَبَّار عَنِيد**...» الحَدِيث[1]. خَابَ وَخَسِرَ حِينَ اِجْتَهَدَ الأَنْبِيَاء فِي الاِبْتِهَال إِلَى رَبّهَا العَزِيز المُقْتَدِر.

وَقَوْله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ وَرَاء هُنَا بِمَعْنَى أَمَام، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وَكَانَ اِبْن عَبَّاس يَقْرَؤُهَا: (**وَكَانَ أَمَامهمْ مَلِكٌ**) أَيْ: مِنْ وَرَاء الجَبَّار العَنِيد جَهَنَّم، أَيْ: هِيَ لَهُ بِالمِرْصَادِ، يَسْكُنهَا مُخَلَّدًا يَوْم المَعَاد، وَيُعْرَض عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا إِلَى يَوْم التَّنَاد. ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أَيْ: فِي النَّار، لَيْسَ لَهُ شَرَاب إِلَّا مِنْ حَمِيم أَوْغَسَّاق، فَهَذَا حَارّ فِي غَايَة الحَرَارَة، وَهَذَا بَارِد فِي غَايَة البَرْد وَالنَّتْن، كَمَا قَالَ: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾. قَالَ مُجَاهِد وَعِكْرِمَة: الصَّدِيد مِنْ القَيْح وَالدَّم. وَقَالَ قَتَادَة: هُوَ مَا يَسِيل مِنْ لَحْمه وَجِلْده. وَفِي رِوَايَة عَنْهُ: الصَّدِيد مَا يَخْرُج مِنْ جَوْف الكَافِر، قَدْ خَالَطَ القَيْح وَالدَّم. وَفِي حَدِيث شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أَسْمَاء بِنْت يَزِيد بْن السَّكَن، قَالَتْ: قُلت: يَا رَسُول الله، مَا طِينَة الخَبَال؟ قَالَ: «**صَدِيد أَهْل النَّار**». وَفِي رِوَايَة: «**عُصَارَة أَهْل النَّار**»[2].

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن إِسْحَاق، أَنْبَأَنَا عَبْد الله، أَنَا صَفْوَان بْن عَمْرو، عَنْ عُبَيْد الله بْن بِسر، عَنْ أَبِي أُمَامَة ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، فِي قَوْله ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قَالَ: «**يُقَرَّب إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ، فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهه، وَوَقَعَتْ فَرْوَة رَأْسِهِ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَّعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُج مِنْ دُبُره**». يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، وَيَقُول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾[3]. وَهَكَذَا رَوَاهُ اِبْن جَرِير: مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن المُبَارَك، بِهِ. وَرَوَاهُ هُوَ، وَابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ حَدِيث بَقِيَّة بْن الوَلِيد، عَنْ صَفْوَان بْن عَمْرو، بِهِ.

وَقَوْله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أَيْ: يَتَغَصَّصه وَيَتَكَرَّههُ، أَيْ: يَشْرَبُهُ قَهْرًا وَقَسْرًا، لَا يَضَعُهُ فِي فِيهِ حَتَّى يَضْرِبَهُ المَلَكُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيد، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أَيْ: يردده لِسُوءِ لونه وَطَعْمِهِ وَرِيحِهِ، وَحَرَارَته أَوْ بَرْدِهِ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَيْ: يَأْلَمُ لَهُ جَمِيع بَدَنِهِ وَجَوَارِحِهِ وَأَعْضَائِهِ. قَالَ مَيْمُون بْن مِهْرَان: مِنْ كُلّ عَظْم وَعَصَب وَعِرْق. وَقَالَ عِكْرِمَة: حَتَّى مِنْ أَطْرَاف شَعْره.

وَقَالَ إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ: مِنْ مَوْضِع كُلّ شَعْرَة، أَيْ: مِنْ جَسَده، حَتَّى مِنْ أَطْرَاف شَعْره. وَقَالَ اِبْن جَرِير: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَيْ: مِنْ أَمَامه وَخَلفه. وَفِي رِوَايَة: وَعَنْ يَمِينه وَشِمَاله، وَمِنْ فَوْقه وَمِنْ تَحْت أَرْجُله، وَمِنْ سَائِر أَعْضَاء جَسَده. وَقَالَ الضَّحَّاك، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٥٧٤) بنحوه، وصححه الألباني.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ١٧١)، وابن ماجه (٣٣٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٢٥٨٣) وقال: حديث غريب، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

قَالَ: أَنْوَاع العَذَاب الَّذِي يُعَذِّبُهُ الله بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، لَيْسَ مِنْهَا نَوْعٌ إِلَّا يَأْتِيه المَوْتُ مِنْهُ لَوْ كَانَ يَمُوتُ، وَلَكِنْ لَا يَمُوت؛ لأَنَّ الله تَعَالَى قَالَ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾. وَمَعْنَى كَلَام اِبْن عَبَّاس رضي الله عنهما: أَنَّهُ مَا مِنْ نَوْع مِنْ هَذِهِ الأَنْوَاع مِنَ العَذَاب إِلَّا إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ اِقْتَضَى أَنْ يَمُوت مِنْهُ لَوْ كَانَ يَمُوت، وَلَكِنَّهُ لَا يَمُوت لِيَخْلُدَ فِي دَوَام العَذَاب وَالنَّكَال، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أَيْ: وَلَهُ مِنْ بَعْد هَذا الحَال عَذَاب آخر غَلِيظ، أَيْ: مُؤْلِم صَعْب شَدِيد أَغْلَظُ مِنَ الَّذِي قَبْله وَأَدْهَى وَأَمَرُّ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ شَجَرَة الزَّقُّوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَارَة يَكُونُونَ فِي أَكْل زَقُّوم، وَتَارَةً فِي شُرْب حَمِيم، وَتَارَة يَرِدُونَ إِلَى جَحِيم، عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلِكَ، وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنَ الآيَات الدَّالَّة عَلَى تَنَوُّع العَذَاب عَلَيْهِمْ، وَتكْرَاره وَأَنْوَاعه وَأَشْكَاله مِمَّا لَا يُحْصِيه إِلَّا الله عز وجل، جَزَاء وِفَاقًا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ الله تَعَالَى لِأَعْمَالِ الكُفَّار: الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ الله غَيْره، وَكَذَّبُوا رُسُله، وَبَنَوْا أَعْمَالهمْ عَلَى غَيْر أَسَاس صَحِيح، فَانْهَارَتْ وَعَدِمُوهَا أَحْوَج مَا كَانُوا إِلَيْهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ﴾ أَيْ: مَثَل أَعْمَال الذين كفروا يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا طَلَبُوا ثَوَابَهَا مِنَ الله تَعَالَى، لأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى شَيْء، فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا، وَلَا أَلْفَوْا حَاصِلًا إِلَّا كَمَا يَتَحَصَّل مِنْ الرَّمَادِ إِذَا اِشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ العَاصِفَةُ ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أَيْ: ذِي رِيح شَدِيدَة عَاصِفَة قَوِيَّة، فلا يَقْدِرُون عَلَى شَيْء مِنْ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَسَبُوا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا كَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى جَمْع هَذَا الرَّمَاد فِي هَذَا اليَوْم، كما قال تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾، وَقال تَعَالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. وَقَوْله فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أَيْ: سَعْيهمْ وَعَملهمْ عَلَى غَيْر أَسَاس وَلَا اِسْتِقَامَة، حَتَّى فَقَدُوا ثَوَابَهُمْ أَحْوَج مَا كَانُوا إِلَيْهِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَعَاد الأَبْدَانِ يَوْم القِيَامَة بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض الَّتِي هِيَ أَكْبَر مِنْ خَلق النَّاس، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلقِ هَذِهِ السَّمَاوَات فِي اِرْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَعَظَمَتِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ الكَوَاكِب

الثَّوابت وَالسَّيَّارَات، وَالحَرَكَات المُخْتَلِفَات، وَالآيَات البَاهِرَات، وَهَذِهِ الأَرْض بِمَا فِيهَا مِنْ مِهَاد وَوِهَاد وَأَوْتَاد، وَبَرَارِي وَصَحَارِي، وَقِفَار وَبِحَار، وَأَشْجَار وَنَبَات وَحَيَوَان، عَلَى اخْتِلَاف أَصْنَافهَا وَمَنَافِعهَا وَأَشْكَالهَا وَأَلْوَانهَا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أَيْ: بِعَظِيم وَلَا مُمْتَنِع، بَل هُوَ سَهْل عَلَيْهِ إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ، أَنْ يُذْهِبكُمْ وَيَأْتِي بِآخَرِينَ عَلَى غَيْر صِفَتكُمْ؛ كَمَا قَالَ: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، وَقَالَ: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وَقَالَ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَبَرَزُوا﴾ أَيْ: بَرَزَتْ الخَلَائِق كُلّهَا؛ بَرّهَا وَفَاجِرُهَا لله الوَاحِد القَهَّار، أَيْ: اِجْتَمَعُوا لَهُ فِي بَرَاز مِنْ الأَرْض، وَهُوَ المَكَان الَّذِي لَيْس فِيهِ شَيْء يَسْتُر أَحَدًا. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وَهُمْ الأَتْبَاع لِقَادَتِهِمْ وَسَادَتِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عَنْ عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَنْ مُوَافَقَةِ الرُّسُل فَقَالُوا لَهُمْ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أَيْ: مَهْمَا أَمَرْتُمُونَا اِئْتَمَرْنَا وَفَعَلْنَا، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيْ: فَهَل تَدْفَعُونَ عَنَّا شَيْئًا مِنْ عَذَاب الله كَمَا كُنْتُمْ تَعِدُونَنَا وَتُمَنُّونَنَا؟ فَقَالَتْ القَادَة لَهُمْ: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ وَلَكِنْ حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبّنَا، وَسَبَقَ فِينَا وَفِيكُمْ قَدَرُ الله، وَحَقَّتْ كَلِمَة العَذَاب عَلَى الكَافِرِينَ.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أَيْ: لَيْس لَنَا خَلَاص مِمَّا نَحْنُ فِيهِ إِنْ صَبَرْنَا عَلَيْهِ أَوْ جَزِعْنَا مِنْهُ. قَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: إِنَّ أَهْل النَّار قَالَ بَعْضهمْ لِبَعْضٍ: تَعَالَوْا فَإِنَّمَا أَدْرَكَ أَهْل الجَنَّة الجَنَّة بِبُكَائِهِمْ وَتَضَرُّعِهِمْ إِلَى الله ﷻ، تَعَالَوْا نَبْكِ وَنَتَضَرَّع إِلَى الله، فَبَكَوْا وَتَضَرَّعُوا، فَلَمَّا رَأَوْا ذلك لَا يَنْفَعهُمْ قَالُوا: تعالوا فَإِنَّمَا أَدْرَكَ أَهْل الجَنَّة الجَنَّة بِالصَّبْرِ، تَعَالَوْا حَتَّى نَصْبِر، فَصَبَرُوا صَبْرًا لَمْ يُرَ مِثْله، فَلَمْ يَنْفَعهُمْ ذَلِكَ، فَعِنْد ذَلِكَ قَالُوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾.

قُلت: وَالظَّاهِر أَنَّ هَذِهِ المُرَاجَعَة فِي النَّار بَعْد دُخُولهمْ إِلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

وَأَمَّا تَخَاصُمُهُمْ فِي المَحْشَرِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَاطَبَ بِهِ إِبْلِيس أَتْبَاعه بَعْدَمَا قَضَى الله بَيْنَ عِبَاده، فَأَدْخَلَ المُؤْمِنِينَ الجَنَّاتِ، وَأَسْكَنَ الكَافِرِينَ الدَّرَكَاتِ، فَقَامَ فِيهِمْ إِبْلِيس -لَعَنَهُ الله- يَوْمَئِذٍ خَطِيبًا، لِيَزِيدَهُمْ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ، وَغَبْنًا إِلَى غَبْنِهِمْ، وَحَسْرَة إِلَى حَسْرَتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: عَلَى أَلْسِنَة رُسُله، وَوَعَدَكُمْ فِي اتِّبَاعِهِمْ النَّجَاة وَالسَّلَامَة، وَكَانَ وَعْدًا حَقًّا وَخَبَرًا صِدْقًا، وَأَمَّا أَنَا فَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ؛ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أَيْ: مَا كَانَ لِيَ عليكم فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ من دليل وَلَا حُجَّة على صدق ما وَعَدْتُكُمْ بِهِ ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، هَذَا وَقَدْ أَقَامَتْ عَلَيْكُمْ الرُّسُل الحُجَج وَالأَدِلَّة الصَّحِيحَة عَلَى صِدْق مَا جَاءُوكُمْ بِهِ، فَخَالَفْتُمُوهُمْ فَصِرْتُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ اليَوْم، ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ فَإِنَّ الذَّنْب لَكُمْ لِكَوْنِكُمْ خَالَفْتُمْ الحُجَج، وَاتَّبَعْتُمُونِي بِمُجَرَّدِ مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى البَاطِل ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أَيْ: بِنَافِعِكُمْ فَمُنْقِذكُمْ وَمُخَلِّصكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أَيْ: بِنَافِعِي بِإِنْقَاذِي مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾. قَالَ قَتَادَة: أَيْ: بِسَبَبِ مَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْل. وَقَالَ ابْن جَرِير: يَقُول: إِنِّي جَحَدْت أَنْ أَكُونَ شَرِيكًا لله ﷻ.

وَهَذَا الَّذِي قَالَه هُوَ الرَّاجِح، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: فِي إِعْرَاضهمْ عَنْ الحَقّ، وَاتِّبَاعهمْ البَاطِل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وَالظَّاهِر مِنْ سِيَاق الآيَة: أَنَّ هَذِهِ الخُطْبَة تَكُون مِنْ إِبْلِيس بَعْد دُخُولهمْ النَّار كَمَا قَدَّمْنَا، وَلَكِنْ قَدْ وَرَدَ فِي حَدِيث رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم -وَهَذَا لَفْظه- وَابْن جَرِير: مِنْ رِوَايَة عَبْد الرَّحْمَن بْن زِيَاد: حَدَّثَنِي دُخَيْن الحَجَرِيّ، عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا جَمَعَ الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، فَقَضَى بَيْنَهمْ فَفَرَغَ مِنْ القَضَاء، قَالَ المُؤْمِنُونَ: قَدْ قَضَى بَيْنَنَا رَبّنَا فَمَنْ يَشْفَع لَنَا؟ فَيَقُولُونَ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى آدم** -وَذَكَر نُوحًا، وَإِبْرَاهِيم، وَمُوسَى، وَعِيسَى- **فَيَقُول عِيسَى: أَدُلّكُمْ عَلَى النَّبِيّ الأُمِّيّ، فَيَأْتُونِي فَيَأْذَن الله لِي أَنْ أَقُوم إِلَيْهِ، فَيَثُور مِنْ مَجْلِسِي مِنْ أَطْيَب رِيح شَمَّهَا أَحَد قَطُّ، حَتَّى آتِيَ رَبِّي فَيُشَفِّعنِي، وَيَجْعَل لِي نُورًا مِنْ شَعْر رَأْسِي إِلَى ظُفْر قَدَمِي، ثُمَّ يَقُول الكَافِرُونَ: هَذَا قَدْ وَجَدَ المُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَع لَهُمْ، فَمَنْ يَشْفَع لَنَا؟ مَا هُوَ إِلا إِبْلِيس هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا؛ فَيَأْتُونَ إِبْلِيس فَيَقُولُونَ: قَدْ وَجَدَ المُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَع لَهُمْ، فَقُمْ أَنْتَ فَاشْفَعْ لَنَا؛ فَإِنَّك أَنْتَ**

اَضْلَلْتنَا، فَيَقُوم فَيَثُور مِنْ مَجْلِسه مِنْ أَنْتَنِ رِيح شَمَّهَا أَحَد قَطُّ، ثُمَّ يَعْظُم نَحِيبُهُمْ، ويقول: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾»[1]. وَهَذَا سِيَاق اِبْن أَبِي حَاتِم. وَرَوَاهُ الْمُبَارَك، عَنْ رِشْدِين بْن سَعْد، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن ابْن زِيَاد بْن أنعم، عَنْ دُخَيْن، عَنْ عُقْبَة بِهِ. مَرْفُوعًا. وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب الْقُرَظِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَمَّا قَالَ أَهْل النَّار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قَالَ لَهُمْ إِبْلِيس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ الآيَة، فَلَمَّا سَمِعُوا مَقَالَته مَقَتُوا أَنْفُسهمْ فَنُودُوا: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

وَقَالَ عَامِر الشَّعْبِيّ: يَقُوم خَطِيبَانِ يَوْم الْقِيَامَة عَلَى رُءُوس النَّاس، يَقُول الله تَعَالَى لِعِيسَى اِبْن مَرْيَم: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ إِلَى قَوْله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قَالَ: وَيَقُوم إِبْلِيس -لَعَنَهُ الله- فَيَقُول: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ الآيَة. ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس عطف بحال السعداء، وأنهم يدخلون يوم القيامة، وقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ سَارِحَة فِيهَا حَيْثُ سَارُوا وَأَيْنَ سَارُوا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مَاكِثِينَ أَبَدًا لَا يَحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾

قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وَهُوَ الْمُؤْمِن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يَقُول: لَا إِلَه إِلَّا الله فِي قَلْب الْمُؤْمِن، ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يَقُول: يُرْفَع بِهَا عَمَل الْمُؤْمِن إِلَى السَّمَاء. وَهَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَعِكْرِمَة وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد: إِنَّ ذَلِكَ عِبَارَة عَنْ الْمُؤْمِن وَقَوْله الطَّيِّب وَعَمَله الصَّالِح، وَإِنَّ الْمُؤْمِن كَشَجَرَةٍ مِنْ النَّخْل لَا يَزَال يُرْفَع لَهُ عَمَل صَالِح فِي كُلّ حِين وَوَقْت، وَصَبَاح وَمَسَاء. وَهَكَذَا رَوَاهُ السُّدِّيّ، عَنْ مُرَّة، عَنْ اِبْن مَسْعُود قَالَ: هِيَ النَّخْلَة. وَشُعْبَة، عَنْ مُعَاوِيَة بْن قُرَّة، عَنْ أَنَس: هِيَ النَّخْلَة. وَحَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ شُعَيْب بْن الْحَبْحَاب، عَنْ أَنَس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، أُتِيَ بِقِنَاعِ بُسْر فَقَرَأَ ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَة»[2]. وَرُوِيَ مِنْ هَذَا الْوَجْه وَمِنْ غَيْره عَنْ أَنَس مَوْقُوفًا؛ وَكَذَا نَصَّ عَلَيْهِ مَسْرُوق وَمُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَغَيْرهمْ.

وَقَالَ الْبُخَارِيّ: حَدَّثَنَا عُبَيْد بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ أَبِي أُسَامَة، عَنْ عُبَيْد الله، عَنْ نَافِع، عَنْ اِبْن عُمَر؛ قَالَ: كُنَّا

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (١٣/ ٢٠١)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٧٤)، وسنده ضعيف، فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي وهو ضعيف.

(٢) **ضعيف مرفوعًا**: أخرجه الترمذي (٣١١٩) مرفوعًا من حديث أنس، ثم قال: حدثنا قتيبة، حدثنا أبو بكر ابن شعيب ابن الحبحاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك نحوه بمعناه، ولم يرفعه، ولم يذكر قول أبي العالية، وهذا أصح من حديث حماد ابن سلمة. قت: «يعني المرفوع»، ثم قال الترمذي: وروى غير واحد مثل هذا موقوفًا، ولا نعلم أحدًا رفعه غير حماد ابن سلمة، ورواه معمر وحماد بن زيد وغير واحد، ولم يرفعوه؛ حدثنا أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا حماد بن زيد عن شعيب ابن الحبحاب عن أنس نحو حديث قتيبة ولم يرفعه، وقال الشيخ الألباني في «ضعيف سنن الترمذي»: ضعيف مرفوع.

عِنْد رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: «أخبروني بشجرة تُشبه -أوْ- كالرَّجل المُسلِم-، لا يَتحاتّ ورَقها لا صيْفًا ولا شِتاء، وتُؤتِي أُكلها كُلّ حِين بِإِذْن رَبِّهَا». قَالَ ابْن عُمَر: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَة، وَرَأَيْت أَبَا بَكْر وَعُمَر لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْت أَنْ أَتَكَلَّم، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا قَالَ رَسُول الله ﷺ: «هيَ النّخلَة». فَلَمَّا قُمْنَا قُلت لِعُمَرَ: يَا أَبَتَاهُ، وَالله لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَة. قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّم؟ قُلت: لَمْ أَرَكُمْ تَتَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْت أَنْ أَتَكَلَّم أَوْ أَقُول شَيْئًا، قَالَ عُمَر: لَأَنْ تَكُون قُلتهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا[١].

وَقَالَ أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ اِبْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد قال: صَحِبْت اِبْن عُمَر إِلَى الْمَدِينَة، فَلَمْ أَسْمَعهُ يُحَدِّث عَنْ رَسُول الله ﷺ، إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، قَالَ: كُنَّا عِنْد رَسُول الله ﷺ، فَأَتَى بِجُمَّارٍ فَقَالَ: «إنّ منَ الشّجَر شَجرَة مَثلهَا كَمثَل الرَّجُل المُسلِم». فَأَرَدْت أَنْ أَقُول: هِيَ النَّخْلَة، فَنَظَرْت فَإِذَا أَنَا أَصْغَر الْقَوْم فسكتُّ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «هيَ النّخلَة» أَخْرَجَاهُ. وَقَالَ مَالِك وَعَبْد الْعَزِيز: عَنْ عَبْد الله بْن دِينَار، عَنْ اِبْن عُمَر، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «إنّ منَ الشّجَر شَجرَة لا يُطرَح ورَقهَا مثلُ المُؤمن» قَالَ: فَوَقَعَ النَّاس فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، وَوَقَعَ فِي قَلْبِي أَنَّهَا النَّخْلَة، فَاسْتَحْيَيْت حَتَّى قَالَ رَسُول الله ﷺ: «هيَ النّخلَة»[٢].

أَخْرَجَاهُ أَيْضًا. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا أَبَان -يَعْنِي اِبْن يزيد العَطَّار- حَدَّثَنَا قَتَادَة، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُول الله، ذَهَبَ أَهْل الدُّثُور بِالْأُجُورِ. فَقَالَ: «أرأيْت لوْ عمَدَ إلى مَتَاع الدُّنْيَا، فرَكّبَ بَعْضه عَلَى بَعْض أكَانَ يَبْلُغ السَّمَاء؟ أفَلا أُخبِرُك بعَمَلٍ أَصْلُهُ فِي الأَرْض وَفَرْعُهُ فِي السَّمَاء؟» قَالَ: مَا هُوَ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «تَقُول: لا إِلَه إِلا الله، والله أكبَر، وَسُبحَان الله، والحَمْد لله، عَشر مَرَّات فِي دُبُر كُلّ صَلاة، فَذَاكَ أَصْلُهُ فِي الأَرْض وَفَرْعُهُ فِي السَّمَاء»[٣].

وَعَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قَالَ: هِيَ شَجَرَة فِي الْجَنَّة. وَقَوْله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قِيلَ: غُدْوَةً وَعَشِيًّا. وَقِيلَ: كُلَّ شَهْر. وَقِيلَ: كُلَّ سنة شَهْرَيْنِ. وَقِيلَ: كُلَّ سِتَّةِ أَشْهُر. وَقِيلَ: كُلّ سَبْعَة أَشْهُر. وَقِيلَ: كُلّ سَنَة. وَالظَّاهِر مِنْ السِّيَاق: أَنَّ الْمُؤْمِن مَثَله كَمَثَلِ شَجَرَة لَا يَزَالُ يُوجَد مِنْهَا ثَمَر فِي كُلّ وَقْت؛ مِنْ صَيْف أَوْ شِتَاء، أَوْ لَيْل أَوْ نَهَار، كَذَلِكَ الْمُؤْمِن لَا يَزَال يُرْفَعُ لَهُ عَمَل صَالِح آنَاء اللَّيْل وَأَطْرَاف النَّهَار، فِي كُلّ وَقْت وَحِين. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أَيْ: كَامِلًا حسنًا كَثِيرًا طَيِّبًا، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هَذَا مِثْل كُفْر الْكَافِر، لَا أَصْل لَهُ وَلَا ثَبَات وشُبِّه بِشَجَرَةِ الْحَنْظَل، وَيُقَال لَهَا: الشِّرْيَان. رَوَاهُ شُعْبَة، عَنْ مُعَاوِيَة بْن قُرَّة، عَنْ أَنَس بْن مَالِك: أَنَّهَا شَجَرَة الْحَنْظَل. وَقَالَ أَبُو بَكْر الْبَزَّار الحافظ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن مُحَمَّد بن السَّكَن، حَدَّثَنَا أَبُو زَيْد سَعِيد بْن الرَّبِيع، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ مُعَاوِيَة بْن قُرَّة، عَنْ أَنَس، أَحْسَبهُ رَفَعَهُ قَالَ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قَالَ: «هيَ النّخلَة». ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قَالَ: «هيَ الشّرْيَان». ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّد بْن الْمُثَنَّى، عَنْ غُنْدَر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ مُعَاوِيَة، عَنْ أَنَس مَوْقُوفًا.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا حَمَّاد -هُوَ اِبْن سَلَمَة- عَنْ شُعَيْب بْن الْحَبْحَاب، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هيَ: الحَنْظَلَة»[٤]. فَأَخْبَرْت

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٢)، ومسلم (٢٨٦١).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ١٢)، وهو في «الصحيحين».
(٣) إسناده ضعيف: لإرساله.
(٤) إسناده حسن: أخرجه ابن جرير (٧/ ٤٤٤)، وابن حبان (٤٧٥)، وسنده حسن.

بِذَلِكَ أَبَا العَالِيَة فَقَالَ: هَكَذَا كُنَّا نَسْمَع. وَرَوَاهُ اِبْن جَرِير: مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلَمَة، بِهِ. وَرَوَاهُ أَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَده بِأَبْسَط مِنْ هَذَا فَقَالَ: حَدَّثَنَا غَسَّان، عَنْ حَمَّاد، عَنْ شُعَيْب، عَنْ أَنَس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، أُتِيَ بِقِنَاع عَلَيْهِ بُسْر، فَقَالَ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ فَقَالَ: «هِيَ النَّخْلَة»، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ قَالَ: «هِيَ الحَنْظَل»[1]. قَالَ شُعَيْب: فَأَخْبَرْت بِذَلِكَ أَبَا العَالِيَة فَقَالَ: كَذَلِكَ كُنَّا نَسْمَع. وَقَوْله: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أَيْ: اُسْتُؤْصِلَتْ ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أَيْ: لَا أَصْل لَهَا وَلَا ثَبَات، كَذَلِكَ الكُفْر لَا أَصْل لَهُ وَلَا فَرْع، وَلَا يَصْعَدُ لِلْكَافِرِ عَمَل، وَلَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ شَيْء.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾

قَالَ البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا أبو الوَلِيد، حَدَّثَنَا شُعْبَة، أَخْبَرَنِي عَلقَمَة بْن مَرْثَد، قَالَ: سَمِعْت سَعْد بْن عُبَيْدَة، عَنْ البَرَاء بْن عَازِب رضي الله عنه، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**المُسْلِم إِذَا سُئِلَ فِي القَبْر شَهِدَ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله فَذَلِكَ قَوْله**: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»[2]. وَرَوَاهُ مُسْلِم أَيْضًا وَبَقِيَّة الجَمَاعَة كُلّهمْ: مِنْ حَدِيث شُعْبَة، بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ زَاذَان، عَنْ البَرَاء بْن عَازِب، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ، فِي جِنَازَة رَجُل مِنْ الأَنْصَار، فَانْتَهَيْنَا إِلَى القَبْر وَلَمَّا يُلحَد، فَجَلَسَ رَسُول الله ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْله وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسنَا الطَّيْر، وَفِي يَده عُود يُنَكِّت بِهِ فِي الأَرْض، فَرَفَعَ رَأْسه فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَاب القَبْر**». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ العَبْد المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي اِنْقِطَاع مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَال مِنْ الآخِرَة، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَة مِنْ السَّمَاء بِيضُ الوُجُوه، كَأَنَّ وُجُوههمْ الشَّمْس، مَعَهُمْ كَفَن مِنْ أَكْفَان الجَنَّة، وَحَنُوط مِنْ حَنُوط الجَنَّة، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدّ البَصَر، ثُمَّ يَجِيء مَلَكُ المَوْت عليه السلام، حَتَّى يَجْلِس عِنْد رَأْسِهِ، فَيَقُول: أَيَّتُهَا النَّفْس الطَّيِّبَة، اُخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَة مِنْ الله وَرِضْوَان، قَالَ: فَتَخْرُج تَسِيل كَمَا تَسِيل القَطْرَة مِنْ فِيِّ السِّقَاء، فَيَأْخُذهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَده طَرْفَة عَيْن، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَن وَفِي ذَلِكَ الحَنُوط، وَيَخْرُج مِنْهَا كَأَطْيَب نَفْحَة مِسْك وُجِدَتْ عَلَى وَجْه الأَرْض، قال: فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا يَعْنِي عَلَى مَلَإٍ مِنْ المَلَائِكَة إِلَّا قَالُوا: مَا هذا الرُّوح الطَّيِّب؟ فَيَقُولُونَ: فُلَان اِبْن فُلَان، بِأَحْسَن أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَح لَهُ، فَيُشَيِّعهُ مِنْ كُلّ سَمَاء مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاء الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاء السَّابِعَة، فَيَقُول الله: اُكْتُبُوا كِتَاب عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْض، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتهمْ وَفِيهَا أُعِيدهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجهُمْ تَارَة أُخْرَى.**

قَالَ: فَتُعَاد رُوحه فِي جَسَده، فَيَأْتِيه مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُول: رَبِّيَ الله. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُول: دِينِي الإِسْلَام. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُل الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُول: هُوَ رَسُول الله. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُول: قَرَأْتُ كِتَاب الله فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْت. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاء: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الجَنَّة، وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الجَنَّة، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّة. قَالَ: فَيَأْتِيه مِنْ رُوحهَا وَطِيبهَا،

---

(١) حسن: أخرجه أبو يعلى (٤١٦٥)، وسنده حسن.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١).

وَيُفْسَح لَهُ فِي قَبْره مَدّ بَصَره، قال: وَيَأْتِيه رَجُل حَسَن الوَجْه، حَسَن الثِّيَاب، طَيِّب الرِّيح، فَيَقُول: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرّك، هَذَا يَوْمك الَّذِي كُنْت تُوعَد، فَيَقُول لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهك الوَجْه الَّذِي يَأْتِي بِالخَيْر. فَيَقُول: أَنَا عَمَلك الصَّالِح. فَيَقُول: رَبّ أَقِمْ السَّاعَة، رَبّ أَقِمْ السَّاعَة، حَتَّى أَرْجِع إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ العَبْد الكَافِر إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاع مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَال مِنْ الآخِرَة، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَة مِنْ السَّمَاء سُود الوُجُوه، مَعَهُمْ المُسُوح، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدّ البَصَر، ثُمَّ يَجِيء مَلَك المَوْت حتى يَجْلِس عِنْد رَأْسه، فَيَقُول: أَيَّتهَا النَّفْس الخَبِيثَة، اُخْرُجِي إِلَى سَخَط مِنْ الله وَغَضَب. قَالَ: فَتُفَرَّق فِي جَسَده، فَيَنْتَزِعهَا كَمَا يَنْتَزِع السَّفُّود مِنْ الصُّوف المَبْلُول، فَيَأْخُذهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَده طَرْفَة عَيْن، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوح، وَتَخْرُج مِنْهَا كَأَنْتَن رِيح جِيفَة وُجِدَتْ عَلَى وَجْه الأَرْض، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنْ المَلائِكَة إلا قَالُوا: مَا هذا الرُّوح الخَبِيث؟ فَيَقُولُونَ: فُلان ابْن فُلان، بِأَقْبَح أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونه بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَح لَهُ فَلا يُفْتَح لَهُ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ: «لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّمَاء وَلا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاط. فَيَقُول الله: اُكْتُبُوا كِتَابه فِي سِجِّين فِي الأَرْض السُّفْلَى، فَتُطْرَح رُوحه طَرْحًا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

فَتُعَاد رُوحه فِي جَسَدهِ، وَيَأْتِيه مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ وَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُول: هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي. فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُول: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي. فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُل الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُول: هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاء: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ النَّار، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّار، فَيَأْتِيه مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيِّق عَلَيْهِ قَبْره حَتَّى تَخْتَلِف فِيهِ أَضْلاعُهُ، وَيَأْتِيه رَجُل قَبِيح الوَجْه، قَبِيح الثِّيَاب، مُنْتِن الرِّيح، فَيَقُول: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءك، هَذَا يَوْمك الَّذِي كُنْت تُوعَد. فَيَقُول: وَمَنْ أَنْتَ فَوَجْهك الوَجْه يجئ بالشَّرِّ؟ فَيَقُول: أَنَا عَمَلك الخَبِيث. فَيَقُول: رَبِّ؛ لا تُقِمْ السَّاعَة»[1]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد: مِنْ حَدِيث الأَعْمَش، وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ: مِنْ حَدِيث المِنْهَال بْن عَمْرو، بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ يُونُس بْن خباب، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ زَاذَان، عَنْ البَرَاء بْن عَازِب ﷺ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ، إِلَى جِنَازَة... فَذَكَرَ نَحْوه، وَفِيهِ: «فَإِذَا خَرَجَتْ رُوحه صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاء، وَفُتِحَتْ أَبْوَاب السَّمَاء، لَيْسَ مِنْ أَهْل بَاب إلا وَهُمْ يَدْعُونَ إلى الله ﷻ، أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ». وَفِي آخِره: «ثُمَّ يُقَيَّض لَهُ أَعْمَى أَصَمّ أَبْكَم، وَفِي يَده مِرْزَبَّة لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَل كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَة فَيَصِير تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدهُ الله ﷻ، كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَة أُخْرَى، فَيَصِيح صَيْحَة يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إلا الثَّقَلَيْنِ». قَالَ البَرَاء: ثُمَّ يُفْتَح لَهُ بَاب إِلَى النَّار، وَيُمَهَّد لَهُ مِنْ فُرُش النَّار. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ أَبِيهِ، عَنْ خَيْثَمَة، عَنْ البَرَاء فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ قَالَ: عَذَاب القَبْر. وَقَالَ المَسْعُودِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن مُخَارِق، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله، قَالَ: إِنَّ المُؤْمِن إِذَا مَاتَ أُجْلِسَ فِي قَبْره، فَيُقَال لَهُ: من رَبّك؟ مَا دِينُك؟ مَنْ نَبِيّك؟ فَيُثَبِّتُهُ الله، فَيَقُول: رَبِّي الله، وَدِينِي الإِسْلام، وَنَبِيِّي مُحَمَّد ﷺ. وَقَرَأَ عَبْد الله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾.

---

(١) صحيح: تقدم.

وَقَالَ الإِمَامُ عَبْد بْن حُمَيْد رَحِمَهُ اللهُ، فِي مُسْنَدِه: حَدَّثَنَا يُونُس بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا شَيْبَان بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ قَتَادَة، حَدَّثَنَا أَنَس بْن مَالِك، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ العَبْد إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِه، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابه، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْع نِعَالِهِمْ، قال: فَيَأْتِيه مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُول فِي هَذَا الرَّجُل؟ قَالَ: فَأَمَّا المُؤْمِن فَيَقُول: أَشْهَد أَنَّهُ عَبْد الله وَرَسُوله. قَالَ: فَيُقَال لَهُ: اُنْظُرْ إِلَى مَقْعَدك مِنْ النَّار، قَدْ أَبْدَلَك الله بِهِ مَقْعَدًا مِنْ الجَنَّة». قَالَ نَبِيّ الله ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا»[1]. قَالَ قَتَادَة: وَذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَح لَهُ فِي قَبْره سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْم القِيَامَة. رَوَاهُ مُسْلِم عَنْ عَبْد بْن حُمَيْد، بِهِ. وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيّ: مِنْ حَدِيث يُونُس بْن مُحَمَّد المُؤَدِّب، بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ اِبْن جُرَيْج، أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْر: أَنَّهُ سَأَلَ جَابِر بْن عَبْد الله عَنْ فَتَّانَيْ القَبْر؟ فَقَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ هَذِهِ الأُمَّة تُبْتَلَى فِي قُبُورهَا، فَإِذَا أُدْخِلَ المُؤْمِن قَبْره، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابه، جَاءَهُ مَلَك شَدِيدُ الانْتِهَار، فَيَقُول لَهُ: مَا كُنْت تَقُول فِي هَذَا الرَّجُل؟ فَيَقُول المُؤْمِن: أقول: إِنَّهُ رَسُول الله ﷺ، وَعَبْده. فَيَقُول لَهُ المَلَك: اُنْظُرْ إِلَى مَقْعَدك الَّذِي كَانَ لَك فِي النَّار، قَدْ أَنْجَاك الله مِنْهُ، وَأَبْدَلَك بِمَقْعَدِك الَّذِي تَرَى مِنْ النَّار مَقْعَدك الَّذِي تَرَى مِنْ الجَنَّة. فَيَرَاهُمَا كِلَيْهِمَا، فَيَقُول المُؤْمِن: دَعُونِي أُبَشِّر أَهْلِي. فَيُقَال لَهُ: اُسْكُنْ. وَأَمَّا المُنَافِق فَيُقْعَد إِذَا تُوُلِّيَ عَنْهُ أهله، فَيُقَال لَهُ: مَا كُنْت تَقُول فِي هَذَا الرَّجُل؟ فَيَقُول: لا أَدْرِي، أَقُول كَمَا يَقُول النَّاس. فَيُقَال لَهُ: لا دَرَيْت، هَذَا مَقْعَدك الَّذِي كَانَ لَك مِنْ الجَنَّة، قد أُبْدِلت مَكَانه مَقْعَدك مِنْ النَّار». قَالَ جَابِر: فَسَمِعْت النَّبِيّ ﷺ، يَقُول: «يُبْعَث كُلّ عَبْد فِي القَبْر عَلَى مَا مَاتَ، المُؤْمِن عَلَى إِيمَانِهِ، وَالمُنَافِق عَلَى نِفَاقه»[2]. إِسْنَاده صَحِيح عَلَى شَرْط مُسْلِم وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن رَاشِد، عَنْ دَاوُد بْن أَبِي هِنْد، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ قَالَ: شَهِدْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ جِنَازَةً، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورهَا، فَإِذَا الإِنْسَان دُفِنَ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابه، جَاءَهُ مَلَك فِي يَده مِطْرَاق، فَأَقْعَدَهُ قَالَ: مَا تَقُول فِي هَذَا الرَّجُل؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ: أَشْهَد أَنْ لا إِلَه إِلا الله، وَأَشْهَد أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْده وَرَسُوله. فَيَقُول لَهُ: صَدَقْت. ثُمَّ يَفْتَح لَهُ بَابًا إِلَى النَّار، فَيَقُول: كَانَ هَذَا مَنْزِلَك لَوْ كَفَرْت بِرَبِّك، فَأَمَّا إِذْ آمَنْت فَهَذَا مَنْزِلُك. فَيَفْتَح لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّة، فَيُرِيد أَنْ يَنْهَض إِلَيْهِ، فَيَقُول لَهُ: اُسْكُنْ. وَيُفْسَح لَهُ فِي قَبْره. وَإِنْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا فَيَقُول لَهُ: مَا تَقُول فِي هَذَا الرَّجُل؟ فَيَقُول: لا أَدْرِي، سَمِعْت النَّاس يَقُولُونَ شَيْئًا، فَيَقُول: لا دَرَيْت وَلا تَلَيْت وَلا اِهْتَدَيْت. ثُمَّ يَفْتَح لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّة، فَيَقُول له: هَذَا مَنْزِلُك لَوْ آمَنْت بِرَبِّك، فَأَمَّا إِذْ كَفَرْت بِهِ فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ، أَبْدَلَك بِهِ هَذَا. فَيُفْتَح لَهُ بَابًا إِلَى النَّار، ثُمَّ يُقْمِعهُ قَمْعَةً بِالمِطْرَاق، فَيَصِيح صَيْحَةً يَسْمَعهَا خَلْقُ الله عَزَّ وَجَلَّ كُلّهمْ غَيْر الثَّقَلَيْنِ». فَقَالَ بَعْض القَوْم: يَا رَسُول الله، مَا أَحَد يَقُوم عَلَيْهِ مَلَك فِي يَده مِطْرَاق إِلَّا هَبِلَ عِنْد ذَلِكَ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾».

وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَاد لَا بَأْس بِهِ، فَإِنَّ عَبَّاد بْن رَاشِد التَّمِيمِيّ رَوَى لَهُ البُخَارِيّ مَقْرُونًا، وَلَكِنْ ضَعَّفَهُ بَعْضهمْ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حُسَيْن بْن مُحَمَّد، عَنْ اِبْن أَبِي ذِئْب، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَطَاء، عَنْ سَعِيد بْن يَسَار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ المَيِّت تَحْضُرُهُ المَلائِكة، فَإِذَا كَانَ الرَّجُل الصَّالِح، قَالُوا: اُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَة كَانَتْ فِي الجَسَد الطَّيِّب، اُخْرُجِي حَمِيدَة وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْر غَضْبَان. قَالَ: فَلا يَزَال يُقَال لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُج، ثُمَّ يُعْرَج بِهَا إِلَى السَّمَاء فَيُسْتَفْتَح لَهَا، فَيُقَال: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَال: فُلان.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠)، والنسائي (٤/ ٩٦، ٩٧).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٦)، وابن جرير (٧/ ٤٤٦).

فَيَقُولُونَ: مَرْحَبًا بِالرُّوحِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اُدْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ». قَالَ: «فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذلكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ ﷻ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالُوا: اُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، اُخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلانٌ. فَيُقَالُ: لا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، اِرْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهُ لا يُفَتَّحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَيُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى القَبْرِ، فَيَجْلِسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ» فَيُقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الحَدِيثِ الأَوَّلِ، وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السُّوءُ فَيُقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ لَهُ فِي الحَدِيثِ الأَوَّلِ[1]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ وَابْنُ مَاجَهْ: مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، بِنَحْوِهِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ العَبْدِ المُؤْمِنِ، تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يَصْعَدَانِ بِهَا. قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ المِسْكَ. قَالَ: وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكِ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ ﷻ، فَيَقُولُ: اِنْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ. وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ. قَالَ حَمَّادٌ: وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا وَذَكَرَ لَعْنًا، وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ، قال: فَيُقَالُ: اِنْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ هَكَذَا[2].

وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الهَمْدَانِيّ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ أَخْزَمَ، حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ قَسَّامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا قُبِضَ أَتَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: اُخْرُجِي إِلَى رَوْحِ اللهِ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ مِسْكٍ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، يَشُمُّونَهُ حَتَّى يَأْتُونَ[3] بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: مَا هَذِهِ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ؟ وَلا يَأْتُونَ سَمَاءً إِلا قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ. حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ المُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَهْلِ الغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: مَا فَعَلَ فُلانٌ، فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ حَتَّى يَسْتَرِيحَ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمٍّ، فَيَقُولُ: قَدْ مَاتَ، أَمَا أَتَاكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الهَاوِيَةِ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيَأْتِيهِ مَلائِكَةُ العَذَابِ بِمِسْحٍ، فَيَقُولُونَ: اُخْرُجِي إِلَى غَضَبِ اللهِ، فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ، فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى بَابِ الأَرْضِ»[4]. وَقَدْ رُوِيَ أَيْضًا: مِنْ طَرِيقِ هَمَّامِ بْنِ يَحْيَى، عَنْ قتادة، عن أَبِي الجَوْزَاءِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ. قَالَ: «فَيُسْأَلُ: مَا فَعَلَ فُلانٌ؟ مَا فَعَلَ فُلانٌ؟ مَا فَعَلَتْ فُلانَةُ؟ قَالَ: وَأَمَّا الكَافِرُ فَإِذَا قُبِضَتْ نَفْسُهُ وَذُهِبَ بِهَا إِلَى بَابِ الأَرْضِ، تَقُولُ خَزَنَةُ الأَرْضِ: مَا وَجَدْنَا رِيحًا أَنْتَنَ مِنْ هَذِهِ، فَتُبْلَغُ بِهَا الأَرْضُ السُّفْلَى». قَالَ قَتَادَةُ: وَحَدَّثَنِي رَجُلٌ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَمْرٍو، قَالَ: أَرْوَاحُ المُؤْمِنِينَ تُجْمَعُ بِالجابيتين، وَأَرْوَاحُ الكُفَّارِ تُجْمَعُ بِبَرَهُوتَ سَبِخَةٍ بِحَضْرَمَوْتَ.

وَقَالَ الحَافِظُ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ خَلَفٍ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ المُفَضَّلِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن إسحاق، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ -أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ- أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا المُنْكَرُ وَالآخَرُ النَّكِيرُ، فَيَقُولانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٧٢).

(٣) أي: ويأتون، فـ(يأتون) معطوفة بـ(حتى) على (يشمونه).

(٤) صحيح: أخرجه ابن حبان (٣٠١٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٥٩).

فَيَقُولان: قَدْ كُنَّا نَعْلَم أَنَّك تَقُول هَذَا. ثُمَّ يُفْسَح لَهُ فِي قَبْره سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثم يُنَوَّر لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَال لَهُ: نَمْ. فَيَقُول: أَرْجِع إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرهُمْ. فَيَقُولان: نَمْ كَنَوْمَة العَرُوس الَّذِي لا يُوقِظهُ إلا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِك، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْت النَّاس يَقُولُونَ فَقُلت مِثْلهمْ، لا أَدْرِي. فَيَقُولان: قَدْ كُنَّا نَعْلَم أَنَّك تَقُول ذلك. وَيُقَال لِلأَرْضِ: اِلْتَئِمِي عَلَيْهِ. فَتَلْتَئِم عَلَيْهِ فَتَخْتَلِف أَضْلاعه، فلا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»[1]. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب.

وَقَالَ حَمَّاد بْن سَلَمَة: عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ قَالَ: «ذَاكَ إِذَا قِيلَ لَهُ فِي القَبْر: مَنْ رَبّك؟ وَمَا دِينك؟ وَمَنْ نَبِيّك ؟ فَيَقُول: رَبِّي الله، وَدِينِيَ الإِسْلام، وَنَبِيِّي مُحَمَّد، جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْد الله فَآمَنْت بِهِ وَصَدَّقْت. فَيُقَال لَهُ: صَدَقْت، عَلَى هَذَا عِشْت، وَعَلَيْهِ مُتّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَث»[2].

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُجَاهِد بْن مُوسَى وَالحَسَن بْن مُحَمَّد، قَالَا: حَدَّثَنَا يَزِيد، أَنَا مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ المَيِّت لَيَسْمَعُ خَفْق نِعَالِهِمْ حِين يُوَلُّونَ عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَإِذا كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتْ الصَّلاة عِنْد رَأْسِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينه، وَالصيام عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْل الخَيْرَات مِنْ الصَّدَقَة وَالصِّلَة وَالمَعْرُوف وَالإِحْسَان إِلَى النَّاس عِنْد رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ عند رَأْسِهِ فَتَقُول الصَّلاة: مَا قِبَلِي مَدْخَل، فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينه فَتَقُول الزَّكَاة: مَا قِبَلِي مَدْخَل، فَيُؤْتَى عَنْ يَسَاره فَيَقُول الصِّيَام: مَا قِبَلِي مَدْخَل، فَيُؤْتَى من عِنْد رِجْلَيْهِ فَيَقُول فِعْل الخَيْرَات: مَا قِبَلِي مَدْخَل، فَيُقَال: اِجْلِسْ. فَيَجْلِس، قَدْ مَثُلَتْ لَهُ الشَّمْس قَدْ دَنَتْ لِلغُرُوبِ، فَيُقَال لَهُ: أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُك، فَيَقُول: دَعْنِي، دَعْنِي حَتَّى أُصَلِّي، فَيُقَال لَهُ: إِنَّك سَتَفْعَلُ، فَأَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُك، فَيَقُول: عَمَّ تَسْأَلُونِي؟ فَيُقَال: أَرَأَيْت هَذَا الرَّجُل الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَاذَا تَقُول فِيهِ؟ وَمَاذَا تَشْهَد بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُول: أَمُحَمَّدٌ؟ فَيُقَال لَهُ: نَعَمْ. فَيَقُول: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ الله، وَأَنَّهُ جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْد الله فَصَدَّقْنَاهُ، فَيُقَال لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِيت، وَعَلَى ذَلِكَ مُتّ، وَعَلَى ذَلِك تُبْعَث إِنْ شَاءَ الله، ثُمَّ يُفْسَح لَهُ فِي قَبْره سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّر لَهُ فِيهِ، وَيُفْتَح لَهُ بَاب إِلَى الجَنَّة، فَيُقَال لَهُ: اُنْظُرْ إِلَى مَا أَعَدَّ الله لَك فِيهَا، فَيَزْدَاد غِبْطَة وَسُرُورًا، ثُمَّ تُجْعَل نَسَمَته فِي النَّسَم الطَّيِّب: وَهِيَ طَيْر خُضْر تُعَلَّق بِشَجَرِ الجَنَّة، وَيُعَاد الجَسَد إِلَى مَا بُدِئَ منه، مِنْ التُّرَاب». وَذَلِكَ قَوْل الله ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾[3]. رَوَاهُ اِبْن حِبَّان: مِنْ طَرِيق الْمُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، عَنْ مُحَمَّد بْن عمرو، وَذَكَرَ جَوَاب الكَافِر وَعَذَابه.

وَقَالَ البَزَّار: حَدَّثَنَا سَعِيد بْن بَحْر القَرَاطِيسِيّ، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن القَاسِم، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن كَيْسَان، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، أَحْسَبُهُ رَفَعَهُ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِن يَنْزِل بِهِ المَوْت، وَيُعَايِن مَا يُعَايِن، فَيَوَدُّ لَوْ خَرَجَتْ -يَعْنِي نَفْسه- وَالله يُحِبُّ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِن يُصْعَد بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاء، فَتَأْتِيه أَرْوَاح الْمُؤْمِنِينَ فَتَسْتَخْبِرهُ عَنْ مَعَارِفِهِمْ مِنْ أَهْل الأَرْض، فَإِذَا قَالَ: تَرَكْت فُلانًا فِي الأَرْض أَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ، وَإِذَا قَالَ: إِنَّ فُلانًا قَدْ مَاتَ، قَالُوا: مَا جِيءَ بِهِ إِلَيْنَا، وَإِنَّ الْمُؤْمِن يُجْلَس فِي قَبْره فَيُسْأَل: مَنْ رَبّك؟ فَيَقُول: رَبِّي الله. فيقول: مَنْ نَبِيّك؟ فَيَقُول: مُحَمَّد نَبِيِّي. فيقول: مَا دِينُك؟ قَالَ: دِينِي الإِسْلام. فَيُفْتَح لَهُ بَاب فِي قَبْره، فَيَقُولُ -أَوْ: يُقَال-: اُنْظُرْ إِلَى مَجْلِسِك، ثُمَّ يَرَى القَبْر فَكَأَنَّمَا كَانَتْ رَقْدَة، وَإِذَا كَانَ عَدُوّ الله نَزَلَ بِهِ المَوْت، وَعَايَنَ مَا عَايَنَ، فَإِنَّهُ لا يُحِبّ أَنْ تَخْرُج رُوحه أَبَدًا، وَالله يُبْغِض لِقَاءَهُ. فَإِذَا

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (١٠٧١)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٢) إسناده حسن: أخرجه ابن جرير (٧/ ٤٤٦)، وسنده حسن.
(٣) إسناده حسن: أخرجه ابن جرير (٧/ ٤٤٦)، وسنده حسن.

جلَسَ فِي قَبْره -أَوْ: أُجْلِسَ- يُقَال لَهُ: مَنْ رَبّك؟ فيَقُول: لا أَدْرِي، فيُقَال: لا دَرَيْت، فيُفْتَح لَهُ بَاب مِنْ جَهَنَّم، ثُمَّ يُضْرَب ضَرْبَة يُسْمِع كُلّ دَابَّة إلا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُقَال لَهُ: نَمْ كَمَا يَنَام المَنْهُوش». قُلت لِأَبِي هُرَيْرَة: مَا المَنْهُوش؟ قَالَ: الَّذِي تَنْهَشُهُ الدَّوَابّ وَالحَيَّات ثُمَّ يُضَيَّق عَلَيْهِ قَبْره[1]. ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْلَم رَوَاهُ إِلَّا الوَلِيد بْن القاسم.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا حُجَيْن بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن أَبِي سَلَمَة المَاجِشُون، عَنْ مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، قَالَ: كَانَتْ أَسْمَاء -يَعْنِي بِنْت الصِّدِّيق رضي الله عنهما-، تُحَدِّث عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَتْ: قَالَ: **«إِذَا دَخَلَ الإِنْسَان قَبْره، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا أَحَفَّ بِهِ عَمَله، الصَّلاة وَالصِّيَام، قَالَ: فَيَأْتِيه المَلَك مِنْ نَحْو الصَّلاة فَتَرُدُّهُ، وَمِنْ نَحْو الصِّيَام فَيَرُدُّهُ، قَالَ: فَيُنَادِيه: اِجْلِسْ، فَيَجْلِس فَيَقُول لَهُ: مَاذَا تَقُول فِي هَذَا الرَّجُل يَعْنِي النَّبِيّ ﷺ؟ قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: مُحَمَّد. قَالَ: انا أَشْهَد أَنَّهُ رَسُول الله، قَالَ: يقول: وَمَا يُدْرِيك؟ أَدْرَكْتهُ؟ قَالَ: أَشْهَد أَنَّهُ رَسُول الله، قَالَ: يَقُول: عَلَى ذَلِكَ عِشْت، وَعَلَيْهِ مُتّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَث، وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا أَوْ كَافِرًا جَاءَهُ المَلَك لَيْسَ بَيْنه وَبَيْنه شَيْء يَرُدّهُ، فَأَجْلَسَهُ فَيَقُول لَهُ: مَاذَا تَقُول فِي هَذَا الرَّجُل؟ قَالَ: أَيّ رَجُل؟ قَالَ: مُحَمَّد. قَالَ: يَقُول: وَالله مَا أَدْرِي، سَمِعْت النَّاس يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلته. قال: فيقولَ لَهُ المَلَك: عَلَى ذَلِكَ عِشْت، وَعَلَيْهِ مُتّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَث، قَالَ: وَتُسَلَّط عَلَيْهِ دَابَّة فِي قَبْره مَعَهَا سَوْط، ثَمَرَته جَمْرَة مِثْل عرق البَعِير، تَضْرِبهُ مَا شَاءَ الله صَمَّاء لا تَسْمَع صَوْته فَتَرْحَمهُ»**[2].

وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس رضي الله عنهما، فِي هَذِهِ الآيَة قَالَ: إِنَّ المُؤْمِن إِذَا حَضَرَهُ المَوْت شَهِدَتْهُ المَلَائِكَة، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، وَبَشَّرُوهُ بِالجَنَّةِ، فإذا مَاتَ مَشَوْا مَعَ جِنَازَته، ثُمَّ صَلَّوْا عَلَيْهِ مَعَ النَّاس، فَإِذَا دُفِنَ أُجْلِسَ فِي قَبْره فَيُقَال لَهُ: مَنْ رَبّك؟ فَيَقُول: رَبِّي الله، فَيُقَال لَهُ: مَنْ رَسُولك؟ فَيَقُول: مُحَمَّد ﷺ فَيُقَال لَهُ: مَا شَهَادَتك؟ فَيَقُول: أَشْهَد أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، وَأَشْهَد أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله. فَيُوَسَّع لَهُ فِي قَبْره مَدّ بَصَره، وَأَمَّا الكَافِر فَتَنْزِل عَلَيْهِ المَلَائِكَة فَيَبْسُطُونَ أَيْدِيهِمْ، وَالبَسْط هُوَ: الضَّرْب. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ عِنْد المَوْت، فَإِذَا أُدْخِلَ قَبْره أُقْعِدَ فَقِيلَ لَهُ: مَنْ رَبّك؟ فَلَمْ يَرْجِع إِلَيْهِمْ شَيْئًا، وَأَنْسَاهُ الله ذِكْرَ ذَلِكَ، وَإِذَا قِيلَ: مَنْ الرَّسُول الَّذِي بُعِثَ إِلَيْك؟ لَمْ يَهْتَدِ لَهُ وَلَمْ يَرْجِع إِلَيْهِمْ شَيْئًا، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عُثْمَان بْن حَكِيم الأَوْدِيّ، حَدَّثَنَا شُرَيْح بْن مَسْلَمَة، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن يُوسُف، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق عَنْ عَامِر بْن سَعْد البَجَلِيّ، عَنْ أَبِي قَتَادَة الأَنْصَارِيّ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآيَة، قَالَ: إِنَّ المُؤْمِن إِذَا مَاتَ أُجْلِسَ فِي قَبْره، فَيُقَال لَهُ: مَنْ رَبّك؟ فَيَقُول الله. فَيُقَال لَهُ: مَنْ نَبِيّك؟ فَيَقُول: مُحَمَّد بْن عَبْد الله. فَيُقَال لَهُ ذَلِكَ مَرَّات، ثُمَّ يُفْتَح لَهُ بَاب إِلَى النَّار، فَيُقَال لَهُ: اُنْظُرْ إِلَى مَنْزِلك مِنْ النَّار لَوْ زِغْت. ثُمَّ يُفْتَح لَهُ بَاب إِلَى الجَنَّة، فَيُقَال لَهُ: اُنْظُرْ إِلَى مَنْزِلك مِنْ الجَنَّة إِذْ ثَبَتّ، وَإِذَا مَاتَ الكَافِر أُجْلِسَ فِي قَبْره، فَيُقَال لَهُ: مَنْ رَبّك؟ مَنْ نَبِيّك؟ فَيَقُول: لَا أَدْرِي، كُنْت أَسْمَع النَّاس يَقُولُونَ، فَيقَال لَهُ: لَا دَرَيْت، ثُمَّ يُفْتَح لَهُ بَاب إِلَى الجَنَّة، فَقَالَ لَهُ: اُنْظُرْ إِلَى مَنْزِلك لَوْ ثَبَتّ. ثُمَّ يُفْتَح لَهُ بَاب إِلَى النَّار، فَيُقَال لَهُ: اُنْظُرْ إِلَى مَنْزِلك إِذْ زِغْت، فَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ اِبْن طَاوُس، عَنْ أَبِيهِ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قَالَ: لَا إِلَه إِلَّا الله، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المَسْأَلَة فِي القَبْر. وَقَالَ قَتَادَة: أَمَّا ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فَيُثَبِّتهُمْ بِالخَيْرِ وَالعَمَل الصَّالِح، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فِي القَبْر، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف.

---

(١) **صحيح**: ذكره الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٧٥) وقال: في الصحيح طرف منه، ورواه البزار ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسي فإني لم أعرفه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٢٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٦/ ٣٥٢)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٧٣) وقال: رواه أحمد وروى الطبراني منه طرفًا في «الكبير»، ورجال أحمد رجال الصحيح.

وَقَالَ أَبُو عَبْد الله الحَكِيم التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه «نَوَادِر الأُصُول»: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن نَافِع، عَنْ اِبْن أَبِي فُدَيْك، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله، عَنْ سَعِيد بْن الْمُسَيَّب، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن سَمُرَة، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ ذَات يَوْم وَنَحْنُ فِي مَسْجِد المَدِينَة، فَقَالَ: «**إِنِّي رَأَيْت البَارِحَة عَجَبًا، رَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي جَاءَه مَلَك المَوْت لِيَقْبِض رُوحه فَجَاءَهُ بِرُّهُ بِوَالِدَيْهِ فَرَدَّ عَنْهُ، وَرَأَيْت ان رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ بُسِطَ عَلَيْهِ عَذَاب القَبْر فَجَاءَهُ وُضُوءُهُ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذَلِك، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ اِحْتَوَشَتْهُ الشَّيَاطِين فَجَاءَهُ ذِكْرُ الله فَخَلَّصَهُ مِنْ بَيْنهمْ، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ اِحْتَوَشَتْهُ مَلائِكَة العَذَاب فَجَاءَتْهُ صَلاته فَاسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ أَيْدِيهمْ، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي يَلهَث عَطَشًا كُلَّمَا وَرَدَ حَوْضًا مُنِعَ مِنْهُ فَجَاءَهُ صِيَامه فَسَقَاهُ وَأَرْوَاهُ، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي وَالنَّبِيُّونَ قُعُود حِلَقًا حِلَقًا كُلَّمَا دَنَا لِحَلْقَةٍ طَرَدُوهُ فَجَاءَهُ اِغْتِسَاله مِنْ الجَنَابَة فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَقْعَدَهُ إِلَى جَنْبِي، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي من بَيْن يَدَيْهِ ظُلْمَة، وَمِنْ خَلفه ظُلْمَة، وَعَنْ يَمِينه ظُلْمَة، وَعَنْ شِمَاله ظُلْمَة، وَمِنْ فَوْقه ظُلْمَة، وَمِنْ تَحْته ظُلْمَة، وَهُوَ مُتَحَيِّر فِيهَا فَجَاءَتْهُ حَجَّته وَعُمْرَته فَاسْتَخْرَجَاهُ مِنْ الظُّلْمَة وَأَدْخَلاهُ النُّور، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي يُكَلِّم الْمُؤْمِنِينَ فَلا يُكَلِّمُونَهُ فَجَاءَهُ صِلَة الرَّحِم فَقَالَتْ: يَا مَعْشَر الْمُؤْمِنِينَ كَلِّمُوهُ، فَكَلَّمُوهُ، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي يَتَّقِي وَهَج النَّار وَشَرَرهَا بِيَدِهِ عَنْ وَجْهه فَجَاءَتْهُ صَدَقَته فَصَارَتْ سِتْرًا عَلَى وَجْهه وَظِلاً عَلَى رَأْسه، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ أَخَذَتْهُ الزَّبَانِيَة مِنْ كُلّ مَكَان فَجَاءَهُ أَمْرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيه عَنْ الْمُنْكَر فَاسْتَنْقَذَاهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَدْخَلاهُ مَعَ مَلائِكَة الرَّحْمَة، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي جَاثِيًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَيْنه وَبَيْن الله حِجَاب فَجَاءَهُ حُسْن خُلُقِهِ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ عَلَى الله ﷻ، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ هَوَتْ صَحِيفَته مِنْ قِبَلِ شِمَاله فَجَاءَهُ خَوْفه مِنْ الله فَأَخَذَ صَحِيفَته فَجَعَلَهَا فِي يَمِينه، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ خَفَّ مِيزَانه فَجَاءَتْهُ أَفْرَاطه فَثَقَّلُوا مِيزَانه، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَائِمًا عَلَى شَفِير جَهَنَّم فَجَاءَهُ وَجَلُهُ مِنْ الله فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذَلِك وَمَضَى، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي هَوَى فِي النَّار فَجَاءَتْهُ دُمُوعه الَّتِي بَكَى مِنْ خَشْيَة الله فِي الدُّنْيَا فَاسْتَخْرَجَتْهُ مِنْ النَّار، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَائِمًا عَلَى الصِّرَاط يَرْعُد كَمَا تَرْعُد السَّعَفَة فَجَاءَ حُسْن ظَنِّهِ بِالله فَسَكَّنَ رَعْدَتَهُ وَمَضَى، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى الصِّرَاط يَزْحَف أَحْيَانًا وَيَحْبُو أَحْيَانًا فَجَاءَتْهُ صَلاته عَلَيَّ فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ فَأَقَامَتْهُ وَمَضَى عَلَى الصِّرَاط، وَرَأَيْت رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي اِنْتَهَى إِلَى بَاب الجَنَّة فَغُلِّقَتْ الأَبْوَاب دُونَهُ فَجَاءَتْهُ شَهَادَة أَنْ لا إِلَه إِلا الله فَفَتَحَتْ لَهُ الأَبْوَاب وَأَدْخَلَتْهُ الجَنَّة**»[1].

قَالَ القُرْطُبِيّ بَعْد إِيرَاده هَذَا الحَدِيث مِنْ هَذَا الوَجْه: هَذَا حَدِيث عَظِيم، ذَكَرَ فِيهِ أَعْمَالًا خَاصَّة تُنَجِّي مِنْ أَهْوَال خَاصَّة. أَوْرَدَهُ هَكَذَا فِي كِتَابه التَّذْكِرَة.

وَقَدْ رَوَى الحَافِظ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ فِي هَذَا حَدِيثًا غَرِيبًا مُطَوَّلًا فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الله أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم النكْرِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَكْر البُرْسَانِيّ أَبُو عُثْمَان، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِم الحَبَطِيّ -وَكَانَ مِنْ خيار أَهْل البَصْرَة، وَكَانَ مِنْ أَصْحَاب حَزْم وَسَلَّام بْن أَبِي مُطِيع-، حَدَّثَنَا بَكْر بْن خنيس، عَنْ ضِرَار بْن عَمْرو، عَنْ يَزِيد الرَّقَاشِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، عَنْ تَمِيم الداريّ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «**يَقُول الله ﷻ لِمَلَك المَوْت: اِنْطَلِقْ إِلَى وَلِيِّي فَأْتِنِي بِهِ؛ فَإِنِّي قَدْ ضَرَبْته بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاء فَوَجَدْته حَيْثُ أُحِبُّ، اِئْتِنِي بِهِ فَلأُرِيحَنهُ. فَيَنْطَلِق إِلَيْهِ مَلَك المَوْت وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنْ المَلائِكَة، مَعَهُمْ أَكْفَان وَحَنُوط مِنْ الجَنَّة، وَمَعَهُمْ ضَبَائِر الرَّيْحَان، أَصْل الرَّيْحَانَة وَاحِد، وَفِي رَأْسِهَا عِشْرُونَ لَوْنًا، لِكُلِّ لَوْن مِنْهَا رِيح سِوَى رِيح صَاحِبه، وَمَعَهُمْ الحَرِير الأَبْيَض فِيهِ المِسْك الأَذْفَر، فَيَجْلِس مَلَك المَوْت عِنْد رَأْسه، وَتَحُفّ بِهِ المَلائِكَة، وَيَضَع كُلّ مَلَك مِنْهُمْ يَده عَلَى عُضْو مِنْ أَعْضَائِهِ، وَيُبْسَط ذَلِك**

(١) ضعيف: ضعفه العراقي كما في «فيض القدير» (٣/ ٢١)، وقال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١٦٦): وهذا الحديث لا يصح، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٨٥).

الحَرِير الأَبْيَض وَالمِسْك الأذْفَر من تَحْت ذَقنه، وَيُفْتَح لَهُ بَاب إِلَى الجنَّة، فَإِنَّ نَفْسه لَتُعَلّل عِند ذَلِكَ بِطَرَفِ الجنَّة، مرة بِأَزْوَاجِهَا، ومرة بِكِسْوَاتِهَا، وَمَرَّة بِثِمَارِهَا، كَمَا يُعَلّل الصَّبِيّ أَهْله إِذَا بَكَى. قَالَ: وَإِنَّ أَزْوَاجه لَيَبْتَهِشْنَ عِند ذَلِكَ اِبْتِهَاشًا.

قَالَ: وَتَنْزو الرُّوح – قَالَ البُرْسَانِيّ: تُرِيد أَنْ تَخْرُج مِنْ العَجَل إِلَى مَا تُحِبّ – قَالَ: وَيَقُول مَلَك المَوْت: اُخْرُجِي يَا أَيَّتهَا الرُّوح الطَّيِّبَة، إِلَى سِدْر مَخْضُود، وَطَلْح مَنْضُود، وَظِلّ مَمْدُود، وَمَاء مَسْكُوب. قَالَ: وَلَمَلَكُ المَوْتِ أَشَدُّ بِهِ لُطْفًا مِنْ الوَالِدَة بِوَلَدِهَا، يَعْرِف أَنَّ ذَلِكَ الرُّوح حَبِيب لِرَبِّهِ، فَهُوَ يَلْتَمِس بِلُطْفِهِ تَحَبُّبًا لَدَيْهِ رِضَاءً لِلرَّبِّ عَنْهُ، فَتُسَلُّ رُوحه كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَة مِنْ العَجِين. قَالَ: وَقَالَ الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ وَقَالَ: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ قَالَ: رَوْحٌ مِنْ جِهَة المَوْت. وَرَيْحَان يُتَلَقَّى بِهِ. وَجَنَّة نَعِيم تُقَابِلهُ. قَالَ: فَإِذَا قَبَضَ مَلَك المَوْت رُوحه، قَالَتْ الرُّوح لِلجَسَد: جَزَاك الله عَنِّي خَيْرًا، فَقَدْ كُنْت سَرِيعًا بِي إِلَى طَاعَة الله، بَطِيئًا بِي عَنْ مَعْصِيَة الله، فَقَدْ نُجِّيت وَأَنْجَيْت. قَالَ: وَيَقُول الجَسَد لِلرُّوحِ مِثْل ذَلِكَ. قَالَ: وَتَبْكِي عَلَيْهِ بِقَاع الأَرْض الَّتِي كَانَ يُطِيع الله فِيهَا، وَكُلّ بَاب مِنْ السَّمَاء يَصْعَد مِنْهُ عَمَله، وَيَنْزِل مِنْهُ رِزْقه أَرْبَعِينَ لَيْلَة. قَالَ: فَإِذَا قَبَضَ مَلَك المَوْت رُوحه أَقَامَتْ الخَمْسمِائَةِ مِنْ المَلائِكَة عِنْد جَسَده، فَلا يُقَلِّبهُ بَنُو آدَم لِشِقٍّ إِلا قَلَّبَتْهُ المَلائِكَة قَبْلهمْ، وَغَسَّلَتْهُ وَكَفَّنَتْهُ بِأَكْفَانٍ قَبْل أَكْفَان بَنِي آدَم، وَحَنُوط قَبْل حَنُوط بَنِي آدَم، وَيَقُوم مِنْ بين بَاب بَيْته إِلَى بَاب قَبْره صَفَّانِ مِنْ المَلائِكَة يَسْتَقْبِلُونَهُ بِالاسْتِغْفَارِ، فَيَصِيح عِنْد ذَلِكَ إِبْلِيس صَيْحَة تَتَصَدَّع مِنْهَا عِظَام جَسَده. قَالَ: وَيَقُول لِجُنُودِهِ: الوَيْل لَكُمْ! كَيْف خَلَّصَ هَذَا العَبْد مِنْكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا كَانَ عَبْدًا مَعْصُومًا. قَالَ: فَإِذَا صَعِدَ مَلَك المَوْت بِرُوحِهِ، يَسْتَقْبِلهُ جِبْرِيل فِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ المَلائِكَة، كُلّ يَأْتِيه بِبِشَارَةٍ مِنْ رَبّه، سِوَى بِشَارَة صَاحِبه. قَالَ: فَإِذَا اِنْتَهَى مَلَك المَوْت بِرُوحِهِ إِلَى العَرْش خَرَّ الرُّوح سَاجِدًا، قَالَ: يَقُول الله ﷻ لِمَلَكِ المَوْت: اِنْطَلِقْ بِرُوحِ عَبْدِي فَضَعْهُ فِي سِدْر مَخْضُود، وَطَلْح مَنْضُود، وَظِلّ مَمْدُود، وَمَاء مَسْكُوب.

قَالَ: فَإِذَا وُضِعَ فِي قَبْره، جَاءَتْهُ الصَّلاة فَكَانَتْ عَنْ يَمِينه، وَجَاءَهُ الصِّيَام فَكَانَ عَنْ يَسَاره، وَجَاءَهُ القُرْآن فَكَانَ عِنْد رَأْسه، وَجَاءَهُ مَشْيه إِلَى الصَّلاة فَكَانَ عِنْد رِجْلَيْهِ، وَجَاءَهُ الصَّبْر فَكَانَ نَاحِيَة القَبْر، قَالَ: فَيَبْعَث الله ﷻ عُنُقًا مِنْ العَذَاب، قَالَ: فَيَأْتِيه عَنْ يَمِينه، قَالَ: فَتَقُول الصَّلاة: وَرَاءَك وَالله مَا زَالَ دَائِبًا عُمْره كُلّه، وَإِنَّمَا اِسْتَرَاحَ الآن حِين وُضِعَ فِي قَبْره، قَالَ: فَيَأْتِيه عَنْ يَسَاره، فَيَقُول الصِّيَام مِثْل ذَلِكَ. قَالَ: ثُمَّ يَأْتِيه مِنْ عِنْد رَأْسه، فَيَقُول القُرْآن وَالذِّكْر مِثْل ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ يَأْتِيه مِنْ عِنْد رِجْلَيْهِ، فَيَقُول مَشْيه إِلَى الصَّلاة مِثْل ذَلِكَ، فَلا يَأْتِيه العَذَاب مِنْ نَاحِيَة يَلْتَمِس هَل يَجِد إِلَيْهِ مَسَاغًا إِلا وَجَدَ وَلِيّ الله قَدْ أَخَذَ جُنَّة. قَالَ: فَيَنْقَمِع العَذَاب عِنْد ذَلِكَ فَيَخْرُج. قَالَ: وَيَقُول الصَّبْر لِسَائِرِ الأَعْمَال: أَمَّا إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعنِي أَنْ أُبَاشِر أَنَا بِنَفْسِي إِلا أَنِّي نَظَرْت مَا عِنْدكُمْ، فَإِنْ عَجَزْتُمْ كُنْت أَنَا صَاحِبه، فَأَمَّا إِذَا أجزاتم عَنْهُ فَأَنَا لَهُ ذُخْر عِنْد الصِّرَاط وَالمِيزَان.

قَالَ: وَيَبْعَث الله مَلَكَيْنِ أَبْصَارهمَا كَالبَرْقِ الخَاطِف، وَأَصْوَاتهمَا كَالرَّعْدِ القَاصِف، وَأَنْيَابهمَا كَالصَّيَاصِي، وَأَنْفَاسهمَا كَاللهبِ، يَطَآنِ فِي أَشْعَارهمَا، بَيْن مَنْكِب كُلّ وَاحِد مَسِيرَة كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ نُزِعَتْ مِنْهُمَا الرَّأْفَة وَالرَّحْمَة، يُقَال لَهُمَا: مُنْكَر وَنَكِير، فِي يَد كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا مِطْرَقَة، لَوْ اِجْتَمَعَ عَلَيْهَا رَبِيعَة وَمُضَر لَمْ يُقِلُّوهَا. قَالَ: فَيَقُولانِ لَهُ: اِجْلِسْ. قَالَ: فَيَجْلِسَ فَيَسْتَوِي جَالِسًا. قَالَ: وَتَقَع أَكْفَانه فِي حَقْوَيْهِ قَالَ: فَيَقُولان لَهُ: مَنْ رَبُّك؟ وَمَا دِينُك؟ وَمَنْ نَبِيُّك؟.

قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُول الله، وَمَنْ يُطِيق الكَلَام عِنْد ذَلِكَ، وَأَنْتَ تَصِف مِنْ المَلَكَيْنِ مَا تَصِف؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾. قَالَ: فَيَقُول: رَبِّي الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَدِينِي الإِسْلامُ الَّذِي دَانَتْ بِهِ المَلائِكَة، وَنَبِيِّي

مُحَمَّدٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ. قَالَ: فَيَقُولانِ لَهُ: صَدَقْت. قَالَ: فَيَدْفَعَانِ القَبْر فَيُوَسِّعَانِ مِنْ بَيْن يَدَيْهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَعَنْ يَمِينه أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَعَنْ شِمَاله أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَمِنْ خَلفه أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَمِنْ عِنْد رَأْسه أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَمِنْ عِنْد رِجْلَيْهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، قَالَ: فَيُوَسِّعَانِ لَهُ مِائَتِي ذِرَاع. قَالَ البُرْسَانِيّ: وَأَحْسَبُهُ وَأَرْبَعِينَ ذِرَاعًا تُحَاط بِهِ.

قَالَ: ثُمَّ يَقُولانِ لَهُ: اُنْظُرْ فَوْقَك، فَإِذَا بَاب مَفْتُوح إِلَى الجنَّة. قَالَ: فَيَقُولانِ لَهُ: وَلِيَّ الله هَذَا مَنْزِلُك إِذْ أَطعْت الله». فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّهُ يَصِلُ إِلَى قَلبه عِنْد ذَلِكَ فَرْحَة وَلا تَرْتَدّ أَبَدًا، ثُمَّ يُقَال لَهُ: اُنْظُرْ إِلى تَحْتك. قَالَ: فَيَنْظُر تَحْته. فَإِذَا بَاب مَفْتُوح إِلَى النَّار. قَالَ: فَيَقُولانِ: «وَلِيّ الله هذا منزلك لو عصيت، نَجَوْت آخِر مَا عَلَيْك» قَالَ: فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيَصِلُ إِلَى قلبه عِنْد ذَلِكَ فَرْحَة لا تَرْتَدّ أَبَدًا». قَالَ: فَقَالَتْ عَائِشَة: يُفْتَح لَهُ سَبْعَة وَسَبْعُونَ بَابًا إِلَى الجَنَّة يَأْتِيه رِيحهَا وَبَرْدُهَا حَتَّى يَبْعَثهُ الله ﷻ[1].

وَبِالإِسْنَادِ المُتَقَدِّم إِلَى النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «وَيَقُول الله تَعَالَى لِمَلَكِ المَوْت: اِنْطَلِقْ إِلَى عَدُوِّي فَائْتِنِي بِهِ، فَإِنِّي قَدْ بَسَطْت لَهُ رِزْقِي، وَيَسَّرْت لَهُ نِعْمَتِي، فَأَبَى إِلا مَعْصِيَتِي، فَائْتِنِي بِهِ لأَنْتَقِم مِنْهُ، قَالَ: فَيَنْطَلِق إِلَيْهِ مَلَك المَوْت، فِي أَكْرَه صُورَة رَآهَا أَحَد مِنْ النَّاس قَطُّ، لَهُ اِثْنَتَا عَشْرَة عَيْنًا وَمَعَهُ سَفُّود مِنْ النَّار كَثِير الشَّوْك، وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنْ المَلائِكَة مَعَهُمْ نُحَاس وَجَمْر مِنْ جَمْر جَهَنَّم، وَمَعَهُمْ سِيَاط مِنْ نَار لِينهَا لِين السِّيَاط، وَهِيَ نَار تَأَجَّج، قَالَ: فَيَضْرِبهُ مَلَك المَوْت بِذَلِكَ السَّفُّود ضَرْبَة يَغِيب أَصْل كُلّ شَوْكَة مِنْ ذَلِكَ السَّفُّود فِي أَصْل كُلّ شَعْرَة وَعِرْق وَظُفْر. قَالَ: ثُمَّ يَلوِيه لَيًّا شَدِيدًا قَالَ: فَيَنْزِع رُوحه مِنْ أَظْفَار قَدَمَيْهِ. قَالَ: فَيُلقِيهَا فِي عَقِبَيْهِ. فَيَسْكَر عَدُوّ الله عِنْد ذَلِكَ سَكْرَة فَيَرِفُّهُ مَلَك المَوْت عَنْهُ. قَالَ: وَتَضْرِب المَلائِكَة وَجْهَهُ وَدُبُرَهُ بِتِلكَ السِّيَاط. قَالَ: ثم ينتره مَلَك المَوْت نترة فَيَنْزِع رُوحه مِنْ عَقِبَيْهِ فَيُلقِيهَا فِي رُكْبَتَيْهِ، قال: فيَسْكَر عَدُوّ الله عِنْد ذَلِكَ سَكْرَة، فَيَرِفّهُ مَلَك المَوْت عَنْهُ. قَالَ: فَتَضْرِب المَلائِكَة وَجْهه وَدُبُرَهُ بِتِلكَ السِّيَاط. قَالَ: كَذَلِكَ إِلَى صَدْره، ثُمَّ كَذَلِكَ إِلَى حَلقِهِ، قَالَ: ثُمَّ تَبْسُط المَلائِكَة ذَلِكَ النُّحَاس، وَجَمْر جَهَنَّم، تَحْت ذَقَنِهِ قَالَ: وَيَقُول مَلَك المَوْت: اُخْرُجِي أَيَّتهَا الرُّوح اللَّعِينَة الملعونة، إِلَى سَمُوم وَحَمِيم، وَظِلّ مِنْ يَحْمُوم لا بَارِد وَلا كَرِيم. قَالَ: فَإِذَا قَبَضَ مَلَك المَوْت رُوحه؛ قَالَ الرُّوح لِلجَسَدِ: جَزَاك الله عَنِّي شَرًّا، فَقَدْ كُنْت سَرِيعًا بِي إِلَى مَعْصِيَة الله، بَطِيئًا بِي عَنْ طَاعَة الله، فَقَدْ هَلَكْت وَأَهْلَكْت. قَالَ: وَيَقُول الجَسَد لِلرُّوحِ مِثْل ذَلِكَ. وَتَلعَنهُ بِقَاع الأَرْض الَّتِي كَانَ يَعْصِي الله عَلَيْهَا. وَتَنْطَلِق جُنُود إِبْلِيس إِلَيْهِ فَيُبَشِّرُونَهُ بِأَنَّهُمْ قَدْ أَوْرَدُوا عَبْدًا مِنْ وَلَد آدَم النَّار. قَالَ: فَإِذَا وُضِعَ فِي قَبْره ضُيِّقَ عَلَيْهِ قَبْره. حَتَّى تَخْتَلِف أَضْلاعه، حَتَّى تَدْخُل اليُمْنَى فِي اليُسْرَى وَاليُسْرَى فِي اليُمْنَى. قَالَ: وَيَبْعَث الله إِلَيْهِ أَفَاعِي دُهْمًا كَأَعْنَاقِ الإِبِل يَأْخُذُونَ بِارنبته وَإِبْهَامَيْ قَدَمَيْهِ فتقرضه حَتَّى يَلتَقِينَ فِي وَسَطه. قَالَ: وَيَبْعَث الله مَلَكَيْنِ أَبْصَارهُمَا كَالبَرْقِ الخَاطِف وَأَصْوَاتهُمَا كَالرَّعْدِ القَاصِف وَأَنْيَابهُمَا كَالصَّيَاصِي وَأَنْفَاسهمَا كَاللهبِ، يَطَآنِ فِي أَشْعَارهمَا، بَيْن مَنْكِبَيْ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا مَسِيرَة كَذَا وَكَذَا، قَدْ نُزِعَتْ مِنْهُمَا الرَّأْفَة وَالرَّحْمَة، يُقَال لَهُمَا: مُنْكَر وَنَكِير، فِي يَد كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا مِطْرَقَة، لَوْ اِجْتَمَعَ عَلَيْهَا رَبِيعَة وَمُضَر لَمْ يُقِلُّوهَا. قَالَ: فَيَقُولانِ لَهُ: اِجْلِسْ قال: فَيَسْتَوِي جَالِسًا، وَتَقَع أَكْفَانه فِي حَقْوَيْهِ، قَالَ: فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبّك؟ وَمَا دِينك؟ وَمَنْ نَبِيّك؟ فَيَقُول: لا أَدْرِي. فَيَقُولانِ لَهُ: لا دَرَيْت وَلا تَلَيْت. قال: فَيَضْرِبَانِهِ ضَرْبَة يَتَطَايَر شَرَرهَا فِي قَبْره، ثُمَّ يَعُودَانِ قَالَ: فَيَقُولانِ: اُنْظُرْ فَوْقَك، فَيَنْظُر فَإِذَا بَاب مَفْتُوح مِنْ الجَنَّة. فَيَقُولانِ: عَدُوَّ الله هَذَا مَنْزِلُك لَوْ أَطعْت الله». قَالَ رَسُول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيَصِلُ إِلَى

---

(١) إسناده ضعيف: يزيد الرقاشي: ضعيف.

قلبه عِنْد ذَلِكَ حَسْرَة لا تَرْتَدّ أَبَدًا» قَالَ: وَيَقُولَانِ لَهُ: «اُنْظُرْ تَحْتك فَيَنْظُر تَحْته فَإِذَا بَاب مَفْتُوح إِلَى النَّار. فَيَقُولَانِ: عَدُوّ الله هَذَا مَنْزِلك إِذْ عَصَيْت الله». فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنَّهُ لَيَصِلُ إِلَى قَلبه عِنْد ذَلِكَ حَسْرَة لا تَرْتَدّ أَبَدًا» قَالَ: وَقَالَتْ عَائِشَة: وَيُفْتَح لَهُ سَبْعَة وَسَبْعُونَ بَابًا إِلَى النَّار يَأْتِيه حرّهَا وَسَمُومهَا حَتَّى يَبْعَثهُ الله إِلَيْهَا[1]. هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا، وَسِيَاق عَجِيب، وَيَزِيد الرَّقَاشِيّ رَاوِيه عَنْ أَنَس لَهُ غَرَائِب وَمُنْكَرَات، وَهُوَ ضَعِيف الرِّوَايَة عِنْد الأَئِمَّة، وَالله أَعْلَم.

وَلِهَذَا قَالَ أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُوسَى الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا هِشَام -هُوَ اِبْن يُوسُف-، عَنْ عَبْد الله بْن بُحَيْر، عَنْ هَانِئ مَوْلَى عُثْمَان، عَنْ عُثْمَان رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْن الرَّجُل وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «اِسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيت فَإِنَّهُ الآن يُسْأَلُ»[2]. انفرد بِهِ أَبُو دَاوُد. وَقَدْ أَوْرَدَ الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدُوَيْه عِنْد قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ الآيَة حَدِيثًا مُطَوَّلًا جِدًّا: مِنْ طَرِيق غَرِيب، عَنْ الضَّحَّاك، عَنْ اِبْن عَبَّاس مَرْفُوعًا وَفِيهِ غَرَائِب أَيْضًا.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾

قَالَ البُخَارِيّ: قَوْله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أَلَمْ تَعْلَم، كَقَوْلِهِ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾. البَوَار: الهَلَاك، بَارَ يَبُور بَوْرًا، ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾: هَالِكِينَ. حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو، عَنْ عَطَاء، سَمِعَ اِبْن عَبَّاس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قَالَ: وَهُمْ كُفَّار أَهْل مَكَّة. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: هُوَ جَبَلَة بْن الأَيْهَم، وَالَّذِينَ اِتَّبَعُوهُ مِنْ العَرَب فَلَحِقُوا بِالرُّوم. وَالمَشْهُور الصَّحِيح عَنْ اِبْن عَبَّاس هُوَ القَوْل الأَوَّل، وَإِنْ كَانَ المَعْنَى يَعُمُّ جَمِيع الكُفَّار، فَإِنَّ الله تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ، رَحْمَة لِلعَالَمِينَ، وَنِعْمَة لِلنَّاسِ، فَمَنْ قَبِلَهَا وَقَامَ بِشُكْرِهَا دَخَلَ الجَنَّة، وَمَنْ رَدَّهَا وَكَفَرَهَا دَخَلَ النَّار. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيّ نَحْو قَوْل اِبْن عَبَّاس الأَوَّل. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُسْلِم بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ القَاسِم ابْن أَبِي بَزَّة، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل، أَنَّ اِبْن الكَوَّاء سَأَلَ عَلِيًّا عَنْ: ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قَالَ: هُمْ كُفَّار قُرَيْش يَوْم بَدْر.

حَدَّثَنَا المُنْذِر بْن شَاذَان، حَدَّثَنَا يَعْلَى بْن عُبَيْد، حَدَّثَنَا بَسَّام -هُوَ الصَّيْرَفِيّ- عَنْ أَبِي الطُّفَيْل، قَالَ: جَاءَ رَجُل إِلَى عَلِيّ، فَقَالَ: يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ؛ مَنْ ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؟ قَالَ: مُنَافِقُو قُرَيْش.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا اِبْن نُفَيْل، قَالَ: قَرَأْت عَلَى مَعْقِل، عَنْ اِبْن أَبِي حُسَيْن، قَالَ: قَامَ عَلِيّ ابْن أَبِي طَالِب رضي الله عنه فَقَالَ: أَلَا أَحَد يَسْأَلُنِي عَنْ القُرْآن، فَوَالله لَوْ أَعْلَم اليَوْم أَحَدًا أَعْلَم بِهِ مِنِّي، وَإِنْ كَانَ مِنْ وَرَاء البِحَار لَأَتَيْته، فَقَامَ عَبْد الله بْن الكَوَّاء، فَقَالَ: مَنْ ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؟ قَالَ: مُشْرِكُو قُرَيْش، أَتَتْهُمْ نِعْمَة الله، الإِيمَان فَبَدَّلُوا نِعْمَة الله كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمهمْ دَار البَوَار.

وَقَالَ السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآيَة: ذَكَرَ مُسْلِم المُسْتَوْفِي عَنْ عَلِيّ أَنَّهُ قَالَ: هُمْ الأَفْجَرَانِ مِنْ قُرَيْش؛ بَنُو أُمَيَّة وَبَنُو المُغِيرَة، فَأَمَّا بَنُو المُغِيرَة فَأَحَلُّوا قَوْمهمْ دَار البَوَار يَوْم بَدْر، وَأَمَّا بَنُو أُمَيَّة فَأَحَلُّوا قَوْمهمْ دَار البَوَار يَوْم أُحُد، وَكَانَ أَبُو جَهْل يَوْم بَدْر، وَأَبُو سُفْيَان يَوْم أُحُد، وَأَمَّا دَار البَوَار فَهِيَ جَهَنَّم.

---

(١) إسناده ضعيف أيضًا: كما تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَحْيَى، حَدَّثَنَا الْحَارِث أَبُو مَنْصُور، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، قَالَ: سَمِعْت عَلِيًّا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَة ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قَالَ: هُمْ الْأَفْجَرَانِ مِنْ قُرَيْش بَنُو الْمُغِيرَة وَبَنُو أُمَيَّة؛ فَأَمَّا بَنُو الْمُغِيرَة فكفيتموهم يَوْم بَدْر، وَأَمَّا بَنُو أُمَيَّة فَمُتِّعُوا إِلَى حِين. وَكَذَا رَوَاهُ حَمْزَة الزَّيَّات، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة قَالَ: قَالَ اِبْن عَبَّاس لِعُمَر بْن الْخَطَّاب: يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ، هَذِهِ الْآيَة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قَالَ: هُمْ الْأَفْجَرَانِ مِنْ قُرَيْش أَخْوَالِي وَأَعْمَامك، فَأَمَّا أَخْوَالِي فَاسْتَأْصَلَهُمْ الله يَوْم بَدْر، وَأَمَّا أَعْمَامك فَأَمْلَى الله لَهُمْ إِلَى حِين. وَقَالَ مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَابْن زَيْد: هُمْ كُفَّار قُرَيْش الَّذِينَ قُتِلُوا يَوْم بَدْر، وَكَذَا رَوَاهُ مَالِك فِي تَفْسِيره، عَنْ نَافِع، عَنْ اِبْن عُمَر.

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أَيْ: جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاء عَبَدُوهُمْ مَعَهُ، وَدَعَوْا النَّاس إِلَى ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لَهُمْ، وَمُتَوَعِّدهم عَلَى لِسَان نَبِيّه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أَيْ: مَهْمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَافْعَلُوا، فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، أَيْ: مَرْجِعكُمْ وَمَوْئِلكُمْ إِلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا عِبَاده بِطَاعَتِهِ، وَالْقِيَام بِحَقِّهِ، وَالْإِحْسَان إِلَى خَلْقه، بِأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاة، وَهِيَ عِبَادَة الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَأَنْ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ الله، بِأَدَاءِ الزَّكَوَات، وَالنَّفَقَة عَلَى الْقَرَابَات، وَالْإِحْسَان إِلَى الْأَجَانِب. وَالْمُرَاد بِإِقَامَتِهَا هُوَ الْمُحَافَظَة عَلَى وَقْتهَا وَحُدُودهَا وَرُكُوعهَا وَخُشُوعهَا وَسُجُودهَا. وَأَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَ فِي السِّرّ، أَيْ: فِي الْخُفْيَة، وَالْعَلَانِيَة: وَهِيَ الْجَهْر، وَلْيُبَادِرُوا إِلَى ذَلِكَ لِخَلَاصِ أَنْفُسِهِمْ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة، وهو يوم ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أَيْ: لَا يُقْبَل مِنْ أَحَد فِدْيَة بِأَنْ تُبَاع نَفْسه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾، قَالَ اِبْن جَرِير: يَقُول لَيْسَ هُنَاكَ مُخَالَّة خَلِيل، فَيُصْفَح عَمَّنْ اِسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَة عَنْ الْعِقَاب لِمُخَالَّة، بَل هُنَاكَ الْعَدْل وَالْقِسْط، وَالْخِلَال: مَصْدَر مِنْ قَوْل الْقَائِل: خَالَلْت فُلَانًا فَأَنَا أُخَالهُ مُخَالَّة وَخِلَالًا؛ وَمِنْهُ قَوْل اِمْرِئِ الْقَيْس:

صَرَفْت الهَوَى عَنْهُنَّ مِنْ خَشْيَة الرَّدَى ❁ وَلَسْت بِمُقْلِي الخِلَالِ وَلا قَالِي

وَقَالَ قَتَادَة: إِنَّ الله قَدْ عَلِمَ أَنَّ فِي الدُّنْيَا بُيُوعًا وَخِلَالًا يَتَخَالَوْنَ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَنْظُر الرَّجُل مَنْ يُخَالِل وَعَلَى مَا يُصَاحِب، فَإِنْ كَانَ لله فَلْيُدَاوِم، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ الله فإنها ستنقطع.

قُلْت: وَالْمُرَاد مِنْ هَذَا أَنَّهُ يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَنْفَع أَحَدًا بَيْعٌ وَلَا فِدْيَةٌ، وَلَوْ افْتَدَى بملء الْأَرْض ذَهَبًا لَوْ وَجَدَهُ؛ وَلَا ينفعهُ صَدَاقَة أَحَد وَلَا شَفَاعَة أَحَد إِذَا لَقِيَ الله كَافِرًا، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

يُعَدِّد تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى خلقه: بِأَنْ خَلَقَ لَهُمْ السَّمَاوَات سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَالأَرْض فِرَاشًا، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ مَا بَيْن ثِمَار وَزُرُوع مُخْتَلِفَة الأَلْوَان وَالأَشْكَال وَالطُّعُوم وَالرَّوَائِح وَالمَنَافِع، وَسَخَّرَ الفُلك بِأَنْ جَعَلَهَا طَافِيَة عَلَى تَيَّار مَاء البَحْر تَجْرِي عَلَيْهِ بِأَمْرِ الله تَعَالَى، وَسَخَّرَ البَحْر لِحَمْلِهَا؛ لِيَقْطَع المُسَافِرُونَ بِهَا مِنْ إِقْلِيم إِلَى إِقْلِيم آخر؛ لِجَلْبِ مَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ، وَمَا هُنَاكَ إِلَى هاهُنَا، وَسَخَّرَ الأَنْهَار تَشُقّ الأَرْض مِنْ قُطْر إِلَى قُطْر رِزْقًا لِلعِبَادِ مِنْ شُرْب وَسَقْي، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاع المَنَافِع.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أَيْ: يَسِيرَانِ لَا يقر لَيْلًا وَلَا نَهَارًا. ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَالشَّمْس وَالقَمَر يَتَعَاقَبَانِ، وَاللَّيْل وَالنَّهَار يَتَعَارَضَانِ، فَتَارَة يَأْخُذ هَذَا مِنْ هَذَا فَيَطُول، ثُمَّ يَأْخُذ الآخر مِنْ هَذَا فَيَقْصُر ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يَقُول: هَيَّأَ لَكُمْ كُلّ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيع أَحْوَالكُمْ مِمَّا تَسْأَلُونَهُ بِحَالِكُمْ وقالكم. وَقَالَ بَعْض السَّلَف: مِنْ كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَمَا لَمْ تَسْأَلُوهُ. وَقَرَأَ بَعْضهمْ: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ يُخْبِر تَعَالَى عَنْ عَجْز العِبَاد عَنْ تَعْدَاد النِّعَم، فَضْلًا عَنْ القِيَام بِشُكْرِهَا، كَمَا قَالَ طَلق بْن حَبِيب رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ حَقّ الله أَثْقَل مِنْ أَنْ يَقُوم بِهِ العِبَاد، وَإِنَّ نِعَم الله أَكْثَر مِنْ أَنْ يُحْصِيهَا العِبَاد، وَلَكِنْ أَصْبِحُوا تَوَّابِين وَأَمْسُوا تَوَّابِين. وَفِي صَحِيح البُخَارِيّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، كَانَ يَقُول: «**اللهمَّ، لَكَ الحَمْد غَيْر مَكْفِيّ وَلا مُوَدَّع وَلا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبّنَا**»[(١)]. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل ابْن أَبِي الحَارِث، حَدَّثَنَا دَاوُد بْن المُحَبَّر، حَدَّثَنَا صَالِح المريّ، عَنْ جَعْفَر بْن زَيْد العَبْدِيّ، عَنْ أَنَس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**يَخْرُج لابْنِ آدَم يَوْم القِيَامَة ثَلاثَة دَوَاوِين: دِيوَان فِيهِ العَمَل الصَّالِح، وَدِيوَان فِيهِ ذُنُوبه، وَدِيوَان فِيهِ النِّعَم مِنْ الله تَعَالَى عَلَيْهِ، فَيَقُول الله تَعَالَى لأَصْغَر نِعَمه -أَحْسَبهُ قَالَ: فِي دِيوَان النِّعَم-: خُذِي ثَمَنك مِنْ عَمَله الصَّالِح، فَتَسْتَوْعِب عَمَله الصَّالِح كُلّه، ثُمَّ تَنَحَّى وَتَقُول: وَعِزَّتك مَا اسْتَوْفَيْت، وَتَبْقَى الذُّنُوب وَالنِّعَم والعمل الصالح، فتستوعب عمله الصالح كله، فَإِذَا أَرَادَ الله أَنْ يَرْحَمهُ، قَالَ: يَا عَبْدِي قَدْ ضَاعَفْت لَك حَسَنَاتك، وَتَجَاوَزْت عَنْ سَيِّئَاتك، -أَحْسَبهُ قَالَ: وَوَهَبْت لَك نِعَمِي-**»[(٢)]. غَرِيب وَسَنَدُهُ ضَعِيف.

وَقَدْ رُوِيَ فِي الأَثَر: أَنَّ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْف أَشْكُرك وَشُكْرِي لَك نِعْمَة مِنْك عَلَيَّ؟ فَقَالَ الله تَعَالَى: الآن شَكَرْتنِي يَا دَاوُد. أَيْ حِين اِعْتَرَفْت بِالتَّقْصِيرِ عَنْ أَدَاء شُكْر النعم. وَقَالَ الإِمَام الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ: الحَمْد لله الَّذِي لَا تُؤَدَّى شُكْر نِعْمَة مِنْ نِعَمه إِلَّا بِنِعْمَةٍ حَادِثَة تُوجِب عَلَى مؤدي ماضي نعمه بأدائها نعمة حادثة توجب عليه شُكْره بِهَا.

وَقَالَ القَائِل فِي ذَلِكَ:

لَوْ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنِّي لَهَا لُغَةٌ	تُثْنِي عَلَيْك بِمَا أَوْلَيْت مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَا زَادَ شُكْرِي إِذْ شَكَرْت بِهِ	إِلَيْك أَبْلَغ فِي الإِحْسَانِ وَالمِنَنِ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤٥٨).

(٢) ضعيف جدًا: فيه داود بن المحبر وهو متروك الحديث، وصالح المري: ضعيف، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٦٤٧) وقال: رواه البزار، وفيه صالح المري وهو ضعيف.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يَذْكُر تَعَالَى فِي هَذَا المَقَام مُحْتَجًّا عَلَى مُشْرِكِي العَرَب بِأَنَّ البَلَد الحَرَام مَكَّة إِنَّمَا وُضِعَتْ أَوَّل مَا وُضِعَتْ عَلَى عِبَادَة الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيم الَّذِي كَانَتْ بِسَبَبِهِ آهِلَة عَامِرَة تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَ غَيْر الله، وَأَنَّهُ دَعَا لِمَكَّة بِالأَمْنِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وَقَدْ اِسْتَجَابَ الله لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، وَقَالَ فِي هَذِهِ القِصَّة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ فَعَرَّفَهُ لِأَنَّهُ دَعَا بِهِ بَعْد بِنَائِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، وَمَعْلُوم أَنَّ إِسْمَاعِيل أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاق بِثَلَاثَ عَشْرَة سَنَةً، فَأَمَّا حِين ذَهَبَ بِإِسْمَاعِيل وَأُمّه وَهُوَ رَضِيع إِلَى مَكَان مَكَّة، فَإِنَّهُ دَعَا أَيْضًا فَقَالَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾. كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَالِكَ فِي سُورَة البَقَرَة مُسْتَقْصًى مُطَوَّلًا.

وَقَالَ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ يَنْبَغِي لِكُلِّ دَاعٍ أَنْ يَدْعُو لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ أُفْتُتِنَ بِالأَصْنَام خَلَائِق مِنْ النَّاس، وَأَنَّهُ بريء مِمَّنْ عَبَدَهَا، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ إِلَى الله؛ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ، كَقَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وَلَيْسَ فِي هذا أَكْثَر مِنْ الرَّدّ إِلَى مَشِيئَة الله تَعَالَى، لَا تَجْوِيز وُقُوع ذَلِكَ.

قَالَ عَبْد الله بْن وَهْب: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن الحَارِث، أَنَّ بَكْر بْن سَوَادَة حَدَّثَهُ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، أَنَّ رَسُول الله ﷺ، تَلَا قَوْل إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وَقَوْل عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: **«اللهمَّ أُمَّتِي، اللهمَّ أُمَّتِي، اللهمَّ أُمَّتِي»**. وَبَكَى، فَقَالَ الله: **اِذْهَبْ يَا جِبْرِيل إِلَى مُحَمَّد -وَرَبُّكَ أَعْلَم- وَاسأله مَا يُبْكِيه؟** فَأَتَاهُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُول الله ﷺ، مَا قَالَ، فَقَالَ الله: **يَا جبريل، اِذْهَبْ إِلَى مُحَمَّد، فَقُل لَهُ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ»**[1].

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

وَهَذَا يَدُلّ عَلَى أَنَّ هَذَا دُعَاء ثَانٍ بَعْد الدُّعَاء الأَوَّل، الَّذِي دَعَا بِهِ عِنْدَمَا وَلَّى عَنْ هَاجَرَ وَوَلَدِهَا، وَذَلِكَ قَبْل بِنَاء البَيْت، وَهَذَا كَانَ بَعْد بِنَائِهِ تَأْكِيدًا وَرَغْبَة إِلَى الله ﷻ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾. وَقَوْله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قَالَ اِبْن جَرِير: هُوَ مُتَعَلِّق بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا جَعَلته مُحَرَّمًا لِيَتَمَكَّنَ أَهْله مِنْ إِقَامَة الصَّلَاة عِنْده. ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر: لَوْ قَالَ: أَفْئِدَة النَّاس؛ لَازْدَحَمَ عَلَيْهِ فَارِس وَالرُّوم وَاليَهُود وَالنَّصَارَى وَالنَّاس كُلّهمْ، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فَاخْتُصَّ بِهِ المُسْلِمُونَ.

وَقَوْله: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أَيْ: لِيَكُونَ ذَلِكَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى طَاعَتِك، وَكَمَا أَنَّهُ وَادٍ غَيْر ذِي زَرْع فَاجْعَل لَهُمْ ثِمَارًا يَأْكُلُونَهَا، وَقَدْ اِسْتَجَابَ الله ذَلِكَ كَمَا قَالَ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وَهَذَا مِنْ لُطْفه تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَرَحْمَته وَبَرَكَته: أَنَّهُ لَيْسَ فِي البَلَد الحَرَام مَكَّة شَجَرَة مُثْمِرَة، وَهِيَ تُجْبَى إِلَيْهَا ثَمَرَات مَا حَوْلهَا، اِسْتِجَابَة لِخَلِيله إِبرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) صحيح: تقدم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾

قَالَ ابْن جَرِير: يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيم خَلِيله أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أَيْ: أَنْتَ تَعْلَم قَصْدِي فِي دُعَائِي، وَمَا أَرَدْت بِدُعَائِي لِأَهْلِ هَذَا الْبَلَد، وَإِنَّمَا هُوَ الْقَصْد إِلَى رِضَاك وَالْإِخْلَاص لَك، فَإِنَّك تَعْلَم الْأَشْيَاء كُلّهَا ظَاهِرهَا وَبَاطِنهَا، وَلَا يَخْفَى عَلَيْك مِنْهَا شَيْء فِي الْأَرْض وَلَا فِي السَّمَاء. ثُمَّ حَمِدَ رَبّه ﷿، عَلَى مَا رَزَقَهُ مِنْ الْوَلَد بَعْد الْكِبَر، فَقَالَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أَيْ: أَنَّهُ يَسْتَجِيب لِمَنْ دَعَاهُ، وَقَدْ اِسْتَجَابَ لِي فِيمَا سَأَلْته مِنْ الْوَلَد. ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أَيْ: مُحَافِظًا عَلَيْهَا مُقِيمًا لِحُدُودِهَا ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ أَيْ: وَاجْعَلْهُمْ كَذَلِكَ مُقِيمِينَ الصلاة، ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ أَيْ: فِيمَا سَأَلْتُك فِيهِ كُلّه. ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ قَرَأَ بَعْضهمْ: (وَلِوَالِدِي) على الإفراد، وَكَانَ هَذَا قَبْل أَنْ يَتَبَرَّأ مِنْ أَبِيهِ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ عَدَاوَته لله ﷿ ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أَيْ: كُلّهمْ ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ أَيْ: يَوْم تُحَاسِبُ عِبَادَك فَتجْزِيهم بِأَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ أَيْ: لَا تَحْسَبَنَّهُ إِذَا أَنْظَرَهُمْ وَأَجَّلَهُمْ أَنَّهُ غَافِل عَنْهُمْ، مُهْمِل لَهُمْ، لَا يُعَاقِبهُمْ عَلَى صُنْعِهِمْ، بَل هُوَ يُحْصِي ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَيَعُدُّهُ عَدًّا: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أَيْ: مِنْ شِدَّة الْأَهْوَال يَوْم الْقِيَامَة. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى كَيْفِيَّة قِيَامهمْ مِنْ قُبُورهمْ، وَمَجِيئهم إِلَى قِيَام الْمَحْشَر فَقَالَ: ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ أَيْ: مُسْرِعِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ الآيَة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد: رَافِعِي رُءُوسِهِمْ. ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ أَيْ: بل أَبْصَارُهُمْ طائرة شَاخِصَة، يُدِيمُونَ النَّظَر لَا يَطْرِفُونَ لَحْظَة؛ لِكَثْرَةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الْهَوْل وَالْفِكْرَة وَالْمَخَافَة؛ لِمَا يَحِلّ بِهِمْ، عِيَاذًا بِاللهِ الْعَظِيم مِنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ أَيْ: وَقُلُوبهمْ خَاوِيَة خَالِيَة لَيْسَ فِيهَا شَيْء لِكَثْرَةِ الْوَجَل وَالْخَوْف، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَة وَجَمَاعَة: إِنَّ أَمْكِنَة أَفْئِدَتهمْ خَالِيَة؛ لِأَنَّ الْقُلُوب لَدَى الْحَنَاجِر قَدْ خَرَجَتْ مِنْ أَمَاكِنهَا مِنْ شِدَّة الْخَوْف، وَقَالَ بَعْضهمْ: ﴿هَوَآءٞ﴾ خَرَاب لَا تَعِي شَيْئًا، وَلِشِدَّةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ، قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قِيل الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ عِنْد مُعَايَنَة الْعَذَاب: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ

دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي حَالِ مَحْشَرِهِمْ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

وقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أَيْ: أَوَلَمْ تَكُونُوا تَحْلِفُونَ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الحَالِ: أَنَّهُ لَا زَوَالَ لَكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا مَعَادَ وَلَا جَزَاءَ، فَذُوقُوا هَذَا بِذَاكَ. قَالَ مُجَاهِد وَغَيْره: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أَيْ: مَا لَكُمْ مِنْ انْتِقَالٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَة. كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾.

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أَيْ: قَدْ رَأَيْتُمْ وَبَلَغَكُمْ مَا أَحْلَلْنَا بِالأُمَمِ المُكَذِّبَةِ قَبْلَكُمْ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِمْ مُعْتَبَر، وَلَمْ يَكُنْ فِيمَا أَوْقَعْنَا بِهِمْ لَكُمْ مُزْدَجَر، ﴿حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾. وَقَدْ رَوَى شُعْبَة عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن؛ أَنَّ عَلِيًّا ﷺ، قَالَ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ قَالَ: أَخَذَ ذَاكَ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيم فِي رَبِّه نَسْرَيْنِ صَغِيرَيْنِ فَرَبَّاهُمَا حَتَّى اِسْتَغْلَظَا وَاستعلجا وَشَبَّا، قَالَ: فَأَوْثَقَ رِجْلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِوَتَدٍ إِلَى تَابُوت وَجَوَّعَهُمَا، وَقَعَدَ هُوَ وَرَجُل آخَر فِي التَّابُوت، قَالَ: وَرَفَعَ فِي التَّابُوت عَصًا عَلَى رَأْسه اللَّحْم، قال: فَطَارَا وَجَعَلَ يَقُول لِصَاحِبِهِ: اُنْظُرْ مَاذا تَرَى. قَالَ: أَرَى كَذَا وَكَذَا. حَتَّى قَالَ: أَرَى الدُّنْيَا كُلَّهَا كَأَنَّهَا ذُبَاب. قَالَ: فقال: صَوِّبْ العَصَا فَصَوَّبَهَا فَهَبَطَا. قَالَ فَهُوَ قَوْل الله ﷻ: ﴿وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ لِتَزُول مِنْهُ الجِبَالُ﴾. قَالَ أَبُو إِسْحَاق: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَة عَبْد الله ﴿وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ﴾.

قُلت: وَكَذَا رُوِيَ عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، وَعُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنهما، أَنَّهُمَا قَرَآ ﴿وَإِنْ كَادَ﴾ كَمَا قَرَأَ عَلِيّ، وَكَذَا رَوَاهُ سُفْيَان الثَّوْرِيّ وإِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أذنان، عَنْ عَلِيّ، فَذَكَرَ نَحْوه.

وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَة: أَنَّ سِيَاق هَذِهِ القِصَّة لِنَمْرُود مَلِك كَنْعَان: أَنَّهُ رَامَ أَسْبَاب السَّمَاء بِهَذِهِ الحِيلَة وَالمَكْر، كَمَا رَامَ ذَلِكَ بَعْده فِرْعَوْن مَلِك القِبْط فِي بِنَاء الصَّرْح، فَعَجَزَا وَضَعُفَا وَهُمَا أَقَلُّ وَأَحْقَر وَأَصْغَر وَأَدْحَر. وَذَكَرَ مُجَاهِد هَذِهِ القِصَّة عَنْ بُخْتَنَصَّرَ، وَأَنَّهُ لَمَّا اِنْقَطَعَ بَصَره عَنْ الأَرْض وَأَهْلِهَا نُودِيَ: أَيُّهَا الطَّاغِيَة أَيْنَ تُرِيد؟ فَفَرَقَ، ثُمَّ سَمِعَ الصَّوْت فَوْقه فَصَوَّبَ الرِّمَاح، فَصَوَّبَتْ النُّسُور فَفَزِعَتْ الجِبَال مِنْ هَدَّتِهَا، وَكَادَتْ الجِبَال أَنْ تَزُول مِنْ حِسّ ذَلِكَ، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

وَنَقَلَ اِبْن جُرَيْج، عَنْ مُجَاهِد أَنَّهُ قَرَأَهَا: ﴿لَتَزُولُ مِنهُ الجِبَالُ﴾ بِفَتْحِ اللَّام الأُولَى وَضَمِّ الثَّانِيَة. وَرَوَى العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ يَقُول: مَا كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُول مِنْهُ الجِبَال. وَكَذَا قَالَ الحَسَن البَصْرِيّ، وَوَجَّهَهُ اِبْن جَرِير: بِأَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ كُفْرهمْ بِالله. وَشِرْكهمْ بِهِ، مَا ضَرَّ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ الجِبَال وَلَا غَيْرهَا، وَإِنَّمَا عَادَ وَبَال ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

قُلت: وَيُشْبِه هَذَا إذًا قوله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

وَالقَوْل الثَّانِي فِي تَفْسِيرهَا مَا رَوَاهُ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ يَقُول: شِرْكهمْ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾. وَهَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك وَقَتَادَة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾

يَقُول تَعَالَى مُقَرِّرًا لِوَعْدِهِ وَمُؤَكِّدًا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ أَيْ: مِنْ نُصْرَتهمْ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا وَيَوْم يَقُوم الأَشْهَاد. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ذُو عِزَّة لَا يَمْتَنِع عَلَيْهِ شَيْء أَرَادَهُ وَلَا يُغَالَب، وَذُو اِنْتِقَام مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَجَحَدَهُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أَيْ: وَعْده هَذَا حَاصِل يَوْم تُبَدَّل الأَرْض غير الأرض، وَهِيَ هَذِهِ عَلَى غَيْر الصِّفَة المَأْلُوفَة المَعْرُوفَة، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث أَبِي حَازِم، عَنْ سَهْل بْن سَعْد؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**يُحْشَر النَّاس يَوْم القِيَامَة عَلَى أَرْض بَيْضَاء عَفْرَاء كَقُرْصَةِ النَّقِيّ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ**»[1]. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ دَاوُد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ مَسْرُوق، عَنْ عَائِشَة؛ أَنَّهَا قَالَتْ: أَنَا أَوَّل النَّاس سَأَلَ رَسُول الله ﷺ، عَنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ قَالَتْ: قُلت: أَيْنَ النَّاس يَوْمئِذٍ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**عَلَى الصِّرَاط**»[2]. رَوَاهُ مُسْلِم مُنْفَرِدًا بِهِ دُون البُخَارِيّ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيث دَاوُد بْن أَبِي هِنْد، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَن صَحِيح. وَرَوَاهُ أَحْمَد أَيْضًا: عَنْ عَفَّان، عَنْ وُهَيْب، عَنْ دَاوُد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْهَا، وَلَمْ يَذْكُر مَسْرُوقًا. وَقَالَ قَتَادَة: عَنْ حَسَّان بْن بِلَال المُزَنِيّ، عَنْ عَائِشَة ﵂، أَنَّهَا سَأَلت رَسُول الله ﷺ، عَنْ قَوْل الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قَالَ: قَالَتْ: يَا رَسُول الله، فَأَيْنَ النَّاس يَوْمئِذٍ؟ قَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتنِي عَنْ شَيْء مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَد مِنْ أُمَّتِي، ذَاكَ إِذ النَّاس عَلَى جِسْر جهنمْ**». وَرَوَى الإِمَام أَحْمَد مِنْ حَدِيث حَبِيب بْن أَبِي عَمْرَة، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ اِبْن عَبَّاس، حَدَّثَتْنِي عَائِشَة، أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُول الله ﷺ، عَنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فَأَيْنَ النَّاس يَوْمئِذٍ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**هُمْ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ**»[3].

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا الحَسَن، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الجَعْد، أَخْبَرَنَا القَاسِم، قال: سَمِعْت الحَسَن؛ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَة: يَا رَسُول الله ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ فَأَيْنَ النَّاس يَوْمئِذٍ؟ قَالَ: «**إِنَّ هَذَا شَيْء مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَد**» قَالَ: «**عَلَى الصِّرَاط يَا عَائِشَة**»[4]. وَرَوَاهُ أَحْمَد: عَنْ عَفَّان، عَنْ القَاسِم بْن الفَضْل، عَنْ الحَسَن، بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام مُسْلِم بْن الحَجَّاج فِي صَحِيحه: حَدَّثَنِي الحَسَن بْن عَلِيّ الحُلْوَانِيّ، حَدَّثَنِي أَبُو تَوْبَة الرَّبِيع بْن نَافِع، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن سَلَّام، عَنْ زَيْد -يَعْنِي أَخَاهُ-، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَّام، حَدَّثَنِي أَبُو أَسْمَاء الرَّحَبِيّ، أَنَّ ثَوْبَان مَوْلَى رَسُول الله ﷺ، حَدَّثَهُ قَالَ: كُنْت قَائِمًا عِنْد رَسُول الله ﷺ، فَجَاءَهُ حَبْر مِنْ أَحْبَار اليَهُود، فَقَالَ: السَّلَام عَلَيْك يَا مُحَمَّد؛ فَدَفَعْته دَفْعَة كَادَ يُصْرَع مِنْهَا، فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلت: أَلَا تَقُول: يَا رَسُول الله؟ فَقَالَ اليَهُودِيّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْله. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ اِسْمِي مُحَمَّد الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي**». فَقَالَ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٩١) وغيره.
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ١١٦) بلفظ: «على جسر جهنم»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٦١).
(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٤٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

اليَهُودِيّ: جِئْت أَسْأَلك. فَقَالَ له رَسُول الله ﷺ: «**أينفعك شيئًا إنْ حدثتك**» قَالَ: أَسْمَع بِأُذُنَيّ. فَنَكَتَ رَسُول الله ﷺ، بِعُودٍ مَعَهُ فَقَالَ: «**سَل**». فَقَالَ اليَهُودِيّ: أَيْنَ يَكُون النَّاس يَوْم تُبَدَّل الأَرْض غَيْر الأَرْض وَالسَّمَاوَات؟ فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**هُمْ فِي الظُّلْمَة دُون الجِسْر**». قَالَ: فَمَنْ أَوَّل النَّاس إِجَازَة؟ فَقَالَ: «**فُقَرَاء المُهَاجِرِينَ**». فَقَالَ اليَهُودِيّ: فَمَا تُحْفَتهمْ حِين يَدْخُلُونَ الجَنَّة؟ قَالَ: «**زِيَادَة كَبِد الحوت**». قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ فِي أَثَرِهَا؟ قَالَ: «**يُنْحَر لَهُمْ ثَوْر الجَنَّة الَّذِي كَانَ يَأْكُل مِنْ أَطْرَافهَا**». قَالَ: فَمَا شَرَابهمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**مِنْ عَيْن فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا**». قَالَ: صَدَقْت.

قَالَ: وَجِئْت أَسْأَلك عَنْ شَيْء لَا يَعْلَمهُ أَحَد مِنْ أَهْل الأَرْض إِلَّا نَبِيّ أَوْ رَجُل أَوْ رَجُلَانِ. قَالَ: «**أينفعك إنْ حدثتك؟**». قَالَ: أَسْمَع بِأُذُنَيّ. قَالَ: جِئْت أَسْأَلك عَنْ الوَلَد. قَالَ: «**مَاء الرَّجُل أَبْيَض، وَمَاء المَرْأَة أَصْفَر، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُل مَنِيَّ المَرْأَة أَذْكَرَا بِإِذْنِ الله تَعَالَى، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ المَرْأَة مَنِيّ الرَّجُل آنَثَا بِإِذْنِ الله**». قَالَ اليَهُودِيّ: لَقَدْ صَدَقْت، وَإِنَّك لَنَبِيّ. ثُمَّ انْصَرَفَ فذهب. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنْ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْم بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَانِي الله بِهِ**»[1]. قَالَ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير الطَّبَرِيّ: حَدَّثَنَا ابْن عَوْف، حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي مَرْيَم، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن ثَوْبَان الكُلَاعِيّ، عَنْ أَبِي أَيُّوب الأَنْصَارِيّ، أتى النبي ﷺ حَبْر مِنْ اليَهُود، فَقَالَ: أَرَأَيْت إِذْ يَقُول الله تَعَالَى فِي كِتَابه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فَأَيْنَ الخَلْق عِنْد ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**أَضْيَاف الله فَلَنْ يُعْجِزهُمْ مَا لَدَيْهِ**»[2]. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: مِنْ حَدِيث أَبِي بَكْر ابْن عَبْد الله بْن أَبِي مَرْيَم بِهِ.

وَقَالَ شُعْبَة: أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاق، سَمِعْت عَمْرو بْن مَيْمُون -وَرُبَّمَا قَالَ: قَالَ عَبْد الله، وَرُبَّمَا لَمْ يَقُل- فَقُلْت لَهُ: عَنْ عَبْد الله؟ فَقَالَ: سَمِعْت عَمْرو بْن مَيْمُون يَقُول: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ: أَرْض كَالفِضَّةِ البَيْضَاء نَقِيَّة، لَمْ يُسْفَك فِيهَا دَم، وَلَمْ يُعْمَل عَلَيْهَا خَطِيئَة، يَنْفُذهُمْ البَصَر، وَيُسْمِعهُمْ الدَّاعِي، حُفَاة عُرَاة كَمَا خُلِقُوا. قَالَ: أُرَاهُ قَالَ: قِيَامًا حَتَّى يُلْجِمهُمْ العَرَق. وَرُوِيَ مِنْ وَجْه آخَر: عَنْ شُعْبَة، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون، عَنْ ابْن مَسْعُود، بِنَحْوِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ عَاصِم، عَنْ زِرّ، عَنْ ابْن مَسْعُود، بِهِ. وَقَالَ سُفْيَان الثوري: عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون، لَمْ يُخْبِر بِهِ. أَوْرَدَ ذَلِكَ كُلّه ابْن جَرِير.

وَقَدْ قَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن عُبَيْد بْن عُقَيْل، حَدَّثَنَا سَهْل بْن حَمَّاد أَبُو عتاب، حَدَّثَنَا جَرِير بْن أَيُّوب، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون، عَنْ عَبْد الله، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، فِي قَوْل الله ﷻ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ: «**أَرْض بَيْضَاء لَمْ يُسْفَك عَلَيْهَا دَم أَوْ لَمْ يُعْمَل عَلَيْهَا خَطِيئَة**»[3]. ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْلَم رَفَعَهُ إِلَّا جَرِير بْن أَيُّوب، وَلَيْسَ بِالقَوِيّ.

ثُمَّ قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، ثَنَا مُعَاوِيَة بْن هِشَام، عَنْ سِنَان، عَنْ جَابِر الجُعْفِيّ، عَنْ أَبِي جَبِيرَة، عَنْ زَيْد، قَالَ: أَرْسَلَ رَسُول الله ﷺ، إِلَى اليَهُود فَقَالَ: «**هَل تَدْرُونَ لِمَ أَرْسَلت إِلَيْهِمْ؟**» قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: «**فَإِنِّي أَرْسَلت إِلَيْهِمْ أَسْأَلهُمْ عَنْ قَوْلِ الله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ إِنَّهَا تَكُون يَوْمَئِذٍ بَيْضَاء مِثْل الفِضَّة**». فَلَمَّا جَاءُوا سَأَلَهُمْ، فَقَالُوا: تَكُون بَيْضَاء مِثْل النَّقِيّ[4]. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَلِيّ وَابْن عَبَّاس وَأَنَس بْن

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٣١٥).

(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن جرير (٧/ ٤٧٩) بسند ضعيف فيه أبو بكر ابن أبي مريم: ضعيف.

(٣) **ضعيف جدًا**: أخرجه البزار (١٨٥٩) وقال: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن أبي إسحاق عن عمرو عن عبد الله مرفوعًا إلا جرير بن أيوب، وجرير ليس بالقوي، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٦٢٤) وقال: رواه البزار، وفيه جرير بن أيوب وهو مجمع على ضعفه.

(٤) **ضعيف الإسناد**: أخرجه الطبري (٧/ ٤٧٩) وفيه جابر الجعفي: مدلس وقد عنعن، وفيه أيضًا معاوية بن هشام: صدوق له أوهام.

مَالِكٍ وَمُجَاهِد بن جبر: أَنَّهَا تُبَدَّل يَوْم القِيَامَة بِأَرْضٍ مِنْ فِضَّة. وَعَنْ عَلِيّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: تَصِير الأَرْض فِضَّة، وَالسَّمَاوَات ذَهَبًا. وَقَالَ الرَّبِيع: عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، قَالَ: تَصِير السَّمَاوَات جِنَانًا. وَقَالَ أَبُو مَعْشَر، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن قَيْس، فِي قَوْله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ: خُبْزَة يَأْكُل مِنْهَا المُؤْمِنُونَ مِنْ تَحْت أَقْدَامِهِمْ. وَكَذَا رَوَى وَكِيع، عَنْ عُمَر بْن بَشِير الهَمْدَانِيّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر فِي قَوْله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ: تُبَدَّل الأَرْض خُبْزَة بَيْضَاء يَأْكُل المُؤْمِن مِنْ تَحْت قَدَمَيْهِ.

وَقَالَ الأَعْمَش، عَنْ خيثمة قَالَ: قَالَ عَبْد الله -هو ابْن مَسْعُود-: الأَرْض كُلّهَا يَوْم القِيَامَة نَار، وَالجَنَّة مِنْ وَرَائِهَا تُرَى كَوَاعِبهَا وَأَكْوَابهَا، وَيُلْجِمُ النَّاسَ العَرَقُ، أَوْ يَبْلُغ مِنْهُمْ العِرْق، وَلَمْ يَبْلُغُوا الحِسَاب.

وَقَالَ الأَعْمَش أَيْضًا: عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ قَيْس بْن السَّكَن، قَالَ: قَالَ عَبْد الله: الأَرْض كُلّهَا نَار يَوْم القِيَامَة، وَالجَنَّة مِنْ وَرَائِهَا تُرَى أَكْوَابهَا وَكَوَاعِبهَا، وَالَّذِي نَفْس عَبْد الله بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُل لَيُفِيض عَرَقًا حَتَّى تَرْسَخ فِي الأَرْض قَدَمه، ثُمَّ يَرْتَفِع حَتَّى يَبْلُغ أَنْفه وَمَا مَسَّهُ الحِسَاب. فَقَالُوا: مِمَّ ذَاكَ يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَن؟ قَالَ: مِمَّا يَرَى النَّاس وَيَلْقَوْنَ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ كَعْب فِي قَوْله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قَالَ: تَصِير السَّمَاوَات جِنَانًا، وَيَصِير مَكَان البَحْر نَارًا، وَتُبَدَّل الأَرْض غَيْرهَا. وَفِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد: **«لا يَرْكَب البَحْر إِلا غَازٍ أَوْ حَاجٌّ أَوْ مُعْتَمِرٌ، فَإِنَّ تَحْتَ البَحْر نَارًا، -أَوْ: تَحْت النَّار بَحْرًا-»**[1].

وَفِي حَدِيث الصُّور المَشْهُور المَرْوِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: **«يُبَدِّل الله الأَرْض غَيْر الأَرْض وَالسَّمَاوَات فَيَبْسُطهَا، وَيَمُدّهَا مَدّ الأَدِيم العُكَاظِيّ، لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا، ثُمَّ يَزْجُر الله الخَلْق زَجْرَة فَإِذَا هُمْ فِي هَذِهِ المُبَدَّلَة»**. وَقَوْله: ﴿وَبَرَزُوا﴾ أَيْ: خَرَجَتْ الخَلَائِق جَمِيعهَا مِنْ قُبُورهمْ لله ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أَيْ: الَّذِي قَهَرَ كُلّ شَيْء وَغَلَبَهُ، وَدَانَتْ لَهُ الرِّقَاب وَخَضَعَتْ لَهُ الأَلْبَاب.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وَتَبْرُز الخَلَائِق لِدَيَّانِهَا، تَرَى يَا مُحَمَّد يَوْمَئِذٍ المُجْرِمِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا بِكُفْرِهِمْ وَفَسَادهمْ، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أَيْ: بَعْضهمْ إِلَى بَعْض، قَدْ جُمِعَ بَيْن النُّظَرَاء أَوْ الأَشْكَال مِنْهُمْ، كُلّ صِنْف إِلَى صِنْف، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، وَقَالَ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، وَقَالَ: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾.

وَالأَصْفَاد: هِيَ القُيُود، قَالَهُ ابْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالأَعْمَش، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد، وَهُوَ مَشْهُور فِي اللُّغَة؛ قَالَ عَمْرو بْن كُلْثُوم:

فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا ❁ وَأُبْنَا بِالمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

وَقَوْله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أَيْ: ثِيَابهمْ الَّتِي يَلْبَسُونَهَا عليهم مِنْ قَطِرَان؛ وَهُوَ الَّذِي تُهْنَأ بِهِ الإِبِل، أَيْ: تُطْلَى، قَالَ قَتَادَة: وَهُوَ أَلْصَق شَيْء بِالنَّار.

وَيُقَال فِيهِ: قَطِرَان بِفَتْحِ القَاف وَكَسْر الطَّاء وَتَسْكِينهَا، وَبِكَسْر القَاف وَتَسْكِين الطَّاء، وَمِنْهُ قَوْل أَبِي النَّجْم:

كَأَنَّ قِطْرَانًا إِذَا تَلاهَا ❁ تَرْمِي بِهِ الرِّيحُ إِلَى مَجْرَاهَا

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢٤٨٩)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ١٥٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٦/ ١٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٣٤٣).

وَكَانَ اِبْن عَبَّاس يَقُول: القِطْرَان هُوَ النُّحَاس المُذَاب، وَرُبَّمَا قَرَأَهَا: ﴿سَرَابِيلهمْ مِنْ قِطْرَان﴾ أَيْ: مِنْ نُحَاس حَارّ، قَدْ اِنْتَهَى حَرّه، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ: مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالحَسَن، وَقَتَادَة.

وَقَوْله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن إِسْحَاق، أَنْبَأَنَا أَبَان بْن يَزِيد، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ زَيْد، عَنْ أَبِي سَلَّام، عَنْ أَبِي مَالِك الأَشْعَرِيّ؛ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُوهُنَّ: الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَاب، وَالاسْتِسْقَاء بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ، وَالنَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَان، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**»[1]. اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِم. وَفِي حَدِيث القَاسِم، عَنْ أَبِي أُمَامَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ تُوقَفُ فِي طَرِيقٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، سَرَابِيلُهَا مِنْ قَطِرَانٍ، وَتَغْشَى وَجْهَهَا النَّارُ**»[2].

وَقَوْله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وَيَحْتَمِل أَنَّهُ فِي حَال مُحَاسَبَتِهِ لِعَبْدِهِ سَرِيع النَّجَاز؛ لأَنَّهُ يَعْلَم كُلّ شَيْء وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة، وَإِنَّ جَمِيع الخَلق بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ كَالوَاحِدِ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وَهَذَا مَعْنَى قَوْل مُجَاهِد: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إِحْصَاء. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون المَعْنَيَانِ مُرَادَيْنِ، وَالله أَعْلَم.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

يَقُول تَعَالَى: هَذَا القُرْآن بَلَاغ لِلنَّاسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أَيْ: هُوَ بَلَاغ لِجَمِيعِ الخَلق؛ مِنْ إِنْس وَجَانّ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّل السُّورَة: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

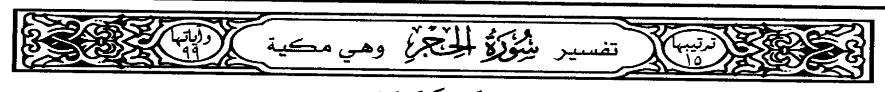
﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أَيْ: لِيَتَّعِظُوا بِهِ، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أَيْ: يَسْتَدِلُّوا بِمَا فِيهِ مِنْ الحُجَج وَالدَّلَالَات عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أَيْ: ذَوِي العُقُول.

آخِر تَفْسِير سُورَة إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالحمد لله رب العالمين.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٩٣٤)، وأحمد (٥/ ٣٤٤).

(٢) **ضعيف الإسناد**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٠١)، وعلته القاسم أبي عبد الرحمن، قال الحافظ: صدوق يغرب كثيرًا، وعلي بن يزيد الألهاني: ضعيف.



تفسير سورة الحجر وهي مكية

ترتيبها ١٥ — وآياتها ٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾، إِخْبَار عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَنْدَمُونَ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ الكُفْر، وَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مَعَ المُسْلِمِينَ. وَنَقَلَ السُّدِّيّ فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ المَشْهُور عَنْ اِبْن عَبَّاس وَابْن مَسْعُود وَغَيْرهمَا مِنْ الصَّحَابَة: أَنَّ الكُفَّار لَمَّا عُرِضُوا عَلَى النَّار تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ. وَقِيلَ: إِنَّ المُرَاد أَنَّ كُلّ كَافِر يَوَدّ عِنْد اِحْتِضَاره أَنْ لَوْ كَانَ مُؤْمِنًا.

وَقِيلَ: هَذَا إِخْبَار عَنْ يَوْم القِيَامَة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ سَلَمَة بْن كُهَيْل، عَنْ أَبِي الزعراء، عَنْ عَبْد الله فِي قَوْله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ قَالَ: هَذَا فِي الجَهَنَّمِيِّينَ إِذَا رَأَوْهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ النَّار. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي المُثَنَّى، أخبرنا مُسْلِم بن إبراهيم، حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا اِبْن أَبِي فَرْوَة العَبْدِيّ: أَنَّ اِبْن عَبَّاس، وَأَنَس بْن مَالِك، كَانَا يَتَأَوَّلَانِ هَذِهِ الآيَة ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ يَتَأَوَّلَانِهَا: يَوْم يَحْبِس الله أَهْل الخَطَايَا مِنْ المُسْلِمِينَ مَعَ المُشْرِكِينَ فِي النَّار. قَالَ: فَيَقُول لَهُمْ المُشْرِكُونَ: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: فَيَغْضَب الله لَهُمْ بِفَضْلِ رَحْمَته فَيُخْرِجهُمْ، فَذَلِكَ حِين يَقُول: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾.

وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا الثَّوْرِيّ، عَنْ حَمَّاد، عَنْ إِبْرَاهِيم، وَعَنْ خُصَيْف، عَنْ مُجَاهِد، قَالَا: يَقُول أَهْل النَّار لِلمُوَحِّدِينَ: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِيمَانكُمْ؟ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ، قَالَ الله: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلبه مِثْقَال ذَرَّة مِنْ إِيمَان. قَالَ: فَعِنْد ذَلِكَ قَوْله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ الضَّحَّاك وَقَتَادَة وَأَبِي العَالِيَة وَغَيْرهمْ. وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيث مَرْفُوعَة؛ فَقَالَ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن العَبَّاس -هُوَ الأَخْرَم- حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مَنْصُور الطُّوسِيّ، حَدَّثَنَا صَالِح بْن إِسْحَاق الجَهْبَذ -دلني عليه يحيى بن معين-، حَدَّثَنَا معرف بْن وَاصِل، عَنْ يَعْقُوب بْن نُبَاتَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن الأَغَرّ، عَنْ أَنَس بْن مَالِك ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْل لا إِلَه إِلا الله يَدْخُلُونَ النَّار بِذُنُوبِهِمْ، فَيَقُول لَهُمْ أَهْل اللات وَالعُزَّى: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ قَوْلكُمْ: لا إِلَه إِلا الله، وَأَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّار؟ فَيَغْضَب الله لَهُمْ فَيُخْرِجهُمْ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَر الحَيَاة، فَيَبْرَءُونَ مِنْ حَرْقهمْ كَمَا يَبْرَأ القَمَر مِنْ خُسُوفه، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّة وَيُسَمَّوْنَ فِيهَا الجَهَنَّمِيُّونَ»**. فَقَالَ رَجُل: يَا أَنَس، أَنْتَ سَمِعْت هَذَا مِنْ رَسُول الله ﷺ؟ فَقَالَ أنس: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَده مِنْ النَّار»**، نَعَمْ، أَنَا سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول هَذَا[1]. ثُمَّ قَالَ الطَّبَرَانِيّ: تَفَرَّدَ بِهِ الجَهْبَذ.

الحَدِيث الثَّانِي: وقَالَ الطَّبَرَانِيّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل، حَدَّثَنَا أَبُو الشَّعْثَاء عَلِيّ بْن حَسَن الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا خَالِد بْن نَافِع الأَشْعَرِيّ، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي بُرْدَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ:

---

(١) **صحيح لغيره:** أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٢٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢١٨) من حديث أنس، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٦٩٠) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه من لم أعرفهم.

«إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، وَمَعَهُمْ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ، قَالَ الكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ: أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالُوا: فَمَا أَغْنَى عَنْكُمُ الإِسْلَامُ، فَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ قَالُوا: كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأَخَذْنَا بِهَا فَسَمِعَ اللهُ مَا قَالُوا، فَأَمَرَ بِمَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ فَأُخْرِجُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الكُفَّارِ قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنَخْرُجَ كَمَا خَرَجُوا». قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[1].

وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: مِنْ حَدِيثِ خَالِدِ بْنِ نَافِعٍ بِهِ، وَزَادَ فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عِوَضَ الاِسْتِعَاذَةِ.

الحَدِيثُ الثَّالِثُ: قَالَ الطَّبَرَانِيُّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ هَارُونَ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ؛ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي أُسَامَةَ: أَحَدَّثَكُمْ أَبُو رَوْقٍ وَاسْمُهُ عَطِيَّةُ بْنُ الحَارِثِ، حَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ أَبِي طَرِيفٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾؟ قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يُخْرِجُ اللهُ نَاسًا مِنَ المُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا يَأْخُذُ نِقْمَتَهُ مِنْهُمْ». وَقَالَ: «لَمَّا أَدْخَلَهُمُ اللهُ النَّارَ مَعَ المُشْرِكِينَ، قَالَ لَهُمُ المُشْرِكُونَ: تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ فِي الدُّنْيَا فَمَا بَالُكُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ فَإِذَا سَمِعَ اللهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ لَهُمْ، فَتَشْفَعُ لَهُمُ المَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ، وَيَشْفَعُ المُؤْمِنُونَ حَتَّى يَخْرُجُوا بِإِذْنِ اللهِ، فَإِذَا رَأَى المُشْرِكُونَ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مِثْلَهُمْ فَتُدْرِكَنَا الشَّفَاعَةُ فَنَخْرُجَ مَعَهُمْ» قَالَ: «فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ فَيُسَمَّوْنَ فِي الجَنَّةِ الجَهَنَّمِيِّينَ مِنْ أَجْلِ سَوَادٍ فِي وُجُوهِهِمْ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، أَذْهِبْ عَنَّا هَذَا الاسْمَ، فَيَأْمُرُهُمْ فَيَغْتَسِلُونَ فِي نَهَرِ الجَنَّةِ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ الاسْمُ عَنْهُمْ»[2]. فَأَقَرَّ بِهِ أَبُو أُسَامَةَ، وَقَالَ: نَعَمْ.

الحَدِيثُ الرَّابِعُ: وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا العَبَّاسُ بْنُ الوَلِيدِ النَّرْسِيُّ، حَدَّثَنَا مِسْكِينٌ أَبُو فَاطِمَةَ، حَدَّثَنِي اليَمَانُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حِمْيَرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْزَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى عُنُقِهِ، عَلَى قَدْرِ ذُنُوبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْكُثُ فِيهَا شَهْرًا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْكُثُ فِيهَا سَنَةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا، وَأَطْوَلُهُمْ فِيهَا مُكْثًا بِقَدْرِ الدُّنْيَا مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَتْ إِلَى أَنْ تَفْنَى، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْهَا، قَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى وَمَنْ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الأَدْيَانِ وَالأَوْثَانِ، لِمَنْ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ: آمَنْتُمْ بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ فَنَحْنُ وَأَنْتُمُ اليَوْمَ فِي النَّارِ سَوَاءٌ؟ فَيَغْضَبُ اللهُ لَهُمْ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْهُ لِشَيْءٍ فِيمَا مَضَى، فَيُخْرِجُهُمْ إِلَى عَيْنٍ فِي الجَنَّةِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾»[3].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أَيْ: عَنِ التَّوْبَةِ وَالإِنَابَةِ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّهُ مَا أَهْلَكَ قَرْيَةً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهَا وَانْتِهَاءِ أَجَلِهَا، وَإِنَّهُ لَا يُؤَخِّرُ أُمَّةً حَانَ هَلَاكُهُمْ عَنْ

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٥) من حديث أبي موسى ، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٣٠)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٢/ ١٠٠).

(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨/ ١٠٦)، وابن حبان (١٦/ ٤٥٧)، وصححه شعيب الأرناؤوط.

(٣) ضعيف: قال الذهبي في «الميزان» (٤/ ٤٦١): أظنه موضوعًا.

مِيقَاتهمْ، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْ مُدَّتهمْ، وَهَذَا تَنْبِيه لِأَهْلِ مَكَّة، وَإِرْشَاد لَهُمْ إِلَى الإِقْلَاع عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الشِّرْك وَالعِنَاد وَالإِلحَاد الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الهَلَاك.

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ كُفْرهمْ وعتوهم وَعِنَادهمْ فِي قَوْلهمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أَيْ: الَّذِي يَدَّعِي ذَلِكَ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أَيْ: فِي دُعَائِك إِيَّانَا إِلَى اِتِّبَاعك، وَتَرْك مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿لَّوْ مَا﴾ أَيْ: هَلَّا ﴿تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أَيْ: يَشْهَدُونَ لَك بِصِحَّةِ مَا جِئْت بِهِ إن كنت من الصادقين، كَمَا قَالَ فِرْعَوْن: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾. وَكَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ بالرسالة والعذاب، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وَهُوَ القُرْآن، وَهُوَ الحَافِظ لَهُ مِنْ التَّغْيِير وَالتَّبْدِيل. وَمِنْهُمْ مَنْ أَعَادَ الضَّمِير فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ عَلَى النَّبِيّ ﷺ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وَالمَعْنَى الأَوَّل أَوْلَى وَهُوَ ظَاهِر السِّيَاق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ فِي تَكْذِيب مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ كُفَّار قُرَيْش: إِنَّهُ أَرْسَلَ مَنْ قَبْله مِنْ الأُمَم المَاضِيَة، وَإِنَّهُ مَا أَتَى أُمَّة مِنْ رَسُول إِلَّا كَذَّبُوهُ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَلَكَ التَّكْذِيب فِي قُلُوب المُجْرِمِينَ، الَّذِينَ عَانَدُوا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ اِتِّبَاع الهُدَى. قَالَ أَنَس وَالحَسَن البَصْرِيّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يَعْنِي: الشِّرْك. وَقَوْله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: قَدْ عُلِمَ مَا فَعَلَ تَعَالَى بِمَنْ كَذَّبَ رُسُله مِنْ الهَلَاك وَالدَّمَار، وَكَيْف أَنْجَى الله الأَنْبِيَاء وَأَتْبَاعهمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ قُوَّة كُفْرهمْ وَعِنَادهمْ وَمُكَابَرَتهمْ لِلحَقّ: أَنَّهُ لَوْ فَتَحَ لَهُمْ بَابًا مِنْ السَّمَاء فَجَعَلُوا يَصْعَدُونَ فِيهِ لَمَا صَدَّقُوا بِذَلِكَ، بَل قَالُوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾. قَالَ مُجَاهِد وَابْن كَثِير وَالضَّحَّاك: سُدَّتْ أَبْصَارنَا. وَقَالَ قَتَادَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: أُخِذَتْ أَبْصَارنَا. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: شُبِّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّمَا سُحِرْنَا. وَقَالَ الكَلْبِيّ: عَمِيَتْ أَبْصَارنَا. وَقَالَ اِبْن زَيْد: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ السَّكْرَان الَّذِي لَا يَعْقِل.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾

يَذْكُر تَعَالَى خَلقه السَّمَاء فِي اِرْتِفَاعهَا، وَمَا زَيَّنَهَا بِهِ مِنْ الكَوَاكِب الثواقب، لِمَنْ تَأَمَّلَهَا وَكَرَّرَ نظره فِيمَا يَرَى فيها مِنْ العَجَائِب وَالآيَات البَاهِرَات، مَا يَحَار نَظَره فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِد وَقَتَادَة: البُرُوج هَاهُنَا هِيَ الكَوَاكِب.

قُلت: وَهَذَا كَقَوْلِهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: البُرُوج هِيَ مَنَازِل الشَّمْس وَالقَمَر. وَقَالَ عَطِيَّة العَوْفِيّ: البُرُوج هَاهُنَا هِيَ قُصُور الحَرَس.

وَجَعَلَ الشُّهُب حَرَسًا لَهَا مِنْ مَرَدَة الشَّيَاطِين؛ لِئَلَّا يَسَّمَّعُوا إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَى. فَمَنْ تَمَرَّدَ وَتَقَدَّمَ مِنْهُمْ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ جَاءَهُ شِهَاب مُبِين فَأَتْلَفَهُ، فَرُبَّمَا يَكُون قَدْ أَلْقَى الْكَلِمَة الَّتِي سَمِعَهَا قبل أَنْ يُدْرِكهُ الشِّهَاب إِلَى الَّذِي هُوَ دُونه، فَيَأْخُذهَا الآخَر وَيَأْتِي بِهَا إِلَى وَلِيّه، كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي الصَّحِيح كَمَا قَالَ الْبُخَارِيّ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة يَبْلُغ بِهِ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا قَضَى الله الأَمْر فِي السَّمَاء، ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَة بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَان». قَالَ عَلِيّ، وَقَالَ غَيْره: «صَفْوَان يَنْفُذهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبهمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقّ وَهُوَ الْعَلِيّ الْكَبِير. فَيَسْمَعهَا مُسْتَرِقُو السَّمْع، وَمُسْتَرِقُو السَّمْع هَكَذَا وَاحِد فَوْق آخَر -وَوَصَفَ سُفْيَان بِيَدِهِ وَفَرَّجَ بَيْن أَصَابِع يَده الْيُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضهَا فَوْق بَعْض-، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَاب الْمُسْتَمِع قَبْل أَنْ يَرْمِي بِهَا إِلَى صَاحِبه فَيُحْرِقهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكهُ حَتَّى يَرْمِي بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيه، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَل مِنْهُ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْض، - وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَان: حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى الأَرْض- فَتُلْقَى عَلَى فَم السَّاحِر أَوْ الْكَاهِن، فَيَكْذِب مَعَهَا مِائَة كَذْبَة، فَيُصَدَّق، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرنَا يَوْم كَذَا وَكَذَا يَكُون كَذَا وَكَذَا فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنْ السَّمَاء»[1].

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى خَلقه الأَرْض وَمَدّه إِيَّاهَا، وَتَوْسِيعهَا وَبَسْطهَا، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنْ الْجِبَال الرَّوَاسِي، وَالأَوْدِيَة وَالأَرَاضِي وَالرِّمَال، وَمَا أَنْبَتَ فِيهَا مِنْ الزُّرُوع وَالثِّمَار الْمُتَنَاسِبَة. وَقَالَ اِبْن عَبَّاس: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أَيْ: مَعْلُوم. وَكَذَا قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر، وَعِكْرِمَة، وَأَبُو مَالِك، وَمُجَاهِد، وَالْحَكَم بْن عتيبة، وَالْحَسَن بْن مُحَمَّد، وَأَبُو صَالِح، وَقَتَادَة. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول: مُقَدَّر بِقَدَرٍ. وَقَالَ اِبْن زَيْد: مِنْ كُلّ شَيْء يُوزَن وَيُقَدَّر بِقَدَرٍ. وَقَالَ اِبْن زَيْد: مَا يَزِنهُ أَهْل الأَسْوَاق. وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ يَذْكُر تَعَالَى أَنَّهُ صَرَفَهُمْ فِي الأَرْض فِي صُنُوف الأَسْبَاب وَالْمَعَايِش؛ وَهِيَ جَمْع مَعِيشَة. وَقَوْله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِد: وَهِيَ الدَّوَابّ وَالأَنْعَام، وَقَالَ اِبْن جَرِير: هُمْ الْعَبِيد وَالإِمَاء وَالدَّوَابّ وَالأَنْعَام.

وَالْقَصْد: أَنَّهُ تَعَالَى يَمْتَنّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَسَّرَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَاب الْمَكَاسِب، وَوُجُوه الأَسْبَاب، وَصُنُوف الْمَعَايِش، وَبِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنْ الدَّوَابّ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا، وَالأَنْعَام الَّتِي يَأْكُلُونَهَا، وَالْعَبِيد وَالإِمَاء الَّتِي يَسْتَخْدِمُونَهَا، وَرِزْقهمْ عَلَى خَالِقهمْ لَا عَلَيْهِمْ، فَلَهُمْ هُمْ الْمَنْفَعَة، وَالرِّزْق عَلَى الله تَعَالَى.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ مَالِك كُلّ شَيْء، وَأَنَّ كُلّ شَيْء سَهْل عَلَيْهِ يَسِير لَدَيْهِ، وَأَنَّ عِنْده خَزَائِن الأَشْيَاء مِنْ جَمِيع الصُّنُوف، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ كَمَا يَشَاء وَكَمَا يُرِيد، وَلِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الْحِكْمَة الْبَالِغَة وَالرَّحْمَة بِعِبَادِهِ، لَا عَلَى جِهَة الْوُجُوب، بَل هُوَ كَتَبَ عَلَى نَفْسه الرَّحْمَة.

قَالَ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، عَنْ أَبِي جُحَيْفَة، عَنْ عَبْد الله: مَا مِنْ عَام بِأَمْطَرَ مِنْ عَام، وَلَكِنَّ الله يَقْسِمهُ حَيْثُ شَاءَ، عَامًا هَاهُنَا وَعَامًا هَاهُنَا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾. رَوَاهُ اِبْن جَرِير.

وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا الْقَاسِم قال: ثنا الحسين، حَدَّثَنَا هُشَيْم، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيل بْن سَالِم، عَنْ الْحَكَم بْن عتيبة. فِي قَوْله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قَالَ: مَا عَام بِأَكْثَر مَطَرًا مِنْ عَام وَلَا أَقَلّ، وَلَكِنَّهُ يُمْطَر قَوْم وَيُحْرَم آخَرُونَ،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠).

وَرُبما كَانَ فِي البَحْر، قَالَ: وَبَلَغَنَا أَنَّهُ يَنْزِل مَعَ المَطَر مِنَ المَلَائِكَة أَكْثَر مِنْ عَدَد وَلَد إِبْلِيس وَوَلَد آدَم، يُحْصُونَ كُلّ قَطْرَة حَيْثُ تَقَع وَمَا تُنْبِت. وَقَالَ البَزَّار: حَدَّثَنَا دَاوُدُ -هُوَ ابْن بَكْر التستري-، حَدَّثَنَا حَيَّان بْن أَغْلَب بْن تَمِيم، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ هِشَام، عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**خَزَائِن الله الكَلَام، فَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ؛ فَكَانَ**»[١]. ثُمَّ قَالَ: لَا يَرْوِيه إِلَّا أَغْلَب وَلَم يكن بِالقَوِيِّ، وَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ غَيْر وَاحِد مِنْ المُتَقَدِّمِينَ، وَلَمْ يَرْوِهِ عَنْهُ إِلَّا ابْنه.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ أَيْ: تُلَقِّح السَّحَاب فَتُدِرّ مَاء، وَتُلَقِّح الشَّجَر فَتُفْتَح عَنْ أَوْرَاقهَا وَأَكْمَامهَا؛ وَهذه الرياح ذَكَرَهَا بِصِيغَةِ الجَمْع لِيَكُونَ مِنْهَا الإِنْتَاج بِخِلَافِ الرِّيح العَقِيم فَإِنَّهُ أَفْرَدَهَا، وَوَصَفَهَا بِالعَقِيم وَهُوَ عَدَم الإِنْتَاج؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُون إِلَّا من شَيْئَيْنِ فَصَاعِدًا. وَقَالَ الأَعْمَش: عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ قَيْس بْن السَّكَن، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود فِي قَوْله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ قَالَ: لواقح تُرْسَل الرِّيح فَتَحْمِل المَاء مِنَ السَّمَاء، ثُمَّ تمري السَّحَاب حَتَّى تدر كَمَا تُدِرّ اللِّقْحَة. وَكَذَا قَالَ ابْن عَبَّاس وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَقَتَادَة. وَقَالَ الضَّحَّاك: يَبْعَثهَا الله عَلَى السَّحَاب فَتُلَقِّحهُ فَيَمْتَلِئ مَاء. وَقَالَ عُبَيْد بْن عُمَيْر اللَّيْثِيّ: يَبْعَث الله المُبَشِّرَة فَتَقُمّ الأَرْض قَمًّا، ثُمَّ يبعث الله المُثِيرَة فَتُثِير السَّحَاب، ثُمَّ يَبْعَث الله المُؤَلِّفَة فَتُؤَلِّف السَّحَاب، ثُمَّ يَبْعَث الله اللَّوَاقِح فَتُلَقِّح الشَّجَر. ثُمَّ تَلَا: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾.

وَقَدْ رَوَى ابْن جَرِير: مِنْ حَدِيث عُبَيْس بْن مَيْمُون، عَنْ أَبِي المُهَزِّم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «**الرِّيح الجَنُوب مِنَ الجَنَّة وهي الريح اللواقح، وَهِيَ الَّتِي ذَكَرَ الله فِي كِتَابه، وَفِيهَا مَنَافِع لِلنَّاس**»[٢]. وَهَذَا إِسْنَاد ضَعِيف. وَقَالَ الإِمَام أَبُو بَكْر عَبْد الله بْن الزُّبَيْر الحُمَيْدِيّ فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا سُفْيَان، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن دِينَار، أَخْبَرَنِي يَزِيد بْن جُعْدُبة اللَّيْثِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْد الرَّحْمَن بْن مِخْرَاق يُحَدِّث، عَنْ أَبِي ذَرّ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله خَلَقَ فِي الجَنَّة رِيحًا بَعْد الرِّيح بِسَبْع سِنِينَ، وَإِنَّ مِنْ دُونهَا بَابًا مُغْلَقًا، وَإِنَّمَا يَأْتِيكُمْ الرِّيح مِنْ خلل ذَلِكَ البَاب، وَلَوْ فُتِحَ لَأَذْرَتْ مَا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض مِنْ شَيْء، وَهِيَ عِنْد الله الأَذْيَب، وَهِيَ فِيكُمْ الجَنُوب»[٣].

وَقَوْله: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أَيْ: أَنْزَلنَاهُ لَكُمْ عَذْبًا يُمْكِنكُمْ أَنْ تَشْرَبُوا مِنْهُ، ولَوْ نَشَاء جَعَلنَاهُ أُجَاجًا، كَمَا ينبه الله عَلَى ذَلِكَ فِي الآيَة الأُخْرَى فِي سُورَة الوَاقِعَة؛ وَهُوَ قَوْله تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، وَفِي قَوْله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾. وَقَوْله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ قَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: بِمَانِعِينَ. وَيَحْتَمِل أَنَّ المُرَاد: وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِحَافِظِينَ، بَل نَحْنُ نُنَزِّلهُ وَنَحْفَظهُ عَلَيْكُمْ، وَنَجْعَلهُ مَعِينًا وَيَنَابِيع فِي الأَرْض، وَلَوْ شَاءَ تَعَالَى لَأَغَارَهُ وَذَهَبَ بِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَته أَنْزَلَهُ وَجَعَلَهُ عَذْبًا، وَحَفِظَهُ فِي العُيُون وَالآبَار وَالأَنْهَار وَغَيْر ذَلِكَ؛ لِيَبْقَى لَهُمْ فِي طُول السَّنَة يَشْرَبُونَ وَيَسْقُونَ أَنْعَامهمْ وَزُرُوعهمْ وَثِمَارهمْ.

وَقَوْله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ إِخْبَار عَنْ قُدْرَته تَعَالَى عَلَى بَدْء الخَلق وَإِعَادَته، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَحْيَا الخَلق مِنْ العَدَم، ثُمَّ يُمِيتهُمْ، ثُمَّ يَبْعَثهُمْ كُلّهمْ لِيَوْم الجَمْع. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى يَرِث الأَرْض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. ثُمَّ قال تَعَالَى مخبرًا عَنْ تَمَام عِلمه بِهِمْ أَوَّلهمْ وَآخِرهمْ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾، قَالَ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: المُسْتَقْدِمُونَ: كُلّ مَنْ هَلَكَ مِنْ لَدُنْ آدَم عليه السلام. وَالمُسْتَأْخِرُونَ: مَنْ هُوَ حَيّ وَمَنْ سَيَأْتِي إِلَى

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٢٥٥) من حديث أبي هريرة، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٨٢٥).
(٢) **ضعيف جدًا**: أخرجه الطبري (١٤/ ٢٢) وفيه أبو المهزم: قال الحافظ في «التقريب» (٨٣٩٧): متروك.
(٣) **موضوع**: أخرجه الحميدي (١/ ٧٠) من حديث أبي ذر، وقال الألباني في «الضعيفة»(٣٠٧٤): موضوع.

يَوْم القِيَامَة. وَرُوِيَ نَحوه عَنْ عِكْرِمَة وَمُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَمُحَمَّد بْن كَعْب وَالشَّعْبِيّ وَغَيْرهمْ، وَهُوَ اِخْتِيَار اِبْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الأَعْلَى، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَجُل، عَنْ مَرْوَان بْن الحَكَم، أَنَّهُ قَالَ: كَانَ أُنَاس يَسْتَأْخِرُونَ فِي الصُّفُوف مِنْ أَجْل النِّسَاء، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

وَقَدْ وَرَدَ فِي هذا حَدِيث غَرِيب جِدًّا؛ فَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن مُوسَى الحرشي، حَدَّثَنَا نُوح بْن قَيْس، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن مَالِك، عَنْ أَبِي الجَوْزَاء، عَنْ اِبْن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَتْ تُصَلِّي خَلف النَّبِيّ ﷺ اِمْرَأَة. قَالَ اِبْن عَبَّاس: لَا وَالله إن رَأَيْت مِثْلهَا قَطُّ، وَكَانَ بَعْض الْمُسْلِمِينَ إِذَا صَلَّوْا اِسْتَقْدَمُوا، يَعْنِي: لِئَلَّا يَرَوْهَا، وَبَعْض يَسْتَأْخِرُونَ، فَإِذَا سَجَدُوا نَظَرُوا إِلَيْهَا مِنْ تَحْت أَيْدِيهِمْ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾[1]. وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَد، وَابْن أَبِي حَاتِم فِي تَفْسِيره، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ فِي كِتَاب التَّفْسِير مِنْ سُنَنَيْهِمَا، وَابْن مَاجَة مِنْ طُرُق، عَنْ نُوح بْن قَيْس الحُدَّانِيّ، وَقَدْ وَثَّقَهُ أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُدَ، وَغَيْرهمَا، وَحُكِيَ عَنْ اِبْن مَعِين تَضْعِيفه، وَأَخْرَجَ لهُ مُسْلِم، وَأَهْل السُّنَن. وَهَذَا الحَدِيث فِيهِ نَكَارَة شَدِيدَة[2]، وَقَدْ رَوَاهُ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ جَعْفَر بْن سُلَيْمَان، عَنْ عَمْرو بْن مَالِك -وَهُوَ النكري-، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الجَوْزَاء يَقُول فِي قَوْله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾: فِي الصُّفُوف فِي الصَّلَاة وَ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾. فَالظَّاهِر أَنَّهُ مِنْ كَلَام أَبِي الجَوْزَاء فَقَطْ، لَيْسَ فِيهِ لِابْنِ عَبَّاس ذِكْر. وَقَدْ قَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا أَشْبَه مِنْ رِوَايَة نُوح بْن قَيْس. وَالله أَعْلَم.

وَهَكَذَا رَوَى اِبْن جَرِير عَنْ مُحَمَّد بْن أَبِي مَعْشَر، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَوْن بْن عَبْد الله يذاكر مُحَمَّد بْن كَعْب فِي قَوْله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ أَنَّهَا فِي صُفُوف الصَّلَاة. فَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب: لَيْسَ هَكَذَا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ المَيِّت وَالمَقْتُول، وَ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ مَنْ يُخْلَق بَعْد، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، فَقَالَ عَوْن بْن عَبْد الله: وَفَّقَك الله وَجَزَاك خَيْرًا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾

قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة: المُرَاد بِالصَّلْصَالِ هَهُنَا التُّرَاب اليَابِس. وَالظَّاهِر أَنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾. وَعَنْ مُجَاهِد أَيْضًا: ﴿صَلْصَـٰلٍ﴾ المُنْتِن. وَتَفْسِير الآيَة بِالآيَةِ أَوْلَى. وَقَوْله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أَيْ: الصَّلصَال مِنْ حَمَإٍ وَهُوَ الطِّين. وَالمَسْنُون: الأَمْلَس، كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

ثُمَّ خَاصِرتَهَا إِلَى القُبَّة الخَضْرَا ❁ ءِ تَمْشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُون

أَيْ: أَمْلَس صَقِيل.

وَلِهَذَا رُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس أَنَّهُ قَالَ: هُوَ التُّرَاب الرَّطْب. وَعَنْ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَالضَّحَّاك أَيْضًا: أَنَّ الحَمَأ المَسْنُون هُوَ المُنْتِن. وَقِيلَ: المُرَاد بِالمَسْنُونِ هَاهُنَا المَصْبُوب.

وَقَوْله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْل الإِنْسَان ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس: هِيَ السُّمُوم الَّتِي تَقْتُل.

---

(١) صحيح: أخرجه الطبري (١٤/ ٢٦)، والترمذي (٣١٢١)، وابن ماجه (١٠٤٦)، وأحمد (١/ ٣٠٥) من حديث ابن عباس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٧٢).

(٢) قال الشيخ الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٤٧٢): «وأما النكارة الشديدة التي زعمها ابن كثير، فجوابنا عليه؛ أنهم قالوا: إذا ورد الأثر بطل النظر، فبعد ثبوت الحديث لا مجال لاستنكار ما تضمنه من الواقع، ولو أننا فتحنا باب الاستنكار لمجرد الاستبعاد العقلي للزم إنكار كثير من الأحاديث الصحيحة، وهذا ليس من شأن أهل السُّنَّة والحديث، ثم ما المانع أن يكون أولئك الناس المستأخرون من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر؟ بل وما المانع أن يكونوا من الذين دخلوا في الإسلام حديثًا ولما يتهذبوا بتهذيب الإسلام، ولا تأدبوا بأدبه؟».اهـ.

وَقَالَ بَعْضهمْ: السَّمُوم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول: السَّمُوم بِاللَّيْلِ، وَالحَرُور بِالنَّهَار. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق قَالَ: دَخَلت عَلَى عمرو الأصم أعُودهُ، فَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثك حَدِيثًا سَمِعْته مِنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، يَقُول: هَذِهِ السَّمُوم جُزْء مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ السَّمُوم الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا الجانّ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾. وَعَنْ اِبْن عَبَّاس: إِنَّ الجانّ خُلِقَ مِنْ لَهَب النَّار. وَفِي رِوَايَة: مِنْ أَحْسَن النَّار. وَعَنْ عَمْرو بْن دِينَار: مِنْ نَار الشَّمْس. وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيح: «خُلِقَتْ المَلائكة مِنْ نُور، وخُلِقَتْ الجَانّ مِنْ مَارِج مِنْ نَار، وخُلِقَ بنو آدم ممَّا وُصِفَ لَكُمْ»[1]. وَمَقْصُود الآيَة: التَّنْبِيه عَلَى شَرَف آدَم عَلَيْهِ السَّلَام، وَطِيب عُنْصُره، وَطَهَارَة مَحْتِده.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

يَذْكُر تَعَالَى تَنْوِيهه بِذِكْرِ آدَم فِي مَلَائِكَته قَبْل خَلقه لَهُ، وَتَشْرِيفه إِيَّاهُ بِأَمْره المَلَائِكَة بِالسُّجُودِ لَهُ، وَيَذْكُر تَخَلُّف إِبْلِيس عَدُوّهُ عَنْ السُّجُود لَهُ مِنْ بَيْن سَائِر المَلَائِكَة، حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا وَافْتِخَارًا بِالبَاطِلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾، وَقَوْله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الآيَة. وَقَدْ رَوَى اِبْن جَرِير هَهُنَا أَثَرًا غَرِيبًا عَجِيبًا: مِنْ حَدِيث شَبِيب بْن بِشْر، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: لَمَّا خَلَقَ الله المَلَائِكَة، قَالَ: «إِنِّي خَالِق بَشَرًا مِنْ طِين، فَإِذَا أنا خلقته فاسجدوا له. فقَالُوا: لا نَفْعَل! فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ نَارًا فَأَحْرَقَتْهُمْ، ثُمَّ خَلَقَ مَلائِكَة أُخْرَى، فَقَالَ: لَهُمْ مِثْل ذَلِكَ، فَقَالُوا: لا نَفْعَل! فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ نَارًا فَأَحْرَقَتْهُمْ، ثُمَّ خَلَقَ مَلائِكَة أُخْرَى، فَقَالَ: إِنِّي خَالِق بَشَرًا مِنْ طِين، فَإِذَا أنا خلقته فاسجدوا له. قَالُوا: لا نَفْعَل! فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ نَارًا فَأَحْرَقَتْهُمْ، ثُمَّ خَلَقَ مَلائِكَة أُخْرَى، فَقَالَ: لَهُمْ مِثْل ذَلِكَ، فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا! إلا إِبْلِيس كَانَ مِنَ الكَافِرِينَ الأَوَّلِينَ». وَفِي ثُبُوت هَذَا عَنْهُ بُعْد، وَالظَّاهِر أَنَّهُ إِسْرَائِيلِيّ، وَالله أَعْلَم.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾

يقول تعالى آمرًا لإِبْلِيس أَمْرًا كَوْنِيًّا لَا يُخَالَف وَلَا يُمَانَع بِالخُرُوج مِنَ المَنْزِلَة الَّتِي كَانَ فِيهَا مِنَ المَلَإِ الأَعْلَى وَأَنَّهُ رَجِيم، أَيْ: مَرْجُوم، وَأَنَّهُ قَدْ أتبعه لَعْنَة لَا تَزَال مُتَّصِلَة بِهِ لَاحِقَة لَهُ مُتَوَاتِرَة عَلَيْهِ إِلَى يَوْم القِيَامَة. وَعَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا لَعَنَ الله إِبْلِيس تَغَيَّرَتْ صُورَته عَنْ صُورَة المَلَائِكَة، وَرَنَّ رَنَّة فَكُلّ رَنَّة فِي الدُّنْيَا إِلَى يَوْم القِيَامَة مِنْهَا. رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم. وَأَنَّهُ لَمَّا تَحَقَّقَ الغَضَب الَّذِي لَا مَرَدّ لَهُ، سَأَلَ مِنْ تَمَام حَسَده لِآدَم وَذُرِّيَّته النَّظِرَة إِلَى يَوْم القِيَامَة؛ وَهُوَ يَوْم البَعْث، وَأَنَّهُ أُجِيب إِلَى ذَلِكَ اِسْتِدْرَاجًا لَهُ وَإِمْهَالًا، فَلَمَّا تَحَقَّقَ النَّظِرَة قَبَّحَهُ الله.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْلِيس وَتَمَرُّده وَعُتُوّه: إنهُ قَالَ لِلرَّبِّ: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ قَالَ بَعْضهمْ: أَقْسَمَ بِإِغْوَاءِ الله لَهُ.

---

(١) صحيح: تقدم.

قُلت: وَيَحْتَمِل أَنَّهُ: بِسَبَبِ مَا أَغْوَيْتنِي وَأَضْلَلتنِي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أَيْ: لِذُرِّيَّةِ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: أُحَبِّب إِلَيْهِمْ المَعَاصِي، وَأُرَغِّبهُمْ فِيهَا، وَأُؤَزّهمْ إِلَيْهَا، وَأُزْعِجهُمْ إِزْعَاجًا ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَيْ: كَمَا أَغْوَيْتنِي وَقَدَّرْت عَلَيَّ ذَلِكَ، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال الله تَعَالَى لَهُ مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَيْ: مَرْجعكُمْ كُلّكُمْ إِلَيَّ فَأُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾. وَقِيلَ: طَرِيق الحَقّ مَرْجِعهَا إِلَى الله تَعَالَى وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي. قَالَهُ مُجَاهِد وَالحَسَن وَقَتَادَة، كَقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾. وَقَرَأَ قَيْس بْن عباد وَمُحَمَّد بْن سِيرِينَ وَقَتَادَة ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: رَفِيع، وَالمَشْهُور القِرَاءَة الأُولَى. وَقَوْله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أَيْ: الَّذِينَ قَدَّرْتُ لَهُمْ الهِدَايَة، فَلَا سَبِيل لَك عَلَيْهِمْ، وَلَا وُصُول لَك إِلَيْهِمْ، ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ اِسْتِثْنَاء مُنْقَطِع.

وَقَدْ أَوْرَدَ اِبْن جَرِير هَاهُنَا: مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن المُبَارَك، عَنْ عَبْد الله بْن مَوْهِب، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن قُسَيْطٍ؛ قَالَ: كَانَتْ الأَنْبِيَاء يَكُون لَهُمْ مَسَاجِد خَارِجَة مِنْ قُرَاهُمْ، فَإِذَا أَرَادَ النَّبِيّ أَنْ يَسْتَنْبِئ رَبّه عَنْ شَيْء خَرَجَ إِلَى مَسْجِده، فَصَلَّى مَا كَتَبَ الله له، ثُمَّ سَأَلَ مَا بَدَا لَهُ، فَبَيْنَا نَبِيّ فِي مَسْجِده، إِذْ جَاءَ عَدُوّ الله -يَعْنِي إِبْلِيس- حَتَّى جَلَسَ بَيْنه وَبَيْن القِبْلَة، فَقَالَ النَّبِيّ: أَعُوذ بِالله مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم! فَقَالَ عدو الله: أرأيت الذي تعوذ منه فهو هو. فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قال: فَرَدَّد ذَلِكَ ثَلَاث مَرَّات، فَقَالَ عَدُوّ الله: أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْء تَنْجُو مِنِّي؟ فَقَالَ النَّبِيّ: بَل أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْء تَغْلِب اِبْن آدم مَرَّتَيْنِ؟ فَأَخَذَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبه، فَقَالَ النَّبِيّ: إِنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، قَالَ عَدُوّ الله: قَدْ سَمِعْت هَذَا قَبْل أَنْ تُولَد، قَالَ النَّبِيّ: وَيَقُول الله: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وَإِنِّي وَالله مَا أَحْسَسْت بِك قَطُّ إِلَّا اِسْتَعَذْت بِالله مِنْك. قَالَ عَدُوّ الله: صَدَقْتَ! بِهَذَا تَنْجُو مِنِّي. فَقَالَ النَّبِيّ: فَأَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْء تَغْلِب اِبْن آدَم؟ قَالَ: آخُذهُ عِنْد الغَضَب وَعند الهَوَى.

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَيْ: جَهَنَّم مَوْعِد جَمِيع مَنْ اِتَّبَعَ إِبْلِيس، كَمَا قَالَ عَنْ القُرْآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ لِجَهَنَّم سَبْعَة أَبْوَاب، ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أَيْ: قَدْ كُتِبَ لِكُلِّ بَاب مِنْهَا جُزْء مِنْ أَتْبَاع إِبْلِيس، يَدْخُلُونَهُ لَا مَحِيد لَهُمْ عَنْهُ، أَجَارَنَا الله مِنْهَا! وَكُلّ يَدْخُل مِنْ بَاب بِحَسَبِ عَمَله، وَيَسْتَقِرّ فِي دَرَك بِقَدْرِ فعله. قَالَ إِسْمَاعِيل ابْن عُلَيَّة وَشُعْبَة، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي هَارُون الغَنَوِيّ، عَنْ حِطَّان بْن عَبْد الله، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْت عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب، وَهُوَ يَخْطُب قَالَ: إِنَّ أَبْوَاب جَهَنَّم هَكَذَا -قَالَ أَبُو هَارُون- أَطْبَاقًا بَعْضهَا فَوْق بَعْض. وَقَالَ إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ هُبَيْرَة بْن أَبِي يَرْيَم، عَنْ عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَبْوَاب جَهَنَّم سَبْعَة بَعْضهَا فَوْق بَعْض، فَيَمْتَلِئ الأَوَّل ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الثَّالِث، حَتَّى تمْلأ كُلّهَا. وَقَالَ عِكْرِمَة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ سَبْعَة أَطْبَاق. وَقَالَ اِبْن جُرَيْج: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أَوَّلهَا جَهَنَّم، ثُمَّ لَظَى، ثُمَّ الحُطَمَة، ثُمَّ السَّعِير، ثُمَّ سَقَر، ثُمَّ الجَحِيم، ثُمَّ الهَاوِيَة. وَرواية الضَّحَّاك، عَنْ اِبْن عَبَّاس، نَحْوه. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ الأَعْمَش بِنَحْوِهِ أَيْضًا. وَقَالَ قَتَادَة: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾: هِيَ وَالله مَنَازِل بِأَعْمَالِهِمْ. رَوَاهُنَّ اِبْن جَرِير. وَقَالَ جُوَيْبِر عَنْ الضَّحَّاك: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ قَالَ: بَاب لِلْيَهُودِ، وَبَاب لِلنَّصَارَى، وَبَاب لِلصَّابِئِينَ، وَبَاب لِلمَجُوس، وَبَاب لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا: وَهُمْ كُفَّار العَرَب، وَبَاب لِلمُنَافِقِينَ، وَبَاب لِأَهْلِ التَّوْحِيد؛ فَأَهْل التَّوْحِيد يُرْجَى لَهُمْ وَلَا يُرْجَى لِأُولَئِكَ أَبَدًا.

وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد بْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن عُمَر، عَنْ مَالِك بْن مِغْوَل، عَنْ جنيد، عَنْ اِبْن عُمَر، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: «لِجَهَنَّم سَبْعَة أَبْوَاب: بَاب مِنهَا لِمَنْ سَلَّ السَّيْف عَلَى أُمَّتِي، أَوْ قَالَ: عَلَى أُمَّة مُحَمَّد»[1]. ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث مَالِك بْن مِغْوَل. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبَّاس بْن الْوَلِيد الْخَلَّال، حَدَّثَنَا زَيْد -يَعْنِي اِبْن يَحْيَى-، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن بَشِير، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ سَمُرَة بْن جُنْدُب، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَهْل النَّار مَنْ تَأْخُذهُ النَّار إِلَى كَعْبَيْهِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذهُ النَّار إِلَى حُجْزَته، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذهُ النَّار إِلَى تَرَاقِيه، مَنَازِل بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَذَلِكَ قَوْله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾»[2].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَال أَهْل النَّار، عَطَفَ عَلَى ذِكْر أَهْل الْجَنَّة، وَأَنَّهُمْ فِي جَنَّات وَعُيُون. وَقَوْله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أَيْ: سَالِمِينَ مِنْ الْآفَات مُسَلَّم عَلَيْكُمْ، ﴿آمِنِينَ﴾ أَيْ: مِنْ كُلّ خَوْف وَفَزَع، وَلَا تَخْشَوْا مِنْ إِخْرَاج وَلَا اِنْقِطَاع وَلَا فَنَاء. وَقَوْله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ رَوَى الْقَاسِم، عَنْ أَبِي أُمَامَة قَالَ: يَدْخُل أَهْل الْجَنَّة الْجَنَّة عَلَى مَا فِي صُدُورهمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ الشَّحْنَاء وَالضَّغَائِن، حَتَّى إِذَا تَوَافَوْا وَتَقَابَلُوا نَزَعَ الله مَا فِي صُدُورهمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ غِلّ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾. هَكَذَا فِي هَذِهِ الرِّوَايَة، وَالْقَاسِم اِبْن عَبْد الرَّحْمَن فِي رِوَايَته عَنْ أَبِي أُمَامَة ضَعِيف. وَقَدْ رَوَى سُنَيْد فِي تَفْسِيره: حَدَّثَنَا اِبْن فَضَالَة، عَنْ لُقْمَان، عَنْ أَبِي أُمَامَة قَالَ: لَا يَدْخُل الْجَنَّة مُؤْمِن حَتَّى يَنْزِع الله مَا فِي صَدْرهم مِنْ غِلّ، حَتَّى يَنْزِع مِنْهُ مِثْل السَّبُع الضَّارِي. وَهَذَا مُوَافِق لِمَا فِي الصَّحِيح مِنْ رِوَايَة قَتَادَة: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُتَوَكِّل النَّاجِيّ، أَنَّ أَبَا سَعِيد الْخُدْرِيّ حَدَّثَهُمْ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «يَخْلُص الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّار، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَة بَيْن الْجَنَّة وَالنَّار، فَيُقْتَصّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْض مَظَالِم كَانَتْ بَيْنهمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُول الْجَنَّة»[3].

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا الْحَسَن، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَخْبَرَنَا هِشَام، عَنْ مُحَمَّد -هُوَ اِبْن سِيرِينَ- قَالَ: اِسْتَأْذَنَ الْأَشْتَر عَلَى عَلِيّ ﷺ، وَعِنْده اِبْن لِطَلْحَة، فَحَبَسَهُ ثُمَّ أَذِنَ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: إِنِّي لَأَرَاك إِنَّمَا حَبَسْتنِي لِهَذَا؟ قَالَ: أَجَل. قَالَ: إِنِّي لَأَرَاهُ لَوْ كَانَ عِنْدك اِبْن لِعُثْمَان لَحَبَسْتنِي. قَالَ: أَجَل، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَنَا وَعُثْمَان مِمَّنْ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾. وَقَالَ اِبْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنَا الْحَسَن، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة الضَّرِير، حَدَّثَنَا أَبُو مَالِك الْأَشْجَعِيّ، عن أبي حَبِيبَة مَوْلَى لِطَلْحَة، قَالَ: دَخَلَ عِمْرَان بْن طَلْحَة عَلَى عَلِيّ ﷺ بَعْدَمَا فَرَغَ مِنْ أَصْحَاب الْجَمَل، فَرَحَّبَ بِهِ وَقَالَ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلنِي الله وَأَبَاك مِنْ الَّذِينَ قَالَ الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قَالَ: وَرَجُلَانِ جَالِسَانِ على نَاحِيَة الْبِسَاط، فَقَالَا: الله أَعْدَل مِنْ ذَلِكَ، تَقْتُلهُمْ بِالْأَمْسِ وَتَكُونُونَ إِخْوَانًا! فَقَالَ عَلِيّ ﷺ: قومًا أَبْعَد أَرْض وَأَسْحَقهَا، فَمَنْ هُمْ إِذًا إِنْ لَمْ أَكُنْ أَنَا وَطَلْحَة؟ وَذَكَرَ أَبُو مُعَاوِيَة الْحَدِيث بِطُولِهِ.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣١٢٣)، وأحمد (٢/ ٩٤) من حديث ابن عمر، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٦٦١).
(٢) ضعيف الإسناد: وعلته سعيد بن بشير: ضعيف، وأصل الحديث في مسلم (٢٨٤٥).
(٣) صحيح: تقدم.

وَرَوَى وَكِيع، عَنْ أَبَان بْن عَبْد الله البَجَلِيّ، عَنْ نُعَيْم بْن أَبِي هِنْد، عَنْ رِبْعِيّ بْن حِرَاش، عَنْ عَلِيّ نَحْوه، وَقَالَ فِيهِ: فَقَامَ رَجُل مِنْ هَمْدَان فَقَالَ: الله أَعْدَل مِنْ ذَلِكَ يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ. قَالَ: فَصَاحَ بِهِ عَلِيّ صَيْحَة، فَظَنَنْت أَنَّ القَصْر قَدْ تَدَهْدَهَ لَهَا، ثُمَّ قَالَ: إِذَا لَمْ نَكُنْ نَحْنُ فَمَنْ هُمْ؟. وَقَالَ سَعِيد بْن مَسْرُوق، عَنْ أَبِي طَلْحَة فَذَكَرَهُ، وَفِيهِ: فَقَالَ الحَارِث الأَعْوَر ذَلِكَ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَلِيّ رضي الله عنه فَضَرَبَهُ بِشَيْءٍ كَانَ فِي يَده فِي رَأْسه، وَقَالَ: فَمَنْ هُمْ يَا أَعْوَر إِذَا لَمْ نَكُنْ نَحْنُ؟. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ مَنْصُور، عَنْ إِبْرَاهِيم قَالَ: جَاءَ اِبْن جُرْمُوز قَاتِل الزُّبَيْر يَسْتَأْذِن عَلَى عَلِيّ رضي الله عنه، فَحَجَبَهُ طَوِيلًا ثُمَّ أَذِنَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَمَّا أَهْل البَلَاء فَتَجْفُوهُمْ! فَقَالَ عَلِيّ: بِفِيكَ التُّرَاب! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَنَا وَطَلْحَة وَالزُّبَيْر مِمَّنْ قَالَ الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾. وَكَذَا رَوَى الثَّوْرِيّ، عَنْ جَعْفَر بْن مُحَمَّد، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيّ، بِنَحْوِهِ. وَقَالَ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي مُوسَى، سَمِعَ الحَسَن البَصْرِيّ يَقُول: قَالَ عَلِيّ: فِينَا وَالله أَهْل بَدْر نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾. وَقَالَ كَثِير النَّوَّاء: دَخَلت عَلَى أَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بْن عَلِيّ فَقُلت: وَلِيِّي وَلِيّكُمْ، وَسِلْمِي سِلْمكُمْ، وَعَدُوِّي عَدُوّكُمْ، وَحَرْبِي حَرْبكُمْ، إِنِي أَسْأَلك بِالله، أَتَبَرَّأ مِنْ أَبِي بَكْر وَعُمَر؟ فَقَالَ: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ تَوَلَّهُمَا يَا كَثِير، فَمَا أَدْرَكَك فَهُوَ فِي رَقَبَتِي هَذِهِ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَة ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قَالَ: أَبُو بَكْر وَعُمَر وَعَلِيّ رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ. وَقَالَ الثَّوْرِيّ: عَنْ رَجُل، عَنْ أَبِي صَالِح فِي قَوْله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قَالَ: هُمْ عَشَرَة: أَبُو بَكْر، وَعُمَر، وَعُثْمَان، وَعَلِيّ، وَطَلْحَة، وَالزُّبَيْر، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف، وَسَعْد بْن أَبِي وَقَّاص، وَسَعِيد بْن زَيْد، وَعَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ.

وَقَوْله: ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِد: لَا يَنْظُر بَعْضهمْ فِي قَفَا بَعْض. وَفِيهِ حَدِيث مَرْفُوع؛ قَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عبدك القزويني، حَدَّثَنَا حَسَّان بْن حَسَّان، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن بِشْر، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن مَعِين، عَنْ إِبْرَاهِيم القُرَشِي، عَنْ سَعِيد بْن شُرَحْبِيل، عَنْ زَيْد بْن أَبِي أَوْفَى قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ، فَتَلَا هَذِهِ الآيَة: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ «**فِي الله يَنْظُر بَعْضهمْ إِلَى بَعْض**».

وَقَوْله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يَعْنِي: المَشَقَّة وَالأَذَى، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّر خَدِيجَة بِبَيْتٍ فِي الجَنَّة مِنْ قَصَب، لَا صَخَب فِيهِ وَلَا نَصَب**»[1]. وَقَوْله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «**يُقَال: يَا أَهْل الجَنَّة؛ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَمْرَضُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَلَا تَظْعَنُوا أَبَدًا**». وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[2]. وَقَوْله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أَيْ: أَخْبِرْ يَا مُحَمَّد عِبَادِي أَنِّي ذُو رَحْمَة وَذُو عِقَاب أَلِيم.

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْر نَظِير هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، وَهِيَ دَالَّة عَلَى مَقَامَيْ الرَّجَاء وَالخَوْف، وَذُكِرَ فِي سَبَب نُزُولهَا: مَا رَوَاهُ مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ مُصْعَب بْن ثَابِت قَالَ: مَرَّ رَسُول الله ﷺ عَلَى نَاس مِنْ أَصْحَابه يَضْحَكُونَ، فَقَالَ: «**اُذْكُرُوا الجَنَّة، وَاذْكُرُوا النَّار**»، فَنَزَلَتْ: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[3]. رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم وَهُوَ مُرْسَل.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٧٩٢، ٣٨١٩)، ومسلم (٢٤٣٣).

(٢) **صحيح**: تقدم.

(٣) **ضعيف**: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٨٦) لابن أبي حاتم، وابن المنذر، وقال الحافظ ابن كثير بعد إيراده: رواه ابن أبي حاتم مرسل وفيه موسى بن عبيدة: ضعيف، ومصعب بن ثابت: لين الحديث.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي المُثَنَّى، حَدَّثَنَا إِسْحَاق، أَخْبَرَنَا ابْن المَكِّيّ، أَخْبَرَنَا ابْن المُبَارَك، أَخْبَرَنَا مُصْعَب ابْن ثَابِت، حَدَّثَنَا عَاصِم بْن عُبَيْد الله، عَنْ ابْن أَبِي رَبَاح، عَنْ رَجُل مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ، قَالَ: طَلَعَ عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ، مِنَ البَاب الَّذِي يَدْخُل مِنْهُ بَنُو شَيْبَة، فَقَالَ: «ألا أراكم تضحكون». ثُمَّ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْد الحِجْر، رَجَعَ إِلَيْنَا القَهْقَرَى فَقَالَ: «إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله يقول: لم تقنط عبادي ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾». وَقَالَ سعيد، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ رَسُول الله ﷺ، قَالَ: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه»[1].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾

يقول تعالى: وَخَبِّرْهُمْ يَا مُحَمَّد عَنْ قِصَّة ضَيْف إِبْرَاهِيم -وَالضَّيْف يُطْلَق عَلَى الوَاحِد وَالجَمْع كَالزَّوْر وَالسَّفْر-، وَكَيْف دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أَيْ: خَائِفُونَ. وَقَدْ ذَكَرَ سَبَب خَوْفه مِنْهُمْ لَمَّا رَأَى أَيْدِيهِمْ لَا تَصِل إِلَى مَا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ ضِيَافَة: وَهُوَ العِجْل السَّمِين الحَنِيذ. ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أَيْ: لَا تَخَفْ وبشروه ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أَيْ: إِسْحَاق عليه السلام، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَة هُود. ف ﴿ قَالَ ﴾ مُتَعَجِّبًا مِنْ كِبَره وَكِبَر زَوْجَته، وَمُتَحَقِّقًا لِلوَعْد ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ فَأَجَابُوهُ مُؤَكِّدِينَ لِمَا بَشَّرُوهُ بِهِ تَحْقِيقًا، وَبِشَارَة بَعْد بِشَارَة. ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾، وَقَرَأَ بَعْضهمْ ﴿القنطين﴾، فَأَجَابَهُمْ بِأَنَّهُ لَيْسَ يَقْنَط، وَلَكِنْ يَرْجُو مِنَ الله الوَلَد، وَإِنْ كَانَ قَدْ كَبِرَ وَأَسَنَّتْ اِمْرَأَته، فَإِنَّهُ يَعْلَم مِنْ قُدْرَة الله وَرَحْمَته مَا هُوَ أَبْلَغ مِنْ ذَلِكَ.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾

يَقُول تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيم عليه السلام لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْع وَجَاءَتْهُ البُشْرَى: إِنَّهُ شَرَعَ يَسْأَلهُمْ عَمَّا جَاءُوا لَهُ، فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يَعْنُونَ قَوْم لُوط، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ سَيُنَجُّونَ آل لُوط مِنْ بَيْنهمْ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا مِنَ المهلكين، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أَيْ: البَاقِينَ المُهْلَكِينَ.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ لُوط لَمَّا جَاءَتْهُ المَلَائِكَة فِي صُورَة شَبَاب حِسَان الوُجُوه، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ دَاره، قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يَعْنُونَ بِعَذَابِهِمْ وَهَلَاكهمْ وَدَمَارهمْ، الَّذِي كَانُوا يَشُكُّونَ فِي وُقُوعه بِهِمْ، وَحُلُوله بِسَاحَتِهِمْ. ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾. وَقَوْله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ تَأْكِيد لِخَبَرِهِمْ إِيَّاهُ بِمَا أَخْبَرُوهُ بِهِ مِنْ نَجَاته وَإِهْلَاك قَوْمه.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾

يَذْكُر تَعَالَى عَنِ المَلَائِكَة: أَنَّهُمْ أَمَرُوهُ أَنْ يَسْرِي بِأَهْلِهِ بَعْد مُضِيّ جَانِب مِنَ اللَّيْل، وَأَنْ يَكُون لُوط عليه السلام،

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبري (٧/ ٥٢١) بسند مرسل.

يَمْشِي وَرَاءَهُمْ لِيَكُونَ أَحْفَظ لَهُمْ. وَهَكَذَا كَانَ رَسُول الله ﷺ يَمْشِي فِي الغزاة، إِنَّمَا يَكُون سَاقَة يُزْجِي الضَّعِيف، وَيَحْمِل الْمُنْقَطِع. وَقَوْله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أَيْ: إِذَا سَمِعْتُمْ الصَّيْحَة بِالْقَوْمِ فَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ، وَذَرُوهُمْ فِيمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ الْعَذَاب وَالنَّكَال، ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كَأَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ مَنْ يَهْدِيهِمْ السَّبِيل. ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾ أَيْ: تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ فِي هَذَا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ أَيْ: وَقْت الصَّبَاح، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَة الْأُخْرَى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ مَجِيء قَوْم لُوط لَمَّا عَلِمُوا بِأَضْيَافِهِ وَصَبَاحَة وُجُوههمْ، وَأَنَّهُمْ جَاءُوا مُسْتَبْشِرِينَ بِهِمْ فَرِحِينَ، ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾. وَهَذَا إِنَّمَا قَالَهُ لَهُمْ قَبْل أَنْ يَعْلَم بِأَنَّهُمْ رُسُل الله، كَمَا فِي سِيَاق سُورَة هُود، وَأَمَّا هَاهُنَا فَتَقَدَّمَ ذِكْر أَنَّهُمْ رُسُل الله، وَعَطَفَ ذِكْر مَجِيء قَوْمه وَمُحَاجَّته لَهُمْ، وَلَكِنَّ الْوَاو لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيب، وَلَاسِيَّمَا إِذَا دَلَّ دَلِيل عَلَى خِلَافه، فَقَالُوا لَهُ مُجِيبِينَ: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: أَوَمَا نَهَيْنَاك أَنْ تُضَيِّف أَحَدًا؟ فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ وَمَا خَلَقَ لَهُمْ رَبّهمْ مِنْهُن مِنْ الْفُرُوج الْمُبَاحَة. وَقَدْ تَقَدَّمَ إِيضَاح الْقَوْل فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته. هَذَا كُلّه، وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَاد بِهِمْ، وَمَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ الْبَلَاء، وَمَاذَا يُصَبِّحُهم مِنْ الْعَذَاب المستقر، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لنبيه ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أَقْسَمَ تَعَالَى بِحَيَاةِ نَبِيّه ﷺ، وَفِي هَذَا تَشْرِيف عَظِيم، وَمَقَام رَفِيع، وَجَاه عَرِيض.

قَالَ عَمْرو بْن مَالِك النكري، عَنْ أَبِي الْجَوْزَاء، عَنْ اِبْن عَبَّاس أَنَّهُ قَالَ: مَا خَلَقَ الله وَمَا ذَرَأَ وَمَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّد ﷺ، وَمَا سَمِعْت الله أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَد غَيْره، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. رَوَاهُ اِبْن جَرِير. وَقَالَ قَتَادَة: فِي ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ أَيْ: فِي ضَلَالَتهمْ، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أَيْ: يَلْعَبُونَ. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لَعَيْشك ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قَالَ: يتمادون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وَهِيَ مَا جَاءَهُمْ مِنْ الصَّوْت الْقَاصِف عِنْد شُرُوق الشَّمْس وَهُوَ طُلُوعهَا، وَذَلِكَ مَعَ رَفْع بِلَادهمْ إِلَى عَنَان السَّمَاء، ثُمَّ قَلْبهَا وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلهَا، وَإِرْسَال حِجَارَة السِّجِّيل عَلَيْهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَام عَلَى السِّجِّيل فِي هُود بِمَا فِيهِ كِفَايَة. وَقَوْله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أَيْ: أَنَّ آثَار هَذِهِ النِّقَم الظَّاهِرَة عَلَى تِلْكَ الْبِلَاد لِمَنْ تَأَمَّلَ ذَلِكَ وَتَوَسَّمَهُ بِعَيْنِ بَصَره وَبَصِيرَته، كَمَا قَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قَالَ: الْمُتَفَرِّسِينَ. وَعَنْ اِبْن عَبَّاس وَالضَّحَّاك: لِلنَّاظِرِينَ. وَقَالَ قَتَادَة: لِلْمُعْتَبِرِينَ. وَقَالَ مَالِك عَنْ بَعْض أَهْل الْمَدِينَة: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ لِلْمُتَأَمِّلِينَ.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الْحَسَن بْن عَرَفَة، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن كَثِير الْعَبْدِيّ، عَنْ عَمْرو بْن قَيْس، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «اِتَّقُوا فِرَاسَة الْمُؤْمِن؛ فَإِنَّهُ يَنْظُر بِنُورِ الله». ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيّ ﷺ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن جَرِير مِنْ حَدِيث عَمْرو بْن قَيْس الْمُلَائِيّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: لَا

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣١٢٧)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٢٣) من حديث أبي سعيد، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٢٧).

نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَالَ اِبْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنِي أَحْمَد بْن مُحَمَّد الطُّوسِيّ، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا الفُرَات بْن السَّائِب، حَدَّثَنَا مَيْمُون بْن مِهْرَان، عَنْ اِبْن عُمَر، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**اِتَّقُوا فِرَاسَة المُؤْمِن، فَإِنَّ المُؤْمِن يَنْظُر بِنُورِ الله**»[1].

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَبُو شُرَحْبِيل الحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن سَلَمَة، حَدَّثَنَا المُؤَمَّل بْن سَعِيد بْن يُوسُف الرَّحَبِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو المُعَلَّى أَسَد بْن وَدَاعَة الطَّائِيّ، حَدَّثَنَا وَهْب بْن مُنَبِّه، عَنْ طَاوُس بْن كَيْسَان، عَنْ ثَوْبَان، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**اِحْذَرُوا فِرَاسَة المُؤْمِن؛ فَإِنَّهُ يَنْظُر بِنُورِ الله، وينطق بِتَوْفِيقِ الله**»[2]. وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَبْد الأَعْلَى بْن وَاصِل، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن مُحَمَّد الجَرْمِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الوَاحِد بْن وَاصِل، حَدَّثَنَا أَبُو بِشْر المُزَلَّق، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس بْن مَالِك قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاس بِالتَّوَسُّمِ**». وَرَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا سَهْل بْن بَحْر، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن مُحَمَّد الجَرْمِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو بِشْر -يُقَال لَهُ: اِبْن المُزَلَّقِي، قَالَ: وَكَانَ ثِقَة- عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاس بِالتَّوَسُّمِ**»[3].

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أَيْ: وَإِنَّ قَرْيَة سَدُوم الَّتِي أَصَابَهَا مَا أَصَابَهَا مِنْ القَلْب الصُّورِيّ وَالمَعْنَوِيّ، وَالقَذْف بِالحِجَارَةِ حَتَّى صَارَتْ بُحَيْرَة مُنْتِنَة خَبِيثَة، بِطَرِيقٍ مَهِيع مَسَالِكه مُسْتَمِرَّة إِلَى اليَوْم، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. وَقَالَ مُجَاهِد وَالضَّحَّاك: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ قَالَ: مُعْلَم. وَقَالَ قَتَادَة: بِطَرِيقٍ وَاضِح. وَقَالَ قَتَادَة أَيْضًا: بِصُقْعٍ مِنْ الأَرْض وَاحِد. وَقَالَ السُّدِّيّ: بِكِتَابٍ مُبِين. يَعْنِي كَقَوْلِهِ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وَلَكِنْ لَيْسَ المَعْنَى عَلَى مَا قَالَ هَاهُنَا، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: إِنَّ الَّذِي صَنَعْنَا بِقَوْمِ لُوط مِنْ الهَلَاك وَالدَّمَار، وَإِنْجَاءَنَا لُوطًا وَأَهْله، لَدَلَالَة وَاضِحَة جَلِيَّة لِلْمُؤْمِنِينَ بِالله وَرُسُله.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

أَصْحَاب الأَيْكَة: هُمْ قَوْم شُعَيْب. قَالَ الضَّحَّاك وَقَتَادَة وَغَيْرهمَا: الأَيْكَة الشَّجَر المُلْتَفّ. وَكَانَ ظُلْمهمْ: بِشِرْكِهِمْ بِالله، وَقَطْعهمْ الطَّرِيق، وَنَقْصهمْ المِكْيَال وَالمِيزَان، فَانْتَقَمَ الله مِنْهُمْ بِالصَّيْحَةِ وَالرَّجْفَة وَعَذَاب يَوْم الظُّلَّة، وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنْ قَوْم لُوط، بَعْدهمْ فِي الزَّمَان، وَمُسَامِتِينَ لَهُمْ فِي المَكَان، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: طَرِيق مُبِين.

قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَغَيْره: طَرِيق ظَاهِر. وَلِهَذَا لَمَّا أَنْذَرَ شُعَيْب قَوْمه قَالَ فِي نِذَارَته إِيَّاهُمْ: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

أَصْحَاب الحِجْر: هُمْ ثَمُود الَّذِينَ كَذَّبُوا صَالِحًا نَبِيّهمْ عليه السلام، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ المُرْسَلِينَ، وَلِهَذَا أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ تَكْذِيب المُرْسَلِينَ. وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَاهُمْ مِنْ الآيَات مَا يَدُلّهُمْ عَلَى صِدْق مَا جَاءَهُمْ بِهِ صَالِح؛ كَالنَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا الله لَهُمْ بِدُعَاءِ صَالِح مِنْ صَخْرَة صَمَّاء، فَكَانَتْ تَسْرَح فِي بِلَادهمْ، لَهَا شِرْب وَلَهُمْ

(١) ضعيف: أخرجه أبو نعيم (٤/ ٩٤) من حديث ابن عمر، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٢٧).

(٢) ضعيف: ضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٨٢١).

(٣) حسن: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٠٧) من حديث أنس، وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٤٧٣) وقال: رواه البزار والطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٦٩٣).

شِرْب يَوْم مَعْلُوم، فَلَمَّا عَتَوْا وَعَقَرُوهَا قَالَ لَهُمْ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ: ﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ أَيْ: مِنْ غَيْر خَوْف وَلَا اِحْتِيَاج إِلَيْهَا، بَل أَشَرًا وَبَطَرًا وَعَبَثًا، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَد مِنْ صَنِيعهمْ فِي بُيُوتهمْ بِوَادِي الحِجْر الَّذِي مَرَّ بِهِ رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ ذَاهِب إِلَى تَبُوك، فَقَنَعَ رَأسه وَأَسْرَعَ دَابَّته، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**لا تَدْخُلُوا بُيُوت القَوْم المُعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا، خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ**»[1].

وَقَوْله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أَيْ: وَقْت الصَّبَاح مِنَ اليَوْم الرَّابِع، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ: مَا كَانُوا يَسْتَغِلُّونَهُ مِنْ زُرُوعهمْ وَثِمَارهمْ، الَّتِي ضَنُّوا بِمَائِهَا عَنْ النَّاقَة حَتَّى عَقَرُوهَا؛ لِئَلَّا تَضِيق عَلَيْهِمْ فِي المِيَاه، فَمَا دَفَعَتْ عَنْهُمْ تِلكَ الأَمْوَال، وَلَا نَفَعَتْهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْر رَبّك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أَيْ: بِالعَدْل؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ نَبِيّه بِقِيَام السَّاعَة، وَأَنَّهَا كَائِنَة لَا مَحَالَة، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالصَّفْح الجَمِيل عَنْ المُشْرِكِينَ فِي أَذَاهُمْ لَهُ، وَتَكْذِيبهمْ مَا جَاءَهُمْ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِد وَقَتَادَة وَغَيْرهمَا: كَانَ هَذَا قَبْل القِتَال. وَهُوَ كَمَا قَالَا، فَإِنَّ هَذِهِ مَكِّيَّة وَالقِتَال إِنَّمَا شُرِعَ بَعْد الهِجْرَة.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تَقْرِير لِلمَعَادِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَادِر عَلَى إِقَامَة السَّاعَة، فَإِنَّهُ الخَلَّاق الَّذِي لَا يُعْجِزهُ خَلق مَا يشاء، وهو العَلِيم بِمَا تَمَزَّقَ مِنَ الأَجْسَاد، وَتَفَرَّقَ فِي سَائِر أَقْطَار الأَرْض، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

يَقُول تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: كَمَا آتَيْنَاكَ القُرْآن العَظِيم، فَلَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتهَا، وَمَا مَتَّعْنَا بِهِ أَهْلهَا مِنَ الزَّهْرَة الفَانِيَة لِنَفْتِنهُمْ فِيهِ، فَلَا تَغْبِطهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ، وَلَا تَذْهَب نَفْسك عَلَيْهِمْ حَسَرَات، حُزْنًا عَلَيْهِمْ فِي تَكْذِيبهمْ لَك، وَمُخَالَفَتهمْ دِينك، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أَلِنْ لهم جَانبك، كقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي السَّبْع المَثَانِي مَا هِيَ؛ فَقَالَ اِبْن مَسْعُود وَابْن عُمَر وَابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالضَّحَّاك وَغَيْر واحد: هِيَ السَّبْع الطِّوَال. يَعْنُونَ: البَقَرَة، وَآل عِمْرَان، وَالنِّسَاء، وَالمَائِدَة، وَالأَنْعَام، وَالأَعْرَاف، وَيُونُس. نَصَّ عَلَيْهِ اِبْن عَبَّاس وَسَعِيد بْن جُبَيْر. وَقَالَ سَعِيد: بَيَّنَ فِيهِنَّ الفَرَائِض وَالحُدُود وَالقَصَص وَالأَحْكَام. وَقَالَ اِبْن عَبَّاس: بَيَّنَ الأَمْثَال وَالخَبَر وَالعِبَر. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا اِبْن أَبِي عُمَر، قَالَ: قَالَ سُفْيَان: المَثَانِي المثنى، البَقَرَة، وَآل عِمْرَان، وَالنِّسَاء، وَالمَائِدَة، وَالأَنْعَام، وَالأَعْرَاف، وَالأَنْفَال، وَبَرَاءَة، سُورَة وَاحِدَة.

---

(١) صحيح: تقدم.

قَالَ ابْن عَبَّاس: وَلَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَد إِلَّا النَّبِيّ ﷺ، وَأُعْطِيَ مُوسَى مِنْهُنَّ ثِنْتَيْنِ. رَوَاهُ هُشَيْم، عَنْ الحَجَّاج، عَنْ الوَلِيد بْن العِيزَار، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْهُ. وَقَالَ الأَعْمَش، عَنْ مُسْلِم البُطَيْن، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: أُوتِيَ النَّبِيّ ﷺ سَبْعًا مِنْ المَثَانِي الطُّوَل، وَأُوتِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام سِتًّا، فَلَمَّا أَلْقَى الأَلْوَاح ارْتَفَعَ اثْنَتَانِ وَبَقِيَتْ أَرْبَع. وَقَالَ مُجَاهِد: هِيَ السَّبْع الطُّوَل. وَيُقَال: هِيَ القُرْآن العَظِيم.

وَقَالَ خُصَيْف، عَنْ زِيَاد بْن أَبِي مَرْيَم، فِي قَوْله تَعَالَى ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قَالَ: أَعْطَيْتُك سَبْعَة أَجْزَاء؛ آمُر وأنهى وَأُبَشِّرُ وَأُنْذِرُ وَأَضْرِبُ الأَمْثَالَ وَأَعْدُدُ النِّعَم وَأُنَبِّئك بِنَبَإِ القُرْآن. رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم.

• **وَالقَوْل الثَّانِي:** أَنَّهَا الفَاتِحَة وَهِيَ سَبْع آيَات، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عُمَر وَعَلِيّ وَابْن مَسْعُود وَابْن عَبَّاس، وَقَالَ ابْن عَبَّاس: وَالبَسْمَلَة هِيَ الآيَة السَّابِعَة، وَقَدْ خَصَّكُمْ الله بِهَا. وَبِهِ قَالَ إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَعَبْد الله بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر وَابْن أَبِي مُلَيْكَة وَشَهْر بْن حَوْشَب وَالحَسَن البَصْرِيّ وَمُجَاهِد. وَقَالَ قَتَادَة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُنَّ فَاتِحَة الكِتَاب، وَأَنَّهُنَّ يُثَنَّيْنَ فِي كل قراءة، وفي رواية: فِي كُلّ رَكْعَة مَكْتُوبَة أَوْ تَطَوُّع. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، وَاحْتَجَّ بِالأَحَادِيثِ الوَارِدَة فِي ذَلِكَ، وَقَدْ قَدَّمْنَاهَا فِي فَضَائِل سُورَة الفَاتِحَة فِي أَوَّل التَّفْسِير، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. وَقَدْ أَوْرَدَ البُخَارِيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى هَاهُنَا حَدِيثَيْنِ:

أحدهما: قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا غُنْدَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ خُبَيْب بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ حَفْص بْن عَاصِم، عَنْ أَبِي سَعِيد ابْن المُعَلَّى، قَالَ: مَرَّ بِي النَّبِيّ ﷺ وَأَنَا أُصَلِّي، فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْت، ثم أتيت؛ فَقَالَ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِي؟**». فَقُلْت: كُنْت أُصَلِّي. فَقَالَ: «**أَلَمْ يَقُل الله** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ثم قال: «**أَلا أُعَلِّمك أَعْظَم سُورَة من القُرْآن قَبْل أَنْ أَخْرُج مِنْ المَسْجِد**» فَذَهَبَ النَّبِيّ ﷺ لِيَخْرُج فذكَّرته، فَقَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **هِيَ السَّبْع المَثَانِي وَالقُرْآن العَظِيم الَّذِي أُوتِيته**»[1].

الثَّانِي: قَالَ: حَدَّثَنَا آدَم، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي ذِئْب، حَدَّثَنَا المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أُمّ القُرْآن هِيَ السَّبْع المَثَانِي وَالقُرْآن العَظِيم**»[2]. فَهَذَا نَصّ فِي أَنَّ الفَاتِحَة السَّبْع المَثَانِي وَالقُرْآن العَظِيم، وَلَكِنْ لَا يُنَافِي وَصْف غَيْرهَا مِنْ السَّبْع الطُّوَل بِذَلِكَ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ هَذِهِ الصِّفَة، كَمَا لَا يُنَافِي وَصْف القُرْآن بِكَمَالِهِ بِذَلِكَ أَيْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ فَهُوَ مَثَانِي مِنْ وَجْه، وَمُتَشَابِه مِنْ وَجْه وَهُوَ القُرْآن العَظِيم أَيْضًا، كَمَا أَنَّهُ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ المَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى فَأَشَارَ إِلَى مَسْجِده، وَالآيَة نَزَلَتْ فِي مَسْجِد قُبَاء فَلَا تَنَافِي، فَإِنَّ ذِكْر الشَّيْء لَا يَنْفِي ذِكْر مَا عَدَاهُ إِذَا اشْتَرَكَا فِي تِلْكَ الصِّفَة، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أَيْ: اسْتَغْنِ بِمَا آتَاكَ الله مِنْ القُرْآن العَظِيم عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ المَتَاع وَالزَّهْرَة الفَانِيَة. وَمِنْ هَاهُنَا ذَهَبَ ابْن عُيَيْنَة إِلَى تَفْسِير الحَدِيث الصَّحِيح: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآن**»[3]، إِلَى أَنَّهُ يَسْتَغْنِي بِهِ عَمَّا عَدَاهُ، وَهُوَ تَفْسِير صَحِيح، وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ المَقْصُود مِنْ الحَدِيث كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّل التَّفْسِير.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ وَكِيع بْن الجَرَّاح، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ يَزِيد بْن عَبْد الله بْن قُسَيْط، عَنْ أَبِي رَافِع صَاحِب النَّبِيّ ﷺ قَالَ: ضَافَ النَّبِيّ ﷺ ضَيْفًا وَلَمْ يَكُنْ عِنْد النَّبِيّ ﷺ شَيْء يُصْلِحهُ فَأَرْسَلَ إِلَى رَجُل مِنْ اليَهُود: «**يَقُول لَك مُحَمَّد رَسُول الله: أَسْلِفْنِي دَقِيقًا إِلَى هِلَال رَجَب**». قَالَ: لَا، إِلَّا بِرَهْن. فَأَتَيْت النَّبِيّ ﷺ فَأَخْبَرْته فَقَالَ: «**أَمَا وَالله إِنِّي لَأَمِين مَنْ فِي السَّمَاء، وَأَمِين مَنْ فِي الأَرْض، وَلَئِنْ أَسْلَفَنِي أَوْ بَاعَنِي لَأُؤَدِّيَن إِلَيْهِ**» فَلَمَّا خَرَجْت مِنْ عِنْده نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إِلَى آخر

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٧٥٢٧).

الآيَة(١)، كَأَنَّهُ يُعَزِّيه عَنْ الدُّنْيَا. وقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ قَالَ: نُهِيَ الرَّجُل أَنْ يَتَمَنَّى مَال صَاحِبه. وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ هُمْ الأَغْنِيَاء.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

يَأْمُر تَعَالَى نَبِيّه ﷺ بِأَنْ يَقُول لِلنَّاسِ: أنه ﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ البَيِّن النِّذَارَة، نَذِير لِلنَّاسِ مِنْ عَذَاب أَلِيم أَنْ يَحِلّ بِهِمْ عَلَى تَكْذِيبه، كَمَا حَلَّ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ الأُمَم المُكَذِّبَة لِرُسُلِهَا، وَمَا أَنْزَلَ الله عَلَيْهِمْ مِنْ العَذَاب وَالِانْتِقَام. وَقَوْله: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أَيْ: المُتَحَالِفِينَ، أَيْ: تَحَالَفُوا عَلَى مُخَالَفَة الأَنْبِيَاء وَتَكْذِيبهمْ وَأَذَاهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْم صَالِح أَنَّهُمْ ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ الآيَة أَيْ: نَقْتُلهُمْ لَيْلًا. قَالَ مُجَاهِد: تَقَاسَمُوا: تَحَالَفُوا. ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُكَذِّبُونَ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا أَقْسَمُوا عَلَيْهِ فَسُمُّوا مُقْتَسِمِينَ. قَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: المُقْتَسِمُونَ أَصْحَاب صَالِح الَّذِينَ تَقَاسَمُوا بِالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْله. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: **«إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَل مَا بَعَثَنِي الله بِهِ؛ كَمَثَلِ رَجُل أَتَى قَوْمه، فَقَالَ: يَا قَوْم إِنِّي رَأَيْت الجَيْش بِعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِير العُرْيَان، فَالنَّجَاء النَّجَاء، فَأَطَاعَهُ طَائِفَة مِنْ قَوْمه، فَأَدْلَجُوا وَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلهمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَة مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانهمْ، فَصَبَّحَهُمْ الجَيْش فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَل مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْت بِهِ وَمَثَل مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْت بِهِ مِنْ الحَقّ»**(٢).

وَقَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أَيْ: جَزَّءُوا كُتُبهمْ المُنَزَّلَة عَلَيْهِمْ فَآمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ. قَالَ البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا هُشَيْم، أَنْبَأَنَا أَبُو بِشْر، عن سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قَالَ: هُمْ أَهْل الكِتَاب جَزَّءُوهُ أَجْزَاء، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ. حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن مُوسَى، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قَالَ: هُمْ أَهْل الكِتَاب جَزَّءُوهُ أَجْزَاء فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ. حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن مُوسَى، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي ظَبْيَان، عَنْ اِبْن عَبَّاس ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قَالَ: آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ اليَهُود وَالنَّصَارَى. قَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَالحَسَن وَالضَّحَّاك وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَغَيْرهمْ مثل ذَلِكَ. وَقَالَ الحَكَم بْن أَبَانَ، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قَالَ: السِّحْر.

وَقَالَ عِكْرِمَة: العِضَة السِّحْر بِلِسَانِ قُرَيْش، يَقُول لِلسَّاحِرَة: إِنَّهَا العَاضِهَة. وَقَالَ مُجَاهِد: عَضَّوْهُ أَعْضَاء، قَالُوا: سِحْر! وَقَالُوا: كِهَانَة! وَقَالُوا: أَسَاطِير الأَوَّلِينَ!. وَقَالَ عَطَاء: قَالَ بَعْضهمْ: سَاحِر! وَقَالُوا: مَجْنُون! وَقَالُوا: كَاهِن! فَذَلِكَ العِضِينُ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ الضَّحَّاك وَغَيْره.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ مُحَمَّد بْن أَبِي مُحَمَّد، عَنْ عِكْرِمَة، أَوْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّ الوَلِيد ابْن المُغِيرَة، اِجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَفَر مِنْ قُرَيْش، وَكَانَ ذَا شَرَف فِيهِمْ، وَقَدْ حَضَرَ المَوْسِم، فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَر قُرَيْش، إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ هَذَا المَوْسِم، وَإِنَّ وُفُود العَرَب سَتَقْدَمُ عَلَيْكُمْ فِيهِ، وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ صَاحِبكُمْ هَذَا، فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا

---

(١) **ضعيف الإسناد:** أخرجه ابن جرير (١٦/ ٢٣٥)، وعلته موسى بن عبيدة قال الحافظ: ضعيف.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (٦٤٨٢، ٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣).

وَاحِدًا، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَيُكَذِّب بَعْضكُمْ بَعْضًا، وَيَرُدّ قَوْلكُمْ بَعْضه بَعْضًا. فَقَالُوا: وَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْد شَمْس فَقُل وَأَقِمْ لَنَا رَأْيًا نَقُول بِهِ. قَالَ: بَل أَنْتُمْ قُولُوا لِأَسْمَع. قَالُوا: نَقُول كَاهِن. قَالَ: مَا هُوَ بِكَاهِنٍ. قَالُوا: فَنَقُول مَجْنُون. قَالَ: مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ. قَالُوا: فَنَقُول شَاعِر. قَالَ: مَا هُوَ بِشَاعِرٍ. قَالُوا: فَنَقُول سَاحِر. قَالَ: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ. قَالُوا: فَمَاذَا نَقُول؟ قَالَ: وَالله إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَة، فَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا إِلَّا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِل، وَإِنَّ أَقْرَب القَوْل أَنْ تَقُولُوا: هُوَ سَاحِر. فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ بِذَلِكَ. وَأَنْزَلَ الله فِيهِمْ: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أَصْنَافًا.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أُولَئِكَ النَّفَر الَّذِينَ قَالُوا ذلك لِرَسُولِ الله[1]. وَقَالَ عَطِيَّة العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عُمَر، فِي قَوْله ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ قَالَ: عَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا الثَّوْرِيّ، عَنْ لَيْث -هُوَ اِبْن أَبِي سُلَيْم- عَنْ مُجَاهِد، فِي قَوْله تَعَالَى ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ قَالَ: عَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله. وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيّ وَأَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ وَابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم: مِنْ حَدِيث شَرِيك القَاضِي، عَنْ لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ بَشِير بْن أَبِي نَهِيك، عَنْ أَنَس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قَالَ: «**عَنْ لا إِلَه إِلا الله**»[2]. وَرَوَاهُ اِبْن إِدْرِيس، عَنْ لَيْث، عَنْ بَشِير، عَنْ أَنَس، مَوْقُوفًا.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَحْمَد، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد، حَدَّثَنَا شَرِيك، عَنْ هِلَال، عَنْ عَبْد الله بْن عَكِيم، قَالَ: قَالَ عَبْد الله -هُوَ اِبْن مَسْعُود-: وَالَّذِي لَا إِلَه غَيْره، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد إِلَّا سَيَخْلُو الله بِهِ يَوْم القِيَامَة، كَمَا يَخْلُو أَحَدكُمْ بِالقَمَرِ لَيْلَة البَدْر، فَيَقُول: اِبْن آدَم مَاذَا غَرَّك مِنِّي بِي؟ اِبْن آدَم مَاذَا عَمِلت فِيمَا عَلِمْت؟ اِبْن آدَم مَاذَا أَجَبْت المُرْسَلِينَ؟ وَقَالَ أَبُو جَعْفَر، عَنْ الرَّبِيع، عَنْ أَبِي العَالِيَة، فِي قَوْله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ قَالَ: يُسْأَل العِبَاد كُلّهمْ عَنْ خُلَّتَيْنِ يَوْم القِيَامَة؛ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَمَاذَا أَجَابُوا المُرْسَلِينَ. وَقَالَ اِبْن عُيَيْنَة: عَنْ عَمَلك، وَعَنْ مَالِك. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن أَبِي الحَوَارِيّ، حَدَّثَنَا يُونُس الحَذَّاء، عَنْ أَبِي حَمْزَة الشَّيْبَانِيّ، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل، قَالَ: قَالَ لِي رَسُول الله ﷺ: «**يَا مُعَاذ، إِنَّ المَرْء يُسْأَل يَوْم القِيَامَة عَنْ جَمِيع سَعْيه، حَتَّى كُحْل عَيْنَيْهِ، وَعَنْ فُتَات الطِّينَة بِإِصْبَعِهِ، فَلا أُلفِيَنَّك يَوْم القِيَامَة وَأَحَد أَسْعَد بِمَا آتَى الله مِنْك**»[3]. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس، فِي قَوْله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ قَالَ: لَا يَسْأَلهُمْ هَل عَمِلتُمْ كَذَا؟ لِأَنَّهُ أَعْلَم بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَقُول: لِمَ عَمِلتُمْ كَذَا وَكَذَا؟

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا رَسُوله ﷺ بِإِبْلَاغ مَا بَعَثَهُ بِهِ، وَبِإِنْفَاذِهِ وَالصَّدْع بِهِ، وَهُوَ مُوَاجَهَة المُشْرِكِينَ بِهِ، كَمَا قَالَ اِبْن عَبَّاس: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أَيْ: أَمْضِهِ. وَفِي رِوَايَة: اِفْعَل مَا تُؤْمَر. وَقَالَ مُجَاهِد: هُوَ الجَهْر بِالقُرْآنِ فِي الصَّلَاة. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود: مَا زَالَ النَّبِيّ ﷺ مُسْتَخْفِيًا حَتَّى نَزَلَتْ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فَخَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابه.

وَقَوْله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ أَيْ: بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْك مِنْ رَبّك، وَلَا تَلْتَفِت إِلَى المُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوك عَنْ آيَات الله، ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ وَلَا تَخَفْهُمْ، فَإِنَّ الله كَافِيك إِيَّاهُمْ

---

(١) **ضعيف الإسناد**: وعلته محمد بن أبي محمد: مجهول.
(٢) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣١٢٧)، وأبو يعلى (٤٠٥٨)، وفيه ليث بن أبي سليم: متروك الحديث.
(٣) عزاه المصنف لابن أبي حاتم ولم أقف عليه.

وَحَافِظك مِنهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾. وَقَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن مُحَمَّد بْن السَّكَن، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِدْرِيس، حَدَّثَنَا عَوْن بْن كَهْمَس، عَنْ يَزِيد بْن دِرْهَم، عَنْ أَنَس قَالَ: سَمِعْت أَنَسًا يَقُول فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ﴾ قَالَ: مَرَّ رَسُول الله ﷺ فَغَمَزَهُ بَعْضهمْ فَجَاءَ جِبْرِيل. قَالَ: أَحْسِبهُ قَالَ: فَغَمَزَهُمْ فَوَقَعَ فِي أَجْسَادهمْ كَهَيْئَةِ الطَّعْنَة حتى مَاتُوا.

وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: كَانَ عُظَمَاء المُسْتَهْزِئِينَ -كَمَا حَدَّثَنِي يَزِيد بْن رُومَان، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر- خَمْسَة نَفَر من قومه، وَكَانُوا ذَوِي أَسْنَان وَشَرَف فِي قَوْمهمْ؛ مِنْ بَنِي أَسَد بْن عَبْد العُزَّى بْن قُصَيّ: الأَسْوَد بْن المُطَّلِب أبو زَمْعَة، كَانَ رَسُول الله ﷺ فِيمَا بَلَغَنِي قَدْ دَعَا عَلَيْهِ؛ لِمَا كَانَ يَبْلُغهُ مِنْ أَذَاهُ وَاسْتِهْزَائِهِ، فَقَالَ: «**اللهمَّ أعمِ بَصره، وَأَثْكِلهُ وَلَده**». وَمِنْ بَنِي زُهْرَة: الأَسْوَد بْن عَبْد يَغُوث بْن وَهْب بْن عَبْد مَنَاف بْن زُهْرَة، وَمِنْ بَنِي مَخْزُوم: الوَلِيد بْن المُغِيرَة بْن عَبْد الله بْن عَمْرو بْن مَخْزُوم، وَمِنْ بَنِي سَهْم بْن عَمْرو بْن هَصِيص بْن كَعْب بْن لُؤَيّ: العَاص بْن وَائِل ابْن هِشَام بْن سَعِيد بْن سَعْد بن سهم، وَمِنْ خُزَاعَة: الحَارِث بْن الطُّلَاطِلَة بْن عَمْرو بْن الحَارِث بْن عمرو بْن مَلكَان. فَلَمَّا تَمَادَوْا فِي الشَّرّ وَأَكْثَرُوا بِرَسُولِ الله ﷺ الِاسْتِهْزَاء أَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. قَالَ ابْن إِسْحَاق: فَحَدَّثَنِي يَزِيد بْن رُومَان، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر أَوْ غَيْره مِنَ العُلَمَاء: أَنَّ جِبْرِيل أَتَى رَسُول الله ﷺ وَهُوَ يَطُوف بِالبَيْتِ فَقَامَ، وَقَامَ رَسُول الله ﷺ إِلَى جَنْبه فَمَرَّ بِهِ الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي، ومر به الأَسْوَد بْن عَبْد يَغُوث فَأَشَارَ إِلَى بَطْنه فَاسْتَسْقَى بَطْنه فَمَاتَ مِنْهُ حبنًا، وَمَرَّ بِهِ الوَلِيد بْن المُغِيرَة فَأَشَارَ إِلَى أَثَر جُرْح بِأَسْفَل كَعْب رِجْله وَكَانَ أَصَابَهُ قَبْل ذَلِكَ بِسنتين وَهُوَ يَجُرّ إِزَاره، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ خُزَاعَة يَرِيش نَبْلًا لَهُ فَتَعَلَّقَ سَهْم مِنْ نَبْله بِإِزَارِهِ فَخَدَشَ رِجْله ذَلِكَ الخَدْش وَلَيْسَ بِشَيْءٍ فَانْتَقَضَ بِهِ فَقَتَلَهُ، وَمَرَّ بِهِ العَاص بْن وَائِل فَأَشَارَ إِلَى أَخْمَص رجله فَخَرَجَ عَلَى حِمَار لَهُ يُرِيد الطَّائِف فوقص عَلَى شَبْرَقَة فَدَخَلَتْ فِي أَخْمَص رجله منها شوكة فَقَتَلَتْهُ، وَمَرَّ بِهِ الحَارِث بْن الطُّلَاطِلَة فَأَشَارَ إِلَى رَأْسه فَامْتَخَطَ قَيْحًا فَقَتَلَهُ. قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن أَبِي مُحَمَّد، عَنْ رَجُل، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: كَانَ رَأْسهمْ الوَلِيد بْن المُغِيرَة وَهُوَ الَّذِي جَمَعَهُمْ. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر وَعِكْرِمَة نَحْو سِيَاق مُحَمَّد ابْن إِسْحَاق عَنْ يَزِيد عَنْ عُرْوَة بِطُولِهِ، إِلَّا أَنَّ سَعِيدًا يَقُول: الحَارِث بْن عَيْطَلَة، وَعِكْرِمَة يَقُول: الحَارِث بْن قَيْس.

قَالَ الزُّهْرِيّ: وَصَدَقَا، هُوَ الحَارِث بْن قَيْس وَأُمّه عَيْطَلَة. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَمِقْسَم وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَة. وَقَالَ الشَّعْبِيّ: كَانُوا سَبْعَة. وَالمَشْهُور الأَوَّل. وَقَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تَهْدِيد شَدِيد وَوَعِيد أَكِيد لِمَنْ جَعَلَ مَعَ الله مَعْبُودًا آخَر. وَقَوْله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ أَيْ: وَإِنَّا لَنَعْلَم يَا مُحَمَّد أَنَّك يَحْصُل لَك مِنْ أَذَاهُمْ لَك انقباض صَدْر وَضِيق، فَلَا يَهِيدَنَّك ذَلِكَ، وَلَا يُثْنِيَنك عَنْ إِبْلَاغك رِسَالَة الله، وَتَوَكَّل عَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَافِيك وَنَاصِرك عَلَيْهِمْ، فَاشْتَغِل بِذِكْرِ الله وَتَحْمِيده وَتَسْبِيحه وَعِبَادَته الَّتِي هِيَ الصَّلَاة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن صَالِح، عَنْ أَبِي الزَّاهِرِيَّة، عَنْ كَثِير بْن مُرَّة، عَنْ نُعَيْم بْن هَمَّار، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**قَالَ الله تَعَالَى: يَا بْن آدَم، لا تَعْجِز عَنْ أَرْبَع رَكَعَات مِنْ أَوَّل النَّهَار أَكْفِك آخِره**»[1]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيّ: مِنْ حَدِيث

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٢٨٩)، وأحمد (٥/ ٢٨٦)، والنسائي في «الكبرى» (١/ ١٧٧) من حديث نعيم بن عمار، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٤٢).

مَكْحُول، عَنْ كَثِير بْن مُرَّة بِنَحْوِهِ. وَلِهَذَا كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْر صَلَّى.

وَقَوْله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ قَالَ الْبُخَارِيّ: قَالَ سَالِمٌ: الْمَوْت. وَسَالِمٌ هَذَا هُوَ سَالِمُ بْن عَبْد الله ابْن عُمَر، كَمَا قَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ سُفْيَان، حَدَّثَنَا طَارِق بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ سَالِم بْن عَبْد الله، ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ قَالَ: الْمَوْت. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَالْحَسَن وَقَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ وَغَيْره. وَالدَّلِيل عَلَى ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ أَهْل النَّار أَنَّهُمْ: ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾.

وَفِي الصَّحِيح مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ خَارِجَة بْن زَيْد بْن ثَابِت، عَنْ أُمّ الْعَلَاء -امْرَأَة مِنَ الْأَنْصَار-: أَنَّ رَسُول الله ﷺ، لَمَّا دَخَلَ عَلَى عُثْمَان بْن مَظْعُون وَقَدْ مَاتَ، قلت: رَحْمَة الله عَلَيْكَ أَبَا السَّائِب! فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ الله. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ؟**» فَقُلْت: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُول الله فَمَنْ؟ فَقَالَ: «**أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِين، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْر**»[1].

وَيُسْتَدَلّ من هذه الآيَة الْكَرِيمَة وَهِيَ قَوْله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَة كَالصَّلَاةِ وَنَحْوهَا وَاجِبَة عَلَى الْإِنْسَان مَا دَامَ عَقْله ثَابِتًا، فَيُصَلِّي بِحَسَبِ حَاله، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَنْ عِمْرَان ابْن حُصَيْن رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْب**»[2].

وَيُسْتَدَلّ بِهَا عَلَى تَخْطِئَة مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمَلَاحِدَة إِلَى أَنَّ الْمُرَاد بِالْيَقِينِ: الْمَعْرِفَة، فَمَتَى وَصَلَ أَحَدهمْ إِلَى الْمَعْرِفَة سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيف عِنْدهمْ، وَهَذَا كُفْر وَضَلَال وَجَهْل، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاء عليهم السلام كَانُوا هُمْ وَأَصْحَابهمْ أَعْلَم النَّاس بِاللهِ، وَأَعْرَفهمْ بِحُقُوقِهِ وَصِفَاته، وَمَا يَسْتَحِقّ مِنَ التَّعْظِيم، وَكَانُوا مَعَ هَذَا أَعْبَدَ النَّاس وَأَكْثَر النَّاس عِبَادَة، وَمُوَاظَبَة عَلَى فِعْل الْخَيْرَات إِلَى حِين الْوَفَاة، وَإِنَّمَا الْمُرَاد بِالْيَقِينِ هَاهُنَا الْمَوْت كَمَا قَدَّمْنَاهُ، وَللهِ الْحَمْد وَالْمِنَّة، وَالْحَمْد للهِ عَلَى الْهِدَايَة، وَعَلَيْهِ الْاِسْتِعَانَة وَالتَّوَكُّل، وَهُوَ الْمَسْئُول أَنْ يَتَوَفَّانَا عَلَى أَكْمَل الْأَحْوَال وَأَحْسَنهَا، فَإِنَّهُ جَوَاد كَرِيم.

آخِر تَفْسِير سُورَة الحِجْر، وَالحَمْد لله رَبِّ العَالَمِين.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٤٣)، وأحمد (٦/ ٤٣٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٢٥١).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ اقْتِرَاب السَّاعَة وَدُنُوّهَا، مُعَبِّرًا بِصِيغَةِ الْمَاضِي الدَّالّ عَلَى التَّحْقِيق وَالْوُقُوع لَا مَحَالَة، كَقَوْلِهِ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، وَقَوْله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ أَيْ: قَرُبَ مَا تَبَاعَدَ، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ يَحْتَمِل أَنْ يَعُود الضَّمِير عَلَى الله، وَيَحْتَمِل أَنْ يَعُود عَلَى الْعَذَاب، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِم كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. وَقَدْ ذَهَبَ الضَّحَّاك فِي تَفْسِير هَذِهِ الْآيَة إِلَى قَوْل عَجِيب، فَقَالَ فِي قَوْله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أَيْ: فَرَائِضه وَحُدُوده. وَقَدْ رَدَّهُ ابْن جَرِير فَقَالَ: لَا نَعْلَم أَحَدًا اسْتَعْجَلَ بِالْفَرَائِضِ وَبِالشَّرَائِع قَبْل وُجُودهَا، بِخِلَافِ الْعَذَاب فَإِنَّهُمْ اسْتَعْجَلُوهُ قَبْل كَوْنه اسْتِبْعَادًا وَتَكْذِيبًا.

قلت: كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ يَحْيَى بْن آدَم، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن عَيَّاش، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله مَوْلَى الْمُغِيرَة بْن شُعْبَة، عَنْ كَعْب بْن عَلْقَمَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن حُجَيْرَة، عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر، قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «**تَطْلُع عَلَيْكُمْ عِنْد السَّاعَة سَحَابَة سَوْدَاء مِنْ الْمَغْرِب مِثْل التُّرْس، فَمَا تَزَال تَرْتَفِع فِي السَّمَاء ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فِيهَا: يَا أَيُّهَا النَّاس، فَيُقْبِل النَّاس بَعْضهمْ عَلَى بَعْض، هَل سَمِعْتُمْ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول: نَعَمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشُكّ. ثُمَّ يُنَادِي الثَّانِيَة: يَا أَيُّهَا النَّاس، فَيَقُول النَّاس بَعْضهمْ لِبَعْضٍ: هَل سَمِعْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. ثُمَّ يُنَادِي الثَّالِثَة: يَا أَيُّهَا النَّاس،** ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾» قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَنْشُرَانِ الثَّوْب فَمَا يَطْوِيَانِهِ أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُل لَيَمُدَّنَّ حَوْضه فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُل لَيَحْلُب نَاقَته فَمَا يَشْرَبهُ أَبَدًا، قَالَ: وَيَشْتَغِل النَّاس**»[1]. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَزَّهَ نَفْسه عَنْ شِرْكهمْ بِهِ غَيْره، وَعِبَادَتهمْ مَعَهُ مَا سِوَاهُ مِنْ الْأَوْثَان وَالْأَنْدَاد، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُكَذِّبُونَ بِالسَّاعَةِ، فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أَيْ: الْوَحْي، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾. وَقَوْله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وَهُمْ الْأَنْبِيَاء، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ﴾، وَقَالَ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ﴾، وَقَالَ: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. وَقَوْله: ﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾ أَيْ: لِيُنْذِرُوا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أَيْ: فَاتَّقُوا عُقُوبَتِي لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَعَبَدَ غَيْرِي.

---

(١) **ضعيف الإسناد:** أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٢٥)، وفيه محمد بن عبد الله مولى المغيرة بن شعبة، وقال الحافظ: مجهول الحال، وفيه أبو بكر ابن عياش: ثقة إلا أنه لما كبر ساء حفظه.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ خَلقه العَالَمَ العُلوِيّ: وَهُوَ السَّمَاوَات، وَالعَالَمَ السُّفْلِيّ: وَهُوَ الأَرْض بِمَا حُوت، وَأَنَّ ذَلِكَ مَخْلُوق بِالحَقِّ لَا لِلعَبَثِ، بَل: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾. ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسه عَنْ شِرْك مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْره، وَهُوَ المُسْتَقِلّ بِالخَلقِ وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، فَلِهَذَا يَسْتَحِقّ أَنْ يُعْبَد وَحْده لَا شَرِيك لَهُ. ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى خَلق جِنْس الإِنْسَان مِنْ نُطْفَة، أَيْ: مَهِينَة ضَعِيفَة، فَلَمَّا اِسْتَقَلَّ وَدَرَجَ إِذَا هُوَ يُخَاصِم رَبّه تَعَالَى وَيُكَذِّبهُ وَيُحَارِب رُسُله، وَهُوَ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَكُونَ عَبْدًا لَا ضِدًّا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾، وَقَوْله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، وَفِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، وَابْن مَاجَه، عَنْ بُسْر بْن جَحَّاش، قَالَ: بَصَقَ رَسُول الله فِي كَفّه، ثُمَّ قَالَ: «**يَقُول الله تَعَالَى: اِبْن آدَم، أَنَّى تُعْجِزنِي وَقَدْ خَلَقْتُك مِنْ مِثْل هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُك فَعَدَلتُك، مَشَيْت بَيْن بُرْدَيْك وَلِلأَرْضِ مِنْك وَئِيد، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الحُلقُوم، قُلتَ أَتَصَدَّق؟ وَأَنَّى أَوَان الصَّدَقَة؟**»[1].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

يَمْتَنّ تَعَالَى عَلَى عِبَاده بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنْ الأَنْعَام؛ وَهِيَ الإِبِل وَالبَقَر وَالغَنَم، كَمَا فَصَّلَهَا فِي سُورَة الأَنْعَام إِلَى ثَمَانِيَة أَزْوَاج، وَبِمَا جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ المَصَالِح وَالمَنَافِع؛ مِنْ أَصْوَافهَا وَأَوْبَارهَا وَأَشْعَارهَا يَلبَسُونَ وَيَفْتَرِشُونَ، وَمِنْ أَلبَانهَا يَشْرَبُونَ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ أَوْلَادهَا، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ الجَمَال: وَهُوَ الزِّينَة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وَهُوَ وَقْت رُجُوعهَا عَشِيًّا مِنْ المَرْعَى، فَإِنَّهَا تَكُون أَمَدّه خَوَاصِر، وَأَعْظَمه ضُرُوعًا وَأَعْلَاهُ أَسْنِمَة، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أَيْ: غَدْوَة حِين تَبْعَثُونَهَا إِلَى المَرْعَى. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وَهِيَ الأَحْمَال المُثقلة الَّتِي تَعْجِزُونَ عَنْ نَقْلهَا وَحَمْلهَا ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾، وَذَلِكَ فِي الحَجّ وَالعُمْرَة وَالغَزْو وَالتِّجَارَة وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ، تَسْتَعْمِلُونَهَا فِي أَنْوَاع الِاسْتِعْمَال مِنْ رُكُوب وَتَحْمِيل، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا بَعْد تَعْدَاد هَذِهِ النِّعَم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيْ: رَبّكُمْ الَّذِي قَيَّضَ لَكُمْ هَذِهِ الأَنْعَام وَسَخَّرَهَا لَكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

قَالَ اِبْن عَبَّاس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أَيْ: ثِيَاب. ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ الأَطْعِمَة وَالأَشْرِبَة. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ نَسْل كُلّ دَابَّة.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (٢٧٠٧) من حديث بشر، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٠٩٩).

وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أَيْ: لِبَاس يُنْسَج. ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: تُرْكَب، وَلَحْم، وَلَبَن. قَالَ قَتَادَة: ﴿دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ يَقُول: لَكُمْ فِيهَا لِبَاس وَمَنْفَعَة وَبُلْغَة. وَكَذَا قَالَ غَيْر وَاحِد مِنْ الْمُفَسِّرِينَ بِأَلْفَاظٍ مُتَقَارِبَة.

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هَذَا صِنْف آخَر مِمَّا خَلَقَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لِعِبَادِهِ يَمْتَنّ بِهِ عَلَيْهِمْ؛ وَهُوَ الْخَيْل وَالْبِغَال وَالْحَمِير، الَّتِي جَعَلَهَا لِلرُّكُوبِ وَالزِّينَة بِهَا، وَذَلِكَ أَكْبَر الْمَقَاصِد مِنْهَا، وَلَمَّا فَضَّلَهَا على الأَنْعَام وَأَفْرَدَهَا بِالذِّكْرِ، اِسْتَدَلَّ مَنْ اِسْتَدَلَّ مِمَّنْ ذَهَبَ مِنْ الْعُلَمَاء إِلَى تَحْرِيم لُحُوم الْخَيْل بِذَلِكَ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِيهَا، كَالإِمَامِ أَبِي حَنِيفَة رَحِمَهُ اللهُ، وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ الْفُقَهَاء بِأَنَّهُ تَعَالَى قَرَنَهَا بِالْبِغَالِ وَالْحَمِير وَهِيَ حَرَام، كَمَا ثَبَتَتْ بِهِ السُّنَّة النَّبَوِيَّة وَذَهَبَ إِلَيْهِ أَكْثَر الْعُلَمَاء. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنَا اِبْن عُلَيَّة، أَنْبَأَنَا هِشَام الدَّسْتُوَائِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ مَوْلَى نَافِع بْن عَلْقَمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّهُ كَانَ يَكْرَه لُحُوم الْخَيْل وَالْبِغَال وَالْحَمِير، وَكَانَ يَقُول: قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فَهَذِهِ لِلأَكْلِ، ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ فَهَذِهِ لِلرُّكُوبِ.

وَكَذَا رُوِيَ مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن جُبَيْر وَغَيْره عَنْ اِبْن عَبَّاس بِمِثْلِهِ. وَقَالَ مِثْل ذَلِكَ الْحَكَم بْن عتيبة أَيْضًا رضي الله عنه، وَاسْتَأْنَسُوا بِحَدِيثٍ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن عَبْد رَبّه، حَدَّثَنَا بَقِيَّة بْن الْوَلِيد، حَدَّثَنَا ثَوْر بْن يَزِيد، عَنْ صَالِح بْن يَحْيَى بْن الْمِقْدَام بْن مَعْد يَكْرِب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، عَنْ خَالِد بْن الْوَلِيد رضي الله عنه، قَالَ: «**نَهَى رَسُول اللهِ ﷺ عَنْ أَكْل لُحُوم الْخَيْل وَالْبِغَال وَالْحَمِير**»[1]. وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ: مِنْ حَدِيث صَالِح بْن يَحْيَى بْن الْمِقْدَام وَفِيهِ كَلَام؛ بِه. وَرَوَاهُ أَحْمَد أَيْضًا مِنْ وَجْه آخَر بِأَبْسَط مِنْ هَذَا وَأَدَلّ مِنْهُ؛ فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الْمَلِك، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حَرْب، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن سُلَيْم، عَنْ صَالِح بْن يَحْيَى بْن الْمِقْدَام، عَنْ جَدّه الْمِقْدَام بْن مَعْد يَكْرِب، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ خَالِد بْن الْوَلِيد الصَّائِفَة، فَقَرِمَ أَصْحَابنَا إِلَى اللَّحْم، فَسَأَلُونِي رَمْكَة فَدَفَعْتهَا إِلَيْهِمْ فَحَبَلُوهَا، فَقُلْت: مَكَانكُمْ حَتَّى آتِي خَالِدًا فَأَسْأَلهُ. فَأَتَيْته فَسَأَلْته، فَقَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ، غَزْوَة خَيْبَر، فَأَسْرَعَ النَّاس فِي حَظَائِر يَهُود، فَأَمَرَنِي أَنْ أُنَادِي: الصَّلَاة جَامِعَة وَلَا يَدْخُل الْجَنَّة إِلَّا مُسْلِم. ثُمَّ قَالَ: «**أَيّهَا النَّاس: إِنَّكُمْ قَدْ أَسْرَعْتُمْ فِي حَظَائِر يَهُود، أَلَا لَا يَحِلّ أَمْوَال الْمُعَاهَدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَرَام عَلَيْكُمْ لُحُوم الأُتُن الأَهْلِيَّة، وَخَيْلهَا، وَبِغَالهَا، وَكُلّ ذِي نَاب مِنْ السِّبَاع، وَكُلّ ذِي مِخْلَب مِنْ الطَّيْر**»[2].

وَالرَّمْكَة: هِيَ الْحُجْرَة، وَقَوْله: حَبَلُوهَا أَيْ: أَوْثَقُوهَا فِي الْحَبْل لِيَذْبَحُوهَا، وَالْحَظَائِر: الْبَسَاتِين الْقَرِيبَة مِنْ الْعُمْرَان. وَكَأَنَّ هَذَا الصَّنِيع وَقَعَ بَعْد إِعْطَائِهِمْ الْعَهْد، وَمُعَامَلَتهمْ عَلَى الشَّطْر، وَالله أَعْلَم. فَلَوْ صَحَّ هَذَا الْحَدِيث لَكَانَ نَصًّا فِي تَحْرِيم لُحُوم الْخَيْل، وَلَكِنْ لَا يُقَاوِم مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله قَالَ: «**نَهَى رَسُول اللهِ ﷺ عَنْ لُحُوم الْحُمُر الأَهْلِيَّة، وَأَذِنَ فِي لُحُوم الْخَيْل**»[3]. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد بِإِسْنَادَيْنِ كُلّ مِنْهُمَا عَلَى شَرْط مُسْلِم، عَنْ جَابِر قَالَ: ذَبَحْنَا يَوْم خَيْبَر الْخَيْل وَالْبِغَال وَالْحَمِير، فَنَهَانَا رَسُول الله ﷺ عَنْ الْبِغَال وَالْحَمِير، وَلَمْ يَنْهَنَا عَنْ الْخَيْل[4].

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٣٧٩٠)، والنسائي (٤٣٣١)، وأحمد (٤/ ٨٩)، وقال الألباني: ضعيف. انظر «ضعيف سنن أبي داود» (٨١٠).

(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٤/ ٨٩) من حديث خالد بن الوليد، وقال الحافظ في «التلخيص» (٤/ ١٥١): وحديث خالد لا يصح، فقد قال أحمد: إنه حديث منكر، وقال أبو داود: إنه منسوخ.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٩٤١)، وأحمد (٣/ ٣٦١).

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٧٨٩)، وأحمد (٣/ ٣٥٦)، والنسائي (٩/ ٣٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وَفِي صَحِيح مُسْلِم: عَنْ أَسْمَاء بِنْت أَبِي بَكْر ﷺ قَالَتْ: نَحَرْنَا عَلَى عَهْد رَسُول الله ﷺ فَرَسًا فَأَكَلْنَاهُ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ[1]. فَهَذِهِ أَدَلّ وَأَقْوَى وَأَثْبَت، وَإِلَى ذَلِكَ صَارَ جُمْهُور الْعُلَمَاء: مَالِك وَالشَّافِعِيّ وَأَحْمَد وَأَصْحَابهمْ وَأَكْثَر السَّلَف وَالْخَلَف، وَالله أَعْلَم. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا اِبْن جُرَيْج، عَنْ اِبْن أَبِي مُلَيْكَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: كَانَتْ الْخَيْل وَحْشِيَّة، فَذَلَّلَهَا الله لِإِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم ﷺ. وَذَكَرَ وَهْب بْن مُنَبِّه فِي إِسْرَائِيلِيَّاته: أَنَّ الله خَلَقَ الْخَيْل مِنْ رِيح الْجَنُوب، وَالله أَعْلَم. فَقَدْ دَلَّ النَّصّ عَلَى جَوَاز رُكُوب هَذِهِ الدَّوَابّ وَمِنْهَا الْبِغَال. وَقَدْ أُهْدِيَتْ إِلَى رَسُول الله ﷺ بَغْلَة فَكَانَ يَرْكَبهَا، مَعَ أَنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْ إِنْزَاء الْحُمُر عَلَى الْخَيْل؛ لِئَلَّا يَنْقَطِع النَّسْل. قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عُبَيْد، حَدَّثَنَا عُمَر مِنْ آلِ حُذَيْفَة، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ دِحْيَة الْكَلْبِيّ، قَالَ: قُلت: يَا رَسُول الله، أَلَا أَحْمِل لَكَ حِمَارًا عَلَى فَرَس فَتُنْتِج لَكَ بَغْلًا فَتَرْكَبهَا؟ قَالَ: «إِنَّمَا يَفْعَل ذَلِكَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»[2].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ الْحَيَوَانَات مَا يُسَار عَلَيْهِ فِي السُّبُل الْحِسِّيَّة نَبَّهَ عَلَى الطُّرُق الْمَعْنَوِيَّة الدِّينِيَّة، وَكَثِيرًا مَا يَقَع فِي الْقُرْآن الْعُبُور مِنْ الْأُمُور الْحِسِّيَّة إِلَى الْأُمُور الْمَعْنَوِيَّة النَّافِعَة الدِّينِيَّة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ﴾. وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَة الْحَيَوَانَات مِنْ الْأَنْعَام وَغَيْرهَا، الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَبْلُغُونَ عَلَيْهَا حَاجَة فِي صُدُورهمْ، وَتَحْمِل أَثْقَالهمْ إِلَى الْبِلَاد وَالْأَمَاكِن الْبَعِيدَة وَالْأَسْفَار الشَّاقَّة، شَرَعَ فِي ذِكْر الطُّرُق الَّتِي يَسْلُكهَا النَّاس إِلَيْهِ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقّ مِنْهَا مَا هِيَ مُوصِلَة إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾، وَقَالَ: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾. قَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قَالَ: طَرِيق الْحَقّ عَلَى الله. وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قَال: الإِسْلَام. وَقَالَ الْعَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يَقُول: وَعَلَى الله الْبَيَان. أَيْ: تبيين الْهُدَى وَالضَّلَال.

وَكَذَا رَوَى عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْهُ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَة وَالضَّحَّاك، وَقَوْل مُجَاهِد هَاهُنَا أَقْوَى مِنْ حَيْثُ السِّيَاق؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ ثَمَّ طُرُقًا تُسْلَك إِلَيْهِ، فَلَيْسَ يَصِل إِلَيْهِ مِنْهَا إِلَّا طَرِيق الْحَقّ؛ وَهِيَ الطَّرِيق الَّتِي شَرَعَهَا وَرَضِيَهَا، وَمَا عَدَاهَا مَسْدُودَة، وَالْأَعْمَال فِيهَا مَرْدُودَة، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أَيْ: حَائِر مَائِل زَائِغ عَنْ الْحَقّ. قَالَ اِبْن عَبَّاس وَغَيْره: هِيَ الطُّرُق الْمُخْتَلِفَة وَالْآرَاء وَالْأَهْوَاء الْمُتَفَرِّقَة، كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّة وَالْمَجُوسِيَّة. وَقَرَأَ اِبْن مَسْعُود: ﴿وَمِنْكُمْ جَائِرٌ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ كُلّه كَائِن عَنْ قُدْرَته وَمَشِيئَته، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ الْأَنْعَام وَالدَّوَابّ شَرَعَ فِي ذِكْر نِعْمَته عَلَيْهِمْ فِي إِنْزَال الْمَطَر مِنْ السَّمَاء: وَهُوَ الْعُلُوّ، مِمَّا لَهُمْ فِيهِ بُلْغَة وَمَتَاع لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ، فَقَالَ: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أَيْ: جَعَلَهُ عَذْبًا زُلَالًا يَسُوغ لَكُمْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٩١، ٥١٩٣).
(٢) صحيح لغيره: أخرجه أحمد (٤/ ٣١١).

شَرَابه، وَلَمْ يَجْعَلهُ مِلحًا أُجَاجًا. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أَيْ: وَأَخْرَجَ لَكُمْ به شَجَرًا تَرْعَوْنَ فِيهِ أَنْعَامكُمْ. وَقَالَ اِبْن عَبَّاس وَعِكْرِمَة وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَابْن زَيْد فِي قَوْله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أَيْ: تَرْعَوْنَ. وَمِنْهُ الإِبِل السَّائِمَة، وَالسَّوْم: الرَّعْي. وَرَوَى اِبْن مَاجَهْ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ «نَهَى عَنْ السَّوْم قَبْل طُلُوع الشَّمْس»[1].

وَقَوْله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أَيْ: يُخْرِجهَا مِنْ الأَرْض بِهَذَا المَاء الوَاحِد، عَلَى اِخْتِلَاف صُنُوفهَا وَطُعُومهَا وَأَلْوَانهَا وَرَوَائِحهَا وَأَشْكَالهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيْ: دَلَالَة وَحُجَّة عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا الله، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

يُنَبِّه تَعَالَى عِبَاده عَلَى آيَاته العِظَام، وَمِنَنه الجِسَام، فِي تَسْخِيره اللَّيْل وَالنَّهَار يَتَعَاقَبَانِ، وَالشَّمْس وَالقَمَر يَدُورَانِ، وَالنُّجُوم الثَّوَابِت وَالسَّيَّارَات، فِي أَرْجَاء السَّمَاوَات نُورًا وَضِيَاء للمهتدين بِهَا فِي الظُّلُمَات، وَكُلّ مِنْهَا يَسِير فِي فَلَكه الَّذِي جَعَلَهُ الله تَعَالَى فِيهِ، يَسِير بِحَرَكَةٍ مُقَدَّرَة لَا يَزِيد عَلَيْهَا وَلَا يَنْقُص منها، وَالجَمِيع تَحْت قَهْره وَسُلطَانه وَتَسْخِيره وَتَقْدِيره وَتَسْيِيره، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: لَدَلَالَات عَلَى قُدْرَته تَعَالَى البَاهِرَة وَسُلطَانه العَظِيم لِقَوْم يَعْقِلُونَ عَنْ الله وَيَفْهَمُونَ حُجَجه.

وَقَوْله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ لَمَّا نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى مَعَالِم السَّمَاوَات نَبَّهَ عَلَى مَا خَلَقَ فِي الأَرْض مِنْ الأُمُور العَجِيبَة، وَالأَشْيَاء المُخْتَلِفَة مِنْ الحَيَوَانَات وَالمَعَادِن وَالنَّبَاتَات وَالجَمَادَات، عَلَى اِخْتِلَاف أَلْوَانهَا وَأَشْكَالهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ المَنَافِع وَالخَوَاصّ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَيْ: آلَاء الله وَنِعَمه فَيَشْكُرُونَهَا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ تَسْخِيره البَحْر المُتَلَاطِم الأَمْوَاج، وَيَمْتَنّ عَلَى عِبَاده بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ، وَتَيْسِيرهمْ لِلرُّكُوبِ فِيهِ، وَجَعْله السَّمَك وَالحِيتَان فِيهِ، وَإِحْلَاله لِعِبَادِهِ لَحْمهَا؛ حَيّهَا وَمَيِّتهَا، فِي الحِلّ وَالإِحْرَام، وَمَا يَخْلُقهُ فِيهِ مِنْ اللَّآلِئ وَالجَوَاهِر النَّفِيسَة، وَتَسْهِيله لِلعِبَادِ اِسْتِخْرَاجهمْ مِنْ قَرَارها حِليَة يَلبَسُونَهَا، وَتَسْخِيره البَحْر لِحَمْلِ السُّفُن الَّتِي تَمْخُرهُ، أَيْ: تَشُقّهُ. وَقِيلَ: تَمْخُر الرِّيَاح، وَكِلَاهُمَا صَحِيح، وَقِيلَ: تَمْخُرهُ بِجُؤْجُئِهَا: وَهُوَ صَدْرهَا المُسَنَّم، الَّذِي أَرْشَدَ العِبَاد إِلَى صَنْعَتهَا، وَهَدَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ إِرْثًا عَنْ أَبِيهِمْ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ أَوَّل مَنْ رَكِبَ السُّفُن، وَلَهُ كَانَ

(١) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٢٢٠٦) بسند ضعيف، فيه نوفل بن عبد الملك: مستور، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٧١٩).

تَعْلِيم صَنْعَتهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا النَّاس عَنْهُ قَرْنًا بَعْد قَرْن، وَجِيلًا بَعْد جِيل، يَسِيرُونَ مِنْ قُطْر إِلَى قُطْر، وَمِنْ بَلَد إِلَى بَلَد، وَمِنْ إِقْلِيم إِلَى إِقْلِيم، لِجَلْبِ مَا هُنَاكَ إِلَى هُنَا، وَمَا هُنَا إِلَى هُنَاكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيْ: نِعَمه وَإِحْسَانه.

وَقَدْ قَالَ الْحَافِظ أَبُو بَكْر الْبَزَّار فِي مُسْنَده: وَجَدْت فِي كِتَابِي عَنْ مُحَمَّد بْن مُعَاوِيَة الْبَغْدَادِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن ابْن عَبْد الله بْن عُمَر، عَنْ سهيل بْن أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: كَلَّمَ الله الْبَحْر الْغَرْبِيّ، وَكَلَّمَ الْبَحْر الشَّرْقِيّ، فَقَالَ لِلْبَحْرِ الْغَرْبِيّ: إِنِّي حَامِل فِيك عِبَادًا مِنْ عِبَادِي فَكَيْفَ أَنْتَ صَانِع فِيهِمْ؟ قَالَ: أُغْرِقهُمْ. فَقَالَ: بَأْسك فِي نَوَاحِيك، وَاحْمِلْهُمْ عَلَى يَدَيَّ، وَحَرَمه الْحِلْيَة وَالصَّيْد. وَكَلَّمَ هذا الْبَحْر الشَّرْقِيّ فَقَالَ: إِنِّي حَامِل فِيك عِبَادًا مِنْ عِبَادِي فَمَا أَنْتَ صَانِع بِهِمْ؟ فَقَالَ: أَحْمِلهُمْ عَلَى يَدَيَّ، وَأَكُون لَهُمْ كَالْوَالِدَةِ لِوَلَدِهَا. فَأَثَابَهُ الْحِلْيَة وَالصَّيْد. ثُمَّ قَالَ الْبَزَّار: لَا نَعْلَم مَنْ رَوَاهُ عَنْ سهيل غَيْر عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله بْن عمر، وَهُوَ مُنْكَر الْحَدِيث. وَقَدْ رَوَاهُ سَهْيل، عَنْ النُّعْمَان بْن أَبِي عَيَّاش، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو مَوْقُوفًا.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْض وَمَا جعل فِيهَا مِنْ الرَّوَاسِي الشَّامِخَات، وَالْجِبَال الرَّاسِيَات؛ لِتَقَرّ الْأَرْض وَلَا تَمِيد -أَيْ: تَضْطَرِب- بِمَا عَلَيْهَا مِنْ الْحَيَوَانَات، فَلَا يَهْنَأ لَهُمْ عَيْش بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة، سَمِعْت الْحَسَن يَقُول: لَمَّا خُلِقَتْ الْأَرْض كَانَتْ تَمِيد، فَقَالُوا: مَا هَذِهِ بِمُقِرَّةٍ عَلَى ظَهْرهَا أَحَدًا. فَأَصْبَحُوا وَقَدْ خُلِقَتْ الْجِبَال، فَلَمْ تَدْرِ الْمَلَائِكَة مِمَّ خُلِقَتْ الْجِبَال. وَقَالَ سَعِيد: عَنْ قَتَادَة، عَنْ الْحَسَن، عَنْ قَيْس بْن عبَّاد: أَنَّ الله لَمَّا خَلَقَ الْأَرْض جَعَلَتْ تَمُور، فَقَالَتْ الْمَلَائِكَة: مَا هَذِهِ بِمُقِرَّةٍ عَلَى ظَهْرهَا أَحَدًا. فَأَصْبَحَتْ صُبْحًا وَفِيهَا رَوَاسِيهَا. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، حَدَّثَنِي حَجَّاج بْن مِنْهَال، حَدَّثَنَا حَمَّاد، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ عَبْد الله بْن حَبِيب، عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ، قَالَ: لَمَّا خَلَقَ الله الْأَرْض قمصت، وَقَالَتْ: أَيْ رَبّ، تَجْعَل عَلَيَّ بَنِي آدَم يَعْمَلُونَ عليَّ الْخَطَايَا، وَيَجْعَلُونَ عَلَيَّ الْخُبْث؟ قَالَ: فَأَرْسَى الله فِيهَا مِنْ الْجِبَال مَا تَرَوْنَ وَمَا لَا تَرَوْنَ، فَكَانَ إِقْرَارهَا كَاللَّحْمِ يَتَرَجْرَج.

وَقَوْله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ أَيْ: جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ مَكَان إِلَى مَكَان آخَر رِزْقًا لِلْعِبَادِ، يَنْبُع فِي مَوْضِع وَهُوَ رِزْق لِأَهْلِ مَوْضِع آخَر، فَيَقْطَع الْبِقَاع وَالْبَرَارِيّ وَالْقِفَار، وَيَخْتَرِق الْجِبَال وَالْآكَام فَيَصِل إِلَى الْبَلَد الَّذِي سُخِّرَ لِأَهْلِهِ، وَهِيَ سَائِرَة فِي الْأَرْض يَمْنَة وَيَسْرَة، وَجَنُوبًا وَشَمَالًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا، مَا بَيْن صِغَار وَكِبَار، وَأَوْدِيَة تَجْرِي حِينًا وَتَنْقَطِع فِي وَقْت، وَمَا بَيْن نَبْع وَجمع، وَقَوِيّ السَّيْر وَبَطِيئِهِ، بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ، فَلَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَلَا رَبّ سِوَاهُ. وَكَذَلِكَ جَعَلَ فِيهَا سُبُلًا، أَيْ: طُرُقًا يُسْلَك فِيهَا مِنْ بِلَاد إِلَى بِلَاد، حَتَّى أَنَّهُ تَعَالَى لَيَقْطَع الْجَبَل حَتَّى يَكُون مَا بَيْنهمَا مَمَرًّا وَمَسْلَكًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ الْآيَة.

وَقَوْله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ أَيْ: دَلَائِل مِنْ جِبَال كِبَار وَآكَام صِغَار وَنَحْو ذَلِكَ، يَسْتَدِلّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ بَرًّا وَبَحْرًا إِذَا ضَلُّوا الطُّرُق. وَقَوْله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أَيْ: فِي ظَلَام اللَّيْل، قَالَهُ اِبْن عَبَّاس. وَعَنْ مَالِك فِي قَوْله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يَقُول: النُّجُوم وَهِيَ الْجِبَال. ثُمَّ قال تَعَالَى منبهًا عَلَى عَظَمَته، وَأَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَة إِلَّا لَهُ دُون مَا سِوَاهُ مِنْ الْأَوْثَان، الَّتِي لَا تَخْلُق شَيْئًا بَل هُمْ يُخْلَقُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى كَثْرَة نِعَمه عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانه إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيْ: يَتَجَاوَز عَنْكُمْ، وَلَوْ طَالَبَكُمْ بِشُكْرِ جميع نِعَمه لَعَجَزْتُمْ عَنْ الْقِيَام بِذَلِكَ، وَلَوْ أَمَرَكُمْ بِهِ لَضَعُفْتُمْ وَتَرَكْتُمْ، وَلَوْ عَذَّبَكُمْ لَعَذَّبَكُمْ وَهُوَ غَيْر ظَالِم لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ غَفُور رَحِيم، يَغْفِر الْكَثِير، وَيُجَازِي عَلَى الْيَسِير.

وَقَالَ ابْن جَرِير: يَقُول: إِنَّ الله لَغَفُور لِمَا كَانَ مِنْكُمْ مِنْ تَقْصِير فِي شُكْر بَعْض ذَلِكَ، إِذَا تُبْتُمْ وَأَنَبْتُمْ إِلَى طَاعَته وَاتِّبَاع مَرْضَاته، رَحِيم بِكُمْ أَنْ يُعَذِّبكُمْ بَعْد الإِنَابَة وَالتَّوْبَة.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَم الضَّمَائِر وَالسَّرَائِر كَمَا يَعْلَم الظَّوَاهِر، وَسَيَجْزِي كُلّ عَامِل بِعَمَلِهِ يَوْم القِيَامَة؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الأَصْنَام الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُون الله لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، كَمَا قَالَ الخَلِيل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أَيْ: هِيَ جَمَادَات لَا أَرْوَاح فِيهَا، فَلَا تَسْمَع وَلَا تُبْصِر وَلَا تَعْقِل. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أَيْ: لَا يَدْرُونَ مَتَى تَكُون السَّاعَة، فَكَيْفَ يُرْتَجَى عِنْد هَذِهِ نَفْع أَوْ ثَوَاب أَوْ جَزَاء؟ إِنَّمَا يُرْتَجَى ذَلِكَ مِنَ الَّذِي يَعْلَم كُلّ شَيْء وَهُوَ خَالِق كُلّ شَيْء.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ الوَاحِد الأَحَد الفَرْد الصَّمَد، وَأَخْبَرَ أَنَّ الكَافِرِينَ تُنْكِر قُلُوبهمْ ذَلِكَ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ ذَلِكَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيْ: عَنْ عِبَادَة الله، مَعَ إِنْكَار قُلُوبهمْ لِتَوْحِيدِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء؛ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ المُكَذِّبِينَ: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟﴾ مُعْرِضِينَ عَنِ الجَوَاب: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: لَمْ يُنْزِل شَيْئًا، إِنَّمَا هَذَا الَّذِي يُتْلَى عَلَيْنَا أَسَاطِير الأَوَّلِينَ، أَيْ: مَأْخُوذ مِنْ كُتُب المُتَقَدِّمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَيْ: يَفْتَرُونَ عَلَى الرَّسُول، وَيَقُولُونَ أَقْوَالًا مُتَضَادَّة مُخْتَلِفَة كُلّهَا بَاطِلَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، وَذَلِكَ أَنَّ كُلّ مَنْ خَرَجَ عَنْ الحَقّ فَمَهْمَا قَالَ أَخْطَأَ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: سَاحِر وَشَاعِر وَكَاهِن وَمَجْنُون، ثُمَّ اِسْتَقَرَّ أَمْرهمْ إِلَى مَا اِخْتَلَقَهُ لَهُمْ شَيْخهمْ الوَحِيد المُسَمَّى بِالوَلِيدِ بْن المُغِيرَة المَخْزُومِيّ، لَمَّا ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أَيْ: يُنْقَل وَيُحْكَى، فَتَفَرَّقُوا عَنْ قَوْله وَرَأْيه، قَبَّحَهُمْ الله.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ أَيْ: إِنَّمَا قَدَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ؛ لِيَتَحَمَّلُوا أَوْزَارهمْ وَمِنْ أَوْزَار الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَيُوَافِقُونَهُمْ، أَيْ: يَصِير عَلَيْهِمْ خَطِيئَة ضَلَالهمْ فِي أَنْفُسهمْ، وَخَطِيئَة إِغْوَائِهِمْ لِغَيْرِهِمْ وَاقْتِدَاء أُولَئِكَ بِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْر مِثْل أُجُور مَنْ اِتَّبَعَهُ لَا يَنْقُص ذَلِكَ مِنْ أُجُورهمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَة كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْم مِثْل آثَام مَنْ اِتَّبَعَهُ لَا يَنْقُص ذَلِكَ مِنْ آثَامهمْ شَيْئًا**»[1].

---

(١) صحيح: تقدم.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾. وَهَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قوله: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أَنَّهَا كَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾. وَقَالَ مُجَاهِد: يَحْمِلُونَ أَثْقَالهمْ؛ ذُنُوبهمْ وَذُنُوب مَنْ أَطَاعَهُمْ، وَلَا يُخَفِّف عَمَّنْ أَطَاعَهُمْ مِنْ العَذَاب شَيْئًا.

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

قَالَ العَوْفِيّ: عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قَالَ: هُوَ النُّمْرُوذ الَّذِي بَنَى الصَّرْح.

قَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِد نَحْوه. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ مَعْمَر، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ: أَوَّل جَبَّار كَانَ فِي الأَرْض النُّمْرُوذ، فَبَعَثَ الله عَلَيْهِ بَعُوضَة، فَدَخَلَتْ فِي مَنْخَره، فَمَكَثَ أَرْبَعمِائَةِ سَنَة يُضْرَب رَأْسه بِالمَطَارِقِ، وَأَرْحَم النَّاس بِهِ مَنْ جَمَعَ يَدَيْهِ فَضَرَبَ بِهِمَا رَأْسه، وَكَانَ جَبَّارًا أَرْبَعمِائَةِ سَنَة، فَعَذَّبَهُ الله أَرْبَعمِائَةِ سَنَة كَمُلْكِهِ، ثُمَّ أَمَاتَهُ الله، وَهُوَ الَّذِي كان بَنَى صرحًا إِلَى السَّمَاء، الَّذِي قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَل هُوَ بُخْتَنَصَّر. وَذَكَرُوا مِنْ المَكْر الَّذِي حَكَى الله هَاهُنَا كَمَا قَالَ فِي سُورَة إِبْرَاهِيم: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾. وَقَالَ آخَرُونَ: هَذَا مِنْ بَاب المَثَل لِإِبْطَالِ مَا صَنَعَهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالله، وَأَشْرَكُوا فِي عِبَادَته غَيْره، كَمَا قَالَ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أَيْ: اِحْتَالُوا فِي إِضْلَال النَّاس بِكُلِّ حِيلَة، وَأَمَالُوهُمْ إِلَى شِرْكهمْ بِكُلِّ وَسِيلَة، كَمَا يَقُول لَهُمْ أَتْبَاعهمْ يَوْم القِيَامَة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ الآيَة.

وَقَوْله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أَيْ: اِجْتَثَّهُ مِنْ أَصْله وَأَبْطَلَ عَمَلهمْ وأصلها كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾. وَقَوْله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾. وَقَالَ الله هَاهُنَا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أَي: يُظْهِر فَضَائِحهمْ، وَمَا كَانَتْ تُجِنّه ضَمَائِرهمْ، فَيَجْعَلَهُ عَلَانِيَة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أَيْ: تَظْهَر وَتَشْتَهِر، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ اِبْن عُمَر قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «يُنْصَب لِكُلِّ غَادِر لِوَاء يَوْم القِيَامَة عِنْد إِسْته بِقَدْرِ غَدْرَته، فَيُقَال: هَذِهِ غَدْرَة فُلَان ابْن فُلَان»[1]. وَهَكَذَا هَؤُلَاءِ يَظْهَر لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يُسِرُّونَهُ مِنْ المَكْر، وَيُخْزِيهِمْ الله عَلَى رُءُوس الخَلَائِق، وَيَقُول لَهُمْ الرَّبّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مُقْرِعًا لَهُمْ وَمُوَبِّخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تُحَارِبُونَ وَتُعَادُونَ فِي سَبِيلهمْ، أَيْنَ هُمْ عَنْ نَصْركُمْ وَخَلَاصكُمْ هَاهُنَا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾، ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ فَإِذَا تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمْ الحُجَّة، وَقَامَتْ عَلَيْهِمْ الدَّلَالَة، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ الكَلِمَة، وَأُسْكِتوا عَنْ الاِعْتِذَار حِين لَا فِرَار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وَهُمْ السَّادَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَالمُخْبِرُونَ عَنْ الحَقّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، فَيَقُولُونَ حِينَئِذٍ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ: الفَضِيحَة وَالعَذَاب مُحِيط اليَوْم بِمَنْ كَفَرَ بالله، وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَا يَضُرّهُ وَمَا لَا يَنْفَعهُ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٩٤).

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

يُخبِر تَعالَى عَنْ حَال المُشرِكِينَ الظَّالِمي أَنْفُسهمْ عِند اِحْتِضَارهمْ، وَمَجِيء المَلَائِكَة إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحهمْ الخَبِيثَة، ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أَيْ: أَظْهَرُوا السَّمْع وَالطَّاعَة وَالِانْقِيَاد قَائِلِينَ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ كَمَا يَقُولُونَ يَوْم المَعَاد: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾، قَالَ الله مُكَذِّبًا لَهُمْ فِي قِيلهمْ ذَلِكَ: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أَيْ: بِئْسَ المَقِيل وَالمَقَام وَالمَكَان مِنْ دَار هَوَان، لِمَنْ كَانَ مُتَكَبِّرًا عَنْ آيَات الله وَاتِّبَاع رُسُله. وَهُمْ يَدْخُلُونَ جَهَنَّم مِنْ يَوْم مَمَاتهمْ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَيأتِي أَجْسَادَهمْ فِي قُبُورهَا مِنْ حَرّهَا وَسَمُومهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة سَلَكَتْ أَرْوَاحهمْ فِي أَجْسَادهمْ، وَخَلَدَتْ فِي نَار جَهَنَّم، ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾، كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

هَذَا خَبَر عَنْ السُّعَدَاء بِخِلَافِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ الأَشْقِيَاء، فَإِنَّ أُولَئِكَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قَالُوا مُعْرِضِينَ عَنْ الجَوَاب: لَمْ يُنْزِل شَيْئًا إِنَّمَا هَذَا أَسَاطِير الأَوَّلِينَ، وَهَؤُلَاءِ قَالُوا: ﴿خَيْرًا﴾ أَيْ: أَنْزَلَ خَيْرًا، أَيْ: رَحْمَة وَبَرَكَة وحسنًا لِمَنْ اِتَّبَعَهُ وَآمَنَ بِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا وَعَدَ الله عِبَاده فِيمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُله، فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ الآيَة، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: مِنْ أَحْسَنَ عَمَله فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ الله إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. ثُمَّ أُخْبِروا بِأَنَّ دَار الآخِرَة خَيْر، أَيْ: مِنْ الحَيَاة الدُّنْيَا وَالجَزَاء فِيهَا أَتَمّ مِنْ الجَزَاء فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ الآيَة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، وَقَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾. ثُمَّ وَصَفَ الدَّار الآخِرَة فَقَالَ: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بَدَل مِنْ قوله ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: لَهُمْ فِي الآخِرَة جَنَّات عَدْن، أَيْ: مَقَامة يَدْخُلُونَهَا، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ: بَيْن أَشْجَارهَا وَقُصُورهَا ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وَفِي الحَدِيث: **«إِنَّ السَّحَابَة لَتَمُرّ بِالمَلإِ مِنْ أَهْل الجَنَّة، وَهُمْ جُلُوس عَلَى شَرَابهمْ، فَلا يَشْتَهِي أَحَد مِنهُمْ شَيْئًا إِلا أَمْطَرَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنَّ مِنهُمْ لَمَنْ يَقُول أَمْطِرِينَا كَوَاعِب أَتْرَابًا فَيَكُون ذَلِكَ»**. ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: كَذَلِكَ يَجْزِي الله كُلّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّقَاهُ وَأَحْسَنَ عَمَله.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالهمْ عِند الِاحْتِضَار أَنَّهُمْ طَيِّبُونَ، أَيْ: مُخَلَّصُونَ مِنْ الشِّرْك وَالدَّنَس وَكُلّ سُوء، وَأَنَّ المَلَائِكَة تُسَلِّم عَلَيْهِمْ وَتُبَشِّرهُمْ بِالجَنَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾.

وَقَدْ قَدَّمْنَا الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي قَبْض رُوح المُؤْمِن وَرُوح الكَافِر عِند قَوْله تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي البَاطِلِ وَاغْتِرَارِهِمْ بِالدُّنْيَا: هَل يَنْتَظِر هَؤُلَاءِ إِلَّا المَلَائِكَة أَنْ تَأْتِيهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ، قَالَهُ قَتَادَة. ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة وَمَا يُعَايِنُونَهُ مِنْ الأَهْوَال.

وَقَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ أَيْ: هَكَذَا تَمَادَى فِي شِرْكهمْ أَسْلَافهمْ وَنُظَرَاؤُهُمْ وَأَشْبَاههمْ مِنْ المُشْرِكِينَ حَتَّى ذَاقُوا بَأْس الله، وَحَلُّوا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ، وَأَقَامَ حُجَجه عَلَيْهِمْ؛ بِإِرْسَالِ رُسُله، وَإِنْزَال كُتُبه، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَيْ: بِمُخَالَفَةِ الرُّسُل وَالتَّكْذِيب بِمَا جَاءُوا بِهِ، فَلِهَذَا أَصَابَتْهُمْ عُقُوبَة الله عَلَى ذَلِكَ، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أَيْ: أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ العَذَاب الأَلِيم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أَيْ: يَسْخَرُونَ مِنْ الرُّسُل إِذَا تَوَعَّدُوهُمْ بِعِقَابِ الله، فَلِهَذَا يُقَال لَهُمْ يَوْم القِيَامَة: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ اِغْتِرَار المُشْرِكِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ الشرك، وَاعْتِذَارهمْ مُحْتَجِّينَ بِالقَدَرِ فِي قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ أَيْ: مِنْ البَحَائِر وَالسَّوَائِب وَالوَصَائِل، وَغَيْر ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا اِبْتَدَعُوهُ وَاخْتَرَعُوهُ مِنْ تِلْقَاء أَنْفُسهمْ، مما لَمْ يُنَزِّل الله بِهِ سُلْطَانًا.

وَمَضْمُون كَلَامهمْ: أَنَّه لَوْ كَانَ تَعَالَى كَارِهًا لِمَا فَعَلنَا لَأَنْكَرَهُ عَلَيْنَا بِالعُقُوبَةِ، وَلَمَا مَكَّنَا مِنْهُ، قَالَ الله تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ شُبْهَتهمْ: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أَيْ: لَيْسَ الأَمْر كَمَا تَزْعُمُونَ: أَنَّهُ لم يغيره عليكم وَلَمْ يُنْكِرهُ عَلَيْكُمْ بَل قَدْ أَنْكَرَهُ عَلَيْكُمْ أَشَدّ الإِنْكَار، وَنَهَاكُمْ عَنْهُ آكَد النَّهْي، و﴿بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ أَيْ: فِي كُلّ قَرْن وَطَائِفَة مِنْ النَّاس رَسُولًا، وَكُلّهمْ يَدْعُو إِلَى عِبَادَة الله، وَيَنْهَى عَنْ عِبَادَة مَا سِوَاهُ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ فَلَمْ يَزَل تَعَالَى يُرْسِل إِلَى النَّاس الرُّسُل بِذَلِكَ، مُنْذُ حَدَثَ الشِّرْك فِي بَنِي آدَم، فِي قَوْم نُوح، الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نُوح، وَكَانَ أَوَّل رَسُول بَعَثَهُ الله إِلَى أَهْل الأَرْض، إِلَى أَنْ خَتَمَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِي طَبَّقَتْ دَعْوَته الإِنْس وَالجِنّ فِي المَشَارِق وَالمَغَارِب، وَكُلّهمْ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ فَكَيْف يَسُوغ لِأَحَدٍ مِنْ المُشْرِكِينَ بَعْد هَذَا أَنْ يَقُول: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾، فَمَشِيئَته تَعَالَى الشَّرْعِيَّة عَنْهُمْ مُنْتَفِيَة؛ لِأَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَة رُسُله، وَأَمَّا مَشِيئَته الكَوْنِيَّة: وَهِيَ تَمْكِينهمْ مِنْ ذَلِكَ قَدَرًا فَلَا حُجَّة لَهُمْ فِيهَا؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ النَّار وَأَهْلهَا مِنْ الشَّيَاطِين وَالكَفَرَة، وَهُوَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْر، وَلَهُ فِي ذَلِكَ حُجَّة بَالِغَة وَحِكْمَة قَاطِعَة.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ عيَّر عليهم وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ بِالعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا بَعْد إِنْذَار الرُّسُل، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيْ:

اِسْأَلُوا عَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ مَنْ خَالَفَ الرُّسُل وَكَذَّبَ الحَقّ: كَيْف دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالهَا، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ الله تَعَالَى رَسُوله ﷺ: أَنَّ حِرْصه عَلَى هِدَايَتهمْ لَا يَنْفَعهُمْ إِذَا كَانَ الله قَدْ أَرَادَ إِضْلَالهمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، وَقَالَ نُوح لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، وَقَالَ فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾، كَمَا قَالَ الله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾. وَقَوْله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: شَأْنه وَأَمْره أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ أَيْ: مَنْ أَضَلَّهُ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْدِيه مِنْ بَعْد الله؟ أَيْ: لَا أَحَد ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أَيْ: يُنْقِذُونَهُمْ مِنْ عَذَابه وَوَثَاقه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ الْمُشْرِكِينَ: أَنَّهُمْ حَلَفُوا فَأَقْسَمُوا بِالله جَهْد أَيْمَانهمْ، أَيْ: اِجْتَهَدُوا فِي الحَلِف وَغَلَّظُوا الأَيْمَان: عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْعَث الله مَنْ يَمُوت، أَيْ: اِسْتَبْعَدُوا ذَلِكَ، وَكَذَّبُوا الرُّسُل فِي إِخْبَارهمْ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَحَلَفُوا بذلك عَلَى نَقِيضه، فَقَالَ تَعَالَى مُكَذِّبًا لَهُمْ وَرَادًّا عَلَيْهِمْ: ﴿بَلَىٰ﴾ أَيْ: بَلَى سَيَكُونُ ذَلِكَ ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أَيْ: لَابُدّ مِنْهُ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: فَلِجَهْلِهِمْ يُخَالِفُونَ الرُّسُل وَيَقَعُونَ فِي الكُفْر. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى حِكْمَته فِي المَعَاد، وَقِيَام الأَجْسَاد يَوْم التَّنَاد، فَقَالَ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أَيْ: لِلنَّاسِ ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أَيْ: مِنْ كُلّ شَيْء؛ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ أَيْ: فِي أَيْمَانهمْ وَأَقْسَامهمْ: لَا يَبْعَث الله مَنْ يَمُوت، وَلِهَذَا يُدَعُّونَ يَوْم القِيَامَة إِلَى نَار جَهَنَّم دَعًّا، وَتَقُول لَهُمْ الزَّبَانِيَة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَته عَلَى مَا يَشَاء، وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزهُ شَيْء فِي الأَرْض وَلَا فِي السَّمَاء، وَإِنَّمَا أَمْره إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون، وَالمَعَاد مِنْ ذَلِكَ، إِذَا أَرَادَ كَوْنه فَإِنَّمَا يَأْمُر بِهِ مَرَّة وَاحِدَة، فَيَكُون كَمَا يَشَاء، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، وَقَالَ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، وَقَالَ فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أَيْ: أَنْ نَأْمُر بِهِ مَرَّة وَاحِدَة فَإِذَا هُوَ كَائِن، كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

إِذَا مَا أَرَادَ الله أَمْرًا فَإِنَّمَا ❁ يَقُول لَهُ كُنْ قَوْلَةً فَيَكُون

أَيْ: أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَحْتَاج إِلَى تَأْكِيد فِيمَا يَأْمُر بِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يُمَانَع وَلَا يُخَالَف؛ لِأَنَّهُ الوَاحِد القَهَّار العَظِيم، الَّذِي قَهَرَ سُلْطَانه وَجَبَرُوته وَعِزَّته كُلّ شَيْء، فَلَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَلَا رَبّ سِوَاهُ.

وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: ذَكَرَ الحَسَن بْن مُحَمَّد بْن الصَّبَّاح، حَدَّثَنَا حَجَّاج، عَنْ اِبْن جُرَيْج، أَخْبَرَنِي عَطَاء، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: قَالَ الله تَعَالَى: «سبني اِبْن آدم وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ أن يسبني، وَكَذَّبَنِي اِبْن آدم وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبه إِيَّايَ فَقَالَ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ قَالَ: وَقُلت: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وَأَمَّا سبه إِيَّايَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وَقُلت: ﴿قُلْ

هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾»[1]. هَكَذَا ذَكَرَهُ مَوْقُوفًا، وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مَرْفُوع بِلَفْظٍ آخر.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ جَزَائِهِ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيله اِبْتِغَاء مَرْضَاته، الَّذِينَ فَارَقُوا الدَّار وَالإِخْوَان وَالخُلَّان رَجَاء ثَوَاب الله وَجَزَائِهِ. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون سَبَب نُزُول هذه الآية الكريمة فِي مُهَاجِرَة الحَبَشَة، الَّذِين اِشْتَدَّ أَذَى قَوْمهمْ لَهُمْ بِمَكَّة، حَتَّى خَرَجُوا مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ إِلَى بِلَاد الحَبَشَة، لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ عِبَادَة رَبّهمْ، وَمِنْ أَشْرَافهمْ عُثْمَان بْن عَفَّان وَمَعَهُ زَوْجَته رُقَيَّة بِنْت رَسُول الله ﷺ، وَجَعْفَر بْن أَبِي طَالِب اِبْن عَمّ الرَّسُول، وَأَبُو سَلَمَة ابْن عَبْد الأسد، فِي جَمَاعَة قَرِيب مِنْ ثَمَانِينَ مَا بَيْن رَجُل وَامْرَأَة صِدِّيق وَصِدِّيقَة رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَقَدْ فَعَلَ فَوَعَدَهُمْ تَعَالَى بِالمُجَازَاةِ الحَسَنَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، فَقَالَ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس وَالشَّعْبِيّ وَقَتَادَة: المَدِينَة. وَقِيلَ: الرِّزْق الطَّيِّب. قَالَهُ مُجَاهِد. وَلَا مُنَافَاة بَيْن القَوْلَيْنِ؛ فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا مَسَاكِنهمْ وَأَمْوَالهمْ فَعَوَّضَهُمْ الله خَيْرًا مِنْهَا فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لله عَوَّضَهُ الله بِمَا هُوَ خَيْر لَهُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّهُمْ مَكَّنَ الله لَهُمْ فِي البِلَاد، وَحَكَّمَهُمْ عَلَى رِقَاب العِبَاد، وَصَارُوا أُمَرَاء حُكَّامًا، وَكُلّ مِنْهُمْ لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، وَأَخْبَرَ أَنَّ ثَوَابه لِلْمُهَاجِرِينَ فِي الدَّار الآخِرَة أَعْظَم مِمَّا أَعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ﴾ أَيْ: مِمَّا أَعْطَيْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: لَوْ كَانَ المُتَخَلِّفُونَ عَنْ الهِجْرَة مَعَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا اِدَّخَرَ الله لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاتَّبَعَ رَسُوله، وَلِهَذَا قَالَ هُشَيْم: عَنْ العَوَّام، عَمَّنْ حَدَّثَهُ: أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه كَانَ إِذَا أَعْطَى الرَّجُل مِنْ المُهَاجِرِينَ عَطَاءَهُ يَقُول: خُذْ بَارَكَ الله لَكَ فِيهِ، هَذَا مَا وَعَدَكَ الله فِي الدُّنْيَا، وَمَا اِدَّخَرَ لَكَ فِي الآخِرَة أَفْضَل، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. ثُمَّ وَصَفَهُمْ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أَيْ: صَبَرُوا عَلَى أقل من آذاهم مِنْ قَوْمهمْ، مُتَوَكِّلِينَ عَلَى الله الَّذِي أَحْسَنَ لَهُمْ العَاقِبَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قَالَ الضَّحَّاك: عَنْ اِبْن عَبَّاس: لَمَّا بَعَثَ الله مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولًا أَنْكَرَتْ العَرَب ذَلِكَ -أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ- وَقَالُوا: الله أَعْظَم مِنْ أَنْ يَكُون رَسُوله بَشَرًا، فَأَنْزَلَ الله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ الآيَة، وَقَالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي أَهْل الكُتُب المَاضِيَة: أَبَشَرًا كَانَتْ الرُّسُل إِلَيْهِمْ أَمْ مَلَائِكَة؟ فَإِنْ كَانُوا مَلَائِكَة أَنْكَرْتُمْ، وَإِنْ كَانُوا بَشَرًا فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ يَكُون مُحَمَّد ﷺ رَسُولًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾ لَيْسُوا مِنْ أَهْل السَّمَاء كَمَا قُلْتُمْ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّ المُرَاد بِأَهْلِ الذِّكْر أَهْل الكِتَاب، وَقَالَهُ مُجَاهِد وَالأَعْمَش.

وَقَوْل عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: الذِّكْر القُرْآن، وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ صَحِيح، لَكِنْ لَيْسَ هُوَ المُرَاد هَاهُنَا؛ لأَنَّ المُخَالِف لَا يَرْجِع فِي إِثْبَاته بَعْد إِنْكَاره إِلَيْهِ.

وَكَذَا قَوْل أَبِي جَعْفَر البَاقِر: نَحْنُ أَهْل الذِّكْر، وَمُرَاده أَنَّ هَذِهِ الأُمَّة أَهْل الذِّكْر صَحِيح، فَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّة أَعْلَم مِنْ جَمِيع الأُمَم السَّالِفَة، وَعُلَمَاء أَهْل بَيْت رَسُول الله -عَلَيْهِمْ السَّلَام وَالرَّحْمَة- مِنْ خَيْر العُلَمَاء إِذَا كَانُوا عَلَى

(١) صحيح: تقدم.

السُّنَّة المُسْتَقِيمَة؛ كَعَلِيٍّ، وَابْن عَبَّاس، وَابْنَيْ عَلِيّ: الحَسَن وَالحُسَيْن، وَمُحَمَّد ابْن الحَنَفِيَّة، وَعَلِيّ بْن الحُسَيْن زَيْن العَابِدِينَ، وَعَلِيّ بْن عَبْد الله بْن عَبَّاس، وَأَبِي جَعْفَر البَاقِر: وَهُوَ مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن الحُسَيْن، وَجَعْفَر اِبْنه، وَأَمْثَالهمْ وَأَضْرَابهمْ وَأَشْكَالهمْ، مِمَّنْ هُوَ مُتَمَسِّك بِحَبْلِ الله المَتِين، وَصِرَاطه المُسْتَقِيم، وَعَرَفَ لِكُلِّ ذِي حَقّ حَقّه، وَنَزَّلَ كُلاًّ المَنْزِل الَّذِي أَعْطَاهُ الله وَرَسُوله، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ قُلُوب عِبَاده المُؤْمِنِينَ، وَالغَرَض: أَنَّ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة أَخْبَرَتْ بِأَنَّ الرُّسُل المَاضِينَ قَبْل مُحَمَّد ﷺ كَانُوا بَشَرًا كَمَا هُوَ بَشَر، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

ثُمَّ أَرْشَدَ الله تَعَالَى مَنْ شَكَّ فِي كَوْن الرُّسُل كَانُوا بَشَرًا: إِلَى سُؤَال أَصْحَاب الكُتُب المُتَقَدِّمَة، عَنْ الأَنْبِيَاء الَّذِينَ سَلَفُوا هَل كَانَ أَنْبِيَاؤُهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَة؟. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَهُمْ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ: بِالحُجَج وَالدَّلَائِل ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وَهِيَ الكُتُب، قَالَهُ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَغَيْرهمْ، وَالزُّبُر: جَمْع زَبُور، تَقُول العَرَب: زَبَرْت الكِتَاب إِذَا كَتَبْته. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يَعْنِي: القُرْآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: مِنْ رَبّهمْ؛ لِعِلْمِك بِمَعْنَى مَا أَنْزَلَ الله عَلَيْك، وَحِرْصك عَلَيْهِ، وَاتِّبَاعك لَهُ، لِعِلْمِنَا بِأَنَّك أَفْضَل الخَلَائِق وَسَيِّد وَلَد آدَم، فَتُفَصِّل لَهُمْ مَا أُجْمِلَ، وَتُبَيِّن لَهُمْ مَا أَشْكَلَ، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيْ: يَنْظُرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فَيَهْتَدُونَ، فَيَفُوزُونَ بِالنَّجَاةِ فِي الدَّارَيْنِ.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ حِلْمه وَإِنْظَاره العُصَاة: الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَات، وَيَدْعُونَ إِلَيْهَا، وَيَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَحَمْلهمْ عَلَيْهَا، مَعَ قُدْرَته عَلَى أَنْ يَخْسِف بِهِمْ الأَرْض، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ: مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ مَجِيئَهُ إِلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾. وَقَوْله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أَيْ: فِي تَقَلُّبهمْ فِي المَعَايِش، وَاشْتِغَالهمْ بِهَا من أَسْفَار وَنَحْوهَا مِنْ الأَشْغَال المُلْهِيَة. قَالَ قَتَادَة وَالسُّدِّيّ: ﴿تَقَلُّبِهِمْ﴾ أَيْ: أَسْفَارهمْ. وَقَالَ مُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة: ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ فِي اللَّيْل وَالنَّهَار. كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيْ: لَا يُعْجِزُونَ الله عَلَى أَيّ حَال كَانُوا عَلَيْهِ.

وَقَوْله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أَيْ: أَوْ يَأْخُذهُمْ الله فِي حَال خَوْفهمْ مِنْ أَخْذه لَهُمْ، فَإِنَّهُ يَكُون أَبْلَغ وَأَشَدّ، فَإِنَّ حُصُول مَا يُتَوَقَّع مَعَ الخَوْف شَدِيد، وَلِهَذَا قَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يَقُول: إِنْ شِئْت أَخَذْته عَلَى أَثَر مَوْت صَاحِبه وَتَخَوُّفه بِذَلِكَ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَغَيْرهمْ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيْ: حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلكُمْ بِالعُقُوبَة، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**لا أَحَد أَصْبَر عَلَى أَذًى سَمِعَهُ؛ مِنْ الله. أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقهُمْ وَيُعَافِيهِمْ**»، وَفِيهِمَا: «**إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا**

أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتهُ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ عَظَمَته وَجَلَاله وَكِبْرِيَائِهِ، الَّذِي خَضَعَ لَهُ كُلّ شَيْء، وَدَانَتْ لَهُ الأَشْيَاء وَالمَخْلُوقَات بِأَسْرِهَا؛ جَمَادَاتهَا وَحَيَوَانَاتهَا وَمُكَلَّفُوهَا؛ مِنْ الإِنْس وَالجِنّ وَالمَلَائِكَة، فَأَخْبَرَ أَنَّ كُلّ مَا لَهُ ظِلّ يَتَفَيَّأ ذَات اليَمِين وَذَات الشِّمَال، أَيْ: بُكْرَة وَعَشِيًّا فَإِنَّهُ سَاجِد بِظِلِّهِ لله تَعَالَى. قَالَ مُجَاهِد: إِذَا زَالَتْ الشَّمْس سَجَدَ كُلّ شَيْء لله ﷻ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَة وَالضَّحَّاك وَغَيْرهمْ. وَقَوْله: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أَيْ: صَاغِرُونَ. وَقَالَ مُجَاهِد أَيْضًا: سُجُود كُلّ شَيْء فَيْؤُهُ. وَذَكَرَ الجِبَال قَالَ: سُجُودهَا فَيْؤُهَا. وَقَالَ أَبُو غَالِب الشَّيْبَانِيّ: أَمْوَاج البَحْر صَلَاته. وَنَزَّلَهُمْ مَنْزِلَة مَنْ يَعْقِل إِذْ أَسْنَدَ السُّجُود إِلَيْهِمْ. فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩﴾. وَقَوْله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيْ: تَسْجُد لله، أَيْ: غَيْر مُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَته. ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أَيْ: يَسْجُدُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ مِنْ الرَّبّ جَلَّ جَلَاله، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أَيْ: مُثَابِرِينَ عَلَى طَاعَته تَعَالَى، وَامْتِثَال أَوَامِره، وَتَرْك زَوَاجِره.

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

يقرر تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا تَنْبَغِي العِبَادَة إِلَّا لَهُ وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، فَإِنَّهُ مَالِك كُلّ شَيْء وَخَالِقه وَرَبّه، ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ قَالَ اِبْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَمَيْمُون بْن مِهْرَان وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد: أَيْ: دَائِمًا. وَعَنْ اِبْن عَبَّاس أَيْضًا: أَيْ: وَاجِبًا. وَقَالَ مُجَاهِد: أَيْ: خَالِصًا. أَيْ: لَهُ العِبَادَة وَحْده مِمَّنْ فِي السَّمَاوَات وَالأَرْض، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ هَذَا عَلَى قَوْل اِبْن عَبَّاس وَعِكْرِمَة فَيَكُون مِنْ بَاب الخَبَر، وَأَمَّا عَلَى قَوْل مُجَاهِد فَإِنَّهُ يَكُون مِنْ بَاب الطَّلَب، أَيْ: اِرْهَبُوا أَنْ تُشْرِكُوا به شَيْئًا، وَأَخْلِصُوا له الطلب، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَالِك النَّفْع وَالضُّرّ، وَأَنَّ مَا بالعباد مِنْ رِزْق وَنِعْمَة وَعَافِيَة وَنَصْر، فَمِنْ فَضْله عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانه إِلَيْهِمْ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أَيْ: لِعِلمِكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِر عَلَى إِزَالَته إِلَّا هُوَ؛ فَإِنَّكُمْ عِنْد الضَّرُورَات تَلجَئُونَ إِلَيْهِ وَتَسْأَلُونَهُ، وَتُلِحُّونَ فِي الرَّغْبَة مُسْتَغِيثِينَ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قِيلَ: اللَّام هَاهُنَا لَام العَاقِبَة. وَقِيلَ: لَام التَّعْلِيل. بِمَعْنَى: قَيَّضْنَا لَهُمْ ذَلِكَ لِيَكْفُرُوا، أَيْ: يَسْتُرُوا وَيَجْحَدُوا نِعَم الله عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ المُسْدِي إِلَيْهِمْ النِّعَم، الكَاشِف عَنْهُمْ النِّقَم.

ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ قَائِلًا: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أَيْ: اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، وَتَمَتَّعُوا بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ قَلِيلًا؛ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: عَاقِبَة ذَلِكَ.

---

(١) صحيح: تقدم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

يُخْبِر تَعالَى عَنْ قَبَائِح الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ الله غَيْره مِنْ الأَصْنَام وَالأَوْثَان وَالأَنْدَاد، وَجَعَلُوا لها نَصِيبًا مِمَّا رَزَقَهُمْ الله، فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيْ: جَعَلُوا لِآلِهَتِهِمْ نَصِيبًا مَعَ الله، وَفَضَّلُوهُمْ عَلَى جَانِبه، فَأَقْسَمَ الله تَعَالَى بِنَفْسِهِ الكَرِيمَة، لَيَسْأَلَنَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي اِفْتَرَوْهُ وَائْتَفَكُوهُ، ولَيُقَابِلَنَّهُم عَلَيْهِ، ولَيُجَازِيَنَّهُم أَوْفَر الجَزَاء فِي نَار جَهَنَّم، فَقَالَ: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ: أَنَّهُمْ جَعَلُوا المَلَائِكَة الَّذِينَ هُمْ عِبَاد الرَّحْمَن إِنَاثًا، وَجَعَلُوهَا بَنَات الله فَعَبَدُوهَا مَعَهُ، فَأَخْطَئُوا خَطَأً كَبِيرًا فِي كُلّ مَقَام مِنْ هَذِهِ المَقَامَات الثَّلَاث، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ تَعَالَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَلَا وَلَد لَهُ، ثُمَّ أَعْطَوْهُ أَخَسّ القِسْمَيْنِ مِنْ الأَوْلَاد: وَهُوَ البَنَات، وَهُمْ لَا يَرْضَوْنَهَا لِأَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾. وَقَوْله هَاهُنَا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ أَيْ: فمنْ قَوْلهمْ وَإِفْكهمْ: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أَيْ: يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ الذُّكُور، وَيَأْنَفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ البَنَات الَّتِي نَسَبُوهَا إِلَى الله، تَعَالَى الله عَنْ قَوْلهمْ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِنَّهُ: ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أَيْ: كَئِيبًا مِنْ الهَمّ، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ سَاكِت مِنْ شِدَّة مَا هُوَ فِيهِ مِنْ الحُزْن. ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أَيْ: يَكْرَه أَنْ يَرَاهُ النَّاس ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أَيْ: إِنْ أَبْقَاهَا أَبْقَاهَا مُهَانَة لَا يُوَرِّثهَا وَلَا يَعْتَنِي بِهَا، وَيُفَضِّل أَوْلَاده الذُّكُور عَلَيْهَا، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أَيْ: يَئِدهَا، وَهُوَ أَنْ يَدْفِنهَا فِيهِ حَيَّة، كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي الجَاهِلِيَّة، أَفَمَنْ يَكْرَهُونَهُ هَذِهِ الكَرَاهَة وَيَأْنَفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَنْهُ يَجْعَلُونَهُ لله؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيْ: بِئْسَ مَا قَالُوا، وَبِئْسَ مَا قَسَمُوا، وَبِئْسَ مَا نَسَبُوا إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، وَقَال هَاهُنَا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أَيْ: النَّقْص إِنَّمَا يُنْسَب إِلَيْهِمْ، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أَيْ: الكَمَال المُطْلَق مِنْ كُلّ وَجْه، وَهُوَ مَنْسُوب إِلَيْهِ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ حِلمه بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلمهمْ، وَأَنَّهُ لَوْ يُؤَاخِذهُمْ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْر الأَرْض مِنْ دَابَّة، أَيْ: لَأَهْلَكَ جَمِيع دَوَابّ الأَرْض تَبَعًا لِإِهْلَاكِ بَنِي آدَم، وَلَكِنْ الرَّبّ جَلَّ جَلَالُهُ يَحْلُم وَيَسْتُر، وَيَنْظُر. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيْ: لَا يُعَاجِلهُمْ بِالعُقُوبَة، إِذْ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لَمَا أَبْقَى أَحَدًا. قَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، أَنَّهُ قَالَ: كَادَ الجُعَل أَنْ يُعَذَّب بِذَنْبِ بَنِي آدَم، وَقَرَأَ الآيَة: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾. وَكَذَا رَوَى الأَعْمَش، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، قَالَ: قَالَ عَبْد الله: كَادَ الجُعَل أَنْ يَهْلِك فِي جُحْره بِخَطِيئَةِ بَنِي آدَم.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بن الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن حَكِيم الْخُزَاعِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَابِر الْحَنَفِيّ، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ أَبِي سَلَمَة، قَالَ: سَمِعَ أَبُو هُرَيْرَة رَجُلًا وَهُوَ يَقُول: إِنَّ الظَّالِم لَا يَضُرّ إِلَّا نَفْسه، قَالَ: فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: بَلَى وَالله حَتَّى إِنَّ الْحُبَارَى لَتَمُوت فِي وَكْرهَا هُزَالًا بِظُلْمِ الظَّالِم.

وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الْحُسَيْن، أَنْبَأَنَا الْوَلِيد بْن عَبْد الْمَلِك بن عُبَيْد الله بْن مسرح، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان ابْن عَطَاء، عَنْ مَسْلَمَة بْن عَبْد الله، عَنْ عَمّه أَبِي مَشْجَعَة ابْن رِبْعِيّ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رضي الله عنه قَالَ: ذَكَرْنَا عِنْد رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: **«إِنَّ الله لَا يُؤَخِّر شَيْئًا إِذَا جَاءَ أَجَله، وَإِنَّمَا زِيَادَة الْعُمُر بِالذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَة يَرْزُقهَا الله الْعَبْد، فَيَدْعُونَ لَهُ مِنْ بَعْده فَيَلْحَقهُ دُعَاؤُهُمْ فِي قَبْره، فَذَلِكَ زِيَادَة الْعُمُر»**[1].

وَقَوْله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أَيْ: مِنْ الْبَنَات، وَمِنْ الشُّرَكَاء الَّذِينَ هُمْ عَبِيده، وَهُمْ يَأْنَفُونَ أَنْ يَكُون عِنْد أَحَدهمْ شَرِيك لَهُ فِي مَاله. وَقَوْله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ إِنْكَار عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ مَعَ ذَلِكَ: أَنَّ لَهُمْ الْحُسْنَى فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَاد فَفِيهِ أَيْضًا لَهُمْ الْحُسْنَى، وَإِخْبَار عَنْ قِيلِ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، وَقَوْله: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾، وَقَوْله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، وَقَالَ إِخْبَارًا عَنْ أَحَد الرَّجُلَيْنِ إِنَّهُ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ فَجَمَعَ هَؤُلَاءِ بَيْن عَمَل السُّوء وَتَمَنِّي الْبَاطِل بِأَنْ يُجَازَوْا عَلَى ذَلِكَ حَسَنًا، وَهَذَا مُسْتَحِيل، كَمَا ذَكَرَ ابْن إِسْحَاق: أَنَّهُ وُجِدَ حَجَر فِي أَسَاس الْكَعْبَة حِين نَقَضُوهَا لِيُجَدِّدُوهَا مَكْتُوب عَلَيْهِ حِكَم وَمَوَاعِظ، فَمِنْ ذَلِكَ: تَعْمَلُونَ السَّيِّئَات وَتُجْزَوْنَ الْحَسَنَات؟ أَجَل كَمَا يُجْتَنَى مِنْ الشَّوْك الْعِنَب.

وَقَالَ مُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أَيْ: الْغِلْمَان. وَقَالَ ابْن جَرِير: ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أَيْ: يَوْم الْقِيَامَة. كَمَا قَدَّمْنَا بَيَانه وَهُوَ الصَّوَاب وَلله الْحَمْد. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي تَمَنِّيهِمْ ذَلِكَ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أَيْ: حَقًّا لَابُدّ مِنْهُ ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أَيْ: يَوْم الْقِيَامَة ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾. قَالَ مُجَاهِد وَسَعِيد ابْن جُبَيْر وَقَتَادَة وَغَيْرهمْ: مَنْسِيُّونَ فِيهَا مُضَيَّعُونَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾. وَعَنْ قَتَادَة أَيْضًا: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أَيْ: مُعَجَّلُونَ إِلَى النَّار، مِنْ الْفَرَط وَهُوَ السَّابِق إِلَى الْوِرْد، وَلَا مُنَافَاة؛ لِأَنَّهُمْ يُعَجَّل بِهِمْ يَوْم الْقِيَامَة إِلَى النَّار وَيُنْسَوْنَ فِيهَا، أَيْ: يُخَلَّدُونَ.

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

يَذْكُر تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْأُمَم الْخَالِيَة رُسُلًا فَكَذَّبَتْ الرُّسُل، فَلَكَ يَا مُحَمَّد فِي إِخْوَانك مِنْ الْمُرْسَلِينَ أُسْوَة، فَلَا يَهِيدَنَّكَ تَكْذِيب قَوْمك لَكَ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُل، فَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَزْيِين الشَّيْطَان لَهُمْ مَا فَعَلُوهُ، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أَيْ: هُمْ تَحْت الْعُقُوبَة وَالنَّكَال، وَالشَّيْطَان وَلِيّهمْ وَلَا يَمْلِك لَهُمْ خَلَاصًا، وَلَا صَرِيخ لَهُمْ، وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم.

---

(١) منكر: أورده الألباني في «الضعيفة» (٥٣٢٣) وقال: منكر.

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليك الكتاب؛ ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: لمن تمسك به ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.
وَكَمَا جَعَلَ سُبْحَانه القُرْآن حَيَاة لِلقُلُوبِ المَيِّتَة بِكُفرِهَا، كَذَلِكَ يُحْيِي الأَرْض بَعْد مَوْتهَا بِمَا ينزله عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاء مِنْ مَاء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَيْ: يَفْهَمُونَ الكَلَام وَمَعْنَاهُ.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاس ﴿فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وَهِيَ الإِبِل وَالبَقَر وَالغَنَم ﴿لَعِبْرَةً﴾ أَيْ: لَآيَة وَدَلَالَة عَلى حِكْمَة خَالِقهَا وَقُدْرَته وَرَحْمَته وَلُطْفه، ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ وَأفرد هَاهُنَا عَوْدًا عَلَى مَعْنَى النَّعَم، أَوْ الضَّمِير عَائِد عَلَى الحَيَوَان، فَإِنَّ الأَنْعَام حَيَوَانَات، أَيْ: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطْن هَذَا الحَيَوَان. وَفِي الآيَة الأُخْرَى ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ وَيَجُوز هَذَا وَهَذَا، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ وَفِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أَيْ: المَال.
وَقَوْله: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أَيْ: يَتَخَلَّص الدَّم بَيَاضه وَطَعْمه وَحَلَاوَته مِنْ بَيْن فَرْث وَدَم فِي بَاطِن الحَيَوَان، فَيَسْرِي كُلّ إِلَى مَوْطِنه إِذَا نَضِجَ الغِذَاء فِي مَعِدَته، تصرَّف مِنْهُ دَم إِلَى العُرُوق، وَلَبَن إِلَى الضَّرْع، وَبَوْل إِلَى المَثَانَة، وَرَوْث إِلَى المَخْرَج، وَكُلّ مِنْهَا لَا يَشُوب الآخَر، وَلَا يُمَازِجهُ بَعْد اِنْفِصَاله عَنْهُ وَلَا يَتَغَيَّر بِهِ.
وَقَوْله: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أَيْ: لَا يُغَصّ بِهِ أَحَد. وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّبَن، وَأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُ شَرَابًا لِلنَّاسِ سَائِغًا، ثَنَّى بِذِكْرِ مَا يَتَّخِذهُ النَّاس مِنَ الأَشْرِبَة مِنْ ثَمَرَات النَّخِيل وَالأَعْنَاب، وَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَه مِنَ النَّبِيذ المُسْكِر قَبْل تَحْرِيمه، وَلِهَذَا اِمْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دَلَّ عَلَى إِبَاحَته شَرْعًا قَبْل تَحْرِيمه، وَدَلَّ عَلَى التَّسْوِيَة بَيْن المُسْكِر المُتَّخَذ مِنَ النَّخْل وَالمُتَّخَذ مِنَ العِنَب، كَمَا هُوَ مَذْهَب مَالِك وَالشَّافِعِيّ وَأَحْمَد وَجُمْهُور العُلَمَاء، وَكَذَا حُكْم سَائِر الأَشْرِبَة المُتَّخَذَة مِنَ الحِنْطَة وَالشَّعِير وَالذُّرَة وَالعَسَل، كَمَا جَاءَتْ السُّنَّة بِتَفْصِيلِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِع بَسْط ذَلِكَ، كَمَا قَالَ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قَالَ: السَّكَر مَا حَرُمَ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا، وَالرِّزْق الحَسَن مَا أُحِلّ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا، وَفِي رِوَايَة: السَّكَر حَرَامه، وَالرِّزْق الحَسَن حَلَاله. يَعْنِي: مَا يَبِس مِنْهُمَا مِنْ تَمْر وَزَبِيب، وَمَا عُمِلَ مِنْهُمَا مِنْ طِلَاء -وَهُوَ الدِّبْس- وَخَلّ وَنَبِيذ حَلَال يُشْرَب قَبْل أَنْ يَشْتَدّ، كَمَا وَرَدَتْ السُّنَّة بِذَلِكَ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ نَاسَبَ ذِكْر العَقْل هَاهُنَا، فَإِنَّهُ أَشْرَف مَا فِي الإِنْسَان، وَلِهَذَا حَرَّمَ الله عَلَى هَذِهِ الأُمَّة الأَشْرِبَة المُسْكِرَة صِيَانَة لِعُقُولِهَا، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

المُرَاد بِالوَحْيِ هاهُنَا: الإِلهَام وَالهِدَايَة وَالإِرْشَاد لِلنَّحْلِ أَنْ تَتَّخِذ مِنَ الجِبَال بُيُوتًا تَأْوِي إِلَيْهَا، وَمِنْ الشَّجَر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ هِيَ مُحْكَمَة فِي غَايَة الإِتْقَان فِي تَسْدِيسهَا وَرَصّهَا، بِحَيْثُ لَا يَكُون بينها خَلَل.
ثُمَّ أَذِنَ لَهَا تَعَالَى إِذْنًا قَدَرِيًّا تَسْخِيرِيًا أَنْ تَأْكُل مِنْ كُلّ الثَّمَرَات، وَأَنْ تَسْلُك الطُّرُق الَّتِي جَعَلَهَا الله تَعَالَى مُذَلَّلَة

لَهَا، أَيْ: سَهْلَة عَلَيْهَا حَيْثُ شَاءَتْ فِي هَذَا الجَوّ العَظِيم، وَالبَرَارِيّ الشَّاسِعَة، وَالأَوْدِيَة، وَالجِبَال الشَّاهِقَة، ثُمَّ تَعُود كُلّ وَاحِدَة مِنْهَا إِلَى موضعها وبَيْتهَا، لَا تَحِيد عَنْهُ يَمْنَة وَلَا يَسْرَة، بَل إِلَى بَيْتهَا وَمَا لَهَا فِيهِ مِنْ فِرَاخ وَعَسَل، فَتَبْنِي الشَّمْع مِنْ أَجْنِحَتهَا، وَتَقِيء العَسَل مِنْ فِيهَا، وَتَبِيض الفِرَاخ مِنْ دُبُرهَا، ثُمَّ تُصْبِح إِلَى مَرَاعِيهَا.

وَقَالَ قَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أَيْ: مُطِيعَة. فَجَعَلَاهُ حَالًا مِنَ السَّالِكَة، قَالَ اِبْن زَيْد: وَهُوَ كَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ قَالَ: أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَنْقُلُونَ النَّحْل بِبُيُوتِهِ مِنْ بَلَد إِلَى بَلَد وَهُوَ يَصْحَبهُمْ؟. وَالقَوْل الأَوَّل هُوَ الأَظْهَر، وَهُوَ أَنَّهُ حَال مِنْ الطَّرِيق، أَيْ: فَاسْلُكِيهَا مُذَلَّلَة لَك، نَصَّ عَلَيْهِ مُجَاهِد، وَقَالَ اِبْن جَرِير: كِلَا القَوْلَيْنِ صَحِيح. وَقَدْ قَالَ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا شَيْبَان بْن فَرُّوخ، حَدَّثَنَا سُكَيْن بْن عَبْد العَزِيز، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَنَس قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**عُمْر الذُّبَاب أَرْبَعُونَ يَوْمًا، وَالذُّبَاب كُلّه فِي النَّار إِلا النَّحْل**»[1].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: مَا بَيْن أَبْيَض وَأَصْفَر وَأَحْمَر، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الأَلْوَان الحَسَنَة. عَلَى اِخْتِلَاف مَرَاعِيهَا وَمَأْكَلهَا مِنْهَا. وَقَوْله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أَيْ: فِي العَسَل شِفَاء لِلنَّاسِ، مِنْ أَدْوَاء تَعْرِض لَهُمْ. قَالَ بَعْض مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى الطِّبّ النَّبَوِيّ: لَوْ قَالَ: فِيهِ الشِّفَاء لِلنَّاسِ، لَكَانَ دَوَاء لِكُلِّ دَاء، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أَيْ: يَصْلُح لِكُلِّ أَحَد مِنْ أَدْوَاء بَارِدَة فَإِنَّهُ حَارّ، وَالشَّيْء يُدَاوَى بِضِدِّهِ.

وَقَالَ مُجَاهِد بن جبر فِي قَوْله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يَعْنِي: القُرْآن. وَهَذَا قَوْل صَحِيح فِي نَفْسه، وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ الظَّاهِر هَاهُنَا مِنْ سِيَاق الآيَة؛ فَإِنَّ الآيَة إِنَّمَا ذَكَرَ فِيهَا العَسَل، وَلَمْ يُتَابَع مُجَاهِد عَلَى قَوْله هَاهُنَا، وَإِنَّمَا الَّذِي قَالَهُ ذَكَرُوهُ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَالدَّلِيل عَلَى أَنَّ المُرَاد بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ هُوَ العَسَل؛ الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِم فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ رِوَايَة قَتَادَة، عَنْ أَبِي المُتَوَكِّل عَلِيّ بْن دَاوُد النَّاجِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه، جَاءَ رجل إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي اِسْتَطْلَقَ بَطْنه. فَقَالَ: «**اِسْقِهِ عَسَلاً**». قال: فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله سَقَيْته عَسَلًا فَمَا زَادَهُ إِلَّا اِسْتِطْلَاقًا. قَالَ: «**اِذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلاً**» فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، مَا زَادَهُ إِلَّا اِسْتِطْلَاقًا. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**صَدَقَ الله وَكَذَبَ بَطْن أَخِيك، اِذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلاً**». فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا فَبَرِئَ[2].

قَالَ بَعْض العُلَمَاء بِالطِّبّ: كَانَ هَذَا الرَّجُل عِنْده فَضَلَات، فَلَمَّا سَقَاهُ عَسَلًا وَهُوَ حَارّ تَحَلَّلَتْ، فَأَسْرَعَتْ فِي الِانْدِفَاع فَزَادَهُ إِسْهَالًا، فَاعْتَقَدَ الأَعْرَابِيّ أَنَّ هَذَا يَضُرّهُ وَهُوَ مَصْلَحَة لِأَخِيهِ ثُمَّ سَقَاهُ فَازْدَادَ التَّحْلِيل وَالدَّفْع، ثُمَّ سَقَاهُ فَكَذَلِكَ، فَلَمَّا اِنْدَفَعَتْ الفَضَلَات الفَاسِدَة المُضِرَّة بِالبَدَنِ اِسْتَمْسَكَ بَطْنه، وَصَلُحَ مِزَاجه، وَانْدَفَعَتْ الأَسْقَام وَالآلَام، بِبَرَكَةِ إِشَارَته عَلَيْهِ مِنْ رَبّه أَفْضَل الصَّلَاة وَالسَّلَام. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُول الله ﷺ، كَانَ يُعْجِبهُ الحَلْوَاء وَالعَسَل»[3]. هَذَا لَفْظ البُخَارِيّ.

وَفِي صَحِيح البُخَارِيّ: مِنْ حَدِيث سَالِم الأَفْطَس، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**الشِّفَاء فِي ثَلَاثَة: فِي شَرْطَة مِحْجَم، أَوْ شَرْبَة عَسَل، أَوْ كَيَّة بِنَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنْ الكَيّ**»[4].

---

(١) **حسن الإسناد**: أخرجه أبو يعلى (٧/ ٢٣٠) من حديث أنس، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٦٠) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٦١٤)، ومسلم (١٤٧٤).
(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٦٨٠).

وَقَالَ الْبُخَارِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن الْغَسِيل، عَنْ عَاصِم بْن عُمَر بْن قَتَادَة، سَمِعْت جَابِر بْن عَبْد الله، قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ، يَقُول: «إِنْ كَانَ فِي شَيْء مِنْ أَدْوِيَتكُمْ أَوْ يَكُون فِي شَيْء مِنْ أَدْوِيَتكُمْ خَيْر: فَفِي شَرْطَة مِحْجَم، أَوْ شَرْبَة عَسَل، أَوْ لَذْعَة بِنَار تُوَافِق الدَّاء، وَمَا أُحِبّ أَنْ أَكْتَوِي»[1]. وَرَوَاهُ مُسْلِم: مِنْ حَدِيث عَاصِم بْن عُمَر بْن قَتَادَة، عَنْ جَابِر بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن إِسْحَاق، أَنْبَأَنَا عَبْد الله، أَنْبَأَنَا سَعِيد بْن أَبِي أَيُّوب، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن الْوَلِيد، عَنْ أَبِي الْخَيْر، عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر الْجُهَنِيّ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «ثَلَاث إِنْ كَانَ فِي شَيْء شِفَاء: فَشَرْطَة مِحْجَم، أَوْ شَرْبَة عَسَل، أَوْ كَيَّة تُصِيب أَلَمًا، وَأَنَا أَكْرَه الْكَيّ وَلَا أُحِبّهُ»[2]. وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ: عَنْ هَارُون ابْن مَلُول الْمِصْرِيّ، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الْمُقْرِئ، عَنْ عَبْد الله بْن الْوَلِيد بِهِ، وَلَفْظه: «إِنْ كَانَ فِي شَيْء شِفَاء: فَشَرْطَة مِحْجَم». وَذَكَرَهُ وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ. وَقَالَ الإِمَام أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد بْن يَزِيد ابْن مَاجَهْ الْقَزْوِينِيّ فِي سُنَنه: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن سَلَمَة -هُوَ اللبقي-، حَدَّثَنَا زَيْد بْن الْحُبَاب ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي إِسْحَاق ، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عن عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود- قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْعَسَل، وَالْقُرْآن»[3]. وَهَذَا إِسْنَاد جَيِّد، تَفَرَّدَ بِإِخْرَاجِهِ ابْن مَاجَهْ مَرْفُوعًا. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ سُفْيَان بْن وَكِيع، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سُفْيَان -هُوَ الثَّوْرِيّ- به مَوْقُوفًا، وَهُوَ أَشْبَه.

وَرُوِّينَا عَنْ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: إِذَا أَرَادَ أَحَدكُمْ الشِّفَاء فَلْيَكْتُبْ آيَة مِنْ كِتَاب الله فِي صحفة، وَلْيَغْسِلهَا بِمَاءِ السَّمَاء وَلْيَأْخُذْ مِنْ امْرَأَته دِرْهَمًا عَنْ طِيب نَفْس مِنْهَا فَلْيَشْتَرِ بِهِ عَسَلًا، فَلْيَشْرَبْهُ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ شِفَاء: أَيْ: مِنْ وُجُوه؛ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾، وَقَالَ: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾، وَقَالَ فِي الْعَسَل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

وَقَالَ ابْن مَاجَهْ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مَحْمُود بْن خِدَاش، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن زَكَرِيَّا الْقُرَشِيّ، حَدَّثَنَا الزُّبَيْر بْن سَعِيد الْهَاشِمِيّ، عَنْ عَبْد الْحَمِيد بْن سَالِم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ لَعِقَ الْعَسَل ثَلَاث غَدَوَات فِي كُلّ شَهْر لَمْ يُصِبْهُ عَظِيم مِنْ الْبَلَاء»[4]. الزُّبَيْر بْن سَعِيد مَتْرُوك. وَقَالَ ابْن مَاجَهْ أَيْضًا: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن يُوسُف بْن سَرْح الْفِرْيَابِيّ، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن بكر السَّكْسَكِيّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن أَبِي عَبْلَة، سَمِعْت أَبَا أُبَيّ ابْن أُمّ حَرَام وَكَانَ قَدْ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ، يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «عَلَيْكُمْ بِالسَّنَا وَالسَّنُّوت؛ فَإِنَّ فِيهِمَا شِفَاء مِنْ كُلّ دَاء إِلَّا السَّام». قِيلَ: يَا رَسُول الله، وَمَا السَّام؟ قَالَ: «الْمَوْت»[5]. قَالَ عَمْرو، قَالَ ابْن أَبِي عَبْلَة: السَّنُّوت: الشِّبِت. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ الْعَسَل، الَّذِي يكون فِي زِقَاق السَّمْن وَهُوَ قَوْل الشَّاعِر:

هُمْ السَّمْن بِالسَّنُّوتِ لَا أَلْس فِيهِمْ ۞ وَهُمْ يَمْنَعُونَ الْجَار أَنْ يتقردا

كَذَا رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ، وَقَوْله: لَا أَلْس فِيهِمْ، أَيْ: لَا خَلط، وَقَوْله: «يَمْنَعُونَ الْجَار أَنْ يتقَرَّدَا» أَيْ: يُضْطَهَد وَيُظْلَم.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيْ: إِنَّ فِي إِلْهَام الله لِهَذِهِ الدَّوَابّ الضَّعِيفَة الْخِلْقَة، إِلَى السُّلُوك فِي هَذِهِ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٦٤) من حديث عقبة بن عامر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٢٦).
(٣) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٢)، والبيهقي (٩/ ٣٤٤)، وقال: رفعه غير معروف والصحيح موقوف، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٢٠٣).
(٤) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٠)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ١٣٠)، وأبو يعلى (١١/ ٢٩٩) من حديث أبي هريرة، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨٣١).
(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٧).

المَهامِة، وَالإِجْتِنَاء مِنْ سَائِرِ الثِّمار، ثُمَّ جَمْعهَا لِلشَّمْع وَالعَسَل وَهُوَ مِنْ أَطْيَب الأَشْيَاء؛ لَآيَة لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي عَظَمَة خَالِقهَا وَمُقَدِّرهَا وَمُسَخِّرهَا وَمُيَسِّرهَا، فَيَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ القَادِر الحَكِيم العَلِيم الكَرِيم الرَّحِيم.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم: وهو الضعف في الخلقة، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾. وقد رُوي عن علي ﷺ، في ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ قال: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى، والخرف، وسوء الحفظ، وقلة العلم؛ ولهذا قال: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: بعد ما كان عالمًا أصبح لا يدري شيئًا من الفند والخرف؛ ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى -أبو عبد الله الأعور-، عن شعيب، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ كان يدعو: **«أعوذ بك من البخل والكسل والهرم، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»**[1]. ورواه: وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته الشهيرة:

سَئِمتُ تَكَاليفَ الحَيَاةِ ومَن يَعِشْ ۞ ثَمَانينَ عامًا لا أبا لَكَ يَسأَمِ
رأيتُ المنايا خَبطَ عَشْواء مَنْ تُصِبْ ۞ تُمِتْهُ ومَنْ تُخطِئْ يُعَمَّر فيَهْرَمِ

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

يُبَيِّن تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ جَهْلهمْ وَكُفْرهمْ فِيمَا زَعَمُوهُ لله مِنْ الشُّرَكَاء، وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا عَبِيد لَهُ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتهمْ فِي حَجّهمْ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيك لَك إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك تَمْلِكهُ وَمَا مَلَكَ. فَقَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ: إنكم لَا تَرْضَوْنَ أَنْ تُسَاوَوْا عَبِيدكُمْ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ، فَكَيْف يَرْضَى هُوَ تَعَالَى بِمُسَاوَاةِ عَبِيده لَهُ فِي الإِلَهِيَّة وَالتَّعْظِيم، كَمَا قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ الآيَة. قَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: يَقُول: لَمْ يَكُونُوا لِيُشْرِكُوا عَبِيدهمْ فِي أَمْوَالهمْ وَنِسَائِهِمْ، فَكَيْف يُشْرِكُونَ عَبِيدِي مَعِي فِي سُلْطَانِي، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾. وَقَالَ فِي الرِّوَايَة الأُخْرَى عَنْهُ: فَكَيْف تَرْضَوْنَ لِي مَا لَا تَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِكُمْ.

وَقَالَ مُجَاهِد فِي هَذِهِ الآيَة: هَذَا مَثَل الآلِهَة البَاطِلَة. وَقَالَ قَتَادَة: هَذَا مَثَل ضَرَبَهُ الله: فَهَل مِنْكُمْ مِنْ أَحَد شَارَكَهُ مَمْلُوكه فِي زَوْجَته وَفِي فِرَاشه، فَتَعْدِلُونَ بِالله خَلقه وَعِبَاده؟ فَإِنْ لَمْ تَرْضَ لِنَفْسِك هَذَا فَالله أَحَقّ أَنْ يُنَزَّه مِنْك. وَقَوْله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أَيْ: أَنَّهُمْ جَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الحَرْث وَالأَنْعَام نَصِيبًا، فَجَحَدُوا نِعْمَته وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْره. وَعَنْ الحَسَن البَصْرِيّ قَالَ: كَتَبَ عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ، هَذِهِ الرِّسَالَة إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ: وَاقْنَعْ بِرِزْقِك مِنْ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الرَّحْمَن فَضَّلَ بَعْض عِبَاده عَلَى بَعْض فِي الرِّزْق، بل يَبْتَلِي بِهِ كُلًّا فَيَبْتَلِي مَنْ بَسَطَ لَهُ كَيْف شُكْره لله، وَأَدَاؤُهُ الحَقّ الَّذِي اِفْتَرَضَ عَلَيْهِ فِيمَا رَزَقَهُ وَخَوَّلَهُ. رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

يَذْكُر تَعَالَى نِعَمه عَلَى عَبِيده، بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسهمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسهمْ وَشَكْلهمْ، وَلَوْ جَعَلَ الأَزْوَاج

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٠٧).

مِنْ نَوْعٍ آخر لما حَصَلَ الإِئْتِلَاف وَالمَوَدَّة وَالرَّحْمَة، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَته خَلَقَ مِنْ بَنِي آدَم ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَجَعَلَ الإِنَاث أَزْوَاجًا لِلذُّكُور. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ الأَزْوَاج البَنِينَ وَالحَفَدَة وَهُمْ أَوْلَاد البَنِينَ. قَالَهُ اِبْن عَبَّاس وَعِكْرِمَة وَالحَسَن وَالضَّحَّاك وَابْن زَيْد. قَالَ شُعْبَة، عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ هُمْ: الوَلَد وَوَلَد الوَلَد. وَقَالَ سُنَيْد: حَدَّثَنَا حَجَّاج، عَنْ أَبِي بَكْر، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: بَنُوك حين يَحْفِدُونَك وَيَرْفِدُونَك وَيُعِينُونَك وَيَخْدُمُونَك. قَالَ جَمِيل:

حَفَدَ الوَلَائِد حَوْلَهُنَّ وَأَسْلَمَتْ ❁ بِأَكُفِّهِنَّ أَزِمَّة الأَجْمَال

وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: اِبْنه وَخَادِمه. وَقَالَ فِي رِوَايَة: الحَفَدَة: الأَنْصَار وَالأَعْوَان وَالخُدَّام. وَقَالَ طَاوُس: الحَفَدَة: الخَدَم. وَكَذَا قَالَ قَتَادَة وَأَبُو مَالِك وَالحَسَن البَصْرِيّ. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا مَعْمَر، عَنْ الحَكَم بْن أَبَان، عَنْ عِكْرِمَة، أَنَّهُ قَالَ: الحَفَدَة: مَنْ خَدَمَك مِنْ وَلَدك وَوَلَد وَلَدك. وقَالَ الضَّحَّاك: إِنَّمَا كَانَتْ العَرَب يخدمها بَنُوهَا. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس قَوْله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يَقُول: بَنُو اِمْرَأَة الرَّجُل لَيْسُوا مِنْهُ. وَيُقَال: الحَفَدَة الرَّجُل يَعْمَل بَيْن يَدَيْ الرَّجُل. يُقَال: فُلَان يَحْفِد لَنَا. أَيْ: يَعْمَل لَنَا. قَالَ: وَزَعَمَ رِجَال أَنَّ الحَفَدَة أَخْتَان الرَّجُل. وَهَذَا الأَخِير الَّذِي ذَكَرَهُ اِبْن عَبَّاس قَالَهُ اِبْن مَسْعُود وَمَسْرُوق وَأَبُو الضُّحَى وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَمُجَاهِد وَالقُرَظِيّ، وَرَوَاهُ عِكْرِمَة عَنْ اِبْن عَبَّاس. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: هُمْ الأَصْهَار.

قَالَ اِبْن جَرِير: وَهَذِهِ الأَقْوَال كُلّهَا دَاخِلَة فِي مَعْنَى الحَفْد، وَهُوَ الخِدْمَة، الَّذِي مِنْهُ قَوْله فِي القُنُوت: وَإِلَيْك نَسْعَى وَنَحْفِد. وَلَمَّا كَانَتْ الخِدْمَة قَدْ تَكُون مِنَ الأَوْلَاد وَالخُدَّام وَالأَصْهَار، فَالنِّعْمَة حَاصِلَة بِهَذَا كُلّه، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قُلت: فَمَنْ جَعَلَ ﴿وَحَفَدَةً﴾ مُتَعَلِّقًا بِأَزْوَاجِكُمْ فَلَابُدّ أَنْ يَكُون المُرَاد: الأَوْلَاد، وَأَوْلَاد الأَوْلَاد. أَوْ: الأَصْهَار؛ لأَنَّهُمْ أَزْوَاج البَنَات أَوْ أَوْلَاد الزَّوْجَة. وَكَذَا قَالَ الشَّعْبِيّ وَالضَّحَّاك، فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ غَالِبًا تَحْت كَنَف الرَّجُل وَفِي حِجْره وَفِي خِدْمَته، وَقَدْ يَكُون هَذَا هُوَ المُرَاد مِنْ قَوْله ﷺ فِي حَدِيث بصرة بْن أَكْثَم: «وَالوَلَد عَبْد لَك»[1]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُد. وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ الحَفَدَة هو الخَدَم فَعِنْده أَنَّهُ مَعْطُوف عَلَى قَوْله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أَيْ: وَجَعَلَ لَكُمْ الأَزْوَاج وَالأَوْلَاد.

وَقَوْله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أَيْ: مِنَ المَطَاعِم وَالمَشَارِب. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَة المُنْعِم غَيْره: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وَهُمْ الأَنْدَاد وَالأَصْنَام، ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يَسْتُرُونَ نِعَم الله عَلَيْهِمْ، وَيُضِيفُونَهَا إِلَى غَيْره. وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح: **«إِنَّ الله يَقُول لِلعَبْدِ يَوْم القِيَامَة مُمْتَنًّا عَلَيْهِ: أَلَمْ أُزَوِّجك؟ أَلَمْ أُكْرِمك؟ أَلَمْ أُسَخِّر لَك الخَيْل وَالإِبِل، وَأَذَرْك تَرْأَس وَتَرْبَع؟»**[2].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

يَقُول تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْره، مَعَ أَنَّهُ هُوَ المُنْعِم المُتَفَضِّل الخَالِق الرَّازِق وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونه مِنَ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد وَالأَوْثَان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أَيْ: لَا يَقْدِر عَلَى إِنْزَال مَطَر، وَلَا إِنْبَات زَرْع وَلَا شَجَر، وَلَا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ، أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢١٣١) بسند ضعيف فيه ابن جريج: مدلس وقد عنعن، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».
(٢) صحيح: أخرجه ابن حبان (٤٦٤٢، ٧٣٦٧، ٧٤٤٥)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تعليقه على ابن حبان.

ذَلِكَ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ لَوْ أَرَادُوهُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أَيْ: لَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَشْبَاهًا وَأَمْثَالًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: أَنَّهُ يَعْلَم وَيَشْهَد أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، وَأَنْتُمْ بِجَهْلِكُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ غَيْره.

﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

قَالَ الْعَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: هَذَا مَثَل ضَرَبَهُ الله لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِن. وَكَذَا قَالَ قَتَادَة، وَاخْتَارَهُ اِبْن جَرِير، فَالْعَبْد الْمَمْلُوك الَّذِي لَا يَقْدِر عَلَى شَيْء مِثْل الْكَافِر، وَالْمَرْزُوق الرِّزْق الْحَسَن فَهُوَ يُنْفِق مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هُوَ الْمُؤْمِن. وَقَالَ اِبْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: هُوَ مَثَل مَضْرُوب لِلْوَثَنِ وَلِلْحَقِّ تَعَالَى، فَهَل يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا؟. وَلَمَّا كَانَ الْفَرْق مَا بَيْنهمَا ظَاهِرًا وَاضِحًا بَيِّنًا، لَا يَجْهَلهُ إِلَّا كُلّ غَبِيّ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

قَالَ مُجَاهِد: وَهَذَا أَيْضًا الْمُرَاد بِهِ الْوَثَن وَالْحَقّ تَعَالَى. يَعْنِي: أَنَّ الْوَثَن أَبْكَم لَا يَتَكَلَّم وَلَا يَنْطِق بِخَيْرٍ وَلَا بِشَيْءٍ، وَلَا يَقْدِر عَلَى شَيْء بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَا مَقَال وَلَا فِعَال، وَهُوَ مَعَ هَذَا ﴿كَلٌّ﴾ أَيْ: عِيَال وَكُلفَة عَلَى مَوْلَاهُ ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ﴾ أَيْ: يَبْعَثهُ ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وَلَا يَنْجَح مَسْعَاهُ ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ مَنْ هَذِهِ صِفَاته، ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أَيْ: بِالْقِسْطِ، فَمَقَاله حَقّ وَفِعَاله مُسْتَقِيمَة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَقِيلَ: الْأَبْكَم مَوْلًى لِعُثْمَان. وَبِهَذَا قَالَ السُّدِّيّ وَقَتَادَة وَعَطَاء الْخُرَاسَانِيّ، وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْل اِبْن جَرِير. وَقَالَ الْعَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: هُوَ مَثَل لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِن أَيْضًا كَمَا تَقَدَّمَ.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا الْحَسَن بْن الصَّبَّاح الْبَزَّار، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن إِسْحَاق السيلحيني، حَدَّثَنَا حَمَّاد، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خثيم، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ يَعْلَى بْن أُمَيَّة، عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي رَجُل مِنْ قُرَيْش وَعَبْده. يَعْنِي قَوْله: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ الْآيَة. وَفِي قَوْله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قَالَ: هُوَ عُثْمَان بْن عَفَّان. قَالَ: وَالْأَبْكَم الَّذِي أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ. قَالَ: هُوَ مَوْلًى لِعُثْمَان بْن عَفَّان، كَانَ عُثْمَان يُنْفِق عَلَيْهِ وَيكفله وَيَكْفِيه الْمُؤْنَة، وَكَانَ الْآخَر يَكْرَه الْإِسْلَام وَيَأْبَاهُ، وَيَنْهَاهُ عَنْ الصَّدَقَة وَالْمَعْرُوف، فَنَزَلَتْ فِيهِمَا.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ كَمَال عِلْمه وَقُدْرَته عَلَى الْأَشْيَاء، فِي عِلْمه غَيْب السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَاخْتِصَاصه بِعِلْمِ الْغَيْب، فَلَا اِطِّلَاع لِأَحَدٍ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يُطْلِعهُ تَعَالَى عَلَى مَا يَشَاء، وَفِي قُدْرَته التَّامَّة الَّتِي لَا تُخَالَف وَلَا تُمَانَع، وَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُول لَهُ: كُنْ فَيَكُون، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أَيْ: فَيَكُون مَا يُرِيد كَطَرْفِ الْعَيْن، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مِنَّته عَلَى عِبَاده: فِي إِخْرَاجه إِيَّاهُمْ مِنْ بُطُون أُمَّهَاتهمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا؛ ثُمَّ بَعْد هَذَا يَرْزُقهُمْ تعالى السَّمْع: الَّذِي يُدْرِكُونَ الأَصْوَات، وَالأَبْصَار: الَّتِي بِهَا يُحِسُّونَ المَرْئِيَّات، وَالأَفْئِدَة: وَهِيَ العُقُول الَّتِي مَرْكَزهَا القَلْب عَلَى الصَّحِيح، وَقِيلَ: الدِّمَاغ، وَالعَقْل بِهِ يُمَيِّز بَيْن الأَشْيَاء ضَارّهَا وَنَافِعهَا، وَهَذِهِ القُوَى وَالحَوَاسّ تَحْصُل لِلإِنْسَانِ عَلَى التَّدْرِيج قَلِيلًا قَلِيلًا، كُلَّمَا كَبِرَ زِيدَ فِي سَمْعه وَبَصَره وَعَقْله، حَتَّى يَبْلُغ أَشُدّه. وَإِنَّمَا جَعَلَ تَعَالَى هَذِهِ فِي الإِنْسَان لِيَتَمَكَّن بِهَا مِنْ عِبَادَة رَبّه تَعَالَى، فَيَسْتَعِين بِكُلِّ جَارِحَة وَعُضْو وَقُوَّة عَلَى طَاعَة مَوْلَاهُ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيح البُخَارِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**يَقُول الله تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالحَرْب، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَفْضَل مِنْ أَدَاء مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ، وَلَا يَزَال عَبْدِي يَتَقَرَّب إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعه الَّذِي يَسْمَع بِهِ، وَبَصَره الَّذِي يُبْصِر بِهِ، وَيَده الَّتِي يَبْطِش بِهَا، وَرِجْله الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ دَعَانِي لَأُجِيبَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْت فِي شَيْء أَنَا فَاعِله تَرَدُّدِي فِي قَبْض نَفْس عَبْدِي المُؤْمِن، يَكْرَه المَوْت وَأَكْرَه مُسَاءَته، وَلَابُدّ لَهُ مِنْهُ**»[(١)].

فَمَعْنَى الحَدِيث: أَنَّ العَبْد إِذَا أَخْلَصَ الطَّاعَة صَارَتْ أَفْعَاله كُلّهَا لله ﷻ، فَلَا يَسْمَع إِلَّا لله، وَلَا يُبْصِر إِلَّا لله، أَيْ: مَا شَرَعَهُ الله لَهُ، وَلَا يَبْطِش وَلَا يَمْشِي إِلَّا فِي طَاعَة الله ﷻ، مُسْتَعِينًا بِالله فِي ذَلِكَ كُلّه؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي بَعْض رِوَايَة الحَدِيث فِي غَيْر الصَّحِيح بَعْد قَوْله: «**وَرِجْله الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»: «**فَبِي يَسْمَع، وَبِي يُبْصِر، وَبِي يَبْطِش، وَبِي يَمْشِي**»[(٢)]؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿**قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾. ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَاده إِلَى النَّظَر إِلَى الطَّيْر المُسَخَّر بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، كَيْف جَعَلَهُ يَطِير بِجَنَاحَيْنِ بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض فِي جَوّ السَّمَاء، مَا يُمْسِكهُ هُنَاكَ إِلَّا الله بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى، الَّذِي جَعَلَ فِيهَا قُوَى تَفْعَل ذَلِكَ، وَسَخَّرَ الهَوَاء يَحْمِلهَا، وَسَيْر الطَّيْر كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَة المُلْك: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ**﴾، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾.

﴿**وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾.

يَذْكُر -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- تَمَام نِعَمه عَلَى عَبِيده، بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنْ البُيُوت الَّتِي هِيَ سَكَن لهم يَأْوُونَ إِلَيْهَا، وَيَسْتَتِرُونَ بِهَا، وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا بِسَائِرِ وُجُوه الاِنْتِفَاع، وَجَعَلَ لَهُمْ أَيْضًا مِنْ جُلُود الأَنْعَام بُيُوتًا أَيْ: مِنْ الأُدْم يَسْتَخِفُّونَ حَمْلهَا فِي أَسْفَارهمْ لِيَضْرِبُوهَا لَهُمْ فِي إِقَامَتهمْ فِي السَّفَر وَالحَضَر؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا**﴾ أَيْ: الغَنَم ﴿**وَأَوْبَارِهَا**﴾ أَيْ: الإِبِل ﴿**وَأَشْعَارِهَآ**﴾ أَيْ: المَعْز، وَالضَّمِير عَائِد عَلَى الأَنْعَام. ﴿**أَثَٰثًا**﴾ أَيْ: تَتَّخِذُونَ مِنْهُ أَثَاثًا: وَهُوَ المَال، وَقِيلَ: المَتَاع، وَقِيلَ: الثِّيَاب، وَالصَّحِيح أَعَمّ مِنْ هَذَا كُلّه، فَإِنَّهُ يَتَّخِذ مِنْ الأَثَاث البُسُط وَالثِّيَاب وَغَيْر ذَلِكَ، وَيَتَّخِذ مَالًا وَتِجَارَة.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٢) **صحيح:** أورده ابن تيمية في «الاحتجاج بالقدر» (١/ ٦٤)، وصححه الألباني في تعليقه على الكتاب.

وَقَالَ اِبْن عَبَّاس: الأَثَاث: المَتَاع. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالحَسَن، وَعَطِيَّة العَوْفِيّ، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة. وَقَوْله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَيْ: إِلَى أَجَل مُسَمًّى وَوَقْت مَعْلُوم. وَقَوْله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا﴾ قَالَ قَتَادَة: يَعْنِي الشَّجَر.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا﴾ أَيْ: حُصُونًا وَمَعَاقِل، كَمَا ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وَهِيَ: الثِّيَاب مِنْ القُطْن وَالكَتَّان وَالصُّوف ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كَالدُّرُوع مِنْ الحَدِيد المُصَفَّح وَالزَّرَد وَغَيْر ذَلِكَ، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: هَكَذَا يَجْعَل لَكُمْ مَا تَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى أَمْركُمْ وَمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ؛ لِيَكُونَ عَوْنًا لَكُمْ عَلَى طَاعَته وَعِبَادَته؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾. هَكَذَا فَسَّرَهُ الجُمْهُور وَقَرَءُوهُ بِكَسْرِ اللَّام مِنْ ﴿تُسْلِمُونَ﴾ أي: مِنْ الإِسْلَام. وَقَالَ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هَذِهِ السُّورَة تُسَمَّى سُورَة النِّعَم. وَقَالَ عَبْد الله بْن المُبَارَك وَعَبَّاد بْن العَوَّام بْن حَنْظَلَة السَّدُوسِيّ، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا ﴿تَسْلَمُونَ﴾ بِفَتْحِ اللَّام يَعْنِي مِنْ الجِرَاح. رَوَاهُ أَبُو عُبَيْد القَاسِم بْن سَلَّام، عَنْ عَبَّاد، وَأَخْرَجَهُ اِبْن جَرِير مِنْ الوَجْهَيْنِ وَرَدَّ هَذِهِ القِرَاءَة.

وَقَالَ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: إِنَّمَا نَزَلَ القُرْآن عَلَى قَدْر مَعْرِفَة العَرَب، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا﴾ وَمَا جَعَلَ مِنْ السَّهْل أَعْظَم وَأَكْثَر، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَاب جِبَال؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وَمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنْ غَيْر ذَلِكَ أَعْظَم منه وَأَكْثَر، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَاب وَبَر وَشَعْر؟ أَلَا تَرَى قَوْله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ لِعَجَبِهِمْ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا أَنْزَلَ مِنْ الثَّلج أَعْظَم وَأَكْثَر، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَهُ؟ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وَمَا تَقِي مِنْ البَرْد أَعْظَم وَأَكْثَر، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَاب حَرّ. وَقَوْله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أَيْ: بَعْد هَذَا البَيَان وَهَذَا الِامْتِنَان فَلَا عَلَيْك مِنْهُمْ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وَقَدْ أَدَّيْته إِلَيْهِمْ.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أَيْ: يَعْرِفُونَ أَنَّ الله تَعَالَى هُوَ المُسْدِي إِلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَهُوَ المُتَفَضِّل بِهِ عَلَيْهِمْ، وَمَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْره، وَيُسْنِدُونَ النَّصْر وَالرِّزْق إِلَى غَيْره، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ كَمَا قَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان، حَدَّثَنَا الوَلِيد، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد بْن جَابِر، عَنْ مُجَاهِد: أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيّ ﷺ فَسَأَلَهُ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ فَقَالَ الأَعْرَابِيّ: نَعَمْ. قَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾. قَالَ الأَعْرَابِيّ: نَعَمْ. ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِ، كُلّ ذَلِكَ يَقُول الأَعْرَابِيّ: نَعَمْ. حَتَّى بَلَغَ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فَوَلَّى الأَعْرَابِيّ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ شَأْن المُشْرِكِينَ يَوْم مَعَادهمْ فِي الدَّار الآخِرَة، وَأَنَّهُ يَبْعَث مِنْ كُلّ أُمَّة شَهِيدًا، وَهُوَ نَبِيّهَا يَشْهَد

---

(١) مرسل: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٥٥) لابن أبي حاتم عن مجاهد مرسلًا.

عَلَيْهَا، بِمَا أَجَابَتْهُ فِيمَا بَلَّغَهَا عَنْ اللهِ تَعَالَى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ: فِي الِاعْتِذَارِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بُطْلَانه وَكَذِبه، كَقَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَيْ: الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أَيْ: لَا يَفْتُرُ عَنْهُمْ سَاعَة وَاحِدَة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أَيْ: لَا يُؤَخَّر عَنْهُمْ، بَل يَأْخُذهُمْ سَرِيعًا مِنْ الْمَوْقِف بِلَا حِسَاب، فَإِنَّهُ إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّم تُقَاد بِسَبْعِينَ أَلْف زِمَام، مَعَ كُلّ زِمَام سَبْعُونَ أَلْف مَلَك، فَيُشْرِف عُنُق مِنْهَا عَلَى الْخَلَائِق، وَتَزْفِر زَفْرَة لَا يَبْقَى أَحَد إِلَّا جَثَا لِرُكْبَتَيْهِ، فَتَقُول: إِنِّي وُكِّلت بِكُلِّ جَبَّار عَنِيد الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَر، وَبِكَذَا وَبِكَذَا، وَتَذْكُر أَصْنَافًا مِنْ النَّاس كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيث، ثُمَّ تَنْطَوِي عَلَيْهِمْ وَتَلْتَقِطهُم مِنْ الْمَوْقِف، كَمَا يَلْتَقِط الطَّائِر الْحَبّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَبَرُّؤ آلِهَتهمْ مِنْهُمْ أَحْوَج مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أَيْ: الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا؛ ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيْ: قَالَتْ لَهُمْ الْآلِهَة: كَذَبْتُمْ، مَا نَحْنُ أَمَرْنَاكُمْ بِعِبَادَتِنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، وَقَالَ الْخَلِيل -عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام-: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الْآيَة. وَالْآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

وَقَوْله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ قَالَ قَتَادَة وَعِكْرِمَة: ذَلُّوا وَاسْتَسْلَمُوا يَوْمئِذٍ. أَيْ: اِسْتَسْلَمُوا لله جَمِيعهمْ، فَلَا أَحَد إِلَّا سَامِع مُطِيع، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أَيْ: مَا أَسْمَعهُمْ وَمَا أَبْصَرهمْ يَوْمئِذٍ، وَقَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾. وَقَالَ: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أَيْ: خَضَعَتْ وَذَلَّتْ وَاسْتَكَانَتْ وَأَنَابَتْ وَاسْتَسْلَمَتْ.

وَقَوْله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ: ذَهَبَ وَاضْمَحَلَّ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ اِفْتِرَاء عَلَى الله، فَلَا نَاصِر لَهُمْ وَلَا مُعِين وَلَا مُجِير. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ أَيْ: عَذَابًا عَلَى كُفْرهمْ، وَعَذَابًا عَلَى صَدّهمْ النَّاس عَنْ اِتِّبَاع الْحَقّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أَيْ: يَنْهَوْنَ النَّاس عَنْ اِتِّبَاعه، وَيَبْتَعِدُونَ هُمْ مِنْهُ أَيْضًا، ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. وَهَذَا دَلِيل عَلَى تَفَاوُت الْكُفَّار فِي عَذَابهمْ، كَمَا يَتَفَاوَت الْمُؤْمِنُونَ فِي مَنَازِلهمْ فِي الْجَنَّة وَدَرَجَاتهمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾. وَقَدْ قَالَ الْحَافِظ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا سريج بْن يُونُس، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الْأَعْمَش، عَنْ عَبْد الله بْن مُرَّة، عَنْ مَسْرُوق، عَنْ عَبْد الله فِي قَوْل الله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قَالَ: زِيدُوا عَقَارِب أَنْيَابهَا كَالنَّخْلِ الطِّوَال. وَحَدَّثَنَا سريج بْن يُونُس، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا الْأَعْمَش، عَنْ الْحَسَن، عَنْ اِبْن عَبَّاس، فِي الْآيَة أَنَّهُ قَالَ: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قَالَ: هِيَ خَمْسَة أَنْهَار تَحْت الْعَرْش، يُعَذَّبُونَ بِبَعْضِهَا بِاللَّيْل، وَبِبَعْضِهَا بِالنَّهَار.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْده وَرَسُوله مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ ﴾ يَعْنِي: أُمَّته. أَيْ: اُذْكُرْ ذَلِكَ الْيَوْم وَهَوْلَهُ، وَمَا مَنَحَكَ الله فِيهِ مِنْ الشَّرَف الْعَظِيم وَالْمَقَام الرَّفِيع، وَهَذِهِ الْآيَة شَبِيهَة بِالْآيَةِ الَّتِي اِنْتَهَى إِلَيْهَا عَبْد الله بْن مَسْعُود، حِين قَرَأَ عَلَى رَسُول الله ﷺ، صَدْر سُورَة النِّسَاء، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَوْله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «حَسْبُكَ» فَقَالَ اِبْن مَسْعُود رضي الله عنه: فَالْتَفَتّ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ.

وَقَوْله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ قَالَ اِبْن مَسْعُود: قَدْ بَيَّنَ لَنَا فِي هَذَا الْقُرْآن كُلّ عِلْم وَكُلّ شَيْء، وَقَالَ مُجَاهِد: كُلّ حَلَال وَكُلّ حَرَام. وَقَوْل اِبْن مَسْعُود أَعَمّ وَأَشْمَل، فَإِنَّ الْقُرْآن اِشْتَمَلَ عَلَى كُلّ عِلْم نَافِع؛ مِنْ خَبَر مَا سَبَقَ، وَعِلْم مَا سَيَأْتِي، وَحكم كُلّ حَلَال وَحَرَام، وَمَا النَّاس إِلَيْهِ مُحْتَاجُونَ فِي أَمْر دُنْيَاهُمْ وَدِينهمْ، وَمَعَاشهمْ وَمَعَادهمْ. ﴿وَهُدًى﴾ أَيْ: لِلْقُلُوبِ ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾. وَقَالَ الْأَوْزَاعِيّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيْ: بِالسُّنَّةِ. وَوَجْه اِقْتِرَان قَوْله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ مَعَ قَوْله ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ ﴾ أَنَّ الْمُرَاد -وَالله أَعْلَم- إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْك تَبْلِيغ الْكِتَاب الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْك، سَائِلك عَنْ ذَلِكَ يَوْم الْقِيَامَة، ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ ﴾ أَيْ: إِنَّ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْك تَبْلِيغ الْقُرْآن لَرَادّك إِلَيْهِ، وَمُعِيدك يَوْم الْقِيَامَة، وَسَائِلك عَنْ أَدَاء مَا فَرَضَ عَلَيْك. هَذَا أَحَد الْأَقْوَال وَهُوَ مُتَّجَه حَسَن.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُر عِبَاده بِالْعَدْلِ: وَهُوَ الْقِسْط وَالْمُوَازَنَة، وَيَنْدُب إِلَى الْإِحْسَان، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾، وَقَوْله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾، وَقَالَ: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾، إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنْ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى شَرْعِيَّة الْعَدْل وَالنَّدْب إِلَى الْفَضْل. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قَالَ: شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله. وَقَالَ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة: الْعَدْل فِي هَذَا الْمَوْضِع هُوَ اِسْتِوَاء السَّرِيرَة وَالْعَلَانِيَة مِنْ كُلّ عَامِل لله عَمَلًا، وَالْإِحْسَان أَنْ تَكُون سَرِيرَته أَحْسَن مِنْ عَلَانِيَته، وَالْفَحْشَاء وَالْمُنْكَر أَنْ تَكُون عَلَانِيَته أَحْسَن مِنْ سَرِيرَته.

وَقَوْله: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أَيْ: يَأْمُر بِصِلَةِ الْأَرْحَام، كَمَا قَالَ: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾. وَقَوْله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ فَالْفَوَاحِش: الْمُحَرَّمَات، وَالْمُنْكَرَات: مَا ظَهَرَ مِنْهَا مِنْ فَاعِلهَا، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْمَوْضِع الْآخَر: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾، وَأَمَّا الْبَغْي: فَهُوَ الْعُدْوَان عَلَى النَّاس، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيث: «مَا مِنْ ذَنْب أَجْدَر أَنْ يُعَجِّل الله عُقُوبَته فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِر لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَة؛ مِنْ الْبَغْي وَقَطِيعَة الرَّحِم»[١].

---

(١) صحيح: تقدم.

وَقَوْله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أَيْ: يَأْمُرُكُمْ بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الخَيْرِ، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وَقَالَ الشَّعْبِيّ: عَنْ شتير بن شكل، سَمِعْت اِبْن مَسْعُود يَقُول: إِنَّ أَجْمَع آيَة فِي القُرْآن فِي سُورَة النَّحْل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ الآيَة. رَوَاهُ اِبْن جَرِير. وَقَالَ سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، قَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ الآيَة. لَيْسَ مِنْ خُلُق حَسَن كَانَ أَهْل الجَاهِلِيَّة يَعْمَلُونَ بِهِ وَيَسْتَحْسِنُونَهُ إِلَّا أَمَرَ الله بِهِ، وَلَيْسَ مِنْ خُلُق سَيِّئ كَانُوا يَتَعَايَرُونَهُ بَيْنهمْ إِلَّا نَهَى الله عَنْهُ وَقَدَّمَ فِيهِ، وَإِنَّمَا نَهَى عَنْ سَفَاسِف الأَخْلَاق وَمَذَامّهَا.

قلت: وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «**إِنَّ الله يُحِبّ مَعَالِي الأَخْلَاق وَيَكْرَه سَفْسَافهَا**».

وَقَالَ الحَافِظ أَبُو نعيم فِي كِتَابه «كتاب مَعْرِفَة الصَّحَابَة»: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر مُحَمَّد بْن الفَتْح الحَنْبَلِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى ابْن مُحَمَّد مَوْلَى بَنِي هَاشِم، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن دَاوُد المُنْكَدِرِيّ، حَدَّثَنَا عُمَر بْن عَلِيّ المُقَدَّمِيّ، عَنْ عَلِيّ بْن عَبْد الله بْن عُمَيْر، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَلَغَ أَكْثَم بْن صَيْفِيّ مَخْرَج النَّبِيّ ﷺ، فَأَرَادَ أَنْ يَأْتِيه، فَأَبَى قَوْمه أَنْ يَدَعُوهُ، وَقَالُوا: أَنْتَ كَبِيرنَا لَمْ تَكُنْ لِتَخِفّ إِلَيْهِ. قَالَ: فَلْيَأْتِهِ مَنْ يُبَلِّغهُ عَنِّي وَيُبَلِّغنِي عَنْهُ. فَانْتُدِبَ رَجُلَانِ فَأَتَيَا النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَا: نَحْنُ رُسُل أَكْثَم بْن صَيْفِيّ، وَهُوَ يَسْأَلك مَنْ أَنْتَ وَمَا أَنْتَ؟ فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**أَمَّا مَنْ أَنَا؟ فَأَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله، وَأَمَّا مَا أَنَا؟ فَأَنَا عَبْد الله وَرَسُوله**». قَالَ: ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. قَالُوا: اردُدْ عَلَيْنَا هَذَا القَوْل. فَرَدَّدَهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَفِظُوهُ، فَأَتَيَا أَكْثَم، فَقَالَا: أَبَى أَنْ يَرْفَع نَسَبه، فَسَأَلْنَا عَنْ نَسَبه فَوَجَدْنَاهُ زَاكِي النَّسَب، وَاسِطًا فِي مُضَر، وَقَدْ رَمَى إِلَيْنَا بِكَلِمَاتٍ قَدْ سَمِعْنَاهَا، فَلَمَّا سَمِعَهُنَّ أَكْثَم قَالَ: إِنِّي أَرَاهُ يَأْمُر بِمَكَارِمِ الأَخْلَاق، وَيَنْهَى عَنْ مَلَائِمِهَا، فَكُونُوا فِي هَذَا الأَمْر رُءُوسًا وَلَا تَكُونُوا فِيهِ أَذْنَابًا.

وَقَدْ وَرَدَ فِي نُزُول هذه الآيَة الكريمة حَدِيث حَسَن رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْر، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد، حَدَّثَنَا شَهْر، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن عَبَّاس، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُول الله ﷺ، بِفِنَاءِ بَيْته جَالِس، إِذْ مَرَّ بِهِ عُثْمَان بْن مَظْعُون، فَكَشَرَ إِلَى رَسُول الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «**أَلَا تَجْلِس؟**» فَقَالَ: بَلَى. قَالَ: فَجَلَسَ رَسُول الله ﷺ، مُسْتَقْبِله، فَبَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثهُ إِذْ شَخَصَ رَسُول الله ﷺ، بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاء، فَنَظَرَ سَاعَة إِلَى السَّمَاء، فَأَخَذَ يَضَع بَصَره حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى يمنته فِي الأَرْض، فَتَحَرَّفَ رَسُول الله ﷺ عَنْ جَلِيسه عُثْمَان إِلَى حَيْثُ وَضَعَ بَصَره، فَأَخَذَ يُنْغِض رَأْسه كَأَنَّهُ يَسْتَفْقِهُ مَا يُقَال لَهُ، وَابْن مَظْعُون يَنْظُر، فَلَمَّا قَضَى حَاجَته، وَاسْتَفْقَهَ مَا يُقَال لَهُ، شَخَصَ بَصَر رَسُول الله ﷺ إِلَى السَّمَاء كَمَا شَخَصَ أَوَّل مَرَّة، فَأَتْبَعَهُ بَصَره حَتَّى تَوَارَى فِي السَّمَاء، فَأَقْبَلَ إِلَى عُثْمَان بِجِلْسَتِهِ الأُولَى، فَقَالَ: يَا مُحَمَّد؛ فِيمَا كُنْت أُجَالِسك، مَا رَأَيْتُك تَفْعَل كَفِعْلِك الغَدَاة، فَقَالَ: «**وَمَا رَأَيْتنِي فَعَلْت؟**» قَالَ: رَأَيْت شَخَصَ بَصَرك إِلَى السَّمَاء، ثُمَّ وَضَعْته حَيْثُ وَضَعْته عَلَى يَمِينك، فَتَحَرَّفْت إِلَيْهِ وَتَرَكْتنِي، فَأَخَذْت تُنْغِض رَأْسك كَأَنَّك تَسْتَفْقِهُ شَيْئًا يُقَال لَك. قَالَ: «**وَفَطِنْتَ لِذَلِكَ؟**». فَقَالَ عُثْمَان: نَعَمْ. قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَتَانِي رَسُول الله آنِفًا وَأَنْتَ جَالِس**». قَالَ: رَسُول الله؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». قَالَ: فَمَا قَالَ لَك؟ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. قَالَ عُثْمَان: فَذَلِكَ حِين اِسْتَقَرَّ الإِيمَان فِي قَلْبِي، وَأَحْبَبْت مُحَمَّدًا ﷺ[1]. إِسْنَاد جَيِّد مُتَّصِل حَسَن، قَدْ بُيِّنَ فيه السَّمَاع المُتَّصِل، وَرَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث عَبْد الحَمِيد بْن بَهْرَام مُخْتَصَرًا.

---

(١) ضعيف: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٣٠٧) من حديث ابن عباس، والطبراني (٩/ ٣٩). وضعفه الألباني في تعليقه على «الأدب» (٨٩٣).

حديث آخر عَنْ عُثْمَان بْن أَبِي العَاصِ الثَّقَفِيّ فِي ذَلِكَ؛ قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَسْوَد بْن عَامِر، حَدَّثَنَا هُرَيْم، عَنْ لَيْث، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ عُثْمَان بْن أَبِي العَاصِ، قَالَ: كُنْت عِنْد رَسُول الله ﷺ جَالِسًا إِذْ شَخَصَ بَصَره، فَقَالَ: «**أَتَانِي جِبْرِيل فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَع هَذِهِ الآيَة بِهَذَا المَوْضِع مِنْ هَذِهِ السُّورَة**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ **الآيَة**»[1]. وَهَذَا إِسْنَاد لَا بَأْس بِهِ، وَلَعَلَّهُ عِنْد شَهْر بْن حَوْشَب مِنَ الوَجْهَيْنِ، وَالله أَعْلَم.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

وهَذَا مِمَّا يَأْمُر الله تَعَالَى بِهِ، وَهُوَ الوَفَاء بِالعُهُودِ وَالمَوَاثِيق، وَالمُحَافَظَة عَلَى الأَيْمَان المُؤَكَّدَة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

وَلَا تَعَارُض بَيْن هَذَا وَبَيْن قَوْله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾. وَبَيْن قَوْله تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ﴾ أَيْ: لَا تَتْرُكُوهَا بِلَا كَفَّارَة، وَبَيْن قَوْله عَلَيْهِ السَّلَام فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي وَالله إِنْ شَاءَ الله لا أَحْلِف عَلَى يَمِين فَأَرَى غَيْرهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلا أَتَيْت الَّذِي هُوَ خَيْر وَتَحَلَّلْتهَا -وَفِي رِوَايَة: وَكَفَّرْت عَنْ يَمِينِي-**»[2]. لَا تَعَارُض بَيْن هَذَا كُلّه، وَلَا بَيْن الآيَة المَذْكُورَة هَاهُنَا وَهِيَ قَوْله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأَيْمَان المُرَاد بِهَا: الدَّاخِلَة فِي العُهُود وَالمَوَاثِيق، لَا الأَيْمَان الَّتِي هِيَ وَارِدَة عَلَى حَثّ أَوْ مَنْع، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يَعْنِي: الحَلِف. أَيْ: حَلِف الجَاهِلِيَّة، وَيُؤَيِّدهُ مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مُحَمَّد -هُوَ اِبْن أَبِي شَيْبَة-، حَدَّثَنَا اِبْن نُمَيْر وَأَبُو أُسَامَة، عَنْ زَكَرِيَّا -هُوَ اِبْن أَبِي زَائِدَة-، عَنْ سَعْد بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جُبَيْر بْن مُطْعِم، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لا حِلْف فِي الإِسْلام، وَأَيّمَا حِلْف كَانَ فِي الجَاهِلِيَّة فَإِنَّهُ لا يَزِيدهُ الإِسْلام إِلا شِدَّة**»[3]. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِم عَنْ اِبْن أَبِي شَيْبَة بِهِ. وَمَعْنَاهُ أَنَّ الإِسْلَام لَا يُحْتَاج مَعَهُ إِلَى الحِلْف الَّذِي كَانَ أَهْل الجَاهِلِيَّة يَفْعَلُونَهُ، فَإِنَّ فِي التَّمَسُّك بِالإِسْلَام كِفَايَة عَمَّا كَانُوا فِيهِ.

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَاصِم الأَحْوَل، عَنْ أَنَس رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: حَالَفَ رَسُول الله ﷺ بَيْن المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار فِي دارنَا[4]. فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ آخَى بَيْنهمْ فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِهِ، حَتَّى نَسَخَ الله ذَلِكَ، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عُمَارَة الأَسَدِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مُوسَى، أَخْبَرَنَا ابن أبي لَيْلَى، عَنْ فرَيْدَة، فِي قَوْله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَيْعَة النَّبِيّ ﷺ، كَانَ مَنْ أَسْلَمَ بَايَعَ النَّبِيّ ﷺ عَلَى الإِسْلَام فَقَالَ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ هَذِهِ البَيْعَة الَّتِي بَايَعْتُمْ عَلَى الإِسْلَام، ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ البيعة، لَا يَحْمِلَنَّكُمْ قِلَّة مُحَمَّد وأصحابه، وَكَثْرَة المُشْرِكِينَ أَنْ تَنْقُضُوا البَيْعَة الَّتِي بَايَعْتُمْ عَلَى الإِسْلَام.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا صَخْر بْن جُوَيْرِيَة، عَنْ نَافِع، قَالَ: لَمَّا خَلَعَ النَّاس يَزِيد بْن مُعَاوِيَة،

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٤/ ٢١٨) بسند ضعيف، فيه شهر بن حوشب قال الحافظ: كثير الإرسال والأوهام، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٦).

(٢) **صحيح**: تقدم.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٣٠).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٧٤٧)، ومسلم (٢٥٢٩).

جَمَعَ اِبْن عُمَر بَنِيهِ وَأَهْله، ثُمَّ تَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْد، فَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُل عَلَى بَيْعَة الله وَرَسُوله، وَإِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ الغَادِر يُنْصَب لَهُ لِوَاء يَوْم القِيَامَة، فَيُقَال: هَذِهِ غَدْرَة فُلان، وَإِنَّ مِنْ أَعْظَم الغَدْر -إِلا أَنْ يَكُون الإِشْرَاك بِالله- أَنْ يُبَايِع رَجُل رَجُلا عَلَى بَيْعَة الله وَرَسُوله ثُمَّ يَنْكُث بَيْعَته، فَلا يَخْلَعَنَّ أَحَد مِنْكُمْ يزيد، وَلا يُسْرِفَنَّ أَحَد مِنْكُمْ فِي هَذَا الأَمْر، فَيَكُون صيلم بَيْنِي وَبَيْنه»[1]. المَرْفُوع مِنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا حَجَّاج، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَابِس، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ حُذَيْفَة، قَالَ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «مَنْ شَرَطَ لأَخِيهِ شَرْطًا لا يُرِيد أَنْ يَفِيَ لَهُ بِهِ، فَهُوَ كَالمُدْلِي جَاره إِلَى غَيْر مَنْعَة»[2].

وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تَهْدِيد وَوَعِيد لِمَنْ نَقَضَ الأَيْمَان بَعْد تَوْكِيدهَا. وَقَوْله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ قَالَ عَبْد الله بْن كَثِير، والسُّدِّيّ: هَذِهِ اِمْرَأَة خَرْقَاء كَانَتْ بِمَكَّة، كُلَّمَا غَزَلَتْ شَيْئًا نَقَضَتْهُ بَعْد إِبْرَامِهِ. وَقَالَ مُجَاهِد وَقَتَادَة وَابْن زَيْد: هَذَا مَثَل لِمَنْ نَقَضَ عَهْده بَعْد تَوْكِيده. وَهَذَا القَوْل أَرْجَح وَأَظْهَر، وَسَوَاء كَانَ بِمَكَّة اِمْرَأَة تَنْقُض غَزْلهَا أَمْ لَا.

وَقَوْله: ﴿أَنكَـٰثًا﴾ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون اِسْم مَصْدَر، ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ أَيْ: أَنْقَاضًا، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون بَدَلًا عَنْ خَبَر كَانَ، أَيْ: لَا تَكُونُوا أَنْكَاثًا، جَمْع نِكْث مِنْ نَاكِث، وَلِهَذَا قَالَ بَعْده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أَيْ: خَدِيعَة وَمَكْرًا ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: تَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ إِذَا كَانُوا أَكْثَر مِنْكُمْ لِيَطْمَئِنُّوا إِلَيْكُمْ، فَإِذَا أَمْكَنَكُمْ الغَدْر بِهِمْ غَدَرْتُمْ، فَنَهَى الله عَنْ ذَلِكَ؛ لِيُنَبِّه بِالأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى، إِذَا كَانَ قَدْ نَهَى عَنْ الغَدْر وَالحَالَة هَذِهِ، فَلأَنْ يَنْهَى عَنْهُ مَعَ التَّمَكُّن وَالقُدْرَة بِطَرِيقِ الأَوْلَى. وَقَدْ قَدَّمْنَا وَلله الحَمْد فِي سُورَة الأَنْفَال قِصَّة مُعَاوِيَة لَمَّا كَانَ بَيْنه وَبَيْن مَلِك الرُّوم أَمَد، فَسَارَ مُعَاوِيَة إِلَيْهِمْ فِي آخِر الأَجَل، حَتَّى إِذَا اِنْقَضَى وَهُوَ قَرِيب مِنْ بِلَادهمْ أَغَارَ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ غَارُّونَ وَلَا يَشْعُرُونَ، فَقَالَ لَهُ عَمْرو بْن عبسة: الله أَكْبَر يَا مُعَاوِيَة، وَفَاء لَا غَدْرًا، سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «مَنْ كَانَ بَيْنه وَبَيْن قَوْم أَجَل فَلا يُحِلَّنَّ عقدة حَتَّى يَنْقَضِي أَمَدهَا». فَرَجَعَ مُعَاوِيَة ﷺ بِالجَيْشِ. قَالَ اِبْن عَبَّاس: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: أَكْثَر.

وَقَالَ مُجَاهِد: كَانُوا يُحَالِفُونَ الحُلَفَاء، فَيَجِدُونَ أَكْثَر مِنْهُمْ وَأَعَزّ، فَيَنْقُضُونَ حِلف هَؤُلَاءِ وَيُحَالِفُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَر وَأَعَزّ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ. وَقَالَ الضَّحَّاك وَقَتَادَة وَابْن زَيْد نَحْوه. وَقَوْله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر: يَعْنِي بِالكَثْرَةِ. رَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم. وَقَالَ اِبْن جَرِير: أَيْ: بِأَمْرِهِ إِيَّاكُمْ بِالوَفَاءِ بِالعَهْدِ.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فَيُجَازِي كُلّ عَامِل بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْر وَشَرّ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاس ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أَيْ: لَوَفَّقَ بَيْنكُمْ، وَلَمَا جَعَلَ اِخْتِلَافًا وَلَا تَبَاغُضًا وَلَا شَحْنَاء، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ

(١) صحيح: تقدم.
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٤٠٤) فيه حجاج بن أرطاة: صدوق كثير التدليس والخطأ.

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ ثُمَّ يَسْأَلكُمْ يَوْم القِيَامَة عَنْ جَمِيع أَعْمَالكُمْ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا؛ عَلَى الفَتِيل وَالنَّقِير وَالقِطْمِير، ثُمَّ حَذَّرَ تَعَالَى عِبَاده من اِتِّخَاذ الأَيْمَان دَخَلًا أَيْ: خَدِيعَة وَمَكْرًا؛ لِئَلَّا تَزِلّ قَدَم بَعْد ثُبُوتهَا، مَثَل لِمَنْ كَانَ عَلَى الاِسْتِقَامَة فَحَادَ عَنْهَا، وَزَلَّ عَنْ طَرِيق الهُدَى بِسَبَبِ الأَيْمَان الحَانِثَة المُشْتَمِلَة عَلَى الصَّدّ عَنْ سَبِيل الله، لأَنَّ الكَافِر إِذَا رَأَى أَنَّ المُؤْمِن قَدْ عَاهَدَهُ ثُمَّ غَدَرَ بِهِ، لَمْ يَبْقَ لَهُ وُثُوق بِالدِّينِ فَانْصَدَّ بِسَبَبِهِ عَنْ الدُّخُول فِي الإِسْلَام، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ أَيْ: لَا تَعْتَاضُوا عَنْ الأيمان بالله عَرَض الحَيَاة الدُّنْيَا وَزِينَتهَا، فَإِنَّهَا قَلِيلَة، لَوْ حِيزَتْ لِابْنِ آدَم الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا لَكَانَ مَا عِنْد الله هُوَ خَيْر لَهُ، أَيْ: جَزَاء الله وَثَوَابه خَيْر لِمَنْ رَجَاهُ وَآمَنَ بِهِ، وَطَلَبَهُ وَحَفِظَ عَهْده رَجَاء مَوْعُوده، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ﴾ أَيْ: يَفْرُغ وَيَنْقَضِي، فَإِنَّهُ إِلَى أَجَل مَعْدُود مَحْصُور مُقَدَّر مُتَنَاهٍ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ أَيْ: وَثَوَابه لَكُمْ فِي الجَنَّة بَاقٍ لَا اِنْقِطَاع وَلَا نَفَاد لَهُ، فَإِنَّهُ دَائِم لَا يَحُول وَلَا يَزُول، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قَسَم مِنْ الرَّبّ تَعَالَى مُؤَكَّد بِاللَّامِ: أَنَّهُ يُجَازِي الصَّابِرِينَ بِأَحْسَن أَعْمَالهمْ، أَيْ: وَيَتَجَاوَز عَنْ سَيِّئِهَا.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

هَذَا وَعْد مِنْ الله تَعَالَى لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا، وَهُوَ العَمَل المُتَابِع لِكِتَابِ الله تَعَالَى وَسُنَّة نَبِيّه ﷺ مِنْ ذَكَر أَوْ أُنْثَى مِنْ بَنِي آدَم، وَقَلْبه مُؤْمِن بِالله وَرَسُوله، وَأَنَّ هَذَا العَمَل المَأْمُور بِهِ مَشْرُوع مِنْ عِنْد الله؛ بِأَنْ يُحْيِيه الله حَيَاة طَيِّبَة فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يَجْزِيه بِأَحْسَن مَا عَمِلَهُ فِي الدَّار الآخِرَة. وَالحَيَاة الطَّيِّبَة تَشْتَمِل وُجُوه الرَّاحَة مِنْ أَيّ جِهَة كَانَتْ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ اِبْن عَبَّاس وَجَمَاعَة أَنَّهُمْ فَسَّرُوهَا: بِالرِّزْقِ الحَلَال الطَّيِّب. وَعَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ، أَنَّهُ فَسَّرَهَا بِـ: القَنَاعَة، وَكَذَا قَالَ اِبْن عَبَّاس وَعِكْرِمَة وَوَهْب بْن مُنَبِّه. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّهَا هِيَ السَّعَادَة. وَقَالَ الحَسَن وَمُجَاهِد وَقَتَادَة: لَا يَطِيب لِأَحَدٍ حَيَاة إِلَّا فِي الجَنَّة. وَقَالَ الضَّحَّاك: هِيَ الرِّزْق الحَلَال وَالعِبَادَة فِي الدُّنْيَا، وَقَالَ الضَّحَّاك أَيْضًا: هِيَ العَمَل بِالطَّاعَةِ وَالاِنْشِرَاح بِهَا.

وَالصَّحِيح أَنَّ الحَيَاة الطَّيِّبَة تَشْمَل هَذَا كُلّه، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن يَزِيد، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن أَبِي أَيُّوب، حَدَّثَنِي شُرَحْبِيل بْن أَبِي شَرِيك، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عمرو، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ الله بِمَا آتَاهُ»[١]. وَرَوَاهُ مُسْلِم مِنْ حَدِيث عَبْد الله ابْن يَزِيد المُقْرِي، بِهِ. وَرَوَى التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي هَانِئ، عَنْ أَبِي عَلِيّ الجنبي، عَنْ فَضَالَة بْن عُبَيْد، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ هُدِيَ لِلإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشه كَفَافًا، وَقَنَعَ بِهِ»[٢]. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث صَحِيح. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا هَمَّام عَنْ يَحْيَى، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس بْن مَالِك، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ «إِنَّ الله لَا يَظْلِم المُؤْمِن حَسَنَة، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُثَاب عَلَيْهَا فِي الآخِرَة، وَأَمَّا الكَافِر فَيُعْطِيه بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، حتى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَة لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَة يُعْطَى بِهَا خَيْرًا»[٣]. اِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِم.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٥٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٨).
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٤٩)، وأحمد (٦/ ١٩)، والحاكم (٤/ ١٢٢) من حديث فضالة بن عبيد، وصححه الألباني في «تخريج مشكلة الفقر» (١٨).
(٣) صحيح: تقدم.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾

هَذَا أَمر مِنَ الله تَعَالَى لِعِبَادِهِ، عَلَى لِسَان نَبِيّه ﷺ، إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَة القُرْآن: أَنْ يَسْتَعِيذُوا بِالله مِنَ الشَّيْطَان الرَّجِيم، وَهَذَا أَمر نَدب لَيْس بِوَاجِب، حَكَى الإِجْمَاع عَلَى ذَلِكَ، أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير وَغَيْره مِنَ الأَئِمَّة، وَقَدْ قَدَّمْنَا الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي الِاسْتِعَاذَة مَبْسُوطَة فِي أَوَّل التَّفْسِير، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

وَالمَعْنَى فِي الِاسْتِعَاذَة عِنْد اِبْتِدَاء القِرَاءَة لِئَلَّا يَلبِس عَلَى القَارِئ قِرَاءَته، وَيَخْلِط عَلَيْهِ، وَيَمْنَعهُ مِنَ التَّدَبُّر وَالتَّفَكُّر. وَلِهَذَا ذَهَبَ الجُمْهُور إِلَى أَنَّ الِاسْتِعَاذَة إِنَّمَا تَكُون قَبْل التِّلَاوَة، وَحُكِيَ عَنْ حَمْزَة وَأَبِي حَاتِم السِّجِسْتَانِيّ أَنَّهَا تَكُون بَعْد التِّلَاوَة، وَاحْتَجَّا بِهَذِهِ الآيَة، وَنَقَلَ النَّوَوِيّ فِي شَرْح المُهَذَّب مِثْل ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَيْضًا وَمُحَمَّد بْن سِيرِينَ وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَالصَّحِيح الأَوَّل لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الأَحَادِيث الدَّالَّة عَلَى تَقَدُّمهَا عَلَى التِّلَاوَة، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ قَالَ الثَّوْرِيّ: لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلطَان أَنْ يُوقِعهُمْ فِي ذَنْب لَا يَتُوبُونَ مِنْهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ لَا حُجَّة لَهُ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ آخَرُونَ: كَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾. ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ قَالَ مُجَاهِد: يُطِيعُونَهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: اِتَّخَذُوهُ وَلِيًّا مِنْ دُون الله. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ: أَشْرَكُوه فِي عِبَادَة الله، وَيَحْتَمِل أَنْ تَكُون البَاء سَبَبِيَّة، أَيْ: صَارُوا بِسَبَبِ طَاعَتهمْ لِلشَّيْطَانِ مُشْرِكِينَ بِالله تَعَالَى. وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ شَرِكَهُمْ فِي الأَمْوَال وَالأَوْلَاد.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ ضَعْف عُقُول المُشْرِكِينَ، وَقِلَّة ثَبَاتهمْ وَإِيقَانهمْ، وَأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّر مِنْهُمُ الإِيمَان، وَقَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَة، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا تَغْيِير الأَحْكَام نَاسِخهَا بِمَنْسُوخِهَا قَالُوا لِرَسُولِ الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ أَيْ: كَذَّاب. وَإِنَّمَا هُوَ الرَّبّ تَعَالَى يَفْعَل مَا يَشَاء وَيَحْكُمُ مَا يُرِيد. وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ أَيْ: رَفَعْنَاهَا وَأَثْبَتْنَا غَيْرهَا. وَقَالَ قَتَادَة: هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ الآيَة. فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ أَيْ: جِبْرِيل ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أَيْ: بِالصِّدْقِ وَالعَدْل؛ ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فَيُصَدِّقُوا بِمَا أَنْزَلَ أَوَّلًا وَثَانِيًا، وَتُخْبِت لَهُ قُلُوبهمْ، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ: وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَبِشَارَة لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرُسُله.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ المُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ مِنَ الكَذِب وَالِافْتِرَاء وَالبَهْت: أَنَّ مُحَمَّدًا إِنَّمَا يُعَلِّمهُ هَذَا الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْنَا مِنَ القُرْآن بَشَر، وَيُشِيرُونَ إِلَى رَجُل أَعْجَمِيّ كَانَ بَيْن أَظْهُرهمْ غُلَام لِبَعْضِ بُطُون قُرَيْش، وَكَانَ بَيَّاعًا يَبِيع عِنْد الصَّفَا، وَرُبَّمَا كَانَ رَسُول الله ﷺ يَجْلِس إِلَيْهِ وَيُكَلِّمهُ بَعْض الشَّيْء، وَذَاكَ كَانَ أَعْجَمِيّ اللِّسَان لَا يَعْرِف العَرَبِيَّة، أَوْ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِف الشَّيْء اليَسِير بِقَدْرِ مَا يَرُدّ جَوَاب الخِطَاب فِيمَا لَابُدّ مِنْهُ، فَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي اِفْتِرَائِهِمْ ذَلِكَ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أَيْ: القُرْآن. أَيْ: فَكَيْف يَتَعَلَّم مَنْ جَاءَ بِهَذَا القُرْآن فِي فَصَاحَته وَبَلَاغَته، وَمَعَانِيه التَّامَّة الشَّامِلَة، الَّتِي هِيَ أَكْمَل مِنْ مَعَانِي كُلّ كِتَاب نَزَلَ عَلَى نبي أُرسل، كَيْف يَتَعَلَّم مِنْ رَجُل أَعْجَمِيّ؟ لَا يَقُول هَذَا مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسْكَة مِنَ العَقْل.

قَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار فِي السِّيرَة: كَانَ رَسُول الله ﷺ، فِيمَا بَلَغَنِي كَثِيرًا مَا يَجْلِس عِنْد المَرْوَة إِلَى مبيعة غُلَام نَصْرَانِيّ يُقَال لَهُ جَبْر، عَبْد لِبَعْضِ بَنِي الحَضْرَمِيّ، فكانوا يقولون: والله ما يُعَلِّم محمدًا كثيرًا مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام بني الحضرمي، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾. وَكَذَا قَالَ عَبْد الله بْن كَثِير، وَعَنْ عِكْرِمَة وَقَتَادَة: كَانَ اِسْمه يَعِيش. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَحْمَد بْن مُحَمَّد الطُّوسِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن طَهْمَان، عَنْ مُسْلِم بْن عَبْد الله المُلَائِيّ، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ، يَعْلَم قَيْنًا بِمَكَّة، وَكَانَ اِسْمه بَلعَام، وَكَانَ أَعْجَمِيّ اللِّسَان، وَكَانَ المُشْرِكُونَ يَرَوْنَ رَسُول الله ﷺ ،يَدْخُل عَلَيْهِ وَيَخْرُج مِنْ عِنْده، فَقَالُوا: إِنَّمَا يُعَلِّمهُ بلعام، فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

وَقَالَ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم: هُوَ سَلْمَان الفَارِسِيّ. وَهَذَا القَوْل ضَعِيف؛ لأَنَّ هَذِهِ الآيَة مَكِّيَّة، وَسَلْمَان إِنَّمَا أَسْلَمَ بِالمَدِينَةِ، وَقَالَ عُبَيْد الله بْن مُسْلِم: كَانَ لَنَا غُلَامَانِ رُومِيَّانِ يَقْرَآنِ كِتَابًا لَهُمَا بِلِسَانِهِمَا، فَكَانَ النَّبِيّ ﷺ يَمُرّ بِهِمَا فَيَقُوم فَيَسْمَع مِنْهُمَا، فَقَالَ المُشْرِكُونَ: يَتَعَلَّم مِنْهُمَا، فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الآيَة. وَقَالَ الزُّهْرِيّ، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب: الَّذِي قَالَ ذَلِكَ مِنَ المُشْرِكِينَ رَجُل كَانَ يَكْتُب الوَحْي لِرَسُولِ الله ﷺ فَارْتَدَّ بَعْد ذَلِكَ عَنْ الإِسْلَام، وَافْتَرَى هَذِهِ المَقَالَة قَبَّحَهُ الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾

يُخْبِر تَعَالَى: أَنَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْره، وَتَغَافَلَ عَمَّا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُوله ﷺ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَصْد إِلَى الإِيمَان بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْد الله، فَهَذَا الجِنْس مِنَ النَّاس لَا يَهْدِيهِمْ الله إِلَى الإِيمَان بِآيَاتِهِ وَمَا أَرْسَلَ بِهِ رُسُله فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم مُوجِع فِي الآخِرَة. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَيْسَ بِمُفْتَرٍ وَلَا كَذَّاب؛ لأَنَّهُ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِب عَلَى الله وَعَلَى رَسُوله ﷺ شِرَار الخلق، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الكَفَرَة وَالمُلْحِدِينَ المَعْرُوفِينَ بِالكَذِبِ عِنْد النَّاس، وَالرَّسُول مُحَمَّد ﷺ كَانَ أَصْدَق النَّاس وَأَبَرّهمْ، وَأَكْمَلهمْ عِلْمًا وَعَمَلًا وَإِيمَانًا وَإِيقَانًا، مَعْرُوفًا بِالصِّدْقِ فِي قَوْمه، لَا يَشُكّ فِي ذَلِكَ أَحَد مِنْهُمْ، بِحَيْثُ لَا يُدْعَى بَيْنهمْ إِلَّا بِالأَمِينِ مُحَمَّد، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ هِرَقْل مَلِك الرُّوم أَبَا سُفْيَان عَنْ تِلْكَ المَسَائِل الَّتِي سَأَلَهَا مِنْ صِفَة رَسُول الله ﷺ كَانَ فِيمَا قَالَ لَهُ: هَل كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْل أَنْ يَقُول مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا. فَقَالَ هِرَقْل: فما كَانَ لِيَدَع الكَذِب عَلَى النَّاس، وَيَذْهَب فَيَكْذِب عَلَى الله ﷻ.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ بَعْد الإِيمَان وَالتَّبَصُّر، وَشَرَحَ صَدْره بِالكُفْرِ وَاطْمَأَنَّ بِهِ، أَنَّهُ قَدْ غَضِبَ عَلَيْهِ؛ لِعِلْمِهِمْ بِالإِيمَانِ ثُمَّ عُدُولهمْ عَنْهُ، وَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا فِي الدَّار الآخِرَة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الرِّدَّة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم، ويثبتهم على الدِّين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئًا ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئًا، فهم غافلون عما يراد بهم.

﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي: لابد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. وَأَمَّا قَوْله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ فَهُوَ اِسْتِثْنَاء مِمَّنْ كَفَرَ بِلِسَانِهِ، وَوَافَقَ الْمُشْرِكِينَ بِلَفْظِهِ، مُكْرَهًا لِمَا نَالَهُ مِنْ ضَرْب وَأَذًى، وَقلبه يَأْبَى مَا يَقُول، وَهُوَ مُطْمَئِنّ بِالإِيمَانِ بِالله وَرَسُوله. وَقَدْ رَوَى العَوْفِيّ، عَنْ اِبْن عَبَّاس: أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ فِي عَمَّار بْن يَاسِر، حِين عَذَّبَهُ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَكْفُر بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مُكْرَهًا، وَجَاءَ مُعْتَذِرًا إِلَى النَّبِيّ ﷺ، فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الآيَة. وَهَكَذَا قَالَ الشَّعْبِيّ وَقَتَادَة وَأَبُو مَالِك. وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنَا اِبْن عَبْد الأَعْلَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن ثَوْر، عَنْ مَعْمَر، عَنْ عَبْد الكَرِيم الجَزَرِيّ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة مُحَمَّد بْن عَمَّار بْن يَاسِر، قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّار بْن يَاسِر؛ فَعَذَّبُوهُ حَتَّى قَارَبَهُمْ فِي بَعْض مَا أَرَادُوا، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «كَيْف تَجِد قَلْبك؟» قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ. قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»[(1)].

وَرَوَاهُ البَيْهَقِيّ بِأَبْسَط مِنْ ذَلِكَ، وَفِيهِ أَنَّهُ سَبَّ النَّبِيّ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتهمْ بِخَيْرٍ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، مَا تُرِكْت حَتَّى سَبَبْتُك وَذَكَرْت آلِهَتهمْ بِخَيْرٍ. قَالَ: «كَيْف تَجِد قَلْبك؟» قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ. فَقَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ». وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾.

وَلِهَذَا اِتَّفَقَ العُلَمَاء: عَلَى أَنَّ الْمُكْرَه عَلَى الكُفْر يَجُوز لَهُ أَنْ يُوَالِي إِبْقَاء لِمُهْجَتِهِ، وَيَجُوز لَهُ أَنْ يستقتل، كَمَا كَانَ بِلَال رضي الله عنه يَأْبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهِ الأَفَاعِيل، حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَضَعُوا الصَّخْرَة العَظِيمَة عَلَى صَدْره فِي شِدَّة الحَرّ، وَيَأْمُرُونَهُ بِالشِّرْكِ بِالله فَيَأْبَى عَلَيْهِمْ، وَهُوَ يَقُول: أَحَد أَحَد. وَيَقُول: وَالله، لَوْ أَعْلَم كَلِمَة هِيَ أَغْيَظ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتهَا. رضي الله عنه وَأَرْضَاهُ. وَكَذَلِكَ حَبِيب بْن زَيْد الأَنْصَارِيّ لَمَّا قَالَ لَهُ مُسَيْلِمَة الكَذَّاب: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله؟ فَيَقُول: نَعَمْ. فَيَقُول: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُول الله؟ فَيَقُول: لَا أَسْمَع. فَلَمْ يَزَل يَقْطَعهُ إِرْبًا إِرْبًا وَهُوَ ثَابِت عَلَى ذَلِكَ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا أَيُّوب، عَنْ عِكْرِمَة، أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه حَرَقَ نَاسًا اِرْتَدُّوا عَنْ الإِسْلَام، فَبَلَغَ ذَلِكَ اِبْن عَبَّاس فَقَالَ: لَمْ أَكُنْ لِأُحَرِّقهُمْ بِالنَّارِ، إِنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ الله». وَكُنْت قَاتِلهُمْ بِقَوْلِ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينه فَاقْتُلُوهُ»[(2)]. فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا فَقَالَ: وَيْح أُمّ اِبْن عَبَّاس. رَوَاهُ البُخَارِيّ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَنْبَأَنَا مَعْمَر، عَنْ أَيُّوب، عَنْ حُمَيْد بْن هِلَال العَدَوِيّ، عَنْ أَبِي بُرْدَة قَالَ: قَدِمَ عَلَى أَبِي مُوسَى مُعَاذ بْن جَبَل بِاليَمَنِ، فَإِذَا رَجُل عِنْده، قَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: رَجُل كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ، ثُمَّ تَهَوَّدَ، وَنَحْنُ نُرِيدهُ عَلَى الإِسْلَام مُنْذُ قَالَ، أَحْسَبهُ شَهْرَيْنِ. فَقَالَ: وَالله، لَا أَقْعُد حَتَّى تَضْرِبُوا عُنُقه. فَضُرِبَتْ عُنُقه. فَقَالَ: قَضَى الله وَرَسُوله، أَنَّ مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينه فَاقْتُلُوهُ أَوْ قَالَ: «مَنْ بَدَّلَ دِينه فَاقْتُلُوهُ»[(3)]. وَهَذِهِ القِصَّة فِي الصَّحِيحَيْنِ بِلَفْظٍ آخَر. وَالأَفْضَل وَالأَوْلَى أَنْ يَثْبُت الْمُسْلِم عَلَى دِينه وَلَوْ أَفْضَى إِلَى قَتْله، كَمَا ذَكَرَ الحَافِظ اِبْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة عَبْد الله بْن حُذَافَة السَّهْمِيّ أَحَد الصَّحَابَة: أَنَّهُ أَسَرَتْهُ الرُّوم، فَجَاءُوا بِهِ إِلَى مَلِكهمْ، فَقَالَ لَهُ: تَنَصَّرْ وَأَنَا أُشْرِكك فِي مُلْكِي وَأُزَوِّجك اِبْنَتِي. فَقَالَ لَهُ: لَوْ أَعْطَيْتنِي جَمِيع مَا تَمْلِك وَجَمِيع مَا تَمْلِكهُ العَرَب عَلَى أَنْ أَرْجِع عَنْ دِين مُحَمَّد ﷺ، طَرْفَة عَيْن مَا فَعَلْت. فَقَالَ: إِذًا أَقْتُلك. فَقَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ. قَالَ: فَأَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ، وَأَمَرَ الرُّمَاة فَرَمَوْهُ قَرِيبًا مِنْ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَعْرِض عَلَيْهِ دِين النَّصْرَانِيَّة فَيَأْبَى، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُنْزِلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِقِدْرٍ -وَفِي

---

(١) **مرسل**: أخرجه ابن جرير (١٤/ ١٨٢)، والبيهقي (٨/ ٢٠٨) بسند مرسل.
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٩٢٢)، وأحمد (١/ ٢١٧).
(٣) **صحيح الإسناد**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، وعبد الرزاق (١٠/ ١٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٢٥).

رِوَايَة: بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاس- فَأُحْمِيَتْ، وَجَاءَ بِأَسِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَلْقَاهُ وَهُوَ يَنْظُر، فَإِذَا هُوَ عِظَام يَلُوح، وَعَرَضَ عَلَيْهِ فَأَبَى، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُلقَى فِيهَا، فَرُفِعَ فِي البَكَرَة لِيُلقَى فِيهَا فَبَكَى، فَطَمِعَ فِيهِ وَدَعَاهُ، فَقَالَ له: إِنِّي إِنَّمَا بَكَيْت لأَنَّ نَفْسِي إِنَّمَا هِيَ نَفْس وَاحِدَة تُلقَى فِي هَذِهِ القِدْر السَّاعَة فِي الله، فَأَحْبَبْت أَنْ يَكُون لِي بِعَدَدِ كُلّ شَعْرَة فِي جَسَدِي نَفْس تُعَذَّب هَذَا العَذَاب فِي الله. وَفِي بَعْض الرِّوَايَات: أَنَّهُ سَجَنَهُ وَمَنَعَ عنه الطَّعَام وَالشَّرَاب أَيَّامًا، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ بِخَمْرٍ وَلَحْم خِنْزِير فَلَمْ يَقْرَبهُ، ثُمَّ اِسْتَدْعَاهُ فَقَالَ: مَا مَنَعَك أَنْ تَأْكُل؟ فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ حَلَّ لِي وَلَكِنْ لَمْ أَكُنْ لِأُشَمِّتك فِيَّ. فَقَالَ لَهُ المَلِك: فَقَبِّل رَأْسِي وَأَنَا أُطْلِقك. فَقَالَ: وَتُطْلِق مَعِي جَمِيع أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَبَّلَ رَأْسه؛ فَأَطْلَقَهُ وَأَطْلَقَ مَعَهُ جَمِيع أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ عِنْده. فَلَمَّا رَجَعَ، قَالَ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه: حَقّ عَلَى كُلّ مُسْلِم أَنْ يُقَبِّل رَأْس عَبْد الله بْن حُذَافَة، وَأَنَا أَبْدَأ فَقَامَ؛ فَقَبَّلَ رَأْسه رضي الله عنهما.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

هَؤُلَاءِ صِنْف آخَر كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّة مُهَانِينَ فِي قَوْمهمْ، قد واتوهم عَلَى الفِتْنَة، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَمْكَنَهُمْ الخَلَاص بِالهِجْرَةِ، فَتَرَكُوا بِلَادهمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالهمْ اِبْتِغَاء رِضْوَان الله وَغُفْرَانه، وَانْتَظَمُوا فِي سِلك الْمُؤْمِنِينَ، وَجَاهَدُوا مَعَهُمْ الكَافِرِينَ وَصَبَرُوا، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أَيْ: تِلكَ الفَعْلَة وَهِيَ الإِجَابَة إِلَى الفِتْنَة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لَهُمْ، ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ يَوْم مَعَادهمْ. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أَيْ: تُحَاجّ ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ لَيْسَ أَحَد يُحَاجّ عَنْهَا؛ لَا أَب وَلَا اِبْن، وَلَا أَخ وَلَا زَوْج، ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ أَيْ: مِنْ خَيْر وَشَرّ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أَيْ: لَا يَنْقُص مِنْ ثَوَاب الخَيْر، وَلَا يُزَاد عَلَى ثَوَاب الشَّرّ، وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

هَذَا مَثَل أُرِيدَ بِهِ أَهْل مَكَّة؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ آمِنَة مُطْمَئِنَّة مُسْتَقِرّة، يَتَخَطَّف النَّاس مِنْ حَوْلهَا، وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِنًا لَا يَخَاف، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أَيْ: هَنِيئًا سَهْلًا ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أَيْ: جَحَدَتْ آلَاء الله عَلَيْهَا، وَأَعْظَمهَا بَعْثَة مُحَمَّد ﷺ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ وَلِهَذَا بَدَّلَهُمْ الله بِحَالَيْهِمْ الأَوَّلَيْنِ خِلَافهمَا، فَقَالَ: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أَيْ: أَلْبَسَهَا وَأَذَاقَهَا الجُوع بَعْد أَنْ كَانَ يُجْبَى إِلَيْهِمْ ثَمَرَات كُلّ شَيْء، وَيَأْتِيهَا رِزْقهَا رَغَدًا مِنْ كُلّ مَكَان، وَذَلِكَ لما اِسْتَعْصَوْا عَلَى رَسُول الله ﷺ، وَأَبَوْا إِلَّا خِلَافه، فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُف، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَة أَذْهَبَتْ كُلّ شَيْء لَهُمْ، فَأَكَلُوا العِلهِز: وَهُوَ وَبَر البَعِير يُخْلَط بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ.

وَقَوْله: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بُدِّلُوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُول الله ﷺ وَأَصْحَابه حِين هَاجَرُوا إِلَى المَدِينَة، مِنْ سَطْوَة سَرَايَاهُ وَجُيُوشه، وَجَعَلَ كُلّ مَا لَهُمْ فِي دَمَار وَسَفَال، حَتَّى فَتَحَهَا الله عليهم، وَذَلِكَ بِسَبَبِ صَنِيعهمْ وَبَغْيهمْ، وَتَكْذِيبهمْ الرَّسُول ﷺ، الَّذِي بَعَثَهُ الله فِيهِمْ، وَامْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآيَة. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا﴾ الآيَة،

وَقَوْله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾.

وَكَمَا أَنَّهُ اِنْعَكَسَ عَلَى الكَافِرِينَ حَالهمْ؛ فَخَافُوا بَعْد الأَمْن، وَجَاعُوا بَعْد الرَّغَد، فَبَدَّلَ الله الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا، وَرَزَقَهُمْ بَعْد العَيْلَة، وَجَعَلَهُمْ أُمَرَاء النَّاس وَحُكَّامهمْ وَسَادَتهمْ وَقَادَتهمْ وَأَئِمَّتهمْ. وَهَذَا الَّذِي قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّ هَذَا المَثَل مضروب لمكَّة؛ قَالَهُ العَوْفِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُجَاهِد وَقَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد ابْن أَسْلَمَ، وَحَكَاهُ مَالِك عَنْ الزُّهْرِيّ رَحِمَهُمْ الله.

وَقَالَ اِبْن جَرِير: حَدَّثَنِي اِبْن عَبْد الرَّحِيم البَرْقِيّ، حَدَّثَنَا اِبْن أَبِي مَرْيَم، حَدَّثَنَا نَافِع بْن يَزِيد، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن ابْن شُرَيْح: أَنَّ عَبْد الكَرِيم بْن الحَارِث الحَضْرَمِيّ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ سَمِعَ مِشْرَح بْن هَاعَان يَقُول: سَمِعْت سُلَيْم بْن عتر يَقُول: صَدَرْنَا مِنْ الحَجّ مَعَ حَفْصَة زَوْج النَّبِيّ ﷺ، وَعُثْمَان رضي الله عنه مَحْصُور بِالمَدِينَةِ، فَكَانَتْ تَسْأَل عَنْهُ: مَا فَعَلَ؟ حَتَّى رَأَتْ رَاكِبَيْنِ: فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمَا تَسْأَلهُمَا، فَقَالَا: قُتِلَ. فَقَالَتْ حَفْصَة: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا القَرْيَة -تَعْنِي المَدِينَة- الَّتِي قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾. قَالَ اِبْن شُرَيْح: وَأَخْبَرَنِي عُبَيْد الله بْن الْمُغِيرَة، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، أَنَّهُ كَانَ يَقُول: إِنَّهَا المَدِينَة.

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ بِأَكْلِ رِزْقه الحَلَال الطَّيِّب، وَبِشُكْرِهِ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ الْمُنْعِم الْمُتَفَضِّل بِهِ اِبْتِدَاء، الَّذِي يَسْتَحِقّ العِبَادَة وَحْده لَا شَرِيك لَهُ. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ، مِمَّا فِيهِ مَضَرَّة لَهُمْ فِي دِينهمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ مِنْ المَيْتَة وَالدَّم وَلَحْم الخِنْزِير. ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أَيْ: ذُبِحَ عَلَى غَيْر اِسْم الله، وَمَعَ هَذَا ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إِلَيْهِ أَيْ: اِحْتَاجَ مِنْ غَيْر بَغْي وَلَا عُدْوَان؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَام عَلَى مِثْل هَذِهِ الآيَة فِي سُورَة البَقَرَة، بِمَا فِيهِ كِفَايَة عَنْ إِعَادَته وَلله الحَمْد. ثُمَّ نَهَى تَعَالَى عَنْ سُلُوك سَبِيل الْمُشْرِكِينَ: الَّذِينَ حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا بِمُجَرَّدِ مَا وضعوه، وَاصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنْ الأَسْمَاء بِآرَائِهِمْ؛ مِنْ البَحِيرَة وَالسَّائِبَة وَالوَصِيلَة وَالحَام، وَغَيْر ذَلِكَ مِمَّا كَانَ شَرْعًا لَهُمْ اِبْتَدَعُوهُ فِي جَاهِلِيَّتهمْ، فَقَالَ: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ وَيَدْخُل فِي هَذَا كُلّ مَنْ اِبْتَدَعَ بِدْعَة لَيْسَ لَهُ فِيهَا مُسْتَنَد شَرْعِيّ، أَوْ حَلَّلَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمَ الله، أَوْ حَرَّمَ شَيْئًا مِمَّا أَبَاحَ الله، بِمُجَرَّدِ رَأْيه وَتَشَهِّيه.

وَ(مَا) فِي قَوْله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مَصْدَرِيَّة، أَيْ: وَلَا تَقُولُوا الكَذِب لِوَصْفِ أَلْسِنَتكُمْ. ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَة، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَمَتَاع قَلِيل، وَأَمَّا فِي الآخِرَة فَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم، كَمَا قَالَ: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى: أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْنَا المَيْتَة وَالدَّم وَلَحْم الخِنْزِير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ، وَأنه أَرْخَص فِيهِ عِنْد الضَّرُورَة، -وَفِي ذَلِكَ تَوْسِعَة لِهَذِهِ الأُمَّة الَّتِي يُرِيد الله بِهَا اليُسْرَ وَلَا يُرِيد بِهَا العُسْرَ- ذَكَرَ ﷻ مَا كَانَ حَرَّمَهُ عَلَى اليَهُود فِي شَرِيعَتهمْ قَبْل أَنْ يَنْسَخهَا، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنْ الآصَار وَالتَّضْيِيق وَالأَغْلَال وَالحَرَج، فَقَالَ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ: فِي سُورَة الأَنْعَام؛ فِي قَوْله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿لَصَٰدِقُونَ﴾، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أَيْ: فِيمَا ضَيَّقْنَا عَلَيْهِمْ، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَيْ: فَاسْتَحَقُّوا ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى تَكَرُّمًا وَامْتِنَانًا فِي حَقّ العُصَاة المُؤْمِنِينَ: أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ قَالَ بَعْض السَّلَف: كُلّ مَنْ عَصَى الله فَهُوَ جَاهِل. ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ أَيْ: أَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ المَعَاصِي، وَأَقْبَلُوا عَلَى فِعْل الطَّاعَات، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أَيْ: تِلْكَ الفَعْلَة وَالزَّلَّة؛ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يَمْدَح تَعَالَى عَبْده وَرَسُوله وَخَلِيله إِبْرَاهِيم إِمَام الحُنَفَاء، وَوَالِد الأَنْبِيَاء، وَيُبَرِّئهُ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَمِنْ اليَهُودِيَّة وَالنَّصْرَانِيَّة، فَقَالَ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ فَأَمَّا الأُمَّة: فَهُوَ الإِمَام الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ، وَالقَانِت: هُوَ الخَاشِع المُطِيع، وَالحَنِيف: المُنْحَرِف قَصْدًا عَنْ الشِّرْك إِلَى التَّوْحِيد، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

قَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ سَلَمَة بْن كُهَيْل، عَنْ مُسْلِم البَطِين، عَنْ أَبِي العُبَيْدَيْنِ: أَنَّهُ سَأَلَ عَبْد الله بْن مَسْعُود عَنْ الأُمَّة القَانِت؟ فَقَالَ: الأُمَّة: مُعَلِّم الخَيْر، وَالقَانِت: المُطِيع لله وَرَسُوله. وَعَنْ مَالِك قَالَ: قَالَ اِبْن عُمَر: الأُمَّة الَّذِي يُعَلِّم النَّاس دِينهمْ. وَقَالَ الأَعْمَش، عن الحكم، عَنْ يَحْيَى بْن الجَزَّار، عَنْ أَبِي العُبَيْدَيْنِ: أَنَّهُ جَاءَ إِلَى عَبْد الله فَقَالَ: مَنْ نَسْأَل إِذَا لَمْ نَسْأَلك؟ فَكَأَنَّ اِبْن مَسْعُود رَقَّ لَهُ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ الأُمَّة؟ فَقَالَ: الَّذِي يُعَلِّم النَّاس الخَيْر. وَقَالَ الشَّعْبِيّ: حَدَّثَنِي فَرْوَة بْن نَوْفَل الأَشْجَعِيّ، قَالَ: قَالَ اِبْن مَسْعُود: إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّة قَانِتًا لله حَنِيفًا. فَقُلت فِي نَفْسِي: غَلِطَ أَبُو عَبْد الرَّحْمَن، وَقلت: إِنَّمَا قَالَ الله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ فَقَالَ: تَدْرِي مَا الأُمَّة؟ وَمَا القَانِت؟ قُلت: الله أَعْلَم. فَقَالَ: الأُمَّة الَّذِي يُعَلِّم الخَيْر، وَالقَانِت: المُطِيع لله وَرَسُوله، وَكَذَلِكَ كَانَ مُعَاذ معلم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ اِبْن مَسْعُود. أَخْرَجَهُ اِبْن جَرِير. وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿أُمَّةً﴾ أَيْ: أُمَّة وَحْده، وَالقَانِت: المُطِيع. وَقَالَ مُجَاهِد أَيْضًا: ﴿إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: أَيْ: مُؤْمِنًا وَحْده، وَالنَّاس كُلّهمْ إِذْ ذَاكَ كُفَّار. وَقَالَ قَتَادَة: كَانَ إِمَام هُدىً، وَالقَانِت: المُطِيع لله.

وَقَوْله: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أَيْ: قَائِمًا بِشُكْرِ نِعَم الله عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أَيْ: قَامَ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ الله تَعَالَى بِهِ. وَقَوْله: ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ أَيْ: اِخْتَارَهُ وَاصْطَفَاهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وَهُوَ عِبَادَة الله وَحْده لَا شَرِيك لَهُ عَلَى شَرْع مَرْضِيّ.

وَقَوْله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أَيْ: جَمَعْنَا لَهُ خَيْر الدُّنْيَا مِنْ جَمِيع مَا يَحْتَاج الْمُؤْمِن إِلَيْهِ فِي إِكْمَال حَيَاته الطَّيِّبَة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. وَقَالَ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أَيْ: لِسَان صِدْق.

وَقَوْله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أَيْ: وَمِنْ كَمَاله وَعَظَمَته وَصِحَّة تَوْحِيده وَطَرِيقه أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْك يَا خَاتَم الرُّسُل وَسَيِّد الأَنْبِيَاء: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كَقَوْلِهِ فِي الأَنْعَام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، ثم قال تعالى منكرًا على اليهود:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

لَا شَكّ أَنَّ الله تَعَالَى شَرَعَ فِي كُلّ مِلَّة يَوْمًا مِنْ الأُسْبُوع يَجْتَمِع النَّاس فِيهِ لِلعِبَادَةِ، فَشَرَعَ تَعَالَى لِهَذِهِ الأُمَّة يَوْم الجُمُعَة؛ لأَنَّهُ الْيَوْم السَّادِس الَّذِي أَكْمَلَ الله فِيهِ الخَلِيقَة، وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ وَتَمَّتْ النِّعْمَة عَلَى عِبَاده، وَيُقَال: إِنَّ الله تَعَالَى شَرَعَ ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيل عَلَى لِسَان مُوسَى، فَعَدَلُوا عَنْهُ وَاخْتَارُوا السَّبْت؛ لأَنَّهُ الْيَوْم الَّذِي لَمْ يَخْلُق فِيهِ الرَّبّ شَيْئًا مِنْ المَخْلُوقَات الَّذِي كَمَّلَ خلقها يَوْم الجُمُعَة، فَأَلْزَمَهُمْ تَعَالَى بِهِ فِي شَرِيعَة التَّوْرَاة، وَوَصَّاهُمْ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَأَنْ يُحَافِظُوا عَلَيْهِ، مَعَ أَمْره إِيَّاهُمْ بِمُتَابَعَةِ مُحَمَّد ﷺ، إِذَا بَعَثَهُ، وَأَخَذَ مَوَاثِيقهمْ وَعُهُودهمْ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾. قَالَ مُجَاهِد: اِتَّبَعُوهُ وَتَرَكُوا الجُمُعَة.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُتَمَسِّكِينَ بِهِ حَتَّى بَعَثَ الله عِيسَى اِبْن مَرْيَم، فَيُقَال: إِنَّهُ حَوَّلَهُمْ إِلَى يَوْم الأَحَد، وَيُقَال: إِنَّهُ لَمْ يَتْرُك شَرِيعَة التَّوْرَاة إِلَّا مَا نُسِخَ مِنْ بَعْض أَحْكَامهَا، وَإِنَّهُ لَمْ يَزَل مُحَافِظًا عَلَى السَّبْت حَتَّى رُفِعَ، وَإِنَّ النَّصَارَى بَعْده فِي زَمَن قُسْطَنْطِين هُمْ الَّذِينَ تَحَوَّلُوا إِلَى يَوْم الأَحَد مُخَالَفَة لِلْيَهُودِ، وَتَحَوَّلُوا إِلَى الصَّلَاة شَرْقًا عَنْ الصَّخْرَة، وَالله أَعْلَم.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْم القِيَامَة، بَيْد أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَاب مِنْ قَبْلنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمهمْ الَّذِي فَرَضَ الله عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا الله لَهُ، فَالنَّاس لَنَا فِيهِ تَبَع، اليَهُود غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْد غَد**»[1]. لَفْظ البُخَارِيّ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة وَحُذَيْفَة ﷺ قَالَا: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَضَلَّ الله عَنْ الجُمُعَة مَنْ كَانَ قَبْلنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْم السَّبْت، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْم الأَحَد، فَجَاءَ الله بِنَا فَهَدَانَا الله لِيَوْمِ الجُمُعَة، فَجَعَلَ الجُمُعَة وَالسَّبْت وَالأَحَد، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَع لَنَا يَوْم القِيَامَة، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْل الدُّنْيَا، وَالأَوَّلُونَ يَوْم القِيَامَة، وَالمَقْضِيّ بَيْنهمْ قَبْل الخَلَائِق**»[2]. رَوَاهُ مُسْلِم.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

يَقُول تَعَالَى آمِرًا رَسُوله مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُو الخَلق إِلَى الله بِالحِكْمَةِ. قَالَ اِبْن جَرِير: وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنْ الكِتَاب وَالسُّنَّة وَالمَوْعِظَة الحَسَنَة. أَيْ: بِمَا فِيهِ مِنْ الزَّوَاجِر وَالوَقَائِع بِالنَّاسِ، ذَكَّرَهُمْ بِهَا لِيَحْذَرُوا بَأْس الله تَعَالَى.

وَقَوْله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أَيْ: مَنْ اِحْتَاجَ مِنْهُمْ إِلَى مُنَاظَرَة وَجِدَال، فَلْيَكُنْ بِالوَجْهِ الحَسَن بِرِفْق

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٨٥٦)، وابن ماجه (١٠٨٣).

وَلِين وَحُسْن خِطَاب، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ الآيَة، فَأَمَرَهُ تَعَالَى بِلِينِ الجَانِب، كَمَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى وَهَارُون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، حِين بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْن فِي قَوْله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. وَقَوْله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أَيْ: قَدْ عَلِمَ الشَّقِيّ مِنْهُمْ وَالسَّعِيد، وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْده وَفَرَغَ مِنْهُ، فَادْعُهُمْ إِلَى الله، وَلَا تُذْهِب نَفْسك عَلَى مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ حَسَرَات، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْك هُدَاهُمْ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِير، عَلَيْك البَلَاغ وَعَلَيْنَا الحِسَاب؛ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، و﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾

يَأْمُر تَعَالَى بِالعَدْلِ فِي القِصَاص، وَالمُمَاثَلَة فِي اِسْتِيفَاء الحَقّ، كَمَا قَالَ عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ الثَّوْرِيّ، عَنْ خَالِد، عَنْ اِبْن سِيرِينَ، أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إِنْ أَخَذَ مِنْك رَجُل شَيْئًا فَخُذْ منه مِثْله. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد وَإِبْرَاهِيم وَالحَسَن البَصْرِيّ وَغَيْرهمْ، وَاخْتَارَهُ اِبْن جَرِير. وَقَالَ اِبْن زَيْد: كَانُوا قَدْ أُمِرُوا بِالصَّفْحِ عَنْ المُشْرِكِينَ، فَأَسْلَمَ رِجَال ذَوُو مَنَعَة، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، لَوْ أَذِنَ الله لَنَا لَانْتَصَرْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ الكِلَاب. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِالجِهَادِ. وَقَالَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق عَنْ بَعْض أَصْحَابه، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، قَالَ: نَزَلَتْ سُورَة النَّحْل كُلّهَا بِمَكَّة، وَهِيَ مَكِّيَّة إِلَّا ثَلَاث آيَات مِنْ آخِرهَا نَزَلَتْ بِالمَدِينَةِ، بَعْد أُحُد حِين قُتِلَ حَمْزَة رضي الله عنه، وَمُثِّلَ بِهِ، فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: **«لَئِنْ ظَهرنا الله عَلَيْهِمْ، لنمثلنَّ بِثلاثِينَ رَجُلاً مِنْهُمْ»** فَلَمَّا سَمِعَ المُسْلِمُونَ ذَلِكَ، قَالُوا: وَالله لَئِنْ ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ لَنُمَثِّلَنَّ بِهِمْ مُثْلَة لَمْ يُمَثِّلهَا أَحَد مِنْ العَرَب بِأَحَدٍ قَطُّ. فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إِلَى آخِر السُّورَة[1]. وَهَذَا مُرْسَل، وَفِيهِ رَجُل مُبْهَم لَمْ يُسَمَّ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مِنْ وَجْه آخَر مُتَّصِل؛ فَقَالَ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار:

حَدَّثَنَا الحَسَن بْن يَحْيَى، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَاصِم، حَدَّثَنَا صَالِح المُرِّيّ، عَنْ سُلَيْمَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِي عُثْمَان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم، وَقَفَ عَلَى حَمْزَة بْن عَبْد المُطَّلِب رضي الله عنه، حِين اُسْتُشْهِدَ، فَنَظَرَ إِلَى مَنْظَر لَمْ يَنْظُر إِلَى مَنْظَر أَوْجَع لِلقَلْبِ مِنْهُ، -أَوْ قَالَ: لِقَلْبِهِ- فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَدْ مُثِّلَ بِهِ، فَقَالَ: **«رَحْمَة الله عَلَيْك. إِنْ كُنْت مَا عَلِمْتُ لوَصُولاً لِلرَّحِمِ، فَعُولاً لِلخَيْرَاتِ، وَالله لَوْلا حُزْن مَنْ بَعْدك عَلَيْك، لَسَرَّنِي أَنْ أَتْرُكك حَتَّى يَحْشُرك الله مِنْ بُطُون السِّبَاع،** -أَوْ: كَلِمَة نَحْوهَا-، **أَمَا وَالله عَلَى ذَلِكَ لأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ كَمُثْلَتِك»**. فَنَزَلَ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم بِهَذِهِ السُّورَة، وَقَرَأَ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إِلَى آخِر الآيَة، فَكَفَّرَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم يَعْنِي عَنْ يَمِينه وَأَمْسَكَ عَنْ ذَلِكَ[2]. وَهَذَا إِسْنَاد فِيهِ ضَعْف؛ لِأَنَّ صَالِحًا هُوَ اِبْن بَشِير المُرِّيّ ضَعِيف عِنْد الأَئِمَّة، وَقَالَ البُخَارِيّ: هُوَ مُنْكَر الحَدِيث.

وَقَالَ الشَّعْبِيّ وَابْن جُرَيْج: نَزَلَتْ فِي قَوْل المُسْلِمِينَ يَوْم أُحُد فِيمَنْ مُثِّلَ بِهِمْ: لَنُرْبِين عليهم فَأَنْزَلَ الله فِيهِمْ ذَلِكَ. وَقَالَ عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَد أَبِيهِ: حَدَّثَنَا هدية بْن عَبْد الوَهَّاب المَرْوَزِيّ، حَدَّثَنَا الفَضْل بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا عِيسَى بْن عُبَيْد، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْم أُحُد قُتِلَ

---

(١) مرسل: أخرجه الطبري (١٤/ ١٩٥) قال الحافظ ابن كثير: وهذا مرسل وفيه رجل مبهم لم يسم.

(٢) ضعيف: قال الحافظ ابن كثير: وهذا إسناد فيه ضعف؛ لأن صالحًا هو ابن بشير المري: ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٥٥٠).

مِنَ الأَنْصَار سِتُّونَ رَجُلًا، وَمِنَ المُهَاجِرِينَ سِتَّة، فَقَالَ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ: لَئِنْ كَانَ لَنَا يَوْم مِثْل هَذَا مِنَ المُشْرِكِينَ لَنُرْبِين عليهم. فَلَمَّا كَانَ يَوْم الفَتْح، قَالَ رَجُل: لَا تُعْرَف قُرَيْش بَعْد اليَوْم. فَنَادَى مُنَادٍ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَدْ أَمَّنَ الأَسْوَد وَالأَبْيَض إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا -نَاسًا سَمَّاهُمْ-، فَأَنْزَلَ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إِلَى آخِر السُّورَة. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**نَصْبِر وَلَا نُعَاقِب**»[1]. وَهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة لَهَا أَمْثَال فِي القُرْآن، فَإِنَّهَا مُشْتَمِلَة عَلَى مَشْرُوعِيَّة العَدْل، وَالنَّدْب إِلَى الفَضْل، كَمَا فِي قَوْله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآيَة. وَقَالَ: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، وَقَالَ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ تَأْكِيد لِلأَمْرِ بِالصَّبْرِ، وَإِخْبَار بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَال إِلَّا بِمَشِيئَةِ الله وَإِعَانَته، وَحَوْله وَقُوَّته. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: عَلَى مَنْ خَالَفَكَ لا تحزن عليهم؛ فَإِنَّ الله قَدَّرَ ذَلِكَ، ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ أَيْ: غَمّ ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أَيْ: مِمَّا يُجْهِدُونَ أَنْفُسهمْ فِي عَدَاوَتك وَإِيصَال الشَّرّ إِلَيْك، فَإِنَّ الله كَافِيك وَنَاصِرك وَمُؤَيِّدك وَمُظْهِرك وَمُظْفِرك بِهِمْ.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أَيْ: مَعَهُمْ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْره وَمَعُونَته وَهَدْيه وَسَعْيه، وَهَذِهِ مَعِيَّة خَاصَّة، كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وَقَوْله لِمُوسَى وَهَارُون: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وَقَوْل النَّبِيّ ﷺ لِلصِّدِّيقِ وَهُمَا فِي الغَار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وَأَمَّا المَعِيَّة العَامَّة فَبِالسَّمْعِ وَالبَصَر وَالعِلم، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ الآيَة.

وَمَعْنَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أَيْ: تَرَكُوا المُحَرَّمَات، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أَيْ: فَعَلُوا الطَّاعَات، فَهَؤُلَاءِ الله يَحْفَظهُمْ وَيَكْلَؤُهُمْ، وَيَنْصُرهُمْ وَيُؤَيِّدهُمْ، وَيُظْفِرهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَمُخَالِفِيهِمْ. وَقَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم: ثَنَا أَبِي، ثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، ثَنَا أَبُو أَحْمَد الزُّبَيْرِي، ثَنَا مِسْعَر، عَنْ اِبْن عَوْن، عَنْ مُحَمَّد بْن حَاطِب، قَالَ: كَانَ عُثْمَان ﷺ، مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اِتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

آخِر تَفْسِير سُورَة النَّحْل، وَللهِ الحَمْد أجمعه وَالمِنَّة، وَبِه المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

انتهى بحمد الله الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث، وأوله تفسير سورة «الإسراء»

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٥/ ١٣٥) من حديث أُبي بن كعب، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٧٧).

فهرس